

وَحْيِ الْقَلَمِ

# وَحْيُ الْقَلَمِ

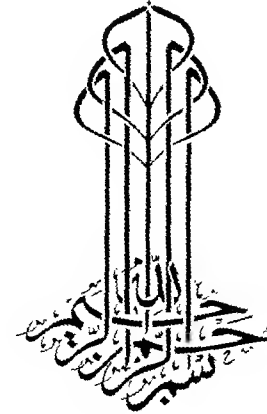
"بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ التَّنْزِيلِ" أَوْ قَبَسٌ مِنْ فُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ  
سَعْدُ بَابُ غُلُولٍ  
فِي تَقْرِيطِهِ "إِعْجَازُ الْقُرْآنِ" لِلزَّافِيِّ

تَمَثُّبُهُ  
مُحَمَّدُ صَادِقُ الزَّافِيُّ

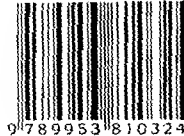
بِعَنَائَةِ  
بِسَامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْجَبَّارِيِّ

دار ابن حزم

المطبعة والنشر  
إسلامية



ISBN 9953-81-032-X



9 789953 810324

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ  
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

هَذَا الْكِتَابُ :

« وَخِي الْقَلَمِ » عُنْوَانُ اخْتِيارِ عَلَمًا عَلَى مَجْمُوعَةِ الْمَقَالَاتِ الَّتِي نَشَرَهَا الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ  
اللَّهُ تَعَالَى فِي مَجَلَّةِ « الرِّسَالَةِ » أَوَّلًا ، ثُمَّ أُضِيفَ إِلَيْهَا الْمَقَالَاتُ الْأُخْرَى دُونَ اسْتِيفَاءِ .

وَقَدْ نَشَرْتُ سِلْسَلَةَ مَقَالَاتِ « كَلِمَةٍ وَكَلِمَةٍ » الَّتِي نُشِرَتْ فِي « الرِّسَالَةِ » وَلَمْ يَضُمَّهَا  
كِتَابُ « وَخِي الْقَلَمِ » ؛ بِكِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ يَحْمِلُ الْعُنْوَانَ نَفْسَهُ ، اخْتَوَتْ مُقَدِّمَتَهُ : « أَقْوَالُ  
الْعُظَمَاءِ فِي الرَّافِعِيِّ » ، تَبِعَهَا نَصْرُ ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ لِلْأُسْتَاذِ الْعُرْيَانِ عَنِ الرَّافِعِيِّ نَشَرَهَا فِي  
حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ أَحْمَدُ حَسَنُ الزِّيَّاتِ فِي إِعْلَانِ وَفَاةِ الرَّافِعِيِّ ، ثُمَّ كَلَامُ  
الرَّافِعِيِّ عَنِ الْمَوْتِ ؛ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ نَصْرُ مَقَالَاتِ « كَلِمَةٍ وَكَلِمَةٍ » ، ثُمَّ كَانَ مِسْكُ الْخِتَامِ  
مَا كَتَبَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ عَنِ الرَّافِعِيِّ ؛ رَحِمَ اللَّهُ الْجَمِيعَ .

وَمَنْ يَعْيشُ مَعَ مَقَالَاتِ الرَّافِعِيِّ ، وَيَكُونُ عَلَى مَعْرِفَةِ بِحَيَاتِهِ ، يَلْفُتُ نَظَرَهُ أَنَّ الَّذِي  
أَشْرَفَ عَلَى طِبَاعَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ « وَخِي الْقَلَمِ » هُوَ الْأُسْتَاذُ الْعُرْيَانُ ، وَمَا إِنْ  
صَدَرَ الْكِتَابُ وَوَصَلَتْ نُسخَةٌ مِنْهُ لِلرَّافِعِيِّ حَتَّى كَانَ الْخِصَامُ بَيْنَهُمَا .

يَقُولُ الْعُرْيَانُ فِي حَاشِيَةٍ لَهُ فِي مُقَدِّمَتِهِ لِكِتَابِهِ « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » : كَانَ بَيْنَنَا مُعَاضَبَةٌ  
بَاعَدَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ [ أَي : وَبَيْنَ الرَّافِعِيِّ ] بِضْعَةَ أَشْهُرٍ ، بَعْدَ فَرَاغِي مِنْ إِخْرَاجِ الطَّبْعَةِ  
الْأُولَى لِكِتَابِ « وَخِي الْقَلَمِ » آخِرَ كُتُبِهِ . وَقَدْ أَنْكَرَ مِنِّي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَجْفُوهُ ، وَشَكَانِي إِلَى  
الصَّدِيقَيْنِ أَحْمَدَ حَسَنَ الزِّيَّاتِ وَتَوْفِيقِ الْحَكِيمِ ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ لَنَا أَنْ نَلْتَقِيَ بَعْدَ الْخِصَامِ حَتَّى  
بَغَتَهُ الْمَوْتُ . انْتَهَى .

وَلِهَذَا الْخِلَافِ النَّاشِئُ بَيْنَهُمَا ، نَشَرْتُ فِي مُقَدِّمَةِ « كَلِمَةٍ وَكَلِمَةٍ » مَقَالَاتِ الْعُرْيَانِ عَنِ

[ الطَّبْعَةُ الْأُولَى ]

(حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ)

الْقَاهِرَةُ

مَطْبَعَةُ لَجَنَةِ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجَمَةِ وَالنَّشْرِ

١٣٥٥ - ١٩٣٦ م

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

ISBN 9953-81-032-X

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار  
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

AL-JAFFAN & AL-JABI  
Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS  
Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345  
http://www.jaffan.com/ - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 6366/14

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

الرَّافِعِيُّ الَّتِي نُشِرَتْ فِي حَيَاتِهِ وَلَمْ يَعْترَضْ عَلَيْهَا ، بَيْنَمَا كَتَابَ « حَيَاةَ الرَّافِعِيِّ » هُوَ إِعَادَةُ صِبَاغِيَّةٍ وَتَتِمِيمٍ وَزِيَادَةٍ لِهَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، قَدْ يَعْترَضُ الرَّافِعِيُّ عَلَى بَعْضِ فَقَرَاتِهِ لَوْ كَانَ حَيًّا ! وَهَذَا نَكْمُنْ أَهَمِّيَّةً مَا نُشَرَّتْ فِي مُقَدِّمَةِ « كَلِمَةٍ وَكُلِيَّةٍ » ؛ فَهُوَ مَا رَضِيَهُ الرَّافِعِيُّ وَوَافَقَ عَلَيْهِ ، بَلِ الْأَوَّلَى أَنْ أَقُولَ : وَلَمْ يَعْترَضْ عَلَيْهَا الرَّافِعِيُّ .

وَمَا هَذِهِ الطَّبَعَةُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكَ سِوَى مُحَاوَلَةٍ لَاسْتِكْشَافِ سَبَبِ هَذِهِ الْمُغَاضَبَةِ الَّتِي نَشَأَتْ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَالْعُرْيَانِ ، وَهَذَا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ ضَبْطِ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ أَصُولِ الْمَقَالَاتِ وَبَيْنَ مَا نُشِرَ فِي « وَخِي الْقَلَمِ » .

بَلِ لَعَلَّ الْخِلَافَ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَالْعُرْيَانِ هُوَ تَرْتِيبُ الْمَقَالَاتِ .

وَحَتَّى لَا أَزْهِقَ عَامَّةَ الْقُرَاءِ بِالْدِّرَاسَةِ وَالتَّحْلِيلِ ، أَعِدْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنِّي سَأَنْشُرُ ضِمْنَ كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ يَحْمِلُ عُنْوَانًا : « مَقَالَاتٌ مَجْهُولَةٌ لِلرَّافِعِيِّ : مِمَّا لَمْ يُنْشَرْ لِلرَّافِعِيِّ فِي كِتَابٍ » هَذِهِ الدِّرَاسَةُ ، وَكَذَلِكَ نُصَوِّصُ الْمَقَالَاتِ الَّتِي اسْتَعْطَفْتُ أَنْ أَصِلَ إِلَيْهَا وَقَاتِبْتُ الْعُرْيَانَ أَنْ يُنْشَرَهَا ضِمْنَ « وَخِي الْقَلَمِ » الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مَعَ أَنْ مِثْلَانِهَا وَجَدْتُ مَكَانَهَا فِيهِ .

لِنَعُودَ إِلَى « وَخِي الْقَلَمِ » .

قَالَ الرَّافِعِيُّ فِي مَقَالَةِ « دُعَايَةِ إِبْلِيسَ » شَارِحًا كَيْفِيَّةَ كِتَابَتِهِ لِمَقَالَاتٍ وَفُصُولٍ « وَخِي الْقَلَمِ » الَّتِي نُشِرَتْ فِي « الرِّسَالَةِ » :

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْفُصُولِ الَّتِي تُنْشَرُهَا « الرِّسَالَةُ » ، [ وَكَانَتْ « الرِّسَالَةُ » تَصْدُرُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ] أَنْ أَدْعُ الْفَصْلَ مِنْهَا تَقْلِبُهُ الْخَوَاطِرُ فِي ذَهْنِي أَبَامَ الثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْخَمِيسِ ، وَأَتْرُكُ أَمْرَهُ لِلْقُوَّةِ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَتَوَلَّدُ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَى وَمَا أَفْرَأُ ، وَتَنْشَأُ مِنْهَا هُنَا وَهَاسًا هُنَا ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَيٌّ أُرِيدُ لَهُ الْوُجُودَ فَوْجِدَ . ثُمَّ أَكْتُبُ نَهَارَ الْجُمُعَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ لَيْلَ السَّبْتِ وَلَيْلَ الْأَحَدِ كَالْمَدَدِ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَشِ إِذَا نَالْتَنِي فِتْرَةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَى سَفَرٍ أَوْ قَطَعْتَنِي عَنِ الْكِتَابَةِ شَيْءٌ يَعْزِضُ . انْتَهَى .

هَذِهِ الطَّبَعَةُ :

رَجَعْتُ إِلَى أَصُولِ الْكِتَابِ بِالرُّجُوعِ إِلَى أَصُولِ الْمَقَالَاتِ فِي الْمَجَلَّاتِ الَّتِي نُشِرَتْ

فِيهَا ، إِلَّا بَعْضَ مَقَالَاتٍ لَمْ اسْتَطِعَ الْوُصُولُ إِلَى أَصُولِهَا فَلَمْ أُعَيِّنْ صَفَحَاتٍ وَرُودَهَا ، وَقَابَلْتُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَطْبُوعِ ضِمْنَ الْكِتَابِ ، بَيَّنْتُ الْخِلَافَ بَيْنَ مَا وَرَدَ فِي الْمَجَلَّاتِ وَبَيْنَ مَا طُبِعَ فِي الطَّبَعَةِ الْأُولَى الَّتِي أَشْرَفَ عَلَيْهَا الْأُسْتَاذُ سَعِيدُ الْعُرْيَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَبِخَاصَّةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي .

لَقَدْ تَصَرَّفَ الْعُرْيَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَضْجِيجِ نَصِّ الرَّافِعِيِّ ، وَكَأَنَّ الرَّافِعِيَّ تَلْمِيزٌ عَلَى مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ الْإِعْدَادِيَّةِ أَوْ الثَّانِيَّةِ ، وَالْعُرْيَانُ كَانَ مُعَلِّمًا فِيهِمَا ، بَيْنَمَا الرَّافِعِيُّ لَهُ مَذْهَبٌ فِي ذَلِكَ يُخَالِفُ مَا هُوَ شَائِعٌ وَمُقَرَّرٌ بَيْنَ أَسَانِدَةِ الْمُفَرَّزَاتِ الْمُدْرَسِيَّةِ مِنْ خَطَأٍ أَوْ صَوَابٍ . وَخِيزُ مِثَالٍ لِبَيَانِ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي حَاشِيَةِ مَقَالَةِ « فُتِحَ جَمِيلٌ » ، حَيْثُ يَتَكَلَّمُ عَلَى صِحَّةِ التَّنْسِيبِ إِلَى الْجَمْعِ ، وَيَأْتِي بِدَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ تَسْمِيَةُ ابْنِ جَنِّي لِكِتَابِهِ « التَّنْصْرِيفُ الْمُلُوكِيُّ » ، وَلَيْسَ « التَّنْصْرِيفُ الْمَلِكِيُّ » . وَهَكَذَا .

وَمِثَالٌ آخَرُ نَجَدُهُ فِي مَقَالَةِ « فِلَسْفَةُ قِصَّةِ » وَفِي السَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنْهَا ، حَيْثُ اسْتَعْمَلَ الرَّافِعِيُّ فِعْلَ « هَلَكَ » كَمَا فِي نَصِّ « الرِّسَالَةِ » بَيْنَمَا اسْتَبْدَلَ فِي الطَّبَعَةِ الْأُولَى بِـ « مَاتَ » وَهُوَ أَوْلَى مِنْ « هَلَكَ » أَدْبًا ؛ لَكِنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ صَاحِبَ السِّيَرَةِ اسْتَعْمَلَ فِي رِوَايَتِهِ لِلْخَبَرِ فِعْلَ « هَلَكَ » .

وَفِي مَقَالَةِ « فِلَسْفَةُ الْقِصَّةِ وَلِمَاذَا لَا أَكْتُبُ فِيهَا » الْوَارِدَةِ فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ الَّذِي نُشِرَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، حَدَفَ الْعُرْيَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَقْدَارَ صَفْحَتَيْنِ تَقْرِيبًا لِرَأْيِي لِلرَّافِعِيِّ يُخَالِفُ رَأْيَهُ ، صَحِيحٌ أَنَّ الرَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَدَلَ مِنْ رَأْيِهِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يُعَيِّرْ حُكْمَهُ الَّذِي أَطْلَقَهُ عَلَى الْقِصَصِ وَالرُّوَايَاتِ الْمُتَرَجِّمَةِ وَالَّتِي تُجَارِيهَا .

ذَكَرْتُ مَا كَانَ يَذِيلُ بِهِ الرَّافِعِيُّ مَقَالَهُ مِنْ ذِكْرِ لِلْمَكَانِ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ الْمَقَالَ ، بَلِ التَّرَمُّثُ ذِكْرُ اسْمِهِ إِنْ ذُكِّلَ بِهِ الْمَقَالَ ، الَّذِي يَغْفُلُ أَحْيَانًا عَنْ ذِكْرِهِ أَوْ ذِكْرِ الْمَكَانِ ؛ فَأَغْفَلْتُ مَا أَغْفَلَهُ وَذَكَرْتُ مَا ذَكَرَهُ .

وَبَطْنِي هَذِهِ أَكُونُ قَدْ وَفَّرْتُ بَيْنَ أَيْدِي الْبَاحِثِينَ صُورَةً عَنِ الْخِلَافِ بَيْنَ الْأَصُولِ وَبَيْنَ مَا نُشِرَ تَحْتَ اسْمِ « وَخِي الْقَلَمِ » كَيْ تَكُونَ مَادَّةً ثَرَةً لِلدِّرَاسَاتِ وَالْبُحُوثِ .



وَأَخْتِصَارًا عَلَى الْقَارِئِ ، وَلَكِنِّي لَا أَرْهِفُهُ ، بِالتَّقْلِيلِ بَيْنَ أَصْلِ الْكِتَابِ وَهَامِشِهِ ، وَضَعْتُ مَا أَنْفَرَدْتُ بِهِ الْأُصُولَ ضِمْنَ { } .

وَوَضَعْتُ مَا أَنْفَرَدْتُ بِهِ الطَّبَعَةَ الْأُولَى ضِمْنَ [ ] .

وَمَا أَضَفْتُه وَضَعْتُه ضِمْنَ [ ] .

وَقَدْ ذَكَرْتُ تَعْلِيلًا عِنْدَ أَوَّلِ كُلِّ مَقَالَةٍ مَكَانَ وَرَمَانٍ نَشَرَهَا ، تَوْثِيقًا لَهَا .

وَضَحْتُ بِالتَّعْلِيلِ عَلَى بَعْضِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَضَعُ مَعْرِفَةً مَعْنَاهَا بِالرُّجُوعِ إِلَى الْمَعَاجِمِ ، وَكَذَلِكَ عَرَفْتُ بِبَعْضِ الْأَعْلَامِ .

هَذَا ، وَقَدْ قُمْتُ بِضَبْطِ النَّصِّ ، وَتَفْصِيلِهِ ، وَتَخْرِيجِ نُصُوصِهِ ، مِنْ أَجْلِ تَوْفِيرِ نَصِّ يَمْتَنَزُ عَلَى الطَّبَعَاتِ الْكَثِيرَةِ لِلْكِتَابِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ تَوْفِيرَ نَصِّ ، وَفَقَطُ تَوْفِيرَهُ دُونَ الْخِدْمَةِ الْهَادِفَةِ .

وَقَدْ اعْتَمَدْتُ عَلَى الطَّبَعَةِ الْأُولَى لِلْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، وَالَّتِي صَدَرَتْ فِي حَيَاةِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَمَّا الْجُزْءُ الثَّلَاثُ ، فَقَدْ رَجَعْتُ لِلطَّبَعَةِ السَّادِسَةِ لَهُ الصَّادِرَةِ عَنِ الْمَكْتَبَةِ التِّجَارِيَّةِ الْكُبْرَى ، فَهَذِهِ الَّتِي تَوْفَّرَتْ بَيْنَ يَدَيَّ .

وَفِي الْخِتَامِ ، أَمَلْتُ أَنْ أَكُونَ وَفَّقْتُ بِالْإِخْتِيَارِ وَالْعَمَلِ ، أَسْأَلُهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ وَالْإِكْرَامَ ، وَاللَّفْعَ عَلَى الدَّوَامِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي مَقْبُولًا ، خَالِصًا لَهُ تَعَالَى ، وَأَنْ يُسَرِّنَا لِلْخَيْرِ ، وَيَسْتَعْمِلَنَا صَالِحًا ، وَيَرْحَمَنَا ، وَيَغْفِرَ لَنَا ، وَلِرِوَالِدَيْنَا ، وَلِكُلِّ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْنَا ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

بِسَامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْجَبَالِي

دمشق في ٣٠/٦/٢٠٠٤م



﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمَهُدَاهُمْ أَقْتَدَهُ ﴿٩٠﴾ .

[ ٦ سورة الأنعام / الآيات : ٨٨ - ٩٠ ]

## دَعْوَةُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

حَكِيمِ الْإِسْلَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ  
لِمَوْلَى « وَخِي الْقَلَمِ » فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْأَدَبِ

ولقدنا الدير بفاضل مصطفى افندي صادق اليرافعي زاده اربابا

هده ائمه اديبك وسهنا صحتك قديك لا انا رضيتك ثناء ببناء فليس برك  
ثناء ابناء مع ابناء ببناء ولكن ائمة من خلص اربابا وادتم صحتك على صوا  
القرباء واسا لانه ان يجعل للمع من نك سينا بحت بها طلل وان يتيك  
في اربابا وافرمتك حش في ان اربابا وسلام

السلام  
ه شوال

## نَصُّ كِتَابِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

وَلَدُنَا الْأَدِيبُ الْفَاضِلُ مُصْطَفَى أَفَنْدِي صَادِقُ الرَّافِعِيِّ : زَادَهُ اللَّهُ  
أَدَبًا .

لِلَّهِ مَا أَمَرَ أَدَبُكَ ، وَلِلَّهِ مَا ضَمِنَ لِي قَلْبُكَ ، لَا أَقَارِضُكَ ثَنَاءً  
بِثَنَاءٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ شَأْنُ الْأَبَاءِ مَعَ الْأَبْنَاءِ ، وَلَكِنِّي أَعُذُّكَ مِنْ خُلَاصِ  
الْأَوْلِيَاءِ ، وَأَقْدَمُ صَفِّكَ عَلَى صَفِّ الْأَقْرَبَاءِ . وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ  
لِلْحَقِّ مِنْ لِسَانِكَ سَيْفًا يَمْحَقُ الْبَاطِلَ ، وَأَنْ يُقِيمَكَ فِي الْآخِرِ مَقَامَ  
حَسَّانٍ فِي الْأَوَائِلِ . وَالسَّلَامُ .

ه شَوَّال سَنَةِ ١٣٢١ هـ .

مُحَمَّدَ عَبْدَهُ

## صَدْرُ الْكِتَابِ الْبَيَانُ (\*)

لَا وَجُودَ لِلْمَقَالَةِ الْبَيَانِيَّةِ إِلَّا فِي الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا ، يُقِيمُهَا الْكَاتِبُ عَلَى حُدُودٍ وَيُدِيرُهَا عَلَى طَرِيقَةٍ ، مُصَيِّبًا بِالْفَاطَةِ مَوَاقِعَ الشُّعُورِ ، مُثَبِّرًا بِهَا مَكَامِنَ الْخَيَالِ ، آخِذًا بِوَزْنٍ تَارِكًا بِوَزْنٍ لِتَأْخُذَ النَّفْسُ { كَمَا يَشَاءُ } وَتَتَرَكُ .

وَنَقْلُ حَقَائِقِ الدُّنْيَا نَقْلًا صَحِيحًا إِلَى الْكِتَابَةِ أَوْ الشُّعْرِ ، هُوَ أَنْتِزَاعُهَا مِنَ الْحَيَاةِ فِي أُسْلُوبٍ وَإِظْهَارُهَا لِلْحَيَاةِ فِي أُسْلُوبٍ آخَرَ يَكُونُ أَوْفَى وَأَدَقُّ وَأَجْمَلُ ، لِيُوضِعَ كُلُّ شَيْءٍ فِي خَاصٍّ مَعْنَاهُ وَكَشْفِهِ حَقَائِقَ الدُّنْيَا كَشْفَةً تَحْتَ ظَاهِرِهَا الْمُتَلَبِّسِ ، وَتِلْكَ هِيَ الصَّنَاعَةُ الْفَنِيَّةُ الْكَامِلَةُ ؛ تَسْتَدْرِكُ الْقَفْصَ فَتَبْتِغِيهِ ، وَتَتَنَاوَلُ السِّرَّ فَتُعْلِنُهُ ، وَتَلْمِسُ الْمُقَيَّدَ فَتُطْلِقُهُ ، وَتَأْخُذُ الْمُطْلَقَ فَتَحْدُهُ ، وَتَكْشِفُ الْجَمَالَ فَتُظْهِرُهُ ، وَتَرْفَعُ الْحَيَاةَ دَرَجَةً فِي الْمَعْنَى ، وَتَجْعَلُ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ وَجَدَ لِنَفْسِهِ عَقْلًا يَعِيشُ بِهِ .

فَالْكَاتِبُ الْحَقُّ لَا يَكْتُبُ لِيَكْتُبَ ؛ وَلَكِنَّهُ أَدَاءٌ فِي يَدِ الْقُوَّةِ الْمُصَوِّرَةِ لِهَذَا الْوُجُودِ ، تُصَوِّرُ بِهِ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهَا فَتًا مِنَ التَّصَوُّيرِ . الْحِكْمَةُ الْعَامِضَةُ تُرِيدُهُ عَلَى التَّفْسِيرِ ، تَفْسِيرِ الْحَقِيقَةِ ؛ وَالْخَطَأُ الظَّاهِرُ يُرِيدُهُ عَلَى التَّبْيِينِ ، تَبْيِينِ الصَّوَابِ ؛ وَالْفَوْضَى الْمَائِجَةُ تَسْأَلُهُ الْإِفْرَارَ . إِفْرَارَ التَّنَاسُبِ ؛ وَمَا وَرَاءَ الْحَيَاةِ ، يَتَّخِذُ مِنْ فِكْرِهِ صِلَةً بِالْحَيَاةِ ؛ وَالْدُّنْيَا كُلُّهَا تَنْتَقِلُ فِيهِ مَرَحَلَةً نَفْسِيَّةً لَتَعْلُو بِهِ أَوْ تَنْزِلَ . وَمِنْ ذَلِكَ لَا يُخْلَقُ الْمُلهِمُ أَبَدًا إِلَّا وَفِيهِ أَعْصَابُهُ الْكَهْرِبَائِيَّةُ ، وَلَهُ فِي قَلْبِهِ الرِّقِيقِ مَوَاضِعُ مُهَيَّاةٍ لِلَاخْتِرَاقِ تَنْفُذُ إِلَيْهَا الْأَشِعَّةُ الرُّوحَانِيَّةُ وَتَسَاقُطُ مِنْهَا { بِالْمَعَانِي } .

وَإِذَا اخْتِيرَ الْكَاتِبُ لِرِسَالَةٍ مَا ، شَعَرَ بِقُوَّةِ تَفَرُّضِ نَفْسِهَا عَلَيْهِ ؛ مِنْهَا سِنَادُ رَأْيِهِ ، وَمِنْهَا إِقَامَةُ بُرْهَانِهِ ، وَمِنْهَا جَمَالُ مَا يَأْتِي بِهِ ؛ فَيَكُونُ إِنْسَانًا لِأَعْمَالِهِ وَأَعْمَالِهَا جَمِيعًا ، لَهُ بِنَفْسِهِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨٣ ، ٢١ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ٤ يناير / كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ١٤ و ١٥ .

وَجُودٌ ، وَلَهُ بِهَا وَجُودٌ آخَرُ ؛ وَمَنْ نَمَّ يُصْبِحُ عَالِمًا بِعَنَاصِرِهِ لِلْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ كَمَا يُوجِّهُ ؛ وَيُلْقَى فِيهِ مِثْلُ السَّرِّ الَّذِي يُلْقَى فِي الشَّجَرَةِ لِإِخْرَاجِ ثَمَرِهَا بِعَمَلِ طَبِيعِي يَرَى سَهْلًا كُلَّ السَّهْلِ حِينَ يَرِي ، وَلَكِنَّهُ صَعْبٌ أَيْ صَعْبٌ حِينَ يَبْدَأُ .

هَذِهِ الْقُوَّةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ اللَّفْظَةَ الْمُفْرَدَةَ<sup>(١)</sup> فِي ذَهْنِهِ مَعْنَى تَامًا ، وَتُحَوِّلُ الْجُمْلَةَ الصَّغِيرَةَ إِلَى قِصَّةٍ ، وَتَنْتَهِي<sup>(٢)</sup> بِاللَّمَحَةِ السَّرِيعَةِ إِلَى كَشْفِ عَنِ حَقِيقَةِ ، وَهِيَ تُخْرِجُهُ مِنْ حُكْمِ أَشْيَاءَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهَا ، وَتُدْخِلُهُ فِي حُكْمِ أَشْيَاءَ غَيْرَهَا لِتَحْكُمَ عَلَيْهِ ؛ وَهِيَ هِيَ الَّتِي تُمَيِّزُ طَرِيقَتَهُ<sup>(٣)</sup> وَأَسْلُوبَهُ<sup>(٤)</sup> ، لِأَنَّهَا تَلْتَقِطُ بِمَعَانِيهَا أَلْفَاظَهَا ، وَمَا تُعْطِيهِ هُوَ إِلَّا لِتُعْطِيَ النَّاسَ مِنْهُ<sup>(٥)</sup> ؛ وَكَمَا خَلَقَ الْكَوْنُ مِنَ الْإِشْعَاعِ تَضَعُ الْإِشْعَاعَ فِي بَيَانِهِ<sup>(٦)</sup> .

وَلَا بُدَّ مِنَ الْبَيَانِ فِي الطَّبَائِعِ الْمُلْهِمَةِ لِيَسَّعَ بِهِ التَّصَرُّفُ ، إِذِ الْحَقَائِقُ أَسْمَى وَأَدْقُ مِنْ أَنْ تُعْرَفَ بِتَقْيِينِ الْحَاسَةِ أَوْ تَنْحَصِرَ فِي إِدْرَاكِهَا . فَلَوْ حُدَّتِ الْحَقِيقَةُ لَمَا بَقِيَتْ حَقِيقَةً ، وَلَوْ تَلَسَّ الْمَلَانِكَةُ بِهَذَا<sup>(٧)</sup> اللَّحْمِ وَالْدَّمِ لَبَطَلَ أَنْ يَكُونُوا مَلَانِكَةً ؛ وَمِنْ نَمَّ فَكَثُرَتِ الصُّورُ الْبَيَانِيَّةُ الْجَمِيلَةُ لِلْحَقِيقَةِ الْجَمِيلَةِ ، هِيَ كُلُّ مَا يُمْكِنُ { أَوْ يَسْتَسَى } مِنْ طَرِيقَةٍ تَعْرِفُهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

وَأَيُّ بَيَانٍ فِي خُضْرَةِ الرَّبِيعِ عِنْدَ الْحَيَوَانِ مِنْ أَكْلِ الْعُشْبِ ، إِلَّا بَيَانُ الصُّورَةِ الْوَاحِدَةِ فِي مَعْدِنِهِ ؟ غَيْرَ أَنَّ صُورَ الرَّبِيعِ فِي الْبَيَانِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَرْضِ وَالْأَمَسِ ، تَكَادُ تَكُونُ بِعَدَدِ أَزْهَارِهِ ، وَيَكَادُ اللَّذَى يُنَضَّرُهَا { حُسْنًا } كَمَا يُنَضَّرُهُ .

وَلِهَذَا سَتَبْقَى كُلُّ حَقِيقَةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ الْكُبْرَى : كَالْإِيمَانِ ، وَالْجَمَالِ ، وَالْحُبِّ ، وَالْخَيْرِ ، وَالْحَقِّ - سَتَبْقَى مُخْتَاجَةً فِي كُلِّ عَصْرِ إِلَى كِتَابَةِ جَدِيدَةٍ مِنْ أَذْهَانٍ جَدِيدَةٍ .

\* \* \*

وَفِي الْكُتَابِ الْفَصَلِ بَاحِثُونَ مُفَكَّرُونَ تَأْتِي أَلْفَاظُهُمْ وَمَعَانِيهِمْ فَنَّا عَقَلِيًا غَايَتَهُ صِحَّةُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْوَاحِدَةُ » بَدَلًا مِنْ : « الْمُفْرَدَةُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « تَقَلُّبٌ » بَدَلًا مِنْ : « تَنْتَهِي » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « لُغَتُهُ » بَدَلًا مِنْ : « طَرِيقَتُهُ » .

(٤) ثَبَتَ أَنَّ الْإِشْعَاعَ هُوَ الْمَادَّةُ الَّتِي صُنِعَ مِنْهَا الْكَوْنُ .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « هَذَا » بَدَلًا مِنْ : « بِهَذَا » .

الْأَدَاءِ وَسَلَامَةِ النَّسَقِ ، فَيَكُونُ الْبَيَانُ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى نَذْرَةِ كَوْخِرِ الْخُضْرَةِ<sup>(١)</sup> فِي الشَّجَرَةِ الْيَاسَةِ هُنَا وَهُنَا . وَلَكِنَّ الْفَنَّ الْبَيَانِيَّ يَزْتَمِعُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ غَايَتُهُ قُوَّةُ الْأَدَاءِ مَعَ الصَّحَّةِ ، وَسُمُوُّ التَّعْبِيرِ مَعَ الدَّقَّةِ ، وَإِبْدَاعُ الصُّورَةِ زَائِدًا جَمَالَ الصُّورَةِ . أُولَئِكَ فِي الْكِتَابَةِ كَالطَّيْرِ لَهُ جَنَاحٌ يَجْرِي بِهِ وَيَدْفُ وَلَا يَطِيرُ ، وَهَؤُلَاءِ كَالطَّيْرِ الْآخَرُ لَهُ جَنَاحٌ يَطِيرُ بِهِ وَيَجْرِي . وَلَوْ كَتَبَ الْفَرِيقَانِ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ لَرَأَيْتَ الْمُنْطِقَ فِي أَحَدِ الْأَسْلُوبَيْنِ { وَكَأَنَّهُ } يَقُولُ : أَنَا هُنَا فِي مَعَانٍ وَأَلْفَاظٍ ؛ وَ{ تَرَى } الْإِلْهَامَ فِي الْأَسْلُوبِ الْآخَرِ يُطَالِعُكَ أَنَّهُ<sup>(٢)</sup> هُنَا فِي جَلَالٍ وَجَمَالٍ وَفِي صُورٍ وَأَلْوَانٍ .

وَدَوْرَةُ الْعِبَارَةِ الْفَنِّيَّةِ فِي نَفْسِ الْكَاتِبِ الْبَيَانِيِّ دَوْرَةُ خَلْقٍ وَتَرْكِيبٍ ، تَخْرُجُ بِهَا الْأَلْفَاظُ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ ، كَأَنَّهَا شَبَتْ فِي نَفْسِهِ شَبَابًا ؛ وَأَقْوَى مِمَّا هِيَ ، كَأَنَّهَا كَسَبَتْ مِنْ رُوحِهِ قُوَّةً ؛ وَأَدَلَّ مِمَّا هِيَ ، كَأَنَّهَا زَادَ فِيهَا بِصِنَاعَتِهِ زِيَادَةً . فَالْكَاتِبُ الْعِلْمِيُّ تَمُرُّ أَلُغَةُ مِنْهُ فِي ذَاكِرَةٍ وَتَخْرُجُ كَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا طَابِعٌ وَاضِعِيهَا ؛ وَلَكِنَّهَا مِنَ الْكَاتِبِ الْبَيَانِيِّ تَمُرُّ فِي مَصْنَعٍ وَتَخْرُجُ عَلَيْهَا طَابِعُهُ هُوَ . أُولَئِكَ أَزَاحُوا أَلُغَةَ عَنْ مَرْتَبَةِ سَامِيَةٍ ، وَهَؤُلَاءِ عَلَوْا بِهَا إِلَى أَسْمَى مَرَاتِبِهَا ؛ وَأَنْتَ مَعَ الْأَوَّلِينَ بِالْفِكْرِ ، وَلَا شَيْءَ إِلَّا الْفِكْرُ وَالنَّظَرُ وَالْحُكْمُ ؛ غَيْرَ أَنَّكَ مَعَ ذِي الْحَاسَةِ الْبَيَانِيَّةِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَجْمُوعٍ مَا فِيكَ مِنْ قُوَّةِ الْفِكْرِ وَالْخَيَالِ وَالْإِحْسَاسِ وَالْعَاطِفَةِ وَالرَّأْيِ<sup>(٣)</sup> .

وَلِلْكِتَابَةِ النَّامَةِ الْمُفِيدَةِ مِثْلَ الْوُجْهِينِ فِي خَلْقِ النَّاسِ : فَبَيْنَ كُلِّ الْوُجُوهِ تَرْكِيبٌ تَامٌ تَقُومُ بِهِ مَنَفَعَةُ الْحَيَاةِ ، وَلَكِنَّ الْوُجْهَ الْمُنْفَرِدَ يَجْمَعُ إِلَى تَمَامِ الْخَلْقِ جَمَالَ الْخَلْقِ ، وَيَزِيدُ عَلَى مَنَفَعَةِ الْحَيَاةِ لَذَّةَ الْحَيَاةِ ؛ وَهُوَ لِذَلِكَ { ، وَبِذَلِكَ } ، يَرَى وَيُؤَثِّرُ وَيَعْشَقُ .

وَرُبَّمَا عَابُوا السُّمُوَّ الْأَدَبِيَّ بِأَنَّهُ قَلِيلٌ ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ كَذَلِكَ ؛ وَبِأَنَّهُ مُخَالَفٌ ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ كَذَلِكَ ؛ وَبِأَنَّهُ مُحَيَّرٌ ، وَلَكِنَّ الْحُسْنَ كَذَلِكَ ؛ وَبِأَنَّهُ كَثِيرُ التَّكَالُيفِ ، وَلَكِنَّ الْخُرَّةَ كَذَلِكَ .

إِنْ لَمْ يَكُنِ الْبُخْرُ فَلَا تَنْتَظِرِ اللَّوْلُو ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ النَّجْمُ فَلَا تَنْتَظِرِ الشُّعَاعَ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ شَجَرَةُ الْوَرْدِ فَلَا تَنْتَظِرِ الْوَرْدَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ الْبَيَانِيَّ فَلَا تَنْتَظِرِ الْأَدَبَ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَيَنْذُرُ الْبَيَانُ فِي كَلَامِهِمْ فَيَكُونُ كَوْخِرُ الْخُضْرَةِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « يَقُولُ : أَنَا » بَدَلًا مِنْ : « يُطَالِعُكَ أَنَّهُ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « التَّأَثُّرُ » بَدَلًا مِنْ : « الْعَاطِفَةُ وَالرَّأْيُ » .

## الْيَمَامَتَانِ (\*)

جاء في «تاريخ الوائدي»: «أن المَقَوْسَ عَظِيمَ الْقِبْطِ فِي مِصْرَ، رَوَّجَ بِنْتَهُ أَرْمَانُوسَةَ مِنْ قَسطنطين بن هرقل وَجَهَرَهَا بِأَمْوَالِهَا وَحَشَمَهَا لِتَسِيرَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْنِي عَلَيْهَا فِي مَدِينَةِ قَيْسَارِيَّةٍ<sup>(١)</sup> [سُورِيَّة]؛ فَخَرَجَتْ إِلَى بَلْبَيسَ وَأَقَامَتْ بِهَا. . . وَجَاءَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى بَلْبَيسَ فَحَاصَرَهَا حِصَارًا شَدِيدًا، وَقَاتَلَ مِنْ بَيْهَا، وَقَتَلَ مِنْهُمْ زُهَاءَ أَلْفِ فَارِسٍ، وَأَنْهَزَهُمْ مَنْ بَقِيَ إِلَى الْمَقَوْسِ، وَأَخَذَتْ أَرْمَانُوسَةُ وَجَمِيعَ مَالِهَا، وَأَخَذَتْ كُلُّ مَا كَانَ لِلْقِبْطِ فِي بَلْبَيسَ. فَاحْبَبَ عَمْرُو مِلَاطِفَةَ الْمَقَوْسِ، فَسَيَّرَ إِلَيْهِ ابْنَتَهُ مُكْرَمَةً فِي جَمِيعِ مَالِهَا، مَعَ قَيْسِ ابْنِ أَبِي الْعَاصِ السَّهْمِيِّ؛ فَسَرَّ بِقُدُومِهَا . . .»

\* \* \*

هَذَا مَا أَثْبَتَهُ الْوَائِدِيُّ فِي رِوَايَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْنِيًّا إِلَّا بِأَخْبَارِ الْمَغَارِي وَالْفُتُوحِ، فَكَانَ يَقْتَصِرُ عَلَيْهَا فِي الرِّوَايَةِ؛ أَمَّا مَا أَغْفَلَهُ فَهُوَ مَا نَقَضَهُ نَحْنُ:

كَانَتْ لِأَرْمَانُوسَةَ وَصِيفَةٌ مُؤَلَّدَةٌ تُسَمَّى: مَارِيَّةَ، ذَاتُ جَمَالٍ يُونَانِيٍّ أَنْتَمَتْهُ مِصْرُ وَمَسَحَتْهُ بِسِخْرِهَا، فَرَادَ جَمَالُهَا عَلَى أَنْ يَكُونَ مِصْرِيًّا، وَنَقَصَ الْجَمَالُ الْيُونَانِيَّ أَنْ يَكُونَ؛ { فَهُوَ أَجْمَلُ مِنْهُمَا }، وَلِمِصْرَ طَبِيعَةٌ خَاصَّةٌ فِي الْحُسْنِ؛ فَهِيَ قَدْ تَهَجَّلُ شَيْئًا فِي جَمَالِ نِسَائِهَا أَوْ تُشَعِّتُ مِنْهُ، وَقَدْ لَا تُؤَفِّقُهُ جُهْدَ مَجَاسِنِهَا الرَّائِعَةِ؛ وَلَكِنْ مَتَى نَشَأَ فِيهَا جَمَالٌ يَنْزِعُ إِلَى أَصْلِ أَجْنَبِيٍّ، أَفْرَعَتْ فِيهِ سِخْرَهَا إِفْرَاعًا، وَأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْغَالِبَةُ عَلَيْهِ، وَجَعَلَتْهُ آيَتِهَا فِي الْمَقَابِلَةِ بَيْنَهُ فِي طَابَعِهِ الْمِصْرِيِّ، وَبَيْنَ أَصْلِهِ فِي طَبِيعَةِ أَرْضِهِ كَانَتْهُ مَا كَانَتْ؛ تَغَارُ عَلَى سِخْرِهَا أَنْ يَكُونَ إِلَّا الْأَعْلَى.

وَكَانَتْ مَارِيَّةَ هَذِهِ مَسِيحِيَّةَ قُوَّةِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ، اتَّخَذَهَا الْمَقَوْسُ كَنِيسَةٍ حَيْثُ لَا بَنِيَّ،

(\*) «الرسالة» العدد: ٥٩٢ محرم سنة ١٣٥٤ هـ = ٨ أبريل/نيسان ١٩٣٥ م، السنة الثالثة، الصفحات: ٥٢٣-٥٢٧.

(١) «بَلَدَةُ فِلَسْطِينَ. وَبَلْبَيسَ هِيَ الْمَدِينَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِمَدِيرَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِمِصْرَ».

وَهُوَ كَانَ وَالْيَا وَبَطْرِيكًَا عَلَى مِصْرَ مِنْ قَبْلِ هِرَقْلَ؛ وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللَّهِ أَنْ الْفَتْحَ الْإِسْلَامِيَّ جَاءَ فِي عَهْدِهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ قَلْبَ هَذَا الرَّجُلِ مِفْتَاحَ الْفُتُوحِ الْقِبْطِيَّ، فَلَمْ تَكُنْ أَبْوَابُهُمْ تُدْفَعُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تُدْفَعُ، تُقَاتِلُ شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ غَيْرِ كَثِيرٍ، أَمَّا الْأَبْوَابُ الرُّومِيَّةُ فَتَقِيَّتُ مُسْتَغْلَقَةً حَصِينَةً لَا تُدْعَى إِلَّا لِلتَّحْطِيطِ، وَوَرَاءَهَا نَحْوُ مِئَةِ أَلْفِ رُومِيٍّ يُقَاتِلُونَ الْمُعْجِزَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي جَاءَتْهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ أَوَّلَ مَا جَاءَتْ فِي أَرْبَعَةِ أَلْفِ رَجُلٍ، ثُمَّ لَمْ يَزِيدُوا آخِرَ مَا زَادُوا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا. كَانَ الرُّومُ مِئَةَ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ بِأَسْلِحَتِهِمْ - وَلَمْ تَكُنِ الْمَدَافِعُ مَعْرُوفَةً - وَلَكِنْ رُوحَ الْإِسْلَامِ جَعَلَتْ الْجَيْشَ الْعَرَبِيَّ كَأَنَّهُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مِدْفَعٍ يُقَاتِلُهَا، لَا يُقَاتِلُونَ بِقُوَّةِ الْإِنْسَانِ، بَلْ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الدِّينِيِّ الَّتِي جَعَلَهَا الْإِسْلَامُ مَادَّةَ مُنْفَجِرَةٍ تُشَبِّهُ الدِّينَامِيَّتَ قَبْلَ أَنْ يُعْرِفَ الدِّينَامِيْتُ ١.

وَلَمَّا نَزَلَ عَمْرُو بِجَيْشِهِ عَلَى بَلْبَيسَ، جَزَعَتْ مَارِيَّةُ جَزَعًا شَدِيدًا؛ إِذْ كَانَ الرُّومُ قَدْ أَرْجَفُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ قَوْمٌ جِيَاعٌ يَنْفُضُهُمُ الْجَدْبُ عَلَى الْبِلَادِ نَفْصَ الرِّمَالِ عَلَى الْأَعْيُنِ فِي الرِّيحِ الْعَاصِفِ؛ وَأَنَّهُمْ جَرَادٌ إِنْسَانِيٌّ لَا يَغْزُو إِلَّا لِبَطْنِهِ؛ وَأَنَّهُمْ غِلَاطٌ الْأَكْبَادِ كَالْإِبِلِ الَّتِي يَمْتَنُطُونَهَا؛ وَأَنَّ النِّسَاءَ عِنْدَهُمْ كَالدَّوَابِّ يُزَبْطُنَ عَلَى خَسْفٍ؛ وَأَنَّهُمْ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا وِفَاءَ، ثَقُلَتْ مَطَامِعُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ؛ وَأَنَّ قَائِدَهُمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ كَانَ جَزَارًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَا تَدْعُهُ رُوحُ الْجَزَارِ وَلَا طَبِيعَتُهُ؛ وَقَدْ جَاءَ بِأَرْبَعَةِ أَلْفِ سَالِحٍ مِنْ أَخْلَاطِ النَّاسِ وَشُدَّادِهِمْ، لَا أَرْبَعَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنْ جَيْشٍ لَهُ نِظَامُ الْجَيْشِ ١.

وَتَوَهَّمَتْ مَارِيَّةُ أَوْهَامَهَا، وَكَانَتْ شَاعِرَةً قَدْ دَرَسَتْ هِيَ وَأَرْمَانُوسَةُ أَدَبَ يُونَانَ وَفَلَسَفَتَهُمْ، وَكَانَ لَهَا خَيَالٌ مَسْبُوبٌ مُتَوَقِّدٌ يُشْعِرُهَا كُلَّ عَاطِفَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ، وَيُضَاعِفُ الْأَشْيَاءَ فِي نَفْسِهَا، وَيَنْزِعُ إِلَى طَبِيعَتِهِ الْمُؤَنَّثَةِ، فَيُبَالِغُ فِي تَهْوِيلِ الْعُزْرِ خَاصَّةً، وَيَجْعَلُ مِنْ بَعْضِ الْأَلْفَاظِ وَقُودًا عَلَى الدَّمِ . . .

وَمِنْ ذَلِكَ اسْتَطْبَعَ قَلْبُ مَارِيَّةَ وَأَفْرَعَتْهَا الْوَسَاوِسُ، فَجَعَلَتْ تَذُبُّ نَفْسَهَا، وَصَنَعَتْ فِي ذَلِكَ شِعْرًا هَذِهِ تَرْجَمَتُهُ:

جَاءَكَ أَرْبَعَةُ أَلْفِ جَزَارٍ آيَتُهَا الشَّاءُ الْمَسْكِينَةُ ١.

سَدَّوْقِي كُلُّ شِعْرَةٍ مِنْكَ أَلَمَ الدَّبْحِ قَبْلَ أَنْ تُذْبِحِي ١.

جَاءَكَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ خَاطِبٍ أَتَيْهَا الْعُذْرَاءُ الْمُسْكِنَةُ ! .

سَتُمَوِّنِينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِثْلَهُ قَبْلَ الْمَوْتِ ! .

قَوِّنِي يَا إِلَهِي ، لِأَعْمِدَ فِي صَدْرِي سِكِّينًا يَرُدُّ عَنِّي الْجَزَارِينَ ! .

يَا إِلَهِي ، قُوْ هَذِهِ الْعُذْرَاءُ ، لِتَتَزَوَّجَ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا الْعَرَبِيُّ ! ! .

\* \* \*

وَدَهَبَتْ تَتْلُو شِعْرَهَا عَلَى أَرْمَانُوسَةَ فِي صَوْتٍ حَزِينٍ يَتَوَجَّعُ ؛ فَضَحِكَتْ هَذِهِ وَقَالَتْ : أَنْتِ وَاهِمَةٌ يَا مَارِيَّةُ ؛ أَنْسَبَتْ أَنْ أَبْنِي قَدْ أَهْدَيْتِ إِلَى نَبِيَّهِمْ بِنْتَ أَنْصِنَا<sup>(١)</sup> ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ فِي مَمْلَكَةٍ بَغْضُهَا السَّمَاءَ وَبَغْضُهَا الْقَلْبَ ؟ لَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّهُ بَعَثَ بِهَا لِيُكْشِفَ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا الدِّينِ وَحَقِيقَةِ هَذَا النَّبِيِّ ؛ وَأَنَّهَا أَنْفَذَتْ إِلَيْهِ دَسِيسًا يُعْلِمُهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ هُمْ الْعَقْلُ الْجَدِيدُ الَّذِي سَيَضَعُ فِي الْعَالَمِ تَمَيِّزَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَأَنَّ نَبِيَّهُمْ أَطْهَرُ مِنَ السَّحَابَةِ فِي سَمَائِهَا ، وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا يَنْبَعُثُونَ مِنْ حُدُودِ دِينِهِمْ { وَفَضَائِلِهِ } ، لَا مِنْ حُدُودِ أَنْفُسِهِمْ { وَشَهَوَاتِهَا } ؛ وَإِذَا سَلُّوا السِّيفَ سَلُّوهُ بِقَانُونٍ ، وَإِذَا أَعْمَدُوهُ أَعْمَدُوهُ بِقَانُونٍ . وَقَالَتْ عَنِ النِّسَاءِ : لِأَنَّ تَخَافَ الْمَرْأَةَ عَلَى عِفَّتِهَا مِنْ أَبْنِيهَا أَقْرَبُ مِنْ أَنْ تَخَافَ عَلَيْهَا مِنْ أَصْحَابِ هَذَا النَّبِيِّ ؛ فَإِنَّهُمْ جَمِيعًا فِي وَاجِبَاتِ الْقَلْبِ وَوَاجِبَاتِ الْعَقْلِ ، وَيَكَادُ الضَّمِيرُ الْإِسْلَامِيُّ فِي الرَّجُلِ مِنْهُمْ - يَكُونُ حَامِلًا سِلَاحًا يَضْرِبُ || بِهِ || صَاحِبَهُ إِذَا هَمَّ بِمُخَالَفَتِهِ .

وَقَالَ أَبِي : إِنَّهُمْ لَا يُغَيِّرُونَ عَلَى الْأَمَمِ ، وَلَا يُحَارِبُونَهَا حَرْبَ الْمُلْكِ ؛ وَإِنَّمَا تِلْكَ طَبِيعَةُ الْحَرَكَةِ لِلشَّرِيعَةِ الْجَدِيدَةِ ، تَتَقَدَّمُ فِي الدُّنْيَا حَامِلَةً السِّلَاحَ وَالْأَخْلَاقَ ، قُوَّةً فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، فَمِنْ وَرَاءِ أَسْلِحَتِهِمْ أَخْلَاقُهُمْ ؛ وَبِذَلِكَ تَكُونُ أَسْلِحَتُهُمْ نَفْسُهَا ذَاتَ أَخْلَاقٍ ! .

وَقَالَ أَبِي : إِنَّ هَذَا الدِّينَ سَيَنْدَفِعُ بِأَخْلَاقِهِ فِي الْعَالَمِ أُنْدِفَاعَ الْعُصَاوَةِ الْحَيَّةِ فِي الشَّجَرَةِ الْجَزْدَاءِ ؛ طَبِيعَةُ تَعْمَلُ فِي طَبِيعَةٍ ؛ فَلَيْسَ يَنْضِي غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى تَخْضَرَ الدُّنْيَا وَتَرْمِي ظِلَالَهَا ؛ وَهُوَ بِذَلِكَ فَوْقَ السِّيَاسَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ فِي عَمَلِهَا الظَّاهِرِ الْمُلْفَقِ مَا يُعَدُّ

(١) هِيَ مَارِيَّةُ الْفَيْطِيَّةُ الَّتِي أَهْدَاهَا الْمُقَرَّرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَتْ مِنْ أَنْصِنَا { بِالْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ } .

كَطَلَاءِ الشَّجَرَةِ الْمَيْتَةِ الْجَزْدَاءِ يَلُونُ أَخْضَرَ<sup>(١)</sup> . . . ! شَتَانٌ بَيْنَ عَمَلٍ وَعَمَلٍ ، وَإِنْ كَانَ لَوْنٌ يُشْبِهُ لَوْنَنَا . . .

فَاسْتَرْوَحَتْ مَارِيَّةُ وَأَطْمَأْنَنْتْ بِأَطْمِئْنَانٍ أَرْمَانُوسَةَ ، وَقَالَتْ : فَلَا ضَمِيرَ عَلَيْنَا إِذَا فَتَحُوا الْبَلَدَ ، وَلَا يَكُونُ مَا نَسْتَضِرُّ بِهِ ؟ .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : لَا ضَمِيرَ يَا مَارِيَّةُ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا نُحِبُّ لِأَنْفُسِنَا ؛ فَالْمُسْلِمُونَ لَيْسُوا كَهَؤُلَاءِ الْعُلُوجِ مِنَ الرُّومِ ، يَفْهَمُونَ مَتَاعَ الدُّنْيَا بِفِكْرَةِ الْحِرْصِ { عَلَيْهِ ، } وَالْحَاجَةِ إِلَى حِلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، فَهُمْ الْقُسَاةُ الْغُلَاطُ الْمُسْتَكْبِلُونَ كَالْبَهَائِمِ ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مَتَاعَ الدُّنْيَا بِفِكْرَةِ الْأَسْتِغْنَاءِ { عَنْهُ } وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ حِلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، فَهُمْ الْإِنْسَانِيُّونَ الرَّحَمَاءُ الْمُتَعَفِّفُونَ .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : وَأَيُّكَ يَا أَرْمَانُوسَةُ إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ ! فَقَدْ مَاتَ سُفْرَاطٌ وَأَفْلَاطُونٌ وَأَرِسْطُو وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفَلَسَفَةِ وَالْحُكَمَاءِ ، وَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُؤَدَّبُوا بِحُكْمَتِهِمْ وَفَلَسَفَتِهِمْ إِلَّا الْكُتُبَ الَّتِي كَتَبُوهَا . . . ! فَلَمْ يُخْرِجُوا لِلدُّنْيَا جَمَاعَةً تَأْتِي الْإِنْسَانِيَّةَ ، فَضْلًا عَنْ أُمَّةٍ كَمَا وَصَفْتَ أَنْتِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يُخْرِجَ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ كَانَ أُمَّيًا ؟ أَفَسُخِرَ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْفَلَسَفَةِ وَالْحُكَمَاءِ وَأَهْلِ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ ؛ فَتَدْعُهُمْ يَعْمَلُونَ عَيْنًا أَوْ كَالْعَبَثِ ، ثُمَّ تَسْتَسْلِمُ لِلرَّجُلِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَفْقَرُ وَلَمْ يَذُرْسَ وَلَمْ يَعْلَمْ ؟

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ بِهَيْئَةِ السَّمَاءِ وَأَجْرَامِهَا وَحِسَابِ أَفْلَاقِهَا ، لَيْسُوا هُمْ الَّذِينَ يَشْفِقُونَ الْفَجَرَ وَيُطْفِئُونَ الشَّمْسَ ؛ وَأَنَا أَرَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أُمَّةٍ طَبِيعَتُهُ يَفْطَرُهَا يَكُونُ عَمَلُهَا فِي الْحَيَاةِ إِنْجَادَ الْأَفْكَارِ الْعَمَلِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا الْعَالَمُ ، وَقَدْ دَرَسْتُ الْمَسِيحَ وَعَمَلَهُ وَرَمَتَهُ ، فَكَانَ طِيلَةَ عُمُرِهِ يُحَاوِلُ أَنْ يُوجِدَ هَذِهِ الْأُمَّةَ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَوْجَدَهَا مُصَغَّرَةً فِي نَفْسِهِ وَحَوَارِيِّهِ ، وَكَانَ عَمَلُهُ كَالْبَدْءِ فِي تَحْقِيقِ الشَّيْءِ الْعَسِيرِ ؛ حَسْبُهُ أَنْ يُثَبِّتَ مَعْنَى الْإِمْكَانِ فِيهِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « تُشْبِهُ فِي عَمَلِهَا الْمَيْتَ مَا يُشْبِهُ طَلَاءَ الشَّجَرَةِ الْجَزْدَاءِ يَلُونُ أَخْضَرَ » .

وَطَهُورُ الْحَقِيقَةِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْأُمِّيِّ هُوَ تَنْبِيهِ الْحَقِيقَةِ إِلَى نَفْسِهَا ؛ وَبُرْهَانُهَا الْقَاطِعُ أَنَّهَا بِذَلِكَ فِي مَظْهَرِهَا الْإِلَهِيِّ . وَالْعَجِيبُ يَا مَارِيَّةُ ، أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ قَدْ خَذَلَهُ قَوْمُهُ وَتَاكْرُوهُ وَأَجْمَعُوا عَلَى خِلَافِهِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ كَالْمَسِيحِ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَسِيحَ انْتَهَى عِنْدَ ذَلِكَ ؛ أَمَّا هَذَا فَقَدْ ثَبَتَ ثَبَاتَ الْوَاقِعِ حِينَ يَقَعُ ؛ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْغَيِّرُ ؛ وَهَاجَرَ مِنْ بَلَدِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ خُطَا الْحَقِيقَةِ الَّتِي أَغْلَنَتْ أَنَّهَا سَتَمَشِي فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ يَوْمِئِذٍ تَمَشِي (١) . وَلَوْ كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمَسِيحِ قَدْ جَاءَتْ لِلدُّنْيَا كُلِّهَا لَهَا جَرَتْ بِهِ { كَذَلِكَ } ، فَهَذَا فَرْقٌ آخَرُ بَيْنَهُمَا . وَالْفَرْقُ الثَّلَاثُ أَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَأْتِ إِلَّا بِعِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ ، أَمَّا هَذَا الَّذِينَ فَعَلِمْتُ مِنْ أَبِي أَنَّهُ ثَلَاثُ عِبَادَاتٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا : إِحْدَاهَا لِلْأَعْضَاءِ ، وَالثَّانِيَةُ لِلْقَلْبِ ، وَالثَّلَاثَةُ لِلنَّفْسِ ؛ فِعِبَادَةُ الْأَعْضَاءِ طَهَارَتُهَا وَاعْتِنَادُهَا الضَّبْطَ ؛ وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ طَهَارَتُهُ وَحُبُّهُ الْخَيْرِ ؛ وَعِبَادَةُ النَّفْسِ طَهَارَتُهَا وَبَذْلُهَا فِي سَبِيلِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَعِنْدَ أَبِي أَنَّهُمْ بِهِلِهِ الْأَخِيرَةَ سَيَمْلِكُونَ الدُّنْيَا ؛ فَلَنْ تَقْهَرُ أُمَّةٌ عَقِيدَتُهَا أَنَّ الْمَوْتَ أَوْسَعُ الْجَانِبَيْنِ وَأَسْعَدُهُمَا .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ لَسِرٌّ إِلَهِيٌّ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ ؛ فَمِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَلَّا تَنْبَعِثَ نَفْسُهُ غَيْرَ مُبَالِغَةٍ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ قَلِيلَةٍ ، تَكُونُ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ فِيهَا عَمِيَاءُ : كَالْقَضْبِ الْأَعْمَى ، وَالْحُبِّ الْأَعْمَى ، وَالتَّكْبَرِ الْأَعْمَى . فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كَمَا قُلْتُ مُتَّبِعَةً هَذَا الْأَنْبِعَاتِ ، لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الشُّعُورُ بِذَاتِهَا الْعَالِيَةِ - فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الَّذِينَ هُوَ شُعُورُ الْإِنْسَانِ بِسُمُو ذَاتِيَّتِهِ ، وَهَذِهِ هِيَ نَهَايَةُ النَّهَائِيَّاتِ فِي الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّكَ تَهَيِّئِينَ أَنْ تَكُونِي مُسْلِمَةً يَا مَارِيَّةُ ! فَاسْتَضَحَكْنَا مَعًا وَقَالَتْ مَارِيَّةُ : إِنَّمَا أَلْقَيْتُ كَلَامًا جَارَيْنِكَ فِيهِ بِحَسَبِهِ ، فَأَنَا وَأَنْتِ فِكْرَتَانِ لَا مُسْلِمَتَانِ .

\* \* \*

قَالَ الرَّائِي : وَأَنْهَزَمَ الرُّؤْمُ عَنْ بِلْبِيسٍ ، وَأَزْتَدُوا إِلَى الْمُتَقَوِّسِ فِي مَنْفٍ ، وَكَانَ وَخِي أَرْمَانُوسَةُ فِي مَارِيَّةَ مُدَّةَ الْحِصَارِ - وَهِيَ نَحْوُ الشَّهْرِ - كَأَنَّهُ فُكِرَ سَكَنَ فِكْرًا وَتَمَدَّدَ فِيهِ ؛ فَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ الْكَلَامُ بِمَا فِي عَقْلِهَا مِنْ حَقَائِقِ النَّظَرِ فِي الْأَدَبِ وَالْفَلَسَفَةِ ، فَصَنَعَ مَا يَصْنَعُ الْمُؤَلِّفُ بِكِتَابٍ يُنْقَحُهُ ، وَأَنْشَأَ لَهَا أُخِيْلَةً تُجَادِلُهَا وَتَدْفَعُهَا إِلَى التَّسْلِيمِ بِالصَّحِيحِ لِأَنَّهُ صَحِيحٌ ، وَالْمُؤَكَّدُ لِأَنَّهُ مُؤَكَّدٌ .

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْكَلَامِ إِذَا أَثَّرَ فِي النَّفْسِ ، أَنْ يَنْتَظِمَ فِي مِثْلِ الْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُلْقَى لِلْحِفْظِ ، فَكَانَ كَلَامُ أَرْمَانُوسَةَ فِي عَقْلِ مَارِيَّةَ هَكَذَا : « الْمَسِيحُ بَذَّ وَلِلْبَذِّ تَكْمِلَةٌ ، مَا مِنْ ذَلِكَ بَذٌّ . لَا تَكُونُ خِدْمَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا بِذَاتٍ عَالِيَةٍ لَا تُبَالِي غَيْرَ سُمُومِهَا . الْأُمَّةُ الَّتِي تَبْذُلُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَسْتَفْسِكُ بِالْحَيَاةِ { جُبْنًا وَحِرْصًا } لَا تَأْخُذُ شَيْئًا ، وَالَّتِي تَبْذُلُ أَرْوَاحَهَا فَقَطْ تَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ ... » .

وَجُعِلَتْ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا تُعْرَبُ هَذَا الْعَقْلَ الْيُونَانِيَّ ؛ فَلَمَّا أَرَادَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ تَوْجِيهَ أَرْمَانُوسَةَ إِلَى أَبِيهَا ، وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى مَارِيَّةَ قَالَتْ لَهَا : لَا يَجْمُلُ بِمَنْ كَانَتْ مِثْلَكَ فِي شَرَفِهَا وَعَقْلِهَا أَنْ تَكُونَ كَالْأَخِيذَةِ ، تَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُسَارُ بِهَا ؛ وَالرَّأْيُ أَنْ تَبْذِنِي هَذَا الْقَائِدَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَكَ ، فَأَرْسِلِي إِلَيْهِ فَأَعْلِمِيهِ أَنَّكَ رَاجِعَةٌ إِلَى أَبِيكَ ، وَأَسْأَلِيهِ أَنْ يُصَحِّبَكَ بَعْضَ رِجَالِهِ ؛ فَتَكُونِي الْأَمْرَةَ حَتَّى فِي الْأَسْرِ ، وَتَصْنَعِي صُنْعَ بَنَاتِ الْمُلُوكِ !

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : فَلَا أَجِدُ لِدَلِّكَ خَيْرًا مِنْكَ فِي لِسَانِكَ وَدَهَائِكَ ؛ فَأَذْهَبِي إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِي ، وَسَيَصْحَبُكَ الرَّاهِبُ شَطَا ، وَخُذِي مَعَكَ كَوَكْبَةً مِنْ فُرْسَانِنَا .

\* \* \*

قَالَتْ مَارِيَّةُ وَهِيَ تَقْصُصُ عَلَى سَيِّدَتِهَا : لَقَدْ أَذَيْتُ إِلَيْهِ رِسَالَتِكَ فَقَالَ : كَيْفَ ظَهَرَتْ بِنَا ؟ قُلْتُ : ظَهَرًا بِفِعْلِ رَجُلٍ كَرِيمٍ يَأْمُرُهُ اثْنَانِ : كَرَمُهُ ، وَدِينُهُ . فَقَالَ : أَبْلِغِيهَا أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ قَالَ : « اسْتَوْصُوا بِالْقَبِيطِ خَيْرًا ، فَإِنَّ لَهُمْ فِيكُمْ صِهْرًا وَذِمَّةً » . وَأَعْلِمِيهَا أَنَّكَ لَسْنَا عَلَى غَارَةٍ نُغَيِّرُهَا ، بَلْ عَلَى نَفُوسٍ نُغَيِّرُهَا .

قَالَتْ : فَصِفِي لِي يَا مَارِيَّةُ .

(١) انظر المقالات الثبوتية في صدر الجزء الثاني من هذا الكتاب .

قَالَتْ : كَانَ آتِيَا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ فُرْسَانِهِ عَلَى خَيُْولِهِمُ الْعِرَابِ ، كَأَنَّهَا شَيَاطِينُ تَحْمِلُ شَيَاطِينَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ ؛ فَلَمَّا صَارَ بِحَيْثُ أَتَيْتُهُ أَوْمَأَ إِلَيْهِ التَّرْجَمَانُ - وَهُوَ وَزْدَانُ مَوْلَاهُ - فَتَنَظَّرْتُ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى فَرَسٍ كُمَيْتٍ أَحْمَرٍ<sup>(١)</sup> لَمْ يَخْلُصْ لِلْأَسْوَدِ وَلَا لِلْأَحْمَرِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ مُشْرِفٌ ، لَهُ ذُوَابَةٌ أَعْلَى نَاصِيَتَيْهِ كَطَرَةِ الْمَرْأَةِ ، ذِيَالٌ يَتَبَخَّرُ بِفَارِسِهِ وَيُحْمِلُهُمْ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، مُطْلَعٌ ...

فَقَطَعَتْ أَرْمَانُوسَةُ عَلَيْهَا وَقَالَتْ : مَا سَأَلْتُكِ صِفَةَ جَوَادِهِ ...

قَالَتْ مَارِيَّةُ : أَمَّا سِلَاحُهُ ...

قَالَتْ : وَلَا سِلَاحِهِ ، صِفْنِي كَيْفَ رَأَيْتِهِ هُوَ !

قَالَتْ : رَأَيْتُهُ قَصِيرَ الْقَامَةِ عَلَامَةٌ قُوَّةٍ { وَصَلَابَةٍ } ، وَافِرَ الْهَامَةِ عَلَامَةٌ عَقْلِ { وَإِرَادَةٍ } ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ ...

فَفَضَحَتْ أَرْمَانُوسَةُ وَقَالَتْ : عَلَامَةٌ مَاذَا ؟ ...

... أَبْلَجَ يُشْرِقُ وَجْهُهُ كَأَن فِيهِ لَأَلَاءُ الذَّهَبِ عَلَى الضَّوْءِ ، أَيْدَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْقُوَّةُ حَتَّى لَتَكَادُ عَيْنَاهُ تَأْمُرَانِ بِتَنْظَرِهِمَا أَمْرًا ... دَاهِيَةً كُتِبَ دَهَاوُهُ عَلَى جَبْهَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ يَجْعَلُ فِيهَا مَعْنَى يَأْخُذُ مَنْ يَرَاهُ ؛ وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أَتَفَرَّسَ فِي وَجْهِهِ رَأَيْتُ وَجْهَهُ لَا يُفَسِّرُهُ إِلَّا تَكَرَّرَ النَّظَرُ إِلَيْهِ ...

وَتَضَرَّجَتْ وَجَنَّتَاهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ حَدِيثًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَيْنِي أَرْمَانُوسَةَ ... وَقَالَتْ هَذِهِ : كَذَلِكَ كُلُّ لَذَّةٍ لَا يُفَسِّرُهَا لِلنَّفْسِ إِلَّا تَكَرَّرُهَا ...

فَغَضَّتْ مَارِيَّةُ مِنْ طَرَفِهَا وَقَالَتْ : هُوَ وَاللَّهِ مَا وَصَفْتِ ، وَإِنِّي مَا مَلَأْتُ عَيْنِي مِنْهُ ، وَقَدْ كَذْتُ أَنْكِرُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ لِمَا أَعْتَرَانِي مِنْ هَيْبَتِهِ ...

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : مِنْ هَيْبَتِهِ أَمْ مِنْ عَيْنَيْهِ الدَّعْجَاوَيْنِ ... ؟

\* \* \*

(١) الْكُمَيْتُ الْأَحْمَرُ : هُوَ الْأَحْمَرُ الضَّارِبُ لِلْأَسْوَدِ ، لَا يَخْلُصُ لِأَحَدٍ اللَّوْنَيْنِ ، فَإِذَا كَانَ أَحْمَرَ خَالِصًا قِيلَ فِيهِ : كُمَيْتٌ مُدْمَى ، بِتَشْدِيدِ الْيَمِ الْثَانِيَةِ وَفَتْحِهَا .

وَرَجَعَتْ بِنْتُ الْمُقَوَّرِ إِلَى أَبِيهَا فِي صُحْبَةِ قَيْسٍ ، فَلَمَّا كَانُوا فِي الطَّرِيقِ وَجَبَتْ الظُّهْرُ ، فَتَرَلَّ قَيْسٌ يُصَلِّي بِمَنْ مَعَهُ وَالْفَتَاتَانِ تَنْظُرَانِ ؛ فَلَمَّا صَاحُوا : « اللَّهُ أَكْبَرُ ... ! » أَرْتَعَشَ قَلْبُ مَارِيَّةَ ، وَسَأَلَتْ الرَّاهِبَ شَطَا : مَاذَا يَقُولُونَ ؟ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ يَدْخُلُونَ بِهَا صَلَاتَهُمْ ، كَأَنَّمَا يُخَاطَبُونَ بِهَا الزَّمَنُ أَنَّهُمْ السَّاعَةَ فِي وَقْتٍ لَيْسَ مِنْهُ وَلَا مِنْ دُنْيَاهُمْ ، وَكَأَنَّهُمْ يُعْلِنُونَ أَنَّهُمْ بَيْنَ يَدَيِ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْوُجُودِ ؛ فَإِذَا أَعْلَنُوا أَنْصَرَفَهُمْ عَنِ الْوَقْتِ وَزِنَاعِ الْوَقْتِ وَشَهَوَاتِ الْوَقْتِ ، فَذَلِكَ هُوَ دُخُولُهُمْ فِي الصَّلَاةِ ؛ كَأَنَّهُمْ يَمْحُونَ الدُّنْيَا مِنَ النَّفْسِ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ ؛ وَمَخَوَهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ هُوَ أَرْتِفَاعُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَيْهَا ؛ أَنْظِرْنِي ، أَلَا تَرَيْنَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ قَدْ سَحَرَتْهُمْ سِحْرًا فَهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ فِي صَلَاتِهِمْ إِلَى شَيْءٍ ؛ وَقَدْ شَمَلَتْهُمْ السَّكِينَةُ ، وَرَجَعُوا غَيْرَ مَنْ كَانُوا ، وَخَشَعُوا خُشُوعَ أَعْظَمِ الْفَلَاسِفَةِ فِي تَأْمُلِهِمْ ؟<sup>(١)</sup>

قَالَتْ مَارِيَّةُ : مَا أَجْمَلَ هَذِهِ الْفِطْرَةَ الْفَلَسَفِيَّةَ ! لَقَدْ تَعَبَتِ الْكُتُبُ لِتَجْعَلَ أَهْلَ الدُّنْيَا يَسْتَفْرِوْنَ سَاعَةَ فِي سَكِينَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَمَا أَفْلَحَتْ ، وَجَاءَتِ الْكَنِيسَةُ فَهَوَّلَتْ عَلَى الْمُصَلِّينَ بِالزَّخَارِفِ وَالصُّوَرِ وَالْتِمَائِيلِ وَالْأَلْوَانِ ، لِنُوحِي إِلَى نُفُوسِهِمْ ضَرْبًا مِنَ الشُّعُورِ بِسَكِينَةِ الْجَمَالِ وَتَقْدِيرِ الْمَعْنَى الدِّينِيَّةِ ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَخْتَالُ فِي نَفْلِهِمْ مِنْ جَوْهَرٍ إِلَى جَوْهَرٍ ؛ فَكَانَتْ كَسَافِي الْأَحْمَرِ ؛ إِنْ لَمْ يُعْطِكَ الْأَحْمَرُ عَجَزَ عَنْ إِعْطَاكَ النَّشْوَةَ . وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ كَنِيسَةً عَلَى جَوَادٍ أَوْ حِمَارٍ ؟

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : نَعَمْ إِنَّ الْكَنِيسَةَ كَالْحَدِيقَةِ ؛ هِيَ حَدِيقَةٌ فِي مَكَانِهَا ، وَقَلَمًا تُوَحِّي شَيْئًا إِلَّا فِي مَوْضِعِهَا ؛ فَالْكَنِيسَةُ هِيَ الْجُذُرَانِ الْأَرْبَعَةُ ، أَمَّا هَؤُلَاءِ فَمَعْبَدُهُمْ بَيْنَ جِهَاتِ الْأَرْضِ الْأَرْبَعِ .

قَالَ الرَّاهِبُ شَطَا : وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَتَى فُتِحَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا وَأَفْتَتُوا بِهَا وَانْعَمَسُوا فِيهَا - فَسَتَكُونُ هَذِهِ الصَّلَاةُ بِعَيْنِهَا لَيْسَ فِيهَا صَلَاةٌ يَوْمِيَّةٌ .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : وَهَلْ تَفْتَحُ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا ، وَهَلْ لَهُمْ قُوَادٌ كَثِيرُونَ كَعَمْرٍو ... ؟

(١) { انظر مقالة « حقيقة المسلم » في الجزء الثاني } .



قَالَ : كَيْفَ لَا تَفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَى قَوْمٍ لَا يُحَارِبُونَ الْأَمَمَ بَلْ يُحَارِبُونَ مَا فِيهَا مِنَ الظُّلْمِ وَالْكَفْرِ وَالزُّدْبِلَةِ ، وَهُمْ خَارِجُونَ مِنَ الصَّخْرَاءِ بِطَبِيعَةٍ قَوِيَّةٍ كَطَبِيعَةِ الْمَوْجِ فِي الْمَدِّ الْمُرْتَفِعِ ؛ لَيْسَ فِي دَاخِلِهَا إِلَّا أَنْفُسٌ مُنْدَفِعَةٌ إِلَى الْخَارِجِ عَنْهَا ؛ ثُمَّ يَقَاتِلُونَ بِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ أَمَّا لَيْسَ فِي الدَّاخِلِ مِنْهَا إِلَّا الْقُفُوسُ الْمُسْتَعِدَّةُ أَنْ تَهْرَبَ إِلَى الدَّاخِلِ ... !

قَالَتْ مَارِيَّةُ : وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ ثَلَاثَتُنَا عَلَى دِينِ عَمْرٍو ...

\* \* \*

وَأَنْقَلَبَ قَيْسٌ مِنَ الصَّلَاةِ ، وَأَقْبَلَ يَتَرَحَّلُ ، فَلَمَّا حَاضَى مَارِيَّةَ كَانَ عِنْدَهَا كَأَنَّمَا سَافَرٌ وَرَجَعَ ؛ وَكَانَتْ مَا تَزَالُ فِي أَحْلَامِ قَلْبِهَا ؛ وَكَانَتْ مِنَ الْخُلَمِ فِي عَالَمٍ أَخَذَ يَتَلَاشَى إِلَّا مِنْ عَمْرٍو وَمَا يَصِلُ بِعَمْرٍو . وَفِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَسْوَالٌ ثَلَاثٌ<sup>(١)</sup> يَغِيبُ فِيهَا الْكَوْنُ بِحَقَائِقِهِ : فَيَغِيبُ عَنِ السُّكْرَانِ ، وَالْمُخْبُولِ ، وَالْكَأَمِ ؛ وَفِيهَا حَالَةٌ رَابِعَةٌ يَتَلَاشَى فِيهَا الْكَوْنُ إِلَّا مِنْ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ تَتَمَثَّلُ فِي إِنْسَانٍ { مَخْبُوبٍ } .

وَقَالَتْ مَارِيَّةُ لِلرَّاهِبِ شَطَا : سَلُهُ : مَا أَرَبُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْحَرْبِ ، وَهَلْ فِي سِيَاسَتِهِمْ أَنْ يَكُونَ الْقَائِدُ الَّذِي يَفْتَحُ بَلَدًا حَاكِمًا عَلَى هَذَا الْبَلَدِ ... ؟

قَالَ قَيْسٌ : حَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمِي أَنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ لَيْسَ إِلَّا رَجُلًا عَامِلًا فِي تَحْقِيقِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، أَمَا حَظُّ نَفْسِهِ فَهُوَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا .

وَتَرَجَّمَ الرَّاهِبُ كَلَامَهُ هَكَذَا : أَمَّا الْفَاتِحُ فَهُوَ فِي الْأَكْثَرِ الْحَاكِمُ الْمُقِيمُ ، وَأَمَّا الْحَرْبُ فَهِيَ عِنْدَنَا الْفِكْرَةُ الْمُصْلِحَةُ تُرِيدُ أَنْ تَضْرِبَ فِي الْأَرْضِ وَتَعْمَلَ ، وَلَيْسَ حَظُّ النَّفْسِ شَيْئًا يَكُونُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ النَّفْسُ أَكْبَرَ مِنْ غَرَائِزِهَا ، وَتَقْلِبُ مَعَهَا الدُّنْيَا بِرُغْوَنِهَا وَحِمَاقَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا كَالطُّفْلِ بَيْنَ يَدَيِ رَجُلٍ ، فِيهِمَا قُوَّةُ ضَبْطِهِ وَتَضَرُّفِهِ . وَلَوْ كَانَ فِي عَقِيدَتِنَا أَنَّ ثَوَابَ أَعْمَالِنَا فِي الدُّنْيَا ، لَانْعَكَسَ الْأَمْرُ .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : فَسَلُهُ : كَيْفَ يَصْنَعُ عَمْرٍو بِهَذِهِ الْقِلَّةِ الَّتِي مَعَهُ وَالرُّومُ لَا يُخْصِي عَدَدَهُمْ ؛ فَإِذَا أَخْفَقَ عَمْرٍو فَمَنْ عَسَى أَنْ يَسْتَبْدِلُوهُ مِنْهُ ؟ وَهَلْ هُوَ أَكْبَرُ قُوَادِمِهِمْ ، أَوْ فِيهِمْ

(١) فِي الْأَصْلِ : « ثَلَاثَةٌ » بِدَلَالَةِ : « ثَلَاثٌ » .

أَكْبَرُ مِنْهُ ؟

قَالَ الرَّائِي : وَلَكِنَّ فَرَسَ قَيْسٍ تَمَطَّرَ وَأَسْرَعَ فِي لِحَاقِ الْخَيْلِ عَلَى الْمُقَدَّمَةِ كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَسْنَا فِي هَذَا ...

\* \* \*

وَفُتِحَتْ مِصْرُ صَلَحًا بَيْنَ عَمْرٍو وَالْقِبْطِ ، وَوَلَّى الرُّومُ مُضْعِدِينَ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَكَانَتْ مَارِيَّةُ فِي ذَلِكَ تَسْتَفْرِئُ أَخْبَارَ الْفَاتِحِ تَطُوفُ مِنْهُمَا عَلَى أَطْلَالٍ مِنْ شَخْصٍ بَعِيدٍ ؛ وَكَانَ عَمْرٍو مِنْ نَفْسِهَا كَالْمَمْلَكَةِ الْحَصِينَةِ مِنْ فَاتِحٍ لَا يَمْلِكُ إِلَّا حُبُّهُ أَنْ يَأْخُذَهَا ؛ وَجَعَلَتْ تَذَوِي وَشَحَبَ لَوْنُهَا وَبَدَأَتْ تَنْظُرُ النُّظْرَةَ النَّائِيَةَ ؛ وَبَانَ عَلَيْهَا أَثَرُ الرُّوحِ الظَّنَائِي ؛ وَحَاطَهَا الْيَأْسُ بِجُوهِ الَّذِي يُحْرِقُ الدَّمَ ؛ وَبَدَتْ مَجْرُوحَةَ الْمَعَانِي ؛ إِذْ كَانَ يَتَقَاتَلُ فِي نَفْسِهَا الشُّعُورَانِ الْعُدَوَانِ : شُعُورُ أَنَّهَا عَاشِقَةٌ ، وَشُعُورُ أَنَّهَا يَائِسَةٌ !

وَرَفَّتْ لَهَا أَرْمَانُوسَةُ ، وَكَانَتْ هِيَ أَيْضًا تَتَعَلَّقُ فَتَى رُومَانِيًا ، فَسَهَرَتَا لَيْلَةً يُدِيرَانِ الرَّأْيَ فِي رِسَالَةٍ تَحْمِلُهَا مَارِيَّةُ مِنْ قَبْلِهَا إِلَى عَمْرٍو كَيْ تَصِلَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا وَصَلَتْ بَلَغَتْ بِعَيْنَيْهَا رِسَالَةَ نَفْسِهَا ...

وَأَسْتَفَرَّ الْأَمْرُ أَنْ تَكُونَ الْمَسْأَلَةُ عَنْ مَارِيَّةِ الْقِبْطِيَّةِ وَخَبَرِهَا وَنَسْلِهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِمَّا يَطُولُ الْإِخْبَارُ بِهِ إِذَا كَانَ السُّؤَالُ مِنْ أَمْرَاءَ عَنِ أَمْرَةٍ . فَلَمَّا أَصْبَحَتَا وَقَعَ إِلَيْهَا أَنَّ عَمْرًا قَدْ سَارَ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ لِقِتَالِ الرُّومِ ، وَشَاعَ الْخَبَرُ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِسُطَاطِهِ أَنْ يُقَوَّضَ أَصَابُوا يَمَامَةً قَدْ بَاضَتْ فِي أَغْلَاهُ ، فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : « قَدْ تَحَرَّضْتُ فِي جِوَارِنَا ، أَقْرُوا الْفُسْطَاطَ حَتَّى تَطِيرَ فِرَاحُهَا » . فَأَقْرُوهُ !

\* \* \*

وَلَمْ يَمُضْ غَيْرُ طَوِيلٍ حَتَّى قَضَتْ مَارِيَّةُ نَحْبَهَا ، وَحَفِظَتْ عَنْهَا أَرْمَانُوسَةُ هَذَا الشُّعْرَ الَّذِي أَسْمَتُهُ : نَشِيدَ الْيَمَامَةِ :

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُضُ بِنَفْسِهَا .

تَرَكَهَا الْأَمِيرُ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ ، وَذَهَبَ هُوَ يَصْنَعُ الْمَوْتَ !

هِيَ كَأَسْعَدِ امْرَأَةٍ ؛ تَرَى وَتَلْمَسُ أَخْلَامَهَا .

إِنَّ سَعَادَةَ الْمَرْأَةِ أَوْلَاهَا وَآخِرَهَا بَعْضُ حَقَائِقَ صَغِيرَةٍ كَهَذَا الْبَيْضِ .

\* \* \*

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْضَهَا .

لَوْ سُئِلَتْ عَنْ هَذَا الْبَيْضِ لَقَالَتْ : هَذَا كَثْرِي .

هِيَ كَأَهْنَأِ امْرَأَةٍ ، مَلَكَتْ مُلْكُهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَلَمْ تَفْتَقِرْ .

هَلْ أَكَلْتُ الْوُجُودَ شَيْئًا كَثِيرًا إِذَا كَلَفْتُهُ رَجُلًا وَاحِدًا أَحِبُّهُ !

\* \* \*

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْضَهَا .

السَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ ، كُلُّهَا أَصْغَرُ فِي عَيْنِهَا مِنْ هَذَا الْبَيْضِ .

هِيَ كَارِقٌ امْرَأَةٍ ؛ عَرَفَتْ الرِّقَّةَ مَرَّتَيْنِ : فِي الْحُبِّ ، وَالْوِلَادَةِ .

هَلْ أَكَلْتُ الْوُجُودَ شَيْئًا كَثِيرًا إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ كَهَذَا الْيَمَامَةِ !

\* \* \*

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْضَهَا .

تَقُولُ الْيَمَامَةُ : إِنَّ الْوُجُودَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى بِلَوْنَيْنِ فِي عَيْنِ الْإِنْسَانِ .

مَرَّةً حَبِيبًا كَبِيرًا فِي رَجُلِهَا ، وَمَرَّةً حَبِيبًا صَغِيرًا فِي أَوْلَادِهَا .

كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِقَانُونِهِ ؛ وَالْإِنْسَانُ لَا تَرِيدُ أَنْ تَخْضَعَ إِلَّا لِقَانُونِهَا .

\* \* \*

أَتَيْتُهَا الْيَمَامَةُ ، لَمْ تَعْرِفْني الْأَمِيرَ وَتَرَكَ لِكَ فُسْطَاطَهُ !

هَكَذَا الْحَظُّ : عَدَلْتُ مُضَاعَفْتُ فِي نَاحِيَةٍ ، وَظَلَمْتُ مُضَاعَفْتُ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

أَحْمَدِي اللَّهَ أَتَيْتُهَا الْيَمَامَةُ ، أَنْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ لُغَاتٌ وَأَذْيَانٌ .

عِنْدَكُمْ فَقَطْ : الْحُبُّ وَالطَّبِيعَةُ وَالْحَيَاةُ .

\* \* \*

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْضَهَا .

يَمَامَةٌ سَعِيدَةٌ ، سَتَكُونُ فِي التَّارِيخِ كَهَذَا سُلَيْمَانَ .

نُسِبَ الْهَذَا إِلَى سُلَيْمَانَ ، وَسَتُنُسَبُ الْيَمَامَةُ إِلَى عَمْرٍو .

وَاهَا لَكَ يَا عَمْرُو ! مَا ضَرَّ لَوْ عَرَفْتَ الْيَمَامَةَ الْأُخْرَى ... !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## اجْتِلَاءُ الْعِيدِ (\*)

جَاءَ يَوْمُ الْعِيدِ ؛ يَوْمَ الْخُرُوجِ مِنَ الزَّمَنِ إِلَى زَمَنٍ وَخَدَهُ لَا يَسْتَمِرُّ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ .  
زَمَنٌ قَصِيرٌ ظَرِيفٌ صَاحِكٌ ، تَفْرِضُهُ الْأَدْيَانُ عَلَى النَّاسِ ، لِيَكُونَ لَهُمْ بَيْنَ الْحَيْنِ  
وَالْحَيْنِ يَوْمٌ طَبِيعِيٌّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي أَنْتَقَلْتُ عَنْ طَبِيعَتِهَا .

يَوْمُ السَّلَامِ ، وَالْبَشْرِ ، وَالضَّحِكِ ، وَالْوَفَاءِ ، وَالْإِخَاءِ ، وَقَوْلِ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ :  
وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ .

يَوْمُ الثِّيَابِ الْجَدِيدَةِ عَلَى الْكُلِّ إِشْعَارًا لَهُمْ بِأَنَّ أُلُوجَهُ الْإِنْسَانِيَّ جَدِيدٌ فِي هَذَا الْيَوْمِ .  
يَوْمُ الزَّيْنَةِ الَّتِي لَا يَرَادُ مِنْهَا إِلَّا إِظْهَارُ أَثَرِهَا عَلَى النَّفْسِ لِيَكُونَ النَّاسُ جَمِيعًا فِي يَوْمٍ  
حُبٍّ .

\* \* \*

يَوْمُ الْعِيدِ ؛ يَوْمُ تَقْدِيمِ الْحُلُوبِ إِلَى كُلِّ فَمٍ لِتَحْلُوَ الْكَلِمَاتُ فِيهِ ...  
يَوْمُ تَعَمُّ فِيهِ النَّاسُ أَلْفَاظَ الدُّعَاءِ وَالْتِهَانَةِ مُرْتَفِعَةً بِقُوَّةِ إِلَهِيَّةِ فَوْقِ مُتَارَعَاتِ الْحَيَاةِ .  
ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي يَنْظُرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ نَظْرَةً تَلْمَحُ السَّعَادَةَ ، وَإِلَى أَهْلِهِ نَظْرَةً تُبْصِرُ  
الْإِعْزَازَ ، وَإِلَى دَارِهِ نَظْرَةً تُدْرِكُ الْجَمَالَ ، وَإِلَى النَّاسِ نَظْرَةً تَرَى الصَّدَاقَةَ .  
وَمِنْ كُلِّ هَذِهِ النَّظَرَاتِ تَسْتَوِي لَهُ النَّظْرَةُ الْجَمِيلَةُ إِلَى الْحَيَاةِ وَالْعَالَمِ ؛ فَتَبْهَجُ نَفْسُهُ  
بِالْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ .

وَمَا أَسْمَاهَا نَظْرَةُ تَكْشِفُ لِلْإِنْسَانِ أَنَّ الْكُلَّ جَمَالُهُ فِي الْكُلِّ !

\* \* \*

وَخَرَجْتُ أَجْتَلِي الْعِيدَ فِي مَظْهَرِهِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ السَّعْدَاءِ .  
عَلَى هَذِهِ أُلُوجُهُ النَّصْرَةِ الَّتِي كَبُرَتْ فِيهَا ابْتِسَامَاتُ الرِّضَاعِ فَصَارَتْ ضَحِكَاتٍ .  
وَهَذِهِ أَلْعِيُونِ الْحَالِمَةِ الَّتِي إِذَا بَكَتْ بَكَتْ بِدُمُوعٍ لَا يُقَلَّ لَهَا .  
وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي تَنْطِقُ بِأَصْوَاتٍ لَا تَرَالُ فِيهَا نَبْرَاتُ الْحَنَانِ مِنْ تَقْلِيدِ لُغَةٍ  
الْأُمِّ .

وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ الْعُضْوِيَّةُ الْقَرِيبَةُ الْعَهْدِ بِالضَّمَامِ وَاللِّسَامِ فَلَا يَرَالُ حَوْلَهَا جَوْ الْقَلْبِ .

\* \* \*

عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ السَّعْدَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قِيَاسًا لِلزَّمَنِ إِلَّا بِالسُّرُورِ .  
وَكُلٌّ مِنْهُمْ مَلِكٌ فِي مَمْلَكَةٍ ؛ وَظَرْفُهُمْ هُوَ أَمْرُهُمُ الْمُلُوكِيُّ .  
... هَؤُلَاءِ الْمُجْتَمِعِينَ فِي ثِيَابِهِمُ الْجَدِيدَةِ الْمُصْبَغَةِ اجْتِمَاعَ قَوْسٍ فَرَحَ فِي أَلْوَانِهِ .  
ثِيَابٌ عَمِلَتْ فِيهَا الْمَصَانِعُ وَالْقُلُوبُ ، فَلَا يَسِمُ جَمَالَهَا إِلَّا بِأَنَّ يَرَاهَا الْأَبُ وَالْأُمُّ عَلَى  
أَطْفَالِهِمَا .

ثِيَابٌ جَدِيدَةٌ يَلْبَسُونَهَا فَيَكُونُونَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ ثَوْبًا جَدِيدًا عَلَى الدُّنْيَا .

\* \* \*

... هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ الصَّغَارِ الَّذِينَ يُخْرِجُونَ لَأَنفُسِهِمْ مَعْنَى الْكَثْرِ الثَّمِينِ مِنْ قَرَشَيْنِ .  
وَيَسْحَرُونَ الْعِيدَ فَإِذَا هُوَ يَوْمٌ صَغِيرٌ مِثْلُهُمْ جَاءَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّعِبِ ...  
وَيَتَبَهَّجُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مَعَ الْفَجْرِ ، فَيَبْقَى الْفَجْرُ عَلَى قُلُوبِهِمْ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ .  
وَيُلْفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْعَالَمِ الْمَنْظُورِ ، فَيَبْنُونَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى أَحَدِ الْمَعْنِيِّينِ الثَّابِتِينَ فِي  
نَفْسِ الطِّفْلِ : الْحُبِّ الْخَالِصِ ، وَاللَّهُوِ الْخَالِصِ .  
وَيَتَبَعِدُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ عَنْ أَكَاذِبِ الْحَيَاةِ ، فَيَكُونُ هَذَا بَعِينَهُ هُوَ قُرْبُهُمْ مِنْ حَقِيقَتِهَا  
السَّعِيدَةِ .

\* \* \*

... هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ هُمْ الشُّهُولَةُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَقَّدَ .

وَالَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَالَمَ فِي أَوَّلِ مَا يَنْمُو الْحَيَاتِ وَيَجَاوِزُ وَيَمْتَدُّ .

يُفَتِّشُونَ الْأَفْئَادَ مِنْ ظَاهِرِهَا ؛ وَلَا يَسْتَظُنُّونَ كَيْ لَا يَتَأَلَّمُوا بِلَا طَائِلِ .

وَيَأْخُذُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ لِأَنفُسِهِمْ فَيَفْرَحُونَ بِهَا ، وَلَا يَأْخُذُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِلْأَشْيَاءِ كَيْ لَا يُوْجِدُوا لَهَا أَلْهَمَ .

\* \* \*

فَانِعُونَ يَكْتَفُونَ بِالثَّمَرَةِ <sup>(١)</sup> ، وَلَا يُحَاوِلُونَ أَقْتِلَاعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا .

وَيَعْرِفُونَ كُنْهَ الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ أَنَّ الْعَبْرَةَ بِرُوحِ التَّعَمُّةِ لَا بِمِقْدَارِهَا ...

فَيَجِدُونَ مِنَ الْفَرَحِ فِي تَغْيِيرِ نَوْبِ لِلْجِسْمِ ، أَكْثَرَ مِمَّا يَجِدُهُ الْفَائِدُ الْفَاتِحُ فِي تَغْيِيرِ نَوْبِ لِلْمَمْلَكَةِ .

\* \* \*

... هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءُ الَّذِينَ يُسْبِيهِ كُلُّ مِنْهُمْ آدَمَ أَوَّلَ مَجِيئِهِ إِلَى الدُّنْيَا .

حِينَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ خَلِيقَةً ثَالِثَةً مُعَقَّدَةً مِنْ صُنْعِ الْإِنْسَانِ الْمُتَحَضَّرِ .

حِكْمَتُهُمُ الْعُلْيَا : أَنَّ الْفِكْرَ السَّامِيَّ هُوَ جَعْلُ الشُّرُورِ فِكْرًا وَإِظْهَارُهُ فِي الْعَمَلِ .

وَشِعْرُهُمُ الْبَدِيعُ : أَنَّ الْجَمَالَ وَالْحُبَّ لَيْسَا فِي شَيْءٍ إِلَّا فِي تَجَمُّلِ النَّفْسِ وَإِظْهَارِهَا عَاشِقَةً لِلْفَرَحِ .

\* \* \*

... هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةُ الَّذِينَ تَقُومُ فَلَسَفَتُهُمْ عَلَى قَاعِدَةٍ عَمَلِيَّةٍ ، وَهِيَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ

الْكَثِيرَةَ لَا تَكْثُرُ فِي النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ .

وَبِذَلِكَ نَعِيشُ النَّفْسُ هَادِئَةً مُسْتَرِيحَةً كَأَنَّ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَشْيَاؤُهَا الْمُمِيسَرَةُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « الثَّمَرَةُ » بَدَلًا مِنْ : « الثَّمَرَةُ » .

أَمَّا النَّفْسُ الْمُضْطَرِبَةُ بِأَطْمَاعِهَا وَشَهَوَاتِهَا فِيهِ الَّتِي تُبْتَلَى بِهِمُومِ الْكَثْرَةِ الْخَيَالِيَّةِ .

وَمَثَلُهَا فِي أَلْهَمَ مَثَلُ طِفْلِيٍّ مُغْفَلٍ يَخْزَنُ لِأَنَّهُ لَا يَأْكُلُ فِي بَطْنَيْنِ ...

\* \* \*

وَإِذَا لَمْ تَكْثُرِ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيرَةُ فِي النَّفْسِ ، كَثُرَتِ السَّعَادَةُ وَلَوْ مِنْ قِلَّةٍ .

فَالطِّفْلُ يُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِي نِسَاءٍ كَثِيرَاتٍ ، وَلَكِنْ أُمُّهُ هِيَ أَجْمَلُهُنَّ وَإِنْ كَانَتْ شَوْهَاءَ .

فَأُمُّهُ وَحْدَهَا هِيَ أُمُّ قَلْبِهِ ، ثُمَّ لَا مَعْنَى لِلْكَثْرَةِ فِي هَذَا الْقَلْبِ .

.. هَذَا هُوَ السِّرُّ ؛ خُذُوهُ أَهْلُهَا الْحُكَمَاءُ عَنِ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ !

\* \* \*

وَتَأَمَّلْتُ الْأَطْفَالَ وَأَثَرَ الْعَيْنِ عَلَى نَفْسِهِمُ الَّتِي وَسِعَتْ مِنَ الْبَشَاشَةِ فَوْقَ مِلْثَاحِهَا ؛ فَإِذَا لِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ لِلْكِبَارِ : أَتَيْتُهَا الْبَهَائِمُ ، أَخْلَعِي أَرْسَانِكَ وَلَوْ يَوْمًا ...

أَتَيْتُهَا النَّاسُ ! انْطَلِقُوا فِي الدُّنْيَا انْطِلَاقَ الْأَطْفَالِ يُوْجِدُونَ حَقِيقَتَهُمُ الْبَرِّيَّةَ الصَّاحِكَةَ .

لَا كَمَا تَصْنَعُونَ إِذْ تَنْطَلِقُونَ انْطِلَاقَ الْوَحْشِ يُوْجِدُ حَقِيقَتَهُ الْمُفْتَرَسَةَ .

أَخْرَارُ حُرِّيَّةِ نَشَاطِ الْكَوْنِ يَنْبَعِثُ كَالْفَوْضَى ، وَلَكِنْ فِي أَدَقِّ التَّوَامِيصِ .

يُيَبِّرُونَ الشَّخْطَ بِالْصَّجِيحِ وَالْحَرَكَةِ ، فَيَكُونُونَ مَعَ النَّاسِ عَلَى خِلَافٍ ، لِأَنَّهُمْ عَلَى وَفَاقٍ مَعَ الطَّبِيعَةِ .

وَتَحْتَمِدُ بَيْنَهُمُ الْمَعَارِكُ ، وَلَكِنْ لَا تَتَحَطَّمُ فِيهَا إِلَّا اللَّعْبُ ...

أَمَّا الْكِبَارُ فَيَصْنَعُونَ الْمِدْفَعَ الصَّخْمَ مِنَ الْحَدِيدِ ، لِلْجِسْمِ الَّتِي مِنَ الْعَظْمِ .

أَتَيْتُهَا الْبَهَائِمُ ! أَخْلَعِي أَرْسَانِكَ وَلَوْ يَوْمًا ...

\* \* \*

لَا يَفْرَحُ أَطْفَالُ الدَّارِ كَفَرَحِهِمْ بِطِفْلِ يُولَدُ ؛ فَهُمْ يَسْتَقْبِلُونَهُ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى عَقُولِهِمْ

الصَّغِيرَةِ .

وَيَمْلَأُهُمُ الشُّعُورُ بِالْفَرَحِ الْحَقِيقِيِّ الْكَامِنِ فِي سِرِّ الْخَلْقِ ، لِقُرْبِهِمْ مِنْ هَذَا السِّرِّ .  
وَكَذَلِكَ تَحْمِلُ السَّنَةُ ثُمَّ تَلِدُ لِلْأَطْفَالِ يَوْمَ الْعِيدِ ؛ فَيَسْتَقْبِلُونَهُ كَأَنَّهُ مُخْتَاَجٌ إِلَى لَهْوِهِمْ  
الطَّبِيعِيِّ .

وَيَمْلَأُهُمُ الشُّعُورُ بِالْفَرَحِ الْحَقِيقِيِّ الْكَامِنِ فِي سِرِّ الْعَالَمِ ، لِقُرْبِهِمْ مِنْ هَذَا السِّرِّ .

\* \* \*

فَيَا أَسَفًا عَلَيْنَا نَحْنُ الْكِبَارَ ! مَا أَبْعَدَنَا عَنْ سِرِّ الْخَلْقِ بِأَثَامِ الْعُمُرِ !  
وَمَا أَبْعَدَنَا عَنْ سِرِّ الْعَالَمِ ، بِهَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْكَافِرَةِ الَّتِي لَا تُؤْمِنُ إِلَّا بِالْمَادَّةِ !  
يَا أَسَفًا عَلَيْنَا نَحْنُ الْكِبَارَ ! مَا أَبْعَدَنَا عَنْ حَقِيقَةِ الْفَرَحِ !  
تَكَادُ أَثَامُنَا وَاللَّهِ تَجْعَلُ لَنَا فِي كُلِّ فُرْجَةٍ خَجَلَةً . . .

\* \* \*

أَيُّهَا الرِّيَاضُ الْمُتَوَرِّةُ بِأَرْهَارِهَا !  
أَيُّهَا الطُّيُورُ الْمُعَرَّدَةُ بِالْحَانِيَا !  
أَيُّهَا الْأَشْجَارُ الْمُصَفَّقَةُ بِأَغْصَانِهَا !  
أَيُّهَا الثُّجُومُ الْمُتَلَالِنَةُ بِالزُّورِ الدَّائِمِ !  
أَنْتِ شَتَّى ؛ وَلَكِنَّكَ جَمِيعًا فِي هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ يَوْمَ الْعِيدِ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### الْمَعْنَى السِّيَاسِيَّةُ فِي الْعِيدِ (\*)

مَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ نَفْهَمَ أَعْيَادَنَا فَهَمًا جَدِيدًا ، نَتَلَقَّاهَا بِهِ وَنَأْخُذَهَا  
مِنْ نَاحِيَتِهِ ، فَتَجِيءَ أَثَامًا سَعِيدَةً عَامِلَةً ، تُنَبِّئُنَا أَوْصَافَهَا الْقُوَّةُ ، وَتُجَدِّدُ نَفْسَنَا  
بِمَعَانِيهَا ، لَا كَمَا تَجِيءُ الْآنَ كَالْحَقَّةِ عَاطِلَةٍ مَمْسُوحَةٍ مِنَ الْمَعْنَى ، أَكْبَرُ عَمَلِهَا تَجْدِيدُ  
الْثِّيَابِ ، وَتَحْدِيدُ الْفَرَاغِ ، وَزِيَادَةُ ابْتِسَامَةِ عَلَى التَّفَاقِ . . .

فَالْعِيدُ إِنَّمَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ فِي الْيَوْمِ لَا الْيَوْمُ نَفْسُهُ ، وَكَمَا يَفْهَمُ النَّاسُ هَذَا  
الْمَعْنَى يَتَلَقَّوْنَ هَذَا الْيَوْمَ ؛ وَكَانَ الْعِيدُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ عَيْنُ الْفِكْرَةِ الْعَالِيَةِ ، فَاصْبَحَ عَيْنُ  
الْفِكْرَةِ الْعَالِيَةِ ؛ وَكَانَتْ عِبَادَةُ<sup>(١)</sup> الْفِكْرَةِ جَمْعَهَا الْأُمَّةُ فِي إِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى حَقِيقَةِ عَمَلِيَّةٍ ،  
فَاصْبَحَ عَيْنُ الْفِكْرَةِ جَمْعَهَا الْأُمَّةُ عَلَى تَقْلِيدٍ بِغَيْرِ حَقِيقَةٍ ؛ لَهُ مَظْهَرُ الْمَنْفَعَةِ وَلَيْسَ لَهُ  
مَعْنَاهَا .

كَانَ الْعِيدُ إِنْ بَاتَ الْأُمَّةُ وَجُودَهَا الرُّوحَانِيَّ فِي أَجْمَلِ مَعَانِيهِ ، فَاصْبَحَ إِنْ بَاتَ الْأُمَّةُ  
وَجُودَهَا الْحَيَوَانِيَّ فِي أَكْثَرِ مَعَانِيهِ ؛ وَكَانَ يَوْمَ اسْتِزْوَاحِ الْقُوَّةِ مِنْ جِدِّهَا ، فَعَادَ يَوْمَ اسْتِزْوَاحِ  
الضَّعْفِ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ يَوْمَ الْمَبْدَأِ ، فَارْجَعَ يَوْمَ الْمَادَّةِ !

\* \* \*

لَيْسَ الْعِيدُ إِلَّا إِشْعَارَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنَّ فِيهَا قُوَّةَ تَغْيِيرِ الْأَيَّامِ ، لَا إِشْعَارَهَا بِأَنَّ الْأَيَّامَ  
تَتَغَيَّرُ ؛ وَلَيْسَ الْعِيدُ لِلْأُمَّةِ إِلَّا يَوْمًا تَعْرِضُ فِيهِ جَمَالَ نِظَامِهَا الْأَجْتِمَاعِيِّ ، فَيَكُونُ يَوْمَ  
الشُّعُورِ الْوَاحِدِ فِي نَفْسِ الْجَمِيعِ ، وَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ فِي أَلْسِنَةِ الْجَمِيعِ ؛ يَوْمَ الشُّعُورِ  
بِالْقُدْرَةِ عَلَى تَغْيِيرِ الْأَيَّامِ ، لَا الْقُدْرَةَ عَلَى تَغْيِيرِ الثِّيَابِ . . . كَأَنَّمَا الْعِيدُ هُوَ اسْتِزْوَاحُ  
الْأَسْلِحَةِ يَوْمًا فِي شَعْبِهَا الْحَزِينِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٤٠ ، ١٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ٣٦١ - ٣٦٢ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « عِبَادَةُ » بَدَلًا مِنْ : « عِبَادَةُ » .

وَلَيْسَ الْعِيدُ إِلَّا تَعْلِيمُ الْأُمَّةِ كَيْفَ تَتَسَّعُ رُوحُ الْجَوَارِ وَتَمْتَدُّ ، حَتَّى يَرْجِعَ الْبَلَدُ الْعَظِيمُ وَكَأَنَّهُ لِأَهْلِهِ دَارٌ وَاحِدَةٌ يَتَحَقَّقُ فِيهَا الْإِخَاءُ بِمَعْنَاهُ الْعَمَلِيُّ ، وَتُظْهِرُ فَضِيلَةَ الْإِخْلَاصِ مُسْتَعْلَنَةً لِلْجَمِيعِ ، وَيُهْدِي النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَدَايَا الْقُلُوبِ الْمُخْلِصَةِ الْمُحِبَّةِ ؛ وَكَأَنَّمَا الْعِيدُ هُوَ إِطْلَاقُ رُوحِ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ فِي الْأُمَّةِ كُلِّهَا .

وَلَيْسَ الْعِيدُ إِلَّا إِظْهَارُ الذَّاتِيَّةِ الْجَمِيلَةِ لِلشَّعْبِ مَهْرُوزَةً مِنْ نَشَاطِ الْحَيَاةِ ؛ وَلَا ذَاتِيَّةَ لِلأُمَمِ الضَّعِيفَةِ ؛ وَلَا نَشَاطَ لِلأُمَمِ الْمُسْتَعْبَدَةِ . فَالْعِيدُ صَوْتُ الْقُوَّةِ يَهْتَفُ بِالأُمَّةِ : أَخْرِجِي يَوْمَ أَفْرَاحِكَ ، أَخْرِجِي يَوْمًا كَأَيَّامِ النُّصْرِ !

وَلَيْسَ الْعِيدُ إِلَّا إِبْرَارُ الْكُنْتَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلأُمَّةِ مُتَمَيِّزَةً بِطَائِعِيهَا الشَّعْبِيِّ ، مَفْصُولَةً مِنَ الْأَجَانِبِ ، لَا بَسَةَ مِنْ عَمَلِ أَيْدِيهَا ، مُغْلَنَةً بِعَيْنَيْهَا اسْتِفْلَاحِينَ فِي وُجُودِهَا وَصِنَاعَتِهَا ، ظَاهِرَةً بِقُوَّتَيْنِ فِي إِيمَانِهَا وَطَبِيعَتِهَا ، مُبْتَهَجَةً بِفَرَحَيْنِ فِي دُورِهَا وَأَسْوَاقِهَا ؛ فَكَأَنَّ الْعِيدَ يَوْمٌ يَفْرَحُ فِيهِ الشَّعْبُ كُلُّهُ بِخَصَائِصِهِ .

وَلَيْسَ الْعِيدُ إِلَّا الْبَقَاءُ الْكِبَارُ وَالصَّغَارُ فِي مَعْنَى الْفَرَحِ بِالحَيَاةِ النَّاجِحَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي طَرِيقِهَا ، وَتَرَكَ الصَّغَارُ يُلْقُونَ دَرَسَهُمُ الطَّبِيعِيِّ فِي حِمَاةِ الْفَرَحِ وَالبَهْجَةِ ، وَيُعَلِّمُونَ كِبَارَهُمْ كَيْفَ تَوْضَعُ الْمَعَانِي فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي فَرَعَتْ عَنْهُمْ مِنْ مَعَانِيهَا ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُمْ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلَ الصِّفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْجُمُوعِ عَمَلُ الْحَلِيفِ لِحَلِيفِهِ ، لَا عَمَلُ الْمُتَابِدِ لِمُتَابِدِهِ ؛ فَالْعِيدُ يَوْمٌ تَسْلُطُ الْعُنُصُرُ الْحَيَّةُ عَلَى نَفْسِيَّةِ الشَّعْبِ .

وَلَيْسَ الْعِيدُ إِلَّا تَعْلِيمُ الْأُمَّةِ كَيْفَ تُوجِّهُ بِقُوَّتِهَا حَرَكَةَ الزَّمَنِ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ كُلَّمَا شَاءَتْ ؛ فَقَدْ وَضَعَ لَهَا الدِّينُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ لِتُخْرِجَ عَلَيْهَا الْأُمُيْلَةَ ، فَتَجْعَلَ لِلْوَطَنِ عَيْنًا مَالِيًا أَفْصَادِيًا تَبَسُّمَ فِيهِ الدَّرَاهِمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَتَخْتَرِعُ لِلصَّنَاعَةِ عَيْنَهَا ، وَتُوجِدُ لِلْعِلْمِ عَيْنَهُ ، وَتَبْتَدِعُ لِلْفَنِّ مَجَالِي زِينَتِهِ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ تُنْشِئُ لِنَفْسِهَا آيَاتًا تَعْمَلُ عَمَلُ الْقَوَادِ الْعَسْكَرِيِّينَ فِي قِيَادَةِ الشَّعْبِ ، يَقُودُهُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا إِلَى مَعْنَى مِنَ النُّصْرِ .

\* \* \*

هَذِهِ الْمَعَانِي السِّيَاسِيَّةُ الْقَوِيَّةُ هِيَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا فُرِضَ الْعِيدُ مِيزَانًا دَهْرِيًّا فِي

الْإِسْلَامَ ، لِيُسْتَخْرَجَ أَهْلُ كُلِّ زَمَنِ مِنْ مَعَانِي زَمَنِهِمْ فَيُضَيَّفُوا إِلَى الْمِثَالِ أَمْثِلَةً مِمَّا يُبْدِعُهُ نَشَاطُ الْأُمَّةِ ، وَيُحَقِّقُهُ خَيَالُهَا ، وَتَقْتَضِيهِ مَصَالِحُهَا .

وَمَا أَحْسَبُ الْجُمُعَةَ قَدْ فُرِضَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَيْنًا أُسْبُوعِيًّا يُشْتَرَطُ فِيهِ الْخَطِيبُ وَالْمِنْبَرُ وَالْمَسْجِدُ الْجَامِعُ - إِلَّا تَهْنِئَةً لِدَلِكِ الْمَعْنَى وَإِعْدَادًا لَهُ ؛ فَبِئْسَ كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مُسْلِمَةٍ يَوْمٌ يَجِيءُ فَيُشْعِرُ النَّاسَ مَعْنَى الْقَائِدِ الْحَزِينِ لِلشَّعْبِ كُلِّهِ .

أَلَا لَيْتَ الْمَنَابِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَا يَخْطُبُ عَلَيْهَا إِلَّا رِجَالٌ فِيهِمْ أَرْوَاحُ الْمَدَافِعِ ، لَا رِجَالٌ فِي أَيْدِيهِمْ سُيُوفٌ مِنْ خَشَبٍ <sup>(١)</sup> . . .

(١) { أَنْظُرْ « قِصَّةُ الْأَيْدِي الْمَوْصُصَةِ » فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ } .

## الرَّبِيعُ (\*)

خَرَجْتُ أَشْهَدُ الطَّبِيعَةَ كَيْفَ تُصْبِحُ كَالْمَعْشُوقِ الْجَمِيلِ ، لَا يُقَدِّمُ لِعَاشِقِهِ إِلَّا أَسْبَابَ حُبِّهِ !  
وَكَيْفَ تَكُونُ كَالْحَبِيبِ ، يَزِيدُ فِي الْجِسْمِ حَاسَةً لِمَسِ الْمَعَانِي الْجَمِيلَةِ !  
وَكُنْتُ كَالْقَلْبِ الْمَهْجُورِ الْحَزِينِ ، وَجَدَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِمَا سَمَاءَهُ  
وَأَرْضَهُ .

أَلَا كَمْ مِنْ آلَافِ السِّنِينَ وَالْآفِهَا قَدْ مَضَتْ مِنْذُ أُخْرِجَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ !  
وَمَعَ ذَلِكَ فَالتَّارِيخُ يُعِيدُ نَفْسَهُ فِي الْقَلْبِ ؛ لَا يَخْزَنُ هَذَا الْقَلْبُ إِلَّا شَعَرَ كَأَنَّهُ طُرِدَ مِنَ  
الْجَنَّةِ لِسَاعَتِهِ .

\* \* \*

يَقِفُ الشَّاعِرُ بِإِزَاءِ جَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَتَذَقَّقَ وَيَهْتَزَّ وَيَطْرَبَ .

لَأَنَّ السَّرَّ الَّذِي أَنْبَقَ هُنَا فِي الْأَرْضِ ، يُرِيدُ أَنْ يَنْبِقَ هُنَاكَ فِي النَّفْسِ .

وَالشَّاعِرُ نَبِيٌّ هَذِهِ الدِّيَانَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي مِنْ شَرِيعَتِهَا إِصْلَاحُ النَّاسِ بِالْجَمَالِ وَالْخَيْرِ .

وَكُلُّ حُسْنٍ يَلْتَمِسُ النُّظْرَةَ الْحَيَّةَ الَّتِي تَرَاهُ جَمِيلًا لِتُعْطِيَهُ مَعْنَاهُ .

وَبِهَذَا تَقِفُ الطَّبِيعَةُ مُخْتَفِلَةً أَمَامَ الشَّاعِرِ ، كَوْفُوفِ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ أَمَامَ الْمُصَوِّرِ .

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ١٤٧ ، ٦ صفر سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٧ أبريل / نيسان ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ،  
الصفحات : ٦٨٣ - ٦٨٤ .

لَا حَتَّ لِي الْأَزْهَارُ كَأَنَّهَا أَلْفَاظُ حُبِّ رَقِيقَةٍ مُغْشَاةٌ بِاسْتِعَارَاتٍ وَمَجَازَاتٍ .

وَالنَّسِيمُ حَوْلَهَا كَتُوبِ الْحَسَنَاءِ عَلَى الْحَسَنَاءِ ، فِيهِ تَغْيِيرٌ مِنْ لَا يَسْتَبِي .

وَكُلُّ زَهْرَةٍ كَأَنِّي سَامِعٌ ، تَخْتَهَا أَسْرَارًا وَأَسْرَارًا مِنْ مَعَانِي الْقَلْبِ الْمَعْقَدَةِ .

أَهِيَ لُغَةُ الضُّوءِ الْمُلَوَّنِ مِنَ الشَّمْسِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ السَّبْعَةِ ؟

أَمْ لُغَةُ الضُّوءِ الْمُلَوَّنِ مِنَ الْخَدِّ ؛ وَالشَّفَةِ ؛ وَالصَّدْرِ ؛ وَالنَّخْرِ وَالذِّيْنَجِ وَالْحَلَى ؟

\* \* \*

وَمَاذَا يَفْهَمُ الْعُشَّاقُ مِنْ رُمُوزِ الطَّبِيعَةِ فِي هَذِهِ الْأَزْهَارِ الْجَمِيلَةِ ؟

أَتَشِيرُ لَهُمْ بِالزَّهْرِ إِلَى أَنَّ عُمرَ اللَّذَّةِ قَصِيرٌ ، كَأَنَّهَا تَقُولُ : عَلَى مِقْدَارِ هَذَا ؟

أَتُعَلِّمُهُمْ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ جَمِيلٍ وَجَمِيلٍ ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ اللَّوْنِ وَاللَّوْنِ ، وَبَيْنَ الرَّائِحَةِ

وَالرَّائِحَةِ ؟

أَتُنَاجِيهِمْ بِأَنَّ أَيَّامَ الْحُبِّ صُورُ أَيَّامٍ لَا حَقَائِقُ أَيَّامٍ ؟

أَمْ تَقُولُ الطَّبِيعَةُ : إِنَّ كُلَّ هَذَا لِأَنَّكَ أَتَيْتَهَا الْحَسَرَاتِ لَا تَتَخَدَّعِينَ إِلَّا بِكُلِّ

هَذَا<sup>(١)</sup> . . . ؟

\* \* \*

فِي الرَّبِيعِ تَطْهَرُ أَلْوَانُ الْأَرْضِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَتَطْهَرُ أَلْوَانُ النَّفْسِ عَلَى النَّفْسِ .

وَيَصْنَعُ الْمَاءُ صُنْعَهُ فِي الطَّبِيعَةِ فَتُخْرِجُ تَهَاوِيلَ اللَّبَاتِ ، وَيَصْنَعُ الدَّمُ صُنْعَهُ فَيُخْرِجُ

تَهَاوِيلَ الْأَحْلَامِ .

(١) بَيَّنْتُ أَنَّ أَلْوَانَ الْأَزْهَارِ وَعَطْرَهَا وَمَا فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، كُلُّ ذَلِكَ لِاجْتِنَابِ الْحَسَرَاتِ إِلَيْهَا كَيْ تَنْقَلِ  
الْأَفْخَاحَ مِنْ زَهْرَةٍ إِلَى زَهْرَةٍ .

وَيَكُونُ الْهَوَاءُ كَأَنَّهُ مِنْ شِفَاهِ مُتَحَابَّةٍ يَنْتَفِسُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ .  
وَيَعْمُودُ كُلُّ شَيْءٍ يَلْتَمِعُ لِأَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا يَنْبِضُ فِيهَا عِرْقُ الثُّورِ .  
وَيَرْجِعُ كُلُّ حَيٍّ يُعْتَنِي لِأَنَّ الْحُبَّ يُرِيدُ أَنْ يَزْفَعَ صَوْتَهُ .

\* \* \*

وَفِي الرَّبِيعِ لَا يُضِيءُ الثُّورُ فِي الْأَعْيُنِ وَخَدَهَا ، وَلَكِنْ فِي الْقُلُوبِ أَيْضًا .  
وَلَا يَنْفُذُ الْهَوَاءُ إِلَى الصُّدُورِ فَقَطْ ، وَلَكِنْ إِلَى عَوَاطِفِهَا كَذَلِكَ .  
وَيَكُونُ لِلشَّمْسِ حَرَارَتَانِ إِحْدَاهُمَا فِي الدَّمِ .

وَيَطْعَى فَيْضَانُ الْجَمَالِ كَأَنَّمَا يَرَادُ مِنَ الرَّبِيعِ تَجَرِبَةُ مَنْظَرٍ مِنْ مَنَاطِرِ الْجَنَّةِ فِي الْأَرْضِ .  
وَالْحَيَوَانَاتُ الْأَعْجَمُ نَفْسُهُ تَكُونُ لَهُ لَفَتَاتٌ عَقْلِيَّةٌ فِيهَا إِذْرَاكُ فَلَسَفَةِ السُّرُورِ وَالْمَرَحِ .

\* \* \*

وَكَانَتْ الشَّمْسُ فِي الشِّتَاءِ كَأَنَّمَا صُورَةٌ مُعَلِّقَةٌ فِي السَّحَابِ .

وَكَانَ الْكَلْبُ كَأَنَّهُ يُضِيءُ بِالْقَمَرِ لَا بِالشَّمْسِ .

وَكَانَ الْهَوَاءُ مَعَ الْمَطَرِ كَأَنَّهُ مَطَرٌ غَيْرُ سَائِلٍ .

وَكَانَتْ الْحَيَاةُ تَضَعُ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مَعْنَى عُيُوسِ الْجَوِّ .

فَلَمَّا جَاءَ الرَّبِيعُ كَانَ قَرَحُ جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ بِالشَّمْسِ كَقَرَحِ الْأَطْفَالِ رَجَعَتْ أُنْهُمُ مِنَ السَّفَرِ .

\* \* \*

وَيَنْظُرُ الشَّبَابُ فَتَظْهَرُ لَهُ الْأَرْضُ شَابَّةً .

وَيَسْعُرُ أَنَّهُ { مَوْجُودٌ } فِي مَعَانِي الدَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَعَانِي الْعَالَمِ .

وَتَمْتَلِيءُ لَهُ الدُّنْيَا بِالْأَزْهَارِ ، وَمَعَانِي الْأَزْهَارِ ، وَخِي الْأَزْهَارِ .  
وَتُخْرِجُ لَهُ أَشْعَةَ الشَّمْسِ رَيْنًا وَأَشْعَةَ قَلْبِهِ رَيْنًا آخَرَ .  
وَلَا تَنْسَى الْحَيَاةَ عَجَائِزَهَا ، فَرِيضَتُهُمْ ضَوْءُ الشَّمْسِ ...

\* \* \*

مَا أَعْجَبَ سِرَّ الْحَيَاةِ ! كُلُّ شَجَرَةٍ فِي الرَّبِيعِ جَمَالٌ هِنْدَسِيٌّ مُسْتَقِلٌّ .

وَمَهْمَا قَطَعْتَ مِنْهَا وَغَيَّرْتَ مِنْ شَكْلِهَا أَبْرَزَتْهَا الْحَيَاةُ فِي جَمَالِ هِنْدَسِيٍّ جَدِيدٍ كَأَنَّكَ أَصْلَحْتَهَا .

وَلَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا جَذَرٌ حَيٌّ أَسْرَعَتْ الْحَيَاةُ فَجَعَلَتْ لَهُ شُكْلًا مِنْ عُصُونٍ وَأُورَاقٍ .

الْحَيَاةُ الْحَيَاةُ . إِذَا أَنْتَ لَمْ تُفْسِدْهَا جَاءَتْكَ دَائِمًا هَدَايَاهَا .

وَإِذَا أَمَنْتَ لَمْ تُعَدِّ بِمِقْدَارِ نَفْسِكَ ، وَلَكِنْ بِمِقْدَارِ الْقُوَّةِ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُؤْمِنٌ .

\* \* \*

« فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْنِهَا » .

وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَخْلُقُ فِي الطَّبِيعَةِ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي تُبْهِجُ كُلَّ حَيٍّ ، بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَفْهَمُهَا كُلُّ حَيٍّ .

وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَجْعَلُ فِي الْأَرْضِ مَعْنَى السُّرُورِ ، وَفِي الْجَوِّ مَعْنَى السَّعَادَةِ .

وَأَنْظُرْ إِلَى الْحَشَرَةِ الصَّخِيرَةِ كَيْفَ تُؤْمِنُ بِالْحَيَاةِ الَّتِي تَمْلُؤُهَا وَتُطَمِّئُهَا ؟

أَنْظُرْ أَنْظُرْ ! أَلَيْسَ كُلُّ ذَلِكَ رَدًّا عَلَى الْيَأْسِ بِكَلِمَةٍ : لَا ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



## عَرْشُ الْوَرْدِ (\*)

كَانَتْ جَلْوَةُ الْعُرُوسِ كَأَنَّهَا تَصْنِفُ مِنْ حُلْمٍ ، تَوَافَتْ عَلَيْهِ أَخِيلَةُ السَّعَادَةِ فَأَبْدَعَتْ  
إِبْدَاعَهَا فِيهِ ، حَتَّى إِذَا اتَّسَقَ وَتَمَّ ، نَقَلَتْهُ السَّعَادَةُ إِلَى الْحَيَاةِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهَا الْفَرْدَةِ الَّتِي  
لَا يَتَّفِقُ مِنْهَا فِي الْعُمُرِ الطَّوِيلِ إِلَّا الْعَدَدُ الْقَلِيلُ ، لِتَحَقُّقِ لِلْحَيِّ وَجُودَ حَيَاتِهِ بِسِحْرِهَا  
وَجَمَالِهَا ، وَتُعْطِيهِ فِيمَا يُنْسَى مَا لَا يُنْسَى .

خَرَجَ الْحُلْمُ السَّعِيدُ مِنْ تَحْتِ النَّوْمِ إِلَى الْيَقَظَةِ ، وَبَرَزَ مِنَ الْخَيَالِ إِلَى الْعَيْنِ ، وَتَمَثَّلَ  
قَصِيدَةً بَارِعَةً جَعَلَتْ كُلَّ مَا فِي الْمَكَانِ يَخِيَا حَيَاةَ الشَّعْرِ ؛ فَلَا تُورِ نِسَاءً ، وَالنِّسَاءُ أَنْوَارُ ،  
وَالْأَرْهَارُ أَنْوَارُ وَنِسَاءً ، وَالْمُوسِيقَى بَيْنَ ذَلِكَ تَتَمُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ ، وَالْمَكَانُ وَمَا فِيهِ ،  
وَزُنْ فِي وَزْنٍ ، وَنَعْمُ فِي نَعْمٍ ، وَسِحْرُ فِي سِحْرِ .

\* \* \*

وَرَأَيْتُ كَأَنَّهَا سَحَرَتْ قِطْعَةً مِنْ سَمَاءِ اللَّيْلِ ، فِيهَا دَارَةُ الْقَمَرِ ، وَفِيهَا ثَرَّةٌ مِنَ الثُّجُومِ  
الزَّهْرِ ، فَتَزَلَّتْ فَحَلَّتْ فِي الدَّارِ ، يَتَوَضَّحْنَ وَيَأْتِلِفْنَ مِنَ الْجَمَالِ وَالشَّعَاعِ ، وَفِي حُسْنِ كُلِّ  
مِنْهُنَّ مَادَّةُ فَجْرِ طَالِعٍ ، فَكُنَّ نِسَاءَ الْجَلْوَةِ وَعُرُوسَهَا .

وَرَأَيْتُ كَأَنَّهَا سَحَرِ الرَّبِيعِ ، فَاجْتَمَعَ فِي عَرْشِ أَخْضَرٍ ، قَدْ رُصِعَ بِالْوَرْدِ الْأَحْمَرِ ،  
وَأَقِيمَ فِي صَدْرِ الْبَهْوِ لِيَكُونَ مِنْصَةً لِلْعُرُوسِ ، وَقَدْ تُسَقَّتِ الْأَرْهَارُ فِي سَمَائِهِ وَخَوَاشِيهِ عَلَى  
نَظْمَيْنِ : مِنْهُمَا مُفَصَّلٌ تَرَى فِيهِ بَيْنَ الزَّهْرَتَيْنِ مِنَ اللَّوْنِ الْوَاحِدِ زَهْرَةٌ تُخَالِفُ لَوْنَهُمَا ؛  
وَمِنْهُمَا مُكَدَّسٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، مِنْ لَوْنٍ مُتَشَابِهٍ أَوْ مُتَقَارِبٍ ، فَبَدَأَ كَأَنَّهُ عَشُّ طَائِرٍ  
{ مَلَكِي } مِنْ طُيُورِ الْجَنَّةِ أُبْدِعَ فِي نَسِجِهِ وَتَرْصِيعِهِ بِأَشْجَارِ سَقَى الْكُوثرِ أَغْصَانَهَا .

وَقَامَتْ فِي أَرْضِ الْعَرْشِ تَحْتَ أَقْدَامِ الْعُرُوسَيْنِ ، رَبُوتَانِ مِنَ أَفَانِينَ الزَّهْرِ الْمُخْتَلِفَةِ الْوَانَةِ ،  
يَحْمِلُهُمَا حَمَلٌ مِنْ نَاعِمِ النَّسِيجِ الْأَخْضَرِ عَلَى غُصُونِهِ اللَّذْنِ تَتَهَافَتُ مِنْ رِقَّتِهَا وَنَعُومَتِهَا .

(\*) « الرسالة » العدد : ٥٨ ، ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ١٣ أغسطس / آب سنة ١٩٣٤ م ،  
السنة الثانية ، الصفحات : ١٣٢٥ - ١٣٢٧ .

وَعَقْدَ فَوْقَ هَذَا الْعَرْشِ تَاجٌ كَبِيرٌ مِنَ الْوَرْدِ النَّادِرِ ، كَأَنَّهَا نَزَعَتْ عَنْ مَفْرَقِ مَلِكِ الزَّمَنِ  
الرَّبِيعِيِّ ؛ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ يَسْطَعُ فِي الثُّورِ بِجَمَالِهِ السَّاحِرِ ، سَطُوعًا يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَشْعَةً مِنَ  
الشَّمْسِ أَلَّتِي رَبَّتْ هَذَا الْوَرْدَ لَا تَزَالُ عَالِقَةً بِهِ ؛ وَتَرَاهُ يَزْدَهِي جَلَالًا ، كَأَنَّهَا أَذْرَكَ أَنَّهُ فِي  
مَوْضِعِهِ رَمَزٌ مَمْلُوكَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ جَدِيدَةٌ ، تَأْكُلَتْ مِنْ عُرُوسَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ . وَلَا حَ لِي مَرَارًا أَنَّ هَذَا  
التَّاجَ يَضْحَكُ وَيَسْتَحْيِي وَيَتَذَلَّلُ ، كَأَنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهُ وَخَذَهُ بَيْنَ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْحَسَنِ يُمَثِّلُ وَجْهَ  
الْوَرْدِ .

وَنُصَّ عَلَى الْعَرْشِ كُرْسِيَّانِ يَتَوَهَّجُ لَوْنُ الذَّهَبِ فَوْقَهُمَا ، وَيَكْسُوهُمَا طِرَازٌ أَخْضَرُ تَلْمَعُ  
نُصَارَتُهُ بَشْرًا ، حَتَّى لَتَحَسِبَ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا قَدْ نَالَتهُ مِنْ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْفَرِحَةِ لَمَسَةً مِنْ فَرَحِهَا  
الْحَيِّ .

وَتَذَلَّتْ عَلَى الْعَرْشِ فَلَانِدُ الْمَصَابِيحِ ، كَأَنَّهَا لَوْلُو تَخَلَّقَ فِي السَّمَاءِ لَا فِي الْبَحْرِ ،  
فَجَاءَ مِنَ الثُّورِ لَا مِنَ الدُّرِّ ؛ وَجَاءَ نُورًا مِنْ خَاصَّتِهِ أَنَّهُ مَتَى اسْتَضَاءَ فِي جَوْ الْعُرُوسِ أَضَاءَ  
الْجَوِّ وَالْقُلُوبِ جَمِيعًا .

وَأَتَى الْعُرُوسَانِ إِلَى عَرْشِ الْوَرْدِ ، فَجَلَسَا جَلْسَةً كَوَكَبَيْنِ حُدُودُهُمَا الثُّورُ وَالصَّفَاءُ ؛  
وَأَقْبَلَتِ الْعَذَارَى يَتَخَطَّرْنَ فِي الْحَرِيرِ الْأَبْيَضِ كَأَنَّهُ مِنْ نُورِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ وَقَفْنَ حَافَاتِ حَوْلِ  
الْعَرْشِ ، حَامِلَاتٍ فِي أَيْدِيهِنَّ طَاقَاتٍ مِنَ الزُّنْبَى ، تَرَاهَا عَطْرَةٌ بَيَضَاءُ نَاضِرَةٌ حَيَّةٌ ، كَأَنَّهَا  
عَذَارَى مَعَ عَذَارَى ، وَكَأَنَّهَا يَحْمِلْنَ فِي أَيْدِيهِنَّ مِنْ هَذَا الزُّنْبَى الْعُصَّ مَعَانِي قُلُوبِهِنَّ  
الطَّاهِرَةِ ؛ هَذِهِ الْقُلُوبِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ الْمَصَابِيحِ مَصَابِيحَ أُخْرَى فِيهَا نُورُهَا الضَّاحِكُ .

وَأَقْتَعَدَتْ دَرَجَ الْعَرْشِ تَحْتَ رَبُوتِي الزَّهْرِ وَدُونَ أَقْدَامِ الْعُرُوسَيْنِ - طِفْلَةً صَغِيرَةً  
كَالزَّهْرَةِ الْبَيَضَاءِ تَحْمِلُ طُفُولَتَهَا ، فَكَانَتْ مِنَ الْعَرْشِ كُلِّهِ كَأَلَمَاسَةِ الْمُدَلَّاةِ مِنْ وَاسِطَةِ  
الْعِقْدِ ، وَجَعَلَتْ بِوَجْهِهَا لِلزَّهْرِ كُلِّهِ تَمَامًا وَجَمَالًا ، حَتَّى لَيُظْهَرُ مِنْ دُونِهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانٌ مُنْزَوٍ  
لَا يُرِيدُ أَنْ يُرَى .

وَكَانَ يَنْبَغُ مِنْ عَيْنَيْهَا فِيمَا حَوْلَهَا تَيَّارٌ مِنْ أَحْلَامِ الطُّفُولَةِ جَعَلَ الْمَكَانَ بِمَنْ فِيهِ كَأَنَّ لَهُ  
رُوحَ طِفْلٍ بَغْتَتُهُ مَسْرَّةٌ جَدِيدَةٌ .

وَكَانَتْ جَالِسَةً جِلْسَةً شِعْرٍ تُمَثِّلُ الْحَيَاةَ الْهَيِّنَةَ الْمُتَبَكِّرَةَ لِسَاعَتِهَا لَيْسَ لَهَا مَاضٍ فِي دُنْيَانَا .

وَلَوْ أَنَّ مُبْدِعًا أَفَنَّ فِي صُنْعِ نَمَائِلِ اللَّيْلِ الطَّاهِرَةِ ، وَجِيءَ بِهِ فِي مَكَانِهَا ، وَأُخِذَتْ هِيَ فِي مَكَانِهِ لَنَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ .

وَكَانَ وَجُودُهَا عَلَى الْعَرْشِ دَعْوَةً لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ تَخْضُرَ الزَّفَافَ وَتُبَارِكَهُ .

وَكَانَتْ بِصِغَرِهَا الظَّرْفِ الْجَمِيلِ تُعْطِي لِكُلِّ شَيْءٍ تَمَامًا ، فَيَرَى أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ ، وَأَكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ . كَانَتْ النُّقْطَةُ الَّتِي اسْتَعْلَنْتْ فِي مَرْكَزِ الدَّائِرَةِ ، ظُهُورُهَا عَلَى صِغَرِهَا هُوَ ظُهُورُ الْإِحْكَامِ وَالْوُزْنِ وَالْإِنْسِجَامِ فِي الْمُحِيطِ كُلِّهِ .

\* \* \*

لَا يَكُونُ الشُّرُورُ دَائِمًا إِلَّا جَدِيدًا عَلَى النَّفْسِ ، وَلَا سُورُورٌ لِلنَّفْسِ إِلَّا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهَا ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ دِينَارٍ قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ غَيْرُ الَّتِي فِي مِثْلِهِ لَمَا سَرَّ بِالْمَالِ أَحَدٌ ، وَلَا كَانَ لَهُ الْخَطَرُ الَّذِي هُوَ لَهُ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِكُلِّ طَعَامٍ جُوعٌ يُورِدُهُ جَدِيدًا عَلَى الْمَعِدَةِ لَمَا هَنَأَ وَلَا مَرَأَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللَّيْلُ بَعْدَ نَهَارٍ ، وَالنَّهَارُ بَعْدَ لَيْلٍ ، وَالْفُصُولُ كُلُّهَا تَقْبِضًا عَلَى تَفْظِيهِ ، وَشَيْئًا مُخْتَلِفًا عَلَى شَيْءٍ مُخْتَلِفٍ - لَمَا كَانَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ جَمَالٌ ، وَلَا مَنْظَرٌ جَمَالٍ ، وَلَا إِحْسَاسٌ بِهِمَا ؛ وَالطَّبِيعَةُ الَّتِي لَا تَفْلَحُ فِي جَعْلِكَ مَعَهَا طِفْلًا تَكُونُ جَدِيدًا عَلَى نَفْسِكَ - لَنْ تَفْلَحُ فِي جَعْلِكَ مَسْرُورًا بِهَا ، لَتَكُونُ هِيَ جَدِيدَةً عَلَيْكَ .

وَعَرْشُ الْوُزْدِ كَانَ جَدِيدًا عِنْدَ نَفْسِي عَلَى نَفْسِي ، وَفِي عَاطِفَتِي عَلَى عَاطِفَتِي ، وَمِنْ أَيَّامِي عَلَى أَيَّامِي ؛ نَزَلَ صَبَاحُ يَوْمِهِ فِي قَلْبِي بِرُوحِ الشَّنْسِ ، وَجَاءَ مَسَاءُ لَيْلَتِهِ لِقَلْبِي بِرُوحِ الْقَمَرِ ؛ وَكُنْتُ عِنْدَهُ كَالسَّمَاءِ أَتْلَأُ بِأَفْكَارِي<sup>(١)</sup> كَمَا تَتْلَأُ بِجُحُومِهَا ؛ وَقَدْ جَعَلْتَنِي<sup>(٢)</sup> أَمْتَدُّ بِسُرُورِي فِي هَذِهِ الطَّبِيعَةِ كُلِّهَا ، إِذْ قَدَرْتُ عَلَى أَنْ أَعِيشَ يَوْمًا فِي نَفْسِي ؛ وَرَأَيْتُ وَأَنَا فِي

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِأَفْكَارٍ » بَدَلًا مِنْ : « بِأَفْكَارِي » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « جَعَلَنِي » بَدَلًا مِنْ : « جَعَلْتَنِي » .

نَفْسِي أَنَّ الْفَرْحَ هُوَ سِرُّ الطَّبِيعَةِ كُلِّهَا ، وَأَنَّ كُلَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ جَمَالَ فِي جَمَالٍ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا يَجِيءُ الظَّلَامُ مَعَ نُورِهِ ، وَلَا يَجِيءُ الشَّرُّ مَعَ أَفْرَاحِ الطَّبِيعَةِ إِلَّا مِنْ مُحَاوَلَةِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ خَلْقَ أَوْهَامِهِ فِي الْحَيَاةِ ، وَإِخْرَاجِهِ النَّفْسَ مِنْ طَبَائِعِهَا ، حَتَّى أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ كَأَنَّمَا يَعِيشُ بِنَفْسٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَصْنَعَهَا صِنَاعَةً ، فَلَا يَصْنَعُ إِلَّا أَنْ يَزِنَعَ بِالنَّفْسِ الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ .

يَا عَجَبًا ! يَنْفِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ كَلِمَاتِ الْإِسْتِعْبَادِ ، وَالضَّعَةِ ، وَالذَّلَّةِ ، وَالْبُؤْسِ ، وَالْهَمِّ ، وَأَمْنَالِهَا ، وَيُنْكِرُهَا وَيَرُدُّهَا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَتَحَتَّ لِنَفْسِهِ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا عَنْ مَعَانِيهَا .

\* \* \*

إِنَّ يَوْمًا كَيَوْمِ عَرْشِ الْوُزْدِ لَا يَكُونُ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً ، بَلْ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ فَرْحًا ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي تَجْعَلُ الْوَقْتَ يَتَقَدَّمُ فِي الْقَلْبِ لَا فِي الزَّمَنِ ، وَيَكُونُ بِالْعَوَاطِفِ لَا بِالسَّاعَاتِ ، وَيَتَوَاتَرُ عَلَى النَّفْسِ بِجَدِيدِهَا لَا بِقَدِيمِهَا .

كَانَ الشَّبَابُ فِي مَوْكِبِ نَصْرِهِ ، وَكَانَتْ الْحَيَاةُ فِي سَاعَةٍ صُلِحَ مَعَ الْقُلُوبِ ، حَتَّى اللَّغَةُ نَفْسُهَا لَمْ تَكُنْ ثَلَاثِي كَلِمَاتِهَا إِلَّا مُمْتَلِئَةً بِالطَّرَبِ وَالضَّحِكِ وَالسَّعَادَةِ ، آتِيَةً مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي دُونَ غَيْرِهَا ، مُصَوَّرَةً عَلَى الْوُجُوهِ إِحْسَاسَهَا وَتَوَازُعِهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ سِحْرُ عَرْشِ الْوُزْدِ ، تِلْكَ الْحَدِيقَةُ السَّاحِرَةُ الْمَسْحُورَةُ ، الَّتِي كَانَتْ النَّسَمَاتُ تَأْتِي مِنَ الْجَوِّ تُرْفَرِفُ حَوْلَهَا مُتَحَيِّرَةً كَأَنَّمَا تَسْأَلُ : أَهَلْ هَذِهِ حَدِيقَةُ خُلِفَتِ بَطِيُورِ إِنْسَانِيَّةٍ ؛ أَمْ هِيَ شَجَرَةٌ وَزِدَ هَبَطَتْ مِنَ الْجَنَّةِ بِمَنْ يَتَفَيَّانَ ظِلَّهَا وَيَتَسَمَّنُ شَذَاها مِنَ الْحُورِ ؛ أَمْ ذَاكَ مَنَبَعٌ وَزِدِي عَطِرِي نُورَانِي لِحَيَاةِ هَذِهِ الْمَلِكَةِ الْجَالِسَةِ عَلَى الْعَرْشِ ؟

يَا نَسَمَاتِ اللَّيْلِ الْأَصَافَةِ صَفَاءَ الْخَيْرِ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ تَتَّبِعَ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْمُفِيلَةَ فِي جَمَالِهَا وَأَثَرِهَا وَبَرَكَتِهَا مِنْ مِثْلِ الْوُزْدِ الْمُبْهِجِ ، وَالْعَطْرِ الْمُنْعِشِ ، وَالضُّوءِ الْمُخْبِي ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعُرُوسَ الْمُعْتَلِيَةَ عَرْشِ الْوُزْدِ :

هِيَ أُنْتِي ...

أَيُّهَا الْبَحْرُ ! (\*) (١)

إِذَا اخْتَدَمَ الصَّبِيْفُ ، جَعَلْتَ أَنْتَ أَيُّهَا الْبَحْرُ لِلزَّمَنِ فَضْلاً جَدِيداً يُسَمَّى « الرِّبِيْعُ الْمَائِيّ » .

وَتَتَقَلُّ إِلَى أَيَّامِكَ أَرْوَاحُ الْحَدَائِقِ ، فَتَنْبُثُ فِي الزَّمَنِ بَعْضَ السَّاعَاتِ الشَّهِيَّةِ ، كَأَنَّهَا الشَّمَرُ الْخُلُو اللَّاصِجُ عَلَى شَجَرِهِ .

وَيُوجِي لَوْنُكَ الْأَزْرَقُ إِلَى الثَّقُوسِ مَا كَانَ يُوجِيهِ لَوْنُ الرِّبِيْعِ الْأَخْضَرِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَرَقُّ وَأَلْطَفُ .

وَيَرَى الشُّعْرَاءُ فِي سَاحِلِكَ مِثْلَ مَا يَرَوْنَ فِي أَرْضِ الرِّبِيْعِ ، أَثَوَّةَ ظَاهِرَةٍ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَلِدُ الْمَعَانِي لَا اللَّبَاتِ .

وَيُحِسُّ الْعُشَّاقُ عِنْدَكَ مَا يُحِسُّونَهُ فِي الرِّبِيْعِ : أَنَّ الْهَوَاءَ يَتَأَوَّهُ ...

\* \* \*

فِي الرِّبِيْعِ ، يَتَحَرَّكُ فِي الدَّمِ الْبَشَرِيِّ سِرُّ هَذِهِ الْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ « الرِّبِيْعِ الْمَائِيّ » يَتَحَرَّكُ فِي الدَّمِ سِرُّ هَذِهِ السُّحُبِ .

نَوَعَانِ مِنَ الْخَمْرِ فِي هَوَاءِ الرِّبِيْعِ وَهَوَاءِ الْبَحْرِ ، يَكُونُ مِنْهُمَا سُكْرٌ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَبِ .

وَبِالرِّبِيْعَيْنِ الْأَخْضَرِ وَالْأَزْرَقِ يَنْفَتِحُ بَابَانِ لِلْعَالَمِ السَّخَرِيِّ الْعَجِيبِ : عَالَمِ الْجَمَالِ الْأَرْضِيِّ الَّذِي تَدْخُلُهُ الرُّوحُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَمَا يَدْخُلُ الْقَلْبُ الْمُحِبُّ فِي شِعَاعِ ابْتِسَامَةٍ وَمَعْنَاهَا .

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ١١١ ، ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩ أغسطس / آب ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

(١) كَتَبْنَا فِي « أَرْوَاقِ الْوَرْدِ » رِسَالَةً عَنِ الْبَحْرِ وَالْحُبِّ فِيهَا أَوْصَافٌ كَثِيرَةٌ لِلْبَحْرِ .

فِي « الرِّبِيْعِ الْمَائِيّ » ، يَجْلِسُ الْمَرْءُ ، وَكَأَنَّهُ جَالِسٌ فِي سَحَابَةٍ لَا فِي الْأَرْضِ . وَيَشْعُرُ كَأَنَّهُ لَا يَسُ ثِيَابًا مِنَ الظَّلِّ لَا مِنَ الْقَمَاشِ ؛ وَيَجِدُ الْهَوَاءَ قَدْ تَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ هَوَاءَ الثَّرَابِ .

وَتَحِفُّ عَلَى نَفْسِهِ الْأَشْيَاءُ ، كَأَنَّ بَعْضَ الْمَعَانِي الْأَرْضِيَّةِ انْتَرَعَتْ مِنَ الْمَادَّةِ . وَهُنَا يُذَكِّرُ الْحَقِيقَةَ : أَنَّ الشُّرُورَ إِنْ هُوَ إِلَّا تَنْبُثُ مَعَانِي الطَّبِيعَةِ فِي الْقَلْبِ .

\* \* \*

وَلِلشَّمْسِ هُنَا مَعْنَى جَدِيدٌ لَيْسَ لَهَا هُنَاكَ فِي « دُنْيَا الرِّزْقِ » .

تُشْرِقُ الشَّمْسُ هُنَا عَلَى الْجِسْمِ ؛ أَمَّا هُنَاكَ فَكَأَنَّمَا تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ عَلَى الْأَعْمَالِ الَّتِي يَعْمَلُ الْجِسْمُ فِيهَا .

تَطْلُعُ هُنَاكَ عَلَى دِيْوَانِ الْمُوْطَفِ لَا الْمُوْطَفِ ، وَعَلَى حَانُوتِ التَّاجِرِ لَا التَّاجِرِ ، وَعَلَى مَصْنَعِ الْعَامِلِ ، وَمَدْرَسَةِ التَّلْمِيذِ ، وَدَارِ الْمَرْأَةِ .

تَطْلُعُ الشَّمْسُ هُنَاكَ بِالثُّورِ ، وَلَكِنْ النَّاسَ - وَآسَفَاهُ - يَكُونُونَ فِي سَاعَاتِهِمُ الْمُظْلِمَةِ ...

الشَّمْسُ هُنَا جَدِيدَةٌ ، تُنْبِثُ أَنَّ الْجَدِيدَ فِي الطَّبِيعَةِ هُوَ الْجَدِيدُ فِي كَيْفِيَّةِ شُعُورِ النَّفْسِ بِهِ .

\* \* \*

وَالْقَمَرُ زَاهٍ رَقَافٌ مِنَ الْحُسْنِ ؛ كَأَنَّهُ اغْتَسَلَ وَخَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ .

أَوْ كَأَنَّهُ لَيْسَ قَمَرًا ، بَلْ هُوَ فَجْرٌ طَلَعَ فِي أَوَائِلِ اللَّيْلِ ؛ فَحَصَرَتْهُ السَّمَاءُ فِي مَكَانِهِ لَيْسَتَمِرَّ اللَّيْلُ .

فَجَرٌّ لَا يُوقِظُ الْعُيُونَ مِنَ أَحْلَامِهَا ، وَلَكِنَّهُ يُوقِظُ الْأَرْوَاحَ لِأَحْلَامِهَا .

وَيُلْقِي مِنْ سِخْرِهِ عَلَى الثُّجُومِ فَلَا تَظْهَرُ حَوْلَهُ إِلَّا مُسْتَبْهِمَةٌ كَأَنَّهَا أَحْلَامٌ مُعَلَّقَةٌ .

لِلْقَمَرِ هُنَا طَرِيقَةٌ فِي إِنْهَاجِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ ، كَطَرِيقَةِ الْوَجْهِ الْمَعْشُوقِ حِينَ تُقْبَلُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

\* \* \*

وَاللَّيْنِ الْمَائِيَّ طُبُورُهُ الْمَعْرُودَةُ وَفَرَاشُهُ الْمُسْتَقَلُّ :

أَمَّا الطُّيُورُ فَنِسَاءٌ يَتَصَاحَكْنَ ، وَأَمَّا الْفَرَاشُ فَأَطْفَالٌ يَتَوَاتَبُونَ .

نِسَاءٌ إِذَا انْغَمَسْنَ فِي الْبَحْرِ ، خُبِلَ إِلَيَّ أَنَّ الْأَمْوَاجَ تَتَسَاحَنُ وَتَتَخَاصِمُ عَلَى بَعْضِهِنَّ ...

رَأَيْتُ مِنْهُنَّ زَهْرَاءَ فَاتِنَةً قَدْ جَلَسَتْ عَلَى الرَّمْلِ جِلْسَةً حَوَاءَ قَبْلَ اخْتِرَاعِ الثِّيَابِ ، فَقَالَ الْبَحْرُ : يَا إِلَهِي ! قَدْ انْتَقَلَ مَعْنَى الْغَرَقِ إِلَى الشَّاطِئِ ...  
إِنَّ الْغَرِيقَ مَنْ غَرِقَ فِي مَوْجَةِ الرَّمْلِ هَلِذِهِ ...

\* \* \*

وَالْأَطْفَالُ يَلْعَبُونَ وَيَضْرُخُونَ وَيَضْحَكُونَ كَأَنَّمَا اتَّسَعَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ وَالْدُّنْيَا ...

وَحُبِلَ إِلَيَّ أَنَّهُمْ أَفْلَقُوا الْبَحْرَ كَمَا يُفْلِقُونَ الْدَّارَ ، فَصَاحَ بِهِمْ : وَيَحْكُمُ يَا أَسْمَاكَ التَّرَابُ ... ! وَرَأَيْتُ طِفْلاً مِنْهُمْ قَدْ جَاءَ فَوَكَزَ الْبَحْرَ بِرِجْلِهِ ! فَضَحِكَ الْبَحْرُ وَقَالَ :  
انْظُرُوا يَا بَنِي آدَمَ !!

أَعَلَى اللَّهِ أَنْ يَغْبَأَ بِالْمَغْرُورِ مِنْكُمْ إِذَا كَفَرَ بِهِ ؟ أَعَلَيْ أَنْ أَعْبَأَ بِهِذَا الطِّفْلِ كَيْ لَا يَقُولَ إِنَّهُ رَكَلْنِي بِرِجْلِهِ ... ؟

\* \* \*

أَيُّهَا الْبَحْرُ ! قَدْ مَلَائَكَ قُوَّةُ اللَّهِ لِثَبَتِ قَوَاعِ الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ .

لَيْسَ فَيْكَ مَمَالِكُ وَلَا حُدُودُ ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ .

وَتَجِيئُ بِالنَّاسِ وَالسُّفُنِ الْعَظِيمَةِ ، كَأَنَّكَ تَحْمِلُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ قَسًا تَزِي بِه .

وَالْاخْتِرَاعُ الْإِنْسَانِيُّ مَهْمَا عَظُمَ لَا يُغْنِي الْإِنْسَانَ فَيْكَ عَنْ إِيمَانِهِ .

وَأَنْتَ تَمْلَأُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ بِالْعَظَمَةِ وَالْهَوْلِ ، رَدًّا عَلَى عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ وَهَوْلِهِ فِي

الرُّبْعِ الْبَاقِي ؛ مَا أَعْظَمَ الْإِنْسَانَ وَأَصْغَرَهُ !

\* \* \*

يَنْزِلُ النَّاسُ فِي مَائِكَ فَيَسَاوُونَ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ ظَاهِرٌ عَنْ ظَاهِرٍ .

وَيَزَكُّونَ ظَهْرَكَ فِي السُّفُنِ فَيَحِبُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ بَاطِنٌ عَنْ بَاطِنٍ .

تُشْعِرُهُمْ جَمِيعًا أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَمِنْ أَحْكَامِهَا الْبَاطِلَةِ .

وَتُقْفِرُهُمْ إِلَى الْحُبِّ وَالصَّدَاقَةِ فَقَرَأَ يُرِيهِمُ النُّجُومَ نَفْسَهَا كَأَنَّهَا أَصْدِقَاءُ ، إِذْ عَرَفُوهَا فِي الْأَرْضِ .

يَا سِحْرَ الْخَوْفِ ، أَنْتَ أَنْتَ فِي اللَّجْجَةِ <sup>(١)</sup> كَمَا أَنْتَ أَنْتَ فِي جَهَنَّمَ .

\* \* \*

وَإِذَا رَكِبَكَ الْمُلْحِدُ أَيُّهَا الْبَحْرُ ، فَرَجَعْتَ مِنْ تَخَتِهِ ، وَهَدَرْتَ عَلَيْهِ وَثُرْتَ بِهِ ، وَأَرَيْتَهُ رَأْيَ الْعَيْنِ كَأَنَّهُ بَيْنَ سَمَاءَيْنِ سَتَّابِقٍ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَتُفْلَانِ عَلَيْهِ - تَرَكَتُهُ يَتَطَاطَأُ وَيَتَوَاضِعُ ، كَأَنَّكَ تَهْزُهُ وَتَهْزُ أَفْكَارُهُ مَعًا ، وَتُدْخِرْجُهُ وَتُدْخِرْجُهَا .

وَأُطَرْتُ كُلَّ مَا فِي عَقْلِهِ فَيَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ يَعْقِلُ طِفْلٍ .

وَكَشَفْتَ لَهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ : أَنَّ نِسْيَانَ اللَّهِ لَيْسَ عَمَلُ الْعَقْلِ ، وَلَكِنَّهُ عَمَلُ الْعَفْلَةِ وَالْأَمْنِ وَطُولِ السَّلَامَةِ .

\* \* \*

أَلَا مَا أَشْبَهَ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ بِالسَّفِينَةِ فِي أَمْوَاجِ هَذَا الْبَحْرِ !

إِنْ ارْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ ، أَوْ انْخَفَضَتْ ، أَوْ مَادَتْ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْهَا وَخَدَمًا ، بَلْ مِنْ حَوْلِهَا .

وَلَنْ تَسْتَطِيعَ هَذِهِ السَّفِينَةُ أَنْ تَمْلِكَ مِنْ قَانُونِ مَا حَوْلَهَا شَيْئًا ، وَلَكِنْ قَانُونُهَا هِيَ الثَّبَاتُ ، وَالتَّوَارُثُ ، وَالْإِهْدَاءُ إِلَى قَصْدِهَا ، وَنَجَاتُهَا فِي قَانُونِهَا .

فَلَا يَغْتَنِي الْإِنْسَانُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَحْكَامِهَا ، وَلَكِنْ فَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَحْكُمَ نَفْسَهُ .

كُتِبَ فِي شَاطِئِ سَيِّدِي بَشَرٍ ، إِسْكَندَرِيَّةَ مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ « الْبَحْرُ » بَدَلًا مِنْ : « اللَّجْجَةُ » .

### فِي الرَّبِيعِ الْأَزْرَقِ<sup>(١)</sup> خَوَاطِرُ مُرْسَلَةٍ\*

مَا أَجْمَلَ الْأَرْضَ عَلَى حَاشِيَةِ الْأَزْرَقَيْنِ : الْبَحْرِ وَالسَّمَاءِ ؛ يَكَادُ الْجَالِسُ هُنَا يَظُنُّ  
نَفْسَهُ مَرْسُومًا فِي صُورَةِ إِلَهِيَّةٍ .

\* \* \*

نَظَرْتُ إِلَى هَذَا الْبَحْرِ الْعَظِيمِ بِعَيْنِي طِفْلٍ يَتَخَيَّلُ أَنَّ الْبَحْرَ قَدْ مَلَأَ بِالْأَمْسِ ، وَأَنَّ  
السَّمَاءَ كَانَتْ إِنَاءً لَهُ ، فَأَنْكَفَأَ الْإِنَاءُ فَأَنْدَفَقَ الْبَحْرُ ، وَتَسَرَّخَتْ مَعَ هَذَا الْخَيَالِ الطِّفْلِيِّ  
الصَّغِيرِ فَكَأَنَّمَا نَالَتْنِي رَشَاشٌ مِنَ الْإِنَاءِ ...

إِنَّمَا لَنْ نُذَرِكَ رَوْعَةَ الْجَمَالِ فِي الطَّبِيعَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ قَرِينَةً مِنْ طُفُولَتِهَا ، وَمَرَحَ  
الطُّفُولَةِ ، وَلَعِبِهَا ، وَهَذْيَانِهَا .

\* \* \*

تَبْدُو لَكَ السَّمَاءُ عَلَى الْبَحْرِ أَغْظَمَ مِمَّا هِيَ ، كَمَا لَوْ كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ سَمَاءٍ أُخْرَى  
لَا مِنَ الْأَرْضِ .

\* \* \*

إِذَا أَنَا سَافَرْتُ فَجِئْتُ إِلَى الْبَحْرِ ، أَوْ نَزَلْتُ بِالصَّخَرَاءِ ، أَوْ حَلَلْتُ بِالْجَبَلِ ، شَعَزْتُ  
أَوَّلَ وَهْلَةٍ مِنْ دَهْشَةِ السُّرُورِ بِمَا كُنْتُ أَشْعُرُ بِمِثْلِهِ لَوْ أَنَّ الْجَبَلَ أَوْ الصَّخَرَاءَ أَوْ الْبَحْرَ قَدْ  
سَافَرَتْ هِيَ وَجَاءَتْ إِلَيَّ .

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ١١٣ ، جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ سبتمبر / أيلول ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ١٤٠٣ - ١٤٠٤ .

(١) هَذِهِ تَسْمِيَةٌ جَدِيدَةٌ لِلْمَصْنُوعِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، { وَقَدْ شَاعَ اسْتِعْمَالُهَا بَعْدَ نَشْرِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ } .

فِي جَمَالِ النَّفْسِ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلًا ، إِذْ تُلْقِي النَّفْسُ عَلَيْهِ مِنَ أَلْوَانِهَا ، فَتَقْلِبُ  
الِدَّارَ الصَّغِيرَةَ قَصْرًا لِأَنَّهَا فِي سَعَةِ النَّفْسِ لَا فِي مِسَاحَتِهَا { هِيَ } ، وَتَعْرِفُ لِنُورِ النَّهَارِ  
عُدُوبَةَ كَعْدُوبَةِ الْمَاءِ عَلَى الظُّلَمِ ، وَيُظْهِرُ اللَّيْلُ كَأَنَّهُ مَغْرَضُ جَوَاهِرِ أَقْنِيمٍ لِلخُورِ الْعَيْنِ فِي  
السَّمَاوَاتِ ، وَيَبْدُو الْفَجْرُ بِالْوَانِهِ وَأَنْوَارِهِ وَنَسَمَاتِهِ كَأَنَّهُ جَنَّةٌ سَابِغَةٌ فِي الْهَوَاءِ .

فِي جَمَالِ النَّفْسِ تَرَى الْجَمَالَ ضُرُورَةً مِنْ ضُرُورَاتِ الْخَلِيقَةِ ؛ وَبِئْسَ ! كَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ  
الْعَالَمَ أَلَّا يَغِيبَ لِلْقَلْبِ الْمُتَبَسِّمِ .

\* \* \*

أَيَّامُ الْمَصِيفِ هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي يَنْطَلِقُ فِيهَا الْإِنْسَانُ الطَّبِيعِيُّ الْمَخْبُوسُ فِي الْإِنْسَانِ ؛  
فَيَزِيدُ إِلَى ذَهْرِهِ الْأَوَّلِ ، ذَهْرُ الْعَابَاتِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ .  
إِنْ لَمْ تَكُنْ أَيَّامُ الْمَصِيفِ بِمِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى ، لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَعْنَى .

\* \* \*

لَيْسَتْ اللَّذَّةُ فِي الرَّاحَةِ وَلَا الْفَرَاغِ ، وَلَكِنَّهَا فِي التَّعَبِ وَالْكَدْحِ وَالْمَشَقَّةِ حِينَ تَتَحَوَّلُ  
أَيَّامًا إِلَى رَاحَةٍ وَفَرَاغٍ .

\* \* \*

لَا تَنِمُ فَائِدَةُ الْإِنْتِقَالِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا إِذَا انْتَقَلَتِ النَّفْسُ مِنْ شُعُورٍ إِلَى شُعُورٍ ؛ فَإِذَا  
سَافَرَ مَعَكَ أَلْهَمٌ فَأَنْتَ مُقِيمٌ لَمْ تَبْرَحْ .

\* \* \*

الْحَيَاةُ فِي الْمَصِيفِ تُثَبِّتُ لِلْإِنْسَانِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ حَيْثُ لَا يُخْفَلُ بِهَا كَثِيرٌ .

\* \* \*

يَشْعُرُ الْمَرْءُ فِي الْمُدُنِ أَنَّهُ بَيْنَ أَنْارِ الْإِنْسَانِ وَأَعْمَالِهِ ، فَهُوَ هُنَاكَ فِي رُوحِ الْعَنَاءِ وَالْكَدْحِ  
وَالْتَّرَاعِ ؛ أَمَّا فِي الطَّبِيعَةِ فَيَحْسُ أَنَّهُ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالْعَجَائِبِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَهُوَ هُنَا فِي رُوحِ  
اللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَالْجَلَالِ .

\* \* \*

إِذَا كُنْتُ فِي أَيَّامِ الطَّبِيعَةِ فَاجْعَلْ فِكْرَكَ خَالِيًا وَفَرَّغُهُ لِلتَّبَتِّ وَالشَّجَرِ ، وَالْحَجَرِ  
وَالْمَدَرِ ، وَالطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَالزَّهْرِ وَالْعُشْبِ ، وَالْمَاءِ وَالسَّمَاءِ ، وَتَوَرِّ الْكَهَارِ ، وَظَلَامِ  
الَلَّيْلِ ، حِينَئِذٍ يَفْتَحُ لَكَ الْعَالَمُ بَابَهُ وَيَقُولُ : أَدْخُلْ ...

\* \* \*

لُفْتُ الْجَمَالَ صُورَةً أُخْرَى مِنْ عَظَمَةِ الْجَمَالِ ؛ عَرَفْتُ ذَلِكَ حِينَمَا أَبْصَرْتُ قَطْرَةً مِنْ  
لَمَاءٍ تَلْمَعُ فِي غُصْنٍ ، فَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ لَهَا عَظَمَةَ الْبَحْرِ لَوْ صَغُرَ فَعُلِقَ عَلَى وَرَقَةٍ .

\* \* \*

فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ الْجَسَدِ الرُّوحَانِيَّةِ حِينَ يَفُورُ شِعْرُ الْجَمَالِ فِي الدَّمِ ، أَطْلُتُ  
لِنَظَرِي إِلَى وَرْدَةٍ فِي غُصْنِهَا زَاهِيَةٍ ، عَطِرَةٍ ، مُتَأَنِّقَةٍ ، مُتَأَنِّقَةٍ ؛ فَكِدْتُ أَقُولُ لَهَا : أَنْتِ أَتَيْتَها  
لَمَرَّةً ، أَنْتِ يَا فُلَانَةَ ...

\* \* \*

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى فِي الْأَرْضِ بَعْضَ الْأَمَكِنَةِ كَأَنَّهَا أَمَكِنَةٌ لِلرُّوحِ خَاصَّةً ؛  
فَهَلْ يَدُلُّ هَذَا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنَّ خَيَالَ الْجَنَّةِ مُنْذُ آدَمَ وَحَوَاءَ ، لَا يَزَالُ يَعْمَلُ فِي النَّفْسِ  
الْإِنْسَانِيَّةِ ؟

\* \* \*

الْحَيَاةُ فِي الْمَدِينَةِ كَشْرَبِ الْمَاءِ فِي كُوبٍ مِنَ الْخَرْفِ ؛ وَالْحَيَاةُ فِي الطَّبِيعَةِ كَشْرَبِ  
الْمَاءِ فِي كُوبٍ مِنَ الْبُلُورِ السَّاطِعِ ؛ ذَاكَ يَخْتَوِي الْمَاءَ وَهَذَا يَخْتَوِيهِ وَيُبْدِي جَمَالَهِ لِلْعَيْنِ .

\* \* \*

وَأَسْفَاهُ ، هَلْذِي هِيَ الْحَقِيقَةُ : إِنَّ دِفَّةَ أَلْفِهِمِ لِلْحَيَاةِ تُفْسِدُهَا عَلَى صَاحِبِهَا كَدِفَةَ أَلْفِهِمِ  
لِلْحُبِّ ، وَإِنَّ الْعَقْلَ الصَّغِيرَ فِي فَهْمِهِ لِلْحُبِّ وَالْحَيَاةِ ، هُوَ الْعَقْلُ الْكَامِلُ فِي التِّدَادِهِ بِهِمَا .  
وَأَسْفَاهُ ، هَلْذِي هِيَ الْحَقِيقَةُ !

\* \* \*

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي يَجْعَلُهَا الْمَصْنِفُ أَيَّامَ سُرُورٍ وَنَسِيَانٍ ، يَشْعُرُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّهُ  
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِلدُّنْيَا كَلِمَةً هَزَلٍ وَدُعَابَةٍ ...

\* \* \*

مَنْ لَمْ يَزِرْ قِيَامَ الْفِكْرِ الْعَاشِقَ لَمْ يَرِ أَشْيَاءَ الطَّبِيعَةِ إِلَّا فِي أَسْمَائِهَا وَشَبَابِهَا ، دُونَ حَقَائِقِهَا  
وَمَعَانِيهَا ، كَالرَّجُلِ إِذَا لَمْ يَعِشْ رَأَى النِّسَاءَ كُلَّهِنَّ سَوَاءً ، فَإِذَا عَشِقَ رَأَى فِيهِنَّ نِسَاءً غَيْرَ  
مَنْ عَرَفَ ، وَأَصْبَحَ عِنْدَهُ أَدَلَّةٌ عَلَى صِفَاتِ الْجَمَالِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ .

\* \* \*

تَقُومُ دُنْيَا الرِّزْقِ بِمَا تَخْتَاجُهُ الْحَيَاةُ ، أَمَا دُنْيَا الْمَصْنِفِ فَقَائِمَةٌ بِمَا تَلْذُّهُ الْحَيَاةُ ، وَهَذَا  
هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ الطَّبِيعَةَ وَيَجْعَلُ الْجَوْ نَفْسَهُ هُنَاكَ جَوْ مَائِدَةٍ طُرْفَاءَ وَطَرَفِيغَاتٍ ...

\* \* \*

تَعْمَلُ أَيَّامُ الْمَصْنِفِ بَعْدَ انْقِصَائِهَا عَمَلًا كَبِيرًا ، هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ الشَّعْرِ فِي حَقَائِقِ  
الْحَيَاةِ .

\* \* \*

هَذِهِ السَّمَاءُ فَوْقَنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْعَجِيبَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَزْحَلُونَ إِلَى  
الْمَصَائِفِ لِيَرَوْا أَشْيَاءَ مِنْهَا السَّمَاءِ ...

\* \* \*

إِذَا اسْتَقْبَلْتَ الْعَالَمَ بِالنَّفْسِ الْوَاسِعَةِ رَأَيْتَ حَقَائِقَ السُّرُورِ تَزِيدُ وَتَنْسَعُ ، وَحَقَائِقَ  
الْهُمُومِ تَصْغُرُ وَتَضَيِّقُ ، وَأَذْرَكَتُ أَنَّ دُنْيَاكَ إِنْ ضَاقَتْ فَانْتَ الضَّيِّقُ لَا هِيَ .

\* \* \*

فِي السَّاعَةِ الثَّاسِعَةِ أَذْهَبُ إِلَى عَمَلِي ، وَفِي الْعَاشِرَةِ أَعْمَلُ كَيْتَ ، وَفِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ  
أَعْمَلُ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ وَهُنَا فِي الْمَصْنِفِ تَفْقِدُ الثَّاسِعَةَ وَأَخَوَاتُهَا مَعَانِيهَا الزَّمِينَةَ الَّتِي كَانَتْ  
تَضَعُهَا الْأَيَّامُ فِيهَا ، وَتَسْتَبْدِلُ مِنْهَا الْمَعَانِي الَّتِي تَضَعُهَا فِيهَا النَّفْسُ الْخُرَّةُ .

هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تُصَنَعُ بِهَا السَّعَادَةُ أَحْيَانًا ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا كَصِغَارِ الْأَطْفَالِ .

\* \* \*

إِذَا تَلَا قِيَّ النَّاسُ فِي مَكَانٍ عَلَى حَالَةٍ مُتَشَابِهَةٍ مِنَ السُّرُورِ وَتَوَهُيمِهِ وَالْفِكْرَةِ فِيهِ ، وَكَانَ هَذَا الْمَكَانُ مُعَدًّا بِطَبِيعَتِهِ الْجَمِيلَةِ لِلنِّسْيَانِ الْحَيَاةِ وَمَكَارِهَا - فَبِئْسَ هِيَ الرَّوَايَةُ وَمُمْتَلُوها وَمَسْرُوحُهَا<sup>(١)</sup> - ، أَمَّا الْمَوْضُوعُ فَالْشَّخَرِيَّةُ مِنْ إِنْسَانِ الْمَدِينَةِ وَمَدِينَةِ الْإِنْسَانِ .

\* \* \*

مَا أَصْدَقَ مَا قَالُوهُ : إِنَّ الْمَرْئِيَّ فِي الرَّائِي . مَرَضْتُ مَدَّةً فِي الْمَصِيبِ ، فَانْقَلَبَتْ الطَّبِيعَةُ الْعُرُوسُ الَّتِي كَانَتْ تَتَزَيَّنُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى طَبِيعَةٍ عَجُوزٍ تَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الطَّبِيبِ ...

شاطئ سيدي بشر ، إسكندرية

مصطفى صادق الرافعي

### حَدِيثُ قِطَّيْنِ (\*)

جَاءَ فِي امْتِحَانِ شَهَادَةِ إِنْتِمَاءِ الدِّرَاسَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ لِهَذَا الْعَامِ { ١٩٣٤ } فِي مَوْضُوعِ الْإِنْسَاءِ مَا يَأْتِي :

« تَقَابَلِ قِطَّانٍ : أَحَدُهُمَا سَمِينٌ تَبْدُو عَلَيْهِ آثَارُ النَّعْمَةِ ، وَالْآخَرُ نَحِيفٌ يَذُلُّ مَنْظَرُهُ عَلَى سُوءِ حَالِهِ ؛ فَمَاذَا يَقُولَانِ إِذَا حَدَّثَ كُلُّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ مَعِيشَتِهِ ؟ » .

وَقَدْ حَارَ التَّلَامِيذُ الصَّغَارُ فِيمَا يَضَعُونَ عَلَى لِسَانِ الْقِطَّانِ ، وَلَمْ يَغْرِفُوا كَيْفَ يُوجِّهُونَ الْكَلَامَ بَيْنَهُمَا ، وَإِلَى أَيِّ غَايَةٍ يَنْصَرِفُ الْقَوْلُ فِي مُحَاوَرَتِهِمَا ؛ وَضَافُوا جَمِيعًا وَهُمْ أَطْفَالٌ - أَنْ تَكُونَ فِي رُؤُوسِهِمْ عُقُولُ السَّانِرِ ؛ وَأَعْيَاهُمْ أَنْ تَنْزِلَ غَرَائِزُهُمُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الْبَهِيمِيَّةِ وَمِنْ عَيْشِهَا خَاصَّةً ، فَيَكْتَنِبُهَا تَذْيِيرَ هَذِهِ الْفِطَاطِ لِحَيَاتِهَا ، وَيَنْفُذُوا إِلَى طَبَائِعِهَا ، وَيَنْدَمُّوا فِي جُلُودِهَا ، وَيَأْكُلُوا بِأَنْبَابِهَا ، وَيُمَرِّقُوا بِمَخَالِهَا .

قَالَ بَعْضُهُمْ : وَسَخِطْنَا عَلَى أَسَاتِذَتِنَا أَشَدَّ السُّخْطِ ، وَعَبَّأَهُمْ بِأَقْبَحِ الْعَيْبِ ؛ كَيْفَ لَمْ يُعَلِّمُونَا مِنْ قَبْلِ - أَنْ نَكُونَ حَمِيرًا ، وَخَيْلًا ، وَبَغَالًا ، وَبَيْرَانًا ، وَفَرْدَةً ، وَخَنَازِيرَ ، وَفُتْرَانًا ، وَقِطَطَةً ، وَمَا هَبَّ وَدَبَّ ، وَمَا طَارَ وَدَرَجَ ، وَمَا مَشَى وَأَنْسَحَ ؛ وَكَيْفَ - وَبِهِمْ - لَمْ يُلَقِّنُونَا مَعَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ لُغَاتِ النَّهْيِ ، وَالصَّهْلِ ، وَالشَّحِيحِ ، وَالْخَوَارِ ، وَضَحْكِ الْقَرْدِ ، وَقُبَاعِ الْخَنْزِيرِ ، وَكَيْفَ نَصِيءُ وَنَمُوءُ ، وَلَغَطُ الْطَيْرِ ، وَنَفْحُ فَحِيحِ الْأَفْعَى ، وَنَكِشُ كَشِيشِ الدَّبَابَاتِ<sup>(١)</sup> ، إِلَى مَا يَتِمُّ بِهِ هَذَا الْعِلْمُ اللَّغَوِيُّ الْجَلِيلُ ، الَّذِي تَقُومُ بِهِ بِلَاغَةُ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ وَالْهَمْجِ وَأَشْبَاهِهَا ... ؟

وَقَالَ تَلَمِيذٌ خَبِيثٌ لِأُسْتَاذِهِ : أَمَّا أَنَا فَأَوْجَزْتُ وَأَعَجَزْتُ .

قَالَ أُسْتَاذُهُ : أَجَدْتَ وَأَحْسَنْتَ ، وَلِلَّهِ أَنْتَ ! وَتَاللَّهِ لَقَدْ أَصَبْتَ ! فَمَاذَا كَتَبْتَ ؟

(\*) « الرسالة » العدد : ٥٣ ، ٢٧ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٩ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١١٢٣ - ١١٢٦ .

(١) { هَذِهِ أَصَوَاتُ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ فِي اللَّغَةِ } .

(١) يَظُنُّ صَدِيقُنَا الْعَلَّامَةُ الْكَبِيرُ الْأَمِيرُ شَكِيبُ أَرْسَلَانَ أَنَّ الْمَسْرَحَ لِدَارِ التَّمَثِيلِ غَيْرُ صَحِيحٍ ، وَأَنَّ صَوَابَهَا الْمِزْرَجُ ، وَلَكِنَّ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ اسْتَعْمَلَهَا فِي قَرِيبٍ مِنْ مَعْنَى دَارِ التَّمَثِيلِ ، وَأَصْلُهَا مِنْ مُرَادِفَاتِ نَدَى الْقَوْمِ وَمُجْتَمَعِهِمْ .

قَالَ : كَتَبْتُ هَكَذَا :

يَقُولُ السَّمِينُ : نَاو ، نَاو ، نَاو ... يَقُولُ النَّحِيفُ : نَو ، نَاو نَو ... فَيَرُدُّ عَلَيْهِ السَّمِينُ : نَو ، نَاو ، نَاو ... فَيَغْضَبُ النَّحِيفُ ، وَيُكْشِرُ عَنْ أَشْنَانِهِ ، وَيُحَرِّكُ ذَنَلَهُ وَيَصْنَعُ : نَو ، نَو ، نَو ... فَيَلْطِمُهُ السَّمِينُ فَيُخْدِشُهُ وَيَضْرِبُ : نَاو ... فَيَبُتُّ عَلَيْهِ النَّحِيفُ وَيَضْطَرِّعَانِ ، وَتَخْتَلِطُ « التَّوَنُوءُ » لَا يَمْتَأُ صَوْتٌ مِنْ صَوْتٍ ، وَلَا يَبِينُ مَعْنَى مِنْ مَعْنَى ، وَلَا يُمَكِّنُ الْفَهْمُ عَنْهُمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا بِتَعَبٍ شَدِيدٍ ، بَعْدَ مُرَاجَعَةِ قَامُوسِ الْقَطَاطِ ... !

قَالَ الْأُسْتَاذُ : يَا بُنَيَّ ! بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ! لَقَدْ أَبْدَعْتَ الْفَنَّ إِبْدَاعًا ، فَصَنَعْتَ مَا يَصْنَعُ أَكْبَرُ التَّوَانِغِ ، يُظْهِرُ فَتْنَهُ بِإِظْهَارِ الطَّبِيعَةِ وَإِخْفَاءِ نَفْسِهِ ، وَمَا يَنْطِقُ الْقِطُّ بِلُغَتِنَا إِلَّا مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ ، وَلَا نَبِيٍّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَلَا سَبِيلَ إِلَّا مَا حَكَيْتَ وَوَصَفْتَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْوَاقِعِ ، وَالْوَاقِعُ هُوَ الْجَدِيدُ فِي الْأَدَبِ ؛ وَلَقَدْ أَرَادُوكَ تَلْمِيزًا هَرًّا ، فَكُنْتَ فِي إِجَابَتِكَ هَرًّا أَسْتَاذًا ، وَوَأَفَقْتَ السَّنَانِيرَ وَخَالَفْتَ النَّاسَ ، وَحَقَّقْتَ لِلْمُمْتَحِنِينَ أَرْقَى نَظَرِيَّاتِ الْفَنِّ الْعَالِي ، فَإِنَّ هَذَا الْفَنَّ إِنَّمَا هُوَ فِي طَرِيقَةِ الْمَوْضُوعِ الْفَنِّيَّةِ ، لَا فِي تَلْفِيقِ الْمَوَادِّ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْ هُنَا وَهُنَا ، وَلَوْ حَفِظُوا حُرْمَةَ الْأَدَبِ ، وَرَعَوْا عَهْدَ الْفَنِّ لِأَذْرَكُوا أَنَّ فِي اسْطِرْكَ الْأَقْلِيلَةَ كَلَامًا طَوِيلًا بَارِعًا فِي النَّادِرَةِ وَالنَّهْكَمِ ، وَغَرَابَةِ الْعَبَقَرِيَّةِ ، وَجَمَالِهَا وَصِدْقِهَا ، وَحُسْنِ تَنَاوُلِهَا ، وَإِحْكَامِ تَأْدِيبِهَا لِمَا تُؤَدِّي<sup>(١)</sup> ؛ وَلَكِنْ مَا الْفَرْقُ يَا بُنَيَّ بَيْنَ « نَاو » بِالْمَدِّ ، وَ« نَو » بِغَيْرِ مَدٍّ ... ؟

قَالَ التَّلْمِيزُ : هَذَا عِنْدَ السَّنَانِيرِ كَالْإِشَارَاتِ التَّلْغَرِافِيَّةِ : شَرْطَةٌ وَنُقْطَةٌ وَهَكَذَا .

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! وَلَكِنَّ وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ لَا تَقْرَأُ هَذَا وَلَا تَعْرِفُهُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمُصَحِّحُ أَسْتَاذًا لَا هَرًّا ... وَالْأَمْتِحَانُ كِتَابِي لَا شَفَؤِي .

قَالَ الْخَبِيثُ : وَأَنَا لَمْ أَكُنْ هَرًّا بَلْ كُنْتُ إِنْسَانًا ، وَلَكِنَّ الْمَوْضُوعَ حَدِيثُ قِطْنٍ ، وَالْحُكْمُ فِي مِثْلِ هَذَا لِأَهْلِ الْقَائِمِينَ بِهِ ، لَا الْمُتَكَلِّفِينَ لَهُ ، الْمُتَطَفِّلِينَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ هُمُ

(١) { هَذَا كَلَامُ نَهْكَمٍ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ } .

خَالَفُونِي قُلْتُ لَهُمْ : أَسْأَلُوا الْقَطَاطَ ؛ أَوْ لَا فَلْيَأْتُوا بِالْقِطْنِ : السَّمِينُ وَالنَّحِيفُ ، فَلْيَجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ، وَلْيَحْرِشُوهُمَا ، ثُمَّ لِيُخْضِرُوا الرُّقْبَاءَ هَذَا الْأَمْتِحَانُ ، وَلْيَكْتُبُوا عَنْهُمَا مَا يَسْمَعُونَهُ ، وَلْيَصِفُوا مِنْهُمَا مَا يَرُونَهُ ، فَوَالَّذِي خَلَقَ السَّنَانِيرَ وَالتَّلَامِيذَ وَالْمُمْتَحِنِينَ وَالْمُصَحِّحِينَ جَمِيعًا - مَا يَرِيدُ الْهَرَّانَ عَلَى « نَو ، وَنَاو » ، وَلَا يَكُونُ الْقَوْلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا مِنْ هَذَا ، وَلَا يَقَعُ إِلَّا مَا وَصَفْتُ ، وَمَا بُدِّ مِنَ الْمُهَارَشَةِ وَالْمُؤَانَبَةِ بِمَا فِي طَبِيعَةِ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ، ثُمَّ فِرَارِ الضَّعِيفِ مَهْزُومًا ، وَتَشْهِيهِ الْأَمْتِحَانِ !

\* \* \*

إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ يُشْبِهُ تَكْلِيفَ الطَّالِبِ الصَّغِيرِ خَلْقَ هَرَّتَيْنِ لَا الْحَدِيثَ عَنْهُمَا ؛ فَإِنَّ إِجَادَةَ الْإِنْسَاءِ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَابِ الْوُهِيَّةُ عَقْلِيَّةٌ تَخْلُقُ خَلْقَهَا السَّوِيِّ الْجَمِيلَ نَابِضًا حَيًّا ، كَأَنَّمَا وَضَعْتَ فِي الْكَلَامِ قَلْبَ هَرٍّ ، أَوْ جَاءَتْ بِالْهَرِّ لَهُ قَلْبٌ مِنَ الْكَلَامِ . وَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْأَطْفَالِ فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ وَالثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَمَا حَوْلَهُمَا ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ فِي هَذِهِ السَّنِ أَنْ يَمْتَرِجُوا بِدَقَائِقِ الْوُجُودِ ، وَيَدَاخِلُوا أَسْرَارَ الْخَلِيقَةِ ، وَيُضْبِحُوا مَعَ كُلِّ شَيْءٍ رَهْنًا بِعِلَلِهِ ، وَعِنْدَ كُلِّ حَقِيقَةٍ مَوْفُوفِينَ عَلَى سَبَابِهَا ؟ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ فِي السَّنَوَاتِ الْخَالِيَةِ : « كُنْ زَهْرَةً وَصِفْ . وَاجْعَلْ نَفْسَكَ حَبَّةَ قَمْحٍ وَقُلْ » . وَإِنَّمَا هَذَا وَنَحْوُهُ غَايَةٌ مِنْ أُبْعَدِ غَايَاتِ الثَّبُوتِ أَوْ الْحِكْمَةِ ؛ إِذِ النَّبِيُّ تَعَبِيرُ إِلَهِيٍّ تَجِدُهُ الْحَقِيقَةُ الْكَامِلَةُ لِنَاطِقٍ بِهِ كَلِمَتَهَا الَّتِي تُسَمَّى الشَّرِيعَةِ ، وَالْحَكِيمِ وَجْهَ آخَرٍ مِنَ التَّعْبِيرِ ، تَتَّخِذُهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ لِنَاطِقٍ مِنْهُ الْكَلِمَةُ الَّتِي تُسَمَّى الْفَنِّ .

وَقَدْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ أَمْتِحَانٌ مِثْلُ هَذَا ، لَمْ يَنْجَحْ فِيهِ إِلَّا وَاحِدٌ فَقَطْ مِنْ آلافٍ كَثِيرَةٍ ؛ وَكَانَ الْمُمْتَحِنُ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ؛ وَالْمَوْضُوعُ حَدِيثُ التَّمْلَةِ مَعَ التَّمْلِ ؛ وَالتَّاجِحُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا التَّمْلُ أَذْخَلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحِطُّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

فَتَسْرَحُ حَاجِكًا مِنْ قَوْلِهَا . [ ٢٧ سورة النمل / الآيتان : ١٨ و ١٩ ] .

إِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مُسْتَقَرٌّ بِمَعَانِيهِ الزَّمَرِيَّةِ فِي النَّفْسِ الْكَامِلَةِ ؛ إِذْ كَانَتْ الرُّوحُ فِي ذَاتِهَا نُورًا ، وَكَانَ سِرُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ النُّورِ ، وَالشُّعَاعُ يَجْرِي فِي الشُّعَاعِ كَمَا يَجْرِي الْمَاءُ فِي الْمَاءِ ، وَفِي امْتِزَاجِ الْأَشْجَعِ مِنَ النَّفْسِ وَالْمَادَّةِ تَجَاوُبٌ رُوحَانِيٌّ هُوَ بِدَايَةِ تَغْيِيرٍ فِي الْبَصِيرَةِ



وإِذْرَاكَ فِي الدَّهْنِ ، وَهُوَ آسَاسُ الْفَنِّ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ : فِي الْكَلِمَةِ وَالصُّورَةِ ، وَالْمِثَالِ وَالنَّمَةِ ؛ أَيْ : الْكِتَابَةِ وَالشَّعْرِ وَالنَّصُورِ وَالْحَفْرِ وَالْمُوسِيقِي .

وَمِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ الْبَيَانُ الْعَالِي أَوْ إِشْرَاقًا إِلَّا بِتَمَامِ النَّفْسِ الْبَلِيغَةِ فِي فَضِيلَتِهَا أَوْ رَذِيلَتِهَا عَلَى السَّوَاءِ ؛ فَإِنَّ مِنْ عَجَائِبِ السُّخْرِيَةِ بِهَذَا الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ تَمَامُ الرَّذِيلَةِ فِي آثَرِهِ عَلَى الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ ، هُوَ الْوَجْهَ الْآخِرَ لِتَمَامِ الْفَضِيلَةِ فِي آثَرِهِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ ؛ وَالْكَفْظَةُ الَّتِي يَنْتَهِي فِيهَا الْعُلُوُّ مِنْ مُحِيطِ الدَّائِرَةِ هِيَ بَعِيْنُهَا الَّتِي يَبْدَأُ مِنْهَا الْإِنْجِدَارُ إِلَى الشُّفْلِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ الْفُتُونُ لَا تُعْتَبَرُ بِالْأَخْلَاقِ ، حَتَّى قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إِنَّ الدُّنْيَا عَنْ الشَّعْرِ بِمَعْرُولٍ . فَالْأَصْلُ هُنَاكَ سُمُو التَّعْبِيرِ وَجَمَالُهُ ، وَبَلَاغَةُ الْأَدَاءِ وَرَوْعَتُهَا ؛ وَلَا يَكُونُ السُّؤَالُ الْفَنِّيُّ مَا هِيَ قِيَمَةُ هَذِهِ النَّفْسِ ، وَلَكِنْ مَا طَرِيقَتُهَا الْفَنِّيَّةُ ؟ وَأَيُّ عَجِيبٍ فِي ذَلِكَ ؟ أَلَيْسَ لِحَبْثِهِمْ حَقٌّ فِي كِتَابِ أَهْلِ الْفَنِّ ، كَمَا لِلْحَجَّةِ حَقٌّ فِي نَوَائِجِهِ ؟ وَإِذَا قَالَتِ الْحَجَّةُ : هَذِهِ فَضَائِلِي الْبَلِيغَةُ . أَفَلَا تَقُولُ الْحَبِثُ : وَهَذِهِ بَلَاغَةُ رَذَائِلِي ؟ وَكَيْفَ لَعَمْرِي يَسْتَطِيعُ إِنْجِلِسُ أَنْ يُؤَدِّيَ عَمَلَهُ الْفَنِّيَّ . . . وَيُصَوِّرَ بَلَاغَتَهُ الْعَالِيَةَ إِلَّا فِي سَاقِطِينَ مِنْ أَهْلِ الْفِكْرِ الْجَمِيلِ ، وَسَاقِطَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْجِسْمِ الْجَمِيلِ . . . ؟

\* \* \*

لَقَدْ بَعْدْنَا عَنِ الْفُطَيْنِ ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَ مِنْ حَدِيثِهِمَا وَخَبَرِهِمَا .

كَانَ الْقِطُّ الْهَزِيلُ مُرَابِطًا فِي رُقَاقٍ ، وَقَدْ طَارَدَ فَاَرَةً فَانْجَحَرَتْ فِي شَيْءٍ ، فَوَقَفَ الْمَسْكِينُ يَتَرَبَّصُ بِهَا أَنْ تَخْرُجَ ، وَيُؤَامِرُ نَفْسَهُ كَيْفَ يُعَالِجُهَا فَيَبْتَرِئُهَا ، وَمَا عَقْلُ الْحَيَوَانِ إِلَّا مِنْ حِرَاقَةٍ عَيْنِهِ لَا مِنْ غَيْرِهَا . وَكَانَ الْقِطُّ السَّمِينُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دَارِ أَصْحَابِهِ يُرِيدُ أَنْ يُفْرَجَ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنْ يَكُونَ سَاعَةً أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ كَالْفِطَطَةِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ ، لَا كَأَطْفَالِ النَّاسِ مَعَ أَهْلِيهِمْ وَذَوِي عِنَايَتِهِمْ ، وَأَبْصَرَ الْهَزِيلُ مِنْ بَعِيدٍ فَأَقْبَلَ يَمْشِي نَحْوَهُ ، وَرَأَاهُ الْهَزِيلُ وَجَعَلَ يَتَأَمَّلُهُ وَهُوَ يَتَخَلَّعُ تَحْلَعُ الْأَسَدِ فِي مَشْيِهِ ، وَقَدْ مَلَأَ جِلْدَتَهُ مِنْ كُلِّ أَطْطَارِهَا وَنَوَاحِيهَا ، وَبَسَطَتْهُ النَّعْمَةُ مِنْ أَطْرَافِهِ ، وَأَنْقَلَبَتْ فِي لَحْمِهِ غِلَظًا ، وَفِي عَصَبِهِ شِدَّةً ، وَفِي شَعْرِهِ بَرِيقًا ، وَهُوَ يَمْوُجُ فِي بَدَنِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَيَكَادُ إِهَابُهُ يَنْشَقُّ سِمَانًا وَكِدَّةً . فَانْكَسَرَتْ نَفْسُ الْهَزِيلِ ، وَدَخَلَتْهُ الْحَسْرَةُ ، وَتَضَعَّضَ لِمَرَأَى هَذِهِ النَّعْمَةِ مَرَحَةً مُخْتَالَةً . وَأَقْبَلَ

السَّمِينُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ ، وَأَذْرَكَهُ الرَّخْمَةُ لَهُ ، إِذْ رَأَاهُ نَحِيفًا مُتَقَبِّضًا ، طَاطِي الْبَطْنِ ، بَارِزُ الْأَصْلَاحِ ، كَأَنَّمَا هَمَّتْ عِظَامُهُ أَنْ تَتْرُكَ مَسْكَنَهَا مِنْ جِلْدِهِ لِتَجِدَ لَهَا مَأْوَى آخَرَ .

فَقَالَ لَهُ : مَاذَا بِكَ ، وَمَالِي أَرَاكَ مُتَيْبَسًا كَالْمَيْتِ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ أَنَّكَ لَمْ تَمُتْ ، وَمَالِكَ أُعْطِيتَ الْحَيَاةَ غَيْرَ أَنَّكَ لَمْ تَخْيَ ، أَوَلَيْسَ الْهَرُّ مِثْلًا صُورَةً مُخْتَرَلَةً مِنَ الْأَسَدِ ، فَمَا لَكَ - وَيَحَاكَ - رَجَعْتَ صُورَةً مُخْتَرَلَةً مِنَ الْهَرِّ ؛ أَفَلَا يَسْقُوتُكَ اللَّبَنُ ، وَيُطْعِمُوكَ الشَّحْمَةَ وَاللَّحْمَةَ ، وَيَأْتُونُكَ بِالسَّمَكِ ، وَيَقْطَعُونَ لَكَ مِنَ الْجُبْنِ أَيْبَصَ وَأَصْفَرَ ، وَيَفْتُونُكَ لَكَ الْخَبَرَ فِي الْمَرْقِ ، وَيُؤَثِّرُكَ الطُّفْلُ بِبَغْضِ طَعَامِهِ ، وَتَذُلُّكَ الْفَتَاةُ عَلَى صَدْرِهَا ، وَتَمَسُّكَ الْمَرْأَةُ بِيَدَيْهَا ، وَيَسْأَوُكَ الرَّجُلُ كَمَا يَسْأَوُ ابْنَهُ . . . ؟ وَمَا لِيْجِدَكَ هَذَا مُغْبِرًا كَأَنَّكَ لَا تَلْطَعُهُ بِلُعَابِكَ ، وَلَا تَتَعَهَّدُهُ بِتَنْظِيفٍ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَرَ قَطُّ فَتَى أَوْ فَتَاةً يُجْرِي الدَّهَانَ بَرِيقًا فِي شَعْرِهِ أَوْ شَعْرِهَا ، فَتَحَاوِلُ أَنْ تَصْنَعَ بِلُعَابِكَ لِشَعْرِكَ صَنِيعَهُمَا ؛ وَأَرَاكَ مُتْرَابِلَ الْأَعْضَاءِ مُتَفَكِّكًا حَتَّى ضَعُفَتْ وَجْهَتُ ، كَأَنَّهُ لَا يَزْكِبُكَ مِنْ حُبِّ التَّوَمِ عَلَى قَدَرٍ مِنْ كَسَلِكَ وَرَاحَتِكَ ، وَلَا يَزْكِبُكَ مِنْ حُبِّ الْكَسَلِ عَلَى قَدَرٍ مِنْ نَعِيمِكَ وَرَفَاهَتِكَ ، وَكَأَنَّ جَنْبَيْكَ لَمْ يَعْرِفَا طِنْفَسَةً وَلَا حَشِيَّةً وَلَا وَسَادَةً وَلَا بِسَاطًا وَلَا طِرَازًا ، وَمَا أَشْبَهَكَ بِأَسَدٍ أَهْلَكَهُ إِلَّا يَجِدَ إِلَّا الْغُشْبَ الْأَخْضَرَ وَالْهَشِيمَ الْيَابِسَ ، فَمَا لَهُ لَحْمٌ يَجِيءُ مِنْ لَحْمٍ ، وَلَا دَمٌ يَكُونُ مِنْ دَمٍ ، وَأَنْحَطَ فِيهِ جِسْمُ الْأَسَدِ ، وَسَكَنَتْ فِيهِ زَوْجُ الْحِمَارِ !

قَالَ الْهَزِيلُ : وَإِنَّ لَكَ لَحْمَةً وَشَحْمَةً ، وَلَبَنًا وَسَمَكًا ، وَجُبْنًا وَفَتَاتًا ، وَإِنَّكَ لَتَقْضِي يَوْمَكَ تَلْطَعُ جِلْدَكَ مَاسِخًا وَغَاسِلًا ، أَوْ تَتَطَرَّحُ عَلَى الْوَسَائِدِ وَالطَّنَافِسِ نَائِمًا وَمُتَمَدِّدًا ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَتْكَ النَّعْمَةُ وَالْبَلَادَةُ مَعًا ، وَصَلَحَتْ لَكَ الْحَيَاةُ وَفَسَدَتْ مِنْكَ الْغَرِيزَةُ ، وَأَحْكَمْتَ طَبْعًا وَنَقَضْتَ طَبَاعًا ، وَرَبَّيْتَ شَيْعًا وَخَسِرْتَ لَذَّةً ، عَطَفُوا عَلَيْكَ وَأَفْقَدُوكَ أَنْ تَغْطِفَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَحَمَلُوكَ وَأَعْجَزُوكَ أَنْ تَسْتَقِلَّ ، وَقَدْ صِرْتَ مَعَهُمْ كَالدَّجَاجَةِ تُسَمَّنُ لِتُذْبَحَ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَذْبَحُونَكَ دَلَالًا وَمَلَالًا .

إِنَّكَ لَتَأْكُلُ مِنْ خِوَانِ أَصْحَابِكَ ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَأْكُلُونَ ، وَتَطْمَعُ فِي مَوَاكِلِهِمْ ، فَتَشْبَعُ بِالْعَيْنِ وَالْبَطْنِ وَالرَّغْبَةِ ثُمَّ لَا شَيْءَ غَيْرَ هَذَا ، وَكَأَنَّكَ مُرْتَبِطٌ بِجِبَالٍ مِنَ اللَّحْمِ تَأْكُلُ مِنْهَا وَتَحْتَسِسُ فِيهَا .

إِنْ كَانَ أَوَّلُ مَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَأْكُلَ فَأَمُونُ مَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَأْكُلَ ، وَمَا يَفْتُلِكَ شَيْءٌ كَأَسْبَوَاءِ الْحَالِ ، وَلَا يُخَيِّيكَ شَيْءٌ كَتَفَاوُتِهَا ؛ وَالْبَطْنُ لَا يَتَجَاوَزُ الْبَطْنَ ، وَلَذَنُ لَذَنُهُ وَخَدَهَا ، وَلَكِنْ أَيْنَ أَنْتَ عَنْ إِزْنِكَ مِنْ أَسْلَافِكَ ، وَعَنِ الْعِلَالِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي تُحَرِّكُنَا إِلَى لَذَاتِ أَعْضَائِنَا ، وَمَتَاعِ أَرْوَاحِنَا ، وَتَهْبِئَتَا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَجُودِنَا الْأَكْبَرِ ، وَتَجْعَلُنَا نَعِيشُ مِنْ قِبَلِ الْجِسْمِ كُلِّهِ ، لَا مِنْ قِبَلِ الْمَعِدَةِ وَخَدَهَا ؟

قَالَ السَّيِّمِينَ : تَاللهِ لَقَدْ أَكْسَبَكَ الْفَقْرُ حِكْمَةً وَحَيَاةً ، وَآرَانِي بِإِزْنِكَ مَعْدُومًا بِزَوَالِ أَسْلَافِي مِثِّي ، وَآرَاكَ بِإِزْنَانِي مُوجُودًا بِوُجُودِ أَسْلَافِكَ فِينِكَ . نَاشِدُنَاكَ اللهُ إِلَّا مَا وَصَفْتَ لِي هَذِهِ اللَّذَاتِ الَّتِي تَعْلُو بِالْحَيَاةِ عَنْ مَرْتَبَةِ الْوُجُودِ الْأَصْغَرِ مِنَ الشَّيْخِ ، وَتَسْتَطِيلُ بِهَا إِلَى مَرْتَبَةِ الْوُجُودِ الْأَكْبَرِ مِنَ الرُّضَى ؟

فَقَالَ الْهَزْبِيلُ : إِنَّكَ صَخْمٌ وَلَكِنَّكَ أَهْلُهُ ، أَمَا عَلِمْتَ - وَنَحَكَ - أَنَّ الْمِخَنَةَ فِي الْعَيْشِ هِيَ فِكْرَةٌ وَقُوَّةٌ ، وَأَنَّ الْفِكْرَةَ وَالْقُوَّةَ هُمَا لَذَّةٌ وَمَنْفَعَةٌ ، وَأَنَّ لَهْفَةَ الْجِرْمَانِ هِيَ الَّتِي تَضَعُ فِي الْكَسْبِ لَذَّةَ الْكَسْبِ ، وَسَعَارَ الْجُوعِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ فِي الطَّعَامِ مِنَ الْمَادَّةِ طَعَامًا آخَرَ مِنَ الرُّوحِ ، وَأَنَّ مَا عُدِلَ بِهِ عَنْكَ مِنَ الدُّنْيَا لَا تَعُوْضُكَ مِنْهُ الشَّخْمَةُ وَاللَّخْمَةُ ، فَإِنَّ رَغْبَاتِنَا لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَجُوعَ وَتَعْتَذِي كَمَا لَا بُدَّ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ لِبطُونِنَا ، لِيُوجِدَ كُلُّ مِنْهُمَا حَيَاتَهُ فِي الْحَيَاةِ ؛ وَالْأُمُورُ الْمُطْمَئِنَّةُ كَهَذِهِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا هِيَ لِلْحَيَاةِ أَمْرَاضٌ مُطْمَئِنَّةٌ ، فَإِنْ لَمْ تَنْقُصْ مِنْ لَذَنِهَا فَهِيَ لَنْ تَزِيدَ فِي لَذَنِهَا ، وَلَكِنْ مُكَابَدَةُ الْحَيَاةِ زِيَادَةٌ فِي الْحَيَاةِ نَفْسِهَا .

وَسِرُّ السَّعَادَةِ أَنْ تَكُونَ فِينِكَ الْقُوَى الدَّاخِلِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْأَخْسَنَ أَحْسَنَ مِمَّا يَكُونُ ، وَتَمْنَعُ الْأَسْوَأَ أَنْ يَكُونَ أَسْوَأَ مِمَّا هُوَ ، وَكَيْفَ لَكَ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَأَنْتَ وَادِعٌ قَارٌ مَحْضُورٌ مِنَ الدُّنْيَا بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ ؟ إِنَّكَ كَالْأَسَدِ فِي الْفَقْصِ ، صَغُرْتَ أَجْمَتُهُ وَلَمْ تَزَلْ تَصْغُرُ حَتَّى رَجَعْتَ فَقْصًا يَحْدُهُ وَيَخْبِسُهُ ، فَصَغُرَ هُوَ وَلَمْ يَزَلْ يَصْغُرُ حَتَّى أَصْبَحَ حَرَكَةً فِي جِلْدٍ ؛ أَمَا أَنَا فَاسَدٌ عَلَى مَخَالِي وَوَرَاءَ أَتْيَابِي ، وَغِيْضَتِي أَبَدًا تَتَّسِعُ وَلَا تَزَالُ تَتَّسِعُ أَبَدًا ، وَإِنَّ الْحُرِّيَّةَ لَتَجْعَلُنِي أَشْتَمَمُ مِنَ الْهَوَاءِ لَذَّةً مِثْلَ لَذَّةِ الطَّعَامِ ، وَأَسْتَرْوِحُ مِنَ الثَّرَابِ لَذَّةً كَلَذَةَ اللَّحْمِ ، وَمَا الشَّقَاءُ إِلَّا خَلَّتَانِ مِنْ خِلَالِ النَّفْسِ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّ يَكُونُ فِي شَرِّهِكَ مَا يَجْعَلُ الْكَثِيرَ قَلِيلًا ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ لِمِثْلِي مَا دُمْتُ عَلَى حَدِّ الْكَفَافِ مِنَ الْعَيْشِ ؛ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ

يَكُونُ فِي طَمَعِكَ مَا يَجْعَلُ الْقَلِيلَ غَيْرَ قَلِيلٍ ، وَهَذِهِ لَيْسَ لَهَا مِثْلِي مَا دُمْتُ عَلَى ذَلِكَ الْحَدِّ مِنَ الْكَفَافِ ، وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاءُ كَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، كُلُّهَا مِنْ قِبَلِ الدَّاتِ ، لَا مِنْ قِبَلِ الْأَسْبَابِ وَالْعِلَالِ ، فَمَنْ جَارَاهَا سَعِدَ بِهَا ، وَمَنْ عَكَّسَهَا عَنْ مَجْرَاهَا فَبِهَا يَشْفَى .

وَلَقَدْ كُنْتُ السَّاعَةَ أَخْتَلُ فَاَرَةً أَنْجَحَرْتُ فِي هَذَا الشُّقِّ ، فَطَعِمْتُ مِنْهَا لَذَّةً وَإِنْ لَمْ أَطْعَمْ لَحْمًا ، وَبِالْأَمْسِ رَمَانِي طِفْلٌ خَبِيثٌ بِحَجَرٍ يُرِيدُ عَفْرِي فَأَحَدْتُ لِي وَجَعًا ، وَلَكِنْ الْوَجَعُ أَحَدْتُ لِي الْإِخْتِرَاسَ ، وَسَاعَشِي الْآنَ هَذِهِ الدَّارَ الَّتِي بِإِزْنَانِي ، فَآيَةُ لَذَّةٍ فِي السَّلَةِ وَالْخُطْفَةِ وَالْإِسْتِرَاقِ وَالْإِنْتِهَابِ ثُمَّ الْوَيْبِ شِدًّا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ هَلْ دُقْتُ أَنْتَ بِرُوحِكَ لَذَّةَ الْفُرْصَةِ وَالنَّهْرَةِ ، أَوْ وَجَدْتَ فِي قَلْبِكَ رَاحَةَ الْمُخَالَسَةِ وَاسْتِرَاقِ الْغَفْلَةِ مِنْ فَاَرَةٍ أَوْ جُرْدٍ ، أَوْ أَذْرَكَتَ يَوْمًا فَرَحَةَ النَّجَاةِ بَعْدَ الزَّوْعَانِ مِنْ عَابِثٍ أَوْ بَاغٍ أَوْ ظَالِمٍ ؟ وَهَلْ نَأْتَاكَ لَذَّةُ الظَّفَرِ حِينَ هَوَّلَكَ طِفْلٌ بِالضَّرْبِ ، فَهَوَّلَتْهُ أَنْتَ بِالْعَصِّ وَالْعَفْرِ ، فَقَرَّرَ عَنْكَ مِنْهُرًا لَا يَلُوي ؟

قَالَ السَّيِّمِينَ : وَفِي الدُّنْيَا هَذِهِ اللَّذَاتُ كُلُّهَا وَأَنَا لَا أَذْرِي ؟ هَلُمَّ أَوْحَشْ مَعَكَ ، لِيَكُونَ لِي مِثْلُ نُكْرِكَ وَدَهَانِكَ وَأَخْيَالِكَ ، فَيَكُونَ لِي مِثْلُ رَاحَتِكَ الْمَكْدُودَةِ ، وَلَذَّتِكَ الْمُتَعَبَةِ ، وَعُمْرِكَ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ مِنْكَ وَخَدِّكَ . وَسَأَتَصَدَّى مَعَكَ لِلرِّزْقِ أَطَارِدُهُ وَأَوَائِيهِ ، وَأُعَادِيهِ وَأَرَاوِحُهُ ... فَقَطَعَ عَلَيْهِ الْهَزْبِيلُ وَقَالَ :

يَا صَاحِبِي ! إِنَّ عَلَيْكَ مِنْ لَحْمِكَ وَنِعْمَتِكَ عَلَامَةً أَسْرِكَ ، فَلَا يَلْقَانَا أَوَّلُ طِفْلٍ إِلَّا أَهْوَى لَكَ فَأَخَذَكَ أَسِيرًا ، وَأَهْوَى عَلَيَّ بِالضَّرْبِ لِأَنْطَلِقَ حُرًّا ، فَأَنْتَ عَلَى نَفْسِكَ بَلَاءٌ ، وَأَنْتَ بِنَفْسِكَ بَلَاءٌ عَلَيَّ .

وَكَانَتْ الْفَاَرَةُ الَّتِي أَنْجَحَرْتُ قَدْ رَأَتْ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَسَرَّهَا أَشْتِغَالُ الشَّرِّ بِالشَّرِّ ... وَطَالَتْ مُرَاقِبَتُهَا لَهُمَا حَتَّى طَلَّتِ الْفُرْصَةُ مُمَكِّنَةً ، فَوَثَّيْتُ وَثْبَةً مِنْ يَنْجُو بِحَيَاتِهِ ، وَدَخَلْتُ فِي بَابِ مَفْتُوحٍ ، وَلَمَحَهَا الْهَزْبِيلُ ، كَمَا تَلْمَحُ الْعَيْنُ زَرْقًا أَوْ مَضًى وَأَنْطَفَأَ ، فَقَالَ لِلْسَّيِّمِينَ : أَذْهَبَ رَاشِدًا ، فَحَسْبُكَ الْآنَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِنَفْسِكَ وَمَوْضِعِهَا مِنَ الْحَيَاةِ ، أَنَّ الْوُقُوفَ مَعَكَ سَاعَةً هُوَ ضَيَاعُ رِزْقِي ، وَكَذَلِكَ أَمْنَاكَ فِي الدُّنْيَا ، هُمْ بِالْفَاطِمِ فِي الْأَعْلَى وَبِغَمَائِنِهِمْ فِي الْأَسْفَلِ ...

## بَيْنَ خُرُوفَيْنِ (\*)

« اجْتَمَعَ لَيْلَةَ الْأَضْحَى خُرُوفَانِ مِنَ الْأَصَاحِي الْعَبِيدِ ، فَتَكَلَّمَا ، فَمَاذَا يَقُولَانِ ؟ » .

هَذَا هُوَ الْمَوْضُوعُ الَّذِي اسْتَخْرَجَهُ لِي أَصْغَرُ أَوْلَادِي الْأُسْتَاذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ فِيهِ لِلرَّسَالَةِ ، وَهُوَ أَصْغَرُ قُرَائِهَا سِنًا ، تَرَفُّ عَلَيْهِ النَّسَمَةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ مِنْ رَبِيعِ حَيَاتِهِ - بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا حَاضِرَةٌ وَمُقْبِلَةٌ .

وَالْأُسْتَاذَانَا هَذَا كَلِمَةُ هِيَ شِعَارُهُ الْخَاصُّ بِهِ فِي الْحَيَاةِ ، يَحْفَظُهَا لِيَحْفَظَهُ ، فَلَا يَمِيلُ عَنْ مَذَرَجَتِهَا ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ مَعْنَاهَا ؛ وَهِيَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ : « كَالْفَرَسِ الْكَرِيمِ فِي مَبِيعَةِ حُضْرِهِ <sup>(١)</sup> » ، كُلَّمَا ذَهَبَ مِنْهُ شَوَاطِءُ جَاءَ شَوَاطِءُ . فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ كَرَمَ الْأَصْلِ فِي كَرَمِ الْفِعْلِ ، وَلَا يَغْنِي شَيْءٌ مِنْهُمَا عَنْ شَيْءٍ ؛ وَأَنَّ الدَّمَّ الْحُرَّ الْكَرِيمَ يَكُونُ مُضَاعَفَ الْقُوَّةِ بِطَبِيعَتِهِ ، عَظِيمَ الْأَمَلِ بِهِذِهِ الْقُوَّةَ الْمُضَاعَفَةَ ، نَزَاعًا إِلَى السَّبْقِ بِمِقْدَارِ أَمَلِهِ الْعَظِيمِ ، مُتَرَفِّعًا عَنِ الضَّعْفِ وَالْهُوْنِ بِهَذَا الثَّرْوَةِ ، مُتَمَيِّزًا فِي بُنُوغِ عَمَلِهِ وَإِنْدَاعِهِ بِاجْتِمَاعِ هَذِهِ الْخِصَالِ فِيهِ عَلَى أَتَمِّهَا وَأَحْسَنِهَا . فَمِنْ ثَمَّ لَا يَزِمُنِي الْحُرُّ الْكَرِيمُ إِلَّا أَنْ يَتْلُغَ الْأَمَدَ الْأَبْعَدَ فِي كُلِّ مَا يُحَاوِلُهُ ، فَلَا يَأْلُو أَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ إِلَى غَايَةِ الطَّاقَةِ وَمَبْلَغِ الْقُدْرَةِ ، مُسْتَمِدًّا قُوَّةَ بَعْدَ قُوَّةٍ ، مُحَقِّقًا السَّخَرِ الْقَادِرَ الَّذِي فِي نَفْسِهِ ، مُتَلَقِّيًا مِنْهُ وَسَائِلَ الْإِعْجَازِ فِي أَعْمَالِهِ ، مُرْسِلًا فِي بُنُوغِهِ مِنْ تَوْهَجِ دَمِهِ أَضْوَاءَ كَأَضْوَاءِ النُّجْمِ ، تُثَبِّتُ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ أَنَّهُ النُّجْمُ لَا شَيْءٌ آخَرُ .

وَلَمَّا قَدَّمَ إِلَيَّ الْأُسْتَاذُ مَوْضُوعَهُ فِي هَذَا الْوِزْنِ الْمَذَرَسِيِّ - وَأَطْلَعُهُ قَدْ نَزَعْتُهُ حَاجَةً مَذَرَسِيَّةً إِلَيْهِ - قُلْتُ : حُبًّا وَكَرَامَةً . وَهَئِذَا أَكْتُبُهُ مُتَبِعًا فِيهِ « كَالْفَرَسِ الْكَرِيمِ فِي مَبِيعَةِ حُضْرِهِ » ... وَلَعَلَّ الْأُسْتَاذَ حِينَ يَقْرُؤُهُ لَا يُتَوَّرُّ فِيهِ عِلَامَاتُ كَثِيرَةٍ بِقَلَمِهِ الْأَخْمَرِ ... !

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ٩٠ ، ٢٠ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ مارس / آذار ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ٤٤٣ - ٤٤٧ .

(١) هَذَا كَمَا يُقَالُ بِالْعَامِيَّةِ : فِي عِزِّ جَزِيرِهِ .

اجْتَمَعَ لَيْلَةَ الْأَضْحَى خُرُوفَانِ مِنَ الْأَصَاحِي فِي دَارِنَا : أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَبِشُ أَقْرُونُ ، يَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ قَرْنَيْهِ الْعَظِيمَيْنِ شَجَرَةَ السَّنِينِ ، وَقَدْ أَنْتَهَى سِمْنُهُ حَتَّى ضَاقَ جِلْدُهُ بِلَحْمِهِ ، وَسَحَّ بَدَنُهُ بِالشَّحْمِ سَحًّا ، فَإِذَا تَحَرَّكَ خَلَّتْهُ سَحَابَةٌ يَضْطَرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيَهْتَزُّ شَيْءٌ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ؛ وَلَهُ وَافِرَةٌ <sup>(١)</sup> يَجْرُهَا خَلْفُهُ جَرًّا ، فَإِذَا رَأَيْتَهَا مِنْ بَعِيدٍ حَسِبْتَهَا حَمَلًا يَتْبَعُ أَبَاهُ ؛ وَهُوَ أَصُوفُ ، قَدْ سَبَّحَ صُوفُهُ وَاسْتَكْتَفَتْ وَتَرَكَمَ عَلَيْهِ ؛ فَإِذَا مَشَى تَبَخَّرَ فِيهِ تَبَخُّرُ الْغَايَةِ فِي حُلَّتِهَا ، كَأَنَّمَا يَشْعُرُ مِثْلَ شُعُورِهَا أَنَّهُ يَلْبَسُ مَسَرَّاتِ جِسْمِهِ لَا ثَوْبَ جِسْمِهِ ؛ وَهُوَ مِنْ اجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وَجَبْرُوتِهِ أَشْبَهُ بِالْقَلْعَةِ ، يَغْلُوها مِنْ هَامَتِهِ كَالْبُرْجِ الْحَرْبِيِّ فِيهِ مِذْقَعَانِ بَارِزَانِ . وَتَرَاهُ أَبَدًا مُصْعَرًا حَذَاهُ كَأَنَّهُ أَمِيرٌ مِنَ الْأَبْطَالِ ، إِذَا جَلَسَ حَيْثُ كَانَ شَعَرَ أَنَّهُ جَالِسٌ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ نَهْيِهِ وَلَا أَمْرِهِ .

وَأَمَّا الْآخَرُ ، فَهُوَ جَذَعٌ فِي رَأْسِ الْخَوْلِ الْأَوَّلِ مِنْ مَوْلِدِهِ ، لَمْ يَذْرُكْ بَعْدُ أَنْ يُضْحَى ، وَلَكِنْ جِيءَ بِهِ لِلْقَرَمِ إِلَى لَحْمِهِ الْغَضِّ ؛ فَلَاوَلَّ أَضْحِيَّةً وَهَذَا أَكْوَلُهُ ؛ وَذَاكَ يُتَصَدَّقُ بِلَحْمِهِ كُلِّهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ ، وَهَذَا يُتَصَدَّقُ بِثَلَاثَةِ ثُلُثِ طَعَامًا لِأَهْلِ الدَّارِ .

وَكَانَ فِي لَبْنِهِ وَتَرَجُرْجِهِ وَظَرْفِ تَكْوِينِهِ وَمَرَحِ طَبْعِهِ ، كَأَنَّمَا يُصَوِّرُ لَكَ الْمَرْأَةَ إِنْسَةً رَقِيقَةً مُتَوَدِّدَةً . أَمَّا ذَاكَ الضَّخْمُ الْعَلَايِي الْمُنَجَّبُ الشَّامِخُ ، فَهُوَ صُورَةُ الرَّجُلِ الْوَحْشِيِّ أَخْرَجَتْهُ الْغَايَةُ الَّتِي تُخْرِجُ الْأَسَدَ وَالْحَيَّةَ وَجُدُوعَ الدَّوْحَةِ الضَّخْمَةِ ، وَجَعَلَتْ فِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا شَيْئًا يُخَافُ وَيَتَّقَى .

وَكَانَ الْجَذَعُ يَتَعَوَّذُ لَا يَنْقَطِعُ نَعَاؤُهُ ، فَقَدْ أَخَذَ مِنْ قَطِيعِهِ انْتِزَاعًا فَاحَسَّ الْوَحْشَةَ ، وَتَنَبَّهَتْ فِيهِ غَرِيزَةُ الْخَوْفِ مِنَ الدَّنْبِ ، فَرَادَتْهُ إِلَى الْوَحْشَةِ فَلَقَا وَأَضْطَرَبَا ؛ وَكَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفِلْتَ ، فَهُوَ كَأَنَّمَا يَهْتَرِبُ فِي الصَّوْتِ وَيَعْدُو فِيهِ عَدَاوًا .

أَمَّا الْكَبِشُ ، فَيَرَى مِثْلَ هَذَا مَسَبَّةً لِقَرْنَيْهِ الْعَظِيمَيْنِ ، وَهُوَ إِذَا كَانَ فِي الْقَطِيعِ كَانَ كَبِشُهُ وَحَامِيَهُ وَالْمُقَدَّمُ فِيهِ ، فَيَكُونُ الْقَطِيعُ مَعَهُ وَفِي كَفِّهِ وَلَا يَكُونُ هُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ مَعَ الْقَطِيعِ ؛ فَإِذَا قَدَّ جَمَاعَتَهُ لَمْ يَكُنْ فِي مَنَزِلَةِ الْمُسْتَظَرِّ أَنْ يَلْحَقَ بِغَيْرِهِ لِيَحْتَمِيَ بِهِ فَيَقْلَقَ

(١) أَلِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، وَيُقَالُ : كَبِشُ الْيَأْنِ ، إِذَا كَانَ عَظِيمَ الْأَلِيَّةِ .

وَيَضْطَرُّ ، وَلَكِنَّهُ فِي مَنْزِلَةِ الْمُزْتَجِبِ أَنْ يُلْحَقَ بِهِ غَيْرُهُ طَلَبًا لِحِمَايَتِهِ وَدِمَارِهِ ، فَهُوَ سَاكِنٌ رَابِطُ الْجَاشِ مُعْتَبِطُ النَّفْسِ ، كَأَنَّمَا يَتَصَدَّقُ بِالْإِنْتِظَارِ ...

\* \* \*

فَلَمَّا أَذْبَرَ النَّهَارَ وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ ، جِيءَ لِلْخُرُوفَيْنِ بِالْكَلا مِنْ هَذَا الْبَرَسِيمِ يَغْتَلِفَانِهِ ، فَاحْسَسَ الْكَبِشُ أَنَّ فِي الْكَلا شَيْئًا لَمْ يَذَرْ مَا هُوَ ، وَأَنْقَبَضَتْ نَفْسُهُ لِمَا كَانَتْ تَنْبَسِطُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَعَرَنَتْهُ كَابَةٌ مِنْ رُوحِهِ ، كَأَنَّمَا أَذْرَكَتْ هَذِهِ الرُّوحُ أَنَّ آخِرَ رِزْقِهِ عَلَى الْأَرْضِ ، فَانْكَسَرَ وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ مَعْنَى الذَّبْحِ قَبْلَ أَنْ يُذْبَحَ ، وَعَافَ أَنْ يَطْعَمَ ، وَرَجَعَ كَأَوَّلِ فِطَامِهِ عَنْ أُمِّهِ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَأْكُلُ ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَكْلِهِ إِلَّا أَذْنَى تَنَاوُلٍ .

وَكَأَنَّمَا جَسَمَ الظَّلَامَ عَلَى شَحْمِهِ وَلَحْمِهِ ؛ فَإِنَّهُ مَتَى نُقِلَ أَلْهَمُ عَلَى نَفْسٍ مِنَ الْأَنْفُسِ ، نُقِلَ عَلَى سَاعَتِهَا الَّتِي تَكُونُ فِيهَا ، فَتَطْوُلُ كَأَبْتِهَا وَيَطْوُلُ وَفَتْهَا جَمِيعًا ... فَأَرَادَ الْكَبِشُ أَنْ يَتَفَرَّجَ مِمَّا بِهِ ، وَيُنْتَفَسَ عَنْ صَدْرِهِ شَيْئًا ، وَكَانَ الصَّغِيرُ قَدْ أَنَسَ إِلَى الْمَكَانِ وَالظُّلْمَةِ ، وَأَقْبَلَ يَغْتَلِفُ وَيَخْضِمُ الْكَلا ، فَقَالَ لَهُ الْكَبِشُ : أَرَاكَ فَارَهَا يَا ابْنَ أَخِي ، كَأَنَّكَ لَا تَجِدُ مَا أَحْجَدُ ؛ إِنِّي وَاللَّهِ أَغْلَمُ عِلْمًا لَا تَعْلَمُهُ ، وَإِنِّي لِأَحْسُنُ أَنَّ الْقَدَرَ طَرِيقُهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، فَهُوَ مُضْبِحُنَا مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ .

قَالَ الصَّغِيرُ : أَتَعْنِي الذُّنْبُ ؟

قَالَ : لَيْتَهُ هُوَ ، فَأَنَا لَكَ بِهِ لَوْ أَنَّهُ الذُّنْبُ ؛ إِنْ صُوفِي هَذَا دِنْعٌ مِنْ أَطَافِرِهِ ، وَهُوَ كَالشَّبَكَةِ يَنْشَبُ فِيهَا الظُّفَرُ وَلَا يَنْخَلَصُ ، وَمِنْ قَرْنِي هَذَيْنِ تُرْسٌ وَرُمَحٌ ، فَأَنَا وَابِقٌ مِنْ إِخْرَارِ نَفْسِي فِي قِتَالِهِ<sup>(١)</sup> ، وَمَنْ أَخْرَزَ نَفْسَهُ مِنْ عَدُوِّهِ فَذَلِكَ قَتْلُ عَدُوِّهِ ، فَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ فَقَدْ غَاظَهُ بِالْهَزِيمَةِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْأَبْطَالِ فَنٌّ مِنَ الْقَتْلِ . وَهَذَا الْقَرْنُ الْمُلْتَفُّ الْأَعْقَدُ الْمُدْرَبُ كَالسِّنَانِ ، لَا يَكَادُ يَرَاهُ الذُّنْبُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ حَاطِمَةُ عِظَامِهِ ، فَيَحْدُثُ لَهُ مِنْ الْفَرْعِ مَا تَنْحَلُّ بِهِ قُوَّتُهُ ، فَمَا يُؤَابِئِي إِلَّا مُتَخَذِلًا ؛ وَلَا يُقْدِمُ عَلَيَّ إِلَّا تَوَهُمَ الذُّنْبِ لِلْخُرُوفَةِ ، فَإِنْ أَسَاسَ الْقُوَّةَ وَالضَّعْفَ كُلُّهُمَا فِي السُّوسِ وَالطَّبِيعَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْخُرُوفَةِ

(١) فِي نُسَخَةِ الْمُزَيَّانِ : « قَتْلِهِ » بَدَلًا مِنْ : « قِتَالِهِ » .

إِلَى الْجَامُوسِيَّةِ ... ! فَمَا يَعْلَمُهُ ذَلِكَ إِلَّا بِثَرِّ بَطْنِهِ أَوْ التَّطَوُّيْحِ بِهِ مِنْ فَوْقِ هَذَا الْقَرْنِ ، أَقْدَهُ قَدْفَةً عَالِيَةً تُلْقِيهِ مِنْ حَالَتِي ، فَتَدُقُّ عِظَامَهُ وَتُحْطِمُ قَوَائِمَهُ !

قَالَ الصَّغِيرُ : فَمَاذَا تَخْشَى بَعْدَ الذُّنْبِ ؟ إِنْ كَانَتْ الْعَصَا فَهِيَ إِنَّمَا تَضْرِبُ مِنْكَ الصُّوفَ لَا الظَّهْرَ .

قَالَ الْكَبِشُ : وَيَحْكُ ! وَأَيُّ خُرُوفٍ يَخْشَى الْعَصَا ؟ وَهِيَ إِنَّمَا تَكُونُ عَصَا مَنْ يَعْلِفُهَا وَيَرْعَاهُ ، فَهِيَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ كَمَا تَنْزِلُ عَلَى ابْنِ آدَمَ أَقْدَارُ رَبِّهِ ، لَا حِطْمًا وَلَكِنْ تَأْدِيبًا أَوْ إِرْشَادًا أَوْ تَهْوِيلًا ؛ وَمِنْ قَبْلِهَا النُّعْمَةُ ، وَتَكُونُ مَعَهَا النُّعْمَةُ ، وَتَجِيءُ بَعْدَهَا النُّعْمَةُ ؛ أَقْبَلَ الْكُفْرُ مِمَّا مَا يَبْلُغُ كُفْرُ الْإِنْسَانِ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ : إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَتَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ أَنْطَلَقَ ذَا صُرَاخٍ عَرِيضٍ ؟

وَكَيْفَ تَرَانِي وَيَحْكُ أَخْشَى الذُّنْبِ أَوْ الْعَصَا ، وَأَنَا مِنْ سَلَالَةِ الْكَبِشِ الْأَسَدِيِّ ؟

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَا الْكَبِشُ الْأَسَدِيُّ ، وَكَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ مِنْ تَجْلِيهِ ، وَلَا عِلْمَ لِي أَنَا إِلَّا هَذَا الْكَلا وَالْعَلْفُ وَالْمَاءُ ، وَالْمَرَاخِ وَالْمَغْدَى ؟

قَالَ الْكَبِشُ : لَقَدْ أَذْرَكَتُ أُمِّي وَهِيَ نَعْجَةٌ فَخْمَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَأَذْرَكَتُ مَعَهَا جَدَّتِي وَقَدْ أَفْرَطَ عَلَيْهَا الْكِبَرُ حَتَّى ذَهَبَ فَمَهَا ، وَأَذْرَكَتُ مَعَهَا جَدَّتِي وَهُوَ كَبِشٌ هَرِمٌ مُتَقَدِّدٌ أَعْجَفُ كَأَنَّهُ عِظَامٌ مُعْطَاةٌ ، فَعَنَ هَلْوَاءٌ أَخَذْتُ وَرَوَيْتُ وَحَفِظْتُ :

حَدَّثَنِي أُمِّي ، عَنْ أَبِيهَا ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَتْ : إِنْ فَخَرَ جَنَسِنَا مِنَ الْغَنَمِ يَرْجِعُ إِلَى كَبِشِ الْفِدَاءِ الَّذِي فَدَى اللَّهُ بِهِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَكَانَ كَبِشًا أَبْيَضَ أَفْرَنَ أَعْيَنَ ، اسْمُهُ حَرِيرٌ .

قَالَ : وَأَعْلَمُ يَا ابْنَ أَخِي أَنَّ مِمَّا أَنْفَرَدْتُ أَنَا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ فَلَمْ يَذَرِكُهُ غَيْرِي ، أَنَّ جَدَّنَا هَذَا كَانَ مَكْسُومًا بِالْحَرِيرِ لَا بِالصُّوفِ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ حَرِيرًا ...

قَالَتْ أُمِّي : وَالْمَحْفُوظُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا أَنَّ ذَاكَ هُوَ الْكَبِشُ الَّذِي قَرَبَهُ هَابِيلُ حِينَ قَتَلَ أَخَاهُ ، لِتَمِّمِ الْبَلِيَّةَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ بِدَمِ الْإِنْسَانِ وَالْخَيْوَانِ مَعًا .

قَالُوا : فَتَقْبَلُ مِنْهُ وَأُرْسِلَ الْكَبِشُ إِلَى الْحِجَّةِ فَيَقِي يَزْعَى فِيهَا حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي هَمَّ

فِيهِ إِبرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ تَحْقِيقًا لِرُؤْيَا الْبُيُوتِ ، وَطَاعَةً لِمَا أُنْثِيَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْتِحَانِ ، وَلِيُثَبِّتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ إِذَا قَوِيَ إِيمَانُهُ لَمْ يَجْزَعْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَلَوْ جَرَّ السَّكِينُ عَلَى عُنْقِ ابْنِهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَجْزُهَا عَلَى ابْنِهِ وَعَلَى قَلْبِهِ !

قَالَتْ : فَهَذَا هُوَ فَخْرُ جَنَسِنَا كُلِّهِ .

أَمَّا فَخْرُ سُلَالَتِي أَنَا ، فَذَلِكَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ جَدَّتِي ، تَرْوِيهِ عَنْ أَبِيهَا ، عَنْ جَدِّهَا ، وَذَلِكَ حِينَ تَوَسَّمتْ فِي مَخَابِلِ الْبُطُولَةِ ، وَرَجَتْ أَنْ أَحْفَظَ التَّارِيخَ . قَالَتْ : إِنَّ أَصْلَنَا مِنْ دِمَشْقَ ، وَإِنَّهُ كَانَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ سَبَّاحٌ ، قَدْ اتَّخَذَ شِبْلَ أَسَدٍ قَرِيبًا وَرَاضَهُ حَتَّى كَبُرَ ، وَصَارَ يَطْلُبُ الْخَيْلَ ، وَتَأْذِي بِهِ النَّاسَ ، فَقِيلَ لِلْأَمِيرِ <sup>(١)</sup> : هَذَا السَّبَّاحُ قَدْ آذَى النَّاسَ ، وَالْخَيْلَ تَنْفِرُ مِنْهُ وَتَجِدُ مِنْ رِيحِهِ رِيحَ الْمَوْتِ ، وَهُوَ مَا يَزَالُ رَاضًا لِبَلِّهِ وَنَهَارَهُ عَلَى سُدَّةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ دَارِكَ . فَأَمَرَ فَجَاءَ بِهِ السَّبَّاحُ وَأَدْخَلَهُ إِلَى الْقَصْرِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِخُرُوفٍ مِمَّا اتَّخَذَ فِي مَطْبَخِهِ لِلذَّبْحِ ، وَأَدْخَلُوهُ إِلَى قَاعَةٍ ، وَجَاءَ السَّبَّاحُ فَأَطْلَقَ الْأَسَدُ عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعُوا يَرَوْنَ كَيْفَ يَسْطُو بِهِ وَيَقْتَرِسُهُ .

قَالَتْ جَدَّتِي : فَحَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : حَدَّثَنِي جَدِّي : أَنَّ السَّبَّاحَ أَطْلَقَ الْأَسَدَ مِنْ سَاجُورِهِ <sup>(٢)</sup> وَأَرْسَلَهُ ، فَكَانَتْ الْمُعْجَزَةُ الَّتِي لَمْ يُفْزَ بِهَا خُرُوفٌ وَلَمْ تُؤْتَرْ قَطُّ إِلَّا عَنْ جَدَّنَا ، فَإِنَّهُ حَسِبَ الْأَسَدَ خُرُوفًا أَجْمَ لَا قُرُونَ لَهُ ، وَرَأَى دِقَّةَ خَصْرِهِ ، وَضُمُورَ جَنْبِيهِ ، وَرَأَى لَهُ ذَيْلًا كَالْأَلْيَةِ الْمُفْرَعَةِ الْمَيْتَةِ ، فَظَنَّهُ مِنْ مَهَازِيلِ الْغَنَمِ الَّتِي قَتَلَهَا الْجَذْبُ ، وَكَانَ هُوَ شَبَعَانِ رَيَّانَ ، فَمَا كَذَّبَ أَنْ حَمَلَ عَلَى الْأَسَدِ وَنَطَحَهُ ، فَأَنْهَزَمَ السَّبَّاحُ مِمَّا أَذْهَلَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُفَاجَأَةِ ، وَحَسِبَ جَدَّنَا سُبْعًا قَدْ زَادَهُ اللَّهُ أَسْلِحَةً مِنْ قُرْنِيهِ ، فَأَعْتَرَاهُ الْخَوْفُ وَأَدْبَرَ لَا يَلُوي . وَطَمَعَ جَدَّنَا فِيهِ فَاتَّبَعَهُ ، وَمَا زَالَ يُطَارِدُهُ وَيَنْطَحُهُ ، وَالْأَسَدُ يُفْزِ مِنْ وَجْهِهِ وَيَذُورُ حَوْلَ الْبُرْكَ ، وَالْقَوْمُ قَدْ غَلِبَهُمُ الضَّحِكُ ، وَالْأَمِيرُ مَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ إِعْجَابًا وَفَخْرًا

(١) هَذِهِ الْقِصَّةُ شَهِدَهَا الْأَمِيرُ الْأَدِيبُ أَسَامَةُ بْنُ مُثَنِّدٍ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٨٤ لِلْهِجْرَةِ ، وَقَصَّهَا فِي كِتَابِهِ «الْإِعْتِبَارُ» [صفحة : ١٨٩] ؛ وَالْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ فِي الْقِصَّةِ هُوَ مُعِينُ الدِّينِ أَمْرُ وَرِثَرِ شِهَابِ الدِّينِ مُحَمَّدُ . وَقَدْ تَصَرَّفْنَا فِي عِبَارَةِ الْقِصَّةِ .

(٢) السَّاجُورُ : سِلْسِلَةُ الْأَسَدِ وَالْكَلْبِ وَنَحْوِهِمَا .

بِجَدَّنَا . فَقَالَ : هَذَا سَبَّاحٌ لَيْتَمُ ، خُدُّهُ فَأَخْرِجُوهُ ، ثُمَّ أَدْبَحُوهُ ، ثُمَّ أَسْلَحُوهُ . فَأَخَذَ الْأَسَدُ وَذَبَحَ ، وَأَعْتَقَ جَدَّنَا مِنَ الذَّبْحِ ، وَكَانَ لَنَا فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا : إِنْسَانِيهَا وَحَيَوَانِيهَا أَتْرَانِ عَظِيمَانِ ؛ فَجَدَّنَا الْأَوَّلُ كَانَ فِدَاءَ لَابِنِ نَبِيِّ ، وَجَدَّنَا الثَّانِي كَانَ الْأَسَدُ فِدَاءَهُ !

\* \* \*

قَالَ الصَّغِيرُ لِلْكَبِيرِ : قُلْتُ : الذَّبْحُ ، وَالْفِدَاءُ مِنَ الذَّبْحِ ؛ فَمَا الذَّبْحُ ؟

قَالَ الْكَبِيرُ : هَذِهِ السُّنَّةُ الْجَارِيَةُ بَعْدَ جَدَّنَا الْأَعْظَمِ ، وَهِيَ الْبَاقِيَةُ آخِرَ الدَّهْرِ ؛ فَيَنْبَغِي لِكُلِّ مَنَا أَنْ يَكُونَ فِدَاءَ لَابِنِ آدَمَ !

قَالَ الصَّغِيرُ : ابْنُ آدَمَ هَذَا الَّذِي يَخْدُمُنَا وَيَخْتَرُ لَنَا الْكَلَامَ ، وَيُقَدِّمُ لَنَا الْعَلَفَ ، وَيَمْسِي وَرَاءَنَا فَتَسْحَبُهُ إِلَى هُنَا وَهَلْهُنَا ... ؟ تَاللهِ مَا أَظْلَمَ الدُّنْيَا إِلَّا قَدْ انْقَلَبَتْ ، أَوْ لَا ، فَأَنْتَ يَا أَخَا جَدِّي ... قَدْ كَبُرْتَ وَخَرِفْتَ !

قَالَ الْكَبِيرُ : وَيَحَكَ يَا أَبْلَهَ ! مَتَى تَتَحَلَّلُ هَذِهِ الْمُعْقَدَةُ الَّتِي فِي عَقْلِكَ ؟ إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ مَا أَغْلَمَ لَمَّا أَطْمَأْنَنْتَ بِكَ الْأَرْضُ ، وَلَرَجَعْتَ مِنَ الْفَلَقِ وَالْاضْطِرَابِ كَحَيَّةِ الْقَمَحِ فِي غُرْبَالٍ يَهْتَزُّ وَيَنْفَضُّ !

قَالَ الصَّغِيرُ : أَتَعْنِي ذَلِكَ الْغُرْبَالُ وَذَلِكَ الْقَمَحُ وَمَا كَانَ فِي الْقَرِيَةِ ، إِذْ تَنَاولَتْ رَبَّةُ الدَّارِ غُرْبَالَهَا تَنْفَضُ بِهِ قَمَحَهَا ، فَعَاثَلَتْهَا وَنَطَحَتْ الْغُرْبَالُ فَأَنْقَلَبَ عَنْ يَدِهَا وَانْتَشَرَ الْحَبُّ ، فَاسْرَعَتْ فِيهِ الْبَقَا حَتَّى مَلَأَتْ فَمِي قَبْلَ أَنْ تُزِيحَنِي الْمَرْأَةُ عَنْهُ ؟

فَهَزَّ الْكَبِيرُ رَأْسَهُ فَعَلَّ مَنْ يُرِيدُ الْأَنْبِسَامَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ ، وَقَالَ : أَرَأَيْتَ حَانُوتُ الْقَصَابِ ، وَنَحْنُ نَمُرُّ الْيَوْمَ فِي السُّوقِ ؟

قَالَ : وَمَا حَانُوتُ الْقَصَابِ ؟

قَالَ : أَرَأَيْتَ ذَلِكَ السَّلِينِخَ مِنَ الْغَنَمِ الْبَيْضِ الْمُعْلَقَةِ فِي تِلْكَ الْمَعَالِيقِ ، لَا جِلْدَ عَلَيْهَا وَلَا صُوفَ ، وَلَيْسَ لَهَا أَرْوُسٌ وَلَا قَوَائِمُ ؟

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَا ذَلِكَ السَّلِينِخُ ؟ إِنَّهُ إِنْ صَحَّ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ عَنْ أُمِّكَ ، فَهَلْزِهِ غَنَمُ الْجَبَّةِ ، تَبِثُ تَرَعِي هُنَاكَ ثُمَّ تَجِيءُ إِلَى الْأَرْضِ مَعَ الصَّنِيعِ ، وَإِنِّي لَمُرْتَقِبٌ شَمْسَ الْعَدِ ،

لَا ذَهَبَ فَأَرَاهَا وَأَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهَا .

قَالَ : أَسْمَعْ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ! إِنَّ شَمْسَ الْغَدِ سَتَشْعُرُ بِهَا مِنْ تَحْتِكَ لَا مِنْ فَوْقِكَ . . . !  
لَقَدْ رَأَيْتُ أَخِي مُذْ كُنْتُ جَدًّا مِثْلَكَ ؛ وَرَأَيْتُ صَاحِبَنَا الَّذِي كَانَ يَغْلِفُهُ وَيُسْمُهُ قَدْ أَخَذَهُ ،  
فَأَضَجَّعَهُ ، فَجَثَمَ عَلَى صَدْرِهِ شَرًّا مِنَ الذَّنْبِ ، وَجَاءَ بِشَفْرَةٍ بَيْضَاءَ لَامِعَةٍ ، فَجَرَّهَا عَلَى  
حَلْفِهِ ، فَإِذَا دَمُهُ يَسْحَبُ وَيَتَجَرَّرُ ، وَجَعَلَ الْمُسْكِينُ يَنْتَفِضُ وَيَذْخُضُ بِرِجْلِهِ ، ثُمَّ سَكَنَ  
وَبَرَدَ ؛ فَقَامَ الرَّجُلُ فَفَصَلَ عُنُقَهُ ، ثُمَّ نَحَسَ فِي جِلْدِهِ وَنَفَخَهُ حَتَّى تَطْبَلَ وَرَجَعَ كَالْفَرَزِيَةِ الَّتِي  
رَأَيْتَهَا فِي الْفَرَزِيَةِ مَمْلُوءَةً مَاءً فَحَسِبْتَهَا أُمَّكْ ؛ ثُمَّ شَقَّ فِيهِ شِقًّا طَوِيلًا . ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ بَيْنَ  
الْجِلْدِ وَالصَّفَاقِ ، ثُمَّ كَسَطَهُ وَسَخَفَ الشَّحْمَ عَنْ جَنْبَيْهِ ، فَعَادَ الْمُسْكِينُ أَبْيَضَ لَا جِلْدَ لَهُ  
وَلَا صُوفَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَقَرَ بَطْنَهُ وَأَخْرَجَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ حَطَمَ قَوَائِمَهُ ، ثُمَّ شَدَّ فَعَلَقَهُ فَصَارَ  
سَلِيخًا كَنَفِ الْجَبَّةِ الَّتِي رَعِمْتَ ! وَهَذَا - أَيُّهَا الْأَبْلَهُ - هُوَ الذَّبْحُ وَالسَّلْحُ !

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَا الَّذِي أَحْدَثَ هَذَا كُلَّهُ ؟

قَالَ : الشَّفْرَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي يُسْمُونَهَا السَّكِينُ !

قَالَ الصَّغِيرُ : فَقَدْ كَانَتْ الشَّفْرَةُ عِنْدَ حَلْفِهِ حَيَالٍ فِيمِ ؛ فَلِمَاذَا لَمْ يَنْتَزِعْهَا فَيَأْكُلَهَا ؟

قَالَ الْكَبِيرُ : أَيُّهَا الْأَبْلَهُ الَّذِي لَا يَعْلَمُ شَيْئًا وَلَا يَحْفَظُ شَيْئًا ، لَوْ كَانَتْ خَضْرَاءَ  
لَأَكَلَهَا !

قَالَ : وَمَا خَطْبُ أَنْ تَجِيءَ الشَّفْرَةُ عَلَى الْعُنُقِ ، أَلَمْ يَكُنِ الْحَبْلُ فِي عُنُقِكَ أَنْتَ  
فَجَعَلْتَ تُجَادِبُ فِيهِ الرَّجُلَ حَتَّى أَعْيَيْتَهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي مَسَيْتُ أَمَامَكَ لَمَا أَنْقَذْتَ لَهُ ؟

قَالَ الْكَبِيرُ : مَا أَذْرِي وَاللَّهِ كَيْفَ أَفْهَمُكَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ سَيَجْرِي عَلَيْكَ ، فَتَسْرَى أُمُورًا  
تُتَكَبَّرُهَا ، فَتَعْرِفَ مَا الذَّبْحُ وَالسَّلْحُ ، ثُمَّ تَصِيرُ أَشْلَاءَ فِي الْقُدُورِ تُضْرَمُ عَلَيْهَا النَّارُ ،  
فَيَأْكُلُكَ ابْنُ آدَمَ كَمَا تَأْكُلُ أَنْتَ هَذَا الْكَلًّا . . . !

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَاذَا عَلَيَّ أَنْ يَأْكُلَنِي ابْنُ آدَمَ ، أَلَا تَرَانِي أَكُلُ الْعُشْبَ ، فَهَلْ سَمِعْتَ  
عُودًا مِنْهُ يَقُولُ : الرَّجُلُ وَالسَّكِينُ ، وَالذَّبْحُ وَالسَّلْحُ . . . ؟

قَالَ الْكَبِيرُ فِي نَفْسِهِ : لَعَمْرِي إِنَّ قُوَّةَ الشَّبَابِ فِي الشَّبَابِ أَقْوَى مِنْ حِكْمَةِ الشُّيُوخِ فِي

الشُّيُوخِ ، وَمَا نَفْعُ الْحِكْمَةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا رَأْيًا لَيْسَ لَهُ مَا يُمِضِيهِ ، كَرَأْيِ الشَّيْخِ الْفَانِي ؛  
يَرَى بِعَقْلِهِ الصَّوَابَ حِينَ يَكُونُ جِسْمُهُ هُوَ الْخَطَأُ مُرَكَّبًا فِي ضَعْفِهِ غَلْطَةٌ عَلَى غَلْطَةٍ لَا عُضْوًا  
عَلَى عُضْوٍ . . . ؟ وَهَلِ الرَّأْيُ الصَّحِيحُ لِلْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ إِلَّا بِالْجِسْمِ الَّذِي نَعِيشُ بِهِ ؛  
وَمَا جَدَوِي أَنْ يَعْرِفَ الْكَبِيرُ حِكْمَةَ الْمَوْتِ ، وَهُوَ مِنَ الضَّعْفِ بِحَيْثُ تَتَكَسَّرُ نَفْسُهُ لِلْمَرَضِ  
الْهَيْمَنِ ، فَضْلًا عَنِ الْمَرَضِ الْمُغْضِلِ ، فَضْلًا عَنِ الْمَرَضِ الْمُزْمِنِ ، فَضْلًا عَنِ الْمَوْتِ  
نَفْسِهِ ؛ وَمَا خَطَرُ أَنْ يَجْهَلَ الشَّبَابُ تِلْكَ الْحِكْمَةَ ، وَهُوَ مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ بِحَيْثُ لَا يَبَالِي  
الْمَوْتَ ، فَضْلًا عَنِ الْمَرَضِ ؟

لَوْ أُذِنَ الشَّبَابُ مِنَ الْفَتَيَانِ يَوْمَ انْقِطَاعِ أَجَلِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مُضِيحُهُ أَوْ مُمْسِيهِ ، لَأَمَدَّنَهُ  
نَفْسُهُ بِأَرْوَاحِ السِّنِّينَ الطَّوِيلَةِ ، حَتَّى لَيَرَى أَنَّ صُبْحَ الْغَدِ كَأَنَّمَا يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ ثَلَاثِينَ أَوْ  
أَرْبَعِينَ سَنَةً ؛ فَمَا يَبَيِّنُهُ إِلَّا كَالْفَكْرِ الْمُنْسِي مَضَى عَلَيْهِ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ أَرْبَعُونَ . وَلَوْ أُذِنَ  
الشَّيْخُ يَوْمَ مَضَرَعِهِ ، وَأَيَقَنَ أَنَّ لَهُ مُهْلَةً إِلَى تَمَامِ الْحَوْلِ ، لَطَارَ بِهِ الدُّعْرُ وَاسْتَفْرَعَهُ الْوَجَلُ  
مِنْ سَاعَتِهِ ؛ وَرَأَى يَوْمَهُ الْبَعِيدَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنَ الصُّبْحِ ، وَابْتَلَتْهُ طَبِيعَةُ جِسْمِهِ الْمُخْتَلِ  
بِالْوَسَاوِسِ الْكَثِيرَةِ ، تَجَلَّتْ لَهَا لَهَا كَمَا تَجَلَّتْ الرِّيَّاحُ صُدُوعَ الْمَبْرُورِ الْخَرِبِ . فَذَاكَ بِالشَّبَابِ  
يَقْبِضُ عَلَى الزَّمَنِ ؛ فَيَعِيشُ فِي الْيَوْمِ الْقَصِيرِ مِثْلَ الْعَامِ رَحِيًّا مَمْدُودًا ؛ فَهُوَ رَابِطٌ جِلْدٌ ؛  
وَهَذَا بِالْكَبَرِ يَقْبِضُ الزَّمَنُ عَلَيْهِ ، فَيَعِيشُ فِي الْعَامِ الطَّوِيلِ مِثْلَ الْيَوْمِ مُتَلَحِّقًا آخِرُهُ بِأَوَّلِهِ ،  
فَهُوَ قَلِقٌ طَائِرٌ . وَلَا طَبِيعَةَ لِلزَّمَنِ إِلَّا طَبِيعَةُ الشُّعُورِ بِهِ ، وَلَا حَقِيقَةَ لِلْأَيَّامِ إِلَّا مَا تَضَعُهُ  
النَّفْسُ فِي الْأَيَّامِ .

\* \* \*

ثُمَّ إِنَّ الْكَبِيرَ نَظَرَ فَرَأَى الصَّغِيرَ قَدْ أَخَذَتْهُ عَيْنُهُ وَاسْتَقْفَلَ نَوْمًا ، فَقَالَ : هَيْنَا لِمَنْ كَانَ  
فِيهِ سِرُّ الْأَيَّامِ الْمَمْدُودَةِ . إِنَّ هَذَا السَّرَّ هُوَ كَسْرُ الثَّلَبَاتِ الْأَخْضَرِ ، لَا يَقْطَعُ مِنْ نَاحِيَةِ إِلَّا  
ظَهَرَ مِنْ غَيْرِهَا سَاحِرًا هَارِثًا ، قَائِلًا عَلَى الْمَصَائِبِ : هَذَاذَا . . .

فَهَذَا الصَّغِيرُ يَتَامُ مِلَّةَ عَيْنَيْهِ وَالشَّفْرَةُ مَخْدُودَةٌ لَهُ ، وَالذَّبْحُ بَعْدَ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ ؛ كَأَنَّمَا  
هُوَ فِي زَمَتَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا مِنْ نَفْسِهِ ، فَبِهِ يَتَامُ ، وَبِهِ يَلْهُو ، وَبِهِ يَسْحَرُ مِنَ الزَّمَنِ الْآخِرِ وَمَا  
فِيهِ وَمَا يَجْلِيهِ .

إِنَّ الْأَكْمَ هُوَ فَهْمُ الْأَكْمِ لَا غَيْرُ . فَمَا أَقْبَحَ عِلْمَ الْعَقْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ جَهْلُ النَّفْسِ بِهِ وَإِنْكَارُهُ إِيَّاهُ . حَسِبُ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ فِي السُّخْرِيَةِ بِهِمْ وَبِهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مِنَ النَّفْسِ . أَنَا لَوْ نَاطَحْتُ كَبْشًا مِنْ قُرُومِ الْكِبَاشِ ، وَوَقَفْتُ أَفْكَرُ وَأَدْبَرُ وَأَتَأَمَّلُ ، وَأَعْتَبرُ شَيْئًا بِشَيْءٍ - ذَهَبَ فِكْرِي بِقُوَّتِي ، وَاسْتَرْخَى عَصْبِي ، وَتَحَلَّلَ غَضْبِي كُلُّهُ ، وَكَانَ الْعِلْمُ وَبَالًا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّ حَاجَتِي جِئْتُهُ إِلَى الرُّوحِ وَقُوَاهَا وَأَسْبَابُهَا أَضْعَافَ حَاجَتِي إِلَى الْعِلْمِ . وَالرُّوحُ لَا تَعْرِفُ شَيْئًا أَسْمُهُ الْمَوْتُ ، وَلَا شَيْئًا أَسْمُهُ الْوَجَعُ ؛ وَإِنَّمَا تَعْرِفُ حَظَّهَا مِنَ الْيَقِينِ ، وَهَذُوءَهَا بِهِذَا الْحِظِّ ، وَاسْتِفْرَارَهَا مُؤَمَّتَهُ مَا دَامَتْ هَادِئَةً مُسْتَقِينَةً .

وَقَدْ وَآلَهُ صَدَقَ هَذَا الْجَدْعُ الصَّغِيرُ ؛ فَمَا عَلَى أَحَدِنَا أَنْ يَأْكُلَهُ الْإِنْسَانُ ؟ وَهَلْ أَكَلْنَا نَحْنُ هَذَا الْعُشْبَ ، وَأَكَلُ الْإِنْسَانِ إِيَّانَا ، وَأَكَلُ الْمَوْتِ لِلْإِنْسَانِ - هَلْ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا وَضْعُ لِلْخَاتِمَةِ فِي شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِهَا ؟

يُسَبِّهُ وَآلَهُ إِنْ أَنَا اخْتَجَجْتُ عَلَى الذَّبْحِ وَاعْتَمَمْتُ لَهُ ، أَنْ أَكُونَ كَخَرُوفٍ أَحْمَقَ لَا عَقْلَ لَهُ ، فَظَنُّ إِطْعَامِ الْإِنْسَانِ إِيَّاهُ مِنْ بَابِ إِطْعَامِهِ ابْنَهُ وَأَبْنَتَهُ وَأَمْرَأَتَهُ وَمَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُ ! وَهَلْ أَوْجَبَ نَفَقَتِي عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا لَحْمِي ؟ فَإِذَا اسْتَحَقَّ لَهُ فَلَعَمْرِي مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَرْعَمَ أَنَّهُ ظَلَمَنِي اللَّحْمَ إِلَّا إِذَا أَقْرَزْتُ عَلَى نَفْسِي بَدِيءًا أَنِّي أَنَا ظَلَمْتُهُ أَلْعَلَفَ وَسَرَقْتُهُ مِنْهُ .

كُلُّ حَيٍّ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ لِلْحَيَاةِ أُعْطِيَهَا عَلَى شَرْطِهَا ، وَشَرْطُهَا أَنْ تَنْتَهِيَ ؛ فَسَعَادَتُهُ فِي أَنْ يَعْرِفَ هَذَا وَيَقَرَّرَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَقِينَهُ ، كَمَا يَسْتَقِينُ أَنْ الْمَطَرُ أَوَّلُ فَضْلِ الْكَلَالِ الْأَخْضَرِ . فَإِذَا فَعَلَ { ذَلِكَ } وَأَيَقَنَ وَأَطْمَأَنَّ ، جَاءَتِ النَّهَايَةُ مُتَمِّمَةً لَهُ لَا نَاقِصَةً إِيَّاهُ ، وَجَرَتْ مَعَ الْعُمَرِ مَجْرَى وَاحِدًا وَكَانَ قَدْ عَرَفَهَا وَأَعَدَّ لَهَا . أَمَّا إِذَا حَسِبَ الْحَيُّ أَنَّهُ شَيْءٌ فِي الْحَيَاةِ ، وَقَدْ أُعْطِيَهَا عَلَى شَرْطِهَا هُوَ ، مِنْ تَوْهَمِ الطَّمَعِ فِي الْبَقَاءِ وَاللَّعِيمِ ، فَكُلُّ شَقَاءٍ الْحَيِّ فِي وَهْمِهِ ذَلِكَ ، وَفِي عَمَلِهِ عَلَى هَذَا الْوَهْمِ ؛ إِذْ لَا تَكُونُ النَّهَايَةُ جِئْتُهُ فِي مَجِيئِهَا إِلَّا كَالْعُقُوبَةِ أَنْزَلَتْ بِالْعُمَرِ كُلِّهِ ، وَتَجِيءُ هَادِمَةً مُنْعَصَةً ، وَيَبْلُغُ مِنْ تَكْنِيْدِهَا أَنْ تَسْبِقَهَا أَلَمُهَا ، فَتُؤَلِّمُ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ ، شَرًّا مِمَّا تُؤَلِّمُ حِينَ تَجِيءُ !

لَقَدْ كَانَ جَدِّي وَآلَهُ حَكِيمًا يَوْمَ قَالَ لِي : إِنَّ الَّذِي يَعِيشُ مُرَقَّبًا النَّهَايَةَ يَعِيشُ مُعِدًّا لَهَا ؛ فَإِنْ كَانَ مُعِدًّا لَهَا عَاشَ رَاضِيًا بِهَا ، فَإِنْ عَاشَ رَاضِيًا بِهَا كَانَ عُمَرُهُ فِي حَاضِرِ

مُسْتَعْمِرٌ ، كَأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ يَشْهَدُ أَوَّلَهَا وَيُحْسِنُ آخِرَهَا ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الزَّمَنُ أَنْ يُنْعَصَ عَلَيْهِ مَا دَامَ يَتَقَادَمُ مَعَهُ وَيَنْسَجِمُ فِيهِ ، غَيْرَ مُحَاوِلٍ فِي اللَّيْلِ أَنْ يُبْعِدَ الصُّبْحَ ، وَلَا فِي الصُّبْحِ أَنْ يُبْعِدَ اللَّيْلَ . قَالَ لِي جَدِّي : وَالْإِنْسَانُ وَحْدَهُ هُوَ الْبَعْسُ الَّذِي يُحَاوِلُ طَرْدَ نَهَايَتِهِ ، فَيَسْقَى شَقَاءَ الْكَبْشِ الْأَخْرَقِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَطْرُدَ اللَّيْلَ ، فَيَبِيتُ يَنْطَحُ الظُّلْمَةَ الْمُتَدَجِّجَةَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَهُوَ لِحُمُقِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْطَحُ اللَّيْلَ بِقُرْنَيْهِ وَيُزْخِرْهُ ... !

وَكَمْ قَالَ لِي ذَلِكَ الْجَدُّ الْحَكِيمُ وَهُوَ يَعْظِي : إِنَّ الْخَيَوَانَ مِثًا إِذَا جَمَعَ عَلَى نَفْسِهِ هَمًّا وَاحِدًا ، صَارَ بِهِذَا أَلْهَمَ إِنْسَانًا نَعَسًا شَقِيًّا ، يُعْطَى الْحَيَاةَ فَيَقْبَلُهَا بِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا كَالْمَوْتِ ، أَوْ مَوْتًا بِلَا شَيْءٍ ... !

\* \* \*

وَتَحَرَّكَ الصَّغِيرُ مِنْ نَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْكَبِشُ : إِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي أَنَّكَ السَّاعَةُ كُنْتُ فِي شَأْنٍ عَظِيمٍ ، فَمَا بِأَنَّكَ مُتَنَفِّحًا وَأَنْتَ هَلْهَنًا فِي الْمُنَحْرِ لَا فِي الْمَرْعَى !  
قَالَ الصَّغِيرُ : يَا أَخَا جَدِّي ... لَقَدْ تَحَقَّقْتُ أَنَّكَ هَرِمْتَ وَخَرِفْتَ ، وَأَصْبَحْتَ تَعْمُجُ اللَّعَابَ وَالرَّأْيَ ... !  
قَالَ الْكَبِشُ : فَمَا ذَاكَ وَنِلْكَ ؟

قَالَ : إِنَّكَ قُلْتَ : إِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ غَادِ عَلَيْنَا بِالشُّفْرَةِ الْبَيْضَاءِ ، وَوَصَفْتَ الذَّبْحَ وَالسَّلَاحَ وَالْأَكْلَ ؛ وَأَنَا السَّاعَةُ قَدْ بَنَيْتُ قَرَأَيْتُ فِيمَا أَرَى ، أَتَنِي نَطَحْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي جَاءَ بِنَا إِلَى هُنَا ، وَهَجْتُ بِهِ حَتَّى صَرَعْتُهُ ، ثُمَّ إِنِّي أَخَذْتُ الشُّفْرَةَ بِأَسْنَانِي ، فَتَلَمَّعَتْ فِي نَحْرِهِ حَتَّى ذَبَحْتُهُ ، ثُمَّ أَقْتَلَدْتُ مِنْهُ مُضْغَةً فَلَكْتُهَا فِي فَمِي ؛ فَمَا عَرَفْتُ وَآلَهُ فِيمَا عَرَفْتُ لَحْنًا وَلَا عَفْنًا فِي الْكَلَالِ هُوَ أَقْبَحُ مَذَاقًا مِنْهُ !

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ لَحْمَنَا ، وَيَتَغَدَّى بِنَا ، وَيَعِيشُ عَلَيْنَا ؛ فَمَا أَسْعَدَنَا أَنْ نَكُونَ لغيرنا فَائِدَةً وَحَيَاةً ، وَإِذَا كَانَ الْفَنَاءُ سَعَادَةً نُعْطِيهَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، فَهَذَا الْفَنَاءُ هُوَ سَعَادَةٌ نَأْخُذُهَا لِأَنْفُسِنَا ، وَمَا هَلَاكَ الْحَيُّ لِقَاءَ مَنَفْعَةٍ لَهُ أَوْ مَنَفْعَةٍ مِنْهُ إِلَّا أَنْطَلَقَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي جَعَلَتْهُ حَيًّا ، صَارَتْ حُرَّةً فَأَنْطَلَقَتْ تَعْمَلُ أَفْضَلَ أَعْمَالِهَا .

قَالَ الْكَبِيرُ : لَقَدْ صَدَقْتَ وَاللَّهِ ، وَتَحْنُ بِهِذَا أَعْقَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ الْإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّهُ يَقْضِي الْعُمُرَ آخِذَا لِنَفْسِهِ ، مُتْكَالِبًا عَلَى حَظِّهَا ، وَلَا يُعْطِي مِنْهَا إِلَّا بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَالْخَوْفِ . تَعَالَ أَهْيَا الدَّابِغُ ، تَعَالَ خُذْ هَذَا اللَّحْمَ وَهَذَا الشَّخَمَ ؛ تَعَالَ أَهْيَا الْإِنْسَانُ لِتُعْطِيكَ ؛ تَعَالَ أَهْيَا الشَّحَّادُ ... !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## الْطُّفُولَتَانِ (\*)

عَصَمَتْ ابْنُ فُلَانٍ بَاشَا طِفْلٌ مُتَرَفٌ يَكَادُ يَنْعَصِرُ لِنَنَا ، وَتَرَاهُ يَرِفُ رَفِيفًا مِمَّا نَشَأَ فِي ظِلَالِ الْعِزِّ ، كَأَنَّ لِرُوحِهِ مِنَ الرِّقَّةِ مِثْلَ ظِلِّ الشَّجَرَةِ حَوْلَ الشَّجَرَةِ . وَهُوَ بَيْنَ لِدَاتِهِ مِنْ الصَّبْيَانِ كَالشُّوْكَةِ الْخَضِرَاءِ فِي أُمْلُوذَهَا الْزَيَّانِ ، لَهَا مَنْظَرُ الشُّوْكَةِ ؛ عَلَى مَجَسَّةٍ لَبَنَةٍ نَاعِمَةٍ تُكَذِّبُ أَنَّهَا شُوْكَةٌ إِلَّا أَنَّ تَبَيُّسَ وَتَتَوَقَّحَ .

وَأَبُوهُ فُلَانٌ || بَاشَا || مُدِيرٌ لِمُدِيرِيَّةٍ كَذَا ، إِذَا سَبِلَ عَنْهُ أَهْنُهُ قَالَ : إِنَّهُ مُدِيرُ الْمُدِيرِيَّةِ . لَا يَكَادُ يَغْدُو هَذَا التَّرَكِيبَ ، كَأَنَّهُ مِنْ غُرُورِ التَّعَمُّعِ يَأْتِي إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ أَبَاهُ مُدِيرًا مَرَّتَيْنِ . . . وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ التَّعَمُّعُ بِذِيئَةٍ وَقَاحًا سَبِيئَةِ الْأَدَبِ فِي أَوْلَادِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ الْغِنَى فِي أَهْلِهِ غِنَى مِنَ السَّيِّئَاتِ لَا غَيْرَ !

وَفِي رَأْيِي عَصَمَتْ أَنَّ أَبَاهُ مِنْ عُلوِّ الْمَنْزِلَةِ كَأَنَّهُ عَلَى جَنَاحِ النَّسْرِ الطَّائِرِ فِي مَسْبَحِهِ إِلَى النَّجْمِ ، أَمَّا آبَاءُ الْأَطْفَالِ مِنَ النَّاسِ فَهُمْ عِنْدَهُ مِنْ سُقُوطِ الْمَنْزِلَةِ عَلَى أَجْنِحَةِ الدُّبَابِ وَالْبُعُوضِ ! وَلَا يَغْدُو ابْنُ الْمُدِيرِ إِلَى مَدْرَسَتِهِ وَلَا يَتَرَوَّحُ مِنْهَا إِلَّا وَرَاءَهُ جُنْدِيٌّ يَمْسِي عَلَى إِثَرِهِ فِي الْغَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ إِذْ كَانَ ابْنُ الْمُدِيرِ ، أَيُّ : ابْنُ الْقُوَّةِ الْحَاكِمَةِ ، فَيَكُونُ هَذَا الْجُنْدِيُّ وَرَاءَهُ هَذَا الطِّفْلُ كَالْمَنْبَهَةِ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ ، تُفْصِحُ شَارَتُهُ الْعَسْكَرِيَّةُ بِلُغَاتِ السَّابِلَةِ جَمْعَاءَ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ الْمُدِيرِ . فَإِذَا رَأَاهُ الْعَرَبِيُّ أَوْ الْيُونَانِيُّ ، أَوْ الطُّلُبَانِيُّ أَوْ الْفِرَنْسِيُّ ، أَوْ الْإِنْكِلِيزِيُّ أَوْ كَائِنْ مِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَلْسِنَةِ الْمُتَنَافِرَةِ الَّتِي لَا يَفْهَمُ لِسَانَ مِنْهَا عَنْ لِسَانٍ - فَهَمُّوا جَمِيعًا مِنْ لُغَةٍ هَذِهِ الشَّارَةِ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ الْمُدِيرِ ؛ . وَأَنَّهُ مِنَ الْجُنْدِيِّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ كَالْمَادَّةِ مِنَ الْقَانُونِ وَرَاءَهَا الشَّرْحُ . . . !

وَلَقَدْ كَانَ يَجِبُ لِابْنِ الْمُدِيرِ هَذَا الشَّرَفُ الصَّبِيَّانِيُّ . لَوْ أَنَّهُ يَوْمٌ وَلِدَ لَمْ يُؤَلِدْ ابْنٌ سَاعَتِهِ

(\*) « الرسالة » العدد : ٨٧ ، ٢٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ = ٤ مارس / آذار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٣٢٣ - ٣٢٦ .



كَأَطْفَالِ النَّاسِ ، بَلْ وُلِدَ ابْنٌ عَشْرَ سِنِينَ كَامِلَةً لِتَشْهَدَ لَهُ الطَّبِيعَةُ أَنَّهُ كَبِيرٌ قَدْ انْصَدَعَتْ بِهِ مُعْجَزَةٌ ! وَإِلَّا فَكَيْفَ يَمْشِي الْجُنْدِيُّ مِنْ جُنُودِ الدَّوْلَةِ وَرَاءَ طِفْلِ فَيَنْبَعُهُ وَيَخْدُمُهُ وَيَنْصَاعُ لِأَمْرِهِ ؛ وَهَذَا الْجُنْدِيُّ لَوْ كَانَ طَرِيدَ هَزِيمَةٍ قَدْ فَرَّ فِي مَعْرَكَةٍ مِنَ مَعَارِكِ الْوَطَنِ ، وَأُرِيدَ تَخْلِيْدُهُ فِي هَزِيمَتِهِ وَتَخْلِيْدُهَا عَلَيْهِ بِالتَّصَوُّيرِ - لَمَا صُوِّرَ إِلَّا جُنْدِيًّا فِي شَارَتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ مُنْقَادًا لِمَنْ لِي هَذَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ كَالْخَادِمِ ؛ فِي صُورَةٍ يُكْتَبُ تَحْتَهَا : « نَفَايَةُ عَسْكَرِيَّةٌ ! » .

\* \* \*

لَيْسَ لِهَذَا الْمَنْظَرِ الْكَثِيرُ خُذُوهُ فِي مَضَرٍّ إِلَّا تَأْوِيلٌ وَاحِدٌ : هُوَ أَنَّ مَكَانَ الشَّخْصِيَّاتِ فَوْقَ الْمَعْنَانِ ، وَإِنْ صَغُرَتْ تِلْكَ وَجَلَّتْ هَذِهِ ؛ وَمِنْ هُنَا يَكْدِبُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْصِبِ ، فَيُرْفَعُ شَخْصُهُ فَوْقَ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا ؛ فَيَكْبُرُ عَنْ أَنْ يَكْدِبَ فَيَكُونُ كَذِبُهُ هُوَ الصِّدْقُ ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ كَذِبُهُ ، أَيْ : صِدْقُهُ ... ! وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَقَرَّرَ فِي الْأُمَّةِ أَنَّ كَذِبَ الْقُوَّةِ صِدْقٌ بِالْقُوَّةِ !

وَعَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ يُقَاسُ غَيْرُهَا مِنْ كُلِّ مَا يُخْذَلُ فِيهِ الْحَقُّ . وَمَتَى كَانَتْ الشَّخْصِيَّاتُ فَوْقَ الْمَعْنَانِ السَّامِيَةِ طَفِقَتْ هَذِهِ الْمَعْنَانِ تَمْوجُ مَوْجَهَا مُحَاوِلَةً أَنْ تَعْلُو ، مُكْرَهَةً عَلَى أَنْ تَنْزِلَ ؛ فَلَا تَسْتَقِيمُ عَلَى جِهَةٍ وَلَا تَنْتَظِمُ عَلَى طَرِيقَةٍ ؛ وَتَقْبَلُ بِالشَّيْءِ عَلَى مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ تَكْزُرُ كَرَاهًا فَتَذِيرُ بِهِ إِلَى غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، فَتُضِلُّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِكِبَرِائِهَا ، وَلَا تَكُونُ الْأُمَّةُ عَلَى هَيْدِهِ الْحَالَةِ فِي كُلِّ طَبَقَاتِهَا إِلَّا صِغَارًا فَوْقَهُمْ كِبَارُهُمْ ؛ وَتِلْكَ هِيَ تَهْيِئَةُ الْأُمَّةِ لِلْإِسْتِعْبَادِ مَتَى أَبْتَلَيْتَ بِالَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كِبَارِهَا ؛ وَمِنْ تِلْكَ تَنْشَأُ فِي الْأُمَّةِ طَبِيعَةُ التَّفَاقِ يَخْتَمِي بِهِ الصَّغَرُ مِنَ الْكِبَرِ ، وَتَنْتَظِمُ بِهِ أُلْفَةُ الْحَيَاةِ بَيْنَ الدَّلَّةِ وَالصَّوْلَةِ !

\* \* \*

وَتَخَلَّفَ الْجُنْدِيُّ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ مَوْعِدِ الرِّوَاكِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، فَخَرَجَ عِصْمَتُ فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَبَدَا لَهُ أَنْ يَتَسَكَّعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ لِيَنْطَلِقَ فِيهِ ابْنُ آدَمَ لَا ابْنَ الْمُدِيرِ ، وَحَرَّ حَيْنَتُهُ إِلَى الْمَغَامَرَةِ فِي الطَّبِيعَةِ ، وَلَبِسَتْ الطَّرُقُ فِي خَيَالِهِ الصَّغِيرِ زِينَتَهَا الشَّعْرِيَّةَ بِأَطْفَالِ الْأَرْقَةِ يَلْعَبُونَ وَيَتَهَوَّشُونَ وَيَتَعَابَتُونَ وَيَسْأَحَتُونَ ، وَهُمْ شَتَّى وَكَأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ بَيْتٍ وَاحِدٍ مَسَّتْ

بِكُلِّ مَنْ كُلِّ رَحِمٍ ، إِذْ لَا يَتَسَبَّوْنَ فِي اللَّهِ إِلَّا إِلَى الطُّفُولَةِ وَخَدَهَا .  
وَأَسَاقَ عِصْمَتُ وَرَاءَ خَيَالِهِ ، وَهَرَبَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي يَمْشِي فِيهَا الْجُنْدِيُّ وَرَاءَ ابْنِ الْمُدِيرِ ، وَتَغْلَغَلَ فِي الْأَرْقَةِ لَا يُبَالِي مَا يَعْرِفُ مِنْهَا وَمَا لَا يَعْرِفُ ، إِذْ كَانَ يَسِيرُ فِي طُرُقِ جَدِيدَةٍ عَلَى عَيْنِهِ كَأَنَّمَا يَحْلُمُ بِهَا فِي مَدِينَةٍ مِنْ مَدِينِ النَّوْمِ .

وَأَتَتْهُ إِلَى كِبْكَبَةٍ مِنَ الْأَطْفَالِ قَدْ اسْتَجْمَعُوا لِشَأْنِهِمُ الصَّبْيَانِي ، فَأَتَبَذَّ نَاحِيَةً وَوَقَفَ يُصْغِي لِيَلْهِمُ مَهَيِّبًا أَنْ يُقَدِّمَ ، فَأَتَصَلَ بِسَمْعِهِ وَنَظَرِهِ كَالْجَبَانِ ، وَتَسَمَّعَ فَإِذَا خَبِثَتْ مِنْهُمْ يُعْلَمُ الْآخِرَ كَيْفَ يَضْرِبُ إِذَا أَعْتَدَى أَوْ أَعْتَدِيَ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : أَضْرِبْ أَيْنَمَا ضَرَبْتَ ، مِنْ رَأْسِهِ ، مِنْ وَجْهِهِ ، مِنْ الْخَلْقُومِ ، مِنْ مَرَاقِ الْبَطْنِ ؛ قَالَ الْآخَرُ : وَإِذَا مَاتَ ؟ فَقَالَ الْخَبِيثُ : وَإِذَا مَاتَ فَلَا تَقُلْ إِنِّي أَنَا عَلَّمْتُكَ ... !

وَسَمِعَ طِفْلًا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : أَمَا قُلْتَ لَكَ : إِنَّهُ تَعَلَّمَ السَّرِقَةَ مِنْ رُؤْيَيْهِ اللَّصُوصِ فِي السَّيِّمَا ؟ فَأَجَابَهُ صَاحِبُهُ : وَهَلْ قَالَ لَهُ أَوْلَيْكَ اللَّصُوصُ الَّذِينَ فِي السَّيِّمَا كُنْ لَصًا وَاعْمَلْ مِثْلًا ؟

وَقَامَ مِنْهُمْ شَيْطَانٌ فَقَالَ : يَا أَوْلَادَ الْبَلَدِ ، أَنَا الْمُدِيرُ ! تَعَالَوْا وَقُولُوا لِي : « يَا سَعَادَةَ الْبَاشَا ! إِنَّ أَوْلَادَنَا يُرِيدُونَ الذَّهَابَ إِلَى الْمَدَارِسِ ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَذْفَعَ لَهُمْ الْمَضْرُوفَاتِ ... » فَقَالَ الْأَوْلَادُ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ : « يَا سَعَادَةَ الْبَاشَا ! إِنَّ أَوْلَادَنَا يُرِيدُونَ الذَّهَابَ إِلَى الْمَدَارِسِ ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَذْفَعَ لَهُمْ الْمَضْرُوفَاتِ » فَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَعَادَتُهُ : اشْتَرُوا لِأَوْلَادِكُمْ أَحَدِيَّةً وَطَرَابِيشَ وَثِيَابًا نَظِيفَةً ، وَأَنَا أَذْفَعُ لَهُمْ الْمَضْرُوفَاتِ .  
فَنَظَرَ إِلَيْهِ خَبِيثٌ مِنْهُمْ وَقَالَ : يَا سَعَادَةَ الْمُدِيرِ ! وَأَنْتَ فَلِمَ آدَا لَمْ يَشْتَرِ لَكَ أَبْنُوكَ حِذَاءً ... ؟

وَقَالَ طِفْلٌ صَغِيرٌ : أَنَا أَبْنُوكَ يَا سَعَادَةَ الْمُدِيرِ ، فَأَرْسَلْنِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَقَتَ الظُّهْرِ فَقَطْ ... !

\* \* \*

وَكَانَ عِصْمَتُ يَسْمَعُ وَنَفْسُهُ تَهْتَرُ وَتَرْفُ بِإِحْسَاسِهَا ، كَالْوَرْقَةِ الْخَضِرَاءِ عَلَيْهَا طَلٌّ

الثَّلَاثِ ، وَأَخَذَ قَلْبَهُ يَفْتَحُ فِي شُعَاعِ الْكَلَامِ كَالزُّهْرَةِ فِي الشَّمْسِ ؛ وَسَكَّرَ بِمَا يَسْكُرُ بِهِ الْأَطْفَالُ حِينَ تُقَدَّمُ لَهُمُ الطَّبِيعَةُ مَكَانَ اللَّهِ مُعَدًّا مُهَيَّأً ، كَالْحَانَةِ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَسْبَابُ السُّخْرِ وَالشَّوَةِ ، وَتَمَامٌ لَدُنْهَا أَنَّ الزَّمْنَ فِيهَا مَنَسِيٌّ ، وَأَنَّ الْعَقْلَ فِيهَا مُهْمَلٌ ...

وَأَحْسَنَ ابْنِ الْمُدِيرِ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ حِينَ يَنْطَلِقُ فِيهَا جَمَاعَةُ الْأَطْفَالِ عَلَى سَجِيَّتِهِمْ وَسَجِيَّتِهَا - إِنَّمَا هِيَ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي لَا جُذْرَانَ لَهَا ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ الْوُجُودِ لِلطِّفْلِ تَرْبِيَةً تَتَنَاوَلُهُ مِنْ أَدَقِّ أَغْصَانِهِ فَتُبْدُو قَوَاهُ ثُمَّ تَجْمَعُهَا لَهُ أَقْوَى مَا كَانَتْ ، وَتُفَرِّغُهُ مِنْهَا ثُمَّ تَمْلُؤُهُ بِمَا هُوَ أَتَمُّ وَأَزِيدُ . وَبِذَلِكَ تُكْسِبُهُ نُمُوً نَشَاطِهِ ، وَتُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَنْبَغُ لِتَحْقِيقِ هَذَا النِّشَاطِ ، فَتَهْدِيهِ إِلَى أَنْ يُبْدِعَ بِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَظِرُ مَنْ يُبْدِعُ لَهُ ، وَتَجْعَلُ خَطَايَا دَائِمًا وَرَاءَ أَشْيَاءَ جَدِيدَةٍ ، فَتُسَدِّدُهُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلَى سِرِّ الْإِبْدَاعِ وَالْإِنْكَارِ ، وَتُلْقِيهِ الْعِلْمَ الْأَعْظَمَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، عِلْمَ نَضْرَةِ نَفْسِهِ وَسُرُورِهَا وَمَرْحِهَا ، وَتَطْبَعُهُ عَلَى الْمَزَاجِ الْمُتَطَلِّقِ الْمُتَهَلِّلِ الْمُتَفَاتِلِ ، وَتَتَدَقَّقُ بِهِ عَلَى دُنْيَاهُ كَالْفَيْضَانِ فِي النَّهْرِ ، تَقُورُ الْحَيَاةَ فِيهِ وَتَقُورُ بِهِ ، لَا كَأَطْفَالِ الْمَدَارِسِ الْخَامِدِينَ ، تَعْرِفُ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ شَكْلَ الطِّفْلِ وَلَيْسَ لَهُ وَجُودُهُ وَلَا عَالَمُهُ ، فَيَكُونُ الْمُسْكِنُ فِي الْحَيَاةِ وَلَا يَجِدُهَا ، ثُمَّ تَرَاهُ طِفْلاً صَغِيرًا ، وَقَدْ جَمَعُوا لَهُ هُمُومَ رَجُلٍ كَامِلٍ !

وَدَبَّتْ رُوحُ الْأَرْضِ دَبِيبَهَا فِي عِصْمَتِ ، وَأَوْحَتْ إِلَى قَلْبِهِ بِأَسْرَارِهَا ، فَادْرَكَ مِنْ شُعُورِهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَغْمَارَ الْأَغْيَاءَ مِنْ أَوْلَادِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، هُمُ السُّعْدَاءُ بِطُفُولَتِهِمْ ، وَأَنَّهُ هُوَ وَأَمَنَالُهُ هُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ فِي الطُّفُولَةِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ الْجُنْدِيُّ الَّذِي يَمُشِي وَرَاءَهُ لِنِعْمَتِهِمْ إِنَّمَا هُوَ سَجْنٌ ؛ وَأَنَّ الْأَلْعَابَ خَيْرٌ مِنَ الْعُلُومِ ، إِذْ كَانَتْ هِيَ طِفْلِيَّةَ الطِّفْلِ فِي وَفَيْهَا ، أَمَّا الْعُلُومُ فَرُجُولَةٌ مُلَزَقَةٌ بِهِ قَبْلَ وَفَيْهَا نُوقَرُهُ وَتُحَوَّلُهُ عَنْ طِبَاعِهِ ، فَتَقْتُلُ فِيهِ الطُّفُولَةَ وَتَهْدِمُ أَسَاسَ الرُّجُولَةِ ، فَيَنْشَأُ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَذِهِ وَلَا إِلَى هَذِهِ ، وَيَكُونُ فِي الْأَوَّلِ طِفْلاً رَجُلًا ، ثُمَّ يَكُونُ فِي الْآخِرِ رَجُلًا طِفْلاً .

وَأَحْسَنُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ أَنَّ مَدْرَسَةَ الطِّفْلِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هِيَ بَيْتُهُ الْوَاسِعُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ أَنْ يَصْرُخَ فِيهِ صُرَاخُهُ الطَّبِيعِيِّ ، وَيَتَحَرَّكَ حَرَكَتَهُ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ مَدْرَسُونَ وَلَا طَلَبَةٌ ، وَلَا حَامِلُوا الْعِصِيِّ مِنَ الضَّبَاطِ ؛ بَلْ حَقُّ الْبَيْتِ الْوَاسِعِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ الْأَبْوَةُ الْوَاسِعَةُ ، وَالْأَخَوَةُ الَّتِي تَنْفَسُحُ لِلنِّمَاتِ ؛ فَيَمُرُّ الطِّفْلُ الْمُتَعَلِّمُ فِي نَشْأَتِهِ مِنْ مَتَرٍ إِلَى مَتَرٍ إِلَى مَتَرٍ ، عَلَى تَدْرِيجٍ فِي التَّوَسُّعِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، مِنَ الْبَيْتِ ، إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، إِلَى الْعَالَمِ .

\* \* \*

وَكَانَ عِصْمَتُ يَحْلُمُ بِهِذِهِ الْأَخْلَامَ الْفَلَسَفِيَّةَ ، وَطُفُولَتُهُ تَشِبُّ وَتَسْتَرْجِلُ ، وَرَخَاوَتُهُ تَشْتَدُّ وَتَتَمَاسِكُ ؛ وَكَانَتْ حَرَكَاتُ الْأَطْفَالِ كَأَنَّهَا تُحَرِّكُهُ مِنْ دَاخِلِهِ ، فَهُوَ مِنْهُمْ كَالطِّفْلِ فِي السَّيْمَا حِينَ يَشْهَدُ الْمُتَلَاعِينَ وَالْمُتَصَارِعِينَ ، يَسْتَطِيرُهُ الْفَرْحُ ، وَيَتَوَثَّبُ فِيهِ الطِّفْلُ الطَّبِيعِيُّ بِمَرْحِهِ وَغَفْوَانِهِ ، وَتَتَقَلَّصُ عَضَلَاتُهُ ، وَيَتَكَشَّفُ جِلْدُهُ ، وَتَجْتَمِعُ قُوَّتُهُ ؛ حَتَّى كَأَنَّهُ سَيِّظَاهُ أَحَدَ الْخَضَمِينَ وَيَلْكُمُ الْآخَرَ فَيَكُونُهُ وَيَصْرَعُهُ ، وَيَقْضَى مَعْرَكَةَ الضَّرْبِ الْحَدِيدِيِّ بِضَرْبَتِهِ اللَّيِّنَةِ الْحَرِيرِيَّةِ ... !

فَمَا لَيْتَ صَاحِبِنَا الْغَرِيرَ النَّاعِمَ أَنْ تَخْشَنَ ، وَمَا كَذَّبَ أَنْ أَفْتَحَمَ ، وَكَأَنَّمَا أَقْبَلَ عَلَى رُوحِهِ الشَّارِعَ وَالْأَطْفَالَ وَلَهُوَهُمْ وَعَبَثُهُمْ ، إِقْبَالَ الْجَوِّ عَلَى الطَّيْرِ الْحَبِيسِ الْمُعْلَقِ فِي مِسْمَارٍ إِذَا أَنْفَرَجَ عَنْهُ الْفَقْصُ ، وَإِقْبَالَ الْعَابَةِ عَلَى الْوَحْشِ الْقَنِيصِ إِذَا وَتَبَ وَتَبَّتْ الْحَيَاةُ فَطَارَ بِهَا ؛ وَإِقْبَالَ الْفَلَاةِ عَلَى الطَّيْرِ الْأَسِيرِ إِذَا نَاوَصَ فَأَلْتِكَ مِنَ الْجِبَالَةِ .

وَتَقَدَّمَ فَادَّعَمَ فِي الْجَمَاعَةِ وَقَالَ لَهُمْ : أَنَا ابْنُ الْمُدِيرِ . فَتَنَظَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعًا ، ثُمَّ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَسَفَرَتْ أَفْكَارُهُمُ الصَّغِيرَةُ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ ، وَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : إِنَّ حِذَاءَهُ وَثِيَابَهُ وَطَرَبُوشَهُ كُلُّهَا تَقُولُ إِنَّ أَبَاهُ الْمُدِيرُ .

فَقَالَ آخَرُ : وَوَجْهُهُ يَقُولُ إِنَّ أُمَّهُ امْرَأَةُ الْمُدِيرِ ... !

فَقَالَ الثَّلَاثُ : لَيْسَتْ كَأَمِّكَ يَا بَعْطِيطِي وَلَا كَأَمِّ جُعْلُصٍ !<sup>(١)</sup>

قَالَ الرَّابِعُ : يَا وَيْلَكَ لَوْ سَمِعَ جُعْلُصٌ ، فَإِنَّ لَكَمَاتِهِ حِينْتِئِذٍ لَا تَتْرُكُ أَمَّكَ تَعْرِفُ وَجْهَكَ مِنْ أَلْفَا !

قَالَ الْخَامِسُ : وَمَنْ جُعْلُصٌ هَذَا ؟ فَلَيَاتِ لِأَرِيكُمْ كَيْفَ أَصَارَعُهُ ، فَاجْتَذِبَهُ ، فَأَعْرِضَهُ بَيْنَ يَدَيْ ، فَأَعْتَقَلَ رِجْلَهُ بِرِجْلِي ، فَأَذْفَعُهُ ، فَتَحَاذَلُ ، فَأَعْرَكُهُ ، فَفَجَّرَ عَلَى وَجْهِهِ ؛ فَأَسْمَرُهُ فِي الْأَرْضِ بِمِسْمَارٍ !

فَقَالَ السَّادِسُ : هَاهَا ! إِنَّكَ تَصِفُ بِأَدَقِّ الْوَصْفِ مَا يَفْعَلُهُ جُعْلُصٌ لَوْ تَنَاوَلَكَ فِي

يَدِهِ ... !

(١) لِلْعَامَةِ أَسْمَاءُ وَتُسَبَّ غَرِيَّةً ، مِنْهَا هَذِهِ .

فَصَاحَ السَّابِعُ : وَيَلَكُمْ ! هَا هُوَذَا . جُعْلُصُ ، جُعْلُصُ ، جُعْلُصُ !  
فَتَطَايَرَ الْبَاتُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا كَالْوَرَقِ الْجَافِ تَحْتَ الشَّجَرِ ضَرْبَتُهُ الرِّيحِ الْعَاصِفِ .  
وَفَهَقَ الصَّبِيُّ مِنْ وَرَائِهِمْ ، فَتَابُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَرَا جَعُوا . وَقَالَ الْمُسْتَظِلُّ مِنْهُمْ : أَمَا إِنِّي  
كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ يَغْدُوَ جُعْلُصُ وَرَائِي ، فَاسْتَطَرْتُ إِلَيْهِ قَلِيلًا أَطِيعُهُ فِي نَفْسِي ، ثُمَّ أَرْتَدُّ عَلَيْهِ  
فَأَخْذُهُ كَمَا فَعَلَ « مَا شِيسْتُ الْجَبَّارِ »<sup>(١)</sup> فِي ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الَّذِي شَاهَدْنَاهُ .

وَفَهَقَ الصَّبِيَّانِ جَمِينًا ... ! ثُمَّ أَحَاطُوا بِعِصْمَتِ إِحَاطَةِ الْعُشَاقِ بِمَعْشُوقَةٍ جَمِيلَةٍ ،  
يُحَاوِلُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ الْمُقَرَّبَ الْمَخْصُوصَ بِالْحُظُوءِ ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ ابْنُ الْمُدِيرِ  
فَحَسِبَ ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ابْنَ الْمُدِيرِ تَكُونُ مَعَهُ الْقُرُوشُ ... فَلَوْ وَجِدَتْ هَذِهِ  
الْقُرُوشُ مَعَ ابْنِ زَبَّالٍ لَمَا مَنَعَهُ نَسَبُهُ أَنْ يَكُونَ أَمِيرَ السَّاعَةِ بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ تَنفَدَ قُرُوشُهُ فَيَعُودَ  
ابْنُ زَبَّالٍ ... !

وَتَنَافَسُوا فِي عِصْمَتِ وَمُلَاعِبَتِهِ وَالْإِخْتِصَاصِ بِهِ ، فَلَوْ جَاءَ الْمُدِيرُ نَفْسُهُ يَلْعَبُ مَعَ  
آبَائِهِمْ وَيَرْكَبُهُمْ وَيَرْكَبُونَهُ ، وَهُمْ بَيْنَ نَجَارٍ وَحَدَّادٍ ، وَبَنَاءٍ وَحَمَّالٍ ، وَخُودِيٍّ وَطَبَّاحٍ ؛  
وَأَمَّا لَهُمْ مِنْ ذَوِي الْمِهْنَةِ وَالْمَكْسَبَةِ الضَّئِيلَةِ - لَكَانَتْ مَطَامِعُ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ فِي ابْنِ  
الْمُدِيرِ ، أَكْبَرَ مِنْ مَطَامِعِ الْآبَاءِ فِي الْمُدِيرِ .

وَجَرَتْ الْمُنَافَسَةُ بَيْنَهُمْ مَجْرَاهَا ، فَانْقَلَبَتْ إِلَى مُلَاحَاةٍ ، وَرَجَعَتْ هَذِهِ الْمُلَاحَاةُ إِلَى  
مُشَاحَنَةٍ ، وَعَادَ ابْنُ الْمُدِيرِ هَدَفًا لِلْجَمِيعِ يُدَافِعُونَ عَنْهُ وَكَأَنَّمَا يَغْتَدُونَ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا يَقْصِدُ  
أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا بِالْغَيْظِ إِلَّا تَعَمَّدَ غَيْظَ حَبِيبِهِ ، لِيَكُونَ أُنْكَالُهُ وَأَشَدَّ عَلَيْهِ !

وَنَظَّاهَرُوا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَنَشَأَتْ بَيْنَهُمْ الطَّوَائِلُ ، وَأَفْسَدَهُمْ هَذَا الْغَيْثُ الْمُمَثِّلُ  
بَيْنَهُمْ . وَبِمَا أَغْجَبَ إِذْ رَأَى الطُّفُولَةَ وَالْهَامَاهَا ! فَقَدْ اجْتَمَعَتْ نَفُوسُهُمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ ،  
فَتَحَوَّلُوا جَمِينًا إِلَى سَفَاهَةٍ وَاحِدَةٍ أَحَاطَتْ بِابْنِ الْمُدِيرِ ، فَخَاطَرَهُ أَحَدُهُمْ فِي اللَّعِبِ  
فَقَمَرَهُ ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَغْلُوَ ظَهْرُهُ وَيَرْكَبَهُ ؛ وَأَبَى عَلَيْهِ ابْنُ الْمُدِيرِ وَدَافَعَهُ ، يَرَى ذَلِكَ ثَلَمًا فِي

(١) بَحَارُ إِيطَالِي كَالْمَارِدِ ؛ عَرِضُ الْأَلْوَحِ ، وَتَبَقُّؤُ التَّرَكِيبِ ، يَنْجَبُ الْأَطْفَالُ بِهِ أَشَدَّ الْعَجَبِ ، وَإِذَا  
شَهِدُوهُ فِي السُّيَمَا كَادَ تَمَنُّيُهُ نَسَبُ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ إِلَى سِنِّ الرُّجُولَةِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

شَرَفِهِ وَنَسَبِهِ وَسَطُوَةِ أَبِيهِ ؛ فَلَمْ يَكْذُ يَغْتَلْ بِهِذِهِ الْعِلَّةُ وَيَذْكُرُ أَبَاهُ لِيَعْرِفَهُمْ آبَاءُهُمْ ... حَتَّى  
هَاجَتْ كِبَرِيَاؤُهُمْ ، وَثَارَتْ دَفَائِنُهُمْ ، وَرَقَصَتْ شَيَاطِينُ رُؤُوسِهِمْ ؛ وَبِذَلِكَ وَضَعَ الْغَرِيبُ  
حِفْذَ الْفَقْرِ بِإِزَاءِ سُخْرِيَةِ الْغِنَى ؛ فَالْقَى بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةَ الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى فِي هَذَا الْعَالَمِ ،  
وَطَرَحَهَا لِلْحَلِّ ... !

وَتَنَفَّسُوا لِلصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، فَسَخِرَ مِنْهُ أَحَدُهُمْ ، ثُمَّ هَزَى بِهِ الْآخَرُ ، وَأَخْرَجَ الثَّلَاثُ  
لِسَانَهُ ؛ وَصَدَمَهُ الرَّابِعُ بِمَتَكِيهِ ؛ وَأَفْحَشَ عَلَيْهِ الْخَامِسُ ؛ وَلَكَزَهُ السَّادِسُ ؛ وَحَنَّا السَّابِعُ  
فِي وَجْهِهِ الثَّرَابَ !

وَجَهَدَ الْمُسْكِينُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَكَأَنَّمَا أَحَاطُوهُ بِسَبْعَةِ جُذُرَانِ فَبَطَلَ إِفْدَامُهُ  
وَإِحْجَامُهُ ، وَوَقَفَ بَيْنَهُمْ كَمَا كَتَبَ اللَّهُ ... ! ثُمَّ أَخَذَتْهُ أَيْدِيهِمْ فَانْجَدَلَ عَلَى الْأَرْضِ ،  
فَتَجَاذَبُوهُ يُمَرِّغُونَهُ فِي الثَّرَابِ !

وَهُمْ كَذَلِكَ إِذْ انْقَلَبَ كَبِيرُهُمْ عَلَى وَجْهِهِ ، وَأُنْكَفَأَ الَّذِي يَلِيهِ ، وَأُزْنِحَ الثَّلَاثُ ، وَلُطِمَ  
الرَّابِعُ ، فَنَظَرُوا ، فَصَاحُوا جَمِينًا : « جُعْلُصُ ، جُعْلُصُ ! » وَتَوَاتَبُوا يَسْتَدُونُ هَرَبًا . وَقَامَ  
عِصْمَتُ يَنْخُلِ الثَّرَابِ مِنْ نِيَابِهِ وَهُوَ يَبْكِي بِدَمْعِهِ ، وَنِيَابُهُ تَبْكِي بِتُرَابِهَا ... ! وَوَقَفَ يَنْظُرُ  
هَذَا الَّذِي كَشَفَهُمْ عَنْهُ وَشَرَّدَتْهُمْ صَوْلَتُهُ ، فَإِذَا جُعْلُصُ وَعَلَيْهِ رَجَفَانُ مِنَ الْغَضَبِ ، وَقَدْ  
تَبَرَّطَمَتْ شَفَتُهُ ، وَتَقَبَّضَ وَجْهُهُ ، كَمَا يَكُونُ « مَا شِيسْتُ » فِي مَعَارِكِهِ حِينَ يَدْفَعُ عَنْ  
الضُّعْفَاءِ .

وَهُوَ طِفْلٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ لِدَاتِ عِصْمَتِ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُخْتَنِكٌ فِي سِنِّ رَجُلٍ صَغِيرٍ ؛  
غَلِظَ عُنُقُ شَدِيدِ الْجَبَلَةِ مُزَارَكِبَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ<sup>(١)</sup> ، كَأَنَّهُ جِئِي مُتَقَاصِرٌ يَهُمُّ أَنْ يَطُولَ مِنْهُ  
الْمَارِدُ ، فَأَرَسَ بِهِ عِصْمَتُ ، وَأَطْمَأَنَّ إِلَى قُوَّتِهِ ، وَأَقْبَلَ يَشْكُو لَهُ وَيَبْكِي !

قَالَ جُعْلُصُ : مَا أَسْمُكَ ؟

قَالَ : أَنَا ابْنُ الْمُدِيرِ ... !

قَالَ جُعْلُصُ : لَا تَبْكُ يَا ابْنُ الْمُدِيرِ . تَعَلَّمْ أَنْ تَكُونَ جَلْدًا ، فَإِنَّ الضَّرْبَ لَيْسَ بِذَلِّ

(١) أَيُّ : شَدِيدُ قَتْلِ الْعَضَلِ ، مُكْتَنَزُ اللَّحْمِ {

وَلَا عَارَ ، وَلَكِنَّ الدُّمُوعَ هِيَ تَجْعَلُهُ ذُلًّا وَعَارًا ؛ إِنَّ الدُّمُوعَ لَتَجْعَلَ الرَّجُلَ أَثْنَى . نَحْنُ يَا ابْنَ الْمُدِيرِ نَعِيشُ طُولَ حَيَاتِنَا إِمَّا فِي ضَرْبِ الْفَقْرِ أَوْ ضَرْبِ النَّاسِ ، هَذَا مِنْ هَذَا ؛ وَلَكِنَّكَ غَنِيٌّ يَا ابْنَ الْمُدِيرِ ، فَأَنْتَ كَالرَّغِيفِ الْفَيْثُو<sup>(١)</sup> ضَحْمٌ مُشْتَفَعٌ ، وَلَكِنَّهُ يَنْكَسِرُ بِلَمْسَةٍ ، وَحَشْوُهُ مِثْلُ الْقُطَنِ !

مَاذَا تَتَعَلَّمُ فِي الْمَدْرَسَةِ يَا ابْنَ الْمُدِيرِ إِذَا لَمْ تُعَلِّمْكَ الْمَدْرَسَةُ أَنْ تَكُونَ رَجُلًا يَأْكُلُ مَنْ يُرِيدُ أَكْلَهُ ؛ وَمَاذَا تَعْرِفُ إِذَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى الشَّرِّ يَوْمَ الشَّرِّ ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ لِلْخَيْرِ يَوْمَ الْخَيْرِ ، فَتَكُونَ دَائِمًا عَلَى الْحَالَتَيْنِ فِي خَيْرٍ ؟

قَالَ عِصْمَتٌ : أَوْ لَوْ كَانَ مَعِيَ الْعَسْكَرِيُّ !

قَالَ جُعْلُصٌ : وَيَحْكُ ! لَوْ ضَرَبُوا عُنُقَنَا لَمَا قَالَتْ : أَوْ لَوْ كَانَ مَعِيَ الْعَسْكَرِيُّ !

قَالَ عِصْمَتٌ : فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ الْقُوَّةُ ؟

قَالَ جُعْلُصٌ : مِنْ أَنِّي أَعْتَمِلُ بِيَدَيَّ فَأَنَا أَشْتَدُّ ، وَإِذَا جُعْتُ أَكَلْتُ طَعَامِي ؛ أَمَّا أَنْتَ فَتَسْتَزَخِرُ ، فَإِذَا جُعْتَ أَكَلْتَكَ طَعَامُكَ ؛ ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لَيْسَ لِي عَسْكَرِيٌّ ... !

قَالَ عِصْمَتٌ : بَلِ الْقُوَّةُ مِنْ أَنَّكَ لَسْتَ مِثْلَنَا فِي الْمَدْرَسَةِ ؟

قَالَ جُعْلُصٌ : نَعَمْ ، فَأَنْتَ يَا ابْنَ الْمَدْرَسَةِ كَأَنَّكَ طِفْلٌ مِنْ وَرَقٍ وَكَرَّاسَاتٍ لَا مِنْ لَحْمٍ ، وَكَأَنَّ عِظَامَكَ مِنْ طَبَاشِيرٍ ! أَنْتَ يَا ابْنَ الْمَدْرَسَةِ هُوَ أَنْتَ الَّذِي سَيَكُونُ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً ، وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ كَيْفَ يَكُونُ ؛ وَأَمَّا أَنَا ابْنُ الْحَيَاةِ ، فَأَنَا مِنَ الْآنِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَكُونَ « أَنَا » مِنَ الْآنِ !

أَنْتَ ...

\* \* \*

وَهُنَا أَذْرَكَهُمَا الْعَسْكَرِيُّ الْمُسَخَّرَ لِابْنِ الْمُدِيرِ ، وَكَانَ كَالْمَجْنُونِ يَطِيرُ عَلَى وَجْهِهِ فِي الطُّرُقِ يَبْحَثُ عَنْ عِصْمَتٍ ، لَا حُبًّا فِيهِ ، وَلَكِنْ خَوْفًا مِنْ أَبِيهِ ؛ فَمَا كَادَ يَرَى هَذَا الْعَقْرَ

(١) مِنَ الْإِيطَالِيَّةِ ، وَتَعْنِي : الرَّقِيقَ الدَّقِيقَ الْهَشَّ . بِسَامِ .

عَلَى أَثْوَابِهِ حَتَّى رَنَّتْ صَفْعَتُهُ عَلَى وَجْهِ الْمُسْكِينِ جُعْلُصٌ .

فَصَعَرَ هَذَا خَدَّهُ ، وَرَمَقَ عِصْمَتَ بِنَظَرِهِ ، وَأَنْطَلَقَ يَغْدُو عَذُو الظَّلِيمِ !

يَا لِلْعَدَالَةِ ! كَانَتْ الصَّفْعَةُ عَلَى وَجْهِ ابْنِ الْفَقِيرِ ، وَكَانَ الْبَاكِ مِنْهَا ابْنُ الْغَنِيِّ ... !

\* \* \*

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْفُقَرَاءُ ، حَسْبُكُمْ الْبُطُولَةُ ؛ فَلَيْسَ غَنَى بَطْلِ الْحَرْبِ فِي الْمَالِ وَالنَّعِيمِ ، وَلَكِنْ بِالْجِرَاحِ وَالْمَشَقَّاتِ فِي جِسْمِهِ وَتَارِيخِهِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

### أَحْلَامٌ فِي الشَّارِعِ (\*) (١)

عَلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ نَامَ الْغُلَامُ وَأَخْتُهُ يَفْتَرِشَانِ الرُّخَامَ الْبَارِدَ ، وَيَلْتَحِفَانِ جَوَّ رُحَامِيَا فِي بَزْدِهِ وَصَلَاتِيهِ عَلَى جِسْمَيْهِمَا .

الْطُّفْلُ مُتَكَبِّبٌ فِي ثَوْبِهِ كَأَنَّهُ جِسْمٌ قُطِعَ وَرُكِمَتْ أَعْضَاؤُهُ بَغْضًا عَلَى بَغْضٍ ، وَسُجِّتْ بِتُوبٍ ، وَرُمِيَ الرَّأْسُ مِنْ فَوْقِهَا فَمَالَ عَلَى خَدِّهِ .

وَالْفَتَاةُ كَأَنَّهَا مِنَ الْهَزَالِ رَسْمٌ مُحَظَّطٌ لِامْرَأَةٍ ، بَدَاهَا الْمَصُورُ ثُمَّ أَغْفَلَهَا إِذْ لَمْ تُعْجِبْهُ . كَتَبَ الْفَقْرُ عَلَيْهَا لِلْأَعْيُنِ مَا يَكْتُبُ الذُّبُولُ عَلَى الزَّهْرَةِ : أَنَّهَا صَارَتْ قَشًا . . .

نَائِمَةٌ فِي صُورَةِ مَيْتَةٍ ، أَوْ كَمَيْتَةٍ فِي صُورَةِ نَائِمَةٍ ؛ وَقَدْ انْسَكَبَ ضَوْءُ الْقَمَرِ عَلَى وَجْهِهَا ، وَبَقِيَ وَجْهُ أَخِيهَا فِي الظَّلِّ ؛ كَأَنَّ فِي السَّمَاءِ مَلَكًا وَجَّهَ الْمِصْبَاحَ إِلَيْهَا وَخَدَهَا ، إِذْ عَرَفَ أَنَّ الطُّفْلَ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ عَلَامَةٌ هَمٌّ ، وَأَنَّ فِي وَجْهِهَا هِيَ كُلُّ هَمِّهَا وَهَمَّ أَخِيهَا .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا أَتَتْ قَدْ خُلِقَتْ لِتَلِدَ ، خُلِقَ لَهَا قَلْبٌ يَحْمِلُ الْهَمُومَ وَيَلِدُهَا وَيُرَبِّيَهَا .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لِلْأُمُومَةِ ، تَتَأَلَّمُ دَائِمًا فِي الْحَيَاةِ أَلَامًا فِيهَا مَعْنَى أَنْفِجَارِ الدَّمِ .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَرِيدُ الْوُجُودَ ، يَرِيدُ هَذَا الْوُجُودَ دَائِمًا فِي أَحْزَانِهَا .

وَإِذَا كَانَتْ بِطَبِيعَتِهَا تُقَاسِي الْأَلَمَ لَا يُطَاقُ حِينَ تَلِدُ فَرَحَهَا ، فَكَيْفَ بِهَا فِي الْحُزَنِ . . . !

\* \* \*

وَكَانَ رَأْسُ الطُّفْلِ إِلَى صَدْرِ أَخِيهِ ، وَقَدْ نَامَ مُطْمَئِنًّا إِلَى هَذَا الْوُجُودِ النَّسْوِيِّ ، الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ لِكُلِّ طِفْلٍ مِثْلِهِ ، مَا دَامَ الطُّفْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ خَرَجَ إِلَى الدُّنْيَا وَإِلَى صَدْرِهَا مَعًا .

(\*) «الرسالة» العدد : ٥٦ ، ١٩ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٣٠ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٤٥ - ١٢٤٨ .

(١) مَنْظَرٌ لَطِيفٌ مُشْرِدٌ كَانَ هُوَ وَأَخْتُهُ نَائِمَتَيْنِ عَلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ . [ البنك : المصرف ] .

وَنَامَتْ هِيَ وَبِهَا مَرْسَلَةٌ عَلَى أَخِيهَا كَيْدِ الْأُمِّ عَلَى طِفْلَيْهَا . يَا إِلَهِي ! نَامَتْ وَبِهَا مُسْتَيْقِظَةٌ !

أَهُمَا طِفْلَانِ ؟ أَمْ يَلَاهُمَا تِمْنَالٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي شَقِيتْ بِالسَّعْدَاءِ فَعَوَّضَهَا اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ أَلَّا تَجِدَ شَقِيًّا مِثْلَهَا إِلَّا تَضَاعَفَتْ سَعَادَتُهَا بِهِ ؟

تِمْنَالَانِ يُصَوِّرَانِ كَيْفَ يَسِرُّ قَلْبُ أَحَدِ الْحَيَاتَيْنِ فِي الْجِسْمِ الْآخَرِ ، فَيَجْعَلُ لَهُ وَجُودًا فَوْقَ الدُّنْيَا ، لَا تَصِلُ الدُّنْيَا إِلَيْهِ بِفَقْرٍهَا وَغِنَاهَا ، وَلَا سَعَادَتِهَا وَشَقَاتِهَا ، لِأَنَّهُ وَجُودُ الْحُبِّ لَا وَجُودُ الْعُمْرِ ؛ وَجُودُ سِحْرِيٍّ لَيْسَ فِيهِ مَعْنَى لِلْكَلِمَاتِ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَالِ وَالْتُّرَابِ ، وَالْأَمِيرِ وَالصُّغْلُوكِ ؛ إِذِ اللَّغَةُ هُنَاكَ إِحْسَاسُ الدَّمِ ، وَإِذِ الْمَعْنَى لَيْسَ فِي أَشْيَاءِ الْمَادَّةِ وَلَكِنْ فِي أَشْيَاءِ الْإِرَادَةِ .

وَهَلْ تَخْبِئُ الْأَلْفَاظُ مَعَ الْمَوْتِ ، فَيَكُونُ بَعْدَهُ لِلْمَالِ مَعْنَى وَلِلتُّرَابِ مَعْنَى . . . ؟ هِيَ كَذَلِكَ فِي الْحُبِّ الَّذِي يَفْعَلُ شَيْئًا بِمَا يَفْعَلُهُ الْمَوْتُ فِي نَقْلِ الْحَيَاةِ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ ، يَبْدَأُ أَنْ أَحَدَ الْعَالَمَيْنِ وَرَاءَ الدُّنْيَا ، وَالْآخَرُ وَرَاءَ النَّفْسِ .

\* \* \*

تَحْتَ يَدِ الْأُخْتِ الْمَمْدُودَةِ يَنَامُ الطُّفْلُ الْمُسْكِينُ ، وَمِنْ شُعُورِهِ بِهِذِهِ الْيَدِ ، خَفَ ثِقَلُ الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِهِ .

لَمْ يَبَالِ أَنْ يَبْذُهُ الْعَالَمُ كُلُّهُ ، مَا دَامَ يَجِدُ فِي أَخِيهِ عَالَمَ قَلْبِهِ الصَّغِيرِ . وَكَأَنَّهُ قَرَّخٌ مِنْ فِرَاحِ الطَّيْرِ فِي عُشِّهِ الْمُعَلَّقِ ، وَقَدْ جَمَعَ لَحْمَهُ الْغَضَّ الْأَحْمَرَ تَحْتَ جَنَاحِ أُمِّهِ ، فَأَحْسَنَ أَهْنًا السَّعَادَةِ حِينَ ضَمِيَ فِي نَفْسِهِ الْكَوْنُ الْعَظِيمَ ، وَجَعَلَهُ وَجُودًا مِنَ الرَّيْسِ .

وَكَذَلِكَ يَسْعُدُ كُلُّ مَنْ يَمْلِكُ قُوَّةَ تَغْيِيرِ الْحَقَائِقِ وَتَبْدِيلِهَا ، وَفِي هَذَا تَفْعَلُ الطُّفُولَةُ فِي نَشْأَةِ عُمْرِهَا مَا لَا تَفْعَلُ بَعْضُهُ مَعْجَزَاتِ الْفَلَسَفَةِ الْعُلْيَا فِي جُمْلَةِ أَعْمَارِ الْفَلَاسِفَةِ .

وَمَا صَنَعَ الَّذِينَ جُئُوا بِالذَّهَبِ ، وَلَا الَّذِينَ فُتِنُوا بِالسُّلْطَةِ ، وَلَا الَّذِينَ هَلَكُوا بِالْحُبِّ ، وَلَا الَّذِينَ تَحَطَّمُوا بِالشَّهَوَاتِ - إِلَّا أَنَّهُمْ حَاوَلُوا عِبَادَةَ أَنْ يُرْشُوا رَحْمَةً اللَّهِ لِتُعْطِيَهُمْ فِي الذَّهَبِ وَالسُّلْطَةِ وَالْحُبِّ وَالشَّهَوَاتِ مَا نَوَلَتْهُ هَذَا الطُّفْلُ الْمُسْكِينُ النَّائِمُ فِي أَسِرَّةِ الْكَوَاكِبِ تَحْتَ

ذِرَاعِ كَوَكِبِ رُوحِهِ الْأَرْضِيِّ .

أَلَا إِنَّ أَعْظَمَ الْمُلُوكِ لَنْ يَسْتَطِيعَ بِكُلِّ مَلِكِهِ أَنْ يَشْتَرِيَ الطَّرِيقَةَ الَّتِي بَيْنَهُ بِيهَا  
السَّاعَةَ قَلْبُ هَذَا الطِّفْلِ .

\* \* \*

وَقَفْتُ أَشْهَدُ الطِّفْلَيْنِ وَأَنَا مُسْتَقْبِلُ أَنْ حَوْلَهُمَا مَلَائِكَةٌ تَصْعَدُ وَمَلَائِكَةٌ تَنْزِلُ ؛ وَقُلْتُ :  
هَذَا مَوْضِعٌ مِنْ مَوَاضِعِ الرَّحْمَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَكَسِّرَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَلَعَلِّي أَنْ أَعْرَضَ لِنَفْحَةٍ  
مِنْ نَفْحَاتِهَا ، وَلَعَلَّ مَلَكًا كَرِيمًا يَقُولُ : وَهَذَا بَابُ آخَرٍ ، فَيُرْفِي بِيَجَانِحِهِ رَفَّةً مَا أَخْوَجَ  
نَفْسِي إِلَيْهَا ، تَجِدُ بِهَا فِي الْأَرْضِ لَمَسَةً مِنْ ذَلِكَ الثُّورِ الْمُتَلَذِّئِ فَوْقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وظَهَرَ لِي بِنَاءُ أَلْبَنَكِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مِنْ مَرَأَى الْغُلَامَيْنِ - أَسْوَدَ كَالِإِخَا ، كَأَنَّهُ سَجَنٌ  
أُفْقِلَ عَلَى شَيْطَانٍ يُمَسِّكُهُ إِلَى الصُّبْحِ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ لِيَنْطَلِقَ مُعَمَّرًا ، أَيْ : مُحَرَّرًا ... أَوْ هُوَ  
جِسْمُ جَبَّارٍ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبِالْإِنْسَانِيَّةِ وَلَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا بِنَفْسِهِ وَحُطُوطِ نَفْسِهِ فَمَسَحَهُ اللَّهُ بِنَاءً ،  
وَأَحَاطَهُ مِنْ هَذَا الظَّلَامِ الْأَسْوَدِ بِمَعَانِي آثَامِهِ وَكُفْرِهِ ...

يَا عَجَبًا ! بَطْنَانِ جَائِعَانِ فِي أَطْمَارِ بَالِيَّةٍ يَبِينَانِ عَلَى الطَّوْى وَالْهَمِّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ  
وِسَادُهُمَا إِلَّا عَتَبَةُ أَلْبَنَكِ ! تَرَى مِنَ الَّذِي لَعَنَ أَلْبَنَكُ بِهِذِهِ اللَّغَةِ الْحَيَّةِ ؟ وَمَنِ الَّذِي وَضَعَ  
هَذَيْنِ الْقَلْبَيْنِ الْفَارِعَيْنِ مَوْضِعَهُمَا ذَلِكَ لِيُثَبِتَ لِلنَّاسِ أَنَّ لَيْسَ أَلْبَنَكُ خَزَائِنَ حَدِيدِيَّةٍ يَمْلُؤُهَا  
الذَّهَبُ ، وَلَكِنَّهُ خَزَائِنُ قَلْبِيَّةٍ يَمْلُؤُهَا الْحُبُّ ... ؟

\* \* \*

وَقَفْتُ أَرَى الطِّفْلَيْنِ رُؤْيَا فِكْرٍ وَرُؤْيَا شِعْرِ مَعًا ، فَإِذَا أَلْفِكُرُ وَالشُّعْرُ يَمْتَدَانِ بَيْنِي وَبَيْنَ  
أَخْلَامِهِمَا ، وَدَخَلْتُ فِي نَفْسَيْنِ مَضْهُمَا أَلْهَمُ وَأَشْتَدَّ عَلَيْهِمَا أَلْفُكُرُ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ  
إِلَّا كَادَهُمَا وَعَاسَرَهُمَا ؛ وَنَمْتُ نَوْمَتِي الشُّعْرِيَّةَ ...

قَالَ الطِّفْلُ لِأَخِيهِ : هَلُمِّي فَلْتَذْهَبْ مِنْ هُنَا فَتَقِفْ عَلَى بَابِ السَّيِّمَةِ تَنْفَرُجُ مِمَّا بِنَا ،  
فَتَرَى أَوْلَادَ الْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ أَبٌ وَأُمٌّ .

انْظُرِي هَا هُمْ أَوْلَاءُ يَرَى عَلَيْهِمْ أَثَرُ الْغِنَى ، وَتَعْرِفُ فِيهِمْ رُوحَ النِّعَمَةِ ؛ وَقَدْ

شَبِعُوا ... إِنَّهُمْ يَلْبَسُونَ لَحْمًا عَلَى عِظَامِهِمْ ؛ أَمَا نَحْنُ فَتَلْبَسُ عَلَى عِظَامِنَا جِلْدًا كَجِلْدِ  
الْحِدَاءِ ؛ إِنَّهُمْ أَوْلَادُ أَهْلِيهِمْ ؛ أَمَا نَحْنُ فَأَوْلَادُ الْأَرْضِ ؛ هُمْ أَطْفَالٌ ، وَنَحْنُ حَطَبٌ إِنْسَانِيٌّ  
يَابِسٌ ؛ يَعِيشُونَ فِي الْحَيَاةِ ثُمَّ يَمُوتُونَ ؛ أَمَا نَحْنُ فَعِيشُنَا هُوَ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، إِلَى أَنْ  
نَمُوتَ ؛ لَهُمْ عَيْشٌ وَمَوْتُ ، وَلَنَا الْمَوْتُ مُكَرَّرًا .

وَلِيْنِي عَلَى ذَلِكَ الطِّفْلِ الْأَبْيَضِ السَّمِينِ ، الْحَسَنِ الْبَرِّ ، الْأَبْنِيَّ الشَّارَةَ ، ذَلِكَ الَّذِي  
يَأْكُلُ الْحُلُوفَ أَكْلَ لَصٍ قَدْ سَرَقَ طَعَامًا فَاسْرَعَ يَحْدِرُ فِي جَوْفِهِ مَا سَرَقَ ؛ هُوَ الْغِنَى الَّذِي  
جَعَلَهُ يَتَبَلَّغُ بِهِذِهِ الشَّرَاهَةِ ، كَأَنَّمَا يَشْرَبُ مَا يَأْكُلُ ، أَوْ لَهُ حَلَقٌ غَيْرُ الْحُلُوفِ ؛ وَنَحْنُ - إِذَا  
أَكَلْنَا - نَغْصُ بِالْخُبْزِ لَا أَدَمَ مَعَهُ ، وَإِذَا أَرْتَفَعْنَا عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ نَجِدْ إِلَّا الْبَشِيعَ مِنَ  
الطَّعَامِ ، وَأَصْبَنَاهُ عَفِنًا أَوْ فَاسِدًا لَا يَسُوعُ فِي الْحَلَقِ ، فَإِذَا أَنْخَفَضْنَا فَلَيْسَ إِلَّا مَا نَقْتَمُّ مِنَ  
قُشُورِ الْأَرْضِ وَمِنْ حَتَاتِ الْخُبْزِ كَالدَّوَابِّ وَالْكِلَابِ ؛ وَإِنْ لَمْ نَجِدْ وَمَسْنَا الْعُذْمَ وَقَفْنَا  
نَتَحَنَّنُ طَعَامَ قَوْمٍ فِي دَارٍ أَوْ تَرْلٍ ، فَزَاهُمْ يَأْكُلُونَ فَأَكُلَ مَعَهُمْ بِأَعْيُنِنَا ، وَلَا نَطْمَعُ أَنْ  
نَسْتَطْعِمَهُمْ وَإِلَّا أَطْعَمُونَا ضَرْبًا فَتَكُونُ قَدْ جِئْتَاهُمْ بِأَلَمٍ وَاحِدٍ قَرَدُونَا بِالْمَمِينِ ، وَتَقْدَقُ  
بِالضَّرْبِ مَا كَانَ يُمَسِّكُ رَمَقَنَا مِنَ الْأَحْتِمَالِ وَالصَّبْرِ .

هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ يَتَصَوَّرُونَ شَهْوَةً كُلَّمَا أَكَلُوا ، لِيَعُودُوا فَيَأْكُلُوا ؛ وَنَحْنُ نَتَصَوَّرُ جُوعًا  
وَلَا نَأْكُلُ ، لِنَعُودَ فَتَجُوعَ وَلَا نَأْكُلُ ؛ وَهُمْ بَيْنَ سَمْعِ أَهْلِيهِمْ وَبَصَرِهِمْ ؛ مَا مِنْ أَتَةٍ إِلَّا وَقَعَتْ  
فِي قَلْبٍ ، وَمَا مِنْ كَلِمَةٍ إِلَّا وَجَدَتْ إِجَابَةً ؛ وَنَحْنُ بَيْنَ سَمْعِ الشُّوَارِعِ وَبَصَرِهَا ، أَبْنَاءُ  
ضَائِعٍ ، وَدُمُوعٍ غَيْرِ مَرْحُومَةٍ !

أَوْ لَوْ كَبُرَتْ فَصِرَتْ رَجُلًا طَوِيلًا عَرِيضًا ؟ أَتَذَرِينِ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

- مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

- إِنِّي أَخْتَقُ بِبَدْيِ كُلِّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ !

- سَوَاءٌ لَكَ يَا أَحْمَدُ ، كُلُّ طِفْلِ مِنْ هَؤُلَاءِ لَهُ أُمٌّ مِثْلُ أُمِّتِ الْتِي مَاتَتْ ، وَلَهُ أُخْتُ

مِثْلِي ؛ فَمَا عَسَى يَنْزِلُ بِي لَوْ كَيْلَتَكَ إِذَا خَتَمَكَ رَجُلٌ طَوِيلٌ عَرِيضٌ ؟

- لَا ، لَا أَخِيهِمْ ؛ بَلْ سَأَرْضِيهِمْ مِنْ نَفْسِي ؛ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَصِيرَ رَجُلًا مِثْلَ الْمُدِيرِ الَّذِي

رَأَيْتَاهُ فِي سَيَّارَتِهِ أَلَيْتَمَ عَلَى حَالٍ مِنَ السَّطْوَةِ تُغْلِبُ أَنَّهُ الْمُدِيرُ ... أَتَذَرِينِ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

- مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

- أَرَأَيْتِ عَرَبِيَّةَ الْإِسْعَافِ الَّتِي جَاءَتْ عِنْدَ الظُّهْرِ فَأَنْقَلَبْتُ نَعْسًا لِلرَّجُلِ الْهَرِمِ الْمُحْطَمِ الَّذِي أُغْمِيَ عَلَيْهِ فِي الطَّرِيقِ ؟ سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمُدِيرَ هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِاتِّخَاذِ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ غَفْلٌ لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنَ الْحَيَاةِ مِثْلَنَا ، وَلَمْ تُحْكِمْهُ تَجَارِبُ الدُّنْيَا ؛ فَالَّذِي يَمُوتُ بِالْفُجَاءَةِ أَوْ غَيْرَهَا لَا يُخَيِّبُهُ الْمُدِيرُ وَلَا غَيْرُ الْمُدِيرِ ، وَالَّذِي يَقَعُ فِي الطَّرِيقِ يَجِدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَبَدَّرُونَهُ لِتَجْدِيدِهِ وَإِسْعَافِهِ بِقُلُوبِ إِنْسَانِيَّةٍ رَحِيمَةٍ ، لَا بِقُلُوبِ سَوَاقِ عَرَبِيَّةٍ يَنْتَظِرُ الْمُصِيبَةَ عَلَى أَنَّهَا رِزْقٌ وَعَيْشٌ .

إِنَّ عَرَبَاتِ الْإِسْعَافِ هَذِهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَكْلٌ ... وَيَجِبُ أَنْ تَحْمِلَ أَمْثَالَنَا مِنَ الطَّرِيقِ وَالشُّوَارِعِ إِلَى الْبُيُوتِ وَالْمَدَارِسِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلطِّفْلِ أُمٌّ تُطْعِمُهُ وَتُوَوِّدُهُ فَلْتَصْنَعْ لَهُ أُمًّا .

كُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ لَا أَرَاهُ إِلَّا عَلَى الْغَلْطِ ، كَأَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَلَبَةٌ أَوْ مُذْبِرَةٌ إِذَا بَرَّاهَا ، وَمَا قَطُّ رَأَيْتُ الْأُمُورَ فِي بِلَادِنَا جَارِيَةً عَلَى مَجَارِيهَا ؛ فَهَؤُلَاءِ الْحُكَّامُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا إِلَّا مِنْ أَوْلَادِ صَالِحِي الْفُقَرَاءِ ، لِيَحْكُمُوا بِقَانُونِ الْفَقْرِ وَالرَّحْمَةِ ، لَا بِقَانُونِ الْغِنَى وَالْقَسْوَةِ ، وَلِيَتَفَقَّحُوا الْأُمُورَ الْعَظِيمَةَ الْمُشْتَبِهَةَ بِمُقُوسِ عَظِيمَةِ صَرِيحَةٍ قَدْ نَبَتْ عَلَى صَلَابَةِ وَبَاسٍ ، وَخُلِقَ وَدِينٌ وَرَحْمَةٌ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْهَزُ فِي مَعْرَكَةِ الْحَوَادِثِ إِلَّا رُوحُ النُّعْمَةِ فِي أَهْلِ النُّعْمَةِ ، وَأَخْلَاقُ اللَّئِينَ فِي أَهْلِ اللَّئِينَ ؛ وَبِهَؤُلَاءِ لَمْ يَبْرَحِ الشَّرْقُ مِنْ هَزِيمَةٍ سِيَاسِيَّةٍ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ سِيَاسِيَّةٍ .

إِنَّ لِلْحُكْمِ لَحْمًا وَدَمًا هُوَ لَحْمُ الْحَاكِمِ وَدَمُهُ ؛ فَإِنْ كَانَ صُلْبًا خَشِنًا فِيهِ رُوحُ الْأَرْضِ وَرُوحُ السَّمَاءِ فَذَاكَ ، وَإِلَّا قَتَلَ اللَّئِينَ وَالتَّرَفَ الْحُكْمَ وَالْحَاكِمَ جَمِيعًا . وَهَؤُلَاءِ الْحُكَّامُ مِنْ أَوْلَادِ الْأَغْنِيَاءِ لَا يَكُونُ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَرْفَعُوا مِنْ شَأْنِ أَنْفُسِهِمْ ، إِذِ السُّلْطَةُ دَرَجَةٌ فَوْقَ الْغِنَى ، وَمَنْ نَالَ هَذِهِ اسْتَشْرَفَ لِلْبُكَ ، فَإِذَا جَمَعُوهُمَا كَانَ مِنْهُمَا الْخُلُقُ الظَّالِمُ الَّذِي يَصُورُ لَهُمْ الْأَعْتِدَاءُ قُوَّةَ وَسَطْوَةٍ وَعُلُوءًا ، مِنْ حَيْثُ عَدِمُوا الْخُلُقَ الرَّحِيمَ الَّذِي يَصُورُ لَهُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ ضَعْفًا وَجُبْنًا وَتَذَالَةً . إِنْ أَحَدَهُمْ إِذَا حَكَمَ وَتَسَلَّطَ أَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ

ضَرْبَتُهُ الْأَوَّلَى إِلَّا فِي الْمَبْدَأِ الْأَجْتِمَاعِيِّ لِلأُمَّةِ ، أَوْ فِي الْأَصْلِ الْأَدَبِيِّ لِلْإِنْسَانِيَّةِ . وَيَخْرِصُونَ عَلَى مَا بِهِ تَمَامُهُمْ ، أَيُّ : عَلَى السُّلْطَةِ ، أَيُّ : عَلَى الْحُكْمِ ؛ فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّفُوا لِلِحِرْصِ أَخْلَاقِهِ ، وَأَنْ يَجْمَعُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَسْبَابَهُ ؛ مِنَ الْمُدَارَاةِ وَالْمُصَانَعَةِ وَالْمُهَاوَنَةِ ، نَازِلًا فَتَازِلًا إِلَى دَرْكِ بَعِيدٍ ، فَيَنْشُرُونَ أَسْوَأَ الْأَخْلَاقِ بِقُوَّةِ الْقَانُونِ مَا دَامُوا هُمْ الْقُوَّةَ .

- وَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ أَوْلَادُ الْأَغْنِيَاءِ يَا أَحْمَدُ ؟

- أَمَّا أَوْلَادُ الْأَغْنِيَاءِ فَيَجِبُ أَنْ يُبَاشِرُوا الصَّنَاعَةَ وَالتَّجَارَةَ ، لِيَجِدُوا عَمَلًا شَرِيفًا يُصَيِّبُونَ مِنْهُ رِزْقَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ لَا بِأَيْدِي آبَائِهِمْ ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَوْ لَا الْعَمَلُ الْأَجْتِمَاعِيُّ لَمَا كَانَ فَرْقٌ بَيْنَ ابْنِ أَمِيرٍ مُتَبَطِّلٍ فِي أَمْلَاكٍ أَيْنُهُ مِنَ الْقُصُورِ وَالضِّيَاعِ ، وَابْنِ فَقِيرٍ مُتَبَطِّلٍ فِي أَمْلَاكٍ الْمَجْلِسِ الْبَلَدِيِّ مِنَ الْأَرْقَةِ وَالشُّوَارِعِ .

وَابْنُ الْأَمِيرِ إِذَا كَانَ تَجَارًا أَوْ حَدَادًا أَصْلَحَ الشُّوقَ وَالشَّارِعَ بِأَخْلَاقِهِ الطَّيِّبَةِ اللَّيِّتَةِ ، وَتَعَفُّفِهِ وَكَرَمِهِ ، فَيَتَعَلَّمُ سَوَادُ النَّاسِ مِنْهُ الْأَمَانَةَ وَالصَّدْقَ ، إِذْ هُوَ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَسْرِقُ مَا دَامَ فَوْقَ الْأَضْطِرَّارِ ، وَلَا كَذَلِكَ ابْنُ الْفَقِيرِ الَّذِي يَضْطَرُّهُ الْعَيْشُ أَنْ يَكُونَ تَاجِرًا أَوْ صَانِعًا ، فَتَكُونُ حِرْفَتُهُ التَّجَارَةَ وَهِيَ السَّرِقَةُ ، أَوِ الصَّنَاعَةَ وَهِيَ الْغَشُّ ، وَيَكُونُ فِي النَّاسِ أَكْثَرُ عُمْرِهِ مَادَّةَ كَذِبٍ وَإِثْمٍ وَلُصُوصِيَّةٍ .

أَهْ لَوْ صِرْتُ مُدِيرًا ! أَتَذَرِينِ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

- مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

- أَعْمَدُ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ فَأَرُدُّهُمْ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَحْمِلُهُمْ عَلَيْهَا حَمَلًا ، وَأُصْلِحُ فِيهِمْ صِفَاتِهَا الَّتِي أَفْسَدَهَا التَّرَفُ وَاللَّيْنُ وَالنُّعْمَةُ ، ثُمَّ أُصْلِحُ مَا أَخْلَى بِهِ الْفَقْرُ مِنْ صِفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالْفُقَرَاءِ ، وَأَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَمَلًا ، فَيَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَيَتَقَارَبُونَ عَلَى أَصْلِ فِي الدَّمِ إِنْ لَمْ يَلِدْهُ آبَاؤُهُمْ وَلَكِنَّهُ الْقَانُونُ . أَلَا إِنَّ سُقُوطَ أُمِّيَّتِنَا هَذِهِ لَمْ يَأْتِ إِلَّا مِنْ تَعَادِي الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي أَفْرَادِهَا ، فَتَقَطَّعَ مَا بَيْنَهُمْ ، فَهُمْ أَعْدَاءُ فِي وَطَنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ أَسْمُهُمْ أَهْلٌ وَطَنِهِمْ .

وَمَنْ أَحْكَمَتِ الصِّفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي الْأُمَّةِ كُلِّهَا وَدَانِي بَعْضُهَا بَعْضًا - صَارَ قَانُونُ كُلِّ  
فَرْدٍ كَلِمَتَيْنِ ، لَا كَلِمَةً وَاحِدَةً كَمَا هُوَ الْآنَ . الْقَانُونُ الْآنَ : حَقِّي ، وَتَحْنُ نُرِيدُ أَنْ  
يَكُونَ : حَقِّي وَوَاجِبِي ، وَمَا أَهْلَكَ الْفُقَرَاءَ بِالْأَغْنِيَاءِ ، وَلَا الْأَغْنِيَاءَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَلَا  
الْمُخَكَّومِينَ بِالْمُحَكَّمِ - إِلَّا قَانُونُ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ .

\* \* \*

أَنَا أَحْمَدُ الْمُدِيرُ ... لَسْتُ الْمُدِيرَ بِمَا فِي نَفْسِ أَحْمَدِ ، وَلَا بِمَعْدَتِهِ وَبَطْنِهِ ، وَلَا بِمَا  
يُرِيدُ أَحْمَدُ لِنَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ ... كَلَّا ، أَنَا عَمَلٌ أَجْتِمَاعِي مُنْتَظَمٌ يَحْكُمُ أَعْمَالِ النَّاسِ  
بِالْعَدْلِ ، أَنَا خُلُقٌ ثَابِتٌ يُوْجِّهُ أَخْلَاقَهُمْ بِالْقُوَّةِ ، أَنَا الْحَيَاةُ الْأُمُّ مَعَ الْحَيَاةِ الْأَطْفَالِ الْإِخْوَةِ  
فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي يُسَمَّى الْوَطَنَ ، أَنَا الرَّحْمَةُ ، عِنْدِي الْجَنَّةُ وَلَكِنْ عِنْدِي جَهَنَّمُ أَيْضًا  
مَا دَامَ فِي النَّاسِ مَنْ يَغْصِي ، أَنَا بِكُلِّ ذَلِكَ لَسْتُ أَحْمَدَ ، لَكِنِّي الْإِصْلَاحُ .

هَذَاذَا قَدْ صِرْتُ مُدِيرًا أَعُوْ فِي الطَّرِيقِ بِاللَّيْلِ وَانْقَضَ النَّاسُ وَتَوَاتَبَهُمْ .

مَنْ أَرَى ؟ هَذَا طِفْلٌ وَأُخْتُهُ نَائِمَانِ عَلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ فِي حَيَاةٍ كَأَهْدَامِهِمَا الْمُرْقَعَةِ ، فِي  
دُنْيَا تَمَرَّقَتْ عَلَيْهِمَا ، قُمْ يَا بُنَيَّ ، لَا تُرْعِ إِنَّمَا أَنَا كَأَيْنِكَ ، تَقُولُ : اسْمُكَ أَحْمَدُ ، وَاسْمُ  
أُخْتِكَ أَمِينَةُ ؟

تَقُولُ : إِنَّكَ مَا نِمْتَ مِنَ الْجُوعِ ، وَلَكِنْ مَضْمَضْتَ عَيْنَكَ بِشِعَاعِ النَّوْمِ ؟

يَا وَلَدِي الْمُسْكِينَيْنِ . يَايْ ذَنْبٍ مِنْ دُنُوبِكُمَا دَقَّتْكُمَا الْأَيَّامُ دَقًّا وَطَحَّتْكُمَا طَحْنًا ،  
وَيَايْ فَضِيلَةٍ مِنَ الْفَضَائِلِ يَكُونُ ابْنُ فَلَانٍ بَاشَا ، وَبِنْتُ فَلَانٍ بَاشَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اللَّيِّنِ  
يَخْتَارَانِ مِنْهُ وَيَتَأَقَّانِ فِيهِ ، مَا الَّذِي ضَرَّ الْوَطَنَ مِنْكُمْ فَتَمُوتَا ، وَمَا الَّذِي نَفَعَ الْوَطَنَ مِنْهُمَا  
فَيَعِيشَا ؟

إِنْ كُنْتُ يَا بُنَيَّ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ الْإِنْتِصَارَ مِنْ هَذِهِ الطَّيْنَةِ فَأَنَا أَمْلِكُهَا لَكَ ، وَإِنَّمَا أَنَا  
الْمَظْلُومُ إِلَى أَنْ تَنْتَصِرَ ، وَإِنَّمَا أَنَا الضَّعِيفُ إِلَى أَنْ أَخْذَلَكَ الْحَقُّ .

إِلَيَّ يَا ابْنَ فَلَانٍ بَاشَا وَبِنْتُ فَلَانٍ بَاشَا .

يَا هَذَا عَلَيْكَ أَخَاكَ أَحْمَدَ وَلَتَكُنْ بِهِ حَفِيًّا ، وَيَا هَذِهِ عَلَيْكَ أُخْتِكَ الْأَيْسَةَ أَمِينَةَ ...

أَتَأْتِيَانِ ، أَنْفَرَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَمَرَّدَا عَلَى الْفَضِيلَةِ ، أَحَقًّا بِمَا وَاجِبٌ ، دَائِمًا قَانُونُ  
الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ ؟! خُلِقْتُمَا أَبْيَضَيْنِ سُخْرِيَّةٍ مِنَ الْقَدَرِ وَأَنْتُمَا فِي النَّفْسِ مِنْ أُخْبُوشَةِ الرَّنَجِ  
وَمَنَاكِيدِ الْعَبِيدِ .

وَرَفَعَ أَحْمَدُ يَدَهُ ...

وَكَانَ الشَّرْطِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى هَذَا الشَّارِعِ ، وَإِلَيْهِ حِرَاسَةُ الْبَيْتِ ، قَدْ تَوَسَّطَهُمَا<sup>(١)</sup>  
وَدَخَلَتْهُ الرِّيْبَةُ ، فَانْتَهَى إِلَيْهِمَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ يَدُ سَعَادَةِ الْمُدِيرِ بِالصَّفْعَةِ  
عَلَى وَجْهِ ابْنِ الْبَاشَا وَبِنْتُ الْبَاشَا كَانَ هَذَا الشَّرْطِيُّ قَدْ رَكَلَهُ بِرِجْلِهِ ، فَوَثَبَ قَائِمًا وَاجْتَذَبَ  
أُخْتَهُ وَأَنْطَلَقَا عَدُوَّ الْخَيْلِ مِنَ الْهُوبِ السَّوْطِ .

وَتَمَجَّدَتِ الْفَضِيلَةُ كَعَادَتِهَا ... ! .. أَنْ مِسْكِينًا حَلَمَ بِهَا ..

مصطفى صادق الرافعي

(١) تَوَسَّطَهُمَا : أَتَاهُمَا نَائِمَتَيْنِ .



### أَخْلَامٌ فِي قِصْرِ (\*) (١)

كَانَ فُلَانُ ابْنِ الْأَمِيرِ فَلَانٍ يَتَنَبَّلُ فِي نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مُسْتَقٌ مِمَّنْ يَضَعُ الْقَوَائِنَ لَا مِمَّنْ يَخْضَعُ لَهَا ، فَكَانَ تَيَّاهَا صَليفاً يَشْمَخُ عَلَى قَوْمِهِ بِأَنَّهُ ابْنُ أَمِيرٍ ، وَيَخْتَالُ فِي النَّاسِ بِأَنَّهُ جَدًّا مِنَ الْأَمْرَاءِ ، وَيَرَى مِنْ تَجَبُّرِهِ أَنَّ تَيَّابَهُ عَلَى أَغْطَافِهِ كَحُدُودِ الْمَمْلَكَةِ عَلَى الْمَمْلَكَةِ لِأَنَّهُ أَصْلَابِي الْمُلُوكِ .

وَكَانَ أَبُوهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ وَلِدُوا وَفِي دِمِهِمْ شِعَاعُ السَّيْفِ ، وَبَرِيقُ النَّجَّاحِ ، وَنَحْوَةُ الظُّفْرِ ، وَعِزُّ الْقَهْرِ وَالْعَلَبَةِ ؛ وَلَكِنَّ زَمَنَهُ ضَرَبَ الْحِصَارَ عَلَيْهِ ، وَأَفْضَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى غَيْرِهِ ، فَتَرَا جَعَتْ فِيهِ مَلَكَاتُ الْحَزْبِ مِنْ فَتْحِ الْأَرْضِ إِلَى شِرَاءِ الْأَرْضِ ، وَمِنْ تَشْيِيدِ الْإِمَارَاتِ إِلَى تَشْيِيدِ الْعِمَارَاتِ ، وَمِنْ إِدَارَةِ مَعْرَكَةِ الْأَبْطَالِ إِلَى إِدَارَةِ مَعْرَكَةِ الْأَمْالِ ؛ وَغَبَرَ دَهْرُهُ بِمَلِكٍ وَيَجْمَعُ حَتَّى أَصْبَحَتْ دَفَائِرُ حِسَابِهِ كَأَنَّهَا خَرِبُطَةُ مَمْلَكَةٍ صَغِيرَةٍ .

وَبَعْضُ أَوْلَادِ الْأَمْرَاءِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ أَمْرَاءَ ، فَيَكُونُونَ مِنَ الْكَبِيرِ وَالْعُرُورِ كَأَنَّمَا رَضُوا مِنَ اللَّهِ أَنْ يُرْسِلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَكِنْ بِشُرُوطٍ . . .

\* \* \*

وَأَتَقَلَّ الْأَمِيرُ الْبَخِيلُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَتَرَكَ الْأَمْالَ وَأَخَذَ مَعَهُ الْأَرْقَامَ وَحَدَّاهَا يُحَاسِبُ عَنْهَا ، فَوَرَّثَهُ ابْنُهُ وَأَمَرَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْأَمَالِ يُبَغِّضُهُ ؛ وَكَانَتْ الْأَقْدَارُ قَدْ كَتَبَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ : غَيْرُ قَابِلٍ لِلْإِحْسَانِ . فَمَحَتْهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، وَكَتَبَتْ فِي مَكَانِهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ : جُمِعَ لِلشَّيْطَانِ .

أَمَّا الشَّيْطَانُ فَكَانَ لَهُ عَمَلٌ خَاصٌّ فِي خِدْمَةِ هَذَا الشَّابِّ ، كَعَمَلِ خَازِنِ الثِّيَابِ لِسَيِّدِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُنَاسِبُهُ تَيَّابًا بَلْ أَفْكَارًا وَآرَاءَ وَأَخِيلَةً . وَكَانَ يَجْهَدُ أَنْ يَدْخِلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥٩ ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٠ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١١٦٣ - ١١٦٥ .

(١) [ كَتَبْنَا مَقَالَ « أَخْلَامٌ فِي الشَّارِعِ » ] وَهِيَ السَّابِقَةُ لِهَذِهِ . بِسَام .

إِلَى أَغْصَابِهِ لِخُرُوجِ مِنْهَا دُنْيَا جَدِيدَةً مَصْنُوعَةً لِهَذِهِ الْأَغْصَابِ خَاصَّةً ، وَهِيَ أَغْصَابُ مَرِيضَةٍ ثَائِرَةٍ مُتَلَهِّةٍ لَا يَكْفِيهَا مَا يَكْفِي غَيْرَهَا فَلَا تَبْرَحُ تَسْأَلُ الشَّيْطَانَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ : أَلَا تَوْجَدُ لَدَدَ جَدِيدَةٍ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ ؟ أَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْسُ الْقَرْنَ الْعِشْرِينَ أَنْ يَخْتَرَعَ لَدَدَ مُبْتَكِرَةٍ ؟ أَلَا تَكُونُ الْحَيَاةُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ مِنْ صُبْحِهَا لَصُبْحِهَا ؟

كَانَ الشَّابُّ كَالَّذِي يُرِيدُ مِنْ إِلَيْسَ أَنْ يَخْتَرَعَ لَهُ كَأَسَا تَسَعُ نَهْرًا مِنَ الْخَمْرِ ، أَوْ يَجِدَ لَهُ أَمْرَةً وَاحِدَةً وَفِيهَا كُلُّ فُتُونِ النِّسَاءِ وَاخْتِلَافِهِنَّ . وَكَانَ يُرِيدُ مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْ يُعِينَهُ فِي اللَّذَّةِ عَلَى الْأَسْتِغْرَاقِ الرُّوحَانِيِّ وَيَغْمُرَهُ بِمِثْلِ التَّجَلِّيَاتِ الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا النَّفْسُ مِنْ حِدَّةِ الطَّرَبِ وَحِدَّةِ الشُّوقِ ؛ وَذَلِكَ فَوْقَ طَاقَةِ إِلَيْسَ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مَعَهُ فِي جُهْدِهِ عَظِيمٍ حَتَّى ضَجَرَ مِنْهُ ذَاتَ مَرَّةٍ فَهَمَّ أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ عَنْهُ وَيَدْعَهُ بِدُخُلِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُصَلِّيَ مَعَ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ الصَّالِحِينَ . . .

وَهَؤُلَاءِ الْفُسَّاقُ الْكَثِيرُو الْأَمْالِ إِنَّمَا يَعِيشُونَ بِالْأَسْطِرَافِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ فَهَمُّهُمْ دَائِمًا الْأَلَدُ وَالْأَجْمَلُ وَالْأَعْلَى ؛ وَمَتَى أَنْتَهَتْ فِيهِمْ اللَّذَّةُ مُنْتَهَاهَا وَلَمْ تَجِدْ عَاطِفَتَهُمْ مِنَ اللَّذَاتِ الْجَدِيدَةِ مَا يُسَعِدُهَا ، ضَاقَتْ بِهِمْ فَظْهَرَتْ مَظْهَرُ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَنْتَجِرَ ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَلَلُ الَّذِي يُتَلَوْنَ بِهِ . وَالْفَاسِقُ الْغَنِيُّ حِينَ يَمَلُّ مِنْ لَذَاتِهِ يُصْبِحُ شَانُهُ مَعَ نَفْسِهِ كَالَّذِي يَكُونُ فِي نَفْيٍ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيُرِيدُ هُنَاكَ سَمَاءً وَجَوًّا يَطِيرُ فِيهِمَا بِالطَّيَّارَةِ . . .

\* \* \*

قَالُوا : وَاعْتَزَّضَ ابْنُ الْأَمِيرِ ذَاتَ يَوْمٍ شَحَاذَ مَرِيضٍ قَدْ أَسَنَّ وَعَجَزَ يَتَحَامَلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُخَسِّنَ إِلَيْهِ وَذَكَرَ عَوْرَتَهُ وَاخْتِلَالَهُ ، وَجَعَلَ يَبْتُهُ مِنْ دُمُوعِهِ وَالْفَاطِطِ . وَكَانَ إِلَيْسُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ قَدْ صَرَفَ خَوَاطِرَ الشَّابِّ إِلَى إِحْدَى الْغَايَاتِ الْمُتَمَتِّعَاتِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَبْتَنَعَ لَهَا حَلِيَّةً ثَمِينَةً أَشْطَطَ بَابُهَا فِي الثَّمَنِ حَتَّى بَلَغَ بِهِ عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَيْهَا كَأَنَّهَا قَدَّرَ مِنْ قَادِرٍ . . . وَقَطَعَ عَلَيْهِ الشَّحَاذُ الْمُسْكِنُ أَفْكَارَهُ الْمُضْيِيَّةَ فِي الشَّخْصِ الْمُضْيِي ، فَكَانَ إِهَانَةً لِخَيَالِهِ السَّامِيِّ . . . وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ ، وَأَشْمَازًا فِي عُرُوفِهِ دَمَ الْإِمَارَةِ ، وَتَحَرَّكَتِ الْوَرَاثَةُ الْحَزْبِيَّةُ فِي هَذَا الدَّمِ . . .

ثُمَّ أَلْقَى الشَّيْطَانُ الْقَاءَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَرَى صَاحِبَ أَلْوَجْهِ الْقَدِيرِ كَأَنَّمَا يَتَهَكَّمُ بِهِ يَقُولُ

لَهُ : أَنْتَ أَمِيرٌ يَبْحَثُ النَّاسُ عَنِ الْأَمِيرِ الَّذِي فِيهِ فَلَا يَجِدُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ الَّذِي فِيهِ . وَلَيْسَ  
فِيكَ مِنَ الْإِمَارَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَكُونُ مِنَ التَّارِيخِ فِي الْمَوْضِعِ الْأَتْرَبِيِّ الْحَرْبِ . وَلَنْ تَكُونَ أَمِيرًا  
بِشَهَادَةِ عَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ عِنْدَ مُؤْمِسٍ ، وَلَكِنْ بِشَهَادَةِ هَذَا الْمَالِ عِنْدَ عَشْرَةِ آلَافٍ فَقِيرٍ .  
أَنْتَ أَمِيرٌ ، فَهَلْ تُنْبِتُ الْحَيَاةَ أَنْتَ أَمِيرٌ ، أَوْ هَذَا مَعْنَى فِي كَلِمَةٍ مِنَ اللَّغَةِ ؟ إِنْ كَانَتْ الْحَيَاةُ  
فَأَيْنَ أَعْمَالِكَ ، وَإِنْ [ كَانَتْ ] اللَّغَةُ فَهَذِهِ لَفْظَةٌ بَائِدَةٌ تَدُلُّ فِي عُصُورِ الْأَنِحْطَاطِ عَلَى قَسْطِ  
حَامِلِهَا مِنَ الِاسْتِبْدَادِ وَالطَّغْيَانِ وَالْجَبَرُوتِ ، كَانَ الِاسْتِبْدَادُ بِالشَّعْبِ غَيْمَةً يَتَنَاھَبُهَا  
عُظَمَاؤُهُ ، فِقْسَمُ مِنْهَا فِي الْحَاكِمِ ، وَقِسْمٌ فِي شِبْهِ الْحَاكِمِ يَزْجُمُ عَنْهُ فِي اللَّغَةِ بَلَقِبِ أَمِيرٍ .

أَلَّا قُلِّ لِلنَّاسِ أَتْيَاهَا الْأَمِيرُ : إِنَّ لَقَبِي هَذَا إِنَّمَا هُوَ تَغْيِيرُ الزَّمَنِ عَمَّا كَانَ لِأَجْدَادِي مِنَ  
الْحَقِّ فِي قَتْلِ النَّاسِ وَأَمْنِهِانِهِمْ ...

وَكَانَ هَذَا كَلَامًا بَيْنَ وَجْهِ الشَّحَادِ وَبَيْنَ نَفْسِ ابْنِ الْأَمِيرِ فِي حَالَةِ بَخْصُوصِهَا مِنْ أحوَالِ النَّفْسِ ، فَلَا جَرَمَ أَهْمِ الشَّحَادُ وَطُرِدَ وَمَضَى يَدْعُو بِمَا يَدْعُو .  
وَنَامَ ابْنُ الْأَمِيرِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَكَانَ خَيَالُهُ<sup>(١)</sup> مِنْ دُنْيَا ضَمِيرِهِ وَضَمِيرِ الشَّحَادِ : فَرَأَى فِيهَا يَرَى النَّاسَ أَنَّ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَهْتَفُ بِهِ :

وَبَلَّغَ لَكَ الْبَرَكَاتِ كُلَّهَا بِمَا لَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمِمَّا جَاءَكَ مِنَ الْبَنَاتِ وَرَبِّكَ يَكْفِيكَ الْوَعْدَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ .

قَالُوا : وَيَنْظُرُ ابْنُ الْأَمِيرِ فَإِذَا كُلُّ مَا كَانَ لِنَفْسِهِ قَدْ تَرَكَ حِينَ تَرَكَ الْمَالُ ، وَإِذَا الْإِمَارَةُ كَانَتْ وَهَمًا فَرَضَهُ عَلَى النَّاسِ قَانُونُ الْعَادَةِ ، وَإِذَا التَّعَاطُفُ وَالْكَبْرِيَاءُ وَالنَّجَبُورُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا

(١) الْخِيَالَةُ : مَا يَتَرَاءَى لِلنَّاسِ مِنَ الْأَشْبَاحِ فِي نَوْمِهِ .

كَانَتْ مَكْرًا مِنَ الْمَكْرِ لِإِثْبَاتِ هَذَا الطَّاهِرِ وَالْتِعَازُ بِهِ . وَيَنْظُرُ ابْنُ الْأَمِيرِ ، فَإِذَا هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ صُغْلُوكَ أَبْتَرُ مُعْدِمُ رُثِّ الْهَيْئَةِ كَذَلِكَ الشَّحَاذُ ، فَيَصْنَعُ مُعْتَاطًا : كَيْفَ أَهْمَلْتَنِي الْأَقْدَارُ وَأَنَا ابْنُ الْأَمِيرِ ؟

قَالُوا : وَيَهْتَفُ بِهِ ذَلِكَ الْمَلِكُ : وَيَحْكُ ! إِنَّ الْأَقْدَارَ لَا تُدَلِّلُ أَحَدًا ، لَا مَلِكًا وَلَا أَبْنَ  
مَلِكٍ ، وَلَا سَوْفِيًّا وَلَا أَبْنَ سَوْفِيٍّ ، وَمَتَى صِرْتُمْ جَمِيعًا إِلَى التُّرَابِ فَلَيْسَ فِي التُّرَابِ عَظْمٌ  
يَقُولُ لِعَظْمٍ آخَرَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

قَالُوا : وَفَكَرَ الشَّابُّ الْمُسْكِينُ فِي صَوَاحِبِهِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَعِنْدَهُنَّ شَبَابُهُ وَإِسْرَافُهُ ، وَنَفَقَاتُهُ الْوَاسِعَةُ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : أَذْهَبَ لِإِحْدَاهُنَّ ؟ وَأَخَذَ سَمْتَهُ إِلَيْهَا ، فَمَا كَادَتْ تَعْرِفُهُ عَيْنَاهَا فِي أَسْمَالِهِ وَبَدَائِثِهِ وَفَقْرِهِ حَتَّى أَمَرَتْ بِهِ فَجَرَّ يَدَيْهِ وَدَفَعَ فِي فَمَاهُ . وَلَكِنَّ دَمَ الْإِمَارَةِ نَزَا فِي وَجْهِهِ غَضَبًا ، وَتَحَرَّكَتْ فِيهِ الْوَرَانَةُ الْحَزِينَةُ ، فَصَاحَ وَأَجْلَبَ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَضْطَرُّوا ، وَمَاجَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ . فَبَيْنَا هُوَ فِي شَأْنِهِ حَانَتْ مِنْهُ السَّيْفَانَةُ فَأَبْصَرَ غُلَامًا قَدْ دَخَلَ فِي غُمَارِ النَّاسِ ، فَدَسَّ يَدَهُ فِي جَيْبِ أَحَدِهِمْ فَشَلَّ كَيْسَهُ وَمَضَى .

قَالُوا : وَجَرَى فِي وَهْمِ ابْنِ الْأَعْرَبِيِّ أَنْ يَلْحَقَ بِالْغُلَامِ فَيَكْبِسَهُ كَبْسَةَ الشَّرْطِيِّ وَيَسْتَرْعَ مِنْهُ الْكَيْسَ وَيَسْتَفْعَ بِمَا فِيهِ ، فَتَسَلَّلَ مِنَ الزَّحَامِ وَتَبَعَ الصَّبِيَّ حَتَّى أَذْرَكَهُ ، ثُمَّ كَبِسَهُ وَأَخَذَ الْكَيْسَ مِنْهُ وَأَخْرَجَ الْكَتْرَ ، فَإِذَا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا خَاتَمٌ وَحِجَابٌ وَبَعْضُ خَزَرَاتٍ مِمَّا يَتَّبِرُكَ الْعَامَّةُ بِحَمْلِهِ ، وَمِفْتَاحُ صَنْيَرٍ ...

فَأَمْتَلَأَ غَيْظًا وَفَارَدَمَ الْإِمَارَةَ وَتَحَرَّكَتِ الْوِرَاثَةُ الْحَزِينَةُ الْغَنِيِّ فِيهِ . وَالْأَمَّ الصَّبِيُّ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَحَدَسَ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ أَفَاقٌ مُتَبَطِّلٌ ، لَا نَفَاذَ لَهُ فِي صِنَاعَةِ يَزْتَرِقُ مِنْهَا ، فَرُثِي لِقَفْرِهِ وَجَهْلِهِ وَدَعَاهُ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَهُ السَّرِيقَةَ وَأَنْ يَأْخُذَهُ إِلَى مَدْرَسَتِهَا . وَقَالَ : إِنْ لَنَا مَدْرَسَةٌ ، فَإِذَا دَخَلْتَ الْقِسْمَ الْإِعْجَادِيَّ مِنْهَا تَعَلَّمْتَ كَيْفَ تَحْمِلُ الْمِكْتَلَّ<sup>(١)</sup> فَتَذْهَبُ كَأَنَّكَ تَجْمَعُ فِيهِ الْحَرَقَ الْبَالِيَةَ مِنَ الدُّورِ حَتَّى إِذَا سَنَحَتْ لَكَ غَفْلَةٌ أَنْسَلَلْتَ إِلَى دَارِ مِنْهَا ، فَسَرَقْتَ مَا تَنَالَهُ يَدُكَ مِنْ

(١) هُوَ كَالْقَفَّةِ يُعْمَلُ مِنَ الْخُوصِ .

ثُوبٍ أَوْ مَنَاجٍ ، وَلَا تَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الصَّنْعَةِ حَتَّى تُحْكِمَهُ ، وَمَتَى حَدِيقَتُهُ وَمَهَرَتَ فِيهِ  
أَتَقَلَّتْ إِلَى الْقِسْمِ الثَّانِي . . .

فَصَاحَ ابْنُ الْأَمِيرِ : أَغْرُبَ عَيْنِي ، عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ ، أَخْرَاكَ اللَّهُ ! وَلَعَنَ اللَّهُ الْإِعْدَادِيَّ  
وَالثَّانِيَّ مَعًا .

ثُمَّ إِنَّهُ رَمَى الْكَيْسَ فِي وَجْهِ الْغُلَامِ وَأَنْطَلَقَ ، فَبَيَّنَا هُوَ يَمْسِي وَقَدْ تَوَرَّعَتْهُ الْهُمُومُ ، أَنْشَأَ  
يُفَكِّرُ فِيمَا كَانَ يَرَاهُ مِنَ الْمُكْدِنِ ، وَتِلْكَ الْعِلَلُ الَّتِي يَنْتَحِلُونَهَا لِلْكُذْبَةِ كَالَّذِي يَتَعَامَى وَالَّذِي  
يَتَعَارِجُ وَالَّذِي يُحْدِثُ فِي جِسْمِهِ آفَافَةً ؛ وَلَكِنْ دَمَ الْإِمَارَةُ أَشْمَارًا فِي عُرُوقِهِ وَتَحَرَّكَتْ فِيهِ  
الْوَرَاةُ الْخَزِيَّةُ ! وَبَصُرَ بِشَابٍّ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَغْنِيَاءِ تَنْطَلِقُ عَلَيْهِ النُّعْمَةُ فَتَعَرَّضَ لِمَعْرُوفِهِ ،  
وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِهِمَّةً ، وَشَكَ مَا نَزَلَ بِهِ ثُمَّ قَالَ : وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ وَظَنِّي بِكَ أَنْ تَصْطَفِيَنِي  
لِمُنَادَمَتِكَ أَوْ تُلْحِقَنِي بِخِدْمَتِكَ ، وَمَا أُرِيدُ إِلَّا الْكَفَافَ مِنَ الْعَيْشِ ، فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ بِي ،  
فَالْقَلِيلُ الَّذِي يَعْيشُ بِهِ الْمُقِلُّ . وَصَعِدَ فِيهِ الشَّابُّ وَصَوَّبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتُحْسِنُ أَنْ تَلْطَفَ  
فِي حَاجَتِي ؟ قَالَ : سَأُبْلُغُ فِي حَاجَتِكَ مَا تُحِبُّ . قَالَ الشَّابُّ : أَلَيْكَ سَابِقَةٌ فِي هَذَا ؟  
أَكُنْتُ قَوَادًا ؟ أَعْرِفُ كَثِيرَاتٍ مِنْهُنَّ . . . ؟

فَانْتَفَضَ غَضَبًا وَهَمَّ أَنْ يَنْطُشَ بِالْفَتَى لَوْلَا خَوْفُهُ عَاقِبَةَ الْجَرِيْمَةِ ، فَاسْتَخَذَى وَمَضَى  
لِوَجْهِهِ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ سُوقًا قَائِلٌ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا فِي بَعْضِ الْحَوَانِيتِ ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَهَا  
جَعَلُوا يَزْجُرُونَهُ مَرَّةً وَيَطْرُدُونَهُ مَرَّةً ، إِذْ وَقَعَتْ بِهِ ظِلَّةُ التَّلْصُصِ ، وَكَادُوا يُسْلِمُونَهُ إِلَى  
الْشَّرْطِيِّ فَمَضَى هَارِبًا ، وَقَدْ أَجْمَعَ أَنْ يَشْجَرَ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ وَدَهْرَهُ وَإِمَارَتَهُ وَيُؤَسِّسَ جَمِيعًا .

قَالُوا : وَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَضْرَعِهِ بِامْرَأَةٍ تَبِيعُ الْفُجْلَ وَالْبَصَلَ وَالْكُرَاتِ ، وَهِيَ بَادِنَةٌ  
وَضِيئَةٌ مُمْتَلِكَةٌ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ ، وَعَلَى وَجْهِهَا مَسْحَةٌ إِغْرَاءٍ ، فَذَكَرَ غَزَلَهُ وَفَنَّتَهُ وَاسْتِنَوَاءَهُ  
لِلنِّسَاءِ ، وَنَارَعَتْهُ التَّنْفُسُ ، وَحَسِبَ الْمَرْأَةُ تَكُونُ لَهُ مَعَاشًا وَلَهْوًا ، وَظَلَّهَا لَا تُعْجِرُهُ وَلَا  
تَفُوتُهُ وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ خَرَّاجٌ وَلَاجٌ مُنْذُ نَشَأَ . . . غَيْرَ أَنَّهُ مَا كَادَ يَرَاوِدُهَا حَتَّى أَبْتَدَرَتْهُ  
بِلَطْمَةٍ أَظْلَمَ لَهَا الْجَوُّ فِي عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ هَرَّتْ فِي وَجْهِهِ هَرِيرًا مُتَكَرِّرًا وَاسْتَعْدَتْ عَلَيْهِ السَّابِلَةَ  
فَاطَافُوا بِهِ وَأَخَذَهُ الصَّفْعُ بِمَا قَدَّمَ وَمَا حَدَثَ ، وَمَا زَالُوا يَتَعَاوَرُونَ ضَرْبًا حَتَّى وَقَعَ مَغْشِيًا  
عَلَيْهِ .

وَرَأَى فِي غَشِيَّتِهِ مَا رَأَى مِنْ تَمَامِ هَذَا الْكَزْبِ ، فَضْرَبَ وَحَسِبَ وَأَبْتَلِيَ بِالْجُنُونِ  
وَأَرْسَلَ إِلَى الْمَارِسَتَيْنِ ، وَسَاحَ فِي مَصَائِبِ الْعَالَمِ ، وَطَافَ عَلَى نَكَبَاتِ الْأَمْرَاءِ وَالسُّوْفَةِ  
بِمَا يَعْنِي وَمَا لَا يَعْنِي ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ قَدْ أَفَاقَ مِنَ الْإِغْمَاءِ فَإِذَا هُوَ قَدْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ عَلَى  
فِرَاشِهِ الْوَتِيرِ .

\* \* \*

وَيَا لَيْتَ مَنْ يَذَرِي بَعْدَ هَذَا ! أَعْدَا ابْنُ الْأَمِيرِ عَلَى الْمَسْجِدِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْفُقَرَاءِ يُحْسِنُ  
إِلَيْهِمْ ، أَمْ غَدَا عَلَى صَاحِبِيهِ الَّتِي أُمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ فَابْتِنَاعَ لَهَا الْحِلْيَةُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ ؟  
يَا لَيْتَ مَنْ يَذَرِي ! فَإِنَّ الْكِتَابَ الَّذِي نَقَلْنَا الْقِصَّةَ عَنْهُ لَمْ يَذْكُرْ مِنْ هَذَا شَيْئًا بَلْ قَطَعَ  
الْخَبَرَ عِنْدَمَا انْقَطَعَ الصَّفْعُ . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### بِنْتُ الْبَاشَا(\*) (١) . . .

كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ وَضَاحَةَ الْوَجْهِ ، زَهْرَاءَ اللَّوْنِ كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ ، تَحْسِبُهَا لِحْمَالِهَا  
[ قَدْ ] غَدَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِنُورِ النَّهَارِ ، وَرَوَتْهَا مِنْ ضَوْءِ الْكَوَاكِبِ .

وَكَانَتْ بَضَّةً مُقْسَمَةً أَبَدَعَ التَّقْسِيمَ ، يَلْتَفُ جِسْمُهَا شَيْئًا عَلَى شَيْءٍ الْتِفَافًا هَنْدَسِيًّا  
بَدِيعًا ، يَزْنَعُ عَنْ أَجْسَامِ الْغَيْدِ الْحَسَانَ ؛ أَفْرِغَ فِيهَا الْجَمَالَ بِقَدْرِ مَا يُمَكِّنُ - إِلَى أَجْسَامِ  
الدُّمَى الْعَبَقَرِيَّةِ الَّتِي أَفْرِغَ فِيهَا الْجَمَالَ وَالْفَرْقُ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِيلُ .

وَكَانَتْ بِاسْمَةِ أَبَدَا كَأَوَّلِ مَا يَتَلَأَلُ الْفَجْرُ ، حَتَّى كَانَ دَمَهَا الْغَزَلِيُّ الشَّاعِرَ يَصْنَعُ لِغُرُهَا  
أَبْسَامَتَهَا ، كَمَا يَصْنَعُ لِخَدَّيْهَا حُمْرَتَهُمَا .

مَا لَهَا جَلَسَتْ أَلَانَ تَحْتَ اللَّيْلِ مُطَرِّقَةً كَاسِفَةً ذَابِلَةً ، تَأْخُذُهَا الْعَيْنُ فَمَا تَشْكُ أَنَّ هَذَا  
الْوَجْهَ قَدْ كَانَ فِيهِ مَنَبْعُ نُورٍ وَغَاصَ ! وَأَنَّ هَذَا الْجِسْمَ الظَّمَانُ الْمَعْرُوقُ هُوَ بُقْعَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ  
أَقِيمَ فِيهَا مَا تَمَّ !

مَا لِهَذِهِ الْعَيْنِ الْكَحِيلَةِ تُذَرِّي الدَّمْعَ وَتَسْتَرْسِلُ فِي الْبُكَاءِ وَتَلْجُ فِيهِ ، كَأَنَّ الْغَادَةَ  
الْمُسْكِنِيَّةَ تُبْصِرُ بَيْنَ الدُّمُوعِ طَرِيقًا تُفْضِي مِنْهُ نَفْسَهَا إِلَى الْحَبِيبِ الَّذِي لَمْ يَعْذُ فِي الدُّنْيَا ؛  
إِلَى وَحِيدِهَا الَّذِي أَصْبَحَتْ تَرَاهُ وَلَا تَلْمُسُهُ ، وَتُكَلِّمُهُ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهَا ؛ إِلَى طِفْلِهَا النَّاعِمِ  
الطَّرِيفِ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَى الْقَبْرِ وَلَنْ يَرْجِعَ ، وَتَتَمَثَّلُهُ أَبَدًا يُرِيدُ أَنْ يَجِيءَ إِلَيْهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ ،  
وَتَتَحَيَّلُهُ أَبَدًا يَصْبِيحُ فِي الْقَبْرِ يُنَادِيهَا : « يَا أُمِّي ! يَا أُمِّي ! . . . » .

قَلْبُهَا الْحَزِينُ يُقَطِّعُ فِيهَا وَيُمَرِّقُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ؛ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَضُمَّ  
الطُّفْلَ إِلَى صَدْرِهَا ، لِيَسْتَشْمِرَهُ الْقَلْبُ فَيَفْرَحَ وَيَبْهَتًا إِذْ يَمَسُّ الْحَيَاةَ الصَّغِيرَةَ الْخَارِجَةَ مِنْهُ .

(\*) « الرسالة » العدد : ٧١ ، ٤ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٢ نوفمبر/تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٤٢ - ١٨٤٥ .

(١) [ أَنْظُرْ خَيْرَ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَحَدِيثِ : « الرَّبَّالِ الْفَيْلَسُوفِ » فِي : « عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِنَا : « حَيَاةُ  
الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ ] .

وَلَكِنْ أَيْنَ الطُّفْلُ ؟ أَيْنَ حَيَاةُ الْقَلْبِ الْخَارِجَةُ مِنَ الْقَلْبِ ؟

لَا طَاقَةَ لِلْمُسْكِنِيَّةِ أَنْ تُجِيبَ قَلْبَهَا إِلَى مَا يَطْلُبُ ، وَلَا طَاقَةَ لِقَلْبِهَا أَنْ يَهْدَأَ عَمَّا  
يَطْلُبُ ؛ فَهُوَ مِنَ الْغَيْظِ وَالْقَهْرِ يُحَاوِلُ أَنْ يُفَجِّرَ صَدْرَهَا ، وَيُرِيدُ أَنْ يَدُقَّ صُلُوعَهَا ، لِيَخْرُجَ  
فَيَبْحَثَ بِنَفْسِهِ عَنْ حَبِيبِهِ !

مُسْكِنِيَّةٌ تَتَرَنَّحُ وَتَتَلَوَّى تَحْتَ ضَرْبَاتِ مُهْلِكَةٍ مِنْ قَلْبِهَا ، وَضَرْبَاتِ أُخْرَى مِنْ خِيَالِهَا ،  
وَقَدْ بَاتَتْ مِنْ هَذِهِ وَتِلْكَ تَعِيْشُ فِي مِثْلِ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الدَّيْبِيَّةُ تَحْتَ السَّكِينِ .  
وَلَكِنَّهَا لَخِطَّةٌ أَمْنَدَتْ إِلَى يَوْمٍ ، وَيَوْمَ أَمْنَدَتْ إِلَى شَهْرِ . يَا وَلَيْلَهَا مِنْ طُولِ حَيَاةٍ لَمْ تَعُدْ فِي  
أَلَمِهَا وَأَوْجَاعِهَا إِلَّا طُولَ مَدَّةِ الدَّيْبِ لِلْمَذْبُوحِ .

وَلَوْ كَانَ لِلْمَوْتِ فَطَارٌ يَقِفُ عَلَى مَحْطَّةٍ فِي الدُّنْيَا ، لِيَخْمَلَ الْأَخْبَابَ إِلَى الْأَخْبَابِ ،  
وَيُسَافِرَ مِنْ وَجُودٍ إِلَى وَجُودٍ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُّ جَالِسَةً فِي تِلْكَ الْمَحْطَّةِ مُنْتَظِرَةً تَتَرَبَّصُ ،  
وَقَدْ ذَهَلَتْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَجَرَّدَتْ مِنْ كُلِّ مَعَانِي الْحَيَاةِ ، وَجَمُدَتْ جُمُودَ الْإِنْتِقَالِ إِلَى  
الْمَوْتِ - لِمَا كَانَتْ إِلَّا بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ فِي مَجْلِسِهَا أَلَانَ فِي شُرُفَتِهَا مِنْ قَصْرِهَا ؛ تُطِلُّ عَلَى  
الَلَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَعَلَى أَخْزَانِهَا . . . !

\* \* \*

هِيَ فَلَانَةُ بِنْتُ فَلَانَ بَاشَا وَزَوْجَةُ فَلَانٍ بَك . تَرَادَفَتِ النَّعَمُ عَلَى أَيْبِهَا فِيمَا يَطْلُبُ وَمَا  
لَا يَطْلُبُ ، وَكَأَنَّمَا فَرَعَ مِنْ أَفْتِرَاحِهِ عَلَى الزَّمَانِ وَاتَّكَنَى مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ ، فَلَمْ يُعْجِبِ  
الزَّمَانُ { ذَلِكَ } ، فَأَخَذَ يَقْتَرِحُ لَهُ وَيَصْنَعُ مَا يَقْتَرِحُ ، وَيَزِيدُهُ عَلَى رَغْمِهِ نَعَمًا تَتَوَالَى !

وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى خِطْبَةِ ابْنَتِهِ شَابَّ مُهْدَّبٍ ، يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ السَّبَابَ وَالْهَيْمَةَ وَالْعِلْمَ ،  
وَمِنْ أَسْلَافِهِ الْعُنْصُرُ الْكَرِيمُ وَالشَّرَفُ الْمَوْزُونُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ مَا يُكَارِهُ بِهِ الرِّجَالُ  
وَيُفَاحِشُ . بَيِّنَةٌ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ عَيْشِهِ إِلَّا الْكَفَافَ وَالْقِلَّةَ ، وَأَمَلًا بَعِيدًا كَالْفَجْرِ وَرَاءَ لَيْلٍ لَا بُدَّ  
مِنْ مُصَابِرَتِهِ إِلَى حِينٍ يَنْبَسِطُ الشُّورُ .

وَتَقَدَّمَ صَاحِبُنَا إِلَى الْبَاشَا فَجَاءَهُ كَالنَّجْمِ عَارِيًا ؛ أَيَّ فِي أَزْهَى نُورَانِيَّتِهِ وَأَصْوَرَتِهَا .  
وَكَانَ قَدْ عَلِقَ الْفَتَاةَ وَعُلِقَتْهُ ، فَظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّ الْحُبَّ هُوَ مَالُ الْحُبِّ ، وَأَنَّ الرُّجُولَةَ هِيَ  
مَالُ الْأُنُوثَةِ ، وَأَنَّ الْقُلُوبَ تَتَعَامَلُ بِالْمَسَرَّاتِ لَا بِالْأَمْوَالِ ، وَنَسِيَ أَنَّهُ يَقْدَمُ إِلَى رَجُلٍ مَالِيٍّ

جَعَلْتَهُ حَقَارَةً لِاجْتِمَاعِ رُتْبَةٍ ، أَوْ إِلَى رُتْبَةٍ مَالِيَّةٍ جَعَلْتَهَا حَقَارَةً لِاجْتِمَاعِ رَجُلًا . . . وَأَنَّ كَلِمَةَ « بَاشَا » وَأَمْثَالَهَا ، إِنَّمَا تَخَلَّفَتْ عَنْ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ الْقَدِيمِ : مَذْهَبِ الْأَلُوَهِيَّةِ الْكَاذِبَةِ الَّتِي انْتَحَلَهَا فِرْعَوْنُ وَأَمْثَالُهُ ، لِيَتَعَبَّدُوا النَّاسَ مِنْهَا بِالْفَاطِ قُلُوبِهِمُ الْمُؤْمِنَةِ ؛ فَإِذَا قِيلَ : « إِلَهٌ » كَانَ جَوَابُ الْقَلْبِ : « عَزَّ وَجَلَّ » ، « سُبْحَانَهُ » . . .

وَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّاسُ عَنْ عِبَادَةِ النَّاسِ ، تَلَطَّفَتْ تِلْكَ الْأَلُوَهِيَّةُ وَنَزَلَتْ إِلَى دَرَجَاتِ إِنْسَانِيَّةٍ ، لِيَتَعَبَّدَ النَّاسُ بِالْفَاطِ عُقُولِهِمُ السَّادِجَةِ ؛ فَإِنْ قِيلَ : « بَاشَا » كَانَ جَوَابُ الْعَقْلِ الصَّغِيرِ : « سَعَادَتُكَ أَفْنِدِمُ » (١) !

نَسِيَ الشَّابُّ أَنَّهُ « أَفْنِدِي » سَيَقْدَمُ إِلَى « بَاشَا » وَأَعْمَاهُ الْحُبُّ عَنْ فَرْقِ بَيْنَهُمَا ؛ وَكَانَ سَامِي الْقَفْسِ ، فَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ صَغَائِرَ الْأُمَمِ الصَّغِيرَةِ لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَتَّحِلَ السُّمُوءُ انْتِحَالًا ، وَأَنَّ الشَّعْبَ الَّذِي لَا يَجِدُ أَعْمَالًا كَبِيرَةً يَتَمَجَّدُ بِهَا ، هُوَ الَّذِي تُخْتَرَعُ لَهُ الْأَلْفَاظُ الْكَبِيرَةُ لِيَتَلَهَّى بِهَا ؛ وَأَنَّهُ مَتَى ضَعُفَ إِذْرَاكُ الْأَمَةِ ، لَمْ يَكُنِ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الرِّجَالِ بِفَضَائِلِ الرُّجُولَةِ وَمَعَانِيهَا ، بَلْ بِمَوَاضِعِ الرُّجُولَةِ مِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ ؛ فَإِنْ قِيلَ : « بَاشَا » ، فَهَلِهِ الْكَلِمَةُ هِيَ الْاِخْتِرَاعُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْعَظِيمُ فِي أُمَمِ الْأَلْفَاظِ ، وَمَعْنَاهَا الْعِلْمِيُّ : قُوَّةُ أَلْفِ فِدَانٍ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ أَقَلُّ ؛ وَيُقَابِلُهَا مَثَلًا فِي أُمَمِ الْأَعْمَالِ الْكَبِيرَةِ لَفْظُ : « الْأَلَّةُ الْبُخَارِيَّةُ » ، وَمَعْنَاهَا الْعِلْمِيُّ : قُوَّةُ كَذَا وَكَذَا حِصَانًا أَوْ أَقَلُّ أَوْ أَكْثَرُ (٢) !

نَسِيَ هَذَا الشَّابُّ أَنَّ « أُمَمَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ » فِي هَذَا الشَّرْقِ الْمُسْكِينِ ، لَا تَتِمُّ عَظَمَتُهَا إِلَّا بِأَنْ تَضَعَ لِأَصْحَابِ الْمَالِ الْكَثِيرِ أَلْقَابًا هِيَ فِي الْوَاقِعِ أَوْصَافُ اجْتِمَاعِيَّةٍ لِلْمَعْدَةِ الَّتِي تَأْكُلُ الْأَكْثَرَ وَالْأَطْيَبَ وَالْأَلَدَّ ، وَتَمْلِكُ أَسْبَابَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْأَلَدِّ وَالْأَطْيَبِ وَالْأَكْثَرِ .

وَتَقْدَمُ الْأَفْنِدِي بِوَدْدٍ إِلَى الْبَاشَا مَا اسْتَطَاعَ ، وَيَتَوَاضَعُ وَيَتَكَمَّشُ ، وَلَا يَأْلُوهُ تَمَجُّدًا وَمَغْظِيْمًا ، وَلَكِنْ أَيْنَ هُوَ مِنَ الْحَقِيقَةِ ؟ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْبَاشَا إِلَّا أَحْمَقٌ ؛ إِذْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ

(١) هَذِهِ الْأَقَابُ وَضَعَهَا الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ الْبَائِدَةُ . فَأَنَسَدَتِ النَّاسَ بِكِبَرِيَاءِ الْأَلْفَاظِ الْفَارِغَةِ . وَقَدْ أَرَادَتْ بِهَا رَفْعَ الْأَعْلَى ، فَأَتَتْهُنَّ أَمْرًا إِلَى سُفُوطِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ .

(٢) أَنْظُرْ مَقَالَهَ « الْبِكُ وَالْبَاشَا » فِي الْجُزْءِ الثَّانِي .

تَقْدَمُهُ إِلَى ذَلِكَ الْعَظِيمِ كَانَ أَوَّلَ مَعَانِيهِ أَنَّ كَلِمَةَ « أَفْنِدِي » تَطَاوَلَتْ إِلَى كَلِمَةِ « بَاشَا » بِالسَّبِّ عَلَنًا . . . !

\* \* \*

وَانْقَبَضُوا عَنِ الْأَفْنِدِي وَأَعْرَضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا كَانَ مَعْنَاهُ الطَّرْدُ ؛ ثُمَّ جَاءَ الْبِكُ يَخْطُبُ الْفَتَاةَ .

وَ« بِكُ » مَنَهَةٌ لِلِاسْمِ الْخَاطِبِ ، وَشَرَفٌ وَقَدْرٌ وَثَنَاءُ اجْتِمَاعِيٍّ ، وَذِكْرُ شَهِيْرٍ ، وَإِزْغَامٌ عَلَى التَّعْظِيمِ بِقُوَّةِ الْكَلِمَةِ ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْخُرُمَاتِ اللَّازِمَةِ لِلِاسْمِ لُزُومِ السَّوَادِ لِلْعَيْنِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ تَحْتَ بِكُ رَجُلٌ ، فَإِنَّ تَخْتَهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ بِكُ . . . ! وَأَنْعَمَ لَهُ الْبَاشَا ، وَوَصَلَ يَدَهُ بِيَدِ ابْنَتِهِ فَالْبَسَهَا وَالْبَسَنَتْ ، وَأَعْلَمَهَا أَبُوهَا أَنَّهُ قَدْ فَحَصَ عَنِ الْبِكُ فَإِذَا هُوَ بِكُ قُوَّةً مِثْلِي فِدَانٍ . . . ! أَمَا الْأَفْنِدِي فَظَهَرَ مِنَ الْفَخْصِ الْهِنْدَسِيِّ الْاجْتِمَاعِيِّ أَنَّهُ أَفْنِدِي قُوَّةً خَمْسَةَ عَشَرَ جُنَيْهَا فِي الشَّهْرِ . . . !

وَحَسَنَ الْأَفْنِدِي وَتَرَجَعَ مُنْخَرِلًا ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْبَاشَا إِنَّمَا زَوَّجَ لَقَبَهُ قَبْلَ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَتَهُ ، وَأَنَّهُ هُوَ لَنْ يَمْلِكَ مَهْرَ هَذَا الْقَلْبِ إِلَّا إِذَا مَلَكَ أَنْ يُبَدِّلَ أَسْبَابَ التَّارِيخِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي الْأُمَمِ الصَّغِيرَةِ ، فَيَنْقَلِ إِلَى الْعَقْلِ أَوْ النَّفْسِ مَا جَعَلْتَهُ « أُمَمَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ » مِنْ حَقِّ الْمَعْدَةِ ، فَلَا يَكُونُ بَاشَا إِلَّا مُخْتَرَعٌ شَرْقِيٌّ مُفْلِسٌ ، أَوْ أَدِيبٌ عَظِيمٌ فَقِيرٌ ، أَوْ مَنْ جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فِي سُمُوءِ الْمَعْنَى لَا فِي سُمُوءِ الْمَالِ .

وَقَدَّمَتْ مِثْلًا الْفِدَانِ مَهْرَهَا « الطَّيْنِي » الْعَظِيمَ بِمَا تَعْبِيرُهُ فِي اللَّغَةِ الطَّيْنِيَّةِ : ثَمَنُ عِشْرِينَ نُورًا ، وَمِثْلَهَا جَامُوسًا ، وَمِثْلَهَا بِغَالًا وَأَخْمَرَةً ، وَفَوْقَهَا مِثْلُ قِنْطَارٍ قُطْنًا ، وَمِثْلُهَا أُرْدُبٌ قَمَحًا ، ثُمَّ ذَرَّةٌ ، ثُمَّ شَعِيرًا . وَالْمَجْمُوعُ الطَّيْنِيُّ لِذَلِكَ أَلْفُ جُنَيْهِ ، وَعَزَى الْبَاشَا أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : إِنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ ، اخْتَرَلْتُهَا الْأَرْمَنَةُ قَبْلَهَا اللَّهُ . . . !

ثُمَّ رُفِتَ « بِنْتُ الْبَاشَا » زَفَافًا طَيْنِيًّا بِهِذَا الْمَعْنَى أَيْضًا ، كَانَ تَعْبِيرُهُ : أَنَّهُ أُنْفِقَ عَلَيْهِ ثَمَنُ أَلْفِ قِنْطَارٍ بَصَلًا ، وَمِثْلُ غَرَارَةٍ مِنَ السَّمَادِ الْكَيْمَائِيِّ ، كَأَنَّمَا فُرِشَ بِهَا الطَّرِيقُ . . . !

وَطَفِقَ الْبَاشَا يُفَاحِرُ وَيَتَمَدَّحُ ، وَيَتَبَدَّحُ عَلَى الْأَفْنِدِي وَأَمْثَالِ الْأَفْنِدِي بِالطَّيْنِ وَمَعَانِيهِ

الطَّيْنِ ؛ فَردَّتْ الْأَقْدَارُ كَلَامَهُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَتْ مَرْجِعَهُ فِي قَلْبِهِ ، وَهَيَّاتْ لِبْنَتِ الْبَاشَا مَعِيْشَةً  
« طَيْنِيَّةً » بِمَعْنَى غَيْرِ ذَلِكَ الْمَعْنَى ...

\* \* \*

وَمَاتَ الطُّفْلُ ؛ فَردَّتْ هَذِهِ النُّكْبَةُ بِنْتَ الْبَاشَا إِلَى مَعَانِي أَنْفِرَادِهَا بِنَفْسِهَا قَبْلَ الزَّوْاجِ ،  
وَزَادَتْهَا عَلَى أَنْفِرَادِهَا الْحُزْنَ وَالْأَلَمَ ؛ وَأَلْقَتْ الْأَقْدَارُ بِذَلِكَ فِي أَيَّامِهَا وَلَيَالِيهَا التُّرَابَ  
وَالطَّيْنَ .

وَلَجَّ الْحُزْنُ بَيْنَتِ الْبَاشَا فَجَعَلَتْ لَا تَرَى إِلَّا الْقَبْرَ ، وَلَا تَتَمَكَّى إِلَّا الْقَبْرَ ، تَلَحُّقُ فِيهِ  
بِوَلَدِهَا ؛ فَوَضَعَتْ الْأَقْدَارُ مِنْ ذَلِكَ فِي رُوحِهَا مَعْنَى الطَّيْنِ وَالتُّرَابِ .

وَأَسْقَمَ اللَّهُمُّ بِنْتَ الْبَاشَا وَأَذَابَهَا ؛ فَتَقَلَّتِ الْأَقْدَارُ إِلَى لَحْمِهَا عَمَلِ الطَّيْنِ ، فِي تَحْلِيلِهِ  
الْأَجْسَامَ وَإِذَابِهَا تَحْتَ أَلْبَلَى .

\* \* \*

وَكَانَ وَرَاءَ قَضَرِهَا حِوَاءٌ<sup>(١)</sup> يَأْوِي إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ « طَيْنِ النَّاسِ » بِنِسَائِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ،  
وَفِيهِمْ رَجُلٌ « رَبَّانٍ » لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ ، يَرَاهُمْ أَعْظَمُ مَفَاحِرِهِ وَأَجْمَلُ آثَارِهِ ، وَلَا يَزَالُ يَرْفَعُ  
صَوْتَهُ مُتَمَدِّحًا بِهِمْ ، وَيَخْتَرِعُ لَذَلِكَ أَسْبَابًا كَثِيرَةً لِكَيْ يَسْمَعَهُ جِيرَانُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ مُفَاحِرًا ، مَرَّةً  
بِأَحْمَدَ ، وَمَرَّةً بِحَسَنِ ، وَمَرَّةً بِعَلِيِّ ، وَأَعْجَبَ أَمْرُهُ أَنَّهُ يَرَى أَوْلَادَهُ هَؤُلَاءِ مُتَمَمِّينَ فِي  
الطَّيْنَةِ لِأَوْلَادِ « الْبَاشَوَاتِ » ... وَهُوَ يُحِبُّهُمْ حُبَّ الْحَيَوَانِ الْمُفْتَرَسِ لِصِغَارِهِ ؛ يَرَى  
الْأَسَدَ أَشْبَاهَهُ هُمْ صَنَعَةَ قُوَّتِهِ ، فَلَا يَزَالُ يَحُوْطُهُمْ وَيَتَمَمُّهُمْ وَيَرْعَاهُمْ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُقَاتِلُ  
الْوُجُودَ مِنْ أَجْلِهِمْ ؛ إِذْ يَشْعُرُ بِالْفِطْرَةِ الصَّادِقَةِ أَنَّهُ هُوَ وَجُودُهُمْ ، وَأَنَّ الطَّيْنَةَ وَهَبَتْ لَهُ  
مِنْهُمْ مَسَرَّاتٍ قَلْبِهِ ، ذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي أَنْحَصَرَتْ مَسَرَّاتُهُ فِي النَّسْلِ وَخَدَهُ ، فَصَارَ الشُّعُورُ  
بِالنَّسْلِ عِنْدَهُ هُوَ الْحُبُّ إِلَى نِهَائِهِ الْحُبُّ . وَكَذَلِكَ الرَّبَّانُ الْأَسَدُ<sup>(٢)</sup> .

(١) الحِوَاءُ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْبُيُوتِ كَهَلِذِهِ الْعُشُشِ الَّتِي يَسْكُنُهَا الصَّعَابِدَةُ فِي بَغْضِ الْأَخْيَاءِ .

(٢) هَذَا الرَّبَّانُ شَخْصِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ ، لَوْ قُلْنَا بِمَذْهَبِ الرَّجْمَةِ لَكَانَ « أَرْسَطُو » رَجَعَ رَبَّانًا لِيَتِمَّ فَلَسَفَتُهُ .  
وَالْكَاتِبُ يَعْرِفُ الرَّجُلَ وَيَبْزُهُ أَخِيَانًا وَكَانَ حَضْرَتُهُ قَدْ طَلَبَ إِلَيْنَا أَنْ نَصْنَعُ لَهُ مَوَالَا يَتَعَنَّى بِهِ فِي أَوْقَاتِ =

وَمِنْ سُخْرِيَةِ الْقَدَرِ أَنَّ رَبَّانًا هَذَا لَمْ يَسْكُنِ الْحِوَاءَ إِلَّا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي جَلَسَتْ فِيهَا  
بِنْتُ الْبَاشَا عَلَى مَا وَصَفْنَا ، وَفِي ضُلُوعِهَا قَلْبٌ يُفْتَتُّ مِنْ كِبِدِهَا ، وَيُمَرَّقُ مِنْ أَحْشَائِهَا .

وَبَيْنَمَا تَتَأَجَّجُ نَفْسُهَا وَتَعْجَبُ مِنْ سُخْرِيَةِ الْأَقْدَارِ بِالْبَاشَا وَالْبِكِ ، وَتَسْتَحْقِيقُ أَبَاهَا فِيمَا  
أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ نَبَذِ كُفَيْهَا لِعَجْزِهِ عَنْ مَهْرِ بَاشَا ، وَإِثَارِ هَذَا الْمَهْرِ الطَّيْنِيِّ ، وَتَبَاهِيهِ بِهِ أَمَامَ  
النَّاسِ ، وَأَنْدِرَائِهِ بِالطَّيْنِ عَلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ لَقَبٌ مِنَ الْقَابِ الطَّيْنِ - بَيْنَمَا هِيَ كَذَلِكَ إِذَا  
بِالرَّبَّانِ ؛ كَانِسِ التُّرَابِ وَالطَّيْنِ يَهْتَفُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَيَتَعَنَّى :

يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

\* \* \*

الْقَلْبُ أَهْوَى رَاضِي لَكَ حَمْدِي يَا رَبِّي  
مِنْ أَلْهُمُّومٍ فَاضِي إِفْرَحْ لِي يَا قَلْبِي

\* \* \*

يَا دُوبُ كِدَا يَا دُوبُ رَيِّ الْحَمَامِ عَايِشِ  
مَا يُمِثِّلُكَ غَيْرُ ثُوبُ طُولِ عُمْرِهِ فِيهِ نَافِشِ  
يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

\* \* \*

إِنْ قُلْتُ أَنَا فَرْحَانُ دَا مِيْنُ يَكْدُنِي  
وَأَكْتَرُ مِنَ السُّلْطَانِ فَرْحَانُ أَنَا بِأَيْنِي

\* \* \*

بَيْنَ الشُّيُوفِ يَا نَاسَ لَمْ أَنْكَسِرْ سِيْفِي  
وَأَبْنِ الْغَيْسِ مِخْتَاسَ وَأَنَا عَلَى كَيْفِي ...

الْصَّفَاءُ ، فَوَضَعْنَا لَهُ الْأَغْنِيَةَ الَّتِي يَرَاهَا الْقَارِئُ بَعْدَ ، وَهُوَ يَصْدَحُ بِهَا فِي لَيْالِيهِ . وَتَشْفِرُ دُورُ رَبَّانِي هَذَا  
مَقَالًا خَاصًّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

يَا لَيْلَ، يَا لَيْلَ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

\* \* \*

وَأَبْنِ الْغَنَى فِي هُمُومٍ وَالْحَالِي خَالِي الْبَانِ  
وَالْفَقْرَ مَا يَبْدُومُ وَنُدُومُ هُمُومِ الْمَانِ

\* \* \*

يَا طَيْرَ يَا طَيْرَ، يَا طَيْرَ الْخُرُوفِ وَاللُّؤْمِ  
وَالْخَيْرَ، جَمِيعِ الْخَيْرِ لِقَمِهِ، وَعَافِيَةٍ، وَنُومِ  
يَا لَيْلَ، يَا لَيْلَ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

\* \* \*

وَلَمْ تَخْتَرْ الْأَقْدَارُ إِلَّا زَبَالًا تُرْسِلُ فِي لِسَانِهِ سُخْرِيَتَهَا بِذَلِكَ الْبَاشَا وَبِئْسَ ذَلِكَ  
الْبَاشَا ... !! [ من مخلف البسيط ] :

وَكَسَّرُ قَلْبٍ بِكَسْرِ قَلْبٍ وَحَطَّمُ نَفْسٍ بِحَطْمِ نَفْسٍ  
وَرُبُّ عِزٍّ نَرَاهُ أَمْسَى كُنَاسَةً هَيْئَتُ لِكُنْسٍ ... !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### وَرَقَةٌ وَرْدٍ (\*)

« وَضَعْنَا كِتَابَنَا « أَوْرَاقُ الْوَرْدِ » فِي نَوْعٍ مِنَ التَّرْسُلِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ  
عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي كَتَبْنَاهُ بِهَا ، فِي الْمَعَانِي الَّتِي أَفْرَدْنَاهُ لَهَا ؛ وَهُوَ رَسَائِلُ غَرَامِيَّةٍ تَطَارَحَهَا  
شَاعِرٌ فَيَلْسُوفٌ وَشَاعِرَةٌ فَيَلْسُوفَةٌ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ . وَكَانَتْ قَدْ ضَاعَتْ « وَرَقَةٌ  
وَرْدٍ » وَهِيَ رِسَالَةٌ كَتَبَهَا ذَلِكَ الْعَاشِقُ إِلَى صَدِيقَتِهِ لَهُ ، يَصِفُ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ صَاحِبَتِهِ ، وَيُصَوِّرُ  
لَهُ فِيهَا سِحْرَ الْحُبِّ كَمَا لَمَسَهُ وَكَمَا تَرَكَهُ . وَقَدْ عَثَرْنَا عَلَيْهَا بَعْدَ طَوْنِ الْكِتَابِ ، فَرَأَيْنَا أَلَّا نَنْفِرِدَ  
بِهَا . وَهِيَ هَذِهِ : »

... كَانَتْ لَهَا نَفْسٌ شَاعِرَةٌ ، مِنْ هَذِهِ الثُّمُوسِ الْعَجَبِيَّةِ الَّتِي تَأْخُذُ الصَّدِّيقِينَ بِمَعْنَى  
وَاحِدٍ أَحْيَانًا ؛ فَيَسْئُرُهَا مَرَّةً أَنْ تُخْزِنَهَا وَتَسْتَدْعِي غَضَبَهَا ، وَيُخْزِنُهَا مَرَّةً أَنْ تَسُرَّهَا وَتَبْلُغَ  
رِضَاهَا ، كَأَنَّ لَيْسَ فِي الشُّرُورِ وَلَا فِي الْحُزْنِ مَعَانٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَلَكِنْ مِنْ نَفْسِهَا وَمَشِيئَتِهَا .  
وَكَانَ خَيَالُهَا مَشْبُوبًا ، يُلْقِي فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمَعَانِ الثُّورِ وَأَنْطِفَاءً ؛ فَالذُّنْبَا فِي خَيَالِهَا  
كَالسَّمَاءِ الَّتِي أَلْبَسَهَا اللَّيْلُ ، مُلِثَتْ بِأَشْيَائِهَا مُبَعَّرَةً مُضَيَّئَةً خَافَتَهُ كَالْمُجُومِ .  
وَلَهَا شُعُورٌ دَقِيقٌ ، يَجْعَلُهَا أَحْيَانًا مِنْ بَلَاعَةِ حِسِّهَا وَإِزْهَافِهِ كَأَنَّ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ عَقْلِهَا ؛  
وَيَجْعَلُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ دِقَّةِ هَذَا الْحِسِّ وَاهْتِيَاجِهِ كَأَنَّهَا بَغِيرُ عَقْلٍ ...  
وَهِيَ تَرَى أَسْمَى الْفِكْرِ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهَا أَلَّا يَكُونَ لَهَا فِكْرٌ || أَلْبَتَّةَ || ؛ فَتَتْرُكُ مِنْ  
أُمُورِهَا أَشْيَاءَ لِلْمُصَادَفَةِ ، كَأَنَّهَا وَائِقَةٌ أَنَّ الْحِطَّ بَعْضُ عُشَاقِهَا . عَلَى أَنَّ لَهَا ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ  
الذِّكَا ، فِي عَقْلِهَا وَرُوحِهَا وَجِسْمِهَا : فَالذِّكَا فِي عَقْلِهَا فَهْمٌ ، وَفِي رُوحِهَا فِتْنَةٌ ، وَفِي  
جِسْمِهَا ... خَلَاعَةٌ .

وَكُنْتُ أَرَاهَا مَرِحَةً مُسْتَطَارَةً مِمَّا تَطْرُبُ وَتَتَفَاءَلُ ، حَتَّى لِأَحْسِبُهَا تَوَدُّ أَنْ يَخْرُجَ الْكَوْنُ  
مِنْ قَوَانِينِهِ وَيَطِيشَ ... ؛ ثُمَّ أَرَاهَا بَعْدَ مُتْصَوِّرَةٍ مَهْمُومَةٍ تَحْزَنُ وَتَشْتَأَمُ ، حَتَّى لِأَطْنُهَا  
سَتَرِيذُ الْكَوْنِ هَمًّا لَيْسَ فِيهِ !

(\*) « الرسالة » العدد : ١٠١ ، ٩ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١٠ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م ،  
السنة الثالثة ، الصفحات : ٩٢٣ - ٩٢٥ .

وَكَاثَتْ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ الْمُتَنَافِرَةِ - جَمِيلَةً ظَرِيفَةً ، قَدْ تَمَثَّلَتْ لَهَا الصُّورَةُ الَّتِي تَخْلُقُ الْحُبَّ ، وَالْأَسْرَارُ الَّتِي تَبْعَثُ الْفِتْنَةَ ؛ وَالسَّخَرُ الَّذِي يُمَيِّرُ رُوحَهَا بِشَخْصِيَّيْهَا الْفَاتِنَةِ كَمَا تَتَمَيَّرُ فِي بَوَاجِهِهَا الْفَاتِنِ .

\* \* \*

وَكَانَ حُبِّي إِثَابًا حَرِيفًا مِنَ الْحُبِّ . فَمَثَلُ لِعَيْنَيْكَ جِسْمًا تَنَاقَلَ جِلْدُهُ مَسٌّ مِنْ لَهَبٍ ، فَتَسْلَعُ هَذَا الْجِلْدَ<sup>(١)</sup> هُنَا وَهُنَاكَ مِنْ سَلَخِ النَّارِ ، وَظَهَرَ فِيهِ مِنْ آثَارِ الْحُرُوقِ لَهَبٌ يَابِسٌ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ عُرُوقٌ مِنَ الْجَمْرِ انْتَشَرَتْ فِي هَذَا الْجِسْمِ . إِنَّكَ إِنْ تَمَثَّلْتَ هَذَا الْوُصْفَ ثُمَّ نَقَلْتَهُ مِنَ الْجِلْدِ إِلَى الدَّمِ - كَانَ هُوَ حَرِيقٌ ذَلِكَ الْحُبِّ فِي دَمِي !

وَالْحُبُّ - إِنْ كَانَ حُبًّا - لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَذَابًا ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا تَقْدِيمُ الْبُرْهَانِ مِنَ الْعَاشِقِ عَلَى قُوَّةِ فِعْلِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي فِي الْمَعْشُوقِ ، لَيْسَ حَالٌ مِنْهُ فِي عَذَابِهِ ، إِلَّا وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فِي جَبَرُوتِهَا .

وَلَقَدْ أَقْنَعْتُ أَنَّ الْعَرَامَ إِنَّمَا هُوَ جُنُونٌ شَخْصِيَّةِ الْمُحِبِّ بِشَخْصِيَّةِ مَحْبُوبِهِ ، فَيَسْقُطُ الْعَالَمُ وَأَحْكَامُهُ وَمَذَاهِبُهُ مِمَّا بَيْنَ الشَّخْصِيَّتَيْنِ ؛ وَيَتَنَفَّى الْوَاقِعُ الَّذِي يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَتَعُودُ الْحَقَائِقُ لَا تَأْتِي مِنْ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمُرَّ عَلَى الْمَحْبُوبِ لِتَجِيءَ مِنْهُ ، وَيُضَيِّحُ هَذَا الْكَوْنُ الْعَظِيمَ كَأَنَّهُ إِطَارٌ فِي عَيْنِ مَجْنُونٍ لَا يَحْمِلُ شَيْئًا إِلَّا الصُّورَةَ الَّتِي جُنَّ بِهَا !

وَنَالَهُ لَكَانَ قَانُونِ الطَّبِيعَةِ إِلَّا نُحِبَّ الْمَرْأَةَ رَجُلًا يُسَمَّى رَجُلًا ، وَإِلَّا تَكُونُ جَدِيرَةً بِمُحِبِّهَا ، إِلَّا إِذَا جَرَتْ بَيْنَهُمَا أَهْوَالٌ مِنَ الْعَرَامِ تَتْرُكُهَا مَعَهُ كَأَنَّهُا مَأْخُودَةٌ فِي الْحَرْبِ ... تِلْكَ الْأَهْوَالُ يُمَثِّلُهَا الْحَيَوَانُ الْمَتَوَحَّشُ عَمَلًا جِسْمِيًّا بِالْقِتَالِ عَلَى الْأُنْتَى ، ثُمَّ تَرَقُّ فِي الْإِنْسَانِ الْمُتَحَضَّرِ فَيُمَثِّلُهَا عَمَلًا قَلْبِيًّا بِالْحُبِّ ...

\* \* \*

أَحْبَبْتُهَا جُهْدَ الْهَوَى حَتَّى لَا مَرِيدَ فِيهِ وَلَا مَطْمَعٍ فِي مَرِيدٍ ، وَلَكِنْ أَسْرَارَ فِتْنَتِهَا اسْتَمَرَّتْ تَتَعَدَّدُ فَتَدْفَعُنِي أَنْ يَكُونَ حُبِّي أَشَدَّ مِنْ هَذَا ؛ وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ يُمَكِّنُ فِي الْحُبِّ

(١) { أَنِّي : تَشَقَّقُ وَتَسْلَعُ } .

أَشَدَّ مِنْ هَذَا ؟

وَلَقَدْ كُنْتُ فِي اسْتِعَاثَتِي بِهَا مِنَ الْحُبِّ كَالَّذِي رَأَى نَفْسَهُ فِي طَرْنِ السَّيْلِ فَقَرَّ إِلَى رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ فِي رَأْسِهَا عَقْلٌ لِهَذَا السَّيْلِ الْأَحْمَقِ ، أَوْ كَالَّذِي فَاجَأَهُ الْبُرْكَانُ بِجُنُونِهِ وَغِلْظَتِهِ فَهَرَبَ فِي رِقَّةِ الْمَاءِ وَحِلْمِهِ ؛ وَلَا سَيْلَ وَلَا بُرْكَانَ إِلَّا حُرْقَتِي بِالْهَوَى وَأَرْتَمَاضِي مِنَ الْحُبِّ .

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ الْعَاشِقُ هُوَ الْعَاشِقُ ، وَلَكِنْ هِيَ الطَّبِيعَةُ ، هِيَ الطَّبِيعَةُ فِي الْعَاشِقِ . هِيَ الطَّبِيعَةُ ، بِجَبَرُوتِهَا ، وَعَسْفِهَا ، وَتَعَثُّهَا . إِذَا اسْتَرَاحَ النَّاسُ جَمِيعًا قَالَتْ لِلْعَاشِقِ : إِلَّا أَنْتَ !

إِذَا عَقَلَ النَّاسُ جَمِيعًا قَالَتْ فِي الْعَاشِقِ : إِلَّا هَذَا ... !

إِذَا بَرَأَتْ جِرَاحَ الْحَيَاةِ كُلُّهَا قَالَتْ : إِلَّا جُرْحَ الْحُبِّ ... !

إِذَا تَشَابَهَتْ لَهُمُومٌ كَالدَّمْعَةِ وَالذَّمْعَةِ ، قَالَتْ : إِلَّا هَمَّ الْعِشْقِ ... !

إِذَا تَغَيَّرَ النَّاسُ فِي الْحَالَةِ بَعْدَ الْحَالَةِ ، قَالَتْ فِي الْحَبِيبِ : إِلَّا هُوَ ... !

إِذَا انْكَشَفَ سِرُّ كُلِّ شَيْءٍ ، قَالَتْ : إِلَّا الْمَعْشُوقُ ؛ إِلَّا هَذَا الْمُحَجَّبَ بِأَسْرَارِ الْقَلْبِ ... !

\* \* \*

وَلَمَّا رَأَيْتُهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلَمَسْنِي الْحُبَّ لَمَسَةً سَاحِرٍ ، جَلَسْتُ إِلَيْهَا أَنَا وَلَهَا وَأَحْسِنِي مِنْ جَمَالِهَا ذَلِكَ الضَّيَاءُ الْمُسْكِرُ ، الَّذِي تُعْرِيدُ لَهُ الرُّوحَ عَزِيدَةً كُلُّهَا وَقَارًا ظَاهِرًا ... فَرَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ فِي حَالَةٍ كَغَشِيَةِ الْوُحَى ، فَوْقَهَا أَلَدَمِيَّةٌ سَاكِتَةٌ ، وَتَحْتَهَا تَبَارُكُ الْمَلَائِكَةِ يُعْبُ وَيَجْرِي .

وَكُنْتُ أَلْفِي خَوَاطِرَ كَثِيرَةٍ ، جَعَلْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا وَمِمَّا حَوْلَهَا يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي ، كَانَ الْحَيَاةُ قَدْ فَاضَتْ وَأَزْدَحَمَتْ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الَّذِي تَجَلَّسُ فِيهِ ، فَمَا شَيْءٌ يَمُرُّ بِهِ إِلَّا مَسَّهُ فَجَعَلَتْهُ حَيًّا يَرْتَعِشُ ، حَتَّى الْكَلِمَاتُ .

وَشَعَرْتُ أَوَّلَ مَا شَعَرْتُ أَنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي تَتَنَفَّسُ فِيهِ يَرِيقُ رِقَّةَ نَسِيمِ السَّحَرِ ، كَأَنَّمَا انْخَدَعَ فِيهَا<sup>(١)</sup> فَحَسِبَ وَجْهَهَا نُورَ الْفَجْرِ !

وَأَحْسَنْتُ فِي الْمَكَانِ قُوَّةَ عَجِيْبَةٍ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى الْجَذْبِ ، جَعَلْتَنِي مُبْعَثًا حَوْلَ هَذِهِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِهَا » بَدَلًا مِنْ : « فِيهَا » .



الْفَتَانَةِ ، كَأَنَّهَا مَخْدُودَةٌ بِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

وَحَيْلَ إِلَيَّ أَنْ التَّوَامِيسَ الطَّبِيعِيَّةَ قَدْ اخْتَلَّتْ فِي جِسْمِي إِمَّا بِزِيَادَةٍ وَإِمَّا بِنَقْصٍ ، فَأَنَا لِذَلِكَ أَعْظَمُ أَمَامَهَا مَرَّةً ، وَأَصْغَرُ مَرَّةً .

وَطَنَنْتُ أَنَّ هَذِهِ الْجَمِيلَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا صُورَةٌ مِنَ الوجودِ الشَّاسِيِّ الشَّاذِّ ، وَقَعَ فِيهَا تَنْقِيعُ إِلَهِي لِتُظْهِرَ لِلدُّنْيَا كَيْفَ كَانَ جَمَالُ حَوَاءَ فِي الْجَنَّةِ .

وَرَأَيْتُ هَذَا الْحُسْنَ الْفَاتِنَ يُشْعِرُنِي بِأَنَّهُ فَوْقَ الْحُسْنِ ، لِأَنَّهُ فِيهَا هِيَ ؛ وَأَنَّهُ فَوْقَ الْجَمَالِ وَالنُّصْرَةِ وَالْمَرْحِ ، لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَهُ فِي هَذَا الشُّرُورِ الْحَيِّ الْمَخْلُوقِ أَمْرًا .

وَالْتَمَسْتُ فِي مَحَاسِنِهَا عَيْتًا ، فَبَعْدَ الْجُهْدِ قُلْتُ مَعَ الشَّاعِرِ [ نَيْسِ بْنِ الْمُلَوَّحِ أَوْ قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ ، مِنْ الطُّوَيْلِ ] :

« إِذَا عَيْبَتُهَا شَبَّهْتُهَا الْبَدْرَ طَالِعًا ... ! » .

\* \* \*

وَرَأَيْتُهَا تَضْحَكُ الضَّحِكَ الْمُسْتَحْيِ ؛ فَيُخْرِجُ مِنْ فِيهَا الْجَمِيلَ كَأَنَّمَا هُوَ شَاعِرٌ أَنَّهُ تَجَرَّأَ عَلَى قَانُونٍ ...

وَتَبَسُّمِ ابْتِسَامَاتٍ تَقُولُ كُلُّ مِنْهَا لِلْجَالِسِينَ : انْظُرُوا ! انْظُرُوا ! ... !

وَيَغْمُرُهَا ضَحْكُ الْعَيْنِ وَالْوَجْهِ وَالْفَمِ وَضَحْكُ الْجِسْمِ أَيْضًا بِاهْتِرَازِهِ وَتَرَجُّرِهِ فِي حَرَكَاتٍ كَأَنَّمَا يَبْسُمُ بَعْضُهَا وَيَهْفُهُ بَعْضُهَا ...

وَتُلْقِي نَظْرَاتٍ جَعَلَ اللَّهُ مَعَهَا ذَلِكَ الْإِغْضَاءَ وَذَلِكَ الْحَيَاءَ لِيَضَعَ شَيْئًا مِنَ الْوَقَايَةِ فِي هَذِهِ الْقُوَّةِ الشَّسَوِيَّةِ ، قُوَّةَ تَدْمِيرِ الْقَلْبِ .

وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ مُسَامِيَّةٌ فِي جَمَالِهَا حَتَّى لَا يَتَكَلَّمُ جِسْمُهَا فِي وَسَاوِسِ النَّفْسِ كَلَامَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ ، وَكَأَنَّهُ جِسْمٌ مَلَايِكِي لَيْسَ لَهُ إِلَّا الْجَلَالُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .

جِسْمٌ كَالْمُعْبَدِ ، لَا يَعْرِفُ مَنْ جَاءَهُ أَنَّهُ جَاءَهُ إِلَّا لِيَبْتَهَلَ وَيَخْشَعَ .

وَتَطَالِعُكَ مِنْ حَيْثُ تَأَمَّلْتَ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْمُنْسَجِمَةِ عَلَى هَذَا الْجِسْمِ ، تَطْلُبُ مِنْكَ الْفَهْمَ وَهِيَ لَا تُفْهَمُ أَبَدًا ؛ أَيْ : تَرِيدُ الْفَهْمَ الَّذِي لَا يَنْتَهِي ؛ أَيْ : تَطْلُبُ الْحُبَّ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ .

وَهِيَ أَبَدًا فِي زِينَةِ حُسْنِهَا كَأَنَّهَا عُرُوسٌ فِي مَغْرَضٍ جَلَوْتِهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ لِلْعُرُوسِ سَاعَةً ، وَلَهَا هِيَ كُلُّ سَاعَةٍ .

\* \* \*

أَمَّا ظَرْفُهَا فَيَكَادُ يَصْنِيعُ تَحْتَ النَّظَرَاتِ : أَنَا خَائِفٌ ، أَنَا خَائِفٌ !

وَوَجْهُهَا تَتَغَالَبُ عَلَيْهِ الرِّزَانَةُ وَالْخِفَةُ ، لِيَتَفَرَّأَ فِيهِ الْعَيْنُ عَقْلَهَا وَقَلْبُهَا .

وَهِيَ مِثْلُ الشَّعْرِ ، تُطْرِبُ الْقَلْبَ بِالْأَلَمِ الَّذِي يُوجَدُ فِي بَعْضِ الشُّرُورِ ، وَبِالشُّرُورِ الَّذِي يُحَسُّ فِي بَعْضِ الْأَلَمِ .

وَهِيَ مِثْلُ الْخَمْرِ ، تَحْسِبُ الشَّيْطَانُ مُتَرَفِّقًا فِيهَا بِكُلِّ إِغْرَابِهِ !

وَكُلَّمَا تَنَاوَلْتُ أَمَامِي شَيْئًا أَوْ صَنَعْتُ شَيْئًا خَلَقْتُ مَعَهُ شَيْئًا ؛ أَشْيَاؤُهَا لَا تَرِيدُ بِهَا الطَّبِيعَةُ ، وَلَكِنْ تَرِيدُ بِهَا النَّفْسُ .

فَيَا كَيْدًا طَارَتْ صُدُوعًا مِنَ الْأَسَى ... !

\* \* \*

وَرَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ فِي حَالَةٍ كَغَشِيَةِ الْوُحْيِ ، فَوْقَهَا الْأَدَمِيَّةُ سَاكِتَةٌ ، وَتَحْتَهَا تَيَّارُ الْمَلَانِكَةِ يَعْجُبُ وَيَجْرِي .

\* \* \*

يَا سِحْرَ الْحُبِّ ! تَرَكْتَنِي أَرَى وَجْهَهَا مِنْ بَعْدِ هُوَ الْوَجْهِ الَّذِي تَضْحَكُ بِهِ الدُّنْيَا ، وَتَغْبِسُ وَتَتَغَيِّظُ وَتَتَحَامَقُ أَيْضًا ...

وَجَعَلْتَنِي أَرَى تِلْكَ الْإِنْسَامَةَ الْجَمِيلَةَ هِيَ أَفْوَى حُكُومَةٍ فِي الْأَرْضِ ... !

وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ الْحُبِّ ؛ وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ الْحُبِّ مَجْنُونًا ... !

### سُمُو الْحُبِّ (\*)

صَاحَ الْمُتَنَادِي فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ : « لَا يُفْتِي النَّاسَ إِلَّا عَطَاءُ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ »<sup>(١)</sup> وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ خُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ يَأْمُرُونَ صَاحِبَهُمْ فِي الْمَوْسِمِ ، أَنْ يَذِلَّ النَّاسَ عَلَى مُفْتِي مَكَّةَ وَإِمَامِهَا وَعَالِمِهَا ، لِيَلْقَوْهُ بِمَسَائِلِهِمْ فِي الدِّينِ ، ثُمَّ لِيَمْسِكَ غَيْرُهُ عَنِ الْفَتَوَى ، إِذْ هُوَ الْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعَهَا غَيْرُهَا مِمَّا يَخْتَلِفُ عَلَيْهَا أَوْ يُعَارِضُهَا ، وَلَيْسَ لِلْحُجَجِ إِلَّا أَنْ تَظَاهِرَها وَتَتَرَادَفَ عَلَى مَعْنَاهَا .

وَجَلَسَ عَطَاءٌ يَتَحَيَّنُ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! أَنْتَ أَفْتَيْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ [ من الطويل ] :

سَلِ الْمُفْتِيَّ الْمَكِّيَّ : هَلْ فِي تَزَاوُرٍ وَضْعَةٍ مُشْتَقِ الْفُؤَادِ جُنَاحُ ؟  
فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهِبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِرٍ جِرَاحُ !  
فَرَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ هُوَ تَحَلَّنِي هَذَا الرَّأْيَ الَّذِي نَفَثَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَإِنِّي لَأَخَافُ أَنْ تَشِيخَ الْقَالَةَ فِي النَّاسِ ، فَإِذَا كَانَ غَدٌ وَجَلَسْتُ فِي حَلْقَتِي فَأَعُدُّ عَلَيَّ ، فَإِنِّي قَائِلٌ شَيْئًا .

وَذَهَبَ الْخَبِيرُ يُوجِّعُ كَمَا تَوُجِّعُ النَّارُ ، وَتَعَالَمَ النَّاسُ أَنَّ عَطَاءَ سَيَكَلِّمُ فِي الْحُبِّ ، وَعَجِبُوا كَيْفَ يَذَرِي الْحُبَّ أَوْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ فِيهِ مَنْ غَبَرَ عَشْرِينَ سَنَةً فِرَاشُهُ الْمَسْجِدُ ، وَقَدْ سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَبْنِ عَبَّاسٍ بَخْرَ الْعِلْمِ !

وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : هَذَا رَجُلٌ صَامِتٌ أَكْثَرَ وَقْتِهِ ، وَمَا تَكَلَّمَ إِلَّا خِيَلٌ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُ

(\*) « الرسالة » العدد : ٧٧ ، ١٧ شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٤ ديسمبر / كانون الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٢٠٨٣ - ٢٠٨٨ .

(١) وُلِدَ هَذَا الْإِمَامُ سَنَةَ ٢٧ هـ وَتَوُفِّيَ سَنَةَ ١١٥ هـ ، قَالُوا : وَمَاتَ يَوْمَ مَاتَ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ أَرْضَى أَهْلِ الدُّنْيَا .

يُؤَيِّدُ بِمِثْلِ الْوَحْيِ ، فَكَأَنَّمَا هُوَ نَجِيٌّ مَلَائِكَةٍ يَسْمَعُ وَيَقُولُ ، فَاعْلَلَّ السَّمَاءَ مُوجِبَةً إِلَى الْأَرْضِ بِلِسَانِهِ وَخَبَا فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ الَّتِي عَمَّتِ النَّاسَ وَفَتَنَتْهُمْ بِالْإِسَاءِ وَالْغِنَاءِ .

وَلَمَّا كَانَ غَدُ جَاءَ النَّاسُ أَرْسَالًا إِلَى الْمَسْجِدِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْهُمْ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ : وَكُنْتُ رَجُلًا شَابًا مِنْ فُتَيَانِ الْمَدِينَةِ ، وَفِي نَفْسِي مِنَ الدُّنْيَا وَمِنْ هَوَى الشَّبَابِ ، فَغَدَوْتُ مَعَ النَّاسِ ، وَجِئْتُ وَقَدْ تَكَلَّمَ أَبُو مُحَمَّدٍ وَأَفَاضَ ، وَلَمْ أَكُنْ رَأْيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، فَتَطَرْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُ غُرَابٌ أَسْوَدُ ، إِذْ كَانَ ابْنُ أُمَيَّةَ سَوْدَاءَ تُسَمَّى « بَرَكَةَ » ، وَرَأَيْتُهُ مَعَ سَوَادِهِ أَعْوَرَ<sup>(١)</sup> أَفْطَسَ أَشْلَ أَعْرَجَ مُقْلَقَلَّ الشَّعْرِ ، لَا يَتَأَمَّلُ الْمَرْءُ مِنْهُ طَائِلًا ، وَلَكِنَّكَ تَسْمَعُهُ يَتَكَلَّمُ فَتَنْظُرُ مِنْهُ وَمِنْ سَوَادِهِ - وَاللَّهِ - أَنَّ هَذِهِ قِطْعَةً لَيْلٍ تَسْطَعُ فِيهَا الشُّجُومُ ، وَتَبْصَعُدُ مِنْ حَوْلِهَا الْمَلَائِكَةُ وَتَنْزِلُ .

قَالَ : وَكَانَ مَجْلِسُهُ فِي قِصَّةٍ يُوسَفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَوَأَفَقْتُهُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّمَا رَفَعَ أَحْسَنَ مَثَوَايَ إِنَّمَا لَا يَقْبَلُ الْعَالَمُوتُ ﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ دَعَا بَرَهْنَ رَفِئَهُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ . [ ١٢ سورة يوسف / الأيتان : ٢٣ و ٢٤ ] .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَسَمِعْتُ كَلَامًا قُدْسِيًّا تَضَعُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا مِنْ رِضَى وَإِعْجَابٍ بِفِقْهِهِ الْحِجَارِ . حَفِظْتُ مِنْهُ قَوْلَهُ :

عَجَبًا لِلْحُبِّ ! هَذِهِ مَلِكَةٌ تَغْشَى فَنَاهَا الَّذِي أَبْتَاعَهُ زَوْجُهَا بِشَمَنِ بَخْسٍ ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ مُلْكُهَا وَسَطْوَةُ مُلْكِهَا فِي تَضَوِيرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ؟ لَمْ تَرِدِ الْآيَةَ عَلَى أَنْ قَالَتْ : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي ﴾ ، وَ﴿ الَّتِي ﴾ هَذِهِ كَلِمَةٌ تَذِلُّ عَلَى كُلِّ أَمْرَةٍ كَائِنَةٍ مِنْ كَانَتْ ؛ فَلَمْ يَبْقَ عَلَى الْحُبِّ مُلْكٌ وَلَا مَثَرَةٌ ؛ وَزَالَتِ الْمَلِكَةُ مِنَ الْأَثَرِ !

وَأَعْجَبَ مِنْ هَذَا كَلِمَةُ « رَوَدَتْهُ » وَهِيَ بِصِنْعَتِهَا الْمُفْرَدَةِ حِكَايَةُ طَوِيلَةٍ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ جَعَلَتْ تَغْتَرِضُ يُوسُفَ بِالْوَانِ مِنْ أُنُوثَتِهَا ، لَوْ بَعْدَ لَوْنٍ ؛ ذَاهِبَةً إِلَى فَنٍّ ، رَاجِعَةً مِنْ فَنٍّ ؛ لِأَنَّ { الْكَلِمَةَ مَأْخُودَةٌ } مِنْ رَوْدَانِ الْإِلِيلِ فِي مَشْيِهَا ؛ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ فِي

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَرَأَيْتُهُ أَسْوَدَ أَعْوَرَ » بَدَلًا مِنْ : « وَرَأَيْتُهُ مَعَ سَوَادِهِ أَعْوَرَ » .

رَفِي . وَهَذَا يُصَوِّرُ حَيْرَةَ الْمَرْأَةِ الْعَاشِقَةِ ؛ وَأَضْطَرَابَهَا فِي حُبِّهَا ؛ وَمُحَاوَلَتِهَا أَنْ تَنْفِذَ إِلَى غَايَتِهَا ؛ كَمَا يُصَوِّرُ كِبَرِيَاءَ الْأُنْثَى ، إِذْ تَحْتَالُ وَتَتَرَفَّقُ فِي عَرْضِ ضَعْفِهَا الطَّبِيعِيِّ ، كَأَنَّمَا الْكِبَرِيَاءُ شَيْءٌ آخَرٌ<sup>(١)</sup> غَيْرُ طَبِيعَتِهَا ؛ فَهَمَّا تَهَالِكُ عَلَى مَنْ تُحِبُّ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا « الشَّيْءِ الْآخَرِ » مَظْهَرٌ أَمْتِنَاحٌ أَوْ مَظْهَرٌ تَحْيِيرٌ ، أَوْ مَظْهَرٌ أَضْطِرَابٍ ، وَإِنْ كَانَتِ الطَّبِيعَةُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مُنْذِفَةً مَاضِيَةً مُصَمَّمَةً .

ثُمَّ قَالَ : « عَنْ نَفْسِهِ » لِيَذُلَّ عَلَى أَنَّهَا لَا تَطْمَعُ فِيهِ ، وَلَكِنْ فِي طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَهِيَ تَعْرِضُ مَا تَعْرِضُ لِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ وَحْدَهَا ، وَكَأَنَّ آيَةَ مُصَرَّحَةٍ فِي آدَبِ سَامِ كُلِّ السُّمُو ، مُنْزَعُ غَايَةِ التَّنَزُّهِ بِمَا مَعْنَاهُ : « إِنَّ الْمَرْأَةَ بِذَلِكَ كُلِّ مَا تَسْتَطِيعُ فِي إِغْوَائِهِ وَتَضْيِيقِهِ ، مُقْبِلَةً عَلَيْهِ وَمُنْذِلَّةً وَمُنْبَذِلَةً وَمُنْصَبَةً مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، بِمَا فِي جِسْمِهَا وَجَمَالِهَا عَلَى طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَعَارِضَةً كُلِّ ذَلِكَ عَرْضَ أَمْرَةٍ خَلَعَتْ - أَوَّلَ مَا خَلَعَتْ - أَمَامَ عَيْنَيْهِ ثَوْبَ الْمُلْكِ » .

ثُمَّ قَالَ : « وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ » وَلَمْ يَقُلْ : « أَغْلَقَتْ » وَهَذَا يُشْعِرُ أَنَّهَا لَمَّا بَسَّتْ ، وَرَأَتْ مِنْهُ مُحَاوَلَةَ الْإِنْصِرَافِ ، أَسْرَعَتْ فِي ثَوْرَةٍ نَفْسِهَا مُهْتَاجَةً تَخَيَّلَ الْقَفْلَ الْوَاحِدَ أَقْفَالًا عِدَّةً ، وَتَجَرَّيَ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ ، وَتَضْطَرَّبَ يَدُهَا فِي الْأَغْلَاقِ ، كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ سَدَّ الْأَبْوَابِ لَا إِغْلَاقَهَا فَقَطْ .

« وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ » وَمَعْنَاهَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ أَنَّ الْيَأْسَ قَدْ دَفَعَ بِهِذِهِ الْمَرْأَةَ إِلَى آخِرِ حُدُودِهِ ، فَانْتَهَتْ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْجُنُونِ بِفِكْرَتِهَا الشَّهَوَانِيَّةِ ، وَلَمْ تَعُدْ لَا مَلِكَةً وَلَا أَمْرَةً ، بَلْ أُنُوثَةً حَيَوَانِيَّةً صِرْفَةً ، مُتَكَشِّفَةً مُصَرَّحَةً ، كَمَا تَكُونُ أَنْثَى الْحَيَوَانِ فِي أَشَدِّ أَهْتِيَاجِهَا وَعَلَيَانِهَا !

هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَطْوَارٍ يَرَفُّ بِغَضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ الْأُنُوثَةِ نَازِلَةٌ مِنْ أَغْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا . فَإِذَا انْتَهَتْ الْمَرْأَةُ إِلَى نَهَائِهَا وَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيْءٌ تَسْتَطِيعُهُ أَوْ تَعْرِضُهُ بِدَأَتْ مِنْ ثَمَّ عَظَمَةُ الرُّجُولَةِ السَّامِيَةِ الْمُتَمَكِّنَةِ فِي مَعَانِيهَا ، فَقَالَ يُوسُفُ : « مَعَادَ اللَّهِ » ثُمَّ قَالَ :

(١) فِي الْأَصْلِ : « كَأَنَّمَا هِيَ شَيْءٌ آخَرٌ » بَدَلًا مِنْ : « كَأَنَّمَا الْكِبَرِيَاءُ شَيْءٌ آخَرٌ » .

« إِنَّمَا رَفَعَ أَحْسَنَ مَثْوَايَ » ثُمَّ قَالَ : « إِنَّمَا لَا يَقْلِحُ الظَّلْمُوتُ » . وَهَذِهِ أَسْمَى طَرِيقَةٍ إِلَى تَنْبِيهِ ضَمِيرِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَرْأَةِ ، إِذْ كَانَ أَساسُ ضَمِيرِهَا فِي كُلِّ عَصْرِ هُوَ الْيَقِينُ بِاللَّهِ ، وَمَعْرِفَةُ الْجَمِيلِ ، وَكَرَاهَةُ الظُّلْمِ . وَلَكِنْ هَذَا التَّنْبِيهُ الْمُرَادِفُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَكْسِرْ مِنْ نَزْوِهَا ، وَلَمْ يَفْتَأْ تِلْكَ الْحِدَّةَ ، فَإِنْ حُبُّهَا كَانَ قَدْ أَنْحَصَرَ فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ اجْتَمَعَتْ بِكُلِّ أَسْبَابِهَا فِي زَمَنِ فِي مَكَانٍ فِي رَجُلٍ ، فَهِيَ فِكْرَةٌ مُخْتَبِئَةٌ كَأَنَّ الْأَبْوَابَ مُغْلَقَةً عَلَيْهَا أَيْضًا ؛ وَلِذَا بَقِيَتْ الْمَرْأَةُ ثَائِرَةً ثَوْرَةً نَفْسِهَا . وَهُنَا يَعُودُ الْآدَبُ الْإِلَهِيُّ السَّامِيُّ إِلَى تَغْيِيرِهِ الْمُعْجَزِ فَيَقُولُ : « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْءٍ » كَأَنَّمَا يُؤْمِي بِهِذِهِ الْعِبَارَةِ إِلَى أَنَّهَا تَرَامَتْ عَلَيْهِ ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ ، وَالتَّجَنَّاتُ إِلَى وَسِيلَتِهَا الْآخِرَةِ ، وَهِيَ لِمَسِّ الطَّبِيعَةِ بِالطَّبِيعَةِ لِإِلْقَاءِ الْجَمْرَةِ فِي الْهَشِيمِ . . . !

جَاءَتِ الْعَاشِقَةُ فِي قَضِيَّتِهَا بِبُرْهَانِ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَقْدِفُ بِهِ فِي آخِرِ مُحَاوَلَتِهِ . وَهُنَا يَقَعُ لِيُؤَسِّفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بُرْهَانُ رَبِّهِ كَمَا وَقَعَ لَهَا هِيَ بُرْهَانُ شَيْطَانِهَا . فَلَوْلَا بُرْهَانُ رَبِّهِ لَكَانَ هَمُّ بِهَا ، وَلَكَانَ رَجُلًا مِنَ الْبَشَرِ فِي ضَعْفِهِ الطَّبِيعِيِّ .

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ : وَهَلُمَّا هَلُمَّا الْمُعْجِزَةُ الْكَبِيرَى ، لِأَنَّ آيَةَ الْكَرِيمَةِ تُرِيدُ أَلَّا تَنْفِي عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فُحُولَةَ الرُّجُولَةِ ، حَتَّى لَا يُظَنَّ بِهِ ، ثُمَّ هِيَ تُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الرِّجَالُ ، وَخَاصَّةً الشُّبَّانَ مِنْهُمْ ، كَيْفَ يَتَسَامَوْنَ بِهِذِهِ الرُّجُولَةِ فَوْقَ الشَّهَوَاتِ ، حَتَّى فِي الْحَالَةِ الَّتِي هِيَ نِهَايَةُ قُدْرَةِ الطَّبِيعَةِ ؛ حَالَةِ مَلِكَةِ مُطَاعَةٍ فَاتِنَةٍ عَاشِقَةٍ مُخْتَلِيَةٍ مُتَعَرِّضَةٍ مُتَكَشِّفَةٍ مُتَهَالِكَةٍ . هُنَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَسِ الرُّجُلُ ، فَإِنَّ الْوَسِيلَةَ الَّتِي تَجْعَلُهُ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا - هِيَ أَنْ يَرَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .

وَهَذَا الْبُرْهَانُ يُؤَوِّلُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا شَاءَ ، فَهُوَ كَالْمِفْتَاحِ الَّذِي يُوضَعُ فِي الْأَقْفَالِ كُلِّهَا فَيَقْضُهَا كُلِّهَا ؛ فَإِذَا مَثَلَ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّهُ هُوَ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ مُتَصَبَّانِ أَمَامَ اللَّهِ يَرَاهُمَا ، وَأَنَّ أَمَانِي الْقَلْبِ الَّتِي تَهْجِسُ فِيهِ وَيَطُفُّهَا خَافِيَةً ، إِنَّمَا هِيَ صَوْتُ عَالٍ يَسْمَعُهُ اللَّهُ ؛ وَإِذَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ وَيُفْسَدُ ، وَفَكَرَ فِيمَا يَصْنَعُ النَّفْسُ فِي جِسْمِهِ هَذَا ، أَوْ فَكَّرَ فِي مَوْقِفِهِ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِ أَعْضَاؤُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ ، أَوْ فَكَّرَ فِي أَنَّ هَذَا الْإِنَّمُ الَّذِي يَقْتَرِفُهُ الْآنَ سَيَكُونُ مَرْجِعُهُ عَلَيْهِ فِي أَخِيهِ أَوْ بَنِيهِ - إِذَا فَكَّرَ فِي هَذَا وَتَحَوَّرَ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ يُطَالِعُهُ فَجَاءَةً ، كَمَا يَكُونُ السَّائِرُ فِي الطَّرِيقِ غَافِلًا مُنْذِفًا إِلَى هَاوِيَةٍ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَجَاءَةً فَيَرَى بُرْهَانَ عَيْنِهِ ؛

أَتَرَوْنَهُ يَتَرَدَّى فِي الْهَوَايَةِ حِينْتَيْدُ ، أَمْ يَقِفُ دُونَهَا وَيَنْجُو ؟ أَحْفَظُوا هَلْدِهِ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ الَّتِي فِيهَا أَكْثَرُ الْكَلَامِ ، وَأَكْثَرُ الْمَوْعِظَةِ ، وَأَكْثَرُ التَّزْيِيَةِ ، وَالَّتِي هِيَ كَالدَّرْعِ فِي الْمَعْرَكَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَالشَّيْطَانِ ، كَلِمَةُ ﴿ رَمَاهُكَ رَبِّي ﴾ .

\* \* \*

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ إِلَى صَاحِبِهِ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : وَلَزِمْتُ الْإِمَامَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَجْمَعْتُ أَنْ أَتَشَبَّهُ بِهِ ، وَأَسْلُكَ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الزُّهْدِ وَالْمَعْرِفَةِ ؛ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ حَفِظْتُ الرَّجُلَ فِي نَفْسِي كَمَا أَحْفَظُ الْكَلَامَ ، وَجَعَلْتُ شِعَارِي فِي كُلِّ نَزْعَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ النَّفْسِ هَلْدِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ : ﴿ رَمَاهُكَ رَبِّي ﴾ ، فَمَا أَلَمْتُ بِإِنَّمَا قَطُّ ، وَلَا دَانَيْتُ مَعْصِيَةً ، وَلَا رَهَقْنِي مَطْلَبٌ مِنْ مَطَالِبِ النَّفْسِ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا ، وَأَرْجُو أَنْ يَعْصِمَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ ، فَإِنَّ هَلْدِهِ الْكَلِمَةَ لَيْسَتْ كَلِمَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ كَأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ تَحْمِلُهُ ، تَمُرُّ بِهِ أَمِنًا عَلَى كُلِّ مَعَاصِي الْأَرْضِ ، فَمَا يَغْتَرِضُكَ شَيْءٌ مِنْهَا ، كَأَنَّ مَمْلَكَ خَاتَمَ الْمَلِكِ تَجُوزُ بِهِ .

قَالَ سُهَيْلٌ : فَلِهَذَا لَقَبَكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ « بِالْقَسِّ » لِعِبَادَتِكَ وَزُهْدِكَ وَعَزُوفِكَ عَنِ النِّسَاءِ ، وَقَلِيلِ لَكَ - وَاللَّهِ - يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَوْ قَالُوا : مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ ، لَصَدَقُوا .

\* \* \*

قَالَتْ سَلَامَةُ جَارِيَةُ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُعْتَبِيَّةُ ، الْحَادِقَةُ الظَّرِيفَةُ ، الْجَمِيلَةُ الْفَاتِنَةُ ، الشَّاعِرَةُ الْفَارِثَةُ ، الْمُؤَرِّخَةُ الْمُتَحَدِّثَةُ ، الَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ فِي أَمْرَةٍ مِثْلُهَا حُسْنُ وَجْهِهَا ، وَحُسْنُ غِنَائِهَا ، وَحُسْنُ شِعْرِهَا - قَالَتْ : وَأَشْتَرَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ « عَشْرَةَ آلَافٍ جُنْتِي » وَكَانَ يَقُولُ : مَا يَغُرُّ عَيْنِي مَا أُرِيتُ مِنَ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَشْتَرِي سَلَامَةً ؛ ثُمَّ قَالَ حِينَ مَلَكَنِي : مَا شَاءَ بَعْدُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَلْيَفْتِنِي ! قَالَتْ : فَلَمَّا عُرِضْتُ عَلَيْهِ أَمْرُنِي أَنْ أُغْنِيَهُ ، وَكُنْتُ كَالْمُخْبُوْلَةِ مِنْ حُبِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَسِّ ، حُبًّا أَرَاهُ فَالِقًا كَبِدِي ، آتِيًا عَلَى حُشَاشَتِي ؛ فَذَهَبَ عَنِّي وَاللَّهِ كُلُّ مَا أَحْفَظُهُ مِنَ أَصْوَاتِ الْغِنَاءِ ، كَمَا يُنْسَحُ اللَّوْحُ مِمَّا كُتِبَ فِيهِ ، وَأُنْسِيتُ الْخَلِيفَةَ وَأَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَمْ أَرِ

إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَمَجْلِسَهُ مَتْنِي يَوْمَ سَأَلَنِي أَنْ أُغْنِيَهُ بِشِعْرِهِ فِي ، وَقَوْلِي لَهُ يَوْمَئِذٍ : حُبًّا وَكَرَامَةً وَعَزَازَةً لَوَجْهِكَ الْجَمِيلِ . وَتَنَاوَلْتُ الْعُودَ وَجَسَسْتُهُ بِقَلْبِي قَبْلَ يَدِي ، وَصَرَنْتُ عَلَيْهِ كَأَنِّي أَضْرِبُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بِيَدٍ أَرَى فِيهَا عَقْلًا يَخْتَالُ حِيلَةَ أَمْرَةٍ عَاشِقَةٍ . ثُمَّ أَنْدَفَعْتُ أُغْنِي بِشِعْرِ حَبِيبِي [ مِنَ الْكَامِلِ ] :

إِنَّ الْبَنِي طَرَقَتْكَ بَيْنَ رَكَائِبٍ تَمْشِي بِمِزْهَرِهَا وَأَنْتَ حَرَامٌ  
لِتَصْنِدَ قَلْبِكَ ، أَوْ جَزَاءَ مَوَدَّةٍ إِنَّ الرُّؤْيَى لَهُ عَلَيْكَ ذِمَامٌ  
بَأَنْتَ تَعْلَلُنَا وَتَحْسِبُ أَنَّ فِي ذَاكَ أَتْقَاطًا ، وَتُخَنُّ نِيَامًا  
وَعَتْنِيَّةً وَاللَّهُ غِنَاءٌ وَالْهَيَّةُ ذَاهِيَةُ الْعَقْلِ كَاسِفَةُ الْبَالِ ، وَرَدَّدَتْهُ كَمَا رَدَّدَتْهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَأَنَا إِذْ ذَاكَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْوَرْدَةِ أَوَّلَ مَا تَتَفَتَّحُ . وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَتَّبِعُ لَصُوتِي فِي مِسْمَعِيهِ صَوْتًا آخَرَ ... وَقَطَعْتُهُ ذَلِكَ التَّقْطِيعَ ، وَمَدَّدْتُ ذَلِكَ التَّمْدِيدَ ، وَصَحْتُ فِيهِ صَبَاحَةَ قَلْبِي وَنَفْسِي وَجَوَارِحِي كُلَّهَا كَمَا غَنَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، لَكِنَّمَا أُودِي إِلَى قَلْبِهِ أَلْمَعْنَى الَّذِي فِي اللَّفْظِ ، وَالْمَعْنَى الَّذِي فِي النَّفْسِ جَمِينًا ، وَلَكِنَّمَا أُنْكَرُهُ - وَهُوَ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ - سُكْرَ الْخَمْرِ بِشَيْءٍ غَيْرِ الْخَمْرِ !

وَمَا أَفْقْتُ مِنْ هَلْدِهِ الْعَشِيَّةِ إِلَّا حِينَ قَطَعْتُ الصَّوْتِ ، فَإِذَا الْخَلِيفَةُ كَأَنَّمَا يَسْمَعُ مِنْ قَلْبِي لَا مِنْ فَمِي وَقَدْ زَلَزَلَهُ الطَّرْبُ ، وَمَا خَفِيَ عَلَيَّ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ أَلَمَ بِشَأْنِ أَمْرَةٍ ، وَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ أَفْتَضَخْتُ عِنْدَهُ ؛ وَلَكِنْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ ، وَكَانَ جَسَدًا بِمَا فِيهِ ، يُرِيدُ جَسَدًا لِمَا فِيهِ ، فَمِنْ ثَمَّ لَمْ يُنْكَرْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَأَشْتَرَانِي وَصَرْتُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا خَلَوْنَا سَأَلَنِي أَنْ أُغْنِيَهُ ، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَأَنَا أُغْنِيَهُ بِشِعْرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ [ مِنَ الطَّوِيلِ ] :

أَلَا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ : هَلْ أَنْتَ مُبْصِرٌ وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مُفْصِرٌ  
إِذَا أَحَدَتْ فِي الصَّوْتِ كَادَ جَلِيسُهَا يَطْنُرُ إِلَيْهَا قَلْبُهُ حِينَ تَنْظُرُ  
وَأَدْبَتُهُ عَلَى مَا كَانَ يَسْتَحْسِنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَيَطْرُبُ لَهُ ، إِذْ يَسْمَعُ فِيهِ هَمْسًا مِنْ بَكَائِي ، وَلَهْفَةً مِمَّا أَجِدُ بِهِ ، وَحَسْرَةً عَلَى أَنَّهُ يَنْسَكِبُ فِي قَلْبِي وَهُوَ يَصُدُّ عَنِّي وَيَتَحَامَانِي ،

وَمَا عَنَيْتُ : « وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مُفَصِّرٌ » إِلَّا فِي صَوْتٍ تَتَوَحُّ بِهِ سَلَامَةٌ عَلَى نَفْسِهَا وَتَتَذُبُّ وَتَتَفَجَّعُ !

فَقَالَ لِي يَزِيدُ وَقَدْ فَضَحْتُ نَفْسِي عِنْدَهُ فَضِيحَةً مَكْشُوفَةً : يَا حَبِيبَتِي ! مَنْ قَائِلُ هَذَا الشَّعْرِ ؟

قُلْتُ : أَحَدُكَ بِالْفِصَّةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

قَالَ : حَدِّثْنِي .

قُلْتُ : هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ الَّذِي يُلَقَّبُونَهُ بِالْقَسِّ لِعِبَادَتِهِ وَنُسْكِهِ ، وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ يُشَبِّهُ عَطَاءَ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، وَكَانَ صَدِيقًا لِمَوْلَايَ سَهْلٍ ، فَمَرَّ بِدَارِنَا يَوْمًا وَأَنَا أُغْنِي فَوْقَ يَسْمَعُ ، وَدَخَلَ عَلَيْنَا « الْأَخْوصُ » <sup>(١)</sup> ، فَقَالَ : وَنَحْكُمُ ؟ لَكَانَ الْمَلَائِكَةُ وَاللَّهُ تَتَلَوُ مَزَامِيرَهَا بِحُلُقِ سَلَامَةٍ ، فَهَذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَسُّ قَدْ شُغِلَ بِمَا يَسْمَعُ مِنْهَا ، وَهُوَ وَاقِفٌ خَارِجَ الدَّارِ ، فَتَسَارَعَ مَوْلَايَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَدَعَاهُ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فَيَسْمَعَ مِنِّي ، فَأَبَى ! فَقَالَ لَهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي مَحَلِّهِ وَبَيْتِهِ وَعِلْمِهِ قَدْ مَشَى إِلَى جَمِيلَةٍ أَسْتَاذَةِ سَلَامَةٍ حِينَ عَلِمَ أَنَّهَا آتَتْ إِلَيْهِ أَلَّا تُغْنِي أَحَدًا إِلَّا فِي مَنْزِلِهَا ؛ فَجَاءَهَا فَسَمِعَ مِنْهَا ، وَقَدْ هَيَّأَتْ لَهُ مَجْلِسَهَا ، وَجَعَلَتْ عَلَى رُؤُوسِ جَوَارِيهَا شُعُورًا مُسَدِّلَةً كَالْعِنَاقِيدِ ، وَالْبَسْتَهُنَّ أَنْوَاعَ الثِّيَابِ الْمُصَبَّغَةِ ، وَوَضَعَتْ فَوْقَ الشُّعُورِ الثَّيْجَانَ ، وَزَيَّنَتْهُنَّ بِأَنْوَاعِ الْحِلْيِ ، وَقَامَتْ هِيَ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَامَ الْجَوَارِي صَفِّينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، حَتَّى أَقْسَمَ عَلَيْهَا فَجَلَسَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَأَمَرَتْ الْجَوَارِي فَجَلَسْنَ ، وَمَعَ كُلِّ جَارِيَةٍ عُوْدُهَا ؛ ثُمَّ صَرَبْنَ جَمِيعًا وَغَنَّتْ عَلَيْهِنَّ ، وَغَنَّى الْجَوَارِي عَلَى غَنَائِهَا ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : مَا ظَنَنْتُ أَنْ مِثْلَ هَذَا يَكُونُ !

وَأَنَا أَفْعِدُكَ فِي مَكَانٍ تَسْمَعُ مِنْ سَلَامَةٍ وَلَا تَرَاهَا ، إِنْ كُنْتَ { عِنْدَ نَفْسِكَ } بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَمْ يَتَلَعْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ !

قَالَتْ سَلَامَةٌ : وَكَانَتْ هَلِيزِ وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رُفِيَةً مِنْ رُفَى إِبْلِيسِ ؛ فَقَالَ

(١) هُوَ الْأَخْوصُ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ .

عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَمَا هَلِيزِ فَتَنَم . وَدَخَلَ الدَّارَ وَجَلَسَ حَيْثُ يَسْمَعُ ، ثُمَّ أَمَرَنِي مَوْلَايَ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ خُرُوجَ الْقَمَرِ مُشْبُوبًا مِنْ سَحَابَةٍ كَانَتْ تُعْطِيهِ ؛ { فَأَمَّا هُوَ } فَمَا رَأَيْتُ حَتَّى عُلِفْتُ بِقَلْبِهِ ، وَسَبَّحَ طَوِيلًا طَوِيلًا ؛ وَ{ أَمَا أَنَا } مَا رَأَيْتُهُ حَتَّى رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالْمَلَائِكَةَ ، وَمُتُّ عَنْ الدُّنْيَا وَانْتَقَلْتُ إِلَيْهِ وَخَدَهُ ...

\* \* \*

قَالَتْ سَلَامَةٌ : وَافْتَضَحْتُ مَرَّةً أُخْرَى ، فَتَنَحَّحَ يَزِيدُ ... فَضَحِكْتُ وَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَحَدُكَ أَمْ حَسْبُكَ ؟ قَالَ : حَدِّثْنِي وَنَحْكُ ! فَوَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ كَمَا أَنْتَ لَأَعَدْتُ قِصَّةَ آدَمَ مَعَ وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا حَتَّى يُطْرَدُوا جَمِيعًا مِنْ حُسْنِهَا إِلَى حُسْنِكَ ! فَمَا فَعَلَ الْقَسُّ وَنَحْكُ ؟

قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنَّهُ يُدْعَى الْقَسُّ قَبْلَ أَنْ يَهْوَانِي .

فَقَالَ يَزِيدُ : وَهَلْ عَجَبٌ وَقَدْ فَتَنْتَهُ أَنْ يُطْرَدَ « الْبَطْرِيقُ » ؟

قُلْتُ : بَلِ الْعَجَبُ وَقَدْ فَتَنْتَهُ أَنْ يَصِيرَ هُوَ الْبَطْرِيقُ ... !

فَضَحِكَ يَزِيدُ وَقَالَ : إِنَّهُ ، مَا أَحْسَبُ الرَّجُلَ إِلَّا قَدْ ذَهَبَ مِنْكَ بِدَاهِيَةٍ ! فَحَدِّثْنِي فَقَدْ رَفَعْتُ الْغَيْرَةَ ؛ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرَى هَذَا الرَّجُلَ فِي أَمْرِهِ وَأَمْرِكَ إِلَّا كَالْفَخْلِ مِنَ الْإِبِلِ ، قَدْ تَرَكَ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْعَمَلِ ، وَنَعَمَ وَسَمَنَ لِلْفِخْلَةِ ، فَتَدَّ { يَوْمًا } ، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَأَفْحَمَ فِي مَفَازَةٍ ، وَأَصَابَ مَرْتَعًا فَتَوَحَّشَ وَأَسْتَأَسَدَ ، وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ أَثَرُ وَخْشِيَّتِهِ ، وَأَقْبَلَ إِفْتَالَ الْحِجْنِ مِنْ قُوَّةٍ وَنَشَاطٍ وَبَاسٍ شَدِيدٍ ؛ فَلَمَّا طَالَ انْفِرَادُهُ وَتَأَبَّدَهُ عَرَضَتْ لَهُ فِي الْبَرِّ نَاقَةٌ كَانَتْ قَدْ نَدَّتْ مِنْ عَطْنِهَا ، وَكَانَتْ فَارِهَةً جَسِيمَةً قَدْ أَتَتْهَا سَمَنًا ، وَغَطَّاهَا الشَّحْمُ وَاللَّحْمُ ، فَرَأَاهَا الْبَازِلُ الصَّوُولُ ، فَهَاجَ وَصَالَ وَهَدَرَ ، يَخِيطُ بِبَيْدِهِ وَرِجْلِهِ ، وَيَسْمَعُ لِحْجَوْهُ دَوِيًّا مِنَ الْغَلِيَانِ ، وَإِذَا هِيَ قَدْ أَلْقَتْ نَفْسَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ !

أَمَا وَاللَّهِ لَوْ جَعَلَ الشَّيْطَانُ فِي يَمِينِهِ رَجُلًا فَخَلَا { قَوِيًّا } جَمِيلًا ، وَفِي شِمَالِهِ أَمْرًا جَمِيلَةً عَاشِقَةً نَهَوَاهُ ؛ ثُمَّ تَمَطَّى مُتَدَاعِمًا وَمَدَّ ذِرَاعَيْهِ فَأَبْتَعَدَا ؛ ثُمَّ تَرَاجَعَ مُتَدَاخِلًا وَضَمَّ ذِرَاعَيْهِ فَالْتَقِيَا ؛ لَكَانَ هَذَا شَأْنًا مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَسِّ !

قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا كَانَ صَاحِبِي فِي الرِّجَالِ خَلًّا وَلَا خَمْرًا ، وَمَا كَانَ الْفَحْلَ إِلَّا الْكَافَّةَ ... ! وَمَا أَحْسَبُ الشَّيْطَانَ يَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ ، وَهَلْ كَانَ لِلشَّيْطَانِ عَمَلٌ مَعَ رَجُلٍ يَقُولُ : إِنِّي أَغْرَفُ دَائِمًا فِكْرَتِي ، وَهِيَ دَائِمًا فِكْرَتِي لَا تَتَغَيَّرُ . ذَاكَ رَجُلٌ أَسَاسُهُ كَمَا يَقُولُ : ﴿ بُرْهَنَ رَبِّي ﴾ وَلَقَدْ تَصَنَّعْتُ لَهُ مَرَّةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَشَكَّلْتُ وَتَحَلَّلْتُ وَتَبَرَّجْتُ ، وَحَدَّثْتُ نَفْسِي مِنْهُ بِكثيرٍ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ غَبَرَ شَبَابُهُ فِي وُجُودِ فَارِغٍ مِنَ الْمَرَاةِ ، ثُمَّ وَجَدَ الْمَرَاةَ فِي { وَحْدِي } . وَغَيَّيْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ غِنَاءَ جَوَارِحِي كُلِّهَا ، وَكُنْتُ لَهُ كَأَنِّي حَرِيرٌ نَاعِمٌ يَتَرَجَّرُ وَيُنْشَرُ أَمَامَهُ وَيُطَوَّى ... وَجَلَسْتُ كَالْكَائِمَةِ فِي فِرَاشِهَا وَقَدْ خَلَا الْمَجْلِسُ ، وَكُنْتُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْفَاكِهَةِ الْكَاضِحَةِ الْخُلُوةَ تَقُولُ لِمَنْ يَرَاهَا : « كُلِّبْنِي ... ! »

قَالَ يَزِيدُ : وَيَحْكُ وَيَحْكُ ! وَبَعْدَ هَذَا ؟

قُلْتُ : بَعْدَ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ يَهْوَانِي الْهَوَى الْبَرَحَ ، وَيَغْشَقُنِي الْعِشْقُ الْمُضْنِي - لَمْ يَرَفِي جَمَالِي وَفَتْنَتِي وَأَسْتَسْلِمَنِي إِلَّا أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَاءَ يَرْشُوهُ بِالذَّهَبِ ... بِالذَّهَبِ الَّذِي يَتَعَامَلُ بِهِ !

فَضَحِكَ يَزِيدُ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، لَقَدْ عَرَضَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ ذَهَبَهُ وَلَوْلُوهُ وَجَوَاهِرُهُ كُلُّهَا ، فَكَيْفَ لَعَمْرِي لَمْ يُفْلِحْ ؛ وَهُوَ لَوْ رَسَانِي مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِدَرَاهِمَ لَوْجَدَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شَاهِدَ زُورٍ ... !

قُلْتُ : وَلَكِنِّي لَمْ أَتَسَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَظْهَرَ أَمْرًا فَلَمْ أَفْلِحْ ، وَعَمِلْتُ أَنْ أَظْهَرَ شَيْطَانَهُ فَأَنخَذْتُ ، وَجَهَدْتُ أَنْ يَرَى طَبِيعَتِي فَلَمْ يَرِنِي إِلَّا بِغَيْرِ طَبِيعَةٍ ، وَكَلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أُنْزِلَ بِهِ عَنْ سَكِينَتِهِ وَوَقَارِهِ رَأَيْتُ فِي عَيْنَيْهِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ كَنُورِ الْجَوْهَرِ ، وَكَانَتْ بَعْضُ نَظَرَاتِهِ [ لِي ] وَاللَّهِ كَأَنَّهَا عَصَا الْمُؤَدَّبِ ، وَكَأَنَّهُ يَرَى فِي جَمَالِي حَقِيقَةَ مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَيَرَى فِي جِسْمِي خُرَافَةَ الصَّنَمِ ، فَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَيَّ جَمِيلَةً ، وَلَكِنَّهُ مُنْصَرِفٌ عَنِّي أَمْرًا .

لَمْ أَتَسَّ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ أَوَّلَ الْحُبِّ يَطْلُبُ آخِرَهُ أَبَدًا إِلَى أَنْ يَمُوتَ . وَكَانَ يُكْثِرُ مِنْ زِيَارَتِي ، بَلْ كَانَتْ إِلَيَّ الْغَدَوَةُ وَالزَّوْحَةُ ، مِنْ حُبِّهِ إِثَّاقِي وَتَعَلُّقِي

بِي ؛ فَوَاعَدْتُهُ يَوْمًا أَنْ يَجِيءَ مِنِّي وَارَى اللَّيْلُ أَهْلَهُ لِأَعْتَبِهِ : « أَلَا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ ... » وَكُنْتُ لَعَنَتُهُ وَلَمْ يَسْمَعُهُ بَعْدَ . وَلَيْتُ نَهَارِي كُلَّهُ أَسْتَرْوِحُ فِي الْهَوَاءِ رَائِحَةَ هَذَا الرَّجُلِ مِمَّا أَتْلَهْتُ عَلَيْهِ ، وَأَتَمَتَّلُ ظِلَامَ اللَّيْلِ كَالطَّرِيقِ الْمُتَمَتِّدِ إِلَى شَيْءٍ مَخْبُوءٍ أَعْلَلُ النَّفْسَ بِهِ . وَتَلَعْتُ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي زِينَةِ نَفْسِي وَإِصْلَاحِ شَأْنِي ، وَتَشَكَّلْتُ فِي صُنُوفٍ مِنَ الزَّهْرِ ، وَقُلْتُ لِأَجْمَلِهِنَّ وَهِيَ الْوَرْدَةُ الَّتِي وَضَعْتُهَا بَيْنَ نَهْدَيَّ : يَا أُخْتِي ، أَجْذِبِي عَيْنَهُ إِلَيْكَ ، حَتَّى إِذَا وَقَفَ نَظَرُهُ عَلَيْكَ فَأَنْزِلِي بِهِ قَلِيلًا أَوْ أَصْغِدِي بِهِ قَلِيلًا ...

قَالَ يَزِيدُ وَهُوَ كَالْمَحْمُومِ : ثُمَّ ثُمَّ ثُمَّ ؟

قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ثُمَّ جَاءَ مَعَ اللَّيْلِ ، وَإِنَّ الْمَجْلِسَ لَخَالَ مَا فِيهِ غَيْرِي وَغَيْرُهُ ، بِمَا أَكْبَدُ مِنْهُ وَمَا يُعَانِي مِنِّي . فَغَيَّيْتُ أَحَرَ غِنَاءٍ وَأَشْجَاهُ ، وَكَانَ الْعَاشِقُ فِيهِ يَطْرُبُ لِصَوْتِي ، ثُمَّ يَطْرُبُ الزَّاهِدُ فِيهِ مِنْ أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَطْرُبَ ، كَمَا يَطِيشُ الطُّفْلُ سَاعَةَ يُنْطَلِقُ مِنْ حَبْسِ الْمُؤَدَّبِ .

وَمَا كَانَ يَسْؤُنِي إِلَّا أَنَّهُ يُمَارِسُ فِي الزُّهْدِ مُمَارَسَةً ، كَأَنَّمَا أَنَا صُعُوبَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ فَهُوَ يَزِيدُ أَنْ يَغْلِبَهَا ، وَهُوَ يُجَرِّبُ قُوَى نَفْسِهِ وَطَبِيعَتِهِ عَلَيْهَا ؛ أَوْ كَأَنَّهُ يَرَانِي خَيَالِ أَمْرَةٍ فِي مِرَاةٍ ، لَا أَمْرَةٍ مَائِلَةٍ<sup>(١)</sup> لَهُ بِهَوَاهَا وَشَبَابِهَا وَحُسْنِهَا وَفَتْنَتِهَا ، أَوْ أَنَا عِنْدَهُ كَالْحُورِيَّةِ مِنْ حُورِ الْجَنَّةِ فِي خَيَالِ مَنْ هِيَ ثَوَابُهُ ، تَكُونُ مَعَهُ ، وَإِنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْبُعْدِ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ فَاجْتَمَعْتُ أَنْ أَحْطِمَ الْمِرَاةَ لِإِرَانِي أَنَا نَفْسِي لَا خَيَالِي ، وَأَسْتَنْجِدْتُ كُلَّ فِتْنَتِي أَنْ تَجْعَلَهُ يَقِرُّ إِلَيَّ كُلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَفِرَّ مِنِّي .

فَلَمَّا ظَنَنْتُنِي مَلَأْتُ عَيْنَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَنَفْسَهُ وَأَنْصَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَوَارِحِهِ ، وَهَجَعْتُ التَّبَارَ الَّذِي فِي دَمِهِ وَدَفَعْتُهُ دَفْعًا - قُلْتُ لَهُ : « أَنْتَ يَا خَلِيلِي شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ ، أَنْتَ شَيْءٌ مُتَلَفٌ بِإِنْسَانٍ ، وَمَنْ أَلْتِي تَعَشَّقُ ثَوْبَ رَجُلٍ لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ<sup>(٢)</sup> ؟ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « مَائِلَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « مَائِلَةٌ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَمَنْ أَلْتِي تَعَشَّقُ ثَوْبًا لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ؟ » بَدَلًا مِنْ : « وَمَنْ أَلْتِي تَعَشَّقُ ثَوْبَ رَجُلٍ لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ؟ » .

وَرَأَيْتُهُ وَاللَّهُ يَطُوفُ عِنْدَ ذَلِكَ بِفِكْرِهِ ، كَمَا أَطَوَّفُ أَنَا بِفِكْرِي حَوْلَ الْمَعْنَى الَّتِي أَرَدْتُه .  
فَمِلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ <sup>(١)</sup> : « أَنَا وَاللَّهُ أَحَبُّكَ ! » .

فَقَالَ : « وَأَنَا وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ... » .

قُلْتُ : « وَأَشْتَهِي أَنْ أَعَانِقَكَ وَأَقْبَلَكَ ! » .

قَالَ : « وَأَنَا وَاللَّهُ ! » .

قُلْتُ : « فَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّ الْمَوْضِعَ لَخَالٍ ! » .

قَالَ : « يَمْنَعُنِي قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [ ٤٣ سورة الزخرف / الآية : ٦٧ ] فَأَكْرَهُ أَنْ تَحُولَ مَوَدَّتِي لِكَ عِدَاوَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

إِنِّي أَرَى ﴿ بُرْهَانَ رَبِّي ﴾ يَا حَبِيبِي ، وَهُوَ يَمْنَعُنِي أَنْ أَكُونَ مِنْ سَيِّئَاتِكَ وَأَنْ تَكُونِي مِنْ سَيِّئَاتِي ، وَلَوْ أَحْبَبْتُ الْأَنْثَى لَوَجَدْتُكَ فِي كُلِّ أَنْثَى ، وَلَكِنِّي أَحَبُّ مَا فِيكَ أَنْتِ بِخَاصَّتِكَ ، وَهُوَ الَّذِي لَا أَعْرِفُهُ وَلَا أَنْتِ تَعْرِفِيهِ ، هُوَ مَعْنَاكِ يَا سَلَامَةَ لَا شَخْصُكَ .

ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَبْكِي ، فَمَا عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتَرَكَ لِي نِدَامَتِي وَكَلَامَ دُمُوعِهِ ! وَلَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ ، لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ ، فَقَدْ رَأَى أَنَّ الْمَرْأَةَ { - فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا - } تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ <sup>(٢)</sup> ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَلْقَ حِجَابَهَا بَلْ أَلْقَتْ حِجَابَهَا .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) هَذَا نَصُّ كَلَامِهِمَا كَمَا رَوَاهُ صَاحِبُ « الْأَغَانِي » - إِلَى قَوْلِهِ : « يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؛ وَهُوَ كُلُّ الْقِصَّةِ فِي كِتَابِهِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فَقَدْ رَأَى أَنَّ الْمَرْأَةَ تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ أَحْيَانًا بِذَلَا مِنْ : « فَقَدْ رَأَى أَنَّ الْمَرْأَةَ - فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا - تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ » .

## قِصَّةُ زَوَاجٍ وَفَلَسَفَةُ الْمَهْرِ <sup>(\*)</sup> (١)

قَالَ رَسُولُ عَبْدِ الْمَلِكِ : وَنَحَكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! لَكَنَّ دَمَكَ وَاللَّهُ مِنْ عَدُوِّكَ ؛ فَهُوَ يَقُولُ بِكَ لِيَلْجَ فِي الْعِنَادِ فَتُقْتَلَ ، وَكَأَنِّي بِكَ وَاللَّهُ بَيْنَ سَبْعِينَ قَدْ فَعَرَا عَلَيْكَ ؛ هَذَا عَنْ يَمِينِكَ وَهَذَا عَنْ يَسَارِكَ ، مَا تَقَرُّ مِنْ حَنَفٍ إِلَّا إِلَى حَنَفٍ ، وَلَا تَرَحُّمَكَ إِلَّا تَابُ إِلَّا بِمَخَالِيلِهَا .

هَلْهَذَا هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَامِلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ دَخَلَتْهُ الرَّحْمَةُ لَكَ أَسْتَوْثِقُ مِنْكَ فِي الْحَدِيدِ ، وَرَمَى بِكَ إِلَى دِمَشْقَ ؛ وَهَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا هُوَ وَاللَّهُ إِلَّا أَنْ يُطْعِمَ لَحْمَكَ الْسِّنْفَ يَعْضُ بِكَ عَضَّ الْحَيَّةِ فِي أَنْتَابِهَا السُّمُّ ؛ وَكَأَنِّي بِهِذَا الْجَنْبِ مَضْرُوعًا لِمَضْجِعِهِ ، وَبِهِذَا الْوَجْهِ مَضْرُجًا بِدِمَائِهِ ، وَبِهِذَا اللَّحْيَةِ مُعْفَرَةٌ بِتَرَابِهَا ، وَبِهِذَا الرَّأْسِ مُخْتَرَأٌ فِي يَدِ أَبِي الزُّعَيْرَةِ جَلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُلْقِيهِ مِنْ سَيْفِهِ رَمِي الْغَضَنِ بِالثَّمَرَةِ قَدْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ .

وَأَنْتَ يَا سَعِيدُ فَقِيهَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَعَالِمُهَا وَزَاهِدُهَا ، وَقَدْ عَلِمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ فِيكَ لِأَصْحَابِهِ : « لَوْ رَأَى هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَسَرَّهُ » فَإِنْ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَلْيَكْرُمْ عَلَى نَفْسِكَ الْمُسْلِمُونَ ؛ إِنَّكَ إِنْ هَلَكْتَ رَجَعَ الْفِقْهُ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ إِلَى الْمَوَالِي ؛ فَقِيهَهُ مَكَّةَ عَطَاءٌ ، وَقَفِيهَهُ الْيَمَنَ طَاوُزُسٌ ، وَقَفِيهَهُ الْبِلْمَامَةَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ ، وَقَفِيهَهُ الْبَصْرَةَ الْحَسَنُ ، وَقَفِيهَهُ الْكُوفَةَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ ، وَقَفِيهَهُ الشَّامَ مَكْحُولٌ ، وَقَفِيهَهُ خُرَاسَانَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ . وَإِنَّمَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ الْمَدِينَةَ مِنْ دُونِ الْأَمْصَارِ قَدْ حَرَسَهَا اللَّهُ بِفَقِيهِهَا الْقُرَشِيِّ الْعَرَبِيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ ابْنِ الْمُسَيَّبِ كَرَامَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَقَدْ عَلِمَ أَهْلُ الْأَرْضِ أَنَّكَ حَاجَجْتَ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ حِجَّةً ، وَمَا فَاتَتْكَ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فِي الْمَسْجِدِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَا قُمْتَ إِلَّا فِي مَوْضِعِكَ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، فَلَمْ تَنْظُرْ قَطُّ إِلَى قَفَا رَجُلٍ فِي

(\*) « الرسالة » العدد : ٦٧ ، ٦ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ١٥ أكتوبر / تشرين الأول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٦٨٥ - ١٦٨٩ .

(١) [ أَنْظُرْ « قِصَصُ الرَّافِعِيِّ » فِي « عَزْدٍ عَلَى بَدْءِ » مِنْ كِتَابِ « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانُ ] .

الصلاة ؛ وَلَا وَجَدَ الشَّيْطَانُ مَا يَغْرِضُ لَكَ مِنْ قِبَلِهِ فِي صَلَاتِكَ وَلَا قَفَا رَجُلٍ ؛ فَاللهُ اللهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنِّي وَاللهِ مَا أَغْشَكَ فِي النَّصِيحَةِ ؛ وَلَا أَخَذْتُكَ عَنِ الرَّأْيِ ، وَلَا أَنْظُرُ لَكَ إِلَّا خَيْرَ مَا أَنْظُرُ لِنَفْسِي ؛ وَإِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ مِنْ عِلْمَتِ ؛ رَجُلٌ قَدْ عَمَّ النَّاسَ تَرْغِيْبُهُ وَتَرْهِيْبُهُ ، فَهُوَ أَخَذَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِنْ لَمْ تَأْخُذْهُ أَنْتَ عَلَى مَا يُحِبُّ ؛ وَإِنَّهُ وَاللهِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، مَا طَلَبَ إِلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا وَأَنْتَ عِنْدَهُ الْأَعْلَى ، وَلَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ إِلَّا وَكَأَنَّهُ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْكَ ، رِعَايَةً لِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَهُ ، وَإِكْبَارًا لِحَقِّكَ عَلَيْهِ ؛ وَمَا أَرْسَلَنِي أَخْطُبُ إِلَيْكَ أَبْنَتَكَ لَوْلِي عَهْدِهِ إِلَّا وَهُوَ يَبْتَدِلُ نَفْسَهُ إِلَيْكَ ابْتِدَاءً لَا لِيَصِلَ بِكَ رَحِمَهُ ، وَيُوثِقَ أَصْرَتَهُ ؛ وَإِنْ يَكُنْ اللهُ قَدْ أَغْنَاكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِهِ وَبِمُلْكِهِ وَرِعَا وَرَهَادَةٍ ، فَمَا أُخَوِّجُ أَهْلَ مَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَنْتَفِعُوا بِكَ عِنْدَهُ ، وَأَنْ يَكُونُوا أَضْهَارَ الْوَلِيدِ فَيَسْتَدْفِعُوا شَرًّا مَا بِهِ عَنْهُمْ غَنَى ، وَيَجْتَلِبُوا خَيْرًا مَا بِهِمْ غَنَى عَنْهُ ؛ وَلَسْتُ تَذَرِي مَا يَكُونُ مِنْ مَصَادِرِ الْأُمُورِ وَمَوَارِدِهَا . وَإِنَّكَ وَاللهِ إِنْ لَجَجْتَ فِي عِنَادِكَ وَأَصْرَزْتَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَيْهِ خَائِبًا ، لَتَهَيِّجَنَّ قَرَمَ سُيُوفِ الشَّامِ إِلَى هَذِهِ اللَّحُومِ وَلَحْمِكَ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَطْيَبِهَا ، وَلَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَارَتَانِ : لِيُنْ وَشِدَّةٌ ؛ وَأَنَا إِلَيْكَ رَسُولُ الْأَوَّلَى ، فَلَا تَجْعَلْنِي رَسُولَ الثَّانِيَةِ ...

\* \* \*

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ وَكَانَ الْكَلَامُ<sup>(١)</sup> لَا يَخْلُصُ إِلَى نَفْسِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَتَسَاقَطَ مَعَانِيهِ فِي الْأَرْضِ ، هَبِيَّةً مِنْهُ وَفَرَقًا مِنْ إِقْدَامِهَا عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ لَانَ رَسُولُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي دَهَائِهِ حَتَّى ظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَاغَ مِنَ الرَّجُلِ مَسَاغَ الْمَاءِ الْعَذْبِ فِي الْحَلْقِ الطَّامِ ، وَاشْتَدَّ فِي وَعِينِهِ حَتَّى مَا يَشْكُ أَنَّهُ قَدْ سَقَاهُ مَاءً حَيْثُمَا قَطَعَ أَمْعَاءَهُ ؛ وَالرَّجُلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْ فَوْقِهِ كَالسَّمَاءِ فَوْقَ الْأَرْضِ ، لَوْ تَحَوَّلَ النَّاسُ جَمِيعًا كَنَاسِينَ يُبَيِّثُونَ مِنْ غُبَارِ هَذِهِ عَلَى تِلْكَ لَمَا كَانَ مَرْجِعُ الْغُبَارِ إِلَّا عَلَيْهِمْ ، وَبَقِيَتِ السَّمَاءُ صَاحِكَةً صَافِيَةً تَلَالُأً .

وَقَلَّبَ الرَّسُولُ نَظَرَهُ فِي وَجْهِ الشَّيْخِ ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِيهِ مَعْنَى رَغْبَةٍ وَلَا رَهْبَةٍ ، كَانَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ الْأَرْضَ دَهْبًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فِي حَالَةٍ ، وَلَمْ يَمْلَأِ الْجَوْ سُبُوقًا عَلَى رَأْسِهِ فِي الْحَالَةِ

الْآخَرَى ؛ وَأَيُّقَنَ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْخِ { الْعَظِيمِ } كَالصَّبِيِّ الْغَرِّ قَدْ رَأَى الطَّائِرَ فِي أَعْلَى الشَّجَرَةِ فَطَمَعَ فِيهِ ، فَجَاءَ مِنْ تَحْتِهَا يُتَادِيهِ : أَنْ أَنْزِلْ إِلَيَّ حَتَّى أَخْذَكَ وَالْعَبَّ بِكَ ... وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَكَلَّمَ أَبُو مُحَمَّدٍ فَقَالَ :

يَا هَذَا ، أَمَا أَنَا فَقَدْ سَمِعْتُ ، وَأَمَا أَنْتَ فَقَدْ رَأَيْتَ ، وَقَدْ رُؤِينَا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ ، فَانْظُرْ مَا جِئْتَنِي أَنْتَ بِهِ ، وَقِسْهُ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كُلِّهَا ، فَكَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - تَكُونُ قَدْ قَسَمْتَ لِي مِنْ جَنَاحِ الْبُعُوضَةِ . . ؟ وَقَدْ دُعِيتُ مِنْ قَبْلِ إِلَى نَيْبِ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا لِأَخْذِهَا ، فَقُلْتُ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا وَلَا فِي بَنِي مَرْوَانَ ، حَتَّى أَلْقَى اللهُ فَيَحْكُمَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ . وَهَذَاذَا الْيَوْمَ أَدْعَى إِلَى أَضْعَافِهَا وَإِلَى الْمَرْئِدِ مَعَهَا ؛ أَفَأَقْبِضُ يَدَيَّ عَنْ جَمْرَةٍ ، ثُمَّ أُمْدُهَا لِأَمْلَاحِهَا جَمْرًا ؟ لَا وَاللهِ مَا رَغِبَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِابْنِهِ فِي ابْنَتِي ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ مِنْ سِيَاسَتِهِ الْإِصَافِ الْحَاجَةِ بِالنَّاسِ لِيَجْعَلَهَا مَقَادَةً لَهُمْ فَيَصْرِفَهُمْ بِهَا ؛ وَقَدْ أَعْجَزَهُ أَنْ أَبَايَعَهُ ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعَتَيْنِ ، وَمَا عَبْدُ الْمَلِكِ عِنْدَنَا إِلَّا بِاطِلَ كَاتِبِ الرُّبُوبِ ، وَلَا ابْنُ الرُّبُوبِ إِلَّا بِاطِلَ كَعَبْدِ الْمَلِكِ ، فَانْظُرْ فَإِنَّكَ مَا جِئْتَ لِابْنَتِي وَابْنِي ، وَلَكِنْ جِئْتَ تَخْطُبُنِي أَنَا لِبَيْعَتِهِ ...

قَالَ الرَّسُولُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! دَعْ عَنْكَ الْبَيْعَةَ وَحَدِيثَهَا ، وَلَكِنْ مَنْ عَسَى أَنْ تَجِدَ لِكِرَامَتِكَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الَّذِي سَاقَهُ اللهُ إِلَيْكَ ؟ إِنَّكَ لِرَاعٍ وَإِنَّهَا لَرَعِيَّةٌ وَسُسْنَاءُ عَنْهَا ، وَمَا كَانَ الظَّنُّ بِكَ أَنْ تُسِيءَ رَغِيْبَتَهَا وَتَبْخَسَ حَقَّهَا ، وَأَنْ تَغْضُلَهَا وَقَدْ خَطَبَهَا فَارِسُ بَنِي مَرْوَانَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَارِسُهُمْ فَهُوَ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ فَهُوَ الْوَلِيدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَذْنَى الثَّلَاثِ أَرْفَعُ الشَّرَفِ فَكَيْفَ يَبْهِنُ جَمِيعًا ، وَهَلْ جَمِيعًا فِي الْوَلِيدِ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : أَمَا إِنِّي مَسْؤُولٌ عَنْ ابْنَتِي ، فَمَا رَغِبْتُ عَنْ صَاحِبِكَ إِلَّا لِأَنِّي مَسْؤُولٌ عَنْ ابْنَتِي . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْتَ أَنَّ اللهَ يَسْأَلُنِي عَنْهَا فِي يَوْمٍ لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَفْهَمَ لَا يَكُونُونَ فِيهِ إِلَّا وَرَاءَ عَيْنَيْهَا وَأُورَاشِهَا وَدُعَارِهَا وَفُجَارِهَا<sup>(١)</sup> . يُخْرِجُونَ مِنْ حِسَابِ الْفَجْرَةِ إِلَى حِسَابِ الْفَتَلَةِ ، وَمِنْ حِسَابِ هَلْوَاءٍ إِلَى الْحِسَابِ عَلَى السَّرِقَةِ

(١) { الصُّمَيْرُ رَاجِعٌ إِلَى الدُّنْيَا } .

(١) فِي الْأَصْلِ : « كَانَتْ » بَدَلًا مِنْ : « كَانُ الْكَلَامِ » .



وَالْعُصْبِ ، إِلَى حِسَابِ أَهْلِ الْبَغْيِ ، إِلَى حِسَابِ التَّفْرِيطِ فِي حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ . وَيَخْفُفُ يَوْمَئِذٍ عَيْنُهَا وَأَوْبَاشُهَا وَدُعَارُهَا وَفُجَارُهَا فِي زَحَامِ الْحَشْرِ ، وَيَمِشِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ أَتَّصَلَ بِهِمَا ، وَعَلَيْهِمْ أَمْثَالُ الْجِبَالِ مِنْ أَثْقَالِ الذُّنُوبِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ .

فَهَذَا مَا نَظَرْتُ فِي حُسْنِ الرَّعَايَةِ لِابْنَتِي ، لَوْ لَمْ أَصِبْ بِهَا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَأَوْبَقْتُ نَفْسِي . لَا وَاللَّهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَمَلٌ ، وَقَدْ قَرَعْتُ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ فَلَا يَمُرُّ السَّيْفُ مِثِّي فِي لَحْمٍ حَيٍّ .

\* \* \*

وَلَمَّا كَانَ غَدَاةُ غَدِ جَلَسَ الشَّيْخُ فِي حَلْقَتِهِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلْحَدِيثِ وَالنَّأْوِيلِ ، فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنْ غُرُضِ الْمَجْلِسِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! إِنَّ رَجُلًا يَلَا حِينِي فِي صَدَاقِ ابْنَتِي وَيُكَلِّفُنِي مَا لَا أَطِيقُ . فَمَا أَكْثَرُ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ صَدَاقُ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَدَاقُ بَنَاتِهِ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : رَوَيْنَا أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَنْهَى عَنِ الْمُغَالَاةِ فِي الصَّدَاقِ وَيَقُولُ : « مَا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا زَوَّجَ بَنَاتِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِ مِثَّةٍ دِرْهَمٍ <sup>(١)</sup> » [ الترمذي ، رقم : ١١١٤ ؛ النسائي ، رقم : ٣٣٤٩ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٠٦ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٨٨٧ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢٨٧ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٢٠٠ ] ، وَلَوْ كَانَتْ الْمُغَالَاةُ بِمُهُورِ النِّسَاءِ مَكْرُمَةً لَسَبَقَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَرَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « خَيْرُ النِّسَاءِ أَحْسَنُهُنَّ وَجُوهًا وَأَرْخَصُهُنَّ مُهُورًا » . [ ابن حبان رقم : ٤٠٣٤ ] .

فَصَاحَ الْكَسَائِلُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، كَيْفَ يَأْتِي أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ رَخِيصَةً الْمَهْرَ ، وَحُسْنُهَا هُوَ يُغْلِيهَا عَلَى النَّاسِ ؛ تَكُنُّ رَغْبَتُهُمْ فِيهَا فَيَتَنَافَسُونَ عَلَيْهَا ؟

قَالَ الشَّيْخُ : أَنْظِرْ كَيْفَ قُلْتُ . أَهْمُ يُسَاوِمُونَ فِي بَهِيمَةٍ لَا تَعْقِلُ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ أَمْرِهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنَّهَا بِضَاعَةٌ مِنْ مَطَامِعِ صَاحِبِهَا ، يُغْلِيهَا عَلَى مَطَامِعِ النَّاسِ ؟ إِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ خَيْرَ النِّسَاءِ مَنْ كَانَتْ عَلَى جَمَالٍ وَجْهِهَا ، فِي أَخْلَاقٍ كَجَمَالِ وَجْهِهَا ،

(١) الدِّرْهَمُ : خَمْسَةُ قُرُوشٍ . [ يُعَادِلُ الدِّرْهَمُ ٨ ، ٢ غرام مِنَ الْفِضَّةِ ] .

وَكَانَ عَقْلُهَا جَمَالًا ثَالِثًا ؛ فَهَذِهِ إِنْ أَصَابَتْ الرَّجُلَ الْكُفَاءَ ، يَسَّرَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَسَّرَتْ ، ثُمَّ يَسَّرَتْ ؛ إِذْ تَعْتَبِرُ نَفْسُهَا إِنْسَانًا يُرِيدُ إِنْسَانًا ، لَا مَتَاعًا يَطْلُبُ شَارِبًا ، وَهَذِهِ <sup>(١)</sup> لَا يَكُونُ رُخْصُ الْفَيْمَةِ فِي مَهْرِهَا ، إِلَّا دَلِيلًا عَلَى ارْتِفَاعِ الْفَيْمَةِ فِي عَقْلِهَا وَدِينِهَا ؛ أَمَّا الْحَقْمَاءُ فَجَمَالُهَا يَأْتِي إِلَّا مُضَاعَفَةً الثَّمَنِ لِحُسْنِهَا ، أَيْ : لِحَقْمِهَا ؟ وَهِيَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ شِرَارِ النِّسَاءِ ، وَلَيْسَتْ مِنْ خِيَارِهِنَّ .

وَلَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ عَلَى عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ وَأَثَابَ بَيْتَ ، وَكَانَ الْأَثَابُ : رَحَى يَدٍ ، وَجَرَّةُ مَاءٍ ، وَوَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لَيْفٌ . وَأَوَّلَمَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ بِمُدَيْنٍ مِنْ شَعِيرٍ ، وَعَلَى أُخْرَى بِمُدَيْنٍ مِنْ تَمَرٍ وَمُدَيْنٍ مِنْ سَوِيقٍ . وَمَا كَانَ بِهِ ﷺ الْفَقْرُ ، وَلَكِنَّهُ يَشْرَعُ بِسِتِّهِ لِيَعْلَمَ النَّاسُ مِنْ عَمَلِهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ لِلرَّجُلِ نَفْسٌ لِنَفْسٍ ، لَا مَتَاعٌ لِشَارِبِهِ ؛ وَالْمَتَاعُ يَقُومُ بِمَا بَدَلَ فِيهِ إِنْ غَالِبًا وَإِنْ رَخِيصًا ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ يَقُومُ عِنْدَ الْمَرْأَةِ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ ؛ فَمَهْرُهَا الصَّحِيحُ لَيْسَ هَذَا الَّذِي تَأْخُذُهُ قَبْلَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى دَارِهِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي تَجِدُهُ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى دَارِهِ ؛ مَهْرُهَا مُعَامَلَتُهَا ، تَأْخُذُ مِنْهُ يَوْمًا قِيَوْمًا ، فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ عَرُوسًا عَلَى نَفْسِ رَجُلِهَا مَا دَامَتْ فِي مُعَاشَرَتِهِ . أَمَّا ذَلِكَ الصَّدَاقُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَهُوَ صَدَاقُ الْعَرُوسِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْجَنَسِ لَا عَلَى النَّفْسِ ؛ أَفَلَا تَرَاهُ كَالْجَنَسِ يَهْلِكُ وَيَبْلَى ، أَفَلَا تَرَى هَذِهِ الْغَالِيَةَ - إِنْ لَمْ تَجِدِ النَّفْسَ { فِي رَجُلِهَا } - قَدْ تَكُونُ عَرُوسَ الْيَوْمِ وَمُطْلَقَةً الْغَدِ ؟ !

وَمَا الصَّدَاقُ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، إِلَّا كَالْإِيمَاءِ إِلَى الرُّجُولَةِ وَقُدْرَتِهَا ، فَهُوَ إِيمَاءٌ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ قَبْلُ . إِنْ كَانَ أَمْرًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ سَيْفًا ، وَالسَّيْفُ إِيمَاءٌ إِلَى الْقُوَّةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ذَوِي السُّيُوفِ سَوَاءً ، وَقَدْ يَحْمِلُ الْجَبَانُ فِي كُلِّ يَدٍ سَيْفًا ، وَيَمْلِكُ فِي دَارِهِ مِثَّةَ سَيْفٍ ؛ فَهُوَ إِيمَاءٌ ، وَلَكِنَّ الْبَطْلَ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ الْبَطْلَ قَبْلُ .

مِثَّةُ سَيْفٍ يَمْهَرُ بِهَا الْجَبَانُ <sup>(٢)</sup> قُوَّةَ الْحَابِئَةِ ، لَا تُغْنِي قُوَّتُهُ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهَا كَالْتَدَلِّيسِ عَلَى مَنْ كَانَ جَبَانًا مِثْلَهُ . وَيُؤْشِكُ أَنْ يَكُونَ الْمَهْرُ الْغَالِي كَالْتَدَلِّيسِ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْمَرْأَةِ ، كَيْ لَا تَعْلَمَ وَلَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ ثَمَنٌ خَبِيْثٌ ؛ فَلَوْ عَقَلَتِ الْمَرْأَةُ لَبَاهَتْ النِّسَاءُ بِبُسْرِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَهَذِهِ » بَدَلًا مِنْ : « وَهَذِهِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « يَمْهَرُ الْجَبَانُ بِهَا » بَدَلًا مِنْ : « يَمْهَرُ بِهَا الْجَبَانُ » .

مَهْرَهَا ، فَإِنَّهَا بِذَلِكَ تَكُونُ قَدْ تَرَكْتَ عَقْلَهَا يَعْمَلُ عَمَلَهُ ، وَكَفَّتْ حِمَاقَتَهَا أَنْ تُفْسِدَ عَلَيْهِ .

فَصَاحَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، أَيُّ هَذَا مِنْ دَلِيلٍ أَوْ آثَرٍ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : نَعَمْ ؛ أَمَّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [ ٤ سورة النساء / الآية : ١ ] فَهِيَ زَوْجُهُ حِينَ تَجِدُهُ هُوَ لَا حِينَ تَجِدُ مَالَهُ ؛ وَهِيَ زَوْجُهُ حِينَ تَتَمَّمُهُ لَا حِينَ تَنْقُصُهُ ، وَحِينَ ثَلَاثَتُهُ لَا حِينَ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ ؛ فَمَصْلَحَةُ الْمَرْأَةِ زَوْجَةٌ مَا يَجْعَلُهَا مِنْ زَوْجِهَا ، فَيَكُونَانِ مَعًا كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ ، عَلَى مَا تَرَى لِلْعُضْوِ مِنْ جِسْمِهِ ؛ يُرِيدُ مِنْ جِسْمِهِ الْحَيَاةَ لَا غَيْرَهَا .

وَأَمَّا مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ رَوَيْنَا : « إِذَا أَتَاكُمْ مِنْ تَرْسُونَ دِينُهُ وَأَمَانَتُهُ فَرُوجُهُ ؛ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَثِيرٌ » [ رواه الترمذي ، رقم : ١٠٨٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٦٧ ] .

فَقَدْ اشْتَرَطَ الدِّينَ ، عَلَى أَنْ يَكُونَ مَرْضِيًّا لَا أَيْ الدِّينَ كَانَ<sup>(١)</sup> ؛ ثُمَّ اشْتَرَطَ الْأَمَانَةَ ، وَهِيَ مَظْهَرُ الدِّينِ كُلِّهِ بِجَمِيعِ حَسَنَاتِهِ ؛ وَأَيْسَرَهَا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ أَمِينًا ، وَعَلَى حَقْرِهَا أَمِينًا ، وَفِي مُعَامَلَتِهَا أَمِينًا ؛ فَلَا يَنْخَسُهَا ، وَلَا يُعْتِثُهَا ، وَلَا يُسِيءُ إِلَيْهَا ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ ثَلَمٌ فِي أَمَانَتِهِ ؛ فَإِنْ رَدَّتِ الْمَرْأَةُ مِنْ هَذِهِ حَالَهُ وَصِفَتَهُ مِنْ أَجْلِ الْمَهْرِ - تَقَدَّمَ إِلَيْهَا بِالْمَهْرِ مِنْ لَيْسَتْ هَذِهِ حَالَهُ وَصِفَتَهُ ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ ، وَفَسَدَتِ الْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ ، وَفَسَدَ هُوَ بِهَا ، وَفَسَدَ النَّسْلُ بِيَهْمَا جَمِيعًا ، وَأَهْمِلَ مَنْ لَا يَمْلِكُ ، وَتَعَسَّتْ مَنْ لَا تَجِدُ ، وَيَرْجِعُ الْمَهْرُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الزَّوْاجِ سَبَبًا فِي مَنْعِهِ ، وَيَتَقَارَبُ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ عَلَى رَغَمِ الْمَهْرِ وَالْأَمَانَةِ ؛ فَيَقَعُ مَعْنَى الزَّوْاجِ ، وَيَبْقَى الْمُعْطَلُ مِنْهُ هُوَ اللَّفْظُ وَالشَّرْعُ .

هَلْ عَلِمْتَ الْمَرْأَةُ أَنَّهَا لَا تَدْخُلُ بَيْتَ رَجُلٍ إِلَّا لِتُجَاهِدَ فِيهِ جِهَادَهَا ، وَتَبْلُوَ فِيهِ بِلَاءَهَا ؟ وَهَلْ يَقُومُ مَالُ الدُّنْيَا بِحَقِّهَا فَيَمَّا تَعْمَلُ وَمَا تَجَاهِدُ ، وَهِيَ أُمُّ الْحَيَاةِ وَمُنْشِئَتُهَا وَحَافِظَتُهَا ؟ فَأَيْنَ يَكُونُ مَوْضِعُ الْمَالِ وَمَكَانُ التَّفْرِقَةِ فِي كَثِيرِهِ وَقَلِيلِهِ ، وَالْمَالُ كُلُّهُ دُونَ حَقِّهَا ؟ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَيْ ذَلِكَ كَانَ » بَدَلًا مِنْ : « أَيْ الدِّينَ كَانَ » .

وَلَنْ يَتَقَارَبَ النَّاسُ بِالْمَالِ تَخَلُّفَ دَرَجَاتِهِمْ بِهِ ، وَتَكُونُ مَرَاتِبُهُمْ عَلَى مِقْدَارِهِ ، تَكْتُرُ بِهِ مَرَّةً وَتَقِلُّ مَرَّةً - إِلَّا إِذَا فَسَدَ الزَّمَانُ ، وَبَطَلَتْ قَضِيَّةُ الْعَقْلِ ، وَتَعَطَّلَ مُوجِبُ الشَّرْعِ ، وَأَصْبَحَتِ السَّجَايَا تَتَحَوَّلُ ، يَمْلِكُهَا مَنْ يَمْلِكُ الْمَالَ ، وَيَخْسَرُهَا مَنْ يَخْسَرُهُ ؛ فَيَكُونُ الَّذِينَ عَلَى النَّفْسِ كَالَّذِينَ عَلَى الْمُزَاحِمِ لِمَوْضِعِهِ ، وَالْمُنْدَلِّي فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَبِهَذَا يَرْجِعُ بَاطِلُ الْغَنِيِّ دِينًا يَتَعَامَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَدَيْنُ الْفَقِيرِ بَهْرَجًا لَا يَرُوجُ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ دِينِنَا ، دَيْنُ النَّفْسِ وَالْخُلُقِ ، وَإِنَّ أَلْفَ بَعِيرٍ يَقْتُونَهَا الرَّجُلُ خَالِصَةً عَلَيْهِ ، ثَابِتَةً لَهُ ، لَا تَزِيدُ فِي مَنَزِلَةِ دِينِهِ قَدْرَ نَمْلَةٍ وَلَا مَا دُونَهَا . وَالْحَجَرَانِ : الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ - قَدْ يَكُونُ شِعَاعُهُمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَضْوَأَ مِنْ شَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، وَلَكِنَّهُمَا فِي نُورِ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ كَحَصَاتَيْنِ يَأْخُذُهُمَا الرَّجُلُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ، وَيَذْهَبُ يَزْعُمُ لَكَ أَنَّهُمَا فِي قَدْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وَهَلَاكَ النَّاسُ إِنَّمَا يُفْضَى بِمَحَاوَلَتِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْاسًا بِعِيُونِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ، فَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْمُذْبِرُ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ جَنْسِهِ ؛ لَا يَكُونُ أَبَوُهُ أَبَا فِي عَطْفِهِ ، وَلَا أُمُّهُ أُمًّا فِي مَحَبَّتِهَا ، وَلَا ابْنُهُ ابْنًا فِي بَرِّهِ ، وَلَا زَوْجَتُهُ زَوْجَةً فِي وَفَائِهَا ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُونَ لَهُ مَهَالِكُ ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « بَأْيُنِ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ وَأَبَوَيْهِ وَوَلَدِهِ ؛ يَعِيرُونَهُ بِالْفَقْرِ ، وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لَا يُطِيقُ ؛ فَيَدْخُلُ الْمَدَاخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فَيَهْلِكُ » [ قال العراقي في « تخریج أحاديث الإحياء » : أخرجه الخطابي في « العزلة » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه نحوه ، وللبیهقي في « الزهد » نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وكلاهما ضعيف . انتهى ] .

\* \* \*

وَصَاحَ الْمُؤَدُّنُ ، فَقَطَعَ الشَّيْخُ مَجْلِسَهُ وَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى دَارِهِ ، فَتَلَقَّتْهُ ابْنَتُهُ وَعَلَى وَجْهِهَا مِثْلُ نُورِهِ ، قَالَتْ : يَا أَبَتِ ! كُنْتُ أَتْلُو السَّاعَةَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ ﴾ [ ٢ سورة البقرة / الآية : ٢٠١ ] . فَمَا حَسَنَةُ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : يَا بَنِيَّةُ ! هِيَ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تُذَكَّرَ مَعَ حَسَنَةِ الْآخِرَةِ ، وَمَا أَرَاهَا لِلرَّجُلِ إِلَّا الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ ، وَلَا لِلْمَرْأَةِ ...

وَعَسَى الْفَرْحُ هَذِهِ الْمَرَّةَ عَيْنِي الرَّجُلِ وَأَذُنِيهِ ، فَإِذَا هُوَ يَسْمَعُ نَشِيدَ الْمَلَائِكَةِ يَطُرُ لَحْنُهُ : « أُنَا ، أُنَا ، أُنَا ... » .

وَلَمْ يَشْعُرْ أَنَّهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَقَامَ يَطِيرُ ، وَلَيْسَ يَذَرِي مِنْ فَرْحِهِ مَا يَصْنَعُ ، وَكَأَنَّهُ فِي  
يَوْمٍ جَاءَهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا يَعْتَرَفُ إِلَيْهَا بِهَذَا الصَّوْتِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَطِيرُ فِي أَذُنَيْهِ :  
« أَكَا ، أَكَا ، أَكَا . . . » .

وَصَارَ إِلَى مَثَرٍ لِهٖ وَجَعَلَ يَفْكُرُ : مِمَّنْ يَأْخُذُ ، مِمَّنْ يَسْتَدِينُ ؟ فَظَهَرَ لَهُ الْأَرْضُ خَلَاءَ  
مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ الَّذِي يَضْطَرِبُ صَوْتُهُ فِي أَذُنَيْهِ : « أَنَا ، أَنَا ،  
أَنَا ... » .

وَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَكَانَ صَائِمًا ، ثُمَّ قَامَ فَاسْرَجَ ، فَإِذَا سِرَاجُهُ الْخَافِثُ الضَّيْبِلُ يَسْطَعُ لِعَيْنَيْهِ سَطُوعَ الْقَمَرِ ، وَكَأَنَّ فِي نُورِهِ وَجْهَ عَرُوسٍ تَقُولُ لَهُ : « أَأَنَا ، أَأَنَا ، أَأَنَا ... » .

وَقَدَّمَ عَشَاءَهُ لِيَمْطُرَ ، وَكَانَ خُبْرًا وَرَيْنَا ، فَإِذَا أَلْبَابُ يُفْرَعُ ؛ قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ  
الطَّارِقُ : سَعِيدٌ ...

سَعِيدٌ؟ سَعِيدٌ! مَنْ سَعِيدٌ؟ أَهُوَ أَبُو عُمَرَ؟ أَبُو عَلِيٍّ؟ أَبُو الْحَسَنِ؟ فَفَكَرَ الرَّجُلُ فِي كُلِّ مَنْ أَسَمَهُ سَعِيدٌ إِلَّا سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ؛ إِلَّا الَّذِي قَالَ لَهُ: «أَنَا...».

لَمْ يُخَالِجْهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الطَّارِقَ ، فَإِنَّ هَذَا الْإِمَامَ لَمْ يَطْرُقْ بَابَ أَحَدٍ قَطُّ ، وَلَمْ يَرْمُذْ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا بَيْنَ دَارِهِ وَالْمَسْجِدِ .

ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا بِهِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، فَلَمَّ تَأْخُذُهُ عَنْهُ حَتَّى رَجَعَ الْقَبْرِ فَهَضَطَ فَجَاءَهُ بِظِلَامِهِ وَأَمْوَاتِهِ فِي قَلْبِ الْمَسْكِينِ ، وَظَنَّ أَنَّ الشَّنِيْعَ قَدْ بَدَأَ لَهُ ، فَتَنِدَّمَ ، فَجَاءَهُ لِلطَّلَاقِ قَبْلَ أَنْ يَشْنِعَ الْخَبَرَ ، وَيَتَعَدَّرَ إِضْلَاحَ الْغُلَاظَةِ ! فَقَالَ : « يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، كُو... كُو... كُو... كُو- كُو أَرْسَلْتَ إِلَيَّ لِأَتَيْنِكَ » .

فَمَا صَكَبَ الْكَلِمَةَ سَمِعَ الْمُسْكِينِ حَتَّى أَلْبَسَ الْوُجُودُ فِي نَظَرِهِ ، وَعَشِيَ الدُّنْيَا صَمْتُ  
كَصَمَتِ الْمَوْتِ ، وَأَحْسَنَ كَأَنَّ الْقَبْرَ يَتَمَدَّدُ فِي قَلْبِهِ بِعُرْوَةِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ! ثُمَّ فَأَنَّ لِنَفْسِهِ ،

ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ مَهْرَ الزَّوْجَةِ الَّتِي أَرْسَلَ يَخْطُبُهَا الْخَلِيفَةُ الْعَظِيمُ لِرَبِّ عَهْدِهِ بِثَقَلِهَا ذَهَبًا لَوْ شَاءَتْ .

(١) فِي الْأَظْلَى : « فَحَمِدَ » بَدَلًا مِنْ : « حَمِدَ » .

وَقَدَّرَ أَنْ لَيْسَ مَحَلُّ شَيْخِهِ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ ، وَلَيْسَ مَحَلُّهُ هُوَ إِلَّا أَنْ يُطِيعَ ، وَأَنَّ مِنَ الرُّجُولَةِ إِلَّا يَكُونُ مَعْرَةً عَلَى الرُّجُولَةِ ، ثُمَّ نَكَسَ وَتَنَكَّسَ ، وَقَالَ بِذَلِكَ وَمَسْكَنَةٍ : « مَا تَأْمُرُنِي ؟ » .

فَتَفَتَحَتِ السَّمَاءُ مَرَّةً ثَالِثَةً ، وَقَالَ الشَّيْخُ : « إِنَّكَ كُنْتَ رَجُلًا عَزَبًا ، فَتَزَوَّجْتَ ، فَكَرِهْتُ أَنْ تَبْنِيَ اللَّيْلَةَ وَحْدَكَ ؛ وَهَذِهِ أَمْرَاتُكَ ! » .

وَأَنصَرَفَ شَيْئًا ، فَإِذَا الْعُرُوسُ قَائِمَةٌ خَلْفَهُ مُسْتَبْرَةً بِهِ ، وَدَفَعَهَا إِلَى الْبَابِ وَسَلَّمْ وَأَنصَرَفَ .

وَأَتْبَعَتِ الْوُجُودُ فَجَاءَهُ ، وَطَرَأَ لَحْنُ الْمَلَائِكَةِ فِي أُذُنِ أَبِي وَدَاعَةَ : « آنا ، آنا ، آنا ... » .

\* \* \*

دَخَلَتِ الْعُرُوسُ الْبَابَ وَسَقَطَتْ مِنَ الْحَيَاءِ ، فَتَرَكَهَا الرَّجُلُ مَكَانَهَا ، وَاسْتَوْتَقَى مِنْ بَابِهِ ، ثُمَّ خَطَا إِلَى الْقُصْعَةِ الَّتِي فِيهَا الْخُبْزُ وَالزَّبِيبُ ، فَوَضَعَهَا فِي ظِلِّ السَّرَاجِ كَيْ لَا تَرَاهَا ؛ وَأَغْمَضَ السَّرَاجَ عَيْنَهُ وَنَشَرَ الظِّلَّ ...

ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّطْحِ وَرَمَى الْجِيزَانَ بِخُصِيَّاتٍ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ لَهُ شَأْنًا أَغْتَرَاهُ ، وَأَنْ قَدْ وَجَبَ حَقُّ الْجَارِ عَلَى الْجَارِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْخُصِيَّاتُ يَوْمَئِذٍ كَأَجْرَاسِ التَّلْفُونِ الْيَوْمِ ، فَجَاوَزَهُ عَلَى سَطُوحِهِمْ وَقَالُوا : « مَا شَأْنُكَ ؟ » .

قَالَ : « وَيَحْكُمُ ! زَوْجَنِي سَعِيدٌ بْنُ الْمُسَيَّبِ ابْنَتُهُ الْيَوْمَ ؛ وَقَدْ جَاءَ بِهَا اللَّيْلَةَ عَلَى غَفْلَةٍ » .

قَالُوا : « وَسَعِيدٌ زَوْجُكَ ! أَهُوَ سَعِيدُ الَّذِي زَوَّجَكَ ! أَرَزَّجَكَ سَعِيدٌ ؟ » .

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالُوا : « وَهِيَ فِي الدَّارِ ؟ أَتَقُولُ إِنَّهَا فِي الدَّارِ ؟ » .

قَالَ : « نَعَمْ » .

فَانْتَالَ النِّسَاءَ عَلَيْهِ مِنْ هُنَا وَهُنَا حَتَّى امْتَلَأَتْ بِهِنَّ الدَّارُ . وَغَشِيَتِ الرَّجُلَ غَشِيَةً أُخْرَى ، فَحَسِبَ دَارَهُ تَبِيَّةً عَلَى قَصْرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَكَأَنَّمَا يَسْمَعُهَا يَقُولُ :

« آنا ، آنا ، آنا ... »

\* \* \*

قَالَ { عَبْدُ اللَّهِ بْنُ } أَبِي وَدَاعَةَ (١) : « ثُمَّ دَخَلْتُ بِهَا ، فَإِذَا هِيَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ وَأَحْفَظِهِمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَعْلَمِهِمْ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَعْرِفَهُمْ بِحَقِّ الزَّوْجِ . لَقَدْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ الْمُغْضِلَةَ تُعِينِي الْفُقَهَاءَ فَاسْأَلَهَا عَنْهَا فَأَجِدُ عِنْدَهَا مِنْهَا عِلْمًا » .

قَالَ : « وَمَكُنْتُ شَهْرًا لَا يَأْتِينِي سَعِيدٌ وَلَا آتِيهِ ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الشَّهْرِ أَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي حَلَقَتِهِ فَسَلَّمْتُ ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، وَلَمْ يَكْلَمْنِي حَتَّى تَفَرَّقَ النَّاسُ مِنَ الْمَجْلِسِ وَخَلَا وَجْهُهُ ، فَتَنَظَّرَ إِلَيَّ وَقَالَ :

« مَا حَالُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ ... ؟ » .

\* \* \*

أَمَّا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ فَلَمْ يَعْرِفْ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ قَصْرِ وَلِيِّ الْعَهْدِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيْنَ حُجْرَةِ { أَبِي } أَبِي وَدَاعَةَ الَّتِي تُسَمَّى دَارًا ... ! إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ مُضَاعَفَةُ الْهَمِّ ، وَهُنَا مُضَاعَفَةُ الْحُبِّ .

وَمَا بَيْنَ هُنَاكَ إِلَى الْقَبْرِ مَدَّةَ الْحَيَاةِ - سَتَخِفْتُ الرُّوحُ مِنْ نُورٍ بَعْدَ نُورٍ ، إِلَى أَنْ تَنْطَفِئَ فِي السَّمَاءِ مِنْ قَضَائِلِهَا .

وَمَا بَيْنَ هُنَا إِلَى الْقَبْرِ مَدَّةُ الْحَيَاةِ - تَسْطَعُ الرُّوحُ بِنُورٍ عَلَى نُورٍ ، إِلَى أَنْ تَشْتَعِلَ فِي السَّمَاءِ بِقَضَائِلِهَا .

وَمَا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَبْقَى ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

\* \* \*

وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ الْمَلِكِ يَخْتَالُ لِسَعِيدٍ وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ حَتَّى وَقَعَتْ بِهِ الْمِخْنَةُ ، فَضَرَبَهُ عَامِلُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ خَمْسِينَ سَوْطًا فِي يَوْمٍ بَارِدٍ ، وَصَبَّ عَلَيْهِ جَرَّةً مَاءً ، وَعَرَضَهُ عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَبُو وَدَاعَةَ » بَدَلًا مِنْ : « عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ » .

السَّيْفِ ، وَطَافَ بِهِ الْأَسْوَاقَ عَارِيًا فِي ثُبَانٍ<sup>(١)</sup> مِنَ الشَّعْرِ ، وَمَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُجَالِسُوهُ أَوْ يُخَاطِبُوهُ . وَبِهَذِهِ الْوَفَاقَةِ ، وَبِهَذِهِ الرِّذِيلَةِ ، وَبِهَذِهِ الْمَخْزَاةِ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : « أَنَا ... .. ؟ » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



دَهَبَ النَّاسُ يَمِينًا وَشِمَالًا فِيمَا كَتَبَتْهُ مِنْ خَيْرِ الْإِمَامِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَتَزْوِجِهِ ابْنَتَهُ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَقِيرٍ ، بَعْدَ إِذْ ضَنَّ بِهَا أَنْ تَكُونَ زَوْجًا لِرُلِّيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ؛ وَقَدْ جَعَلَتْ قُلُوبُ بَعْضِ النِّسَاءِ الْعَصْرِيَّاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ تَصْنِيعُ وَتَوَلُّوهُ ... وَحَدَّثَنَا أَدِيبُ ظَرْيَفُ أَنَّ إِحْدَاهُنَّ سَأَلَتْ عَنْ عُنْوَانِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ... !

أَفْتَرَاهَا سَتَكْتُبُ إِلَيْهِ أَنَّهَا تَقْبَلُ الزَّوْاجَ مِنْ وَلِيِّ عَهْدِهِ ؟

عَلَى أَنَّ لِلْقِصَّةِ ذَيْلًا ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ الْأَدَمِيَّةَ لَا عَصَرَ لَهَا ، بَلْ هِيَ طَبِيعَةٌ كُلُّ عَصْرِ ؛ وَالْفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ يَبْدَأُ تَارِيخُهَا مِنَ الْجَنَّةِ ، فَهِيَ هِيَ لَا تَتَجَدَّدُ وَلَا تَزَالُ تُلَوِّحُ وَتَخْفِي ؛ أَمَّا الرِّذِيلَةُ فَأَوَّلُ تَارِيخِهَا مِنَ الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا ، فَهِيَ هِيَ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَزَالُ تَظْهَرُ وَتَسْتَسِرُّ .

\* \* \*

(١) الثُبَانُ : مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ الْمَائِي أَوْ لِبَاسُ الْبَحْرِ . ذَكَرَهُ الْجَاهِظُ وَقَالَ : هُوَ سَرَاوِيلُ قَصِيرٌ يَلْبَسُهُ الْمَلَاخُونَ .

(\*) « الرسالة » العدد : ٧٠ ، ٢٧ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ٥ نوفمبر / تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٠٥ - ١٨٠٩ .

لَمَّا رَوَّجَ الْإِمَامُ ابْنَتَهُ مِنْ ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ ، وَأَخَذَهَا بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ زَوْجِهَا مِنْهُ ، وَمَشَى بِهَا فِي طَرَفِي حَصَاهُ عِنْدَهُ أَفْضَلَ مِنَ الدُّرِّ ، وَتُرَابُهُ أَكْرَمُ مِنَ الذَّهَبِ ؛ طَارَتِ الْحَادِثَةُ فِي النَّاسِ ، وَاسْتَفَاضَ لَهُمْ قَوْلُ كَثِيرٍ ؛ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ . [ ٩ سورة التوبة / الآية : ١٢٤ ] وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : تَاللَّهِ لَئِنْ انْقَطَعَ الْوَحْيُ ، إِنَّ<sup>(١)</sup> فِي مَعَانِيهِ بَقِيَّةَ مَا تَزَالُ تَنْزِلُ عَلَى بَعْضِ الْقُلُوبِ الَّتِي تُشَبِّهُ فِي عَظَمَتِهَا قُلُوبَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَمَا هَذِهِ الْحَادِثَةُ عَلَى الدُّنْيَا إِلَّا فِي مَعْنَى سُورَةِ مِنَ الشُّورِ قَدْ أَنْشَقَّتْ لَهَا السَّمَاءُ ، وَنَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ يَخْفِقُ عَلَى أَقْدَمَةِ الْمُؤْمِنِينَ خَفَقَةً إِيْمَانٍ .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [ ٩ سورة التوبة / الآية : ١٢٥ ] وَقَالَ أَنَسٌ مِنْهُمْ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ تَهَيَّأَ لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ لِيَصَ يَسْرِقُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَرَكِبَ رَأْسُهُ فِي ذَلِكَ ، مَا يَرُدُّهُ عَنِ السَّرْقَةِ شَيْءٌ ؛ فَكَيْفَ يَمُنْ تَهَيَّأَ لَهُ الصُّهْرُ وَالْحَسَبُ ، وَجَاءَهُ الْغِنَى يَطْرُقُ بَابَهُ - مَا بَالُهُ يَرُدُّ كُلَّ ذَلِكَ وَيُخْرِجِي ابْنَتَهُ بِرَجُلٍ فَقِيرٍ تَعِينُ فِي دَارِهِ بِأَسْوَأِ حَالٍ ؛ وَكَيْفَ تَنْقُلُ هِمَّتَهُ وَتَبْطِئُ وَتَمُوتُ ، إِذَا كَانَ الدُّرُّ وَالْجَوْهَرُ وَالذَّهَبُ وَالْخِلَافَةُ ؛ ثُمَّ يَنْبَغِي وَيَمْضِي لَا يَتَلَكَّأُ عَزْمُهُ ، إِذَا كَانَ الْعِلْمُ وَالْفَقْرُ وَالذُّلُّ وَالتَّقْوَى ؟ وَانْتَهَى كَلَامُ النَّاسِ إِلَى الْإِمَامِ الْعَظِيمِ ، فَلَمْ يَجِبْهُ إِلَّا مِنَ الطَّرَفِ خَفِيَّةً خَفِيَّةً ، كَأَنَّمَا هِيَ أَقْوَالٌ حَسِبَهَا تَقَالُ عَنْهُ بَعْدَ خَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ وَأَلْفِ سَنَةٍ فِي زَمَانِنَا هَذَا حِينَ يَكُونُ هُوَ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ ، وَيَكُونُ الْقَائِلُونَ فِي مَعَانِي التُّرَابِ اللَّجِيسِ الَّذِي نَفَضَتْهُ عَلَى الشَّرْقِ نَعَالُ الْأَوْرَبِيِّينَ ... !

قَالَ الرَّاوي : وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوَاجِهَ الْإِمَامَ بِشَفَةِ أَوْ بِنْتِ شَفَةِ ، لَا مُصَيِّقًا عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِهِ وَلَا مُوسِّعًا ، حَتَّى كَانَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ ، وَقَدْ مَالَ النَّاسُ بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَى حَلَقَةِ الشَّيْخِ ، وَتَقَصَّفُوا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَغَضَّ بِهِمُ الْمَسْجِدُ ، وَكَانَ إِمَامُنَا يُفَسِّرُ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا ءَادَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ . [ ١٤ سورة إبراهيم / الآية : ١٢ ] .

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَإِنَّ » بَدَلًا مِنْ : « إِنَّ » .

قَالَ الرَّاوي : فَكَانَ فِيمَا قَالَهُ الشَّيْخُ :

إِذَا هُدِيَ الْمَرْءُ سَبِيلَهُ كَانَتْ السَّبِيلُ الْأُخْرَى فِي الْحَيَاةِ إِمَّا عِدَاءً لَهُ ، وَإِمَّا مُعَارَضَةً ، وَإِمَّا رَدًّا ؛ فَهُوَ مِنْهَا فِي الْأَذَى ، أَوْ فِي مَعْنَى الْأَذَى ، أَوْ غُرْضَةً لِلْأَذَى . لَقَدْ وَجَدَ الطَّرِيقَ وَلَكِنَّهُ أَصَابَ الْعَقَبَاتِ أَيْضًا ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لَا يَمْنَعُ فِيهَا الْمُؤَقُّ إِلَى غَايَتِهِ ، إِلَّا إِذَا أَعَانَهُ اللَّهُ بِطَبِيعَتَيْنِ : أُولَاهُمَا الْعَزْمُ الثَّابِتُ ، وَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ ؛ وَالْأُخْرَى الْيَقِينُ الْمُسْتَبْصِرُ ، وَهَذَا هُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى .

وَمَعْنَى عَزَمَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ الْعَزْمَ ، وَأَيَقَنَ ذَلِكَ الْيَقِينَ - تَحَوَّلَتِ الْعَقَبَاتُ الَّتِي تَصُدُّهُ عَنْ غَايَتِهِ ، قَالَ مَعْنَاهَا أَنْ تَكُونَ زِيَادَةً فِي عَزَمِهِ وَيَقِينِهِ ، بَعْدَ أَنْ وَضِعْنَ لِيَكُنَّ نَقْصًا مِنْهُمَا ؛ فَتَرْجِعُ الْعَقَبَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِنَّهَا لَوْ سَائِلُ تُعِينُ عَلَى الْغَايَةِ . وَبِهَذَا يَنْسَبُ الْمُؤْمِنُ رُوحَهُ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَمَا بُدَّ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الطَّرِيقِ وَمَا فِيهَا . يَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بِنُورِ اللَّهِ فَلَا يَجِدُ الدُّنْيَا شَيْئًا - عَلَى سَعَتِهَا وَتَنَاقُضِهَا - إِلَّا سَبِيلَهُ وَمَا حَوْلَ سَبِيلِهِ ، فَهُوَ مَاضٍ قَدَمَا لَا يَتَرَدَّدُ وَلَا يَفْتُرُ وَلَا يَكِلُ ، وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْعَزْمِ وَحَقِيقَةُ الصَّبْرِ جَمِيعًا .

وَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُونُ الْحَيَاةُ لِهَذَا الْمُؤْمِنِ مَهْمًا تَقَلَّبَتْ وَاخْتَلَفَتْ - إِلَّا نَفَادًا مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ دُونَ التَّخَطُّطِ فِي الطَّرِيقِ الْأُخْرَى ، ثُمَّ لَا يَكُونُ الْعُمْرُ مَهْمًا طَالِ إِلَّا مُدَّةَ صَبْرٍ فِي رَأْيِ الْمُؤْمِنِ .

وَعَزِيمَةُ النَّفَادِ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ ، هُمَا الصُّوَّةُ الرُّوحَانِيَّةُ الْقَوِيَّةُ ، الَّتِي يَكْتَسِبُ ظُلُمَاتِ النَّفْسِ ، مِمَّا يُسَمِّيهِ النَّاسُ خُمُولًا وَدَعَةً وَتَهَاوُنًا وَغَفْلَةً وَضَجَرًا وَنَحْوَهَا .

قَالَ : وَلَكِنْ كَيْفَ يُعَانِ الْمُؤْمِنُ عَلَى هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ النَّفْسِيَّةِ ؟ هُنَا يَبَيِّنُ إِعْجَازَ آيَةِ الْكَرِيمَةِ ؛ فَقَدْ ذَكَرَ فِيهَا التَّوَكُّلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَافْتَتَحَتْ بِهِ وَخَمِثَتْ ؛ وَالتَّوَكُّلُ هُوَ الْعَزْمُ الثَّابِتُ كَمَا أَوْضَحْنَا . وَذَكَرَتْ فِي آيَةِ بَيْنَ ذَلِكَ هِدَايَةَ الْمَرْءِ سَبِيلَهُ ؛ وَهَذِهِ الْإِضَافَةُ « سَبِيلًا » تُعَيِّنُ أَنَّهَا هِدَايَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى سَبِيلِ نَفْسِهِ ؛ أَيْ : سَبِيلِهِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ سَعَادَتِهِ فِي الشُّعُورِ بِالسَّعَادَةِ<sup>(١)</sup> . ثُمَّ ذَكَرَ الصَّبْرَ عَلَى أَذَى النَّاسِ ، وَالْأَذَى لَا يَقَعُ إِلَّا فِي

(١) سَيَأْتِي فِي كَلَامِ الْإِيمَانِ بَسْطُ لِهَذَا الْمَعْنَى .

حَيَوَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ ، وَلَا يُؤْتَرُ إِلَّا فِيهَا . فَكَانَ آيَةً مُصَرِّحَةً أَنَّ نَجَاحَ الْمُؤْمِنِ وَنَفَادَهُ فِي الْحَيَاةِ لَا يَكُونَانِ أَوَّلَ الْأَشْيَاءِ وَآخِرَهَا إِلَّا بِثَلَاثٍ : الْعَزْمُ الثَّابِتُ ، ثُمَّ الْعَزْمُ الثَّابِتُ ، ثُمَّ الْعَزْمُ الثَّابِتُ . وَأَنَّ الصَّبْرَ لَيْسَ شَيْئًا يَذْكَرُ ، أَوْ شَيْئًا يُجَدِّي ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَبْرًا عَلَى أَذَى الْحَيَوَانِيَّةِ فِي أَفْطَحِ وَخَشِيِّهَا ؛ فَالرُّوحُ لَا تُؤْذِي الرُّوحَ ، وَلَكِنَّ الْحَيَوَانَ يُؤْذِي الْحَيَوَانَ . وَأَنَّ مَا يَقَعُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَوَانِيَّةِ فَيُسَمَّى اعْتِدَاءً مِنْ غَيْرِكَ ، وَيُسَمَّى أَذَى لَكَ ، هُوَ شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَهُ الْعَزْمُ فَخْرًا لِقُوَّةِ الْإِحْتِمَالِ فِيكَ ، كَمَا جَعَلَهُ الْبَطْشُ فَخْرًا لِقُوَّةِ الْعُنْدِ فِيكَ .

وَبِهَذَا يَكُونُ الْعَزْمُ قَدْ فَصَلَ بَيْنَ نَفْسِكَ الرُّوحِيَّةِ وَبَيْنَ شَخْصِكَ الْحَيَوَانِيِّ ، وَوَهَبَكَ حَقِيقَةَ الشُّعُورِ ، وَصَحَّحَ بِمَعَانِي رُوحِيَّتِكَ مَعَانِي حَيَوَانِيَّتِكَ ؛ وَحِينَئِذٍ تَرَى السَّعَادَةَ حَقَّ السَّعَادَةِ مَا كَانَ هِدَايَةً لِنَفْسِكَ أَوْ هِدَايَةً بِهَا ، وَلَوْ انْقَلَبَ فِي الشَّخْصِ الْحَيَوَانِيِّ مِنْكَ أَذَى وَالْمَا . ذَلِكَ صَبْرٌ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسْلِ .

\* \* \*

قَالَ الرَّاوي : وَعِنْدَ ذَلِكَ صَاحَ رَجُلٌ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ دَسَهُ عَامِلُ الْخَلِيفَةِ ، لِيَسْأَلَ الشَّيْخَ سُؤَالَ عَلَى مَلَأِ النَّاسِ ، يَكُونُ كَالشَّيْخِ عَلَيْهِ وَالشَّهْرِ بِهِ ؛ وَقَدْ مَكَرَ الْعَامِلُ فَأَخْتَارَهُ شَيْخًا كَبِيرًا أَغْفَفَ ، لِيَرْحَمَ النَّاسُ رِقَّةَ عَظْمِهِ وَكِبَرَ سِنِّهِ فَلَا يَغْرِضُونَ لَهُ بِأَذَى ، ثُمَّ لِيَكُونَ صَوْتُهُ كَأَنَّهُ صَوْتُ الدَّهْرِ مِنْ بَعِيدٍ . قَالَ الصَّانِعُ : ذَلِكَ أَتَاهَا الشَّيْخُ صَبْرٌ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسْلِ ، أَوْ صَبْرٌ أَبْتَنَى عَلَى مَكَارِهِ الْعَيْنِ مَعَ ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ<sup>(١)</sup> ، لَا يَجِدُ إِلَّا رُقْمَةً يُمَسِّكُ بِهَا الرُّمَقَ عَلَيْهَا ، وَقَدْ كَانَتْ التَّعَمُّةُ لَهَا مُعْرِضَةً ، فَدَفَعَتْهَا إِلَيْهِ - رَعَمَتْ - لِتَهْلِكَ بِهِ شَخْصَهَا الْحَيَوَانِيَّةَ ، وَتَوَكَّلَتْ عَلَى اللَّهِ وَالْقَيْتَ أَبْتَنَى فِي الْيَمِّ ... ؟

فَتَرَبَّدَ وَجْهُ الشَّيْخِ وَأَطْرَقَ هُنَاتِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَبْنِ الْمُتَكَلِّمُ أَنْفًا ؟ فَارْتَفَعَ الصَّوْتُ : هَآنَذَا . قَالَ : أَذُنُ مِثْنِي . فَتَقَاعَسَ الرَّجُلُ كَأَنَّمَا تَهَيَّبَ مَا قَرَطَ مِنْهُ . فَاسْتَدْنَاهُ الثَّانِيَةَ ؛ فَقَامَ يَخْطِي النَّاسَ حَتَّى وَقَفَ بِإِزَائِهِ ثُمَّ جَلَسَ ؛ فَقَرَأَ الشَّيْخُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْقَتُورُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْهُ مِنَ عَذَابِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَبِي وَدَاعَةَ » بَدَلًا مِنْ : « ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ » .

اللَّوْمِ مِنْهُمْ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنَ مَحْصِنٍ ﴿١٤﴾ [١٤]

سورة إبراهيم / الآية : ٢١ .

ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ ! لَا تَسْمَعْنِي بِأَذْنِكَ وَخَدَّهَا . أَرَأَيْتَكَ <sup>(١)</sup> لَوْ سَمِعْتَ خَبْرًا لَيْسَ فِي نَفْسِكَ أَضَلُّ مِنْ مَعْنَاهُ ، أَوْ وَرَدَ عَلَيْكَ الْخَبَرُ وَنَفْسُكَ عَنْهُ فِي شُغْلٍ قَدْ أَهَمَّهَا ؛ أَفَكُنْتَ تَنَشُّطُ لَهُ نَشَاطَكَ لِلْخَبَرِ اخْتَفَلْتَ لَهُ نَفْسُكَ أَوْ أَصَابَ هَوَى مِنْكَ أَوْ رَأَيْتَهُ مَوْضِعَ اغْتِيَارٍ ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِذَا سَمِعْتَ بِأَذْنِكَ وَخَدَّهَا فَإِنَّمَا سَمِعْتَ كَلَامًا يَمُرُّ بِأَذْنِكَ مَرًّا ، وَإِذَا أَرَدْتَ الْكَلَامَ لِنَفْسِكَ سَمِعْتَ بِأَذْنِكَ وَنَفْسِكَ مَعًا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَكُلُّ مَا لَا تَتَفَرَّدُ بِهِ حَاسَةً وَاحِدَةً ، بَلْ تُشَارِكُ فِيهِ الْحَوَاسُ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا - لَا يَكُونُ إِلَّا مَوْضِعَ اهْتِمَامٍ لِلنَّفْسِ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَمِنْ هُنَا يَكْثُرُ الْفَرَحُ وَالْحُزْنُ كِلَاهُمَا إِذَا شَارَكَتَ فِيهِمَا الْحَوَاسُ ، فَيَأْتِي كُلُّ مِنْهُمَا كَثِيرًا مَهْمًا قَلًّا ، وَتَزِيدُ كُلُّ حَاسَةٍ فِي اللَّذَّةِ لَذَّةً وَفِي الْأَلَمِ أَلَمًا ، فَتَعْمَلُ النَّفْسُ فِي ذَلِكَ أَعْمَالًا تَسَحَّرُ بِهَا ، فَيَكُونُ الشَّيْءُ لِصَاحِبِهِ غَيْرَ مَا هُوَ لِلنَّاسِ ، كَالصَّوْتِ الْبَاطِنِيِّ أَوْ الْأَصَاحِكِ فِي لِسَانِ طِفْلِكَ ، تَسْمَعُهُ أَنْتَ مِنْهُ بِكُلِّ حَوَاسِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ سَمِعْتَ الصَّوْتَ عَيْنُهُ مِنْ لِسَانِ رَجُلٍ فِي النَّاسِ رَأَيْتَهُ غَيْرَ ذَلِكَ . أَكْذَلِكَ هُوَ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَيَكُونُ الشُّرُورُ بَالِغًا عَجِيبًا أَكْثَرَ مَا هُوَ بَالِغٌ ، حِينَ يَجِدُ أَلَمًا وَالْغِنَى فِي الْإِنْسَانِ ، أَمْ حِينَ يَجِدُ الْقُوَّةَ النَّفْسِيَّةَ وَطَبِيعَةَ الْمَرَحِ وَالرُّضَى ؟

(١) { أَرَأَيْتَكَ : بِمَعْنَى أَخْبِرْنِي ، تَبَيَّنْ تَأَوُّدَهُ عَلَى حَالِهَا فِي الْإِفْرَادِ وَالشَّيْبَةِ وَالْجَمْعِ وَسُلْطَةُ التَّغْيِيرِ عَلَى الْكَافِ : أَرَأَيْتَكَ أَرَأَيْتُكُمْ ، أَرَأَيْتُكُمْ ... إلخ } .

قَالَ : بَلْ حِينَ يَجِدُ فِي النَّفْسِ ...

قَالَ الشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ الْإِنْسَانَ يَكُونُ سَعِيدًا بِمَا يَتَوَهَّمُ النَّاسُ أَنَّهُ بِهِ غِنًى سَعِيدٌ ، أَمْ بِشُعُورِهِ هُوَ وَإِنْ كَانَ بَعْدُ فِيمَا لَا يَتَوَهَّمُ النَّاسُ فِيهِ الْغِنَى وَالسَّعَادَةَ ؟

قَالَ : بَلْ بِشُعُورِهِ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَلَا تُوْجِدُ فِي الدُّنْيَا أَشْيَاءَ مِنَ النَّفْسِ تَكُونُ فَوْقَ الدُّنْيَا وَفَوْقَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَطَامِعِ ؛ كَالطُّفْلِ عِنْدَ أُمِّهِ ، كُلُّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ وَزِنَ بِهِ هُوَ لَا يَغْنِيهِ ، وَكَانَ الْاِغْتِيَارُ عَلَيْهِ لَا عَلَى سِوَاهُ ، أَتَعْرِفُ أَمَّا تَرْضَى أَنْ يُذَبِّحَ أَبْنَاهُ فِي حَجَرِهَا لِقَاءً أَنْ يُمْلَأَ حَجَرُهَا ذَهَبًا { وَإِنْ كَانَتْ فَقِيرَةً مُعْدِمَةً } ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ تَشْعُرُ أَكْثَرَ مِمَّا تَرَى ؛ أَفَيَذْهَبُ مَا تَرَاهُ فِيمَا تَشْعُرُ بِهِ ، وَيَكُونُ شُعُورُهَا هُوَ وَخَدَّةُ الَّذِي يَلْبَسُ مَا حَوْلَهَا وَيُصَوِّرُهُ وَيُصَرِّفُهُ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَتَعْرِفُ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ قُوَّةً مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ عَالَمًا آخَرَ هُوَ عَالَمُ أَفْكَارِهَا وَإِحْسَاسِهَا ، وَفِيهِ وَخَدَّةُ لَذَاتِ إِحْسَاسِهَا وَأَفْكَارِهَا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَرَأَيْتَ الْمَرْأَةَ إِذَا صَحَّ حُبُّهَا أَوْ قَرَحُهَا أَوْ عَزَمُهَا ، أَرَأَيْتَهَا تَكُونُ إِلَّا فِي عَالَمِ أَفْكَارِهَا ؟ أَرَأَيْتَ كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِرَغْبَتِهَا حَيثُ يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَشْيَاءَ قَلْبِهَا لَا مِنْ أَشْيَاءِ الدُّنْيَا ؟ أَرَأَيْتَهَا لَا تَعِيشُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا بِالْمُعَامَلَةِ مَعَ قَلْبِهَا الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَلْبَسُ وَلَا يَجْمَعُ أَلَمًا وَلَا يَرِيدُ إِلَّا الشُّعُورَ فَقَطْ ؟

قَالَ : نَعَمْ هُوَ ذَلِكَ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ الْإِيمَانُ قَدْ وُلِدَ وَنَشَأَ وَتَرَعَرَ فِي قَلْبِ الْمَرْأَةِ ، أَلَا يَكُونُ هُوَ طِفْلَ قَلْبِهَا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَتِ الْخَمْرُ عِنْدَ مُذْمِنِهَا شَيْئًا عَظِيمًا ، وَكَانَتْ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ وَجُودِهِ الضَّعِيفِ الْمُخْتَلِّ ، فَلَا يَسْتَقِيمُ وَجُودُهُ وَلَا سَفَهُ وَجُودِهِ إِلَّا بِهَا ؛ أَفَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الْخَمْرُ مِنْ ضَرُورَاتِ صَاحِبِ الْوُجُودِ الْقَوِيِّ الْمُنْتَظَمِ ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَمَوْفِرٌ أَنْتَ أَنْ لَا بُدَّ مِنْ آخِرٍ لِأَيَّامِ الْإِنْسَانِ وَلِكَيْلِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَيَنْقَطِعُ بِهِ الْعَيْشُ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَيُؤَرِّخُ الْإِنْسَانُ يَوْمِيذَ بِتَارِيخِ مَعِدَتِهِ وَمَا حَوْلَهَا ، أَمْ بِتَارِيخِ نَفْسِهِ وَمَا فِيهَا ؟

قَالَ : بَلِ بِتَارِيخِ نَفْسِهِ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِذَا كُنْتَ صَاحِبَ حَزَبٍ ، وَكُنْتَ بَطْلًا مِنَ الْأَبْطَالِ ، وَمُسْعَرًا مِنَ الْمَسَاعِيرِ ، وَأَيَقُنْتَ الْمَوْتَ فِي الْمَعْرَكَةِ ؛ أَيْكُونُ الْحَقِيقِيُّ عِنْدَكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ هُوَ الْمَوْتُ أَمْ الْحَيَاةُ ؟

قَالَ : بَلِ الْحَيَاةُ عِنْدِيذِهِ وَهُمْ وَبِاطِلٌ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَتَفَرُّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى الْحَيَاةِ وَلَذَانِهَا فِي خَيَالِكَ ، أَمْ تَفِرُّ مِنْهَا وَمِنْ لَذَائِهَا ؟

قَالَ : بَلِ الْفِرَارُ مِنْهَا ، فَإِنْ خَيَالُهَا يَكُونُ خَبَالًا .

قَالَ الشَّيْخُ : فَبَيْنَ تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي هِيَ عُمُرُ نَفْسِكَ ، وَعَمَلُ نَفْسِكَ ، وَرَجَاءُ نَفْسِكَ ؛ تَسْتَشْعِرُ اللَّذَّةَ فِي مَوْتِكَ بَطْلًا مَذْكُورًا ، أَمْ تُحِسُّ الْكَرْبَ وَالْمَقَمْتَ مِنْ ذَلِكَ ؟

قَالَ : بَلِ اسْتَشْعِرُ اللَّذَّةَ .

قَالَ الشَّيْخُ : إِذَا فَهِمَ كِبَرِيَاءُ الرُّوحِ الْعَظِيمَةِ عَلَى مَادَّةِ التُّرَابِ وَالطِّينِ فِي آيٍ أَشْكَالِهَا وَلَوْ فِي الذَّهَبِ .

قَالَ : هِيَ تِلْكَ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : إِذَا فَبَغَضُ أَشْيَاءِ النَّفْسِ تَمُحُو فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ كُلِّ أَشْيَاءِ الدُّنْيَا ، أَوْ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الدُّنْيَا .

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الْإِمَامُ : يَزَحْمُكَ اللَّهُ ؛ كَذَلِكَ مُحِيٍّ عِنْدَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحِيٍّ الْمَالِ وَالْعِنَى ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا إِلَّا سَعَادَةً ؛ وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ كُلَّ مَنْ هُدِيَ سَبِيلَهُ بِالذِّينِ أَوْ الْحِكْمَةِ ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَصْنَعَ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ سَعَادَتَهَا فِي الدُّنْيَا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا لَقِيَمَاتٌ ؛ فَإِنَّ السَّعَةَ سَعَةُ الْخُلُقِ لَا الْمَالِ ، وَإِنَّ الْفَقْرَ فَقْرُ الْخُلُقِ لَا الْعَيْشِ .

\* \* \*

قَالَ الرَّائِي : ثُمَّ إِنَّ الْإِمَامَ الْعَظِيمَ التَّفَّتَ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ : أَمَا إِنِّي - عَلِمَ اللَّهُ - مَا رَوَّجْتُ أَبْنَتِي رَجُلًا أَعْرِفُهُ فَقِيرًا أَوْ غَنِيًّا ، بَلِ رَجُلًا أَعْرِفُهُ بَطْلًا مِنْ أَبْطَالِ الْحَيَاةِ ، يَمْلِكُ أَقْوَى أَسْلِحَتِهِ مِنَ الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ . وَقَدْ أَبْقَنْتُ حِينَ رَوَّجْتُهَا مِنْهُ أَنَّهَا سَتَعْرِفُ بِفَضِيلَتِهَا نَفْسَهَا فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ، فَيَتَجَانَسُ الطَّنْبُ وَالطَّنْبُ ؛ وَلَا مَهْنًا لِرَجُلٍ وَأَمْرًا إِلَّا أَنْ يُجَانَسَ طَبْعُهُ طَبْعَهَا ، وَقَدْ عَلِمْتُ وَعَلِمَ النَّاسُ أَنْ لَيْسَ فِي مَالِ الدُّنْيَا مَا يَشْتَرِي بِهِ هَذِهِ الْمُجَانَسَةَ ، وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا هَدِيَّةَ قَلْبٍ لِقَلْبٍ بِأَتْلَفَانٍ وَتَحَابَانٍ .

ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ : وَأَنَا فَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup> ، وَرَأَيْتُهُمْ فِي دُورِهِمْ يُعَاسِنُ الْحَيَاةَ ، وَيُعَانِينَ مِنَ الرِّزْقِ مَا شَخَّ دَرُّهُ فَلَا يَجِيءُ إِلَّا كَالْفَطْرَةِ بَعْدَ الْفَطْرَةِ ، وَهَرَّ عَلَى ذَلِكَ ، مَا وَاحِدَةٌ مِنْهُمْ إِلَّا هِيَ مَلِكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِ الْأَدَمِيَّةِ كُلِّهَا ، وَمَا فَقَرُهُنَّ وَاللَّهُ إِلَّا كِبَرِيَاءُ الْجَنَّةِ ، نَظَرْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَتْ : لَا . . . !<sup>(٢)</sup> .

(١) تُوُفِّيَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ أَوْ حَوْلَهَا ، وَكَانَ قَدْ لَقِيَ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ وَسَمِعَ مِنْهُمْ ، وَدَخَلَ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَخَذَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ مَتَزَوِّجًا ابْنَةً أَبِي هُرَيْرَةَ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ ، وَعَنْهُ أَكْثَرُ رَوَايَتِهِ .

(٢) { أَنْظَرُ مَقَالَه : ( دَرَسُ مِنَ النَّبُوَّةِ ) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ } .



يُجَاهِدُونَ مُجَاهَدَةً كُلَّ شَرِيفٍ عَظِيمٍ النَّفْسِ ، هُمُ أَنْ يَكُونَ الشَّرَفُ أَوْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ ؛ وَبَرَى الْغَافِلُ أَنْ مِثْلَهُنَّ { هَالِكَاتٌ } فِي تَعَبِ الْجِهَادِ ، وَيَعْلَمَنَّ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ غَيْرَ مَا يَرَى ذَلِكَ الْمُسْكِينُ - يَعْلَمَنَّ أَنَّ ذَلِكَ التَّعَبَ هُوَ لَذَّةُ النَّصْرِ بِعَيْنِهَا .

كَانَتْ أُنُوثَتُهُنَّ أَبَدًا صَاعِدَةً مُتَسَامِيَةً فَوْقَ مَوَاضِعِهَا بِهَيْدَةِ الْفَتَاةِ وَبِهَيْدَةِ التَّقْوَى ، وَلَا تَزَالُ مُتَسَامِيَةً صَاعِدَةً ، عَلَى حِينِ تَنْزُلِ الْمَطَامِعِ بِأُنُوثَةِ الْمَرْأَةِ دُونَ مَوَاضِعِهَا ، وَلَا تَزَالُ أُنُوثَتُهَا تَنْحَدِرُ مَا بَقِيَتْ الْمَرْأَةُ تَطْمَعُ ؛ وَرُبَّ مَلِكَةٍ جَعَلَتْهَا مَطَامِعُ الْحَيَاةِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ ، وَهِيَ بِأَسْمِهَا فِي الْوَهْمِ الْأَعْلَى !

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَطْلَعْتُ فِي الْحَجَّةِ فَإِذَا أَقْلُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ النِّسَاءُ ؟ قَالَ : شَغَلَهُنَّ الْأَحْمَرَانِ : الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ <sup>(١)</sup> » [ راجع « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٧٢٩ ؛ حيث قال : « الحرير » بدل : « الزعفران » . ] . أَيُّ : أَلَطَمْتُ فِي الْغِنَى وَالْعَمَلِ لَهُ ، وَالْمَيْلِ إِلَى التَّبَرُّجِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ .

وَنَفْسُ الْأُنْثَى لَيْسَتْ أَتْنَى ، وَلَكِنَّ شَغْلَهَا بِذَلِكَ التَّبَرُّجِ وَذَلِكَ الْحِرْصِ وَذَلِكَ الْأَطْمَعِ - هُوَ يُخَصِّصُهَا بِخَصَائِصِ الْجَسَدِ ، وَيُعْطِيهَا مِنْ حُكْمِهِ ، وَيُنْزِلُهَا عَلَى إِرَادَتِهِ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْءَةُ ، فَتَهْبِطُ الْمَرْأَةُ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْلُو ، وَتَضْعُفُ أَكْثَرَ مِمَّا تَقْوَى ، وَتَفْسُدُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصْلُحُ . إِنَّ نَفْسَ الْأُنْثَى أَتْنَى لِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، لِزَوْجِهَا وَخَدَه .

(١) هَذَا هُمَا فَتْنَةُ النِّسَاءِ فِي كُلِّ دَهْرٍ ، وَهَذَا الْخَبَرُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ ، فَالذَّهَبُ كِتَابَةٌ عَنِ الْمَالِ وَالْخَبَرُ وَمَا كَانَ مِنْ بَابِهَا ، أَمَا الزَّعْفَرَانُ فَفِيهَا الْمُعْجَزَةُ ، لِأَنَّهَا كِتَابَةٌ مُطْلَقَةٌ فِيمَا الْعَرَبُ دَلَالَةً عَلَى الْكِبَابِ الْمُضْبِتَةِ ، وَفَقَهُمْ مِنْهَا نَحْنُ كُلُّ أَنْوَاعِ زِينَةِ النِّسَاءِ ، مِنَ الْمَسَاحِقِ وَالْعُطُورِ ، إِلَى الْمَوَدَةِ . الَّتِي هِيَ أَصْبَاغٌ مَعْنُوَّةٌ لِأَشْكَالِ الْكِبَابِ . وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَقُولُونَ : غَمَرَتِ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا ، إِذَا طَلَتْهُ بِالزَّعْفَرَانِ لِيَضْفُو لَوْنَهَا . وَيَقُولُونَ مِنْ ذَلِكَ : امْرَأَةٌ مُغَمَّرَةٌ ، وَتَعَمَّرَتْ ، أَيُّ : فَعَلَتْ ذَلِكَ . فَالزَّعْفَرَانُ كَمَا تَرَى ، كِتَابَةٌ تَدْخُلُ فِيهَا الْبُودَرَةُ [ أَيُّ : الْمَسَاحِقُ ] وَالْأَذْهَانُ الْمُخْتَلِفَةُ ، وَكُلُّ مَا أَفْسَدَ وَجْهَ الْمَرْأَةِ لِيُفْسِدَ حَيَاتَهَا الْأَجِيمَاعِيَّةَ . . .

\* [المودة أو الموضة، من الكلمة الإيطالية Moda، وتعني: آخر طريقة أو أسلوب أو زِيَّ تم ابتكاره كي يتداوله الناس، ويهدف منه عادة التجديد والتحديث، أولاً لترويج ما هو متوفر في مستودعات المنتجين، وثانياً لتوفير الراحة وسهولة الاستعمال، أو البذخ والتفاخر والتعالي .]

رَأَيْتُ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ فَقِيَرَاتٍ مَقْتُورَاتٍ عَلَيْهِنَّ الرِّزْقُ ، غَيْرَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُنَّ تَعِيشُ بِمَعَانِي قَلْبِهَا الْمُؤْمِنِ الْقَوِي ، فِي دَارِ صَغِيرَةٍ فَرَشَتْهَا الْأَرْضُ . . . وَلَكِنَّهَا مِنْ مَعَانِي ذَلِكَ الْقَلْبِ كَانَتْهَا سَمَاءٌ صَغِيرَةٌ مُخْتَبَةً بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُذُرَانِ . إِنَّهُنَّ لَمْ يَتَّبِعْنَ عَنِ الْغِنَى إِلَّا لِيَتَّبِعْنَ عَنِ حِمَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْغِنَى .

\* \* \*

أَفْ ! أَتُرِيدُونَ أَنْ أُزَوِّجَ ابْنَتِي مِنْ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَيُخْزِيَهَا اللَّهُ عَلَى يَدَيَّ ، وَأَدْفَعُهَا إِلَى الْقَصْرِ وَهُوَ ذَلِكَ الْمَكَانُ الَّذِي جَمَعَ كُلُّ أَقْدَارِ النَّفْسِ وَدَسَّ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي ؛ أَوْ زَوَّجَهَا رَجُلًا تَعْرِفُ مِنْ قُضَيْلَةِ نَفْسِهَا سُقُوطَ نَفْسِهِ ، فَتَكُونُ زَوْجَةً جَسِيمَةٍ وَمُطْلَقَةً زَوْجِهِ فِي وَقْتٍ مَعًا ؟

أَلَا كَمْ مِنْ قَصْرِ هُوَ فِي مَعْنَاهُ مَقْبَرَةٌ ، لَيْسَ فِيهَا مِنْ هَوْلَاءِ الْأَغْنِيَاءِ رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ إِلَّا جَيْفٌ يُبْلِي بَعْضُهَا بَعْضًا !

\* \* \*

قَالَ الرَّائِي : وَصَحَّ النَّاسُ لِحِمَامَةِ صَغِيرَةٍ قَدْ جَنَحَتْ مِنَ الْهَوَاءِ ، فَوَقَعَتْ فِي حِجْرِ الشَّيْخِ لَا يَذَّةَ بِهِ مِنْ مَخَافَةٍ ، وَجَعَلَتْ تَدْفُ بِجَنَاحَيْهَا وَتَضْطَرِبُ مِنَ الْفَرْعِ ، وَمَرَّ الصَّفَرُ عَلَى أُنْجُهَا وَقَدْ أَهْوَى لَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ تَمَطَّرَ وَمَرَّقَ فِي الْهَوَاءِ إِذْ رَأَى النَّاسَ . . .

وَتَنَاوَلَهَا الْإِمَامُ فِي يَدِهِ وَهِيَ فِي رَجَفَتِهَا مِنْ زَلْزَلَةِ الْهَوَاءِ ، وَكَانَتْ كَالْعُرْوَسِ مُسْرُوْلَةٍ قَدْ غَابَتْ سَاقَاهَا فِي الرَّيْشِ ، وَعَلَى جَسَمِهَا مِنَ الْأَلْوَانِ نَمْتَةٌ وَتَحْيِيرٌ ، وَلَهَا رُوحُ الْعُرْوَسِ الشَّابَّةِ يَهْدُونَهَا إِلَى مَنْ تَكْرَهُ ، وَيَرْفُقُونَهَا عَلَى قَاتِلِهَا الَّذِي يُسَمَّى زَوْجَهَا .

وَأَذْنَاهَا الشَّيْخُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَمَسَحَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ ، وَنَظَرَ فِي الْهَوَاءِ نَظْرَةً . . . وَهُوَ يَقُولُ : نَجَوْتُ نَجَوْتُ يَا مِسْكِينَتَهُ !

## رَوْجَةُ إِمَامٍ (\*)

جَلَسَ جَمَاعَةُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ شَيْخِهِمُ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ<sup>(١)</sup> لِيَسْمَعُوا مِنْهُ الْحَدِيثَ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : هَلَكُوا نَتَحَدَّثُ عَنِ الشَّيْخِ فَتَكُونُ مَعَهُ وَلَيْسَ مَعَنَا ؛ فَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : إِلَى أَنْ يَكُونَ مَعَنَا وَلَسْنَا مَعَهُ . ! فَخَطَرْتُ ابْتِسَامَةً ضَعِيفَةً تَهْتَزُّ عَلَى أَفْوَاهِ الْجَمَاعَةِ ، لَمْ تَبْلُغِ الضَّحِكَ ، وَمَرَّتْ لَمْ تُسْمَعْ ، وَكَانَهَا لَمْ تَرُ ، وَأَنْطَلَقَتْ مِنَ الْمُبَاحِ الْمَغْفُورِ عَنْهُ . وَلَكِنْ أَكْبَرَهَا أَبُو عَتَّابٍ مَنْصُورُ بْنُ الْمُغَنِمِ ، فَقَالَ : وَيْلَكَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَتَتَذَرُ بِالشَّيْخِ وَهُوَ مُنْذُ السَّنَيْنِ سَنَةً لَمْ تَقْتِهِ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، وَعَلَى أَنَّهُ مُحَدَّثُ الْكُوفَةِ وَعَالِمُهَا ، وَأَقْرَأُ النَّاسِ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْفَرَائِضِ ، وَمَا عَرَفَتِ الْكُوفَةُ أَغْبَدَ مِنْهُ وَلَا أَفْقَهَ فِي الْعِبَادَةِ ؟

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ<sup>(٢)</sup> : أَنْتَ يَا أَبَا عَتَّابٍ ، رَجُلٌ وَخَدَكَ ، تُوَاصِلُ الصَّوْمَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَقَدْ يَسْتَعِزُّ عَلَى الدَّهْرِ ، وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ جَائِعًا مِنْكَ ، وَمَا بَرَحْتَ تَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، كَأَنَّمَا أَطْلَعْتَ عَلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَتَوَاقِعُونَ فِيهَا وَهِيَ لَهَبٌ أَحْمَرُ يَلْتَفُتُ عَلَى لَهَبٍ أَحْمَرَ ، تَحْتَ دُخَانٍ أَسْوَدَ يَتَضَرَّبُ فِي دُخَانٍ أَسْوَدَ ؛ يَتَغَامَسُ الْإِنْسَانُ فِيهَا وَهِيَ مِلْءُ السَّمَوَاتِ ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا كَالدُّبَابَةِ أَوْقَدُوا لَهَا جَبَلًا مُنْتَدًا مِنَ النَّارِ ، يَنْطَادُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَقَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَهُمَا جَمْرًا وَشِعْلًا وَحُمَمًا وَدُخَانًا ، حَتَّى لَتَّتْهَا رَبُّ السَّحُبِ فِي أَعْلَى السَّمَاءِ مِنْ حَرِّهِ ، وَهُوَ عَلَى هَوْلِهِ وَجَسَامَتِهِ لِحَرْقٍ دُبَابَةٍ لَا غَيْرَهَا ، يَبْدُ أَنَّهَا دُبَابَةٌ تُحْرَقُ أَبَدًا وَلَا تَمُوتُ أَبَدًا ، فَلَا تَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الْجَبَلُ !

فَصَاحَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : وَيْحَكَ يَا مُحَمَّدُ ! دَعِ الرَّجُلَ وَشَأْنَهُ ؛ إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا مَتَاعُهُمْ

(\*) «الرسالة» العدد : ٨٥ ، ١٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ فبراير/شباط ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات ٢٤٣ - ٢٤٧ .

(١) وُلِدَ هَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ سَنَةَ ٦١ لِلْهِجْرَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١٤٨ .

(٢) الْجُحَادَةُ هِيَ الْغِزَارَةُ الْمُتَنَلِّئَةُ ، فَكَانَتْ أُمُّهُ تُشَبِّهُ بِهَا لِصَخَامَتِهَا .

مِمَّا لَا نَعْرِفُ ، كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فِي النَّوْمِ ، فَحَيَاتُهُمْ مِنْ وَرَاءِ حَيَاتِنَا ، وَأَبُو عَتَّابٍ فِي دُنْيَانَا هَلِيبٌ لَيْسَ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي أَسْمُهُ مَنْصُورٌ ، وَلَكِنَّهُ الْعَمَلُ الَّذِي يَعْمَلُهُ مَنْصُورٌ . هَلْ أَتَاكُمْ خَيْرُ قَارِي الْمَدِينَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّاهِدِ؟

قَالَ الْجَمَاعَةُ : مَا خَبَرُهُ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ؟

قَالَ : لَقَدْ تُوُفِّيَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَرُئِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ ؛ وَسَتَرُوا أَبَا عَتَّابٍ - إِذَا مَاتَ - عَلَى مَنَارَةِ هَذَا الْمَسْجِدِ !

فَصَاحَ أَبُو عَتَّابٍ : تَحَلَّلْ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ؛ أَمَا حَفِظْتَ خَيْرَ ابْنِ مَنْعُودٍ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ ، فَوَقَّعَ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَحَلَّلْ » قَالَ : مِمَّ أَتَحَلَّلُ ؟ مَا أَكَلْتُ لَحْمًا ؟ قَالَ : « إِنَّكَ أَكَلْتَ لَحْمَ أَخِيكَ ! » . [ «مجمع الزوائد» ، رقم : ١٣١٤٥ ] .

فَتَقَلَّلَ الضَّرِيرُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَتَنَحَّجَ ، وَهَمَّهِمْ أَصْوَاتًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَأَحْسَّ الْجَمَاعَةُ شَأْنَهُ ، وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّ لَهُ شَرًّا مُبْصِرًا ، كَالَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ الْمَرْحِ وَالذُّعَابَةِ ، وَشَرًّا أَعْمَى هَلِيبُهُ بَوَادِرُهُ ؛ فَاسْتَلَبَ ابْنُ جُحَادَةَ الْحَدِيثَ مِمَّا بَيْنَهُمَا ، وَقَالَ : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَنْتَ شَيْخُنَا وَبَرَكَتُنَا وَحَافِظُنَا ، وَأَقْرَبُنَا إِلَى الْإِمَامِ ، وَأَمْسْنَا بِهِ ؛ فَحَدَّثْنَا حَدِيثَ الشَّيْخِ كَيْفَ صَنَعَ فِي رَدِّهِ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ<sup>(١)</sup> ، وَمَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّيْخِ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا انْفَرَدَتْ أَنْتَ بِهِ دُونَ النَّاسِ جَمِيعًا ، إِذْ لَمْ يَسْمَعْهُ غَيْرُ أَدْنَيْكَ ، فَلَمْ يَحْفَظْهُ غَيْرُكَ وَغَيْرِ الْمَلَائِكَةِ .

فَاسْفَرَّ وَجْهَ أَبِي مُعَاوِيَةَ ، وَشَرَّيَ عَنْهُ ، وَاهْتَزَّ عَظْفَاهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِعَفْوِ الْقَادِرِ . . . وَأَنْشَأَ يُحَدِّثُهُمْ . قَالَ :

إِنَّ هِشَامًا - قَاتَلَهُ اللَّهُ - بَعَثَ إِلَى الشَّيْخِ : أَنْ أَكْتُبَ لِي مَقَابِقَ عُثْمَانَ وَمَسَاوِيَّ عَلِيٍّ . فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابَهُ كَانَتْ دَاجِنَةً إِلَى جَانِبِهِ ، فَأَخَذَ الْقِرْطَاسَ وَالْقَمَمَةَ الشَّاءَ ، فَلَاكَنَّهُ حَتَّى ذَهَبَ فِي جَوْفِهَا ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ الْخَلِيفَةِ : قُلْ لَهُ : هَذَا جَوَابُكَ ! فَخَشِيَ الرَّسُولُ أَنْ يَرْجِعَ

(١) بُويعَ هِشَامُ سَنَةَ ١٠٥ لِلْهِجْرَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١٢٥ .

حَائِثًا فَيَقْتُلُهُ هِشَامٌ ، فَمَا زَالَ يَتَحَمَّلُ بِنَا ، فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! نَجِّهِ مِنَ الْقَتْلِ . فَلَمَّا  
الْحَحْنَا عَلَيْهِ كَتَبَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَلَوْ كَانَتْ  
لِعُمَّانَ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ مَنَاقِبُ أَهْلِ الْأَرْضِ مَا نَفَعْتَكَ ، وَلَوْ كَانَتْ لِعَلِيٍّ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ  
مَسَاوِيُّ أَهْلِ الْأَرْضِ مَا ضَرَّتَكَ ؛ فَعَلَيْكَ بِخَوِيصَةِ نَفْسِكَ ، وَالسَّلَامُ » .

فَلَمَّا فَصَلَ الرَّسُولُ ، قَالَ لِي الشَّيْخُ : إِنَّهُ كَانَ فِي خُرَاسَانَ مُحَدَّثُ اسْمُهُ الضَّحَّاكُ بْنُ  
مُزَاحِمٍ الْهَلَالِيُّ وَكَانَ فِيهِ مَكْتَبٌ عَظِيمٌ فِيهِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ صَبِيٍّ يَتَعَلَّمُونَ ؛ فَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ  
إِذَا تَعَبَ رَكِبَ جِمَارًا وَدَارَ بِهِ فِي الْمَكْتَبِ عَلَيْهِمْ ، فَيَكُونُ إِقْبَالُ الْجِمَارِ عَلَى الصَّبِيِّ هَمًّا  
وَإِدْبَارُهُ عَنْهُ سُرُورًا . وَمَا أَرَى الشَّيْطَانَ إِلَّا قَدْ تَعَبَ فِي مَكْتَبِهِ وَأَعْيَا ، فَكَرِبَ أَمِيرَ  
الْمُؤْمِنِينَ ... لِيَدُورَ عَلَيْنَا نَحْنُ نَسْأَلُكَ : مَاذَا حَفِظْنَا مِنْ مَسَاوِيٍّ عَلَيَّ ؟

قُلْتُ : فَلِمَاذَا أَلْقَمْتَ كِتَابَهُ الشَّاةَ ؟ وَلَوْ غَسَلْتَهُ أَوْ أَحْرَقْتَهُ كَانَ أَفْهَمَ لَهُ وَكَانَ هَذَا أَشْبَهَ  
بِكَ .

فَقَالَ : وَيَحَكَ يَا أَبْنَةَ ! لَقَدْ شَابَتْ الْبَلَاهَةُ فِي عَارِضِكَ ؛ إِنَّ هِشَامًا سَيَقْطَعُ مِنْهَا  
غَيْظًا ، فَمَا يُخْفِي عَنْهُ رَسُولُهُ أَنِّي أَطْعَمْتُ كِتَابَهُ الشَّاةَ ، وَمَا يُخْفِي عَنْهُ دَهَاوُهُ أَنَّ الشَّاةَ  
سَتَبْعَرُهُ مِنْ بَعْدُ ... !

قُلْتُ : أَفَلَا تَخْشَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

قَالَ : وَيَحَكَ ! هَذَا الْأَخْوَلُ عِنْدَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ أَيْمًا وَلَدْنَهُ أُمُّهُ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟  
فَهَبْهَا وَلَدْنَهُ مِنْ حَائِكٍ أَوْ حَجَّامٍ ! إِنَّ إِمَارَةَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، هِيَ أَرْتِفَاعُ نَفْسٍ مِنَ  
الْقُفُوسِ الْعَظِيمَةِ إِلَى أَثَرِ النُّبُوَّةِ ؛ كَأَنَّ الْقُرْآنَ عَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا ثُمَّ رَضِيَ مِنْهُمْ رَجُلًا  
لِلزَّمَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَمَتَى أُصِيبَ هَذَا الرَّجُلُ الْقُرْآنِيُّ ، فَذَلِكَ وَارِثُ النَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ  
وَخَلِيفَتُهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ يَوْمِيذُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا مِنْ إِمَارَةِ الْمَلِكِ وَالْكَرْفِ ، بَلْ مِنْ إِمَارَةِ  
الشَّرْعِ وَالتَّذْيِيرِ وَالْعَمَلِ وَالسِّيَاسَةِ .

هَذَا الْأَخْوَلُ الَّذِي أَلْتَفَّ كَدُودَهُ الْحَرِيرِ فِي الْحَرِيرِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْخَيْلِ لَا لِلجِهَادِ  
وَالْحَرْبِ ، وَلَكِنَّ لِلْهُوِّ وَالْحَلْبَةِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ جِيَادِ الْخَيْلِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ قَرَسٍ لَمْ

يَجْمَعُ مِثْلَهَا لِأَحَدٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَعَمِلَ الْخَرْ وَقُطِفَ الْخَرْ ، وَاسْتَجَادَ الْفَرْشَ  
وَالْكُسُوَّةَ ، وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ وَأَتَقَفَ فِيهِ التَّفَقَّاتُ الْوَاسِعَةُ ، وَأَسَدَ الرُّجُولَةَ بِالْعِيمِ وَالْكَرْفِ ،  
حَتَّى سَلَكَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ سُنَّتَهُ ، فَأَقْبَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى لَهْوِ أَنْفُسِهِمْ ، وَصَنَعُوا الْخَيْرَ صَنَعَةً  
جَدِيدَةً بِصَرْفِهِ إِلَى حُطُوطِهِمْ ، وَتَرَكُوا الشَّرَّ عَلَى مَا هُوَ فِي النَّاسِ ، فَزَادُوا الشَّرَّ وَأَسَدُوا  
الْخَيْرَ ، وَلَمْ يَعُدِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ عِنْدَهُمْ هُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ بَطُونُهُمْ  
وَشَهَوَاتُهُمْ ... ! وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَغْنِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَقْتَصِدُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ لِيَسَعَ بِيَرِهِ مِثَّةً  
أَوْ مِثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ إِخْوَانِهِ وَذَوِي حَاجَتِهِ ، فَعَادَ هَذَا الْغَنِيُّ يَتَسَعُ لِنَفْسِهِ ثُمَّ يَتَسَعُ ، حَتَّى  
لَا يَخْفِيهِ أَنْ يَأْكُلَ رِزْقَهُ مِثَّةً أَوْ مِثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ !

إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ يَجْعَلُ أَحْسَنَ الْمَسَرَّاتِ أَحْسَنَهَا فِي بَذْلِهَا لِلْمُحْتَاجِينَ ، لَا فِي أَخْذِهَا  
وَالْإِسْتِثْنَاءِ بِهَا ، فَهِيَ لَا تَصْنَعُ عَلَى صَاحِبِهَا إِلَّا لِيَتَكُونَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَكَأَنَّ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ  
وَالْمُسْكِنَةَ وَالْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - كَانَ هَذِهِ أَرْضُونَ يُغْرَسُ فِيهَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ غَرْسًا  
لَا يُؤْتِي ثَمَرَهُ إِلَّا فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَنْقَلِبُ فِيهِ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَإِنَّهُ لَأَفْقَرُ النَّاسِ  
إِلَى دِرْهَمٍ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِلَى مَا دُونَ الدَّرْهَمِ ؛ فَيَقَالُ لَهُ حِينَئِذٍ : خُذْ مِنْ ثِمَارِ عَمَلِكَ ،  
وَحُذْ مِنْ يَدَيْكَ !

وَالسُّلْطَانُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ الشَّرْعُ مَرْبُوعًا بِتَابِعِهِ النَّاسُ ، مُتَكَلِّمًا بِفَهْمِهِ النَّاسُ ، أَمِيرًا نَاهِيًا  
يُطِيعُهُ النَّاسُ . وَلَقَدْ رَأَى الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْأَخْوَلَ ، وَتَابَعُوهُ وَسَمِعُوا لَهُ وَأَطَاعُوا ؛ فَمَتَعُوا  
مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، فَانْقَطَعَ الرُّفْدُ ، وَقَلَّ الْخَيْرُ ، وَشَحِبَ الْأَنْفُسُ ، وَأَصْبَحَ خَيْرُهُمْ خَيْرُهُمْ  
لِطَنِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، وَصَارَ الزَّمَانُ أَشْبَهَ بِتَاسِهِ ، وَالنَّاسُ أَشْبَهَ بِمَلِكِهِمْ ، وَمَلِكُهُمْ فِي شَهَوَاتِهِ  
« قَعِيرُ الْمُؤْمِنِينَ » لَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

إِنَّ هَذِهِ الْإِمَارَةَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي قُرْبِ الشَّبَبِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَمَنْ يَخْتَارُهُ  
الْمُؤْمِنُونَ لِلنَّبِيِّ . وَلِلنَّبِيِّ جِهَتَانِ : إِحْدَاهُمَا إِلَى رَبِّهِ ، وَهَذِهِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ أَنْ يَبْلُغَ مَبْلَغَهُ  
فِيهَا ؛ وَالْأُخْرَى إِلَى النَّاسِ ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يُقَاسُ عَلَيْهَا . وَهِيَ كُلُّهَا رَفَقٌ وَرَحْمَةٌ  
وَعَمَلٌ ، وَتَذْيِيرٌ وَحِطَاةٌ وَقُوَّةٌ ، إِلَى غَيْرِهَا مِمَّا يَقُومُ بِهِ أَمْرُ النَّاسِ ؛ وَهِيَ حُقُوقٌ وَتَبَعَاتٌ  
ثَقِيلَةٌ تَنْصَرِفُ بِصَاحِبِهَا عَنْ حَظِّ نَفْسِهِ ، وَبِهَذَا الْأَنْصِرَافِ تَجَذِبُ النَّاسُ إِلَى صَاحِبِهَا .

فَإِمَارَةُ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ بَقَاءُ مَادَّةِ الثَّوْرِ النَّبَوِيِّ فِي الْمَصْبَاحِ الَّذِي يُضِيءُ لِلْإِسْلَامِ ، بِإِمْدَادِهِ بِالْقَدْرِ بَعْدَ الْقَدْرِ مِنْ هَذِهِ الْقُفُوسِ الْمُضِيئَةِ . فَإِنْ صَلَحَ الْكُرَاتُ أَوْ أَلْمَأَ مَكَانَ الزَّيْتِ فِي الْأَسْتِضَاءِ ، صَلَحَ هِشَامٌ وَأَمَثَلُهُ لِإِمَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ !

وَيْلٌ لِلْمُسْلِمِينَ فِي حِينٍ يَنْظُرُونَ فَيَجِدُونَ السُّلْطَانَ عَلَيْهِمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ مِثْلَ مَا بَيْنَ دِينَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُسْلِمِينَ ! وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُسْلِمِينَ !

\* \* \*

فَلَمَّا أَتَمَّ الضَّرِيرُ حَدِيثَهُ قَالَ ابْنُ جُحَادَةَ : إِنَّ شَيْخَنَا عَلَى هَذَا الْجِدِّ لَيَمْرَحُ ، وَسَأَحَدُكُمْ غَيْرَ حَدِيثِ أَبِي مُعَاوِيَةَ ، فَقَدْ رَأَيْتُ الدُّنْيَا كَأَنَّمَا عَرَفَتْ الشَّيْخَ وَوَقَفَتْ عَلَى حَقِيقَتِهِ السَّمَاوِيَّةِ فَقَالَتْ لَهُ : أَضْحَكَ مِنِّي وَمِنْ أَهْلِي . وَلَكِنَّ وَقَارَهُ وَدِينَهُ أَرْتَفَعَا بِهِ أَنْ يَضْحَكَ بِفَمِهِ ضَحْكَ الْجُهْلَاءِ وَالْفَارِغِينَ ، فَضَحِكَ بِالْكَلِمَةِ بَعْدَ الْكَلِمَةِ مِنْ نَوَادِرِهِ .

لَقَدْ كُنْتُ عِنْدَهُ فِي مَرَضَتِهِ ، فَعَادَهُ أَبُو حَنِيفَةَ صَاحِبُ الرَّأْيِ ، وَهُوَ جَبِلُ عِلْمٍ شَامِخٌ ، فَطَوَّلَ الْقُعُودَ مِمَّا يُحِبُّهُ وَيَأْتُسُ بِهِ ، إِذْ كَانَتْ الْأَرْوَاحُ لَا تَعْرِفُ مَعَ أَحْبَابِهَا زَمَنًا يَطُولُ أَوْ يَفْضُرُ . فَلَمَّا أَرَادَ الْقِيَامَ قَالَ لَهُ : مَا كَأَنِّي إِلَّا ثَقُلْتُ عَلَيْكَ . فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنَّكَ لَتَقِيلُ عَلَيَّ وَأَنْتَ فِي بَيْتِكَ . . . ! وَضَحِكَ أَبُو حَنِيفَةَ كَأَنَّهُ طِفْلٌ يُلَاعِبُهُ أَبُوهُ بِكَلِمَةٍ لَيْسَ فِيهَا مَعْنَاهَا ، أَوْ أَبٌ دَاعِبُهُ طِفْلُهُ بِكَلِمَةٍ فِيهَا غَيْرُ مَعْنَاهَا .

وَجَاءَهُ فِي الْغَدَةِ قَوْمٌ يَعُودُونَهُ ، فَلَمَّا أَطَالُوا الْجُلُوسَ عِنْدَهُ أَخَذَ الشَّيْخُ وَسَادَتَهُ وَقَامَ مُنْصَرِفًا ، وَقَالَ لَهُمْ : قَدْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضَكُمْ . . . !

فَقَالَ الضَّرِيرُ : تِلْكَ رَوْحَةٌ مِنْ هَوَاءِ دُنْبَاوَنْد<sup>(١)</sup> ، فَإِنَّ أَبَا الشَّيْخِ كَانَ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ ، وَقَدِمَ إِلَى الْكُوفَةِ وَأُمُّهُ حَامِلٌ ؛ فَوُلِدَ هُنَا ؛ فَكَانَ فِي دِمِهِ ذَلِكَ السَّيْمُ تَهَبُّ مِنْهُ التَّفَحُّةُ بَعْدَ التَّفَحُّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمُتَسَسِّمَةِ ؛ ثُمَّ هِيَ رَوْحُهُ الطَّرِيفَةُ الطَّيِّبَةُ تَلْمِسُ بَعْضَ كَلَامِهِ أَحْيَانًا ، كَمَا تَلْمِسُ رُوحُ الشَّاعِرِ بَعْضَ كَلَامِ الشَّاعِرِ ؛ وَمَا رَأَيْتُ أَدَقَّ التَّوَادِرِ السَّاخِرَةِ وَأَبْلَغَهَا وَأَعْجَبَهَا يَجِيءُ إِلَّا مِنْ ذَوِي الْأَرْوَاحِ الشَّاعِرَةِ الْكَبِيرَةِ الْبَعِيدَةِ الْغُورِ ، كَأَنَّمَا تَأْتِي

(١) نَاجِيَةٌ مِنْ رُسْتَايِ الرَّيِّ فِي الْجِبَالِ التَّلَجِيَّةِ ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ .

النَّادِرَةُ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ حَقِيقَتَيْنِ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ . وَالْإِمَامُ فِي ذَلِكَ لَا يَسْخَرُ مِنْ أَحَدٍ ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ حِينَ تُخْرِجُ الثَّمَرَةَ الْخُلُوةَ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ الثَّمَرَةِ الْمُرَّةِ .

وَالْعَجِيبُ أَنَّ النَّادِرَةَ الْبَارِعَةَ الَّتِي لَا تَتَّقِي إِلَّا لِأَقْوَى الْأَرْوَاحِ ، يَتَّقِي مِنْهَا لِأَضْعَفِ الْأَرْوَاحِ ؛ كَأَنَّمَا تَسْخَرُ مِنَ النَّاسِ كَمَا يَسْخَرُونَ بِهَا . فَهَذَا أَبُو حَسَنِ مُعَلِّمُ الْكُتَّابِ ، جَاءَهُ غُلَامَانِ مِنْ صِيبِهِ قَدْ تَعَلَّقَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ؛ فَقَالَ : يَا مُعَلِّمُ ! هَذَا عَضُّ أُذُنِي . فَقَالَ الْآخَرُ : مَا عَضَّضْتُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ عَضُّ أُذُنِ نَفْسِهِ . . . فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : وَتَمَكَّرُ بِي أَيْضًا يَا ابْنَ الْحَبِيبَةِ ؟ أَهْوُ جَمَلٌ طَوِيلٌ الْعُنُقِ حَتَّى يَنَالَ أُذُنَ نَفْسِهِ فَيَعُضُّهَا . . . !

\* \* \*

وَطَلَعَ الشَّيْخُ عَلَيْهِمْ وَكَأَنَّمَا قَرَأَ نَفْسُ أَبِي مُعَاوِيَةَ فِي وَجْهِهِ الْمُتَفَتِّحِ . وَمِنْ عَجَائِبِ الْحِكْمَةِ أَنَّ الَّذِي يُلْمَحُ فِي عَيْنِي الْمُبْصِرِ مِنْ خَوَالِجِ نَفْسِهِ ، يُلْمَحُ عَلَى وَجْهِ الضَّرِيرِ مُكَبَّرًا مُجَسَّمًا . وَكَانَ الشَّيْخُ لَا يَأْتُسُ بِأَحَدٍ أَنَسَهُ بِأَبِي مُعَاوِيَةَ ، لِذِكَايِهِ وَحِفْظِهِ وَضَبْطِهِ ، وَلِمُشَاكَلَةِ الطَّرْفِ الزُّوجِيِّ بَيْنَهُمَا ؛ فَقَالَ لَهُ :

- « فِيمَ كَانَ أَبُو مُعَاوِيَةَ ؟ » .

- « كَانَ أَبُو مُعَاوِيَةَ فِي الَّذِي كَانَ فِيهِ ! » .

- « وَمَا الَّذِي كَانَ فِيهِ ؟ » .

- « هُوَ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ ! » .

- « فَأَجِبْنِي عَمَّا أَسْأَلُ عَنْهُ » .

- « قَدْ أَجَبْتُكَ ! » .

- « بِمَاذَا أَجَبْتَ ؟ » .

- « بِمَا سَمِعْتُ ! » .

فَقَبَّضَ وَجْهَ الشَّيْخِ وَقَالَ : « أَهْلُهُنَا وَهُنَاكَ مَعًا ؟ لَوْ أَنَّ هَذَا مِنْ أَمْرَأَةٍ غَضَبِي عَلَى زَوْجِهَا لَكَانَ لَهُ مَعْنَى ، بَلْ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا مِنْ أَمْرَأَةٍ غَضَبِي عَلَى زَوْجِهَا . أَحْسَبُ لَوْلَا أَنَّ فِي مَثَرِلِي مَنْ هُوَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْكُمْ مَا خَرَجْتُ ؟ » .

فَقَالَ الضَّرِيرُ : « يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! كَأَنَّا زُوجَاتُ الْعِلْمِ ؛ فَأَيُّنَا الَّتِي حَظِيَّتْ وَبَطِيَّتْ ... » .  
فَقَطَعَ الْجَمَاعَةُ أَفْوَاهَهُمْ يَضْحَكُونَ ، وَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ ، ثُمَّ شَرَعَ يُحَدِّثُ فَأَفْضَى مِنْ خَبَرٍ  
إِلَى خَبَرٍ ، وَتَسَرَّحَ فِي الرِّوَايَةِ حَتَّى مَرَّ بِهِ هَذَا الْحَدِيثُ :

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ هَلَاكَ الرَّجَالَ طَاعَتُهُمْ لِنِسَائِهِمْ » . [ راجع « مسند أحمد » ،

رقم : ١٩٩٤٢ ] .

قَالَ الشَّيْخُ : كَانَ الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ ، وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ : « هَلَاكَ الرَّجُلُ طَاعَتُهُ  
لِامْرَأَتِهِ » ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ ؛ إِذْ يَكُونُ بَعْضُ النِّسَاءِ أَحْيَانًا أَكْمَلَ مِنْ بَعْضِ الرَّجَالِ ،  
وَأَوْفَرُ عَقْلاً وَأَسَدَ رَأْيًا ، وَقَدْ تَكُونُ الْمَرْأَةُ فِي الرَّجُلِ فِي الْحَقِيقَةِ عَزْماً وَتَذَيُّراً وَقُوَّةَ نَفْسٍ ،  
وَيَتَلَيَّنُ الرَّجُلُ مَعَهَا كَأَنَّهُ امْرَأَةٌ . وَكَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ يَكُنَّ نِسَاءً بِالْحِلْيَةِ وَالشَّكْلِ دُونَ  
مَا وَرَاءَهُمَا ؛ كَأَنَّمَا هُمُنَّ رِجَالًا فِي الْأَصْلِ ثُمَّ خُلِقْنَ نِسَاءً بَعْدَ ، لِإِحْدَاثِ مَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ  
يُحْدِثَ بِهِنَّ ، مِمَّا يَكُونُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعَجَبَةِ عَمَلًا ذَا حَقِيقَتَيْنِ فِي الْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ .

وَإِنَّمَا عَمَّ الْحَدِيثُ لِيَذَلَ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَنْ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ التَّذَيُّرِ  
بِالرِّجَالِ ؛ فَإِنَّ الْبَاسَ وَالْعَقْلَ يَكُونَانِ فِيهِمْ خِلْفَةً وَطَبِيعَةً أَكْثَرُ مِمَّا يَكُونَانِ فِي النِّسَاءِ ؛ كَمَا  
أَنَّ الرِّقَّةَ وَالرَّحْمَةَ فِي خِلْفَةِ النِّسَاءِ وَطَبِيعَتَيْنِ أَكْثَرُ مِمَّا هُمَا فِي الرَّجَالِ ، فَإِذَا غَلَبَتْ طَاعَةُ  
النِّسَاءِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، فَتِلْكَ حَيَاةٌ مَعْنَاهَا هَلَاكَ الرَّجَالِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ هَلَاكَ أَنْفُسِهِمْ ،  
بَلْ هَلَاكَ مَا هُمْ رِجَالٌ بِهِ ، وَالْحَدِيدُ حَدِيدٌ بِقُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ ، وَالْحَجَرُ حَجَرٌ بِشِدَّتِهِ  
وَأَجْتِمَاعِهِ ؛ فَإِنَّ ذَابَ الْأَوَّلُ أَوْ تَقَلَّلَ ، وَتَنَاقَرَتِ الْآخَرُ أَوْ تَفَتَّتْ ، فَذَلِكَ هَلَاكُهُمَا فِي  
الْحَقِيقَةِ ، وَهُمَا بَعْدَ لَا يَزَالَانِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْحَدِيدِ .

وَالْمَرْأَةُ ضَعِيفَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَتَرْكِيبِهَا ، وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ تَأْتِي أَنْ تَكُونَ ضَعِيفَةً أَوْ تُفَرَّ  
بِالضَّعْفِ ، إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ رَجُلَهَا الْكَامِلَ ، رَجُلَهَا الَّذِي يَكُونُ مَعَهَا بِقُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَفَتْيَتِهِ لَهَا  
وَحُبِّهَا إِيَّاهُ ، كَمَا يَكُونُ مِثَالٌ مَعَ مِثَالٍ . ضَعُ مِثَّةً دِينَارٍ بِجَانِبِ عَشْرَةِ دَنَانِيرٍ ، ثُمَّ أَتْرَكَ  
لِلْعَشْرَةِ أَنْ تَتَكَلَّمَنَّ وَتَدَّعِيَنَّ وَتَسْتَطِيلَنَّ ؛ قَدْ تَقُولُ : إِنَّهَا أَكْثَرُ إِشْرَاقًا ، أَوْ أَظْرَفُ شَكْلاً ، أَوْ  
أَحْسَنَ وَضْعًا وَتَصْنِيفًا ؛ وَلَكِنَّ الْكَلِمَةَ الْمُحَرَّمَةَ هُنَا أَنْ تَزْعُمَنَّ أَنَّهَا أَكْبَرُ قِيَمَةً فِي  
السُّوقِ ... !

قَالَ الشَّيْخُ : وَمَنْ مِنَ النِّسَاءِ تُصِيبَ رَجُلَهَا الْكَامِلَ أَوْ الْقَرِيبَ مِنْ كَمَالِهِ عِنْدَهَا ، أَيْ :  
كَمَالِ طَبِيعَتِهِ بِالْقِيَاسِ إِلَى طَبِيعَتِهَا ، كَمَالِ جِسْمٍ مُفَصَّلٍ لِجِسْمٍ ، تَفْصِيلُ الثَّوْبِ الَّذِي يَلْبَسُهُ  
وَيَخْتَالُ فِيهِ ؟ أَمَّا إِنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ اللَّهِ وَخَدِّهِ ؛ كَمَا يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
وَيَقْدِرُ ، يَبْسُطُ مِثْلَ ذَلِكَ لِلنِّسَاءِ فِي رِجَالِهِنَّ وَيَقْدِرُ .

فَإِذَا لَمْ تُصِيبِ الْمَرْأَةُ رَجُلَهَا الْقَوِيَّ - وَهُوَ الْأَعْمُ الْأَغْلَبُ - لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ فِي  
حَقِيقَةِ ضَعْفِهَا الْجَمِيلِ ، وَعَمِلْتَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الضَّعِيفُ ، لِتَكُونَ مَعَهُ فِي تَزْوِيرِ  
الْقُوَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى حَيَاتِهِ ، وَبِهَذَا تَخْرُجُ مِنْ حَيَرِهَا ؛ وَمَا أَوَّلُ خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَى الطَّرَفَاتِ  
إِلَّا هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَإِنَّ كَثْرَ خُرُوجِهِنَّ فِي الطَّرِيقِ ، وَتَسْكُنَ هَلَهَاتٍ وَهَلَهَاتٍ ، فَإِنَّمَا تِلْكَ  
صُورَةٌ مِنْ فَسَادِ الطَّبِيعَةِ فِيهِنَّ وَمِنْ إِمْلَاقِهَا أَيْضًا . .

قَالَ الشَّيْخُ : وَكَانَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ إِنَّمَاءٌ إِلَى أَنْ مِنْ بَعْضِ الْحَقِّ عَلَى النِّسَاءِ أَنْ  
يَنْزِلَنَّ عَنْ بَعْضِ الْحَقِّ الَّذِي لَهُنَّ ، إِنْقَاءٌ عَلَى نِظَامِ الْأُمَّةِ ، وَتَنْسِيرًا لِلْحَيَاةِ فِي مَجَرَاهَا ؛  
كَمَا يَنْزِلُ الرَّجُلُ عَنْ حَقِّهِ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا إِذَا حَارَبَ فِي سَبِيلِ أُمَّتِهِ ، إِنْقَاءٌ عَلَيْهَا وَتَنْسِيرًا  
لِحَيَاتِهَا فِي مَجَرَاهَا . فَصَبِرَ الْمَرْأَةُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ هُوَ نَفْسُهُ جِهَادُهَا وَحَرْبُهَا فِي سَبِيلِ  
الْأُمَّةِ ، وَلَهَا عَلَيْهِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ مِثْلُ مَا لِلرَّجُلِ يُقْتَلُ أَوْ يُجْرَحُ فِي جِهَادِهِ .

أَلَا وَإِنَّ حَيَاةَ بَعْضِ النِّسَاءِ مَعَ بَعْضِ الرَّجَالِ تَكُونُ أَحْيَانًا مِثْلَ الْقَتْلِ ، أَوْ مِثْلَ الْجَرْحِ ،  
وَقَدْ تَكُونُ مِثْلَ الْمَوْتِ صَبْرًا عَلَى الْعَذَابِ ! وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُرُوجَةِ يَسْأَلُهَا عَنْ  
حَالِهَا وَطَاعَتِهَا وَصَبْرِهَا مَعَ رَجُلِهَا : « فَأَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ ؟ » قَالَتْ : مَا أَلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ  
عَنْهُ ! قَالَ : « فَكَيْفَ أَنْتِ لَهُ ؟ فَإِنَّهُ جَنَّتِكَ وَنَارُكَ » . [ « المستدرک علی الصحیحین » ، رقم :

٩٨/٢٧٦٩ ؛ « مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٦٣٧ ؛ وراجع « مسند أحمد » ، رقم : ١٨٥٢٤ و ٢٦٨٠٦ ] .

أِهْ ! أِهْ ! حَتَّى زَوَّجَ الْمَرْأَةَ بِالرَّجُلِ هُوَ فِي مَعْنَاهُ مُرُورُ الْمَرْأَةِ الْمُسْكِنَةِ فِي دُنْيَا أُخْرَى  
إِلَى مَوْتٍ آخَرَ ، شَحَاسَبٌ عِنْدَهُ بِالْحِجَّةِ وَالنَّارِ ، فَحَسَابُهَا عِنْدَ اللَّهِ نَوْعَانِ : مَاذَا صَنَعَتْ  
بِدُنْيَاكِ وَنَعِيمِهَا وَبُؤْسِهَا عَلَيْكِ ؛ ثُمَّ مَاذَا صَنَعَتْ بِرُوحِكَ وَنَعِيمِهِ وَبُؤْسِهِ فِيكَ ؟

وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي وَافِدَةٌ النِّسَاءِ  
إِلَيْكَ ، ثُمَّ ذَكَرَتْ مَا لِلرَّجَالِ فِي الْجِهَادِ مِنَ الْأَجْرِ وَالْغَنِيمَةِ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : فَمَا لَنَا مِنْ ذَلِكَ ؟

فَقَالَ ﷺ : « أَتُبْلِغُنِي مَنْ لَقِيتِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ طَاعَةَ الزَّوْجِ ، وَاعْتِرَافًا بِحَقِّهِ - يَغْدِلُ ذَلِكَ ؛ وَكَلِيلٌ مِنْكَ مَنْ يَفْعَلُهُ ! » . [ مجمع الزوائد ، رقم : ٧٦٣١ و ٧٦٣٣ ] .

قَالَ الشَّيْخُ : تَأَمَّلُوا وَاعْجَبُوا مِنْ حِكْمَةِ النُّبُوَّةِ وَدَقِّيقَاتِهَا وَبَلَاغَتِهَا ؛ أَيَقَالُ فِي الْمَرْأَةِ الْمُحِبَّةِ لِزَوْجِهَا الْمُفْتِنَةِ بِهِ الْمُعْجَبَةِ بِكَمَالِهِ : إِنَّهَا أَطَاعَتْهُ وَاعْتَرَفَتْ بِحَقِّهِ ؟ أَوَلَيْسَ ذَلِكَ طَبِيعَةَ الْحُبِّ إِذَا كَانَ حُبًّا ؟ فَلَمْ يَبْقَ إِذَا إِلَّا الْمَعْنَى الْآخَرُ ، حِينَ لَا تُصِيبُ الْمَرْأَةُ رَجُلَهَا الْمُفْضَلُ لَهَا ، بَلْ رَجُلًا يُسَمَّى زَوْجًا ؛ وَهَذَا يَظْهَرُ كَرَمُ الْمَرْأَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهَذَا هُنَا جِهَادُ الْمَرْأَةِ وَصَبْرُهَا ، وَهَذَا هُنَا بَذْلُهَا لَا أَخْذُهَا ؛ وَمِنْ كُلِّ ذَلِكَ هَذَا هُنَا عَمَلُهَا لِجَنَّتِهَا أَوْ نَارِهَا .

فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ كَامِلًا بِمَا فِيهِ لِلْمَرْأَةِ ، فَلَتَبْقَ هِيَ رَجُلًا يَبْزُولُهَا عَنْ بَعْضِ حَقِّهَا لَهُ ، وَتَرْكُهَا الْحَيَاةَ تَجْرِي فِي مَجْرَاهَا ، وَإِثَارُهَا الْآخِرَةُ عَلَى الدُّنْيَا ، وَقِيَامُهَا بِفَرِيضَةٍ كَمَالِهَا وَرَحْمَتِهَا ، فَيَبْقَى الرَّجُلُ رَجُلًا فِي عَمَلِهِ لِلدُّنْيَا ، وَلَا يُمْسَخُ طَبْعُهُ وَلَا يَنْتَكِسُ بِهَا وَلَا يَذِلُّ ، فَإِنْ هِيَ بَدَأَتْ وَتَسَلَّطَتْ وَغَلَبَتْ وَصَرَفَتْ الرَّجُلَ فِي يَدِهَا ، فَأَكْثَرُ مَا يَظْهَرُ جِنْدٌ فِي أَعْمَالِ الرِّجَالِ مِنْ طَاعَتِهِمْ لِنِسَائِهِمْ - إِنَّمَا هُوَ طَبِئُ ذَلِكَ الْعَقْلِ الصَّغِيرِ وَجُرْأَتُهُ ، وَأَخْيَانًا وَقَاحَتُهُ ؛ وَفِي كُلِّ ذَلِكَ هَلَاكُ مَعَانِي الرُّجُولَةِ ، وَفِي هَلَاكِ مَعَانِي الرُّجُولَةِ هَلَاكُ الْأُمَّةِ !

قَالَ الشَّيْخُ : وَالْقُلُوبُ فِي الرِّجَالِ لَيْسَتْ حَقِيقَةً أَبَدًا ، بِطَبِيعَةِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ وَأَمَكْنَتِهِمْ مِنْهَا ، وَلَكِنْ الْقَلْبُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ فِي الْمَرْأَةِ ، وَلِذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ السُّمُوءُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا وَاجِبَ الرَّحْمَةِ ؛ ذَلِكَ الْوَاجِبُ الَّذِي يَتَّجِهُ إِلَى الْقَوِيِّ فَيَكُونُ حُبًّا ، وَيَتَّجِهُ إِلَى الضَّعِيفِ فَيَكُونُ حَنَانًا وَرِقَّةً ، ذَلِكَ الْوَاجِبُ هُوَ اللَّطْفُ ؛ ذَلِكَ اللَّطْفُ هُوَ الَّذِي يُبْنِي أَنَّهَا أَمْرَاءُ .

\* \* \*

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَأَنْفَضَ الْمَجْلِسُ ، وَمَنْعَنِي الشَّيْخُ أَنْ أَقُومَ مَعَ النَّاسِ ، وَصَرَفَ قَائِدِي ؛ فَلَمَّا خَلَا وَجْهُهُ قَالَ : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! قُمْ مَعِيَ إِلَى الدَّارِ .

قُلْتُ : مَا شَأْنُ فِي الدَّارِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟

قَالَ : إِنَّ (بِذَلِكَ) غَاضِبَةً عَلَيَّ ، وَقَدْ ضَاقَتِ الْحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَأَخْشَى أَنْ تَتَبَاعَدَ ، فَأُرِيدُ أَنْ تُصْلِحَ بَيْنَنَا صُلْحًا .

قُلْتُ : فِيمَ غَضَبُهَا ؟

قَالَ : لَا تُسْأَلُ الْمَرْأَةُ مِمَّ تَغْضَبُ ، فَكَيْفَ مَا يَكُونُ هَذَا الْغَضَبُ حَرَكَةً فِي طَبَاعِهَا ، كَمَا تَكُونُ جَالِسَةً وَتُرِيدُ أَنْ تَقُومَ فَتَقُومُ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَمْشِيَ فَتَمْشِيَ !

قُلْتُ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! هَذَا آخِرُ أَرْبَعِ مَرَّاتٍ (١) تَغْضَبُ عَلَيْكَ غَضَبُ الطَّلَاقِ ، فَمَا يَخْسِرُكَ عَلَيْهَا وَالنِّسَاءُ غَيْرُهَا كَثِيرٌ .

قَالَ : وَنَحْكَ يَا رَجُلُ ! أَبَانِعُ نِسَاءً أَنَا ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الَّذِي يُطَلِّقُ أَمْرًا لِعَیْرِ ضَرُورَةٍ مُلْجِئَةٍ ، هُوَ كَالَّذِي يَبْنِيهَا لِمَنْ لَا يَذَرِي كَيْفَ يَكُونُ مَعَهَا وَكَيْفَ تَكُونُ مَعَهُ ؟ إِنَّ عُمَرَ الرُّوْحَةَ لَوْ كَانَ رَقَبَةً وَضَرَبَتْ بِسَيْفٍ قَاطِعٍ لَكَانَ هَذَا السَّيْفُ هُوَ الطَّلَاقُ !

وَهَلْ تَعِيشُ الْمُطَلَّعَةُ إِلَّا فِي أَيَّامِ مَيَّةٍ ؟ وَهَلْ قَاتِلُ أَيَّامِهَا إِلَّا مُطَلَّعُهَا ؟

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَقُمْنَا إِلَى الدَّارِ ، وَاسْتَأْذَنْتُ وَدَخَلْتُ عَلَى (بِذَلِكَ) . . .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

( لها بقية )



قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : وَكُنْتُ فِي الطَّرِيقِ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ ، أُرَوِّى فِي الْأَمْرِ ، وَأَتَمَحِّنُ مَذَاهِبَ الرِّأْيِ ، وَأَقْلُبُهَا عَلَى وَجُوهِهَا ، وَأَنْظُرُ كَيْفَ أَحْتَاطُ فِي تَأْلِيفِ مَا تَنَاقَرُ مِنَ الشَّيْخِ وَزَوْجَتِهِ ؛ فَإِنَّ الَّذِي يَسْفُرُ بَيْنَ رَجُلٍ وَأَمْرَأَةٍ إِنَّمَا يَمْشِي بِفِكْرِهِ بَيْنَ قَلْبَيْنِ ، فَهُوَ

(١) هَذَا هُوَ التَّعْبِيرُ الصَّحِيحُ لِمَعْنَى قَوْلِ النَّاسِ « هَذِهِ رَابِعُ مَرَّةٍ » .

(\*) « الرِّسَالَةُ » العدد : ٨٦ ، ٢١ ذُو الْقَعْدَةِ سَنَةِ ١٣٥٣ هـ = ٢٥ فَبْرَايِر / شَبَاط ١٩٣٥ م ، السَّنَةِ

الثَّلَاثَةِ ، الصَّفَحَاتِ : ٢٨٣ - ٢٨٦ .

مُطْفِئَةٌ نَائِرَةٌ<sup>(١)</sup> أَوْ مُسْعِرُهَا ، إِذْ لَا يَضَعُ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ إِلَّا حُمْقَهُ أَوْ كِبَاسَتَهُ ، وَهُوَ لَنْ يَرِدَ الْمَرْأَةُ إِلَى الرَّأْيِ إِلَّا إِذَا طَافَ عَلَى وَجْهِهَا بِالضَّحِكِ ، وَعَلَى قَلْبِهَا بِالْحَجَلِ ، وَعَلَى نَفْسِهَا بِالرَّقَّةِ ، وَكَانَ حَكِيمًا فِي كُلِّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ عَقْلَ الْمَرْأَةِ مَعَ الرَّجُلِ عَقْلٌ بَعِيدٌ ، يَجِيءُ مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهَا ، مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهَا .

وَجَعَلْتُ أَنْظُرَ مَا الَّذِي يُفْسِدُ مَحَلَّ الشَّيْخِ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَمَثَلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَمَا أَخْرَجَ لِي التَّفَكُّيرُ إِلَّا أَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ مَعَهَا دَائِمًا هُوَ الَّذِي يَسْتَدْعِي مِنْهَا سُوءَ الْخُلُقِ أَحْيَانًا ؛ فَإِنَّ الشَّيْخَ كَمَا وَرَدَ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِ : « هَيْئُ لَيْثٍ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ »<sup>(٢)</sup> ، إِنَّ قَيْدَ أَنْفَادٍ ، وَإِنْ أُتِنِخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاخَ [ راجع ابن ماجه ، رقم : ٤٤ ؛ مسند احمد ، رقم : ١٦٦٩٢ ؛ الجامع الصغير ، رقم : ٩١٦٣ ؛ كنز العمال ، رقم : ٦٩٣ ] ، وَالْمَرْأَةُ لَا تَكُونُ أَمْرًا حَتَّى تَطْلُبَ فِي الرَّجُلِ أَشْيَاءَ : مِنْهَا أَنْ تُحِبَّهُ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَسْبَابِ الْحُبِّ ؛ وَمِنْهَا أَنْ تَخَافَهُ بِأَسْبَابٍ بَسِيرَةٍ مِنْ أَسْبَابِ الْخَوْفِ . فَإِذَا هِيَ أَحَبَّتْهُ الْحُبُّ كُلُّهُ ، وَلَمْ تَخَفْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَطَالَ سُكُونُهُ وَسُكُونُهَا ، نَفَرَتْ طَبِيعَتُهَا نَفَرَةً كَانَتْهَا تُخَيِّبُهُ وَتَذَمُّرُهُ ، لِيَكُونَ مَعَهَا رَجُلًا فَيُخَيِّفُهَا الْخَوْفُ الَّذِي تَسْتَكْمِلُ بِهِ لَذَّةَ حُبِّهَا ، إِذْ كَانَ ضَعْفُهَا يُحِبُّ فِيمَا يُحِبُّهُ مِنَ الرَّجُلِ ، أَنْ يَقْسُو عَلَيْهِ الرَّجُلُ فِي الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ ، لَا لِإِيْؤْدِيَةِ وَلَكِنْ لِيُخَضِّعَهُ ؛ وَالْأَمْرُ الَّذِي لَا يُخَافُ إِذَا عَصِي أَمْرُهُ ، هُوَ الَّذِي لَا يُعْبَأُ بِهِ إِذَا أُطِيعَ أَمْرُهُ .

وَكَانَ الْمَرْأَةُ تَخْتِاجُ طَبِيعَتَهَا أَحْيَانًا إِلَى مَصَائِبِ خَفِيفَةٍ ، تُؤْذِي بِرِقَّةٍ أَوْ تَمُرُّ بِالْأَذَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْمَسَهَا بِهِ ، لِتَسْتَحَرِّكَ فِي طَبِيعَتِهَا مَعَانِي دُمُوعِهَا مِنْ غَيْرِ دُمُوعِهَا ؛ فَإِنْ طَالَ رُكُودُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ ، أَوْجَدَتْ هِيَ لِنَفْسِهَا مَصَائِبَهَا الْخَفِيفَةَ ، فَكَانَ الزَّوْجُ إِحْدَاهَا . . .

وَهَذَا كُلُّهُ غَيْرُ الْجُزْءِ أَوْ الْبَدَأِ فِيمَنْ يُتَبَضَّنُ أَرْوَاجَهُنَّ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا فَرَكَتْ زَوْجَهَا لِمُتَافَرَةِ الطَّبِيعَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ، مَاتَ ضَعْفُهَا الْأَنْثَوِيُّ الَّذِي يَبْنِي بِهِ جَمَالَهَا وَاسْتِمْتَاعُهَا وَالْاسْتِمْتَاعُ بِهَا ، وَتَعَقَّدَ بِذَلِكَ لِنَفْسِهَا أَوْ تَصَلَّبَ أَوْ اسْتَحَجَرَ ، فَتَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ بِخِلَافِ طَبِيعَتِهَا ، فَيَتَقَلَّبُ سُكْرُهَا النَّسَائِيُّ بِأَنْوَاتِهَا الْجَمِيلَةِ عَرَبْدَةً وَخِلَافًا وَشَرًّا وَصَحْبًا ، وَيَخْرُجُ

(١) النَّائِرَةُ : الْغَضَبُ .

(٢) أَيْ : الْمَأْنُوفُ ، وَيُسَمَّى الْعَامَّةُ : الْمَخْزُومُ ، وَهُوَ الَّذِي غَفِرَ اللَّهُ بِالْخَشَاشِ ، فَيَقَادُ مِنْهُ ، فَيَكُونُ ذَلُولًا سَمُوحًا .

كَلَامُهَا لِلرَّجُلِ وَهُوَ مِنَ الْبُغْضِ كَأَنَّهُ فِي صَوْتَيْنِ لَا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ . وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي أَحَسَّهُ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ بِفَطَرَتِهِ - مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الصَّخَابَةِ الشَّدِيدَةِ الصَّوْتِ الْبَادِيَةِ الْغَيْظِ ، فَضَاعَفَ لَهَا فِي تَرْكِيبِ اللَّفْظِ حِينَ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ [ مِنَ الرَّجُلِ ] :

صَلْبَةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلَتُهَا<sup>(١)</sup>

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى تِلْكَ ، وَدَخَلْتُ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْثَقْتُ أَنَّ عِنْدَهَا بَعْضَ مَحَارِمِهَا ؛ فَقُلْتُ : أَنْعَمَ اللَّهُ مَسَاءَكَ يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ . قَالَتْ : وَأَنْتَ فَأَنْعَمَ اللَّهُ مَسَاءَكَ . فَأَصْغَيْتُ لِلصَّوْتِ ، فَإِذَا هُوَ كَالنَّائِمِ قَدْ أَنْتَبَهَ يَتَمَطَّى فِي اسْتِرْخَاءٍ ، وَكَأَنَّهَا تَقْبَلُنِي بِهِ وَتَرُدُّنِي مَعًا ، لَا هُوَ خَالِصٌ لِلْغَضَبِ وَلَا هُوَ خَالِصٌ لِلرَّضَى .

فَقُلْتُ : يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ ! إِنِّي جَائِعٌ لَمْ أَلِمَّ الْيَوْمَ بِمَنْزِلِي . فَقَامَتْ فَقَرَّبَتْ مَا حَضَرَ ؛ وَقَالَتْ : مَعَذِرَةٌ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، فَإِنَّمَا هُوَ جُهْدُ الْمُقَلِّ ، وَلَيْسَ يَغْدُو إِسْمَاكَ الرَّمِي . فَقُلْتُ : إِنَّ الْجَوْعَانَ غَيْرُ الشَّهْوَانِ ؛ وَالْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup> ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ قَمَحًا لِلْمَلُوكِ وَقَمَحًا غَيْرَهُ لِلْفُقَرَاءِ .

ثُمَّ سَمَيْتُ وَمَدَدْتُ يَدِي أَنْتَحَسُّ مَا عَلَى الطَّبْعِ ، فَإِذَا كَسَرَ مِنَ الْخُبْرِ ، مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ الْجَزْرِ الْمَسْلُوقِ ، فِيهِ قَلِيلٌ مِنَ الْخَلِّ وَالزَّيْتِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : هَذَا بَعْضُ أَسْبَابِ الشَّرِّ ؛ وَمَا كَانَ بَيْنَ الْجُوعِ وَلَا سَدِّهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ حَاضِرَ الزُّرْقِ فِي دَارِ الشَّيْخِ ، فَإِنْ مِثْلَ هَذِهِ الْقِلَّةِ فِي طَعَامِ الرَّجُلِ هِيَ عِنْدَ الْمَرْأَةِ قِلَّةٌ مِنَ الرَّجُلِ نَفْسِهِ ؛ وَكُلُّ مَا تَفْقِدُهُ مِنْ حَاجَاتِهَا وَشَهَوَاتِ نَفْسِهَا ، فَهُوَ عِنْدَهَا فَقْرٌ بِمَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَالْآخَرُ مِنَ الرَّجُلِ . كُلَّمَا أَكْثَرَ الرَّجُلُ مِنْ إِتْحَافِهَا كَثُرَ عِنْدَهَا ، وَإِنْ أَقَلَّ قَلَّ . وَإِنَّمَا خُلِقَتْ الْمَرْأَةُ بَطْنًا يَلِدُ ، فَبَطْنُهَا هُوَ أَكْبَرُ حَقِيقَتِهَا ، وَهَذِهِ غَائِبَتُهَا وَغَايَةُ الْحِكْمَةِ فِيهَا ؛ لَا جَرَمَ كَانَ

(١) هَذَا مِنْ عَجَائِبِ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، إِذَا زَادَ الْمَعْنَى زَادُوا لَهُ فِي اللَّفْظِ ، وَرَوَايَةُ « لِسَانِ الْعَرَبِ » : « شَدِيدَةُ الصَّيْحَةِ » وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، فَلْيُصَحِّحْهَا مَنْ يَفْقَهُ « لِسَانِ » مِنَ الْفُقَرَاءِ .

(٢) فِي بَعْضِ الْأَثَرِ : « الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سِنَةِ أُنْمَاءٍ » . [ البخاري ، رقم : ٥٣٩٣ ، مسلم ، رقم : ٢٠٦٠ ] . وَهَذَا الْحَدِيثُ رَمَزٌ عَجِيبٌ لِبَهِيمَةٍ مِنْ لَا يَرَى الدُّنْيَا إِلَّا الدُّنْيَا فَقَطْ .

لَهَا فِي عَقْلِهَا مَعْدَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ ؛ وَلَيْسَ حُبُّهَا لِلْخَلْقِ وَالْكَثَابِ وَالزَّيْنَةِ وَالْمَالِ ، وَطَمَاحُهَا إِلَيْهَا وَأَسْتِهْلَاكُهَا فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا وَالْاِسْتِشْرَافِ لَهَا - إِلَّا مَظْهَرًا مِنْ حُكْمِ الْبَطْنِ وَسُلْطَانِهِ ؛ فَذَلِكَ كُلُّهُ إِذَا حَقَّقْتَهُ فِي الرَّجُلِ لَمْ تَجِدْهُ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ ، وَكَانَ فَقْدُهُ مِنْ ذَرَائِعِ الضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ ؛ فَإِذَا حَقَّقْتَهُ فِي الْمَرْأَةِ أَلْفَيْتَهُ عِنْدَهَا مِنْ مَعَانِي الشَّيْخِ وَالْبَطْرِ ، وَكَانَ فَقْدُهُ عِنْدَهَا كَأَنَّهُ فَنٌّ مِنَ الْجُوعِ ، وَكَانَتْ شَهْوَتُهَا لَهُ كَالْقَرَمِ إِلَى اللَّحْمِ عِنْدَ مَنْ حُرِمَ اللَّحْمُ ؛ وَهَذَا بَعْضُ الْفَرْقِ بَيْنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ ؛ فَلَنْ يَكُونَ عَقْلُ الْمَرْأَةِ كَعَقْلِ الرَّجُلِ لِمَكَانِ الزَّيَادَةِ فِي مَعَانِيهَا «الْبُطْنِيَّةِ» فَحُسِبَتْ لَهَا الزَّيَادَةُ هُنَا بِالنَّقْصِ هُنَاكَ ؛ فَهِيَ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : أَمَّا نَقْصُ الْعَقْلِ فَهَلْذِهِ عِلَّتُهُ ؛ وَأَمَّا الدِّينُ فَلِغَلَبَةِ تِلْكَ الْمَعَانِي عَلَى طَبِيعَتِهَا كَمَا تَغْلِبُ عَلَى عَقْلِهَا ؛ فَلَيْسَ نَقْصُ الدِّينِ فِي الْمَرْأَةِ نَقْصًا فِي الْيَقِينِ أَوْ الْإِيمَانِ ، فَإِنَّهَا فِي هَذَيْنِ أَقْوَى مِنَ الرَّجُلِ ؛ وَإِنَّمَا ذَاكَ هُوَ النَّقْصُ فِي الْمَعَانِي الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا يَكْمُلُ الدِّينُ إِلَّا بِهَا ؛ مَعَانِي الْجُوعِ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، وَامْتِنَادِ الْعَيْنِ إِلَيْهَا ، وَأَسْتِشْرَافِ النَّفْسِ لَهَا ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ فِي هَذَا أَقْلُ مِنَ الرَّجُلِ ؛ وَهِيَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ مَا بَرِحَتْ تُؤْثِرُ دَائِمًا جَمَالَ الظَّاهِرِ وَزِينَتَهُ فِي الرَّجَالِ وَالْأَشْيَاءِ ، دُونَ النَّظَرِ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَةِ الْمَنَافِعَةِ .

\* \* \*

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَأَرَيْتُهَا أَنِّي جَائِعٌ ، فَتَهَشَّتْ نَهْشَ الْأَعْرَابِيِّ ، كَيْلًا تَفْطَنَ إِلَى مَا أَرَدْتُ مِنْ زَعْمِ الْجُوعِ ؛ ثُمَّ أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْتَدْعِيَ كَلَامَهَا وَأَسْتَمِيلَهَا لِأَنْ تَضْحَكَ وَتُسَرَّ ، فَأَعْيَرَنِي بِذَلِكَ مَا فِي نَفْسِهَا ، فَيَجِدُ كَلَامِي إِلَى نَفْسِهَا مَذْهَبًا ؛ فَقُلْتُ : يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ ! قَدْ تَحَرَّمْتُ بِطَعَامِكَ ، وَوَجَبَ حَقِّي عَلَيْكَ ، فَأَشِيرِنِي عَلَيَّ بِرَأْيِكَ فِيمَا أَسْتَصْلِحُ بِهِ رَوْحِي ، فَإِنَّهَا غَاضِبَةٌ عَلَيَّ ، وَهِيَ تَقُولُ لِي : وَاللَّهِ مَا يُقِيمُ الْفَارُ فِي بَيْتِكَ إِلَّا لِحُبِّ الْوُطَنِ ... وَإِلَّا فَهَوَ يَسْتَرْزِقُ مِنْ بَيْتِ الْجِيرَانِ .

قَالَتْ : وَقَدْ أَعْدَمْتُ حَتَّى مِنْ كِسْرِ الْخُبَرِ وَالْجَزَرِ الْمَسْلُوقِ ؟ اللَّهُ مِنْكَ ! لَقَدْ اسْتَأْصَلْتُهَا مِنْ جُذُورِهَا ؛ إِنَّ فِي أَمْرَاضِ النِّسَاءِ الْحَمَى الَّتِي أَسْمُهَا الْحَمَى ، وَالْحَمَى الَّتِي أَسْمُهَا الزَّوْجُ ...

فَقُلْتُ : اللَّهُ اللَّهُ يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ ! لَقَدْ أَيْسَرْتُ بَعْدَنَا ، حَتَّى كَانَ الْخُبَرُ وَالْجَزَرُ الْمَسْلُوقُ شَيْءً قَلِيلًا عِنْدَكَ مِنْ قُرْطٍ مَا يَتَبَسَّرُ ؛ أَوْ مَا عَلِمْتُ أَنْ رَزَقَ الصَّالِحِينَ كَالصَّالِحِينَ أَنْفُسَهُمْ ، يَصُومُ عَنْ أَصْحَابِهِ الْيَوْمَ وَالْيَوْمَيْنِ ... وَكَأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ أُمَمَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنِسَاءِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَمَا خَيْرُ أَمْرَةٍ مُسْلِمَةٍ لَا تَكُونُ بِأَدْبَارِهَا وَخُلُقِهَا الْإِسْلَامِيِّ كَأَنَّهَا بِنْتُ إِحْدَى أُمَمَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ؟

أَفَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ أَفَكَانَ يَنْقُلُكَ هَذَا إِلَى أَحْسَنَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ ؛ وَهَلْ كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مَلِكٍ تَعِيشُ فِي أَخْلَامِ نَفْسِهَا ، أَوْ بِنْتُ نَبِيٍّ تَعِيشُ فِي حَقَائِقِ نَفْسِهَا الْعَظِيمَةِ ؟

تَقُولِينَ : إِنِّي اسْتَأْصَلْتُ أُمَّ مُعَاوِيَةَ مِنْ جُذُورِهَا ؛ فَمَا أُمُّ مُعَاوِيَةَ وَمَا جُذُورُهَا ؟ أَهِيَ خَيْرٌ مِنْ أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ قَالَتْ عَنْ زَوْجِهَا الْبَطَلِ الْعَظِيمِ : تَزَوَّجَنِي وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرَ فَرَسِهِ وَنَاضِحِهِ<sup>(١)</sup> ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَكْفِيهِ مُؤَنَّتَهُ وَأُسُوسَهُ ، وَأَدُقُّ النَّوَى لِناضِحِهِ وَأَعْلِفُهُ ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ وَأُخْرِزُ غَرْبَهُ<sup>(٢)</sup> ؛ وَأَعْجِنُ ؛ وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى عَلَى رَأْسِي مِنْ ثَلَاثِي فَرَسِي ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بِجَارِيَةٍ ، فَكَفَفْتَنِي سِيَّاسَةَ الْفَرَسِ ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي .

هَكَذَا يَتَّبِعُنِي لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الصَّبْرِ وَالْإِيَّاءِ وَالْقُوَّةِ ، وَالْكِبْرِيَاءِ بِالنَّفْسِ عَلَى الْحَيَاةِ كَأَنَّهُ مَا كَانَتْ ، وَالرِّضَا وَالْقَنَاعَةَ وَمُؤَاوَزَةَ الزَّوْجِ وَطَاعَتِهِ ، وَأَعْتِبَارَ مَا لَهُنَّ عِنْدَ اللَّهِ لَا مَا لَهُنَّ عِنْدَ الرَّجُلِ ، وَبِذَلِكَ يَزْتَفِعْنَ عَلَى نِسَاءِ الْمُلُوكِ فِي أَنْفُسِهِنَّ ، وَتَكُونُ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ وَمَا فِي دَارِهَا شَيْءٌ ، وَعِنْدَهَا أَنْ فِي دَارِهَا الْجَنَّةُ . وَهَلِ الْإِسْلَامُ إِلَّا هَذِهِ الزَّوْجُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي لَا تَهْزُمُهَا الْأَرْضُ أَبَدًا ، وَلَا تُذَلُّهَا أَبَدًا ، مَا دَامَ يَأْسُهَا وَطَمَعُهَا مُعْلَقَيْنِ بِأَعْمَالِ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا ، لَا بِشَهَوَاتِ الْجِسْمِ مِنَ الدُّنْيَا ؟

هَلِ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ الصَّحِيحُ الْإِسْلَامَ ، إِلَّا مِثْلُ الْحَرْبِ يُثَوِّرُ حَوْلَهَا غَبَارُهَا ، وَيَكُونُ

(١) النَّوَاضِحُ : الْإِبِلُ يُسْتَقَى عَلَيْهَا ، وَاجِدُهَا نَاضِحٌ ، وَسَائِقُهَا النَّضَاحُ .

(٢) الْغَرْبُ : الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ تَتَّخَذُ مِنْ جِلْدِ الثَّوْرِ .



مَعَهَا الشُّطْفُ وَالْبَأْسُ وَالْقُوَّةُ وَالْاِخْتِمَالُ وَالصَّبْرُ ، إِذْ كَانَ مَقْرُوضًا عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ لَا الضَّعْفَ ، وَأَنْ يَكُونَ الْيَقِينُ الْإِنْسَانِي لَا الشَّكَّ ، وَأَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا الْبَاطِلَ ؟

وَهَلْ أَمْرَأَةُ الْمُسْلِمِ إِلَّا تِلْكَ الْمَقْرُوضُ عَلَيْهَا أَنْ تُمِدَّ هَذِهِ الْحَزْبَ بِأَبْطَالِهَا ، وَعَتَادِ أَبْطَالِهَا ، وَأَخْلَاقِ أَبْطَالِهَا ؛ ثُمَّ أَلَّا تَكُونَ دَائِمًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ أَبْطَالِهَا ؟ وَكَيْفَ تَلِدُ الْبَطْلَ إِذَا كَانَ فِي أَخْلَاقِهَا الضَّعْفُ وَالْمَطَامِعُ الدَّلِيلَةُ ، وَالضُّجُرُ وَالْكَسَلُ وَالْبَلَادَةُ ؟ أَلَا إِنَّ الْمَرْأَةَ كَالدَّارِ الْمُنْبِيَّةِ ، لَا يَسْهُلُ تَغْيِيرُ حُدُودِهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ خَرَابًا .

فَاعْتَرَضَتْهُ أَمْرَأَةُ الشَّيْخِ وَقَالَتْ : وَهَلْ بَأْسٌ بِالدَّارِ إِذَا وَسَّعَتْ حُدُودَهَا مِنْ ضَيْقِ ؟ أَتَكُونُ الدَّارُ فِي هَذَا إِلَى نَقْصِهَا أَوْ تَمَامِهَا ؟

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَكَيْدَتْ أَنْقَطِعَ فِي يَدِهَا ، وَأَخْبَيْتُ أَنْ أَمْضِيَ فِي اسْتِمَالَتِهَا ، فَتَرَكْتُهَا مُهْنِيَّةً ظَافِرَةً بِي ، وَأَرَيْتُهَا أَنَّهَا شَدْنِي وَنَاقَا ، وَأَطَرَفْتُ كَالْمُفَكِّرِ ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهَا : إِنَّمَا أَحَدُثُكَ عَنْ أُمِّ مُعَاوِيَةَ لِأَبِي مُعَاوِيَةَ ؛ وَتِلْكَ دَارٌ لَا تَمْلِكُ غَيْرَ أَحْجَارِهَا وَأَرْضِهَا فَبَآئِي شَيْءٌ تَسْعُ ؟

زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ عَامِلٌ يَمْلِكُ دُوَيْرَةَ قَدِ انْتَصَفَتْ بِهَا مَسَاكِينُ جِيزَانَ ، وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ حَمَقَاءُ ، مَا تَرَالُ ضَيْقَةَ النَّفْسِ بِالدَّارِ وَصَغَرَهَا ، كَانَتْ فِي الْبِنَاءِ بِنَاءً حَوْلَ قَلْبِهَا ؛ وَكَانَا فَقِيرَيْنِ ، كَأُمِّ مُعَاوِيَةَ وَأَبِي مُعَاوِيَةَ ؛ فَقَالَتْ لَهُ يَوْمًا : أَهْيَا الرَّجُلُ ! أَلَا تُوسِّعُ دَارَكَ هَذِهِ ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّكَ أَيْسَرْتَ وَذَهَبَ عَنْكَ الضُّرُّ وَالْفَقْرُ ؟ قَالَ : فِيمَاذَا أَوْسَعْتُهَا وَمَا أَمْلِكُ شَيْئًا ، أَوْ مِسْكٌ يَبِينُنِي حَاطِطًا وَيَسْمَالُنِي حَاطِطًا فَأَمُدُّهُمَا أَبَاعِدُ بَيْنَهُمَا ... ؟ وَهَيِّنِي مَلَكَتِ التَّوَسُّعَ وَنَفَقَتَهَا ، فَكَيْفَ لِي بِدَوْرِ الْجِيزَانِ وَهِيَ مُلَاصِقَةٌ لَنَا بَيْتَ بَيْتٍ ؟

قَالَتْ الْحَمَقَاءُ : فَإِنَّا لَا نُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَالَمَ النَّاسُ أَنَّنا أَيْسَرْنَا ؛ فَاهْدِمِ أَنْتِ الدَّارَ ، فَإِنَّهُمْ سَيَقُولُونَ : لَوْلَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا وَأَتَسَّعُوا وَأَصْبَحَ الْمَالُ فِي يَدِهِمْ لَمَا هَدَمُوا ... !

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَغَاطَتْنِي زَوْجَةُ الشَّيْخِ فَلَمْ أَسْمَعْ لَهَا هَمْسَةً مِنَ الضُّجُكِ لِمَثَلِ الْحَمَقَاءِ ، وَمَا أَخْتَرَعْتُه إِلَّا مِنْ أَجْلِهَا ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ عَمَلِي بِاطِلًا ؛ فَقُلْتُ : وَهَلْ

تَسْعُ أُمِّ مُعَاوِيَةَ مِنْ فَقْرِهَا إِلَّا كَمَا اتَّسَعَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ فِي صَلَاحِهِ ؟

قَالَتْ : وَمَا خَيْرُ الْأَعْرَابِيِّ ؟

قُلْتُ : دَخَلَ عَلَيْنَا الْمَسْجِدَ يَوْمًا أَعْرَابِيٌّ جَاءَ مِنَ الْبَادِيَةِ ، وَقَامَ يُصَلِّي فَاطَالَ الْقِيَامُ وَالنَّاسُ يَزْمُقُونَهُ ، ثُمَّ جَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ ، ثُمَّ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ يَمْدَحُونَهُ وَيَصِفُونَهُ بِالصَّلَاحِ ؛ فَقَطَعَ الْأَعْرَابِيُّ صَلَاتَهُ وَقَالَ لَهُمْ : مَعَ هَذَا إِنِّي صَائِمٌ ...

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَمَا تَمَالَكَتُ أَنْ ضَحِكْتَ ، وَسَمِعْتُ صَوْتَ نَفْسِهَا ، وَمَيَّرْتُ فِيهِ الرِّضَى مُقْبِلًا عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي أَتَسَبَّبَ لَهُ . ثُمَّ قُلْتُ :

وَإِذَا ضَاقَتِ الدَّارُ فَلِمَ لَا تَسْعُ النَّفْسُ الَّتِي فِيهَا ؟ الْمَرْأَةُ وَخَدَهَا { هِيَ } الْجَوُّ الْإِنْسَانِي لِدارِ زَوْجِهَا ، فَوَاحِدَةٌ تَدْخُلُ الدَّارَ فَتَجْعَلُ فِيهَا الرُّوضَةَ نَاصِرَةً مُتَرَوِّحَةً بِاسْمَةٍ ، وَإِنْ كَانَتْ الدَّارُ فَحِطَّةً مَسْخُونَةً لَيْسَ فِيهَا كَبِيرٌ شَيْءٌ ؛ وَأَمْرَأَةٌ تَدْخُلُ الدَّارَ فَتَجْعَلُ فِيهَا مِثْلَ الصُّخَرَاءِ بِرِمَالِهَا وَقِيظِهَا وَعَوَاصِفِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ الدَّارُ فِي رِيَاشِهَا وَمَتَاعِهَا كَالْجَنَّةِ الشُّندُسِيَّةِ ؛ وَوَاحِدَةٌ تَجْعَلُ الدَّارَ هِيَ الْقَبْرِ . وَالْمَرْأَةُ حَقُّ الْمَرْأَةِ هِيَ الَّتِي تَتْرُكُ قَلْبَهَا فِي جَمِيعِ أَخْوَالِهَا عَلَى طَبِيعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَلَا تَجْعَلُ هَذَا الْقَلْبَ لِزَوْجِهَا مِنْ جِنْسٍ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ عِنَشَةٍ : مَرَّةً ذَهَبًا ، وَمَرَّةً فِضَّةً ، وَمَرَّةً نُحَاسًا أَوْ خَشَبًا أَوْ تُرَابًا ، فَإِنَّمَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ مَعَ رَجُلِهَا مِنْ أَجْلِهِ وَمِنْ أَجْلِ الْأُمَّةِ مَعًا ؛ فَعَلَيْهَا حَقٌّ وَاحِدٌ ، أَصْغَرُهُمَا كَبِيرٌ . وَمِنْ ثُمَّ فَقَدْ وَجِبَ عَلَيْهَا إِذَا تَزَوَّجَتْ أَنْ تَسْتَشِيرَ الذَّاتَ الْكَبِيرَةَ مَعَ ذَاتِهَا ، فَإِنْ أَغْضَبَهَا الرَّجُلُ بِهَفْوَةٍ مِنْهُ ، تَجَافَتْ لَهُ عَنْهَا ، وَصَفَحَتْ مِنْ أَجْلِ نِظَامِ الْجَمَاعَةِ الْكَبِيرَى ؛ وَعَلَيْهَا أَنْ تَحْكُمَ جَنِينُذَ طَبِيعَةِ الْأُمَّةِ لَا طَبِيعَةَ نَفْسِهَا ، وَهِيَ طَبِيعَةُ تَأْتِي التَّفَرُّقَ وَالْإِنْفِرَادَ ، وَتَقُومُ عَلَى الْوَاجِبِ ، وَتُضَاعِفُ هَذَا الْوَاجِبَ عَلَى الْمَرْأَةِ بِخَاصَّةٍ .

وَالْإِسْلَامُ يَضَعُ الْأُمَّةَ مُثَلَّةً فِي النَّسْلِ بَيْنَ كُلِّ رَجُلٍ وَأَمْرَأَةٍ ، وَيُوجِبُ هَذَا الْمَعْنَى إِنْجَابًا ، لِيَكُونَ فِي الرَّجُلِ وَأَمْرَأَتِهِ شَيْءٌ غَيْرُ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ ، يَجْمَعُهُمَا وَيُقَيِّدُ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ ، وَيَضَعُ فِي بَهِيمَتَيْهِمَا الَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَتَّقَ وَتَخْتَلِفَ ، إِنْسَانِيَّةً مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَتَّقَ وَلَا تَخْتَلِفَ .

وَمَتَى كَانَ الدِّينُ بَيْنَ كُلِّ زَوْجٍ وَزَوْجَتِهِ ، فَمَهْمَا اخْتَلَفَا وَتَدَابَرَا وَتَعَقَّدَتْ نَفْسَاهُمَا ، فَإِنَّ كُلَّ عُقْدَةٍ لَا تَجِيءُ إِلَّا وَمَعَهَا طَرِيقَةُ حَلِّهَا ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، وَهُوَ أَلْيَسُ وَالْمُسَاهَلَةُ وَالْكَرْهَةُ وَالْمَغْفِرَةُ وَلَيْنُ الْقَلْبِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ ؛ وَهُوَ الْهَيْدُ وَالْوَفَاءُ وَالْكَرَمُ وَالْمُؤَاخَاةُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ ؛ وَهُوَ اتِّسَاعُ الذَّاتِ وَارْتِفَاعُهَا فَوْقَ كُلِّ مَا تَكُونُ بِهِ مُنْحَطَّةً أَوْ ضَيِّقَةً .

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَحَقُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَمْرَانِهِ الْمُسْلِمَةِ هُوَ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ ، ثُمَّ مِنَ الْأُمَّةِ ، ثُمَّ مِنَ الرَّجُلِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ مِنْ لُطْفِ الْمَرْأَةِ وَكَرَمِهَا ، ثُمَّ مِمَّا بَيْنَهُمَا مَعًا . وَلَيْسَ عَجِيبًا بَعْدَ هَذَا مَا رَوَيْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : « لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ ، لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ » . [ أبو داود ، رقم : ٢١٤٠ ؛ الدارمي ، رقم : ١٤٦٣ ] .

وَهَذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ : يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ ! لَوْ تَعَلَّمْنَ بِحَقِّ أَزْوَاجِكُنَّ عَلَيْكُنَّ ، لَجَعَلْتُ الْمَرْأَةَ مِنْكُنَّ تَمْسَحُ الْغُبَارَ عَنْ قَدَمَيْ زَوْجِهَا بِحُرِّ وَجْهِهَا .

\* \* \*

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَكَانَ الشَّيْخُ قَدِ اسْتَبْطَأَنِي وَقَدْ تَرَكْتُهُ فِي فَنَاءِ الدَّارِ ، وَكُنْتُ زَوَّرتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا طَوِيلًا عَنْ فَرْوَةِ الْحَقِيرَةِ الَّتِي يَلْبَسُهَا ، فَيَكُونُ فِيهَا مِنْ بَدَاذَةِ الْهَيْئَةِ كَالْأَجِيرِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ مَنْ يَسْتَأْجِرُهُ ، فَظَهَرَ الْجُوعُ حَتَّى عَلَى ثِيَابِهِ . . . وَقَدْ مَرَّ بِالشَّيْخِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسَوْدَةِ<sup>(١)</sup> وَكَانَ الشَّيْخُ فِي فَرْوَتِهِ هَذِهِ جَالِسًا فِي مَوْضِعٍ فِيهِ خَلِيجٌ مِنَ الْمَطَرِ ، فَجَاءَهُ الْمُسَوْدُ فَقَالَ : فَمَ فَاغْبِرْ بِي هَذَا الْخَلِيجَ . وَجَذَبَهُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ وَرَكِبَهُ وَالشَّيْخُ يَضْحَكُ .

وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَأُمِّ مُحَمَّدٍ : إِنَّ الصَّخْرَ فِي السَّمَاءِ لَا يَكُونُ فَقْرًا فِي السَّمَاءِ ، وَإِنَّ فَرْوَةَ الشَّيْخِ تَعْرِفُ الشَّيْخَ أَكْثَرَ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ فِي لَدَاتِ الدُّنْيَا ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يَضَعُ قَدَمَيْهِ فِي الطِّينِ لِيَمْسِيَ ، أَكْبَرُ هَمِّهِ أَلَّا يُجَاوِزَ الطِّينَ قَدَمَيْهِ .

(١) الَّذِينَ يَلْبَسُونَ السَّوَادَ ، وَهُمْ شِيعَةُ الْعَبَّاسِيِّينَ .

وَلَكِنَّ صَوْتَ الشَّيْخِ أَرْتَفَعَ : هَلْ عَلَيْكُمْ إِذْنٌ ؟

قَالَ [أَبُو] مُعَاوِيَةَ : فَبَدَرْتُ وَقُلْتُ : بِسْمِ اللَّهِ أَذْخُلُ ؛ كَأَنِّي أَنَا الزَّوْجَةُ . . . وَسَمِعْتُ هَمْسًا مِنَ الضَّحِكِ ؛ وَدَخَلَ أَبُو مُحَمَّدٍ فَجَلَسَ إِلَيَّ جَانِبِي ، وَعَمَّرَنِي فِي ظَهْرِي غَمْرَةً ؛ فَقُلْتُ : يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ! إِنَّ شَيْخَكَ فِي وَرَعِهِ وَزُهْدِهِ لَيُسْبِعُهُ مَا يُسْبِعُ الْهَيْدُ ، وَيَزِيوُهُ مَا يَزِيوِي الْمُصْفُورَ ، وَلَكِنَّ كَانَ مُتَهَدِّمًا فَإِنَّهُ جَبِلُ عِلْمٍ ، « وَلَا تَنْظُرْنِي إِلَى عَمَسِ عَيْنَيْهِ ، وَحُمُوشَةِ سَاقَيْهِ ، فَإِنَّهُ إِمَامٌ وَلَهُ قَدْرٌ »<sup>(١)</sup> .

فَصَاحَ الشَّيْخُ : فَمَ أَخْرَاكَ اللَّهُ ، مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ تُعْرِفَهَا عُيُوبِي !

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَلَكِنِّي لَمْ أَقُمْ ، بَلْ قَامَتْ زَوْجَةُ الشَّيْخِ فَقَبَّلَتْ يَدَهُ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ هُوَ الْوَارِدُ فِي النَّارِخِ ، وَعَلَيْهِ بَيْنُنَا هَذِهِ الْقِصَّةُ .

## فُبْحُ جَمِيلٌ (\*)

دَخَلَ أَحْمَدُ بْنُ أَيْمَنَ ، كَاتِبُ ابْنِ طَوْلُونَ الْبُصْرَةَ ، فَصَنَعَ لَهُ مُسْلِمٌ بْنُ عِمْرَانَ التَّاجِرُ  
الْمُتَادِبُ ، صَنِيعًا دَعَا إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنْ وَجُوهِ التُّجَّارِ وَأَعْيَانِ الْأَدْبَاءِ ، فَجَاءَ ابْنُ صَاحِبِ  
الدَّعْوَةِ ، وَهُمَا غُلَامَانِ ، فَوْقًا بَيْنَ يَدَيْ أَيْمَنَ ، وَجَعَلَ ابْنُ أَيْمَنَ يُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا ،  
وَيَغْجَبُ مِنْ حُسْنِهِمَا وَبَرِّتِهِمَا وَرُؤُوسِهِمَا ، حَتَّى كَانَمَا أَفْرَعَا فِي الْجَمَالِ وَزِينَتِهِ إِفْرَاعًا ، أَوْ  
كَانَمَا جَاءَا مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ لَا مِنْ أَبْوَيْنِ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ هُمَا قَدْ نَبَتَا فِي مِثْلِ تَهَاوِيلِ الزُّهْرِ  
مِنْ زِينَتِهِ الَّتِي تُبْدِعُهَا الشَّمْسُ ، وَيَضْفُلُهَا الْفَجْرُ ، وَيَتَذَدَّى بِهَا رُوحُ الْمَاءِ الْعَذْبِ ؛ وَكَانَ  
لَا يَصْرِفُ نَظْرَهُ عَنْهُمَا إِلَّا رَجَعَ بِهِ النَّظَرُ ، كَأَنَّ جَمَالَهُمَا لَا يَنْتَهِي فَمَا يَنْتَهِي الْإِعْجَابُ بِهِ .

وَجَعَلَ أَبُوهُمَا يُسَارِفُهُ النَّظَرُ مُسَارَفَةً ، وَيَبْدُو كَالْمُتَشَاغِلِ عَنْهُ ، لِيَدَعَ لَهُ أَنْ يَتَوَسَّمَّ  
وَيَتَأَمَّلَ مَا شَاءَ ، وَأَنْ يَمْلَأَ عَيْنَيْهِ مِمَّا أَعْجَبَهُ مِنْ لُؤْلُؤَاتِهِ وَمَخَالِيلِهِمَا ؛ بَيِّنًا أَنَّ الْحُسْنَ الْفَاتِنَ  
يَأْتِي دَائِمًا إِلَّا أَنْ يَسْمَعَ مِنْ نَاطِرِهِ كَلِمَةَ الْإِعْجَابِ بِهِ ، حَتَّى لَيَنْطِقُ الْمَرْءُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ  
أَحْيَانًا ، وَكَأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنْ لِسَانِهِ أَخْذًا ، وَحَتَّى لَيُحْسُ أَنَّ غَرِيزَةً فِي دَاخِلِهِ كَلَمَهَا الْحُسْنُ  
مِنْ كَلَامِهِ فَوَدَّتْ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِهَا .

قَالَ ابْنُ أَيْمَنَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ؛ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ دُمَيِّينَ لَا تُفْتَحُ الْأَعْيُنُ عَلَى أَجْمَلٍ  
مِنْهُمَا ؛ وَلَوْ نَزَلَا مِنَ السَّمَاءِ وَالْبَسْتُهُمَا الْمَلَائِكَةُ نِيَابَا مِنَ الْجَنَّةِ ، مَا حَسِبْتُ أَنْ تَصْنَعَ  
الْمَلَائِكَةُ أَظْرَفَ وَلَا أَحْسَنَ مِمَّا صَنَعْتَ أَفْهَمًا .

فَالْتَصَّتْ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ ، وَقَالَ : أَحِبُّ أَنْ تُعَوِّدَهُمَا . فَمَدَّ الرَّجُلُ يَدَهُ وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا ،  
وَعَوَّدَهُمَا بِالْحَدِيثِ الْمَأْنُورِ ، وَدَعَا لَهُمَا ، ثُمَّ قَالَ : مَا أَرَاكَ إِلَّا اسْتَجَدْتَ الْأُمَّ فَحَسُنَ  
نَسْلُكَ ، وَجَاءَ كَاللُّؤْلُؤِ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، صِغَارُهُ مِنْ كِبَارِهِ ؛ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا تَكُونَ قَدْ

(\*) «الرسالة» العدد : ٦٨ ، ١٣ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٧٢٣ - ١٧٢٧ .

تَزَوَّجَتْ ابْنَتَهُ قَيْصَرَ فَأَوْلَدَتْهَا هَذَيْنِ ، وَأَخْرَجَتْهُمَا هِيَ لَكَ فِي صَنِيعَتِهَا الْمُلُوكِيَّةِ<sup>(١)</sup> مِنْ  
الْحُسْنِ وَالْأَدَبِ وَالزُّوْنَةِ ، وَمَا أَرَى مِنْهُمَا يَكُونَانِ فِي مَوْضِعٍ إِلَّا كَانَ حَوْلَهُمَا جَلَالُ  
الْمُلْكِ وَوَقَارُهُ ، مِمَّا يَكُونُ حَوْلَهُمَا مِنْ نُورِ تِلْكَ الْأُمِّ .

فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ إِذَا قُلْتَ لَكَ إِنِّي لَا أَحِبُّ الْمَرْأَةَ الْجَمِيلَةَ  
الَّتِي تَصِفُ ، وَلَيْسَ بِي هَوًى إِلَّا فِي أَمْرَةٍ دَمِيمَةٍ هِيَ بِدَمَائِمِهَا أَحَبُّ النِّسَاءِ إِلَيَّ ، وَأَخْفَهُنَّ  
عَلَى قَلْبِي ، وَأَصْلَحَهُنَّ لِي ، مَا أَعْدِلُ بِهَا ابْنَتَهُ قَيْصَرَ وَلَا ابْنَتَهُ كَيْسَرَى .

فَبَقِيَ ابْنُ أَيْمَنَ كَالْمَشْدُودِ مِنْ غَرَايَةِ مَا يَسْمَعُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَأْكُلُ الطَّيْنَ  
وَيَسْتَطِيبُهُ لِفَسَادٍ فِي طَبْعِهِ ، فَلَا يَخْلُو الشُّكْرُ فِي فَمِهِ وَإِنْ كَانَ مُكْرَرًا خَالِصَ الْحَلَاوَةِ ؛  
وَرَمَى أَشَدَّ الرِّثَاءِ لَأُمِّ الْغُلَامَيْنِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ الْجِلْفُ قَدْ صَارَهَا<sup>(٢)</sup> بِتِلْكَ الدَّمِيمَةِ أَوْ  
تَسَرَّى بِهَا عَلَيْهَا ؛ فَقَالَ وَمَا بِمِلْكِ نَفْسِهِ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَفَرْتَ النِّعْمَةَ ، وَغَدَرْتَ وَجَحَدْتَ  
وَبَالَغْتَ فِي الضَّرِّ ، وَإِنَّ أُمَّ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ لَأَمْرَةٌ فَوْقَ النِّسَاءِ ، إِذْ لَمْ يَبَيِّنْ فِي وَلَدَيْهَا أَثَرُ  
مِنْ تَغْيِيرِ طَبْعِهَا وَكُدُورِ<sup>(٣)</sup> نَفْسِهَا ، وَقَدْ كَانَ يَسْعَاهَا الْعُدْرُ لَوْ جَعَلَتْهُمَا سَخَنَةً عَيْنٍ لَكَ ،  
وَأَخْرَجَتْهُمَا لِلنَّاسِ فِي مَسَاوِثِكَ لَا فِي مَحَاسِنِكَ ، وَمَا أَذْرِي كَيْفَ لَا تَبْدُ عَلَيْكَ ، وَلَا كَيْفَ  
صَلَحْتَ بِمِقْدَارِ مَا فَسَدْتَ أَنْتَ ، وَاسْتَقَامَتْ بِمِقْدَارِ مَا أَلْتَوَيْتَ ، وَعَجِيبُ وَاللَّهِ شَأْنُكُمَا !  
إِنَّهَا لَتَغْلُو فِي كَرَمِ الْأَصْلِ وَالْعَقْلِ وَالْمَرْوَةِ وَالْخُلُقِ ، كَمَا تَغْلُو أَنْتَ فِي التَّهْنِيبِ وَالنُّزْقِ  
وَالْعُدْرِ وَسُوءِ الْمُكَافَأَةِ .

قَالَ مُسْلِمٌ : فَهُوَ وَاللَّهِ مَا قُلْتَ لَكَ ، وَمَا أَحِبُّ إِلَّا أَمْرَةً دَمِيمَةً قَدْ ذَهَبَتْ بِي كُلُّ  
مَذْهَبٍ ، وَأَنْتَ بِي كُلِّ جَمِيلَةٍ فِي النِّسَاءِ ، وَلَكِنْ أَخَذْتُ أَصِفُهَا لَكَ لَمَّا جَاءَتْ الْأَلْفَاظُ إِلَّا  
مِنْ التُّبْحِ وَالشُّوْهِةِ وَاللَّدَامَةِ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَا تَجِيءُ إِلَّا دَالَّةً عَلَى أَجْمَلٍ مَعَانِي الْمَرْأَةِ  
عِنْدَ رَجُلِهَا فِي الْحَطَوَةِ وَالرَّضَى وَجَمَالِ الطَّنِيعِ ؛ وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَلْتَمِمْ أَنْ تَكُونَ الزَّيَادَةُ فِي

(١) تَجِيءُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ وَالنَّارِيعِ عَلَى غَيْرِ قَاعِدَةِ النَّسَبِ ، وَهُوَ الْأَفْصَحُ فِي رَأْيِنَا ، وَمِنْ  
ذَلِكَ تَسْمِيَةُ الْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرٍ كِتَابَهُ : «النَّصْرِيفُ الْمُلُوكِي» .

(٢) الْمَضَارَّةُ : اتِّخَاذُ الضَّرَّةِ عَلَى الزَّوْجَةِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : «كدر» بدلًا من : «كدور» .

الْقُبْحُ هِيَ زِيَادَةُ فِي الْحُسْنِ وَزِيَادَةُ فِي الْحُبِّ ، وَكَيْفَ يَكُونُ اللَّفْظُ الشَّائِهَ ، وَمَا فِيهِ لِنَفْسِي إِلَّا الْمَعْنَى الْجَمِيلُ ، وَإِلَّا الْحُسْنَ الصَّادِقُ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَإِلَّا أَهْتَزَّازُ وَالطَّرَبُ لِهَذَا الْحُسْنِ ؟ قَالَ ابْنُ أَيْمَنَ : وَاللَّهِ إِنْ أَرَاكَ إِلَّا شَيْطَانًا مِنَ الشَّيَاطِينِ ، وَقَدْ عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الدِّمِيَّةِ زَوْجَكَ الَّتِي كَانَتْ لَكَ فِي الْجَحِيمِ ، لَتَجْتَمِعَا مَعًا عَلَى تَعْذِيبِ تِلْكَ الْحَوَارِءِ الْمَلَايِكَةِ أَمْ هَلْذَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ ، وَمَا أَذْرِي كَيْفَ يَتَّصِلُ مَا بَيْنَكُمَا بَعْدَ هَذَا الَّذِي أَذْخَلْتَ مِنَ الْقُبْحِ وَالْدَّمَامَةِ فِي مُعَاشَرَتِهَا وَمُعَاشَيْتِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ جَعَلْتَهَا لَا تَنْظُرُ إِلَيْكَ إِلَّا بِنَظَرِهَا إِلَى تِلْكَ . أَفَبِهَيْمَةٍ هِيَ لَا تَعْقِلُ ، أَمْ أَنْتَ رَجُلٌ سَاحِرٌ ، أَمْ فِينِكَ مَا لَيْسَ فِي النَّاسِ ، أَمْ أَنَا لَا أَفْقَهُ شَيْئًا ؟

فَصَحِّحْكَ مُسْلِمٌ وَقَالَ : إِنْ لِي خَبْرًا عَجِيبًا : كُنْتُ أَنْزِلُ الْأُبْلَةَ وَأَنَا مُتَعَبٌ<sup>(١)</sup> ، فَحَمَلْتُ مِنْهَا تِجَارَةً إِلَى الْبَصْرَةِ فَرَبِخْتُ ، وَلَمْ أَزَلْ أَحْمِلُ مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ فَأَرْبِخُ وَلَا أَخْسِرُ ، حَتَّى كَثُرَ مَالِي ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أَتَسَعَ فِي الْأَفَاقِ الْبَعِيدَةِ لِأَجْمَعَ التِّجَارَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَأَبْسُطُ يَدِي لِلْمَالِ حَيْثُ يَكْثُرُ وَحَيْثُ يَقِلُّ ، وَكُنْتُ فِي مِينَةِ الشَّبَابِ وَعُلُوِّائِهِ ، وَأَوَّلَ هَجْمَةِ الْفُتُوَّةِ عَلَى الدُّنْيَا ، وَقُلْتُ : إِنْ فِي ذَلِكَ خِلَالًا ؛ فَأَرَى الْأَمَمَ فِي بِلَادِهَا وَمُعَاشِشَهَا ، وَأَتَقَلَّبُ فِي التِّجَارَةِ ، وَأَجْمَعُ الْمَالَ وَالطَّرَافِيفَ ، وَأَفِيدُ عِظَةً وَعِبرَةً ، وَأَعْلَمُ عِلْمًا جَدِيدًا ، وَلَعَلَّنِي أُصِيبَ الزَّوْجَةُ الَّتِي أَشْتَهَيْتُهَا<sup>(٢)</sup> وَأُصَوِّرُ لَهَا فِي نَفْسِي التَّصَاوِيرَ ، فَإِنْ أَمَرَنِي مِنْ أَوَّلِهِ كَانَ إِلَى عُلُوِّ فَلَا أُرِيدُ إِلَّا الْغَايَةَ ، وَلَا أَرْمِي إِلَّا لِلسَّبْقِ ، وَلَا أَرْضَى أَنْ أَتَخَلَّفَ فِي جَمَاعَةِ النَّاسِ . وَكَأَنِّي لَمْ أَرِ فِي الْأُبْلَةِ وَلَا فِي الْبَصْرَةِ أَمْرًا يَبْلُغُ التَّصَاوِيرَ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَأْخُذُهَا عَيْنِي ، فَتُعْجِبُنِي ، فَتُصَلِّحُ لِي ، فَاتَّزَوَّجَ بِهَا ؛ وَطَمِعْتُ أَنْ أَسْتَنْزِلَ نَجْمًا مِنْ تِلْكَ الْأَفَاقِ أُحَرِّرُهُ فِي دَارِي ؛ فَمَا زِلْتُ أَرْمِي مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ حَتَّى دَخَلْتُ بُلْعَ<sup>(٣)</sup> مِنْ أَجْلِ مَدَنِ خُرَاسَانَ

(١) { أَي : مُتَكَسِّبٌ لِيَعِيشَ لَا لِيَتَغَنَّى ؛ وَهَذَا يُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ : الْمُتَسَبِّبَ } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « أَشْتَهَيْتُهَا » بَدَلًا مِنْ : « أَشْتَهَيْتُهَا » .

(٣) مَوْقِعُهَا الْيَوْمَ فِي بِلَادِ الْأَفْغَانِ . [ وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْيَوْمَ : مَرَارُ شَرِيفَ ؛ وَبُلْعُ نَقْعٍ بِالْقُرْبِ مِنْهَا ، وَأَصْبَحَ مَرَارُ شَرِيفَ هُوَ الْعَلَمُ عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، وَسَبَبُ التَّسْمِيَةِ أَنْ بَعْضَ الشَّيْخَةِ يَتَخَفَّدُونَ أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ مَذْفُونٌ هُنَاكَ ] .

وَأَوْسَعَهَا غَلَّةً ؛ تُحْمَلُ غَلَّتْهَا إِلَى جَمِيعِ خُرَاسَانَ وَإِلَى خُوَارِزْمَ ؛ وَفِيهَا يَوْمِيذٌ - كَانَ - عَالِمُهَا وَإِمَامُهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِي ، وَكُنَّا نَعْرِفُ اسْمَهُ فِي الْبَصْرَةِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ نَزَلَهَا فِي رَحْلَتِهِ وَكَثُرَ الْكِتَابَةُ بِهَا عَنِ الزُّوَارِ وَالْعُلَمَاءِ ؛ فَاسْتَحَقَّتْنِي إِلَيْهِ نَزِيَّةٌ مِنْ شَوْقِي إِلَى الْوَطَنِ ، كَانَ فِيهِ بَلَدِي وَأَهْلِي ؛ فَذَهَبْتُ إِلَى حَلَقَتِهِ ، وَسَمِعْتُهُ يُفَسِّرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ : « سَوْدَاءُ وَلَوْ ذُ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَاءَ لَا تَلِدُ » [ مجمع الزوائد ، رقم : ٧٣٤١ ] . فَمَا كَانَ الشَّيْخُ إِلَّا فِي سَحَابَةٍ ، وَمَا كَانَ كَلَامُهُ إِلَّا وَخِيًا يُوَحِّي إِلَيْهِ . سَمِعْتُ وَاللَّهِ كَلَامًا لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهِ ، وَأَنَا مِنْ أَوَّلِ نَشَاتِي أَجْلِسُ إِلَى الْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ ، وَأُدْخِلُهُمْ فِي قُتُونٍ مِنَ الْمَذَاكِرَةِ ، فَمَا سَمِعْتُ وَلَا قَرَأْتُ مِثْلَ كَلَامِ الْبَلْخِي ، وَلَقَدْ حَفِظْتُهُ حَتَّى مَا تَفُوتُنِي لَفْظَةً مِنْهُ ، وَبَقِيَ هَذَا الْكَلَامُ يَعْمَلُ فِي نَفْسِي عَمَلُهُ ، وَيَذْفَعُنِي إِلَى مَعَانِيهِ دَفْعًا ، حَتَّى أَتَى عَلَيَّ مَا سَأُحَدِّثُكَ بِهِ ، إِنَّ الْكَلِمَةَ فِي الدُّهْنِ لَتَوْجِدُ الْحَادِثَةَ فِي الدُّنْيَا .

قَالَ ابْنُ أَيْمَنَ : أَطُرُ خَبْرَكَ إِنْ شِئْتَ ، وَلَكِنْ أَذْكَرُ لِي كَلَامَ الْبَلْخِي ، فَقَدْ تَعَلَّقْتُ نَفْسِي بِهِ .

قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ : أَمَا فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ فَهُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ بَلَاغَةِ نَبِيِّنا ﷺ ، وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِ الْأَدَبِ وَأَبْرَعِهِ ، مَا عَلِمْتُ أَحَدًا تَنَبَّهَ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ ﷺ لَا يُرِيدُ السَّوْدَاءَ بِخُصُوصِهَا ، وَلَكِنَّهُ كَتَبَ بِهَا عَمَّا تَحْتَ السَّوَادِ ، وَمَا فَوْقَ السَّوَادِ ، وَمَا هُوَ إِلَى السَّوَادِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَقَبَّحُهَا الرِّجَالُ فِي خِلْفَةِ النِّسَاءِ وَصُورِهِنَّ ؛ فَأَلْطَفَ التَّغْيِيرَ وَرَقَّ بِهِ ، رَفَعًا لِسَانِ النِّسَاءِ أَنْ يَصِفَ أَمْرًا مِنْهُنَّ بِالْقُبْحِ وَالْدَّمَامَةِ ، وَتَنْزِيهَا لِهَذَا الْجِنْسِ الْكَرِيمِ ، وَتَنْزِيهَا لِلنِّسَاءِ الْكَبِيِّ ؛ كَأَنَّهُ ﷺ يَقُولُ : إِنْ ذَكَرْتُ قُبْحَ الْمَرْأَةِ هُوَ فِي نَفْسِهِ قُبْحٌ فِي الْأَدَبِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ أَمْ أَوْ فِي سَبِيلِ الْأُمُومَةِ ؛ وَ« الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَهَّاتِ » [ الجامع الصغير ، رقم : ٣٦٤٢ ] ؛ فَكَيْفَ تَكُونُ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مَا يَتَخَيَّلُ فِي الْحُسْنِ تَحْتَ قَدَمِي أَمْرًا ، ثُمَّ يَجُوزُ أَدَبًا أَوْ عَقْلًا أَنْ تُوصَفَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ بِالْقُبْحِ .

أَمَا إِنَّ الْحَدِيثَ كَالصَّ عَلَى أَنْ مِنْ كَمَالِ أَدَبِ الرَّجُلِ إِذَا كَانَ رَجُلًا لَا يَصِفُ أَمْرًا بِقُبْحِ الصُّورَةِ الْبَنَةِ ، وَالْأُجْرِي فِي لِسَانِهِ لَفْظُ الْقُبْحِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ ، مَوْصُوفًا بِهِ هَذَا الْجِنْسُ الَّذِي مِنْهُ أُمُّهُ : أَبُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُعَرِّقَ وَجْهَهُ أُمُّهُ بِهِذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَارِحَةِ ؟

وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يُفَضِّلُونَ لِمَعَانِي الدَّمَامَةِ فِي النِّسَاءِ أَلْفَاظًا كَثِيرَةً ؛ إِذْ كَانُوا لَا يَرْفَعُونَ الْمَرْأَةَ عَنِ السَّائِمَةِ وَالْمَاشِيَةِ ؛ أَمَّا أَكْمَلُ الْخَلْقِ ﷺ ، فَمَا زَالَ يُوصِي بِالنِّسَاءِ وَيَرْفَعُ شَأْنَهُنَّ حَتَّى كَانَ آخِرُ مَا وَصَّى بِهِ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ ، إِلَى أَنْ تَلْجُلُجَ لِسَانُهُ وَخَفِيَ كَلَامُهُ ؛ جَعَلَ يَقُولُ : « الصَّلَاةُ ... الصَّلَاةُ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، لَا تَكْلَفُوهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ ؛ اللَّهُ اللَّهُ فِي النِّسَاءِ » . [ قال العراقي رحمه الله في « تخريج أحاديث الإحياء » : أخرجه النسائي في « الكبرى » انتهى . وراجع ابن ماجه ، رقم : ٢٦٩٧ ؛ مسند أحمد ، رقم : ١١٧٥٩ ؛ وأبو داود ، رقم : ٥١٥٦ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٦٩٨ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٥٨٦ ] .

قَالَ الشَّيْخُ : كَانَ الْمَرْأَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ إِنَّمَا هِيَ صَلَاةٌ تَتَعَبَّدُ بِهَا الْفَضَائِلُ ، فَوَجَبَتْ رِعَايَتُهَا وَتَلَقُّبُهَا بِحَقِّهَا ؛ وَقَدْ ذَكَرَهَا بَعْدَ الرَّفِيقِ ، لِأَنَّ الزَّوْجَ بِطَبِيعَتِهِ نَوْعُ رِقٍّ ؛ وَلِئِكَتُهُ خَتَمَ بِهَا وَقَدْ بَدَأَ بِالصَّلَاةِ ، لِأَنَّ الزَّوْجَ فِي حَقِيقَتِهِ نَوْعُ عِبَادَةٍ .

قَالَ الشَّيْخُ : وَلَوْ أَنَّ أُمًّا كَانَتْ دَمِيمَةً شَوْهَاءَ فِي أَغْنِي النَّاسِ ، لَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ فِي عَيْنِ أَطْفَالِهَا أَجْمَلًا مِنْ مَلِكَةٍ عَلَى عَرْشِهَا ؛ فَفِي الدُّنْيَا مَنْ يَصِفُهَا بِالْجَمَالِ صَادِقًا فِي حِسِّهِ وَلَفْظِهِ ، لَمْ يَكْذِبْ فِي أَحَدِهِمَا ؛ فَقَدْ انْتَفَى الْقُبْحُ إِذَا ، وَصَارَ وَصْفُهَا بِهِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ تَكْذِيبًا لَوْصِفُهَا فِي رَأْيِ النَّفْسِ ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْوُصْفَانِ قَدْ تَعَارَضَا ، فَلَا جَمَالَ وَلَا دَمَامَةً .

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَمَّا فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ ، فَهُوَ ﷺ يُقَرِّرُ لِلنَّاسِ أَنَّ كَرَمَ الْمَرْأَةِ بِأُمُومَتِهَا ، فَإِذَا قِيلَ : إِنَّ فِي صُورَتِهَا قُبْحًا ، فَالْحَسَنَاءُ الَّتِي لَا تَلِدُ أَفْبَحَ مِنْهَا فِي الْمَعْنَى . وَانْظُرْ أَنْتَ كَيْفَ يَكُونُ الْقُبْحُ الَّذِي يَقَالُ إِنَّ الْحُسْنَ أَفْبَحَ مِنْهُ ... !

فَمِنْ أَيْنَ تَنَاولْتَ الْحَدِيثَ رَأَيْتَهُ دَائِرًا عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَا قُبْحَ فِي صُورَةِ الْمَرْأَةِ ، وَأَنَّهَا مُنْزَهَةٌ فِي لِسَانِ الْمُؤْمِنِ أَنْ تُوصَفَ بِهَذَا الْوُصْفِ ، فَإِنَّ كَلِمَاتِ الْقُبْحِ وَالْحُسْنِ لَعُةٌ بَهْنِمِيَّةٌ تَجْعَلُ حُبَّ الْمَرْأَةِ حُبًّا عَلَى طَرِيقَةِ الْبَهَائِمِ ، مِنْ حَيْثُ تَفْضُلُهَا طَرِيقَةُ الْبَهَائِمِ بِأَنَّ الْخَيَوَانَ عَلَى اخْتِيَاْسِهِ فِي غَرَائِزِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا يَتَكَذَّبُ فِي الْغَرِيزَةِ وَلَا فِي الشَّهْوَةِ بِتَلَوْنِهَا أَلْوَانًا مِنْ خَيَالِهِ ، وَوَضْعِهَا مَرَّةً فَوْقَ الْحَدِّ ، وَمَرَّةً دُونَ الْحَدِّ (١) .

(١) { بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي كِتَابِنَا « السَّحَابُ الْأَخْمَرُ » } .

فَأَكْبَرُ الشَّأْنِ هُوَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ كَبِيرًا فِي إِنْسَانِيَّتِهِ ، لَا الَّتِي تَجْعَلُهُ كَبِيرًا فِي حَيَوَانِيَّتِهِ ، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الثَّانِيَةُ هِيَ الَّتِي يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى وَصْفِهَا بِالْجَمَالِ فِيهِ الْقَبِيحَةُ لَا الْجَمِيلَةُ ، إِذْ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ الصَّحِيحِ الْإِيمَانِ أَنْ يَعْنِيَنَّ فِيمَا يَصْلُحُ بِهِ النَّاسُ ، لَا فِيمَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ النَّاسُ ؛ فَإِنَّ الْخُرُوجَ مِنَ الْخُدُودِ الصَّبِيقَةِ لِلْأَلْفَاظِ ، إِلَى الْحَقَائِقِ الشَّامِلَةِ ، هُوَ الْأَسْتِقَامَةُ بِالْحَيَاةِ عَلَى طَرِيقِهَا الْمُؤَدِّي إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا .

وَهُنَاكَ ذَاتَانِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ : إِحْدَاهُمَا غَايِبَةٌ عَنْهُ ، وَالْأُخْرَى حَاضِرَةٌ فِيهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَصِلُ مِنْ هَذِهِ إِلَى تِلْكَ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْصُرَ السَّمَاءُيَّةَ أَلْوَابًا فِي هَذِهِ التَّرَابِيَةِ الصَّبِيقَةِ ؛ وَالْقُبْحُ إِنَّمَا هُوَ لَفْظُ تَرْابِي يُشَارُ بِهِ إِلَى صُورَةٍ وَقَعَ فِيهَا مِنَ الشَّيْءِ مِثْلُ مَعَانِي التَّرَابِ ، وَالصُّورَةُ فَائِيَةٌ زَائِلَةٌ ، وَلَكِنَّ عَمَلَهَا بَاقٍ ؛ فَالْتَّظَرُّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِلَى الْعَمَلِ ؛ فَالْعَمَلُ هُوَ لَا غَيْرُهُ الَّذِي تَتَعَاوَرُهُ أَلْفَاظُ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ .

وَبِهَذَا الْكَمَالِ فِي النَّفْسِ ، وَهَذَا الْأَدَبِ ، قَدْ يَنْظُرُ الرَّجُلُ الْفَاضِلُ مِنْ وَجُودِ زَوْجَتِهِ الشَّوْهَاءَ الْفَاضِلَةِ ، لَا إِلَى الشَّوْهَاءِ ، وَلَكِنْ إِلَى الْخُورِ الْعَيْنِ . إِنَّهُمَا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ فِي صُورَتَيْنِ مُتَنَافِرَتَيْنِ جَمَالًا وَقُبْحًا ؛ أَمَّا فِي الْحَقِيقَةِ وَالْعَمَلِ وَكَمَالِ الْإِيمَانِ الْوُجُوحِيِّ ، فَهُمَا إِرَادَتَانِ مُتَّحِدَتَانِ تَجَذَّبُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى جَاذِبَةً عَشْقِي ، وَتَلْتَقِيَانِ مَعًا فِي النَّفْسَيْنِ الْوَاسِعَتَيْنِ ، الْمُرَادِ بِهِمَا الْفَضِيلَةُ وَثَوَابُ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِيَّةُ ؛ وَلِذَلِكَ اخْتَارَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنَ حَنْبَلٍ عَوْرَاءَ عَلَى أُخِيهَا ، وَكَانَتْ أُخْتُهَا جَمِيلَةً ، فَسَأَلَ : مَنْ أَعْقَلُهُمَا ؟ فَقِيلَ : الْعَوْرَاءُ . فَقَالَ : زَوْجُونِي إِيَّاهَا . فَكَانَتْ الْعَوْرَاءُ فِي رَأْيِ الْإِمَامِ إِرَادَتِهِ هِيَ ذَاتَ الْعَيْنَيْنِ الْكَحِيلَتَيْنِ ، لِوُفُورِ عَقْلِهِ وَكَمَالِ إِيمَانِهِ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : وَالْحَدِيثُ الشَّرِيفُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا الَّذِي حَكَيْتَاهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُبَّ مَتَى كَانَ إِنْسَانِيًّا جَارِيًّا عَلَى قَوَاعِدِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ ، مُتَّسِعًا لَهَا غَيْرَ مَخْصُورٍ فِي الْخُصُوصِ مِنْهَا - كَانَ بِذَلِكَ عِلَاجًا مِنْ أَمْرَاضِ الْخَيَالِ فِي النَّفْسِ ، وَاسْتَطَاعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَلَ حُبَّهُ يَتَنَاوَلُ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ ، وَيُرْدُّ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ لَذَائِهَا ، فَإِنْ لَمْ يُسْعِدْهُ شَيْءٌ بِخُصُوصِهِ ، وَجَدَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تُسْعِدُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَإِنْ وَقَعَ فِي صُورَةِ أَمْرٍ مَا لَا يَعُدُّ جَمَالًا ، رَأَى الْجَمَالَ فِي أَشْيَاءَ مِنْهَا غَيْرَ الصُّورَةِ ، وَتَعَرَّفَ إِلَى مَا لَا يَخْفَى ، فَظَهَرَ لَهُ مَا يَخْفَى .

وَلَيْسَتْ أَلْعَيْنُ وَخَدَاهَا هِيَ أَلْيَنُ تُؤَامَرُ فِي أَيْ السَّيِّئِينَ أَجْمَلُ ، بَلْ هُنَاكَ أَلْعَقْلُ  
وَالْقَلْبُ ، فَجَوَابُ أَلْعَيْنِ وَخَدَاهَا إِنَّمَا هُوَ ثُلُثُ الْحَقِّ . وَمَتَى قِيلَ : « ثُلُثُ الْحَقِّ » فَضْبَاعُ  
الثَّلَاثِينَ يَجْعَلُهُ فِي الْأَقْلَ حَقًّا غَيْرَ كَامِلٍ .

فَمَا نَكْرَهُهُ مِنْ وَجْهِ ، قَدْ يَكُونُ هُوَ الَّذِي نُحِبُّهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ ، إِذَا نَحْنُ تَرَكْنَا الْإِرَادَةَ  
السَّالِمَةَ تَعْمَلُ عَمَلَهَا الْإِنْسَانِي بِالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ، وَيَأْوُسُ الْعَظْرَيْنِ دُونَ أَضْيِقِيهِمَا <sup>(١)</sup> ﴿ فَمَسَى  
أَنْ تَكْرَهُوا مَشِيئًا وَتَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبِيرًا ﴾ [ ٤ سورة النساء / الآية : ١٩ ] .

\* \* \*

فَوَتَبَ ابْنُ أَيْمَنَ ، وَأَقْبَلَ يَدُورُ فِي الْمَجْلِسِ مِمَّا دَخَلَهُ مِنْ طَرَبِ الْحَدِيثِ وَيَقُولُ :  
مَا هَذَا إِلَّا كَلَامُ الْمَلَائِكَةِ سَمِعْتَاهُ مِنْكَ يَا ابْنَ عِمْرَانَ . قَالَ مُسْلِمٌ : فَكَيْفَ بِكَ لَوْ سَمِعْتَهُ  
مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ؛ إِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ حَبَبَ إِلَيَّ السُّودَاءَ وَالْقَبِيحَةَ وَالْذَمِيمَةَ ، وَنَظَرْتُ لِنَفْسِي بِخَيْرِ  
النَّظَرَيْنِ ، وَقُلْتُ : إِنْ تَزَوَّجْتُ يَوْمًا فَمَا أَبَالِي جَمَالًا وَلَا قُبْحًا ، إِنَّمَا أُرِيدُ إِنْسَانِيَّةً كَامِلَةً  
مِثِّي وَمِنْهَا وَمِنْ أَوْلَادِنَا ، وَالْمَرْأَةُ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ ، وَلَكِنْ لَيْسَ الْعَقْلُ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ .

قَالَ : ثُمَّ إِنِّي رَجَعْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَاتَّزْتُ السُّكْنَى بِهَا ، وَتَعَالَمَ النَّاسُ إِقْبَالِي ،  
وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَخْشَنُ بَيْنِي الْمَقَامُ بِغَيْرِ زَوْجَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بِهَا أَجَلٌ قَدَرًا مِنْ جَدِّ هَذَيْنِ  
الْغُلَامَيْنِ ، وَكَانَتْ لَهُ بِنْتُ قَدْ عَضَلَهَا وَتَعَرَّضَ بِذَلِكَ لِعَدَاوَةِ خُطَايَاهَا ؛ فَقُلْتُ : مَا لِهَذِهِ  
الْبِنْتُ بَدْ مِنْ شَأْنٍ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ أَكْمَلَ النِّسَاءِ وَأَجْمَلَهُنَّ ، مَا ضَنَّ بِهَا أَبُوهَا رَجَاوَةً أَنْ يَأْتِيَهُ  
مَنْ هُوَ أَعْلَى . فَحَدَّثَنِي نَفْسِي بِلِقَائِهِ فِيهَا ، فَجِثُّهُ عَلَى خُلُوةٍ ...

فَقَطَعَ عَلَيْهِ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَالَ : قَدْ عَلِمْنَا خَبَرَهَا مِنْ مَنْظَرِ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ  
مِنْ خَيْرٍ تِلْكَ الذَّمِيمَةَ الَّتِي تَعَشَّقَتَهَا .

قَالَ : مَهْلًا فَسَتَنْتَهِي الْقِصَّةُ إِلَيْهَا . ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ : يَا عَمَّ ! أَنَا فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ النَّاجِرُ .  
قَالَ : مَا خَفِيَ عَنِّي مَحَلُّكَ وَمَحَلُّ أَيْتِكَ . فَقُلْتُ : جِئْتُ خَاطِبًا لِابْنَتِكَ . قَالَ : وَاللَّهِ مَا بَيْنِي  
عَنكَ رَغْبَةٌ ، وَلَقَدْ خَطَبَهَا إِلَيَّ جَمَاعَةٌ مِنْ وَجْهِ الْبَصْرَةِ وَمَا أَجَبْتُهُمْ ، وَإِنِّي لَكَارِهِ

(١) فِي الْمَطْبُوعِ : « دُونَ أَنْ أَضْيِقِيهِمَا » بَدَلًا مِنْ : « دُونَ أَضْيِقِيهِمَا » .

إِخْرَاجَهَا <sup>(١)</sup> عَنْ حِضْنِي إِلَى مَنْ يُقَوِّمُهَا تَقْوِيمَ الْعَبِيدِ . فَقُلْتُ : قَدْ رَفَعَهَا اللَّهُ عَنْ هَذَا  
الْمَوْضِعِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَنِي فِي عَدَدِكَ ، وَتُخْلِطَنِي بِشَمْلِكَ .

فَقَالَ : وَلَا بَدْ مِنْ هَذَا ؟ قُلْتُ : لَا بَدْ . قَالَ : أَغْدُ عَلَيَّ بِرَجَالِكَ .

فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ إِلَى مَلَا مِنَ الشُّجَارِ ذَوِي أخطارٍ ، فَسَأَلْتُهُمُ الْخُصُورَ فِي غَدٍ ؛ فَقَالُوا :  
هَذَا رَجُلٌ قَدْ رَدَّ مَنْ هُوَ أَثَرَى مِنْكَ ، وَإِنَّكَ لَتَحْرُكُنَا إِلَى سَعْيِ ضَائِعٍ .

قُلْتُ : لَا بَدْ مِنْ رُكُوبِكُمْ مَعِيَ . فَرَكِبُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُمْ .

فَصَاحَ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَدْ كَادَتْ رُوحُهُ تَخْرُجُ : فَذَهَبَتْ ، فَزَوَّجَكَ بِالْجَمِيلَةِ الرَّابِعَةِ أُمَّ  
هَذَيْنِ ؟ فَمَا خَيْرُ تِلْكَ الذَّمِيمَةِ ؟

قَالَ مُسْلِمٌ : يَا سَيِّدِي قَدْ صَبَرْتَ إِلَى الْآنَ ، أَفَلَا تَصْبِرُ عَلَى كَلِمَاتِ تَبْشُكٍ مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ  
خَيْرُ الذَّمِيمَةِ ، فَإِنِّي مَا عَرَفْتُهَا إِلَّا فِي الْفَرَسِ ... !

قَالَ : وَعَدَدْنَا عَلَيْهِ فَأَحْسَنَ الْإِجَابَةَ وَزَوَّجَنِي ، وَأَطَعَمَ الْقَوْمَ وَنَحَرَ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ  
شِئْتُ أَنْ تَبِيتَ بِأَهْلِكَ فَأَفْعَلْ ، فَلَيْسَ لَهَا مَا يُخْتِاجُ إِلَى التَّلَوُّمِ عَلَيْهِ وَانْتِظَارِهِ .

فَقُلْتُ : هَذَا يَا سَيِّدِي مَا أَحْبَبُهُ . فَلَمْ يَزَلْ يُحَدِّثُنِي بِكُلِّ حَسَنِ حَتَّى كَانَتْ الْمَغْرِبُ ،  
فَصَلَّاهَا بَيْنِي ، ثُمَّ سَبَّحَ وَسَبَّحْتُ ، وَدَعَا وَدَعَوْتُ ، وَتَقَبَّلَ مُقْبِلًا عَلَى دُعَائِهِ وَتَسْبِيحِهِ  
مَا يَلْتَفِتُ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، فَأَمَضْنِي - عَلِمَ اللَّهُ - كَأَنَّهُ يَرَى أَنَّ ابْنَتَهُ مُقْبِلَةٌ مِنِّي عَلَى مُصِيبَةٍ ، فَهُوَ  
يَتَضَرَّعُ وَيَدْعُو ... !

ثُمَّ كَانَتْ الْعَتَمَةُ فَصَلَّاهَا بَيْنِي ، وَأَخَذَ بِيَدِي فَأَدْخَلَنِي إِلَى دَارٍ قَدْ فُرِشَتْ بِأَحْسَنِ فُرُشٍ ،  
وَبِهَا خَدَمٌ وَجَوَارِي فِي نِهَاطَةٍ مِنَ النُّطَافَةِ ؛ فَمَا اسْتَقَرَّ بَيْنِي الْجُلُوسُ حَتَّى نَهَضَ وَقَالَ :  
اسْتَوْدِعْكَ اللَّهُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ لَكُمْ الْخَيْرَ وَأَحْرَزَ التَّوْفِيقَ .

وَأَكْتَفَنِي عَجَائِزُ مِنْ شَمْلِهِ ، لَيْسَ فِيهِنَّ شَابَّةٌ إِلَّا مَنْ كَانَتْ فِي السَّنَيْنِ ... فَظَلْتُ فَإِذَا  
وُجُوهٌ كَوُجُوهُ الْمَوْتَى ، وَإِذَا أَجْسَامٌ بِأَلْيَةِ يَتَضَامُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، كَأَنَّهُمْ أَطْلَالُ زَمَنِ قَدْ  
انْقَضَ بَيْنَ يَدَيَّ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَكَارِهِ مِنْ إِخْرَاجِهَا » بَدَلًا مِنْ : « لَكَارِهِ إِخْرَاجَهَا » .

فَصَاحَ ابْنُ أَيْمَنَ : وَإِنَّ دَمِيمَتَكَ لَعَجُوزٌ أَيْضًا ... ؟ مَا أَرَاكَ يَا ابْنَ عِمْرَانَ إِلَّا قَتَلْتَ أُمَّ  
الْغُلَامَيْنِ ... !

قَالَ مُسْلِمٌ : ثُمَّ جَلَوْنَ ابْنَتَهُ عَلَيَّ وَقَدْ مَلَأَنَ عَيْنَيَّ هَرَمًا وَمَوْتًا وَأَخِيلَةً شَيَاطِينٍ وَظِلَالٍ  
قُرُودٍ ؛ فَمَا كَذْتُ أَسْتَفِيحُ لِأَرَى رَوْحِي ، حَتَّى أَسْرَعَنَ فَأَرْخِيَنَ السُّتُورَ عَلَيْنَا ؛ فَحَمِدْتُ اللَّهَ  
لِذَهَابِهِنَّ ، وَنَظَرْتُ ...

وَصَاحَ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَدْ أَكَلَهُ الْغَيْظُ : لَقَدْ أَطْلَعْتُ عَلَيْنَا ، فَسَخَّخَكِي لَنَا قِصَّتَكَ إِلَى  
الصَّبَاحِ ، قَدْ عَلِمْنَاهَا { وَبِئْسَ } ، فَمَا خَبَرَ الدَّمِيمَةَ الشَّوْهَاءِ ؟  
قَالَ مُسْلِمٌ : لَمْ تَكُنِ الدَّمِيمَةُ الشَّوْهَاءِ إِلَّا الْعُرُوسُ ...

\* \* \*

فَزَاغَتْ أَعْيُنُ الْجَمِينِ ، وَأَطْرَقَ ابْنُ أَيْمَنَ إِطْرَاقَةً مَن وَرَدَ عَلَيْهِ مَا حَيَّرَهُ ؛ وَلَكِنَّ الرَّجُلَ  
مَضَى يَقُولُ :

وَلَمَّا نَظَرْتُهَا لَمْ أَرَ إِلَّا مَا كُنْتُ حَفِظْتُهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيِّ ، وَقُلْتُ : هِيَ نَفْسِي  
جَاءَتْ بِي إِلَيْهَا ، وَكَانَ كَلَامُ الشَّيْخِ إِنَّمَا كَانَ عَمَلًا يَعْمَلُ فِي وَيُدِيرُنِي وَيُصَرِّفُنِي ؛ وَمَا أَسْرَعَ  
مَا قَامَتِ الْمُسْكِينَةُ فَأَكْبَتْ عَلَى يَدَيَّ وَقَالَتْ :

« يَا سَيِّدِي ، إِنِّي سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الْإِلَهِ ، كَتَمَهُ عَنِ النَّاسِ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيْكَ ، إِذْ رَأَى  
أَهْلًا لِسِرِّهِ عَلَيْهِ ، فَلَا تَخْفِزْ ظَنَّهُ فِينَا ، وَلَوْ كَانَ الَّذِي يُطْلَبُ مِنَ الزَّوْجَةِ حُسْنُ صُورَتِهَا  
دُونَ حُسْنِ تَذْيِيرِهَا وَعَفَافِهَا لَعَظُمَتْ مِخْتَتِي ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَعِيَ مِنْهُمَا أَكْثَرُ مِمَّا قَصَّرَ بِي  
فِي حُسْنِ الصُّورَةِ ؛ وَسَأَبْلُغُ مَحَبَّتَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُنِي ؛ وَلَوْ أَنَّكَ أَذَيْتَنِي لَعَدَدْتُ الْأَدَى  
مِنْكَ نِعْمَةً ، فَكَيْفَ إِنْ وَسَّعْتَنِي كَرَمَكَ وَسَتْرَكَ ؟ إِنَّكَ لَا تَعْمَلُ اللَّهُ بِأَفْضَلِ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا  
فِي سَعَادَةِ بَائِسَةٍ مِثْلِي . أَفَلَا تَخْرِصُ يَا سَيِّدِي ، عَلَى أَنْ تَكُونَ هَذَا السَّبَبَ  
الشَّرِيفَ ... »

ثُمَّ إِنَّهَا وَبَّتْ فَجَاءَتْ بِمَالٍ فِي كَيْسٍ ، وَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي ، قَدْ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ مَعِيَ  
ثَلَاثَ حَرَائِرٍ ، وَمَا أَثَرَتْهُ مِنْ الْإِمَاءِ ؛ وَقَدْ سَوَّغْتُكَ تَزْوِيجَ الثَّلَاثِ وَابْتِيَاعَ الْجَوَارِي مِنْ مَالٍ

هَذَا الْكَيْسِ ، فَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى شَهَوَاتِكَ ، وَلَسْتُ أَطْلُبُ مِنْكَ إِلَّا سِتْرِي فَقَطْ !

\* \* \*

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَيْمَنَ : فَخَلَفَ لِي النَّاجِرُ : إِنَّهَا مَلَكَتْ قَلْبِي مُلْكًا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ حَسَنَاءُ  
بِحُسْنِهَا ؛ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ جَزَاءَ مَا قَدَّمْتَ مَا تَسْمَعِينَهُ مِنِّي : « وَاللَّهِ لَأَجْعَلَكَ حَظِي مِنْ  
دُنْيَايَ فِيمَا يُؤِيرُهُ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَلَأَضْرِبَنَّ عَلَى نَفْسِي الْحِجَابَ ، مَا تَنْظُرُ نَفْسِي إِلَى  
أُنْتَى غَيْرِكَ أَبَدًا » . ثُمَّ أَتَمَمْتُ سُورَهَا ، فَحَدَّثْتُهَا بِمَا حَفِظْتُهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيِّ .  
فَأَيْقَنْتُ - وَاللَّهِ يَا أَحْمَدُ - أَنَّهَا نَزَلَتْ مِنِّي فِي أَرْفَعِ مَنَازِلِهَا وَجَعَلْتُ تَخَسُّنَ وَتَحْسُنَ ،  
كَالْفُضْلِ الَّذِي كَانَ مَجْرُودًا ، ثُمَّ وَخَزْتُهُ الْخُضْرَةَ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا .

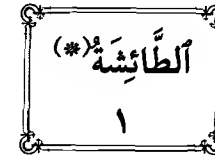
وَعَاشَرْتُهَا ، فَإِذَا هِيَ أَضْبَطُ النِّسَاءِ ، وَأَحْسَنُهُنَّ تَذْيِيرًا ، وَأَشْفَقُهُنَّ عَلَيَّ ، وَأَحَبَّهُنَّ  
لِي ؛ وَإِذَا رَاحَتِي وَطَاعَتِي أَوَّلَ أَمْرٍ وَأَخْرَهُ ؛ وَإِذَا عَقَلُهَا وَذَكَوْهَا يُظْهِرَانِ لِي مِنْ جَمَالِ  
مَعَانِيهَا مَا لَا يَرَاوُكُنَّ وَيَكْثُرُ ، فَجَعَلَ الْقُبْحُ يَقِلُّ وَيَقِلُّ ، وَزَالَ الْقُبْحُ بِأَعْيَادِي رُؤْيَاهُ ،  
وَبَقِيَتِ الْمَعَانِي عَلَى جَمَالِهَا ؛ وَصَارَتْ لِي هَذِهِ الزَّوْجَةُ هِيَ الْمَرْأَةُ وَفَوْقَ الْمَرْأَةِ .

وَلَمَّا وَلَدَتْ لِي ، جَاءَ أَبْنَاهُ رَائِعَ الصُّورَةِ ؛ فَحَدَّثْتَنِي أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ تَتَمَنَّى عَلَى كَرَمِ  
اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ تَزَوِّجَ وَتَلِدَ أَجْمَلَ الْأَوْلَادِ ، وَلَمْ تَدَعْ ذَلِكَ مِنْ فِكْرِهَا قَطْ ، وَأَلَفَ لَهَا عَقْلُهَا  
صُورَةَ أَجْمَلِ غُلَامٍ تَتَمَثَّلُهُ وَمَا بَرَحَتْ تَتَمَثَّلُهُ ؛ فَإِذَا هِيَ أَيْضًا كَانَ لَهَا شَأْنُ كَشَائِنِي ، وَكَانَ  
فِكْرُهَا عَمَلًا يَعْمَلُ فِي نَفْسِهَا ، وَيُدِيرُهَا وَيُصَرِّفُهَا .

وَرَزَقَنِي اللَّهُ مِنْهَا هَلْدَيْنِ الْإِبْنَيْنِ الرَّائِعَيْنِ لَكَ ، فَانْظُرْ ؛ أَيُّ مُعْجَزَتَيْنِ مِنْ مُعْجَزَاتِ  
الْإِيمَانِ ... !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَدِّثُنِي مِنْ حَدِيثِهَا :

كَانَتْ فَتَاةً مُتَعَلِّمَةً ، حُلْوَةً الْمَنْظَرِ ، حُلْوَةً الْكَلَامِ ، رَقِيقَةً الْعَاطِفَةِ ، مُزَهَّفَةً الْحِسِّ ، فِي لِسَانِهَا بَيَانٌ ، وَلَوْجُهَا بَيَانٌ غَيْرُ الَّذِي فِي لِسَانِهَا ، تَعْرِفُ فِيهِ الْكَلَامَ الَّذِي لَا تَتَكَلَّمُ بِهِ . . .

وَلَهَا طَبِيعٌ شَدِيدٌ لِلطَّرَبِ لِلْحَيَاةِ ، مُسْتَرْسِلٌ فِي مَرَجِهِ ، خَفِيفٌ طَيَّاشٌ ، لَوْ أَنْفَلَتْهُ بِجَبَلٍ لَخَفَّ بِالْجَبَلِ ؛ تَخَسَّبُهَا دَائِمًا سَكْرَى تَتَمَائِلُ مِنْ طَرَبِهَا ، كَأَنَّ أَفْكَارَهَا الْمَرِحَةَ هِيَ فِي رَأْسِهَا أَفْكَارٌ وَفِي دِمَاسِهَا خَمَرٌ . . .

وَكَانَ هَذَا الطَّبِيعُ السَّكْرَانُ بِالشَّبَابِ وَالْجَمَالِ وَالطَّرَبِ<sup>(١)</sup> - يَعْمَلُ عَمَلَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ ؛ فَهُوَ دَلَالٌ مُتَرَاوِعٌ مُنْهَرِمٌ ، وَهُوَ أَيْضًا جُرَاةٌ مُنْدَفِعَةٌ مُنْهَجِمَةٌ .

وَهَزِيمَةٌ الدَّلَالِ فِي الْمَرْأَةِ إِنْ هِيَ إِلَّا عَمَلٌ حَزْبِيٌّ ، مُضْمَرَةٌ فِيهِ الْكَرَةُ وَالْهَجُومُ ؛ وَكَبِيرًا مَا تَرَى فِيهَا النَّظْرَةَ ذَاتَ الْمَعْنَيْنِ : نَظْرَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ { بِهَا } تُؤَبِّكُ الْمَرْأَةَ عَلَى جَرَاءَتِكَ مَعَهَا ، وَبِهَا أَيْضًا تَعْدِلُكَ<sup>(٢)</sup> عَلَى أَنَّكَ لَسْتَ مَعَهَا أَجْرًا مِمَّا أَنْتَ !

\* \* \*

قُلْتُ : وَيَحْكُ يَا هَذَا ! أَتَعْرِفُ مَا تَقُولُ ؟

قَالَ : فَمَنْ يَعْرِفُ مَا يَقُولُ إِذَا لَمْ أَعْرِفْ ؟ لَقَدْ أَحْبَبْتُ خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؛ بَلْ هُنَّ أَحْبَبْتَنِي وَفَرَّغْنَ قُلُوبَهُنَّ لِي ، مَا أَعْتَرَتْ عَلَيَّ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ بِي مَذْهَبًا ، وَلَكِنِّي

(\*) « الرسالة » العدد : ١٠٢ ، ١٦ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١٧ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ٩٦٣ - ٩٦٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « شَبَابًا وَجَمَالًا وَطَرَبًا » بَدَلًا مِنْ : « بِالشَّبَابِ وَالْجَمَالِ وَالطَّرَبِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَتَعْدِلُكَ بِهَا أَيْضًا » بَدَلًا مِنْ : « وَبِهَا أَيْضًا تَعْدِلُكَ » .

ذَهَبْتُ بِهِنَّ خَمْسَةَ عَشَرَ !

قُلْتُ : فَلَا رَيْبَ أَنَّكَ تَحْمِلُ الْوَسَامَ الْإِبْلِسِيَّ الْأَوَّلَ مِنْ رُتْبَةِ الْجَمْرَةِ . . . فَكَيْفَ اسْتَهَامَ بِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؛ أَجَاهِلَاتٌ هُنَّ ، أَعْمِيَاوَاتٌ هُنَّ . . . ؟

قَالَ : بَلْ مُتَعَلِّمَاتٌ مُبْصِرَاتٌ يَرَيْنَ وَيَذَرْنَ ، وَلَا تُخْطِئُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فِي فَهْمٍ أَنَّ رَجُلًا وَأَمْرًا قِصَّةٌ حُبٌّ . . . وَمَا خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؟ وَمَا عَشْرُونَ وَثَلَاثُونَ مِنْ فَتَيَاتِ هَذَا الزَّمَنِ { الْحَايِرِ } الْبَائِرِ ، الَّذِي كَسَدَ فِيهِ الرَّوْاجُ ، وَرَقَّ فِيهِ الدِّينُ ، { وَسَقَطَ الْحَيَاءُ ، } وَالتَّهَبَّتِ الْعَاطِفَةُ ، { وَانْتَشَرَ اللَّهُوُ ، } وَكَثُرَتْ فُتُونُ الْإِغْرَاءِ ، وَأَصْطَلَحَ فِيهِ الْإِبْلِسُ وَالْعِلْمُ يَغْمَلَانِ مَعًا . . . ؛ وَأُطْلِقَتِ الْحُرِّيَّةُ لِلْمَرْأَةِ ، وَتَوَسَّعَتِ الْمَدَارِسُ فِيمَا تَقْدُمُ لِلْفَتَيَاتِ ، وَأَظْهَرَتْ مِنَ الْحَفَاوَةِ بِهِنَّ أَمْرًا مُفْرِطًا حَتَّى أَخَذَنَ { مِنْهَا } رُبْعَ الْعِلْمِ . . . ؟

قُلْتُ : وَثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الْعِلْمِ الْبَاقِيَّةِ ؟

قَالَ : سَيَأْخُذْنَهَا مِنَ الرُّوَايَاتِ وَالسِّيَمَا .

عِلْمُ الْمَدَارِسِ ، مَا عِلْمُ الْمَدَارِسِ ؟ إِنَّهُنَّ لَا يَصْنَعْنَ بِهِ شَيْئًا إِلَّا شَهَادَاتٍ هِيَ مُكَافَأَةُ الْحِفْظِ وَإِجَازَةُ السِّيَمَانِ مِنْ بَعْدُ ؛ أَمَّا عِلْمُ السِّيَمَا وَالرُّوَايَاتِ فَيَصْنَعْنَ بِهِ تَارِيخَهُنَّ . . . وَرُبَّ مَنْظَرٍ يَشْهَدُهُ فِي السِّيَمَا أَلْفُ فَتَاةٍ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ فِي وَغِيهٍ ، وَطَافَتْ بِهِ الْخَوَاطِرُ وَالْأَحْلَامُ - سَلَبَهُنَّ الْفَرَارَ وَالْوَقَارَ ، فَمَثَلْنَهُ أَلْفَ مَرَّةٍ بِأَلْفِ طَرِيقَةٍ فِي أَلْفِ حَادِثَةٍ !

يَطْلُونُ أَتْنَا فِي زَمَنِ إِزَاحَةِ الْعَقَبَاتِ النِّسَائِيَّةِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ ، مِنْ حُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ وَعِلْمِهَا ؛ أَمَّا أَنَا فَارَى حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ وَعِلْمَهَا لَا يُوجِدَانِ إِلَّا الْعَقَبَاتِ النِّسَائِيَّةَ عَقَبَةً بَعْدَ عَقَبَةٍ . وَقَدْ كَانَ عَيْبُ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَفْضُورَةِ فِي دَارِهَا أَنَّ الرَّجُلَ يَخْتَالُ عَلَيْهَا ، فَصَارَ عَيْبُ الْمُتَعَلِّمَةِ الْمَفْتُوحِ لَهَا الْبَابُ أَنَّهَا هِيَ تَخْتَالُ عَلَى الرَّجُلِ ؛ فَمَرَّةً بِإِنْدَاعِ الْحِجَلَةِ عَلَيْهِ ، وَمَرَّةً بِتَلْقِينِهِ الْحِجَلَةَ عَلَيْهَا . وَالْغَرِيبُ فِي أَمْرِ هَذَا الْعِلْمِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْفَتَاةَ تَبْدَأُ الطَّرِيقَ الْمَجْهُولَ بِجَهْلٍ . . . !

قُلْتُ : وَمَا الطَّرِيقُ الْمَجْهُولُ ؟

قَالَ : الطَّرِيقُ الْمَجْهُولُ هُوَ الرَّجُلُ ، وَإِطْلَاقُ الْحُرِّيَّةِ لِلْفَتَاةِ أَطْلَقَ ثَلَاثَ حُرِّيَّاتٍ :



حُرِّيَّةُ الْفَتَاةِ ، وَحُرِّيَّةُ الْحُبِّ ؛ وَالْأُخْرَى حُرِّيَّةُ الزَّوْاجِ ؛ وَلَمَّا انْطَلَقَ ثَلَاثُهُنَّ مَعًا تَغَيَّرَ ثَلَاثُهُنَّ جَمِيعًا إِلَى فَسَادٍ وَاخْتِلَالٍ .

أَمَّا الْفَتَاةُ فَكَانَتْ فِي الْأَكْثَرِ لِلزَّوْاجِ ، فَعَادَتْ لِلزَّوْاجِ فِي الْأَقَلِّ ، وَفِي الْأَكْثَرِ لِلْهَوَى وَالْعَزَلِ ؛ وَكَانَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ وَقَارُ الْأُمِّ وَخُرْمَةُ الزَّوْجَةِ ، فَاجْتَرَأَ عَلَيْهَا الشُّبَّانُ أَجْزَاءَهُمْ عَلَى الْحَلِيقَةِ وَالسَّافِقَةِ ؛ وَكَانَتْ مَقْصُورَةً لَا تَتَأَلَّعُ بِعَيْبٍ وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهَا ذَمٌّ ، فَمَشَتْ إِلَى عُيُوبِهَا بِقَدَمَيْهَا ، وَمَشَتْ إِلَيْهَا الْعُيُوبُ بِأَفْدَامٍ كَثِيرَةٍ ... وَكَانَتْ بِجُمْلَتِهَا أَمْرًا وَاحِدَةً ، فَعَادَتْ مِمَّا تَرَى وَتَعْرِفُ وَتُكَابِدُ كَانَ جِسْمُهَا أَمْرًا ، وَقَلْبُهَا أَمْرًا أُخْرَى ، وَأَعْصَابُهَا أَمْرًا ثَالِثَةً ...

وَأَمَّا الْحُبُّ ، فَكَانَ حُبًّا تَعَرَّفَ بِهِ الرُّجُوعُ إِلَى الْأُنُوثَةِ فِي قِيُودٍ وَشُرُوطٍ ، فَلَمَّا صَارَ حُرًّا بَيْنَ الرُّجُوعِ وَالْأُنُوثَةِ ، انْقَلَبَ حِيلَةً تَغْتَرُّ بِهَا إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ؛ وَمَتَى صَارَ الْأَمْرُ إِلَى قَانُونِ الْحِيلَةِ ، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَانُونِ الشَّرَفِ ، وَيَرْجِعُ <sup>(١)</sup> هَذَا الشَّرَفُ نَفْسَهُ { كَمَا نَرَاهُ } ، لَيْسَ إِلَّا كَلِمَةً يُخْتَالُ بِهَا .

وَأَمَّا الزَّوْاجُ ، فَلَمَّا صَارَ حُرًّا جَاءَ الْفَتَاةَ بِشِبْهِ الزَّوْجِ لَا بِالزَّوْجِ ... وَضَعَتْ مَنَزِلَتَهُ ، وَقَلَّ اتِّقَاةُ ، وَطَالَ ارْتِقَابُ الْفَتَيَاتِ لَهُ ، فَضَعُفَ أَثَرُهُ فِي النَّفْسِ الْمُؤَثَّمَةِ ؛ وَكَانَتْ { مِنْ قَبْلِ } لَفْظَتَا الشَّابِّ وَالزَّوْجِ شَيْئًا وَاحِدًا عِنْدَ الْفَتَاةِ وَبِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَاصْبَحَتَا كَلِمَتَيْنِ مُتَمَيِّزَتَيْنِ : فِي إِحْدَاهُمَا الْقُوَّةُ وَالْكَثْرَةُ وَالشُّهُوْلَةُ ، وَفِي الْأُخْرَى الضَّعْفُ وَالْقِلَّةُ وَالتَّعَدُّرُ ؛ فَالْكُلُّ شُبَّانٌ وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ الْأَزْوَاجُ ؛ وَبِهَذَا أَصْبَحَ تَأْيِيزُ الشَّابِّ عَلَى الْفَتَاةِ أَقْوَى مِنْ تَأْيِيزِ الشَّرَفِ ، وَعَادَ يُغْنِيهَا مِنْهُ أَحْسَنُ بُرْهَانَاتِهِ <sup>(٢)</sup> ، لَا بِأَنَّهُ هُوَ مُفْنِعٌ ، وَلَكِنْ بِأَنَّهَا هِيَ مُهَيِّئَةٌ لِلِافْتِنَاعِ ...

وَفِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ إِلَّا مُعْطَلًا فِي رَأْيِ الْمَرْأَةِ - إِذَا هُوَ أَحَبَّهَا وَلَمْ يَكُنْ مُخْتَلًا حِيلَةً مِثْلِهِ عَلَى مِثْلِهَا ، وَيَظِلُّ فِي رَأْيِهَا مُغْفَلًا حَتَّى يَخْدَعَهَا وَيَسْتَرْلَهَا ؛ فَإِذَا فَعَلَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « عَادَ » بَدَلًا مِنْ : « يَرْجِعُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « بَرَاهِينِهِ » بَدَلًا مِنْ : « بُرْهَانَاتِهِ » .

كَانَ عِنْدَهَا نَذْلًا لِأَنَّهُ فَعَلَ ... وَهَذِهِ حُرِّيَّةُ رَابِعَةٍ فِي لُغَةِ الْمَرْأَةِ الْحُرَّةِ وَالزَّوْاجِ الْحُرِّ وَالْحُبِّ الْحُرِّ !

وَانْظُرْ - بِعَيْنِكَ - مَا فَعَلَتِ الْحُرِّيَّةُ بِكَلِمَةِ التَّقَالِيدِ ، وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ السَّامِيَّةُ مِنْ مَبْدُوءِ الْكَلَامِ وَمَكْرُوهِهِ حَتَّى صَارَتْ غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْحَضَارَةِ ، ثُمَّ كَيْفَ أَحَالَتَهَا فَعَجَلَتَهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ أَشْهَرَ كَلِمَةٍ فِي الْأَلْسِنَةِ ، يُتَهَكَّمُ بِهَا عَلَى الدِّينِ وَالشَّرَفِ وَقَانُونِ الْعُرْفِ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي خَوْفِ الْمَعَرَّةِ وَالذِّينَةِ وَالتَّصَاوُنِ مِنَ الرُّذَائِلِ وَالْمُبَالَاهِ بِالْفَضَائِلِ ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ تَقَالِيدٌ ...

وَقَدْ أَخَذَتِ الْفَتَيَاتُ الْمُتَعَلِّمَاتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِمَعَانِيهَا تِلْكَ ، وَأَجْرَنِيهَا فِي اعْتِبَارِهَا مَكْرُوهَةً وَخَشِيَّةً ، وَأَضْفَنَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعَانِي حَوَاشِي أُخْرَى ، حَتَّى لَيْكَادُ الْأَبُّ وَالْأُمُّ يَكُونَانِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُتَعَلِّمَاتِ مِنَ « التَّقَالِيدِ » ... أَهِيَ كَلِمَةٌ أَبْدَعَتْهَا الْحُرِّيَّةُ ، أَمْ أَبْدَعَهَا جَهْلُ الْعَصْرِ وَحِمَاقَتُهُ ، وَفُجُورُهُ وَالْحَادَةُ ؟ أَهِيَ كَلِمَةٌ تَعَلَّقَهَا الْفَتَيَاتُ الْمُتَعَلِّمَاتُ لِأَنَّهَا لُغَةٌ مِنَ اللُّغَةِ ، أَمْ لِأَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ مَا يُخْبِنُ ... ؟

« تَقَالِيدٌ » ... ؟ فَمَا هِيَ الْمَرْأَةُ بِدُونِ التَّقَالِيدِ ... ؟ إِنَّهَا الْبِلَادُ الْجَمِيلَةُ بِغَيْرِ جَبِيشٍ ، إِنَّهَا الْأَكْثَرُ الْمَخْبُوءُ مُعَرَّضًا لِأَعْيُنِ الْأَصْوَصِ ، تَحُوطُهُ الْغَفْلَةُ لَا الْمُرَاقَبَةُ . هَبِ النَّاسُ جَمِيعًا شُرَفَاءَ مُتَعَفِّفِينَ { مُتَصَاوِنِينَ } ؛ فَإِنَّ مَعْنَى كَلِمَةِ « كَنْزٍ » مَتَى تَرَكْتَ لَهُ الْحُرِّيَّةَ وَأَغْفَلَ مِنَ تَقَالِيدِ الْحِرَاسَةِ ، أَوْجَدَتْ حُرِّيَّتُهُ هَذِهِ بِنَفْسِهَا مَعْنَى كَلِمَةِ « لِصٍّ » .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُنَا : أَمَّا الْفَتَاةُ الْمُحَرَّرَةُ مِنَ التَّقَالِيدِ .. كَمَا عَرَفْتُهَا فِيهِ هَذِهِ اللَّيْلِ أَقْصَى عَلَيَّ قِصَّتِهَا ، وَهِيَ اللَّيْلِ جَعَلْتَنِي أَعْتَقِدُ أَنَّ لِكُلِّ فَتَاةٍ رُشْدَيْنِ : يَثْبُتُ أَحَدُهُمَا بِالسَّنِّ ، وَيَثْبُتُ الْآخَرُ بِالزَّوْاجِ . وَلَوْ أَنَّ عَائِشًا مَاتَتْ فِي سِنِّ الْخَمْسِينَ أَوْ السِّتِينَ لَوَجِبَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا مَاتَتْ يَصِفَ قَاصِرٍ ! وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ حِكْمَةِ الشَّرِيعَةِ فِي اعْتِبَارِ الْمَرْأَةِ نِصْفَ الرَّجُلِ ، إِذْ تَمَامَ شَرَفِهَا الْأَجْتِمَاعِيِّ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مَضْمُونًا إِلَيْهَا فِي نِظَامِ الْأَجْتِمَاعِ وَقَوَائِينِهِ ؛ فَالزَّوْجُ عَلَى هَذَا هُوَ تَمَامُ رُشْدِ الْفَتَاةِ بِاللُّغَةِ مَا بَلَغَتْ .

وَأَسَاسُ الْمَرْأَةِ فِي الطَّبِيعَةِ أَسَاسٌ بَدَنِيٌّ لَا عَقْلِيٌّ ، وَمِنْ هَذَا كَانَتْ هِيَ الْمُصْنَعُ الَّذِي

تُصْنَعُ فِيهِ الْحَيَاةُ ، وَكَانَتْ دَائِمًا نَاقِصَةً لَا تَنِي إِلَّا بِالْآخِرِ الَّذِي أَسَاسُهُ فِي الطَّبِيعَةِ شَأْنُ عَقْلِهِ وَشَأْنُ قُوَّتِهِ ...

وَأَغْبِرَ ذَلِكَ بِالْمَرْأَةِ تَذَرُسُ وَتَتَعَلَّمُ وَتَتَّبِعُ ، فَلَوْ أَنَّكَ ذَهَبْتَ تَمْدَحُهَا بِوُفُورِ عَقْلِهَا وَذَكَائِهَا ، وَتَفْرُطُهَا بِبُيُوعِهَا وَعَبَقَرِيَّتِهَا ، ثُمَّ رَأَيْتَ لَمْ تَلْقَ كَلِمَةً وَلَا إِشَارَةً وَلَا نَظْرَةً عَلَى جِسْمِهَا وَمَحَاسِنِهَا - لَتَحَوَّلَ عِنْدَهَا كُلُّ مَدْحِكَ ذَمًّا ، وَكُلُّ ثَنَائِكَ سُخْرِيَةً ؛ فَإِنَّ الْبُيُوعَ هَا هُنَا فِي أَغْصَابِ امْرَأَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ مَعَ أَسْرَارِ الْكَوْنِ أَسْرَارَ كَوْنِهَا هِيَ ، هَذَا الْكَوْنُ الْبَدَنِيُّ الْفَانِي ، أَوِ الَّذِي تَزْعُمُهُ هِيَ فَانِتًا ، أَوِ الَّذِي لَا تَرْضَاهُ وَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ صَاحِبَتَهُ إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ مَنْ يَزْعُمُ لَهَا أَنَّهُ كَوْنٌ فَانٍ بَدِيعٌ ، مُزَيْنٌ بِشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ وَطَبِيعَتِهِ الْمُتَنَصِّرَةِ الَّتِي تَجْعَلُ مَسَّهُ مَسَّ وَرَقِ الزَّهْرِ .

مِثْلُ هَذِهِ إِنَّمَا يَكُونُ الشَّاءُ عَلَيْهَا ثَنَاءً عِنْدَهَا حِينَئِذَا يَكُونُ أَقْلُهُ بِاللِّسَانِ الْعِلْمِيِّ وَلُغَتِهِ ، وَأَكْثَرُهُ بِالنَّظَرِ الْفَنِيِّ وَلُغَتِهِ . وَهَذَا عَلَى أَنَّهَا عَالِمَةٌ الْجِنْسِ وَنَابِغَتُهُ ، وَدَلِيلُ شُدُودِهِ الْعَقْلِيِّ ، وَالْوَاحِدَةُ الَّتِي تَجِيءُ كَالْفَلْتَةِ الْمَفْرَدَةِ بَيْنَ الْمَلَائِكِينَ مِنَ النِّسَاءِ ؛ فَكَيْفَ يَمُنْ دُونَهَا ، وَكَيْفَ بِالنِّسَاءِ فِيمَا هُنَّ نِسَاءٌ بِهِ ؟

دَعِ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ يَمْتَحِنُونَ هَذَا الَّذِي يَبْنِي لَكَ ، فَيَأْتُونَ بِامْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ نَابِغَةٍ ، فَيَضَعُونَهَا بَيْنَ رِجَالٍ لَا تَسْمَعُ مِنْ جَمِينِهِمْ إِلَّا : مَا أَعْقَلَهَا ، مَا أَعْقَلَهَا ، مَا أَعْقَلَهَا ! وَلَا تَرَى فِي عَيْنِي كُلِّ مِنْهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ النَّظَرِ وَفُتُونِهِ إِلَّا نَظَرَ التَّلْمِيزِ لِمُعَلِّمَةٍ فِي سِنِّ جَدَّتِهِ ... فَهَلْذِهِ لَنْ تَكُونَ بَعْدَ قَرِيبٍ إِلَّا فِي حَالَةٍ مِنْ اثْنَتَيْنِ : إمَّا أَنْ يَخْرُجَ عَقْلُهَا مِنْ رَأْسِهَا ، أَوْ ... أَوْ تَخْرُجَ فِي وَجْهِهَا لِحْيَةٌ ! ... !

( مَا أَعْقَلَهَا ! ) كَلِمَةٌ حَسَنَةٌ عِنْدَ النِّسَاءِ لَا يَأْتِيَنَّهَا وَلَا يَذْمُنَّهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْبَلِغَةَ الْعَبَقَرِيَّةَ السَّاحِرَةَ ، هِيَ عِنْدَهُنَّ كَلِمَةٌ أُخْرَى ، هِيَ : ( مَا أَجْمَلَهَا ! ) ؛ إِنَّ تِلْكَ تُشَبِّهُ الْخُبْرَ الْفَقَارَ لَا شَيْءَ مَعَهُ عَلَى الْخَوَانِ ، أَمَّا هَذِهِ فَهِيَ الْمَائِدَةُ مُرْتَبَتُهُ كَامِلَةٌ بِطَعَامِهَا وَشَرَابِهَا وَأَزْهَارِهَا وَفُكَاهَتِهَا وَضَحِكِهَا أَيْضًا .

وَكَأَنَّ الْعَقْلَ الْإِنْسَانِيَّ قَدْ غَضِبَ لِمَهَانَةِ كَلِمَتِهِ وَمَا عَرَّهَا بِهِ النِّسَاءُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُنَبِّتَ أَنَّهُ عَقْلٌ ، فَاسْتَطَاعَ بِحِيلَتِهِ الْعَجَبِيَّةِ أَنْ يَجْعَلَ لِكَلِمَةٍ : ( مَا أَعْقَلَهَا ) كُلَّ الشَّأْنِ وَالْخَطَرِ ، وَكُلَّ

الْبَلَاغَةِ وَالسُّخْرِ ، عِنْدَ ... عِنْدَ الطُّفْلِ ... تَفْرَحُ الطُّفْلَةُ أَشَدَّ الْفَرَحِ ، إِذَا قِيلَ : مَا أَعْقَلَهَا ... !

\* \* \*

فَقُلْتُ لِمُحَدِّثِي : كَأَنَّكَ صَادِقٌ يَا فَتَى ! لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى امْرَأَةٍ أَدِينِي لَهَا ظَرْفٌ وَجَمَالٌ ، وَجَاءَتْ كِبْرِيَائِي فَجَلَسْتُ مَعَهَا ... وَكَانَتْ (التَّقَالِيدُ) كَالْحَاشِيَةِ لِي ؛ فَعَلِمْتُ بَعْدَ أَنَّهَا قَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا : « لَا أَذْرِي كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْسَى جِسْمِي وَأَنَا إِلَى جَانِبِهِ ، أَذْكُرُهُ أَنِّي إِلَى جَانِبِهِ ! لَكَاثَمًا كَانَتْ لِقَلْبِهِ أَبْوَابٌ يَفْتَحُ مَا شَاءَ مِنْهَا وَيُغْلِقُ » .

قَالَ مُحَدِّثِي : فَهَذَا هَذَا ؛ إِنَّ إِحْسَاسَ الْمَرْأَةِ بِالْعَالَمِ وَمَا فِيهِ مِنْ حَقَائِقِ الْجَمَالِ وَالسُّرُورِ ، إِنَّمَا هُوَ فِي إِحْسَاسِهَا بِالرَّجُلِ الَّذِي اخْتَارَتْهُ لِقَلْبِهَا ، أَوْ تَهْمُ أَنْ تَخْتَارَهُ ، أَوْ تَوَدُّ أَنْ تَخْتَارَهُ ؛ ثُمَّ إِحْسَاسِهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِالصُّورِ الْأُخْرَى مِنْ رَجُلِهَا فِي أَوْلَادِهَا . وَحَيَاةُ الْمَرْأَةِ لَا أَسْرَارَ فِيهَا الْبَتَّةَ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ عَرَفَتْ بِذَلِكَ أَنَّ فِيهَا أَسْرَارًا ، وَتَبَيَّنَتْ أَنَّ هَذَا الْجِسْمَ الْآخَرَ هُوَ فَلَسَفَةٌ عَمِيقَةٌ لِجِسْمِهَا وَعَقْلِهَا .

قَالَ : وَقَدْ جَلَسْتُ مَرَّةً مَعَ صَاحِبَةِ الْقِصَّةِ ، وَأَنَا مُغْضَبٌ أَوْ كَالْمُغْضَبِ ... ثُمَّ تَلَا حِينًا وَطَالَ بَيْنَنَا التَّلَاحِي ؛ فَقَالَتْ لِي : أَنْتَ بِجَانِبِي وَأَنَا أَسْأَلُ : أَيْنَ أَنْتَ ؟ فَإِنَّكَ لَسْتَ كُلُّكَ الَّذِي بِجَانِبِي !

قَالَ : وَمَذْهَبِي فِي الْخُبِّ ، الْكِبْرِيَاءُ ، كَمَا قُلْتَ أَنْتَ ، غَيْرَ أَنَّهَا الْكِبْرِيَاءُ الَّتِي تُذَرِّكُ الْمَرْأَةَ مِنْهَا أَنِّي قَوِيٌّ لَا أَنِّي مُنْكَبَّرٌ ؛ كِبْرِيَاءُ الرَّجُلِ إمَّا مَهْنَبٌ مَرَحٌ يَمْلِكُ أَفْرَاحَ قَلْبِهَا ، وَإِمَّا حَزِينٌ مَهْنَبٌ يَمْلِكُ أَحْزَانَ هَذَا الْقَلْبِ .

إِنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُحِبُّ إِلَّا رَجُلًا يَكُونُ أَوَّلَ الْحُسْنِ فِيهِ حُسْنُ فَهْمِهَا لَهُ ، وَأَوَّلَ الْقُوَّةِ فِيهِ قُوَّةُ إِعْجَابِهَا بِهِ ، وَأَوَّلَ الْكِبْرِيَاءِ فِيهِ كِبْرِيَاءُهَا هِيَ بِحُبِّهِ وَكِبْرِيَاءُهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ . هَذَا هُوَ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ لِلْمَرْأَةِ اثْنَانِ : إِنْسَانُهَا الطَّرِيفُ ، وَوَحْشُهَا الطَّرِيفُ !

\* \* \*

قُلْتُ : لَقَدْ بَعُدْنَا عَنِ الْقِصَّةِ ، فَمَا كَانَ خَيْرٌ صَاحِبِكَ تِلْكَ ؟

قَالَ : كَانَتْ صَاحِبِي تِلْكَ تَعْلَمُ أَنِّي مُتَزَوِّجٌ ، وَلَكِنْ إِحْدَى صَدِيقَاتِهَا أَنْبَأَتْهَا بِكِبْرِيَانِي فِي الْحُبِّ ، وَوَصَفَتْ لَهَا صِفَةَ الْإِحْسَاسِ لَا وَصَفَ الْكَلَامِ ، فَكَأَنَّمَا تَنَهَّتْ فِيهَا طَبِيعَةُ زَهْوِ الْفَتَاةِ بِأَنْهَا فَتَاةٌ ، وَغَرِيزَةُ أَفْتَانِ الْأُنْثَى بِأَنْ تَكُونَ فَاتِنَةً ؛ قَرَأْتُ فِي إِخْصَاعِي لِجَمَالِهَا عَمَلًا تَعْمَلُهُ بِجَمَالِهَا .

وَمَتَى كَانَتْ الْفَتَاةُ مُسْتَحْفَةً « بِالتَّقَالِيدِ » كَهَذِهِ الْأَدِيبَةِ الْمُتَعَلِّمَةِ - رَأَتْ كَلِمَةَ (الزَّوْجِ) لَفْظًا عَلَى رَجُلٍ كَلَفَظَ الْحُبَّ عَلَيْهِ ، فَهُمَا سَوَاءٌ عِنْدَهَا فِي الْمَعْنَى ، وَلَا يَخْتَلِفَانِ إِلَّا فِي (التَّقَالِيدِ) ...

وَعَرَضْتُ لِي كَمَا يَغْرِضُ الْمَصَارِعُ لِلْمَصَارِعِ ؛ إِذْ كَانَتْ مِنْ الْفَتَيَاتِ الْمَغْرُورَاتِ ، اللَّوَاتِي يَحْسَبْنَ أَنَّ فِي قُوَّتِهِنَّ الْعِلْمِيَّةِ تَيَّارًا زَاجِرًا لِنَهْرِنَا الْأَجْتِمَاعِيِّ الرَّكَادِ ؛ فَتَاةٌ تَخَرَّجَتْ فِي مَدْرَسَةٍ أَوْ كُلِّيَّةٍ ، أَوْ جَاءَتْ مِنْ أَوْرَبَةٍ بِالْعَالِمِيَّةِ ... أَتَذَرِينِي آيَةً مُعْجِزَةً مُضَرِّيَةً فِي هَذَا تَبَاهِي بِهَا مُضِرٌّ ؟

إِنَّ الْمُعْجِزَةَ أَنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ صَارَتْ مُدْرَسَةً ، أَوْ مُفْتَشَّةً ، أَوْ نَاطِرَةً فِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ ؛ أَوْ مُؤَلِّفَةً كُتُبَ وَرَوَايَاتٍ ، أَوْ مُحَرَّرَةً فِي صَحِيفَةٍ مِنَ الصُّحُفِ . وَلَا يَصْغُرَنَّ عِنْدَكَ شَأْنُ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ ، فَهِيَ وَاللَّهُ مُعْجِزَةٌ مَا دَامَ يَتَحَقَّقُ بِهَا خُرُوجُ الْفَتَاةِ مِنْ حُكْمِ الطَّبِيعَةِ عَلَيْهَا ، وَيَقَاوُمَا فِي الْأَجْتِمَاعِ الْمِضْرِيِّ أُمْرًا بِلَا تَأْنِيثٍ ، أَوْ انْقِلَابًا فِيهِ رَجُلًا بِلَا تَذَكُّيرٍ !

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ أَنْ تَأْلِيفَ رِوَايَةٍ قَدْ أَغْنَى عَنْ تَأْلِيفِ أُسْرَةٍ ؛ وَأَنَّ فَتَاةً تَعِيشُ وَتَمُوتُ وَمَا وَلَدَتْ لِلْأُمَّةِ إِلَّا مَقَالَاتٍ ... ؟

فَقُلْتُ : يَا صَاحِبِي ! دَعْ هَؤُلَاءِ وَخُذْ الْآنَ فِي حَدِيثِ الطَّائِشَةِ الْخَارِجَةِ عَلَى التَّقَالِيدِ ، وَقَدْ قُلْتُ إِنَّهَا عَرَضَتْ لَكَ كَمَا يَغْرِضُ الْمَصَارِعُ لِلْمَصَارِعِ .

قَالَ : عَرَضَتْ لِي تُرِيدُ أَنْ تُصَرِّفَنِي كَيْفَ شَاءَتْ ، فَنَبُذْتُ فِي يَدِهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَى رَغْبَتِهَا إِضْرَارَهَا عَلَى هَذِهِ الرِّغْبَةِ ، فَالْتَوَيْتُ عَلَيْهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَيْهَا خَشْيَةُ الْيَأْسِ وَالْخَبِيَّةِ ، فَتَعَسَّرَتْ مَعَهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَى هَذِهِ كُلِّهَا نَوْرَةُ كِبْرِيَانِهَا ، فَلَمْ أَتَسَهَّلْ ؛ فَانْتَهَتْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ

بَعْدَ الرِّغْبَةِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ الْعَبَثِ وَالذَّلَالِ ، إِلَى الرِّغْبَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ الْحُبِّ وَالْهَوَى : رَغْبَةٍ تَعْدِينِي بِهَا لِأَنَّهَا مُتَعَدِّبَةٌ بِي .

ثُمَّ رَدَّتْهَا الطَّبِيعَةُ صَاعِرَةً إِلَى حَقَائِقِهَا السَّلْبِيَّةِ ، فَإِذَا الْكِبْرِيَاءُ فِيهَا إِنَّمَا كَانَتْ خُضُوعًا يَتَرَاءَى بِالْعُضْيَانِ ، وَإِذَا الرِّغْبَةُ فِي تَعْدِيبِ الرَّجُلِ إِنَّمَا كَانَتْ التَّمَسُّسًا لِأَنْ تَنَعَّمَ بِهِ ، وَإِذَا الْإِضْرَارُ عَلَى إِخْضَاعِ الرَّجُلِ وَإِذْلَالِهِ إِنَّمَا كَانَ إِضْرَارًا عَلَى تَجَرَّتِهِ وَدَفْعِهِ أَنْ يَسْتَبِدَّ وَيَمْلِكَ ؛ وَرَدَّتْهَا الطَّبِيعَةُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ النُّسُوءِ الصَّرِيحَةِ ، الَّتِي بُنِيَتْ الْمَرْأَةُ عَلَيْهَا شَاءَتْ أَمْ أَبَتْ ، وَهِيَ أَنْ تُعَانِي وَتُضَيَّرَ عَلَى مَا تُعَانِي !

أَمَا أَنَا فَأَجَبْتُهَا حُبًّا عَفَلِيًّا ، وَكَانَ هَذَا يَشْتَدُّ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ إِشْفَاقٌ لَا حُبٌّ ؛ وَكَانَتْ إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْ أَمْرِ تَزَنَّتْ فِيهِ ، قَالَتْ : أَجِبْنِي بِلِسَانِ الصَّدِّقِ لَا بِلِسَانِ الشَّفَقَةِ . وَكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّ فِي عَيْنَيْهَا بُكَاءً لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُذِيلَهُ مَعَ الدَّمْعِ ، وَسَيَقْتُلُهَا هَذَا الْبُكَاءُ الَّذِي لَا يُبْكِي ، وَقَدْ اتَّخَذَتْ لَهَا فِي دَارِهَا خَلْوَةً سَمَّتْهَا : مِخْرَابَ الدَّمْعِ ! ، قَالَتْ : لِأَنَّهَا تَبْكِي فِيهَا بُكَاءَ صَلَاةٍ وَحُبٍّ ، لَا بُكَاءَ حُبٍّ فَقَطْ !

ثُمَّ طَاشَتْ الطَّبِيعَةُ الْكُبْرَى ... !

\* \* \*

قُلْتُ : وَمَا الطَّبِيعَةُ الْكُبْرَى ؟

قَالَ : إِنَّهَا كَتَبَتْ إِلَيَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ :

« عَزِيزِي رَغِمَ أَنْفِي ... »

« لَقَدْ أَذَلَّتْنِي بِشَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّكَ لَمْ تَذَلَّ لِي ، وَجَعَلْتَنِي - عَلَى تَعْلِيمِي - أَشَدَّ جَهْلًا مِنَ الْجَاهِلَةِ ؛ وَقَدْ نَسِيتُ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُتَعَلِّمَةَ تَعْرِفُ ثُمَّ تَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ : تَعْرِفُ كَيْفَ تُخْطِئُ إِذَا وَجِبَ أَنْ تُخْطِئَ ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَعْرِفَةُ الْأُولَى ؛ أَمَّا الْمَعْرِفَةُ الثَّانِيَّةُ فَتَوْهَمُهَا أَنْتَ ، فَكَأَنِّي قُلْتُهَا لَكَ ... »

« أَغْلَمَ - يَا عَزِيزِي رَغِمَ أَنْفِي - أَنِّي إِذَا لَمْ أَكُنْ عَزِيزَكَ رَغِمَ أَنْفِكَ ، فَسَأَتِي مَا يَجْعَلُكَ

سَلَفًا وَتَمَلًّا ، وَسَتَكْتُبُ الصُّحُفَ عَنْكَ أَوَّلَ حَادِثٍ يَقَعُ فِي مِصْرَ عَنْ أَوَّلِ رَجُلٍ اخْتَطَفَتْهُ قَتَاةٌ ... !

« وَبَعْدُ ، فَقَدْ أَرْسَلْتُ رُوحِي تُعَانِقُ رُوحَكَ ، فَهَلْ تَشْعُرُ بِهَا ؟ » .

قَالَ : فَوَجَمْتُ سَاعَةً وَتَبَيَّنَتْ لِي خِفَّتُهَا ، وَظَهَرَ لِي سَفَاهُهَا وَطَيْشُهَا ، فَاسْرَعْتُ إِلَيْهَا فَجِئْتُهَا فَأَجِدُهَا كَالْقَاضِي فِي مَحْكَمَتِهِ ، لَا عَقْلَ لَهُ إِلَّا عَقْلُ الْحُكْمِ الْقَانُونِيِّ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ ، وَلَا إِنْسَانٌ فِيهِ إِلَّا الْإِنْسَانُ الْمُقَيَّدُ بِمَادَّةٍ كَذَا إِذَا حَدَثَ كَذَا ، وَالْمَادَّةُ كَذَا حِينَ يَكُونُ وَصْفُ الْمُجْرِمِ كَذَا ... !

فَقُلْتُ لَهَا : أَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي تَعْلَمْنِهِ ؟ أَلَا يَكُونُ عِلْمُ الْمَرْأَةِ خَلِيقًا أَنْ يَجْعَلَ صَاحِبَتَهُ ذَاتَ عَقْلَيْنِ إِذَا كَانَتْ الْجَاهِلَةُ بِعَقْلِ وَاحِدٍ ؟

قَالَتْ : أَلْعِلْمُ ؟

قُلْتُ : نَعَمْ ، أَلْعِلْمُ .

قَالَتْ : يَا حَبِيبِي ، إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ هُوَ الَّذِي وَضَعَ الْمُسَدَّسَ فِي يَدِ الْمَرْأَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ لِعَاشِقِهَا ، أَوْ مَشْرُوقِهَا ! ثُمَّ أَطْرَقَتْ قَلِيلًا وَتَنَهَّدَتْ وَقَالَتْ : وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْفَتَاةَ هُنَاكَ تَتَزَوَّجُ بِإِزْشَادِ الرِّوَايَةِ الَّتِي تَقْرُؤُهَا وَلَوْ أَنْقَلَبَ الزَّوْاجُ رِوَايَةً ... وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي كَشَفَ حِجَابَ الْفَتَاةِ عَنْ وَجْهِهَا ، ثُمَّ عَادَ فَكَشَفَ حَيَاءَ وَجْهِهَا ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَوَاجِهَ حَقَائِقَ الْجِنْسِ الْآخِرِ وَتَعْرِفَهَا مَعْرِفَةً عِلْمِيَّةً ... وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَطَا الْمَرْأَةِ الْجِنْسِيَّ مَغْفُورًا عَنْهُ مَا دَامَ فِي سَبِيلِ مُوَاجَهَةِ الْحَقَائِقِ لَا فِي سَبِيلِ الْهَرَبِ مِنْهَا ... وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَرْأَةَ مُسَاوِيَةً لِلرَّجُلِ ، وَأَكَّدَ لَهَا أَنَّ وَاحِدًا وَوَاحِدًا هُمَا وَاحِدٌ وَكِلَاهُمَا أَوَّلُ ... وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي عَرَى أَجْسَامَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يَبْرَهَانِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ ... وَالْعِلْمُ يَا عَزِيزِي هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي مَحَا مِنَ الْعَالَمِ لَفْظَةَ (أَمْسٍ) لَا يَعْرِفُهَا وَإِنْ كَانَتْ فِيهَا الْأَدْيَانُ وَالتَّقَالِيدُ ...

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُهَا : فَقُلْتُ لَهَا : كَأَنَّ الْعِلْمَ إِفْسَادٌ لِلْمَرْأَةِ ! وَكَأَنَّهُ تَغْلِيمٌ مَعْرَازَتِهَا وَنَقَائِصِهَا ، لَا تَغْلِيمٌ فَضَائِلِهَا وَمَحَاسِنِهَا ...

قَالَتْ : لَا ، وَلَكِنَّ عَقْلَ الْمَرْأَةِ هُوَ عَقْلٌ دَائِمًا ، وَدَائِمًا عَقْلٌ أَتَمُّ ؛ وَفِي رَأْسِهَا دَائِمًا جَوْ قَلْبِهَا ، وَجَوْ قَلْبِهَا دَائِمًا فِي رَأْسِهَا ؛ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَدْرَسَتُهَا مُتَمِّمَةً لِذَارِهَا وَمَا فِي ذَارِهَا ، تَمَّتَتْ فِيهَا الشَّارِعَ وَمَا فِي الشَّارِعِ .

أَلْعِلْمُ لِلْمَرْأَةِ ؛ وَلَكِنْ يَشْرُطُ أَنْ يَكُونَ الْأَبُ وَهِيئَةُ الْأَبِ أَمْرًا مُقَرَّرًا فِي الْعِلْمِ ، وَالْأَخِ وَطَاعَةِ الْأَخِ حَقِيقَةً مِنْ حَقَائِقِ الْعِلْمِ ؛ وَالزَّوْجُ وَسِيَادَةُ الزَّوْجِ شَيْئًا ثَابِتًا فِي الْعِلْمِ ، وَالْاجْتِمَاعُ وَزَوَاجِرُهُ الدِّينِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ قَضَايَا لَا يَنْسَحُهَا الْعِلْمُ . بِهِذَا وَخَذَهُ يَكُونُ النِّسَاءُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مَصَانِعَ عِلْمِيَّةٍ لِلْفَضِيلَةِ وَالْكَمَالِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَبْدَأُ تَارِيخُ الطِّفْلِ بِأَسْبَابِ الرُّجُولَةِ الثَّامَةِ ، لِأَنَّهُ يَبْدَأُ مِنَ الْمَرْأَةِ الثَّامَةِ .

أَمَّا بَغْيَرُ هَذَا الشَّرْطِ ، فَالْمَرْأَةُ الْفَلَّاحَةُ فِي حِجْرِهَا طِفْلٌ قَدِيرٌ ، هِيَ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ مِنْ أَكْبَرِ أَدِيبِيَّةٍ تُخْرِجُ ذُرِّيَّةً مِنَ الْكُتُبِ ...

أَنْظُرْ يَا عَزِيزِي رَغَمَ أَنْفِي ، هَذِهِ رِسَالَةٌ جَاءَتْنِي الْيَوْمَ مِنْ صَدِيقَتِي فَلَانَةَ الْأَدِيبِيَّةِ أَل ... فَاسْمَعْ قَوْلَهَا :

« ... وَأَنَا أَعِيشُ الْيَوْمَ فِي الْجَمَالِ ، لِأَنِّي أَعِيشُ فِي بَعْضِ خَفَايَا الْحَبِيبِ ... » .

« وَفِي الْحَيَاةِ مَوْتُ حُلُوٍّ لَدَيْنِي ؛ عَرَفْتُ ذَلِكَ حِينَمَا نَسِيتُ نَفْسِي عَلَى صَدْرِهِ الْقَوِي ، وَحِينَمَا نَسِيتُ عَلَى صَدْرِهِ الْقَوِي صَدْرِي ... » .

أَسَمِعْتُ يَا عَزِيزِي ؟ إِنَّ كُنْتُ لَمَّا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ عِلْمُ أَكْثَرِ الْفَتَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ حِينَ يَكْسُدُ الزَّوْاجُ - فَاعْلَمْنِي . وَمَتَى عِمِّي الشَّعْبُ وَالْحُكُومَةُ هَذَا الْعَمَى ، فَإِنَّ حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ لَا تَكُونُ أَبَدًا إِلَّا حُرِّيَّةَ الْفِكْرَةِ الْمُحَرَّمَةِ !

\* \* \*

قُلْتُ لِصَاحِبَتِي : ثُمَّ مَاذَا ؟

قَالَ : ثُمَّ هَذَا ... وَدَسَّ يَدَهُ فِي جَنِبِي فَأَخْرَجَ أَوْرَاقًا كَتَبَ فِيهَا رِوَايَةً صَغِيرَةً أَسَمَاهَا « الطَّائِشَةُ » .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



وهَذَا مُحْصَلُ رِوَايَةِ «الطَائِشَةِ»، نَقَلْنَاهُ مِنْ خَطِّ الْكَاتِبِ عَلَى مَسَاقٍ مَا دَوَّنَهُ فِي أَوْرَاقِهِ، وَعَلَى سَرْدِهِ الَّذِي قَصَّ بِهِ الْحَبَرَ؛ وَقَدْ أَعْطَانَا مِنَ الْبُرْهَانِ مَا نُنْظِمُهُ إِلَيْهِ أَنَّ هَذِهِ «الطَائِشَةُ» هِيَ مِنْ تَأْلِيْفِ الْحَيَاةِ لَا مِنْ تَأْلِيْفِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَرْغْ مِنْهَا حَادِثَةً، وَلَمْ يَأْتِفِكْ حَدِيثَنَا، وَلَمْ يَزِدْهَا بِفَضِيلَةٍ، وَلَمْ يَنْقُصْهَا بِمَعْرَةٍ؛ ثُمَّ أَشْهَدُ<sup>(١)</sup> عَلَى قَوْلِهِ كُتِبَ صَاحِبِيهِ الْأَدِينِيَّةِ الْمُسْتَهْتَرَةِ الَّتِي لَا تَبَالِي مَا قَالَتْ وَلَا مَا قِيلَ فِيهَا؛ وَهَذِهِ الْكُتُبُ رَسَائِلُ: مِنْهَا الْمَوْجُزُ وَمِنْهَا الْمُسْتَفِيدُ، وَهِيَ بِجُمْلَتِهَا تَنْزِلُ مِنَ الرِّوَايَةِ مَنْزِلَةَ الشُّرُوحِ الْمُفْتَنَةِ، وَتَنْزِلُ الرِّوَايَةُ مِنْهَا مَنْزِلَةَ اللَّمَعِ الْمُفْتَضِبَةِ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَكُلُّ ذَلِكَ بَعْضُهُ شَاهِدٌ عَلَى بَعْضٍ.

قَالَ كَاتِبُ (الطَائِشَةِ):

كُنْتُ رَجُلًا غَرَلًا وَلَمْ أَكُنْ فَاسِقًا، وَلَسْتُ كَهَلْوَإِ الشُّبَّانِ الَّذِينَ أُصِيبُوا فِي إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ فَأُصِيبُوا فِي إِيمَانِهِمْ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ، وَذَهَبُوا يُحَقِّقُونَ الْمَدِينَةَ فَحَقَّقُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْمَدِينَةَ.

تَرَى أَحَدَهُمْ شَرِيفًا يَأْتِفُ أَنْ يَكُونَ لِيصًا وَأَنْ يُسَمَّى لِيصًا، ثُمَّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلَ اللَّصِّ فِي اسْتِثْلَابِ الْعَفَافِ وَسَرَقَةِ الْفَتَيَاتِ مِنْ تَارِيخِهِنَّ {الْاجْتِمَاعِي}؛ وَتَرَاهُ نَجْدًا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَكُونَ فِي أَوْصَافِ قَاطِعِ الطَّرِيقِ، ثُمَّ يَأْتِي إِلَّا أَنْ يَقْطَعَ الطَّرِيقَ فِي حَيَاةِ الْعَذَارَى وَشَرَفِ النِّسَاءِ.

أَكْثَرُ أَوْلِيَاكَ الشُّبَّانِ الْمُتَعَلِّمِينَ يَغْرِضُونَ لِلْفَتَيَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ بِوُجُوهِ مَضْفُوزَةٍ تَحْتَمِلُ

(\*) «الرسالة» العدد: ١٠٣، ٢٣ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٤ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م،

السنة الثالثة، الصفحات: ١٠٠٣ - ١٠٠٦.

(١) فِي الْأَصْلِ: «وَأَشْهَدُ» بِدَلَالَةٍ مِنْ: «ثُمَّ أَشْهَدُ».

شَيْئَيْنِ: الْحُبُّ وَالصَّنْعُ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ هَلْوَإِ الْمُتَعَلِّمَاتِ يَضَعْنَ الْقُبْلَةَ فِي مَكَانِ الصَّفَةِ، إِذْ كَانَ الْعِلْمُ قَدْ حَلَلَ الْغَرِيزَةَ الَّتِي فِيهِنَّ فَعَادَتْ بَقَايَا لَا تَسْتَسْمِكُ؛ وَبَصَرُهُنَّ بِأَشْيَاءَ تَزِيدُ قُوَّةَ الْحَيَاةِ فِيهِنَّ خَطَرًا، وَتُوْجِحِي إِلَيْهِنَّ وَحْيَهَا مِنْ حَيْثُ يَشْعُرْنَ وَلَا يَشْعُرْنَ؛ وَصُورَ فِي أَوْهَامِهِنَّ صُورًا مَحَبِّ الصُّورِ الَّتِي كَانَتْ فِي عَقَائِدِهِنَّ؛ وَأَخْرَجَهُنَّ مِنَ السَّلْبِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي حَمَاهُنَّ اللَّهُ بِهِ، فَلَهُنَّ الْعِفَّةُ وَالْحَيَاءُ، وَلَكِنَّ لَيْسَ لَهُنَّ ذَلِكَ الْعَقْلُ الْغَرِيزِيُّ الَّذِي يَجِيءُ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْعِفَّةِ؛ وَكَثِيرَاتٌ مِنْهُنَّ يَخْشَيْنَ الْعَارَ وَسِمَتَهُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَلَكِنَّ خَشْيَةَ فُقْهَاءِ الْجَبَلِ الشَّرْعِيَّةِ، قَدْ أَرْصَدُوا لِكُلِّ وَجْهِ مِنَ التَّحْرِيمِ وَجْهًا مِنَ التَّخْلِيلِ، فَأَصْبَحَ امْتِنَاعُ الْإِنْمِ هُوَ أَلَّا تَكُونَ إِلَيْهِ حَاجَةً...

وَالْعَقْلُ الَّذِي بِهِ التَّفَكُّيرُ يَكُونُ أَحْيَانًا غَيْرَ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ الْعَمَلُ؛ فَنَبِي بَغْضِ الْجَاهِلَاتِ يَكُونُ عَقْلُ الْحَيَاءِ وَالْعِفَّةِ وَالشَّرَفِ وَالذِّينِ - غَرِيزَةً كَغَرَائِزِ الْوُخْشِ، هِيَ الْفِكْرَةُ وَهِيَ الْعَمَلُ جَمِيعًا، وَهِيَ أَبَدًا الْفِكْرَةُ وَالْعَمَلُ جَمِيعًا لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ، وَلَا يَقَعُ فِيهَا التَّنْفِيعُ الشَّعْرِيُّ وَلَا الْفَلَسْفِيُّ... وَمَا غَرِيزَةُ الْوُخْشِ إِلَّا إِيمَانُهُ بِمَنْ خَلَقَهُ وَخَشَا؛ وَكَذَلِكَ غَرِيزَةُ الشَّرَفِ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ عِنْدِي حَقِيقَةُ إِيمَانِهَا بِمَنْ خَلَقَهَا أَنْتَى.

وَشَرَفُ الْمَرْأَةِ رَأْسُ مَالٍ لِلْمَرْأَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ لَهُ فِي أَوْهَامِ الْعِلْمِ أَشْتِرَاكِيَّةٌ بِحَسَبِهِ تَنْظُرُ فِيهِ نَظَرَهَا وَتَرْنِيعُ زِينَتِهَا وَتَقْضِي حُكْمَهَا؛ وَأَكْثَرُ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمَاتِ قَدْ أَنْتَهَوْا بِطَبِيعَتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ إِلَى الرُّضَى بِهِلَةِ الْأَشْتِرَاكِيَّةِ، وَإِلَى التَّسَامُحِ فِي كَثِيرٍ، وَإِلَى وَضْعِ الْأَعْتِدَارِ فِيمَا لَا يَقْبَلُ عُذْرًا، وَمِنْ هَا هُنَا كَانَ بَعْضُ الْجَاهِلَاتِ كَالْحِصْنِ الْمُغْلَقِ فِي قِمَّةِ الْجَبَلِ الْوَعْرِ، وَكَانَ بَعْضُ الْمُتَعَلِّمَاتِ دُونَ الْحِصْنِ، وَدُونَ الْقِمَّةِ، وَدُونَ الْجَبَلِ، حَتَّى تَنْزِلَ إِلَى السَّهْلِ فَتَرَاهُنَّ ثَمَّةً.

لَقَدْ غَفَلَتِ الْحُكُومَاتُ عَنْ مَعْنَى الدِّينِ وَحَقِيقَتِهِ، فَلَوْ عَرَفَتْ لَعَرَفَتْ أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالذِّينِ وَالْعِلْمِ كِلَيْهِمَا؛ فَإِنَّ فِي الرَّجُلِ إِنْسَانًا عَامًّا وَنَوْعًا خَاصًّا مُذَكَّرًا، وَفِي الْمَرْأَةِ إِنْسَانًا عَامًّا كَذَلِكَ، وَنَوْعًا خَاصًّا مُؤَنَّثًا. وَالدِّينُ وَخَدَهُ هُوَ الَّذِي يُصْلِحُ النَّوْعَ بِتَحْقِيقِ الْفَضِيلَةِ وَتَقْرِيرِ الْعَالِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي يُحَاجِزُ بَيْنَ الْغَرِيزَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَضَعُ الْقُوَّةَ الرُّوحِيَّةَ فِي طَبِيعَةِ الْمُتَعَلِّمِ؛ فَإِنَّ كَانَتْ طَبِيعَةُ التَّعْلِيمِ قُوَّةً، كَانَتْ الرُّوحِيَّةُ

زِيَادَةً فِي الْقُوَّةِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ ضَعِيفَةً كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، لَمْ تَجْمَعْ الزُّوجِيَّةَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ ضَعْفَيْنِ ، يَتَّبِعِي كِلَاهُمَا الْآخَرُ وَيَزِيدُهُ .

\* \* \*

فُلَانٌ وَفُلَانٌ تَعَلَّقَا فَتَاتَيْنِ جَاهِلَةً وَمُتَعَلِّمَةً ؛ وَكِلَاهُمَا قَدْ صَدَّتْ صَاحِبَهَا وَامْتَنَعَتْ مِنْهُ ؛ فَأَمَّا الْجَاهِلَةُ فَيَقُولُ (فُلَانُهَا) : إِنَّهَا كَالْوَحْشِ ، وَإِنْ صُدُّوْهَا لَيْسَ صُدُّوْهَا حَسْبُ ، بَلْ هُوَ ثَوْرَةٌ مِنْ فَضِيلَتِهَا وَإِيمَانِهَا ، فِيهَا الْمَعْنَى الْحَرْبِيُّ مُجَاهِدًا مُتَحَفِّرًا لِلْقَتْلِ ...

وَأَمَّا الْمُتَعَلِّمَةُ فَيَقُولُ (فُلَانُهَا) : إِنَّهَا كَكُلِّ أَمْرَأَةٍ ، وَإِنْ صُدُّوْهَا ثَوْرَةٌ ، وَلَكِنْ مِنْ دَلَالِهَا تُرْضِي بِهٍ أَوَّلَ مَا تُرْضِي وَآخِرَ مَا تُرْضِي - كِبَرِيَاءَ الْجَمَالِ فِيهَا لَا الْإِيمَانَ وَلَا الْفَضِيلَةَ . فَكَأَنَّهَا إِيحَاءٌ لِلطَّامِعِ أَنْ يَزِيدَ طَمَعًا أَوْ يَزِيدَ اخْتِيَالًا ...

وَفُلَانٌ هَذَا يَقُولُ لِي : إِنْ ضَعَفَاءَ الْإِيمَانِ مِنَ الشُّبَّانِ الْمُتَعَلِّمِينَ - وَأَكْثَرُهُمْ ضُعَفَاءُ الْإِيمَانِ - لَوْ حَقَّقْتَ أَمْرَهُمْ وَبَلَوْتَ سَرَائِرَهُمْ ، لَتَبَيَّنْتَ أَنَّهُمْ جَمِيعًا لَا يَرُونَ قَلْبَ الْفَتَاةِ الْمُتَعَلِّمَةِ إِلَّا كَالدَّارِ الْخَالِيَةِ كُتِبَ عَلَيْهَا : (لِلْإِنْبَارِ) ... !

\* \* \*

يَقُولُ كَاتِبُ « الطَّائِشَةِ » :

أَمَّا أَنَا فَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ سِيَاسَةَ أَكْثَرِ الْمُتَعَلِّمَاتِ هِيَ سِيَاسَةُ فَتَحِ الْعَيْنِ حَدَرًا مِنَ الشُّبَّانِ جَمِيعًا ؛ وَإِعْظَاضِ الْعَيْنِ لِوَاحِدٍ فَقَطْ ...

وَهَذَا الْوَاحِدُ هُوَ الْبَلَاءُ كُلُّهُ عَلَى الْفَتَاةِ ، فَإِنَّهَا بِطَبِيعَتِهَا تَتَّقِدُ وَلَا تَنْفَصِلُ إِلَّا مُكْرَهَةً ، وَهُوَ بِطَبِيعَتِهِ قَائِدُهُ لَذَنَّهُ ، فَيَنْفَصِلُ وَتَنْفَصِلُ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ هَذَا الْوَاحِدِ ، فَفِكْرُهَا الْمُتَعَلِّمُ يُوجِي إِلَيْهَا بِالْحَيَاةِ لَا يَجْعَلُ فِي ذَلِكَ مَوْضِعًا لِلتَّكْبِيرِ عِنْدَهَا ، وَالْحَيَاةُ نِصْفُ مَعَانِيهَا النَّفْسِيَّةِ فِي الصَّدِيقِ ؛ فَالْأَثَوَّةُ بغيره مُظْلِمَةٌ فِي حَيَاتِهَا ، رَاكِدَةٌ فِي طَبَاعِهَا ، ثَقِيلَةٌ عَلَى نَفْسِهَا ، مَا دَامَ « الشُّعَاعُ » لَا يَلْمُسُهَا ...

وَالَّذِينَ يَأْبَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الصَّدِيقُ إِلَّا الزَّوْجُ فِي شُرُوطِهِ وَعَهْدِهِ ، كَيْلًا تَتَّقِدُ الْمَرْأَةُ إِلَّا بِمَنْ يَتَّقِدُ بِهَا ؛ وَالْعِلْمُ لَا يَأْبَى أَنْ يَكُونَ الصَّدِيقُ هُوَ الْحُبُّ ؛ وَالْفَرْقُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ

هُوَ الْحُبُّ ؛ وَلَيْسَ فِي الْحُبِّ شُرُوطٌ وَلَا عَهْدٌ ، إِلَّا وَسَائِلُ تُخْتَلَقُ لِيُوفِّيَهَا ، وَأَكْثَرُهَا مِنْ الْكُذْبِ وَالنَّفَاقِ وَالْخَدِيعَةِ ؛ وَلَفْظُ الْحُبِّ نَفْسُهُ لِمَنْ لُغَوِيَّ حَيْثُ ، يَسْرِقُ الْمَعَانِي الَّتِي لَيْسَتْ لَهُ وَيُنْفِقُ مِمَّا يَسْرِقُ . وَلَيْسَ مِنْ أَمْرَةٍ يَخْتَدِعُهَا عَاشِقٌ إِلَّا أَنْكَشَفَ لَهَا حُبَّهُ كَمَا يَنْكَشِفُ اللَّصُّ { حِينَ يُمْسِكُ } .

\* \* \*

يَقُولُ كَاتِبُ « الطَّائِشَةِ » :

تِلْكَ فَلَسَفَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي التَّوْطِئَةِ لِلْكِتَابَةِ عَنْ (عَزِيزَتِي رَغَمَ أَنْفِي) . وَمَنْ كَانَتْ مِثْلَهَا فِي أَفْكَارِهَا وَاسْتِدْلَالِهَا وَحُجَجِهَا وَطَرِيقَتِهَا - كَانَ خَلِيقًا بِمَنْ يَكْتُبُ قِصَّتَهَا أَنْ يَجْعَلَ الْقِصَّةَ مِنْ أَوَّلِهَا مُسْلَحَةً ...

لَقَدْ تَكَارَهْتُ عَلَى بَغْضِي مَا أَرَادَتْ مِنِّي مَا دَامَ الْحُبُّ (رَغَمَ أَنْفِي) ، وَمَا دَامَتِ السِّيَاسَةُ أَنْ أَدَارِيهَا وَأَتَّبِعَ مَحَبَّتَهَا ؛ غَيْرَ أَنِّي صَارَحْتُهَا بِكَلِمَةِ شَمْسِيَّةٍ تَلْمَعُ تَحْتَ الشَّمْسِ ، أَنَّهَا الصَّدَاقَةُ لَا الْحُبُّ ، وَأَنَّهَا هُوَ اللَّهُوُّ الْبَرِّيُّ لَا غَيْرُهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ جُهْدُ مَا أَنَا قَوِيٌّ عَلَيْهِ وَفِي بِهِ .

قَالَتْ : فَلْيَكُنْ ، وَلَكِنْ صَدَاقَةٌ أَعْلَى قَلِيلًا مِنَ الصَّدَاقَةِ ... وَلَوْ مِنْ هَذَا الْحُبِّ الْمُتَكَبِّرِ الَّذِي لَا يَصْدُقُ كَيْلًا يَكْذِبُ ... إِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْحُبِّ يَطِيشُ بِعَقْلِ الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ أَوَّلُ مَا يَسْتَهْجِمُهَا وَيُعْجِبُهَا وَيُورِثُهَا التَّيَاعُ الْحَنِينَ { وَالشَّوْقُ } .

\* \* \*

كَتَبْتُ لِي : « أَنَا لَا أَتَاكُمُ فِي هَوَاكَ بِالْأَلَمِ ، وَلَكِنْ بِأَشْيَاءٍ مِنْكَ أَقْلُهَا الْأَلَمُ ؛ وَلَا أَخْزَنُ بِالْخُزْنِ ، وَلَكِنْ بِهَمُومٍ بَعْضُهَا الْخُزْنُ .

إِنَّكَ صَنَعْتَ لِي بُكَاءً وَدُمُوعًا وَتَهْدِاتٍ ، وَجَعَلْتَ لِي ظَلَامًا مِنْكَ وَنُورًا مِنْكَ ، يَا نَهَارِي وَلَيْلِي . تَرَى مَا أَسْمُ هَذَا النَّوعِ مِنَ الصَّدَاقَةِ ؟

أَسْمُهُ الْحُبُّ ؟ لَا .

أَسْمُهُ الْكِبَرِيَاءُ ؟ لَا .

اسْمُهُ الْخَنَانُ ؟ لَا .

اسْمُهُ حُبْلَكَ أَنْتَ ، أَنْتَ أَيْهَا الْغَامِضُ الْمُتَقَلِّبُ . أَلَا تَرَى الْفَاطِمِي تَبْكِي ، أَلَا تَسْمَعُ قَلْبِي يَصْرُخُ ، بِأَيِّ عَذْلِكَ أَوْ بِأَيِّ عَذْلِ النَّاسِ تُرِيدُ أَنْ أَخْبَا فِي عَالَمِ شَمْسِهِ بَارِدَةٌ . . . هَذَا قَتْلٌ ، هَذَا قَتْلٌ .

فَكَتَبْتُ إِلَيْهَا : « إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا جُنُونًا فَإِنَّهُ <sup>(١)</sup> لَقَرِيبٌ مِنْهُ » .

فَوَدَّتُ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ :

أَتُكَايِنُنِي بِاسْتَلُوبِ التَّلْغَرَاَفِ <sup>(٢)</sup> . . . ؟ لَوْ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ عِفْدًا مِنَ الزُّمُرِدِ حَبَانُهُ بِعَدَدِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ لَكُنْتُ بِخَيْلًا ، فَكَيْفَ وَهِيَ الْفَاطُ ؟ إِنِّي لِأَبْكِي فِي غَمَضَةٍ وَاحِدَةٍ بِدُمُوعٍ أَكْثَرَ عَدَدًا مِنْ كَلِمَاتِكَ ، وَهِيَ دُمُوعٌ مِنَ الْآمِينِ وَأَخْزَانِي ؛ وَتِلْكَ الْفَاطُ مِنْ لَهْوِكَ وَعَبَبِكَ !

مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ كَتَبْتُ لِي بِضْعَةَ أَصْطُرٍ تَسْخَعُهَا مِنْ تَلْغَرَاَفَاتِ رُوتَر <sup>(٣)</sup> . . . مَا دُمْتُ تَسْخَرُ مِنِّي ؟ أَأَلَيْتُ الشَّبَابَ وَأَنَا الْكُهُولَةُ ، فَلَيْسَ لَكَ بِالطَّبِيعَةِ إِلَّا الْإِنْصِرَافُ عَنِّي ، وَلَيْسَ لِي بِالطَّبِيعَةِ إِلَّا الْخَيْنُ إِلَيْكَ ؟ .

\* \* \*

لَا أَذْرِي كَيْفَ أَحْبَبْتُهَا ، وَلَا كَيْفَ دَعَنْتِي إِلَيْهَا نَفْسِي ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي أَعْلَمُهُ أَنِّي تَخَادَعْتُ لَهَا وَقُلْتُ : إِنَّ الْمُسْتَحِيلَ هُوَ مَنْعُ هَذَا الشَّرِّ ، وَالْمُمْكِنُ هُوَ تَخْفِيفُهُ ؛ ثُمَّ أَقْبَلْتُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « إِنَّهُ » بِدَلَالَةٍ مِنْ : « فَإِنَّهُ » .

(٢) هُوَ مَا عُرِفَ أَخِيرًا بِالتَّلْغَرَاَفِ ، Telegramme أو Telegraphie ، يُقْصَرُ اسْتِعْمَالُ هَذَا الرِّسْمِ عَلَى التَّرَاسُلِ الْكَهْرَبِيِّ ، وَاسْتِعْمَلُ قَدِيمًا لِيَدُلَّ عَلَى طُرُقِ إِسْالِ الْإِشَارَاتِ بِالصَّوْتِ أَوْ النَّظَرِ خَارِجَ نِطَاقِ الصَّوْتِ الْإِنْسَانِيِّ . بِشَام .

(٣) Reuters ، وَكَالَةُ أَنْبَاءٍ عَالَمِيَّةٍ ، تَأَسَّسَتْ عَامَ ١٨٥١ م عَلَى يَدِ الْيَهُودِيِّ الْإِنْكَلِيزِيِّ الْأَلْمَانِيِّ الْأَصْلَ بُولِ يُولْيُوسِ رُوتِر فِي لَنْدُنْ ، حَيْثُ بَدَأَ عَامَ ١٨٤٩ م مُسْتَعْمِلًا الْحَمَامَ الزَّاجِلَ فِي نَقْلِ أَسْجَارِ الْأَسْهَمِ بَيْنَ مَدِينَةِ آخَنْ وَبِرُوكْسِيلِ لَيْسَدَ فَجْوةً فِي سِلْكِ التَّلْغَرَاَفِ الْوَاصِلِ بَيْنَ بَرْلِينِ وَبَارِيسَ ، ثُمَّ أَسَّسَ وَكَالَتَهُ التَّلْغَرَاَفِيَّةَ فِي لَنْدُنْ عَامَ ١٨٥١ م ، وَبَدَأَ بِنَشْرِ مَكَاتِبِهِ فِي مُخْتَلَفِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ عَامَ ١٨٥٨ م ، وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْمَوْسُوسَةُ حَيَّةً لِنَايَةِ تَارِيخِهِ ، وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَوْسُوسَاتِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي تَنْقُلُ أَحْدَثَ الْأَنْبَاءِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْأَسْجَارِ . بِشَام .

أَرْزَنِي لَهَا ، وَأَخَفَّفْتُ عَنْهَا ، وَأَقْبَلْتُ هِيَ تُضَاعِفُ لِي مَكْرَهَا وَخَدِيعَتَهَا ، وَكَانَ الْأَمْرُ بَيْنَنَا كَمَا قَالَتْ : « فِي الْحُبِّ وَالْخُزْبِ لَا يَكُونُ الْهُجُومُ هُجُومًا وَفِيهِ رِفْقٌ أَوْ تَرَاجُعٌ » .

إِنَّ الْمَرْأَةَ وَخَدَهَا هِيَ الْيَنِّي تَعْرِفُ كَيْفَ تُقَاتِلُ بِالصَّبْرِ وَالْأَنَاءِ ؛ وَلَا يُشِبُّهَا فِي ذَلِكَ إِلَّا دُهَاءُ الْمُسْتَبِدِّينَ .

\* \* \*

سَأَلْتَنِي أَنْ أَهْدِيَ إِلَيْهَا رَسْمِي ؛ فَاعْتَلَلْتُ عَلَيْهَا بِأَنْ قُلْتُ لَهَا : إِنَّ هَذَا الرَّسْمَ سَيَكُونُ تَحْتَ عَيْنَيْكَ أَنْتَ رَسْمٌ حَبِيبٌ ، وَلَكِنَّهُ تَحْتَ الْأَعْيُنِ الْآخَرَى سَيَكُونُ رَسْمٌ مُتَمِّمٌ .

وَطَنَنْتَنِي أَبْلَغْتُ فِي الْحُجَّةِ وَقَطَعْتُهَا عَنِّي ؛ فَجَاءَتْنِي مِنَ الْعَدِّ بِالرَّدِّ الْمُفْجِعِ ، جَاءَتْنِي بِإِحْدَى صَدِيقَاتِهَا لِتُظْهَرَ فِي الرَّسْمِ إِلَى جَانِبِي كَأَنِّي مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهَا . . . فَيَكُونُ الرَّسْمُ رَسْمَ صَدِيقَتِهَا ، وَيَكُونُ مُهْدًى مِنْهَا لَا مِنِّي ، وَكَأَنَّنِي فِيهِ حَاشِيَةٌ جَاءَتْ مِنْ عَمَةٍ أَوْ خَالَةٍ . . .

وَأَصْرَرْتُ عَلَى الْإِبَاءِ ، وَتَأَفَّرْتَنِي الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ ، تَرَدُّ عَلَيَّ وَأَرَدُّ عَلَيْهَا ، وَتَغَاضَبْنَا وَانْكَسَرَتْ خُزْنَا وَذَهَبَتْ بَاكِيَةً ؛ ثُمَّ تَسَبَّيْتُ إِلَى رِضَايَ فَرَضَيْتُ .

\* \* \*

حَدَّثْتَنِي أَنَّ صَدِيقَتَهَا فَلَانَةَ الْأَدِيبَةِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْتَرِيزَ صَاحِبَهَا فَلَانًا فِي مَخْدَعِهَا ، فِي دَارِهَا ، بَيْنَ أَهْلِهَا ، مُتَّصِفَ اللَّيْلِ . قُلْتُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتْ : إِنَّهَا تَحْمِلُ شَهَادَةَ . . . وَهِيَ تَلْتَمِسُ عَمَلًا وَقَدْ طَالَ عَلَيْهَا ؛ فَزَعَمَتْ لِذَوِيهَا أَنَّهَا عَثَرَتْ فِي كِتَابٍ كَذَا عَلَى رُفْقَةٍ مِنْ رُفَقِ السَّخِرِ ، فَتُرِيدُ أَنْ تَتَعَاطَى تَجَرِبَتَهَا بَعْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ إِذَا مُحِقَ الْقَمَرُ ؛ وَأَنَّهَا سَتُطْلِقُ الْبُخُورَ وَتَبْقَى تَحْتَ ضَبَابَتِهِ إِلَى الْفَجْرِ تُهَمُّهُمْ بِالْأَسْمَاءِ وَالْكَلِمَاتِ . . .

ثُمَّ إِنَّهَا اتَّعَدَّتْ وَصَاحِبَهَا لِيَوْمٍ ، وَأَجَافَتْ بَابَ دَارِهَا وَلَمْ تُغْلِقْهُ ، وَأَطْلَقَتْ الْبُخُورَ فِي مِجْمَرٍ كَبِيرٍ أُنَارَ عَاصِفَةٍ مِنَ الدُّخَانِ الْمُعْطَرِّ ، وَجَعَلَ مَخْدَعُهَا كَمَخْدَعِ عَرُوسٍ مِنْ مَلِكَاتِ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ ؛ وَبَقِيَ صَاحِبُهَا تَحْتَ الضَّبَابَةِ يُهَمُّهُمْ وَتُهَمُّهُمْ . . . ثُمَّ خَرَجَ فِي أَغْبَاشِ السَّخَرِ .

هَكَذَا قَالَتْ ؛ وَمَا أَدْرِي أَمَوْ خَبَرٌ عَنْ تِلْكَ الصَّدِيقَةِ وَقُلَانِهَا ، أَمْ هُوَ أَفْتِرَاحٌ عَلَيَّ أَنَا مِنْ « فَلَانَتِي » لِأَكُون لَهَا عَفْرِيتَ الصَّبَابَةِ ... ؟

\* \* \*

لَمْ يَخَفْ عَلَيْهَا أَنَّ لَذْعَةَ حُبِّهَا وَقَعَتْ فِي قَلْبِي ، وَأَنَّ صَبْرَهَا قَدْ غَلَبَ كِبَرِيَّائِي ، وَأَنَّ كَثْرَةَ التَّلَافِي فِي بَيْنِ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ يَطْمَعُ أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ - لَا بُدَّ أَنْ يَنْقُلَ رَوَايَتَهُمَا إِلَى فَضْلِهَا الثَّانِي ، وَيَجْعَلَ فِي التَّلَافِي شَيْئًا مُنْتَظَرًا بِطَبِيعَةِ السَّبَاقِ ... وَالْحَاحُ امْرَأَةٌ عَلَى رَجُلٍ قَدْ خَلَبَهَا وَجَفَا عَنْ صَلَاتِهَا ، إِنَّمَا هُوَ تَعَرُّضُهَا لِلتَّعْقِيدِ الَّذِي فِي طَبِيعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ ؛ فَإِنْ هِيَ صَابِرَتُهُ وَأَمَعَتْ ، فَقَلَمًا يَدْعُهَا هَذَا التَّعْقِيدُ مِنْ حَلِّ لِمُعْضِلَتِهَا . وَيُمَثِّلُ هَذِهِ الْعَجَبِيَّةُ كَانَ تَعْقِيدًا وَكَانَ غَيْرَ مَفْهُومٍ وَلَا وَاضِحٍ ؛ وَقَدْ يَنْقَلِبُ فِيهِ أَشَدُّ الْبُغْضِ إِلَى أَشَدِّ الْحُبِّ ، وَقَدْ تَعْمَلُ فِيهِ حَالَةٌ مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ مَا لَا يَعْمَلُ السَّخَرُ ؛ وَكَذَلِكَ يَقَعُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَحَبَّ الْمَرْأَةَ فَنَبَتْ عَنْ مَوَدَّتِهِ فَعَرَّضَ لِلتَّعْقِيدِ الَّذِي فِي طَبِيعَتِهَا وَأَمَعَنَ وَثَبَتْ { وَصَابِرَ } .

رَأَتْ الْجَمْرَةَ الْأُولَى فِي قَلْبِي فَأَضْرَمَتْ فِيهِ الثَّانِيَّةَ ، حِينَ جَاءَتْ بِنِي الْيَوْمَ بِكِتَابٍ رَعِمَتْ أَنَّ فُلَانًا أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا يُطَارِحُهَا الْهَوَى وَيُنَبِّئُهَا وَلَهُ الْخَبِيرُ وَالْتِياعُ الْحُبِّ .

وَيَقُولُ لَهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ : « أَنَا لَمْ أَشْرَبْ خَمْرًا قَطُّ ، وَلَكِنِّي لَا أَرَانِي أَنْظُرَ إِلَى مَقَاتِنِكَ وَمَحَاسِنِكَ إِلَّا وَفِي عَيْنِي الْخَمْرُ ، وَفِي عَقْلِي السُّكْرُ ، وَفِي قَلْبِي الْعَرَبِيدَةُ . جَعَلَتْ لِي { وَيَحِكْ } نَظْرَةً سَكْبَرٌ فِيهَا نَسِيَانُ الدُّنْيَا وَمَا فِي الدُّنْيَا مَا عَدَا الرُّجَاةَ ... » .

وَيَخْتِمُهُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ :

« إِهْ لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَجْعَلَ كَلَامِي فِي نَفْسِكَ نَاعِمًا ، سَاحِرًا ، مُسْكِرًا ، مِثْلَ كَلَامِ الشَّفَةِ لِلشَّفَةِ حِينَ تُقْبَلُهَا ... ! » .

عِنْدَ هَذَا وَقَعَ الشَّيْءُ الْمُنْتَظَرُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنَ الرِّوَايَةِ ، وَخَتِمَ هَذَا الْفَصْلُ بِأَوَّلِ قُبْلَةٍ عَلَى شَفَتِي (الْمُمَثِّلَةِ) .

\* \* \*

قَالَتْ : هَذِهِ الْقُبْلَةُ كَانَتْ (غَلْطَةً مَطْبَعِيَّةً) ، وَمَضَتْ تُسَمِّيْهَا كَذَلِكَ ، وَأَسْتَمَرَّتْ

الْمَطْبَعَةُ تَغْلُطُ ... وَمَا عَلِمْتُ إِلَّا مِنْ بَعْدُ أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي اسْتَوْقَدْتُ بِهِ غَيْرَتِي ، إِنَّمَا كَانَ مِنْ عَمَلِهَا وَمَكْرِهَا .

\* \* \*

وَجَاءَتْ بِنِي الْيَوْمَ بِإِدَّةٍ مِنْ أَوَائِدِهَا ، قَالَتْ :  
أَنْتَ رَجْعِي مُحَافِظٌ عَلَى التَّقَالِيدِ . قُلْتُ : لِأَنِّي أَرَى هَذِهِ التَّقَالِيدَ كَالْمِصْبَاحِ الَّذِي يَتَكَوَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ضِيَاءٌ وَنُورٌ .

قَالَتْ : أَوْ كَالْمَسَاءِ الَّذِي يَتَكَوَّرُ وَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ظِلَامٌ وَسَوَادٌ !

قُلْتُ : لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ وَلَا إِلَيْكَ ، بَلِ الْحُكْمُ فِيهِ لِلتَّنْعِ أَوْ الضَّرَرِ .

قَالَتْ : بَلْ هُوَ إِلَيَّ الْحَيَاةِ ، وَالْحَيَاةُ الْيَوْمَ عِلْمِيَّةٌ أَوْرَبِيَّةٌ ، وَالزَّمَنُ حَيْثُ فِي تَقَدُّمِهِ ، وَأَصْحَابُ « التَّقَالِيدِ » جَامِدُونَ فِي مَوَاضِعِهِمْ قَدْ فَاتَهُمُ الزَّمَنُ ، وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَهُمْ (مُتَأَخِّرِينَ) . أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَضِيلَةَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي أَوْرَبَةٍ زَيَّا قَدِيمًا ، فَأَخَذَ الْمِقْصُ يَعْمَلُ فِي تَهْلِيلِهَا ، يَقْطَعُ مِنْ هُنَا وَيَشُقُّ مِنْ هُنَا ... ؟

أَسْمَعُ أَهْلَهَا « الْمُتَأَخِّرَ » ، وَتَأْمَلُ هَذَا الْبُرْهَانَ<sup>(١)</sup> الْأَوْرَبِيَّ الْعَصْرِيَّ :

أَخْبَرْتَنِي صَدِيقَتِي فُلَانَةٌ حَامِلَةٌ شَهَادَةَ ... أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْفِطَارِ بَيْنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْقَاهِرَةِ ، وَكَانَتْ مَعَهَا فِتْنَةٌ مِنْ جِبْرِتِهَا تَحْمِلُ الشَّهَادَةَ الْإِنْدِيَّةَةَ ؛ فَجَمَعَهُمَا السَّفَرُ بِشَابٍ وَسَنِمٍ ظَرِيفٍ يُشَارِكُ فِي الْأَدَبِ ، غَيْرَ أَنَّهُ رَجْعِي (مُتَأَخِّرٌ) ، وَصَدِيقَتِي تَعْرِفُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا ، وَتَأْخُذُ مِنْ كُلِّ فَنٍّ بِطَرَفٍ ؛ فَجَرَى الْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا مَجْرَاهُ ، وَتَوَكَّتِ الصَّدِيقَةُ نَفْسَهَا لِدَوَاعِيهَا ، وَأَنْظَلَّتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا الظَّرِيفَةِ ، وَوَضَعَتْ فَنَّ لِسَانِهَا فِي الْكَلَامِ فَجَعَلَتْ فِيهِ رُوحَ التَّقْيِيلِ ... !

وَلَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْقَاهِرَةِ حَتَّى كَانَتْ قَدْ سَحَرَتْ ذَلِكَ (الْمُتَأَخِّرَ) وَوَقَعَتْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَدَفَعَتْهُ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . فَلَمَّا هَمَّتْ بِوَدَاعِهِ سَأَلَهُمَا : أَيُّنَ تَذْهَبَانِ ؟

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبُرْهَانُ » بَدَلًا مِنْ : « الْبُرْهَانِ » .



فَاغْضَبَتْ صَاحِبَةَ الشَّهَادَةِ الْإِنْدَائِيَّةِ ، وَأَطْرَقَتْ حَيَاءٌ ، وَرَأَتْ فِي السُّؤَالِ تَهْمَةً وَرِيئَةً ، فَأَتْبَتْهَا الصَّدِيقَةُ وَأَبْقَتْهَا مِنْ حَيَاتِهَا ، وَقَالَتْ لَهَا : أَلَا تَرَايْنِ شَرْقِيَّةَ مُتَأَخَّرَةٍ ؟ إِنْ لَمْ يُسْعِدْنَا الْحَطُّ أَنْ نَكُونَ لَنَا حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ فِي الْمَجْتَمَعِ وَفِي أَنْفُسِنَا ؛ أَفَلَا يَسْعُنَا أَنْ نَكُونَ لَنَا هَذِهِ الْحُرِّيَّةُ وَلَوْ فِي أَنْفُسِنَا ؟

ثُمَّ رَدَّتْ عَلَى الشَّابِّ فَأَتْبَتْهُ بِمَكَانِهَا وَعُنْوَانِهَا ، فَأَطْمَعَهُ رُدُّهَا ، فَسَأَلَهَا أَنْ تَنْتَزِعَ مَعَهُ فِي بَعْضِ الْحَدَائِقِ ، فَأَتَتْ صَاحِبَةَ الْإِنْدَائِيَّةِ وَلَجَّتْ عَمَائِطُهَا الشَّرْقِيَّةَ الْمُتَأَخَّرَةَ ، وَرَأَتْ فِي ذَلِكَ مَسْقَظَةً لَهَا ، فَلَوَتْ إِلَى دَارِهَا وَتَرَكْنَهُمَا إِنْسَانًا وَإِنْسَانًا لَا قَتَى وَفَتَاةً ؛ وَتَنَزَّهًا مَعًا ، وَعَرَفَ الشَّابُّ الرَّجْعِيَّ الْحُبَّ ، وَالْخَمَرُ الَّتِي هِيَ تَحِيَّةُ الْحُبِّ !

وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْفَتَاةُ الْمَاكِزَةُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى دَارِهَا وَهِيَ سَكْرَى { كَمَا زَعَمَتْ لِلشَّابِّ - } فَأَوَتْ إِلَى قُنْدُقٍ ، وَخَنِمَتْ رِوَايَتَهُمَا بِإِعْرَاضٍ مِنَ الشَّابِّ أَجَابَتْ هِيَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهَا : أَلَا زِلْتَ (مُتَأَخَّرًا) ... ؟

قَالَتْ « الطَّائِشَةُ » :

نَعَمْ يَا عَزِيزِي (الْمُتَأَخَّرُ) ، إِنَّ مَذْهَبَ الْمَرْأَةِ الْحُرَّةِ ... فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الزَّوْجِ وَغَيْرِ الزَّوْجِ ، أَنَّ الْأَوَّلَ رَجُلٌ ثَابِتٌ ، وَالْآخِرُ رَجُلٌ طَارِيءٌ . وَالثَّابِتُ ثَابِتٌ مَعَهَا بِحَقِّهِ هُوَ ؛ وَالطَّارِيءُ طَارِيءٌ عَلَيْهَا بِحَقِّهَا هِيَ ... فَإِنْ كَانَتْ حُرَّةً فَلَهَا حَقُّهَا ...

قَالَ كَاتِبُ الطَّائِشَةِ : وَهَذَا ، { هُنَا ، هُنَا } كَادَ الشَّيْطَانُ يَرْفَعُ السُّتَارَ عَنْ فَضْلِي ثَالِثُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، رِوَايَةُ « الطَّائِشَةِ » ...

\* \* \*

نَقُولُ نَحْنُ : وَإِلَى هُنَا يَنْتَهِي نِصْفُ الرِّوَايَةِ ؛ أَمَّا النِّصْفُ الْآخَرُ فَيَكَادُ يَكُونُ قِصَّةَ أُخْرَى أَسْمُهَا : « الطَّائِشُ وَالطَّائِشَةُ » ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## دُمُوعٌ

### مِنْ رَسَائِلِ « الطَّائِشَةِ » (\*) (١)

وَرَسَائِلُ هَذِهِ الطَّائِشَةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، تُقْرَأُ فِي ظَاهِرِهَا عَلَى أَنَّهَا رَسَائِلُ حُبٍّ ، قَدْ كُتِبَتْ فِي الْقُنُونِ الَّتِي يَتَرَسَّلُ بِهَا الْعُشَّاقُ ؛ وَلَكِنْ وَرَاءَ كَلَامِهَا كَلَامًا آخَرَ ، تُقْرَأُ بِهِ عَلَى أَنَّهَا تَارِيخُ نَفْسٍ مُلْتَمَاعَةٍ لَا تَرَالُ شُعْلَةَ النَّارِ فِيهَا تَنْتَمِي وَتَرْتَفِعُ ؛ وَقَدْ فَدَحَتْهَا { بِظُلْمِهَا } الْحَيَاةُ إِذْ حَصَرَتْهَا فِي فَنٍّ وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَأَوْقَعَتْهَا تَحْتَ شَرْطٍ وَاحِدٍ لَا يَتَحَقَّقُ ، وَصَرَفَتْهَا بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَرَالُ تَخِيْبُ .

وَأَشَدُّ سُجُونِ الْحَيَاةِ فِكْرَةُ خَائِبَةٍ يُسْجِنُ الْحَيَّ فِيهَا ، لَا هُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَدْعَهَا ، وَلَا هُوَ قَادِرٌ أَنْ يُحَقِّقَهَا ؛ فَهَذَا يَمْتَدُّ شَقَاؤُهُ مَا يَمْتَدُّ وَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ عَلَى أَوَّلِهِ لَا يَتَقَدَّمُ إِلَى نِهَائِيهِ ؛ وَيَتَأَلَّمُ مَا يَتَأَلَّمُ وَلَا تَرَالُ تُشْعِرُهُ الْحَيَاةُ أَنَّ كُلَّ مَا فَاتَ مِنَ الْعَذَابِ إِنَّمَا هُوَ بَدْءُ الْعَذَابِ .

وَالسَّعَادَةُ فِي جُمْلَتِهَا وَتَفْصِيلِهَا أَنْ يَكُونَ لَكَ فِكْرٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِمَعْنَى تَتَأَلَّمُ مِنْهُ ، وَلَا بِمَعْنَى تَخَافُ مِنْهُ ، وَلَا بِمَعْنَى تَحْذَرُ مِنْهُ ؛ وَالشَّقَاءُ فِي تَفْصِيلِهِ وَجُمْلَتِهِ أَنْجَبَاسُ الْفِكْرِ فِي مَعَانِي الْأَلَمِ وَالْخَوْفِ وَالْاضْطِرَابِ .

وَقَدْ اخْتَرْنَا مِنْ رَسَائِلِ « الطَّائِشَةِ » هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْمُصَوَّرَةَ الَّتِي يَبْزُقُ شُعَاعُهَا وَتَكَادُ تَقُومُ بِإِزَاءِ نَفْسِهَا كَالْمَرْأَةِ بِإِزَاءِ الْوَجْهِ ؛ وَهِيَ فِيهَا عَذْبَةُ الْكَلَامِ مِنْ أَنَّهَا مَرَّةُ الشُّعُورِ ، مُتَسِفَّةُ الْفِكْرِ مِنْ أَنَّهَا مُخْتَلَّةُ الْقَلْبِ ، مُسَدَّدَةُ الْمَنْطِقِ مِنْ أَنَّهَا طَائِشَةُ النَّفْسِ ؛ وَتِلْكَ إِحْدَى عَجَائِبِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٠٤ ، ٣٠ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١ يوليو / تموز ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٠٤٣ - ١٠٤٥ .

(١) نَحْنُ لَمْ نَخْتَرِ الطَّائِشَةَ ، فَهِيَ قَتَاةٌ مُتَعَلِّمَةٌ أَدِيبَةٌ ، تَكْتُبُ كِتَابَةً بَلِيغَةً ، وَقد أَحَبَّتْ رَجُلًا مُتَزَوِّجًا فَطَاشَ بِهَا الْحُبُّ طِيْنُ الطُّغْلِ إِذَا مُنِعَ مَا يَطْمَحُ فِيهِ ، وَتَرَكَهَا الْحُبُّ عَلِيلَةً لِمَا بِهَا ثُمَّ قَطَعَتْ . وَكَانَ بَعْضُ صَوَاجِبِهَا يَغْدِلُهَا وَيَزِيئُهَا بِالنَّهْمَةِ ، فَكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّهَا مِنْهُمْ كَالْغَائِبِ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ ، لَا هُوَ يَمْلِكُ دِفَاعَ الدَّنْبِ ، وَلَا الْحَاكِمُ عَلَيْهِ يَمْلِكُ إِثْبَاتَ الدَّنْبِ .

الْحُبُّ ؛ كُلَّمَا كَانَ قَفَرًا مُمَجِّلاً أَخْضَرَتْ فِيهِ الْبَلَاغَةُ وَتَفَتَّتْ وَالتَفَّتْ ؛ وَعَلَى قِلَّةِ الْمُنْعَةِ مِنْ لَذَائِهِ تَزِيدُ فِيهِ الْمُنْعَةُ مِنْ أَوْصَافِهِ ؛ وَلَكَأَنَّ هَذَا الْحُبَّ طَبِيعَةٌ غَرِيبَةٌ تَرَوَى بِالنَّارِ فَتُخْصِبُ عَلَيْهَا وَتَتَفَتَّقُ بِمَعَانِيهَا ، كَمَا تَرَوَى الْأَرْضُ بِالْمَاءِ فَتُخْصِبُ وَتَتَغَطَّى بِبَنَاتِهَا ؛ فَإِنْ رَوَى الْحُبُّ مِنْ لَذَائِهِ وَبَرَدَ عَلَيْهَا ، لَمْ يُنْبِتْ مِنَ الْبَلَاغَةِ إِلَّا أَخْفَهَا وَزَنَا وَأَقْلَهَا مَعَانِي ، كَأَوَّلِ مَا يَبْدُو الْكِبَاثُ حِينَ يَتَفَطَّرُ الْتَرَى عَنْهُ ، تَرَاهُ فَتَحْسَبُهُ عَلَى الْأَرْضِ مَسْحَةً لَوْ أَنَّ أَخْضَرَ ؛ أَوْ لَمْ يُنْبِتْ إِلَّا الْقَلِيلَ الْقَلِيلَ كَالْتَعَاشِيْبِ<sup>(١)</sup> فِي الْأَرْضِ السَّيْحَةِ ...

إِنَّ قِصَّةَ الْحُبِّ كَالرَّوَايَةِ التَّمثِيلِيَّةِ ، أَبْلَغُ مَا فِيهَا وَأَحْسَنُهُ وَأَعْجَبُهُ مَا كَانَ قَبْلَ « الْعُقْدَةِ » ، فَإِذَا انْحَلَّتْ هَذِهِ الْعُقْدَةُ فَأَنْتَ فِي بَقَايَا مُفَسَّرَةٍ مُشْرُوحةٍ تُرِيدُ أَنْ تَنْتَهِيَ ، وَلَا تَحْتَمِلُ مِنَ الْفَرْقِ إِلَّا ذَلِكَ الْقَلِيلَ الَّذِي يَبْنِيهَا وَيَبْنِي النِّهَايَةَ .

\* \* \*

وَهَذِهِ هِيَ رِسَالَةُ الطَّائِشَةِ إِلَى صَاحِبِهَا :

... »

مَاذَا أَكْتُبُ لَكَ غَيْرَ أَلْفَاظٍ حَقِيقَتِي وَحَقِيقَتِكَ ؟

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ أَلْفَاظَ خُضُوعِي وَتَضَرُّعِي مَتَى أَنْتَهَتْ إِلَيْكَ انْقَلَبَتْ إِلَى أَلْفَاظٍ شِجَارٍ وَزَرَاعٍ !

أَيُّ عَذَلٍ أَنْ تَلْمَسَكَ حَيَاتِي لِمَسَةِ الزَّهْرَةِ النَّاعِمَةِ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ ، وَتَقْدِفُنِي أَنْتَ قَذَفَ الْحَجَرِ بِجِلْدٍ أَلِيدِ الصُّلْبَةِ مُمَطَّيَةً فِيهَا قُوَّةَ الْجِسْمِ ؟  
جَعَلْتَنِي فِي الْحُبِّ كَالْهَاضِمَةِ تَدَارُ فَتَدُورُ ، ثُمَّ عَبَيْتَ بِهَا فَصَارَتْ مُتَمَرِّدَةً تُؤَفِّفُ وَلَا تَقِفُ ؛ وَالنِّهَايَةَ - لَا رَيْبَ فِيهَا - اخْتِلَالٌ أَوْ تَخْطِئٌ !

وَجَعَلْتَ لِي عَالَمًا ؛ أَمَا لَيْلُهُ فَأَنْتَ وَالظُّلَامُ وَالْبُكَاءُ ، وَأَمَا نَهَارُهُ فَأَنْتَ وَالضِّيَاءُ وَالْأَمَلُ الْخَائِبُ . هَذَا هُوَ عَالَمِي : أَنْتَ أَنْتَ ... !

(١) أَغْشَابٌ قَلِيلَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ ( هُنَا وَهُنَاكَ ) .

سَمَائِي كَأَنَّهَا رُفَعَةٌ أَطْبَقَتْ عَلَيْهَا كُلُّ غُيُومِ السَّمَاءِ ، وَأَرْضِي كَأَنَّهَا بُقْعَةٌ اجْتَمَعَتْ فِيهَا كُلُّ زَلَّازِلِ الْأَرْضِ ! لِأَنَّكَ غَيْمَةٌ فِي حَيَاتِي ، وَزَلْزَلَةٌ فِي أَيَّامِي .

يَا بَعْدَ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا الَّتِي حَوْلِي وَبَيْنَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي !

\* \* \*

مَا يَجْمَلُ مِنْكَ أَنْ تُلْزِمَنِي لَوْمْ خَطَأَ أَنْتَ الْمُخْطِئُ فِيهِ .

سَلِّنِي عَنْ حُبِّي أَجْنِكَ عَنْ نَكْبَتِي ، وَسَلِّنِي عَنْ نَكْبَتِي أَجْنِكَ عَنْ حُبِّي !

كَأَنَّ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِي الْكِبَرِيَاءُ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنْ مَاذَا أَصْنَعُ وَأَنْتَ مُنْصَرِفٌ عَنِّي ؟ وَيَلَاةً مِنْ هَذَا الْأَنْصِرَافِ الَّذِي يَجْعَلُ كِبَرِيَائِي رَضَى مِنِّي بِأَنْ تَنْسَى ! ( فَتَنْسَى ... )

لَيْسَ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ تَعْطِفُكَ إِلَّا هَذَا الْحُبُّ الشَّدِيدُ الَّذِي هُوَ يَصُدُّكَ ، فَكَأَنَّ الْأَسْبَابَ مَقْلُوبَةً مَعِيَ مُنْذُ انْقَلَبْتَ أَنْتَ .

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ مِنْ طُغْيَانِ الْآمِي أَنْ كُلَّ ذِي حُزْنٍ فَعِنْدِي أَنَا تَمَامُ حُزْنِهِ !

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِآهِ !

عَذَابِي عَذَابُ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْكَذِبَ { أَبَدًا أَبَدًا } ، بِالْكَاذِبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الصَّدْقَ { أَبَدًا أَبَدًا } !

كَمْ يَقُولُ الرِّجَالُ فِي النِّسَاءِ ، وَكَمْ يَصِفُونَهُنَّ بِالْكَيْدِ وَالْعَدْرِ وَالْمَكْرِ ؛ فَهَلْ جِئْتُ أَنْتَ لِعُقَابِ الْجِنْسِ كُلِّهِ فِيَّ أَنَا وَحْدِي ... ؟

مَا لِكَلَامِي يَتَقَطَّعُ كَأَنَّمَا هُوَ أَيْضًا مُخْتَنِقٌ ؟

\* \* \*

لَشَدَّ مَا أُنْتَمَى أَنْ أَشْتَرِيَ انْتِصَارِي ، وَلَكِنْ انْتِصَارِي عَلَيْكَ هُوَ عِنْدِي أَنْ تَنْتَصِرَ أَنْتَ .

إِنَّ الْمَرْأَةَ تَطْلُبُ الْحُرِّيَّةَ وَتَلْبِغُ فِي طَلِبِهَا ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ تَنْتَهِي بِهَا إِلَى يَقِينٍ لَا شَكَّ فِيهِ ، هُوَ أَنَّ الْطِفْ أَنْوَاعَ حُرِّيَّتِهَا فِي الطَّفِ أَنْوَاعَ اسْتِعْبَادِهَا !

حَتَّى فِي خَيَالِي أَرَى لَكَ هَيْئَةَ الْإِمْرِ النَّاهِي أَيْهَا الْفَاسِي . لَا أَحِبُّ مِنْكَ هَذَا ، وَلَكِنْ

لَا يُعْجِبُنِي مِنْكَ إِلَّا هَذَا ... !

وَيَزِيدُكَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي أَنْ تَزِيدَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي .

فَالْمَرْأَةُ لَا تُحِبُّ الرَّجُلَ الَّذِي يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَلْفِتَهَا دَائِمًا لِيَرْفَعَ مِنْ شَأْنِهِ عِنْدَهَا .

إِنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ جَعَلَتِ الْأُنُوثَةَ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ الَّتِي تَلْفِتُ إِلَى نَفْسِهَا بِالتَّصَنُّعِ وَالتَّرِيدِ ، وَعَرَضُ مَا فِيهَا وَتَكْلُفُ مَا لَيْسَ فِيهَا ؛ فَإِنْ يَصْنَعِ الرَّجُلُ صَنِيعَهَا فَمَا هُوَ فِي شَيْءٍ إِلَّا تَزِينٌ اخْتِفَارِهِ !

التَّرِيدُ فِي الْأُنُوثَةِ زِيَادَةٌ فِي الْاِئْتِنَاءِ عِنْدَ الرَّجُلِ ، وَلَكِنَّ التَّرِيدَ فِي الرُّجُولَةِ نَقْصٌ فِي الرَّجُلِ عِنْدَ الْاِئْتِنَاءِ !

\* \* \*

أَرْفَعُ صَوْتَكَ بِكَلِمَاتِي نَسْمَعُ فِيهَا اثْنَيْنِ : صَوْتَكَ وَقَلْبِي .

لَيْسَتْ هِيَ كَلِمَاتِي لَدَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ أَعْمَالُكَ لَدَيَّ .

وَلَيْسَ هُوَ حُبِّي لَكَ أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ ظُلْمُكَ لِي !

مَا أَشَدَّ تَعْسِي إِذَا كُنْتَ أَخَاطِبُ مِنْكَ نَائِمًا يَسْمَعُ أَحْلَامَهُ وَلَا يَسْمَعُنِي !

مَا أَتَعَسَ مَنْ تُبْكِيهِ الْحَيَاةُ بُكَاءَهَا الْمُفَاجِئَ عَلَى مَيِّتٍ لَا يَرْجِعُ ، أَوْ بُكَاءَهَا الْمَأْلُوفَ عَلَى حَبِيبٍ لَا يُنَالُ !

\* \* \*

وَلَكِنْ فَلَا ضَبْرَ وَلَا ضَبْرَ عَلَى الْأَيَّامِ الَّتِي لَا طَعْمَ لَهَا ، لِأَنَّ فِيهَا الْحَبِيبَ الَّذِي لَا وَفَاءَ لَهُ !

إِنَّ الْمُصَابَ بِالْعَمَى اللَّوْنِي يَرَى الْأَحْمَرَ أَخْضَرَ ، وَالْمُصَابَ بِعَمَى الْحُبِّ يَرَى الشَّخْصَ الْفَقْرَ كُلَّهُ أَزْهَارًا .

عَمَى مُرْكَبٌ ، أَنْ تَكُونَ أَزْهَارًا مِنَ الْأَوْهَامِ وَلَهَا مَعَ ذَلِكَ رَائِحَةٌ تَعْبَى .

وَعَمَى فِي الزَّمَنِ أَيْضًا ، أَنْ يَنْظُرَ إِلَى السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْ سَاعَاتِ الْحُبِّ ، فَيَرَى

الْأَيَّامَ كُلَّهَا فِي حُكْمِ هَذِهِ السَّاعَةِ .

وَعَمَى فِي الدَّمِ ، أَنْ يَشْعُرَ بِالْحَبِيبِ يَوْمًا فَلَا يَزَالُ مِنْ بَعْدِهَا يُخَيِّ خَيَالَهُ وَيَعْدِّيهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُخَيِّ جِسْمَ صَاحِبِهِ .

وَعَمَى فِي الْعَقْلِ ، أَنْ يَجْعَلَ وَجْهَ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ كَوَجْهِ النَّهَارِ عَلَى الدُّنْيَا ، تَظْهَرُ الْأَشْيَاءُ فِي لَوْنِهِ ، وَبِغَيْرِ لَوْنِهِ تَنْطَفِئُ الْأَشْيَاءُ .

وَعَمَى فِي قَلْبِي أَنَا ، هَذَا الْحُبُّ الَّذِي فِي قَلْبِي !

\* \* \*

لَيْسَ الظَّلَامُ إِلَّا فَقْدَانُ النُّورِ ، وَلَيْسَ الظُّلْمُ فِي النَّاسِ إِلَّا فَقْدَانُ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ .

وَزُلْمَ الرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ عَمَلُ فَقْدَانِ الْمُسَاوَاةِ لَا عَمَلُ الرِّجَالِ .

كَفَتْ تَسْخَرُ الدُّنْيَا مِنْ مُتَعَلِّمَةٍ مِثْلِي ، فَتَضَعُهَا مَوْضِعًا مِنَ الْهَوَانِ وَالضَّعْفِ بِحَيْثُ لَوْ سَلَّتْ أَنْ تَكْتُبَ (وَطَيِّفَتَهَا) عَلَى بِطَاقَةٍ ، لَمَا كَتَبْتَ تَحْتَ اسْمِهَا إِلَّا هَذِهِ الْكَلِمَةَ : (عَاشِقَةٌ فَلَانٍ) ... ؟

وَحَتَّى فِي ضَعْفِ الْمَرْأَةِ لَا مُسَاوَاةَ بَيْنَ النِّسَاءِ فِي الْأَجْتِمَاعِ ، فَكُلُّ مُتَزَوِّجَةٍ وَطَيِّفَتِهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ أَنَّهَا زَوْجَةٌ ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ لِعَاشِقَةٍ أَنْ تَقُولَ إِنَّ عَشِقَهَا وَطَيِّفَتَهَا ...

وَحَتَّى فِي الْكَلَامِ عَنِ الْحُبِّ لَا مُسَاوَاةَ ، فَهَلْ يَدِ فِتْنَةٍ تُحِبُّ فَتَتَكَلَّمُ عَنْ حُبِّهَا فَيَقَالَ : فَاجِرَةٌ وَطَائِشَةٌ . وَلَا ذَنْبَ لَهَا غَيْرَ أَنَّهَا تَكَلَّمَتْ ؛ وَأُخْرَى تُحِبُّ وَتَكْتُمُ ، فَيَقَالَ : طَاهِرَةٌ عَفِيفَةٌ . وَلَا فَضِيلَةَ فِيهَا إِلَّا أَنَّهَا سَكَتَتْ .

أَوَّلُ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَنْ يَسَاوَى الْكُلُّ فِي حُرِّيَةِ الْكَلِمَةِ الْمُخْبُوءَةِ ..

لا ، لا ، قَدْ رَجَعْتُ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ ...

\* \* \*

إِنَّ الْقَلْقَلَ إِذَا اسْتَمَرَ عَلَى النَّفْسِ أَنْتَهَى بِهَا آخِرُ الْأَمْرِ إِلَى الْأَخْذِ بِالشَّاذِّ مِنْ قَوَائِنِ الْحَيَاةِ .

وَالنِّسَاءُ يُقْلِقْنَ أَلَاكَ مِمَّا اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِهِنَّ مِنَ الْأَضْطِرَابِ ، وَسَيُخْرِجُهُ أَشْنَعُ تَخْرِيْبٍ .

وَبِلِّ لِلْاجْتِمَاعِ مِنَ الْمَرْأَةِ الْعَصْرِيَّةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا ضَعْفُ الرَّجُلِ ! إِنَّ الشَّيْطَانَ لَوْ خَيْرَ فِي غَيْرِ شَكْلِهِ لَمَّا اخْتَارَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَمْرًا حُرَّةً مُتَعَلِّمَةً خَيَالِيَّةً كَاسِدَةً لَا تَجِدُ الزَّوْجَ . . . !

وَبِلِّ لِلْاجْتِمَاعِ مِنْ عَذَرَاءَ بَائِزَةٍ خَيَالِيَّةٍ ، تُرِيدُ أَنْ تَفِرَّ مِنْ أَنَّهَا عَذْرَاءُ ! لَقَدْ اُمْتَلَأَتْ الْأَرْضُ مِنْ هَذِهِ الْقَنَابِلِ . . . وَلَكِنْ مَا مِنْ أَمْرَةٍ تَقْرُطُ فِي فَضِيلَتِهَا إِلَّا وَهِيَ ذَنْبُ رَجُلٍ قَدْ أَهْمَلَ فِي وَاجِبِهِ .

\* \* \*

هَلْ تَمْلِكُ الْفَتَاةُ عِرْضَهَا أَوْ لَا تَمْلِكُ ؟ هَذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ . . .

إِنْ كَانَتْ تَمْلِكُ ، فَلَهَا أَنْ تَتَصَرَّفَ وَتُعْطِيَ ؛ أَوْ لَا ، فَلِمَذَا لَا يَتَقَدَّمُ الْمَالِكُ . . . ؟

هَذِهِ الْمَدَنِيَّةُ سَتَقْلِبُ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ بَعِيْنَهَا ؛ فَالْحَيَوَانُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ النَّسَبَ لَا تَعْرِفُ أَثْنَاءَ الْعِرْضِ . . . !

وَهَلْ كَانَ عَبْتًا أَنْ يَفْرِضَ الدِّينُ فِي الزَّوْاجِ شُرُوطًا وَحُقُوقًا لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَالنِّسْلِ ؟

وَلَكِنْ أَيْنَ الدِّينُ ؟ وَاسْفَاهُ ! لَقَدْ مَدَّنُوهُ هُوَ أَيْضًا . . . !

\* \* \*

طَالَتْ رِسَالَتِي إِلَيْكَ يَا عَزِيزِي ، بَلْ طَاشَتْ ، فَإِنِّي جِئْتُكَ أَفْقِدُ اللَّغَةَ ، وَحِينَ أَفْقِدُكَ أَجِدُهَا .

وَلَقَدْ تَكَلَّمْتُ عَنِ الدِّينِ لِأَنِّي أَرَاكَ أَنْتَ بِنَصْفِ دِينٍ . . .

فَلَوْ كُنْتُ ذَا دِينٍ كَامِلٍ لَتَزَوَّجْتَ أَتْنَتَيْنِ . . . !

لَا لَا ، قَدْ رَجَعْتُ عَنِ الرَّأْيِ . . . «

(طَبَقُ الْأَصْلِ) .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### فَلَسَفَةُ الطَّائِشَةِ (\*)

. . . وَهَذَا مَجْلِسٌ مِنْ مَجَالِسِ الطَّائِشَةِ مَعَ صَاحِبِهَا ، مِمَّا تَسْقَطُهُ مِنْ حَدِيثِهَا ؛ فَقَدْ كَانَ يَكْتُبُ عَنْهَا مَا تُصِيبُ فِيهِ وَمَا تُخْطِئُ ، كَمَا يَكْتُبُ أَهْلُ السِّيَاسَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ إِذَا فَاوَضَ الْحَلِيفُ حَلِيفَهُ ، أَوْ نَاكَرَ الْحَضْمُ حَضْمَهُ ؛ فَإِنَّ كَلَامَ الْحَبِيبِ وَالسِّيَاسِيِّ الدَّاهِيَةَ لَيْسَ كَلَامَ الْمُتَكَلِّمِ وَخَدَهُ ، بَلْ فِيهِ نُطْقُ الدَّوْلَةِ . . . وَفِيهِ الزَّمَنُ يُقِيلُ أَوْ يُذْبِرُ .

وَصَاحِبُ الطَّائِشَةِ كَانَ يَرَاهَا أَمْرًا سِيَاسِيَّةً كَهَلِذِهِ الدَّوَلِ الَّتِي تُرْغِمُ صَدِيقًا عَلَى الصَّدَاقَةِ ، لِأَنَّهُ فِي طَرِيقِهَا أَوْ طَرِيقِ حَوَادِثِهَا ؛ وَكَانَ يُسَمِّيْهَا « جِنْسٌ اخْتِلَالٌ » إِذْ حَطَّتْ فِي أَيَّامِهِ وَأَخْتَلَّتْهَا فَتَبَوَّاتُ مِنْهَا مَا شَاءَتْ عَلَى رَغْمِهِ ، وَاسْتَبَاحَتْ مَا أَرَادَتْ مِمَّا كَانَ يَحْمِيهِ أَوْ يَمْنَعُهُ . وَقَدْ كَانَ فِي مُدَافَعَتِهِ حُبَّهَا وَاسْتِنْفَاسِهِ بِصَدَاقَتِهَا كَالَّذِي رَأَى ظِلَّ شَيْءٍ عَلَى الْأَرْضِ فَيُحَاوِلُ غَسْلَهُ أَوْ كُنْسه أَوْ تَغْطِيْتهُ . . . فَهَذَا لَيْسَ مِمَّا يُغْسَلُ بِالْمَاءِ ، وَلَا يُكْنَسُ بِالْمِكَنَسَةِ ، وَلَا يُغْطَى بِالْأَغْطِيَةِ ؛ إِنَّمَا إِزَالَتُهُ فِي إِزَالَةِ الشَّيْخِ الَّذِي هُوَ يُلْقِيهِ ، أَوْ إِطْفَاءُ النُّورِ الَّذِي هُوَ يُنْبِتُهُ .

فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ سُخْرِيَّةٌ ، وَالسُّخْرِيَّةُ مِنَ الْحُسْنِ الْفَاتِنِ الَّذِي تُقَدِّسُهُ ، تَأْتِي مِنْ أَشْتِهَاءِ هَذَا الْحُسْنِ ؛ فَذَاكَ إِسْقَاطُهُ سُقُوطًا مُقَدَّسًا . . . أَوْ ذَاكَ تَقْدِيسُهُ إِلَى أَنْ يَسْقُطَ ، أَوْ هُوَ جَعَلَ تَقْدِيسَهُ بَابًا مِنَ الْحِيلَةِ فِي إِسْقَاطِهِ . لَا بُدَّ مِنْ سُفْلِ مَعَ الْعُلُوِّ يَكُونُ أَحَدُهُمَا كَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الْآخَرِ ؛ فَإِذَا قَالَ رَجُلٌ لِمَرْأَةٍ قَدْ فَتَنَتْهُ أَوْ وَقَعَتْ مِنْ نَفْسِهِ : « أَحَبِّكِ » . أَوْ قَالَتْهَا الْمَرْأَةُ لِرَجُلٍ وَقَعَ مِنْ نَفْسِهَا أَوْ اسْتَهَامَهَا ، فَفِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ النَّاعِمَةُ اللَّطِيفَةُ كُلُّ مَعَانِي الْوَقَاحَةِ الْجِنْسِيَّةِ ، وَكُلُّ السُّخْرِيَّةِ بِالْمَخْبُوبِ سُخْرِيَّةٌ بِإِجْلَالِ عَظَمِهِ . . . وَهِيَ كَلِمَةٌ شَاعِرٍ فِي تَقْدِيرِ الْجَمَالِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا هِيَ بَعِيْنَهَا كَلِمَةُ الْجَزَّارِ الَّذِي يَرَى الْخُرُوفَ فِي جَمَالِهِ اللَّحْمِيِّ الدُّهْنِيِّ ، فَيَقُولُ : « سَمِينٌ . . . ! » .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٠٦ ، ١٤ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ هـ = ١٥ يوليو/تموز ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١١٢٣ - ١١٢٦ .

لِهَذَا يَمْنَعُ الدِّينُ خَلْوَةَ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ ، وَيَحْرُمُ إِظْهَارَ الْفِتْنَةِ مِنَ الْجِنْسِ لِلْجِنْسِ ، وَيَفْصِلُ بَمَعَانِي الْحِجَابِ بَيْنَ السَّالِبِ وَالْمُوجِبِ ، ثُمَّ يَضَعُ لِأَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ حِجَابًا آخَرَ مِنَ الْأَمْرِ بَعْضَ الْبَصَرِ ، إِذْ لَا يَكْفِي [ فِي ذَلِكَ ] حِجَابٌ وَاحِدٌ ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ الْجِنْسِيَّةَ تَنْظُرُ بِالْإِذَاخِلِ وَالْخَارِجِ مَعًا ؛ ثُمَّ يَطْرُدُ عَنِ الْمَرْأَةِ كَلِمَةَ الْحُبِّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ زَوْجِهَا ، وَعَنِ الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ زَوْجَتِهِ ؛ إِذْ هِيَ كَلِمَةُ حَيْلَةٍ فِي الطَّبِيعَةِ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ كَلِمَةُ صِدْقٍ فِي الْاجْتِمَاعِ ، وَلَا يُؤَكِّدُ فِي الدِّينِ صِدْقَهَا إِلَّا الْعَقْدُ وَالشُّهُودُ لِرَبْطِ الْحُقُوفِ بِهَا ، وَجَعَلَهَا فِي حَيَاطَةِ الْقُوَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ التَّشْرِيعِيَّةِ ، وَإِفْرَادِهَا فِي مَوْضِعِهَا مِنَ النِّظَامِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ فَلَيْسَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الْعَاشِقُ مِنْ مَعَانِي الزَّوْجِ ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعْنَى آخَرَ أَوْ يَكُونَ بِلاَ مَعْنَى فَلَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِصِيَانَةِ الْمَرْأَةِ ، مَا دَامَتْ هِيَ وَخَدَهَا الْيَنِي تَلْدُ ، وَمَا دَامَتْ لَا تَلْدُ لِلْبَيْعِ ...

وَفَلَسَفَةُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ فَلَسَفَةُ امْرَأَةٍ ذَكِيَّةٍ مُطْلِعَةٍ مُحِيطَةٍ مُفَكِّرَةٍ ، تُبْصِرُ بِالْكُتُبِ وَالْعَقْلِ وَالْحَوَادِثِ جَمِيعًا ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَ سَقَطَةِ حُبِّهَا تَرَى الصَّوَابَ فِي شَكْلَيْنِ لَا شَكْلٍ وَاحِدٍ : فَتَرَاهُ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ ، وَكَمَا هُوَ فِي أَغْلَاطِهَا .

وَقَدْ أَسْقَطْنَا فِي رِوَايَةِ مَجْلِسِهَا مَا كَانَ مِنْ مُطَارَحَاتِ الْعَاشِقَةِ ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى مَا هُوَ كَالْإِمْلَاءِ مِنَ الْأُسْتَاذَةِ ...

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِفَةِ : ذَكَرْتُ لَهَا « قَاسِمٌ أَمِينٌ »<sup>(١)</sup> وَقُلْتُ : إِنَّهَا خَيْرٌ تَلَامِيذِهِ { وَتَلْمِيذَاتِهِ } ... حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَجَرِبُهُ ثَلَاثِينَ سَنَةً لِأَرَائِهِ فِي تَخْرِيرِ الْمَرْأَةِ . فَقَالَتْ : إِنَّمَا كَانَ قَاسِمٌ تَلْمِيذَ الْمَرْأَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ ، وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ بِأَعْيُنِنَا ، فَمَا حَاجَتُنَا نَحْنُ إِلَى تَلْمِيذِهَا الْقَدِيمِ ؟

(١) إن أردت معرفة المزيد عن حقيقة قاسم أمين وواقعه راجع « قولني في المرأة » لمصطفى صبري ، النسخة التي طبعها لدى الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول - قبرص ؛ حيث أوردت في مقدمته ما يفيد معرفته . بسلام .

قَالَتْ : وَأَبْلَغُ مَنْ يَرُدُّ عَلَى قَاسِمِ الْيَزْمِ هِيَ أُسْتَاذَتُهُ الْيَنِي شَبَّتْ بِهَا أَطْوَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَهُ ، فَقَدْ اثْبَتَ قَاسِمٌ - عَفَرَ اللَّهُ لَهُ - أَنَّهُ أَنْحَصَرَ فِي عَهْدِ بَعِيْنِهِ وَلَمْ يُتَبِعِ الْأَيَّامَ نَظَرَهُ ، وَلَمْ يَسْتَفْرِئْ أَطْوَارَ الْمَدَيَّةِ ؛ فَلَمْ يَقْدَرْ أَنْ هَذَا الزَّمَنُ الْمُتَمَدِّنَ سَيَقْدَمُ فِي رَدَائِلِهِ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ أَسْرَعَ وَأَقْوَى مِمَّا يَتَقَدَّمُ فِي فَضَائِلِهِ ، وَأَنْ الْعِلْمَ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ يَخْدِمَ الْجِهَتَيْنِ بِقُوَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَقْوَاهُمَا بِالطَّبِيعَةِ أَقْوَاهُمَا بِالْعِلْمِ ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ تَحْتَ الْأَرْضِ زَلَّازِلُهُ وَلَا تَحْتَ الْحَيَاةِ مِثْلُهَا .

مَرَّقَ الْبُرْقُوعَ وَقَالَ : « إِنَّهُ مِمَّا يَزِيدُ فِي الْفِتْنَةِ ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَوْ كَانَتْ مَكْشُوفَةً لَوَجْهِه لَكَانَ فِي مَجْمُوعِ خَلْقِهَا - عَلَى الْغَالِبِ - مَا يَرُدُّ الْبَصَرَ عَنْهَا » . فَقَدْ زَالَ الْبُرْقُوعُ ، وَلَكِنْ هَلْ قَدَّرَ قَاسِمٌ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمَرْأَةِ مُنْتَصِرَةٌ دَائِمًا فِي الْمَيِّدَانِ الْجِنْسِيِّ بِالْبُرْقُوعِ وَبِغَيْرِ الْبُرْقُوعِ ، وَأَنَّهَا تَخْتَرِعُ لِكُلِّ مَعْرَكَةٍ أَسْلِحَتَهَا ، وَأَنَّهَا إِنْ كَشَفَتْ بُرْقُوعَ الْخَزْ فَسَتَضَعُ فِي مَكَانِهِ بُرْقُوعَ الْأَبْيَضِ وَالْأَحْمَرِ ... ؟

وَزَعَمَ أَنَّ « الثَّقَابَ وَالْبُرْقُوعَ مِنْ أَشَدِّ أَعْوَانِ الْمَرْأَةِ عَلَى إِظْهَارِ مَا تُظْهِرُ وَعَمَلِ مَا تَعْمَلُ لِتُخْرِبَ الرِّغْبَةَ ، لِأَنَّهَا يُخْفِيَانِ شَخْصِيَّتَهَا فَلَا تَخَافُ أَنْ يَعْرِفَهَا قَرِيبٌ أَوْ بَعِيدٌ فَيَقُولُ : فَلَانَةٌ ، أَوْ بِنْتُ فَلَانٍ ، أَوْ زَوْجُ فَلَانٍ كَذَا ؛ فَيَهِيَ تَأْتِي كُلُّ مَا تُشْتَهِيهِ مِنْ ذَلِكَ تَحْتَ حِمَايَةِ الْبُرْقُوعِ وَالثَّقَابِ » . فَقَدْ زَالَ الْبُرْقُوعُ وَالثَّقَابُ ، وَلَكِنْ هَلْ قَدَّرَ قَاسِمٌ أَنَّ الْمَرْأَةَ السَّافِرَةَ سَتَلَجًا إِلَى حِمَايَةِ أُخْرَى ، فَتَجْعَلَ نِيَابَهَا تَغْيِيرًا دَقِيقًا عَنْ أَعْضَائِهَا ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تُلْبِسَ جِسْمَهَا ثَوْبًا يَكْسُوهُ ، تُلْبِسُهُ الثُّوبُ الَّذِي يَكْسُوهُ وَيَزِينُهُ وَيُظْهِرُهُ وَيَحْرُكُهُ فِي وَقْتٍ مَعًا ، حَتَّى لِيَكَادُ الثُّوبُ يَقُولُ لِلنَّاطِرِ : هَذَا الْمَوْضِعُ أَسْمُهُ ... وَهَذَا الْمَوْضِعُ أَسْمُهُ ... وَأَنْظُرْ هُنَا ، وَأَنْظُرْ هُنَا ... مَا زَادَتْ الْمَدَيَّةُ عَلَى أَنْ فَكَّكَتِ الْمَرْأَةَ الطَّبِيعَةَ ثُمَّ رَكَّبَتْهَا فِي هَذِهِ الْهَنْدَسَةِ الْفَاحِشَةِ !

وَأَرَادَ قَاسِمٌ أَنْ يَعْلَمَنَا الْحُبَّ لِتَرْبِطَ بِهِ الزَّوْجَ مَعَنَا ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ جَرَّأَنَا عَلَى الْحُبِّ الَّذِي قَرَّ بِهِ الزَّوْجُ مِنَّا ، وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْيَنِي تُخَالِطُ الرَّجُلَ لِيُعْجِبَهَا وَتُعْجِبَهُ فَيَصِيرَا زَوْجَيْنِ - إِنَّمَا تُخَالِطُ فِي هَذَا الرَّجُلِ غَرَائِزَهُ قَبْلَ إِنْسَانِيَّتِهِ ، فَتَكُونُ طَبِيعَتُهُ وَطَبِيعَتُهَا هِيَ مَحَلُّ الْمُخَالَطَةِ قَبْلَ شَخْصِيَّتِهَا ، أَوْ تَحْتَ سِتَارِ شَخْصِيَّتِهَا ؛ وَهُوَ رَجُلٌ وَهِيَ امْرَأَةٌ ،

وَبَيْنَهُمَا مُصَارَعَةُ الدَّمِّ ... وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْمُسْكِينَةُ هِيَ الْمَذْبُوحَةُ . وَقَدْ أَنتَهَيْنَا إِلَى دَهْرٍ يُصْنَعُ حُبُّهُ وَمَجَالِسُ أَحْبَابِهِ فِي « هُولِيُود »<sup>(١)</sup> وَغَيْرِهَا مِنْ مُدُنِ السَّنَمَا ، فَإِنْ رَأَى الشَّابُّ عَلَى الْفَنَاءِ مَظْهَرَ الْعِفَّةِ وَالْوَقَارِ قَالَ : بِلَادَةُ فِي الدَّمِّ ، وَبِلَادَةُ فِي الْعَقْلِ ، وَثَقُلَ أَيُّ ثَقُلَ ؛ وَإِنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ قَالَ : فُجُورٌ وَطَيْشٌ ، وَأَسْتَهْتَارُ أَيُّ أَسْتَهْتَارِ . فَأَيْنَ تَسْتَقِرُّ الْمَرْأَةُ وَلَا مَكَانَ لَهَا بَيْنَ الضَّدَّيْنِ ؟

أَخْطَأَ قَاسِمٌ فِي إِغْفَالِ عَمَلِ الزَّمَنِ مِنْ حِسَابِهِ ، وَهَاجَمَ الدِّينَ بِالْعُرْفِ ؛ وَكَانَ مِنْ أَفْحَشِ غَلَطِهِ طُهُهُ الْعُرْفَ مَقْصُورًا عَلَى زَمَنِهِ ، وَكَانَهُ لَمْ يَذَرِ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الدِّينِ وَبَيْنَ الْعُرْفِ ، هُوَ أَنَّ هَذَا الْأَخِيرَ دَائِمٌ الْأَضْطِرَابِ ، فَهُوَ دَائِمٌ التَّغْيِيرِ ، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ أَبَدًا قَاعِدَةً لِلْفَضِيلَةِ ؛ وَهَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ أَنتَهَيْنَا إِلَى زَمَنِ الْعُرْيِ ، وَأَضْبَحْنَا نَجْدَ لَفِينَا مِنَ الْأَوْرَبِيِّينَ الْمُتَعَلِّمِينَ ، رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، إِذَا رَأَوْا فِي جَزِيرَتِهِمْ أَوْ مَحَلَّتِهِمْ أَوْ نَادِيهِمْ رَجُلًا يَلْبَسُ فِي حِفْوِيهِ ثُبَانًا قَصِيرًا كَأَنَّهُ وَرَقُ الشَّجَرِ عَلَى مَوْضِعِهِ ذَاكَ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ - إِذَا رَأَوْا هَذَا الْمُتَعَتِّفَ بِخُرْقَةٍ ... أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَنَسَاءُوا بَيْنَهُمْ . مَنْ ؛ مَنْ هَذَا الرَّاهِبُ ... ؟

وَنَسِيَ قَاسِمٌ - غَفَرَ اللَّهُ لَهُ - أَنَّ لِلثِّيَابِ أَخْلَاقًا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِهَا ، فَالَّتِي تَفْرِغُ الثُّوبَ عَلَى أَعْضَائِهَا إِفْرَاقَ الْهَنْدَسَةِ ، وَتُلْبَسُ وَجْهَهَا أَلْوَانُ التَّصْوِيرِ - لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا وَهِيَ قَدْ تَغَيَّرَ فَهْمُهَا لِلْفَضَائِلِ ، فَتَغَيَّرَتْ بِذَلِكَ فَضَائِلُهَا ، وَتَحَوَّلَتْ مِنْ آيَاتٍ دِينِيَّةٍ إِلَى آيَاتٍ شِعْرِيَّةٍ . وَرُوحُ الْمَسْجِدِ غَيْرُ رُوحِ الْحَانَةِ ، وَهَذِهِ غَيْرُ رُوحِ الْمَرْقَصِ ، وَهَذِهِ غَيْرُ رُوحِ الْمَخْدَعِ ، وَلِكُلِّ حَالَةٍ تَلْبَسُ الْمَرْأَةُ لِبَاسًا فَتُخْفِي مِنْهَا وَتُبْدِي . وَتَخْرِيكَ أَلْبِينَهُ لِيَتَقَلَّبَ ، هُوَ بَعِينُهُ تَخْرِيكَ الْكُفْسِ لِتَتَغَيَّرَ صِفَاتُهَا . وَأَيْنَ أَخْلَاقُ الثِّيَابِ الْعَصْرِيَّةِ فِي أَمْرَةِ الْيَوْمِ ، مِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا مِنَ الْحِجَابِ ؟ تَبَدَّلَتْ بِمَشَاعِيرِ الطَّاعَةِ ، وَالصَّبْرِ ، وَالْأَسْتِقْرَارِ ، وَالْعِنَايَةِ بِالنَّسْلِ ، وَالتَّفَرُّغِ لِإِسْعَادِ أَهْلِهَا وَذَوْنِهَا - مَشَاعِرَ أُخْرَى ، أَوَّلُهَا كَرَاهِيَةُ الدَّارِ وَالطَّاعَةِ وَالنَّسْلِ ؛ وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ هَذَا أَوَّلُهُ وَأَخْتَفُهُ !

(١) هوليوود Holly wood جزء من مدينة لوس أنجلوس Los Angeles جنوب ولاية كاليفورنيا California بالولايات المتحدة الأمريكية ، ترجع شهرتها إلى أنها أكبر مركز لصناعة السينما وموطن لممثليها في العالم كله . بسلام .

كَانَ قَاسِمٌ كَالْمَخْدُوعِ الْمُغْتَرِّ بِآرَائِهِ ، وَكَانَ مُضْلِحًا فِيهِ رُوحُ الْقَاضِي ، وَالْقَاضِي بِحُكْمِ عَمَلِهِ مُقَلِّدٌ مُتَّبِعٌ ، أَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُسِنِدَ رَأْيَهُ دَانِمًا إِلَى نَصٍّ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ شَأْنٌ وَلَا عَمَلٌ ؟ مِنْ ثَمَّ كَثُرَتْ أَغْلَاطُ الرَّجُلِ حَتَّى جَعَلَ الْفَرْقَ بَيْنَ فَسَادِ الْجَاهِلَةِ وَفَسَادِ الْمُتَعَلِّمَةِ ، أَنَّ الْأَوَّلَى « لَا تَكْلُفُ نَفْسَهَا عَنَاءَ الْبَحْثِ عَنْ صِفَاتِ الرَّجُلِ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُ أَفْضَلَ شَيْءٍ لَدَيْهَا وَهُوَ نَفْسُهَا ، وَعَلَى خِلَافِ ذَلِكَ يَكُونُ الشَّيْءُ الْمُتَعَلِّمَاتِ ، إِذَا جَرَى الْقَدَرُ عَلَيْهِنَ بِأَمْرِ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ مَحَبَّةٍ شَدِيدَةٍ يَسْبِقُهَا عِلْمٌ تَامٌ بِأَحْوَالِ الْمُحْبُوبِ (....) وَشَمَائِلِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَتَخْتَارُهُ مِنْ بَيْنِ مِثَالٍ وَالْوُفِّ مِمَّنْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَفَتٍ (!!!!) وَهِيَ تُحَاذِرُ أَنْ تَضَعَ يَدَهَا فِي شَخْصٍ لَا يَكُونُ أَهْلًا لَهَا ، وَلَا تُسَلِّمُ نَفْسَهَا إِلَّا بَعْدَ مُتَاضِلَةٍ يَخْتَلِفُ زَمَنُهَا وَقُوَّةُ الدِّفَاعِ فِيهَا حَسَبَ الْأَمْرِجَةِ (؟؟؟؟) وَهِيَ فِي كُلِّ حَالٍ تَسْتَسِرُّ بِظَاهِرٍ مِنَ التَّعَتُّفِ (؟؟؟؟) ... »<sup>(١)</sup> .

أَلَيْسَ هَذَا كَلَامَ قَاضٍ مِنَ الْقُضَاةِ الْمَدِينِيِّينَ الْمُتَفَلِّسِينَ عَلَى مَذْهَبِ (لَمْبَرُورُو) يَقُولُ لِإِخْدَى الْفَاجِرَتَيْنِ : أَتَيْتُمَا الْجَاهِلَةَ الْحَمَقَاءَ ! كَيْفَ لَمْ تَتَحَاشَيْ وَلَمْ تَسْتَسِرِّي فَلَا يَكُونُ لِلْقَانُونِ عَلَيْكَ سَبِيلٌ ؟

وَحَتَّى فِي هَذَا قَدْ أَثَبْتُ قَاسِمٌ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْأَرْزَبَ وَأُذُنَيْهَا<sup>(٢)</sup> ، وَإِلَّا فَتَمَتَّى كَانَ فِي الْحُبِّ اخْتِيَارٌ ، وَمَتَّى كَانَ الْأَخْتِيَارُ يَقَعُ « فِيمَا يَجْرِي بِهِ الْقَدَرُ » ، وَمَتَّى كَانَ نَظَرُ الْعَاشِقَةِ إِلَى الرَّجَالِ نَظَرًا سِيكُولُوجِيًّا<sup>(٣)</sup> كَنَظَرِ الْمُعَلِّمَةِ إِلَى صَبِيَّانِهَا ... فَتَذَرُسُ الصِّفَاتِ وَالشَّمَائِلَ فِي مِثَالٍ وَالْوُفِّ مِمَّنْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَفَتٍ لِتُصَفِّيَهَا كُلَّهَا فِي وَاحِدٍ تَخْتَارُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ؟ هَذَا مُضْحِكٌ ! هَذَا مُضْحِكٌ !

(١) ص ٥١ من كتاب « تَخْرِيرُ الْمَرْأَةِ » ، وَهُوَ كَلَامُ قَاسِمٍ بِنَصِّهِ ، وَكَثُرَ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ هُوَ فِي رَأْيِنَا خَلَطٌ وَخَبْطٌ .

(٢) يَقُولُ الْعَرَبُ : « فَلَانٌ يَعْرِفُ الْأَرْزَبَ وَأُذُنَيْهَا » أَيُّ : يَعْرِفُ الشَّيْءَ بِالْعَلَامَةِ الَّتِي تُشَبِّهُهُ وَلَا تَخْلُفُ .

(٣) سيكولوجية Psychologia ، علم النفس ، هو علم السلوك بمظهره الحركي والذهني . وله فروع كثيرة : علم النفس التربوي ، والاجتماعي ، والجنائي ، والصناعي ، والمهني و ... الخ . بسلام .

إِلَيْكَ خَبْرًا وَاحِدًا مِمَّنْ تَشْرُهُ الصُّحُفُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ : كَفَرَارِ بِنْتِ فَلَانٍ بِأَشَا خَرِيَجَةٍ مَدْرَسَةٍ كَذَا مَعَ سَائِقِي سَيَّارَتِهَا ؛ فَفَسَّرَ لِي أَنْتَ كَلَامَ قَاسِمٍ ، وَأَفْهَمْنِي كَيْفَ تَكُونُ أَثْنَانِ وَأَثْنَانِ خَمْسَةٌ وَعِشْرِينَ ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ فِرَارٌ مُتَعَلِّمَةٍ أَصِيلَةٍ مَعَ سَائِقِي سَيَّارَةٍ هُوَ مُحَادَرَةٌ وَضِعَ الثَّقَّةُ فِيْمَنْ لَا يَكُونُ أَهْلًا لَهَا ؟

لَقَدْ أَغْفَلَ قَاسِمٌ حِسَابَ الزَّمَنِ فِي هَذَا أَيْضًا ، فَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَنَكِّرَاتِ وَالْأَنَامِ قَدْ انْحَلَّ مِنْهَا الْمَعْنَى الدِّينِيَّةُ ، وَتَبَتَ فِي مَكَانِهِ مَعْنَى اجْتِمَاعِيٌّ مُقَرَّرٌ ، فَأَصْبَحَتِ الْمُتَعَلِّمَةُ لَا تَتَخَوَّفُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهَا شَيْئًا ، بَلْ هِيَ تُقَارِفُهُ وَتَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونَ الْجَاهِلَةِ ، وَتَلْبِسُ لَهُ (السُّوَارِيَّة) (١) ، وَتَقْدِّمُ فِيهِ لِلرِّجَالِ الْمُهْدَّيِينَ مَرَّةً ذِرَاعَهَا ، وَمَرَّةً خَصْرَهَا ...

أَقْرَأْتُ « شَهْرَزَادَ » ؟ إِنَّ فِيهَا سَطْرًا يَجْعَلُ كِتَابَ قَاسِمٍ كُلَّهُ وَرَقًا أَبْيَضَ مَغْسُولًا لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يُفْرَأُ :

قَالَتْ شَهْرَزَادُ الْمُتَعَلِّمَةُ ، الْمُتَفَلِّسَةُ ، الْبَيْضَاءُ ، الْبُضَّةُ ، الرَّشِيقَةُ ، الْجَمِيلَةُ ؛ لِلْعَبْدِ الْأَسْوَدِ الْفَلْطَنِجِ الدِّمِيمِ الَّذِي تَهَوَّاهُ : « يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ ؛ وَضَنِجَ الْأَصْلِ ؛ فَيَبْحَ الصُّورَةُ ؛ تِلْكَ صِفَاتُكَ الْخَالِدَةُ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا ... » (٢) .

فَهَذَا كَلَامُ الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا لَا كَلَامُ التَّالِيفِ وَالتَّلْفِيفِ وَالتَّرْوِيرِ عَلَى الطَّبِيعَةِ .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِشَةِ :

فَقُلْتُ لَهَا : فَإِذَا كَانَ قَاسِمٌ لَا يُرْضِيكَ ، وَكَانَ الرَّجُلُ مُضْلِحًا دَخَلَتْهُ رُوحُ الْقَاضِي ، فَخَلَطَ رَأْيَا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، فَلَعَلَّ « مُصْطَفَى كَمَالٍ » (٣) هَمَّكَ مِنْ رَجُلٍ فِي

(١) السُّوَارِيَّة : Soiree : السهرة ، والمَقْصُودُ هُنَا أَلْبَاسُ الَّذِي يُزْدَدِي فِي الْحَفَلَاتِ السَّاهِرَةِ ، وَعَادَةً مَا يَكُونُ عَارِي الصَّدْرِ وَالْيَدَيْنِ وَالظَّهْرِ . بِسَام .

(٢) ص ١٠٦ مِنْ « شَهْرَزَادَ » لِلْكَاتِبِ الدَّقِيقِي صَدِيقَتَا الْأُسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ ، وَقَدْ كَتَبْنَا نَحْنُ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَكَشَفْنَا عَنْ سِرِّهِ فِي كِتَابِ « أَوْزَاقِ الْوَزْدِ » ص ٥١ - ٥٢ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِنَا .

(٣) مُصْطَفَى كَمَالٍ ، أَوْ كَمَالِ أَتَاتُورْكَ Kamal Atatürk ( ١٨٨١ - ١٩٣٨ م ) قَائِدُ وَزِيرِ تَرْكِي ، مُؤَسِّسُ تَرْكِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ ، كَانَ رَئِيسًا لِلْجُمْهُورِيَّةِ التَّرْكِيَّةِ . ( ١٩٢٣ - ١٩٣٨ ) ، أَلْغَى =

تَخْرِيرِ الْمَرْأَةِ تَخْرِيرًا مَرَّقَ الْحِجَابِ وَالْ... ؟

قَالَتْ : إِنَّ مُصْطَفَى كَمَالًا هَذَا رَجُلٌ نَائِزٌ ، يَسُوقُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْخَطَأَ وَالصَّوَابَ بِعَصَا وَاحِدَةٍ ، وَلَا يُعْجِزُ فِي طَبِيعَةِ الثَّوْرَةِ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَبْرَحُ نَائِزًا حَتَّى يَتِمَّ أَنْسِلَاخُ أُمِّهِ . وَلَهُ عَقْلٌ عَسْكَرِيٌّ كَانَ يَمْكُرُ بِهِ مَكْرَ الْأَلْمَانِ ، حِينَ أَكْرَهُهُمْ الْخُلَفَاءَ عَلَى تَحْوِيلِ مَصَانِعِ (كُرُوب) (١) ، فَحَوَّلُوهَا تَحْوِيلًا يَزِدُّهَا بِأَيْسَرِ التَّغْيِيرِ إِلَى صُنْعِ الْمَدَافِعِ وَالْمُهْلِكَاتِ . وَلَيْسَ الرَّجُلُ مُضْلِحًا لَلْبَنَةِ ، بَلْ هُوَ قَائِدٌ زَهَاهُ النَّصْرُ الَّذِي اتَّفَقَ لَهُ ، فَخَرَجَ مِنْ تِلْكَ الْحَزْبِ الصَّغِيرَةِ وَعَلَى شَفْتَيْهِ كَلِمَةٌ : « أُرِيدُ ... » وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا غَلِطَ غَلْطَةً أَرَادَهَا مُنْتَصِرَةً ، فَيَفْرِضُهَا قَانُونًا عَلَى الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْرِضَ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ الْيَوْمَ لَا يَمْلَأُونَ قَبْضَةَ دَوْلَتِهِ فَيَقْهَرُهُمْ عَلَيْهَا وَلَا يَنْتَظِرُهُمْ فِيهَا ، وَيَأْخُذُهُمْ كَيْفَ شَاءَ ، وَيَدْعُهُمْ كَيْفَ أَحَبَّ ؛ وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : وَهُوَ مُؤَلَّفُ الرُّوَايَةِ ، وَالْقَانُونُ نَفْسُهُ أَحَدُ الْمُؤَمِّلِينَ ...

وَحِفْظُهُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِ الدِّينِ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ نَائِزٌ لَا مُضْلِحٌ ؛ فَإِنَّ أَحْصَى أَخْلَاقِ الثَّوْرَةِ حِفْظَ النَّائِرِينَ ، وَهَذَا الْحِفْظُ فِي قُوَّةِ حَزْبٍ وَخِدْمَةٍ ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَادَّةً لِلْأَفْعَالِ الْكَثِيرَةِ الْمَذْمُومَةِ . وَالرَّجُلُ يَخْتَدِي أَوْرَبَةً وَيَعْمَلُ عَلَى أَعْمَالِ الْأَوْرَبِيِّينَ فِي خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَيَجْعَلُ رَدَائِلَهُمْ مِنْ فَضَائِلِهِمْ عَلَى رَغَمِ أَنْفِهِمْ ، يَتَبَرَّزُونَ هُمْ مِنْهَا وَيُلْجِفُهَا هُوَ بِقَوْمِهِ ، فَكَأَنَّهُ يَغْتَنِفُ الْآرَاءَ وَيَأْخُذُهَا أَخْذًا عَسْكَرِيًّا ، لَيْسَ فِي الْأَمْرِ إِلَّا قَوْلُهُ : « أُرِيدُ » . فَيَكُونُ مَا يُرِيدُ . هُوَ لَمْ يَحْكَمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَوْرَبَةٍ يَجْعَلُهُ تَرْكِيًا ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ رَدَائِلَ

= الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، واستبدل الحرف اللاتيني بالحرف العربي الذي كان تكتب به التركية . حاول جعل تركية أوربية ، وفي هَمِيمٍ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِمَتَكِينِهَا مِنَ الْحُلَاقِ بِرُكْبِ الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ .

فَكَانَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

كَمِثْلِ جِمَارٍ كَانَ لِلْقَزْنِ طَالِيَا قَابَ بِلَا أَذُنٍ لَيْسَ لَهُ قَزْنٌ بِسَام .

(١) مَصَانِعُ كُرُوبِ Krupp ، نَسَبَةٌ لِأَسْرَةِ كُرُوبِ Krupp الْأَلْمَانِيَّةِ ، الَّتِي اشتهرت بِامْتِلَاحِهَا أَكْبَرُ الْمَصَانِعِ لِصَنْعِ الْأَسْلِحَةِ الْحَرَبِيَّةِ . كَانَتْ هَذِهِ الْمَصَانِعُ مَرْكَزًا لِإِعَادَةِ تَسَلُّحِ أَلْمَانِيَّةِ فِي عَهْدِ هِتْلَرِ Hitler . بِسَام .

أُورُبَّة تَجَسَّسَ بِالْجَنَسِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ ...

وَتَالَهُ إِنَّهُ لَا يُسَرُّ عَلَيْهِ أَنْ يَجِيءَ بِمَلَائِكَةٍ أَوْ شَيْطَانٍ مِنَ الْمَرَدَةِ ، يَنْفُخُونَ أَرْضَ تُرْكِيَّةٍ فَيَمُطُّونَهَا مَطًّا فَيَجْعَلُونَهَا قَارَةً ، مِنْ أَنْ يُكْرِهَ أُورُبَّةَ عَلَى اعْتِيَارِ قَوْمِهِ أُورُبِّيَّيْنَ بِلُبْسِ قُبَّعَةٍ وَهَذِمَ مَسْجِدَ . إِنَّهُ لَا يَزَالُ فِي أَوَّلِ التَّارِيخِ ، وَهَذَا الشُّعْبُ الَّذِي انْتَصَرَ بِهِ لَمْ تَلِدْهُ مَبَادِئُهُ ، وَلَا أَنْشَأَهُ هَذِمُ الْمَسَاجِدِ وَشَقُّ الْعُلَمَاءِ ؛ بَلْ هُوَ الَّذِي وَلَدَتْهُ تِلْكَ الْأُمَهَاتُ ، وَأَخْرَجَهُ أُولَئِكَ الْآبَاءُ ، وَمَا كَانَ يُغَوِّزُهُ إِلَّا الْقَائِدُ الْحَازِمُ الْمُصَصَّمُ ، فَلَمَّا ظَفِرَ بِقَائِدِهِ جَاءَ بِالْمُعْجَزَةِ ؛ فَإِذَا فُتِنَ الْقَائِدُ بِنَفْسِهِ وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَتَحَوَّلَ نَبِيًّا ، فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَهُ اسْمٌ آخَرُ .

وَلِنَقْرِضِ « الْأَيَّازِ » كَمَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ ، لِنَسْتَطِيعَ أَنْ نَجْعَلَ مَسْأَلَتَنَا هَذِهِ عِلْمِيَّةً ، وَأَنْ نَبْحَثَهَا بَحْثًا عِلْمِيًّا ، فَلْيَكُنْ مُصْطَفَى كَمَالٍ هُوَ اللَّوْرْدُ كَتَشَنَرُ <sup>(١)</sup> Kitchener فِي إِنْكِلَزَةِ ؛ فَيَكْسِبُ اللَّوْرْدُ كَتَشَنَرُ تِلْكَ الْحَزْبَ الْعَظِيمَ لَا حَزْبَ الدُّوَيْلَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَيَنْتَصِرُ عَلَى الْبَرَاكِينِ مِنَ الْجُبُوشِ لَا عَلَى مِثْلِ بَرَامِيلِ الثَّيْبِ ... ثُمَّ يَسْتَعِزُّ الرَّجُلُ بِدَالِيهِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَيَدْخُلُهُ الْغُرُورُ ، فَيَصْنَعُ لَهُمْ مَرَّةً ، وَيَزَيِّرُ لَهُمْ مَرَّةً ، ثُمَّ يَأْتِيهِمْ بِالْأَيْدَةِ فَيَسْفَهُ دِينَهُمْ ، وَيُرِيدُهُمْ عَلَى تَعْطِيلِ شَعَائِرِهِمْ وَهَذِمِ كَنَائِسِهِمْ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْإِصْلَاحُ فِي رَأْيِهِ . أَفْتَرَى الْإِنْكَلِيزُ جَنَيْدَ يَضُوءُونَ إِلَيْهِ وَيَلْتَفُّونَ حَوْلَهُ وَيَقُولُونَ : قَائِدُنَا فِي الْحَزْبِ ، وَمُضْلِحُنَا فِي السَّلَامِ ، وَقَدْ انْتَصَرْنَا بِهِ عَلَى النَّاسِ فَسَتَنْتَصِرُ بِهِ عَلَى اللَّهِ ، وَظَفِرْنَا مَعَهُ بِيَوْمٍ مِنَ التَّارِيخِ فَسَتُظْفِرُ مَعَهُ بِالتَّارِيخِ كُلِّهِ ... ؟ أَمْ تَحْسَبُ كَتَشَنَرُ Kitchener كَانَ يَجْسُرُ عَلَى هَذَا وَهُوَ كَتَشَنَرُ Kitchener لَمْ يَتَغَيَّرْ عَقْلُهُ ؟

إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَتَدَفَّعُ اثْنَانِ أَنْ هَذِمَ كَنَيْسَةَ وَاحِدَةٍ يَوْمِيذٍ لَا يَكُونُ إِلَّا هَذِمَ كَتَشَنَرُ Kitchener وَتَارِيخُ كَتَشَنَرُ Kitchener ، وَلَكِنَّ الْعَجْزَ مُمَهَّدٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَالْأَرْضُ الْمُتَخَسِّفَةُ هِيَ الَّتِي يَسْتَنْقِعُ فِيهَا الْمَاءُ ، فَلَهُ فِيهَا اسْمٌ وَرَسْمٌ ؛ أَمَا الْجَبَلُ الصَّخْرِيُّ الْأَشْمُ ، فَإِذَا صَبَّ

(١) اللورد كتشنر Kitchener هو هوراثيو هربرت كتشنر Horatio Herbert Kitchener (١٨٥٠ - ١٩١٧) قائد وسياسي بريطاني . عُيِّنَ وزيرًا للبحرية البريطانية عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وكانت له شعبية كبيرة لدى الجمهور الإنكليزي . بسام .

هَذَا الْمَاءُ عَلَيْهِ أَرْسَلَهُ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ ، وَأَفَاضَهُ إِلَى أَسْفَلِ <sup>(١)</sup> ... !

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِشَةِ : فَأَقُولُ لَهَا : إِذَا كَانَ هَذَا رَأْيِكَ لِلنِّسَاءِ ، فَكَيْفَ لَا تَرَيْنَ مِثْلَ هَذَا لِنَفْسِكَ ؟

فَتَضَعَعَتَ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَلَجَلَجَتَ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَتْ : أَنْتَ سَلَبْتَنِي الرَّأْيَ لِنَفْسِي ، وَوَضَعْتَنِي فِي الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا تَتَّقِيْدُ بِقَانُونِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَتْ كُلُّ أَمْرَةٍ تَغْلُطُ لِنَفْسِهَا فِي الرَّأْيِ ، وَتَنْصَحُ بِالرَّأْيِ الصَّائِبِ غَيْرَهَا ، فَيُؤْثِرُكَ أَلَّا يَتَّقَى فِي نِسَاءِ الْأَرْضِ فَضِيلَةً وَلَا يَعُوْدَ فِي الْمَدْرَسَةِ كُلِّهَا عَاقِلٌ إِلَّا الْكِتَابُ ...

فَتَصَاحَكْتَ وَقَالَتْ : لِهَذَا يَسْتَدُ دِينُنَا الْإِسْلَامِيُّ مَعَ الْمَرْأَةِ ، فَهُوَ يَخْلُقُ طَبَائِعَ الْمُقَاوَمَةِ فِي الْمَرْأَةِ ، وَيَخْلُقُهَا فِيمَا حَوْلَهَا ، حَتَّى لِيُخَيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّ السَّمَاءَ عُيُونُ تَرَاهَا ، وَأَنَّ الْأَرْضَ عُقُولُ تُخَصِّي عَلَيْهَا ؛ وَهَلْ أَعْجَبُ مِنْ أَنَّ هَذَا الدِّينَ يَقْضِي قَضَاءَ مُبَرَّمَا أَنْ تَكُونَ ثِيَابُ الْمَرْأَةِ أَسْلُوبُ دِفَاعٍ لَا أَسْلُوبُ إِغْرَاءٍ ، وَأَنْ يَضَعَهَا مِنَ الشُّغُوسِ مَوْضِعًا يَكُونُ فِيهِ حَدِيثُهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا كَالْحَدِيثِ فِي (الرَّادِيُو) <sup>(٢)</sup> لَهُ دَوِّيٌّ فِي الدُّنْيَا ، فَيَقِيْمُ عَلَيْهَا الْحِجَابَ ، وَغَيْرَةَ الرَّجُلِ ، وَشَرَفَ الْأَصْلِ <sup>(٣)</sup> ؛ وَيُؤَاخِذُهَا بِرُوحِ طَبِيعَتِهَا ، فَيَجْعَلُ الْهَفْوَةَ مِنْهَا كَأَنَّهَا جَنِينٌ يَكْبُرُ وَلَا يَزَالُ يَكْبُرُ حَتَّى يَكُونَ عَارَ مَاضِيهَا وَخِزْيَ مُسْتَقْبَلِهَا .

هَذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ مَضْرُوبَةٌ لَا حِجَابَ وَاحِدٌ ، وَهِيَ كُلُّهَا لَخْلُقِ طَبَائِعِ الْمُقَاوَمَةِ ، وَلِنَبْسِيرِ الْمُقَاوَمَةِ ؛ وَمَتَى جَاءَ الْعِلْمُ مَعَ هَذِهِ لَمْ يَكُنْ أَبَدًا إِطْلَاقًا ، وَلَمْ يَكُنْ أَبَدًا إِلَّا الْحِجَابُ الْأَخِيرُ كَالشُّوْرِ حَوْلَ الْقَلْعَةِ ؛ وَلَكِنْ قَبَّحَ اللَّهُ الْمَدَنِيَّةَ وَفَتَّهَا ؛ إِنَّهَا أَطْلَقَتِ الْمَرْأَةَ حُرَّةً ، ثُمَّ حَاطَتْهَا بِمَا يَجْعَلُ حُرِّيَّتَهَا هِيَ الْخُرِّيَّةَ فِي اخْتِيَارِ اقْتِلَاقِ قُودِهَا لَا غَيْرَ . أَنْتَ مُحْتَمِلٌ

(١) أَفْرَدْنَا مَقَالًا خَاصًّا لِهَذَا الْإِلْحَادِ التُّرْكِيِّ الدُّبَابِيِّ ... فَقَدْ عَزَّزْنَا فِي الشُّبْحَةِ الْخَطِيئَةِ الَّتِي عِنْدَنَا « كَلِيلَةُ وَدْمَتُهُ » عَلَى فَضْلِ بَدِيعِ عُثْمَانُ : « كَفَرُ الدُّبَابِيَّةِ » ، تَقَرُّوْهُ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ .

(٢) الراديو Radio ، هذا الاسم الأعجمي لما عَمَّ استعماله اليوم تحت اسم المذياع . بسام .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « الْأَهْلُ » بِدَلَالَةٍ مِنْ : « الْأَصْلُ » .



بِالذَّهَبِ ، وَأَنْتَ حُرٌّ وَلَكِنَّ بَيْنَ اللَّصُوصِ ؛ كَأَنَّكَ فِي هَذَا لَسْتَ حُرًّا إِلَّا فِي اخْتِيَارِ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ ... !

لَمْ تَعُدِ الْمَرْأَةُ الْعِصْرِيَّةُ انْتِصَارَ الْأُمُومَةِ ، وَلَا انْتِصَارَ الْخُلُقِ الْفَاضِلِ ، وَلَا انْتِصَارَ التَّعْزِيَةِ فِي هُمُومِ الْحَيَاةِ ؛ وَلَكِنْ انْتِصَارَ الْفَنِّ ، وَانْتِصَارَ اللَّهْوِ ، وَانْتِصَارَ الْخَلَاعَةِ .

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِشَةِ : فَضَحِكْتُ وَقُلْتُ : وَانْتِصَارِي ... !

(طَبَقُ الْأَصْلِ) .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

« تَنْبِيْهُ » :

لَيْسَتْ الطَّائِشَةُ كُلُّ النَّسَاءِ وَلَا كُلُّ الْمُتَعَلِّمَاتِ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَرَوِي قِصَّةَ هِيَ فِي الدُّنْيَا ، لَيْسَ فِيهَا كَلِمَةٌ مِنَ الْمُرْتِيعِ وَلَا مِنْ زُحَلٍ ؛ فَأَمَّا الصَّالِحُ فَيَرَى وَيَفْهَمُ ، وَلَعَلَّهُ يَصُونُ بِهَا نَفْسَهُ ؛ وَأَمَّا الْفَاسِدُ فَيَرَى وَيَغْتَبِرُ ، وَلَعَلَّهُ يَرُدُّ بِهَا نَفْسَهُ . وَمَذْهَبُنَا دَائِمًا وَجُوبٌ كَشَفِ الْحَقِيقَةِ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ الصَّوَابَ فَخُذْهُ عَمَّنْ أَخْطَأَ .

### تَرْبِيَةُ لَوْلُؤِيَّةِ (\*)

كَتَبْتُ إِلَيَّ سَيِّدَةً فَاصِلَةً بِمَا هَلَدِهِ تَرْجَمْتُهُ مَنَقُولًا إِلَى أُسْلُوبِي وَطَرِيقَتِي :

... أَمَا بَعْدُ ؛ فَهَذَا الَّذِي كُنَّا ظَنَنَّا وَظَنَّتْ ، فَأَقْرَأَ الْفَضْلَ الَّذِي انْتَرَعْتُهُ لَكَ مِنْ مَجَلَّةٍ ... وَسَتَعْرِفُ مِنْهُ وَتُنْكِرُ ، وَتَرَى فِيهِ الْكَهَارَ مُبْصَرًا وَاللَّيْلَ أَعْمَى ... وَتَجِدُ فِتْنَةَ الْيَوْمِ عَلَى مَا وَقَعَ بِهَا مِنَ الظُّلَّةِ ، وَكَثُرَ فِيهَا مِنْ أَقْوَالِ السُّوءِ - لَا تَشْمَسُ عَلَى الرَّيْبَةِ وَلَا تُرِيدُ أَنْ تَنْتَفِيَّ مِنْهَا ، بَلْ هِيَ تَعْمَلُ لِتَحْقِيقِهَا ، وَتَبْعِي مَعَ تَحْقِيقِهَا أَنْ يَتَعَالَمَ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْهَا ، وَتُرِيدُ مَعَ هَذَيْنِ أَنْ يُطْلَقُوا لَهَا مَا شَاءَتْ ، وَيُسَوِّغُوا مُقَارَفَةَ الْإِثْمِ ، وَيَعْرِضُوا عَلَيْهَا مُنْكَرَاتِهَا .

أَمَّا إِنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَهَاتُنَا الْجَاهِلَاتُ هُنَّ أَمْسَنَا الذَّاهِبَ بِلاَ فَائِدَةٍ ، فَإِنَّ فِتْنَاتِنَا الْمُتَعَلِّمَاتِ هُنَّ يَوْمُنَا الصَّانِعَ بِلاَ فَائِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْجَاهِلَةَ لَمْ تَكُنْ تَكْسُدُ وَمَعَهَا الْفَضِيلَةُ ، فَاصْبَحَتْ الْمُتَعَلِّمَةُ لَمْ تَكُدْ تَنْفَقْ وَمَعَهَا الرَّذِيلَةُ ، وَلَتَاجِرُ أُمِّي طَاهِرُ الْأَسْمِ تَتَحَرَّكُ سُوقُهُ وَتَحْيَا ، خَيْرٌ مِنْ تَاجِرٍ مُتَعَلِّمٍ نَجِسِ الْأَسْمِ قَدْ مَاتَتْ سُوقُهُ وَخَمَدَتْ ، فَمَا تَنْتَفِسُ مِنْ دِرْهَمٍ وَلَا دِينَارٍ .

لَقَدْ اخْتَذَيْنَا عَلَى مِثَالِ الْمَرْأَةِ الْأُورُوبِيَّةِ ، فَلَمَّا أَحْكَمْتُمُ الْمُتَعَلِّمَاتُ مِثًا ، كُنَّ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ كَالسَّبَخَةِ الشَّاشَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، طَرَفٌ لَهَا بِالْقَلَاةِ وَطَرَفٌ بِالْبَحْرِ ؛ فَهِيَ رَمْلٌ فِي مَاءٍ فِي مِلْحٍ ، لَا تَخْلُصُ لِفَسَادٍ وَلَا صِحَّةٍ ، فَاعْتَبِرْ هَذِهِ وَهَذِهِ فَسْتَجِدُهُمَا بِحِكَايَةِ وَاحِدَةٍ ، أَصْلًا وَطَبَقَ الْأَصْلِ .

\* \* \*

وَقَرَأْتُ الْفَضْلَ الَّذِي أَوْمَأَتْ إِلَيْهِ السَّيِّدَةُ ، وَكَانَ فِي كِتَابِهَا ، فَإِذَا هُوَ لِكَاتِبَةٍ تَرَعُمُ (أَنَّهَا) مِمَّنْ رَفَعْنَ عِلْمَ الْجِهَادِ لِحُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ ، وَإِذَا فِي أَوَّلِهِ :

« كَتَبْتُ آيَةً أَدِيبِيَّةً فِي عَدَدِ سَابِقٍ مِنْ ... الْأَعْرُ تَقُولُ : « أَجَلٌ ، لِنَفْتِشَ عَنْ هَذَا

(\*) « الرسالة » العدد : ٦١ ، ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٣ سبتمبر/إيلول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٤٣٤ - ١٤٤٦ .

الرَّجُلِ كَمَا يُفْتَشُونَ هُمَ عَنِ الْمَرْأَةِ ، فَإِنْ أَخْطَأْنَاهُمْ أَزْوَاجًا فَلَنْ نُخْطِئَهُمْ أَصْدِقَاءَ !!! » وَكَتَبَ بَعْدَ هَذَا أَدِيبٌ فَاضِلٌ ، كَمَا كَتَبَتْ أَيْسَةُ فَاضِلَةٌ يَنْحِيَانِ (كَذَا) هَذَا الْمَنْحَى ، وَيُظَرِّقَانِ نَفْسَ السَّبِيلِ (كَذَا) الَّتِي اخْتَطَّتْهَا الْأَيْسَةُ الْجَرِيئَةُ فِي غَيْرِ حَقٍّ ، الثَّائِرَةُ فِي نَزْوٍ . ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ : « قَرَأْتُ مَقَالَ الْأَيْسَةِ الثَّائِرَةَ فِي حَيَوِيَّةِ صَارِخَةٍ !!!! فَجَزَعْتُ ، لِأَنَّ قَاسِمَ أَمِينٍ عِنْدَمَا رَفَعَ عِلْمَ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ حُرِّيَةِ الْمَرْأَةِ ، وَوَلِيَّ الدِّينِ يَكُنْ عِنْدَمَا جَاهَرَ بَعْدَهُ فِي سَبِيلِ السُّفُورِ ، وَهَدَى شَعْرَاوِي عِنْدَمَا رَفَعَتْ صَوْتَهَا عَالِيًا تَطَالِبُ بِحُرِّيَةِ الْمَرْأَةِ - مَا ظَنَنْتُ وَمَا ظَنُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ أَنَّ ثَوْرَةَ الْمَرْأَةِ سَتَتَطَوَّرُ إِلَى حَدٍّ أَنْ تَقِفَ أَيْسَةُ مُهَذَّبَةً ، تَكْشِفُ عَنْ رَأْسِهَا بَنِيَّكِ وَتَسْتَبْكِي سِوَاهَا مَعَهَا ، مِنْ أَجْلِ الزَّوْجِ ... » .

\* \* \*

وَأَنَا فَلَسْتُ أَذْرِي وَاللَّهِ مِمَّ تَعَجَّبَ هَذِهِ الْكَاتِبَةُ ، وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ عَجَبِهَا ، وَأَرَاهَا كَالَّتِي تَكْتُبُ عَبَثًا وَهَزَلًا وَهَوْنِي ، مُظْهِرَةً الْجِدَّ وَالْقَصْدَ وَالْغَضَبَ . أَتَيْنِ أَطْلُقُ لِلنِّسَاءِ أَنْ يَتَرْنَ كَمَا تَقُولُ الْكَاتِبَةُ ، وَجَاهِدَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فِي هَذِهِ الثَّوْرَةِ فَأَخَذَتْ مَأْخَذَهَا ، فَأَنْطَلَقَتْ لِشَانِهَا ، فَأَوْعَلَتْ فِي حُرِّيَّتِهَا ، فَأَمْتَدَّتْ بِهَا أَمْدَهَا شَوْطًا بَعْدَ شَوْطٍ - ثُمَّ جَاءَ خُلُقٌ مِنْ أَخْلَاقِ الْمَرْأَةِ يُسْفِرُ سُفُورَهُ وَيَرْفَعُ الْحِجَابَ عَنْ طَبِيعَتِهِ ثَائِرًا هُوَ أَيْضًا فِي غَيْرِ مُدَارَاةٍ وَلَا حِذْقٍ وَلَا كِيَاسَةٍ ، يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحِمَ طَرِيقَهُ وَيَسْلُكَ سَبِيلَهُ ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى رَغْمِهِ فِي الطَّرِيقِ مُنْكَسِرًا مِمَّا بِهِ مِنَ اللَّفَّةِ<sup>(١)</sup> وَالْوَبْئَةِ يَتَوَجَّعُ ، يَتَنَهَّدُ ، يَتَلَدَّعُ بِهِذِهِ الْمَعَانِي وَهَذِهِ الْكَلِمَاتِ - أَتَيْنِ وَقَعَ ذَلِكَ جَاءَتْ كَاتِبَةٌ مِنْ كَاتِبَاتِ السُّفُورِ تَقُولُ لِلْمَرْأَةِ : جَرِي عَلَيكِ وَكُنْتِ حُرَّةً ، وَتَزْعُرُغِي وَكُنْتِ ثَابِتَةً ، وَأَفْحَشْتِ وَكُنْتِ عَقِيفَةً ، وَتَعَهَّرْتِ وَكُنْتِ طَاهِرَةً ؟

أَفَلَا تَقُولُ لَهَا : سَفَرْتُ أَخْلَاقِي إِذْ كُنْتُ سَافِرَةً بَارِزَةً ، وَضَاعَ حَيَاؤُكِ إِذْ كُنْتُ مُحَلَاةً مُهْمَلَةً ، وَغَلَوْتُ إِذْ كُنْتُ فِي الْمُبَالَغَةِ مِنَ الْبَدَنَةِ ؟

أَفَلَا تَقُولُ لَهَا : لَقَدْ تَلَطَّفْتُ فَجَنْتُ بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ لِكَلِمَةِ (الْعُرْيِ) ، وَلَقَدْ أَبْدَعْتَ فَكُنْتَ أَمْرًا ظَرِيفَةً أَجْتِمَاعِيَّةً مَخِيلَةً لِلشَّعْرِ وَالْفَرْنِ ، وَحَقَّقْتَ أَنَّ وَاجِبَ الظَّرِيفَةِ الْجَمِيلَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « اللَّفَّةُ » بَدَلًا مِنْ : « اللَّفَّةُ » .

إِعْطَاءُ الْفَرِّ غِذَاءً مِنْ ... ، وَمِنْ ... ؛ وَمِنْ لَحْمِهَا ... ؟

نَعَمْ إِنْ قَاسِمَ أَمِينٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ ... وَلَكِنْ أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَظُنَّ أَنْ يَغْضَ الصَّوَابَ فِي الْخَطَا لَا يَجْعَلُ الْخَطَا صَوَابًا ؟ بَلْ هُوَ آخَرَى أَنْ يُلْبِسَهُ عَلَى النَّاسِ فَيَسْبِغَهُ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ وَمَا هُوَ بِهِ ، وَيَجْعَلَهُمْ يَسْكُنُونَ إِلَيْهِ وَيَأْمَنُونَ جَانِبَهُ فَيَنْتَهِي بِهِمْ يَوْمًا إِلَى أَنْ يَنْتَسِفَ خَطْوُهُ صَوَابَهُ ، وَيُعْطِي بَاطِلُهُ عَلَى حَقِّهِ ، ثُمَّ تَسْتَطِرِقُ إِلَيْهِ عَوَامِلُ لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَا كَانَتْ تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ وَهُوَ خَطَاً مَخْضُ ، فَتَمُدُّ لَهُ فِي الْعُيِّ مَدًّا . ثُمَّ تَنْتَهِي هِيَ أَيْضًا إِلَى نِهَائِهَا ، وَتَوُؤِلُ إِلَى حَقَائِقِهَا ؛ فَإِذَا كُلُّ ذَلِكَ قَدْ دَاخَلَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَإِذَا الشَّرُّ لَا يَقِفُ عِنْدَمَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا الْبَلَاءُ لَيْسَ فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ بَلْ أَنْوَاعٌ .

مَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي نِيَّةِ قَاسِمِ أَمِينٍ ، وَلَا نَزْعُهُ أَنَّ لَهُ خَفِيَّةَ سُوءٍ أَوْ مُضْمَرٍ شَرٍّ فِيمَا دَعَا إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَةِ ، وَلَكِنِّي أَنَا أَرْتَابُ فِي كِفَايَتِهِ لِمَا كَانَ أَخَذَ نَفْسَهُ بِهِ ، وَأَرَاهُ قَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا يُحْسِنُ ، وَذَهَبَ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ وَهُوَ لَا يَنْفُذُ إِلَى حَقَائِقِهِ ، وَلَا يَسْتَبْطِنُ أَسْرَارَ عَرَبِيَّتِهِ ، وَكَانَ مُنَاطِرُوهُ فِي عَصْرِهِ قَوْمًا ضَعَفَاءَ ، فَاسْتَعْلَاهُمْ بِضَعْفِهِمْ لَا بِقُوَّتِهِ ، وَكَانَتْ كَلِمَةُ الْحِجَابِ قَدْ انْتَفَخَتْ فِي ذَهْنِهِ بَعْدَ أَنْ أَفْرَغَتْ مَعَانِيَهَا الدَّقِيقَةَ ، فَأَخَذَهَا مُمْتَلِئَةً وَجَاءَ بِهَا فَارِعَةً ، وَقَالَ لِلنِّسَاءِ : غَيِّرْنَ وَبَدِّلْنَ . فَلَمَّا أَطْعَمَهُ وَبَدَّلْنَ وَغَيَّرْنَ ، وَجَاءَ الزَّمَنُ بِمَا يُفَسِّرُ الْكَلِمَةَ مِنْ حَقَائِقِهِ وَتَصَارِيفِهِ لَا مِنْ خَيَالَاتِ الْمُتَخَيَّلِ أَوْ الْمُتَشَبِّهِ - إِذَا مَعْنَى التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ هُوَ مَا رَأَيْتَ ، وَإِذَا الْحِجَابُ الْأَوَّلُ عَلَى ضَلَالِهِ كَانَ نِصْفَ الشَّرِّ ، وَإِذَا الْمَرْأَةُ الَّتِي رِبِحَتِ الشَّارِعَ هِيَ الَّتِي خَسِرَتِ الزَّوْجَ ! وَإِذَا تِلْكَ الدَّعْوَةُ لَمْ تَكُنْ نَفْيًا لِلْحِجَابِ عَنِ الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنْ نَفْيًا لِلْمَرْأَةِ ذَاتِهَا وَرَاءَ حُدُودِ الْأُسْرَةِ ، كَأَنَّهَا مُجْرِمَةٌ عُوقِبَتْ عَلَى فَسَادِ سِيَاسَتِهَا ؛ وَهِيَ { قَارَةٌ } فِي بَيْتِهَا وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ مُنْفِيَّةٌ مِنْ مُسْتَقْبَلِهَا .

كَانُوا يَخْتَجُّونَ لِنَفْيِ الْحِجَابِ بِالْفَلَاخَاتِ فِي سُفُورِهِنَّ ؛ وَغَفَلُوا أَفْبَحَ الْعَفْلَةِ عَنِ السَّبَبِ الطَّبِيعِيِّ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ السُّفُورَ إِنَّمَا عَمَهُنَّ مِنْ كَوْنِهِنَّ لَسَنَ فِي الْمَثَرَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ بَهَائِمِ إِنْسَانِيَّةِ مُؤَنَّثَةٍ ؛ وَمِثْلُ هَذَا السُّفُورِ لَا يَكُونُ عَلَى طَبِيعَتِهِ تِلْكَ إِلَّا فِي اجْتِمَاعٍ طَبِيعِيٍّ فِطْرِيٍّ أَسَاسُهُ الْخُلُطُ فِي الْأَعْمَالِ لَا التَّمْيِيزُ بَيْنَهَا ، وَالْأَشْتِرَاكُ فِي شَيْءٍ

وَاحِدٌ هُوَ كَسْبُ الْقُوَّةِ<sup>(١)</sup> لَا الْإِنْفِرَادُ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ أَشْيَاءِ النَّفْسِ .

وَلَسْتُ أَرَى هَذِهِ اللَّجَاجَةَ ، أَوْ « الْحَيَوِيَّةَ الصَّارِخَةَ » الَّتِي ثَارَتْ بِفَتَاتِنَا - إِلَّا تَمَرُّدًا مِنْ طَبِيعَتِهِنَّ عَلَى الْأَحْوَالِ الظَّالِمَةِ الْمُتَصَرِّفَةِ بِهَا ؛ وَيَحْسَبُنَّ تَوْشَعًا مِنَ الطَّبِيعَةِ فِي الْحُرِّيَّةِ ، وَطَلَبًا لِلْعَالَمِ كُلِّهِ بَعْدَ الشَّارِعِ ، وَلِلْحَقُوقِ كُلِّهَا بَعْدَ نَبْدِ الْحِجَابِ ؛ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ إِلَّا نُورَةً الطَّبِيعَةِ الشَّسْوِيَّةِ عَلَى خِيَّتَيْهَا مِمَّا أَصَابَتْ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّارِعِ وَالْعَالَمِ وَالْحَقُوقِ ، وَرَغْبَةً مِنْهَا فِي أَنْ تُحَدَّ بِحُدُودِهَا وَيُؤَخَذَ مِنْهَا الْعَالَمُ كُلُّهُ بِمَا فِيهِ ، وَتُعْطَى الْبَيِّتُ وَحْدَهُ بِمَا فِيهِ .

إِذَا أَنْتَ كَشَفْتَ جُذُورَ الشَّجَرَةِ لِتُطْلِقَهَا بِزَعْمِكَ مِنْ حِجَابِهَا ، وَتُخْرِجَهَا إِلَى النُّورِ وَالْحُرِّيَّةِ ، فَإِنَّمَا أَعْطَيْتَهَا النُّورَ ، وَلَكِنَّ مَعَهُ الضَّغْفَ ؛ وَالْحُرِّيَّةَ ، وَمَعَهَا الْإِنْتِقَاضَ ؛ وَتَكُونُ قَدْ أَخْرَجْتَهَا مِنْ حِجَابِهَا وَمِنْ طَبِيعَتِهَا مَعًا ؛ فَخَذَهَا بَعْدَ ذَلِكَ خَشْبًا لَا ثَمَرًا ، وَمَنْظَرُ شَجَرَةٍ لَا شَجَرَةٍ ، لَقَدْ أَعْطَيْتَهَا مِنْ عِلْمِكَ لَا مِنْ حَيَاتِهَا ، وَجَهَلْتَ أَنَّهَا مِنْ أَطْبَاقِ النَّرَى فِي قَانُونِ حَيَاتِهَا ، لَا فِي قَانُونِ حِجَابِهَا . أَفَلَيْسَتْ كَذَلِكَ جُذُورُ الشَّجَرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؟

كُلُّ مَا يَتَغَيَّرُ يَسْهُلُ تَغْيِيرُهُ عَلَى مَنْ شَاءَ ، وَلَكِنَّ الشَّائِجَ الْآتِيَةَ مِنَ التَّغْيِيرِ لَا تَكُونُ إِلَّا حَتْمًا مَقْضِيًّا كَمَا يَقْضَى ، فَلَنْ يَسْهُلَ تَبْدِيلُهَا وَلَا تَحْوِيلُهَا وَلَا رَدُّهَا أَنْ تَقَعَ . وَقَدْ أَخْطَأَ جَمَاعَةُ السُّفُورِ ، بَلْ أَنَا أَقُولُ : إِنَّهُمْ جَاوَزُوا بِالْجَاهِلِيَّةِ الثَّانِيَةِ ، وَإِنَّهُمْ طَبُّوا لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ كَذَلِكَ الطَّبِّ الَّذِي أُسَّاسُهُ الرَّايحةُ الذَّكِيَّةُ فِي الْبُخُورِ ...<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

وَمَا هُوَ الْحِجَابُ إِلَّا حِفْظُ رُوحَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ لِلْمَرْأَةِ ، وَإِعْلَاءُ سِرِّهَا فِي الْأَجْتِمَاعِ ، وَصَوْنُهَا مِنَ التَّبَدُّلِ الْمَمْقُوتِ ، لِضَبْطِهَا فِي حُدُودِ كَحْدُودِ الرِّيحِ مِنْ هَذَا الْقَانُونِ الصَّارِمِ ، قَانُونِ الْعَرَضِ وَالطَّلَبِ ؛ وَالْإِزْنَفَاعُ بِهَا أَنْ تَكُونَ سِلْعَةً بَايَرَةً يُتَادَى عَلَيْهَا فِي

(١) { وَلِهَذَا لَا يَكَادُ يَغْنِي الْفَلَّاحُ وَلَوْ أَبَسَرَ الْعَيْنُ ، حَتَّى يَصُونُ أَمْرَاتِهِ وَيَحْجُبَهَا وَيَرْتَفِعَ بِمَعْنَاهَا عَنْ نَفْسِهِ } .

(٢) { أَنَّى : طِبُّ الدَّجَالَيْنِ } .

مَدَارِجِ الطَّرِيقِ وَالْأَسْوَاقِ : الْعِيُونُ الْكَحِيلَةُ ، الْخُدُودُ الْوَرْدِيَّةُ ، الشَّفَاهُ الْيَاقُوتِيَّةُ ، التُّغُورُ اللَّوْلُؤِيَّةُ ، الْأَعْطَافُ الْمُرْتَجَّةُ ، الْهُوْدُ الْ... الْ... أَوْ لَيْسَ فِتْيَانًا قَدْ أَنْتَهَيْنَ مِنَ الْكَسَادِ بَعْدَ نَبْدِ الْحِجَابِ إِلَى هَذِهِ الْعَايَةِ ، وَأَصْبَحْنَ إِنْ لَمْ يُتَادَيْنَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّهُنَّ لَا يَظْهَرْنَ فِي الطَّرِيقِ إِلَّا لِتُنَادِي أَجْسَامُهُنَّ بِمِثْلِ هَذَا ؟

وَهَذِهِ الَّتِي كَتَبَتْ الْيَوْمَ تَطْلُبُهُنَّ مُحَادِنِينَ إِنْ أَخْطَأْتُهُنَّ أَرْوَاجًا ، وَتَفَتَّشَ عَلَيْهِنَّ تَفْتِيشًا بَيْنَ الزَّوْجَاتِ وَالْأَمْهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ ! هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَبَّ دَرَجَةً أُخْرَى فِي مُخْزِيَّاتِ هَذَا الطَّوُّورِ ، فَتَمْسِيَ فِي الطَّرِيقِ مَشْيَ الْأُنْثَى مِنَ الْبَهَائِمِ طُمُوحًا مَطْرُوفَةً ، تَذْهَبُ عَيْنَاهَا هُنَا وَهَلْهَنَا تَلْتَمِسُ مَنْ يَخْطُو إِلَيْهَا الْخَطْوَةَ الْمُقَابِلَةَ ... ؟

مَا هُوَ الْحِجَابُ الشَّرْعِيُّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَرْبِيَّةً عَمَلِيَّةً عَلَى طَرِيقَةِ اسْتِخْكَامِ الْعَادَةِ لِأَسْمَى طَبَاقِ الْمَرْأَةِ وَأَخْصُهَا الرِّحْمَةُ ؟ هَذِهِ الصِّفَةُ النَّادِرَةُ الَّتِي يَقُومُ الْأَجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ عَلَى تَرْعِهَا وَالْمُنَازَعَةِ فِيهَا مَا دَامَتْ سُنَّةُ الْحَيَاةِ نِزَاعَ الْبَقَاءِ ، فَيَكُونُ الْبَيِّتُ أَجْتِمَاعًا خَاصًّا مَسَالِمًا لِلْفَرْدِ تَحْفَظُ الْمَرْأَةَ بِمِثْلِهَا ، وَتُؤَدِّي فِيهِ عَمَلَهَا ، وَتَكُونُ مَغْرَسًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَغَارِسَةً لِصِفَاتِهَا مَعًا .

لَقَدْ رَأَيْنَا مَوَالِيدَ الْحَيَوَانِ تُؤَلَّدُ كُلُّهَا : إِمَّا سَاعِيَةً كَاسِبَةً لَوْفَتِهَا ، وَإِمَّا مُحْتَاجَةً إِلَى الْحَضَانَةِ وَقَتًا قَلِيلًا لَا يَلْبُثُ أَنْ يَنْفَضِيَ فَتَكْدَحَ لِعَيْشِهَا ؛ إِذْ كَانَتْ غَايَةُ الْحَيَوَانِ هِيَ الْوُجُودُ فِي ذَاتِهِ لَا فِي نَوْعِهِ ، وَكَانَ بِذَلِكَ فِي الْأَسْفَلِ لَا فِي الْأَعْلَى . غَيْرَ أَنَّ طِفْلَ الْمَرْأَةِ يَكُونُ فِي بَطْنِهَا جَنِينًا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ يُؤَلَّدُ لِيَكُونَ مَعَهَا جَنِينًا فِي صِفَاتِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَرَحْمَتِهَا أَضْعَافَ ذَلِكَ ، سَنَةً بِكُلِّ شَهْرٍ . فَهَلِ الْحِجَابُ إِلَّا قَصْرُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَمَلِهَا ، لِتَجْوِيدِهِ وَإِنْفَاقِهِ وَإِخْرَاجِهِ كَامِلًا مَا اسْتَطَاعَتْ ؟ وَهَلْ قَصْرُهَا فِي حِجَابِهَا إِلَّا تَرْبِيَّةً طَبِيعِيَّةً لِرَحْمَتِهَا وَصَبْرِهَا ، ثُمَّ تَرْبِيَّةً بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ حَوْلَهَا بِرَحْمَتِهَا وَصَبْرِهَا ؟

أَعْرِفُ مُعَلِّمَةً ذَاتَ وَلَدٍ ، تَتْرُكُ ابْنَهَا فِي أَيْدِي الْخَدَمِ بَعْدَ وَصَاةٍ عِلْمِيَّةٍ سَيَكُولُ وَجِيَّةً ... وَتَمْضِي ذَاهِبَةً عَنْ يَمِينِ الصَّبَاحِ ، وَتَمْضِي زَوْجَهَا عَنْ شِمَالِهِ ... وَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا الطِّفْلَ مَرَّةً ، فَرَأَيْتُهُ شَبِيحًا جَدِيدًا غَيْرَ الْأَطْفَالِ ، لَهُ سِمَةٌ رُوحَانِيَّةٌ غَيْرُ سِمَاتِهِمْ ، كَأَنَّمَا يَقُولُ لِي : إِنَّهُ لَيْسَ لِي أَبٌ وَأُمٌّ ، وَلَكِنْ أَبٌ رَقَمَ (١) ، وَأَبٌ رَقَمَ (٢) ... !

\* \* \*

وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ كَلِمَةً عَنِ الْحِجَابِ الْإِسْلَامِيِّ قُلْتُ فِيهَا : « مَا كَانَ الْحِجَابُ مَضْرُوبًا عَلَى الْمَرْأَةِ نَفْسِهَا ، بَلْ عَلَى حُدُودِ مِنَ الْأَخْلَاقِ أَنْ تُجَاوِزَ مِقْدَارَهَا أَوْ يُخَالِطَهَا الشُّؤْءُ أَوْ يَتَدَسَّسَ إِلَيْهَا ؛ فَكُلُّ مَا أَدَّى إِلَى هَذِهِ الْعَاقِبَةِ فَهُوَ حِجَابٌ ، وَلَيْسَ يُؤَدِّي { إِلَيْهَا } شَيْءٌ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ أَمْرًا فِي دَائِرَةِ بَيْتِهَا ، ثُمَّ إِنْسَانًا فَقَطْ فِيمَا وَرَاءَ هَذِهِ الدَّائِرَةِ إِلَى آخِرِ حُدُودِ الْمَعَانِي » .

وَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ الَّذِي لَمْ يَتَّبِعْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَلَيْسَ الْحِجَابُ إِلَّا كَالزَّمَرِ لِمَا وَرَاءَهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَمَعَانِيهِ وَرُوحِهِ الدِّينِيَّةِ الْمَعْبُودَةِ ، وَهُوَ كَالصَّدَقَةِ لَا تَحْجُبُ اللَّوْلُوءَ وَلَكِنْ تُرَبِّعُهَا فِي الْحِجَابِ تَرْبِيَةً لِّلْوَلُوءَةِ ؛ فَوَرَاءَ الْحِجَابِ الشَّرْعِيِّ الصَّحِيحِ مَعَانِي التَّوَازُنِ وَالْإِسْتِقْرَارِ وَالْهَدْوِ وَالْإِضْطِرَادِ ، وَأَخْلَاقُ هَذِهِ الْمَعَانِي وَرُوحُهَا الدِّينِي الْقَوِي ، الَّذِي يُنْسِي عَجِيبَةَ الْأَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهَا ؛ أَيْ : صَبَرَ الْمَرْأَةُ وَإِنْبَارَهَا . وَعَلَى هَؤُلَاءِ تَقُومُ قُوَّةُ الْمُدَافَعَةِ ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ هِيَ تَمَامُ الْأَخْلَاقِ الْأَدَبِيَّةِ كُلَّهَا ، وَهِيَ سِرُّ الْمَرْأَةِ الْكَامِلَةِ ؛ فَلَنْ تَجِدَ الْأَخْلَاقَ عَلَى أَنْفُسِهَا وَأَحْسَنَهَا وَأَقْوَمَهَا إِلَّا فِي الْمَرْأَةِ ذَاتِ الدِّينِ وَالصَّبْرِ وَالْمُدَافَعَةِ . إِنَّهَا فِيهَا تَشْبِهُ أَخْلَاقَ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

وَقَدْ مُجِّقَ الدِّينُ وَالصَّبْرُ ، وَتَرَخَتْ قُوَّةُ الْمُدَافَعَةِ فِي أَكْثَرِ الْفَتَيَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ ، فَابْتُلِينَ مِنْ ذَلِكَ بِالضَّجَرِ وَالْمَلَلِ ، وَتَشْوِيهِ النَّفْسِ ؛ وَوَقَعَ فِيهِنَّ مَعْنَى كَمَعْنَى الْعَيْنِ فِي الثَّمَرَةِ النَّاضِجَةِ ؛ وَجَهِلْنَ بِالْعِلْمِ حَتَّى طَبِيعَتُهُنَّ ، فَمَا مِنْهُنَّ مَنْ عَرَفَتْ أَنَّ طَبِيعَتَهَا سَلْبِيَّةٌ فِي ذَاتِهَا ، وَأَنَّهُ لَا يَشُدُّهَا وَيُقِيمُهَا إِلَّا الصِّفَاتُ السَّلْبِيَّةُ ، وَمَلَكَهَا الصَّبْرُ فُرُوعُهُ وَأَصُولُهُ ، وَجَمَالَهَا الْحَيَاءُ وَالْعِفَّةُ ، وَزَمَنُهَا وَحَارِسُهَا وَالْمُعِينُ عَلَيْهَا هُوَ الْحِجَابُ وَحَدَهُ . إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَرْأَةِ هَذَا فَلَيْسَتْ الْمَرْأَةُ إِلَّا بِهَذَا .

وَمَا تَخْطِئُ الْمَرْأَةُ فِي شَيْءٍ خَطَايَا فِي مُحَاوَلَةِ تَبْدِيلِ طَبِيعَتِهَا وَجَعْلِهَا إِنْجَابِيَّةً ، وَاتِّحَالِهَا صِفَاتِ الْإِنْجَابِ ، وَتَمَرُّدِهَا عَلَى صِفَاتِ السَّلْبِ ، كَمَا يَقَعُ لِعَهْدِنَا ؛ فَإِنَّ هَذَا لَنْ يَبِمَ لِلْمَرْأَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَعْتَبِرَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ نَقَائِصَ أَخْلَاقِهَا مِنْ أَخْلَاقِهَا ، كَمَا تَرَى فِي أَوْرَثَةٍ ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْ آثَرِ أَوْرَثَةٍ ؛ فَمِنْ هَذَا تَلْقَى الْفَتَاةَ حَيَاةً وَتَبْدُو وَتَفْجِشُ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي جَمِيعًا فَبِالْمَعَانِي وَحَدَهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِدِهِ وَلَا بِتِلْكَ

فَبِالْفِكْرِ فِي هَذِهِ وَتِلْكَ ؛ وَكَانَتْ أَلَسْتِجَابَةً لِهَذَا مَا فَشَا مِنَ الرِّوَايَاتِ السَّاقِطَةِ ، وَالْمَجَلَّاتِ الْعَارِيَةِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ وَهَذِهِ لَيْسَتْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَكُونَ عِلْمُ الْفِكْرِ السَّاقِطِ .

وَعَادَتِ الْفَتَاةُ مِنْ ذَلِكَ لَا تَبْتَعِي إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَمْرًا رَوَايَةً : إِمَّا فَوْقَ الْحَيَاةِ ، وَإِمَّا فِي حَقَائِقِ جَمِيلَةٍ تَخْتَارُهَا اخْتِيَارًا وَتَفْرُضُهَا فَرْضًا عَلَى الْقَدَرِ ! وَتَنْسِي الْحَقْمَاءَ أَنَّهَا أَحَدُ الطَّرَفَيْنِ ، وَلَيْسَتْ الطَّرَفَيْنِ جَمِيعًا ؛ فَتُحَاوِلُ أَنْ تُقَرِّرَ لِلْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ تَأْوِيلًا جَدِيدًا لِمَعَانِي الشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ وَالْعِرْضِ وَالنَّسَبِ وَمَا إِلَيْهَا ؛ فَانْسَلَخَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ثُمَّ لَمَّا أَعْجَزَهَا أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ غَرِيزَةِ الْأَنْوَةِ طَاشَتْ طَبِيعَتُهَا الْأَخِيرَ ، فَانْسَلَخَتْ مِنْ إِنْسَانِيَّةِ الْغَرِيزَةِ .

\* \* \*

أَمَّا إِنْ غَلَطَ الرَّجُلُ فِي الْمَرْأَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ غَلَطَةِ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهَا . وَهِيَ قَدْ أُعْطِيَتْ فِي طَبِيعَتِهَا كُلِّ مَعَانِي حِجَابِهَا ؛ فَاخْسَاسُهَا مُخْتَجِبٌ مُخْتَبِئٌ أَبَدًا كَأَنَّهُ فِي إِنْجَابٍ (١) وَمُلَاءَةٍ وَبُرْفَعٍ ، وَأَفْكَارُهَا طَوِيلَةٌ الْمَلَازِمَةِ لَهَا لَا تَكَادُ تَتْرُكُهَا ، كَأَنَّهَا مِنْهَا فِي بَيْتٍ ؛ وَطَبِيعَةُ الْحَدَرِ لَا تَبْرَحُهَا كَأَنَّهَا الْحَارِسُ الثَّابِتُ فِي مَوْضِعِهِ ، الْقَائِمُ بِسِلَاحِهِ عَلَى حِفْظِ هَذَا الْجِسْمِ الْجَمِيلِ ؛ وَطُولُ التَّأَمُّلِ مُوَكَّلٌ بِهَا كَأَنَّهُ عَمَلُهُ مُصَاحِبُهُ وَحَدِيثُهَا لِتَخْفِيفِهَا عَلَى نَفْسِهَا وَالتَّرَفُّفِ مِنْهَا ؛ وَالدُّنْيَا حَوْلَ الْمَرْأَةِ بِمَذَاهِبِ أَقْدَارِهَا ، وَلَكِنْ لَهَا دُنْيَا فِي دَاخِلِهَا هِيَ قَلْبُهَا تَذْهَبُ الْأَقْدَارُ فِيهِ مَذَاهِبَ أُخْرَى ؛ وَضَغْطَةُ الْحَيَاةِ طَبِيعِيَّةٌ فِيهَا ، حَتَّى لَا يُسَاوِرُهَا هَمٌّ مِنَ الْهَمُومِ إِلَّا صَارَ كَأَنَّهُ مِنْ عَادَتِهَا . وَالَّتِي تُمَرِّقُهَا الْحَيَاةُ كُلَّمَا وَلَدَتْ لَا تَكُونُ الْحَيَاةُ إِلَّا رَحِيمَةً بِهَا إِذَا ضَغَطَتْهَا !

فَخُرُوجُ الْمَرْأَةِ مِنْ حِجَابِهَا خُرُوجٌ مِنْ صِفَاتِهَا ، فَهُوَ إِضْعَافٌ لَهَا ، وَتَضَرُّعٌ لِلرِّجَالِ بِهَا . وَمَاذَا تُجِدُنِي عَادَةً الْحَدَرِ إِذَا أَفْسَدَتْهَا عَادَةُ الْأَسْتِزْسَالِ وَالْإِنْدِفَاعِ ؟ فَيَكُونُ حَدَرًا لِيَكُونَ إِغْفَالًا ، ثُمَّ يَكُونُ إِغْفَالًا لِيَعُودَ الزَّلَّةُ وَالْعَلْطَةُ ؛ وَمَتَى رَجَعَ غَلْطَةُ فَهَذَا أَوَّلُ الشُّقُوطِ ، وَمَبْدَأُ الْأَنْقِلَابِ وَالتَّحَوُّلِ . وَلَيْسَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَمْرَةٍ تَفُورُ مِنَ الرِّيَّةِ ، شُمُوسِ لَا تَطَالِعُ الرِّجَالَ وَلَا تُطْعِمُهُمْ ؛ وَبَيْنَ أَمْرَةٍ قَرُورٍ عَلَى الرِّيَّةِ ، هُلُوكِ فَاجِرَةٍ - { لَيْسَ

(١) الْإِنْجَابُ ، هُوَ : بُرْدَةٌ تُشَقُّ قَلْبُهَا مِنْ غَيْرِ كَوْنٍ ، وَتُسَمَّى الرِّيَّةُ الْمَلْسُ .

الْفَرْقُ { إِلَّا حِجَابَ الْحَذَرِ أُسْدِلَ عَلَى وَاحِدَةٍ ، وَانْكَشَفَ عَنْ أُخْرَى .

وَإِذَا قَرَّبَ الْمَرْأَةُ فِي فَضَائِلِهَا ، فَإِنَّمَا هِيَ فِي حِجَابِهَا وَدِينِهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْحِجَابُ ضَابِطٌ خُرَيْتِيهَا الصَّحِيحَةِ ، بِاعْتِبَارِهَا أَمْرًا غَيْرَ الرَّجُلِ ؛ فَهُوَ مُسَمًّى بِالْحِجَابِ لِاتِّصَالِهِ بِالْحُرِّيَّةِ وَضَبْطِهِ لَهَا ، وَلَكِنَّ الضُّعْفَاءَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ ظَاهِرًا مِنَ الرَّأْيِ لَا يُذَرِّكُونَ مَذْهَبَهُ ، وَلَا يُحَقِّقُونَ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَيَتَفَدُّونَ فِي حُكْمِهِمْ عَلَى الظَّاهِرِ لَا عَلَى الْبَصِيرَةِ - هَذَا لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى الْحِجَابِ إِلَّا فِي الْقَمَاشِ وَالْكِسَاءِ وَالْأَبْنِيَةِ ، كَأَنَّ حِجَابَ الْأَخْلَاقِ النَّسُوبَةِ شَيْءٌ يَصْنَعُهُ الْحَائِثُ وَالْبَانِي وَالْمُسْتَعْبِدُ ، وَلَا تَصْنَعُهُ الشَّرِيعَةُ وَالْأَدَبُ وَالْحَيَاةُ الْأَجْمَاعِيَّةُ ؛ فَهُمْ كَمَا تَرَى حِينَ يَأْتُونَ بِنُصْفِ الْعِلْمِ ، يَأْتُونَ بِنُصْفِ الْجَهْلِ .

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ الْمَرْأَةَ قُوَّةَ عَقْلِ فَتَكُونَ قُوَّةَ إِنْجَابٍ ، وَلَكِنَّهُ أَبْدَعَهَا قُوَّةَ عَاطِفَةٍ لَتَكُونَ قُوَّةَ سَلْبٍ ؛ فَيَمِي بِخَصَائِصِهَا وَالرَّجُلُ بِخَصَائِصِهِ ؛ وَالسَّلْبُ بِطَبِيعَتِهِ مُتَحَجِّبٌ صَابِرٌ هَادِيٌّ مُنْتَظَرٌ ، وَلَكِنَّهُ بِذَلِكَ قَانُونٌ طَبِيعِي تَتِمُّ بِهِ الطَّبِيعَةُ .

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ قُوَّةَ لِمَصَفَاتِ الْمَرْأَةِ لَا ضَعْفًا ، وَزِيَادَةً لَا نَقْصًا ؛ فَمَا يَخْتِاجُ الْعَالَمُ إِذَا خَرَجَ صَوْتُهَا فِي مَشَاكِلِهِ أَنْ يَكُونَ كَصَوْتِ الرَّجُلِ صَنِيعَةً فِي مَعْرَكَةٍ ، بَلْ تَخْتِاجُ هَذِهِ الْمَشَاكِلُ صَوْتًا رَقِيقًا مُؤَثِّرًا مَحْبُوبًا مُجْمَعًا عَلَى طَاعَتِهِ ، كَصَوْتِ الْأُمِّ فِي بَيْتِهَا .

\* \* \*

أَيُّهَا الْفَتَاةُ ! إِنَّ صِدْقَ الْحَيَاةِ تَحْتَ مَظَاهِرِهَا لَا فِي مَظَاهِرِهَا الَّتِي تَكْذِبُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ؛ فَسَاعِدِي الطَّبِيعَةَ وَأَحْجُبِي أَخْلَاقَكَ عَنِ الرَّجُلِ ، لِتَعْمَلَ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ فِيهِ بِقُوَّتَيْنِ دَافِعَتَيْنِ : مِنْهَا وَمِنْكَ ، فَيَسْرِعُ انْقِلَابُهُ إِلَيْكَ وَيَخُتُّ عَنْكَ ؛ وَقَدْ يَجِدُ الْفَاسِقُ فَاسِقَاتٍ وَيَغَايَا ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الصَّحِيحَ الرَّجُولَةَ لَنْ يَجِدَ غَيْرَكَ .

وَإِنَّمَا سُفُورُكَ وَسُفُورُ أَخْلَاقِكَ إِفْسَادٌ لِتَذْيِيرِ الطَّبِيعَةِ ، وَتَمَكِّنُ لِلرَّجُلِ نَفْسَهُ أَنْ يُرْجِفَ بِكَ الظَّنَّ ، وَيُسَيِّءَ فِيكَ الرَّأْيَ ؛ وَعِقَابُكَ عَلَى ذَلِكَ مَا أَنتَ فِيهِ مِنَ الْكَسَادِ وَالْأَوَارِ ؛ عِقَابُ الطَّبِيعَةِ لِمُسْتَقْبَلِكَ بِالْحِرْمَانِ ، وَعِقَابُ أَفْكَارِكَ لِنَفْسِكَ بِالْأَلَمِ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### س ١٠ ع (\*) (١)

هَذَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَدْبَاءِ تَجْمَعُهُمْ صِفَةُ الْعُرُوبَةِ ، وَيُجِئُونَ الْمَرْأَةَ حُبًّا خَائِفًا يُقَدِّمُ رَجُلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى ؛ فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا أَدْبَرَ ، وَلَا يَغْرُمُ إِلَّا أَنْحَلَ عَزْمُهُ . بَلَّغُوا الرَّجُولَةَ وَكَأَنَّ لَيْسَتْ فِيهِمْ ؛ وَتَمُرُّ بِهِمُ الْحَيَاةُ مُرُورَهَا بِالتَّمَائِيلِ الْمُنْصُوبَةِ ، لَا هَلِيزَةً قَدْ وُلِدَ لَهَا وَلَا أَوَّلَتْكَ ؛ وَمَا بَرَحُوا يُجَاهِدُونَ لِيَخْتَمِلُوا مَعَانِي وَجُودِهِمْ ، لَا لِيَطْلُبُوا سَعَادَةَ وَجُودِهِمْ ، وَيُمَخِّرُونَ فِي شَعْوَذَةِ الْحَيَاةِ بِالْهَارِ عَلَى اللَّيْلِ ، وَبِاللَّيْلِ عَلَى الْهَارِ ؛ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَجِدُوا كَالنَّاسِ أَيَّامًا وَلَيَالِيًا ، إِذْ لَا يَعْرِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعُرُوبَةِ إِلَّا نَهَارًا وَاحِدًا ، نِصْفَهُ أَسْوَدٌ مُفْقِرٌ مُظْلِمٌ . . . !

فَأَمَّا « س » فَارْجُلٌ « كَشِيخُ الْمَسْجِدِ » يَكَادُ يَرَى حَصِيرَ الْمَسْجِدِ حَيْثُ وَطِئَتْ قَدَمَاهُ مِنَ الْأَرْضِ . . . دُودِينَ وَتَقَوَى ، مَا يَزَالُ بِهِمَا يَنْقَبِضُ وَيَنْكَمِشُ وَيَتَزَايَلُ حَتَّى يَرْجِعَ طِفْلًا فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ . . . وَهُوَ حَائِزٌ بَائِزٌ لَا يَتَّجِعُ لَشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمَرْأَةِ ، وَقَدْ فَقَدَ مِنْهَا مَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ ، وَلَا جُزْأَةً لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ ، فَلَا جُزْأَةً لَهُ عَلَى الْمُؤَقَّاتِ ، وَلَا يُرِئُهُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَرُظَّةَ مِنْهَا إِلَّا أَمَلَسَ مِنْهُ ، فَإِنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ مَفْتُوحَةٍ لِلْهَرَبِ : إِذْ يَخْشَى اللَّهَ ، وَيَتَوَقَّى عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَسْتَخِي مِنْ ضَمِيرِهِ .

وَأَمَّا « أ » فَارْجُلٌ مِغْرَابَةٌ ، وَلَكِنَّهُ كَالْإِسْفَنْجَةِ ، أَمْتَلَأَتْ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا خَلَاءٌ لِقَطْرَةٍ ، ثُمَّ عُصِرَتْ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا بَلَالٌ مِنْ قَطْرَةٍ ؛ وَقَدْ بَلَغَ مَا فِي نَفْسِهِ وَقَضَى نَهْمَتَهُ حَتَّى أَشْتَقَى مِمَّا أَرَادَ ؛ ثُمَّ قَلَبَ الثُّوبَ . . . فَإِذَا لَهُ دَاخِلَةٌ نَاعِمَةٌ مِنَ الْخَزِّ وَالْدُّبَابِ ، وَإِذَا هُوَ « الرَّجُلُ الصَّالِحُ » الْعَلَفِيفُ الدَّخْلَةُ ، مَا تَنْطَلِقُ لَهُ نَفْسٌ إِلَى مَائِهِ ، وَلَا يَعْرِفُ الشَّيْطَانُ كَيْفَ يَسَبِّبُ لِصُلْحِهِ وَمَرَاجَعَتِهِ الْوَدَّ . . .

(\*) « الرسالة » العدد : ٦٣ ، ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٧ سبتمبر/أيلول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٥٢٣ - ١٥٢٦ .

(١) هُمُ الْأَصْدِقَاءُ : سَعِيدُ [ الْعُرَيَّانِ ] ، وَأَمِينُ [ حَافِظِ شَرْفِ ] ، وَعَبْدُ اللَّهِ [ عَمَّارِ ] .

وَأَمَّا « ع » فَهُوَ كَالْأَعْرَجِ ؛ إِذَا مَشَى إِلَى الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ مَشَى بِرَجْلٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَكِنَّهُ يَمْشِي ... وَهُوَ « مَلِكُ الشُّوَارِعِ » لَا يَزَالُ فِيهَا مُقْبِلًا مُذْبِرًا طَرَفًا مِنَ الْكَهَارِ وَزَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الشَّارِعِ نِسَاءٌ ظَلَّ الشَّارِعَ قَدْ هَرَبَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مِنْ طَاعَتِهِ ... وَلِهَئِذِهِ الشُّوَارِعُ أَسْمَاءٌ عِنْدَهُ غَيْرُ أَسْمَائِهَا الَّتِي يَتَعَارَفُهَا النَّاسُ وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا . فَقَدْ يَكُونُ اسْمُ الشَّارِعِ مَثَلًا : « شَارِعُ طَهَ الْحَكِيمِ »<sup>(١)</sup> وَيُسَمِّيهِ هُوَ « شَارِعُ مَارِي » ... وَيَكُونُ اسْمُ الْآخَرِ : « شَارِعُ كِتَشَنَرِ Kitchener » فَيُسَمِّيهِ « شَارِعُ الطُّونِلَةِ » ... وَدَرَبُ اسْمُهُ « دَرَبُ الْمَلَّاحِ » وَاسْمُهُ عِنْدَهُ « دَرَبُ الْمَلِيحَةِ » ... وَهَلَمْ جَزَا وَمَسَخَا .

وَإِذَا أَرَادَ صَاحِبُنَا هَذَا أَنْ يَسْخَرَ مِنَ الشَّيْطَانِ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى ، وَإِذَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَسْخَرَ مِنْهُ دَخَرَجَهُ فِي الشُّوَارِعِ ... !

\* \* \*

وَافَيْتُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ مُجْتَمِعِينَ يَتَدَارَسُونَ مَقَالَهَ : « تَرْبِيَةُ لُؤْلُؤِيَّةِ »<sup>(٢)</sup> ، يَتَأَقِشُونَهَا بِثَلَاثَةِ عُقُولٍ ، وَيُفْتَشُونَهَا بِسِتِّ عُيُونٍ ؛ فَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ السَّافِرَةَ الَّتِي تَبْدَتْ « حِجَابَ طَبِيعَتِهَا » عَلَى مَا يَبْنِيهِ فِي بِلَاقَةِ الْمَقَالَةِ - إِنَّ هِيَ إِلَّا أَمْرَةٌ مَجْهُولَةٌ عِنْدَ طَالِبِي الزَّوْاجِ ، بِقَدْرِ مَا بَالِغَتْ أَنْ تَكُونَ مَعْرُوفَةً ، وَأَنَّهَا ابْتَعَدَتْ مِنْ حَقِيقَتِهَا الصَّحِيحَةِ ، قَدَّرَ مَا أَقْرَبَتْ مِنْ خِيَالِهَا الْفَاسِدِ ؛ وَأَتَقَنَّتِ الْغَلَطَ لِصِدْقِهَا فِيهِ الرَّجُلُ ، فَلَمْ يَكْذِبْهَا فِيهِ إِلَّا الرَّجُلُ ؛ وَجَعَلَتْ أَحْسَنَ مَعَانِيهَا مَا ظَهَرَتْ بِهِ فَارِغَةً مِنْ أَحْسَنِ مَعَانِيهَا ... !

وَأَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ تَنْتَصِفُ الطَّبِيعَةُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَرَبِ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي أَهْمَلَهَا أَوْ تَرَكَهَا مُهْمَلَةً ... وَأَيْنَ تَبْلُغُ ضَرَابَتُهَا فِي عَيْشِهِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ أَثَرُهَا فِي نَفْسِهِ ، وَكَيْفَ تَكُونُ الْمَرْأَةُ فِي خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ ؛ فَتَسَرَّخْتُ مَعَ أَصْحَابِنَا فِي الْكَلَامِ فَمَا بَعْدَ فَنٍ ، وَأَزَلْتُ حِذَارَهُمُ الَّذِي يَحْذَرُونَ ، حَتَّى أَفْضُوا إِلَيَّ بِفَلَسَفَةِ عُقُولِهِمْ وَصُدُورِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي .

قَالَ « س » : حَسْبِي وَاللَّهِ مِنَ الْآلَامِ وَالْآلَامِ مَعَهَا - شُعُورِي بِحِزْمَانِي الْمَرْأَةِ ؛ فَهُوَ بَلَاءٌ

مَنْعَتِي الْقَرَارَ ، وَسَلَبَتِي السَّكِينَةَ ؛ وَكَأَنَّهُ شُعُورٌ بِمِثْلِ الْوَحْدَةِ الَّتِي يُعَاقِبُ السَّجِينَ بِهَا مَصْرُوفًا عَنِ الْحَيَاةِ مَصْرُوفَةً عَنْهُ الْحَيَاةُ ؛ تَجْعَلُهُ جُذْرَانُ سَجْنِهِ يَتَمَتَّى لَوْ كَانَ حَجَرًا فِيهَا فَيَنْجُو مِنْ عَذَابِ إِنْسَانِيَّتِهِ الدَّلِيلَةِ الْمُجْرِمَةِ ، الْمُحَلَّى بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ تَوْسِعُهُ مِمَّا يَكْرَهُ ؛ شُعُورٌ بِالْوَحْدَةِ وَالْعُزْلَةِ حَتَّى مَعَ النَّاسِ وَبَيْنَ الْأَهْلِ فَمَا فِي إِلَّا عَوَاطِفُ خُرُسٍ لَا تَسْتَجِيبُ لِأَحَدٍ وَلَا يُجَاوِبُهَا أَحَدٌ فِي « ذَلِكَ الْمَعْنَى » .

وَتَمَامُ الدَّلِيلِ أَنْ يَجِدَ الْعَرَبَ نَفْسَهُ أَبَدًا مُكْرَمًا عَلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْأَمَةِ لِكُلِّ<sup>(١)</sup> مَنْ يُخَالِطُهُ أَوْ يَجْلِسُ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مُصْنِيَّةَ لَا يُنْقَسُ مِنْهَا إِلَّا كَلَامُهُ عَنْهَا . وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي أَنَّكَ لَا تَجِدُ عَرَبًا إِلَّا عَرَفْتَهُ ثَرَنَارًا لَا تَزَالُ فِي لِسَانِهِ مَقَالَةٌ عَنْ مَعْنَى أَوْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ ، وَأَصْبَتْهُ كَالدَّبَابِ لَا يَطِيرُ عَنْ مَوْضِعٍ إِلَّا لِيَقَعَ عَلَى مَوْضِعٍ .

وَمَعَ جَهْدِ الْجُزْمَانِ جَهْدُ شَرٍّ مِنْهُ فِي الْمَقَاوِمَةِ وَكَفَتْ النَّفْسُ ؛ فَذَلِكَ تَعَبٌ يَهْلِكُ بِهِ الْأَدَمِيُّ ، إِذْ لَا يَدْعُهُ يَتَقَارَّ عَلَى حَالِهِ مِنَ الضَّجْرِ فِيمَا تَنَازَعُهُ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَالْمَرْعِ فِي أَغْصَابِهِ ، يُحْسِنُهَا تُشَدُّ لِيَقْطَعَ ، وَدَائِمًا تُشَدُّ لِيَقْطَعَ .

وَقَدْ رَهَقَنِي مِنْ ذَلِكَ الصَّنَى السُّوَيْيَ مَا عَيْلَ بِهِ صَبْرِي وَضَعْفَ لَهُ اخْتِمَالِي ؛ فَمَا أَرَانِي يَوْمًا عَلَى جِمَامٍ مِنَ النَّفْسِ ، وَلَا أَرْتِيحُ مِنَ الطَّنْبِ ؛ وَكَيْفَ وَفِي الْقَلْبِ مَادَّةٌ هَمُّ ، وَفِي النَّفْسِ عِلَّةٌ انْقِبَاضُهَا ، وَفِي الْفِكْرِ أَسْبَابُ مَشْغَلَتِهِ ؟ وَقَدْ أَوْقَدَتْ سُورَةُ الشَّبَابِ نَارَهَا عَلَى الدَّمِّ ، تَلْتَعِجُ فِي الْأَحْشَاءِ ؛ وَتَطِيرُ فِي الرَّأْسِ ، وَتَضَعُ الدُّنْيَا بِلَوْنٍ دُخَانِهَا ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَخَلَّفُ مِنْهَا رَمَادٌ هُوَ هَذَا السَّوَادُ الَّذِي رَانَ عَلَى قَلْبِي .

وَمَا حَالُ رَجُلٍ عَذَابُهُ أَنَّهُ رَجُلٌ ، وَذُلُّهُ أَنَّهُ رَجُلٌ ؟ يَلْبَسُ ثِيَابَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى مِثْلِ الْوُحْشِ فِي سَلَاسِلِهِ وَأَغْلَالِهِ ، وَيَحْمِلُ عَقْلًا تَسْبِيهُ الْعَرِيزَةَ كُلَّ يَوْمٍ ، وَتَرَاهُ مِنَ الْعُقُولِ الرَّيُوفِ لَا أَثَرَ لِلْفَضِيلَةِ فِيهِ ، إِذْ هُوَ مَجْنُونُ الْمَرْأَةِ جُنُونُ الْفِكْرِ الثَّابِتَةِ ، فَمَا يَخْلُو إِلَى نَفْسِهِ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ إِلَّا أَخَذَتْهُ الْعَرِيزَةُ مُجْتَرِحًا جَرِيمَةً فِكْرٍ ...

وَفِي دُونَ هَذَا يُنْكَرُ الْمَرْءُ عَقْلَهُ ؛ وَأَيُّ عَقْلٍ تَرَاهُ فِي رَجُلٍ عَرَبٍ يَقَعُ فِي خِيَالِهِ أَنَّهُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَكُلُّ » بَدَلًا مِنْ : « لِكُلِّ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « شَارِعٌ عَلَى الْحَكِيمِ » بَدَلًا مِنْ : « شَارِعُ طَهَ الْحَكِيمِ » .

(٢) وَهِيَ الْمَقَالَةُ السَّابِقَةُ لِهَذِهِ ، رَاجِعِ الصَّفَحَاتِ : ٢٠١ - ٢٠٨ .

مُتَزَوِّجٌ ، وَأَنَّهُ يَأْوِي إِلَى « فُلَانَةٍ » ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى إِصْلَاحِ شَأْنِهِ وَنِظَامِ بَيْتِهِ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْلِهَا كَانَ عَزُوفًا عَنِ الْفَحْشَاءِ ، بَعِيدًا عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ وَفَاءً لَهَا ، وَحِفْظًا لِعَهْدِ اللَّهِ فِيهَا ، وَقَدْ دَلَّهَتْهُ بِفُتُونِهَا أَلَّتِي يَبْتَدِعُهَا فِكْرُهُ ؛ وَهِيَ سَاعَةٌ تُؤَاكِلُهُ عَلَى الْخَوَانِ ، وَسَاعَةٌ تُصَاحِكُهُ ، وَمَرَّةٌ تُعَابِثُهُ ، وَتَارَةً تُجَافِيهِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ هُوَ نَاعِمٌ بِهَا ، يُحَدِّثُهَا فِي نَفْسِهِ ، وَيَسْمُرُ مَعَهَا ، وَيَتَصَنَّعُ لَهَا وَتَتَصَنَّعُ لَهُ ؛ وَيُعَايِنُهَا أَخِيَانًا فِي رِقَّةٍ ، وَأَخِيَانًا فِي جَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ ؛ وَقَدْ ضَرَبَهَا ذَاتَ مَرَّةٍ ... ؟

أَلَا إِنَّ { فِكْرَةَ } الْمَرْأَةِ عِنْدِي هِيَ هَذَا الْجُنُونُ الَّذِي يَزِجُ بَيْنِي إِلَى عَشْرَةِ آلَافِ سَنَةٍ مِنْ تَارِيخِ الدُّنْيَا ، فَيَرْمِي بِي فِي كَهْفٍ أَوْ غَايَةِ ، { فَأَرَانِي مِنْ وَرَاءِ الدُّهُورِ كَأَنِّي أَبْدَأُ الْحَيَاةَ مُنْفَرِدًا ، وَأُجِدُّنِي } رَجُلًا عَارِيًا مُتَوَحِّشًا مُتَأَبِّدًا لَيْسَ مِنَ الْخَيَوَانِ وَلَا مِنَ الْإِنْسِ ، دُنْيَاهُ أَحْبَابٌ وَأَشْجَارٌ ، وَهُوَ حَجَرَ لَهُ نُمُو الشَّجَرِ .

لَقَدْ تَوَرَّعَتِ الْمَرْأَةُ عَقْلِي فَهُوَ مُتَفَرِّقٌ عَلَيْهَا ، وَهِيَ مُتَفَرِّقَةٌ فِيهِ ، لَا أَسْتَطِيعُ وَاللَّهِ أَنْ أَنْتَوِرَهَا كَامِلَةً ، بَلْ هِيَ فِي خَيَالِي أَجْزَاءٌ لَا يَجْمَعُهَا كُلُّ ؛ هِيَ أَيْتِسَامَةٌ ، هِيَ نَظْرَةٌ ، هِيَ صِحْكَةٌ ، هِيَ أُغْيِيَّةٌ ، هِيَ جِسْمٌ ، هِيَ شَيْءٌ ، هِيَ هِيَ هِيَ .

أَكُلُ بِلَئِكَ الْمَعَانِي هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ ، أَمْ أَنَا لِي أَمْرَةٌ وَخَدِي ؟

وإِنِّي عَلَى ذَلِكَ لِأَتَخَوَّفُ الزَّوْاجَ وَأَتَحَامَاهُ ؛ إِذْ أَرَى الشَّارِعَ قَدْ فَضَحَ النِّسَاءَ وَكَشَفَهُنَّ ؛ فَمَا يُرِينِي مِنْهُنَّ إِلَّا أَمْرَةً تَزْهِي بِشَيَابِهَا وَصَنَعَةِ جَمَالِهَا ، أَوْ أَمْرَةً كَالْهَارِبَةِ مِنْ فَضَائِلِهَا ؛ وَاللَّبِثُ إِنَّمَا يَطْلُبُ الزَّوْجَةَ الْفَاضِلَةَ الصَّنَاعَ ، تَخِيْطُ ثَوْبَهَا بِيَدِهَا فُتْبَاهِي بِصَنْعَتِهِ قَبْلَ أَنْ تُبَاهِيَ بِلِبْسِهِ ، وَتَزْهِي بِأَثَرِ وَجْهِهَا فِي ، لَا بِأَثَرِ الْمَسَاحِيثِ فِي وَجْهِهَا . وَإِنْ مُكَابَدَةُ الْعِمَّةِ ، وَمُصَارَعَةُ الشَّيْطَانِ ، وَتَوَهُجُ الْقَلْبِ بِأَرِهِ الْحَامِيَةِ ، وَالْمَامُ الطَّيْرَةِ الْجُنُونِيَّةِ بِالْعَقْلِ - كُلُّ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ أَمَوْنٌ مِنْ مُكَابَدَةِ زَوْجَةٍ فَاسِدَةٍ الْعِلْمِ أَوْ فَاسِدَةِ الْجَهْلِ ، أُنَبِّئُ مِنْهَا فِي صَدِيقِ الْعُمْرِ بَعْدُ الْعُمْرِ .

إِنَّ أَثَرِ الشَّارِعِ فِي الْمَرْأَةِ هُوَ سُوءُ الظَّنِّ بِهَا ، فَهِيَ تَحْسَبُ نَفْسَهَا مُغْلَبَةً فِيهِ أَثْوَتَهَا ، وَجَمَالَهَا ، وَزِينَتَهَا ؛ وَتَحْنُ نَرَاهَا مُغْلَبَةً فِيهِ سُوءَ آدَبٍ ، وَفَسَادَ خُلُقِي ، وَأَنْحِطَاطَ غَرِيزَةٍ . وَمَنْ كَانَ فَاسِقًا أَسَاءَ الظَّنِّ بِكُلِّ الْفَتَيَاتِ ، وَوَجَدَ السَّبِيلَ مِنْ وَاحِدَةٍ إِلَى قَوْلٍ يَقُولُهُ فِي كُلِّ

وَاحِدَةٍ<sup>(١)</sup> ؛ وَمَنْ كَانَ عَفِيفًا سَمِعَ مِنَ الْفَاسِقِ فَوَجَدَ مِنْ ذَلِكَ مُتَعَلِّقًا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَقِيَّاسًا يَقِيْسُ عَلَيْهِ ؛ وَالْفِتْنَةُ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا خَاصَّةً ، { بَلْ تَعْمُ } .

أَوْ لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوقِظَ أَمْرَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلَامِي ... !

\* \* \*

وَقَالَ « ١ » : لَقَدْ كَانَتْ مَعَانِي الْمَرْأَةِ فِي ذَهْنِي صُورًا بَدِيعَةً مِنَ الشُّعْرِ تَسْتَحْفِنِي إِلَيْهَا الْعَاطِفَةُ ، وَلَا يَزَالُ مِنْهَا فِي قَلْبِي لِكُلِّ يَوْمٍ نَارِيَّةٌ تَنْزُؤُ . وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ حَدِيثٌ أَهْلَامِي وَنَجِيٌّ وَسَاوِسِي ، وَكُنْتُ عَفِيفٌ الْبَنَظْلُونِ<sup>(٢)</sup> ؛ وَلَكِنَّ النِّسَاءَ أَقْطَعْنِي مِنَ الْحُلُمِ ، وَفَجَعْنِي فِيهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَوَضَعْنَ يَدَيَّ عَلَى مَا تَحْتَ مَلَمَسِ الْحَيَّةِ . وَلَوْ حَدَّثْتُكَ بِجُمْلَةِ أَخْبَارِهِنَّ ، وَمَا مَارَسْتُ مِنْهُنَّ لَتَكَرَّهْتَ وَتَسَخَّطْتَ ، وَلَا يَقْنُتُ أَنَّ كَلِمَةً (تَجْرِيرِ الْمَرْأَةِ) إِنَّمَا كَانَتْ خَطَأً مُطْبَعِيًّا ، وَصَوَائِبُهَا : (تَجْرِيرِ الْمَرْأَةِ) ... فَهَلْؤَلَاءِ النِّسَاءِ أَوْ كَثُرَتْهُنَّ - لَمْ يَذَلْنَ الْحِجَابَ إِلَّا لِتَخْرُجَ وَاحِدَةٌ مِمَّا تَجْهَلُ إِلَى مَا تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ ، وَتَخْرُجَ الْأُخْرَى مِمَّا تَعْرِفُ إِلَى أَكْثَرِ مِمَّا تَعْرِفُهُ ، وَتَخْرُجَ بَعْضُهُنَّ مِنْ إِنْسَانِيَّةٍ إِلَى بَهِيمَةٍ ...

لَقَدْ عَرَفْتُ فِيمَنْ عَرَفْتُ مِنْهُنَّ الْخَفِيفَةَ الطَّيَّاشَةَ ، وَالْحَمَقَاءَ الْمُتَسَاقِطَةَ ، وَالْفَاحِشَةَ ذَاتَ الرِّيْبَةِ ؛ وَكُلُّ أَوْلَئِكَ كَانَ تَجْرِيرُهُنَّ ، أَيْ : تَجْرِيرُهُنَّ - تَقْلِيدًا لِلْمَرْأَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ ؛ تَهَالِكُنَّ عَلَى رَذَائِلِهَا دُونَ فَضَائِلِهَا ، وَاشْتَدَّ حِرْصُهُنَّ عَلَى خَيَالِهَا الرُّوَائِي دُونَ حَقِيقَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ ، وَمِنْ مَصَائِبِنَا نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ أَنَّهَا لَا نَأْخُذُ الرَّذَائِلَ كَمَا هِيَ ، بَلْ نَزِيدُ عَلَيْهَا ضَعْفًا فَإِذَا هِيَ رَذَائِلُ مُضَاعَفَةٌ .

كَانَ الْحُلُمُ الْجَمِيلُ فِي الْحِجَابِ وَخَدَهُ ، وَهُوَ كَانَ يُسَعِّرُ أَنْفَاسِي وَيَسْتَطِيرُ قَلْبِي ، وَيُزْغِمُنِي مَعَ ذَلِكَ عَلَى الْأَعْقَادِ أَنَّ هَلْهَذَا عَلَامَةُ التَّكْرُمِ ، وَرَمَزُ الْأَدَبِ ، وَشَارَةُ الْعِمَّةِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِي الْأُخْرَى » بَدَلًا مِنْ : « فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ » .

(٢) يَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْكِتَابَةِ عَنِ الْعِمَّةِ : وَهُوَ عَفِيفٌ الْإِرَارِ ، وَتَرْجَمَتُهَا فِي عَصْرِنَا مَا رَأَيْتُ .

[ وَالْبَنَظْلُونُ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ Pantalon ، يُعْرَبُ عَادَةً : بَنْطَال ، سِرْوَال . وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مِنَ الْمَلَابِسِ الدَّاخِلِيَّةِ ، وَالَّذِي يَعُدُّ الظَّاهِرُ بِهَا أَمَامَ الْمَلَأِ مِنَ الْخِلَاعَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَعَانِي اسْمِهِ ؛ لَكِنِّي فِي عَصْرِنَا هُوَ مِنَ الْمَلَابِسِ الرَّسْمِيَّةِ ، بِهِ يَظْهَرُ مَعْظَمُ الْبَشَرِ عَلَى الْمَلَأِ ! ] .

وَأَنَّ هَذِهِ الْمُحَصَّنَةُ الْمُحَدَّرَةُ - عَذْرَاءُ أَوْ أَمْرَأَةٌ - لَمْ تَلَقِ الْحِجَابَ عَلَيْهَا إِلَّا إِذْ بَاتَتْ بِأَنْهَا فِي قَانُونِ عَاطِفَةِ الْأُمُومَةِ لَا غَيْرَهَا ؛ فَهِيَ تَحْتَ الْحِجَابِ لِأَنَّهُ رَمَزُ الْأَمَانَةِ لِمُسْتَقْبَلِهَا ، وَرَمَزُ الْفَضْلِ بَيْنَ مَا يَخْسُنُ وَمَا لَا يَخْسُنُ ، وَلِأَنَّ وَرَاءَهُ صَفَاءَ رُوحِهَا الَّذِي تَخْشَى أَنْ يُكَدَّرَ ، وَثَبَاتَ كِتَابِهَا الَّذِي تَخْشَى أَنْ يُرْغَرَ .

قَالَ حَكِيمٌ لِأَوْلَيْكَ الَّذِينَ يَسْتَمِيلُونَ النِّسَاءَ بِأَنْوَاعِ الْخُلِيِّ وَصُنُوفِ الرِّبَةِ وَالْكُسُوفَةِ الْحَسَنَةِ : « يَا هَؤُلَاءِ ! إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَعْلُمُونَهُنَّ مَحَبَّةَ الْأَغْنِيَاءِ لَا مَحَبَّةَ الْأَرْوَاحِ » ، وَأَحْكَمَ مِنْ هَذَا قَوْلُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْإِلَهِيِّ الصَّارِمِ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : « أَضْرِبُوهُمْ بِالْعُرْيِ » فَقَدْ عُرِفَ مِنْ أَلْفٍ وَثَلَاثٍ مِثَّةٍ أَنَّ تَحْرِيرَ الْمَرْأَةِ هُوَ تَجْرِيذُهَا ، وَأَنَّهَا لَا تَخْرُجُ لِمَصْلَحَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا تَخْرُجُ لِإِظْهَارِ زِينَتِهَا . فَلَوْ مُنِعَتِ الثِّيَابُ الْجَمِيلَةُ حَبَسَتْهَا طَبِيعَتُهَا فِي بَيْتِهَا . فَمَاذَا تَقُولُ الشُّوَارِعُ لَوْ نَطَقَتْ ؟ إِنَّهَا تَقُولُ : يَا هَؤُلَاءِ ! إِنَّمَا تَعْلُمُونَهُنَّ مَعْرِفَةَ الْكَثِيرِ لَا مَعْرِفَةَ الْوَاحِدِ ... !

لَقَدْ وَاللَّهِ أَتَكَرَّرْتُ أَكْثَرَ مَا قَرَأْتُ وَسَمِعْتُ مِنْ مَحَاسِنِهِمْ وَقَضَائِلِهِمْ وَحَيَاثِهِمْ ، وَلَقَدْ كَانَ الْحِجَابُ مَعْنَى لِمُضْعُوبَةِ الْمَرْأَةِ وَاعْتِزَالِهَا ، فَصَارَ الشَّارِعُ مَعْنَى لِسَهْوَلَتِهَا وَرُخْصَتِهَا ؛ وَكَانَ مَعَ تَحَقُّقِ الضُّعُوفَةِ أَوْ تَوْهُمِهَا أَخْلَاقَ وَطِبَاعَ فِي الرَّجُلِ ، فَصَارَ مَعَ تَوْهُمِ السُّهُولَةِ أَوْ تَحَقُّقِهَا أَخْلَاقَ وَطِبَاعَ أُخْرَى عَلَى الْعَكْسِ مِنْ تِلْكَ ؛ مَا زَالَتْ تَنْمِي وَتَتَحَوَّلُ حَتَّى أَلْجَأَتْ الْقَانُونَ أَخِيرًا أَنْ يَتَرَقَّى بِمَنْ لَمَسَ الْمَرْأَةَ فِي الطَّرِيقِ مِنْ « الْجُنْحَةِ » إِلَى « الْجِنَايَةِ » .

وَتَخَنَّتِ الشُّبَّانُ وَالرِّجَالُ ، ضُرُوبًا مِنْ التَّخَنُّتِ بِهَذَا الْأَخْتِلَاطِ وَهَذَا الْإِتِّدَالِ ، وَتَحَلَّلَتْ فِيهِمْ طِبَاعُ الْغَبَرَةِ ، فَكَانَ هَذَا سَرِيعًا فِي تَغْيِيرِ نَظَرَتِهِمْ إِلَى النِّسَاءِ ، وَسَرِيعًا فِي إِفْسَادِ اعْتِقَادِهِمْ ، وَفِي نَقْضِ اخْتِرَائِهِمْ ، فَأَقْبَلُوا بِالْجِسْمِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهَا بِالْقَلْبِ ؛ وَأَخَذُوا بِمَعْنَى الْأُنُوثَةِ ، وَتَرَكُوا بِمَعْنَى الْأُمُومَةِ ؛ وَمِنْ هَذَا قُلُّ طُلَاطٍ الرِّوَاكِ ، وَكَثْرُ رَوَادِ الْخَنَاءِ .

وَلَقَدْ جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ كَاتِبَةُ إِنْكِلَبِيَّةٍ ، وَأَقَامَتْ شَهْرًا تُخَالِطُ النِّسَاءَ الْمُتَحَجِّجَاتِ وَتَدْرُسُ مَعَانِي الْحِجَابِ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَى بِلَادِهَا كَتَبَتْ مَقَالًا عَنْوَانُهُ : « سُؤَالُ أَحْمِلُهُ مِنْ الشَّرْقِ إِلَى الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ » قَالَتْ فِي آخِرِهِ : « إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحُرَّةُ الَّتِي كَسَبَتْهَا أَخِيرًا ،

وَهَذَا التَّنَافُسُ الْجِنْسِيُّ ، وَتَجْرِيذُ الْجَنَسَيْنِ مِنَ الْحُجُبِ الْمُتَشَوِّقَةِ الْبَاعِثَةِ الَّتِي أَقَامَتْهَا الطَّبِيعَةُ بَيْنَهُمَا - إِذَا كَانَ هَذَا سَبْضِيحَ كُلِّ آثَرِهِ أَنْ يَتَوَلَّى الرَّجَالُ عَنِ النِّسَاءِ ، وَأَنْ يَزُولَ مِنَ الْقُلُوبِ كُلُّ مَا يُحَرِّكُ فِيهَا أَوْثَارُ الْحُبِّ الرَّوْجِيِّ ، فَمَا الَّذِي نَكُونُ قَدْ رِبَّخْتَاهُ ؟ لَقَدْ وَاللَّهِ تَضَرُّعُنَا هَذِهِ الْحَالُ إِلَى تَغْيِيرِ خُطَطِنَا بَلْ قَدْ نَسْتَفِرُّ طَوْعًا وَرَاءَ الْحِجَابِ الشَّرْقِيِّ ، لِنَتَعَلَّمَ مِنْ جَدِيدِ فَنِّ الْحُبِّ الْحَقِيقِيِّ » .

\* \* \*

وَقَالَ « ع » : لَسْتُ فِيلَسُوفًا ، وَلَكِنْ فِي يَدَيَّ حَقَائِقَ مِنْ عِلْمِ الْحَيَاةِ لَا تَأْتِي الْفَلَسَفَةُ بِمِثْلِهَا ، وَكِتَابِي الَّذِي أَقْرَأُ فِيهِ هُوَ الشَّارِعُ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُرَابَ مِنَ الرِّجَالِ يَتَعَلَّمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَهُمْ كَاللُّصُوفِ لَا يَجْتَمِعُ هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ إِلَّا عَلَى رَذِيلَةٍ أَوْ جَرِيْمَةٍ . وَحَيَاةُ اللَّصِّ مَعْنَاهَا وَجُودُ السَّرِقَةِ ، وَحَيَاةُ الْعَرَبِ مَعْنَاهَا وَجُودُ الْبَغَاءِ وَالْفِسْقِ .

وَمِنْ حُكْمِ الطَّبِيعَةِ عَلَى الْجَنَسَيْنِ أَنَّ الْفَاسِقَ يَبَاهِي بِإِظْهَارِ فِسْقِهِ قَدَرُ مَا تَخَافُ الْفَاسِقَةُ مِنْ ظُهُورِ أَمْرِهَا ؛ وَهَذِهِ إِشَارَةٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ مِسْكِينَةٌ مَظْلُومَةٌ . فَمَا ابْتِدَالَ الْحِجَابِ ، وَلَا اسْتِهْنَاءُ النِّسَاءِ إِلَّا جَوَابٌ عَلَى اتِّشَارِ الْعُرُوبَةِ فِي الرِّجَالِ ، وَكَيْفَ يَتَحَوَّلُ الْمَاءُ ثَلْجًا لَوْ لَا الضَّغْطُ نَارًا فَكَانَ لَا إِلَى مَا دُونَ الصَّفْرِ ؟ فَهَذَا الثَّلْجُ مَاءٌ يَغْتَدِرُ مِنْ تَحَوُّلِهِ وَأَنْفِلَابِهِ بِعُذْرِ طَبِيعِي قَاهِرٍ ، لَهُ قُوَّةُ الضَّرُورَةِ الْمُلْجِئَةِ ، وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ الْمُدَّالَةُ أَوْ الطَّامِحَةُ أَوْ الْمُتَبَدِّلَةُ أَوْ الْمُتَهَنِّكَةُ - مَا صِفَاتُهَا إِلَّا تَوَكُّيدٌ لِأَعْدَائِهَا .

وَكَانَ عَلَى الْحُكُومَةِ أَنْ تَضْرِبَ الْعُرُوبَةَ ضَرْبَةً قَانُونِ صَارِمٍ ، فَالْعَرَبُ وَإِنْ كَانَ رَجُلًا حُرًّا فِي نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ رُجُولَتُهُ تَفْرُضُ لِلْأُنُوثَةِ حَقًّا فِيهِ ؛ فَمَتَى جَحَدَ هَذَا الْحَقِّ ، وَاسْتَكْبَرَ عَلَيْهِ ، رَجَعَ حَالُهُ مَعَ الْمَرْأَةِ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْغَرِيمِ مَعَ غَرِيمِهِ ؛ لَيْسَ لِلْفَضْلِ فِيهِ إِلَّا الدَّوْلَةُ وَأَحْكَامُهَا وَقُوَّتُهَا التَّنْفِيزِيَّةُ .

وَإِذَا أُطْلِقَتِ الْحُرِّيَّةُ لِلرِّجَالِ فَصَارُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَغْرَابًا ، فَمَاذَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ تُنْمَحَى الدَّوْلَةُ ، وَتَسْفُطَ الْأُمَّةُ ، وَتَلْشَى الْفَضَائِلُ ؟ فَالْعُرُوبَةُ مِنْ هَذَا جَرِيْمَةٌ بِنَفْسِهَا ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَرْتَبِصَ بِهَا الْحُكُومَةُ حَتَّى تَعُمَّ ، بَلْ يَجِبُ اعْتِبَارُهَا بِاعْتِبَارِ الْجَرَائِمِ مِنْ حَيْثُ هِيَ ،



وَيَجِبُ تَفْسِيرُ كَلِمَةِ « الْعَرْبِ » فِي اللَّغَةِ بِمَثَلِ هَذَا الْمَعْنَى : إِنَّهَا شَخْصِيَّةٌ مُذَكَّرَةٌ سَاحِطَةٌ مُتَمَرِّدَةٌ عَلَى حُقُوقٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلْمَرْأَةِ وَالنَّسْلِ وَالْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ .

وَمَا سَاءَ رَأْيِي الْعَرْبِ فِي النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ إِلَّا مِنْ كَوْنِهِمْ بِطَبِيعَةِ حَيَاتِهِمْ الْمُضْطَرِيَّةِ لَا يَغْرِفُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا فِي أَسْرٍ أحوالها وَأَقْبَحِ صِفَاتِهَا ، وَهُمْ وَخَذَهُمْ جَعَلُوهَا كَذَلِكَ .

إِنْ لَهُمْ وَجُودًا مُخَرَّنًا يَسْتَمْتِعُونَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَهْلِكُونَ وَيُهْلِكُونَ بِهِ . هُمْ وَاللَّهُ أَسَاتِذَةُ الْأُدُرُوسِ السَّافِلَةِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَهُمْ وَاللَّهُ بَغَاءٌ مِنَ الرِّجَالِ فِي حُكْمِ الْبَغَايَا مِنَ النِّسَاءِ ، يَجْرُونَ جَمِيعًا مَجْرَى وَاحِدًا . وَمَنْ هِيَ الْبَغِي فِي الْأَكْثَرِ إِلَّا أَمْرَاءُ فَاجِرَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا ؟ وَمَنْ هُوَ الْعَرْبُ فِي الْأَكْثَرِ إِلَّا رَجُلٌ فَاسِقٌ لَا زَوْجَةَ لَهُ ؟ عَلَى أَنَّ مَعَ الْمَرْأَةِ عَذْرَ ضَعْفِهَا أَوْ حَاجَتِهَا ، وَلَكِنْ مَا عَذْرُ الرَّجُلِ ؟

مَاذَا تُفِيدُ الدَّوْلَةُ أَوْ الْأُمَّةُ مِنْ هَذَا الْعَرْبِ الَّذِي أَغْتَادَ قَوْصَى الْحَيَاةِ ، وَسَيَّرَهَا عَلَى نِظَامِهَا ، وَتَحَقَّقَهَا عَلَى أَسْخَفِ مَا فِيهَا مِنَ الْخَيَالِ وَالْحَقِيقَةِ ؛ وَأَيُّ عَرْبٍ يَجِدُ أَلَسْتَفَرَارَ ، أَوْ تَجْتَمِعُ لَهُ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ ؛ وَهُوَ قَدْ فَقَدَ تِلْكَ الرُّوحَ الَّتِي تَنْمُّ رُوحَهُ ، وَتَنْفُحُهَا ، وَتُمْسِكُهَا فِي دَائِرَتِهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ عَلَى وَاجِبَاتِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَتَجْنِيئُهَا بِالْأَزْوَاجِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُشْعِرُهُ التَّبَعَةَ وَالسِّيَادَةَ مَعًا ، وَتَمْنَدُ بِهِ وَيَمْنَدُ بِهَا فِي تَارِيخِ الْوَطَنِ ؟

كَيْفَ يُعْتَبَرُ مِثْلُ هَذَا مَوْجُودًا أَجْتِمَاعِيًّا صَحِيحًا وَهُوَ حَيٌّ مُخْتَلٌّ فِي وَجُودِ مُسْتَعَارٍ ، يَقْضِي اللَّيْلَ هَارِبًا مِنْ حَيَاةِ النَّهَارِ ، وَيَقْضِي النَّهَارَ نَافِرًا مِنْ حَيَاةِ اللَّيْلِ ؛ فَيَقْضِي عُمْرَهُ كُلَّهُ هَارِبًا مِنَ الْحَيَاةِ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعِيشُ بِرُوحِهِ كَامِلَةً ، بَلْ يَبْغِضُهَا ، بَلْ يَأْلُمُكَ مِنْ بَعْضِهَا ... !  
أَيُّ أَسْرَةٍ شَرِيفَةٍ تَقْبَلُ أَنْ يُسَاكِنَهَا رَجُلٌ عَرَبٌ ، وَأَيُّ خَادِمٍ عَفِيفَةٍ تَطْمَئِنُّ أَنْ تَخْدُمَ رَجُلًا عَرَبِيًّا ؟ هَذِهِ هِيَ لَعْنَةُ الْكُشْرِفِ وَالْعِفَّةِ لِهَوْلَاءِ الْأَعْرَابِ مِنَ الرِّجَالِ !

\* \* \*

قَالَ الْرَّوَائِي : وَهَذَا أَنْفَضَ « س » وَ « أ » وَحَاوَلَا أَنْ يَقْبِضَا عَلَى هَذِهِ اللَّغَةِ وَيُرْدَاَهَا إِلَى حَلَّتِي « ع » . ثُمَّ سَأَلَنِي ثَلَاثَتُهُمْ أَنْ أَسْقِطَهَا مِنَ الْمَقَالِ ، بَيِّنْ أَيْ رَأَيْتَ أَنَّ خَيْرًا مِنْ حَدِّهَا أَنْ تَكُونَ اللَّعْنَةُ لِأَعْرَابِ الرِّجَالِ إِلَّا « س » وَ « أ » وَ « ع » ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## أَسْتَنُوقَ الْجَمَلُ (\*) ...

قَالَ الشَّابُّ : لَا قِبَلَ لِي بِهَذَا اللَّتَبِ الْمُعْنَى الَّذِي يُسَمُّونَهُ « الزَّوْاجِ » ، فَمَا هُوَ إِلَّا بَيِّنٌ يُفْلَهُ عَلَى شَيْئَيْنِ : عَلَى الْأَرْضِ ، وَعَلَى نَفْسِي ؛ وَأَمْرَاءُ هُمُهَا عَلَى مَوْضِعَيْنِ : فِي دَارِهَا ، وَفِي قَلْبِي ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا أَطْفَالٌ يُلْزِمُونَنِي عَمَلِ الْأَيْدِي الْكَثِيرَةِ مِنْ حَيْثُ لَا أَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْنِ اثْنَتَيْنِ ، وَأَتَحَمَّلُ فِيهِمْ رَهَقًا شَدِيدًا كَأَنَّمَا أَبْنِيَهُمْ بِأَيْمَانِي ، وَأَجْمَعُ هُمُومَ رُؤُوسِهِمْ كُلِّهَا فِي رَأْسٍ وَاحِدٍ هُوَ رَأْسِي أَنَا .

يُولَدُ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَعْدَةٍ تَهْضُمُ لِنُوحًا وَسَاعَتِهَا ، ثُمَّ لَا شَيْءَ مَعَهَا مِنْ يَدٍ أَوْ رِجْلٍ أَوْ عَقْلِ إِلَّا هُوَ عَاجِزٌ لَا يَسْتَقِيلُ ، مُتَخَذِلٌ لَا يُطِيقُ وَلَا يَقْدُرُ .

قَالَ : وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ الزَّوْاجِ ، أَيُّ : عَسَلُهُ وَحَلَوَاهُ ، أَنَّهُ أَمْرَاءُ<sup>(١)</sup> تَذْهَبُ غُرُوبَتِي . فَأَنَا وَأَمْثَالِي مَا نَزَالُ فِي عَسَلٍ وَحَلْوَى ... وَلِكُلِّ وَفَتْ زَوَاجٍ ، وَلِكُلِّ عَصْرِ أَفْكَارٍ ، وَمَا أَسْخَفَ اللَّيَالِي إِذَا هِيَ تَرَادَفَتْ عَلَى ضَرْبٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْلَامِهَا ، فَهَذَا يَجْعَلُ التَّوَمَ حُكْمًا بِالْكَسَنِ عَشْرَ سَاعَاتٍ ... !

قَالَ : وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَكْشِفَ الْقِصَّةَ فَاعْلَمْ أَنَّ نَحْنُ الْعَرْبَ قَوْمٌ كَرَجَالِ الْفَنِّ ؛ وَذِيْلَتُهُمْ فَنِّيَّةٌ ، وَفَضِيلَتُهُمْ فَنِّيَّةٌ ، فَتِلْكَ وَهَذِهِ بِسَبِيلٍ ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْفَنِّ هُوَ لِمَوْضِعِهِ مِنَ الْفَنِّ<sup>(٢)</sup> لَا مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَإِذَا قُلْتَ : هَذَا خَالٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ ، عَارٍ مِنَ الْأَدَبِ ، وَعَبَتْ الْفَنُّ لِدَلِّكَ - فَمَا هُوَ إِلَّا كَعَيْنِكَ وَجْهَ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ لِأَنَّهُ خَالٍ مِنْ لَحْيَةٍ ... ! هَاتِ الظَّلَامَ وَسَوَادَهُ ، فَإِنَّهُ لَوْنٌ كَالثُّورِ وَإِشْرَاقِهِ ، لَا بُدَّ مِنْ كِلَيْهِمَا ؛ إِذِ الْمَعْنَى الْفَنِّيُّ { إِنَّمَا يَكُونُ } فِي تَنَاسُبِ الْأَشْيَاءِ لَا فِي الْأَشْيَاءِ ذَاتِهَا ؛ وَبَدَّ الْفَنِّيُّ كَيْدَ الْغَنِيِّ ؛ هَذِهِ لَا يَقَعُ فِيهَا الْكَذَبُ إِلَّا لِتَعَدُّدٍ ثُمَّ تَعَدَّدَ ؛ وَتِلْكَ لَا تَقَعُ فِيهَا الْمَرْأَةُ إِلَّا لِتَعَدُّدٍ ثُمَّ تَعَدَّدَ ؛ وَفِي كُلِّ دَيْنَارٍ قُوَّةٌ

(\*) « الرسالة » العدد : ٦٤ ، ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٤ سبتمبر / أيلول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٥٦٣ - ١٥٦٥ .

(١) كَذَا الْأَصْلُ وَالطَّبْعَةُ الْأُولَى ، وَفِي الطَّبْعَاتِ الثَّالِيَةِ : « أَيُّ أَمْرَاءَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « لِمَوْضِعِهِ مِنْهُ » بَدَلًا مِنْ : « لِمَوْضِعِهِ مِنَ الْفَنِّ » .

جَدِيدَةً ، وَفِي كُلِّ امْرَأَةٍ فَرْجٌ جَدِيدٌ ...

قَالَ : وَمَذْهَبُنَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ نَسْتَمْتِعَ بِهَا ضُرُوبًا وَأَفَانِينَ ؛ مَنْ أَطَاعَ أَنْوَاعًا لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى نَوْعَيْنِ ، وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى نَوْعَيْنِ لَمْ يَرْضَ الْوَاحِدَ ؛ وَلَوْ أَنَّ زَوْجَةً كَانَتْ مِنْ أَشِيعَةِ الْكَوَكِبِ أَوْ مِنْ قَطْرَاتِ الْكُدَى ، لَنَقُلَّ مِنْهَا عَلَى حَيَاتِنَا مَا يَنْقُلُ مِنَ الْحَدِيدِ وَالصَّوَّانِ ؛ إِذْ هِيَ لَا تَلِدُ أَشِيعَةً كَوَاكِبٍ ، وَلَا قَطْرَاتٍ نَدَى ؛ وَحَسَبَ الْجَسَدِ بِرَأْسٍ وَاحِدٍ حِمْلًا .

قَالَ : وَمَنْ أَلَدَنِي تَعْرِضُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ سَلَامَهَا وَتَحْيَاتِهَا وَأَشْوَاقَهَا فِي مِثْلِ رِسَالَةِ غَرَامٍ ، ثُمَّ يَدَعُ هَذَا وَيَسْأَلُهَا غَضَبَهَا وَخِصَامَهَا وَلَجَاجَتَهَا فِي مِثْلِ قَضِيَّةٍ مِنَ قَضَايَا الْمَحَاكِمِ ، كُلُّ وَرَقَةٍ فِيهَا تِلْكَ وَرَقَةٌ ... ؟

ثُمَّ قَالَ الشَّبَابُ : لَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ السَّافِرَةُ عِنْدَنَا ، وَلَكِنَّ اللَّذَّةَ هِيَ السَّافِرَةُ ؛ وَمَا أَحْكَمَ الشَّرْعُ ! أَقُولُ لَكَ وَأَنَا مُحَامٍ يَقْرُرُ الْحَقِيقَةَ : مَا أَحْكَمَ الشَّرْعَ الَّذِي لَمْ يَرْخِصْ فِي كَسْفِ وَجْهِ الْمَرْأَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ ، فَإِنَّ الْوَاقِعَ فِي الْحَيَاةِ أَنَّ هَذَا الْكَشْفَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ كَنَفِّ اللَّصِّ عَلَى مَا وَرَاءَ النَّفْبِ ؛ وَإِذَا كُسِرَ مَا فَوْقَ الْفُفْلِ مِنَ الْخِزَانَةِ الْمُكْتَنَزَةِ فِيهَا الذَّهَبُ وَالْجَوْهَرُ ، قَالِبَاتِ الْحَدِيدِ كُلُّهُ سُخْرِيَّةٌ وَهَرُوفٌ مِنْ بَعْدُ ... !

\* \* \*

هَذِهِ عَقْلِيَّةُ شَابٍ مُحَامٍ طُوبَى عَقْلُهُ عَلَى الْكُتُبِ الْقَانُونِيَّةِ ، وَطُوبَى قَلْبُهُ عَلَى مِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ الْقَانُونِيَّةِ ... وَلَيْسَ يَمْتَرِي أَحَدٌ فِي أَنَّهَا عَقْلِيَّةُ السَّوَادِ مِنْ شَبَابِنَا الْمُتَقَفِّ الَّذِي لَيْسَ الْجِلْدُ الْأَوْرَبِيُّ . وَمِنْ الْبَلَاءِ عَلَى هَذَا الشَّرْقِ أَنَّهُ مَا بَرِحَ يَنَاهِضُ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَيُؤَايِسُهُمْ ، غَافِلًا عَنْ مَعَانِيهِمْ الْأَسْتِعْمَارِيَّةِ الَّتِي تُنَاهِضُهُ وَتُؤَايِسُهُ ، جَاهِلًا أَنَّ أُوْرَبَةَ نَسْتَعْمِرُ بِالْمَذَاهِبِ الْعِلْمِيَّةِ كَمَا نَسْتَعْمِرُ بِالْوَسَائِلِ الْحَرْبِيَّةِ ؛ وَتَسُوقُ الْأُسْطُولَ وَالْجَيْشَ ، وَالْكِتَابَ وَالْأَسْتَاذَ ، وَاللَّذَّةَ وَالْأَسْتِمْتَاعَ ، وَالْمَرْأَةَ وَالْحُبَّ .

وَلَوْ أَنَّ عَدُوًّا رَمَاكَ بِالنَّارِ فَاسْتَطَارَتْ فِي ثِيَابِكَ أَوْ مَتَاعِكَ لَمَا دَخَلَكَ الشُّكُّ أَنَّ عَدُوَّكَ هُوَ النَّارُ حَتَّى تَفْرُغَ مِنْ أَمْرِهَا . فَكَيْفَ - لَعَمْرِي - عَقَلَ الشَّرْقِيُّونَ عَنْ أَخْلَاقِ نَارِيَّةِ حَمَرَاءَ يَأْكُلُهُمْ بِهَا الْمُسْتَعْمِرُونَ أَكَلًا كَأَنَّمَا يُنْضِجُونَهُمْ عَلَيْهَا لِيَكُونُوا أَسْهَلَ مَسَاغَا ، وَآلَيْنَ أَخْذَا ، وَأَسْرَعَ فِي الْهَضْمِ ... !

لَمْ أَفْهَمْ أَنَا مِنْ كَلَامِ صَاحِبِنَا الشَّبَابِ وَمَعَانِيهِ إِلَّا أَنَّ أُوْرَبَةَ فِي أَغْصَابِهِ ؛ وَأَمَّا مِصْرُ وَنَسَاوُهَا وَرِجَالُهَا فَعَلَى طَرَفٍ لِسَانِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا صَنِحَةً ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فِي الْحَيَاةِ عَمَلٌ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ لَذَّتِهِ بِهَا ، لَا مِنْ نَاحِيَةِ فَائِدَتِهَا مِنْهُ .

وَتِلْكَ الْمَعَانِي كُلُّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَمَرْجِعُهَا إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي تَبْتَلِي الْجِسْمَ يُمَهِّدُ شَيْءٌ مِنْهَا لِشَيْءٍ ، مَا دَامَتْ طَبِيعَةُ هَذَا الْجِسْمِ زَائِغَةً أَوْ مُخْتَلَةً ، أَوْ مُتَرَاجِعَةً إِلَى الضَّعْفِ ، أَوْ ذَاهِبَةً إِلَى الْمَوْتِ .

وَأُولَئِكَ شُبَّانٌ وَقَفَ بِهِمُ الشَّبَابُ مَوْقِفَ بِلَادَةٍ ، فَلَا يَخْطُو إِلَى الرُّجُوعِ ، وَلَا يَكْمُلُ بِمُؤَمِّهِ الْأَجْتِمَاعِيِّ كَمَا يَكْمُلُ الرَّجُلُ الْوَطَنِي ؛ فَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ خَوَارًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِ ، وَيَسْتَطِيعُ الْعَجْزَ وَالْحُمُولَ ؛ فَلَا يَكُونُ إِلَّا قَاعِدَ الْهَيْمَةِ ، رِخْوَ الْعَرْنَمَةِ ، قَدْ اسْتَنَامَ إِلَى أَسْبَابِ عَجْزِهِ وَتَحَاذَلَهُ ؛ وَلَا يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَعْيَارِ إِلَّا كَالْمَرِيضِ يَعْيشُ بِمَرَضِهِ حَمِيلَةً عَلَى ذَوِيهِ ، ضُجْعَةً لَا يَمِشِي ، نَوْمَةً لَا يَنْتَهِضُ ، مُسْتَرِنِحًا لَا يَعْمَلُ .

وَبِهَذِهِ الْمَكْسَلَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ فِي الشَّبَابِ يَبْدَأُ الشَّعْبُ يَتَحَوَّلُ مِنْ دَاخِلِهِ فَيَنْصَرِفُ عَنْ فَضَائِلِهِ ، وَيَتَّخِذُ فِي مَكَانِهَا فَضَائِلَ اسْتِعَارَةٍ يُقْلِدُ فِيهَا قَوْمًا غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَيَجْلِبِهَا لِبَيْتِهِ غَيْرَ بَيْتِهِ ، وَيَفْسِرُهَا عَلَى أَنْ تَصْلُحَ لَهُ وَهِيَ فَسَادٌ ، وَيُكْرِهَهَا عَلَى أَنْ تَنْفَعَهُ وَهِيَ ضَرَرٌ ، وَتِلْكَ حَالَةُ يَغَامِرُ فِيهَا الشَّعْبُ بِكِبَانِهِ فَلَا تَلَبُّثُ أَنْ تَصْدَعَهُ وَتُفَرِّقَهُ .

وَلَوْ أَنَّ فِي السَّحَابِ مَطَرًا وَغَيْثًا لَمَا كَانَ لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَوْنٌ مُضْبُوعٌ ، وَلَوْ أَنَّ فِي الشَّبَابِ دِينًا لَمَا صَبَغَتْهُ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ الْفَاسِدَةُ ، وَمَا ذَهَابَ الْحَارِسُ عَنْ مَكَانٍ إِلَّا دَعْوَةً لِلْخُوصِ إِلَيْهِ ، وَهَلْ كَانَ الدِّينُ إِلَّا وَاجِبَاتٌ وَتَبَعَاتٌ وَقِيُودًا يُرَادُ مِنْ جَمِيعِهَا إِغْدَادُ الْإِنْسَانِ لِأَمْثَالِهَا فِي الْأَجْتِمَاعِ ، حَتَّى يَقَرَّ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ الصَّحِيحَةِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ مُتَفَرِّدًا وَيَصْلُحُ لَهُ مُجْتَمِعًا ؟ فَلَيْسَتْ الزَّوْجَةُ وَخَدَّهَا هِيَ الَّتِي خَسِرَتْ الشَّبَابَ بَلْ خَسِرَهُ مَعَهَا الْوَطَنُ وَالْدِّينُ وَالْفَضِيلَةُ جَمِيعًا ، وَبِهَذَا أُنْعَكَسَ وَضَعُهُ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، فَوَجَبَ فِي رَأْيِهِ أَنْ تُسَخَّرَ الْجَمَاعَةُ لَهُ ، وَأَنْ يَسْتَقِلَّ هُوَ بِنَفْسِهِ ، وَبِهَذَا أَلْعَنَسَ ، وَهَذَا الشَّقُوطُ ، وَهَذَا الْأَسْتِمْتَاعُ الَّذِي يَجِدُ سَعَادَتَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ أَصْبَحَ أُولَئِكَ الشَّبَابُ كَأَنَّمَا حَقَّقَهُمْ عَلَى الْمُجْتَمَعِ أَنْ يَقْدَمَ لَهُمْ

بَعَايَا لَا رُوحَاتٍ ... بَعَايَا حَتَّى مِنْ الرُّوحَاتِ ... !

فَبَحَّ اللَّهُ عَصْرًا يَجْهَلُ الشَّابَّ فِيهِ أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ فِي الْوَطَنِ كَلِمَتَانِ تُفَسِّرُ الْإِنْسَانِيَّةَ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى تَفْسِيرًا إِنْسَانِيًّا دِينِيًّا بِالْوَجِبَاتِ وَالْفَيُودِ وَالْأَحْمَالِ ، لَا بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْإِنْطِلَاقِ كَمَا تُفَسِّرُ الْخَيَوَانِيَّةُ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى .

وَالنَّفْسُ الدِّينِيَّةُ أَوْ الْمُنْحَطَّةُ فِي أَخْلَاقِهَا وَمَنَازِعِهَا مِنَ الْحَيَاةِ لَا تَكُونُ إِلَّا دِينِيَّةً أَوْ مُنْحَطَّةً فِي أَخْلَاقِهَا وَأَخْلَاقِهَا الرُّوحِيَّةِ ، دِينِيَّةً كَذَلِكَ فِي طَاعَتِهَا إِنْ قَضَتْ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ بِمَوْضِعِ الْخُضُوعِ ، دِينِيَّةً فِي حُكْمِهَا إِنْ قَضَتْ لَهَا الْحَيَاةُ بِمَنْزِلَةِ مِنَ السُّلْطَةِ . وَلَوْ تَنَبَّهَتْ الْحُكُومَةُ لَطَرَدَتْ مِنْ عَمَلِهَا كُلَّ مُوْطَفٍ غَيْرِ مُتَاهِلٍ ، فَإِنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ شَرًّا لَا رَجُلًا يَمْنَعُ الشَّرَّ ، وَكُلُّ شَابٍّ يَلِكُ حَالَهُ هُوَ حَادِثَةٌ تَزِيدُ الْحَوَادِثَ وَتَسْتَلْزِمُهَا ، وَمَا يَأْتِي السُّوءُ إِلَّا بِمِثْلِهِ أَوْ بِأَسْوَأَ مِنْهُ .

\* \* \*

لَيْسَ لِلزَّوْاجِ مَعْنَى إِلَّا إِفْرَاقَ طَبِيعَةِ الرَّجُلِ وَطَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ فِي طَبِيعَةٍ ثَالِثَةٍ تَقُومُ بِالْإِنْتِزَاجِ مَعًا ، وَهِيَ طَبِيعَةُ الشَّغَبِ . فَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ وَلُؤْمِهَا وَدَنَاءَتِهَا أَنْ يَفِرَّ الشَّابُّ الْقَوِيُّ مِنْ تَبَعَةِ الرُّجُولَةِ ، فَلَا يَحْمِلُ مَا حَمَلَ أَبُوهُ مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَا يُقِيمُ لَوَطْنِهِ جَانِبًا مِنْ بِنَاءِ الْحَيَاةِ فِي نَفْسِهِ وَزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ ، بَلْ يَذْهَبُ يَجْعَلُ حَظَّ نَفْسِهِ فَوْقَ نَفْسِهِ ، وَفَوْقَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْوَطَنِ جَمِيعًا ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ أَتِفَلَاتَهُ مِنْ وَاجِبَاتِ الزَّوْاجِ هُوَ إِضْعَافٌ فِي طَبِيعَتِهِ لِمَعْنَى الْإِخْلَاصِ الثَّابِتِ ، وَالصَّبْرِ الدَّائِبِ ، وَالْعَطْفِ الْجَمِيلِ فِي أَيِّ أَسْبَابِهَا عَرَضَتْ .

وَمِنْ فُسُوقِ الطَّبْعِ وَلُؤْمِهِ وَدَنَاءَتِهِ أَنْ يَهْرُبَ هَذَا الْجُنْدِيُّ مِنْ مِيدَانِهِ الَّذِي قَرَضَتْ عَلَيْهِ الطَّبِيعَةُ الْفَاضِلَةَ أَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ لِإِدَاءِ وَاجِبِهِ الطَّبِيعِيِّ مُتَعَلِّلاً لِإِفْرَاقِهِ الْمُخْرَجِي بِمَشَقَّةِ هَذَا الْوَجِبِ وَمَا عَسَى أَنْ يُعَانِي فِيهِ ، كَمَا يَخْتَجُّ الْجَبَانُ بِخَوْفِ الْهَلَاكِ وَعَنَاءِ الْحَرْبِ .

وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ أَنْ يَرْضَى الشَّبَّانُ كَسَادَ الْفَتَيَاتِ ، وَيَوَارَهُنَّ عَلَى الْوَطَنِ ؛ وَأَنْ يَتَوَاطَوْا عَلَى نَبْدِ هَذِهِ الْأَحْمَالِ ، وَالْقَائِيَا فِي طُرُقِ الْحَيَاةِ ، وَتَرْكِهَا لِمَقَادِيرِهَا الْمَجْهُولَةِ . كَأَنَّهُمْ أَصْلَحَهُمُ اللَّهُ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَضِيعُ بِأَخْوَانِهِمْ بَيْنَ الْفَتَيَاتِ ، وَيَضِيعُ

يُوطِنُهُمْ فِي أُمَهَاتِ الْجَبَلِ الْمُقْبِلِ ، وَيَضِيعُ بِالْفَضِيلَةِ فِي تَرْكِهِمْ حِمَايَتَهَا وَتَحْلِيهِمْ عَنْ حَمْلِ وَاجِبَاتِهَا وَهُمُومِهَا السَّامِيَةِ .

إِنَّ الْجَمَلَ إِذَا اسْتَنَوَقَ تَحَنَّنَ وَلَا نَ وَخَضَعَ ، وَلَكِنَّهُ يَحْمِلُ ؛ وَهَلْوَ لَاءِ إِذَا اسْتَنَوَقُوا تَحَنَّنُوا وَلَا نُوا وَخَضَعُوا وَأَبُوا أَنْ يَحْمِلُوا ...

وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ فِي الرَّجُلِ النَّكْسِ الْعَاجِزِ الْمُقْصِرِ أَنْ يَخْتَجَّ لِعُزُوبَتِهِ بِعِلْمِهِ وَجَهْلِ الْفَتَيَاتِ ؛ أَوْ تَمَدُّنِهِ وَرَغْمِهِ أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ الْأَوْزِيَّةِ ، وَلَا يَذَرِي هَذَا الْمُنْحَطُ النَّفْسِ أَنَّ الزَّوْاجَ فِي مَعْنَاهُ الْإِنْسَانِيَّ الْأَجْتِمَاعِيَّ هُوَ الشَّكْلُ الْآخَرُ لِلْإِفْرَاقِ الْعَسْكَرِيِّ ، كِلَاهُمَا وَاجِبٌ حَتْمٌ لَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ إِلَّا بِأَعْدَارٍ مَعِينَةٍ ، وَمَا عَدَاهَا فَجُبْنٌ وَسُقُوطٌ وَانْخِدَالٌ وَلَعْنَةٌ عَلَى الرُّجُولَةِ .

وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ أَنْ يَغْنَى الشَّابُّ عَنِ الزَّوْاجِ لِجُورِهِ فِيَقْرَهُ ، وَيُمْكِنَ لَهُ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَحْطِمُ نَفْسَيْنِ ، وَيُخْذِلُ جَرِيْمَتَيْنِ ، وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ عَلَى الدُّنْيَا لَعْنَتَيْنِ .

وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ أَنْ يَغْتَرَّ الشَّابُّ فَتَاةً حَتَّى إِذَا وَافَقَ غَرَّتَهَا مَكَرَ بِهَا وَتَرَكَهَا بَعْدَ أَنْ يُلْبِسَهَا عَارَهَا الْأَبْدِيِّ ؛ فَمَا يَحْمِلُ هَذَا الشَّابُّ إِلَّا نَفْسَ لَصٍّ خَبِيثٍ فَاتِكٍ ، هُوَ أَبَدًا عِنْدَ مَنْ يَسْرِقُهُمْ فِي بَابِ الْخَسَائِرِ وَالنَّكَبَاتِ ، لَا فِي بَابِ الرِّيحِ وَالْمَكْسَبِ ؛ وَعِنْدَ الْمُجْتَمَعِ فِي بَابِ الْفُسَادِ وَالشَّرِّ ، لَا فِي بَابِ الْمَصْلَحَةِ وَالْخَيْرِ ؛ وَعِنْدَ نَفْسِهِ فِي بَابِ الْجَرِيمَةِ وَالسَّرِقَةِ ، لَا فِي بَابِ الْعَمَلِ وَالشَّرَفِ .

\* \* \*

فَسُقُوطُ النَّفْسِ وَانْحِطَاطُهَا هُوَ وَحْدَهُ نَكْبَةُ الزَّوْاجِ فِي أَصْلِهَا وَقُرُوعِهَا الْكَثِيرَةِ الَّتِي مِنْهَا الْمَغَالَاةُ وَالشُّطْطُ فِي الْمُهُورِ ، وَمِنْهَا يَخُتُّ الشَّابُّ عَنِ الزَّوْجَةِ الْغَيِّبَةِ ، وَإِهْمَالُ ذَاتِ الدِّينِ وَالْأَصْلِ الْكَرِيمِ لِقَفْرِهَا ، وَمِنْهَا ابْتِغَاءُ الزَّوْجَةِ رَجُلًا دَا جَاهٍ أَوْ ثَرَاءٍ ، وَغُرُوفُهَا عَنِ الْفَاضِلِ ذِي الْكَفَافِ أَوْ الْيَسِيرِ عَلَى غِنَى فِي رُجُولَتِهِ وَفَضَائِلِهِ ، كَأَنَّمَا هُوَ زَوَاجٌ الدِّينَارِ بِالسِّيَكَةِ ، وَالسِّيَكَةِ بِالدِّينَارِ ، وَكَأَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ ابْتَلَيْتْ هِيَ أَيْضًا بِالسُّقُوطِ ، فَأَصْبَحَتْ تَغْتَبِرُ الْغِنَى وَالْفَقْرَ ، فَتَجْعَلُ فِي دَمِ أَوْلَادِ الْأَغْنِيَاءِ رُوحَ الذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْمَاسِ ، وَتُلْقِي فِي دَمِ أَوْلَادِ الْفُقَرَاءِ رُوحَ الثُّخَاسِ وَالْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ ... عَلَى حِينِ أَنَّ الْجَمِيعَ مُسْتَقِيمُونَ لَا يَتَدَافِعُ

أَتَنَانٍ مِنْهُمْ فِي أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تُبَالِي إِلَّا بِوَرَاثَةِ الْأَدَابِ وَالطَّبَاعِ .

وَأَعْظَمُ أَسْبَابِ هَذَا الشُّقُوطِ فِي رَأْيِي هُوَ ضَعْفُ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْجَنَسَيْنِ ، وَخَاصَّةً الشُّبَّانُ ؛ ظَنًّا مِنَ النَّاسِ أَنَّ الدِّينَ شَأْنٌ زَائِدٌ عَلَى الْحَيَاةِ ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ لَا غَيْرُهُ نِظَامُ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَقَوَائِمُهَا فِي كُلِّ مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِالنَّفْسِ . وَلَيْسَتْ الْمَدَنِيَّةُ الصَّحِيحَةُ - كَمَا يَحْسَبُ الْمُفَقَّرُونَ - هِيَ نَوْعُ الْمَعِيشَةِ لِلْحَيَاةِ وَمَادَّتِهَا ، بَلْ نَوْعُ الْعَقِيدَةِ بِالْحَيَاةِ وَمَعَانِيهَا ؛ وَإِلَى هَذَا تَزِمُنِي كُلُّ مَبَادِيئِ الْإِسْلَامِ . فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ الْقَوِيَّ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَغْبَأُ بِزُخَارِفِ كَهَلْدِهِ الَّتِي تَلْبَسُ بِهَا الْمَدَنِيَّةُ الْأَوْرَاقِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْإِسْتِمْتَاعِ ، وَفُتُونِ اللَّذَاتِ ، وَانْفِلَاقِ الْحُرِّيَّةِ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ ؛ فَهَذَا بِعَيْنِهِ هُوَ التَّخْطِيطُ الْإِنْسَانِيُّ الَّذِي يَنْتَهِي بِتَهْدِيمِ تِلْكَ الْمَدَنِيَّةِ وَخَرَابِهَا ؛ وَإِنَّمَا يَغْبَأُ الْإِسْلَامُ بِالْعَقِيدَةِ الَّتِي تَنْظُمُ الْحَيَاةَ تَنْظِيمًا صَحِيحًا مُتَسَاوِقًا وَإِفَاتًا بِالْمَنْفَعَةِ ، قَائِمًا بِالْفَضِيلَةِ ، بَعِيدًا مِنَ الْخَلَطِ وَالْفَوْضَى .

وَيُقَابِلُ ضَعْفَ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ مَظْهَرٌ آخَرُ هُوَ سَبَبٌ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الشُّقُوطِ ، وَهُوَ ضَعْفُ التَّرْبِيَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْمَدْرَسَةِ ؛ وَإِلَى هَذَا الضَّعْفِ يَرْجِعُ سَبَبٌ آخَرُ هُوَ تَخَلُّتُ الطَّبَاعِ وَاسْتِزْسَالُهَا إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ ، وَفِرَازُهَا مِنْ حِمْلِ النَّبْعَةِ « الْمَسْئُورِيَّةِ » الَّتِي هِيَ دَائِمًا أَسَاسُ كُلِّ شَخْصِيَّةٍ قَائِمَةٍ فِي مَوْضِعِهَا الْاجْتِمَاعِيِّ .

وَبِذَلِكَ الضَّعْفِ وَذَلِكَ الشُّقُوطِ وَضِعَتِ الْمَرْأَةُ الْبَغِيَّ الْعَاهِرَةَ فِي الْمَوْضِعِ الطَّبِيعِيِّ لِلْأُمِّ ، وَنَزَلَ الرَّجُلُ السَّافِلُ الْمُنْحَطُّ فِي الْمَكَانِ الطَّبِيعِيِّ لِلْأَبِ ، وَتَحَلَّلَتْ قُوَى الْوَطَنِ بِأَنْحِرَافِ غُنْصَرِيهِ الْعَظِيمَيْنِ عَنْ طَبِيعَتَيْهِمَا ، وَجَعَلَتْ فَضِيلَةَ الْفَتَيَاتِ الْمُسْكِنَاتِ تَأْكُلُ مِنْ طَوْلِ مَا أَهْمِلَتْ ، وَأَخَذَ سُوسُ الدَّمِ يَتْرُكُهَا فَضَائِلَ نَخْرَةٍ .

وَلَا عَاصِمَ وَلَا دَافِعَ إِلَّا قُوَّةُ الْقَانُونِ وَسَطَوْتُهُ ، مَا دَامَتِ الْفَضِيلَةُ فِي حُكْمِ النَّاسِ وَتَضَرَّفَتْهُمْ قَدْ تَرَكَّتْ مَكَانَهَا لِلْقَوَائِنِ ، وَمَا دَامَتْ قُوَّةُ النَّفْسِ قَدْ أَخَلَّتْ مَوْضِعَهَا لِلْقُوَّةِ التَّنْفِيدِيَّةِ .

لَقَدْ قُتِلَتْ رُوحِيَّةُ الزَّوْاجِ ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ جَرِيمَةٌ قَتْلٌ ، فَمَنِ الْقَاتِلُ يَا صَاحِبَنَا الْمُحَامِي ؟

قَالَ الشَّابُّ : هُوَ كُلُّ رَجُلٍ عَزَبَ .

قُلْتُ : فَمَا عِقَابُهُ ؟

فَسَكَتَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ جَوَابًا .

قُلْتُ : كَأَنِّي بِكَ قَدْ تَاهَلْتُ وَخَلَاكَ دَمٌ . . . فَمَا عِقَابُهُ ؟

قَالَ : إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الْحُكُومَةَ أَوْ أَنْ تُعَاقِبَ هَذُلَاءِ الْعُرَابِ ، فَلْيُعَاقِبَهُمُ الشُّعْبُ

بِتَسْمِيَتِهِمْ « أَرَامِلُ الْحُكُومَةِ » . . . وَاحِدُهُمْ : رَجُلٌ أَرْمَلَهُ حُكُومَةٌ . . .

ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ يَسِّرْهَا وَلَا تَجْعَلْنِي رَجُلًا يَغْلُطُنِي : غَلْطُهُ فِي نِسَاءِ الْأُمَّةِ ، وَغَلْطُهُ فِي

الْفَاطِ الْلُغَةِ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## أَزْمَلَةُ حُكُومَةٍ (\*) ...

(أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ) فِيمَا تَوَاضَعْنَا عَلَيْهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قُرَائِنَا<sup>(١)</sup> هُوَ الرَّجُلُ الْعَرَبُ ، يَكُونُ مُطِيقًا لِلزَّوْجِ ، قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَلَا يَتَزَوَّجُ ؛ بَلْ يَرْكَبُ رَأْسَهُ فِي الْحَيَاةِ ، وَيَذْهَبُ يَمُوهَ عَلَى نَفْسِهِ كَذِبًا وَتَذْلِيلًا ، وَيَنْتَحِلُ لَهَا الْمَعَادِيرَ الْوَاهِيَةَ ، وَيَمْتَلِكُ الْعِلَالَ الْبَاطِلَةَ ، يُحَاوِلُ أَنْ يُلْحِقَ نَفْسَهُ بِمَرْتَبَةِ الرَّجُلِ الْمُتَزَوِّجِ مِنْ حَيْثُ يَحُطُّ الرَّجُلُ الْمُتَزَوِّجُ إِلَى مَرْتَبَتِهِ هُوَ ؛ وَيُضَيِّفُ شُؤْمَهُ عَلَى النِّسَاءِ إِلَى هَذُلَاءِ النِّسَاءِ الْمُسْكِنَاتِ ، يَزِيدُهُنَّ عَلَى نَفْسِهِ شَرَّ نَفْسِهِ ، وَيَرْمِيَهُنَّ بِالسُّوءِ وَهُوَ السُّوءُ عَلَيْهِنَّ ، وَيَنْقُصُهُنَّ وَمِنْهُ جَاءَ النِّقْصُ ، وَيَعْيِيَهُنَّ وَهُوَ أَكْبَرُ الْعَيْبِ ؛ لَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا الَّذِي لَهُ ، وَلَا يَتَنَاسَى إِلَّا الَّذِي عَلَيْهِ ، كَأَنَّمَا انْقَلَبَتْ أَوْضَاعُ الدُّنْيَا ، وَتَبَدَّلَتْ رُسُومُ الْحَيَاةِ ، فَزَالَتْ الرَّجُولَةُ بِبِعَائِهَا عَنِ الرَّجُلِ إِلَى الْمَرْأَةِ ، وَانْفَصَلَتْ الْأَنْثَةُ بِحَقُوقِهَا مِنَ الْمَرْأَةِ إِلَى الرَّجُلِ ، فَوَجَبَ أَنْ تَحْمِلَ تِلْكَ مَا كَانَ يَحْمِلُ هَذَا ، فَتَقْدِمَ وَيَقَرَّ وَادْعَا ، وَتَتَعَبَ وَيَسْتَرْجِحَ ، وَتُعَانِيَ الْهَمُومَ السَّامِيَةَ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَتُعَانِيَ الْمُخْخِثُ آبَسَامَاتِهِ وَدُمُوعَهُ ، مُتَكِنًا فِي مَجْلِسِهِ السِّنِّيِّ تَحْتَ جَنَاحِ الْمَرْوَحَةِ ... فَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَتَشْرِفُ عَلَى هَلَكَيْتِهَا ، وَتُخَاطِرُ بِحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا ، وَأَمَّا هُوَ فَيَقْبَلُ مِنْ نِيَابِهِ فِي مِثْلِ الْخِذْرِ الْمَصُونِ ... !

(أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ) هُوَ ذَلِكَ الشَّابُّ الزَّائِفُ الْمُبْهَرَجُ ، يُخَسِبُ فِي الرِّجَالِ كَذِبًا وَزُورًا ؛ إِذْ لَا تَكْمُلُ الرَّجُولَةُ بِتَكْوِينِهَا حَتَّى تَكْمَلَ بِمَعَانِي تَكْوِينِهَا ؛ وَأَخْصَصْتُ هَذِهِ الْمَعَانِي لِإِنْشَاءِ الْأُسْرَةِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا ، أَيْ : مُغَامَرَةُ الرَّجُلِ فِي زَمَنِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَوُجُودِهِ الْقَوْمِيِّ ، فَلَا

(\*) « الرسالة » العدد : ٦٦ ، ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٤ و ١٦٧٩ .

(١) انظر مقالة « اسْتَنْوَى الْجَمَلِ » . وَالثَّاءُ فِي « أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ » لَيْسَتْ لِلتَّائِيثِ ، بَلْ هِيَ تَاءٌ جَدِيدَةٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، تَزَادُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ خَاصَّةً وَأَسْمَهَا تَاءُ الْهَرُوفِ ... وَبِذَا حَبَلًا لَوْ أَضْلَحَ النِّسَاءُ وَالْفَتَيَاتُ وَالْمُتَزَوِّجُونَ جَمِيعًا عَلَى تَسْمِيَةِ كُلِّ رَجُلٍ عَرَبٍ « أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ » فَإِنَّ هَذَا الْأَسْمَ إِذَا عَمَّ وَشَاعَ كَانَ فِي مَعْنَاهُ وَفِعْلُهُ الْمَطْهَرُ ، حَامِضًا لِقَوِيَا كَحَامِضِ الْفَنِيكِ !

يَعِيشُ غَرِيبًا عَنْهُ وَهُوَ مَعْدُودٌ فِيهِ ، وَلَا طُفْلِيًّا فِيهِ وَهُوَ كَالْمَنْفِيِّ مِنْهُ ، وَلَا يَكُونُ مَظْهَرًا لِقُوَّةِ الْجِنْسِ الْقَوِيِّ هَارِبَةً هُرُوبَ الْجُبْنِ مِنْ حَفْلِ ضَعْفِ الْجِنْسِ الْآخَرِ الْمُخْتَنِي بِهَا ، وَلَا لِمُرُوءَةِ الْعَشِيرِ مُبِيرَةً تَبْزُؤُ الدَّلَالَةِ مِنْ مُوَازَرَةِ الْعَشِيرِ الْآخَرِ الْمُخْتَجِ إِلَيْهَا ؛ وَلَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَالَّذُفُّ يَمْلَآنِ فِي نِسَاءِ أُمَّتِهِ عَمَلًا وَاحِدًا ، وَأَنْ يُضَيِّحَ هُوَ وَالْكَسَادُ لَا يَأْتِي مِنْهُمَا إِلَّا أَثَرُ مُشَابِهَةٍ ، وَأَنْ يَبِيتَ هُوَ وَالْفَنَاءُ فِي ظُلْمَةٍ وَاحِدَةٍ كَظُلُمَاتِ الْقَبْرِ ، تَنْقُلُ الْأَجْدَاتُ إِلَى الدُّوْرِ ، فَتَجْعَلَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ يَفْتَضِيهِ الْوَطَنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَبٌ وَأُمٌّ وَأَطْفَالٌ - بَيْنَا خَاوِيَا كَأَنَّمَا نَحِلُ الْأُمَّ وَالْأَطْفَالَ ، وَبَقِيَتْ فِيهِ الْبَقِيَّةُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْعَرَبِ أَلَمِيَّتْ أَكْثَرَ تَارِيخِهِ ... !

لَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنِي آدَاءَ الْعَرَبِ وَأَنَائَةَ الْمُبْتَغَرِّ فِي بَيْتِهِ ، كَأَنَّمَا يَقْصُ عَلَيْهِ كُلُّ ذَلِكَ قِصَّةَ شُؤْمِهِ وَوَحْدَتِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ الْفَرَشُ وَالْكَجْدُ وَالطَّرَارُ : « بِعْنِي يَا رَجُلُ وَرَدِّنِي إِلَى السُّوقِ ؛ فَإِنِّي هُنَاكَ أَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ مَصِيرِي إِلَى أَبٍ وَأُمٍّ وَأَوْلَادٍ ، أَجِدُ بِهِمْ فَرْحَةً وَجُودِي ، وَأَصِيبُ مِنْ مَعَاشَرَتِهِمْ بَعْضَ ثَوَابِي ، وَأَبْلَى تَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ فَأَكُونُ قَدْ عَمِلْتُ عَمَلًا إِنْسَانِيًّا . أَمَّا عِنْدَكَ ، فَأَنْتَ خَشْبَةٌ مَعَ الْخَشَبِ ، وَأَنْتَ خِرْقَةٌ بَيْنَ الْخِرَقِ . وَاسْمِعِ الْكُرْسِيَّ إِنَّهُ يَقُولُ : أَفُ . وَأَضْغِ إِلَى فَرَاشِكَ إِنَّهُ يَقُولُ : تُفُ ... » .

شَهِدَ الْعَرَبُ وَرَبَّ الْكُعْبَةِ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ مُبْتَلَى بِالْعَافِيَةِ ، مُسْتَعْبَدٌ بِالْحُرِّيَّةِ ، مَجْنُونٌ بِالْعَقْلِ ، مَغْلُوبٌ بِالْقُوَّةِ ، شَقِيٌّ بِالسَّعَادَةِ . وَشَهِدَتِ الْحَيَاةُ عَلَيْهِ وَرَبُّ الْبَيْتِ أَنَّهُ فِي الرَّجُولَةِ قَاطِعُ طَرِيقِي ؛ يَقْطَعُ تَارِيخَهَا وَلَا يُؤَمِّنُهُ ، وَيَسْرِقُ لَذَائِهَا وَلَا يَكْسِبُهَا ، وَيَخْرُجُ عَلَى شَرْعِهَا وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ ، وَيَعْصِي وَاجِبَاتِهَا وَلَا يَنْقَادُ لَهَا . وَشَهِدَ الْوَطَنُ - وَاللَّهُ - عَلَيْهِ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فَارِغٌ كَالْوَاغِلِ عَلَى الدُّنْيَا ؛ إِنْ كَانَ نِعْمَةً بِصَلَاحِهِ ، انْتَهَتْ النِّعْمَةُ فِي نَفْسِهَا لَا تَمْتَدُّ ؛ وَإِنْ كَانَ بِفَسَادِهِ مُصِيبَةً اُئْتَدَتْ فِي غَيْرِهَا لَا تَنْقَطِعُ . وَأَنَّهُ شَحَاذُ الْحَيَاةِ ، أَحْسَنَ بِهِ الْأَجْدَادُ نَسْلًا بَاقِيًا ، وَلَا يُخَسِّنُ هُوَ بِنَسْلِ يَنْقَى . وَأَنَّهُ فِي بِلَادِهِ كَالْأَجَنِّيِّ ، مَهْنِطُهُ عَلَى مَنَافِعِهِ وَعَيْشُ لَا غَيْرِهِمَا ؛ ثُمَّ يَمُوتُ وَجُودُ الْأَجَنِّيِّ بِالْقَلْبِ إِلَى وَطَنِهِ ، وَيَمُوتُ وَجُودُ الْعَرَبِ بِالْإِنْقِيَالِ إِلَى رَبِّهِ ؛ فَيَسْتَوِيَانِ جَمِيعًا فِي انْقِطَاعِ الْأَثَرِ الْوَطَنِيِّ ، وَيَتَّفِقَانِ جَمِيعًا فِي انْتِهَابِ الْحَيَاةِ الْوَطَنِيَّةِ ؛ وَأَنْ كِلَيْهِمَا خَرَجَ مِنَ الْوَطَنِ أَبْتَرَّ لَا عَقِبَ لَهُ ، وَيَذْهَبَانِ مَعًا فِي

لَجَّحِ الشَّيْبَانِ : أَحَدُهُمَا عَلَى بَاجِرَةٍ ، وَالْآخَرُ عَلَى التَّغْسِ !

\* \* \*

جَاءَنِي بِالْأَمْسِ « أَرْمَلَةٌ حُكُومِيَّةٌ » وَهُوَ مُهَنْدِسٌ مُوَظَّفٌ . وَمَعْنَى الِهَنْدَسَةِ الدَّقَّةُ الْبَالِغَةُ فِي الرِّقْمِ وَالْخَطِّ وَالْقِطْعَةِ وَمَا أَحْتَمَلَ التَّدْقِيقَ ؛ ثُمَّ الْحَذَرُ الْبَالِغُ أَنْ يَخْتَلَّ شَيْءٌ أَوْ يَنْحَرِفَ ، أَوْ يَتَقَاصَرَ أَوْ يَطُولَ ، أَوْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ ، أَوْ يَدْخُلَهُ السَّهْوُ ، أَوْ يَقَعَ فِيهِ الْخَطَأُ ؛ إِذْ كَانَ الْحَاضِرُ فِي الْعَمَلِ الِهَنْدَسِيِّ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَاقِبَةِ ، وَكَانَ الْخَيَالُ لِلْحَقِيقَةِ ؛ وَكَانَ الْخُرْقُ هُنَا لَا يَقْبَلُ الرُّفْعَةَ . وَمَتَى فَصَلَّتِ الْأَرْقَامُ الِهَنْدَسِيَّةُ مِنَ الْوَرَقِ إِلَى الْبِنَاءِ مَاتَ الْجَمْعُ وَالطَّرْحُ وَالضَّرْبُ وَالْقِسْمَةُ ، وَرَجَعَ الْحِسَابُ حِينْتِذٍ وَهُوَ حِسَابُ عَقْلِ الْمُهَنْدِسِ ؛ فِيمَا عَقْلٌ دَقِيقٌ مُنْتَظِمٌ ، أَوْ عَقْلٌ مَافُونٌ مُخْتَلٌ .

بَيَّنَّ أَنَّ الْمُهَنْدِسَ - عَلَى مَا ظَهَرَ لِي - قَدْ خَلَّتْ حَيَاتُهُ مِنَ الِهَنْدَسَةِ . . . وَانْتَهَى فِيهَا مِنَ التَّخْرِيفِ الْمُضْحِكِ - حَتَّى فِيمَا لَا يُخْطِئُ الصَّغَارُ فِيهِ - إِلَى مِثْلِ التَّخْرِيفِ الَّذِي قَالُوا إِنَّهُ وَقَعَ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فَقَدْ رَوَوْا أَنَّ إِمَامَ قَزْوِيَّةٍ مِنَ الْفَرَسِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ كَانَ يَخْطُبُ أَهْلَ قَزْوِيَّةٍ وَيُصَلِّي بِهِمْ فِي مَسْجِدِهَا ، فَتَرَلَّ بِهِ ضَيْفٌ مِنَ الْأَعْلَمَاءِ ، فَقَالَ لَهُ الْخَطِيبُ : إِنَّ لِي مَسَائِلَ فِي الدِّينِ لَمْ يَتَوَجَّهْ لِي وَجْهٌ أَلْحَقُ فِيهَا ، وَلَا أَزَالُ مُتَحِيرٌ الرَّأْيِ ، وَكُنْتُ مِنْ زَمَنِ اتَّمَعْتُ أَنْ أَلْقَى بِهَا الْأَيْمَةَ ، فَأَرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهَا . قَالَ الْعَالِمُ : سَلْ مَا أَحْبَبْتَ .

قَالَ الْخَطِيبُ : أَشْكَلُ عَلَيَّ فِي الْقُرْآنِ بَعْضُ مَوَاضِعَ ، مِنْهَا فِي سُورَةِ الْحَمْدِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ ﴾ . . . أَيُّ شَيْءٍ بَعْدَهُ . « تَسْعِينَ أَوْ سَبْعِينَ » . . . أَشْكَلْتُ عَلَيَّ هَذِهِ فَأَنَا أَقْرُؤُهَا : تَسْعِينَ . أَخْذًا بِالْإِخْتِيَاظِ . . !

كَذَلِكَ مُهَنْدِسُنَا فِيمَا أَشْكَلُ عَلَيْهِ مِنْ حِسَابِهِ لِلْحَيَاةِ ، فَهُوَ عَزَبَ أَخْذًا بِالْإِخْتِيَاظِ . قَالَ وَهُوَ يَحَاوِرُنِي :

كَيْفَ تَكْلُفُنِي الزَّوْاجَ وَتُكْرِهُنِي عَلَيْهِ ، وَتُعْتَقِنِي عَلَى الْعُرُوبَةِ وَتَعَيِّبُنِي بِهَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ كَالَّذِي يَقُولُ : دَعِ الْمُؤْمِنِينَ وَخُذِ الْمُشْتَحِيلَ . إِنَّ اسْتِحْوَاجَ الزَّوْاجِ هِيَ جَعَلْتَنِي عَزَبًا ،

وَالْعُرُوبَةُ هِيَ جَعَلْتَنِي فَاسِدًا ، وَفِي هَذَا الْجَوِّ الْفَاسِدِ مِنْ حَيَاةِ الشَّبَابِ ، إِمَّا أَنْ تَكْسَدَ الْفَتَاةُ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّصِلَ بِهَا الْعَدُوُّ . وَالْعَزَبُ لَا يَأْتِي أَنْ يَقَالَ فِيهِ إِنَّهُ لِلنِّسَاءِ طَاعُونَ أَحْمَرُ أَوْ هَوَاءٌ أَصْفَرُ ؛ فَهُوَ وَاللَّهُ مَعَ ذَلِكَ مَوْتُ أَسْوَدَ وَبَلَاءٌ أَزْرَقُ .

قُلْتُ : لَقَدْ هَوَلَتْ عَلَيَّ ؛ فَمَا مُسْتَحِيلُكَ يَا هَذَا ، وَلِمَ اسْتَحَالَ عَلَيْكَ مَا أَمْكَنَ غَيْرَكَ ، وَكَيْفَ بَلَغْتَ مِصْرَ خَمْسَةِ عَشَرَ مِائُونَ ؟ أَمِنْ غَيْرِ آبَاءِ خُلُقُوا ، أَمْ زُرْعُوا زُرْعًا فِي أَرْضِ الْحُكُومَةِ ؟ أَسْمَعُ - وَنَحَكَ - أَلَّا يَكُونُ الرِّجَالُ قَدْ أَقْبَلُوا وَتَرَجَعْتَ ، وَتَجَلَّدُوا وَتَوَجَّعْتَ ، أَوْ أَقْدَمُوا وَخَسَسْتَ ، وَاسْتَرْجَلُوا وَتَأَنَّتْ ؟

قَالَ : لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا .

قُلْتُ : فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ هِيَ كَيْفَ تَرَى الْفِكْرَةَ ، لَا الْفِكْرَةَ نَفْسَهَا ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى الْعُرُوبَةِ وَأَنْتَ مُوَظَّفٌ ، وَطِيفَتُكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا ، وَأَنْتَ مُهَنْدِسٌ يَصْدُقُ عَلَيْكَ مَا قَالُوهُ فِي الرَّجُلِ الْمَجْدُودِ : لَوْ عَمِدَ إِلَى حَجَرٍ لَانْفَلَقَ لَهُ عَنْ رِزْقٍ .

قَالَ : أَلَيْسَ مُسْتَحِيلًا ثُمَّ مُسْتَحِيلًا أَنْ يَجْمَعَ مِثْلِي يَدُهُ عَلَى مِثَّةٍ جَنِيهِ يَدْفَعُهَا مَهْرًا ؛ وَمَا طَرَفْتُ - عِلْمُ اللَّهِ - بَابًا إِلَّا اسْتَقْبَلُونِي بِمَا مَعْنَاهُ : هَلْ أَنْتَ مُعْجِزَةٌ مَالِيَّةٌ ؟ هَلْ أَنْتَ مِثَّةُ جَنِيهِ ؟

قُلْتُ : فَإِنَّ عَمَلَكَ فِي الْحُكُومَةِ يُغْلُ عَلَيْكَ فِي السَّنَةِ مِثَّةٌ وَثَمَانِينَ دِينَارًا ، فَلِمَ لَا تَعِيشُ سَنَةً وَاحِدَةً بِثَمَانِينَ فَتَقَعَ الْمُعْجِزَةُ ؟

قَالَ : « بِكُلِّ أَسَفٍ » لَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ الْعَزَبُ أَنْ يَدْخِرَ أَبَدًا ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُبَدَّدٌ ضَائِعٌ مُتَفَرِّقٌ .

قُلْتُ : فَهَلْ هَذِهِ شَهَادَتُكَ عَلَى نَفْسِكَ بِالسَّهْوِ وَالْخُرْقِ وَالتَّيْدِيرِ ؛ تُنْفِقُ مَا يَكْفِيكَ عَدَدًا وَتَصْنِقُ بِوَاحِدَةٍ ، وَمَاذَا يَرْتَبِي مِثْلُكَ فِي الْحَيَاةِ ؟ أَعِنْدَ نَفْسِهِ وَفِي يَقِينِهِ أَنْ يَتَأَبَّدَ فَيَقْبَلَ عَزَبًا فَهُوَ يُنْفِقُ مَا جَمَعَ فِي شَهَوَاتِ حَيَاتِهِ ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ضُرُوبًا وَأَلْوَانًا لِيَكُونَ وَهُوَ فَرْدٌ كَأَنَّهُ وَهُوَ فِي انْفَاقِهِ جَمَاعَةٌ ، كُلٌّ مِنْهُمْ فِي مَوْضِعٍ رَذِيلَةٍ أَوْ مَكَانٍ لَهْوٍ ؛ وَكَأَنَّ مِنْهُ رَجَالًا هُوَ كَاسِبُهُمْ وَعَائِلُهُمْ ، يُنْفِقُ عَلَى هَذَا فِي الْفَهْوَةِ ، وَعَلَى هَذَا فِي الْحَنَانَةِ ، وَعَلَى ذَلِكَ فِي الْمَلَاهِي ،

وَعَلَى الرَّابِعِ فِي الْمَوَاحِشِ ، وَعَلَى الْخَامِسِ فِي الْمُسْتَشْفَى . . . ؟ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ أَصْلُ الرَّأْيِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، فَالْعَرَبُ سَفِيهُ مُجْرِمٌ ، وَهُوَ إِنْسَانٌ خَرِبَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ إِنْسَانِيَّةً ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ الْمُسْعِ لِنَفَقَاتِ خَمْسَةِ ، بَلْ كَأَنَّهُ قَاتِلُ خَمْسَةِ مِنْ أَبْنَاءِ وَطَنِهِ ؛ إِذْ كَانَ يَهْدِي مُطِيقًا أَنْ يَكُونَ أَبَا يُنْفِقُ عَلَى أَبْنَائِهِ ، لَا سَفِيهَا يُنْفِقُ عَلَى شَيْطَانِيهِ .

فَإِنْ كَانَ قَدْ بَنَى رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَتَعَزَّبَ مُدَّةً ثُمَّ يَتَأَهَّلَ ، فَهَذَا آخَرُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى حُسْنِ التَّذَبُّرِ ، وَهُوَ مُضَرَّةٌ لَهُ عَلَى شَهْوَةِ الْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ ؛ إِذْ يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّمَا يَكْدَحُ لِعِيَالِهِ وَهُوَ فِي سَعَةِ مِنْهُمْ بَعْدَ ، وَهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي ضُلْبِهِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي لَا يَسْأَلُونَهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَخْلَاقًا طَيِّبَةً وَهَيْمًا وَغَرَائِمَ يَرْتُونَهَا مِنْ دَمِهِ فَتَجِيءُ مَعَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا مَتَى جَاؤُوا .

إِنَّمَا الْعَرَبُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ قَدْ خَرَجَ عَلَى وَطَنِهِ وَقَوْمِهِ وَقَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، قَاعِدَتُهُ : جُرُّ الْحَبْلِ مَا أَنْجَرَ لَكَ . وَهَذَا دَاعِرٌ فَاسِقٌ ، مُبْذَرٌ مُتَلَفٌ إِنْ كَانَ مِنَ الْمَيَاسِيرِ ، أَوْ مُرِيْبٌ دَنِيٌّ حَقِيرُ النَّفْسِ إِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ . . . وَرَجُلٌ غَيْرُ ذَلِكَ ، فَهُوَ فِي وَثَاقِ الضَّرُورَةِ إِلَى أَنْ تُطْلِقَهُ الْأَسْبَابُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ يَعْمَلُ أَبَدًا لِلْأَسْبَابِ الَّتِي تُطْلِقُهُ ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا فَلَا تَزَالُ ذِمَّتُهُ فِي حَقِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ لَهَا ، وَفِي حَقِّ أَطْفَالٍ يَأْتُوهُمْ ، وَوِاجِبَاتِ وَطَنٍ يَخْدُمُهُ بِإِنْشَاءِ هَذِهِ النَّاحِيَةِ الصَّغِيرَةِ مِنْ وُجُودِهِ ، وَالْقِيَامِ عَلَى سِيَاسَتِهَا ، وَالنُّهُوضِ بِأَعْيَانِهَا . فَانْظُرْ وَيَحَاكُ أَيُّ الرَّجُلَيْنِ أَنْتَ ؟

قَالَ : فَتَرِيدُنِي أَنْ أَقَامِرَ بِتَعَبِ سَنَةٍ وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا يُقَدِّرُ لِي ، وَقَدْ أَشْتَرَيْتُ بِتَعَبِ سَنَةٍ مِنَ الْعُمُرِ تَعَبَ الْعُمُرِ كُلِّهِ ؟

قُلْتُ : فَهَذِهِ هِيَ حِسَّةُ الْفَرْدِيَّةِ ، وَدَنَاءَتُهَا الْوَحْشِيَّةُ فِي جَنَائِبِهَا عَلَى أَهْلِهَا ، وَسُوءُ أَثَرِهَا فِي طِبَاعِهِمْ وَغَرَائِمِهِمْ ؛ فَهِيَ فَرْدِيَّةٌ تَضْرِبُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ ضَرْبَ التَّلَفِ<sup>(١)</sup> ، وَتَبْتَلِيهِمْ بِالْخَوْفِ مِنَ التَّبِعَاتِ حَتَّى لَيَتَوَهَّمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ إِنْ تَزَوَّجَ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَمْرَةٍ ، وَلَكِنْ عَلَى مَعْرَكَةٍ . وَهِيَ تُصِيبُهُمْ بِالْقَسْوَةِ وَالْغُلْظَةِ ؛ فَمَا دَامَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَاحِدًا لِنَفْسِهِ ، فَهُوَ فِي تَضَرُّبِ حُكْمِ الْأَثَرَةِ ، وَفِي قَانُونِ الْفِتْنَةِ بِأَهْوَاءِ النَّفْسِ وَمَنَافِعِهَا ؛ كَأَنَّمَا

(١) { يُقَالُ ضَرْبُهُ ضَرْبُ التَّلَفِ ، أَيُّ : الضَّرْبُ الَّذِي يَقْتُلُهُ وَيُهْلِكُهُ } .

يَعَامِلُهُ النَّاسُ رَجُلًا كُلَّهُ مُعَدَّةً ، أَوْ هُوَ فِيهِمْ قُوَّةٌ هَضْمٌ لَيْسَ غَيْرُ .

قَالَ : وَلَكِنَّ الزَّوَاجَ عِنْدَنَا حَظٌّ مَخْبُوءٌ « لَوْتَرِيَّةٌ »<sup>(١)</sup> ، وَالنِّسَاءُ كَأَوْرَاقِ السُّحْبِ ، مِنْهُنَّ وَرَقَةٌ هِيَ التَّوْفِيقُ وَالْغِنَى بَيْنَ آلاَفِ هُمُ الْفَقْرُ وَالْخَبِيَّةُ الْمُحَقَّقَةُ .

قُلْتُ : هَلِ اعْتَدْتَ أَنْ تَتَكَلَّمَ وَأَنْتَ نَائِمٌ ؟ فَلَمَعَكَ آلَانِ فِي نَوْمِ عَقْلٍ ، أَوْ لَا فَأَنْتَ آلَانِ فِي غَفْلَةِ عَقْلٍ .

إِنَّ هَذَا الْمُسْكِنِينَ الَّذِي يَمْسَحُ الْأَخْدِيَّةَ وَيَشْتَرِي مِنْ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ لَا يَخْلُو مِنْهَا ؛ يَعْلَمُ عِلْمًا أَكْثَرَ مِنَ الْيَقِينِ أَنَّ عَيْشَهُ هُوَ مِنْ مَسَحِ الْأَخْدِيَّةِ لَا مِنَ الْأَخْيَلَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ ؛ فَهُوَ لَا يَغْتَدُّ بِهَا فِي كَبِيرِ أَمْرٍ وَلَا صَغِيرِهِ ، وَمَا يُنْزِلُهَا فِي حِسَابِ رَغِيْفِهِ وَتَوْبِهِ إِلَّا يَوْمَ يَخْلُطُ فِي عَقْلِهِ فَيَسْتَرَهُ أَنْ يَمْسَحَ أَخْدِيَّةَ النَّاسِ ، وَيَرَى أَنَّ عَظِيمًا مِثْلَهُ لَا يَمْسَحُ إِلَّا أَخْدِيَّةَ الْمَلَايِكَةِ . . .

أَنْتَ يَا هَذَا مُهَنْدِسٌ ، وَلَكَ بَعْضُ الشَّانِ وَبَعْضُ الْمَنْزِلَةِ ، فَهَبَكَ أَرْتَأَيْتَ أَنَّهُ لَا يَخْسُرُ بِكَ أَوْ لَا يَخْسُرُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِنْتُ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَهَذِهِ وَحْدَهَا هِيَ عِنْدَكَ « النَّمْرَةُ الرَّابِحَةُ »<sup>(٢)</sup> ، وَسَائِرُ النِّسَاءِ فَقْرٌ وَخَبِيَّةٌ ، مَا دَامَ الْأَمْرُ أَمْرَ رَأْيِكَ وَهَوَاكَ ؛ غَيْرَ أَنَّكَ إِذَا عَرَضَتْ لِيْلِكَ « النَّمْرَةُ الرَّابِحَةُ » لَمْ تَعْرِفَكَ هِيَ إِلَّا صُغْلُوكَا فِي الصَّعَالِيكِ ، وَأَحْمَقَ بَيْنَ الْحَمَقَى .

إِنَّ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ تُصْنَعُ صَنْعَتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ جُمْلَتُهَا خَاسِرَةً إِلَّا عَدَدًا قَلِيلًا مِنْهَا ؛ فَإِذَا تَعَايُنَتْ شِرَاءَهَا فَأَنْتَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ تَأْخُذُهَا ، وَبِهَذَا الشَّرْطِ تَبْدُلُ فِيهَا ؛ وَمَا تَمْتَرِي أَنْتَ وَلَا غَيْرُكَ أَنَّ الْقَاعِدَةَ هَلْهَذَا هِيَ الْخَبِيَّةُ ، وَشُدُّوْذَهَا هُوَ الرَّبْحُ ؛ وَلَيْسَ فِي الْأَخْتِمَالِ غَيْرُ ذَلِكَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ بَرَى إِلَيْكَ الْحَظُّ إِنْ لَمْ يُصِيبَكَ شَيْءٌ مِنْهُ ؛ وَأَيْنَ هَذَا وَأَيْنَ

(١) لوتريّة من الكلمة الفرنسية Loterie . وتعني : اليانصيب . بسم .

(٢) النمرة الرابعة ، أي : الرقم الرابع ، ونمرة من Nombre والذي يعني : العدد ، ولعل أصل الكلمة من العربية ، فالنمرة : النكته من أي لون كان ، وبعبارة أخرى : العلامة من أي شكل كانت ، بل النمر الحيوان المعروف سمي كذلك للنمر التي في جلده ، أي : العلامات التي في جلده . بسم .

النِّسَاءُ ، وَمَا مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ إِلَّا وَفِيهَا مَنْفَعَةٌ تَكْثُرُ أَوْ تَقِلُّ ، بَلِ الرِّجَالُ لِلنِّسَاءِ هُمْ أَوْزَانُ السَّحْبِ فِي أَعْتِبَارَاتٍ كَثِيرَةٍ ، مَا دَامَتْ طَبِيعَةُ انْتِصَالِهِمَا تَجْعَلُ الْمَرْأَةَ هِيَ فِي قَوَانِينِ الرَّجُلِ أَكْثَرَ مِمَّا تَجْعَلُ الرَّجُلَ فِي قَوَانِينِهَا ، وَهَلْ ضَاعَتِ امْرَأَةٌ إِلَّا مِنْ غَفْلَةٍ رَجُلٍ أَوْ قَسْوَتِهِ أَوْ فُسُولِهِ أَوْ فُجُورِهِ ؟

قَالَ الْمُهَنْدِسُ : فَإِنِّي أَعْلَمُ الْآنَ - وَكُنْتُ أَعْلَمُ - أَنَّ لَا صَلَاحَ لِي إِلَّا بِالزَّوْاجِ ، وَأَنَّ طَرِيقِي إِلَى الزَّوْجَةِ هُوَ كَذَلِكَ طَرِيقِي إِلَى فَضِيلَتِي وَإِلَى عَقْلِي . وَتَالَلَّهِ مَا شَيْءٌ أَسْوَأُ عِنْدَ الْعَرَبِ وَلَا أَكْرَهُ إِلَيْهِ مِنْ بَقَائِهِ عَزَبًا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يُكَابِرُ فِي الْمُمَارَاةِ كُلَّمَا تَحَاقَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَكُلَّمَا رَأَى أَنَّ لَهُ حَالًا يَنْفَرُ بِهَا فِي سَخَطِ اللَّهِ وَسَخَطِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَلَا مَكْذِبَةَ ، فَقَدْ وَاللَّهِ أَنْفَقْتُ فِي رَدَائِلِي مَا يَجْتَمِعُ مِنْهُ مَهْرٌ زَوْجَةٍ سَرِيَّةٍ تَسْتَطِيعُ فِي الْمَهْرِ وَتَعْلُو فِي الطَّلَبِ ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ بِي الْآنَ وَمَا جَبَرْتَنِي مِنْ قَبْلِ إِصْلَاحِ ، وَلَا أَعَانَنِي أَقْتِصَادَ ، وَمَنْ لِي بِفَتَاةٍ مِنْ طَبَقَتِي بِمَهْرٍ لَا أَتَحَمَّلُ مِنْهُ رَهَقًا ، وَلَا تَتَقَاصِرُ مَعَهُ أُمُورِي ، وَلَا تَخْتَلُ مَعِيشَتِي ؟

قُلْتُ : فَإِذَا لَمْ يَحْمِلْكَ الْحِمَارُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُ يَحْمِلُكَ إِلَى قَلْبُوبٍ أَوْ طُوخٍ . وَفِي النِّسَاءِ أَسْكَنْدَرِيَّةٌ ، وَفِيهِنَّ شَبْرًا ، وَقَلْبُوبٌ ، وَطُوخٌ ؛ وَمَا قُرْبٌ وَبَعْدٌ ، وَمَا رَخَصٌ وَغَلَا .

قَالَ : وَلَكِنْ بَلَدِي أَسْكَنْدَرِيَّةٌ ...

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ لَا تَمْلِكُ إِلَّا حِمَارًا ... وَلِلْمَرْأَةِ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ سِعْرُهَا فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الْفَاسِدِ ؛ وَلَوْ تَعَاوَنَ النَّاسُ وَصَلَحُوا وَأَذْرَكُوا الْحَقِيقَةَ كَمَا هِيَ ، لَمَا رَأَيْنَا الزَّوْاجَ مِنْ قَفَرِ الْمُهْجُورِ كَأَنَّمَا يَرْكَبُ سُلْحَفَاةً يَمْشِي بِهَا ... وَنَحْنُ فِي عَصْرِ الْفُطَارِ وَالطَّيَّارَةِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الزَّوْاجُ عَلَى عَهْدِ أَجْدَادِنَا فِي عَصْرِ الْحِمَارِ وَالْجَمَلِ - كَأَنَّهُ وَخَدَهُ مِنَ الشَّرْعَةِ فِي طَيَّارَةٍ أَوْ قُطَارٍ .

\* \* \*

حِينَ يَفْسُدُ النَّاسُ لَا يَكُونُ أَعْتِبَارُ فِيهِمْ إِلَّا بِالْمَالِ ، إِذْ تَنْزِلُ قِيَمَتُهُمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَيَبْقَى الْمَالُ وَخَدَهُ هُوَ الصَّالِحُ الَّذِي لَا تَتَغَيَّرُ قِيَمَتُهُ . فَإِذَا صَلَحُوا كَانَ أَعْتِبَارُ فِيهِمْ بِأَخْلَاقِهِمْ

وَنُفُوسِهِمْ ، إِذْ تَنْحَطُّ قِيَمَةُ الْمَالِ فِي الْأَعْتِبَارِ ، فَلَا يَغْلِبُ عَلَى الْأَخْلَاقِ وَلَا يُسَخِّرُهَا . وَإِلَى هَذَا أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ لِطَالِبِ الزَّوْاجِ : « اَلْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ » [ البخاري ، رقم : ٥١٢١ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٢٥ ] . يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْيَ الْمَادِّيَّةِ عَنِ الزَّوْاجِ ، وَإِحْيَاءَ الرُّوحِيَّةِ فِيهِ ، وَإِقْرَارَهُ فِي مَعَانِيهِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الدَّقِيقَةِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ : إِنَّ كِفَايَةَ الرَّجُلِ فِي أَشْيَاءٍ إِنْ يَكُنْ مِنْهَا الْمَالُ فَهُوَ أَقْلَاهَا وَآخِرُهَا ، حَتَّى إِنْ الْأَخْسَ الْأَقْلَ فِيهِ لِيُجْزَى مِنْهُ كَخَاتَمِ الْحَدِيدِ ؛ إِذِ الرَّجُلُ هُوَ الرَّجُولَةُ بِعَظَمَتِهَا وَجَلَالِهَا وَقُوَّتِهَا وَطِبَاعِهَا ، وَلَنْ يُجْزَى مِنْهُ الْأَقْلُ وَلَا الْأَخْسُ مَعَ الْمَالِ ، وَإِنْ مِلَأَ الْأَرْضَ ذَهَبًا لَا يَكْمُلُ لِلْمَرْأَةِ رَجُلًا نَاقِصًا ؛ وَهَلْ تُبِيحُ الْأَسْتَانُ الذَّهَبِيَّةُ اللَّامِيعَةُ ، يَحْمِلُهَا الرَّجُلُ الْهَرِمُ فِي فَمِهِ ، شَيْئًا مِمَّا ذَهَبَ مِنْهُ ؟ وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ قَوَاطِعَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَطَوَاجِئَهُ لِهَذَا الْمِسْكِينِ بَعْدَ أَنْ نَطَقَ تَحَاثُّ أَسْنَانِهِ الْعَظَمِيَّةِ وَتَنَاطَرُهَا أَنَّهُ رَجُلٌ حَلَّ الْبَلَى فِي عِظَامِهِ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



## رُؤْيَا فِي السَّمَاءِ (\*)

قَالَ أَبُو خَالِدٍ الْأَخْوَلُ الرَّاهِدُ: لَمَّا مَاتَتِ امْرَأَةُ شَيْخِنَا أَبِي رَيْبَعَةَ الْفَقِيهِ الصُّوفِيِّ، دَهَبَتْ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ فَشَهِدْنَا امْرَأَهَا؛ فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ دَفْنِهَا وَسُويِّ عَلَيْهَا، قَامَ شَيْخُنَا عَلَى قَبْرِهَا وَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا فُلَانَةُ! الْآنَ قَدْ شُفِيتِ أَنْتِ وَمَرَضْتُ أَنَا، وَعُوفِيتِ وَأُبْتُلِيتِ، وَتَرَكْتِنِي ذَاكِرًا، وَدَهَبْتَ نَاسِيَةً، وَكَانَ لِلدُّنْيَا بِكَ مَعْنَى، فَسَتَكُونُ بَعْدَكَ بِلَا مَعْنَى؛ وَكَانَتْ حَيَاتُكَ لِي نِصْفَ الْقُوَّةِ، فَعَادَ مَوْتُكَ لِي نِصْفَ الضَّعْفِ؛ وَكُنْتُ أَرَى الْهُمُومَ بِمَوَاسَاتِكَ هُمُومًا فِي صُورِهَا الْمُخَفَّفَةِ، فَسَتَأْتِينِي بَعْدَ الْيَوْمِ فِي صُورِهَا الْمُضَاعَفَةِ؟ وَكَانَ وَجُودُكَ مَعِيَ حِجَابًا بَيْنِي وَبَيْنَ مَشَقَّاتٍ كَثِيرَةٍ، فَسَتَخْلُصُ كُلَّ هَذِهِ الْمَشَاقِّ إِلَيَّ نَفْسِي؛ وَكَانَتْ الْأَيَّامُ تَمُرُّ أَكْثَرَ مَا تَمُرُّ فِي رَقَّتِكَ وَحَنَانِكَ، فَسَتَأْتِينِي أَكْثَرَ مَا تَأْتِي مُتَجَرِّدَةً فِي قَسْوَتِهَا وَغِلْظَتِهَا. أَمَا إِنِّي - وَاللَّهِ - لَمْ أُرْزَأْ مِنْكَ فِي امْرَأَةٍ كَالنِّسَاءِ، وَلَكِنِّي رُزْتُ فِي الْمَخْلُوقَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي أَحْسَسْتُ مَعَهَا أَنَّ الْخَلِيقَةَ كَانَتْ تَلَطَّفُ بِي مِنْ أَجْلِهَا!

قَالَ أَبُو خَالِدٍ: ثُمَّ اسْتَدْمَعَ الشَّيْخُ، فَأَخَذْتُ يَدَيْهِ وَرَجَعْنَا إِلَى دَارِهِ، وَهُوَ كَانَ أَغْلَمَ بِمَا يُعْرِئُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَخْفَظَ لِمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ؛ غَيْرَ أَنَّ لِلْكَلامِ سَاعَاتٍ تَبْطُلُ فِيهَا مَعَانِيهِ أَوْ تَضَعُفُ، إِذْ تَكُونُ النَّفْسُ مُسْتَغْرِقَةً الْهَمَّ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ قَدْ أَنْحَصَرَتْ فِيهِ، إِمَّا مِنْ هَوْلِ الْمَوْتِ، أَوْ حُبِّ وَقَعٍ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ ظِلُّ الْمَوْتِ، أَوْ رَغْبَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا ظِلُّ الْحُبِّ، أَوْ لَجَاجَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا ظِلُّ الرَّغْبَةِ. فَكُنْتُ أُحَدِّثُهُ وَأُعْزِيهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ حَدِيثِي وَتَعْرِيزِي؛ حَتَّى أَتَّهِنَا إِلَى الدَّارِ فَدَخَلْنَا وَمَا فِيهَا أَحَدٌ؛ فَظَنَرُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَقَلَبَ عَيْنَيْهِ هَلْهُنَا وَهَلْهُنَا، وَحَوَقَلَ وَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قَالَ: الْآنَ مَاتَتِ الدَّارُ أَيْضًا يَا أَبَا خَالِدٍ! إِنَّ الْبِنَاءَ كَأَنَّمَا يَحْيَا بِرُوحِ الْمَرْأَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ فِي دَاخِلِهِ؛ وَمَا دَامَ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهَا لِلرَّجُلِ، فَهُوَ فِي

عَيْنِ الرَّجُلِ كَالْمُطَرَفِ<sup>(١)</sup> تَلْبَسُهُ فَوْقَ ثِيَابِهَا مِنْ فَوْقِ جِسْمِهَا؛ وَأَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ أَنْ تَرَى عَيْنَاكَ ثَوْبَ امْرَأَةٍ فِي يَدِ الدَّلَالِ فِي السُّوقِ، وَبَيْنَ أَنْ تَرَاهُ عَيْنَاكَ يَلْبَسُهَا وَتَلْبَسُهُ! وَلَكِنَّكَ يَا أَبَا خَالِدٍ لَا تَفْقَهُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، فَأَنْتَ رَجُلٌ أَلَيْتَ لَا تَقْرُبُ النِّسَاءَ وَلَا يَقْرَبُكَ، وَتَجَوَّزَتْ بِنَفْسِكَ مِنْهُنَّ وَأَنْقَطَعَتْ بِهَا لِلَّهِ؛ وَكَأَنَّ كُلَّ نِسَاءِ الْأَرْضِ قَدْ شَارَكْنَ فِي وَلَادَتِكَ فَحَرَمْنَ عَلَيْكَ! وَهَذَا مَا لَا أَفْهَمُهُ أَنَا إِلَّا أَلْفَاظًا، كَمَا لَا تَفْهَمُ أَنْتَ مَا أَجِدُ<sup>(٢)</sup> السَّاعَةَ إِلَّا أَلْفَاظًا؛ وَشَتَّى بَيْنَ قَائِلٍ يَتَكَلَّمُ مِنَ الطَّبَعِ، وَبَيْنَ سَامِعٍ يَفْهَمُ بِالتَّكَلُّفِ.

قُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا رَيْبَعَةَ! وَمَا يَمْنَعُكَ الْآنَ وَقَدْ أَطْرَحْتَ أَتْفَالَكَ وَأَنْبَتَتْ أَسْبَابُكَ مِنَ النِّسَاءِ - أَنْ تَعِينَ خَفِيفَ الظَّهْرِ، وَتَفْرُغَ لِلشُّكِّ وَالْعِبَادَةِ، وَتَجْعَلَ قَلْبَكَ كَالسَّمَاءِ أَنْفَشَعَ غَيْمُهَا فَسَطَعَتْ فِيهَا الشَّمْسُ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّ الْمَرْأَةَ وَلَوْ كَانَتْ صَالِحَةً قَانِتَةً - فَهِيَ فِي مَنْزِلِ الرَّجُلِ الْعَابِدِ مَدْخُلُ الشَّيْطَانِ إِلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْعَابِدَ كَانَ يَسْكُنُ فِي حَسَنَاتِهِ لَا فِي دَارٍ مِنَ الطُّوبَى وَالْحِجَارَةِ لَكَانَتْ امْرَأَتُهُ كُوَّةً يَفْتَحُهَا الشَّيْطَانُ مِنْهَا. وَلَقَدْ كَانَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ سَمَوَاتٌ وَأَفْلَاكٌ، فَمَا مَنَعَ ذَلِكَ أَنْ تَتَعَلَّقَ رُوحُ الْأَرْضِ بِالشَّيْطَانِ، فَيَتَعَلَّقَ الشَّيْطَانُ بِحَوَاءٍ، وَتَتَعَلَّقَ هِيَ بِآدَمَ؛ وَمَكَرَ الشَّيْطَانُ فَصَوَّرَهَا لَهَا فِي صَنِيعِهِ مَسْأَلَةً عِلْمِيَّةً، وَمَكَرَتْ حَوَاءُ فَوَضَعَتْ فِيهَا جَاذِبَةً اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، فَلَمْ تَعُدْ مَسْأَلَةً عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ، بَلْ مَسْأَلَةً طَبِيعٍ وَلَجَاجَةٍ. فَأَكَلَا مِنْهَا، فَبَدَتْ لَهَا سُوءَاتُهُمَا.

وَهَلِ اجْتَمَعَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ مِنْ بَعْدِهَا عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا كَانَا مِنْ نَصَبِ الْحَيَاةِ وَهُمُومِهَا، وَشَهَوَاتِهَا وَمَطَامِعِهَا، وَمَضَارُهَا وَمَعَايِهَا - فِي مَعْنَى «بَدَتْ لَهَا سُوءَاتُهُمَا» [٧ سورة الأعراف/ الآية: ٢٢] ... ؟

كِلَانَا يَا أَبَا رَيْبَعَةَ، مِمَّنْ لَهُمْ سَيْرٌ بِالْبَاطِنِ فِي هَذَا الْوُجُودِ غَيْرِ السَّيْرِ بِالظَّاهِرِ، وَمِمَّنْ لَهُمْ حَرَكَةٌ بِالْفِكَرِ غَيْرِ الْحَرَكَةِ بِالْجِسْمِ؛ فَقَبِيحٌ بِنَا أَنْ تَتَعَلَّقَ أَذْنِي مُتَعَلِّقٌ بِنَوَائِيسِ هَذَا الْكَوْنِ اللَّحْمِيِّ الَّذِي يُسَمَّى الْمَرْأَةَ، فَهُوَ تَدَلٌّ وَإِسْفَافٌ مِتًا.

(١) الْمُطَرَفُ: رِدَاءٌ مِنْ خَرَفٍ فِيهِ تُقْرَشُ تَلْبَسُهُ الْمَرْأَةُ فِي دَارِهَا، وَهُوَ الْمُسَمَّى: الرَّؤْبُ Robe [أو Robe de chambre].

(٢) فِي الْأَصْلِ: «مَا أَجِدُهُ» بِذَلَا مِنْ: «مَا أَجِدُ».

(\*) «الرسالة» العدد: ٦٩، ٢٠ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٩٣٤ م، السنة الثانية، الصفحات: ١٧٦٣ - ١٧٦٦.

وَلَعَلَّكَ تَقُولُ : « النَّسْلُ وَكَثِيرُ الْأَدَمِيَّةِ » فَهَذَا إِتِمًا كُتِبَ عَلَى إِنْسَانِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ ، أَمَّا إِنْسَانُ الْقَلْبِ فَلَهُ مَعْنَاهُ وَحُكْمُ مَعْنَاهُ ؛ إِذْ يَعِيشُ بِبَاطِنِهِ ، فَيَعِيشُ ظَاهِرُهُ فِي قَوَانِينِ هَذَا الْبَاطِنِ ، لَا فِي قَوَانِينِ ظَاهِرِ النَّاسِ . وَإِنَّهُ لَشَرُّ كُلِّ مَا نَقَلَّكَ إِلَى طَبِيعِ أَهْلِ الْجَوَارِحِ وَشَهَوَاتِهِمْ ، فَزَيَّنْ لَكَ مَا يُزَيِّنُ لَهُمْ ، وَشَغَلَكَ بِمَا يَشْغَلُهُمْ ؛ فَهَذَا عِنْدَنَا - يَزَحْمُكَ اللَّهُ - بَابُ كَأَنَّهُ مِنْ أَبْوَابِ الْمُجُونِ الَّذِي يَنْقُلُ الرَّجُلَ إِلَى طَبِيعِ الصَّبِيِّ .

فَاطْمَئِنِّ يَا أَخِي عَلَى مَوْضِعِهَا مِنْ قَلْبِكَ ، وَآلِئِ الثُّورَ عَلَى ظِلِّهَا ؛ فَالْثُّورُ فِي قَلْبِ الْعَابِدِ نُورُ التَّخَوُّلِ إِنْ شَاءَ ، وَنُورُ الرُّؤْيَةِ إِنْ شَاءَ ؛ يَرَى بِهِ الْمَادَّةَ كَمَا يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لَا كَمَا تَكُونَ . وَأَنْتَ قَدْ كَانَتْ فِيكَ أَمْرَاءُ ، فَحَوَّلَهَا صَلَاةً ، وَاعْمَلْ بِثُورِكَ عَكْسَ مَا يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَوَارِحِ بِظُلَامِهِمْ ، فَقَدْ تَكُونُ فِي أَحَدِهِمْ الصَّلَاةُ فَيَحْوِلُهَا أَمْرَاءُ . . .

قَالَ أَبُو رَبِيعَةَ : تَاللهِ إِنَّهُ لَرَأْيٍ ؛ وَالْوَحْدَةُ بَعْدَ الْآنِ أَرْوَحُ لِقَلْبِي ، وَأَجْمَعُ لِهَمَّتِي ؛ وَقَدْ خَلَعَنِي اللَّهُ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، وَأَخَذَ الْقَبْرَ أَمْرَاتِي وَشَهَوَاتِي مِمَّا ، فَسَاعِشْ مَا بَقِيَ لِي فِيمَا بَقِيَ مِنِّي . وَزَوَّالُ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ هُوَ وَجُودُ شَيْءٍ آخَرَ . وَلَقَدْ أَتَهَيْتُ بِالْمَرْأَةِ وَمَعَانِيهَا وَأَيَّامِهَا إِلَى الْقَبْرِ ، فَالْبُذَةُ الْآنَ مِنَ الْقَبْرِ وَمَعَانِيهِ وَأَيَّامِهِ .

\* \* \*

وَتَوَاتَقَا عَلَى أَنْ يَسِيرَا مَعًا فِي (بَاطِنِ) الْوُجُودِ . . . ! وَأَنْ يَعِيشَا فِي عُمْرٍ هُوَ سَاعَةٌ مَعْدُودَةٌ اللَّحْظَاتِ ، وَحَيَاةٌ هِيَ فِكْرَةٌ مَرْسُومَةٌ مُصَوَّرَةٌ .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَرَأَيْتُ أَنْ أَبَيْتَ عِنْدَهُ وَفَاءً بِحَقِّ خِدْمَتِهِ ، وَدَفَعًا لِلْوَحْشَةِ أَنْ تُعَاوِدَهُ فَتَدْخُلَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَفْكَارِهَا وَوَسَاوِسِهَا . وَكَانَ قَدْ غَمَرَنَا تَعَبُ يَوْمِنَا ، وَأَغْيَا أَبُو رَبِيعَةَ ، وَخَذَلَتْهُ الْقُوَّةُ ؛ فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْعِشَاءَ قُلْتُ : يَا أَبَا رَبِيعَةَ ! أَحِبُّ لَكَ أَنْ تَتَعَسَّ قَتْرِنَجَ نَفْسِكَ لِذَهَبَ مَا بِكَ ، فَإِذَا اسْتَجَمَمْتَ أَتَقَطَّلْتَ فَقُمْنَا سَائِرَ اللَّيْلِ .

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَضْطَجَعَ حَتَّى غَلَبَهُ النَّعَاسُ . وَجَلَسْتُ أَفَكِّرُ فِي حَالِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَمَا أَجْتَهَدْتُ لَهُ مِنْ الرُّأْيِ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَعَلَّنِي أَغْرَيْتُهُ بِمَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ ، وَأَشْرَبْتُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ مَا كَانَ يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ ، فَأَكُونُ قَدْ غَشَّيْتُهُ . وَخَامَرَنِي الشُّكُّ فِي حَالِي أَنَا أَيْضًا ،

وَجَعَلْتُ أَقَابِلُ بَيْنَ الرَّجُلِ مُتَزَوِّجًا عَابِدًا ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ عَابِدًا لَمْ يَتَزَوَّجْ ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَرْتِيَاصِ أَحَدِهِمَا بِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ ، وَأَرْتِيَاصِ الْآخَرِ بِنَفْسِهِ وَخَدَّهَا ؛ وَأَخَذْتُ أَذْهَبُ وَأُجِيءُ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ ، وَقَدْ هَذَا كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي كَانَ الْمَكَانَ قَدْ نَامَ ، فَلَمْ أَلْبَثْ حَتَّى أَخَذَنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَأَسْتَقَلْتُ كَأَنَّمَا شَدِدْتُ شَدًّا بِحَبَالٍ مِنَ الثُّومِ لَمْ يَجِيءْ مَنْ يَقْطَعُهَا .

وَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي كَأَنَّمَا الْقِيَامَةُ وَقَدْ بُعِثَ النَّاسُ ، وَصَاقَ بِهِمُ الْمَخْشَرُ ، وَأَنَا فِي جُمْلَةِ الْخَلَائِقِ ، وَكَأَنَّمَا مِنَ الضَّغْطَةِ حَبٌّ مَبْنُوثٌ بَيْنَ حَجَرَيْنِ الرَّحَى . هَذَا وَالْمَوْقِفُ يَغْلِي بِنَا غَلْيَانٌ الْقِدْرِ بِمَا فِيهَا ، وَقَدْ اسْتَدَّ الْكَرْبُ وَجْهَنَا الْعَطَشُ ، حَتَّى مَا مِثًا ذُو كَيْدٍ إِلَّا وَكَانَ الْجَجِينُ تَنْتَفَسُ عَلَى كَبِدِهِ ، فَمَا هُوَ الْعَطَشُ بَلْ هُوَ السَّعَارُ وَاللَّهَبُ يَخْتَدِمُ بِهِمَا الْجَوْفُ وَيَتَأَجَّجُ .

فَتَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا وَلَدَانُ يَتَخَلَّلُونَ الْجَمْعَ الْحَاشِدَ ، عَلَيْهِمْ مَنَادِيلٌ مِنْ نُورٍ ، وَيَأْيِدِيهِمْ أَبَارِيقٌ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٌ مِنْ ذَهَبٍ ، يَمْلَأُونَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ بِسَلْسَالٍ بَرُودٍ عَذْبٍ ، رُؤْيَتُهُ عَطَشٌ مَعَ الْعَطَشِ ، حَتَّى لَيْتَلَوِي مِنْ رَأْيِهِ مِنَ الْأَلَمِ ، وَيَتَلَعَّلُ كَأَنَّمَا كُوِيَ بِهِ عَلَى أَحْشَائِهِ .

وَجَعَلَ الْوَلَدَانُ يَسْقُونَ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ ، وَيَتَجَاوَزُونَ مَنْ بَيْنَهُمَا ، وَهُمْ كَثْرَةٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَكَأَنَّمَا يَتَخَلَّلُونَ الْجَمْعَ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَنْاسٍ بِأَغْيَانِهِمْ ، يَنْضَحُونَ غَلِيلَ أَكْبَادِهِمْ بِمَا فِي تِلْكَ الْأَبَارِيقِ مِنْ رُوحِ الْجَنَّةِ وَمَائِهَا وَنَسِيمِهَا .

وَمَرَّ بِي أَحَدُهُمْ ، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي وَقُلْتُ : « اسْقِنِي فَقَدْ يَبِسْتُ وَاخْتَرَفْتُ مِنْ الْعَطَشِ ! » .

قَالَ : « وَمَنْ أَنْتَ ؟ » .

قُلْتُ : « أَبُو خَالِدٍ الْأَخْوَلُ الرَّاهِدُ . . » .

قَالَ : « أَلَمْ فِي أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ وَلَدٌ أَفْتَرَطَهُ صَغِيرًا فَاحْتَسَبَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ » .

قُلْتُ : « لَا . . . » .

قَالَ : « أَلَمْ وَلَدٌ كَبُرَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ؟ » .

قُلْتُ : « لَا . . . » .

قَالَ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ مِنْهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ جَزَاءَ حَقِّكَ عَلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِلَى الدُّنْيَا ؟ » .

قُلْتُ : « لَا ... » .

قَالَ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ مِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ وَلَكِنَّكَ تَعْبَتَ فِي تَقْوِينِهِ ، وَقُمْتَ بِحَقِّ اللَّهِ فِيهِ ؟ » .

قُلْتُ : « يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، إِنِّي كُلَّمَا قُلْتُ « لَا » أَحْسَنْتُ « لَا » هَلِيزِ تَمُرُّ عَلَى لِسَانِي كَالْمِكْرَاهَةِ الْحَامِيَةِ ... » .

قَالَ : « فَتَحْنُ لَا نَسْفِي إِلَّا أَبَاءَنَا ، تَعْبُوا لَنَا فِي الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَتَعَبُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدْ مَضَى بَيْنَ يَدَيْهِمُ الطُّفُولَةُ ، وَإِنَّمَا قَدَّمُوا أَلْسِنَةً طَاهِرَةً لِلدَّفَاعِ عَنْهُمْ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي قَامَتْ فِيهِ مَحْكَمَةُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ . وَلَيْسَ هُنَا بَعْدَ أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ طَلَاقَةً مِنَ أَلْسِنَةِ الْأَطْفَالِ ، فَمَا لِلطُّفْلِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي آثَامِكُمْ يَخْتَسِبُ فِيهِ لِسَانُهُ أَوْ يُلْجَلِجُ بِهِ » .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : فَجُرَّ جُنُونِي ، وَجَعَلْتُ أَبْحَثُ فِي نَفْسِي عَنْ لَفْظَةِ « أَبْنِ » فَكَأَنَّمَا مُسَحَبَتِ الْكَلِمَةِ مِنْ حِفْظِي كَمَا مُسَحَتِ مِنْ وَجُودِي ؛ وَذَكَرْتُ صَلَاتِي وَصِيَامِي وَعِبَادَتِي ، فَمَا خَطَرْتُ فِي قَلْبِي حَتَّى ضَحِكَ الْوَلِيدُ ضَحِكًا وَجَدْتُ فِي مَعْنَاهُ بِكَائِي وَنَدَمِي وَخِيْبِي .

وَقَالَ : يَا وَيْلَكَ ! أَمَا سَمِعْتَ : « إِنَّ مِنْ الدُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَلَا الصِّيَامُ ، وَيُكَفِّرُهَا الْعَمَلُ بِالْعِيَالِ » [ راجع « مجمع الزوائد » ، رقم : ٣٧٣٥ ] . أَتَعْرِفُ مَنْ أَنَا يَا أَبَا خَالِدٍ ؟

قُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَرْحَمُنَا اللَّهُ بِكَ ؟

قَالَ : أَنَا ابْنُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ الْمُعِيلِ ، الَّذِي قَالَ لِشَيْخِكَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ الْعَابِدِ الرَّاهِدِ : « طُوبَى لَكَ ! فَقَدْ تَفَرَّغْتَ لِلْعِبَادَةِ بِالْعَزُوبَةِ » . فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : « لَرَوْعَةٍ تَنَالُكَ بِسَبَبِ الْعِيَالِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ مَا أَنَا فِيهِ ... » ، وَقَدْ جَاهَدَ أَبْنِي جِهَادَ قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ وَبَدَنِهِ ، وَحَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مَقَاسَةِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ حَمَلَهَا الْإِنْسَانِيُّ الْعَظِيمُ ، وَفَكَّرَ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَأَغْتَمَّ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَعَمِلَ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَأَمَنَ وَصَبَرَ ، وَوُثِنَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ حِينَ تَزَوَّجَ فَقِيرًا ، وَبِضْمَانِ اللَّهِ حِينَ أَغْبَقَ فَقِيرًا ؛ فَهُوَ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ كَثِيرَةٍ لَا فِي سَبِيلِ وَاحِدَةٍ كَمَا يُجَاهِدُ

الْغَزَاةُ ؛ هَؤُلَاءِ يُسْتَشْهِدُونَ مَرَّةً وَاحِدَةً ، أَمَّا هُوَ فَيُسْتَشْهِدُ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً فِي هُمُومِهِ بِنَا ، وَالْيَوْمَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِنَانًا فِي الدُّنْيَا .

أَمَّا بَلَعَكَ قَوْلَ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَهُوَ مَعَ إِخْوَانِهِ فِي الْغَزَاةِ : « أَتَعْلَمُونَ عَمَلًا أَفْضَلَ مِنَّا نَحْنُ فِيهِ ؟ قَالُوا : مَا نَعْلَمُ ذَلِكَ . قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ . قَالُوا فَمَا هُوَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مُتَعَفِّفٌ عَلَى فَقْرِهِ ، ذُو عَائِلَةٍ قَدْ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ، فَتَنَظَّرَ إِلَى صَبِيَّائِهِ نِيَامًا مُتَكَشِّفِينَ ، فَسَتَرَهُمْ وَغَطَّاهُمْ بِثَوْبِهِ ؛ فَعَمَلُهُ أَفْضَلُ مِنَّا نَحْنُ فِيهِ ... »

يَخْلَعُ الْأَبُ الْمُسْكِينُ ثَوْبَهُ عَلَى صَبِيَّائِهِ لِيُدْفِتَهُمْ بِهِ وَيَتَلَقَّى بِجِلْدِهِ الْبَرْدَ فِي اللَّيْلِ ، إِنَّ هَذَا الْبَرْدَ - يَا أَبَا خَالِدٍ - تَخْفِظُهُ لَهُ الْجَنَّةُ هُنَا فِي حَرِّ هَذَا الْمَوْقِفِ كَأَنَّمَا مُؤْتَمَنَةٌ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تُؤَدِّيَهُ . وَإِنَّ ذَلِكَ الدَّفْعَ الَّذِي شَمِلَ أَوْلَادَهُ يَا أَبَا خَالِدٍ - هُوَ هُنَا يُقَاتِلُ جَهَنَّمَ وَيُدْفَعُهَا عَنْ هَذَا الْأَبِ الْمُسْكِينِ .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَيَهُمُّ الْوَلِيدُ أَنْ يَمْضِيَ وَيَدْعَنِي ، فَمَا أَمْلِكُ نَفْسِي ، فَأَمُدُّ يَدِي إِلَى الْإِبْرَيْقِ فَأَنْشِطُهُ مِنْ يَدِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَتَحَوَّلُ إِلَى عَظْمٍ ضَخْمٍ قَدْ نَسِبَ فِي كَفِّي وَمَا يَلِيهَا مِنْ أَسَلَةِ الدَّرَاعِ<sup>(١)</sup> . فَعَابَثُ فِيهِ أَصَابِعِي ، فَلَا أَصَابِعَ لِي وَلَا كَفَّ . وَأَبْنِي الْإِبْرَيْقِ أَنْ يَسْقِيَنِي وَصَارَ مُثْلَةً بَيْنِي ، وَتَجَسَّدَتْ هَذِهِ الْجَرِيْمَةُ لِتَشْهَدَ عَلَيَّ ، فَأَخَذَنِي الْهَوَلُ وَالْفَرْغُ ، وَجَاءَ إِبْرَيْقِي مِنَ الْهَوَاءِ ، فَوَقَعَ فِي يَدِ الْوَلِيدِ ، فَتَرَكَنِي وَمَضَى .

وَقُلْتُ لِنَفْسِي : وَيَحَكَ يَا أَبَا خَالِدٍ ! مَا أَرَاكَ إِلَّا مُحَاسِبًا عَلَى حَسَنَاتِكَ كَمَا يُحَاسِبُ الْمُذْنِبُونَ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !

وَبَلَغْتَنِي الصَّيْحَةُ الرَّهْيَبَةُ : أَيْنَ أَبُو خَالِدٍ الْأَخْوَلُ الرَّاهِدُ الْعَابِدُ ؟

قُلْتُ : هَآنَذَا .

قِيلَ : طَاوُوسٌ مِنْ طَاوُوسِ الْجَنَّةِ قَدْ حُصِّنَ<sup>(٢)</sup> ذَيْلُهُ فَضَاعَ أَحْسَنُ مَا فِيهِ ! أَيْنَ ذَيْلُكَ

(١) الْأَسَلَةُ : مَا يَلِي الْكَفَّ مِنَ الدَّرَاعِ إِلَى الْفِئْسِمِ الْمُسْتَغْلَظِ مِنْهَا . فَلَا أَسَلَةَ هِيَ الْعَظْمَةُ الَّتِي تُشَدُّ عَلَيْهَا سَاعَةُ الْيَدِ .

(٢) حُصِّنَ ذَيْلُهُ : قُطِعَ وَجُدَّ .

مِنْ أَوْلَادِكَ ، وَأَيْنَ مَحَاسِنِكَ فِيهِمْ ؟ أَخْلَقْتَ لَكَ الْمَرْأَةَ لِتَجَنَّبَهَا ، وَجُعِلَتْ نَسْلُ أَبَوَيْكَ لَتَبَرًا أَنْتَ مِنَ النَّسْلِ ؟

جِئْتُ مِنَ الْحَيَاةِ بِأَشْيَاءَ لَيْسَ فِيهَا حَيَاةٌ ؛ فَمَا صَنَعْتَ لِلْحَيَاةِ نَفْسَهَا إِلَّا أَنْ هَرَبْتَ مِنْهَا ، وَانْهَرَمْتَ عَنْ مَلَاقَاتِهَا ؛ ثُمَّ أَنْتَ تَأْمُلُ جَائِزَةَ النَّصْرِ عَلَى هَزِيمَةٍ ... !

عَمِلْتَ الْفَضِيلَةَ فِي نَفْسِكَ وَنَشَاتِكَ ، وَلَكِنَّهَا عَقِمَتْ فَلَمْ تَعْمَلْ بِكَ . لَكَ أَلْفُ أَلْفِ رُكْعَةٍ وَمِثْلُهَا سَجَدَاتٍ مِنَ النَّوَافِلِ ، وَلَخَيْرٌ مِنْهَا كُلُّهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ خَرَجْتَ مِنْ صُلْبِكَ أَعْضَاءُ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ .

قَتَلْتَ رُجُوتَكَ ، وَوَأَدْتَ فِيهَا النَّسْلَ ، وَلَكِنْ طَوَالَ عُمْرِكَ وَلَدًا كَبِيرًا لَمْ تَبْلُغْ رُتَبَةَ الْأَبِ ! فَلَيْنَ أَقَمْتَ الشَّرِيعَةَ ، لَقَدْ عَطَلْتَ الْحَقِيقَةَ ، وَلَيْنَ ...

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَوَقَعَتْ غُتَّةُ الْكُؤُنِ الثَّانِيَةِ فِي مِسْمَعِي مِنْ هَوْلٍ مَا خِفْتُ مِمَّا بَعْدَهَا كَالْتَّخِصُّ فِي الصُّورِ ؛ فَطَارَ نَوْمِي وَقُمْتُ فِرْعَا مَشَتْ الْقَلْبِ ، كَمَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ بَعْدَ غَشْيَةٍ ، فَرَأَى نَفْسَهُ فِي قَبْرِ سُدٍّ عَلَيْهِ ... !

وَمَا كَذْتُ أَعْيَ وَأَنْظُرُ حَوْلِي وَقَدْ بَرَقَ الصُّبْحُ فِي الدَّارِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا رَبِيعَةَ يَقْلُبُ كَأَنَّمَا دَخَرَجْتَهُ يَدٌ ، ثُمَّ نَهَضَ مُسْتَطَارَ الْقَلْبِ مِنْ فِرْعِهِ وَقَالَ : أَهْلَكْتَنِي يَا أَبَا خَالِدٍ ، أَهْلَكْتَنِي وَاللَّهِ .

\* \* \*

قُلْتُ : مَا بِأَلَكِ يَرْحَمُكَ اللَّهُ !

قَالَ : إِنِّي نِمْتُ عَلَى تِلْكَ اللَّيَّةِ الَّتِي عَرَفْتُ : أَنَّ أَجْمَعَ قَلْبِي لِلْعِبَادَةِ ، وَأَخْلَصَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَالْوَلَدِ ، وَمِنَ الْمُعَانَاةِ لَهْمَا فِي مَرَمَةِ الْمَعَاشِ وَالتَّلَفِيقِ بَيْنَ رَغِيْبٍ وَرَغِيْبٍ ، وَأَنَّ أُغْفِي نَفْسِي مِنَ لَأْوَالِهِمْ وَضَرَائِهِمْ وَبِلَايِهِمْ ، لِأَفْرَغَ إِلَى اللَّهِ وَأُقْبِلَ عَلَيْهِ وَخَدَهُ . وَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَخَيِّرَ لِي فِي نَوْمِي ؛ فَرَأَيْتُ كَانَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ قَدْ فُتِحَتْ ، وَكَانَ رِجَالًا يَنْزِلُونَ وَيَسِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، أَجْنِحَةٌ وَرَاءَ أَجْنِحَةٍ ؛ فَكَلَّمَا نَزَلَ وَاحِدٌ نَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ لِمَنْ وَرَاءَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ !

فَيَقُولُ الْآخِرُ : نَعَمْ هُوَ الْمَشْهُورُ !

وَيَنْظُرُ هَذَا الْآخِرُ إِلَيَّ ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِمَنْ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ !

فَيَقُولُ الْآخِرُ : نَعَمْ هُوَ الْمَشْهُورُ !

وَيَنْظُرُ هَذَا الْآخِرُ إِلَيَّ ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِمَنْ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ !

فَيَقُولُ الْآخِرُ : نَعَمْ هُوَ الْمَشْهُورُ !

وَمَا زَالَتْ « الْمَشْهُورُ ، الْمَشْهُورُ » حَتَّى مَرُّوا ؛ لَا يَقُولُونَ غَيْرَهَا وَلَا أَسْمَعُ غَيْرَهَا ، وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَخَافُ أَنْ أَسْأَلَهُمْ ، هَيْبَةُ مِنَ الشُّؤْمِ ، وَرَجَاءُ أَنْ يَكُونَ الْمَشْهُورُ إِنْسَانًا وَرَأْيِي يُبَصِّرُونَهُ وَلَا أَبْصِرُهُ . ثُمَّ مَرَّ بَيْنَ آخِرِهِمْ ، وَكَانَ غُلَامًا ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ! مَنْ هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تُؤْمِنُونَ إِلَيْهِ ؟

قَالَ : أَنْتَ !

فَقُلْتُ : وَلِمَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : كُنَّا نَرْفَعُ عَمَلَكَ فِي أَعْمَالِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ مَاتَتْ أُمْرَاتُكَ وَتَحَزَّنْتَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْفَيَاقِمِ بِحَقِّهَا ، فَرَفَعْنَا عَمَلَكَ دَرَجَةً أُخْرَى ؛ ثُمَّ أَمْرُنَا اللَّيْلَةُ أَنْ نَضَعَ عَمَلَكَ مَعَ الْخَالِفِينَ الَّذِينَ فُرِّدُوا وَجَبُّوا ! ...

\* \* \*

إِنَّ سُمُو الرُّجُلِ بِنَفْسِهِ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ طَيْرَانٌ إِلَى الْأَعْلَى ... وَلَكِنَّهُ طَيْرَانٌ عَلَى أَجْنِحَةِ الشَّيَاطِينِ !

طَيْرَانٌ بِالرُّجُلِ إِلَى فُوهَةِ الْبُرْكَانِ الَّذِي فِي الْأَعْلَى !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### بُنْتُهُ الصَّغِيرَةُ (\*)

فَرَعَ أَبُو يَحْيَى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، زَاهِدُ الْبَصْرَةِ وَعَالِمُهَا، مِنْ كِتَابَةِ الْمُصَحِّفِ؛ وَكَانَ يَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ لِلنَّاسِ، وَيَعِيشُ مِمَّا يَأْخُذُ مِنْ أَجْرَةِ كِتَابَتِهِ؛ تَعَفُّفًا أَنْ يَطْعَمَ إِلَّا مِنْ كَسْبٍ يَدِهِ - ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دَارِهِ وَجْهَهُ الْمَسْجِدُ، فَأَتَاهُ فَصَّلَى بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَجَلَسُوا يَنْتَظِرُونَهُ، وَاسْتَوَى هُوَ قَائِمًا، فَرَكَعَ وَسَجَدَ مَا شَاءَ اللَّهُ حَتَّى قَضَى نَافِلَتَهُ، ثُمَّ انْقَلَبَ مِنْ صَلَاتِهِ فَقَامَ إِلَى أَسْطُوَانَتِهِ<sup>(١)</sup> الَّتِي يَسْتَنْبِدُ إِلَيْهَا، وَتَحَلَّقَ النَّاسُ حَوْلَهُ جُمُوعًا خَلْفَ جُمُوعٍ خَلْفَ جُمُوعٍ، يَذْهَبُ فِيهِمْ الْبَصَرُ مَرَّةً هُنَا وَمَرَّةً هُنَا مِنْ كَثَرَتِهِمْ وَأَمْتِدَادِهِمْ، حَتَّى تَغْطِي بِهِمُ الْمَسْجِدَ عَلَى رُحْبِهِ. وَمَدَّ الْإِمَامُ عَيْنَهُ فِيهِمْ ثُمَّ أَطْرَقَ إِطْرَافَةً طَوِيلَةً، وَالنَّاسُ كَانُوا عَلَيْهِمُ الطَّيْرُ مِمَّا سَكَنُوا لِهَيْبَتِهِ، وَمِمَّا عَجَبُوا لِحُشُوعِهِ؛ ثُمَّ رَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ وَقَدْ تَنَدَّتْ عَيْنَاهُ، فَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ حَتَّى كَانَمَا أَطْلَعَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ فَجَزَّ رَطْبٌ مِنْ سِحْرِ ذَلِكَ الْكَذْبِيِّ.

وَبَدَرَ شَابٌ حَدَّثَ فَسَأَلَهُ: مَا بُكَاءُ الشَّيْخِ؟ وَكَانَ قَرِيبًا يَجْلِسُ مِنَ الْإِمَامِ فِي سَمْتِ بَصَرِهِ<sup>(٢)</sup>، فَتَأَمَّلَهُ الشَّيْخُ طَوِيلًا يُقَلِّبُ فِيهِ الطَّرْفَ كَالْمَتَّعِجِ، وَلَبِثَ لَا يُجِيبُهُ كَانَمَا عَقِدَ لِسَانَهُ أَوْ أَخَذَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ حَالٌ، فَمَا يُبَيِّتُ شَيْئًا مِمَّا يَرَى.

وَأَزْدَادُ النَّاسِ عَجَبًا؛ فَمَا جَرُّوا عَلَى الشَّيْخِ مِنْ قَبْلِهَا حَصْرًا وَلَا عِيًا، وَلَا قَطَعَهُ سُؤَالٌ قَطُ، وَلَا تَخَلَّفَ قَطُ عَنْ جَوَابٍ؛ وَقَالُوا: إِنَّ لَهُ لُشَانًا، وَمَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مِنْ وَرَاءِ حُبْسَتِهِ شِعَابٍ فِي نَفْسِهِ تَهْدِرُ بِسِيلِهَا وَتَعْتَلِجُ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا يَلْتَقِي السَّيْلُ، فَيَجْتَمِعُ، فَيَصُوبُ إِلَى مَجْرَاهُ، فَيَتَقَادَفُ.

(\*) «الرسالة» العدد: ٨٢، ٢٣ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٨ يناير/كانون الآخر ١٩٣٥ م، السنة الثالثة، الصفحات: ١٢٣ - ١٢٦.

(١) كَانَ الْعُلَمَاءُ وَالرُّوَاهُ يَجْلِسُونَ إِلَى أَسَاطِينِ الْمَسْجِدِ، وَهِيَ أَعْمِدَتُهُ، كَمَا كَانَ بِالْأَزْهَرِ إِلَى عَهْدِ قُرَيْبٍ.

(٢) { أَي: أَمَامَهُ، فِي الْخَطِّ الَّذِي يَمْتَدُّ فِيهِ الْبَصَرُ }.

وَتَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ ذَكَرْتُ ذِكْرِي فَبَكَيْتُ لَهَا، وَرَأَيْتُ رُؤْيَا فَتَبَسَّمتُ لَهَا؛ أَمَا الذِّكْرُ، فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ الَّذِي يَفْهَقُ بِهِذَا الْحَشْدُ الْعَظِيمُ، وَتَقَعُ فِيهِ الْمَدِينَةُ لِكُلِّ آذَانٍ وَطَيطٍ - هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَلَا قَطُ مِنَ النَّاسِ وَقَدْ وَجَبَتْ الْفَرِيضَةُ؟ قَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ.

قَالَ: فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ لِعِشْرِينَ سَنَةً خَلَّتْ فِي مَوْتِ الْحَسَنِ<sup>(١)</sup>، فَقَدْ مَاتَ عَشِيَّةَ الْخَمِيسِ، وَأَصْبَحْنَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَفَرَعْنَا مِنْ أَمْرِهِ، وَحَمَلْنَاهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَتَبَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ كُلُّهُمْ جَنَازَتَهُ وَاسْتَعْلَوْا بِهِ، فَلَمْ تَقُمْ صَلَاةُ الْعَصْرِ بِهِذَا الْمَسْجِدِ، وَمَا تُرِكَتْ مُنْذُ كَانَ الْإِسْلَامُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ؛ وَمِثْلُ الْحَسَنِ لَا تَمُوتُ سَاعَةٌ مَوْتِهِ مِنْ عُمُرٍ مِنْ شَهِدَهَا، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَجِيبٌ قَدْ لَفَّ نَهَارُهُ الْبَصْرَةَ كُلَّهَا فِي كَفَنِ أَبْيَضٍ، فَمَا بَقِيَتْ فِي نَفْسِ رَجُلٍ وَلَا أَمْرَةٍ شَهْوَةٌ إِلَى الدُّنْيَا، وَفَرَعَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَاطِلِهِ، كَمَا يَفْرُغُ مَنْ أَيَقِنُ أَنَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبْرِهِ إِلَّا سَاعَةٌ؛ وَظَهَرَ لَهُمُ الْمَوْتُ فِي حَقِيقَةِ جَدِيدَةٍ بِالْغَةِ الرَّوْعِ لَا يَرَاهَا إِلَّا بَنَاءٌ فِي مَوْتِ آبَائِهِمْ وَأُمَمَاتِهِمْ، وَلَا الْآبَاءُ وَالْأُمَمَاتُ فِي مَوْتٍ مِنْ وَلَدُوا، وَلَا الْمُحِبُّ فِي مَوْتِ حَبِيبِهِ، وَلَا الْحَمِيمُ فِي مَوْتِ حَمِيمِهِ؛ فَإِنَّ الْجَمِيعَ فَقَدُوا الْوَاحِدَ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ فِي الْجَمِيعِ؛ وَكَمَا يَمُوتُ الْعَزِيزُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ فَيَكُونُ الْمَوْتُ وَاحِدًا وَتَتَعَدَّدُ فِيهِمْ مَعَانِيهِ، كَذَلِكَ كَانَ مَوْتُ الْحَسَنِ مَوْتًا بَعْدَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ!

ذَلِكَ يَوْمٌ أَمْتَدَّ فِيهِ الْمَوْتُ وَكَبُرَ، وَأَنْكَمَشَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ وَصَغُرَتْ، وَتَحَاقَرَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ أَهْلِهَا، حَتَّى رَجَعَتْ بِمِقْدَارِ هَذِهِ الْخُفْرَةِ الَّتِي يُلْقَى فِيهَا الْمُلُوكُ وَالصَّعَالِيكُ، وَالْأَخْلَاطُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ، لَا يَصْغُرُ عَنْهَا الصَّغِيرُ، وَلَا يَكْبُرُ عَنْهَا الْكَبِيرُ؛ لَا بَلْ دُونَ ذَلِكَ، حَتَّى رَجَعَتِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ جِنْفَةِ حَيَوَانٍ بِالْعَرَاءِ، تَنْكَشِفُ لِلْأَبْصَارِ عَنْ شَوْهَاءِ نَجَسَةٍ قَدْ أَرَمَتْ<sup>(٢)</sup>، لَا تُطَاقُ عَلَى النَّظَرِ، وَلَا عَلَى الشَّمِّ، وَلَا عَلَى اللَّمْسِ؛ وَمَا تَفْجَرُ إِلَّا عَنْ آفَةٍ، وَمَا تَفْجَرُ إِلَّا لِهَوَامٍ الْأَرْضِ.

تِلْكَ هِيَ الذِّكْرُ، وَأَمَا الرُّؤْيَا فَقَدْ طَالَعَنِي نَفْسِي مِنْ وَجْهِ هَذَا الْفَتَى، فَأَبْصَرْتُني

(١) هُوَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالْإِمَامُ الْعَظِيمُ، وَسَيِّدُنِي وَصَفُّهُ، وَلِدَ سَنَةَ ١٥ لِلْهَجْرَةِ، وَتُوفِّيَ سَنَةَ ١١٠، وَقَدْ تُوُفِّيَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ شَيْخُ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سَنَةِ ١٣١، فَيَكُونُ تَارِيخُ الْقِصَّةِ فِي سَنَةِ ١٣٠.

(٢) أَرَمَتْ: بَدَأَتْ تَنْعَفُ وَتَبْلَى.

حِينَ كُنْتُ مِثْلَهُ يَافِعًا مُتَرَعِّعًا دَاخِلًا فِي عَصْرِ شَبَابِي ، فَكَأَنَّمَا أَتَيْتُهَا عَيْنِي مِنْ هَذِهِ النَّفْسِ عَلَى قَاتِكَ خَيْبَتِ كَانَ فِي جَنَائِيهِ فِي أَغْلَالِهِ فِي سِجْنِهِ ، وَمَاتَ طَوِيلًا ثُمَّ بُعِثَ !

إِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي بِمَا لَمْ تُحِيطُوا بِهِ ، فَأَرْغُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَخْضِرُوهُ أَفْهَامَكُمْ ، وَاسْتَجْمِعُوا لَهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ غَيْبَ شَيْخُكُمْ ، وَأَنَا مُحَدِّثُكُمْ بِهِ كَيْلًا يَنْتَسِ ضَعِيفٌ ، وَلَا يَقْطِطُ يَأْسٌ ، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

\* \* \*

لَقَدْ كُنْتُ فِي صَدْرِ أَيَّامِي شُرْطِيًّا ، وَكُنْتُ فِي آفَةِ الْحَدَاثَةِ مِنْ قَبْلِهَا أَقْتَى وَأَتَشَطَّرُ ، وَكُنْتُ قَوِيًّا مَغْضُوبًا فِي مِثْلِ جَبَلَةِ الْجَبَلِ مِنْ غِلَظٍ وَشِدَّةٍ ، وَكُنْتُ قَاسِيًا كَانَ فِي أَضْلَاعِي جَنْدَلَةٌ لَا قَلْبًا ، فَلَا أَتَذَمُّ وَلَا أَتَأْتُمُّ ، وَكُنْتُ مُذْمَمًا عَلَى الْخَمْرِ ، لِأَنَّهَا رُوحَانِيَّةٌ مَنْ عَجَزَ أَنْ تَكُونَ فِيهِ رُوحَانِيَّةٌ ، وَكَأَنَّهَا إِلَهِيَّةٌ يُزَوِّرُهَا الشَّيْطَانُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فَيَخْلُقُ بِهَا لِلنَّفْسِ مَا تُحِبُّ مِمَّا تَكْرَهُ ، وَيُثَبِّتُهَا ثَوَابَ سَاعَةٍ لَيْسَتْ فِي الزَّمَنِ بَلْ فِي خَيَالِ شَارِبِهَا . وَكَأَنَّ جَهْلَ الْعَقْلِ نَفْسَهُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِ الْحَيَاةِ ، هُوَ - فِي عِلْمِ الشَّيْطَانِ وَتَعْلِيمِهِ - مَعْرِفَةُ الْعَقْلِ نَفْسَهُ فِي الْحَيَاةِ !

فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ أَجُولُ فِي السُّوقِ ، وَالنَّاسُ يَفُورُونَ فِي بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ ، وَأَنَا أَزُقُّ السَّارِقَ ، وَأُعِدُّ لِلْجَانِي ، وَأَتَهَيَّاءُ لِلزَّاعِ - إِذْ رَأَيْتُ اثْنَيْنِ يَتَلَاَحِيَانِ ، وَقَدْ لَبَّي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ؛ فَأَخَذْتُ إِلَيْهِمَا ، فَسَمِعْتُ الْمَظْلُومَ يَقُولُ لِلظَّالِمِ : لَقَدْ سَلَبْتَنِي فَرَحَ بَنَاتِي ، فَسَبِّدْعُونِ اللَّهَ عَلَيْكَ فَلَا تُصِيبْ مِنْ بَعْدِهَا خَيْرًا ، فَإِنِّي مَا خَرَجْتُ إِلَّا أَتْبَاعًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ خَرَجَ إِلَى سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، فَاشْتَرَى شَيْئًا ، فَحَمَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ ، فَخَصَّ بِهِ الْإِنَاثَ دُونَ الذُّكُورِ ؛ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ » . [ قال الحافظ العراقي رحمه الله تعالى في

« تخريج أحاديث الإحياء » : أخرجه الخرائطي بسند ضعيف ] .

قَالَ الشَّيْخُ : وَكُنْتُ عَزَبًا لَا زَوْجَةَ لِي ، وَلَكِنَّ الْأَدَمِيَّةَ أَتَيْتُهَا فِي ، وَطَمِعْتُ فِي دَعْوَةِ صَالِحَةٍ مِنَ الْأُبَيَّاتِ الْمُسْكِنَاتِ ، إِذَا أَنَا فَرَحْتُهُنَّ ؛ وَدَخَلْتَنِي لَهُنَّ رَقَّةً شَدِيدَةً ، فَأَخَذْتُ لِلزَّجَلِ مِنْ غَرِيمِهِ حَتَّى رَضِي ، وَأَضَعْتُ لَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِي لِأَرْيَدٍ فِي فَرَحِ بَنَاتِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ وَهُوَ يَنْصَرِفُ : عَهْدُ يُحَاسِبُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَوْفِيهِ لِي مِنْكَ ، أَنْ تَجْعَلَ بَنَاتِكَ يَدْعُونَ لِي إِذَا رَأَيْتَ فَرَحَهُنَّ بِمَا تَحْمِلُ إِلَيْهِنَّ ، وَقُلْ لَهُنَّ : مَا لَكُمْ مِنْ دِينَارٍ .

وَبِثْ لَيْلَتِي أَتَقَلَّبُ مُفَكِّرًا فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَانِيهِ الْكَثِيرَةِ ، وَحَتَّى عَلَى إِكْرَامِ الْبَنَاتِ ، وَأَنْ مَنْ أَكْرَمَ بَنَاتِهِ كَرَّمَ عَلَى اللَّهِ ، وَحِزْصِهِ أَنْ يَنْشَأَنَّ كَرِيمَاتٍ فَرِحَاتٍ ؛ وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ لَيْلَتِي نَلِكَ إِلَى الصُّبْحِ ، وَفَكَّرْتُ حِينَئِذٍ فِي الزَّوْاجِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّاسَ لَا يُزَوِّجُونَنِي مِنْ طَيِّبَاتِهِمْ مَا دُمْتُ فِي الْخَيْبَتَيْنِ ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ عَدَوْتُ إِلَى سُوقِ الْجَوَارِي ، فَاشْتَرَيْتُ جَارِيَةً نَفِيسَةً ، وَوَقَعْتُ مِنِّي أَحْسَنَ مَوْزِعٍ ، وَلَدَتْ لِي بِنْتًا فَشَغِفْتُ بِهَا ، وَظَهَرَتْ لِي فِيهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ فِي ، فَارَأَيْتُ بَعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ صُورَتِي الْأُولَى ؛ وَرَأَيْتُهَا سَمَاقَةً لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَتَمْلِكُ أَبَاهَا وَأُمَّهَا ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا شَيْعُ بَطْنِهَا وَمَا أَبْسَرُهُ ، ثُمَّ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ سُورُورُ نَفْسِهَا كَامِلًا تَشُبُّ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِمَّا تَشُبُّ عَلَى الرِّضَاعِ ؛ فَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي تَكْتَفِيهِ رَحْمَةُ اللَّهِ يَمْلِكُ بِهَا دُنْيَا نَفْسِهِ ، فَمَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَقُوَّةُ دُنْيَا غَيْرِهِ ؛ وَأَنَّ الَّذِي يَجِدُ طَهَارَةَ قَلْبِهِ يَجِدُ سُورُورَ قَلْبِهِ ، وَتَكُونُ نَفْسُهُ دَائِمًا جَدِيدَةً عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَأَنَّ الَّذِي يَخِيَا بِالثَّقَةِ تُخَيِّبُهُ الثَّقَةُ ؛ وَالَّذِي لَا يَبَالِي أَلْهَمَ لَا يَبَالِي أَلْهَمَ بِهِ ؛ وَأَنَّ زِينَةَ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا وَغُرُورَهَا وَمَا تَجَلِّبُ مِنَ أَلْهَمَ - كُلُّ ذَلِكَ مِنْ صِغَرِ الْعَقْلِ فِي الْإِيمَانِ حِينَ يَكْبُرُ الْعَقْلُ فِي الْعِلْمِ !

كَانَتْ الْبُيُوتُ بَذَ حَيَاةٍ فِي بَيْتِي وَبَذَ حَيَاةٍ فِي نَفْسِي ، فَلَمَّا دَبَّتْ عَلَى الْأَرْضِ أزدَدْتُ لَهَا حُبًّا ، وَالْفَتْنِ وَالْفُتْهَا ، فَرُزِقْتُ رُوحِي مِنْهَا أَطَهَرَ صَدَاقَةٍ فِي صَدِيقِي ، تَتَجَدَّدُ لِلْقَلْبِ كُلِّ يَوْمٍ ، بَلْ كُلِّ سَاعَةٍ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِمَخْضِ سُورُورِ الْقَلْبِ دُونَ مَطَامِعِهِ ، فَتَمِذُّهُ بِالْحَيَاةِ نَفْسَهَا لَا بِأَشْيَاءِ الْحَيَاةِ ، فَلَا تَرِيدُ الْأَشْيَاءَ فِي الْمَحَبَّةِ وَلَا تَنْقُصُ مِنْهَا ، عَلَى خِلَافِ مَا يَكُونُ فِي الْأَصْدِقَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى الْمَضَرَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ .

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : وَجَهَدْتُ أَنْ أَتْرُكَ الْخَمْرَ ، فَلَمْ يَأْتِ لِي وَلَمْ أَسْتَطِعْهُ ؛ إِذْ كُنْتُ مِنْهُمْ كَمَا عَلَى شُرْبِهَا ، وَلَكِنَّ حُبَّ ابْنَتِي وَضَعَ فِي الْخَمْرِ إِثْمَهَا الَّذِي وَضَعَتْ فِيهَا الشَّرِيعَةُ ، فَكَرِهْتُهَا كُرْهًا شَدِيدًا ، وَأَصْبَحْتُ كَالْمَكْرَهِ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَعُدْ فِيهَا نَشْوَتَهَا وَلَا رُغْبَهَا ؛ وَكَانَتْ الصَّغِيرَةُ فِي تَمَزُّقِ أَخِيَّتِهَا أَبْرَعَ مِنَ الشَّيْطَانِ فِي حَوْكِ هَذِهِ الْأَخِيلَةِ ، وَكَأَنَّمَا جَرَّتْنِي يَدُهَا جَرًّا حَتَّى أَبْعَدْتَنِي عَنِ الْمَنْزِلَةِ الْخَمْرِيَّةِ الَّتِي كَانَ الشَّيْطَانُ وَضَعَنِي فِيهَا ، فَاتَّقَلْتُ مِنْ

الاستهتار والمكابرة وعدم المبالاة إلى الندم والتحوب والتأثم ، وكنت من بعدها كلما وضعت المسكر وهممت به ، دبت أبتني إلى مجلسي ، فأنظر إليها وتنشئ عليها نفسي من رقة ورحمة ، فأرقب ما تصنع ، فتجني فتجاذبي الكأس حتى تهرقها على ثوبي ، وأرايني لا أغضب ، إذا كان هذا يسرها ويضحكها ، فأسر لها وأضحك .

ودام هذا مني ومنها ، فأضبحت في المنزلة بين المنزلتين ، أشرب مرة وأترك مرارا ، وجعلت أستقيم على ذلك ، إذ كانت الشؤمة بأبنتي أكبر من الشؤمة بالرجل جارية ، وإذا كنت كلما رجعت إلى نفسي وتدبرت أمري ، استعيت بالله أن تعقل أبتني معنى الخمر يوما فأكون قد نجست أيامها ، ثم أقدم إلى الله وعلى ذنوبها فوق ذنوبي ، ويترحم الناس على آبائهم وتلعنني إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وجدت في الدنيا مرة واحدة وهلكت مرتين .

ومضيت على ذلك وأنا أصلح بها شيئا فشيئا وكلما كبرت كبرت فضيلتي ، فلما تم لها سنن ، ماتت !

\* \* \*

قال الراوي : سكنت الشيخ ، فعلقته به الأبصار ، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظات من الزمن لذكر موت الطفلة ، وخامر المجلس مثل الشكر بهذه الكأس المذهلة ، ولكن الطفلة دبت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟

قال الشيخ : فأكدمني الحزن عليها ، وهن جاشي ، ولم يكن لي من قوة الروح والإيمان ما أناسي به ، فصاعف الجهل أخرايني ، وجعل مصيبي مصائب . والإيمان وحده هو أكبر علوم الحياة ، يبصرك إن عميت في الحادثة ، ويهديك إن ضللت عن السكينة ، ويجعلك صديق نفسك تكون وإياها على المصيبة ، لا عدوها تكون المصيبة وإياها عليك ، وإذا أخرجت الليالي من الأخران والهموم عسكر ظلامها لقتال نفسي أو محاصرتها ، فما يذفع المال ولا ترد القوة ولا يمنع السلطان ، ولا يكون شيء حينئذ أضعف من قوة القوي ، ولا أضع من جيلة المختال ، ولا أفقر من غنى الغني ، ولا

أجهل من علم العالم ، ويتقى المجهل والحيلة والقوة والعلم والغمى والسلطان . للإيمان وحده ، فهو يكسر الحادث ويقلل من شأنه ، ويؤيد النفس ويضاعف من قوتها ، ويرد قدر الله إلى حكمته الله ، فلا يلبث ما جاء أن يرجع ، وتعود النفس من الرضى بالقدر والإيمان به ، كأنما تشهد ما يقع أمامها لا ما يقع فيها .

قال الشيخ : ورجعت بجهلي إلى سر مما كنت فيه ، وكانت أخرايني أفراح الشيطان ، وأراد - أخراه الله - أن يفتن في أساليب فرجه ، فلما كانت ليلة التصف من شعبان - وكانت ليلة جمعة ، وكانت كأول نور الفجر من أنوار رمضان - سأل لي الشيطان أن أسكر سكرة ما مثله ، فبت كالميت مما نيلت ، وقد فتني أخلام إلى أخلام ، ثم رأيت القيامة والحشر ، وقد ولدت القيور من فيها ، وسبق الناس وأنا معهم ، وليس وراء ما بيني من الكرب غاية ، وسمعت خلفي زفيرا كمنحج الأفعى ، فالتفت فإذا بيني عظيم ما يكون أعظم منه ؛ طويل كالخلعة السحوق ، أسود أزرق ، يوسل الموت من عينيه الحمراءين كالدم ، وفي فيه مثل الرماح من أنيابه ، ولجوفه حر شديد لو زفر به على الأرض ما نبث في الأرض خضراء ، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعا يريد أن يلتقميني ، فمررت بين يديه هاربا فرعا ؛ فإذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت ضعفا ، فعذت به وقلت : أجزني وأغني . فقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن مر وأسرع ، فلعل الله أن يسبب لك أسبابا للنجاة .

فوليت هاربا وأشرفت على النار وهي الهول الأكبر ، فرجعت أشد هربا والتئين على إثري ؛ ولقيت ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستجرت به ، فبكى من الرحمة لي وقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن اهرب إلى هذا الجبل ، فلعل الله يخذل أمرا .

فنظرت فإذا جبل كالدار العظيمة ، له كوى عليها شئور ، وهو يبرق كشعاع الجهر ؛ فأسرعت إليه والتئين من وزاني ، فلما شارفت الجبل فتحت الكوى ورفعت الستور ، وأشرفت على وجوه أطفال كالأقمار ، وقرب التئين مني ، وصرت في هواء جوفه وهو يتصرم علي ، ولم يبق إلا أن يأخذني ؛ فتصايح الأطفال جميعا : يا فاطمة ! يا فاطمة !

قال الشيخ : فإذا أبتني التي ماتت قد أشرفت علي ، فلما رأيت ما أنا فيه صاحت وبكت ، ثم

وَبَثَّ كَرَمِيَّةَ السَّهْمِ ، فَجَاءَتْ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَمَدَّتْ إِلَيَّ شِمَالَهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهَا ، وَمَدَّتْ يَمِينَهَا إِلَى الثَّانِيَيْنِ قَوْلِي هَارِبًا ، وَأَجْلَسْتَنِي وَأَنَا كَالْمَيِّتِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ، وَقَعَدَتْ فِي حِجْرِي كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ فِي الْحَيَاةِ ، وَضَرَبَتْ بِيَدِهَا إِلَى لَحْيَتِي وَقَالَتْ : يَا أَبَتِ ! ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ ﴾ [ ٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦ ] .

فَبَكَيْتُ وَقُلْتُ : يَا بَنِيَّةُ ! أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الثَّانِيَيْنِ الَّذِي أَرَادَ هَلَاقِي . قَالَتْ : ذَاكَ عَمَلُكَ الشَّوْءُ الْخَبِيثُ ، أَنْتَ قَوَّيْتَهُ حَتَّى بَلَغَ هَذَا الْهَوَلَ الْهَائِلَ ، وَالْأَعْمَالُ تَرْجِعُ هُنَا أَجْسَامًا كَمَا رَأَيْتَ . قُلْتُ : فَذَاكَ الشَّيْخُ الضَّعِيفُ الَّذِي اسْتَجَزَتْ بِهِ وَلَمْ يُجِزْنِي ؟ قَالَتْ : يَا أَبَتِ ! ذَاكَ عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، أَنْتَ أَضْعَفْتَهُ فَضَعُفَ حَتَّى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَاقَةٌ أَنْ يُغْنِيكَ مِنْ عَمَلِكَ السَّيِّئِ ؛ وَلَوْ لَمْ أَكُنْ لَكَ هُنَا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ أَتَّبَعْتَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَمُنَّ فَرَحَ بَنَاتِهِ الْمُسْكِنَاتِ الضَّعِيفَاتِ - لَمَا كَانَتْ لَكَ هُنَا شِمَالٌ تَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَيَمِينٌ تَطْرُدُ عَنْكَ .

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَنْتَبَهْتُ مِنْ نَوْمِي فَرَعَا أَلْعَنُ مَا أَنَا فِيهِ ، وَلَا أَرَانِي أَسْتَقِرُّ ، كَأَنِّي طَرِدْتُ عَمَلِي السَّيِّئَ ؛ كُلَّمَا هَرَبْتُ مِنْهُ هَرَبْتُ بِهِ ؛ وَأَيْنَ الْمَهْرُبُ مِنَ التَّدَمِّ الَّذِي كَانَ نَائِمًا فِي الْقَلْبِ وَأَسْتَقِظُ لِلْقَلْبِ ؟

وَأَمَلْتُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ أَرْبِحَ مِنْ رَأْسِ مَالٍ خَاسِرٍ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنْ يَوْمًا بَاقِيَا مِنَ الْعُمَرِ هُوَ لِلْمُؤْمِنِ عُمُرٌ مَا يَتَّبِعُنِي أَنْ يُسْتَهَانَ بِهِ ؛ وَصَحَّحْتُ اللَّيَّةَ عَلَى التَّوْبَةِ ، لِأَرْجِعَ السَّبَابَ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ الضَّعِيفِ ، وَأُسَمِّنَ عِظَامَهُ ، حَتَّى إِذَا اسْتَجَزَتْ بِهِ أَجَارَنِي وَلَمْ يَقُلْ : « أَنَا ضَعِيفٌ كَمَا تَرَى ! » .

وَسَأَلْتُ فَلَدِلْتُ عَلَى أَبِي سَعِيدِ الْحَسَنِ ابْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، سَيِّدِ الْبَقِيَّةِ مِنَ التَّابِعِينَ ؛ وَقِيلَ لِي : إِنَّهُ جَمَعَ كُلَّ عِلْمٍ وَفَنٍّ إِلَى الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَالْعِبَادَةِ ، وَإِنْ لِسَانُهُ السَّخَرُ ، وَإِنْ شَخْصُهُ الْمِغْتَاطِيسُ ، وَإِنَّهُ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ كَأَنَّ فِي صَدْرِهِ إِنْجِيلًا لَمْ يَنْزَلْ ، وَإِنْ أُمُّهُ كَانَتْ مَوْلَاةً لِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانَتْ رُبَّمَا غَابَتْ أُمُّهُ فِي حَاجَةٍ فَيَبْكِي ، فَتَرْصُهُ أُمُّ سَلَمَةَ تَعْلَلُهُ بِثَدْيِهَا فَيَدِرُّ عِلَّتَهُ ، فَكَانَتْ يَبْنُو وَبَيْنَ بَرَكَةِ الثُّبَّةِ صَلَةً .

وَعَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَالْحَسَنِ فِي حَلَقَتِهِ يَقْصُ وَيَتَكَلَّمُ ، فَجَلَسْتُ حَيْثُ أَنْتَهَى بِي

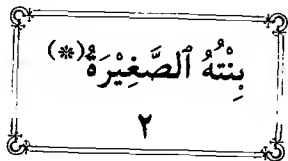
الْمَجْلِسُ ، وَمَا كَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى عَرَنْتَنِي نَفْضَةً كَتَفَضَةِ الْحُمَى ، إِذْ قَرَأَ الشَّيْخُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [ ٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦ ] ؛ فَلَوْ لَفَظْتَنِي الْأَرْضُ مِنْ بَطْنِهَا ، وَأَنْشَقَّ عَنِّي الْقَبْرُ بَعْدَ الْمَوْتِ - مَا رَأَيْتُ الدُّنْيَا أَعْجَبَ مِمَّا طَالَعْتَنِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَأَخَذَ الشَّيْخُ يُفَسِّرُ الْآيَةَ ، فَصَنَعَ بَيْنَ كَلَامِهِ مَا لَوْ بُعِثَ نَبِيٌّ مِنْ أَجْلِي خَاصَّةً لَمَا صَنَعَ أَكْثَرَ مِنْهُ .

وَكَلَامُ الْحَسَنِ غَيْرُ كَلَامِ النَّاسِ ، وَغَيْرُ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ ؛ فَإِنَّهُ يَتَكَلَّمُ مِنْ قَلْبِهِ وَمِنْ رُوحِهِ ، وَمِنْ وَجْهِهِ وَلِسَانِهِ ، وَنَاهِيكُمْ مِنْ رَجُلٍ خَاشِعٍ مُتَصَدِّعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، لَمْ يَكُنْ يُرَى مُفِيلًا ۖ إِلَّا وَكَأَنَّهُ أَقْبَلَ مِنْ دَفْنٍ حَوِيمٍ قَدْ أَنْزَلَهُ فِي قَبْرِهِ بِيَدِهِ ، وَلَا يُرَى جَالِسًا ۖ إِلَّا وَكَأَنَّهُ أَسِيرٌ أَمْرًا يَضْرِبُ عُقْبَهُ ، وَإِذَا ذُكِرَتْ النَّارُ فَكَأَنَّهُا لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ؛ رَجُلٌ كَانَ فِي الْحَيَاةِ لِيَتَكَلَّمَ الْحَيَاةَ بِلِسَانِهِ أَصْدَقَ كَلِمَاتِهَا .

فَصَاحَ صَائِحٌ : يَا أَبَا يَحْيَى ! التَّفْسِيرُ التَّفْسِيرُ ! وَصَاحَ الْمُؤَدُّنُ : اللَّهُ أَكْبَرُ . فَقَطَعَ الشَّيْخُ وَقَالَ : التَّفْسِيرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْمَجْلِسِ الْآتِي .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



... وَجَاءَ مِنَ الْغَدِ أَبُو يَحْيَى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى مَجْلِسِ دَرْسِهِ وَتَعَكَّفُوا حَوْلَهُ ؛ وَكَانُوا إِلَى بَقِيَّةِ خَبْرِهِ فِي لَهْفَةٍ كَأَنَّ لَهَا عُمْرًا طَوِيلًا فِي قُلُوبِهِمْ ، لَا ظَمًا لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ .

(\*) « الرسالة » العدد : ٨٣ ، ٣٠ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٤ فبراير/شباط ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٣ - ١٦٦ .



وَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! جُعِلْتُ فِدَاكَ ، مَا كَانَ تَأْوِيلُ الْحَسَنِ لِنِيتِكَ الْآيَةِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَيْفَ رَجَعَ الْكَلَامُ فِي نَفْسِكَ مَرَجِعَ الْفِكْرِ تَتَبِعُهُ ، وَأَصْبَحَ الْفِكْرُ عِنْدَكَ عَمَلًا تَخْذُو عَلَيْهِ ، وَاتَّصَلَ هَذَا الْعَمَلُ فَكَانَ مَا أَنْتَ فِيهِ وَرَعَكَ وَ... ؟

فَقَطَعَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ وَقَالَ : هُوَ عَلَىكَ يَا هَذَا ، إِنَّ شَيْخَكَ لَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ فِي وَضْفِهِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ، وَقَدْ رَوَى لَنَا الْحَسَنُ يَوْمًا ذَلِكَ الْخَبَرَ الْوَارِدَ فَيَمْنُ يُعَذِّبُ فِي النَّارِ أَلْفَ عَامٍ مِنْ أَغْوَامِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يُذَرِّكُهُ عَفْوُ اللَّهِ فَيَخْرُجُ مِنْهَا ، فَبَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ : « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ! » وَهُوَ الْحَسَنُ يَا بُنَيَّ ، هُوَ الْحَسَنُ ... !

فَضَجَّ النَّاسُ وَصَاحَ مِنْهُمْ صَائِحُونَ : يَا أَبَا يَحْيَى ! قَتَلْنَا نَاسًا . وَقَالَ الْأَوَّلُ : إِذَا كَانَ هَذَا فَأَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّنَا الْيَأْسُ وَالْفُتُونُ ، فَلَا يَنْفَعُنَا عَمَلٌ ، وَلَا نَأْتِي عَمَلًا يَنْفَعُ .

قَالَ الشَّيْخُ : هَوِّنُوا عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ لِلْمُؤْمِنِ ظَنَيْنِ : ظَنًّا بِنَفْسِهِ ، وَظَنًّا بِرَبِّهِ ، فَأَمَّا ظَنُّهُ بِالنَّفْسِ فَيَسْتَعِينُ أَنْ يَنْزِلَ بِهَا دُونَ جَمْعَاتِهَا وَلَا يَفْتَأُ يَنْزِلُ ، فَإِذَا رَأَى لِنَفْسِهِ أَنَّهَا لَمْ تَعْمَلْ شَيْئًا وَجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ ، فَلَا يَزَالُ دَائِمًا يَذْفَعُهَا ، وَكُلَّمَا أَكْثَرَتْ مِنَ الْخَيْرِ قَالَ لَهَا : أَكْثِرِي . وَكُلَّمَا أَقَلَّتْ مِنَ الشَّرِّ قَالَ لَهَا : أَقَلِّي . وَلَا يَزَالُ هَذَا دَائِبًا وَدَائِبُهَا مَا بَقِيَ ، وَأَمَّا الظَّنُّ بِاللَّهِ فَيَسْتَعِينُ أَنْ يَغْلُو بِهِ فَوْقَ الْفِتَرَاتِ وَالْعِلَلِ وَالْأَنَامِ ، وَلَا يَزَالُ يَغْلُو ، فَإِنَّ اللَّهَ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ ، إِنَّ خَيْرًا فَلَهُ وَإِنْ شَرًّا فَلَهُ . [راجع «مسند أحمد» ، رقم : ٤٨٨٣٣] وَلَقَدْ رَوَيْنَا هَذَا الْخَبَرَ : «كَانَ فَيَمْنُ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَذَلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : لَا ! فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً ! ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَذَلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ . فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ أَنْتَ تَطْلُقُ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ بِهَا أَنْاسًا يَعْْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ .

فَانْطَلَقَ ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَنَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ . وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ . فَأَتَاهُمُ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ ،

فَقَالَ : قَنِسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ ، فَإِلَى أَيُّهُمَا كَانَ أَذْنِي فَهُوَ لَهُ . فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَذْنِي إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ! [البخاري ، رقم : ٣٤٧٠ ، مسلم ، رقم : ٢٧٦٦] .

قَالَ الشَّيْخُ : فَهَذَا رَجُلٌ لَمَّا مَشَى بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ حُسِبَتْ لَهُ الْخُطْوَةُ الْوَاحِدَةُ ، بَلِ الشُّبْرُ الْوَاحِدُ ؛ وَلَوْ أَنَّهُ طَوَّفَ الدُّنْيَا بِقَدَمَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ الْقَلْبُ ، لَكَانَ كَالْعِظَامِ الْمَحْمُولَةِ فِي نَعْسٍ ، قَبْرُهَا فِي الْمَشْرِقِ هُوَ قَبْرُهَا فِي الْمَغْرِبِ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ وَلَا لِلْأَرْضِ مِنْهَا إِلَّا مَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ ، هُوَ أَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ مَيِّتٌ ، وَأَنَّهَا بِجُمْلَتِهَا حَفْرَةٌ .

وَالْإِنْسَانُ عِنْدَ النَّاسِ بِهَيْئَةٍ وَجْهِهِ وَحِلْيَتِهِ الَّتِي تَبْدُو عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ بِهَيْئَةِ قَلْبِهِ وَظَنِّهِ الَّذِي يَطُنُّ بِهِ ؛ وَمَا هَذَا الْجِسْمُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا كَقَشْرَةِ الْبَيْضَةِ (١) مِمَّا تَحْتَهَا . فَيَا لَهَا سُخْرِيَّةٌ أَنْ تَزْعُمَ الْقَشْرَةَ لِنَفْسِهَا أَنَّ بِهَا هِيَ الْاِغْتِيَارَ عِنْدَ النَّاسِ لَا بِمَا فِيهَا ، إِذْ كَانَ مَا تَحْوِيهِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِيهَا هِيَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تُبْعِدُ فِي حِمَاقَتِهَا فَتَسْأَلُ : لِمَاذَا يَزْمِنُنِي النَّاسُ وَلَا يَأْكُلُونَنِي ... ؟

إِنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ لَا تَجِدُ تَمَامَ مَعْنَاهَا إِلَّا فِي حَالَةِ بَعِيْنِهَا مِنْ أَحْوَالِ الْقَلْبِ ، وَهِيَ حَالَةُ خُشُوعِهِ عَلَى وَضْفِهَا الَّذِي شَرَحَتْهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ ﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦] .

فَالْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ مَحْدُودَةٌ بِاللَّهِ وَالْحَقِّ مَعًا ، وَهِيَ كُلُّهَا فِي خُشُوعِ الْقَلْبِ لِهَذَيْنِ ؛ فَإِنَّ مِنَ الْقَلْبِ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ كُلِّهَا .

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَنَا مُنْذُ حِفْظْتُ عَنِ الْحَسَنِ تَأْوِيلَ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَاسْتَنْتَبْتُ بِهَا ، مَضَيْتُ أَعِيشُ مِنَ الدُّنْيَا فِي تَارِيخٍ قَلْبِي لَا فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا ، وَأَذْرَكْتُ مِنْ يَوْمِيذٍ أَنْ لَيْسَ حِفْظُ الْقُرْآنِ حِفْظُهُ فِي الْعَقْلِ ، بَلِ حِفْظُهُ فِي الْعَمَلِ بِهِ ؛ فَإِنْ أَنْتَ أَثْبَتَ الْآيَةَ مِنْهُ ، وَكُنْتَ تَعْمَلُ بِغَيْرِ مَعْنَاهَا ، وَتَعِيشُ فِي غَيْرِ فَضِيلَتِهَا ، فَهَذَا - وَنَحَكَ - نِسْيَانُهَا لَا حِفْظُهَا . وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا الْأَوَّلُونَ بِمَعَارِنِهِ كَالشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ الثَّامِيَةِ ؛ فِيهَا وَرَقُهَا الْأَخْضَرُ وَزَهْرُهَا وَثَمَرُهَا ، وَعَلَى

(١) قَشْرَةُ الْبَيْضَةِ الْبَلْبَاءُ الْبَاسِيَةُ تُسَمَّى : الْفَيْضُ ، يَفْتَحُ الْقَافَ وَشُكُونُ الْبَاءِ ، وَالْقَشْرَةُ الدَّاحِلَةُ الْمُلْتَمِرَةُ بِالْبَيْضِ تُسَمَّى : الْغَرْقِيُّ ، يَكْسِرُ الْغَيْنَ وَالْقَافَ .

ظَاهِرَهَا حَيَاةً بَاطِنَهَا ، فَلَمَّا ثَبَتَ النَّاسُ عَلَى الشَّكْلِ وَخَدَهُ ، وَلَمْ يَبْأَلُوا الْقَلْبَ وَأَخْوَالَهُ ، أَصْبَحُوا كَالشَّجَرَةِ الَّتِي بَاسَتْ ، عَلَيْهَا وَرَفَقَهَا الْجَافُ ، لَيْسَ فِي بَقَائِهِ وَلَا سُقُوطِهِ طَائِلٌ .

مَا أَصْبَحَتْ وَلَا أَمْسَيْتُ مُنْذُ حَفِظْتُ تَفْسِيرَ آيَةِ إِلَّا فِي حَيَاةٍ مِنْهَا ، وَهَذِهِ آيَةٌ هِيَ دَلَّتْنِي بِمَعَانِيهَا أَنَّ لَيْسَتْ الْحَيَاةُ الْأَرْضِيَّةُ شَيْئًا إِلَّا ثَوْرَةُ الْحَيِّ عَلَى ظُلْمِ نَفْسِهِ ، يَسْتَكِفُّ عَنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَسْتَجِرُّ لَهَا ، وَالنَّاسُ مِنْ شَقَائِهِمْ عَلَى الْعَكْسِ ، يَسْتَجِرُّونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَكِفُّونَ ، وَإِنَّمَا السَّعِيدُ مَنْ وَجَدَ كَلِمَاتِ رُوحَانِيَّةِ إِلَهِيَّةٍ يَعِيشُ قَلْبُهُ فِيهِمْ ، فَذَلِكَ لَا يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ كَمَا يَأْتِي وَيَتَّقَى ، بَلْ يَخْذُلُ عَلَى أَصْلٍ ثَابِتٍ فِي نَفْسِهِ ، وَيَخْتَارُ فِيمَا يَعْمَلُ أَحْسَنَ مَا يَعْمَلُ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ جِهَادُهُ مُرَاعِمَةً أَوْ خُضُوعًا فِي سَبِيلِ الْوُجُودِ كَالْحَيَوَانِ ، بَلْ فِي سَبِيلِ صِحَّةٍ وَجُودِهِ ؛ وَلَا يَكُونُ غَرَضُهُ أَنْ يَلْبِسَ الْحَيَاةَ كَمَا تَأْخُذُهُ هِيَ وَتَدْعُهُ ، بَلْ أَنْ يَخِيَا فِي شَرَفِ الْحَيَاةِ عَلَى مَا يَأْخُذُهَا هُوَ وَتَدْعُهَا .

إِنَّ الشَّقَاءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَجْرُهُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ فِي دَفْعِ الْأَخْزَانِ عَنْ نَفْسِهِ بِمُقَارَفَتِهِ الشَّهَوَاتِ ، وَبِإِحْسَاسِهِ غُرُورَ الْقَلْبِ ؛ وَبِهَذَا يُبْعِدُ الْأَخْزَانَ { عَنْ نَفْسِهِ } لِيَجْلِبَهَا عَلَى نَفْسِهِ فِي صُورٍ أُخْرَى !

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : وَكَانَ مِمَّا حَفِظْتُهُ مِنْ تَفْسِيرِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ :

إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي آيَةٍ تَكَادُ تَكُونُ آيَةً ، وَلَيْسَتْ الْكَلِمَةُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا تَكُونُ فِي غَيْرِهِ ، بَلِ السَّمُوعُ فِيهَا عَلَى الْكَلَامِ ، أَنَّهَا تَحْمِلُ مَعْنَى ، وَتُؤْمِي إِلَى مَعْنَى ، وَتَسْتَتِيعُ مَعْنَى ؛ وَهَذَا مَا لَيْسَ فِي الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ « كَتَبْتُ أُحْكِمَتَ إِيَّائِهِمْ ثُمَّ فَصَلْتُ » (١)

[ ١١ سورة هود / الآية : ١ ] .

(١) طَرِيقَتُنَا فِي أَكْتِنَاةِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، أَنَّ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ مِنْ كَلِمَاتِهِ لَهَا جِهَاتٌ عِدَّةٌ ؛ كَمَا تَرَى فِيمَا نَشْرَحُهُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ آيَةِ ، وَفِيمَا جِئْنَا بِهِ مِنْ تَفْسِيرِ آيَاتٍ سَبَقَتْ فِي الْمَقَالَاتِ الْأُخْرَى ؛ فَالْبَحْثُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي اللَّفْظَةِ ، وَوَجْهِ اخْتِيَارِهَا ، وَسِيَاقِ تَرْكِيبِهَا ، وَمَا تَذَلُّ عَلَيْهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَمَا يَذَلُّ كُلُّ ذَلِكَ بِهَا . وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي كِتَابِنَا « إِعْجَازُ الْقُرْآنِ » .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [ ٥٧ ]

سورة الحديد / الآية : ١٦ ] .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ هَذِهِ الْكَلِمَةُ حَتْ ، وَإِطْمَاعٌ ، وَجِدَالٌ ، وَحُجَّةٌ ؛ وَهِيَ فِي آيَةِ تُصَرِّحُ أَنَّ خُشُوعَ الْقَلْبِ الَّذِي تِلْكَ صِفَتُهُ هُوَ كَمَالٌ لِلْإِيمَانِ ، وَأَنَّ وَقْتَ هَذَا الْخُشُوعِ هُوَ كَمَالُ الْعُمْرِ ، وَكَيْفَ يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ ( سَيَانِي ) لَهُ أَنْ يَعِيشَ سَاعَةً أَوْ مَا دُونَهَا ؟ إِذَا فَالْكَلِمَةُ صَارِحَةٌ تَقُولُ : الْآنَ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آتٍ . أَيْ : الْبِدَارَ الْبِدَارَ مَا دُمْتَ فِي نَفْسٍ مِنَ الْعُمْرِ ؛ فَإِنَّ لَحْظَةً بَعْدَ ( الْآنَ ) لَا يَضْمُنُهَا الْحَيُّ . وَإِذَا فَنِي وَقْتُ الْإِنْسَانِ انْتَهَى زَمَنُ عَمَلِهِ فَتَبَيَّ الْأَبَدُ كُلُّهُ عَلَى مَا هُوَ ؛ وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْأَبَدَ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يَذْكُرُ الْحَقِيقَةَ ، إِنَّ هُوَ إِلَّا اللَّحْظَةُ الرَّاهِتَةُ مِنْ عُمْرِهِ الَّتِي هِيَ ( الْآنَ ) . فَانْظُرْ - وَيَخُكْ - وَقَدْ جُعِلَ الْأَبَدُ فِي يَدِكَ ؛ انْظُرْ كَيْفَ تَضَعُ بِهِ ؟

تِلْكَ هِيَ حِكْمَةُ اخْتِيَارِ اللَّفْظَةِ مِنْ مَعْنَى ( الْآنَ ) دُونَ غَيْرِهِ ، عَلَى كَثْرَةِ الْمَعَانِي .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَهَذَا كَالصَّ عَلَى أَنَّ غَيْرَ هَؤُلَاءِ لَا تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَلَا لِلْحَقِّ ، فَلَا تَقُومُ بِهِمْ الْفَضِيلَةُ ، وَلَا تَسْتَفِيدُ بِهِمْ الشَّرِيعَةُ ، وَعَالِمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ سَوَاءٌ ؛ لَا يَخْشَعَانِ إِلَّا لِلْمَادَّةِ ؛ وَكَأَنَّ إِنْسَانَهُمْ إِنْسَانُ تَرَابِيٍّ ، لَا يَرَالُ يَضْطَرِبُ عَلَى مَكْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مِنَ الْحَيَوَانِ : عَيْشِهِ وَمَوْتِهِ ؛ وَمَا تَقْسُو الْحَيَاةَ قَسَوْتَهَا عَلَى النَّاسِ إِلَّا بِهِمْ ، وَمَا تَرِقُّ رِقَّتُهَا إِلَّا بِالْمُؤْمِنِينَ .

وَجَعَلَ الْخُشُوعَ لِلْقُلُوبِ خَاصَّةً ، إِذْ كَانَ خُشُوعُ الْقَلْبِ غَيْرَ خُشُوعِ الْجِسْمِ ، فَهَذَا الْأَخِيرُ لَا يَكُونُ خُشُوعًا ، بَلْ ذُلًّا ، أَوْ ضَعْفًا ، أَوْ رِيَاءً ، أَوْ نِفَاقًا ، أَوْ مَا كَانَ . أَمَّا خُشُوعُ الْقَلْبِ فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا خَالِصًا مُخْلِصًا مَحْضًا لِإِرَادَةٍ .

وَأَشْتَرَطَ « الْقَلْبَ » كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّمَا الْقَلْبُ أَسَاسُ الْمُؤْمِنِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَّبِعُ مِنْ قَلْبِهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ ، مَتَى كَانَ هَذَا الْقَلْبُ خَاشِعًا لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، نَجَّ مِنْهُ الْفَاسِقُ وَالطَّالِمُ الطَّاعِيَةُ وَكُلُّ ذِي شَرٍّ . مَا أَشَبَّ الْقَلْبَ تَفَرُّعًا مِنْهُ مَعَانِي الْخُلُقِ ، بِالْحَيَّةِ تَنْسَرِحُ مِنْهَا الشَّجَرَةُ ؛ فَخُذْ نَفْسَكَ مِنْ قَلْبِكَ كَمَا شِئْتَ ؛ حُلُومًا مِنْ حُلُومِ ، وَمَرًا مِنْ مَرٍّ .

وَحُشُوعُ الْقَلْبِ لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ ، مَعْنَاهُ الشُّمُوعُ فَوْقَ حُبِّ الدَّاتِ ، وَفَوْقَ الْأَثَرَةِ وَالْمَطَامِعِ الْفَاسِدَةِ ؛ وَهَذَا يَضَعُ لِلْمُؤْمِنِ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ الصَّحِيحَةِ ، وَيَجْعَلُهَا فِي قَانُونَيْنِ لَا قَانُونٍ وَاحِدٍ ، وَمَتَى خَشَعَ الْقَلْبُ لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ ، عَظُمَتْ فِيهِ الصَّغَائِرُ مِنْ قُوَّةِ إِحْسَانِهِ بِهَا ، فَبَرَّاهَا كَبِيرَةً كَبِيرَةً وَإِنْ عَمِيَ النَّاسُ عَنْهَا ، وَبَرَّاهَا وَهِيَ بَعِيدَةٌ مِنْهُ بِمِثْلِ عَيْنِ الْعُقَابِ : يَكُونُ فِي لَوْحِ الْجَوِّ وَلَا يَغِيبُ عَنْ عَيْنِهِ مَا فِي النَّرَى .

وَقَدْ تَخَشَّعَ الْقُلُوبُ لِبَعْضِ الْأَهْوَاءِ حُشُوعًا هُوَ شَرٌّ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْقَسْوَةِ ؛ فَتَقْيِيدُ حُشُوعِ الْقَلْبِ « بِذِكْرِ اللَّهِ » ، هُوَ فِي نَفْسِهِ نَفْيٌ لِعِبَادَةِ الْهَوَى ، وَعِبَادَةِ الدَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي شَهَوَاتِهَا . وَمَا الشَّهْوَةُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ إِلَّا إِلَهُ سَاعَتِهَا . فَيَأْمَأُ أَحْكَمَ وَأَعْجَبَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ : « لَا يَزِينِي الزَّانِي حِينَ يَزِينِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمَرُ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [ البخاري ، رقم : ٢٤٧٥ ؛ مسلم ، رقم : ٥٧ ] . جَعَلَ نَزْعَ الْإِيمَانِ مَوْفُوتًا « بِالْحَيْنِ » الَّذِي تَقْتَرِفُ فِيهِ الْمَعْصِيَةَ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ عِنْدَ هَذَا الشَّقِيِّ هُوَ إِلَهُ ذَلِكَ « الْحَيْنِ » .

وَالْحُشُوعُ لِمَا « نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » هُوَ فِي مَعْنَاهُ نَفْيٌ آخَرٌ لِلْكَبَرِيَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تُنْسِدُ عَلَى الْمَرْءِ كُلِّ حَقِيقَةٍ ، وَتَخْرُجُ بِهِ مِنْ كُلِّ قَانُونٍ ؛ إِذْ تَجْعَلُ الْحَقَائِقَ الْعَامَّةَ مَخْدُودَةً بِالْإِنْسَانِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا يَحْدُودُهَا هِيَ مِنَ الْحَقُوقِ وَالْفَضَائِلِ .

وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ تَقْرِيرُ الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالزَّامُهَا الْخَيْرَ وَالْحَقَّ دُونَ غَيْرِهِمَا ، وَفَهْرُهَا لِلذَّاتِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَجَعَلُهَا الْكِبَرِيَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ كِبَرِيَاءَ عَلَى الدَّنَايَا وَالْخَسَائِسِ ، لَا عَلَى الْحَقُوقِ وَالْفَضَائِلِ ؛ وَإِذَا تَقَرَّرَ كُلُّ ذَلِكَ أَنْتَهَى بِطَبِيعَتِهِ إِلَى إِفْرَارِ السَّكِينَةِ فِي النَّفْسِ ، وَمَخَوِ الْفَوَاضِلِ مِنْهَا ، وَجَعَلَ نِظَامَهَا فِي إِحْسَاسِ الْقَلْبِ وَحَدِّهِ ؛ فَيَحْبِئُ الْقَلْبُ فِي الْمُؤْمِنِ حَيَاةَ الْمَعْنَى السَّامِيَةِ ، وَيَكُونُ نَبْضُهُ عَلَامَةَ الْحَيَاةِ فِي ذَاتِهَا ، وَحُشُوعُهُ لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ عَلَامَةَ الْحَيَاةِ فِي كَمَالِهَا .

وَقَالَ : « مَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْحَقَّ لَا يَكُونُ بِطَبِيعَتِهِ وَلَا بِطَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَرْضِيًّا ، فَإِذَا هُوَ أَرْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقَرَّرَهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لَمْ يَجَاوِزْ فِي أَرْتِفَاعِهِ رَأْسَ الْإِنْسَانِ ، وَأَفْسَدَتْهُ الْعُقُوقُ ؛ إِذْ كَانَ الْإِنْسَانُ ظَالِمًا مُمَرَّدًا بِالطَّبِيعَةِ ،

لَا تَحْكُمُهُ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِهِ إِلَّا السَّمَاءُ وَمَعَانِيهَا ، وَمَا كَانَ شَيْئًا بِذَلِكَ مِمَّا يَجِيئُهُ مِنْ أَعْلَى ؛ أَنِّي بِالسُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ ؛ فَيَكُونُ حَقًّا « نَارًا » مُتَدَفِّعًا كَمَا يَتَصَوَّبُ الثَّقُلُ مِنَ عَالٍ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَنْفَذَ شَيْءٌ .

وَالْحُشُوعُ لِمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ يَنْفِي حُشُوعًا آخَرَ هُوَ الَّذِي أَفْسَدَ ذَاتَ الْبَيْنِ مِنَ النَّاسِ ، وَهُوَ الْحُشُوعُ لِمَا قَامَ مِنَ الْمُنْتَفَعَةِ وَالنَّصِرَاتِ إِلَيْهَا بِإِيمَانٍ الطَّمَعِ لَا الْحَقِّ .

وَيَحْمِلُ <sup>(١)</sup> الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ أَلْوَجْهَ يَتَحَقَّقُ الْعَدْلُ وَالنِّصْفَةُ بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَيَكُونُ الْعَدْلُ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ شُعُورًا قَلْبِيًّا ، جَارِيًّا فِي الطَّبِيعَةِ لَا مُتَكَلِّفًا مِنَ الْعَقْلِ ؛ وَبِهَذَا وَحْدَهُ يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ إِرَادَةٌ ثَابِتَةٌ عَلَى الْحَقِّ فِي كُلِّ طَرِيقٍ ، لَا إِرَادَةٌ لِكُلِّ طَرِيقٍ ، وَتَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْإِرَادَةُ مُتَّسِقَةً فِي نِظَامِهَا مَعَ إِرَادَةِ اللَّهِ ، لَا نَافِرَةٌ مِنْهَا وَلَا مُتَمَرِّدَةٌ عَلَيْهَا ؛ وَهَذَا وَذَلِكَ <sup>(٢)</sup> يَبَيِّنُ الْقَلْبَ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَحْوَالُ الدُّنْيَا ، فَلَا يَكُونُ مِنْ إِيْمَانِهِ إِلَّا سُمُوءُهُ وَقُوَّتُهُ وَتَبَاتُهُ ، وَيَنْزِلُ الْعُمُرُ عِنْدَ مِثْرَلَةِ اللَّحْظَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَمَا أَيْسَرَ الصَّبْرَ عَلَى لَحْظَةٍ ! مَا أَهْوَنَ شَرًّا « أَلَا » إِنْ كَانَ الْخَيْرُ فِيمَا بَعْدَهُ .

أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ ...

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : وَكَانَ الْحَسَنُ فِي مَعَانِيهِ الْفَاضِلَةِ هُوَ هَذِهِ الْآيَةُ بِعَيْنِهَا ؛ فَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ إِلَّا إِسْلَامِيَّةً كَهَذَا الْكَلَامِ الْآيِيضِ الْمُسْرِقِ الَّذِي سَمِعْتُهُ مِنْهُ ؛ شِعَارُهُ أَبَدًا : « أَلَا قَبْلَ أَلَا يَكُونُ أَنْ » وَإِمَامُهُ : « خُذْ نَفْسَكَ مِنْ قَلْبِكَ » وَطَرِيقَتُهُ : « شَرَفَ الْحَيَاةِ لَا الْحَيَاةُ نَفْسُهَا » .

وَكَانَ يَرَى فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَوْفَعَةَ الطَّائِرِ ؛ هِيَ عَمَلُ جَنَاحَيْنِ مُسْتَوْفَزَيْنِ أَبَدًا لِعَمَلٍ آخَرَ هُوَ الْأَقْوَى وَالْأَشَدُّ ، فَلَا يَنْزِلَانِ بِطَائِرِهِمَا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا مَطْوِيَّتَيْنِ عَلَى قُدْرَةِ الارتفاعِ بِهِ ، وَلَا يَكُونَانِ أَبَدًا إِلَّا هَفْهَفَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ عَلَى الطَّيْرَانِ ؛ إِذْ كَانَا فِي حُكْمِ الْجَوِّ لَا فِي حُكْمِ الْأَرْضِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَيَحْمِلُهُ » بَدَلًا مِنْ : « وَيَحْمِلُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَهَذَا وَذَلِكَ » بَدَلًا مِنْ : « وَهَذَا وَذَلِكَ » .

وَاللَّهُ الْوَفِيُّ وَالطَّيِّبَانِ بِالْإِنْسَانِ شَهَوَاتُهُ وَرَغَبَاتُهُ ؛ فَإِنْ حَطَّتْهُ شَهْوَةٌ لَا تَرْفَعُهُ ، فَقَدْ أَوْفَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ وَقَدَفَتْ بِهِ لِيُؤْخَذَ .

لَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : « لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ » [ الترمذي ، رقم : ٢٤٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٤٢١٥ ] ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ خُشُوعِ الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يَحِلُّ لَهُ : يَدَعُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً لَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا ؛ لِيَقْوَى عَلَى أَنْ يَدَعَ مَا فِيهِ بَأْسٌ ، فَإِنَّ الَّذِي يَتْرُكُ مَا { هُوَ } لَهُ يَكُونُ أَقْوَى عَلَى تَرْكِ مَا لَيْسَ لَهُ . وَالنَّفْسُ لَا بُدَّ رَاجِعَةً يَوْمًا إِلَى الْآخِرَةِ ، وَتَارِكَةً أَدَاتِهَا ؛ فَقَوَامُ نِظَامِهَا فِي الْحَيَاةِ الصَّحِيحَةِ أَنْ تَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ كَأَنَّهَا ذَهَبَتْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجَاءَتْ . وَتِلْكَ هِيَ الْحِكْمَةُ فِيمَا فَرَضَتْهُ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ عِبَادَةٍ رَاتِبَةٍ تَكُونُ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ الْحَيَاةِ فِي يَوْمِهَا وَلَيْلَتِهَا . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ النَّفْسُ فِي حَيَاتِهَا كَأَنَّهَا دَائِمًا تَذْهَبُ إِلَى مَصِيرِهَا وَتَرْجِعُ مِنْهُ ، طَمَسَهَا الْجِسْمُ وَحَبَسَهَا فِي إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا فِيهِ إِلَّا أَثَرٌ ضَيْئِلٌ لَا يَتَجَاوَزُ اللَّضْحَ ، كَأَغْرِاضِ الْمَقْتُولِ عَلَى قَاتِلِهِ : يُحَاوِلُ أَنْ يَرُدَّ السِّيفَ بِكَلِمَةٍ ... ! وَبِذَلِكَ يَضَاعِفُ الْجِسْمُ فِي قُوَّتِهِ ، وَيَشْتَدُّ فِي صَوْلَتِهِ ، وَيَتَصَرَّفُ فِي شَهَوَاتِهِ ، كَأَنَّ لَهُ بَطْنَيْنِ يَجُوعَانِ مَعًا ... فَتَسْتَهْلِكُ شَهَوَاتُ الْمَرْءِ دِينَهُ ، وَتَقْدِفُ بِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، عَلَى قَصْدٍ وَعَلَى غَيْرِ قَصْدٍ ، وَتَمْضِي بِهِ كَمَا شَاءَتْ فِي مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ مِنَ الشَّرِّ .

وَمِثْلُ هَذَا الْمُسْرِفِ عَلَى نَفْسِهِ لَا يَكُونُ تَمَيُّزُهُ فِي الدِّينِ ، وَلَا إِحْسَاسُهُ بِالْخَيْرِ ، إِلَّا كَذَلِكَ السَّكْبَرِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ أَرَادَ التَّوْبَةَ ، وَكَانَتْ لَهُ جَرَّتَانِ مِنَ الْخَمْرِ ، فَلَمَّا انْتَعَطَ وَبَلَغَ فِي النَّظَرِ إِلَى نَفْسِهِ وَحَظَّ إِيمَانِهِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَيَتُوبَ . نَظَرَ إِلَى الْجَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : أَنْتُوبُ عَنِ الشُّرْبِ مِنْ هَذِهِ حَتَّى تَفْرُغَ هَذِهِ ! ...

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : ثُمَّ إِنِّي ثُبْتُ عَلَى يَدِ الْحَسَنِ ، وَأَخْلَصْتُ فِي التَّوْبَةِ وَصَحَّحْتُهَا ، وَعَلِمْتُ مِنْ فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ أَنَّ حَقِيقَةَ الدِّينِ هِيَ كِبَرِيَاءُ النَّفْسِ عَلَى شَرِّهَا وَظُلُمِهَا وَشَهَوَاتِهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الْكِبَرِيَاءَ الْقَاتِلَةَ لِلْإِسْمِ ، هِيَ فِي النَّفْسِ أُخْتُ الشَّجَاعَةِ الْقَاتِلَةَ لِلْعُدُوِّ الْبَاطِلِ : يَفْخَرُ الْبَاطِلُ

الشُّجَاعُ بِمَبْلَغِهِ مِنْ هَذِهِ ، وَيَفْخَرُ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ بِمَبْلَغِهِ مِنْ تِلْكَ ؛ وَأَنَّ خُشُوعَ الْقَلْبِ هُوَ فِي مَغْنَاهُ حَقِيقَةُ هَذِهِ الْكِبَرِيَاءِ بِعَيْنِهَا .

وَحَدَّثْتُ الْحَسَنَ يَوْمًا حَدِيثَ رُؤْيَايَ<sup>(١)</sup> ، وَمَا شُبَّهَ لِي مِنْ عَمَلِي السَّيِّئِ وَعَمَلِي الصَّالِحِ ، فَاسْتَدْمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ :

إِنَّ أَلْبِنْتَ الطَّاهِرَةَ هِيَ جِهَادُ أَيْنِهَا وَأَمُّهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، كَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنَّهَا قُوْرٌ لَهُمَا فِي مَعْرَكَةِ مِنَ الْحَيَاةِ ، يَكُونَانِ هُمَا وَالصَّبْرُ وَالْإِيمَانُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا قَبِيلًا ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ وَالْهَمُّ وَالْخُزْنُ فِي الْجِهَةِ الْمُتَنَاحِيَةِ قَبِيلًا آخَرَ .

إِنَّ أَلْبِنْتَ هِيَ أُمُّ وَدَارٍ ، وَأَبَوَاهَا فِيمَا يَكَايِدَانِ مِنْ إِحْسَانٍ تَرْبِيَّتَهَا وَتَأْدِيبِهَا وَحِبَاطَتِهَا وَالصَّبْرَ عَلَيْهَا وَالْيَقَظَةَ لَهَا - كَأَنَّمَا يَخْمِلَانِ الْأَحْجَارَ عَلَى ظَهْرَيْهِمَا حَجَرًا حَجَرًا ، لِيَبْنِيَا تِلْكَ الدَّارَ فِي يَوْمٍ يَوْمٍ إِلَى عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ ، مَا صَحِبْتُهُ وَمَا بَقِيتُ فِي بَيْتِهِ .

فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ الْأَبُ إِلَى بَنْتِهِ إِلَّا عَلَى أَنَّهَا بِنْتُهُ ، ثُمَّ أُمُّ أَوْلَادِهَا ، ثُمَّ أُمُّ أَحْفَادِهِ ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ أَكْبَرُ مِنْ نَفْسِهَا ، وَحَقُّهَا عَلَيْهِ أَكْبَرُ مِنَ الْحَقِّ ، فِيهِ خُرْمَتُهَا وَخُرْمَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ مَعًا ، وَالْأَبُ فِي ذَلِكَ يُفْرِضُ اللَّهُ إِحْسَانًا وَحَنَانًا وَرَحْمَةً ، فَحَقُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُؤْفِقَهُ مِنْ مِثْلِهَا ، وَأَنْ يُضَعِفَ لَهُ .

وَالْبِنْتُ تَرَى نَفْسَهَا فِي بَيْتِ أَهْلِهَا - ضَعِيفَةً كَالْمُنْقَطِعَةِ وَكَالْعَالَةِ ، وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا اللَّهُ وَرَحْمَةُ أَبَوَيْهَا ؛ فَإِنْ رَحِمَاهَا ، وَأَكْرَمَاهَا فَوْقَ الرَّحْمَةِ ، وَسَرَاهَا فَوْقَ الْكَرَامَةِ ، وَقَامَا بِحَقِّ تَأْدِيبِهَا وَتَعْلِيمِهَا وَتَقْوِيَّتِهَا فِي الدِّينِ ، وَحَفِظَا نَفْسَهَا طَاهِرَةً كَرِيمَةً مَسْرُورَةً مُؤَدَّبَةً - فَقَدْ وَضَعَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَمَلًا كَامِلًا مِنْ أَعْمَالِهِمَا الصَّالِحَةِ ، كَمَا وَضَعَاهُ بَيْنَ يَدَيِ الْإِنْسَانِيَّةِ . فَإِذَا صَارَا إِلَى اللَّهِ كَانَ حَقًّا لَهُمَا أَنْ يَجِدَا فِي الْآخِرَةِ يَمِينًا وَشِمَالًا يَذْهَبَانِ بَيْنَهُمَا إِلَى عَفْرِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ كَانَ لَهُ ابْنَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، وَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنَ التَّعَمُّعِ الَّتِي أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْهِ - كَانَتْ لَهُ مِيمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ مِنْ

(١) ذَكَرْتُ الرُّؤْيَا فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ . [أي : في المقالة السابقة : « بنته الصغيرة : ١ »] .

الْكَارِ إِلَى الْجَنَّةِ [ رواه الطبراني في « الكبير » ؛ والخراطي في « مكارم الأخلاق » ] .

فَهَلْزِهِ ثَلَاثٌ لَا بُدَّ مِنْهَا مَعًا ، وَلَا تُجْزَى وَاحِدَةً عَنْ وَاحِدَةٍ فِي ثَوَابِ الْبِنْتِ : تَرْبِيَةُ عَقْلِهَا تَرْبِيَةُ إِحْسَانٍ ، وَتَرْبِيَةُ جِسْمِهَا تَرْبِيَةُ إِحْسَانٍ وَالْطَّافِ ، وَتَرْبِيَةُ رُوحِهَا تَرْبِيَةُ إِكْرَامٍ وَالْطَّافِ وَإِحْسَانٍ .

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : وَاللَّهِ أَزْحَمُ أَنْ تَصْنَعَ عِنْدَهُ الرَّحْمَةَ ؛ وَاللَّهِ أَكْرَمُ أَنْ يَصْنَعَ الْإِحْسَانُ عِنْدَهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ...

وَهَذَا صَاحِبُ الْمُؤَدَّنُ : اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### الْأَجْنِبِيَّةُ (\*)

أَحَبَّهَا وَأَحَبَّتُهُ ، حَتَّى ذَهَبَ بِهَا فِي الْحُبِّ مَذْهَبًا قَالَتْ لَهُ فِيهِ : « لَوْ جَاءَنِي قَلْبِي فِي صُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ لَأَرَاهُ كَمَا أَحْسَهُ ، لَمَّا اخْتَارَ غَيْرَ صُورَتِكَ أَنْتَ فِي رَقَّتِكَ وَعَظْفِكَ وَحَنَانِكَ » . وَحَتَّى ذَهَبَتْ بِهِ فِي الْحُبِّ مَذْهَبًا قَالَ لَهَا فِيهِ : « إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَكُونُ أَبَدًا فَتًا ، وَلَا أَحْسَنَ جَمَالًا ، وَلَا أَكْثَرَ إِمْتِنَاعًا - لَوْ خُلِقَتْ أَمْرًا يَهْوَاهَا رَجُلٌ - إِلَّا أَنْ تَكُونَ هِيَ أَنْتِ ! » فَقَالَتْ لَهُ : « وَيَكُونُ هُوَ أَنْتَ ! ... ! » .

وَتَذَلَّهَتْ فِيهِ ، حَتَّى كَانَتْما خَلَبَتْهَا عَقْلُهَا وَوَضَعَ لَهَا عَقْلًا مِنْ هَوَاهُ ؛ فَكَانَتْ تَقُولُ لَهُ فِيمَا تَبَنَّتْهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا : « إِنَّ حُبَّ الْمَرْأَةِ هُوَ ظُهُورُ إِرَادَتِهَا مُتَبَرِّئَةً مِنْ أَنَّهَا إِرَادَةٌ ، مُقَرَّةٌ أَنَّهَا مَعَ الْحَبِيبِ طَاعَةٌ مَعَ أَمْرِ ، مُذْعِنَةٌ أَنَّهَا قَدْ سَلِمَتْ كِبَرِيَاءَهَا لِهَذَا الْحَبِيبِ ، لِتَرَاهُ فِي قُوَّتِهِ ذَا كِبَرِيَاءَيْنِ » .

وَأَقْتَنَتْ بِهَا حَتَّى أَخَذَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا خَذَ ، فَمَلَأَتْ نَفْسَهُ بِأَشْيَاءَ ، وَمَلَأَتْ عَيْنَهُ مِنْ أَشْيَاءَ ؛ فَكَانَ يَقُولُ لَهَا فِي نَجْوَاهُ : « إِنِّي أَرَى الزَّمَنَ قَدْ ائْتَسَخَ مِمَّا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَأَنَا نَحْنُ بِالْحُبِّ فِي زَمَنٍ مِنْ نَفْسِنَا الْعَاشِقَتَيْنِ ، لَا يُسَمَّى الْوَقْتُ وَلَكِنْ يُسَمَّى الشُّرُورُ ؛ وَإِنَّمَا نَعِيشُ فِي أَيَّامِ قَلْبِيَّةٍ ، لَا تَدُلُّ عَلَى أَوْقَاتِهَا السَّاعَةُ بِدَقَائِقِهَا وَثَوَانِيهَا ، وَلَكِنْ السَّعَادَةُ بِحَقَائِقِهَا وَلَذَائِقِهَا » .

وَتَحَابًّا ذَلِكَ الْحُبُّ الْفَنِّي الْعَجِيبُ ، الَّذِي يَكُونُ مُمْتَلِنًا مِنَ الرُّوحَيْنِ يَكَادُ يَفِيضُ وَيَتَسَكَّبُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَبْرَحُ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ ، لِيَتَحَيَّلَ مِنْ لَذَائِقِهَا مَا يَتَحَيَّلُ السُّكْرِ فِي نَشْوَتِهِ إِذَا طَفَحَتِ الْكَأْسُ ، فَيَرَى بِعَيْنَيْهِ أَنَّهَا سَتَسَعُ لِأَكْثَرِ مِمَّا امْتَلَأَتْ بِهِ ، فَيَكُونُ لَهُ بِالْكَأْسِ وَزِيَادَتِهَا ، سُكْرُ الْخَمْرِ وَسُكْرُ الْوَهْمِ .

تَحَابًّا ذَلِكَ الْحُبُّ الْفَوَارِ فِي الدَّمِ ، كَانَ فِيهِ مِنْ دَوْرَتِهِ طَبِيعَةُ الْفِرَاقِ وَالْتِفَاقِ بغيرِ تَلَاقٍ

(\*) « الرسالة » العدد : ٧٣ ، ١٨ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٦ نوفمبر/تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٩٢٣ - ١٩٢٧ .

وَلَا فِرَاقٍ ؛ فَيَكُونَانِ مَعًا فِي مَجْلِسِهِمَا الْغَزَلِيِّ ، جَنِبَهُ إِلَى جَنْبِهَا وَفَاهَا إِلَى فِيهِ<sup>(١)</sup> وَكَانَتْمَا هَرَبَتْ ثُمَّ أَدْرَكَهَا ، وَكَانَتْمَا فَوَتْ ثُمَّ أَمْسَكَهَا . وَبَيْنَ الْقُبْلَةِ وَالْقُبْلَةِ هِجْرَانٌ وَصُلْحٌ ، وَبَيْنَ الْإِلْفَةِ وَالْإِلْفَةِ غَضَبٌ وَرِضَى .

وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْحُبِّ يَكُونُ فِي بَعْضِ الطَّبَائِعِ الشَّاذَّةِ الْمُسْرِفَةِ ، الَّتِي أَفْرَطَتْ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ إِفْرَاطَهَا فَيَلُفُّ الْحَيَوَانِيَّةَ بِالْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَجْعَلُ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كَبَعْضِ الْأَحْمَاضِ الْكِيمَاوِيَّةِ مَعَ بَعْضِهَا ؛ لَا تَلْتَقِي إِلَّا لِسْتِمَارَاجٍ ، وَلَا تَتَمَارَاجُ إِلَّا لِسِتِّحْدٍ ، وَلَا تَتَّحِدُ إِلَّا لِيَتَّبِلَعَ وَجُودَ هَذَا وَجُودَ ذَاكَ .

\* \* \*

وَضَرَبَ الدَّهْرُ مِنْ ضَرَبَاتِهِ { فِي أَحْدَاثٍ وَأَحْدَاثٍ } ؛ فَأَبْغَضْنَاهُ وَأَبْغَضَهَا ، وَفَسَدَتْ ذَاتُ بَيْنِهِمَا ، وَأَدْبَرَ مِنْهَا مَا كَانَ مُقْبِلًا ؛ فَوُتِبَ كِلَاهُمَا مِنْ وَجُودِ الْآخِرِ وَثَبَ فَرْعٌ هَارِبًا عَلَى وَجْهِهِ . أَمَّا هُوَ فَسَخِطَهَا لِعُيُوبِ نَفْسِهَا ، وَأَمَّا هِيَ ... وَأَمَّا هِيَ فَتَكَرَّهَتْ لِمَحَاسِنِ غَيْرِهِ ! وَانْسَرَبَتْ أَيَّامُ ذَلِكَ الْحُبِّ فِي مَسَارِبِهَا تَحْتَ الزَّمَنِ الْعَمِيقِ الَّذِي طَوَى وَلَا يَرَا لِيَطْوِي وَلَا يَبْرَحُ بَعْدَ ذَلِكَ يَطْوِي ؛ كَمَا يَغُورُ الْمَاءُ فِي طَبَاقِ الْأَرْضِ . فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ الْمُسْكِينُ وَقَدْ نَزَلَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ مِنْ نَفْسِهِ مِثْرَةً أَقَارِبَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَحِبَّاءَ مَاتُوا بِغَضَبِهِمْ وَرَاءَ بَعْضِ ، وَتَرَكَوْهُ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَبْرَحُوا فِكْرَهُ ، فَكَانُوا لَهُ مَادَّةَ حَسْرَةٍ وَلَهْفَةٍ . أَمَّا هِيَ ... أَمَّا هِيَ فَانْشَقَّ الزَّمَنُ فِي فِكْرِهَا بِرَجَّةٍ زَلْزَلَةٍ ، وَابْتَلَعَ تِلْكَ الْأَيَّامُ ثُمَّ التَّامَ !

\* \* \*

فَحَدَّثَنَا « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » رَئِيسُ جَمَاعَةِ الطَّلَبَةِ الْمِصْرِيِّينَ فِي مَدِينَةِ ... بِقَرْنَةِ ، قَالَ : وَانْتَهَى إِلَيَّ أَنَّ صَاحِبَنَا هَذَا جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَنَّهُ قَادِمٌ مِنْ مِصْرَ ، فَتَخَالَجَنِي الشَّوْقُ إِلَيْهِ ، وَنَزَعَتْ إِلَى لِقَائِهِ نَفْسِي ، وَمَا بَيْنَنَا إِلَّا مَعْرِفَتِي أَنَّهُ مِصْرِيٌّ قَدِمَ مِنْ مِصْرَ ؛ وَخِلْتُ إِلَيَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِمَّا أَهْتَا جَنِي مِنَ الْحَيْنِ إِلَى بِلَادِي الْعَرَبِيَّةِ ، أَنَّ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ مِصْرَ إِلَّا شَارِعَانِ أَقْطَعُهُمَا فِي دَقَائِقَ ؛ فَخَفَفْتُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَى مَثْوَاهُ ، كَمَا يَصْنَعُ

(١) تَأْوِيلُ هَذَا فِي بَابِ (الْحَالِ) عِنْدَ طُرَفَاءِ الْخَوَافِ : مُتَلَاصِقَيْنِ مُتَعَابِقَيْنِ .

الطَّيْرُ إِذَا تَرَامَى إِلَى عُشِّهِ فَأَبْتَدَرَهُ مِنْ قُطْرِ الْجَوِّ .

قَالَ : وَأَصْبَتْهُ وَاجِمًا يَغْلُوهُ الْحُزْنُ ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا مَلَأَ مِنْ نَفْسِي وَمَا مَلَأْتُ مِنْ نَفْسِهِ . وَكَمَا يَمَّحِي الزَّمَانُ بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ إِذَا التَّقْيَا بَعْدَ فُرْقَةٍ - يَتَلَاشَى الْمَكَانُ بَيْنَ أَهْلِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَاقَوْا فِي الْغُرْبَةِ . فَذَابَتْ الْمَدِينَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا ، كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا ؛ وَتَجَلَّى سِحْرُ مِصْرَ فِي أَقْوَى سَطَوْتِهِ وَأَشَدِّهَا فَاحْذَنَا كِلَيْنَا ، فَمَا اسْتَشْعَرْنَا سَاعَتَيْدِ إِلَّا أَنَّ أَوْزُوبَةَ الْعَظِيمَةِ كَأَنَّهَا كَانَتْ مَرْسُومَةً عَلَى وَرَقَةٍ ، فَطَوَيْنَاهَا وَأَخْلَلْنَا مِصْرَ فِي مَحَلِّهَا .

وَطَعَنِي عَلَيْنَا نَارُ الطَّرِبِ طُغْيَانًا شَدِيدًا ، فَأَرْسَلْتُ مَنْ يَجْمَعُ الْإِخْوَانَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَاخْتَرْتُ لِذَلِكَ صَدِيقًا شَاعِرَ الْفُطْرَةِ ، فَتَرَّا بِهِ الطَّرِبَ ، فَكَانَ يَدْعُوهُمْ وَكَأَنَّهُ يُؤَدِّنُ فِيهِمْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ . وَجَاوُزًا يُهْرَوُلُونَ هَزَوْلَةَ الْحَجِيجِ ، فَلَوْ نَطَقَتْ الْأَرْضُ الْفَرَنْسِيَّةُ الَّتِي مَسَّوَا عَلَيْهَا تِلْكَ الْمِشْيَةَ لَقَالَتْ : هَلِذِهِ وَطْأَةُ أُسُودٍ تَتَخَيَّلُ خِيَلَاءَهَا مِنْ بَغْيِ الشَّطَاطِ وَالْقُوَّةِ .

أَلَا مَا أَعْظَمَكَ يَا مِصْرَ ، وَمَا أَعْظَمَ تَعَتُّكَ فِي هَذَا السَّحْرِ الْفَانِ ! أَيَبْنِي أَنْ يَغْتَرِبَ كُلُّ أَهْلِكَ حَتَّى يُذَرِّكُوا مَعْنَى ذَلِكَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الْعَظِيمِ : « مِصْرُ كِنَانَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » [ راجع « كشف الخفا » ، رقم : ٢٣٠٩ ؛ و « المقاصد الحسنة » ، رقم : ١٠٢٩ ] . فَيَعْرِفُوا أَنَّكَ مِنْ عَزْرَتِكَ مُعْلَقَةٌ فِي هَذَا الْكَوْنِ تَعْلِيْقُ الْكِتَابَةِ فِي دَارِ الْبَطْلِ الْأَرْوَعِ ؟

قَالَ « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » : وَاجْتَمَعْنَا فِي الدَّارِ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا ، فَرَاعَ ذَلِكَ صَاحِبَةُ مَثْوَايَ<sup>(١)</sup> ، فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ هَلَهْنَا لَيْلَةً مِصْرِيَّةً سَتَخْتَلُ لَيْلَتُكُمْ هَلِذِهِ فِي مَدِينَتِكُمْ هَلِذِهِ ، فَلَا تَجْرَعُوا . ثُمَّ دَعَوْنَاهَا إِلَى مَجْلِسِنَا لِتَشْهَدَ كَيْفَ تَسْتَعْلِنُ الرُّوحَ الْمِصْرِيَّةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ بِرَفَّتِهَا وَظَرْفِهَا وَحِمَاسَتِهَا ، وَكَيْفَ تُفَسِّرُ هَلِذِهِ الرُّوحَ الْمِصْرِيَّةَ كُلَّ جَمِيلٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْجَمِيلَةِ بِشَوْقٍ مِنْ أَشْوَاقِهَا الْحَقَائِقِ ، وَكَيْفَ تَكُونُ هَلِذِهِ الرُّوحُ فِي جَوْ مُوسِقِيَّيْهَا الطَّبِيعِيِّ حِينَ تَتَاجَى أَحْبَابُهَا ، فَيَجِيءُ حَدِيثُهَا بِطَبِيعَتِهِ كَأَنَّهُ دِيْبَاجُهُ شَاعِرٌ فِي صَفَائِهَا وَحَلَاوَتِهَا وَرَيْنِ أَلْفَاظِهَا ؟

(١) صَاحِبَةُ الْمَثْوَى هِيَ رَبَّةُ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْزِلُ فِيهِ الصَّيْفُ وَمَنْ كَانَ فِي حُكْمِهِ ، يَقُولُ الْعَرَبِيُّ : مَنْ كَانَتْ صَاحِبَةُ مَثْوَاكَ ؟ فَتَقُلُّ عَلَى صَاحِبَةِ الْبَيْتِ PENSION [ وال Pension : نَزْلٌ يُدْفَعُ فِيهِ أَجْرُ سَكْنٍ وَطَعَامٍ بِشَكْلِ دُورِي ، يَوْمِيَا ، أَوْ أُسْبُوعِيَا ، أَوْ شَهْرِيَا ] .

وَقَالَتِ السَّيِّدَةُ الطَّرِيفَةُ : يَا لَهَا سَعَادَةٌ ! سَأَتَّخِذُ زِينَتِي ، وَأُصْلِحُ مِنْ شَأْنِي ، وَأَكُونُ  
بَعْدَ خَمْسِ دَقَائِقٍ فِي مِصْرٍ !

قَالَ الدُّكْتُورُ : وَأَخَذْنَا فِي شَأْنِنَا ، وَكَانَ مَعَنَا طَالِبُ حَسَنِ الصَّوْتِ ، فَقَامَ إِلَى  
الْبَيْتَانَةِ <sup>(١)</sup> وَعَنَى مَقْطُوعَةً « مَقْطُوعَةٌ » مِصْرِيَّةٌ مِنْ هَذِهِ الْمَقَاطِيعِ الَّتِي تُطْفِقُ فِيهَا النَّاسُ ،  
فَجَعَلَ يَمْطُلُ صَوْتَهُ بِأَهْ ، وَآه ، وَدَارَ اللَّحْنُ دَوْرَةً تَأَوَّهَتْ فِيهَا الْكَلِمَاتُ كُلُّهَا . ثُمَّ اعْتَوَرَ  
الْبَيْتَانَةَ طَالِبٌ آخَرُ فَمَا شَدَّ عَنْ هَذِهِ السُّتَّةِ ، وَكَانَ بَعْدَ الْأَوَّلِ كَالثَّانِيَةِ تُجَاوِبُ الثَّانِيَةَ !  
فَمَالَتْ عَلَيَّ السَّيِّدَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ وَأَسْرَتْ إِلَيَّ : أَهَاتَانِ أَمْرَاتَانِ أَمْ رَجُلَانِ ... ؟ فَقُلْتُ لَهَا :  
إِنَّ هَذَا لَحْنٌ تَارِيخِيٌّ ذُو مَقْطُوعَتَيْنِ ، كَانَتْ تَتَطَارَحُهُ كِلْيُوبَاتَرَةُ <sup>(٢)</sup> وَأَنْطُونِيو ، وَأَنْطُونِيو  
وَكِلْيُوبَاتَرَةُ ... فَأَعْجَبَتِ الْمَرْأَةُ أَشَدَّ الْإِعْجَابِ ، وَكَثَّرَتْ مِنَّا هَذَا الذَّوْقَ الْمِصْرِيَّ أَنْ  
نُكْرِمَهَا لَوْجُودِهَا فِي مَجْلِسِنَا بِالْحَنَانِ الْمَلِكَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ، وَطَرِبَتْ لِذَلِكَ أَشَدَّ  
الطَّرِبِ ، وَمَلَكَهَا غُرُورُ الْمَرْأَةِ ، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيدُ : « يَا لَوْعَتِي ، يَا شَقَايَ ، يَا صَنْئِ  
حَالِي ... » وَتَقُولُ : مَا كَانَ أَرْقَى كِلْيُوبَاتَرَةُ ! مَا كَانَ أَرْقَى أَنْطُونِيو ! يَا لِفَتْنَةِ الْحُبِّ  
الْمَلِكِيِّ ... !

قَالَ « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » : ثُمَّ خَجَلْتُ وَاللَّهِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْمُخَنَّثِ ، وَمِنْ تَلْفِيفِي  
الَّذِي لَفَّقْتُهُ لِلْمَرْأَةِ الْمَخْدُوعَةِ ؛ فَانْتَفَضَتْ انْتِفَاضَةً مَنِ يَمْلُؤُهُ الْغَضَبُ ، وَقَدْ حَمَى دَمُهُ ،  
وَفِي يَدَيْهِ السَّيْفُ الْبَازِرُ ، وَأَمَامَهُ الْعُدُوُّ الْوَقُوعُ ؛ وَثُرْتُ إِلَى الْبَيْتَانَةِ فَاجْرَيْتُ عَلَيْهَا أَصَابِعِي ،  
وَكَانَ فِي يَدَيَّ عَشْرَةَ شَيَاطِينٍ لَا عَشْرَ أَصَابِعَ ، وَدَوَّى فِي الْمَكَانِ لَحْنٌ : « أَسْلِمِي  
يَا مِصْرُ » ، وَجَلَجَلَ كَالرَّعْدِ فِي قُبَّةِ الدُّنْيَا ، تَحْتَ طَبَاقِ الْغَنِيمِ ، بَيْنَ شَرَارِ الْبَرْقِ . فَكَأَنَّمَا  
تَزَلْزَلَ الْمَكَانُ عَلَى السَّيِّدَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَعَلَيْنَا جَمِيعًا ، وَصَرَخَ أَجْدَادُنَا يَزَارُونُ مِنْ أَعْمَاقِ  
التَّارِيخِ : « أَسْلِمِي يَا مِصْرُ ... » <sup>(٣)</sup> .

(١) الْبَيْتَانَةُ : كَلِمَةٌ اسْتَعْمَلْنَاهَا فِي كِتَابِنَا « السَّحَابُ الْأَخْضَرُ » لِلْبَيْتَانِو Piano ، وَتَجَمَّعَ عَلَى بَيِّنَاتٍ .

(٢) فِي الْأَصُولِ : « كِلْيُوبَاتَرَةُ » وهي Cleopatra (٦٩ - ٣٠ ق. م) ملكة مصر (٥١ - ٤٩ ق. م) .  
و(٤٨ - ٣٠ ق. م) اشتهرت بجملها . بسام .

(٣) { هَذَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي وَضَعْنَاهُ عَلَى لِسَانِ سَعْدٍ بَاشَا دُغْلُول ، وَهُوَ الْيَوْمَ الشَّيْءُ الْوَطَنِيُّ لِمِصْرٍ =

وَلَمَّا قَطَعْتُ التَّمَثُّ إِلَيْهَا فِي كِبَرِيَاءِ تِلْكَ الْمُوسِيقَى وَعَظَمَتِهَا ، وَقُلْتُ لَهَا : هَذَا هُوَ  
غِنَاؤُنَا نَحْنُ الشُّبَّانُ الْمِصْرِيُّونَ .

ثُمَّ رَاجَعْنَا صَاحِبَتَا الضَّيْفِ ، وَأَخْفَيْنَاهُ بِالْمَسَآلَةِ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ دَافَعْنَا طَوِيلًا : إِنَّهُ  
يُحْسِنُ شَيْئًا مِنَ الْمُوسِيقَى ، وَإِنَّ لَهُ لَحْنًا سَيِّطَارِحًا بِهِ لِنَأْخُذَهُ عَنْهُ . فِطْرْنَا بِلَحْنِهِ قَبْلَ أَنْ  
نَسْمَعَهُ ، وَقُلْنَا لَهُ : أَفْعَلْ مُتَفَضِّلًا مَشْكُورًا . وَمَا زِلْنَا حَتَّى نَهَضَ مُتَقَالًا ، فَجَلَسَ إِلَى  
الْبَيْتَانَةِ وَأَطْرَقَ شَيْئًا ، كَأَنَّهُ يُسَوِّي أَوْتَارًا فِي قَلْبِهِ ، ثُمَّ دَقَّ يَتَشَاجَى بِهِذَا الصَّوْتِ [ مِنَ  
الطَوِيلِ ] :

أَصَاعَ غَدِي مَنْ كَانَ فِي يَدِيهِ غَدِي وَحَطَمَنِي مَنْ كَانَ يَجْهَدُ فِي سَبْكِِي !  
فَإِنْ كُنْتُ لَا أَسَى لِنَفْسِي فَمَنْ إِذَا ؟ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَبْكِي لِنَفْسِي فَمَنْ يَبْكِي <sup>(١)</sup> ؟  
قَالَ « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » : فَكَانَ الْغِنَاءُ يَغْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ اغْتِلَاجًا ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَبْكِي فِيهِ  
بُكَاءَهَا وَتَعْصُ مِنْ غُصَّتِهَا ، وَكَأَنَّ فِي الصَّوْتِ فِكْرًا حَرِيئًا يَسْتَعْلِفُ فِي هَمِّ مُوسِيقِي ؛ وَخَيْلُ  
إِلَيْنَا بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْبَيْتَانَةَ انْقَلَبَتْ أَمْرًا مُغْنِيَةً تُطَارِحُ هَذَا الرَّجُلَ عَوَاطِفَهَا وَأَخْزَانَهَا ، فَاجْتَمَعَ  
مِنْ صَوْتَيْهِمَا أَكْمَلُ صَوْتِ إِنْسَانِي وَأَجْمَلُهُ وَأَشْجَاهُ وَأَرْقُهُ .

فَاطْفَنَّا بِهِ وَقُلْنَا لَهُ : لَقَدْ كَتَمْتَنَا نَفْسَكَ حَتَّى نَمَّ عَلَيْهَا مَا سَمِعْنَا ، وَمَا هَذَا بِغِنَاءٍ ،  
وَلَكِنَّهُ هُمُومٌ مَلْحَنَةٌ تَلْحِنُنَا ، فَلَنْ نَدْعَكَ أَوْ نُخْبِرَنَّ مَا كَانَ شَأْنُكَ وَشَأْنُهَا .

فَاعْتَلَّ عَلَيْنَا وَدَافَعْنَا جُهْدَهُ ، فَقُلْنَا لَهُ : هَيْهَاتَ ! وَاللَّهِ لَنْ نُفْلِتَكَ وَقَدْ صِرْتَ فِي  
أَيْدِينَا ، وَإِنَّكَ مَا تَزِيدُ عَلَيَّ أَنْ تَعْطَلَنَا بِهِذِهِ الْقِصَّةِ ؛ فَإِنْ أَمْسَكَتَ عَنْهَا فَقَدْ أَمْسَكَتَ عَنْ  
مَوْعِظَتِنَا ، وَإِنْ بَخَلْتَ فَمَا بَخَلْتَ بِقِصَّتِكَ بَلْ يَعْلَمُ مِنْ عِلْمِ الْحَيَاةِ نُفَيْدُهُ مِنْكَ ؛ وَأَنْتَ تَرَانَا  
نَعِيشُ هَاهُنَا فِي أَجْتِمَاعٍ فَاسِدٍ كُلُّهُ قِصَصٌ قَلْبِيَّةٌ ، بَيْنَ نِسَاءٍ لَا يَلْبَسْنَ إِلَّا مَا يُعْرِي  
جَمَالَهِنَّ ، وَفِي رِجَالٍ أَفْرَطَتْ عَلَيْهِمُ الْحُرِّيَّةُ ، حَتَّى دَخَلَ فِيهَا مَخْدَعُ الزَّوْجَةِ ... !

قَالَ الدُّكْتُورُ : وَنَظَرْتُ فَإِذَا الرَّجُلُ كَاسِفٌ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وَتَبَيَّنَ الْاِنْكِسَارُ فِي وَجْهِهِ ،

= كَلِمَاتُهَا ، يَحْفَظُهُ جَمِيعُ الطَّلَبَةِ ، وَالْكَشَافَةِ ، وَالْأَلْبَدِيَّةِ الرِّيَاضِيَّةِ ، وَغَيْرِهَا { .

(١) وَضَعْنَا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لِطَلِيقِ الْقِصَّةِ ، وَكَمْ لَهُنَّ الْقِصَّةُ مِنْ أَبْطَالٍ ... !

فَالْمَنْتُ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ دُهِبَ فِي زَوْجَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَوْرَثِيَّاتِ ، اللَّوَاتِي يَتَزَوَّجْنَ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَخْدَعُ الْمَرْأَةِ مِنْهُنَّ خُرًا أَنْ يَأْخُذَ وَيَدَعَ ، وَيُعَيَّرَ وَيُبَدَّلَ ، وَيَقْسَمَ كَلِمَةً « زَوْجٍ » قِسْمَيْنِ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً وَمَا شَاءَ . . .

وَكَاثِمًا مَسْنُتُ الْبَارُودَ بِتِلْكَ الشَّرَارَةِ ، فَأَنْفَجَرَتْ نَفْسُ الرَّجُلِ عَنْ قِصَّةِ مَا أَفْطَعَهَا !

\* \* \*

قَالَ : يَا إِخْوَانِي الْمِصْرِيِّينَ ! قَبْلَ أَنْ أَنْفُضَ لَكُمْ ذَلِكَ الْحَبَرَ ، أَسْأَلُكُمْ هَذِهِ التَّصْنِيعَةَ الَّتِي لَمْ يَصْغِفْهَا مُؤَلِّفُ تَارِيخِي لِسُوءِ الْحِطِّ ، إِلَّا فِي الْفَصْلِ الْآخِرِ مِنْ رِوَايَةِ شَقَائِي :

إِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْتَرُوا بِمَعَانِي الْمَرْأَةِ ، تَحْسِبُونَهَا مَعَانِي الزَّوْجَةِ ؛ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الزَّوْجَةِ بِخَصَائِصِهَا ، وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ بِمَعَانِيهَا ؛ فَإِنَّ فِي كُلِّ زَوْجَةٍ أَمْرَةً ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ زَوْجَةٌ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْمَرْأَةَ فِي أُنُوثَتِهَا وَفُتُونِهَا التَّسَائِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ ، كَهَذَا السَّحَابِ الْمُلَوَّنِ فِي الشَّفَقِ حِينَ يَبْدُو ؛ لَهُ وَقْتُ مَخْدُودٌ ثُمَّ يُمَسَخُ مَسَخًا ؛ وَلَكِنَّ الزَّوْجَةَ فِي نِسَائِيَّتِهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ كَالشَّمْسِ ؛ قَدْ يَحْجُبُهَا ذَلِكَ السَّحَابُ ، يَبْدُو أَنَّ الْبَقَاءَ لَهَا وَحْدَهَا ، وَالْأَعْيَارَ لَهَا وَحْدَهَا ، وَلَهَا وَحْدَهَا الْوَقْتُ كُلُّهُ .

لَا تَتَزَوَّجُوا يَا إِخْوَانِي الْمِصْرِيِّينَ بِأَجْنِبِيَّةٍ ؛ إِنْ أَجْنِبِيَّةٌ يَتَزَوَّجُ بِهَا مِصْرِيٌّ ، هِيَ مُسَدَّسُ جَرَائِمٍ فِيهِ سِتٌّ قَدْ أَثِفَ :

الْأُولَى : بَوَارُ أَمْرَةٍ مِصْرِيَّةٍ وَضِيَاعُهَا بِضِيَاعِ حَقِّهَا فِي هَذَا الزَّوْجِ ؛ وَتِلْكَ جَرِيمَةُ وَطَنِيَّةٍ . فَهَلْ لَهَا وَاحِدَةٌ .

وَالثَّانِيَّةُ : إِفْحَامُ الْأَخْلَاقِ الْأَجْنِبِيَّةِ عَنْ طِبَاعِنَا وَفَضَائِلِنَا - فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الشَّرْقِيِّ ، وَتَوْهِينُهُ بِهَا وَصَدْعُهُ ؛ وَهِيَ جَرِيمَةُ أَخْلَاقِيَّةٍ .

وَالثَّلَاثَةُ : دَسُّ الْعُرُوقِ الزَّائِغَةِ فِي دِمَائِنَا وَنَسْلِنَا ؛ وَهِيَ جَرِيمَةُ أَجْتِمَاعِيَّةٍ .

وَالرَّابِعَةُ : التَّمَكُّنُ لِلْأَجْنِبِيِّ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، يَمْلِكُهُ وَيَحْكُمُهُ وَيَصْرِفُهُ عَلَى مَا شَاءَ ؛ وَهِيَ جَرِيمَةُ سِيَاسِيَّةٍ .

وَالْخَامِسَةُ : لِلْمُسْلِمِ مِثْلُ إِثَارَةِ غَيْرِ أُخْتِهِ الْمُسْلِمَةِ ، ثُمَّ تَحْكِيمُهُ الْهَوَى فِي الدِّينِ ، مَا يَعْجِبُهُ وَمَا لَا يَعْجِبُهُ ؛ ثُمَّ الْفَاوَةُ السُّمُّ الدِّينِيَّ فِي نَبْعِ ذُرِّيَّتِهِ الْمُفْطِلَةِ ، ثُمَّ صَيَّرُوهُ خِزْيَا لِأَجْدَادِهِ الْفَاتِحِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَأْخُذُونَهُمْ سَبَايَا ، وَيَجْعَلُونَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ الزَّوْجَةِ ؛ فَأَخَذَتْهُ هِيَ رَقِيقًا لَهَا ، وَصَارَ مَعَهَا فِي الْمَنْزِلَةِ الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ (١) . . . وَهَذِهِ جَرِيمَةُ دِينِيَّةٍ .

وَالسَّادِسَةُ : بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، أَنَّ هَذَا الْمِسْكِينَ يُؤْثِرُ أَنْفَلَهُ عَلَى أَغْلَاهُ . . . وَلَا يُبَالِي فِي ذَلِكَ خَمْسَ جَرَائِمٍ فَطِيعَةٍ .

وَهَذِهِ السَّادِسَةُ جَرِيمَةُ إِنْسَانِيَّةٍ !

\* \* \*

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ يَا إِخْوَانِي ، وَقَدْ رَجَعْتُ بِزَوْجَتِي الْأَوْرَثِيَّةِ إِلَى مِصْرٍ ، إِنِّي أَخْضَرْتُ مَعِي مِنْ أَوْثَرَةِ آلِهِ تَصْنَعُ أَخْرَانِي وَمَصَائِي ! وَلَمْ يَكُنْ وَعْظَنِي أَحَدٌ بِمَا أَعْظَكُم بِهِ الْآنَ ، وَلَا تَنْبَهُتُ بِذِكَايِي إِلَى أَنَّ الزَّوْجَةَ الْأَجْنِبِيَّةَ تُثَبِّتُ لِي غُرْبَتِي فِي بِلَادِي ! وَتُثَبِّتُ عَلَيَّ أَنِّي غَيْرُ وَطَنِيٍّ أَوْ غَيْرُ تَامٍ الْوَطَنِيَّةِ ، ثُمَّ تَكُونُ مِثْلِي حِمَاقَةً تُثَبِّتُ لِلنَّاسِ أَنِّي أَحْمَقُ فِيمَا اخْتَرْتُ ؛ ثُمَّ تَعُودُ مُشْكِلَةً دَوْلِيَّةً فِي بَيْتِي ، يَزُورُهَا أَبْنَاءُ جَنْسِهَا وَيَسْتَرْيِزُونَهَا رَغْمَ أَنْفِي وَفَمِي وَوَجْهِي كُلِّهِ ! وَيَسْتَظِلُّونَ بِالْحِمَايَةِ ، وَيَسْتَرْيِزُونَ بِالْأُمْنِيَّاتِ ، وَيَزْفَعُونَ سِتَارًا عَنْ فَضْلِي ، وَيَزْخُونُ سِتَارًا عَلَى فَضْلِي (٢) . . . وَأَنَا وَحْدِي أَشْهَدُ الرِّوَايَةَ . . . !

إِنَّ الشَّيْطَانَ فِي أَوْثَرَةِ شَيْطَانِ عَالَمٍ مُخْتَرَعٍ . فَقَدْ زَيْنَ لِي مِنْ تِلْكَ الزَّوْجَةِ ثَلَاثَ نِسَاءٍ مَعًا : زَوْجَةً عَقْلِيَّةً ، وَزَوْجَةً قَلْبِيَّةً ، وَزَوْجَةً نَفْسِيَّةً ؛ ثُمَّ نَفَثَ اللَّعِينُ فِي زَوْعِي أَنَّ الْمَرْأَةَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَتْ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ وَلَا وَاحِدَةً . قَالَ الْخَبِيثُ : لِأَنَّهَا زَوْجَةُ الْجِسْمِ وَحْدَهُ ، فَلَا تَسْمُو إِلَى الْعَقْلِ ، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْقَلْبِ ، وَلَا تَمْتَرِجُ بِالنَّفْسِ ؛ وَأَنَّهَا بِذَلِكَ جَاهِلَةٌ ، غَلِيظَةُ الْحِسِّ ، خَشِنَةُ الطَّبْعِ ، لَا تَكُونُ مَعَ الْمِصْرِيِّ

(١) { يُرِيدُ : بَعْدَ عَشِيْقَتِهَا } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَنْ فَضْلِي » بَدَلًا مِنْ : « عَلَى فَضْلِي » .



إِلَّا كَمَا تَكُونُ الْأَرْضُ الْمُصْرِئَةُ مَعَ فَلَاحِهَا ...

لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الْعَالِمِ الْمُخْتَرِعِ ! مَا عَلِمْتُ إِلَّا مِنْ بَعْدُ أَنَّ هَذِهِ الشَّرْقِيَّةَ الْجَاهِلَةَ الْخَسِيفَةَ الْجَافِيَّةَ ، هِيَ كَالْمَنْجَمِ الَّذِي تَبْرُهُ فِي ثَرَابِهِ ، وَمَا سُهُ فِي فَخْمِهِ ، وَجَوْهَرُهُ فِي مَغْدِنِهِ ؛ وَأَنَّ صُغُوبَتَهَا مِنْ صُغُوبَةِ الْعِفَّةِ الْمُمْتَنِعَةِ ، وَأَنَّ خُشُوعَتَهَا مِنْ خُشُوعَةِ الْحُبِّ الْمُعْتَرِّ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّ جَفَاءَهَا مِنْ جَفَاءِ الدِّينِ الْمُتَسَامِي عَلَى الْمَادَّةِ ؛ وَأَنَّهَا بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ كَانَتْ لَهَا الصَّبْرُ الَّذِي لَا يَدْخُلُهُ الْعَجْزُ ، وَكَانَتْ لَهَا الْوَفَاءُ الَّذِي لَا تَلْحَقُهُ الشُّبُهَةُ ، وَكَانَتْ لَهَا الْإِيثَارُ الَّذِي لَا يَفْسِدُهُ الطَّمَعُ .

هِيَ جَاهِلَةٌ ، وَلَهَا عَقْلُ الْحَيَاةِ فِي دَارِهَا ؛ وَغَلِيظَةُ الْحِسِّ ، وَلَهَا أَرْقُ مَا فِي الزَّوْجَةِ لِزَوْجِهَا وَخَدُهُ ؛ وَخَسِيفَةُ الطَّنِيعِ ، لِأَنَّهَا تَنْتَرُهُ أَنْ تَكُونَ مَلْمَسًا نَاعِمًا لِهَذَا وَذَاكَ وَهَذَا وَأُولَئِكَ ... لَا كَأَمْرَةِ الْحُبِّ الْأَوْزُبِيَّةِ ، الَّتِي تَجْعَلُ نَفْسَهَا أَثْنَى أَلْفٍ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَعِينَشَ دَائِمًا مَعَ زَوْجِهَا الشَّرْقِيِّ مِنَ التَّفْضِيلِ وَالْإِيثَارِ وَالْإِجْلَالِ وَالْإِبَاحَةِ - فِي كَلِمَةٍ « أَنَا » قَبْلَ كَلِمَةِ « أَنْتِ » ... أَمْرَةٌ أَنْشَأَتْهَا الْحَرْبُ الْعُظْمَى بِأَخْلَاقِ مُحَرَّبَةٍ مَدْمُورَةٍ تَنْفَجِرُ بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ .

عِنْدَنَا يَا إِخْوَانِي تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ ، يَتَهَمُونَنَا بِهِ مِنْ عَمَى وَجَهْلٍ وَسَخَافَةٍ . انْظُرُوا ، هَلْ هُوَ إِلَّا إِعْلَانٌ لِشَرِيعَةِ الرُّجُولَةِ وَالْأُنُوثَةِ ، وَدِينِيَّةِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ فِي أَيِّ أَشْكَالِهَا ؛ وَهَلْ هُوَ إِلَّا إِعْلَانٌ بَطُولَةِ الرَّجُلِ الشَّرْقِيِّ الْأَنْوَفِ الْغَيُورِ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ تَعَدُّدُ عِنْدَ الرَّجُلِ وَلَكِنْ ... وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا يَقَعُ فِي أُوْرُبَةِ مَنْ أَنَّ الزَّوْجَ يَتَعَدَّدُ عِنْدَ الْمَرْأَةِ ... !

يَتَهَمُونَنَا بِتَعَدُّدِ الْمَرْأَةِ عَلَى أَنْ تَكُونَ زَوْجَةً لَهَا حُقُوقُهَا وَوَاجِبَاتُهَا - بِقُوَّةِ الشَّرْعِ وَالْقَانُونِ - نَافِلَةً مُؤَدَّاهَ ؛ ثُمَّ لَا يَتَهَمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِتَعَدُّدِ الْمَرْأَةِ خَلِيلَةً مُخَادَعَةً لَيْسَ لَهَا حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا وَاجِبٌ مِنْ أَحَدٍ ، بَلْ هِيَ تَتَقَادَفُهَا الْحَيَاةُ مِنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ ، كَالسَّكِينِ يَتَقَادَفُهُ الشَّارِعُ مِنْ جِدَارٍ إِلَى جِدَارٍ .

لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى شَيْطَانِ الْمَدَنِيَّةِ الْعَالِمِ الْمُخْتَرِعِ الْمُخَنَّثِ ، الَّذِي يَجْعَلُ لِلْمَرْأَةِ الْأَوْزُبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا الرَّجُلُ الشَّرْقِيُّ ، أَصَابِعَ « أُوتُومَاتِيكِيَّةِ »<sup>(١)</sup> ، مَا أَسْرَعَ مَا تَمْتَدُّ فِي نَزْوَةٍ مِنْ

(١) [ أوتوماتيكية ، من Automatique ، أي : آلية ] .

حَمَاقَاتِهَا إِلَى رَجُلِهَا بِالْمُسَدَّسِ ، فَإِذَا الرِّصَاصُ وَالْقَتْلُ ؛ وَمَا أَسْرَعَ مَا تَمْتَدُّ فِي نَزْوَةٍ مِنْ عَوَاطِفِهَا إِلَى عَاشِقِهَا بِمِفْتَاحِ الدَّارِ ، فَإِذَا الْخِيَانَةُ وَالْمَهْرُ !

مَاذَا تَتَوَقَّعُونَ يَا إِخْوَانِي مِنْ تِلْكَ الرَّقِيقَةِ النَّاعِمَةِ ، الْمُتَأَنِّتَةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا أُتُوَّةٌ تَكْفِيهِ رَجَالًا لَا رَجُلًا وَاحِدًا ، وَقَدْ ضَعُفَتْ رُوحِيَّةُ الْأُسْرَةِ فِي رَأْيِهَا ، وَابْتَدَلَتْ الزَّوْجِيَّةُ فِي مُجْتَمَعِهَا ابْتِدَالًا ، فَاصْبَحَ عِنْدَهَا الزَّوْاجُ لِلزَّوْاجِ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، لَا لِتَكُونَ أَمْرَةً وَاحِدَةً لِرَجُلٍ وَاحِدٍ مَقْصُورَةً عَلَيْهِ ؛ وَبِذَلِكَ عَادَ الزَّوْاجُ حَقًّا فِي جِسْمِ الْمَرْأَةِ دُونَ قَلْبِهَا وَرُوحِهَا ؛ فَإِنْ كَانَ الزَّوْجُ مَشْغُومًا مَتَكُونًا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا قَلْبِهَا - فَعَلَيْهِ أَنْ يَدَعَ لَهَا الْحُرِّيَّةَ لِتَخْتَارَ زَوْجَ قَلْبِهَا ... ! وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مَعَ الزَّوْجِ الشَّرْعِيِّ بِمَنْزِلَةِ الْمَرْأَةِ مَعَ فَاسِقٍ ؛ وَمَعَ الْفَاسِقِ بِمَنْزِلَةِ الْمَرْأَةِ مَعَ الزَّوْجِ الشَّرْعِيِّ ... ! وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مَنَحُوسًا مُخَيَّبًا ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ إِلَى قَلْبِهَا زَمَنًا ثُمَّ مَلَهُ قَلْبُهَا - فَعَلَيْهِ أَنْ يَدَعَ لَهَا الْحُرِّيَّةَ لِتَسْتَقِلَّ وَتَلْذَّ بِلَذَاتِ الْهَوَى ، وَيَقُولَ لَهَا : شَانُكَ بِمَنْ أَحْبَبْتَ ! فَإِنَّ هَذَا الْمَنَحُوسَ الْمُخَيَّبَ لَيْسَ عِنْدَهَا إِنْسَانًا ، وَلَكِنَّهُ رَوَايَةُ إِنْسَانِيَّةٍ أَنْتَهَى الْفَضْلُ الْجَمِيلُ مِنْهَا بِمَظَاهِرِهِ الْجَمِيلَةِ ، وَبَدَأَ فَضْلُ آخَرٍ بِحَوَادِثٍ غَيْرِ تِلْكَ . فَلِمَنْ يَشْهَدُ الرَّوَايَةَ أَنْ يَتَبَرَّمَ مَا شَاءَ ، وَيَسْتَقِلَّ كَمَا يَشَاءُ ، وَمَتَى شَاءَ أَنْصَرَفَ مِنَ الْبَابِ ... !

أَمْرَةٌ هَذِهِ الْمَدَنِيَّةُ هِيَ أَمْرَةُ الْعَاطِفَةِ ؛ تَتَعَلَّقُ بِاللَّفْظِ حِينَ تُلْسِنُهُ الْعَاطِفَةُ مِنْ زِينَتِهَا ، وَإِنْ ضَاعَ فِيهِ الْمَعْنَى الْكَبِيرُ مِنْ مَعَانِي الْعَقْلِ ، وَإِنْ قَاتَتْ بِهِ النِّعْمَةُ الْكَبِيرَةُ مِنْ نِعَمِ الْحَيَاةِ .

تَقْوَى الْعَاطِفَةُ فَتَجِيءُ بِهَا إِلَى رَجُلٍ ، ثُمَّ تَقْوَى الثَّانِيَةَ فَتَذْهَبَ بِهَا مَعَ رَجُلٍ آخَرَ ... ! وَتَقْبَلُ نَفْسَهَا إِنْ شَاءَتْ ، وَتُسْرِحُ نَفْسَهَا إِنْ شَاءَتْ ؛ وَمَا بُدُّ مِنْ أَنْ تَبْلُوَ الْحَيَاةَ كَمَا يَبْلُوهَا الرَّجُلُ ، وَأَنْ تَخُوضَ فِي مَشَاكِيلِهَا ؛ وَإِذَا شَاءَتْ جَعَلَتْ نَفْسَهَا إِحْدَى مَشَاكِيلِهَا ... ! وَلَا مَنُذُوحَةَ مِنْ أَنْ تَتَوَلَّى شَأْنَ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا ، فَإِذَا خَاسَتْ أَوْ غَدَرَتْ فَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدَهَا مِنْ أَحْكَامِ نَفْسِهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ رَأْيٌ وَحَقٌّ ، إِذْ كَانَ مَخْزُوعًا الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ هُوَ عَاطِفَتُهَا وَحُرِّيَّةُ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ ، فَمَنْ هَذَا يُقَرِّرُ لَهَا خُطَّتَهَا ، وَيُمْلِي عَلَيْهَا وَاجِبَاتِهَا ، وَيُزَوِّرُ لَهَا الْأَسْمَاءَ عَلَى إِرَادَتِهِ دُونَ إِرَادَتِهَا ، فَيُسَمِّي لَهَا نَكَدَ قَلْبِهَا بِأَسْمِ فَضِيلَةِ الْمَرْأَةِ ، وَحِزْمَانَ عَاطِفَتِهَا بِأَسْمِ وَاجِبِ الزَّوْجَةِ الشَّرِيفَةِ ؟

وَمَنْ ذَا حَوْلَهُ الْحَقُّ أَنْ يَقَرَّرَ وَأَنْ يُمْلِي ؟

وهَذَا الشَّرْقِيُّ الْعَتِيقُ الْمَأْفُونُ الَّذِي قَبْلَهَا سَافِرَةٌ لَا تَعْرِفُ رُوحَهَا وَلَا جِسْمَهَا

الْحِجَابَ ؛ مَا بَالُهُ يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ الْحِجَابَ عَلَى عَاطِفَتِهَا ، وَيَتْرُكَهَا مَحْبُوسَةً فِي شَرَفِهِ وَحُقُوقِهِ وَوَاجِبَاتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَحْبُوبَةً فِي الدَّارِ ؟

مَا عَلِمْتُ يَا إِخْوَانِي إِلَّا مِنْ بَعْدُ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ الْغَرِيبَةَ قَدْ تَكُونُ مَعَ زَوْجِهَا الشَّرْقِي كَالسَّائِحَةِ مَعَ دَلِيلِهَا . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، إِنَّهُ لَنْ يُنْسِكَهَا عَلَيْهِ ، وَلَنْ يُكْرِهَهَا عَلَى الْوَفَاءِ لَهُ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ حُثَالَةً يَزْهَدُ فِيهَا حَتَّى ذُبَابُ النَّاسِ ؛ فَيَأْسُفُهَا هُوَ يَجْعَلُ هَذَا الْمُسْكِينِ مَطْمَعَهَا ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَوْ خَلَطَتْهُ بِنَفْسِهَا لَبَقِيَتْ مِنْهَا نَاحِيَةً لَا تَخْتَلِطُ ، إِذْ تَرَى أُمَّتَهُ دُونَ أُمَّتِهَا ، وَجِنْسَهُ دُونَ جِنْسِهَا ؛ فَمَا تَسُبُّ أُمَّةَ زَوْجِهَا وَبِلَادَهُ بِأَفْحَاحٍ مِنْ هَذَا !

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الشَّرْقِيَّ حِينَ يَأْتِي بِالْأَجْنَبِيَّةِ لِتَلْوِينِ حَيَاتِهِ بِأَلْوَانِ الْأُنْثَى ... لَا يَكُونُ اخْتَارَ أَزْهَى الْأَلْوَانِ إِلَّا لِتَلْوِينِ مَصَائِبِ حَيَاتِهِ ! وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مَا يَشِدُّ ، وَلَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ .

\* \* \*

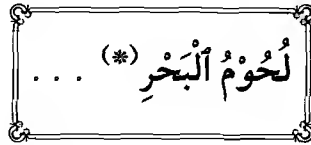
أَمَّا قِصَّتِي يَا إِخْوَانِي ... ..

قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ : قَدْ حَكَيْتَهَا « يَرْحَمُكَ اللَّهُ » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### قَصِيدَةُ مُتَرْجِمَةٍ { عَنِ الشَّيْطَانِ }



لَكَأَنَّمَا وَاللَّهِ قَدْ تَمَدَّدَ عَلَى سَيْفِ الْبَحْرِ فِي اسْتَكْدَرِيَّةِ شَيْطَانٍ مَارِدٍ مِنْ شَيَاطِينِ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، يَخْدَعُ النَّاسَ عَنْ جَهَنَّمَ بِتَبَرِيدِ مَعَانِيهَا ... وَقَدْ أَمْتَلَأَ بِهِ الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ ؛ فَهُوَ يُزْعِشُ ذَلِكَ الزَّمَلَ بِذَلِكَ الْهَوَاءِ رَغْشَةً أَغْصَابِ حَيَّةٍ ؛ وَيُرْسِلُ فِي الْجَوِّ نَفَخَاتٍ مِنْ جُرْأَةِ الْحَمْرِ فِي شَارِبِهَا نَارَ فَعْرَبَدَ ، وَيَطْلُعُ الشَّمْسُ لِلْأَغْنِيِّ فِي مَنْظَرِ حَسَنَاءَ غُرَيَانَةٍ أَلْقَتْ نَيْابَهَا وَحَيَاءَهَا مَعًا ؛ وَيُزْخِي اللَّيْلَ لِيُعْطِيَ بِهِ الْمَخَازِي أَلْبَنِي خَجَلِ النَّهَارِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ .

وَلَعَمْرِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ هَذَا الْمَارِدَ ، مَا أَحْسَبُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ الْخَبِيثَ الَّذِي ابْتَدَعَ فِكْرَةَ عَرْضِ الْأَنَامِ مَكْشُوفَةً فِي أَجْسَامِهَا تَحْتَ عَيْنِ التَّقِيِّ وَالْفَاجِرِ ، لِيَتَعَمَلَ عَمَلَهَا فِي الطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ ؛ فَسَوَّلَ لِلنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ أَنَّ ذَلِكَ الشَّاطِئَ عِلَاجُ الْمَلَلِ مِنَ الْحَرِّ وَالْتَعَبِ ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا ، فَتَقَارَبُوا ، فَتَشَابَكُوا ، سَوَّلَ لَهُمُ الْآخَرَى أَنَّ الشَّاطِئَ هُوَ كَذَلِكَ عِلَاجُ الْمَلَلِ مِنَ الْفَضِيلَةِ وَالذَّنِّ !

وَإِنْ<sup>(١)</sup> لَمْ يَكُنِ اللَّعِينَانِ فَهُوَ الرَّجِيمُ الثَّلَاثُ ، ذَلِكَ الَّذِي تَأَلَّى أَنْ يُفْسِدَ الْأَدَابَ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا بِفَسَادِ<sup>(٢)</sup> خُلُقِي وَاحِدٍ ، هُوَ حَيَاءُ الْمَرْأَةِ ؛ فَبَدَأَ يَكْشِفُهَا لِلرِّجَالِ مِنْ وَجْهِهَا ، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ يَكْشِفُ ... وَكَانَتْ تَطْلُغُ نَزْعَ حِجَابِهَا فَإِذَا هُوَ أَوَّلُ غُرْبِهَا ... وَزَادَتْ الْمَرْأَةُ ، وَلَكِنْ بِمَا زَادَ فُجُورُ الرِّجَالِ ؛ وَتَقَصَّتْ ، وَلَكِنْ بِمَا نَقَصَ فَضَائِلُهُمْ ؛ وَتَغَيَّرَتْ الدُّنْيَا وَفَسَدَتْ الطَّبَاعُ ؛ فَإِذَا تِلْكَ الْمَرْأَةُ مِمَّنْ يُقْرُونَهَا عَلَى تَبَدُّلِهَا بَيْنَ رَجُلَيْنِ لَا ثَالِثَ

(\*) « الرسالة » العدد : ٦٢ ، ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٠ سبتمبر/أيلول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٤٨٥ - ١٤٨٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَآنَ » بَدَلًا مِنْ : « وَإِنْ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « لِفْسَادٍ » بَدَلًا مِنْ : « بِفْسَادٍ » .

لَهُمَا : رَجُلٌ فَجَرَ ، وَرَجُلٌ تَخَنَّتْ ...

\* \* \*

هُنَاكَ فِكْرَةٌ مِنْ شَرِيعَةِ الطَّبِيعَةِ هِيَ عَقْلُ الْبَحْرِ فِي هَؤُلَاءِ النَّاسِ ، وَعَقْلُ هَؤُلَاءِ النَّاسِ فِي الْبَحْرِ ؛ إِذَا أَنْتَ اعْتَرَضْتَهَا فَتَبَيَّنَتْهَا فَتَعَقَّبَتْهَا ، رَأَيْتَهَا بَلَاغَةً مِنْ بَلَاغَةِ الشَّيْطَانِ فِي تَرْبِيئِهِ وَتَطْوِينِهِ ، وَأَصَبَتْ فِكْرُهُ مُسْتَقَرًّا فِيهَا اسْتِقْرَارَ الْمَعْنَى فِي عِبَارَتِهِ ، أَخِذَا بِمَذَاجِهَا وَمَخَارِجِهَا . وَمَا كَانَ الشَّيْطَانُ عِيًّا وَلَا غِيًّا ، بَلْ هُوَ أَذْكَى شُعْرَاءِ الْكَوْنِ فِي خَيَالِهِ ، وَأَبْلَغُهُمْ فِي فِطْنَتِهِ ، وَأَدْفُهُمْ فِي مَنْطِقِهِ ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ وَالسَّحْرِ ؛ وَبِتَمَامِهِ فِي هَذَا كُلِّهِ كَانَ شَيْطَانًا لَمْ تَسْغُهُ الْجَنَّةُ إِذْ لَيْسَ فِيهَا النَّارُ ، وَلَمْ تُرْضِهِ الرَّحْمَةُ إِذْ لَيْسَ مَعَهَا الْغَضَبُ ، وَلَمْ يُعْجِبْهُ الْخُضُوعُ الْمَلَانِكِيُّ إِذْ لَيْسَ فِيهِ الْكِبْرِيَاءُ ، وَلَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْحَقِيقَةِ إِذْ لَا تَحْمِلُ الْحَقِيقَةُ شِعْرَ أَحْلَامِهِ .

وَمَا أَتَى الشَّيْطَانُ أَحَدًا ، وَلَا وَسَّوسَ فِي قَلْبٍ ، وَلَا سَوَّلَ لِنَفْسٍ ، وَلَا أَغْوَى مَنْ يُغْوِيهِ - إِلَّا بِأَسْلُوبٍ شِعْرِيٍّ مُلْتَبِسٍ دَقِيقٍ ، يَجْعَلُ الْمَرْءَ يَعْتَقِدُ أَنَّ أَطْرَاحَ الْعَقْلِ سَاعَةٌ هُوَ عَقْلُ السَّاعَةِ ، وَيُفْسِدُ بَرَهَانَهُ مَهْمَا كَانَ قَوِيًّا ؛ إِذْ يَزْتَدُّ بِهِ مِنَ النَّفْسِ إِلَى أَخِيَلَةٍ لَا تَقْبَلُ الْبُرْهَانَاتِ <sup>(١)</sup> ، وَيَقْطَعُ حُجَّتَهُ مَهْمَا كَانَتْ دَامِغَةً ؛ إِذْ يَغْتَرِضُهَا بِتَرْغَةٍ مِنَ التَّرَعَاتِ تُوْجِّهُهَا كَيْفَ دَارَ بِهَا أَلَدُّمَ لَا كَيْفَ دَارَ بِهَا الْمَنْطِقُ .

فِكْرَةٌ مِنْ شَرِيعَةِ الطَّبِيعَةِ ، ظَاهِرُهَا لِبَعْضِ الْأَمْرِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ وَالْبَحْرِ وَمَا لَا أَذْرِي ، وَبَاطِنُهَا لِبَعْضِ الْأَمْرِ مِنْ قَنِّ الشَّيْطَانِ وَبَلَاغَتِهِ وَشِعْرِهِ وَمَا لَا أَذْرِي ؛ وَمَا كَانَتْ الشَّرَائِعُ إِلَّا لِهَيْئَةٍ وَالْوَضْعِيَّةُ إِلَّا لِإِقْرَارِ الْعَقْلِ فِي شَرِيعَةِ الطَّبِيعَةِ كَيْ تَكُونَ إِنْسَانِيَّةً لِإِنْسَانِهَا كَمَا هِيَ الْحَيَوَانِيَّةُ لِحَيَوَانِهَا ، وَلَيَجِدَ الْإِنْسَانُ مَا يَحْفَظُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ دَائِمًا فَوْضَى ، وَلَا غَايَةَ لَهَا لَوْلَا ذَلِكَ الْعَقْلُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ دَائِمًا فَوْضَى ...

وَبِالشَّرَائِعِ وَالْآدَابِ اسْتَطَاعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَضَعَ لِكَلِمَةِ الطَّبِيعَةِ الْكَافِدَةَ عَلَيْهِ { جَوَابًا } ، وَأَنْ يَرَى فِي هَذِهِ الطَّبِيعَةِ أَثَرَ جَوَابِهِ ؛ فَكَلِمَتُهَا هِيَ : أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ! أَنْتَ خَاضِعٌ لِي

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبُرْهَانِ » بَدَلًا مِنْ : « الْبُرْهَانَاتِ » .

بِالْحَيَوَانِيِّ فَيْكَ . وَكَلِمَتُهُ هُوَ : أَيُّهَا الطَّبِيعَةُ ! وَأَنْتَ لِي خَاضِعَةٌ بِالْإِلَهِيِّ فِي .

\* \* \*

وَالْآنَ سَأَقْرَأُ لَكَ الْقَصِيدَةَ الْفَنِيَّةَ الَّتِي نَظَمَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى رَمْلِ الشَّاطِئِ فِي أَسْكَندَرِيَّةَ ؛ وَقَدْ نَقَلْتُهَا أَتْرَاجِمُهَا فَضْلًا بَعْدَ فَضْلِ عَنْ تِلْكَ الْأَجْسَامِ عَارِيَّةً وَكَاسِيَّةً ، وَعَنْ مَعَانِيهَا مَكْشُوفَةً وَمُعْطَاةً ، وَعَنْ طِبَاعِهَا بَرِيئَةً وَمُتَهَمَةً ، حَتَّى أَتَسَقِّتَ التَّرْجُمَةَ عَلَى مَا تَرَى :

قَالَ الشَّيْطَانُ :

أَلَا إِنَّ الْبَهِيمَةَ <sup>(١)</sup> وَالْعَقْلِيَّةَ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ ؛ مَجْمُوعُهُمَا شَيْطَانِيَّةٌ ...  
أَلَا وَإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ جَمِيلٍ أَوْ عَظِيمٍ إِلَّا وَفِيهِ مَعْنَى السُّخْرِيَّةِ بِهِ .

هُنَا تَتَعَرَّى الْمَرْأَةُ مِنْ ثَوْبِهَا ، فَتَتَعَرَّى مِنْ فَضِيلَتِهَا .

هُنَا يَخْلَعُ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ فَيَلْبِسُ فِيهِ الْأَدَبَ الَّذِي خَلَعَهُ ...

رُؤْيَا الرَّجُلِ لَحْمَ الْمَرْأَةِ الْمُحَرَّمَةِ نَظَرٌ بِالْعَيْنِ وَالْعَاطِفَةِ .

يَرْمِي بِبَصَرِهِ الْجَائِعِ كَمَا يَنْظُرُ الصَّغْفَرُ إِلَى لَحْمِ الصَّبِيدِ .

وَنَظَرُ الْمَرْأَةِ لَحْمَ الرَّجُلِ رُؤْيَا فِكْرٍ فَقَطْ ...

تُحَوِّلُ بَصَرَهَا أَوْ تَخْفِضُهُ ، وَهِيَ مِنْ قَلْبِهَا تَنْظُرُ ...

يَا لِحُومِ الْبَحْرِ ! سَلَخَكَ مِنْ ثِيَابِكَ جَزَارٌ ...

\* \* \*

يَا لِحُومِ الْبَحْرِ ! سَلَخَكَ جَزَارٌ مِنْ ثِيَابِكَ .

جَزَارٌ لَا يَذْبَحُ بِأَلَمٍ وَلَكِنْ بِلَذَّةٍ ...

وَلَا يَحْزُ بِالسَّكِينِ وَلَكِنْ بِالْعَاطِفَةِ ...

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبَهِيمَةِ » بَدَلًا مِنْ : « الْبَهِيمَةِ » .

وَلَا يُمِيتُ الْحَيَّ إِلَّا مَوْتًا أَدْبِيًّا ...

إِلَى الْهَيْجَاءِ يَا أَبْطَالَ مَعْرَكَةِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

فَهُنَا تَلْتَحِمُ نَوَامِيسُ الطَّبِيعَةِ وَنَوَامِيسُ الْأَخْلَاقِ .

لِلطَّبِيعَةِ أَسْلِحَةُ الْعُزِيِّ ، وَالْمُخَالَطَةِ ، وَالنَّظَرِ ، وَالْأَنْسِ ، وَالْتَضَاحِكِ ، وَنُزُوعِ  
الْمَعْنَى إِلَى الْمَعْنَى ...

وَلِلْأَخْلَاقِ الْمَهْزُومَةِ سِلَاحٌ مِنَ الدِّينِ قَدْ صَدَّى ؛ وَسِلَاحٌ مِنَ الْحَيَاءِ مَكْسُورٌ !

يَا لُحُومَ الْبَحْرِ ! سَلِّحْكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَارًا ...

\* \* \*

الشَّاطِئُ كَبِيرٌ كَبِيرٌ ، يَسَعُ أَلْفَ وَأَلْفَ .

وَلَكِنَّهُ لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ صَغِيرٌ صَغِيرٌ ، حَتَّى لَا يَكُونَ إِلَّا خُلُوعًا ...

وَتَقْضِي الْفَتَاةُ سَنَتَهَا تَتَعَلَّمُ ، ثُمَّ تَأْتِي هُنَا تَتَذَكَّرُ جَهْلَهَا وَتَعْرِفُ مَا هُوَ ...

وَتُمْضِي الْمَرْأَةُ عَامَهَا كَرِيمَةً ، ثُمَّ تَجِيءُ لِتَجِدَ هُنَا مَادَّةَ اللُّؤْمِ الطَّبِيعِيِّ ...

لَوْ كَانَتْ حَاجَةً صَوَامَةً ، لَلَعَتْنَهَا الْكَعْبَةُ لَوْجُودِهَا فِي « أَسْتَانَلِي »<sup>(١)</sup> .

الْفَتَاةُ تَرَى فِي الرِّجَالِ الْعُزِّيَّاتِ أَشْبَاحَ أَحْلَامِهَا ، وَهَذَا مَعْنَى مِنَ الشَّقُوطِ .

وَالْمَرْأَةُ تُسَارِقُهُمُ النَّظَرُ تَنْوِينًا لِرَجُلِهَا الْوَاحِدِ ، وَهَذَا مَعْنَى مِنَ الْمَوَاحِيرِ ...

أَيَّنْ تَكُونُ النِّبَّةُ الصَّالِحَةُ لَفَتَاةٍ أَوْ أَمْرَأَةٍ بَيْنَ رِجَالِ عُزِّيَّاتِينَ ؟

يَا لُحُومَ الْبَحْرِ ! سَلِّحْكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَارًا ...

\* \* \*

(١) استانلي ، أو استانلي باي Stanley by : اسم شاطئ مشهور في زمن المؤلف ، كان عَلَمًا على

عدم مراعاة أي من الآداب ناهيك عن الدين والخلق .

ولهذا وضعه المؤلف لاحقًا بـ « مزيلة إسكندرية » مضيقه كَمَعْلَمٍ من معاليمها .

وقد ذكره كذلك الشيخ مصطفى صبري في كتابه « قولِي في المرأة » فراجعهُ ، وهو من مطبوعات

الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول ، قبرص . بسام .

هُنَاكَ التَّرْبِيَةُ ، وَهُنَا إِغْلَانُ الْإِغْفَالِ وَالطَّنِيشِ .

وَهُنَاكَ الدِّينُ ، وَهُنَا أَسْبَابُ الْإِغْرَاءِ وَالزَّلَلِ .

هُنَاكَ تَكَلَّفُ<sup>(١)</sup> الْأَخْلَاقِ ، وَهُنَا طَبِيعَةُ الْخُرَّةِ مِنْهَا .

وَهُنَاكَ الْعَزِيمَةُ<sup>(٢)</sup> بِالْقَهْرِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَهُنَا إِفْسَادُهَا بِالْتَّرَخُّصِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

وَالْبَحْرُ يَعْلَمُ اللَّائِنِي وَالَّذِينَ يَسْبَحُونَ فِيهِ كَيْفَ يَغْرَقُونَ فِي الْبَرِّ ...

لَوْ دَرَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَعْرَةَ أَغْتَسَالِهِمْ مَعًا فِي الْبَحْرِ ، لَا غَتَسَلُوا مِنَ الْبَحْرِ .

فَقَطَرَةُ الْمَاءِ الَّتِي نَجَسَتْهَا الشَّهَوَاتُ قَدْ أَنْسَكَبَتْ فِي دِمَائِهِمْ .

وَذَرَّةُ الرَّمْلِ النَّجَسَةِ فِي الشَّاطِئِ ، سَتَكْبُرُ حَتَّى تَصِيرَ بَيْتًا نَجَسًا لِأَبٍ وَأُمٍّ ...

يَا لُحُومَ الْبَحْرِ ! سَلِّحْكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَارًا ...

\* \* \*

يَجِيئُونَ لِلشَّئْسِ الَّتِي تَقْوَى بِهَا صِفَاتُ الْجِسْمِ .

لِيَجِدَ كُلٌّ مِنَ الْجِنْسَيْنِ شَمْسَهُ الَّتِي تَضَعُفُ بِهَا صِفَاتُ الْقَلْبِ .

يَجِيئُونَ لِلْهَوَاءِ الَّذِي تَتَجَدَّدُ بِهِ عَنَاصِرُ الدَّمِ .

لِيَجِدُوا الْهَوَاءَ الْآخَرَ الَّذِي تَفْسُدُ بِهِ مَعَانِي الدَّمِ .

يَجِيئُونَ لِلْبَحْرِ الَّذِي يَأْخُذُونَ مِنْهُ الْقُوَّةَ وَالْعَافِيَةَ .

لِيَأْخُذُوا عَنْهُ أَيْضًا شَرِيعَتَهُ الطَّبِيعِيَّةَ : سَمَكَةٌ تُطَارِدُ سَمَكَةً ...

وَيَقُولُونَ : لَيْسَ عَلَى الْمُصَيِّبِ حَرَجٌ .

أَيَّ لَئِنَّ أَعْمَى الْأَدَبِ ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ .

يَا لُحُومَ الْبَحْرِ ! سَلِّحْكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَارًا ...

\* \* \*

(١) في الأصل : « وتكلف » بدلًا من : « هناك تكلف » .

(٢) في الأصل : « والعزيمة » بدلًا من : « وهناك العزيمة » .

الْمَدَارِسُ ، وَالْمَسَاجِدُ ، وَالْبَيْعُ ، وَالْكَتَائِبُ ، وَوَزَارَةُ الدَّخَائِلِ ؛ هَذِهِ كُلُّهَا لَنْ تَهْزِمَ الشَّاطِئُ .

فَأَمْوَاجُ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ الصَّاحِبِ ، تَنْهَزِمُ أَبَدًا لِتَرْجِعَ أَبَدًا .  
لَا يَهْزِمُ الشَّاطِئُ إِلَّا ذَلِكَ « الْجَامِعُ الْأَزْهَرُ » ، لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُسِخَ مَدْرَسَةً !  
فَصَرْخَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ قَلْبِ الْأَزْهَرِ الْقَدِيمِ ، تَجْعَلُ هَدِيرَ الْبَحْرِ كَأَنَّهُ تَسْبِيحٌ .  
وَتَرُدُّ الْأَمْوَاجَ نَقِيَّةً بَيْضَاءَ<sup>(١)</sup> ، كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الْعُلَمَاءِ .

وَتَأْتِي إِلَى الْبَحْرِ بِأَعْمِدَةِ الْأَزْهَرِ لِلْفَضْلِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .  
وَلِكَيْتِي أَرَى زَمَنًا قَدْ نَقَلَ حَتَّى إِلَى الْمَدَارِسِ رُوحَ « الْكَارِزْنُو »<sup>(٢)</sup> ... !  
يَا لُحُومَ الْبَحْرِ ! سَلِّحِي مِنْ ثِيَابِكَ جَزَارًا ... !

\* \* \*

هُنَا عَلَى رَغَمِ الْأَدَابِ ، مَمْلَكَةٌ لِلصَّنْفِ وَالْقَيْظِ ، سُلْطَانُهَا الْجِسْمُ الْمُؤَنَّثُ الْعَارِي .  
أَجْسَامٌ تَعْرِضُ مَقَاتِلَهَا عَرْضَ الْبَضَائِعِ ؛ فَالشَّاطِئُ حَانُوثٌ لِلزَّوْاجِ !  
وَأَجْسَامٌ تَعْرِضُ أَوْضَاعَهَا كَأَنَّهَا فِي غُرْفَةِ نَوْمِهَا لَا فِي الشَّاطِئِ ...  
وَأَجْسَامٌ جَالِسَةٌ لِعَظِيمِهَا ، تُحِيطُ بِهَا مَعَانِيهَا مُلْتَمِسَةً مَعَانِيَهُ ؛ فَالشَّاطِئُ سُوقٌ لِلرَّقِيقِ ...  
وَأَجْسَامٌ خَفِرَةٌ جَالِسَةٌ لِلشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ ؛ فَالشَّاطِئُ كَذَارٍ الْكُفْرِ لِمَنْ أُكْرِهَ<sup>(٣)</sup> .  
وَأَجْسَامٌ عَلِيْلَةٌ تَقْتَحِمُهَا الْأَغْنُ فَرْدَرِيهَا ، لِأَنَّهَا جَعَلَتِ الشَّاطِئَ مُسْتَشْفَى ... !  
وَأَجْسَامٌ خَلِيعَةٌ أَصَافَتْ مِنْ (أَسْتَانِلِي) وَأَخَوَانِهَا إِلَى مَنَارَةِ أَسْكَندَرِيَّةَ ، وَمَكْتَبَةِ  
أَسْكَندَرِيَّةَ - مَرْبَلَّةَ أَسْكَندَرِيَّةَ ...

(١) يَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْوُصْفِ خَطَأٌ ، وَأَنَّ الصَّوَابَ أَنْ يُقَالَ « يَبْضُ » ، وَلَسْنَا مِنْ هَذَا الرَّأْيِ ، وَقَدْ غَلِطَ فِيهِ الْمُبَرِّدُ وَمَنْ تَابَعُوهُ ، لِعَقْلِيَّتِهِمْ عَنِ السَّرِّ فِي بَلَاغَةِ الْأَسْتِعْمَالِ مَرَّةً فِي الْوُصْفِ بِالْمُفْرَدِ ، وَمَرَّةً فِي الْوُصْفِ بِالْجَمْعِ .

(٢) الكازينو Casino : منتدى عام للترفيه والقمار . بسام .

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : « ... إِنْ آمَنَ أَكْثَرُ قُلُوبٍ مُطْمَئِنِّينَ بِإِلَهِمَنْ » (١٦ سورة النحل / الآية : ١٠٦) .

كَانَ جِدَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الشُّفُورِ ، فَأَصْبَحَ الْآنَ فِي الْعُرَى .  
فَإِذَا تَطَوَّرَ ، فَمَاذَا بَقِيَ مِنْ تَقْلِيدِ أُوْرَثَةٍ إِلَّا الْجِدَالُ فِي شَرْعِيَّةِ جَمْعِ الْمَرْأَةِ بَيْنَ الزَّوْجِ  
وَشِبْهِ الزَّوْجِ<sup>(١)</sup> ؟ .

\* \* \*

أَنْتَهَى مَا اسْتَطَعْتُ تَرْجَمَتُهُ ، بَعْدَ الرُّجُوعِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقَصِيدَةِ إِلَى بَعْضِ الْقَوَائِمِ  
الْحَيَّةِ ... إِلَى بَعْضِ شُبَّانِ الشَّاطِئِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

قَصِيدَةُ مُتَرْجِمَةٍ { عَنِ الْمَلِكِ } :

أَحْذَرِي (\*) ... !

تَرْجَمْنَا عَنِ الشَّيْطَانِ قَصِيدَةَ « لُحُومِ الْبَحْرِ » . وَهَذِهِ تَرْجَمَةٌ عَنْ أَحَدِ الْمَلَايِكَةِ ؛ رَأَيْتُ  
جَالِسًا تَحْتَ اللَّيْلِ وَقَدْ أَجْمَعْتُ أَنْ أَضَعُ كَلِمَةً لِلْمَرْأَةِ الشَّرْقِيَّةِ فِيمَا تُحَاذِرُهُ أَوْ تَتَوَجَّسُ مِنْهُ  
الشَّرُّ ؛ فَتَخَالِلُ الْمَلِكُ بِأَضْوَائِهِ فِي الضُّوءِ ، وَسَخَّ لِي بِرُوحِهِ ، وَبَثَّ فِيَّ مِنْ سِرِّهِ

(١) يُسَمَّى هَذَا فِي اللُّغَةِ الضَّمْدُ يَفْتَحُ الضَّادَ وَالْيَمِينُ ، وَهُوَ أَنْ يُخَالَلَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ وَلَهَا زَوْجٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُ  
الشَّاعِرِ [أَبِي دُوَيْبٍ الْهَذَلِي مِنَ الطَّوِيلِ] :

تُرِيدِينَ كَيْمَا تَضْمَدِينَني وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيَحْكُ فِي غَمْدِ  
وَمِنْ هَذَا يُقَالُ فِي الرَّجُلِ : ذَاقَ الضَّمَادَ (يَكْسِرُ الضَّادَ) أَيِ : ذَاقَ الطَّعْمَ الَّذِي وَصَفَهُ أَنَا نُوَلِّ قُرَاسَ  
[Anatole France ( ١٨٤٤ - ١٩٢٤ ) ... الروائي والشاعر الفرنسي ، غلب على أدبه التهكم  
اللاذع ، وتمييز بيانه بالنصاعة والوضوح . منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٢١ ] .

(\*) « الرسالة » العدد : ٧٢ ، ١١ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩ نوفمبر / تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ،  
السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٨٣ - ١٨٨٥ .

إِلَهِيّ ؛ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي قَلْبِي إِلَى فَجْرِ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ يَتَّبِعُ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَيُشْرِقُ مَعْنَى مَعْنَى ، وَيَسْتَطِيزُ جُمْلَةً جُمْلَةً ، حَتَّى اجْتَمَعَتِ الْفَصِيدَةُ وَكَأَنَّمَا سَافَرْتُ فِي حُلْمٍ مِنَ الْأَخْلَامِ فَجِئْتُ بِهَا .

وَأَنْطَلَقَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَتَرَكَهَا فِي يَدَي لُغَةٍ مِنْ طَهَارَتِهِ لِلْمَرْأَةِ الشَّرْقِيَّةِ فِي مَلَأِيكِيَّهَا :

\* \* \*

### أَحْذَرِي ... !

أَحْذَرِي أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ وَبَالِغِي فِي الْحَذَرِ ، وَأَجْعَلِي أَحَصَّ طِبَاعِكَ الْحَذَرَ وَخَدَهُ .  
أَحْذَرِي تَمَدُّنَ أَوْرَبَةٍ أَنْ يَجْعَلَ فَضِيلَتِكَ ثَوْبًا يُوَسِّعُ وَيُضَيِّقُ ؛ فَلُبْسُ الْفَضِيلَةِ عَلَى ذَلِكَ هُوَ لُبْسُهَا وَخَلْعُهَا ...

أَحْذَرِي فَتَهُمُ الْأَجْتِمَاعِيِّ الْخَبِيثِ الَّذِي يَفْرِضُ عَلَى النِّسَاءِ فِي مَجَالِسِ الرِّجَالِ أَنْ تُؤَدِّيَ أَجْسَامُهُنَّ ضَرْبَةَ الْفَنِّ ...

أَحْذَرِي تِلْكَ الْأُنُوثَةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ الظَّرِيفَةَ ؛ إِنَّهَا أَنْتِهَاءُ الْمَرْأَةِ بِغَايَةِ الظَّرْفِ وَالرَّقَّةِ إِلَى ... إِلَى الْفَضِيحَةِ .

أَحْذَرِي تِلْكَ النِّسَاءِيَّةَ<sup>(١)</sup> الْغَزَلِيَّةَ ؛ إِنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا تَرْخِيصُ اجْتِمَاعِيٍّ لِلْحَرَّةِ أَنْ ... أَنْ تَشَارِكَ الْبَغِيَّ فِي نِصْفِ عَمَلِهَا .

أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

\* \* \*

أَحْذَرِي التَّمَدُّنَ الَّذِي اخْتَرَعَ لِقَتْلِ لَقَبِ الزَّوْجَةِ الْمُقَدَّسِ ، لَقَبِ « الْمَرْأَةِ الثَّانِيَةِ » ...  
وَاخْتَرَعَ لِقَتْلِ لَقَبِ الْعَذْرَاءِ الْمُقَدَّسِ ، لَقَبِ « نِصْفِ عَذْرَاءٍ » ...

(١) نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ : النِّسَاءِيَّةَ وَالنِّسْوَةَ ، وَكِلَاهُمَا عِنْدَنَا صَحِيحٌ ، وَالْاِخْتِيَارُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَصَحِّ فِي مَوْقِعِهِ .

وَاخْتَرَعَ لِقَتْلِ دِينِيَّةِ مَعَانِي الْمَرْأَةِ ، كَلِمَةَ « الْأَدَبِ الْمَكْشُوفِ » ...  
وَأَنْتَهَى إِلَى اخْتِرَاعِ السُّرْعَةِ فِي الْحُبِّ ... فَأَكْتَفَى الرَّجُلُ بِرُوحَةِ سَاعَةٍ ...  
وَالِإِلَى اخْتِرَاعِ اسْتِفْلَالِ الْمَرْأَةِ ، فَجَاءَ بِالَّذِي أَسْمُهُ (الْأَب) مِنَ الشَّارِعِ ، لِتُلْفِي بِالَّذِي أَسْمُهُ (الْأَبْنُ) إِلَى الشَّارِعِ ...  
أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

\* \* \*

أَحْذَرِي وَأَنْتِ اللَّجُمُ الَّذِي أَضَاءَ مِنْذُ الْبُيُوتِ ، أَنْ تُقْلِدِي هَذِهِ الشَّمْعَةَ الَّتِي أَضَاءَتْ مِنْذُ قَلِيلٍ .

إِنَّ الْمَرْأَةَ الشَّرْقِيَّةَ هِيَ اسْتِمْرَارُ مُتَّصِلٍ لِأَدَابِ دِينِهَا الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ .  
هِيَ دَائِمًا شَدِيدَةُ الْحِفَاطِ حَارِسَةٌ لِحَوَرَتِهَا ؛ فَإِنَّ قَانُونَ حَيَاتِهَا دَائِمًا هُوَ قَانُونَ الْأُمُومَةِ الْمُقَدَّسِ .

هِيَ الظُّهْرُ وَالْعِفَّةُ ، هِيَ الْوَفَاءُ وَالْأَنَفَةُ ، هِيَ الصَّبْرُ وَالْعَزِيمَةُ ، هِيَ كُلُّ فَضَائِلِ الْأُمِّ .  
فَمَا هُوَ طَرِيقُهَا الْجَدِيدُ فِي الْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ ، إِلَّا طَرِيقُهَا الْقَدِيمُ بِعَيْنِهِ ؟  
أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

\* \* \*

أَحْذَرِي (وَيْحَاكِ) تَقْلِيدَ الْأُورُوبِيَّةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي دُنْيَا أَغْصَابِهَا مَحْكُومَةٌ بِقَانُونِ أَخْلَامِهَا ...

لَمْ تَعُدْ أُنُوثَتُهَا حَالَةً طَبِيعِيَّةً نَفْسِيَّةً فَقَطْ ، بَلْ حَالَةً عَقْلِيَّةً أَيْضًا تَشْكُ وَتُجَادِلُ ...  
أُنُوثَةٌ تَفَلَسَّفَتْ فَرَأَتْ الزَّوْاجَ يَصِفُ الْكَلِمَةَ فَقَطْ ... وَالْأُمُّ يَصِفُ الْمَرْأَةَ فَقَطْ ...  
وَيَا وَيْلَ الْمَرْأَةِ حِينَ تَتَفَجَّرُ أُنُوثَتُهَا بِالْمُبَالَغَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، فَتَتَفَجَّرُ بِالذَّوَاهِي عَلَى الْفَضِيلَةِ ...

إِنَّهَا بِذَلِكَ حُرَّةٌ مُسَاوِيَةٌ لِلرَّجُلِ ، وَلَكِنَّهَا بِذَلِكَ لَيْسَتْ إِلَّا نَثَى الْمَحْدُودَةِ بِفَضِيلَتِهَا ...

أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

\* \* \*

أَخَذَرِي حَجَلَ الْأُورُبِّيَّةِ الْمُرَجَّلَةِ مِنَ الْإِفْرَارِ بِأُتُونِيهَا .

إِنَّ حَجَلَ الْأُنْثَى مِنْ أَنَّهَا أَنْثَى يَجْعَلُ فَضِيلَتَهَا تَحْجَلُ مِنْهَا ...

إِنَّهُ يَنْقُطُ حَيَاءُهَا وَيَكْسُو مَعَانِيهَا رُجُولَةً غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ .

إِنَّ هَذِهِ الْأُنْثَى الْمُرَجَّلَةَ تَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ نَظْرَةَ رَجُلٍ إِلَى أَنْثَى ...

وَالْمَرْأَةُ تَعْلُو بِالزَّوْاجِ دَرَجَةَ إِنْسَانِيَّةٍ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَكْدُوبَةُ تَنْحَطُّ دَرَجَةَ إِنْسَانِيَّةٍ

بِالزَّوْاجِ .

أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

\* \* \*

أَخَذَرِي تَهَوُّسُ الْأُورُبِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْمُسَاوَاةِ بِالرَّجُلِ .

لَقَدْ سَاوَتْهُ فِي الدَّهَابِ إِلَى الْخَلَاقِ ، وَلَكِنْ الْخَلَقَ لَمْ يَجِدْ فِي وَجْهِهَا اللَّحْيَةَ ...

إِنَّهَا خُلِقَتْ لِتَخَيَّبِ الدُّنْيَا إِلَى الرَّجُلِ ، فَكَانَتْ بِمُسَاوَاتِهَا مَادَّةً تَبْغِيضٍ .

الْعَجِيبُ أَنَّ سِرَّ الْحَيَاةِ يَأْبَى أَبَدًا أَنْ تَسَاوَى الْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ إِلَّا إِذَا خَسِرَتْهُ .

وَالْأَعْجَبُ أَنَّهَا حِينَ تَخْضَعُ ، يَرْفَعُهَا هَذَا السَّرُّ ذَاتُهُ عَنِ الْمُسَاوَاةِ بِالرَّجُلِ إِلَى السِّيَادَةِ

عَلَيْهِ .

أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

\* \* \*

أَخَذَرِي أَنْ تَخْسِرِي الطَّبَاعَ الَّتِي هِيَ الْأَلَكِيُّ بِأَمْ أَنْجَبَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي الشَّرْقِ .

أَمْ عَلَيْهَا طَابِعُ النَّفْسِ الْجَمِيلَةِ ، تَنْشُرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ جَوْ نَفْسِهَا الْعَالِيَةِ .

فَلَوْ صَارَتِ الْحَيَاةُ غَيْمًا وَرَعْدًا وَبَرْقًا ، لَكَانَتْ هِيَ فِيهَا الشَّمْسُ الطَّالِعَةُ .

وَلَوْ صَارَتِ الْحَيَاةُ قَيْظًا وَحَرُورًا وَآخِيتَانَا ، لَكَانَتْ هِيَ فِيهَا النَّسِيمُ يَنْخَطِرُ .

أَمْ لَا تَبَالِي إِلَّا أَخْلَاقَ الْبُطُولَةِ وَعَزَائِمَهَا ، لِأَنَّ جَدَاتِهَا وَلَذَنَ الْأَبْطَالَ .

أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

\* \* \*

أَخَذَرِي هَلْؤَلَاءِ الشُّبَّانِ الْمُتَمَدِّنِينَ بِأَكْثَرِ مِنَ التَّمَدُّنِ ...

يُبَالِغُ الْخَبِيثُ فِي زِينَتِهِ ، وَمَا يَذَرِي أَنَّ زِينَتَهُ مُغْلِبَةٌ أَنَّهُ إِنْسَانٌ مِنَ الظَّاهِرِ .

وَيُبَالِغُ فِي عَرْضِ رُجُولَتِهِ عَلَى الْفَتَيَاتِ ، يُحَاوِلُ إِنْقَاطَ الْمَرْأَةِ الرَّاقِدَةِ فِي الْعَذْرَاءِ

الْمُسْكِينَةِ !

لَيْسَ لَامْرَأَةٍ فَاضِلَةٌ إِلَّا رَجُلُهَا الْوَاحِدُ ؛ فَالرِّجَالُ جَمِيعًا هُمْ مَصَائِبُهَا إِلَّا وَاحِدًا .

وَإِذَا هِيَ خَالَطَتِ الرِّجَالَ ، فَالطَّبِيعِيُّ أَنَّهَا تُخَالِطُ شَهَوَاتٍ ، وَيَجِبُ أَنْ تَحْذَرَ وَتُبَالِغَ .

أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

\* \* \*

أَخَذَرِي ! فَإِنَّ فِي كُلِّ امْرَأَةٍ طَبَائِعَ شَرِيفَةٍ مُتَهَوِّرَةٍ ؛ وَفِي الرِّجَالِ طَبَائِعَ خَسِيسَةٍ

مُتَهَوِّرَةٍ .

وَحَقِيقَةُ الْحِجَابِ أَنَّهُ الْفَضْلُ بَيْنَ الشَّرَفِ فِيهِ الْمَيْلُ إِلَى التُّرُولِ ، وَبَيْنَ الْخِسَّةِ فِيهَا

الْمَيْلُ إِلَى الصُّعُودِ .

فِيكَ طَبَائِعُ الْحُبِّ ، وَالْحَتَانِ ، وَالْإِيثَارِ ، وَالْإِخْلَاصِ ، كُلَّمَا كَثُرَتْ كَثُرَتْ .

طَبَائِعُ خَطَرَةٍ ، إِنْ عَمِلْتَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... جَاءَتْ بِعَكْسِ مَا تَعْمَلُهُ فِي مَوْضِعِهَا .

فِيهَا كُلُّ الشَّرَفِ مَا لَمْ تَنْحَدِغْ ، فَإِذَا انْحَدَعْتَ فَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا كُلُّ الْعَارِ .

أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

\* \* \*

أَحْذَرِي كَلِمَةَ شَيْطَانِيَّةَ تَسْمَعِينَهَا : هِيَ فِتْنَةُ الْجَمَالِ أَوْ فِتْنَةُ الْأَنْوَةِ<sup>(١)</sup> .  
وَأَفْهَمِيهَا أَنْتِ هَكَذَا : وَاجِبَاتُ الْأَنْوَةِ وَوَاجِبَاتُ الْجَمَالِ .  
بِكَلِمَةٍ يَكُونُ الْإِخْسَاسُ فَاسِدًا ، وَبِكَلِمَةٍ يَكُونُ شَرِيفًا .  
وَلَا يَتَسَقَطُ الرَّجُلُ أَمْرًا إِلَّا فِي كَلِمَاتٍ مُرَيَّةٍ مِثْلِهَا ...  
يَجِبُ أَنْ تَسْلَخَ الْمَرْأَةُ مَعَ نَظَرَاتِهَا ، بِنَظَرَةٍ غَضَبٍ وَنَظَرَةٍ احْتِقَارٍ .  
أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

\* \* \*

أَحْذَرِي أَنْ تُخْذَعِي عَنْ نَفْسِكَ ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ أَشَدُّ أَفْتِقَارًا إِلَى الشَّرَفِ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ .  
إِنَّ الْكَلِمَةَ الْخَادِعَةَ إِذْ تُقَالُ لَكَ ، هِيَ أَخْتُ الْكَلِمَةِ الَّتِي تُقَالُ سَاعَةً إِنْفَازِ الْحُكْمِ  
لِلْمَخْكُومِ عَلَيْهِ بِالشَّنَقِ ...  
يَغْتَرُونَكَ بِكَلِمَاتِ الْحُبِّ وَالزَّوْاجِ وَالْمَالِ ، كَمَا يُقَالُ لِلصَّاعِدِ إِلَى الشُّنَاقَةِ<sup>(٢)</sup> : مَاذَا  
تَشْتَهِي ؟ مَاذَا تُرِيدُ ؟  
الْحُبُّ ؟ الزَّوْاجُ ؟ الْمَالُ ؟ هَلْ هِيَ صَلَاةُ الثَّلَعَلِ حِينَ يَنْظَاهِرُ بِالتَّقْوَى أَمَامَ  
الدَّجَاجَةِ ...  
الْحُبُّ ؟ الزَّوْاجُ ؟ الْمَالُ ؟ يَا لَحَمَ الدَّجَاجَةِ ! بَعْضُ كَلِمَاتِ الثَّلَعَلِ هِيَ أَنْيَابُ  
الثَّلَعَلِ ...  
أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي .

\* \* \*

(١) فِي الْأَصْلِ : « قِيَمَةُ الْجَمَالِ أَوْ قِيَمَةُ الْأَنْوَةِ » بَدَلًا مِنْ : « فِتْنَةُ الْجَمَالِ أَوْ فِتْنَةُ الْأَنْوَةِ » .

(٢) كَلِمَةُ « الْمِشْنَقَةِ » لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً ، وَلَكِنْ لَهَا وَجْهٌ فِي الْأَشْتِقَاقِ ، غَيْرَ أَنَّ كَثْرَةَ مِثْلِهَا تَجْعَلُهَا  
ثَقِيلَةً ، وَكَانَ اسْمُهَا قَدِيمًا « الشُّنَاقَةُ » ، ذَكَرَهَا يَاقُوتٌ فِي « مُعْجَمِ الْأَدْبَاءِ » ، وَهِيَ أَفْصَحُ وَأَخْفُ ،  
فَلَمَّا الشُّنَاقَةُ بَعْدَ هَذَا نَشْنُ الْمِشْنَقَةَ ...

أَحْذَرِي الشَّقُوطَ ! إِنَّ شَقُوطَ الْمَرْأَةِ لِهَوْلِهِ وَشِدَّتِهِ ثَلَاثُ مَصَائِبَ فِي مُصِيبَتِهِ :  
شَقُوطُهَا هِيَ ، وَشَقُوطُ مَنْ أَوْجَدُوهَا ، وَشَقُوطُ مَنْ تَوَجَّدُوهُمْ !  
نَوَائِبُ الْأُسْرَةِ كُلُّهَا قَدْ يَسْتَرْهَا الْبَيْتُ ، إِلَّا عَارَ الْمَرْأَةِ .  
فَيْدُ الْعَارِ ثَقَلِبُ الْحَيَاطَانِ كَمَا ثَقَلِبُ أَلْيَدِ الثُّوبِ فَتَجْعَلُ مَا لَا يُرَى هُوَ مَا يُرَى .  
وَالْعَارُ حُكْمٌ يَنْقُذُهُ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ ، فَهُوَ نَفْيٌ مِنَ الْإِخْتِرَامِ الْإِنْسَانِيِّ .  
أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

\* \* \*

لَوْ كَانَ الْعَارُ فِي بَيْتِ عَمِيقَةٍ لَقَلَبَهَا الشَّيْطَانُ مِنْدَنَةً وَوَقَفَ يُؤَدِّنُ عَلَيْهَا .  
يَفْرَحُ اللَّعِينُ بِفَضِيحَةِ الْمَرْأَةِ خَاصَّةً ، كَمَا يَفْرَحُ أَبٌ غَنِيٌّ بِمَوْلُودٍ جَدِيدٍ فِي بَيْتِهِ ...  
وَاللَّصُّ ، وَالْقَاتِلُ ، وَالسَّكَّيرُ ، وَالْفَاسِقُ ، كُلُّ هَؤُلَاءِ عَلَى ظَاهِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَالْحَرِّ  
وَالْبَرْدِ .  
أَمَّا الْمَرْأَةُ حِينَ تَسْقُطُ ، فَهَلْ هِيَ مِنْ تَحْتِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الزَّلْزَلَةُ .  
لَيْسَ أَفْطَحُ مِنَ الزَّلْزَلَةِ الْمُرْتَجَّةِ تَشَقُّ الْأَرْضَ ، إِلَّا عَارَ الْمَرْأَةِ حِينَ يَشَقُّ الْأُسْرَةَ .  
{ أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي ! }

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



## الْجَمَالُ الْبَائِسُ (\*)

« وَكَيْفَ يُشْعَبُ صَدْعُ الْحُبِّ فِي كَبِدِي » ، كَيْفَ يُشْعَبُ صَدْعُ الْحُبِّ ؟

لَعَمْرِي مَا رَأَيْتُ الْجَمَالَ مَرَّةً إِلَّا كَانَ عِنْدِي هُوَ الْأَكْمَ فِي أَجْمَلِ صُورِهِ وَأَبْدَعِهَا ؛  
أَتَرَانِي مَخْلُوقًا بِجُرْحٍ فِي الْقَلْبِ ؟

وَلَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةً فِي عَيْنِي ، إِلَّا إِذَا أَحْسَسْتُ جِثْنَ أَنْظُرُ إِلَيْهَا أَنَّ فِي نَفْسِي شَيْئًا  
قَدْ عَرَفَهَا ، وَأَنَّ فِي عَيْنَيْهَا لَحْظَاتٍ مُوجَّهَةً إِلَيَّ ، وَإِنْ لَمْ تَنْظُرْ هِيَ إِلَيَّ .  
فَإِنْبَاتُ الْجَمَالِ نَفْسُهُ لِعَيْنِي ، أَنْ يُنْبِتَ صِدَاقَتَهُ لِرُوحِي بِاللِّمَحَنَةِ الَّتِي تَدُلُّ وَتَتَكَلَّمُ :  
تَدُلُّ نَفْسِي وَتَتَكَلَّمُ فِي قَلْبِي .

\* \* \*

كُنْتُ أَجْلِسُ فِي (إِسْكَندَرِيَّةَ) بَيْنَ الضُّحَى وَالظُّهْرِ ، فِي مَكَانٍ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ،  
وَمَعِيَ صَدِيقِي الْأُسْتَاذُ (ح) <sup>(١)</sup> مِنْ أَفَاضِلِ رِجَالِ السُّلُوكِ السِّيَاسِيِّ ، وَهُوَ كَاتِبٌ مِنْ ذَوِي  
الرَّأْيِ ، لَهُ أَدَبٌ غَضٌّ وَتَوَادُرٌ وَطَرَائِفٌ ؛ وَفِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ لَا أَعْرِفُ مِثْلَهُ فِي مِثْلِهِ ، قَدْ بَلَغَ  
مَا شَاءَ اللَّهُ قُوَّةً وَتَمَكُّنًا ، حَتَّى لَا حَسَبَ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ قَدْ عَوَّقَبَ فَحَكِمَ عَلَيْهِ أَنْ  
يَكُونَ مُحَامِيًا ، ثُمَّ زِيدَ فِي الْحُكْمِ فَجُعِلَ قَاضِيًا ، ثُمَّ ضُوعِفَتِ الْعُقُوبَةُ فَجُعِلَ سِيَاسِيًا . . .

وَهَذَا الْمَكَانُ يَنْقَلِبُ فِي اللَّيْلِ مَسْرَحًا وَمَرْقَصًا وَمَا بَيْنَهُمَا . . . فَيَتَغَاوَى فِيهِ الْجَمَالُ  
وَالْحُبُّ ، وَيَعْرِضُ الشَّيْطَانُ مَصْنُوعَاتِهِ فِي الْهَزَلِ وَالزَّرْقَصِ وَالْعِنَاءِ <sup>(٢)</sup> ، فَإِذَا دَخَلَتْهُ فِي  
النَّهَارِ رَأَيْتُ نُورَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ يُغْسِلُهُ وَيَغْسِلُكَ مَعَهُ ، فَتَجِسُّ لِلنُّورِ هُنَاكَ عَمَلًا فِي نَفْسِكَ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١١٦ ، ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ سبتمبر / أيلول ١٩٣٥ م ،  
السنة الثالثة ، الصفحات : ١٥٢٣ - ١٥٢٦ .

(١) [هو حافظ عامر] .

(٢) ( أَنْظُرْ مَقَالَهَ (لَوْ . . .) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي ، فَقَدْ كُتِبَتْ عَنْ هَذَا الْمَسْرَحِ بَعْضُهُ ) .

وَرَأَيْتُ الْمَكَانَ صَدْرًا مِنَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ نَائِمٌ بَعْدَ سَهَرِ اللَّيْلِ ، فَمَا تَجِئْتُهُ مِنْ سَاعَةٍ بَيْنَ  
الضُّحَى وَالظُّهْرِ ، إِلَّا وَجَدْتُهُ سَاكِئًا هَادِئًا كَالْجِسْمِ الْمُسْتَقِيلِ نَوْمًا ؛ وَلِهَذَا كُنْتُ كَثِيرًا  
مَا أَكْتُبُ فِيهِ ، بَلْ لَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ إِلَّا لِلْكِتَابَةِ .

فَإِذَا كَانَ الظُّهْرُ أَقْبَلَ نِسَاءَ الْمَسْرَحِ وَمَعَهُنَّ مِنْ يُطَارِحُهُنَّ الْأَنَاشِيدَ وَالْحَانِهَا ، وَمَنْ  
يَقْفُهُنَّ فِي الزَّرْقَصِ ، وَمَنْ يُرَوِّيهنَّ مَا يُمَثِّلُنَّ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَتَيْتُهُنَّ بِهِ الْحَيَاةُ لِشَافِطِ  
عَلَيْهِنَّ اللَّيَالِي بِالْمَوْتِ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ .

وَكُنْ إِذَا جِئْتُ رَأَيْتَنِي عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْكِتَابَةِ وَالتَّفَكُّيرِ ، فَيَنْصَرِفُنَّ إِلَى شَأْنِهِنَّ ، إِلَّا  
وَاحِدَةً كَانَتْ أَجْمَلَهُنَّ . وَكَثُرَ هَؤُلَاءِ الْمُسْكِنَاتِ يَطْهَرْنَ لِعَيْنِ الْمُتأملِ ، كَأَنَّ الْمَرْأَةَ مِنْهُنَّ  
مِثْلُ الْعَمْرِ الَّتِي كُسِرَ أَحَدُ قَرْنَيْهَا ، فَهِيَ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا عَلَامَةَ الضَّعْفِ وَالذَّلَّةِ وَالنَّقْصِ  
وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً تَتَبَدَّدُ حِينًا فَلَا تَكُونُ شَيْئًا ، وَتَجْتَمِعُ حِينًا فَتَكُونُ مَرَّةً شَيْئًا مَقْلُوبًا ، وَأُخْرَى  
شَكْلًا نَاقِصًا ، وَتَارَةً هَيْئَةً مُسَوَّاهَ ؛ لَكَانَتْ هِيَ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْكِنَاتِ اللَّوَاتِي  
يَمْشِينَ فِي الْمَسَرَّاتِ إِلَى الْمَخَافِ ، وَيَعِشْنَ { وَلَكِنْ } بِمُقَدِّمَاتِ الْمَوْتِ ، وَيَجِدْنَ فِي  
الْمَالِ مَعْنَى الْفَقْرِ ، وَيَتَلَقَّيْنَ الْكَرَامَةَ فِيهَا لِاسْتِهْزَاءِ ، ثُمَّ لَا يَعْرِفْنَ شَابًا وَلَا رَجُلًا إِلَّا وَقَعَتْ  
عَلَيْهِنَّ مِنْ أَجْلِ لَعْنَةِ أَبِي أَوْ أُمِّ أَوْ زَوْجَةٍ .

\* \* \*

وَتِلْكَ الْوَاحِدَةُ الَّتِي أَوْمَأَتْ إِلَيْهَا كَانَتْ حَزِينَةً مُسَلَّبَةً <sup>(١)</sup> فَكَأَنَّمَا جَذَبَهَا حُزْنُهَا إِلَيَّ ،  
وَكَانَتْ مُفَكَّرَةً فَكَأَنَّمَا هَدَاهَا إِلَيَّ فِكْرُهَا ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً فَدَلَّهَا عَلَيَّ الْحُبُّ ، وَمَا أَذْرِي وَاللَّهِ  
أَنِّي نَفْسِيًّا بَدَأْتُ فَقَالَتُ لِلْأُخْرَى أَهْلًا . . .

وَرَأَيْتُهَا لَا تَصْرِفُ نَظْرَهَا عَنِّي إِلَّا لِتَرْدُهُ إِلَيَّ ، وَلَا تَرُدُّهُ إِلَّا لِتَصْرِفَهُ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُهَا قَدْ جَالَ  
بِهَا الْعَزَلُ جَوْلَةً فِي مَعْرَكَةٍ . . . فَتَسَاغَلْتُ عَنْهَا لَا أُرِيهَا أَنِّي أَنَا الْخَصْمُ الْآخَرُ فِي  
الْمَعْرَكَةِ . . .

بَيَّدْتُ أَنِّي جَعَلْتُ أَخْذُهَا فِي مَطَارِحِ النَّظَرِ ، وَأَتَأَمَّلُهَا خُلُوسَةً بَعْدَ خُلُوسَةٍ فِي ثَوْبِهَا الْحَرِيرِيِّ

(١) يُقَالُ : تَسَلَّطَ الْمَرْأَةُ . إِذَا أَحَدَّتْ ، أُنِي : لَيْسَتْ ثِيَابَ الْحِدَادِ .

الْأَسْوَدُ ، فَإِذَا هُوَ يَشُبُّ لَوْنَهَا <sup>(١)</sup> فَيَجْعَلُهُ يَتَلَاوُ ، وَيُظْهِرُ وَجْهَهَا بِلَوْنِ الْبَدْرِ فِي تَمِّهِ ، وَيُبْدِيهِ لِعَيْنِي أَرْقَ مِنَ الْوَرْدِ تَحْتَ نُورِ الْفَجْرِ .

وَرَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا فِيهِ الْمَرْأَةُ كُلُّهَا بِاخْتِصَارٍ ، يُشْرِقُ عَلَى جِسْمِ بَضِّ أَلْيَنَ مِنْ خَمَلِ النَّعَامِ ، تَعْرِضُ فِيهِ الْأَثَوَةُ فَتُحَا الْكَامِلِ ؛ فَلَوْ خُلِقَ الدَّلَالُ أَمْرًا لَكَانَتْهَا .

وَتَلَوُّحُ لِلرَّائِي مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهَا وَضَعَتْ فِي فَمِهَا (زُرَّ وَرْدٍ) أَحْمَرٌ مُنْضَمًّا عَلَى نَفْسِهِ : شَفَتَانِ تَكَادُ ابْتِسَامَتُهُمَا تَكُونُ نِدَاءً لِشَفَتِي مُجِبًّا ظَمَانٍ ... !

أَمَّا عَيْنَاهَا فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُمَا عَيْنِي أَمْرًا وَلَا ظَبِيَّةً ؛ سَوَادُهُمَا أَشَدُّ سَوَادًا مِنْ عُيُونِ الطُّبَّاءِ ؛ وَقَدْ خُلِقَتَا فِي هَيْئَةٍ ثَبَّتَتْ وَجُودَ السَّحَرِ وَفَعَلَهُ فِي النَّفْسِ ؛ فِيهِمَا الْقُوَّةُ الْوَائِقَةُ أَنَّهَا اللَّائِفَةُ الْأَمْرِ ، يُمَارِجُهَا حَتَّى أَكْثَرَ مِمَّا فِي صَدْرِ أُمٍّ عَلَى طِفْلِهَا ؛ وَتَمَامُ الْمَلَاخَةِ أَنَّهُمَا هُمَا ، بِهِمَا التَّكْحِيلُ ، فِي هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، فِي هَذَا الْوَجْهِ الْقَمَرِيِّ .

يَا خَالِقَ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ! سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ !

\* \* \*

قَالَ الرَّائِي :

وَأَتَعَاظَلُ عَنْهَا أَبَامًا ؛ وَطَالَ ذَلِكَ مَنِيَّ وَسَقَّ عَلَيْهَا ، وَكَأَنِّي صَغَرْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا ، وَأَزْهَقْتُهَا بِمَعْنَى الْخُضُوعِ ، بَيِّنٌ أَنَّ كِبَرِيَاءَهَا أَلْيَنُ أَبْتُ لَهَا أَنْ تُقَدِّمَ ، أَبْتُ عَلَيْهَا كَذَلِكَ أَنْ تَنْهَزِمَ .

وَأَنَا عَلَى كُلِّ أَحْوَالِي إِنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الْجَمَالِ كَمَا اسْتَشْنِي الْعِطْرُ يَكُونُ مُتَضَوِّعًا فِي الْهَوَاءِ : لَا أَنَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَمْسَهُ وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَخَذْتُ مَنِيَّ . ثُمَّ لَا تَدْفَعُنِي إِلَيْهِ إِلَّا فِطْرَةَ الشَّعْرِ وَالْإِحْسَاسِ الرُّوحَانِيَّ ، دُونَ فِطْرَةِ الشَّرِّ وَالْحَيَوَانِيَّةِ <sup>(٢)</sup> ، وَمَتَى أَحْسَسْتُ جَمَالَ الْمَرْأَةِ أَحْسَسْتُ فِيهِ بِمَعْنَى أَكْبَرَ مِنَ الْمَرْأَةِ ، أَكْبَرَ مِنْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مِنْهَا .

(١) أي : يَزِيدُهُ وَيُظْهِرُهُ وَيَجْعَلُهُ أَحْفَلَ بِالْجَمَالِ .

(٢) بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَقْدَمَةِ الثَّانِيَةِ لِكِتَابِنَا : « أَوْرَاقُ الْوَرْدِ » وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، فَلَمْ تَتَوَسَّعْ فِيهِ هُنَا .

قَالَ الرَّائِي :

فَإِنِّي لَجَالِسٌ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَى شَأْنِي مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَبَارِئِي فَتَى رَيْثُ الشَّبَابِ ، فِي الْعُمْرِ الَّذِي تَرَى فِيهِ الْأَعْيُنُ بِالْحِمَاسَةِ وَالْعَاطِفَةِ ، أَكْثَرَ مِمَّا تَرَى بِالْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ ، نَاعِمٌ أَمْلَدُ تَمَّ شَبَابُهُ وَلَمْ تَتِمَّ قُوَّتُهُ ، كَأَنَّمَا نَكَصَتِ الرُّجُولَةُ عَنْهُ إِذْ وَافَتْهُ فَلَمْ تَجِدْهُ رَجُلًا ... أَوْ تِلْكَ هِيَ شَيْمَةُ أَهْلِ الطَّرَفِ وَالْقَصْفِ مِنْ شُبَّانِ الْيَوْمِ : تَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ فَتَعْرِفُ التُّضَجَ فِي نِيَابِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُهُ فِي جَسْمِهِ ، وَتَأْبَى الطَّبِيعَةُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أَنْثَى فَيُجَاهِدُ لِيَكُونَ ضَرْبًا مِنَ الْأُنْثَى ... ! إِنِّي لَجَالِسٌ إِذْ وَافَتِ الْحَسَنَاءُ فَأَوْمَأَتْ إِلَيَّ الْفَتَى بِتَحِيَّيْهَا ، ثُمَّ ذَهَبَتْ فَأَعْتَلْتُ الْمِنْصَةَ مَعَ الْبَاقِيَاتِ ، وَرَقَصْتُ فَأَحْسَنْتُ مَا شَاءَتْ ، وَكَانَ فِي رَفْصِهَا تَغْيِيرًا عَنْ أَهْوَاءِ وَتَرْعَاتٍ تُرِيدُ إِثَارَتَهَا فِي رَجُلٍ مَا ... فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا الْأُسْتَاذِ (ح) : إِنَّ كَلِمَةَ الرَّفْصِ إِنَّمَا هِيَ اسْتِعَارَةٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا ، كَمَا يَسْتَعِزُّ كَلِمَةُ الْحُبِّ لِجَمْعِ الْمَالِ ؛ وَلَا رَفْصَ وَلَا حُبَّ إِلَّا فُجُورٌ وَطَمَعٌ .

ثُمَّ إِنَّمَا فَرَعْتُ مِنْ شَأْنِهَا فَفَرَمْتُ تَتَهَادَى حَتَّى جَاءَتْ فَجَلَسْتُ إِلَى الْفَتَى ... فَقَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) وَكَانَ قَدْ أَلَمَ بِمَا فِي نَفْسِهَا : أَتُرَاهَا جَعَلَتْهُ هَلُمًّا مَحْطَةً ... ؟

قَالَ الرَّائِي : أَمَّا أَنَا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَقَدْ جَاءَ الْمَوْضُوعُ ... وَإِنِّي لَفِي حَاجَةٍ ، أَشَدُّ الْحَاجَةِ ، إِلَى مَقَالَةٍ مِنَ الْمَكْحُولَاتِ ، فَتَفَرَّغْتُ لَهَا أَنْظُرُ مَاذَا تَصْنَعُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ قَلِيلًا مَا يَكُونُ لَهَا فِكْرٌ أَوْ فِلَسْفَةٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْفِكْرَ وَالْفِلَسْفَةَ وَالْمَعَانِي كُلُّهَا تَكُونُ فِي نَظَرِهَا وَابْتِسَامَاتِهَا وَعَلَى جِسْمِهَا كُلِّهِ .

\* \* \*

وَكَانَ فَتَاهَا قَدْ وَضَعَ طُرْبُوشَهُ عَلَى يَدِهِ ؛ فَقَدْ أَنْتَهَيْتَا إِلَى عَهْدٍ رَجَعَ حُكْمُ الطُّرْبُوشِ فِيهِ عَلَى رَأْسِ الشَّابِّ الْجَمِيلِ ، كَحُكْمِ الْبُرْقُعِ عَلَى وَجْهِ الْفَتَاةِ الْجَمِيلَةِ ... فَاسْفَرَّ ذَاكَ مِنْ طُرْبُوشِهِ ، وَاسْفَرَّتْ هَذِهِ مِنْ نِقَابِهَا - قَالَ الرَّائِي : فَمَا جَلَسْتُ إِلَى الْفَتَى حَتَّى أَذْنَتْ رَأْسَهَا مِنَ الطُّرْبُوشِ ، فَاسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ ، فَأَلْصَقَتْ بِهِ خَدَّهَا ...

ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَيْنَا الْيَمَانَةُ الْخُشْفُ الْمَذْعُورِ اسْتَرْوَحَ السَّيِّعُ<sup>(١)</sup> وَوَجَدَ مَقْدَمَاتِهِ فِي الْهَوَاءِ ،  
ثُمَّ أَرْخَتْ عَيْنَيْهَا فِي حَيَاءٍ لَا يَسْتَحْيِي ...

وَأَنْشَأَتْ تَتَكَلَّمُ وَهِيَ فِي ذَلِكَ تُسَارِقُنَا النَّظَرَ ، كَأَنَّ فِي نَاحِيَتِنَا بَعْضَ مَعَانِي كَلَامِهَا ...  
ثُمَّ لَا أَذْرِي مَا الَّذِي تَصَاحَكْتَ لَهُ ، غَيْرَ أَنَّ ضِحْكَتَهَا أَنْشَقَتْ بَصْفَيْنِ ، رَأَيْنَا نَحْنُ  
أَجْمَلَهُمَا فِي نَفْسِهَا ...

ثُمَّ تَزَعَزَعَتْ فِي كُرْسِيِّهَا كَأَنَّهَا تَهْمُ أَنْ تَتَقَلَّبَ ، لِيَتَمَتَّدَ إِلَيْهَا يَدٌ فَتُمْسِكَهَا أَنْ تَتَقَلَّبَ ...  
ثُمَّ تَسَانَدَتْ عَلَى نَفْسِهَا ، كَالْمَرِيضَةِ النَّائِمَةِ تَتَنَاهَضُ مِنْ فِرَاشِهَا فَيَكَادُ يَبْسُ بَعْضُهَا مِنْ  
بَعْضِ<sup>(٢)</sup> ، وَقَامَتْ فَمَشَتْ ، فَحَازَتْهَا ، وَتَجَاوَزَتْهَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَوْضِعِهَا  
مُتَكَسِّرَةً مُتَحَادِلَةً كَأَنَّ فِيهَا قُوَّةَ ثَعْلَبٍ أَلَّا أَنْتَهَتْ ...

\* \* \*

قَالَ الرَّاوِي :

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةَ حُزْنٍ ؛ فَتَغَضَّبْتُ وَأَغْتَاظْتُ ، وَشَاجَرْتُ هَذِهِ الْنَظْرَةَ مِنْ عَيْنَيْهَا  
الدَّعْجَاوِينَ بِنَظَرَاتٍ مُتَهَكِّمَةٍ ، لَا أَذْرِي أَهِيَ تُوبِّخُنَا بِهَا ، أَمْ تَتَهَمَّنَا بِأَنَّكَ أَخَذْنَا مِنْ حُسْنِهَا  
مَجَانًا ... ؟

فَقُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (ح) ، وَأَنَا أَجْهَرُ بِالْكَلَامِ لِيَبْلُغَهَا :

أَمَا تَرَى أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ انْتَكَسَتْ فِي انْتِكَاسِهَا ، وَأَنَّ الدَّهْرَ قَدْ فَسَدَ فِي فَسَادِهِ ، وَأَنَّ الْبَلَاءَ  
قَدْ ضَوْفَعَ عَلَى النَّاسِ ، وَأَنَّ بَقِيَّةَ مِنَ الْخَيْرِ كَانَتْ فِي الشَّرِّ الْقَدِيمِ فَانْتَرَعَتْ ؟

قَالَ : وَهَلْ كَانَ فِي الشَّرِّ الْقَدِيمِ بَقِيَّةٌ خَيْرٍ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي الشَّرِّ الْحَدِيثِ ؟

قُلْتُ : هَلُمَّنَا فِي هَذَا الْمَسْرَحِ قِيَانٌ لَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ... فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ، لَتَنَافَسَ

(١) الْخُشْفُ : وَلَدُ الْغَزَالِ ، يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى . وَاسْتَرْوَحَ السَّيِّعُ : أَيُّ : وَجَدَ رِيحَهُ فِي الْهَوَاءِ  
قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ، وَكَذَلِكَ طَبِيعَةُ الْخَيَوَانِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « مِنْ بَعْضِهَا » بَدَلًا مِنْ : « مِنْ بَعْضِ » .

فِي شِرَائِهَا الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ وَسَرَاهُ النَّاسِ وَأَعْيَانُهُمْ ، فَكَانَ لَهَا فِي عَهَارَةِ الزَّمَنِ صَوْنٌ  
وَكِرَامَةٌ ، وَتَتَقَلَّبُ فِي الْقُصُورِ فَتَجْعَلُ لَهَا الْقُصُورُ حُرْمَةً تَمْنَعُهَا ابْتِدَالَ فَتَّهَا لِكُلِّ مَنْ يَدْفَعُ  
خُمْسَةَ قُرُونٍ ، حَتَّى لِرُذَالِ النَّاسِ وَغَوَايِهِمْ وَسَفَلَتِهِمْ ؛ ثُمَّ هِيَ حِينَ يُذِيرُ شَبَابُهَا تَكُونُ فِي  
دَارِ مَوْلَاهَا حَمِيلَةً عَلَى كَرَمٍ يَحْمِلُهَا ، وَعَلَى مُرُوءَةٍ تَعِيشُ بِهَا .

وَقَدِيمًا أَخَذَتْ سَلَامَةَ الزَّرْقَاءِ فِي قُبْلَتِهَا لَوْلُوتَيْنِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، تَبْلُغُ أَلْفَيِ  
جُنْيَةٍ . فَهَلْ تَأْخُذُ الْقَيْنَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا دَخِينَةً<sup>(١)</sup> بِمِائَتَيْنِ ... ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : مَا أَبْعَدَكَ يَا أَخِي عَنْ (بُورْصَةِ)<sup>(٢)</sup> الْقُبْلَةِ وَأَسْعَارِهَا ... وَلَكِنْ  
مَا خَبِرَ الْوُلُوتَيْنِ ؟

قَالَ الرَّاوِي :

كَانَتْ سَلَامَةُ هَذِهِ جَارِيَةً لِابْنِ رَامِينَ<sup>(٣)</sup> ، وَكَانَتْ مِنَ الْجَمَالِ بِحَيْثُ قِيلَ فِي وَصْفِهَا :  
كَأَنَّ الشَّمْسَ طَالِعَةً مِنْ بَيْنِ رَأْسِهَا وَكَتِفَيْهَا ؛ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهَا فِي مَجْلِسِ غِنَائِهَا الصَّبْرِ فِي  
الْمُلَقَّبِ بِالْمَاجِنِ ، فَلَمَّا أَذِنَتْ لَهُ ، دَخَلَ فَأَقْعَى بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي ثَوْبِهِ فَأَخْرَجَ  
لَوْلُوتَيْنِ ، وَقَالَ : انْظُرِي يَا زَرْقَاءُ جُعِلَتْ فِدَاكِ . ثُمَّ حَلَفَ أَنَّهُ نَقَدَ فِيهِمَا بِالْأَمْسِ أَرْبَعِينَ  
أَلْفَ دِرْهَمٍ . قَالَتْ : فَمَا أَصْنَعُ بِذَاكَ ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمِي ...

ثُمَّ غَنَّتْ صَوْتًا وَقَالَتْ : يَا مَاجِنُ هَهُمَا لِي وَيَحْك . قَالَ : إِنْ شِئْتَ وَاللَّهِ فَعَلْتُ .  
قَالَتْ : قَدْ شِئْتُ . قَالَ : وَالْيَمِينَ الْيَمِينَ حَلَفْتُ بِهَا لِأَزِمَةَ لِي إِنْ أَخَذْتَهُمَا إِلَّا بِشَفَتَيْكَ مِنْ  
شَفَتَيَّ ...

\* \* \*

قَالَ الرَّاوِي :

(١) الدَّخِينَةُ وَضَعْنَاهَا لِلشَّيْجَارَةِ ، وَجَمْعُهَا الدَّخَاوِينُ .

(٢) البورصة Bourse عَلِمَ عَلَى سَوَاقِ الْمَالِ وَالْأَسْهُمِ وَالْبَضَائِعِ ، حَيْثُ يَعْقَدُ فِيهَا الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ عَلَى

الْعُمَلَاتِ الْوَرَقِيَّةِ وَأَسْهُمِ الشَّرَكَاتِ ، وَسِنْدَاتِ الْقُرُوضِ التَّجَارِيَةِ وَالْحُكُومِيَّةِ وَالْبَضَائِعِ .

(٣) سَلَامَةُ هَذِهِ اشْتَرَاهَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ بِمِائَتَيْنِ أَلْفَ دِرْهَمٍ (٤٠٠٠ جُنْيَةٍ) ، كَمَا اشْتَرَى جَارِيَةً أُخْرَى

يُقَالُ لَهَا : رَيْيَحَةُ ، بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

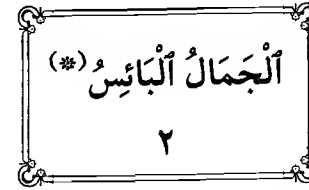
وَرَأَيْتُهَا قَدْ أَذْنَتْ لِي، وَأَنْصَتَتْ لِكَلَامِي، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَسْمَعُنِي أَعْتَدُرُ إِلَيْهَا، وَأَسْتَقْبَلْتُ  
أَنْ لَيْسَ بِي إِلَّا الْخُزْنُ عَلَيْهَا وَالرَّثَاءُ لَهَا، فَبَدَتْ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي أَيَّامِ الْخِذْرِ ...  
ثُمَّ قُلْتُ: نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ سَفِينَهَا، وَلَكِنَّهَا سَفَاهَةٌ فَنٌ ... لَا سَفَاهَةَ عَزِيدَةَ  
وَتَصَعْلُكَ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ.

فَنَظَرْتُ إِلَيَّ نَظْرَةً لَنْ أَنْسَاهَا؛ نَظْرَةً كَأَنَّهَا تَذَمُّعٌ، نَظْرَةً تَقُولُ بِهَا: أَلَسْتُ إِنْسَانَةً؟ فَلَمْ  
أَمْلِكْ أَنْ قُلْتُ لَهَا: تَعَالَي تَعَالَي.

وَجَاءَتْ أَلْحَى مِنَ الْأَمَلِ الْمُعْتَرِضِ سَنَحَتْ بِهِ الْفُرْصَةَ، وَلَكِنْ مَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا  
قَالَتْ؟ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



جَاءَتْ أَلْحَى مِنَ الْأَمَلِ الْمُعْتَرِضِ سَنَحَتْ بِهِ فُرْصَةً؛ وَعَلَى أَنَّهَا لَمْ تَخْطُ إِلَيْنَا إِلَّا خَطْوَةً  
وَتَمَامَهَا، فَقَدْ كَانَتْ تَجِدُ فِي نَفْسِهَا مَا تَجِدُهُ لَوْ أَنَّهَا سَافَرَتْ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَنَقَلَهَا  
الْبُعْدُ النَّازِحُ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ.

يَا عَجَبًا! إِنَّ جُلُوسَ إِنْسَانٍ إِلَى إِنْسَانٍ بِإِزَائِهِ، قَدْ يَكُونُ أَحْيَانًا سَفَرًا طَوِيلًا فِي عَالَمِ  
النَّفْسِ؛ فَهَذِهِ الْحَسَنَاءُ تَعِينُ فِي دُنْيَا فَارِعَةٍ مِنْ خِلَالِ كَثِيرَةٍ: كَالْتَقَوَى، وَالْحَيَاءِ،  
وَالْكَرَامَةِ، وَسُمُومِ الرُّوحِ، وَغَيْرِهَا؛ فَإِذَا عَرَضَ لَهَا مِنْ يُشْعِرُهَا بَعْضَ هَذِهِ الْخِلَالِ،  
وَيَنْتَرِغُهَا مِنْ دُنْيَا أَضْطَرَّارِهَا وَأَخْلَاقِ عَيْشِهَا وَلَوْ سَاعَةً - فَمَا تَكُونُ قَدْ وَجَدَتْ شَخْصًا، بَلْ  
كَشَفَتْ عَالَمًا تَدْخُلُهُ بِنَفْسٍ غَيْرِ النَّفْسِ الَّتِي تُدَبِّرُهَا فِي عَالَمِ رِزْقِهَا ...

(\*) « الرسالة » العدد: ١١٧، ٢ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٣٠ سبتمبر/أيلول ١٩٣٥ م، السنة  
الثالثة، الصفحات: ١٥٦٥ - ١٥٦٨.

وَلَا أَعْجَبُ مِنْ سِحْرِ الْحُبِّ فِي هَذَا الْمَعْنَى؛ فَإِنَّ الْعَاشِقَ لَيَكُونُ حَبِيبُهُ إِلَى جَانِبِهِ،  
ثُمَّ لَا يُحْسِنُ إِلَّا أَنَّهُ طَوَى الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ وَدَخَلَ جَنَّةَ الْخُلْدِ فِي قُبْلَةٍ ...

\* \* \*

جَلَسْتُ إِلَيْنَا كَمَا تَجْلِسُ الْمَرْأَةُ الْكَرِيمَةُ الْخَفِرَةُ: تُعْطِيكَ وَجْهَهَا وَتَبْتَعِدُ عَنْكَ  
بِسَائِرِهَا، وَتُرِيكَ الْغُصْنَ وَتَخْبَأُ عَنْكَ أَزْهَارَهُ. فَرَأَيْنَاهَا لَمْ تَسْتَقْبِلِ الرَّجُلَ مِنَّا بِالْأُنْتَى مِنْهَا  
كَمَا أَعْتَادَتْ؛ بَلِ اسْتَقْبَلَتْ وَاجِبًا بِرِعَايَةٍ، وَتَلَطَّفًا بِحَنَانٍ، وَأَدَبًا مِنْ فَنٍّ بِأَدَبٍ مِنْ فَنٍّ  
آخَرَ؛ وَكَانَ هَذَا عَجِيبًا مِنْهَا؛ فَكَلَّمَهَا فِي ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ (ح)، فَقَالَتْ: أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّا  
تَتَّبِعُ دَائِمًا مَحَبَّةَ مَنْ نُجَالِسُهُمْ، وَهَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ الرَّجُلَ إِلَّا  
فِي الذِّكْرَةِ؛ وَإِنَّمَا نَخُنُ مَعَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَسَوَّمُونَ بِسَيِّمَةِ الرِّجَالِ، كَحِيلَةِ الْمُخْتَالِ عَلَى  
غَفْلَةِ الْمُغْفَلِ؛ وَهُمْ مَعَنَا كَالْقَذَرَةِ بِالثَّمَنِ عَلَى مَا يَشْتَرِيهِ الثَّمَنُ؛ لَيْسُوا عَلَيْنَا إِلَّا قَهْرًا مِنْ  
الْقَهْرِ؛ وَلَسْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا سَلْبًا مِنَ السَّلْبِ، مَادَّةٌ مَعَ مَادَّةٍ، وَشَرٌّ عَلَى شَرٍّ؛ أَمَّا الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَّا  
وَمِنْهُمْ فَقَدْ ذَهَبَتْ أَوْ هِيَ ذَاهِبَةٌ.

قَالَ (ح): وَلَكِنْ ...

فَلَمْ تَدْعُهُ يَسْتَدْرِكُ، بَلْ قَالَتْ: إِنَّ «لَكِنْ» هَذِهِ غَائِبَةٌ الْآنَ ... فَلَا تَجِيءُ فِي  
كَلَامِنَا. أَتُرِيدُ دَلِيلًا عَلَى هَذَا الْإِنْقِلَابِ؟ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ  
مَسَافَةٍ بَيْنَ نَقْطَتَيْنِ؛ وَلَكِنْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِمَّا تَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ الْمَعْوَجَّ هُوَ وَحْدَهُ أَقْرَبُ مَسَافَةٍ بَيْنَهَا  
وَبَيْنَ الرَّجُلِ ...

قَالَتْ: فَإِذَا وَجَدْتَ إِحْدَانَا رَجُلًا بِأَخْلَاقِهِ لَا بِأَخْلَاقِهَا ... رَدَّتْهَا أَخْلَاقُهُ إِلَى الْمَرْأَةِ  
الَّتِي كَانَتْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ، وَزَادَتْهَا طَبِيعَتُهَا الزَّهْوُ بِهَذَا الرَّجُلِ النَّادِرِ، فَتَكُونُ مَعَهُ فِي حَالَةٍ  
كَحَالَةِ أَكْمَلِ امْرَأَةٍ، يَبْدُو أَنَّهُ كَمَا أَلْهَمَ الَّذِي يَسْتَقِظُ وَشَبِيكًا؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ الْكَامِلَ يَكْمُلُ  
بِأَشْيَاءَ، مِنْهَا وَاسْفَا ...! مِنْهَا اتِّبَاعُهُ عَنَّا.

ثُمَّ قَالَتْ: وَصَاحِبُكَ هَذَا مُنْذُ رَأَيْتُهُ، رَأَيْتُهُ كَالْكِتَابِ يَشْغَلُ قَارِئَهُ عَنْ مَعَانِي نَفْسِهِ  
بِمَعَانِيهِ هُوَ ...

وَصَحَحْتُ أَنَا لِهَذَا التَّشْبِيهِ ، فَمَتَى كَانَ الْكِتَابُ عِنْدَ هَذِهِ كِتَابًا يَشْغُلُ بِمَعَانِيهِ ؟ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُهَا قَدْ تَكَلَّمَتْ وَاحْتَفَلَتْ ، وَأَحْسَنْتْ وَأَصَابَتْ ؛ فَتَرَكْتُهَا تَتَحَدَّثُ مَعَ الْأُسْتَاذِ (ح) ، وَغَبْتُ عَنْهُمَا غَيْبَةً فِكْرٍ ، وَأَنَا إِذَا فَكَّرْتُ أَنْطَبِقَ عَلَيَّ قَوْلُهُمْ : خَلَّ رَجُلًا وَشَأْنَهُ . فَلَا يَنْصِلُ بِي شَيْءٌ مِمَّا حَوْلِي . وَكَانَ كَلَامُهَا يَنْطَعُ لِي كَالْمِضْبَاحِ الْكَهْرَبَائِيِّ الْمُتَوَقِّدِ ، فَقَدَّمَهَا فِكْرُهَا إِلَيَّ غَيْرَ مَا قَدَّمْتُهَا إِلَيَّ نَفْسُهَا ، وَرَأَيْتُ لَهَا صُورَتَيْنِ فِي وَفْتٍ مَعًا ، إِحْدَاهُمَا تَعْتَذِرُ مِنَ الْأُخْرَى ...

وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ قَدْ كَتَبْتُ فِي تَذَكُّرَةِ خَوَاطِرِي هَذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي اسْتَوْحَيْتُهَا مِنْهَا ؛ لِأَضَعَهَا فِي مَقَالَةٍ عَنْهَا وَعَنْ أَمْنَالِهَا ، وَهِيَ [ هَذِهِ الْكَلِمَةُ ] :

« إِذَا خَرَجَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ حُدُودِ الْأُسْرَةِ وَشَرِيعَتِهَا ، فَهَلْ بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا الْأَنْثَى مُجَرَّدَةٌ تَجْرِيدُهَا الْحَيَوَانِيُّ الْمُتَكَشِّفُ ، الْمُتَعَرِّضُ لِلْقُوَّةِ الَّتِي تَنَالُهُ أَوْ تَرَعَّبُ فِيهِ ؟ وَهَلْ تَعْمَلُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَالَ هَذِهِ الْأَنْثَى ؟

« وَمَا الَّذِي اسْتَرْعَاها الْاجْتِمَاعُ حِينَئِذٍ فَتَرْعَاهُ مِنْهُ وَتَحْفَظُهُ لَهُ ، إِلَّا مَا اسْتَرْعَى أَهْلُ الْمَالِ أَهْلَ السَّرِقَةِ ؟ إِنَّ اللَّيْلَ يَنْطَوِي عَلَى آفَتَيْنِ : أُولَئِكَ اللَّصُوصِ ، وَهَؤُلَاءِ النِّسَاءِ .

وَكَيفَ تَرَى هَذِهِ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا إِلَّا مُشَوَّهَةً مَا دَامَتْ رَدَائِلُهَا دَائِمًا وَرَاءَ عَيْنَيْهَا ، وَمَا دَامَ بِإِزَاءِ عَيْنَيْهَا دَائِمًا الْأُمَمَاتُ وَالْمُنْخَصَّنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَيْسَ شَأْنُهَا مِنْ شَأْنِهِنَّ ؟ إِنَّ خَيَالَهَا يُخْرِزُ فِي وَغِيهِ صُورَتَهَا الْأَمَاضِيَّةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَزُولَ ، فَإِذَا خَلَّتْ إِلَى نَفْسِهَا كَانَتْ فِيهَا اثْنَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا تَلْعَنُ الْأُخْرَى ، فَتَرَى نَفْسَهَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا تَرَى .

وَهِيَ حِينَ تَطَالُعُ مِرَاتَهَا لِتَبْرِجَ وَتَحْفَظَ فِي زِينَتِهَا ، تَنْظُرُ إِلَى خَيَالِهَا فِي الْمَرْأَةِ بِأَهْوَاءِ الرِّجَالِ لَا بِعَيْنَيْ نَفْسِهَا ، وَلِهَذَا تَبَالُغُ أَشَدَّ الْمُبَالَغَةِ ؛ فَلَا تُعْنَى بِأَنْ تَظْهَرَ جَمِيلَةً كَالْمَرْأَةِ ، بَلْ مُثَمَّرَةً كَالنَّاجِرِ ... وَتَكْشِبُهَا بِجَمَالِهَا يَكُونُ أَوَّلَ مَا تَفَكَّرُ فِيهِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ سُورُورُهَا بِهَذَا الْجَمَالِ إِلَّا عَلَى قَدَرٍ مَا تَكْسِبُ مِنْهُ ؛ بِخِلَافِ الطَّبْعِ الَّذِي فِي الْمَرْأَةِ ، فَإِنَّ سُورُورَهَا بِمَسْحَةِ الْجَمَالِ عَلَيْهَا هُوَ أَوَّلُ فِكْرِهَا وَآخِرُهُ .

إِنَّ السَّاقِطَةَ لَا تَنْظُرُ فِي الْمَرْأَةِ - أَكْثَرَ مَا تَنْظُرُ - إِلَّا أَبْتِغَاءً أَنْ تَتَعَهَّدَ مِنْ جَمَالِهَا وَمِنْ

جَسْمِهَا مَوَاقِعَ نَظَرَاتِ الْفُجُورِ وَأَسْبَابِ الْفِتْنَةِ ، وَمَا يَسْتَهْوِي الرِّجُلَ وَمَا يُفْسِدُ الْعِفَّةَ عَلَيْهِ ؛ فَكَانَ السَّاقِطَةُ وَخَيَالُهَا فِي الْمَرْأَةِ ، رَجُلٌ فَاسِقٌ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ ، لَا امْرَأَةٌ تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهَا ... »

\* \* \*

ذَهَبْتُ أَفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا قَبْلَ سَاعَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَلْبَسَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَجْهَ الْقَاضِي ؛ فَدَخَلْتَنِي رِفْقَةً شَدِيدَةً لِهَذَا الْجَمَالِ الْفَاتِنِ ، الَّذِي أَرَاهُ يَنْتَسِمُ وَحَوْلُهُ الْأَفْدَارُ الْعَابِسَةُ ؛ وَيَلْهُو وَيَبِينُ يَدِيهِ أَيَّامُ الدُّمُوعِ ؛ وَيَجْتَهِدُ فِي اجْتِدَابِ الرِّجَالِ { وَالشَّبَّانِ } إِلَى نَفْسِهِ ، وَالْوَفْتُ آتٍ بِالرِّجَالِ { وَالشَّبَّانِ } الَّذِينَ سَيَجْتَهِدُونَ فِي طَرْدِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ .

وَتَعَشَّانِي الْخُزْنَ ، وَرَأَتْ هِيَ ذَلِكَ وَعَرَفَتْهُ ؛ فَأَخْرَجَتْ مِنْدِيلَهَا الْمُعَطَّرَ وَمَسَحَتْ وَجْهَهَا بِهِ ، ثُمَّ هَزَّتْهُ فِي الْهَوَاءِ ، فَإِذَا الْهَوَاءُ مِنْدِيلٌ مُعَطَّرٌ آخَرُ مَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي ...

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : آه مِنْ الْعِطْرِ ! إِنَّ مِنْهُ نَوْعًا لَا أَسْتَشْبِيهِ مَرَّةً إِلَّا رَدَّنِي إِلَى حَيْثُ كُنْتُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً خَلْتُ ، كَأَنَّمَا هُوَ مُسَجَّلٌ بِزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ فِي دِمَاعِي ...

فَصَحَحْتُ هِيَ وَقَالَتْ : إِنَّ عِطْرَنَا نَحْنُ النِّسَاءُ لَيْسَ عِطْرًا ، بَلْ هُوَ شُعُورٌ نُثْبِتُهُ فِي شُعُورِ آخَرٍ ...

فَقُلْتُ أَنَا : لَا رَيْبَ أَنَّ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْجَمِيلَةَ وَجْهًا غَيْرَ هَذَا .

قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟

قُلْتُ : إِنَّ الْمَرْأَةَ الْمُعَطَّرَةَ الْمُتَزَيَّنَّةَ ، هِيَ امْرَأَةٌ مُسَلَّحَةٌ بِأَسْلِحَتِهَا . أَفَبِي ذَلِكَ رَيْبٌ ؟

قَالَتْ : لَا .

قُلْتُ : فَلِمَاذَا لَا يُسَمَّى هَذَا الْعِطْرُ بِالْعَارَاتِ الْخَائِنَةِ الْغَرَامِيَّةِ ... ؟

فَصَحَحْتُ فَنُونًا ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَتُسَمَّى (الْبُودَرَةُ)<sup>(١)</sup> بِالْأَلْبَانِيَّةِ<sup>(٢)</sup> الْغَرَامِيَّةِ .

(١) البودرة : Poudre : المسحوق ، وتطلق عادة على مسحوق الطلح Talc : سيليكات المغنسيوم

المائية ، يستعمل في مواد التجميل . بسام .

(٢) الديناميت Dynamite : مادة متفجرة مصنوعة من النتروغليسرين ومادة مسائية ؛ اكتشفه ألفريد =

وَتَقَلَّنِي ذَلِكَ إِلَى نَفْسِي مَرَّةً أُخْرَى ، فَأَطَرَفْتُ إِطْرَاقَةً ؛ فَقَالَتْ : مَا بِكَ ؟  
قُلْتُ : بِي كَلِمَةُ الْأَسْتَاذِ (ح) ، إِنَّهَا أَلْهَبَتْ فِي قَلْبِي جَمْرَةً كَانَتْ خَامِدَةً .  
قَالَتْ : أَوْ حَرَكْتَ نُقْطَةَ عَطْرِ كَانَتْ سَاكِتَةً ... !

قُلْتُ : إِنَّ الْحُبَّ يَضَعُ رُوحَانِيَّتَهُ فِي كُلِّ أَشْيَاءِهِ ، وَهُوَ يَغَيِّرُ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ ،  
فَتَغَيِّرُ بِذَلِكَ الْحَالَةَ الْعَقْلِيَّةَ لِلْأَشْيَاءِ فِي وَهْمِ الْمُعْجَبِ . (فِعْطَرُ كَذَا) مَثَلًا ... هُوَ نَوْعٌ شَدِيدٌ  
مِنَ الْعَطْرِ ، طَيِّبُ السَّمِيمِ ، عَاصِفُ الشُّوْبَةِ ، حَادُ الرَّاغِبَةِ ؛ لَكَأَنَّهُ يَنْشُرُ فِي الْجَوِّ رَوْضَةً قَدْ  
مُلِئَتْ بِأَزْهَارِهِ تُشَمُّ وَلَا تُرَى ؟ وَإِنَّهُ لَيَجْعَلُ الرِّمَمَ نَفْسَهُ عَيْقًا بِرِيحِهِ ، وَإِنَّهُ لَيُفْعِمُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ  
طَيْبًا ، وَإِنَّهُ لَيَسْحَرُ النَّفْسَ فَيَحْوِلُ فِيهَا ...

وَهُنَا ضَحِكْتُ وَقَطَعْتُ عَلَيَّ الْكَلَامَ قَائِلَةً : يَظْهَرُ لِي أَنَّ (عِطَرَ كَذَا) هَاجِرٌ أَوْ  
مُخَاصِمٌ ...

قُلْتُ : كَلَّا ، بَلْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا أَنْتَشِفَتْ أَرْجَهُ مَرَّةً إِلَّا حَسْبَتُهُ يَنْفُخُ مِنَ الْجَنَّةِ .

فَمَا أَسْرَعَ مَا تَلَاشَى مِنْ وَجْهَيْهَا الضَّحِكُ وَهَيْئَتُهُ ، وَجَاءَتْ دَمْعَةٌ وَهَيْئَتُهَا . وَلَمَحَتْ فِي  
وَجْهَيْهَا مَعْنَى بَكَيْتْ لَهُ بُكَاءَ قَلْبِي .

جَمَالُهَا ، فَنَتْهَا ، سَحَرَهَا ، حَدِيثُهَا ، لَهْوُهَا ؛ أِهْ حِينَ لَا يَبْقَى لِهَذَا كُلِّهِ عَيْنٌ وَلَا  
أَنْزَرُ ، أِهْ حِينَ لَا يَبْقَى مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا دُنُوبٌ ، وَدُنُوبٌ ، وَدُنُوبٌ !

\* \* \*

وَأَرَدْنَا أَنَا وَ(ح) بِكَلَامِنَا عَنِ الْحُبِّ وَمَا إِلَيْهِ ، أَلَّا نُوحِشَهَا مِنْ إِنْسَانِيَّتِنَا ، وَأَنْ نَبْلَّ  
شَوْقَهَا إِلَى مَا حُرِّمَتْهُ مِنْ قَدْرِهَا قَدَرِ إِنْسَانِيَّةٍ فِيمَا تَنَعَّطَاهُ بَيْنَنَا . وَالْمَرْأَةُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ إِذَا  
طَمِعَتْ فِيمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ وَالْمَتَاعِ - طَمِعَتْ فِي الْأَخْتِرَامِ مِنْ رَجُلٍ  
شَرِيفٍ مُتَعَفِّفٍ ، وَلَوْ أَخْتِرَامَ نَظَرَةٍ ، أَوْ كَلِمَةٍ . تَقْنَعُ بِأَقَلِّ ذَلِكَ وَتَرْضَى بِهِ ؛ فَالْقَلِيلُ مِمَّا

= نوبل Alfred Nobel عام ١٨٦٦ م ، الذي أوصى بثروته التي كسبها من هذا الاختراع لتمويل جائزة  
تساهم على تشجيع العلوم التي تخدم السلام من أدب وطب وكيمياء وفيزياء وخدمة السلام  
والاقتصاد ؛ تكفيرًا عن هذا الاختراع المدمر ! بسلام .

لَا يَذْرُكُ قَلِيلُهُ ، هُوَ عِنْدَ النَّفْسِ أَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي يُنَالُ كَثِيرُهُ .

وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ، لَا تَذَرِينِي أَنْتَ : أَطَافَتْ بِالذَّنْبِ أَمْ طَافَ الذَّنْبُ بِهَا ؟ فَاخْتَرَاهُمَا  
عِنْدَنَا لَيْسَ اخْتِرَامًا بِمَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَالْوُجُومِ أَمَامَ الْمُصِيبَةِ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ رَهْبَةٍ  
الْقَدَرِ وَخُشُوعِ الْإِيمَانِ .

وَلَيْسَتْ امْرَأَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا التَّنَدُّمُ وَالْحَسْرَةُ وَاللَهْفَةُ مِمَّا هِيَ فِيهِ ، وَهَذَا  
هُوَ جَانِبُهُنَّ الْإِنْسَانِي الَّذِي يُنْظَرُ إِلَيْهِ مِنَ النَّفْسِ الرَّفِيقَةِ بِلَهْفَةٍ أُخْرَى ، وَحَسْرَةٍ أُخْرَى ،  
وَنَدَمٍ آخَرَ . كَمْ يَزْحَمُ الْإِنْسَانُ تِلْكَ الزَّوْجَةَ الْكَارِهَةَ الْمُرْغَمَةَ عَلَى أَنْ تَعَاشِرَ مَنْ تَكْرَهُهُ ،  
فَلَا يَزَالُ يَغْلِي دُمُهَا بِوَسَاوِسَ وَالْآمِ مِنَ الْبُغْضِ لَا تَنْقُطُ ! وَكَمْ يَزِيهِ الْإِنْسَانُ لِلزَّوْجَةِ  
الْغَيُورِ ، يَغْلِي دُمُهَا أَيْضًا وَلَكِنْ بِوَسَاوِسَ وَالْآمِ مِنَ الْحُبِّ ! أَلَا فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ مِنْ مِثْلِ  
هَذِهِ الْحَسَنَاءِ تَحْمِلُ عَلَى قَلْبِهَا مِثْلَ هَمِّ مِثَّةِ زَوْجَةٍ كَارِهَةٍ مُرْغَمَةٍ مُسْتَعْبَدَةٍ ، يُخَالِطُهَا مِثْلُ هَمِّ  
مِثَّةِ زَوْجَةٍ غَيُورٍ مُكَابِدَةٍ مُنَافِسَةٍ ؛ وَلَقَدْ تَكُونُ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ سِنِّهَا وَهِيَ مِمَّا  
يُكَابِدُ قَلْبُهَا فِي السَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِ قَلْبِهَا { أَوْ أَكْثَرُ } .

وَهَذِهِ الَّتِي جَاءَتْنَا إِنَّمَا جَاءَتْنَا فِي سَاعَةٍ مِثَّا نَحْنُ لَا مِنْهَا هِيَ ، وَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا لَا فِي  
زَمَانِهَا وَلَا فِي مَكَانِهَا وَلَا فِي أَسْبَابِهَا ، وَقَدْ فَتَحَتْ الْبَابَ الَّذِي كَانَ مُغْلَقًا فِي قَلْبِهَا عَلَى  
الْخَفَرِ وَالْحَيَاءِ ، وَحَوَّلَتْ جَمَالَهَا مِنْ جَمَالِ طَابَعُهَا الرَّذِيلَةِ ، إِلَى جَمَالِ طَابَعُهَا الْفُتَى ،  
وَأَشْعَرَتْ أَفْرَاحَهَا الَّتِي اعْتَادَتْهَا رُوحُ الْحُزْنِ مِنْ أَجْلَلِنَا ، فَأَذْخَلَتْ بِذَلِكَ عَلَى أَخْزَانِهَا الَّتِي  
اعْتَادَتْهَا رُوحُ الْفَرَحِ بِنَا .

مَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّ آدَبَهُ يَكُونُ إِحْسَانًا عَلَى نَفْسٍ مِثْلِ هَذِهِ ثُمَّ لَا يُحْسِنُ بِهِ <sup>(١)</sup> ؟

\* \* \*

تَجَلَّدُ الْحَيَاةُ مَتَى وَجَدَ الْمَرْءُ حَالَةَ نَفْسِيَّةٍ تَكُونُ جَدِيدَةً فِي سُورُورِهَا . وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ

(١) فِي كِتَابِنَا «السَّحَابُ الْأَخْمَرُ» فَضَّلْتُ طَوِيلَ عُنْوَانِهِ «الرَّبِيبَةُ» ، كَتَبْتَاهُ فِي مِثْلِ مَوْضُوعِ «الْجَمَالِ  
الْبَائِسِ» ، غَيْرَ أَنَّهُ يَمْشِي آخَرَ وَمَعَانٍ أُخْرَى . وَالرَّبِيبَةُ هِيَ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي تُقَابِلُ كَلِمَةَ  
Maitresse يُرِيدُ بِهَا الْأَوْزُوبِيُونَ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِأَجْرٍ فِي دَارِ الرَّجُلِ لِتَحِلَّ مَحَلَّ الزَّوْجَةِ ...

الْمُسْكِينَةُ الَّتِي لَا يَغْنِيهَا مِنَ الرَّجُلِ مَنْ هُوَ ؟ وَلَكِنْ كَمْ هُوَ ... ؟ لَمْ تَرَفِينَا نَحْنُ الرَّجُلَ  
الَّذِي هُوَ « كَمْ » ، بَلِ الَّذِي هُوَ « مَنْ » . وَقَدْ كَانَتْ مِنْ نَفْسِهَا الْأُولَى عَلَى بُعْدِ قَصِي  
كَالَّذِي يَمُدُّ يَدَهُ فِي بئرٍ عَمِيقَةٍ لِيَتَنَاوَلَ شَيْئًا قَدْ سَقَطَ مِنْهُ ؛ فَلَمَّا جَلَسَتْ إِلَيْنَا ، اتَّصَلَتْ بِتِلْكَ  
النَّفْسِ مِنْ قُرْبٍ ؛ إِذْ وَجَدَتْ فِي زَمَنِهَا السَّاعَةَ الَّتِي تَصْلُحُ جِسْرًا عَلَى الزَّمَنِ .  
قَالَ الرَّاوي :

كَذَلِكَ رَأَيْتُهَا جَدِيدَةً بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَقُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (ح) : أَمَا تَرَى مَا أَرَاهُ ؟

قَالَ : وَمَاذَا تَرَى ؟ فَأَوْمَأَتْ إِلَيْهَا وَقُلْتُ : هَذِهِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ هَذِهِ . إِنَّ قَلْبَهَا يَنْشُرُ  
الآنَ حَوْلَهَا نُورًا كَالْمِضْبَاحِ إِذَا أَضِيءَ ، وَأَرَاهَا كَالزُّهْرَةِ الَّتِي تَفْتَحُ ؛ هِيَ الَّتِي  
كَانَتْ ، وَلَكِنَّهَا بَغِيرُ مَا كَانَتْ .

فَقَالَتْ هِيَ : إِنِّي أَحْسَبُكَ تُحِبُّنِي ؛ بَلِ أَرَاكَ تُحِبُّنِي ؛ بَلِ أَنْتَ تُحِبُّنِي ... لَمْ يَخْفَ  
عَلَيَّ مِنْذُ رَأَيْتُكَ وَرَأَيْتَنِي .

قُلْتُ : هَبْنِي صَحِيحًا ، فَكَيْفَ عَرَفْتِهِ وَلَمْ أَصَانِعْكَ ، وَلَمْ أَتَمَلَّكْ لَكَ ، وَلَمْ أَرُدْ عَلَى أَنْ  
أَجِيءَ إِلَى هُنَا لِأَكْتُبَ ؟

قَالَتْ : عَرَفْتُهُ مِنْ أَنَّكَ لَمْ تُصَانِعْنِي ، وَلَمْ تَتَمَلَّكْ لِي ، وَلَمْ تَرُدْ عَلَى أَنْ تَجِيءَ إِلَى هُنَا  
لِتَكْتُبَ ...

قُلْتُ : وَيَحَكِ ! لَوْ كُحِلَتْ عَيْنُ (الْمَكْرُسُكُوبِ)<sup>(١)</sup> لَكَانَتْ عَيْنُكَ . وَصَحِحَكُنَا  
جَمِيعًا ؛ ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى الْأُسْتَاذِ (ح) فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْقَضَايَا إِذَا كَثُرَ وَرُودُهَا عَلَى الْقَاضِي  
جَعَلَتْ لَهُ عَيْنًا بَاحِثَةً .

\* \* \*

قَالَ الرَّاوي :

وَأَنْظُرْ إِلَيْهَا ، فَإِذَا وَجْهُهَا الْقَمَرِيُّ الْأَزْهَرُ قَدْ شَرِقَ لَوْنُهُ ، وَظَهَرَ فِيهِ مِنَ الْحَيَاءِ مَا يَظْهَرُ

(١) المَكْرُسُكُوب Microscope ، واشتهر اليوم بالعربية بالمِجْهَر ، يمكن بواسطة الجمع بين عدساته  
المكثِّرة أن تُرى الأشياء أكبر من حجمها الطبيعي . بسام .

مِثْلُهُ عَلَى وَجْهِ الْعَذْرَاءِ الْمُحْدَرَةِ إِذَا أَنْتَ مَسَسْتَهَا بِرِيَّةٍ<sup>(١)</sup> ؛ فَمَا شَكَكَتْ أَنَّهَا السَّاعَةُ أَمْرًا  
جَدِيدَةً قَدْ أَصْطَلَحَ وَجْهَهَا وَحَيَاؤُهَا ، وَهُمَا أَبَدًا مُتَعَادِلَانِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مَكْشُوفَةِ الْعَقَّةِ ...  
وَذَهَبْتُ أَسْتَذِرُكَ وَأَتَأَوَّلُ ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا ذَلِكَ أَرَدْتُ ، وَلَا حَدَسْتُ عَلَى هَذَا  
الظَّنِّ ، وَإِنَّمَا أَنَا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ مُتَأَلِّمٌ بِكَ ، وَهَلْ يَغْرُضُ لَكَ إِلَّا الطَّبَقَةُ النَّظِيفَةُ ... مِنْ  
الْمُجْرِمِينَ وَالْخُبَيَّاءِ وَأَهْلِ الشَّرِّ ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَعَالِيهِمْ فِي دُورِ الْخَلَاعَةِ وَالْمَسَارِحِ ،  
وَأَسَافِلِهِمْ فِي دُورِ الْقَضَاءِ وَالشُّجُونِ ؟

فَقَالَتْ : أَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ لَمْ تُخَسِّنْ قَلْبَ الثُّوبِ ، فَظَهَرَ لِكُلِّ عَيْنٍ أَنَّهُ مَقْلُوبٌ ؛ لَكِنَّكَ  
تُحِبُّنِي ... وَهَذَا كَافٍ أَنْ يَنْهَضَ مِنْهُ عُذْرٌ !

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : إِنَّهُ يُحِبُّكَ ، وَلَكِنْ أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ حُبُّهُ ؟ هَذَا بَابٌ يَضَعُ عَلَيْهِ دَائِمًا  
عِدَّةً مِنَ الْأَقْفَالِ .

قَالَتْ : فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَجِدَ الْمَرْأَةَ عِدَّةً مِنَ الْمَفَاتِيحِ ...

قَالَ : وَلَكِنَّهُ عَاشِقٌ يُبَيِّرُ الْعِشْقَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَكَأَنَّهُ هُوَ وَحَبِيبَتُهُ تَخْتِ أَعْيُنُ النَّاسِ :  
مَا تَطْمَعُ إِلَّا أَنْ تَرَاهُ ، وَمَا يَطْمَعُ إِلَّا أَنْ يَرَاهَا ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا يَزَالُ حُسْنُهَا عَلَيْهِ  
وَلَا يَزَالُ هَوَاهُ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا .

قَالَتْ : إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ .

قَالَ : وَالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ أَنْ لَيْسَ فِي حُبِّهِ شَيْءٌ نِهَائِيٌّ ، فَلَا هَجْرٌ وَلَا وَضَلٌ ؛ يَنْسَاكَ  
بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَلَكِنَّكَ أَبَدًا بَاقِيَةٌ بِكُلِّ جَمَالِكَ فِي نَفْسِهِ . وَالصَّغَائِرُ الَّتِي تُبْكِي النَّاسَ وَتَتَلَدَّعُ  
فِي قُلُوبِهِمْ كَالنَّارِ لِيَجْعَلُوها كَبِيرَةً فِي هَمِّهِمْ وَيُطْفِئُوهَا وَيَنْتَهِيوا مِنْهَا كَكُلِّ شَهَوَاتِ الْحُبِّ -  
تُبْكِيهِ هُوَ أَيْضًا وَتَعْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ ، وَلَكِنَّهَا تَظَلُّ عِنْدَهُ صَغَائِرٌ وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا صَغَائِرٌ ؛ وَهَذَا  
هُوَ تَجْبِيرُهُ عَلَى جَبَّارِ الْحُبِّ .

\* \* \*

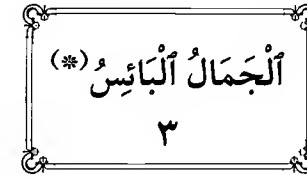
(١) { أَي : لِأَنَّهَا ظَلَّتْ أَنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا أَغْتَادَتِ الرِّجَالَ } .

قَالَ الرَّاوي :

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَظَرْتُ ، وَعَاتَيْتُ نَفْسُ نَفْسًا فِي أَعْيُنِهِمَا ، وَسَأَلَتِ السَّائِلَةُ وَأَجَابَتِ الْمُجِيبَةُ ، وَلَكِنْ مَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ الرَّاوي :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَظَرْتُ : أَنَا هِيَ ، فَرَنْتُ إِلَيَّ فِي سُكُونٍ ، وَكَانَتْ نَظَرُهَا مُعَاتِبَةً طَوِيلَةً فِيهَا التَّمَلُّقُ وَالتَّوَجُّعُ ، وَفِيهَا الْإِنْكَسَارُ وَالْفُتُورُ ، وَفِيهَا الْأَسْتِرْخَاءُ وَالذَّلَالُ .

وَبَيْنَمَا كَانَ طَرَفُهَا سَاجِدًا فَاتِرًا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ أَحْلَامَهُ ، إِذْ حَدَدْنَاهُ إِلَيَّ فَجَاءَ وَنَظَرْتُ نَظْرَةَ مَذْهُوشٍ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهَا فَرَعَتَيْنِ وَلَكِنْ فِي وَجْهِ مُطْمَئِنٍّ .

ثُمَّ لَمْ تَكُذْ تَفْعَلْ حَتَّى صَيِّقَتْ أَجْفَانَهَا وَحَدَقَتْ النَّظَرَ مُتَلَاتِلًا بِمَعَانِيهِ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهَا ضَاحِكَتَيْنِ وَلَكِنْ فِي وَجْهِ مُتَأَلِّمٍ .

ثُمَّ ابْتَسَمَتْ بِوَجْهِهَا وَعَيْنَيْهَا مَعًا ، وَأَتَمَّتْ بِذَلِكَ أَجْمَلَ أَسَالِيْبِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ الْمَحْبُوبَةِ فِي اعْتِرَاضِهَا عَلَى مَنْ تُحِبُّهُ ، وَجِدَالِهَا مَعَ فِكْرِهِ ، وَكَسْرِ حُجَّتِهِ فِي كِبَرِيَانِهِ ، وَأَنْتِزَاعِ الْفِكْرَةِ الْمُسْتَقْلَةِ مِنْ نَفْسِهِ .

وَأَنَا أَنَا ؛ فَكَانَ نَظَرِي إِلَيْهَا سَاكِتًا مُتَأَلِّمًا يُقِرُّ أَنَّهُ عَجَزَ عَنْ جَوَابِ عَيْنَيْهَا ، وَسَيِّقَتِي عَاجِزًا عَنْ جَوَابِ عَيْنَيْهَا ...

(\*) « الرسالة » العدد : ١١٨ ، ٩ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٠٣ - ١٦٠٦ .

إِنَّ وَجْهَهَا هُوَ الْإِبْتِسَامُ وَرُوحُ الْإِبْتِسَامِ ، وَجِسْمُهَا هُوَ الْإِغْرَاءُ وَرُوحُ الْإِغْرَاءِ ، وَفَتْهَا هُوَ الْفِتْنَةُ وَرُوحُ الْفِتْنَةِ ؛ وَهِيَ بِهِذَا كُلِّهِ ، هِيَ الْحُبُّ وَرُوحُ الْحُبِّ ؛ غَيْرَ أَنَّ فَهْمَهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا فِي النَّاسِ يَجْعَلُ ابْتِسَامَهَا عِدَاوَةً مِنْ وَجْهِهَا ، وَإِغْرَاءَهَا جَرِيمَةً لِجِسْمِهَا ، وَفَتْهَا رَذِيلَةٌ فِي جَمَالِهَا ؛ وَهِيَ بِهِذَا كُلِّهِ ، هِيَ الشَّقَاءُ وَرُوحُ الشَّقَاءِ .

\* \* \*

أَمَّا أَنِّي أَحِبُّ فَنَعَمَ وَنَعِمًا ، بَلْ أَرَاهُ حُبًّا فَالِقًا كَبِدِي ، وَلَيْسَ يَخْلُو فُؤَادِي أَبَدًا مِنْ سَوَالِفِ حُبِّ مَضَى ؛ وَأَمَّا أَنِّي أَسْتَزِدُّ فِي الْحُبِّ وَأَمْتَهُنَّ فَضِيلَتِي وَأَنْزِلُ بِهَا ، فَلَا وَأَبَدًا .

إِنَّ ذَلِكَ الْحُبُّ هُوَ عِنْدِي عَمَلٌ فَتَى مِنْ أَعْمَالِ النَّفْسِ ، وَلَكِنَّ الْفَضِيلَةَ هِيَ النَّفْسُ ذَاتُهَا ؛ وَالْحُبُّ أَيَّامٌ جَمِيلَةٌ عَابِرَةٌ فِي زَمَنِي ؛ أَمَّا الْفَضِيلَةُ فَهِيَ زَمَنِي كُلُّهُ ؛ وَذَلِكَ الْجَمَالُ هُوَ قُوَّةٌ مِنْ جَاذِبَةِ الْأَرْضِ فِي مُدَّتِهَا الْقَصِيرَةِ ، وَلَكِنَّ الْفَضِيلَةَ جَاذِبَةُ السَّمَاءِ فِي خُلُودِهَا الْأَبَدِيِّ .

عَلَى أَنَّهُ لَا مُنَافَرَةَ بَيْنَ الْحُبِّ وَالْفَضِيلَةِ فِي رَأْيِي ، فَإِنَّ أَقْوَى الْحُبِّ وَأَمْلَأَهُ بِفَلَسَفَةِ الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا فِي النَّفْسِ الْفَاضِلَةِ الْمُتَوَرِّعَةِ عَنْ مُقَارَفَةِ الْإِنِّمِ . وَهَلْهُنَا يَتَحَوَّلُ الْحُبُّ إِلَى مَلَكَةٍ سَامِيَةٍ فِي إِدْرَاكِ مَعَانِي الْجَمَالِ ، فَيَكُونُ الْوَجْهُ الْمَعْشُوقُ مُصَدِّرَ وَخِي لِلنَّفْسِ الْعَاشِقَةِ ؛ وَبِهِذَا الْوَخِي وَالْأَسْتِمْدَادِ مِنْهُ يَنْزِلُ الْمُحِبُّ مِنَ الْمَحْبُوبِ مَنْرَلَةً مَنْ يَرْتَفِعُ بِالْأَدَمِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ<sup>(١)</sup> ، لِيَتَلَقَّى النَّوْرَ مِنْهَا فَنَّا بَعْدَ فَنٍّ ، وَالْفَرَحَ مَعْنَى بَعْدَ مَعْنَى ، وَالْحُزْنَ السَّمَائِيَّ فَضِيلَةً بَعْدَ فَضِيلَةٍ .

فَهَذَا الْحُبُّ هُوَ طَرِيقَةُ نَفْسِيَّةٍ لَا تَسَاعُ بَغْضِ الْعُقُولِ الْمُهَيَّأَةِ لِلْإِلْهَامِ ، كَيْ تَحِيْطَ بِأَفْرَاحِ الْحَيَاةِ وَأَحْزَانِهَا ، فَتَبْدَعَ لِلدُّنْيَا صُورَةً مِنْ صُورِ التَّعْبِيرِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تُبَيِّرُ أَشْوَاقَ النَّفْسِ ؛ كَأَنَّ كُلَّ مُحِبٍّ وَحَبِيبَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُلْهَمِينَ ، هُمَا صُورَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ ، فِي حَالَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ مَعْنَى تَرْكِ الْجَنَّةِ ، لِإِبْجَادِ الصُّورَةِ الْجَدِيدَةِ مِنَ الْفَرَحِ الْأَرْضِيِّ وَالْحُزَنِ السَّمَائِيِّ .

(١) نَحْنُ لَا نَنْسُبُ لِلْمَلَائِكَةِ إِلَّا عَلَى خِلَافِ الْقَاعِدَةِ الْمُقَرَّرَةِ فِي عِلْمِ الصَّرْفِ ، وَنَرَى أَنَّ مُخَالَفَةَ الْقَاعِدَةِ [ فِي الْأَصْلِ : « أَنْ مُخَالَفَتَهُ » ] هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ { وَفِي الْفَائِظِ أُخْرَى } .



وَالْخَطَرُ فِي الْحُبِّ أَلَّا يَكُونَ فِيهِ خَطَرٌ ... فَهُوَ حَيْثُ نِدَاءُ الْجِنْسِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا دِينَنَا سَاقِطًا مَبْدُولًا ، فَلَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا وَخِي فِيهِ ؛ إِذْ يَكُونُ اخْتِيَالًا مِنْ عَمَلِ الْغَرِيزَةِ جَاءَتْ فِيهِ لَا بِسَةِ ثَوْبِهَا الثُّورَانِي مِنْ شَوْقِ الرُّوحِ لِتَخْدَعِ النَّفْسَ الْأُخْرَى فَيَتَّصِلَ بَيْنَهُمَا ، حَتَّى إِذَا اتَّصَلَ بَيْنَهُمَا خَلَعَتِ الْغَرِيزَةُ هَذَا الثُّوبَ وَاسْتَعْلَنَتْ أَنَّهَا الْغَرِيزَةُ ، فَانْخَصَرَ الْحُبُّ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَبَطَلَتْ أَشْوَاقُهُ الْخَيَالِيَّةُ أَجْمَعُ .

\* \* \*

قَالَ الزَّارَوِيُّ :

وَعَرَفَتِ الْحَسَنَاءُ هَذَا كُلَّهُ مِنْ عَرْضِهَا نَظْرَةً وَتَلَقَّيْهَا نَظْرَةً غَيْرَهَا ، فَقَالَتْ لِلْأُسْتَاذِ (ح) : أَنَا أَنْ يَكُونَ مَعَ أَثَرِ الشُّعْرِ وَالْفِكْرِ فِي الْجَمَالِ وَدَعْوَى الْحُبِّ ، أَثَرُ الزُّهْدِ فِي الْجِسْمِ الْجَمِيلِ وَأَدْعَاءُ الْفَضِيلَةِ - فَإِنْ بَعِيدًا أَنْ يَجْتَمِعَا .

قَالَ (ح) : وَأَيْنَ تُبْعِدُونَهُ وَيَحْكُ عَنْ هَذِهِ الْمُنْزِلَةِ ؟ إِنِّي لِأَعْرِفُ مَنْ هُوَ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا !

قَالَتْ : وَمَاذَا بَقِيَ مِنَ الْعَجَبِ فَتَعْرِفُهُ ؟

قَالَ : أَعْرِفُ رَجُلًا مُتَزَوِّجًا ، أَحَبَّ أَشَدَّ الْحُبِّ وَأَمَضَّهُ ، حَتَّى اسْتَهَامَ وَتَدَلَّه ، فَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَكْتُبُ رِسَالَةً إِلَى حَبِيبَتِهِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ فِيهَا زَوْجَتَهُ ، كَيْلَا يَغْتَدِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ حَقِّهَا . وَزَوْجَتُهُ كَانَتْ أَعْرِفَ بِقَلْبِهِ وَيُحِبُّ هَذَا الْقَلْبَ ، وَهِيَ كَانَتْ أَعْلَمُ أَنَّ حُبَّهُ وَسُلْوَانَهُ إِنَّمَا هُمَا طَرِيقَتَانِ فِي الْأَخْذِ وَالْتِزَاكِ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ الْمَعَانِي ، تَارَةً مِنْ سَبِيلِ الْمَرْأَةِ وَجَمَالِهَا ، وَتَارَةً مِنْ سَبِيلِ الطَّبِيعَةِ وَمَحَاسِنِهَا .

فَتَهَدَّتْ وَقَالَتْ : يَا عَجَبًا ! وَفِي الدُّنْيَا مِثْلُ هَذَا الزَّوْجِ الطَّاهِرِ ، وَفِي الدُّنْيَا مِثْلُ هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْكَرِيمَةِ ؟

ثُمَّ إِنَّهَا وَجَمَتْ هَنِيئَةً تَجَمُّعُ فِي نَفْسِهَا اجْتِمَاعَ السَّحَابَةِ ، ثُمَّ اسْتَدَمَعَتْ ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ عَيْنَيْهَا تَبْكِي ؛ فَبَدَرَتْ أَنَا أَرْفُهُ عَنْهَا حَتَّى كَفَّكَتْ مِنْ دَمْعِهَا ، وَكَأَنَّ (ح) قَدْ وَخَزَهَا فِي قَلْبِهَا وَخَزَةَ أَلِيْمَةً بِذِكْرِهَا الزَّوْجَةَ ، ثُمَّ الزَّوْجَةَ الطَّاهِرَةَ ، ثُمَّ الطَّاهِرَةَ حَتَّى فِي وَسْوَسةِ

شَيْطَانِ الْغَيْرَةِ . أَرْفَعُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِالزَّوْجَةِ ، لِتَرَى هَذِهِ الْمُسْكِينَةَ أَنَّهَا سَلَافَةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ؛ وَكَأَنَّهُ بِهِذَا لَمْ يُكَلِّمَهَا ، بَلْ رَسَمَ لَهَا صُورَتَهَا فِي عَيْشِهَا الْمُخْزِي وَقَالَ لَهَا : أَنْظُرِي ...

\* \* \*

وَيَا مَا كَانَ أَجْمَلَهَا يَتَرَفَّقُ الدَّمْعُ فِي عَيْنَيْهَا الْفَانِتَيْنِ الْكَحِيلَتَيْنِ ، فَيَبْتُ مِنْهُمَا حُزْنًا يُخَيِّلُ لِمَنْ رَأَاهُ ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِهَا سِيُخْزَنُ الْوُجُودُ كُلُّهُ !

لَيْسَ الْبُكَاءُ مِنْ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ بُكَاءٌ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ إِذَا كَانَ مِنَ الْعَاشِقِينَ ، بَلْ هُوَ فَرْحُ الْحُزَنِ يَضَعُ جَمَالًا جَدِيدًا فِي فَنِّ الْحُسْنِ . وَأَكَادُ أَعْجَبُ كَيْفَ وَجَدَ الدَّمْعُ مَكَانًا بَيْنَ الْمَعَانِي الصَّاحِكَةِ فِي وَجْهِهَا ، لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الدَّمْعُ قَدْ جَاءَ لِيُظْهِرَ عَلَى وَجْهِهَا الْفَنَّ الْآخَرَ مِنْ جَمَالِ الْمَعَانِي الْبَاكِيةِ .

\* \* \*

وَسَأَلْتُهَا : مَا الَّذِي خَامَرَ قَلْبِكَ مِنْ كَلَامِ الْأُسْتَاذِ (ح) فَأَبْكَاكِ ، وَأَنْتِ كَمَا أَرَى يَتَأَلَّقُ الثُّورُ عَلَى جُذُرَانِ الْمَكَانِ الَّذِي تُحْلِينَ بِهِ ، فَيُظْهِرُ الْمَكَانَ وَكَأَنَّهُ يَضْحَكُ لَكَ ؟

فَتَشْكِكْتُ لَخِطَّةٍ ثُمَّ قَالَتْ : أَيْلِكَ مَا تَقُولُ أَمْ أَنْتِ تَتَهَكَّمُ بِي ؟

قُلْتُ : كَيْفَ يَخْطُرُ لَكَ هَذَا وَأَنَا أَخْتَرِمُ فِيكَ ثَلَاثَ حَقَائِقَ : الْجَمَالَ ، وَالْحُبَّ ، وَالْأَلَمُ الْإِنْسَانِي ؟

قَالَتْ : لَا تَتَرَبَّصْ عَلَيَّ<sup>(١)</sup> ، وَلَكِنْ صَوِّرْ لِي بِبِلَاعَتِكَ كَيْفَ أَحْبَبْتُكَ وَأَنْتِ غَيْرُ مُتَحَبِّبٍ إِلَيَّ ، وَكَيْفَ جَادَلْتُ نَفْسِي فِيكَ وَدَاوَرْتُهَا عَنْكَ ، وَكُلَّمَا عَزَمْتُ أَنْحَلَّ عَزْمِي ؟ فَهَذَا مَا لَا أَكَادُ أَعْرِفُ كَيْفَ وَقَعَ ، وَلَكِنَّهُ وَقَعَ . هَذِهِ قِطْرَةٌ مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي الْعَذْبِ ، فَضَعُ عَلَيْهَا (الْمِكْرُوسُكُوب) يَا سَيِّدِي ، وَقُلْ لِي مَاذَا تَرَى ؟

قُلْتُ : إِنَّكَ تُخْرِجِينَ مِنَ السُّؤَالِ سُؤَالَ . فَمَا الَّذِي خَامَرَ قَلْبِكَ مِنْ كَلَامِ (ح) فَبَكَيْتِ لَهُ ؟

(١) أَيُّ : لَا عَتَبَ عَلَيْكَ .

قَالَتْ : إِذَا فَلَيْسَتْ هِيَ قَطْرَةٌ مِنَ الْمَاءِ ، بَلْ تِلْكَ دَمْعَةٌ مِنْ دُمُوعِي ، فَضَعَّ عَلَيْهَا الْمَكْرُوسُ كُوبَ يَاسِيَّتِي !

قَالَ الرَّاوي :

وَكَانَتْ حَزِينَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَسْكُتْ عَنِ الْبُكَاءِ إِلَّا بِوَجْهِهَا ، وَبَقِيَتْ رُوحُهَا تَبْكِي فِي دَاخِلِهَا . فَأَرَادَ الْأُسْتَاذُ (ح) أَنْ يَسْتَدْرِكَ لِعَلَطِيهِ الْأَوَّلَى فَقَالَ : إِنَّكَ الْآنَ تَسْأَلِينِي حَقًّا مِنْ حُقُوقِكَ عَلَيْهِ ، فَكُلُّ أَمْرَأَةٍ يُحِبُّهَا هِيَ عَرُوسُ قَلَمِهِ وَلَهَا عَلَى هَذَا الْقَلَمِ حَقُّ التَّفَقُّةِ ...

فَصَحَحَتْ نَوْعًا ظَرِيفًا مِنَ الضَّحِكِ الْفَاتِرِ ، كَأَنَّمَا ابْتَكَرَهُ نَعْرَهَا الْجَمِيلُ لِسَاعَةِ حُزْنِهَا ؛ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ الْأَمْرُ مِنْ نَفَقَةِ الْعَرُوسِ عَلَى الْقَلَمِ فَمَا أَشْبَهَ هَذَا (بِلا شَيْءٍ) جُحَا .

فَصَحَحَتْ أَظْرَفَ مِنْ قَبْلُ ، وَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّ نَعْرَهَا أَنْطَبَقَ بَعْدَ أَفْزَارِهِ عَلَى قُبْلَةٍ أَفْلَتَتْ مِنْهُ فَأَمْسَكَهَا مِنْ آخِرِهَا ...

ثُمَّ قَالَتْ : مَا هُوَ (لَا شَيْءٍ) جُحَا ؟

قُلْتُ : زَعُمُوا أَنَّ جُحَا ذَهَبٌ يَخْتَطِبُ ، وَحَمَلَ فَوْقَ مَا يُطِيقُ ، فَبَهَظَهُ الْحِجْلُ وَبَلَغَ بِهِ الْمَشَقَّةُ ، ثُمَّ رَأَى فِي طَرَفِهِ رَجُلًا أَبْلَهَ فَاسْتَعَانَ بِهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : كَمْ تُعْطِينِي إِذَا أَنَا حَمَلْتُ عَنْكَ ؟ قَالَ : أُعْطِيكَ (لَا شَيْءٍ) . قَالَ : رَضِيتُ .

ثُمَّ حَمَلَ الْأَبْلَهَ وَأَنْطَلَقَ مَعَهُ حَتَّى بَلَغَا الدَّارَ ، فَقَالَ : أُعْطِينِي أَجْرِي . قَالَ جُحَا : لَقَدْ أَخَذْتَهُ . وَاخْتَلَفَا : هَذَا يَقُولُ أُعْطِينِي ، وَهَذَا يَقُولُ أَخَذْتَ ؛ فَلَبَّيْهِ<sup>(١)</sup> الرَّجُلُ وَمَضَى يَرْفَعُهُ إِلَى الْقَاضِي ، وَكَانَ بِالْقَاضِي لُوثَةً ، وَعَلَى وَجْهِهِ رَوْءَةُ الْخُمُ<sup>(٢)</sup> تُخْبِرُكَ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَكَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمَّا سَمِعَ الدَّعْوَى قَالَ لِجُحَا : أَنْتَ فِي الْحَبْسِ أَوْ تُعْطِيهِ (أَلَّا شَيْءً) ...

(١) أَخَذَ بِتَلَابِيهِ .

(٢) اللَّوْثَةُ (بِضَمِّ اللَّامِ) : مَسٌّ مِنَ الْجُنُونِ ، وَتَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى الْخُمُ ، وَرَوْءَةُ الْخُمُ : عَلَامَتُهُ ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي عِلْمِ الْفَرَّاسَةِ .

قَالَ جُحَا فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ اخْتَجْتُ لِعَقْلِي بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَبْلَهَيْنِ ؛ ثُمَّ إِنَّهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَهَا مُطْبَقَةً ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ : تَقَدَّمْ وَأَفْتَحْ يَدِي . فَتَقَدَّمَ وَفَتَحَهَا . قَالَ جُحَا : مَاذَا فِيهَا ؟ قَالَ الرَّجُلُ : (لَا شَيْءَ) .

فَقَالَ لَهُ جُحَا : خُذْ (لَا شَيْئَكَ) وَأَمْنُصْ فَقَدْ بَرِئْتَ ذِمَّتِي .

قَالُوا : فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَخْتِجُ ، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : مَهْ ! أَنْتَ أَفَرَزْتَ أَنَّكَ رَأَيْتَ فِي يَدِهِ (لَا شَيْءَ) ، وَهُوَ أَجْرُكَ ؛ فَخُذْهُ وَلَا تَطْمَعْ فِي أَزِيدَ مِنْ حَقِّكَ ... !

\* \* \*

وَصَحَحَتْ وَصَحَحْنَا ، ثُمَّ قَالَتْ : أَنَا رَاضِيَةٌ أَنْ أَكُونَ عَرُوسَ الْقَلَمِ ، فَلْيُجِرْ عَلَيَّ الْقَلَمُ نَفَقَتِي ، وَلْيُصَوِّرْ لِي كَيْفَ أَحْبَبْتُ ، وَكَيْفَ أَمَرْتُ نَفْسِي وَجَادَلْتُهَا ؟

قُلْتُ : لَا أَنْكَلِمُ عَنْكَ أَنْتَ وَلَا أَسْتَطِيعُهُ . بَيْنَ أَتْنِي لَوْ صَفَّيْتُ رَوَايَةَ يَكُونُ فِيهَا هَذَا الْمَوْقِفُ ، لَوَضَعْتُ عَلَى لِسَانِ الْعَاشِقَةِ هَذَا الْكَلَامَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهَا .

تَقُولُ : كَيْفَ كُنْتُ وَكَيْفَ صِرْتُ ؟ لَقَدْ رَأَيْتَنِي أَعَاشِرُ مِثْلَ رَجُلٍ فَأَخَالِطُهُمْ فِي شَتَّى أَحْوَالِهِمْ ، وَأَصْرَفُهُمْ فِي هَوَايَ ، وَكُلُّهُمْ يَجْهَدُ جُهْدَهُ فِي اسْتِمَالَتِي ، وَكُلُّهُمْ أَهْلُ مَوَدَّةٍ وَبَدَلٍ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيلٌ مُخْلِصٌ ، قَدْ أَتَى وَتَجَمَّلَ وَرَاعَ حُسْنُهُ ؛ كَأَنَّمَا هَرَبَ إِلَيَّ فِي ثِيَابِ عَرْسِهِ لَيْلَةُ زَفَافِهِ ، وَتَرَكَ مِنْ أَجْلِي عَرُوسًا تَبْكِي وَتَصْنِيعُ بَوَيْلَهَا . ثُمَّ أَنَا مَعَ ذَلِكَ مُغْلَقَةٌ الْقَلْبِ دُونَهُمْ جَمِيعًا : أَصْدُقُهُمُ الْمَوَدَّةَ وَالصُّخْبَةَ ، وَأَكْذِبُهُمُ الْحُبَّ وَالْهَوَى ؛ فَلَسْتُ أُحِبُّهُمْ إِلَّا بِمَا أَنَالَ مِنْهُمْ ، وَلَسْتُ أَنْحَبُّ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا أَنْوَلُهُمْ مِنِّي ، وَهُمْ بَيْنَ عَقْلِي وَحِيلَتِي رِجَالٌ لَا عَقُولَ لَهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَهْوَائِهِمْ وَحِمَاقَاتِهِمْ أَمْرَأَةٌ لَا ذَاتَ لَهَا .

ثُمَّ ارْأَيْ بَعْتَهُ رَجُلًا فَرْدًا فَلَا أَكَادَ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَبِنَظَرٍ إِلَيَّ حَتَّى يَضَعَ فِي قَلْبِي مَسْأَلَةً تَخْتَاجُ إِلَى الْحُلِّ ...

وَأَزِنَاغُ لِدَلِكْ فَأَحَاوِلُ تَنَاسِيَهُ وَالْإِغْصَاءَ عَنْهُ ، فَتَلِجُ الْمَسْأَلَةُ فِي طَلَبِ حَلِّهَا ، وَتَشْغُلُ خَاطِرِي ، وَتَتَمَدَّدُ فِي قَلْبِي ؛ وَهُوَ هُوَ الْمَسْأَلَةُ ...

فَأَفْرَعُ لِدَلِكْ وَأَهْتَمُّ لَهُ ، وَأَجْهَدُ جَهْدِي أَنْ أَكُونَ مَرَّةً حَازِمَةً بَصِيرَةً : كَرِجَالِ الْمَالِ فِي

حَقَّ الثَّرْوَةُ عَلَيْهِمْ ؛ وَرَمَّةٌ قَاسِيَةٌ عَيْنِدَهُ ، كَرَجَالِ الْحَزْبِ فِي وَاجِبِهَا عِنْدَهُمْ ؛ وَرَمَّةٌ خَبِيثَةٌ مُتَكَرَّةٌ ، كَرَجَالِ السِّيَاسَةِ فِي عَمَلِهَا بِهِمْ ؛ وَلَكِنِّي أَرَى الْمَسْأَلَةَ تَلِينُ لِي وَتَتَشَكَّلُ مَعِيَ وَتَحْتَمِلُ هَذِهِ الْوُجُوهَ كُلَّهَا ، لِتَبْقَى حَيْثُ هِيَ فِي قَلْبِي ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَسْأَلَةُ ...

وَأَغْتَمُّ لِذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا ، وَأَرَانِي سَاسِقُطٌ بَعْدَ سُقُوطِي الْأَوَّلِ وَأَفْتَحُ مِنْهُ ؛ إِذِ الْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَائِمَةٌ بِالْخِدَاعِ ، وَهَذَا يُفْسِدُهُ الْإِخْلَاصُ ؛ وَبِالْمَكْرِ ، وَهَذَا يُعْطِلُهُ الْوَفَاءُ ؛ وَبِالْتَّسَانِ ، وَهَذَا يُبْطِلُهُ الْحُبُّ ؛ وَإِذْ عَوَاطِفُنَا كُلُّهَا مُتَجَرِّدَةٌ لِفَرَضٍ وَاحِدٍ ، هُوَ كَسْبُ الْمَالِ وَجَمْعُهُ وَأَدْحَارُهُ ؛ وَقَضَائِنَا عَمَلِيَّةٌ لَا تَخْتَلِ ، حِسَابِيَّةٌ لَا تَخْتَلُ ؛ فَيَسْتَوِي عِنْدَنَا الرَّجُلُ بَلَّغَ جَمَالِهِ الْقَمَرِ فِي سَمَائِهِ ، وَالرَّجُلُ بَلَّغَتْ دِمَامَتُهُ الدُّبَابَ فِي أَفْدَارِهِ ؛ وَالْحُبُّ مَعَنَا هُوَ : كَمَ فِي كَمٍّ وَيَبْقَى مَاذَا ... أَوْ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ السِّيَاسَةِ : هُوَ « الثَّقَلَةُ الْعَمَلِيَّةُ فِي الْمَسْأَلَةِ » . وَلَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي فِي قَلْبِي لَا تَرَى هَذَا حَلًّا لَهَا ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَسْأَلَةُ ...

فَيَرِيدُ بِي الْحَزْبُ ، وَيَسْتَدُّ عَلَيَّ الْبَلَاءُ ، وَأَحْتَالُ لِقَلْبِي وَأُذَبِّرُ فِي خَفْنِهِ ، وَأَذْهَبُ أَفْعُهُ أَنْ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَرِيفًا لَمْ يُحِبَّ الْمَرْأَةَ السَّاقِطَةَ ، إِذْ يُعَابُ بِصُخْبَتِهَا وَالاخْتِلَافِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا كَانَ سَاقِطًا لَمْ تُحِبَّهُ هِيَ ، فَإِنَّمَا هُوَ صَيِّدُهَا وَفَرِيسَتُهَا ، وَمَوْضِعُ نَفَمَتِهَا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ ؛ وَأُسْرِفُ عَلَى قَلْبِي فِي الْمَلَامَةِ وَالتَّعْذِيلِ فَأَقُولُ لَهُ : وَيَحِلُّ يَا قَلْبِي ! إِنَّ الْمَرْأَةَ مِثًّا إِذَا تَفَتَّحَ قَلْبُهَا لِحَبِيبٍ ، تَفَتَّحَ كَالْجُرْحِ لِتَرْفِ دِمَاءَهُ لَا غَيْرَ . فَيَفْتَحُ الْقَلْبُ وَيُجْمَعُ عَلَى أَنْ يَنْسَى ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْ طَلِبِ الْحُبِّ ؛ وَأَرَى الْمَسْأَلَةَ قَدْ بَطَلَتْ وَكَانَ بَطْلَانُهَا أَحْسَنَ حَلٍّ لَهَا ، وَأَنَا وَمِثْلِي وَادْعَةُ مُطْمَئِنَّةٍ ، فَيَأْتِي هُوَ فِي نَوْمِي وَيَدْخُلُ فِي قَلْبِي ، وَيُعِيدُ الْمَسْأَلَةَ إِلَى وَضْعِهَا الْأَوَّلِ ، فَمَا أَسْتَبْقِظُ إِلَّا رَأَيْتُهُ هُوَ الْمَسْأَلَةُ ...

فَأَتَأْتَاهِي فِي الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِي مِنْ هَذَا الْحُبِّ ، وَأَرَاهُ سِجْنَهَا وَعِقَابَهَا ، وَقَهَرَهَا وَإِذْلَالَهَا ، فَأَقُولُ لَهَا : وَتِلْكَ يَا نَفْسِي ! إِنَّمَا هُمُكَ فِي الْحَيَاةِ وَسَائِلُ الْفُوزِ وَالْغَلَبِ ، فَأَنْتِ بِهِذَا عُدُوَّةٌ مُسَمَّاءٌ فِي غَفْلَةِ الرِّجَالِ صَدِيقَةٌ ، وَقَدْ وَضَعْتَ فِي مَوْضِعِ تَعْيِينِنِ فِيهِ بِإِهَانَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ ، يُسَمُّونَهَا فِي نَذَالَتِهِمْ بِالْحُبِّ ؛ فَأَنْتِ عُدُوَّةُ الرِّجَالِ بِمَعْنَى مِنَ الدَّهَاءِ وَالْخُبْثِ ، وَعُدُوَّةُ الرِّجَالِ بِمَعْنَى مِنَ الْحَقْدِ وَالضَّغِينَةِ ، وَعُدُوَّةُ الْبَغَايَا أَيْضًا بِمَعْنَى مِنَ الْمَغَالِبَةِ وَالْمُنَافَسَةِ ، وَكُلُّ مَا يَسْتَطِيعُ الدَّهَاءُ أَنْ يَعْمَلَهُ فَهُوَ الَّذِي عَلَيَّ أَنَا أَنْ أَعْمَلَهُ ، فَمَاذَا

أَصْنَعُ وَأَنَا أَحِبُّ ؟ وَكَيْفَ أَنْجَحُ وَأَنَا أَحِبُّ ؟ وَلَكِنَّ النَّفْسَ تُجِيبُنِي عَلَى كُلِّ هَذَا بِأَنْ هَذَا كُلُّهُ يُعِيدُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ مَا دَامَ هُوَ هُوَ الْمَسْأَلَةُ ...

\* \* \*

قَالَ الرَّاوي :

وَكَاثَتْ كَالذَّاهِلَةِ مِمَّا سَمِعَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ : أَلَيْكَ شَيْطَانٌ فِي قَلْبِي ؟ فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ الَّذِي حَدَّثَ فِي سَبْعَةِ أَيَّامٍ .

قَالَ (ح) : وَلَكِنَّ كَيْفَ يَقَعُ هَذَا الْحُبُّ ؟ وَهَبَكَ صَفَّتْ نِلْكَ الرُّوَايَةَ ، وَوَضَعَتْ عَلَى لِسَانِ الْعَاشِقَةِ ذَلِكَ الْكَلَامَ ، فِيمَاذَا كُنْتَ تُنْطِقُهَا فِي وَصْفِ حُبِّهَا وَمَا أَخْتَذَبَهَا مِنْ رَجُلٍ فَارَ بِقَلْبِهَا وَلَمْ يَذَارِهَا ، بَعْدَ مِثَّةِ رَجُلٍ كُلُّهُمْ دَاوَرَهَا وَلَمْ يَفَرْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ؟ أَتَكُونُ فِي وَجْهِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْوَارُ كِتَابِشِيرِ الصُّبْحِ تَدُلُّ عَلَى الثَّهَارِ الْكَامِنِ فِيهِ ؟

قَالَتْ هِيَ : نَعَمْ نَعَمْ . بِمَاذَا كُنْتَ تُنْطِقُهَا ؟

قُلْتُ : كُنْتُ أَضَعُ فِي لِسَانِهَا هَذَا الْكَلَامَ تُجِيبُ بِهِ عَادِلَةً تَعْدِلُهَا :

تَقُولُ : لَا أَذْرِي كَيْفَ أَحْبَبْتُهُ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةَ الْبَارِزَةَ مِنْهُ جَذَبْنِي إِلَيْهِ ، وَجَعَلَتْ الْهَوَاءَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُفْعَمًا بِالْمِغْنَاتِيسِ<sup>(١)</sup> مُصْدَرُهُ هُوَ ، وَمَعْنَاهُ هُوَ ، وَلَا شَيْءَ فِيهِ إِلَّا هُوَ .

عَرَضْتُ لِي شَخْصِيَّتُهُ ظَاهِرًا لِأَنَّ جَوَابَ شَخْصِيَّتِهِ فِيَّ ، وَأَصْبَحَ فِي عَيْنِي كَبِيرًا لِأَنَّ جَوَابَ شَخْصِيَّتِي فِيهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ صَارَتْ أَفْكَارِي نَفْسَهَا تَزِيدُهُ كُلَّ يَوْمٍ طُهُورًا ، وَتَزِيدُنِي كُلَّ يَوْمٍ بَصَرًا ، وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ فِي الْكَمَالِ عِنْدِي حَقَّهُ فِي الْحُبِّ مِثِّي ؛ وَتِلْكَ الشَّخْصِيَّةُ الَّتِي جَوَابُهَا فِي نَفْسِي ، أَصْبَحَ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ نَفْسِي .

\* \* \*

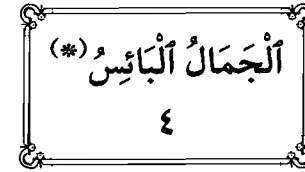
قَالَ الرَّاوي :

(١) المغناطيس Magnetism : خاصية جذب الحديد لمواد معينة . بسام .

وَلَمَّا رَأَيْتُهَا فِي جَوْثِي نَسِيمِهِ وَعَاصِفَتِهِ ، أَرَدْتُهَا عَلَى قِصَّتِهَا وَشَانِهَا ، فَمَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قُلْتُ لَهَا : إِنَّ قَلْبِي وَقَلْبَكَ يَتَجَالِيَانِ<sup>(١)</sup> فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَيَتَبَاكِيانِ ؛ أَتَدْرِينَ مَاذَا يَقُولُ لَكَ قَلْبِي ؟

إِنَّهُ يَقُولُ عَنِّي : أَعَزُّ عَلَيَّ بِأَنْ تَكُونِي هَلُمَّا ، وَأَنْ تَتَأَلَّفَ مِنْكَ هَذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي تَبْدَأُ بِالْوَصْمَةِ وَتَنْتَهِي بِالِاسْتِخْدَاءِ ، فَتَنْطَلِقُ الْمَرْأَةُ فِي مَتَالِفِهَا وَمَهَاوِينِهَا لِيَبْلُغَ بِهَا الْقَدَرُ مَا هُوَ بَالِغٌ ؛ وَلَيْسَ إِلَّا الضَّرُورَةُ وَسَطَوْتُهَا بِهَا ، وَالْإِذْلَالُ وَمَهَانَتُهُ لَهَا ، وَالْاجْتِمَاعُ وَتَهَكُّمُهُ عَلَيْهَا ، وَالْإِبْتِدَالُ وَاسْتِعْبَادُهُ إِيَّاهَا ؛ وَمَهْمَا يَأْتِ فِي الْقِصَّةِ مِنْ مَعْنَى فَلَيْسَ فِيهَا مَعْنَى الشَّرَفِ ؛ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ مَوْقِفٍ فَلَيْسَ فِيهَا مَوْقِفُ الْحَيَاءِ ؛ وَمَهْمَا يَجْرُ مِنْ كَلَامٍ فَلَيْسَ فِيهَا كَلِمَةُ الزَّوْجَةِ . وَأَعَزُّ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَى الْمِصْبَاحَ الْجَمِيلَ الْمَشْبُوبَ الَّذِي وُضِعَ لِضِيءِ مَا حَوْلَهُ ، قَدْ انْقَلَبَ فَجَعَلَ يُحْرِقُ مَا حَوْلَهُ ؛ وَكَانَ يَتَلَاوُحًا وَيَتَوَقَّدُ ، فَارْتَدَّتْ يَتَسَعَّرُ وَيَتَضَرَّمُ وَيَجْنِي عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ ، وَسَقَطَ بِذَلِكَ سَقَطَةً حَمْرَاءَ ...

أَتَدْرِينَ مَاذَا يَقُولُ لِي قَلْبُكَ ؟

إِنَّهُ يَقُولُ عَنكَ : يَا بُؤْسًا مِنْ نِسَاءٍ ! لَقَدْ وُضِعْنَا وَضْعًا مَقْلُوبًا ، فَلَا تَسْتَقِيمُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَنَا أَبَدًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُنْقَلَبٌ لَنَا مُتَنَكِّرٌ ؛ وَالشَّفَقَةُ عَلَيْنَا تَنْقَلِبُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا تَهَكُّمًا بِنَا ؛

(\*) « الرسالة » العدد : ١١٩ ، ١٦ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ١٤ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة : الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٦ .

(١) أَنِّي : يَتَكَاشَفَانِ ، وَيَجْلُو كِلَاهُمَا لِلآخِرِ وَيُوضَحُ .

فَتُبْكِي مِنْ شَفَقَةِ بَعْضِ النَّاسِ ، كَمَا تُبْكِي مِنْ أَزْدِرَاءِ بَعْضِ النَّاسِ . يَا بُؤْسًا مِنْ نِسَاءٍ !

\* \* \*

قَالَتْ : صَدَقْتَ ، وَكَذَلِكَ تَنْقَلِبُ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ مَعَنَا أَسْبَابًا لِلْمَرَضِ وَالْمَوْتِ ؛ فَالْيَقَظَةُ لَيْسَ لَهَا عِنْدَنَا النَّهَارُ بَلِ اللَّيْلُ ، وَالصَّخْوُ لَا يَكُونُ فِينَا بِالْوَعْيِ بَلِ بِالشُّكْرِ ، وَالرَّاحَةُ لَا تَكُونُ لَنَا فِي السُّكُونِ وَالْإِنْفِرَادِ ، بَلِ فِي الْأَجْتِمَاعِ وَالتَّبَدُّلِ ؛ وَمَاذَا يُرْدُّ الْعَيْشُ عَلَى أَمْرَةٍ مِنْ وَاجِبَاتِهَا السَّهْرِ ، وَالشُّكْرِ<sup>(١)</sup> ، وَالْعَزِيدَةِ ، وَالتَّبَدُّلِ ، وَتَذَرِيبِ الطَّبَاعِ بِالْوَقَاحَةِ ، وَتَضَرِيبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْإِسْتِغْوَاءِ ، وَالْتَصَدِّي بِالْجَمَالِ لِلْكَسْبِ مِنْ رَذَائِلِ الْفُسَاقِ وَأَمْرَاضِهِمْ ، وَالتَّعَرُّضِ لِمَعْرُوفِهِمْ بِأَسَالِيبِ آخِرِهَا الْهَوَانُ وَالْمَذَلَّةُ ، وَاسْتِمَاحَتُهُمْ بِأَسَالِيبِ أَوْلِهَا الْخِدَاعُ وَالْمَكْرُ ؟

إِنَّ حَيَاةَ هَذِهِ هِيَ وَاجِبَاتُهَا ، لَا يَكُونُ الْبُكَاءُ وَالْهَمُّ إِلَّا مِنْ طَبِيعَةٍ مَنْ يَحْيَاهَا ، وَكَثِيرًا مَا نَمْلُجُ الضَّحِكَ لِنَفْتَحَ لَأَنْفُسِنَا طُرُقًا تَتَهَارَبُ فِيهَا مَعَانِي الْبُكَاءِ ؛ فَإِذَا أَثْقَلْنَا الْهَمُّ وَجَلَّ عَنِ الضَّحِكِ وَعَجَزْنَا عَنْ تَكْلُفِ الشُّرُورِ ، خَلَلْنَا الْعَقْلَ نَفْسَهُ بِالْخَمْرِ ؛ فَمَا تَسْكُرُ الْمَرْأَةُ مِمَّا لِلشُّكْرِ أَوْ النَّشْوَةِ ، بَلِ لِلنَّشْيَانِ ، وَلِلْقُدْرَةِ عَلَى الْمَرْحِ وَالضَّحِكِ ، وَلِإِمْدَادِ مَحَاسِنِهَا بِالْأَخْلَاقِ الْفَاجِرَةِ ، مِنَ الطَّيِّشِ وَالْخَلَاعَةِ وَالسَّفَهِ وَهَذَيَانِ الْجَمَالِ الَّذِي هُوَ شِعْرُهُ الْبَلِغُ ... عِنْدَ بُلْغَاءِ الْفُسَاقِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : أَهَذَا وَحَاضِرُ الْغَادَةِ مِنْكُمْ هُوَ الشَّبَابُ وَالصَّبِيُّ وَالْجَمَالُ وَإِقْبَالُ الْعَيْشِ ، فَكَيْفَ بِهَا فِيمَا تَسْتَقْبِلُ ؟

قَالَتْ : إِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ هُوَ أَخَوْفُ مَا نَخَافُهُ عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَلَيْسَ مِنْ أَمْرَةٍ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِلَّا وَهِيَ مُعَدَّةٌ لِمُسْتَقْبَلِهَا : إِمَّا نَوْعًا مِنَ الْإِنْتِحَارِ ، وَإِمَّا ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الْأَخْتِمَالِ لِلذَّلِّ وَالْخَسْفِ ؛ وَلَيْسَ مُسْتَقْبَلُنَا هَذَا إِلَّا كَمُسْتَقْبَلِ الثَّمَارِ النَّضِرَةِ إِذَا بَقِيَتْ بَعْدَ أَوَانِهَا ، فَهُوَ الْأَجْبَامُ الْعَقِيَّةُ بِطَبِيعَةٍ مَا مَضَى ... بَلَى إِنَّ مُسْتَقْبَلَ الْمَرْأَةِ الْبَغِيَّ هُوَ عِقَابُ الشَّرِّ .

\* \* \*

(١) فِي الْأَصْلِ : « الشُّكْرَةُ » بَدَلًا مِنْ : « الشُّكْرُ » .

قَالَ (ح) : هَذَا كَلَامٌ يَتَّبِعُنِي أَنْ تَعْلَمَهُ الزَّوْجَاتُ ؛ فَالْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ قَدْ تَتَّبِعُنَّ بِرُؤُوسِهِنَّ وَتَضَجُّنَّ وَتَغْتَمُّ ، وَتَزْعُمُ أَنَّهَا مُعَذِّبَةٌ ؛ فَتَسْحَطُ الْحَيَاةُ ، وَتَتَذُبُّ نَفْسَهَا ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّهَا عَذَابٌ وَاحِدٌ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، تَأْلَفُهُ ، فَتَعْتَادُهُ ، فَتَزْزُقُ مِنْ أَعْيَادِهِ الصَّبْرَ عَلَيْهِ ، فَيَسْكُنُ بِهَذَا نِفَارُهَا ؛ وَتَلِكُ نِعْمَةٌ وَاجِبُهَا أَنْ تَحْمَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا ، مَا دَامَ فِي النِّسَاءِ مِثْلُ الشَّهِيدَاتِ ، تَتَعَذَّبُ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ فُتُونًا مِنَ الْعَذَابِ بِمِثْلِ رَجُلٍ ، وَبِأَلْفِ رَجُلٍ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْتَلُونَ رُوحَهَا بِعَدِيدِهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ .

وَقَدْ تَسْتَقْبِلُ الزَّوْجَةَ وَاجِبَاتُهَا بَيْنَ الزَّوْجِ وَالنَّسْلِ وَالذَّارِ ، فَتَغْتَاطُ وَتَشْكُو مِنْ هَذِهِ الرَّجَرَجَةِ الْيَوْمِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءً غَيْرَهَا قَدْ انْقَلَبَتْ بَيْنَ الْحَيَاةِ فِي مِثْلِ الْخَسْفِ بِالْأَرْضِ .

وَقَدْ تَجَرَّعَ لِلْمُسْتَقْبَلِ وَنَسِيَ أَنَّهَا فِي أَمَانٍ شَرَفَهَا ، ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءً يَتَرَقَّبْنَ هَذَا الْآتِي كَمَا يَتَرَقَّبُ الْمُجْرِمُ عَذَابَ الْجَرِيمَةِ ، مِنْ يَوْمٍ فِيهِ الشَّرْطَةُ وَالنِّيَابَةُ وَالْمَحْكَمَةُ وَمَا وَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ .

فَقُلْتُ : وَهُنَاكَ حَقِيقَةٌ أُخْرَى فِيهَا الْعَزَاءُ كُلُّ الْعَزَاءِ لِلزَّوْجَاتِ ، وَهِيَ أَنَّ الزَّوْجَةَ أَمْرًا شَاعِرَةً بِوُجُودِ ذَاتِهَا ، وَالْأُخْرَى لَا تَشْعُرُ إِلَّا بِضِيَاعِ ذَاتِهَا .

وَالزَّوْجَةُ أَمْرَةٌ تَجِدُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَتَوَرَّعُ حُبُّهَا وَحَنَانُ قَلْبِهَا ، فَلَا يَزَالُ قَلْبُهَا إِنْسَانِيًّا عَلَى طَبِيعَتِهِ ، يَفِيضُ بِالْحُبِّ ، وَيَسْتَمِدُّ مِنَ الْحُبِّ ؛ وَالْأُخْرَى لَا تَجِدُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ، فَتَنْقَلِبُ وَخَشْيَةَ الْقَلْبِ ، يَفِيضُ قَلْبُهَا بِرَدَائِلَ ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْ رَدَائِلَ ؛ إِذْ كَانَ لَا يَجِدُ شَيْئًا مِمَّا هَيَّأَتْهُ الطَّبِيعَةُ لِيَتَعَلَّقَ بِهِ مِنَ الزَّوْجِ وَالذَّارِ وَالنَّسْلِ .

وَالزَّوْجَةُ أَمْرَةٌ هِيَ أَمْرَةٌ خَالِصَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، أَمَّا الْأُخْرَى فَمِنْ أَمْرَةٍ وَمِنْ حَيَوَانٍ وَمِنْ مَادَّةٍ مُهْلِكَةٍ .

وَتَمَامُ السَّعَادَةِ أَنَّ النَّسْلَ لَا يَكُونُ طَبِيعِيًّا مُسْتَقَرًّا فِي قَانُونِهِ إِلَّا لِلزَّوْجَاتِ وَحَدَهُنَّ ؛ فَهُوَ نِعْمَتُهُنَّ الْكُبْرَى ، وَثَوَابُ مُسْتَقْبَلِهِنَّ وَمَاضِيِهِنَّ ، وَبِرْكَتُهُنَّ عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَمَهْمَا تَكُنِ الزَّوْجَةُ شَقِيَّةً بِرُؤُوسِهَا ، فَإِنَّ زَوْجَهَا قَدْ أَوْلَدَهَا سَعَادَتَهَا ، وَهَذِهِ وَحْدَهَا مَرِيَّةٌ وَنِعْمَةٌ ؛ أَمَّا

أُولَئِكَ فَلَيْسَ لَهُنَّ عَاقِبَةٌ<sup>(١)</sup> ؛ إِذِ النَّسْلُ قَلْبٌ لِحَالَتِهِنَّ كُلِّهَا ؛ وَهُوَ غِنَى إِنْسَانِيٍّ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَهُنَّ لَا يَكُونُ إِلَّا فَقْرًا ؛ وَهُوَ رَحْمَةٌ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لَعْنَةً عَلَيْهِنَّ وَعَلَى مَاضِيِهِنَّ . وَقَدْ وَضَعَتِ الطَّبِيعَةُ فِي مَوْضِعِ حُبِّ الْوَلَدِ الْجَدِيدِ مِنْ قُلُوبِهِنَّ ، حُبَّ الرَّجُلِ الْجَدِيدِ ، فَكَانَتْ هَذِهِ نِقْمَةً أُخْرَى .

قَالَ (ح) : أَتُرِيدُ مِنَ الرَّجُلِ الْجَدِيدِ مَنْ يَكُونُ عِنْدَهُنَّ الثَّانِي بَعْدَ الْأَوَّلِ ، أَوِ الثَّلَاثَ بَعْدَ الثَّانِي ، أَوِ الرَّابِعَ بَعْدَ الثَّلَاثِ ؟

قُلْتُ : لَيْسَ الْجَدِيدُ عَلَيْهِنَّ هُوَ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي يَكُونُ وَحْدَهُ بِالْعَدَدِ جَمِيعًا ؛ إِذْ هُوَ عِنْدَهُنَّ يُشَبِّهُ الزَّوْجَ فِي الْأَخْتِصَاصِ وَفِي شَرَفِ الْحُبِّ ، فَهُوَ الْحَبِيبُ الشَّرِيفُ الَّذِي تَتَعَلَّقُهُ إِحْدَاهُنَّ وَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ شَرِيفَةً ؛ وَلَكِنْ مِنْ نِقْمَةِ الطَّبِيعَةِ أَنَّ مَنْ وَجَدَتْهُ مِنْهُنَّ لَا تَجِدُهُ إِلَّا لِتُعَانِي أَلَمَ فَقْدِهِ .

يَا عَجَبًا ! كُلُّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ يُلْقِي شَيْئًا مِنَ الْهَمِّ أَوِ الْكَدِّ أَوِ الْبُؤْسِ عَلَى هَذُلَاءِ الْمِسْكِينَاتِ ، كَأَنَّ الطَّبِيعَةَ كُلَّهَا تَرْجُمُهُنَّ بِالْحِجَارَةِ ...

قَالَتْ هِيَ : وَلَيْسَتْ الْحِجَارَةُ هِيَ الْحِجَارَةُ فَقَطْ ، بَلْ مِنْهَا أَلْفَاظُ تُرْجَمُ بِهَا الْمِسْكِينَةُ كَأَلْفَاظِكَ هَذِهِ ... وَكَتْسَمِيَةِ النَّاسِ لَهَا « بِالسَّاقِطَةِ » ؛ فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ وَحْدَهَا صَخْرَةٌ لَا حَجَرَ .

\* \* \*

ثُمَّ تَنَهَّدَتْ وَقَالَتْ : مَنْ عَسَى يَغْرِفُ خَطَرَ الْأُسْرَةِ وَالنَّسْلِ وَالْفَضِيلَةِ كَمَا تَعْرِفُهَا الْمَرْأَةُ الَّتِي فَقَدَتْهَا ؟ إِنَّا نَحْسِبُهَا بِطَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ ، ثُمَّ بِالْحَيْنِ إِلَيْهَا ، ثُمَّ بِالْحَسْرَةِ عَلَى فَقْدِهَا ، ثُمَّ بِرُؤُوسِهَا فِي غَيْرِهَا ؛ تَعْرِفُهَا أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِذَا عَرَفَتْهَا الزَّوْجَةُ نَوْعًا وَاحِدًا وَلَكِنْ هَلْ يُنْصِفُنَا الرِّجَالُ وَهُمْ يَتَدَفَعُونَنَا ؟ هَلْ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا مِنَّا ؟

قُلْتُ : وَلَكِنَّ الْأُسْرَةَ لَا تَقُومُ عَلَى سَوَادِ عَيْنِي الْمَرْأَةِ وَحُمُرَةِ خَدَّيْهَا ، بَلْ عَلَى أَخْلَاقِهَا وَطَبَاعِهَا ؛ فَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي بَقَاءِ الْمَرْأَةِ { السَّاقِطَةِ } حَيْثُ أَرْتَضَتْ ؛ وَهِيَ

(١) يُقَالُ : لَيْسَ لَهُ عَاقِبَةٌ ، أَيِ : لَيْسَ لَهُ نَسْلٌ وَعَقِبٌ .

مَنْ سَقَطَتْ كَانَ أَوَّلُ أَعْدَائِهَا قَانُونُ الشَّئْلِ .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ الزَّوْلَةُ الْأُولَى مُنْتَدَةً مُسَخَّبةً إِلَى الْآخِرِ ؛ إِذِ الْفَنَاءُ لَيْسَتْ شَخْصًا إِلَّا فِي اعْتِبَارِهَا هِيَ ، أَمَّا فِي اعْتِبَارِ غَيْرِهَا فَهِيَ تَارِيخٌ لِلشَّئْلِ ، إِنْ وَقَعَتْ فِيهِ غَلْطَةٌ فَسَدَ كُلُّهُ وَكَذَّبَ كُلُّهُ فَلَا يُوثِقُ بِهِ .

وَهَذِهِ الزَّوْلَةُ الْأُولَى هِيَ بَدْءُ الْإِنْهَارِ فِي طَبَاعِ رَقِيقَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ مُتَسَانِدَةٍ ، لَا يَقِيمُهَا إِلَّا تَمَاسُكُهَا جُمْلَةً ؛ وَمَا لَمْ يَتِمَّاسِكْ إِلَّا بِجُمْلَتِهِ فَأَوَّلُ السَّقُوطِ فِيهِ هُوَ اسْتِمْرَارُ السَّقُوطِ فِيهِ ؛ وَلِهَذَا لَا يَعْرِفُ النَّاسُ جَرِيْمَةً وَاحِدَةً تُعَدُّ سِلْسِلَةً جَرَايِمَ لَا تَنْتَهِي ، إِلَّا سَقَطَتِ الْمَرْأَةُ ؛ فَهِيَ جَرِيْمَةٌ مَجْنُونَةٌ كَالْإِعْصَارِ الثَّائِرِ يَلْفُهَا <sup>(١)</sup> لَفًا ؛ إِذْ تَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةُ فِي ذَاتِهَا ، وَتَرْجِعُ عَلَى أَهْلِهَا وَذَوْنِهَا ، وَتَرْتَمِي إِلَى مُسْتَقْبَلِهَا وَتَسْلِيهَا ؛ فَيَهْتِكُهَا النَّاسُ هِيَ وَسَائِرُ أَهْلِهَا ، مَنْ جَاءَتْ مِنْهُمْ وَمَنْ جَاوَزَا مِنْهَا .

وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَا يَحْمِيهَا الشَّرَفُ لَا يَحْمِيهَا شَيْءٌ ، وَكُلُّ شَرِيفَةٍ تَعْرِفُ أَنَّ لَهَا حَيَاتَيْنِ إِحْدَاهُمَا الْغَفَةُ ، وَكَمَا تُدْفِعُ عَنْ حَيَاتِهَا الْهَلَاكَ ، تُدْفِعُ السَّقُوطَ عَنْ عِفَّتِهَا ؛ إِذْ هُوَ هَلَاكُ حَقِيقَتِهَا الْأَجْمَاعِيَّةِ ؛ وَكُلُّ عَاقِلَةٍ تَعْرِفُ أَنَّ لَهَا عَقْلَيْنِ تَخْتِمِي بِأَحَدِهِمَا مِنْ نَزَوَاتِ الْآخِرِ ، وَمَا عَقْلُهَا الثَّانِي إِلَّا شَرَفُ عِرْضِهَا .

\* \* \*

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : إِنَّ هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ ، فَمَا تَسَامَحَ الرَّجَالُ فِي شَرَفِ الْعِرْضِ إِلَّا جَعَلُوا الْمَرْأَةَ كَأَنَّهَا بِنَصْفِ عَقْلِ ، فَأَنْدَفَعَتْ إِلَى الطَّبِيسِ وَالْفُجُورِ وَالْخَلَاعَةِ ، أَرَادُوا ذَلِكَ أَمْ لَمْ يُرِيدُوهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْحَدِيثِ : « عَفُوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ » [ الجامع الصغير ] ، رَقْم : ٥٤٤٢ « مجمع الزوائد » ، رَقْم : ١٣٠٦٣ . فَإِنَّ عَفَافَ الْمَرْأَةِ لَا تَحْفَظُهُ الْمَرْأَةُ بِنَفْسِهَا ، مَا لَمْ تَتَّهَبْ لَهَا الْوَسَائِلَ وَالْأَحْوَالَ الَّتِي تُعِينُ نَفْسَهَا عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأَهْمُ وَسَائِلِهَا وَأَقْوَاهَا وَأَعْظَمُهَا ، تَشَدُّدُ الرَّجَالِ فِي قَانُونِ الْعِرْضِ وَالشَّرَفِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَلْفُ » بَدَلًا مِنْ : « يَلْفُهَا » .

فَإِذَا تَرَخَى الرَّجَالُ ضَعُفَتِ الْوَسَائِلُ ، وَمِنْ بَيْنِ هَذَا التَّرَاخِي وَهَذَا الضَّعْفِ تَنْبِيْهُ حُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ مُتَوَجِّهَةٌ بِالْمَرْأَةِ إِلَى الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ ، عَلَى مَا تَكُونُ أَحْوَالُهَا وَأَسْبَابُهَا فِي الْحَيَاةِ . وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ فِي الْمَدَنِيَّةِ الْأُوْرِيَّةِ قَدْ عَوَّدَتْ الرَّجَالَ أَنْ يَغْضُوا وَيَسْمَحُوا ، فَتَهَافَتَ النِّسَاءُ عِنْدَهُمْ ، تَنَالُ كُلُّ مِنْهُنَّ حُكْمَ قَلْبِهَا وَيَخْضَعُ الرَّجُلُ . . . . .

عَلَى أَنَّ هَذَا الَّذِي يُسَمِّيهِ الْقَوْمُ حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ ، لَيْسَ حُرِّيَّةً إِلَّا فِي التَّسْمِيَةِ ، أَمَّا فِي الْمَعْنَى فَهُوَ كَمَا تَرَى :

إِنَّمَا سُرُودُ الْمَرْأَةِ فِي النِّمَاسِ الرَّزْقِي حِينَ لَمْ تَجِدِ الزَّوْجَ الَّذِي يُعُولُهَا أَوْ يَكْفِيهَا وَيُقِيمُ لَهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَمِثْلُ هَذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةً التَّكْدِ فِي عَيْشِهَا ؛ وَلَيْسَ بِهَا الْحُرِّيَّةُ ، بَلْ هِيَ مُسْتَعْبِدَةٌ لِلْعَمَلِ شَرًّا مَا تُسْتَعْبَدُ امْرَأَةٌ .

وَإِنَّمَا انْطِلَاقُ الْمَرْأَةِ فِي عِبَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا مُسْتَجِنِيَّةٌ ، بِذَلِكَ إِلَى انْطِلَاقِ حُرِّيَّةِ الْأَسْتِمْتَاعِ فِي الرَّجَالِ ، بِمِقْدَارِ مَا يَشْتَرِيهِ الْمَالُ ، أَوْ تُعِينُ عَلَيْهِ الْقُوَّةُ ، أَوْ يُسَوِّغُهُ الطَّبِيسُ ، أَوْ يَجْلِبُهُ التَّهْتِكُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْفُتُونُ ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةً سَقُوطِهَا ؛ وَمَا بِهَا الْحُرِّيَّةُ ، بَلْ يَسْتَعْبِدُهَا التَّمَتُّعُ .

وَالثَّالِثَةُ حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ فِي انْسِلَاحِهَا مِنَ الدِّينِ وَفَضَائِلِهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَدَنِيَّةُ قَدْ نَسَخَتْ حَرَامَ الْأَدْيَانِ وَحَلَّالَهَا بِحَرَامِ قَانُونِيٍّ وَحَلَّالٍ قَانُونِيٍّ ، فَلَا مَسْقَطَةَ لِلْمَرْأَةِ وَلَا غَضَاضَةَ عَلَيْهَا قَانُونًا . . . . . فَيَمَّا كَانَ يُعَدُّ مِنْ قَبْلِ خِزْيَا أَفْتِيحِ الْخِزْيِ وَعَارًا أَشَدَّ الْعَارِ ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةً فَسَادِهَا ، وَلَيْسَ بِهَا الْحُرِّيَّةُ ، وَلَكِنْ تَسْتَعْبِدُهَا الْفَوَاضِي .

وَالرَّابِعَةُ غَطْرَسَةُ الْمَرْأَةِ الْمُتَعَلِّمَةِ ، وَكِبَرِيَاؤُهَا عَلَى الْأُنُوثَةِ وَالذُّكُورَةِ مَعًا ؛ فَتَرَى أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَبْلُغْ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الزَّوْجَ النَّاعِمَ كَقَفَّارِ الْحَرِيرِ فِي يَدِهَا ، وَلَا الزَّوْجَ الْمُؤَوَّثَ الَّذِي يَقُولُ لَهَا نَحْنُ امْرَأَتَانِ . . . . . فَهِيَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مُطْلَقَةٌ مُخْلَاةٌ كَيَلَا يَكُونُ عَلَيْهَا سُلْطَانٌ وَلَا إِمْرَةٌ ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ حُرَّةٌ بِانْقِلَابِ طَبِيعَتِهَا وَرِيعَتِهَا ، وَهِيَ مُسْتَعْبِدَةٌ لِهَوْسِهَا وَشُدُودِهَا وَضَلَالَتِهَا .

حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ فِي هَذِهِ الْمَدَنِيَّةِ أَوَّلُهَا مَا شِئَتْ مِنْ أَوْصَافٍ وَأَسْمَاءٍ ، وَلَكِنْ آخِرُهَا دَائِمًا

إِمَّا ضَيَاعُ الْمَرْأَةِ وَإِمَّا فَسَادُ الْمَرْأَةِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى التَّوَهُُّدِ الطَّبِيعَةُ فِي الْمَدِينَةِ ، اسْتِوَاءُ الطَّبِيعَةِ فِي الْبَادِيَةِ ؛ فَالرَّجَالُ هُنَاكَ قَوَامُونَ عَلَى النَّسَاءِ ، وَالنِّسَاءُ يَهْدُوا قَوَامَاتٍ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ ؛ إِذْ يَنْتَقِمُونَ لِلْمُنْكَرِ أَنْتِقَامًا يَفُوزُ دَمًا ؛ وَبِهَذِهِ الْوَحْشِيَّةِ يُفَرِّزُونَ شَرَفَ الْعُرْضِ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَجْعَلُونَهُ فِيهَا كَالْعَرِيزَةِ ، فَيَحَاجِرُونَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَوَّلَ شَيْءٍ بِالضَّمِيرِ الشَّرِيفِ الَّذِي يَجِدُ وَسَائِلَهُ قَائِمَةً مِنْ حَوْلِهِ .

\* \* \*

قَالَ الرَّايِي :

وَعَطَّتْ وَجْهَهَا بِيَدَيْهَا وَقَالَتْ : إِنَّكَ لَا تَزَالُ تَرْجُمُ بِالْحِجَارَةِ ... إِنْ فِيكَ مُتَوَحِّشًا .  
قُلْتُ : بَلْ مُتَوَحِّشَةٌ ...

إِنَّكَ أَنْتِ قَدْ تَكَلَّمْتِ فِي ، فَجَمَالِكَ الَّذِي يَضَعُ الْإِنْسَانَ فِي سَاعَةِ مَجْنُونَةٍ لِيُمَتِّعَهُ بِطَبِيعَتِهَا ، قَدْ وَضَعْنَا نَحْنُ فِي سَاعَةِ مُفَكَّرَةٍ وَأَمْتَعْنَا بِعَقْلِهَا ؛ وَإِذَا قُلْتُ جَمَالِكَ ، فَقَدْ قُلْتُ وَحْيِكَ ، إِذْ لَا جَمَالَ عِنْدِي إِلَّا مَا فِيهِ وَخِي .

أَمَّا قُلْتُ : إِنَّكَ لَوْ خَيْرْتَ فِي وُجُودِكَ لَمَا أَخْتَرْتَ إِلَّا أَنْ تَكُونِي رَجُلًا نَابِغَةً يَكْتُوبُ وَيُفَكِّرُ وَيَتَلَقَّى الْوَحْيَ مِنَ الْوُجُوهِ الْجَمِيلَةِ ؟

فَدَقَّقْتُ صَدْرَهَا بِيَدَيْهَا وَقَالَتْ : أَنَا ؟ أَنَا لَمْ أَقُلْ هَذَا . ثُمَّ أَفَكَّرَتْ لَحْظَةً وَقَالَتْ : إِذَا كُنْتُ أَنْتِ تَزْعُمُ أَنَّي قُلْتُهُ ، فَأَطْلُ أَنَّي قُلْتُهُ ...

قَالَ (ح) : رَجُلٌ ، وَيَكْتُوبُ ، وَيُفَكِّرُ ، وَلَمْ تَقُلْ هِيَ شَيْئًا مِنْ هَذَا ؟ أَرْبَعُ غَلَطَاتٍ شَنِيعَةٍ مِنْ فَسَادِ الدُّوقِ .

قَالَتْ : بَلْ قُلْ : أَرْبَعُ غَلَطَاتٍ جَمِيلَةٍ مِنْ فَنِّ الدُّوقِ ؛ إِنَّ الرَّجُلَ الطَّرِيفَ الْقَوِيَّ الرُّجُولِيَّ ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَغْلُظَ إِذَا حَدَّثَ الْمَرْأَةُ ...

قَالَ (ح) : لِيَضْحَكَ مِنْهُ ؟

قَالَتْ : لَا ، بَلْ لِيَضْحَكَ لَهُ ...

قُلْتُ : فَلْيِ إِلَيْكَ رَجَاءٌ .

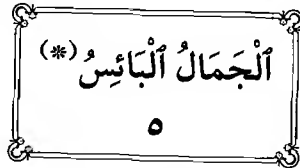
قَالَتْ : إِنَّ صَوْتَكَ يَأْمُرُ ، فَقُلْ .

\* \* \*

فَمَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ ...

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



قُلْتُ لَهَا : إِنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ لَا تَكُونُ كَافِرَةً إِذَا أُكْرِهَ عَلَيْهَا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَكَلِمَةُ الْفُجُورِ أَهْوَنُ مِنْهَا وَأَخَفُ وَزَنًا وَشَأْنًا ، ثُمَّ لَا تَكُونُ إِلَّا فَاجِرَةً أَبَدًا ، إِذْ لَا إِكْرَاهَ عَلَى هَذِهِ الدَّعَاةِ إِكْرَاهًا لَا خِيَارَ فِيهِ . وَمَا أَوَّلُ الدَّعَاةِ إِلَّا أَنْ تَمُدَّ الْمَرْأَةُ طَرْفَهَا مِنْ غَيْرِ حَيَاءٍ ، كَمَا يَمُدُّ اللَّصُّ يَدَهُ مِنْ غَيْرِ أَمَانَةٍ .

وَمَنْ أَضْطُرَّ إِلَى الْكُفْرِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَيِّيَ مِخْرَابَ الْمَسْجِدِ فِي أَعْمَاقِهِ فَيُصَلِّيَ ثَمَّةً ، وَلَكِنَّ الْفُجُورَ لَا يَبْرُكُ فِي النَّفْسِ مَوْضِعًا لِلدِّينِ وَلَا لِلْإِيمَانِ ؛ إِذْ هُوَ دَائِبٌ فِي إِثَارَةِ الْغَرَائِزِ الطَّبِيعِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُسْتَرْسِلَةِ بِلا ضَابِطٍ ، لِلدِّينِ وَلَا لِلْإِيمَانِ ؛ إِذْ هُوَ دَائِبٌ فِي إِثَارَةِ الْغَرَائِزِ الطَّبِيعِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُسْتَرْسِلَةِ بِلا ضَابِطٍ ، فَيَجْعَلُ الْمَرْأَةَ تَخِيًا بَعِيدَةً عَنْ ضَمِيرِهَا ، فَيُضْعِفُ مِنْهَا أَوَّلَ مَا يُضْعِفُ آثَارَ الْأَدَابِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَيُهْلِكُ فِيهَا أَوَّلَ مَا يُهْلِكُ إِحْسَاسَهَا بِمَعْنَى الْمَرْأَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَشُعُورَهَا بِمَجْدِ هَذَا الْمَعْنَى .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٠ ، ٢٣ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٢١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٨٣ - ١٦٨٧ .

فَإِذَا انْتَهَتْ الْمَرْأَةُ إِلَى هَذَا ، لَمْ يَكُنْ لَهَا مَبْدَأٌ وَلَا عَقِيدَةٌ إِلَّا أَنَّ عَلَى غَيْرِهَا أَنْ يَتَحَمَّلَ عَوَاقِبَ أَعْمَالِهَا ، وَهَذِهِ بَعَيْنُهَا هِيَ حَالَةُ الْمَجْنُونِ جُنُونٌ عَقْلِهِ ؛ أَفَلَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ حِينَئِذٍ مَجْنُونَةٌ جُنُونٌ جِسْمِهَا ... ؟

\* \* \*

فَسَاءَ مَا ذَلِكَ وَبَانَ فِيهَا ، وَلَكِنَّهَا أَمْسَكَتْ عَلَى مَا فِي نَفْسِهَا ؛ وَالْمَرْأَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَمْسِي أَمْرُهَا فِي النَّاسِ وَلَا يَتَّصِلُ عَيْشُهَا ، إِلَّا إِذَا كَثُرَتْ طِبَاعُهَا كَثْرَةً يَبَاهِيهَا ، فَهِيَ تَخْلَعُ وَتَلْبَسُ مِنْ هَذِهِ وَتِلْكَ لِكُلِّ يَوْمٍ وَلِكُلِّ حَالَةٍ وَلِكُلِّ رَجُلٍ ؛ فَيَنْبَغُ مِنْهَا الْغَضَبُ وَهِيَ فِي أَنْعَمِ الرِّضَى ، كَمَا يَنْبَغُ الرِّضَى وَهِيَ فِي أَشَدِّ الْغَيْظِ ، وَكَأَنَّ لَمْ تَغْضَبْ وَلَمْ تَرْضَ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ وَلَا لِنَفْسِهَا .

وَسَايَرُ غَضَبِهَا ثُمَّ قَالَتْ : كَانَ كَلَامُكَ أَنَّ لَكَ رَجَاءً إِلَيَّ ، فَأَنَا أَحِبُّ ... أَحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ .

قُلْتُ : وَأَنَا كَذَلِكَ أَحِبُّ ... أَحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ .

فَصَحَحْتُ وَسُرِّي عَنْهَا ، وَتَبَيَّنَتْ عَلَى شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةٌ لَوْ جَاءَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ لِيَضَعَ فِي نَفْرِهَا ابْتِسَامَةً أَجْمَلَ مِنْهَا ، لَمَا وَجَدَ أَجْمَلَ مِنْهَا .  
ثُمَّ قَالَتْ : تُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ مَاذَا ؟

قُلْتُ : أَحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ مِنْكَ قِصَّةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ مَا كَانَ أَوَّلُهَا ؟

قَالَتْ : لَقَدْ قَضَيْتَ مِنْ حُكْمِكَ فِتْنًا ، وَلَكِنَّكَ أَخْطَأْتَ ، فَلِكُلِّ لَيْلٍ مُظْلِمٍ كَوْنُهُ ؛ وَالْكَوْكَبُ الْوَقَادُ الْمَعْلَى فَوْقَ لَيْلٍ الْمَرْأَةُ مِمَّا هُوَ إِيمَانُهَا ؛ نَعَمْ إِنَّهُ لَيْسَ كإِيمَانِ النَّاسِ فِي وَاجِبَاتِهِ ، لَكِنَّهُ كإِيمَانِ النَّاسِ فِي تَغْرِيبِهِ ، وَاللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ !

قُلْتُ : لَوْ أُطِيعَ اللَّهُ بِمَعْصِيَتِهِ لَأَسْتَقَامَ لَكَ هَذَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتِ تَصِفِينَ الْإِيمَانَ الْأَوَّلَ الَّذِي كَانَ عَمَلًا ، فَصَارَ ذِكْرِي ، فَصَارَتِ الذِّكْرَى أَمَلًا ، فَطَنَتْ أَلَمَلُ هُوَ الْإِيمَانُ .

قَالَتْ : ثُمَّ إِنَّمَا جَمِينًا مُكَرَّهَاتٍ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَمَا نَحْنُ إِلَّا صَرَخَى الْمُصَادَمَةِ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبَيْنَ الْقَدَرِ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ لَمْ تَهْفُ وَاحِدَةً مَتَكُنْ فِي غَلَطِهَا الْأَوَّلَى وَهِيَ مُسْتَكْرَهَةٌ عَلَى غَلَطِهَا ؛ بَلْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ فِي لَذَّةٍ ، أَوْ مُبَادِرَةٌ لَشَهْوَةٍ ، أَوْ طَالِبَةٌ لِمَنْفَعَةٍ .

قَالَتْ : هَذَا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ ؛ أَمَّا الْآخَرُ فَالْتِمَاسُ الرِّزْقِ وَصَلَاحُ الْعَيْشِ ؛ فَالرَّجُلُ مَعَ الرَّجُلِ ، رَأْسُ مَالِهِ قُوَّتُهُ ، وَعَمَلُهُ بِقُوَّتِهِ ؛ وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ مَعَ الرَّجُلِ رَأْسُ مَالِهَا أَنْوُثَتُهَا ، وَعَمَلُ أَنْوُثَتِهَا . وَفِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ - وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ - تَخَالَ كَلِمَةُ الْفُجُورِ عَلَى الْمَرْأَةِ بِكَلِمَاتٍ رَقِيقَةٍ سَاحِرَةٍ ، مِنْهَا الْحُبُّ وَالزَّوْاجُ وَالسَّعَادَةُ ، فَتَسْتَلِمُ الْمَرْأَةُ مُضْطَرَةً لِيَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا . وَفِي الْوَجْهِ الثَّانِي - وَجْهِ الرِّزْقِ وَالْعَيْشِ - تَخَالَ كَلِمَةُ الْخَبِيثَةِ الْفَاجِرَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْكِينَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ بِكَلِمَاتٍ رَهِيْبَةٍ قَاتِلَةٍ ، مِنْهَا الْجُوعُ وَالْفَقْرُ وَالشَّقَاءُ ، فَتَسْفُطُ الْمَرْأَةُ مُضْطَرَةً خِيفَةً أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا ؛ وَفِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ يَكُونُ الرَّجُلُ هُوَ الْفَاجِرُ لِفَسَادِ آدَابِهِ ، وَفِي الْوَجْهِ الْآخَرِ يَكُونُ الْفَاجِرُ هُوَ الْمُجْتَمَعُ لِفَسَادِ مَبَادِيهِ .

\* \* \*

قُلْتُ : أَنَا لَا أَنْكَرُ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا سَفَطَتْ فِي هَذِهِ الْمَدَنِيَّةِ ، لَمْ تَقَعْ أَبَدًا إِلَّا فِي مَوْضِعٍ غَلَطَةٍ مِنْ غَلَطَاتِ الْقَوَانِينِ ؛ وَأَفَّةُ هَذِهِ الْقَوَانِينِ أَنَّهَا لَمْ تُسَنَّ لِمَنْعِ الْجَرِيْمَةِ أَنْ تَقَعَ ، وَلَكِنْ لِلْعِقَابِ عَلَيْهَا بَعْدَ وَقُوعِهَا ؛ وَبِهَذَا عَجَزَتْ عَنْ صِبَاةِ الْمَرْأَةِ وَحِفْظِهَا ، وَتَرَكْتَهَا لِقَانُونِ الْغَرِيزَةِ الْوَحْشِيِّ فِي هَؤُلَاءِ الْوُحُوشِ الْأَدَمِيِّينَ ، الَّذِينَ يَأْخُذُهُمُ الشُّعَارُ مِنْ هَذِهِ الرَّائِحَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُونَهَا إِلَّا فِي اثْنَيْنِ : الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ وَالذَّهَبِ . فَلَمَّا أَلْجَأَتْ أَمْرًا حَاجَتُهَا أَوْ فَفَرَهَا إِلَى أَحَدِهِمْ وَرَأَى عَلَيْهَا جَمَالًا ، إِلَّا ضَرَبَهُ ذَلِكَ الشُّعَارُ ؛ فَإِنْ اسْتَحَفَّتْ بِتَزَوَّاتِهِ وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ ، طَرَدَهَا إِلَى الْمَوْتِ ، وَمَنْعَهَا أَنْ تَعِيشَ مِنْ قِبَلِهِ ؛ وَإِنْ صَلَحَتْ لَهُ وَتَبَسَّرَتْ ، آوَاهَا هِيَ وَطَرَدَ شَرَفَهَا ...

وَبِخِلَافِ ذَلِكَ الدِّينِ ؛ فَإِنَّهُ قَائِمٌ عَلَى مَنْعِ الْجَرِيْمَةِ وَإِبْطَالِ أَسْبَابِهَا ، فَهُوَ فِي أَمْرِ الْمَرْأَةِ يُلْزِمُ الرَّجُلَ وَاجِبَاتٍ ، وَيُلْزِمُ الْمُجْتَمَعَ وَاجِبَاتٍ غَيْرَهَا ، وَيُلْزِمُ الْحُكُومَةَ وَاجِبَاتٍ أُخْرَى :

أَمَّا الرَّجُلُ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ ، وَيَتَحَصَّنَ ، وَيَغَارَ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَيَعْمَلَ لَهَا ؛ وَأَمَّا



الْمُجْتَمَعُ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَدَّبَ ، وَيَسْتَقِيمَ ، وَيُعِينِ الْفَرْدَ عَلَى واجباتِ الْفَضِيلَةِ ، وَيَتَدَامَجَ وَيَشْدُدَ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ وَأَمَّا الْحُكُومَةُ فَعَلَيْهَا أَنْ تَحْمِي الْمَرْأَةَ ، فَتُعَاقِبَ عَلَى إِسْقَاطِهَا عِقَابَ الْمَوْتِ وَالْأَلَمِ وَالشَّهِيرِ ؛ لِتُقِيمَ مِنَ الثَّلَاثَةِ حُرَاسًا جَبَّارَةً ، مَنْ لَا يَخْشَى اللَّهَ خَشْيَهَا ؛ فَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ فِي دِينِنَا مَوْضِعُ غَلْطَةٍ تَسْقُطُ فِيهِ الْمَرْأَةُ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : صَدَقْتَ ، فَالْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا مَرَاءَ فِيهَا ، أَنَّ فِكْرَةَ الْمُجْبُورِ فِكْرَةٌ قَانُونِيَّةٌ ؛ وَمَا دَامَ الْقَانُونُ هُوَ أَبَاحُهَا بِشُرُوطٍ ، فَهُوَ هُوَ الَّذِي قَرَّرَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ ؛ وَمِنْ هَذَا التَّفَرُّعِ يُقَدِّمُ عَلَيْهَا الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ كِلَاهُمَا عَلَى ثِقَةٍ وَأَطْمِئْنَانٍ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَأْتِي الْجُرْأَةُ عَلَى اتِّدَاعِ النَّاسِ إِلَى مَا وَرَاءَ حُدُودِ الْقَانُونِ ، وَمِنْ هَذَا الِاتِّدَاعِ تَأْتِي السَّاقِطَةُ بِأَخِيرِ مَعَانِيهَا وَأَفْخِجِ مَعَانِيهَا .

وَتَقَرُّرُ سِيَادَةِ الْمَرْأَةِ فِي الْاجْتِمَاعِ الْأَوْرُيِّ ، وَتَقْدِيرُهَا عَلَى الرِّجَالِ ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَهَا ؛ كُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُ جَرَاءَةَ السُّفْهَاءِ عَلَيْهَا جَرَاءَةً مُتَأَدِّبَةً ، حَتَّى كَأَنَّ الْمُتَحَكِّكَ مِنْهُمْ فِي أَمْرٍ يَقُولُ لَهَا : مِنْ فَضْلِكَ كُونِي سَاقِطَةً ... أَمَّا هُنَا فَجَرَاءَةُ السُّفْهَاءِ جَرَاءَةٌ وَفَاحَةٌ مَعًا ، وَذَلِكَ هُوَ سِرُّهَا .

الْقَانُونُ كَأَنَّمَا يَقُولُ لِلرِّجَالِ : احْتَالُوا عَلَى رِضَى النِّسَاءِ ، فَإِنْ رَضِيَ الْجَرِيمَةُ فَلَا جَرِيمَةَ ؛ وَمِنْ هَذَا فَكَأَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ بَرَاعَةَ الرَّجُلِ الْفَاسِقِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحِيلَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَإِنْقَاطِ الْفِطْرَةِ فِي نَفْسِهَا ، بِأَسَالِيبٍ مِنَ الْمَلَقِ وَالرِّيَاءِ وَالْمَكْرِ ، تَتْرُكُهَا عَاجِزَةً لَا تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تَذْهَبَ وَتَرْضَى ؛ وَبِهَذَا يَنْصَرِفُ كُلُّ فَاجِرٍ إِلَى إِتْدَاعِ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الَّتِي تُطْلِقُ تِلْكَ الْفِطْرَةَ مِنْ حَيَاتِهَا ، وَتُخْرِجُهَا مِنْ عِفَّتِهَا ، « تَطْبِيقًا لِلْقَانُونِ » ...

وَلَا سِيَادَةَ فِي اجْتِمَاعِنَا لِلْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّ الْقَانُونَ جَعَلَهَا سَيِّدَةً نَفْسِهَا ، وَجَعَلَهَا فَوْقَ الْأَدَابِ كُلِّهَا ، وَفَوْقَ عَقُوبَةِ الْقَانُونِ نَفْسِهِ إِذَا رَضِيَتْ ؛ إِذَا رَضِيَتْ مَاذَا ... ؟

\* \* \*

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَ الْقَانُونُ هُنَا فِي مَسْأَلَتِنَا هَذِهِ يَغْدِلُ بِالظُّلْمِ ، وَيَخِمِي الْفَضِيلَةَ بِإِطْلَاقِ حُرِّيَةِ الرِّذِيلَةِ ؛ فَهُوَ إِنَّمَا يُفْسِدُ الدِّينَ ، وَيَصْرِفُ النَّاسَ عَنْ خَوْفِ اللَّهِ إِلَى خَوْفِ مَا يَخَافُ

مِنَ الْحُكُومَةِ وَخَذَهَا ؛ وَبِهَذَا لَا يَكُونُ عَمَلُهُ إِلَّا فِي تَضَحِيحِ الظَّاهِرِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، وَيَدْعُ الْبَاطِلَ يُسِّرُ مَا شَاءَ مِنْ خُبَيْهِ وَحَيْلَتِهِ وَفَسَادِهِ ؛ فَكَأَنَّهُ لَيْسَ قَانُونًا إِلَّا لِتَنْظِيمِ الشَّقَاقِ وَإِحْكَامِ الْخُدَيْعَةِ ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَ قَانُونًا لِحَالَةِ الْجَرِيمَةِ لَا لِلْجَرِيمَةِ نَفْسِهَا ؛ فَإِذَا أُخِذَتِ الْمَرْأَةُ مُلَابِنَةً وَرَضِيَ فَهَذَا مُجْبُورٌ قَانُونِيٌّ ... وَإِنْ كَانَتْ أَلْمَلَابِنَةُ هِيَ عَمَلُ الْحَيْلَةِ وَالتَّذْيِيرِ ، وَإِنْ كَانَ الرِّضَى هُوَ أَثَرُ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ ، وَإِنْ صَاعَتِ الْمَرْأَةُ وَسَقَطَتْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهَا بِاطْلًا ، وَالْحَقُّ النَّاسُ بِمَا لَا يَكُونُ مِنْ تَوْبَةٍ إِلَّا لَيْسَ فَلَا يَكُونُ أَبَدًا . أَمَّا إِذَا أُخِذَتِ الْمَرْأَةُ مُكَارَهَةً وَغَضَبًا ، فَهَذِهِ هِيَ الْجَرِيمَةُ فِي الْقَانُونِ ؛ وَيَسْمِيهَا الْقَانُونُ جَرِيمَةً أَلَا عِتْدَاءَ عَلَى الْعُرْضِ ، وَهِيَ بِأَنْ تُسَمَّى جَرِيمَةً الْعَجْزِ عَنْ إِزْصَاءِ الْمَرْأَةِ ، أَحَقُّ وَأَوْلَى .

عَلَى أَنَّ الْمُسْكِنَةَ لَمْ تُوَخَذْ فِي الْحَالَتَيْنِ إِلَّا غَضَبًا ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَتْ طَرِيقَةُ الرَّجُلِ الْعَاصِبِ ؛ فَإِنَّ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لَمْ تَتَّذَّرْ بِالْمَرْأَةِ إِلَّا إِلَى نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ ، هِيَ إِخْرَاجُهَا مِنْ شَرَفِهَا ، وَحِرْمَانُهَا حُقُوقِ إِنْسَانِيَّتِهَا فِي الْأُسْرَةِ ، وَطَرْدُهَا وَرَاءَ حُدُودِ الْأَعْتِبَارِ الْأَجْمَاعِيِّ ، وَتَرْكُهَا نَمَّةً مُخْلَاةً لِمَجَارِي أُمُورِهَا ، فَلَا يَتَبَسَّرُ لَهَا الْعَيْشُ إِلَّا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْفَاجِرِ ، فَلَا تَكُونُ لَهَا بَيْتَةٌ إِلَّا مِنْ أَمْتَالِهِ وَأَمْتَالِهَا ، كَمَا يَجْتَمِعُ فِي الْمَوْضِعِ الْوَاحِدِ ، أَهْلُ الْمَصِيرِ الْوَاحِدِ ، عَلَى طَرِيقَةِ الْقَطِيعِ فِي الْمَجْزَرَةِ ...

\* \* \*

فَقَالَتْ هِيَ : الْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْجَرِيمَةُ أَوَّلُهَا الْحُبُّ ؛ وَهِيَ لَا تَفْعُ إِلَّا مِنْ بَيْنِ تَقْيِضَيْنِ يَجْتَمِعَانِ فِي الْمَرْأَةِ مَعًا : كِبَرُ حُبِّهَا إِلَى مَا يَفُوتُ الْعَقْلَ ، وَصِغَرُ عَقْلِهَا إِلَى مَا يَنْزِلُ عَنِ الْحُبِّ . وَالْمَرْأَةُ تَنْظُرُ هَادِئَةً سَاكِتَةً رَزِينَةً ، حَتَّى تُصَادِفَهَا اللَّحَاطُ النَّارِيَّةُ مِنَ الْعَيْنِ الْمُقَدَّرَةِ لَهَا فَلَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ تَمْلَأَهَا نَارًا وَلَهَبًا ؛ وَلَتَكُنِ الْمَرْأَةُ مَنْ هِيَ كَانَتْ ، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ كَمُسْتَوْدَعِ الْبَارُودِ ، يَهْوُلُ عَظْمُهُ وَكِبَرُهُ ، وَهُوَ لَا شَيْءَ إِذَا اتَّصَلَتْ بِهِ تِلْكَ الشَّرَارَةُ الْمُهَاجِمَةُ .

وَلَيْسَتْ حِرَاسَةُ الْمَرْأَةِ شَيْئًا يُؤْبَهُ لَهُ أَوْ يُعْتَدُّ بِهِ أَوْ يُسَمَّى حِرَاسَةً ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ كَالْتَحْفِظِ عَلَى مُسْتَوْدَعِ الْبَارُودِ مِنَ النَّارِ ؛ فَيَسْتَوِي فِي وَسَائِلِهَا الْخَوْفُ مِنَ الشَّرَارَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَالْفَرْغُ مِنَ الْحَرِيقِ الْأَعْظَمِ ؛ فَيُخْتَارُ لِثَنِيهِمَا بَوَسَائِلَ وَاحِدَةٍ فِي قَدْرِ وَاحِدٍ وَأَعْتِبَارٍ وَاحِدٍ .

وَإِذَا تَرَكْتَ الْمَرْأَةَ لِنَفْسِهَا تَحْرُسُهَا بِعَقْلِهَا وَأَدَبِهَا وَفَضْلِهَا وَحُرِّيَّتِهَا ، فَقَدْ تَرَكْتَ لِنَفْسِهَا مُسْتَوْدَعَ الْبَارُودِ تَحْرُسُهُ جُذُرَانُهُ الْأَرْبَعَةُ الْقَوِيَّةُ ...

وَالرِّجَالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ مَظَاهِرَ طَبِيعِيَّةَ ، مِنَ الْخِيَلَاءِ وَالْكَبَرِيَاءِ وَالْأَغْنَادِ بِالنَّفْسِ وَالْمُبَاهَاةِ بِالْعِفَّةِ ؛ وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ أَنْفُسُهُمْ يَعْلَمُونَ كَذَلِكَ ، أَنَّ هَذَا الظَّاهِرَ مَخْلُوقٌ مَعَ الْمَرْأَةِ كَجِلْدِ جَسْمِهَا النَّاعِمِ ، وَأَنَّ تَحْتَهُ أَشْيَاءَ غَيْرَ هَذِهِ تَعْمَلُ عَمَلَهَا وَتَصْنَعُ الْبَارُودَ السَّاسِيَّ الَّذِي سَيَنْفَجِرُ ...

\* \* \*

قُلْتُ : إِذَا كَانَ هَذَا فَقَبِّحَ اللَّهُ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ الَّتِي يُرِيدُونَهَا لِلْمَرْأَةِ . هَلْ تَعِينُ الْمَرْأَةَ إِلَّا فِي أَنْتِظَارِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَحْكُمُهَا بِلُطْفٍ ، وَفِي أَنْتِظَارِ صَاحِبِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ؟  
قَالَتْ : إِنَّ هَذَا حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَأَوْسَعُ النِّسَاءِ حُرِّيَّةَ أَصْبِعُهُنَّ فِي النَّاسِ ؛ وَهَلْ كَالْمُؤْمِسِ فِي حُرِّيَّتِهَا فِي نَفْسِهَا ؟

وَلَكِنْ يَا سُؤْمَهَا عَلَى الدُّنْيَا ! إِنَّهَا هِيَ بِعَيْنِهَا كَمَا قُلْتَ أَنْتَ : حُرِّيَّةَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يُتْرَكُ حُرًّا كَالشَّرِيدِ ، لِيُجَرَّبَ فِيهِ الْحَيَاةَ تَجَارِبَهَا الْمُؤَلِّمَةَ . وَمَاذَا فِي يَدِ الْمَرْأَةِ مِنْ حُرِّيَّةٍ هِيَ حُرِّيَّةُ الْقَدْرِ فِيهَا ؟

قُلْتُ : وَلِهَذَا لَا أَرْجِعُ عَنْ رَأْيِي أَبَدًا : وَهُوَ أَنَّهُ لَا حُرِّيَّةَ لِلْمَرْأَةِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، إِلَّا إِذَا شَعَرَ كُلُّ رَجُلٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِكَرَامَةِ كُلِّ أَمْرَأَةٍ فِيهَا ، بِحَيْثُ لَوْ أَهْنَتْ وَاحِدَةً نَارَ الْكُلِّ فَاسْتَقَادُوا لَهَا ، كَانَ كَرَامَاتِ الرِّجَالِ أَجْمَعِينَ قَدْ أَهْنَتْ فِي هَذِهِ الْوَاحِدَةِ ؛ يَوْمَئِذٍ تُصْبِحُ الْمَرْأَةُ حُرَّةً ، لَا بِحُرِّيَّتِهَا هِيَ ، وَلَكِنْ بِأَنَّهَا مَخْرُوسَةٌ بِمَلَايِينِ مِنَ الرِّجَالِ ...  
فَصَحِحَتْ وَقَالَتْ : (يَوْمَئِذٍ) ! هَذَا أَسْمُ زَمَانٍ أَوْ أَسْمُ مَكَانٍ ... ؟

\* \* \*

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : وَلَكِنَّا أَبْعَدْنَا عَنْ قِصَّةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، مَا كَانَ أَوَّلُهَا ؟

قَالَتْ : إِنَّ الشُّبَّانَ وَالرِّجَالَ عِلْمٌ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهُ الْفَتَاةُ قَبْلَ أَوَانِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَقَرَّ فِي ذَهْنِ كُلِّ فَتَاةٍ ، أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ كَالدَّارِ فِيهَا الْحُبُّ ، وَلَا كَالْمَدْرَسَةِ فِيهَا

الْصَّدَاقَةُ ، وَلَا كَالْمَحَلِّ الَّذِي تَبْتَاعُ مِنْهُ مِنْدِيلًا مِنَ الْحَرِيرِ أَوْ رُجَاجَةً مِنَ الْعِطْرِ ، فِيهِ إِكْرَامُهَا وَخِدْمَتُهَا .

وَأَسَاسُ الْفَضِيلَةِ فِي الْأُنُوثَةِ الْحَيَاةُ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ الْفَتَاةُ أَنَّ الْأُنْثَى مَتَى خَرَجَتْ مِنْ حَيَاتِهَا وَتَهَجَّجَتْ ، أَيْ : تَوَفَّعَتْ ، أَيْ : تَبَذَّلَتْ ، اسْتَوَى عِنْدَهَا أَنْ تَذْهَبَ بِيَمِينِهَا أَوْ تَذْهَبَ شِمَالًا ، وَنَهَيَاتُ لِكُلِّ مِنْهُمَا وَلَا يَهْمَا اتَّفَقَ : وَصَاحِبَاتُ الْيَمِينِ فِي كَتَفِ الزَّوْجِ وَظِلُّ الْأُسْرَةِ وَشَرَفِ الْحَيَاةِ ، وَصَاحِبَاتُ الشِّمَالِ مَا صَاحِبَاتُ الشِّمَالِ ... ؟

قُلْتُ : هَذَا هَذَا ؛ إِنَّهُ الْحَيَاءُ ، الْحَيَاءُ لَا غَيْرُهُ ؛ فَهَلْ هُوَ إِلَّا وَسِيلَةٌ أَعَانَتْ الطَّبِيعَةَ بِهَا الْمَرْأَةُ لِتَسْمُوَ عَلَى غَرِيزَتِهَا مَتَى وَجَبَ أَنْ تَسْمُوَ ، فَلَا تَلْقَى رَجُلًا إِلَّا وَفِي دِمِهَا حَارِسٌ لَا يَغْفُلُ . وَهَلْ هُوَ إِلَّا سَلْبُ جَمْعَتِهِ الطَّبِيعَةُ إِلَى ذَلِكَ الْإِنْجَابِ الَّذِي لَوْ انْطَلَقَ وَحْدَهُ فِي نَفْسِ الْمَرْأَةِ لَانْدَفَعَتْ فِي التَّبَرُّجِ وَالْإِغْوَاءِ وَعَرَضِ أَسْرَارِ أُنُوثَتِهَا فِي الْمَعْرِضِ الْعَامِّ ... ؟  
قَالَتْ : ذَلِكَ أَرَدْتُ ، فَكُلُّ مَا تَرَاهُ مِنْ أَسَالِيبِ التَّجَمُّلِ وَالزَّيْنَةِ عَلَى وَجْهِ الْفَتَيَاتِ وَأَجْسَامِهِنَّ فِي الطُّرُقِ ، فَلَا تُعَدُّهُنَّ مِنْ فَرْطِ الْجَمَالِ ، بَلْ مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَخْضَعُ حَقَّ الْخُضُوعِ فِي نَفْسِهَا إِلَّا لِسِتْنَيْنِ : حَيَاتِهَا وَغَرِيزَتِهَا .  
قُلْتُ : يَا عَجَبًا ! هَذَا أَدَقُّ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِ بَلَكِ الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ : « تَجُوعُ الْمَرْءَةُ وَلَا تَأْكُلُ بِتَذَيُّنِهَا » . فَإِنْ اخْتَصَّصْتَ الْمَرْأَةَ لِلْحَيَاءِ كَفَّتْ غَرِيزَتُهَا ...

قَالَتْ : ... وَجَعَلَهَا الْحَيَاءُ صَادِقَةً فِي نَفْسِهَا وَفِي ضَمِيرِهَا ، فَكَانَتْ هِيَ الْمَرْأَةُ الْحَقِيقِيَّةَ الْجَدِيدَةَ بِالزَّوْجِ وَالنَّسْلِ وَتَوْرِيثِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَحِفْظِهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .  
قُلْتُ : وَمِنْ هَذَا يَكُونُ الْإِسْرَافُ فِي الْأُنُوثَةِ وَالتَّبَرُّجِ أَمَامَ الرِّجَالِ كَذِبًا مِنْ ضَمِيرِ الْمَرْأَةِ .

قَالَتْ : وَمِنْ أَخْلَاقِهَا أَيْضًا ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ أَشَدَّ الْإِسْرَافِ فِي هَذِهِ الْأُنُوثَةِ وَفِي هَذَا التَّبَرُّجِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْمَرْأَةِ الْعَامَّةِ ... ؟

قُلْتُ : وَالْمَرْأَةُ الْعَامَّةُ أَمْرَأَةٌ تَجَارِبُهُ الْقَلْبُ . فَكَأَنَّ الْمُسْرِفَةَ فِي أُنُوثَتِهَا وَتَبَرُّجِهَا ، هَذِهِ سَبِيلُهَا ، فَهِيَ لَا تُؤْمِنُ عَلَى نَفْسِهَا .

قَالَتْ : قَدْ تَوَمَّنُ عَلَى نَفْسِهَا ، وَلَكِنَّهَا أَبَدًا مُؤَمِّسُ الْفِكْرِ فِي الرِّجَالِ ، فَيُؤْشِكُ أَلَّا تَوَمَّنَ ؛ وَهِيَ رَهْنٌ بِأَحْوَالِهَا وَبِمَا يَقَعُ لَهَا ، فَقَدْ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا الْجَرِيُّ وَقَدْ لَا يَتَقَدَّمُ ، وَلَكِنَّهَا بِذَلِكَ كَانَتْ مُغْلَبَةً عَنْ نَفْسِهَا أَنَّهَا « مُسْتَعِدَّةٌ أَلَّا تَوَمَّنَ » ...

قَالَ (ح) : لَكِنَّ يُقَالُ إِنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَبَرَّجَتْ وَتَتَأَثَّرَتْ لِتَرَى نَفْسَهَا جَمِيلَةً فَإِنَّهُ ، فَيُعْجِبُهَا حُسْنُهَا ، فَيُسْرِهَا إِعْجَابُهَا .

قَالَتْ : هَذَا كَالْقَوْلِ إِنَّ أُسْتَاذَ الرَّقْصِ الَّذِي رَأَيْتُهُ هُنَا ، يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا يَنْظُرُ رَجُلٌ إِلَى رَاقِصَةٍ تَتَأَوَّدُ وَتَتَرَجَّرُ . إِنَّ هَذَا الرَّقَّاصَ فِيهِ الْحَرَكَةُ الْفَتِيَّةُ كَمَا هِيَ حَرَكَةُ لَيْسَ غَيْرُ ؛ فَهُوَ كَالْمِيزَانِ أَوْ الْقِيَاسِ أَوْ أَيِّ آلَاتِ الضَّبْطِ ؛ أَمَّا فَتْنَةُ الْحَرَكَةِ وَسِحْرُهَا وَمَعْنَاهَا مِنَ الْمَرْأَةِ الْفَاتِنَةِ فِي وَهْمِ الرَّجُلِ الْمَفْتُونِ بِهَا ؛ فَهَذَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي أُسْتَاذِ الرَّقْصِ ، وَإِنْ كَانَ أُسْتَاذَ الرَّقْصِ .

إِنَّ أَجْمَلَ أَمْرَةٍ تَبْصُقُ بِفَمِهَا عَلَى وَجْهِهَا فِي الْمَرْأَةِ ، إِذَا مَحِيَ الرَّجُلُ مِنْ ذَهْنِهَا ، أَوْ لَمْ يُبْطَلْ بِعَيْنَيْهِ مِنْ وَرَاءِ عَيْنَيْهَا ، أَوْ لَمْ تَكُنْ مُمْتَلِئَةً الْحَوَاسِ بِهِ ، أَوْ بِإِعْجَابِهَا ، أَوْ بِالرَّغْبَةِ فِي إِعْجَابِهَا ؛ فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ فَإِنَّهَا لَا تَرَى وَجْهَهَا حِينَئِذٍ إِلَّا كَالذُّنْبَا إِذَا خَلَّتْ مِنَ الْعَدَلِ ...

\* \* \*

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ أَبْعَدْنَا عَنْ « فَصَّةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، مَا كَانَ أَوَّلُهَا ! »

قَالَتْ : سَأَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَوْضِعِكَ عِنْدِي : إِنَّ قِصَّتِي فِي الْفَضْلِ الْأَوَّلِ مِنْهَا هِيَ قِصَّةُ جَمَالِي ؛ وَفِي الْفَضْلِ الثَّانِي هِيَ قِصَّةُ مَرَضِ الْعَذْرَاءِ ؛ وَفِي الْفَضْلِ الثَّلَاثِ هِيَ قِصَّةُ الْغَفْلَةِ وَالتَّهَوُّنِ فِي الْحِرَاسَةِ ؛ وَفِي الْفَضْلِ الرَّابِعِ هِيَ قِصَّةُ انْخِدَاعِ الطَّبِيعَةِ النَّسُوبَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الرِّقَّةِ وَإِيجَادِ الْحُبِّ وَتَلْقِيهِهِ وَالرَّغْبَةِ فِي تَنَوُّعِهِ أَنْوَاعًا لِلْأَهْلِ وَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ ؛ ثُمَّ فِي الْفَضْلِ الْخَامِسِ هِيَ قِصَّةُ لُؤْمِ الرَّجُلِ : كَانَ مُحِبًّا شَرِيفًا يُقْسِمُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِ ، فَإِذَا هُوَ كَالْمُرُورِ وَالْمُخْتَالِ وَاللَّصِّ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِ الْجَرَنِيمَةِ .

ثُمَّ سَكَتَتْ هُنَيْهَةً ، فَكَانَ سُكُوتُهَا يُنَمِّ كَلَامُهَا ...

وَقَالَ (ح) : فَمَا هُوَ مَرَضُ الْعَذْرَاءِ الَّذِي كَانَ مِنْهُ الْفَضْلُ الثَّانِي فِي الرِّوَايَةِ .

قَالَتْ : كُلُّ عَذْرَاءٍ فِيهِ مَرِيضَةٌ إِلَى أَنْ تَتَزَوَّجَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُعْلِمَهَا أَهْلُهَا أَنَّ الْعِلَاجَ قَدْ يَكُونُ مَسْمُومًا ؛ وَيَتَّبِعِي أَنْ يَحُوطُوهَا بِقَرِيبٍ مِنَ الْعِلَاقَةِ الَّتِي يُحَاطُ الْمَرِيضُ بِهَا ، فَلَا يُجْعَلُ مَا حَوْلَهُ إِلَّا مَلَأِيمًا لَهُ ، وَيُمْنَعُ أَشْيَاءُ وَإِنْ أَحَبَّهَا وَرَغِبَ فِيهَا ، وَيُكْرَهُ عَلَى أَشْيَاءَ وَإِنْ عَافَهَا وَصَدَفَ عَنْهَا .

قَالَ (ح) : فَيَكُونُ الْقَانُونُ الْأَجْتِمَاعِيُّ تَصْدِيقًا لِلْقَانُونِ الدِّينِيِّ مِنْ أَنَّ الذُّكُورَةَ هِيَ فِي نَفْسِهَا عِدَاوَةٌ لِلْأُنُوثَةِ ، وَأَنَّ كُلَّ رَجُلٍ لَيْسَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٌ <sup>(١)</sup> . يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوضًا إِلَّا فِي الْحَالَةِ الْوَاحِدَةِ الْمَشْرُوعَةِ ، وَهِيَ الزَّوْاجُ .

قَالَتْ : فَتَكُونُ الْمَشْكِلَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ هِيَ : مَنْ ذَا يُزْعِمُ الذُّكُورَةَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الْوَاحِدَةِ الْمَشْرُوعَةِ كَيْلًا تَضِيْعُ الْأُنُوثَةُ ؟

قَالَ : وَلَكِنْ إِذَا كَانَ سُقُوطُ الْفَتَاةِ هُوَ جِنَايَةُ « الزَّوْاجِ الْمُرُورِ » ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ سُقُوطُ بَعْضِ الْأُمُتَرَوِّجَاتِ ؟

قَالَتْ : هُوَ جِنَايَةُ « الزَّوْاجِ الْمُتَفَحِّ » ... تُرِيدُ أَنْفُسُهُنَّ الْخَبِيثَةَ تَنْفِيحَ الزَّوْجِ ؛ وَالْمُؤَمِّسَاتِ أَشْرَفَ مِنْهُنَّ ، إِذْ لَا يَغْتَدِينَ عَلَى حَقٍّ وَلَا يَخُونُ أَمَانَةً .

\* \* \*

وَرَفَّ عَلَى وَجْهِهَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ شُعَاعٌ مِنَ الشَّمْسِ كَانَ عَلَى جَبِينِهَا كَصَفَاءِ اللَّوْلُو ، ثُمَّ تَحَوَّلَ عَلَى خَدَّهَا كِاشِرَاقِ الْبَاقُوتِ ؛ وَرَأَيْتُني أَنَا مُنْشِئَةً بِحَظِّي فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ ؛ وَهَذَا الشُّعَاعُ إِنَّمَا جَاءَ يَخْتِمُ نُورَهَا .

ثُمَّ كَانَتْ الشُّخْرِيَةُ الْعَجِيبَةُ أَنَّهَا لَمْ تُنَمَّ كَلِمَةً الْتَوَرَّ حَتَّى جَاءَ حَظُّهَا الْحَقِيقِيُّ مِنْ حَيَاتِهَا ... وَهُوَ رَجُلٌ يَتَحَطَّأُهَا ؛ فَلَمَّا أَخَذَتْهُ عَيْنُهَا أَبْتَسَمَتْ لَهُ أَبْتِسَامًا مِنَ الدَّلَلِ ، لَوْ لَمْ تَجْعَلْهُ هِيَ أَبْتِسَامًا لَكَانَ دُمُوعًا ؛ ثُمَّ وَقَفَتْ وَمَا تَتَمَّاسُكَ مِنَ الْهَمِّ ، كَأَنَّهَا تَمْنَالُ « لِلْجَمَالِ

(١) يُقَالُ : ذُو رَحِمٍ مَحْرَمٌ ، أَيُّ : لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ ، كَأَيِّهَا وَأَخِيهَا ... إلخ .

الْبَائِسِ « ؛ ثُمَّ حَيْثُ وَسَلَّمْتُ وَوَدَّعْتُ ؛ وَبَعْدَ « وَأَوَاتِ » أُخْرَى ... مَشَتْ سَاكِئَةً وَمَرَّأَهَا  
بِضِيحٍ وَيَبْكِي .

فَوَدَاعًا يَا أَوْهَامَ الذِّكَاءِ الَّتِي تَلِمِسُ الْحَقَائِقَ بِقُوَّةِ خَالِقَةٍ تَزِيدُ فِيهَا !  
وَوَدَاعًا يَا أَحْلَامَ الْفِكْرِ الَّتِي تَضَعُ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا يُغَيِّرُهُ !  
وَوَدَاعًا يَا حُبَّهَا ....

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### عَرَبَةُ اللَّقْطَاءِ (\*) ...

جَلَسْتُ عَلَى سَاحِلِ الشَّاطِئِ فِي (إِسْكَندَرِيَّةَ) أَتَأَمَّلُ الْبَحْرَ ، وَقَدْ أَرْتَفَعَ الصُّحَى ،  
وَلَكِنْ النَّهَارُ لَدُنْ نَاعِمٍ رَطِيبٍ كَانَ الْفَجْرُ مُنْتَدٍ فِيهِ إِلَى الظُّهْرِ .

وَجَاءَتْ عَرَبَةُ اللَّقْطَاءِ فَأَشْرَفَتْ عَلَى السَّاحِلِ ، وَكَأَنَّهَا فِي مَنْظَرِهَا غَمَامَةٌ تَتَحَرَّكُ ، إِذْ  
تَعْلُوهَا ظِلَّةٌ كَبِيرَةٌ فِي لَوْنِ الْغَنِيمِ . وَهِيَ كَعَرَبَاتِ الثَّقَلِ ، غَيْرَ أَنَّهَا مُسَوَّرَةٌ بِالْوُحَاشِ مِنَ الْخَشَبِ  
كَجَوَائِبِ الثَّغْنِ تُنْسِكُ مَنْ فِيهَا مِنَ الصَّغَارِ أَنْ يَتَدَخَّرُوا مِنْهَا إِذْ هِيَ تَدْرُجُ وَتَتَقَلَّلُ .

وَوَقَفْتُ فِي الشَّارِعِ لِنُتْرَلِ رَكْبِهَا إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ؛ أُولَئِكَ ثَلَاثُونَ صَغِيرًا مِنْ كُلِّ  
سَفِينَةٍ وَلَقِيْطٍ وَمَنْبُودٍ ، وَقَدْ أَنْكَمَشُوا وَتَضَاعَطُوا إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَمُطَّ الْعَرَبَةُ فَتَسْعَهُمْ ،  
وَلَكِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يُكَبَسُوا وَيَتَدَاخَلُوا حَتَّى يَشْغَلَ الثَّلَاثَةُ أَوْ الْأَرْبَعَةُ مِنْهُمْ حَيْرَ اثْنَيْنِ . وَمَنْ  
مِنْهُمْ إِذَا تَأَلَّمَ سَيَذْهَبُ فَيَشْكُو لِأَبْنِهِ ... ؟

وَتَرَى هُنَالِكَ الْمَسَاكِينَ خَلِيطًا مُلْتَبِسًا يُشْعِرُكَ أَجْتِمَاعُهُمْ أَنَّهُمْ صَبَدٌ فِي شَبَكَةٍ لَا أَطْفَالَ  
فِي عَرَبَةٍ ، وَبِذَلِكَ مَنْظَرُهُمُ الْبَائِسُ الدَّلِيلُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَوْلَادَ أُمَهَاتٍ وَأَبَاءَ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا  
وَسَاوِسَ آبَاءٍ وَأُمَهَاتٍ ...

\* \* \*

هَذِهِ الْعَرَبَةُ يَجُرُّهَا جَوَادَانِ أَحَدُهُمَا أَذْهَمُ وَالْآخَرُ كُمَيْتٌ<sup>(١)</sup> . فَلَمَّا وَقَفْتُ لَوِي الْأَذْهَمَ  
عُنْقُهُ وَالتَفَتَ يَنْظُرُ : أَيَفِرْعَوْنَ الْعَرَبَةُ أَمْ يَرِيدُونَ عَلَيْهَا ... ؟ أَمَّا الْكُمَيْتُ فَحَرَكَ رَأْسَهُ  
وَعَلَّكَ لِحَامَهُ كَأَنَّهُ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : إِنَّ الْفَكْرَ فِي تَخْفِيفِ الْعِبَاءِ الَّذِي تَحْمِلُهُ يَجْعَلُهُ أَثْقَلَ  
عَلَيْكَ مِمَّا هُوَ ، إِذْ يُضَيِّفُ إِلَيْهِ الْهَمَّ ، وَالْهَمُّ أَثْقَلُ مَا حَمَلْتُ نَفْسَ ؛ فَمَا دُمْتُ فِي الْعَمَلِ  
فَلَا تَتَوَهَّمَنَّ الرَّاحَةَ ، فَإِنَّ هَذَا يُوهِنُ الْقُوَّةَ ، وَيَخْذُلُ الشَّاطِطَ ، وَيَجْلِبُ السَّأَمَ ؛ وَإِنَّمَا

(\*) « الرسالة » العدد ١١٤ ، ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ سبتمبر/أيلول ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ١٤٤٣ - ١١٤٦ .

(١) { الْأَذْهَمُ : الْأَسْوَدُ . وَالْكُمَيْتُ : الْأَحْمَرُ } .

رُوحُ الْعَمَلِ الصَّبْرِ ، وَإِنَّمَا رُوحُ الصَّبْرِ الْعَزْمُ .

وَرَأَاهُمُ الْأَدَهَمُ يُنْزِلُونَ اللَّقْطَاءَ ، فَاسْتَحْفَهَ الطَّرَبُ ، وَحَرَكَ رَأْسَهُ كَأَنَّمَا يَسْحَرُ بِالْكُمَيْتِ  
وَلَفَسْتِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ : إِنَّمَا هُوَ الثَّرُوعُ إِلَى الْحُرِّيَّةِ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ فِي ذَاتِهَا ،  
فَلَتَكُنْ لَكَ فِي ذَاتِكَ ، وَإِذَا تَعَذَّرَتِ اللَّذَّةُ عَلَيْكَ ، فَاحْتَفِظْ بِخِيَالِهَا ، فَإِنَّهُ وَضَلَّتْ بِهَا إِلَى  
أَنْ تُمَكِّنَ وَتَتَسَهَّلَ ؛ وَلَا تَجْعَلَنَّ كُلَّ طِبَاعِكَ طِبَاعًا عَامِلَةً كَادِحَةً ، وَإِلَّا فَانْتَ أَدَاةٌ لَيْسَ فِيهَا  
إِلَّا الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُكَ ، وَلَيَكُنْ لَكَ طَبْعٌ شَاعِرٌ مَعَ هَذِهِ الطَّبَاعِ الْعَامِلَةِ ، فَتَكُونَ لَكَ الْحَيَاةُ  
كَمَا تُرِيدُكَ وَكَمَا تُرِيدُهَا .

إِنَّ الدُّنْيَا شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي الْوَاقِعِ ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الشَّيْءَ الْوَاحِدَ هُوَ فِي كُلِّ خَيَالٍ دُنْيَا  
وَحْدَهَا .

\* \* \*

وَفِي الْعَرَبِيَّةِ أَمْرَانِ تَقُومَانِ عَلَى اللَّقْطَاءِ ؛ وَكِلْتَاهُمَا تَزْوِجُ لِلْأُمِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ  
الْمَسَاكِينِ ؛ فَلَمَّا سَكَنَتِ الْعَرَبِيَّةُ أَنْحَدَرَتْ مِنْهُمَا وَاحِدَةً وَقَامَتِ الْأُخْرَى تَتَوَلَّى الصِّغَارَ  
قَائِلَةً : وَاحِدٌ ، ائْتَانِ ، ثَلَاثَةٌ ، أَرْبَعَةٌ ... إِلَى أَنْ تَمَّ الْعَدَدُ وَخَلَا قَفْصُ الدَّلْجَاجِ مِنَ  
الدَّلْجَاجِ ... !

وَمَشَى الْأَطْفَالُ بِوُجُوهِ بَيِّنَةٍ ، يَقْرَأُ مَنْ يَقْرَأُ فِيهَا أَنَّهَا مُسْتَسْلِمَةٌ ، مُسْتَكِينَةٌ ، مُعْتَرِفَةٌ أَنَّ  
لَا حَقَّ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، إِلَّا هَذَا الْإِحْسَانَ الْبَخْسَ الْقَلِيلَ .

وَجَاوُوا بِهِمْ لِيَنْظُرُوا الطَّبِيعَةَ وَالْبَحْرَ وَالشَّمْسَ ، فَعَفَلَ الصِّغَارُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ وَصَرَفُوا  
أَعْيُنَهُمْ إِلَى الْأَطْفَالِ الَّذِينَ لَهُمْ آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ ...

\* \* \*

وَكَبِدِي ! أَضْنَى الْأَسَى كِبِدِي ؛ فَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي بَعْدَ انْفِسَاحِهِ ، وَتَالَيْتِي وَجَعَ الْفِكْرِ  
فِي هَؤُلَاءِ الثَّعَسَاءِ ، وَعَرَّتْنِي مِنْهُمْ عِلَّةٌ كَدَسَ الْحَمَى فِي الدِّمِ ؛ وَأَنْقَلَبْتُ إِلَى مَتَوَايَ ،  
وَالْعَرَبِيَّةُ وَأَهْلُهَا وَمَكَانُهَا وَزَمَانُهَا فِي رَأْسِي .

فَلَمَّا طَافَ بِي النَّوْمُ طَافَ كُلُّ ذَلِكَ بِي ، فَارْتَيْتَنِي فِي مَوْضِعِي ذَاكَ ، وَأَبْصَرْتُ الْعَرَبِيَّةَ قَدْ

وَقَفَّتْ ، وَتَحَاوَرَ الْأَدَهَمُ وَالْكُمَيْتُ ؛ فَلَمَّا أَفْرَعُوها وَشَعَرَ الْجَوَادَانِ بِخِفَتِهَا التَّفَنَّا مَعًا ، ثُمَّ  
جَمَعَا رَأْسَيْهِمَا يَتَحَدَّثَانِ !

قَالَ الْكُمَيْتُ : كُنْتُ قَبْلَ هَذَا أَجُرُّ عَرَبِيَّةَ الْكِلَابِ الَّتِي يَقْتُلُهَا الشَّرْطَةُ بِالسُّمِّ ، فَأَخْذُ  
الْمَوْتَ لِهَذِهِ الْكِلَابِ الْمُسْكِينَةِ ، ثُمَّ أَرْجِعُ بِهَا مَوْتِي ؛ وَكُنْتُ أَذْهَبُ وَأُجِئُ فِي كُلِّ مَرَادٍ  
وَمُضْطَرَبٍ مِنْ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَرْقِيهَا وَسِكِّهَا ، وَلَا أَشْعُرُ بِغَيْرِ الثَّقَلِ الَّذِي أَجْرُهُ ؛ فَلَمَّا  
أَبْتَلَيْتُ بِعَرَبِيَّةِ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ اللَّقْطَاءَ ، أَحْسَسْتُ ثِقَلًا آخَرَ وَقَعَ فِي نَفْسِي  
وَمَا أَذْرِي مَا هُوَ ؟ وَلَكِنْ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّ ظِلَّ كُلِّ طِفْلِ مِنْهُمْ يُقْبِلُ وَحْدَهُ عَرَبِيَّةً .

قَالَ الْأَدَهَمُ : وَأَنَا فَقَدْ كُنْتُ أَجُرُّ عَرَبِيَّةَ الْقِمَامَةِ وَالْأَقْدَارِ ، وَمَا كَانَ أَقْدَرَهَا وَأَتْنَبَهَا ،  
وَلَكِنَّهَا عَلَى نَفْسِي كَانَتْ أَطْهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَنْظَفَ ؛ كُنْتُ أَجِدُ رِيحَهَا الْخَبِيئَةَ مَا دُمْتُ  
أَجُرُّهَا ؛ فَإِذَا أَنَا تَرَكْتُ الْعَرَبِيَّةَ اسْتَرْوَحْتُ السَّيْمَ وَاسْتَطَعَمْتُ الْجَوَّ ، أَمَا الْآنَ فَالْزَيْجُ  
الْخَبِيئَةُ فِي الزَّمَنِ نَفْسِهِ ، كَانَ هَذَا الزَّمَنُ قَدْ أَرْوَحَ وَأَتْنَنَ مُنْذُ قُرْنَتْ بِهِؤُلَاءِ وَعَرَبَتِهِمْ .

قَالَ الْكُمَيْتُ : إِنَّ أَبْنَ الْخَيَوَانِ يَسْتَقْبِلُ الْوُجُودَ بِأَمَةٍ ، إِذْ يَكُونُ وَرَاءَهَا كَالْقِطْعَةِ  
الْمُتَمِّمَةِ لَهَا ، وَلَا تَقْبِلُ أُمُّهُ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَصْرِفُهَا عَنْهُ صَارِفٌ ، فَتَزْغُمُ الْوُجُودَ عَلَى أَنْ  
يَتَقَبَّلَ أَبْنَاهَا ، وَعَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ قَوَائِنَهُ ؛ أَمَا هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ فَقَدْ طَرَدَهُمُ الْوُجُودُ مِنْهُمْ كَمَا طَرَدَ  
اللَّهُ آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَقَدْ هُدِثَ الْآنَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا هُوَ سِرٌّ مَا نَشْعُرُ بِهِ ؛ فَلَسْنَا  
نَجُرُّ لِلنَّاسِ وَلَكِنْ لِلشَّيَاطِينِ ...

\* \* \*

وَهُنَا وَقَفَ عَلَى حُودَيْي الْعَرَبِيَّةِ صَدِيقٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ فَقَالَ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا عَلِيٍّ ؟

قَالَ الْحُودَيْيُ : هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا هَاشِمٍ !

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَمَا تَتْرُكُ طَبْعَكَ فِي الْكُتْبَةِ يَا شَيْخُ ؟

قَالَ الْحُودَيْيُ : وَهَلْ أَعْرِفُهُمْ أَنَا ؟ هُمْ بِضَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ وَالسَّلَامِ : أَرْكَبُوا يَا أَوْلَادُ ،  
انْزِلُوا يَا أَوْلَادُ . هَذَا كُلُّ مَا أَسْمَعُ .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : وَلَكِنْ مَا بَالُكَ سَاحِطًا عَلَيْهِمْ ، كَأَنَّهُمْ أَوْلَادُ أَعْدَائِكَ ؟

قَالَ الْخُوذُيُّ : لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَذَرِي أَيَّ رَجُلٍ سَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الطِّفْلِ ، وَأَيُّهُ أَمْرَأَةٌ سَتَكُونُ مِنْ هَلِهِ الطُّفْلَةَ ؟

أَنْظُرْ كَيْفَ تَعَلَّقَتْ هَلِيهِ أَلْبَنَتْ وَعُمُرُهَا سَتَانِ ، فِي عُنُقِ هَذَا الْوَلَدِ الَّذِي كَانَ مِنْ سَتَيْنِ ابْنِ سَتَيْنِ<sup>(١)</sup> . . . لَا أَرَانِي أَحْمِلُ فِي عَرَبَتِي أَطْفَالًا كَالْأَطْفَالِ الَّذِينَ تَحْمِلُهُمُ الْعَرَبَاتُ إِلَى أَبْوَابِ دُورِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ اللَّقَطَاءَ يُحْمَلُونَ إِلَى بَابِ الْمَلَجِ ، وَهُوَ بَابٌ لِلْحَارَاتِ وَالشَّكَاكِ لَا يَأْخُذُ إِلَّا مِنْهَا ، فَلَا يُرْسَلُ إِلَّا إِلَيْهَا .

أَنَا وَاللَّهِ يَا أَبَا هَاشِمٍ ، ضَيِّقُ الصَّدْرِ ، كَاسِفُ الْبَالِ مِنْ هَلِهِ الْمِهْنَةِ ؛ وَيُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي لَا أَحْمِلُ فِي عَرَبَتِي إِلَّا الْجُنُونَ وَالْفُجُورَ وَالسَّرِقَةَ وَالْقَتْلَ وَالذَّعَارَةَ وَالشُّكْرَ وَعَوَاصِفَ وَزَوَاجِعَ . . .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالَ مَسَاكِينَ ، وَلَا ذَنْبَ لَهُمْ .

قَالَ الْخُوذُيُّ : نَعَمْ لَا ذَنْبَ لَهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ذُنُوبٌ ؛ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ إِنْ هُوَ إِلَّا جَرِيْمَةٌ تُثَبِّتُ أَمْتِدَادَ الْإِثْمِ وَالشَّرِّ فِي الدُّنْيَا ؛ وَلَكِنَّهُمْ أُمَمَاهُمْ لَغِيَّةٌ<sup>(٢)</sup> .

فَقَطَعَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : وَهَلْ وَلَدْتَهُمْ إِلَّا كَمَا تَلِدُ سَائِرُ الْأُمَمَاتِ أَوْلَادَهُنَّ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، إِنَّهُ عَمَلٌ وَاحِدٌ ، غَيْرَ أَنَّ أَحْوَالَهُ فِي الْجِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَةٌ لَا تَتَكَافَأُ ؛ وَهَلْ تَسْتَوِي حَالُ مَنْ يَشْتَرِي الْمَتَاعَ ، وَمَنْ يَسْرِقُ الْمَتَاعَ ؟

هَلُنَا بَاعِثٌ مِنَ الشَّهْوَةِ قَدْ عَجَزَ أَنْ يَسْمُوَ سُمُوهُ - وَمَا سُمُوهُ إِلَّا الزَّوْاجُ - فَتَسْقَلُ وَأَنْحَطَّ ، وَرَجَعَ فِسْقًا ، وَعَادَ أَوَّلُهُ عَلَى آخِرِهِ : كَانَ أَوَّلُهُ جُرْمًا فَلَا يَزَالُ إِلَى آخِرِهِ جُرْمًا ، وَلَا يَزَالُ أَبَدًا يَعُودُ أَوَّلُهُ عَلَى آخِرِهِ ؛ فَلَمَّا حَمَلَتِ الْمَرْأَةُ وَقَاءَتْ إِلَى أَمْرِهَا ، وَذَهَبَ عَنْهَا جُنُونُ الرَّجُلِ وَالرَّجُلُ مَعَ ؛ أَنْطَوَتْ لِلرَّجَالِ عَلَى النَّارِ وَالْحَفِيدِ وَالضَّغِينَةِ ؛ فَلَا يَكُونُ ابْنُ الْعَارِ إِلَّا ابْنُ هَلِهِ الشَّرُّورِ أَيْضًا .

(١) تَعْيِيرٌ بِالْغَيْتَةِ عَلَى طَرِيقَةِ طُرَفَاءِ الْبَلَدِيِّينَ مِنْ أَمْثَالِ (أَبِي عَلِيٍّ) ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ابْنُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ .

(٢) وَلَدَتْهُ لَغِيَّةٌ ، أَيُّ : مِنْ سِفَاحٍ . وَصِدُّهُ يَرُشِدُهُ يَفْتَحُ الرِّاءَ .

وَالْأُمَمَاتُ يُعَدِّدْنَ لِجَنَّتِهِنَّ الْكُتَابَ وَالْأَكْسِيَةَ قَبْلَ أَنْ يُوَلَّدُوا ، وَتُهَيِّئْنَ لَهُمْ بِالْفِكْرِ آمَالًا وَأَحْلَامًا فِي الْحَيَاةِ ، فَيَكْسِبُهُمْ فِي بَطُونِهِنَّ شُعُورَ الْفَرَحِ وَالْإِنْتِهَاجِ وَارْتِقَابِ الْحَيَاةِ الْهَيِّنَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي السُّمُوءِ بِهَا ؛ وَلَكِنْ أُمَمَاتٌ هَؤُلَاءِ يُعَدِّدْنَ لَهُمُ الشُّوَارِعَ وَالْأَرْقَةَ مِنْذُ الْبَدَءِ ، وَلَا تَتَرَقَّبُ إِحْدَاهُنَّ طَوْلَ أَشْهُرٍ حَمَلِهَا أَنْ يَجِيئَهَا الْوَلِيدُ ، بَلْ أَنْ يَتْرُكَهَا حَيًّا أَوْ مَقْتُولًا ؛ فَيُورِثُهُمْ بِذَلِكَ وَهُمْ أَجَنَّةٌ شُعُورَ اللَّهْفَةِ وَالْحَسْرَةِ وَالْبُغْضِ وَالْمَقْتِ ، وَيَطْبَعْنَهُمْ عَلَى فِكْرَةِ الْخَطِيئَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْقَتْلِ ، فَلَا يَكُونُ ابْنُ الْعَارِ إِلَّا ابْنُ هَلِهِ الرَّذَائِلِ أَيْضًا .

وَنَظَّلُ الْفَاسِقَةَ مُدَّةَ حَمَلِهَا سِنَةً أَشْهُرٍ فِي إِحْسَاسِ خَائِفٍ ، مُتَرَقِّبٍ ، مُتَفَرِّدٍ بِنَفْسِهِ ، مُتَعَزِّلٍ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، نَاقِمٍ ، مُتَبَرِّمٍ ، مُتَسَتِّرٍ ، مُتَافِقٍ ؛ فَلَوْ كَانَ السَّفِينُحُ مِنْ أَبَوَيْنِ كَرِيمَيْنِ لَجَاءَ ثُعْبَانًا أَدَمِيًّا فِيهِ سُمُّهُ مِنْ هَذَا الْإِحْسَاسِ الْعَنِيفِ . وَمَتَى أَلْقَتِ الْفَاسِقَةُ ذَا بَطْنِهَا<sup>(١)</sup> قَطَعَتْهُ لِنُورِهِ مِنْ رَوَابِطِ أَهْلِهِ وَزَمَنِهِ وَتَارِيخِهِ وَرَمَتْ بِهِ لِيَمُوتَ ؛ فَإِنْ هَلَكَ فَقَدْ هَلَكَ ، وَإِنْ عَاشَ لِيَمِثِلِ هَلِهِ الْحَيَاةَ فَهُوَ مَوْتٌ آخَرُ شَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَمَهْمَا يَتَوَلَّهِ النَّاسُ وَالْمُخْسِنُونَ ، فَلَا يَزَالُ أَوَّلُهُ يَعُودُ عَلَى آخِرِهِ ؛ مِمَّا فِي دَمِهِ وَطَبَاعِهِ الْمَمُورُوتَةِ ؛ وَلَا يَبْرَحُ جَرِيْمَةً مُمْتَدَّةً مُتَطَاوِلَةً ، وَلَا يَنْفُكُ قِصَّةَ فِيهَا زَانَ وَزَانِيَةٍ ، وَفِيهَا خَطِيئَةٌ وَلَعْنَةٌ .

فَهَؤُلَاءِ كَمَا رَأَيْتُ أَوْلَادَ الْجُرْأَةِ عَلَى اللَّهِ ، وَالتَّعَدَّى عَلَى النَّاسِ ، وَالْإِسْتِخْفَافَ بِالشَّرَائِعِ ، وَالْإِسْتِهْزَاءَ بِالْفَضَائِلِ ؛ وَهُمْ الْبُغْضُ الْخَارِجُ مِنَ الْحُبِّ ، وَالْوَقَاحَةُ الْآتِيَةُ مِنَ الْحَجَلِ ، وَالْإِسْتِهْزَاءُ الْمُنْبَعِثُ مِنَ الدَّامَةِ ؛ وَكُلُّ مِنْهُمْ مَسْأَلَةٌ شَرٌّ تَطْلُبُ حَلَّهَا أَوْ تَعْقِيدَهَا مِنَ الدُّنْيَا ، وَفِيهِمْ دِمَاءٌ فَوَارَةٌ تَجْمَعُ سُمُومَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّمَا كَبُرُوا سَنَةً فَسَنَةً .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الْفَاسِقِ الَّذِي أَغْرَبَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ فَاسْتَزَلَّهَا وَهَوَّارَهَا فِي هَلِهِ الْمَهْوَاةِ . أَكَانَ حَقُّ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَعْظَمَ مِنْ حَقِّ هَذَا الْآدَمِيِّ . أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْآخِرُ هُوَ الْأَوَّلُ فِي الْإِغْتِيَارِ ، فَيَعْلَمُ أَنَّ هَذَا اللَّقِيطَ الْمُسْكِينَ هُوَ سَبِيلُهُ إِلَى صَاحِبَتِهِ ، وَهُوَ الْبَلَاغُ إِلَى مَا يُحَاوِلُهُ مِنْهَا ؛ فَيَكُونُ كَأَنَّمَا دَخَلَ بَيْنَ الْأَنْثَيْنِ ثَالِثٌ يَرَاهُمَا . . . فَلَعَلَّهُمَا يَسْتَحْيَانِ .

(١) أَيُّ : وَضَعَتْ وَوَلَدَتْ ، وَهُوَ تَعْيِيرٌ عَرَبِيٌّ بِلَيْغٍ .

قَالَ الْخُوذَنِّي الْفَيْلَسُوفُ : لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَلَعَنَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا ، وَلَعَنَاتُ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَنْفَادَتْ لَهُ وَأَعْتَرَتْ بِهِ . إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ شَيْئًا فِي هَذِهِ الْجَرِيمَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ بِصَفَةِ وَاحِدَةٍ تُغْرِفُهُ ، وَكَانَتْ صَفَعَةً وَاحِدَةً تَهْرِمُهُ ، وَكَانَ مَعَ الْمَرْأَةِ الْحُكُومَةُ وَالشَّرَائِعُ وَالْفَضَائِلُ ، وَمَعَهَا جَهَنَّمُ أَيْضًا .

أَلَمْ تَعْلَمْ الْحَقَمَاءُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ زَوْجًا لَهَا لَيْسَ رَجُلًا مَعَهَا ، وَأَنَّ الشَّرِيعَةَ لَوْ أَبْقَتْ أَنَّهُ رَجُلٌ لَمَا حَرَمَتْ عَلَيْهَا أَنْ تُخَالِطَهُ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي سَاوَرَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، بَلْ هِيَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ الَّتِي رَأَتْ فِي الْمَرْأَةِ مُسْتَوْدَعَهَا ، فَتَرِيدُ أَنْ تَفْتَحِمَ إِلَى مَقَرِّهَا عَنُوةً أَوْ خِدَاعًا أَوْ رِضًى أَوْ كَمَا يَتَّفِقُ ؛ إِذْ كَانَ قَانُونُ هَذِهِ الْمَادَّةِ أَنْ تُوجَدَ ، وَلَا شَيْءٌ إِلَّا أَنْ تُوجَدَ ؛ فَلَا تَعْرِفُ خَيْرًا وَلَا شَرًّا ، وَلَا فَضِيلَةً وَلَا رَذِيلَةً .

لِأَيُّهُمَا يَجِبُ التَّخَصُّصُ : أَلِلِّصَاعَةِ الْمُتَقَضَّةِ ، أَمْ لِلْمَكَانِ الَّذِي يُخْشَى أَنْ تَنْقُضَ عَلَيْهِ ؟ لَقَدْ أَجَابَتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ : حَصَّنُوا الْمَكَانَ . وَلَكِنَّ الْمَدَنِيَّةَ أَجَابَتْ : حَصَّنُوا الصَّاعِقَةَ ... !

\* \* \*

وَكَانَتْ الْمَرْأَتَانِ الْمُصَاحِبَتَانِ لِمَجَاعَةِ اللَّقْطَاءِ تَتَنَاجَبَانِ ، فَقَالَتِ الْكُبْرَى مِنْهُمَا :

يَا حَسْرَتَا عَلَى هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ الْمَسَاكِينِ ! إِنَّ حَيَاةَ الْأَطْفَالِ فِيمَا فَوْقَ مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، أَيْ فِي سُورِهِمْ وَأَفْرَاجِهِمْ ؛ وَحَيَاةَ هَؤُلَاءِ الْبَائِسِينَ فِيمَا هُوَ دُونَ مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، أَيْ فِي وُجُودِهِمْ فَقَطْ .

وَكَبُرَ الْأَطْفَالُ يَكُونُ مِنْهُ إِدْخَالُهُمْ فِي نِظَامِ الدُّنْيَا ، وَكَبُرَ هَؤُلَاءِ إِخْرَاجُهُمْ مِنَ « الْمَلْجَأِ » وَهُوَ كُلُّ النَّظَامِ فِي دُنْيَاهُمْ ، لَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا التَّشْرِيدُ وَالْفَقْرُ وَابْتِدَاءُ الْقِصَّةِ الْمُخْزِنَةِ .

فَقَالَتِ الصَّغْرَى : وَلَمْ لَا يَفْرَحُونَ كَأَوْلَادِ النَّاسِ ، أَلَيْسَتْ الطَّبِيعَةُ لَهُمْ جَمِيعًا ، وَهَلْ تَجْمَعُ الشَّمْسُ أَشِعَّتَهَا عَنْ هَؤُلَاءِ لِنُضَاعِفِهَا لِأَوْلَدِكَ ؟

قَالَتِ الْأُخْرَى : الطَّبِيعَةُ ؟ تَقُولِينَ الطَّبِيعَةُ ؟ إِنَّكَ يَا ابْنَتِي عَذْرَاءُ لَمْ تَبْدَأْ فِي حَيَاتِكَ

حَيَاةً بَعْدَ ، وَلَمْ تُجَاوِبِي بِقَلْبِكَ أَلْتَلَبِ الصَّغِيرَ الَّذِي كَانَ تَحْتَ قَلْبِكَ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتِ مَعَ هَؤُلَاءِ (مُوظَّفَةٌ) لَا تَعْرِفِينَ مِنْهُمْ إِلَّا جَانِبَ النَّظَامِ وَقَانُونَ الْمَلْجَأِ .

لَقَدْ وَلَدْتُ يَا ابْنَتِي خَمْسَةَ أَطْفَالٍ ، وَبِالْعَيْنِ الْبَلْبِغَةِ الَّتِي أَنْظَرُ بِهَا إِلَيْهِمْ أَنْظَرُ إِلَى هَؤُلَاءِ ؛ فَمَا أَرَاهُمْ إِلَّا مُنْقَطِعِينَ مِنْ صِلَةِ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ : يَغْسِسُ لَهُمْ حَتَّى الْجَوُّ ، وَيُظْلِمُ عَلَيْهِمْ حَتَّى الثُّورُ ؛ وَيَبْدُو الطِّفْلُ مِنْهُمْ عَلَى صِغَرِهِ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ الْعَمَّ الْمُقْبِلَ عَلَيْهِ طُولَ عُمُرِهِ .

يَا لَهْفِي عَلَى عُودِ أَخْضَرَ نَاعِمٍ رَيَّانَ كَانَ لِلثَّمَرِ فَقِيلَ لَهُ : كُنْ لِلْحَطَبِ !

الْفَرْحُ يَا ابْنَتِي هُوَ شُعُورُ الْحَيِّ بِأَنَّهُ حَيٌّ كَمَا يَهْوَى ، وَرُؤْيُ نَفْسِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ فِي الْحَيَاةِ الْخَاصَّةِ بِهِ . وَهَؤُلَاءِ اللَّقْطَاءُ فِي حَيَاةٍ عَامَّةٍ قَدْ نُرِعَتْ مِنْهَا الْأُمُّ وَالْأَبُ وَالْأَدَارُ ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَاضٍ كَالْأَطْفَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يَبْدَوْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَا مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ .

قَالَتِ الصَّغِيرَةُ : وَلَكِنَّهُمْ أَطْفَالٌ .

قَالَتْ تِلْكَ : نَعَمْ يَا ابْنَتِي هُمْ أَطْفَالٌ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ طُرِدُوا مِنْ حُقُوقِ الطُّفُولَةِ كَمَا طُرِدُوا مِنْ حُقُوقِ الْأَهْلِ . وَحَسْبُكَ بِشَقَاءِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ مِنْ حَتَانِ أُمِّهِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقْتُلْهُ ، وَلَا مِنْ شَفَقَتِهَا إِلَّا أَنَّهَا طَرَحَتْهُ فِي الطَّرِيقِ .

إِنَّ الطَّبِيعَةَ كُلُّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تُعْطِيَ أَحَدَهُمْ مَكَانًا كَالْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ يَنْبُوذُهُ بَيْنَ أُمِّهِ وَأَبِيهِ .

لَيْسَ الْأَطْفَالُ يَا ابْنَتِي إِلَّا صُورًا مُبْهَمَةً صَغِيرَةً مِنْ كُلِّ جَمَالِ الْعَالَمِ ، تُفَسِّرُهَا أَعْيُنُ ذَوْنِهِمْ بِكُلِّ التَّفَاسِيرِ الْقَلْبِيَّةِ الْجَبِينَةِ ؛ فَأَيْنَ أَيْنَ الْعُمُودَ الَّتِي فِيهَا تَفْسِيرُ هَذِهِ الصُّورِ اللَّغِيظَةِ ؟

أَلَا لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ عَلَى أَوْلَدِكَ الرِّجَالِ الْأَنْدَالِ الطَّغَامِ الَّذِينَ أَوْلَدُوا النِّسَاءَ هَؤُلَاءِ الْمُنْبُوذِينَ ! يَزْعُمُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الرُّجُولَةَ ، فَهَذِهِ هِيَ رُجُولَتُهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا ، هَذِهِ هِيَ شَهَامَتُهُمْ ، هَذِهِ هِيَ عُقُولُهُمْ ، هَذِهِ هِيَ آدَابُهُمْ ... !

عَجَبًا ، إِنَّ سَيِّئَاتِ اللَّصُوصِ وَالْقَتْلَةَ كُلُّهَا يُنْسَى وَيَتَلَاشَى ، وَلَكِنَّ سَيِّئَاتِ الْعُنَاقِ

وَالْمُحِبِّينَ تَعِيشُ وَتَكْبُرُ ...

أَكَانَ ذَنْبُ الْمَرْأَةِ أَنَّهَا صَادِقَةٌ فَصَدَقَتْ ، وَأَنَّهَا مُخْلِصَةٌ فَأَخْلَصَتْ ، وَأَنَّهَا رَقِيقَةٌ فَلَانَتْ ، وَأَنَّهَا مُحْسِنَةٌ فَرَحِمَتْ ، وَأَنَّهَا سَلِيمَةٌ الْقَلْبِ فَأَنْخَدَعَتْ ؟

وَإِكْبِدِي لِلْمِسْكِينَةِ ! هَلِ أَنْخَدَعَتْ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْأُمُومَةِ الَّتِي خُلِقَتْ لَهَا ؟ هَلِ أَنْخَدَعَتْ إِلَّا الْأُمَّ الَّتِي فِيهَا ؟ وَهَلِ خَدَعَهَا مِنْ ذَلِكَ اللَّيْنِ إِلَّا الْأَبُ الَّذِي فِيهِ ؟

وَإِكْبِدِي لِمَنْ تُفْجِعُ بِالنَّكِيَةِ الْوَاحِدَةَ ثَلَاثَ فَجَائِعَ : فِي كَرَامَتِهَا الَّتِي أَبْتَدَلَتْ ، وَفِي الْحَبِيبِ الَّذِي تَبَرَّأَ مِنْهَا ، وَفِي طِفْلِهَا الَّذِي قَطَعَتْهُ بِيَدِهَا مِنْ قَلْبِهَا وَتَرَكْتَهُ لِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ ... !

إِنْ هَذَا لَا يَعْوِضُهُ فِي الطَّبِيعَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْ أَوْلِيَّكَ الْأَنْذَالِ ثَلَاثُ أَرْوَاحٍ ، فَيَقْتُلُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ : وَاحِدَةً بِالشَّنَقِ ، وَالثَّانِيَةَ بِالْحَزَقِ ، وَالثَّالِثَةَ بِالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ .

\* \* \*

وَكَانَ اللَّفْطَاءُ قَدْ تَبَعُّرُوا عَلَى السَّاحِلِ جَمَاعَاتٍ وَشَتَّى ، فَوَقَفَ أَحَدُهُمْ عَلَى طِفْلِ صَغِيرٍ يَلْعَبُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأُفٍّ عَلَى كَتَبِ مِنْهُ ، وَهِيَ تَتَلَهَّى بِالْمُخَرَّمِ تَتَلَوَّى فِيهِ أَصَابِعُهَا . فَتَنَظَرَ الطِّفْلُ إِلَى اللَّفِيطِ وَأَوَمَّا إِلَى جَمَاعَتِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَأَنْتُمْ جَمِيعًا أَوْلَادُ هَاتَيْنِ الْمَرْأَتَيْنِ أَمْ إِحْدَاهُمَا ؟

قَالَ اللَّفِيطُ : هُمَا الْمُرَاقِبَتَانِ ؛ وَأَنْتِ أَفَلَيْسَتْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ مُرَاقِبَةٌ ؟

قَالَ الطِّفْلُ : مَا مَعْنَى مُرَاقِبَةٍ ؟ هَذِهِ مَامَا !

قَالَ الْآخَرُ : فَمَا مَعْنَى مَامَا ؟ هَذِهِ مُرَاقِبَةٌ .

قَالَ الطِّفْلُ : وَكُلُّكُمْ أَهْلُ دَارٍ وَاحِدَةٍ ؟

قَالَ : نَحْنُ فِي الْمَلْجَأِ ، وَمَتَى كَبُرْنَا أَخَذُونَا إِلَى دُورِنَا .

فَقَالَ الطِّفْلُ : وَهَلِ تَبْكِي فِي الْمَلْجَأِ إِذَا أَرَدْتَ شَيْئًا لِيُعْطَوْكَ ؛ ثُمَّ تَغَضَّبَ إِذَا أَعْطَوْكَ

لِيَزِيدُوكَ ؟ وَهَلِ يُسْكِنُوكَ بِالْفَرْشِ وَالْحُلُوفِ ؟ وَالْقُبْلَةَ عَلَى هَذَا الْخَدِّ وَعَلَى هَذَا الْخَدِّ ؟ إِنْ كَانَ هَذَا فَأَنَا أَذْهَبُ مَعَكُمْ إِلَى الْمَلْجَأِ ؛ فَإِنَّ أَبِي قَدْ ضَرَبَنِي الْيَوْمَ ، وَقَدْ أَمَرَ (مَامَا) أَنْ لَا تُعْطِيَنِي شَيْئًا إِذَا بَكَيتُ ، وَلَا تَزِيدَنِي إِذَا غَضِبْتُ ، وَلَا ... ..

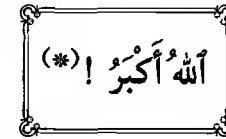
وَهُنَا صَاحَتِ الْمُرَاقِبَةُ الصَّغِيرَةُ : تَعَالَى يَا رَقَمَ عَشْرَةَ ... فَلَوَّى اللَّفِيطُ الْمِسْكِينُ وَجْهَهُ ، وَأَنْصَاعَ وَأَذْبَرَ .

« وَمَشَى الْأَطْفَالُ بِوُجُوهِ يَتِيمَةٍ ، يَقْرَأُ مَنْ يَقْرَأُ فِيهَا أَنَّهَا مُسْتَسْلِمَةٌ ، مُسْتَكِينَةٌ ، مُعْتَرِفَةٌ أَنْ لَا حَقَّ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَّا هَذَا الْإِحْسَانُ الْبَخْسَ الْقَلِيلَ » ...

مصطفى صادق الرافعي

إسكندرية





جَلَسْتُ وَقَدْ مَضَى هَرْنَعٌ مِنَ اللَّيْلِ ، أَهْمَيْتُ فِي نَفْسِي بِنَاءَ قِصَّةٍ أُدِيرُهَا عَلَى فَتَى كَمَا أَحَبَّ . . . خَبِيثٍ دَاغِرٍ ، وَفَتَاةٍ كَمَا أَحَبَّتْ . . . عَذْرَاءَ مُتَمَاجِنَةٍ ؛ كِلَاهُمَا قَدْ دَرَسَ وَتَخَرَّجَ فِي ثَلَاثَةِ مَعَاهِدَ : الْمَدْرَسَةِ ، وَالزَّوَايَاتِ الْغَرَامِيَّةِ ، وَالسِّيَمَا . وَهُوَ مُصْرِيٌّ مُسْلِمٌ ، وَهِيَ مِصْرِيَّةٌ مَسِيحِيَّةٌ . وَلِلْفَتَى هَنَاتٌ وَسَبَاتٌ لَا يَنْتَرُهُ وَلَا يَتَوَرَّعُ ؛ وَهُوَ مِنْ شَبَابِهِ كَالْمَاءِ يَغْلِي ، وَمِنْ أَنَاقَتِهِ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَلْحَقَهُ تَاءُ الثَّانِيَةِ . . . وَقَدْ تَشَعَّبَتْ بِهِ فُتُونُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، فَرَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْ قَلْبِهِ لَا يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ ؛ وَهُوَ طَلَبُ نِسَاءٍ ، دَائِبُهُ التَّجَوُّالُ فِي طُرُقِهِنَّ ، يَتَّبِعُهُنَّ وَيَتَعَرَّضُ لَهُنَّ ، وَقَدْ أَلْفَتَهُ الطُّرُقُ حَتَّى لَوْ تَكَلَّمْتُ لَقَالَتْ : هَذَا ضَرْبُ عَجِيبٍ مِنْ عَرَبَاتِ الْكُنُسِ . . . !

وَلِلْفَتَاةِ تَبَرُّجٌ وَنَهْتٌ ، يَغِبُّ بِهَا الْعَبْتُ نَفْسُهُ ، وَقَدْ أَخْرَجَتْهَا فُتُونُ هَذَا الثَّانِيَةِ الْأَوْرَبِيِّ الْقَائِمِ عَلَى فِلْسَفَةِ الْغَرِيزَةِ ، وَمَا يُسَمُّونَهُ « الْأَدَبُ الْمَكْشُوفُ » كَمَا يُصَوِّرُهُ أُولَئِكَ الْكُتَّابُ الَّذِينَ نَقَلُوا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ فِلْسَفَةَ الشَّهَوَاتِ الْخُرَّةِ عَنِ الْبَهَائِمِ الْخُرَّةِ . . . فِيهِ تَبَرُّجٌ جِدَنَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا ، لَا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَلَكِنْ إِلَى نَظَرَاتِ الرِّجَالِ ؛ وَتَظْهَرُ جِدَنَ تَظْهَرُ ، مُصَوَّرَةٌ لَا يَتَلَوَّنُ نَفْسُهَا مِمَّا يَجُورُ وَمَا لَا يَجُورُ ، وَلَكِنْ يَتَلَوَّنُ مِزَانُهَا مِمَّا يُعْجِبُ وَمَا لَا يُعْجِبُ .

وَكِلَا أَتْنِيَهُمَا لَا يُقِيمُ وَزْنَ لِلدِّينِ ، وَالْمُسْلِمُ وَالْمَسِيحِيُّ مِنْهُمَا هُوَ الْأَسْمُ وَخَدَهُ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ وَضْعِ الْوَالِدَيْنِ (رَحِمَهُمَا اللَّهُ!) ؛ وَالَّذِينَ حُرِّيَّةُ الْقَيْدِ لَا حُرِّيَّةُ الْخُرَّةِ ؛ فَأَنْتَ بَعْدَ أَنْ تَقْيِدَ رَدَّائِلَكَ وَضَرَاوَتَكَ وَشَرَكَ وَحَيَوَانِيَّتَكَ - أَنْتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا حُرٌّ مَا وَسِعَتْكَ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَالْفَكْرُ ؛ لِأَنَّكَ مِنْ بَعْدِ هَذَا مُكْمَلٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، مُسْتَقِيمٌ عَلَى طَرِيقَتِهَا ؛ وَلَكِنْ هَبْ حِمَارًا تَفَلْسَفَ وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ حُرًّا بِعَقْلِهِ الْجِمَارِيِّ ؛ أَيِ تَقْرِيرِ الْمَذْهَبِ الْفَلْسَفِيِّ

(\*) « الرسالة » العدد ٧٩ ، ٢ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٧ يناير / كانون الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٣ - ٦ .

الْجِمَارِيِّ فِي الْأَدَبِ . . . فَهَذَا إِنَّمَا يَبْتَغِي إِطْلَاقَ حُرِّيَّتِهِ ، أَيِ : تَسْلِيْطَ جِمَارِيَّتِهِ الْكَامِلَةَ عَلَى كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْوُجُودِ .

وَنَمَاضِي قِصَّتِي فِي أَسَالِيْبٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمْتَحِنُ بِهَا فُتُونُ هَذِهِ الْفَتَاةِ شَهَوَاتِ هَذَا الْفَتَى ، فَلَا يَزَالُ يَمْسِي مِنْ حَيْثُ لَا يَصِلُ ، وَلَا تَزَالُ تَمْنَعُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُدُّهُ ؛ وَمَا ذَلِكَ مِنْ فَضِيلَةٍ وَلَا أَمْتِنَاعٍ ، وَلَكِنَّهَا غَرِيزَةُ الْأُتُوْنَةِ فِي الْأَسْتِمْتَاعِ بِسُلْطَانِهَا ، وَإِنْبَاتِهَا لِلرَّجُلِ أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ قُوَّةُ الْإِنْتِظَارِ ، وَقُوَّةُ الصَّبْرِ ؛ وَأَنَّ هَذِهِ الَّتِي تَحْمِلُ جَنِينَهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فِي جَوْفِهَا ، تُنْسِكُ رَغْبَتَهَا فِي نَفْسِهَا مَدَّةَ حَمْلِ فِكْرِي إِذَا هِيَ أَرَادَتْ الْحَيَاةَ لِرَغْبَتِهَا ، لِيَكُونَ لَوْفُوعِهَا وَتَحَقُّقِهَا مِثْلُ الْمِيلَادِ ( الْمُفْرَحِ ) .

وَلَكِنْ الْمِيلَادُ فِي قِصَّتِي لَا يَكُونُ لِرِزْدِيْلَةِ هَذِهِ الْفَتَاةِ ، بَلْ لِفَضِيلَتِهَا ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ فِي رَأْيِي - وَلَوْ كَانَتْ حَيَاتُهَا مَخْدُودَةً مِنْ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ بِكَبَائِرِ الْإِلْمِ وَالْفَاحِشَةِ - لَا يَزَالُ فِيهَا مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْخُدُودِ كُلِّهَا قَلْبٌ طَبِيعَتُهُ الْأُمُومَةُ ، أَيِ : الْأَتِّصَالُ بِمَصْدَرِ الْخَلْقِ ، أَيِ : كُلِّ فَضَائِلِ الْعَقِيدَةِ وَالْدِّينِ ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَنْبَنِي هَذَا الْقَلْبُ بِحَادِثٍ يَتَّصِلُ بِهِ فَيَبْلُغُ مِنْهُ ، حَتَّى تَتَحَوَّلَ الْمَرْأَةُ تَحَوُّلَ الْأَرْضِ مِنْ فَضْلِهَا الْمُفْشَعِرِ الْمُجْدِبِ ، إِلَى فَضْلِهَا النَّصِيرِ الْأَخْضَرِ .

فَبِنِي قِصَّتِي تُذَعِّنُ الْفَتَاةَ لِصَاحِبِهَا فِي يَوْمٍ قَدْ اعْتَرَتْهَا فِيهِ مَخَافَةٌ ، وَتَزَلُ بِهَا هَمٌّ ، وَكَادَتْهَا الْحَيَاةُ مِنْ كَيْدِهَا ؛ فَكَانَتْ ضَعِيفَةً النَّفْسِ بِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ . وَتَخْلُو بِالْفَتَى وَفَكْرُهَا مُنْصَرِفٌ إِلَى مَصْدَرِ الْغَيْبِ ، مُؤَمِّلٌ فِي رَحْمَةِ الْقَدَرِ ؛ وَيَخْلِيهَا الشَّابُّ خَلَابَةً رُغْوَتِهِ وَحُبِّهِ وَلِسَانِهِ ، فَيُعْطِيهَا الْأَلْفَاظَ كُلِّهَا فَارِغَةً مِنَ الْمَعَانِي ، وَيَقْرَأُ بِالزَّوْجِ وَهُوَ مُنْطَوٍ عَلَى الطَّلَاقِ بَعْدَ سَاعَةٍ ؛ فَإِذَا أَوْشَكَتِ الْفَتَاةُ أَنْ تُصْرَعَ تِلْكَ الصَّرَعَةُ دَوَى فِي الْجَوِّ صَوْتُ الْمُوَدَّنِ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! » .

وَتُلْسَعُ الْفَتَاةُ فِي قَلْبِهَا ، وَتَتَّصِلُ بِهَذَا الْقَلْبِ رُوحَانِيَّةُ الْكَلِمَةِ ، فَتَقَعُ الْحَيَاةُ السَّمَاءِيَّةُ فِي الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَتَنْبَنِي الْعَذْرَاءُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ عَارَهَا ، وَيَفْجُوها أَنَّهَا مُفْدِمَةٌ عَلَى أَنْ تُفْسِدَ مِنْ نَفْسِهَا مَا لَا يُضْلِحُهُ الْمُسْتَحِيلُ فَضْلًا عَنِ الْمُؤْمِنِ ، وَتَزْنُو بِعَيْنِ الْفَتَاةِ الطَّاهِرَةِ مِنْ نَفْسِهَا إِلَى جِسْمِ بَغِيٍّ لَيْسَتْ هِيَ تِلْكَ الَّتِي هِيَ ؛ وَتَنْظُرُ بِعَيْنِ الزَّوْجَةِ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَى فَاسِقٍ

لَيْسَ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي هُوَ ؛ وَيَحْكِي لَهَا الْمَكَانَ فِي قَلْبِهَا الْمَفْطُورِ عَلَى الْأُمُومَةِ - حِكَايَةً تَنُورُ مِنْهَا وَتَسْمَرُ ؛ وَيَصْرُخُ الطِّفْلُ الْمُسْكِنُ صَرَخَتُهُ فِي أُذُنِهَا قَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَ وَيُلْقَى فِي الشَّارِعِ ... !

اللهُ أَكْبَرُ ! صَوْتُ رَهْنَبِ لَيْسَ مِنْ لُغَةِ صَاحِبِهَا وَلَا مِنْ صَوْتِهِ وَلَا مِنْ خِسَّتِهِ ، كَأَنَّمَا تُفْرِغُ السَّمَاءُ فِيهِ مِلءَ سَحَابَةٍ عَلَى رَجَسٍ قَلْبِهَا فَتَقْبِيهِ حَتَّى لَيْسَ بِهِ ذَرَّةٌ مِنْ دَنْسِهِ الَّذِي رَكِبَهُ السَّاعَةُ . كَانَ لِصَاحِبِهَا فِي حِسِّ أَغْصَابِهَا ذَلِكَ الصَّوْتُ الْأَسْوَدُ ، الْمُنْطَفِئُ ، الْمُبْهِمُ ، الْمُتَلَجِّلُجُ مِمَّا فِيهِ مِنْ قُوَّةِ شَهَوَاتِهِ ؛ وَكَانَ لِلْمُؤَذِّنِ صَوْتُ آخَرٍ فِي رُوحِهَا ؛ صَوْتُ أَحْمَرٍ ، مُشْتَعِلٍ كَمَغْمَعَةِ الْحَرَنِيقِ ، مُجَلْجِلٍ كَالرَّغْدِ ، وَاضِحٌ كَالْحَقِيقَةِ فِيهِ قُوَّةُ اللهِ !

سَمِعْتُ صَوْتَ السَّلْسِلَةِ وَقَعَقَعَتَهَا تُلَوَّى وَتَشُدُّ عَلَيْهَا ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّلْسِلَةِ بِعَيْنِهَا يُكْسِرُ حَدِيدَهَا وَيَنْحَطُّ .

كَانَتْ طَهَارَتُهَا تَخْتَبِئُ فَتَفْذَلُ إِلَيْهَا السَّمَامَاتُ ؛ وَطَارَتِ الْحَمَامَةُ حِينَ دَعَاها صَوْتُ الْجَوِّ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أَسْفَتْ حِينَ دَعَاها صَوْتُ الْأَرْضِ . طَارَتِ الْحَمَامَةُ ، لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ أَلْتَفَتَتْ فِيهَا لَفْتَةً أُخْرَى .

وَيُكَرِّرُ الْمُؤَذِّنُ فِي خِتَامِ آدَانِهِ : « اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ! » فَإِذَا ...

\* \* \*

وَبَلَدٌ خَاطِرِي ، فَوَقَفْتُ فِي بِنَاءِ الْقِصَّةِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، وَلَمْ أَذَرِ كَيْفَ يَكُونُ جَوَابُ « إِذَا ... » فَتَرَكْتُ فِكْرِي يَعْمَلُ عَمَلَهُ كَمَا تُلْهِمُهُ الْوَاعِيَةُ الْبَاطِنَةُ ، وَتَمَتَّ ...

وَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي أَنِّي أَدْخَلْتُ الْمَسْجِدَ لِصَلَاةِ الْعِيدِ وَهُوَ يَعْجُ بِتَكْبِيرِ الْمُصَلِّينَ : « اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ! » وَلَهُمْ هَدْيٌ كَهْدِيرِ الْبَحْرِ فِي تِلَاطِيمِهِ . وَارَى الْمَسْجِدَ قَدْ غَصَّ بِالنَّاسِ فَأَنْصَلُوا وَتَلَاَحَمُوا ؛ تَجَدَّدَ الصَّفِّ مِنْهُمْ عَلَى أَسْتِوَائِهِ كَمَا تَجَدَّدُ السُّطْرُ فِي الْكِتَابِ : مَمْدُودًا مُخْتَبِكًا يَنْتَظِمُهُ وَضِعٌ وَاحِدٌ ، وَأَزَاهُمْ تَتَابَعُوا صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ ، وَنَسَقًا عَلَى نَسْنِ ، فَأَلْمَسْجِدُ بِهِمْ كَالشُّبْلَةِ مُلِئَتْ حَبًّا مَا بَيْنَ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا ؛ كُلُّ حَبَّةٍ هِيَ فِي لَفٍّ مِنْ أَهْلِهَا وَسَمَلِهَا ، فَلَيْسَ فِيهِمْ عَلَى الْكَثْرَةِ حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ تُمَيِّزُهَا الشُّبْلَةُ فَضْلَ تَمْيِيزٍ ، لَا فِي الْأَعْلَى

وَلَا فِي الْأَسْفَلِ .

وَأَقَفْتُ مُتَحَيِّرًا مُتَلَدِّدًا أَلْتَفْتُ هَلْهَنَا وَهَلْهَنَا ، لَا أَذَرِي كَيْفَ أَخْلَصْتُ إِلَى مَوْضِعِ أَجْلِسُ فِيهِ ؛ ثُمَّ أَمَضِي أَتَخَطَّى الرِّقَابَ أَطْمَعُ فِي فُرْجَةٍ أَفْتَحُهَا وَمَا تَنْفَرُجُ ، حَتَّى أَتَنَبِّهَ إِلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ ؛ وَأَنْظُرُ إِلَى جَانِبِ الْمِخْرَابِ شَيْخًا بَادِنًا يَمْلَأُ مَوْضِعَ رَجُلَيْنِ ، وَقَدْ نَفَحَ مِنْهُ رِيحُ الْمِسْكِ ، وَهُوَ فِي ثِيَابٍ مِنْ سُنْدُسٍ خُضِرَ ؛ فَلَمَّا حَادِثَتْهُ جَمَعَ نَفْسَهُ وَأَنْكَمَشَ ، فَكَأَنَّمَا هُوَ يُطَوِّئُ طِيًا ، وَرَأَيْتُ مَكَانًا وَسِعَنِي فَحَطَّطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِهِ ، وَأَنَا أَعْجَبُ لِلرَّجُلِ كَيْفَ ضَاقَ وَلَمْ أَضَيِّقْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ ذَهَبَ نِصْفُهُ الضَّخْمُ وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضِهِ زَيْمًا عَلَى زَيْمٍ <sup>(١)</sup> وَأَمْتِلَاءٌ عَلَى أَمْتِلَاءٍ .

وَجَعَلْتُ أَخْدُسُ عَلَيْهِ ظَنِّي ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهُ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ قَدْ تَمَثَّلَ فِي الصُّورَةِ الْآدَمِيَّةِ فَآكَتَمَتْ فِيهَا لِأَمْرِ مِنَ الْأَمْرِ .

وَضَحَّ النَّاسُ : « اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ! » فِي صَوْتٍ تَفْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ مِمَّا أَلْفُوا الْكَلِمَةَ وَمِمَّا جَهِلُوا مِنْ مَعْنَاهَا - لَا يَسْمَعُونَهَا إِلَّا كَمَا يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ ؛ أَمَّا الَّذِي إِلَى جَانِبِي فَكَانَ يَتَفَضَّلُ لَهَا انْتِفَاضَةً رَجَّتْنِي مَعَهُ رَجًّا ، إِذْ كُنْتُ مُلْتَصِقًا بِهِ مُتَاكِئًا لَهُ ؛ وَكَأَنَّ الْمَسْجِدَ فِي نَفْصِهِ إِثْنَا كَانَ قِطَارًا يَجْرِي بِنَا فِي سُرْعَةِ السَّحَابِ ، فَكُلُّ مَا فِيهِ يَزْنِجُ وَيَهْتَرُ . وَرَأَيْتُ صَاحِبِي يَذْهَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَتَلَأَلُ عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ لِكُلِّ تَكْبِيرَةٍ ، كَانَ هُنَاكَ مِضْبَاحًا لَا يَزَالُ يَنْطَفِئُ وَيَشْتَعِلُ ؛ فَفَقَطَعْتُ الرَّأْيَ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

ثُمَّ أُقِنِمْتُ الصَّلَاةَ وَكَبَّرَ الْإِمَامُ وَكَبَّرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ ، وَكُنْتُ قَرَأْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ صَلَّى خَلْفَ رَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ الثُّقُوفِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ اللهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ؛ قَالَ : فَلَمَّا كَبَّرَ قَالَ : « اللهُ ... » ثُمَّ بَهِتَ وَبَقِيَ كَأَنَّهُ جَسَدٌ لَيْسَ بِهِ رُوحٌ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ تَعَالَى ؛ ثُمَّ قَالَ : « أَكْبَرُ » يَزْعُمُ بِهَا عَزَمًا ، فَظَنَنْتُ أَنَّ قَلْبِي قَدْ انْقَطَعَ مِنْ هَيْبَةِ تَكْبِيرِهِ .

قُلْتُ أَنَا : أَمَّا الَّذِي إِلَى جَانِبِي ، فَلَمَّا كَبَّرَ مَدَّ صَوْتَهُ مَدًّا يَنْبِيقُ مِنْ رُوحِهِ وَيَسْتَطِيرُ ،

(١) ( أَيُّ : كُنَّا عَلَى كَيْفٍ ، وَالزَيْمُ : الْمَتَّفِقُ مِنَ اللَّحْمِ ) .

فَلَوْ كَانَ الصَّوْتُ نُورًا لَمَلَأَ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَالضُّحَى .

\* \* \*

وَعَرَفْتُ وَاللَّهِ مِنْ مَعْنَى الْمَسْجِدِ مَا لَمْ أَعْرِفْ ، حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَدْخُلْهُ مِنْ قَبْلُ ، فَكَانَ هَذَا الْجَالِسُ إِلَى جَانِبِي كَضَوْءِ الْمِصْبَاحِ فِي الْمِصْبَاحِ ؛ فَانْكَشَفَ لِي الْمَسْجِدُ فِي نُورِهِ الرُّوحِيِّ عَنْ مَعَانٍ أَدْخَلْتَنِي مِنَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَا عَلَى حِدَةٍ . فَمَا الْمَسْجِدُ بِنَاءٌ وَلَا مَكَانًا كَغَيْرِهِ مِنَ الْبِنَاءِ وَالْمَكَانِ ، بَلْ هُوَ تَصْحِيحٌ لِلْعَالَمِ الَّذِي يُمُوجُ مِنْ حَوْلِهِ وَيَضْطَرِبُ ؛ فَإِنَّ فِي الْحَيَاةِ سَبَابَ الرِّيعِ وَالْبَاطِلِ وَالْمَنَافَسَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْكَيِّدِ وَنَحْوِهَا ، وَهَذِهِ كُلُّهَا يَمُخُّوهُا الْمَسْجِدُ إِذْ يَجْمَعُ النَّاسَ مِرَارًا فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى سَلَامَةِ الصَّدْرِ ، وَبَرَاءَةِ الْقَلْبِ ، وَرُوحَانِيَةِ النَّفْسِ ؛ وَلَا تَدْخُلُهُ إِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَاهِرَةً مُنْزَهَةً مُسَبِّغَةً عَلَى حُدُودِ جِسْمِهَا مِنْ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ شِعَارَ الطَّهْرِ الَّذِي يُسَمَّى الْوُضُوءَ ، كَأَنَّمَا يَغْسِلُ الْإِنْسَانُ آثَارَ الدُّنْيَا عَنْ أَعْضَائِهِ قَبْلَ دُخُولِهِ الْمَسْجِدِ .

ثُمَّ يَسْتَوِي الْجَمِيعُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ أَسْتَوَاءً وَاحِدًا ، وَيَقِفُونَ مَوْقِفًا وَاحِدًا ، وَيَخْشَعُونَ خُشُوعًا وَاحِدًا ، وَيَكُونُونَ جَمِيعًا فِي نَفْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَلَيْسَ هَذَا وَحْدَهُ ، بَلْ يَخْرُجُونَ إِلَى الْأَرْضِ جَمِيعًا سَاجِدِينَ لِلَّهِ ؛ فَلَيْسَ لِرَأْسٍ عَلَى رَأْسٍ أَرْتِفَاعٌ ، وَلَا لَوَجْهِ عَلَى وَجْهِ تَمْيِيزٌ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَلَيْسَ لِدَاتٍ عَلَى دَاتٍ سُلْطَانٌ . وَهَلْ تُحَقِّقُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَحْدَتَهَا فِي النَّاسِ بِأَنْدَعٍ مِنْ هَذَا ؟ وَلَعَمْرِي أَيْنَ يَجِدُ الْعَالَمُ صَوَابَهُ إِلَّا هَلْهَنَا ؟

فَالْمَسْجِدُ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ مَوْضِعُ الْفِكْرَةِ الْوَاحِدَةِ الطَّاهِرَةِ الْمُصَحَّحَةِ لِكُلِّ مَا يَزِنُغُ بِهِ الْأَجْمَاعُ . هُوَ فِكْرٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ الرُّؤُوسِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ حَلٌّ وَاحِدٌ لِكُلِّ الْمَشَاكِلِ ، وَكَمَا يُسَوِّدُ النَّهْرُ فَتَقِفُ الْأَرْضُ عِنْدَ شَاطِئِهِ لَا تَتَقَدَّمُ ، يُقَامُ الْمَسْجِدُ فَتَقِفُ الْأَرْضُ بِمَعَانِيهَا الْكُرَابِيَّةِ خَلْفَ جُذُرَانِهِ لَا تَدْخُلُهُ .

\* \* \*

وَمَا حَرَكَةٌ فِي الصَّلَاةِ إِلَّا أَوَّلُهَا : « اللَّهُ أَكْبَرُ » وَآخِرُهَا : « اللَّهُ أَكْبَرُ » ؛ فَفِي رَكْعَتَيْنِ مِنْ كُلِّ صَلَاةٍ إِحْدَى عَشْرَةَ تَكْبِيرَةً يَجْهَرُ الْمُصَلُّونَ بِهَا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ ؛ وَكَأَنِّي لَمْ أَفْطِنُ لِهَذَا مِنْ

قَبْلُ ، فَأَيُّ زِمَامٍ سِيَاسِيٍّ لِلْجَمَاهِيرِ وَرُوحَانِيَّيْهَا أَشَدُّ وَأَوْثَقُ مِنْ زِمَامِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ { الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مَا فِي الْكَلَامِ الْإِنْسَانِيِّ } ؟

\* \* \*

وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ سَلَّمْتُ عَلَى الْمَلِكِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ ، وَرَأَيْتُهُ مُقْبِلًا مُخْتَفِيًا ، وَرَأَيْتَنِي أُتْبِرًا فِي نَفْسِهِ ، وَجَالَتْ فِي رَأْسِي الْخَوَاطِرُ فَتَذَكَّرْتُ الْقِصَّةَ الَّتِي أُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَهَا ؛ وَأَنَّ الْمُؤَدَّنَ يُكَرَّرُ فِي خَاتِمَةِ آذَانِهِ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ » فَإِذَا ...

وَقُلْتُ : لَأَسْأَلُهُ ، وَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَالَتِي أَنْطَرُ يُلْهِمُهَا مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ! وَلَمْ أَكْذْ أَرْفَعُ وَجْهِي إِلَيْهِ حَتَّى قَالَ :

« ... فَإِذَا لَطَمَتَانِ عَلَى وَجْهِ الشَّيْطَانِ ، فَوَلَّى مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ؛ وَوَضَعَتِ الْكَلِمَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَعْنَاهَا فِي مَوْضِعِهِ مِنْ قَلْبِ الْفَتَاةِ ، فَلَأَيَّا بِلَايٍ مَا نَجَتْ .

إِنَّ الدِّينَ فِي نَفْسِ الْمَرْأَةِ شُعُورٌ رَفِيقٌ ، وَلِكَيْتَهُ هُوَ الْفُؤَادُ السِّمِينُ الْصَلْبُ الَّذِي تُصَفِّحُ بِهِ أَخْلَاقُهَا الْمُدَافِعَةُ .

اللَّهُ أَكْبَرُ ! أَتَدْرِي مَاذَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ إِذَا سَمِعَتْ التَّكْبِيرَ ؟ إِنَّهَا تُنْشِدُ هَذَا النَّشِيدَ :

\* \* \*

بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ مِنَ الْيَوْمِ تَدُقُّ سَاعَةُ الْإِسْلَامِ بِهَذَا الرَّنِينِ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، كَمَا تَدُقُّ السَّاعَةُ فِي مَوْضِعٍ لِيَتَكَلَّمَ الْوَقْتُ بِرَنِينِهَا .

\* \* \*

اللَّهُ أَكْبَرُ ! بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ الْيَوْمِ تُرْسِلُ الْحَيَاةُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ نِدَاءَهَا تَهْتِفُ : أَهْيَا الْمُؤْمِنُ ! إِنْ كُنْتَ أَصْبَتَ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي مَضَتْ ، فَاجْتَهِدِ لِلْسَّاعَاتِ الَّتِي تَتْلُو ؛ وَإِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتَ ، فَكَفِّرْ وَأَمْحُ سَاعَةً بِسَاعَةٍ ؛ الزَّمَنُ يَمُحُو الزَّمَنَ ، وَالْعَمَلُ يُغَيِّرُ الْعَمَلَ ، وَدَقِيقَةُ بَاقِيَةٍ فِي الْعُمْرِ هِيَ أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ .

\* \* \*

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ ، يَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنُ مِيزَانَ نَفْسِهِ حِينَ يَسْمَعُ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، لِيَعْرِفَ الصُّحَّةَ وَالْمَرَضَ مِنْ نَبِيِّهِ ؛ كَمَا يَضَعُ الطَّبِيبُ لِمَرِيضِهِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِيزَانَ الْحَرَارَةِ .

\* \* \*

الْيَوْمُ الْوَاحِدُ فِي طَبِيعَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ عُمُرٌ طَوِيلٌ لِلشَّرِّ ، تَكَادُ كُلُّ دَقِيقَةٍ بِشَرِّهَا تَكُونُ يَوْمًا مَخْتُومًا بِلَيْلٍ أَسْوَدَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَقْسِمَ الْإِنْسَانِيَّةُ يَوْمَهَا بِعَدَدِ قَارَاتِ الدُّنْيَا الْخَمْسِ ، لِأَنَّ يَوْمَ الْأَرْضِ صُورَةٌ مِنَ الْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ كُلِّ قِسْمٍ : مِنَ الْفَجْرِ ، وَالظُّهْرِ ، وَالْعَصْرِ ، وَالْمَغْرِبِ ، وَالْعِشَاءِ - تَصِيحُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُؤْمِنَةُ مُنْجَبَةً نَفْسَهَا : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ !

\* \* \*

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ الْيَوْمِ يَغْرِضُ كُلُّ مُؤْمِنٍ حِسَابَهُ ، فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَيَزْفَعُهُ إِلَيْهِ . وَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ لَا يَزَالُ يَنْتَظِرُ طُولَ عُمُرِهِ فِيمَا بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ - اللَّهُ أَكْبَرُ ... ؟

\* \* \*

بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ تُدَوِّي كَلِمَةُ الرُّوحِ : اللَّهُ أَكْبَرُ . وَيُجِيبُهَا النَّاسُ : اللَّهُ أَكْبَرُ . لِيَعْتَادَ الْجَمَاهِيرُ كَيْفَ يَقَادُونَ إِلَى الْخَيْرِ بِسُهُولَةٍ ، وَكَيْفَ يُحَقِّقُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ مَعْنَى اجْتِمَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ ؛ فَتَكُونُ الِاسْتِجَابَةُ إِلَى كُلِّ نِدَاءٍ اجْتِمَاعِيٍّ مَغْرُوسَةً فِي طَبِيعَتِهِمْ بِغَيْرِ اسْتِكْرَاهٍ .

\* \* \*

النَّفْسُ أَسْمَى مِنَ الْمَادَّةِ الدَّلَازِنَةِ ، وَأَقْوَى مِنَ الزَّمَنِ الْمُخَرَّبِ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا تَسْمُرُهُ نَفْسُهُ مِنَ الدَّلَاءَةِ بِأَنفَةِ طَبِيعَتِهِ ، وَتَحْمِلُ هُمُومَ الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ثَابِتَةٍ .

لَا تَضْطَرُّوا ؛ هَذَا هُوَ النِّظَامُ . لَا تَنْحَرِفُوا ؛ هَذَا هُوَ الْفُتْحُ . لَا تَتَرَاكِعُوا ؛ هَذَا هُوَ الدَّلَاءُ . لَنْ يَكْبُرَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مَا دَامَتْ كَلِمَتُكُمْ : اللَّهُ أَكْبَرُ ... !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### فِي اللَّهِ لَا تَحْتَرِقُ (\*)

أَفِي الْمُؤْمِنِينَ هَذَا ؟

لَعُوبٌ حَسَنَةُ الدَّلِّ ، مُفَاكِهَةٌ مُدَاعِبَةٌ ، تُخَيِّنُ لَيْلَهَا رَاقِصَةً مُعْنِيَةً ؛ حَتَّى إِذَا اعْتَدَلَ اللَّيْلُ لِيَمْضِي ، وَانْتَبَهَ الْفَجْرُ لِيُغْبِلَ - انْكَفَأَتْ إِلَى دَارِهَا فَتَضَعَتْ وَشِيهَا ، وَخَرَجَتْ مِنْ زِينَتِهَا ، وَخَلَعَتْ رُوحًا وَلَبَسَتْ رُوحًا ، وَقَالَتْ : اللَّهُمَّ إِلَيْكَ ، وَلَيْتِكَ اللَّهُمَّ لَيْتِكَ . ثُمَّ ذَهَبَتْ فَتَوَضَّأَتْ وَأَفَاضَتْ الثُّورَ عَلَيْهَا ، وَقَامَتْ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهَا تُصَلِّي ... !

\* \* \*

هِيَ حَسَنَاءُ فَاتِنَةٍ ، لَوْ سَطَعَ نُورُ الْقَمَرِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ لَسَطَعَ مِنْ وَجْهِهَا . وَمَا تَرَاهَا فِي يَوْمٍ إِلَّا ظَهَرَتْ لَكَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَتْ ، حَتَّى لَتَنْظُرَ أَنَّ الشَّمْسَ تَزِيدُ وَجْهَهَا فِي كُلِّ نَهَارٍ شُعَاعَةً سَاحِرَةً ، وَأَنَّ كُلَّ فَجْرٍ يَتْرُكُ لَهَا فِي الصُّبْحِ بَرِيقًا وَنَضْرَةً مِنْ فَطَرَاتِ الدُّنْيَا . وَتَحْسَبُ أَنَّ لَهَا دَمًا يَطْعَمُ فِيمَا يَطْعَمُ أَنْوَارَ الْكَوَاكِبِ ، وَيَشْرَبُ فِيمَا يَشْرَبُ نَسَمَاتِ اللَّيْلِ .

وَإِذَا كَانَتْ فِي وَشِيهَا وَتَطَارِيفِهَا وَأَصْبَاغِهَا وَحِلَاهَا لَمْ تَجِدْهَا أَمْرَاءَ ، وَلَكِنْ جَمْرَةً فِي صُورَةِ أَمْرَاءَ ؛ فَلَهَا نُورٌ وَبَصِيصٌ وَلَهَبٌ ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ الْإِحْرَاقِ ... إِنَّ الَّذِي وَضَعَ عَلَى كُلِّ جَمَالٍ سَاحِرٍ فِي الطَّبِيعَةِ خَاتَمَ رَهْبَةٍ ، وَضَعَ عَلَى جَمَالِهَا خَاتَمَ قُرْصِ الشَّمْسِ .

فَإِذَا رَأَيْتَهَا يَتَلَكَّ الرِّبَنَةَ فِي رَفِصِهَا وَتَشْتِيهَا ، قُلْتَ : هَذِهِ رَوْضَةٌ مُفْتَتَةٌ أَشْتَهَتْ أَنْ تَكُونَ أَمْرَاءَ فَكَانَتْ ، وَهَذَا الرِّقْصُ هُوَ فُلُّ السَّيْمِ عَلَى أَعْضَائِهَا .

وَهِيَ مَتَى نَفَذَتْ إِلَى الْبُقْعَةِ الْمُجْدِبَةِ مِنْ نَفْسِكَ أَنْشَأَتْ فِي نَفْسِكَ الرَّبِيعَ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ .

(\*) « الرسالة » العدد : ٥٧ ، ٢٥ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٦ أغسطس / آب سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٨٣ - ١٢٨٥ .

وَتَسْجِمُ أَنْعَامُ الْمُوسِيقَى فِي رِشَاقَتِهَا نَعْمَةً إِلَى حَرَكَةٍ ؛ لِأَنَّ جِسْمَهَا الْقَاتِنَ الْجَمِيلَ هُوَ نَفْسُهُ أَنْعَامٌ صَامِتَةٌ تُسْمَعُ وَتُرَى فِي وَقْتٍ مَعًا .

وَتَسْكِبُ رُوحَهَا الظَّرِيفَةَ بَيْنَ الرَّفْصِ وَالْمُوسِيقَى ، لِتُخْرِجَ لَكَ بِظَرْفِهَا صِرَاحَةَ الْفَنِّ مِنْ إِبْهَامَيْنِ ، كِلَاهُمَا يُعَاوَنُ الْآخَرَ .

وَهِيَ فِي رَفْصِهَا إِنَّمَا تُفَسِّرُ بِحَرَكَاتِ أَعْضَائِهَا أَشْوَاقَ الْحَيَاةِ وَأَفْرَاحَهَا وَأَحْزَانَهَا ، وَتَزِيدُ فِي لُغَةِ الطَّبِيعَةِ لُغَةَ جِسْمِ الْمَرْأَةِ .

وَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي قَلْبِهَا ؛ فَهِيَ تَبْعَثُ لِلْقُلُوبِ مَا شَاءَتْ ضَوْءًا وَظِلْمَةً .

وَهِيَ إِلَى الْقَصْرِ ، غَيْرَ أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ جَمَالَهَا وَتَمَامَهَا ، حَسِبْتَهَا طَالَتْ لِسَاعَتِهَا .

وَالِىَ الْحَافَةِ ، غَيْرَ أَنَّكَ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ رَابِيَةٌ كَأَنَّ بَعْضَهَا كَانَ مُخْتَبِئًا فِي بَعْضٍ .

وَيُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَحْيَانًا فِي فَنٍّ مِنْ فُنُونِ رَفْصِهَا أَنَّ جِسْمَهَا يَتَنَاءَبُ بِرَغْشَةٍ مِنَ الطَّرَبِ ، فَإِذَا جِسْمُكَ يَهْتَزُّ بِجَوَابِ هَذِهِ الرِّغْشَةِ ، لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَتَنَاءَبَ . . .

وَيُجَرِّدُ رَفْصُهَا أَحْيَانًا ، وَلَكِنْ لِنَحْقَقِ بِجُنُونِ الْحَرَكَةِ أَنَّ الْعَقْلَ الْمُوسِيقَى يُصَرِّفُ كُلَّ أَعْضَاءِ جِسْمِهَا .

وَمَهْمَا يَكُنْ طِينُ الْفَنِّ فِي تَأْوِيدِهَا وَلَفْتِهَا وَنَظَرِهَا وَابْتِسَامِهَا وَصَحْبِهَا - فَبِهَا وَجْهَهَا دَائِمًا عَلَامَةً وَقَارَ عَابِسَةٍ تَقُولُ لِلنَّاسِ : أَفْهَمُونِي .

\* \* \*

وَلَمَّا رَأَيْتُهَا شَهِدَ قَلْبِي لَهَا بِأَنَّ عَلَى وَجْهِهَا مَعَ نُورِ الْجَمَالِ نُورَ الْوُضُوءِ ؛ وَأَنَّهَا مُتَحَرِّزَةٌ مُمْتَنِعَةٌ فِي حِضْنٍ مِنْ قَلْبِهَا الْمُؤْمِنِ ، يَنْسُطُ الْأَمْنُ وَالسَّلَامَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا ؛ وَأَنَّ لَهَا عَيْنًا عَذْرَاءَ لَا تُحَاوِلُ التَّغْيِيرَ ، لَا سُؤَالَ وَلَا جَوَابًا وَلَا أَغْيَازًا بَيْنَهُمَا ؛ وَأَنَّ قُوَّةَ جَمَالِهَا تَسْتَظْهِرُ بِقُوَّةِ نَفْسِهَا ، فَيَكُونُ مَا فِي جَمَالِهَا شَيْئًا غَيْرَ مَا فِي النِّسَاءِ - شَيْئًا عَبَقْرِيًّا بِالِغِ الْقُوَّةِ ، يَكْفُ الدَّوَاعِي ، وَيَخْسِمُ الْخَوَاطِرَ ، وَيُزْعِمُ الْإِعْجَابَ أَنْ يَكُونَ دُخُولًا وَحَيْرَةً ، وَيُكْرِهُ الْحُبَّ أَنْ يَرْجِعَ مَهَابَةً وَأَخْتِشَامًا .

وَالرَّوَايَةُ كُلُّهَا فِي بَاطِنِهَا تَظْهَرُ عَلَى ضَوْءٍ مِنْ مِصْبَاحِ قَلْبِهَا ، وَمَا وَجْهَهَا إِلَّا الشَّاشَةُ الْبَيْضَاءُ لِهَيْلِهِ « السُّنَمَا » ، وَهَلْ يَكُونُ عَلَى الْوَجْهِ إِلَّا أَخِيلَةُ الْقَلْبِ أَوْ الْفِكْرِ ؟

وَعِنْدِي أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَ لَهَا رَأْيٌ دِينِيٌّ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَمْرُهَا مُجْتَمِعًا فِي هَذَا الرَّأْيِ ، وَكَانَتْ أَخْلَاقُهَا مَخْشُودَةً لَهُ ، مُتَحَفِّلَةً بِهِ - فَنِلَكَ هِيَ الْيَاقُوتَةُ الَّتِي تُرْمَى فِي اللَّهَبِ وَلَا تَخْتَرِقُ ، وَتَنْظُرُ مَعَ كُلِّ تَجَرِبَةٍ عَلَى أَوَّلِ مُجَاهَدَتِهَا ؛ إِذْ يَكُونُ لَهَا فِي طَبِيعَةِ تَرْكِيبِهَا الْيَاقُوتِيُّ مَا تَهْزِمُ بِهِ طَبِيعَةَ التَّرْكِيبِ النَّارِيِّ .

وَلَيْسَ مِنَ أَمْرَةٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ لَهَا طَبِيعَةً يَاقُوتِيَّةً ، هِيَ فَطَرَتْهَا الدَّيْنِيَّةُ الَّتِي فِيهَا : إِنْ بَقِيََتْ لَهَا هَلِةٌ بَقِيََتْ مَعَهَا تِلْكَ ؛ وَلَكِنَّهَا حِينَ تَنْخَلِعُ مِنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ تَخْذُلُهَا الْفِطْرَةُ وَالطَّبِيعَةُ مَعًا ؛ فَيَجْعَلُ اللَّهُ عِقَابَهَا فِي عَمَلِهَا ، وَيَكُلُّهَا إِلَى نَفْسِهَا ؛ فَإِذَا هِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَى أَغْلَاطِهَا وَمَسَاوِئِهَا بِطُرُقِ عَقْلِيَّةٍ إِنْ كَانَتْ عَالِمَةً ، وَبِطُرُقِ مَفْضُوحَةٍ إِنْ كَانَتْ جَاهِلَةً . وَمَا بُدَّ أَنْ تَنْتَسِرَ بِطَبَاعٍ إِمَّا فَاسِدَةٍ وَإِمَّا فِيهَا قُوَّةُ الِاسْتِحَالَةِ إِلَى الْفَسَادِ ؛ وَيَرْجِعُ ضَمِيرُهَا الْخَالِي مُحَاوِلًا أَنْ يَمْتَلِئَ مِنْ ظَاهِرِهَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ ظَاهِرُهَا هُوَ يَمْتَلِئُ مِنْ ضَمِيرِهَا ، وَتُصْبِحُ الْمَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حُكْمِ أَسْبَابِ حَيَاتِهَا ، مُصَرَّفَةً بِهِذِهِ الْأَسْبَابِ ، خَاضِعَةً لِمَا يُصَرِّفُهَا ؛ وَيَذْهَبُ الدِّينُ وَيَنْزِلُ فِي مَكَانِهِ الشَّيْطَانُ ؛ وَيَزُولُ الِاسْتِقْرَارُ وَيَحِلُّ فِي مَحَلِّهِ الْأَضْطِرَابُ ، وَتَنْطَفِئُ الْأَشِعَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُدِيبُ الْعُيُومَ وَتَمْنَعُهَا أَنْ تَتَرَكَمَ ، فَإِذَا الْعُيُومُ مُلْتَفَّةٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ وَتُخْذَلُ الْقُوَّةُ السَّامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَنْصُرُ الْمَرْأَةَ عَلَى ضَعْفِهَا فَتَنْصُرُهَا بِذَلِكَ عَلَى أَقْوَى الرِّجَالِ ؛ فَإِذَا الْمَرْأَةُ مِنَ الضَّعْفِ إِلَى تَهَافُتٍ ، تَغْلِيهَا الْكَلِمَةُ الرَّقِيقَةُ ، وَتَغْتَرُّهَا الْحِيلَةُ الْوَاهِتَةُ ، وَتُؤَافِقُ أَنْخِدَاعَهَا كُلَّ رَغْبَةٍ مُرَيَّةٍ ، وَيَسْتَذِلُّهَا طَمَعُهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَذِلَّهَا الطَّمَاعُ فِيهَا ؛ وَلَكِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ هِيَ كَانَتْ أَضْلًا وَحَسْبًا وَتَهْذِيْبًا وَعَقْلًا وَأَدَبًا وَعِلْمًا وَفَلَسَفَةً ، فَلَوْ أَنَّهَا أَمْرَةٌ مِنْ « الْإِسْمَنِ الْمُسْلَحِ » لَتَفَتَّتْ بِالطَّبِيعَةِ الَّتِي فِي دَاخِلِهَا ، مَا دَامَتِ الطَّبِيعَةُ مُتَوَجِّهَةً إِلَى الْهَدَمِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ مَا كَانَ يُنْسِكُهَا أَنْ تَهْدِمَ وَأَنْ تَنْهَدِمَ .

لَقَدْ رَقَّ الدِّينُ فِي نِسَائِنَا وَرِجَالِنَا . فَهَلْ كَانَتْ عَلَامَةُ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كَلِمَةَ : « حَرَامَ ، وَحَلَالِ » قَدْ تَحَوَّلَتْ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ وَأَكْثَرِهِنَّ إِلَى « لَا يَحِلُّ ، وَغَيْرِ لَا يَحِلُّ » ثُمَّ نَزَلَتْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الشُّبَّانِ وَالْفَتَاتِ إِلَى « مُعَاقِبٍ عَلَيْهِ قَانُونُنَا ، وَمُبَاحٍ قَانُونُنَا . . . » ثُمَّ انْحَطَّتْ آخِرًا عِنْدَ

السَّوَادِ وَالذَّهْمَاءِ إِلَى « مُمَكِّنٍ ، وَغَيْرِ مُمَكِّنٍ ... » ؟

\* \* \*

قَالَتْ الْيَاقُوتَةُ ، أَعْنِي الرَّاقِصَةَ :

- أَخَذَنِي أَبِي مِنْ عَهْدِ الطُّفُولَةِ بِالصَّلَاةِ ، وَأَثَبَتْ فِي نَفْسِي أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ بِالْأَعْضَاءِ إِنْ لَمْ يَكُنِ الْفِكْرُ نَفْسُهُ طَاهِرًا يُصَلِّيَ اللَّهُ مَعَ الْجِسْمِ ، فَإِنْ كَانَتْ الصَّلَاةُ بِالْجِسْمِ وَخَدَهُ لَمْ يَزِدْ الْمَرْءُ مِنْ رُوحِ الصَّلَاةِ إِلَّا بُعْدًا . وَقَرَّ هَذَا فِي نَفْسِي وَاعْتَدْتُهُ ، إِذْ كُنْتُ أَعْبُدُ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَصَحَّ الْفِكْرُ ، وَاسْتَحْضَرُ النَّبِيَّ فِي قَلْبِي ، وَأَنْحَصِرُ بِكُلِّي فِي هَذَا الْجُزْءِ الطَّاهِرِ قَبْلَ أَنْ أَقُولَ : « اللَّهُ أَكْبَرُ » ؛ وَبِذَلِكَ أَصْبَحُ فِكْرِي قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلَعَ الدُّنْيَا مَتَى شَاءَ وَيَلْبَسَهَا ، وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا ثُمَّ يَعُودَ إِلَيْهَا ؛ وَتَنَشَأَ فِيهِ الْقُوَّةُ الْمُصَمِّمَةُ الَّتِي تَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ بَيْنَ عَمَلٍ يَفْسِدُ رُوحَ الصَّلَاةِ فِي نَفْسِي ، وَهِيَ سِرُّ الدِّينِ وَعِمَادُهُ .

وَيَا لَهَا حِكْمَةً أَنْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا هَذِهِ الصَّلَوَاتِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ ، لِتَبْقَى الرُّوحُ أَبَدًا إِمَّا مُتَّصِلَةً أَوْ مُهَيَّأَةً لِتَتَّصِلَ . وَلَنْ يَعْجَزَ أَضْعَفُ النَّاسِ مَعَ رُوحِ الدِّينِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسُهُ بِضِعْ سَاعَاتٍ ، مَتَى هُوَ أَقَرُّ الْيَقِينِ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُتَوَجِّهٌ بَعْدَهَا إِلَى رَبِّهِ ، فَخَافَ أَنْ يَقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُخْطِئًا أَوْ آثِمًا ؛ ثُمَّ هُوَ إِذَا مَلَكَ نَفْسُهُ إِلَى هَذِهِ الْفَرِيضَةِ ذَكَرَ أَنَّ بَعْدَهَا الْفَرِيضَةَ الْآخَرَى ، وَأَنَّهَا بِضِعْ سَاعَاتٍ كَذَلِكَ ، فَلَا يَزَالُ مِنْ عَزِيمَةِ النَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا فِي عُمُرٍ عَلَى صِبْغَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ ، كَأَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ - مَهْمَا طَالَ - عَمَلُ بِضِعْ سَاعَاتٍ .

قَالَتْ الْيَاقُوتَةُ : وَرَأَيْتُ أَبِي يُصَلِّيَ ، وَكَذَلِكَ رَأَيْتُ أُمِّي ، فَلَا تَكَادُ تُلِمُّ بِي فِكْرَةَ آثِمَةٍ إِلَّا أَنْتَصَبَا أَمَامِي ، فَأَكْرَهُ أَنْ أَسْتَلِمَ إِلَيْهِمَا فَأَكُونُ الْفَاسِدَةَ وَهُمَا الصَّالِحَانِ ، وَاللَّيْثِمَةَ وَهُمَا الْكَرِيمَانِ ؛ فَلَمَّيْ نَفْسُهُ - بِرَكَّةِ الدِّينِ - يَخْرُسْنِي كَمَا تَرَى .

قُلْتُ : فَهَذَا الرَّفْصُ ... ؟

قَالَتْ : نَعَمْ ، إِنَّهُ قُضِيَ عَلَيَّ أَنْ أَكُونُ رَاقِصَةً ، وَأَنْ أَلْتَمِسَ الْعَيْشَ مِنْ أَسْهَلِ ثَلَاثِ طُرُقٍ وَأَلْيَيْهَا وَأَبْعَدَهَا عَنِ الْفَسَادِ ، وَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ ظَاهِرًا ؛ أُرِيدُ : الرَّفْصَ ، أَوْ الْخِدْمَةَ

فِي الْيَتِّ ، أَوْ الْعَمَلِ فِي السُّوقِ . وَأَنَا مُطِيقَةٌ لِحُرِّيَّتِي فِي الْأَوَّلَى ، وَلَكِنِّي لَنْ أَمْلِكَهَا فِي الْأَخِيرَتَيْنِ مَا دَامَ عَلَيَّ هَذَا الْمَيْسَمُ مِنَ الْحُسْنِ ؛ وَكَمْ مِنْ أَمْرَاءَ مُتَحَجِّبَةٍ وَهِيَ عَارِيَةُ الرُّوحِ ، وَكَمْ مِنْ سَافِرَةٍ وَرُوحُهَا مُتَحَجِّبَةٌ ؛ إِنْ كُنْتُ لَا تَعْلَمُ هَذَا فَأَعْلَمُهُ ؛ وَلَيْسَ الشُّوَالُ مَا سَأَلْتُ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَضْعُهُ هَكَذَا : هَلْ مَا تَرَى هُوَ فِي يَتَابِي فَقَطْ ، أَوْ هُوَ فِي يَتَابِي وَنَفْسِي ؟

هَا أَنْتَ دَا تَتَلَعَّلُ نَظَرَتِكَ فِي عَيْنِي إِلَى الْمَعَانِي الْبَعِيدَةِ ، فَهَلْ تَرَى عَيْنِي رَاقِصَةً ؟

قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ ، مَا أَرَى عَيْنِي رَاقِصَةً ، وَلَكِنْ عَيْنِي مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ! فَاسْتَضَحَّكَ وَقَالَتْ : بَلْ قُلْ : عَيْنِي مُجَاهِدٌ يَهْرُمُ كُلُّ يَوْمٍ شَيْطَانًا أَوْ شَيْطَانَيْنِ .

إِنِّي لَأَرْفُصُ وَأَعْنِي ، وَلَكِنْ أَتَذَرِي مَا الَّذِي يُخَوِّزُنِي مِنَ الْعَاقِبَةِ ، وَيَحْمِيْنِي مِنْ وَبَاءِ هَذَا الْجُمْهُورِ الْمَرِيضِ النَّفْسِ ؟ فَأَعْلَمُ أَنِّي لَا أَشْعُرُ بِالْجُمْهُورِ وَلَا بِرُوحِ الْمَسْرَحِ ، إِلَّا كَمَا أَشْعُرُ بِرُوحِ الْمُقْبَرَةِ وَالْمُشَيِّعِينَ إِلَيْهَا ؛ فَهَيْهَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْهَاتَ ! وَمِنْ هَذَا لَا أَحْسُ بِقُلُوبِهِمْ وَلَا بِشَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا أَنَا بَيْنَهُمْ إِلَّا كَالَّتِي تُؤَدِّي عَمَلًا قَنِيًّا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ الْمُتَمَحِّجِينَ ، وَالنَّظَارَةِ يَخْكُمُونَ لَهَا أَوْ عَلَيْهَا ؛ فَهِيَ فِي فِكْرَةِ الْأَمْتِحَانِ ، وَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ فِيمَا شَاؤُوا ...

وَلَسْتُ أَنْكِرُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ ، بَلْ جَمِيعُهُمْ ، يُخْطِئُ فِي طَرِيقَةِ تَنَاوُلِهِ السِّيَالِ الْكَهْرَبَائِي الْمُنْبَعِثَ مِنْ نَفْسِي ، وَلَكِنْ لَا عَلَيَّ ، فَهَذَا السِّيَالُ نَفْسُهُ يَنْبَعِثُ مِثْلُهُ مِنَ الزَّهْرِ ، وَمِنْ الْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَمِنْ كُلِّ أَمْرَةٍ جَمِيلَةٍ تَمُشِي فِي الطَّرِيقِ ، وَمِنْ كُلِّ جَمِيلٍ فِي الطَّبِيعَةِ ، وَحَتَّى مِنَ الْأَمَكَةِ وَالْبِقَاعِ إِذَا كَانَ لِإِنْسَانٍ فِيهَا ذِكْرِيَّاتٌ قَدِيمَةٌ ، أَوْ نَبْهَتْ بِبَعْضِ مَعَانِيهَا بَعْضَ مَعَانِيهِ ؟

قَالَتْ الْيَاقُوتَةُ : فَأَنَا كَمَا تَرَى ؛ أَضْطَرِبُ وَجُوهًا مِنْ الْأَضْطِرَابِ فِي جَذْبِ النَّاسِ وَدَفْعِهِمْ مَعًا . وَإِذَا سَلِمَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَنْ يَغْلِبَهَا الطَّمَعُ عَلَى فِكْرِهَا ، سَلِمَتْ مِنْ أَنْ يَغْلِبَهَا الرَّجُلُ عَلَى فَضِيلَتِهَا . وَفِي النِّسَاءِ حَوَاسُ مَغْنَطِيسِيَّةٍ كَاشِفَةٌ مُبْهَتَةٌ خُلِقَتْ فِيهِمْ كَالْوَقَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ، لِتَسْلَمَ بِهَا الْمَرْأَةُ مِنْ أَنْ تُخْطِرَ عِفَّتَهَا لِعَرَضٍ ، أَوْ تُغَرَّرَ بِنَفْسِهَا لِإِنْسَانٍ ؛ فَإِنَّكَ لَتَكَلِّمُ الْمَرْأَةَ ، وَتَرَى لَهَا مَا تَرَيْنِ ، وَهِيَ شَاعِرَةٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ ، وَكَأَنَّهَا تَرَى مَا فِي قَلْبِكَ

يَتَشَأْ وَيَتَدَرَّجُ تَحْتَ عَيْنَيْهَا ، وَكَأَنَّهُ فِي وَعَاءٍ مِنَ الزُّجَاجِ الرَّقِيقِ الصَّافِي تَحْمِلُهُ عَلَى كَفِّكَ يَشِفُّ وَيَفْضَحُ ، لَا فِي قَلْبٍ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ تُخْفِيهِ بَيْنَ جَنْبَيْكَ فَيَطْوِي وَيُكْتَمُ .

وَلَيْسَ يُبْطِلُ هِدَايَةَ هَذِهِ الْحَاسَةِ فِي الْمَرْأَةِ إِلَّا طَمَعُهَا الْمَادِّي فِي الْمَالِ وَالْمَتَاعِ وَالزَّيْنَةِ ؛ فَإِنَّ هَذَا الطَّمَعَ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَغْلِبُ بِهَا الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ ، فَيَنْفَسِهَا غَلْبَهَا ! وَإِذَا تَبَدَّلَ طَمَعُ امْرَأَةٍ فِي رَجُلٍ فَهِيَ مُؤَمِّسٌ ، وَإِنْ كَانَتْ عَذْرَاءً فِي خِدْرِهَا .

وَيَا عَجَبًا ! إِنَّ وُجُودَ الطَّبِيعَةِ فِي النَّفْسِ غَيْرُ الشُّعُورِ بِهَا ؛ فَلَيْسَ يُشْعِرُ الْمَرْأَةَ بِتَمَامِ طَبِيعَتِهَا النِّسَائِيَّةِ إِلَّا الزَّيْنَةُ وَالْمَتَاعُ وَمَا بِهِ الْمَتَاعُ وَالزَّيْنَةُ ؛ فَكَأَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ وَقَتْهَا وَعَرَضَتْهَا فِي وَقْتٍ مَعًا ، لِتَكُونَ هِيَ الْوَاقِيةُ أَوْ الْمُخْطِرةُ لِنَفْسِهَا ، فَيَعْمَلُهَا تُجْزَى ، وَمِنْ عَمَلِهَا مَا تَضْحَكُ وَتَبْكِي .

قَالَتْ أَلْيَا قُوَّتُهُ : وَلِذَا أَخَذْتُ نَفْسِي أَلَّا أَطْمَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ النَّاسِ ، وَسَخَوْتُ عَنْ كُلِّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ؛ فَمَا يَتَكَرَّمُونَ عَلَيَّ إِلَّا بِهَلَاكِي ، وَحَسْبِي أَنْ يَبْقَى لِعَيْنَيَّ قَلْبِي ضَوْؤُهُمَا الْمُبْصِرُ . وَأَنَا أَعْتَمِدُ عَلَى شَهَامَةِ الرَّجُلِ ، فَإِنْ لَمْ أَجِدْهَا عَلِمْتُ أَنَّي بِإِزَاءِ حَيَوَانٍ إِنْسَانِيٍّ ، فَاتَّخَذَرُهُ حَذَرِي مِنْ مُصِيبَةٍ مُقْبِلَةٍ . وَإِذَا جَاءَنِي وَقَعَ خَلَقَ اللَّهُ وَجْهَهُ الْحَسَنَ مَسَبَّةً لَهُ ، أَوْ خَلَقَهُ هُوَ مَسَبَّةً لَوَجْهِهِ الْقَبِيحِ ، ذَكَرْتُ أَنَّي بَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَاتٍ أَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَلَا يَزِدَادُ مِنِّي إِلَّا بُعْدًا وَإِنْ كَانَ بِإِزَائِي ، فَأَغْلِظُ لَهُ وَأَتَسَخَّطُ ، وَأُظْهِرُ الْغَضَبَ وَأُصْفَعُهُ صَفْعَتِي .

قُلْتُ : وَمَا صَفْعَتُكَ ؟

قَالَتْ : إِنَّهَا صَفْعَةٌ لَا تَضْرِبُ الْوَجْهَ وَلَكِنْ تُخْجِلُهُ .

قُلْتُ : وَمَا هِيَ ؟

قَالَتْ أَلْيَا قُوَّتُهُ : هِيَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ ؛ أَمَا تَعْرِفُ يَا سَيِّدِي أَنَّي أَصْلِي وَأَقُولُ « اللَّهُ أَكْبَرُ » فَهَلْ أَنْتَ أَكْبَرُ ... ؟ أَوْ قِيمَ لَكَ الْبُرْهَانُ عَلَى صَغَارِكَ وَحَقَارَتِكَ ، أَوْ تَادِي الشُّرْطِيِّ ... ؟ !

\* \* \*

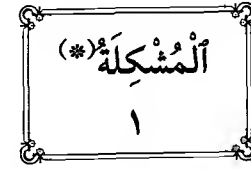
تَخْتَنِقُ بِالرَّقْصِ وَتَتَعَشَّى بِالصَّلَاةِ ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَخْتَنِقُ وَتَتَعَشَّى .

وَلَكِنِّي لَا أَزَالُ أَقُولُ :

أَفِي الْمُمْكِنِ هَذَا ؟

أَفِي الْمُمْتَرَادِ شَرْعًا : رَقَصْتُ وَصَلْتُ ... ؟

مصطفى صادق الرافعي



قَالَتْ لِي صَاحِبَةُ « الْجَمَالِ الْبَائِسِ »<sup>(١)</sup> فِيمَا قَالَتْ : إِنَّ الْمَرْأَةَ الْجَمِيلَةَ تُخَاطَبُ فِي الرَّجُلِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةً : الرَّجُلُ ، وَشَيْطَانُهُ ، وَحَيَوَانُهُ . فَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَهُوَ مَعَنَا وَإِنْ لَمْ نَكُنْ مَعَهُ . . . وَأَمَّا الْحَيَوَانُ فَلَهُ فِي أَيْدِينَا مَقَادَةُ مِنَ الْعَبَاوَةِ ، وَمَقَادَةُ مِنَ الْغَرِيزَةِ ، إِذَا شَمَسَ فِي وَاحِدَةٍ أَضْحَبَ فِي الْأُخْرَى وَانْقَادَ ؛ وَلَكِنَّ الْمُشْكِلَةَ هِيَ الرَّجُلُ تَكُونُ فِيهِ رُجُولَةٌ .

\* \* \*

نَعَمْ إِنَّ الْمُشْكِلَةَ الَّتِي أَغْضَلَتْ عَلَى الْفَسَادِ هِيَ فِي الرَّجُلِ الْقَوِيُّ الرُّجُولَةُ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ وُجُودِهِ وَشَرَفَ مَنَزَلِهِ ، وَلِهَذَا أَوْجَبَ الْإِسْلَامُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ فِي أَلْيَوْمِ الْوَاحِدِ خَارِجًا مِنْ صَلَاةٍ .

وَأَمَّا الرُّجُولَةُ فِي خِلَالِ ثَلَاثٍ : عَمَلِ الرَّجُلِ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي هَوَاةٍ ؛ وَقَبُولِهِ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ بِقَبُولِ الْعَامِلِ الْوَاتِي مِنْ أَجْرِهِ الْعَظِيمِ ؛ وَالثَّلَاثَةُ : قُدْرَتُهُ عَلَى الْعَمَلِ وَالْقَبُولِ إِلَى الْتَهَانَةِ .

وَلَنْ تَقُومَ هَذِهِ الْخِلَالُ إِلَّا بِثَلَاثٍ أُخْرَى : الْإِدْرَاكِ الصَّحِيحِ لِلغَايَةِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ ؛ وَجَعَلِ مَا يُحِبُّهُ الْإِنْسَانُ وَمَا يَكْرَهُهُ مُوَافِقًا لِمَا أَدْرَكَ مِنْ هَذِهِ الْغَايَةِ ؛ وَالثَّلَاثَةُ الْقُدْرَةُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ مَعَانِي السُّرُورِ مِنْ مَعَانِي الْأَلَمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ عَلَى السَّوَاءِ .

فَالرُّجُولَةُ عَلَى ذَلِكَ هِيَ إِفْرَاقُ النَّفْسِ فِي أُسْلُوبِ قَوِيٍّ جَزِلٍ مِنَ الْحَيَاةِ ، مُتَسَاوِقٍ فِي نَمَطِ الْأَجْتِمَاعِ ، بَلِيغٍ بِمَعَانِي الدِّينِ ، مَضْفُوقٍ بِجَمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، مُنْتَزَسِلٍ بِبِلَاغَةِ وَقُوَّةِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٣ ، ١٤ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ١١ نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٨٠٥ - ١٨٠٨ .

(١) { مَرَّتْ مَقَالَاتُ « الْجَمَالِ الْبَائِسِ » فِي هَذَا الْجُزْءِ } .

وَجَمَالٍ إِلَى غَايَتِهِ السَّامِيَةِ .

وَلِهَذِهِ الْحِكْمَةُ اسْتَقَطَتْ الْأَذْيَانُ مِنْ فَضَائِلِهَا مَبْدَأَ إِرْضَاءِ النَّفْسِ فِي هَوَاها ، فَلَا مُعَامَلَةَ بِهِ مَعَ اللَّهِ إِلَّا فِي إِيْمٍ أَوْ شَرٍّ ؛ وَاسْتَقَطَ النَّاسُ مِنْ قَوَاعِدِ مُعَامَلَتِهِمْ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ ، فَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْغَيْشُ وَالْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ ، وَكُلُّ خَارِجٍ عَلَى شَرِيعَةٍ أَوْ فَضِيلَةٍ أَوْ مَنَفَعَةٍ أَجْتِمَاعِيَّةٍ ، فَإِنَّمَا يَنْزِعُ إِلَى ذَلِكَ إِرْضَاءُ لِنَفْسِهِ وَإِنَارًا لَهَا وَمُوَافَقَةٌ لِمَحَبَّتِهَا وَتَوْفِيقٌ لِحَظَّتِهَا ؛ وَعَمَلُهُ هَذَا هُوَ الَّذِي يُلْبِسُهُ الْوُصْفَ الْأَجْتِمَاعِي السَّاقِطَ وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ فِي اللُّغَةِ ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يُرْضِي نَفْسَهُ أَنْ يَسْرِقَ لِيَغْتَنِي ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَفْسَهُ<sup>(١)</sup> رِضَاهَا فَهُوَ اللَّصُّ ؛ وَكَالتَّاجِرِ فِي إِرْضَاءِ طَمَعِهِ هُوَ الْغَاشُّ ، وَكَالْجُنْدِيِّ فِي إِرْضَاءِ جُبْنِهِ هُوَ الْخَائِنُ ، وَكَالْكَاتِبِ فِي إِرْضَاءِ رَذِيلَتِهِ هُوَ الْفَاسِقُ ، وَهَلُمَّ جَزًّا وَهَلُمَّ جَزْرَةً . . .

\* \* \*

وَأَمَّا بَعْدُ ، فَالْقِصَّةُ فِي هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ قِصَّةُ رَجُلٍ فَاضِلٍ مُهَذَّبٍ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّبَابِ وَالْمَالِ ، ثُمَّ اِمْتَنَحَتْهُ الْحَيَاةُ بِمُشْكِلَةٍ ذَهَبَ فِيهَا نَوْمٌ لَيْلِهِ وَهُدُوءٌ نَهَارِهِ حَتَّى كَسَفَتْ بَالَهُ ، وَفَرَّقَتْ رَأْيَهُ ، وَكَابَدَ فِيهَا الْمَوْتَ الَّذِي لَيْسَ بِالْمَوْتِ ، وَعَاشَ بِالْحَيَاةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِالْحَيَاةِ .

قَالَ : فَقَدْتُ أُمِّي وَأَنَا غُلَامٌ أَخْرَجَ مَا يَكُونُ الْقَلْبُ إِلَى الْأَلَمِ ، فَخَشِيَ عَلَيَّ أَبِي أَنْ أَسْتَكِينَ لِلذَّيِّ فَقَدِهَا فَيَكُونُ فِي نَشَائِي الذُّلُّ وَالضَّرَاعَةُ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ أَحْسَنَ فَقَدَهَا إِحْسَانَ الطِّفْلِ تَمُوتُ أُمُّهُ فَيَحْمِلُ فِي ضَبَاعِهَا مِثْلَ حُزْنِهَا لَوْ ضَاعَ هُوَ مِنْهَا ؛ فَعَلَّمَنِي هَذَا الْأَبُ الشَّفِيقُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا فَقَدَ أُمَّهُ كَانَ شَأْنُهُ غَيْرَ شَأْنِ الصَّبِيِّ ، لِأَنَّ لَهُ قُوَّةَ وَكِبَرِيَاءٍ ؛ وَأَلْقَى فِي رُوعِي أَنَّ رَجُلًا مِثْلَهُ ، وَأَنَّ أُمَّهُ قَدْ مَاتَتْ عَنْهُ صَغِيرًا فَكَانَ رَجُلًا مِثْلِي الْآنَ . . .

وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا إِذَا دَعَانِي قَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ . وَإِذَا أَعْطَانِي شَيْئًا قَالَ : خُذْ يَا رَجُلُ . وَإِذَا سَأَلَنِي عَنْ شَأْنِي قَالَ : كَيْفَ الرَّجُلُ ؟ وَقَلَّ يَوْمَ يَمُرُّ إِلَّا أَسْمَعْنِيهَا مِرَارًا ، حَتَّى تَوَهَّمْتُ أَنَّ مَعِيَ رَجُلًا فِي عَقْلِي خَلَقْتُهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ . وَتَمَامُ الرَّجُلِ بِشَيْئَيْنِ : اللَّحْيَةُ فِي وَجْهِهِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « لِنَفْسِهِ » بَدَلًا مِنْ : « نَفْسُهُ » .



وَالزَّوْجَةُ فِي دَارِهِ ، فَتَجِيءُ الزَّوْجَةُ بَعْدَ أَنْ تَظْهَرَ اللَّحْيَةُ لِتَكُونَ كِلْتَاهُمَا قُوَّةً لَهُ ، أَوْ وَقَارًا أَوْ جَمَالًا ، أَوْ تَكُونَ كِلْتَاهُمَا خُشُونَةً ، أَوْ لِيَكُونَا مَعًا سَوَادَيْنِ فِي الْوَجْهِ وَالْحَيَاةِ ...

أَمَّا اللَّحْيَةُ لِي أَنَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّغِيرُ فَلَيْسَ فِي يَدِ أَبِي وَلَا فِي حَيْلَتِهِ أَنْ يَجِيءَ بِهَا ، وَلَكِنَّ الْأُخْرَى فِي يَدِهِ وَحَيْلَتِهِ ؛ فَجَاءَنِي ذَاتَ نَهَارٍ وَقَالَ لِي : أَيُّهَا الرَّجُلُ ! إِنَّ فُلَانَةَ مُسَمَّاءَ عَلَيْكَ <sup>(١)</sup> مُنْذُ الْيَوْمِ فَهِيَ أَمْرَأَتُكَ فَأَذْهَبْ لِتَرَى فِيكَ رَجُلَهَا .

وَفُلَانَةُ هَذِهِ طِفْلَةٌ مِنْ ذَوَاتِ الْقُرْبَى ، فَأَفْرَحَنِي ذَلِكَ وَأَبْهَجَنِي ؛ وَقُلْتُ لِلرَّجُلِ الَّذِي فِي عَقْلِي : أَصْبَحْتَ زَوْجًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ...

وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الْجَانِمُ فِي عَقْلِي هُوَ غُرُورِي يَوْمِيذٍ وَكِبْرِيَانِي ، فَكُنْتُ أَقْعُ فِي الْخَطَا بَعْدَ الْخَطَا وَأَتِي الْحَمَاقَةُ بَعْدَ الْحَمَاقَةِ ، وَكُنْتُ طِفْلًا وَلَكِنَّ غُرُورِي ذُو لِحْيَةٍ طَوِيلَةٍ ...

\* \* \*

وَنَشَأْتُ عَلَى ذَلِكَ : صُلِبَ الرَّأْيُ مُعْتَدًا بِنَفْسِي ، إِذَا هَمَمْتُ مَضِيئًا ، وَإِذَا مَضَيْتُ لَا أَلُوي ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَخْطُرَ لِي الْخَاطِرُ فَأَرْكَبُ رَأْسِي فِيهِ ، وَلَأَنْ تُكْسَرَ لِي يَدٌ أَوْ رِجْلٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يُكْسَرَ لِي رَأْيٌ أَوْ حُكْمٌ ؛ وَأُكْسِبُنِي ذَلِكَ خَيَالًا أَكْذَبَ خَيَالٍ وَأَبْعَدَهُ ، يَخْلِطُ عَلَيَّ الذَّنْبُ خَلْطًا فَيَدْعُنِي كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ رَقْمًا لِيَصِفَ الْيَوْمَ الْوَاحِدَ ، فَيُطَالِعُهَا أَتْنِي عَشَرَ شَهْرًا لِلْسَّنَةِ ...

وَتَرَامْتُ حُرِّيَّتِي بِهَذَا الْخَيَالِ فَجَاوَزْتُ حُدُودَهَا الْمَعْقُولَةَ ، وَبِهَذِهِ الْحُرِّيَّةِ الْحَمَقَاءَ وَذَلِكَ الْخَيَالِ الْفَاسِدَ ، كَذَبْتُ عَلَيَّ الْفِكْرَةَ وَالطَّبِيعَةَ .

وَلَسْتُ جَمِيلَ الطَّلَعَةِ إِذَا طَالَعْتُ وَجْهِي ، وَلَكِنِّي مَعَ ذَلِكَ مُعْتَقِدٌ أَنَّ الْخَطَا فِي الْمِرَاةِ ... إِذْ هِيَ لَا تَظْهَرُ الرَّجُلَ الْوَصِيءَ الْجَمِيلَ الَّذِي فِي عَقْلِي ؛ وَلَسْتُ نَابِعَةً ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي عَقْلِي رَجُلٌ عَبَقْرِي ؛ وَهَذَا الَّذِي فِي عَقْلِي رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ ؛ فَيجِبُ عَلَيَّ أَنَا الطِّفْلُ أَنْ أَكُونَ زَيْنًا زَيْنًا كَوَالِدِ عَشْرَةِ أَوْلَادٍ فِي الْمَدَارِسِ الْعُلْيَا ...

(١) هَذَا هُوَ التَّعْبِيرُ الْعَرَبِيُّ الصَّحِيحُ لِقَوْلِهِمْ قَبْلَ الْعَقْدِ : « مَخْطُوبَةٌ لِفُلَانٍ » .

وَذَهَبْتُ بِكُلِّ ذَلِكَ أَرَى { فُلَانَةً } زَوْجَتِي ، فَأَغْلَقْتُ الْبَابَ فِي وَجْهِي وَأَخْتَبَأْتُ مِنِّي ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّ هَذَا نُشُوزٌ وَعِصْيَانٌ ، لَا طَاعَةَ وَحُبَّ . وَسَاءَ بِنِي ذَلِكَ وَعَمَّنِي وَكَبَّرَ عَلَيَّ ، فَأَضْمَرْتُ لَهَا الْعَذْرَ ، فَتَبَّثْتُ بِذَلِكَ فِي ذَهْنِي صُورَةَ (الْبَابِ الْمُغْلَقِ) ، وَكَانَتْهُ طَلَاقٌ بَيْنَنَا لَا بَابَ ...

\* \* \*

قَالَ : ثُمَّ سَبَّ الرَّجُلُ فَكَانَ بِطَبِيعَةٍ مَا فِي نَفْسِهِ كَالزَّوْجِ الَّذِي يَتَرَقَّبُ زَوْجَتَهُ الْغَائِبَةَ غَيْبَةً طَوِيلَةً : كُلُّ أَيَّامِهِ ظَمًا عَلَى ظَمٍّ ، وَكُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِهِ هُوَ زِيَادَةٌ سَنَةٍ فِي عُمْرِ شَيْطَانِهِ ... وَكَانَ قَدْ أَتَتْهُ إِلَى مَدْرَسَتِهِ الْعَالِيَةِ ، وَأَصْبَحَ رَجُلٌ كُتِبَ وَعُلُومٌ وَفِكْرٌ وَخَيَالٌ ؛ فَعَرَضَتْ لَهُ فَتَاةٌ كَاللَّوَاتِي يَعْزِضْنَ لِلطَّلَبَةِ فِي الْمَدَارِسِ الْعُلْيَا ، مَا مِنْهُنَّ عَلَى صَاحِبِهَا إِلَّا كَالْحَيَّةِ فِي أَمْتِحَانٍ ... بَيِّدَ أَنَّ (الرَّجُلَ) لَمْ يَعْرِفْ مِنْ هَذِهِ الْفَتَاةِ إِلَّا أَوَائِلَ الْمَرْأَةِ ... وَلَمْ يَكْذُ يَسْتَشْرِفُ لِأَوَاخِرِهَا حَتَّى سُمِّيَتْ عَلَى غَيْرِهِ ، فَخُطِبَتْ ، فَزُفْتُ ؛ زُفْتُ بَعْدَ نِصْفِ زَوْجٍ إِلَى زَوْجٍ ...

وَعَرَفَ الرَّجُلُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْيُنْيِ دَرَسَهَا أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حُرًّا بِأَكْثَرٍ مِمَّا يَسْتَطِيعُ ، وَبِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا الْأَكْثَرِ ... فَقَالَهَا بِجَلٍّ فِيهِ ، وَقَالَ لِلْحُرِّيَّةِ : أَنَا لِكَ وَأَنْتِ لِي . قَالَهَا لِلْحُرِّيَّةِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا رَدَّتْ عَلَيْهِ الْحُرِّيَّةُ بِفَتَاةٍ أُخْرَى ...

\* \* \*

نَقُولُ نَحْنُ : وَكَانَ قَدْ مَضَى عَلَى (الْبَابِ الْمُغْلَقِ) تِسْعُ سَنَوَاتٍ ، فَصَارَ مِنْهُنَّ بَيْنَ الشَّابِّ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ الْعَقْلِيَّةِ تِسْعَةُ أَبْوَابٍ مُغْلَقَةٍ ؛ وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ مُسَمَّاءُ لَهُ ، يَقُولُ أَهْلُهُ وَأَهْلُهَا : (فُلَانٌ وَفُلَانَةٌ) . وَلَيْسَ (الْبَابُ الْمُغْلَقُ) عِنْدَهُمْ إِلَّا الْحَيَاءُ وَالصَّبِيانَةُ ؛ وَلَيْسَتْ الْفَتَاةُ مِنْ وَرَائِهِ إِلَّا الْعَفَافُ الْمُتَنَظِّرُ ؛ وَلَيْسَ الْفَتَى إِلَّا ابْنُ الْأَبِّ الَّذِي سَمَّى الْفَتَاةَ لَهُ وَحَبَسَهَا عَلَى اسْمِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الْقُرْبَى إِلَّا شَرِيعَةٌ وَاجِبَةٌ الْحَقِّ نَافِذَةٌ الْحُكْمِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الشَّرَفِ ، أَنَّهُ مَهْمَا يَبْلُغَ مِنْ حُرِّيَّةِ الْمَرْءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَالشَّرَفُ مُفِيدٌ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الدِّينِ ، أَنَّ الزَّوْاجَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَزَوَاجِ هَذَا الْعَصْرِ قَائِمًا مِنْ أَوَّلِهِ عَلَى

مَعَانِي الْمَفَاحِشَةِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْفَضِيلَةِ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ إِنَّمَا هِيَ لِبْنَاءِ الْأُسْرَةِ ؛ فَإِنْ بَلَغَ وَجْهَهَا الْعَالِيَةَ مِنَ الْحُسْنِ أَوْ لَمْ يَبْلُغْ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَجْهٌ ذُو سُلْطَةٍ وَحَقُوقٍ (رَسْمِيَّةٍ) فِي الْأَخْتِرَامِ ؛ لَا تَقُومُ الْأُسْرَةُ إِلَّا بِذَلِكَ ، وَلَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْكَمَالِ وَالضَّمِيرِ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ الطَّاهِرَةَ الْمُخْلِصَةَ الْحُبَّ لِرُوحِهَا ، إِنَّمَا هِيَ مُعَامَلَةٌ بَيْنَ زَوْجَيْهَا وَبَيْنَ رَبِّهِ ؛ فَحَيْثُمَا وَضَعَهَا مِنْ نَفْسِهِ فِي كَرَامَةٍ أَوْ مَهَانَةٍ ، وَضَعَ نَفْسَهُ عِنْدَ اللَّهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ ، أَنَّ كُلَّ زَوْجَةٍ فَاضِلَةٍ ، هِيَ جَمِيلَةٌ جَمَالَ الْحَقِّ ؛ فَإِنْ لَمْ تُوجِبِ الْحُبَّ ، وَجَبَتْ لَهَا الْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْمُروءَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنَّ زَوْجَةَ الرَّجُلِ إِنَّمَا هِيَ إِنْسَانِيَّتُهُ وَمُرُوءَتُهُ ؛ فَإِنْ أَحْتَمَلَهَا أَغْلَنَ أَنَّهُ رَجُلٌ كَرِيمٌ ، وَإِنْ نَبَذَهَا أَغْلَنَ أَنَّهُ رَجُلٌ لَيْسَ فِيهِ كَرَامَةٌ .

أَمَّا عِنْدَ الشَّيْطَانِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَشُرُوطُ الزَّوْجَةِ الْكَامِلَةِ مَا تَشْتَرِطُهُ الْغَرِيزَةُ : الْحُبُّ ، الْحُبُّ ، الْحُبُّ !

\* \* \*

قَالَ الشَّابُّ : وَإِذَا أَنَا لَمْ أَتَزَوَّجْ أَمْرَأَةً تَكُونُ كَمَا أَشْتَهِي جَمَالًا ، وَكَمَا يَشْتَهِي فِكْرِي عِلْمًا ، كُنْتُ أَنَا الْمُتَزَوِّجُ وَخِدِي وَبَقِي فِكْرِي عَزْبًا ... وَقَدْ عَرَفْتُ الَّتِي تَصْلُحُ لِي بِجَمَالِهَا وَفِكْرِهَا مَعًا ، وَتَبَوَّأْتُ فِي قَلْبِي وَأَقَمْتُ فِي قَلْبِهَا ؛ ثُمَّ دَاخَلْتُ أَهْلَهَا ، فَخَلَطُونِي بِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَالُوا : شَابٌّ وَعَزْبٌ ... وَمُتَعَلِّمٌ وَسَرِيٌّ ... فَلَمْ يَكُنْ لِدَارِهِمْ (بَابٌ مُغْلَقٌ) ، حَتَّى لَوْ شِئْتُ أَنْ أَصِلَ إِلَى كَرِيمَتِهِمْ فِي حَرَامٍ وَصَلْتُ ، وَلَكِنِّي رَجُلٌ يَحْمِلُ أَمَانَةَ الرَّجُولَةِ ...

أَمَّا الْفَتَاةُ فَلَسْتُ أَذْرِي وَاللَّهُ : أَفِيهَا جَادِيَّةُ نَجْمٍ ، أَمْ جَادِيَّةُ أَمْرَأَةٍ ! وَهَلْ هِيَ أَتْنِي فِي جَمَالِهَا ، أَوْ هِيَ الْجَمَالَ السَّمَاوِيِّ أَنِّي يُنْقَضُ الْفُتُونُ الْأَرْضِيَّةُ لِأَهْلِ الْفَنِّ ؟

إِذَا التَّقَيْنَا قَالَتْ لِي بِعَيْنَيْهَا : هَا أَنَا ذِي قَدْ أَرَحَيْتُ لَكَ الزَّمَامَ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ فِرَارًا

مِثِّي ؟ وَنَلْتَصِقُ فَقُولُ لِي بِجِسْمِهَا : أَلَيْسَتْ الدُّنْيَا كُلُّهَا هُنَا ، فَهَلْ فِي الْمَكَانِ مَكَانٌ إِلَّا هُنَا ؟ وَتَفْتَرِقُ فَتَحْصُرُ لِي الزَّمَنَ كُلَّهُ فِي كَلِمَةٍ حِينَ تَقُولُ : غَدًا نَلْتَقِي .

كَلَامُهَا كَلَامٌ مُتَادِّبٌ ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ طَرِيقَةً مِنَ الْخَلَاعَةِ ، تَلْفَتَتْ إِلَى فَمِهَا الْخُلُوعِ ؛ وَالْحَرَكَةُ عَلَى جِسْمِهَا حَرَكَةٌ مُسْتَحِجَّةٌ ، وَلَكِنَّهَا فِي الْوَقْتِ عَيْنُهُ كَالْتَّعْبِيرِ الْفَنِّيِّ الْمُتَجَسِّمِ فِي التَّمَنِّيِّ الْعَارِي .

إِنَّهَا وَاللَّهِ قَدْ جَعَلَتْ شَيْطَانِي هُوَ عَقْلِي ؛ أَمَّا هَذَا الْعَقْلُ الَّذِي يَنْصَحُ وَيَعْطُ وَيَقُولُ : هَذَا خَيْرٌ وَهَذَا شَرٌّ . فَهُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ أَتَبَرَّأَ مِنْهُ ...

\* \* \*

قَالَ : وَاللَّهِ الْأَبُّ يَقْصِدُ فَنَاءً ، وَيَحْسِبُهَا نَزْوَةً مِنَ الشَّبَابِ يُخَيِّدُهَا الزَّوْاجُ ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ لِلرَّجُلِ نَظْرَتَيْنِ إِلَى النِّسَاءِ : نَظْرَةُ الْيَهْنِ مِنْ حَيْثُ يَخْتَلِفْنَ ، فَتَكُونُ كُلُّ أَمْرَأَةٍ غَيْرِ الْأُخْرَى فِي الْخَيَالِ وَالْوَهْمِ وَالْمِزَاجِ الشَّعْرِيِّ ؛ وَنَظْرَةُ الْيَهْنِ مِنْ حَيْثُ يَتَسَاوَيْنَ فِي حَقِيقَةِ الْأُنُوثَةِ وَطَبِيعَةِ الْأَخْتِرَامِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَتَكُونُ كُلُّ أَمْرَأَةٍ كَالْأُخْرَى وَلَا يَتَفَاوَتَنَّ إِلَّا بِالْفَضِيلَةِ وَالْمُنْفَعَةِ . وَيَقْرُرُ لِنَفْسِهِ أَنَّ ابْنَهُ رَجُلٌ مُتَعَلِّمٌ ذُو دِينٍ وَبَصِيرٍ ، فَلَا يَنْظُرُ النَّظْرَةَ الْخَيَالِيَّةَ الَّتِي لَا تَنْفَعُ بِأَمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ لَا تَزَالُ تَلْتَمِسُ مُحَاسِنَ الْجِنْسِ وَمَفَاتِنَهُ ، وَهِيَ النَّظْرَةُ الَّتِي لَا يَقُومُ بِهَا إِلَّا بِنَاءُ الشَّعْرِ ذُوْنُ بِنَاءِ الْأُسْرَةِ ، وَلَا تَصْلُحُ عَلَيْهَا الْمَرْأَةُ تِلْدُ أَوْلَادًا لِرُوحِهَا ، بَلِ الْمَرْأَةُ تِلْدُ الْمَعَانِي لِشَاعِرِهَا .

ثُمَّ أَخْطَأَ فِي رَأْيِهِ ، فَقَدَّرَ أَنَّ ابْنَهُ رَبَّمَا كَانَ عَاشِقًا مَفْتُونًا مُسْحُورًا ، ذَا بَصِيرَةٍ مَذْخُولَةٍ وَقَلْبٍ هَوَاءٍ وَعَقْلٍ مُلْتَاثٍ ، فَيَمْرَدُ عَلَى أَبِيهِ وَيَخْرُجُ عَنْ طَاعَتِهِ ، وَيُحَارِبُ أَهْلَهُ وَرَبَّهُ مِنْ أَجْلِ أَمْرَأَةٍ ، يَبْدَأُ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّهُ هُوَ وَالِدُهُ ، وَهُوَ رَبَّاهُ وَأَنْشَأَهُ فِي بَيْتٍ فِيهِ الدِّينُ وَالْخُلُقُ وَالشَّهَامَةُ وَالنَّجْدَةُ ، وَأَنَّ مُحَارَبَةَ اللَّهِ بِأَمْرَأَةٍ لَا تَكُونُ إِلَّا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْبَيْتَةِ الْفَاسِدَةِ الْمُسْتَهْتَرَةِ ، حِينَ تَجْمَعُ كُلُّ مَعَانِي الْفَسَادِ وَالْإِبَاحَةِ وَالِاسْتِهْتَارِ فِي كَلِمَةِ (الْحُرِّيَّةِ) . وَقَالَ : إِنَّ الْبَيْتَةَ فِي الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ الشَّرَفُ وَالْدِّينُ وَالْمُرُوءَةُ وَالْغَيْرَةُ عَلَى الْعِرْضِ ، لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَبْنَاءُ يَوْمئِذٍ يَغْتَرِضُونَ آبَاءَهُمْ فِيمَنْ اخْتَارُوهُمْ ، إِذِ النَّسْلُ هُوَ أَمْنِدَادُ تَارِيخِ الْأَبِ وَالْأَبْنِ مَعًا ، وَالْأَبُّ أَعْرَفُ بِدُنْيَاةِ وَأَجْدَرُ أَنْ

يَكُونُ مَبْرَأً مِنْ اخْتِلَاطِ النَّظَرَةِ ، فَيَخْتَارُ لِلدِّينِ وَالْحَسَبِ وَالْكَمَالِ ، لَا لِلشَّهْوَةِ وَالْحُبِّ وَتَقُونُ الْخَلَاعَةَ ؛ وَلَا مَحَلَّ لِلَاغْتِرَاضِ بِالْعِشْقِ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْأَخْلَاقِ ، بَلْ مَحَلُّهُ فِي بَابِ الشَّهَوَاتِ وَخُذَهَا .

ثُمَّ جَزَمَ الْأَبُّ أَنَّ الْوَلَدَ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ عَاشِقَيْنِ ، حَرِيٌّ أَنْ يَرِثَ فِي أَغْصَابِهِ جُنُونُ اثْنَيْنِ وَأَمْرَاضُهُمَا النَّفْسِيَّةِ وَشَهَوَاتُهُمَا الْمُتَلْتَبَةِ ؛ وَلِهَذَا وَقَفَ الشَّرْعُ فِي سَبِيلِ الْحُبِّ قَبْلَ الزَّوْجِ لَوْ قَايَةِ الْأُمَّةِ فِي أَوَّلِهَا ؛ وَلِهَذَا يَكْثُرُ الضَّغْفُ الْعَصَبِيُّ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ وَيَنْشُرُ بِهَا الْفَسَادُ ، فَلَا يَأْنِي جِيلٌ إِلَّا وَهُوَ أَشَدُّ مَيْلًا إِلَى الْفَسَادِ مِنَ الْجِيلِ الَّذِي أَعْبَهُ .

وَلَمْ يَكْذِبْ نَيْتُهُي الْأَبُّ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى الرَّأْيُ بِهِ ، حَتَّى أَسْرَعَ إِلَى (الْبَابِ الْمُغْلَقِ) يَهْمِي لِلزَّفَافِ وَيَتَعَجَّلُ لِابْنِهِ الْمُطِيعِ ... نَكْبَةً سَتَجِيءُ فِي اخْتِفَالِ عَظِيمٍ ...

\* \* \*

قَالَ الشَّابُّ : وَجُنُّ جُنُونِي ؛ وَقَدْ كَانَ أَبِي مِنْ اخْتِرَامِي بِالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُلْقَى مِنْهُ ، فَلَجَأْتُ إِلَى عَمِّي أَسْتَدْفِعُ بِهِ النَّكْبَةَ ، وَأَتَأَيَّدُ بِمَكَانِهِ عِنْدَ أَبِي ؛ وَبَشْتُهُ حَزَنِي وَأَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِشَأْنِي ، وَقُلْتُ لَهُ فِيمَا قُلْتُ : أَفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا شَيْئًا يَنْتَهِي بِي إِلَى تِلْكَ الْفِتَاةِ ، أَوْ يَنْتَهِي بِهَا إِلَيَّ ؛ وَمَا أَكْبُرُ أَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ الْقُرْبَى ، وَأَنْ فِي اخْتِمَالِي إِثَابًا وَاجِبًا وَرَجُوعَةً ، وَفِي سِتْرِي لَهَا نَوَابِا وَمُرُوءَةٌ ، وَخَاصَّةً فِي هَذَا الزَّمَنِ الْكَاسِدِ الَّذِي بَلَغَتْ فِيهِ الْعِدَارَى سِنَّ الْجَذَابِ ... وَلَكِنَّ الْقَلْبَ الْعَاشِقَ كَافِرٌ بِالْوَاجِبِ وَالرَّجُوعَةِ ، وَالنَّوَابِ وَالْمُرُوءَةِ ، وَبِالْأُمِّ وَالْأَبِ ؛ فَهُوَ يَمْلِكُ النِّعْمَةَ وَيُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَ التَّعْظِيمَ بِهَا ؛ وَكُلُّ مَنْ اعْتَرَضَهُ دُونُهَا كَانَ { عِنْدَهُ } كَاللَّصِّ ...

قَالَ : فَتَبَّحَ اللَّهُ حُبًّا يَجْعَلُ أَبَاكَ فِي قَلْبِكَ لَصًّا أَوْ كَاللَّصِّ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ كُنْتُ حُرًّا اخْتَارُ مَنْ أَشَاءُ لِنَفْسِي ...

قَالَ : إِنْ كُنْتُ حُرًّا كَمَا تَزْعُمُ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْتَارَ غَيْرَ الْتِي أَحْبَبْتَهَا ؟ أَلَا تَكُونُ حُرًّا إِلَّا فِينَا نَحْنُ وَفِي هَذِهِ أَسْرَتَنَا ؟

قُلْتُ : وَلَكِنْ كُنْتُ مُتَعَلِّمٌ ، فَلَا أُرِيدُ الزَّوْجَ إِلَّا بِمَنْ ...

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ : لَيْتَكَ لَمْ تَتَعَلَّمْ ، فَلَوْ كُنْتُ نَجَارًا أَوْ حَدَّادًا أَوْ حُودِيًّا ، لَأَدْرَكْتُ بِطَبِيعَةِ الْحَيَاةِ أَنَّ الَّذِينَ يَتَخَضَّعُونَ لِلْحُبِّ وَلِلْمَرْأَةِ هَذِهِ <sup>(١)</sup> الْخُضُوعَ ، هُمْ الْفَارِغُونَ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَقْضِيَ فِي قُلُوبِهِمْ كُلَّ أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ ...

أَمَّا الْعَامِلُونَ فِي الدِّينِ ، وَالْمُعَامِرُونَ فِي الْحَيَاةِ ، وَالْعَارِفُونَ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَالطَّامِعُونَ فِي الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَهَلْؤَلَاءِ جَمِيعًا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ تَرْبِيَةِ أَوْهَامِهِمْ ، وَعَنِ الْبُكَاءِ لِلْمَرْأَةِ وَالْبُكَاءِ عَلَى الْمَرْأَةِ ؛ وَنَظَرْتُهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَعْلَى وَأَوْسَعُ ؛ وَغَرَضُهُمْ مِنْهَا أَجَلٌ وَأَسْمَى ؛ وَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ » [مسلم ، رقم :

١٢١٨ ؛ أبو داود ، رقم : ١٩٠٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٠٧٤ . أَيْ أَنْظَرُوا إِلَيْهِنَّ مِنْ جَانِبِ تَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ تَقْدِمُ مِنْ رَجُلِهَا عَلَى قَلْبٍ فِيهِ الْحُبُّ وَالْكَرَاهَةُ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَلَا تَذَرِي أَتَى ذَلِكَ هُوَ حَظُّهَا ؛ وَلَوْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ امْرَأَةً بَدَّدَ زَوْجَةً ، لَخَرِبَتِ الدُّنْيَا وَلَفْسَدَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا . وَهَذِهِ يَا بُنَيَّ أَوْهَامٌ وَفِتْيَا وَعَمَلُ أَسْبَابِهَا ، وَسَيَمِضِي الْوَقْتُ وَتَتَغَيَّرُ الْأَسْبَابُ ، وَرَبَّمَا كَانَ النَّاصِحُ الْيَوْمَ هُوَ الْمُتَعَفِّنُ غَدًا ، وَرَبَّمَا كَانَ الْفَجُّ هُوَ النَّاصِحُ بَعْدَ ؟ وَهَبَكَ لَا تُحِبُّ ذَاتَ رَحِمِكَ ثُمَّ أَكْرَمْتَهَا وَأَخْسَنْتَ إِلَيْهَا وَسَتَرْتَهَا ، أَفَيَكُونُ عِنْدَكَ أَجْمَلُ مِنْ شُعُورِهَا أَنَّكَ ذُو الْفَضْلِ عَلَيْهَا ؟ وَهَلْ أَكْرَمَ الْكَرَمِ عِنْدَ النَّفْسِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا هَذَا الشُّعُورُ فِي نَفْسٍ أُخْرَى ؟ إِنْ هَذَا يَا بُنَيَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ حُبًّا فِيهِ الشَّهْوَةُ ، فَهُوَ حُبٌّ إِنْسَانِيٌّ فِيهِ الْمَجْدُ .

\* \* \*

وَوَقَعَتِ الْمُشْكِلَةُ وَرُقِيتِ الْمِسْكِينَةُ ؛ فَكَيْفَ يَصْنَعُ الرَّجُلُ بَيْنَ الْمَحْبُوبَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ <sup>(٢)</sup> ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ : « هَذَا » بِدَلَامِنْ : « هَذِهِ » .

(٢) (رَجَاءُ إِلَى الْقُرْآنِ) : هَذِهِ الْقِصَّةُ وَاقِعَةٌ ، وَقَدْ بَنَى الرَّجُلُ بِأَمْرَاتِهِ ، وَهُوَ فِي الشَّهْرِ الَّذِي لَا اسْمَ لَهُ عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ اسْمُهُ عِنْدَ النَّاسِ « شَهْرُ الْقَسَلِ » . فَمَاذَا يَرَى لَهُ الْفَارِغِيُّ مِنَ الرَّأْيِ ؟ وَمَاذَا تَرَى الْفَارِغَةُ لِهَذِهِ الْعُرُوسِ اللَّابِسَةِ أَكْفَانَهَا فِي عَيْنِ الرَّجُلِ ؟

## الْمُشْكِلَةُ (\*)

٢

لَمَّا فَرَعْتُ مِنْ مَقَالَاتِ « الْمَجْنُونِ »<sup>(١)</sup> وَأَرْسَلْتُ الْأَخِيرَةَ مِنْهَا ، قُلْتُ فِي نَفْسِي : هَذَا الْآخِرُ هُوَ الْآخِرُ مِنَ الْمَجْنُونِ وَجُنُونِهِ ، وَمِنَ الْفِكْرِ فِي تَخْلِيلِهِ وَتَوَادِرِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ عَادَ إِلَيَّ أَخْلَاطًا وَأَضْغَاثًا فَكَأَنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّوْمِ يَقُولُ لِي : أَكْتُبْ مَقَالًا فِي السِّيَاسَةِ . قُلْتُ : مَا لِي وَلِلْسِّيَاسَةِ وَأَنَا « مُوظَّفٌ » فِي الْحُكُومَةِ ، وَقَدْ أَخَذْتُ الْحُكُومَةَ مِيثَاقَ الْمُوظَّفِينَ : لِمَا عَرَفُوا مِنْ نَقْدِ أَوْ غَمِيزَةٍ لِيَكْتُمْنَهُ وَلَا يُبَيِّنُونَهُ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ لَيْسَتْ مُشْكِلَةً ، وَلَيْسَ هَذَا يَصْلُحُ عُذْرًا ، وَالْمَخْرُجُ سَهْلٌ وَالتَّنْذِيرُ يَسِيرٌ وَالْحَلُّ مُمَكِّنٌ . قُلْتُ : فَمَا هُوَ ؟

قَالَ : أَكْتُبْ مَا شِئْتَ فِي سِيَاسَةِ الْحُكُومَةِ ، ثُمَّ أَجْعَلْ تَوْقِيعَكَ فِي آخِرِ الْمَقَالِ هَكَذَا :  
« مُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِي ؛ غَيْرُ مُوظَّفٍ بِالْحُكُومَةِ » ...

فَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ الْمَجَانِينِ فِي حَلِّ الْمَشَاكِلِ الْمُعَقَّدَةِ ، لَا يَكُونُ الْحَلُّ إِلَّا عُقْدَةً جَدِيدَةً يَتِمُّ بِهَا الْيَأْسُ وَيَتَعَدَّرُ الْإِمْكَانُ ، وَهِيَ بِعَيْنِهَا طَرِيقَةٌ ذَلِكَ الطَّائِرِ الْأَبْلَهُ الَّذِي يَرَى الصَّائِدَ فَيُعَمِّضُ عَيْنَهُ وَيَلْبِسُ عُنْفَهُ وَيُخْبِئُ رَأْسَهُ فِي جَنَاحِهِ ظَنًّا عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَرِ الصَّائِدَ لَمْ يَرَهُ الصَّائِدُ ، وَإِذَا تَوَهَّمُ أَنَّهُ اخْتَفَى تَحَقَّقَ أَنَّهُ اخْتَفَى ؛ وَمَا عَمَلُهُ ذَاكَ إِلَّا كَقَوْلِهِ لِلصَّيَّادِ : إِنِّي غَيْرُ مُوجُودٍ هُنَا ... عَلَى قِيَاسِ « غَيْرِ مُوظَّفٍ » ...

\* \* \*

وَقَدْ كُنْتُ اسْتَفْتَيْتُ الْقُرَّاءَ فِي « الْمُشْكِلَةِ » ، وَكَيْفَ يَتَّقِي صَاحِبُهَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَيْفَ تَصْنَعُ صَاحِبُهَا ؛ فَتَلَقَّيْتُ كُتُبًا كَثِيرَةً أَهْدَتْ إِلَيَّ عُقُولًا مُخْتَلِفَةً ؛ وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ الْمَقَادِيرِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٣٢ ، ١٨ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ يناير/كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٥ - ٤٨ .

(١) { بَعْدَ أَنْ كَتَبْنَا الْفَصْلَ الْأَوَّلَ مِنَ « الْمُشْكِلَةِ » وَاسْتَفْتَيْنَا الْقُرَّاءَ فِي آخِرِهِ ، أَنْتَظَرْنَا مُدَّةً ، وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مَقَالَاتٍ « الْمَجْنُونِ » فَانْظُرْهَا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي } .

أَنَّ أَوَّلَ كِتَابٍ أَلْقَيْتُ إِلَيْهَا - كِتَابُ مَجْنُونٍ « نَابِغَةُ » كِتَابُهَا الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ، بَعَثَ بِهِ مِنْ الْقَاهِرَةِ ، وَسَمَى نَفْسَهُ فِيهِ (الْمُصْلِحُ الْمُنتَظَرُ) وَهَذِهِ عِبَارَتُهُ بِحَرْفِهَا وَرَسْمِهَا كَمَا كُتِبَتْ وَكَمَا تُقْرَأُ ؛ فَإِنَّ نَشْرَ هَذَا الْكَلْبِ كَمَا هُوَ ، يَكُونُ أَيْضًا نَصًّا عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلِ كَيْفَ هُوَ ...

قَالَ : « إِنَّ هَذَا الْكَلْبُ تَعَبَتْ فِيهِ آرَاءُ الْمُصْلِحِينَ ، وَكُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ زُهَاءً قُرُونٍ عَدِيدَةٍ ، وَذَائِمًا تَرَى الطَّبِيعَةَ تَتَنَصَّرُ . وَلَقَدْ تَرَى الْحَيَوَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ يَعِيشُ بِجَوَارِ الْفَيْهِ ، وَالطَّيْرَ كَيْفَ يِرْكُنُ إِلَى عُشِّ حَبِيبَتِهِ ، إِلَّا الْإِنْسَانَ . وَلَقَدْ تَقَنَّنَ الْمُشْرِعُونَ فِي أَسْمَاءِ : الْعَادَاتِ وَالْتِقَالِيدِ وَالْحَمِيَّةِ وَالشَّرَفِ وَالْعُرْضِ ، وَإِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَزُولُ أَمَامَ سُلْطَانِ الْمَادَّةِ فَمَا بِالْكَلْبِ سُلْطَانِ الرُّوحِ ؟

وَرَأَيْتُ لِهَذَا الشَّابَّ أَلَّا يُطِيعَ أَبَاهُ وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى مَا يُسْمُوهُ الْجَحِيمِ (كَذَا) إِذَا كَانَ بَعْدَ أَنْ يَعِيشَ الْحَيَاةَ الْوَاحِدَةَ الَّتِي يَخَيَّاهَا وَيَتَمَتَّعُ بِالْحُبِّ الْوَاحِدِ الْمُقَدَّرِ لَهُ ، مَا دَامَ قَلْبُهُ أَصْطَفَاهَا وَرُوحُهُ تَهَوَّاهَا ؛ وَلَوْ تَرَكَتَهُ بَعْدَ سِنِينَ قَلِيلَةٍ لِأَيِّ دَاعٍ مِنْ دَوَاعِ الْأَنْفِصَالِ . (كَذَا) .

وَهَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ رَأْيٍ مُجَرَّبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ رَأْيٌ أَكْبَرَ عَقْلٍ أَنْجَبَتْهُ الطَّبِيعَةُ حَتَّى الْآنَ ... ! وَسَيَتَنَصَّرُ عَلَى جَمِيعِ مَنْ يَقْفُونَ أَمَامَهُ ، وَالذَّلِيلُ أَنَّ هَذَا الْمَقَالَ سَيَسَارُ إِلَيْهِ فِي مَجَلَّةِ (الرَّسَالَةِ) ، وَهَذَا الرَّأْيُ سَيُعْمَلُ بِهِ ، وَصَاحِبُ هَذَا الرَّأْيِ سَيَخْلُدُ فِي الدُّنْيَا ، وَسَيَصْعُقُ الْأُسُوسُ وَالْقَوَائِنُ الَّتِي تَصْلُحُ لِبَنِي الْإِنْسَانِ مَعَ سُوءِ الرُّوحِ بَعْدَ أَنْ أَفْسَدَتْ أَخْلَاقَهُ عِبَادَةُ الْمَالِ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَخِيَا حَيَاةَ وَاحِدَةٍ فَلْيَجْعَلْهَا بِأَحْسَنِ مَا تَكُونُ ، وَلْيُمَتِّعْ رُوحَهُ بِمَا تُمَتِّعُ بِهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ سِوَاهُ . وَإِلَى الْمُلْتَقَى فِي مِيدَانِ الْجِهَادِ .

(الْمُصْلِحُ الْمُنتَظَرُ) أَنْتَهَى ..

وَهَذَا الْكِتَابُ يَحُلُّ (الْمُشْكِلَةَ) عَلَى طَرِيقَةِ « غَيْرِ مُوظَّفٍ » ... فَلْيَتَعَدَّ الْعَاشِقُ أَنَّهُ غَيْرُ مَتْرُوجٍ فَإِذَا هُوَ غَيْرُ مَتْرُوجٍ ، وَإِذَا هُوَ يَتَقَلَّبُ فِيمَا شَاءَ ؛ وَتَسْأَلُ الْكَاتِبُ ثُمَّ مَاذَا ؟ فَيَقُولُ لَكَ : ثُمَّ الْجَحِيمُ ...

وَأِنَّمَا أَوْزَدَنَا الْكِتَابَ بِطَوْلِهِ وَعَرْضِهِ لِأَنَّا قَرَأْنَاهُ عَلَى وَجْهَيْنِ ، فَقَدْ نَبَهْتُنَا عِبَارَةً « أَكْثَرُ عَقْلِ أَنْجَبْتَهُ الطَّبِيعَةُ حَتَّى الْآنَ » إِلَى أَنْ فِي الْكَلَامِ إِشَارَةٌ مِنْ قُوَّةِ خَفِيَّةٍ فِي الْغَيْبِ ، فَقَرَأْنَاهُ عَلَى وَخِي هَلِهِهِ الْإِشَارَةُ وَهَذِيهَا ، فَإِذَا تَرَجَمَتْ لُغَةُ الْغَيْبِ فِيهِ :

« وَيَحْكُ يَا صَاحِبَ الْمُسْكِلَةِ ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مَجْنُونًا أَوْ كَافِرًا بِاللَّهِ وَبِالْآخِرَةِ فَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ . كُنْ حَيَوَانًا تَنْتَصِرُ فِيهِ الطَّبِيعَةُ وَالسَّلَامُ ١ » .

\* \* \*

بِئْسَ إِخْدَى عَجَائِبِ الْمَقَادِيرِ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْقَلَمِ إِلَيَّ ؛ أَمَّا الْعَجِيبَةُ الثَّانِيَةُ فَإِنَّ آخِرَ كِتَابٍ تَلَقَّيْتُهُ كَانَ مِنْ صَاحِبَةِ الْمُسْكِلَةِ نَفْسِهَا ؛ وَهُوَ كِتَابٌ آتَى فِي الظَّرْفِ وَجَمَالِ التَّغْيِيرِ وَإِسْرَاقِ النَّفْسِ فِي أَسْرَارِهَا ، يَمُورُ مَوَازِ الصَّبَابِ الرَّقِيقِ مِنْ وَرَائِهِ الْأَشْعَةُ ، فَهُوَ يَخْجُبُ جَمَالًا لِيُظْهِرَ مِنْهُ جَمَالًا آخَرَ ؛ وَكَأَنَّهُ يُعْرِضُ بِذَلِكَ رَأْيًا لِلنَّظَرِ وَرَأْيًا لِلتَّصَوُّرِ ، وَيَأْتِي بِكَلَامٍ يُفْرَأُ بِالْعَيْنِ قِرَاءَةً وَبِالْفِكْرِ قِرَاءَةً غَيْرَهَا ؛ وَلَفْظُهَا سَهْلٌ سَهْلٌ ، قَرِيبٌ قَرِيبٌ ، حَتَّى كَانَ وَجْهَهَا هُوَ يُحَدِّثُكَ لَا لَفْظُهَا ؛ وَمَادَّةُ مَعَانِيهَا مِنْ قَلْبِهَا لَا مِنْ فِكْرِهَا ، وَهُوَ قَلْبٌ سَلِيمٌ مُقْفَلٌ عَلَى خَوَاطِرِهِ وَأَحْزَانِهِ ، مُسْتَرْسِلٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ أَسْتَرْسَلَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا كُتِبَ لَهُ ، فَمَا بِهِ غُرُورٌ وَلَا كِبَرِيَاءٌ وَلَا حِقْدٌ وَلَا غَضَبٌ ، وَلَا يَكْزُرُهُ مَا هُوَ فِيهِ .

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا أَنْ مِثْلَ هَذَا الْقَلْبِ لَا يُخْلَقُ بِفَضَائِلِهِ إِلَّا لِيُعَاقَبَ عَلَى فَضَائِلِهِ ؛ فَعِلْظَةُ النَّاسِ عِقَابٌ لِرِقَّتِهِ ، وَعَذْرُهُمْ نِكَايَةٌ لَوْفَانِهِ ، وَتَهَوُّرُهُمْ رَدٌّ عَلَى أَنَاتِهِ ، وَحُمُقُهُمْ تَكْدِيرٌ لِسُكُونِهِ ، وَكَذِبُهُمْ تَكْذِيبٌ لِلصِّدْقِ فِيهِ .

وَمَا أَرَى هَذَا الْقَلْبَ مَأْخُودًا بِحُبِّ ذَلِكَ الشَّابِّ وَلَا مُسْتَهَامًا بِهِ لِذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَعَلَّقُ صُورًا عَقْلِيَّةً جَمِيلَةً كَانَ مِنْ عَجَائِبِ الْأَتْفَاقِ أَنْ عَرَضَتْ لَهُ فِي هَذَا الشَّابِّ أَوَّلُ مَا عَرَضَتْ عَلَى مِقْدَارِ مَا ؛ وَسَيَكُونُ مِنْ عَجَائِبِ الْأَتْفَاقِ أَيْضًا أَنْ يَزُولَ هَذَا الْحُبُّ زَوَالِ الْوَاحِدِ إِذَا وَجَدَتْ الْعَشْرَةَ ، وَزَوَالِ الْعَشْرَةِ إِذَا وَجَدَتْ الْمِئَةَ ، وَزَوَالِ الْمِئَةِ إِذَا وَجَدَ الْأَلْفَ .

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَصَاحِبَةُ الْمُسْكِلَةِ فِي كِتَابِهَا كَأَنَّمَا تَكْتُبُ فِي نَفْدِ الْحُكُومَةِ عَلَى طَرِيقَةِ جَعْلِ التَّوْفِيعِ : « فَلَنْ غَيْرُ مُوظَّفٍ بِالْحُكُومَةِ » ... وَهِيَ فِيمَا كَتَبَتْ كَالنَّهْرِ الَّذِي يَتَحَدَّرُ

بَيْنَ شَاطِئَيْهِ مُدْعِيًا أَنَّهُ هَارِبٌ مِنَ الشَّاطِئَيْنِ مَعَ أَنَّهُ بَيْنَهُمَا يَجْرِي : تُحِبُّ صَاحِبَهَا وَتَلْقَاهُ ؛ ثُمَّ هِيَ عِنْدَ نَفْسِهَا غَيْرُ جَانِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى زَوْجَتِهِ ... فَلَيْتَ شِعْرِي عَنْهَا ، مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ الْجِنَانِيَّةُ بَعْدَ زَوَاجِ الرَّجُلِ غَيْرِ هَذَا الْحُبِّ وَهَذَا اللَّقَاءِ ؟

وَنَحْنُ مَعَا كَارِسْطَاطَالِيسَ مَعَ صَدِيقِهِ الطَّالِمِ حِينَ قَالَ لَهُ : هَبْنَا نَقْدِرُ عَلَى مُحَابَاتِكَ فِي أَلَّا نَقُولَ إِنَّكَ ظَالِمٌ ؛ هَلْ تَقْدِرُ أَنْتَ عَلَى أَلَّا تَعْلَمَ أَنَّكَ ظَالِمٌ ؟

وَرَأْيَاهَا فِي (الْمُسْكِلَةِ) أَنْ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ حَلَّهَا إِلَّا صَاحِبُهَا ، ثُمَّ هُوَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا بِطَرِيقَةٍ مِنْ طَرِيقَتَيْنِ : فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ ضَاحِيَةً أَبْيَهَا وَأَبْيَهُ - تَعْنِي زَوْجَتَهُ - ضَاحِيَةً هُوَ أَيْضًا ، وَيُسْتَهْدَفُ لِمَا يَنَالُهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا ، فَيَكُونُ الْبِلَاءُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَيُكَابِدُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مَا إِنَّ أَقْلَهُ لَيَذْهَبُ بِرَاحَتِهِ وَيَتَغَصُّ عَلَيْهِ الْحُبُّ وَالْعَيْشُ ، (قَالَتْ) : وَإِمَّا أَنْ يُضْحِي بِقَلْبِهِ وَعَقْلِهِ وَيَبِي ...

وَهَذَا كَلَامٌ كَأَنَّمَا تَقُولُ فِيهِ : إِنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ حَلَّ الْمُسْكِلَةِ إِلَّا صَاحِبُهَا ، [ وَأَنْ صَاحِبُهَا ] غَيْرُ مُسْتَطِيعٍ حَلَّهَا إِلَّا بِجِنَانِيَّةٍ يَذْهَبُ فِيهَا نَعِيمُهُ ، أَوْ بِجُنُونٍ يَذْهَبُ فِيهِ عَقْلُهُ . فَإِنْ حَلَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ أَحَدُ اثْنَيْنِ : إِمَّا أَحْمَقُ أَوْ مَجْنُونٌ مَا مِنْهُمَا بُدْ ...

وَلِسَانُ الْغَيْبِ نَاطِقٌ فِي كَلَامِهَا بِأَنَّ أَحْسَنَ حَلٍّ لِلْمُسْكِلَةِ هُوَ أَنْ تَبْقَى بِلا حَلٍّ ، فَإِنَّ بَغْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَغْضِ .

\* \* \*

وَالْعَجِيبَةُ الثَّلَاثَةُ أَنَّ « نَابِعَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ »<sup>(١)</sup> جَاءَ زَائِرًا بَعْدَ أَنْ قَرَأَ مَقَالَاتِ (الْمَجْنُونِ) ، فَرَأَى بَيْنَ يَدَيْ هَذِهِ الْكُتُبِ اللَّيْنِ تَلَقَّيْتُهَا وَأَنَا أَعْرِضُهَا وَأَنْظُرُ فِيهَا لِأَتَخَيَّرَ مِنْهَا ، فَسَأَلَ فَخَيَّرْتُهُ الْخَبَرَ ؛ فَقَالَ : إِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمُسْكِلَةِ مَجْنُونٌ ... لَوْ أَسْتَحْوَتْهُ فِي الْجُغُرْفَانِيَا وَقَالُوا لَهُ : مَا هِيَ أَشْهُرُ صِنَاعَةٍ فِي بَارِيسِ Paris ؟ لِأَجَابَهُمْ : أَشْهُرُ مَا تُعْرِفُ بِهِ بَارِيسُ Paris أَنَّهَا تَصْنَعُ (الْبُودْرَةَ) لَوَجْهِ حَبِيبَتِي ...

قُلْتُ : فَكَيْفَ يَرْتَدُّ هَذَا الْمَجْنُونُ عَاقِلًا ؟ وَمَا عِلَاجُهُ عِنْدَكَ ؟

(١) هُوَ لَقَبُ الْمَجْنُونِ ، فَانْظُرْ مَقَالَاتِهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي .

قَالَ : وَجَّهَ فِي طَلَبِ (١) لِيَجِيءَ ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ أَكْتُبْ : جَلَسَ « نَابِعَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » مَجْلِسَهُ لِلْإِقْتَاءِ فِي حَلِّ الْمُسْكِةِ فَأَتَتْ مُرْتَجِلًا :

« إِنَّ مَنْطِقَ الْأَشْيَاءِ وَعَقْلِيَّةَ الْأَشْيَاءِ صَرِيحَانِ فِي أَنَّ مُسْكِةَ الْحُبِّ الَّتِي يَغْسُرُ حَلُّهَا وَيَتَعَدَّرُ مَجَارُ الْعَقْلِ فِيهَا ، لَيْسَتْ هِيَ مُسْكِةَ هَذَا الْعَاشِقِ أَكْرَهُهُ عَلَى الزَّوْجِ بِأَمْرَةٍ يَحْمِلُهَا الْقَلْبُ أَوْ لَا يَحْمِلُهَا ، وَإِنَّمَا تِلْكَ هِيَ مُسْكِةُ أُمِّرَاطُورِ الْحَبْشَةِ يُرِيدُونَ إِزْغَامَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ إِنْطَالِيًا ، وَيَذْهَبُونَ يُرْفُونَهَا إِلَيْهِ بِالْذَّبَابَاتِ وَالرَّشَاشَاتِ وَالْعَارِزَاتِ السَّامَةِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رَأْسُ هَذَا الْعَاشِقِ الْمَجْنُونِ فَارِغًا مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ الْعَقْلِ ، إِذَا لَكَانَتْ مَجَارِي عَقْلِهِ مَطْرِدَةً فِي رَأْسِهِ ، فَانْخَلَتْ مُسْكِتُهُ بِأَسْنَابِ تَائِي مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا أَوْ ذَاتِ نَفْسِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّ فِي رَأْسِهِ عَقْلٌ بَطْنُهُ لَا عَقْلَ الرَّأْسِ ، كَذَلِكَ الشَّرُّ الْبَخِيلُ الَّذِي طَبَخَ قِدْرًا وَقَعَدَ هُوَ وَأَمْرَأَتُهُ بِأَخْلَافٍ ، فَقَالَ : مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الْقِدْرَ لَوْلَا الزَّحَامُ ... قَالَتْ أَمْرَأَتُهُ : أَيُّ زَحَامٍ هَلَهُنَا ؟ إِنَّمَا أَنَا وَأَنْتِ . قَالَ : كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا وَالْقِدْرُ فَقَطْ ...

فَعَقَلَ النَّهْمُ فِي رَأْسِ هَذَا كَعَقْلِ الشَّهْوَةِ فِي رَأْسِ ذَلِكَ : كِلَاهُمَا فَاسِدُ التَّقْدِيرِ لَا يَعْمَلُ أَعْمَالُ الْعُقُولِ السَّالِمَةِ ؛ وَيُرِيدُ أَحَدُهُمَا أَنْ تَبْطُلَ الزَّوْجَةُ مِنْ أَجْلِ رِطْلِ مِنَ اللَّحْمِ ، وَيُرِيدُ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي رِطْلِ مِنَ الْحُبِّ ...

وَإِذَا فَسَدَ الْعَقْلُ هَذَا الْفَسَادَ أَبْتَلَى صَاحِبَهُ بِالْمَسَاكِلِ الصَّبِيحَانِيَّةِ الْمُضْحِكَةِ : لَا تَكُونُ مِنْ شَيْءٍ كَبِيرٍ ، وَلَا يَكُونُ مِنْهَا شَيْءٌ كَبِيرٌ ؛ وَهِيَ عِنْدَ صَاحِبِهَا لَوْ وَزَنْتَ كَانَتْ قَنَاطِيرَ مِنَ التَّعْقِيدِ ؛ وَلَوْ كَيْلَتْ بَلَعْتَ أَرَادَتْ مِنَ الْخَيْرَةِ ؛ وَلَوْ قَيْسَتْ أَمْتَدَّتْ إِلَى فَرَاخٍ مِنَ الْعُمُوضِ .

هَاتَانِ الْمَرْأَتَانِ : ( الْحَبِيبَةُ وَالزَّوْجَةُ ) ، إِمَّا أَنْ تَكُونَا جَمِيعًا أَمْرَاتَيْنِ ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ فَلَا مُسْكِةَ ؛ وَإِمَّا أَلَّا تَكُونَا أَمْرَاتَيْنِ ، فَالْمَعْنَى كَذَلِكَ وَاحِدٌ فَلَا مُسْكِةَ ؛ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَا إِحْدَاهُمَا أَمْرَةً وَالْأُخْرَى قَزْدَةً أَوْ هَزْدَةً ، وَهَلَهُنَا الْمُسْكِةُ . ( حَاشِيَةٌ : الْهَزْدَةُ مِنْ أَوْضَاعِ نَابِعَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ فِي اللُّغَةِ ، وَمَعْنَاهَا الْأَنْثَى لَيْسَتْ مِنْ إِنَاثِ الْإِنْسَانِيِّ وَلَا الْهَيَائِمِ ... ) .

فَإِنْ زَعَمَ الْعَاشِقُ أَنَّ زَوْجَتَهُ قَزْدَةٌ فَهِيَ كَاذِبٌ ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهَا الْهَزْدَةُ فَهِيَ أَكْذَبُ ؛

وَالْمُسْكِةُ هُنَا مُسْكِةُ كُلِّ الْمَجَانِينِ ، فَقَبِي مَخْرُ مَوْضِعِ أَفْرَطَ عَلَيْهِ الشُّعُورُ فَأَفْسَدَهُ ، وَأَوْقَعَ بِفْسَادِهِ الْخَطَأَ فِي الرَّأْيِ ، وَابْتَلَاهُ مِنْ هَذَا الْخَطَأِ بِالْعَمَى عَنِ الْحَقِيقَةِ ، وَجَعَلَ زَوْجَتَهُ الْمُسْكِةَ هِيَ مَعْرِضَ هَذَا الْعَمَى وَهَذَا الْخَطَأِ وَهَذَا الْفَسَادِ ؛ وَلَا عَيْبَ فِيهَا ، لِأَنَّهَا مِنْ زَوْجِهَا كَالْحَقِيقَةِ الَّتِي يَتَحَبَّطُ فِيهَا الْمَجْنُونُ مُدَّةَ جُنُونِهِ ، فَتَكُونُ مَجْلَى هَذْيَانِهِ وَمَعْرِضَ حِمَاقَاتِهِ ، وَهِيَ الْحَقِيقَةُ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ الْمَجْنُونُ .

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مَسْأَلَةً حِسَابِيَّةً اسْتَمَرَّ الْمَجْنُونُ مُدَّةَ جُنُونِهِ يَقُولُ لِلنَّاسِ : خَمْسُونَ وَخَمْسُونَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَلَا يُصَدِّقُ أَبَدًا أَنَّهَا مِثَّةٌ كَامِلَةٌ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَسْأَلَةً عِلْمِيَّةً قَضَى الْمَجْنُونُ أَيَّامَهُ يُشْعِلُ التُّرَابَ لِيجْعَلَهُ بَارُودًا يَنْفَجِرُ وَيَتَفَرَّقُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي عَقْلِهِ أَبَدًا أَنَّ هَذَا تُرَابٌ مُنْطَفِئٌ بِالطَّبِيعَةِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَسْأَلَةً قَلْبِيَّةً اسْتَمَرَّ الْمَجْنُونُ يُزْعَمُ أَنَّ زَوْجَتَهُ قَزْدَةٌ أَوْ هَزْدَةٌ ، وَلَا يَشْعُرُ أَبَدًا أَنَّهَا أَمْرَةٌ .

فَإِنْ صَحَّ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَجْنُونٌ فَعِلَاجُهُ أَنْ يُرْبَطَ فِي الْمَارِسْتَانِ ، ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِزَوْجَتِهِ فَيَسْأَلُونَهُ : أَهَلِيزِ أَمْرَةً أَمْ قَزْدَةٌ أَمْ هَزْدَةٌ ؟ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ وَلَا يَزَالُ حَتَّى يَرَاهَا أَمْرَةً ، وَيَعْرِفُهَا أَمْرَتَهُ ، فَيَقَالُ لَهُ حَبِيبِي : إِنْ كُنْتُ رَجُلًا فَتَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِ الرِّجَالِ .

أَمَّا إِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاقِلًا مُمْتَرًا صَحِيحَ التَّفَكُّيرِ وَلَكِنَّهُ مَرِيضٌ مَرَضُ الْحُبِّ ، فَلَا يَرَى (الْثَّابِتَةَ) أَشْفَى لِذَاتِهِ وَلَا أَنْجَعَ فِيهِ مِنْ أَنْ يَسْتَطِبَّ بِهِذِهِ الْأَشْفِيَةِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى يَذْهَبَ سَقَامُهُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ بِهَا كُلِّهَا :

الدَّوَاءُ الْأَوَّلُ : أَنْ يَجْمَعَ فِكْرُهُ قَبْلَ نَوْمِهِ فَيَخْصُرَهُ فِي زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَقُولُ : زَوْجَتِي ، زَوْجَتِي . حَتَّى يَنَامَ . فَإِنْ لَمْ يَذْهَبْ مَا بِهِ فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ فَالدَّوَاءُ الثَّانِي .

الدَّوَاءُ الثَّانِي : أَنْ يَتَجَرَّعَ شَرْبَةً مِنْ زَيْتِ الْخَزْوَاعِ كُلِّ أُسْبُوعٍ ... وَيَتَوَهَّمُ كُلَّ مَرَّةٍ أَنَّهُ يَتَجَرَّعُهَا مِنْ يَدِ حَبِيبَتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ هَذَا فَالدَّوَاءُ الثَّالِثُ .

الدَّوَاءُ الثَّالِثُ : أَنْ يَذْهَبَ قَبِيئَتِ لَيْلَةٍ فِي الْمَقَابِرِ ، ثُمَّ يَنْظُرَ نَظْرَهُ فِي أَيِّ الْمَرَاتِينِ يُرِيدُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ بِهَا وَيَرْضَاهَا عَنْهُ وَيُشَوِّبَ فِيهَا ؛ وَأَيُّهُمَا هِيَ مَوْضِعُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنْ لَمْ يُبْصِرْ رُشْدَهُ بَعْدَ هَذَا فَالدَّوَاءُ الرَّابِعُ .

الدَّوَاءُ الرَّابِعُ : أَنْ يُخْرَجَ فِي (مُظَاهَرَةٍ) ... فَإِذَا فُقِئَتْ لَهُ عَيْنٌ أَوْ كُسِرَتْ لَهُ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ ، ثُمَّ لَمْ تَحُلْ حَبِيبَتُهُ الْمُشْكِلَةَ بِنَفْسِهَا ... فَالدَّوَاءُ الْخَامِسُ .

الدَّوَاءُ الْخَامِسُ : أَنْ يَصْنَعَ صَنِيعَ الْمُتَبَتَّلِي بِالْحَشِيشِ وَالْكُوكَابِينَ ، فَيَذْهَبَ فَيَسْلُمَ نَفْسَهُ إِلَى السَّجْنِ لِيَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ فَيَنْسَى هَذَا التَّرَفَ الْعَقْلِيَّ ، ثُمَّ لِيَعْرِفَ مِنْ أَعْمَالِ السَّجْنِ جِدَّ الْحَيَاةِ وَهَزْلَهَا ، فَإِنْ لَمْ يَنْزِعْ عَنْ جَهْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَالدَّوَاءُ السَّادِسُ .

الدَّوَاءُ السَّادِسُ : أَنَّهُ كُلَّمَا تَحَرَّكَ دُمُهُ وَشَاعَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الْحُبِّ ، لَا يَذْهَبَ إِلَى مَنْ يُحِبُّهَا ، وَلَا يَتَوَخَّى نَاحِيَتَهَا ، بَلْ يَذْهَبُ مِنْ فُورِهِ إِلَى حَجَامٍ يَخِجُمُهُ ... لِيَلْفِي عَنْهُ الدَّمَ بِإِخْرَاجِ الدَّمَ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَصْلُحُ بِهَا مَجَانِينُ الْعُشَاقِ ، وَلَوْ تَبَدَّلُوا بِهَا مِنْ الْاِتِّحَارِ لَعَاشُوا هُمْ وَاتَّخَرُوا الْحُبَّ .

قَالَ « نَابِغَةُ الْقَزْنِ الْعِشْرِينَ » : « فَإِنْ بَطَلَتْ هَذِهِ الْأَشْفِيَةُ السُّتَّةُ ، وَبَقِيَ الرَّجُلُ جَمُوحًا لَا يُرَدُّ عَنْ هَوَاهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّوَاءُ السَّابِعُ .

الدَّوَاءُ السَّابِعُ : أَنْ يُضْرَبَ صَاحِبُ الْمُشْكِلَةِ خَمْسِينَ قَنَاقَةً يُصَلِّكُ بِهَا<sup>(١)</sup> وَاقِعَةً مِنْهُ حَيْثُ تَقَعُ مِنْ رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ وَظَهْرِهِ وَأَطْرَافِهِ ، حَتَّى يَنْهَشِمَ عَظْمُهُ ، وَيَنْقُصَ صُلْبُهُ ، وَيَنْشَدِخَ رَأْسُهُ ، وَيَتَفَرَّى جِلْدُهُ ؛ ثُمَّ تُطْلَى جِرَاحُهُ وَكُسُورُهُ بِالْأُطْلِيَّةِ وَالْمَرَامِ ، وَتَوْضَعُ لَهُ الْأَضْمِدَةُ وَالْعَصَابُ ، وَيُتْرَكُ حَتَّى يَبْرَأَ عَلَى ذَلِكَ : أَعْرَجٌ مُتَخَلِّعًا مُبْعَثَرُ الْخَلْقِ مَكْسُورَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ شِفَاءهُ التَّامُّ مِنْ دَاءِ الْحُبِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . . . . . »

قُلْنَا : فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ وَلَمْ يَضْرِبْ عَنْهُ غَائِلَةَ الْحُبِّ ؟

قَالَ : فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ فَالدَّوَاءُ الثَّامِنُ .

الدَّوَاءُ الثَّامِنُ : أَنْ يُعَادَ عِلَاجُهُ بِالدَّوَاءِ السَّابِعِ . . . . .

مصطفى صادق الرافعي

### المُشْكِلَةُ ٣

أَمَّا الْبَقِيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْأَرَءِ الَّتِي تَلَقَّيْنَاهَا فَكُلُّ أَصْحَابِهَا مُتَوَافِقُونَ عَلَى مِثْلِ الرَّأْيِ الْوَاحِدِ ، مِنْ وَجُوبِ إِمْسَاكِ الرُّوْحَةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِرْسَالِ « تِلْكَ » وَالْانْصِرَافِ عَنْهَا ، وَأَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ فِي ذَلِكَ عَزْمٌ لَا يَتَقَلَّبُ وَمَضَاءٌ لَا يَنْتَنِي ، وَأَنْ يَصْبِرَ لِلشُّقْرِ حَتَّى يَسْتَأْنِسَ مِنْهَا فَإِنَّهَا سَتَحَوِّلُ ، وَيَجْعَلَ الْأَنَاءَ بِإِرَاءِ الضَّجَرِ فَإِنَّهَا تُصْلِحُهُ ، وَالْمُرُوءَةَ بِإِرَاءِ الْكُزْهِ فَإِنَّهَا تَحْمِلُهُ ، وَلِيُتْرِكَ الْأَيَّامُ تَعْمَلَ عَمَلَهَا فَإِنَّهُ الْآنَ يَغْتَرِضُ هَذَا الْعَمَلَ وَيُعْطِلُهُ ، وَإِنَّ الْأَيَّامَ إِذَا عَمِلَتْ فَسَتَعْيِّرُ وَتَبْدُلُ ؛ وَلَا يُسْتَقَلُّ الْقَلِيلُ تَكُونُ الْأَيَّامُ مَعَهُ ، وَلَا يُسْتَكْتَرُ الْكَثِيرُ تَكُونُ الْأَيَّامُ عَلَيْهِ .

وَالْعَدِيدُ الْأَكْبَرُ مِمَّنْ كَتَبُوا إِلَيَّ ، يَحْفَظُونَ عَلَى صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ ذَلِكَ اللَّبْيَانَ الَّذِي وَضَعْنَاهُ عَلَى لِسَانِهِ فِي الْمَقَالِ الْأَوَّلِ ، وَيَحَاسِبُونَهُ بِهِ ، وَيَقِينُونَ مِنْهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ اعْتَرَفْتَ ، وَأَنْتَ أَنْكَرْتَ ، وَأَنْتَ رَدَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْتَ نَصَبْتَ الْمِيزَانَ فَكَيْفَ لَا تَقْبَلُ الْوِزْنَ بِهِ ؟ وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْمَقَالَ مِنْ كَلَامِنَا نَحْنُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ أُسْلُوبُ مِنَ الْقَوْلِ أَرْدَنَاهُ وَنَحْلَنَاهُ ذَلِكَ الشَّابَّ ، لِيَكُونَ فِيهِ أَلَاغِيَا وَجَوَابُهُ ، وَالْخَطَأُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ ؛ وَلِنُظْهِرَ بِهِ الرَّجُلَ كَأَلْبَلَةٍ فِي حَيْرَتِهِ وَمُشْكِلَتِهِ ، تَنْفِيرًا لِغَيْرِهِ عَنْ مِثْلِ مَوْفِقِهِ ، ثُمَّ لِنُحَرِّكَ بِهِ الْعِلَلَ الْبَاطِنَةَ فِي نَفْسِهِ هُوَ ، فَتَضَرِّفُهُ عَنِ الْهَوَى شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الرَّأْيِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى إِذَا قَرَأَ قِصَّةَ نَفْسِهِ قَرَأَهَا بِتَغْيِيرٍ مِنْ قَلْبِهِ وَتَغْيِيرٍ آخَرَ مِنَ الْعَقْلِ ، وَتَلَمَّحَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَيَمَّا ظَهَرَ لَهُ ، وَاهْتَدَى مِنَ التَّغْيِيدِ إِلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ ، وَعَرَفَ كَيْفَ يُخَلِّصُ بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْحُبِّ الَّذَيْنِ اخْتَلَطَا عَلَيْهِ وَامْتَزَجَا لَهُ أَمْتِزَاجُ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ . وَبِذَلِكَ الْأُسْلُوبِ جَاءَتْ الْمُشْكِلَةُ مُعَقَّدَةً مُنَحَلَّةً فِي لِسَانِ صَاحِبِهَا ، وَبَقِيَ أَنْ يُذْفَعَ صَاحِبُهَا بِكَلَامٍ آخَرَ إِلَى مَوْضِعِ الرَّأْيِ .

وَكَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ لَمْ يَزِيدُوا عَلَى أَنْ نَبِّهُوا الرَّجُلَ إِلَى حَقِّ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ

(١) الْقَنَاقَةُ : هِيَ الْعَصَا الْخَلِيطَةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا « الشُّومَةُ » . وَالصَّلْبُ خَاصٌّ فِي ضَرْبِ الرُّأْسِ ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ عِظَامُ صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ مَقْصُودَةً فِي هَذَا الْعِلَاجِ ... فَقَدْ جَازَ اسْتِعْمَالُ الصَّلْبِ فِي الْجِسْمِ كُلِّهِ كَمَا رَأَيْتُ .

يَرْزُقُهُ عَقْلًا ... وَقَدْ أَصَابَ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ التَّوْفِيقِ فِيمَا أَلْهَمُوا مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، فَإِنَّمَا جَاءَتِ الْمُسْكِلَةُ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ فَقَدَ التَّمْيِيزَ وَجُرَّ بِجُنُونَيْنِ : أَحَدُهُمَا فِي الدَّخْلِ مِنْ عَقْلِهِ ، وَالثَّانِي فِي الْخَارِجِ مِنْهُ ؛ فَأَصْبَحَ لَا يُبَالِي الْإِنَّمِ وَالْبَغْضَ عِنْدَ زَوْجَتِهِ إِذَا هُوَ أَصَابَ الْحِطْوَةَ وَالشَّرُورَ عِنْدَ الْآخَرَى ؛ فَتَعَدَّى طَوْرَهُ مَعَ الْمَرَاتِنِ جَمِيعًا ، وَظَلَمَ الزَّوْجَةَ بِأَنِ اسْتَلَبَ حَقَّهَا فِيهِ ، وَظَلَمَ الْآخَرَى بِأَنِ زَادَهَا ذَلِكَ الْحَقَّ فَجَعَلَهَا كَالسَّارِقَةِ وَالْمُعْتَدِيَةِ .

وَقَدْ تَمَيَّ أَحَدُ الْقُرَّاءِ مِنْ فِلَسْطِينٍ <sup>(١)</sup> أَنَّ يَرْزُقَهُ اللَّهُ مِثْلَ هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمَكْرُوهَةِ كَرَاهَةً حُبٍّ ، وَيَضَعُهُ مُوضِعَ صَاحِبِ الْمُسْكِلَةِ ، لِثَبُتِ أَنَّهُ رَجُلٌ يَخُكِّمُ الْكُزَةَ وَيُصَرِّفُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَلَا يَرْضَى أَنْ يَخُكِّمَهُ الْحُبُّ وَإِنْ كَانَ هُوَ الْحُبُّ .

وَهَذَا رَأْيُ حَصِيفٍ جَيِّدٍ ، فَإِنَّ الْعَاشِقَ الَّذِي يَتَلَعَّبُ الْحُبَّ بِهِ وَيَصُدُّهُ عَنْ زَوْجَتِهِ ، لَا يَكُونُ رَجُلًا صَاحِبَ الرَّجُولَةِ ، بَلْ هُوَ أَسْخَفُ الْأَمْثَلَةِ فِي الْأَزْوَاجِ ، بَلْ هُوَ مُجْرِمٌ أَخْلَاقِي يَنْصَبُ لِزَوْجَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ مِثَالَ الْعَاوِرِ الْفَاسِقِ ، لِيَذْفَعَهَا إِلَى الدَّعَارَةِ وَالْفِسْقِ مِنْ حَيْثُ يَذَرِي أَوْ لَا يَذَرِي ؛ بَلْ هُوَ غَيِّبٌ ، إِذْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ انْفِرَادَ زَوْجَتِهِ وَتَرَاجُعَهَا إِلَى نَفْسِهَا الْحَزِينَةِ يُنْشِئُ فِي نَفْسِهَا الْحَزِينَاتِ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ ؛ بَلْ هُوَ مُعَقَّلٌ ، إِذْ لَا يُدْرِكُ أَنَّ شَرِيعَةَ السَّنِّ بِالسَّنِّ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ ، هِيَ بِنَفْسِهَا عِنْدَ الْمَرْأَةِ شَرِيعَةُ الرَّجُلِ بِالرَّجُلِ ...

وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَجِدُ مِنْ زَوْجِهَا الْكَرَاهِيَةَ لَا تَعْرِفُهَا أَنَّهَا الْكَرَاهَةُ إِلَّا أَوَّلَ أَوَّلٍ ؛ ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا الْكَرَاهَةُ هِيَ اخْتِفَارُهَا وَإِهَانَتُهَا فِي أَحْصَى خَصَائِصِهَا النِّسْوِيَّةِ ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ إِثَارَةُ كِبَرِيَّاتِهَا وَتَحَدُّيَّاتِهَا ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ دَفْعُ غَرِيزَتِهَا أَنْ تَعْمَلَ عَلَى إِيثَابِ أَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِالْحُبِّ ، وَأَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى الثَّقَمَةِ وَالْمُجَازَاةِ ؛ ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا بُرْهَانٌ كُلُّ ذَلِكَ لَا يَجِيءُ مِنْ عَقْلِ وَلَا مِنْطِقٍ وَلَا فَصِيلَةٍ ، وَإِنَّمَا بَأْنِي مِنْ رَجُلٍ ... رَجُلٌ يُحَقِّقُ لَهَا هِيَ أَنَّ زَوْجَهَا مُعَقَّلٌ وَأَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِالْحُبِّ .

\* \* \*

(١) هَذِهِ الْأَرْاءُ الَّتِي سَنَقُلُهَا قَدْ تَصَرَّفْنَا فِي جَمِيعِهَا بِالْعِبَارَةِ ، وَلَكِنَّا لَمْ نَخْرُجْ عَمَّا يَرْمِي إِلَيْهِ صَاحِبُ الرَّأْيِ وَمَا أَقَامَ رَأْيَهُ عَلَيْهِ .

وَكَانَ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْأَدِيبَةُ (ف . ز) وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تَبْشُطْهُ ، فَقَدْ قَالَتْ : إِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمُسْكِلَةِ غَيِّبٌ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا رَجُلًا مَرِيضَ النَّفْسِ مَرِيضَ الْخُلُقِ ، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ الرَّجُلِ ... وَمِثْلُ هَذَا هُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْكِلَةٌ فَكَيْفَ تُحَلُّ مُسْكِلَتُهُ ؟ إِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ زَوْجَتِهِ مُعَقَّلٌ ، لَا وَصَفَ لَهُ عِنْدَهَا إِلَّا هَذَا ؛ وَمِنْ جِهَةِ حَبِيبَتِهِ خَائِنٌ ، وَالْخِيَانَةُ أَوَّلُ أَوْصَافِهِ عِنْدَهَا .

وَهَذَا الزَّوْجُ يُسَمُّ الْآنَ أَخْلَاقَ زَوْجَتِهِ وَيُفْسِدُ طِبَاعَهَا ، وَيُنْشِئُ لَهَا قِصَّةً فِي أَوَّلِهَا غَيَابَتَهُ وَإِثْمَهُ ، وَسَيَرُكُهَا تَتِمُّ الرُّوَايَةَ فَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ مَا يَكُونُ آخِرُهَا . وَبِمِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ أَصْبَحَ الْمُتَعَلِّمَاتُ يَعْتَقِدْنَ أَنَّ أَكْثَرَ الشُّبَّانِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا جَمِيعًا ، هُمْ كَاذِبُونَ فِي ادِّعَاءِ الْحُبِّ ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا الْغَوَايَةُ ؛ أَوْ هُمْ مُحِبُّونَ الْكُذِبِ الْأَمْلُ بِهِمْ عَلَى النِّسَاءِ ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا الْخَبِيثَةُ .

قَالَتْ : وَخَيْرٌ مَا تَفْعَلُهُ صَاحِبَةُ الْمُسْكِلَةِ أَنْ تَصْنَعَ مَا صَنَعَتْهُ آخَرَى ، لَهَا مِثْلُ قِصَّتِهَا : فَهَلْذِهِ حِينَ عَلِمَتْ بِزَوَاجِ صَاحِبِهَا قَدَفَتْ بِهِ مِنْ طَرِيقِ آمَالِهَا إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ ، وَأَنْزَلَتْهُ مِنْ دَرَجَةِ أَنَّهُ كُلُّ النَّاسِ إِلَى مِثْلِهِ أَنَّهُ كُلُّ النَّاسِ ، وَتَهَيَّأَتْ حَزْمًا وَعَزِيمَتًا وَكِبَرِيَاءَةً ، فَرَأَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى نَفْسِهَا مِنْ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِشِقَاءٍ أَوْ حَسْرَةٍ أَوْ هَمٍّ ، وَابْتَعَدَتْ بِفَضَائِلِهَا عَنْ طَرِيقِ الْحُبِّ الَّذِي تَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا لِزَوْجَةٍ وَزَوْجِهَا ، فَإِذَا مَشَتْ فِيهِ امْرَأَةً إِلَى غَيْرِ زَوَاجٍ ، انْحَرَفَ بِهَا مِنْ هُنَا ، وَأَعْوَجَ لَهَا مِنْ هُنَا ، فَلَمْ يَنْتَهَ بِهَا فِي الْغَايَةِ إِلَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى نَفْسِهَا وَعَلَيْهَا غُبَارُهُ ، وَمَا غُبَارُ هَذَا الطَّرِيقِ إِلَّا سَوَادٌ وَجْهِ الْمَرْأَةِ ...

وَقَدْ جَهَدَ الرَّجُلُ بِصَاحِبَتِهِ أَنْ تَتَّخِذَهُ صَدِيقًا ، فَأَبَتْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ بُرْهَانَ خَبِيرَتِهَا ... وَأَظْهَرَتْ لَهُ جَفْوَةً فِيهَا اخْتِفَارٌ ، وَأَعْلَمَتْهُ أَنَّ نَكْتِ الْعَهْدِ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ عَهْدٌ ، وَأَنَّ الصَّدَاقَةَ إِذَا بَدَأَتْ مِنْ آخِرِ الْحُبِّ تَغَيَّرَ اسْمُهَا وَرَوْحُهَا وَمَعْنَاهَا ، فَإِذَا أَنْ تَكُونَ حَبِيبًا أَسْقَطَ مَا فِي الْحُبِّ ، أَوْ أَكْذَبَ مَا فِي الصَّدَاقَةِ .

ثُمَّ قَالَتِ الْأَدِيبَةُ : وَهِيَ كَانَتْ تُحِبُّهُ ، بَلْ كَانَتْ مُسْتَهَامَةً بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ أَيْضًا طَاهِرَةً الْقَلْبِ ، لَا تَرِيدُ فِي الْحَبِيبِ رَجُلًا هُوَ رَجُلُ الْحِيلَةِ عَلَيْهَا فَتُخَدَعُ بِهِ ، وَلَا رَجُلُ الْغَارِ فَتُسَبِّ بِهِ ؛ وَفِي طَاهَرَةِ الْمَرْأَةِ جَزَاءُ نَفْسِهَا مِنْ قُوَّةِ الثَّقَةِ وَالْأَطْمِئْنَانِ وَحُسْنِ التَّمَكُّنِ ؛



وَهَذَا الْقَلْبُ الطَّاهِرُ إِذَا فَقَدَ الْحُبَّ لَمْ يَفْقِدِ الطَّمَأْنِينَةَ ، كَالتَّاجِرِ الْحَادِقِ إِنْ خَسِرَ الرِّيحَ لَمْ يَفْلِسْ ، لِأَنَّ مَهَارَتَهُ مِنْ بَعْضِ خَصَائِصِهَا الْقُدْرَةُ عَلَى الْاِحْتِمَالِ ، وَالصَّبْرُ لِلْمُجَاهَدَةِ .

قَالَتْ : فَعَلَى صَاحِبَةِ الْمَشْكَلَةِ الَّتِي عَرَفَتْ كَيْفَ تُحِبُّ وَتُجَلُّ ، أَنْ تَعْرِفَ الْآنَ كَيْفَ تَخْتَفِرُ وَتَزْدَرِي .

\* \* \*

وَلِلْأَدِينَةِ (ف . ع) رَأْيِي جَزَلٌ مُسَدَّدٌ ؛ قَالَتْ : إِنَّهَا هِيَ قَدْ كَانَتْ يَوْمًا بِالْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ صَاحِبَةُ الْمَشْكَلَةِ ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ أَنْفَتَ أَنْ تَكُونَ لِصَّةَ قُلُوبٍ ، وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : إِذَا لَمْ يُقَدَّرْ لِي ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَرَادَ ، وَإِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَحَارِبَهُ فِي هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمُسْكِنَةِ ! وَلَكِنْ كُنْتُ قَادِرَةً عَلَى الْفَوْزِ ، إِنْ أَنْتَصَارِي عَلَيْهَا عِنْدَ حَبِيبِي هُوَ أَنْتَصَارُهَا عَلَيَّ عِنْدَ رَبِّي ، فَلَا خَسَرَ هَذَا الْحُبَّ لِأَرَايَ أَنَّ اللَّهَ بِرَأْسِ مَالٍ عَزِيزٍ خَسِرْتُهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَأَبْقَى عَلَى أَخْلَاقِ الرَّجُلِ لِيَتَقَى رَجُلًا لِأَمْرَاتِهِ ، فَمَا يَسُرُّنِي أَنْ أَنَالَ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأُهْدِمَ بَيْنًا عَلَى قَلْبٍ ، وَلَا مَعْنَى لِحُبِّ سَيَكُونُ فِيهِ اللَّؤْمُ بَلْ سَيَكُونُ الْأَمُّ اللَّؤْمُ .

قَالَتْ : وَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَنِي أَنَا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاءَ فِي هَذَا الْوَضْعِ لِيَرَى كَيْفَ أَصْنَعُ ، وَأَيُّنْتُ أَنْ لَيْسَ بَيْنَ هَذَيْنِ الصَّدِّيقَيْنِ إِلَّا حِكْمَتِي أَوْ حُمْقِي ، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ حُسْنَ الْمُدَاخَلَةِ فِي هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ هُوَ الْحُلُّ الْحَقِيقِيُّ لِلْمَشْكَلَةِ .

قَالَتْ : فَتَغَيَّرْتُ لِصَاحِبِي تَغْيِيرًا صِنَاعِيًّا ، وَكَانَتْ بَيْنِي لَهُ هِيَ أَكْبَرُ أَعْوَانِي عَلَيْهِ ، فَمَا لَبِثَ هَذَا الْإِنْقِلَابُ أَنْ صَارَ طَبِيعِيًّا بَعْدَ قَلِيلٍ ؛ وَكُنْتُ أَسْتَمِدُّ مِنْ قَلْبِ أَمْرَاتِهِ إِذَا اخْتَانَنِي الصَّغْفُ أَوْ نَالَني الْجَزَعُ ، فَاشْعُرُ أَنَّ لِي قُوَّةَ قَلْبَيْنِ . وَزِدْتُ عَلَى ذَلِكَ التُّصَحُّ لِصَاحِبِي نَصْحًا مُبَسَّرًا قَائِمًا عَلَى الْإِفْتِقَارِ وَإِثَارَةِ الْخُوفِ فِيهِ وَتَبَصُّيرِهِ بِوَاجِبَاتِ الرَّجُلِ ، وَتَرْفُقْتُ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى صَمِيمِهِ لِأُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ عِزَّةَ الْوَفَاءِ لَا تَكُونُ بِالْخِيَانَةِ ، وَيَبَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ مِنْ أَجْلِي فَمَا يَصْنَعُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْبُرْهَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِي زَوْجًا ؛ ثُمَّ دَلَّكَتُهُ بِرِفْقٍ عَلَى أَنْ خَيَّرَ مَا يَصْنَعُ وَخَيَّرَ مَا هُوَ صَانِعٌ لِإِرضَائِي أَنْ يُقَلِّدَنِي فِي الْإِثْنَارِ وَكَرَمِ النَّفْسِ ، وَخَتَدَيْنِي فِي الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَأَنْ يَتَقَدَّ أَنْ دُمُوعَ الْمَظْلُومِينَ هِيَ فِي أَغْيَنِهِمْ دُمُوعٌ ، وَلَكِنَّهَا فِي يَدِ اللَّهِ صَوَاعِقُ يُضْرَبُ بِهَا الطَّالِمُ .

قَالَتْ : وَبِهَذَا وَبَعْدَ هَذَا انْقَلَبَ حُبِّي لِي إِكْبَارًا وَإِعْظَامًا ، وَسَمَا فَوْقَ أَنْ يَكُونَ حُبًّا كَالْحُبِّ ؛ وَصَارَ يَجِدُنِي فِي ذَاتِ نَفْسِهِ وَفِي صَمِيمِهِ كَالْتَّوْبِيخِ لَهُ كُلَّمَا أَرَادَ بِأَمْرَاتِهِ سُوءًا أَوْ حَاوَلَ أَنْ يَغْضُ مِنْهَا فِي نَفْسِهِ . وَاعْتَادَ أَنْ يُكْرِمَهَا فَأَكْرَمَهَا ، وَصَلَحْتُ لَهُ نَيْسُهُ فَأَتَّصَلَ بَيْنَهُمَا السَّبَبُ ، وَكَثُرَتْ هَذِهِ اللَّيَّةُ الطَّيِّبَةُ فَصَارَتْ وَدًّا ، وَكَبُرَ هَذَا الْوَدُّ فَعَادَ حُبًّا ، وَقَامَتْ حَيَاتُهُمَا عَلَى الْأَسَاسِ الَّذِي وَضَعْتُهُ أَنَا بِيَدِي ، أَنَا بِيَدِي . . .

أَمَّا أَنَا . . . ؟

\* \* \*

وَكَتَبَ فَاضِلٌ مِنْ حُلُوفَانِ : إِنَّ لَهُ صَدِيقًا ابْتُلِيَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ فَوَكَّبَ رَأْسَهُ فَمَا رَدَّهُ شَيْءٌ عَنِ الزَّوْاجِ بِحَبِيبَتِهِ ، وَزُفَّ إِلَيْهَا كَأَنَّهُ مَلِكٌ يَدْخُلُ إِلَى قَصْرِ خِيَالِهِ ؛ وَكَانَ أَهْلُهُ يَغْدُلُونَهُ وَيُلُومُونَهُ وَيُخْلِصُونَهُ لَهُ التُّصَحُّ وَيَجْتَهِدُونَ فِي أَمْرِهِ جُهْدَهُمْ ، إِذْ يَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا لَا يَرَى بِعَيْنِهِ ، فَكَانَ التُّصَحُّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَيُطْعَمُ غِشًّا وَتَلَيُّيسًا ، وَكَانَ اللَّؤْمُ يَنْلُغُهُ فَيَرَاهُ ظُلْمًا وَتَحَامُلًا ، وَكَانَ قَلْبُهُ يَرْجُمُ لَهُ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي حَبِيبَتِهِ بِمَعْنَى مِنْهَا هِيَ لَا مِنَ الْحَقَائِقِ ، إِذْ غَلَبَتْ عَلَى عَقْلِهِ فِيهَا يَغْفُلُ ، وَذَهَبَتْ بِقَلْبِهِ فِيهَا يُحِسُّ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِإِرَادَتِهِ فَلَهَا يَنْفَادُ ؛ وَعَادَتْ خَوَاطِرُهُ وَأَفْكَارُهُ تَدُورُ عَلَيْهَا كَالْحَوَاشِي عَلَى الْعِبَارَةِ الْمُغْلَقَةِ فِي كِتَابٍ ؛ وَاسْتَفَرَّتْ لَهُ فِيهَا قُوَّةُ مِنَ الْحُبِّ ، أَمْرًا إِذَا أَرَادَتْ شَيْئًا أَنْ تَقُولَ لَهُ كُنْ . . .

ثُمَّ مَضَتْ اللَّيْلَةُ بَعْدَ اللَّيْلَةِ ، وَجَاءَ الْيَوْمُ بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَالْمَوْجُ يَأْخُذُ مِنَ السَّاحِلِ الدَّرَّةَ بَعْدَ الدَّرَّةِ وَالسَّاحِلَ لَا يَشْعُرُ ، إِلَى أَنْ تَصَرَّمَتْ أَشْهُرٌ قَلِيلَةٌ ، فَلَمْ تَلْبَثِ الطَّبِيعَةُ الَّتِي أَلْقَتْ الرُّوَايَةَ وَجَعَلَتْهَا قَبْلَ الزَّوْاجِ رَوَايَةَ الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ ، وَقِصَّةَ النَّاجِ وَالْعَرْشِ ، وَحَدِيثَ الدُّنْيَا وَمُلْكِ الدُّنْيَا - لَمْ تَلْبَثْ أَنْ انْتَقَلَتْ عَلَيَّ فَجَاءَ فَأَدَارَتْ الرُّوَايَةَ إِلَى فَصْلِ السُّخْرِيَةِ وَمَنْظَرِ الْهَكِّمْ ، وَكَشَفَتْ عَنْ غَرْصِهَا الْحَقِيقِيِّ وَحَلَّتِ الْعُقْدَةَ { الرُّوَايَةِ } .

قَالَ : فَفَرَعَ قَلْبُ الْمَرْأَةِ مِنَ الْحُبِّ ، وَظَمِيَ إِلَى السُّخْرِ وَالنَّشْوَةِ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الرَّجَاجَةِ الْفَارِغَةِ . . . وَبَرَدَ قَلْبُ الرَّجُلِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَسْعَرُ فِيهِ نَارًا شَيْطَانًا خَبِيثًا ، فَتَحَوَّلَ إِلَى لَوْحٍ مِنَ التَّلَجِّ لَهُ طُولٌ وَعَرْضٌ . . .

وَجَدَّتِ الْحَيَاةَ وَهَزَلَ الشَّيْطَانُ ، فَاسْتَحَقَّ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ اخْتَارَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ لَهُ

زَوْجَةً ، وَاسْتَجْهَلْتَ الْمَرْأَةَ عَقْلَهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ رَضِيتَ هَذَا الرَّجُلَ زَوْجًا ، وَأَنْكَرَهَا إِنْكَارًا  
أَوَّلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَأَنْكَرْتَهُ إِنْكَارًا آخَرَ أَوَّلُهُ النَّبِيُّ ؛ وَعَادَ كِلَاهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ كَأَنَّهُمَا يَكْلِفُ  
إِنْسَانًا أَنْ يَخْلُقَ لَهُ الْأَمْسَ الَّذِي مَضَى !

وَضَرَبْتَ الْحَيَاةَ ضَرْبَةً أَوْ ضَرَبْتَنِي فَإِذَا أَبْنِيَةُ الْخَيَالِ كُلُّهَا هَذِمَ هَذِمَ ، وَإِذَا الطَّبِيعَةُ مُؤَلَّفَةٌ  
الرَّوَايَةِ ... قَدْ خَتَمْتَ رَوَايَتَهَا وَقَوَّضْتَ الْمَسْرَحَ ، وَإِذَا الْأَخْلَامُ مُفَسَّرَةٌ بِالْعَكْسِ : فَالْحُبُّ  
تَأْوِيلُهُ الْبُغْضُ ، وَاللَّذَّةُ تَفْسِيرُهَا الْأَلَمُ ، وَ« الْبُودَرَةُ » مَعْنَاهَا الْحَبِيرُ ... وَتَغْيِيرُ كُلِّ  
مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا الشَّيْطَانُ الَّذِي بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ الَّذِي زَوَّجَ وَهُوَ بَعِينُهُ الَّذِي طَلَّقَ . . . .

\* \* \*

وَكَتَبَ أَدِيبٌ مِنْ بَغْدَادَ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْقَلْبِي مَوْضِعَ صَاحِبِ  
الْمُسْكِلَةِ ، وَإِنَّ ذَاتَ قُرْبَاهُ الَّتِي سُمِّيَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ مُلَفَّقَةً لَهُ فِي حُبِّ عِدَّةٍ لَا فِي حِجَابِ  
وَاحِدٍ ، وَقَدْ وَصِفَتْ لَهُ بِاللُّغَةِ ... وَفِي اللُّغَةِ : مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ وَمَا أَظْرَفَ ، وَكَأَنَّهَا  
ظَلَمِي يَتَلَقَّ ، وَكَأَنَّهَا غَضَنُ يَمِيلُ ، وَكَأَنَّ سَنَةَ وَجْهَهَا الْبَدْرُ !

قَالَ : وَشَبَّهَتْ لَهُ بِكُلِّ أَدْوَابِ التَّشْبِيهِ ، وَجَاوَوْا فِي أَوْصَافِهَا بِمَذَاهِبِ الْأَسْتِعَارَةِ  
وَالْمَجَازِ ، فَأَخَذَهَا قَصِيدَةً قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهَا أَمْرًا ؛ وَكَانَ لَمْ يَرِ مِنْهَا شَيْئًا ، وَكَانَتْ لُغَةً دَوْنِي  
قَرَابَتِهِ وَقَرَابَتِهَا كَلُغَةِ التَّجَارَةِ فِي أَلْسِنَةِ خُذَاقِ السَّمَاوَةِ : مَا بِهِمْ إِلَّا تَنْفِيْقُ السَّلْعَةِ ثُمَّ يُخْلَوْنَ  
بَيْنَ الْمُشْتَرِي وَحَظَلِهِ .

قَالَ : فَسَخَّ كَلَامُهُمْ فِي قَلْبِي ، فَعَقَدْتُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَعْرَسْتُ بِهَا ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هِيَ  
لَيْسَتْ فِي الْكَلِمَةِ الْأُولَى وَلَا الْأَخِيرَةِ مِمَّا قَالُوا وَلَا فِيمَا بَيْنَهُمَا ... ثُمَّ تَعَرَّفْتُ فَإِذَا هِيَ  
تَكْبُرُنِي بِخَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ ... وَرَأَيْتُ اتِّصَاعَ خَالِهَا عِنْدِي فَأَشْفَقْتُ عَلَيْهَا ، وَبِثَّ اللَّيْلَةَ  
الْأُولَى مُقْبِلًا عَلَى نَفْسِي أَوْامِرَهَا وَأَنَاجِيَهَا ، وَأَنْظُرُ فِي آيٍ مَوْضِعِ رَأْيٍ (١) أَنَا ؛ وَتَأَمَّلْتُ  
الْقِصَّةَ ، فَإِذَا أَمْرًا بَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِي ، فَقُلْتُ : إِنْ أَنَا نَزَعْتُ رَحْمَتِي عَنْهَا لَيُوشِكَنَّ  
اللَّهُ أَنْ يَنْزِعَ رَحْمَتَهُ عَنِّي ، وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَعْمَالِي ؛ وَقُلْتُ : يَا نَفْسِي ، ﴿ إِنَّمَا إِنْ تَكُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « رَأْيِي » بَدَلًا مِنْ : « رَأْيِي » .

وَشَقَالَ حَبْرٌ مِنْ خَدَلِي فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ ﴿ ٣١٦ سورة  
لقمان/ الآية : ١٦ ﴾ . وَإِنَّمَا أَنْقَضْتُ إِلَى عَفْوِ اللَّهِ بِأَنَامٍ وَذُنُوبٍ وَغَلَطَاتٍ ، فَلَا جَعَلَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ  
حَسَنَتِي عِنْدَهُ ، وَمَا عَلَيَّ مِنْ غَمَرٍ سَيَمُضِي ، وَتَبَقَى مِنْهُ هَذِهِ الْحَسَنَةُ خَالِدَةً مُخَلَّدَةً .

إِنَّمَا كَانَتْ حَاجَةُ النَّفْسِ إِلَى الْمَتَاعِ فَانْقَلَبَتْ حَاجَةً إِلَى الْقَوَابِ ، وَكَانَتْ شَهْوَةً فَارْجَعَتْ  
حِكْمَةً ، وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَبْلُغَ مَا أَحْبَبْتُ فَسَأَلْتُ مَا يَجِبُ . ثُمَّ قُلْتُ : االلَّهُمَّ إِنَّ هَذِهِ أَمْرًا  
تَنْتَظِرُهَا أَلْسِنَةُ النَّاسِ إِمَّا بِالْخَيْرِ إِذَا أَمْسَكْتُهَا ، وَإِمَّا بِالْشَّرِّ إِذَا طَلَقْتُهَا ، وَقَدْ أَحْتَمْتُ بَيْنَ ؛  
اللَّهُمَّ سَاخِفْهَا كُلَّ هَذَا لَوْجِهَا الْكَرِيمِ !

قَالَ : وَرَأَيْتَنِي أَكُونُ الْأَمَّ النَّاسِ لَوْ أَنِّي كَشَفْتُهَا لِلنَّاسِ وَقُلْتُ انظُرُوا ... فَكَأَنَّمَا كُنْتُ  
أَسَأْتُ إِلَيْهَا فَأَقْبَلْتُ أَنْتَرَضَاهَا ، وَجَعَلْتُ أَمَاسِخَهَا وَأَلَايِنَهَا فِي الْقَوْلِ ، وَعَدَلْتُ عَنْ حَظِّ  
نَفْسِي إِلَى حَظِّ نَفْسِهَا (١) ، وَاسْتَظْهَرْتُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ  
فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [ ٤ سورة النساء/ الآية : ١٩ ] ؛ وَاعْتَقَدْتُ الْكَرِيمَةَ أَصَحَّ اعْتِقَادٍ  
وَأَتَمَّهُ ، وَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْ تَفْسِيرِهَا .

قَالَ : فَلَمْ تَمُضْ أَشْهُرٌ حَتَّى ظَهَرَ الْحَمْلُ عَلَيْهَا ، فَأَلْقَى اللَّهُ فِي نَفْسِي مِنَ الْفَرَحِ  
مَا لَا تَعْدِلُهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِرِهَا ، وَأَحْسَنْتُ لَهَا الْحُبَّ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ جَمِيلٌ وَلَا قَبِيحٌ ،  
لِأَنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ النَّفْسِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي فِي نَفْسِهَا (الطُّفُل) . وَجَعَلْتُ أَرَى لَهَا فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ  
مَدَاجِلَ وَمَخَارِجَ دُونِهَا الْعِشْقُ فِي كُلِّ مَدَاجِلِهِ وَمَخَارِجِهِ ، وَصَارَ الْجَنِينُ الَّذِي فِي بَطْنِهَا  
يَتَلَاؤُ نُورَهُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى النُّورِ ، وَأَضْبَحَتِ الْأَيَّامُ مَعَهَا رُبْعًا مِنَ الزَّمَنِ فِيهِ الْأَمَلُ  
الْحُلُوُّ الْمُنتَظَرُ .

قَالَ : وَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ، وَطَرَقَتْ بِغْلَامٍ ؛ وَسَمِعْتُ الْأَصْوَاتَ تَرْفَعُ مِنْ حُجْرَتِهَا :  
وَلَدٌ ! وَلَدٌ ! بَشَرُوا أَبَاهُ . فَوَاللَّهِ لَكَانَ سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الْخُلْدِ وَقَعَتْ فِي رَمَنِي أَنَا مِنْ دُونِ  
الْخَلْقِ جَمِيعًا وَجَاءَتْنِي بِكُلِّ نَعِيمِ الْجَنَّةِ ؛ وَمَا كَانَ مُلْكُ الْعَالَمِ - لَوْ مَلَكَتُهُ - مُسْتَطِيعًا أَنْ  
يَهَبَنِي مَا وَهَبْتَنِي أَمْرًا بَيْنَ مَنْ قَرِحَ نَلَكُ السَّاعَةِ ؛ إِنَّهُ قَرِحَ إِلَهِي أَحْسَنْتُ بِقَلْبِي أَنْ فِيهِ سَلَامٌ

(١) اسْتَوْفَيْتَا بَيَانَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَقَالَةٍ « مُنْجِ جَمِيلٍ » السَّابِقَةِ .

اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَتُهُ . وَمِنْ يَوْمِئِذٍ نَطَقَ لِسَانُ جَمَالِهَا فِي صَوْتِ هَذَا الطِّفْلِ . ثُمَّ جَاءَ أَخُوهُ فِي الْعَامِ الثَّانِي ، ثُمَّ جَاءَ أَخُوهُمَا فِي الْعَامِ الثَّالِثِ ؛ وَعَرَفْتُ بَرَكَةَ الْإِحْسَانِ مِنَ اللَّطْفِ الرَّبَّانِيِّ فِي حَوَادِثَ كَثِيرَةٍ ، وَتَنَفَّسْتُ عَلَى أَنْفَاسِ الْجَنَّةِ وَفَسَّرْتُ آيَةَ الْكُرْنِمَةِ نَفْسَهَا بِهَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ ، فَكَانَ تَفْسِيرُهَا الْأَفْرَاحَ ، وَالْأَفْرَاحَ ، وَالْأَفْرَاحَ .

\* \* \*

وَبَرَى صَدِيقُنَا الْأُسْتَاذُ (م . ح . ج) <sup>(١)</sup> أَنَّ صَاحِبَ الْمُشْكِلَةِ فِي مُشْكِلَةٍ مِنْ رُجُولِهِ لَا مِنْ حُبِّهِ ؛ فَلَوْ أَنَّ لَهُ أَلْفَ رُوحٍ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُعَاشِرَ زَوْجَتَهُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا ، إِذْ هِيَ كُلُّهَا أَرْوَاحُ صِبْيَانِيَّةٍ تَبْكِي عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْحُلُوفِ مُمَثِّلَةٍ فِي الْحَبِيبَةِ . . . وَلَوْ عَرَفَ هَذَا الرَّجُلُ فَلَسَفَةَ الْحُبِّ وَالْكَرْهِ ، لَعَرَفَ أَنَّهُ يَصْنَعُ دُمُوعَهُ بِإِحْسَاسِهِ الطِّفْلِيِّ فِي هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ ؛ وَلَوْ أَدْرَكَ شَيْئًا لِأَدْرَكَ أَنَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ الْحُبِّ وَالْكَرْهِ مُتَزَوِّجٌ مِنْ نَفْسِهِ ، إِذِ الْفَاصِلُ فِي الرَّجُلِ هُوَ الْحَزَمُ الَّذِي يُوضَعُ بَيْنَ مَا يَجِبُ وَمَا لَا يَجِبُ .

إِنَّهُ مَا دَامَ بِهِذِهِ النَّفْسُ الصَّغِيرَةُ فَكُلُّ حَلٍّ لِمُشْكِلَتِهِ هُوَ مُشْكِلَةٌ جَدِيدَةٌ ، وَمِثْلُهُ بَلَاءٌ عَلَى الزَّوْجَةِ وَالْحَبِيبَةِ مَعًا ، وَكِلْتَاهُمَا بَلَاءٌ عَلَيْهِ ، وَهُوَ بِهِذِهِ وَهَذِهِ كَمُخَكَّومٍ عَلَيْهِ أَنْ يُسْتَقَى بِأَمْرَةٍ لَا بِمُسْتَقَةٍ . . .

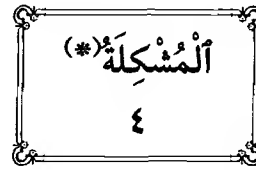
هَذَا عِنْدِي لَيْسَ بِالرَّجُلِ وَلَا بِالطِّفْلِ إِلَى أَنْ يُنْبِتَ أَنَّهُ أَحَدُهُمَا ؛ فَإِنْ كَانَ طِفْلًا فَمِنْ السُّخْرِيَةِ بِهِ أَنْ يَكُونَ مُتَزَوِّجًا ، وَإِنْ كَانَ رَجُلًا فَلْيَحُلْ هُوَ الْمُشْكِلَةُ بِنَفْسِهِ ، وَحَلُّهَا أَيْسَرُ شَيْءٍ : حَلُّهَا تَغْيِيرُ حَالَتِهَا الْعَقْلِيَّةِ .

\* \* \*

وَنَحْنُ نَعْتَدُّ لِلْبَاقِينَ مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالْفُضَلَاءِ الَّذِينَ لَمْ نَذْكُرْ آرَاءَهُمْ ، إِذْ كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْاسْتِفْتَاءِ أَنْ نَنْظُرَ بِالْأَحْوَالِ الَّتِي تُشَبِّهُ هَذِهِ الْحَادِثَةَ ، لَا بِالْآرَاءِ وَالْمَوَاعِظِ وَالنَّصَاحِ . أَمَّا رَأْيُنَا فَبَيْنَ الْبَقِيَّةِ الْآتِيَةِ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



صَاحِبُ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ رَجُلٌ أَعْوَرَ الْعَقْلِ . . . يَرَى عَقْلُهُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَدْ غَابَ عَنْهُ يَصِفُ الْوُجُودَ فِي مُشْكِلَتِهِ ؛ وَلَوْ أَنَّ عَقْلَهُ أَبْصَرَ مِنَ الثَّانِيَةِ لَمَا رَأَى الْمُشْكِلَةَ خَالِصَةً فِي إِشْكَالِهَا ، وَلَوْ جَدَّ فِي نَاحِيَتِهَا الْأُخْرَى حَطًا لِنَفْسِهِ قَدْ أَصَابَهُ ، وَمَذْهَبًا فِي السَّلَامَةِ لَمْ يُخْطِئْهُ ؛ وَكَانَ فِي هَذِهِ الثَّانِيَةِ عَذَابُ الْجُنُونِ لَوْ عَذَّبَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَكَانَ يُصْبِحُ أَشَقَى الْخَلْقِ لَوْ رَمَاهُ اللَّهُ فِي الْجِهَةِ الَّتِي أَنْقَذَهُ مِنْهَا ، فَتَهَيَّأَتْ لَهُ الْمُشْكِلَةُ عَلَى وَجْهِهَا الثَّانِي .

مَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ يَا صَاحِبَ الْمُشْكِلَةِ لَوْ أَنَّ زَوْجَتَكَ هَذِهِ الْمُسْكِنَةُ الْمَطْلُومَةُ الَّتِي بَنَيْتَ بِهَا ، كَانَتْ هِيَ الَّتِي أَكْرَهْتَ عَلَى الرُّضَى بِكَ ، وَحُمِلَتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَبْنَيْهَا ، ثُمَّ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا عَاشِقًا ، وَبِهَا صَبًا ، وَفِيهَا مُنْدَلِّهَا ؛ ثُمَّ كَانَتْ هِيَ تُحِبُّ رَجُلًا غَيْرَكَ ، وَتُصْبِرُ إِلَيْهِ ، وَتَفْتِنُ بِهِ ، وَقَدْ احْتَرَقَتْ عَشَقًا لَهُ ؛ فَإِذَا جَلَوْهَا عَلَيْكَ رَأَيْتَكَ الْبَغِيضَ الْمَقْبُوتَ ، وَرَأَيْتَكَ الدَّمِيمَ الْكَرِيمَ ، وَفَرَعْتَ مِنْكَ فَرَعَهَا مِنَ اللَّصِّ وَالْقَاتِلِ ؛ وَتَمُدَّ لَهَا يَدُكَ فَتَتَحَامَاهَا تَحَامِيهَا الْمَجْدُومِ أَوْ الْأَبْرَصِ ، وَتُكَلِّمُهَا فَتَحْمُ بَرْدًا مِنْ ثِقَلِ كَلَامِكَ ، وَتَفْتَحَ لَهَا ذِرَاعَيْكَ فَتَحْسِبُهَا حَبْلَيْنِ مِنْ مِسْقَتَيْنِ ، وَتَتَحَبَّبَ إِلَيْهَا فَإِذَا أَنْتَ أَسْمَحُ خَلْقٍ اللَّهُ عِنْدَهَا ، إِذْ تُحَاوِلُ فِي نَذَالَةٍ أَنْ تَحِلَّ مِنْهَا مَحَلَّ حَبِيبَتِهَا ؛ وَتَقْبِلُ عَلَيْهَا بِوَجْهِكَ فَتَرَاهُ مِنْ تَقْدِيرِهَا إِيَّاكَ ، وَأَشْمِئَزَّاهَا مِنْكَ ، وَجَهَ الدُّبَابَةِ مُكَبِّرًا بِقِطَاعَةٍ وَشَنَاعَةٍ فِي قَدْرِ صُورَةٍ وَجْهِ الرَّجُلِ ، لِيَسْجَاوَرَ حَدَّ الْفُجْحِ إِلَى حَدِّ الْغَنَائَةِ ، إِلَى حَدِّ انْقِلَابِ النَّفْسِ مِنْ رُؤْيَيْهِ ، إِلَى حَدِّ الْقِيءِ إِذَا دَنَا وَجْهُكَ مِنْ وَجْهِهَا . ١٩ . . .

مَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ يَا صَاحِبَ الْمُشْكِلَةِ لَوْ أَنَّ مُشْكِلَتَكَ هَذِهِ جَاءَتْ مِنْ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ زَوْجَتِكَ (الرَّجُلِ الثَّانِي) لَا الْمَرْأَةَ الثَّانِيَةَ ؟ أَلَسْتَ أَلَانَ فِي رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ بِكَ ، وَفِي نِعْمَةٍ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٣٤ ، ٣ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٧ يناير / كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٢٣ - ١٢٦ .

(١) في الأصل : « محمد حسين جيره » بدلًا من : « م . ح . ج . » .

كَفَّتْ عَنْكَ مُصِيبَةٌ ، وَفِي مَوْقِفٍ بَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ يَفْتَضِيكَ أَنْ تَرْقُبَ فِي حُكْمِكَ عَلَى هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمُسْكِنَةِ حُكْمَ اللَّهِ عَلَيْكَ ؟

\* \* \*

تَقُولُ : الْحُبُّ وَالْخَيَالُ وَالْفَنُّ . وَتَذْهَبُ فِي مَذَاهِبِهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ « الْمُشْكِلَةَ » قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّكَ بَعِيدٌ مِنْ فَهْمِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَلَوْ أَنَّتَ فَهَمْتَهَا لَمَا كَانَتْ لَكَ مُشْكِلَةٌ ، وَلَا حَسِبْتَ نَفْسَكَ مَنُحَوَّسَ الْحَظِّ مَخْرُومًا ، وَلَا جَهِلْتَ أَنَّ فِي دَاخِلِ الْعَيْنِ مِنْ كُلِّ ذِي فَنٍّ عَيْنًا خَاصَّةً بِالْأَخْلَامِ كَيْلًا تَعْمَى عَيْنُهُ عَنِ الْحَقَائِقِ .

الْحُبُّ لَفْظٌ وَهَمِيٌّ مُضَوِّعٌ عَلَى أَضْدَادٍ مُخْتَلِفَةٍ : عَلَى بُرْكَانٍ وَرَوْضَةٍ ، وَعَلَى سَمَاءٍ وَأَرْضٍ ، وَعَلَى بُكَاءٍ وَضَحِكٍ ، وَعَلَى هُمُومٍ كَثِيرَةٍ كُلُّهَا هُمُومٌ ، وَعَلَى أَفْرَاحٍ قَلِيلَةٍ لَيْسَتْ كُلُّهَا أَفْرَاحًا ؛ وَهُوَ خِدَاعٌ مِنَ النَّفْسِ يَضَعُ كُلَّ ذِكَاثِهِ فِي الْمَخْبُوبِ ، وَيَجْعَلُ كُلَّ بِلَاهِيَةٍ فِي الْمُحِبِّ ، فَلَا يَكُونُ الْمَخْبُوبُ عِنْدَ مُحِبِّهِ إِلَّا شَخْصًا خَيَالِيًّا . ذَا صِفَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ ، فَكَأَنَّهُ فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ فِي وُجُودِ تَامِّ الْجَمَالِ وَلَا عَيْبَ فِيهِ ، وَالنَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ مُوجُودُونَ فِي الْعُيُوبِ وَالْمَحَاسِنِ .

وَذَلِكَ وَهُمْ لَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ الْحَيَاةَ وَلَا تَصْلُحُ بِهِ ، فَإِنَّمَا يَقْضُونَ الْحَيَاةَ عَلَى الرُّوحِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَضَعُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ الصَّحِيحَ الثَّابِتَ ؛ فَالْحُبُّ عَلَى هَذَا شَيْءٌ غَيْرُ الزَّوْاجِ ، وَيَبْنِيهِمَا مِثْلُ مَا بَيْنَ الْأَضْطِرَابِ وَالنِّظَامِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ هَذَا الْحُبُّ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يَجْعَلُهُ حُبًّا لَا غَيْرَ ، فَقَدْ يَكُونُ أَقْوَى حُبٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِذَا تَحَابَّا هُوَ أَسْخَفَ زَوَاجٍ يَبْنِيهِمَا إِذَا تَزَوَّجَا .

وَذُو الْفَنِّ لَا يُفِيدُ مِنْ هَذَا الْحُبِّ فَائِدَتَهُ الصَّحِيحَةَ إِلَّا إِذَا جَعَلَهُ تَحْتَ عَقْلِهِ لَا فَوْقَ عَقْلِهِ ، فَيَكُونُ فِي حُبِّهِ عَاقِلًا يَجُنُّونَ لَطِيفٍ . . . وَيَتْرُكُ الْعَاطِفَةَ تَدَخُّلُ فِي التَّفَكُّيرِ وَتَضَعُ فِيهِ جَمَالَهَا وَتُورِثُهَا وَتُؤْتِيهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَرَى مُجَاهِدَةً أَلَلَّةً فِي الْحُبِّ هِيَ أَسْمَى لَذَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَيَعْرِفُ بِهَا فِي نَفْسِهِ ضَرْبًا إِلَهِيًّا مِنَ السَّكِينَةِ يُؤَلِّهِ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ يَفْهَرَ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَيَصْرِفَهَا وَيُبْدِعَ مِنْهَا عَمَلَهُ الْفَنِّيَّ الْعَجِيبَ .

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ السُّمُو لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا الْفِكْرُ الْقَوِيُّ الَّذِي فَازَ عَلَى شَهَوَاتِهِ وَكَبَحَهَا وَتَحَمَّلَهَا تَغْلِي فِيهِ غَلَيَانُ الْمَاءِ فِي الْمِرْجَلِ لِيُخْرَجَ مِنْهَا أَلْفٌ مَا فِيهَا ، وَيُحَوَّلَهَا حَرَكَةً فِي الرُّوحِ تَنْشَأُ مِنْهَا حَيَاةُ هَذِهِ الْمَعَانِي الْفَنِّيَّةِ ؛ وَمَا أَشْبَهَ ذَا الْفَنِّ بِالشَّجَرَةِ الْحَيَّةِ : إِنْ لَمْ تَضْبِطْ مَا فِي دَاخِلِهَا أَصَحَّ الضَّبْطُ ، لَمْ يَكُنْ فِي ظَاهِرِهَا إِلَّا أضعفُ عَمَلِهَا .

وَمِثْلُ هَذَا الْفِكْرِ الْعَاشِقِ يَخْتِاجُ إِلَى الزَّوْجَةِ حَاجَةً إِلَى الْحَبِيبَةِ ، وَهُوَ فِي قُوَّتِهِ يَجْمَعُ بَيْنَ كَرَامَةِ هَذِهِ وَقُدْسِيَّةِ هَذِهِ ، لِأَنَّ إِحْدَاهُمَا تُوَازِنُ الْأُخْرَى ، وَتُعَدُّهَا فِي الطَّنْعِ ، وَتُخَفِّفُ مِنْ طُعْيَانِهَا عَلَى الْغَرِيزَةِ ، وَتُفْسِكُ الْقَلْبَ أَنْ يَتَبَدَّدَ فِي جَوْهِ الْخَيَالِيِّ .

\* \* \*

وَالرَّجُلُ الْكَامِلُ الْمُفَكِّرُ الْمُتَخَيِّلُ إِذَا كَانَ زَوْجًا وَعَشِيقًا ، أَوْ كَانَ عَاشِقًا وَزَوْجًا غَيْرَ مَنْ يَهْوَاهَا ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَبَدَّلَ لِنَفْسِهِ فَنًّا جَمِيلًا مِنْ مَسَرَّاتِ الْفِكْرِ لَا يَجِدُهُ الْعَاشِقُ وَلَا يَنَالُهُ الْمُتَزَوِّجُ ؛ وَإِنَّهُ لَيَرَى زَوْجَتَهُ مِنَ الْحَبِيبَةِ كَالْتِمْنَالِ جَمَدًا عَلَى هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُغْفِلُ أَنَّ هَذَا هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الْإِنْدَاعِ فِي التَّمْنَالِ ، إِذْ تِلْكَ هَيْئَةُ اسْتِقْرَارِ الْأَسْمَى فِي سُمُورِهِ ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ أُمُومَةً عَلَى قَاعِدَتِهَا ، وَحَيَاةً عَلَى قَاعِدَتِهَا ؛ أَمَّا الْحَبِيبَةُ فَلَا قَاعِدَةَ لَهَا ، وَهِيَ مَعَانٍ شَارِدَةٌ لَا تَسْتَقِرُّ ، وَزَائِلَةٌ لَا تَبْتُثُّ ، وَفَتْهَا كُلُّهُ فِي أَنْ تَبْقَى حَيْثُ هِيَ كَمَا هِيَ ، فَجَمَالُهَا يَخِيَا كُلَّ يَوْمٍ حَيَاةً جَدِيدَةً مَا دَامَتْ فَنًّا مَخْضًا ، وَمَا دَامَ سِرُّ أُنُوثَتِهَا فِي حِجَابِهِ .

وَمَتَى تَزَوَّجَ الرَّجُلُ بِمَنْ يُحِبُّهَا أَنْتَهَكَ لَهُ حِجَابُ أُنُوثَتِهَا فَبَطَلَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا سِرٌّ ، وَعَادَتْ لَهُ غَيْرَ مَنْ كَانَتْ ، وَعَادَ لَهَا غَيْرَ مَنْ كَانَ ؛ وَهَذَا التَّحَوُّلُ فِي كُلِّ مِنْهُمَا هُوَ زَوَالُ كُلِّ مِنْهُمَا مِنْ خَيَالِ صَاحِبِهِ ؛ فَلَيْسَ يَضْلُحُ الْحُبُّ أَسَاسًا لِلْسَّعَادَةِ فِي الزَّوْاجِ ، بَلْ آخِرُ بِهِ إِذَا كَانَ وَجَدًا وَآخِرَاقًا أَنْ يَكُونَ أَسَاسًا لِلْسُّومِ فِيهِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَضَعَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ حَدًّا يُعَيِّنُ لَهُمَا دَرَجَةً مِنْ دَرَجَةِ فِي الشَّغَفِ وَالصَّبَابَةِ وَالْخَيَالِ ، وَهُمَا بَعْدَ الزَّوْاجِ مُتَرَا جَعَانٍ وَرَاءَ هَذَا الْحَدِّ مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الزَّوْجُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ رَجُلًا تَامَ الرُّجُولَةِ ، أَسَدَّتْ الْحَيَاةَ عَلَيْهِ وَعَلَى زَوْجَتِهِ صَبِيانِيَّةَ رُوحِهِ فَالْتَمَسَ فِي الزَّوْجَةِ مَا لَمْ يَعْذُ فِيهَا ، فَإِذَا انْكَشَفَ لَهُ قَرَاغُهَا ذَهَبَ يَلْتَمِسُهُ فِي غَيْرِهَا ، وَكَانَ بَلَاءٌ عَلَيْهَا وَعَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤَلِّدُوا ؛ إِذْ يَضَعُ أَمَامَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَسْوَأَ الْأَمْثِلَةِ لِأَيِّ أَوْلَادِهَا ، وَيُفْسِدُ إِحْسَاسَهَا فَيُفْسِدُ

تَكُونُهَا النَّفْسِيَّةُ ؛ وَمَا الْمَرْأَةُ إِلَّا حِسْهَا وَشُعُورُهَا<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

فَالشَّأْنُ هُوَ فِي تَمَامِ الرُّجُولَةِ وَقُوَّتِهَا وَشَهَامَتِهَا وَفُحُولَتِهَا ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاشِقًا أَوْ لَمْ يَكُنْهُ . وَمَا مِنْ رَجُلٍ قَوِيٍّ الرُّجُولَةِ إِلَّا وَاسَاسُهُ دِيَانَتُهُ وَكَرَامَتُهُ ؛ وَمَا مِنْ ذِي دِينٍ أَوْ كَرَامَةٍ يَقَعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَشْكِلَةِ ثُمَّ تَطْلُمُ بِهِ الزَّوْجَةَ أَوْ يَحِيفُ عَلَيْهَا أَوْ يَفْسِدُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنْ الْمُدَاخَلَةِ وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ ، بَلْهُ أَنْ يَرَاهَا كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ الْمَشْكِلَةِ (مُصْنِبُهُ) فَيَجَافِيهَا وَيُبَالِغُ فِي إِغْنَانِهَا وَيُسْفِي غَيْظَهُ بِإِذْلَالِهَا وَاحْتِقَارِهَا .

وَأَيُّ ذِي دِينٍ يَأْمَنُ عَلَى دِينِهِ أَنْ يَهْلِكَ فِي بَغْضٍ ذَلِكَ فَضْلًا عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ؟ وَأَيُّ ذِي كَرَامَةٍ يَرْضَى لِكَرَامَتِهِ أَنْ تَقْلِبَ حِسَّةً وَدَنَاءَةً وَتَذَلَّةً فِي مُعَامَلَةِ امْرَأَةٍ هُوَ لَا غَيْرُهُ ذُنْبُهَا ؟

إِنَّ أَسَاسَ الدِّينِ وَالْكَرَامَةِ أَلَّا يَخْرُجَ إِنْسَانٌ عَنْ قَاعِدَةِ الْفَضِيلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي حَلِّ مُشْكِلَتِهِ إِنْ تَوَرَّطَ فِي مُشْكِلَةٍ ؛ فَمَنْ كَانَ فَقِيرًا لَا يَسْرِقُ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ فَقِيرٌ ، بَلْ يَكْذِبُ وَيَعْمَلُ وَيَضْبِرُ عَلَى مَا يُعَانِيهِ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَمَنْ كَانَ مُحِبًّا لَا يَسْتَزِلُّ الْمَرْأَةَ فَيَسْقِطُهَا بِحُجَّةٍ أَنَّهُ عَاشِقٌ ؛ وَمَنْ كَانَ كَصَاحِبِ الْمَشْكِلَةِ لَا يَطْلُمُ امْرَأَتَهُ فَيَمْقُطُهَا بِحُجَّةٍ أَنَّهُ يَعْشَقُ غَيْرَهَا ؛ وَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ مَنْ أَظْهَرَ فِي كُلِّ ذَلِكَ وَتَخَوَّاهُ ذَلِكَ أَثَرَهُ الْإِنْسَانِيَّ لَا أَثَرَهُ الْوَحْشِيِّ ، وَاعْتَبَرِ أُمُورَ الْخَاصَّةِ بِقَاعِدَةِ الْجَمَاعَةِ لَا بِقَاعِدَةِ الْفَرْدِ . وَإِنَّمَا الدِّينُ فِي الشُّمُوءِ عَلَى أَهْوَاءِ النَّفْسِ ؛ وَلَا يَتَسَامَى أَمْرُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْوَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا بِإِزَالِهَا عَلَى حُكْمِ الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ ، فَمِنْ هُنَاكَ يَتَسَامَى ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْدُو عُلوُّهُ فَيَمَّا يَبْلُغُ إِلَيْهِ . . . . .

وَإِذَا حَلَّ اللَّصُّ مُشْكِلَتَهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ هُوَ فَقَدْ حَلَّهَا ، وَلَكِنَّهُ حَلٌّ يَجْعَلُهُ هُوَ بِجُمْلَتِهِ مُشْكِلَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا ، حَتَّى لَيَرَى الشَّرْعُ فِي نَظَرَتِهِ إِلَى إِنْسَانِيَّةِ هَذَا اللَّصِّ أَنَّهُ غَيْرُ حَقِيقِي بِالْيَدِ الْعَامِلَةِ الَّتِي خُلِقَتْ لَهُ فَيَأْمُرُ بِقَطْعِهَا .

(١) هَذَا كُلُّهُ مِنْ بَغْضِ الْحِكْمَةِ فِي أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُبْنِى أَخْطِلَاطَ الزَّوْجَيْنِ قَبْلَ الْمَقْدِ ، إِذْ لَا يَعْرِفُ الدِّينُ الْإِسْلَامِيَّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ إِلَّا أَسْرَةً يَجِبُ أَنْ تُبْنَى بِمَا يَبْنِيهَا ، وَتَصَانَ بِمَا يَصُونُهَا . وَقَدْ أَشْرَفْنَا إِلَى حِكْمَةٍ أُخْرَى فِي الْمَقَالَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَشْكِلَةِ .

وَعَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فَالْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ كُلُّهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْأَبِ فِي مُتَاصَرَّتِهِ لِزَوْجَةِ صَاحِبِ الْمَشْكِلَةِ وَالْإِسْتِظْهَارِ لَهَا وَالِدْفَاعِ عَنْهَا ، مَا دَامَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهَا الظُّلْمُ مِنْ صَاحِبِهَا ، وَهَذَا هُوَ حُكْمُهَا فِي الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَكْبَرِ ، وَإِنْ خَالَفَ ضَمِيرُ زَوْجِهَا الْعَدُوُّ الْثَّابِرُ الَّذِي قَطَعَهَا مِنْ مَصَادِرِ نَفْسِهِ وَمَوَارِدِهَا . أَمَّا حُكْمُ الْحَبِيبَةِ فِي هَذَا الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ فَهُوَ أَنَّهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَيْسَتْ حَبِيبَةً وَلَكِنَّهَا شَعَادَةُ رِجَالٍ . . . . .

\* \* \*

لَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمَشْكِلَةِ يَتَاكَمُ مِنْهَا وَيَتَلَدَّعُ بِهَا مِنَ الْوَقْدَةِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ ؛ بَلْدَ أَنْتَا تَعْرِفُ أَنَّ أَلَمَ الْعَاقِلِ غَيْرُ أَلَمِ الْمَجْنُونِ ، وَحُزْنَ الْحَكِيمِ غَيْرُ حُزْنِ الطَّائِشِ ؛ وَالْقَلْبُ الْإِنْسَانِيُّ يَكَادُ يَكُونُ آتَةً مَخْلُوقَةً مَعَ الْإِنْسَانِ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُ أَوْ إِفْسَادِهَا ؛ فَالْحَكِيمُ مَنْ عَرَفَ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهِذَا الْقَلْبِ فِي آلامِهِ وَأَوْجَاعِهِ ، فَلَا يَضْنَعُ مِنَ أَلَمِهِ أَلَمًا جَدِيدًا يَزِيدُهُ فِيهِ ، وَلَا يُخْرِجُ مِنَ الشَّرِّ شَرًّا آخَرَ يَجْعَلُهُ أَسْوَأَ مِمَّا كَانَ . وَإِذَا لَمْ يَجِدِ الْحَكِيمُ مَا يَشْتَهِي ، أَوْ أَصَابَ مَا لَا يَشْتَهِي ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْلُقَ مِنْ قَلْبِهِ خَلْقًا مَعْنَوِيًّا يُوجِدُهُ الْغِنَى عَنْ ذَلِكَ الْمَخْبُوبِ الْمَعْدُومِ ، أَوْ يُوجِدُهُ الصَّبْرُ عَنْ هَذَا الْمَوْجُودِ الْمَكْرُوهِ ؛ فَتَتَوَازَنُ الْأَحْوَالُ فِي نَفْسِهِ وَتَعْتَدِلُ الْمَعَانِي عَلَى فِكْرِهِ وَقَلْبِهِ ؛ وَبِهَذَا الْخَلْقِ الْمَعْنَوِيِّ يَسْتَطِيعُ ذُو الْفَنِّ أَنْ يَجْعَلَ أَلَامَهُ كُلَّهَا بَدَائِعَ فَنٍّ<sup>(١)</sup> . وَمَا هُوَ فِكْرُ الْحُكَمَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونُ مَصْنَعًا تُرْسِلُ إِلَيْهِ الْمَعَانِي بِصُورَةٍ فِيهَا الْفَوْضَى وَالنَّقْصُ وَالْأَكْمُ ، لِتَخْرُجَ مِنْهُ فِي صُورَةٍ فِيهَا النُّظَامُ وَالْحِكْمَةُ وَاللَّذَّةُ الرَّوْجِيَّةُ .

يَعْشَقُ الرَّجُلُ الْعَامِّيُّ الْمَتَرُوجَ ، فَإِذَا السَّاعَةُ الَّتِي أَوْفَقَتْهُ فِي الْمَشْكِلَةِ قَدْ جَاءَتْهُ مَعَهَا بِطَرِيقَةٍ حَلًّا ؛ فِيمَا ضَرَبَ أَمْرُهُ بِالطَّلَاقِ ، وَإِمَّا أَهْلَكَهَا بِاتِّخَاذِ الضَّرَّةِ عَلَيْهَا ، وَإِمَّا عَذَّبَهَا بِالْخِيَانَةِ وَالْمُجُورِ ، لِأَنَّ بَغْضَ الْعَبَثِ مِنَ الطَّبِيعَةِ فِي نَفْسِ هَذَا الْجَاهِلِ هُوَ بَعِيْثُ عَيْثُ الطَّبِيعَةِ بِهِذَا الْجَاهِلِ فِي غَيْرِهِ ، كَانَ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ تَطْلُقُ مَدَافِعَهَا الصُّخْمَةَ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ هَذِهِ النُّفُوسِ الْفَارِغَةِ . . .

(١) اسْتَوْفَيْنَا هَذِهِ الْمَعَانِي فِي كَثِيرٍ مِمَّا كَتَبْنَا ، وَبَغْضِهَا فِي مَقَالَاتِ « الْجَمَالِ الْبَاسِ » . . .

وَلَيْسَ أَسْهَلُ عَلَى الذِّكْرِ مِنَ الْخَيَوَانِ أَنْ يَحُلَّ مُشْكِلَةَ الْأُنْثَى حَلًّا خَيَوَانِيًّا كَحَلِّ هَذَا الْعَامِيٍّ ، فَهُوَ ظَافِرٌ بِالْأُنْثَى أَوْ مَقْتُولٌ دُونَهَا مَا دَامَ مُطْلَقًا مُحَلًى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ؛ وَالْحَقِيقَةُ هُنَا حَقِيقَتُهُ هُوَ ، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا مَنَفَعَةٌ شَهَوَانِيَّةٌ ؛ وَأَسْمَى فَضَائِلِهِ أَلَّا يَنْجِرَ عَنْ نَبْلِ هَذِهِ الْمَنَفَعَةِ .

ثُمَّ يَنْسُقُ الرَّجُلُ الْحَكِيمُ الْمُتَزَوِّجُ فَإِذَا لِمُشْكِلَتِهِ وَجْهٌ آخَرُ ، إِذْ كَانَ مِنْ أَصْعَبِ الْأَصْعَبِ وَجُودُ رَجُلٍ يَحُلُّ هَذِهِ الْمُشْكِلَةَ بِرُجُولَةٍ ، فَإِنَّ فِيهَا كَرَامَةً الزَّوْجَةِ وَوَاجِبَ الدِّينِ وَفِيهَا حَقُّ الْمُرُوءَةِ ، وَفِيهَا مَعَ ذَلِكَ عِبَتْ الطَّبِيعَةِ وَخِدَاعُهَا وَهَزْلُهَا الَّذِي هُوَ أَشَدُّ الْجِدِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْغَرِيزَةِ ؛ وَبِهَذَا كُلُّهُ تَقَلُّبُ الْمُشْكِلَةِ إِلَى مَعْرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ لَا يَخْسِمُهَا إِلَّا الظَّفَرُ ، وَلَا يُعِينُ عَلَيْهَا إِلَّا الصَّبْرُ ، وَلَا يُفْلِحُ فِي سِيَاسَتِهَا إِلَّا تَحُلُّ أَلَمِهَا ؛ فَإِذَا زُرُقَ الْعَاشِقُ صَبْرًا وَقُوَّةً عَلَى الْأَحْتِمَالِ فَقَدْ هَانَ الْبَاقِي وَتَيَسَّرَتْ لَذَّةُ الظَّفَرِ الْحَاسِمِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ الظَّفَرُ بِالْحَبِيبَةِ ؛ فَإِنَّ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مَوَاقِعَ مُخْتَلِفَةً وَأَنَارًا مُتَبَايِنَةً لِلذَّةِ الْوَاحِدَةِ ، وَمَوْقِعٌ أَرْفَعُ مِنْ مَوْقِعِ ، وَأَثَرٌ أَبْهَجُ مِنْ أَثَرِ ؛ وَالذُّ مِنَ الظَّفَرِ بِالْحَبِيبَةِ نَفْسُهَا عِنْدَ الرَّجُلِ الْحَكِيمِ الظَّفَرُ بِمَعَانِيهَا ، وَأَكْرَمُ مِنْهَا عَلَى نَفْسِهِ كَرَامَةٌ نَفْسِهِ . وَإِذَا انْتَصَرَ الدِّينُ وَالْفَضِيلَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالْعَقْلُ وَالْفَنُّ ، لَمْ يَبْقَ لِحَبِيبَةِ الْحُبِّ كَيْفٌ مَعْنَى وَلَا عَظِيمٌ أَثَرٌ ، وَيَتَوَعَّلُ الْعَاشِقُ فِي حُبِّهِ وَقَدْ لَيْسَتْهُ حَالَةٌ أُخْرَى كَمَا يَكْظُمُ الرَّجُلُ الْحَكِيمُ عَلَى الْغَيْظِ : فَذَلِكَ يُحِبُّ وَلَا يَطِينُشْ ، وَهَذَا يَغْتَاطُ وَلَا يَنْغَضِبُ . وَالْبَطْلُ الشَّدِيدُ الْبَاسِ لَا يَنْبَغُ إِلَّا مِنَ الشَّدَائِدِ الْقَوِيَّةِ ، وَالذَّاهِيَةُ الْأَرِيبُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنَ الْمُسْكِلاتِ الْمُعَقَّدَةِ ، وَالتَّقْيُ الْفَاضِلُ لَا يَعْرِفُ إِلَّا بَيْنَ الْأَهْوَاءِ الْمُسْتَحْكِمَةِ . وَلَعَمْرِي إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الْحَكِيمُ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ ، أَوْ يُنْطِلَ حَاجَةً مِنْ حَاجَاتِهَا ، فَمَاذَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَمَاذَا فِيهِ مِنَ النَّفْسِ ؟

\* \* \*

وَمَا عَقَّدَ (الْمُشْكِلَةَ) عَلَى صَاحِبِهَا بَيْنَ زَوْجَتِهِ وَحَبِيبَتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ بِخَيَالِهِ الْفَاسِدِ قَدْ أَفْسَدَ الْقُوَّةَ الْمُضْلِحَةَ فِيهِ ، فَهُوَ لَمْ يَتَزَوَّجْ أَمْرَاتَهُ كُلَّهَا . . . وَكَأَنَّهُ لَا يَرَاهَا أَنْثَى كَالنِّسَاءِ ، وَلَا يُبْصِرُ عِنْدَهَا إِلَّا قُرُوقًا بَيْنَ أَمْرَاتَيْنِ : مَخْبُوءَةٍ وَمَكْرُوهَةٍ ؛ وَبِهَذَا أَفْسَدَ عَيْنُهُ كَمَا أَفْسَدَ خَيَالُهُ ؛ فَلَوْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَرَاهَا لَرَاهَا ، وَلَوْ تَعَوَّدَهَا لِأَحَبَّهَا .

إِنَّهُ مِنْ وَهْمِهِ كَالْجَوَادِ الَّذِي يَشْعُرُ بِالْمَقَادَةِ فِي عُنُقِهِ ؛ فَشُعُورُهُ بِمَعْنَى الْحَبْلِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ضَيْئًا عَطَّلَ فِيهِ كُلَّ مَعَانِي قُورِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِي كَثِيرَةً . وَمَا أَفْذَرَكَ أَهْيَا الْحُبِّ عَلَى وَضْعِ جِبَالِ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ فِي أَغْنَاكِ النَّاسِ !

\* \* \*

وَقَدْ بَقِيَ أَنْ نَذْكُرَ ، تَوْفِيَةً لِلْفَائِدَةِ ، أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ مَنْ نَقَصَتْ فُحُولُهُ مِنَ الرِّجَالِ ، فَيُدَلِّسُ عَلَى نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا الْحُبِّ ، وَيُبَالِغُ فِيهِ ، وَيَتَجَرَّمُ عَلَى زَوْجَتِهِ الْمُسْكِنَةِ الَّتِي أَبْتَلَيْتْ بِهِ ، وَيَخْتَلِقُ لَهَا الْعِلَلَ الْوَاهِيَةَ الْمَكْدُوبَةَ ، وَيُبْغِضُهَا كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَبْتَلَيْتْ بِهَا ، وَكَأَنَّ الْمُسْكِنَةَ مِنْ قِبَلِهَا لَا مِنْ قِبَلِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ غَرِيزَتَهُ تَحَوَّلَتْ إِلَى فِكْرِهِ <sup>(١)</sup> ، فَلَمْ تَعُدْ إِلَّا صُورًا خَيَالِيَّةً لَا تَعْرِفُ إِلَّا الْكَذِبَ . وَقَدْ قَرَّرَ عُلَمَاءُ النَّفْسِ أَنَّ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يَكْرَهُ زَوْجَتَهُ أَشَدَّ الْكَرْهِ إِذَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ بِالْمَهَانَةِ وَالنَّقْصِ مِنْ عَجْزِهِ عَنْهَا . . . فَهَذَا لَا يَكُونُ رَجُلًا لَا مَرَأَتَهُ إِلَّا فِي الْعِدَاوَةِ وَالنَّقَمَةِ وَالْكَرَاهِيَةِ وَمَا كَانَ مِنْ بَابِ شِفَاءِ الْغَيْظِ ، وَأَمْرَاتُهُ مَعَهُ كَالْمُعَاهِدَةِ السِّيَاسِيَّةِ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ : لَا قِيَمَةَ وَلَا حُرْمَةَ ؛ وَإِذَا أَحَبَّ هَذَا كَانَ حُبُّهُ خَيَالِيًّا شَدِيدًا ، لِأَنَّهُ مِنْ جِهَةٍ يَكُونُ كَالْتَعَزِيَةِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَكُونُ غَيْظًا لَزَوْجَتِهِ ، وَرَدًّا بِأَمْرَةٍ عَلَى أَمْرَةٍ . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِكْرُهُ » بِدَلَالَةِ : « فِكْرِهِ » .

# وَحْيُ الْقَلَمِ

“بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِّنَ التَّنْزِيلِ” أَوْ قَبَسٌ مِّنْ نُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ  
سَعْدُ بَانَا زَغَلُول  
فِي تَقْرِيطِهِ “إِعْجَازُ الْقُرْآنِ” لِلزَّافِيِّ

كَتَبَهُ  
فَضْطَفَى صَادِقُ الزَّافِيِّ

بِعَنَايَةِ  
بَسَّامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْجَبَّارِيِّ

الْمَجْزُءُ الثَّالِثُ

## الإشراقُ الإلهيُّ وفلسفةُ الإسلامِ (\*)

كَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ بِأَنْوَارِهَا فَتَنْفَجِرُ بِنُبُوعِ الضَّوْءِ الْمُسَمَّى النَّهَارَ ، يُوَلَّدُ النَّبِيُّ فَيُوجِدُ فِي  
الْإِنْسَانِيَّةِ بِنُبُوعِ النُّورِ الْمُسَمَّى بِالذِّينِ . وَلَيْسَ النَّهَارُ إِلَّا بَقِظَةٌ الْحَيَاةِ تُحَقِّقُ أَعْمَالَهَا ، وَلَيْسَ  
الذِّينُ إِلَّا بَقِظَةُ النَّفْسِ تُحَقِّقُ فَضَائِلَهَا .

وَالشَّمْسُ خَلَقَهَا اللَّهُ حَامِلَةً طَابَعَهُ الْإِلَهِيُّ ، فِي عَمَلِهَا لِلْمَادَّةِ تَحَوُّلٌ بِهِ وَتَغْيِيرٌ ؛ وَالنَّبِيُّ  
يُرْسِلُهُ اللَّهُ حَامِلًا مِثْلَ ذَلِكَ الطَّابِعِ فِي عَمَلِهِ لِلرُّوحِ تَرَقُّيٌّ فِيهِ وَتَسْمُو .

وَرَعَشَاتُ الضَّوْءِ مِنَ الشَّمْسِ هِيَ قِصَّةُ الْهِدَايَةِ لِلْكَوْنِ فِي كَلَامٍ مِنَ النُّورِ ، وَأَشِعَّةُ  
الْوَحْيِ فِي النَّبِيِّ هِيَ قِصَّةُ الْهِدَايَةِ لِلْإِنْسَانِ الْكَوْنِ فِي نُورٍ مِنَ الْكَلَامِ .

وَالْعَامِلُ الْإِلَهِيُّ الْعَظِيمُ يَعْمَلُ فِي نِظَامِ النَّفْسِ وَالْأَرْضِ بِأَدَاتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ : أَجْرَامِ  
النُّورِ مِنَ الشُّمُوسِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَأَجْرَامِ الْعَقْلِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ .

فَلَيْسَ النَّبِيُّ إِنْسَانًا مِنَ الْعُظَمَاءِ يُقْرَأُ تَارِيخُهُ بِالْفِكْرِ مَعَ الْمَنْطِقِ ، وَمَعَ الْمَنْطِقِ الشَّكُّ ،  
ثُمَّ يُدْرَسُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى أُصُولِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْعَامَّةِ ؛ وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ نَجْمِيٌّ يُقْرَأُ بِمِثْلِ  
« التَّلْسُكُوبِ »<sup>(١)</sup> فِي الدَّقَّةِ ، مَعَ الْعِلْمِ ، وَمَعَ الْعِلْمِ الْإِيمَانُ ؛ ثُمَّ يُدْرَسُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى  
أُصُولِ طَبِيعَتِهِ النُّورَانِيَّةِ وَخَدَهَا .

(\*) « الرسالة » العدد : ٥١ ، ١٣ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ يونيو/حزيران سنة ١٩٣٤ م ،  
السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٤٣ - ١٠٤٥ .

هذه المقالة هي ثاني مقالات الرافعي في الرسالة بعد أن دعاه أحمد حسن الزيات إلى العمل معه ،  
يقول محمد سعيد العريان في « حياة الرافعي » صفحة : ٢٣٤ : وأحسبه اختار هذا الموضوع على  
انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق [ له « لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على قِيَّتِهِ » ]  
احتفاءً بالمولد النبوي ؛ إذا كان هذا موسمه . بسلام .

(١) التلسكوب Telescope ، هو : الْمِنْظَارُ أَوِ الْمَجْهَرُ . بسلام .



وَالْحَيَاةُ تُنْشِئُ عِلْمَ التَّارِيخِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي دَرَسِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، تَجْعَلُ التَّارِيخَ هُوَ يُنْشِئُ عِلْمَ الْحَيَاةِ ؛ فَإِنَّمَا النَّبِيُّ إِشْرَاقُ إِلَهِيٍّ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، يُقَوِّمُهَا فِي فَلَكَهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَيَجْذِبُهَا إِلَى الْكَمَالِ فِي نِظَامٍ هُوَ بِعَيْنِهِ صُورَةُ لِقَانُونِ الْجَادِيَّةِ فِي الْكَوَاكِبِ .

وَيَجِيءُ النَّبِيُّ فَتَجِيءُ الْحَقِيقَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَعَهُ فِي مِثْلِ بَلَاغَةِ الْفَنِّ الْبَيَانِيِّ ، لِيَكُونَ أَقْوَى أَثَرًا ، وَأَيَسَرَ فَهْمًا ، وَأَبْدَعَ تَمْثِيلًا ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا خِلَافٌ مِنَ الْحِسِّ . وَهَذَا هُوَ الْأَسْلُوبُ الَّذِي يَجْعَلُ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَرَّقَ النَّاسَ جَمِيعًا ، كَمَا تَكُونُ الْبَلَاغَةُ فَرَّقَ لُغَةً بِأَكْمَلِهَا ؛ هُوَ الشَّخْصُ الْمُفَسِّرُ إِذَا تَعَسَّفَ النَّاسُ الْحَيَاةَ لَا يَذَرُونَ أَثَرًا يُؤْمِنُونَ مِنْهَا ، وَلَا كَيْفَ يَتَهَدَّوْنَ فِيهَا ، فَتَضْطَرُّبُ الْمَلَايِينُ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ اضْطِرَابًا فِيمَا تَنْقَبِضُ عَنْهُ وَتَتَهَالِكُ فِيهِ مِنْ أَطْمَاعِ الدُّنْيَا ؛ ثُمَّ يُخْلَقُ رَجُلٌ وَاحِدٌ لِيَكُونَ هُوَ التَّفْسِيرُ لِمَا مَضَى وَمَا يَأْتِي ، فَتُظْهِرُ بِهِ حَقَائِقَ الْأَدَابِ الْعَالِيَةِ فِي قَالِبٍ مِنَ الْإِنْسَانِ الْعَامِلِ الْمَرْيُ ، أَبْلَغَ مِمَّا تَظْهَرُ فِي قِصَّةِ مُتَكَلِّمَةِ مَرْوِيَّةِ .

وَمَا الشَّهَادَةُ لِلْبُتُوَّةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ نَفْسُ النَّبِيِّ أَبْلَغَ نَفُوسِ قَوْمِهِ ، حَتَّى لَهَا فِي طَبَاعِهِ وَشَمَائِلِهِ طَبِيعَةٌ قَائِمَةٌ وَحْدَهَا ، كَأَنَّهَا الْوَضْعُ النَّفْسَانِيُّ الدَّقِيقُ الَّذِي يُنْصَبُ لِتَضَحِيحِ الْوَضْعِ الْمَغْلُوطِ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي عَالَمِ الْمَادَّةِ وَتَنَازُعِ الْبَقَاءِ . وَكَأَنَّ الْحَقِيقَةَ السَّامِيَّةَ فِي هَذَا السَّبِي تَنَادِي النَّاسِ : أَنْ قَابِلُوا عَلَى هَذَا الْأَصْلِ وَصَحُّوْهُمَا مَا أَعْتَرَى أَنْفُسَكُمْ مِنْ غَلَطِ الْحَيَاةِ وَتَحْرِيفِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

\* \* \*

وَمِنْ ثَمَّ فَكَيْفَ الْبَشَرِيَّةُ كُلُّهَا مَنْ بَعَثَ بِالذِّينِ أَعْمَالًا مُفَصَّلَةً عَلَى النَّفْسِ أَدَقَّ تَفْصِيلٍ وَأَوْفَاهُ بِمَصْلَحَتِهَا ، فَهُوَ يُعْطِي الْحَيَاةَ فِي كُلِّ عَصْرِ عَقْلَهَا الْعَمَلِيَّ الثَّابِتَ الْمُسْتَقَرَّ تَنْظُمَ بِهِ أَحْوَالِ النَّفْسِ عَلَى مِيزَةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَيَدْعُ لِلْحَيَاةِ عَقْلَهَا الْعِلْمِيَّ الْمُتَجَدِّدَ الْمُتَغَيِّرَ تَنْظُمَ بِهِ أَحْوَالِ الطَّبِيعَةِ عَلَى قَصْدٍ وَهَدًى ؛ وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ فِي أَحْصَى مَعَانِيهِ ، لَا يُغْنِي عَنْهُ فِي ذَلِكَ دِينَ آخَرَ ، وَلَا يُؤَدِّي تَأْدِيَتَهُ فِي هَذِهِ الْحَاجَةِ أَدَبٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا فِلَسَفَةٌ ، كَأَنَّهَا هُوَ تَبَعٌ فِي الْأَرْضِ لِمَعَانِي النُّورِ ، بِإِزَاءِ الشَّمْسِ نَبْعِ النُّورِ فِي السَّمَاءِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ تَرَاهُ فِي نَفْسِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَهِيَ فِي مَجْمُوعِهَا أَبْلَغُ الْأَنْفُسِ قَاطِبَةً ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَعْرِفَ الْأَرْضَ أَكْمَلَ مِنْهَا ؛ وَلَوْ اجْتَمَعَتْ فُضَائِلُ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالْمُتَأَلِّهِينَ وَجُعِلَتْ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ - مَا بَلَغَتْ أَنْ يَجِيءَ مِنْهَا مِثْلُ نَفْسِهِ ﷺ . وَلَكِنَّمَا خَرَجَتْ هَذِهِ النَّفْسُ مِنْ صِنْعَةِ كَصِينَةِ الذَّرَّةِ فِي مَحَارِبِهَا ، أَوْ تَرْكِبِ كَتَرْكِبِ الْمَاسِ فِي مَنْجَمِهِ ، أَوْ صِفَةِ كَصِفَةِ الذَّهَبِ فِي عِزِّهِ . وَهِيَ النَّفْسُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى ، مِنْ أَثَرِ تَدَبُّرِهَا رَأْيَتَهَا عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ كَالشَّمْسِ فِي الْأَفْقِ الْأَعْلَى تَنْبَسِطُ وَتَضْحَى .

وَتِلْكَ هِيَ الشَّهَادَةُ لَهُ ﷺ بِأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ دِينَهُ هُوَ دِينُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَخِيرِ ؛ فَهَذَا الَّذِي فِي مَجْمُوعِهِ إِنْ هُوَ إِلَّا صُورَةُ تِلْكَ النَّفْسِ الْعَظِيمَةِ فِي مَجْمُوعِهَا : صَلَاتُهُ بِمِقْدَارِ الْحَقِّ الْإِنْسَانِيِّ الثَّابِتِ ، لَا بِمِقْدَارِ الْإِنْسَانِ الْمُتَغَيِّرِ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ سَبَبِ جَبَلٍ صَلَدًا يَشْمَخُ ، وَعِنْدَ سَبَبِ آخَرٍ مَاءً عَذْبًا يَجْرِي .

وَهُوَ دِينٌ يَغْلُو بِالْقُوَّةِ وَيَدْعُو إِلَيْهَا ، وَيُرِيدُ إِخْضَاعَ الدُّنْيَا وَحُكْمَ الْعَالَمِ ، وَيَسْتَفْرِغُ هَمَّهُ فِي ذَلِكَ ، لَا لِإِعْزَازِ الْأَقْوَى وَإِذْلالِ الْأَضْعَفِ ، وَلَكِنْ لِإِرْتِفَاعِ بِالْأَضْعَفِ إِلَى الْأَقْوَى ؛ وَفَرَّقَ مَا بَيْنَ شَرِيعَتِهِ وَشَرَائِعِ الْقُوَّةِ ، أَنَّ هَذِهِ إِنَّمَا هِيَ قُوَّةُ سِيَادَةِ الطَّبِيعَةِ وَتَحْكُمِهَا ، أَمَّا هُوَ فَقُوَّةُ سِيَادَةِ الْفَضِيلَةِ وَتَعَالِيهَا ؛ وَتِلْكَ تَعْمَلُ لِلتَّفَرِيقِ ، وَهُوَ يَعْمَلُ لِلْمُسَاوَاةِ ؛ وَسِيَادَةُ الطَّبِيعَةِ وَعَمَلُهَا لِلتَّفَرِيقِ هُمَا أُسَاسُ الْعُبُودِيَّةِ ، وَعَلَبَةُ الْفَضِيلَةِ وَعَمَلُهَا لِلْمُسَاوَاةِ هُمَا أَعْظَمُ وَسَائِلِ الْخُرِّيَّةِ .

وَمِنْ هُنَا كَانَ طَبِيعِيًّا فِي الْإِسْلَامِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ لَا فَضِيلَةَ إِلَّا وَهُوَ يَطْبَعُ عَلَيْهَا صُورَةَ الْحِجَّةِ بِنِعْمَتِهَا الْخَالِدِ ، وَلَا رَذِيلَةَ إِلَّا وَهُوَ يَضَعُ عَلَيْهَا صُورَةَ النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ؛ فَلَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ الْمُسْلِمَةُ إِلَى أَسْبَابِ الْحَيَاةِ نَظْرَةَ الْفِكْرِ الْمُتَنَازِعِ : يَخْرِصُ عَلَى مَا يَكُونُ لَهُ ، وَيَبْشُرُهُ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَيَمْكُرُ الْحِيلَةَ ، وَيُبْدِعُ وَسَائِلَ الْخِدَاعِ ، وَيُرِيدُ بِكُلِّ ذَلِكَ فِي تَعْيِيدِ الدُّنْيَا - بَلْ نَظْرَةُ الْقَلْبِ الْمُسَالِمِ : يَخْلَعُ الدُّنْيَا وَيَسْخُو بِكُلِّ مَضْنُونٍ فِيهَا ، فَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ، وَيَعْرِفُ الْإِنْسَانِيَّةَ وَيَطْمَحُ فِي غَايَاتِهَا الْعُلْيَا ، فَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ؛ وَيُذْرِكُ أَنَّ الْحَلَالَ وَإِنْ حَلَّ فَوَرَاءَهُ حِسَابُهُ ، وَأَنَّ الْحَرَامَ وَإِنْ غَرَّ لَيْسَ إِلَّا تَعَلُّلٌ سَاعَةٍ ذَاهِيَةٍ ثُمَّ مِنْ وَرَائِهِ عِقَابُ الْأَبَدِ .

وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ أَغْراضِ الْإِسْلَامِ هُوَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى قَانُونُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ ، فَمِنْ أَيِّ عِطْفِيهِ التَّفَتُّ هَذَا الْإِنْسَانُ وَجَدَ عَلَى يَمَنِيهِ وَيَسْرَرِهِ مَلَائِكَةَ اللَّهِ يَكْتَبَانِ أَعْمَالَهُ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، فَهُوَ كَالْمُنْتَهَمِ الْمُسْتَرَابِ بِهِ فِي سِيَاسَةِ النَّفْسِ : لَا يَفْشِي خُطْوَةً إِلَّا بَيْنَ جَاسُوسَيْنِ يُخَصِّيانِ عَلَيْهِ حَتَّى أَسْبَابَ الشَّيْءِ ، وَيَجْمَعَانِ مِنْهُ حَتَّى نَزَوَاتِ الْكَيْدِ ، وَيَتَرَجِّمَانِ عَنْهُ حَتَّى مَعَانِي النَّظَرِ .

وَإِذَا قَامَتْ هَذِهِ الْمَحْكَمَةُ الْمَلَائِكِيَّةُ وَتَقَرَّرَتْ فِي أَغْيَابِ النَّفْسِ ، قَامَ مِنْهَا عَلَى النَّفْسِ شَرْعٌ نَافِذٌ هُوَ قَانُونُ الْإِرَادَةِ الْمُتَمَيِّزَةِ ، تُرِيدُ الْحَسَنَاتِ وَتَعْمَلُ لَهَا ، وَتَخْشَى السَّيِّئَاتِ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ، فَإِذَا مَعَانِي الْجَسَدِ يَخْكُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، لَا لِتَحْقِيقِ الْحُكُومَةِ وَالسُّلْطَةِ ، وَلَكِنْ لِتَحْقِيقِ الْخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ ؛ وَإِذَا نَوَامِيسُ الطَّبِيعَةِ الْمَخْجُونَةِ فِي هَذَا الْحَيَوَانِ ، قَدْ نَهَضَتْ إِلَى جَانِبِهَا نَوَامِيسُ الْإِرَادَةِ الْحَكِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ ، وَإِذَا كُلُّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي النَّفْسِ هِيَ مِنْ صَاحِبِهَا مَادَّةٌ تُهَمُّ عَنْدَ قَاضِيهَا فِي مَحْكَمَتِهَا ، وَإِذَا كُلُّ مَا فِي الْإِنْسَانِ وَمَا حَوْلَ الْإِنْسَانِ ، لَا يُرَادُ مِنْهُ إِلَّا سَلَامُ النَّفْسِ فِي عَاقِبَتِهَا ؛ وَإِذَا مَعْنَى السَّلَامِ هُوَ الْمَعْنَى الْغَالِبُ الْمُتَصَرِّفُ بِالْإِنْسَانِيَّةِ فِي دُنْيَاهَا .

وَكُلُّ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ وَأَدَابِهِ ، فَتِلْكَ هِيَ غَايَتُهَا ، وَهَذِهِ هِيَ فَلَسَفَتُهَا ؛ لَا يُقَرَّرُهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ حَسْبُ ، بَلْ يَغْرُسُهَا فِي الْوَرَاثَةِ غَرْسًا بِالْإِغْيَادِ وَالْمِرَانِ الدَّائِمِ ، لِتَكُونَ عِلْمًا وَعَمَلًا ، فَتَمُكِّنَ لِسَلَامِ النَّفْسِ بَيْنَ الْأَسْلِحَةِ الْمُسَدَّدَةِ إِلَيْهَا مِنْ ضَرَرَاتِ الْحَيَاةِ ، فِي أَيِّدِي الْأَعْدَاءِ الْمُتَالِبَةِ عَلَيْهَا مِنْ شَهَوَاتِ الْغَرِيزَةِ .

فَلَيْسَ يَتِمُّ السَّلَامُ إِلَّا إِذَا عَمَّ هَذَا الدِّينُ بِأَخْلَاقِهِ فَشَمَلَ الْأَرْضَ أَوْ أَكْثَرَهَا ؛ فَإِنَّ قَانُونِ الْعَالَمِ جُنُبٌ يُصْبِحُ مُتَتَرَعًا مِنْ طَبِيعَةِ التَّرَاحُمِ ، فَإِنَّمَا انْتَسَخَ بِهِ قَانُونُ التَّنَازُعِ الطَّبِيعِيِّ ، وَإِنَّمَا كَسَرَ مِنْ شَرَرِهِ ؛ وَيُولَدُ الْمَوْلُودُ يَوْمِيذٍ وَتُولَدُ مَعَهُ الْأَخْلَاقُ الْإِنْسَانِيَّةُ .

\* \* \*

تَقْرِيرُ مَعْنَى الدَّوَامِ لِكُلِّ أَعْمَالِ النَّفْسِ حَتَّى مِثْقَالِ الذَّرَّةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَضَبْطُ ذَلِكَ بِرِيَاضَةِ عَمَلِيَّةٍ دَائِمَةٍ مَقْرُوضَةٍ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا - هَذَا هُوَ أَسَاسُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَلَا

صَلَاحٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِغَيْرِهِ يُرَدُّهَا إِلَى سَبِيلِ قَضِيهَا ، فَإِنَّ مِنْ ذَلِكَ تَكُونُ الصِّفَةُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ ، وَتُجَانِسُ بَيْنَ أَفْرَادِهِ ، فَتُوجِّهُ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا نَحْوَ الْمُمْكِنِ مِنْ كَمَالِهَا ، وَلَا تَرَالُ تُوجِّهُهَا نَحْوَ مَا هُوَ أَعْلَى ، وَتَحْكُمُ فَاسِدَهَا بِصَالِحِهَا ، وَتَأْخُذُ عَاصِيَهَا بِمُطِيعِهَا ، وَتَجْعَلَ الشَّرَفَ الْإِنْسَانِيَّ غَرَضَهَا الْأَوَّلَ ، لِأَنَّ اللَّهَ الْحَقَّ غَرَضُهَا الْأَخِيرُ ؛ فَيُصْبِحُ الْمَرْءُ - وَهَذَا دِينُهُ - كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهِ الْعُمُرُ كَمُلَ فِيهِ اثْنَانِ : الْإِنْسَانُ ، وَالشَّرِيعَةُ . وَلَا يَعُودُ طَالِبُ السَّعَادَةِ النَّفْسِيَّةِ فِي الدُّنْيَا كَالْمَخْجُونِ يَجْرِي وَرَاءَ ظِلِّهِ لِيَمْسِكَهُ ؛ فَلَا يَذَرُكَ فِي الْأَخِيرِ شَيْئًا غَيْرَ مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي عَمَلٍ بَاطِلٍ وَسَعْيٍ ضَائِعٍ .

وَالْإِسْلَامُ يَخْرُصُ أَشَدَّ الْحَرْصِ وَأَبْلَغَهُ عَلَى تَقْرِيرِ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ ، لَا بِالْمُنْطِقِ ، وَلَكِنْ بِالْعَمَلِ ؛ ثُمَّ فِي النَّفْسِ وَعَوَاطِفِهَا ، لَا فِي الْعَقْلِ وَأَرَائِهِ ؛ ثُمَّ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ ، دُونَ الْأَسْتِثْنَاءِ وَالْخُصُوصِ ؛ وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ مَسْقِيهِ عَلَى النَّفْسِ بِمَا يَفْرِضُهُ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّ فَلْسَفَتَهُ أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ هِيَ أَسَاسُ الْعَالَمِ ، وَأَنَّ النِّظَامَ الْخُلُقِيَّ هُوَ أَسَاسُ النَّفْسِ ، وَأَنَّ الْعَمَلَ الدَّائِمَ هُوَ أَسَاسُ النِّظَامِ ، وَأَنَّ رُوحَ الْعَمَلِ الدَّائِمِ تَكُونُ فِيمَا يَشُقُّ بَعْضُ الْمَشَقَّةِ وَلَا يَبْلُغُ الْعُسْرَ وَالْحَرَجَ ، كَمَا تَكُونُ فِيمَا يَسْهُلُ بَعْضُ السُّهُولَةِ وَلَا يَبْلُغُ الْكَسَلَ وَالْإِهْمَالَ .

وَلِلنَّفْسِ وَجْهَانِ : مَا تَعْلُنُ ، وَمَا تُسِرُّ ؛ وَلَا صِدْقَ لِإِعْلَانِهَا حَتَّى يَصْدُقَ ضَمِيرُهَا ، وَلَا صَلَاحَ لِجَهْرِهَا حَتَّى يَصْلَحَ السِّرُّ فِيهَا ، وَلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ الْاجْتِمَاعِيُّ فَاضِلًا بِمَشْهَدِهِ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ بِغَيْبِهِ .

وَلِلْعَالَمِ كَذَلِكَ وَجْهَانِ : حَاضِرُهُ الَّذِي يَمُرُّ فِيهِ ، وَآتِيهِ الَّذِي يَمْتَدُّ لَهُ ؛ وَلَا يُفْلِحُ حَاضِرٌ مُنْقَطِعٌ لَا يُوَرِّثُ مَا بَعْدَهُ كَمَا وَرِثَ مَا قَبْلَهُ ، وَمَا حَاضِرُ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ عَمَلِ النَّاسِ فِي اسْتِمْرَارِ فَضَائِلِهِمْ بِأَقْيَةِ نَامِيَةٍ .

وَلِلنِّظَامِ أَيْضًا وَجْهَانِ : نِظَامُ الرِّغْبَةِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْأَطِيعَتَانِ لَهَا ، وَنِظَامُ الرِّغْبَةِ عَلَى الْخَشْيَةِ وَالْقَرَّةِ مِنْهَا . وَلَا يَسْتَقِيمُ شَأْنُ لَيْسَ أَسَاسُهُ الطَّاعَةُ فِي النَّفْسِ ، وَلَا يَسْتَمِرُّ نِظَامٌ عَلَيْهِ خِلَافٌ مِنْ فِكْرِ الْعَامِلِ بِهِ .

وَلِلْعَمَلِ الدَّائِمِ طَرِيقَتَانِ : إِحْدَاهُمَا طَرِيقَةُ الْجَادِّ يَعْمَلُ لِلْعَاقِبَةِ يَسْتَقْبِلُهَا ، فَلَا يَجِدُ مِمَّا

يَسُئُ عَلَيْهِ إِلَّا لَذَّةَ الْمُغَالَبَةِ لِلنَّصْرِ : كُلُّ مَرَارَةٍ مِنْ قِبَلِهِ هِيَ حَلَاوَةٌ فِيهِ مِنْ بَعْدُ ، وَلَا يَعْرِفُ لِلْمِخَنَةِ يُبْتَلَى بِهَا إِلَّا مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيُّ وَهُوَ انْقِاطُ نَفْسِهِ ، فَيُضَيِّحُ الصَّبْرَ عِنْدَهُ كَصَبْرِ الْمُحِبِّ عَلَى أَشْيَاءَ مِمَّنْ يُحِبُّهُ ؛ صَبْرٌ فِيهِ مِنَ السَّخْرِ مَا يَكْسُو الْحَزْمَانِ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ خِيَالَ الْاسْتِمْتَاعِ ، وَيُذِنُ النَّفْسُ فِي الْعَجْزِ عَنْ بَعْضِ أَغْرَاضِهَا - لَذَّةٌ كُلِّدَةٌ إِذْرَاكِهِ .

\* \* \*

تِلْكَ هِيَ فَلَسَفَةُ الْإِسْلَامِ ؛ لَا قَوَامٌ لِلْأَمْرِ فِيهَا وَلَا مِسَاكٌ لَهُ إِلَّا بِتَقْرِيرِ مَعْنَى الدَّوَامِ لِكُلِّ أَعْمَالِ النَّفْسِ ، وَوَضْعُ طَائِعِ الْجَنَّةِ عَلَى أَعْمَالِ الْجَنَّةِ ، وَطَائِعِ النَّارِ عَلَى أَعْمَالِ النَّارِ - وَحَيَاةُ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ النَّاسِ حَيَاةٌ رِيَاضِيَّةٌ عَمَلِيَّةٌ بَيْنَ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ ، بَلْ بَيْنَ الدَّقِيقَةِ وَالِدَّقِيقَةِ ، بِمَا يَكْلَفُ مِنْ أَعْمَالِ جِسْمِهِ وَحَوَاسِهِ ، ثُمَّ أَعْمَالِ قَلْبِهِ وَنَبِيِّهِ - وَتَعْظِيمِ الشَّخْصِيَّةِ الرَّوْحِيَّةِ دُونَ الشَّخْصِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ ، فَلَا يُحَاوِلُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَجْعَلَ بَطْنَهُ فِي حَجْمِ مَمْلَكَةٍ أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ ، بِمَا يَنْتَقِصُ مِنْ حُقُوقِ غَيْرِهِ ؛ بَلْ تَسْعُ ذَاتِيَّةُ كُلِّ فَرْدٍ بِمَا يَجِبُ لَهُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَبِهَذَا لَا يَغْيِرُهُ تَغَيُّرُ مَقَائِيسِ الْأَخْلَاقِ فِي الْأَرْضِ : بِالْمُضْلَحَةِ لَا بِاللَّذَّةِ ؛ فَلَا يَقَعُ الْخَطَأُ وَلَا التَّزْوِيرُ ، وَتَتَحَلَّى الْمُشْكِلَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ ، مَا دَامَتِ الْحَيَاةُ لَا تَجِدُ مِنْ أَهْلِهَا كُلِّ سَاعَةٍ عَقْدًا فِيهَا .

وَالْإِسْتِثْنَاءُ بِذَلِكَ الْمَعْنَى عَلَى الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ هُوَ وَحْدَهُ الطَّرِيقَةُ لِإِنْشَاءِ طَبِيعَةِ الْخَيْرِ فِي النَّاسِ عَلَى نَسَقِهَا الطَّبِيعِيِّ ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الطَّرِيقَةُ لِتَطْهِيرِ النَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ أَوْبَانِهِ الْأَفْتِصَادِيَّةِ ، الَّتِي جَعَلَتْهُ كَأَنَّمَا هُوَ تَارِيخُ الْأَشْتَانِ وَالْأَضْرَاسِ ، وَتَرَكَّتِ النَّاسَ يَهْدِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا يَهْدِمُ الْجَارُ حَائِطَ جَارِهِ لِيُوسِّعَ بَيْتَهُ .

وَأَسَاسُ الْعَمَلِ فِي الْإِسْلَامِ إِخْضَاعُ الْحَيَاةِ لِلْعَقِيدَةِ ، فَتَجْعَلُهَا الْعَقِيدَةُ أَقْوَى مِنَ الْحَاجَةِ ؛ فَيَكُونُ الْفَقِيرُ مُعْدِمًا وَيَتَعَفَّفُ ، وَيَكُونُ الْغَنِيُّ مُوسِرًا وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَكُونُ الشَّرُّهُ طَامِعًا وَيُمْسِكُ ، وَيَكُونُ الْقَوِيُّ قَادِرًا وَيُحْجِمُ ، وَكَمَا قَالَ الْعَرَبُ فِي تَحْقِيقِ نَامُوسِ الْأَنْفَةِ وَالْحَمِيَّةِ وَغَلْبَتِهِ عَلَى النَّامُوسِ الْأَفْتِصَادِيِّ : « تَجُوعُ الْحُرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِذَنبِهَا » .

\* \* \*

تُرِيدُ الْإِنْسَانِيَّةُ امْتِنَادًا غَيْرَ امْتِنَادِهَا التَّجَارِي فِي الْأَرْضِ ، وَتَحْتَاجُ إِلَى مَعْنَى يَقُودُ إِنْسَانَهَا غَيْرَ الْحَيَوَانِ الَّذِي فِيهِ ؛ وَإِذَا قَادَ الْغُرَابُ قَوْمًا { فَإِنَّمَا هُوَ } - كَمَا قَالَ شَاعِرُنَا - يَمُرُّ بِهِمْ عَلَى جَيْفِ الْكِلَابِ . . . وَالْإِنْسَانِيَّةُ الْيَوْمَ فِي مِثْلِ لَيْلِ حَوْشِي مُظْلِمٍ اخْتَلَطَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ، وَلَيْسَتْ مَعَانِي الْإِسْلَامِ إِلَّا الْإِشْرَاقُ الْإِلَهِيُّ عَلَى هَذِهِ الْكُتَّافَةِ الْمَادِّيَّةِ الْمُتَرَاكِمَةِ ، وَإِذَا رُفِعَ الْمِصْبَاحُ لَمْ تَجِدِ الظَّلَامَ إِلَّا وَرَاءَ الْحُدُودِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا أَشْعَتُهُ .

وَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ طَبِيعَةِ النَّفْسِ أَنَّ إِنْسَانِيَّةَ الْفَرْدِ لَا تَعْظُمُ وَتَسْمُو وَتَتَحَلَّى وَتَفْرَحُ فَرَحَهَا الصَّادِقَ وَتَحْزَنُ حُزْنَهَا السَّامِي - إِلَّا أَنْ تَعِيشَ فِي مَخْبُوبٍ ؛ فَإِنْسَانِيَّةُ الْعَالَمِ لَا تَكُونُ مِثْلَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا عَاشَتْ فِي نَبِيِّهَا الطَّبِيعِيِّ ، نَبِيٍّ أَخْلَاقُهَا الصَّحِيحَةُ وَأَدَابُهَا الْعَالِيَّةُ وَنَظَامُهَا الدَّقِيقِي ؛ وَأَيْنَ تَجِدُ هَذَا الْمَخْبُوبَ الْأَعْظَمَ إِلَّا فِي مُحَمَّدٍ وَدِينِ مُحَمَّدٍ ؟

وَعَجِيبٌ أَنْ يَجْهَلَ الْمُسْلِمُونَ حِكْمَةَ ذِكْرِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْأَذَانِ كُلِّ يَوْمٍ ، يُنَادَى بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ مِلَّةَ الْجَوِّ ؛ ثُمَّ حِكْمَةُ ذِكْرِهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ مِنَ الْفَرِيضَةِ وَالسُّنَّةِ وَالْكَافِلَةِ ، يُهْمَسُ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ مِلَّةَ النَّفْسِ ! وَهَلِ الْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفَرَضُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَنْقَطِعُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ وَلَا يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ النَّارِيخِ ، وَلَا جُزْءًا وَاحِدًا مِنَ الْيَوْمِ ؛ فَيَمْنَعُوا أَنْ يَمُوتَ مَهْمَا امْتَدَّ الْإِسْلَامُ كَأَنَّهُ عَلَى أَوَّلِهِ ، وَكَأَنَّهُ فِي يَوْمِهِ لَا فِي ذَهْرِ بَعِيدٍ ؛ وَالْمُسْلِمُ كَأَنَّهُ مَعَ نَبِيِّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ تَبَعُهُ رُوحُ الرِّسَالَةِ ، وَيَسْطَعُ فِي نَفْسِهِ إِشْرَاقُ الثَّبُوءِ ، فَيَكُونُ دَائِمًا فِي أَمْرِهِ كَالْمُسْلِمِ الْأَوَّلِ الَّذِي غَيَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ ؛ وَيَظْهَرُ هَذَا الْمُسْلِمُ الْأَوَّلُ بِأَخْلَاقِهِ وَفَضَائِلِهِ وَحَمِيَّتِهِ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا مَكَانَ إِنْسَانٍ هَذِهِ الْبُقْعَةِ ، لَا كَمَا نَرَى الْيَوْمَ ؛ فَإِنْ كُلُّ أَرْضٍ إِسْلَامِيَّةٌ لَا يَكَادُ يَظْهَرُ فِيهَا إِلَّا إِنْسَانُهَا النَّارِيخِيُّ بِجَهْلِهِ وَخُرَافَاتِهِ وَمَا وَرَثَ مِنَ الْقِدَمِ ؛ فَهَذَا الْمُسْلِمُ الْفِرْعَوْنِيُّ ، وَفِي نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِ الْوُثْنِيُّ ، وَفِي بَلَدِ الْمُسْلِمِ الْمَجُوسِيُّ ، وَفِي جِهَةِ الْمُسْلِمِ الْمُعْطَلُ . . . وَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا نَفْسَ الْمُسْلِمِ الْإِنْسَانِيِّ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ !

لَا تَنْقَطِعْ مِنْ نَبِيِّكَ الْعَظِيمِ ، وَعِشْ فِيهِ أَبَدًا ، وَاجْعَلْهُ مَثَلَكَ الْأَعْلَى ؛ وَحِينَ تَذْكُرُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَكُنْ كَأَنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ كُنْ دَائِمًا كَالْمُسْلِمِ الْأَوَّلِ ؛ كُنْ دَائِمًا أَبْنَى الْمُعْجَزَةِ .

### حَقِيقَةُ الْمُسْلِمِ (\*)

لَا يَعْرِفُ التَّارِيخُ غَيْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَجُلًا أَفْرَغَ اللَّهُ وُجُودَ الْإِنْسَانِي كُلِّهِ ؛ كَمَا تَنْصَبُ الْمَادَّةُ فِي الْمَادَّةِ ، لِيَتَمَرَّجَ بِهَا ، فَتَحُولَهَا ، فَتُخْدِتَ مِنْهَا الْجَدِيدَ ، فَإِذَا الْإِنْسَانِيَّةُ تَتَحَوَّلُ بِهِ وَتَنْمُو ، وَإِذَا هُوَ ﷺ وَجُودٌ سَارَ فِيهَا فَمَا تَبَرَّحَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ تَنْمُو بِهِ وَتَتَحَوَّلُ .

كَانَ الْمَعْنَى الْأَدَمِي فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَأَنَّمَا وَهَنَ مِنْ طُولِ الدَّهْرِ عَلَيْهِ ، يَتَحَقَّقُهُ وَيَمْنَحُوهُ وَيَتَعَاوَرُهُ بِالْشَّرِّ وَالْمُنْكَرِ ؛ فَأَبْتَعَتْ اللَّهُ تَارِيخَ الْعَقْلِ بِأَدَمَ جَدِيدَ بَدَأَتْ بِهِ الدُّنْيَا فِي تَطَوُّرِهَا الْأَعْلَى مِنْ حَيْثُ يَرْتَفِعُ الْإِنْسَانُ عَلَى ذَاتِهِ ، كَمَا بَدَأَتْ مِنْ حَيْثُ يُوْجَدُ الْإِنْسَانُ فِي ذَاتِهِ ؛ فَكَانَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ دَهْرًا بَيْنَ اثْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ الْمَجِيءِ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالثَّانِي فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ الْعَوْدَةِ إِلَيْهَا : كَانَ فِي آدَمَ سِرٌّ وَوُجُودَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَانَ فِي مُحَمَّدٍ سِرٌّ كَمَالِهَا .

\* \* \*

وَلِهَذَا سُمِّيَ الدِّينُ (بِالْإِسْلَامِ) ؛ لِأَنَّهُ إِسْلَامُ النَّفْسِ إِلَى وَاجِبِهَا ، أَيْ إِلَى الْحَقِيقَةِ مِنَ الْحَيَاةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ؛ كَأَنَّ الْمُسْلِمَ يُتَكَرَّرُ ذَاتُهُ فَيَسْلِمُهَا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ تُصَرِّفُهَا وَتَعْمَلُهَا فِي كَمَالِهَا وَمَعَالِيهَا ؛ فَلَا حَظَّ لَهُ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ يُنْسِكُهَا عَلَى شَهَوَاتِهِ وَمَنَافِعِهِ ، وَلَكِنْ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِهَا الْحَظُّ .

وَمَا الْإِسْلَامُ فِي جُمْلَتِهِ إِلَّا هَذَا الْمَبْدَأُ : مَبْدَأُ انْكَارِ الذَّاتِ (وَالْإِسْلَامُهَا) طَائِعَةً عَلَى الْمُنْشِطِ وَالْمُنْكَرَةِ لِفُرُوضِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ؛ وَكُلَّمَا نَكَصَتْ إِلَى مَنَزَعِهَا الْخَيَوَانِيِّ ، أَسْلَمَهَا صَاحِبُهَا إِلَى وَارِعِهَا الْإِلَهِيِّ ؛ وَهُوَ أَبَدًا يَرُوضُهَا عَلَى هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَا دَامَ حَيًّا ؛ فَيَتَنَزَّعُهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَوْهَامِ دُنْيَاهَا ، لِيَضَعَهَا مَا بَيْنَ يَدَيْ حَقِيقَتِهَا الْإِلَهِيَّةِ : يَرُوضُهَا عَلَى ذَلِكَ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ مُسَمَّاةٍ فِي اللُّغَةِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ، لَا يَكُونُ الْإِسْلَامُ إِسْلَامًا بِغَيْرِهَا ؛

(\*) « الرسالة » ، العدد : ٩٣ ، ١٢ محرم سنة ١٣٥٤ هـ = ١٥ أبريل / نيسان ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٥٧٣ - ٥٧٥ .

فَلَا غَرَوْكَ كَانَتْ الصَّلَاةُ بِهَذَا الْمَعْنَى كَمَا وَصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ : هِيَ عِمَادُ الدِّينِ (١) .

\* \* \*

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ فِي كُلِّ مَطْلَعِ شَمْسٍ مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ صَلَاةٌ ، أَيْ : إِسْلَامٌ النَّفْسِ إِلَى الْإِرَادَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الشَّامِلَةِ (٢) الْقَائِمَةِ عَلَى الطَّاعَةِ لِلْفَرَضِ الْإِلَهِيِّ ، وَانْكَارِ لِمَعَانِيهَا الدَّائِيَّةِ الْقَائِيَةِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الشَّرِّ فِي الْأَرْضِ ، وَإِقْرَارِهَا لِحَقَائِقِ فِي حَيِّرِ الْخَيْرِ الْمَخْصُصِ الْبَعِيدِ عَنِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَأَنَامِهَا وَمُنْكَرَاتِهَا . وَمَعْنَى ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْقِيقُ الْمُسْلِمِ لِيُجُودَ رُوحِهِ ؛ إِذْ كَانَتْ أَعْمَالُ الدُّنْيَا فِي جُمْلَتِهَا طُرُقًا تَشْتَبِهُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ وَتَتَبَعَّرُ ، حَتَّى تَصِلَ رُوحُ الْأَخِ عَنْ رُوحِ أَخِيهِ فَتُنْكَرُهَا وَلَا تَعْرِفُهَا !

وَهَذَا الْوُجُودُ الرُّوحِيُّ هُوَ مَبْنَعُ الْحَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي جَاءَ الْإِسْلَامُ لِيَهْدِيَ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَيْهَا : حَالَةَ السَّلَامِ الرُّوحَانِيِّ الَّتِي يَجْعَلُ حَزَبَ الدُّنْيَا الْمُهْلِكَةَ حَزَبًا فِي خَارِجِ النَّفْسِ لَا فِي دَاخِلِهَا ، وَيَجْعَلُ ثَرْوَةَ الْإِنْسَانِ مُقَدَّرَةً بِمَا يُعَامِلُ اللَّهُ وَالْإِنْسَانِيَّةَ عَلَيْهِ ؛ فَلَا يَكُونُ دَهْبُهُ وَفَضْلُهُ مَا كَتَبَتْ عَلَيْهِ الدُّوَلُ : « ضَرْبٌ فِي مَمْلَكَةِ كَذَا » ، وَلَكِنْ مَا يَرَاهُ هُوَ قَدْ كُتِبَ عَلَيْهِ : « صُنِعَ فِي مَمْلَكَةِ نَفْسِي » ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ وَجُودُهُ الْأَجْتِمَاعِي لِلْأَخْذِ حَسْبُ ، بَلْ لِلْعَطَاءِ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ قَانُونَ الْمَالِ هُوَ الْجَمْعُ ، أَمَّا قَانُونَ الْعَمَلِ فَهُوَ الْبَذْلُ .

بِالْإِنْصِرَافِ إِلَى الصَّلَاةِ وَجَمْعِ النَّبِيِّ عَلَيْهَا ، يَسْتَشْعِرُ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ قَدْ حَطَّمَ الْحُدُودَ الْأَرْضِيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِنَفْسِهِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَخَرَجَ مِنْهَا إِلَى رُوحَانِيَّةٍ لَا يُحَدُّ فِيهَا إِلَّا بِاللَّهِ وَخُدَّهِ .

وَبِالْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ ، يُحَقِّقُ الْمُسْلِمُ لِدَانِهِ مَعْنَى إِفْرَاقِ الْفِكْرِ السَّامِيِّ عَلَى الْجِسْمِ كُلِّهِ ، لِيَتَمَرَّجَ بِجَلَالِ الْكُونِ وَوَقَارِهِ ، كَأَنَّهُ كَائِنٌ مُنْتَصِبٌ مَعَ الْكَائِنَاتِ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .

وَبِالتَّوَلَّى شَطْرَ الْقِبْلَةِ فِي سَمْتِهَا الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ عَلَى اخْتِلَافِ أَوَضَاعِ الْأَرْضِ ، يَعْرِفُ

(١) « الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ » رواه البيهقي في « شعب الإيمان » . بِسَام .

(٢) هَذِهِ هِيَ حِكْمَةُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ وَالْحُجَّةِ عَلَيْهَا وَكُونِهَا أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهَا ؛ وَأَنَّ الثَّوَابَ الْأَكْبَرَ فِيهَا وَخُدَّهَا .

الْمُسْلِمِ حَقِيقَةَ الرُّمُزِ لِلْمَزَكَّرِ الثَّابِتِ فِي رُوحَانِيَةِ الْحَيَاةِ ؛ فَيَحْمِلُ قَلْبُهُ مَعْنَى الْأَطْمِئْنَانِ وَالْأَسْتِقْرَارِ عَلَى جَادِيَّةِ الدُّنْيَا وَقَلْفِهَا .

وَبِالزُّكُوعِ وَالشُّجُودِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، يُشْعِرُ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ مَعْنَى السَّمْوِ وَالرُّفْعَةِ عَلَى كُلِّ مَا عَدَا الْخَالِقَ مِنْ وُجُودِ الْكَوْنِ .

وَبِالْجُلُوسَةِ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ التَّحِيَّاتِ الطَّيِّبَاتِ ، يَكُونُ الْمُسْلِمُ جَالِسًا فَوْقَ الدُّنْيَا يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَيَشْهَدُ وَيَدْعُو .

وَبِالتَّسْلِيمِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ ، يُقْبِلُ الْمُسْلِمُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا إِقْبَالًا جَدِيدًا : مِنْ جِهَتِي السَّلَامِ وَالرَّحْمَةِ .

هِيَ لَحَظَاتُ مِنَ الْحَيَاةِ كُلِّ يَوْمٍ فِي غَيْرِ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ لِجَمْعِ الشَّهَوَاتِ وَتَقْيِيدِهَا بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ بِسَلْسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا مِنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ ، وَلِتَمَزِيزِ الْفَنَاءِ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلِّ يَوْمٍ عَنِ النَّفْسِ ؛ فَيَرَى الْمُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ حَقِيقَةَ الْخُلُودِ ، فَتَشْعُرُ الرُّوحُ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَتَّسِعُ .

هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ ، وَهِيَ كَذَلِكَ خَمْسُ مَرَّاتٍ يَفْرُغُ فِيهَا الْقَلْبُ مِمَّا أَمْتَلَأَ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، فَمَا أَدَقُّ وَأَبْدَعُ وَأَصْدَقُ قَوْلُهُ ﷺ : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » (١) .

\* \* \*

لَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا إِبْدَاعًا لِلصِّبْغَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَنْظِمُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِيهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ آدَابُهُ كُلُّهَا حُرَاسًا عَلَى الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ ، كَأَنَّهَا مَلَائِكَةٌ مِنَ الْمَعَانِي ؛ وَكَانَ الْإِسْلَامُ بِهَا عَمَلًا إِصْلَاحِيًّا وَقَعَ بِهِ التَّطَوُّرُ فِي عَالَمِ الْغَرِيزَةِ ، فَفَقَلَهُ إِلَى عَالَمِ الْخُلُقِ ، ثُمَّ أَرْتَقَى بِالْخُلُقِ إِلَى الْحَقِّ ، ثُمَّ سَمَّا بِالْحَقِّ إِلَى الْخَيْرِ الْعَالَمِ ؛ فَهُوَ سَمُوٌّ فَوْقَ الْحَيَاةِ بِثَلَاثِ طَبَقَاتٍ ، وَتَنْدَرُجُ إِلَى الْكَمَالِ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ ، وَابْتِعَادًا عَنِ الْأَوْهَامِ بِمَسَافَةِ ثَلَاثِ حَقَائِقَ .

(١) [النسائي ، رقم : ٣٩٤٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٨٨٤ ، ١٢٦٤٤ ، ١٣٦٢٣] كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَسْتَبْطِئُ الصَّلَاةَ وَقَدْ جَاءَ وَقْتُهَا ، مِنْ شِدَّةِ شَوْقِهِ إِلَيْهَا فَيَقُولُ : « أَرَحْنَا بِهَا يَا بَلَاءُ » [ابو داود ، رقم : ٤٩٨٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٥٧٨ ، ٢٢٦٤٣] وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَدَقَّ فِي تَصَوُّرِ نَفْسِيهِ ﷺ وَأَشْوَاقِ رُوحِهِ الْعَالِيَةِ مِنْ قَوْلِهِ : « أَرَحْنَا بِهَا » . فَهَذَا كَمَالُ الْأَتِّصَالِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ .

وَبَيْنَكَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ كَانَتْ الدُّنْيَا الْمُسْلِمَةُ الَّتِي أَسَّسَهَا النَّبِيُّ ﷺ دُنْيَا أَسْلَمَتْ طَبِيعَتُهَا ، فَأَصْبَحَتْ عَلَى مَا أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ لَا مَا أَرَادَتْ هِيَ ؛ وَكَأَنَّهَا قَائِمَةٌ بِنَوَامِيسٍ مِنْ أَهْلِهَا ، لَا عَلَى أَهْلِهَا ؛ وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَغْزُو الْأُمَمَ بِالْعَرَبِ وَيَفْتَحُهَا ، وَلَكِنْ الْحَقِيقَةُ الْعَجِيبَةُ أَنَّ إِقْلِيمَنَا مِنَ الدُّنْيَا كَانَ يُحَارِبُ سَائِرَ أَقَالِيمِ الْأَرْضِ بِالطَّبِيعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْجَدِيدَةِ لِهَذَا الدِّينِ .

وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَلْقَى فِي رِمَالِ الْجَزِيرَةِ رُوحَ الْبَحْرِ ، وَبَعَثَهَا بَعْثَهُ الْإِلَهِيُّ لِأَمْرِهِ ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ نَقْطَةُ الْمَدِّ الَّتِي يَقُورُ الْبَحْرُ مِنْهَا ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ أَمْوَاجَهُ الَّتِي غَسَلَتْ بِهَا الدُّنْيَا ...

لِهَذَا سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ ، لَا كَمَا يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ ، وَلَكِنْ كَمَا يَتَلَقَّوْنَ الْحُكْمَ الثَّابِتَ الْمَقْضِيَّ ؛ وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ الْبَلَاغَةَ وَخَدَهَا ، بَلْ رَوْعَةُ أَمْرِ السَّمَاءِ فِي بَلَاغَةٍ ؛ وَأَتَّصَلُوا بِنَبِيِّهِمْ ، ثُمَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، لَا كَمَا يَتَّصِلُ إِنْسَانٌ بِإِنْسَانٍ ، بَلْ كَمَا تَتَّصِلُ الْأَمْوَاجُ بِقُوَّةِ الْمَدِّ ، ثُمَّ كَمَا يُمَدُّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي قُوَّةٍ وَاحِدَةٍ .

وَحَقَّقُوا فِي كَمَالِهِ ﷺ وَجُودَهُمُ النَّفْسِيَّ ؛ فَكَانُوا مِنْ زَخَارِفِ الْحَيَاةِ وَبَاطِلِهَا فِي مَوْضِعِ الْحَقِيقَةِ الَّذِي يَرَى فِيهِ الشَّيْءُ لَا شَيْءَ .

وَرَأَوْا فِي إِرَادَتِهِ ﷺ النُّقْطَةَ الثَّابِتَةَ فِيمَا يَتَضَارَبُ مِنْ خِيَالَاتِ النَّفْسِ ؛ فَكَانُوا أَكْبَرَ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ عَلَى الْأَرْضِ ، لَا مِنْ كُتُبٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا فِلَسْفَةٍ ، بَلْ مِنْ قَلْبِ نَبِيِّهِمْ وَخَدِهِ .

وَعَرَفُوا بِهِ ﷺ تَمَامَ الرُّجُوعَةِ ؛ وَمَتَى تَمَّتْ هَذِهِ الرُّجُوعَةُ تَمَامَهَا فِي إِنْسَانٍ ، رَجَعَتْ لَهُ الطُّفُولَةُ فِي رُوحِهِ ، وَامْتَلَكَ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ الَّتِي لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا أَغْظَمُ الْفَلَسَفَةِ وَالْحُكَمَاءِ ، فَأَصْبَحَ كَأَنَّما يَمْشِي فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِخُطُواتٍ مُسَدَّدَةٍ لَا تَرْتَعِبُ وَلَا تَتَحَرَفُ ، فَلَا شَرَّ وَلَا رَذِيلَةَ ؛ وَدُنْيَاهُ هِيَ الدُّنْيَا كُلُّهَا بِشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، يَمْلِكُهَا وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ مِنْهَا شَيْئًا ، مَا دَامَتْ فِي قَلْبِهِ طَبِيعَةُ الشُّرُورِ ، فَلَا فَقْرَ وَلَا غِنَى مِمَّا يَشْعُرُ النَّاسُ بِمَعَانِيهِ ، بَلْ كُلُّ

مَا أَمَكْنَ فَهُوَ غَنَى كَامِلٌ ، إِذْ لَمْ تَعُدِ الْقُوَّةُ فِي الْمَادَّةِ تَزِيدُ بِزِيَادَتِهَا وَتَقْصُصُ بِقَصْصِهَا ، بَلِ الْقُوَّةُ فِي الرُّوحِ الَّتِي تَتَصَرَّفُ بِطَبِيعَةِ الْوُجُودِ ، وَتَدْفَعُ قُوَى الْجِسْمِ بِمِثْلِ دَوَائِعِ الطُّفُولَةِ النَّامِيَةِ الْمُتَعَلِّبَةِ ، حَتَّى لِتَجْعَلَ مِنَ النَّورِ وَالْهَوَاءِ مَا يُؤْتَدُمُ بِهِ مَعَ الْخُبْرِ الْقَفَارِ ، كَمَا يُؤْتَدُمُ بِاللَّحْمِ وَأَطَايِبِ الْأَطْعِمَةِ<sup>(١)</sup> .

وَبِذَلِكَ لَا تَسَلِّطُ ضَرُورَةُ عَلَى الْجِسْمِ - كَالْجُوعِ وَالْفَقْرِ وَالْأَلَمِ وَنَحْوِهَا - إِلَّا كَانَ تَسَلُّطُهَا كَأَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ قُوَّةٍ فِي الْوُجُودِ إِلَى قُوَّةٍ فِي هَذَا الْجِسْمِ : أَنْ تَظْهَرَ لِتَعْمَلَ عَمَلَهَا الْمُعْجِزَ فِي إِنْطَالِ هَذِهِ الضَّرُورَةِ . وَهَذَا الْجِنْسُ مِنَ النَّاسِ كَالْأَرْهَارِ عَلَى أَغْصَانِهَا الْخُضِرِ ؛ لَوْ قَالَتْ شَيْئًا لَقَالَتْ : إِنَّ ثَرَوَتِي فِي الْحَيَاةِ هِيَ الْحَيَاةُ نَفْسُهَا ، فَلَيْسَ لِي فَقْرٌ وَلَا غِنَى ، بَلِ طَبِيعَةٌ أَوْ لَا طَبِيعَةٌ .

\* \* \*

وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُ يُضْطَرُّ بِالسَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَتَقَعُ ضَرَبَاتُ السُّيُوفِ عَلَى جِسْمِهِ فَمُتَمَرِّقُهُ ؛ فَمَا يُحْشِئُهَا إِلَّا كَأَنَّهَا قُبُلُ أَصْدِقَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَلْقَوْنَهُ وَيُعَانِفُونَهُ !

وَكَانَ يُبْتَلَى فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَلَا يَشْعُرُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُرَرُّ الْمُبْتَلَى يُعْرِفُ فِيهِ الْحُزْنَ وَالْانْكِسَارَ ، بَلِ تَظْهَرُ فِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُتَصَرِّةُ كَمَا يَظْهَرُ النَّارِنْخُ الطَّافِرُ فِي بَطْلِهِ الْعَظِيمِ أَصِيبَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ جِسْمِهِ بِجِرَاحٍ ، فَهِيَ جِرَاحٌ وَتَشْوِينَةٌ وَالْمُ ، وَهِيَ شَهَادَةُ النَّصْرِ ! وَلَمْ تَكُنْ أَتَقَالِ الْمُسْلِمِ مِنْ دُنْيَاهُ أَثْقَالًا عَلَى نَفْسِهِ ، بَلِ كَانَتْ لَهُ أَسْبَابُ قُوَّةٍ وَسُمُومٌ ؛ كَالنَّسْرِ الْمَخْلُوقِ لِبَطَّاتِ الْجَوِّ الْعُلْيَا ، يَحْمِلُ دَائِمًا مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ ثِقَلَ جَنَاحَيْهِ الْعَظِيمَيْنِ .

(١) عَنْ أَبِي عُبَيْسٍ قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى أُمِّ هَانِئٍ ، وَكَانَ جَانِبًا ، فَقَالَ لَهَا : « أَعْنَدَكَ طَعَامٌ أَكُلُهُ ؟ » فَقَالَتْ : إِنَّ عِنْدِي لِكِسْرًا يَابِسَةً ، وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَقْدِمَهَا إِلَيْكَ ؛ فَقَالَ : « هَلُمِّيْهَا ! » ، فَكَسَرَهَا فِي مَاءٍ ، وَجَاءَتْهُ بِمِلْحٍ ، فَقَالَ : « مَا مِنْ إِدَامٍ ؟ » فَقَالَتْ : « مَا عِنْدِي إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ » . فَقَالَ : « هَلُمِّيْهِ ! » فَلَمَّا جَاءَتْ بِهِ صَبَّهَ عَلَى طَعَامِهِ ، فَأَكَلَ مِنْهُ ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ يَا أُمَّ هَانِئٍ ، لَا يَقْفُرُ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ » . انْتَهَى . [المستدرک للحاکم ، رقم ٢٤٧٣ / ٦٨٧٥ ، ٥٤ / ٤] .

وَكَانَتِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي جَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ مَثَلَهُمُ الْأَعْلَى ، وَأَقْرَبَهَا فِي أَنْفُسِهِمْ بِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ - أَنَّ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ بِكُلِّ مُسْلِمٍ عَلَى غَيْرِهِ ؛ فَلَا تَكُونُ فِي الْأُمَّةِ إِلَّا إِرَادَةٌ وَاحِدَةٌ مُتَعَاوِنَةٌ ، تَجْعَلُ الْمُسْلِمَ وَمَا هُوَ إِلَّا رُوحٌ أَمْتِهِ تَعْمَلُ بِهِ أَعْمَالَهَا هِيَ لَا أَعْمَالُهُ وَخَدَهَا .

الْمُسْلِمُ إِنْسَانٌ مُتَمِّدٌ بِمَنَافِعِهِ فِي مَعْنَاهُ الْاجْتِمَاعِيِّ حَوْلَ أَمْتِهِ كُلَّهَا ، لَا إِنْسَانٌ ضَيِّقٌ مُجْتَمِعٌ حَوْلَ نَفْسِهِ بِهَذِهِ الْمَنَافِعِ ؛ وَهُوَ مِنْ غَيْرِهِ فِي صِدْقِ الْمُعَامَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ كَالنَّاجِرِ مِنَ النَّاجِرِ : نَقُولُ الْأَمَانَةَ لِكُلِّهِمَا : لَا قِيَمَةَ لِمِيزَانِكَ إِلَّا أَنْ يُصَدِّقَهُ مِيزَانُ أَخِيكَ .

وَلَنْ يَكُونَ الْإِسْلَامُ صَحِيحًا تَامًا حَتَّى يَجْعَلَ حَامِلُهُ مَثَلًا مِنْ نَبِيِّهِ فِي أَخْلَاقِ اللَّهِ ؛ فَمَا هُوَ بِشَخْصٍ يَضْطُرُّ بِطَبِيعَتِهِ : يَفْهَرُهَا مَرَّةً وَتَفْهَرُهُ مَرَارًا ؛ وَلَكِنَّ طَبِيعَةً تَضْطُرُّ بِشَخْصِهَا فِيهِ قَانُونٌ وَجُودُهُ .

لَا يَضْطَرُّ مِنْ شَيْءٍ ، وَكَيْفَ يَضْطَرُّ وَمَعَهُ الْأَسْتِقْرَارُ ؟

لَا يَخَافُ مِنْ شَيْءٍ ، وَكَيْفَ يَخَافُ وَمَعَهُ الطَّمَانِينَةُ ؟

لَا يَخْشَى مَخْلُوقًا ، وَكَيْفَ يَخْشَى وَمَعَهُ اللَّهُ ؟

أَيُّهَا الْأَسَدُ ، هَلْ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ إِلَّا فِي طَبِيعَةِ مَخَالِكَ وَأَنْيَابِكَ . . . ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

### وَحْيُ الْهَجْرَةِ ۥ فِي نَفْسِي ۥ (\*)

إِنَّ التَّارِيخَ لِيَكَلِّمُ بِلُغَةٍ أَوْسَعَ مِنْ أَلْفَاظِهِ إِذَا قَرَأَهُ مَنْ يَقْرُؤُهُ عَلَى أَنَّهُ بَعْضُ نَوَامِيسِ الْوُجُودِ ، صُوِّرَتْ فِيهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، كَيْفَ اعْتَوَرَتْ أَغْرَاضَهَا ، وَكَيْفَ مَدَّتْ فِي نَسَقِهَا ، وَكَيْفَ تَغْلَغَلَتْ فِي مَسَالِكِهَا ، وَمَا تَأَتَّى لَهَا فَجَرَتْ بِهِ مَجْرَاهَا ، وَمَا دَفَعَهَا فَانْتَحَدَرَتْ مِنْهُ إِلَى مَقَارِهَا ؛ فَهُوَ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَسْتَقْبِلُهُ تَقَرُّأً فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ أَحْوَالٌ مِنَ الْوُجُودِ تَعْتَرِضُهَا فَتُغَيِّرُ عَلَيْكَ حِسَّكَ بِأَلْهَامِهَا وَأَحْلَامِهَا ، وَتَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَتَتَنَاوَلُكَ مِنْ الْأُخْرَى ؛ فَإِذَا الْكَلِمَةُ مِنْ وَرَائِهَا مَعْنَى ، مِنْ وَرَائِهِ طَبِيعَةٌ ، مِنْ وَرَائِهَا سَبَبٌ وَحِكْمَةٌ ؛ وَإِذَا كُلُّ حَادِثَةٍ فِيهَا إِنْسَانِيَّتُهَا وَإِلَهِيَّتُهَا مَعًا ، وَإِذَا الْوُجُودُ فِي ذَهْنِكَ كَالسَّاعَةِ تَرَسُّمٌ لَكَ حَدٌّ الثَّانِيَّةُ بِخَطَرَتَيْنِ ، وَحَدٌّ الدَّقِيقَةِ مِنْ عَدَدٍ مَخْدُودٍ مِنَ التَّوَانِي ، ثُمَّ حَدٌّ السَّاعَةِ إِلَى حَدِّ الْيَوْمِ ؛ وَإِذَا الْبَيَانُ فِي نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْحَوَاشِي ، وَإِذَا التَّارِيخُ فِيمَا تَقْرُؤُهُ مُفَكَّنٌ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، يَفِيءُ عَلَيْكَ مِنَ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ بِظِلَالٍ هِيَ صِلَتُكَ أَنْتَ أَتَيْهَا الْحَيُّ الْمَوْجُودُ بِأَسْرَارٍ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلُ .

كَذَلِكَ قَرَأْتُ بِالْأَنْسِ تَارِيخَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي كِتَابِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ لِأَكْتُبَ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ<sup>(١)</sup> ، فَلَمْ أَكُنْ - عَلِيمَ اللَّهِ - فِي كِتَابٍ وَلَا فِي حِكَايَةٍ ، بَلْ فِي عَالَمٍ انْبَثَقَ فِي نَفْسِي مَخْلُوقًا تَامًا بِأَهْلِهِ ، وَحَوَادِثَ أَهْلِهِ ، وَأَسْرَارَ أَهْلِهِ جَمِيعًا ؛ كَمَا يَرَى الْمُحِبُّ حَبِيبَهُ : لَا يَكُونُ الْجَمِيعُ فِي مَحَلٍّ إِلَّا أَمْتَلَأَ مَكَانَهُ بِعَاشِقِهِ ، فَهُوَ مَكَانٌ مِنَ النَّفْسِ وَالْدُّنْيَا ، لَا مِنَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا ، وَفِيهِ الْحَيَاةُ كَمَا هِيَ فِي الْوُجُودِ بِمُظْهِرِ الْمَادَّةِ ، وَكَمَا هِيَ فِي الْحُبِّ بِمُظْهِرِ الرُّوحِ .

وَتِلْكَ حَالَةٌ مِنَ الْقِرَاءَةِ بِالرُّوحِ وَالْكِتَابَةِ بِالرُّوحِ ، مَتَى أَنْتَ سَمَوْتَ إِلَيْهَا رَأَيْتَ فِيهَا غَيْرَ

(\*) «الرسالة» العدد : ٤٢ ، ٩ محرم سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٣ أبريل/نيسان سنة ١٩٣٤ م ، السنة

الثانية ، الصفحات : ٦٤٥ - ٦٤٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : «لَاكْتُبُ عَنْهُ كَلِمَةً فِي الرِّسَالَةِ» بَدَلًا مِنْ : «لَاكْتُبُ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ» .

الْمَعْنَى يُخْرِجُ مَعْنَى ، وَمِنْ لَا شَيْءٍ تُخْلُقُ أَشْيَاءً ، لِأَنَّكَ مِنْهَا اتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ نَفْسِكَ ، وَمِنْ نَفْسِكَ اتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ قَوْفِهَا ؛ فَيُضَيِّحُ التَّارِيخُ مَعَكَ فَنَ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيَّ عَلَى الْوُجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحِكْمَةُ إِلَى الْحَيَاةِ لَتَسْتَمِرَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا فَنَ عِلْمِ النَّاسِ عَلَى الْوُجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

\* \* \*

نَسَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَكَّةَ ، وَاسْتُنْبِئَ عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سِنِّهِ ، وَغَبَرَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ بَدْأَتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَأَمْرَأَةٌ وَعِلَامٌ : أَمَّا الرَّجُلُ فَهُوَ ﷺ ، وَأَمَّا الْأَمْرَأَةُ فَزَوْجُهُ خَدِيجَةُ ، وَأَمَّا الْعِلَامُ فَعَلِيُّ ابْنُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ .

ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ الثُّمُورِ فِي الْإِسْلَامِ بِحُرٍّ وَعَبْدٍ : أَمَّا الْحُرُّ فَأَبُو بَكْرٍ ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَبِلَالٌ ، ثُمَّ اتَّسَقَ الثُّمُورُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِطِءِ الْهُمُومِ فِي سِنِّيهَا ، وَصَبَرَ الْحُرُّ فِي تَجَلُّدِهِ ؛ وَكَانَ التَّارِيخُ وَاقِفًا لَا يَتَزَحَّرُ ، ضَيِّقٌ لَا يَتَسَّعُ ، جَامِدٌ لَا يَنْمُو ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَخُو الشَّمْسِ : يَطْلُعُ كِلَاهُمَا وَحَدَهُ كُلُّ يَوْمٍ . حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْهَجْرَةُ مِنْ بَعْدُ ، فَانْتَقَلَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بَدَأَتْ الدُّنْيَا تَتَقَلَّقُ ، كَأَنَّمَا مَرَّ بِقَدَمِهِ عَلَى مَرْكَزِهَا [فَضْغَطَهَا] فَحَرَّكَهَا ؛ وَكَانَتْ خَطَوَاتُهُ فِي هِجْرَتِهِ تَخُطُّ فِي الْأَرْضِ ، وَمَعَانِيهَا تَخُطُّ فِي التَّارِيخِ ؛ وَكَانَتْ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَمَعْنَاهَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

لَقَدْ كَانَ فِي مَكَّةَ يَغْرُسُ الْإِسْلَامَ عَلَى الْعَرَبِ كَمَا يَغْرُسُ الذَّهَبُ عَلَى الْمُتَوَحِّشِينَ : يَرُونَهُ بَرِيقًا وَشُعَاعًا ثُمَّ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَمَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ حَاجَةٌ بَيْنَ آدَمَ إِلَّا الْمُتَوَحِّشِينَ ؛ وَكَانُوا فِي الْمَحَادَّةِ وَالْمُخَالَفَةِ الْحَقِيقَةِ ، وَالْبُلُوغِ بِدَعْوَتِهِ مَبْلَغِ الْأَوْهَامِ وَالْأَسَاطِيرِ - كَمَا يَكُونُ الْمَرِيضُ بِذَاتِ صَدْرِهِ مَعَ الَّذِي يَدْعُوهُ فِي لَيْلَةٍ قَازَةٍ<sup>(١)</sup> إِلَى مَدَاوَةِ جِسْمِهِ بِأَشِعَّةِ الْكَوَاكِبِ ؛ وَكَانَتْ مَكَّةَ هَذِهِ صَخْرًا جُغْرَافِيًّا يَتَحَطَّمُ وَلَا يَلِينُ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ نَفْسَهُ وَضَعَ هَذَا الصَّخْرَ فِي مَجْرَى الزَّمَنِ لِيَصُدَّ بِهِ التَّارِيخَ الْإِسْلَامِيَّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .

(١) فِي الْأَصْلِ : «فِي لَيْلِي الْقَرِّ» بَدَلًا مِنْ : «فِي لَيْلَةٍ قَازَةٍ» .

وَأُودِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَكُذِّبَ وَأُهِنَ ، وَرَجَفَ بِهِ الْوَادِي يَخْطُو فِيهِ عَلَى زَلَزِلٍ تَقَلَّبُ ، وَنَابَذَهُ قَوْمُهُ وَتَذَامَرُوا فِيهِ ، وَحَضَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ ، وَانْصَفَقَ عَنْهُ عَامَّةُ النَّاسِ وَتَرَكَوْهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ اللَّهُ مِنْهُمْ ؛ فَأَصِيبَ كَبِيرًا بِالْيَسَمِ مِنْ قَوْمِهِ ، كَمَا أَصِيبَ صَغِيرًا بِالْيَسَمِ مِنْ أَبَوَيْهِ .

وَكَانَ لَا يَسْمَعُ بِقَادِمٍ يَقْدُمُ مِنَ الْعَرَبِ لَهُ اسْمٌ وَشَرَفٌ ، إِلَّا تَصَدَّى لَهُ فِدْعَاهُ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ ؛ وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَتْ الدَّعْوَةُ تُلَوِّحُ وَتَخْتَفِي كَمَا يَشُقُّ الْبَرَقُ مِنْ سَحَابَةٍ عَلَى السَّمَاءِ : لَيْسَ إِلَّا أَنْ يَرَى ، ثُمَّ لَا شَيْءَ بَعْدَ أَنْ يَرَى !

\* \* \*

فَهَذَا تَارِيخُ مَا قَبْلَ الْهَجْرَةِ فِي جُمْلَةِ مَعْنَاهُ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَقْرَأْهُ تَارِيخًا ، بَلْ قَرَأْتُ فِيهِ فَضْلًا رَائِعًا مِنْ حِكْمَةِ إِلَهِيَّةٍ ، وَضَعَهُ اللَّهُ كَالْمُقَدِّمَةِ لِتَارِيخِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ ؛ مُقَدِّمَةً مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَيَّامِ تَحِيًا وَتَمَرُّ فِي نَسَقِ الرِّوَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُنْطَوِيَّةِ عَلَى رُمُوزِهَا وَأَسْرَارِهَا ، وَتَظْهَرُ فِيهَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعْمَلُ بِقُسْوَةٍ ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَتَجَلَّى فِي غُمُوضٍ ؛ فَلَوْ أَنْتَ حَقَّقْتَ الْظَّلْمَ لَرَأَيْتَ تَارِيخَ الْإِسْلَامِ يَتَأَلَّهُ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، بِحَيْثُ لَا تَقْرُؤُهُ النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ إِلَّا خَاشِعَةً كَأَنَّهَا تُصَلِّي ، وَلَا تَتَذَبَّرُهُ إِلَّا خَاضِعَةً كَأَنَّهَا تَتَعَبَّدُ .

بَدَأَ الْإِسْلَامُ فِي رَجُلٍ وَأَمْرَةٍ وَغُلَامٍ ، ثُمَّ زَادَ حُرًّا وَعَبْدًا ؛ أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْخَمْسُ هِيَ كُلُّ أَطْوَارِ الْبَشَرِيَّةِ فِي وُجُودِهَا ، مَخْلُوقَةٌ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَمَصْنُوعَةٌ فِي السِّيَاسَةِ وَالْاجْتِمَاعِ ؟ فَهَأُنَا مَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ ، وَأَوَّلُ الزَّمَنِ فِي شِعْرِ التَّارِيخِ .

وَلَبِثَ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً لَا يَنْبَغِي قَوْمُهُ إِلَّا سُورًا ، عَلَى أَنَّهُ دَائِبٌ يَطْلُبُ ثُمَّ لَا يَجِدُ ، وَيَعْرِضُ ثُمَّ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ ، وَيُخْفِقُ ثُمَّ لَا يَغْتَرِبُهُ الْيَأْسُ ، وَيَجْهَدُ ثُمَّ لَا يَنْجُوهُ أَلْمَلُّ ، وَيَسْتَمِرُّ مَاضِيًا لَا يَتَحَرَّفُ ، وَمُعْتَرِمًا لَا يَتَحَوَّلُ ؛ أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ أَسْمَى مَعَانِي التَّرْبِيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَظْهَرَهَا اللَّهُ كُلَّهَا فِي نَبِيِّهِ ، فَعَمِلَ بِهَا وَتَبَّتْ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي هَذَا الْمَعْنَى كَعُمُرِ طِفْلِ وَلَدٍ وَنَشَأَ وَأُحْكِمَ تَهْدِيئَهُ بِالْحَوَادِثِ ، حَتَّى تَسْلَمَتْهُ الرُّجُولَةُ الْكَامِلَةُ بِمَعَانِيهَا مِنَ الطُّفُولَةِ الْكَامِلَةِ بِوَسَائِلِهَا ؟

أَفَلَيْسَ هَذَا فَضْلًا فَلَسَفِيًّا دَفِيقًا يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَنْشَأَ الْمُسْلِمُ : غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَقُوَّتُهُ فِي إِيْمَانِهِ ، وَمَوْضِعُهُ فِي الْحَيَاةِ مَوْضِعُ النَّافِعِ قَبْلَ الْمُتَنَفِّعِ ، وَالْمُضْلِحِ قَبْلَ الْمُفْلِدِ ؛ وَفِي نَفْسِهِ مِنْ قُوَّةِ الْحَيَاةِ مَا يُمُوتُ بِهِ فِي هَذِهِ النَّفْسِ أَكْثَرُ مَا فِي الْأَرْضِ وَالنَّاسِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَمَطَامِعٍ ؟

ثُمَّ أَلَيْسَتْ تِلْكَ الْعَوَامِلُ الْأَخْلَاقِيَّةُ هِيَ الَّتِي أُلْقِيَتْ فِي مَنَبَعِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ لِجُعْبِ مِنْهَا تِبَارُهُ ؛ فَتَدْفَعُهُ فِي مَجْرَاهُ بَيْنَ الْأُمَمِ ، وَتَجْعَلُ مِنْ أَحْصَى الْخَصَائِصِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا - الثَّيَّاتِ عَلَى الْخُطْوَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَإِنْ لَمْ تَتَقَدَّمْ ، وَعَلَى الْحَقِّ وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ ؛ وَالتَّبَرُّوِّ مِنَ الْآثَرَةِ وَإِنْ شَحَّتْ عَلَيْهَا النَّفْسُ ، وَاحْتِقَارِ الضَّعِيفِ وَإِنْ حَكَمَ وَتَسَلَّطَ ، وَمُقَاوَمَةِ الْبَاطِلِ وَإِنْ سَادَ وَغَلَبَ ، وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَى مَخْصِ الْخَيْرِ وَإِنْ رَدُّوا بِالشَّرِّ ، وَالْعَمَلِ لِلْعَمَلِ وَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ ، وَالْوَاجِبِ لِلْوَاجِبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرٌ فَائِدَةٍ ، وَبَقَاءِ الرَّجُلِ رَجُلًا وَإِنْ حَطَّمَهُ كُلُّ مَا حَوْلَهُ ؟

ثُمَّ هِيَ الَّتِي هِيَ الْبُرْهَانَاتُ <sup>(١)</sup> الْقَائِمَةُ لِلدَّهْرِ قِيَامَ الْمَنَارَاتِ <sup>(٢)</sup> فِي السَّاحِلِ - عَلَى بُيُوتِ مُحَمَّدٍ ﷺ : تَثْبِثُ بِيْرَهَانَ الْفَلَسَفَةِ وَعُلُومِ النَّفْسِ أَنَّهُ رُوحٌ وَغَايَاتُهَا الْمَحْنُومَةُ بِالْقَدَرِ ، لَا جِسْمٌ وَوَسَائِلُهَا الْمُتَغَلَّبَةُ بِالطَّبِيعَةِ ؛ وَلَوْ كَانَ رَجُلًا أَبْتَعَنَتْهُ نَفْسُهُ ، لَتَمَحَّلَ الْحِيلَ لِسِيَاسَتِهِ ، وَلَأَخَذَتْ طَمَعًا مِنْ كُلِّ مَطْمَعٍ ، وَلَرَكَّكَ مَعَ الْحَوَادِثِ وَهَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَمَرَّ طَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ لَا يَنْجُوهُ وَهُوَ فَرْدٌ إِلَّا اتَّجَاهَ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا كَأَنَّهَا هُوَ هِيَ .

وَلَوْ هُوَ كَانَ رَجُلٌ أَلْمَلِكِ أَوْ رَجُلٌ السِّيَاسَةِ ، لَاسْتَقَامَ وَالتَّوَيَّ ، وَلَآذَرَكَ مَا يَنْبَغِي فِي سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ ، وَلَآ وَجَدَ الْحَوَادِثِ يَتَعَلَّقُ عَلَيْهَا ، وَلَمَا أَفَلَتْ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَلَمَا انْتَرَعَ نَفْسُهُ مِنْ مَحَلَّةٍ فِي قَوْمِهِ وَكَانَ وَاسِطَةً فِيهِمْ ، وَلَا تَرَكَ عَوَامِلَ الزَّمَنِ تُبْعِدُهُ وَهِيَ كَانَتْ تَذُنِّيهِ .

قَالُوا : إِنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ بَعَثَ إِلَيْهِ حِينَ كَلَّمَتْهُ فُرَيْشٌ فَقَالَ لَهُ : يَا أَبْنُ أَخِي ! إِنَّ قَوْمَكَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبُرْهَانِ » بَدَلًا مِنْ : « الْبُرْهَانَاتِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْمَنَارَةُ » بَدَلًا مِنْ : « الْمَنَارَاتِ » .



قَدْ جَاؤُونِي فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا ، فَأَبَى عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ ، وَلَا تُحْمَلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ . فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لِعَمَلِهِ فِيهِ بَدَأٌ<sup>(١)</sup> ، وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَالْفَيْتَامِ مَعَهُ ، فَقَالَ : يَا عَمَّاهُ ! لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ . ثُمَّ اسْتَعْبَرَ ﷺ فَبَكَى !

يَا دُمُوعَ الْبُيُوتِ ! لَقَدْ أَتَيْتُ أَنْ النَّفْسَ الْعَظِيمَةَ لَنْ تَتَعَزَّى عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِنْ غَيْرِهَا كَانَتْ مَا كَانَ ، لَا مِنْ ذَهَبِ الْأَرْضِ وَفِضَّتِهَا ، وَلَا مِنْ ذَهَبِ السَّمَاءِ وَفِضَّتِهَا إِذَا وَضِعَتْ الشَّمْسُ فِي يَدِ الْقَمَرِ فِي الْأُخْرَى .

وَكُلُّ حَوَادِثِ الْمُدَّةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ عَلَى طُولِهَا لَيْسَتْ إِلَّا دَلِيلٌ ذَلِكَ الزَّمَنِ عَلَى أَنَّهُ زَمَنُ نَبِيِّ ، لَا زَمَنُ مَلِكٍ أَوْ سِيَاسِيٍّ أَوْ رَعِيمٍ ؛ وَدَلِيلُ الْحَقِيقَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْيَقِينَ الثَّابِتَ لَيْسَ يَقِينُ الْإِنْسَانِ الْأَجْتِمَاعِيِّ مِنْ جِهَةِ قُوَّتِهِ ، بَلْ يَقِينُ الْإِنْسَانِ الْإِلَهِيِّ مِنْ جِهَةِ قَلْبِهِ ؛ وَدَلِيلُ الْحِكْمَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَيْسَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي تَنْشُرُهَا عَذْوَى النَّفْسِ لِلنَّفْسِ ؛ فَهِيَ هُوَ ذَا لَا يَبْلُغُ أَهْلُهُ فِي ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً أَكْثَرَ مَا تَبْلُغُ أَسْرَةُ تَتَوَالَدُ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ؛ وَدَلِيلُ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ وَخِي اللَّهِ بِإِنْجَادِ الْإِخَاءِ الْعَالَمِيِّ وَالْوَحْدَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ . أَفَلَمْ يَكُنْ خُرُوجُهُ عَنْ مَوْطِنِهِ هُوَ تَحَقُّقُهُ فِي الْعَالَمِ ؟

ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، كَانَتْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَلِيلًا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ رَجُلٌ مُلْكٍ ، وَلَا سِيَاسِيٍّ ، وَلَا زَعَامَةٍ ؛ وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ لَأَذْرَكَ فِي قَلِيلٍ ؛ وَلَيْسَ مُبْتَدِعَ شَرِيعَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَإِلَّا لَمَا غَبَرَ فِي قَوْمِهِ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُمْ وَهُمْ حَوْلُهُ ؛ وَلَيْسَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ تَعْمَلُ أَسَالِيبُ النَّفْسِ فِي انْتِشَارِهَا ؛ وَلَوْ كَانَتْ لَحَمَلُهُمْ عَلَى مَخْضِهَا وَمَمَرُ وَجْهٍ ؛ وَلَيْسَ رَجُلًا مُتَعَلِّقًا بِالْمَصَادِقَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَوْ هُوَ كَانَ لَجَعَلَ إِيْمَانُ يَوْمٍ كُفْرُ يَوْمٍ ؛ وَلَيْسَ مُصْلِحَ عَشِيرَةٍ يُهَذَّبُ مِنْهَا عَلَى قَدَرٍ مَا تَقَبَّلُ مِنْهُ سِيَاسَةٌ وَمُخَادَعَةٌ ، وَلَا رَجُلٌ وَطَنِيٌّ تَكُونُ غَايَتُهُ أَنْ يَشْمَخَ فِي أَرْضِهِ شُمُوحُ جَبَلٍ فِيهَا ، دُونَ أَنْ يُحَاوِلَ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ مِنْ إِطْلَالِهِ عَلَى الدُّنْيَا إِطْلَالَ

(١) { أَيْ نَشَأَ لَهُ رَأْيٌ جَدِيدٌ فِيهِ ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُونَ : رَجَعَ عَنْ رَأْيِهِ } .

السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَلَا رَجُلٌ حَاضِرُهُ إِذْ كَانَ وَائِقًا دَائِمًا أَنَّ مَعَهُ الْغَدَّ وَآتِيَهُ ، وَإِنْ أَذْبَرَ عَنْهُ الْيَوْمَ وَذَاهَبَ ؛ وَلَا رَجُلٌ طَبِيعَتُهُ الْبَشَرِيَّةُ يَلْتَمِسُ لَهَا مَا يَلْتَمِسُ الْجَائِعُ لِبَطْنِهِ ، وَلَا رَجُلٌ شَخْصِيَّتُهُ يَسْتَهْوِي بِهَا وَيَسْحَرُ ، وَلَا رَجُلٌ بَطْنُهُ يَغْلِبُ بِهِ وَيَتَسَلَّطُ ، وَلَا رَجُلٌ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ رَجُلٌ السَّمَاءِ فِي الْأَرْضِ .

هَذِهِ هِيَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي تَذْيِيرِهِ لِنَبِيِّهِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ : قَبَضَ عَنْهُ أَطْرَافَ الزَّمَنِ ، وَحَصَرَهُ مِنْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي مِثْلِ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَا تَصُدُّرُ بِهِ الْأُمُورُ مَصَادِرُهَا كَيْ تَثْبِتَ أَنَّهَا لَا تَصُدُّرُ بِهِ ؛ وَلَا تَسْتَحِجُّ بِهِ الْحَقِيقَةُ لِدَلِّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ قُوَّتِهِ وَعَمَلِهِ .

وَكَانَ ﷺ عَلَى ذَلِكَ - وَهُوَ فِي حُدُودِ نَفْسِهِ وَضِيقِ مَكَانِهِ - يَتَسَّعُ فِي الزَّمَنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى ذَلِكَ أَحَدٌ وَلَا يَعْلَمُهُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ شَمْسُ الْيَوْمِ الَّذِي سَيَنْتَصِرُ فِيهِ - قَبْلَ أَنْ تُشْرِقَ عَلَى الدُّنْيَا بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً - مُشْرِقَةً فِي قَلْبِهِ ﷺ .

وَالْفَضْلُ مِنَ السَّنَةِ لَا يَقْدَمُهُ النَّاسُ وَلَا يُؤَخَّرُونَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ سَبِيلِ الْكَوْنِ كُلِّهِ ؛ وَالسَّحَابَةُ لَا يُشْعِلُونَ بِرَفَقِهَا بِالْمَصَابِيحِ ، وَمَعَ النَّبِيِّ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ بُرْهَانُ اللَّهِ عَلَى رَسُولَاتِهِ ، إِلَى أَنْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفَلْيُلْهِمُكُمْ حَقِّ لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُفَّ اللَّهُ ﴾ [سورة الأنفال/ الآية : ٣٩] فَحَلَّ الْفَضْلُ ، وَأَنْطَلَقَتِ الصَّاعِقَةُ ، وَكَانَتْ الْهِجْرَةُ .

تِلْكَ هِيَ الْمُقَدَّمَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِلتَّارِيخِ ، وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَطْرُدَ التَّارِيخُ بَعْدَهَا ، حَتَّى قَالَ الرَّشِيدُ لِلْسَّحَابَةِ وَقَدْ مَرَّتْ بِهِ : أَمِطْرِي حَيْثُ شِئْتَ فَسَيَأْتِيَنِي خَرَّاجُكَ !

## فَلَسَفَةُ قِصَّةِ (\*)

مَاتَ<sup>(١)</sup> حَدِيدَجَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ وَمَاتَ<sup>(٢)</sup> عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ النَّبُوَّةِ ، فَعَظُمَتِ الْمُصِيبَةُ فِيهِمَا عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَ عَمُّهُ هَذَا يَمْتَنِعُهُ مِنْ أَدَى قُرَيْشٍ ، وَيَقُومُ دُونَهُ فَلَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ بِمَكْرُوهِ ؛ وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَالْعَقِيدَةِ السِّيَاسِيَّةِ : هِيَ بِطَبِيعَتِهَا قُوَّةٌ نَافِذَةٌ عَلَى قُوَّةِ الْقَبِيلَةِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ كَانَ هُوَ وَحْدَهُ الْمُشْكِلَةَ النَّفْسِيَّةَ الْمُعَقَّدَةَ الَّتِي تَعْمَلُ قُرَيْشٌ جَاهِدَةً فِي حَلِّهَا ، وَقَامَتِ الْمَعْرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأُولَى بَيْنَ إِرَادَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِ ، وَهُمْ أَمَّةٌ تَخْكُمُهُمُ الْكَلِمَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي تَسِيرُ عَنْهُمْ فِي الْقَبَائِلِ ؛ وَتَارِيخُهُمْ مَا يُقَالُ فِي الْأَلْسِنَةِ مِنْ مَعَانِي الْمَذْحِ وَالذَّمِّ ، فَيَخْشَوْنَ الْمَقَالَهَ أَكْثَرَ مِمَّا يَخْشَوْنَ الْغَارَةَ ، وَقَدْ لَا يَبَالُونَ بِالْقَتْلِ وَالْجَرْحِ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ يَبَالُونَ بِالْكَلِمَاتِ الْمَجْرُوحَةِ .

فَكَانَ مِنْ لَطِيفِ صُنْعِ اللَّهِ لِلْإِسْلَامِ ، وَعَجِيبِ تَدْبِيرِهِ فِي حِمَايَةِ نَبِيِّهِ ﷺ - وَضَعُ هَذِهِ الْقُوَّةَ النَّفْسِيَّةَ فِي أَوَّلِ تَارِيخِ النَّبُوَّةِ ، تَشْتَغِلُ بِهَا سَخَافَاتُ قُرَيْشٍ ، وَتَكُونُ عَمَلًا لِفِرَاعِهِمْ الزُّوْجِيِّ ، وَتُثِيرُ فِيهِمْ الْإِشْكَالَ السِّيَاسِيَّ الَّذِي يُعْطَلُ قَانُونُهُمُ الْوَحْشِيُّ إِلَى أَنْ يَتِمَّ عَمَلُ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَكْسِرُ هَذَا الْقَانُونَ ؛ فَإِنَّ الْمَصْنَعَ الْإِلَهِيَّ لَا يُخْرِجُ أَعْمَالَهُ النَّامَّةَ الْعَظِيمَةَ إِلَّا مِنْ أَجْزَاءٍ دَقِيقَةٍ .

أَمَّا حَدِيدَجَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانَتْ فِي هَذِهِ الْمِحْنَةِ قَلْبًا مَعَ قَلْبِهِ الْعَظِيمِ ، وَكَانَتْ لِنَفْسِهِ كَقَوْلٍ (نَعَمْ) لِلْكَلِمَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي يَقُولُ لَهَا كُلُّ النَّاسِ (لَا) ؛ وَمَا زَالَتِ الْمَرْأَةُ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٤٣ ، ٧ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٣٠ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٨٣ - ٤٨٥ .

وراجع « فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها » فيما يلي . بسلام .

(١) فِي الْأَصْلِ : « هَلَكْتُ » بَدَلًا مِنْ : « مَاتْتُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « هَلَكْتُ » بَدَلًا مِنْ : « مَاتَ » .

وليلاحظ أَنَّ كَلِمَةَ « هَلَكْتُ » هِيَ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا ابْنُ سِحَاقٍ فِي سِيرَتِهِ ، رَاجِعِ « السيرة النبوية » لابن

هشام ٢/ ٢٦٤ ، وَلَوْ كَانَتْ كَلِمَةُ « مَاتَ » أَوَّلَى . بسلام .

الْكَامِلَةَ الْمَخْبُوبَةَ الْمُحِبَّةُ هِيَ الَّتِي تُعْطِي الرَّجُلَ مَا نَقَصَ مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ ، وَتَلِدُ لَهُ الْمَسْرَاتِ مِنْ عَوَاطِفِهَا كَمَا تَلِدُ مِنْ أَحْسَائِهَا ، فَالْوُجُودُ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ : أَحَدُهُمَا زِيَادَةُ الْحَيَاةِ فِي الْأَجْسَامِ ، وَالْآخَرُ إِنْمَاءُ نَفْسِهَا فِي الْمَعَانِي .

\* \* \*

وَبِمَوْتِ أَبِي طَالِبٍ وَحَدِيدَجَةَ ، أُفْرِدَ النَّبِيُّ ﷺ بِجَسَمِهِ وَقَلْبِهِ ، لِيَتَجَرَّدَ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي يَغْلِبُ فِيهَا الْجَسَدُ ، إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي تَغْلِبُ فِيهَا الْإِرَادَةُ ، ثُمَّ لِيَخْرُجَ مِنْ أَيَّامِ الْاسْتِقْرَارِ فِي أَرْضِهِ ، إِلَى الْأَيَّامِ الْمُتَحَرِّكِهَ بِهَ فِي هِجْرَتِهِ ؛ ثُمَّ لِيُنْتَهِيَ بِذَلِكَ إِلَى غَايَةِ قَوْمِيَّتِهِ الصَّغِيرَةِ الْمَخْدُودَةِ ، فَيَصِلَ مِنْ ذَلِكَ بِأَوَّلِ عَالَمِيَّتِهِ الْكُبْرَى .

وَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَبْدَأَ هَذَا الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ مِنْ أَسْمَى خِلَالِ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ ، لِيَكُونَ أَوَّلُ أَمْرِهِ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ ؛ فَكَانَتِ الْحَسَنَةُ فِيهِ بِشَهَادَةِ السَّيِّئَةِ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَحِلْمُهُ بِشَهَادَةِ رُغْوَتِهِمْ ، وَأَنَاتُهُ بِذَلِيلِ طَيْشِهِمْ ، وَحِكْمَتُهُ بِبِرْهَانِ سَفَاهَتِهِمْ ؛ وَبِذَلِكَ ظَهَرَ الرُّوحَانِيُّ رُوحَانِيًّا فِي الْمَادَّةِ .

قَالُوا : فَكَانَتْ مِنْهُ قُرَيْشٌ ، وَوَصَلُوا مِنْ أَذَاهُ إِلَى مَا لَمْ يَكُونُوا يَصِلُونَ إِلَيْهِ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ ، حَتَّى نَزَرَ بَعْضُهُمُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ، كَأَنَّمَا يُعْلِمُونَهُ أَنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَكُونَ حُرًّا ، فَضَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ عَرِيزًا ، فَضَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا ؛ قَالُوا : فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَهُ وَالتُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَغْسِلُ عَنْهُ التُّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي !

كَانَتْ تَبْكِي إِذْ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التُّرَابَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ هُوَ شَذُوذُ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ الدُّنْيَا ، فِي مُقَابَلَةِ إِنْسَانِيَّتِهَا الشَّاذِّ الْمُتَفَرِّدِ . هَذِهِ الْقَبْضَةُ مِنَ التُّرَابِ الْأَرْضِيِّ قَبْضَةٌ سَفِينَةٌ ، تُحَاوِلُ رَدَّ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ تَنْشَأَ نَشَأَتَهَا وَتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي التَّارِيخِ ؛ فَهِيَ فِي مِقْدَارِهَا وَسَخَافَتِهَا وَمُحَاوَلَتِهَا ، كَعَقْلِ قُرَيْشٍ حِينَئِذٍ فِي مِقْدَارِهِ وَسَخَافَتِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ .

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِنَبِيِّتِهِ : « يَا بُنَيَّةُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ »<sup>(١)</sup> . حَسِبْتَ ذَلِكَ

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام ٢/ ٢٦٤ ؛ والطبري في « تاريخه » ١/ ٥٥٣ . بسلام .

هَوَانًا وَضَيْعَةً ، فَأَعْلَمَهَا أَنَّ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ لَا تَطْمُرُ النَّجْمَ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ التُّرَابِيَّةَ لَا تُسَمَّى مَعْرَكَةً أَثَارَتَهَا الْخَيْلُ فَجَاءَتْ بِبَتِيحَةٍ ، وَأَنَّ سَاعَةَ مِنَ الْحُزَنِ فِي يَوْمٍ ، لَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَى الزَّمَنِ كُلِّهِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الثَّرْوَةَ الَّتِي تَحْرَكَتِ الْآنَ هِيَ حُمُقُ الْعِبَاوَةِ : قُوَّتُهَا نَهَايَتُهَا .

« يَا بُنَيْتُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ آبَاكَ » . أَيُّ لَيْسَ لِلنَّبِيِّ كِبَرِيَاءُ يَنَالُهَا النَّاسُ أَوْ يَغْضُونَ عَنْهَا فَيَأْتِي الدَّمْعُ مُتْرَجِمًا عَنِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاقِصِ مُثْبِتًا أَنَّهُ نَاقِصٌ ؛ إِنَّمَا هِيَ الْكِبُورَةُ : قَانُونُهَا غَيْرُ مَا عَادَتِ النَّفْسُ مِنْ أَفْوَاحٍ وَأَحْزَانٍ ، وَهِيَ الْكِبُورَةُ : تَجْعَلُ الْمُخْتَارَ لَهَا غَيْرَ مَحْدُودٍ بِجَسَدِهِ الضَّعِيفِ ، بَلْ حُدُودُهُ الْحَقَائِقُ الَّتِي فِيهَا قُوَّتُهَا ؛ فَهُوَ فِي مَنَعَةِ الْوَاقِعِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ ، فَلَوْ أَمَكَنَّ أَنْ يُخَذَفَ يَوْمٌ مِنَ الزَّمَنِ أَوْ يُؤَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ ، أَمَكَنَّ أَنْ يُؤَخَّرَ النَّبِيُّ أَوْ يُخَذَفَ .

« يَا بُنَيْتُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ آبَاكَ » . لَا وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا نَبِيٌّ وَسِعَ التَّارِيخُ فِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ هَذَا التَّارِيخُ فِي الدُّنْيَا ؛ فَكَلِمَتُهُ هِيَ الْإِيمَانُ وَالْثَقَّةُ ، إِذْ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَوْجُودٍ .

تُرَابٌ يَنْثُرُهُ سَفِينَةُ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ! وَنَحْكَ يَا حَقَارَةَ الْمَادَّةِ ! إِنَّ أَرْتِفَاعَكَ لَعَنَةُ ، إِنَّ أَرْتِفَاعَكَ لَعَنَةُ .

\* \* \*

قَالُوا : وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَذَهُ إِلَى الطَّائِفِ ، يَلْتَمِسُ مِنْ تَقِيْفِ النَّصْرِ وَالْمَنَعَةِ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمَّا أَنْتَهَى إِلَى الطَّائِفِ عَمَدَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ تَقِيْفِ هُمْ يَوْمِيذٍ سَادَتْهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَأَغْرَوْا بِهِ سَفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسْتَبُونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَالْجَوْرَةُ إِلَى حَائِطٍ <sup>(١)</sup> لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَهُمَا فِيهِ . وَرَجَعَ عَنْهُ مِنَ سَفَهَاءِ تَقِيْفٍ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُهُ ، فَعَمَدَ ﷺ إِلَى ظِلِّ حُبْلَةٍ مِنْ عَنَبٍ ، فَجَلَسَ فِيهِ ، وَأَبْنَا

(١) الْحَائِطُ : الْبُسْتَانُ ، وَجَمْعُهُ حَوَائِطُ .

رَبِيعَةَ يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَرَيَانِ مَا لَقِيَ مِنَ الشَّفَهَاءِ .

فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكَلَّمِي ؛ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِنْ عَافِيَتِكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بَيْنَ غَضَبِكَ ، أَوْ يَجِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُنْتَى حَتَّى تَرْضَى ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ! » .

\* \* \*

أَلَا مَا أَكْمَلَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي تُثَبِّتُ أَنَّ قُوَّةَ الْخُلُقِ هِيَ دَرَجَةُ أَرْفَعُ مِنَ الْخُلُقِ نَفْسِهِ ؛ فَهَذَا فَنُّ الصَّبْرِ لَا الصَّبْرَ فَقَطْ ، وَفَنُّ الْحِلْمِ لَا الْحِلْمَ وَحْدَهُ .

قُوَّةُ الْخُلُقِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ ثَابِتًا فِي مَرْكَزِ تَارِيخِهِ لَا مُتَقَلِّبًا فِي تَوَارِيخِ النَّاسِ ، مَحْدُودًا بِعَظَائِمِ شَخْصِيَّتِهِ الْخَالِدَةِ لَا بِمَصَالِحِ شَخْصِهِ الْفَانِي ، نَاطِقًا فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْوَضْعِ الثَّابِتِ لِلْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْوَضْعِ الْمُتَغَيِّرِ لِلْمَنْفَعَةِ .

وَمَا كَانَ أَوْلَئِكَ الْأَشْرَافُ وَسُفَهَاؤُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ إِلَّا مَعَانِي الظُّلْمِ ، وَالشَّرِّ ، وَالضَّعْفِ ، تَقُولُ لِلنَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي جَاءَ يَمْحُوهَا وَيُدْبِلُ مِنْهَا : إِنَّا أَشْيَاءُ ثَابِتَةٌ فِي الْبَشَرِيَّةِ .

لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ الْأَشْرَافُ وَالسُّفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَنْفُ ، وَالرُّقُ ، وَالطُّيْشُ ؛ تَسْخَرُ ثَلَاثَتُهَا مِنْ نَبِيِّ الْعَدْلِ ، وَالْحُرِّيَّةِ ، وَالْعَقْلِ ؛ فَمَا تَسْخَرُ إِلَّا مِنْ نَفْسِهَا . صَغَائِرُ الْحَيَاةِ قَدْ أَحَاطَتْ بِمَجْدِ الْحَيَاةِ ، لِثَبَّتِ الصَّغَائِرُ أَنَّهَا الصَّغَائِرُ ، وَلِثَبَّتِ الْمَجْدُ أَنَّهُ الْمَجْدُ .

كَانَ الْفَرِيقَانِ هُمَا الْفِكْرَتَيْنِ الْمُتَعَادِيَتَيْنِ أَبَدًا عَلَى الْأَرْضِ : إِحْدَاهُمَا عِشْرُ لِتَأْكُلَ وَتَسْتَمْتِعُ وَإِنْ أَهْلَكَتْ ؛ وَالْأُخْرَى عِشْرُ لِتَعْمَلَ وَتَنْفَعِ النَّاسَ وَإِنْ هَلَكَتْ .

كَانَتْ الْأَقْدَارُ بُيَادِي هَذَا الرُّوحِ الْوَاسِعِ بِذَلِكَ الرُّوحِ الضَّيِّقِ ، لِیَنْطَلِقَ الْوَاسِعُ مِنْ

مَكَانِهِ وَيَسْتَقْبِلُ الدُّنْيَا الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يُنْشِئَهَا . فَأُولَئِكَ الْأَشْرَافُ وَالسُّفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ إِنْ هُمْ إِلَّا الضُّعِيفُ ، وَالرُّكُودُ ، وَذُلُّ الْعَيْنِ ؛ حَوْلَ السَّعَةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَالسُّمُومِ ، وَطَهَارَةِ الْحَيَاةِ .

وَقَفَّ الْمَعْنَى السَّمَاوِيُّ بَيْنَ مَعَانِي الْأَرْضِ ؛ وَلَكِنْ نُورَ الشَّمْسِ يَنْبَسِطُ عَلَى التُّرابِ فَلَا يُعْفَرُهُ التُّرابُ ، وَمَا هُوَ بِنُورٍ يَضِيءُ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ قُوَّةٌ تَعْمَلُ بِالْعَنَاصِرِ الَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تُحَوَّلَ ، فِي الْعَنَاصِرِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ .

وَكَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أُولَئِكَ الْمُسْتَهِزِّينَ قُوَّةٌ أُخْرَى ، هِيَ الْقُدْرَةُ الَّتِي تَعْمَلُ بِهِذَا النَّبِيُّ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَبِهَذِهِ الْقُدْرَةِ لَمْ يَنْظُرِ النَّبِيُّ إِلَى قُرَيْشٍ وَصَوْلَتِهِمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ انْقَضَى ، فَكَانَ الْوُجُودُ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ غَيْرُ مَوْجُودٍ ، وَكَانَتْ حَقِيقَةُ الزَّمَنِ الَّتِي تَجْعَلُ الزَّمَنَ الْخَاصِرَ بِلَا حَقِيقَةٍ .

وَالِإِلى هَذِهِ الْقُدْرَةِ تَوَجَّهَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ الْبَلِيعِ الْخَالِدِ ، يَشْكُو أَنَّهُ إِنْسَانٌ فِيهِ الضَّعْفُ وَقِلَّةُ الْحِيلَةِ ، فَيَنْطِقُ الْإِنْسَانِيُّ فِيهِ بِالشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الدُّعَاءِ يَذْكُرُ انْفِرَادَهُ وَأَنَارَ انْفِرَادِهِ ، وَيَتَوَجَّعُ لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِنْسَانِيَّةِ قَوْمِهِ ؛ ثُمَّ يَنْطِقُ الرُّوحَانِيُّ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مُصَدِّرِهِ الْإِلَهِيِّ قَائِلًا أَوَّلَ مَا يَقُولُ : إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي .

وَلَعَمْرِي لَوْ نَطَقَتِ الشَّمْسُ تَدْعُو اللَّهَ لَمَا خَرَجَتْ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى وَلَا زَادَتْ عَلَى قَوْلِهِ : « أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ » ؛ تَلْتَمِسُ مِنْ مُصَدِّرِ النُّورِ الْأَزَلِيِّ حَيَاةَ وَجُودِهَا الْكَامِلِ .

\* \* \*

وَلَقَدْ هَرَّؤُوا مِنْ قَبْلِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لِلسَّاحِرِينَ مِنْهُ : لَيْسَ نَبِيٌّ بِلَا كَرَامَةٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ<sup>(١)</sup> . وَبِهَذَا رَدَّ عَلَيْهِمْ رَدَّ مَنْ أَسْلَخَ مِنْهُمْ ، وَقَالَ لَهُمْ قَوْلَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حُكْمٌ فِيهِمْ ، وَأَخَذَهُمْ بِالشَّرِيعَةِ الْأَدَبِيَّةِ لَا الْعَمَلِيَّةِ ؛ إِذْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالْحُكْمَةِ الطَّائِفَةِ لَيْسَتْ لِكُلِّ قَلْبٍ وَلَا لِكُلِّ عَقْلِ ، وَلَكِنَّهَا لِمَنْ أَعَدَّ لَهَا ؛ وَشَرِيعَتُهُ أَكْثَرُهَا فِي التَّعْيِيرِ وَأَقْلَاهَا فِي الْعَمَلِ ، وَلَمْ تَجِءْ بِالْقُوَّةِ الْعَامِلَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَضَعَ الْمَوْعِظَةُ فِي مَكَانِ

(١) متى ٥٧ : ١٣ ؛ مرقس ٤ : ٦ ، لوقا ٢٤ : ٤ ؛ يوحنا ٤٤ : ٤ . بسام .

السَّيْفِ ، وَأَنْ تَكُونَ قَائِمَةً عَلَى التَّهْيِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى الْأَمْرِ ، وَأَنْ تَكُونَ كَشْمَسِ الشَّمْسِ الْجَمِيلَةِ : لَا تَغْلِي بِهَا الْأَرْضُ ، وَإِنَّمَا عَمَلُهَا أَنْ تُنْهَدَ هَلِيبُ الْأَرْضِ لِفَضْلِ آخِرٍ .

أَمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَلَمْ يُجِبِ الْمُسْتَهِزِّينَ ، إِذْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْكَامِنَةُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا كَامِنَةً فِيهِ ، وَكَانَ صَدْرُهُ الْعَظِيمُ يَحْمِلُ لِلدُّنْيَا كَلِمَةً جَدِيدَةً لَا تَقْبَلُ الدُّنْيَا أَنْ تُعَامِلَهُ عَلَيْهَا إِلَّا بِطَرِيقَتِهَا الْحَرْبِيَّةِ ؛ فَلَمْ يَرُدَّ رَدَّ الشَّاعِرِ الَّذِي يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا الْبَلِيعُ ، وَلَكِنَّهُ سَكَتَ سَكُوتَ الْمُشْتَرِعِ الَّذِي لَا يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ إِلَّا عَمَلَهَا حِينَ يَتَكَلَّمُ ؛ وَكَانَ فِي سَكُوتِهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي فَلْسَفَةِ الْإِرَادَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالتَّطَوُّرِ ، وَأَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْقَوْمُ ، وَأَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَغَطَّرَ هَذَا الشَّجَرُ الْأَجْرُدُ عَنْ وَرَقِ جَدِيدٍ أَخْضَرَ يَنْمُو بِالْحَيَاةِ .

لَمْ يَتَسَخَّطْ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَكَانَ كَالصَّانِعِ الَّذِي لَا يَرُدُّ عَلَى خَطِّ الْآلَةِ بِسُخْطٍ وَلَا يَأْسٍ ، بَلْ يَارْسَالِ يَدِهِ فِي إِصْلَاحِهَا .

\* \* \*

قَالُوا : وَرَأَى ابْنَا رَيْبَةَ ، عُنْبَةُ وَشَيْبَةُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ السُّفَهَاءِ ، فَتَحَرَّكَتْ لَهُ رَحْمُهُمَا ، فَدَعَا غُلَامًا لَهُمَا نَضْرَانِيًا يُقَالُ لَهُ : عَدَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ : خُذْ قِطْفًا مِنْ هَذَا الْعِنَبِ وَضَعُهُ فِي ذَلِكَ الطَّبَقِ ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ بِأَكْلِ مِنْهُ . فَفَعَلَ عَدَّاسُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ » . ثُمَّ أَكَلَ ؛ فَظَنَرَ عَدَّاسُ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ ، وَمَا دِينُكَ ؟ قَالَ : أَنَا نَضْرَانِيٌّ ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ يَنْبُوئَى . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مِنْ قَوْمِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى ؟ قَالَ : وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُوسُفُ بْنُ مَتَّى ؟ قَالَ ﷺ : ذَاكَ أَخِي ؛ كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ .

فَأَكْبَ عَدَّاسُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقْبَلُ رَأْسُهُ وَيَدِيهِ وَرِجْلَيْهِ .

\* \* \*

يَا عَجَبًا لِرُمُوزِ الْقُدْرَةِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ !

لَقَدْ أَسْرَعَ الْخَيْرَ وَالْكَرَامَةَ وَالْإِجْلَالَ فَأَقْبَلَتْ تَعْتَدِرُ عَنِ الشَّرِّ وَالسَّفَاهَةِ وَالطَّيْسِ ،  
وَجَاءَتِ الْقُبُلَاتُ بَعْدَ كَلِمَاتِ الْعِدَاوَةِ .

وَكَانَ ابْنَا رَيْعَةَ مِنَ الَّذِينَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ ، وَمِمَّنْ مَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ  
أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَكْفَهُ عَنْهُمْ أَوْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَيَبَيِّنَهُ ، أَوْ يُنَازِلُوهُ وَإِيَّاهُ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ  
الْفَرِيقَيْنِ ، فَأَنْقَلَبَتِ الْغَرِيزَةُ الْوَحْشِيَّةُ إِلَى مَعْنَاهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الدِّينُ ، لِأَنَّ  
الْمُسْتَقْبَلَ الدُّنْيَا لِلْفِكْرِ لَا لِلْغَرِيزَةِ .

وَجَاءَتِ النَّصْرَانِيَّةُ تُعَانِقُ الْإِسْلَامَ وَتُعِزُّهُ ، إِذِ الدِّينُ الصَّحِيحُ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ كَالْأَخِ  
مِنْ أُخِيهِ ، غَيْرَ أَنَّ نَسَبَ الْإِخْوَةِ الدَّمُ وَنَسَبَ الْأَدْيَانِ الْعَقْلُ .

ثُمَّ أَنْتَمَ الْقَدَرُ رَمَزَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ، يَقْطِفُ الْعِنَبَ سَائِعًا عَذْبًا مَمْلُوءًا حَلَاوَةً ؛ فَيَأْسِمُ  
اللَّهُ كَانَ قِطْفُ الْعِنَبِ رَمْزًا لِهَذَا الْمُتَقُودِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَمْتَلَأَ حَبًّا كُلَّ حَبَّةٍ فِيهِ  
مَمْلُوكَةً .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### فَوْقَ الْأَدَمِيَّةِ (\*) الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ

مِنْ أَعْجَبِ مَا اتَّفَقَ لِي أَنِّي فَرَعْتُ مِنْ تَسْوِيدِ هَذَا الْمَقَالِ ثُمَّ أَرَدْتُ نَقْلَهُ ، فَتَعَسَّرَ عَلَيَّ  
وَصُرِفَتْ عَنْهُ بِالْأَلَمِ شَدِيدٍ اعْتَرَانِي ، وَنَالَنِي مِنْهُ ثَقَلَةٌ فِي الدِّمَاغِ ؛ ثُمَّ كَشَفَهُ اللَّهُ بَعْدَ يَوْمٍ  
فَوَاجَعْتُ الْكِتَابَةَ ، فَإِذَا قَلَمِي يَنْبَعِثُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ :

كَيْفَ يَسْتَوْطِئُ الْمُسْلِمُونَ الْعَجْزَ ، وَفِي أَوَّلِ دِينِهِمْ تَسْخِيرَ الطَّبِيعَةِ ؟  
كَيْفَ يَسْتَمْهِدُونَ الرَّاحَةَ ، وَفِي صَدْرِ تَارِيخِهِمْ عَمَلُ الْمُعْجَزَةِ الْكُبْرَى ؟  
كَيْفَ يَرْكُضُونَ إِلَى الْجَهْلِ ، وَأَوَّلُ أَمْرِهِمْ آخِرُ غَايَاتِ الْعِلْمِ ؟  
كَيْفَ لَا يَحْمِلُونَ الثُّورَ لِلْعَالَمِ ، وَيَبْنِيهِمْ هُوَ الْكَائِنُ الثُّورَانِيُّ الْأَعْظَمُ ؟

\* \* \*

قِصَّةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، هَذَا اللَّجْمُ الْإِنْسَانِيُّ  
الْعَظِيمُ ؛ وَهُوَ الثُّورُ الْمُتَجَسِّدُ لِهِدَايَةِ الْعَالَمِ فِي حَيْرَةِ ظُلُمَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ ؛ فَإِنَّ سَمَاءَ الْإِنْسَانِ  
تُظْلِمُ وَتُضِيءُ مِنْ دَاخِلِهِ بِأَغْرَاضِهِ وَمَعَانِيهِ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ لِلْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ شَمْسًا  
وَاحِدَةً تُبَيِّرُهُ وَتُخَيِّمُهُ وَتَقْلِبُ عَلَيْهِ بَلِيلَهُ وَنَهَارَهُ ، بَيِّدَ أَنَّهُ تَرَكَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ  
شَمْسَ قَلْبِهِ وَغَمَامَهَا وَسَحَابَتَيْهَا وَمَا تُسْفِرُ بِهِ وَمَا تُظْلِمُ فِيهِ . وَلِهَذَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ نُورًا لِعَمَلِ  
آدَامَ فِي النَّفْسِ ، وَوُصِفَ الْمُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُمْ « يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَبْتَئِنُّونَ » [٥٧ سورة  
الحديد/ الآية : ١٢] ، وَكَانَ أَثَرُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فِي تَغْيِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ  
لِلْمُؤْمِنِينَ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ .

وَقَدْ حَارَ الْمُفَسِّرُونَ فِي حِكْمَةِ ذِكْرِ « اللَّيْلِ » فِي آيَةِ « الْإِسْرَاءِ » مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٢ ، ٧ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ٤ نوفمبر/ تشرين الآخر ١٩٣٥ م ، السنة  
الثالثة ، الصفحات : ١٧٦٣ - ١٧٦٦ .

﴿ شَبَّحْنَاهُ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْمَذِينَةِ ﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ١] . فَإِنَّ الشَّرَى فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَا يَكُونُ إِلَّا لَيْلًا .

وَالْحِكْمَةُ هِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْقِصَّةَ قِصَّةَ (النَّجْم) الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي تَحَوَّلَ مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِ إِلَى نُورِهِ السَّمَاوِيِّ فِي هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ ، وَيُسَمَّى هَذِهِ الْعَجِيبَةُ أَنَّ آيَاتِ « الْمِعْرَاجِ » لَمْ تَحِثْ إِلَّا فِي سُورَةِ : « وَالنَّجْمِ » .

وَعَلَى تَأْوِيلِ أَنْ ذَكَرَ (اللَّيْلِ) إِشَارَةً إِلَى قِصَّةِ النَّجْمِ ، تَكُونُ الْآيَةُ بُرْهَانًا نَفْسِيًّا ، وَتَكُونُ فِي نَفْسِهَا قَدْ جَاءَتْ مُعْجَزَةً مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَإِذَا قِيلَ : إِنَّ نَجْمًا دَارَ فِي السَّمَاءِ ، أَوْ قَطَعَ مَا تَقَطَّعُهُ النُّجُومُ مِنَ الْمَسَافَاتِ الَّتِي تُعْجِزُ الْحِسَابَ ، فَهَلْ فِي ذَلِكَ مِنْ عَجِيبٍ ؟ وَهَلْ فِيهِ شَكٌّ أَوْ نَظَرٌ أَوْ تَرَدُّدٌ ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا مِنْ بَعْضِ مَا يُسَبِّحُ اللَّهَ بِذِكْرِهِ ؟ وَهَلْ يَكُونُ إِلَّا آيَةً اتَّصَلَتْ بِالْآيَاتِ الَّتِي تَرَاهَا اتِّصَالَ الوجودِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ؟

وَأَنَا مَا يَكَادُ يَنْقَضِي عَجِيبِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنَ الْمَذِينَةِ ﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ١] . مَعَ أَنَّ الْأَلْفَاظَ كَمَا تَرَى مَكْشُوفَةٌ وَاضِحَةٌ ، يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنْ لَيْسَ وَرَاءَهَا شَيْءٌ ، وَوَرَاءَهَا أَلْسَرُ الْأَكْبَرِ ؛ فَإِنَّهَا بِهِذِهِ الْعِبَارَةِ نَصٌّ عَلَى إِشْرَافِ اللَّيْلِ ﷺ فَوْقَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَرَى بِغَيْرِ حِجَابِ الْحَوَاسِّ مِمَّا مَرَّجَعُهُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ لَا قُدْرَةَ نَفْسِهِ ؛ بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَتْ الْعِبَارَةُ : (لَيَرَى مِنْ آيَاتِنَا) فَإِنَّ هَذَا يَجْعَلُهُ لِنَفْسِهِ فِي حُدُودِ قُوَّتِهَا وَحَوَاسِّهَا وَزَمَانِهَا وَمَكَانِهَا ، فَيَضْطَرُّبُ الْكَلَامَ ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْإِعْتِرَاضُ وَلَا تَكُونُ ثُمَّ مُعْجَزَةً .

وَتَحْوِيلُ فِعْلِ (الرُّؤْيَا) مِنْ صِنْعَةٍ إِلَى صِنْعَةٍ كَمَا رَأَيْتَ ، هُوَ بَعِيْنُهُ إِشَارَةٌ إِلَى تَحْوِيلِ الزَّائِنِ مِنْ شَكْلِ إِلَى شَكْلٍ كَمَا سَتَعْرِفُهُ ، وَهَذِهِ مُعْجَزَةٌ أُخْرَى يَسْجُدُ لَهَا الْعَقْلُ ؛ فَتَبَارَكَ اللَّهُ مُنْزِلُ هَذَا الْكَلَامِ !

وَإِذَا كَانَ ﷺ نَجْمًا إِنْسَانِيًّا فِي نُورِهِ ، فَلَنْ يَأْتِيَ هَذَا إِلَّا مِنْ غَلَبَةِ رُوحَانِيَّتِهِ عَلَى مَادَّتِهِ ؛ وَإِذَا غَلَبَتْ رُوحَانِيَّتُهُ كَانَتْ قُوَّاهُ النَّفْسِيَّةُ مُهَيَّأَةً فِي الدُّنْيَا لِمَنْزِلِ حَالَتِهَا فِي الْآخِرَى ؛ فَهُوَ فِي هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ أَشْبَهُ بِالْهَوَاءِ الْمُتَحَرِّكِ . فَقُلْ الْآنَ : أَيْعْتَزُّضُ عَلَى الْهَوَاءِ إِذَا أَرْتَفَعَ بِأَنَّهُ لَمْ يَرْتَفِعْ فِي طَيَّارَةٍ ... ؟

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْإِنْسَانُ إِذَا سَمَا دَرَجَةً وَاحِدَةً فِي ثَبَاتِ قُوَّاهُ الرُّوحَانِيَّةِ ، سَمَا بِهَا دَرَجَاتٍ فَوْقَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَسُخِّرَتْ لَهُ الْمَعَانِي الَّتِي تُسَخَّرُ غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَنَشَأَتْ لَهُ نَوَامِيسُ أَخْلَاقِيَّةٌ غَيْرُ النَّوَامِيسِ الَّتِي تَسْلُطُ بِهَا الْأَهْوَاءُ . وَمَتَى وَجَدَ الشَّيْءُ مِنَ الْأَشْيَاءِ كَانَتْ طَبَائِعُ وَجُودِهِ هِيَ نَوَامِيسُهُ ؛ فَالْتَّارُ مِثْلًا إِذَا هِيَ تَضَرَّعَتْ أَوْ جَدَّتِ الْإِحْرَاقُ فَيَمَّا يَخْتَرِقُ ، فَإِنْ وُضِعَ فِيهَا مَا لَا يَخْتَرِقُ أَبْطَلَ نَوَامِيسَهَا وَغَلَبَ عَلَيْهَا .

وَكُلُّ مُعْجَزَةٍ تَحْدُثُ فَهَذَا هُوَ سَبِيلُهَا فِي إِنْجَادِ النَّوَامِيسِ الْخَاصَّةِ بِهَا وَإِبْطَالِ النَّوَامِيسِ الْمَمْلُوكَةِ ، وَبِهَذَا يُقَالُ : إِنَّهَا خَرَقَتْ الْعَادَةَ . وَمِنْ النُّورِ نُورٌ لَا يَشْفُ لَهُ غَيْرُ الْهَوَاءِ ، وَمِنْهُ أَشْعَى رونتجن<sup>(١)</sup> Roentgen - rays الَّتِي نَشَفَتْ لَهَا الْجُذُرَانُ وَالْحُجُبُ ؛ فَهَذِهِ مُعْجَزَةٌ فِي ذَلِكَ .

\* \* \*

وَالَّذِي لَا يَكُونُ نَبِيًّا حَتَّى يَكُونَ فِي إِنْسَانِهِ إِنْسَانٌ آخَرُ بِنَوَامِيسٍ تَجْعَلُهُ أَقْرَبَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ فِي رُوحَانِيَّتِهَا ، وَمَا يَنْزِلُ إِنْسَانُهُ الظَّاهِرُ مِنَ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنِ فِيهِ إِلَّا مَنْزِلَةً مَنْ يَتَلَقَّى مِمَّنْ يُعْطِي ؛ فَذَلِكَ الْبَاطِنُ هُوَ لِلْحَقَائِقِ الَّتِي لَا تَحْمِلُهَا الدُّنْيَا ، وَهَذَا الظَّاهِرُ لِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْهِ الْكَمَالُ فِي الْمَثَلِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَعْلَى ، وَلَوْلَا ذَلِكَ الْبَاطِنُ مَا اسْتَطَاعَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَحْمِلَ هُمُومَ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لَا تُضَيِّعُهُ وَلَا تُغَيِّرُهُ وَلَا تُعْجِزُهُ .

فَحَقِيقَةُ النُّبُوَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ مِنَ الوجودِ فِي إِنْسَانٍ مُخْتَارٍ جَاءَتْ تُصْلِحُ الوجودَ الْإِنْسَانِيَّ بِهِ لِنَقْرِ فِي هَذِهِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُهْدَبَةِ مِثْلَهَا الْأَعْلَى ، بِدَلَالَتِهَا عَلَى طَرِيقِهَا النَّفْسِيِّ مَعَ طَرِيقِهَا الطَّبِيعِيِّ ؛ فَيَكُونُ مَعَ الْإِنْحِطَاطِ الرُّقُوبِ ، وَمَعَ النِّقْصِ الْكَمَالُ ، وَمَعَ حُكْمِ الْغَرِيزَةِ التَّحَكُّمُ فِي الْغَرِيزَةِ ، وَمَعَ الظُّلْمَةِ الْمَادِّيَّةِ الْإِشْرَاقُ الرُّوحَانِيُّ .

وَمَا الْمُعْجَزَاتُ إِلَّا شَأْنُ تِلْكَ الْقُوَّةِ الْبَاطِنَةِ لَا شَأْنُ إِنْسَانِهَا الظَّاهِرِ . وَمَنْ الَّذِي يُنْكَرُ أَنَّ قُوَّةَ الوجودِ هِيَ فِي نَفْسِهَا إِعْجَازٌ لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ؟ وَهَلْ يُنْكَرُ الْيَوْمَ أَحَدٌ شَأْنَ هَذِهِ الْقُوَّةِ

(١) هو وليام غونراد رونتجن Wilhelm Gonrad Roentgen (١٨٤٥ - ١٩٢٣ م) فيزيائي ألماني ، مكتشف الأشعة السينية ، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠١ م . بسام .

في الراديو<sup>(١)</sup> Radio حينَ مَسَّتْهُ فَجَعَلَتْ الْكَلِمَةَ الَّتِي تُرْسَلُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، كَالْكَلِمَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ ؟

وَنَحْنُ نَرَى مُعْجَزَاتِ التَّنْوِيمِ الْمَغْنَطِيسِيِّ وَمَا يُبْصِرُهُ النَّائِمُ وَمَا يَسْمَعُهُ ، وَمَا يَتَكَشَّفُ لَهُ مِمَّا وَرَاءَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ؛ وَلَيْسَ التَّنْوِيمُ شَيْئًا إِلَّا تَسْلِيْطُ الذَّاتِ الْبَاطِنَةِ بِقُوَاهَا الرُّوحِيَّةِ الْعَجِيْبَةِ ، عَلَى الذَّاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُقَيَّدَةِ بِحَوَاسِّهَا الْمَخْدُودَةِ ، فَتَطْعَى عَلَيْهَا ، فَتُضْبِحُ الْحَوَاسِّ مُطْلَقَةً شَائِعَةً فِي الْوُجُودِ بِمِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ قُوَاهٍ لَا بِمِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ قُوَّةٍ شَخْصِيَّهَا . وَعَلَى نَحْوِ مَا ذَلِكَ يَتَّصِلُ الرَّجُلُ الرُّوحَانِيُّ بِذَاتِهِ الْبَاطِنَةِ ، فَيُوقِعُ شَخْصَهُ الظَّاهِرَ فِي الْاِسْتِهْوَاءِ ، فَيَتَكَشَّفُ لَهُ الْوُجُودُ ، وَيُبْصِرُ مَا يَقَعُ عَلَى الْبُعْدِ ، وَيَرَى مَا هُوَ آتٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ ؛ وَمَا الْكَوْنُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا كَالْمَغْشُوقِ يَقُولُ لِعَاشِقِهِ الَّذِي وَقَعَ فِي قَلْبِهِ الْحُبُّ : قَدْ آتَيْتُكَ نُورًا تَنْظُرُ بِهِ جَمَالِي .

\* \* \*

وَفِي عُلَمَاءِ عَصْرِنَا مَنْ يُفَكِّرُ فِي الصُّعُودِ إِلَى الْقَمَرِ ، وَفِيهِمْ مَنْ يَتَعَمَلُ لِلْمَخَاطَبَةِ مَعَ الْأَفْلَاكِ ، وَفِيهِمْ مَنْ تَقَعُّ لَهُ الْعَجَائِبُ فِي اسْتِحْضَارِ الْأَزْوَاجِ وَتَسْخِيرِهَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ أَوَّلُ الْبُرْهَانِ { الْكُونِيِّ } الَّذِي سَيَلْزِمُ الْعِلْمُ<sup>(٢)</sup> فَيَضْطَرُّهُ فِي يَوْمٍ مَا إِلَى الْإِقْرَارِ بِصِحَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ .

وَنَحْنُ قَبْلَ أَنْ تُبْدِيَ رَأْيَنَا فِي الْقِصَّةِ نُلِمُّ بِهَا إِلْمَامَةً مُوجِزَةً ؛ فَقَدْ اخْتَلَفَتْ فِيهَا الْأَحَادِيثُ وَوَقَعَ فِيهَا تَخْلِيْطٌ كَثِيرٌ ، فَجَاءَتْ قُتُونًا وَأَنْوَاعًا مِنْ طُرُقٍ شَتَّى ، حَتَّى جَمَعَهَا بَعْضُهُمْ فِي جُزْأَيْنِ<sup>(٣)</sup> ، وَمَا نَحْتَمِلُ كُلُّ ذَلِكَ وَلَا بَعْضَهُ ، وَلَكِنْ رُوحَ الرِّوَايَةِ فِي ذَلِكَ

(١) الراديو Radio ، وهو نظام اتصال يُسْتَخْدَمُ الْأَمْوَاجُ الْكَهْرُومَغْنَطِيسِيَّةُ مِنْ خِلَالِ الْفَضَاءِ ، يَسْتَعْمَلُ هَذَا النِّظَامُ فِي الْإِبْرَاقِ وَالْإِتِّصَالِ الْإِلْسَلِكِيِّ ، الَّذِي مِنْهُ الْهَاتِفُ وَجَمِيعُ الْإِتِّصَالَاتِ وَالْإِذَاعَاتِ وَالرَّادَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ الْمِذْيَاقُ ، وَفِي فِتْرَةٍ أُصْطُلِحَ عَلَيْهِ لَفْظُ : الْمِزْدَادِ . بِسَامِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْقَم » بِدَلَالَةِ : « الْعِلْمِ » .

(٣) قَالَ الدَّهْمِيُّ : إِنَّ الْحَافِظَ عَبْدَ الْغَنِيِّ جَمَعَ أَحَادِيثَ الْإِسْرَاءِ فِي جُزْأَيْنِ .

الرَّزْمَنِ كَانَتْ كَرُوحِ الصَّحَافَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ : مَتَى فَارَتْ قُوْرَهَا اسْتَحْدَثَتْ مِنْ كُلِّ عِبَارَةٍ عِبَارَةً أُخْرَى ، وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَخْرُجُ مِنَ الْعِبَارَتَيْنِ عِبَارَةٌ ثَالِثَةٌ ، فَيَكُونُ الْأَصْلُ مَعْنَى وَاحِدًا وَإِذَا هُوَ يُمَدُّ مِنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ .

وَلَا يَرَوْنَ بِذَلِكَ بَأْسًا ؛ فَإِنَّهُمْ يَشُدُّونَ بِهِ الرَّاْيَ ، وَيُضَاعِفُونَ مِنْهُ الْبَقِيْنَ ، وَيَزِيدُونَ ضَوْءًا فِي نُورِ الْمَعْنَى ، وَمَا دَامُوا قَدْ أَتْبَعُوا الْأَصْلَ وَاسْتَيْقَنُوْهُ ، فَلَا حَرَجَ أَنْ يُؤَيِّدَ الْقَوْلَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، بِاجْتِهَادٍ فِي عِبَارَةٍ ، وَاسْتِنْبَاطٍ مِنْ أُخْرَى ، وَزِيَادَةٍ فِي الثَّالِثَةِ مِمَّا هُوَ بِسَبِيلِ مِنْهَا ، عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى مِنْ قَدْرِ الرِّوَايَةِ الْقَصَصِيَّةِ ؛ إِذْ تَتَعَدَّدُ الْأَسَالِبُ وَالْعِبَارَاتُ مُخْتَلِفَةً مُتَنَوِّعَةً ، وَلَيْسَ نَحْتَمِلُ إِلَّا حَقِيْقَةً وَاحِدَةً لَا تَخْتَلِفُ . وَالْقَصَصُ الدِّيْنِيُّ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ كَامَلَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، لَا يُبْدِعُ الْعَقْلُ وَالْخَيَالُ وَالْعَاطِفَةُ أَقْوَى مِنْهُ وَلَا أَعْجَبَ وَلَا أَغْرَبَ .

هَذَا فِي مَنَنِ الْقِصَّةِ ، أَمَّا فِي وَاقِعَتِهَا فَقَدْ اخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا آخَرَ : هَلْ كَانَ الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ يَقْطَعُ أَوْ مَنَامًا ؟ وَبِالرُّوحِ وَخَدَهَا ، أَوْ بِالرُّوحِ وَالْجِسْمِ مَعًا ؟ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا الْخِلَافَ لِأَنَّهُ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُخْبِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُمْ وَجْهًا مِنْ هَذِهِ الْأَوْجُهَةِ . وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عُقُولَهُمْ لَمْ تَكُنْ تَحْتَمِلُ الْإِذْرَاكَ الْعِلْمِيَّ الَّذِي أُسَاسُهُ { مَا عَرِفَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ } الْكَهْرَبَاءِ وَالْأَثِيرِ . . .

وَالْخِلَاصَةُ الَّتِي تَتَأَدَّى مِنَ الْقِصَّةِ : أَنَّهُ ﷺ كَانَ مُضْطَّجِعًا ، فَأَنَاءَهُ جِبْرِيلُ ، فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَأَرْكَبَهُ الْبُرَاقَ ، فَأَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى فِيهِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ ، فَاسْتَفْتَحَهَا جِبْرِيلُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، فَرَأَى فِيهَا مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ، وَاجْتَمَعَ بِالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَصَعِدَ فِي سَمَاءٍ بَعْدَ سَمَاءٍ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى ، فَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا ، فَرَأَى ﷺ مَظْهَرَ الْجَمَالِ الْأَرْزَلِيِّ ، ثُمَّ رُجَّ بِهِ فِي النُّورِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مَا أَوْحَى .

أَمَّا وَشِي الْقِصَّةِ وَطَرَاظُهَا فَبَابُ عَجِيبٍ مِنَ الرُّمُوزِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُزْمَرُ بِهَا إِلَى تَجَسُّدِ الْأَعْمَالِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ : تَكُونُ تَعَبًا وَتَقَعُ فَائِدَةٌ ، أَوْ تَلْتَمَسُ مَنَفَعَةٌ وَشَهْوَةٌ وَتَقَعُ مَضَرَّةٌ وَحِمَاقَةٌ ، ثُمَّ تَفْنَى مِنْ هَذِهِ وَتَلْكَ الصُّوْرُ الزَّمَنِيَّةُ الَّتِي تَوَهَّمُهَا أَصْحَابُهَا ، وَتَحُلُّدُ

الصُّورَ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا حَقَائِقُهَا .

وَمِنْ هَذِهِ الرُّمُوزِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُهُ : فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمِرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : أَخَذْتُ الْفِطْرَةَ . وَأَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يَزْرَعُونَ وَيَخْصِدُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ ؛ فَسَأَلَ مَا هَذَا ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَؤُلَاءِ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، نَضَاعَفَ لَهُمُ الْحَسَنَةُ سَبْعَ مِثَّةٍ ضِعْفٍ . ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرَضِّخُ رُؤُوسَهُمْ بِالصَّخْرِ ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ؛ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَأَقَّلُ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ . ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ نَضِيجٌ فِي قَدْرِ ، وَلَحْمٌ آخَرُ نَبِيٌّ فِي قَدْرِ خَبِيثٍ ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ النَّبِيِّ الْخَبِيثِ وَيَدَعُونَ النَّضِيجَ ؛ فَقَالَ : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ فَيَأْتِي أَمْرًا خَبِيثَةً ، وَالْمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ رَوْحِهَا حَلَالًا طَيِّبًا فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا . ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حُزْمَةَ عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلُهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى آدَائِهَا وَهُوَ يَزِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا . ثُمَّ رَأَى نِسَاءً مُعَلَّقَاتٍ بِثَدْيِيهِنَّ ؛ فَسَأَلَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : هَؤُلَاءِ اللَّاتِي أَذْخَلْنَ عَلَى الرِّجَالِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ .

\* \* \*

وَنَحْنُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي عَلَيْهِ جُمهُورُ الْعُلَمَاءِ ، مِنْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَا بِالْجِسْمِ وَالرُّوحِ مَعًا عَلَى النَّوَائِلِ الَّذِي سَنَبَّيْهُ ؛ وَيُنْبِتُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (وَالنَّجْمِ) : ﴿ إِذْ يَنْشَأُ الْبَدْرُ مَا يَنْشَأُ ﴾ [١٦] مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى ﴿ [٥٣] سورة النجم/ الآيتان : ١٦ و ١٧ ] فَلَا يَكُونُ الْبَصَرُ يَزِيدُ وَيَطْفَأُ إِلَّا فِي الْجِسْمِ ، وَلَا يَنْتَفِي عَنْ ذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ فِي الْجِسْمِ . وَلَمْ يَنْتَبِهْ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى الْمَعْنَى الْمُعْجِزِ الْعَجِيبِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا طَفَى ﴾ [٥٣] سورة النجم/ الآية : [١٧] ؛ فَذَلِكَ نَصٌّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَرَى بِجِسْمٍ قَدْ تَحَوَّلَ عَنِ الطَّبِيعَةِ الْأَدَمِيَّةِ الْمَخْدُودَةِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْهَا شَيْءٌ ؛ إِذْ لَا يَكُونُ طُغْيَانُ الْبَصَرِ إِلَّا مِنْ تَسَلُّطِ الْخَيَالِ عَلَيْهِ بِأَهْوَاءِ الْجِسْمِ الَّتِي لَا يَسْتَقِيمُ بِهَا حُكْمٌ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، فَمَا زَاغَ الْبَصَرُ بِكَوْنِهِ مُقَيَّدَ الْحَاسَّةِ ، وَلَا طَفَى بِكَوْنِهِ مُطْلَقَ الْخَيَالِ ، بَلْ كَانَ كَمَا يُرِيدُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ ، أَيْ : كَانَ حَقِيقَةً كَوْنِيَّةً فِي غَيْرِ حَالَتِهَا

الْأَرْضِيَّةِ النَّاقِصَةِ .

وَالَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَا رُؤْيَا رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ ؛ اخْتَجَوْا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ [١٧] سورة الإسراء/ الآية : [٦٠] . وَقَدْ خَلَطَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا أَيْضًا ، وَإِنَّمَا كَانَ التَّعْبِيرُ بِلَفْظِ « الرُّؤْيَا » - وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ مَتَامًا - لِتَفْيِ تَأْتِيرِ الْحَوَاسِّ عَلَى الرَّائِي ، وَإِنِّبَاتِ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْأَدَمِيَّةَ بِجُمْلَتِهَا كَانَتْ فِيهِ كَالثَّالِثَةِ عَنْ حَيَاتِهَا الْأَرْضِيَّةِ بِحَقَائِقِهَا وَأَخْلَاقِهَا مَعًا ، فَلَيْسَ نَائِمًا كَالنَّائِمِ ، وَلَا مُسْتَقِظًا كَالْمُسْتَقِظِ .

وَفِي أُسَاسِ الْقِصَّةِ جِبْرِيلُ وَالْبَرَّاقُ ؛ وَهُمَا الْقُوَّةُ الْمَلَائِكِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ ، أَوِ الرُّوحُ الْمَلَائِكِيُّ وَالرُّوحُ الطَّبِيعِيُّ ؛ وَلَمْ يُوصَفِ الْبَرَّاقُ بِأَنَّهُ دَابَّةٌ إِلَّا زَمَنًا ، إِذْ لَا يَأْتِي لِلْعَرَبِ أَنْ يَفْهَمُوا مَا يُرَادُ مِنْهُ ؛ وَعِنْدَنَا أَنَّهُ سُمِّيَ الْبَرَّاقَ مِنَ الْبَرَقِ ، وَمَا الْبَرَقُ إِلَّا الْكَهْرُبَانِيَّةُ ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْهُ ؛ فَتِلْكَ قُوَّةُ كَهْرُبَانِيَّةٍ مَتَى نَبَضَتْ جَمَعَتْ أَوَّلَ الْعَالَمِ بِآخِرِهِ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ آيَةَ الْإِسْرَاءِ لَمْ تَذْكَرْ أَنَّهُ كَانَ مَحْمُولًا عَلَى شَيْءٍ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْمُولًا إِلَّا عَلَى رُوحِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَمَا دَامَتْ الْقُوَّةُ الْمَلَائِكِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ قَدْ سُخِّرَا لَهُ ﷺ ، فَلَا مَعْنَى لَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا { دُونَ الْجِسْمِ } ، بَلِ اجْتِمَاعُهُمَا مَعًا فِي الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ سِرَّ الْمُعْجِزَةِ إِنَّمَا كَانَ فِي تَسْيِيرِ مَلَأَمَةِ جِسْمِهِ الشَّرِيفِ لِهَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ ؛ فَيَتَحَوَّلُ فِي صُورَةٍ كَوْنِيَّةٍ مَلَائِكِيَّةٍ بَيْنَ سِرِّ الْمَلِكِ وَسِرِّ الطَّبِيعَةِ ، وَحِينَئِذٍ لَا تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْحَوَاسِّ وَلَا أَحْكَامُ الْمَادَّةِ .

وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَتَحَوَّلَ الْأَجْسَامُ إِلَى حَالَتِهَا الْأَنْبِيَرِيَّةِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ الْخَارِقَةِ ، وَبِهَذَا يُعْلَلُ طَيُّ الْأَرْضِ لِبَعْضِ الرُّوحَانِيِّينَ ، وَتُعْلَلُ خَوَارِقُ كَثِيرَةٌ مِمَّا يَخْدُثُ فِي اسْتِخْصَارِ الْأَرْوَاحِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَمِمَّا يَأْتِيهِ فَقَرَاءُ الْهِنْدِ ، وَمِمَّا كَانَ يَضَعُهُ « لا هوديني » الْأَمْرِيكِيُّ<sup>(١)</sup> : إِذْ كَانُوا يُعَلِّلُونَهُ بِالسَّلَاسِلِ وَالْقَبُودِ ثُمَّ يَرَوْنَهُ طَلِيقًا ؛ وَيَخْبِسُونَهُ فِي السُّجُونِ

(١) هو هاري هوديني Harry Houdini (١٨٧٤ - ١٩٢٦ م) ، ساحر مشعوذ أميركي . بسلام .



الْمُحَصَّنَةِ يَقُومُ عَلَيْهَا الْحُرَّاسُ وَتُمْسِكُهُ فِيهَا الْأَبْوَابُ وَالْجُذُرَانِ ، ثُمَّ يَجِدُونَهُ فِي بَعْضِ الْفَنَادِقِ .

وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَنَحْوِهِ ، فَإِنَّ تَرْكِيبَ الطَّبِيعَةِ رَدٌّ عَلَيْهِ ، وَتَقْصُصُهُ هُوَ رَدٌّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالْمُسْتَحِيلُ عَلَى الْأَعْمَى هُوَ أَيْسَرُ الْمُمْكِنَاتِ عَلَى الْمُبْصِرِ .

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ ذِكْرَ الْبَرَقِ وَالْمَلَكِ فِي آسَاسِ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هُوَ صِلَةُ الْقِصَّةِ بِالْمُعْجَزَةِ ، وَهُوَ عَيْنُهُ صَلَاحُهَا بِالْبُرْهَانِ الْعِلْمِيِّ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا كَمَا كَانَ لَهَا تَفْسِيرٌ .

\* \* \*

وَالْقِصَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَثْبِثُ أَنَّ هَذَا الوجودَ يَرُفُّ وَيَتَكَشَّفُ وَيَسْتَضِيءُ كُلَّمَا سَمَا الْإِنْسَانُ بِرُوحِهِ ، وَيَغْلُظُ وَيَتَكَاثَفُ وَيَتَحَجَّبُ كُلَّمَا نَزَلَ بِهَا ، وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ قِصَّةُ تَصَفُّهِ بِمَظْهَرِهِ الْكَوْنِيِّ فِي عَظَمَتِهِ الْخَالِدَةِ كَمَا رَأَى ذَاتَهُ الْكَامِلَةَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ ، هِيَ كَالدَّرْسِ فِي أَنَّ يَكُونَنَّ لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِعْرَاجٌ سَمَاقِيٌّ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا ، لِيَشْهَدَ بِبَصِيرَتِهِ أَنْوَارَ الْحَقِّ ، وَجَمَالَ الْخَيْرِ ، وَتَجَسَّدَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي صُورِهَا الْخَالِدَةِ ؛ فَيَكُونُ بِتَدْبِيرِهِ الْقِصَّةَ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْزِلُ ؛ فَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَيَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ تَعَقُّدَ الْأَخْيَالِ الَّذِي هُوَ آسَاسُ الْبَلَاءِ عَلَى الرُّوحِ .

وَمَتَى اسْتَنَارَ الْقَلْبُ كَانَ حَيًّا فِي صَاحِبِهِ ، وَكَانَ حَيًّا فِي الوجودِ كُلِّهِ . وَمَتَى سَلِمَتْ الْحَيَاةُ مِنْ تَغْيِيدِ الْخَيَالِ الْفَاسِدِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الرَّحْمَةُ وَالْحُبُّ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا (\*)

مِنْ أَوْصَافِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مُتَوَاصِلَ الْأَخْزَانِ ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ ، طَوِيلَ السَّكْتِ ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ ، لَيْسَ بِالْجَافِي وَلَا الْمَهِينِ ، يُعَظِّمُ النُّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَلَا مَا كَانَ لَهَا ، فَإِذَا تُعَذِّبُ الْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِعَظِيمِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ ، وَلَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا ؛ وَكَانَ خَافِضَ الطَّرْفِ ، نَظَرُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَطْوَلَ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، مَنْ رَأَاهُ بِدِينِهِ هَابَهُ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةُ أَحَبَّهُ ، لَا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ، وَلَا يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بِشَرِّهِ ، قَدْ وَسَّعَ النَّاسُ بَسْطُهُ وَخَلَقَهُ ، فَصَارَ لَهُمْ أَبَا ، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ؛ يُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيُقَوِّرُهُ ، وَيُفْصِحُ الْقَبِيحَ وَيُؤْهِمُهُ ، مُغْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ ؛ وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً ، لَا يُبَيِّنُ بَصَرَهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ ، لَهُ نُورٌ يَغْلُوهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ ، لَا يُؤَيِّسُ رَاجِيَهُ ، وَلَا يُحَيِّبُ عَافِيَهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهْ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمِثْلٍ مِنَ الْقَوْلِ ؛ أَجُودُ النَّاسِ بِالْخَيْرِ <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى صَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا يَجِدُ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِيَّ مَذْهَبًا عَنْهَا وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا يَجِدُ النُّقْصَ الْبَشَرِيَّ مَسَاغًا إِلَيْهَا ، وَلَا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا ؛ فَفِيهَا الْمَعْنَى التَّامَّةُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ فِيهَا الْمَعْنَى التَّامَّةَ لِلْحَقِّ ، وَمِنْ اجْتِمَاعِ هَذَيْنِ يَكُونُ فِيهَا الْمَعْنَى التَّامَّةُ لِلْإِيمَانِ .

هِيَ صِفَاتُ إِنْسَانِهَا الْعَظِيمِ ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ لِنَاقِذِهِ عَنْهُ الْحَيَاةُ إِنْسَانِيَّتُهَا الْعَالِيَةِ ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ مِنْ بُرْهَانَاتِ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ٦٠ ، ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٧ أغسطس / آب سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٤٠٥ - ١٤٠٨ .

(١) جَمَعْنَا هَذِهِ الْأَوْصَافَ مِنْ رَوَايَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَجَعَلْنَاهَا كَالْحَدِيثِ الْوَاحِدِ .

وَلَوْ جَمَعْتَ كُلَّ أَوْصَافِهِ ﷺ ، وَنَظَّمْتَهَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَاعْتَبَرْتَهَا بِأَسْرَارِهَا الْعِلْمِيَّةِ - لَرَأَيْتَ مِنْهَا كَوْنًا مَعْنَوِيًّا دَقِيقًا قَائِمًا بِهِذَا الْإِنْسَانِ الْأَعْظَمُ ، كَمَا يَقُومُ هَذَا الْكَوْنُ الْكَبِيرُ بِسُنَنِهِ وَأُصُولِ الْحِكْمَةِ فِيهِ ، وَلَا يَقْنَتُ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ إِنْ هُوَ إِلَّا مُعْجَمٌ نَفْسِيٌّ حَيٌّ أَكْفَتْهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ بِعِلْمٍ مِنْ عِلْمِهَا ، وَقُوَّةٍ مِنْ قُوَّتِهَا ، لِتَخْرُجَ بِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي تُبْدِعُ الْعَالَمَ إِذَا عَا جَدِيدًا ، وَتُنْشِئَهُ النَّشْأَةَ الْمَحْفُوظَةَ لَهُ فِي أَطْوَارِ كَمَالِهِ .

وَلَنْ تَرَى فِي الْإِنْسَانِيَّةِ أَسْمَى مِنْ أَجْتِمَاعِ هَذِهِ الصِّفَاتِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ؛ وَإِنِّي لَأَكَادُ كُلَّمَا تَأَمَّلْتُهَا أَحْسَبْتُ هَذَا السُّمُو قَضَاءً وَقَدَرًا بِإِنْسَانٍ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا . وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ الْإِنْسَانُ الَّذِي خُلِقَ لِلدُّنْيَا لَا لِنَفْسِهِ ؛ فَهُوَ لَا يَنْمُو بِمَا يَكُونُ لَهُ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَكِنْ بِمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ ، كَأَنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ كَوْنِيَّةٌ تَعِيشُ عَيْشَهَا ، فَمَا تَكُونُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا لِتَقَرَّرَ وَجُودُهَا هِيَ ، وَلَا تَنْتَهِي حِينَ تَنْتَهِي بِذَاتِهَا إِلَّا لِتَبْدَأَ مَعَانِيَهَا فِي غَيْرِهَا ، فَهُوَ ﷺ إِنْسَانٌ غَرَسَ فِي الثَّارِخِ غَرْسًا لِيَكُونَ حَدًّا لِرَمَنِ وَأَوَّلًا لِرَمَنِ بَعْدَهُ ، وَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ تِلْكَ إِلَّا طَرِيقَةً غَرْسِهِ ، وَهُوَ أَبَدًا قَائِمٌ فِي مَكَانِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، إِذْ كَانَ الزَّمَنُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ زَادَ فِي إِثْبَاتِهِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُ جِهَةٌ مِنَ الْجِهَاتِ لَا إِنْسَانٌ مِنَ النَّاسِ ، فَلَنْ يَتَغَيَّرَ أَوْ يُمَحَى إِلَّا إِذَا تَغَيَّرَ أَوْ مُحِيَ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ .

وَنَحْنُ حِينَ نَقْرَأُ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَمَا فَاضَتْ بِهِ كُتُبُ السَّمَائِلِ مِنْ أَمْثَالِهَا ، لَا نَقْرُؤُهَا أَوْصَافًا وَلَا حِلِيَّةً ، بَلْ نَرَاهَا صَفْحَةً إِلَهِيَّةً مُصَنَّفَةً أَبَدَ تَصْنِيفٍ وَأَدَقَّهُ ، وَمِنْ وَرَاءِ تَأْلِيلِهَا تَفْسِيرٌ طَوِيلٌ لَا يَنْهَدِي الْفِكْرَ الْبَشَرِيَّ لِأَحْسَنَ مِنْهُ وَلَا أَصَحَّ وَلَا أَكْمَلَ ؛ فَقَدْ أَجْتَمَعَتْ تِلْكَ الصِّفَاتُ فِي إِنْسَانِهَا أَجْتِمَاعَ الْأَجْزَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ الرِّيَاضِيَّةِ : لَا يَنْبَغِي أَنْ تَزِيدَ أَوْ تَنْقُصَ ، إِذْ كَانَ فِي مَجْمُوعِهَا مَا وَجَدَ لَهُ مَجْمُوعُهَا .

وَبَكَادُ الْإِزْتِبَاطُ بَيْنَ أَجْزَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَكُونُ هُوَ بَعَيْنِهِ صُورَةٌ لِلِإِزْتِبَاطِ بَيْنَ أَجْزَاءِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الشَّرِيفَةِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا مَوْضُوعٌ وَضْعًا لَا يَتِمُّ الْكُلُّ إِلَّا بِهِ ، حَتَّى لَا مَوْضِعَ فِيهَا لِقِلَّةٍ أَوْ كَثَرَةٍ ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : « أَدْبَيْتُ رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » [رواه أبو سعيد ابن السمعي في « أدب الإمام » من حديث ابن مسعود] ، وَأَنْتَ إِذَا دَقَّقْتَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَدْرَكْتَ مِنْ مَعْنَاتِهِ أَنَّ هُنَاكَ طَبِيعَةً أَخْلَاقِيَّةً مُفَرَّدَةً تَجْرِي عَلَى قَانُونِهَا الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَهَا وَأَحْكَمَهَا بِهِ .

وَأَعْجَبَ مَا يَذْهَبُنَا مِنْ مَجْمُوعِ صِفَاتِهِ ﷺ أَنَّ فِيهَا دَلِيلًا بَيِّنًا عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَلْقَةً مُتَمَيِّزَةً بِنَفْسِهَا ، كَخَلْقَةِ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ : نِظَامُهُ حَيَاتُهُ وَحَيَاتُهُ نِظَامُهُ ، وَكَأَنَّمَا اعْتَرَتْهُ حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ كَالَّتِي تَعْتَرِي الْقَلْبَ فِي اسْتِشْعَارِ الْخَطَرِ فَتُخْرِجُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ إِلَى أَقْوَى مِنْهَا ، فَلَا يَزَالُ يُعِدُّ أَعْضَاءَ الْجِسْمِ بِمَدَدٍ لَا يَنْفَدُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّبْرِ ، يَجْعَلُ الْحَيَاةَ فِيهَا عَلَى أَضْعَافِهَا كَأَنَّهَا حَيَاةٌ كَانَتْ مَخْبُوءَةً وَظَهَرَتْ بَغْتَةً ؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَنْجُهُ غَرَائِزُ النَّفْسِ كُلُّهَا إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ كَأَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ بِمِيزَانٍ ، مَضْبُوطَةٌ بِمِيقَاسٍ ؛ فَتَرْجِعُ عَلَى تَنَاقُضِهَا وَاخْتِلَافِهَا مُتَعَارِفَةً يُؤَارِزُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَكَانَ قَانُونُهَا الطَّبِيعِيُّ أَنْ تَتَجَادَبَ وَتَتَسَاقَطَ وَتُفَسِّرَ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا عَمَلُ الْأُخْرَى ، فَيَجِيءُ بِهَا الشَّيْءُ وَضْءُهُ مَعًا : كَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ ، وَالطَّمَعِ وَالْفَنَاعَةِ ، وَالشَّهَوَاتِ الثَّائِرَةِ وَالْخُمُودِ السَّاكِنِ ، إِلَى آخِرِ مَا تَعُدُّ مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِزِ ؛ وَلَكِنَّهَا فِي اسْتِشْعَارِ الْخَطَرِ تَكُونُ كَالْأَشْبَاهِ لَا كَالْأَضْدَادِ ، فَيَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَيُثَمِّمُ التَّقْيِضُ مِنْهَا تَقْيِضَهُ ، وَتَجْرِي كُلُّهَا فِي قَانُونٍ وَاحِدٍ : هُوَ الدَّفَاعُ بِأَجْزَائِهَا عَنْ مَجْمُوعِهَا ؛ فَتَرَى النَّازِعَ مِنْهَا وَإِنَّهُ لَمُسْتَقَرٌّ فِي أَشَدِّ مِنَ الْقَيْدِ ، وَكَأَنَّ فِيهِ غَيْرَ طَبِيعَتِهِ .

وَهَلْ يُبْنِئُكَ مَجْمُوعُ صِفَاتِهِ ﷺ إِلَّا أَنَّهُ يَعِيشُ مَعِيشَةَ الْقَلْبِ إِذَا اخْتَلَفَ مَا حَوْلَهُ وَفَجَأَتْهُ بَغَاتُ الْوُجُودِ فَتَجَاوَزَ أَنْ يَكُونَ مَتَّبِعًا لِلْحَيَاةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْحَيَاةِ فِي مَتَّبِعِهَا ؟

وَتِلْكَ الْحَالَةُ - كَمَا مَرَّ بِكَ - تَجْعَلُ وَجُودَ الْإِنْسَانِ هُوَ وَجُودُ إِرَادَتِهِ وَعَقْلِهِ ، لَا وَجُودَ شَهَوَاتِهِ وَغَرَائِزِهِ ؛ وَكَذَلِكَ عَاشَ نَبِيُّنَا ﷺ ؛ فَهُوَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ فِي وَجُودِ إِرَادَتِهِ لَا غَيْرِهَا ، حَتَّى لَيْسَ عَلَيْهِ سَبِيلٌ لِعِمِّيَّةٍ أَوْ لَأَيْمَةٍ ، كَأَنَّهُ خُلِقَ تُشَدُّهُ نِيَّةٌ مُسْتَنِقِظَةٌ قَدْ نَبَّهَهَا مَا يُنْبَهُ النَّفْسُ مِنَ الْغَرَرِ وَالْخَطَرِ . وَلَعَلَّ هَذَا الشُّعُورَ فِي نَفْسِهِ ﷺ هُوَ التَّفْسِيرُ لِقَوْلِهِ : « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ » [رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ؛ والطبراني في « المعجم الكبير »] . إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِمَّا يَجْرِي فِي مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ ؛ يُرِيدُ بِهَا : أَنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ لَا تَنْطَوِي إِلَّا عَلَى الْخَيْرِ الْكَامِلِ ، فَهُوَ - مَا دَامَتْ نِيَّتُهُ عَلَى صَلَاحِهَا وَسِرُّهُ عَلَى إِخْلَاصِهِ - لَا يَعُدُّ الْيَسِيرَ مِنَ الشَّرِّ يَسِيرًا ، وَلَا يَرَى الْكَثِيرَ مِنَ الْخَيْرِ كَثِيرًا ؛ فَالْأَصْلُ الْقَائِمُ فِي تِلْكَ النِّيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ أَلَّا يَبْدَأَ الشَّرُّ كَيْ لَا يُوْجَدَ ، وَأَلَّا يَنْتَهِيَ الْخَيْرُ كَيْ لَا يَفْنَى ؛ فَالْمُؤْمِنُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ أَبَدًا ، فِي حِينِ أَنْ عَمَلَهُ بِطَبِيعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَتَنَاوَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ جَمِيعًا ، ثُمَّ

لَا يَكُونُ إِلَّا عَمَلًا إِنْسَانِيًّا عَلَى نَقْصٍ وَأَضْطِرَابٍ وَالتَّوَّاءِ .

وَقَدْ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَأْتِيَ الْخَيْرَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ دَائِمًا أَنْ يَتَوَبَّعَ وَيَرْغَبَ فِيهِ وَيَعَزِّمَ عَلَيْهِ ، لِيُحَقِّقَ ضَمِيرَهُ الطَّيِّبَ فِي كُلِّ مَا يَهْمُ بِهِ ؛ وَيَخْصُرَ أَفْكَارَهُ فِي قَانُونٍ يَبْنِيهِ الْمُؤْمِنَةُ . وَهَذَا هُوَ الْأَسَاسُ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ ، لَا أَسَاسٍ مِنْ دُونِهِ .

وَالْكَيْتُ مِنْ بَعْدِ هِيَ حَارِسُ الْعَمَلِ ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُذْعَنَ وَأَنْ يَأْبَى ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ هَذِهِ الْكَيْتَةُ رَدًّا وَمُدَافَعَةً مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَأَسْتِجَابَةً وَمُطَاوَعَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ؛ فَبِهِي عَلَى الْحَقِيقَةِ مَتَى صَلَحَتْ كَانَتْ اسْتِغْلَالًا تَامًا لِلْإِرَادَةِ ، وَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ ضَبْطًا لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِي يَنْتَظِمُ بِهَا قَانُونُ الْمَبْدَأِ السَّامِيِّ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَا ضَابِطَ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِلَّا الْكَيْتَةُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ ؛ فَالْتَزَوُّيرُ وَالتَّلْيِيسُ كِلَاهُمَا سَهْلٌ مَيْسُورٌ فِي الْأَعْمَالِ ، وَلَكِنَّهُمَا مُسْتَحِيلَانِ فِي الْكَيْتَةِ إِذَا خُلِصَتْ .

وَهِيَ كَذَلِكَ ضَابِطٌ لِلْفَضَائِلِ تُوجِّهُ الْقُلُوبَ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَقَاوُفِهَا أَتَّجَاهًا وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ ؛ فَيَكُونُ طَرِيقُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ ، مِنْ نَاحِيَةِ الطَّرِيقِ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ .

وَأَشْوَاقُ الرُّوحِ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَنْتَهِي ، فَيُعَارِضُهَا الْجِسْمُ بِجَعْلِ حَاجَاتِهِ غَيْرَ مُنْتَهِيَةٍ ؛ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمِسَ بِهَذِهِ عَلَى تِلْكَ ، وَأَنْ يَغْلِبَ الْحَيَوَانِيَّةَ عَلَى الرُّوحَانِيَّةِ ، فَإِذَا كَانَتْ الْكَيْتَةُ مُسْتَقِظَةً كَفَّتْهُ وَأَمَاتَتْ أَكْثَرَ نَزْعَاتِهِ ، وَوَضَعَتْ لِكُلِّ حَاجَةٍ حَدًّا وَنَهَايَةً ؛ وَبِذَلِكَ تَرْجِعُ الْكَيْتَةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ قُوَّةً فِي النَّفْسِ يَخْرُجُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحْدُهُ مِنْ جَسْمِهِ ، لِيَخْرُجَ بِذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحْدُهُ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ . . .

وَهِيَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَاجِبِهِ كَأَنَّهُ رَقِيبٌ حَيٌّ فِي قَلْبِهِ ، لَا يُزَانِيهِ وَلَا يُجَامِلُهُ ، وَلَا يُخَدِّعُ مِنْ تَأْوِيلٍ ، وَلَا يَعْرِ بِفَلَسَفَةٍ وَلَا تَزْيِينٍ ، وَلَا يُسَكِّنُهُ مَا تَسْوُلُ النَّفْسُ ، وَلَا يَرَاوُلُ دَائِمًا يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ فِي قَلْبِهِ : إِنَّ الْخَطَأَ أَكْبَرَ الْخَطَأِ أَنْ تَنْظُمَ الْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِكَ وَتَتْرُكَ الْفَوْضَى فِي قَلْبِكَ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي مَعَانِي الْكَيْتَةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ تَجْعَلُ بَاطِنَ الْجِسْمِ مُتَسَاوِفًا مَعَ ظَاهِرِهِ ،

فَتَتَعَاوَنُ الْعَرَائِزُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي النَّفْسِ تَعَاوُنًا سَهْلًا طَبِيعِيًّا مُطَرِّدًا ، كَمَا تَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ الْجِسْمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي أَطْرَادٍ وَسُهُولَةٍ وَطَبِيعَةٍ .

\* \* \*

وَكُلُّ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ - مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ - مَتَى اغْتَبِرْتَ بِذَلِكَ الْأَصْلَ الَّذِي بَنِيَاهُ انْتَضَمَتْ جَمِيعًا ، فَجَاءَ بَعْضُهَا تَمَامًا عَلَى بَعْضٍ فِي نَسَقٍ رِيَاضِيٍّ عَجِيبٍ ، وَظَهَرَتْ حِكْمَةُ كُلِّ مِنْهَا وَاضِحَةً مَكْشُوفَةً ، وَرَأَيْتَهَا فِي مَجْمُوعِهَا تَصِفُ لَكَ عُمْرًا هَنْدَسِيًّا دَقِيقًا قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْكَمَالِ وَالرُّوَعَةِ وَالذِّقَّةِ ، لَا يُعَدُّ جُزْءٌ مِنْهُ جُزْءًا ، بَلْ كُلُّهُ أَجْزَاؤُهُ ، وَأَجْزَاؤُهُ كُلُّهُ ؛ كَالْوَضْعِ الْهَنْدَسِيِّ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِكُلِّهِ ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِيهِ الْهَنْدَسَةُ كُلُّهَا .

وَلَيْسَ مَجْمُوعُ تِلْكَ الصِّفَاتِ فِي مَعْنَاهُ إِلَّا صَنْعَةُ الْإِنْسَانِ صَنْعَةً جَدِيدَةً تُخْرِجُهُ مَوْجُودًا مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَتَكْسِرُ الْقَالِبَ الْأَرْضِيَّ الَّذِي صُبَّ فِيهِ وَتُفْرِغُهُ فِي مِثْلِ قَالِبِ الْكَوْنِ ، فَإِذَا هُوَ غَيْرُ هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّيِّقِ الْمُنْخَصِرِ فِي جَسْمِهِ وَدَوَاعِي جَسْمِهِ ، فَلَا تُخْصِصُهُ الْمَادَّةُ ، وَلَا يُؤْتَى مِنْ سُوءِ ظَنَرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَعْرُوهُ الدُّنْيَا ، وَلَا يُمَسِّكُهُ الزَّمَانُ ؛ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ صِفَاتِ الْمُسْتَعْبِدِ بِأَهْوَائِهِ لَا الْخَرِّ فِيهَا ، وَالْخَاضِعِ بِنَفْسِهِ لَا الْمُسْتَقِلَّ بِهَا ، وَالْمَقْبُورِ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ لَا الْحَيِّ فَوْقَ إِنْسَانِيَّتِهِ ؛ وَمِثْلُ هَذَا الْمُسْتَعْبِدِ الْخَاضِعِ الْمَقْبُورِ لَا وُجُودَ لَهُ إِلَّا فِي حُكْمِ حَوَاسِهِ ، فَعَمَلُهُ مَا يَعِيشُ بِهِ لَا مَا يَعِيشُ مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَيَتَّصِلُ بِكُلِّ شَيْءٍ اتِّصَالًا مَبْتُورًا يَنْتَهِي فِي هَوَى مِنْ أَهْوَاءِ الْحَيَوَانِ الَّذِي فِيهِ .

وَمِنْ الْمُقَابِلَةِ الْعَجِيبَةِ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِنْسَانِ الْأَخْتِمَاعِيَّ حَيَوَانًا ، تُقَابِلُهُ الْحِكْمَةُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَلْفِ بِإِنْسَانٍ ، وَحُكْمُهُمَا وَاحِدٌ وَمَنْطِقُهُمَا لَا يَخْتَلِفُ . فَلَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ حَيَوَانَ الْأَعْصَابِ عَنْ صَاحِبِهِ الْإِنْسَانِ لَقَالَ لَكَ : هُوَ عَلَنِي وَمَرَّرَعَنِي . وَلَوْ سَأَلْتَ كَلْبًا عَنْ حُبِّهِ صَاحِبِهِ وَمَبْلَغِ هَذَا الْحُبِّ فِي نَفْسِهِ لَمَا زَادَ فِي جَوَابِهِ عَلَى أَنَّهُ يُحِبُّهُ حُبَّ اللَّقْمَةِ وَالْعَظْمَةِ . . .

وَمَتَى كَانَ الْإِنْسَانُ فِي حُكْمِ حَوَاسِهِ لَمْ تَعُدِ الْأَشْيَاءُ عِنْدَهُ كَمَا هِيَ فِي نَفْسِهَا بِمَعَانِيهَا الطَّبِيعِيَّةِ الْمَخْدُودَةِ ، وَانْقَلَبَتْ كَمَا هِيَ فِي وَهْمِهِ بِمَعَانٍ مُتَقَاوِمَةٍ مُضْطَرِبَةٍ ، فَلَا يَشْعُرُ الْمَرْءُ بِاتِّخِلَافِ الوجودِ وَتَعَاوُنِهِ ، وَلَكِنْ بِاخْتِلَافِهِ وَتَنَاقُضِهِ ، فَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُونُ أَسْبَابُ اللَّذَّةِ إِلَّا

مِنْ أَسْبَابِ الْأَلَمِ ، وَيَدْخُلُ فِي كُلِّ حُبٍّ بُغْضٌ ، وَفِي كُلِّ رَغْبَةٍ طَمَعٌ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ شَرٌّ ، وَفِي كُلِّ صَرِيحٍ خَبِيْءٌ ، وَهَلُمَّ جَرًّا ؛ إِذْ لَا بُدَّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ مَتَى غَلَبَ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، وَلَا بُدَّ مِنْ كُلِّ هَذَا فِي تَمَثُّلِ رَوَايَةِ الْحَوَاسِّ الْخَادِعَةِ الَّتِي أَسَاسُهَا التَّغَيُّرُ وَالتَّقَلُّبُ ، حَتَّى لَكَأَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَعِيشُ بِهَا فِي ظَاهِرٍ مِنَ الْحَيَاةِ لَا فِي الْحَيَاةِ نَفْسَهَا .

وَهَذَا الْخِدَاعُ جَاعِلٌ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ النَّفْسِ لَا يَبْدَأُ إِلَّا لِيَنْتَهِيَ ، ثُمَّ لَا يَنْتَهِيَ إِلَّا لِيَبْدَأَ ؛ فَمَا تَرَاهُ هَذِهِ النَّفْسُ طَامِعَةً فِيمَا لَا تَنَالُهُ ، وَلَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ مَصْدَرٌ لِأَلَامِهَا الْحَسِيَّةِ ؛ ثُمَّ إِذَا هِيَ نَالَتْ مَنَالَهَا سَنِمَتْ ، فَلَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ مَصْدَرٌ آخَرَ لِأَلَامِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ . وَلَنْ يَجِيءَ الصَّحِيحُ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ ؛ فَالْكُفُوفُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا كِذْبًا فِي النَّفْسِ الْكَاذِبَةِ بِحَوَاسِّهَا .

وَلِذَا كَانَ أَحْصَى أَوْصَافِهِ ﷺ رَاجِعًا إِلَى خُرُوجِهِ مِنْ سُلْطَانِ نَفْسِهِ ، فَلَا يَبْغِضُ لَهَا ، وَلَا يُطْلِقُهَا مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا تَذُمُّهُ أَوْ تَمْدَحُهُ ، وَلَا يُحِبُّ فِيهَا ، وَلَا يَبْغِضُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَلَا يُهَاجِرُهَا ، وَلَا يَسْتَلِينَ لَهَا فِي مَأْكَلٍ وَلَا مَلْبَسٍ ، وَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِالْإِنْسَانِيَّةِ ، فَافْرَاحُهَا أَخْزَانُهَا ، وَأَمَالَهَا أَشْوَاقُهَا ، وَأَمْلَاكُهَا أَعْمَالُهَا ، وَحِسَابُهَا فِي طَبِيعَتِهَا ، وَحَوَادِثُهَا مِنَ الْعَقْلِ لَا مِنَ الْحَوَاسِّ ، وَعَظَمَتُهَا إِبْثَابُ ذَاتِهَا فِي غَيْرِهَا ، لَا إِبْثَابُ غَيْرِهَا فِي ذَاتِهَا ؛ وَغَايَتُهَا فِي الْبَاقِي لَا الزَّائِلُ ، وَفِي الْخَالِدِ لَا الْفَانِي . وَمَا دَامَ الْحَاضِرُ مُتَحَرِّكًا فَهُوَ طَارِئٌ عَابِرٌ أَوْشَكَ أُمُورُ الدُّنْيَا زَوَالًا ، وَالْعَمَلُ لَهُ عَلَى مِقْدَارِهِ فِي قِلَّةِ لُبِّهِ وَهَوَانِ أَمْرِهِ ، وَالْاهْتِمَامُ أَبَدًا بِمَا وَرَاءَهُ لَا بِهِ .

فَأَوَّلُ النَّفْسِ النَّبِيَّةِ الْعَامِلَةُ لِأَخْرَجَتَهَا ، وَآخِرُ النَّفْسِ مَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ أَعْمَالُ هَذِهِ النَّبِيَّةِ ؛ فَلَيْسَ فِي إِنْسَانٍ الدُّنْيَا إِلَّا إِنْسَانُ الْعَالَمِ الْآخِرِ ؛ وَيَهْدَاهُ يَقْدَرُ صَمْتُهُ وَكَلَامُهُ ، وَحَرَكَتُهُ وَسُكُونُهُ ، وَمَا يَأْتِي وَمَا يَدَعُ ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ الْأَعْتِبَارِ إِنَّمَا هُوَ صُورَةُ الْحَقِيقَةِ الْعَامِلَةِ فِيهِ .

وَجَمَاعُ الْأَمْرِ أَلَّا يَكُونَ مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ عَلَامَةً اسْتِهْزَاءٍ بِجَانِبِ مَاضِيهِ ، وَلَا عَلَامَةً اسْتِفْهَامٍ ، وَلَا عَلَامَةً انْكَارٍ .

\* \* \*

وَتَذُلُّ صِفَاتُ النَّبِيِّ ﷺ بِاجْتِمَاعِهَا وَتَسَاوُفِهَا عَلَى حَقِيقَةِ عَظَمَتِهَا لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ ؛ وَهِيَ أَنَّ جَمِيعَ خَصَائِصِهِ النَّفْسِيَّةِ مُرْهَفَةٌ مُتَقَيِّظَةٌ ، وَهَذَا مِمَّا يَنْدُرُ وَقُوعُهُ وَإِمْكَانُهُ ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَ النَّاسِ لِيَكُونَ حَيًّا بِالْحَيَاةِ ، وَلَكِنَّ جَوَانِبَ كَثِيرَةً مِنْ نَفْسِهِ قَدْ طَاحَ بِهَا أَلَمُوتٌ ، أَوْ هِيَ مَرِيضَةٌ وَذَلِكَ أَوَّلُ أَلَمُوتٍ ؛ أَوْ غَافِلَةٌ وَذَلِكَ شِبْهُ أَلَمُوتٍ ؛ أَمَّا الْحَيُّ الْعَظِيمُ فَهُوَ الَّذِي يَخْبَا بِأَكْثَرِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ ، وَأَمَّا الْحَيُّ الْأَعْظَمُ فَهُوَ الَّذِي يَخْبَا بِجَمِيعِ خَصَائِصِهَا ، تَمَلُّؤُهُ الْحَيَاةَ فِيمَا لَهَا الْحَيَاةُ ، وَيَتَمَدَّدُ السَّرُّ فِيهِ لِزِيَرَةِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَيَهْدِيهِ وَيَذَلُّهُ ، فَيَكُونُ بِنَفْسِهِ رُؤْيَا لِلنَّاسِ وَهِدَايَةً وَدَلَالَةً ؛ وَمِثْلُ هَذَا يَعْظُمُ ثُمَّ يَعْظُمُ حَتَّى لَيَرَى الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ نُورٍ لَيْسَ اللَّحْمُ وَالْدَّمُ ، وَبَيْنَ تُرَابٍ لَيْسَ الدَّمُ وَاللَّحْمُ .

وَذَلِكَ لَا يَكَادُ يَتَّفِقُ إِلَّا فِي مَرَاتِبِ أَغْلَاهَا الْأَشْيَازِ فِي الثُّبُورَةِ ، ثُمَّ { تَذُنُّوْا إِلَى } الثُّبُورَةِ ؛ ثُمَّ تَنْزِلُ إِلَى الْأَمْتِازِ فِي الْحِكْمَةِ ؛ ثُمَّ تَهَيِّطُ إِلَى عِنَقَرِيَّةِ الشَّعْرِ . فَأَكْثَرُ الشُّعْرَاءِ قَاطِبَةٌ كَالنَّبِيِّ فِي مَعْنَاهُ إِلَّا أَنَّهُ نَبِيٌّ صَغِيرٌ ، وَإِلَّا أَنَّهُ فِي حُدُودِ قَلْبِهِ .

وَهَذِهِ الْقُوَى الثَّلَاثُ هِيَ الَّتِي أَبْدَعَتْهَا الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِتَحْوِيلِ الْحَيَاةِ وَالشُّمُوءِ بِهَا ؛ فَالشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي الْجَمَالَ إِذَا تَأَلَّاهُ الْجَمَالَ فِي قَلْبِهِ ، وَالْحَكِيمُ يَسْتَوْحِي الْحَقِيقَةَ إِذَا تَأَلَّاهُ فِي نَفْسِهِ ، وَالنَّبِيُّ يَسْتَوْحِي الْأُلُوهِيَّةَ نَفْسَهَا .

\* \* \*

« كَانَ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَخْزَانِ » وَلَكِنَّهَا أَخْزَانُ الثُّبُورَةِ تَكْشُو الْحَيَاةَ فَرَحَ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ ؛ وَهُوَ فَرَحٌ كُلُّهُ حُزْنٌ وَتَأَمُّلٌ ، وَفِكْرَةٌ وَخُشُوعٌ ، وَطَهْرٌ وَفَضِيلَةٌ ؛ وَمَا فَرَحَ أَعْظَمُ الشُّعْرَاءِ يَطْرَبُ الْوُجُودَ وَجَمَالَ الْمَوْجُودَاتِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ مِنْ حُزْنِ النَّبِيِّ .

« وَكَانَ دَائِمَ الْفِكْرَةِ لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ » إِذْ هُوَ مُكَلَّفٌ أَنْ يَصْنَعَ الْإِنْسَانَ الْجَدِيدَ وَيُنْقَحَ الْأَدَمِيَّةَ فِيهِ . وَفِكْرَةُ النَّبِيِّ هِيَ مَعِيشَتُهُ بِنَفْسِهِ مَعَ الْحَقَائِقِ الْعُلْيَا ، إِذْ لَا يَرَى أَكْثَرَهَا تَعِيشُ فِي النَّاسِ ، وَهِيَ الْفَرْدِيَّةُ وَاسْتِقْلَالُهَا وَسُمُوءُهَا لِأَنَّهَا إِطَاقَةُ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ لِوَحْدَتِهَا ، بِخِلَافِ الْأَنْفُسِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تُطِيقُهَا ، فَذَاتُهَا أَبَدًا أَنْ تَبْحَثَ عَمَّا تَسْتَعِيدُ لَهُ ، أَوْ تَنْسَى ذَاتَهَا فِيهِ ، أَوْ تَسْتَرْيَحُ إِلَيْهِ مِنْ ذَاتِهَا . وَمَتَى كَانَتِ النَّفْسُ فَارِغَةً كَانَتْ تَفَكِيرُهَا مُضَاعَفَةً لِفَرَاغِهَا ، فَهِيَ تَفَرُّ مِنْهُ إِلَى مَا يُلْهِمُهَا عَنْهُ ؛ وَلَكِنَّ الْعَظِيمَ يَعْيشُ فِي أَمْتِلَاءِ نَفْسِهِ ؛ وَعَالَمُهُ

الدَّخِيلُ تُسَمِّيهِ اللَّغَةُ أَحْيَانًا : الْفِكْرَةُ ؛ وَتُسَمِّيهِ أَحْيَانًا : الصَّنْعُ .

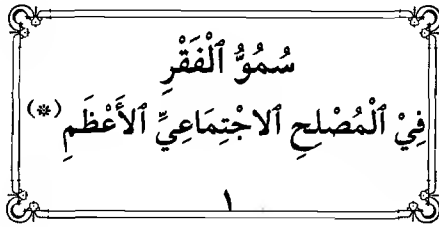
«وَكَانَ ﷺ طَوِيلَ السَّكْتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ» ، وَمِنْ الصَّنْعِ أَنْوَاعٌ : فَنَوْعٌ يَكُونُ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْفَهْمِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَسْرَارِ مَا يُحِيطُ بِهِ ؛ وَنَوْعٌ يَغْشَى الْإِنْسَانَ الْعَظِيمَ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَى رَهْبَةِ السِّرِّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ ؛ وَنَوْعٌ ثَالِثٌ يَكُونُ فِي صَاحِبِهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْحُكْمِ عَلَى صَنْتِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ ؛ وَنَوْعٌ رَابِعٌ هُوَ كَالْفَضْلِ بَيْنَ أَعْمَالِ الْجَسَدِ وَبَيْنَ الرُّوحِ فِي سَاعَةِ أَعْمَالِهَا ؛ وَنَوْعٌ خَامِسٌ يَكُونُ صَمْتًا عَلَى دَوْبٍ تَحْتَهُ يُسَبِّحُ نَوْمًا سَاكِئًا عَلَى أَحْلَامٍ جَمِيلَةٍ تَتَحَرَّكُ .

\* \* \*

عَلَى هَذَا السَّمَطِ يَجِبُ أَنْ تُفَسَّرَ كُلُّ أَوْصَافِهِ ﷺ ؛ فَهِيَ بِمَجْمُوعِهَا طَائِعٌ لِلَّهِ عَلَى حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ ، يُنْبِئُ لِلدُّنْيَا بِكُلِّ بُرْهَانَاتٍ<sup>(١)</sup> الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ أَنَّهُ الْإِنْسَانُ الْأَفْضَلُ ، وَأَنَّهُ الْأَقْدَرُ ، وَأَنَّهُ الْأَقْوَى .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَا يَصِفُ التَّارِيخُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بِطَبِيعَتِهِ فَوْقَ الْأَسْتِغْنَاءِ ، فَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْفَقْرِ ، وَلَا تَنَالُهُ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تَغْلُو بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا وَتَنْزِلُ بِعَرَضٍ ، فَمَا كَانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَذَا فِي الْحَيَاةِ فَيَرْمِيهَا الْمَالُ ، وَلَا كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي سَعْيٍ يُنْفِقُ فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ لِيَجْمَعَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا كَانَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ مِنْ طَمَعٍ أَدْرَكَ أَوْ طَمَعٍ أَخْفَقَ ، وَلَا نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِي الْحَسْبَةِ وَالتَّذْيِيرِ لِتَذِيرِ مَعِيشَتِهِ فَيَخْتَلِبَهَا ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً ، وَلَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ الْعَظِيمِ مَا يَجْعَلُ لِلدُّنْيَا مَعْنَى الدُّنْيَا وَلَا لِلدَّرْهِمِ مَعْنَى الدَّرْهِمِ ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْحَيَّ لِهَذَا الْمَالِ هُوَ إِظْهَارُ النَّفْسِ رَابِئَةً مُتَجَسِّمَةً فِي صُورَةٍ تَكْبُرُ عَلَى قَدَرٍ مِنَ السَّعَةِ وَالْغِنَى ؛ وَالْمَعْنَى الْحَيَّ لِلْفَقْرِ مِنَ الْمَالِ هُوَ إِبْرَارُ النَّفْسِ ضَائِلَةً مُتَزَوِّيةً فِي صُورَةٍ تَصْغُرُ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الضَّيْقِ وَالْعُسْرَةِ .

إِنَّ فَقْرَهُ ﷺ كَانَ مِنْ أَنَّهُ يَتَسَّعُ فِي الْكَوْنِ لَا فِي الْمَالِ ، فَهُوَ فَقْرٌ يُعَدُّ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ الْكُبْرَى الَّتِي لَمْ يَنْبَغِ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَى الْآنَ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ تَذَيُّرَتُهُ رَأَيْتُهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُعْجِزَةً تَوَاضَعَتْ وَغَيَّرَتْ أَسْمَاءَهَا ؛ مُعْجِزَةً فِيهَا الْحَقَائِقُ النَّفْسِيَّةُ وَالْأَجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى ، وَقَدْ سَبَقَتْ زَمَنَهَا بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا ، وَهِيَ الْيَوْمَ تُثَبِّتُ بِالْبُرْهَانِ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ : «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ» . [أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ؛ «المستدرک» للحاكم ، رقم : ١٠٠/١٠٠] .

نَحْنُ فِي عَصْرِ تَكَادُ الْفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ تَلَحُّقُ بِالْأَلْفَاظِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ قَدِيمًا . . . بَلْ عَادَتْ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ الشُّعْرِ تُرَادُّ لِتَحْرِيكِ السَّيْمِ اللَّغَوِيِّ الرَّائِدِ فِي الْحَيَالِ ، كَمَا تَقُولُ : السَّحَابُ الْأَزْرَقُ ، وَالْفَجَرُ الْأَبْيَضُ ، وَالشَّمْسُ الْأَحْمَرُ ،

(\*) «الرسالة» العدد : ٥٤ ، ٥ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ١٦ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١١٦٥ - ١١٦٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : «بُرْهَانِينَ» بَدَلًا مِنْ : «بُرْهَانَاتٍ» .

وَالْتَطَارِيفُ الْوَرْدِيَّةُ عَلَى ذَيْلِ الشَّمْسِ . وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَنْظُرُ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَعْيُنٍ فِيهَا مَعْنَى وَخِيٍّ لَوْ لَمْ يَضْرِبْ أَوْ طَعَنَ أَوْ ذَبَحَ .

وَعَمِلَتْ الْمَدِينَةُ أَعْمَالَهَا فَلَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ أُخْرِجَتْ الشَّكْلُ الشُّعْرِيُّ لِإِنْسَانِهَا الْعَنِّيِّ مُتَهَانًا تَرَفًا<sup>(١)</sup> ، وَنِعْمَةً ، وَأَفْتِنَانًا بَيْنَ ذَلِكَ ، مِنْ أَيْسَرِ الْحَلَالِ إِلَى الْفُطَيْحِ الْمُتَفَاحِشِ فِي الْإِبَاحَةِ ؛ فَكَأَنَّمَا وَضَعَتْ الْمَدِينَةُ عَقْلًا فِي وَخَشٍ ، فَجَاءَ وَقَدْ رَاغَتْ<sup>(٢)</sup> فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَيْنِ ؛ ثُمَّ قَابَلَتْهُ بِالشَّكْلِ الْوُخْشِيِّ لِإِنْسَانِهَا الْفَقِيرِ ، فَكَأَنَّمَا نَزَعَتْ عَقْلًا مِنْ إِنْسَانٍ ، فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ<sup>(٣)</sup> فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَيْنِ ؛ وَكَانَ مَعَ الْأَوَّلِ سَرَفُ الْهَوَى { بِالطَّبِيعَةِ } ، وَكَانَ مَعَ الثَّانِي { بِالطَّبِيعَةِ } سَرَفُ الْحَمَاقَةِ .

وَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ تَهَكُّمِ الْحَيَاةِ بِأَهْلِهَا أَنْ يَكُونَ الْفَقِيرُ فَقِيرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي الْمَدِينَةِ عَمَلُ الْغِنَى لِلْأَغْنِيَاءِ ... وَأَنْ يَكُونَ الْغَنِيُّ غَنِيًّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ فِي الْمَدِينَةِ هُوَ صِنْعَةُ الْفَقْرِ لِمِيزِهِ !

وَأَخْرَجَتْ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ مَسَائِلَ جَدِيدَةً فِي فَلْسَفَةِ الْمَعَايِشَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُسْتَوْنَهَا « الْاجْتِمَاعُ » ؛ فَسُؤَالُ اسْمِهِ « الْأَشْتِرَاكِيَّةُ » ، يَسْأَلُ الْقُوَّةَ أَنْ تَجْعَلَ صَاحِبَ أَلْمَالِ مِنْ مَالِهِ كَالْمَرْأَةِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ رَجُلِهَا ... وَسُؤَالُ اسْمِهِ « الشُّيُوعِيَّةُ » ، يَطْلُبُ مِنَ الْقُوَّةِ أَنْ تُسَلِّطَ عَلَى كُلِّ حَيٍّ مَا يَجْعَلُهُ فِي قُوَاهُ كَصَاحِبِ الدَّارِ سُلْطَةً عَلَيْهِ الطُّغْيَانُ فَانْقَلَبَتْ دَارُهُ سِجْنَهُ ، فَهُوَ يَتَأَلَّمُ مِنْ مَعْنَى نِعَمَتِهِ بِمَعْنَى شِقَائِهِ ، وَيَكُونُ أَغْبَطَ لَهُ أَنْ رُوحَ السَّجْنِ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ رُوحِ الْبَيْتِ ؛ وَسُؤَالُ اسْمِهِ « الْعَدَمِيَّةُ »<sup>(٤)</sup> ، يَأْمُرُ الْقُوَّةَ أَنْ تَجْعَلَ الْإِنْسَانَ كَالْحَيَوَانِ الْمُسْتَوَلِغِ فِيمَا يَجِدُهُ مِنْ طَيِّبٍ وَخَبِيثٍ : لَا يُبَالِي دَمًا وَلَا عَارًا ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنَّهُ يَعِيشُ لِيَمُوتَ أَكْلًا وَنَوْمًا ...

هَذَا إِلَى أَسْئَلَةٍ كَثِيرَةٍ لَوْ دَهَبْنَا نَعْدَهَا وَنَصِفُهَا لَطَالَ بِنَا الْقَوْلُ ، وَكُلُّهَا عَامِلَةٌ عَلَى نَزْعِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « لِإِنْسَانِهَا الْغَنِيِّ تَرَفًا » بَدَلًا مِنْ : « لِإِنْسَانِهَا الْعَنِيِّ مُتَهَانًا تَرَفًا » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فَرَاغَتْ » بَدَلًا مِنْ : « وَقَدْ رَاغَتْ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « فَضَلَّتْ » بَدَلًا مِنْ : « فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ » .

(٤) الْفُوضُويَّةُ وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ طَيِّبِ التَّرَعَةِ { الْإِنْسَانِيَّةِ } .

الشُّعُورِ الْعَقْلِيِّ مِنَ الْحَيَاةِ لِتَظْهَرِ أَسْخَفَ مِمَّا هِيَ ، وَأَفْتَحَ مِمَّا كَانَتْ ؛ حَتَّى أَصْبَحَتْ الشَّمْسُ { تَطْلُعُ } تَمْخُو لَيْلًا عَنِ الْمَادَّةِ وَتُلْقِي لَيْلًا عَنِ النَّفْسِ ، فِي حِينِ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ لَا يَعْمَلَانِ غَيْرَ بَثِّ هَذَا الثُّورِ الْعَقْلِيِّ فِي الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَانِي لِتَظْهَرَ الْحَيَاةُ مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً ، فَتُضِيحُ أَوْضَحَ مِمَّا هِيَ فِي نَفْسِهَا ، وَأَجْمَلَ مِمَّا هِيَ فِي الطَّبِيعَةِ .

فِي مِثْلِ هَذِهِ التَّرَعَاتِ الْمُتَقَاتِلَةِ الَّتِي صَعِدَتْ بِالْفَلْسَفَةِ وَتَرَلَّتْ ، وَجَعَلَتْ مِنَ الْعِلْمِ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِلءَ سَمَاءٍ مِنَ الْغَيْومِ بِسَوَادِهَا وَرَغْدِهَا وَصَوَائِقِهَا ، وَتَرَكَّتْ الْعَالَمَ يَضْجُ ضَجِيجَهُ الْمُزْعِجَ فِي قَلْبِ كُلِّ حَيٍّ حَتَّى لَتَدَاعُ الْهُمُومُ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ إِذَاعَةُ الْأَصْوَاتِ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ فِي « الرَّادِيُو » ... فِي مِثْلِ هَذَا أَلْبَاءِ الْمَاحِقِ تَلَفَّتْ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى التَّارِيخِ تَسْأَلُهُ دَرْسًا مِنَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْقَدِيمِ تَطْبُ مِنْهُ لِهَذِهِ الْحَمَاقَاتِ الْجَدِيدَةِ ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ دَرْسَ هَذَا الْعَصْرِ فِي عِلَاجِ مَشَاكِلِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ هُوَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ ، الَّذِي لَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ فِي وَضْفِهِ الْاجْتِمَاعِيَّ مَا بَلَغَ هُوَ فِي قَوْلِهِ : « إِنَّمَا أَنَا رَحِمَةٌ مُهْدَاةٌ » .

\* \* \*

هَذَا الْمُضْلِحُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْأَعْظَمُ يُلْقِي فَقْرَهُ الْيَوْمَ دَرْسًا عَلَى الدُّنْيَا الْعِلْمِيَّةِ الْفَلَسْفِيَّةِ ، لَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا فِكْرٍ ، وَلَكِنْ بِأَخْلَاقِهِ وَعَمَلِهِ وَسِيرَتِهِ ؛ إِذْ لَيْسَ الْمُضْلِحُ مَنْ فَكَّرَ وَكَتَبَ ، وَوَعَظَ وَخَطَبَ ، وَلَكِنَّهُ الْحَيُّ الْعَظِيمُ الَّذِي تَلْتَمِسُهُ الْفِكْرَةُ الْعَظِيمَةُ لِنَحْيَا فِيهِ ، وَتَجْعَلَ لَهُ عُمْرًا ذَهَبِيًّا يَكُونُ مُصْرَفًا عَلَى حُكْمِهَا ، فَيَكُونُ تَارِيخُهُ وَوُضْفُهُ هُوَ هَذِهِ الْفِكْرَةُ وَتَارِيخُهَا .

وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَّا عُمْرًا ذَهَبِيًّا مَخْصَا ، تَمُرُّ فِيهِ الْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةُ لِتَظْهَرَ لِلنَّاسِ إِلَهِيَّةٌ مُفَسَّرَةٌ . وَكُلُّ حَيَاتِهِ ﷺ دُرُوسٌ مُفْتَنَةٌ مُخْتَلِفَةٌ الْمَعَانِي ، وَلَكِنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا تُخَاطِبُ الْإِنْسَانَ عَلَى الدَّهْرِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ : أَيُّهَا الْحَيُّ ! إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ ، أَيْ : إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي الْكَذِبِ ، وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي الرَّجُولَةِ الْبَصِيرَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي الطُّفُولَةِ الْتَرَفَةِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَعْرِفُ وَيُذَرِّكُ ، فَهُوَ بِذَلِكَ وَرَاءَ الْحَقِيقَةِ ؛ وَلَكِنَّ الْطِفْلَ يَجْهَلُ وَلَا يَعْرِفُ الدُّنْيَا إِلَّا بِعَيْنَيْهِ ، فَهُوَ وَرَاءَ الْوَهْمِ ، وَمِنْ ثَمَّ طَبِئُهُ وَتَرَفُهُ ، وَإِثَارُهُ كُلُّ عَاجِلٍ وَإِنْ قَلَّ ، وَعَمَلُهُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهُ النَّفْسِيَّةَ الضَّئِيلَةَ فِي مِثْلِ تَوَثُّبِ أَعْضَاءِ جِسْمِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ أَبَدًا يَلْعَبُ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ مَعًا ...

أَيُّهَا الْحَيُّ ! إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ ، أَيْ : الْحَيَاةُ فِي ذَاتِكَ الْدَاخِلِيَّةِ وَقَانُونُ كَمَالِهَا ، فَإِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخْرِجَ لِلْأَرْضِ مَعْنَى سَمَاوِيًا مِنْ ذَاتِكَ فَهَذَا هُوَ الْجَدِيدُ دَائِمًا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِي الْقَرِيبِ الْقَرِيبِ مِنَ الرُّوحِ ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ إِلَهِيٌّ ؛ وَإِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ وَعِشْتَ فِي دَمِكَ وَأَعْصَابِكَ فَهَذَا هُوَ الْقَدِيمُ دَائِمًا فِي الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ مِنَ النَّفْسِ ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ أَرْضِيٌّ كَالْحَجَرِ وَالتُّرَابِ .

هُنَا ، أَيْ : فِي الْإِرَادَةِ الَّتِي فِيكَ وَحَدِّكَ . وَلَا هُنَاكَ ، أَيْ : فِي الْخَيَالِ الَّذِي هُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَهُنَا ، فِي أَخْلَاقِكَ وَقَضَائِكَ الَّتِي لَا تَذْفَعُكَ إِلَى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ هُوَ بِعَيْنِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْهَدَايَةِ وَالْحِكْمَةِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ ، فِي أَمْوَالِكَ وَمَعَاشِكَ الَّتِي تَجْعَلُكَ كَاللِّصِّ مُنْذِفًا إِلَى كُلِّ طَرِيقٍ مَتَى كَانَ هُوَ بِعَيْنِهِ طَرِيقًا إِلَى نَهْبَةٍ أَوْ سَرِقَةٍ . هُنَا ، فِي الرُّوحِ ، إِذْ تَشْعُرُ الرُّوحَ أَنَّهَا مُوجُودَةٌ ، ثُمَّ تَعْمَلُ لِتُبَيِّنَ أَنَّهَا شَاعِرَةٌ بِوُجُودِهَا ، مَاضِيَةٌ إِلَى مَصِيرِهَا ، مُتَنَبِّئَةٌ بِجَسَدِهَا إِلَى الْمَوْتِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى سُنَّةِ النَّفْسِ الْخَالِدَةِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ فِي الْجَسَدِ ، إِذْ يَتَعَلَّقُ الْجَسَدُ بِمَا يَتَقَلَّبُ عَلَى الْجِسْمِ ، فَهُوَ مُهْتَاجٌ لِشُعُورِهِ بِوَشْكِ فِتْنَتِهِ ، فَلَا يُخَدِّثُ إِلَّا الْأَلَمَ إِنْ نَالَ أَوْ لَمْ يَنْلَ ، وَهُوَ مُتَنَبِّئٌ بِجِسْمِهِ إِلَى الْمَوْتِ الْحَيَوَانِيِّ بَيْنَ أَكَلٍ وَمَأْكُولٍ عَلَى سُنَّةِ الطَّبِيعَةِ الْفَانِيَةِ .

أَيُّهَا الْحَيُّ ! إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ .

\* \* \*

إِنَّ الْحَكِيمَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى مَا وَرَاءَ الْأَشْيَاءِ فَيَتَعَرَّفُ أَسْرَارَهَا ، لَا تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِظَاهِرِهَا وَلَا أَخْلَاقُهُ وَلَا نَظَرُهُ ؛ هَذَا الْأَخِيرُ هُوَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَهُ مَظْهَرُ الْمَادَّةِ وَخِدَاعُهَا عَنِ الْحَقِيقَةِ ؛ وَذَلِكَ الْأَوَّلُ هُوَ نَفْسُهُ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ لَهُ رَوْعَةُ السِّرِّ وَكَشْفُهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ . وَلِهَذَا كَانَ فِي حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ مَا لَا يَطِيقُهُ النَّاسُ وَلَا يَضْبِطُونَهُ إِذَا تَكَلَّفُوهُ ، بَلْ يَنْخَرِقُ عَلَيْهِمْ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَجْزُ الْغَلَطُ ، وَيَخْذُلُ مِنَ الْغَلَطِ الزَّلَلُ .

وَنَظَرُهُ نَبِيئًا ﷺ إِلَى هَذَا الْوُجُودِ نَظَرَةً شَامِلَةً مُذَرَكَةً لِحَقِيقَةِ اللَّانِيَهَاةِ ، فَيَرَى بِدَايَةِ كُلِّ شَيْءٍ مَادِّيٍّ هِيَ نِهَائِيَّتُهُ فِي النَّوْ وَاللَّخْظَةِ ، فَلَا وَجُودَ لَهُ إِلَّا عَارِضًا مَارًا ، فَهُوَ فِي اعْتِبَارِهِ مَوْجُودٌ غَيْرُ مَوْجُودٍ ، مُبْتَدِئٌ مِنْهُ مَعَا ؛ وَبِذَلِكَ تَبْطُلُ عَنْدَهُ الْأَشْيَاءُ الْمَادِّيَّةُ وَتَأْتِيهَا ، فَلَا

تَتَّصِلُ بِنَفْسِهِ الْعَالِيَةِ إِلَّا مِنْ أَضْعَفِ جِهَاتِهَا ، وَيَجِدُ لَهَا النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ الشَّجَرَةَ وَالْقَرَعَ وَالشَّمْرَةَ ، وَمَا لَهَا عَنْدَهُ هُوَ جَذْرٌ وَلَا فَرْعٌ ؛ وَبِهَذَا لَمْ يَفْتِنَهُ شَيْءٌ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ شَيْءٌ .

وَكَانَتْ الدُّنْيَا تَطُولُ النَّاسَ وَتَقْصُرُ عَنْهُ ، وَكَانَتْ مُنْقَطِعَةً لِلنَّمَاءِ وَهُوَ ذَاهِبٌ فِي نُعْمِهِ الرُّوحِيِّ ، وَكَأَنَّمَا هُوَ صُورَةٌ أُخْرَى مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَيَكْلَاهُمَا لِمَسِّ بِنَفْسِهِ الْحَيَاةَ جَدِيدَةً خَالِيَةً مِمَّا جَمَعَ فِيهَا الزَّمَنُ وَأَهْلُهُ مِنْ طَمَعٍ وَشَرٍّ ، وَجَاءَ آدَمُ لِيُعْطِيَ الْأَرْضَ نَاسَهَا مِنْ صُلْبِهِ ، وَجَاءَ مُحَمَّدٌ لِيُعْطِيَ النَّاسَ قَوَانِينَهُمْ مِنْ فَضَائِلِهِ ؛ فَأَدَمُ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِتَتَّسِعَ ، وَمُحَمَّدٌ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِتَنْتَظِمَ .

وَمَاذَا يُفْهَمُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْعَظِيمَةِ ؟ يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ الشَّهَوَاتِ خُلِقَتْ مَعَ الْإِنْسَانِ تَحْكُمُ فِيهِ ، لِیَنْقَلِبَ بِهَا إِنْسَانًا يَتَحَكَّمُ فِيهَا ؛ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ الصَّحِيحَ الَّذِي لَمْ تَرَوْرُهُ الدُّنْيَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَا رُوحٍ يَمْتَدُّ فَيَفْنِيضُ عَنْ غَايَاتِ جِسْمِهِ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى فَأَعْلَى حَتَّى يُضَيِّحَ فِي حُكْمِ الثُّورِ وَأَنْطِلَاقِهِ وَخَرَّتِيهِ ، وَلَا يَنْكَمِشُ فَيَحْصُرُهُ جِسْمُهُ فِي غَايَاتِهِ وَضُرُورَاتِهِ فَيَرْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ أَسْفَلَ أَسْفَلَ حَتَّى يَعُودَ فِي حُكْمِ التُّرَابِ وَأَسْرِهِ وَغُبُودِيَّتِهِ . فَالْفَقْرُ وَمَا إِلَيْهِ ، وَالزُّهْدُ { وَمَا } هُوَ بِسَبِيلٍ مِنْهُ ، وَالْإِنْصِرَافُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالزُّدَائِلِ - كُلُّ ذَلِكَ إِنْ هُوَ إِلَّا تَرَاوُجُ النَّفْسِ الْعَالِيَةِ إِلَى ذَاتِهَا الثُّورَانِيَّةِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَشَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، لِتُضَيِّعَ عَلَى الْمَادَّةِ فَتُكْشِفَ حَقَائِقَهَا الصَّرِيحَةَ فَلَا تُبَالِيَهَا وَلَا تُقِيمُ لَهَا وَزْنَ . فَيَبْنِي النَّاسُ يَرَوْنَ الْأَمْوَالَ وَالشَّهَوَاتِ مَادَّةَ حَيَاةٍ وَعَمَلٍ وَشُعُورٍ ، تَرَاهَا هِيَ مَادَّةُ بَحْثٍ وَمَعْرِفَةٍ وَاعْتِبَارٍ لَيْسَ غَيْرُ ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ النَّفْسُ الْعَظِيمَةُ فِي الدُّنْيَا كَأُسْتَاذِ الْمُعْمَلِ : تَدْخُلُ الْمَادَّةُ إِلَى مُعْمَلِهِ وَهِيَ مَادَّةٌ وَفِكْرَةٌ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ وَهِيَ حَقِيقَةٌ وَمَعْرِفَةٌ ، وَعَلَى أَيْ أَحْوَالِهَا فِيهِ إِنَّمَا تُحْسِنُ فِي ذَلِكَ الْمُعْمَلِ بِأَصَابِعِ عِلْمِيَّةٍ دَقِيقَةٍ لَيْسَ فِيهَا الْجَمْعُ وَلَا الْحِرْصُ ، وَلَكِنْ فِيهَا الدُّهْنُ وَالْفِكْرُ ؛ وَلَيْسَ لَهَا طَبِيعَةُ الرَّغْبَةِ وَالْغَفْلَةِ ، وَلَكِنْ طَبِيعَةُ الْإِنْتِبَاهِ وَالنَّحْزِزِ ، وَلَيْسَتْ فِي أَسْرِ الْمَادَّةِ ، وَلَكِنْ الْمَادَّةُ فِي أَسْرِهَا مَا شَاءَتْ .

وَلَا يُسَمَّى فَقْرُهُ ﷺ زُهْدًا كَمَا يَظُنُّ الضَّعَفَاءُ مِمَّنْ يَتَعَلَّقُونَ عَلَى ظَاهِرِ النَّارِخِ ، وَلَا يُحَقِّقُونَ أَصُولَهُ النَّفْسِيَّةَ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ يَقْرَأُ النَّارِخَ النَّبَوِيَّ بَارَوَاحٍ مُظْلِمَةٍ تُرْبِيهِمْ مَا تَرَى الْعَيْنُ إِذَا مَا اخْتَلَطَ الظُّلَامُ وَلَيْسَ الْأَشْيَاءَ فَتَرَاتٍ مُجْمَلَةً لَا تَفْصِيلَ لَهَا ، مُفْرَعَةً لَا تَبْيِينَ فِيهَا ؛

وَمَا بِهَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَتَرَاءَى فِي بَقِيَّةٍ مِنَ الْبَصَرِ لَا تَعْمُرُهَا .

وَهَلِ الزُّهُدُ إِلَّا أَنْ تَطْرُدَ الْجِسْمَ عَنْكَ وَهُوَ مَعَكَ ، وَتَنْصَرِفَ عَنْهُ وَهُوَ بِكَ مُتَعَلِّقٌ ؟ فَتِلْكَ سُخْرِيَةٌ وَمِثْلَةٌ ، وَهِيَ فِي رَأْيِي تَشْوِيهِ لِلْجِسْمِ بِرُوحِهِ ، وَقَدْ تَنَعَّكُسُ فَتَكُونُ مِنْ تَشْوِيهِ الرُّوحِ بِجِسْمِهَا ؛ فَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ : أَذَاكَ تَفْسِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ الزَّاهِدِ بِاللُّوْرِ ، أَمْ هُوَ تَفْسِيرُ الْتَرَابِ ...

وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَمْلِكُ الْمَالَ وَيَجِدُهُ ، وَكَانَ أَجَوَدَ بِهِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَدَعُهُ يَتَسَاءَلُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ يَنْبُثُ فِي عَمَلِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَمَلُهُ تَرْجَمَةً لِإِحْسَانِهِ الرُّوحِيِّ ؛ فَهُوَ رَسُولٌ تَعْلِيمِيٌّ ، قَلْبُهُ الْعَظِيمُ فِي الْقَوَائِنِ الْكَثِيرَةِ مِنْ وَاجِبَاتِهِ ، وَهُوَ يُرِيدُ إِبْنَاتَ وَحْدَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ مَعَ الْمَادَّةِ الصَّامِتَةِ الْعَمِيَاءِ مَادَّةٌ مُفَكَّرَةٌ مُمَيَّزَةٌ ، وَأَنَّ الدِّينَ قُوَّةٌ رُوحِيَّةٌ يَلْقَى بِهَا الْمُؤْمِنُ أَحْوَالَ الْحَيَاةِ فَلَا يَنْبُثُ بِإِزَائِهَا شَيْءٌ عَلَى شَيْئِهِ ، إِذِ الرُّوحُ خُلُودٌ وَبَقَاءٌ ، وَالْمَادَّةُ فَنَاءٌ وَتَحَوُّلٌ ، وَمِنْ نَمِّ تَخَضُّعِ الْحَوَادِثِ لِلرُّوحِ الْمُؤْمِنَةِ وَتَتَغَيَّرُ مَعَهَا ، فَإِنَّ لَمْ تَخَضَّعْ لَمْ تُخَضَّعْهَا ، وَإِنْ لَمْ تَتَغَيَّرْ لَا تَتَغَيَّرُ الرُّوحُ بِهَا ؛ وَأَسَاسُ الْإِيمَانِ أَنَّ مَا يَنْتَهِي لَا يَنْتَهِي أَنْ يَنْصَرِفَ بِمَا لَا يَنْتَهِي .

وَمَا قِيَمَةُ الْعَقِيدَةِ إِلَّا بِصِدْقِهَا فِي الْحَيَاةِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَصْنَعُ هَذَا الْمَالَ : إِذَا الْكَذِبُ الصَّرَاحُ فِي الْحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا شُبْهَةُ الْكَذِبِ ؛ وَلِهَذَا تَنَزَّهَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ التَّعَلُّقِ بِهِ ، وَزَادَهُ بَعْدًا مِنْهُ أَنَّهُ نَبِيُّ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَثَلُهَا الْأَعْلَى ، فَحَيَاتُهُ الشَّرِيفَةُ لَيْسَتْ كَمَا تَرَى فِي النَّاسِ : إِنْجَادًا لِحَلِّ مَسَائِلِ الْفَرْدِ وَتَعْقِيدًا لِمَسَائِلِ غَيْرِهِ ، وَلَا تَوْشَعًا مِنْ نَاحِيَةٍ وَتَضْيِيقًا مِنَ الْآخَرَةِ ، وَلَا جَمْعًا مِنْ هُنَا وَمَنْعًا مِنْ هُنَاكَ ؛ بَلْ كَانَتْ حَيَاتُهُ بَعْدَ الرِّسَالَةِ مُنْصَرَفَةً إِلَى إِفْرَاقِ التَّوَارِثِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَعْلِيمِ الْجَمِيعِ عَلَى تَقَاوُيِهِمْ وَآخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَقْلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْكُونِ ؛ وَبِهَذَا الْعَقْلِ الْكُونِيِّ السَّلِيمِ تَرَى الْمُؤْمِنَ إِذَا عَرَضَ لَهُ الشَّيْءُ مِنَ الدُّنْيَا يَفْتِنُهُ أَوْ يَصْرِفُهُ عَنْ وَاجِبِهِ الْإِنْسَانِيِّ - أَبَتْ نَفْسُهُ الْعَظِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَرْتَفِعَ بِطَبِيعَتِهَا ، فَإِذَا هُوَ فِي قَانُونِ الشُّمُورِ ، وَإِذَا الْمَادَّةُ فِي قَانُونِ الثَّقَلِ ؛ فَيَرْتَفِعُ وَتَهَاوَى ، وَيُصْبِحُ الدَّهَبُ - وَإِنَّهُ دَهَبٌ - وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ إِلَّا رُوحُ التُّرَابِ .



قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : لَمْ يَمْتَلِكْ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ شَيْعًا قَطُّ ، وَإِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ لَا يَسْأَلُهُمْ طَعَامًا وَلَا يَتَشَهَّاهُ ؛ إِنْ أَطْعَمُوهُ أَكَلَّ ، وَمَا أَطْعَمُوهُ قَبِلَ ، وَمَا سَقَوْهُ شَرِبَ .

وَقَالَتْ : مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ مِنْ خُبْرِ الشَّعِيرِ يَوْمَيْنِ مُتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . [ابن ماجه ، رقم : ٣٣٤٦] .

وَعَنْهَا : كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ نَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْفِدُ بَنَارَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا التَّمَرُ وَالْمَاءُ . [البخاري ، رقم : ٢٥٦٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٩٧٢] .

وَقَالَتْ : مَا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَطُّ غَدَاءَ لِعِشَاءٍ ، وَلَا عِشَاءَ لِعَدَاءٍ ، وَلَا اتَّخَذَ مِنْ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ ؛ لَا قِمِصَيْنِ ، وَلَا رِدَاءَيْنِ ، وَلَا إِزَارَيْنِ ، وَلَا زَوْجَيْنِ مِنَ الثَّعَالِ .

وَيُزَوِّى عَنْهَا ، قَالَتْ : تُؤْفِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ ، إِلَّا شَطْرَ شَعِيرٍ فِي رَفِّ لِي . [البخاري ، رقم : ٣٠٩٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٩٧٣] .

وَقَالَتْ (١) : تُؤْفِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ . [الترمذي ، رقم : ١٢١٤ ؛ النسائي ، رقم : ٤٦٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٤٣٩ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢١١٠ ، ٢٧١٩ ، ٣٧٣٨ ، ٣٣٩٩ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٥٨٢] .

وَعَنْ أَبِي عَبَّاسٍ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُمْتَابِعَةَ وَأَهْلُهُ طَاوِيًا لَا يَجِدُونَ عِشَاءً ، وَإِنَّمَا كَانَ خُبْرُهُمُ الشَّعِيرُ . [الترمذي ، رقم : ٢٣٦٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٣٤٧ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢٣٠٣ ، ٣٥٣٥] .

(\*) « الرسالة » العدد : ٥٥ ، ١٢ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٣ يوليو / تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٠٣ - ١٢٠٥ .

(١) بل عن ابن عباس . بتمام .



وَعَنِ أَنَسٍ <sup>(١)</sup> ، قَالَ : خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « وَاللَّهِ مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ ، وَإِنَّهَا لَتَسَعَةُ آيَاتٍ ! » وَاللَّهُ مَا قَالَهَا اسْتِفْلَالًا [ لِذِكْرِ اللَّهِ ] ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ تَنَاسَى بِهِ أُمَّتَهُ . [ البخاري ، رقم : ٢٥٠٨ ؛ الترمذي ، رقم : ١٢١٥ ؛ النسائي ، رقم : ٤٦١٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٤٣٧ ، ٤١٤٧ ؛ مسند أحمد ، رقم : ١١٥٨٢ ، ١١٩٥٢ ، ١٢٧٥٧ ، ١٣٠٢٧ ، ١٣٠٨٥ . ]

وَعَنِ ابْنِ بُجَيْرٍ <sup>(٢)</sup> ، قَالَ : أَصَابَ النَّبِيُّ ﷺ جُوعٌ يَوْمًا ، فَعَمِدَ إِلَى حَجَرٍ فَوَضَعَهُ عَلَى بَطْنِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا رَبُّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ فِي الدُّنْيَا ، جَائِعَةٍ عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ أَلَا رَبُّ مُكْرِمٍ نَفْسَهُ وَهُوَ مُهِنٌ لَهَا ؛ أَلَا رَبُّ مُهِنٍ نَفْسَهُ وَهُوَ مُكْرِمٌ لَهَا » . [ أخرجه ابن سعد ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ] .

وَحَيْرٌ ﷺ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ « أَحَدٍ » ذَهَبًا فَقَالَ : « لَا يَا رَبِّ ! أَجُوعُ يَوْمًا فَادْعُوكَ ، وَأَسْبِغْ يَوْمًا فَأَحْمَدُكَ ! » . [ الترمذي ، رقم : ٣٩٨٠ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢١٦٨٦ . ]  
وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ وَيُكَبِّرُ مِنْهُ : « اَللَّهُمَّ أَخْيِنِي مَسْكِينًا ، وَأَمْنِي مَسْكِينًا ، وَأَحْشِرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » . [ الترمذي ، رقم : ٢٣٥٢ ؛ وابن ماجه ، رقم : ٤١٢٦ ؛ والمستدرک ، رقم : ٦٨/٧٩١١ . ]

\* \* \*

هَذَا هُوَ سَبَدُ الْأَمَةِ ، يُمَسِّكُهُ فِي الْحَيَاةِ نَبِيًّا عَظِيمًا مَا يُخْرِجُ غَيْرَهُ مِنْهَا ذَلِيلًا مُحْتَقَرًا ، وَكَأَنَّمَا أَشْرَقَ صَفَاءُ نَفْسِهِ عَلَى ثُرَابِ الْأَرْضِ فَرَدَّةً أَشْعَى نُورٍ ، عَلَى حِينِ يُلْقِي النَّاسُ عَلَى هَذَا الثُّرَابِ مِنْ ظِلَامِ أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَبْقَى ثُرَابًا بَلْ يَرْجِعُ ظِلَامًا ، فَكَأَنَّهُمْ { إِذْ يَمْشُونَ عَلَيْهِ } يَطْوُونَ الْمَجْهُولَ بِخَوْفِهِ وَرَوْعَتِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَسْتَقِرُّ ظِلَامًا بَلْ يَرْجِعُ آلَمًا ، فَكَأَنَّهُمْ يَنْبُشُونَ عَلَى الْمَرَضِ لَا عَلَى الْحَيَاةِ ؛ ثُمَّ لَا يَبْنِي آلَمًا بَلْ يَتَحَوَّلُ قُوَّةً وَتَوْبًا تَكُونُ مِنْهُ نَزَوَاتُ الْحُمُقِ

(١) فِي الْأُصُولِ : « الْحَسَن » .

(٢) فِي الْأُصُولِ : « مُجِير » وَصَوَابُهُ : ابْنُ بُجَيْرٍ ، أَوْ أَبِي الْخَجِيرِ كَمَا صَحَّحَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ ؛ رَاجِعِ « الْإِصَابَةُ » لابن حجر العسقلاني ، ترجمة عثمان بن بجير .

وَالْجُنُونِ فِي النَّفْسِ .

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعَيَّنَ أَنْفُسُهُمْ فِي الثُّرَابِ ، وَتَمَرَّغُونَ بِأَخْلَاقِهِمْ فِيهِ ، يَنْقَلِبُونَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ صُنْعِ الثُّرَابِ نَاسًا دُودًا { كَطَبْعِ الدُّودِ } لَا يَقَعُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَسْفَدَهُ أَوْ قَدَّرَهُ ؛ أَوْ قَوْمًا سُوسًا { كَطَبْعِ السُّوسِ } لَا يَنَالُ شَيْئًا إِلَّا نَحَرَهُ أَوْ عَابَهُ ، فَهُمْ يُوقِعُونَ الْخَلَلَ فِي نِظَامِ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِذَا هِيَ طَائِشَةٌ تُخَيِّلُ لَهُمْ كَأَنَّمَا اخْتَلَّتْ نَوَامِيسُ الدُّنْيَا ، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَبَضَهُمْ وَبَسَطَ غَيْرَهُمْ ، وَشَغَلَهُمْ وَفَرَّغَ مِنْ عَدَاهُمْ ، وَابْتَلَاهُمْ عَلَى مُسْكَةِ الرَّزْقِ <sup>(١)</sup> بِالشَّهْوَةِ الْمَسْغُورَةِ الَّتِي لَا تَحَقِّقُ ، فَضَرَبَهُمْ بِالْمُجَاهِدَةِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ ؛ وَأَنَعَمَ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي بَسْطَةِ الرَّزْقِ بِالشَّجَرَةِ الَّتِي لَا تَقْطَعُ مِنْهَا ثَمَرَةٌ إِلَّا نَبَتَ غَيْرُهَا فِي مَكَانِهَا .

إِنَّ مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ فَقْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَتِيدٌ حَاضِرٌ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ فِي هَمِّ الْمَالِ ، وَلَا جَعَلَتْهُ نَفْسُهُ فِي هَمِّ الْفَقْرِ ، وَأَنَّهُ لَقِيَ الْحَيَاةَ حَامِلًا لَا مَحْمُولًا ، وَاسْتَقَرَّ فِيهَا هَادِتًا لَا مُضْطَرِبًا - كُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُبَيِّنُ لِلدُّنْيَا أَنَّهُ خُلِقَ وَبُعِثَ وَعَاشَ لِيَكُونَ دَرَسًا عَمَلِيًّا فِي حُلِّ الْمَشْكِلاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، يُعَلِّمُ النَّاسَ أَنَّهَا لَا تَعْقُدُ بِطَبِيعَتِهَا ، وَلَكِنْ بِطَبَائِعِهِمْ فِيهَا ؛ وَلَا تَسْتَمِرُّ بِقُوَّتِهَا ، وَلَكِنْ بِإِمْدَادِ قُوَّاهُمْ لَهَا ؛ وَلَا تَغْلِبُ بِصَوْلَتِهَا ، وَلَكِنْ بِجَزَعِهِمْ مِنْهَا ؛ وَلَا تُغْضِلُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا ، وَلَكِنْ مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا عَلَيْهَا ، وَسُوءِ نَظَرِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَهَا .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْأَحَادِيثَ الَّتِي أَسْلَفْنَاهَا فَلَا تَقْرَأْهَا زُهْدًا وَتَقَلُّلًا ، وَلَا فَقْرًا وَجُوعًا ، وَلَا اخْتِلَالًا وَحَاجَةً ، كَمَا تَرَجِمُهَا نَفْسُكَ أَوْ تُحْسِنُهَا ضُرُورَتُكَ ؛ بَلْ أَنْظِرْ فِيهَا وَأَعْتَزِلْهَا بِنَفْسِهِ هُوَ ﷺ ، ثُمَّ اقْرَأْهَا شَرِيعَةً أَجْتِمَاعِيَّةً مُفَصَّلَةً عَلَى طَبِيعَةِ النَّفْسِ ، قَائِمَةً عَلَى أَنْ تَأْخُذَ نَفْسُ الْإِنْسَانِ مِنْ قُوَى الدُّنْيَا عَنَّا صِرَهاً الْحَيَوِيَّةَ ، لِتُعْطِيَ الْحَيَاةَ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةَ عَنَّا صِرَهاً .

وَالْحَيَاةُ الْعَامِلَةُ غَيْرُ الْحَيَاةِ الْوَادِعَةِ ، هُمَا ذَكَرٌ وَأُنْثَى ؛ فَأَمَّا الْأَوَّلَى فَهِيَ مَا وَصَفْنَا وَحَكَيْتَا ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ تَعَلُّلُ النُّعْمَةِ ، وَإِطْلَاقُ قَانُونِ التَّنَاسُلِ فِي الْمَالِ يُنْمِي بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَيَبْنِي بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ إِقَامَةُ الْحَيَاةِ عَلَى الزَّيْنَةِ وَمُقَوِّمَاتِهَا ، وَقِيَامُ الزَّيْنَةِ عَلَى

(١) { مُسْكَةُ الرَّزْقِ : ضِدُّ بَسْطَةِ الرَّزْقِ ، أَيْ : الضَّبُّ وَالسَّعَةُ } .

الْخِدَاعَ وَطَبَائِعِهِ ، فَيَقْبَلُ الْمَرْءُ مِنْ دُنْيَاهُ عَلَى مَا هُوَ جَدِيدٌ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْهَا ، وَيُحِبُّ مِنْهَا مَا كَانَ يَنْتَبِهُ أَنْ يُبَاغِضَهُ فِيهَا . وَكُلُّ مَا رَأَيْتَ وَعَلِمْتَ فِي رَجُلٍ قُوَّتُهُ الْقُوَّةُ فَهُوَ هُنَاكَ ؛ وَكُلُّ مَا عَلِمْتَ وَرَأَيْتَ فِي أَتْنَى قُوَّتِهَا الضَّعْفُ فَهُوَ هُنَا .

فَالسَّوَادُ الَّذِي تَرَاهُ فِي قَفْرِهِ ﷺ هُوَ السَّوَادُ الْحَيُّ ؛ سَوَادُ اللَّيْلِ حَوْلَ الرُّوحِ النَّجْمِيَّةِ السَّاطِعَةِ ؛ وَذَلِكَ التُّرَابُ هُوَ التُّرَابُ الْحَيُّ ؛ تُرَابُ الزَّرْعِ تَحْتَ التُّصْرَةِ وَالْخُضْرَةِ ؛ وَتِلْكَ الْحَاجَةُ الْجَسْمِيَّةُ هِيَ الْحَاجَةُ الْحَيَّةُ الدَّافِعَةُ إِلَى حُرِّيَةِ النَّفْسِ ؛ وَذَلِكَ الْإِفْلَاقُ مِنْ فَهْمِ اللَّذَّةِ هُوَ الْإِفْلَاقُ الْحَيُّ الَّذِي يَرِيدُ قُوَّةَ فَهْمِ الْجَمَالِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ؛ وَذَلِكَ الضَّيْقُ فِي حَيْرِ الْمَتَاعِ لِلْحَاسَةِ هُوَ الضَّيْقُ الْحَيُّ الَّذِي يُوَسِّعُ حَيْرَ الْمَتَاعِ لِلرُّوحِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَذَلِكَ التَّقْصُّ مِنَ الْمَادَّةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِنَفْيِ التَّقْصُّ عَنِ الْفَضِيلَةِ ، وَذَلِكَ الْأَخْيَارُ لِلْعَرَضِ الْفَانِي الزَّائِلِ هُوَ الْمَعْنَى الْآخِرُ لِتَقْدِيرِ الْخَالِدِ الْبَاقِي .

فَلَيْسَ هُنَاكَ خُبْرُ الشَّعِيرِ ، وَلَا الْجُوعُ ، وَلَا زَهْنُ الدَّرْعِ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ . كَلَّا ، كَلَّا ، بَلْ هُنَاكَ حَقِيقَةُ نَفْسِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ ، ثَابِتَةٌ مُتَزَنَةٌ ، قَائِمَةٌ بِعَنَاصِرِهَا السَّامِيَّةِ : مِنَ الْيَقِينِ وَالْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ ، إِلَى الرَّفْقِ وَالْجِلْمِ وَالتَّوَاضُعِ ، تُخْبِرُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْعِلْمِيَّةَ الْفَلَسْفِيَّةَ الْمَفْكُورَةَ أَنَّ ذَلِكَ إِلَهِي الْعَظِيمُ هُوَ الرَّجُلُ الْأَجْتِمَاعِيُّ التَّامُّ بِأَخْلَاقِهِ وَفَضَائِلِهِ ، وَهُوَ الَّذِي بُعِثَ لِتَنْفِيحِ غَرِيزَةِ تَنَازُعِ الْبَقَاءِ ، وَكَسْرِ هَذِهِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَقَمْعِ نَزَوَاتِهَا ، وَإِمَانَةِ دَوَاعِيهَا ، وَالشُّمُوءِ بِخَوَاطِرِهَا ؛ فَهُوَ بِنَفْسِهِ صُورَةُ الْكَمَالِ الَّذِي بُعِثَ لِتَحْقِيقِهِ وَإِبْثَابِ أَنَّهُ الْمُمْكِنُ لَا الْمُمْتَنِعُ ، وَالْحَقِيقِيُّ لَا الْخَيَالِيُّ .

لَيْسَ هُنَاكَ دِرْعٌ مَرْهُونَةٌ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا ، وَلَا الْفَقْرُ ، وَلَا خُبْرُ الشَّعِيرِ . كَلَّا ، كَلَّا ، بَلْ هُنَاكَ تَقْرِيرٌ أَنَّ النَّصْرَ فِي مَعْرَكَةِ الْحَيَاةِ لَا يَأْتِي مِنَ الْمَالِ وَالتَّرَاءِ وَالْمَتَاعِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْمُعَانَةِ وَالشَّدَّةِ وَالصَّبْرِ ؛ وَأَنَّ التَّقَدُّمَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَبْتَاعُ بِنَعَا ، وَلَا يُؤْخَذُ هُونًا ؛ بَلْ هُوَ انْتِزَاعٌ مِنَ الْحَوَادِثِ بِالْأَخْلَاقِ الَّتِي تَتَغَلَّبُ عَلَى الْأَزْمَاتِ وَلَا تَتَغَلَّبُ الْأَزْمَاتُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّ هَذَا الْمَالِ وَهَذِهِ الشَّهَوَاتِ - فِي حَقَائِقِ الْحَيَاةِ وَمَصَابِيرِهَا - كَكُنُوزِ الْأَحْلَامِ : لَا تَكُونُ كُنُوزًا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَرْضِ الْغَفْلَةِ وَالتَّوَمِّ ، فَلَا لَذَّةَ مِنْهَا إِلَّا بِمِقْدَارِ خَفِيفٍ مِنْ هَذِهِ الْغَفْلَةِ . وَلَيْسَ إِلَّا الْأَحْمَقُ أَوْ الْمَخْدُولُ أَوْ الضَّائِعُ هُوَ الَّذِي يَقْطَعُ الْعُمُرَ نَائِمًا أَبَدًا لِيُظَلَّ مَالِكًا أَبَدًا لِهَذِهِ الْكُنُوزِ . . . وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مُسْتَقِظٍ ، وَأَنَّهُ مَتَى أَتْبَعَهُ فِي آخِرَتِهِ لَمْ يَجِدْ

مِنْهَا شَيْئًا ﴿ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قَوْلَهُ حِسَابًا ﴾ [سورة النور، الآية : ٣٩] .

كَلَّا ، كَلَّا ، لَيْسَ هُنَاكَ فَقْرٌ وَلَا جُوعٌ وَمَا إِلَيْهِمَا ، بَلْ هُنَاكَ وَضْعُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ : يَنْتَبِهُ أَنْ تَجِدَ نَفْسَكَ ، وَمَوْضِعَ نَفْسِكَ ، وَإِيمَانَ نَفْسِكَ ، وَعِزَّةَ نَفْسِكَ . فَإِذَا أَذْرَكْتَ ذَلِكَ وَرَفَعْتَ نَفْسَكَ إِلَى مَوْضِعِهَا الْحَقِّ ، وَأَقْرَزَتْهَا فِيهِ ، وَحَبَسَتْهَا عَلَيْهِ ، وَحَدَدَتْهَا بِالْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ وَبِاللَّهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُقَابِلَةِ - رَأَيْتَ إِذَا أَنْ قِيَمَتِكَ الصَّحِيحَةِ فِي أَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً تُعْطِي وَتَعْمَلُ لَتُعْطِي ، لَا غَايَةَ تَأْخُذُ وَتَعْمَلُ لِتَأْخُذُ ، وَمَهْمَا ضَيَّقَ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ تَأْخُذُ تُرَابًا وَتَضَعُ حَلَاوَةً .

وَمَا قَطُ نَبَتِ شَجَرَةٍ فِي مَكَانِهَا لِتَأْكُلَ وَتَشْرَبَ وَتَخْتَرِنَ السَّمَادَ وَالتُّرَابَ وَتُحَصِّنَهُمَا وَتَمْنَعَهُمَا عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَوْ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ شَجَرَةٌ لَكَانَ هَلَاكُهَا فِيمَا تَفْعَلُ ، إِذْ تُحَاوِلُ أَنْ تُضَاعِفَ فَإِنَّدَتْهَا مِنْ قَانُونِ الْعَالَمِ ، فَيَكُونُ طَمَعُهَا سَرِيعًا فِي إِفْسَادِ الصِّلَةِ بَيْنَهُمَا ، فَلَا يَجِدُ الْقَانُونُ فِيهَا نِظَامَهُ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا تَجِدُ فِي الْقَانُونِ نِظَامَهَا ، فَيُهْلِكُهَا الَّذِي كَانَ يُحْيِيهَا ، وَتُسْتَعْبَدُ لِحَظِّ نَفْسِهَا ، فَيَفْقِدُهَا ذَلِكَ حُرِّيَّةُ الْحَيَاةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا فِي نَفْسِهَا .

\* \* \*

يَقُولُ نَبِيُّنا ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِنْ نَفْسُهُ تَنَزَّعَتْ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » . [السنائي ، رقم : ١٨٤٣ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢٤٠٨ ، ٢٤٧١ ، ٢٦٩٩] فَهَذَا هُوَ أَسْمَى قَانُونِ اجْتِمَاعِيٍّ يُمْكِنُ أَنْ تَنْظُرَ بِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَمَا يَأْتِي لَهَا ذَلِكَ إِلَّا إِذَا أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهَا شُعُورًا اجْتِمَاعِيًّا عَامًا ، مُقَرَّرًا فِي النَّفْسِ ، قَائِمًا فِيهَا عَلَى إِيْمَانٍ رَاسِخٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ هُوَ صُورَةُ الْمُجْتَمَعِ لَا صُورَةُ نَفْسِهِ وَخَدِّهَا ، وَأَنَّ النَّاسَ كَحَبِّ الْقَمْحِ فِي السَّنْبِلَةِ ، لَيْسَ لِجَمِيعِهِ إِلَّا قَانُونٌ وَاحِدٌ ، فَمَوْضِعُ كُلِّ حَبَّةٍ مِنَ السَّنْبِلَةِ هُوَ تَرَوُّتُهَا ، عَلَتْ أَوْ سَفَلَتْ ، وَكَثُرَ مَا تَأْخُذُ أَوْ قَلَّ ؛ وَإِذَا كَانَ أَساسُ الْحَيَاةِ فِي الْحَبَّةِ مِنْهَا أَنْ تَجِدَ قِوَامَهَا وَكِمَايَتَهَا مِنْ مَادَّةِ الْأَرْضِ ، فَتَمَامُ الْحَيَاةِ فِيهَا أَنْ يَغْمُرَهَا الثُّورُ مِنْ حَوْلِهَا ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ الثُّورُ مِنْ حَوْلِهَا يَغْمُرُهَا .

فَالْحَبَّةُ مِنَ السَّنْبِلَةِ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَإِنَّهَا لَتُنَزَّعُ وَمَا بِهَا أَنَّهَا تُرْعَثُ ، وَلَكِنَّهَا أَذَتْ مَا تُوَدِّي ، وَانْقَطَعَتْ مِنْ قَانُونٍ لِتَتَّصِلَ بِقَانُونٍ غَيْرِهِ ، وَمَا أَغْتَنَتْ وَلَا أَفْتَقَرَتْ ، وَلَا

أَكْثَرَتْ وَلَا أَخَفَّتْ ؛ بَلْ حَقَّقَتْ مَوْضِعَهَا ، فَإِنَّهَا مَا نَبَتْ لِتَبْقَى ، وَمَا نَمَتْ إِلَّا لِتَنْقَطَعَ نَمَاوُهَا . وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الصَّحِيحُ الْإِيمَانِ ، الصَّادِقُ النَّظَرُ فِي الْحَيَاةِ : هُوَ أَبَدًا فِي قَانُونٍ آخِرَتِهِ ، فَهُوَ أَبَدًا فِي عَمَلٍ صَمِيرِهِ .

وَالنَّاسُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَحَشِدٍ عَظِيمٍ يَتَدَفَّقُ مِنْ مَضِيٍّ بَيْنَ جَبَلَيْنِ يَنْقُدُ إِلَى الْفَضَاءِ ؛ فَإِذَا هُمْ أَذْرَكُوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ مُفْضُونَ إِلَى هَذِهِ النَّهَائَةِ مَرُؤًا آمِنِينَ وَكَانَ فِي يَمِينِهِمْ السَّلَامَةُ ، وَفِي صَبْرِهِمُ الْوَقَايَةُ ، وَفِي نِظَامِهِمُ التَّوْفِيقُ ، وَفِي تَعَاوُنِهِمُ الْحَيَاةُ ؛ فَهُمْ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَا دَامَ هَذَا قَانُونُ جَمِيعِهِمْ ؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ شَذَّ مِنْهُمْ فَاضْطَرَبَ فُطَاشٌ ، هَلَكَ وَأَهْلَكَ مَنْ حَوْلَهُ ، وَمَنْ عَكَسَ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ وَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، أَهْلَكَ مَنْ حَوْلَهُ وَهَلَكَ . وَالْمَوْتُ أَشَقُّ الْمَوْتِ هُنَا فِي هَذَا الْمَضِيٍّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ - اِغْتِيَارُ الْحَاضِرِ حَاضِرًا فَقَطْ <sup>(١)</sup> ، وَالضَّجَرُ مِنْهُ ، وَجَعَلَ { كُلُّ } إِنْسَانٍ <sup>(٢)</sup> نَفْسَهُ غَايَةً . وَالْحَيَاةُ أَهْنَا الْحَيَاةِ - اِغْتِيَارُ الْحَاضِرِ بِمَا وَرَاءَهُ <sup>(٣)</sup> ، وَالصَّبْرُ عَلَى شِدَّتِهِ ، وَجَعَلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَسِيلَةً .

\* \* \*

فَذَلِكَ مَعْنَى خُبَرِ الشَّعِيرِ ، وَالْقِلَّةِ وَالضُّبَيْقِ ، وَرَهْنِ الدَّرْعِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ مِنْ سَيِّدِ الْخَلْقِ وَأَكْمَلِهِمْ ، وَمَنْ لَوْ شَاءَ لَمَشَى عَلَى أَرْضٍ مِنَ الدَّهَبِ . فَهُوَ ﷺ يُعَلِّمُ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنَّ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ النَّفْسِ لَا يَكُونُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا ضَيْفًا نَارًا لَا عَلَى نَفْسِهِ .

وَمِنْ مَعَانِي ذَلِكَ الْفَقْرِ الْعَظِيمِ أَنَّ خُبَرَ الشَّعِيرِ هُوَ رَمَزٌ مِنْ رُمُوزِ الْحَيَاةِ عَلَى التَّحَلُّلِ مِنْ خُلُقِ الْأَثَرَةِ ، وَالْبِرَاءَةِ مِنْ هَوَى التَّرَفِ ؛ وَرَهْنُ الدَّرْعِ رَمَزٌ آخَرُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْكِبَرِيَاءِ وَالطَّمَعِ ؛ وَالْعُسْرَةُ رَمَزٌ ثَالِثٌ عَلَى مُجَاهَدَةِ الْمَلَلِ الْحَيِّ الَّذِي يَفْسِدُ الْحَيَاةَ كَمَا يَفْسِدُ بَعْضُ الْبَاتَاتِ الْكِبَاتِ . وَمَجْمُوعُ هَذِهِ الرُّمُوزِ رَمَزٌ بِحَالِهِ عَلَى وَجُوبِ الْإِنْفِاطِ النَّفْسِيِّ لِلْأُمَّةِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي تَقُودُ أَنْفُسَهَا بِمُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ وَمُجَاهَدَةِ الطَّبَاعِ ، لِتَكُونَ فِي كُلِّ قَرَدٍ مَادَّةُ الْجَبِيشِ ، وَلِيَصْلُحَ هَذَا الْجَبِيشُ قَانِدًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « اِغْتِيَارُ الْحَاضِرِ بِنَفْسِهِ » بَدَلًا مِنْ : « اِغْتِيَارُ الْحَاضِرِ حَاضِرًا فَقَطْ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ » بَدَلًا مِنْ : « وَجَعَلَ كُلَّ إِنْسَانٍ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « اِغْتِيَارُهُ بِمَا وَرَاءَهُ » بَدَلًا مِنْ : « اِغْتِيَارُ الْحَاضِرِ بِمَا وَرَاءَهُ » .

عَلَى أَنَّهُ ﷺ حَثَّ عَلَى طَلَبِ الْيَسَارِ ، وَالْعَفَلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّرِيفَةِ بِالْعَلَّةِ وَالْمَالِ ، فَقَالَ : « إِنَّكَ إِنْ تَدَعَ عِبَالَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » [البخاري ، رقم : ٥٦ ، ١٢٩٦ ، ٢٧٤٢ ، ٢٧٤٤ ، ٣٩٣٦ ، ٤٤٠٩ ، ٥٣٥٤ ، ٥٦٥٩ ، ٥٦٦٨ ، ٦٣٧٣ ، ٦٧٣٣ ؛ مسلم ، رقم : ١٦٢٨ ؛ الترمذي ، رقم : ٩٧٥ ، ٢١١٦ ، ٣٠٧٩ ، ٣١٨٩ ؛ النسائي ، رقم : ٣٦٢٦ ، ٣٦٢٧ ، ٣٦٢٨ ، ٣٦٣٠ ، ٣٦٣٢ ، ٣٦٣٥ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٧٤٠ ، ٣٨٦٤ ، ٣١٠٤ ؛ مسند أحمد ، رقم : ١٤٤٣ ، ١٤٧٧ ، ١٤٨٢ ، ١٤٩١ ، ١٥٠٤ ، ١٥٢٧ ، ١٥٤٩ ، ١٦٠٢ ، ١٦١٧ ؛ موطأ مالك ، رقم : ١٤٩٥ ؛ الدارمي ، رقم : ٣١٩٥ ، ٣١٩٦] . وَرَأَى عَابِدًا قَدِ انْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ حَتَّى أَكَلَتْ نَفْسُهُ جِسْمَهُ ، وَوَصَفُوا لَهُ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ ﷺ : « مَنْ يَعُولُهُ ؟ » قَالُوا : كُلُّنَا نَعُولُهُ . فَقَالَ : « كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ ! .. » إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مَرْوِيَةٍ ، هِيَ تَمَامُ الْقَانُونِ الْأَدَبِيِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي الدُّنْيَا ، تُثَبِّتُ أَنَّ الْحَيَّ إِنْ هُوَ إِلَّا عَمَلٌ الْحَيِّ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ سَيِّدُ الْأُمَّةِ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا رَجُلًا فَقِيرًا ، عَامِلًا مُجَاهِدًا ، يَكْدَحُ لِعَيْشِهِ ، وَيَجُوعُ يَوْمًا وَيَشْبَعُ يَوْمًا ، فَلَمْ يُقَلِّبْ يَدَهُ فِي تِلَادٍ مِنَ الْمَالِ يَرْتُهُ ، وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا <sup>(١)</sup> عَلَى طَرَفٍ مِنْهُ يُوَرِّثُهُ - فَذَلِكَ هُوَمَا بَيِّنَاةٌ وَشَرَحْنَاةٌ ، وَذَلِكَ كَالْأَمْرِ نَافِذًا لَا رُخْصَةَ فِيهِ ، عَلَى الْأَلَّا يَتَّخِذُ الْغَنَى مِنَ الْفَقْرِ عَبْدًا أَجْتِمَاعِيًّا لِفَقْرِ هَذَا وَلِمَالِ ذَاكَ ؛ بَلْ هِيَ الْمُسَاوَاةُ النَّفْسِيَّةُ لَا غَيْرَهَا وَإِنْ اخْتَلَفَتْ طَبَقَاتُ الْأَجْتِمَاعِ . وَالْأَكْرَمُ هُوَ الْأَتَقَى لِلَّهِ بِمَعْنَى التَّقْوَى ، وَالْأَفْقَرُ بِالْوَجِبِ عَلَى مَعْنَى الْوَجِبِ ، وَالْأَكْفَى لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي مَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ .

فَقَرُّ ذَلِكَ السَّيِّدِ الْأَعْظَمِ لَيْسَ فَقْرًا ، بَلْ هُوَ كَمَا رَأَيْتَ : ضَبْطُ السُّلْطَةِ الْكَائِنَةِ فِي طَبِيعَةِ التَّمَلُّكِ ، لِقِيَامِ التَّعَاوُنِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى أَسَاسِهِ الْعَمَلِيِّ ؛ هُوَ الْمُحَاجَزَةُ الْعَادِلَةُ بَيْنَ الْمَصَالِحِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الطَّاعِيَةِ : يَمْنَعُ أَنْ تَأْكُلَ مَصْلَحَةٌ مَصْلَحَةً فَتَهْلِكَ بِهَا ، وَيُوجِبُ أَنْ تَلِدَ الْمَصْلَحَةُ مَصْلَحَةً لِنَحْيَا بِهَا .

وَالسَّيِّدُ الْفَقِيرُ الْعَظِيمُ هُوَ فِي التَّارِيخِ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي ، كَالْقَاضِي الْجَالِسِ وَرَاءَ مَوَادِّ الْقَانُونِ . ﷺ .

مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا » .

## دَرْسٌ مِنَ النَّبُوءَةِ (\*)

قَالُوا : إِنَّهُ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ وَرَدَّ عَنْهُ الْأَخْزَابَ وَفَتَحَ عَلَيْهِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ<sup>(١)</sup> ،  
ظَنَّ أَزْوَاجَهُ ﷺ أَنَّهُ اخْتَصَصَ بِنَفَائِسِ الْيَهُودِ وَذَخَائِرِهِمْ ؛ وَكُنَّ تَسْعُ نِسْوَةً : عَائِشَةُ ،  
وَحَفْصَةُ ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ ، وَسَوْدَةُ ، وَأُمُّ سَلَمَةَ ، وَصَفِيَّةُ ، وَتَيْمُونَةُ ، وَزَيْنَبُ ، وَجُوزَيْرَةُ ؛  
فَقَعَدَنَ حَوْلَهُ وَقُلْنَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! بَنَاتُ كِسْرَى وَفَيْصَرَ فِي الْحَلِيِّ وَالْحَلَلِ ، وَالْإِمَاءِ  
وَالْحَوَلِ ، وَنَحْنُ عَلَى مَا تَرَاهُ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضُّيْقِ . . . وَالْمَنْ قَلْبُهُ بِمُطَالَبَتِهِنَّ لَهُ بِتَوْسِيعَةٍ  
الْحَالِ ، وَأَنْ يُعَامِلَهُنَّ بِمَا تُعَامِلُ بِهِ الْمُلُوكَ وَأَبْنَاءَ الدُّنْيَا أَزْوَاجَهُمْ ؛ فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتْلُوَ  
عَلَيْهِنَّ مَا نَزَلَ فِي أَمْرِهِنَّ مِنْ تَخْيِيرِهِنَّ فِي فِرَاقِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيَنَّكَ قُلُوبُ  
لَا تُولِجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكُمْ أَسْرَحَكُمْ سَرَكَ<sup>(٢)</sup> جَمِيلًا ۝ ٣٣ ۝  
وَلَنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ٣٤ ۝ ﴾ [سورة الأحزاب/ الآيتان : ٢٨ و ٢٩] .

قَالُوا : وَبَدَأَ ﷺ بِعَائِشَةَ - وَهِيَ أَحَبُّهُنَّ إِلَيْهِ - فَقَالَ لَهَا : « إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا مَا أَحِبُّ  
أَنْ تَعْجَلَنِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُونَكَ » . قَالَتْ : مَا هُوَ ؟ فَقَلَّا عَلَيْهَا الْآيَةُ . قَالَتْ : أَفِيكَ  
أَسْتَأْمِرُ أَبُوكَ ؟ بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ . [البخاري ، رقم : ٤٧٨٦ ؛ مسلم ، رقم :  
١٤٧٥ ؛ الترمذي ، رقم : ٣٢٠٤ ؛ النسائي ، رقم : ٣٤٣٩ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠٥٣ ؛  
«مسند أحمد» ، رقم : ٢٤٧٧١ ، ٢٥٥٧٧] .

ثُمَّ تَتَابَعْنَ كُلُّهُنَّ عَلَى ذَلِكَ ، فَسَمَّاهُنَّ اللَّهُ «أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ» ، تَعْظِيمًا لِحَقِّهِنَّ ،  
وَتَأْكِيدًا لِحُرْمَتِهِنَّ ، وَتَفْضِيلًا لَهُنَّ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ .

\* \* \*

(\*) «الرسالة» العدد : ١٤٦ ، ٢٨ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٠ أبريل / نيسان ١٩٣٦ ، السنة الرابعة ،  
الصفحات : ٦٢٤ - ٦٢٧ .

(١) هُنَا حَيَاتٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ لِلْهَجْرَةِ .

(٢) السَّرَاحُ : الطَّلَاقُ ، وَثَمَّةُ الطَّلَاقِ مَا تُطْلَأُ الْمُطْلَقَةُ - وَهُوَ - يَخْتَلِفُ حَسَبَ السَّعَةِ وَالْإِفْتَارِ .

هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ كَمَا تُقْرَأُ فِي الثَّارِنِخِ وَكَمَا ظَهَرَتْ فِي الزَّوْمَانِ وَالْمَكَانِ ، فَلْتَقْرَأْهَا نَحْنُ  
كَمَا هِيَ فِي مَعَانِي الْحِكْمَةِ ، وَكَمَا ظَهَرَتْ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ ؛ فَتَسْجُدْ لَهَا غُورًا بَعِيدًا ،  
وَتَعْرِفُ فِيهَا دَلَالَهَ سَامِيَّةَ ، وَتَتَبَيَّنُ تَحْقِيقًا فَلَسْفِيًّا دَقِيقًا لِلْأَوْهَامِ وَالْحَقَائِقِ .

وَهِيَ قَبْلَ كُلِّ هَذَا وَمَعَ كُلِّ هَذَا تَنْطَوِي عَلَى حِكْمَةٍ رَائِعَةٍ لَمْ يَنْبَغْ لَهَا أَحَدٌ ، وَمِنْ  
أَجْلِهَا ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لِتَكُونَ نَصًّا تَارِيخِيًّا قَاطِعًا يَدْفَعُ بِهِ الثَّارِنِخُ عَنْ هَذَا النَّبِيِّ  
الْعَظِيمِ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْرِ الْعَقْلِ وَالْعَرِيزَةِ ، فَإِنَّ جَهْلَةَ الْمُبْشِرِينَ فِي زَمَنَاتِ هَذَا ، وَكَثِيرًا مِنْ  
أَهْلِ الزَّيْنِ وَالْإِلْحَادِ ، وَطَائِفَةٌ مِنْ قِصَارِ النَّظَرِ فِي التَّحْقِيقِ - يَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنَّمَا  
اسْتَكْبَرَ مِنَ النِّسَاءِ لِأَهْوَاءِ نَفْسِيَّةٍ مَخْضَةٍ وَشَهَوَاتِ كَالشَّهَوَاتِ ؛ وَيَتَطَرَّقُونَ مِنْ هَذَا الزَّعْمِ  
إِلَى الشُّبْهِةِ ، وَمِنْ الشُّبْهِةِ إِلَى سُوءِ الظَّنِّ ، وَمِنْ سُوءِ الظَّنِّ إِلَى قُبْحِ الرَّأْيِ ؛ وَكُلُّهُمْ غِيبِي  
جَاهِلٌ ؛ فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ عَلَى قَرِيبٍ مِنْهُ أَوْ نَحْوٍ مِنْ قَرِيبِهِ ، لَمَا كَانَتْ هَذِهِ  
الْقِصَّةُ الَّتِي أَسَاسُهَا نَفْيُ الزَّيْنَةِ وَتَجْرِيدُ نِسَائِهِ جَمِيعًا مِنْهَا ، وَتَضَحِيحُ النَّبِيِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ عَلَى  
حَيَاةٍ لَا تَخِيَا فِيهَا مَعَانِي الْمَرَاةِ ، وَتَحْتَ جَوْ لَا يَكُونُ أَبَدًا جَوْ الزَّهْرِ . . . وَأَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ  
أَنْ يُخَيَّرَهُنَّ جَمِيعًا بَيْنَ سَرَاحِهِنَّ فَيَكُنَّ كَالنِّسَاءِ وَيَجِدْنَ مَا شِئْنَ مِنْ دُنْيَا الْمَرَاةِ ، وَبَيْنَ  
إِمْسَاكِهِنَّ فَلَا يَكُنَّ مَعَهُ إِلَّا فِي طَبِيعَةٍ أُخْرَى تَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ تَنْتَهِي الدُّنْيَا وَزَيْنَتُهَا .

فَالْقِصَّةُ نَفْسُهَا رَدٌّ عَلَى زَعْمِ الشَّهَوَاتِ ، إِذْ لَيْسَتْ هَذِهِ لُغَةُ الشَّهْوَةِ ، وَلَا سِيَاسَةِ  
مَعَانِيهَا ، وَلَا أَسْلُوبُ غَضَبِهَا أَوْ رِضَاهَا . وَمَا هُنَا تَمْلِيْقٌ ، وَلَا إِطْرَاءٌ ، وَلَا نُعُومَةٌ ، وَلَا  
حِرْصٌ عَلَى لَذَّةٍ ، وَلَا تَغْيِيرٌ بِلُغَةِ الْحَاسَةِ ؛ وَالْقِصَّةُ بَعْدُ مَكْشُوفَةٌ صَرِيحَةٌ لَيْسَ فِيهَا مَعْنَى  
وَلَا شَبَهٌ مَعْنَى مِنْ حَرَارَةِ الْقَلْبِ ، وَلَا أَنْزَ وَلَا بَقِيَّةُ أَثَرٍ مِنْ مِثْلِ النَّفْسِ ، وَلَا حَرْفٌ أَوْ صَوْتُ  
حَرْفٍ مِنْ لُغَةِ الْدَلَمِ . وَهِيَ عَلَى مَنْطِقٍ آخَرَ غَيْرِ الْمَنْطِقِ الَّذِي تُسْتَمَالُ بِهِ الْمَرَاةُ ، فَلَمْ تَقْتَصِرْ  
عَلَى نَفْيِ الدُّنْيَا وَزَيْنَتِهَا عَنْهُنَّ ، بَلْ نَفَتْ الْأَمَلَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، وَأَمَاتَتْ  
مَعْنَاهُ فِي نَفْسِهِنَّ ، بِقَصْرِ الْإِرَادَةِ مِنْهُنَّ عَلَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ : اللَّهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَالرَّسُولُ  
فِي شِدَائِدِهِ وَمُكَابَدَتِهِ ، وَالذَّارُ الْآخِرَةُ فِي تَكَالُفِهَا وَمَكَارِهَا . فَلَيْسَ هُنَا ظَرْفٌ ، وَلَا  
رَقَّةٌ ، وَلَا عَاطِفَةٌ ، وَلَا سِيَاسَةٌ لَطِيفَةٌ الْمَرَاةِ ، وَلَا اِعْتِبَارٌ لِمَزَاجِهَا ، وَلَا زُلْفَى لِأُتُونِهَا ؛  
ثُمَّ هُوَ تَخْيِيرٌ صَرِيحٌ بَيْنَ صِدْقَيْنِ لَا تَتَلَوَّنُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تَكُونُ مِنْهُمَا مَعًا ، ثُمَّ هُوَ عَامٌّ لَجَمِيعِ

رُوحَانِهِ لَا يُسْتَنْتَى مِنْهُنَّ وَاحِدَةً وَلَا أَكْثَرَ .

وَالْحَرِيصُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَالِاسْتِمْتَاعُ بِهَا لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا ، بَلْ يُخَاطَبُ فِي الْمَرْأَةِ خَيَالُهَا أَوَّلَ مَا يُخَاطَبُ ، وَيُشْبِعُهُ مُبَالَغَةً وَتَأْكِيدًا ، وَيُوسِّعُهُ رَجَاءً وَأَمَلًا ، وَيُقَرِّبُ لَهُ الزَّمَانَ الْبَعِيدَ ، حَتَّى لَوْ كَانَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَكَانَ الْخِلَافُ عَلَى الْوَقْتِ ، لَحَقَّقَ لَهُ أَنَّ الظَّهَرَ بَعْدَ سَاعَةٍ ...

\* \* \*

وَبُزْهَانٌ آخَرُ ؛ وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ نِسَاءً لِمَتَاعٍ مِمَّا يُمْتَنَعُ الْخَيَالُ بِهِ ، فَلَوْ كَانَ وَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ لَمَا اسْتَقَامَ ذَلِكَ إِلَّا بِالزَّيْنَةِ وَبِالْفَلَسَفَةِ النَّاعِمِ فِي الثُّوبِ وَالْحِلْيَةِ وَالتَّشَكُّلِ كَمَا تَرَى فِي الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ ، فَإِنَّ الْمُمَثِّلَةَ لَا تُمَثِّلُ الرِّوَايَةَ إِلَّا فِي الْمَسْرَحِ الْمُهَيَّأِ بِمَنَاطِرِهِ وَجُوهِهِ ... وَقَدْ كَانَ نِسَاؤُهُ ﷺ أَغْرَفَ بِهِ ؛ وَهِيَ هِيَ ذَا بِنْفِي الزَّيْنَةِ عَنْهُمْ وَيُخَيِّرُهُمُ الطَّلَاقَ إِذَا أَصْرَزْنَ عَلَيْهَا . فَهَلْ تَرَى فِي هَذَا صُورَةَ فِكْرٍ مِنْ أَفْكَارِ الشَّهْوَةِ ؟ وَهَلْ تَرَى إِلَّا الْكَمَالَ الْمَخْفُضَ ؟ وَهَلْ كَانَتْ مُتَابَعَةُ الزُّوجَاتِ الشُّعْرِ إِلَّا نِسْعَةً بُزْهَانَاتٍ عَلَى هَذَا الْكَمَالِ ؟

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُلْقِي بِهَذِهِ الْقِصَّةِ دَرَسًا مُسْتَفِيدًا فِي فِلَسَفَةِ الْخَيَالِ وَسُوءِ أَثَرِهِ ، عَلَى الْمَرْأَةِ فِي أَنْوَاتِهَا ، وَعَلَى الرَّجُلِ فِي رُجُوتِهِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ تَعْقِيدٌ فِي الشَّهَوَاتِ يُقَابِلُهُ تَعْقِيدٌ فِي الطَّبِيعِ ، وَكَذِبٌ فِي الْحَقِيقَةِ يَنْشَأُ عَنْهُ كَذِبٌ فِي الْخُلُقِ ، وَأَنَّهُ صَرَفٌ لِلْمَرْأَةِ إِلَى حَيَاةِ الْأَخْلَامِ وَالْأَمَانِيِّ وَالطَّيِّسِ وَالْبَطْرِ وَالْفَرَاغِ ، وَتَعْوِيدُهَا عَادَاتٍ تُفْسِدُ عَاطِفَتَهَا ، وَتُضَيِّقُ إِلَيْهَا التَّصَنُّعَ فَتُضْعِفُ قُوَّتَهَا النَّفْسِيَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَى إِبْدَاعِ الْجَمَالِ مِنْ حَقِيقَتِهَا لَا مِنْ مَظْهَرِهَا ، وَتَحْقِيقِ الْفَائِدَةِ مِنْ عَمَلِهَا لَا مِنْ شَكْلِهَا .

وَكُلُّ مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ هِيَ خَيَالٌ مُخَيَّلٌ وَلَا حَقِيقَةٌ لِشَيْءٍ مِنْهَا فِي الطَّبِيعَةِ ، وَإِنَّمَا حَقِيقَتُهَا فِي الْعَيْنِ النَّاطِرَةِ إِلَيْهَا ؛ فَلَا تَكُونُ أَمْرًا فَاتِنَةً إِلَّا لِلْمُفْتُونِ بِهَا لَيْسَ غَيْرُ . وَلَوْ رَدَّتِ الطَّبِيعَةُ عَلَى مَنْ يُشَبِّبُ بِأَمْرَةٍ جَمِيلَةٍ فَيَقُولُ لَهَا : هَذِهِ مَحَاسِنُكَ وَهَذِهِ فِتْنَتُكَ وَهَذَا سِحْرُكَ وَهَذَا وَهَذَا ؛ لَقَالَتْ لَهُ الطَّبِيعَةُ : بَلْ هَذِهِ كُلُّهَا شَهَوَاتُكَ أَنْتَ (١) ...

(١) بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي كَثِيرٍ مِمَّا كَتَبْنَاهُ ، وَخَاصَّةً فِي كِتَابِ : (السَّحَابِ الْأَخْمَرِ) .

وَبِهَذَا يَخْتَلِفُ الْجَمَالُ عِنْدَ فَقْدِ النَّظَرِ ؛ فَلَا يَفْتِنُ الْأَعْمَى (١) جَمَالُ الصُّورَةِ وَلَا سِحْرُ الشَّكْلِ وَلَا قَرَاهَةُ الْمَنْظَرِ ، وَإِنَّمَا يَفْتِنُهُ صَوْتُ الْمَرْأَةِ وَمَجَسَّتُهَا وَرَائِحَتُهَا .

فَلَا حَقِيقَةَ فِي الْمَرْأَةِ إِلَّا الْمَرْأَةُ نَفْسُهَا ؛ وَلَوْ أُخِذَتْ كُلُّ أُنْثَى عَلَى حَقِيقَتِهَا هَذِهِ لَمَا فَسَدَ رَجُلٌ وَلَا شَقِيَتْ أَمْرَةٌ ، وَلَا تَنْتَظِمَتْ حَيَاةُ كُلِّ رَوْجَيْنِ بِأَسْبَابِهَا الَّتِي فِيهَا . وَذَلِكَ هُوَ الْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ فِي الْقِصَّةِ .

يُرِيدُ النَّبِيُّ ﷺ لِيُعَلِّمَ أُمَّتَهُ أَنَّ حَيْفَ الْغَرِيزَةِ عَلَى الْعَقْلِ إِفْسَادٌ لِهَذَا الْعَقْلِ ، وَأَنَّهُ مَتَى أُخِذَتِ الْمَرْأَةُ لِحَظِّ الْغَرِيزَةِ وَاخْتِيَارِهَا ، كَانَتْ حَيَاتُهَا أَسْتِجَابَةً لِحُجُونِ الرَّجُلِ ، وَمَلَأَتْهَا مَعَانِي التَّرْيِيدِ وَالتَّصَنُّعِ ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَنْقُلَهَا هَذَا عَنْ طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ الَّتِي أَكْثَرُهَا فِي الْحِرْمَانِ وَالْإِتْيَارِ وَالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ ، وَيُرَدِّدُهَا إِلَى أَضْدَادِ هَذِهِ الْأَصْفَاتِ ، فَيَقُومُ أَمْرُهَا بَعْدَ عَلَى الْأَثَرِ وَالْمُضْلَحَةِ وَالتَّفَادِي وَالصَّبْرِ وَالتَّبَرُّمِ وَالْإِلْحَاحِ وَالْإِزْعَاجِ ، وَتُضْعَفُ مَعْنَى السَّلْبِ الرَّاسِخِ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَضَلِّ الْفِطْرَةِ ؛ فَيَبْذُلُ حَيَاؤَهَا ، وَفِي الْحَيَاءِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءَ ؛ وَيَقِلُّ إِخْلَاصُهَا ، وَفِي الْإِخْلَاصِ رَدُّ لَهَا عَنْ أَشْيَاءَ أُخْرَى ؛ وَيَكْثُرُ طَمَعُهَا ، وَفِي قَنَاعَتِهَا مُحَاجَزَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِّ .

وَبِهَذَا وَنَحْوِهِ يُفْسِدُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ الْمُتَصَنِّعَةِ ؛ فَإِذَا كَثُرَ الْمُتَصَنِّعَاتُ لَا يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ مَشَاكِلَ فَقَطْ ، بَلْ تَكُونُ مِنْ حُلُولِ الْمَشَاكِلِ مَعَهُنَّ مَشَاكِلُ أُخْرَى ...

\* \* \*

وَلِبَابِ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي الزَّوْاجِ الْمَثَلِ الشَّعْبِيِّ الْأَكْمَلَ كَمَا هُوَ دَائِبُهُ فِي كُلِّ صِفَاتِهِ الشَّرِيفَةِ ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ زُوجَاتُهُ جَمِيعًا كِنِسَاءِ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، لِيَكُونَ مِنْهُنَّ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْعَامِلَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي تَبْرَعُ الْبِرَاعَةَ كُلَّهَا فِي الصَّبْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِفَّةِ وَالصَّرَاحَةِ وَالْقَنَاعَةِ ، فَلَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ زَيْنَةً تَطْلُبُ زَيْنَةً لِيَتِمَّ بِهَا فِي الْخَيَالِ ، وَلَكِنْ إِنْسَانِيَّةً تَطْلُبُ كَمَالَهَا الْإِنْسَانِيَّ لِيَتِمَّ بِهِ فِي الْوَاقِعِ .

وَهَذِهِ الزَّيْنَةُ الَّتِي تَتَصَنَّعُ بِهَا الْمَرْأَةُ نَكَادُ تَكُونُ صُورَةَ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالتَّعَقُّدِ ، وَكُلَّمَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَلَا يَفْتِنُهُ » بِدَلَالَةِ مِنْ : « فَلَا يَفْتِنُ الْأَعْمَى » .

أَسْرَفَتْ فِي هَذِهِ أَسْرَفَتْ فِي تِلْكَ ، بَلِ الزَّيْنَةُ لَوَجْهِ الْمَرْأَةِ وَجَسْمِهَا سِلَاحٌ مِنْ أَسْلِحَةِ الْمَعَانِي : كَالْأَطَافِرِ وَالْمَخَالِبِ وَالْأَنْتَابِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ لَوُحْشِيَّةُ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ الْمُفْتَرِسَةِ ، وَتِلْكَ لَوُحْشِيَّةُ الْغَرِيزَةِ الْحَيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَفْتَرِسَ . وَلَا تُنْكِرُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا أَنَّ الزَّيْنَةَ عَلَى جَسْمِهَا تَزِيدُ طَوِيلَةَ تَقُولُ وَتَقُولُ وَتَقُولُ . . .

\* \* \*

وَإِنَّمَا يَكُونُ أَساسُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِي ، فِي الْإِنْسَانِ الْعَامِلِ الْمُجَاهِدِ : لَا يَخْصُرُ نَفْسَهُ فِي شَيْءٍ يُسَمَّى مَتَاعًا أَوْ زِينَةً ، وَلَا يُقَدِّرُ نَفْسَهُ بِمَا يَجْمَعُ لَهَا أَوْ يَجْمَعُ حَوْلَهَا ، وَلَا يُعْتَدُّ مَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا كَالْتَعْبِيرِ مِنْ عَمَلِ الشَّهَوَاتِ عَنِ الشَّهَوَاتِ . وَنَبِيِّنَا ﷺ هُوَ الْعَايَةُ فِي هَذَا . دَخَلَ عَلَيْهِ مَرَّةً عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى حَصِيرٍ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَرُ فِي جَنْبِهِ . قَالَ عُمَرُ : وَإِذَا أَنَا بِقُبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ ، [وَقَرِظَ فِي نَاحِيَةِ فِي الْغُرْفَةِ] وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ<sup>(١)</sup> ؛ فَأَبْتَدَرْتُ عَيْنَايَ ، فَقَالَ : « مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ » قَالَ عُمَرُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَرُ فِي جَنْبِكَ ، وَهَذِهِ خَزَائِنُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى ، وَذَلِكَ كَسَرْتُ وَقَصَصْتُ فِي الثَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ نَبِيَّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خَزَائِنُكَ<sup>(٢)</sup> ؟ [ابن ماجه ، رقم : ٤١٥٣] .

وَجَاءَ مَرَّةً مِنْ سَفَرٍ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَرَأَى عَلَى بَابِهَا سِتْرًا وَفِي يَدَيْهَا قُلْبَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ<sup>(٣)</sup> ، فَرَجَعَ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو رَافِعٍ وَهِيَ تَبْكِي ، فَأَخْبَرَتْهُ بِرُجُوعِ أَيْبِهَا ، فَسَأَلَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ ﷺ : « مِنْ أَجْلِ السِّتْرِ وَالسَّوَارِينِ » .

فَلَمَّا أَخْبَرَهَا أَبُو رَافِعٍ هَكَكَ السِّتْرَ<sup>(٤)</sup> ، وَتَزَعَتِ السَّوَارِينَ ، فَأَرْسَلَتْ بِهِمَا يَلَالًا إِلَى

(١) كَيْسٌ مِنْ جِلْدٍ كَانَ يَتَّخِذُهُ الْعَرَبُ وَعَاءً . [فِي الْأَصْلِ : « كَالَّذِي » بَدَلًا مِنْ : « كَانَ »] .

(٢) الْوَرَاثَاتُ مِنْ مِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ عَنْهُ ﷺ ، وَقَدْ بَسَطْنَا فُلُسْفَةً هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَقَالِ « سُوءُ الْفَقْرِ » . [فِي الْأَصْلِ : « وَهَذِهِ خَزَائِنُكَ » بَدَلًا مِنْ : « هَذِهِ خَزَائِنُكَ »] .

(٣) الْقُلْبُ (بِالضَّمِّ) : سَوَارِ مِنْ الْفِضَّةِ غَيْرُ مَلَوِي ، هُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْيَوْمَ : (الْعُرْوِشَةُ) ، وَهُوَ خَفِيفٌ .

(٤) أَيِ : مَرَّقَتُهُ ؛ وَكَذَلِكَ رَأَى مَرَّةً سِتْرًا عَلَى بَابِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَهَكَكَ وَقَالَ : « كُلَّمَا رَأَيْتُهُ دَكَّرْتُ الدُّنْيَا . أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ » .

النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَتْ : قَدْ تَصَدَّقْتُ بِهِ ، فَضَعُفُهَا حَيْثُ تَرَى . فَقَالَ لِبِلَالٍ : « أَذْهَبَ فَبِعَهُ وَأَدْفَعَهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ<sup>(١)</sup> » . فَبَاعَ الْقُلْبَيْنِ بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ (نَحْوُ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قِرْشًا) وَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِمْ<sup>(٢)</sup> .

يَا بِنْتَ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ! وَأَنْتِ أَيْضًا لَا يَرْضَى لَكَ أَبُوكَ حَلِيَّةٌ بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ وَإِنَّ فِي الْمُسْلِمِينَ فَقَرَاءَ { لَا يَمْلِكُونَ مِثْلَهَا } .

أَيُّ رَجُلٍ شَغِبِي عَلَى الْأَرْضِ كَمُحَمَّدٍ ﷺ ، فِيهِ لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا غَرِيزَةُ الْأَلْبِ ، وَفِيهِ عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِ الْيَقِينُ الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ ، وَفِيهِ الطَّبِيعَةُ النَّامَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْحَقِيقِيُّ .

يَا بِنْتَ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ! إِنَّ زَيْنَةَ بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ ، لَا تَكُونُ زَيْنَةً فِي رَأْيِ الْحَقِّ إِذَا أَمَكَّنَ أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ ؛ إِنَّ فِيهَا حَيِّثُودَ مَعْنَى غَيْرِ مَعْنَاهَا ؛ فِيهَا حَقُّ النَّفْسِ غَالِبًا عَلَى حَقِّ الْجَمَاعَةِ ؛ وَفِيهَا الْإِيمَانُ بِالْمَنْفَعَةِ حَاكِمًا عَلَى الْإِيمَانِ بِالْخَيْرِ ؛ وَفِيهَا مَا لَيْسَ بِضَرُورِيٍّ قَدْ جَارَ عَلَى مَا هُوَ الضَّرُورِيُّ ؛ وَفِيهَا خَطَأٌ مِنَ الْكَمَالِ إِنْ صَحَّ فِي حِسَابِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ لَمْ يَصِحَّ فِي حِسَابِ الثَّوَابِ وَالرَّحْمَةِ .

تَعَالَوْا أَهْلُهَا الْأَشْيَرَاكِثُونَ فَاعْرِفُوا نَبِيَّكُمْ الْأَعْظَمَ ؛ إِنَّ مَذْهَبَكُمْ مَا لَمْ تُخَيِّرْ فَضَائِلَ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ - إِنَّ مَذْهَبَكُمْ لَكَالشَّجَرَةِ الدَّابِلَةِ تُعْلَقُونَ عَلَيْهَا الْأَنْمَارَ تُشَدُّونَهَا بِالْحَبِطِ . . . كُلَّ يَوْمٍ تُحْلُونَ ، وَكُلَّ يَوْمٍ تَرْبِطُونَ ، وَلَا تَمُرَّةٌ فِي الطَّبِيعَةِ .

\* \* \*

(١) الصُّفَّةُ : الْغُرْفَةُ ، وَأَهْلُ الصُّفَّةِ ، هُمْ : فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ يَسْكُنُهُ ؛ فَكَانُوا يَأْوُونَ إِلَى مَوَاضِعٍ مُطْلَلٍ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ يَسْكُنُونَهُ .

(٢) [قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِخْيَاءِ » : لَمْ أَرَهُ مَجْمُوعًا ، وَلَا بِي دَاوُدَ ، رَقْم : ٣٧٥٥ ، ابْنُ مَاجَهَ ، رَقْم : ٣٣٦٠ ، مِنْ حَدِيثِ سَفِينَةَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، أَنَّهُ ﷺ جَاءَ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى عِضَادَتِي الْبَابِ ، فَرَأَى الْقِرَامَ قَدْ ضُرِبَ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، فَرَجَعَ ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ لِعَلِيٍّ : أَنْظِرْ مَا رَجَعَهُ . . . الْحَدِيثُ . رواه النسائي ، رَقْم : ٥١٤٠ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، قَالَ : جَاءَتِ ابْنَةُ هُبَيْرَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفِي يَدَيْهَا فَتَحٌ مِنْ ذَهَبٍ . . . الْحَدِيثُ . وَفِيهِ : أَنَّهُ وَجَدَ فِي يَدِ فَاطِمَةَ سَلْسِلَةً مِنْ ذَهَبٍ . وَفِيهِ : « يَقُولُ النَّاسُ : فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ فِي يَدَيْهَا سَلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ ! » وَأَنَّهُ خَرَجَ وَلَمْ يَقْعُدْ ، فَأَمَرَتْ بِالسَّلْسِلَةِ ، فَبِعَتْ ، فَأَشْتَرَتْ بِمِثْلِهَا عَبْدًا فَأَعْتَقَتْهُ ، فَلَمَّا سَمِعَ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّى فَاطِمَةَ مِنَ النَّارِ » . وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « مُسْنَدِهِ » ، رَقْم : ٢١٨٩٢ . أَنْتَهَى بِزِيَادَةٍ .

لَيْسَتْ قِصَّةُ التَّخْيِيرِ هَذِهِ مَسْأَلَةً مِنْ مَسَائِلِ الْغِنَى وَالْفَقْرِ فِي مَعَانِي الْمَادَّةِ ، وَلَكِنَّهَا مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ الْكَمَالِ وَالنَّقْصِ فِي مَعَانِي الرُّوحِ ؛ فَهِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُسْتَاذُ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا ؛ وَاجِبُهُ أَنْ يَكُونَ فَضِيلَةً حَيَّةً فِي كُلِّ حَيَاةٍ ، وَأَنْ يَكُونَ عَزَاءً فِي كُلِّ فَقْرٍ ، وَأَنْ يَكُونَ نَهْدِيَّةً فِي كُلِّ غِنَى ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ فِي شَخْصِهِ وَسِيرَتِهِ الْقَانُونُ الْأَدْبِيُّ لِلْجَمِيعِ .

وَكَأَنَّهُ ﷺ يُرِيدُ لِيُعْلَمَ الْأُمَّةُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ الْجَمَاعَاتِ لَا تَصْلُحُ بِالْقَوَائِنِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَكِنْ يَعْمَلُ عُظَمَائُهَا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ وَأَنَّ الْحَاكِمَ عَلَى النَّاسِ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَحْكُمَ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي نَفْسِهِ وَطَبِيعَتِهِ يُحْسِنُ فِتْنَةَ الدُّنْيَا إِحْسَانًا الْمُسْلِطِ لَا الْخَاضِعِ ، لِيَكُونَ أَوَّلُ اسْتِقْلَالِهِ اسْتِقْلَالًا دَاخِلِيًّا .

فَلَيْسَ ذَلِكَ فَقْرًا وَلَا زُهْدًا كَمَا تَرَى فِي ظَاهِرِ الْقِصَّةِ ، وَلَكِنَّهَا جُرْأَةُ النَّفْسِ الْعُظْمَى فِي تَقْرِيرِ حَقَائِقِهَا الْعِلْمِيَّةِ .

\* \* \*

وَتَنْتَهِي الْقِصَّةُ فِي عِبَارَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِتَسْمِيَةِ زَوْجَاتِهِ ﷺ : « أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ » بَعْدَ أَنْ اخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ؛ وَعُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ يَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَافَاهُنَّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ وَلَا فِيهِ كِبِيرٌ مَعْنَى ، وَإِنَّمَا تُشْعِرُ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ بِمَعْنَى دَقِيقٍ هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْإِعْجَازِ ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ الْكَامِلَةَ لَا تَكْمُلُ فِي الْحَيَاةِ وَلَا تَكْمُلُ الْحَيَاةُ بِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ وَصْفُهَا مَعَ رَجُلِهَا كَوْصِفِ الْأُمِّ : تَرَى ابْنَهَا بِالْقَلْبِ وَمَعَانِيهِ ، لَا بِالْغَرِيزَةِ وَحُطُوطِهَا ؛ فَكُلُّ حَيَاةٍ جَنِينٌ مُمَكِّنَةٌ السَّعَادَةِ لِهَذِهِ الزَّوْجَةِ ، وَكُلُّ شَقَاءٍ مُحْتَمَلٌ بِصَبْرِ ، وَكُلُّ جِهَادٍ فِيهِ لَدُنْهُ الطَّبِيعِيَّةُ ، إِذْ يَتَوَقَّعُ الْبَيْتُ عَلَى الْحُبِّ الَّذِي هُوَ الْحُبُّ الْخَالِصُ لَا الْمُنْفَعَةُ ، وَتَكُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ وَجُودُ الْحَيِّ نَفْسِهِ لَا وَجُودُ الْمَادَّةِ ، وَتُبْنَى النَّفْسُ عَلَى الْوَفَاءِ الطَّبِيعِيِّ كَوَفَاءِ الْأُمِّ ، وَذَلِكَ خُلُقٌ لَا يَعْسُرُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ حَقِيقَتِهِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى الدُّنْيَا وَرِزْقِهَا .

وَأَخِرُ مَا نَسْتَخْرِجُ مِنَ الْقِصَّةِ فِي دَرَسِ الْبُيُوتِ هَذِهِ الْحِكْمَةُ :

بِحَسَبِ الْمُؤْمِنِ إِذَا دَخَلَ دَارَهُ أَنْ يَجِدَ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ حَقِيقَةَ كِسْرَى وَلَا قَيْصَرَ .

طعنا

مصطفى صادق الرافعي

## شَهْرُ لِلثَّوْرَةِ ... فَلَسَفَةُ الصِّيَامِ (\*)

لَمْ أَقْرَأْ لِأَحَدٍ قَوْلًا شَافِيًا فِي فَلَسَفَةِ الصَّوْمِ وَحِكْمَتِهِ ؛ أَمَّا مَنَفَعَتُهُ لِلْجِسْمِ ، وَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الطَّبِّ لَهُ ، وَبَاطٍ مِنَ السِّيَاسَةِ فِي تَدْبِيرِهِ ؛ فَقَدْ قَرَعَ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ ؛ وَكَأَنَّ أَيَّامَ هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ إِنْ هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ حَبَّةً تُؤْخَذُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً لِتَقْوِيَةِ الْمَعِدَةِ وَتَضْفِيَةِ الدَّمِ وَحَيَاطَةِ أَنْسِجَةِ الْجِسْمِ ؛ وَلَكِنَّا آلَانْ لَسْنَا بِصَدِيدٍ مِنْ هَذَا ، وَإِنَّمَا نَسْتَوْجِي تِلْكَ الْحَقِيقَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْكُبْرَى الَّتِي شَرَعَتْ هَذَا الشَّرْعَ لِسِيَاسَةِ الْحَقَائِقِ الْأَرْضِيَّةِ الصَّغِيرَةِ ، عَامِلَةً عَلَى اسْتِمْرَارِ الْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهَا ، كَيْ لَا تَتَبَدَّلَ النَّفْسُ عَلَى تَغْيِيرِ الْحَوَادِثِ وَتَبَدُّلِهَا ، وَلَكِنَّا تَجَهَّلَ الدُّنْيَا مَعَانِي التَّرَقُّعِ إِذَا أَتَتْ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا مَعَانِي التَّمْرِيقِ .

مِنْ مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ يَذْخِرُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمَعْرُوفَةِ فِي كُلِّ زَمَنِ ، حَقَائِقَ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ لِكُلِّ زَمَنِ ، فَيَجَلِّئُهَا لَوْفِهَا حِينَ يَصُحُّ الزَّمَانُ الْعِلْمِيُّ فِي مَتَاهِهِ وَحَيْرَتِهِ ، فَيَشْغَبُ عَلَى التَّارِيخِ وَأَهْلِهِ مُسْتَحْفًا بِالْأَذْيَانِ ، وَيَذْهَبُ يَتَّبِعُ الْحَقَائِقَ ، وَيَسْتَقْصِي فِي فُتُونِ الْمَعْرِفَةِ ، لِيَسْتَخْلَصَ مِنْ بَيْنِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ دِينَ طَبِيعِيًّا سَائِغًا ، يَتَنَاوَلُ الْحَيَاةَ أَوَّلَ مَا يَتَنَاوَلُ فَيَضْبِطُهَا بِأَسْرَارِ الْعِلْمِ ، وَيُوجِّهُهَا بِالْعِلْمِ إِلَى غَايَتِهَا الصَّحِيحَةِ ، وَيَضَاعِفُ قُوَاهَا بِأَسَالِينِ الطَّبِيعِيَّةِ ، لِيُحَقِّقَ فِي إِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِ هَذِهِ الشَّيْئَةَ الْمَجْهُولَةَ الَّتِي تَتَوَهَّمُهَا الْمَذَاهِبُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا مَذْهَبٌ مِنْهَا وَلَا قَارِبُهَا ؛ فَمَا بَرَحَتْ سَعَادَةُ الْأَجْتِمَاعِ كَالْتَجَرِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ بَيْنَ أَيْدِي عُلَمَائِهَا : لَمْ يُحَقِّقُوا وَلَمْ يَتَّسُوا مِنْهَا ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْمَذَاهِبُ كَعَقَارِبِ أَلْسَاعَةٍ فِي دَوْرِنَا : تَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ تَبْدَأُ ثُمَّ لَا تَنْتَهِي إِلَّا إِلَى حَيْثُ تَبْدَأُ ...

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ٧٥ ، ٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٠ ديسمبر / كانون الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٢٠٠٣ - ٢٠٠٦ .

يَضْطَرُّبُ الْأَشْتِرَاكِئُونَ فِي أَوْرَثِهِ وَقَدْ عَجَزُوا عَجَزَ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَ الْإِنْسَانِ بِيَزَادَةٍ وَنَقْصٍ فِي أَعْصَابِهِ ؛ وَلَا يَرَالُ مَذْهَبُهُمْ فِي الدُّنْيَا مَذْهَبَ كُتُبٍ وَرِسَالٍ ؛ وَلَوْ أَنَّهُمْ تَدَبَّرُوا حِكْمَةَ الصَّوْمِ فِي الْإِسْلَامِ ، لَرَأَوْا هَذَا الشَّهْرَ نِظَامًا عَمَلِيًّا مِنْ أَقْوَى وَأَبْدَعَ الْأَنْظِمَةِ الْأَشْتِرَاكِئَةِ الصَّحِيحَةِ ؛ فَهَذَا الصَّوْمُ فَقَرٌ إِجْبَارِيٌّ تَفْرِضُهُ الشَّرِيعَةُ عَلَى النَّاسِ فَرَضًا لِيَسَاوِيَ الْجَمِيعُ فِي بَوَاطِنِهِمْ ، سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ مَلَكَ الْمِلْيُونَ مِنَ الدُّنَانِيرِ ، وَمَنْ مَلَكَ الْقَرَشَ الْوَاحِدَ ، وَمَنْ لَمْ يَمْلِكْ شَيْئًا ؛ كَمَا يَسَاوِي النَّاسُ جَمِيعًا فِي ذَهَابِ كِبَرِيَّاتِهِمْ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالصَّلَاةِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْإِسْلَامُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ؛ وَفِي ذَهَابِ تَقَاوُثِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيِّ بِالْحَجِّ الَّذِي يَفْرِضُهُ عَلَى مَنْ اسْتَطَاعَ .

فَقَرٌ إِجْبَارِيٌّ يُرَادُ بِهِ إِشْعَارُ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ كُلِّ الْوُضُوحِ ، أَنَّ الْحَيَاةَ الصَّحِيحَةَ وَرَاءَ الْحَيَاةِ لَا فِيهَا ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى أَتَمِّهَا حِينَ يَسَاوِي النَّاسُ فِي الشُّعُورِ لَا حِينَ يَخْتَلِفُونَ ، وَحِينَ يَتَعَاطَفُونَ بِإِحْسَاسِ الْإِسْلَامِ الْوَاحِدِ لَا حِينَ يَتَنَازَعُونَ بِإِحْسَاسِ الْأَهْوَاءِ الْمُتَعَدِّدَةِ .

وَلَوْ حَقَّقَتْ رَأَيْتَ النَّاسَ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ بِعُقُولِهِمْ ، وَلَا بِأَنْسَابِهِمْ ، وَلَا بِمَرَاتِبِهِمْ ، وَلَا بِمَا مَلَكَوا ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُونَ بِطُورِهِمْ وَأَحْكَامِ هَذِهِ الْبُطُونِ عَلَى الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ ؛ فَمِنْ الْبُطْنِ نَكْبَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ الْعَمَلِيُّ عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْبُطْنُ وَالْدَّمَاعُ فِي ضَرُورَةٍ ، مَدَّ الْبُطْنُ مَدَّهُ مِنْ قُوَى الْهَضْمِ فَلَمْ يَبْقَ وَلَمْ يَذَرْ .

وَمِنْ هَلْهَنَاتِ يَتَنَاوَلُهُ الصَّوْمُ بِالْتَّهْدِيبِ وَالتَّنَادِيبِ وَالتَّادِيبِ وَالتَّدْرِيبِ ، وَيَجْعَلُ النَّاسَ فِيهِ سَوَاءً : لَيْسَ لَجَمِيعِهِمْ إِلَّا شُعُورٌ وَاحِدٌ وَحِسٌّ وَاحِدٌ وَطَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ وَيُحْكِمُ الْأَمْرَ فَيَحُولُ بَيْنَ هَذَا الْبُطْنِ وَبَيْنَ الْمَادَّةِ ، وَيُبَالِغُ فِي إِحْكَامِهِ فَيَمْسِكُ حَوَاشِيَهُ الْعَصَبِيَّةِ فِي الْجِسْمِ كُلِّهِ يَمْنَعُهَا تَعْدِيبَتَهَا وَلَذَّتْهَا حَتَّى نَفْثَةً مِنْ دَخِينَةٍ<sup>(١)</sup> .

وَبِهَذَا يَضَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا فِي حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَلْبَسُ بِهَا النَّفْسُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَيُطْلَقُ فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهَا صَوْتُ الرُّوحِ يُعْلَمُ الرَّحْمَةُ وَيَدْعُو إِلَيْهَا ، فَيُسَبِّحُ

(١) الدَّخِينَةُ كَلِمَةٌ وَضَعَهَا لِلتَّجَارَةِ ، وَجَمْعُهَا دَخَائِنٌ .

فِيهَا بِهَذَا الْجَوْعِ فِكْرَةٌ مُعَيَّنَةٌ هِيَ كُلُّ مَا فِي مَذْهَبِ الْأَشْتِرَاكِئَةِ مِنَ الْحَقِّ ، وَهِيَ تِلْكَ الْفِكْرَةُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا مُسَاوَاةُ الْغَنِيِّ لِلْفَقِيرِ مِنْ طَبِيعَتِهِ ، وَأَطْمِئْنَانُ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ بِطَبِيعَتِهِ ؛ وَمِنْ هَذَيْنِ : (الْأَطْمِئْنَانِ وَالْمُسَاوَاةِ) ، يَكُونُ هَذُوهُ الْحَيَاةِ بِهِذُوهُ النَّفْسَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا السَّلْبُ وَالْإِيجَابُ فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ وَإِذَا أَنْتَ نَزَعْتَ هَذِهِ الْفِكْرَةَ مِنَ الْأَشْتِرَاكِئَةِ بَقِيَ هَذَا الْمَذْهَبُ كُلُّهُ عَبَثًا مِنَ الْعَبَثِ فِي مُحَاوَلَةٍ جَعَلَ التَّارِيخُ الْإِنْسَانِيَّ تَارِيخًا لَا طَبِيعَةَ لَهُ .

\* \* \*

مِنْ قَوَاعِدِ النَّفْسِ أَنَّ الرَّحْمَةَ تَنْشَأُ عَنِ الْإِلْمِ ، وَهَذَا بَعْضُ السَّرِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ الْعَظِيمِ فِي الصَّوْمِ ، إِذْ يُبَالِغُ أَشَدَّ الْمُبَالَغَةِ ، وَيَذْفُقُ كُلَّ التَّذْقِيقِ ، فِي مَنَعِ الْغِذَاءِ وَشِبْهِ الْغِذَاءِ عَنِ الْبُطْنِ وَحَوَاشِيهِ مَدَّةَ آخِرِهَا آخِرَ الطَّاقَةِ ؛ فَهَذِهِ طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِتَرْبِيَةِ الرَّحْمَةِ فِي النَّفْسِ ، وَلَا طَرِيقَةَ غَيْرَهَا إِلَّا التَّكَبُّاتُ وَالْكَوَارِثُ ؛ فَهُمَا طَرِيقَتَانِ كَمَا تَرَى : مُبْصِرَةٌ وَعَمِيَاءُ ، وَخَاصَّةٌ وَعَامَّةٌ ، وَعَلَى نِظَامٍ وَعَلَى فُجَاءَةٍ .

وَمَتَى تَحَقَّقَتْ رَحْمَةُ الْجَانِحِ الْغَنِيِّ لِلْجَانِحِ الْفَقِيرِ ، أَصْبَحَ لِلْكَلِمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ سُلْطَانُهَا النَّافِذُ ، وَحَكَمَ الْوَأَنُغُ النَّفْسِيَّةِ عَلَى الْمَادَّةِ ؛ فَيَسْمَعُ الْغَنِيُّ فِي ضَمِيرِهِ صَوْتَ الْفَقِيرِ يَقُولُ : « أَعْطِنِي » . ثُمَّ لَا يَسْمَعُ مِنْهُ طَلَبًا مِنَ الرَّجَاءِ ، بَلْ طَلَبًا مِنَ الْأَمْرِ لَا مَقَرَّ مِنْ تَلْبِيئِهِ وَالْإِسْتِجَابَةِ لِمَعَانِيهِ ، كَمَا يُوَاسِي الْمُتَبَلِّغُ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ بِلَاوَةٍ .

أَيُّهُ مُعْجَزَةٌ إِصْلَاحِيَّةٌ أَعْجَبَ مِنْ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَقْضِي أَنْ يُخَذَفَ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلُّهَا تَارِيخُ الْبُطْنِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا فِي كُلِّ سَنَةٍ ، لِيَحِلَّ فِي مَحَلِّهِ تَارِيخُ النَّفْسِ<sup>(١)</sup> ؟ وَأَنَا مُسْتَقْبِقٌ أَنَّ هُنَاكَ نِسْبَةً رِيَاضِيَّةً هِيَ الْحِكْمَةُ فِي جَعْلِ هَذَا الصَّوْمِ شَهْرًا كَامِلًا مِنْ كُلِّ أَلْفَنِي عَشْرٍ شَهْرًا ، وَأَنَّ هَذِهِ النِّسْبَةَ مُتَحَقِّقَةٌ فِي أَعْمَالِ النَّفْسِ لِلْجِسْمِ ، وَأَعْمَالِ الْجِسْمِ لِلْنَفْسِ ؛ كَأَنَّهُ الشَّهْرُ الصَّحْيِيُّ الَّذِي يَفْرِضُهُ الطَّبُّ فِي كُلِّ سَنَةٍ لِلرَّاحَةِ وَالْإِسْتِجَامِ وَتَغْيِيرِ الْمَعِيشَةِ ،

(١) أَفْسَدَ ضَعْفُ الثُّمُوسِ هَذَا الْمَعْنَى ، فَمَا يَحَقِّقُ النَّاسُ (تَارِيخُ الْبُطْنِ) كَمَا يَحَقِّقُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَهُمْ يَعْزُضُونَ الْبُطْنَ فِي اللَّيْلِ مَا مَتَعُوهُ فِي النَّهَارِ ، حَتَّى جَعَلُوا الصَّيَامَ تَغْيِيرًا لِمَوَاعِيدِ الْأَكْلِ ... وَلَكِنْ الصَّوْمُ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَحْرَمُهُمْ فَوَائِدَهُ .



لِلْإِحْدَاتِ التَّزْيِينِ الْعَصَبِيِّ فِي الْجِسْمِ ؛ وَلَعَلَّ ذَلِكَ آتٍ مِنَ الْعَلَاqَةِ بَيْنَ دَوْرَةِ الدَّمِّ فِي الْجِسْمِ الْإِنْسَانِيِّ وَبَيْنَ الْقَمَرِ مُنْذُ يَكُونُ هِلَالًا إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْمِحَاقِ ؛ إِذْ تَنْفُخُ الْعُرُوقُ وَتَرْبُو فِي النُّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ ، كَأَنَّهَا فِي (مَدٍّ) مِنْ نُورِ الْقَمَرِ مَا دَامَ هَذَا الثُّورُ إِلَى زِيَادَةِ ، ثُمَّ يَرَاغِعُهَا (الْجَزْرُ) فِي النُّصْفِ الثَّانِي حَتَّى كَانَ لِلدَّمِّ إِضَاءَةٌ وَظَلَامًا . وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ لِلْقَمَرِ أَثَرًا فِي الْأَمْرَاضِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَفِي مَدِّ الدَّمِّ وَجَزْرِهِ <sup>(١)</sup> ، فَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْحِكْمَةِ فِي أَنْ يَكُونَ الصِّيَامُ شَهْرًا قَمَرِيًّا دُونَ غَيْرِهِ .

وَفِي تَرَانِي الْهِلَالِ وَوُجُوبِ الصَّوْمِ لِوُجُوبِهِ مَعْنَى دَقِيقٍ آخَرٍ ، وَهُوَ - مَعَ إِبْنَاتِ رُؤْيَةِ الْهِلَالِ وَإِعْلَانِهَا - إِبْنَاتُ الْإِرَادَةِ وَإِعْلَانُهَا ، كَأَنَّمَا أَتَبَعْتُ أَوَّلَ الشَّعَاعِ السَّمَائِيِّ فِي التَّنْبِيهِ الْإِنْسَانِيَّ الْعَامَ لِفُرُوضِ الرَّحْمَةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِبَرِ .

وَهَذَا حِكْمَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ حِكْمِ الصَّوْمِ ، وَهِيَ عَمَلُهُ فِي تَرْبِيَةِ الْإِرَادَةِ وَتَقْوِيَتِهَا بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْعَمَلِيِّ ، الَّذِي يُدْرِبُ الصَّائِمَ عَلَى أَنْ يَمْتَنِعَ بِاخْتِيَارِهِ مِنْ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّةِ حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَيُبْقِيَهُ مُصْرًا عَلَى الْاِمْتِنَاعِ ، مُتَهَيِّيًا لَهُ بِعَزِيمَتِهِ ، صَابِرًا عَلَيْهِ بِأَخْلَاقِ الصَّبْرِ ، مُرَاوِلًا فِي كُلِّ ذَلِكَ أَفْضَلَ طَرِيقَةٍ نَفْسِيَّةٍ لِاِكْتِسَابِ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ تَرْسُخٌ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، وَلَا تَعْدُو عَلَيْهَا عَوَادِي الْعَرِيزَةِ .

وَإِذْرَاكَ هَذِهِ الْقُوَّةَ مِنَ الْإِرَادَةِ الْعَمَلِيَّةِ مُنْزَلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً سَامِيَّةً ، هِيَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ فَوْقَ مُنْزَلَةِ الذِّكَاةِ وَالْعِلْمِ ، فَفِي هَذَيْنِ تَعْرِضُ الْفِكْرَةُ مَرَّةً مُرُورَهَا ، وَلَكِنَّهَا فِي الْإِرَادَةِ تَعْرِضُ لِنَسْتَقَرٍّ وَتَتَحَقَّقُ . فَانْظُرْ فِي أَيِّ قَانُونٍ مِنَ الْقَوَانِينِ ، وَفِي آيَةِ أَمَةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، تَجِدُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ قَدْ فُرِضَتْ قَرَضًا لِتَرْبِيَةِ إِرَادَةِ الشَّعْبِ وَمُرَاوَلِيَةِ فِكْرَةِ نَفْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِخَصَائِصِهَا وَمُلَابَسَاتِهَا حَتَّى تَسْتَقَرَّ وَتَرْسُخَ وَتَعُودَ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ ، لَا خِيَالًا يَمُرُّ بِرَأْسِهِ مَرًّا .

أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ إِتَاحَةُ الْفُرْصَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي جَعَلُوهَا آسَاسًا فِي تَكْوِينِ الْإِرَادَةِ ؟ وَهَلْ

(١) قَالَ الْجَاحِظُ فِي « الْحَيَوَانِ » : « وَلِزِيَادَةِ الْقَمَرِ حَتَّى يَصِيرَ بَدْرًا ، أَثَرٌ بَيْنَ فِي زِيَادَةِ الدَّمِّ وَالْأَدْمَةِ وَجَمِيعِ الرُّطُوبَاتِ » .

تَبْلُغُ الْإِرَادَةُ نِيْمًا تَبْلُغُ ، أَعْلَى مِنْ مَنَزَلَتِهَا حِينَ تَجْعَلُ شَهَوَاتِ الْمَرْءِ مُدْعَنَةً لِفِكْرِهِ ، مُنْقَادَةً لِلْوَارِعِ النَّفْسِيِّ فِيهِ ، مُصَرَّفَةً بِالْحِسِّ الدِّينِيِّ الْمُسَيِّطِ عَلَى النَّفْسِ وَمَشَاعِرِهَا ؟

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ عَمَّ هَذَا الصَّوْمُ الْإِسْلَامِيُّ أَهْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا ، لَالَ مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ إِجْمَاعًا مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى إِعْلَانِ الثُّورَةِ شَهْرًا كَامِلًا فِي السَّنَةِ ، لِتَطْهِيرِ الْعَالَمِ مِنْ رَذَائِلِهِ وَفَسَادِهِ ، وَمَخْرِقِ الْأَثَرِ وَالْبُخْلِ فِيهِ ، وَطَرَحِ الْمَسْأَلَةِ النَّفْسِيَّةِ لِيَتَدَارَسَهَا أَهْلُ الْأَرْضِ دِرَاسَةً عَمَلِيَّةً مُدَّةَ هَذَا الشَّهْرِ بِطَوْلِهِ ، فَيَهْبِطُ كُلُّ رَجُلٍ وَكُلُّ أَمْرَأَةٍ إِلَى أَعْمَاقِ نَفْسِهِ وَمَكَامِنِهَا ، لِيُخْتَبِرَ فِي مَضْغِ فِكْرِهِ مَعْنَى الْحَاجَةِ وَمَعْنَى الْفَقْرِ ، وَلِيَفْهَمَ فِي طَبِيعَةِ جِسْمِهِ - لَا فِي الْكُتُبِ - مَعَانِي الصَّبْرِ وَالْثَبَاتِ وَالْإِرَادَةِ ، وَلِيَبْلُغَ مِنْ ذَلِكَ وَذَلِكَ دَرَجَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمُؤَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ ؛ فَيُحَقِّقَ بِهَذِهِ وَتِلْكَ مَعَانِي الْإِخَاءِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ .

شَهْرٌ هُوَ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ فِي الزَّمَنِ ؛ مَتَى أَشْرَفْتَ عَلَى الدُّنْيَا قَالَ الزَّمَنُ لِأَهْلِهِ : هَذِهِ أَيَّامٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَا مِنْ أَيَّامِي ، وَمِنْ طَبِيعَتِكُمْ لَا مِنْ طَبِيعَتِي . فَيَقْبِلُ الْعَالَمُ كُلَّهُ عَلَى حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ بِالْغَاةِ السُّمُوءِ ، يَتَعَهَّدُ فِيهَا النَّفْسُ بِرِيَاضَتِهَا عَلَى مَعَالِي الْأُمُورِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَفْهَمُ الْحَيَاةَ عَلَى وَجْهِ آخَرَ غَيْرِ وَجْهِهَا الْكَالِحِ ، وَيَرَاهَا كَأَنَّمَا أُجِيعَتْ مِنْ طَعَامِهَا الْيَوْمِيِّ كَمَا جَاعَ هُوَ ، وَكَأَنَّمَا أَفْرَغَتْ مِنْ خَسَائِصِهَا وَشَهَوَاتِهَا كَمَا فَرَّغَ هُوَ ، وَكَأَنَّمَا أَلْزَمَتْ مَعَانِي التَّقْوَى كَمَا أَلْزَمَهَا هُوَ . وَمَا أَجْمَلَ وَأَبْدَعَ أَنْ تَظْهَرَ الْحَيَاةُ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ - وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا - حَامِلَةً فِي يَدِهَا الشُّبْحَةَ . . . ! فَكَيْفَ بِهَا عَلَى ذَلِكَ شَهْرًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ؟

إِنِّهَا وَاللَّهِ طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِرُسُوحِ فِكْرَةِ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ فِي النَّفْسِ ؛ وَتَطْهِيرِ الْاجْتِمَاعِ مِنْ خَسَائِيسِ الْعَقْلِ الْمَادِّيِّ ؛ وَرَدِّ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمَحْكُومَةِ فِي ظَاهِرِهَا بِالْقَوَانِينِ ، وَالْمُحَرَّرَةِ مِنَ الْقَوَانِينِ فِي بَاطِنِهَا - إِلَى قَانُونٍ مِنْ بَاطِنِهَا نَفْسِهِ يُطَهِّرُ مَشَاعِرَهَا ، وَيَسْمُو بِإِحْسَاسِهَا ، وَيَصْرِفُهَا إِلَى مَعَانِي إِنْسَانِيَّتِهَا ، وَيُهْدِئُ مِنْ زِيَادَاتِهَا ، وَيَخْدِفُ كَثِيرًا مِنْ فُضُولِهَا ، حَتَّى يَرْجِعَ بِهَا إِلَى نَخْوٍ مِنْ بَرَاءَةِ الطُّفُولَةِ ، فَيَجْعَلَهَا صَافِيَةً مُشْرِقَةً بِمَا يَجْتَذِبُ إِلَيْهَا مِنْ مَعَانِي الْخَيْرِ وَالصَّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ عَمَلِ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ فِي النَّفْسِ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهَا مَا يَلَانِمُهَا وَيَتَّصِلُ بِطَبِيعَتِهَا مِنَ الْفِكْرِ الْآخَرِيِّ . وَالنَّفْسُ فِي هَذَا الشَّهْرِ مُحْتَسِبَةٌ فِي فِكْرَةِ الْخَيْرِ وَخَدِّهَا ، فَهِيَ تَبْنِي بِنَاءَهَا مِنْ ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَتْ .

هَذَا عَلَى الْحَقِيقَةِ لَيْسَ شَهْرًا مِنَ الْأَشْهُرِ ، بَلْ هُوَ فَضْلٌ نَفْسَانِي كَفُضُولِ الطَّبِيعَةِ فِي دَوْرَانِهَا ؛ وَلَهُوَ وَآلَهُ أَشْبَهُ بِفَضْلِ الشِّتَاءِ فِي حُلُولِهِ عَلَى الدُّنْيَا بِالْجَوِّ الَّذِي مِنْ طَبِيعَتِهِ السُّحُبُ وَالْغَيْثُ ، وَمِنْ عَمَلِهِ إِمْدَادُ الْحَيَاةِ بِوَسَائِلِ لَهَا مَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السَّنَةِ ، وَمِنْ رِيَاضَتِهِ أَنْ يُكْسِبَهَا الصَّلَابَةَ وَالْإِكْمَالَ وَالْخِفَةَ ، وَمِنْ غَايَتِهِ إِعْدَادُ الطَّبِيعَةِ لِلتَّفَتُّحِ عَنْ جَمَالِ بَاطِنِهَا فِي الرَّبِيعِ الَّذِي يَتَلَوُّهُ .

وَعَجِبْتُ جِدًّا أَنْ هَذَا الشَّهْرَ الَّذِي يَدْخُرُ فِيهِ الْجِسْمُ مِنْ قُوَاهُ الْمَعْنَوِيَّةِ فَيُودِعُهَا مَضْرَفَ رُوحَانِيَّتِهِ ، لِيَجِدَ مِنْهَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ مَدَدَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالْعَزْمِ وَالْجَلَدِ وَالْحُشُونَةِ - عَجِبْتُ جِدًّا أَنْ هَذَا الشَّهْرَ الْاِفْتِصَادِيَّ هُوَ مِنْ أَيَّامِ السَّنَةِ كَفَائِدَةُ ٨، ٣٣ فِي الِئْمَةِ ... فَكَأَنَّهُ يُسَجَّلُ فِي أَعْصَابِ الْمُؤْمِنِ حِسَابُ قُوَّتِهِ وَرَبِحِهِ ، فَلَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ زِيَادَةُ ٨، ٣٣ مِنْ قُوَّتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ .

وَسِحْرُ الْعَظَائِمِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْإِئْمَةِ الَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تَدْخِرُ هَذِهِ الْقُوَّةَ وَتُوقِرُهَا لِتَسْتَمِدَّهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ أَسْلَافِنَا الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَجِدُونَ عَلَى الْفَقْرِ فِي دِمَائِهِمْ وَأَعْصَابِهِمْ مَا تَجِدُ الْجُيُوشُ الْعُظْمَى الْيَوْمَ فِي مَحَازِنِ الْعُنَادِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالذَّخِيرَةِ .

\* \* \*

كُلُّ مَا ذَكَرْتُهُ فِي هَذَا الْمَقَالِ مِنْ فِلْسَفَةِ الصَّوْمِ ؛ فَإِنَّمَا اسْتَخْرَجْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [٢١ سورة البقرة/ الآية : ١٨٣] . وَقَدْ فَهَمَهَا الْعُلَمَاءُ جَمِيعًا عَلَى أَنَّهَا مَعْنَى « الْقَوَى » ، أَمَا أَنَا فَأَوْلَتْهَا مِنْ « الْأَتْقَاءِ » ؛ فَبِالصَّوْمِ يَتَّقِي الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ كَالْحَيَوَانِ الَّذِي شَرِيعَتُهُ مَعْدَنُهُ ، وَالْأَيْعَامِلُ الدُّنْيَا إِلَّا بِمَوَادِّ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ ؛ وَيَتَّقِي الْمُجْتَمَعُ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَلَا يَكُونُ إِنْسَانٌ مَعَ إِنْسَانٍ كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ ؛ يَبِيْعُهُ الْقُوَّةُ كُلُّهَا بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَلْفِ .

وَبِالصَّوْمِ يَتَّقِي هَذَا وَهَذَا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا خَلْفَهُ ، فَإِنَّ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ الْحَاضِرُ مِنْ طَبَاعِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَمَا خَلْفَهُ هُوَ الْجَبِلُ الَّذِي سِيرَتْ مِنْ هَذِهِ الطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَيَعْمَلُ

بِنَفْسِهِ فِي الْحَاضِرِ ، وَيَعْمَلُ بِالْحَاضِرِ فِي الْآتِي <sup>(١)</sup> .

وَكُلُّ مَا شَرَحْنَاهُ فَهُوَ اتِّقَاءُ ضَرَرِ لَجَلِبِ مَنَفَعَةٍ ، وَاتِّقَاءُ رَذِيلَةِ لَجَلِبِ فَضِيلَةٍ ؛ وَبِهَذَا التَّأْوِيلِ تَتَوَجَّهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ جِهَةً فِلْسَفِيَّةً عَالِيَةً ، لَا يَأْتِي الْبَيَانُ وَلَا الْعِلْمُ وَلَا الْفِلْسَفَةُ بِأَوْجَزَ وَلَا أَكْمَلَ مِنْ لَفْظِهَا ؛ وَيَتَوَجَّهُ الصِّيَامُ عَلَى أَنَّهُ شَرِيعَةُ اجْتِمَاعِيَّةٍ إِنْسَانِيَّةٍ عَامَّةٌ ، يَتَّقِي بِهَا الْاجْتِمَاعُ شُرُورَ نَفْسِهِ ؛ وَلَنْ يَتَهَدَّبَ الْعَالَمُ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ مَعَ الْقَوَانِينِ الثَّاقِدَةِ هَذَا الْقَانُونُ الْعَامُّ الَّذِي أَسْمُهُ الصَّوْمُ ، وَمَعْنَاهُ : « قَانُونُ الْبُطْنِ » ...

أَلَا مَا أَعْظَمَكَ يَا شَهْرَ رَمَضَانَ ! لَوْ عَرَفَكَ الْعَالَمُ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ لَسَمَّاكَ : « مَدْرَسَةُ الثَّلَاثِينَ يَوْمًا » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) يُسَرِّ الْقُرْآنُ بَعْضَهُ بَعْضًا ، وَمِنْ مُعْجَزَاتِهِ فِي هَذَا التَّأْوِيلِ الَّذِي اسْتَخْرَجْنَاهُ أَنَّهُ يُؤَيِّدُهُ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي سُورَةِ (يس) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » [٣٦ سورة يس/ الآية : ٤٥] ...

وَيُسَمِّرُ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةٌ (بَضَمُ الْجَنَمِ) فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَزِفْتُ وَلَا يَجْهَلُ ، وَإِنْ أَمْرُو قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ ، إِنِّي صَائِمٌ » [البخاري ، رقم : ١٨٩٤ ، ١٩٠٤ ؛ مسلم ، رقم : ١١٥١ ؛ الترمذي ، رقم : ٧٦٤ ، ٧٦٦ ؛ النسائي ، رقم : ٢٢١٣ - ٢٢١٩ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٣٦٣ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٦٣٨ ، ١٦٩١ ؛ « مستد أحمد » ، رقم : ٧١٥٤ ، ٧٤٤١ ، ٧٥٥٢ ، ٧٦٣٦ ، ٧٧٣٠ ، ٧٧٨١ ، ٧٩٩٦ ، ٢٧٣٤٤ ، ٨٣٤٥ ، ٨٣٦٦ ، ٢٧٣٠٧ ، ٨٨٦٨ ، ٨٨٩٣ ، و ... ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ٦٨٩ ، ٦٩٠ ؛ الدارمي ، رقم : ١٧٦٩ ، ١٧٧٠ ] .

وَالْجُنَّةُ الرِّقَابَةُ يَتَّقِي بِهَا الْإِنْسَانُ ، وَالْمُرَادُ أَنْ يَتَّقِيَ الصَّائِمُ أَنَّهُ قَدْ صَامَ لِيَتَّقِيَ شَرَّ حَيَوَانِيَّتِهِ وَحَوَاسِيهِ ، فَقَوْلُهُ : « إِنِّي صَائِمٌ ، إِنِّي صَائِمٌ » ؛ أَيُّ : إِنِّي غَائِبٌ عَنِ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ وَالشَّرِّ ؛ إِنِّي فِي نَفْسِي وَلَكِنِّي فِي حَيَوَانِيَّتِي .

## ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ (\*)

لَوْ أَنَّنِي سِئِلْتُ أَنْ أَجْمَلَ فَلَسَفَةَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ كُلَّهَا فِي لَفْظَيْنِ ، لَقُلْتُ : إِنَّهَا ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ . وَلَوْ سُئِلَ أَكْبَرُ فَلَاسِفَةِ الدُّنْيَا أَنْ يُوجِزَ عِلَاجَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهِ فِي حَرْفَيْنِ ، لَمَا زَادَ عَلَى الْقَوْلِ : إِنَّهُ ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ . وَلَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ عُلَمَاءِ أَوْرَبَةِ لِيَدْرُسُوا الْمَدِينَةَ الْأَوْرَبِيَّةَ وَيَخْصُرُوا مَا يَغُورُهَا فِي كَلِمَتَيْنِ لَقَالُوا : ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ .

فَلَيْسَ يَنْتَظِرُ الْعَالَمُ أَنْبِيَاءَ وَلَا فَلَاسِفَةَ وَلَا مُصْلِحِينَ وَلَا عُلَمَاءَ يُبْدِعُونَ لَهُ بِدْعًا جَدِيدًا ؛ وَإِنَّمَا هُوَ يَتَرَقَّبُ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْسِّرَ لَهُ الْإِسْلَامَ هَذَا التَّفْسِيرَ ، وَيُثَبِّتَ لِلدُّنْيَا أَنَّ كُلَّ الْعِبَادَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ وَسَائِلُ عِلْمِيَّةٍ تَمْنَعُ الْأَخْلَاقَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنْ تَتَبَدَّلَ فِي الْحَيَاةِ فَيَخْلَعَ مِنْهَا وَيَلْبَسَ ، إِذَا تَبَدَّلَتْ أَحْوَالُ الْحَيَاةِ فَصَعِدَتْ بِإِنْسَانِيَّتِهَا أَوْ نَزَلَتْ ؛ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ يَأْتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا حَالِيهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ الثَّرْوَةِ أَوْ الْعِلْمِ ، وَمِنْ الْأَرْفَاقِ أَوْ الضَّعَةِ ، وَمِنْ خُمُولِ الْمَنْزِلَةِ أَوْ بِنَاهَتِهَا ؛ وَيُوجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا الدَّرَجَةِ الَّتِي آتَتْهَا إِلَيْهَا الْكُونُ فِي سُمُوهِ وَكَمَالِهِ ، وَفِي تَقْلِيهِ عَلَى مَنَازِلِهِ بَعْدَ أَنْ صُفِّيَ فِي شَرِيعَةِ بَعْدَ شَرِيعَةٍ ، وَتَجَرِبَةٍ بَعْدَ تَجَرِبَةٍ ، وَعِلْمٍ بَعْدَ عِلْمٍ .

انْتَهَتْ الْمَدِينَةُ إِلَى تَبَدُّلِ الْأَخْلَاقِ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ ، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا عَلَى الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ وَحَرَمَهُ الْإِعْسَارُ فُتُونَ اللَّذَّةِ ، ثُمَّ أَيْسَرَ مِنْ بَعْدَ ؛ جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فَاجِرًا عَلَى الْغِنَى ، وَأَنْ يَتَسَمَّحَ لِفُجُورِهِ عَلَى مَدٍّ مَا يَتَطَوَّحُ بِهِ الْمَالُ ، وَإِنْ أَصْبَحَ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ شَقَاءُ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَوْ فَسَادُهَا .

وَمَنْ وُلِدَ فِي بَطْنِ كُوَيْخٍ ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ ، وَجَبَ أَنْ يَبْقَى أَرْضًا إِنْسَانِيَّةً ؛ كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَبْنِ مِنْ عِظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَأَعْصَابِهِ إِلَّا خَرِبَةً آدَمِيَّةً مِنْ غَيْرِ هَنْدَسَةٍ وَلَا نِظَامٍ وَلَا

(\*) « الرسالة » العدد : ١١٥ ، ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ سبتمبر/أيلول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٤٨٤ - ١٤٨٦ .

فَنُ . . . ثُمَّ يُقَابِلُهُ مَنْ وُلِدَ فِي الْقَصْرِ أَوْ شِبْهِ الْقَصْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ ، كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ رَكَّبَ مِنْ عَظْمِهِ وَدَمِهِ وَتَكْوِينِهِ آيَةً هَنْدَسِيَّةً ، وَأَعْجُوبَةً فَنً ، وَطُرْفَةً تَذْيِيرَ ، وَشَيْئًا مَعَ شَيْءٍ ، وَطَبَقَةً عَلَى طَبَقَةٍ .

وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ يُقَرِّرُ ثَبَاتَ الْخُلُقِ وَيُوجِبُهُ وَيُنْشِئُ النَّفْسَ عَلَيْهِ ، وَيَجْعَلُهُ فِي حَيَاتِهِ الْمُجْتَمَعِ وَحِرَاسَتِهِ ، لِأَنَّ هُنَاكَ حَدُودًا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ تَمَيِّزُ بِحُدُودٍ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا بُدَّ مِنَ الضَّبْطِ فِي هَلِهِ وَهَلِهِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ وَضْعٌ إِلَّا وَرَاءَهُ تَقْدِيرٌ ، وَلَا تَقْدِيرٌ إِلَّا مَعَهُ حِكْمَةٌ ، وَلَا حِكْمَةٌ إِلَّا فِيهَا مَصْلَحَةٌ ؛ وَحَتَّى لَا تَعْلُو الْحَيَاةُ وَلَا تَنْزِلَ إِلَّا بِمِثْلِ مَا تَرَى مِنْ كَفَاتِي مِيزَانٍ شَدَّتَا فِي عِلَاقَةٍ تَجْمَعُهُمَا وَتَحَرِّكُهُمَا مَعًا ، فَهِيَ بِذَاتِهَا هِيَ الَّتِي تَنْزِلُ بِالنَّازِلِ لِنَدْلٍ عَلَيْهِ ، وَتَسِيلُ بِالْعَالِي لِنَبِيٍّ عَنْهُ ؛ فَالْإِسْلَامُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَدِينَةُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ .

\* \* \*

إِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ مَادَّةُ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ وَالْدَّمِ فِي الْإِنْسَانِ فَهِيَ نَابِتَةٌ مُقَدَّرَةٌ عَلَيْهِ ، وَلَنْ تَتَبَدَّلَ السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي تُوْجِدُهَا وَتُفْنِيهَا فِيهِ مُصَرَّفَةٌ لَهَا قَاضِيَةٌ عَلَيْهَا ؛ وَيَبْنَ عَمَلُ هَذِهِ الْمَادَّةِ وَعَمَلُ قَانُونِهَا فِيهَا تَكُونُ أَسْرَارُ التَّكْوِينِ ؛ وَفِي هَذِهِ الْأَسْرَارِ تَجِدُ تَارِيخَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهِ سَابِحًا فِي الدَّمِ .

هِيَ الْغَرَائِزُ تَعْمَلُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلَهَا الْإِلَهِيَّ ، وَهِيَ مُحَدَّدَةٌ مُحْكَمَةٌ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ تَعَادِلِهَا وَاخْتِلَافِ بَيْنِهَا ، وَكَأَنَّهَا خُلِقَتْ بِمَجْمُوعِهَا لِمَجْمُوعِهَا ؛ وَمِنْ ثُمَّ يَكُونُ الْخُلُقُ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَاهُ قَانُونًا إِلَهِيًّا عَلَى قُوَّةِ كَقُوَّةِ الْكُونِ وَضَبْطِ كَضَبْطِهِ .

وَبِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَهَذَا الضَّبْطِ يَسْتَطِيعُ الْخُلُقُ أَنْ يُحَوِّلَ الْمَادَّةَ الَّتِي تُعَارِضُهُ إِذَا هُوَ أَشْتَدَّ وَصَلَبَ ، وَلِكَيْتَهُ يَتَحَوَّلَ مَعَهَا إِذَا هُوَ لَانَ أَوْ ضَعَفَ . فَهُوَ قَدَرٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي طَاعَتِكَ ، إِذْ هُوَ قُوَّةُ الْفَضْلِ بَيْنَ إِنْسَانِيَّتِكَ وَحَيَوَانِيَّتِكَ ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ الْمَرْجِ بَيْنَهُمَا ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ التَّعْدِيلِ فِيهِمَا ، وَقَدْ سُوِّغَ الْقُدْرَةُ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ جَمِيعًا ، وَلَوْلَا أَنَّهُ بِهِلِهِ الْمَثَابَةُ لَعَاشَ الْإِنْسَانُ طُولَ التَّارِيخِ قَبْلَ التَّارِيخِ ، إِذْ لَنْ يَكُونَ لَهُ حِينٌ كَوْنُ تَوَرُّخٍ فَضَائِلُهُ أَوْ رَذَائِلُهُ بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ .

فَلَا عِبْرَةَ بِمُظْهِرِ الْحَيَاةِ فِي الْفَرْدِ ، إِذِ الْفَرْدُ مُقَيَّدٌ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ بِمَجْمُوعٍ هُوَ لِلْمَجْمُوعِ وَلَيْسَ لَهُ وَحْدُهُ ؛ فَإِنَّكَ تَرَى الْغَرَائِزَ دَائِبَةً فِي إِنْجَادِ هَذَا الْفَرْدِ لِتَوْعِدهُ بِسُنَنِ مِنْ أَعْمَالِهَا ، وَدَائِبَةً كَذَلِكَ فِي إِهْلَاكِهِ فِي النَّوْعِ نَفْسَهُ بِسُنَنِ أُخْرَى ؛ فَلَيْسَ قَانُونُ الْفَرْدِ إِلَّا أَمْرًا عَارِضًا كَمَا تَرَى ؛ وَبِهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْفَرْدُ عَلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ ، ثُمَّ تَبْقَى الْأَخْلَاقُ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَجْمُوعِ ثَابِتَةً عَلَى صُورَتِهَا .

فَالْأَخْلَاقُ عَلَى أَنَّهَا فِي الْأَفْرَادِ ، هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا حُكْمُ الْمَجْمُوعِ عَلَى أَفْرَادِهِ ، فَقَوَامُهَا بِالْإِجْتِمَاعِ لَا غَيْرُ .

\* \* \*

وَحِينَ يَقَعُ الْفَسَادُ فِي الْمَجْمَعِ عَلَيْهِ مِنْ آدَابِ النَّاسِ ، وَيَلْتَوِي مَا كَانَ مُسْتَقِيمًا ، وَتَشْتَبِهُ الْعَالِيَةُ وَالسَّافِلَةُ ، وَتُطْرَحُ الْمُبَالَاهُ بِالْضَمِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَيَقُومُ وَزْنُ الْحُكْمِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْقَبِيحِ وَالْمُنْكَرِ ، وَتَجْرِي الْعِبْرَةُ فِيمَا يَغْتَبِرُونَهُ بِالزَّادِائِلِ وَالْمَحْرَمَاتِ ، وَلَا يُعْجِبُ النَّاسَ إِلَّا مَا يُفْسِدُهُمْ ، وَيَقَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ بِمَوْقِعِ الْقَانُونِ وَيَجُلُ فِي مَحَلِّ الْعَادَةِ ؛ فَهَذَا لَا مَسَاكَ لِلْخَلْقِ السَّلِيمِ عَلَى فَرْدٍ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَحَوُّلِ الْفَرْدِ فِي حَقِيقَتِهِ ؛ إِذْ كَانَ لَا يَجِيءُ أَبَدًا إِلَّا مُتَصَدِّعًا فِي كُلِّ مَظَاهِرِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَأَيُّمَا وَقَعَ مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ جَاءَ مَكْسُورًا أَوْ مَثْلُومًا ، وَكَأَنَّهُ مُنْتَقِلٌ مِنْ عَالَمٍ إِلَى عَالَمٍ ثَانٍ بغيرِ تَوَاصُلٍ أَوَّلٍ .

وَمَا شَدَّ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَأَفْرَادُ مِنَ الْحُكَمَاءِ ؛ فَأَمَّا أُولَئِكَ فَهُمْ قُوَّةُ التَّحْوِيلِ فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ : لَا يُنْعَثُ أَحَدُهُمْ إِلَّا لِيَهْنِجَ بِهِ الْهَنْجُ فِي التَّارِيخِ ، وَيَتَطَرَّقَ بِهِ النَّاسُ إِلَى سُبُلِ جَدِيدَةٍ كَأَنَّمَا تَطْرُدُهُمْ إِلَيْهَا الْعَوَاصِفُ وَالزَّلَازِلُ وَالزَّبَازِينُ ، لَا شَرِيْعَتُهُ وَمَبَادِئُهُ وَآدَابُهُ ؛ وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ النَّاصِحُونَ فَهُمْ دَائِمًا فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَمَكْنَةُ بِسْرِيَّةٍ مُحَصَّنَةٍ لِحِفْظِ كُنُوزِهَا وَإِحْرَازِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَلَهُمْ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ عِصْمَةٌ وَمَنْعَةٌ كَالْجِبَالِ فِي ذَاتِ الْأَرْضِ .

\* \* \*

الْأَخْلَاقُ فِي رَأْيِي هِيَ الطَّرِيقَةُ لِتَنْظِيمِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَرْدَةِ عَلَى مُقْتَضَى الْوَاجِبَاتِ

الْعَامَّةُ ، فَلَا ضَلَاحَ فِيهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عَمَلِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ ، أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَجْتَمَعِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى حُكْمِهِ . وَعِنْدِي أَنَّ لِلشَّعْبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؛ فَبَاطِنُهُ هُوَ الدِّينُ الَّذِي يَخُكِّمُ الْفَرْدَ ، وَظَاهِرُهُ هُوَ الْقَانُونُ الَّذِي يَخُكِّمُ الْجَمِيعَ ، وَلَنْ يَصْلُحَ لِلْبَاطِنِ الْمُتَصِلُ بِالْغَيْبِ إِلَّا ذَلِكَ الْحُكْمُ الدِّينِيُّ الْمُتَصِلُ بِالْغَيْبِ مِثْلُهُ ؛ وَمِنْ هُنَا تَبَيَّنَ مَوَاضِعُ الْأَخْتِلَالِ فِي الْمَدِينَةِ الْأُورُشَلِيمِيَّةِ الْجَدِيدَةِ ؛ فَهِيَ فِي ظَاهِرِ الشَّعْبِ دُونَ بَاطِنِهِ ، وَالْفَرْدُ فَاسِدٌ بِهَا فِي ذَاتِ نَفْسِهِ إِذَا هُوَ تَحَلَّلَ مِنَ الدِّينِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَبْدُو صَالِحًا مُنْتَظِمًا فِي ظَاهِرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِالْقَوَانِينِ وَبِالْآدَابِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَفْرُضُهَا الْقَوَانِينُ ، فَلَا يَبْرَحُ هَازِنًا مِنَ الْأَخْلَاقِ سَاحِرًا بِهَا ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ فِيهِ ، ثُمَّ لَا تَكُونُ عِنْدَهُ أَخْلَاقًا يَغْتَدُّ بِهَا إِلَّا إِذَا دَرَّتْ بِهَا مَنَافِعُهُ ، وَإِلَّا فَهِيَ ضَارَةٌ إِذَا كَانَتْ مِنْهَا مُضَرَّةٌ ، وَهِيَ مُؤَلِّمَةٌ إِذَا حَالَتْ دُونَ اللَّذَاتِ . وَلَا يَنْفَكُ هَذَا الْفَرْدُ يَتَحَوَّلُ لِأَنَّهُ مُطْلَقٌ فِي بَاطِنِهِ غَيْرُ مُقَيَّدٍ إِلَّا بِأَهْوَاؤِهِ وَنَزَعَاتِهِ ، وَكَلِمَاتِ الْفَضِيلَةِ وَالزُّدْبِلَةِ مَعْدُومَتَانِ فِي لُغَةِ الْأَهْوَاءِ وَالنَّزَعَاتِ ؛ إِذِ الْعَالِيَةُ الْمَنَاعُ وَاللَّذَّةُ وَالنَّجَاحُ ، وَلَيْكُنِ السَّبَبُ مَا هُوَ كَائِنٌ ...

وَبِهَذَا فَلَنْ تَقُومَ الْقَوَانِينُ فِي أُورُشَلِيمَ إِذَا فَنِيَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْأَدْيَانِ فِيهَا أَوْ كَانَتْهُمْ الْمُلْجِدُونَ ، وَهُمْ الْيَوْمَ يُبْصِرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا فَعَلَتْ عَقْلِيَّةُ الْحَرْبِ الْعَظْمَى فِي طَوَائِفِ مِنْهُمْ قَدْ خَرَبَتْ أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِيمَانِهَا فَتَحَوَّلُوا ذَلِكَ التَّحَوُّلَ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَعْصَابُهُمْ بَعْدَ الْحَرْبِ مَا تَزَالُ مُحَارِبَةٌ مُقَاتِلَةٌ تَرْمِي فِي كُلِّ شَيْءٍ بِرُوحِ الدَّمِ وَالْأَشْلَاءِ وَالْقُبُورِ وَالنَّعْنَعِ وَالْبَلْبَلِ ... وَأَنْتَهَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ أُمَمٍ وَأُمَمٍ ، وَلَكِنَّهَا بَدَأَتْ بَيْنَ أَخْلَاقٍ وَأَخْلَاقٍ .

وَقَدِيمًا حَارَبَ الْمُسْلِمُونَ ، وَفَتَحُوا الْعَالَمَ ، وَدَوَّخُوا الْأُمَمَ ؛ فَأَبْتُوا فِي كُلِّ أَرْضٍ هَدَى دِينِهِمْ وَقُوَّةَ أَخْلَاقِهِمُ الثَّابِتَةِ ، وَكَانَ مِنْ وَرَاءِ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَرْبِ مَا هُوَ مِنْ وَرَائِهَا فِي السَّلَامِ ؛ وَذَلِكَ بِبَنَاتِ بَاطِنِهِمُ الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ ، وَلَا تَسْتَحْفُهُ الْحَيَاةُ بِتَرْفِهَا ، وَلَا تَسْقُفُهُ الْمَدَنِيَّاتُ فَتَحْمِلُهُ عَلَى الطُّغْيَانِ .

وَلَوْ كَانُوا هُمْ أَهْلُ هَذِهِ الْحَرْبِ الْأَخِيرَةِ بِكُلِّ مَا قَدَفَتْ بِهِ الدُّنْيَا ، لَبَقِيَتْ لَهُمُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُؤْمِنَةُ الْقَوِيَّةُ ، لِأَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هُوَ وَعَقْلِيَّتُهُ فِي سُلْطَانِ بَاطِنِهِ الثَّابِتِ الْقَارِ عَلَى حُدُودِ بَيِّنَةٍ مُحَصَّلَةٍ مَقْسُومَةٍ ، تَحُوطُهَا وَتُمْسِكُهَا أَعْمَالُ الْإِيمَانِ الَّتِي أَخْكَمَهَا الْإِسْلَامُ أَشَدَّ إِحْكَامٍ بَفَرَضِهَا عَلَى الْقُلُوبِ مَنُوعَةً مُكَرَّرَةً : كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ ، لِيَمْنَعَ بِهَا تَغْيِيرًا وَيُحْدِثَ

بِهَا تَغْيِيرًا آخَرَ ، وَبَجْعَلَهَا كَالْحَارِسَةِ لِلْإِرَادَةِ مَا تَرَالُ تَمُرُّ بِهَا وَتَبْعَهُدَّهَا بَيْنَ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ<sup>(١)</sup> .

وَإِنَّمَا الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ كَالْمَوْجِ وَالسَّاحِلِ ؛ فَإِذَا جُنَّ الْمَوْجُ فَلَنْ يَضِيرَهُ مَا بَقِيَ السَّاحِلُ رَكِيئًا هَادِيًا مُشْدُودًا بِأَعْضَادِهِ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ . أَمَّا إِذَا مَاجَ السَّاحِلُ . . . فَذَلِكَ أَسْلُوبُ آخَرُ غَيْرُ أَسْلُوبِ الْبَحَارِ وَالْأَعَاصِيرِ ؛ وَلَا جَرَمَ إِلَّا يَكُونُ إِلَّا خَسْفًا بِالْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمَا .

\* \* \*

فِي الْكَوْنِ أَضَلُّ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، هُوَ قَانُونُ ضَبْطِ الْقُوَّةِ وَتَضَرُّفِهَا وَتَوَجُّهِهَا عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ . وَيَقَابِلُهُ فِي الْإِنْسَانِ قَانُونٌ مِثْلُهُ لَا بُدَّ مِنْهُ لَضَبْطِ مَعَانِي الْإِنْسَانِ وَتَضَرُّفِهَا وَتَوَجُّهِهَا عَلَى مُقْتَضَى الْكَمَالِ . وَكُلُّ فُرُوضِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَوَأَجَابَاتِهِ وَأَدَابِهِ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا حَرَكَةٌ هَذَا الْقَانُونِ فِي عَمَلِهِ ؛ فَمَا تِلْكَ إِلَّا طُرُقٌ ثَابِتَةٌ لِخَلْقِ الْحِسِّ الْأَدْبِيِّ ، وَتَثْبِيتهِ بِالتَّكْرَارِ ، وَإِدْخَالِهِ فِي نَامُوسٍ طَبِيعِيٍّ بِإِجْرَائِهِ فِي الْأَنْفُسِ مَجْرَى الْعَادَةِ ، وَجَعْلِهِ بِكُلِّ ذَلِكَ قُوَّةً فِي بَاطِنِهَا ، فَتُسَمَّى الْوَأَجِبَاتُ وَالْأَدَابُ فُرُوضًا دِينِيَّةً ؛ وَمَا هِيَ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا عَنَاصِرُ تَكُونِ الْنَفْسِ الْعَالِيَةِ ، وَتَكُونُ أَوَامِرُ وَهِيَ حَقَائِقُ<sup>(٢)</sup> .

وَمِنْ ذَلِكَ أَرَانَا نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ نَمْتَارُ عَلَى الْأُورُوبِيِّينَ بِأَنَّا أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى قَوَائِنِ الْكَوْنِ ؛ فَبَيْنَ أَنْفُسِنَا ضَوَابِطُ قُوَّةٍ مَيِّنَةٌ إِذَا نَحْنُ أَقْرَبْنَا مَدِينَتَهُمْ فِيهَا - وَهِيَ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَقْبَلُ إِلَّا مَحَاسِنَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ - سَبَقَتْهُمْ وَتَرَكْنَا غُبَارَ أَقْدَامِنَا فِي وَجْهِهِمْ ، وَكُنَّا الطَّبَقَةَ الْمُصَفَّاءَ الَّتِي يَنْشُدُونَهَا فِي إِنْسَانِيَّتِهِمْ الرَّاهِنَةِ وَلَا يَجِدُونَهَا ، وَنَمْتَارُ عَنْهُمْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بِأَنَّا لَمْ نُنْشِ هَذِهِ الْمَدِينَةَ وَلَمْ تَنْشِئْنَا ، فَلَيْسَ حَقًّا عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ سِيَّانَتَهَا فِي حَسَنَاتِهَا ،

(١) فَصَّلْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي كَثِيرٍ مِنْ مَقَالَتِنَا : كَمَقَالَةِ « حَقِيقَةُ الْمُسْلِمِ » ، وَ« شَهْرٌ لِلثَّوَرَةِ ... » .

(٢) هَذَا هُوَ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ مُصْطَلَفَى كَمَالٍ وَمَنْ شَاقَعُوهُ ، وَمَنْ قَلَّدُوهُ ، وَمَنْ أَخَذَعُوا فِيهِ ، وَلَوْ فَهَمَهُ حَقُّ الْفَهْمِ لَجَدَّ تَرْكِيَّةً وَجَدَّدَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ كُلَّهُ ، وَلَكِنَّ الْكُجُلَ غَرِيبَ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي قَصِيرُ الْكَظَرِ ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ جَدَّدَ ثَوْبًا وَفَجَعَهُ ... !

وَحِمَاقَتَهَا فِي حِكْمَتِهَا ، وَتَرَوِيذَهَا فِي حَقِيقَتِهَا ؛ وَأَنْ نُسَيِّغَ مِنْهَا الْحُلُوةَ وَالْمُرَّةَ ، وَالنَّاصِجَةَ وَالْفَجَّةَ ؛ وَإِنَّمَا نَحْنُ نُحْصِلُهَا وَنَقْتَسِبُهَا وَنَرْتَجِعُ مِنْهَا الرَّجْعَةَ الْحَسَنَةَ ؛ فَلَا نَأْخُذُ إِلَّا الشَّيْءَ الصَّالِحَ مَكَانَ الشَّيْءِ قَدْ كَانَ دُونَهُ عِنْدَنَا وَنَدْعُ مَا سِوَى ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا نَأْخُذُ وَلَا نَدْعُ إِلَّا عَلَى الْأَصُولِ الضَّابِطَةِ الْمُحْكَمَةِ فِي أَدْيَانِنَا وَأَدَابِنَا ؛ وَلَكِنَّا مِثْلَهُمْ مُتَّصِلِينَ مِنْ حَاضِرِ مَدِينَتِهِمْ بِمِثْلِ مَاضِيَتِهِمْ ، بَيِّنٌ أَنَّ الْعَجَبَ الَّذِي مَا يَفْرُغُ عَجَبِي مِنْهُ ، أَنَّ الْمَوْسُومِينَ مِمَّا بِالتَّجْدِيدِ لَا يُحَاوِلُونَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ وَآخِرَهَا إِلَّا هَذَمَ تِلْكَ الضَّوَابِطِ الَّتِي هِيَ كُلُّ مَا نَمْتَارُ بِهِ ، وَالَّتِي هِيَ كَذَلِكَ كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ أُورُبَةُ لَضَبْطِ مَدِينَتِهَا ؛ وَيُسْمُونَ ذَلِكَ تَجْدِيدًا ، وَلَهُوَ بِأَنْ يُسَمَّى حِمَاقَةً وَجَهْلًا أَوَّلِيٍّ وَأَحَقُّ .

أَقُولُ وَلَا أَبَالِي : إِنَّا أَبْتَلَيْنَا فِي نَهْضَتِنَا هَذِهِ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُتَرْجِمِينَ قَدْ اخْتَرَفُوا الثَّقَلُ مِنْ لُغَاتِ أُورُبَةٍ ، وَلَا عَقْلَ لَهُمْ إِلَّا عَقْلُ مَا يُنْقَلُونَهُ ؛ فَصَنَعْتُهُمُ التَّرْجَمَةَ مِنْ حَيْثُ يَذَرُونَ أَوْ لَا يَذَرُونَ صَنَعَةَ تَقْلِيدٍ مَخْضٍ وَمُتَابَعَةٍ مُسْتَعْبِدَةٍ ، وَأَصْبَحَ عَقْلُهُمْ بِحُكْمِ الْعَادَةِ وَالطَّبِيعَةِ ، إِذَا فَكَّرَ انْجَذَبَ إِلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ لَا يَخْرُجُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ . وَإِذَا صَحَّ أَنْ أَعْمَلْنَا هِيَ الَّتِي تَعْمَلْنَا - كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ - فَهَمَّ بِذَلِكَ خَطَرٌ أَيْ خَطَرُ عَلَى الشَّعْبِ وَقَوْمِيَّتِهِ وَدَانِيَّتِهِ وَخَصَائِصِهِ ، وَيُوشِكُ إِذْ هُوَ أَطَاعَهُمْ إِلَى كُلِّ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَنْ ... أَنْ يُتْرَجِمُوهُ إِلَى شَعْبٍ آخَرَ ...

\* \* \*

إِنَّ أُورُبَةَ وَمَدِينَتَهَا لَا تُسَاوِي عِنْدَنَا شَيْئًا إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تُحَقِّقُ فِينَا مِنْ اتِّسَاعِ الدَّانِيَّةِ بِمُلُومِهَا وَثُقُوبِهَا ، فَإِنَّمَا الدَّانِيَّةُ وَخَدَاهَا هِيَ آسَاسُ قُوَّتِنَا فِي التَّرَاجُعِ الْعَالَمِيِّ بِكُلِّ مَظَاهِرِهِ أَهْيَا كَانَ ؛ وَلَهَا وَخَدَهَا ، وَبِأَعْيَانِ مِنْهَا دُونَ سِوَاهَا ، نَأْخُذُ مَا نَأْخُذُهُ مِنْ مَدِينَةِ أُورُبَةٍ ، وَنُهْمِلُ مَا نُهْمِلُ ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَتْرِكَ التَّثَبُّتَ فِي هَذَا وَلَا أَنْ نَسَامَحَ فِي دَقَّةِ الْمُحَاسَبَةِ عَلَيْهِ .

فَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الضَّوَابِطِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْقُوَّةِ الَّتِي هِيَ مَظَاهِرُ الْأَدْيَانِ فِينَا ، ثُمَّ إِدْخَالُ الْوَأَجِبَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ فِي هَذِهِ الضَّوَابِطِ لِزَبْطِهَا بِالْعَصْرِ وَحَضَارَتِهِ ، ثُمَّ تَسْيِينُ مَظَاهِرِ الْأُمَمِ عَلَى مُقْتَضَى هَذِهِ الْوَأَجِبَاتِ وَالضَّوَابِطِ ، ثُمَّ الْعَمَلُ عَلَى اتِّحَادِ الْمَشَاعِرِ

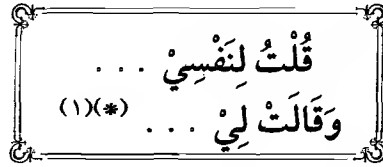
وَتَمَارُجُهَا لِتَقْوِيمِ هَذَا الْمَظْهَرِ الشَّعْبِيِّ فِي جُمْلَتِهِ بِتَقْوِيمِ أَجْزَائِهِ . هَذِهِ هِيَ الْأَرْكَانُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي لَا يَقُومُ عَلَى غَيْرِهَا بِنَاءُ الشَّرْقِ .

وَالْإِلْحَادُ وَالْكَرَعَاتُ السَّافِلَةُ وَتَحَايُثُ الْمَدِينَةِ الْأُورُبِّيَّةِ الَّتِي لَا عَمَلَ لَهَا إِلَّا أَنْ تُظْهِرَ الْخَطَرَ فِي أَجْمَلِ أَشْكَالِهِ . . . ، ثُمَّ الْجَهْلُ بِعُلُومِ الْقُوَّةِ الْحَدِيثَةِ وَبِأُصُولِ التَّدْبِيرِ وَحَيَاظَةِ الْجَمْعِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى ، ثُمَّ التَّدْلِيلُ عَلَى الْأَمَةِ بِأَرْاءِ الْمُقْلِدِينَ وَالزَّائِفِينَ وَالْمُسْتَعْمِرِينَ لِمَخَوِ الْأَخْلَاقِ الشَّعْبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ وَمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ التَّخَاذُلُ وَالشَّقَاقُ وَتَدَابُرُ الطَّوَائِفِ وَمَا كَانَ بِسَبِيلِهَا . تِلْكَ هِيَ الْمَعَاوِلُ الْأَرْبَعُ الَّتِي لَا يَهْدِمُ غَيْرُهَا بِنَاءَ الشَّرْقِ .

فَلْيَكُنْ دَائِمًا شِعَارُنَا ، نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ ، هَذِهِ الْكَلِمَةُ : أَخْلَاقُنَا قَبْلَ مَدَنِيَّتِهِمْ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قُلْتُ لِنَفْسِي : وَيَحْكُ يَا نَفْسُ ! مَا لِي أَتَحَامَلُ عَلَيْكَ ؛ فَإِذَا وَفَيْتِ بِمَا فِي وَسْعِكَ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا قُوَّتُهُ وَكَلَّفْتُكَ أَنْ تَسْعِيَ ؛ فَلَا أَرَأَى أُعْثِكَ مِنْ بَعْدِ كَمَالٍ فِيهَا هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ ، وَبَعْدَ الْحَسَنِ فِيهَا هُوَ الْأَحْسَنُ ؛ وَمَا أَنْفُكَ أَجْهَدُكَ كُلَّمَا رَاجَعَكَ النَّشَاطُ ، وَأَضْنَيْكَ كُلَّمَا ثَابَتَ الْقُوَّةُ ؛ فَإِنْ تَكُنْ لَكَ هُمُومٌ فَأَنَا أَكْبَرُهَا ، وَإِذَا سَاوَرَتْكَ الْأَخْزَانُ فَأَكْثَرُهَا مِمَّا أَجْلِبُ عَلَيْكَ .

أَنْتِ يَا نَفْسُ سَائِرَةٌ عَلَى النَّهْجِ ، وَأَنَا أَغْتَسِفُ بِكَ ، أُرِيدُ الطَّيْرَانَ لَا السَّيْرَ ، وَأَتَبَغَّى عَمَلَ الْأَعْمَارِ فِي عُمْرٍ ، وَأَسْتَحْثُّكَ مِنْ كُلِّ هَجْعَةٍ رَاحَةٍ يَفْجُرُ تَعِبٌ جَدِيدٌ<sup>(١)</sup> ، وَكَأَنِّي لَكَ زَمَنٌ يَمَازُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا يَبْرَحُ يَنْبِيئُ عَلَيْكَ مِنْ ظِلَامٍ بِثُورٍ وَمِنْ نُورٍ بِظِلَامٍ ؛ لِيَهْتِيَ لَكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَمْتَدُّ بِكَ فِي التَّارِيخِ مِنْ بَعْدُ ، فَتَذْهَبِينَ<sup>(٢)</sup> حِينَ تَذْهَبِينَ ، وَيَعِيشُ قَلْبُكَ فِي الْعَالَمِ سَارِيًا بِكَلِمَاتٍ أَفْرَاحِهِ وَأَخْزَانِهِ .

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : أَمَّا أَنَا فَأَنَايُ مَعَكَ دَائِبًا كَالْحَبِيبَةِ الْوَفِيَّةِ لِمَنْ تُحِبُّهُ<sup>(٣)</sup> : تَرَى خُضُوعَهَا أَحْيَانًا هُوَ أَحْسَنُ الْمُقَاوَمَةِ ؛ وَأَمَّا أَنْتِ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ تَتْعَبُ وَلَا تَرَأَى تَتْعَبُ ، فَكَيْفَ تُرِينِي<sup>(٤)</sup> أَنْكَ تَتَقَدَّمُ وَلَا تَرَأَى تَتَقَدَّمُ ؟

(\*) « الرسالة » العدد : ٧٤ ، ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ٣ ديسمبر / كانون الأول سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٩٦٣ - ١٩٦٦ .

(١) كُنَيْتٌ فِي سَاعَةِ صَبَرٍ ، مِنْ هَذِهِ السَّاعَاتِ الطَّارِئَةِ عَلَى الرُّوحِ ، يُخَيَّلُ لِلْمَرْءِ فِيهَا أَنَّهُ هُوَ وَخُدَهُ ، وَالْعَالَمُ كُلُّهُ وَخُدَهُ ؛ ذَلِكَ فِي وُجُودِ نَفْسِهِ خَاصَّةً ، وَالْآخِرُ فِي وُجُودِ الطَّبِيعَةِ كُلِّهَا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « يَفْجُرُ يَمْتَدُّ مِنْهُ نَهَارٌ مُضْطَرِبٌ » بَدَلًا مِنْ : « يَفْجُرُ تَعِبٌ جَدِيدٌ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « تَذْهَبِينَ » بَدَلًا مِنْ : « تَذْهَبِينَ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « تُحِبُّ » بَدَلًا مِنْ : « تُحِبُّهُ » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « تَدُلُّنِي » بَدَلًا مِنْ : « تُرِينِي » .

لَيْسَتْ دُنْيَاكَ يَا صَاحِبِي مَا تَجِدُهُ مِنْ غَيْرِكَ ، بَلْ مَا تُوجِدُهُ بِنَفْسِكَ ؛ فَإِنْ لَمْ تَرِدْ شَيْئًا عَلَى الدُّنْيَا كُنْتَ أَنْتَ زَائِدًا عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَإِنْ لَمْ تَدْعُهَا أَحْسَنَ مِمَّا وَجَدْتَهَا ، فَقَدْ وَجَدْتَهَا وَمَا وَجَدْتِكَ ؛ وَفِي نَفْسِكَ أَوَّلُ حُدُودِ دُنْيَاكَ وَآخِرُ حُدُودِهَا . وَقَدْ تَكُونُ دُنْيَا بَعْضِ النَّاسِ حَانُوتًا صَغِيرًا ، وَدُنْيَا الْآخَرِ كَالْقَرْيَةِ الْمُلَمَلَمَةِ<sup>(١)</sup> ، وَدُنْيَا بَعْضِهِمْ كَالْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ ؛ أَمَّا دُنْيَا الْعَظِيمِ فَقَارَةٌ بِأَكْمَلِهَا ، وَإِذَا انْفَرَدَ أَمْتَدَّ فِي الدُّنْيَا فَكَانَ هُوَ الدُّنْيَا .

وَالْقُوَّةُ يَا صَاحِبِي تَعْتَدِي بِالنَّعَبِ وَالْمُعَانَاةِ ؛ فَمَا عَانَيْتَ الْيَوْمَ حَرَكَةً مِنْ جِسْمِكَ ، أَلْفَيْتَهُ غَدًا فِي جِسْمِكَ قُوَّةً مِنْ قُوَى اللَّحْمِ وَالْدَّمِ . وَسَاعَةُ الرَّاحَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ النَّعَبِ ، هِيَ فِي لَدُنْهَا كَأَيَّامٍ<sup>(٢)</sup> مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ نَعَبٍ سَاعَةٍ . وَمَا أَشْبَهَ الْحَيَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَوَشَكَ أَنْقِطَاعِهِ مِنْهَا ، بِمَنْ خُلِقَ لِيَعِيشَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ<sup>(٣)</sup> عَلَيْهِ سَاعَاتُهَا وَدَقَائِقُهَا وَثَوَانِيهَا ؛ أَفْتَرَاهُ يَغْفُلُ فَيَقْدِرُهَا ثَلَاثَةَ أَغْوَامٍ ، وَيَذْهَبُ يُسْرِفُ فِيهَا ضُرُوبًا مِنْ لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ وَمُجُزَّهِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْمَقُ أَحْمَقَ إِلَى نِهَايَةِ الْحُمَقِ ؟

أَتَعَبَ تَعَبَكَ يَا صَاحِبِي ، فَبِئْسَ النَّاسُ تَعَبَ مَخْلُوقٍ مِنْ عَمَلِهِ ، فَهُوَ لَيْنٌ هَيِّنٌ مُسَوًى تَسْوِيَةً ؛ وَفِيهِمْ تَعَبٌ خَالِقٌ عَمَلَهُ ، فَهُوَ جَبَّارٌ مُتَمَرِّدٌ لَهُ الْقَهْرُ وَالْعَلَبَةُ . وَأَنْتَ إِنَّمَا تَكِدُ لِنَسْمُورِ بَرْوَحِكَ إِلَى هُمُومِ الْحَقِيقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَتَسْمُورُ بِجِسْمِكَ إِلَى مَشَقَاتِ الرُّوحِ الْعَظِيمَةِ ؛ فَذَلِكَ يَا صَاحِبِي لَيْسَ تَعَبًا فِي حَفْرِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَبٌ مِنْ حَفْرِ الْكَثْرِ .

أَتَعَبَ يَا صَاحِبِي تَعَبَكَ ؛ فَإِنَّ عَنَاءَ الرُّوحِ هُوَ عُمرُهَا ؛ فَأَعْمَالُكَ عُمرُكَ الرُّوحَانِي ، كَعُمُرِ الْجِسْمِ لِلْجِسْمِ ؛ وَاحِدٌ هَذَا<sup>(٤)</sup> عُمُرُ مَا يَعِيشُ ، وَالْآخَرُ عُمُرُ مَا سَيَعِيشُ .

\* \* \*

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَقَدْ مَلَلْتُ أَشْيَاءَ وَتَبَرَّمْتُ بِأَشْيَاءَ . وَإِنَّ عَمَلَ التَّغْيِيرِ فِي الدُّنْيَا لَهُوَ هَذِهِ

لَهَا كُلَّمَا بُنِيَتْ ، ثُمَّ بَنَاوْهَا كُلَّمَا هُدِمَتْ ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ بِصُورَتَيْنِ مَعًا ؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطْتُهُ بِالنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا ذَهَابَ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ ، أَوْ عَهْدٌ كَالْيَوْمِ ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ إِنْسَانًا خَيَالًا كَمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الثَّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ . . . ! فَهُوَ يَحْتَمِلُ { فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ } تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ ، وَمَا أَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ ! وَكَمْ مِنْ أَسْمٍ جَمِيلٍ إِذَا هَجَسَ فِي خَاطِرِي قُلْتُ : آه ، هَذَا الَّذِي كَانَ . . . !

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ ثِيَابَ النَّاسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهَا فِي رَأْيِ النَّفْسِ ، مِمَّا تَجْعَلُهُمْ وَجُوهُهُمْ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ؛ وَإِنِّي لَأَرَى الْعَالَمَ أَجْيَانًا كَالْقِطَارِ السَّرِيعِ مُنْطَلِقًا بِرُكَّابِهِ<sup>(١)</sup> وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ ، وَأَرَى الْغَفْلَةَ الْمُفْرِطَةَ قَدْ بَلَغَتْ مِنْ هَذَا النَّاسِ مَبْلَغَ مَنْ يَطُلُّ أَنَّهُ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ كَالْمُوطَفِ تَحْتَ التَّجَرِبَةِ ، فَإِذَا قَضَى الْمُدَّةَ قِيلَ لَهُ : أَبَدًا مِنَ الْآنِ . كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَيَذْكُرُ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا يَصْلُحُ ، وَأَنْتَهَى مِنْ عُمرِهِ إِلَى النِّهَايَةِ الْمَخْدُودَةِ - رَجَعَ مِنْ بَعْدِهَا يَعِيشُ مُنْتَظِمًا عَلَى اسْتِوَاءٍ وَاسْتِقَامَةٍ ، وَفِي إِذْرَاكِ وَتَمَيُّيزٍ . مَعَ أَنَّ الْخُرَافَةَ نَفْسَهَا لَمْ تَقْبَلْ قَطُّ أَنْ يَعُدَّ مِنْهَا فِي أَوْهَامِ الْحَيَاةِ أَنَّ رَجُلًا بَلَغَ الثَّمَانِينَ أَوْ الثَّلَاثِينَ وَحَانَ أَجَلُهُ فَأَصْبَحُوا لَمْ يَجِدُوهُ مَيِّتًا فِي فِرَاشِهِ ؛ بَلْ وَجَدُوهُ مَوْلُودًا فِي فِرَاشِهِ . . . !

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : وَأَنْتَ مَا شَأْنُكَ بِالنَّاسِ وَالْعَالَمِ ؟ يَا هَذَا ! لَيْسَ لِمِصْبَاحِ الطَّرِيقِ أَنْ يَقُولَ : « إِنَّ الطَّرِيقَ مُظْلِمٌ » . إِنَّمَا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ كَلَامًا أَنْ يَقُولَ : « هَذَا مُضِيءٌ » .

وَالْحَكِيمُ لَا يَضْجَرُ وَلَا يَضِيقُ وَلَا يَتَمَلَّمُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْخَفُ وَلَا يَطِيشُ وَلَا يَسْتَرْسِلُ فِي كَذِبِ الْوَهْمِ ؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ أَثَرُ الْحَيَاةِ الْبَهِيمَةِ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا أَثَرُ الرُّوحِ الْقَوِيَّةِ فِي إِنْسَانِهَا . وَالْحَيَوَانُ هُوَ الَّذِي يَجُوعُ وَيَشْبَعُ لَا النَّفْسُ . وَبَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ مِمَّا يَغْتَوِرُ الْحَيَوَانِيَّةَ - كَالْخُلُوعِ وَالْإِمْلَاءِ ، وَاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ - تَعْمَلُ قُوَى الْحَيَوَانِ أَشْيَاءَهَا الْكَثِيرَةَ الَّتِي تَسْلُطُ بِهَا عَلَى النَّفْسِ ، لِتَحْطِهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَنَفُوسِ الْحَيَوَانِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ الْحِكْمَةِ ضَبْطَ الْأَدْوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِي الْجِسْمِ ، كَمَا تَوْضَعُ الْيَدُ الْعَالِمَةُ عَلَى مَفَاتِيحِ الْقِطَارِ الْمُنْطَلِقِ يَتَسَعَّرُ مِرْجَلُهُ وَيَغْلِي .

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِرُكَّابِهِ » بَدَلًا مِنْ : « بِرُكَّابِهِ » .

(١) { أَيْ : الصَّغِيرَةُ تَقُومُ بِالذُّورِ الْقَلِيلَةِ الْمُخْتِمَةِ } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « أَيَّامٌ » بَدَلًا مِنْ : « كَأَيَّامٍ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « مَعْدُودَةٌ » وَفِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى : « مَعْدُودَةٌ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَاحِدُهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « وَاحِدَ هَذَيْنِ » .

أَعْمَلْ يَا صَاحِبِي عَمَلَكَ ؛ فَإِذَا رَأَيْتَ فِي الْعَامِلِينَ مَنْ يَضْجُرُ فَلَا تَضْجُرْ مِثْلَهُ ، بَلْ خُذْ أَطْمِئْنَانَهُ إِلَى أَطْمِئْنَانِكَ ، وَدَعِهِ يَخُلُ وَتَضَاعَفَ أَنْتَ .

إِنَّهُ لَيُؤْشِكُ أَنْ يَكُونَ فِي النَّاسِ نَاسٌ (كَالْبُؤُوكِ) : هَذِهِ مُسْتَوْدَعَاتُ لِلْمَالِ تَحْفَظُهُ وَتُخْرِجُ مِنْهُ وَتُثْمِرُهُ ، وَتِلْكَ مُسْتَوْدَعَاتُ لِلْفَضَائِلِ تَحْفَظُهَا وَتُخْرِجُ مِنْهَا وَتَزِيدُهَا . وَإِفْلَاسُ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَالِ ، هُوَ إِطْلَاقُ النِّكْبَةِ مُسَدَّسَهَا عَلَى رَجُلٍ تَقْتُلُهُ ؛ وَلَكِنْ إِفْلَاسُ (بَنِيكَ) هُوَ إِطْلَاقُ النِّكْبَةِ مَدْفَعَهَا الْكَبِيرَ عَلَى مَدِينَةٍ تُدَمِّرُهَا .

\* \* \*

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَمَا أَشَدَّ الْأَلَمَ فِي تَحْوِيلِ هَذَا الْجَسَدِ إِلَى شِبْهِ رُوحٍ مَعَ الرُّوحِ ! تِلْكَ هِيَ الْمُعْجِزَةُ الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَكِنْ الْعَمَلُ لَهَا يَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ . وَالْأَسَدُ الْمَحْبُوسُ مَحْبُوسَةٌ فِيهِ قُوَّتُهُ وَطِبَاعُهُ ؛ فَإِنْ زَالَ الوجودُ الْحَدِيدِيُّ مِنْ حَوْلِهِ ، أَوْ وَهَتْ نَاحِيَةٌ مِنْهُ ، انْطَلَقَ الْوَحْشُ . وَالرَّجُلُ الْفَاضِلُ فَاضِلٌ مَا دَامَ فِي قَفْصِهِ الْفِكْرِيُّ ، وَهُوَ مَا دَلِمَ فِي هَذَا الْقَفْصِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا نُمُودَجًا مَعْرُوضًا لِلتَّفَنُّيْحِ الْمُمْكِنِ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ : تُصَيِّبُهُ السَّيِّئَةُ مِنَ النَّاسِ لِتُخَيَّرَ فِيهِ الْحَسَنَةُ ، وَتَبْلُغُهُ الْخِيَانَةُ لِتَجِدَ الْوَفَاءَ ، وَيَكْرَهُهُ الْبُغْضُ لِيقَابِلَهُ بِالْحُبِّ ، وَتَأْتِيهِ اللَّعْنَةُ لِتَجِدَ الْمَغْفِرَةَ ؛ وَلَهُ قَلْبٌ لَا يَتَعَبُ فَيَبْلُغُ مَنَزَلَةً إِلَّا أَبْتَدَأَ التَّعَبَ لِيَبْلُغَ مَنَزَلَةً أَعْلَى مِنْهَا ، وَلَهُ فِكْرٌ كُلَّمَا جَهَدَ فَادْرَكَ حَقِيقَةَ كَانَتْ الْحَقِيقَةُ أَنْ يَجْهَدَ فَيُدْرِكَ غَيْرَهَا .

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : إِنَّ مَنْ فَاقَ النَّاسَ بِنَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي أَنْ يَقُوقَ نَفْسَهُ الْكَبِيرَةَ ؛ إِنَّ الشَّيْءَ الْإِلَهَائِيَّ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي الصَّغَائِرِ وَالشَّرِّ ، أَمَّا الْخَيْرُ وَالْكَمَالُ وَعَظَائِمُ النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأَسْتَى ، فَهَلْذِهِ حَقَائِقُ أَرْزَلِيَّةٌ وَجَدَتْ لِنَفْسِهَا : كَالِهَوَاءِ يَتَنَفَّسُهُ كُلُّ الْأَحْيَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَا يَشْبَعُ ، وَلَا يُعْرِفُ أَتَيْنَ يَنْتَهِي ؛ وَكَمَا يَنْبَعِثُ الثُّورُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الصِّفَاتُ مُنْبَعِثَةً إِلَى النَّفُوسِ مِنْ أَنْوَارِ الْمَلَائِكَةِ ، وَبِهَذَا كَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ حَطًّا مِنْهَا هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَّصِلِينَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ .

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَضْلًا صَغِيرًا يَجْمَعُ فِكْرَةَ الْخَيْرِ

وَالْكَمَالِ وَعَظَائِمِ النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأَسْتَى ، وَقَدْ تَعَظَّمُ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا ، وَقَدْ تَصَغَّرُ فِيهِ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا : أَلَا وَهُوَ الْحُبُّ .

لَا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ كُلُّ حَيَاةٍ إِنْسَانِيَّةٍ فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُبِّ ؛ مِنْ رِقَّةِ النَّفْسِ وَرَحْمَتِهَا ، إِلَى هَوَى النَّفْسِ وَعَشَقِهَا .

وَإِذَا بَلَغَ الْحُبُّ أَنْ يَكُونَ عِشْقًا ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْمَمَانِيحِ الْعَصَبِيَّةِ لِلنَّفْسِ ، وَفَتَحَ لِلْعَظَائِمِ وَالْمُعْجِزَاتِ أَبْوَابَهَا ؛ حَتَّى إِنَّهُ يَجْعَلُ الْخُرَافَةَ الْفَارِغَةَ مُعْجِزَةً دَقِيقَةً ، وَيَمْلَأُ الْحَيَاةَ بِمَعَانٍ لَمْ تَكُنْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَيُصْبِحُ سِرُّ هَذَا الْحُبِّ لَا يَنْتَهِي ؛ إِذْ هُوَ سِرٌّ لَا يُدْرَكَ وَلَا يُعْرِفُ .

أَجْهَدُ جُهْدَكَ يَا صَاحِبِي ، فَمَا هُوَ قَفْصُكَ الْفِكْرِيُّ ذَلِكَ الشُّعَاعُ الَّذِي يَخْبِسُكَ ، وَلَكِنَّهُ صَقْلُ النَّفْسِ لِتَتَلَقَّى الْأَنْوَارَ ، وَلَا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ ظَاهِرٍ غَيْرِ ظَاهِرِ الْحَجَرِ { لِتَكُونَ بِهِ مِرَاةً } .

\* \* \*

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَمَا أَشَدَّ مَضَضًا أَعَانِيهِ ! إِنْ أَمَرَنِي لِيَذْهَبَ فُرْطًا<sup>(١)</sup> . أَكَلْنَا ابْتِغَايْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَرَحًا أَطْرَبَ لَهُ وَأَهْتَرُ ، جَاءَنِي الْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ أَسْتَكِدُّ فِيهَا وَأَدَابُ ؟ أَهَذَا السُّرُورُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَقَعُ لِي ؟ وَهَلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرِسِهَا : تَنْمُو صَاعِدَةً يُفْرُوْعِيهَا ، وَنَازِلَةً يَجْذُورُهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَبْرَحُ مَكَانَهَا ؟ أَوْ أَنَا تِمْنَالٌ عَلَى قَاعِدَتِهِ : لَا يَتَزَحَّزَحُ عَنْهَا إِلَّا سَاعَةً لَا يَكُونُ تِمْنَالًا ، وَلَا يَدْعُهَا حَتَّى تَدْعَهُ مَعَانِي الْعَظَمَةِ الَّتِي نُصِبَ لَهَا ؟

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : وَيَحَاكَ ! لَا تَطْلُبْ فِي كَوْنِكَ الصَّغِيرِ مَا لَيْسَ فِيهِ ؛ إِنَّ النَّاسَ لَوْ أَرْتَفَعُوا إِلَى السَّمَاءِ وَتَقَلَّبُوا فِيهَا كَمَا يَسْبِيحُ أَهْلُ قَارَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فِي قَارَةٍ غَيْرِهَا ، وَابْتَغَوْا أَنْ يَخْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذَكَّرُوا صَغِيرًا إِلَى الْأَرْضِ - لَوَجَدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَاكَ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا ؛ فَأَنْتَ سَائِحٌ فِي سَمَاوَاتٍ .

(١) أي : مُجَاوِزًا فِيهِ عَنِ الْحَدِّ .



أَنْتَ كَالثَّانِمِ : لَهُ أَنْ يَرَى وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِمَّا يَرَى إِلَّا وَضَعَهُ ، وَحِكْمَتَهُ ، وَالشَّرُورَ بِمَا أَلَدَّ مِنْهُ ، وَالْأَلَمَ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ .

لَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةً يَرْجُلَيْنِ تَذْهَبُ هُنَا وَهَلْهُنَا ، وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ تُرْسِلُ أَثْمَارَهَا يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ ، وَهِيَ تُبْدِعُ الثَّمَارَ إِنْدَاعَ الْمُؤَلَّفِ الْعَبْقَرِيِّ مَا يُؤَلِّفُهُ بِأَشَدِّ الْكَدِّ وَأَعْظَمِ الْجُهْدِ ، مُطْلَقَةً ضَمِيرُهَا فِي الْفِكْرَةِ الصَّغِيرَةِ ، تَعْقِدُهَا شَيْئًا شَيْئًا ، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِالزِّيَادَةِ ، وَلَا تَزَالُ كُلُّ وَفَتْ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّى تَسْتَفْرِغَ أَفْصَى الْقُوَّةِ ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُورُودُهَا فِي أَنْ تَهَبَ فَاِنْدَتْهَا ، لِأَنَّهَا لِذَلِكَ وَجِدَتْ .

إِنَّ فِي الشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةَ مَكْذُوبَةً ؛ فَالْحَيَاةُ فِيهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَجَازِهَا ؛ وَشَرُطُ الْمَجَازِ الْخَيَالُ وَالْمُبَالَغَةُ وَالتَّلَوُّنُ ؛ وَلَكِنْ مَتَى اخْتَارَ اللَّهُ رَجُلًا فَأَقَرَّ فِيهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ الصَّادِقَةِ ، وَوَهَبَ لَهُ الْعَاطِفَةَ الْقَادِرَةَ الَّتِي تَصْنَعُ ثَمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَنبَتِهَا لَا مَقَرَّ وَلَا مَذْوَحَةَ ، وَقَدْ يُخَيَّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ أحيانًا أَنْ نَضْرِبَ الْمَجْدِ الَّتِي تَعْلُوهُ وَتَتَأَلَّى حَوْلَهُ كُشَاعَ الْكَوْكَبِ ، هِيَ تَعْبُهُ وَضَجْرُهُ ، أَوْ أَثَرُ انْجِدَالِهِ وَالْمِهْ وَمَسْكَنَتِهِ ؛ وَهَذَا مِنْ شَقَاءِ الْعَقْلِ ؛ فَإِنَّهُ دَائِمًا يُضَيِّفُ شَيْئًا إِلَى شَيْءٍ ، وَيَخْلُطُ مَعْنَى بِمَعْنَى ، وَلَا يَتْرُكُ حَقِيقَةً عَلَى مَا هِيَ ؛ كَانَ فِيهِ مَا فِي الطِّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّقْلِيدِ ؛ وَالْعَقْلُ لَا يَرَى أَمَامَهُ إِلَّا الْإِلَهِيَّةَ ، فَهُوَ يَقْلُدُهَا فِي مَذَاحِلَةِ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، لِإِيجَادِ الْأَسْرَارِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ الْحَقِيقَةُ الصَّرِيحَةُ الثَّابِتَةُ مَذْعَاةً لِلْمَلِكِ الْعَقْلِيِّ فِي الْإِنْسَانِ ، لَا يَكَادُ يَقِينُ عَلَيْهَا أَوْ يَتَيَقَّدُ بِهَا ، فَمَا نَالَ شَيْئًا إِلَّا لِيَطْمَعَ فِي غَيْرِهِ ، وَمَا فَازَ بِلَذَّةٍ إِلَّا لِيَرْهَدَ فِيهَا ، وَأَجَلَ مَا أَحَبَّهُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنَالَهُ ، { فَإِذَا نَالَهُ وَقَعَ فِيهِ مَعْنَى مَوْتِهِ ، وَبَدَأَ فِي النَّفْسِ عُمْرًا آخَرَ مِنْ حَالَةٍ أُخْرَى ، أَوْ مَاتَ وَلَمْ يَبْدَأْ } ؛ فَلَا بُدَّ لِهَذَا الْإِنْسَانِ مَعَ كُلِّ صَوَابٍ مِنْ جُزْءٍ مِنَ الْخَطَا ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَجِدْ خَطَأً فِي شَيْءٍ انْتَفَكَ لِنَفْسِهِ <sup>(١)</sup> الْخَطَأَ الْمُضْحِكَ فِي شِبْهِ رِوَايَةِ خَيَالِيَّةٍ .

(١) { كَذَبَ وَاخْتَرَعَ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ الْإِفْكَ } .

إِنَّهُ لَشِعْرٌ سَخِيفٌ بَالِغُ السَّخَافَةِ أَنْ يُتَخَيَّلَ الْعَرِيقُ مُفَكِّرًا فِي صَيْدِ سَمَكَةٍ رَأَاهَا . . . وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ الْعَقْلِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ وَهْمٍ يُضَيِّفُهُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِيَضْحَكَ مِنْهَا ، كَمَا يَبْحَثُ لِنَفْسِهِ أحيانًا فِي أَجْمَلِ حَفَاتِقِ اللَّذَّةِ عَنْ أَلَمٍ يَتَأَلَّمُ بِهِ لِيَعْبَسَ فِيهِ !

\* \* \*

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَهَلْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُحْرِقَ دَمِي لِأَنِّي أَفَكِّرُ ، وَهَلْ أَظَلُّ دَائِمًا بِهِذَا التَّفَكِيرِ كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي وَجْهِ حَسَنَاءَ بِمَنْظَارٍ مُكَبِّرٍ : لَا يُرِيهِ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْمَعْشُوقَ إِلَّا تُقُونَا وَتَخْرِينَا كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ نُرَعَتْ مِنْهَا مَسَامِيرُ غَلِيظَةٌ . . . ! فَلَا يَجِدُ الْمُسْكِنُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ إِلَّا لِيَقْفِدَ ذَلِكَ الْجَمَالَ ؟ وَهَلْ بُدَّ مِنَ الشَّبهِ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ وَبَيْنَ مَا أَرْتَصَدُّ لَهُ مِنْ عَمَلٍ { يَخِيَا بِهِ } ، فَلَا يَكُونُ الْحُودُثُ حُودُثًا إِلَّا لِشَبهِ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ . . . ؟

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : إِنَّ فَاَسَ الْخَطَابِ لَا تَكُونُ مِنْ آدَاءِ الطَّبِيبِ ؛ فَخُذْ لِكُلِّ شَيْءٍ آدَاءَهُ ، وَكُنْ جَاهِلًا أحيانًا ، وَلَكِنْ مِثْلَ الْجَهْلِ الَّذِي يَصْنَعُ لَوْجَهُ الطِّفْلِ بِشَاشَتِهِ الدَّائِمَةِ ؛ فَهَذَا الْجَهْلُ هُوَ أَكْبَرُ عِلْمِ الشُّعُورِ الدَّقِيقِ الْمُزْهَفِ ، وَلَوْلَا هَلْكَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْحُكَمَاءُ وَالشُّعْرَاءُ غَمًّا وَكَمَدًا ، وَلَكَانُوا فِي هَذَا الْوُجُودِ ، عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، بَيْنَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ - كَالَّذِي قُبِدَ وَحُسِرَ فِي رَهَجِ تَبْيِيزَةِ الْقَدَمِ وَالْخُفِّ وَالْحَافِرِ : لَا يَتَنَفَّسُ إِلَّا الْعَبَارَ يُنَارُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَى أَنْ يَقْضَى عَلَيْهِ .

أَجْهَلُ جَهْلِكَ يَا صَاحِبِي فِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْخَسِيسَةِ ؛ فَإِنَّهَا الْعِلْمُ الْخَبِيثُ الَّذِي يُفْسِدُ الرُّوحَ ، وَأَعْرِفْ كَيْفَ تَقُولُ لِرُوحِكَ الطِّفْلَةَ فِي مَلَانِكِيَّتِهَا حِينَ تُسَاوِرُكَ الشَّهَوَاتُ : هَذَا لَيْسَ لِي ، هَذَا لَا يَنْبَغِي لِي .

إِنَّ الرُّوحَ الْكَبِيرَةَ هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا الطِّفْلُ الْمَلَانِكِيُّ .

وَعِلْمُ خَسَائِسِ الْحَيَاةِ يَجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ خَسِيسَةٍ نَفْسًا تَتَعَلَّقُ بِهَا ، فَيَكُونُ الْمُسْكِنُ بَيْنَ نَفْسَيْنِ وَثَلَاثٍ وَأَرْبَعٍ ، إِلَى ثَلَاثَيْنِ وَأَرْبَعَيْنِ ، كُلُّهُنَّ يَتَنَارَعُنَّ ، فَيَصْنَعُ بِهِدِهِ الْكَثْرَةَ ، وَيُضَيِّعُ بَعْضُهُ بَلَاءً عَلَى بَعْضٍ ، وَتَشْغَلُهُ الْفُضُولُ ، فَيَعُودُ لَهَا كَالْمَرْبَلَةِ لِمَا أُلْقِيَ فِيهَا ، وَيُمَحِّقُ فِي نَفْسِهِ الطَّبِيعِيَّةِ حِسَّ الْفَرَحِ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، كَمَا يُمَحِّقُ فِي الْمَرْبَلَةِ مَعْنَى الطَّنَافَةِ

وَمَعْنَى الْحِسِّ بِهَا .

هَذِهِ الْأَنْفُسُ الْخَيَالِيَّةُ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ الْمَتَكُونِ ، هِيَ الْأَرْوَاحُ الَّتِي يَنْفُخُهَا فِي مَصَائِبِهِ ، فَتَجْعَلُهَا مَصَائِبَ حَيَّةٍ تَعِيشُ فِي وَجُودِهِ وَتَعْمَلُ فِيهِ أَعْمَالَهَا ، وَلَوْلَاهَا لَمَاتَتْ فِي نَفْسِهِ مَطَامِعُ كَثِيرَةٌ ، فَمَاتَتْ لَهُ مَصَائِبُ كَثِيرَةٌ .

أَنْظُرْ بِالرُّوحِ الشَّاعِرَةِ ، تَرِ الْكَوْنَ كُلَّهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ أَنْسَجَامًا وَاحِدًا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْجَمَالَ وَالسَّخَرُ وَفَنَنَةُ الطَّرَبِ ؛ وَأَنْظُرْ بِالْعَقْلِ الْعَالِمِ ، فَلَنْ تَرَى فِي الْكَوْنَ كُلِّهِ إِلَّا مَوَادَّ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ وَالْكِيمِيَاءِ .

وَمَدَى الرُّوحِ جَمَالَ الْكَوْنَ كُلِّهِ ؛ وَمَدَى الْعَقْلِ قِطْعَةً مِنْ حَجَرٍ ، أَوْ عَظْمَةً مِنْ حَيَوَانٍ ، أَوْ نَسِيجَةً مِنْ نَبَاتٍ ، أَوْ فِلْدَةً مِنْ مَعْدِنٍ وَمَا أَشْبَهَهَا .

أَجْهَلُ جَهْلِكَ يَا صَاحِبِي ؛ فَفِي كُلِّ حُسْنٍ غَوْلٌ ، بِشَرْطِ أَلَّا تَكُونَ الْعَاشِقَ الطَّامِعَ ، وَإِلَّا أَصَبْتَ فِي كُلِّ حُسْنٍ هَمًّا وَمَشْغَلَةً . . . !

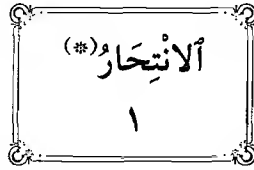
\* \* \*

قُلْتُ لِنَفْسِي : إِلَى الْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي كَتَمْتُهُ عَنْكَ .

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : وَإِلَى الْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِلَّا جَوَابَ ذَلِكَ الَّذِي كَتَمْتُهُ عَنِّي . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



حَدَّثَ الْمُسَيِّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ - أَقْبَلَ فَتَى فَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَّا ، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِي ؛ لَا أَمُدُّ نَظْرِي إِلَّا أَنْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ ، فَرَأَيْتُهُ يَسْمَعُ إِلَيَّ حَدِيثِنَا ؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ - وَكَانَ خَافَتِ الصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ ، وَكُنَّا نُسَمِّيهِ التَّمْلَةَ الصَّخَابَةَ - رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَزَحَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ حَسِينُ نَمَلَتِنَا .

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ : أَجْتَزْتُ أَنَا وَالشَّعْبِيُّ<sup>(١)</sup> أَمْسِ بِعُمَرَانَ الْخَيَاطِ ، فَمَارَحَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ : عِنْدَنَا حَبٌّ<sup>(٢)</sup> مَكْسُورٌ ، تَخِيْطُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْطٌ مِنْ رِيحٍ ! فَقُلْتُ أَنَا : فَأَذْهَبْ فَجِئْنَا بِالْمَغْرُولِ الَّذِي يَغْرُلُ الْهَوَاءَ لِتَضَعُ لَكَ الْخَيْطَ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْأَلَةٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أَمْرَأَتِهِ ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ : أَتُكْمَا الشَّعْبِيُّ . . . ؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى أَمْرَأَتِهِ وَقَالَ : هَذِهِ . . . !

قَالَ الْمُسَيِّبُ : وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ، وَأَخَذَ نَظْرِي الْغُلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حُزْنًا وَهَمًّا ، وَكَأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إِلَيْنَا لِيَسْمَعَ بَلْ لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا ، فَتَتَوَرَّعُ خَوَاطِرُهُ ، فَيَبْدَدَ

(\*) « الرسالة » العدد : ٩٥ ، ٢٦ محرم سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٩ أبريل / نيسان ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٦٨٣ - ٦٨٧ .

(١) هُوَ الْإِمَامُ الْعَظِيمُ عَامِرُ بْنُ شَرَّاحِيلَ الشَّعْبِيُّ ، تُوْفِيَ سَنَةَ ١٠٣ لِلْهَجْرَةِ أَوْ حَوْلَهَا عَنْ بَضْعِ وَثَمَانِينَ سَنَةً ، وَكَانَ فِي عَصْرِهِ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْإِسْلَامِ : سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ فِي الْمَدِينَةِ (ذَكَرَنَاهُ فِي: فَصَّةِ رَوَاجٍ) ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي الْبَصْرَةِ (ذَكَرَنَاهُ فِي فَصَّةِ: بَيْتِهِ الصَّيِّرَةِ) ، وَمُكْحُولُ فِي أَلْشَّامِ ، وَالشَّعْبِيُّ هَذَا فِي الْكُوفَةِ . وَكَانَ يُشْبِهُ فِي زَمَانِهِ أَبْنَ عَبَّاسٍ فِي زَمَانِهِ .

(٢) الْحَبُّ (بِكَسْرِ الْحَاءِ): هُوَ الزَّبِيرُ ، يُسْتَقَطَّرُ أَلْبَاءٌ مِنْ أَسْفَلِهِ فَيَخْرُجُ صَافِيًا ، وَيُقَالُ لِرُشْحِهِ: قَطَرٌ حَبٌّ .

أَجْتَمَاعُهَا عَلَى هَمٍّ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا ، وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا ، كَمَا يَفْعَلُ الْمَحْزُونُ فِي مَغَالِبَةِ الْحُزْنِ وَمُدَا فَتَحِهِ : يَشْغَلُ عَنْهُ بَصَرُهُ وَقَلْبُهُ وَسَمْعُهُ جَمِيعًا ، فَيَكُونُ الْحُزْنُ فِيهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْهُ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَمْرٌ أَمَاتَ الضَّحِكَ فِي هَذَا الْفَتَى وَكَسَرَ حِدَنَهُ وَشَبَابَهُ . ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ : رَأَيْتُكَ يَا بُنَيَّ مُقْبِلًا عَلَيْنَا كَالْمُنْصَرِفِ عَنَّا ؛ فَمَا بَالُكَ لَمْ تَضْحَكْ وَقَدْ ضَحِكْنَا جَمِيعًا ؟

قَالَ : إِلَيْكَ عَنِّي يَا هَذَا ؛ فَأَيْنَ مَنِّي الضَّحِكُ وَأَنَا عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ ، وَرُوحُ التُّرَابِ مَالِي عَيْنِي فِي كُلِّ مَا أَرَى ، وَكَأَنَّ حُفْرَتِي أَبْتَلَعَتِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنَا فِيهَا لِتَأْخُذَنِي فِيهَا ، وَأَنَا السَّاعَةَ مَيِّتٌ حَيٌّ ؛ رَجُلٌ فِي الدُّنْيَا وَرَجُلٌ فِي الْآخِرَةِ !

قُلْتُ : فَأَعْلِمْنِي مَا بِكَ يَا بُنَيَّ ؛ فَلَقَدْ اخْتَسَبْتُ وَلَدًا لِي كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ وَشَبَابِكَ وَلَمْ أُرْزَقْ غَيْرَهُ ، فَقَلْبِي بَعْدَهُ مَرِيضٌ بِهِ ، يَتَوَسَّمُهُ مُفَرَّقًا فِي لِدَائِهِ ، مُتَوَهِّمًا أَنَّ وُجُوهَهُمْ تَجْمَعُهُ بِمَلَامِحِهِ ؛ فَأَنَا مِنْ ذَلِكَ أَحِبُّهُمْ جَمِيعًا وَأُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهِمْ وَالتَّأَمُّلَ فِي وُجُوهِهِمْ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ لَهُ وَلِقَلْبِي حَدِيثٌ ! فَإِنْ رَأَيْتُهُ حَزِينًا مِثْلَكَ تَقَطَّعْتُ لَهُ مِنْ إِشْفَاقِي وَرَحْمَةٍ ، وَطَالَعْنِي فَتَايَ فِي مِثْلِ هَمِّهِ وَحُزْنِهِ وَانْكِسَارِهِ ؛ فَيَعُوذُ قَلْبِي كَالْعَيْنِ الَّتِي غَشَّاهَا الدَّمْعُ ، تَحْمِلُ أَثَرُ الْحُزْنِ وَمَعْنَاهُ وَسِرُّهُ ؛ فَيُبْنِي مَا تَجِدُ يَا بُنَيَّ ، فَلَعَلَّ لِي سَبَبًا إِلَى كَشْفِ ضَرْكِ أَوْ إِسْعَافِكَ بِحَاجَتِكَ ؛ وَلَعَلَّكَ تَكُونُ قَدْ حَزَنْتَ مِنْ أَمْرِ قَرِيبٍ الْمُمْتَنَوِلِ هَيِّنِ الْمَحَاوِلَةِ ، لَمْ يَجْعَلْهُ عِنْدَكَ كَبِيرًا أَنَّهُ كَبِيرٌ ، وَلَكِنْ أَنْتَ أَنْتَ صَغِيرٌ .

قَالَ الْفَتَى : مَهْلًا يَا عَمُّ ! فَإِنْ مَا نَزَلَ بِنَا مِمَّا تَقْطَعُ عِنْدَهُ الْحَبِيلَةَ وَلَا تَنْقَادُ فِيهِ الْوَسَائِلُ ، وَلَا عِلَاجَ مِنْهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ يَأْخُذُنَا وَيَأْخُذُهُ !

قُلْتُ : يَا بُنَيَّ ! هَذِهِ كَلِمَةٌ مَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَقُولُهَا إِلَّا مَنْ أَخَذَ لِلْقَتْلِ بِجَنَائِبِهِ وَلَمْ يَغْفُ أَهْلُ الدِّمِّ ، فَهَلْ جَنَّبْتَ أَوْ جَنَى أَبُوكَ عَلَى أَحَدٍ ؟

قَالَ : إِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ، فَإِنِّي تَرَكْتُ أَبِي السَّاعَةَ مُجْمِعًا عَلَى إِذْهَابِ نَفْسِهِ ، وَقَدْ أَعْلَقَ عَلَيْهِ الدَّارُ وَاسْتَوْتَقَى مِنَ الْبَابِ !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَكَأَنَّمَا لَدَغْنِي حَيَّةٌ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَأَكْبَرْتُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَقْتُلُ

نَفْسَهُ ؛ فَتَنَاهَضْتُ ، وَلَكِنْ الْغَلَامُ أَمْسَكَ بِي وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا ، وَسَيَقْتُلُ نَفْسَهُ مَتَى أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَهَدَّأَتِ الرَّجُلُ .

قُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إِنَّ فِي الثُّورِ عَقْلًا ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي صَارَ بِهِ إِلَى مَا قُلْتَ ، وَكَيْفَ تَرَكْتَهُ لِقَدَرِهِ وَجَنَّتْ ؟

قَالَ الْفَتَى : إِنَّهُ قَالَ لِي : يَا وَلَدِي ! لَيْسَ لَكَ أَبٌ بَعْدِي ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ اللَّحَاقَ بِي فَارْجِعْ مَعَ اللَّيْلِ لِنُسْلِمِ أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ آثَرْتَ الْحَيَاةَ فَارْجِعْ مَعَ الصُّبْحِ لِنُسْلِمِنِي إِلَى غَاسِلِي ! قُلْتُ : أَفَأَمِنْ أَنْتَ أَلَّا يَكُونَ أَبُوكَ قَدْ أَخْرَجَكَ عَنْهُ لِأَنَّ عَيْنَكَ تُمَسِّكُ يَدَهُ وَتَرُدُّهُ عَمَّا يَهُمُّ بِهِ ، حَتَّى إِذَا خَلَا وَجْهَهُ مِنْكَ أَرَهَقَ نَفْسَهُ ؟

قَالَ : لَمْ أَدْعُهُ حَتَّى أَقْسَمَ أَنْ يَخِيَا إِلَى اللَّيْلِ ، وَحَتَّى أَقْسَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ لَأَمُوتَ مَعَهُ ؛ فَإِنْ لَمْ تُمَسِّكْهُ يَمِينُهُ أَمْسَكَهُ انْتِظَارِي ، وَقَدْ فَرَعْتَ الْحَيَاةَ مِثًا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَفْرُغَ مِنْهَا ؛ وَمَنْ كَانَ فِيهَا كُفًا فِيهِ ثُمَّ انْحَدَرَ إِلَى مَا انْحَدَرْنَا إِلَيْهِ ، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِنْ نَفْسِهِ ضَعْفًا وَلَا اسْتِكَانَةً ؛ وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِأَسْأَلَ هَذَا الْإِمَامَ (الشَّعْبِيَّ) وَجْهًا مِنَ الرَّأْيِ فَيَمْنَنَ يَقْتُلُ نَفْسَهُ إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَنَزَلَتْ بِهِ النَّازِلَاتُ ، وَتَعَدَّرَ الْقُوْتُ ، وَاشْتَدَّ الضَّرُّ ، وَتَدَلَّتْ بِهِ الْمُسْكَنَةُ إِلَى حَضِيضِهَا ، وَأُلْجِئَ إِلَى أَخْوَالِ دَفْتِهِ دَقَّ الرَّحَى لِمَا تَدُورُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَعُدْ لَهُ إِلَّا رَأْيِي وَاحِدٌ فِي مَعْنَى الدُّنْيَا : هُوَ أَنَّهُ مَكْذُوبٌ مُرَوَّرٌ عَلَى الدُّنْيَا .

قُلْتُ : يَا بُنَيَّ ! فَإِنِّي أَرَاكَ أَدِينَا ؛ فَمَنْ أَبُوكَ ؟

قَالَ : هُوَ فُلَانُ النَّاجِرِ ، طَهَرَ ظُهُورَ الْقَمَرِ وَمُحِجَ مِحَافِهِ ، وَهُوَ الْيَوْمَ فِي أَحْلَاكِ اللَّيَالِي وَأَشَدِّهَا انْطِمَاسًا ؛ جَهْدُهُ الْفَقْرُ ، وَيَا لَيْتَهُ كَانَ الْفَقْرُ وَحْدَهُ ، بَلِ انْتَهَكَنَّهُ الْعِلَلُ ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا الْعِلَلُ مَعَ الْفَقْرِ ، بَلِ أَخَذَ الْمَوْتَ أَمْرَاتُهُ فَمَاتَتْ هَمًّا بِهِ وَبِي ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرِي وَغَيْرَهَا ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ ثَلَاثِينَ يَخِيَا لِثَلَاثِينَ الْآخَرِينَ ، فَهَذَا مَا كَانَ يَجْعَلُ كُلًّا مِثًا لَا يَفْرُغُ إِلَّا أَمْتَلًا ، وَلَمَّا ذَهَبَتِ الْأُمُّ ذَهَبَتِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي كُنَّا نَقَابِلُ الْأَيَّامَ عَنْهَا ، وَكَانَتْ هِيَ وَحْدَهَا تُرِينَا الْحَيَاةَ بِمَعْنَاهَا إِنْ جَاءَتْنَا الْحَيَاةُ فَارِغَةً مِنَ الْمَعْنَى ، وَكُنَّا مِنْ أَجْلِهَا نَفْهَمُ الْأَيَّامَ عَلَى أَنَّهَا مُجَاهِدَةُ الْبَقَاءِ ؛ أَمَّا الْآنَ فَالْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَتْلُ الْحَيَاةِ . . . !

قُلْتُ : يَا بُنَيَّ ! فَإِنَّكَ وَاللَّهِ { مَعَ أَدَبِكَ } لَحَكِيمٌ ، وَإِنِّي لَأَنْفَسُ بِكَ عَلَى الْمَوْتِ ؛ فَكَيْفَ رَدَّتْكَ حَيَاةُ أُمِّكَ عَنْ قَتْلِ نَفْسِكَ وَلَا تَرُدُّكَ حَيَاةُ أَبِيكَ ؟

قَالَ : لَوْ بَقِيَ أَبِي حَيًّا لَبَقِيتُ ، وَلَكِنْ الدَّهْرُ قَدْ انْتَرَعَ مِنْهُ آخِرُ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ ، حِينَ أَخَذَ الْقَلْبَ الشَّفِيقَ الَّذِي كَانَ يَجْعَلُهُ يَزِيدُ إِذَا فَكَّرَ فِي الْمَوْتِ ؛ فَهُوَ أَلَانُ كَالَّذِي يُحَارِبُ عَنْ نَفْسِهِ تِلْقَاءَ عَدُوٍّ لَا يَزَحْمُهُ ؛ إِنْ عَجَزَ عَنْ عَدُوِّهِ فَالْكَرَّاءُ قَتَلُ نَفْسِهِ لِيَسْتَرْجِعَ مِنْ تَنكِيلِ الْعَدُوِّ بِهِ .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَذْرَكْتُ أَنْ أَلْفَتِي يُرِيدُ مِنْ سُؤَالِ الشَّيْخِ تَحِلَّةَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا أَنْ يَمُوتَ مُسْلِمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ كَالْمُضْطَرِّ أَوْ الْمَكْرَهِ ؛ فَاشْفَقْتُ أَنْ أَكْسِرَ نَفْسَهُ إِذَا أَنَا حَدَّثْتُهُ أَوْ أَقْبَيْتُهُ ؛ وَقُلْتُ : هَذَا مَرِيضٌ يَخْتِاجُ الْعِلَاجَ لَا الْفَتَا ؛ وَكَانَ إِمَامَنَا (الشَّعْبِيُّ) حَكِيمًا لِحَنَّا فَطِنًا ، سَفَرُ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَبْدِ الْمَلِكِ) وَعَاهِلِ الرُّومِ ، فَحَسَدَنَا الْعَاهِلُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا مِثْلُهُ<sup>(١)</sup> . وَقُلْتُ : لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِتُ بِهِ أَمْرًا . فَأَخَذْتُ بِيَدِ الْفَتَى إِلَيْهِ ، وَمَشَيْتُ أَكْلُمُهُ وَأَرْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ . وَقُلْتُ لَهُ : أَمَا تَذَرِينِي أَنْكَ حِينَ فَرَعْتَ مِنْ سُرُورِ الْحَيَاةِ فَرَعْتَ مِنْ غُرُورِهَا أَيْضًا ، وَأَنَّ الزَّاهِدَ الْمُتَّقِطَعَ فِي غُرْعَةِ الْجَبَلِ يَنْظُرُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ إِلَى الدُّنْيَا ، لَيْسَ بِأَحْكَمَ وَلَا أَبْصَرَ مِمَّنْ يَنْظُرُ مِنَ الْأَمَةِ إِلَى الدُّنْيَا ؟

يَا بُنَيَّ ! إِنْ الزَّاهِدَ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ فَرَّ مِنَ الرَّذَائِلِ إِلَى فَضَائِلِهِ ، وَلَكِنْ فِرَارُهُ مِنْ مُجَاهَدَةِ الرَّذِيلَةِ هُوَ فِي نَفْسِهِ رَذِيلَةٌ لِكُلِّ فَضَائِلِهِ . وَمَاذَا تَكُونُ الْعِفَّةُ وَالْأَمَانَةُ وَالصَّدْقُ

(١) [جاء في « سير أعلام النبلاء » للذهبي ٣٠٤/٤ :

قَالَ أَبُو عَاصِمٍ : وَجَّهَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الشَّعْبِيَّ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ ، يَغْنِي رَسُولًا ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ : يَا شُعْبِي ! أَتَذَرِينِي مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيَّ مَلِكُ الرُّومِ ؟ قَالَ : وَمَا كَتَبَ بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَعْجَبُ لِأَهْلِ دِيَارَتِكَ ، كَيْفَ لَمْ يَسْتَخْلِفُوا عَلَيْهِمْ رَسُولُكَ ؟ قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! لِأَنَّهُ رَأَى وَلَمْ يَرَكَ .

أَزَوَّدَهَا الْأَصْحَبِيَّ ؛ وَمِنْهَا قَالَ : يَا شُعْبِي ! إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُغْنِيَنِي بِقِتْلِكَ . فَبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكَ الرُّومِ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَبُوهُ ! وَاللَّهِ مَا أَزَدْتُ إِلَّا ذَاكَ . أَنْتَهَى ] .

وَالْوَفَاءُ وَالْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ وَغَيْرُهَا ، إِذَا كَانَتْ فِيمَنْ انْقَطَعَ فِي صَحْرَاءٍ أَوْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ ؟ أَيْزَعُمُ أَحَدٌ أَنَّ الصَّدْقَ فَضِيلَةٌ فِي إِنْسَانٍ لَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا عَشْرَةُ أَحْجَارٍ ؟ وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ الْخَالِي مِنْ مُجَاهَدَةِ الرَّذَائِلِ جَمِيعًا ، لَهُوَ الْخَالِي مِنَ الْفَضَائِلِ جَمِيعًا !

يَا بُنَيَّ ! إِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْتَارُهُمُ اللَّهُ فَيَكُونُونَ قَمَحَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ : يَنْبُتُونَ وَيُخَصِّدُونَ وَيُطْحَنُونَ وَيُعْجَنُونَ وَيُخَبَّرُونَ ، لِيَكُونُوا غِذَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي بَعْضِ فَضَائِلِهَا . وَمَا أَرَاكَ أَنْتَ وَأَبَاكَ إِلَّا مِنَ الْمُخْتَارِينَ ، كَأَنَّ فِي أَغْرَافِكُمَا دَمَ نَبِيٍّ يُقْتَلُ أَوْ يُطْلَبُ !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَنْتَهَيْنَا إِلَى دَارِ الشَّعْبِيِّ ، فَطَرَفْتُ الْبَابَ ، وَجَاءَ الشَّيْخُ فَفَتَحَ لَنَا ، وَسَلَّمْنَا وَسَلَّمْ ، ثُمَّ بَدَرْتُ فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَمْرٍو ! إِنْ أَبَا هَذَا كَانَ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَتَرَدَّدْتُ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ ، وَتَوَالَتِ الْكُتُبَاتُ ، وَتَوَاتَرَتِ الْأَسْقَامُ . . . . ثُمَّ أَقْتَصَصْتُ مَا قَالَ أَبْنَةُ حَرْفًا حَرْفًا ، ثُمَّ قُلْتُ : وَإِنَّهُ أَلَانُ مُوشِكٌ أَنْ يُزْهَقَ نَفْسُهُ وَسَيَبْعُهُ أَبْنَةُ هَذَا ؛ وَقَدْ (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) . فَجَاءَ يَسْأَلُكَ : أَيَمُوتُ مُسْلِمًا مِنْ أَلْجَى وَأَكْرَهٍ وَأَضْطَرٍّ وَأَسْتَضَاقٍ وَأَخْتَلٍّ ، فَتَحْسَى سُمًّا فَهَلْكَ ، أَوْ تَوْجَأَ بِحِدْيَةٍ فَقَضَى ، أَوْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِضِلِّ فَخَفَتْ ، أَوْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسِكِّينٍ فَمَا رَقَا دُمُهُ حَتَّى مَاتَ ، أَوْ اخْتَنَقَ فِي حَبْلِ فَنَاضَتْ نَفْسُهُ ، أَوْ تَرَدَّى مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ . . . !

وَأَذْرَكَ الشَّيْخُ مَعْنَى قَوْلِي : (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) ، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُرَادِفَةِ عَلَى الْقَتْلِ وَمَا اسْتَقْصَيْتُ مِنْ وَجُوهِهِ ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفَتَا وَالنَّصَّ ، وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ ؛ فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَجُلٌ كَرِيمٌ ، أَخَذَتْهُ الْأَنْفَةُ وَعِزَّةُ النَّفْسِ ، وَمَا أَنَا السَّاعَةُ بِمَعْرِزٍ عَنْ هَمِّهِ ، فَذَهَبَ نُكْلُهُ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَمَشَيْنَا ثَلَاثَتَنَا ، فَلَمَّا شَارَفْنَا الدَّارَ قَالَ الْفَتَى : إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَيْتُمَا ، وَرَبِّمَا اسْتَفَرَّ بِنَفْسِهِ فَازْهَقَهَا ، وَسَاسَسُورَ الْحَائِطِ وَأَتَدَلَّى ثُمَّ أَفْتَحُ لَكُمَا فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عِنْدُهُ .

\* \* \*

وَدَخَلْنَا ، فَإِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ ، حَوَارِ مُسْلُوبِ الْقُوَّةِ ، أُنْزَعَجَ قَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٌ ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ ؛ وَصَغَرَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مُعَامَلَةِ

النَّاسِ كَالَّذِينَ هُمْ الزَّائِفُونَ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَثَابِرٌ عَلَيْهِ دَاءُ الْخُزْنِ فَأَصْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا ، فَهِيَ تَهُمُّ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَتَيَّبَ وَتَتَذَلَّقَ .

وَسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ ، ثُمَّ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ وَالصَّادِرِينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالْفُرْكَ وَبَيْنَ الْبَاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ » [ ٢١ سورة البقرة/ الآية : ١٧٧ ] .

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمُخَنِّي : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ كُلِّهِ ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً تَمْلِكُ مَعْنَاهَا ، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ !

وَمَدَّ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوَّةً مَسْدُودَةً فِي الْجِدَارِ ، فَقَالَ لِي : أَفْتَحْ هَذِهِ وَدَعْ الْهَوَاءَ يَتَكَلَّمُ مَعَنَا كَلَامَهُ . فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَعَالَجْتُهَا حَتَّى فَتَحْتُهَا ، وَنَفَذَ مِنْهَا رُوحُ الدُّنْيَا ، وَقَالَ الشَّيْخُ لِلرَّجُلِ : أَضِغْ إِلَيَّ ، فَإِذَا أَنَا فَرَعْتُ مِنَ الْكَلَامِ فَمَنَّاكَ بِنَفْسِكَ :

أَعْلِمْتُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ مَرَضَ ، فَأَعْضَلَ مَرَضَهُ فَأَثْبَتَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَتَحَرَّكُ ، وَطَوَى فِيهِ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ حَيًّا وَنَشَرَ مِنْهُ الرَّجُلُ الَّذِي سَيَكُونُ مَيِّتًا ، فَبَقِيَ لَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا ثَلَاثِينَ سَنَةً ... ؟

قَالَ الرَّجُلُ : وَفِي الدُّنْيَا مَنْ يَعِيشُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً ؟

قَالَ الشَّيْخُ : صَحَّحَ الْكَلَامَ وَأَسَانُ : أَبْصُرْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا يَقُولُ : (جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ) ! وَأَيُّ شَيْءٍ لَا صَبْرَ عَلَيْهِ عِنْدَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْبَلَاءَ مَا لَا غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوضَعُ فِي الْكَيْسِ بَلْ فِي الْجِسْمِ ؟

أَفْتَذِرِي مَنْ كَانَ الصَّابِرَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى بَلَاءِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ مُجْتَمِعِينَ فِي عِظَامٍ مُمَدَّدةٍ عَلَى سَرِيرِهَا ؟ إِنَّهُ إِيمَانُ (عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ الْخَزَاعِيِّ) <sup>(١)</sup> الَّذِي أَرْسَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُفَقِّهُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَتَوَلَّى قَضَاءَهَا ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَخْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَدِمَهَا خَيْرَ لَهُمْ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ . وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَأَخُوهُ (الْعَلَاءُ) ، فَرَأَيْنَاهُ مُثَبَّتًا عَلَى سَرِيرِ

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٥٣ مِنْ الْهِجْرَةِ .

الْجَرِيدِ كَأَنَّمَا شُدَّ بِالْجِبَالِ وَمَا شُدَّ إِلَّا بِأَنْتِهَائِكَ عَصَبِهِ وَذَوْبَانٍ لَحْمِهِ وَوَهْنٍ عِظَامِهِ ؛ فَبَكَى أَخُوهُ ، فَقَالَ : لِمَ تَبْكِي ؟ قَالَ : لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْعَظِيمَةِ ! قَالَ : لَا تَبْكِي ؛ فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ اللَّهُ أَحَبُّهُ إِلَيَّ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ تَحْمِلُ الْجِبَالَ فَلَا يَشْعُرُ مَوْضِعُ مِنْهَا بِالْجِبَلِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَ تَمَاسُكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا قُوَّةَ الْجَمِيعِ ، وَلَوْلَا هَذَا لَدَكَ الْجَبَلُ مَوْضِعُهُ وَغَارُ بِهِ ؛ وَكَذَلِكَ يَحْمِلُ الْمُؤْمِنُ مِثْلَ الْجِبَالِ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى أَعْضَائِهِ لَا يَتَكَسَّرُ لَهَا وَلَا يَتَهَدَّمُ ؛ إِذْ كَانَتْ قُوَّةُ رُوحِهِ قُوَّةً فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، فَالْبَلَاءُ مَحْمُولٌ عَلَى هِمَّةِ الرُّوحِ لَا عَلَى الْجِسْمِ ، وَهَذَا مَعْنَى الْخَبَرِ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِنَّ رُوحَهُ لَتَنُورُ مِنْ بَيْنِ جَنَّتَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ! » . [ راجع « مسند أحمد » ، رقم : ٣٤٧١ ] .

ثُمَّ قَالَ : وَلَكِنْ ذَاكَ هُوَ الْمُؤْمِنُ ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ : « اْمْتَحِنِّي ! » وَكَتِفَ ثُرَاكَ إِذَا كُنْتَ بَطَلًا مِنَ الْأَبْطَالِ مَعَ قَائِدِ الْجَيْشِ ، أَمَا تَقْرِضُ عَلَيْكَ شَجَاعَتَكَ أَنْ تَقُولَ لِلْقَائِدِ : « اْمْتَحِنِّي وَأَزِمْ بِي حَيْثُ شِئْتَ ! » وَإِذَا رَمَى بِكَ فَرَجَعْتَ مُثَخَّنًا بِالْجِرَاحِ وَنَالَكَ الْبُتْرُ وَالتَّشْوِينُ ، أَتُرَاهَا أَوْصَافًا لِمَصَائِبِكَ ، أَمْ ثَنَاءً عَلَى شَجَاعَتِكَ ؟

ثُمَّ قَالَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ أَطْمِئِنَّا فِي النَّفْسِ عَلَى زَلَالِهَا وَكَوَارِثِهَا ، لَمْ يَكُنْ إِيمَانًا ، بَلْ هُوَ دَعْوَى بِالْفِكْرِ أَوْ بِاللِّسَانِ لَا يَغْدُوهُمَا ، كَدَعْوَى الْجَبَانِ أَنَّهُ بَطَلٌ ، حَتَّى إِذَا فَجَأَهُ الرُّوحُ أَحْدَثَ فِي نِيَابِهِ مِنَ الْخَوْفِ ... وَمِنْ ثَمَّ كَانَ قَتْلُ الْمُؤْمِنِ نَفْسَهُ لِبَلَاءٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِمَا كُفْرًا بِاللَّهِ وَتَكْذِيبًا لِإِيمَانِهِ ، وَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا صُورَةً أُخْرَى مِنْ طَيْشِ الْجَبَانِ الَّذِي أَحْدَثَ فِي نِيَابِهِ !

وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ هُوَ بِشَاشَةِ الرُّوحِ ، وَإِعْطَاءُ اللَّهِ الرِّضَى مِنَ الْقَلْبِ ، ثِقَّةٌ بِوَعْدِهِ وَرَجَاءٌ لِمَا عِنْدَهُ ، وَمِنْ هَذَيْنِ يَكُونُ الْأَطْمِئِنُّانُ . وَبِالْبَشَاشَةِ وَالرِّضَى وَالثِّقَّةِ وَالرَّجَاءِ ، يُصْبِحُ الْإِيمَانُ عَقْلًا ثَانِيًا مَعَ الْعَقْلِ ؛ فَإِذَا ابْتَلِيَ الْمُؤْمِنُ بِمَا يَذْهَبُ مَعَهُ الْبَصِيرُ وَيَطْيِشُ لَهُ الْعَقْلُ ، وَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ فِي مِثْلِ الْجُنُونِ - بَرَزَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ عَقْلُهُ الرُّوحَانِيُّ وَتَوَلَّى سِيَاسَةَ جِسْمِهِ حَتَّى يُفَيِّقَ الْعَقْلَ الْأَوَّلَ . وَيَجِيءُ الْخَوْفُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ فِي الْآخِرَةِ ، فَيَغْمُرُ بِهِ خَوْفَ النَّفْسِ مِنَ الْفَقْرِ أَوْ الْمَرَضِ أَوْ غَيْرِهِمَا فَيَقْتُلُ أَقْوَاهُمَا الْأَضْعَفَ ، وَيُخْرِجُ الْأَعَزَّ

مِنْهُمَا الْأَذَلَّ .

فَالْأَطْمِئْنَانُ بِالْإِيمَانِ هُوَ قَتْلُ الْخَوْفِ الدُّنْيَوِيِّ بِالتَّسْلِيمِ وَالرَّضَى ، أَوْ تَحْوِيلُهُ عَنْ مَعْنَاهُ بِجَعْلِ الْبَلَاءِ ثَوَابًا وَحَسَنَاتٍ ، أَوْ تَجَرُّدُهُ مِنْ أَوْهَامِهِ بِاعْتِبَارِ الْحَيَاةِ سَائِرَةً بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى الْمَوْتِ ؛ وَهُوَ يَهْدِي عَقْلَ رُوحَانِيٍّ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي تَصْرِيفِ الدُّنْيَا ، يَتْرُكُ النَّفْسَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، تَقُولُ لِمَصَائِبِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ : نَعَمْ . وَتَقُولُ لِمَهَوَاتِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ : لَا .

وَمَا الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْكَوْنِ ؟ وَمَا خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ؟ وَمَا سُخْطُهُ وَرِضَاهُ ؟ إِنْ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَى قَبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ تَتَكَبَّرُ وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّهُ سَيَاتِي مَنْ يَكْنُسُهَا ... !

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : وَانْظُرْ ، أَمَا تُبْتَلَى الشَّجَرَةُ الْخَضْرَاءُ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِهَا بِمِثْلِ مَا يُبْتَلَى بِهِ الْإِنْسَانُ ، غَيْرَ أَنَّ لَهَا عَقْلًا رُوحَانِيًّا مُسْتَقِرًّا فِي دَاخِلِهَا يُنْصِتُ الْحَيَاةَ عَلَيْهَا وَيَتَرَبَّصُّ خَالًا غَيْرَ الْحَالِ ؛ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ ظَاهِرٍهَا وَبَلَاءٍهَا فَالْسَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي دَاخِلِهَا ، وَلَهَا دَائِمًا رَيْبٌ عَلَى قَدَرِهَا حَتَّى فِي قَرِّ الشَّتَاءِ .

فَالْعَقْلُ الرُّوحَانِيُّ الْإِنْسَانِ ، لَا عَمَلَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَنْشِئَ لِلنَّفْسِ غَرِيزَةً مُتَصَرِّفَةً فِي كُلِّ غَرَائِزِهَا ، تُكَمِّلُ شَيْئًا وَتُنْقِصُ مِنْ شَيْءٍ ، وَتُوَجِّهُ إِلَى نَاحِيَةٍ وَتَصْرِفُ عَنْ نَاحِيَةٍ ؛ وَيَهْدِيهِ الْغَرِيزَةُ تَسْمُو الرُّوحُ فَتَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ مَصَائِبِهَا وَأَكْبَرَ مِنْ لَذَائِهَا جَمِيعًا .

وَبِئْسَ الْغَرِيزَةُ هِيَ نَفْسُهَا مَعْنَى الرَّضَى بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَهِيَ تَأْتِي بِالتَّأْوِيلِ لِكُلِّ هُمُومِ الدُّنْيَا ، فَتَضَعُ فِي التَّكَبُّاتِ مَعَانِي شَرِيفَةً تَنْزِعُ مِنْهَا شَرَّهَا وَأَذَاهَا لِلنَّفْسِ ؛ وَلَيْسَتْ الْمُصِيبَةُ شَيْئًا لَوْلَا تَأْدِي النَّفْسِ بِهَا . وَإِذَا وَقَعَ التَّأْوِيلُ فِي مَعَانِي التَّكَبُّاتِ أَصْبَحَتْ تَعْمَلُ عَمَلَ الْفَضَائِلِ ، وَتَغْيِرَتْ طَبِيعَتَهَا ، فَيَعُودُ الْفَقْرُ بَابًا مِنَ الزُّهْدِ ، وَالْمَرَضُ نَوْعًا مِنَ الْجِهَادِ ، وَالْخَبِيثَةُ طَرِيقًا مِنَ الصَّبْرِ ، وَالْخُزْنُ وَجْهًا مِنَ الرِّجَاءِ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

وَالنَّفْسُ وَحْدَهَا كَثْرَ عَظِيمٍ ، وَفِيهَا وَحْدَهَا الْفَرَحُ وَالْإِنْتِهَاجُ لَا فِي غَيْرِهَا ، وَمَا لَذَاتُ الدُّنْيَا إِلَّا وَسَائِلُ لِإِثَارَةِ هَذَا الْفَرَحِ وَهَذَا الْإِنْتِهَاجِ ، فَإِنْ وَجِدَا مَعَ الْفَقْرِ بَطَلَتْ عِزُّ الْمَالِ وَأَصْبَحَ حَجَرًا مِنَ الْحَجَرِ ؛ وَالْبَلْبُلُ يَتَعَرَّدُ بِحَنْجَرَتِهِ الصَّغِيرَةِ مَا لَا تُغْنِي فِيهِ آلَاتُ الطَّيْرِ

كُلُّهَا . وَفِي النَّفْسِ حَيَاةٌ مَا حَوْلَهَا ، فَإِذَا قَوِيَتْ هَذِهِ النَّفْسُ أَذَلَّتِ الدُّنْيَا ، وَإِذَا ضَعُفَتْ أَذَلَّتْهَا الدُّنْيَا !

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : ثُمَّ سَكَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا ، وَكُنْتُ أَرَى الرَّجُلَ كَأَنَّمَا يَغْتَسِلُ بِكَلَامِهِ ، وَقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَتَنَضَّرَ وَأَنْقَلَبَ إِلَى رُوحِهِ الْإِنْسَانِيِّ كَانَ مُنْصَرَفًا عَنْهَا ، فَعَادَتْ مَصَائِبُهُ تَضْغُطُ رُوحًا لَيِّمَةً كَمَا تَضْغُطُ الْيَدُ عَلَى الْمَاءِ ، وَأَيَقَنَ أَنَّ التَّكْبَةَ كُلُّهَا هِيَ أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْحَيَاةِ بِعَيْنِ شَهَوَاتِهِ ، فَيَتَكَبَّرَ أَوَّلَ مَا يُتَكَبَّرُ فِي صَبْرِهِ وَيَقِينِهِ .

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ : وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنِي رَأْسِي مُعْجَزَةً (الْعَقْلُ الرُّوحَانِيُّ) وَكَيْفَ يَضَعُ : رَأَيْتُ غُرُوزَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ<sup>(١)</sup> وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ وَقَعَتْ فِي رِجْلِهِ الْأَكْلَةُ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِقَطْعِهَا لَا تُفْسِدُ جَسَدَهُ كُلَّهُ ، فَدَعَى لَهُ مَنْ يَقْطَعُهَا ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ : نَسْفِكَ الْخَمْرَ حَتَّى لَا تَجِدَ لَهَا أَلَمًا . فَقَالَ غُرُوزَةُ : لَا أَسْتَعِينُ بِحَرَامِ اللَّهِ عَلَى مَا أَرْجُو مِنْ عَافِيَةٍ ! قَالَ : فَنَسْفِكَ الْمُرْقَدَ . فَقَالَ غُرُوزَةُ : مَا أَحْبُّ أَنْ أَسْلُبَ غُضُوضًا مِنْ أَعْضَائِي وَأَنَا لَا أَجِدُ أَلَمَ ذَلِكَ فَأَخْتَسِبُهُ !

ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ أَنْكَرَهُمْ غُرُوزَةُ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : يُنْسِكُونَكَ ، فَإِنَّ الْأَلَمَ رُبَّمَا عَزَبَ مَعَهُ الصَّبْرُ . قَالَ : أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي !

قَالَ الشَّيْخُ : فَانْظُرْ أَيُّهَا الضَّعِيفُ الَّذِي يُرِيدُ قَتْلَ نَفْسِهِ كَيْفَ صَنَعَ غُرُوزَةُ ، وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَ الْبَلَاءَ ، وَكَيْفَ صَبَرَ وَكَيْفَ احْتَمَلَ . إِنَّهُ أَنْصَرَفَ بِحِسِّهِ إِلَى النَّفْسِ فَانْبَسَطَتْ رُوحُهُ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ يُكَبِّرُ وَيُهْلِلُ لِيَنْقِي مَعَ رُوحِهِ وَحْدَهَا ، وَخَرَجَ مِنْ دُنْيَا ظَاهِرِهِ إِلَى دُنْيَا بَاطِنِهِ ، وَغَمِرَتْ حَوَاشِيهِ وَأَعْصَابُهُ بِالْأَلْوَرِ الْإِلَهِيِّ مِنْ مَعْنَى التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ ، فَقَطَعَ الْقَاطِعُ كَعْبَهُ بِالسَّكِينِ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْعَظَمَ وَضَعَ عَلَيْهَا الْمِنْشَارَ وَنَشَرَهَا وَغُرُوزَةُ فِي التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ ، ثُمَّ جِيءَ بِالزُّبَيْرِ مَغْلِيًّا فِي مَغَارِفِ الْحَدِيدِ فَحُصِمَ بِهِ مَكَانُ الْقَطْعِ ، فَعُشِيَ عَلَى غُرُوزَةِ سَاعَةٍ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَمْسُحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَلَامِ

الْمَاحِقَةِ أَنَّهُ وَلَا آهَةً ، وَلَمْ يَقُلْ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا وَلَا بَيْنَ ذَلِكَ : « جَاءَ مَا لَا صَبَرَ عَلَيْهِ ... ! » .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأُرْهِفَ بَأْسُ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ وَقَوِيَ جَأْشُهُ ، وَأَنْبَعَثَتْ فِيهِ الرُّوحُ إِلَى عَمْرِ جَدِيدٍ ، وَنَشَأَ لَهُ الْيَقِينُ مِنْ عَقْلِهِ الرُّوحَانِيِّ ، وَعَرَفَ أَنَّ مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرَكَ ، يُمَكِّنُ أَنْ يُتْرَكَ .

وَجَاءَ هَذَا الْعَقْلُ الرُّوحَانِيُّ فَمَرَّ بِالْمِنْشَارِ عَلَى الْيَأْسِ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ فَقَطَعَهُ ، فَمَا رَاعَنَا إِلَّا أَنْ وَتَبَ الرَّجُلُ قَائِمًا يَقُولُ : اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا !

ثُمَّ أَكَبَّ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ وَهُوَ يَقُولُ : صَدَقْتَ ؛ « إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَى قُبْضَةً مِنَ التُّرَابِ تَتَكَبَّرُ ، وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْنُسُهَا ! » .

\* \* \*

مَاذَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا غَلِطَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يَتَحَرَّى الصَّوَابَ ، وَيَجْتَهِدَ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَيَضْبِرَ عَلَى مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ ؟ وَمَاذَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا غَلِطَ فِيهِ مَسْأَلَةٌ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَقَامَ الشَّعْبِيُّ إِلَى الرَّجُلِ فَأَعْتَقَهُ فَرَحًا بِمَا آلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ ، بَعْدَ إِذْ

(\*) « الرسالة » العدد : ٩٦ ، ٣ صفر سنة ١٣٥٤ هـ = ٦ مايو/أيار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٧٢٣ - ٧٢٧ .

رَأَى الثَّوْرَ يَجْرِي عَلَى لَوْنِهِ وَيَتَفَرَّقُ فِي دِينَايَتِهِ ؛ كَأَنَّمَا وَقَعَ الصُّلْحُ بَيْنَ وَجْهِهِ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : نِعَمَ أَخُو الْإِسْلَامِ أَنْتَ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ ، فَإِنَّهُ مَا خَذَلَكَ إِلَّا وَضَعَكَ نَفْسَكَ بِإِزَاءِ اللَّهِ تَعَارُضُهُ أَوْ تُجَارِيهِ فِي قُدْرَتِهِ ، فَيَكِلُكَ إِلَى هَذِهِ النَّفْسِ ، فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَى الْعَجْزِ ، وَتَنْتَهِي الْعَجْزُ بِكَ إِلَى السَّخَطِ ؛ وَمَتَى كُنْتَ عَاجِزًا سَاحِطًا ، مَحْصُورًا فِي نَفْسِكَ ؛ مَوْكُولًا إِلَى قُدْرَتِكَ ، كُنْتَ كَالْأَسَدِ الْجَائِعِ فِي الْقَفْرِ ، إِذَا ظَنَّ أَنَّ قُوَّتَهُ تَتَاوَلُ خَلَقَ الْقَرْيَسَةَ ؛ فَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى نَفْسِكَ الْيَأْسَ وَالْانْزِعَاجَ وَالْكَأَبَ ، وَأَمْثَالَهَا مِنْ هَذِهِ الْمُهْلِكَاتِ تَقْدَحُ فِي قَلْبِكَ الشَّكَّ فِي اللَّهِ ، وَتَنْتَبِثُ فِي رُوعِكَ شَرَّ الْحَيَاةِ ، وَتُهْدِي إِلَى خَاطِرِكَ حِمَاقَاتِ الْعَقْلِ ، وَتَقَرَّرُ عِنْدَكَ عَجْزَ الْإِرَادَةِ ؛ فَتَنْتَهِي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَيِّتًا قَدْ أَزْهَقَتْكَ نَفْسُكَ قَبْلَ أَنْ تُزْهِقَهَا !

وَلَوْ كُنْتَ بَدَلَ إِيمَانِكَ بِنَفْسِكَ قَدْ آمَنْتَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ ، لَسَلَطَكَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِكَ وَلَمْ يُسَلِّطْهَا عَلَيْكَ ؛ فَإِذَا رَمَتْكَ الْمَطَامِعُ بِالْحَاجَةِ الَّتِي لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا ، رَمَيْتَهَا مِنْ نَفْسِكَ بِالْإِسْتِغْنَاءِ الَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ؛ وَإِذَا جَاءَتْكَ الشَّهَوَاتُ مِنْ نَاحِيَةِ الرَّغْبَةِ الْمُقْبِلَةِ ، جِئْتَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الزُّهْدِ الْمُنْصَرِفِ ، وَإِذَا سَاوَرَتْكَ كِبَرِيَاءُ الدُّنْيَا أَذَلَّتْهَا بِكِبَرِيَاءِ الْآخِرَةِ .

وَبِهَذَا تَقْلِبُ الْأَحْزَانُ وَالْآلَامُ ضُرُوبًا مِنْ فَرَحِ الْفُوزِ وَالْإِنْتِصَارِ عَلَى النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَكَانَتْ قُوَّتُنَا مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْهَمِّ ، وَتَعُوذُ مَوْضِعَ فَخْرٍ وَمُبَاهَاةٍ ، وَكَانَتْ أَسْبَابَ خِزْيٍ وَأَنْكِسَارٍ . وَعَزِيمَةُ الْإِيمَانِ إِذَا هِيَ قُوَّةٌ حَصَرَتْ الْبَلَاءَ فِي مِقْدَارِهِ ، فَإِذَا حَصَرَتْهُ لَمْ تَزَلْ تَنْقُصُ مِنْ مَعَانِيهِ شَيْئًا شَيْئًا ، فَإِذَا ضَعُفَتْ هَذِهِ الْعَزِيمَةُ جَاءَ الْبَلَاءُ غَامِرًا مُنْفَسِحًا يُجَاوِزُ مِقْدَارَهُ بِمَا يَصْحَبُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالزُّوْعِ ، فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَزِيدُ شَيْئًا شَيْئًا بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ .

وَلِلْإِيمَانِ ضَوْءٌ فِي النَّفْسِ يُبَيِّرُ مَا حَوْلَهَا ، فَتَرَاهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ الْغَانِيَةِ وَشَيْئًا أَنْ يَزُولَ ؛ فَإِذَا انْطَفَأَ هَذَا الضَّوُّ انْطَمَسَتْ الْأَشْيَاءُ ، فَتَوَهَّمُهَا النَّفْسُ أَوْهَامًا مُتَبَايِنَةً عَلَى أَحْوَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ ؛ كَمَا يَرَى الْأَعْمَى بِوَهْمِهِ : لَا عَيْنُهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ فِي طَبِيعَتِهَا ، وَلَا أَشْيَاؤُهُ عِنْدَ عَيْنِهِ تَكُونُ فِي حَقِيقَتِهَا .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ طَفَلَتْ لِلْمَغِيبِ ؛ فَقَالَ الْإِمَامُ لِلرَّجُلِ : قُمْ فَتَوَضَّأْ وَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ ، وَسَلِّعْ لَكَ أَمْرًا تَنْتَفِعُ بِهِ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ : فَإِذَا قُمْتَ إِلَى وَضُوءِكَ فَأَيِّنْ فِي نَفْسِكَ وَأَعِزِّمْ فِي خَاطِرِكَ عَلَى أَنْ فِي هَذَا الْمَاءِ سِرًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ وَالْحَيَاةِ ، وَأَنَّهُ رَمَزٌ لِلسَّمَاءِ عِنْدَكَ ، وَأَنَّكَ إِنَّمَا تَنْظَهُرُ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ نَفْسِكَ الَّتِي أَمْتَدَّتْ عَلَى أَطْرَافِكَ ؛ ثُمَّ سَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مُفِيضًا أَسْمَهُ الْقَادِرِ الْكَرِيمِ عَلَى الْمَاءِ وَعَلَى نَفْسِكَ مَعًا ، ثُمَّ تَمَثَّلَ أَنَّكَ غَسَلْتَ يَدَيْكَ مِمَّا فِيهِمَا وَمِمَّا تَتَعَاطَاهُ بِهِمَا مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّكَ أَخَذْتَ فِيهِمَا مِنَ السَّمَاءِ لَوْجِيَّكَ وَأَعْصَانِكَ ؛ وَفَرَزَ عِنْدَ نَفْسِكَ أَنَّ الْوُضُوءَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا مَسْحَةُ سَمَاقِيَّةٍ تُشْبِعُهَا عَلَى كُلِّ أَطْرَافِكَ ، لِيَشْعُرَ بِهَا جِسْمُكَ وَعَقْلُكَ ؛ وَأَنَّكَ بِهِدِيهِ الْمَسْحَةِ السَّمَاقِيَّةِ تَسْتَقْبِلُ اللَّهُ فِي صَلَاتِكَ سَمَاقِيًّا لَا أَرْضِيًّا .

فَإِذَا أَنْتَ اسْتَشْعَرْتَ هَذَا وَعَمِلْتَ عَلَيْهِ وَصَارَ عَادَةً لَكَ ، فَإِنَّ الْوُضُوءَ حِينَئِذٍ يَنْزِلُ مِنَ النَّفْسِ مِثْلَ الدَّوَاءِ ، كُلَّمَا اغْتَمَمْتَ أَوْ تَكَرَّهْتَ أَوْ تَسَخَّطْتَ أَوْ غَشِيكَ حُزْنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ ؛ فَمَا تَوَضَّأَ عَلَى تِلْكَ اللَّيَّةِ إِلَّا غَسَلْتَ الْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ السَّاعَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ<sup>(١)</sup> . وَتَرَى الْمَاءَ تَحْسِبُهُ هِدُوءًا لَيْتًا لَيْنَ الرُّضَى ، وَإِذَا هُوَ يَنْسَابُ فِي شُعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعًا .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَفُتُّ أَنَا فَجَدَدْتُ وَضُوءِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ بِتِلْكَ اللَّيَّةِ ؛ فَإِذَا أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيءٌ بِرُوحِ نَجْمِيَّةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ ، وَإِذَا الْوُضُوءُ فِي أَضْعَفِ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلِمْنَا مِنْ أَنَّهُ الطَّهَارَةُ وَالنَّظَافَةُ ، أَمَّا فِي أَقْوَى مَعَانِيهِ فَهُوَ إِفَاضَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا التَّقْدِيرُ وَالتَّرَكِيَّةُ وَغَسْلُ الْوَقْتِ الْإِنْسَانِيِّ مِمَّا يُخَالِطُهُ كُلَّمَا مَرَّتْ سَاعَاتُ ، وَابْتِدَاؤُهُ بِالرُّوحِ كَالْكَتَابِ الْأَخْضَرِ نَاضِرًا مَطْلُولًا مُتَرَطِّبًا بِالْمَاءِ .

ثُمَّ صَلَّى بِنَا الشَّيْخِ ، وَأَمَرَنِي بِالْمَيْتِ مَعَ الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا خَشِيَ الْبَدَوَاتِ أَنْ تَبْدُو لَهُ فَتَنْقُصَ عَزَمُهُ ، أَوْ هُوَ زَادَنِي عَلَيْهِ لِأَغْيَرِ شَخْصَةً وَأَبْدَلَ وَحْدَتَهُ الَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَوْ كَانَ

(١) هَذِهِ فِي رَأْيِنَا جُحْمَةُ تَكَرُّارِ الْوُضُوءِ ، وَتِلْكَ هِيَ أَسْرَارُهُ عِنْدَنَا . [ وَقَدْ بَيَّنَّا شَيْئًا مِنْ حِكْمَةِ الصَّلَاةِ فِي مَقَالَةِ « حَقِيقَةُ الْمُسْلِمِ » ، فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهَا الْقَارِئُ ] .

الشَّيْخُ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانُهُ الرُّوحِيُّ قَدْ تَنَبَّهَ بِأَكْمَلِهِ فَوَضَعَنِي كَالْتَّنْبِيهِ لَهُ . وَجَاءَنَا الْعَشَاءُ مِنْ دَارِ الشَّيْخِ فَطَعِمْنَا ، ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّيْنَا الْعَتَمَةَ وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ ، فَاسْتَبْنَأْتُهُ بِنَاهُ ، فَقَالَ : مَهْلًا . ثُمَّ نَهَضَ فَتَوَضَّأَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ : تَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ الْوُضُوءَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مُلَامَسَةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالنَّفْسِ ، وَمَا أَعْرِفُ وَقْتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا كَسَاعَةِ الْفَجْرِ عَلَى النَّبَاتِ الْأَخْضَرِ .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَصْبَحْنَا فَعَدَدْنَا عَلَى الْإِمَامِ ؛ ثُمَّ لَزِمَنِي الرَّجُلُ فِي بَعْضِ أُمُورِي ، ثُمَّ وَافَقْنَا الْمَسْجِدَ صَلَاةَ الْعَصْرِ لِحُضُورِ دَرَسِ الشَّيْخِ ؛ وَكَانَ النَّاسُ كَالْحَبِّ الْمُتَرَاصِفِ عَلَى الْعُنُقُودِ ، لَا أَدْرِي مَنْ سَاقَهُمْ وَجَمَعَهُمْ ؛ كَأَنَّمَا عَلِمَتِ الْكُوفَةُ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا كَفَرَ بِاللَّهِ كَفْرًا صُلَعَاءً ، وَأَنَّهُ سَيَخْضُرُ دَرَسَ الشَّيْخِ وَسَيَخْضُرُ الشَّيْخُ مِنْ أَجْلِهِ ، فَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ الْأَرْبَعُ تَسُوقُ أَهْلَهَا إِلَى الْمَسْجِدِ مِنْ أَقْطَارِهَا .

وَجَلَسَ الشَّيْخُ مَجْلِسَ الْحَدِيثِ فَقَالَ :

رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ بِهِ جَرَّاحَةٌ ، فَأَتَى قَرْنَاهُ فَأَخَذَ مِشْقَصًا<sup>(١)</sup> فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ مَطْرُودَةً تَقْتَحِمُ مِثْلَفَةَ الْآخِرَةِ كَمَا أَقْتَحَمَتْ مِثْلَفَةَ الدُّنْيَا ! [ مسلم ، رقم : ٩٧٨ ؛ النسائي ، رقم : ١٩٦٤ ؛ أبو داود ، رقم : ٣١٨٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٠٢٩٢ ، ٢٠٣٣٧ ، ٢٠٣٧٠ ، ٢٠٤٠٤ ؛ راجع « المعجم الكبير » للطبراني ٢/ ٢٣١ ] .

رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « الَّذِي يَخْتُلُ نَفْسَهُ يَخْتُلُهَا فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَطْعَنُ نَفْسَهُ يَطْعَنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ ! » . [ البخاري ، رقم : ١٣٦٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٩٣٣٥ ] .

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّتْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! » . [ البخاري ، رقم : ٦١٠٥ ؛ مسلم ، رقم : ١١٠ ] .

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَّاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ اللَّهُ : بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ

(١) الْقَرْنُ (بِفَتْحَتَيْنِ) : جُعْبَةُ الشَّابِ . وَالْمِشْقَصُ : سَهْمٌ فِيهِ نَصْلٌ عَرِيضٌ .



فَحَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ! . [البخاري ، رقم : ١٣٦٤] .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : يَقُولُ اللَّهُ : « بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ ... » أَي : بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ ، فَقَبَضَهَا وَتَوَفَّاهَا ، فَكَانَ ظَالِمًا .

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ فِي آخِرِ أَنْفَاسِهِ لَخَطَّةٍ يَنْقَلِبُ إِلَيَّ ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَغْرُورًا أَحْمَقَ !

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ جِنِّ ضَاقٍ ، فَهَوَّزَ نَفْسَهُ فِي الْمَوْتِ مِنْ عَجْزِهِ أَنْ يُغْسِكَهَا فِي الْحَيَاةِ ، فَكَانَ عَاجِزًا مَعَ ظُلْمِهِ وَعُزُورِهِ وَخُمْفِهِ !

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ عَلَى جَهْلِهِ بِسِرِّ الْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا ، فَلَمْ يَسْتَحْ هَذَا الْمَخْلُوقُ الظَّالِمُ الْمَغْرُورُ فِي خُمْفِهِ وَعَجْزِهِ وَجَهْلِهِ - لَمْ يَسْتَحْ أَنْ يَجِثِّي فِي صُورَةِ إِلَهٍ !

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ ، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَابَعَهَا الْأَبْدِيُّ مِنْ غِيٍّ وَتَمَرُّدٍ وَسَفَاهَةٍ ، وَأَرْسَلَهَا إِلَيَّ مَقْتُولَةً يَزُدُّهَا عَلَيَّ .

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ كَأَنَّمَا يَقُولُ : إِنَّ لَهُ نِصْفَ الْأَمْرِ وَلِيَّ النِّصْفِ ؛ أَنَا أَخِيَّتُ وَهُوَ أَمَاتُ ... !

بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ !

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَإِنَّمَا نَحَرَمُ الْجَنَّةَ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى رُوحِهِ جَنَائِيهِ يَدُهُ مَا تُفَارِقُهَا إِلَى الْأَبَدِ ؛ فَهُوَ هُنَاكَ جِنْفَةٌ مِنَ الْجَنَفِ مَسْمُومَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَخْشُوقَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَذْبُوحَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مُهَشَّمَةٌ أَبَدًا ، يَقُولُ اللَّهُ لَهُ : أَنْتَ بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ ، وَجَرَنْتَ مَعِيَ فِي الْقَدَرِ مَجْرَى وَاحِدًا ، فَسَخَطْتُ نَفْسَكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِكَ ، وَمَا قَتَلْتَ إِلَّا حَسَنَاتِكَ .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَلَوْ عَرَفَ قَاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ جِنْفَةً أَبَدِيَّةً ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ حِمَارًا وَبَقِيَ حِمَارًا ، فَيَرْضَى أَنْ يَتَحَوَّلَ وَيُسْرَعَ لِيَتَحَوَّلَ ؟

مِنْ ذَلِكَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَى ذُبَابَةٍ تَوَجَّهَتْ بِالسَّبَبِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَفْلَاقِ كُلِّهَا ، ثُمَّ جَاءَتْهُ فَقَوْلُ لَهُ : أَشْهَدُ لِي .

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : وَمِمَّ يَقْتُلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ؟ أَمَا إِنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا مَقْصِرَ لِحَيِّ عَنْهُ ، وَهُوَ الْخَبِيَّةُ الْكُبْرَى تُلْقَى عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ؛ فَمَا ضَرَرُ الْخَبِيَّةِ الصَّغِيرَةِ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ ؟

إِنَّ الْمَرْءَ لَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ نَجَاحٍ بَلْ مِنْ خَبِيَّةٍ ، فَإِنْ كَانَتْ الْخَبِيَّةُ مِنْ مَالٍ فَهِيَ الْفَقْرُ أَوْ الْحَاجَةُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عَافِيَةٍ فَهِيَ الْمَرَضُ أَوْ الْأَخْتِلَالُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عِزَّةٍ فَهِيَ الدُّلُّ أَوْ الْبُؤْسُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ - كَالنِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ - فَهِيَ الْعَجْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ أَوْ التَّخَيُّلُ الْفَاسِدُ .

وَلَيْسَ يَخِيبُ الْإِنْسَانَ إِلَّا خَبِيَّةٌ عَقْلٍ أَوْ إِرَادَةٍ ، وَإِلَّا فَالْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ ، وَالْمَرَضُ وَالْأَخْتِلَالُ ، وَالذُّلُّ وَالْبُؤْسُ ، وَالْعَجْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ ، وَفَسَادُ التَّخَيُّلِ - كُلُّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي النَّاسِ ، يَحْمِلُهُ أَهْلُهُ رَاضِينَ بِهِ صَابِرِينَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْغُبَارُ النَّفْسِيُّ لِهَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى نَفْسِ أَهْلِهَا . وَيَا عَجَبًا ! إِنَّ الْعُمَيَّانَ هُمَ بِالطَّبِيعَةِ أَكْثَرُ النَّاسِ ضَحِكًا وَابْتِسَامَةً وَعَبْنًا وَسُخْرِيَةً ، أَفَتَرِيدُونَ أَنْ تُحَاطَبَكُمْ الْحَيَاةُ بِأَفْصَحَ مِنْ ذَلِكَ ؟

لَيْسَتْ الْخَبِيَّةُ هِيَ الشَّرُّ ، بَلِ الشَّرُّ كُلُّهُ فِي الْعَقْلِ إِذَا تَبَلَّدَ فَجَمَدَ عَلَى حَالِهِ وَاحِدَةً مِنَ الطَّمَعِ الْخَائِبِ ، أَوْ فِي الْإِرَادَةِ إِذَا وَهَتْ فَبَقِيَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا لَمْ يَوْجَدْ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ حِينَ لَا يُبَالِي الْعَقْلُ وَلَا الْإِرَادَةُ لَا يَبْقَى لِلْخَبِيَّةِ مَعْنَى وَلَا أَثَرٌ فِي النَّفْسِ ، وَلَا يَخِيبُ الْإِنْسَانَ حِينَئِذٍ ، بَلْ تَخِيبُ الْخَبِيَّةُ نَفْسَهَا ؟

لِهَذَا يَأْتِي الْإِسْلَامُ عَلَى أَهْلِهِ التَّرَفَ الْعَقْلِيَّ وَالتَّخَيُّلَ الْفَاسِدَ ، وَيَشَدُّ كُلَّ الشَّدَةِ فِي أَمْرِ الْإِرَادَةِ ، فَلَا يَتَرَخَّصُ فِي شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَلَا يَرَاوُلُ يُنَمِّئُهَا بِأَعْمَالٍ يَوْمِيَّةٍ تَشُدُّ مِنْهَا لِتَكُونَ رَقِيبَةً عَلَى الْعَقْلِ حَارِسَةً لَهُ ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ أَمْرًا كَثِيرًا يَطْبِشُ فِيهَا دَرَجَاتٍ مِنَ الطَّبِشِ حَتَّى يَبْلُغَ الْجُنُونُ أَحْيَانًا ؛ فَكَانَتْ الْإِرَادَةُ عَقْلًا لِلْعَقْلِ ؛ هِيَ لِيْنُهُ إِذَا تَصَلَّبَ ، وَهِيَ حَرَكَتُهُ إِذَا تَبَلَّدَ ، وَهِيَ حُلْمُهُ إِذَا طَاشَ ، وَهِيَ رِضَاؤُهُ إِذَا سَخِطَ .

الْإِرَادَةُ شَيْءٌ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْعَقْلِ ، فَهِيَ بَيْنَ وَجُودَيْنِ ؛ وَلِهَذَا يَكُونُ بِهَا الْإِنْسَانُ بَيْنَ وَجُودَيْنِ أَيْضًا ، فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَالْمُنْفَصِلِ عَنْهَا ، إِذْ يَكُونُ فِي وَجُودِهِ

الْأَقْوَى وَجُودُ رُوحِهِ ؛ وَأَكْبَرُ هَمِّهِ نَجَاحُهُ فِي هَذَا الوجودِ .

وهَذَا النَّجَاحُ لَا يَأْتِي مِنَ الْمَالِ ، وَلَا تَحَقُّقُهُ الْعَاقِبَةُ ، وَلَا تَيْسَرُهُ الشَّهَوَاتُ ، وَلَا يَسْتَيْسِرُهُ التَّخَيُّلُ الْفَاسِدُ ؛ وَلَا يَكُونُ مِنْ مَتَاعِ الْغُرُورِ ، وَلَا مِمَّا عُمُرُهُ خَمْسُونَ سَنَةً أَوْ مِئَةَ سَنَةٍ ؛ بَلْ يَأْتِي مِمَّا عُمُرُهُ الْخُلُودُ وَمِمَّا هُوَ بَاقٍ أَبَدًا فِي مَعَانِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالصَّالِحِ ؛ فَهَلْهُنَا يُعِينُ الْمَرَضُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ مَا لَا تُعِينُ الصَّحَّةُ ، يُغْنِي الْفَقْرُ بِحَقَائِقِهِ مَا لَا تُغْنِي الثَّرْوَةُ ؛ وَهُنَا يَكُونُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي عَامِلًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مُتَخَيِّلٌ ، وَقَانِعًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ طَامِعٌ ؛ وَهَلْهُنَا لَا مَوْضِعَ لِعَلَبَةِ الشَّهْوَةِ ، وَلَا كِبَرِيَاءِ النَّفْسِ ، وَلَا حُبِّ الدَّذَاتِ ؛ وَهَلِهُ الثَّلَاثُ هِيَ جَالِبَةُ الشَّقَاءِ عَلَى الْإِنْسَانِ حَتَّى فِي أَحْوَالِ السَّعَادَةِ ، وَيَذُوقُهَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ هَانِيًا حَتَّى فِي أَحْوَالِ الشَّقَاءِ .

بِالْإِرَادَةِ الْمُؤَمِّنَةِ الْقَوِيَّةِ يَنْصَرِفُ ذِكَاؤُ الْمُؤْمِنِ إِلَى حَقَائِقِ الْعَالَمِ وَصَلَاحِ النَّفْسِ بِهَا ، وَيُغَيِّرُ هَلِهُ الْإِرَادَةُ يَنْصَرِفُ الذِّكَاؤُ إِلَى خَيَالِ الْإِنْسَانِ وَفَسَادِ الْإِنْسَانِ . . .

وَإِذَا انْصَرَفَ الذِّكَاؤُ إِلَى حَقَائِقِ الدُّنْيَا كَانَ الْعَقْلُ سَهْلًا مَرِنًا مَطْوَعًا ، وَاسْتَحَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْهَمَ فِكْرَةَ قَتْلِ النَّفْسِ أَوْ يُقَرِّهَا ، فَإِنَّ هَلِهُ الْفِكْرَةَ الْخَبِيثَةَ لَا تَسْتَطِيقُ إِلَى الْعَقْلِ إِلَّا إِذَا تَحَجَّرَ وَانْحَصَرَ فِي غَرَضٍ وَاحِدٍ قَدْ خَابَ وَخَابَتْ فِيهِ الْإِرَادَةُ فَفَرَّغَتْ الدُّنْيَا عَنْهُ .

وَلَوْ أَنَّ أَمْرًا تَمَّ عَزْمُهُ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ ثُمَّ صَابَرَ الدُّنْيَا أَيَّامًا ، لَانْفَسَحَ عَزْمُهُ أَوْ رَكَ ؛ إِذْ يَلِينُ الْعَقْلُ فِي هَلِهِ الْمُدَّةِ نَوْعًا مَا ، وَيَجْعَلُ الصَّبْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُصِيبَةِ مَسَافَةً مَا ، فَتَتَغَيَّرُ حَالَةُ النَّفْسِ هَوْنًا مَا ؛ فَالصَّبْرُ كَالْتَرَوُّجِ بِالْهَوَاءِ عَلَى الْعَقْلِ الَّذِي يَكَادُ يَخْتَنِقُ مِنْ أَحْتِيَاسِهِ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ مُقْفَلٍ مِنْ جَوَانِبِهِ . وَمَثَلُ الْعَقْلِ فِي هَلِهِ الْحَالِ مَثَلُ الْقَائِمِ فِي إِعْصَارِ لَفِّهِ بِالتُّرَابِ لَفًّا وَسَدَّ عَلَيْهِ مَنَافِذَ الْهَوَاءِ ، وَحَبَسَهُ فِي هَذَا التُّرَابِ الْمُتَلَفَّتِ حَبَسَ الْحَشْرَةِ فِي جَوْفِ الْقَصَبَةِ ؛ فَهُوَ عَلَى الْبَقِيَّةِ أَنَّهَا حَالَةٌ سَاعَةٍ طَارِئَةٍ فِي الزَّمَنِ لَا حَالَةَ الزَّمَنِ ؛ وَأَنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي جَاءَ بِهِذَا الهمُّ هُوَ الَّذِي يَذْهَبُ بِهِذَا الهمُّ .

وَكَمَا أَنَّ الْأَرْضَ هِيَ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا الْإِعْصَارِ النَّائِرِ مِنْهَا ، فَالْحَيَاةُ كَذَلِكَ هِيَ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ شَقَائِهَا .

\* \* \*

قَالَ الْإِمَامُ : وَفِي كِتَابِ اللَّهِ آيَاتَانِ تَذَلِّلَانِ عَلَى أَنَّهُ كِتَابُ الدُّنْيَا كُلُّهَا ، إِذْ وَضَعَ لِهَلِهِ الدُّنْيَا مِثَالَيْنِ : أَحَدُهُمَا الْمِثَالُ الرُّوحِيُّ لِلْفَرْدِ الْكَامِلِ ، وَالْآخَرُ الْمِثَالُ الرُّوحِيُّ لِلْجَمَاعَةِ الْكَامِلَةِ .

أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ . [ ٣٣ سورة الأحزاب / الآية : ٢١ ] .

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . [ ٤٨ سورة الفتح / الآية : ٢٩ ] .

فَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسَامَى الْإِنْسَانُ فَوْقَ هَلِهِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ ، فَتَمُرُّ هُمُومُهَا حَوْلَهُ وَلَا تَصْدِمُهُ ، إِذْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَجَرِّي مِنْ تَحْتِهِ فَكَأَنَّ لَا سُلْطَانَ لَهَا عَلَيْهِ ؛ وَهَلِهُ الْهُمُومُ تَجِدُ فِي مِثْلِ هَلِهِ النَّفْسِ قُوَى بِالْعَةِ تُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَتْ ، فَلَا يَجِيءُ إِلَيْهَا قُوَّةٌ تَسْحَقُ ضَعْفًا ، بَلْ قُوَّةٌ تَمْتَحِنُ قُوَّةَ أُخْرَى أَوْ تُثِيرُهَا لِتَكُونَ عَمَلًا ظَاهِرًا يُقْلِدُهُ النَّاسُ وَيَتَّبِعُونَ مِنْهُ بِالْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْأُسْوَةُ وَخِذَاهَا هِيَ عِلْمُ الْحَيَاةِ .

وَقَدْ تَرَى الْفَقِيرَ مِنَ النَّاسِ تَحْسَبُهُ مِسْكِينًا ، وَهُوَ فِي حَقِيقَتِهِ أَسْتَاذٌ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسَاتِيدِ يُلْقِي عَلَى النَّاسِ دُرُوسَ نَفْسِهِ الْقَوِيَّةِ .

وَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَبْطُلُ أَكْبَرُ أَسْبَابِ الشَّرِّ فِي النَّاسِ ، وَهُوَ نَظَرُ الْإِنْسَانِ لِمَنْ هُوَ أَخْطَى مِنْهُ يَفْتِنُهُ الدُّنْيَا نَظَرًا لَا يَنْبَغُ إِلَّا الْحَقْدَ وَالسُّخْطَ ، فَيَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا فِي النَّاسِ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّالِحِ وَالْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ ، وَهَلِهُ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَبْعَثُ إِلَّا السُّرُورَ وَالْإِبْطَةَ . وَمَنْ جَعَلَهَا فِي تَفَكُّيرِهِ أَبْطَلَ أَكْثَرَ الدُّنْيَا مِنْ تَفَكُّيرِهِ ؛ وَبِهَا تَسْفُطُ الْفُرُوقُ بَيْنَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَنَازِلِهِمْ ؛ كَالرَّجُلِ الْفَقِيرِ الْعَالِمِ إِذَا قَدَّمَ عَلَى الْغَنِيِّ الْعَالِمِ ؛ جَمَعَ بَيْنَهُمَا الْأَتْفَاقُ الْعَقْلِيُّ وَسَقَطَ مَا عَدَاهُ .

وَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَعِيشُ الْإِنْسَانُ عُمُرَهُ الطَّوِيلَ أَوْ الْقَصِيرَ كَأَنَّهُ فِي يَوْمٍ يُضْبِحُ مِنْهُ غَادِيًا عَلَى الْحَشْرِ وَالْحِسَابِ ؛ فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْخُلُودِ غَيْرُ مَعْنِيٍّ إِلَّا بِأَسْبَابِهِ ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ أَمْرَاضُهُ وَالْآلَمَةُ وَمَصَائِبُهُ لَيْسَتْ مَكَارِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، بَلْ هِيَ تِلْكَ الْمَكَارِهِ الَّتِي حَفَّتِ الْجَنَّةُ

بِهَا ؛ وَلَا يَضُرُّهُ الْحَزْمَانُ لِأَنَّهُ قَرِيبُ الزَّوَالِ ، وَلَا يَغُرُّهُ الْمَتَاعُ لِأَنَّهُ قَرِيبُ الزَّوَالِ أَيْضًا .  
وَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسُوذُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ سَيِّدَ نَفْسِهِ كَانَ سَيِّدَ  
مَا حَوْلَهَا بِصَرْفِهِ بِحُكْمِهِ ، وَمَنْ كَانَ عَبْدَ نَفْسِهِ صَرَفَهُ بِحُكْمِهِ كُلِّ مَا حَوْلَهُ .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَأَمَّا الْمَثَالُ الْوُجْهِ لِلْجَمَاعَةِ الْكَامِلَةِ ، فَهُوَ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ  
﴿ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ ﴾ [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] فَهَذَا هَذَا ، مَا أَحْسَبُهُ يَخْتَاجُ إِلَى بَسْطِ وَبَيَانِ .

إِنَّ أَكْثَرَ مَا يَضِيقُ بِهِ الْإِنْسَانُ يَكُونُ مِنْ قَبْلِ مَنْ حَوْلَهُ مِمَّنْ يُعَاشِيهِمْ وَيَتَصَلُّ بِهِمْ لَا مِنْ  
قَبْلِ نَفْسِهِ ، فَإِذَا قَامَ اجْتِمَاعُ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّهُمْ ﴿ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ ﴾ [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] تَقَرَّرَتْ  
الْعَظَمَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْجَمِيعِ عَلَى السَّوَاءِ ؛ وَمَنْ كَانُوا كَذَلِكَ لَمْ يَخْفِرُوا الْفَقِيرَ بِفَقْرِهِ ، وَلَمْ  
يُعْظِمُوا الْغَنَى لِغِنَاهُ ، وَإِنَّمَا يُحَقِّرُونَ وَيُعْظِمُونَ لِصِفَاتِ سَامِيَةٍ أَوْ حَافِيزَةٍ . وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ  
يَكُونُ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَعْظَمَ قَدْرًا مِنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ ، وَإِعْظَامُ النَّاسِ لِلْفَضِيلَةِ الْفَقِيرِ هُوَ الَّذِي  
يَجْعَلُ فَقْرَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ شَيْئًا ذَا قِيَمَةٍ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَمَتَى تَصَحَّحَتْ آرَاءُ الْجَمَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِيِ الْمُؤَلِّمَةِ لِلنَّاسِ بَطَلَّ أَلْهَمًا وَاسْتَحَالَتْ  
مَعَانِيهَا ، وَصَارَ لَا يَبْلَى مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا وَضَعَ إِيمَانُهُ مَعْنَى جَدِيدًا فِي  
مَكَانِهِ ، وَتَضَيَّحَ الْفَضِيلَةُ وَخَدَّهَا غَايَةُ النَّفْسِ فِي الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ يَضْبِرُ الْفَرْدُ عَلَى  
مَصَائِبِهِ ، لَا بِقُوَّتِهِ وَخَدَهُ ، وَلَكِنْ بِجَمِيعِ الْقُوَى الَّتِي حَوْلَهُ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ إِعْجَابَ النَّاسِ  
بِالشَّجَاعَةِ وَتَعْظِيمَهُمْ صَاحِبَهَا يَضَعُ فِي أَلَمِ السَّلَاحِ لَدَّةً يَحْسُهَا لَحْمُ الشُّجَاعِ الْبَطَلِ ؟

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! وَإِذَا فَسَدَ  
النَّاسُ وَغُلِظَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَتَقَطَّعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَسْبَابُ ، وَلَمْ يَعُودُوا ﴿ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ ﴾ [٤٨ سورة  
الفتح/ الآية : ٢٩] ، وَشِمِنُوا بِالْفَقِيرِ ، وَتَهَزَّؤُوا بِالْمُبْتَلَى وَطَرَحُوهُ فِي أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَطْرَحُ  
الشَّاعِرُ فِي لِسَانِهِ رَجُلًا يَهْجُوهُ لَا يَكْفُ عَنْهُ - فَمَا عَسَى أَنْ يَضَعُ الْمُسْكِينُ حَبِيبًا وَكُلَّ شَيْءٍ  
يَذْفَعُهُ إِلَى قَتْلِ نَفْسِهِ ؟

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : هَا هُنَا الرَّجَاءُ فِي اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَهُوَ شُعُورٌ لَا يُشْتَرَى بِمَالٍ ، وَلَا

يُلْتَمَسُ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَا يَغْسُرُ عَلَى مَنْ أَرَادَهُ ؛ وَالْفَقِيرُ وَالْمُبْتَلَى وَغَيْرُهُمَا إِنَّمَا يَصْنَعُ كُلُّ  
مِنْهُمَا مِثَالَهُ السَّامِيِّ ؛ فَالْصَّبْرُ عَلَى هَذَا الْعَنْتِ هُوَ صَبْرٌ عَلَى إِتِمَامِ الْمَثَالِ ، وَإِذَا وَقَعَ  
مَا يَسُوذُكَ أَوْ يَخْزَنُكَ فَابْحَثْ فِيهِ عَنْ فِكْرَتِهِ السَّامِيَةِ ، فَقَلَمًا يَخْلُو مِنْهَا ، بَلْ قَلَمًا يَجِيءُ إِلَّا  
بِهَا<sup>(١)</sup> .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَصْنَعُ أَمْرُؤُا أَلَتْ أَحْوَالُ الدُّنْيَا إِلَى مَا يُخِيفُهُ ،  
أَوْ بَلَغَ أَلَهُمْ مَبْلَغَهُ مِنْ قَلْبِهِ فَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ ؟

قَالَ الشَّعْبِيُّ : فَلْيَجْعَلِ الْخَوْفَ خَوْفَيْنِ : أَحَدُهُمَا خَوْفُهُ عَذَابَ اللَّهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهِ  
أَبَدًا ؛ فَيَذْهَبِ الْأَفْوَى بِالْأَضْعَفِ . وَإِذَا أَبْتَلِيَ فَلْيَضْمِ إِلَى نَفْسِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ بَلَاءً مِنْهُ ؛  
لِيَكُونَ هُمُّ أَحَدِ هَمَّتَيْنِ ، فَيَذْهَبِ الْأَثْقَلُ بِالْأَخَفِ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ وَنَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَالَّذِي أُعْطِيَ طِفْلًا نَرَقًا طَيَّاشًا عَارِمًا مُنَمَّرًا ،  
لِيُؤَدِّبَهُ وَيُحْكَمَ تَرْبِيَتُهُ وَتَقْوِيَمُهُ فَيُنْبِتَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أُنْتَاذٌ ، فَيُعْطَى أَجْرَ صَبْرِهِ وَعَمَلِهِ ، ثُمَّ يَصْنِقُ  
الْأُنْتَاذُ بِالطُّفْلِ سَاعَةً فَيَقْتُلُهُ . أَكْذَلِكَ التَّادِيبُ وَالتَّرْبِيَةُ ؟

]] لِهَذَا الْمَجْلِسِ بَقِيَّةٌ ]]

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَكَانَ الْإِمَامُ قَدْ شَغَلَ خَاطِرُهُ بِهِذِهِ الْقِصَّةِ فَأَخَذَتْ تَمُدُّ مَدَّهَا  
فِي نَفْسِهِ ، وَمَكَّنَتْ لَهُ مِنْ مَعَانِيهَا بِمِقْدَارٍ مَا مَكَّنَ لَهَا فِي هَمِّهِ ، وَتَقَفَّ بِهَا ذَهْنُهُ عَنْ أَسَالِيبِ  
عَجَبِيَّةِ نَيْتِهَا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَلِدُ الْمَعْنَى الْمَعْنَى . فَلَمَّا قَالَ الرَّجُلَانِ مَقَالَهُمَا إِنْفَا  
وَأَجَابَهُمَا بِتِلْكَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، انْقَدَحَ لَهُ مِنْ كَلَامِهِمَا وَكَلَامِهِ رَأْيٌ فَقَالَ :

(١) فِي كِتَابِنَا (الْمَسَاكِينِ) كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي ، [ بَلِ الْكِتَابُ كُلُّهُ قَائِمٌ عَلَيْهَا ] .

(\*) « الرِّسَالَةُ » العدد : ٩٧ ، ١٠ صفر سنة ١٣٥٤ هـ - ١٣ مايو/أيار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ،  
الصفحات : ٧٦٣ - ٧٦٦ .

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ! أَسْأَلُكُمْ اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ ، أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْكُمْ ضَاقَ بِرُوحِهِ يَوْمًا فَأَرَادَ إِزْهَاقَهَا إِلَّا كَشَفَ لِأَهْلِ الْمَجْلِسِ نَفْسَهُ وَصَدَقْنَا عَنْ أَمْرِهِ ؛ وَلَا يَجِدَنَّ فِي ذَلِكَ ثَلَبًا وَلَا عَابًا ، فَإِنَّمَا التَّكْبَةُ مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الْقَدَرِ فِي التَّعْلِيمِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ ابْتِدَاءُ الْمُصِيبَةِ فِي رَجُلٍ هُوَ ابْتِدَاءُ الْحِكْمَةِ فِيهِ لِنَفْسِهِ أَوْ لغيرِهِ ؛ وَمَا مِنْ حَزَنٍ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِ حُزْنِهِ أَنَّهُ قَدْ غُيِّبَتْ فِيهِ أَسْرَارٌ لَمْ تَكُنْ فِيهِ ، وَهَذَا مِنْ إِبَانَةِ الْحَقِيقَةِ عَنْ نَفْسِهَا وَمَوْضِعِهَا كَمَا لِلْأَفْرِ فِي سَيْفٍ بَرِيقُهُ .

وَعَقْلُ الْهَمِّ عَقْلٌ عَظِيمٌ ، فَلَوْ قَدْ أُريدَ اسْتِخْرَاجُ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنَ اللَّذَاتِ وَالنَّعَمِ ؛ لَكَانَ مِنْ شَرْحِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْحَمِيمِ وَالْبِغَالِ وَاللَّوَابِ مَا لَا يَكُونُ مِثْلَهُ وَلَا قَرَابَهُ فِي الْعُقَلَاءِ ، وَلَا تَبْلُغُهُ الْقُوَى الْأَدِمِيَّةُ فِي أَهْلِهَا ؛ بَيِّنٌ أَنَّهُ لَوْ أُريدَ عِلْمٌ مِنَ الْبُؤْسِ وَالْأَلَمِ وَالْحَاجَةِ لَمَا وُجِدَ شَرْحُهُ إِلَّا فِي النَّاسِ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ الْخَاصُّ مِنْهُ إِلَّا فِي الْخَاصَّةِ مِنْهُمْ .

وَمَا بَانَ أَهْلُ النِّعَمَةِ وَلَا غَمُّوا الْمَسَاكِينَ فِي تَطَاوُلِهِمْ بِأَعْنَاقِهِمْ إِلَّا مِنْ أَنَّهُمْ يَغْلُونَ أَكْثَافَ الشَّيَاطِينِ ؛ فَالشَّيْطَانُ دَابَّةٌ الْغَنِيِّ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غِنَاهُ وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مُخْلِى لِسَهْوَاتِهِ وَنِعَمِهِ ؛ كَمَا هُوَ دَابَّةٌ الْعَالِمِ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي عِلْمِهِ ، وَيَزْعُمُ نَفْسَهُ مُخْلِى لِعَقْلِهِ أَوْ رَأْيِهِ ، وَمَا طَالَ الطَّوِيلُ بِذَلِكَ وَلَا عَنْ ذَلِكَ قَصَرَ الْقَصِيرُ ، وَهَلْ يَصِحُّ فِي الرَّأْيِ أَنْ يُقَالَ : هَذَا أَطْوَلُ مِنْ هَذَا لِأَنَّ الْأَوَّلَ فَوْقَ السَّلَمِ وَالْآخِرَ فَوْقَ رِجْلَيْهِ ... ؟

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَقَامَ شَيْخٌ مِنْ أَفْصَى الْمَجْلِسِ وَأَقْبَلَ يَتَخَطَّى الرِّقَابَ وَالنَّاسَ يَنْفَرِجُونَ لَهُ حَتَّى وَقَفَ بِإِزَاءِ الْإِمَامِ ؛ وَتَفَرَّسْتُهُ وَجَعَلْتُ عَيْنِي تَعِجُّهُ ، فَإِذَا شَيْخٌ تَبْدُو طَلَاقَهُ وَجْهَهُ شَبَابًا عَلَى وَجْهِهِ ، أَبْلَجُ الْعُرَّةِ مُتَهَلِّلٌ عَلَيْهِ بِشَاشَةِ الْإِيمَانِ وَفِي أَسَارِيرِهِ أَثَرٌ مِنْ تَقْطِيبِ قَدِيمٍ ، يَنْطِقُ هَذَا وَذَاكَ أَنَّ الرَّجُلَ فِيمَا أَتَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ قَدْ كَانَ أَطْفًا الْمِصْبَاحِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَّةٌ ثُمَّ أَضَاءَهُ . وَعَجِبْتُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ هَذَا الشَّيْخِ قَدْ هَمَّ بِقَتْلِ نَفْسِهِ يَوْمًا ، وَأَنَا أَرَى بَعِيَّتِي نَفْسَهُ هَذِهِ مُتَبَقَّةً فِي الْحَيَاةِ أَنْبَاقَ التُّخْلَةِ السَّخُوقِ .

وَتَكَلَّمَ هَذَا الرَّجُلُ فَقَالَ :

أَمَّا إِذْ نَاشَدْنَا اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ وَمِيتَاقَ الْعِلْمِ وَوَخِي الْأَقْدَارِ فِي حِكْمَتِهَا ، فَإِنِّي مُحَدِّثُكَ بِخَبْرِي عَلَى وَضْفِهِ وَرَضْفِهِ : أَمَلْتُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَقَفْتُ بَيْنَ الدَّهْرِ مَا كَانَ يَجْرِي ، وَأَصْبَحْتُ فِي مُرَاوَلَةِ الدُّنْيَا كَعَاصِرِ الْحَجَرِ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ ، وَعَجَزْتُ بِيَدِي حَتَّى لَظْفُرُ دَجَاجَةٍ فِي نَبْشِهَا التُّرَابَ عَنِ الْحَبَّةِ وَالْحَشْرَةِ أَفْدُرُ مِنِّْي ؛ وَطَرَقْتَنِي النَّوَائِبُ كَأَنَّمَا هِيَ تُسَاكِنُنِي فِي دَارِي ، وَأَكَلْنِي الدَّهْرُ لَحْمًا وَرَمَانِي عِظَامًا ، فَمَا كَانَ يَقِفُ عَلَيَّ إِلَّا كِلَابُ الطَّرِيقِ ؛ وَلِي يَوْمِيذٌ أَمْرَأَةٌ أَغْقَبْتُ مِنْهَا طِفْلًا وَيَلْزَمُنِي حَقُّهُمَا وَلَا أَسْتَطِيعُهُ ؛ وَكَانَ بَيْنَنَا حُبٌّ فَوْقَ الْمُعَاشَرَةِ وَالْأَلْفَةِ قَدْ تَرَكْنِي مِنْ أَمْرَانِي هَذِهِ كَالشَّاعِرِ الْغَزَلِ مِنْ صَاحِبِيهِ ، غَيْرَ أَنَّ الشَّعْرَ فِي دِمْيٍ لَا فِي لِسَانِي .

فَلَمَّا نَهَكْتَنِي الْمَصَائِبُ وَتَنَاوَلْتَنِي مِنْ قَرِيبٍ وَمِنْ بَعِيدٍ ؛ قُلْتُ لِلْمَرْأَةِ ذَاتِ يَوْمٍ وَقَدْ شَحِبَتْ وَأَنْكَسَرَ وَجْهُهَا وَتَقَبَّضَ مِنْ هُزَالِهِ : وَأَيُّمُ اللَّهِ يَا فُلَانَةُ لَوْ جَازَ أَنْ يُؤْكَلَ لَحْمُ الْأَدَمِيِّ لَذَبَحْتُ نَفْسِي لِتَأْكُلَنِي وَتَذَرِّي عَلَى الصَّبِيِّ . وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْكَبَ رَأْسِي وَأَذْهَبَ عَلَى وَجْهِهِ لِتَقْفِدَانِي فَتَقْفِدَا شَوْمِي عَلَيَّكُمَا ؛ وَلَكِنْ رَدَّنِي قَلْبِي ، وَهُوَ حَبَسَنِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الصَّغِيرَةِ الَّتِي بَيْنَكُمَا ، فَلَيْسَ لِي مِنَ الْأَرْضِ مَشْرِقٌ وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا أَنْتِ وَهَذَا الصَّبِيُّ . وَلَسْتُ أَذْرِي وَاللَّهِ مَا نَفَعْتُ بِالْحَيَاةِ وَقَدْ كُنَّا مِنْ نَبَاتِهَا الْأَخْضَرِ فَرَجَعْنَا مِنْ حَطَبِهَا الْيَاسِ ؛ وَعَادَتِ الشَّمْسُ لَا تَغْذُوهَا بَلْ تَمْنَعُ مِنْهَا مَا بَقِيَ ، وَلَا تَسْتَضِيءُ لَهَا ، وَلَكِنْ تَسْتَوْقُدُ عَلَيْهَا !

إِنْ مِنْ فَقْدِ الْخَيْرِ وَقَعَ فِي الشَّرِّ ، حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ خَيْرًا عَظِيمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ فَخَلَصَ مِنَ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ جَمِيعًا ، لَا يُكْدِي وَلَا يَنْجَحُ ، وَلَا يَأْلَمُ وَلَا يَلْدُ ؛ وَكَمَا أَنْكَرْتُهُ الدُّنْيَا فَلْيُنْكَرْهَا . أَمَّا إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْقَبْرُ فَالْقَبْرُ وَلَكِنْ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ لَا عَلَى ظَهْرِهَا كَحَالِنَا ؛ وَإِنْ كَانَ الْمَوْتُ فَالْمَوْتُ وَلَكِنْ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ وَفِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا كَهَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَنْوَاعًا أَنْوَاعًا . قَدْ مَاتَتْ أَيَّامُنَا ، وَتُرَكْنَا نَعِيشُ كَالْمَوْتَى لَا أَيَّامَ لَهُمْ ، وَزَادَ عَلَيْنَا الْمَوْتَى فِي النِّعْمَةِ وَالرَّاحَةِ أَنَّهُمْ لَا يَتَطَفَّلُونَ عَلَى أَيَّامٍ غَيْرِهِمْ فَيَطْرُدُوا عَنْ يَوْمٍ هَذَا وَيَوْمَ ذَلِكَ .

قَالَ : فَاسْتَعْبَرَتِ الْمَرْأَةُ بَاكِئَةً ، وَلَمَّا فَرَعَتْ مِنْ كَلَامِ دُمُوعِهَا قَالَتْ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَفْجَعَنَا فَيْكَ ؟ قُلْتُ : مَا عَدَوْتُ مَا فِي نَفْسِي ؛ وَلَكِنْ هَلْ بَقِيَ فِي مَنْ تُفْجَعِينَ فِيهِ ؟ أَمَّا

ذَهَبَ مِنِّي ذَلِكَ الَّذِي كَانَ لَكَ زَوْجًا وَكَاسِبًا ، وَجَاءَ الَّذِي هُوَ هَمَّكَ وَهَمُّ هَذَا الصَّبِيِّ مِنْ رَجُلٍ كَالْحُفْرَةِ لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانِهَا وَتَأْخُذُ وَلَا تُعْطِي ؟

أَمَ وَاللَّهِ لَكَائِي خُلِفْتُ إِنْسَانًا خَطَا ، حَتَّى إِذَا تَبَيَّنَ الْغَلَطُ أُرِيدُ إِزْجَاعِي إِلَى الْخَيَوَانِ فَلَمْ يَأْتِ لَا هَذَا وَلَا ذَلِكَ ، وَبَقِيتُ بَيْنَهُمَا ؛ يَمُرُّ النَّاسُ بِي فَيَقُولُونَ إِنْسَانٌ مِسْكِينٌ ؛ وَأَحْسَبُ لَوْ نَطَقَتِ الْكِلَابُ لَقَالَتْ عَنِّي : كَلْبٌ مِسْكِينٌ . يَا عَجَبًا ! عَجَبًا لَا يَنْتَهِي ! أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا فِي يَدِنَا مِنَ الْعَجْزِ وَالْيَأْسِ كَأَنَّمَا هِيَ بَعْرَةٌ نَجْهَدُ فِي تَخْوِيلِهَا بِأَقْوَتِهِ أَوْ لَوْلَا . . .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : وَاللَّهِ لَئِنْ حَيَّيْتُ عَلَى هَذَا إِنَّ هَذَا لَكُفْرٌ قَبِيحٌ ، وَلَكِنْ مَتَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ لَا قَبِيحَ وَأَشَدُّ .

فَقُلْتُ لَهَا : وَيَحَاكِ ! وَمَاذَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ الْمُبْصِرَةُ فِي الظَّلَامِ الْحَالِكِ إِلَّا مَا تَنْظُرُ الْعَمْيَاءُ ؟

قَالَتْ : وَلِمَ لَا تَنْظُرُ كَمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ بِنُورِ اللَّهِ ؟

قُلْتُ : فَأَنْظُرِي أَنْتِ وَخَبِّرِيْنِي مَاذَا تَرِينَ . أَتَرِينَ رَغِيْفًا ؟ أَتَرِينَ إِدَامًا ؟ أَتَرِينَ دِينَارًا ؟

قَالَتْ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَآكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أَرَى قَمَرًا سَيَكْشِفُ هَذِهِ الشَّدَفَةَ الْمُظْلِمَةَ إِنْ لَمْ يَطْلُعْ فَكَأَنَّ قَدْ .

قَالَ : فَعَاظَنِي الْمَرْأَةُ وَرَأَيْتُهَا حِينَئِذٍ أَشَدَّ عَلَيَّ بِقَلَّةِ ذَاتِ عَقْلِهَا مِنْ قِلَّةِ ذَاتِ يَدَيَّ ؛ وَلَوْلَا حُبِّي إِيَّاهَا وَرَحْمَتِي لَهَا لَأَوْقَعْتُ بِهَا . وَاسْتَحْكَمَ فِي ضَمِيرِي أَنَّ أَزْهَى نَفْسِي وَأَدْعَاهَا لِمَا كُتِبَ لَهَا .

وَقُلْتُ : إِنَّ جُبْنَ الْمَرْأَةِ هُوَ نِصْفُ إِيمَانِهَا حِينَ لَا يَكُونُ نِصْفُ عَقْلِهَا ، وَلِلْقَدَرِ يَدُ ضَعِيفَةٍ عَلَى الْإِسَاءِ تَضَعُفُهُمْ وَتَمْسَحُ دُمُوعَهُمْ ، وَلَهُ يَدٌ أُخْرَى عَلَى الرِّجَالِ تَقِيلُهُ تَضَعُفُ الرِّجُلِ وَتَأْخُذُ بِحُلْفِهِ فَتَعَصِرُهُ .

\* \* \*

قَالَ : وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي هَذِهِ الْخَلِيقَةِ : أَرْحَامُ تَدْفَعُ ، وَأَرْضُ تَبْلَعُ . فَحَضَرَنِي هَذَا الْقَوْلُ تِلْكَ السَّاعَةِ وَشَبَّهَ لِي ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ شَيْءٌ حَقِيرٌ فِي الْعَايَةِ مِنَ الْهَوَانِ وَالضَّعَةِ : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ، وَأَنفَلَتْ بِهِ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ؛ وَهُوَ

مِنْ شُؤْمِهِ عَلَيْهَا إِذَا دَنَا لَهَا أَنْ تَضَعَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى يَضْرِبَهَا الْمَخَاضُ فَتَقْلَبُ وَتَصْنِيحُ وَتَتَمَرَّقُ وَتَتَصَدَّعُ ؛ وَرَبَّمَا نَسَبَ فِيهَا فَتَقَلَّهَا ، وَرَبَّمَا التَّوَلَّى فَيَقْفَرُ بَطْنُهَا عَنْهُ . وَإِذَا هِيَ وَلَدَتْهُ عَلَى أَيِّ حَالِهَا مِنْ عُسْرِ وَطَرِيقٍ يُمِثِلُ الْمَطَارِيقَ الْمُحْطَمَةَ ، أَوْ سَرَّاحٍ وَرَوَّاحٍ كَمَا يَنْسَرُّ - فَإِنَّمَا تَلِدُهُ فِي مَشِيمَةٍ وَدِمَاءٍ وَقَدَرٍ مِنَ الْأَخْلَاطِ كَأَنَّمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ جُرْحٍ . ثُمَّ تَتَنَاولُهُ الدُّنْيَا فَتَضَعُهُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي أَفْجَحٍ وَأَقْدَرٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . ثُمَّ يَسْتَوْفِي مُدَّتَهُ فَيَأْخُذُهُ الْقَبْرُ فَيَكُونُ شَرًّا عَلَيْهِ فِي تَمْرِيقِهِ وَتَغْفِينِهِ وَإِحَالَتِهِ .

قَالَ : وَحَضَرَنِي مَعَ كَلِمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ قَوْلُ ذَلِكَ الْجَاهِلِ الزَّنْدِينِيِّ الَّذِي يُعْرَفُ (بِالْبَغْلِيِّ) - إِذْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَالْبَقْلَةِ فَإِذَا مَاتَ لَمْ يَرْجِعْ . وَقُلْتُ لِنَفْسِي : إِنَّمَا أَنْتِ بَقْلَةٌ حَمَقَاءُ ذَاوِيَّةٌ فِي أَرْضِ نَشَاشَةٍ<sup>(١)</sup> ، فَتَقَلَّهَا مِلْحُ أَرْضِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَحْيَاهَا .

قَالَ : وَثَرْتُ إِلَى الْمُدْنَةِ أُرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّأَ بِهَا ، فُتَبَادَرَنِي الْمَرْأَةُ فَتَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ؛ وَكَأَدَ أَبْطِشُ بِهَا مِنَ الْعَظِيزِ ؛ وَكَانَتْ رُوحُ الْجَجِيمِ تَرْفُرُ مِنْ حَوْلِي ، لَوْ سَمِعُوا سَمِعُوا لَهَا شَهِيْقًا وَهِيَ تَقُورُ ؛ فَمَا أَذْرِي أَيُّ مَلِكٍ هَبَطَ بِوَخِي الْجَنَّةِ فِي لِسَانِ أَمْرَأَتِي .

قُلْتُ لَهَا : إِنَّهَا عَزَمَتْ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي .

قَالَتْ : وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَنْفُسُهَا وَلَسْتُ أَرُدُّكَ عَنْهَا وَسَتُمْضِيهَا .

قُلْتُ : فَخَلِّي بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنَ الْمُدْنَةِ .

قَالَتْ : كُلُّنَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ أَنَا وَأَنْتِ وَالصَّبِيُّ فَلَنَقْضِ مَعًا ؛ وَمَا يَنْفُسِي عَنْ نَفْسِكَ رَغْبَةٌ وَلَا نَدْعُ الصَّبِيَّ بَيْنَمَا يَصْفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ ، وَيَضْرِبُهُ أَبْنُ هَذَا وَأَبْنُ ذَلِكَ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ فِي أَوْلَادِ النَّاسِ أَنَا أَبْنُ ذَلِكَ وَلَا أَبْنُ هَذَا .

قُلْتُ : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ .

قَالَتْ : فَتَعَالَ أَدْبِحِ الطِّفْلَ . . . . .

\* \* \*

(١) الْأَرْضُ النَّشَاشَةُ : هِيَ السَّيْبَةُ الَّتِي فِيهَا الْمِلْحُ وَالْمَاءُ .

قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَا بَلَغَ الرَّجُلُ فِي قِصَّتِهِ إِلَى ذَنْبٍ صَغِيرِهِ <sup>(١)</sup> حَتَّى ضَجَّ النَّاسُ ضَجَّةً مُتَكَرَّةً ؛ وَتَوَهَّمُ كُلُّ أَبٍ مِنْهُمْ أَنَّ طِفْلَهُ الصَّغِيرَ مُمَدَّدٌ لِلذَّنْبِ وَهُوَ يُنَادِي أَبَاهُ وَيَسْتَشِيرُ حَلْفَهُ بِالصَّرَاحِ : يَا أَبِي يَا أَبِي ! أَدْرِكْنِي يَا أَبِي !

أَمَّا الْإِمَامُ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ ، كَيْفَ تَصْنَعُ جَهَنَّمَ حَطَبَهَا ؟

وَأَنَا فَمَا قَطُّ نَسِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، وَمَا قَطُّ رَأَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا كَافِرًا وَلَا فَاسِقًا فَأَعْتَبَرْتُ أَعْمَالَهُ إِلَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ طَرِيقَةُ صَنْعَتِهِ حَطَبًا ... كَانَ الشَّيْطَانُ لَعَنَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِاتَّبَاعِهِ : جَفِّقُوهُ ...

وَكَانَتْ هُنَيْهَاتٍ ، ثُمَّ فَاءَ النَّاسُ وَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَاحُوا بِالْمُتَكَلِّمِ : ثُمَّ مَاذَا ؟

\* \* \*

قَالَ الرَّجُلُ : فَفَتَحْتُ عَيْنِي وَقَلْبِي مَعَ وَرَمَقْتُ الطِّفْلَ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَخْلِكُ إِلَّا يَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ ؛ وَنَظَرْتُ إِلَى مَجْرَى السَّكِينِ مِنْ حَلْفِهِ وَإِلَى مَحَرِّهَا فِي رَقَبَتِهِ اللَّيْنَةِ ؛ وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا تَفَرَّقَ بَصَرُهُ مِنَ الْفَرْعِ عَلَى كُلِّ جِهَةٍ ، وَرَأَيْتُهُ يَضْرَعُ لِي بِعَيْنَيْهِ الْبَاكِئَيْنِ أَلَّا أَذْبَحَهُ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَوَسَّلُ بِيَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ كَأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مِثِّي أَمَامَ قَائِلِهِ ، ثُمَّ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَتَلَوَّى وَيَنْتَفِضُ وَيَضْرَعُ مِنَ أَلَمِ الذَّنْبِ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ ؛ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ النَّعِيسِ .

يَا وَيْلَتَاهُ ! لَقَدْ أَخَذَنِي مَا كَانَ يَأْخُذُنِي لَوْ تَهَدَّمَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَحَسِبْتُ الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ أَنْفَجَرَ صُرَاخًا مِنْ أَجْلِ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ إِلَّا رَبُّهُ أَمَامَ الْقَائِلِ .

فَهَرَوْتُ مُسْرِعًا وَتَرَكْتُ الدَّارَ وَالْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ وَأَنَا أَقُولُ : يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ . يَا مَنْ خَلَقَ الطِّفْلَ عَالِمُهُ أُمُّهُ وَأَبُوهُ وَحَدَهُمَا وَبَاقِيَ الْعَالَمِ هَبَاءً عِنْدَهُ . يَا مَنْ دَبَّرَ الرُّضِيعَ فَوَهَبَهُ مُلْكًا وَمَمْلَكَةً وَغَنَى وَسُرُورًا وَفَرَحًا ، كُلُّ ذَلِكَ فِي ثَدْيِ أُمِّهِ وَصَدْرِهَا لَا غَيْرَ . يَا إِلَهِي : أُنْسِنِي مِثْلَ هَذَا الْكَسِيرَانِ ، وَأَرْزُقْنِي مِثْلَ هَذَا الرَّزْقِ ، وَاكْفُلْنِي بِمِثْلِ هَذَا التَّدْيِيرِ فَإِنِّي

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَبْنِي » بَدَلًا مِنْ : « صَغِيرِهِ » .

مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ انْقِطَاعَ الرُّضِيعِ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ .

\* \* \*

قَالَ الرَّجُلُ : وَلَقَدْ كُنْتُ مَغْرُورًا كَالْجَيْفَةِ الرَّائِكَةِ تَحْسَبُ أَنَّهَا هِيَ تَقُوزُ حِينَ فَارَتْ حَشَرَاتُهَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَخْفَرُ مِنَ الذُّبَابِ الَّذِي لَا يَجِدُ حَقَائِقَهُ ، وَلَا يَلْتَمِسُهَا ، إِلَّا فِي أَقْدَرِ الْقَدَرِ .

وَمَا كِدْتُ أَنْصِي كَمَا تَسُوقُنِي رِجْلَايَ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتًا نَدِيًا مَطْلُولًا يُرْجِعُ تَرْجِيعَ الْوَرَقَاءِ فِي تَحَنُّنِهَا وَهُوَ يُرْتَلُّ هَذِهِ الْآيَةَ :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [سورة الكهف/ الآية : ٢٨] .

قَالَ : فَوَقَفْتُ أَسْمَعُ وَمَاذَا كُنْتُ أَسْمَعُ ؟ هَلِ هُنَا شُعْلٌ لَا كَلِمَاتٌ ، أَخْرَقَتْ كُلَّ مَا كَانَ حَوْلِي وَلَمَسْتُ مِصْبَاحَ رُوحِي الْمُنْطَفِئِ فَإِذَا هُوَ يَتَوَهَّجُ ، وَإِذَا الدُّنْيَا كُلُّهَا تَتَوَهَّجُ فِي نُورِهِ ، وَارْتَفَعَتْ نَفْسِي عَنِ الْجَذْبِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَكَأَنَّمَا لَقِيتُ سَحَابَةً مِنَ السُّحُبِ ، فَفِي رُوحِي نَسِيمُ الْمَاءِ الْبَارِدِ وَرَائِحَةُ الْمَاءِ الْعَذْبِ .

لَعَنَ اللَّهُ هَذَا الْأَضْطِرَابَ الَّذِي يُبْتَلَى الْخَائِفُ بِهِ . إِنَّا نَحْسَبُهُ أَضْطِرَابًا وَمَا هُوَ إِلَّا اخْتِلَاطُ الْحَقَائِقِ عَلَى النَّفْسِ وَذَهَابُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ ، وَتَضَرُّبُ الشَّرِّ فِي الْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فِي الشَّرِّ حَتَّى لَا يَبِينُ جِنْسٌ مِنْ جِنْسٍ ، وَلَا يُعْرَفُ حَدٌّ مِنْ حَدٍّ ، وَلَا تَمْتَازُ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقِيقَةٍ . وَبِهَذَا يَكُونُ الزَّمَنُ عَلَى الْمُبْتَلَى كَالْمَاءِ الَّذِي جَمَدَ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَسَايِرُ . فَيَلْوُحُ الشَّرُّ وَكَأَنَّهُ دَائِمًا لَا يَزَالُ فِي أَوَّلِهِ يَنْذِرُ بِالْأَهْوَالِ ، وَقَدْ يَكُونُ هَوْلُهُ أَنْتَهَى أَوْ يُوشِكُ .

قَالَ الرَّجُلُ : وَكُنْتُ أَرَى يَأْسِي قَدْ اغْتَرَى كُلَّ شَيْءٍ ، فَأَمْتَدَّ إِلَى آخِرِ الْكَوْنِ ، وَإِلَى آخِرِ الزَّمَنِ ؛ فَإِذَا سَكَنَ مَا بَيْنِي إِذَا هُوَ قَدْ كَانَ يَأْسُ يَوْمٍ أَوْ أَيَّامٍ فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَمَكِيَّةِ ، أَمَا مَا وَرَاءَ هَذِهِ الْأَيَّامِ وَمَا خَلْفَ هَذَا الْمَكَانِ ، فَذَلِكَ حُكْمُهُ حُكْمُ الشَّمْسِ الَّتِي تَطْلُعُ وَتَغِيْبُ عَلَى الدُّنْيَا لِإِحْيَائِهَا ، وَحُكْمُ الْمَاءِ الَّذِي تَهْمِي السَّمَاءُ بِهِ لِإِسْقَى الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا ، وَحُكْمُ اسْتِمْرَارِ هَذِهِ الْأَجْزَامِ السَّمَاوِيَّةِ فِي مَدَارِهَا لَا تُنْسِكُهَا وَلَا تَرْثُهَا إِلَّا قُوَّةُ خَالِقِهَا .

أَيَنْ أَرَى الْإِنْسَانَ الَّذِي الْحَقِيرَ فِي كُلِّ ذَلِكَ ؟ وَهَلِ الْحَيَاةُ إِلَّا بِكُلِّ ذَلِكَ ؟  
وَمَا الَّذِي فِي يَدِ الْإِنْسَانِ الْعَاجِزِ مِنْ هَذَا النِّظَامِ كُلِّهِ فَيَسْئَلُ لَهُ أَنْ يَقُولَ فِي حَادِثَةٍ مِنْ  
حَوَادِثِهِ إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَبْتَدِئُ وَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَنْتَهِي ؟

تَعْرِينِ الْمَصَائِبُ هَذَا الْإِنْسَانَ لِنَمُحُو مِنْ نَفْسِهِ الْخِسَّةَ وَالْدَنَاءَةَ ، وَتَكْسِرِ الشَّرَّ  
وَالْكِبْرِيَاءَ ، وَتَقْنَأِ الْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ ؛ فَلَا يَكُونُ مِنْ حُمُقِهِ إِلَّا أَنْ يَزِيدَ بِهَا طَيْشًا وَحِدَّةً ،  
وَكِبْرِيَاءً وَشَرًّا ، وَدَنَاءَةً وَخِسَّةً ، فَهَذِهِ هِيَ مُصِيبَةُ الْإِنْسَانِ لَا تِلْكَ .  
الْمُصِيبَةُ هِيَ مَا يَنْشَأُ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْمُصِيبَةِ .

\* \* \*

قَالَ : وَرَدَّدْتُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِي نَفْسِي لَا أَشْبِعُ مِنْهَا ، وَجَعَلْتُ أُرْتَلِّهَا أَحْسَنَ تَرْتِيلٍ  
وَأَطْرَبَهُ وَأَشْجَاهُ ؛ فَكَانَتْ نَفْسِي تَهْتَرُ وَتَرْتَجُ كَأَنَّمَا هِيَ تَبْدَأُ تَنْظِيمَ مَا فِيهَا لِإِفْرَارِ كُلِّ حَقِيقَةٍ  
فِي مَوْضِعِهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافِ وَالْاضْطِرَابِ .

صَبَرَ النَّفْسُ مَعَ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ رُوحَانِيَّتَهَا تَمَثِيلًا دَائِمًا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، وَعَلَى نُورِ الْحَيَاةِ  
وِظْلَامِهَا ، يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ الَّذِي سَبِيلُهُ الْحُبُّ لَا غَيْرُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ . وَتَقْيِئُ الْعَيْنَيْنِ بِهَذَا  
الْمَثَلِ الْأَعْلَى كَمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي الْجَمَالِ وَالْحُبِّ ؛ وَالزَّبْطُ عَلَى الْإِرَادَةِ كَيْلًا تَتَفَلَّتْ فَتَسِفَ إِلَى  
حَقَائِرِ الدُّنْيَا الْمُسَمَّاةِ هُزَاءً وَتَهْكُمًا زِينَةَ الدُّنْيَا ، تِلْكَ الَّتِي تُشَبِّهُ حَقَائِقَ الدُّبَابِ الْعَالِيَةِ ...  
فَتَكُونُ قَدْرَةَ نَجَسَةٍ ، وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ زِينَةُ الْحَيَاةِ لِهَذَا الْخَلْقِ { الدُّبَابِيُّ } ...

تِلْكَ وَاللَّهُ هِيَ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ وَالْقُوَّةِ . أَمَّا الْمَصَائِبُ كُلُّهَا ، فَهِيَ فِي إِغْفَالِ الْقَلْبِ  
الْإِنْسَانِيِّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .

\* \* \*

قَالَ : وَلَمَّا صَحَّتْ تَوْبَتِي ، وَقَوِيَ الْيَقِينُ فِي نَفْسِي ، كَبُرَتْ رُوحِي وَاتَّسَعَتْ ،  
وَأَتَّبَعْتُ لَهَا بَوَاعِثَ مِنْ غَيْرِ حَقَائِقِ الدُّبَابِ ، وَأَشْرَقَ فِيهَا الْجَمَالُ الْإِلَهِيُّ سَاطِعًا مِنْ كُلِّ  
شَيْءٍ ، وَكَانَ الصُّبْحُ يَطْلُعُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ ، فَأَنَا دَائِمًا فِي عُمْرِ طِفْلِ ، وَجَاءَنِي  
الْخَيْرُ مِنْ حَيْثُ أَحْسَبْتُ وَلَا أَحْتَسِبُ ، وَكَأَنَّمَا نِمْتُ فَأَتَيْتُهَا غَنِيًّا ، وَعَمِلَ الْقَلْبُ الْحَيُّ فِي

الزَّمَنِ الْحَيِّ .

وَلَقَدْ أَفْذْتُ مِنَ الْآيَةِ طَبِيعَةً لَمْ تُكُنْ فِيَّ ، وَلَا يَنْبُتُ مَعَهَا الشَّرُّ أَبَدًا ، فَأَصْبَحَ مِنْ  
خِصَالِي أَنْ أَرَى الْحَاضِرَ كُلَّهُ مُتَحَرِّكًا يَمُرُّ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ جَمِيعًا ، وَأَسْتَشْعِرُ مِنْ  
حَرَكَتِهِ مِثْلَمَا تَرَى عَيْنَايَ مِنْ قَطَارِ الْإِبِلِ يَهْتَرُ تَحْتَ رِحَالِهِ وَهُوَ يُغْدُ السَّبِيرَ .

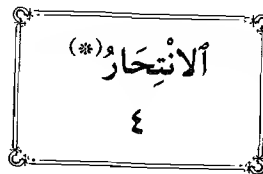
لَمْ أَبْعُدْ قَلِيلًا وَأَنَا أُمِشِي مُطْمَئِنًّا تَائِبًا مُتَوَكِّلًا حَتَّى دَعَانِي رَجُلٌ ذُو نِعْمَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَجَاهٍ ،  
وَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أَوْ كَلَّمَهُ وَجْهِي فِي قَلْبِهِ فَاسْتَنْبَأَنِي ، وَبَشَّتهُ حَالِي وَأَقْتَصَصْتُ قِصَّتِي .  
فَقَالَ : سَيُخِينِكَ اللَّهُ بِالطُّفْلِ الَّذِي كَذَبْتَ تَقْتُلُهُ ، فَارْجِعْ إِلَى دَارِكَ . ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ دَنَائِيرَ  
وَقَالَ : أَتَجِزُ بِهِذِهِ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ وَبِرَكَتِهِ فَسَيَنْمُو فِيهَا طِفْلٌ مِنَ أَلْمَالِ يَبْلُغُ أَشَدَّهُ . وَقَدْ صَدَّقَ  
إِيمَانُهُ وَإِيمَانِي ، فَبَارَكَ لِي اللَّهُ وَنَمَّا طِفْلٌ أَلْمَالِ وَبَلَغَ وَجَاوَزَ إِلَى شَبَابِهِ .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَجَلَسَ الرَّجُلُ وَكَانَ كَالْخَطِيبِ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَقَالَ الْإِمَامُ : مَا أَشَبَّهُ  
الْكَلْبَةَ بِالْبَيْضَةِ تُحْسَبُ سَجَنًا لِمَا فِيهَا وَهِيَ تَحُوطُهُ وَتُرَبِّيهِ وَتُعِينُهُ عَلَى تَمَامِهِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ  
إِلَّا الصَّبْرُ إِلَى مُدَّةٍ ، وَالرَّضَى إِلَى غَايَةٍ ، ثُمَّ تَنْقُفُ الْبَيْضَةُ فَيَخْرُجُ خَلْقًا آخَرَ .  
وَمَا الْمُؤْمِنُ فِي دُنْيَاهُ إِلَّا كَالْفَرْخِ فِي بَيْضَتِهِ ، عَمَلُهُ أَنْ يَتَّكُونَ فِيهَا ، وَتَمَامُهُ أَنْ يَنْبُتَ  
شَخْصُهُ الْكَامِلُ فَيَخْرُجَ إِلَى عَالَمِهِ الْكَامِلِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَدَّ الْإِمَامُ عَيْنَهُ وَقَدْ رَفَعَ لَهُ شَخْصٌ مِنَ الْمَجْلِسِ ؛ ثُمَّ جَلَسَ

(\*) « الرسالة » العدد : ٩٨ ، ١٧ صفر سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٠ مايو/أيار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ،  
الصفحات : ٨٠٣ - ٨٠٦ .

يَنْظُرُهُ كَأَنَّمَا يَنْطَلِعُ إِلَى عَجِينِيَّةٍ كَالْحَقِّ إِذَا بَطَلَ ، وَالصِّدْقِ إِذَا كَذَبَ ؛ ثُمَّ رَدَّ بَصَرَهُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ يُعْجِبُنِي مِنْ عَجَبِهِ ؛ ثُمَّ سَجَا طَرَفُهُ كَأَنَّمَا أَنْكَرَ رَأْيَ عَيْنَيْهِ فَهُوَ يَلْتَمِسُ رَأْيَ قَلْبِهِ . وَتَبَيَّنَتْ فِي وَجْهِهِ انْقِبَاضًا خَيْلٌ إِلَيَّ أَنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَهُ بِهِذَا الرَّجُلِ يُفْحِمُهُ بِهِ يُرِيدُهُ كَيْفَ يَجْعَلُ أَحَدَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ يَنْحَمِسُ فِي دِينِهِ لِيَرْجِعَ بَعْدَ ذَلِكَ أَضَلًّا لَا غِنَى عَنْهُ فِي إِنْشَاءِ قِصَّةٍ كُفْرًا ! هَذَا هُوَ ضَيْفُنَا (أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيُّ) يَنْخَوِضُ النَّاسَ لِيَجِيءَ فَيَحْدِثُنَا حَدِيثَهُ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ وَالْإِنَّمِ بِرَبِّهِ ؛ فَلَوْ قِيلَ لِي : إِنَّ قَوْسَ السَّمَاءِ بِأَحْمَرِهِ وَأَصْفَرِهِ وَأَزْرَقِهِ وَأَخْضَرِهِ ، قَدْ وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ وَأَصْطَبَعَ مِنَ الْوَانِهِ أَوْحَالًا وَأَفْدَارًا ؛ لَكَانَ هَذَا كَهَذَا فِي تَعَاطُفِهِ وَإِنْكَارِهِ وَالْعَجَبِ مِنْهُ ؛ فَأَبُو مُحَمَّدٍ مِنَ الرِّجَالِ الْخُمْسِ<sup>(١)</sup> الَّذِي لَوْ كَفَرَ أَحَدُهُمْ ثُمَّ قِيلَ : « إِنَّهُ كَفَرَ » ، لَقَصَّرَ اللَّفْظُ أَنْ يَبْلُغَ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَصِفَ شُعْنَهَا ، كَمَا يَقْصُرُ لَفْظُ الْجُنُونِ عَنْ وَصْفِ حَكِيمٍ تَأَلَّى أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الْكَوْنِ ، فَلَا يَبْقَى فِي أَرْضٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا تَنَالُهُ يَدُ اللَّهِ ! إِنْ فِي لَفْظِ الْكُفْرِ مَعَ ذَلِكَ ، وَفِي لَفْظِ الْجُنُونِ مَعَ هَذَا - شَيْئًا مِنْ نِفَاقِ الْعَقْلِ وَتَأْذِيهِ فِي آدَاءِ الْمَعْنَى الْأَخْرَقِ الَّذِي لَا يُشَبِّهُهُ جُنُونٌ وَلَا كُفْرٌ .

وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ ؛ فَلَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ فِي تَشَدُّدِهِ وَإِنْعَالِهِ فِي الدِّينِ - كَالَّذِي يَضَعُ حَبْلًا يَفْتَلُهُ قَتْلًا شَدِيدًا فَيَمُرُّهُ عَلَى طَاقٍ بَعْدَ طَاقٍ ، لِيَكُونَ أَشَدَّ لَهُ وَأَقْوَى ، ثُمَّ يُجَادِبُهُ الشَّيْطَانُ حَبْلَهُ ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي الْوَهَنِ مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا فِي سَقْفِ حَدَادٍ ؛ فَرَأَتْهُ يَصُبُّ الْحَدِيدَ الْمَضْهُورَ يَجْعَلُهُ سِلْسِلَةً حَلَقَةً فِي حَلَقَةٍ ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتُرْسِلُ مِنْ لُعَابِهَا خَيْطًا فِي خَيْطٍ تَرْعُمُهُ سِلْسِلَةً ... !

إِنَّ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانَهُ يَتَرَبَّصُ بِهِ ، فَلِهَذَا يَتَّبِعِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَالَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ ، فَهُوَ أَبَدًا مُخْتَرِسٌ مُتَّجِدِدٌ الْخَوَاسِ مُرْهَفَهَا يَسْتَقْبِلُ بِهَا الدُّنْيَا جَدِيدَةً عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ ؛ وَمِنْ هَذَا حِكْمَةُ أَنْ يُؤَدَّنَ الْمُؤَدَّنُ وَأَنْ تُقَامَ الصَّلَاةُ مِرَارًا فِي الْيَوْمِ ، فَكُلَّمَا بَدَأَ وَقْتُ قَالَ الْمُؤْمِنُ : آلَانَ أَبَدًا إِيْمَانِي أَطَهَرَ

(١) أَيِ : الْمُتَحَمِّسِينَ فِي دِينِهِمْ .

مَا كَانَ وَأَقْوَى .

\* \* \*

وَقَالَ الْإِمَامُ : هِنَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! فَقَالَ الْبَصْرِيُّ وَقَدْ رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ الْإِمَامِ : لَا يَفْرَعَنَّكَ إِلَيْهَا الشَّيْخُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَجْعَلُ مَا يُجِئُهُ هُوَ فِي مَا نَكَّرَهُ نَحْنُ ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجْرِي عَلَى الْفَاطِنَا ؛ وَقَدْ نُسَمِّي النَّازِلَةَ تَنْزِيلًا بِنَا خَسَارًا وَهِيَ رِنَجٌ ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةً جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً تَسْرَتُ لِتَبْدِيلِ الْفِكْرِ . إِنَّهَا لُغَةُ الْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ هَذَا الشَّيْءِ حِينَ تَظْهَرُ الْحَقِيقَةُ ؛ وَكَأَيُّنَ مِنْ حَادِثَةٍ لَا تُصِيبُ أَمْرًا فِي نَفْسِهِ إِلَّا لَتَقَعَ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ هَذِهِ النَّفْسِ وَبَيْنَ غَرَائِزِهَا . فَتَكُونُ أَعْمَالُ الطَّبِيعَةِ الْمُعَادِيَةِ أَسْبَابًا فِي أَعْمَالِ الْعَقْلِ الْمُتَنَصِّرِ .

وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يَقْضِي عَلَى الْإِنْسَانِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَسَائِلَ مِنَ الْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عَالَمٍ فِكْرِهِ الْخَاصُّ بِهِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا عَالَمٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ مَنْ فِيهَا ، وَلَكِنَّ دَائِرَةَ الْفِكْرِ وَالنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمُهُ وَحْدَهُ . وَالسَّعِيدُ مَنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَذَا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ كَالْمَلِكِ الْمَطَاعِ فِي مَمْلَكَتِهِ ، نَافِذُ الْأَمْرِ فِي صَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا ؛ وَالشَّقِيقُ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعًا بَيْنَ عَوَالِمِ النَّاسِ ، يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْغَنِيِّ ، وَإِلَى ذَلِكَ الْمَجْدُودِ ، وَإِلَى ذَلِكَ الْمُؤَفَّقِ ؛ وَهُوَ فِي كُلِّ هَذَا كَالْأَجْنَبِيِّ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ أَجْنَبِيًّا عَنِ الْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجْنَبِيًّا عَنْ نَفْسِهِ .

لَقَدْ كُنْتُ ضَالًّا عَنْ نَفْسِي وَعَالَمِهَا ، فَكُنْتُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَسْتَشْعِرُ شُعُورَ اللَّصِّ ، أَشْيَاؤُهُ هِيَ أَشْيَاءُ النَّاسِ جَمِيعًا ؛ وَاللَّصُّ يَنْظُرُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِعَيْنِي شَاعِرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِفٍ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِي مُتَرَبِّصٍ حَذِيرٍ .

كُنْتُ وَاللَّهِ إِنْ ضِغْتُ بِالنَّاسِ أَوْ وَسَعْتُهُمْ ؛ رَأَيْتُ فِي ذَلِكَ مَعْنَى مِنْ ضَيْقِ اللَّصِّ وَسَعَتِهِ ؛ هُوَ عَلَى أَيْ حَالِهِ لَا يَنْظُرُ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ إِلَّا شَخْصًا مُتَوَارِيًا تَحْتَ الظَّلَامِ يَسْلُلُ فِي خَشْيَةٍ وَحَذَرٍ !

وَكُنْتُ نَزَقًا حَدِيدَ الطَّنَعِ سَرِيعَ الْبَادِرَةِ ؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مِثْلِ اللَّصِّ الَّذِي



ذَكَرْتُ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الطَّبَاعُ تَكُونُ هِيَ أَسْلِحَتَهُ يَذْفَعُ بِهَا أَوْ يَغْتَدِي . وَمَا قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَاطَ بِهَا وَتَقَدَّرَ فِيهَا تَصَرُّفُهُ ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِذْ يَتَّصِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجَهْتِهِ السَّامِيَةِ لَا غَيْرَهَا ، حَتَّى فِي اتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ فَمَا يَرَى هُنَا وَلَا هُنَا إِلَّا أَمْنِيحَانًا لِفَضَائِلِهِ وَإِثْبَاتًا لَهَا . وَقَدْ يَكُونُ عَدُوُّكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ عَيْنًا لَكَ فِي رُؤْيَا نَفْسِكَ ؛ فَيَهِيَ بَرَكَةُ هَذِهِ الْحَاسَةِ وَنِعْمَتُهَا .

وَلَوْ تَخَلَّيْنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ ، وَإِسْلَامَ الْمُفْتَدِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ - لِأَدْرَكْنَا سِرَّ الْكَمَالِ الْإِسْلَامِيِّ ؛ وَهُوَ أَنْ يَقَرَّ الْإِنْسَانُ فِي عَالَمِهِ نَفْسَهُ وَيَجْعَلَ بَاطِنَهُ كَبَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَهِيٍّ ، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا قَانُونُهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَمِرُّ بِهِ إِلَى جِهَةِ الْكَمَالِ ، الْمُرْتَبِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوَافِعٍ غَيْرِهِ ؛ فَتَطَرُّ الْإِنْسَانُ إِلَى نَقْصٍ غَيْرِهِ هُوَ أَوَّلُ نَقْصِهِ . وَالْمُؤْمِنُ كَالْغَضَنِ ؛ إِنْ أَتَمَّرَ فِتْلَكَ نِمَارَ نَفْسِهِ ، وَإِنْ عَطَلَ لَمْ يَسْخَدْ وَلَمْ يَخْسَدْ وَاسْتَمَرَّ يَعْمَلُ بِقَانُونِهِ .

وَلَقَدْ نَشَأْتُ فِي مَغْرَسِ كَرِيمٍ ، عَلَى صُورَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ تُشَبِّهُ صُورَةَ النَّمْرِ الْخُلُوةِ ، اجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيعَةِ مَغْرَسِهَا وَمَرْبَتِهَا مَا تَتَّعَيْنُ بِهِ مِنْ حَلَاوَةٍ وَنَكْهَةٍ وَمَذَاقٍ ؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ وَعَرَفْتُ النَّاسَ بَعْدَ فَجَارِيَتِهِمْ وَخَالَطْتُهُمْ ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَالْتَفَاحَةِ مُلْقَاةً فِي الْبَصْلِ ... وَكَانَتْ التَّفَاحَةُ حَمَقًا فَرَادَتْ حُمَقًا ، وَكَانَتْ حَدِيدَةً فَرَادَتْ حَدَّةً ، وَظَنَّتْ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ مَسَخَتْ فِي الدُّنْيَا وَبَدَلَتْ إِذْ خَلَقَتْ الْبَصْلَةَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَتْ التَّفَاحَةَ ؛ وَمَا عَلِمَتْ الْخَرْقَاءُ أَنَّ الْكَمَالَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَجْمُوعُ نَقَائِصٍ ، وَأَنَّ لِلْجَمَالَ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا الَّذِي أَسْمُهُ الْقُبْحُ ؛ لَا يُعْرَفُ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا ؛ وَأَنَّ الْبَصْلَةَ لَوْ أَدْرَكْتَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّفَاحَةِ لَسَمَّتْ نَفْسَهَا هِيَ التَّفَاحَةُ ، وَقَالَتْ عَنْ هَذِهِ : إِنَّهَا هِيَ الْبَصْلَةُ !

وَلَمَّا رَأَتْ تَفَاحَتِي أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مِثْلِ مَرْبَتِهَا وَمَغْرَسِهَا قَالَتْ : إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيعَتِي ، وَمَا دَامَ سِرُّ الْكَوْنِ مُغْلَقًا فَلَا تَعْرِيفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ سِرٌّ مُغْلَقٌ ، وَلِيَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا .

\* \* \*

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ : وَلَكِنْ بَقِيَتْ وَخْشَةُ الدُّنْيَا وَجَفَوْنَهَا ، إِذْ لَمْ أَكُنْ أَهْتَدِثُ إِلَى عَالَمِي ، وَلَا تَأَكَّدْتُ عَقِيدَتِي بِنَفْسِي ؛ فَكَانَ كُلُّ مَا حَوْلِي مُنْبَجَسًا فِي رُوحِي بِشَرِّهِ ،

وَكَانَتْ الدُّنْيَا بِهَذَا كَالْمُتَطَابِقَةِ فِي رَأْيِي عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَرَأَيْتُنِي أَنِّي كُنْتُ رَجُلًا عَزَبًا مُتَعَفِّقًا ؛ وَمَا أَشْبَهَ فَرَاغَ الرُّجُولَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ بِفَرَاغِ الْعَقْلِ مِنَ الذِّكَاةِ ؛ هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَلِيدُ ، وَتِلْكَ هِيَ الرُّجُولَةُ الْبَلِيدَةُ !

وَالْمَرْأَةُ تَصَاعِفُ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي النَّفْسِ ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الْخَلَاءُ مِنْهَا مُصَاعَفَةً لِمَعْنَى الْمَوْتِ ؛ عَلِمَ هَذَا مَنْ عَلِمَ وَجْهَهُ مِنْ جَهْلِ ، فَكُنْتُ أَعِيشُ مِنَ الْكَوْنِ فِي فَرَاغٍ مَيِّتٍ ، وَكُنْتُ أُحِسُّ فِي كُلِّ مَا حَوْلِي وَخْشَةً وَعَقْلِيَّةً تُشْعِرُنِي أَنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ تَامَةٍ ؛ وَكَيْفَ تَتِمُّ فِي عَيْنِي دُنْيَا أَرَاهَا غَيْرَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي ؟

وَعَرَفْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَى الرَّجُلِ الْعَزَبِ الْمُتَعَفِّفِ لَا يَمْضِي حَتَّى يُهَيِّئَ فِيهِ مَرَضَ يَوْمٍ آخَرَ . وَمِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَرِيضَةِ الْمُهَالِكَةِ ، تُعَدُّ الْحَيَاةُ اتِّقَامَهَا مِنْ هَذَا الْحَيِّ الَّذِي نَقَضَ آيَتَهَا وَأَفْتَاتَ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ كَالْإِلَهِ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ !

وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الزَّانِيِ وَبِالْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الْعَزَبِ وَبِالْمَرْأَةِ الْعَزَبَاءِ ؛ لِأَنَّهُ فِي ذَنْبِكَ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِهَا ، أَمَا فِي هَذَيْنِ فَالشَّيْطَانُ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِ فَضِيلَةٍ ... ! هُنَاكَ يَلْمُ الشَّيْطَانُ وَيَمْضِي ، وَهُنَا يَأْتِي الشَّيْطَانُ وَيَقِيمُ !

وَقَدْ عِشْتُ مَا عِشْتُ بِقَلْبٍ مُغْلَقٍ وَعَقْلٍ مَفْتُوحٍ ؛ وَلَيْتَنِي كُنْتُ جَاهِلًا مُغْلَقًا عَقْلُهُ ، وَكَانَ قَلْبِي مَفْتُوحًا لِأَفْرَاحِ هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ !

وَمَضَتْ أَيَّامِي يَقْضِرُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيُمْرِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى أَنْتَهَتْ مُنْتَهَاهَا ، وَجَاءَ الْيَوْمُ الْمُذْنَقُ الْهَالِكُ الَّذِي سَيَمُوتُ ...

أَصْبَحْتُ فَقُلْتُ لِنَفْسِي : كَمَا تَعِيشِينَ وَنَحَكِ فِي أَحْكَامِ جَسَدٍ مُخْتَلٍّ لَا تَصْدَقُ أَحْكَامُهُ ، وَمَا أَنْتَ مَعَهُ فِي طَبِيعَتِكَ وَلَا هُوَ مَعَكَ فِي طَبِيعَتِهِ ؛ فَفِيمَ اجْتِمَاعُكُمَا إِلَّا عَلَى بِلَافِي وَنَكَدِي ؟

لَمْ تَصْطَلِحَا قَطُّ عَلَى وَاجِبٍ وَلَا لَذَّةٍ ، وَلَا حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ ؛ فَأَنْتُمَا عَدُوَّانِ لَا هَمَّ لِكُلَيْهِمَا إِلَّا إِفْسَادُ الْمَسَرَّةِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْآخِرِ . وَمَا أَدْرِي بِمَنْ يَسْخَرُ الشَّيْطَانُ مِنْكُمَا ؟ فَالْعَابِدُ الَّذِي يُوسَّسُ بِاللَّذَاتِ يَتَمَتَّى أَفْتِرَافَهَا ، كَالْفَاجِرِ الَّذِي يُوَاقِعُهَا وَيَقْتَحِبُهَا !

وَيَحْكُ يَا نَفْسُ ! إِنِّي رَأَيْتُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْخَرْقَاءَ لَمْ تُقَدِّمْ لِي إِلَّا رَغِيغًا وَقَالَتْ : أَمْلَأْ  
بِهَذَا بَطْنَكَ وَعَقْلَكَ وَعَيْنَيْكَ وَأُذُنَيْكَ وَمَشَاعِرَكَ . آه ، آه ! مُمَكِّنْ وَاحِدَ مَعَهُ أَرْبَعَةَ  
مُسْتَحِيلَاتٍ<sup>(١)</sup> ؛ إِنَّ هَذَا لَا يُلْبِسُنِي أَنْ يَذْهَبَ مِنِّي بِالْأَرْبَعَةِ الَّتِي تُمَسِّكُنِي عَلَى الْحَيَاةِ :  
الْأَمَلِ وَالْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ .

لَقَدْ اسْتَوَى فِي هَذِهِ الْكَابَةِ صَغِيرٌ هَمِّي وَكَبِيرُهُ ، وَمَا أَرَانِي إِلَّا قَدْ أَشْرَفْتُ عَلَى الْهَلَكَةِ  
الَّتِي لَا بَاقِيَةَ لَهَا ، فَإِنْ وَجَّهِيَ الْمُتَكَلِّحُ الْمُتَقَبِّضُ يَذُلُّ مِنِّي عَلَى أَغْصَابِ مُخْضَرَّةٍ نَهَكَتْهَا  
أَمْزَاضُهَا وَوَسَاوِسُهَا ، وَإِنَّمَا وَجْهُ الْإِنْسَانِ فِي قُطُوبِهِ أَوْ تَهْلِيلِهِ هُوَ وَجْهُهُ وَوَجْهُ دُنْيَاةٍ نَعِسُ  
أَوْ تَبَسُّمُ .

وَاللَّهِ لَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ كِفَاحِ الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْأَغْصَابِ الْمَرِيضَةِ الْوَاهِتَةِ ؛ فَإِنْ حَبَالَةَ الصَّيْدِ  
- صَيْدِ الْوُحْشِ - لَا تَكُونُ مِنْ خِيَطِ الْإِبْرَةِ ... ! وَأَرَانِي أَصْبَحْتُ كَالْإِنْسَانِ حَجَرِي لَيْسَ فِي  
طَبِيعَتِهِ الْإِلْتِمَاءُ إِلَى يَمِينِ الْحَيَاةِ وَيَسَارِهَا ؛ وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ مِنْ صَلَاتِي أَنَّي الْأَسَدُ ، وَلَكِنِّي  
أَسَدٌ مِنْ حَجَرٍ ، لَا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ الْفِرَارَ مِنْهُ عَلَى أَحَدٍ !

\* \* \*

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ : وَرَأَيْتُ نَفْسِي فِي هَذَا الْحَوَارِ كَالْمَيْمَةِ ، لَا تَحِبُّ وَلَا تَعْتَرِضُ وَلَا  
تُنْكِرُ ، وَكُنْتُ أَظْلُمُهَا تَرَاوِدُنِي عَلَى الْحَيَاةِ أَوْ تَرُدُّنِي عَنْ غَوَايِي ؛ فَمَلَأْنِي سُكُونُهَا جَزَعًا  
وَأَبْقَيْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَأَنَّهُ أَخَذَ بِمَنَافِذِهَا ، فَأَرَدْتُ الصَّلَاةَ فَتَقَلَّتْ عَنْهَا وَرَأَيْتُنِي  
لَا أَصْلِحُ لَهَا ، بَلْ خِيَلُ إِلَيَّ أَنِّي إِذَا قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا قُمْتُ لِأَتَهَرَّأَ بِالصَّلَاةِ !

وَجَعَلَ الشَّيْطَانُ بِأَخْذِي عَنْ عَقْلِي وَيَرُدُّنِي إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَأْخُذْنِي وَيَرُدُّنِي ، حَتَّى تَوَهَّمْتُ  
أَنِّي جُنُنْتُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يُرِيدُ اللَّعِينُ بَقِيَّةَ إِيْمَانِي يُجَادِبُنِي فِيهَا وَأَجَادِبُهُ ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ  
مَسَّنِي خَبَالٌ وَالْقَيْتُ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ فِي يَدَيْهِ !

ثُمَّ أَقَفْتُ إِفَاقَةً سَرِيعَةً ، فَرَأَيْتُ (الْمُضْخَفَ) يَرْقُبُنِي مِنْ قَرِيبٍ<sup>(٢)</sup> ، فَعَذْتُ بِهِ وَعَطَفْتُ

(١) { الرَغِيغُ بَمَلَأُ الْبَطْنَ ، فَهَذَا هُوَ الْمُمَكِّنُ ، وَلَكِنَّ عَمَلَهُ فِي الْبَاقِيَاتِ مُسْتَحِيلٌ } .

(٢) فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى : « يَرْقُبُنِي قَرِيبٌ » بَدَلًا مِنْ : « يَرْقُبُنِي مِنْ قَرِيبٍ » .

عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : أَمْنَعُ الصَّرْبَةَ عَنْ قَلْبِي . بَيَّدَ أَنِّي أَحْسَنْتُ أَنَّهُ خَضَمَنِي فِي مَوْقِفِي لَا ظَهِيرِي ؛  
كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مُضْخَفًا عِنْدَ زَيْنَتِي ، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِي الَّذِي بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنِّي  
ضَعُفْتُ عَنْ حَمْلِ الْمُضْخَفِ كَمَا ثَقُلْتُ عَنِ الصَّلَاةِ ، فَبَقِيَ الطَّاهِرُ طَاهِرًا وَالنَّجِسُ نَجِسًا .

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِي وَلَا كُنْتُ فِيهَا ؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا أَذْرِي مَا هُوَ ، غَيْرَ أَنَّهُ  
هُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَغْفُولًا مِنْ تَخَالِيفِ مَجْنُونٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ ، بَقَايَا شُعُورٍ  
ضَعِيفٍ ، وَبَقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا ، وَتَحَاقَرُ بِهِمَا الْعَقْلُ .

فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَغْقِلْ مَا عَمِلْتُ ، وَكَانَتْ أَلْمُوسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ يَدِي عِزًّا  
نَاشِرًا مُتَشِيرًا ، فَقَارَ الدَّمُ وَأَنْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْيَبْنُوعِ ضُرِبَ عَنْهُ الصَّخْرُ فَأَنْشَقَ فَأَنْبَثَ .

وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَتَنَظَّرْتُ فَرَأَيْتُ ...

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ رَاوِي الْقِصَّةِ : وَتَجَهَّمُ وَجْهَ الرَّجُلِ فَأَطْرَقَ وَسَكَتَ ، وَكَانَ عَلَى وَجْهِهِ  
شَفَقٌ مُخَمَّرٌ فَأَظْلَمَ بَعْتَهُ عِنْدَمَا قَالَ : « فَتَنَظَّرْتُ فَرَأَيْتُ » .

وَأَزْتَجَّ الْمَسْجِدُ بِصَبِيحَةِ وَاحِدَةٍ : فَرَأَيْتُ مَاذَا ؟ رَأَيْتُ مَاذَا ؟

وَبَعَثَتِ الصَّبِيحَةُ أَبَا مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ : رَأَيْتُ ثَلَاثَةَ وُجُوهِ أَشْرَفَتْ مِنَ الْمُضْخَفِ تَنَظَّرُ إِلَيَّ  
كَالْعَائِيَةِ ، وَكَانَ أَوْسَطُهَا كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي  
نُضْرَتِهِ وَبَشَاشَتِهِ . وَغَمَغَمَتِ { الْوُجُوهُ الثَّلَاثَةُ } بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَكِنَّ  
نَظَرَهَا إِلَيَّ كَانَ يُؤَدِّي لِي مَعَانِيَهَا ، وَكَأَنَّمَا تَقُولُ : « أَكْذَلِكَ الْمُؤْمِنُ ... ؟ » .

ثُمَّ غَابَتْ وَتَخَلَّتْ عَنِّي وَبَرَزَتْ ثَلَاثَةُ وُجُوهِ أُخْرَى ، كَأَنَّمَا تَقَافِضُ تِلْكَ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ  
مِنْ أَوْسَطُهَا ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نُكْرِهِ وَهَوْلِهِ ، وَخِيَلُ إِلَيَّ أَنَّ  
الْوَجْهَ الْأَصْغَرَ مِنْهَا وَجْهَ سُورَةِ مِنَ سُورِ الْمُضْخَفِ ، فَفَكَّرْتُ ، فَوَقَعَ لِي مِمَّا قَامَ فِي نَفْسِي  
مِنْ اللَّغْنَةِ أَنَّهَُا : ﴿ تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ . [ ١١١ سورة المسد/ الآية : ١ ] .

وَطَمَسَ الظَّلَامُ هَذِهِ الرُّؤْيَا ، وَتَغَيَّمَتِ الدُّنْيَا ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّ أَنَا مِثْلُ قَدْ أَقْبَلْتُ عَلَى ظُلْمَةٍ  
بَعْدَ ظُلْمَةٍ ، وَالتَّمَعْتُ شَيْءَ أَحْمَرَ ، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا الدَّمُ يَتَخَالِلُ فِي عَيْنِي كَأَنَّهُ شَعْلٌ تَتَلَوَّى ،

فَجَزَعْتُ أَشَدَّ الْجَزَعِ ، وَحَسِبْتُهَا طَرِيقَ مُنْتَدَى لِرُوحِي تَذَهَبُ بِهَا إِلَى الْجَحِيمِ .  
وَمَاتَتْ كُلُّ خَوَاطِرِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا فِكْرَةَ وَاحِدَةٍ بَقِيَتْ حَيَّةً تَأْكُلُ فِي قَلْبِي أَكْلَ النَّارِ ،  
وَهِيَ : « كَيْفَ تَجَرَّأْتُ فَوَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ حُفَيَّي ؟ » .

\* \* \*

وَيَقُولُونَ : إِنَّ أُخْتِي قَدْ رَأَتْنِي أَنْشَخْتُ فِي دَمِي فَصَاحَتْ ، وَجَاءَ النَّاسُ عَلَى صَوْتِهَا ،  
وَكَانَ فِيهِمْ طَيْبٌ ، فَبَعْدَ لَأَيِّ مَا ، اسْتَطَاعَ حَسْبُ الدَّمِ ، وَأَحْتَالَ حِيلَتُهُ حَتَّى أَسَفَ الْجُزْخَ  
دَوَاءً وَضَمَدَهُ ؛ فَجَعَلْتُ أَنْوُبُ نَفْسًا بَعْدَ نَفْسٍ ، وَرَاجَعْتُ قَلِيلًا قَلِيلًا . . .

ثُمَّ طَافَتِ الْحَيَاةُ عَلَى عَيْنَيَّ فَفَتَحْتُهُمَا ، فَإِذَا الْأَشْيَاءُ تَبَدُّوْا لِي وَلَيْسَ فِيهَا حَقَائِقُ وَلَا  
مَعَانٍ ، كَأَنَّهَا تَتَخَلَّقُ جَدِيدَةً تَحْتَ بَصَرِي ، وَكَأَنَّهَا خَارِجَةٌ لِسَاعَتِهَا مِنْ يَدِ اللَّهِ !  
وَتَمَانَّلْتُ شَيْئًا بَعْدَ سَاعَاتٍ ، فَأَحْسَسْتُ أَنَّ نَفْسِي قَدْ رَجَعَتْ إِلَيَّ سَاحِرَةً مِنِّي تَقُولُ :  
كَيْفَ رَأَيْتَ عَمَلَ الْعَقْلِ أَهْيَا الْعَاقِلُ ؟

وَبَدَأَتْ الْحَيَاةُ تَتَجَدَّدُ ، فَأَسَمْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي أَنْ أُجَدِّدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ . وَلَمْ أَكْذُ أَفْعَلُ  
حَتَّى أَحْسَسْتُ كَأَنَّ قُوَّةَ الوجودِ كُلَّهَا مُسْتَقَرَّةٌ فِي رُوحِي ، وَخِيلَ إِلَيَّ أَنِّي أَنَا وَحْدِي الْقَوِيُّ  
عَلَى هَلْزِهِ الْأَرْضِ قُوَّةَ جِبَالِهَا وَصُخُورِهَا ، عَلَى حِينٍ كَانَ جِسْمِي مُمَدَّدًا كَالْمَيْتِ  
لَا يَتِمَّاسُكَ مِنَ الضَّعْفِ !

فَأَيْقَنْتُ حِينَئِذٍ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ قَطُّ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ أَشْعُرْ بِهِ قَطُّ فِي الْحَيَاةِ وَلَمْ يَأْتِنِي بِهِ عِلْمٌ  
وَلَا فِكْرٌ : أَيْقَنْتُ أَنَّهَا مُعْجَزَةُ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ الْغَضِّ ، الْمُتَّصِلِ بِاللَّهِ لِنُورِهِ كإِيمَانِ الْأَنْبِيَاءِ  
دُونَ أَنْ تَلْمَسَهُ شَهْوَةٌ ، أَوْ تَعْتَرِضَهُ خَاطِرَةٌ ، أَوْ تُكَدِّرُهُ ذَرَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِكْرِ أَرْضِي دَنَسٍ .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : ثُمَّ جَلَسَ الْمُتَحَدِّثُ ، وَكَانَ النَّاسُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ كَأَنَّمَا غَادَرُوا الدُّنْيَا  
سَاعَةً ، وَرَجَعُوا إِلَيْهَا عَلَى مِثْلِ حَالَتِهِ وَمِثْلِ إِيمَانِهِ ؛ فَسَكَتَ الْإِمَامُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ، لِيَدْعَ كُلَّ  
نَفْسٍ تُكَلِّمُ صَاحِبَهَا .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَطْرَقَ النَّاسُ قَلِيلًا بَعْدَ خَبَرِ (أَبِي مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيِّ) ؛ إِذْ كَانَ  
كُلُّ مِنْهُمْ قَدْ جَمَعَ بِاللَّهِ لِمَا سَمِعَ ، وَأَخَذَ يَخْدِسُ فِي نَفْسِهِ وَيُرَاجِعُهَا الرَّأْيَ ، وَكَانَ الْمَجْلِسُ  
قَدْ أَمْتَدَّ بِنَا مِنْذُ الْعَصْرِ وَمَا يَكَادُ النَّهَارُ يُشْعِرُنَا بِإِذْبَارِهِ ، حَتَّى اعْتَرَضَتْ فِي شَمْسِهِ الْغُبْرَةُ الَّتِي  
تَعْتَرِيهَا إِذْ دَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ . وَكَانَ إِلَيَّ يَسَارِي فَتَى رَيَّانَ الشَّبَابِ ، حَسَنَ الصُّورَةِ ، وَضِيءَ  
مُشْرِقٍ ، لَهُ هَيَاةٌ وَسَمْتُ ، أَقْبَلَ عَلَيَّ الْأَيَّامَ ، وَأَقْبَلَتْ الْأَيَّامُ عَلَيْهِ .

فَسَمِعَنِي أَطْلُبُ عَلَى أُذُنِ (مُجَاهِدِ الْأَزْدِيِّ) ؛ وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ شَاعِرًا فِي كَلَامِهِ وَشَاعِرًا فِي  
قَلْبِهِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّهَارِ يَا مُجَاهِدُ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ الْمُجَبِّ دَنَا لَهُ الْمَوْعِدُ ؛ وَلَمْ  
يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَتَلَفَّفُ صَاحِبَتُهُ ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا ثَوْبَهَا وَغَلَّابِلَهَا ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ  
تُسْفِطَهَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا ، لَتَرَى جَمَالَ جِسْمِهَا هُنَا وَهُنَا !

فَاهْتَرَّ الْفَتَى لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَسَالَتْ الرِّقَّةُ فِي أَغْطَافِهِ ، وَقَالَ : يَا عَمَّ ! أَمَا تَرَى  
مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ وَجْهَ بَاكِ مَسَحَ دُمُوعَهُ وَلَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا كِتَابُهُ الزَّمَنِ . . . ؟

قُلْتُ : كَانَ لَكَ خَبَرًا يَا فَتَى ، فَإِنْ كَانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقَضِهِ عَلَيْنَا وَعَلَّلْنَا بِهِ سَائِرَ  
الْوَقْتِ إِلَى أَنْ تَجِبَ الشَّمْسُ ، وَلَعَلَّكَ طَائِرٌ بِنَا طَيْرَةٌ فَوْقَ الدُّنْيَا .

قَالَ : فَمَهْ ؟

قُلْتُ : تَقُومُ فَتَتَكَلَّمُ ، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَانًا وَبَيَانًا .

قَالَ : أَوْ يَخْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرَعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيْعِهِ ، وَعَاشِقَةٍ وَعَاشِقِي ؟

فَبَادَرَ مُجَاهِدٌ فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا فَتَى ! لَقَدْ تَحَجَّزْتَ وَاسِعًا ؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُصَلِّي بَيْنَ

يَدْنِي اللَّهُ وَكَتَابَ سَيِّئَاتِهِ فِي عُنُقِهِ مَنْشُورٌ مَقْرُوءٌ . وَهَلْ أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ إِلَّا سَاعَاتُ قَلْبِيَّةٍ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ الزَّمَنِ ، تَأْتِي السَّاعَةُ مِمَّا قَبْلَهَا كَمَا تَأْتِي تَوْبَةُ الْقَلْبِ مِمَّا عَمِلَ الْجِسْمُ ؟ إِنَّمَا يَتَلَقَّى الْمَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِسَاعَتِهِ الَّتِي يَدْخُلُهُ فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّهُ حَاسِبُهُ عَنْ أَمْسٍ وَأَوَّلٍ مِنْهُ وَمَا خَلَا مِنْ قَبْلُ ، لَطَرَدَهُ مِنَ الْعَتَبَةِ ! إِنَّ الْمَسْجِدَ يَا بُنَيَّ إِنَّمَا يَقُولُ لِدَاخِلِهِ : أَذْخُلُ فِي رَمَنِي وَدَعِ رَمَنَكَ ، وَتَعَالَ إِلَيَّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْأَرْضِيُّ ، لَتَتَحَقَّقَ أَنَّ فِيكَ حَاسَةً مِنَ السَّمَاءِ ، وَجَنَّتِي بِقَلْبِكَ وَفَكْرِكَ ، لِيَشْعُرَا سَاعَةً أَنَّهُمَا فِيَّ لَا فِيكَ <sup>(١)</sup> . وَلَسْنَا آلَانَ يَا بُنَيَّ فِي مُحَدَّثٍ كَنَدِي الْقَوْمَ يَتَطَارَحُونَ فِيهِ أَخْبَارَهُمْ ، بَلْ نَحْنُ فِي مَجْلِسٍ عِلْمٍ تَكَلَّمْتُ فِيهِ رَقَبَةً هَذَا وَرَقَبَةً هَذَا بِمَا سَمِعْتُ ؛ فَقُمْ أَنْتَ فَادْكُرْ عِلْمَ قَلْبِكَ وَقُصِّ عَلَيْنَا خَبَرَ طَيْشِ الْحُبِّ وَالشَّبَابِ الَّذِي يُشْبِهُ الْكَلَامَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا عَنِ الصُّعُودِ إِلَى الْقَمَرِ وَالْقَبْضِ مِنْ هُنَاكَ عَلَى الْبَرَقِ !

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَأَنْتَهَضَ الْفَتَى ، وَرَأَيْتُ مُجَاهِدًا يَنْهَدُ كَأَنَّمَا أَنْصَدَعَتْ كِبْدُهُ : فَقُلْتُ : مَا بِأَلْكَ ؟ قَالَ : إِنَّ شَبَابِي قَدْ مَرَّ عَلَيَّ السَّاعَةُ فَتَسَمْتُ مِنْهُ فِي بَرْدَةٍ هَذَا الْفَتَى ، ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَقَدْ تَأْنِيًا فَهَرَمْتُ هَرَمًا ثَانِيًا ، وَجَاءَنِي الْحُزْنُ مِنْ إِحْسَاسِي بِأَنِّي شَيْخٌ ، حُزَنَ مِنْ هَمٍّ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَبِيبٍ ثُمَّ رُدُّ ... !

وَتَحَدَّثَ الْفَتَى ، فَإِذَا هُوَ يُدِيرُ بَيْنَ فَكَّيْهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيمٍ ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ بِنَفْسَيْنِ : إِحْدَاهُمَا بَشَرِيَّةٌ تَصْنَعُ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ ، وَالْأُخْرَى عُلُوبِيَّةٌ تُلْقِي فِيهَا النَّارَ وَالنُّورَ .

قَالَ : إِنَّ لِي قِصَّةَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ، لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْكَلَامُ الَّذِي دُفِنَتْ فِيهِ مَعَانِيهَا ؛ وَقَدْ تَأْنِي الْقِصَّةُ مِنْ أَخْبَارِ الْقَلْبِ مُفَعَّمَةً بِالْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ ، لَا يُرَادُ بِالْأَلَامِ وَأَحْزَانِهَا إِلَّا إِنْجَادُ أَخْلَاقٍ لِلْقَلْبِ يَعِيشُ بِهَا وَيَتَبَدَّلُ . وَالَّذِي قَدَّرَ عَلَيْهِ الْحُبُّ لَا يَكُونُ قَدْ أَحَبَّ غَيْرَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَكُونُ قَدْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَنْسَى نَفْسَهُ فِي غَيْرِهِ ، وَهَلِيهِ كَمَا هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْحُبِّ ؛ فَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِحْسَانِ .

(١) { سَتَأْتِي فَلَسَفَةُ الْمَسْجِدِ فِي مَقَالَاتٍ أُخْرَى مِمَّا يَجْمَعُ هَذَا الْكِتَابَ ، وَانْظُرْ مَقَالَه : « اللَّهُ أَكْبَرُ » . }

وَمَتَى صَدَقَ الْمَرْءُ فِي حُبِّهِ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِكْرَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا فِكْرَةٌ وَالْأُخْرَى عَقِيدَةٌ تَجْعَلُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ نَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ ؛ وَهَلِيهِ كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْحُبِّ فَهِيَ طَبِيعَةُ الَّذِينَ . وَلَا شَيْءَ فِي الدُّنْيَا غَيْرَ الْحُبِّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْقِلَ إِلَى الدُّنْيَا نَارًا صَغِيرَةً وَجَنَّةً صَغِيرَةً ، يَقْدِرُ مَا يَكْفِي عَذَابَ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أَوْ نَعِيمَهَا ! وَهَلِيهِ حَالَةٌ فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ .

وَالْفَضَائِلُ عَامَّتُهَا تَعْمَلُ فِي نَفْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَقَدْ لَا تَنْقُلُ إِلَّا أَقْلَهُ وَيَبْقَى فِي الْحَيَوَانِيَّةِ أَكْثَرُهُ ؛ وَلَكِنَّ الْحُبَّ الصَّادِقَ يَقْتُلُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيَوَانِيَّتِهِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، بَيِّدَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا قَتَلَهُ بِالْأَمْرِ ؛ فَهُوَ كَأَعْلَى السُّكِّ وَالْعِبَادَةِ .

كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي دُعِيتُ يَوْمًا إِلَى مَا يُدْعَى لِمِثْلِهِ الشَّبَابُ فِي مَجْلِسٍ غِنَاءٍ وَشَرَابٍ . يَا لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٦] ، وَالْبَعُوضَةُ فِي قِصَّتِي أَنَا كَانَتْ أَمْرًا نَصْرَانِيَّةً ... قَيْنَةً فُلَانٍ الْمُغْنِيَةِ الْحَادِقَةِ الْمُخْسِنَةِ الْمُتَادِبَةِ ، تَحْفَظُ الْحَبَرَ وَتَرْوِي الشَّعْرَ ، وَتَتَكَلَّمُ بِالْفَاطِطِ فِيهَا حَلَاوَةً وَجْهَهَا ، وَتَخْلُقُ الْكَلِمَةَ إِذَا شَاءَتْ خَلَقَ الزُّهْرَةَ الْمُتَفَتِّحَةَ عَلَيْهَا سَقِينَةُ التَّدْنَى ؛ وَتَجِدُ بِالْحَدِيثِ مَا شَاءَتْ وَتَهْزُلُ ، فَتَجْعَلُ لِلْكَلَامِ عَقْلًا وَشَهْوَةً تُضَاعِفُ بِهِمَا مَنْ تُحَدِّثُهُ فِي شَهَوَاتِهِ وَعَقْلِهِ !

وَسَتَجْرِي فِي قِصَّتِهَا الْفَاطِطُ الْقِصَّةُ نَفْسِهَا ، لَا أَنَاثُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أُنْدَمُ ؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْخَمْرَ بِلَفْظِ الْخَمْرِ وَلَمْ يَقُلْ : « الْمَاءُ الَّذِي فِيهِ السُّكَّرُ » ، وَوَصَفَ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَقُلْ : « الْمَلَكُ الَّذِي عَمِلَ عَمَلُ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فِي تَكْبِيرِهَا » ، وَذَكَرَ الْأَصْنَامَ بِأَنَّهَا الْأَصْنَامُ ، وَلَمْ يُسَمِّهَا : « حَامِلَةُ السَّمَاءِ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ » وَحِكَايَةً مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ هِيَ كَلَامٌ يَقْبَلُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَلْتَرِمُ وَيَتَعَانَقُ !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَتَسَمَّ إِمَامُنَا وَنَظَرْتُ عَيْنَاهُ تَسْأَلَانِ سُؤَالَ . أَمَّا مُجَاهِدُ الْأَرْدِيِّ فَكَانَ مِنْ هَرَّةِ الطَّرَبِ كَأَنَّهُ عَلَى قَتَبٍ بَعِيرٍ ، وَقَالَ : اللَّهُ دَرُّهُ فَتَى ، إِنَّ هَذَا لَبَيَانٌ كَحَيْلِ الْعَيْنِ ... ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَذَهَبْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ وَقَدْ جَعَلْتُهُ هَذِهِ الْمُغْنِيَّةُ مِنْ حَوَاشِيهِ وَأَطْرَافِهِ كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهَا هِيَ . أَمَّا هِيَ فَجَعَلْتُ نَفْسَهَا تَفْسِيرًا لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ : « اللَّدَّةُ ... » .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَطَرِبَ مُجَاهِدٌ طَرَبًا شَدِيدًا وَسَمِعْتُهُ يُخَافُ بِصَوْتِهِ يَقُولُ : « اللَّهُ دَرُّهَا أَمْرًا ؛ هَلِ هَذِهِ ، هَذِهِ عَبْدُ اللَّهِ الْخُورِ الْعَيْنِ ! » .

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَتَطَرَّبَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ إِلَى الشُّرْبِ ، وَمَا ذُقْتُ خَمْرًا قَطُّ ، وَلَنْ أَتَذَوَّقَهَا وَلَوْ شَرِبَهَا النَّاسُ جَمِيعًا ، وَلَنْ أَذُوقَهَا وَلَوْ أَنْقَطَعَ الْغَيْثُ وَلَمْ تُمَطِّرِ السَّمَاءُ إِلَّا خَمْرًا ؛ فَإِنِّي مُذْ كُنْتُ يَافِعًا رَأَيْتُ أَبِي يَشْرِبُهَا ، وَكَانَتْ أُمِّي تَلُومُهُ فِيهَا وَتَشْتَدُّ فِي تَعْنِيهِهِ وَتَحْتَدِمُ ، وَكَانَا يَتَسَاحَتَانِ فَيَبَالُغَانِ بِالْأَذَى وَيَنْدَرِي عَلَيْهَا بِالسَّبِّ وَفُحْشِ الْقَوْلِ ، وَسَكِرَ مَرَّةً وَغَلَبَهُ الشُّكْرُ حَتَّى ثَارَتْ أَحْسَاؤُهُ ، فَذَرَعَهُ الْقِيءُ فَتَوَهَّمَنِي وَعَاءً ، وَجَاءَ إِلَيَّ وَأَنَا جَالِسٌ فَأَمْسَكَ بِي وَفَاءً فِي حِجْرِي ، حَتَّى أَفْرَغَ جَوْفَهُ ؛ وَثَارَتْ أُمِّي لِتَنْزَعِهِ وَأَنْشَأَتْ تَعَالِجُهُ عَنِّي فَتَصَارَعَ جُنُونُهُ وَعَقْلُهَا حَتَّى كَفَّاهُ عَلَى وَجْهِهِ كَالْإِنَاءِ ؛ فَالْتَوَى كَالْحَيَّةِ بَطْنًا لَظْهَرٍ ، وَاسْتَجَمَعَ كَالْقَنْظِ فِي شَوْكِهِ ، ثُمَّ لَكَرَهَا بِرِجْلِهِ اسْفَلَ بَطْنِهَا فَانْقَلَبَتْ ، فَأَصَابَ رَأْسُهَا إِبْجَانَهُ<sup>(١)</sup> الْعَجِينِ فَتَلَمَّ تَلِيمًا إِنْجَانًا كَأَنَّمَا شَدِخَ ضَرْبًا بِحَجَرٍ ، وَانْتَشَرَ دِمَاعُهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمَامَ عَيْنِي ، وَرَأَيْتُهَا لَمْ تَرُدْ عَلَى أَنْ دَفَعَتْ بِأَحْدَى يَدَيْهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَضَمَّتْ بِالْأُخْرَى إِلَى صَدْرِهَا ، تَتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَحْمِينِي وَتَذْفَعُهُ عَنِّي ؛ ثُمَّ سَكَتَتْ ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ مِنَ الشَّجَةِ فِي رَأْسِهَا لَمَاتَتْ مِنَ الضَّرْبَةِ فِي بَطْنِهَا !

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَطْرَقَ الْفَتَى هُنَيْهَةً وَأَطْرَقَ النَّاسُ مَعَهُ ؛ فَرَفَعَ مُجَاهِدٌ صَوْتَهُ وَقَالَ : رَحِمَهَا اللَّهُ ! فَقَالَ النَّاسُ جَمِيعًا : رَحِمَهَا اللَّهُ !

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَكَانَ عَامَّةُ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَوْ سَاعَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَشْرَبَ دَمَ أُمِّهِ مَا شَرِبْتُ أَنَا الْخَمْرَ . فَقَالُوا لِلْمُعْتَبَةِ : إِنَّ هَذَا لَا يَدْخُلُ فِي دِيُونَانَا<sup>(٢)</sup> . فَتَطَرَّتْ إِلَيَّ ، وَهَرَبْتُ أَنَا مِنْ نَظَرِهَا بِإِطْرَاقَةٍ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : تَشْرَبُ عَلَى

(١) هِيَ مَا يُعْجَنُ فِيهِ الْعَجِينُ وَتُغْسَلُ فِيهِ الْيَابِ ، وَقَدْ يُوضَعُ فِيهَا الْمَاءُ لِيَتَوَضَّأَ مِنْهُ ، وَتَتَخَذُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ خَرَبٍ أَوْ غَيْرِهِمَا .

(٢) تَعْبِيرٌ قَدِيمٌ كَانُوا يُرِيدُونَ بِهِ الشُّرْبَ ، كَأَنَّهُ دِيْوَانُ مَلِكٍ .

وَجِهِي ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ وَجْهَكَ يَقُولُ لِي : لَا تَشْرَبْ . . . فَتَصَاحَكْتُ وَقَالَتْ : أَهْوَى يَقُولُ لَكَ غَيْرَ مَا يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ ؟ فَهَرَبْتُ مِنْ كَلَامِهَا بِإِطْرَاقَةٍ أُخْرَى ، وَوَصَلْتُ إِلَى طَرِيقَتَيْنِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِهَا ؛ وَتَبَّعَتْ فِيهَا مِثْلَ حَنُوءِ الْأُمِّ عَلَى طِفْلِهَا إِذَا أَذَنَتْهُ بِلِسَانِهَا فَأَطْرَقَ سَاكِتًا يَشْكُوهَا إِلَى قَلْبِهَا !

وَالْتَفَتْتُ لِمَنْ حَضَرَ وَقَالَتْ لَهُمْ : لَسْتُ أَطِيبُ لَكُمْ وَلَا تَتَفَعَّلُونَ بِي إِلَّا أَنْ تَشْرَبُوا لِي وَلَكُمْ وَلَا تُفْسِدُكُمْ ، وَأَنْحَطْ عَلَيْهِمُ السَّاقِي ، فَشَرَبُوا أَرْطَالًا وَأَرْطَالًا ، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تَعْتَبُهُمْ وَقَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهُهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ .

فَوَسَّسَ لِي شَيْطَانِي أَنْ تَشْدَدَ مَعَ هَذِهِ بِمِثْلِ عَزْمَتِكَ مَعَ الْخَمْرِ ، { فَإِنَّمَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ } . وَلَكِنِّي كُنْتُ أَحِدَ النَّظَرِ إِلَيْهَا ، فَمَرَّةً أَوَامَقُهَا نَظْرَةً الْمُحِبِّ لِلْحَبِيبِ ، { وَمَرَّةً أُغْضِي عَنْهَا بِنَظْرَةِ لَا تُنْظَرُ } ؛ وَكَأَنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ أَخْذُهَا وَأَدْعُهَا ، وَأَصِلُهَا وَأَهْجُرُهَا . فَقَالَتْ لِي كَالْمُنْكَرَةِ عَلَيَّ : مَا بِأَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا ؟ وَلَكِنَّ هِيَءَ وَجْهِهَا جَعَلَتْ الْمَعْنَى : لَا تُنْظَرُ إِلَيَّ إِلَّا هَكَذَا . . . !

وَأَسْرَعَ الشَّرَابُ فِي الْقَوْمِ وَأَفْرَطَ عَلَيْهِمُ الشُّكْرُ ؛ فَبَقِيَتْ لِي وَخْدِي وَبَقِيَتْ لَهَا وَخْدُهَا ؛ ثُمَّ تَنَاولَتْ عُودَهَا وَضَمَّتْهُ إِلَيْهَا ضَمًّا شَدِيدًا أَكْثَرَ مِنَ الضَّمِّ . . . وَالْمَسْنَةُ صَدْرَهَا وَنَهْدَ بَهِمَا ، ثُمَّ رَنَتْ إِلَيَّ بِمَعْنَى ، فَمَا شَكَكْتُ أَنَّهَا ضَمَّتْ لِي أَنَا وَالْعُودُ ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هَذَا الصَّوْتُ [من الطويل] :

أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْحَمَامَةَ غُدُوَةً عَلَى الْغُصْنِ ؛ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ عَنَّتِ ؟  
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوَيْتُ لِصَوْتِهَا وَقُلْتُ : تُرَى هَلِ ذِي الْحَمَامَةِ جُنْتُ ؟

\* \* \*

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةً قَذَفَتْ بِهَا إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعَصَاهِ وَطِيبَهُ  
صُرُوفُ الثَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكْ ظَلَّتْ . . .  
وَبَرْدُ الْحِمَى مِنْ بَطْنِ خَبْتٍ ، أَرْتَبْتُ . . .  
بِأَكْثَرِ مِثْنِي لَوَعَةٍ ، غَيْرَ أَنَّنِي أَجْمَعُ أَحْسَانِي عَلَى مَا أَجَنْتُ !  
وَعَثَّتْ غِنَاءً مِنْ قَلْبٍ يَبِئْسُ ، وَصَدْرٍ يَنْهَدُ ، وَأَحْسَاءٍ لَا تُخْفِي مَا أَجَنْتُ ؛ وَكَانَتْ تَرْتَفِعُ

بِالصَّوْتِ ثُمَّ كَأَنَّمَا يَهْمِي الدَّمْعُ عَلَى صَوْتِهَا ، فَيَرْتَعِشُ وَيَتَنَزَّلُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَبِينَ أُنَيْنُ الْبَاكِئَةِ ، ثُمَّ يَفْتَلِحُ فِي صَدْرِهَا مَعَ الْحُبِّ ، فَيَرْدُّدُ عَالِيًا وَنَازِلًا ، ثُمَّ يَرْفُضُ الْكَلَامَ فِي آخِرِهِ دُمُوعًا تَجْرِي .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَتَنَزَّلُ إِلَيَّ مُجَاهِدًا وَقَالَ : عَدُوَّةُ الْجَنَّةِ وَاللَّهِ هَذِهِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، لَا تَقْبَلُ الْجَنَّةَ مَنْ يَكُونُ مَعَهَا . تَقُولُ لَهُ : كُنْتُ مَعَ عَدُوِّي !

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ ائْتَشُوا ، فَأَعْتَرَاهُمُ نِصْفُ النَّوْمِ وَبَقِيَ نِصْفُ الْيَقَظَةِ فِي حَوَاسِهِمْ ، فَكُلُّ مَا رَأَوْهُ مِثْلَ رَأَوْهِ كَأَخْلَامٍ لَا وَجُودَ لَهَا إِلَّا خَلْفَ أَجْفَانِهِمُ الْمُثْقَلَةِ سُكْرًا وَتَعَاسًا . وَوَبَّتِ الْمَغْنَبَةُ فَجَاءَتْ إِلَى جَانِبِي وَالتَّصَقَّتْ بِي ، وَأَسْرَعَ الشَّيْطَانُ فَوَسَّوَسَ لِي : أَنْ أَخْذُرَ فَإِنَّكَ رَجُلٌ صِدْقٍ ، وَإِذَا صَدَقْتَ فِي الْخَمْرِ فَلَا تَكْذِبَنَّ فِي هَذِهِ ، وَلَكِنَّ مَسْنَنَهَا إِنَّهَا لَفَضِياعُ آخِرِ الدَّهْرِ !

فَعَجِبْتُ أَشَدَّ الْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانِي أَسْلَمَ وَأَعْنَتْ عَلَيْهِ كَمَا أُعِينُ الْأَنْبِيَاءَ عَلَى شَيَاطِينِهِمْ . وَلَكِنَّ اللَّعِينَ مَضَى يَصْدُنِي عَنِ الْمَرَاةِ دُونَ مَعَانِيهَا ، وَكَانَ مِنِّي كَالَّذِي يُذْنِي الْمَاءَ مِنْ عَيْنِي الْقَتِيلِ الْمُتَلَهَّبِ جَوْفُهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ دَائِمًا قَوْتَ فَمِهِ ، وَلَقَدْ كُنْتُ مِنَ الْفُحُولَةِ بِحَيْثُ يَبْدُو لِي مِنْ شِدَّةِ الْفُورَةِ فِي دِمِي وَشَبَابِي أَنِّي <sup>(١)</sup> أَجْمَعُ فِي جَنَسِي رَجُلًا عِدَّةً ، وَلَكِنْ ضَرَبَنِي الشَّيْطَانُ بِالْخَجَلِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكُونَ رَجُلًا مَعَ هَذِهِ الْمَرَاةِ .

وَعَجِبْتُ هِيَ لِذَلِكَ وَمَا أَسْرَعَ مَا نَطَقَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهَا بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . . . ! فَقَالَتْ : لَقَدْ أَحْبَبْتُكَ مَا لَمْ أَحِبَّ أَحَدًا ، وَأَحْبَبْتُ خَجَلَكَ أَكْثَرَ مِنْكَ ، فَمَا يَسْرُرُنِي أَنْ تَأْتِمَ فِيَّ فَتَدْخُلَ النَّارَ بِحُمِي ، وَلَوْ أَنَّكَ ابْتِغَيْتَنِي مِنْ مَوْلَايَ ؟ فَقُلْتُ : بِكُمْ أَشْتَرَاكِ ؟ قَالَتْ : بِالْفِ دِينَارٍ ! قُلْتُ : وَأَيْنَ هِيَ مِنِّي وَأَنَا لَوْ بَعْتُ نَفْسِي مَا حَصَلْتُ لِي ؟

فَتَمَّمَ الشَّيْطَانُ مَوْعِظَتَهُ ، وَقَالَتْ ( وَأَشَارَتْ إِلَى قَلْبِهَا ) : إِنَّ قَلْبِي ( هَذَا ) قَبْلَكَ غَيًّا كُنْتُ أَوْ قَفِيرًا ، وَأَحْسَنَ بِكَ وَخَدَكَ حُبَّ الْعَذْرَاءِ أَوَّلَ مَا تُحِبُّ ، وَأَنَا - كَمَا تَرَانِي -

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنْ » بَدَلًا مِنْ : « أَنِّي » .

أَعِيشُ فِي السَّيِّئَاتِ كَالْمُكْرَمَةِ عَلَيْهَا ، فَسَاعَمَلُ عَلَى أَنْ تَكُونِ أَنْتَ حَسَنَتِي عِنْدَ اللَّهِ ، أَذْهَبُ إِلَيْهِ حَامِلَةً فِي قَلْبِي حُبِّي إِيَّاكَ وَعِظَتِي عَنْكَ ، وَلَكِنْ كَانَتْ عِقَّةٌ مَنْ لَا يَسْتَهْنِي وَلَا يَجِدُ تَعْدُ فَضِيلَةَ كَامِلَةٍ ، إِنَّ عِقَّةَ مَنْ يَجِدُ وَيَسْتَهْنِي لَتَعْدُ دِينًا بِحَالِهِ . وَلَا يَزَالُ حُبِّي بِكَرًا ، وَلَا أَزَالُ فِي ذَلِكَ عَذْرَاءَ الْقَلْبِ ، وَهَلْ لَوْلَا قَدْ نَزَعُوا الْحَبَاءَ عَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِهِمْ ، فَالْبَسْنِيهِ أَنْتَ مِنْ أَجْلِكَ خَاصَّةً ؛ وَإِنَّ قُوَّةَ حُبِّي كَالَّذِي سَيِّئًا لَمْ بِكَ وَيَتَعَذَّبُ مِنْكَ لِطَوِيلِ مَا يَصْبِرُ عَنْكَ ، سَتَكُونُ هِيَ بِعَيْنِهَا قُوَّةَ لِفَضِيلَتِي وَطَهَارَتِي .

ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عُودَهَا وَسَوْنَهُ وَغَنَّتْ [مِنْ الْوَاوِ] :

فَلَوْ أَنَا عَلَى حَجَرٍ دُخِنَا جَرَى الدَّيْمَانِ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ <sup>(١)</sup>  
وَجَعَلَتْ تَنَاقُوزَ فِي غَنَائِهَا كَأَنَّهَا تُذْبِعُ ذَنْبًا ، ثُمَّ وَضَعَتْ الْعُودَ جَانِبًا وَقَالَتْ : مَا أَشْقَانِي ! إِذَا أَتَقَفْتُ لِي سَاعَةً وَرَاجِحِي فِي غَيْرِ وَفَتْهَا فَجَاءَتْ كَالْحُلُمِ يَأْتِي بِخَيَالِ الزَّمَنِ فَلَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا خَيَالُ الْأَشْيَاءِ .

ثُمَّ سَأَلَتْنِي : مَا بَالُكَ لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْرَ وَلَمْ تَدْخُلْ فِي الدُّيُوتَانِ ؟ فَبَدَّرَ شَيْطَانِي الْمُؤْمِنُ . . . وَسَاقَ فِي لِسَانِي خَبَرَ أُمِّي وَأَبِي ، فَانْتَضَحَتْ عَيْنَاهَا بِأَكِيَّةٍ وَتَمَّ لَهَا رَأْيِي فِي كَرَامِي أَنَا فِي الْمُسْكِرِ ؛ وَكَانَ شَيْطَانُهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْطَانًا خَبِيثًا مَعَ أَصْحَابِهَا ، وَبَطْرَيْنًا زَاهِدًا مَعِي أَنَا وَخَدِي !

وَرَأَيْتُهَا لَا تُجَالِسُنِي إِلَّا مُتْرَابِلَةً كَالْعَذْرَاءِ الْخَفِرَةِ إِذَا انْقَبَضَتْ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا ، وَصَارَتْ تَخَافُنِي لِأَنَّهَا تُحِبُّنِي ، وَهَيَّيَنِي الشَّيْطَانُ إِلَيْهَا فَعَادَتْ لَا تَرَى فِي الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ تَحْتَ عَيْنَيْهَا اللَّيْبَيْنِ . . . وَلَكِنْ الْقِدِّيسُ الَّذِي تَحْتَ قَلْبِهَا الْبُكَرِ .

وَلَمْ يَدُ جَمَالِي هُوَ الَّذِي يُعْجِبُهَا وَيُضَيِّقُهَا ، بَلْ كَانَ يُعْجِبُهَا مِنِّي أَنِّي صَنَعْتُ فَضِيلَتَهَا أَلَيْسَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا غَيْرِي . . .

\* \* \*

(١) كَانَتْ الْعَرَبُ تَرْغُمُ أَنَّهُ إِذَا قُبِلَ اثْنَانِ فَجَرَى دَمِيَاهُمَا عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ ثُمَّ انْقَبَا ، حُكِمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا مُتَحَابِّينِ ، فَإِنْ لَمْ يَلْقِيَا حُكِمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا مُشَانَتَيْنِ . وَمَا أَجْمَلَهَا خُرَافَةً وَأَشْرَعَهَا .

وَأَنْطَلَقَ الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي وَفَيْهَا بِدَهَائِهِ وَحَنَكِهِ وَبِكُلِّ مَا جَرَّبَ فِي النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ مِنْ لَذَنِ آدَمَ وَحَوَاءَ إِلَى يَوْمِي وَيَوْمِهَا ... ! فَكَانَ يَجِدُنِي إِلَيْهَا أَشَدَّ الْجَذِبِ ، وَيَذْفَعُهَا عَنِّي أَقْوَى الدَّفْعِ ، ثُمَّ يُغَرِّبُنِي بِكُلِّ رَذَائِلِهَا وَلَا يُغَرِّبُهَا هِيَ إِلَّا بِفَضَائِلِي . وَالْقَلَمُ مِنْهَا فِي دَمِي فِكْرَةٌ شَهْوَةٌ مَجْنُونَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ ، وَالْقَلَمُ مِنِّي فِي دَمِهَا فِكْرَةٌ حِكْمَةٌ رَزِينَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ . وَكُنْتُ أَلْفَاها كُلَّ يَوْمٍ وَأَسْمَعُ غَنَاءَهَا ، فَمَا هُوَ بِالْغِنَاءِ وَلَكِنَّهُ صَوْتُ كُلِّ مَا فِيهَا لِكُلِّ مَا فِيَّ ، حَتَّى لَوْ التَّصَقَّ جِسْمُهَا بِجِسْمِي وَسَارَ الْبَدَنُ الْبَدَنَ ، وَهَمَسَ الدَّمُ لِلدَّمِ ، لَكَانَ هُوَ هَذَا الْغِنَاءُ الَّذِي تَغْنِيهِ .

وَأَصْبَحْتُ كُلَّمَا اسْتَقَمْتُ لِحُبِّهَا تَلَوْتُ عَلَيَّ ؛ إِذْ لَسْتُ عِنْدَهَا إِلَّا الْأَمَلُ فِي الْمَغْفِرَةِ وَالْثَوَابِ ، وَكَأَنَّمَا مُسِخْتُ حَبَلًا طَوِيلَهُ مِنْ هُنَا إِلَى الْجَنَّةِ لِيَتَعَلَّقَ بِهِ . وَعَادَ امْتِنَاعُهَا مِنِّي جُنُونًا دِينِيًّا مَا يُفَارِقُهَا ، فَأَبْتَلَانِي هَذَا بِمِثْلِ الْجُنُونِ فِي حُبِّهَا مِنْ كَلَفٍ وَشَغَفٍ .

وَأَنْحَصَرَتْ نَفْسِي فِيهَا ، فَوَجَعْتُ مَعَهَا أَشَدَّ غَبَاوَةً مِنَ الْجَاهِلِ يَنْظُرُ إِلَى مَدِّ بَصَرِهِ مِنَ الْأَفْقِ فَيَحْكُمُ أَنَّ هَلْهَنَا نِهَآيَةَ الْعَالَمِ ، وَمَا هَلْهَنَا إِلَّا آخِرُ بَصَرِهِ وَأَوَّلُ جَهْلِهِ . وَأَنْفَلْتُ مِنِّي زِمَامَ رُوحِي ، وَأَنْكَسَرَ مِيزَانُ إِزَادَتِي ، وَأَخْتَلَّ اسْتِوَاءُ فِكْرِي ، فَأَصْبَحْتُ إِنْسَانًا مِنَ الْقَلْبَائِضِ الْمُتَعَادِيَةِ ، أَجْمَعُ الْيَقِينَ وَالشَّكَّ فِيهِ ، وَالْحُبَّ وَالْبُغْضَ لَهُ ، وَالْأَمَلَ وَالْخَيِّبَةَ مِنْهُ ، وَالرَّغْبَةَ وَالْعُزُوفَ عَنْهَا . وَفِي أَقَلِّ مِنْ هَذَا يُخْطَفُ الْعَقْلُ ، وَيَتَذَلُّ مَنْ يَتَذَلُّ .

ثُمَّ أَتَيْتُ مَعَ هَذَا اللَّيْمِ بِجُنُونِ الْغَيْظِ مِنْ ابْتِدَالِهَا لِأَصْحَابِهَا وَعِقَّتِهَا مَعِي ، فَكُنْتُ أَنْطَاطِرُ قِطْعًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَأَجِدُ عَلَيْهَا وَأَتَكَبَّرُ لَهَا ، وَهِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لَا تَرِيدُنِي عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ ؛ فَكَانَ يَطِيرُ بِعَقْلِي أَنْ أَرَى جِسْمَهَا نَارًا مُشْتَعِلَةً ، ثُمَّ إِذَا أَنَا رُؤْمَتُهُ اسْتَحَالَ ثَلْجًا ، وَقَرَحَتْ الْغَيْزَةُ قَلْبِي وَفَتَّتْ كِبِدِي مِنْ عَابِدَةِ الشَّيْطَانِ مَعَ الْجَمِيعِ ، الرَّاهِبَةِ مَعَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَطْ ... !

وَرَجَعْتُ خَوَاطِرِي فِيهَا مِمَّا يُعْقَلُ وَمَا لَا يُعْقَلُ ؛ فَكُنْتُ أَرَى بَعْضَهَا كَأَنَّهُ رَاجِعٌ مِنْ سَفَرٍ طَوِيلٍ عَنْ حَبِيبٍ فِي آخِرِ الدُّنْيَا ، وَبَعْضَهَا كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ دَارِ حَبِيبٍ فِي جَوَارِي ، وَبَعْضَهَا كَأَنَّهُ ذَاهِبٌ بِي إِلَى الْمَارِسْتَانِ ... !

وَرَأَيْتُنَا كَأَنَّمَا فِي عَالَمَيْنِ لَا صِلَةَ بَيْنَهُمَا ، وَنَحْنُ مَعًا قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ ، فَذَهَبَ هَذَا بِالْبَقِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ عَقْلِي ؛ وَلَمْ أَرِ لِي مَنجَاةً إِلَّا فِي قَتْلِ نَفْسِي لِأُزْهِقَ هَذَا الْوَحْشَ الَّذِي فِيهَا . وَذَهَبَتْ فَأَتَيْتُ شُعَيْرَاتٍ مِنَ الشَّمِّ الْوَحِيِّ الَّذِي يُعْجَلُ بِالْقَتْلِ ، وَأَخَذْتُهَا فِي كَفِّي وَهَمَمْتُ أَنْ أَقْمَحَهَا وَأَبْتَلِعَهَا ، فَذَكَرْتُ أُمِّي ، فَظَهَرَتْ لِحْيَاتِي مَشْدُوحَةً الرَّأْسِ فِي هَيَاةٍ مَوْتِهَا ، وَإِلَى جَانِبِهَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ فِي هَيَاةٍ جَمَالِهَا ، وَبُسَّتْ عَلَى عَيْنِي هَذِهِ الرُّؤْيَا ، وَأَذَمَنْتُ النَّظَرَ فِيهَا طَوِيلًا فَإِذَا أَنَا رَجُلٌ آخَرُ غَيْرُ الْأَوَّلِ ، وَإِذَا الْمَرْأَةُ غَيْرُ تِلْكَ ، وَطَعْتُ عِبرَةَ الْمَوْتِ عَلَى شَهْوَةِ الْحَيَاةِ فَمَحَتْهَا ، وَصَحَّ عِنْدِي مِنْ يَوْمِيذٍ أَنْ لَا عِلَاجَ مِنْ هَذَا الْحُبِّ إِلَّا أَنْ تَقْرَنَ فِي النَّفْسِ صُورَةُ امْرَأَةٍ مَيِّتَةٍ إِلَى صُورَةِ الْمَرْأَةِ الْحَيَّةِ ، وَكُلَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ جِيءَ لَهَا بِتِلْكَ ، فَإِذَا اسْتَمَرَّ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَيِّتَةَ تُمِيتُهَا فِي النَّفْسِ وَتُحْيِي الشَّهْوَةَ إِلَيْهَا ، مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ ، فَلْيَجَرِّبْهُ مَنْ شَكَّ فِيهِ .

وَأَنْفَتَحَ لِي رَأْيِي عَجِيبٌ ، فَجَعَلْتُ أَنَا أَمَلُ كَيْفَ آمَنَ شَيْطَانِي ثُمَّ كَفَرَ بَعْدُ ، عَلَى أَنَّ شَيْطَانَهَا هِيَ كَفَرَتْ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ آمَنَ فِي الْآخِرِ ؟ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ إِلَّا غِيًّا خَامِدًا الْفِطْنَةَ ، إِذْ لَمْ يَسْنَخْ لِي الصَّوَابُ حَتَّى كَذَبْتُ أَرْهَقُ نَفْسِي وَأَخْشَرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - إِنَّمَا رَدَّنِي عَنِ الْفَاحِشَةِ وَهِيَ ذَنْبٌ وَاحِدٌ ، لِيَرْمِيَنِي بَعْدَهَا فِي الذُّنُوبِ كُلِّهَا بِالْمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ !

وَرَدَّ إِلَيَّ هَذَا الْخَاطِرُ مَا عَزَبَ مِنْ عَقْلِي . وَمَنْ أَتَبَلَّى بِبَلَاءٍ شَدِيدٍ يُزْلِزِلُ يَقِينَهُ ثُمَّ أَبْصَرَ الْيَقِينَ ، جَاءَ مِنْهُ شَخْصٌ كَأَنَّمَا خُلِقَ لِإِسَاعَتِهِ ؛ فَلَعَنْتُ شَيْطَانِي وَاسْتَعَذْتُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ ، وَالْقَيْتُ الشَّمَّ فِي التُّرَابِ وَغَشِيْتُهُ فِيهِ ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي : وَنَحْكُ يَا نَفْسُ ! إِنَّ الْحَيَاةَ تَعْمَلُ عَمَلًا بِالْحَيِّ ، أَفْتَرَضِينَ أَنْ تَعْمَلَ الْحَيَاةَ بِأَبْطَالِهَا وَرِجَالِهَا مَا عَرَفْتَ وَمَا عَلِمْتَ ، ثُمَّ يَكُونُ عَمَلُهَا بِكَ أَنْتَ الْقُعُودُ نَاجِيَةً وَالْبُكَاءُ عَلَى امْرَأَةٍ ؟

أَيُّهَا النَّفْسُ ! مَا الْفَرْقُ بَيْنَ سَرِقَةِ لَحْمٍ مِنْ دُكَانٍ قَصَابٍ ، وَبَيْنَ سَرِقَةِ لَحْمِ امْرَأَةٍ مِنْ دَارِ أَبِيهَا ، أَوْ زَوْجِهَا ، أَوْ مَوْلَاهَا ... ؟

أَيُّهَا النَّفْسُ ! إِنَّمَا إِيمَانُ أَسْلَافِنَا مَعَنَا ؛ إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي الْمُسْلِمِ .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَهَذَا طَاشٌ مُجَاهِدٌ وَأَسْتَحْفَهُ الطَّرَبُ ، فَصَاحَ صَنِحَةَ النَّصْرِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! وَجَاوَبَهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فِي صَنِحَةٍ وَاحِدَةٍ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! وَلَمْ يَكُنْ يَهْتِفُ بِهَا النَّاسُ حَتَّى ارْتَفَعَتْ صَنِحَةُ الْمُؤَذِّنِ لِصَلَاةِ الْمَغْرِبِ . اللَّهُ أَكْبَرُ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَنْفَضَ مَجْلِسُ الشَّيْخِ ، وَدَرَجَتْ بَعْدَهُ أَعْوَامٌ فِي عِدَّةِ الشُّهُورِ مِنْ حِمْلِ الْمَرْأَةِ ، بَلَغَتْ فِيهَا أُمُورُ النَّاسِ مَبْلَغَهَا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَشَرِّهَا ، مِمَّا أَعْرِفُ وَمَا لَا أَعْرِفُ ؛ وَدَخَلْتُ الْبَصْرَةَ أَنَا وَمُجَاهِدُ الْأَزْدِيِّ ، نَسْمَعُ الْحَسَنَ<sup>(١)</sup> وَنَأْخُذُ عَنْهُ ؛ فَإِنَّا لَسَائِرَانِ يَوْمًا فِي سِكَّةِ بَنِي سَمُرَةَ ، إِذْ وَافَقْنَا الْفَتَى صَاحِبَ النَّصْرَانِيَّةِ مُقْبِلًا عَلَيْنَا ، وَكُنَّا فَقَدْ نَاهَى تِلْكَ الْمُدَّةَ ، فَاسْرَعَ إِلَيْنَا مُجَاهِدٌ فَالْتَزَمَهُ وَقَالَ : مَرَحَبًا مَرَحَبًا بِذِي نَسَبٍ إِلَى الْقَلْبِ . وَسَلَّمْتُ بَعْدَهُ وَعَانَقْتُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلْنَا نَسْأَلُهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا كَانَ آخِرُ أَوَّلِكَ ؟

قَالَ مُجَاهِدٌ : بَلْ مَا كَانَ آخِرُ أَوَّلِهَا هِيَ ؟

فَضَحِكَ الرَّجُلُ وَقَالَ : النَّصْرَانِيَّةُ تَعْنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : آخِرُهَا مِنْ أَوَّلِهَا كَهَذَا مَنِي ؛ وَأَوَّلُهَا إِلَى ظِلِّهِ فِي الْأَرْضِ مَمْدُودًا مَشْبُوحًا مُخْتَلِطًا غَيْرَ مُتَمَيِّزٍ ؛ كَأَنَّهُ نَوْبٌ مَشْهُورٌ لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ، وَكُنَّا فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَصِيرُ فِيهَا ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلِيهِ فَهُوَ مَرَجُ الْمَسْخِ بِالْمَسْخِ ...

(\*) «الرسالة» العدد : ١٠٠ ، ٢ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ٣ يونيو/حزيران ١٩٣٥ ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ٨٨٣ - ٨٨٧ .

(١) الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : الْإِمَامُ الْعَظِيمُ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : مَا أَفْظَ جَوَابِكَ وَأَنْقَلَهُ يَا رَجُلُ ! كَأَنَّهُ وَاللَّهِ تَاجِرٌ لَا صِلَةَ لَهُ بِأَلْشَيْءٍ إِلَّا مِنْ أُنْمَانِهَا ؛ فَنَظَرُهُ إِلَى فَرَاهَةِ الدَّائِيَةِ مِنَ الدَّوَابِّ وَإِلَى فَرَاهَةِ الْجَارِيَةِ مِنَ الرِّقَاقِ سَوَاءً .

قَالَ الرَّجُلُ : فَأَنَا وَاللَّهِ تَاجِرٌ ، وَأَنَا عَلَى طَرِيقِ الْإِنْيَانِ<sup>(١)</sup> الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ تَجَارُ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَخُرَّاسَانَ ؛ وَقَدْ ضَرَبْتُ فِي هَذِهِ التُّجَارَاتِ وَحَسَنْتُ بِهَا حَالِي وَتَأَنَّنْتُ مِنْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ قَلْبَ التَّاجِرِ غَيْرُ التَّاجِرِ ، فَلَيْسَ يَزُنُ وَلَا يَفِضُ ، وَلَا يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي . أَمَّا « تِلْكَ » فَأَصْبَحَتْ نَسِيَانًا ذَهَبَ لِسَبِيلِهِ فِي الزَّمَنِ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : فَكَيْفَ كُنْتَ تَرَاهَا وَكَيْفَ عُدْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا ؟

قَالَ : كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنِي وَأَفْكَارِي وَشَهَوَاتِي ؛ فَكَانَتْ بِذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ النِّسَاءِ ، وَكَانَتْ أَلْوَانًا أَلْوَانًا مَا تَنْقَضِي ، فَلَمَّا دَخَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا الزَّمَنُ وَالْعَقْلُ ، أَبْعَدَهَا هَذَا عَنْ قَلْبِي وَأَبْعَدَهَا ذَلِكَ عَنْ خِيَالِي ؛ فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا بِعَيْنِي وَخَدَّيْهَا ، فَرَجَعَتْ أَمْرَةً كَكُلِّ أَمْرَةٍ ؛ وَبُزْوِلَهَا مِنْ نَفْسِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، رَجَعَتْ أَقَلَّ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ النِّسَاءِ ، وَهَذِهِ الْقِلَّةُ فِيمَا عَرَفْتُ لَا تُصِيبُ أَمْرَةً عِنْدَ مُحِبِّهَا إِلَّا فَعَلَتْ بِجَمَالِهَا مِثْلَمَا تَفَعَّلَهُ الشَّيْخُوخَةُ بِجِسْمِهَا ، فَأَذْبَرْتُ بِهِ ثُمَّ أَذْبَرْتُ وَأَسْتَمَرْتُ تُذْبِرُ !

وَأَنْتَ إِذَا أَبْصَرْتَ أَمْرَةً شَيْخَةً قَدْ ذَهَبَتْ أَلَّتِي كَانَتْ فِيهَا ... وَأَخْطَرْتَ فِي ذَهْنِكَ نِيَّةَ مِمَّا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، فَهَلْ تُرَاكَ وَاجِدًا الشَّهْوَةَ وَالْمَيْلَ إِلَّا الْفُتْرَةَ وَالْمَعْصِيَةَ ؟ إِنَّ هَذَا الَّذِي كَانَ الْحُبَّ وَالْهَوَى وَالْعِشْقَ ، هُوَ بِعَيْنِهِ الَّذِي صَارَ الْإِثْمَ وَالذَّنْبَ وَالضَّلَالََةَ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : كَأَنَّكَ لَمَّا ذَهَبَتْ تَقْتُلُ نَفْسَكَ مِنْ حُبِّهَا فَتَلْتَهَا هِيَ فِي نَفْسِكَ ؟ قَالَ : يَا رَحْمَةً قَدْ رَجَحْتُ بِهَا نَفْسِي يَوْمَئِذٍ ! أَمَا وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ حُبِّ أَمْرَةٍ لَعَنِي . وَبِئْسَ ! فَلْيَتَخَلَّصْ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْحَيَاةِ لَا مِنَ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْحُبِّ طَرَفَيْنِ : أَحَدُهُمَا فِي اللَّذَّةِ ، وَالْآخَرُ فِي الْحَمَاقَةِ ؛ مَا مِنْهُمَا بُدٌّ . فَهَذَا الْحُبُّ يُلْقِي صَاحِبَهُ فِي الْأَحْلَامِ وَيُعَشِّي بِهَا عَلَى بَصَرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ أَتَجَهَ بِطَرَفِهِ السَّعِيدِ إِلَى حَظِّهِ الْمُقْبِلِ وَأَتَقَفَّتِ اللَّذَّةُ لِلْمُحِبِّ ، أَيْقَظَتْهُ اللَّذَّةُ مِنْ أَحْلَامِهِ ؛ وَإِنْ أَتَجَهَ الْحُبُّ بِطَرَفِهِ الشَّقِيَّ إِلَى حَظِّهِ

(١) هَذِهِ الْكَلِمَةُ خَيْرٌ مَا يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ (الْبُورَصَةِ) ، { وَكَذَلِكَ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا } .



الْمُذِيرِ ، وَقَعَتِ الْحِمَاقَاتُ فُتُونًا شَتَّى بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ ، وَقَعَلَتْ آخِرًا فِعْلَ اللَّذَّةِ ، فَأَبْقَظَتْ الْعَاشِقَ مِنْ أَخْلَامِهِ أَيْضًا . وَهَذَا تَذْيِيرٌ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي تِلْكَ الْقُوَّةِ الْمُدْمِرَةِ الْمُسَمَّاةِ الْحُبِّ . أَفَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللَّذَّةَ وَهُمْ مِنَ الْآوْهَامِ مَا دَامَ تَحَقُّقُهَا هُوَ فَنَاءُهَا .

خُذْ عَنِّي يَا مُجَاهِدُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ : « لَيْسَ الْكَمَالُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ طَبِيعَتِهَا ، وَلَا هُوَ شَيْءٌ يُدْرِكُ ، وَلَكِنَّ مِنْ عَظَمَةِ الْكَمَالِ أَنَّ اسْتِمْرَارَ الْعَمَلِ لَهُ هُوَ إِذْرَاكُهُ » .

قَالَ مُجَاهِدٌ : لَقَدْ عَلِمْتُ بَعْدَنَا عِلْمًا ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَعَمَّنْ أَخَذْتَ ؟

قَالَ : عَنِ السَّمَاءِ !

قَالَ : وَبِئْسَ ! أَيْنَ عَقْلُكَ ، فَهَلْ نَزَلَ عَلَيْكَ الْوَحْيُ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : لَا ، وَلَكِنْ تَعَالَى مَعِيَ إِلَى الدَّارِ فَأَحْدِثْ كُفْمًا .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَذَهَبْنَا مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا بِطَعَامٍ نَظِيفٍ فَأَكَلْنَا ، وَأَشْعَرْنَا الدَّارَ أَنَّ رَهْبًا قَدْ وَقَعَ فِي مَا شَاءَ مِنْ دُنْيَاهُ وَتَوَاصَلَتْ عَلَيْهِ النُّعْمَةُ ، فَلَمَّا غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا قَالَ مُجَاهِدٌ : هَيْهَ يَا أَبَا ... يَا أَبَا مَنْ ؟ قَالَ : أَبُو عُبَيْدٍ . قَالَ : هَيْهَ يَا أَبَا عُبَيْدٍ ...

فَأَتَكَرَّ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : عَهْدُكُمَا بِي مُنْذُ تَسَعٍ فِي مَجْلِسِ الْإِمَامِ الشَّعْبِيِّ بِالْكُوفَةِ ؛ وَقَدْ كُنْتُ فِي بَقِيَّةٍ مِنَ النُّعْمَةِ أَنْجَمْتُ بِهَا ، وَكَانَتْ تُمَسِّكُنِي عَلَى مَوْضِعِي فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْبَقِيَّةُ تَدُقُّ وَتَنْفَضُّ حَتَّى نَكِدَ عَيْشِي وَوَقَعْتُ فِي الْأَيَّامِ الْمُفْعَلَةِ الَّتِي لَا تَمْشِي بِصَاحِبِهَا ، وَانْقَلَبَ الزَّمَنُ كَالْعَدُوِّ الْمُغِيرِ جَاءَ لِيَضْطَلِمَ وَيُخْرِبَ وَيُفْسِدَ ، فَأَتَرْتُ فِي أَفْتَحِ آثَارِهِ ، فَبَغْتُ مَا بَقِيَ لِي وَتَحَمَّلْتُ عَنِ الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَقُلْتُ : إِنْ لَمْ تَتَغَيَّرْ حَالِي تَغَيَّرْتُ نَفْسِي ، وَلَا أَكُونُ فِي الْبَصْرَةِ قَدْ أَنْتَهَيْتُ إِلَى الْفَقْرِ ، بَلْ أَكُونُ قَدْ بَدَأْتُ مِنَ الْفَقْرِ كَمَا بَدَأَ غَيْرِي ، وَأَدْعُ الْمَاضِيَ فِي مَكَانِهِ وَأَمْضِي إِلَى مَا يَسْتَقْبِلُنِي .

فَالْتَمَسْتُ رِفْقَةً فَالْتَمَسْنَا عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمَّا كُنَّا فِي الطَّرِيقِ ، سَلَبْنَا اللَّصُوصَ وَحَارُوا الْقَافِلَةَ وَمَا تَخَوَّنِي ، وَنَجَوْتُ أَنَا رَاكِبًا فَرَسِي وَعُمُرِي ، وَأَذْرَكْتُ حِينِيذَ أَنَّ الْحَيَاةَ وَخَدَهَا مُلْكٌ عَظِيمٌ ، وَأَنَّهَا هِيَ الْأَدَاءُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ هُوَ مِنْ أَنْفُسِنَا لِأَنْفُسِنَا وَالْأَمْرُ فِيهِ هَيِّنٌ

وَالْخُطْبُ يَسِيرٌ .

وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ اللَّصُوصَ قَدْ مَرُّوا بِنَا كَمَا يَمُرُّ النَّاسُ بِالنَّاسِ لَمَا نَكَبُونَا ، وَلَكِنَّهُمْ عَرَضُوا لَنَا عَرُوضَ اللَّصِّ لِلْمَالِ وَالْمَتَاعِ لَا لِلنَّاسِ ، فَوَضَعُوا فِينَا الْأَيْدِيَ النَّاهِيَةَ ؛ وَمِنْ هَذَا أَذْرَكْتُ أَنَّ لَيْسَ الشَّرُّ إِلَّا حَالَةٌ يَلْبَسُ بِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَاضِلُ السَّعَادَةِ فِي الْإِنْسَانِ إِلَّا يَغْبَأُ بِهِدِهِ الْحَالَاتِ مَتَى عَرَضَتْ لَهُ ؛ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا تَمَثَّلَ الشَّرُّ كَمَا يَرَاهُ وَاقِعًا فِي غَيْرِهِ ؛ فَالْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ إِذَا عَرَضَتْ لَهَا حَالَةٌ مِنَ الْفُجُورِ ، وَنَظَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا وَحَظَّتْ نَفْسَهَا ، فَقَدْ تَعَمَّى وَتَزَلَّ ؛ وَلَكِنَّهَا إِذَا نَظَرَتْ إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا وَإِلَى أَثَرِهِ عَلَى الْفَاجِرَةِ ، كَانَتْ كَأَنَّهَا زَادَتْ عَلَى نَفْسِهَا نَفْسًا أُخْرَى تُرِيهَا الْأَشْيَاءَ مُجَرَّدَةً كَمَا هِيَ فِي حَقَائِقِهَا .

قَالَ : وَمَضَيْتُ عَلَى وَجْهِي تَتَفَادَفُنِي الْبِقَاعُ وَالْأَمْكِنَةُ ، وَأَنَا أَعَانِي الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ ، وَأَخْشَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَأَكَابِدُ الْأَلَمَ وَالْجُوعَ ، حَتَّى دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ دُخُولَ الْبُعِيرِ الرَّازِحِ ، قَطَعَ الصَّخْرَاءَ تَأْكُلُ مِنْهُ وَلَا يَأْكُلُ مِنْهَا ، فَأَنْضَاهُ السَّفَرُ وَحَسَرَةُ الْكَلَالِ وَنَحْتَةُ الثَّقَلِ الَّذِي يَحْمِلُهُ ، فَجَاءَ بِنِيَّةٍ غَيْرِ الَّتِي كَانَ قَدْ خَرَجَ بِهَا . وَكَانَتْ أَيَّامِي هَذِهِ عُمْرًا كَامِلًا مِنَ الشَّقَاءِ ، جَعَلْتَنِي أَوْفَرُ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالدَّرَابِ تَحْتَ أَحْمَالِهَا : لَا تَخْتَارُ الدَّابَّةُ مَا تَحْمِلُ وَلَا مَنْ تَحْمِلُ ، وَلَا يُتْرَكُ لَهَا مَعَ هَذَا أَنْ تَخْتَارَ الطَّرِيقَ وَلَا مُدَّةَ السَّيْرِ ؛ وَلَيْسَ لِلدَّابَّةِ إِلَّا شَيْئَانِ : صَبْرُهَا وَقُوَّتُهَا ؛ إِنْ فَقَدَتْهُمَا هَلَكَتْ ، وَإِنْ وَهَنَتْ فِيهَا كَانَ ضَعْفُهَا بِحَسَبِ ذَلِكَ .

إِنَّ هُنَاكَ أَوْفَاتًا مِنَ الشَّقَاءِ وَالْبُؤْسِ تَقْدَفُ بِالْإِنْسَانِ وَرَاءَ إِنْسَانِيَّتِهِ وَإِنْسَانِيَّةِ الْبَشَرِ جَمِيعًا ، لَا تُبَالِي كَيْفَ وَقَعَ وَفِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَ ، فَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ حِينِيذٌ إِلَّا أَنْ يَغْتَصِمَ بِأَخْلَاقِ الْحَيَوَانِ ، فِي مِثْلِ رِضَاهُ الَّذِي هُوَ أَحْكَمُ الْحِكْمَةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَصَبْرِهِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْقُوَّةِ ، وَقَنَاعَتِهِ الَّتِي هِيَ أَغْنَى الْغِنَى ، وَجَهْلِهِ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ الْعِلْمِ ، وَتَوَكُّلِهِ الَّذِي هُوَ إِيمَانٌ فِطْرَتُهُ بِفِطْرَتِهِ . لَا يُبَالِي الْحَيَوَانُ مَا لَا وَلَا نَعِيمًا ، وَلَا مَتَاعًا وَلَا مَنْزِلَةً ، وَلَا حَظًّا وَلَا جَاهًا ، وَلَنْ تَجِدَ حِمَارَ الْمَلِكِ يَغْرِثُ مِنَ الْمَلِكِ أَكْثَرَ مِمَّا يَغْرِثُ حِمَارَ السَّقَاءِ مِنَ السَّقَاءِ ؛ وَلَعَلَّكَ لَوْ سَأَلْتَهُمَا وَأَطَافَا الْجَوَابَ لَقَالَ لَكَ الْأَوَّلُ : إِنَّ الَّذِي فَوْقَ ظَهْرِي

ثَقِيلٌ مَقِيَّتٌ بَعْضُهُ ؛ وَلَقَالَ لَكَ الثَّانِي : إِنَّ الَّذِي يَرْكَبُهُ خَفِيفٌ سَهْلٌ سَمَحٌ !

وَلَكِنَّ بَلَاءَ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ حِينَ يَطْوَحُهُ الْبُؤْسُ وَالشَّقَاءُ وَرَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا يَنْظُرُ لِغَيْرِ النَّاسِ فَيَزِيدُهُ ذَلِكَ بُؤْسًا وَحَسْرَةً ، وَيَمْنَحُو فِي نَفْسِهِ مَا بَقِيَ مِنَ الصَّبْرِ ، وَيَقْلِبُ رِضَاءَهُ غَيْظًا ، وَقَنَاعَتَهُ سُخْطًا ، وَيَبْتَلِيهِ كُلُّ ذَلِكَ بِالْفِكْرَةِ الْمُهْلِكَةِ أَعْجَزَهَا أَنْ تَهْلِكَ أَحَدًا فَلَا تَجِدُ مَنْ تَدْمَرُهُ غَيْرَ صَاحِبِهَا ؛ فَإِذَا هِيَ وَجَدَتْ مَسَاعَا إِلَى النَّاسِ فَأَهْلَكَتْ وَعَاثَتْ وَأَفْسَدَتْ ، جَعَلَتْ صَاحِبَهَا إِمَّا لَصًا أَوْ قَاتِلًا أَوْ مُجْرِمًا ، أَيْ ذَلِكَ تَبَسَّرَ !

\* \* \*

قَالَ : وَكُنْتُ أَعْرِفُ فِي الْبَصْرَةِ فَلَانًا التَّاجِرَ مِنْ سَرَائِهَا وَوُجُوهُ أَهْلِهَا ، فَاسْتَطَرَقْتُهُ ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى خُرَاسَانَ ، وَلَيْسَ يَعْرِفُنِي أَحَدٌ فِي الْبَصْرَةِ وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا غَيْرَهُ ؛ فَكَأَنَّمَا نَكِبْتُ مَرَّةً ثَانِيَةً بِغَارَةِ شَرٍّ مِنْ تِلْكَ ، غَيْرَ أَنَّهُا قَطَعَتْ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ طَرِيقَ أَيَّامِي ، وَسَلَبَتْني آخِرَ مَا بَقِيَ لِنَفْسِي ، وَهُوَ الْأَمَلُ !

وَرَأَيْتُ أَنَّهُ مَا مِنْ تَزُولِي إِلَى الْأَرْضِ بُدً ، فَأَكُونُ فِيهَا إِنْسَانًا كَالذَّائِبَةِ أَوْ الْحَشْرَةِ ؛ حَيَاتِنَا مَا أَتَقَفَ لَا مَا تُرِيدُ أَنْ يَتَفَقَ ؛ وَأَنَّهُ لَا رَأْيَ إِلَّا أَنْ أَسْحَرَ مِنَ الشَّهَوَاتِ فَازْهَدَ فِيهَا وَأَنَا الْقَوِيُّ الْكَرِيمُ ، قَبْلَ أَنْ تَسْحَرَ هِيَ مِنِّي إِذَا جِئْتُهَا وَأَنَا الطَّامِعُ الْعَاجِزُ !

وَفِي الْأَرْضِ كِفَايَةُ كُلِّ مَا عَلَيْهَا وَمَنْ عَلَيْهَا وَلَكِنْ بِطَرِيقَتِهَا هِيَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ ؛ وَمَا دَامَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا قَائِمَةً عَلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ وَتَحَوُّلِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ ، فَهَذَا الطَّبِيعِيُّ الَّذِي يَأْكُلُهُ الْأَسَدُ لَا تَعْرِفُ الْأَرْضُ أَنَّهُ قَدْ أَكَلَ وَلَا أَنَّهُ أَفْتَرَسَ وَمُزَّقَ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهَا قَدْ تَحَوَّلَ قُوَّةً فِي شَيْءٍ آخَرَ وَمَضَى ؛ أَنَا عِنْدَ النَّاسِ فَذَلِكَ خَطْبٌ طَوِيلٌ فِي حِكَايَةِ أَوْهَامٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ ؛ كَمَا لَوْ اخْتَرَعْتَ قِصَّةَ خُرَافَةٍ تَحْكِيهَا عَنْ أَسَدٍ قَدْ نَزَعَ لَحْمًا . . . فَتَعَاهَدَهُ فَأَبْنَتْهُ فَحَصَدَهُ فَأَكَلَهُ ، فَذَهَبَ الزَّرْعُ يَخْتَجُّ عَلَى أَكْلِهِ ، وَجَعَلَ يَشْكُو وَيَقُولُ : لَيْسَ لِهَذَا زَرْعَتِي أَنْتَ ، وَلَيْسَ لِهَذَا خَرَجْتُ أَنَا تَحْتَ الشَّمْسِ ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هَذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ !

وَالْإِنْسَانُ يَرَى بِعَيْنَيْهِ هَذَا التَّغْيِيرَ وَاقِعًا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَامَّتِهَا وَفِي الْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا ؛ فَإِذَا

وَقَعَ فِيهِ هُوَ ضَجٌّ وَسَخَطٌ ، كَانَ لَهُ حَقًّا لَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ ؛ وَهَذَا هُوَ الْعَجِيبُ فِي قِصَّةِ بَنِي آدَمَ ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا عَلَى الْأَرْضِ كَلِمَاتٌ مِنَ الْجَنَّةِ لَا تَقَالُ هُنَا وَلَا تَقْهَمُ هُنَا ؛ بَلْ مَحَلُّ الْاِغْتِرَاضِ بِهَا حِينَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ خَالِدًا لَا يَقَعُ فِيهِ التَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ . وَمِنْ هَذَا كَانَ خِيَالُ اللَّذَّةِ فِي الْأَرْضِ هُوَ ذَاتِنَا بَاعِثُ الْحَمَاقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَذَهَبَتْ أَغْتَمِلُ بِيَدَيَّ وَجِسْمِي عَلَى آلامٍ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضَّرِّ ، وَمِنْ الْخَبِيَةِ وَالْإِخْفَاقِ ، وَمِنْ الْجَاءِ الْمَسْكَنَةِ وَإِخْوَاجِ الْخَصَاصَةِ ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنْ يَدِي كَيْدَ الْعَبْدِ ، وَظَهْرِي كَظَهْرِ الدَّائِبَةِ ، وَرَجْلِي كَرَجْلِ الْأَسِيرِ ، وَعُنُقِي كَعُنُقِ الْمَغْلُولِ ؛ وَيَطْلُعُ قُرْصُ الشَّمْسِ عَلَى الدُّنْيَا وَيَغْيبُ عَنْهَا وَمَا أَغْتَمِلُ إِلَّا بِقُرْصٍ مِنَ الْخُبَرِ ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَبْذُلُ فِي صَيَانَةِ كُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ مَاءٍ وَجْهِي سَحَابَةً مِنَ الْعَرَقِ حَتَّى لَا أَسْأَلَ النَّاسَ ، وَيَا بُؤْسًا لِي إِنْ سَأَلْتُ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلْ !

وَمَا كَانَ يُنْسِكُنِي عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُرْتَمَقَةِ ، تَأْتِي رَمَقًا بَعْدَ رَمَقٍ فِي يَوْمٍ يَوْمٍ - إِلَّا كَلَامَ الشَّعْبِيِّ الَّذِي سَمِعْتُهُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، وَقَوْلُهُ فِي مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ ؛ فَكَانَ كَلَامُهُ نُورًا فِي صَدْرِي يُشْرِقُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ مَعَ الصُّبْحِ صُبْحٌ لِإِيمَانِي . وَلَكِنْ بَقِيَتْ أَيَّامٌ نَعْمَتِي الْأَوَّلَى وَلَهَا فِي نَفْسِي ضَرْبَانٌ مِنَ الْوَجَعِ كَالَّذِي يَجِدُهُ الْمَجْرُوحُ فِي جُرْحِهِ إِذَا ضُرِبَ عَلَيْهِ ، فَكَانَ الشَّيْطَانُ لَا يَجِدُ مُنْقَذًا إِلَيَّ إِلَّا مِنْهَا . وَفَقَدْتُ الصَّدِيقَ وَعَوْنَهُ ، فَمَا كَانَ يَقْبَلُ عَلَيَّ صَدِيقٌ إِلَّا فِي أَخْلَامِي مِنْ وَرَاءِ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : وَالْحَبِيبُ ؟

فَتَبَسَّمَ الرَّجُلُ وَقَالَ : إِذَا فَرَعَتِ الْحَيَاةُ مِنَ الَّذِي هُوَ أَقَلُّ مِنَ الْمُمَكِّنِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ فِيهَا الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الْمُمَكِّنِ ؟ إِنْ جُنِعَ يَوْمٌ وَاحِدٌ يَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةَ حَقِيقَةً جَافِيَةً لَا شِعْرَ فِيهَا ، وَيَتْرَكُ الزَّمَنَ وَمَا فِيهِ سَاعَةً وَاحِدَةً مُطَّرَةً . . . وَالْبُؤْسُ يَقْطَعُ مُؤَلِّمَةً فِي الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي تُحَرِّمُ عَلَيْهِ الْأَخْلَامَ ؛ وَمَا الْحُبُّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ إِلَّا أَخْلَامُ الْقُلُوبِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ !

\* \* \*

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَتَضَعُضْتُ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُخْزِيَةِ وَأَبْرَمْتُنِي أَيَّامُهَا ، وَحَمَلْتُ فِيَّ الْمَيِّتَ وَالْحَيَّ ، وَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - كَأَنَّمَا اتَّخَذَنِي وَعَاءً مُطَّرَحًا عَلَى طَرِيقِهِ يُلْقِي

فِيهِ الْقِيَامَةُ .. ؛ وَظَهَرَ لِي قَلْبِي فِي وَسْوَيسِهِ كَالْمَدِينَةِ الْحَرَبِيَّةِ ضَرْبَهَا الْوَبَاءُ ، فَأَعْمُرُ مَا فِيهَا مَقْبَرَتُهَا ؛ وَعَادَ الْبُؤْسُ وَقَاحَ الْوَجْهِ لَا يَسْتَحْيِي ، فَلَا أَرَاهُ إِلَّا فِي أَرْذَلِ أَشْكَالِهِ وَأَبْرَدِهَا ؛ وَلَقَدْ يَكُونُ الْبُؤْسُ لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَيَاءِ فَيَأْتِي فِي أَسْلُوبِ مُعْتَدِرِ كَالْمَرْأَةِ الدَّمِيمَةِ فِي نِقَابِهَا .

وَقُلْتُ لِنَفْسِي : مَا هُوَ وَاللَّهِ إِلَّا الْقَتْلُ ، فَهَذَا عُمُرُ أَرَاهُ كَالْأَسِيرِ أُفِيمَ عَلَى الْطَّعْجِ وَسَلِّ عَلَيْهِ السَّيْفُ ، فَمَا يَنْتَقِمُ مِنْهُ الْمُتَنَقِّمُ بِأَفْطَحَ مِنْ تَأْخِيرِ الضَّرْبَةِ ، وَمَا يَرْحَمُهُ الرَّاحِمُ بِأَحْسَنَ مِنْ تَعَجُّلِهَا !

وَبِثْ أَوَامِرُ هَذِهِ النَّفْسِ فِي قَتْلِهَا وَأَحَدَتْهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ ، فَسَدَدَتْ رَأْيِي فِيهِ وَقَالَتْ : مَا تَصْنَعُ بِجِسْمٍ كَالْمُتَعَمِّقِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ أَنْفِرَاضِهِ وَتَفْتِيئِهِ ؟ بَيِّدَ أَنِّي ذَكَرْتُ كَلَامَ (السَّعْيِي) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلُّهُ ، فَجَعَلْتُ أَهْدَاهُ<sup>(١)</sup> مَا أَتْرَكُ مِنْهُ خَرْقًا ، وَاتَّخَذْتُهُ مُتَكَلِّمًا مَعَ نَفْسِي لَا كَلَامًا ، كُنْتُ كُلَّمَا غَلَبَنِي الضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْتِي وَأَصْغَيْتُ كَمَا أَصْغِي إِلَى إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِي ؛ فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاللَّصِّ إِذَا طَمِعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُتَفَرِّدٍ ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ !

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَنَالَني رَوْحٌ مِنَ الْأَطْمِثَانِ وَجَدْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي فَنِمْتُ ، فَإِذَا الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ ، فَكَيْفَ الَّذِي رَأَاهُ بَعِيْنِي ؟

رَأَيْتُنِي مَيِّتًا فِي يَدِ غَاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ وَيُغَسِّلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ ؛ ثُمَّ حَمَلْتُ عَلَى النَّعْشِ ، كَأَنَّ الْحَامِلِينَ قَدْ رَفَعُونِي يَقُولُونَ : انْظُرُوا إِلَيْهَا النَّاسُ كَيْفَ يَصْبِرُ النَّاسُ ؛ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَى الْإِمَامِ السَّعْيِيِّ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، ثُمَّ دَلَّيْتُ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ، وَهَيْلِ الثَّرَابِ عَلَيَّ ، وَتَرَكْتُ وَحِيدًا وَانْصَرَفُوا !

وَمَا أَدْرِي كَمْ بَقِيْتُ عَلَى ذَلِكَ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا نُفِخَ فِي الْأَصْوَرِ وَتُبْعِرَتْ الْأَمْوَاتُ جَمِيعًا ، فَطَرْنَا فِي الْفَضَاءِ ، وَكَانَتْ الْجُجُومُ غُبَارًا حَوْلَنَا كَثْرَابِ الْعَاصِفَةِ فِي الْعَاصِفَةِ ؛ وَإِذَا نَحْنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَوْلِ الْمَوْقِفِ !

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جِسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي رُؤْيَا

(١) أَلْهَدُ : الْإِسْرَافُ فِي الْفِرَاقَةِ .

أَحْرَزْتَنِي ، فَهِيَ كَمَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ كُلُّ أَهْلِهَا صَعَالِيكَ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُسْتَوْرِينَ ، أَرَى مِنْهُمْ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي السَّاعَةِ بَعْدَ السَّاعَةِ ، نَذَرُوا وَتَبَعَثُوا وَضَاعُوا كَأَعْمَالِي الصَّالِحَةِ !

وَذَكَرْتُ أَنِّي كِدْتُ أَقْتُلُ نَفْسِي فِرَارًا بِهَا مِنَ الْعُمُرِ الْمُؤَلِّمِ ؛ فَظَنَرْتُ ، فَإِذَا الزَّمَنُ قَدْ ظَهَرَ فِي أَبْدِيَّتِهِ ، وَرَجَعَ الْمَاضِي حَاضِرًا بِكُلِّ مَا حَوَى كَأَنَّهُ لَمْ يَمُضْ ، وَإِذَا عُمُرِي كُلُّهُ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ طَرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ أَنِّي لَمْ أَقْتِدِ أَلَمْ أَلْخُطَّةَ الْقَصِيرَةِ الْقَصِيرَةِ ، بِعَذَابِي الْأَبَدِيِّ الْخَالِدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ .

وَجِيءَ عَلَى أَعْيُنِ الْخَلْقِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرِهِمْ لَذَاتٍ فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا كُلِّهِ ، فَصَاحَ صَانِعُ : هَذَا أَنْعَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى أَنْ طَوَاهَا . ثُمَّ غُمِسَ هَذَا الْمُنْعَمُ فِي النَّارِ غَمْسَةً خَفِيفَةً كَنَبْضَةِ الْبَرَقِ ، وَأُخْرِجَ إِلَى الْمَخْشَرِ ، وَقِيلَ لَهُ وَالنَّاسُ جَمِيعًا يَسْمَعُونَ : هَلْ دُفِنْتَ نَعِيمًا قَطُّ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ .

ثُمَّ جِيءَ بِأَنْعَسِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَشَدَّهُمْ بُؤْسًا مُنْذُ خُلِقَتِ الْأَرْضُ ، فُغِمِسَ فِي الْجَنَّةِ غَمْسَةً أَسْرَعَ مِنَ النَّسِيمِ تَحْرُكَ وَمَرٍّ ، ثُمَّ أُخْرِجَ إِلَى الْمَخْشَرِ وَقِيلَ لَهُ : هَلْ دُفِنْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ .

وَسَمِعْنَا شَهيقَ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَفُورُ ، نَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ؛ فَأَيَقُنْتُ أَنَّ لَهَا نَفْسًا خُلِقَتْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ . وَخَرَجَ مِنْهَا عُنُقٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ ، لَوْ تَصَرَّعَتِ السَّمَاءُ كُلُّهَا نَارًا لِأَشْبَهَتْهُ ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ صِنْفًا صِنْفًا مِنَ الْخَلْقِ ، وَبَدَأَ بِالْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ فَالْتَقَطَهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً كَالْمِغْنَاطِيسِ لِثَرَابِ الْحَدِيدِ ؛ وَقَدَفَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ؛ ثُمَّ أَتَبَعَتْ فَالْتَقَطَتْ الْأَغْنِيَاءَ الْمُفْسِدِينَ فَأَطَارَهُمْ إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ جَعَلَ يَأْخُذُ قَوْمًا قَوْمًا ، وَقَدْ أَلْجَمَنِي الْعَرَقُ مِنَ الْفَرْعِ ؛ ثُمَّ طَرْتُ أَنَا فِيهِ ، وَنَفْطَرْتُ ، فَإِذَا أَنَا مُحْتَبَسٌ فِي مُظْلِمَةٍ نَارِيَّةٍ كَالْهَآوِيَةِ ، لَيْسَ حَوْلِي فِيهَا إِلَّا قَاتِلُو أَنْفُسِهِمْ . وَلَوْ أَنَّ بِحَارَ الْأَرْضِ جُعِلَ فِيهَا الْبَحْرُ فَوْقَ الْبَحْرِ فَوْقَ الْبَحْرِ ، إِلَى أَنْ تَجْتَمِعَ كُلُّهَا فَيَكُونُ الْعُنُقُ كَبُعْدِ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، ثُمَّ تُسَجَّرُ نَارًا تَلْطَأُ ، لَكَانَتْ هِيَ الْهَآوِيَةِ الَّتِي نَحْنُ فِي أَعْمَاقِهَا ؛ وَكُنْتُ سَمِعْتُ مِنْ إِمَامِنَا السَّعْيِيِّ : أَنَّ عَصَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ إِذَا مَاتُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ كَانُوا فِي النَّارِ أَحْيَاءَ وَجَوَارِحُهُمْ مَوْتَى ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ قَدْ أَطَاعَتِ اللَّهَ وَسَبَّحَتْهُ فَكُرِّمَتْ بِذَلِكَ حَتَّى عَلَى جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا فِيهِ الرَّحْمَةُ ، ثُمَّ

يُخْرَجُونَ وَيَنْتَظِرُهُمْ إِيْمَانُهُمْ عَلَى بَابِ النَّارِ ، فَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ ، فَسَمِعَ قَائِلًا مِنْ بَعِيدٍ يَقُولُ لِمُؤْمِنٍ : أَخْرِجْ ! فَإِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ . فَصَاحَ الَّذِي إِلَى جَانِبِي : وَأَنَا ، أَفَلَا يَنْتَظِرُنِي إِيْمَانِي ؟ فَقِيلَ لَهُ : وَهَلْ جِئْتَ بِهِ ؟

وَرَأَيْتُ رَجُلًا ذَبَحَ نَفْسَهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرُخَ يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَةَ ، فَلَا يَخْرُجُ الصَّوْتُ مِنْ حَلْقِهِ ، إِذْ كَانَ قَدْ فَرَّاهُ وَبَقِيَ مَقْرِبًا ! وَأَبْصَرْتُ آخَرَ قَدْ طَعَنَ فِي قَلْبِهِ بِمُدْيَةٍ ، فَهُوَ هُنَاكَ تَسْلُخُ الزَّيْبَانِيَّةِ قَلْبُهُ تَبَحُّثُ هَلْ فِيهِ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ ، فَلَا تَزَالُ تَسْلُخُ وَلَا تَزَالُ تَبَحُّثُ !

وَرَأَيْتُ آخَرَ كَانَ تَحَسَّى مِنَ الشُّمِّ فَمَاتَ ظَنَمَانٌ يَتَلَطَّى جَوْفُهُ ، فَلَا تَزَالُ تَنْشَأُ لَهُ فِي النَّارِ سَحَابَةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بِالنَّمَاءِ ، فَإِذَا دَنَّتْ مِنْهُ وَرَجَّاهَا ، انْفَجَرَتْ عَلَيْهِ بِالصَّوَاعِقِ ، ثُمَّ عَادَتْ تَنْشَأُ وَتَنْفَجِرُ !

وَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّمَا كُنْتُ مَجْنُونًا ضَعِيفًا عَاجِزًا فَأَزْهَقْتُ نَفْسِي . فَتَوَدَّي : أَوْ مَا عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُكَ عَلَى أَنَّكَ عَاقِلٌ لَا مَجْنُونٌ ؟ وَقَوِيٌّ لَا ضَعِيفٌ ؟ وَقَادِرٌ لَا عَاجِزٌ ؟ كُنْتُ تَغْفِلُ بِالْأَقْلِ أَنَّكَ سَتَمُوتُ ، وَكُنْتُ تَقْوَى عَلَى أَنْ تَضَيَّرَ ، وَكُنْتُ تَقْدِرُ أَنْ تَتْرَكَ الشَّرَّ .

وَقَالَ رَجُلٌ عَالِمٌ قَدْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَاتَ : « لَمْ يَكُنِ الْكَمَالُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي طَبِيعَتِهَا وَلَا هُوَ شَيْءٌ يَذُرُّكَ » . فَصَرَخَ فِيهِ صَوْتُ رَهِيْبٍ : « وَلَكِنْ مِنْ عَظَمَةِ الْكَمَالِ أَنْ أَسْتَمِرَّ بِالْعَمَلِ لَهُ هُوَ إِذْرَاكُهُ ! »

\* \* \*

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : ثُمَّ انْتَصَبَ بِإِزَاتِي شَيْطَانٌ مَارِدٌ أَحْمَرٌ ، يَلْتَمِعُ الْتِمَاعَ الرُّجَاجِ فِيهِ الْخَمْرُ ، فَقَامَ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ : بِمَاذَا جِئْتَ إِلَى هُنَا يَا عَدُوَّ الْخَمْرِ ؟ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ النَّدَاءَ : شَفَعْتَ فِيكَ الْخَمْرُ الَّتِي لَمْ تَشْرَبْهَا ، أَخْرِجْ ، إِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ !

فَصِخْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ! وَتَحَرَّكَ بِهَا لِسَانِي ، فَانْتَبَهْتُ .

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْمَصَائِبِ نِعْمَةٌ كَبِيرَى لَا يُنْعِمُ اللَّهُ بِهَا إِلَّا فِي الْمَصَائِبِ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### وَخِي الْقُبُورِ (\*)

ذَهَبْتُ فِي صُبْحِ يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ أَحْمِلُ نَفْسِي بِنَفْسِي إِلَى الْمَقْبَرَةِ ، وَقَدْ مَاتَ لِي مِنَ الْخَوَاطِرِ مَوْتَى لَا مَيِّتٌ وَاحِدٌ ؛ فَكُنْتُ أَمْسِي وَفِيَّ جَنَازَةٌ بِمُشَيِّعِيهَا : مِنْ فِكْرِ يَحْمِلُ فِكْرًا ، وَخَاطِرٍ يَتَّبِعُ خَاطِرًا ، وَمَعْنَى يَتَّبِعُ مَعْنَى ، وَمَعْنَى يَتَّبِعُ مَعْنَى .

وَكَذَلِكَ دَائِبِي كُلَّمَا انْتَحَذْتُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي تَأْتِيهِ الْعُيُونُ بِدُمُوعِهَا ، وَتَمُشِي إِلَيْهِ الْقُلُوبُ بِأَحْزَانِهَا ، وَتَجِيءُ فِيهِ الْقُلُوبُ إِلَى بَقَايَاهَا . تِلْكَ الْمَقَابِرُ الَّتِي لَا يَتَادَى أَهْلُهَا مِنْ أَهْلِهِمْ بِالْأَسْمَاءِ وَلَا بِالْأَلْقَابِ ، وَلَكِنْ بِهَذَا النَّدَاءِ : يَا أَخِيَابَنَا ، يَا أَخْرَانَنَا !

ذَهَبْتُ أَزُورُ أَمْوَاتِي الْأَعْزَاءَ وَأَتَصِلُ مِنْهُمْ بِأَطْرَافِ نَفْسِي ، لِأَخِيَا مَعَهُمْ فِي الْمَوْتِ سَاعَةً أَعْرِضُ فِيهَا أَمْرَ الدُّنْيَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ ، فَأَنْسَى وَأَذْكُرُ ، ثُمَّ أَنْظُرُ وَأَعْتَبِرُ ، ثُمَّ أَتَعَرَّفُ وَأَتَوَسَّمُ ، ثُمَّ أَسْتَبْطِنُ مِمَّا فِي بَطْنِ الْأَرْضِ ، وَأَسْتَظْهِرُ مِمَّا عَلَى ظَهْرِهَا .

وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أَشْرِفُ مِنْ دَهْرٍ عَلَى دَهْرٍ ، وَمِنْ دُنْيَا عَلَى دُنْيَا ، وَأَخْرَجْتُ الدَّلَايِرَ أَفْرَاحَهَا الْقَدِيمَةَ لِتَجْعَلَهَا مَادَّةَ جَدِيدَةٍ لِأَحْزَانِهَا ؛ وَأَنْفَتَحَ لِي الزَّمَنُ الْمَاضِي فَرَأَيْتُ رَجْعَةً الْأَنْسِ ، وَكَانَ دَهْرًا كَامِلًا خُلِقَ بِحَوَادِثِهِ وَأَيَّامِهِ ، وَرَفَعَ لِعَيْنِي كَمَا تَرْفَعُ الصُّورَةُ الْمُعَلَّقَةُ فِي إِطَارِهَا .

أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَاتُوا ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ قَطُّ إِلَّا أَنَّهُمْ غَابُوا ؛ وَالْحَبِيبُ الْغَائِبُ لَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي يُحِبُّهُ مَهْمَا تَرَاخَتْ بِهِ الْأَيَّامُ ؛ وَهَلْ هِيَ بَقِيَّةُ الرُّوحِ إِذَا امْتَرَجَتْ بِالْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَى : تَتَرَكُّ فِيهَا مَا لَا يُمْحَى لِأَنَّهَا هِيَ خَالِدَةٌ لَا تُمَحَى .

ذَهَبَ الْأَمْوَاتُ ذَهَابَهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا فِي الدُّنْيَا ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَيِّتُوا بِالْأَنْفِ لَا لَيْسَ

(\*) « الرسالة » العدد : ٨١ ، ١٦ شوال سنة ١٣٥٣ هـ = ٢١ يناير/كانون الآخر ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٨٣ - ٨٤ .

غَيْرُ ، فَهَلْ هِيَ الْحَيَاةُ حِينَ تُعَبَّرُ عَنْهَا الْقَلَمُ بِلسَانِهَا لَا بِلسَانِ حَاجَتِهَا وَحِرْصِهَا .

الْحَيَاةُ مُدَّةُ عَمَلٍ ، وَكَأَنَّ هَلْ هِيَ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَصْنَعُ يُسَوِّغُ كُلَّ إِنْسَانٍ جَانِبًا مِنْهُ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ هِيَ الْأَدَاءُ فَاصِّنُ مَا شِئْتَ ، فَضِيْلَتِكَ أَوْ رَذِيْلَتِكَ .

\* \* \*

جَلَسْتُ فِي الْمَقْبَرَةِ ، وَأَطْرَفْتُ أَفْكَرُ فِي هَذَا الْمَوْتِ . يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ ! كَيْفَ لَا يَسْتَشْعِرُونَهُ وَهُوَ يَهْدِمُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ أَجْزَاءً تُحِيطُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَهْدِمَهُ هُوَ بِجُمْلَتِهِ ؛ وَمَا زَالَ كُلُّ بُنْيَانٍ مِنَ النَّاسِ بِهِ كَالْحَائِطِ الْمُسَلَّطِ عَلَيْهِ خَرَابُهُ ، يَتَأَكَّلُ مِنْ هُنَا وَيَتَنَاثَرُ مِنْ هُنَاكَ ؟ !

يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ عَجَبًا لَا يَنْتَهِي ! كَيْفَ يَجْعَلُونَ الْحَيَاةَ مُدَّةَ زَرْعٍ وَهِيَ مُدَّةُ عَمَلٍ ، وَكَيْفَ لَا تَبْرَحُ تَنْزُورُ النَّوَازِي بِهِمْ فِي الْخِلَافِ وَالْبَاطِلِ ، وَهُمْ كُلَّمَا تَدَافَعُوا بَيْنَهُمْ فَضِيَّةً مِنَ التَّرَاخِ فَضَرَبُوا خَصْمًا بِخَصْمٍ وَرَدُّوا كَيْدًا بِكَيْدٍ ، جَاءَ حُكْمُ الْمَوْتِ تَكْذِيبًا قَاطِعًا لِكُلِّ مَنْ يَقُولُ لَشَيْءٍ : هَذَا لِي ؟

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ أَعْجَبُ فِي الشَّخَرَةِ بِهِلِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْ يُعْطَى النَّاسُ مَا يَمْلِكُونَهُ فِيهَا لِإِبْتَاتِ أَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا شَيْئًا ، إِذْ يَأْتِي الْآتِي إِلَيْهَا لَحْمًا وَعَظْمًا ، وَلَا يَرْجِعُ عَنْهَا الرَّاجِعُ إِلَّا لَحْمًا وَعَظْمًا ، وَبَيْنَهُمَا سَفَاهَةُ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ حَتَّى عَلَى السَّكِينِ الْقَاطِعَةِ ...

تَأْتِي الْأَيَّامُ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَفَرُّ فِرَارَهَا ؛ فَمَنْ جَاءَ مِنْ عُمْرِهِ عَشْرُونَ سَنَةً فَإِنَّمَا مَضَتْ هَلْ هِيَ الْعَشْرُونَ مِنْ عُمْرِهِ . وَلَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُصَحَّحَ أَعْمَالُ الْحَيَاةِ فِي النَّاسِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْبَيِّنِ ، لَوْلَا الطَّبَاعُ الْمَذْخُولُ ، وَالنَّفُوسُ الْعَافِلَةُ ، وَالْعُقُولُ الضَّعِيفَةُ ، وَالشَّهَوَاتُ الْعَارِمَةُ ؛ فَإِنَّهُ مَا دَامَ الْعُمْرُ مُقْبِلًا مُذْبِرًا فِي اخْتِيَارٍ وَاحِدٍ ، فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا يُرْضِيهِ مَحْسُوبًا لَهُ وَمَحْسُوبًا عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ مَعًا ؛ وَتَكُونُ الْحَيَاةُ فِي حَقِيقَتِهَا لَيْسَتْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ الْإِنْسَانِي هُوَ الْحَيُّ فِي الْحَيِّ .

\* \* \*

وَمَا هِيَ هَلْ هِيَ الْقُبُورُ ؟ لَقَدْ رَجَعَتْ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْتِ أُنْبِيَّةٌ مَبْنِيَّةٌ ؛ فَمَا قَطُّ رَأَوْهَا مَوْجُودَةً إِلَّا لِيَسْئَلُوا أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ لَكَانَ لِلْقَبْرِ مَعْنَاهُ الْحَيُّ الْمُتَعَلِّغُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى بَعِيدٍ ؛ فَمَا الْقَبْرِ إِلَّا بِنَاءٌ قَائِمٌ لِفِكْرَةِ النِّهَايَةِ وَالْإِنْقِطَاعِ ؛ وَهُوَ فِي الطَّرَفِ الْآخِرِ رَدٌّ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ بِنَاءٌ قَائِمٌ لِفِكْرَةِ الْبَدْءِ وَالْإِسْتِمْرَارِ ؛ وَبَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمَعْبُدُ وَهُوَ بِنَاءٌ لِفِكْرَةِ الضَّمِيرِ الَّذِي يَحْيَا فِي الْبَيْتِ وَفِي الْقَبْرِ ، فَهُوَ عَلَى الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ كَالْقَاضِي بَيْنَ خَصْمَيْنِ يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا صُلْحًا أَوْ يَقْضِي .

الْقَبْرِ كَلِمَةُ الصِّدْقِ مَبْنِيَّةٌ مُتَجَسِّمَةٌ ، فَكُلُّ مَا حَوْلَهَا يَتَكَدَّبُ وَيَتَأَوَّلُ ، وَلَيْسَ فِيهَا هِيَ إِلَّا مَعْنَاهَا لَا يَدْخُلُهُ كَذِبٌ وَلَا يَتَرَبُّهُ تَأْوِيلٌ . وَإِذَا مَاتَتْ فِي الْأَحْيَاءِ كَلِمَةُ الْمَوْتِ مِنْ غُرُورٍ أَوْ بَاطِلٍ أَوْ غَفْلَةٍ أَوْ أَثَرَةٍ ، بَقِيَ الْقَبْرِ مُذَكِّرًا بِالْكَلِمَةِ شَارِحًا لَهَا بِأَظْهَرِ مَعَانِيهَا ، دَاعِيًا إِلَى الْاِخْتِيَارِ بِمَذْلُولِهَا ، مُبَيِّنًا بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ أَنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلنَّهَايَةِ .

الْقَبْرِ كَلِمَةُ الْأَرْضِ لِمَنْ يَنْخَلِعُ فَيَرَى الْعُمْرَ الْمَاضِي كَأَنَّهُ غَيْرُ مَاضٍ ، فَيَعْمَلُ فِي إِفْرَاقِ حَيَاتِهِ مِنَ الْحَيَاةِ<sup>(١)</sup> بِمَا يَمْلُؤُهَا مِنْ رَذَائِلِهِ وَخَسَائِسِهِ ؛ فَلَا يَرَاهُ دَائِبًا فِي مَعَانِي الْأَرْضِ وَاسْتِجْمَاعِهَا وَالْإِسْتِمْتَاعِ بِهَا ، يَتَلَوُّ فِي ذَلِكَ تَلَوَّ الْحَيَوَانِ وَيَقْتَنَسُ بِهِ ، فَشَرِيْعَتُهُ جَوْفُهُ وَأَعْضَاؤُهُ ؛ وَتَرْجِعُ بِذَلِكَ حَيَوَانِيَّتُهُ مَعَ نَفْسِهِ الرُّوحَانِيَّةِ ، كَالْحِمَارِ مَعَ الَّذِي يَمْلِكُهُ وَيَعْلِفُهُ ، لَوْ سُئِلَ الْحِمَارُ عَنْ صَاحِبِهِ مَنْ هُوَ ؟ لَقَالَ : هُوَ حِمَارِي ...

الْقَبْرِ عَلَى الْأَرْضِ كَلِمَةُ مَكْتُوبَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الدُّنْيَا ، مَعْنَاهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ حَيٌّ فِي قَانُونِ نَهَائِيَّتِهِ ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يَنْتَهِي .

\* \* \*

إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلنَّهَايَةِ ، وَكَانَ الْاِخْتِيَارُ بِهَا وَالْجَزَاءُ عَلَيْهَا ، فَالْحَيَاةُ هِيَ الْحَيَاةُ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَامَةِ لَا غَيْرِهَا ؛ طَرِيقَةُ إِكْرَاهِ الْحَيَوَانِ الْإِنْسَانِي عَلَى مُنَاسَرَةِ الْأَخْلَاقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَجَعْلِهَا أَصْلًا فِي طَبَاعِهِ ، وَوَزْنِ أَعْمَالِهِ بِتَنَاجُجِهَا الَّتِي تَنْتَهِي بِهَا ، إِذْ كَانَتْ رُوحَانِيَّتُهُ فِي النِّهَايَاتِ لَا فِي بَدَائِئِهَا .

(١) أي : مِنْ إِنْسَانِيَّةِ الْحَيَاةِ .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ ذَاتًا تَعْمَلُ أَعْمَالَهَا ؛ فَإِذَا انْتَهَتِ الْحَيَاةُ انْقَلَبَتْ أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ ذَاتًا يَخْلَدُ هُوَ فِيهَا ؛ فَهُوَ مِنَ الْخَيْرِ خَالِدٌ فِي الْخَيْرِ ، وَمِنَ الشَّرِّ هُوَ خَالِدٌ فِي الشَّرِّ ؛ فَكَأَنَّ الْمَوْتَ إِنْ هُوَ إِلَّا مِيلَادٌ لِلرُّوحِ مِنْ أَعْمَالِهَا ؛ تَوَلَّدَ مَرَّتَيْنِ : آيَةً وَرَاجِعَةً .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ لِلنَّهَائَةِ فَقَدْ وَجِبَ أَنْ تَبْطُلَ مِنَ الْحَيَاةِ نَهَائِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ ، فَلَا يَبْرُكُ الشَّرُّ يَمُضِي إِلَى نَهَائِيَّتِهِ بَلْ يُخَسِّمُ فِي بَذَرِهِ وَيُقْتَلُ فِي أَوَّلِ أَنْفَاسِهِ ؛ وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي كُلِّ مَا لَا يَخْسُنُ أَنْ يَبْدَأَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَمْتَدَّ : كَالْعِدَاةِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَالْبُخْلِ وَالْأَثَرَةِ ، وَالْكَبَرِيَاءِ وَالْعُرُورِ ، وَالْخِدَاعِ وَالْكَذِبِ ؛ وَمَا شَابَكَ هَذِهِ أَوْ شَابَهَا ، فَإِنَّهَا كُلُّهَا أَنْبَعَاثٌ مِنَ الوجودِ الْحَيَوَانِيِّ وَانْفِجَارٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مِنْهَا فِي الْإِرَادَةِ قَبَرٌ كَيْ تَسْلَمَ لِلنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ إِنْسَانِيَّتُهَا إِلَى النِّهَائَةِ .

\* \* \*

يَا مَنْ لَهُمْ فِي الْقُبُورِ أَمْوَاتٌ !

إِنَّ رُؤْيَا الْقَبْرِ زِيَادَةٌ فِي الشُّعُورِ بِقِيَمَةِ الْحَيَاةِ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْقَبْرِ مِنْ مَعَانِي السَّلَامِ الْعَقْلِيِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا .

الْقَبْرُ فَمَ يَنَادِي : أَسْرِعُوا أَسْرِعُوا ، فَهِيَ مُدَّةٌ لَوْ صُرِفَتْ كُلُّهَا فِي الْخَيْرِ مَا وَقَتْ بِهِ ؛ فَكَيْفَ يَصْنَعُ مِنْهَا ضَيَاعٌ فِي الشَّرِّ أَوْ الْإِنْمِ ؟ لَوْ وُلِدَ الْإِنْسَانُ وَمَشَى وَأَيْفَعَ وَشَبَّ وَاكْتَهَلَ وَهَرِمَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، فَمَا عَسَاهُ كَانَ يُصْنَعُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ ؟ إِنْ أَطْوَلَ الْأَعْمَارُ لَا يَرَاهُ صَاحِبُهُ فِي سَاعَةِ مَوْتِهِ إِلَّا أَقْصَرَ مِنْ يَوْمٍ .

يُنَادِي الْقَبْرُ : أَصْلِحُوا عُيُوبَكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ وَقْتُ لِإِصْلَاحِهَا ؛ فَإِنَّهَا إِنْ جَاءَتْ إِلَى هُنَا كَمَا هِيَ ، بَقِيَتْ كَمَا هِيَ إِلَى الْأَبَدِ ، وَتَرَكَهَا الْوَقْتُ وَهَرَبَ .

هُنَا قَبْرٌ ، وَهُنَاكَ قَبْرٌ ، وَهُنَاكَ الْقَبْرُ أَيْضًا ؛ فَلَيْسَ يَنْظُرُ فِي هَذَا عَاقِلٌ إِلَّا كَانَ نَظَرُهُ كَأَنَّهُ حُكْمٌ مُحْكَمَةٌ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ كَيْفَ تَتَّبِعِي وَكَيْفَ تَكُونُ .

فِي الْقَبْرِ مَعْنَى الْإِنْعَاءِ الزَّمَانِ ، فَمَنْ يَنْهَمُ هَذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى أَيَّامِهِ ، وَأَنْ يُسْفِطَ مِنْهَا أَوْقَاتَ الشَّرِّ وَالْإِنْمِ ، وَأَنْ يُمَيِّنَ فِي نَفْسِهِ خَوَاطِرَ السُّوءِ ؛ فَمِنْ مَعَانِي الْقَبْرِ يَنْشَأُ

لِلْإِرَادَةِ عَقْلُهَا الْقَوِيَّ الثَّابِتُ ؛ وَكُلُّ الْأَيَّامِ الْمَكْرُوهَةِ لَا تَجِدُ لَهَا مَكَانًا فِي زَمَنِ هَذَا الْعَقْلِ ، كَمَا لَا يَجِدُ اللَّيْلُ مَحَلًّا فِي سَاعَاتِ الشَّمْسِ .

ثَلَاثَةُ أَزْوَاجٍ لَا تَصْلُحُ رُوحُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِهَا :

رُوحُ الطَّيِّبَةِ فِي جَمَالِهَا ، وَرُوحُ الْمَغْبَدِ فِي طَهَارَتِهِ ، وَرُوحُ الْقَبْرِ فِي مَوْعِظَتِهِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

## عَرُوسٌ تُزَفُّ إِلَى قَبْرِهَا (\*)

- ١ -

كَانَ عُمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ تُسَمَّى أَيَّامًا .  
كَانَ عُمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ يَنْسِقُ فِيهِ الْيَوْمُ بَعْدَ الْيَوْمِ كَمَا تَنْبُتُ الْوَرَقَةُ الْكَائِمَةُ فِي الزَّهْرِ  
إِلَى وَرَقَةٍ نَاعِمَةٍ مِثْلِهَا .

أَيَّامُ الصَّبَا الْمَرِحَةِ حَتَّى فِي أَحْزَانِهَا وَهُمُومِهَا ؛ إِذْ كَانَ مَجِيئُهَا مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي خُصَّ  
بِشَبَابِ الْقَلْبِ ، تَبْدُو الْأَشْيَاءُ فِي مَجَارِي أَحْكَامِهَا كَالْمَسْخُورَةِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ مُفْرِحَةً جَاءَتْ  
حَامِلَةً فَرَحَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتْ مُخْزِنَةً جَاءَتْ بِنِصْفِ الْحُزْنِ .

تِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا الطَّبِيعَةُ لِشَبَابِ الْجِسْمِ بِقُوَى مُخْتَلِفَةٍ : مِنْهَا الشَّمْسُ  
وَالْهَوَاءُ وَالْحَرَكَةُ ، وَمِنْهَا الْفَرْحُ وَالنَّسِيَانُ وَالْأَخْلَامُ !

\* \* \*

وَسَبَبَتِ الْعَذْرَاءُ وَأَفْرَعَتْ فِي قَالِبِ الْأُنُوثَةِ الشَّمْسِيُّ الْقَمَرِيُّ ؛ وَاکْتَسَى وَجْهَهَا دِيبَاجَةٌ  
مِنَ الزَّهْرِ الْغَضُّ ، وَأَوْدَعَتْهَا الطَّبِيعَةُ سِرَّهَا النَّسَائِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَذْرَاءَ قَدْ جَمَالَ لِأَنَّهَا قَدْ  
حَيَاةً ، وَجَعَلَتْهَا تَمَنَّا لِلظَّرْفِ ؛ وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَمَا تُجَمِّلُ الْعَذْرَاءَ بِظَرْفِ  
كَظَرْفِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ سَلَلَهُمْ مِنْ بَعْدُ ! وَأَسْبَغَتْ عَلَيْهَا مَعَانِي الرِّقَّةِ وَالْحَنَانِ وَجَمَالَ  
النَّفْسِ ؛ وَمَا أَكْرَمَ يَدَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَمَا تَمَهَّرُ الْعَذْرَاءُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَهَرَهَا الْإِنْسَانِي !

\* \* \*

وَحُطِبَتِ الْعَذْرَاءُ لِزَوْجِهَا ، وَعُقِدَ لَهُ عَلَيْهَا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ مَارَسٍ/آذَارِ فِي  
السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ٨٩ ، ١٣ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ مارس/آذار ١٩٣٥ م ، السنة  
الثالثة ، الصفحات : ٤٠٤ - ٤٠٦ .

وَمَاتَتْ عَذْرَاءٌ بَعْدَ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَأُنْزِلَتْ إِلَى قَبْرِهَا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ  
مَارَسٍ/آذَارِ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ !

وَكَانَتْ السَّنَوَاتُ الثَّلَاثُ عُمُرَ قَلْبٍ يَقْطَعُهُ الْمَرَضُ ، يَنْتَظِرُونَ بِهِ الْعُرْسَ ، وَيَنْتَظِرُ  
بِنَفْسِهِ الرَّمْسَ !

يَا عَجَائِبَ الْقَدَرِ ! أَذَلِكَ لَحْنُ مُوسِيقِيٍّ لِأَيِّنِ اسْتَمَرَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ ، فَبَجَاءَ آخِرُهُ مَوْزُونًا  
بِأَوَّلِهِ فِي ضَبْطٍ وَدَقَّةٍ ؟

أَكَانَتْ تِلْكَ الْعَذْرَاءُ تَحْمِلُ سِرًّا عَظِيمًا سَيُعَيَّرُ الدُّنْيَا ، فَزِدَتْ الدُّنْيَا عَلَيْهَا يَوْمَ النَّهْيَةِ  
وَالْإِبْتِسَامِ وَالزَّيْنَةِ ، فَإِذَا هُوَ يَوْمُ الْوُلُولَةِ وَالذُّمُوعِ وَالْكَفَنِ ؟

- ٢ -

وَاهَا لَكَ أَيُّهَا الزَّمَنُ ! مِنَ الَّذِي يَفْهَمُكَ وَأَنْتَ مُدَّةُ أَقْدَارٍ ؟  
وَالْيَوْمُ الْوَاحِدُ عَلَى الدُّنْيَا هُوَ أَيَّامٌ مُخْتَلِفَةٌ بِعَدَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا جَمِيعًا ، وَبِهَذَا يَعُودُ لِكُلِّ  
مَخْلُوقٍ سِرُّ يَوْمِهِ ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ سِرَّ رُوحِهِ ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا .  
وَفِي الْيَوْمِ الزَّمَنِيِّ الْوَاحِدِ أَرْبَعُ مِثَّةٍ مَلْيُونِ يَوْمِ إِنْسَانِيٍّ عَلَى الْأَرْضِ ! وَمَعَ ذَلِكَ يُخَصِّصُهُ  
عَقْلُ الْإِنْسَانِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً ؛ يَا لِلْعَبَاوَةِ . . . !

وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَا يَتَعَلَّقُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا بِالشُّعَاعِ الَّذِي يُضِيءُ الْمَكَانَ الْمُظْلِمَ فِي قَلْبِهِ ،  
وَالشَّمْسُ بِمَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنِيرَ الْقَلْبَ الَّذِي لَا يُضِيئُهُ إِلَّا وَجْهٌ مَخْبُوثٌ .  
وَفِي الْحَيَاةِ أَشْيَاءٌ مَكْذُوبَةٌ تَكْبُرُ الدُّنْيَا وَتُصَغَّرُ النَّفْسُ ، وَفِي الْحَيَاةِ أَشْيَاءٌ حَقِيقِيَّةٌ تَعْظُمُ  
بِالنَّفْسِ وَتُصَغَّرُ بِالدُّنْيَا ؛ وَذَهَبَ الْأَرْضُ كُلُّهُ فَفَرَّ مُدْفِعٌ حِينَ تَكُونُ الْمُعَامَلَةُ مَعَ الْقَلْبِ .

أَيُّهَا الدُّنْيَا ! هَذَا تَحْفِيرُكَ الْإِلَهِيُّ إِذَا أَكْبَرَكَ الْإِنْسَانُ !

\* \* \*

وَيَا عَجَبًا لِأَهْلِ السُّوءِ الْمُغْتَرِّينَ بِحَيَاةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ ! فَمَاذَا يَزْتَقِبُونَ إِلَّا أَنْ تَنْتَهِيَ ؟  
حَيَاةٌ عَجِيبَةٌ غَامِضَةٌ ؛ وَهَلْ أَعْجَبَ وَأَغْمَضُ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَنْتِهَاءُ الْإِنْسَانِ إِلَى آخِرِهَا هُوَ أَوَّلُ

فَكَرِهَ فِي حَقِيقَتِهَا ؟

فَعِنْدَمَا تَحِينُ الدَّقَائِقُ الْمَعْدُودَةُ الَّتِي لَا تَرْفُطُهَا السَّاعَةُ وَلَكِنْ يَرْفُطُهَا صَدْرُ الْمُخْتَضِرِ ... عِنْدَمَا يَكُونُ مُلْكُ الْمُلُوكِ جَمِيعًا كَالْتَرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئًا الْبَتَّةَ ...  
... مَاذَا يَكُونُ أَهْيَا الْمُنْجَرِمُ بَعْدَ مَا تَقَرَّفَ الْجَنَائِةَ ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ الدَّلِيلُ ، وَتَرَى حَوْلَكَ الْجُنْدَ وَالْقُضَاةَ ، وَ { تَقِفُ } أَمَامَكَ الشَّرِيعَةُ وَالْعَدْلُ ؟

\* \* \*

أَعْمَلْنَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ وَحْدَهَا الْحَيَاةَ ، لَا أَعْمَارَنَا ، وَلَا حُطُوطَنَا . وَلَا قِنَمَةَ لِلْمَالِ ، أَوْ الْحِجَاهِ ، أَوْ الْعَافِيَةِ ، أَوْ هِيَ مَعًا - إِذَا سُلِبَ صَاحِبُهَا الْأَمْنُ وَالْقَرَارُ ! وَالْأَمْنُ فِي الدُّنْيَا مَنْ لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ . وَالسَّعِيدُ فِي الْآخِرَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ جَرِيمَةٌ تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ .

كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَخْدَعَ آلَاةَ صَاحِبِهَا وَفِيهَا (الْعَدَاةُ) : مَا تَتَحَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا أَشْعَرْتَهُ فَعَدَمًا ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكْذِبَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ الْقَلْبُ : مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَمًا ؟

- ٣ -

وَرَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ .

أَفَرَأَيْتَ أَنْتَ الْعَمَى عِنْدَمَا يُذِيرُ عَنْ إِنْسَانٍ لِيَتْرَكَ لَهُ الْحَسْرَةَ وَالذُّكْرَى الْآلِيَمَةَ ؟ أَرَأَيْتَ الْحَقَائِقَ الْجَمِيلَةَ تَذْهَبُ عَنْ أَهْلِهَا فَلَا تَتْرَكَ لَهُمْ إِلَّا الْأَحْلَامَ بِهَا ؟ مَا أَتَعَبَ الْإِنْسَانَ حِينَ تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ عَنْ جِسْمِهِ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي فِكْرِهِ !

وَمَا هِيَ الْهُمُومُ وَالْأَمْرَاضُ ؟ هِيَ الْقَبْرِ يَسْتَبِطُ صَاحِبَهُ أَخِيَانًا فَيَنْقُضُ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ شَيْئًا مِنْ تَرَابِهِ ... !

رَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ ، فَيَا لَلهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمَوْتِ وَرَهْبَتِهَا ! قَرَعَ جِسْمُهَا كَمَا قَرَعَتْ عِنْدَهَا الْأَشْيَاءُ مِنْ مَعَانِيهَا ! وَتَخَلَّى هَذَا الْجِسْمُ عَنْ مَكَانِهِ لِلرُّوحِ تَظْهَرُ لِأَهْلِهَا وَتَقِفُ بَيْنَهُمْ وَفَقَّةَ الْوَدَاعِ !

وَتَحَوَّلَ الزَّمَنُ إِلَى فِكْرِ الْمَرِيضَةِ ؛ فَلَمْ تَعُدْ تَعِيشُ فِي نَهَارٍ وَلَيْلٍ ، بَلْ فِي فِكْرِ مُضِيِّهِ أَوْ فِكْرِ مُظْلِمِ !

يَا إِلَهِي ! مَا هَذَا الْجِسْمُ الْمُتَهَدِّمُ الْمُقْبِلُ عَلَى الْآخِرَةِ ؛ أَهْوَى نَمْنَالٌ بَطَلَ تَغْيِيرُهُ ، أَمْ نَمْنَالٌ بَدَأَ تَغْيِيرُهُ ؟

لَقَدْ وَثِقْتُ أَنَّهُ الْمَوْتُ ، فَكَانَ فِكْرُهَا الْإِلَهِي هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ ؛ وَكَانَ وَجْهَهَا كَوَجْهِ الْعَابِدِ : عَلَيْهِ طَيْفُ الصَّلَاةِ وَنُورُهَا . وَالرُّوحُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَتَى عَبَّرَتْ لَا تَعْبُرُ إِلَّا بِالْوَجْهِ .

وَلَهَا ابْتِسَامَةٌ غَرِيْبَةُ الْجَمَالِ ؛ إِذْ هِيَ ابْتِسَامَةُ آلامٍ أَيْقَنْتُ أَنَّهَا مُوشِكَةٌ أَنْ تَنْتَهِيَ ! ابْتِسَامَةُ رُوحٍ لَهَا مِثْلُ قَرَحِ السَّجِينِ قَدْ رَأَى سَجَانَهُ وَاقِفًا فِي يَدِهِ السَّاعَةُ يَرْقُبُ الدَّقِيقَةَ وَالثَّانِيَةَ لِيَقُولَ لَهُ : أَنْطَلِقِ !

\* \* \*

وَدَخَلْتُ أَعُوذُهَا فَرَأْتُ كَأَنِّي آتٍ مِنَ الدُّنْيَا ... ! وَتَسَمَّيْتُ مِنِّي هَوَاءَ الْحَيَاةِ ، كَأَنِّي حَدِيقَةٌ لَا شَخْصَ !

وَمَنْ غَيْرُ الْمَرِيضِ الْمُذْنَفِ ، يَعْرِفُ أَنَّ الدُّنْيَا كَلِمَةٌ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى أَبَدًا إِلَّا الْعَافِيَةُ ؟ مَنْ غَيْرُ الْمَرِيضِ الْمُشْفِي عَلَى الْمَوْتِ ، يَعِيشُ بِقُلُوبِ النَّاسِ الَّذِينَ حَوْلَهُ لَا بِقُلُوبِهِ ؟  
تِلْكَ حَالَةٌ لَا تَنْفَعُ فِيهَا الشَّمْسُ وَلَا الْهَوَاءُ وَلَا الطَّيْبَةُ الْجَمِيلَةُ ، وَيَقُومُ مَقَامَ جَمِيعِهَا لِلْمَرِيضِ أَهْلُهُ وَأَحِبَّاءُهُ !

وَكَانَ دَوُوها مِنْ رَهْبَةِ الْقَدَرِ الدَّلَانِيِّ كَأَنَّهُمْ أَسْرَى حَرْبٍ أُجْلِسُوا تَحْتَ جِدَارٍ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ! وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ فَرَعِهَا تَنْبُضُ نَبْضًا مِثْلَ ضَرْبَاتِ الْمَعَاوِلِ .

وَبِاقْتِرَابِ الْحَيَبِ الْمُخْتَضِرِ مِنَ الْمَجْهُولِ ، يُضْبِحُ مَنْ يُحِبُّهُ فِي مَجْهُولٍ آخَرَ ، فَتَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ بِالْمَوْتِ ، وَيَعُودُ فِي مِثْلِ حَبِيرَةِ الْمَجْنُونِ حِينَ يُمَسِكُ بِيَدِهِ الظَّلَّ الْمُتَحَرِّكَ لِيَمْنَعَهُ أَنْ يَذْهَبَ ! وَتَعْرُوهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَابَةُ عُمَرِ كَامِلٍ ، تُهَيِّئُ لَهُ جَلَالَ الْحِسِّ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ جَلَالَ الْمَوْتِ !

\* \* \*



وَحَانَتْ سَاعَةٌ مَا لَا يَفْهَمُ ، سَاعَةٌ كُلُّ شَيْءٍ ، وَهِيَ سَاعَةُ الْأَشْيَاءِ فِي الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ ! فَالْتَفَتَتِ الْعَرُوسُ لِأَيُّهَا تَقُولُ : « لَا تَحْزَنْ يَا أَبِي ... » وَلَا مَهَا تَقُولُ : « لَا تَحْزَنْ يَا أُمِّي ... ! » .

وَبَسَمَتْ لِلدُّمُوعِ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ أَنْ تُكَلِّمَهَا هِيَ أَيْضًا ؛ تَقُولُ لَهَا : « لَا تَبْكِي ... ! » وَأَشْفَقَتْ عَلَى أَخْيَانِهَا وَهِيَ تَمُوتُ ، فَاسْتَجْمَعَتْ رُوحَهَا لِيَبْقَى وَجْهَهَا حَيًّا مِنْ أَجْلِهِمْ بَضْعَ دَقَائِقٍ ! وَقَالَتْ : « سَأُغَادِرُكُمْ مُبْتَسِمَةً فَعِيشُوا مُبْتَسِمِينَ ، سَأَتْرُكُ تَذَكَارِي بَيْنَكُمْ تَذَكَارَ عَرُوسٍ ! ... »

ثُمَّ ذَكَرَتْ اللَّهَ وَذَكَرَتْهُمْ بِهِ ، وَقَالَتْ : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . وَكَرَّرَتْهَا عَشْرًا ! وَتَمَلَّاتْ رُوحَهَا بِالْكَلِمَةِ الَّتِي فِيهَا نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَنَطَقَتْ مِنْ حَقِيقَةِ قَلْبِهَا بِالْأَسْمِ الْأَعْظَمِ الَّذِي يَجْعَلُ النَّفْسَ مُنِيرَةً تَتَلَّأُ حَتَّى وَهِيَ فِي أَحْزَانِهَا .

ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ خَالِقَ الرَّحْمَةِ فِي الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ ! وَفِي مِثْلِ إِشَارَةِ وَدَاعٍ مِنْ مُسَافِرٍ أَنْبَعَثَ بِهِ الْقِطَارُ ، أَلْقَتْ إِلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنْ ابْتِسَامَتِهَا وَأَسْلَمَتْ الرُّوحَ !

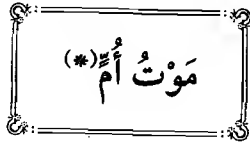
- ٤ -

يَا لَعَجَائِبِ الْقَدَرِ ! مَشِينَا فِي جَنَازَةِ الْعَرُوسِ الَّتِي تَرَفُّ إِلَى قَبْرِهَا طَاهِرَةً كَالطُّفْلَةِ وَلَمْ يُبَارِكْ لَهَا أَحَدٌ ! فَمَا جَاوَزْنَا الدَّارَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَبْصَرْتُ عَلَى حَائِطٍ فِي الطَّرِيقِ إِعْلَانًا قَدِيمًا بِالْخَطِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَصْنَعُ لِلْأَعْيُنِ ؛ إِعْلَانًا قَدِيمًا عَنْ (رِوَايَةٍ) هَذَا هُوَ أَسْمُهَا : « مَبْرُوكٌ ... ! » .

وَأَخْتَرَفْنَا الْمَدِينَةَ وَأَنَا أَنْظُرُ وَأَتَقَصَّى ، فَلَمْ أَرْ هَذَا الْإِعْلَانَ مَرَّةً أُخْرَى ! وَأَخْتَرَفْنَا الْمَدِينَةَ كُلَّهَا ، فَلَمَّا انْقَطَعَ الْعُمَرَانُ وَأَشْرَفْنَا عَلَى الْمَقْبَرَةِ ، إِذَا آخِرُ حَائِطٍ عَلَيْهِ الْإِعْلَانُ : « مَبْرُوكٌ ... ! » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



رَجَعْتُ مِنَ الْجَنَازَةِ بَعْدَ أَنْ عَبَرْتُ قَدَمِي سَاعَةً فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُرَائِبُهَا تُرَابٌ وَأَشِعَّةٌ ، وَكَانَتْ فِي الثَّغْسِ لُؤْلُؤَةٌ أَدْمِيَّةٌ مُحْطَمَةٌ ، هِيَ رُوحَةُ صَدِيقِ طَخَطَحَتْهَا الْأَمْرَاضُ فَفَرَّقَتْهَا بَيْنَ عِلَلِ الْمَوْتِ ، وَكَانَ قَلْبُهَا يُحْيِيهَا فَأَخَذَ يُهْلِكُهَا ، حَتَّى إِذَا دَنَا أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا رَحِمَهَا اللَّهُ فَقَضَى فِيهَا قَضَاءَهُ . وَمَنْ ذَا الَّذِي مَاتَ لَهُ مَرِيضٌ بِالْقَلْبِ وَلَمْ يَرَهُ مِنْ قَلْبِهِ فِي عِلَّتِهِ كَالْمُصْفُورَةِ الَّتِي تَهْتَلِكُ تَحْتَ عَيْنِي تُعْبَانِ سَلَطَ عَلَيْهَا سُمُومٌ عَيْنِيهِ !

كَانَتْ الْمُسْكِينَةُ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِنِّهَا ، أَمَّا قَلْبُهَا فَفِي السَّمَانِينَ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ ؛ هِيَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ وَهُوَ مُتَهَدِّمٌ فِي سِنِّ الْمَوْتِ .

وَكَانَتْ فَاضِلَةً نَفِيعَةً صَالِحَةً ، لَمْ تَتَعَلَّمْ وَلَكِنْ عَلِمَهَا التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةُ . وَأَكْمَلُ النِّسَاءِ عِنْدِي لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي مَلَأَتْ عَيْنَيْهَا مِنَ الْكُتُبِ فَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْحَيَاةِ نَظْرَاتٍ تَحُلُّ مَشَاكِلَ وَتَخْلُقُ مَشَاكِلَ ؛ وَلَكِنَّهَا تِلْكَ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِي مُتَلَأِّلَةٍ بِنُورِ الْإِيمَانِ تُقِرُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ السَّمَاوِيِّ ، فَتُؤْمِنُ بِأَحْزَانِهَا وَأَفْرَاحِهَا مَعًا ، وَتَأْخُذُ مَا تُعْطَى مِنْ يَدِ خَالِقِهَا ، رَحْمَةً مَعْرُوفَةً أَوْ رَحْمَةً مَجْهُولَةً . هَلِذِهِ عِنْدِي تُسَمَّى امْرَأَةً ، وَمَعْنَاهَا الْمَعْبُدُ الْقُدْسِيُّ ؛ وَتَكُونُ الزَّوْجَةَ ، وَمَعْنَاهَا الْقُوَّةُ الْمُسْعِدَةُ ؛ وَتَصِيرُ الْأُمَّ ، وَمَعْنَاهَا التَّكْمِيلَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِصِغَارِهَا وَزَوْجِهَا وَنَفْسِهَا .

وَمَهْمَا تَبْلُغِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْعِلْمِ فَالْرَجُلُ أَعْظَمُ مِنْهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ حَقَّ الْمَرْأَةِ هِيَ تِلْكَ الَّتِي خُلِقَتْ لِتَكُونَ لِلرَّجُلِ مَادَّةَ الْفَضِيلَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ ، فَتَكُونُ لَهُ وَخِيًا وَإِلَهَامًا وَعِزًّا وَقُوَّةً ، أَيْ : زِيَادَةً فِي سُورِهِ وَنَقْصًا مِنْ آلامِهِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ٥٢ ، ٢٠ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٢ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٨٥ - ١٠٨٦ .

وَلَنْ تَكُونَ الْمَرْءَةُ فِي الْحَيَاةِ أَكْثَمَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ صِفَاتُهَا الَّتِي تَجْعَلُ رَجُلَهَا أَكْثَمَ مِنْهَا .

\* \* \*

وَمَشَيْتُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي أَلْبَسْتُهُ الْمَيِّتَةَ مَعْنَى الْقَبْرِ ، إِلَى الْقَبْرِ الَّذِي أَلْبَسَ الْمَيِّتَةَ مَعْنَى الْبَيْتِ . وَأَنَا مُنْذُ مَشَيْتُ فِي جَنَازَةِ أُمِّي (رَحِمَهَا اللَّهُ) لَا أَسِيرُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَعَ الْأَحْيَاءِ ، وَلَكِنْ مَعَ الْمَوْتَى ، فَأَتَّبِعُ { مِنَ الْمَيِّتِ } صَدِيقًا لَيْسَ رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً ، لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ وَأَمْسِي فِي سَاعَةٍ لَيْسَتْ سِتِّينَ دَقِيقَةً ، لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ الزَّمَنِ ؛ وَلَا أَرَى الطَّرِيقَ مِنْ طُرُقِ الْحَيَاةِ ، لِأَنَّنِي فِي صُحْبَةِ مَيِّتٍ ؛ وَتُصْبِحُ لِلْأَرْضِ فِي رَأْيِي جُغْرَافِيَّةً أُخْرَى عَمِيَ النَّاسُ عَنْهَا لِشِدَّةِ وَضُوحِهَا ، كَأَلْوَهِيَّةٍ خَفِيَتْ مِنْ شِدَّةِ مَا ظَهَرَتْ .

يَقُولُونَ : إِنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ . أَمَّا أَنَا فَأَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ لَا يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ الَّذِي وَصَفُوا ، وَلَكِنْ خَضَمَ آخَرُ زَخَارٍ مُتَضَرِّبٍ ، هُوَ ذَلِكَ الْبَحْرُ التَّرَائِبِيُّ الْعَظِيمُ الْمُسَمَّى « الْمَقْبُرَةُ » .

يَقُولُونَ : إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ ... هِيَ مَاذَا - وَيَحْكُمُ - أَيُّهَا الْمَغْرُورُونَ ؛ أَفَلَا تَرَوْنَ هَذِهِ الصَّلَةَ الدَّائِمَةَ بَيْنَ بَطْنِ الْأُمِّ وَبَطْنِ الْأَرْضِ ؟

\* \* \*

لَعَمْرِي كَيْفَ تَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةَ لِلنَّاسِ قُلُوبًا مَعَ قُلُوبِهِمْ ، فَيَجْسُرُ الْمَرْءُ بِقَلْبٍ ، وَيَعْمَلُ بِقَلْبٍ آخَرَ : يَتَعَدَّى صَرَرَ الْكَذِبِ وَيَكْذِبُ ، وَيَعْرِفُ مَعْرَةَ الْإِثْمِ وَيَأْتِمُ ، وَيُؤْفِقُ بِعَاقِبَةِ الْخِيَانَةِ ثُمَّ يَخُونُ ؛ وَيَمْضِي فِي الْعُمْرِ مُتَسَهِّلًا إِلَى رَبِّهِ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ ، وَلَكِنَّهُ فِي الطَّرِيقِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلًا مِنْ قَدَرٍ مِنْ رَبِّهِ ... ؟

هَبَّتِ الرِّيحُ فِي السَّحَرِ عَلَى رَوْضَةٍ غَنَاءَ فَطَابَتْ لَهَا ، فَعَقَدَتْ عُقْدَتَهَا أَنْ تَتَّخِذَ لَهَا بَيْتًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الطَّيِّبِ لِتَقِيمَ فِيهِ ... يَا لَهَا حِكْمَةٌ مِنَ التَّذَبُّرِ ! تَرَعُمُ الرِّيحُ الْإِقَامَةَ عَلَى حِينٍ كُلِّ وَجُودِهَا هُوَ لِحْظَةٌ مُرُورِهَا ، وَتَحْلُمُ بِالْفَرَارِ فِي الْبَيْتِ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ بِطَبِيعِهَا أَنْ تَقِفَ .

يَا لَهَا حِكْمَةٌ سَامِيَةٌ ، لَا يَسْكُنُهَا مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَسْخَفُ مَا فِي الْحُمُقِ !

\* \* \*

هَمْدُ الْحَيِّ وَانْطِفَاطُ عَيْنَاهُ ، وَلَكِنَّهُ تَحَرَّكَ فِي تَارِيخِهِ مِمَّا ضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَسَّعَ ، وَأَصْبَحَ يَنْظُرُ بَعَيْنٍ مِنْ عَمَلِهِ إِمَّا مُبْصِرَةً أَوْ كَالْعَمِيَاءِ ؛ فَلَوْ تَكَلَّمَ يَصِفُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَقَالَ : إِنَّ هَذِهِ التُّجُومَ عَلَى الْأَرْضِ مَصَابِيحُ مَاتَمٍ أُفْنِمَ لَيْلٍ . وَمَا أَعْجَبَ أَنْ يَجْلِسَ أَهْلُ الْمَاتَمِ فِي الْمَاتَمِ لِيَضْحَكُوا وَيَلْعَبُوا !

وَلَوْ نَطَقَ الْمَوْتَى لَقَالُوا : أَيُّهَا الْأَحْيَاءُ ! إِنَّ هَذَا الْحَاضِرَ الَّذِي يَمُرُّ فَيَكُونُ مَاضِيَكُمْ فِي الدُّنْيَا ، هُوَ بَعِينُهُ الَّذِي يَكُونُ مُسْتَقْبَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، لَا تَزِيدُونَ فِيهِ وَلَا تَنْقُصُونَ . وَإِنَّ الدُّنْيَا تَبْدَأُ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى : مِنَ الْعُظَمَاءِ إِلَى الْفُقَرَاءِ ؛ وَلَكِنَّهَا تَنْقَلِبُ فِي الْآخِرَةِ فَتَبْدَأُ مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَى الْعُظَمَاءِ ؛ وَأَنْتُمْ تَرْسُمُونَهَا بِحُطُوطِ الْمَطَامِعِ وَالْحُطُوطِ ، وَتَرْسُمُهَا اللَّهُ بِحُطُوطِ الْحِزْمَانِ وَالْمَجَاهِدَةِ ؛ إِنَّ النَّامَ عَلَى الْأَرْضِ مَنْ تَمَّ بِمَتَاعِهَا وَلَذَائِهَا ، وَلَكِنَّ النَّامَ فِي السَّمَاءِ مَنْ تَمَّ بِنَفْسِهِ وَخَدَهَا .

\* \* \*

يَا أَسَفًا ! لَنْ يَقُولَ الْمَيِّتُ لِلْحَيِّ شَيْئًا ، وَمَنْ يَذَرِي ؟ لَعَلَّنَا وَنَحْنُ نُلْحِدُ لِلْمَوْتَى وَنُنْزِلُهُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، يَرَوْنَ بِأَرْوَاحِهِمُ الْخَالِدَةَ أَتُنَا نَحْنُ مَوَاتَهُمُ الْمَسَاكِينُ ، وَأَتُنَا مَذْفُونُونَ فِي الْقَبْرِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ : « الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ » ! وَهَلِ الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ مِنَ اللَّانِهَيَاةِ إِلَّا حُفْرَةٌ بِرَجُلٍ نَمْلَةٍ لِيُذْفَنَ فِيهَا نَمْلَةٌ ...

الْحَيَاةُ ... أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا ؟ هِيَ الْمُبْهَمَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي الْآخِرِ إِلَّا تَفْسِيرٌ وَاحِدٌ : حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ .

\* \* \*

وَرَجَعْنَا مَعَ الصَّدِيقِ إِلَى بَيْتِهِ ، وَلَهُ خَمْسَةُ أَطْفَالٍ صِغَارٍ لَوْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَنْتَزَعُوا مِنْ أُمِّهِمْ لَتَرَكَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى قَلْبِهَا مِثْلَ الْمِكْوَةِ الْمُخْمَى عَلَيْهَا فِي النَّارِ إِلَى أَنْ تَحْمَرَ ؛ وَلَكِنَّ أُمَّهُمْ هِيَ الَّتِي نُرِعَتْ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بَقَاؤُهُمْ فِي الْحَيَاةِ تَخْفِينًا لِسُكْرَةِ الْمَوْتِ عَلَيْهَا .

وَعَشِيَّتُهَا الْعَشِيَّةُ فَمَاتَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ ، إِذْ تَرَاهُمْ نَائِمِينَ تَحْتَ جَنَاحِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَمْدُودِ ، وَقَالَتْ : إِنَّهَا تَسْمَعُ أَحْلَامَهُمْ . وَكَانُوا هُمْ عَقْلُهَا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ !  
تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي قَلْبِ الْأُمِّ دُنْيَا مِنْ خَلْقِهِ هُوَ ، وَدُنْيَا مِنْ خَلْقِ أَوْلَادِهَا !  
تَبَارَكَ الَّذِي أَنَابَ الْأُمُّ ثَوَابَ مَا تُعَانِي ، فَجَعَلَ فَرَحَهَا صُورَةَ كَبِيرَةٍ مِنْ فَرَحِ صِبَاغِهَا !

\* \* \*

وَجَاءَ أَكْبَرُ الْأَطْفَالِ الْخَمْسَةِ ، وَكَانَتْهُ ثَمَانِيَّةُ أَرْطَالٍ مِنَ الْحَيَاةِ لَا ثَمَانِيَّةُ أَعْوَامٍ مِنَ الْعُمُرِ ؛ جَاءَ إِلَيْنَا كَمَا يَجِيءُ الْفَرْعُ لِقُلُوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، إِذْ كَانَ فِي عَيْنَيْهِ الْبَاكِئِينَ مَعْنَى فَقْدِ الْأُمِّ !

وَطَعَتْ عَلَيْهِ الدُّمُوعُ فَتَنَاقَلَ مِنْدِيلُهُ وَمَسَحَهَا بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَلَكِنْ رُوحَهُ الْيَتِيمَةُ تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَرْسُمَ بِهِئِهِ الدُّمُوعُ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يَتِمُّهَا !

وَطَهَرَ الْأَنْكِسَارُ فِي وَجْهِهِ يُعَبِّرُ بِبَلَاغَةٍ أَنَّهُ قَدْ أَحَسَّ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ وَطُفُولِيَّتِهِ بِإِزَاءِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ ، وَجَلَسَ مُسْتَسْلِمًا تَرْجِمُ هَيْئَتُهُ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ : « رِفْقًا بِي ! » .

ثُمَّ تَطَيَّرَ مِنْ عَيْنَيْهِ نَفْرَاتٌ فِي الْهَوَاءِ ، كَأَنَّمَا يُحْسِنُ أَنَّ أُمَّهُ حَوْلَهُ فِي الْجَوْوِ وَلَكِنَّهُ لَا يَرَاهَا !

ثُمَّ يُرْجِي عَيْنَيْهِ فِي إِغْمَاضَةٍ خَفِيفَةٍ ، كَأَنَّمَا يَرِجُو أَنْ يَرَى أُمَّهُ فِي طَوِيلِهِ !

وَلَا يُصَدِّقُ أَنَّهَا مَاتَتْ ، فَإِنَّ صَوْتَهَا حَيٌّ فِي أُذُنَيْهِ لَا يَزَالُ يَسْمَعُهُ مِنْ أَمْسٍ !

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَجْهِهِ الْأَنْكِسَارُ وَالْأَسْتِسْلَامُ ، وَيَتَمَلَّلُ فِي مَجْلِسِهِ ، فَيَنْطِقُ جِسْمُهُ كُلُّهُ بِهِئِهِ الْكَلِمَةِ : « يَا أُمِّي ! » .

\* \* \*

أَحْسَنَ - وَلَا رَيْبَ - أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي الْوُجُودِ<sup>(١)</sup> ، لِأَنَّ الْوُجُودَ كَانَ أُمَّهُ .

وَلَمْ يَسْ خُشُونَةُ الدُّنْيَا مِنْذُ السَّاعَةِ ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ الصَّدْرَ الَّذِي فِيهِ وَحْدَهُ لِيُنْ الْحَيَاةِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنَّهُ بِمَضِيَّةِ خُذُودِهَا الْحَيَاةَ » بَدَلًا مِنْ : « أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي الْوُجُودِ » .

لِأَنَّ فِيهِ قَلْبَ أُمِّهِ وَرُوحَهَا .

وَشَعَرَ بِالدَّلِّ يَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهِ الصَّغِيرِ ، لِأَنَّ تِلْكَ الَّتِي كَانَ يَمْلِكُ فِيهَا حَقَّ الرَّحْمَةِ قَدْ أُخِذَتْ مِنْهُ وَتَرَكْتَهُ بِلَا حَقٍّ فِي أَحَدٍ ؛ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَمَانٍ !

وَلَيْسَتْهُ الْمَسْكَنَةُ ، لِأَنَّ لَهُ شَيْئًا عَزِيزًا أَصْبَحَ وَرَاءَ الزَّمَانِ فَلَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ !

وَلَيْسَتْهُ الْمَسْكَنَةُ ، لِأَنَّهُ صَارَ وَحْدَهُ فِي الْمَكَانِ كَمَا هُوَ وَحْدَهُ فِي الزَّمَانِ !

وَأَرْتَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ التَّعَجُّبُ ، كَأَنَّهُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ : « إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمِّي هُنَا ، فَلِمَ أَذَا أَنَا هُنَا ؟ ! » .

ثُمَّ تَغَرَّغَتْ عَيْنَاهُ فَيَخْرُجُ مِنْدِيلُهُ وَيَمْسَحُ دَمْعَهُ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَلَكِنْ رُوحَهُ الْيَتِيمَةَ تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَرْسُمَ بِهِئِهِ الدُّمُوعُ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يَتِمُّهَا !

\* \* \*

وَنَهَضَ الصَّغِيرُ وَلَمْ يَنْطِقْ بِذَاتِ شَفَاةٍ ؛ نَهَضَ يَحْمِلُ رُجُولَتَهُ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْذُ السَّاعَةِ !

أَنْتَهَتْ - أَيُّهَا الطِّفْلُ الْمَسْكِينُ - أَيَّامُكَ مِنَ الْأُمِّ ؛ هَذِهِ الْأَيَّامُ السَّعِيدَةُ الَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ الْغَدَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ مَعْرِفَتَكَ أَمْسِ الَّذِي مَضَى ؛ إِذْ يَأْتِي الْغَدَ وَمَعَكَ أَمُّكَ !

وَبَدَأَتْ - أَيُّهَا الطِّفْلُ الْمَسْكِينُ - أَيَّامُكَ مِنَ الزَّمَنِ ، وَسَيَأْتِي كُلُّ غَدٍ مُحَجَّجًا مَرْهُوبًا ؛ إِذْ يَأْتِي لَكَ وَحْدَكَ ، وَيَأْتِي وَأَنْتَ وَحْدَكَ !

الْأُمُّ . . . ؟ يَا إِلَهِي ، أَيُّ صَغِيرٍ عَلَى الْأَرْضِ يَجِدُ كِفَايَتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا فِي الْأُمِّ ؟ !

## قِصَّةُ أَبِي (\*)

حَدَّثَنِي الْمَسْكِينُ فِيمَا حَدَّثَ وَهُوَ يَصِفُ مَا نَزَلَ بِهِ قَالَ :

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءَ فَتَسَاءَ بِالْوَلَدِ فِي آثَارِهِمْ ، وَمَدَّ بِالنَّسْلِ فِي وُجُودِهِمْ ، وَزَادَ مِنْهُ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَرْوَاحًا ، وَصَمَّ بِهِ إِلَى قُلُوبِهِمْ قُلُوبًا ، وَمَلَأَ أَعْيُنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا تَقَرُّ بِهِ قُرَّةَ عَيْنٍ كَانَتْ لَمْ تَجِدْ ثُمَّ وَجَدَتْ ؛ فَهُمْ بِهِ لَوْلَاءِ الْأَطْفَالِ يَمْلِكُونَ الْقُوَّةَ الَّتِي تُرْجِعُهُمْ أَطْفَالًا مِثْلَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَسُرُّهُمْ ، فَيَكْبُرُ الْفَرْحُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ضَيْلًا صَغِيرًا ، وَيَعْظُمُ الْأَمَلُ فِي أَشْيَائِهِمْ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَنْ شَيْءٍ حَفِيزٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ .

وَتِلْكَ حَقِيقَةُ مَنْ حَقَاتِي السَّعَادَةَ لَا أَسْمَى وَلَا أَعْظَمُ مِنْهَا إِلَّا الْحَقِيقَةُ الْآخَرَى ، وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَتَحَوَّلُ بِهَا الْكَوْنُ فِي قَلْبِ الْوَالِدَيْنِ إِلَى كَثْرٍ مِنَ الْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ وَجَمَالِ الْعَاطِفَةِ ، يَسْخَرُ مِنْ ابْتِسَامَةِ طِفْلِ أَوْ طِفْلَةٍ ، أَوْ بِكَلِمَةٍ مِنْهُمَا أَوْ حَرَكَةٍ ، عَلَى حِينٍ لَا يَتَحَوَّلُ مِثْلَ ذَلِكَ وَلَا قَرِينًا مِنْهُ بِمَالِ الدُّنْيَا ، وَلَا بِمِلْكِ الدُّنْيَا .

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءَ ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَانِي بِأَنْ أَكُونَ أَبَا ، وَأَخْرَجَ لِي مِنْ أَفْرَاحِ قَلْبِي أَخْرَاجَ قَلْبِي ! وَلَقَدْ كُنْتُ كَرَجُلٍ مَلَكَ دَارًا يَسْتَمْتِعُ بِهَا ، فَتَمَتَّى أَنْ يُشْرِعَ<sup>(١)</sup> فِي جَانِبِ مِنْهَا غُرْفَةً يُزَخِرُهَا ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ وَبَلَغَ الْمُفْتَرَحَ ، أَنْتَهَدَمَتِ الدَّارُ وَبَقِيَتِ الْغُرْفَةُ قَائِمَةً !

عَمَرَكَ اللَّهُ ، أَشْعُرُ هَذَا الرَّجُلُ فِي نَكْبَتِهِ بِالْغُرْفَةِ أَمْ بِالْدارِ ؟ وَهَلْ تَرَاهُ زَادَ أَوْ نَقَصَ ؟ وَيَا لَيْتَهُمَا بَيْتٌ وَغُرْفَةٌ مِنْ بَيْتٍ ؛ فَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَخِيَا بِالْبَنَاءِ إِذَا مَاتَتْ بِالْهَدْمِ ، وَلَكِنْ مَنْ ذَا يُخَيِّي الزَّوْجَةَ مَاتَتْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْ بِكَرْهَا الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ !

(\*) « الرسالة » العدد : ٥٩ ، ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٠ أغسطس / آب سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٣٦٣ - ١٣٦٤ .

(١) أي : يَنْتَعِ غُرْفَةً إِلَى الشَّارِعِ .

إِنَّهَا طِفْلَةٌ وَلِدَتْ وَكَأَنَّمَا أُخْرِجَتْ مِنْ تَحْتِ الرَّذَمِ ، إِذْ وَلِدَتْ تَحْتَ مَاضٍ مِنَ الْحَيَاةِ مِنْهُمْ ، وَهَلْ فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ أُمًّا قَدْ وَلَدَتْهَا فِي الصَّخْرَاءِ ثُمَّ أُكْرِهَتْ أَنْ تَدْعَهَا وَخَدَهَا فِي ذَلِكَ الْفَقْرِ تَضْرُخُ وَتَبْكِي ! فَالْمَسْكِينَةُ عَلَى الْحَالَيْنِ مُنْقَطِعَةٌ أَوَّلَ مَا انْقَطَعَتْ مِنْ حَتَانِ الْأُمِّ وَرَحْمَتِهَا .

طِفْلَةٌ وَلِدَتْ صَارِخَةً ، لَا صَرِخَةَ الْحَيَاةِ ، وَلَكِنْ صَرِخَةَ النَّوْحِ وَالذُّبِّ عَلَى أُمِّهَا .

صَرِخَةُ حَزِينَةٍ مَعْتَاهَا : ضَعُونِي مَعَ أُمِّي وَلَوْ فِي الْقَبْرِ !

صَرِخَةُ تَرْتَبِدُ ، كَأَنَّ الْمَسْكِينَةَ شَعَرَتْ أَنَّ الدُّنْيَا خَالِيَةٌ مِنَ الصَّدْرِ الَّذِي يُدْفِئُهَا !

صَرِخَةُ تَتَرَدَّدُ فِي صَرَاعَةٍ ، كَأَنَّهَا جُمْلَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ : « يَا رَبِّ ارْحَمْنِي مِنْ حَيَاةٍ بِلَا أُمٍّ » .

\* \* \*

قَالَ الْمَسْكِينُ وَهُوَ يَبْكِي أَمْرًا أَنَّهُ :

وَلَمَّا ضَرَبَهَا الْمَخَاضُ ، ضَاعَتْ قُوَّتُهَا مِنْ شُعُورِهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَ قَلِيلٍ مُضَاعَفَةً { بِمَوْلُودِهَا } ، وَسَتَكُونُ رُوحَيْنِ لَا رُوحًا وَاحِدَةً ، وَتَلِدُ لِي الْحَيَاةَ وَالْحُبَّ الْإِلَهِيَّ مَعًا ، وَتَأْتِي لِقَلْبِي بِمِثْلِ طُفُولَتِهِ الْأُولَى الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَأْتِيَ الرَّجُلَ إِلَّا مِنْ زَوْجِهِ . كُلُّ ذَلِكَ ضَاعَفَ قُوَّاهَا سَاعَةً وَشَدَّ مِنْهَا ؛ وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ الْمَوْتُ ، إِذْ عَضَلَتْ وَعَسَرَ خُرُوجَ مَوْلُودِهَا .

وَجَاءَهَا الْجِرَاحِي بِمِضْعِهِ ، وَكَأَنَّهَا رَأَتْهُ دَابِحًا لَا طَبِيبًا ، فَجَعَلَتْ تُعَبِّرُ بِعَيْنَيْهَا ، إِذْ لَمْ تَمْلِكْ فِي آلَمِهَا الْقَاتِلَةَ غَيْرَ لُغَةِ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ .

كَانَتْ بِنَظَرَةٍ تَبْكِي عَلَيَّ وَعَلَى بُؤْسِي ، وَيَأْخُذُ تَبْكِي عَلَيَّ بُؤْسِ مَوْلُودِهَا وَشَقَائِهِ ؛ وَبِنَظَرَةٍ تُودِّعُنِي ، وَيَأْخُذُ تَدْعُو اللَّهَ لِي جَزَاءَ مَا أَحْسَنْتُ إِلَيْهَا ؛ وَبِنَظَرَةٍ تَتَوَجَّعُ لِنَفْسِهَا ، وَيَأْخُذُ تَتَأَلَّمُ مِنْ أَنَّهَا تَرَانِي أَكَادُ أَجْرُ .

نَظَرَاتٌ نَظَرَاتٌ ...

يَا إِلَهِي ! لَقَدْ خَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَاقِفٌ بَيْنَ عَشْرِينَ مِزَاةً تُحِيطُ بِهِ ، فَأَنَا أَرَاهُ  
مَوْتًا مُتَعَدِّدًا لَا مَوْتًا وَاحِدًا ، وَكُلُّ نَظَرَةٍ مِنْ عَيْنِي زَوْجَتِي إِلَيَّ كَانَتْ مِنْهَا هِيَ نَظَرَةٌ ، وَكَانَتْ  
عِنْدِي أَنَا مِزَاةَ الرُّوحِ لِلرُّوحِ .

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْسَ أَنَّهَا تَمُوتُ لِوَضْعِ مَوْلُودِهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَلَامَ الدَّمَوِيَّةَ الدَّابِّحَةَ هِيَ  
الْوَسِيلَةُ لِأَن تَتْرَكَ لِي بَقِيَّةَ حَيَاتٍ مِنْهَا ؛ فَيَا لِلرَّحْمَةِ وَالْحَنَانِ وَالْحُبِّ ! لَقَدْ ابْتَسَمَتْ لِي وَهِيَ  
تَمُوتُ ؛ وَهِيَ تَلِدُ ؛ وَهِيَ تُذْبَحُ !

\* \* \*

لَيْسَتْ رَحْمَةُ الْمَرْأَةِ الْمُجِبَّةِ خَيَالًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ الَّتِي تُخَيِّبُ الدُّنْيَا خَيَالًا  
أَيْضًا ؛ إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ النَّسَوِيَّ الْمُسْتَقَرَّ فَوْقَ أَحْشَاءِ تَحْمِلِ الْجَنِينِ صَابِرَةً رَاضِيَةً فَرِحَةً  
بِالْأَمِّهَا ، وَتَعْدُوهُ وَتُقَاسِمُهُ حَيَاةَ نَفْسِهَا - هَذَا الْقَلْبُ يَحْمِلُ الْحُبَّ أَيْضًا صَابِرًا رَاضِيًا فَرِحًا  
بِالْأُمِّهِ ، وَيَعْدُوهُ وَيُقَاسِمُهُ حَيَاةَ نَفْسِهِ .

وَلِلرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَدَلَّةٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ الْإِنْسَانَ عَلَيْهَا دِلَالَاتٍ مُخْتَلِفَةً ؛ فَالشَّمْسُ تَدُلُّ عَلَيْهَا  
بِالضُّوءِ الَّذِي تَطْعُمُهُ الْحَيَاةُ ، وَالْهَوَاءُ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالضُّوءِ الَّذِي تَنْتَفِسُهُ الْحَيَاةُ ، وَالْمَاءُ يَدُلُّ  
عَلَيْهَا بِالضُّوءِ الَّذِي تَشْرَبُهُ الْحَيَاةُ ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَأْتِيَ فِي الْآخِرِ قَلْبُ الْمَرْأَةِ فَيَدُلُّ عَلَى  
رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْحُبِّ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ .

ابْتِسَامَةُ الْحُبِّ غَالِبَتْ رَقَرَاتِ الْمَوْتِ الَّتِي تَعْتَلِجُ مِنْ تَحْتِهَا حَتَّى غَلَبَتْهَا ، وَأَعَادَتْ  
الْحَيَاةَ لِحُظَّةٍ إِلَى وَجْهِ زَوْجَتِي لِأَرَاهَا آخِرَ مَا أَرَاهَا فِي صُورَةِ الْمُجِبَّةِ لِي ، فَكَانَ كُلُّ جَمَالٍ  
نَفْسِهَا مُتَشَبِّهًا عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ ، وَظَهَرَتْ فِيهِ رُوحُهَا وَعَوَاطِفُهَا تُودِعُنِي وَدَاعَا حَزِينًا مُبْتَسِمًا  
يَتَكَلَّمُ ؛ يَتَكَلَّمُ بِعَجْزِهِ عَنِ الْكَلَامِ .

ابْتِسَامَةُ لَا رَيْبَ أَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ لَيْسَتْ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ حَقَائِقِهَا ؛ فَكَأَنَّمَا  
الْتَمَعَتْ بِأَشْيَاءٍ مِنَ الْخُلْدِ تَرَفُّ رَفِيفَهَا عَلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ لِظَهَرِ سَاعَةِ الْمَوْتِ أَنَّ حُبَّهُ أَقْوَى  
مِنَ الْمَوْتِ .

\* \* \*

قَالَ الْمُسْكِينُ : وَتَرَى الطَّيِّبُ ذَا بَطْنِهَا فَكَانَتْ طِفْلَةً ، وَمَا كَانَتْ زَوْجَتِي تَقْرِحُ أَنَّ  
يَكُونُ الْجَنِينُ غَيْرَهَا ، بَلْ كَانَتْ مُسْتَقْبِقَةً أَنَّهَا تَضَعُهَا أَنتَى ، وَصَنَعَتْ لَهَا نِيَابَهَا ، وَوَسَّطَهَا  
بِزِينَةِ الْأَثْوَةِ ، وَعَرَضَتْ أَسْمَاءَ الْبَنَاتِ فَاخْتَارَتْ أَسْمَهَا أَيْضًا ، وَكُنْتُ أَكْرَهُ ذَلِكَ مِنْهَا وَأُرِيدُ  
وَلَدًا لَا بِنْتًا ، فَكَانَتْ تُعَايِظُنِي بِعَمَلِهَا وَإِصْرَارِهَا غِيظَ دُعَايَةٍ لَا غِيظَ جَفَاءٍ .

وَمَضَتْ لَا تَذْكُرُ إِلَّا بِنْتَهَا مَدَّةَ الْحَمْلِ ، وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ بِنْتِهَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ  
لِذَلِكَ ؛ فَلَمَّا قَضَى اللَّهُ فِيهَا قَضَاءَهُ ، عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ ، فَكَانَ الْإِلَهَامُ فِيهَا  
أَنَّهَا عَلَى بَابِ قَبْرِهَا ، وَأَنَّهَا لَنْ تَرَى طِفْلَتَهَا ، وَلَنْ تَعِيشَ لَهَا ، فَعَاشَتْ أَيَّامَ الْحَمْلِ مَعَ  
ذِكْرَاهَا ؛ تَضُمُّ نِيَابَهَا إِلَى صَدْرِهَا ، وَتَحْمِلُهَا عَلَى يَدَيْهَا ، وَتَتَأَنَّيَهَا وَتُقَبِّلُهَا ، وَتَأْخُذُهَا مِنْ  
الْوَهْمِ وَتَرُدُّهَا إِلَيْهِ ؛ وَكَذَلِكَ نَعِمَتْ الْمُسْكِينَةُ بِالْمُسْكِينَةِ !

لَكَ اللَّهُ يَا مُعْجِزَةَ الرَّحْمَةِ ، يَا نَفْسَ الْأُمِّ !

\* \* \*

وَلَمَّا قِيلَ : مَاتَتْ . جَعَلَ يُكَلِّمُنِي الْمُتَكَلِّمُ وَلَا أَغْفِلُ ؛ فَإِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَأْتِي بِالْمُصِيبَةِ  
الْمُتَوَقَّعَةِ طَالَ ارْتِقَائُهَا ، لَا تَأْتِي بِمَعَانٍ لُغَوِيَّةٍ كَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلَامِ ، بَلْ بِأَسْلِحَةٍ تَضْرِبُ فِي  
النَّفْسِ وَفِي الْعَقْلِ ، وَتُنْخِطُهَا جِرَاحًا وَقَتًا .

وَجَعَلَنِي مَوْتُهَا كَأَنِّي مَيِّتٌ يَحْمِلُ نَفْسَهُ ، مَا حَوْلَهُ إِلَّا الْمُسْتَعْمُونَ ؛ وَأَحْسَنْتُ كَانَ قُوَّةُ  
أَخَذَتْ بِأَحْدَى رِجْلَيْ قَوْضَعَتِهَا فِي الْآخِرَةِ وَتَرَكَتِ الثَّانِيَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَلَحِقَنِي مِنَ الْجَرَعِ  
مَا اللَّهُ عَالِمٌ بِهِ ، وَوَجِدْتُ أَخْرَقَ الْوَجْدِ ، وَبَكَيْتُ أَحَرَ الْبَكَاءِ ؛ وَجَعَلْتُ أَفْكَارِي تَنْحَدِرُ مِنْ  
رَأْسِي إِلَى حَلْقِي فَآخِظُنِي بِهَا ، ثُمَّ لَا يُنْقَسُ عَنِّي إِلَّا الدَّمْعُ ، كَانَ أَعْضَائِي اخْتَلَتْ مِمَّا  
ضَغَطَنِي مِنَ الْحُزَنِ ، فَأَنَا أَنْتَقَسُ بِرَيْتِي وَعَيْنِي .

بِمَوْتِهَا شَعَرْتُ بِهَا ؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِلَذَّةِ الْحُبِّ كَامِلَةً إِلَّا فِي  
آلَامِ الْحُبِّ وَحْدَهَا ، وَكَانَتْ فِي حَيَاتِهَا تَضَعُ مِنْ رُوحِهَا فِي سُرُورِي ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْمَرْأَةِ  
الْمَحْبُوبَةِ : يَجِدُ مُحِبَّهَا فِي كُلِّ سُرُورٍ لِمَحَابِ رُوحَانِيَّةٍ ؛ وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا ،  
فَجَعَلَتْ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي ؛ وَلَوْلَا أَنَّ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي لَفَتَلَتْنِي الْمُصِيبَةُ .

وَكُنْتُ أَدْلِفُ وَرَاءَ اللَّعْشِ وَقَدْ بَطَلَ فِي نَفْسِي الشُّعُورُ بِالدُّنْيَا ، وَكَانَ النَّاسُ يَمْشُونَ حَوْلِي بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَكَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ عَلَى أَنَّهُمْ سَائِرُونَ كَمَا يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ؛ أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَمْشِي بِمَا فِيَّ مِنَ الْحُبِّ مُنْكَسِرًا مُنْخَذِلًا مُضْغَضِعًا ، لِأَنِّي وَخِي سَائِرٌ وَرَاءَ مَا لَا يُلْحَقُ .

وَقُلَّ النَّاسُ عَلَى قَلْبِي ، وَرَجَعَ كُلُّ أَمْرِهِمْ عِنْدِي إِلَى الْعَنِيبِ وَالْقَنِيصَةِ ، إِذْ كَانَ لِي عَقْلٌ طَارِئٌ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا لَيْسَ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَكُنْتُ وَخِي الْمُصَابَ بَيْنَهُمْ ، فَكُنْتُ وَخِي بَيْنَهُمُ الْعَاقِلَ .

أَنَا أَمْشِي لِأَنْتَهِي إِلَى آخِرِ مُصِيبَتِي ، وَهُمْ يَمْشُونَ لِيَنْتَهُوا إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ ؛ وَشَتَانِ مَا نَحْنُ وَشَتَانِ !

وَلَمَّا رَأَيْتُ قَبْرَهَا أَبْتَدَرْتُ عَيْنَايَ تَنْظُرَانِ بِالْذُّمُوعِ لَا بِالطَّيْرِ ، وَرَأَيْتُ التُّرَابَ كَأَنَّهُ غُيُومٌ مُلَوْنَةٌ بِالْوَانِ السُّحْبِ الدَّاكِيَةِ تَهَيَّأَتْ فِي سَمَائِهَا تَحْتَ الظَّلَامِ لِتُخْفِيَ كَوْنَهَا مِنَ الْكَوَائِبِ ؛ وَظَهَرَ لِي الْقَبْرُ كَأَنَّهُ فَمُ الْأَرْضِ يُخَاطِبُ الْإِنْسَانَ بِحَزْمٍ صَارِمٍ ، يُخَاطِبُ الْفَقِيرَ وَالْغَنِيَّ ، وَالضَّعِيفَ وَالْقَوِيَّ ، وَالْمُلُوكَ وَالصَّعَالِيكَ : « إِنَّ كُلَّ قُوَّةٍ تُنْزَعُ هُنَا » .

\* \* \*

قَالَ الْمِسْكِينُ : وَكَمَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ فِي أَيَّامِ الْمَطَرِ رَائِحَةَ النَّسِيمِ الْمُبْتَلِ بِالْمَاءِ ، كُنْتُ أَسْتَرْوِحُ فِي رَجْعَتِي إِلَى الدَّارِ رَائِحَةَ نَسِيمِ مُبْتَلٍ بِالْذُّمُوعِ ؛ وَحَضَرْتُ الْمَاءَ وَعَزَانِي النَّاسُ ، فَكُنْتُ فِيهِمْ كَالْمَأْسُورِ بَيْنَهُمْ : لَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ يَدْعُونِي فَأَنْجُو عَلَى وَجْهِي ، وَلَا أَرَى إِلَّا أَنَّهُمْ يَجْرِعُونَ فِي الْوُجُودِ غُصَصًا كَمَا تَجَرَّعْتُ الْفَقْدَ غُصَّةَ غُصَّةٍ ؛ إِلَى أَنْ تَفْرُقُوا مَعَ سَوَادِ اللَّيْلِ فَانْكَفَأْتُ إِلَى الدَّارِ ، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ وَلَمَسَ الْمَوْتَ لَمَسَةً ، وَإِذَا الدَّارُ نَفْسُهَا كَالْعَيْنِ الْمَفْرُوحَةِ مِنْ أَثَارِ الْبُكَاءِ : مَا ثُمَّ شَيْءٌ إِلَّا لِيُطَالِغَنِي بِأَنْ مَسَرَاتِي قَدْ مَاتَتْ !

وَلَا حَ الصَّبْحُ لِعَيْنَيِ السَّاهِرَتَيْنِ صُبْحًا فَاتِرًا تَبَيَّنَتْ فِيهِ الْخَجَلُ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : « لَمْ أَطْلُعْ لَكَ » ، فَانْسَلَّتْ مِنَ اللَّيْلِ ، وَذَهَبَتْ أَمْشِي فِي دُنْيَا هِيَ الْكَاتِبَةُ الْمُضِيئَةُ سَخِرَتْ الْأَقْدَارُ مِنْهَا بِإِظْهَارِهَا فِي هَذَا الضُّوْءِ مَظْهَرَ وَجْهِ الْعَجُوزِ الْمُتَصَابِيَةِ فِي زِينَةِ لَا تَزِيدُهَا إِلَّا قُبْحًا !

وَمَضَيْتُ عَلَى وَجْهِي لَا غَايَةَ لِي ، أَضْرَبُ فِي كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَهْرُبَ مِنْ نَفْسِي ! وَمَا خَطَرَ لِي قَطُّ أَنِّي فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ ، بَلْ كُنْتُ عِنْدَ نَفْسِي لَا أَزَالُ فِي أَمْسٍ ، وَتَغَيَّرَ عِنْدِي الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ : فَأَحْدَهُمَا سَاعَةٌ مَوْتٍ لَا تَتْرُكُ مَا فِيهَا ، وَالْآخَرَ قَبْرٌ مَيِّتَةٌ لَا يُرَدُّ مَا فِيهِ .

أَوْ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ الْوُجُودُ لِيُعَذَّبَنَا بِالتَّذَكُّرِ أَنَّهُ كَانَ مَوْجُودًا !

\* \* \*

قَالَ الْمِسْكِينُ : ثُمَّ أَعَادْتَنِي قَدَمَايَ إِلَى الْبَيْتِ لِأَرَى طِفْلَتِي - وَمَا كُنْتُ رَأَيْتُهَا - وَلَقَدْ كَانَتْ وَلَادَتُهَا أَوَّلَ الْحَيَاةِ لَهَا ، وَأَوَّلَ الْحَيَاةِ لِي أَيْضًا ؛ إِذْ لَوْلَاهَا لَا تَنَحَرْتُ غَيْرَ شَيْءٍ . يَا وَلَدَا ! لَمْ تَلْتَقِ عَيْنِي بِعَيْنِ الطُّفْلَةِ حَتَّى أَنْفَجَرَتْ تَبْكِي . أَتَبْكِينَ لِي يَا ابْنَتِي أَمْ عَلَيَّ ؟

أَهَذَا بُكَاءُكِ أَتَيْتُهَا الْمِسْكِينَةُ ، أَمْ هُوَ صَوْتُ قَلْبِكَ الَّتِي نَسِيتُ ؟  
أَصَوْتُكَ أَنْتِ ، أَمْ هِيَ رُوحُ أُمِّكَ تَصْرُخُ تَرْفِي لِي ، وَتَتَوَجَّعُ لِفَرْطِ مَا قَاسَيْتُ !  
يَا ابْنَتِي ، إِنَّمَا أَنْتِ الْحَقِيقَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي خَرَجْتَ لِي مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْخَيَالَاتِ الشَّعْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ، خَيَالَاتِ الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ الَّتِي مَرَّتْ !  
يُخْلُقُ الْمَوَالِيدُ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ ؛ وَأَرَاكِ أَنْتِ يَا مِسْكِينَةَ ، خُلِقْتَ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ وَالْذُّمُوعِ !

بَقِيَّةُ حَيَاةٍ مَاتَتْ ! فَهَلْ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّكَ بَقِيَّةُ مَوْتٍ يَخِيَا ؟  
مِسْكِينَةُ ، مِسْكِينَةُ ؛ لَوْ أَنَّ نَوَامِيسَ الْعَالَمِ مُتَغَيِّرَةٌ لِشَيْءٍ لَتَغَيَّرَتْ مِنْ أَجْلِ بُؤْسِكَ فَدَرْتُ لَكَ الْأَلَمَ ؛ وَلَكِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَمَا بُكَاءُنا وَالْأَمْنَا وَتَعَاسَتُنَا إِلَّا تَرَاثُ الْحَيَاةِ فِي أَجْسَامِنَا الْأَرْضِيَّةِ ، كُلُّ ذَلِكَ طَبِيعَةٌ ، وَلَكِنَّ بَقْعَةً أَنْظَفَ مِنْ بَقْعَةٍ ، وَأَرَاكِ يَا ابْنَتِي كَالْبَيْتِ الَّذِي هُدِمَ أَوَّلَ مَا بُنِيَ يَمْلُؤُهُ تَرَابُهُ !  
لَنْ تَتَغَيَّرَ النَوَامِيسُ ، فَلَنْ تَجِدِي عَطْفَ الْأُمِّ ، وَلَكِنْ لَنْ يَتَغَيَّرَ قَلْبِي أَيْضًا ، فَلَنْ

تُخَرِّمِي عَطْفَ الْأَبِ .

وَإِذَا صَبَرَ النَّاسُ عَلَى الْحَيَاةِ فَمِنْ أَجْلِكَ يَا مِسْكِينَةُ ! مِنْ أَجْلِ ضَعْفِكَ وَانْقِطَاعِكَ  
سُاعَاتِي الصَّبْرَ لَكَ ، وَأَعَانِي الصَّبْرَ لِي ، وَأَعَانِي الصَّبْرَ عَنْ أُمِّكَ ، سَأَصْبِرُ عَلَى الصَّبْرِ  
نَفْسِي !

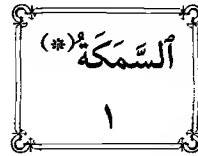
يَا أَبَتِي ! يَا أَبَتِي ! لِمَاذَا وَضَعْتَ الْأَقْدَارُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا  
إِلَّا قَبْرٌ مُظْلِمٌ مُقْفَلٌ عَلَى أُمِّكَ ، وَأَبٌ مِسْكِينٌ مُقْفَلٌ عَلَى أَلَامِهِ ؟

\* \* \*

قَالَ الْمِسْكِينُ : وَهَكَذَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْبُؤْسِ وَالْهَمِّ ، فَلَمْ أَتَزَوَّجْ إِلَّا لِتَصْنَعِ لِي  
حَبِيبَتِي دُمُوعِي ، ثُمَّ لَمْ تَمُتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَكْتَ لِي حَبِيبَةً أُخْرَى سَتَظِلُّ زَمَنًا طَوِيلًا تَصْنَعُ لِي  
دُمُوعِي !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ الْفَقِيهَ الْبَغْدَادِيَّ قَالَ : حَصَلَتْ فِي مَدِينَةِ (بَلْخ) سَنَةٌ ثَلَاثِينَ  
وَمِئَتَيْنِ ، وَعَالِمُهَا يَوْمَئِذٍ شَيْخُ خُرَاسَانَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ<sup>(١)</sup> الزَّاهِدُ صَاحِبُ الْمَوَاعِظِ  
وَالْحِكَمِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ، وَنَفْسُهُ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، وَالْفَلَكَ الْأَعْلَى مِنْ وَرَاءِ  
نَفْسِهِ ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فَيَمَّا زَعَمُوا .

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَهُمْ : (لَقَمَانُ هَذِهِ الْأُمَّةِ) ؛ لِمَا يُعْجِبُهُمْ مِنْ حِكْمِهِ فِي الزُّهْدِ  
وَالْمَوَاعِظَةِ ، وَقَدْ حَضَرَتْ مَجَالِسَهُ وَحَفِظَتْ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئًا كَثِيرًا ، كَقَوْلِهِ : مَنْ دَخَلَ فِي  
مَذْهَبِنَا هَذَا (يَعْنِي الطَّرِيقَ) فَلْيَجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنَ الْمَوْتِ : مَوْتُ أَبْيَضُ ،  
وَمَوْتُ أَسْوَدُ ، وَمَوْتُ أَحْمَرُ ، وَمَوْتُ أَخْضَرُ ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ الْجُوعُ ، وَالْمَوْتُ  
الْأَسْوَدُ أَحْتِمَالُ الْأَذَى ، وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ ، وَالْمَوْتُ الْأَخْضَرُ طَرَحُ الرِّقَاعِ  
بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (يَعْنِي لُبْسَ الْمُرَقَّعَةِ وَالْخَلْقَ مِنَ الثِّيَابِ) .

وَقُلْتُ يَوْمًا لِصَاحِبِهِ وَتَلْمِيزِهِ (أَبِي تُرَابٍ) وَجَارِيَتُهُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ : قَدْ فَهَمْنَا  
وَجْهَ التَّسْمِيَةِ فِي الْمَوْتِ الْأَخْضَرِ مَا دَامَتْ الْمُرَقَّعَةُ خَضِرَاءَ ؛ فَمَا الْوَجْهُ فِي الْأَبْيَضِ  
وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ ؟ فَجَاءَ بِقَوْلٍ لَمْ أَرْضَهُ ، وَلَيْسَ مَعَهُ دَلِيلٌ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَا عِنْدَكَ أَنْتَ ؟  
قُلْتُ : أَمَّا الْجُوعُ فَيُمِيتُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَيَتْرُكُهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ، فَذَلِكَ الْمَوْتُ  
الْأَبْيَضُ ؛ وَأَمَّا أَحْتِمَالُ الْأَذَى فَهُوَ أَحْتِمَالُ سَوَادِ الْوَجْهِ عِنْدَ النَّاسِ ، فَهُوَ الْمَوْتُ الْأَسْوَدُ ؛  
وَأَمَّا مُخَالَفَةُ النَّفْسِ فَهِيَ كِإِضْرَامِ النَّارِ فِيهَا ، فَذَاكَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ .

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَكُنْتُ ذَاتَ نَهَارٍ فِي مَسْجِدِ (بَلْخ) وَالنَّاسُ مُتَوَافِرُونَ يَنْتَظِرُونَ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٣٧ ، ٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٧ فبراير/شباط ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ٢٤٤ - ٢٤٨ .

(١) هُوَ حَاتِمُ بْنُ يُوسُفَ شَيْخُ خُرَاسَانَ وَوَاعِظُهَا ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٣٧ لِلْهِجْرَةِ .

(لَقَمَانَ الْأُمِّيَّةَ) لِيَسْمَعُوهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ قَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا : مَنْ يَعْظُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشَّيْخُ ؟ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُو تُرَابٍ وَقَالَ : أَنْتَ رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ ، وَرَأَيْتَ بَشْرًا الْحَافِيَّ وَقُلَانًا وَقُلَانًا ، فَقُمْ فَحَدِّثِ النَّاسَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ هُمْ بَقَايَا النُّبُوَّةِ . ثُمَّ أَخَذَ يَدَيَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ الَّتِي يَجْلِسُ إِلَيْهَا إِمَامُ خُرَاسَانَ فَأَجْلَسَنِي ثُمَّ وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيَّ .

وَتَطَاوَلَتِ الْأَعْنَاقُ ، وَرَمَانِي النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ ، وَقَالُوا : الْبَغْدَادِيُّ ! الْبَغْدَادِيُّ ! وَكَأَنَّمَا ضَوْعِفَتْ عِنْدَهُمْ بِمَجْلِسِي مَرَّةً وَبِئْسَبِي مَرَّةً أُخْرَى ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَاللَّهِ مَا فِي الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَلَا الْأَخْضَرِ وَلَا الْأَسْوَدِ مَوْعِظَةٌ ، وَلَوْ لَيْسَ عِزْرَائِيلُ قَوْسٌ فَرَحَ لَأَفْسَدَ شِعْرُ هَذِهِ الْأَلْوَانِ مَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ؛ وَلَا مَوْعِظَةٌ فِي كَلَامٍ لَمْ يَمْتَلِئْ مِنْ نَفْسٍ قَائِلِهِ لِيَكُونَ عَمَلًا فَيَسْخُولَ فِي الثُّفُوسِ الْأُخْرَى عَمَلًا ، وَلَا يَبْقَى كَلَامًا ؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ الْوَعْظُ تَأْلِيْفُ الْقَوْلِ لِلْسَامِعِ يَسْمَعُهُ ، لَكِنَّهُ تَأْلِيْفُ النَّفْسِ لِنَفْسٍ أُخْرَى تَرَاهَا فِي كَلَامِهَا ، فَيَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ كَأَنَّهُ قَرَابَةٌ بَيْنَ النَّفْسَيْنِ ، حَتَّى لَكَأَنَّ الدَّمَ الْمُتَجَادِبَ يَجْرِي فِيهِ وَيَدُورُ فِي أَلْفَاظِهِ .

\* \* \*

وَكُنْتُ رَأَيْتُ رُؤْيَا (يَبْلُغُ) تَتَّصِلُ بِقِصَّةٍ قَدِيمَةٍ فِي بَغْدَادَ ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِمْ ، فَكَانَتْ الْقِصَّةُ كَمَا حَكَيْنَاهَا : أَنِّي امْتَحِنْتُ بِالْفَقْرِ فِي سَنَةِ سَعَةِ عَشْرَةٍ وَمِئَتَيْنِ ؛ وَانْحَسَمَتْ مَادَّتِي وَفُحِطَ مَنْزِلِي فَخَطَا شِدِيدًا جَمَعَ عَلَيَّ الْحَاجَةَ وَالضَّرَّ وَالْمَسْكَنَةَ ؛ فَلَوْ أَنْكَمَشْتُ الصَّخْرَاءَ الْمُجْدِبَةَ فَصَغُرْتُ ثُمَّ صَغُرْتُ حَتَّى تَرْجِعَ أَذْرُعًا فِي أَذْرُعٍ ، لَكَانَتْ هِيَ دَارِي يَوْمِيذٍ فِي مَحَلَّةِ بَابِ الْبَصْرَةِ مِنْ بَغْدَادَ .

وَجَاءَ يَوْمٌ صَحْرَاوِيٌّ كَأَنَّمَا طَلَعَتْ شَمْسُهُ مِنْ بَيْنِ الرَّمْلِ لَا مِنْ بَيْنِ الشُّحْبِ ، وَمَرَّتِ الشَّمْسُ عَلَيَّ دَارِي فِي بَغْدَادَ مُرُورَهَا عَلَيَّ الْوَرَقَةِ الْجَافَةِ الْمُعْلَقَةِ فِي الشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا شَيْءٌ يُسَبِّغُهُ حَلَقُ آدَمِيٍّ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الدَّارِ إِلَّا تَرَاهِيَا وَحِجَارَتُهَا وَأَجْدَاهَا ؛ وَلِيَّ امْرَأَةٌ وَلِيَّ مِنْهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ ، وَقَدْ طَوَيْنَا عَلَى جُوعٍ يَخْصِفُ بِالْجُوفِ خَسْفًا كَمَا تَهْبِطُ الْأَرْضُ ؛ فَلَمَّئِثٌ حَبِيبٌ لَوْ كُنَّا جُرْدَانًا فَتَقَرَّضَ الْخَشَبَ ! وَكَانَ جُوعُ الصَّبِيِّ يَزِيدُ الْمَرْأَةَ أَلَمًا إِلَى جُوعِهَا ، وَكُنْتُ بِهِمَا كَالْجَانِحِ بِثَلَاثَةِ بَطُونٍ خَاوِيَةٍ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا لَمْ نَأْكُلِ الْخَشَبَ وَالْحِجَارَةَ فَلَنَأْكُلِ بَشْمِنَهَا . وَجَمَعْتُ بَشْمِنَ عَلَى بَيْعِ الدَّارِ وَالتَّحَوُّلِ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَ خُرُوجِي مِنْهَا كَالْخُرُوجِ مِنْ جِلْدِي : لَا يُسَمَّى إِلَّا سَلْخًا وَمَوْتًا ؛ وَبِثْ لَيْلَتِي وَأَنَا كَالْمُتَخَنِّ حِمِلٍ مِنْ مَغْرَكَةٍ : فَمَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا عَلَى جِرَاحٍ تَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ الشُّبُوفِ وَالْأَسِيَّةِ الَّتِي عَمِلْتُ فِيهَا .

ثُمَّ خَرَجْتُ بَغْلَسَ لِبَلَاةِ الصُّبْحِ ؛ وَالْمَسْجِدُ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنَّ السَّمَاءَ تَكُونُ فِيهِ ، فَرَأَيْتُنِي عِنْدَ نَفْسِي كَأَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً . وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ رَفَعَ النَّاسُ أَكْفَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ (تَعَالَى) ، وَجَرَى لِسَانِي بِهَذَا الدُّعَاءِ : « اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ أَنْ يَكُونَ قَفْرِي فِي دِينِكَ ، أَسْأَلُكَ التَّنْفِيعَ الَّذِي يُصْلِحُنِي بِطَاعَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ بَرَكَهَ الرُّضَى بِقَضَائِكَ ، وَأَسْأَلُكَ الْقُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالرُّضَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

ثُمَّ جَلَسْتُ أَتَأَمَّلُ شَأْنِي ، وَأَطَلْتُ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ كَأَنِّي لَمْ أَعُدْ مِنْ أَهْلِ الزَّمَنِ فَلَا تَجْرِي عَلَيَّ أَحْكَامُهُ ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الضُّحَى وَابْيَضَّتِ الشَّمْسُ جَاءَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ ، فَخَرَجْتُ أَنْتَبِيبَ لِبَيْعِ الدَّارِ ، وَأَنْتَبَعْتُ وَمَا أَذْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ ، فَمَا سِرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى لَقَيْتُنِي (أَبُو نَصْرِ الصِّيَادِ) وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ قَدِيمًا ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا نَصْرٍ ! أَنَا عَلَى بَيْعِ الدَّارِ ؛ فَقَدْ سَاءَتِ الْحَالُ وَأَخْرَجَتِ الْخَصَاصَةُ ، فَأَقْرَضْنِي شَيْئًا يُنْسِكُنِي عَلَى يَوْمِي هَذَا بِالْقَوَامِ مِنَ الْعَيْشِ حَتَّى أَبِيعَ الدَّارَ وَأَوْفَيْكَ .

فَقَالَ : يَا سَيِّدِي ! خُذْ هَذَا الْمِنْدِيلَ إِلَى عِيَالِكَ ، وَأَنَا عَلَى أَثَرِكَ لِأَحِقُّ بِكَ إِلَى الْمَنْزِلِ . ثُمَّ نَاوَلَنِي مَنْدِيلًا فِيهِ رُقَاقَاتَانِ بَيْنَهُمَا حَلَوَى ، وَقَالَ : إِنَّهُمَا وَاللَّهِ بَرَكَهُ الشَّيْخِ .

قُلْتُ : مَنْ الشَّيْخُ وَمَا الْقِصَّةُ ؟

قَالَ : وَقَفْتُ أَمْسَ عَلَى بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ وَقَدْ انْصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَمَرَّ بِي أَبُو نَصْرِ بَشْرٌ الْحَافِي<sup>(١)</sup> فَقَالَ : مَا لِي أَرَاكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ ؟ قُلْتُ : مَا فِي الْبَيْتِ

(١) هُوَ الزَّاهِدُ الْعَظِيمُ بَشْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْمَعْرُوفُ بِالْحَافِي ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣٢٧ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ وَاحِدَ الدُّنْيَا فِي وَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ وَقِيلَ لَهُ : (الْحَافِي) لِأَنَّهُ كَانَ فِي حَدَاتِهِ يَمْنَحِي إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَافِيًا ، إِجْلَالًا لِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ .



دَقِيقٌ وَلَا خُبْرٌ وَلَا دِرْهَمٌ وَلَا شَيْءٌ يُبَاعُ . فَقَالَ : اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ؛ أَحْمِلْ شَبَكَكَ وَتَعَالَ إِلَى الْخُنْدَقِ ؛ فَحَمَلَتْهَا وَذَهَبَتْ مَعَهُ ، فَلَمَّا أَتَيْنَاهَا إِلَى الْخُنْدَقِ قَالَ لِي : تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ . فَفَعَلْتُ ، فَقَالَ : سَمِ اللَّهَ تَعَالَى وَاللَّيْلِ الشَّبَكَةَ . فَسَمَيْتُ وَأَلْقَيْتُهَا ، فَوَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ فَعَقِلُ ، فَجَعَلْتُ أَجْرُهُ فَشَوْ عَلَى ؛ فَقُلْتُ لَهُ : سَاعِدْنِي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقَطِعَ الشَّبَكَةُ ، فَجَاءَ وَجَرَّهَا مَعِي ، فَخَرَجَتْ سَمَكَةٌ عَظِيمَةٌ لَمْ أَرِ مِثْلَهَا سَمَنًا وَعَظْمًا وَقَوَاهَةً . فَقَالَ : خُذْهَا وَبِعْهَا وَأَشْتَرِ بِشَيْئِهَا مَا يُصْلِحُ عِيَالَكَ . فَحَمَلْتُهَا فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ اشْتَرَاهَا ، فَأَبْتَعْتُ لِأَهْلِي مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا أَكَلْتُ وَأَكَلُوا ذَكَرْتُ الشَّيْخَ فَقُلْتُ : أَهْدِي لِي شَيْئًا ، فَأَخَذَتْ هَاتِنِ الرُّفَاقَتَيْنِ وَجَعَلَتْ بَيْنَهُمَا هَذِهِ الْحَلْوَى ، وَأَتَيْتُ إِلَيْهِ ، فَطَرَفْتُ أَلْبَابَ ، فَقَالَ : مَنْ ؟ قُلْتُ : أَبُو نَصْرِ ! قَالَ : أَفْتَحْ وَضَعْ مَا مَعَكَ فِي الدَّهْلِيَّزِ وَأَدْخُلْ . فَدَخَلْتُ وَحَدَّثْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ . فَقُلْتُ : إِنِّي هَيَّأتُ لِلْبَيْتِ شَيْئًا وَقَدْ أَكَلُوا وَأَكَلْتُ وَمَعِيَ رُفَاقَتَانِ فِيهِمَا حَلْوَى .

قَالَ : يَا أَبَا نَصْرِ ! لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ ! أَذْهَبَ كُلُّهُ أَنْتَ وَعِيَالُكَ .

\* \* \*

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : وَكُنْتُ مِنَ الْجُوعِ بِحَيْثُ لَوْ أَصَبْتُ رَغِيْفًا لَحَسِبْتُهُ مَائِدَةً أَنْزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَكِنْ كَلِمَةُ الشَّيْخِ عَنِ السَّمَكَةِ أَشْبَعَتْنِي بِمَعَانِيهَا شَبَعًا لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ، كَأَنَّمَا طَعِمْتُ مِنْهَا ثَمَرَةً مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ؛ وَطَافْتُ أَرْدُدُهَا لِنَفْسِي وَأَتَأَمَّلُ مَا تَفْتَقُّ الشَّهَوَاتُ عَلَى النَّاسِ ، فَأَبْقَيْتُ أَنَّ الْبَلَاءَ إِنَّمَا يُصِيبُنَا مِنْ أَنَّنَا نَفْسُرُ الدُّنْيَا عَلَى طَوْلِهَا وَعَرَضُهَا بِكَلِمَاتٍ مَعْدُودَةٍ ، فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِنَا لَفْظٌ مِنَ أَلْفَاظِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ ، اسْتَقَرَّتْ بِهِ فِي النَّفْسِ كُلِّ مَعَانِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ ، وَأَخَذَتْ شَيَاطِينُ هَذِهِ الْمَعَانِي تَحُومُ عَلَى قُلُوبِنَا ، فَتُضَيِّحُ مُهَيِّئِينَ لَهُنَّ الشَّيَاطِينِ ، عَامِلِينَ لَهَا ، ثُمَّ عَامِلِينَ مَعَهَا ، فَتُدْخِلُنَا مَدَاحِلَ الشُّوْرِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَتُقْعِمُنَا فِي الْوَرْطَةِ بَعْدَ الْوَرْطَةِ ، وَفِي الْهَلَكَةِ بَعْدَ الْهَلَكَةِ .

وَمَا هَذِهِ الشَّيَاطِينُ إِلَّا كَالذُّبَابِ وَالْبَعُوضِ وَالْهُوَامِ ، لَا تَحُومُ إِلَّا عَلَى رَاحَةِ تَجَلُّبِهَا ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي النَّفْسِ مَا تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ، تَفَرَّقَتْ وَلَمْ تَجْتَمِعْ ، وَإِذَا أَلَمَّتِ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا بَعْدَ الْوَاحِدَةِ لَمْ تَثْبُتْ . فَلَوْ أَنَّنَا طَرَدْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَفْسَدَتْ عَلَيْنَا رُؤْيَا الدُّنْيَا كَمَا خُلِقَتْ ، لَكَانَ لِلدُّنْيَا فِي أَنْفُسِنَا شَكْلٌ آخَرُ أَحْسَنُ وَأَجْمَلُ مِنْ شَكْلِهَا ، وَلَكَانَتْ لَنَا أَعْمَالٌ أُخْرَى أَحْسَنُ وَأَطْهَرُ مِنْ أَعْمَالِنَا .

فَالشَّيْخُ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى لِكَلِمَةِ (الْتَلَذُّذِ) ، وَيَطْرُدُهُ مِنْ نَفْسِهِ هَذَا أَلْفَظُ الْوَاحِدِ ، طَرَدَ مَعَانِي الشَّرِّ كُلَّهَا ، وَصَلَحَ لَهُ دِينُهُ ، وَخُلِصَتْ نَفْسُهُ لِلْخَيْرِ وَمَعَانِي الْخَيْرِ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَضَعَ فِي نَفْسِهِ أَمْرًا يَغْشَقُهَا ، لَصَارَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا فِي نَفْسِهِ كَالْمَخْدَعِ : مَا فِيهِ إِلَّا الْمَرْأَةُ وَحَدَهَا بِأَسْبَابِهَا إِلَيْهِ وَأَسْبَابِهِ إِلَيْهَا . . .

وَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ فِي دَرَسِ شَيْخِنَا أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ هَذَا الْحَدِيثَ : « لَوْ لَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ » [مسند الإمام أحمد] ، رَقْم : ٨٤٢٦ . فَمَا فَهَمْتُ وَاللَّهِ مَعْنَاهُ إِلَّا مِنْ كَلِمَةِ الشَّيْخِ فِي السَّمَكَةِ ، وَقَدْ عَلَّمَنِيهَا هَذَا الصَّيَّادُ الْعَامِيُّ ؛ فَالشَّيَاطِينُ تُتَجَذَّبُ إِلَى الْمَعَانِي ، وَالْمَعَانِي يُوجِدُهَا أَلْفَظُ الْمُسْتَقَرِّ فِي الْقَلْبِ اسْتِقْرَارَ غَرَضٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ طَمَعٍ ؛ فَإِذَا خَلَا الْقَلْبُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَقَدْ أَمِنَ مَنَازِعَتَهَا لَهُ وَسَغَلَهَا إِثَاهُ ، فَيُضَيِّحُ فَوْقَهَا لَا يَبْنِيهَا ؛ وَمَتَى صَارَ الْقَلْبُ قَوْفَ الشَّهَوَاتِ وَلَمْ يَجِدْ مِنَ أَلْفَاظِهَا مَا يُعْجِمُهُ وَيَعْتَرِضُ نَظَرَهُ إِلَى الْحَقَائِقِ ، انْكَشَفَتْ لَهُ هَذِهِ الْحَقَائِقُ فَانْكَشَفَ لَهُ الْمَلَكُوتُ ؛ فَإِذَا وَقَعَ بَعْدَ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ اللَّذَاتِ وَلَوْ (كَالرُّفَاقَتَيْنِ وَالْحَلْوَى) ، اسْتَعَلَّتِ الْأَشْيَاءُ عَلَيْهِ فَحَجَبَتْهُ ، وَعَادَ يَبْنِيهَا أَوْ تَحْتَهَا ، وَعَمِيَ عَمَى اللَّذَّةِ ؛ وَالْحِجَابُ عَلَى الْبَصَرِ كَأَنَّهُ تَغْلِيْقُ الْعَمَى عَلَى الْبَصَرِ .

وَكُنْتُ لَا أَرَأَى أَعْجَبَ مِنْ صَبْرِ شَيْخِنَا أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ وَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمُغْتَصِمِ بِالشَّيَاطِينِ حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup> ، فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأْيِهِ ؛ فَعَلِمْتُ أَلَّا مِنْ كَلِمَةِ السَّمَكَةِ أَنَّهُ لَمْ

(١) كَانَ هَذَا فِي سَنَةِ ٢١٩ وَقَدْ أَرَادُوا الْإِمَامَ الْعَظِيمَ عَلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فَلَمْ يَقُلْ بِهِ ، فَأَقْبَى الْقَاضِي ابْنُ أَبِي دُوَادٍ يَقْتُلُهُ وَشَغَبَ عَلَيْهِ . ثُمَّ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيْ الْمُغْتَصِمِ ، فَلَمَّا صَغَمَ وَلَمْ يَجِبْ أَطْلَقَهُ الْمُغْتَصِمُ وَنَدِمَ عَلَى ضَرْبِهِ .

يَجْعَلُ فِي نَفْسِهِ لِلضَّرْبِ مَعْنَى الضَّرْبِ ، وَلَا عَرَفَ لِلصَّبْرِ مَعْنَى الصَّبْرِ الْأَدَمِيِّ ؛ وَلَوْ هُوَ صَبَرَ عَلَى هَذَا صَبَرَ الْإِنْسَانُ لَجَزَعَ وَتَحَوَّلَ ، وَلَوْ ضُرِبَ ضَرْبَ الْإِنْسَانِ لَتَأَلَّمَ وَتَغَيَّرَ ؛ وَلَكِنَّهُ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى ثَبَاتِ الشَّيْءِ وَبَقَاءِ الدِّينِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا لَا أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ ، فَلَوْ تَحَوَّلَ لَتَحَوَّلَ النَّاسُ ، وَلَوْ ابْتَدَعَ لَابْتَدَعُوا ؛ فَكَانَ صَبْرُهُ صَبْرُ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لَا صَبْرَ رَجُلٍ فَرْدٍ ، وَكَانَ يُضْرَبُ بِالسَّيَاطِ وَنَفْسُهُ فَوْقَ مَعْنَى الضَّرْبِ ، فَلَوْ قَرَضُوهُ بِالْمَقَارِئِصِ وَشَرُّوهُ بِالْمَتَاشِيرِ لَمَا نَالُوا مِنْهُ شَيْئًا ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ جِسْمُهُ إِلَّا نَوْبًا عَلَيْهِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْفِكَرُ لَيْسَ غَيْرُ .

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَزُونَ فَضَائِلَهُمْ فَضَائِلَ ، وَلَكِنَّهُمْ يَزُونَ أَمَانَاتٍ قَدْ أَثِمُوا عَلَيْهَا مِنْ اللَّهِ لَتَبْتَنِي بِهِمْ مَعَانِيهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ فَهُمْ يُزْعَوْنَ فِي الْأَمَمِ زَرْعًا بِبَيْدِ اللَّهِ ، وَلَا يَمْلِكُ الزَّرْعُ غَيْرَ طَبِيعَتِهِ ، وَمَا كَانَ الْمُعْتَصِمُ وَهُوَ يُرِيدُ شَيْخَانًا عَلَى غَيْرِ رَأْيِهِ وَعَقِيدَتِهِ إِلَّا كَالْأَحْمَقِ يَقُولُ لِشَجَرَةِ التَّفَاحِ : أَثْمِرِي غَيْرَ التَّفَاحِ .

\* \* \*

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : وَأَخَذْتُ الرُّفَاقَيْنِ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي : لَعَنَ اللَّهُ هَذِهِ الدُّنْيَا ! إِنَّ مِنْ هَوَانِهَا عَلَى اللَّهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِيهَا يَلْبَسُ وَجْهَهُ كَمَا يَلْبَسُ نَعْلَهُ . فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا كَانَتْ لَهُ نَظَرَةٌ مَلَائِكِيَّةٌ ثُمَّ اغْتَرَضَ الْخَلْقَ يَنْظُرُ فِي وَجُوهِهِمْ ، لَرَأَى عَلَيْهَا وَحُولًا وَأَقْدَارًا كَالَّتِي فِي نِعَالِهِمْ أَوْ أَقْدَرُ أَوْ أَفْتَحَ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ لَا يَرَى أَجْمَلَ الْوُجُوهِ الَّتِي تَسْتَهِيهِمُ النَّاسُ وَتَتَصَبَّأُهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، إِلَّا كَالْأَخَذِيَةِ الْعَتِيقَةِ . . .

وَلَكِنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّ فِي هَاتَيْنِ الرُّفَاقَتَيْنِ سِرَّ الشَّيْخِ ، وَرَأَيْتُهُمَا فِي يَدَيْهِ كَالْوَرِثَتَيْنِ بِخَيْرٍ كَثِيرٍ ؛ فَقُلْتُ : عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ . وَمَضَيْتُ إِلَى دَارِي ؛ فَلَمَّا كُنْتُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ لَقِيتُنِي أَمْرَأَةً مَعَهَا صَبِيٌّ ، فَتَنَظَّرْتُ إِلَى الْمُنْدِيلِ وَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي ، هَذَا طِفْلٌ يَتِيمٌ جَائِعٌ وَلَا صَبْرَ لَهُ عَلَى الْجُوعِ ، فَأَطْعِمْنِي شَيْئًا يَرْحَمَكَ اللَّهُ . وَنَظَرْتُ إِلَيَّ الطِّفْلَ نَظَرَةً لَا أَنْسَاهَا . حَسِبْتُ فِيهَا خُشُوعَ أَلْفِ عَابِدٍ يَعْبُدُونَ اللَّهَ (تَعَالَى) مُتَقَطِّعِينَ عَنِ الدُّنْيَا ؛ بَلْ مَا أَظُنُّ أَلْفَ عَابِدٍ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرُوا النَّاسَ نَظَرَةً وَاحِدَةً كَالَّتِي تَكُونُ فِي عَيْنِ صَبِيٍّ يَتِيمٍ جَائِعٍ يَسْأَلُ الرَّحْمَةَ . إِنَّ شِدَّةَ أَلْهَمٍ لَتَجْعَلَ وَجْهَ الْأَطْفَالِ كُوجُوهُ الْفَقْدَانِينَ ، فِي عَيْنِ مَنْ يَرَاهَا مِنْ

الآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ ، لِعَجْزِ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ عَنِ الشَّرِّ الْأَدَمِيِّ وَأَنْقِطَاعِهِمْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَالْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَيُظْهِرُ وَجْهَ أَحَدِهِمْ وَكَأَنَّهُ يَصْرُخُ بِمَعَانِيهِ يَقُولُ : يَا رَبَّاهُ ! يَا رَبَّاهُ !

\* \* \*

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : وَخُيِّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ الْجَنَّةَ نَزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى مَنْ يُشْبِعُ هَذَا الطِّفْلَ وَأُمَّهُ ، وَالنَّاسُ عُمِّي لَا يُبْصِرُونَهَا ، وَكَأَنَّهُمْ يَمْزُونَ بِهَا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ مُرُورَ الْحَمِيرِ بِقَصْرِ الْمَلِكِ : لَوْ سَلَّمْتُ فَضَّلْتُ عَلَيْهِ الْإِصْطَبْلَ الَّذِي هِيَ فِيهِ . . .

وَذَكَرْتُ أَمْرَأَتِي وَأَبْنَاهَا وَهُمَا جَائِعَانِ مِثْلَ أُمِّسَ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ لَهُمَا فِي قَلْبِي مَعْنَى الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ ؛ بَلْ مَعْنَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمُحْتَاجَةِ وَطِفْلِهَا ، فَاسْقَطْتُهُمَا عَنْ قَلْبِي وَدَفَعْتُ مَا فِي يَدَيَّ لِلْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا : خُذِي وَأَطْعِمِي ابْنَكَ ، وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ بَيْضَاءَ وَلَا صَفْرَاءَ ، وَإِنْ فِي دَارِي لَمَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا الطَّعَامِ ؛ وَلَوْلَا هَذِهِ الْخَلَّةُ بَيْنِي لَتَقَدَّمْتُ فِيمَا يُضِلُّحُكُ . فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا ، وَأَشْرَقَ وَجْهُ الصَّبِيِّ ، وَلَكِنْ طَمَّ عَلَى قَلْبِي مَا أَنَا فِيهِ فَلَمْ أَجِدْ لِلدَّمْعَةِ مَعْنَى الدَّمْعَةِ ، وَلَا لِلْبَسْمَةِ مَعْنَى الْبَسْمَةِ .

وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَمَا أَنَا فَاطُوِي إِنْ لَمْ أُصِبْ طَعَامًا ، فَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَطْوِي سِتَّةَ أَيَّامٍ ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَطْوِي ، وَكَانَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِمَّنْ حَفِظْنَا أَسْمَاءَهُمْ وَرَوَيْنَا أَخْبَارَهُمْ ؛ وَلَكِنْ مَنْ لِلْمَرْأَةِ وَأَبْنَاهَا بِمِثْلِ عَفْدِي وَبَيْتِي ؟ وَكَيْفَ لِي بِهِمَا ؟

وَمَشَيْتُ وَأَنَا مُنْكَسِرٌ مُتَقَبِّضٌ ، وَكَأَنِّي كُنْتُ نَسِيتُ كَلِمَةَ الشَّيْخِ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ » . فَذَكَرْتُهَا وَصَرَفْتُ خَاطِرِي إِلَيْهَا وَشَغَلْتُ نَفْسِي بِتَذَكُّرِهَا وَقُلْتُ : لَوْ أَنِّي أَشْبَعْتُ ثَلَاثَةَ بَجُوعٍ أَثْنَيْنِ لَحُرِمْتُ خَمْسَ فَضَائِلٍ <sup>(١)</sup> . وَهَذِهِ الدُّنْيَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْفَضِيلَةِ ، وَهَذِهِ الْفَضِيلَةُ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ ، وَهَذَا الْعَمَلُ مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَكُونَ هَكَذَا ، فَمَا يَسْتَعِينُ الْأَمْرُ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُ .

وَكَانَتْ السَّمْسُ قَدْ انْتَبَسَطَتْ فِي السَّمَاءِ وَذَلِكَ وَقْتُ الضُّحَى الْأَعْلَى ، فَمِلْتُ نَاحِيَةَ

(١) يُرِيدُ : جُوعُهُ ، وَجُوعَ أَمْرَأَتِهِ ، وَجُوعَ ابْنِهِ ؛ ثُمَّ شَبِعَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، وَشَبِعَ أَبْنَاهَا . فَهَلِ هَذِهِ خَمْسُ فَضَائِلَ .

وَجَلَسْتُ إِلَى حَائِطٍ أَفَكَّرْتُ فِي بَيْعِ الدَّارِ وَمَنْ يَتَنَاعُهَا ، فَأَنَا كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ أَبُو نَضْرٍ الصَّيَّادُ وَكَانَهُ مُسْتَطَارًا قَرَحًا ، فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! مَا يُجْلِسُكَ هَهُنَا وَفِي دَارِكَ الْخَيْرِ وَالْغِنَى ؟ قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مِنْ أَيْنَ خَرَجْتَ السَّمَكَةُ يَا أَبَا نَضْرٍ ؟

قَالَ : إِنِّي لَفِي الطَّرِيقِ إِلَى مَنْزِلِكَ ، وَمَعِيَ ضُرُورَةٌ مِنَ الْقُوتِ أَخَذْتُهَا لِعِيَالِكَ ، وَدَرَاهِمُ اسْتَدْنْتُهَا لَكَ ، إِذَا رَجُلٌ يَسْتَدِلُّ النَّاسَ عَلَى أَيْنِكَ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِ ، وَمَعَهُ أَثَقَالٌ وَأَحْمَالٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا أَذَلِكَ . وَمَشَيْتُ مَعَهُ أَسْأَلُهُ عَنْ خَبْرِهِ وَشَأْنِهِ عِنْدَ أَيْنِكَ . فَقَالَ : إِنَّهُ تَاجِرٌ مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ أَوْدَعَهُ مَالًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَافْلَسَ وَأَنْكَسَرَ الْمَالُ ، ثُمَّ تَرَكَ الْبَصْرَةَ إِلَى خُرَاسَانَ ، فَصَلَحَ أَمْرُهُ عَلَى التَّجَارَةِ هُنَاكَ ، وَأَبْسَرَ بَعْدَ الْمِخْنَةِ ، وَاسْتَظْهَرَ بَعْدَ الْخِذْلَانِ ، وَأَقْبَلَ جَدُّهُ بِالثَّرَاءِ وَالْغِنَى ؛ فَعَادَ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَحَلَّلَ ، فَجَاءَكَ بِالْمَالِ وَعَلَيْهِ مَا كَانَ يَرْبَحُهُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِينَ سَنَةً ، وَإِلَى ذَلِكَ طَرِيفٌ وَهَذَا بَا .

\* \* \*

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَأَنْقَلَبْتُ إِلَى دَارِي فَإِذَا مَالٌ جَمٌّ وَحَالٌ جَبِينَةٌ ! فَقُلْتُ : صَدَقَ الشَّيْخُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجْتَ السَّمَكَةُ » ! فَلَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَلْقَ فِي وَجْهِهِ أَبَا نَضْرٍ ، فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ ، فِي هَذَا الْيَوْمِ ، فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، لَمَا أَهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ ؛ فَقَدْ كَانَ أَبِي مَغْمُورًا لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ وَهُوَ حَيٌّ ؛ فَكَيْفَ بِهِ مَيِّتًا مِنْ وَرَاءِ عَشْرِينَ سَنَةً ؟ وَالَيْتُ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ شُكْرِي فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ ؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةً إِلَّا الْبَحْثُ عَنِ الْمَرْأَةِ الْمُخْتَاةِ وَأَبْنَيْهَا ، فَكَفَيْتُهُمَا وَأَجْرَيْتُ عَلَيْهِمَا رِزْقًا ، ثُمَّ أَتَجَرْتُ فِي الْمَالِ ، وَجَعَلْتُ أَرْبُؤُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَالصَّنِيعَةِ وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ مُقْبِلٌ يَزْدَادُ وَلَا يَنْقُصُ ، حَتَّى تَمَوَّلْتُ وَتَأَثَلْتُ .

وَكَاثِي قَدْ أَعْجَبَنِي نَفْسِي ، وَسَرَّيْنِي أَنِّي قَدْ مَلَأْتُ سِجِلَاتِ الْمَلَانِكَةِ بِحَسَنَاتِي ، وَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ كُنْتُ عِنْدَ اللَّهِ فِي الصَّالِحِينَ ، فَمِثْتُ لَيْلَةً قَرَأْتَنِي فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْخَلْقُ يُمُوجُ بَغْضِهِمْ فِي بَغْضٍ ، وَالْهَوَلُ هَوَلُ الْكَوْنِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ ، يُسْأَلُ عَنْ كُلِّ مَا مَسَّهُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ . وَسَمِعْتُ الصَّائِحَ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ بَنِي آدَمَ ! سَجَدَتْ أَلْبَهَائِمُ شُكْرًا لِلَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهَا مِنْ آدَمَ . وَرَأَيْتُ النَّاسَ وَقَدْ وَسَّعَتْ أَبْدَانُهُمْ فَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ مَخْلُوقَةً مُجَسِّمَةً ، حَتَّى لَكَأَنَّ الْفَاسِقَ عَلَى ظَهْرِهِ مَدِينَةً

كُلُّهَا مُخْزِيَاتٌ !

وَقِيلَ : وَضِعْتَ الْمَوَازِينَ . وَحِجِيءَ بَيْنَ لَوْزَنِ أَعْمَالِي ، فَجُعِلَتْ سَيِّئَاتِي فِي كِفَّةٍ ، وَالْقَبِيلَتِ سِجِلَاتِ حَسَنَاتِي فِي الْأُخْرَى ، فَطَاشَتْ السَّجِلَاتُ وَرَجَحَتْ السَّيِّئَاتُ ، كَأَنَّمَا وَزَنُوا الْجَبَلَ الصَّخْرِيَّ الْعَظِيمَ الضَّخْمَ بِلِفَافَةٍ مِنَ الْقُطْنِ . . .

ثُمَّ جَعَلُوا يُلْقُونَ الْحَسَنَةَ بَعْدَ الْحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ ، فَإِذَا تَخَتَّ كُلُّ حَسَنَةٍ شَهْوَةً خَفِيَّةً مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ : كَالرِّيَاءِ وَالْعُرُورِ وَحُبِّ الْمَخْمَدَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَغَيْرِهَا ، فَلَمْ يَسْلَمْ لِي شَيْءٌ ، وَهَلَكْتُ عَنِّي حُجْنِي ، إِذِ الْحُجَّةُ مَا يَبِيْئُهُ الْمَيِّزَانُ ، وَالْمَيِّزَانُ لَمْ يَدُلَّ إِلَّا عَلَى أَنِّي فَارِغٌ .

وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَأَنْظُرُ لِأَرَى مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ، فَإِذَا الرُّقَاقَتَانِ اللَّتَانِ أَحْسَنْتُ بِهِمَا عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَبْنَيْهَا ! فَأَيَقَنْتُ أَنِّي هَالِكٌ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَحْسَنُ بِمِثَّةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ عَنِّي ، وَرَأَيْتُهُمَا فِي الْمَيِّزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئًا مُعْلَقًا كَالْغَمَامِ حِينَ يَكُونُ سَاقِطًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ : لَا هُوَ فِي هَذِهِ وَلَا هُوَ فِي تِلْكَ .

وَوَضِعْتُ الرُّقَاقَتَانِ ، وَسَمِعْتُ الْقَائِلَ : لَقَدْ طَارَ نِصْفُ ثَوْبَيْهِمَا فِي مَيِّزَانِ أَبِي نَضْرٍ الصَّيَّادِ . فَأَنْخَذَلْتُ أَنْخِذًا شَدِيدًا ، حَتَّى لَوْ كُسِرَتْ نِصْفَيْنِ لَكَانَ أَخْفَءَ عَلَيَّ وَأَهْوَنَ . بَيَّدَ أَنِّي نَظَرْتُ قَرَأْتُ كِفَّةَ الْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مَثَرَةً وَرَجَحَتْ بَعْضَ الرُّجَحَانِ .

وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَأَنْظُرُ مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ؟ فَإِذَا جُوعٌ أَمْرَاتِي وَوَلَدِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! وَإِذَا هُوَ شَيْءٌ يُوضَعُ فِي الْمَيِّزَانِ ، وَإِذَا هُوَ يَنْزِلُ بِكِفَّةٍ وَيَرْتَفِعُ بِالْأُخْرَى حَتَّى اعْتَدَلْنَا بِالسُّوْبَةِ . وَتَبَّتِ الْمَيِّزَانُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكُنْتُ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالنَّجَاةِ .

وَأَسْمَعُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَنَظَرْتُ فَإِذَا دُمُوعُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمُسْكِينَةِ حِينَ بَكَتْ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرُوفِ فِي نَفْسِهَا ، وَمِنْ إِثَارِي إِبَاهَا وَأَبْنَاهَا عَلَى أَهْلِي . وَوَضِعْتُ غَرْغَرَةً عَيْنَيْهَا فِي الْمَيِّزَانِ فَفَارَتْ ، فَطَمَّتْ كَأَنَّمَا

لَجَّةً ، مِنْ تَحْتِ اللَّجَّةِ بَخْرٌ ؛ وَإِذَا سَمَكَةُ هَائِلَةٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ اللَّجَّةِ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا رُوحُ تِلْكَ الدُّمُوعِ ، فَجَعَلْتُ تَعْظُمُ وَلَا تَرَأَى تَعْظُمُ ، وَالْكَفَّةُ تَرْجَحُ وَلَا تَرَأَى تَرْجَحُ ، حَتَّى سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَقُولُ : قَدْ نَجَا !

وَصَحْتُ صَبِيحَةَ انْتَبَهْتُ لَهَا ، فَإِذَا أَنَا أَقُولُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ ! » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَانْتَشَرَ حَدِيثُ السَّمَكَةِ فِي أَهْلِ (بَلْخِ) ، وَاسْتَفَاضَ بَيْنَهُمْ ، وَكُنْتُ فَصَصْتُهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَلَمَّا دَارَ السَّبْتُ مِنْ أُسْبُوعِهِ لَقِيَنِي شَيْخُهُمْ حَاتِمُ بْنُ يُوسُفَ (لُقْمَانُ الْأُمِّيَّةُ) وَمَعَهُ صَاحِبُهُ أَبُو تُرَابٍ ، فَقَالَ : يَا أَحْمَدُ ! لَكَائِكَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ قَمَرٌ طَلَعَ بِلَيْلٍ ، فَلَا يَعِظُ النَّاسَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ غَيْرُكَ ؛ وَمَنْ سَمِعَ فَكَأَنَّهُ عَايَنَ ، وَلَيْسَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ بَلْخٍ مُنْذُ تَحَدَّثْتُ إِلَّا بِشَرٍّ وَأَبْنُ حَنْبَلٍ ، وَلَا عَلَى بَالٍ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا مَوْعِظَتُكَ وَحَدِيثُكَ .

وَالْكَلَامُ عَلَى الصَّالِحِينَ فِي مِثْلِ مَا وَصَفْتَ وَحَكَيْتَ قُرْبَ مِنْ حَقَائِقِهِمْ ، وَسُمُوهُ إِلَى مَعَانِيهِمْ ؛ وَلَيْسَ فِي الْقَوْلِ بَابٌ لَهُ مَوْعِظٌ كَمَوْعِظِ الْقِصَّةِ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْلُقُهُمُ اللَّهُ فِي الْبَشَرِيَّةِ خَلْقَ الثُّورِ : يُضِيءُ مَا حَوْلَهُ مِنْ حَيْثُ يُرَى ، وَيَعْمَلُ فِيمَا حَوْلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يُرَى ، وَفِي ظَاهِرِهِ الْجَمَالَ وَالْمَنْفَعَةَ ، وَفِي بَاطِنِهِ الْقُوَّةَ وَالْحَيَاةَ . وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكَ أَذْهَبَ فَحَدَّثَ النَّاسَ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ أَذْهَبَ فَأَعْطِيَ النَّاسَ عَقْلاً مِنَ الْحَدِيثِ .

قَالَ ابْنُ مِسْكِينٍ : فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْعَصَرَ ، قَدَّمَنِي أَبُو تُرَابٍ فَجَلَسْتُ فِي مَجْلِسِي ذَلِكَ ، وَهَتَفَ بِي النَّاسُ يُرِيدُونَ الْحَدِيثَ عَنْ بَشَرِ الْحَافِي وَمَا سَقَطَ لِي مِنْ أَخْبَارِهِ ، عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي حَدَّثْتُهُمْ بِهَا مِنْ قَبْلُ ، فَأَبْتَدَأْتُ بِذِكْرِ مَوْتِهِ (رَحِمَهُ اللَّهُ) ، وَأَنَّ يَوْمَهُ كَأَنَّمَا اجْتَمَعَ لَهُ أَهْلُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً<sup>(١)</sup> ، إِذْ خَرَجَتْ جَنَازَتُهُ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، فَلَمْ يَخْصُلْ فِي قَبْرِهِ إِلَّا فِي اللَّيْلِ مِمَّا اخْتَشَدَ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الْخَلْقِ ، حَتَّى لَكَأَنَّ فِي نَعْشِهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الْجَنَّةِ يُطَالِعُهُمْ بِهِ الْمَوْتُ<sup>(٢)</sup> ، فَخَرَجُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانُوا يَصْنُحُونَ فِي جَنَازَتِهِ : هَذَا وَاللَّهِ شَرَفُ الدُّنْيَا قَبْلَ شَرَفِ الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قُلْتُ : حَدَّثَنِي حُسَيْنُ الْمَغَازِلِيُّ<sup>(٣)</sup> : أَنَّ بِشْرًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا الْخُبْزَ نَوْرَعًا عَنِ الشُّبُهَاتِ وَاكْتِفَاءً لِبُزُورَةِ الْحَيَاةِ بِالْأَقْلِ الْأَيْسَرِ ، وَكَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ : يَدُ أَفْصَرٍ مِنْ يَدٍ ، وَلُقْمَةُ أَصْغَرُ مِنْ لُقْمَةٍ . وَسُئِلَ مَرَّةً : بِأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ الْخُبْزَ ؟ فَقَالَ : أَذْكُرُ الْعَافِيَةَ فَأَجْعَلُهَا إِدَامًا . وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ ، وَكَانَ يَرَى هَذَا نَقْصًا فِي نَفْسِهِ حَتَّى فَضَّلَ الْإِمَامَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ : مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ : لَوْ تَزَوَّجْتَ نَمَّ نُسُكُكَ . فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ تَقُومَ الزَّوْجَةُ بِحَقِّي وَلَا أَقُومُ بِحَقِّهَا . فَكَانَتْ هَذِهِ الْيَتِيَّةُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوَاجِهِ .

وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا ، وَلَا يَسْعَى إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ فِي مُوَاخَاةِ الزَّاهِدِ الْعَظِيمِ (مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ) ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (الْأَسْوَدُ بْنُ سَالِمٍ) وَكَانَ صَدِيقًا لَهُمَا ، فَقَالَ لِمَعْرُوفٍ : إِنَّ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ يُرِيدُ مُوَاخَاةَكَ وَهُوَ يَسْتَحِجُّ أَنْ يُشَافِهَكَ بِذَلِكَ ، وَحَدَّ أَزْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أُخُوَّةَ يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُّ بِهَا ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا شَرْطًا : أَوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهَرَ ذَلِكَ ، وَثَانِيهَا أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

(١) مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فِي هَذَا » بَدَلًا مِنْ : « يُطَالِعُهُمْ بِهِ الْمَوْتُ » .

(٣) نَسَبَهُ إِلَى عَمَلِ الْمَغَازِلِ ، وَكَانَ حُسَيْنٌ هَذَا صَدِيقًا لِبَشَرٍ ، وَكَانَ بِشَرٌ يَعْمَلُ الْمَغَازِلَ وَيَعِيشُ مِنْ ثَمَنِهَا ، وَمِنْ كَلَامِهِ لِابْنِ أَخِيهِ عُمَرَ : يَا بَنِي ! أَعْمَلْ بِتَدَبُّكِ ؛ فَإِنَّ أَثَرَهُ فِي الْكَفَّينِ أَحْسَنُ مِنْ أَثَرِ السَّجْدَةِ بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ . هَكَذَا كَانُوا رَاحِمَهُمُ اللَّهُ .

مُزَاوَرَةً وَلَا مُلَاقَاةً .

فَقَالَ مَعْرُوفٌ : أَمَّا أَنَا فَإِذَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أَحِبَّ أَنْ أَفَارِقَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ، وَأَزُورُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَأُزِيرُهُ عَلَى نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ ؛ وَأَنَا أَقْبِدُ لِبِشْرِ أُخُوَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَلَكِنِّي أَزُورُهُ مَتَى أَحْبَبْتُ ، وَأَمْرُهُ بِلِقَائِي فِي مَوَاضِعَ نَلْتَقِي فِيهَا إِذَا هُوَ كَرِهَ زِيَارَتِي .

قَالَ حُسَيْنُ الْمُعَاذِلِيِّ : وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بِشْرِ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادَ ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمَامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرَ أَبِي حَنْبَلٍ ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَجَبِي جِئْتُ كُنْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا وَقَدْ زَارَهُ (فَتَحَ الْمَوْصِلِيُّ) ، فَقَامَ فَجَاءَ بِدِرَاهِمٍ مِائَةٍ كَفَّهُ وَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ : اشْتَرِ لَنَا أَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ الْحَلْوَى ، وَأَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّبِيبِ . وَمَا قَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ قَطُّ ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى الْفَاقِهَةَ يَوْمًا فَقَالَ : تَرَكْ هَذِهِ عِبَادَةً ! وَهُوَ الْقَائِلُ لِأَبِي نَصْرِ الصَّبَّادِ : لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ <sup>(١)</sup> .

فَذَهَبْتُ فَأَشْتَرَيْتُ وَأَنْتَقَيْتُ وَتَخَيَّرْتُ ، ثُمَّ وَضَعْتُ الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ ، وَرَأَيْتُهُ مُنْبَسِطًا إِلَيْهِ وَمَا لِي بِهِ كَانَ بِانْبِسَاطِهِ إِلَى أَحَدٍ . وَقَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُهُ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ بِخَبَرِ أَحْمَدَ أَبِي حَنْبَلٍ ، عَلِمْتُهُ مِنْ إِدْرِيسَ الْحَدَّادِ : فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَتْ الْمِخْنَةَ بَعْدَ أَنْ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ وَصُرِفَ إِلَى بَيْتِهِ ، حُمِلَ إِلَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ مِنْ سَرَوَاتِ بَغْدَادَ وَأَهْلِ الْخَيْرِ فِيهَا ، فَرَدَّ جَمِيعَ ذَلِكَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، وَهُوَ مُخْتَاجٌ إِلَى أَيْسَرِهِ ، وَإِلَى الْأَقْلَ مِنْ أَيْسَرِهِ ، وَإِلَى الشَّيْءِ مِنْ أَقْلِهِ ، فَجَعَلَ عَمَّهُ إِسْحَاقُ يَحْسُبُ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَكَانَ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ : يَا عَمُّ ! أَرَأَيْكَ مُشْغُولًا بِحِسَابِ مَا لَا يُغْنِيكَ . قَالَ : قَدْ رَدَدْتُ الْيَوْمَ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا وَأَنْتَ مُخْتَاجٌ إِلَى حَبِيَّةٍ مِنْ دَانِي . فَقَالَ الْإِمَامُ : يَا عَمُّ ! لَوْ طَلَبْتَاهُ لَمْ يَأْتِنَا ، وَإِنَّمَا أَتَانَا لَمَّا تَرَكْنَاهُ .

\* \* \*

قَالَ الْمُعَاذِلِيُّ : فَبِمِثْلِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَنَا أَفَكُرُ فِي صَنِيعِ الشَّيْخِ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ خَاطِرِي بِهِ : كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْحَالُ مَعَهُ ، وَأَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ الْحَالُ ؟ وَجَعَلْتُ أَكِدُّ ذَهْنِي لِأَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ

(١) مَرَّ هَذَا فِي مَقَالِ « السَّمَكَةِ » .

الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي سَلَطَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الضَّرُورَةُ فَتَسَلَّطَ النَّعِيمُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ لِلْقَوْمِ عُلُومًا رُوحَانِيَّةً لَيْسَتْ فِي الْكُتُبِ ، فَمِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ الْفَقْرِ ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمِنْهَا ، وَمِنْهَا ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْهَا مَا يَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ ؛ وَذَهَبَ قَلْبِي إِلَى أَوْهَامٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ فِي جَمِيعِهَا طَائِلٌ وَلَا بِهَا مَعْرِفَةٌ ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ ، وَأَنَا مِنْ وَهَجِ الْفِكْرِ نَائِمٌ كَالْمَرِيضِ ، وَقَدْ ثَقُلَ رَأْسِي وَاخْتَلَطَ فِيهِ مَا يُغْفَلُ بِمَا لَا يُغْفَلُ .

فَرَأَيْتُ أَوَّلَ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا جَبَّارًا يَحْكُمُ مَدِينَةً عَظِيمَةً ، وَقَدْ أَطْلَقَ الْمُتَادِي فِي جَمْعِ كُلِّ أَطْفَالٍ مَدِينَتِهِ ، فَجِئَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ دَارٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ قَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرِهِ وَفِي يَدِهِ مِقْرَاضٌ عَظِيمٌ ، قَدْ اتَّخَذَهُ عَلَى هَيْئَةِ نَصْلَيْنِ عَرِضَيْنِ لَوْ وَضَعْتَ بَيْنَهُمَا رَقَبَةً لَفَصَلَاهَا عَنْ جَسَمَيْهَا ؛ فَكَانَ هَذَا الْجَبَّارُ يَتَنَاوَلُ الطِّفْلَ مِنْ أَوْلَسِكَ فَيَضَعُ أَصَابِعَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ فِي شِقْيِ الْمِقْرَاضِ فَيَقْرِضُهَا ، فَإِذَا هِيَ تَتَنَاثَرُ أَسْرَعَ مِمَّا يَقْرِضُ الْمِقْصُ الْخَيْطَ ، ثُمَّ يَرْمِي بِالطِّفْلِ مَخْشِيًا عَلَيْهِ ، وَيَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ فَيَنْتَزِعُ أَصَابِعَهُ ، وَالْأَطْفَالُ يَصْرُخُونَ ؛ وَأَنَا أَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَلَا أَمْلِكُ إِلَّا غِيظِي عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ مِنْ حَيْثُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْضِيَ فِيهِ هَذَا الْغَيْظَ فَأَقْرِضَ عَنْقَهُ بِمِقْرَاضِهِ .

ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ طِفْلًا صَغِيرًا ، فَلَمَّا جَاءَتْ قَدَمُ الطِّفْلِ بَيْنَ شِقْيِ الْمِقْرَاضِ صَاحَ : يَا رَبِّ ! يَا رَبِّ ! فَإِذَا الْمِقْرَاضُ يَلْتَوِي فَلَا يَضَعُ شَيْئًا ، وَكَانَ فِيهِ حَجَرًا صَلْدًا لَا قَدَمًا رَخِصَةً . فَتَمَيَّرَ الْجَبَّارُ مِنَ الْغَيْظِ وَقَالَ : مَنْ هَذَا الطِّفْلُ ؟ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَهْتِفُ : هَذَا بِشَرُ الْحَافِي ! لَا يَبْلُغُ تَاجَ مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لِقَدَمِهِ الْحَافِيَّةُ نَعْلًا عِنْدَ اللَّهِ !

وَكَانَ إِلَى يَمِينِي رَجُلٌ يَتَضَوُّ <sup>(١)</sup> وَجْهُهُ صَلاَحًا وَتَقْوَى ، فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ هَذَا الطَّاعِيَةُ ؟ وَلِمَ اتَّخَذَ الْمِقْرَاضَ لِأَقْدَامِ الْأَطْفَالِ خَاصَّةً ؟

فَقَالَ : يَا حُسَيْنُ ! إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ هُوَ ذُلُّ الْعَيْنِ ، وَهَذَا وَسْمُهُ لِأَهْلِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ ، يُحَقِّقُ بِهِ الْإِنْسَانُ مَعْنَى الْبَهِيمَةِ أَوَّلَ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ ذُو حَافِرٍ لَا ذُو قَدَمٍ .

(١) فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى : « يَتَضَوُّ » بَدَلًا مِنْ : « يَتَضَوُّ » .

قُلْتُ : فَمَا بَالُ هَذَا الطُّفْلِ لَمْ يَعْمَلْ فِيهِ الْمِقْرَاضُ ؟

قَالَ : إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا اسْتَخَصَّهُمْ لِنَفْسِهِ ، أَوَّلَ عِلَامَتِهِ فِيهِمْ أَنَّ الذَّلَّ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ ، وَهُمْ يَجِئُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِإِبْنَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى حُكْمِ طَبِيعَةِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا طَبِيعَةُ الذَّلِّ ؛ فَإِذَا اطَّرَحَ أَحَدُهُمُ الشَّهَوَاتِ وَزَهَدَ فِيهَا ، وَاسْتَقَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي عَقْدِ نِيَّةٍ وَقُوَّةِ إِرَادَةٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِالزَّاهِدِ كَمَا يَصِفُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ اخْتَارَتُهُ الْقُدْرَةُ لِيَحْمِلَ أَسْلِحَةَ النَّفْسِ فِي مَعَارِكِهَا الطَّاحِنَةِ ، كَمَا يَحْمِلُ الْبَطْلُ الْأَزْوَاعَ أَسْلِحَةَ الْجِسْمِ فِي مَعَارِكِهِ الدَّامِيَةِ : هَذَا يَتَعَلَّمُ مِنْهُ قَوْلٌ ، وَذَلِكَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ قَوْلٌ آخَرُ ، وَكِلَاهُمَا يُزَمُّ بِهِ عَلَى الْمَوْتِ لِإِنْجَادِ النَّوْعِ الْمُسْتَعِزِّ مِنَ الْحَيَاةِ ، فَأَوَّلُ فَضَائِلِهِ الشُّعُورُ بِالْقُوَّةِ ، وَآخِرُ فَضَائِلِهِ إِنْجَادُ الْقُوَّةِ .

\* \* \*

قَالَ الْمُعَاذِلِيُّ : وَضَرَبَ النَّوْمُ عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَإِذَا أَنَا فِي أَرْضِ خَبِيثَةٍ دَاحِيَةٍ ، قَدْ أَرْتَقَ لَهَا دُخَانٌ كَثِيفٌ أَسْوَدُ يَتَضَرَّبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ، وَجَعَلْتُ أَرَى شُعَلًا حُمْرًا تَذْهَبُ وَتَجِيءُ كَأَنَّهَا أَجْسَامٌ حَيَّةٌ ، فَوَقَعَ فِي وَهْمِي أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ الشَّيَاطِينُ : إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ ؛ وَسَمِعْتُ صَارِخًا يَقُولُ : يَا بُشْرَى ! فَلَئِكَ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ ، لَقَدْ أَكَلَ بِشَرُّ الْحَافِي مِنَ أَطْيَبِ الطَّعَامِ وَأَطْيَبِ الْحَلْوَى بَعْدَ أَنْ اسْتَوَى عِنْدَهُ حَجَرُهَا وَمَدْرُهَا ، وَذَهَبُهَا وَفَضَّتُهَا ! فَعَارَضَهُ صَاحِبُ أَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا أَرَى شَخْصَهُ : وَبَلَّكَ يَا زَلْتَبُورُ<sup>(١)</sup> ! إِنَّ هَذَا شَرٌّ عَلَيْنَا مِنْ عَامَّةِ نُسُكِهِ وَعِبَادَتِهِ ؛ فَهَذَا وَيَحْكُ هُوَ الزُّهْدُ الْأَعْلَى الَّذِي كَانَ لَا يُطِيقُهُ بِشَرٌّ ؛ إِنَّهُ إِغْنَاكَ سَلَطَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنِّي دَفَعْتُ هَذَا (الْمُعَاذِلِيُّ) الْأَعْمَى الْقَلْبَ لِيُرِينَ لَهُ مَا فَعَلَ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى حَاجَتِهِ ، زُهْدًا وَوَرَعًا ، وَقُوَّةَ عَزْمٍ ، وَنَفَادَ إِرَادَةٍ ؛ وَقُلْتُ : عَسَى أَنْ تَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ شَهْوَةٌ الزُّهْدِ فَيَحْسُدُ أَوْ يَغَارَ ، أَوْ تُعْجِبَهُ نَفْسُهُ فَيَكُونُ لِي مِنْ ذَلِكَ لَمَّةٌ بِقَلْبِهِ فَأَوْسُوسُ لَهُ ، فَإِنَّا نَأْتِي هَؤُلَاءِ مِنْ أَبْوَابِ النَّوَابِ كَمَا نَأْتِي غَيْرَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَاصِي ، وَتَتَوَرَّعُ مَعَ أَهْلِ الْوَرَعِ كَمَا تَنَسَخَّفُ مَعَ أَهْلِ السُّخْفِ ؛ وَلَكِنْ

(١) هَذَا اسْمُ بَعْضِ وَلَدِ إِبْلِيسَ فِيمَا يُرَوَّى ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ الَّتِي بِيَدَيْنَا أَنَّهُ خَنْزَبُ لَا زَلْتَبُورُ . . . . .

الرَّجُلُ رَجُلٌ وَفِيهِ حَقِيقَةُ الزَّاهِدِ ، فَقَدْ أُعْطِيَ الْقُوَّةَ عَلَى جَعْلِ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ أَشْخَاصًا حَيَّةً يُعَادِيهَا وَيُقَاتِلُهَا ، فَإِذَا أَنَا جَعَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي الذَّلَّةِ قَتْلَ الذَّلَّةِ ، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي الْكَأَبَةِ قَتْلَ الْكَأَبَةِ ، وَلَيْسَ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ هُوَ الَّذِي يَتَّقُشَفُّ وَيَتَعَفَّفُ ، وَيَتَخَفَّفُ وَيَتَلَفَّفُ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مَا تَكُونُ هَذِهِ هِيَ أَوْصَافُ الذَّلِّ وَالْحُمَقِ ، وَيَكُونُ لَهَا عَمَلُ الْعِبَادَةِ وَفِيهَا إِثْمُ الْمَغْصِيَةِ . وَلَكِنْ الزَّاهِدُ حَقُّ الزَّاهِدِ مَنْ أَدَارَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَيْنًا قَدْ تَعَلَّمَتِ النَّظَرَ بِحَقِّهِ وَالْإِغْضَاءَ بِحَقِّهِ ؛ فَهَذَا لَا يُخْطِئُ مَعْنَى الشَّرِّ إِنْ لَبَسَتْهُ عَلَيْهِ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ ، وَلَا مَعْنَى الْخَيْرِ إِنْ رَوَّزَتْهُ فِي صُورَةِ الشَّرِّ ، وَبِذَلِكَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي حَيْثُ شَاءَ مِنَ الْمُنْزَلَةِ ، لَا فِي حَيْثُ شَاءَتِ الدُّنْيَا أَنْ تَضَعَهُ مِنْ مَنَازِلِهَا الدَّلِيلَةِ .

وَمَا أَكَلَ بِشَرِّ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا لِيُبَادِرَ بِهَا وَسْوَئِي وَيُرْدِنِي عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ اللَّمَّةِ بِقَلْبِهِ ، فَلَوْ أَعْجَبَهُ زُهْدُ ابْنِ حَنْبَلٍ وَنَظَرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى زُهْدِ نَفْسِهِ لَحَبِطَ أَجْرُهُ ؛ فَبِهَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عَالَجَ نَفْسَهُ عِلَاجَ مَرِيضٍ ، وَقَدْ غَيَّرَ عَلَى جَوْفِهِ طَعَامًا بِطَعَامٍ ، كَمَا يُبَدِّلُ عَلَى جِلْدِهِ ثَوْبًا بِثَوْبٍ ؛ وَلَا شَهْوَةَ لِلْجِلْدِ فِي أَحَدِهِمَا .

\* \* \*

قَالَ الْمُعَاذِلِيُّ : وَثَقُلَ النَّوْمُ عَلَيَّ ثَقَلَةً أُخْرَى ، فَرَأَيْتُنِي فِي وَادٍ عَظِيمٍ ، وَفِي وَسْطِهِ مِثْلُ الطُّودِ مِنَ الْحِجَارَةِ قَدْ رَكِمَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ وَرَأَيْتُنِي مَعَ بِشَرٍ أَقْصَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَحْمَدُ ابْنِ حَنْبَلٍ ؛ فَقَالَ : أَنْظُرْ وَيَحْكُ ، إِنَّ النَّاسَ يُسْمُونَهَا خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَهِيَ هُنَا فِي وَادِي الْحَقَائِقِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَجَرٍ لَوْ أَصَابَتْ أَحْمَدُ لَقَتَلَتْهُ وَلَكَانَتْ قَبْرُهُ آخِرَ الدَّهْرِ .

إِنَّ أَلْمَالَ يَا بُنَيَّ هُوَ مَا يَعْمَلُهُ أَلْمَالُ لَا جَوْهَرُهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَإِذَا كُنْتَ بِمَقَارَةِ لَيْسَ فِيهَا مِنْ يَبِيعُكَ شَيْئًا بِذَهَبِكَ ، فَالْتَرَابُ وَالذَّهَبُ هُنَاكَ سَوَاءٌ ؛ وَالْفَضَائِلُ هِيَ ذَهَبُ الْآخِرَةِ ؛ فَهَذَا تُجَدُّ بِالْأَلْمَالِ دُنْيَاكَ الَّتِي لَا تَبْقَى أَكْثَرُ مِنْ بَقَائِكَ ، وَهُنَاكَ تُجَدُّ بِالْفَضَائِلِ نَفْسُكَ الَّتِي تَخْلُدُ بِخُلُودِهَا .

وَمَعْنَى الْعَيْنِ مَعْنَى مُلْتَبِسٍ عَلَى الْعُقُولِ الْآدَمِيَّةِ لِاجْتِمَاعِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ ، فَجِنِّ زُرْدُ أَحْمَدُ ابْنِ حَنْبَلٍ خَمْسِينَ أَلْفًا ، يَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ صَحَّحَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَجْهًا مِنَ التَّصْحِيحِ .

\* \* \*

قَالَ حُسَيْنٌ الْمُغَازِلِيُّ : وَغَطَّنِي النَّوْمُ فِي أَعْمَاقِهِ غَطَّةً أُخْرَى ؛ فَإِذَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ فِي دَرَسِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَهُوَ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا عَظَّمْتَ أَمْتِي الدِّينَارَ وَالْدَّرْهَمَ ، نَزَعَ مِنْهَا هَيْبَتَهُ الْإِسْلَامَ ، وَإِذَا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، حُرِمُوا بَرَكَתَ الْوَحْيِ » [قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِخْيَاءِ » : رَوَاهُ أَبُو الدُّنْيَا فِي كِتَابِ « الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ » مُغْضَلًا مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عِيَاضٍ ، قَالَ : ذَكَرَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ . وَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْسِيرِهِ <sup>(١)</sup> وَلَكِنَّهُ رَأَيْتُ فَاثْمَكَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ : يَا حُسَيْنُ ! إِذَا أَجْتَزَأَ شَيْخُكَ بِالرَّغِيفِ فَهَذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ ؛ فَإِنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالٌ جَعَلَتْ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عِنْدَهُ هِيَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ ؛ وَفِي هَذِهِ النُّفُوسِ السَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُونُ الْجُزْءُ الْأَرْضِيَّ إِلَّا مَحْدُودًا ، فَلَا يَكُونُ مَخْصُولُهُ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ قَدْرِ الضَّرُورَةِ .

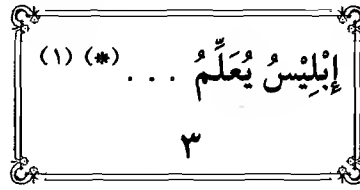
وَلَمَّا صَغُرَ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مَلَكَوا الْأَرْضَ كُلَّهَا بِقُوَّةِ الْجُزْءِ السَّمَاوِيِّ فِيهَا ، إِذْ كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ الْأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذِلُّ وَلَا تَضْعُفُ وَلَا تَنْكَسِرُ ؛ فَالْأَدَمِيَّةُ كُلُّهَا تَنْتَهِي إِلَى بَغْضِ صُورِ <sup>(٢)</sup> ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ مَحَلَّهُمْ فِي أَغْلَاهَا .

يَا حُسَيْنُ ! أَلَا وَإِنْ رَدَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ .

قَالَ حُسَيْنٌ : وَذَهَبْتُ أَعْتَزُّ عَلَى الْإِمَامِ بِمَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِهِ ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ ؛ وَأُنْسِيتُ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَأَفْذَارُ نَفُوسِهِمْ ؛ فَلَمْ أَكْذُ أَفْتَحْ فِيمِ حَتَّى رَأَيْتُ الْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طِينًا فِي فَمِي لِذِكْرِنِي بِهَذَا الْمَعْنَى ؛ وَكَذَتْ أَخْتَبِقُ فَانْتَفَضَتْ أَنْتَفُسُ ، فَطَارَ النَّوْمُ وَالْحُلُمُ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَدَارَ السَّبْتُ الثَّلَاثُ ، وَجَلَسْتُ مَجْلِسِي لِلنَّاسِ وَقَدْ انْتَضَمَتْ حَلَقَتُهُمْ ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ غُرَضِ الْمَجْلِسِ فَقَالَ : إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ شُجَاعِ الْبُلْخِيِّ تَلْمِيزُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ <sup>(٢)</sup> ، كَانَ مُنْذُ قَرِيبٍ يُحَدِّثُنَا بِأَحَادِيثَ عَنِ الشَّيْطَانِ ، حَفِظْنَا مِنْهَا قَوْلَهُ ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُضَيِّ شَيْطَانَهُ كَمَا يُضَيِّ أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ » [المستدرك ، رقم : ٨٧١٧] . وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِهِ : إِنَّ شَيْطَانَ الْكَافِرِ دَهَيْنٌ سَمِينٌ كَاسٍ ، وَشَيْطَانُ الْمُؤْمِنِ مَهْزُولٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ عَارٍ . فَهَلْ يَأْكُلُ الشَّيْطَانُ وَيَذْهَبُ وَيَلْبَسُ لِيَكُونَ لَهُ أَنْ يَجُوعَ مَعَ الْمُؤْمِنِ وَيَعْرِى وَيَتَشَعَّتْ وَيَغْبَرُ ؟

قَالَ ابْنُ مِسْكِينٍ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! مَا أَرَى السَّائِلَ إِلَّا شَيْطَانًا هَذَا السَّائِلُ ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْخَرَ مِنَ الْعَالَمِ وَيُسْمِعَهُ طَنْزَهُ وَتَهَكُّمَهُ <sup>(٣)</sup> ، حَزَّكَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْهُ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ ؛ كَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ : تَنَبَّهْ وَيَحْكُ عَلَى مَعْنَايَ ، فَأَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَعْمَلُ ، وَأَنْتَ صُورَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيَّ ، وَلَكِنِّي حَقِيقَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْكَ ، وَمَا أَنْتَ فِي مُحَارَبَتِكَ لِي بِالْوَعْظِ إِلَّا كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَ عَدُوِّهِ بِمِنَّةِ اسْمٍ وَضَعَتْ لِلسَّيْفِ ...

قَالَ : وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ خَبْرًا عَجِيبًا عَنْ أَبِي عَامِرٍ قَيْنَصَةَ بْنِ عُقْبَةَ الْكُوفِيِّ الْمُحَدِّثِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٣٩ ، ٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(١) دَاعَبَا إِبْلِيسَ (لَعَنَهُ اللَّهُ) مُدَاعَبَةً ثَقِيلَةً فِي كِتَابَةِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَسَقَطَتْ لِلْقُرَّاءِ حِكَايَتُهُ فِي مَقَالَةٍ : (دُعَايَةُ إِبْلِيسَ) .

(٢) تُوَفِّي ابْنُ شُجَاعٍ هَذَا سَنَةَ ٢٤٤ هـ ، وَكَانَ مِنْ حُفَاظِ (بُلْخِ) .

(٣) الطَّنْزُ : التَّهَوُّزُ وَالتَّهَكُّمُ : وَلَعَلَّ مِنْهُ كَلِمَةُ (طَط) عِنْدَ الْعَامَّةِ .

(١) سَيَأْتِي تَفْسِيرُهُ فِي مَجْلِسِ آخَرٍ مِنْ مَجَالِسِ ابْنِ مِسْكِينٍ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « صُورِهِمْ » بِدَلَالَةٍ مِنْ : « صُورٍ » .

الْحَافِظُ الثَّقِيُّ أَحَدُ شُبُوحِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ<sup>(١)</sup> ؛ وَهُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْعَابِدُ الَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ : ( زَاهِبُ الْكُوفَةِ ) ؛ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَاخْتِيَابِ نَفْسِهِ فِي دَاخِلِهِ كَأَنَّمَا جَسَدُهُ جِدَارٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا غِنَظَنَّ الشَّيْطَانُ بِهِذَا الْخَبِيرِ ، فَإِنَّ أَسْمَاءَ الزَّهَادِ وَالْعُبَادِ وَالصَّالِحِينَ هِيَ فِي تَارِيخِ الشَّيَاطِينِ كَأَسْمَاءِ الْمَوَاقِعِ الَّتِي تَنْهَزُ فِيهَا الْجَبُوشُ ، وَمَا الرَّجُلُ الْعَابِدُ إِلَّا صَاحِبُ الْغَمَرَاتِ مَعَ الشَّيْطَانِ ، وَكَأَنَّهُ يَخْتَمِلُ الْمَكَارَةَ عَنْ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ بَلْ عَنْ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا حَيْثُ كَانَتْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَالْإِنْسَانُ يَحْسَبُونَهُ قَدْ تَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا وَيُظَنُّونَ التَّرَكُّ أَيْسَرَ شَيْءٍ ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الزُّهْدَ لَا يَسْتَقِيمُ لِلزَّاهِدِ حَتَّى يَجْعَلَ جِسْمَهُ كَأَنَّهُ فِي نِظَامٍ آخَرَ غَيْرِ نِظَامِ أَعْضَائِهِ ؛ وَلَا أَشَقَّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى النَّفْسِ . وَمُعْجِزَةُ الزَّاهِدِ أَنَّهُ مُكَلِّفٌ أَنْ يُخْرِجَ لِلنَّاسِ أَقْوَى الْقُوَّةِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ عِنْدَ النَّاسِ أضعفُ الضَّعْفِ ؛ وَلَوْ أَنَّ مَلِكًا عَظِيمًا تَعَبَ فِي جَمْعِ الدُّنْيَا وَفَتَحَ الْمَمَالِكِ حَتَّى حِيزَتْ لَهُ جَوَانِبُ الْأَرْضِ ، لَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا هُوَ الْوَجْهَ الْآخَرَ لَتَعَبَ الزَّاهِدُ فِي مُجَاهَدَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَرْكِهَا .

\* \* \*

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُسْكِينٍ : وَقَصَصْتُ عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ فَقُلْتُ : كَانَ أَبُو عَامِرٍ قَبِيضَةً بِنُ عُبَّةَ كَثِيرَ الْفِكْرِ فِي الشَّيْطَانِ ، يَوَدُّ لَوْ رَأَاهُ وَنَاقَلَهُ الْكَلَامَ ، وَكَانَ يَتَدَبَّرُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي صَحَّ وَرُودُهَا فِيهِ ، وَيَفَسِّرُ مَعْنَى الشَّيْطَانِ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْحَيُّ لِلْخَطَا عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَالْخَطَا يُكُونُ صَوَابًا مُحَوَّلًا عَنْ طَرِيقَتِهِ وَجِهَتِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ إِبْنُ أَبِي حَالٍ فِي الْأَصْلِ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَتَحَوَّلَ عَنْ طَبِيعَتِهِ حِينَ خُلِقَ آدَمُ ( عَلَيْهِ السَّلَامُ ) ، أَيْ وَجِدَ فِي الْكُونِ رُوحَ الْخَطَا حِينَ وَجِدَ فِيهِ الرُّوحَ الَّذِي سَخِطَ .

فَلَمَّا هَبَطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَحَرَمَهَا هُوَ وَزَوْجُهُ وَذُرِّيَّتُهُ ، كَانَ إِبْنُ أَبِي حَالٍ ( لَعَنَهُ اللَّهُ ) هُوَ مَعْنَى بَقَاءِ هَذَا الْحِزْمَانِ وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى الدَّهْرِ ، فَكَانَ هَذِهِ الْأَدَمِيَّةُ أُخْرِجَتْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأُخْرِجَتْ مَعَهَا قُوَّةٌ لَا تَزَالُ تَصُدُّهَا عَنْهَا ، لِضَطْرِبَاتِهَا فِي الْكِفَاحِ مَلِكًا مِنْ زَمَنِ هُوَ عُمَرُ كُلِّ إِنْسَانٍ ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ الْإِلَهِيُّ : لَمْ يَعْرِفْ آدَمُ حَقَّ الْجَنَّةِ ، فَعُوقِبَ إِلَّا بِأَخْذِهَا إِلَّا

بِحَقِّهَا ، وَأَنْ يُقَاتَلَ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ قُوَّةُ الشَّرِّ .

وَبَاتَ أَبُو عَامِرٍ ذَاتَ لَيْلَةٍ يُفَكِّرُ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقِرَائَتِهِ ، ثُمَّ هَوَّمَ فَكَانَ بَيْنَ الْبَقَّةِ وَالْوَرَمِ ، وَذَلِكَ حِينَ تَكُونُ الْعَيْنُ نَائِمَةً وَالْعَقْلُ لَا يَزَالُ مُنْتَبِهًا ، فَكَانَ الْعَيْنُ مُتَرَاجِعَةً تُبْصِرُ مِنْ تَحْتِ أَجْفَانِهَا بَصَرًا يُشَارِكُهَا فِيهِ الْعَقْلُ .

فَرَأَى شَيْخُنَا أَبُو عَامِرٍ صُورَةَ إِبْنِ أَبِي حَالٍ فِي زِيِّ رَجُلٍ زَاهِدٍ ، حَسَنَ السَّمْتِ ، طَيِّبَ الرِّيْحِ ، نَظِيفَ الْهَيْئَةِ ، وَكَادَ يُشَبِّهُ عَلَيْهِ لَوْلَا أَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُ مِنْ عَيْنَتِهِ ، فَإِنَّ عَيْنِي الْكَاذِبِ تَصْدُقَانِ عَنْهُ ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْكَاذِبَ آدَمِيٌّ فَقَرَّ كَالْمَتَاهَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَجَعَلَ عَيْنَيْهِ كَالْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاصَ الْفَلَاةُ .

وَوَهَرَ الشَّيْطَانُ زَاهِدًا عَابِدًا تَقِيًّا نَقِيًّا كَأَنَّهُ دِينُ صَحِيحٍ خُلِقَ بَشَرًا ، فَصَرَخَ فِيهِ أَبُو عَامِرٍ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ! أَمْعِصِي فِي نَوْبِ الطَّاعَةِ ؟

قَالَ إِبْنُ أَبِي حَالٍ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! لَوْ لَمْ تَقُلِ الْمَعْصِيَةَ إِنَّهَا طَاعَةٌ لَمْ يُقَارَفْهَا أَحَدٌ . وَهَلْ خُلِقَتْ الشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَغَرِيزَتُهُ إِلَّا لِتَقْرِبَ هَذِهِ الْمَعَاصِيَ مِنَ النَّفْسِ ، وَجَعَلَ كُلَّ مِنْهَا طَاعَةً لَشَيْءٍ مَا ؛ فَتَقَعِ الْمَعْصِيَةُ بِأَنَّهَا طَاعَةٌ لَا بِأَنَّهَا مَعْصِيَةٌ ؟ أَوَلَا تَرَى يَا أَبَا عَامِرٍ أَنَّ الْجَبَلَةَ مُحْكَمَةٌ فِي الدَّخِيلِ مِنَ الْجِسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي الْخَارِجِ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْبَاطِنَ بِهِذَا الْمَعْنَى وَهَذَا الْعَمَلِ لَمَا كَانَ لظَاهِرِ الْوُجُودِ كُلِّهِ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَى وَلَا عَمَلٌ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ! فَمَا أَرَى الْمَوْتَ قَدْ خُلِقَ إِلَّا رَدًّا عَلَيْكَ أَنْتَ ، لِتَبَيَّنَ النَّاسُ أَنَّكَ الْمُتَمَلِّئُ الْمُتَمَلِّئُ ، وَلَكِنَّكَ الْفَارِغُ الْفَارِغُ ؛ بَلْ كُلُّ شَهْوَاتِكَ شُخْرِيَّةٌ مِنْكَ وَرَدُّ عَلَيْكَ ، فَلَا طَعْمَ لِلدَّةِ مِنْ لَذَائِكَ إِلَّا وَهْيَ تَمُوتُ ، وَإِنَّمَا تَمَامُ وَجُودِهَا سَاعَةٌ تَنْقُضِي ، وَمَتَى قَالَتْ اللَّذَّةُ : قَدْ أَنْتَهَيْتُ . فَقَدْ وَصَفَتْ نَفْسَهَا أَبْلَغَ الرَّصْفِ .

قَالَ إِبْنُ أَبِي حَالٍ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! وَلَكِنَّ اللَّذَّةَ لَا تَمُوتُ حَتَّى تَلِدَ مَا يُبَيِّمُهَا حَيَّةً ، فَهِيَ تَلِدُ الْحَيَّةَ إِلَيْهَا ، وَهُوَ لَا يَسْكُنُ حَتَّى يَعُودَ لَدَّةً تَنْقُضِي وَتَلِدُ .

قَالَ الشَّيْخُ : مَعَانِي التُّرَابِ ، مَعَانِي التُّرَابِ ؛ كُلُّ نَبْتَةٍ فِيهَا بِذُرَّتِهَا ، وَلَكِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَةَ اللَّهِ ! لِمَاذَا جِئْتَنِي فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ؟



قَالَ إِبْلِيسُ : لِأَنِّي لَا أَلْبَسُ إِلَّا مَحَبَّةَ الْقَلْبِ الْآدَمِيِّ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطَرَدْتَنِي الْقُلُوبُ كُلُّهَا وَبَطَلَ عَمَلِي فِيهَا ، وَهَلْ عَمَلِي إِلَّا التَّلْيِيسُ وَالتَّرْوِيرُ ؟ أَتَدْرِي يَا أَبَا عَامِرٍ أَنِّي لَا أَعْتَرِي الْحَيَوَانَ قَطُّ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : لِأَنَّ الْحَيَوَانَ لَا يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا نَظْرَةً وَاحِدَةً ، هِيَ نَظْرُهُ وَفَهْمُهُ مَعًا ، فَلَا مَحَلَّ لِلتَّرْوِيرِ مَعَ هَذِهِ النَّظْرَةِ الْوَاحِدَةِ ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ [تَزَلُّ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ] ﴿ ٢٦ ﴾ سورة الشعراء/ الآيات : ٢٢١ و ٢٢٢ . فَأَنْتَ أَتَيْهَا الشَّيْطَانُ التَّرْوِيرُ ، وَالتَّرْوِيرُ مَوْضِعُهُ الْكَذِبُ ؛ فَمَنْ لَمْ يَكْذِبْ فِي الْفِكْرِ وَلَا فِي النَّظَرِ وَلَا فِي الْفَهْمِ وَلَا فِي الرَّجَاءِ ، فَلَيْسَ لَكَ عِنْدَهُ عَمَلٌ .

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! وَهَلْ تَرَى (رَحِمَكَ اللَّهُ) أَعْجَبَ وَأَغْرَبَ وَأَدْعَى إِلَى الْهَرَبِ وَالشُّخْرِيةِ مِنْ أَنَّ أَغْظَمَ الْعُقَلَاءِ الزُّهَادِ الْعُبَادِ ، هُوَ فِي جُمْلَةِ مَعَانِيهِ حَيَوَانٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا نَظْرَةٌ وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ ... ؛ إِنَّ الْحَيَوَانَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، فَهُوَ طَبِيعَةٌ مُسَخَّرَةٌ بِنِظَامِهَا ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَشْيَاءٌ مُتَنَاقِضَةٌ بِطَبِيعَتِهَا ، فَأُلُوْهُيَّةٌ أَنْ يُغَيِّرَ النِّظَامَ بَيْنَ هَذِهِ الْمُتَنَاقِضَاتِ ، كَأَنَّمَا أَمْتَحِنُ فَأُعْطِي مِنْ جِسْمِهِ كَوْنًا فِيهِ عَنَاصِرُ الْأَضْطِرَابِ ، وَحَوْلَهُ عَنَاصِرُ الْأَضْطِرَابِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ دَبَّرَهُ .

فَصَحَّحَكَ إِبْلِيسُ .

قَالَ الشَّيْخُ : مِمَّ صَحَّحْتَ لَعَنَكَ اللَّهُ ؟

قَالَ : صَحَّحْتُ مِنْ أَنَّكَ أَعْلَمْتَنِي حَقِيقَةَ الْإِبْلِيسِيَّةِ ، فَالزُّهَادُ هُمُ الصَّالِحُونَ لِأَنَّهُمْ يَكُونُوا أَغْظَمَ الْأَبَالِسَةِ ...

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ؛ فَمَا هِيَ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي رَعَمْتَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَامِرٍ ، مَا عَلَا إِنْسَانٌ فِي رَعَمِ التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةِ إِلَّا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْإِبْلِيسِيَّةُ ؛ وَسَأَعْلَمُكَ يَا أَبَا عَامِرٍ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ . فَلَا تَقُلْ إِنَّهَا أُلُوْهُيَّةٌ تُغَيِّرُ النِّظَامَ بَيْنَ مُتَنَاقِضَاتِ الْإِنْسَانِ وَمُتَنَاقِضَاتِ الطَّبِيعَةِ .

قَالَ الشَّيْخُ : وَتَسَخَّرُ مِنِّي لَعَنَكَ اللَّهُ ؟ فَمَتَى كُنْتَ تَعْلَمُ الْحَقِيقَةَ وَالْفَضِيلَةَ ؟  
قَالَ إِبْلِيسُ : أَوْلَمْ أَكُنْ شَيْخَ الْمَلَائِكَةِ ؟ فَمَنْ أَجَدُّ مِنْ شَيْخِ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَكُونَ عَالِمُهَا وَمُعَلِّمُهَا ؟

قَالَ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ؛ فَمَا هِيَ حَقِيقَةُ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : حَقِيقَتُهَا يَا أَبَا عَامِرٍ ، هِيَ الَّتِي أَعْجَزْتَنِي فِي نَبِيِّكُمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : ﷺ ؛ فَمَا هِيَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : هِيَ ثَلَاثٌ بِهَا نِظَامُ النَّفْسِ ، وَنِظَامُ الْعَالَمِ ، وَنِظَامُ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ : أَنْ تَكُونَ لَكَ تَقْوَى ، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ فِكْرٌ مِنْ هَذِهِ التَّقْوَى ، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ نَظَرٌ إِلَى الْعَالَمِ مِنْ هَذَا الْفِكْرِ . مَا أَجْتَمَعَتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا فَهَرُ الدُّنْيَا وَفَهَرُ إِبْلِيسَ .

فَإِنْ كَانَتْ التَّقْوَى وَحْدَهَا - كَتَقْوَى أَكْثَرِ الزُّهَادِ وَالرُّهْبَانِ - فَمَا أَيْسَرَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ مِنْهَا نَظَرَ الْغَفْلَةِ وَالْجُبْنِ وَالْبَلَادَةِ وَالْفَضَائِلِ الْكَادِيَةِ ، وَإِنْ كَانَ الْفِكْرُ وَحْدَهُ - كَفِكْرِ الْعُلَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ - فَمَا أَهْوَنَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ بِهِ نَظَرَ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ وَالْبَهْمِيَّةِ وَالرَّذَائِلِ الصَّرِيحَةِ .

قَالَ الشَّيْخُ : صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ : ﴿ إِنَّكَ الْذِيكَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف/ الآية : ٢٠١] .

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! مَا يَضُرُّنِي وَاللَّهِ أَنْ أَفْسَرَ لَكَ ، فَإِنَّ قَارُورَةَ مِنَ الصَّبْنِ لَا تَصْبُغُ الْبَحْرَ ، وَأَنَا أَعُدُّ الزُّهَادَ وَالْعُلَمَاءَ الْمُصْلِحِينَ فَأَصْغُ فِي النَّاسِ بِجَانِبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ مِثْلِ أَمْرَاءِ مَفْتُونَةٍ ، وَمِثْلَ أَلْفِ رَجُلٍ فَاسِقٍ ، وَمِثْلَ أَلْفِ مَخْلُوقٍ ظَالِمٍ ، فَلَوْ أَنَّكَ صَبَّغْتَ الْبَحْرَ بِمِثْلِ قَارُورَةِ حَمْرَاءَ لَمَا صَبَّغْتَ الْبَحْرَ الْإِنْسَانِي بِالزَّاهِدِ وَالْمُصْلِحِ ، مَا دَامَ الْمُصْلِحُ شَيْئًا غَيْرَ السَّيْفِ ، وَمَا دَامَ الزَّاهِدُ شَيْئًا غَيْرَ الْحَاكِمِ .

قَالَ الشَّيْخُ : لَعَنَكَ اللَّهُ مِنْ شَيْطَانٍ عَارِمٍ ، فَإِذَا وَضَعْتَ الْمُصْلِحَ بَيْنَ مِثْلِ أَلْفِ فَاسِدٍ ، فَهَلْ هَذِهِ إِلَّا طَرِيقَةُ شَيْطَانِيَّةٍ لِإِفْسَادِهِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : وَمِثْلَ أَلْفِ أَمْرَةٍ فَتَانَةٍ مَفْتُونَةٍ يَا أَبَا عَامِرٍ ، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَخَسِبُ جِسْمَهَا ...

فَصَرَخَ الشَّيْخُ : أَغْرَبَ عَنِّي عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ !

قَالَ إِبْلِيسُ : وَلَكِنَّ الْآيَةَ الْآيَةَ يَا أَبَا عَامِرٍ . لَقَدْ لَقِيتُ الْمَسِيحَ وَجَرَّبْتُهُ وَهُوَ كَانَ تَفْسِيرَهَا .

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْهِ السَّلَامُ ! وَعَلَيْكَ أَنْتَ لَعْنَةُ اللَّهِ ! فَكَيْفَ قَالَ ؟ وَكَيْفَ صَنَعَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : أَلْقَيْتُ بِهِ جَانِعًا فِي الصَّخْرَاءِ لَا يَجِدُ مَا يَطْعَمُهُ ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّهُ يَجِدُ ، وَلَا يَزُجُّ أَنَّهُ يَظُنُّ ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنْ كُنْتَ رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ كَمَا تَزْعُمُ ، فَمَرُ هَذَا الْحَجَرِ يَنْقَلِبُ خُبْرًا . فَكَانَ تَقِيًّا ، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ ، فَقَالَ : لَيْسَ بِالْخُبْرِ وَحْدَهُ يَخِيَا الْإِنْسَانَ . فَمِثْلُ هَذَا لَوْ مَاتَ جُوعًا لَمْ يَتَحَوَّلْ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ إِنْ تَمَّ حَقِيقَتِهِ السَّامِيَّةُ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَلَوْ مُلِثَتْ لَهُ الدُّنْيَا خُبْرًا وَهُوَ جَانِعٌ لَمْ يَتَحَوَّلْ ، لِأَنَّ لَهُ بَصَرًا مِنْ فَوْقِ الْخُبْرِ إِلَى حَقِيقَتِهِ السَّامَوِيَّةِ ؛ فَلَيْسَ بِالْخُبْرِ وَحْدَهُ يَخِيَا ؛ بَلْ بِمَعَانٍ أُخْرَى هِيَ إِشْبَاعُ حَقِيقَتِهِ السَّامَوِيَّةِ الَّتِي لَا شَهْوَةَ لَهَا .

ثُمَّ أَرْتَقَيْتُ بِهِ إِلَى ذِرْوَةِ جَبَلٍ وَأَرْتَنَّهُ مَمَالِكَ الْخَافِقِينَ ، كَشَفْتُهَا كُلَّهَا لِعَيْنَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : هَذَا كُلُّهُ لَكَ إِذَا أَنْتَ سَجَدْتَ لِي . فَكَانَ مُتَقِيًّا ، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ : أَبْصَرَ حَقِيقَةَ الْخَيَالِ الَّتِي جَسَمَتْهُ لَهُ ، وَعَلِمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُعْطِي مِثْلَ مَعَانِي هَذِهِ الْمَمَالِكِ فِي جَزَعَةٍ خَمَرٍ ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي سَاعَةِ لَذَّةٍ ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي شِفَاءٍ غَظِظٍ بِالْقَتْلِ وَالْأَذَى ؛ ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَاقٍ غَيْرَ الْإِثْمِ ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ صَحِيحٌ إِلَّا الْحَرَامُ . وَمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا نَفْسَهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا إِذَا بَقِيََتْ لَهُ ، فَهِيَ خَيَالٌ فِي جَزَعَةِ الْحَيَاةِ ، كَمَا هِيَ خَيَالٌ فِي جَزَعَةِ الْخَمْرِ .

يَا أَبَا عَامِرٍ ! إِنَّ هَذَا الْفَطَرُ ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّذَكُّرُ ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّفَوُّيُّ ، الَّتِي وَرَاءَهَا اللَّهُ - هَذَا وَحْدَهُ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَتَصْفِيهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ حَتَّى تَعُودَ بِهَا إِلَى حَقَائِقِهَا الْتَرَابِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي آخَرُهَا الْقَبْرُ ، وَآخِرُ وُجُودِهَا التَّلَاشِي .

فَالْبَصَرُ الْكَاشِفُ الَّذِي يُجَرِّدُ الْأَشْيَاءَ مِنْ سِحْرِهَا الْوَهْمِيِّ ، هَذَا هُوَ كُلُّ السَّرِّ .

\* \* \*

قَالَ الشَّيْخُ : لَعَنَكَ اللَّهُ ! فَكَيْفَ مَعَ هَذَا تَقْنِئُ الْمُؤْمِنَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! هَذَا سُؤَالُ شَيْطَانِي . . . تُرِيدُ - وَنَحَكَ - أَنْ تَخْتَالَ عَلَى

الشَّيْطَانِ ؟ وَلَكِنْ مَا يَصْرُفُنِي أَنْ أُفْسِدَهَا لَكَ .

لَيْسَ الْإِيمَانُ هُوَ الْأَعْتِقَادُ وَلَا الْعَمَلُ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ هَذَيْنِ لَمَا شَقَّ عَلَى أَحَدٍ وَلَصَلَحَتْ الدُّنْيَا وَأَهْلُهَا ؛ إِنَّمَا الْإِيمَانُ وَضْعُ يَقِينٍ خَفِيِّ يَكُونُ مَعَ الْغَرِيزَةِ فِي مَقَرِّهَا ، وَيُضْلِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَرِّهَا لِتَصُدَّرَ عَنْهُ أَعْمَالُ الْغَرِيزَةِ ؛ وَهَذَا الْيَقِينُ لَا يَضْلِحُّ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقِينًا ثَابِتًا بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَيَتَذَكَّرُ فَيُبْصِرُ . هُنَاكَ مِيرَاثٌ مِنَ الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِ ، فَالْيَقِينُ بِهِذَا الْمِيرَاثِ هُوَ سِرُّ الْإِيمَانِ .

وَالْعَمَلُ الشَّيْطَانِي لَا يَكُونُ إِلَّا فِي إِفْسَادِ هَذَا الْيَقِينِ وَمُعَارَضَةِ الْخَيَالِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ بِالْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَظْهَرُ لِلْمُغْفَلِ عَظِيمَةً ، كَمَا تُسَبُّ نَارٌ أَكْبَرُ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَبْلَهِ : أَنْظِرْ بَعَيْنَيْكَ . فَيُصَدِّقُ أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ الشَّمْسِ .

وَمَتَى صَغُرَ هَذَا الْيَقِينُ وَكَانَتْ الْحَقَائِقُ الدُّنْيَوِيَّةُ أَكْبَرَ مِنْهُ فِي النَّفْسِ ، فَأَيَسَّرُ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ حَتَّى يَفْسِدَ الْمُتَعَقِّدُ وَيُسْقِطُ الْفَضِيلَةَ ؛ وَيَذَرُهُمْ وَاحِدًا يُوجَدُ اللَّصُّ حَتِيئًا .

أَمَّا إِذَا ثَبَتَ الْيَقِينُ فَالشَّيْطَانُ مَعَ الْإِنْسَانِ يَصْغُرُ ثُمَّ يَصْغُرُ ، وَيَعْجَزُ ثُمَّ يَعْجَزُ ، حَتَّى لَيَزِجُ مِثْلَ الدَّرْهِمِ إِذَا طَمِعَ الطَّامِعُ أَنْ يَجْعَلَ الرَّجُلَ الْغَنِيِّ الْكَثِيرَ الْمَالِ لَصًا مِنَ اللَّصُوفِ بِهِذَا الدَّرْهِمِ .

قَالَ الشَّيْخُ : لَعَنَكَ اللَّهُ ! فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ إِفْسَادَ هَذَا الْيَقِينِ فَكَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةِ الْمُؤْمِنِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ إِفْسَادَ الْيَقِينِ زُدْتُهِ يَقِينًا فَيَفْسُدُ ، وَأَسْتَحْصِنُ الرَّجُلَ لِأَعْمَالِهِ السَّامِيَّةِ قَدْ يَكُونُ هُوَ أَوَّلَ أَعْمَالِهِ السَّافِلَةِ ؛ وَبِأَيِّ عَجِيبٍ يَكُونُ الشَّيْطَانُ شَيْطَانًا إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا ؟

\* \* \*

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : وَغَضِبَ الشَّيْخُ ، فَمَدَّ يَدَهُ فَأَخَذَ فِيهَا عُنُقَ إِبْلِيسَ وَقَدْ رَأَهُ دَقِيقًا ، ثُمَّ عَصَرَهُ عَصْرًا شَدِيدًا يُرِيدُ خَنْقَهُ ؛ فَفَهَقَ الشَّيْطَانُ سَاخِرًا مِنْهُ . وَيَسْتَبْهَةِ الشَّيْخُ ، فَإِذَا هُوَ يَسُدُّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى . . . . .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

## الدُّنْيَا وَالْذَّرْهَمُ<sup>(\*)</sup>

### ٤

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : وَأَزِفَ تَرْخُلِي عَنْ (بَلَخِ) ، وَتَهَيَّأْتُ لِلخُرُوجِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مُدَّةِ مَقِيلِي بِهَا إِلَّا أَيَّامٌ يَجِيءُ فِيهَا السَّبْتُ الرَّابِعُ ، وَكَانَ<sup>(١)</sup> قَدْ وَقَعَتْ مُمَارَاةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُفْتِي (بَلَخِ) أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ الْبَاهِلِيِّ<sup>(٢)</sup> تَلْمِيزٌ أَبِي يُوسُفَ صَاحِبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَجِنَحٌ عَلَى الْمَالِ ، وَأَنَّهُ يَتَغَلَّلُ مِنْ مُسْتَعْلَاتٍ كَثِيرَةٍ<sup>(٣)</sup> ، فَكَأَنَّمَا غَشِيَتْهُ غَمَامَتِي ، فَهُوَ لَا يَرَى أَنَّ أَتَكَلَّمَ فِي الزُّهْدِ ، وَيَحْسَبُ هَذَا الزُّهْدَ تَمَاوُتَ الْعَبَادِ ، وَنَقْضَ الْأَيْدِي مِنَ الدُّنْيَا ، وَسُوءَ الْمَصَاحِبَةِ لِمَا يُنْعِمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْعَبْدِ ، وَخِذْلَانَ الْقُوَّةِ فِي الْبَدَنِ ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِنْ تَزْوِيرِ الْحَيَاةِ بِالْأَبَاطِيلِ الَّتِي زَعَمَ أَنَّهَا أَبَاطِيلُ الطَّاعَاتِ وَمَا أَقْرَبَهَا مِنْ أَبَاطِيلِ الْمَعْصِيَةِ . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْمُفْتِي قَدْ سَمِعَنِي وَلَا حَضَرَ مَجْلِسِي ، وَلَوْلَا الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ ذَلِكَ لَقَدْ كَانَ عَرَفَ .

وَجَادَلْتُهُ فَرَأَيْتُهُ وَاهِنَ الدَّلِيلَ ، ضَعِيفَ الْحُجَّةِ ، يُحْمَنُ تَحْمِينَ فَقِيرٍ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْخَفَايَا مِنْ حَفَاقِي الْقُفُوسِ نَظَرَ صَاحِبِ النَّصِّ إِلَى الظَّاهِرِ ، كَأَنَّ الْحَقِيقَةَ إِذَا أَلْفِيَتْ عَلَى النَّاسِ مَضَتْ نَافِذَةً كَفَتَوَى الْمُفْتِي ... وَيَزْعُمُ أَنَّ الْوَعْظَ وَعَظُ الْفُقَهَاءِ ، يَقُولُونَ : هَذَا حَرَامٌ . فَيَكُونُ حَرَامًا لَا يُقَارِفُهُ أَحَدٌ ، وَهَذَا حَلَالٌ . فَيَكُونُ حَلَالًا لَا يَنْزُكُهُ أَحَدٌ ، وَهُوَ كَانَ بَعِيدًا عَنْ حَقِيقَةِ الْوَعْظِ وَمَدَاحِلِهِ إِلَى النَّفْسِ وَسِيَاسَتِهِ فِيهَا ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ كَالْأُنْتَى : إِنْ لَمْ تُرَينَ بِرَبِّتِهَا لَمْ تَسْتَهْوَ أَحَدًا ؛ وَأَنَّ الْمَوْعِظَةَ إِنْ لَمْ تَتَذَّ فِي أَسْلُوبِهَا الْحَيِّ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٤١ ، ٢٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٠٥ - ٤٠٧ .

هَكَذَا هُوَ الْعُتُونُ فِي الْأَصْلِ ، وَفِي الطَّبَعَةِ الْأُولَى : « الدُّنْيَا وَالْذَّرْهَمُ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « كَانَتْ » بَدَلًا مِنْ : « كَانَ » .

(٢) ثُوْقِي مُفْتِي بَلَخَ هَذَا سَنَةَ ٣٣٩ هـ .

(٣) الْمُسْتَعْلَاتُ : أَصُولُ الْأَمْوَالِ ، وَتَغَلَّلَ وَاسْتَعْلَلَ بِمَعْنَى .

كَانَتْ بِالْبَاطِلِ أَشْبَهَ ، وَأَنَّهُ لَا يُعَيِّرُ النَّفْسَ إِلَّا النَّفْسُ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ التَّحْوِيلِ وَالتَّغْيِيرِ ، كَثُفُوسِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ كَانَ فِي طَرِيقَةِ رُوحِهِمْ ، وَأَنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ إِنَّمَا هِيَ وَضْعُ نُورِ الْبَصِيرَةِ فِي الْكَلَامِ ، لَا وَضْعُ الْقِيَّاسِ وَالْحُجَّةِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الرَّاهِدَ الصَّحِيحَ الزُّهْدِ ، إِنَّمَا هُوَ حَيَاةً تَلْبَسُهَا الْحَقِيقَةُ لِتَكُونَ بِهِ شَيْئًا فِي الْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ . لَا شَيْئًا فِي الْقَوْلِ وَالتَّوَهُّمِ ، فَيَكُونُ إِلَهَامُهَا فِيهِ كَحَرَارَةِ النَّارِ فِي النَّارِ : مَنْ وَانَاهَا أَحْسَهَا .

وَلَعَمْرِي ، كَمْ مِنْ فَقِيرٍ يَقُولُ لِلنَّاسِ : هَذَا حَرَامٌ . فَلَا يَرِيدُ هَذَا الْحَرَامَ إِلَّا ظُهُورًا وَانْكِشَافًا مَا دَامَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا نَظْمُ الْكُتُبِ ، وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَصِلَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالشَّرْعِ ، وَقَدْ خَلَا مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَجْعَلُهُ رُوحًا تَتَعَلَّقُ الْأَرْوَاحُ بِهَا وَتَضَعُهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَوْضِعٍ يَكُونُ بِهِ فِي أَغْيَابِهِمْ كَأَنَّهُ آتٍ مِنَ الْجَنَّةِ مُنْذُ قَرِيبٍ ، رَاجِعٌ إِلَيْهَا بَعْدَ قَرِيبٍ .

وَالْفَقِيرُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْمَالِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ ، وَلَا يَجْعَلُ هَمَّهُ إِلَّا زِيَادَةَ الرِّزْقِ وَحِظَ الدُّنْيَا - هُوَ الْفَقِيرُ الْفَاسِدُ الصُّورَةُ فِي خَيَالِ النَّاسِ ، يُفْهِمُهُمْ أَوَّلُ شَيْءٍ أَلَّا يَفْهَمُوا عَنْهُ ؛ إِذْ حِرْصُهُ فَوْقَ بَصِيرَتِهِ ، وَلَهُ فِي الْقُفُوسِ رَائِحَةُ الْخُبْرِ ، وَلَهُ مَعْنَى : خَمْسٌ وَخَمْسَ عَشْرَةَ<sup>(١)</sup> ... وَكَأَنَّ دُنْيَاهُ وَضَعَتْ فِيهِ شَيْئًا فَاسِدًا غَرِيبًا يُفْسِدُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا ؛ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ هَذَا الشَّيْءُ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فُقَهَاءَ يَعْطُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ وَفِي نَصِّ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، ثُمَّ لَمْ أَجِدْ لِكَلَامِهِمْ نَفْعًا وَلَا رَدًّا ، إِذْ يُلْهِمُونُ النَّاسَ بِأَرْوَاحِهِمْ غَيْرَ الْمَعْنَى الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ ؛ وَتَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْهُمْ - عَلَى خَطَرِهِمْ وَجَلَالِ شَأْنِهِمْ - بِذَاتِ الْأَسْلُوبِ الَّذِي تَسْخَرُ بِهِ مِنْ لَصِ يَعْطُ لَصًا آخَرَ فَيَقُولُ لَهُ : لَا تَسْرِقْ ...

\* \* \*

قَالَ ابْنُ مَسْكِينٍ : فَلَمَّا دَارَ يَوْمُ السَّبْتِ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْمَسْجِدِ أَفْوَاجًا ، وَكَانُوا قَدْ تَعَالَمُوا إِزْمَاعِي الرَّحِيلَ عَنْ بَلَدِهِمْ - وَجَاءَ (لُفْمَانُ الْأُمَّةِ) فِي أَشْيَاعِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَجَاءَ أَبُو إِسْحَاقَ الْمُفْتِي فِي جَمَاعَتِهِ ؛ وَاسْتَقَرَّ بِي الْمَجْلِسُ فَتَقَدَّتِ النَّاسُ بِنَظَرِي ، فَكَأَنَّهُمْ مِنْ كَثْرَتِهِمْ نَبَاتٌ غَطَّى الْأَرْضَ ، فَأَذْكُرُنِي هَذَا شَيْخَنَا السَّرِيَّ بْنَ مُغَلِّسٍ

(١) يُرِيدُ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا (عَمَلِيَّةٌ حِسَابِيَّةٌ ...) وَفِي أَيَّامِ ضَعْفِهِ الَّذِي يَكُونُ الْفَقْرُ اسْتِخْرَاجَ الذَّرَاهِمِ مِنَ النَّفُوسِ .

السَّقَطِيَّ<sup>(١)</sup> ، وَكَانَ قَدْ لَزِمَ دَارَهُ فِي بَعْدَادَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَرَاهُ إِلَّا مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَجْعَلَ الْمَوْعِظَةَ فِي شَرْحِ كَلِمَتِهِ الْمَشْهُورَةِ : « لَا تَصِحَّ الْمَحَبَّةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ حَتَّى يَقُولَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : يَا أَنَا » . وَمَا نَقُلُوا عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ : مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَنَا فِي الْأَسْتِغْفَارِ مِنْ قَوْلِي : (الْحَمْدُ لِلَّهِ) . فَقَالَ صَاحِبُهُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : وَقَعَ بِبَعْدَادَ حَرِيْقٌ ، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ فَقَالَ : نَجَا حَانُوتُكَ . فَقُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ . فَأَنَا نَادِمٌ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى مَا قُلْتُ ؛ إِذْ أَرَدْتُ لِتَفْسِي خَيْرًا مِنَ الْكَاسِ !

قَالَ ابْنُ مَسْكِينٍ : وَلِكَيْتِي أَحْبَبْتُ أَنْ أَكَلِّمَ الْمُفْغِي وَمَالَ الْمُفْغِي ؛ فَحَدَّثْتُهُمْ حَدِيثَ مَعْرِفَتِي بِالسَّرِيِّ : أَنِّي سَمِعْتُ يَوْمًا (غِيلَانَ الْخِطَّاطِ) يَقُولُ : إِنَّ السَّرِيَّ كَانَ اشْتَرَى كُرَّ لَوَزٍ<sup>(٢)</sup> بِسِتِّينَ دِينَارًا ، وَأَتَيْتُهُ فِي رُزْنَامَجِهِ<sup>(٣)</sup> وَكَتَبَ أَمَامَهُ : رَبُّهُ ثَلَاثَةٌ دَنَائِيرَ<sup>(٤)</sup> ؛ فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ غَلَا السَّعْرُ فَبَلَغَ تِسْعِينَ دِينَارًا ؛ فَأَتَاهُ الدَّلَالُ الَّذِي كَانَ اشْتَرَى لَهُ فَقَالَ : أُرِيدُ ذَلِكَ الْكُرَّ . قَالَ الشَّيْخُ : خُذْهُ . قَالَ : بِكَمْ ؟ فَقَالَ : بِثَلَاثَةِ وَسِتِّينَ دِينَارًا . وَكَانَ الدَّلَالُ رَجُلًا صَالِحًا ، فَقَالَ لِلشَّيْخِ : إِنَّ الْكُرَّ قَدْ صَارَ الْكُرُّ بِتِسْعِينَ . قَالَ السَّرِيُّ : وَلِكَيْتِي عَقَدْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ ، فَلَسْتُ أُبِيعُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ وَسِتِّينَ دِينَارًا . فَقَالَ الدَّلَالُ : وَأَنَا قَدْ عَقَدْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ ، أَلَا أَغَشُّ مُسْلِمًا ، فَلَسْتُ أَشْتَرِي مِنْكَ إِلَّا بِتِسْعِينَ ؛ فَلَا الدَّلَالُ اشْتَرَى مِنْهُ ، وَلَا السَّرِيُّ بَاعَهُ ... !

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةٌ إِلَّا أَنْ أَلْقَى الشَّيْخَ وَأَصْحَبَهُ وَأَخَذَ عَنْهُ ، فَلَمْ أَعْرِجْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ ، فَأَجَدُهُ فِي حَلْقَتِهِ وَعِنْدَهُ مِمَّنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُمْ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ ، وَإِدْرِيسُ الْحَدَّادُ ، وَعَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ الرَّازِي ، وَحَوْلَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَهُوَ فِيهِمْ كَالشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ بَيْنَ الْهَيْبِمِ تَغْلُوهُ نَضْرَةُ رُوحِهِ ، وَكَأَنَّمَا يُمِدُّهُ بِالْأُورِ عِزْقٌ مِنَ السَّمَاءِ ، فَهُوَ يَتَلَأَّلُ لِلْعَيْنِ ؛ وَلَا يَمْلِكُ النَّظِيرُ إِلَيْهِ إِلَّا

(١) السَّقَطُ : رَدِيءُ الْمَتَاعِ (روبايكيا) ، وَبَابُغُهُ : السَّقَطِي . وَهَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ كَانَ أَوْحَدَ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي الْوَرَعِ ، وَلَهُ كَلَامٌ إِلَهِي مُشْرِقٌ ، وَقَدْ تُوِّفِيَ عَنْ سِنٍّ عَالِيَةٍ فِي سَنَةِ ٢٥٣ هـ .

(٢) الْكُرُّ (بِضْمِ الْكَافِ) : مِكْيَالٌ عَظِيمٌ يَقْدَرُونَ بِهِ فِي الْحِسَابِ ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ إِدْبًا مِصْرِيًّا .

(٣) أَيُّ : دَفَقَرُ حِسَابِهِ . [أَيُّ : الدَّفَقَرُ الْيَوْمِي] .

(٤) خَمْسَةٌ فِي الْمِثَّةِ .

أَنْ يُحْسَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّهُ الْأَدْنَى ، مِنْ رُؤْيِيهِ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ هَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْأَعْلَى . وَرَأَيْتُ عَلَى وَجْهِهِ أَلَامًا تَمْسَحُهُ مِسْحَةُ الْأَشْوَاقِ لَا مِسْحَةَ الْأَلَامِ ، فَهِيَ أَتَارُ مَا يَجِدُهُ فِي رُوحِهِ الْقَوِيَّةِ ، لَا كَالْأَلَامِ النَّاسِ الَّتِي هِيَ أَتَارُ الْحِزْمَانِ فِي أَرْوَاحِهِمُ الْوَاهِتَةِ الضَّعِيفَةِ فَلَا تَمْسَحُ وَجُوهَهُمْ إِلَّا مِسْحَةُ الْغَمِّ وَالْكَآبَةِ .

وَمَا يُخْطِئُ النَّظَرُ فِي تَمْيِيزِ آلَامِ السَّمَاءِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ السَّعِيدَةِ مِنْ آلَامِ الْأَرْضِ فِي الْوُجُوهِ الْأُخْرَى ، فَإِنَّ الْأَوَّلَى تَتَنَدَّى عَلَى رُوحِ النَّظِيرِ بِمِثْلِ الطَّلِّ إِذَا قَطَرَهُ الْفَجْرُ ، وَالْأُخْرَى تَتَنَوَّرُ { فِي رُوحِهِ } كَمَا تَهْيِجُ الْغَبَرَةُ إِذَا ضَرَبَتْ الرِّيحُ الْأَرْضَ .

كَانَ الشَّيْخُ فِي وُجُودٍ فَوْقَ وُجُودِنَا ؛ فَلَا تَتَلَوَّنُ لَهُ الْأَشْيَاءُ ، وَلَا تَعْدُو عَنْهُ مَا هِيَ فِي نَفْسِهَا ، وَلَا يَحْمِلُ الشَّيْءُ لَهُ إِلَّا مَعْنَاهُ مِنْ حَيْثُ يَصْلُحُ أَوْ لَا يَصْلُحُ ، وَمِنْ حَيْثُ يَنْبَغِي أَوْ لَا يَنْبَغِي . فَإِنَّمَا تَتَلَوَّنُ الْأَشْيَاءُ عِنْدَمَا يَضَعُ الشَّيْطَانُ عَيْنَهُ فِي عَيْنِ النَّظِيرِ إِلَيْهَا ؛ وَإِنَّمَا تَرِيدُ وَتَنْقُصُ فِي الْقَلْبِ عِنْدَمَا يَكُونُ رُوحُ الشَّيْطَانِ فِي الْقَلْبِ ؛ وَإِنَّمَا يَشْتَبِهُ مَا يَنْبَغِي وَمَا لَا يَنْبَغِي عِنْدَمَا يَأْتِي الشَّيْءُ مِنْ جِهَتَيْنِ : جِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ ، وَجِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِنَا نَحْنُ . وَبِهَذَا قَدْ يَجْمَعُ الْإِنْسَانُ أَلَمَالًا ثُمَّ لَا يَجِدُ فِي أَلَمَالِ مَعْنَى الْغِنَى ، وَقَدْ تَتَفَقَّ أَسْبَابُ النِّعَمِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا الدَّلُّ . وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَجِدُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا عَكْسَ مَا كَانَ يَنْبَغِي ، وَآخِرَ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا وَوَجَدَ بِذَلِكَ رَاحَتَهُ .

\* \* \*

قَالَ ابْنُ مَسْكِينٍ : وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِي حِينَ تَكَلَّمَ الشَّيْخُ ، فَقَدْ أَخَذَ يُجَنِّبُ عَمَّا فِي نَفْسِي وَلَمْ أَسْأَلْهُ ، كَأَنَّ الَّذِي فِي فِكْرِي قَدْ انْتَقَلَ إِلَيْهِ ؛ فَرَوَى الْحَدِيثَ : « إِذَا عَظَّمْتَ أَمْتِي الدِّينَارَ وَاللِّدْهَمَ ، نَزَعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، حُرِّمُوا بَرَكََةُ الْوَحْيِ » [قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِخْيَاءِ » : رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ : « الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ » مُعْضَلًا مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عِيَاضٍ ، قَالَ : ذَكَرَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ . ثُمَّ قَالَ فِي تَأْوِيلِهِ :

إِنَّ مَلَكَ الْوَحْيِ يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِيُخْضِعَ صَوْلَةَ الْأَرْضِ بِصَوْلَةِ السَّمَاءِ ، فَإِذَا بَقِيَ

الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، بَقِيَ عَمَلُ الْوَحْيِ إِلَّا أَنَّهُ فِي صُورَةِ الْعَقْلِ ، وَبَقِيَتْ رُوحَانِيَّةُ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا فِي صُورَةِ النُّطَامِ ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ خَطَاةٍ تَصْحِيحُهُ ؛ فَيُصْبِحُ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ تَنْفِيذًا لِلشَّرِيعَةِ بَيْنَ أَمْرِ مُطَاعٍ وَمَأْمُورٍ مُطِيعٍ ، فَيَتَعَامَلُ النَّاسُ عَلَى حَالَةٍ تَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أَسْنَادًا لِبَعْضٍ ، وَشَيْئًا مِنْهُمْ تَعْدِيلًا لَشَيْءٍ ، وَقُوَّةٌ سَدًّا لِقُوَّةٍ ؛ فَيَقُومُ الْعَزْمُ فِي وَجْهِ الْكُفَّارِ ، وَالشَّدَّةُ فِي وَجْهِ التَّرَاضِي ، وَالْقُدْرَةُ فِي وَجْهِ الْعَجْزِ ؛ وَبِهَذَا يَكُونُونَ شُرَكَاءَ مُتَعَاوِنِينَ ، وَتَعَوُّدُ صِفَاتِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَكَأَنَّهَا جِنْسٌ عَامِلٌ يُتَاصَرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَتَكُونُ الْحَيَاةُ مُفسَّرةً مَا دَامَتْ مَعَانِيهَا السَّامِيَّةُ تَأْمُرُ أَمْرَهَا وَتُلْهِمُ إِلْهَامَهَا ، وَمَا دَامَتْ مُثَمِّلَةً فِي الْوَاجِبِ الْقَائِدِ عَلَى الْكُلِّ .

وَالنَّاسُ أَخْرَارٌ مَتَى حَكَمْتَهُمْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَلَيْسَتْ حَقِيقَةُ الْخُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا الْخُضُوعُ لِلْوَاجِبِ الَّذِي يَحْكُمُ ، وَبِذَلِكَ لَا يَغْيِرُهُ يَتَّصِلُ مَا بَيْنَ الْمَلِكِ وَالشُّوْقَةِ ، وَمَا بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ ، اتَّصَالَ الرَّحْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَاتَّصَالَ الْقِسْوَةِ فِي التَّأْدِيبِ وَخَدَةِ . فَبَرَكَ الْوَحْيُ إِنَّمَا هِيَ جَعَلُ الْقُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلًا شَرْعِيًّا لَا غَيْرَ .

أَمَّا تَعْظِيمُ الْأُمَّةِ لِلدِّينَارِ وَالذَّرْهِمِ ، فَهُوَ اسْتِعْبَادُ الْمَعَانِي الْخَوَانِيَّةِ فِي النَّاسِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ ، وَتَقْطَعُ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَابُهِ فِي لُحْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَجَعَلُ الْكِبَرِ فِيهِمْ كِبِيرًا وَإِنْ صَغُرَتْ مَعَانِيهِ ، وَالصَّغِيرِ فِيهِمْ صَغِيرًا وَإِنْ كَبُرَ فِي الْمَعَانِي ؛ وَبِهَذَا تَمُوجُ الْحَيَاةُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ النَّاسُ عَلَى رَأْيٍ صَحِيحٍ ؛ إِذْ يَكُونُ الصَّحِيحُ وَالْفَاسِدُ فِي مُلْكِ الْإِنْسَانِ لَا فِي عَمَلِ الْإِنْسَانِ ، فَيَكْثُرُ الْغَنِيُّ مَالًا وَيَكْثُرُ الْفَقِيرُ عَدَاوَةً ، كَانَ هَذَا قَتْلَ مَالٍ هَذَا ، وَكَانَ أَغْمَالًا قَتْلَ أَغْمَالًا ، وَتَرْجِعُ الصِّفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَعَادِيَةً ، وَتُبَاعُ الْفَضَائِلُ وَتُشْتَرَى ، وَيَزِيدُ مَنْ يَزِيدُ وَلَكِنْ فِي الْقِسْوَةِ ، وَيَنْقُصُ مَنْ يَنْقُصُ وَلَكِنْ فِي الْخُرِّيَّةِ ، وَتَكُونُ الْمَنْفَعَةُ الذَّائِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَأْمُرُ فِي الْجَمِيعِ وَتَنْهَى ، وَيَدْخُلُ الْكُذْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَالِ ، فَيَرَى كُلُّ إِنْسَانٍ كَأَنَّمَا دِرْهُمُهُ وَدِينَارُهُ أَكْبَرُ قِيَمَةٍ مِنْ دِينَارِ الْآخَرِ وَدِرْهُمِهِ ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَقْصَ فَعَشَّ ، وَإِذَا أَخَذَ زَادَ فَسَرَقَ ؛ وَتُصْبِحُ الْقُفُوسُ نَفُوسًا تِجَارِيَّةً تُسَاوَمُ قَبْلَ أَنْ تَتَبَعَتْ لِفَضِيلَةٍ ، وَتُمَاسِكُ إِذَا دُعِيَتْ لِإِدَاءٍ حَقٍّ ، وَيَتَعَامَلُ النَّاسُ فِي الشَّرَفِ عَلَى أَصُولٍ مِنَ الْمَعْدَةِ لَا مِنَ الزُّوْجِ ، فَلَا يُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ رَغِيْبَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ رَغِيْبٍ وَاحِدٍ .

كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْعَدَدِ ، بَلْ يُقَالُ : إِنَّ رَغِيْبَيْنِ أَشْرَفَ مِنْ رَغِيْبٍ . كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ التَّفَاقِ . أَمَّا التَّجَارَةُ - وَهِيَ التَّفْسِيرُ الظَّاهِرُ لِمَعَانِي الْقُفُوسِ - فَتُصْبِحُ بَيْنَ الْغَشِّ وَالضَّرَرِ وَالْمُمَاكَرَةِ ، وَتَكُونُ يَقْطَعُ التَّاجِرِ فِي غَفْلَةِ الشَّارِي ، وَتَفْسُدُ الْإِرَادَةُ فَلَا تُحْدِثُ إِلَّا أَثَارَهَا الزَّائِعَةَ . وَمَا التَّاجِرُ فِي الْأُمَّةِ الْقَوِيَّةِ إِلَّا أَسْنَادٌ لِتَعْلِيمِ الصِّدْقِ وَالْخُلُقِ فِي الْمَوْضِعِ الْمُتَقَلَّبِ ، فَكَلِمَتُهُ كَالرَّفَمِ مِنَ الْعَدَدِ لَا يَخْتَمِلُ أَزِيدَ وَلَا أَنْقَصَ مِمَّا فِيهِ ، وَيُمْتَحَنُ بِالذُّنْيَا وَالذَّرْهِمِ أَشَدَّ مِمَّا يُمْتَحَنُ الْعَابِدُ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ . وَقَدْ شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَضِيَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَتَيْنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ . فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَتَى عَلَيْهِ خَيْرًا ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَنْتَ جَارُهُ الْأَذْنَى الَّذِي يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَكُنْتَ رَفِيقَهُ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَعَامَلْتَهُ بِالذِّينَارِ وَالذَّرْهِمِ الَّذِي يَسْتَنِينَ بِهِ وَرَعَ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : لَا .

قَالَ عُمَرُ : أَطْلُكَ رَأَيْتَهُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ يُهْمُهُمُ بِالْقُرْآنِ ، يَخْفِضُ رَأْسَهُ طَوْرًا وَيَرْفَعُهُ أُخْرَى ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فَأَذْهَبَ فَلَيْسَتْ تَعْرِفُهُ !

وَأِنَّمَا التَّاجِرُ صُورَةٌ مِنْ ثِقَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ وَاعْتِقَادُ الصِّدْقِ ، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَظْهَرٌ تَوْضَعُ الْيَدُ عَلَيْهِ كَمَا تَجُسُّ الْيَدُ مَرَضَ الْمَرِيضِ وَصِحَّتَهُ .

فَإِذَا عَظُمَتِ الْأُمَّةُ الدِّينَارُ وَالذَّرْهِمِ ، فَإِنَّمَا عَظُمَتِ التَّفَاقُ وَالطَّمَعُ وَالْكَذِبُ وَالْعَدَاوَةُ وَالْقِسْوَةُ وَالْإِسْتِعْبَادُ ؛ وَبِهَذَا تُقِيمُ الدُّنَايَا وَالذَّرَاهِمُ حُدُودًا فَاصِلَةً بَيْنَ أَهْلِهَا ، حَتَّى لَتَكُونُ الْمَسَافَةُ بَيْنَ غَنِيِّ وَفَقِيرٍ كَالْمَسَافَةِ بَيْنَ بَلَدَيْنِ قَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهُمَا . وَإِنَّمَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعِرَّةِ بِالْقَفْسِ لَا بِالْمَالِ ، وَفِي بَذْلِ الْحَيَاةِ لَا فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا ، وَفِي أَخْلَاقِ الزُّوْجِ لَا فِي أَخْلَاقِ الْيَدِ ، وَفِي وَضْعِ حُدُودِ الْفَضَائِلِ بَيْنَ النَّاسِ لَا فِي وَضْعِ حُدُودِ الدَّرَاهِمِ ، وَفِي إِزَالَةِ التَّقَايِصِ مِنَ الطَّبَاعِ لَا فِي إِقَامَتِهَا ، وَفِي تَعَاوُنِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ لَا فِي تَعَادُلِهَا ، وَفِي اعْتِبَارِ الْغِنَى مَا يَعْمَلُ بِالْمَالِ لَا مَا يُجْمَعُ مِنَ الْمَالِ ، وَفِي جَعْلِ أَوَّلِ الثَّرْوَةِ الْعَقْلُ وَالْإِرَادَةُ ، لَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ .

هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي غَلَبَ الْأَمَمَ ، لِأَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ غَلَبَ النَّفْسُ وَالطَّبِيعَةُ .

## دُعَابَةُ إِبْلِيسَ (\*) (١)

أَمَّا إِنِّي سَأَقْصُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ كَمَا اتَّفَقَتْ ، لَا أُرِيدُ بِخَيَالٍ ، وَلَا أَتَزِيدُ فِيهَا بِخَبَرٍ ، وَلَا أَوْلِدُ لَهَا مَعْنًى ؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ خُبْنِ الْحَيِّثِ : فَكَلِمَةُ حَذْفُهُ وَدَهَاؤُهُ ، وَرَفَّتْهَا غِلْظَتُهُ وَشَرُّهُ ، وَمَعَانِيهَا بَلَاؤُهُ وَمِحْنَتُهُ ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (أَبْنِ مِسْكِينٍ) ، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا ، جَعَلَ فِكْرِي يَتَقَطَّعُ فِي ذَلِكَ ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَنِّي بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُتَارَعَةٌ ، أَوْ كَأَنِّي فِي نَفْسِي شَيْئًا يَنْبَغِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزَمِ ؛ وَخِيلَ إِلَيَّ جَنَيْتُ أَنْ (إِبْلِيسَ) هَذَا مُنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ ... وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَنْصُ مَادَّتُهُ الْأَوَّلَى : مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ . وَنَصَّ مَادَّتِهِ الْأَخِيرَةَ : مَا اخْتَجَّتْ إِلَيْهِ فِتْنَتُهُ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى أَخْذِهِ ...

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ : أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِّيَّةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْإِنْمِ ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمِغَةِ الْفَلَاسِفَةِ ؛ وَإِنْ (٢) كَانَ فِي سُقُوطِ أَهْلِ الذُّبُلَةِ إِلَى الذُّبُلَةِ ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سُمُومِ أَهْلِ الْفَنِّ إِلَى الْفَنِّ ... قَالَ الْهَاجِسُ : وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِّيِّ ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ حَقِيقٌ أَنْ يُلَقَّبَ « صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ ... » .

وَلَكِنِّي لَمْ أَخْفَلْ بِهِذِهِ الْوَسْوَاسِ وَلَمْ أُعْجِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَاسْتَعْنْتُ اللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نِيَّتِي عَلَى الْكِتَابَةِ ، وَأَخَذْتُ أَقْلُبُ الْمَوْضُوعَ ، وَأَنْبَتُهُ فِكْرِي لَهُ ، وَأَسْتَشْرِفُ لِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ الْظُّرُّ ، وَأَنْطَلِعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطِرُ ، وَالْتَمِسُ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي ؛ فَلَمَّ يَقَعْ لِي شَيْءٌ الْبَتَّةَ ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَاءِ الْمَوْضُوعِ فَلَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى افْتِحَامِهِ ،

(\*) « الرسالة » العدد : ١٤٢ ، ٢٩ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات ٤٤٣ - ٤٤٦ .

(١) الدُّعَابَةُ : الْمُرَاحُ وَاللَّعِبُ ، وَكُلُّ مَا سَبَرْدُ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ فَهُوَ صَحِيحٌ لَمْ نَخْرِعْ مِنْهُ شَيْئًا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَلَيْتَ » بَدَلًا مِنْ : « وَإِنْ » .

وَكَأَنَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْعِلْمِ فَلَا يَبْلُغُ إِلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنَ التَّعَذُّرِ كَمَحَاوَلَةٍ تَصُوِّرُ حِمَاةَ الْحَيَاةِ كُلَّهَا فِي كَلِمَةٍ . { وَإِبْلِيسُ كَلِمَةٌ فِيهَا حِمَاةُ الْحَيَاةِ كُلَّهَا } ...

\* \* \*

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْفُصُولِ الَّتِي تَنْشُرُهَا (الرَّسَالَةُ) (١) ، أَنْ أَدْعَ الْفَصْلَ مِنْهَا تُقْلِبُهُ الْخَوَاطِرُ فِي ذَهْنِي أَيَّامَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْخَمِيسِ ، وَأَتْرُكُ أَمْرَهُ لِلْقُوَّةِ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَتَوَلَّدُ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَى وَمَا أَقْرَأُ ، وَتَنْتَالُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَيٌّ أُرِيدُ لَهُ الْوُجُودَ فَوُجِدَ .

ثُمَّ أَكْتُبُ نَهَارَ الْجُمُعَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ لَيْلُ السَّبْتِ وَلَيْلُ الْأَحَدِ كَالْمَدَدِ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيسِ إِذَا نَالَتَنِي فِتْرَةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَى سَفَرٍ أَوْ قَطَعَنِي عَنِ الْكِتَابَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَغْرُضُ .

وَفِي أُسْبُوعِ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - ، مَرَّتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ الْوَاوِ : ضَجَرَ لَا رُوحَ فِيهِ ، وَكَسَلَ لَا نَشَاطَ مَعَهُ ، وَأَضْطَرَّابٌ لَا مِسَاكَ لَهُ . وَأَطْلُتُ التَّفَكُّيرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَكَانَتْ تَعْتَرِينِي خَوَاطِرُ مُضْحِكَةٍ : فَيَغْرُضُ لِي مَرَّةً أَنْ أُصَوِّرَ إِبْلِيسَ أَمْرًا لِيَكُونَ إِبْلِيسَ الْجَمِيلَ ... وَتَارَةً آتَوْهُمْ أَنَّ إِبْلِيسَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ شَيْخًا كَبِغَضِ رِجَالِ الَّذِينَ لَا تَرَالُ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ، لِيَقَالَ : إِبْلِيسُ التَّقِيُّ الْمُصْلِي ... وَحِينَئِذٍ أَطْلُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا مُؤَلَّفًا شَهِيرًا لِيَقَالَ : إِبْلِيسُ الْمَفَكِّرُ الْمُصْلِحُ ... وَخَطَرَ لِي أَخِيرًا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا مُلْجِدًا شَيْوَعِيًّا فَاجِرًا ، لِيَكُونَ إِبْلِيسُ الثَّامَ لَا إِبْلِيسَ النَّاقِصَ ...

\* \* \*

وَلَمَّا ذَهَبَتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ بَاطِلًا ، خِيلَ إِلَيَّ أَنَّ إِبْلِيسَ - أَخْرَاهُ اللَّهُ - يَسْأَلُنِي عَنِ الْمَقَالَةِ : إِلَى أَيِّ شَيْءٍ انْقَلَبْتُ ... ؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ وَأَغْتَمَمْتُ بِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَطْمَأْنَنْتُ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَأَنَّ وَرَاءَهُ لَيْلَتَيْنِ . وَكَانَتْ قَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ الْخَمِيسِ ، فَقُلْتُ : فَلَاخْرُجْ لِأَتَفَرَّجَ مِمَّا بَيْنِي ، وَعَسَى أَنْ أَجْمَعَ نَفْسِي لِلتَّفَكُّيرِ إِذَا جَلَسْتُ فِي النَّدِيِّ ، وَلَعَلَّهُ يَقَعُ

(١) مَجَلَّةُ الرَّسَالَةِ ، وَكُلُّ مَقَالَةٍ هَذَا الْجُزْءِ وَالْجُزْءِ الْأَوَّلِ كُتِبَتْ لَهَا وَنُشِرَتْ فِيهَا ، إِلَّا فُصُولًا قَلِيلَةً { .

مَا أَسْتَوْجِبُهُ أَوْ يَنْفَتِحُ لِي بَابٌ فِي الْقِرَاءَةِ .

وَخَرَجْتُ ، فَلَمْ أَجَاوِزِ الدَّارَ حَتَّى ابْتَدَرَنِي مَنْ هَبَطَ عَلَيْهِ الْخَبَرُ مِنَ الْقَاهِرَةِ أَنَّ نَسِيبًا لَنَا مِنَ الْعُظَمَاءِ تُوُفِيَ أَخُوهُ الْيَوْمَ . فَقُلْتُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ؛ ضَاعَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . إِذْ لَا بُدَّ مِنَ السَّفَرِ لِتَشْيِيعِ الْجَنَازَةِ وَحُضُورِ الْمَأْتَمِ ، ثُمَّ قُلْتُ : لَعَلَّ فِي هَذَا السَّفَرِ اسْتِجْمَامًا وَنَشَاطًا فَاسْتَدْرِكُ الْأُسْبُوعَ كُلَّهُ فِي يَوْمَيْنِ ، وَإِنَّمَا الْأَسْتِخَارُ بِالْقُوَّةِ لَا بِالزَّمَنِ ، وَلَا يَدُ إِبْلِيسَ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ ، فَلَيْسَ إِلَّا أَطْرَاحُهُ وَقِلَّةُ الْمُبَالَاةِ بِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ خَطَوَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ .

وَأَصْبَحْتُ فِي الْقَاهِرَةِ ، وَمَشَيْتُ فِي الْجَنَازَةِ قَبْلَ الظُّهْرِ مَسِيرَةَ سَاعَةٍ كَامِلَةٍ ؛ وَكَانَتْ الشَّمْسُ سَاطِعَةً تَتَلَأَلَأُ ، وَأَنَا مُثْقَلٌ بِثِيَابِ الشِّتَاءِ ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمُ مِنْ أَيَّامِ الرِّيحِ الْمَجْنُونَةِ ؛ فَلَمَّا أَتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَاءِ ، هَبَّتِ الرِّيحُ هُبُوبًا لَيْثًا ، ثُمَّ رَفَّتْ فَكَانَتْ إِلَى الشَّدَةِ مَا هِيَ ، وَلَكِنَّهَا مَاضِيَةٌ تَسْفِي الرَّمْلَ فِي الْأَعْيُنِ ، فَيَأْخُذُ فِي أَجْفَانِي أَكَالًا وَتَهْيِيجٌ ، وَلَيْسَ مَعِيَ شَيْءٌ أَتَقِيهَا بِهِ ؛ غَيْرَ أَنِّي شَغِلْتُ فِكْرِي بِرُؤْيَا الْمَقَابِرِ ، وَجَعَلْتُهَا فِي نَفْسِي كَالْمَقَالَةِ الْمَكْتُوبَةِ سَطْرًا وَرَاءَ سَطْرٍ ؛ وَقُلْتُ : هَلُمْنَا الْحَقِيقَةَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا ، وَغَيْرِ الْمَقْهُومِ فِي الْحَيَاةِ يُفْهَمُ هُنَا .

ثُمَّ رَجَعْتُ مُتَذَلِّئًا بِالْجِسْمِ بِالْعَرَقِ وَعَلَيَّ نَضْحٌ مِنْهُ ، وَكَانَ الْقَمِينُ مِنَ الصُّوفِ ، وَيَصْدِرُنِي أَثَرٌ مِنَ الْكُتْلَةِ الشَّعْبِيَّةِ ؛ وَإِذَا تَنَذَى الصُّوفُ وَجَبَ نَزْعُهُ وَإِلَّا فَهِيَ الْعِلَّةُ مَا مِنْهَا بُدٌّ .

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى انْخَرَقَتِ الرِّيحُ وَجَعَلَتْ تَعْصِفُ وَبَرَدَ الْجَوُّ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ الزَّكَامُ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : هَذَا بَابٌ عَلَى حِدَةٍ ، وَالْمَقَالَةُ ذَاهِبَةٌ لَا مَحَالَةَ ، فَسَيَخْلَفُ الذَّهْنُ وَيَتَبَلَّدُ ؛ وَالشَّيْطَانُ كَرِيمٌ فِي الشَّرِّ يُعْطِي مَنْ غَيْرَ أَنْ يَسْأَلَ . . .

وَقُلْتُ ذَلِكَ عَلَيَّ ، فَكَانَ الْغَمُّ بِهِ عِلَّةً جَدِيدَةً ، بَيْنَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ أَرْجُو الْفُرْصَةَ فِي أَحَدِ الْيَوْمَيْنِ : السَّبَبِ وَالْأَحَدِ . وَقُلْتُ : إِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفِكَرَ فِي الْبَلَاءِ ، وَلَعَلَّ مِنَ السَّلَامَةِ الْثَقَّةُ بِالسَّلَامَةِ ؛ فَإِذَا نَبَّهْتَ الْعَزِيمَةَ رَجَوْتُ أَنْ يَتَغَلَّغَلَ أَثَرُهَا فِي الْبَدَنِ كُلِّهِ فَيَكُونَ عِلَاجًا فِي الدَّمِ يَحْدُثُ بِهِ النَّشَاطُ وَيُزْهِقُ مِنْهُ الطَّلَبُ وَتَجُمُّ عَلَيْهِ النَّفْسُ . وَفِي قُوَّةِ الْعَصَبِ كَهَرَبَاتِيَّةٌ لَهَا

عَمَلُهَا فِي الْجِسْمِ إِذَا أَحْسَنَ الْمَرْءُ بَعَثَهَا فِي نَفْسِهِ وَأَخْرَجَهَا وَتَصَرَّفَهَا عَلَى طَرِيقَةِ رِيَاضِيَّةٍ ؛ وَلَيْسَ الدَّوَاءُ حِينَ يَعْجِزُ الدَّوَاءُ ، وَهِيَ الْقُوَّةُ حِينَ تُخْذَلُ الْقُوَّةُ .

فَاعْتَرَمْتُ وَصَمَمْتُ ، وَأَخْلَعْتُ عَلَى الْإِرَادَةِ ، وَتَكَثَّرَتْ مِنْ أَسْبَابِ الثَّقَةِ ، وَتَرَصَّدْتُ لَهَا السَّوَانِحُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي تَسْنَحُ فِي النَّفْسِ ، وَقُلْتُ لِإِبْلِيسَ : أَجْهَدْ جُهْدَكَ ، فَمَا تَذْهَبُ مَذْهَبًا إِلَّا كَانَ لِي مَذْهَبٌ . وَلَكِنَّكَ اللَّعِينُ أَخْطَرُ فِي ذَهْنِي قَوْلَ الْقَائِلِ يَسْخَرُ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الْبُعْدَادِيُّ<sup>(١)</sup> [من الكامل] :

لَوْ قِيلَ : كَمْ خَمْسٌ وَخَمْسٌ ؟ لَأَعْتَدَى يَوْمًا وَلَيْلَتَهُ يُعَدُّ وَيَحْسُبُ ، وَيَقُولُ : مُغْضِلَةٌ عَجِيبٌ أَنْزَلَهَا وَلَيْسَ فِيمَنْتُ لَهَا ، لِأَمْرِي أَعْجَبُ خَمْسٌ وَخَمْسٌ سِتَّةٌ ، أَوْ سَبْعَةٌ قَوْلَانِ قَالَهُمَا الْخَلِيلُ وَتَغْلِبُ . . .

\* \* \*

ثُمَّ أَجْمَعْتُ الرُّجُوعَ مِنْ يَزْمِي إِلَى (طَنْطَا) ، لِأَتَقِي الْبَرْدَ بِعِلَاجِهِ إِنْ نَالَنِي أَثَرُهُ ، وَكَانَ عَلَيَّ وَقْتُ إِلَى أَنْ يَقُومَ الْفَطَارُ ، فَذَهَبْتُ فَقَضَيْتُ وَاجِبًا مِنْ زِيَارَةِ بَعْضِ الْأَقَارِبِ فِي ضَاحِيَةِ (الْجِيزَةِ) ، ثُمَّ رَكِبْتُ التَّرَامَ الَّذِي أَعْلَمُ أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى مَحْطَةِ سِكَّةِ الْحَدِيدِ .

وَجَلَسْتُ أَفَكِّرُ فِي إِبْلِيسَ وَمَقَالَتِهِ ، وَالتَّرَامُ يَنْبُعُ فِي طَرِيقِهِ نَحْوُ ثَلَاثِ السَّاعَةِ ، حَتَّى بَلَغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْعَرِجُ مِنْهُ إِلَى الْمَحْطَةِ ، وَهُوَ بِحِيَالِ (جَمْعِيَّةِ الْإِسْعَافِ) ، حَيْثُ تَنْشَعِبُ طُرُقٌ أُخْرَى ؛ وَكُنْتُ مُنْصَرِّفًا إِلَى التَّفَكُّيرِ مُسْتَغْرِفًا فِيهِ ، طَائِفَ النُّظَرَاتِ عَلَى الْعَجْوِ ، فَمَا رَاعَيْنِي إِلَّا اخْتِلَافُ مَنْظَرِ الطَّرِيقِ ؛ وَأَتَيْتُهُ ، فَإِذَا التَّرَامُ يَمُرُّ مَرُوقَ السَّهْمِ فِي تِلْكَ السَّبِيلِ الصَّاعِدَةِ إِلَى (الْجِيزَةِ) . . . مِنْ حَيْثُ جِئْتُ .

فَلَعَنْتُ الشَّيْطَانَ وَتَلَبَّثْتُ حَتَّى وَقَفَ هَذَا التَّرَامُ ، فَعَادَرْتُهُ وَرَجَعْتُ مُهْزُولًا إِلَى ذَلِكَ الْمُتَشَعِّبِ ، فَصَادَفْتُ تَرَامًا آخَرَ ، فَوُتِّبْتُ إِلَيْهِ كَأَنِّي أُحْمَلُ إِلَيْهِ حَمَلًا ، وَدَفَعْتُ الْأُجْرَةَ ، وَأَنْطَلَقْتُ ، فَإِذَا هُوَ مُنْصَبٌّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ عَيْنُهَا الذَّاهِبَةِ إِلَى الْجِيزَةِ مِنْ حَيْثُ جِئْتُ . . .

(١) قِيلَ هَذَا الشَّعْرُ فِي وَصْفِ مَرْوَانَ الْكَاتِبِ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ كَاتِبًا عَلَى الْخِزَاجِ ، فَسَجَرَ مِنْهُ الشَّاعِرُ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْبَلِيغِ .

وَلَا أَسْتَطِيعُ الْإِنْجِدَارَ مِنْهُ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ ، فَتَسَخَّطْتُ وَلَعَنْتُ الشَّيْطَانَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَرَأَيْتُ أَنَّ عَيْبَتَهُ قَدْ تَرَادَفَ ؛ فَلَمَّا سَكَنَ التَّرَامُ رَجَعْتُ مُهْزُولًا إِلَى ذَلِكَ الْمُنْشَعِبِ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْوَقْتِ غَيْرُ قَلِيلٍ .

وَأَنْظُرُ ثُمَّ ، فَإِذَا تِرَامٌ وَرَاءَ تِرَامٍ ، وَإِذَا قَدْ وَقَعَتْ حَادِثَةٌ لِأَخَذِي السَّيَّارَاتِ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ وَسَدَّتِ الطَّرِيقُ ... فَجَعَلْتُ أَغْلِي مِنَ الْغَيْظِ ، وَلَعَنْتُ هَذَا الدَّعَابَةَ الْخَبِيثَ . وَأَذْكُرُنِي اللَّعِينُ نَادِرَةَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي عَضَّهُ نَعْلَبُ ، فَأَتَى رَاقِبًا ، فَقَالَ لَهُ الرَّاقِي : مَا عَضَّكَ ؟ فَاسْتَحَى أَنْ يَقُولَ نَعْلَبُ ، وَقَالَ : كَلْبٌ . فَلَمَّا ابْتَدَأَ الرَّجُلُ بِرُفْيَةِ الْكَلْبِ ، قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : وَأَخْلَطَ بِهَا شَيْئًا مِنْ رُفْيَةِ النَّعَالِ ...

\* \* \*

ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَرْ بُدًّا مِنْ بُلُوغِ الْمَحْطَةِ عَلَى قَدَمَيَّ لِأَنِّي عَلَى عَرِيضَتِي فِي مُرَاعَمَةِ اللَّعِينِ ، فَاسْرَعْتُ أَطُوبِي الْأَرْضَ وَكَأَنَّمَا أَخُوْضُ فِي أَحْشَائِهِ ، وَكَأَنَّ بِصَدْرِي التَّهَابَ فَهَاجَ بِي ، غَيْرَ أَنِّي تَجَلَّدْتُ وَأَتَسَعْتُ لِأَحْتِمَالِهِ وَبَلَغْتُ حَيْثُ أَرَدْتُ .

ثُمَّ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ فِي الْقِطَارِ عَرَبَةً خَاصَةً أَعْرِفُهَا ، كَانَتْ مِنْ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى فَجَعَلُونَهَا فِي الثَّانِيَةِ يُرْفَهُونَ بِهَا بَعْضَ التَّرَفِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسَافِرِينَ ؛ وَأَصْبَحْتُ فِيهَا مَكَانًا خَالِيًا كَأَنَّمَا كَانَ مُهَيَّأً لِي بِخَاصَةٍ ... فَانْحَطَطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِ رَجُلٍ أَوْرُبِّيٍّ أَحْسَبُهُ أَلْمَانِيًّا لِتَفَاوُتِ خَلْقِهِ وَعُنْجُوقِهِ ؛ وَجَلَسْتُ أَنْفُسُ عَنْ صَدْرِي ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَسْحَرُ مِنْ إِبْلِيسَ وَبِكَائِبِهِ ، وَجَعَلْتُ أَتَعَجَّبُ مِمَّا اتَّفَقَ مِنْ هَذَا التَّنْذِيرِ .

وَتَحَرَّكَ الْقِطَارُ وَانْبَعَثَ ، وَكَانَ الْأَوْرُبِّيُّ إِلَى جَانِبِي مِمَّا يَلِي الْكَاثِفَةَ وَقَدْ تَرَكَهَا مَفْتُوحَةً ، فَاحْسَسْتُ الْهَوَاءَ يَنْصَبُ مِنْهَا كَالْمَاءِ الْبَارِدِ وَأَنَا مُتَنَّدٌ بِالْعَرَقِ ؛ وَتَرَقَّبْتُ أَنْ يُغْلِقَهَا الرَّجُلُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَصَابَرْتُهُ قَلِيلًا فَإِذَا هُوَ سَاكِنٌ مُطْمَئِنٌّ بِرُوحِ الْهَوَاءِ وَكَأَنَّمَا يَشْرِبُهُ ، وَتَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا شَيْخٌ فِي حُدُودِ السُّتَيْنِ أَوْ فَوْقَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْ قُوَّةِ مَصَارِعٍ فِي أَكْتَازِ عَصَلِهِ وَاجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وَوَنَاقَةِ تَرْكِيهِ ، فَأَيَّقَنْتُ أَنَّ الْهَوَاءَ مِنْ حَاجَتِهِ ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَتْبَهُهُ أَوْ أَقُومَ أَنَا فَأَغْلِقَ الْكَاثِفَةَ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ فَعَلْتُ ، غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ - أَخْرَاهُ اللَّهُ - وَسَّوَسَ لِي : إِنَّ هَذَا رَجُلٌ أَجَنِّي غَرِيبِي ، وَأَنْتَ مُصْرِيٌّ شَرِيفِي ، فَلَا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تُعْلِمَهُ

وَتُعْلِمَ الْحَاضِرِينَ أَمَّا كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ الْأَضْعَفُ عَلَى حِينٍ أَنَّهُ هُوَ الْأَسْرُ ، وَكَيْفَ لَا تَقُومُ لِمَا يَقُومُ لَهُ وَقَدْ كُنْتَ تُبَاكِرُ الْمَاءَ الْبَارِدَ فِي صَمِيمِ الشِّتَاءِ ، وَكُنْتَ لَا تَلْتَسِي فِي أَشَدِّ أَيَّامِ الْبَرْدِ غَيْرَ ثِيَابِ الصَّيْفِ ، وَكُنْتَ تَحْمِلُ كَذَا وَكَذَا ثِقْلًا لِلرِّيَاضَةِ ، وَتُعَانِي كَذَا وَكَذَا مِنْ ضُرُوبِ الْقُوَّةِ ، وَكُنْتَ تَلُوْنِي بِيَدِكَ عُودَ الْحَدِيدِ ، وَكُنْتَ وَكُنْتَ ...

فَتَذَمَّمْتُ وَاللَّهِ مِمَّا خَطَرَ لِي ؛ وَأَيْفُتُ أَنْ أُتْبَهُ الرَّجُلُ ، وَرَأَيْتُ عَمَلِي هَذَا ضَعْفًا وَقُسُوْلَةً ، وَلَمْ أَغْبَأْ بِالْهَوَاءِ وَلَا بِالْعَرَقِ وَلَا بِالثَّرْلَةِ الشُّعْبِيَّةِ وَلَا بِالزُّكَامِ ، وَتَرَكْتُ الْأَوْرُبِّيَّ وَشَأْنَهُ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى كِتَابِ كَانَ فِي يَدِي ، وَتَنَاسَيْتُ أَنَّ هَذِهِ الْكَاثِفَةَ جِهَةٌ مِنْ تَنْذِيرِ إِبْلِيسَ ؛ وَكَانَ الْقِطَارُ مُزْدَحِمًا بِالرَّاجِعِينَ مِنَ الْمَعْرُضِ الزَّرَاعِيِّ الصَّنَاعِيِّ ، وَيَغْصُ النَّاسُ وَقُوفٌ فَلَا مَطْمَعٍ فِي مَكَانٍ آخَرَ ...

وَلَبِثْتُ سَاعَةً وَنِصْفَ سَاعَةٍ فِي تِيَارٍ مِنْ هَوَاءٍ (فَبَرَايزُ/ شُبَاطُ) يَنْصَبُ أَنْصَابًا ، وَيَعْصِفُ عَصْفًا ، وَكَأَنِّي أَسْبَحُ مِنْهُ فِي نَهْرٍ تَحْتَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْمَاطِرِ ، وَالنَّاسُ مُعْجَبُونَ بِي وَبِالْأَوْرُبِّيِّ ، وَهَذَا الْأَوْرُبِّيُّ مُعْجَبٌ بِي أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ رَأَى مَكَانِي وَعَرَفَ مَوْضِعِي ؛ وَكَانَ إِلَى يَمِينِي مَجْلِسٌ بَقِيَ خَالِيًا وَلَمْ يُقَدِّمَ أَحَدٌ عَلَيَّ أَنْ يَجْلِسَ فِيهِ خَوْفًا مِنَ الْهَوَاءِ وَمِنْ الرَّجُلِ الْأَوْرُبِّيِّ ...

ثُمَّ تَرَاءَيْتُ أَنْوَارَ مَحْطَةِ (طَنْطَا) ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ غَيْرُ دَقِيقَتَيْنِ ؛ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُخْلَفُ بِغَيْرِ اسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَقَدْ كَانَ إِبْلِيسُ رَقِيعًا جَلْفًا بَارِدًا ثَقِيلَ الْمَزَاحِ ؛ إِذْ لَمْ أَكُذْ أَنْهِيَاً لِلْفَيَّامِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الرَّجُلَ الْأَوْرُبِّيَّ قَدْ مَدَّ يَدَهُ فَأَغْلَقَ الْكَاثِفَةَ ...

\* \* \*

وَرَجَعْتُ إِلَى دَارِي وَأَنَا أَقُولُ : ثُمَّ مَاذَا يَا إِبْلِيسُ ! ثُمَّ مَاذَا أَفْعَلُ الْدُّعْبُ<sup>(١)</sup> ؟ وَحَاوَلْتُ بِجُهْدِي أَنْ أَكْتُبَ أَوْ أَقْرَأَ فَلَمْ أَتَحَرَّكَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ السَّاعَةُ الْعَاشِرَةَ لَيْلًا ، فَصَلَّيْتُ وَأَوَيْتُ إِلَى مَضْجِعِي .

ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَإِذَا كِتَابٌ مِنَ الْأُسْتَاذِ صَاحِبِ (الرِّسَالَةِ) : أَنَّهُ سَيَطْبَعُ

(١) الدُّعْبُ وَالْمُدَاعِبُ وَالِدَّعَابَةُ (بِشِدِيدِ الْعَيْنِ) : كُلُّهَا بِمَعْنَى .



عَدَدَيْنِ مَعًا فَيَرِيدُ لَهُمَا مَقَالَتَيْنِ ، إِذْ تُغْلِقُ الْمَطْبَعَةُ فِي أَيَّامِ عِيدِ الْأَضْحَى . وَكَانَ أَمْلِي فِي الْمَقَالَةِ الْوَاحِدَةِ مَخْذُولًا مِمَّا فَاسَيْتُ ، فَكَيْفَ لِي بِأُثْنَيْنِ ؟

وَأَخْتَلَطَ فِي نَفْسِي هَمٌّ بِهِمْ ، وَمَا يُفْسِدُ عَلَيَّ أَمْرِي شَيْءٌ مِثْلُ الضَّيْقِ ، فَإِذَا تَضَايَعْتُ كُنْتُ غَيْرَ مَنْ كُنْتُ ، وَلِكَيْنِي تَبَقُّطْتُ وَتَنَبَّهْتُ وَأَعْلُتُ الْعَافِيَةَ مِمَّا أَجَدُهُ مِنْ نِفْلَةِ الْبَرْدِ وَضَعْفَتِهِ ، وَأَخَذْتُ طَمَعًا فِي الشَّطِاطِ إِذَا جَلَسْتُ لِلْكِتَابَةِ فِي اللَّيْلِ ، فَإِنِّي بِاللَّهَارِ أَعْمَلُ لِلْحُكُومَةِ .

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ لَمْ أَجِدْ أَمْرِي عَلَى مَا أَحْبَبْتُ ، وَجَلَسْتُ مُتَفَتِّرًا مُغْتَلًا ، وَتَقَلَّ رَأْسِي مِنْ ضَرَبَةِ الثَّاقِفَةِ ، وَتَسَلَّطَ عَلَيَّ ظَنُّ الْمَرَضِ وَالْعَجْزِ عَنِ الْكِتَابَةِ ، وَانْتَقَضَ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَرَأَيْتُنِي أَشُقُّ عَلَى نَفْسِي بِلَا طَائِلٍ ، فَكَانَ مِنْ صَوَابِ التَّذْيِيرِ عِنْدِي أَنْ أَسْتَجِمَّ بِالنَّوْمِ ثُمَّ أَنْهَضَ فِي السَّحَرِ لِلْكِتَابَةِ ؛ فَأَوْصَيْتُ مَنْ يُوقِظُنِي ، وَحَرَزْنَا السَّاعَةَ الْمُتَبَهِّةَ عَلَى تَمَامِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .

وَأَخْسَسْتُ أَنِّي جَائِعٌ ، وَأَنْ مَعِدَتِي مَشْحُودَةٌ ، وَنَسِيتُ كُلَّ مَا أَعْرِفُ مِنَ الطَّبِّ ؛ وَجَاوُزْنِي بِشَوَاءٍ وَحَلَوَى وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَحَطَطْتُ فِيهِ وَلَفَفْتُ الْآخِرَ بِالْأَوَّلِ ، ثُمَّ قُمْتُ أَرِيدُ النَّوْمَ ، فَإِذَا الطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِلَةِ الْفِطَارِ ، وَكَانَ الَّذِي فِي الْفِكْرِ مِنَ الْمَقَالَةِ أَثْقَلَ مِنْ الَّذِي فِي الْمَعِدَةِ مِنَ الطَّعَامِ ، وَسَاءَ الْهَضْمُ فِي الدَّمَاعِ وَالْبَطْنِ جَمِيعًا !

وَجَعَلْتُ أَتَنَاوَمُ وَأَرْخِي أَعْضَائِي وَأَتَوَهَّمُ الْكَرَى وَأَسْتَذِينِي بِكُلِّ مَا أَعْرِفُ مِنْ وَسِيلَةٍ ، ثُمَّ لَا أَزْدَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَرْقَا ، وَتَمَرَّدَ الْفِكْرُ ، وَأَخْسَسْتُ رَأْسِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ ، وَصِرْتُ أَتَمَلَّلُ وَلَا أَتَقَارُّ ، وَتَوَهَّمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ لِي عَقْلَانِ مَا اسْتَطَعْتُ كِتَابَةَ الْمَقَالَةِ عَنْ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ ؛ وَأَذْكُرُنِي الْخَبِيثُ نَادِرَةً مُضْحِكَةً : أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْكَبُ حِمَارًا ضَعِيفًا ، وَكَانَ يَبْعَثُهُ فَلَا يَنْبَغِثُ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَرْفُقْ بِهِ . فَقَالَ : إِذَا لَمْ يَقْدِرْ يَمْشِي فَلِمَ صَارَ حِمَارًا ... ؟

\* \* \*

وَقَدَفْتُ بِنَفْسِي مِنَ الْفَرَاشِ وَنَظَرْتُ فِي السَّاعَةِ ، فَإِذَا هِيَ مُوشِكَةٌ أَنْ تَبْلُغَ الثَّانِيَةَ وَلَمْ

أَحْسَنَ الْوَقَادِ بَعْدُ ، فَاسْرَعْتُ إِلَى الْمُنْبَهَةِ وَحَرَرْتُهَا عَلَى تَمَامِ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرْهِقُنِي طُغْيَانًا وَكَيْدًا ، فَطَفِئْتُ أَلَعْنَهُ ، وَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ رَأَى اللَّعْنَ مَذْحًا فَهُوَ يَسْتَرِيدُنِي ...

ثُمَّ رَجَعْتُ أَحَاوِلُ النَّوْمَ ، فَمَا كَانَ هَذَا اللَّيْلُ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا أَوَّلُهُ آخِرُهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ الْفَجْرُ .

وَجَاءَ يَوْمُ الْأَحَدِ وَهُوَ يَوْمُ عُطْلَةِ الْأُورُبِّيَّينَ ، فَمَا أَشَدَّ عَجَبِي إِذْ تَرَكْنِي فِيهِ إِبْلِيسُ كَأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ لَهُ وَقْتًا فِي هَذَا الْيَوْمِ ...

وَالآنَ يُرِيدُنِي الْخَبِيثُ أَنْ أَخْتِمَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ بِ ... بِ ... وَلَكِنْ لَا . لَا .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## الشَّيْطَانُ (\*) ...

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ الدَّقَاقِ : كَانَ شَيْخِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْأَزْهَرِيُّ الْعَجَاجِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا صَاحِبَ آيَاتٍ وَخَوَارِقٍ مِمَّا فَوْقَ الْعَقْلِ ، كَأَنَّمَا هُوَ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْجَارِيَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ ، قَدْ بَلَغَ بِنَفْسِهِ رُتْبَةَ التَّجَمُّعِ فِي أَفْقِهِ الْبَعِيدِ ؛ فَفِيهِ أَهْوَاءُ الْإِنْسَانِ وَشَهَوَاتُهُ وَطِبَاعُهُ ، إِلَّا أَنَّهَا كُنُوزُ التَّجَمُّعِ فِي تَأْلُفِهِ وَلَا لَآئِهِ مِنْ إِشْرَاقِ رُوحِهِ وَصَفَائِهَا ؛ وَقَدْ أَرْتَفَعَ بِأَدَمِيَّتِهِ فَوْقَ نَفْسِهَا ؛ فَاصْبَحَ فِي النَّاسِ وَمَعَهُ سَمَاوَةٌ ، يَجْعَلُهَا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا .

وَالرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغَ كَانَ حَيًّا كَالْمَيِّتِ سَاعَةً أَخْضَارُهُ : يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ نَظْرَةً مَنْ يَتْرُكُ لَا مَنْ يَأْخُذُ ، وَمَنْ يَغْتَبِرُ لَا مَنْ يَغْتَرُ ، وَمَنْ يَلْفِظُ لَا مَنْ يَتَذَوَّقُ ، وَمَنْ يُدْرِكُ السِّرَّ لَا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ كَأَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا ، فَهِيَ أَلْفَاظٌ فِيهَا مَعَانِي أَهْلِهَا لَا مَعَانِيهِ ، وَإِنَّمَا تَلْبَسُ كَلِمَاتِنَا مَعَانِيَهَا مِنْ أَنْفُسِنَا . وَفِي الثَّقُوسِ مِثْلُ الْهَشِيمِ : إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ الْمَعَانِي الْمُشْتَعَلَةُ اسْتَطَارَ حَرِيقًا وَتَضَرَّمَ ، وَفِيهَا عَلَى الْمُجَاهِدَةِ مِثْلُ الْمَاءِ ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ تِلْكَ الْمَعَانِي انْطَفَأَتْ بِهِ وَخَمِدَتْ .

وَقَدْ سَأَلْتُ الشَّيْخَ مَرَّةً : كَيْفَ تَخْذُلُ الْكَرَامَاتِ وَالْخَوَارِقَ لِلْإِنْسَانِ ؟ فَقَالَ : يَا وَلَدِي ! إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْمَخْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جَنْسِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا ، فَإِذَا أَبْلَى فِي الْمُجَاهَدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ الثُّورُ ، تَصَرَّفَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِحِسْمِهِ شَيْئًا ، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ ، وَأَتَسَعَّتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ بِمَقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ مُعَدًّا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ ، مُعَانًا عَلَى ذَلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ الْأَعْتِدَالِ - فَقَدْ شَاعَ فِي الْكَوْنِ ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهْدِمُ فِي الْعَالَمِ وَتَبْنِي ، وَتُفَرِّقُ وَتَجْمَعُ ، وَتَنْقُلُ الصُّورَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ

(\*) « الرسالة » العدد : ٨٨ ، ٦ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ١١ مارس / آذار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٣٦٣ - ٣٦٧ .

جَوْهَرٌ وَاحِدٌ هُوَ الثُّورُ ، حَتَّى الْجَبَلُ هُوَ ثُورٌ صَخْرِيٌّ ، وَحَتَّى الْبَخْرُ هُوَ ثُورٌ مَائِيٌّ ، وَحَتَّى الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ وَالتُّرَابُ ، كُلُّ ذَلِكَ ثُورٌ<sup>(١)</sup> صَرَفَتْهُ الْقُدْرَةُ الإِلَهِيَّةُ تَصَرُّفَهَا الْمُعْجَزُ ، فَكَانَ عَلَى مَا تَرَى : ظَاهِرٌ مُخَيَّلٌ يُلَايِمُ نَفْسَنَا وَعَجْزَنَا ، وَحَقِيقَةٌ قَارَةٌ عَلَى غَيْرِ مَا نَرَى . وَمِنْ ذَا يَعْقِلُ أَنَّ الصَّخْرَ ثُورٌ مُتَجَمِّدٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا عَقْلٌ عَيْنِيٌّ وَخَوَاسِيٌّ ؟ وَمَنْ ذَا يُطِينُ أَنَّ يَفْهَمَ بِخَوَاسِيهِ وَعَيْنِيهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ لَذِي الْأَفْنَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [٢٧ سورة النمل / الآية : ٨٨] ؟ فَالْجِبَالُ جَامِدَةٌ ثَابِتَةٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَمُرُّ بِأَرْضِهَا وَتَمُوجُ فِي نَفْسِهَا ؛ وَمَتَى تَأَذَّنَ اللَّهُ أَنْ يَنْكَشِفَ ثُورُ كَلَامِهِ لِلْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَسَتَكُونُ هَذِهِ آيَةٌ عَلَمًا جَدِيدًا فِي الْأَرْضِ ، يُثَبِّتُ أَنَّ السَّحَابَ وَالْجَبَلُ مَادَّةٌ وَاحِدَةٌ وَصُنْعٌ وَاحِدٌ .

وَيَا لَهَا سُخْرِيَّةً بِالْإِنْسَانِ وَجَهْلَهُ ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْحَقِيقَةُ غَيْرَ مَا تَرَى ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا هُوَ رَدٌّ عَلَى النَّظَرِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَيَكَادُ الْجَبَلُ الْعَظِيمُ يَكُونُ كَلِمَةً عَظِيمَةً تَقُولُ لِلْإِنْسَانِ : « كَذَبْتَ ! » .

فَالشَّأْنُ فِي الْخَوَارِقِ وَالْكَرَامَاتِ رَاجِعٌ إِلَى الْقُدْرَةِ أَنْ يُسَلِّطَ الْإِنْسَانُ الرُّوحَانِيَّ مَا فِيهِ مِنْ سِرِّ الثُّورِ عَلَى مَا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ مِنْ هَذَا السِّرِّ ، وَتِلْكَ هِيَ طَاعَةٌ بَعْضِ الْكَوْنِ لِمَنْ يَنْصَرِفُ عَنِ الْمَادَّةِ وَيَتَّصِلُ بِخَالِقِهَا .

فَإِذَا بَقِيَ فِي الرَّجُلِ الرُّوحَانِيُّ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ جَنْسِهِ يَقُولُ : « أَنَا ... » لَمْ يَكُنْ فِي الرَّجُلِ مِنْ تِلْكَ الْقُدْرَةِ ذَرَّةٌ ؛ فَإِنْ هُوَ حَاوَلَ أَنْ يَخْرِقَ الْعَادَةَ ، أَبَى الْكَوْنُ أَنْ يَعْرِفَهُ إِلَّا كَمَا يَعْرِفُ حَجَرًا مُلْقًى يُحَاوِلُ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِالْجَبَلِ الَّذِي هُوَ مِنْهُ فَيَنْقَلِبُ أَوْ يُزَحِّحَهُ أَوْ يَزْلِزْهُ .

وَلَا خَيْرَ عَلَى الْأَرْضِ مُطْلَقًا إِلَّا وَهُوَ أَخَذَ مِنْ حُقُوقِ هَذِهِ الدُّنْيَا « أَنَا ... » فِي إِنْسَانِهَا ، وَلَا شَرَّ عَلَى الْأَرْضِ مُطْلَقًا إِلَّا وَهُوَ إِضَافَةُ حُقُوقِ إِلَيْهَا ؛ فَحِينَ لَا يَتَّقَى لَهَا حَقٌّ فِي شَيْءٍ عِنْدَ نَفْسِهَا ، يَجِبُ لَهَا الْحَقُّ ( عِنْدِيذِ ) عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . وَهَذِهِ هِيَ الْكَرَامَةُ ؛ تُكْرِمُ

(١) كَلِمَةُ (الثُّور) هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُعَبِّرُ عَنْهَا الْيَوْمَ بِالْكَهْرَبَاءِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ هُوَ هَذِهِ الْكَهْرَبَاءُ مُتَجَمِّدَةٌ عَلَى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ .

الْخَلِيقَةُ مَنْ أَكْرَمَهُ الْخَالِقُ .

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ تَتَّصِلَ نَفْسُهُ بِاللَّهِ ، فَلَا يَكُنْ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ حَظِّ نَفْسِهِ ، وَلَا يُؤْمِنُ إِيْمَانًا هَؤُلَاءِ الْعَامَّةِ : يَكُونُ إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ فَكْرَةً تُذَكَّرُ وَتُنْسَى ، أَمَّا عَمَلُهُمْ فَهُوَ إِيْمَانُهُمْ الرَّاسِخُ بِالْجِسْمِ وَشَهَوَاتِهِ يُذَكَّرُ وَلَا يُنْسَى .

وَأَنْتَ تَرَى رِجَالَ الرُّوحِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ ، وَلَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَيْسَ فِيهِ ذَرَّةٌ مِنْ أَرْوَاحِهِمْ ، عَلَى خِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ ؛ فَهَؤُلَاءِ كُلُّ أَرْوَاحِهِمْ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ ؛ وَمِنْ نَمِّ لَا يَجْرِي الشَّيْطَانُ مِنَ الْأَوَّلِينَ إِلَّا فِي مَجَارٍ ضَيِّقَةٍ أَشَدَّ الضَّيِّقِ لَا يَكَادُ يَنْقُذُ مِنْهَا إِلَى فِكْرٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ حُلْمٍ مِنْ أَخْلَامِ الدُّنْيَا ، أَمَّا الْآخِرُونَ فَالشَّيْطَانُ فِيهِمْ هُوَ تِيَارٌ أَلَدِمَ ، يَعْْبُ عُبَابُهُ فِي الْأَسْفَلِ وَالْأَعْلَى .

\* \* \*

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَكُنَّا يَوْمَئِذٍ فِي دِمَشَقَ ، فَتَهَنَّنِي كَلَامُ الشَّيْخِ عَنِ الشَّيْطَانِ إِلَى مَا قَرَأْتُهُ عَنْ كَثِيرِينَ مِمَّنْ رَأَوْا الشَّيْطَانُ أَوْ حَاوَرُوهُ أَوْ صَارَعُوهُ ؛ فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ : إِنَّ مِنْ حَقِّكَ عَلَيَّ أَنْ أَسْأَلَكَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وَمَا فِي نَفْسِي أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا أَعْجَبُ مِنْ أَنْ أَرَى الشَّيْطَانُ وَأُكَلِّمَهُ وَأَسْمَعَهُ ؛ وَأَنْتَ قَادِرٌ أَنْ تُنْقِلَنِي إِلَيْهِ كَمَا نَقَلْتَنِي إِلَى مَا دَخَلْتَ بِي عَلَيْهِ مِنْ عَوَالِمِ الْغَيْبِ .

قَالَ الشَّيْخُ : وَمَاذَا يَرُدُّ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى الشَّيْطَانُ وَتُكَلِّمَهُ ؟

قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! لَا يُجِدُنِي عَلَيَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنْهُ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِنِّي أَخْشَى يَا وَلَدِي ، أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ تَرَاهُ وَتَسْمَعَهُ . . . !

قُلْتُ : فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ سِرِّهِ ، فَيَكُونُ عَلِمًا لَا سُخْرِيَّةَ .

قَالَ : لَوْ كَشَفَ لَكَ عَنْ سِرِّهِ لَمَا كَانَ شَيْطَانًا ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ بِسِرِّهِ لَا بِغَيْرِهِ .

قُلْتُ : فَأَرِيدُ أَنْ أَرَى الشَّيْطَانُ لَأَكُونَ قَدْ رَأَيْتُ الشَّيْطَانُ !

قَالَ الشَّيْخُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! لَوْ كُنْتُ يَا أَبَا الْحَسَنِ بِأَرْبَعِ أَرْجُلٍ لَهَرَبْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ بِلَثَلٍ مِنْهَا وَتَرَكْتُهُ يَجْرُكُ مِنْ وَاحِدَةٍ !

قُلْتُ : يَا سَيِّدِي ! فَلَوْ كُنْتُ حِمَارًا لَبَطَلَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ فِي أَرْجُلِي الْأَرْبَعِ كُلِّهَا ، إِذْ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيَّ إِنْغَوَاءِ حِمَارٍ !

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَالَ : وَلَا بُدَّ أَنْ تَرَى الشَّيْطَانُ وَتُكَلِّمَهُ ؟

قُلْتُ : لَا بُدَّ .

قَالَ : إِنَّهُ هُوَ يَقُولُهَا ، فَقُمْ !

\* \* \*

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَكَانَ الشَّيْخُ إِذَا مَشَى إِلَى أَمْرِ خَارِجٍ بَقِيَثَ مَعَهُ غَائِبًا عَنِ الْجِسْمِ ، كَأَنَّهُ يُبْطِلُ مِثِّي مَا أَنَا بِهِ أَنَا ، فَأُصْبِحُ ظِلًّا أَدْمِيًّا مُعَلَّقًا بِهِ . وَلَا تَقَعُ الْخَوَارِقُ إِلَّا لِمَنْ وَجَدَ الْقُوَّةَ الْمَكْمَلَةَ لِرُوحِهِ ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ تُسْتَمَدُّ مِنَ الشَّيْخِ الْوَاصِلِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِمَامٍ يَأْخُذُ عَنْ إِمَامٍ ، كَأَنَّمَا سِلْسِلَةٌ نَفْسِيَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ فِي الْأَرْضِ ، فَتَتَغَيَّرُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا بِالْوَاحِدَةِ ، إِذْ تَقَعُ فِي جَوْهَا فَتُزَوِّقُ وَتُثَمِّرُ ؛ كَالشَّجَرَةِ : جَوْ يَكْسُوهَا ، وَجَوْ يُذْبِلُهَا ، وَجَوْ يَسْلُبُهَا سَلْبًا ؛ وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ النَّفْسُ إِذَا كَانَ لَهَا جَوْ .

وَخَرَجْنَا مِنْ دِمَشَقَ وَأَنَا خَلَفَ الشَّيْخِ كَالْمَحْمُولِ ، فَرَأَيْنَا وَقَدْ أَشْرَفْنَا عَلَى بِنَاءِ عَظِيمٍ ، وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا يَتَلَقَّوْنَ الشَّيْخَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَتَبَرَّكُونَ بِمَقْدَمِهِ ؟ فَأَنْكَرْتُهُمْ نَفْسِي وَوَجَدْتُ مِنْهُمْ وَخْشَةً ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ الشَّيْخُ وَقَالَ : هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْجِنِّ ، وَمَا إِلَيْهِمْ قَصْدُنَا ، فَلَا تَشْتَغِلْ بِمَا تَرَى وَأَشْتَغِلْ بِي .

ثُمَّ تَنَهَّيَ إِلَيَّ الْبِنَاءَ الْعَظِيمَ ، فَتَسْتَقْبِلُنَا طَائِفَةٌ أُخْرَى ، وَيَدْخُلُونَ الشَّيْخَ وَأَنَا خَلْفُهُ ، وَيَمْرُؤُونَ بِنَا عَلَى دُنْيَا مَخْبُوءَةٍ تُعْجِزُ الرُّصَفَ ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ؛ فَيَقُولُونَ : هَذِهِ كُنُوزُ سُلَيْمَانَ وَذَخَائِرُهُ ، وَيَطُوفُونَ بِالشَّيْخِ يَغْرُضُونَهَا عَلَيْهِ كَنَزًا كَنَزًا ، فَرَأَيْنَا ثُمَّ نَعِينَا وَمُلْكًا كَبِيرًا ، ثُمَّ أَنْتَهَيْنَا آخِرًا إِلَى مَعَارَةِ حَسِينَةٍ كَأَنَّمَا عِزٌّ مِنْ عُرُوقِ جِسْمِ الْأَرْضِ ، يَتَفَجَّرُ مِنْهَا دَوِيُّ كَالرَّغْدِ الْقَاصِفِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي السَّمْعِ كَخَوَارِ الثُّورِ ، إِلَّا أَنَّهُ تَوَرَّدَ خَيْلٌ إِلَيَّ أَنَّ رَأْسَهُ فِي قَدْرِ جَبَلٍ عَظِيمٍ ، يَتَعَلَّقُ بِهِ غَبْغَبٌ<sup>(١)</sup> فِي قَدْرِ جَبَلٍ آخَرَ ، عَلَى جِسْمِ

(١) غَبْغَبُ الثُّورِ وَغَبْبُهُ : مَا تَشْتَلِي مِنْ لَحْمٍ دَقِيقٍ مِنْ أَسْفَلِ .

يَسُدُّ الْخَافِقِينَ ، فَخَوَّاهُ كَأَنَّهُ صُرَاخُ الْأَرْضِ ، وَإِذَا أَنَا بِأَفْجَحِ مَكَانٍ مُنْظَرًا ، وَأَنْتَبِهَ رِنِحًا ،  
كَأَنَّهُ سِجْنٌ يَتَاوَهُ مِنَ الْجَيْفِ .

فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟

قَالُوا : هَذَا سِجْنُ إِبْلِيسَ ، وَهُوَ هُنَا فِي هَذِهِ الْمَعَارَةِ مُنْذُ زَمَنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قُلْتُ : أَفَمَسْجُودٌ هُوَ ؟

قَالُوا : وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُوقَرٌ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ حَدِيدًا يَرِيضُ بِهِ فِي مَخْبَسِهِ ، فَلَا يَتَزَخَّرُ  
وَلَا يَتَحَلَّحُ .

قُلْتُ : وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ قَدْ مَلَأَ الدُّنْيَا فَسَادًا ، فَكَيْفَ بِهِ لَوْ كَانَ طَلِيقًا ؟

قَالُوا : فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ طَلِيقًا لَأَسْتَحْوَذَ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً ؛ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى شَهْوَةِ  
وَاحِدَةٍ لَا شَيْءَ غَيْرَهَا ، فَيَبْطُلُ مَعَ هَذِهِ الشَّهْوَةِ الْوَاحِدَةِ كُلُّ تَنْذِيرٍ بَيْنَهُمْ ، فَلَا تَقُومُ لَهُمْ  
سِيَاسَةٌ ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَازِعٌ ؛ فَيَزْجَعُونَ كَالْكِلَابِ أَصَابَهَا الْكَلْبُ وَهَاجَ بِهَا ، فَأَتَابَهَا فِي  
لَحْمِهَا ، لَا يَزَالُ يَعْضُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَيْسَ لِحَبِيبِهَا إِلَّا عَمَلٌ وَاحِدٌ يُسْلِمُهَا إِلَى الْهَلَاكِ ،  
وَيُضْبِحُ ظَهْرُ الْأَرْضِ أَعْرَى مِنْ سَرَاةِ أَدِيمِ .

وَأِنَّمَا يَصْلُحُ النَّاسُ بِاخْتِلَافِ شَهَوَاتِهِمْ وَتَنَافُرِهَا وَتَنَازُعِهَا ؛ فَبَعْضُهَا يَحْكُمُ بَعْضًا ،  
وَشَيْءٌ مِنْهَا يَزْعُمُ شَيْئًا ، وَمَنْ تَخَلَّصَ مِنْ نَزْوَةِ قَمَعَ بِهَا نَزْوَةَ أُخْرَى ؛ كَالْمُتَزَوِّجِ الْمُخْصَنِ :  
يَحْكُمُ بِالْجَلْدِ وَالرَّجْمِ عَلَى مَنْ لَيْسَتْ لَهُ أَمْرَاءُ فَرَنَى ؛ وَكَالْغَنِيِّ الْوَاجِدِ : يَحْكُمُ عَلَى اللَّصِّ  
الَّذِي لَمْ يَجِدْ فَسْرَقَ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

وَمَا يَنْشَأُ النَّاسُ فِي ثَلَاثَةِ أَعْمَارٍ ، فَيَسْبُونُ وَيَكْتَهِلُونَ وَيَهْرُمُونَ ، إِلَّا لِيَخْتَلِفَ شَهَوَاتُهُمْ  
وَيَخْتَلِفَ مَقَادِيرُ الرِّغْبَةِ فِيهَا ، فَتَتَحَقَّقَ مِنْ ثَمِّ تِلْكَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي التَّنْذِيرِ ، وَيَجِدَ  
الشَّرْعُ مَحَلَّهُ بَيْنَهُمْ ، كَمَا يَجِدُ الْعُضَيَّانُ بَيْنَهُمَا مَحَلَّهُ .

وَلَوْ أَنَّ أُمَّةً كُلُّهَا أَطْفَالٌ أَوْ كُهُولٌ أَوْ شُبُهَانٌ ، لَبَادَتْ فِي جِيلٍ وَاحِدٍ ؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ أَسْمَجَ  
مِنَ الْوَذِيلَةِ تَكُونُ وَحْدَهَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْفَضِيلَةُ تَكُونُ وَحْدَهَا ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يَظْهَرُ بِهِ  
شَيْءٌ غَيْرُهُ ، كَالضُّدِّ وَالضُّدِّ ؛ وَالْمَعْرَكَةِ إِذَا أَنْتَصَرَ كُلٌّ مِنْ فِيهَا كَانَتْ هَزْلًا وَكَانَتْ شَيْئًا غَيْرَ  
الْمَعْرَكَةِ .

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَقُلْتُ لَهُمْ : فَإِذَا كَانَ الشَّيْطَانُ سَجِينًا قَدْ رَبَّصَتْ بِهِ أُنْقَالُهُ ، حَتَّى  
لَهُوَ فِي سِجْنٍ مِنْ سِجْنٍ مُبَالِغَةً فِي كَفَرِهِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ - فَكَيْفَ يَفْتَرِ النَّاسَ فِي أَرْجَاءِ  
الْأَرْضِ وَيُؤَسِّسُونَ فِي قُلُوبِهِمْ ، حَتَّى لَهُوَ يَدَّ بَيْنَ كُلِّ يَدَيْنِ ، وَحَتَّى لَهُوَ الْعَيْنُ الثَّالِثَةُ لِعَيْنِي  
كُلِّ إِنْسَانٍ ؟

قَالُوا : إِنَّ فِي رُوحِهِ النَّارِيَّةِ قُوَّةَ تَفْصِيلٍ مِنْهَا وَتَنْشِيرٍ فِي الْأَرْضِ ، كَشْعَاعِ الشَّمْسِ مِنَ  
الشَّمْسِ : هَذِهِ كُرَّةُ نَارِيَّةٍ مَبْلُغَةٌ عَلَى الْأَجْسَامِ مُرَصَّدَةٌ لَهَا ، وَتِلْكَ كُرَّةُ نَارِيَّةٍ حَيَّةٌ مُعَلَّقَةٌ  
عَلَى الثُّمُوسِ مُرَصَّدَةٌ لَهَا ، وَبِهَيْلِهِ وَتِلْكَ عَمَارُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا .

قُلْتُ : لَعَلَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقُولُوا : خَرَابُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا . فَغَلِطْتُمْ ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ  
يَجِيءَ بِدَلِّ الْعَلَطِ ...

فَقَالَ أَحَدُهُمْ : يَا أَبَا الْحَسَنِ ! خَرَقَ الثُّوبُ الْمِسْمَارَ . جَارَ هُنَا لِأَمْنِ اللَّبَسِ أَنْ يَكُونَ  
الْمَفْعُولُ بِهِ - وَهُوَ الثُّوبُ - مَرْفُوعًا وَفَاعِلُهُ - وَهُوَ الْمِسْمَارُ - مَنْصُوبًا ، هَلْ جِئْتَ - وَنَحَاكَ -  
تَطْلُبُ النَّخْوَ أَوْ تَطْلُبُ الشَّيْطَانَ ... !

\* \* \*

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : فَقَطَعْنِي الْجِنِّي - وَاللَّهِ - وَأَخْجَلَنِي ، وَنَظَرْتُ خِلْسَةً إِلَى الشَّيْخِ أَرَاهُ  
كَيْفَ يَسْخَرُ مِنِّي ، فَإِذَا الشَّيْخُ قَدْ أَمْلَسَ فَلَا أَرَاهُ ، وَإِذَا أَنَا وَحْدِي بَيْنَ الْجِنِّ وَبِإِزَاءِ هَذَا  
السَّاحِرِ الَّذِي وَضِعَتْ عَيْنُهُ فِي جَبْهَتِهِ وَشَقَّ قَمُّهُ فِي قَفَاهُ ... ! فَسَرَّيَ عَنِّي وَزَالَ مَا أَجِدُهُ ،  
وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : الْآنَ أَبْلُغُ أَرِييَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى مَا أُرِيدُ ، فَلَا أَجِدُ مَنْ  
أَحْتَشِمُ وَلَا تَقْطَعُنِي هَيْبَةُ الشَّيْخِ ... !

وَوَقَعَ هَذَا الْخَاطِرُ فِي نَفْسِي ، فَاسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ وَلَعَنْتُ الشَّيْطَانَ وَقُلْتُ : هَذَا أَوَّلُ عَبِيهِ  
بِني وَجَعَلَهُ إِثْمًا مِنْ أَهْلِ الزَّيَّاءِ ، كَأَنِّي لِي شَأْنًا فِي حُضُورِ الشَّيْخِ وَشَأْنًا فِي غِيَابِهِ ، وَكَأَنِّي  
مُنَافِقٌ أُعْلِنُ غَيْرَ مَا أَسِرُّ ، وَقُلْتُ : إِنَّ اللَّهَ ! كَذَبْتَ يَا أَبَا الْحَسَنِ تَسْتَيْطِنُ !

ثُمَّ هَمَمْتُ أَنْ أَنْكِصَ عَلَى عَقْبِي ، فَقَدْ أَتَقَنْتُ أَنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا تَخَلَّى عَنِّي لِأَكُونَ هُنَا  
بِنَفْسِي لَا بِهِ ، وَمَا أَنَا هُنَا إِلَّا بِهِ لَا بِنَفْسِي ، فَيُؤْشِكُ إِذَا بَقِيتُ فِي مَوْضِعِي أَنْ أَهْلِكَ ! بَيِّنْ

أَنَّ الْمَعَارَةَ أَنْكَشَفَتْ لِي فِجَاءَةً ، فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَنْظُرَ ؛ وَنَظَرْتُ فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَقِفَ ، وَوَقَفْتُ أَرَى ، فَإِذَا دُخَانٌ قَدْ هَاجَ فَأَرْتَفَعُ يَتَوَرَّعُ ثَوْرَانَهُ حَتَّى تَمَلَأَ الْمَكَانُ بِهِ ، ثُمَّ رَقَّ وَلَطَفَ .

وَأَسْتَضْرَمْتُ مِنْهُ نَارًا عَظِيمَةً لَهَا وَهَجَانٌ شَدِيدٌ يَضْطَرِمُّ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيُسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةٌ قَوِيَّةٌ ، ثُمَّ خَمَدَتْ .

وَأَنْفَجَرَ فِي مَوْضِعِهَا كَالسَّدِّ الْمُنْبَتِقِ مِنْ مَاءٍ كَثِيفٍ أَيْضَ أَصْفَرَ أَحْمَرَ ، كَأَنَّهُ صَدِيدٌ يَتَفَيَّحُ فِي دَمٍ ، ثُمَّ غَاصَ .

وَتَبَعْتُ فِي مَكَانِهِ حَمَاءَةً مُتَنَبِّئَةً جَعَلَتْ تَرْبُو وَتَعْظُمُ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَبْلُغَنِي وَأَذْهَبَ فِيهَا ، فَسَمَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى فَعَارَتْ فِي الْأَرْضِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلَبٌ أَسْوَدُ مُحَمَّرُ الْحَمَالِيقِ ، هَائِلُ الْخِلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ ، قَدْ وَقَفَ عَلَى جِنْفَةٍ قَدْرَةٍ غَابَ فِيهَا خَطْمُهُ يُعْبُ بِمَا تَسِيلُ بِهِ .

فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْكَلَبُ ! أَنْتَ الشَّيْطَانُ ؟

وَأَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ مَسْحُ شَائِهِ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي بَهِيمَةٍ قَدْ أَمْتَرَجَا وَطَعَى مِنْهُمَا شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ ، أَنَا وَجْهُهُ ، فَأَفْجَحُ شَيْءٌ مَنْظَرًا ، تَخَسُّبُهُ قَدْ لَيْسَ صُورَةً أَعْمَالِهِ ..

وَنَظَقَ فَقَالَ : أَنَا الشَّيْطَانُ !

قُلْتُ : فَمَا تِلْكَ الْجِنْفَةُ ؟

قَالَ : تِلْكَ دُنْيَاكُمْ فِي شَهْوَاتِهَا ، وَأَنَا أَلْتَقِمُ قَلْبَ الْفَاسِقِ أَوْ الْآثِمِ مِنْكُمْ ، كَمَا أَلْتَقِمُ دُودَةً مِنْ هَذِهِ الْجِنْفَةِ .

قُلْتُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَعَلَى الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ ، فَكَيْفَ كُنْتَ دُخَانًا ، ثُمَّ انْقَلَبْتَ نَارًا ، ثُمَّ رَجَعْتَ قَيْنَا ، ثُمَّ صِزْتَ حَمَاءَةً ، ثُمَّ كُنْتَ كَلْبًا عَلَى جِنْفَةٍ ؟

قَالَ : لَا تَلْعَنِ الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ الْعِبَادُ الصَّالِحُونَ بِأَحَدِ الْمَعْنَيْنِ ، وَأَنْتَ وَأَمْثَالُكَ عِبَادُ صَالِحُونَ بِالْمَعْنَى الْآخِرِ ، أَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا حَيَاءٌ وَوَقَاحَةٌ ؟ فَأَوْلَيْكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هُمْ وَقَاحَتِي أَنَا عَلَى اللَّهِ ! أَنَا مَعَكُمْ فِي زُهْدِكُمْ حِرْمَانِ الْحِرْمَانِ ، وَفَقْرِ الْفَقْرِ ، وَلَقَدْ أَهْلَكْتُمُونِي بؤْسًا ؛ غَيْرَ أَنِّي مَعَهُمْ لَدَّةُ اللَّدَّةِ ، وَشَهْوَةُ الشَّهْوَةِ ، وَغِنَى الْغِنَى ، لَا تَبِمُ

لَدَّةً فِي الْأَرْضِ ، وَلَا تَخْلُو لِدَائِقِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَلَالًا ، إِلَّا إِذَا وَضَعْتُ أَنَا فِيهَا مَعْنَى مِنْ مَعَانِي أَوْ وَقَاحَةٍ مِنْ وَقَاحَتِي ! حَتَّى لِأَجْعَلَ الزَّوْجَةَ لِرُوحِهَا مِثْلَ الشَّعْرِ الْبَلْبَلِغِ إِذَا اسْتَعَارَ لَهَا مَعْنَى مِنِّي ، وَكُلُّ مَا فَسَدَتْ بِهِ الزَّمْرَةُ فَهُوَ مَجَازِيٍّ وَاسْتِعَارَتِي لَهَا أَجْعَلُهَا بِهِ بَلْبَلِغَةً ...

وَأَنْتُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ تَقْطَعُونَ حَيَاتَكُمْ كُلَّهَا تَجَاهِدُونَ إِيَّاهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً مِنْ حَيَاةِ عِبَادِي ، فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - لِمَنْ كَانَتْ سَاعَةٌ مِنْ حَيَاتِهِمْ هِيَ جَهَنَّمُكُمْ أَنْتُمْ ، فَكَيْفَ تَكُونُ جَهَنَّمُ هُنَا لِأَيِّ الْمَسَاكِينِ ؟

إِنَّكَ رَأَيْتَنِي دُخَانًا لِأَنِّي كَذَلِكَ أَتَيْتُ فِي الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي ، فَمَتَى تَحَرَّكْتُ فِيهِ حَرَكَةً الشَّرِّ كُنْتُ كَالْإِحْتِيَالِ لِإِضْرَامِ النَّارِ بِالتَّفْخِ عَلَيْهَا ؛ فَمَنْ ثُمَّ أَكُونُ دُخَانًا ، فَإِذَا غَفَلَ عَنِّي صَاحِبُ الْقَلْبِ تَصَرَّعْتُ فِي قَلْبِهِ نَارًا تَطْلُبُ مَا يُطْفِئُهَا ؛ ثُمَّ يُوَاقِعُ الْإِنَّمُ وَالْمَعْصِيَةُ { وَيَقْضِي } نَهْمَتَهُ فَأَبْرُدُ عَنْ قَلْبِهِ ، فَيَكُونُ فِي قَلْبِهِ مِثْلُ الْحَرْقِ الَّذِي بَرَدَ فَتَأْكُلُ مَوْضِعُهُ فَتَقْفَحُ ، ثُمَّ يَخْتَلِطُ قَيْنُ أَعْمَالِهِ بِمَادَّتِهِ التُّرَابِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ ، فَيَقْلِبُ هَذَا الْمُسْكِنُ حَمَاءَةً إِنْسَانِيَّةً لَا تَرَالُ تَرْبُو وَتَنْفُخُ كَمَا رَأَيْتَ .

قُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ! أَفَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا يَرُدُّكَ عَنِ الْقَلْبِ وَأَنْتَ دُخَانٌ بَعْدُ ؟

فَقَهَقَهُ اللَّعِينُ وَقَالَ : مَا أَشَدَّ غَفْلَتَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ ، إِذْ تَسْأَلُ الشَّيْطَانَ أَنْ يَخْتَرِعَ التَّوْبَةَ ! أَمَا لَوْ أَنَّ شَيْئًا يَخْتَرِعُ التَّوْبَةَ فِي الْأَرْضِ لَاخْتَرَعَهَا الْقَبْرِ الَّذِي يَذْفِنُ فِيهِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كُلَّ طَرْفَةِ عَيْنٍ مِنَ الزَّمَنِ ، فَتُتْرَلُونَ فِيهِ الْمَيِّتُ الْمُسْكِنُ قَدْ انْقَطَعَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَتَرَكُونَهُ لِأَثَامِهِ ، وَحِسَابِ آثَامِهِ ، وَالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ فِي آثَامِهِ ؛ ثُمَّ تَعُودُونَ أَنْتُمْ لِافْتِرَافِ هَذِهِ الْأَثَامِ بِعَيْنِهَا !

قُلْتُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَيُّهَا اللَّعِينُ ؛ وَلَكِنْ أَلَا يَبْدُدُ هَذَا الدُّخَانُ إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ أَوْ أَنْظَفَا مَا تَحْتَهُ !

قَالَ : أَوَّه ! لَقَدْ أَوْجَعْتَنِي كَأَنَّمَا ضَرَبْتَنِي بِجَبَلٍ <sup>(١)</sup> مِنْ نَارٍ ، إِنَّ نَبِيَّكُمْ عَرَفَهَا وَلَكِنَّكُمْ أَغْيَاءٌ ؛ تَأْخُذُونَ كَلَامَ نَبِيَّكُمْ كَأَنَّمَا هُوَ كَلَامٌ لَا عَمَلُ ، وَكَأَنَّهُ كَلَامُ إِنْسَانٍ فِي وَقْتِهِ لَا كَلَامُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِجَبَلٍ » بَدَلًا مِنْ : « بِجَبَلٍ » .

النُّبُوَّةَ لِلدَّهْرِ كُلِّهِ وَلِلْحَيَاةِ كُلِّهَا ؛ وَلِهَذَا عَلَبْتُ أَنَا الْأَنْبِيَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنِّي أَضَعُ الْمَعَانِي الَّتِي تَعْمَلُ ، لَا الْحِكْمَةَ الْمَمْرُوكَةَ لِمَنْ يَعْمَلُ بِهَا وَمَنْ لَا يَعْمَلُ .

أَتَذَرِي يَا أَبَا الْحَسَنِ ، لِمَادَا أَعْجَزَنِي أَسْلَافُكُمْ الْأَوَّلُونَ مِثْلَ : عُمَرَ وَأَبِي بَكْرٍ ؟ حَتَّى كَانَ إِسْلَامُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ مَصَائِبِي ، فَتَرَكُونِي زَمَنًا - وَأَنَا الشَّيْطَانُ - أَرْتَابُ فِيَّ أَنِّي أَنَا الشَّيْطَانُ ... ؟

قُلْتُ : لِمَادَا ؟

قَالَ : أَرَأَيْكَ الْآنَ لَمْ تَلْعَنَ ، فَلَسْتُ قَائِلَهَا إِلَّا إِذَا تَرَحَّمْتَ عَلَيَّ .

قُلْتُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ مِنْ لَعَنَاتِ اللَّهِ ! قُلْ لِمَادَا ؟

قَالَ : أَسْأَلُ وَيَأْمُرُ ؟ وَطُفْلِي وَيَقْتَرِحُ ؟ لَا بُدَّ أَنْ تَتَرَحَّمَ !

قُلْتُ : يَرَحُمُنَا اللَّهُ مِنْكَ ! قُلْ لِمَادَا ؟

قَالَ : وَهَلِيهِ لَعْنَتِي فِي لَفْظَةِ رَحْمَةٍ ؛ لَا ، إِلَّا أَنْ تَتَرَحَّمَ عَلَيَّ ، أَنَا إِبْلِيسُ الرَّجِيمُ !

قُلْتُ : فَيُعْنِي اللَّهُ عَنْ عِلْمِكَ ؛ لَقَدْ أَلْهَمْتَنِيهَا رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ هِيَ بِأَعْمَالِهَا وَصِفَاتِهَا تَفْسِيرًا لِلْأَلْفَاظِ عَلَى أَسْمَى الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ، فَكَانَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ لِنَلِّكَ الْأَرْوَاحَ كَالْأَمِّ لِأَبْنَائِهَا ؛ وَقَدْ رَأَوهُ لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِحَظِّ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَسْتَفِيدُ إِلَّا بِالْقَصْدِ فِي أَمْرِ النَّفْسِ ، وَجَعَلَ نَاحِيَةَ الْإِسْرَافِ فِيهَا إِسْرَافًا فِي الْعَمَلِ لِسَعَادَةِ النَّاسِ . وَكُلَّمَا أَرْتَدَّ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَحُطِّوْظَهَا أَرْتَدَّ إِلَيْكَ - أَهْهَا اللَّعِينُ - وَأَقْبَلَ عَلَى شِقَاءِ نَفْسِهِ ، وَكُلَّمَا عَمِلَ لِسَعَادَةِ غَيْرِهِ أَتْبَعَدَ عَنْكَ - أَهْهَا الرَّجِيمُ - وَأَقْبَلَ عَلَى سَعَادَةِ نَفْسِهِ ، وَتَرَكُ الْغَضَبَ وَحُطِّوْظَ النَّفْسِ هُوَ الصَّبِيرُ ؛ وَصَبَرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّادِقِينَ لَيْسَ صَبْرًا عَلَى شَيْءٍ بِعَيْنِهِ فِي الْحَيَاةِ ، بَلْ هُوَ الصَّبِيرُ عَلَى حَوَادِثِ الْعُمُرِ كُلِّهِ ، كَصَبْرِ الْمُسَافِرِ ؛ إِنْ كَانَ عَزِيمَةً مُدَّةَ الطَّرِيقِ كُلِّهَا ، وَإِلَّا كَانَ فَسَادًا فِي الْفَرَّةِ وَوَقَعَ بِهِ الْخِذْلَانُ .

فَهَذَا الصَّبِيرُ الْمُعْتَرِمُ الْمُصَمَّمُ ، الَّذِي يُوطَّنُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا إِلَى الْآخِرِ - هُوَ تَعَبُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُ هُوَ رُوحُ الْجَنَّةِ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا . وَالْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ رَجُلٌ مُقْفَلٌ عَلَيْهِ بِأَقْفَالِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي لَا يَفْتَحُهَا الشَّيْطَانُ وَلَا تَفْتَحُهَا مَصَائِبُ الدُّنْيَا ؛ وَلِذَلِكَ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِي شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ » [١] مسند الإمام أحمد ، ، رقم : ٨٧١٧ . كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَوْ لَمْ يَصْبِرِ الْمُسَافِرُ دَائِبًا مُعْتَرِمًا مُدَّةَ سَفَرِهِ كُلِّهَا لَمَا أَنْضَى بَعِيرَهُ ، وَلَوْ لَمْ يَصْبِرِ الْمُؤْمِنُ دَائِبًا مُعْتَرِمًا مُدَّةَ حَيَاتِهِ كُلِّهَا لَمَا أَنْضَى شَيْطَانَهُ .

فَصَاحَ الشَّيْطَانُ : أَوْهَ ، أَوْهَ ! وَلَكِنْ قُلْ لِي يَا أَبَا الْحَسَنِ : مَا صَبَرُ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ قَوِيٍّ الْإِيمَانِ ، قَدْ اسْتَطَاعَ بِقُوَّةِ إِيْمَانِهِ أَنْ يُفَيِّقَ مِنْ سُكْرِ الْغِنَى ، فَتَخَلَّصَ مِنْ نَزَوَاتِ الشَّيَاطِينِ الذَّاهِبَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُسْمُونَهَا الذَّنَائِيرُ ؛ وَقَدْ أَرَدْتُهُ عَلَى أَنْ يَكْدِبَ ، فَرَأَى الْإِيمَانَ أَنْ يَصْدُقَ ؛ وَجَهَدْتُ بِهِ أَنْ يَغْضَبَ ، فَرَأَى الْحِكْمَةَ أَنْ يَهْدَأَ ؛ وَحَاوَلْتُ مِنْهُ أَنْ يَطْمَعَ ، فَرَأَى الرَّاحَةَ أَنْ يَرْضَى ؛ وَسَوَّلْتُ لَهُ أَنْ يَخْسُدَ ، فَرَأَى الْفَضِيلَةَ الْإِيْلَانِي ؛ وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ بِمَا يَبْقَى أَنَّهُ الْإِيمَانُ وَالصَّبْرُ وَالْهُدُوءُ وَالرِّضَا وَالْفَنَاعَةُ ؛ وَأَحَاطَ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ بِالسَّعَادَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَاجْتَرَأَ بِهَا ؛ وَقَصَرَ نَظْرَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ؛ وَوَجَدَ الْجَمَالَ فِي نَفْسِهِ الطَّيِّبَةِ الصَّافِيَةِ ؛ وَأَجْرَى مَا يُؤْلِمُهُ وَمَا يَسُرُّهُ مَجْرَى وَاحِدًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى الْعُمُرِ كُلِّهِ كَأَنَّهُ يَوْمٌ وَاحِدٌ يَزُفُ مَغْرِبَ شَمْسِهِ ؛ وَأَخَذَ مِنْ إِرَادَتِهِ قُوَّةً أَنْشَتْهُ مَا لَمْ تُعْطِهِ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَخْفَلْ بِمَا أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا مَنَعَتْ ؛ وَعَاشَ عَلَى فَقْرِهِ بِكُلِّ ذَلِكَ كَمَا يَعِيشُ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ : هَذَا فِي قَصْرِ مِنْ لَوْلُؤَةٍ أَوْ يَافُوتَةٍ أَوْ زَبْرَجْدَةٍ ، وَذَلِكَ فِي قَصْرِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَوْ مِنَ الْإِيمَانِ أَوْ مِنَ الْعَقْلِ .

قَالَ الشَّيْطَانُ : فَلَمَّا أَعْجَزَنِي صِلَاحًا وَرَضَى وَصَبْرًا وَفَنَاعَةً وَإِيمَانًا وَآخِيسَابًا ، وَكَانَ رَجُلًا عَالِمًا فَفِيهَا - سَوَّلْتُ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَعِظَ النَّاسَ فَيَتَنَبَّهُوا بِهِ ، وَيُصَبِّرَهُمْ بِدِينِهِمْ ، وَيَتَكَلَّمَ فِي نَصِّ كَلَامِ اللَّهِ ؛ فَعَقَدَ الْمَجْلِسَ وَوَعِظَ ، وَأَنْصَرَفُوا وَبَقِيَ وَخْدَهُ .

فَجَاءَتْ أَمْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ فِي الدِّينِ مِنْ أَمْرِ طَبِيعَتِهِنَّ ؛ وَكَانَتْ أَمْرَأَةً جَزَلَةً غَضْبَةً { رَابِيَةً } ، يَهْتَزُّ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلُهَا ، وَتَمَشِّي فَصِيرَةً الْخَطَرِ مُثَاقِلَةً كَالْمُتَضَافَةِ مِنْ حَمْلِ أَسْرَارِ جَمَالِهَا وَأَسْرَارِ بَدَنِهَا الْجَمِيلِ ؛ فَبَعْضُ مَشْيِهَا يَقَطُّ وَبَعْضُهَا نَوْمٌ فَاتِرٌ تُخَالِطُهُ الْبِقَطَةُ ؛ وَلَا يَرَاهَا الرَّجُلُ الْفَخْلُ التَّامُ الْفُخُولَةَ إِلَّا رَأَى الْهُوَاءَ نَفْسَهُ قَدْ أَصْبَحَ مِنْ حَوْلِهَا أَتْنَى ، مِمَّا تَغْصِفُ بِهِ رِيحُهَا الْعَطْرَةَ عِطْرَ زَيْنَتِهَا وَجِسْمِهَا .

وَكَانَ الْوَاعِظُ قَدْ تَرَمَّلَ مِنْ أَشْهُرٍ ، وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ قَدْ تَأَيَّمَتْ مِنْ سَنَوَاتٍ ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا

غَضَّ طَرْفَهُ عَنْهَا ؛ وَلَكِنَّهَا سَأَلَتْهُ بِالْفَاطِمَا الْعَدْنِيَّةِ عَنْ أُمُورٍ هِيَ مِنْ أَسْرَارِ طَبِيعَتِهَا ، وَسَأَلَتْهُ عَنْ طَبِيعَتِهَا بِالْفَاطِمَا ؛ فَسَمِعَ مِنْهَا مِثْلَ صَوْتِ الْبَلُورِ ، يَتَكَسَّرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ .  
وَتَحَدَّثَتْ لَهُ وَكَانَهَا تَتَحَدَّثُ فِيهِ ، فَسَمِعَ بِأَذْنِهِ وَدَمِهِ ، ثُمَّ كَانَ غَضُّ عَيْنِهِ أَقْوَى لِرُؤْيَا قَلْبِهِ وَجَمْعِ خَوَاطِرِهِ .

وَرَأَى صَوْتَهَا يَشْتَهِي ؛ وَعَانَقَتْهُ رَائِحَتُهَا الْعِطْرِيَّةُ الثَّقَاذَةُ ؛ وَأَحَاطَتْهُ بِجَوْ كَجَوْ الْفِرَاسِ ؛ وَعَادَتْ أَنْفَاسُهَا كَأَنَّهَا وَسُوسَةٌ قُبُلٍ ؛ وَصَارَتْ زَفَرَاتُهَا كَالْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلِيَانًا ؛ وَطَلَعَتْ فِي خَيَالِهِ عُرْيَانَةً كَمَا تَطْلُعُ لِلْسُكْرَانِ مِنْ كَأْسِ الْخَمْرِ حُورِيَّةٌ عُرْيَانَةٌ ، لَهَا جِسْمٌ يَبْدُو مِنَ اللَّيْنِ وَالْبَضَاظَةِ وَالنَّعْمَةِ كَأَنَّهُ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ ؟

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَكُنْتُ كَالنَّائِمِ ، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِصَوْتِ كَصَكِّ الْحَجَرِ بِالْحَجَرِ ، لَا كَتَكْسُرِ الْبَلُورِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَسَمِعْتُ شَيْخِي يَقُولُ :

أَفَسَقَتْ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## تَارِيخُ يَتَكَلَّمُ (\*) ...

أَبْغِرْفُ الْقُرَاءِ أَنْ فِي الْأَخْلَامِ أَخْلَامًا هِيَ فَصَصٌ عَقْلِيَّةٌ كَامِلَةٌ الْأَجْزَاءِ مُحْكَمَةٌ الْوُضْعِ مُتَّسِقَةٌ التَّرَكِيبِ بَدِيعَةٌ التَّأْلِيفِ ، تَجْعَلُ الْمَرْءَ حِينَ يَتَأَمَّ كَأَنَّهُ أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى (شَرِكَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ) ، تَسِيحُ بِهِ فِي عَالَمٍ عَجِيبٍ كَأَنَّمَا سِحْرٌ فَتَحَوَّلَ إِلَى قِصَّةٍ ؟

إِنْ يَكُنْ فِي الْقُرَاءِ مَنْ لَا يَعْلَمُ هَذَا فَلْيَعْلَمْ مِنِّي ؛ فَإِنِّي كَثِيرًا مَا أَكْتُبُ وَأَقْرَأُ فِي الْقَوْمِ ، وَكَثِيرًا مَا يُلْقَى عَلَيَّ مِنْ بَارِعِ الْكَلَامِ ، وَكَثِيرًا مَا أَرَى مَا لَوْ دَوَّثْتُهُ لَعُدَّ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْمُعْجَزَاتِ .

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي أَرُونَهَا الْيَوْمَ ، كَانَتْ الْمُعْجِزَةُ فِيهَا أَنِّي مَشَيْتُ فِي التَّارِيخِ كَمَا أَمْشِي فِي طَرِيقِ مُنْتَدَةٍ ؛ فَتَقَدَّمْتُ إِلَى أَهْلِ سَنَةِ ٣٩٥ لِلْهَجْرَةِ وَمَا يَلِيهَا ، فَعِشْتُ مَعَهُمْ وَتَخَبَّرْتُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى زَمَنِي لِأَقْصَى مَا رَأَيْتُهُ عَلَى أَهْلِ سَنَةِ ١٣٥٣ ...

أَمْسَيْتُ الْبَارِحَةَ كَالْمَغْمُومِ فِي أَحْوَالٍ ثَقِيلَةٍ عَلَى النَّفْسِ مَا تَنْطَلِقُ النَّفْسُ لَهَا ، أَوَّلُهَا سُوءُ الْهَضْمِ ؛ وَمَتَى كَانَ الْبَدَنُ مِنْ هُنَا لَمْ تَكُنِ الْحَرَكَةُ فِي النَّفْسِ إِلَّا دَائِرَةً : تَذْهَبُ مَا تَذْهَبُ ثُمَّ لَا تَنْتَهِي إِلَّا فِي سُوءِ الْهَضْمِ عَيْنِهِ . فَجَلَسْتُ فِي التَّيْدِيِّ الَّذِي أَسْمُرُ فِيهِ أَخْيَانًا ، فَكَانَ لِحْجُوهُ وَزَنُّ أَحْسَنَتُهُ كَمَا يُحْسِنُ الْغَائِصُ فِي الْمَاءِ يُقَلِّ الْمَاءَ عَلَيْهِ ؛ وَدَخَنْتُ الْكَزْكَرَةَ<sup>(١)</sup> فَلَمْ تَكُنْ هَوَاءً وَدُخَانًا يَتَرَوَّحُ ، بَلْ كَانَتْ مِنْ ثِقَلِهَا كَالطَّعَامِ يَدْخُلُ عَلَى الطَّعَامِ ؛ وَنَظَرْتُ نَاحِيَةً فَأَخَذْتُ عَيْنِي رَجُلًا فِيلِي الْخِلْفَةِ ، مُنْطَادَ الْبَطْنِ كَأَنَّمَا نَفَحَ بَطْنُهُ بِالْأَلَاتِ ، يَخْمِلُ مِنْهُ مِقْدَارَ أَرْبَعَةٍ مِنْ بَطُونِ الْبَيْدِيَّاتِ الْحَوَامِلِ ، كُلُّ مِنْهُنَّ فِي الشَّهْرِ النَّاسِعِ مِنْ

(\*) « الرسالة » العدد : ٩١ ، ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ١ أبريل / نيسان ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ٤٨٣ - ٤٨٧ .

(١) الْكَزْكَرَةُ : أَسْمٌ وَصَفَانُهُ (لِلشَّيْثَةِ) أَوْ التَّارِجِيلَةِ ، أَخَذًا مِنْ صَوْتِهَا ، كَمَا صَنَعَ الْعَرَبُ فِي تَسْمِيَّتِهِمْ (الْقَطَا) أَخَذًا مِنْ صَوْتِ هَذَا الطَّيْرِ ، وَكَذَا هِيَ طَرِيقَتُهُمْ ؛ وَتُجْمَعُ الْكَزْكَرَةُ : كَزَاكِيْرَ ، بِالْيَاءِ لِلخِفَّةِ .

حَمَلَهَا ... وَكَانَ مَعِيَ إِلَى كُلِّ هَذَا الْبَلَاءِ خَمْسُ صُحُفٍ يَوْمِيَّةٍ أُرِيدُ قِرَاءَتَهَا !

ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الدَّارِ وَالْمَعْرُكَةِ حَامِيَةً فِي أَعْصَابِي ؛ وَمَا كَانَ سُوءُ الْهَضْمِ مَنُومَةً فَيَدْعُو إِلَى النَّوْمِ ، فَدَخَلْتُ بَيْتَ كُتَيْبٍ وَأَرَدْتُ كِتَابًا أَوْ كِتَابَ تَنَالُهُ يَدَيَّ ، فَخَرَجَ لِي كِتَابٌ فِي خُرَافَاتِ الْأَوَّلِينَ وَأَسَاطِيرِهِمْ وَهَذَيَانِهِمْ وَسُوءِ هَضْمِهِمُ الْعَقْلِيِّ ... كَالْكَلَامِ عَنْ أَدُونِيسَ وَأَرْطَامِنِسَ وَدُيُونِيسَ وَسَمِثْرَامِنِسَ وَإِنِيسَ وَأَتُونِيسَ وَأَتَرْغِنِسَ ... فَاسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ وَقُلْتُ : حَتَّى الْكُتُبُ لَهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَغْصَابٌ قَدْ نَالَهَا الثَّقَلَةُ وَالْأَلَمُ ؟

وَبَاتَ اللَّيْلُ يَغْفَانُ { مَعِيَ } ، وَبَقِيتُ مُتَمَلِّمًا أَتَقَلَّبُ حَتَّى أَخَذَ الصُّدَاعُ فِي رَأْسِي ، فَانْقَلَبَ التَّعَبُ نَوْمًا ، وَجَاءَ مِنَ النَّوْمِ تَعَبٌ آخَرُ ، وَقَذِفْتُ إِلَى عَالَمِ الْأَخْلَامِ فِي قُنْبَلَةٍ تَسْتَقِرُّ بِي حَيْثُ تُرِيدُ لَا حَيْثُ أُرِيدُ :

\* \* \*

وَرَأَيْتُنِي فِي قَوْمٍ لَا أَعْرِفُ مِنْهُمْ أَحَدًا قَدِ اجْتَمَعُوا جَمَاهِيرَ ، وَسَمِعْتُ قَائِلًا مِنْهُمْ يَقُولُ : « السَّاعَةُ يَمُوتُ مَوْلَانَا الْعَالِي » . فَقُلْتُ لِمَنْ يَلِينِي : « مَنْ يَكُونُ مَوْلَانَا الْعَالِي ؟ » قَالَ : « أَوَ أَنْتَ مِنْهُمْ ؟ » قُلْتُ : « مِمَّنْ ؟ » فَأَلْهَاهُ عَنْ جَوَابِي تَشَوُّفُ النَّاسِ وَأَنْصَرَفَهُمْ إِلَى رَجُلٍ أَقْبَلَ رَاكِبًا حِمَارًا أَشْهَبَ ؟ فَصَاحُوا : « الْقَمَرُ الْقَمَرُ »<sup>(١)</sup> وَرَفَعَ الرَّجُلُ الَّذِي يُنَاكِشُنِي صَوْتَهُ يَقُولُ : « الْبَرَكَاتُ وَالْعَظَمَاتُ لَكَ يَا مَوْلَانَا تَعَالَى ! »

قُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ ! لَقَدْ وَقَعْتُ فِي قَوْمٍ مِنَ الزَّنَادِقَةِ ، يُعَارِضُونَ « التَّحِيَّاتِ وَالصَّلَوَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ لِلَّهِ » ؛ ثُمَّ مَرَّ صَاحِبُ الْحِمَارِ بِحِذَائِي ، وَغَمَزَهُ الرَّجُلُ عَلَيَّ ، فَقَالَ : مَا بِالْكَ لَا تَقُولُ مِثْلَهُ ؟ قُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ كُفْرِ بَعْدِ إِيمَانٍ . فَكَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلْطِمَنِي فَرَفَعَ يَدَهُ ، فَصَحْتُ فِيهِ : كَمَا أَنْتَ - وَبِئْسَ - وَإِلَّا قَبِضْتُ عَلَيْكَ ، وَأَسْلَمْتُكَ لِلْبُولِيسِ ، وَشَكَوْتُكَ إِلَى الْكُتَيْبَةِ ، وَرَفَعْتُكَ إِلَى مَحْكَمَةِ الْجُنْحِ !

قَالَ : مَاذَا أَسْمَعُ ؟ الرَّجُلُ مَجْنُونٌ فَخُذُوهُ ! وَأَحَاطَ بِي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ تَرَجَّلَ عَنْ حِمَارِهِ وَأَخَذَ بِيَدِي وَمَشِينَا ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَا هَذَا ؟ قَالَ : أَرَاكَ مِنْ غَيْرِ هَذَا

(١) الْقَمَرُ : اسْمُ ذَلِكَ الْحِمَارِ ، وَسَمِعْتُ ذِكْرَهُ فِي الْقِصَّةِ .

الْبَلَدِ ؛ أَمَا تَعْرِفُ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ ؟ فَأَنَا هُوَ . قُلْتُ : أَنْظُرْ - وَنَحَكَ - مَا تَقُولُ ؛ فَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا مَمْرُورًا ؛ لَقَدْ كَتَبْتُ أَمْسَ كِتَابًا إِلَى مَجَلَّةِ (الرَّسَالَةِ) أَرْخُتُهُ ١٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٣٥٣ ١٨ مِنْ مَارَس/أَذَار سَنَةِ ١٩٣٥ ، وَأَرْسَلْتُ بِهِ مَقَالَ « الْخُرُوفِينَ »<sup>(١)</sup> ...

قَالَ : مَاذَا أَسْمَعُ ؟ نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ ٣٩٥ ؛ فَالْجُلُ مَجْنُونٌ ، أَوْ لَا فَأَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ مُعْجَزَاتِي . لَقَدْ جِئْتُ بِكَ مِنَ التَّارِيخِ ، فَسَتَرْتُ وَتَكْتُبُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى التَّارِيخِ فَتَكُونُ مِنْ مُعْجَزَاتِي ، وَتَقْصُّ عَنِّي وَتَشْهَدُ لِي ... !

قُلْتُ : فَإِنِّي أَعْرِفُ أَعْمَالَكَ إِلَى أَنْ قُتِلْتُ فِي سَنَةِ ٤١١ ... !

قَالَ : أَوْ إِنَّكَ أَنْتَ فَتَخْلُقُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً بِحَوَادِثِهَا ؟ لَقَدْ كَذَبْتَ مِنْ أَفْكَ وَغَبَابَتِكَ تَفْسِدُ عَلَيَّ دَعْوَى الْمُعْجِزَةِ !

وَهَاجَ الصُّدَاعُ فِي رَأْسِي ، وَبَلَغَ سُوءُ الْهَضْمِ حَدَّهُ ، وَاسْتَبَكَّتْ سِنِينَاتُ إِيْنِيسَ وَأَتُونِيسَ ... إلخ بِسِنِينَ إِيْنِيسَ ، وَمَرَّتْ بَيْنَ كُلِّ هَذَا حَوَادِثُ الطَّاعِيَةِ الْمَعْتُوهِ الْمُنْجَبِرِ ، فَوَاقِيَتُهُ يَبْدَعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بَدْعًا ، وَيَخْتَرِعُ أَحْكَامًا يُخْرِهُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَغْمَلُوا بِهَا ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْقُضُ أَمْرَهُ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى الْأَخْذِ بِهِ ، كَأَنَّ الَّذِي نَقَضَ غَيْرَ الَّذِي أَبْرَمَ ، وَكَأَنَّهُ حِينَ يَبْلُدُ فَيُعْجِزُهُ أَنْ يَخْتَرِعَ جَدِيدًا - يَجْعَلُ اخْتِرَاعَهُ إِبْطَالًا أَخْتِرَاعِهِ .

وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا يَغْنَدُ نَفْسَهُ مَعَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَقْلًا لِعُقُولِهَا ، ثُمَّ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعْلِيَ النَّاسَ وَيَسْتَبِدَّ بِهِمْ أَسْتِنَادَ الشَّرِيعَةِ فِي أَمْرِهَا وَنَهْيِهَا ، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُ فِي جُمْلَتِهَا هِيَ نَفْضُ أَعْمَالِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ مَخَوِّ ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْ أَذْهَانِ النَّاسِ وَقَتْلِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ بِتَارِيخِ قَاتِلِ سَفَاكٍ .

وَسَوَّلَ لَهُ جُنُونُهُ أَنَّهُ خُلِقَ تَكْذِيبًا لِلثَّبُوتِ ؛ ثُمَّ أَفْرَطَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ فَحَصَلَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ خُلِقَ تَكْذِيبًا لِلْأُلُوْهِيَّةِ ؛ وَفِي تَكْذِيبِهِ لِلثَّبُوتِ وَالْأُلُوْهِيَّةِ يَخْمِلُ الْأُمَّةَ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ عَلَى الْآلَا تُصَدِّقُ إِلَّا بِهِ هُوَ ؛ وَفِي سَبِيلِ إِنْثَابِهِ لِنَفْسِهِ صَنَعَ مَا صَنَعَ ، فَجَاءَ تَارِيخُهُ لَا يَنْفِي الْأُلُوْهِيَّةَ وَلَا

(١) مَرَّتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ .



نُبُوَّةً ، بَلْ يَنْفِي الْعَقْلَ عَنْ صَاحِبِهِ ؛ وَجَاءَ هَذَا التَّارِيخُ فِي الْإِسْلَامِ لِيَتَكَلَّمَ يَوْمًا فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ...

\* \* \*

رَأَيْتُنِي أَصْبَحْتُ كَاتِبًا لِهَذَا الْحَاكِمِ ، فَجَعَلْتُ أَشْهَدُ أَعْمَالَهُ وَأَدُونُ تَارِيخَهُ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَقَدْ وَصَّيْتَنِي الدُّنْيَا مَوْضِعًا عَزِيزًا لَمْ يَرْتَفِعْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ كُتَّابِهَا وَأَدْبَائِهَا ، فَسَأَكْتُبُ عَنْ هَذَا الدَّهْرِ بِعَقْلِ بَيْنَةٍ وَبَيْنَ هَذَا الدَّهْرِ ٩٦٨ سَنَةً صَاعِدَةً فِي الْعِلْمِ .

وَدَوَنْتُ عَشْرَةَ مُجَلَّدَاتٍ صَخْمَةٍ أَتَيْتُهُتُ وَأَنَا أَحْفَظُهَا كُلَّهَا ، فَإِذَا هِيَ جُمْلٌ صَغِيرَةٌ ، جَعَلَ الْحُكْمُ كُلُّ نَبْذَةٍ مِنْهَا سَفَرًا صَخْمًا كَمَا يُخَيَّلُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ عَاشَ عُمَرَا طَوِيلًا وَأَخَذَتْ أَحَدَانَا مُنْتَدَةً ، عَلَى حِينٍ لَا تَكُونُ الْوُتَا إِلَّا لَخْظَةً .

وَهَذِهِ هِيَ الْمُجَلَّدَاتُ الَّتِي قُلْتُ : إِنَّ التَّارِيخَ يَتَكَلَّمُ بِهَا فِي التَّارِيخِ ...

### الْمُجَلَّدُ الْأَوَّلُ

أَبْتُلِي هَذَا الطَّاعِيَةَ بِتَقْيِصَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَالْأُخْرَى مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَأَمَّا الَّتِي مِنْ نَفْسِهِ فَإِنِّي أَرَاهُ قَدْ خَلِقَ وَفِي مُحْهِ لُفَافَةٍ عَصَبِيَّةٍ مِنْ يَهُودِيَّةٍ جَدَّهُ رَأْسَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ؛ فَهُوَ الْحَاكِمُ بْنُ الْعَزِيزِ بْنِ الْمُعِزِّ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ الْمَهْدِيِّ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ هَذَا كَانَ ابْنُ أُمِّرَاءَ يَهُودِيَّةٍ مِنْ حَدَادٍ يَهُودِيٍّ ، فَأَتَقَفَّ أَنْ جَرَى ذِكْرُ النِّسَاءِ فِي مَجْلِسِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَدَّاحِ ، فَوَصَّفُوا لَهُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ الْيَهُودِيَّةَ ، وَأَنَّهَا آيَةٌ فِي الْحُسْنِ ؛ وَكَانَ لَهَا مِنْ الْحَدَادِ وَلَدٌ ، فَتَزَوَّجَهَا الرَّجُلُ وَأَدَّبَ ابْنَهَا وَعَلَّمَهُ ، ثُمَّ عَرَفَهُ أَسْرَارَ الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ وَعَهْدَ إِلَيْهِ بِهَا .

وَمِنْ بَعْضِ اللَّفَافِ الْعَصَبِيَّةِ فِي الْمُحِّ مَا يَنْحَدِرُ بِالْوَرَاثَةِ مَطْبُوعًا عَلَى خَيْرِهِ أَوْ شَرِّهِ ، لَا يَدُ لِلْمَرْءِ فِيهِ وَلَا حِيلَةٌ لَهُ فِي دَفْعِهِ أَوْ الْإِنْتِفَاءِ مِنْهُ ، فَيَكُونُ قَدَرًا يَتَسَلَّلُ فِي الْخَلْقِ لِيُخْبِتَ غَايَاتِهِ الْمَقْدُورَةَ ، فَمَتَى وَقَعَ فِي مُحِّ إِنْسَانٍ فَالدُّنْيَا بِهِ كَالْحُبْلَى وَلَا بُدَّ أَنْ تَتَمَحَّضَ عَنْهُ .

هَذِهِ اللَّفَافَةُ الْيَهُودِيَّةُ فِي مُحِّ هَذَا الطَّاعِيَةَ سَتُحَقِّقُ بِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ [٥ سورة المائدة/ الآية : ٨٢] . فَهُوَ لَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ لِلْإِسْلَامِ دُونَ أَنْ يَكُونَ الْأَشَدَّ فِي هَذِهِ الْعَدَاوَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ فِيهَا الْأَشَدَّ حَتَّى يَفْعَلَ بِهَا الْأَقَاعِيلَ الْمُتَنَكِّرَةَ . وَمَا أَرَى هَذِهِ الْمَاذِنَ الْقَائِمَةَ فِي الْجَوِّ إِلَّا تَخَرَّقُ بِمَنْظَرِهَا عَيْنِيهِ مِنْ بَغْضِهِ لِلْإِسْلَامِ وَأَنْطَوَانِهِ عَلَى عَدَوَاتِهِ ؛ فَوَيْلٌ لَهَا مِنْهُ !

وَأَمَّا التَّقْيِصَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ أَبْتُلِي بِقَوْمٍ فَتَنُوا بِأَرَادَتِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ ، وَهُمْ حَمَزَةٌ بِنُ عَلِيٍّ ، وَالْأَخَرُمْ ، وَفَلَانٌ ، وَفَلَانٌ ... وَقَدْ لَفَّقُوا لِلدُّنْيَا مَذْهَبًا هُوَ صُورَةُ عَقُولِهِمُ الطَّائِشَةِ ، لَا يَجِبِي إِلَّا لِلْهَنْدِ ، ثُمَّ لَا يَضَعُ أَوَّلَ مَعَارِلِهِ إِلَّا فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ لِيَهْدِمَهَا ... ! وَلَوْ أَنَا جَمَعْتُ هَذَا الْمَذْهَبَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْتُ : هُوَ حِمَاةُ حَمَقَاءُ تُرِيدُ إِخْرَاجَ اللَّهِ مِنَ الْوُجُودِ لِإِدْخَالِ اللَّهِ فِي بَعْضِ الطُّغَاةِ !

وَيَتَقَلَّبُونَ فِي مَذْهَبِهِمْ بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ : الْعَقْلُ ، الْإِرَادَةُ ، الْإِمَامُ ، قَائِمُ الزَّمَانِ ، عِلَّةُ الْعِلَالِ ... ! وَهَذِهِ هِيَ الشُّيُوعِيَّةُ بِعَيْنِهَا ، تَعْمَلُ عَلَى هَذِهِ فِكْرَةَ الْأَلُوْهِيَّةِ وَالْحَاقِيقَةِ بِالْخُرَافَةِ ؛ كَأَنَّ الْقَائِمَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ هُوَ عَقْلُ النَّاسِ وَإِرَادَتُهُمْ ، كَرَهُوا أَمَ رَضُوا ، فَلَا إِرَادَةَ لَهُمْ مَعَهُ وَلَا عَقْلَ ؛ وَهُوَ الزَّمَنُ فَيَضَعُ الزَّمَنُ بِمَا شَاءَ ، وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ شَاءَ ، لِأَنَّهُ الْقَائِمُ بِهِ ، وَعِلَّةُ الْعِلَالِ فِي سِيَاسَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ .

شُيُوعِيَّةٌ أَيْمَةٌ كَبُرَتْ فِي حِمَاةِهَا أَنْ تَقُومَ بِجُنُودٍ وَاحِدٍ ، فَلَا تَقُومُ إِلَّا بِأَثْنَيْنِ مَعًا : جُنُودِ الْعَقْلِ ، وَجُنُودِ السَّيْفِ !

### الْمُجَلَّدُ الثَّانِي

أَطْهَرَ الطَّاعِيَةَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ بِهِ الْإِسْلَامَ ، لِيَتَأَلَّفَ الْجُنْدَ وَالشَّعْبَ وَيَسْتَمِيلَهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ لَيْنٌ أَلَكِيدُ ، ذَنْيَةُ الْحَيْلَةِ ، يَهُودِيٌّ أَلْمَكْرُ ؛ فَأَمَرَ بِعِمَارَةِ الْمَدَارِسِ لِلْفِقْهِ وَالْتَفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفَتَا ، وَبَدَّلَ فِيهَا الْأَمْوَالَ ، وَجَعَلَ فِيهَا الْفُقَهَاءَ (وَالْمَسَايِخَ) ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّخَضُّعِ لَهُمْ ، وَدَخَلَ فِي ظِلَالِ الْعَمَائِمِ ... وَأَخْضَرَ

لِنَفْسِهِ فَيَبْهَتَنِ مَالِكَيْنِ (أَتَيْنِ لَا وَاحِدَ) يُعَلِّمَانِهِ وَيُقَهِّمَانِهِ ، وَكَانَ أَشْبَهَ بِمُرِيدٍ مَعَ شَيْخِ الطَّرِيقَةِ يَتَسَعَّدُ بِهِ وَيَتَمَيَّنُ ؛ أَشْرَفَ أَلْفَابِهِ أَنَّهُ خَادِمُ الْعِمَامَةِ الْحَضَرَاءِ ، وَأَسْعَدَ أَوْقَاتِهِ الْيَوْمُ الَّذِي يَقُولُ لَهُ فِيهِ الشَّيْخُ : رَأَيْتَكَ فِي الرُّؤْيَا وَرَأَيْتَ لَكَ ... !

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُعَامَلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ هَذَا الطَّاعِيَةِ ، هِيَ بِعَيْنِهَا رَبًّا أَلْفَافَةَ الْيَهُودِيَّةِ فِي مُحَرِّهِ ؛ تُصْلِحُ بِإِقْرَاضِ مِثَّةٍ ، وَفِيهَا نِيَّةُ الْخَرَابِ بِالسُّتَيْنِ فِي الْمِثَّةِ ... ! فَإِنَّهُ مَا كَادَ يَتَمَكَّنُ مِنَ النَّاسِ وَيَعْرِفُ إِقْبَالَهُمْ عَلَيْهِ وَثَقَّتُهُمْ بِهِ ، حَتَّى طَلَبَتْ أَلْفَافَةُ الْيَهُودِيَّةِ رَأْسَ الْمَالِ وَالرُّبَا ؛ فَأَمَرَهُمْ بِهَذَا تِلْكَ الْمَدَارِسِ وَإِخْرَابِهَا ، وَأَبْطَلَ الْعِيدَيْنِ وَصَلَاةَ الْجُمُعَةِ ، وَقَتَلَ أَلْفَافَةَ الْفُقَهَاءِ وَقَتَلَ مَعَهُمْ فِقْهِيَّهِ وَأَسْتَاذِيهِ ، وَعَادَ كَالْمُرِيدِ الْمُتَنَاقِي مَعَ شَيْخِ الطَّرِيقَةِ ، يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَةٌ تَعْمَلُ عَمَلًا وَاحِدًا فِي الصَّيْدِ : الْفُتْحُ ، وَالْعِمَامَةُ ، وَاللَّحْيَةُ ... !

إِنَّ هَذَا الطَّاعِيَةَ مَلِكٌ حَاكِمٌ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ حِمَاكَتَهُ شَيْئًا وَاقِعًا ، فَيَقْتُلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ بِإِهْلَاكِهِمْ ، وَيَقْتُلُ مَدَارِسَ الدِّينِ بِإِخْرَابِهَا ، وَلَوْ شَاءَ لَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَشْتَقَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كُلِّ ذِي عِمَامَةٍ<sup>(١)</sup> فِي عِمَامَتِهِ . وَيَبْلُغُ مِنْ كُفْرِهِ أَنْ يَتَبَجَّحَ وَيَرَى هَذَا قُوَّةً ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لِهَوَانِهِ عَلَى اللَّهِ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ كَالذَّبَابَةِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ بِالْمَرَضِ ، وَالْبُعُوضَةُ الَّتِي تَقْتُلُ بِالْحُمَّى ، وَالْقَمَلَةُ الَّتِي تُضْرِبُ بِالطَّاعُونَ ، فَلَوْ فَخَرَتْ ذُبَابَةً ، أَوْ تَبَجَّحَتْ قَمَلَةً ، أَوْ أَسْتَطَاعَتْ بُعُوضَةً ، لَجَارَ لَهُ أَنْ يَطِرَّ طِينَتُهُ فِي الْعَالَمِ . وَهَلْ فَعَلَ أَكْثَرَ مِمَّا تَفْعَلُ ؟

لَقَدْ أَوْدَى بِالنَّاسِ يَقُومُ إِيْمَانُهُمْ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُخْلِدُهُمْ فِي الْحَقِّ ، وَأَنَّ أَنْتِزَاعَهُمْ بِالسَّيْفِ مِنَ الْحَيَاةِ هُوَ الَّذِي يَضَعُهُمْ فِي حَقِيقَتِهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الرُّوحَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَا يَطْمِسُهَا الطُّغْيَانُ إِلَّا لِيَجْلُوَهَا .

إِنَّهُ وَاللَّهُ مَا قَتَلَ وَلَا شَقَّ وَلَا عَذَّبَ ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ أَحْتَاجَ فِي عَصْرِهِ هَذَا إِلَى قَوْمٍ يَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ ، وَأَعْوَزَهُ ذَلِكَ النَّوْعُ السَّامِيُّ مِنَ الْمَوْتِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ حَيَاةَ الْفِكْرِ وَمَادَّةَ التَّارِيخِ ، فَجَاءَتِ الْقَمَلَةُ تَحْمِلُ طَاعُونَهَا ... !

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنْ يَشْتَقَّ كُلُّ ذِي عِمَامَةٍ مِنْ سَوَادِ الْمُسْلِمِينَ » بَدَلًا مِنْ : « أَنْ يَشْتَقَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كُلُّ ذِي عِمَامَةٍ » .

لَقَدْ أَحْيَاهُمْ فِي التَّارِيخِ ، أَمَا هُمْ فَقَتَلُوهُ فِي التَّارِيخِ ، وَجَاءَهُمْ بِالرَّخْمَةِ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، أَمَا هُمْ فَجَاوَزُوا بِاللُّغَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا !

### المُجَلَّدُ الثَّالِثُ

يَرَى هَذَا الطَّاعِيَةُ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ خُرَافَةٌ وَشَعْوَدَةٌ عَلَى النَّفْسِ ، وَأَنَّ مَخْرُ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ هُوَ نَفْسُهُ إِنْجَادُ أَخْلَاقِهِ ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ جَرِيئًا حِينَ جَاءَ فَأَخْتَلَّ هَلِهِ الدُّنْيَا ؛ فَلَا يَطْرُدُهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا جَرَاءَةُ شَيْطَانٍ كَالَّذِي تَوَقَّعَ عَلَى اللَّهِ حِينَ قَالَ : ﴿ فَيَعْرِزُكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٣٨ سورة ص/ الآية : ٨٢] . وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسَ بِسَبِّ الصَّحَابَةِ ، وَأَنْ يُكْتَبَ ذَلِكَ عَلَى حِيطَانِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَقَابِرِ وَالشُّوَارِعِ !

أَخْزَاهُ اللَّهُ ! أَهْيَ رِوَايَةٍ تَمَثِّلِيَّةٌ يُلْصِقُ الْإِعْلَانَ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ؟ لَوْ سَمِعَ لَسَمِعَ الْمَسَاجِدَ وَالْمَقَابِرَ وَالشُّوَارِعَ تَقُولُ : أَخْزَاهُ اللَّهُ ... !

### المُجَلَّدُ الرَّابِعُ

هَذَا الْفَاسِقُ لَا يَرْكُبُ إِلَّا حِمَارًا أَشْهَبَ يُسَمِّيهِ : (الْقَمَرُ) ، وَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ مُخْتَسِبًا لِعَايَةِ حَيَاتِهِ ؛ فَهُوَ يَدُورُ عَلَى حِمَارِهِ هَذَا فِي الْأَسْوَاقِ وَمَعَهُ عَبْدٌ أَسْوَدُ ، فَمَنْ وَجَدَهُ قَدْ غَشَّ ؛ أَمَرَ الْأَسْوَدَ ... ! وَوَقَفَ هُوَ يَنْظُرُ وَيَقُولُ لِلنَّاسِ : أَنْظَرُوا ... !

وَمِنْ غَلْبَةِ الْفُسُوقِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى شَيْعَتِهِ أَنَّ دَاعِيَتَهُ (حَمْرَةَ بِنَ عَلِيٍّ) نَوَّهَ بِالْحِمَارِ فِي كِتَابِهِ وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِالنَّشَاءِ ، لِخِصَالٍ : مِنْهَا أَنَّ ... ! وَكَتَبَ حَمْرَةَ هَذَا فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ : أَنَّ مَا يَرْكَبُهُ أَهْلُ الْفَسَادِ بِجَوَارِ الْبَسَاتِينِ الَّتِي يُمُرُّ بِهَا (الْفَاسِقُ) مِنَ الْمُتَكَبِّرِ وَالْفَخْشَاءِ - إِنَّمَا يُزَكِّبُ فِي طَاعَتِهِ ... !

هَذِهِ طَبِيعَةُ كُلِّ حَاكِمٍ فَاسِقٍ مُلْحِدٍ ، يَرَى فِي نَفْسِهِ رَدَائِلَهُ غُرْبَانَةً ، فَلَا يَكُونُ كَلَامُهُ وَعَمَلُهُ وَفِكْرُهُ إِلَّا فُخْشًا يَتَعَرَّى ؛ وَإِنَّ فِي هَذَا الرَّجُلِ غَرِيزَةً فَسِقَ بَهِيمِيَّةً مُتَّصِلَةً بِطَوْرِ الْحَيَوَانِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَوَّلِ ؛ فَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ فِي جِسْمِهِ خَلِيقَةً عَصِيَّةً مُهْتَاجَةً ، مَا زَالَتْ تَسْبُحُ

بِالْوَرَاثَةِ فِي دِمَاءِ الْأَخْيَاءِ ، مُتَلَفَّةً عَلَى خَصَائِصِهَا ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي أَعْصَابِ هَذَا الْفَاسِقِ ، فَانْفَجَرَتْ بِكُلِّ تِلْكَ الْخَصَائِصِ .

وَلَسْتُ أَرَى أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ تَرْجِعُ فِي مَرَدِّهَا إِلَّا إِلَى طُغْيَانِ هَذِهِ الْغَرِيزَةِ فِيهِ ؛ فَهُوَ يُحَاوِلُ هَذِمَ الْإِسْلَامَ ، لِأَنَّهُ دِينَ الْعِفَّةِ وَدِينُ صَوْنِ الْمَرْأَةِ ، يُلْزِمُهَا حِجَابَ عِفَّتِهَا وَإِبَائِهَا ، وَيَمْنَعُهَا الْإِنْتِدَالَ وَالْخَلَاعَةَ ، وَيُعِينُهَا أَنْ تَتَخَلَّصَ مِمَّنْ يَشْتَهِيهَا ، وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ . . . إِنَّهُ يَمَقُّتُ هَذَا الدِّينَ الْقَوِيَّ ، كَمَا يَمَقُّتُ اللَّصُّ الْقَانُونَ ؛ فَهُوَ دِينٌ يَنْقُلُ عَلَى غَرِيزَتِهِ الْفَاسِقَةَ ، وَلِكُلِّ غَرِيزَةٍ فِي الْإِنْسَانِ شُعُورٌ لَا مَهْنَأَ لَهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُرًّا حَتَّى فِي النَّوْهِ ؛ وَهَلْ يُعْجِبُ السُّكَّرَ شَيْءٌ أَوْ يُزِضُهُ أَوْ يَلْذُّهُ ، كَمَا يُعْجِبُهُ أَنْ يَرَى النَّاسَ كُلَّهُمْ سُكَارَى ؛ فَيَتَشَبَّهِهُمُ بِالْخَمْرِ ، وَتَسْكُرُ غَرِيزَتُهُ بِرُؤْيَا السُّكْرِ ؟

وَمَا زَالَ رَأْيُ الْفَاسِقِ فِي كُلِّ زَمَنٍ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ هِيَ حُرِّيَّةُ الْإِسْتِمْنَاعِ ، وَأَنَّ تَقْيِيدَ اللَّذَّةِ إِفْسَادٌ لِلذَّةِ .

### الْمُجَلَّدُ الْخَامِسُ

يَزْعُمُ الطَّاعِيَةُ أَنَّهُ يُعِزُّ قَوْمَهُ ، وَمَا أَرَاهُ يُعِزُّهُمْ ، وَلَكِنَّهُ يَمْتَنِعُ ذُلَّهُمْ وَضَعْفَهُمْ وَهَوَانَهُمْ عَلَى الْأُمَمِ ؛ فَهُوَ يَجْعَلُ شَيْئًا فَشِيئًا ، مُنْتَظَرًا مَا يَسْهَلُ ، مُتَرَقِّبًا مَا يُمْكِنُ ؛ وَهُوَ يَرَى أَنَّ أَخْلَاقَنَا الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ أَمْوَانَتُنَا دَفَنُوا أَنْفُسَهُمْ فِيْنَا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ يَهْدِمُ الْأَخْلَاقَ وَيَطْرُقُ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَهْدِمُ قُبُورًا لَا أَخْلَاقًا .

وَلَقَدْ سَخِرَ مِنْهُ الْمَضْرُيُونَ بِكَيْتَةِ مِنْ ظَرْفِهِمُ الْبَدِيعِ ، وَجَاوَزُوهُ مِنْ غَرِيزَتِهِ ، فَصَنَعُوا أَمْرًا مِنَ الْوَرَقِ الَّذِي يُشْبِهُ الْجِلْدَ ، وَالْبُسُوحَا خُفَهَا وَإِزَارَهَا ، حَتَّى لَا يَشْكُ مَنْ رَأَاهَا أَنَّهَا أَدَمِيَّةٌ ، ثُمَّ وَضَعُوا فِي يَدِهَا قِصَّةً وَأَقَامُوهَا فِي طَرَفِهِ ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا عَدَلُ إِلَيْهَا وَأَخَذَ مِنْ يَدِهَا الْقِصَّةَ وَقَرَّاهَا ، فَإِذَا فِيهَا سَبُّ لَهُ وَلِأَبَائِهِ ؛ وَسُخْرِيَةٌ مِنْ جُنُونِهِ وَرُغُونَتِهِ الْمُضْجِكَةِ ؛ فَغَضِبَ وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْمَرْأَةِ ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ سُخْرِيَةٌ أُخْرَى حِينَ تَحَقَّقُ أَنَّهَا مِنَ الْوَرَقِ ، وَأَخَذَتْهُ الْكَيْتَةُ الطَّرِيفَةُ بِبِشْلِ الْبَرْقِ وَالرَّغْدِ ؛ فَاسْتَشَاطَ وَأَمَرَ عَيْنِدَهُ مِنَ السُّودَانِ بِتَخْرِيقِ الدُّورِ وَتَهْبِ

مَا فِيهَا وَسَنِي النِّسَاءِ وَالْفُجُورِ بِهِنَّ ؛ حَتَّى جَاءَ الْأَزْوَاجُ يَشْتَرُونَ زَوْجَاتِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، بَعْدَ أَنْ طَارَتْ الرُّوبَعَةُ السُّودَاءُ فِي بَيَاضِ الْأَعْرَاضِ .

انْدَلَعَتْ ثَوْرَةُ الْفُجُورِ فِي الْمَدِينَةِ ، لَا مِنْ الْعَبِيدِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْخَيَوَانِ الْعَتِيقِ الْمُسْتَقْرِ فِي هَذَا الطَّاعِيَةِ .

### الْمُجَلَّدُ السَّادِسُ

وَهَذِهِ رُغُونَةٌ مِنْ أَفْتِحِ رُغُونَاتِهِ ، كَأَنَّ هَذَا الْخَيَوَانَ لَا يَخْسِبُ نِسَاءَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا إِلَّا نِسَاءَهُ ، فَيَأْمُرُهُنَّ بِأَمْرِ أَمْرَاتِهِ ، وَكَأَنَّ النِّسَاءَ فِي رَأْيِهِ إِنْ هُنَّ إِلَّا اسْتِجَابَاتُ عَصِيَّةٍ تُطْلَقُ وَتُرَدُّ .

إِنَّ لِمَوْجَةِ الْفَسَقِ فِي الْغَرِيزَةِ الطَّاعِيَةِ جَزْرًا وَمَدًّا يَقَعَانِ فِي تَارِيخِ الْفَسَاقِ ؛ فَهَذَا الطَّاعِيَةُ قَدْ جَزَرَتْ فِيهِ الْمَوْجَةُ ، فَأَمَرَ أَنْ يُمْنَعَ النِّسَاءُ مِنَ الْخُرُوجِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، لَا تَطَأُ أَرْضَ الْمَدِينَةِ قَدَمُ أَمْرَاءَةٍ ، وَأَمَرَ الْخَفَّائِينَ أَلَّا يَصْنَعُوا لَهُنَّ الْأَخْفَافَ وَالْأَحْذِيَةَ ؛ وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ بَعْضَ النِّسَاءِ خَرَجْنَ إِلَى الْحَمَامَاتِ هَدَمَ الْحَمَامَاتِ عَلَيْهِنَّ !

وَلَوْ مُدَّتِ الْمَوْجَةُ فِي تَفْسِقِ الْفَاسِقِ لَفَرَضَ عَلَى النِّسَاءِ الْخُرُوجَ وَالْإِتِّصَالَ بِالرِّجَالِ وَالتَّعَرُّضَ لِلِإِبَاحَةِ .

إِنَّ الصَّلَاحَ وَالْفَسَادَ كِلَاهُمَا فَسَادٌ مَا لَمْ يَكُنِ الصَّلَاحُ نَظَافَةً فِي الرُّوحِ وَسُمْوًا فِي الْقَلْبِ .

### الْمُجَلَّدُ السَّابِعُ

يَزْعُمُ الطَّاعِيَةُ أَنَّهُ سَيَهْدِمُ كُلَّ قَدِيمٍ ؛ وَإِنِّي لِأَخْشَى وَاللَّهِ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ فِي بَعْضِ سَطَوَاتِ جُنُونِهِ : أَنْ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ أَبٌ أَوْ أُمٌّ بَلَغَ السَّنِينَ فَلْيَقْتُلْهُ ، لِيَتَخَلَّصَ الْأُمَّةُ مِنْ قَدِيمِهَا الْإِنْسَانِيِّ . . . !

كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْلُطُ عَلَى أَبْيَامِ مُعَاصِرِيهِ لَا عَلَى النَّارِخِ ، وَيَحْكُمُ عَلَى طَاعَةِ

قَوْمِهِ وَعِصْيَانِهِمْ لَا عَلَى قُلُوبِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَمِثْرَائِهِمْ مِنَ الْأَسْلَافِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَهْلِكَ  
حَتَّى يَنْبُعَتْ فِي الدُّنْيَا شَيْئَانِ : تَنْبُ رِمْتِهِ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ ، وَتَنْبُ أَعْمَالِهِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ .  
إِنْ هَذَا الرَّجُلُ الْمُسَلَّطُ ، كَالْعَبَّارِ الْمُسْتَظَارِ لَا يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعُ ...

وَلَقَدْ رَأَى الْمَأْمُونُ أَنَّ أَكْلَ النَّاسِ الْمُلُوحِيَّاتِ الْخَضِرَاءَ وَالْفَقَاعَ ، وَالتَّرْمُسَ وَالْجَرَجِيرَ ،  
وَالزَّرِيْبَ وَالْعِنَبَ - هُوَ قَدِيمٌ فِي طِبَاعِ النَّاسِ ، فَتَهَى عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ، لَا يُبَاعُ وَلَا يُؤْكَلُ ،  
وَوَظَّهَرَ عَلَى أَنَّ جَمَاعَةً بَاعُوا أَشْيَاءَ مِنْهَا فَضَرَبَهُمْ بِالسَّيَاطِ ، وَأَمَرَ فَطِيفَ بِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ ،  
ثُمَّ ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ؛ كَانَ الَّذِي يَحْمِلُ الْمُلُوحِيَّاتِ الْخَضِرَاءَ عَلَى رَأْسِهِ لِيَسْبَحَ بِهَا يَلْبَسُ عِمَامَةً  
خَضِرَاءَ ...

أَهَذَا - وَبِحُجَّةٍ - تَجْدِيدٌ فِي الْأُمَّةِ ، أَمْ تَجْدِيدٌ فِي الْمَعِيْدَةِ ... ؟

### المَجْلَدُ الثَّامِنُ

لَا يَرْضَى الطَّاعِيَةُ إِلَّا أَنْ يَمَحَقَ رُوحَانِيَّةَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا ، فَلَا يَبْرُكُ شَيْئًا رُوحَانِيًّا يَكُونُ لَهُ  
فِي أَنْصَابِ النَّاسِ أَثَرٌ مِنَ الْوَقَارِ ، وَيَمْنُ يَسْتَظْهَرُ { - وَيَلَهُ - } إِذَا مُحِقَتْ رُوحَانِيَّةُ الْأُمَّةِ  
وَأَشْرَفَتْ نَزْعَتُهَا الدِّينِيَّةُ عَلَى الْأَنْجِلَالِ ؟ كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَةَ الْوُجُودِ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا  
تُسْتَمَدُّ مِنْ إِيْمَانِهَا بِالْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّذِي يَذْفَعُهَا فِي سِلْمِهَا إِلَى الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ، كَمَا يَذْفَعُهَا فِي  
حَرْبِهَا إِلَى الْمَوْتِ بِقُوَّةٍ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ التَّارِيخَ كُلَّهُ تُقَرَّرُهُ فِي الْأَرْضِ بِضَعَةِ مَبَادِيءِ  
دِينِيَّةٍ .

هَذَا الْحَاكِمُ الْأَخْرَقُ هُوَ عِنْدِي كَالَّذِي يَقُولُ لِنَفْسِهِ : لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْتَحَ دَوْلَةً ،  
فَلَأَفْتَحَ دَوْلَةً فِي مَمْلَكَتِي ... لَقَدْ أَمَرَ بِهَدْمِ الْكَتَائِسِ وَالْبَيْعِ ، حَتَّى بَلَغَ مَا هَدَمَ مِنْهَا ثَلَاثِينَ  
أَلْفًا وَبَيِّعًا .

أَيُّ مَجْنُونٍ أَسْخَفُ جُنُونًا مِنْ هَذَا الَّذِي يَحْسَبُ الثُّمُوسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَالْأَخْشَابِ ؛ تَقَبَّلْ  
كُلَّهَا بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ أَنْ تُدَقَّ فِيهَا الْمَسَامِيرُ ... ؟

سَيَعْلَمُ إِذَا نَشَبَتْ حَرْبٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دَوْلَةٍ أُخْرَى ، أَنَّهُ كَسَرَ أَشَدَّ سُبُوفِهِ مَضَاءً حِينَ كَسَرَ  
الَّذِينَ !

### المَجْلَدُ التَّاسِعُ

هَذِهِ هِيَ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى ؛ فَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَكْتُبُ عَنْهَا : لَقَدْ تَطَاوَلَ الْمَجْنُونُ إِلَى  
الْأُلُوهِيَّةِ قَادَعَاهَا ، وَصَارَ يَكْتُبُ عَنْ نَفْسِهِ : بِاسْمِ الْحَاكِمِ الرَّحْمَنِ !

لَوْ كَانَ أَغْبَى الْأَغْيَاءِ فِي مَوْضِعِهِ لَأَتَقَى شَيْئًا ، لَا أَقُولُ تَقَوَّى الدِّينَ وَالضَّمِيرَ ، وَلَكِنْ  
تَقَوَّى الْفَقَاقِ السِّيَاسِيَّ ؛ فَكَانَ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَقُولُوا عَنْهُ : « أَبَانَا الَّذِي فِي  
الْأَرْضِينَ ... ! » .

وَالْأَفَايِ جَهْلٍ وَخَبِيْطٍ ، وَأَيُّ حُمَيٍّ وَتَهَوُّرٍ ، أَنْ يَكُونَ إِلَهًا عَلَى حِمَارٍ ، وَإِنْ كَانَ أَسْمُ  
حِمَارِهِ الْقَمَرُ !

### المَجْلَدُ الْعَاشِرُ

سَيَأْخُذُهُ اللَّهُ بِأَمْرَاءَ ؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَفَّةٌ مِنْ جِنْسِهِ ؛ لَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَقَاحَةِ غَرِيْزَتِهِ أَنْ أَتَّفَكَ  
عَلَى أَخِيهِ الْأَمِيرَةِ (سِتِّ الْمُلْكِ) ، وَرَمَاهَا بِالْفَاحِشَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَزْكَى النِّسَاءِ وَأَفْضَلِهِنَّ ،  
وَأَتَّهَمَهَا بِالْأَمِيرِ (سِنْفِ الدِّينِ بْنِ الدَّوَّاسِ) وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهَا تُدَبِّرُ قَتْلَهُ ، وَأَنَّهَا اجْتَمَعَتْ لِذَلِكَ  
بِسِنْفِ الدِّينِ . فَسَأَمْسِكُ عَنِ الْكِتَابَةِ فِي هَذَا الْمَجْلَدِ ، وَأَدْعُ سَائِرَهُ بَيَاضًا حَتَّى أَذْهَبَ  
إِلَيْهِمَا فَأُعِينَهُمَا بِمَا عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ ، ثُمَّ أَعُودَ لِتَدْوِينِ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْدُ ...

\* \* \*

وَرَأَيْتُ أَنِّي اجْتَمَعْتُ بِهِمَا وَأَطْمَأَنَّنَا إِلَيَّ ، فَأَخَذْنَا نُدِيرُ الرَّأْيَ :

قَالَتْ الْأَمِيرَةُ لِسِنْفِ الدِّينِ فِيمَا قَالَتْهُ : « وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَتَّبِعَهُ غُلَمَانًا يَقْتُلُونَهُ إِذَا  
خَرَجَ فِي غَدٍ إِلَى جَبَلِ الْمُقَطَّمِ ، فَإِنَّهُ يَنْفَرِدُ بِنَفْسِهِ هُنَاكَ ! » .

فَقُلْتُ أَنَا : « لَيْسَ هَذَا بِالرَّأْيِ وَلَا بِالتَّنْذِيرِ » .

قَالَتْ : « فَمَا الرَّأْيُ وَالتَّنْذِيرُ عِنْدَكَ ؟ » .

قُلْتُ : « إِنْ لَنَا عِلْمًا يُسْمُونَهُ (عِلْمُ النَّفْسِ) ، لَمْ يَقَعْ لِعِلْمَانِكُمْ ، وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ

هَذَا أَلْعَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ طَائِشُ الْغَرِيزَةِ مَجْنُونُهَا ، وَأَنَّ الْأَشِعَّةَ اللَّطِيفَةَ السَّاحِرَةَ الَّتِي تَنْبِثُ مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ ، هِيَ الَّتِي تَنْفَجِرُ فِي مُحْوَةٍ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ؛ فَإِذَا خَبَتْ هَذِهِ الْأَشِعَّةُ وَبَطَلَتِ الْغَرِيزَةُ ، بَطَلَتْ دَوَاعِي أَعْمَالِهِ الْخَبِيثَةِ كُلِّهَا ، وَكَفَتْ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْأُمَّةَ مَمْلُوءَةً مِنْ غَرَائِزِ جِسْمِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا مِنْ فَضَائِلِهَا وَدِينِهَا . فَلَوْ أَخَذْتُمْ بِرَأْيِي وَأَمْضَيْتُمُوهُ فَإِنَّهُ سَيُتَكَبَّرُ أَعْمَالُهُ إِذَا عَرَضَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْجَدِيدَةِ ، وَبِهَذَا يُضْلِحُ مَا أَفْسَدَ ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ قَدْ نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الصَّحِيحَةِ كَمَا نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الْفَاسِدَةِ ؛ فَإِذَا ... » .

قَالَ الْأَمِيرُ : « فَإِذَا مَاذَا ؟ » .

قُلْتُ : « فَإِذَا خُصِي ... » .

فَضَحِكْتُ سِثَّ الْمَلِكِ ضِحْكَةً رَنْتَ رَنْتَنَا .

قُلْتُ : « نَعَمْ إِذَا خُصِي هَذَا الْحَاكِمُ ... » .

فَعَلَبَهَا الضُّحْكُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَرَمَتْنِي بِمِنْدِيلٍ لَطِيفٍ كَانَ فِي يَدِهَا أَصَابَ وَجْهِي ، فَانْتَبَهْتُ وَأَنَا أَقُولُ :

« نَعَمْ إِذَا خُصِي هَذَا الْحَاكِمُ ... » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### كُفِّرُ الدُّبَابَةَ (\*) ...

قَالَ كَلِيلَةُ<sup>(١)</sup> وَهُوَ يَعْطُ دِمْنَةً وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ ؛ وَكَانَ دِمْنَةً قَدْ دَاخَلَهُ الْغُرُورُ وَزَهَاهُ النَّصْرُ ، وَظَهَرَ مِنْهُ الْجَفَاءُ وَالْغِلْظَةُ ، وَلَقِيَ الثَّعَالِبَ مِنْ زَيْغِهِ وَالْحَادِيهِ عَتْنَا شَدِيدًا :

... وَأَعْلَمَ يَا دِمْنَةُ أَنَّ مَا زَعَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تَأْمًا لَا يَغْتَرِيهِ النَّقْصُ ، هُوَ بِعَيْنِهِ النَّاقِصُ الَّذِي لَمْ يَتِمَّ ؛ وَالْغُرُورُ الَّذِي ثَبَّتَ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآرَاءِ ، لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي يَثْبُتُ أَنَّ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الْآرَاءِ هُوَ الصَّحِيحُ .

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خَيَالٍ ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، وَلَوْ صَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، لَكَذَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَذْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ ، وَيَبْقَى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَا صَغِيرًا فَلَا يَكْبُرُ ، وَيَثْبُتُ الْكَبِيرُ مِنَ الصُّوَابِ عَلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يَنْقُصُ ، وَيَصِحُّ الصَّحِيحُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ لَهُ ، وَيُفْسَدُ الْفَاسِدُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ ، وَمَا مِثْلُ هَذَا إِلَّا مِثْلُ الْأَرْزَبِ وَالْعُلَمَاءِ .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْزَبًا سَمِعَتِ الْعُلَمَاءُ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَمَتَى يَتَأَذَّنُ اللَّهُ بِإِنْفِرَاضِهَا ، وَكَيْفَ تَكُونُ الْقَارِعَةُ ؛ فَقَالُوا : إِنَّ فِي الْجُجُومِ نُجُومًا مُذْنَبَةً ، لَوْ أَلْتَفَ ذَنْبٌ أَحَدُهَا عَلَى جِزْمِ أَرْضِنَا هَذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَأَنَّهَا نَفْخَةُ النَّافِخِ ، بَلْ أَضَعُفُ مِنْهَا كَأَنَّهَا زَفَرَةُ صَدْرِ مَرِيضٍ ، { بَلْ أَوْهَى ، كَأَنَّهَا نَفْثَةٌ مِنْ شَفَتَيْنِ } . فَقَالَتِ الْأَرْزَبُ : مَا أَجْهَلَكُمْ أَهْلُهَا الْعُلَمَاءُ ! قَدْ وَاللَّهِ خَرَفْتُمْ وَتَكَذَّبْتُمْ { وَاسْتَحْمَقْتُمْ } ؛ وَلَا تَزَالُ الْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذَوَاتِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٠٧ ، ٢١ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٢ يوليو / تموز ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١١٦٣ - ١١٦٦ .

(١) كَلِيلَةُ وَدِمْنَةُ هُنَا أُشْلُوبَتْ مِنْ أَسَالِيبِ الْأَشْنَادِ الرَّافِعِيَّةِ ، يَتَعَمَّدُ إِلَيْهِ جَمِيعُ قُرَيْشِ قُرَيْشِ الْمَعَانِي بِالْمَثْنِ وَالْمُحَاوَرَةِ . (الرَّسَالَةُ) .

{ وَانْظُرْ مَقَالَ (فَلَسَفَةُ الطَّائِفَةِ) فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ } .

الْأَذْنَابِ ؛ وَالِدَلِيلُ عَلَى جَهْلِكُمْ هُوَ هَذَا - قَالُوا : وَأَرْنَهُمْ ذَنْبَهَا ... !

قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَةَ هَذِهِ الْأَرْزَبِ مِنْ أَوْلَيْكَ الْعُلَمَاءِ ؛ فَيَقُولُ : كَذَبُوا وَصَدَقْتُ أَنَا ، وَأَخْطُؤُوا<sup>(١)</sup> جَمِيعًا وَأَصَبْتُ ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِمْ وَانْكَشَفَ لِي ، وَهُمْ زَعَمُوا وَأَنَا الْمُسْتَقِينُ . ثُمَّ لَا دَلِيلَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ دَلِيلِ الْأَرْزَبِ الْخَزَقَاءِ مِنْ هَنَةٍ تَتَحَرَّكُ فِي ذَنْبِهَا .

وَكَانَ يُقَالُ : إِنَّهُ لَا يُجَاهِرُ بِالْكَفْرِ فِي قَوْمٍ إِلَّا رَجُلٌ هَانَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَعْبُؤُوا بِهِ ، فَهُوَ الْأَذَلُّ الْمُسْتَضْعَفُ ؛ أَوْ رَجُلٌ هَانُوا عَلَيْهِ فَلَمْ يَعْزُبَا بِهِمْ ، فَهُوَ الْأَعَزُّ الطَّاعِيَةُ ؛ ذَاكَ لَا يَخْشَوْنَهُ فَيَدْعُوْنَهُ لِنَفْسِهِ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ حُفَمِهِ ، وَهَذَا يَخْشَوْنَهُ فَيَتْرَكُونُ مُعَارَضَتَهُ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ ظُلَمِهِ ؛ وَمَا شَرٌّ مِنْ هَذَا إِلَّا هَذَا .

وَقَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنْ كُنْتَ حَاكِمًا تَشْتُقُّ مَنْ يُخَالِفُكَ فِي الرَّأْيِ ، فَلَيْسَ فِي رَأْسِكَ إِلَّا عَقْلٌ أَسْمُهُ الْحَبْلُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَقْتُلُ مَنْ يُنْكَرُ عَلَيْكَ الْخَطَا ، فَلَيْسَ لَكَ إِلَّا عَقْلٌ أَسْمُهُ الْحَدِيدُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَحْسِبُ مَنْ يُعَارِضُكَ بِالنَّظَرِ ، فَفِيكَ عَقْلٌ أَسْمُهُ الْجِدَارُ ؛ أَمَا إِنْ كُنْتَ تُنَازِلُ وَتُجَادِلُ ، وَتُقْنِعُ وَتَقْتَنِعُ ، وَتَدْعُو النَّاسَ عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَلَا تَأْخُذُهُمُ بِالْعَمَى - فَفِيكَ الْعَقْلُ الَّذِي أَسْمُهُ الْعَقْلُ .

\* \* \*

قَالَ كَلِيلَةُ : وَأَنَا يَا دِمْنَةُ ، فَلَوْ كُنْتُ قَائِدًا مُطَاعًا ، وَأَمِيرًا مُتَّبَعًا ، لَا يُعْصَى لِي أَمْرٌ ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيَّ رَأْيٌ ، وَلَا يُنْكَرُ مِنِّي مَا يُنْكَرُ مِنَ الْمَخْلُوقِ إِذَا أَخْطَأَ ، وَلَا يُقَالُ لِي دَائِمًا إِلَّا اخْدَعِي الْكَلِمَتَيْنِ : أَصَبْتُ ، { ثُمَّ هِيَ دَائِمًا } أَصَبْتُ ؛ وَلَا يُلْقَانِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي بِالْكَلِمَةِ الْآخَرَى ، رَهْبَةً مِنْ سَخَطِي رَهْبَةَ الْجَبَّاءِ ، أَوْ رَغْبَةً فِي رِضَايَ رَغْبَةَ الْمُتَافِقِينَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وَخَلَصَ لِي بِاطْنُهُمْ جَمِيعًا<sup>(٢)</sup> - فَلَوْ كُنْتُ وَكَانُوا عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَأَخْطُؤُوا » بَدَلًا مِنْ : « وَأَخْطُؤُوا » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْ خَلَصَ لِي بِاطْنُهُمْ جَمِيعًا ، وَصَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ كُلُّهَا » بَدَلًا مِنْ : « وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وَخَلَصَ لِي بِاطْنُهُمْ جَمِيعًا » .

هَذَا ، لِأَحَالِنِي نَقْصَهُمْ إِلَى نَقْصِ الْعَقْلِ بَعْدَ كَمَالِهِ ، وَرَدَّتْنِي فُسُؤْلَتُهُمْ إِلَى فُسُؤْلَةِ الرَّأْيِ بَعْدَ جُودَتِهِ ، فَأَخْلِقُ بَيْنَ أَنْ أَعْتَبِرَ وَضَعَهُمْ إِيَّايَ فِي مَوْضِعِ الْإِلَهِةِ ، هُوَ إِنْزَالُهُمْ إِيَّايَ فِي مِثْلَةِ الشَّيَاطِينِ ؛ وَإِلَّا كُنْتُ حَقِيقًا أَنْ يُصِيبَنِي مَا أَصَابَ الْعَتَرُ الَّذِي زَعَمُوا لَهَا أَنَّهَا أَتْنَى الْفِيلِ ...

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي إِحْدَى خَرَائِبِ الْهِنْدِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَطَاءِ ، وَكَانَ فِيهَا عَضْرَفُوطٌ كَبِيرٌ<sup>(١)</sup> ، فَمَلَكَتُهُ الْجَمَاعَةُ وَذَهَبَتْ تَأْتِمُرُ عَلَى<sup>(٢)</sup> أَمْرِهِ وَتَنْتَهِي . فَمَرَّ بِهِلِذِهِ الْخَرِبَةُ فِيلٌ جَسَنٌ مِنَ الْفِيلَةِ الْهِنْدِيَّةِ { الْعَظِيمَةِ } ، لَمْ يُحْسَ بِالْعَطَاءِ ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فَرْقًا بَيْنَ هِلِذِهِ الْأُمَّةِ { مِنَ الْحَشَرَاتِ } وَبَيْنَ الْحَصَى مَثُورًا يَلْتَمِعُ فِي الْأَرْضِ هُنَا وَهُنَا ؛ قَالُوا : فَغَضِبَ الْعَضْرَفُوطُ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي مُدَافَعَتِهِ ، وَكَيْفَ يَخْتَالُ فِي هَلَاكِهِ<sup>(٣)</sup> ؛ فَرَأَهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً ؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ قَدَمَ الْفِيلِ عَنِ الْأَرْضِ زَالَ الْفِيلُ نَفْسُهُ ؛ فَجَاءَ فَاعْتَرَضَ الطَّرِيقَ ، وَدَبَّ دَيْبَنِيَّةً<sup>(٤)</sup> إِلَى قَدَمِ الْفِيلِ ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفِيلُ قَدَمَهُ اهْتَبَلَ هِلِذِهِ الْعَقْلَةَ مِنْهُ .. وَأَنْدَسَ تَحْتَهَا ، فَأَنْدَسَ مَقْبُورًا فِي التُّرَابِ !

ثُمَّ إِنَّ الْعَطَاءَ افْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا . فَلَمَّا مَضَى الْفِيلُ لِسَبِيلِهِ ، وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا ، نَفَرَتْ إِلَى أَجْحَارِهَا ، وَاسْتَكْنَتْ فِيهَا تَرْتَقُبُ وَتَتَرَبَّصُ ؛ فَدَخَلَتْ إِلَى الْخَرِبَةِ عَتَرٌ جَعَلَتْ تَتَقَمَّمُ مِنْهَا وَتَتَرْتَعُ فِيهَا ، وَرَأَتْهَا الْعَطَاءُ فَاجْتَمَعْنَ يَأْتِمِرْنَ ...

فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ : هَلِذِهِ أَتْنَى الْفِيلِ . فَسَأَلَتْ عِظَايَةَ مِنْهُنَّ : وَأَيْنَ الثَّابِتَانِ الْعَظِيمَانِ ؟

(١) الْعَطَاءُ : جَمْعُ عَطَاءَةٍ وَعِظَايَةٍ ، وَهِيَ هَلِذِهِ الدَّوَابَّةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا : (السُّلْخِيَّةُ) ، وَالْعَضْرَفُوطُ : ضَرْبٌ مِنَ الْعَطَاءِ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهَا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَنْ » بَدَلًا مِنْ : « عَلَى » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « فَتَنَظَّرَ الْعَضْرَفُوطُ كَيْفَ يَصْنَعُ بِهِ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ » بَدَلًا مِنْ : « قَالُوا : فَغَضِبَ الْعَضْرَفُوطُ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي مُدَافَعَتِهِ ، وَكَيْفَ يَخْتَالُ فِي هَلَاكِهِ » .

قَالَتْ الْأُولَى : إِنَّ الْإِنْسَانَ دُونَ الذُّكُورَةِ فِي خَلْقِهَا ، وَالْأُنْثَى هِيَ الذَّكَرُ مَقْلُوبًا أَوْ مُخْتَصَرًا أَوْ مُشَوَّهَا ، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِبْنَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَهَا أَوْ يُشَوِّهْنَهَا ، أَفَلَا تَرَيْنِ الثَّانِيَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ الْبَارِزَيْنِ فِي ذَلِكَ الْفِيلِ الْجَسِيمِ ، كَيْفَ نَبَتَا صَغِيرَتَيْنِ مُتَقَلِّبَتَيْنِ فَوْقَ رَأْسِ أُنْثَاهُ ... ؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ : إِنْ جَارَ قَوْلُكَ فِي الرَّأْيِ ، فَأَيْنَ الْخُرْطُومُ ؟

قَالَتْ الْأُخْرَى : هُوَ هَذِهِ الزَّيْمَةُ الْمُتَدَلِّيَةُ مِنْ حَلْقِهَا ، وَذَلِكَ <sup>(١)</sup> خُرْطُومٌ عَلَى قَدْرِ أُنُوثَةِ الْأُنْثَى ... !

قَالُوا : ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنْ يَمْلِكَنَّ أُنْثَى الْفِيلِ هَذِهِ ؛ وَأَنْ يَهْتَنَ لَهَا الْخَرِبَةُ وَأَعْتَهَا . وَسَمِعَتِ الْمَاعِزَةُ كَلَامَهُنَّ ، فَقَالَتْ { فِي نَفْسِهَا } : لَا جَرَمَ أَنْ تَكُونِ الْعَنْزُ فَيْلَةً فِي أُمَّةٍ مِنَ الْعَطَاءِ ، فَقَدْ قَالَتْ الْعُلَمَاءُ : إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ ، وَلَا طَاعِيَةً إِلَّا بِذَلِيلٍ ؛ وَإِنَّ الْعَظَمَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا شَهَادَةُ الْحَقَارَةِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَإِنَّهُ رَبُّ عَظِيمٍ طَاعِيَةٍ مُتَجَبِّرٍ مَا قَامَ فِي النَّاسِ إِلَّا كَمَا تَقُومُ الْجَيْلَةُ ، وَلَا عَاشَ إِلَّا كَمَا يَعِيشُ الْكَذِبُ ، وَلَا حَكَمَ إِلَّا كَمَا يَحْكُمُ الْخِدَاعُ . وَهَذِهِ الدُّنْيَا لِلْمَحْظُوطِ كَأَنَّهَا دُنْيَا لَهُ وَحْدَهُ ، فَمَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَدْ جَاءَتْ ، وَلَوْ أَنَّهَا أَذْبَرَتْ عَنْهُ مِنْ نَاحِيَةٍ لَرَجَعَتْ <sup>(٢)</sup> مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، لِيُثْبِتَ الْحَظُّ أَنَّهُ الْحَظُّ .

وَتَقَدَّمَ الْعَطَاءُ إِلَى الْعَنْزِ ، فَقُلْنَ لَهَا : أَتَيْنَا الْفَيْلَةَ الْعَظِيمَةَ ! إِنْ قَرِينُكَ الْعَظِيمَ قَدْ مَسَّ أَمِيرَنَا الْعَضْرُفُوطَ بِقَدَمِهِ فَعَبِيْهُ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضَيْنِ ، وَأَنْتِ أُنْثَاهُ وَسَيِّدَتُهُ ، فَقَدْ اخْتَرْنَاكَ <sup>(٣)</sup> مَلِكَةً عَلَيْنَا ، وَوَهَبْنَا لَكَ الْخَرِبَةَ وَمَا فِيهَا .

قَالَتْ الْعَنْزُ : فَإِنِّي أَتَّهَبُ مِنْكُمْ هَذِهِ الْهَيْبَةَ ، وَنِعَمًا صَنَعْتُنَّ ؛ غَيْرَ أَنَّ بَيْنَكُنَّ وَبَيْنِي مَا بَيْنَ الْعَطَايَةِ وَالْفِيلِ ، وَمَا بَيْنَ الْحَصَاةِ وَالْجَبَلِ ، فَإِذَا أَنَا قُلْتُ ، فَإِذَا أَنَا قُلْتُ ؛ وَإِذَا أَنَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَهُوَ » بَدَلًا مِنْ : « وَذَلِكَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « رَجَعَتْ » بَدَلًا مِنْ : « لَرَجَعَتْ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « وَإِنَّا قَدْ اخْتَرْنَاكَ » بَدَلًا مِنْ : « وَأَنْتِ أُنْثَاهُ وَسَيِّدَتُهُ ، فَقَدْ اخْتَرْنَاكَ » .

أَمَرْتُ ، فَإِنَّا أَمَرْتُ ؛ وَإِذَا أَنَا فَعَلْتُ ، فَإِنَّا فَعَلْتُ . هُنَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّهَا (أَنَا) وَاحِدَةٌ لَيْسَ مَعَهَا غَيْرُهَا ؛ لِأَنَّ هَهُنَا فِي هَذَا الرَّأْسِ دِمَاجُ فَيْلَةٍ ، وَفِي هَذَا الْجَسْمِ قُوَّةُ فَيْلَةٍ ، وَفِي الْخَرِبَةِ كُلُّهَا فَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ فَلَا أُعْرِفَنَّ مِنْكُمْ عَلَى الصَّوَابِ وَالْخَطِإِ إِلَّا الطَّاعَةَ ، طَاعَةَ الْأَعْمَى لِلْبَصِيرِ . أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْحَقَائِقِ أَنَّي فَيْلَةٌ وَأَنْتُكَ عَطَاءٌ ؛ وَمَتَى بَدَأَ الْيَقِينُ مِنْ هُنَا سَقَطَ الْجَلَّافُ مِنْ بَيْنِنَا وَبَطَلَ الْاِعْتِرَاضُ مِنْكُمْ ، وَقُوَّتِي حَقٌّ لِأَنَّهَا قُوَّةٌ ، وَبَاطِلِي كَذَلِكَ حَقٌّ لِأَنَّهُ مِنْ قُوَّتِي ؛ وَقَدْ قَالَ أَسْلَفُنَا حُكَمَاءُ الْفَيْلَةِ : إِنْ الْقَوِيَّ بَيْنَ الضَّعَفَاءِ مَشِيئَةٌ مُطْلَقَةٌ ، فَهُوَ مُضْلِحٌ حَتَّى بِالْإِفْسَادِ ، حَكِيمٌ حَتَّى بِالْحِمَاةِ ، إِمَامٌ حَتَّى بِالْخُرَافَةِ ، عَالِمٌ حَتَّى بِالْجَهَالَةِ ، نَبِيٌّ حَتَّى بِالشُّعُودَةِ ... !

قَالُوا : وَتُتَكَبَّرُ عَلَيْهَا عِظَايَةُ صَالِحَةٍ عَالِمَةٍ كَانَتْ ذَاتَ رَأْيٍ وَدِينٍ فِي قَوْمِهَا ، وَكُنَّ يُسَمِّيْنَهَا : (الْعِمَامَةَ) ، لِبَيَاضِهَا وَصَلَاحِهَا وَطَهَارَتِهَا ، فَقَالَتْ : وَلَا كُلُّ هَذَا أَتَيْنَا الْفَيْلَةَ ؛ لَقَدْ تَخَرَّصْتُ غَيْرَ الْحَقِّ ؛ فَإِنَّكَ تَحْكُمِينَنِي مِنْ أَجْلِنَا لَا مِنْ أَجْلِكَ ، وَمَا قَوْلُكَ إِلَّا كَلِمَاتٌ تُحَقِّقُهَا أَعْمَالُنَا <sup>(١)</sup> نَحْنُ ؛ فَلَاكِ الطَّاعَةُ فِيمَا يُضْلِحُنَا || لَا فِيمَا يُفْسِدُنَا || ، { وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ رَدٌّ عَلَيْكَ } ، وَرَأْيُكَ شَيْءٌ يَتَّبِعُنِي أَنْ تَكُونَ مَعَهُ أَرَاؤُنَا ، لِتَسْبِيحِ الْأَسْبَابِ أَسْبَابُ الْمُوَافَقَةِ وَالْمُخَالَفَةِ ، فَتَأْخُذُ عَنْ بَيْتَةٍ وَتَتْرُكُ عَنْ بَيْتَةٍ ؛ وَقَدْ كَانَ يُقَالُ فِي قَدِيمِ الْحِكْمَةِ : إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُقَدِّمُ رَأْيًا لِلأُمَّةِ الْحَاظِمَةِ كَيْ تَأْخُذَ بِهِ ، أَوْ يَضَعُ لَهَا شُرْعًا لِيَحْمِلَهَا عَلَيْهِ ، أَوْ يَسْئُلَ لَهَا سُنَّةً لِيَتَّبِعَهَا - { إِنَّهُ } يَجِبُ عَلَى هَذَا الْمُتَقَدِّمِ لِتُخَوِّلَ الْأُمَّةُ أَوْ تُخْرِجَهَا أَنْ يَتَقَدَّمَ لِأَهْلِ الشُّوَرَى وَفِي رَأْسِهِ الرَّأْيُ ، وَفِي عُنُقِهِ حَبْلٌ ؛ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَيَسْطُطُّ وَيَذْفَعُ عَنْهُ ، وَيُجَادِلُهُمْ وَيُجَادِلُونَهُ ؛ فَإِنْ كَانَ الرَّأْيُ حَقًّا أَخَذُوا الرَّأْيَ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَخَذُوا الْحَبْلَ فَسْتَقُوا فِيهِ هَذَا الْمُتَهَوِّرَ .

وَفِي دِينِنَا أَنَّ الطَّاعَةَ فِي الْمَنْصِبَةِ مَعْصِيَةُ أُخْرَى ؛ وَلَقَدْ كَانَ لَنَا عَضْرُفُوطٌ بَخَانَةٌ فِي الْأَذْيَانِ دَرَّاسَةٌ لِكُنْهَاتِهَا { عَلَامَةٌ ثَقَابٌ } ؛ فَكَانَ مِمَّا عَلَمْنَا : أَنَّ الْمَخْلُوقَ مَتَّبِعٌ عَلَى التَّقْصِ إِذْ هُوَ مَاضٍ إِلَى الْفَنَاءِ ، فَيَجِبُ إِلَّا يَتِمَّ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِمِقْدَارٍ ، وَلَا تَكُونُ الْقُوَّةُ فِيهِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَا يُحَقِّقُهَا إِلَّا أَعْمَالُنَا » بَدَلًا مِنْ : « تُحَقِّقُهَا أَعْمَالُنَا » .

إِلَّا بِمَقْدَارٍ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْعَقْلُ النَّامُ فِي الْأَرْضِ هُوَ مَجْمُوعُ الْعُقُولِ الْعَظِيمَةِ كُلِّهَا ، وَكَانَ أَتَمُّ الْأَرَاءِ وَأَصَحُّهَا مَا أَتَبَّتِ الْأَرَاءُ نَفْسَهَا أَنَّهُ أَصَحُّهَا وَأَتَمُّهَا . فَلَا الدِّينَ أَتَبَعَتْ أَتَمُّهَا الْفَيْلَةُ ، وَلَا أَتَبَعَتْ فَيْتَا الْعَقْلِ ، { وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا (الْفَيْلُ) الْكَادِبُ } .

فَلَمَّا سَمِعَتْ الْعَنْزُ ذَلِكَ تَنَفَّسَتْ وَغَضِبَتْ ، وَقَالَتْ : إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ التَّرَهَاتِ مِنْ أَلْسِنَتِكُمْ ، وَهَذِهِ الْأَبَاطِيلُ فِي عَقُولِكُمْ ؛ لَا أَسْمَعَنَّ مِنْكُمْ كَلِمَةَ الدِّينِ وَلَا كَلِمَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا الْعَصَافِطِ ... فَذَلِكَ وَحْيِي غَيْرُ وَحْيِي أَنَا ؛ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ وَحْيِي أَنَا فَأَنَا لَسْتُ فِيهِ ، وَإِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا فِيهِ فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِلْحُكْمِ الَّذِي شَرَطُهُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَا وَاحِدَةً . وَذَلِكَ إِنْ لَمْ يَجْعَلْكُمْ غُرَبَاءَ عَنِّي جَعَلَنِي غَرِيبَةً عَنْكُمْ ، مَا بُدِّ مِنْ إِحْدَى الْغُرَبَتَيْنِ ، فَهُوَ أَوَّلُ الْفَطِيئَةِ ، وَالْفَطِيئَةُ أَوَّلُ الْفَسَادِ . وَمَا دَامَ فِي الدِّينِ أَمْرٌ غَيْرُ أَمْرِي ، وَنَهْيٌ غَيْرُ نَهْيِي ، وَتَحْلِيلٌ وَتَحْرِيمٌ لَا يَتَغَيَّرَانِ عَلَى مَشِيئَتِي - فَأَنَا مَجْنُونَةٌ إِنْ رَضِيتُ لَكُمْ هَذَا ... !

فَصَحَّحَتْ (الْعِمَامَةُ) وَقَالَتْ لِلْمَاعِزَةِ : بَلْ قُولِي : أَنَا مَجْنُونَةٌ بِ ... (أَنَا) ؛ أَفَلَا يَجُوزُ وَأَنْتِ خَلَقْتَ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَغْتَرِيَ عَقْلُكَ شَيْءٌ مِمَّا يَغْتَرِي الْعُقُولُ ؟ وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّكَ قُوَّةُ الرَّأْيِ فِي نَاحِيَةِ الْقُوَّةِ ، حَسَنَةُ التَّدْبِيرِ فِي نَاحِيَةِ الشَّجَاعَةِ ، مُتَجَاوِزَةُ الْمِقْدَارِ فِي نَاحِيَةِ الْحَزْمِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ ؛ وَلَكِنْ أَلَمْ يَقُلِ الْحُكَمَاءُ : إِنَّ الزِّيَادَةَ الْمُسْرِفَةَ فِي جَهَةِ مِنَ الْعَقْلِ ، تَأْتِي مِنَ التَّقْصِصِ الْمُتَحَيِّبِ لِجَهَةِ أُخْرَى ؛ وَإِنَّهُ رَبُّ عَقْلٍ كَانَ نَامًا عَبْرِيًّا فِي أُمُورٍ ، لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ أَبْلَهُ فِي غَيْرِهَا ؛ يُحْسِنُ فِي تِلْكَ مَا لَا يُحْسِنُهُ أَحَدٌ ، وَيُحْكِمُ مِنْهَا مَا لَا يُحْكِمُهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَغْلُطُ فِي الْأُخْرَى مَا لَا يَغْلُطُ أَحَدٌ فِيهِ ؟

قَالُوا : فَجَاسَتْ الْعَنْزُ وَفَارَتْ مِنَ الْغَضَبِ قُوَّةَ الْجَبَّارِ ، وَخِيلَ إِلَيْهَا مِنْ عَمَى الْغَيْظِ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَأَنَّ زَنْمَتَهَا أَمْتَدَّ مِنْهَا خُرُطُومُ طَوِيلٍ ، وَأَنَّ قَرْنَيْهَا أَتْبَعَجَ مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ ؛ وَقَالَتْ : وَيَحْكُمُ ! خُذُوا هَذِهِ (الْعِمَامَةَ) فَاسْتَقْوُوا ؛ فَإِنَّهَا كَمَا قَالَتْ ؛ تَقْدَمَتْ إِلَيْنَا بِالرَّأْيِ وَالْحَبْلِ ... !

وَكَانَ فِي الْعِظَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَارِيزِلٌ وَجُبْنَاءٌ ، وَمَأْكُولُونَ لِكُلِّ أَكَلٍ ؛ فَتَشَبَّحَ<sup>(١)</sup> لَهُمْ أَنَّ

(١) أَيُّ : خُيِّلَ إِلَيْهِمْ وَتَمَثَّلَ .

أَتَمُّ الْفَيْلِ هَذِهِ ... سَخَلَقَهُمْ فَيْلَةً إِنْ هُمْ أَطَاعُوهَا ؛ فَإِذَا مَرَدُّوا عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مِنْ صَرَامَةِ الْبَاسِ يَحِثُّ تَجَعُّلُ كُلِّ ظَلْفٍ مِنْ أَظْلَافِهَا جَبَلًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ فَتَسُوخُ بِهِمُ الْأَرْضُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ انْتَحَرَلُوا وَتَرَجَعُوا ، وَأَخَذَتْ (الْعِمَامَةُ) الصَّالِحَةَ فَشَنِقَتْ ، وَخَمَدَ الرَّأْيُ مِنْ بَعْدِهَا ، وَانْقَطَعَ الْخِلَافُ وَالِدَيْنُ وَالْعَقْلُ الْحُرُّ ... ؛ وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ الْعِظَاءِ عَلَى الْعَنْزِ تَجَرُّرُ أَذْيَالِهَا .

قَالُوا : وَاغْتَرَبَتِ الْمَاعِزَةُ وَأَحْسَتْ لَهَا وَجُودًا لَمْ يَكُنْ ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ مَاعِزَةٌ نَبَاهَةٌ شَانَ الْفَيْلِ الْقَوِيَّ ، فَلَجَّتْ فِي عَمَائِطِهَا وَكَفَرَتْ بِجَنَسِهَا ، وَقَالَتْ : لَمْ يَخْلُقْنِي اللَّهُ فَيْلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي ؛ فَأَنَا لَا هُوَ ... !

وَبَنَتْ عِنْدَهَا أَهَّاءَ لَيْسَتْ بِعَنْزٍ وَإِنْ أَشَبَّهَتْهَا كُلُّ عَنْزٍ فِي الدُّنْيَا ؛ وَذَهَبَتْ تُقَلِّدُ وَتَعِيشُ عَلَى مَذَاهِبِ الْفَيْلَةِ بَيْنَ الْعِظَاءِ ؛ فَإِذَا مَشَتْ أَرْتَجَّتْ وَتَحَطَّرَتْ كَأَنَّهَا بِنَاءٌ يَتَقَلَّقُلُ ، وَإِذَا اضْطَجَعَتْ أَذْذَرَتْ الْأَرْضَ أَنْ تَتَمَسَّكَ لَا تَدْكُهَا بِجَنَبِهَا ... !

وَمَرَّ ذَلِكَ الْفَيْلُ بِهِذَا الْخَرَابِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَاذَتْ الْعِظَاءُ كُلُّهُمْ بِالْفَيْلَةِ ... وَتَاهَبَتْ هَذِهِ لِلْفَيْتَالِ ، وَتَحَصَّصَتْ فِي الْمُبَارَزَةِ وَالْمُنَاجَزَةِ ... (وَالْمُعَانَزَةِ) فَتَصَبَّتْ قَرْنَيْهَا ، وَحَرَّكَتْ زَنْمَتَهَا ، وَطَاطَأَتْ ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي الْأَرْضِ ، وَتَبَسَّتْ قَوَائِمَهَا ، وَصَلَبَتْ عِظَامَهَا ، وَتَفَشَّتْ شَعْرَهَا ، وَتَشَوَّكَتْ كَالْقَنْفِذِ ، وَأَصْرَتْ بِكُلِّ ذَلِكَ إِضْرَارَهَا ، وَكَانَتْ عَنَّا نَظِيحَةً مُنْذُ كَانَتْ تَتَّبِعُ أُمَّهَا وَتَتْلُوَهَا ، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ تَفَلَّتْ ... ؟

ثُمَّ إِنَّهَا تَبَسَّتْ فِي طَرِيقِ الْفَيْلِ لِيَرَى بِعَيْنَيْهِ هَذَا الْهَوَلَ الْهَائِلَ ... فَأَقْبَلَ ، فَمَدَّ خُرُطُومَهُ ، فَتَالَهَا بِهِ ، فَلَمَّهَا فِيهِ ، فَفَبَضَّهُ ، فَفَرَقَعَهُ ، فَطَوَّحَهَا ، فَكَانَتْ ذَهَبَتْ فِي السَّمَاءِ ... !

وَتَهَارَبَتِ الْعِظَاءُ وَلُذْنَ بِأَجْحَارِهِمْ ، ثُمَّ غَدَوْنَ عَلَى رِزْقِهِمْ ؛ فَإِذَا جِيئَهُ الْعَنْزُ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَدَبَّيْنِ عَلَيْهَا وَأَرْتَعَيْنِ فِيهَا ، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً فَيْلَهَا جُزْئُهَا ، وَأَذْرَكْنَ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى الْحَقَائِقِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَقَائِقَ أُخْرَى تَقْتُلُهُ ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ أُمَّةَ الْعِظَاءِ عَلَى أَمْرِهَا فَلَيْسَتْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي عِظَاءَ فَيَغْلِبُهَا ؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ ، إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا ، وَأَنَّ الْإِنَاءَ الْأَحْمَرَ يُرِيكَ الْمَاءَ مُحْمَرًا وَالْمَاءَ فِي نَفْسِهِ لَا حُمْرَةَ



فِيهِ ، حَتَّى إِذَا أَنْكَسَرَ الْإِنَاءُ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ ؛ وَكُلُّ مَا يُخْفِي الْحَقَّ هُوَ كَهَذَا الْإِنَاءِ :  
لَوْ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ ؛ ثُمَّ أَتَيْنَا أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أُمِّهِ كَامِلَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ مَاعِزَةٍ مَأْفُوتَةٍ ، هِيَ  
كَمُحَاوَلَةِ اسْتِيلَادِ الْفِيلِ مِنَ الْمَاعِزَةِ ... !

\* \* \*

قَالَ كَلِيلَةُ . وَأَعْلَمَ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَلِدَةَ الْعَنْزَ الْحَمَقَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفْرَ الذُّبَابَةِ ، لَمَا  
أَخَذَهَا اللَّهُ أَخْذَ الذُّبَابَةِ .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ ذُبَابَةَ سُودَاءَ كَانَتْ مِنْ حَمَقَى الذُّبَابِ ، قُدِرَتْ الْحَمَاقَةُ عَلَيْهَا أَبَدِيَّةً ،  
فَلَوْ انْقَلَبَتْ نُقْطَةً خَبِرَ فِي دَوَاةٍ لَمَا كُنِيَتْ بِهَا إِلَّا كَلِمَةً : سُخْفٍ .

وَوَقَعَتْ هَلِدَةُ الذُّبَابَةِ عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ رَنْجِيَّةٍ صَخْمَةٍ ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا وَبَيْنَ  
الْمَرْأَةِ ؛ وَقَالَتْ : إِنَّ هَذَا لَمِنْ أَدَلِّ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ فَوْضَى لَا نِظَامَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ  
كَيْفَ يَتَّقَى عَلَى مَا يَتَّقَى ، عَبَثًا فِي عَبَثٍ ، وَلَا رَبَّ أَنْ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَذَبُوا النَّاسَ ، إِذْ كَيْفَ  
يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ خَلْقِي (أَنَا) وَخَلَقْتُ هَلِدَةَ الذُّبَابَةِ الضَّخْمَةَ الَّتِي أَنَا فَوْقَهَا ... ؟

ثُمَّ نَظَرَتْ لَيْلَةً فِي السَّمَاءِ ، فَأَبْصَرَتْ نُجُومَهَا يَتَلَاوَنَ وَبَيْنَهَا الْقَمَرُ ؛ فَقَالَتْ : وَهَذَا  
دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى مَا تَحَقَّقَ عِنْدِي مِنْ فَوْضَى الْعَالَمِ ، وَكَذِبِ الْأَدْيَانِ ، وَعَبَثِ الْمُصَادَفَاتِ ؛  
فَمَا الْإِيمَانُ بِعَيْنِهِ إِلَّا الْإِلْحَادُ بِعَيْنِهِ ، وَوَضَعَ الْعَقْلُ فِي شَيْءٍ هُوَ إِنْجَادُ الْأَلْهُوِيَّةِ فِيهِ ، وَإِلَّا  
فَكَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ وَضْعِي (أَنَا) فِي الْأَرْضِ وَرَفَعُ هَذَا الذُّبَابِ الْأَبْيَضِ وَيَعْسُوبِهِ  
الْكَبِيرِ<sup>(١)</sup> إِلَى السَّمَاءِ ... ؟

ثُمَّ إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ فَلَاحٍ ، فَجَعَلَتْ تَمْوُزُ فِيهَا ذَهَابًا وَجِئَةً ، حَتَّى رَجَعَتْ بِقَرَّةِ  
الْفَلَاحِ مِنْ مَرْعَاهَا ، فَبِهِتَتِ الذُّبَابَةُ وَجَمَدَتْ عَلَى غُرَّتِهَا مِنْ أَوَّلِ الْهَارِ إِلَى آخِرِهِ ، كَانَتْهَا  
تُرَاوِلُ عَمَلًا ؛ فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ : وَهَذَا دَلِيلٌ أَكْبَرُ الدَّلِيلِ عَلَى فَوْضَى الْأَرَزَاقِ فِي الدُّنْيَا ،

(١) { الْيَعْسُوبُ : أَمِيرُ اللَّخْلِ وَالذُّبَابِ وَنَحْوِهِمَا ، خُيِّلَ لِلذُّبَابَةِ أَنَّ الْقَمَرَ أَمِيرٌ هَذَا الذُّبَابِ  
الْأَبْيَضِ ... } .

فَهَاتَانِ ذُبَابَتَانِ قَدْ ثَقَبَتَا ثُقُبَيْنِ فِي وَجْهِ هَلِدَةِ الْبَقَرَةِ وَاكْتَنَتَا فِيهِمَا تَأْكُلَانِ مِنْ شَحْمِهَا فَتَعْظَمَانِ  
سِمْنًا ، وَالنَّاسُ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ الذُّبَابِي يُسْمُونَهُمَا عَيْنَيْنِ ... وَأَنَا قَضَيْتُ الْيَوْمَ كُلَّهُ  
أَخْمِشُ وَأَعْصُ وَالسَّعُ لَا ثَقْبَ لِي ثَقْبًا مِثْلَهُمَا فَمَا انْتَزَعْتُ شَعْرَةً ؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ  
رِزْقِي (أَنَا) وَرِزْقُ هَاتَيْنِ الذُّبَابَتَيْنِ فِي وَجْهِ الْبَقَرَةِ ... ؟

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ خُنْفَسَاءَ تَدْبُ دَبِيبَهَا فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَفْئَادِ ؛ فَتَنَظَّرَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ : هَلِدَةُ  
لَا تَصْلُحُ دَلِيلًا عَلَى الْكُفْرِ ؛ فَإِنِّي (أَنَا) خَيْرٌ مِنْهَا ؛ (أَنَا) لِي أَجْنَحَةٌ وَلَيْسَ لَهَا ، (وَأَنَا)  
خَفِيفَةٌ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ ؛ وَمَا كَانَتْهَا ذُبَابَةٌ قَدِيمَةً مِنْ ذُبَابِ الْقُرُونِ الْأُولَى ، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بَلِيدًا  
لَا يَتَحَرَّكُ ، فَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ الْحَرَكََةَ جَنَاحًا<sup>(١)</sup> . ثُمَّ إِنَّهَا أَصْغَتْ فَسَمِعَتْ الْخُنْفَسَاءَ تَقُولُ  
لِأُخْرَى وَهِيَ تُحَاوِرُهَا : إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَخْلُوقُ أَنَّهُ كَمَا يَشْتَهِي فَلْيَكْفُرْ كَمَا يَشْتَهِي ؛  
يَا وَيْحَكَ ! لِمَ لَمْ نَكُنْ جَامُوسًا كَهَذَا الْجَامُوسِ الْعَظِيمِ ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَرْقٌ إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ  
مَنْ يَنْقُضُهُ وَلَمْ نَجِدْ ... ؟

فَقَالَتِ الذُّبَابَةُ : إِنَّ هَذَا دَلِيلُ الْعَقْلِ فِي هَلِدَةِ الْعَاقِلَةِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَا تَمْشِي مُثَاقِلَةً  
مِنْ أَنَّهَا بَطِينَةٌ مُرْهَقَةٌ بِعَجْرِهَا ، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهَا وَقُورٌ مُثْقَلَةٌ بِأَفْكَارِهَا ، وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي  
(أَنَا) السَّابِقَةُ إِلَى كَشْفِ الْحَقِيقَةِ ... !

وَجَعَلَتِ الذُّبَابَةُ لَا يَسْمَعُ مِنْ دَنْدَنَتِهَا إِلَّا ، أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ... مِنْ كُفْرِ إِلَى كُفْرِ  
غَيْرِهِ ، إِلَى كُفْرِ غَيْرِهِمَا ؛ حَتَّى كَانَتْ السَّمَاوَاتِ كُلُّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ  
ذُبَابَةٍ .....

ثُمَّ جَاءَتِ الْحَقِيقَةُ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ الْأَحْمَقِ تَسْعَى سَعْيَهَا ؛ فَبَيْنَا الذُّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ  
حَائِطٍ ، وَقَدْ أَكَلَتْ بَعُوضَةً أَوْ بَعُوضَتَيْنِ ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا ، فَوَقَفَتْ تَحُلُكُ ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهَا  
- دَنَتْ بَطَّةً صَغِيرَةً قَدْ انْقَلَبَتْ عَنْهَا الْبَيْضَةُ أَمْسٍ ، فَمَدَّتْ مِنْقَارَهَا ، فَالْتَقَطَتْهَا .

وَلَمَّا انْطَبَقَ الْمِنْقَارُ عَلَيْهَا قَالَتْ : أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْبَطَّةَ ... !

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) { إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْوُظَيْفَةَ تَخْلُقُ الْعُضْوُ كَمَا زَعَمُوا } .

## يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! (\*)

يَقُولُونَ : إِنَّ فِي شَبَابِ الْعَرَبِ شَيْخُوخَةَ أَلْهَمِ وَالْعَزَائِمِ ؛ فَالشُّبَّانُ يَمْتَدُّونَ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ وَهُمْ يَنْكَمِشُونَ .

وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ خَفَّ بِهِمْ حَتَّى ثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ حَيَاةُ الْجِدِّ ، فَاهْمَلُوا الْمُمْكِنَاتِ فَرَجَعَتْ لَهُمْ كَالْمُسْتَحِيلَاتِ .

وَأَنَّ الْهَزْلَ قَدْ هَوَّنَ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَعْبَةٍ فَاخْتَصَرُواهَا ؛ فَإِذَا هَزُّوا بِالْعَدُوِّ فِي كَلِمَةٍ فَكَأَنَّمَا هَزَمُوهُ فِي مَعْرَكَةٍ ...

وَأَنَّ الشَّابَّ مِنْهُمْ يَكُونُ رَجُلًا تَامًا ، وَرُجُلَةً جِسْمِهِ تَخْتَجُّ عَلَى طُفُولَةِ أَعْمَالِهِ .

وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَ شَبَابِ الْعَرَبِ أَلَّا يَحْمِلُوا أَبَدًا تَبْعَةَ أَمْرِ عَظِيمٍ .

وَيَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا الشَّابَّ قَدْ تَمَّتِ الْأَلْفَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَغْلَاطِهِ ، فَحَيَاتُهُ حَيَاةُ هَذِهِ الْأَغْلَاطِ فِيهِ .

وَأَنَّهُ أَبْرَعُ مُقَلِّدٍ لِلْغَرْبِ فِي الرِّذَائِلِ خَاصَّةً ؛ وَبِهَذَا جَعَلَهُ الْغَرْبُ كَالْحَيَوَانِ مَحْضُورًا فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَلَذَائِهِ .

وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الرُّجَاخَةَ مِنَ الْخَمْرِ تَعْمَلُ فِي هَذَا الشَّرْقِ الْمُسْكِينِ عَمَلَ جُنْدِيٍّ أجنبيٍّ فَاتِحٍ ...

وَيَتَوَصَّوْنَ بِأَنَّ أَوَّلَ السِّيَاسَةِ فِي اسْتِعْبَادِ أُمَمِ الشَّرْقِ ، أَنْ يُتْرَكَ لَهُمْ الْأَسْتِقْلَالُ التَّامُّ فِي حُرِّيَّةِ الرِّذِيلَةِ ...

(\*) «الرسالة» العدد : ١٥٥ ، ٣ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٢ يونيو/حزيران ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٠٠١ - ١٠٠٣ .

وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ لَا بُدَّ فِي الشَّرْقِ مِنَ التَّخَرُّبِ : قُوَّةُ أُوْرُبَّةَ ، وَرَذَائِلُ أُوْرُبَّةَ .

\* \* \*

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! مَنْ غَيَّرَكُمْ يُكَذِّبُ مَا يَقُولُونَ وَيَزْعُمُونَ عَلَى هَذَا الشَّرْقِ الْمُسْكِينِ ؟

مَنْ غَيَّرَ الشَّابَّ يَضَعُ الْقُوَّةَ بِإِزَاءِ هَذَا الضَّعْفِ الَّذِي وَصَفُوهُ لِيَكُونَ جَوَابًا عَلَيْهِ ؟

مَنْ غَيَّرَكُمْ يَجْعَلُ النُّفُوسَ قَوَائِنَ صَارِمَةً ، تَكُونُ الْمَادَّةُ الْأُولَى فِيهَا : قَدَرْنَا لِأَنَّا أَرَدْنَا ؟

أَلَا إِنَّ الْمَعْرَكَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْأَسْتِعْمَارِ مَعْرَكَةُ نَفْسِيَّةٍ ، إِنْ لَمْ يُقَاتَلْ فِيهَا الْهَزْلُ قُتِلَ فِيهَا الْوَاجِبُ !

وَالْحَقَائِقُ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَذَا الْأَسْتِعْمَارِ إِنَّمَا يَكُونُ فِيكُمْ أَنْتُمْ بِحَنَاقِ التَّحْلِيلِيِّ ، تَكْذِبُ أَوْ تَصْدُقُ .

\* \* \*

الشَّابَّ هُوَ الْقُوَّةُ ؛ فَالْشُّمُسُ لَا تَمْلَأُ النَّهَارَ فِي آخِرِهِ كَمَا تَمْلَأُهُ فِي أَوَّلِهِ .

وَفِي الشَّابِّ نَوْعٌ مِنَ الْحَيَاةِ تَظْهَرُ كَلِمَةُ الْمَوْتِ عِنْدَهُ كَأَنَّهَا أَخْتُ كَلِمَةِ النُّومِ .

وَلِلشَّابِّ طَبِيعَةٌ أَوَّلُ إِدْرَاكِهَا الثَّقَةُ بِالْبَقَاءِ ، فَأَوَّلُ صِفَاتِهَا الْإِضْرَارُ عَلَى الْعَزَمِ .

وَفِي الشَّابِّ تَصْنَعُ كُلُّ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ الْحَيَاةِ أَمْرًا ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ لَا تَصْنَعُ الْأَشْجَارُ كُلُّهَا إِلَّا خَشْبًا ...

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! اجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَخِيَا الشَّرْقُ عَرِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتُوا .

\* \* \*

أَنْقِدُوا فَضَائِلَنَا مِنْ رَذَائِلِ هَذِهِ الْمَدَنِيَّةِ الْأُوْرُبِيَّةِ ، تُنْقِدُوا اسْتِقْلَالَنَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتُنْقِدُوا بِذَلِكَ .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ حِينَ يَدْعُو إِلَيْهِ الْغَرْبُ ، «يَدْعُو لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» لَيْسَ الْمَوْلَى

وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿٢٢﴾ سورة الحج / الآية : ١٣ .

لَيْسَ الْمَوْلَى إِذَا جَاءَ بِقُوَّتِهِ وَقَوَائِنِهِ ، وَلَيْسَ الْعَشِيرُ إِذَا جَاءَ بِرِذَائِلِهِ وَأَطْمَاعِهِ .

أَيُّهَا الشَّرِيفُ ! إِنَّ الدُّنْيَا أَلْجَبِيَّ فِيهِ رِصَاصَةٌ مَخْبُوءَةٌ ، وَحُقُوقُنَا مَقْتُولَةٌ بِهِلِهِ الدُّنْيَا نِير .

أَيُّهَا الشَّرِيفُ ! لَا يَقُولُ لَكَ الْأَجَنِيُّ إِلَّا مَا قَالَ الشَّيْطَانُ : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [١٤ سورة إبراهيم / الآية : ٢٢] .

\* \* \*

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! لَمْ يَكُنِ الْعَسِيرُ يَغْسُرُ عَلَى أَسْلَافِكُمْ الْأَوَّلِينَ ، كَانَ فِي يَدِهِمْ مَفَاتِيحُ مِنَ الْعَنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا .

أَتَرِيدُونَ مَعْرِفَةَ السَّرِّ ؟ السَّرُّ أَنَّهُمْ أَرْتَفَعُوا فَوْقَ ضَعْفِ الْمَخْلُوقِ ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَالِقِ .

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْفَقْرِ ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ ، وَالْمَعْنَى الْأَرْضِيَّ .

وَعَلَّمَهُمُ الدِّينُ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِاللَّذَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عَظَمَتَهُ وَكِبَرِيَاءَهُ .

وَأَخْتَرَهُمُ الْإِيمَانَ أَخْتِرَاعًا نَفْسِيًّا ، عَلَامَتُهُ الْمُسَجَّلَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ : لَا يَذِلُّ .

\* \* \*

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قَلَّةَ الْمَالِ ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَتَنْخَذِلُ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَتَهْلِكُ أَلْمَوَاهِبُ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ فَقْرُ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ ، يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَغْنِيَّ ، وَتَتَبِعْتُ الْقُوَّةَ ، وَتَعْمَلُ كُلُّ مَوْهَبَةٍ .

وَحِينَ يَكُونُ الْخَوْفُ مِنْ نَقْصِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالْآمِهَا ، تُفَسِّرُ كَلِمَةَ الْخَوْفِ مِثْلَ رِذِيلَةٍ غَيْرِ الْخَوْفِ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ مِنْ نَقْصِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا ، تُصْبِحُ الْكَلِمَةُ قَانُونُ الْفَضَائِلِ أَجْمَعِ .

هَكَذَا اخْتَرَعَ الدِّينُ إِنْسَانَهُ الْكَبِيرَ النَّفْسِ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ : أَنَهَزَمَتْ نَفْسُهُ .

\* \* \*

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! كَانَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ الَّتِي يَغْمَلُونَ عَلَيْهَا : أَطْلُبِ الْمَوْتَ تُوَهِّبَ لَكَ الْحَيَاةُ .

وَالنَّفْسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ الْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ أَوَّلَ غَرَائِزِهَا تَعْمَلُ .

وَلِلْكِفَاحِ غَرِيزَةٌ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا نَصْرًا ، إِذْ لَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا فِكْرَةُ مُقَاتَلَةٍ .

غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ يَا شَبَابُ ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ الْأَسَدَ لَا يُسَمَّنُ كَمَا تُسَمَّنُ الشَّاةُ لِلذَّبْحِ .

وَإِذَا أَنْكَسَرَتْ يَوْمًا ، فَالْحَجَرُ الصَّلْدُ إِذَا تَرَضَّرَضَتْ مِنْهُ قِطْعَةٌ كَانَتْ دَلِيلًا يَكْشِفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِيعَهُ حَجَرٌ صَلْدٌ .

\* \* \*

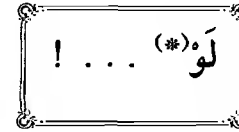
يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! إِنَّ كَلِمَةَ (حَقِّي) لَا تَخِيَا فِي السِّيَاسَةِ إِلَّا إِذَا وَضَعَ قَائِلُهَا حَيَاتَهُ فِيهَا .

فَالْقُوَّةُ الْقُوَّةُ يَا شَبَابُ ! الْقُوَّةُ الَّتِي تَقْتُلُ أَوَّلَ مَا تَقْتُلُ فِكْرَةَ التَّرَفِ وَالتَّخَلُّثِ .

الْقُوَّةُ الْفَاضِلَةُ الْمُتَسَامِيَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَنْصَارِ فِي كَلِمَةٍ (نَعَمْ) مَعْنَى نَعَمْ .

الْقُوَّةُ الصَّارِمَةُ التَّفَادَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَعْدَاءِ فِي كَلِمَةٍ (لَا) مَعْنَى لَا .

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! أَجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَخِيَا الشَّرْقُ عَزِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتُوا .



رَأَيْتُنِي جَالِسًا فِي مَسَرِّحِ هَزْلِي بِمَدِينَةِ إِسْكَنْدَرِيَّةَ ، كَمَا يَجْلِسُ الْقَاضِي فِي جَرِيمَةٍ  
يَحْمِلُ أَهْلُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَامَتُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ ، وَيَحْمِلُ هُوَ عَقْلَهُ وَحُكْمَهُ . وَقَدْ ذَهَبْتُ لِأَرَى  
كَيْفَ يَسَاحِفُ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ؛ فَكَانَ حُكْمِي أَنَّ السَّخَافَةَ عِنْدَنَا سَخِيفَةٌ جِدًّا . . .

رَأَيْتُهُمْ هُنَاكَ يَنْقُدُونَ الْعُيُوبَ بِمَا يُنْشِئُ عُيُوبًا جَدِيدَةً ، وَيَسْبَحُونَ بِأَيْدِيهِمْ سَبَاحَةَ  
مَاهِرَةٍ ؛ وَلَكِنْ عَلَى الْأَرْضِ لَا فِي الْبَحْرِ ، وَتَكَادُ نَظَرُهُمْ إِلَى الْحَقِيقَةِ الْهَزْلِيَّةِ تَكُونُ عَمَى  
ظَاهِرًا عَمَّا هِيَ بِهَ حَقِيقَةُ هَزْلِيَّةٍ ؛ وَلَا غَايَةَ لَهُمْ مِنْ هَذَا التَّمَثِيلِ إِلَّا الرِّقَاعَةَ وَالْإِسْفَافَ  
وَالْخَلْطَ وَالْهَذْيَانَ ، إِذْ كَانَ هَذَا هُوَ الْأَشْبَهُ بِجُمْهُورِهِمُ الَّذِي يَحْضُرُهُمْ ، وَكَانَ هُوَ  
الْأَقْرَبُ إِلَى تِلْكَ الطَّبَاعِ الْعَامِيَّةِ الْبَلِيدَةِ الَّتِي اعْتَادَتْ مِنْ تَكْلِيفِ الْهَزْلِ مَا جَعَلَهَا هِيَ فِي ذَاتِ  
نَفْسِهَا هَزْلًا يُسَخَّرُ مِنْهُ .

وَلَا أَسْخَفَ مِنْ تَكْلِيفِ الْكُتْبَةِ الْبَارِدَةِ قَدْ خَلَتْ مِنَ الْمَعْنَى ، إِلَّا تَكْلِيفُ الضَّحِكِ  
الْمَصْنُوعِ يَأْتِي فِي عَقِبِهَا كَالْبُرْهَانِ عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْكُتْبَةِ مَعْنَى .

قَالَ قُلْتُ الْمُضْحِكُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ السُّخْفُ الَّذِي يُوَافِقُونَ بِهِ الرُّوحَ الْعَامِيَّةَ  
الضَّئِيلَةَ الْكَادِبَةَ الْمَكْذُوبَ عَلَيْهَا ، الَّتِي يَبْلُغُ مِنْ بَلَاهِهَا أحيانًا أَنْ تَضْحَكَ لِلْكُتْبَةِ قَبْلَ  
إِلْقَائِهَا ، لِقَرِّطِ خِفَتِهَا وَرُعُونَتِهَا ، وَطُولِ مَا تَكَلَّفَتْ وَاعْتَادَتْ . فَمَا ذَلِكَ الْقُلُّ إِلَّا مَا تَرَى  
مِنْ التَّخْلِيطِ فِي الْأَلْفَافِ ، وَالتَّضْرِيبِ بَيْنَ الْمَعَانِي ، وَإِنْقَاعِ الْعَلْطِ فِي الْمَعْقُولَاتِ ؛ ثُمَّ  
لَا ثُمَّ بَعْدَ هَذَا . فَلَا دِقَّةَ فِي التَّالِيفِ ، وَلَا عُمُقَ فِي الْفِكْرَةِ ، وَلَا سِيَاسَةَ فِي جَمْعِ  
الْقَائِضِ ، وَلَا نَفَازَ فِي أَسْرَارِ النَّفْسِ ، وَلَا جِدًّا يُؤْخَذُ مِنْ هَزْلِيَّةِ الْحَيَاةِ ، وَلَا عَظَمَةَ  
تُسْتَخْرَجُ مِنْ صَغَائِرِهَا ، وَلَا فِلَسَفَةَ تُعْرَفُ مِنْ حِمَاقَاتِهَا .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥٨ ، ٢٤ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ١٣ يوليو / تموز ١٩٣٦ م ، السنة  
الرابعة ، الصفحات : ١١٢١ - ١١٢٣ .

وَالْفَرْقُ بَعِيدٌ بَيْنَ ضَحِكِ هُوَ صِنَاعَةُ ذَهْنٍ لِتَحْرِيكِ النَّفْسِ ، وَشَخْذِ الطَّنْعِ ، وَتَصَوُّرِ  
الْحَقِيقَةِ صُورَةً أُخْرَى ، وَبَيْنَ ضَحِكِ هُوَ صِنَاعَةُ أَلْبَاهَةِ لِلْهُوِ وَالْعَبَثِ وَالْمَجَانَةِ لَا غَيْرَ .

\* \* \*

وَكَانَ مَعِيَ قَرِيبٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ الطَّلَبَةِ الْمُتَخَصِّصِينَ لِلآدَابِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، فَلَمْ نَلْبَثْ إِلَّا  
يَسِيرًا <sup>(١)</sup> حَتَّى جَاءَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ضُباطِ الْأَسْطُولِ الْإِنْكِلِيزِيِّ ، فَجَلَسُوا بِجِدَائِنَا صَفًّا تَلُوحُ عَلَيْهِمْ  
مَخَابِلُ الطَّفَرِ ، وَلَهُمْ وَقَارُ الْبُطُولَةِ ، وَفِيهِمْ أَرْوَاحُ الْحَزَبِ ؛ وَهُمْ يَبْدُونَ فِي ثِيَابِهِمُ الْبَيْضِ  
الْمُطَرَّةِ <sup>(٢)</sup> كَانَهُمْ ثَلَاثَةٌ نُشُورٍ هَبَطَتْ مِنَ الْعَمَامِ إِلَى الْأَرْضِ ، فَلَاغْنِيهَا نَظَرَاتُ تَدَوُّرُ هُنَا  
وَهُنَاكَ تُتَكَبَّرُ وَتَعْرِفُ .

وَأَغْبَيْتَنِي أَنْ أَرَاهُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْهَزْلِيِّ الْمُتَمَتِّلِ بِالضَّعْفَاءِ ، كَانَهُمْ ثَلَاثُ حَقَائِقَ  
بَيْنَ الْأَغْلَاطِ ، أَوْ ثَلَاثُ أَغْلَاطٍ كَبِيرَةٍ . . . وَكَانَ أَبْدَعُ مَا أَرَاهُ عَلَى هَيْئَةٍ وَجُوهِهِمْ وَأَسْرُ  
لَهُ ، تَوَاضَعُ هَذَا الْأَسْتِعْدَادِ الْحَزْبِيِّ وَتَحَوُّلُهُ إِلَى اسْتِعْدَادٍ لِلشُّخْرِيةِ . . .

ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ طَوِيلًا ، فَإِذَا صَرَامَةٌ وَشَهَامَةٌ ، وَسَكِينَةٌ وَوَدَاعَةٌ ، وَحُسْنُ سَمْتٍ وَحَلَاوَةٌ  
هَيْئَةٍ فِي جَلَسَةِ رَزِينَةٍ مُتَوَقِّرَةٍ ، لَا يُشَبِّهُهَا فِي حِسِّ النَّفْسِ الَّتِي تَعْرِفُ مَعَانِي الْقُوَّةِ إِلَّا وَضْعُ  
ثَلَاثَةِ مَدَافِعٍ مُصَوَّبَةٍ .

وَجَعَلْتُ أَقْلُبُ عَيْنِي فِي النَّاسِ الْمَوْجُودِينَ وَمَلَامِحِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَرْجِعُ الْبَصَرَ إِلَى  
هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ ، فَأَرَى الْمَضْرِبَ كَالْمُقْتَنِعِ بِأَنَّهُ مَخْدُودٌ بِمَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ لَا يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ مَكَانًا  
فِي غَيْرِهِمَا ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ لَا يَرْحَلُ وَلَا يُغَامِرُ ، وَلَا تَتَفَادَفُهُ الدُّنْيَا ؛ وَأَرَى الْإِنْكِلِيزِيَّ  
كَالْمُقْتَنِعِ بِأَنَّ كُلَّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ يَنْتَظِرُ الْإِنْكِلِيزِيَّ . . .

وَحَيْلٌ إِلَيَّ وَاللَّهِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْإِنْكِلِيزِيِّ الْأَقْوِيَاءِ الْمُعْتَدِينَ بِأَنْفُسِهِمْ لَا يُهَاجِرُ مِنْ  
بِلَادِهِ إِلَّا وَمَعَهُ نَفْسُهُ وَاسْتِقْلَالُهُ ، وَتَارِيخُهُ وَرُوحُ دَوْلَتِهِ ، وَطَبِيعَةُ أَرْضِهِ ؛ فَهُوَ مُسْتَقِينٌ أَنَّ

(١) فِي الْأَصْلِ : « غَيْرُ قَلِيلٍ » بَدَلًا مِنْ : « إِلَّا يَسِيرًا » .

(٢) أَيْ الْمَكُونَةِ ؛ وَالْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي اسْتَعْمِلْتُ قَدِيمًا فِي مَعْنَى (الْمَكُونِجِي) هِيَ : الْمُطَرِّي (بِتَشْدِيدِ  
الرَّاءِ) .

الله لَا يَزِفُهُ رِزْقًا أَيُّ الرِّزْقِ كَانَ عَلَى مَا يَتَّقُو ، بَلْ رِزْقًا إِنكِيلِيًّا ، أَنِي : فِيهِ كِفَايَتُهُ .

وَرَأَيْتُ شَيْئًا عَجِيبًا مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ طَائِعِ السَّلَامِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَبَيْنَ طَائِعِ الْحَرْبِ عَلَى وَجْهِهِ أُخْرَى ؛ فَفِي تِلْكَ مَعَانِي السُّهُولةِ وَالْمَلَايَنَةِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، وَفِي هَذِهِ مَعَانِي الْعَزَمِ وَالْمُقَاوَمَةِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَجْدِ الْحَيَاةِ لَا عَلَى مَادَتِهَا .

وَتَبَيَّنْتُ أَسْلُوبَيْنِ مِنَ الْأَسَالِيبِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ : أَحَدُهُمَا فِي فَرْدٍ قَدْ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّ أُمَّةً تَحْمِلُهُ ، فَهُوَ يَعْيشُ بِأَضْعَفِ مَا فِيهِ ؛ وَالْآخَرُ فِي فَرْدٍ قَدْ وَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ يَحْمِلُ أُمَّةً فَلَا يَدْعُ فِي نَفْسِهِ قُوَّةً إِلَّا ضَاعَفَهَا .

وَعَرَفْتُ وَجْهَيْنِ مِنْ وَجْهِهِ التَّزْيِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ : أَحَدُهُمَا بِالطَّنْطَنَةِ ، وَالتَّهْوِيلِ ، وَالصُّرَاحِ ، وَاسْتِعَارَةِ أَلْفَاظٍ غَيْرِ الْوَاقِعِ لِلْوَاقِعِ ، وَتَحْمِيلِ الْأَلْفَاظِ غَيْرَ مَا تَحْمِلُ ؛ وَالْآخَرُ بِالْهَذْوِ الَّذِي يَقْهَرُ الْحَوَادِثَ ، وَالصَّبْرَ الَّذِي يَغْلِبُ الزَّمَنَ ، وَالْعَقِيدَةَ الَّتِي تَفْرِضُ أَعْمَالَهَا الْعَظِيمَةَ عَلَى صَاحِبِهَا وَتَجْعَلُ أَعْظَمَ أَجْرِهَا أَنَّ يَقُومَ بِهَا .

وَمَيَّزْتُ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ أَثَارِ الْأَرْضِ فِي أَهْلِهَا : أَحَدُهُمَا فِي الْمِصْرِيِّ السَّمِجِ الْوَادِعِ الْأَلُوفِ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ كَرَمِ الطَّبِيعَةِ ، وَالْآخَرُ فِي الْإِنْكِيلِيَّيِّ الْعَسِرِ الْمُغَامِرِ الثَّقُورِ الْمُلِحِّ عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّهُ تَطْفُلُ الطَّبِيعَةِ ...

\* \* \*

وَالْقَى ابْنَ الْعَمِّ الَّذِي كَانَ مَعِي سَمْعُهُ إِلَى هَلْوَاءِ الضُّبَابِ ، وَهُمْ مِنْ فَلَاسِفَةِ الرَّأْيِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ حَدِيثِهِمْ ، ثُمَّ نَقَلَ إِلَيَّ عَنْهُمْ ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : لَقَدْ فَرَعْتُ مِنْ بَحْثِي الَّذِي وَضَعْتُهُ فِي فَلَاسِفَةِ خُمُولِ الشَّرْقِيِّينَ ، وَأَفْضَيْتُ مِنْهُ إِلَى حَقَائِقَ عَجِيبَةٍ ، أَظْهَرَهَا وَأَخْفَاهَا مَعًا أَنَّ أُمَّةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ لَا يُمْكِنُ الْأَجْنَبِيُّ فِيهَا ، وَلَا تَقْلُ وَطْأَتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَطُولُ نَوَاؤُهُ فِي أَرْضِهِمْ ، وَلَا يَخْتَلُّهَا مَنْ يَطْمَعُ فِيهَا ، مَا لَمْ يَكُنْ سَادَتُهَا وَأَمْرَاؤُهَا وَكِبْرَاؤُهَا كَأَنَّهُمْ فِيهَا دَوْلَةٌ مُخْتَلَّةٌ .

وَهَلْوَاءُ الْكِبْرَاءِ هُمْ أُمَّةُ الشَّرْقِ ؛ فَمِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِنَا أَنْ نَزِيدَ فِي تَعْظِيمِهِمْ ، وَأَنْ نَمُدَّ لَهُمْ فِي أَلْمَالِ وَالْجَاهِ ، وَنَبْسُطَ لَهُمُ الْيَمِينَ وَالشَّمَالَ ، وَنُوهِمَهُمْ أَنْ عَظَمَتَهُمْ هَكَذَا وَلَدَتْ

فِيهِمْ وَهَكَذَا وَلَدُوا بِهَا مِنْ أَهْمَاتِهِمْ كَمَا وَلَدُوا بِأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ ... وَخَاصَّةً عُظَمَاءَ رِجَالِ الْأَدْيَانِ الْمُفْتُونِينَ بِالدُّنْيَا ؛ فَإِنَّا نَصْنَعُ بِغُرُورِ الْجَمِيعِ وَسَخَافَاتِهِمْ وَحِرْصِهِمْ وَطَمَعِهِمْ أَشْيَاءَ أَجْتِمَاعِيَّةً ذَاتَ خَطَرٍ لَا يَضَعُ لَنَا مِثْلَهَا إِلَّا الشَّيَاطِينُ ، وَمَنْ لَنَا بِالْحُكْمِ عَلَى الشَّيَاطِينِ ؟ وَهَذَا مَا تَنْبَهُ لَهُ (غَانِدِي) ذَلِكَ الْمَهْزُورُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي تُقَوِّمُ دُنْيَاهُ بِأَرْبَعَةِ سِلَنَاتٍ ، وَلَا يَزِنُ أَكْثَرَ مِنْ بَضْعَةِ أَرْطَالٍ مِنَ الْجِلْدِ وَالْعَظْمِ ، وَلَا يَطْلُسُ عِنْدَهُ وَلَا قُوَّةَ فِيهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ جَبَّارٌ سَمَآوِيٌّ فِي يَدِهِ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ يُرَى وَيُسْمَعُ فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا .

قَالَ ضَابِطُ الْيَمِينِ : وَبِصِنَاعَةِ الْكِبَرِيَاءِ<sup>(١)</sup> هَذِهِ الصَّنَاعَةُ يَكُونُ رَجُلٌ الشَّعْبِ مِنْ هَلْوَاءِ الشَّرْقِيِّينَ رَجُلٌ تَقْلِيدٌ بِالطَّبِيعَةِ ، وَرَجُلٌ ذَلٌّ بِالْحَالَةِ ، وَرَجُلٌ خُضُوعٌ بِالْجُمْلَةِ ؛ فَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيِّدٌ نَفْسِهِ وَلَا سَيِّدٌ غَيْرِهِ ، بَلْ أَكْبَرُ مَعَانِيهِ أَنْ غَيْرُهُ سَيِّدٌ عَلَيْهِ فَيَكُونُ مَعَهُ دَائِمًا خِيَالُ اسْتِعْبَادِهِ .

وَتَكَلَّمَ ضَابِطُ الْيَسَارِ ، وَلَكِنَّ الْمُنْتَزِعَ لَمْ يُمَيِّزْ أَقْوَالَهُ ، لِأَنَّ ثَلَاثَ عَشْرَةَ أَمْرًا كُنْ يَصْرُخُنَ فِي الرَّوَايَةِ الْهَزْلِيَّةِ بِلُحْنٍ طَوِيلٍ يَقْلُنَ فِي أَوَّلِهِ : « عَاوِزِينَ رِجَالَهُ تَدْلَعُنَا ... » وَكَانَتْ الْمُوسِيقَى تَصْرُخُ مَعَهُ وَتُؤَلِّوْلُ كَأَنَّهَُا هِيَ أَيْضًا أَمْرًا مُحْرُومَةً ...

\* \* \*

ثُمَّ أَزْهَفَ الْمُنْتَزِعُ أَذُنَهُ فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : إِنَّ لِهَلْوَاءِ الشَّرْقِيِّينَ سِتَّ حَوَاسٍ : الْخَمْسُ الْمَعْرُوفَةُ ، وَحَاسَةُ الْخُمُولِ الَّذِي خَدَعَتْهُمْ عَنْهُ الطَّبِيعَةُ الْبَلِيدَةُ فَسَمَوَهُ الْكَرْفَ وَالْهَزْلَ وَاللَّهُوَ ؛ وَالْأُمَّةُ الْأُورُوبِيَّةُ الَّتِي تَخْتَلُ بِلَادًا شَرْقِيَّةً تَجِدُ فِيهَا لِصَغَائِرِ الْحَيَاةِ جَيْشًا أَقْوَى مِنْ جَيْشِهَا ؛ فَعَشْرَةُ آلَافٍ جُنْدِيٍّ يِعْتَادُهُمْ وَالْآتِيَهُمْ ، لَا يَصْنَعُونَ شَيْئًا إِلَّا الْأَسْتِفْزَارَ وَالتَّحْدِيَّ وَإِثْبَاتَ أَنَّهُمْ غَاصِبُونَ ؛ وَلَكِنْ مَا أَنْتَ قَائِلٌ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ مَكَانٍ كَهَذَا الْمَسْرَحِ بِرَاقِصَاتِهِ وَمُؤَمِّسَاتِهِ وَخُمُورِهِ وَرَوَايَاتِهِ ، وَبِهَلْوَاءِ الرِّجَالِ الْمُخْتَلِّينَ الْهَزْلِيِّينَ الرُّقَعَاءَ الَّذِينَ هُمْ وَخَدَهُمْ مُعَاهَدَةً سِيَاسِيَّةً نَاجِحَةً بَيْنَنَا وَبَيْنَ شَبَابِ الْأُمَّةِ ... ؟

قَالَ ضَابِطُ الْيَمِينِ : نَعَمْ ، إِنَّ قَنَ الْأَخْتِلَالِ قَنَ عَسْكَرِيٍّ فِي الْأَوَّلِ ، وَلَكِنَّهُ قَنَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْكِبَرَاءِ » بَدَلًا مِنْ : « الْكِبَرِيَاءِ » .

أَخْلَاقِي فِي الْآخِرِ ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ تَعْيِينُ نَقْطَةِ اتِّجَاهٍ لِلشَّبَابِ تَكُونُ مُضِيئَةً لَامِعَةً جَدَابَةً مُغْرِبَةً ، وَلِكَيْلِهَا فِي ذَاتِ الْوَقْتِ مَحْرِقَةً أَيْضًا ، وَهَذِهِ هِيَ صِنَاعَةُ إِهْلَاكِ الشَّبَابِ بِالضُّوْءِ الْجَمِيلِ ، وَمَا عَلَى السِّيَاسِيِّ الْحَاقِ فِي الشَّرْقِ إِلَّا أَنْ يَحْمِيَ الرِّذِيلَةَ ، فَإِنَّ الرِّذِيلَةَ سَتَعْرِفُ لَهُ صَنِيعَهُ وَتَحْمِيَهُ ...

فَتَكَلَّمَ ضَاطِطُ الْيَسَارِ ، وَلَكِنَّ صَوْتَهُ ذَهَبَ فِي عِشْرِينَ صَوْتًا مِنْ رِجَالِ الْمَسْرَحِ وَنِسَائِهِ يَصْنَحُونَ جَمِيعًا : « يَا حِلْوَةُ يَا خَفَافِي ، يَا مُجَنِّتَهُ الشُّبَّانَ ... »

\* \* \*

وَلَمَّا أَلَمَمْتُ بِجَوَارِ الضُّبَاطِ الثَّلَاثَةِ قُلْتُ لِصَاحِبِي : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِمْ أَكَلْنَهُمْ . فَفَعَلَ وَعَرَفَنِي إِلَيْهِمْ ، وَتَرَجَمَ لَهُمْ مَقَالَةَ (يَا شَبَابَ الْعَرَبِ) وَكَانَ يَحْمِلُهَا . فَكَأَنَّمَا رَمَاهُمْ مِنْهَا بِالْجَنَسِ وَالْأَسْطُولِ .

ثُمَّ قُلْتُ لِكَبِيرِهِمْ : لَسْتُ أَتُكَبِّرُ أَنَّ الْإِنْكِلِيزِيَّ لَوْ دَخَلَ جَهَنَّمَ لَدَخَلَهَا إِنْكِلِيزِيًّا ... وَلَا أَجْعُدُ أَنَّ لَهُ فِي الْحَيَاةِ مِثْلَ هِدَايَةِ الْخَيَوَانِ ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ : دَلِيلُ مَنْفَعَتِهِ أَنَّهَا مَنْفَعَتُهُ وَحَسْبُ ، ثُمَّ لَا دَلِيلَ غَيْرَ هَذَا وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا هَذَا . فَإِذَا قَالَ الشَّرْقِيُّ : حَقِّي ، وَقَالَ الْإِنْكِلِيزِيُّ : مَنْفَعَتِي ؛ بَطَلَتْ الْأَدِلَّةُ { كُلُّهَا } ، وَرَأَى الشَّرْقِيُّ أَنَّهُ مَعَ الْإِنْكِلِيزِيِّ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُقْنِعَ الذُّنْبَ بِقَانُونِ الْفَضِيلَةِ وَالرَّحْمَةِ .

وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ فِي السِّيَاسَةِ عَجَائِبَ ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُ أَنْ يَلْقَى إِنْسَانٌ إِنْسَانًا فَيَقُولَ لَهُ : يَا سَيِّدِي الْعَزِيزُ ! بِكُلِّ اخْتِرَامٍ أَرْجُو أَنْ تَتَلَقَّى مِنِّي هَذِهِ الصَّفْعَةَ ...

وَفِي السِّيَاسَةِ مَوَاعِيدُ عَجِيبَةٌ ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُ غَرْسَ شَجَرَةٍ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالتَّوَكُّدُ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ أَنَّهَا سَتُثْمِرُ رُغْفَانًا مَخْبُورَةً ... ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُطْعَمُ فَتُثْمِرُ الرُّغْفَانُ الْمَخْبُورَةُ حَشْوُهَا اللَّحْمُ وَالْإِدَامُ .

وَفِي السِّيَاسَةِ مُحَارَبَةُ الْمَسَاجِدِ بِالْمَرَاقِصِ ، وَمُحَارَبَةُ الزَّوْجَاتِ بِالْمُؤَمَّسَاتِ ، وَمُحَارَبَةُ الْعَقَائِدِ بِأَسَانِدَةِ الْفِكْرِ ، وَمُحَارَبَةُ فُنُونِ الْقُوَّةِ بِفُنُونِ اللَّذَّةِ . وَلَكِنْ لَوْ فَهِمَ الشَّبَابُ أَنَّ أَمَانِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَعَانِيهَا لَيْسَتْ إِلَّا غَدْرًا بِالْوَطَنِ فِي كُلِّ مَعَانِيهِ !

وَلَوْ عَرَفَ الشَّبَابُ أَنَّ مُحَارَبَةَ اللَّهِ هِيَ أَوَّلُ الْمَعْرَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْفَاصِلَةِ !  
وَلَوْ أَدْرَكَ الشَّبَابُ أَنَّ أَوَّلَ حَقِّ الْوَطَنِ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى الشُّعْبِ لَا مَعْنَى نَفْسِهِ !

وَلَوْ رَجَعَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ كَمَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ آلَهُ حَزْبِيَّةَ تَصْنَعُ مِنَ الشَّبَابِ رِجَالَ الْقُوَّةِ !  
وَلَوْ عَلِمَ الشَّبَابُ أَنَّ رُوحَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ : أَعْتَقَدُ وَلَا تَعْتَقِدُ . وَلَكِنْ أَفْعَلُ وَلَا تَفْعَلُ !

وَلَوْ أَيْقَنَ الشَّبَابُ أَنَّ فَرَايِضَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ إِلَّا وَسَائِلَ عَمَلِيَّةٍ لِامْتِلَاءِ النَّفْسِ بِمَعَانِيهِ التَّقْدِيرِ !

وَلَوْ فَهِمَ الشَّبَابُ أَنَّ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ إِلَّا هَذِهِ الْمَعَانِي تَجْعَلُ النَّفْسَ فَوْقَ الْمَادَّةِ وَفَوْقَ الْخَوْفِ وَفَوْقَ الدُّلِّ وَفَوْقَ الْمَوْتِ نَفْسِهِ !

وَلَوْ بَحَثَ الشَّبَابُ النَّفْسَ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ الْقَوِيَّةَ لَيَعْرِفَ بِالْبُزْهَانِ أَنَّهَا نِصْفُ مُسْلِمَةٍ فَكَيْفَ بِهَا لَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً ؟ ...

\* \* \*

وَكَانَ الْمُتَرْجِمُ يُنْقِلُ إِلَيْهِمْ كَلَامِي ، فَمَا بَلَغَتْ إِلَى حَيْثُ بَلَغْتُ ، حَتَّى شَدَّ الضَّاطِطُ عَلَى يَدَيَّ وَهَزَّهَا ؛ فَظَنَرْتُ ، فَإِذَا أَنَا قَدْ كُنْتُ نَائِمًا بَعْدَ سَهْرَةٍ طَوِيلَةٍ فِي ذَلِكَ الْمَسْرَحِ ، وَإِذَا يَدُ الْمُتَرْجِمِ نَفْسِهِ هِيَ الَّتِي تَهْزُنِي لِأَنْتَبَهَ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

فِي مِحْنَةِ فَلِسْطِينَ :

### أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! (\*)

نَهَضَتْ فَلِسْطِينَ تَحُلُّ الْعُقْدَةَ الَّتِي عُقِدَتْ لَهَا بَيْنَ السَّيْفِ ، وَالْمَكْرِ ، وَالذَّهَبِ .  
عُقْدَةُ سِيَاسِيَّةٍ خَبِيثَةٍ ، فِيهَا لِذَلِكَ الشَّعْبِ الْحُرُّ قَتْلٌ ، وَتَخْرِبٌ ، وَفَقْرٌ .  
عُقْدَةُ الْحُكْمِ الَّذِي يَحْكُمُ بِثَلَاثَةِ أَسَالِيبَ : الْوَعْدِ الْكَذِبِ ، وَالْفَنَاءِ الْبَاطِلِ ، وَمَطَامِعِ  
الْيَهُودِ الْمُتَوَحَّشَةِ .  
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَيْسَتْ هَذِهِ مِحْنَةُ فَلِسْطِينَ ، وَلَكِنَّهَا مِحْنَةُ الْإِسْلَامِ ؛ يُرِيدُونَ أَلَّا  
يُثَبِّتَ شَخْصِيَّتَهُ الْعَزِيزَةَ الْحُرَّةَ .  
كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ الْآنَ لِفَلِسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِجَاهِدٍ هُوَ أَيْضًا .

\* \* \*

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُجَاهِدُونَ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَخْلَاقَنَا هِيَ حُلَفَاؤُهُمْ فِي هَذَا  
الْجِهَادِ .  
أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمَتَكُوبُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي نَكْبَتِهِمْ أَمْتِحَانٌ لِصَمَائِرِنَا نَحْنُ  
الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا .  
أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُضْطَهَّدُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي أَذَلَّتْهُمْ تَسْأَلُنَا نَحْنُ : هَلْ  
عِنْدَنَا إِقْرَارٌ لِلذُّلِّ ؟

مَاذَا تَكُونُ نَكْبَةُ الْأَخِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَسْمًا آخَرَ لِمُرُوءَةٍ سَائِرِ إِخْوَتِهِ أَوْ مَذَلَّتِهِمْ ؟  
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ لِفَلِسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَقْرَضَ عَلَى السِّيَاسَةِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥٤ ، ٢٥ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ١٥ يونيو/حزيران ١٩٣٦ م ،  
السنة الرابعة ، الصفحات : ٩٦١ - ٩٦٣ .

أَخْتِرَامَ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيِّ .

\* \* \*

أَبْتَلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَحْمِلُونَ فِي دِمَائِهِمْ حَقِيقَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ : مِنْ ذُلِّ الْمَاضِي وَتَشْرِيدِ  
الْحَاضِرِ .  
وَيَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ نِقْمَتَيْنِ طَاعِيَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ ذَهَبِهِمْ ، وَالْأُخْرَى مِنْ  
رَذَائِلِهِمْ .  
وَيَخْبِتُونَ فِي أَدْمَغَتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِيثَتَيْنِ : أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقَلِّيَّةً ، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا بَعْدَ  
ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودِ .  
فِي أَنْفُسِهِمُ الْحِقْدُ ، وَفِي خَيَالِهِمُ الْجُنُونُ ، وَفِي عُقُولِهِمُ الْمَكْرُ ، وَفِي أَيْدِيهِمُ الذَّهَبُ  
الَّذِي أَصْبَحَ لَيْثِمًا لِأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ .  
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ لِفَلِسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلِمَةً تَرُدُّ إِلَى  
هَؤُلَاءِ الْعَقْلِ .

\* \* \*

أَبْتَلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَمُرُّونَ بَيْنَهُمْ مُرُورَ الدَّانِيَةِ بِالرَّيَا الْفَاحِشِ فِي أَيْدِي الْفُقَرَاءِ .  
كُلُّ مِثْقَالٍ يَهُودِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْقَالٌ وَسَبْعِينَ . . .  
حِسَابٌ خَبِيثٌ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ .  
وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خَيَالِهِمُ الدِّينِيِّ ، وَخَيَالُهُمُ الدِّينِيُّ هُوَ طَرْدُ  
الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ .  
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ لِفَلِسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُثَبِّتَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي  
يُرِيدُونَ طَرْدَهَا .

\* \* \*

يَقُولُ الْيَهُودُ : إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضْطَهَّدٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ .

وَيَزْعُمُونَ : أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعِيشُوا أحرارًا فِي فلسطينَ ، كَانَتْهَا لَيْسَتْ مِنْ جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ ...

وَقَدْ صَنَعُوا لِلْإِنْكِلِيزِ أَسْطُولا عَظِيمًا لَا يَسْبِغُ فِي الْبَحَارِ ، وَلَكِنْ فِي الْخَرَائِنِ ...  
وَأَرَادَ الْإِنْكِلِيزُ أَنْ يَطْمِئِنُّوا فِي فلسطينَ إِلَى شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّدَ قَطُّ أَنْ يَقُولَ : أَنَا .  
وَلَكِنْ لِمَاذَا كَسَسْتُمْ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمَكْنَسَةٍ أَهْلِهَا الْيَهُودُ ؟

\* \* \*

أَجْهَلْتُمْ الْإِسْلَامَ ؟ الْإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَثِيرَةٌ الَّتِي تُوْجِدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمَخَالِبَ فِي كُلِّ أَسَدٍ .  
قُوَّةٌ تُخْرِجُ سِلَاحَهَا بِنَفْسِهَا ، لِأَنَّ مَخْلُوقَهَا عَزِيزٌ لَمْ يُوْجِدْ لِيُؤْكَلْ ، وَلَمْ يُخْلَقْ لِيَدُلَّ .  
قُوَّةٌ تَجْعَلُ الصَّوْتُ نَفْسَهُ حِينَ يُزْمَجُرُ ، كَأَنَّهُ يُعْلِنُ الْأَسَدِيَّةَ الْعَزِيزَةَ إِلَى الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ .

قُوَّةٌ وَرَاءَهَا قَلْبٌ مُشْتَعِلٌ كَالْبُرْكَانِ ، تَتَحَوَّلُ فِيهِ كُلُّ قَطْرَةٍ دَمٍ إِلَى شَرَارَةٍ دَمٍ .  
وَلَكِنْ كَانَتْ الْحَوَافِرُ تُهَيِّئُ مَخْلُوقَاتِهَا لِيَرْكَبَهَا الرَّاكِبُ ، إِنَّ الْمَخَالِبَ وَالْأَنْبِيَاءَ تُهَيِّئُ مَخْلُوقَاتِهَا لِمَعْنَى آخَرٍ<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

لَوْ سُئِلْتُ : مَا الْإِسْلَامُ فِي مَعْنَاهُ الْأَجْتِمَاعِي ؟ لَسَأَلْتُ : كَمْ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ ؟  
فَإِنْ قِيلَ : ثَلَاثُ مِئَةِ مِليُونٍ . قُلْتُ : فَالْإِسْلَامُ هُوَ الْفِكْرَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا  
ثَلَاثُ مِئَةِ مِليُونٍ قُوَّةٌ .

أَيُجْعَلُ إِخْوَانُكُمْ أَهْلُهَا الْمُسْلِمُونَ وَتُسَبِّعُونَ ؟ إِنَّ هَذَا الشَّيْخَ ذَنْبٌ يُعَاقَبُ اللَّهُ عَلَيْهِ .  
وَالْغَنَى الْيَوْمَ فِي الْأَغْنِيَاءِ الْمُتَمَسِّكِينَ عَنْ إِخْوَانِهِمْ ، هُوَ وَصْفُ الْأَغْنِيَاءِ بِاللُّؤْمِ  
لَا بِالْغِنَى .

(١) تجلّد مضدّق الرافعي رحمه الله في الأحداث المقاومة التي تلت وما زالت مستمرة لأيامنا . بسام .

كُلُّ مَا يَبْدُوهُ الْمُسْلِمُونَ لِفلسطينَ ، يَدُلُّ دَلَالَاتٍ كَثِيرَةً ، أَقْلَهَا سِيَاسَةُ الْمُقَاوَمَةِ .

\* \* \*

كَانَ أَسْلَافُكُمْ أَهْلُهَا الْمُسْلِمُونَ يَفْتَحُونَ الْمَمَالِكَ ، فَافْتَحُوا أَنْتُمْ أَيْدِيَكُمْ ...  
كَانُوا يَزْمُونُ بِأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَيْرَ مُكْتَرِهِينَ ، فَارْمُوا أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ بِالذَّنَائِيرِ  
وَالذَّرَاهِمِ .

لِمَاذَا كَانَتْ الْقِبْلَةُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا لِنَعْتَادَ الْوُجُوهُ كُلُّهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ ؟

لِمَاذَا أَرْتَفَعَتِ الْمَادَنُ إِلَّا لِنَعْتَادَ الْمُسْلِمُونَ رَفَعَ الصَّوْتِ فِي الْحَقِّ ؟

أَهْلُهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُونُوا هُنَاكَ . كُونُوا هُنَاكَ مَعَ إِخْوَانِكُمْ بِمَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي .

\* \* \*

لَوْ صَامَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِي كُلُّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَبَدَلَ نَفَقَاتِ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ لِفلسطينَ ،  
لَاغْنَاهَا .

لَوْ صَامَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا لِإِعَانَةِ فلسطينَ ، لَقَالَ النَّبِيُّ مُفَاحِرًا الْأَنْبِيَاءَ :  
هَذِهِ أُمَّتِي !

لَوْ صَامَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا يَوْمًا وَاحِدًا لِفلسطينَ ، لَقَالَ الْيَهُودُ الْيَوْمَ مَا قَالَه آبَاؤُهُمْ مِنْ  
قَبْلُ : إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ...

أَهْلُهَا الْمُسْلِمُونَ ! هَذَا مَوْطِنٌ يَزِيدُ فِيهِ مَعْنَى الْمَالِ الْمَبْدُولِ فَيَكُونُ شَيْئًا سَمَويًا .

كُلُّ قَرِشٍ يَبْدُوهُ الْمُسْلِمُ لِفلسطينَ ، يَتَكَلَّمُ يَوْمَ الْحِسَابِ يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَنَا إِيمَانُ  
فُلَانٍ !



## قِصَّةُ الْأَيْدِي الْمُتَوَضِّعَةِ (\*) ...

قَالَ رَاوِي الْخَبَرِ : ذَهَبْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ وَالْمَسْجِدُ يَجْمَعُ النَّاسَ يَقْلُوبُهُمْ لِيُخْرِجَ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ دُنْيَا ذَاتِهِ ، فَلَا يُفَكِّرُ أَحَدٌ أَنَّهُ أَسْمَى مِنْ أَحَدٍ ؛ وَلَقَدْ يَكُونُ إِلَى جَانِبِكَ الصَّانِعُ أَوْ الْأَجِيرُ أَوْ الْفَقِيرُ أَوْ الْجَاهِلُ ، وَأَنْتَ الرَّئِيسُ أَوْ الْعَظِيمُ أَوْ الْغَنِيُّ أَوْ الْعَالِمُ ، فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَى نَفْسِكَ فَتَحْسُنُ كَانَ خَوَاطِرَكَ مُتَوَضِّعَةً مُنْطَهَرَةً ، وَتَرَى كَلِمَةَ الْكِبَرِيَاءِ قَدْ فَقَدَتْ رُوحَهَا ، وَكَلِمَةَ التَّوَاضُّعِ قَدْ وَجَدَتْ رُوحَهَا ؛ وَتَشْعُرُ بِالنَّفْسِ الْمُجْتَمِعَةِ قَدْ نَصَبَتْ الْحَرْبَ لِلنَّفْسِ الْمُتَفَرِّدَةِ ؛ وَلَوْ خَطَرَ لَكَ شَيْءٌ بِخِلَافِ ذَلِكَ رَأَيْتَ الْفَقِيرَ إِلَى جَانِبِكَ تَوَيْخًا لَكَ ، وَنَظَرْتَ إِلَيْهِ سَاكِتًا وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي قَلْبِكَ ، وَشَعَرْتَ بِاللَّهِ مِنْ فَوْقَكُمَا ، وَاسْتَعْلَنْتَ لَكَ رُوحَ الْمَسْجِدِ كَأَنَّهَا تَهْمُ بِطَرْدِكَ { مِنْهُ } ، وَخُيِّلَ إِلَيْكَ أَنَّ الْأَرْضَ سَتَلَطُّمٌ وَجْهَكَ إِذَا سَجَدْتَ { عَلَيْهَا } ، وَأَيَقَنْتَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ أَنَّ لَسْتَ هُنَاكَ فِي دُنْيَاكَ وَلَيْسَ صَاحِبُكَ فِي دُنْيَاكَ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ هُنَاكَ فِي إِنْسَانِيَّةٍ مِيزَانُهَا بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ ؛ فَلَا تَذَرْنِي أَكُفَمَا الَّذِي يَخُفُّ وَأَكُفَمَا الَّذِي يُثْقَلُ<sup>(١)</sup> .

قَالَ : وَالْعَجِيبُ أَنَّ هَذَا الَّذِي لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ الدِّينِ ، يَعْرِفُهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ الدِّينِ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، فَتَرَاهُ فِي الْمَسْجِدِ يَمْشِي مُخْتَالًا ، قَدْ تَحَلَّى بِجِلْبِيٍّ ، وَتَكَلَّفَ لِرُحُوهِ ، فَلَيْسَ الْحُجَّةُ تَسْعُ أَتْنِينَ ، وَتَطَاوَلَ كَأَنَّهُ الْمِئْدَنَةُ ، وَتَصَدَّرَ كَأَنَّهُ الْقِبْلَةُ ، وَانْتَفَخَ كَأَنَّهُ مُمْتَلِئٌ بِالْفُرُوقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ؛ وَهُوَ بَعْدَ كُلِّ هَذَا لَوْ كَشَفَ اللَّهُ تَمْوِينَهُ لَانْكَشَفَ عَنْ تَاجِرِ عِلْمٍ ، بَعْضُ شُرُوطِهِ عَلَى الْفَضِيلَةِ أَنْ يَأْكُلَ بِهَا ، فَلَا يَجِدُ دُنْيَا ذَاتِهِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ ، فَهُوَ نَوْعٌ مِنْ كَذِبِ الْعَالَمِ الدِّينِيِّ عَلَى دِينِهِ .

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥٧ ، ١٧ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ٦ يوليو/ تموز ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٠٨٣ - ١٠٨٥ .

(١) اسْتَوْفَيْنَا الْكَلَامَ عَنْ فِلَسَفَةِ الْمَسْجِدِ فِي مَقَالَاتٍ كَثِيرَةٍ .

قَالَ الرَّائِي : وَصَعِدَ الْخَطِيبُ الْمُنْبَرِ وَفِي يَدِهِ سَيْفُهُ الْخَشَبِيُّ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ ؛ فَمَا اسْتَقَرَّ فِي الدُّرُودِ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ دَخَلَ فِي سِرِّ هَلِكِهِ الْخَشَبِيَّةِ ، فَهُوَ يَبْذُرُ كَالْمَرِيضِ تَقْنِينُهُ عَصَاهُ ، وَكَالْهَرِمِ يُمَسِّكُهُ مَا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ ؛ وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ كَذَبَ صَرِيحٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، كَهَيْئَةِ سَيْفِهِ الْخَشَبِيِّ فِي كَذِبِهَا عَلَى الشُّيُوفِ وَمَعْدِنِهَا وَأَعْمَالِهَا .

وَتَالَهُ مَا أَذَرَنِي كَيْفَ يَسْتَحِلُّ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، أَنْ يَخْطُبَ الْمُسْلِمِينَ خُطْبَةً جُمُعَتِهِمْ وَفِي يَدِهِ هَذَا السَّيْفُ عَلَامَةُ الدَّلِّ وَالضُّعْفِ وَالتَّرَاجُعِ وَالْإِنْفِلَابِ وَالْإِدْبَارِ وَالْهَزَلِ وَالشُّخْرِيَّةِ وَالْفَضِيحَةِ وَالْإِضْحَاقِ ؛ وَمَتَى كَانَ الْإِسْلَامُ يَأْمُرُ بِنَجْرِ الشُّيُوفِ مِنَ الْخَشَبِ وَتَحْنِهَا وَتَسْوِيَتِهَا وَإِزْهَافِ حَدِّهَا الَّذِي لَا يَقْطَعُ شَيْئًا ، ثُمَّ وَضَعَهَا فِي أَيْدِي الْعُلَمَاءِ يَغْتَلُونَ بِهَا ذُؤَابَةَ كُلِّ مَنِيرٍ ، لِيَتَعَلَّقَ بِهَا الْعِيُونُ ، وَتَشْهَدَ فِيهَا الرُّمُزُ وَالْعَلَامَةُ ، وَتَسْتَوْحِي مِنْهَا الْمَعْنَوِيَّةَ الدِّينِيَّةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَنْجَسَ لِنَرَى ؟

أَفَنِي سَيْفٌ مِنَ الْخَشَبِ مَعْنَوِيَّةٌ غَيْرُ مَعْنَى الْهَزَلِ وَالسَّخَافَةِ ، وَبِلَاهَةِ الْعَقْلِ وَدِلَّةِ الْحَيَاةِ ، وَمَسْخُ التَّارِيخِ الْفَاتِحِ الْمُنتَصِرِ ، وَالرَّمْزِ لَخُضُوعِ الْكَلِمَةِ وَصِبْنَانِيَّةِ الْإِرَادَةِ ؟

قَالَ : وَكَانَ تَمَامُ الْهَرُءِ بِهَذَا السَّيْفِ الْخَشَبِيِّ الَّذِي صَنَعْتَهُ وَزَارَهُ أَوْقَافُ الْمُسْلِمِينَ ، أَنَّهُ فِي طُولِ صَمْنَامَةِ عَمْرٍو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ الرَّيْدِيِّ فَارِسِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ<sup>(١)</sup> ، فَكَانَ إِلَى صَدْرِ الْخَطِيبِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ فِي يَدِهِ لَظَهَرَ مَقْبِضُهُ فِي صَدْرِ الرَّجُلِ كَأَنَّهُ وَسَامٌ مِنَ الْخَشَبِ ...

قَالَ : وَكَانَ الْخَطِيبُ إِذَا تَكَلَّفَ وَتَصَنَّعَ وَظَهَرَ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ حَيِيَ وَنَارَ نَائِرُهُ ، أَرْتَجَّ وَغَفَلَ عَنْ يَدِهِ ، فَتَضَطَّرَبَ فِيهَا قَبْضَةُ السَّيْفِ فَتَلَكَّرَهُ فِي صَدْرِهِ كَأَنَّمَا تُدَكِّرُهُ أَنَّ فِي يَدِهِ خَشَبَةً ... لَا تَصْلُحُ لَهُلِهِ الْحَمَاسَةِ ... !<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

(١) كَانَ طُولُ الصَّنَمَامَةِ سَبْعَةَ أَشْبَارٍ وَافِيَةً وَعَرْضُهَا شِبْرٌ .

(٢) الْقَاعِدَةُ الشَّرْعِيَّةُ : أَنَّ الْبَلَدَ الَّذِي يَفْتَحُ بِالسَّيْفِ يَخْطُبُ فِيهِ بِالسَّيْفِ . وَلَمَّا ضَعُفَ الْمُسْلِمُونَ آتَتْ السَّيْفُ مِنْهُمْ وَأَطَاعَهُمُ الْخَشَبُ ... !

قَالَ : وَخَطَبَ الْعَالِمَ عَلَى النَّاسِ ، وَكَانَ سَبْقُهُ الْخَشْبِيَّ يَخْطُبُ خُطْبَةً أُخْرَى : فَأَمَّا الْأُولَى فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَلَا تَنْتَهِي حَتَّى يَنْتَهِيَ أَثَرُهَا ، إِذْ هِيَ كَالْقِرَاءَةِ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ؛ وَكَانَتْ فِي عَهْدِهَا الْأَوَّلِ كَالدَّرْسِ لِإِقَامَةِ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْأَجْتِمَاعِ وَالسِّيَاسَةِ ، فَبَيَّنَتْهَا وَبَيَّنَ حَقِيقَتَهَا الْإِسْلَامِيَّةَ مِثْلَ مَا بَيَّنَ هَذَا السَّيْفُ مِنَ الْخَشْبِ وَبَيَّنَ حَقِيقَتَهُ الْأُولَى . وَأَمَّا الْخُطْبَةُ الثَّانِيَّةُ فَقَدْ عَقَلَتْهَا أَنَا عَنْ تِلْكَ الْخَشْبَةِ وَكَتَبْتُهَا ، وَهَذِهِ هِيَ عِبَارَتُهَا :

وَيَحْكُمُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَوْ كُنْتُ بَقِيَّةً مِنْ خَشْبِ سَفِينَةِ نُوحٍ الَّتِي أَنْقَذَ فِيهَا الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ ، لَمَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَضَعُونِي هَذَا الْمَوْضِعَ ؛ وَمَا جَعَلَكُمْ اللَّهُ حَيْثُ أَنْتُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتُمُونِي حَيْثُ أَنَا ، نَكَادُ شَرَارَةً تَذْهَبُ بِي وَبِكُمْ مَعًا ، لِأَنَّ فِيَّ وَفِيكُمْ الْمَادَّةَ الْخَشْبِيَّةَ وَالْمَادَّةَ الْمُتَخَشَّبَةَ .

وَيَحْكُمُ ! لَوْ أَنَّهُ كَانَ لِخُطْبَيْكُم شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ الثَّارِي الْمُضْطَرِّمِ ، لَمَّا بَقِيَتِ الْخَشْبَةُ فِي يَدِهِ خَشْبَةً . وَكَيْفَ يَمْتَلِئُ الرَّجُلُ إِيمَانًا بِإِيمَانِهِ ، وَكَيْفَ يَصْعَدُ الْمِنْبَرُ لِقَوْلِ كَلِمَةِ الدِّينِ مِنَ الْحَقِّ الْغَالِبِ ، وَكَلِمَةِ الْحَيَاةِ مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ - وَهُوَ كَمَا تَرَوْنَهُ قَدْ آتَتْهُ مِنَ الدَّلَالِ إِلَى أَنْ فَقَدَ السَّيْفُ رُوحَهُ فِي يَدِهِ ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَنْ تَفْلَحُوا وَهَذَا خُطْبَيْكُمُ الْمُتَكَلِّمُ فِيكُمْ ، إِلَّا إِذَا أَفْلَحْتُمْ وَأَنَا سَيَفُكُمُ الْمَدَافِعُ عَنْكُمْ . أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، غَيْرُوهُ وَغَيِّرُونِي .

\* \* \*

قَالَ رَاوِي الْخَبَرِ : وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ مَاجَ النَّاسُ إِذْ انْتَبَهَتْ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّبَّانِ يَصْنَعُونَ بِهِمْ يَسْتَوْفِقُونَهُمْ لِيَخْطُبُوهُمْ ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ ، فَذَكَرَ فِلَسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا ، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا ، وَنَكَبَتْهُمْ وَجْهَادُهُمْ وَأَخْطَلَالُ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَنْجَدَ وَاسْتَعَانَ ، وَدَعَا الْمَوْسَرَ وَالْمُخَفَّ إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصَنَادِيْقٍ مَخْتُومَةٍ ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَ مِنْ دَرَاهِمٍ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَرَاهِمُ أَصْحَابِهَا وَضَمَائِرُهُمْ .

قَالَ : وَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْخَيْرَ فِي

وُجُوهِهِمْ ، وَالصَّبْرَ فِي أَجْسَامِهِمْ ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نَفْسِهِمْ ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَايَاهُمْ ؛ إِذْ امْتَرَجَتْ بِهِمْ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْخُصْبَةِ فَتَخْرُجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرُوعًا وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرُوعًا أُخْرَى - فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ : إِنَّ هَذَا الْخُطْبِيبَ خُطْبِيبَ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّنَا وَهَؤُلَاءِ الشُّبَّانُ قَدْ فَضَحُوهُ ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَحْصَى أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ .

قَالَ : وَتَبَهَّنِي هَذَا الرَّجُلُ السَّادِجُ إِلَى مَعْنَى دَفِينِي فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَتَابِيرِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ فَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمَحَطَّاتِ الْإِدَاعَةِ ، يَلْتَقِطُ كُلُّ مَنْبَرٍ أَخْبَارَ الْجِهَاتِ الْأُخْرَى وَيُذْنِعُهَا فِي صِنْعَةِ الْخُطَابِ إِلَى الرُّوحِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ، فَتَكُونَ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ هِيَ الْكَلِمَةُ الْأُسْبُوعِيَّةُ فِي سِيَاسَةِ الْأُسْبُوعِ أَوْ مَسْأَلَةُ الْأُسْبُوعِ ؛ وَبِهَذَا لَا يَجِيءُ الْكَلَامُ عَلَى الْمَتَابِيرِ إِلَّا حَيًّا بِحَيَاةِ الْوَقْتِ ، فَيُضِيحُ الْخُطْبِيبُ يَنْتَظِرُهُ النَّاسُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ أَنْتَظَارَ الشَّيْءِ الْجَدِيدِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَطِيعُ الْمَنْبَرُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ عَمَلٌ .

قَالَ : وَخَيَّلَ إِلَيَّ بَعْدَ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ خُطْبِيبٍ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ نَاقِصٌ إِلَى النُّصْفِ ، لِأَنَّ السِّيَاسَةَ تُكْرِهُهُ أَنْ يَخْلَعَ إِسْلَامِيَّةً الْوَاسِعَةَ قَبْلَ صُغُورِهِ الْمَنْبَرِ ، وَالْأَلَا يَصْعَدُ إِلَّا فِي إِسْلَامِيَّةٍ الصَّيْمَةِ الْمَخْدُودَةِ بِمُحْدُودِ الْوَعْظِ الَّذِي هُوَ مَعَ ذَلِكَ نِصْفٌ وَغَظٌّ ... فَالْخُطْبَةُ فِي الْحَقِيقَةِ نِصْفُ خُطْبِيَّةٍ ، أَوْ كَأَنَّهَا أَثَرُ خُطْبِيَّةٍ مَعَهَا أَثَرُ سَيْفٍ ...

قَالَ : وَأَخْرَجَ الْقَرَوِيُّ كَيْسَهُ فَعَزَلَ مِنْهُ دَرَاهِمَ وَقَالَ : هَذِهِ لَطْعَامُ أَتْبَلُغُ بِهِ وَلَا وَبَتْنِي إِلَى الْبَلَدِ ، ثُمَّ أَقْرَعَ الْبَاقِي فِي صِنَادِيْقِ الْجَمَاعَةِ ، وَأَقْتَدَيْتُ أَنَا بِهِ فَلَمْ أَخْرُجْ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى وَضَعْتُ فِي صِنَادِيْقِهِمْ كُلِّ مَا مَعِيَ ؛ وَلَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّهُ لَوْ بَقِيَ لِي دِرْهَمٌ وَاحِدٌ لَمْضَى يَسْتَبْنِي مَا دَامَ مَعِيَ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ عَنِّي .

\* \* \*

قَالَ الرَّاَوِي : ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَى ضَرْنِجِ صَاحِبِ الْمَسْجِدِ أَرُودُهُ وَأَقْرَأُ فِيهِ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَإِذَا هُنَاكَ رَجَالٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ (الْكُفَّاءُ فِي تَالِيهِمْ لِأَنَّهُ حَلِيقُ اللَّحْيَةِ) . ثُمَّ تَوَافَى إِلَيْهِمْ آخَرُونَ فَتَمُّوا سَبْعَةً ؛ وَرَأَيْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا بِأَنْفُسِهِمْ صَاحِبَ (الْأَلَا لِحْيَةٍ) ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْهُمْ عَلَى الْمَذْهَبِ الشَّائِعِ فِي بَعْضِ الْعَصْرِينِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْقُضَاةِ الشَّرْعِيِّينَ ، أَحْسَبُهُمْ يَخْتَلِجُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ﴿ ٩٥ ﴾ سُوْرَةُ

النين/ الآية : ٤ ] ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ فَإِنَّمَا تُبْصَرُهُ مِزَاتُهُ كَيْفَ يَظْهَرُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، أَيْلَحِيَّةٌ أَمْ بِلَا لَحِيَّةٍ ... ؟

وَأَدْرُثُ عَيْنِي فِي وَجُوهِهِمْ ، فَإِذَا وَقَارٌ وَسَمْتٌ وَنُورٌ لَمْ أَرِ مِنْهَا شَيْئًا فِي وَجْهِ صَاحِبِ (الْأَلَا لَحِيَّةٌ) ؛ وَأَنَا فَمَا أَبْصَرْتُ قَطُّ لَحِيَّةَ رَجُلٍ عَالِمٍ أَوْ عَابِدٍ أَوْ فَيْلَسُوفٍ أَوْ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ أَوْ ذِي فَنٍّ عَظِيمٍ ، إِلَّا ذَكَرْتُ هَذَا الْمَعْنَى الشَّعْرِيَّ الْبَدِيعَ الَّذِي وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ ؛ مِنْ أَنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) مَلَائِكَةٌ يُفَسِّمُونَ : وَالَّذِي رَزَقَ بَنِي آدَمَ بِاللَّحَى .

وَكَانَ مِنَ السَّبْعَةِ رَجُلٌ تَرَكَ لَحِيَّتَهُ عَافِيَةً عَلَى طَبِيعَتِهَا ؛ فَأَمْتَدَّتْ وَعَظُمَتْ حَتَّى نَشَرَتْ حَوْلَهَا جَوًّا رُوحَانِيًّا مِنَ الْهَيْبَةِ تَشْعُرُ النَّفْسُ الرَّقِيقَةُ بِتَيَّارِهِ عَلَى بُعْدٍ ، فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ رَدٍّ عَلَى ذَلِكَ .

\* \* \*

قَالَ : وَأَنْصَتُ الشُّيُوخَ جَمِيعًا إِلَى خُطْبِ الشُّبَّانِ ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هَؤُلَاءِ جَافِيَةً صُلْبَةً حَتَّى كَأَنَّهُا صَحَبٌ مَعْرُكَةٌ لَا قُفَّ خُطَابِيَّةٍ ، وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِ الْمَعْنَى فِي كَلَامِهِمْ قَوِيَّ الصَّوْتِ ؛ فَهُمْ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَغِيثُ فِي صَيَحَاتِ هَارِيَّةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

فَقَالَ أَحَدُ الشُّيُوخِ الْفَضْلَاءِ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « تَعَسَّ عَبْدُ الدَّيْنَارِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ » [البخاري ، رقم : ٢٨٨٧ ؛ الترمذي ، رقم : ٢٣٧٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٤١٣٦] . وَوَاللَّهِ مَا تَعَسَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا مُنْذُ تَعَبَّدُوا لِلْهَذَيْنِ حِرْصًا وَشُحًا ؛ « وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [٥٩ سورة الحشر/ الآية : ٩ ؛ ٦٤ سورة التغابن/ الآية : ١٦] ، وَلَوْ تَعَارَفَتْ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرَتْهُمْ الْحَوَادِثُ .

فَقَالَ آخَرُ : وَفِي الْحَدِيثِ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » [الجامع الصغير] ، رقم : ١٨٦٣ ، وَلَكِنْ مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ ؟ فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَّةِ هَذَا الْحَدِيثَ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » لَأَسْرَعَ الْعَامَّةُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ .

قَالَ الثَّالِثُ : وَلَكِنْ جَاءَنَا الْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ : « إِنَّهَا فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ يَتَعَلَّمُ

صَغَارَهَا مِنْ كِبَارِهَا ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهُمْ مِنْ صَغَارِهِمْ » . فَتَنَحَّنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، وَقَدْ سُلْطَ الصَّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْفُلُوهُمْ عَنْ طَبَاعِهِمْ إِلَى صَبَاتِيَّةٍ جَدِيدَةٍ .

قَالَ الرَّائِي : فَقُلْتُ لِصَدِيقِي مَعِي : قُلْ لِهَذَا الشَّيْخِ : لَيْسَ مَعْنَى الْأَثَرِ مَا فَهَمْتُ ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمَنٌ جِهَادٍ وَافْتِحَامٍ وَعَزِيمَةٍ وَمُغَالَبَةٍ عَلَى اسْتِفْلَالِ الْحَيَاةِ ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِرِوَايَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شَبَابُهَا الْمُتَعَلِّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ كَمَا نَرَى فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ ، فَيَتَرَلَّوْنَ مِنَ الْكِبَارِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ؛ إِذْ تَكُونُ الْحِمَاسَةُ مُتَمَمَّةً لِقُوَّةِ الْعِلْمِ . وَفِي الْحَدِيثِ : « أُمِّي كَالْمَطَرِ : لَا يُدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ » [مجمع الزوائد] ، رقم : ١٦٧٠٧ .

\* \* \*

قَالَ الرَّائِي : وَلَمْ يَكِدِ الصَّدِيقُ يَخْفِظُ عَنِّي هَذَا الْكَلَامَ وَيَهْمُ بِتَبْلِيغِهِ ، حَتَّى وَقَعَتْ الصَّيْحَةُ فِي الْمَكَانِ ؛ فَجَاءَ أَحَدُ الْخُطَبَاءِ وَوَقَفَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ الرَّعْدُ : لَا يَكْرُرُ إِلَّا رَمَجَةً وَاحِدَةً ؛ وَكَانَ الشُّيُوخُ الْأَجْلَاءُ قَدْ سَمِعُوا كُلَّ مَا قِيلَ ، فَأَطَرَفُوا يَسْمَعُونَهُ مَرَّةً رَابِعَةً أَوْ خَامِسَةً ؛ وَفَرَّغَ الشُّبَّانُ مِنْ هَدِيرِهِ فَتَحَوَّلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مُتَادِبًا مُتَخَشِّعًا وَوَضَعَ الصُّنْدُوقَ الْمَخْتُومَ .

فَقَالَ أَحَدُ الشُّيُوخِ : مِمَّنْ أَنْتَ يَا بَنِي ؟ قَالَ : مِنْ جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ . قَالَ الشَّيْخُ : لَمْ يَخَفْ عَلَيْنَا مَكَانُكَ ، وَقَدْ بَدَّلْتُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَبَارَكَ اللَّهُ فَيْتَكَ وَفِي أَصْحَابِكَ . وَسَكَتَ الشُّبَّانُ ، وَسَكَتَ الشُّيُوخُ ، وَسَكَتَ الصُّنْدُوقُ أَيْضًا ...

ثُمَّ تَحَرَّكَ النَّفْسُ بِوَخِي الْحَالَةِ ؛ فَمَدَّ أَوَّلُهُمْ يَدَهُ إِلَى جَنِيهِ ، ثُمَّ دَسَّهَا فِيهِ ، ثُمَّ عَيَّثَ فِيهِ قَلِيلًا<sup>(١)</sup> ؛ ثُمَّ ... ثُمَّ أَخْرَجَ السَّاعَةَ يَنْظُرُ فِيهَا .

وَأَتَقَلَّبَ الْعُدْوَى إِلَى الْبَاقِينَ ، فَأَخْرَجَ أَحَدُهُمْ مِثْلَهُ يَتَمَخَّطُ فِيهِ ، وَظَهَرَتْ فِي يَدِ الثَّالِثِ سُبْحَةُ طَوْنِيَّةٍ ، وَأَخْرَجَ الرَّابِعُ سِوَاكَهَا فَمَرَّ بِهِ عَلَى أَسْنَانِهِ ، وَجَزَّ الْخَامِسُ كُرَّاسَةً

(١) أي : بَحَثَ بِأَصَابِعِهِ .

كَانَتْ فِي قَبَائِهِ ، وَمَدَّ صَاحِبُ اللَّحْيَةِ الْعَرِيضَةِ أَصَابِعَهُ إِلَى لِحْيَتِهِ يُحَلِّلُهَا ؛ أَمَّا السَّابِعُ صَاحِبُ (الْأَلَا لِحْيَةٍ) ، فَتَبَيَّنَتْ يَدُهُ فِي جَنِبِهِ وَلَمْ تَخْرُجْ ، كَأَنَّ فِيهَا شَيْئًا يَسْتَجِي إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ ، أَوْ يَخْشَى إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ مِنْ تَخْجِيلِ الْجَمَاعَةِ .

وَسَكَتَ الشَّابُّ ، وَسَكَتَ الشُّيُوخُ ، وَسَكَتَ الصُّنْدُوقُ أَيْضًا ...

قَالَ الرَّاوي : وَنَظَرْتُ فَإِذَا وَجُوهُهُمْ قَدْ لَبَسَتْ لِلشَّابِّ هَيْئَةُ الْمُدْرَسِ الَّذِي يُقَرَّرُ لِيَلْمِيذِهِ قَاعِدَةً قَوْرَهَا مِنْ قَبْلُ أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَلْفٍ يَلْمِيذٍ ؛ فَخَجَلَ الشَّابُّ وَحَمَلَ صُنْدُوقَهُ وَمَضَى ...

\* \* \*

أَقُولُ أَنَا : فَلَمَّا أَنْتَهَى الرَّاوي مِنْ (قِصَّةِ الْأَيْدِي الْمُتَوَضِّعَةِ) ، قُلْتُ لَهُ : لَعَلَّكَ أَتَيْتَ الرَّاويَ اسْتَيْقَظْتَ مِنَ الْحُلُمِ قَبْلَ أَنْ يَمْلَأَ الشُّيُوخُ الْأَجْلَاءُ هَذَا الصُّنْدُوقَ ، وَمَا خَتَمَ عَقْلَكَ هَذِهِ الرُّوَايَةَ بِهَذَا الْفَضْلِ إِلَّا بِمَا كَدَدْتَ فِيهِ ذَهْنَكَ مِنْ فَلَسَفَةٍ تَحْوِلُ السَّيْفَ إِلَى خَشَبَةٍ ؛ وَلَوْ قَدْ أَمْتَدَّ بِكَ التَّوَمُّ لَسَمِعْتَ أَحَدَهُمْ يَقُولُ لِسَائِرِهِمْ : بِمَنْ يَنْهَضُ إِخْوَانُنَا الْمُجَاهِدُونَ وَيَمْنُ يَصُولُونَ ؟ لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « جَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَالِمٍ يَخِيلُ » [الترمذي ، رقم : ١٩٦١] ؛ ثُمَّ يَمْلَأُونَ الصُّنْدُوقَ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### نَجْوَى التَّمَثَالِ (\*) (١)

أَيُّهَا الْمُفْتَرِشُ الصَّخْرَةِ يَشُدُّ ذِرَاعَيْهِ أَفْوَى الشَّدِّ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَعَ الصَّخْرَةَ فِيهِمَا .

مُتَنَاهِضًا بِصَدْرِهِ لِيَبْدُلَ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ رَبَضَ فَإِنَّ التَّوْبَةَ فِي يَدَيْهِ .

مُتَمَطِّيًا بِصُلْبِهِ لِيُسَيِّرَ مِنْ جِسْمِهِ الْهَادِي إِلَى مَعَانِيهِ الْمُفْتَرِسَةِ .

مُفْعِيًا عَلَى ذَنْبِهِ وَمُتَحَفِّزًا بِسَائِرِهِ كَأَنَّهُ قُوَّةُ انْدِفَاعٍ تَهُمُّ أَنْ تَنْقَلِتَ مِنْ جَاذِبِيَةِ الْأَرْضِ .

وَأَنْتِ أَيُّهَا الْهَلَفَاءُ تُمَثِّلُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُتَمَدِّنَةَ فِي نَحَافَتِهَا ، وَهِيَ كَهَلِكَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ضَارِبَةً بِذِرَاعِي أَسَدٍ فِي غِلْظٍ مَذْفَعِينَ ...

حَكِيمَةً فِي النَّظَرِ كَأَنَّمَا تَمُدُّ فِي سَرَائِرِ الْأُمَمِ نَظْرَةَ الْمُتأملِ ، وَلَكِنَّ يَدَهَا كَيْدَ الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى تَرْكِيبِ عَقْلِي تَحْتَهُ الْمَخَالِبُ ...

سَاكِتَةً كَأَنَّمَا تَمَثِّلُ السَّلَامَ ، عَلَى أَنَّهَا فِي جِوَارِ الْأُسْدِ كَالسَّلَامِ بَيْنَ الشُّعُوبِ : تَلْمَحُ فِيهِ إِنْسَانُ الْعَالَمِ وَوَحْشُ الْعَالَمِ ...

يَا أَبَا الْهَوَلِ .

أَأَنْتَ جَوَابٌ عَنْ ذَلِكَ اللَّغْزِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ كَلَامٌ لَا يَتَكَلَّمُ وَسُكُوتٌ لَا يَسْكُتُ .

وَالَّذِي أَشَارَ بِرَأْسِ الْإِنْسَانِ عَلَى جِسْمِ اللَّيْثِ أَنَّهُ قُوَّةُ عَمِيَاءٍ كَالضَّرُورَةِ وَلَكِنَّهَا مُبْصِرَةٌ كَالْإِخْتِيَارِ .

وَالَّذِي أَخْرَجَ مِنْ فَنَى الْغَرِيزَةِ وَالْعَقْلِ فَنَاءً ثَالِثًا لَا يَرَا فِي الْأَرْضِ يَنْتَظِرُ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَلِدُ إِنْسَانًا عِظَامُهُ مِنَ الْحَجَرِ ؟

وَأَنْتِ يَا مِصْرُ :

(\*) لم أجدها في « الرسالة » .

(١) تَمَثَّلُ نَهْضَةُ مِصْرَ الَّذِي صَنَعَهُ الْمَثَالُ مُخْتَارًا رَمَزًا لِهَيْئَةِ النُّهْضَةِ ، وَهُوَ أَبُو الْهَوَلِ مُتَحَفِّزًا تَفَقُّ إِلَى جَانِبِهِ أَمْرًا .

أَوَاقِفَةٌ نَمَّةٌ لِلشَّرْحِ وَالنَّفْسِيرِ ، تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ : إِنَّ أَجْدَاكَ يَسْأَلُونَكَ مِنْ آلِافِ السِّنِينَ بِهَذَا الرَّمْزِ : أَلَا مُعْجَزَةٌ مِنَ الْقُوَّةِ تَمُطُّ عَضَلَاتِ الْحَجَرِ ؟

أَلَا بَسْطَةٌ مِنَ الْعِلْمِ تَجْعَلُكَ أَهْلًا الْمِصْرِيِّ وَكَأَنَّكَ رَأْسُ لِحْجَمِ الطَّبِيعَةِ ؟

أَلَا فَنُ جَدِيدٌ تَرْفَعُ بِهِ أَبَا الْهَوْلِ فِي الْحَوْ فَتَزِيدُهُ عَلَى قُوَّةِ الْوَحْشِ وَذَكَاءِ الْإِنْسَانِ خِفَّةَ الطَّيْرِ ؟  
أَمْ تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ : إِنَّ أَجْدَاكَ يُوصُونَكَ بِهَذَا الرَّمْزِ أَنْ تَكُونَ كَالظَّهْرِ الْأَسَدِيِّ لَا يُرَكَّبُ مَطَاهُ ، وَكَالرَّأْسِ الْإِنْسَانِيِّ لَا تُقَيَّدُ حُرَّتُهُ ، وَكَالرَّبْضَةِ الْجَبَلِيَّةِ لَا تَسْهَلُ إِزَاحَتُهَا ، وَكَالْإِبْهَامِ الْمُرَكَّبِ مِنْ غَامِضِينَ لَا يَتَيَسَّرُ بِهِ عَبَثُ الْعَايِبِ ، وَكَالصَّرَاحَةِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنْ عُضُورٍ وَاحِدٍ لَا يَغْلُطُ فِي حَقِيقَتِهَا أَحَدٌ ؟

أَمْ تَقُولِينَ يَا مِصْرُ : إِنَّ نَفْسِي أَبِي الْهَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ النَّهْضَةَ الْمِصْرِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ تُخْرَجُ الْبِلَادُ مِنْ يَصْنَعُ أَبَا الْهَوْلِ الثَّانِي ؟

\* \* \*

يَتَمَثَّلُ النَّهْضَةُ أَمْ صَفْحَةٌ مِنَ الْحَجَرِ قَدْ صَوَّرَ الشَّعْبُ فِكْرَهُ عَلَيْهَا ، وَدَوَّنَ فِيهَا إِحْسَاسَهُ بِتَارِيخِهِ ، وَوَصَفَ بِهَا إِذْرَاكَ حَيَاةِ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ ؟

أَمْ هُوَ كِتَابَةٌ فَضِّلَ مِنَ التَّارِيخِ بِقَلَمِ الْحَيَاةِ وَعَلَى طَرِيقَةٍ مِنْ بَلَغَتِهَا ، خَشِيتَ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ فَدَوَّنْتَهُ فِي أُسْلُوبٍ مِنْ أُسَالِيبِ الْبَقَاءِ الْحَجَرِيِّ الصَّلْدِ ؟

أَمْ ذَاكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْأُمَّةِ أَحَالَهُ الْفَرْقُ مِنْ زَمَنِ إِلَى مَادَّةٍ ؛ وَمِنْ مَعْنَى إِلَى حِسٍّ ، وَمِنْ خَبَرٍ إِلَى مَنْظَرٍ ، وَكَأَنَّا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُ فَجَعَلَهُ الْفَرْقُ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ ؟

أَمْ هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي خَلَقَتْهَا نَفْسُ هَذَا الْجَبَلِ تُخَاطَبُ بِهِ النُّفُوسُ الْآتِيَّةُ لِتَتَمَّ عَلَىهَا ، وَتُضَيَّفَ فِيهِ إِلَى الْمَعْنَى سِرَّ الْمَعْنَى ، وَتَضَعُ الْكَلِمَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى لِسَانِ الطَّبِيعَةِ تَتَكَلَّمُ بِالنَّمَثِالِ كَمَا تَتَكَلَّمُ بِالْجَبَلِ ؟

أَمْ تَرْكِبُ سِيَاسِيٍّ إِذَا فَسَّرْتَهُ اللَّغَةُ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّابِتَ إِذَا أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ يُثَبِّتُهُ ... فَلَنْ يَمُحُوهُ مَنْ يُنْكِرُهُ ، وَأَنَّ الظَّاهِرَ إِذَا أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ ... فَلَنْ يُخْفِيَهُ مَنْ لَا يَرَاهُ ؟

\* \* \*

بَلْ أَرَاكَ لَا هَوْلَ فِيكَ يَا أَبَا الْهَوْلِ الْجَدِيدِ .

أَفَذَاكَ مِنْ رِقَّةٍ دَاخَلَتْكَ وَرَحْمَةٌ جَاءَتْكَ مِنْ مَسِّ يَدِ الْمَرْأَةِ ... ؟

أَمْ الْهَوْلُ الْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحَ فِي الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ وَمَدَّ الْعَيْنِ النَّسَائِيَّةَ إِلَى بَعِيدٍ ... ؟

أَمْ لَا يَتِيمٌ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَأْسُ رَجُلٍ وَجِسْمٌ سَبْعٌ إِلَّا ... إِلَّا بِأَنَامِلِ امْرَأَةٍ ؟

أَلَا مَنْ يُعْلِمُنِي أَهْلِيهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ هِيَ تَهْدِيكَ لِلْإِنْسَانِ وَالْوَحْشِ أَمْ تَكْمِلُهُ عَلَيْهِمَا ؟

أَلَا مَنْ يَأْتِينِي بِالْحِكْمَةِ فِيكَ مِنْ وَضْعِ الرَّجُلِ الْقَوِيِّ رَأْسًا وَلَا جِسْمًا ، وَالْأَسَدِ الْمُفْتَرِسِ جِسْمًا وَلَا رَأْسًا ، ثُمَّ لَا يَكْمُلُ دُونَهُمَا إِلَّا الْمَرْأَةُ وَخَدَهَا .

إِنَّمَا كُنْتُ يَا أَبَا الْهَوْلِ لُغَزَ الصَّمْتِ ، فَلَمَّا أُضِيفَتْ الْمَرْأَةُ إِلَيْكَ أَصْبَحْتَ لُغَزَ الطُّطِيِّ ... فَيَا لِلْهَوْلِ !

### فَاتِحُ الْجَوِّ الْمِصْرِيِّ (\*) (١)

يَا طَيْرَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى !

لَقَدْ أَنْفَلْتَ مِنْ رِذِيلَةِ الْجَوْفِ وَتَرَكْتَهَا فِي التُّرَابِ مَوْطِئًا الْقَدَمِ ، وَقُلْتَ لَهَا : وَبِحَاكِ !  
لَقَدْ أَنْ لِّلشَّبَابِ الْمِصْرِيِّ ؛ فَهُوَ مُغَامِسٌ فِي مَاءِ الصَّوَاعِقِ (٢) ، مُتَطَوِّحٌ فِي اللَّجْجَةِ الْأَرْزَلِيَّةِ  
الَّتِي تَغْوِصُ فِيهَا الْكَوَاكِبُ (٣) ، يَطِيرُ بِرُوحِ الشَّرَارَةِ ، وَيَهْبِطُ بِرُوحِ الْغَيْثِ ، وَيُلْجِمُ الْجَوَّ  
وَيُسْرِجُهُ ، وَيَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَشْوِي عُدُوَّهُ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ .

وَكُنْتَ بَطَلًا مُغَامِرًا فَخَطَرْتَ فِي طَرِيقِ الْمَلَائِكَةِ بِهَلْدِهِ الْفَضِيلَةِ وَحَمَلْتَ الْجَوَّ ؛ وَلَوْ  
أَنَّكَ خِيفْتَ وَكُنْتَ عَلَى جَنَاحِي جِبْرِيلَ لَا عَلَى طَيَّارَةٍ ، لَخَافَ جِبْرِيلُ عَلَى جَنَاحَيْهِ مِنْ  
حُطْمَةِ هَذَا الْمَعْنَى التُّرَابِيِّ الطَّاعِيَةِ الَّتِي يَحْكُمُ عَلَى الْأَحْيَاءِ بِالْمَوْتِ بِلا مَوْتٍ ، لِأَنَّهُ الذُّلُّ  
وَالْخُضُوعُ وَالرِّذِيلَةُ (٤) .

وَحَمَلْتَ الْجَوَّ إِلَى قُبَّةِ السَّمَاءِ ، وَهُنَاكَ نَظَرَ الْعَالَمُ فَرَأَى لِمِصْرَ النَّاهِضَةِ عِلْمَهَا  
الْإِنْسَانِيَّ يَتَنَفَّسُ تَحْتَ الْكَوَاكِبِ .

وَحَمَلْتَ الْجَوَّ إِلَيْنَا ، فَلَمَّا رَفَعْنَا رُؤُوسَنَا لِلرَّأْيِ ، رَفَعْنَا فِي الْوَقْتِ بَيْنَ شُعُوبِ الْأَرْضِ .

\* \* \*

وَضَرَبْتَ يَا جَنَاحَ مِصْرَ فِي الْهَوَاءِ ، وَأَغْتَانُ السَّمَاءِ (٥) مَمْلُوءَةٌ بِالرَّغْزِ وَالْهُوجَاءِ

(\*) « المقتطف » ؛ المجلد : ٧٦ ؛ مارس/آذار ١٩٣٠ م ، الصفحات : ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(١) كَيْتَتْ فِي أَوَّلِ طَيَّارِ مِصْرِيٍّ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ مِنْ أَوْرَبَةِ عَلَى طَيَّارَتِهِ ، فِي شَهْرِ فَبْرَايِر/ شَبَاطِ سَنَةِ ١٩٣٠ م ، وَهُوَ الطَّيَّارُ صِدْقِي وَطَائِرَتُهُ فَائِزَةٌ ، وَكَانَ مَقْدَمُهُ يَوْمًا مَشْهُودًا .

(٢) كِتَابَةٌ عَنِ السَّحَابِ .

(٣) كِتَابَةٌ عَنِ أَجْوَاثِ الْفَضَاءِ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « مَوْتٌ بِالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالرِّذِيلَةِ » بَدَلًا مِنْ : « لِأَنَّهُ الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ وَالرِّذِيلَةُ » .

(٥) نَوَاحِيهَا ؛ جَمْعُ عَتَانٍ (بِالْفَتْحِ) .

وَالْعَاصِفِ ، وَالسَّمَاءِ فِي فَضْلِهَا الْمُكْفَهَرِ الَّذِي تَخْلَعُ فِيهِ كُلُّ سَاعَةٍ وَتَلْبَسُ وَتُزَقُّ (١)  
وَتَطْوِي ، فَرَدَتْ بِجُرْأَتِكَ فِي بَرَاهِينِ الْقَضِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ بُرْهَانَ قُوَّةِ الْمُخَاطَرَةِ ، وَأَصْفَتْ إِلَى  
مَنْطِقِهَا وَضْعًا جَدِيدًا مُفْجِعًا مِنْ رُوحِ التَّضْحِيَّةِ .

وَطَرَتْ بَيْنَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ فَجَعَلَتْهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي اعْتِقَادِكَ ؛ إِذْ وَصَلْتَ فِكْرَةَ الْمَوْتِ بِسِرِّ  
الْإِيمَانِ ، وَالْحَيَاةِ بِسِرِّ الْعَزِيمَةِ .

وَكُنْتَ رَجُلٌ أَقْنَيْكَ بِإِنْكَارِ ذَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا .

وَاتَّسَعْتَ لِلتَّارِيخِ بِوَضْعِكَ عُمْرَكَ الْمَخْدُودَ عَلَى الطَّيَّارَةِ ، وَقَذَفْتَ بِهَا وَبِهِ فِي مَسْبَحِ  
الْأَجَلِ .

وَتَجَرَّدْتَ لِلْأَبَدِيَّةِ لِتُعْطِيَ بِلَادَكَ : إِمَّا شَهِيدَ مَجْدٍ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا شَهَادَةَ فَخْرٍ فِي  
الدُّنْيَا .

وَكُنْتَ عَلَى طَيَّارَتِكَ الصَّغِيرَةِ الْمُتَطَارِدَةِ تَحْتَ الرِّيحِ ، وَحَوْلَكَ رُوحُ الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ  
الْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مِصْرَ وَكَأَنَّهُ مِسْمَارٌ مَذْقُوقٌ فِي كُرَةِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْقُطْبِ وَالْقُطْبِ .

\* \* \*

وَأَنْتَ يَا « فَائِزَةٌ » ، يَا هَلْدِي الصَّغِيرَةَ الْخَارِجَةَ مِنْ مَالِ صَاحِبِهَا وَجُهْدِهِ وَعَزِيمَتِهِ كَمَا  
تَخْرُجُ الْقُوَّةُ مِنْ ضَعْفٍ ، أَعْلِمْتِ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ السُّحُبِ كَمَا تَتَوَأَّبُ الْفَرَّاشَةُ  
عَلَى التُّورِ فِي رَوْضَةِ مُزْهَرَةٍ .

وَإِذْ أَنْتِ تَفْتَقِنِينَ وَتُحَوِّكِينَ فِي مَلَاءَةِ السَّحَابِ كَأَنَّكَ بِمُحَرِّكِكَ الدَّوَّارِ تَنْسِجِينَ فِي  
السَّمَاءِ بِمِغْزَلٍ .

وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفْقِ الرِّيحِ الْهُوجِ (٢) ، تَحْتَ السَّمَاءِ الْمُدَجَّجَةِ (٣) ، فِي كُبَّةِ الشَّمَاءِ (٤) ،

(١) كِتَابَةٌ عَنِ طَبِيعَةِ الشَّمَاءِ ، مِنَ الْغَيْمِ وَالصَّخْرِ وَمَا بَيْنَهُمَا .

(٢) أَضْطِرَابُ الرِّيحِ الْمُتَقَلِّبَةِ .

(٣) الْمُنْعَمِيَّةُ .

(٤) كُبَّةُ الشَّمَاءِ : شِدَّتُهُ وَدَفْعَتُهُ .

كَأَنَّكَ مُنَاطِرَةٌ تَجْرِي بَيْنَ الْعَرِيزَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْعَرِيزَةِ فِي الطَّبِيعَةِ .

وَإِذَا أَنْتَ بَيْنَ ذُنَابِ الْأَعَاصِيرِ ، وَنُمُورِ السَّحَابِ<sup>(١)</sup> ، وَسِبَاعِ الْغَنَمِ ذَوَاتِ اللَّبَدَةِ الْكَثِيفَةِ الْمُسْتَعْتَةِ ، كَأَنَّكَ بِصَوْتِكَ وَأَزِيرِكَ تُطْلِقِينَ عَلَى وَحُوشِ الْجَوِّ مِدْفَعًا رَشَاشًا يَتْرُكُهَا صَرَعَى .

وَإِذَا تَرَاكَ الرِّيحُ فَتَقُولُ عَنْكَ : رِيحُ صَنَعَتِهَا الْإِنْسَانُ . وَيَرَاكَ النَّجْمُ فَيَقُولُ : نَجْمٌ أَفَلَتَ مِنَ النَّظَامِ الْأَرْضِيِّ . وَتَرَاكَ الْمَلَائِكَةُ فَتَقُولُ : وَيَحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ ، كَأَنَّكَ بِمَا خَلَقَهُ الْعَقْلُ تَطْمَعُ مَنَّا فِي سَجْدَةٍ أُخْرَى كَأَلْتَنِي سَجْدَتَاهَا لِآدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ .

... أَعْلِمْتُ إِذْ أَنْتَ كَذَلِكَ يَا « فَائِزَةٌ » ، أَنَّ التَّارِيخَ الْمِصْرِيَّ سَيُحَوِّلُكَ مِنْ طَيَّارَةٍ إِلَى آيَةٍ كَايَةِ بَذَى الْخَلْقِ ، لِأَنَّ فِيكَ بَذَى الطَّيْرَانِ فِي مِصْرَ ؟

\* \* \*

سَلَامًا يَا فَاتِحَ الْجَوِّ الْمِصْرِيِّ . لَقَدْ أَجَالَتْ الْأَيَّامُ فِدَاحَهَا فَخَرَجَتْ الْفُرْعَةُ عَلَيْكَ ، وَأَوْحَى إِلَيْكَ الْوَاجِبُ آيَةَ : بِاسْمِ اللَّهِ مَضَعُهَا وَمَجَرَاهَا .

وَطَرَتْ فَإِذَا أَنْتَ بِهَا عَابِرٌ فَوْقَ الْحَاضِرِ لِتَجِئَنَا مِنْ جَانِبِ الْمُسْتَقْبَلِ .

وَهَبَطْتَ عَلَيْنَا كَأَنَّكَ فِي بَرِيدِ السَّمَاءِ كِتَابٌ مُجِدِّ حَيٍّ لِلْوَطَنِيَّةِ الطَّافِرَةِ .

بَلْ كِتَابٌ قِصَّةٌ رَائِعَةٌ أَلْفَتَهَا الْعَوَاصِفُ مِنْ فَتْنَيْنِ : نُورَةِ الْجَوِّ وَنُورَةِ نَفْسِكَ الْمِصْرِيَّةِ . وَحَكَّتْهَا فِي صَوْتَيْنِ : زَفِيفِ الطَّيَّارَةِ وَصَرَخَةِ ضَمِيرِكَ الْوَطَنِيِّ . وَجَعَلَتْهَا فَضْلَيْنِ : أَنْتَ وَالْمُجْهُولُ . أَلَا حَسْبُكَ مُجَدِّدًا أَنْ يَحْيَا الشَّعْبُ كُلُّهُ بِضِعَةِ أَيَّامٍ فِي قِصَّتِكَ !

\* \* \*

فَعَلَى مَهْدِ الْجَوِّ ، وَفِي حَرِيرِ الشُّعَاعِ ، وَتَحْتَ كِلَّةِ السَّحَابِ - وُلِدَ لِمِصْرَ يَوْمَ تَارِيخِي .

(١) يُقَالُ : رِيحٌ مُدْبِقَةٌ ؛ إِذَا كَانَتْ تَجِيءُ مِنْ هُنَا مَرَّةً وَمِنْ هُنَا مَرَّةً كَمَا يُسَاوِرُ الدُّدُبُ ، فَوَضَعْنَا مِنْ هُنَا كَلِمَةَ ذُنَابِ الرِّيَاحِ . وَالنُّمُورُ مِنَ السَّحَابِ : قِطْعٌ صَغَارٌ مُتَدَانٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، تَشْبِيهًُا بِجِلْدِ الْكَبِيرِ ، فَوَضَعْنَا مِنْهَا نُمُورَ السَّحَابِ .

وَخَرَجَتْ الْتَهَانِيُّ الَّتِي طَالَ أَحْتِيَاسُهَا فِي الْقُلُوبِ الْمِصْرِيَّةِ لَا يُفْرَجُ عَنْهَا لِأَنَّ سَجَانَهَا ظَلَمَ السِّيَاسَةَ .

وَاتَّجَهَتْ أَفْرَاحُ شَعْبٍ كَامِلٍ إِلَى الْفَتَى الْجَرِيءِ الَّذِي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فَوْقَ هَاوِيَةِ الْمَوْتِ فَتَخَطَّاهَا .

وَتَلَقَّى شُعُورُ الْأُمَّةِ رَسُولَهُ الْمِقْدَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مَلَجَأٌ فِي خِطَارِهِ إِلَّا شُعُورُهُ بِهِذِهِ الْأُمَّةِ .

وَأَزْتَجَّ الْوَادِي كُلُّهُ كَأَنَّهُ عِنْدُ يَتَقَلَّلُ حِينَ يُسَلُّ مِنْهُ السَّنْفُ .

ثُمَّ أَهْدَيْتَ كَلِمَةً مِصْرَ لِأَنَّهَا الَّتِي كَتَبَ فِي جَوْهَا الْكَلِمَةَ السَّمَاوِيَّةَ الْأُولَى ، وَكَانَتْ سَاعَةً تَلَاشَى عِنْدَهَا الزَّمَنُ فَازْتَفَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَهَتَفَتْ مَعَنَا الْفَرَاعِنَةُ : بُورِكَتْ يَا « صِدْقِي » !

\* \* \*

لِلَّهِ دُرُكٌ أَيْمًا ابْنَ عَرِيزَةٍ ! كَأَنَّمَا كَشَفَتْ أَهَابِيلَ الْوَحْيِ وَهَبَطَتْ فِي سَحَابَةٍ مُجَلْجَلَةٍ إِنْ لَمْ تَحْمِلْ كِتَابًا مُثَرَّلًا فَكَأَنَّمَا حَمَلَتْ شَخْصًا مُثَرَّلًا .

وَلَعَلَّكَ رَسُولُ الْغَنَمِ الْعَابِسِ لِهَذَا الْجَوِّ الْمِصْرِيِّ الَّذِي يَضْحَكُ دَائِمًا ضِخْكَه الْفَيْلَسُوفُ السَّاحِرِ فِي حِينٍ أَصْبَحَتْ الْحَيَاةُ قُوَّةً لَا فِلْسَفَةً ...

وَلَعَلَّكَ مَبْعُوثُ الْبَرِّي وَالرَّغْدِ لِهَذَا السُّكُونِ النَّائِمِ الَّذِي يَطْوِي كُلَّ يَوْمٍ فِي طَيِّ النَّسِيَانِ مَا حَدَثَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ ...

وَلَعَلَّكَ نَبِيُّ الْجِدِّيَّةِ وَالْمَرَارَةِ لِهَذِهِ الْحَلَاوَةِ الْبَلْبَلَةِ الْمُفْرِطَةِ الَّتِي كَادَ مِنْهَا الشَّعْبُ أَنْ يَكُونَ سُكَّرَ أَخْلَاقٍ يَذَابُ وَيُسْرَبُ ...

وَلَعَلَّكَ تَفْسِيرُ مُصَحِّحِ لِعَقِيدَتِنَا الْمَغْلُوطَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، أَنَّ الْقَضَاءَ أَنْ تُقَدِّمَ بِلَا خَوْفٍ ، وَأَنَّ الْقَدَرَ أَنْ تَتَّقِيَ بِلَا مُبَالَاةٍ .

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ غَمَرَتْ الشَّعْبَ بِمَوْجَةِ هَوَاءٍ جَدِيدَةٍ جِثَّتْ بِهَا فِي جَنَاحَيْكَ ، وَتَفَخَّتْ رُوحَ طَيَّارَتِكَ الْمَجِيدَةِ فِي الْقُلُوبِ فَجَعَلَتْهَا كُلُّهَا تُرْفَرُفُ كَأَنَّ لَكَ فِي ضُلُوعِ كُلِّ مِصْرِيٍّ طَيَّارَةً .

## أَجْنَحَةُ الْمَدَافِعِ الْمِصْرِيَّةِ (\*) (١)

أَسْتَجِنِحِي<sup>(٢)</sup> يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِينِي ، إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي .

لَقَدْ مَدَّتْ لُغَةُ الْقُوَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَدَّهَا حَتَّى أَصْبَحَ الطَّيْرَانُ بَعْضُ مَعَانِي الْمَشْيِ ، وَلَمْ يَعُدْ الْعَالَمُ يَذَرِي كَيْفَ تَكُونُ الصُّورَةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي يَسْتَقِرُّ فِيهَا مَعْنَى إِنْسَانِهِ .

فَلْتَمَجِّدْ مِصْرَ بِإِنْسَانِهَا الْبَرَقِي الَّذِي تَخْرُجُ الْكَارُ بِكَدِهِ مِنْ أَغْرَاضِ السَّحَابِ ، وَتُفَرِّقُ فِي أَصَابِعِهِ هَزَاتُ<sup>(٣)</sup> الرُّعْدِ ، وَيَجْعَلُ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ صَلَصلةً وَجَلْجَلَةً ، وَيَخْمِلُ الْأَسْمَ الْمِصْرِيَّ إِلَى مُعَلَقِ النَّجْمِ ، فَيَضَعُ لَهُ هُنَاكَ التَّعْرِيفَ الْتَّارِي الَّذِي وَضَعَهُ الدُّوَلُ الْعُظْمَى لِأَسْمَائِهَا .

وَلْتَمَجِّدْ مِصْرَ بِإِنْسَانِهَا الْبَرَقِي الَّذِي يُشْعِرُهَا حَقِيقَةَ الْعُلُوِّ الْعَالِي ، وَالْعُمَى الْعَمِيقِ ، وَالسَّعَةِ الَّتِي لَا تُحَدُّ ؛ وَيَزِيدُ فِي مَعَانِي أَحْيَانَنَا مَعْنَى جَدِيدًا لِأَحْيَاءِ الشُّحْبِ ، وَفِي مَعَانِي أُمُورِنَا مَعْنَى جَدِيدًا لِمَوْتَى الْكَوَاكِبِ .

إِنْسَانُ بَرَقِي يُتِمُّ بِشَجَاعَتِهِ فِي السَّمَاءِ بُطُولَةً فَلَا حِثَا الْإِنْسَانِ الشَّمْسِيِّ فِي الْأَرْضِ ، وَيَعْلُو بِكِبَرِيَاءِ مِصْرَ فِي ذِرْوَةِ الْعَالَمِ ، فَتُظْهِرُ طَيَارَاتُهَا الْعَظِيمَةَ قُدْرَةَ فِي الْجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ أَثَارُهَا الْعَظِيمَةَ قُدْرَةَ فِي الْفَرَى .

إِنَّهَا مِصْرُ ، مِصْرُ الْقَادِرَةِ الَّتِي سَحَرَتْ الْقَدَمَ بِقُوَّتِهَا وَفَتْهَا ، فَبَقِيَ فِيهَا عَلَى حَالِهِ وَجَلَالَتِهِ ، وَأَنْهَزَمَ الدَّهْرُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ عَلَى قُوَّةِ الزَّمَنِ نَفْسِهَا .

(\*) « المقتطف » ؛ المجلد : ٨٤ ؛ يناير / كانون الآخر ١٩٣٤ م ، الصفحات : ٨ - ١٠ .

(١) كُتِبَتْ فِي أَحْيَرِ أَوَّلِ طَيَّارَةِ حَزْبِيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ فِي قُدُومِهَا إِلَى مِصْرَ مِنْ أُرُوبَةٍ ، وَقَدْ اخْتَرَقَ فِيهَا الشَّهِيدَانِ : (حَجَّاجٌ وَدُوسٌ) ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ دَيْسَمْبَرِ / كانون الأول سنة ١٩٣٣ م .

(٢) أَيُّ : أَتَجِدِي الْأَجْنَحَةَ ، وَلَمْ تَأْتِ الْكَلِمَةُ فِي اللَّغَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَلَكِنَّا اسْتَعْمَلْنَاهَا فِيهِ قِيَاسًا عَلَى كَلَامِهِمْ .

(٣) كَذَا فِي طَبَعَاتِ « وَخِي الْقَلَمِ » ، وَفِي الْأَصْلِ : « هَزَمَاتُ » .

فَأَسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِينِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي .

\* \* \*

وَلَمَّا فَتَحَ السَّجِلُ ذَاتَ صَبَاحٍ لِنَكْتُبَ مِصْرَ أَسْمَاءَ الْفُوجِ الْأَوَّلِ مِنْ سُورِهَا الْحَزْبِيِّينَ ، صَاحَ مَجْدُهَا الْخَالِدُ مِنْ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ :

« أَضْرِبِي الشُّعْلَةَ الْأَدِيمَةَ الْأَوَّلَى يَا مِصْرُ ، وَأَفْتَحِي الْقَبْرَ الْجَوِّيَّ الْأَوَّلَ ، وَالْحَدِيدِي فِيهِ مِنْ عُصْرَتِكَ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَقْبَاطِ ، وَضَعِي الْحَيَاةَ فِي أُسَاسِ الْحَيَاةِ ، وَاسْتَقْبِلِي عُصْرَكَ الْجَدِيدَ بِأَذَانِ الْمَسْجِدِ وَدَقِّ الْكُافُوسِ لِتَبَارِكَةِ اللَّهِ ، وَلِيَتَلَقَّ الشُّعْبُ أَوَّلَ طَيَّارِيهِ بِقُلُوبٍ فِيهَا رُوحُ الْمَعْرَكَةِ ، وَأَكْبَادُ عَرَفَتِ مَسَّ الْكَارِ ، وَلَا يَنْظُرَنَّ إِلَى طَيَّارَاتِهِ الْأَوَّلِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْظُرَ الثَّعَشِينَ قَبْرِي مَجْدَ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ ، فَتُسَطَّعَ نَظَرَاتُهُ بِبَرَقِي الْكِبَرِيَاءِ ، وَلَمَعَةِ الْعَزِيمَةِ ، وَشُعَاعِ الْإِيمَانِ ؛ وَيَأْتِلَقَ فِيهَا الثُّورُ السَّمَائِيُّ الَّذِي يَجْعَلُ الْكَاسَ فِي بَعْضِ سَاعَاتِهِمْ كَوَاكِبَ ، نُورُ صَلَاةِ الشُّعْبِ عَلَى مَوْنَاهُ الشُّهَدَاءِ » .

وَأَسْتَجَابَ الْقَدَرُ لِصَوْتِ الْمَجْدِ ، فَالْتَجَّ الظَّلَامُ فِي وَضَحِ الصُّبْحِ ، وَأَنْطَفَأَ سِرَاجُ الْتَّهَارِ فِي قُبَّةِ الْفَلَكَ ، وَأَطْبَقَتْ نَوَاحِي الْجَوِّ إِطْبَاقَ لَبْلَةٍ تَسَاقَطَتْ أَرْكَانُهَا ، وَأَقْبَلَ الضُّبَابُ يَغْتَرِضُ اغْتِرَاضَ جَبَلٍ عَائِمٍ يَتَذَنَّبُ فِي بَحْرِ ، وَاسْتَأْرَضَ السَّحَابُ فَتَحَلَّى عَنْ طَبِيعَتِهِ السَّمَائِيَّةِ الرَّقِيقَةِ ، وَتَدَاوَرَّتِ الْعَنَاصِرُ عَلَى الْقِتَالِ يَحْضُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَغَشَّتِ السَّمَاءُ بِوَجْهِ الْمَوْتِ : كَلَحَ قَارِيزٌ وَأَنْفَخَ ، وَتَكَسَّرَتْ فِيهِ الْعُضُوفُ كُلُّ غَضَنِ كِسْفَةِ ظَلَامٍ ، وَعَادَ أَوْسَعُ شَيْءٍ أَضْيَقَ شَيْءٍ ، فَكَانَ الْفَضَاءُ كَصَدْرِ الْمُخْتَصِرِ : لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا عُمُرُ سَاعَةٍ وَأَنْفَاسُهَا .

وَابْتَدَرَتْ إِلَى مَجْدِ الْمَوْتِ الطَّيَّارَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْأَوَّلَى ، وَكَانَ فِيهَا إِنْكَلَبِيَّانِ يَقُودَانِهَا قَابَاها الْمَوْتُ ، فَدَهَبَتْ فَانْتَحَرَتْ أَسْفًا وَتَرَدَّتْ مُتَحَطِّمَةً ، وَأَنْسَلَ الرَّجُلَانِ مِنْ مَحَالِبِ الرَّدَى ، وَكَانَا فِي الطَّيَّارَةِ كَوَرَقَتَيْنِ مِنَ الثَّنَبِ فِي فَمِ جَرَادَةٍ هَمَّتْ تَقْضِيهِمَا ...

وَسَتَّبِقُ الثَّانِيَةُ إِذَا فِيهَا وَدِيعَةُ الْكَرَمِ مِنْ عُصْرَتِي مِصْرَ : « حَجَّاجٌ وَدُوسٌ »<sup>(١)</sup> وَكَانَ سِرًّا

(١) هُمَا قُوَادُ حَجَّاجٍ ، وَشَهِيدِي دُوسٍ ؛ وَكَانَ فِي الطَّيَّارَةِ الْأُخْرَى الَّتِي تَحَطَّمَتْ الْمِشْزِ بِلِتِ ، وَالْمِشْزِ سَمِيحٌ .



مِنْ أَسْرَارِ مِصْرَ اجْتِمَاعُهُمَا فِي مَدَاحِصِ الْغَمَامِ وَمَزَالِقِهِ ، لِيَكُونَا هَدِيَّةَ مِصْرَ الْأَوَّلَى إِلَى مَجْدِهَا الْحَرْبِيِّ ، ثُمَّ لِيَكُونَا هَدِيَّةَ الْمَجْدِ إِلَى إِحْسَاسِ هَذَا الشَّعْبِ يُحْسِنُ مِنْهُمَا الْعَالَمُ الْمُنْطَوِي لَهُ فِي مُسْتَقْبَلِ النَّصْرِ .

وَأَعْتَسَفَتْ طَيَّارَةُ الشَّهِيدَيْنِ طَرِيقَ الْفَنَاءِ وَمَتَاهَةَ الْحَيَاةِ ، فَذَهَبَتْ عَنْهَا مَعَارِفُ الْأَرْضِ ، وَعُمِيَتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ السَّمَاءِ ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَضَرُّفِ أَيْدِي الْبَطْلَانِ إِلَى تَضَرُّفِ أَجْلِهِمَا ، وَأَضْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَطِيرُ فِي الْأَنْفَاسِ الْبَاقِيَةِ لَهُمَا ؛ فَمَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ ؛ وَلَمْ تَكُنْ <sup>(١)</sup> طَيَّارَةً تَحْمِلُهُمَا ، بَلْ جَنَاحًا مَمْدُودًا لَهُمَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ أَجْتَرَهَا الْمَوْتُ إِلَى غَوْرٍ ، فَانْحَطَّتْ مِنَ الْهَوَاءِ جَانِحَةً كَالطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً فِي الْعَاصِفَةِ ، ثُمَّ انْتَهَضَتْ وَائِبَةً ، وَتَمَطَّرَتْ مُنْقَلِبَةً ، فَاشْتَعَلَتْ فَاسْتَعَرَتْ فَانْضَجَتْ رَاكِبِيهَا ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ !

وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مَنْظَرُ الْحُزْنِ فِي الْحَيَاةِ هُوَ أَنَّهُمَاكَ الْحَيَاةِ فِي عَمَلٍ جَدِيدٍ تُبْدِعُ مِنْهُ الشُّرُورَ وَالْقُوَّةَ . اخْتَرَقَ الْبَطْلَانُ لِتَسْلَمَ مِصْرُ فِي نَعَشِيهِمَا رَمَادًا لَنْ يُبْنَى تَارِيخُ الْعِزَّةِ الْوُطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ .

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي .

\* \* \*

صَنَعَتِ النَّارُ الْأَدَمِيَّةَ الْحَقِيقَةَ ، وَوَضَعَتْ لَنَا الْأَسْمَ الْبَدِيعَ الَّذِي نُطْلِقُهُ عَلَى طَيَّارِنَا الْأَبْطَالِ ، فَلَا تُسَمُّوهُمْ سُورَ الْجَوِّ ، وَلَكِنْ سَمُّوهُمْ « جَمَرَاتِ الْجَوِّ » .

صَنَعَتْ نَارَنَا الْحَقِيقَةَ ، وَأَوْحَتْ إِلَيْنَا أَنْ نُسَبِّدَ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ ، وَأَنْ نَفَاجِي شُعُورَنَا الْحَالِمَ فَتَضِدَّهُ بِالْأَمِّ الْيَقْظَةِ الْمُرَّةِ ، وَأَنْ نَغَيِّرَ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ فِي التَّرْبِيَةِ الْمِصْرِيَّةِ فَلَا تَكُونُ : الْعَيْنُ الْعَيْنُ ، وَلَكِنْ الْقُوَّةُ الْقُوَّةُ .

صَنَعَتِ النَّارُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ إِنْ هِيَ إِلَّا أَدَاءٌ لِلْحَيِّ ، وَلَيْسَ الْحَيُّ أَدَاءٌ لِلْحَيَاةِ ، فَلْيَصْرِفْ بِهَا عَلَى قَوَائِنِ الرُّوحِ وَأَمَالِهَا فَيَسْمُو وَتَسْمُو ، وَلَا يَدْعُهَا تَصْرِفُ عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ : « تَعْدُ » بَدَلًا مِنْ : « تَكُن » .

مَذَاهِبِ أَقْدَارِ الْمَادَّةِ وَتَصَارِيفِهَا فَيَذِلُّهَا وَتَذِلُّهُ . وَفِي قَانُونِ الرُّوحِ : لَا قِيَمَةَ لِعَالَمِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا ؛ وَفِي قَانُونِ الْمَادَّةِ وَضْعَةُ الْحَيَاةِ : كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا تَصْلُحُ لَهَا . . . .  
بَلَى ، قَدْ صَنَعَتِ النَّارُ الْأَدَمِيَّةَ الْحَقِيقَةَ ، وَأَعْطَتْنَا قِصَّةَ الْحُرِّيَّةِ كَامِلَةً فِي مَعْنَى وَاحِدٍ : وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ لِعَاشِقِيهَا كَأَجْمَلِ الْجَمِيلَاتِ لِلْمُتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا : جَمَالُهَا مُتَوَحِّشٌ ، وَخِلَافَتُهَا مُفْتَرَسَةٌ ، وَظَرْفُهَا سَفَاكٌ لِلدَّمِ .

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي .

\* \* \*

وَالِىَ السَّمَاءِ يَا « جَمَرَاتِ الْجَوِّ » ، فَإِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَى السَّحَابِ ، فَلَيْسَتْ الطَّيَّارَةُ ثُمَّ طَيَّارَةً ، بَلْ حَقِيقَةً حَيَّةً عَامِلَةً لِلْمَجْدِ ، فَلْتَحْمِلْ مَعَهَا الْمِصْرِيَّ مِنْ بَطْلِهَا الْمِصْرِيَّ .  
وَإِذَا سَبَحْتُمْ فِي مَهِيطِ الْقَدَرِ ، فَلَيْسَ الطَّيَّارُ ثُمَّ طَيَّارًا ، بَلْ حَيَاةٌ عِبْقَرِيَّةٌ أَرْسَلَتْهَا مِصْرُ تَسْتَنْزِلُ لِلْحَيَاةِ أَقْدَارًا سَعِيدَةً .

وَإِذَا خَضَعْتُمْ فِي الْمَعْرَكِ الضَّنْكَ تَتَبَعْتُمْ فِيهِ الْأَجَالَ عَلَى الرِّيَاحِ ، فَلَيْسَ الْجِسْمُ الْمِصْرِيُّ هُنَاكَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ، بَلْ نَامُوسًا طَبِيعِيًّا مَاضِيًا إِلَى غَايَةٍ .

وَإِذَا تَفَادَقْتُمْ فِي بَحْرِ الشَّمْسِ ، فَأَنْتُمْ هُنَاكَ عَلَى شِبَاكِ طَرَحْتُمُوهَا لِصَيْدِ أَيَّامٍ مُضِيَّةٍ تَلْتَمِعُ فِي تَارِيخِ مِصْرَ .

وَإِذَا نَفَذْتُمْ مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ ، فَانْظُرُوهَا بِأَعْيُنِكُمْ مَعَالِي مِصْرَ <sup>(١)</sup> ، وَأَفْهَمُوهَا بِقُلُوبِكُمْ ذَاتِيَّةَ الْوُطَنِ الْمِصْرِيَّ تَعْلُو وَتَعْلُو وَلَا تَزَالُ أَبَدًا تَعْلُو .

إِنَّمَا الطَّيَّارَةُ وَسِلَاحُهَا وَطَيَّارُهَا تَأْلِفُ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْعَنَاصِرِ ، مَعْنَاهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ « لَا بُدَّ » . وَمَتَى هَدَرَتِ الطَّيَّارَةُ هَدِيرَهَا فَإِنَّمَا تَقُولُ لِلْبَطْلِ مِنْكُمْ : هَلُمَّ مِنْ عَالٍ إِلَى أَعْلَى ، إِلَى أَكْثَرِ عُلُوًّا ، إِلَى أَقْصَى حُدُودِ الْوَاجِبِ عَلَى النَّفْسِ حِينَ يَأْخُذُ الْوَاجِبُ الْكُلَّ وَحِينَ تُعْطِي النَّفْسُ الْكُلَّ .

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَتِلْكَ الْعُلَى » بَدَلًا مِنْ : « مَعَالِي مِصْرَ » .

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ١

## الطَّمَاظِمُ السِّيَاسِيُّ (\*) ...

كَانَ (م) بَاشَا رَحِمَهُ اللَّهُ دَاهِيَةً مِنْ دُهَاهِ السِّيَاسَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، يَلْتَوِي مَرَّةً فِي يَدَيْهَا الْيَوَاءَ الْحَبْلَ ، وَيَسْتَوِي فِي يَدَيْهَا مَرَّةً أَسْتَوَاءَ السَّيْفِ ، وَلَا يُرَى أَبَدًا إِلَّا مُكْمَشًا مُخَرَّزًا كَانَ لَهُ عَدُوًّا لَا يَذِرِي أَيْنَ هُوَ وَلَا مَتَى يَفْتَحِمُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ كَانُوا آلَاتٍ لِلْكَذِبِ بَيْنَ طَالِبِ الْحَقِّ وَغَاصِبِ الْحَقِّ - يَعْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ كَامِنٌ فِي أَعْمَالِهِ .

وَكَانَ ذَكِيًّا أَرِينَا ، غَيْرَ أَنَّ مَلَابَسَتَهُ لِلْسِّيَاسَةِ الدَّائِرَةِ عَلَى مِخْوَرِهَا ، جَعَلَتْ نِصْفَ ذِكَايِهِ مِنَ الدَّكَاةِ وَنِصْفَهُ مِنَ الْمَكْرِ ؛ فَكَانَ فِي مَرَاوَعَتِهِ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ عُقُولٍ : أَحَدُهَا (١) مِصْرِيٌّ ، وَالْآخَرُ إِنْكِلِيزِيٌّ ، وَالثَّلَاثُ خَارِجٌ مِنَ الْحَالِينِ .

وَبِهَذَا تَقَدَّمَ وَعَاشَ أَثِيرًا عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ ، وَاسْتَمَرَّتْ مَجَارِيهِ مُطَرِدَةً لَدَيْهِمْ حَتَّى بَلَّغُوا بِهِ إِلَى الْوِزَارَةِ ، إِذْ كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ عَنْهُمْ ، سَرِيعَ الْأَسْتِجَابَةِ إِلَيْهِمْ ؛ يَفْهَمُ مَعْنَى الْفَاطِمِ ، وَمَعْنَى النَّبِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ الْفَاطِمِ ، وَمَعْنَى آخَرَ يَتَبَرَّعُ هُوَ بِهِ لِأَلْفَاطِهِمْ ... فَكَانَ هُوَ وَأَمْثَالُهُ فِي رَأْيِ تِلْكَ السِّيَاسَةِ الْقَدِيمَةِ ، رَجَالًا كَالْأَفْكَارِ : يُوضَعُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانِهِ مِنَ الْحُكْمِ كَمَا تُوضَعُ صِنِغَةُ الشَّكِّ لِإِفْسَادِ الْيَقِينِ ، أَوْ صِنِغَةُ الْوَهْمِ لِتَوَلِيدِ الْخَيَالِ ، أَوْ صِنِغَةُ الْهَوَى لِإِجْبَادِ الْفِتْنَةِ .

\* \* \*

وَكَانَ صَدِيقِي (فُلَانٌ) رَحِمَهُ اللَّهُ صَاحِبَ سِرِّهِ (السَّكْرَتِيرِ) ، وَقَدْ وَثِقَ بِهِ الْبَاشَا حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُعَالِجُهُ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَيَبْنِي هُمُومَهُ وَأَخْرَانَهُ ، وَيَرَى فِيهِ دُنْيَا حُرَّةً يَخْرُجُ إِلَيْهَا كُلَّمَا

(\*) « الرسالة » العدد : ١٦٠ ، ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٧ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ١٢٠١ - ١٢٠٣ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَحَدُهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « أَحَدُهَا » .

ضَاقَتْ بِهِ دُنْيَا وَظَنَّتِهِ ، وَيَسْتَعِيرُ مِنْهُ الْيَقِينَ أَحْيَانًا بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ مِصْرِيًّا لَمْ يَتِمَّ بَعْدُ تَحْوِيلُهُ فِي الْكُرْسِيِّ ...

فَحَدَّثَنِي الصَّدِيقُ بَعْدَ مَوْتِ هَذَا الْبَاشَا قَالَ : إِنَّهُ دَعَاهُ يَوْمًا لِيُفَاتِحَهُ الرَّأْيَ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنَّ الرِّئِيسَ الْإِنْكِلِيزِيَّ غَيْرَ مُطْمَئِنٍّ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَقِيقَةَ مِنَ الْحَقَائِقِ الصَّرِيحَةِ ظَاهِرَةٌ عَلَى وَجْهِكَ ، فَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَقُولُ لَهُ بِعَيْنِكَ إِنَّكَ مِصْرِيٌّ مُسْتَقِلٌّ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : لَيْنَ كَانَ ذَلِكَ مَا يُغْضِبُهُ إِنَّ الْخَطْبَ لَهُيْنِ ، فَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ نَظَارَةِ سَوْدَاءَ ...

فَصَحَحَ الْبَاشَا وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، هَذَا الْإِنْكِلِيزِيُّ عِنْدَنَا كَالشَّيْطَانِ : « إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَفِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا تَوَدُّهُمْ » [ سورة الأعراف / الآية : ٢٧ ] ، وَوَاللَّهِ يَا بُنَيَّ إِنِّي لِأَشْهَدُ أَفْقَةً مِنْكَ ، وَإِنَّ صَدْرِي لَشَجِيٍّ مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ هَذَا الْكَرْبِ ، وَلَكِنَّنَا نَحْنُ الشَّرِيفَيْنِ قَدْ ضَعْنَا مِنْذُ فَقَدْنَا الشَّخْصِيَّةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ .

أَتُرَاكَ تَفْهَمُ شَيْئًا لَوْ قُلْتَ لَكَ : رَجُلٌ ، أَسَدٌ ، جَبَلٌ ، مَدِينَةٌ ، أَسْطُوطٌ ؟ إِنَّ تَرْكِيبَنَا الْأَجْتِمَاعِيَّ شَيْءٌ كَهَذَا الْكَلَامِ : فِيهِ مِنْ ضَخَامَةِ اللَّفْظِ بِقَدَرِ مَا فِيهِ مِنْ أَنْجِلَالِ الْمَعْنَى وَأَضْمِخْلَالِهِ . وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ إِذَا أَفْرَدَتْ مَعْنَى صَحِيحًا يَقُومُ بِهَا وَتَقُومُ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى مَعْنَى كَلَامٍ مَعْنَى .

أَصْبَحَ الشَّرِيفُ يَعْيشُ فِي أُمْتِهِ عَلَى قَاعِدَةٍ أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ لَا صِلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَطْرَافِ لَا فِي الزَّمَانِ وَلَا فِي الْمَكَانِ ، وَنَسِيَ مَعْنَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا » [ كنز العمال ] ، رقم : ١٤٠٣٣ ، بلفظ : « أَخْرُثْ لِدُنْيَاكَ ... » وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَمَاذَا كَانَ يُرِيدُ أَعْظَمُ الْمُصْلِحِينَ الْأَجْتِمَاعِيِّينَ مِنْ قَوْلِهِ : « كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا » ؟ إِلَّا أَنْ يَقَرَّرَ لِأُمْتِهِ أَنَّ الْفَرْدَ يُبْنِوْغُ الْأَجْيَالِ الْمُقْبِلَةَ كُلَّهَا ، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ كَأَنَّهَا مَوْفُوقَةٌ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مُسْتَعِيرٌ فِيهَا .

هَذِهِ حِكْمَةُ إِسْلَامِيَّةٍ دَقِيقَةٍ ، عِنْدَنَا نَحْنُ لَفْظُهَا وَلَسْنَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا ، وَعِنْدَ الْإِنْكِلِيزِ مَعْنَاهَا وَلَا يَعْرِفُونَ لَفْظُهَا . أَهْمُ الْمُسْلِمُونَ أَمْ نَحْنُ ؟

وَعَلَى قَاعِدَةِ الْإِنْفِرَادِ أَنْفَرَدَ كُلُّ شَيْءٍ ؛ فَأَتَرَ الشَّرْقِيَّ حَيَاتَهُ عَلَى وَطْنِهِ ، وَقَدَّمَ لَذَنَّهُ عَلَى وَاجِبِهِ ، وَتَعَامَلَ بِالْمَالِ فِي مَوَاضِعِ الْمُعَامَلَةِ بِالْأَخْلَاقِ ؛ وَكَانَ طَبِيعِيًّا مَعَ هَذَا أَنْ يَخْتَصِرَ الَّذِينَ اخْتِصَارًا يَجْعَلُهُ مِقْدَارًا بَيْنَ مِقْدَارَيْنِ ، فَلَا هُوَ دِينٌ وَلَا هُوَ غَيْرُ دِينٍ ؛ وَبِذَلِكَ يُنَاسِبُ فَرْدِيَّتَهُ وَيَقْعُدُ تَحْتَ حُكْمِهِ وَهُوَ خَارِجٌ عَلَيْهِ ؛ فَتَرَى الرَّجُلَ مِنْ هَذِهِ الْمَلَائِينَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَهُوَ يَخْلِفُ بِهِ كَذِبًا عَلَى دِرْهَمٍ ، وَيُصَلِّي وَيُفْجِرُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَيَتَعَبَّدُ فِي نَفْسِهِ وَيَخُونُ سِوَاهُ فِي وَقْتٍ مَعًا .

وَمَتَى كَانَتْ الْحَالَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْأُمَّةِ هِيَ هَذِهِ الْفَرْدِيَّةُ وَمَصَالِحُهَا وَدَوَاعِيهَا ، كَانَ الْكَذِبُ أَظْهَرَ خِلَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، إِذْ هُوَ أَنْفَرَادُ الْكَاذِبِ بِحُطَّهِ وَمَصْلَحَتِهِ وَدَاعِيَّتِهِ ؛ وَلَا يَكْذِبُ عَلَيْكَ إِلَّا مَنْ يَزْجُو أَنْ تَكُونَ مُغْفَلًا ، أَوْ مَنْ قَدَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ الْمُعَامَلَةَ الْعَامَّةَ فِي الْأُمَّةِ هِيَ عَلَى قَاعِدَةِ الْمُغْفَلِينَ . . . وَيَكْذِبُونَ فِي هَذَا أَيْضًا فَيَسْمُونَهُ حِدَاقًا وَبِرَاعَةً (وَشَطَارَةً) .

وَإِذَا عَمَّ الْكَذِبُ فَشَا مِنْهُ الْهَزَلُ ؛ فَكُلُّ كَاذِبٍ هَازِلٌ ، وَهَلْ يَجِدُ الْكَاذِبُ وَهُوَ يَكْذِبُ إِلَّا إِذَا كَانَ مَجْنُونًا ؟ وَمِنْ الْهَزَلِ ضَرْبٌ هُوَ الْمُبَاسَطَةُ بِالْكَذِبِ ، وَمِنْهُ ضَرْبٌ مِنْ كَذِبِ الْحَقَائِقِ ، وَمِنْهُ مِنْ كَذِبِ الْخَيَالِ ، وَكَيْفَمَا دَارَتْ الْحَالُ لَا تَجِدُهُ إِلَّا كَذِبًا .

وَمَتَى صَارَ الْكَذِبُ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ ، تَقَرَّرَ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُقَالُ لِيقَالَ فَقَطْ . أَفَلَسْتَ تَرَى الرَّجُلَيْنِ إِذَا أَخْبَرَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ بِالْخَبَرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْغَرَابَةِ أَوْ الْبُعْدِ ، لَا يَكْلُمُهُ الْآخَرُ أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَهُ : صَحِيحٌ ؟ صَدَقَ ؟

وَلَا أَضَرَّ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ - عَقِيدَةِ أَنَّ الْكَلَامَ يُقَالُ لِيقَالَ فَقَطْ - فَإِنَّهَا هِيَ طَائِعُ الْهَزَلِ عَلَى أَخْلَاقِ الْأُمَّةِ ، وَعَلَى كُلِّ أَحْوَالِهَا ، وَعَلَى حُكُومَتِهَا أَيْضًا .

وَمِنْ الْهَزَلِ وَالْكَذِبِ تَرَانَا مُبَالِغِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى لِيَكُونَ لَنَا الْوَاحِدُ كَالْآخَرِ فِي غَيْرِنَا فَتَجْعَلُهُ مِثَّةً بِصَفَرَيْنِ ، نَجِيءُ بِأَحَدِهِمَا مِنْ اغْتِيَادِنَا الْكَذِبَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَنَجِيءُ بِالْآخَرِ مِنْ حَقِيقَةِ إِفْلَاسِنَا .

هَذِهِ مُبَالِغَةٌ خَطَرَةٌ ، وَأَخْطَرُ مَا فِيهَا أَنَّكَ تُرِيدُ بِهَا الْمُبَالِغَةَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، فَتَنْقَلِبُ مُبَالِغَةً فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْنَا نَحْنُ ، وَعَلَى كَذِبِ طَبَاعِنَا ، وَعَلَى فَوْضَى الْعَقْلِ فِينَا . نَعَمْ

وَحَتَّى تَنْتَبِهُ أَنَّكَ لَا عَزَمَ لَنَا ، مِنْ كَوْنِهَا مُبَالِغَةً لَا تَدْقِيقَ فِي مَعْنَاهَا ؛ وَأَنْ لَا صَبَرَ لَنَا ، مِنْ أَنَّهَا لَا ثَبَاتَ لِحَقِيقَتِهَا الْمَهْزُومَةِ ؛ وَأَنْ لَا شِدَّةَ لَنَا فِي طَلَبِ الْحَقِّ ، لِأَنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ فِي وَصْفِ الْحَقِّ ؛ وَأَنَّكَ لَا تَتَمَثَّلُ الْعَوَاقِبَ إِذْ تُرْسِلُ الْكَلَامَ إِزْسَالًا وَلَا نَخْشَى مَا يَكُونُ مِنْ عَاقِبَتِهِ .

وَأَيْسَرُ مَا يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْمُبَالِغَاتِ الَّتِي أَصْبَحَتْ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الشَّعْبِ فِي التَّغْيِيرِ ، أَنَّ هَذَا الشَّعْبَ لَا يَصْلُحُ فِي شَيْءٍ إِلَّا بِالْحُكُومَةِ ، فَهُوَ نَفْسُهُ كَالْمُبَالِغَةِ ، وَالْحُكُومَةُ لَهُ كَالْتَضْحِيحِ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ فِي أَنَّ الشَّعْبَ الْكَذُوبَ يُلْجَأُ إِلَى حُكُومَتِهِ فِي كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ فِي الْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ الْعِلَّةُ فِي أَنَّ حُكُومَتَهُ تَكْذِبُ عَلَيْهِ بِكُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي السِّيَاسَةِ .

وَمِنْ أَثَرِ الْكَذِبِ الشَّعْبِيِّ وَالْمُبَالِغَةِ الشَّعْبِيَّةِ ، مَا تَرَاهُ مِنْ اهْتِمَامِ كُلِّ فَرْدٍ بِمَا يَقُولُ النَّاسُ عَنْ أَعْمَالِهِ ، فَيُدِيرُهَا عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ قَلَّتْ مَنَافِعُهَا ، وَإِنْ فَسَدَتْ حَقِيقَتُهَا ، وَإِنْ جَلَبَتْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرَرِّ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ مَا هِيَ جَالِبَتُهُ ؛ فَقَاعِدَتُهُمْ هِيَ هَذِهِ : لَيْسَ الشَّانُ فِي الْحَيَاةِ لِلْعَمَلِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ فِيمَا يُقَالُ عَنْهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَقُلْ شَيْءٌ فَلَا تَعْمَلْ شَيْئًا . . . هَذِهِ يَا بُنَيَّ أُمَّةٌ لَا يَكُونُ حُكَاُمُهَا إِلَّا مُبَالِغَاتٍ أَيْضًا . . .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَارْتَفَعَ مِنَ الطَّرِيقِ صَوْتُ بَائِعٍ يُنَادِي عَلَى سِلْعَتِهِ : أَحْسَنُ مِنَ التُّفَاحِ يَا طَمَاظِمُ . . .

فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : هَكَذَا يَقُولُونَ لَنَا عَنِ الطَّمَاظِمِ السِّيَاسِيِّ الْعَلِيِّ : إِنَّهُ لَيْسَ تُّفَاحًا وَحَسْبُ ، بَلْ هُوَ أَحْسَنُ مِنَ التُّفَاحِ . . .

إِنَّ الْأُمَّةَ لَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِهَا إِلَّا إِذَا وَضَعْتَ الْكَلِمَةَ فِي مَوْضِعِهَا ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَذُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْأَخْلَاقِ فِي أُمَّةٍ كَلِمَةُ الصِّدْقِ فِيهَا ، وَالْأُمَّةُ الَّتِي لَا يَحْكُمُهَا الصِّدْقُ لَا تَكُونُ مَعَهَا كُلُّ مَظَاهِرِ الْحُكْمِ إِلَّا كَذِبًا وَهَزَلًا وَمُبَالِغَةً .

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٢

### أَبْلُكُ وَالْبَاشَا (\*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا [ رحمه الله ] قَالَ : جَاءَ يَوْمًا إِلَى زِيَارَةِ الْبَاشَا رَجُلٌ دَخَلَ عَلَيَّ مُتَهَلِّلًا مُشْرِقَ الْوَجْهِ كَأَنَّهُ مُضَاءٌ مِنْ دَاخِلِهِ بِشَمْعَةٍ ... وَتَرَجَّحُ عِظْفَاهُ كَأَنَّمَا تَهْزُهُ أَسْرَارُ عَظْمَتِهِ ؛ وَيَمْشِي مُتَخَلِّعًا كَالْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي أَثْقَلَهَا لَحْمُهَا وَأَثْقَلَتْهَا الْمَعَانِي الْكَثِيرَةُ مِنْ أَعْيُنِ النَّاطِرِينَ إِلَيْهَا ، وَعَلَى شَفْتَيْهِ خِيَالٌ مِنْ فِكْرَةٍ هَلْوََاءِ الْكِبَرَاءِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ لَا يَأْمُرُ أَحَدُهُمْ رَجُلًا صَغِيرًا إِلَّا لِإِعْلَامِهِ أَنَّهُ هُوَ كَبِيرٌ ، فَيَكُونُ فِي الْأَمْرِ شَيْئَانِ : الْأَمْرُ وَاللُّؤْمُ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فِي هَيْئَةٍ شَامِخَةٍ لَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ : سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . سَبِّحْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ فِي الْأَسَدِ شَجَرَةً جَبَّارَةً خَرَجَ مِنْهَا الْأَسَدُ كُلُّهُ ...

سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . هَذَا (فَلَانُ بَاشَا) الَّذِي قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ أَمْسَ أَنَّهُمْ أَنْعَمُوا عَلَيْهِ بِرُتْبَةِ الْبَاشَوِيَّةِ ؛ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تُرَابٍ وَحَوَّلَتْ الرُّتْبَةُ هَذَا التُّرَابَ الَّذِي فِيهِ إِلَى ذَهَبٍ خَالِصٍ ... يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيَرْغِمُهُ أَنْ تَقِفَ عَيْنَاهُ عَلَيَّ وَعَلَى الْحَانِطِ ؛ وَلَا تَجِدَ نَفْسُهُ الْمَرْهُومَةَ سَبِيلًا إِلَى التَّغْيِيرِ عَنِ الرُّتْبَةِ إِلَّا هَذَا الْأَزْدِرَاءُ الْمُتَبَعِثَ مِنْ شَخْصِهِ الْعَظِيمِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ كَشَخْصِهِ . مَا بَيْنَ أَمْسٍ وَالْيَوْمِ زَادَ هَلِيقَةُ الزِّيَادَةِ الْأَدَمِيَّةِ ، أَوْ كَأَنَّمَا كَانَتْ صُورَتُهُ خُطُوطًا فَقَطْ فَوُضِعَتْ فِيهَا الْأَلْوَانُ ...

(بَاشَا) ! هَلِيقَةُ الْبَاءِ وَهَلِيقَةُ الْأَلِفِ وَهَلِيقَةُ الشَّيْنِ الْمَمْدُودَةُ لَيْسَتْ حُرُوفًا خَارِجَةً مِنَ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَامَّةِ ؛ فَإِنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ قَدْ تَجَعَّلُ الْبَاءَ فِي بَلِيدٍ مَثَلًا ، وَالْأَلِفَ فِي أَبْلِهِ ، وَالشَّيْنِ الْمَمْدُودَةَ فِي شَاهِدٍ زَوْرٍ مَثَلًا ... بَلْ تِلْكَ الْحُرُوفُ مِنْ حُرُوفِ الدَّوْلَةِ ، مُتَزَعَةٌ مِنْ قُوَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ لِحَيَاةٍ صَاحِبِهَا مِنَ الشَّكْلِ مَا يُسَبِّغُهُ الْقَلَمُ عَلَى الْحَجَرِ مِنْ شَكْلِ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٦١ ، ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٣ أغسطس / آب ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٢٤١ - ١٢٤٣ .

تَمْنَالٍ يُنْصَبُ لِلتَّعْظِيمِ .

قَالَ : وَكُنْتُ أَغْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّي لَا يُحْسِنُ إِلَّا كِتَابَةَ اسْمِهِ كَمَا تَكْتُبُ الدَّجَاجَةُ فِي الْأَرْضِ ... فَكَانَتْ الرُّتْبَةُ عَلَيْهِ كِاطِلَاقٍ لَفْظِ الْحَدِيقَةِ عَلَى صَخْرَةٍ مِنَ الصُّخُورِ الصَّلْدَةِ ؛ وَهَذَا مِمَّا يَخْتَمِلُهُ الْمَجَازُ بِعِلَاقَةٍ مَا ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي لَا يَسُوغُ فِي الْمَجَازِ ، وَلَا فِي مُبَالَغَاتِ الْإِسْتِعَارَةِ ، وَلَا فِي خُرَافَاتِ الْمُسْتَحِيلِ ، أَنْ تَزْعُمَ الصُّخْرَةُ لِلنَّاسِ أَنَّ لَفْظَ الْحَدِيقَةِ الَّذِي أُطْلِقَ عَلَيْهَا قَدْ أَثَبَتْ فِيهَا أَشْجَارَ الْحَدِيقَةِ ...

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَى الْبَاشَا فَسَهَّلَ لَهُ الْإِذْنَ وَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ أَصْبَحَ كَالْوَرَقَةِ الْمَبْصُومَةِ بِخَاتَمِ الدَّوْلَةِ ، فَلَتَكُنْ مَا هِيَ كَائِنَةٌ فَإِنَّ لَهَا أَعْيَانَهَا . ثُمَّ تَلَقَّاهُ تَلَقَّى الْهَارِلِ الْمُتَهَكِّمِ وَقَالَ لَهُ : أَهْثُكَ بِالْخَوِيِّ ... مُبَارَكُونَ يَا بَاشَا ... وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَيَسِّطُ لَهُ وَجْهَهُ .

وَكَانَ فِي الْبَاشَا دُعَابَةٌ ظَرِيفَةٌ يُعْرِفُ بِهَا ، وَهُوَ كَثِيرُ التَّوَادِرِ وَالْمُلُحِ ، وَلَهُ حَصِيصَةٌ عَجِيْبَةٌ ، فَيَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُذْسٌ مِنَ الْأَوْرَاقِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ يَنْظُرُ فِيهَا وَيَقْرُؤُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَسْتَمِعُ إِلَى مُحَدِّثِهِ وَيَزَاجِعُهُ وَيُرْدُّ عَلَيْهِ ، فَيَصْرِفُ النَّاسَ وَالْأَوْرَاقَ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ ، وَيَسْتَعْمِلُ نَاحِيَتَيْنِ مِنْ فِكْرِهِ اسْتِعْمَالًا وَاحِدًا لَا يُخِلُّ بِالْإِصَابَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ هَلِيقَةِ وَلَا مِنْ تِلْكَ .

ثُمَّ قَالَ لِلْبَاشَا الْحَدِيثَ وَعَيْنُهُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ : هَلِيقَةُ أَوْرَاقٍ سَرِيقَةٍ تَوْرٍ عَظِيمٍ ، فَكَمْ يُسَاوِي الثَّوْرَ الْعَظِيمُ الْآنَ ... ؟

قَالَ صَاحِبُنَا الذَّكِيُّ الْقَطُنُ : إِذَا كَانَ مِنَ الثَّيَرَانِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي الْمَعَارِضِ وَتَمْنَالُ الْمِيدَانِ الذَّهَبِيَّةِ فَقَدْ يَبْعُدُ سِغْرُهُ وَيُعَالِي بِهِ .

قَالَ الْبَاشَا : نَعَمْ نَعَمْ ؛ إِنَّ مِنَ الثَّيَرَانِ ثِيْرَانًا يُنْعَمُ عَلَيْهَا بِالْأَوْسَمَةِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الثَّوْرَ الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ يَا بَاشَا هُوَ ثَوْرٌ مِخْرَاطٍ لَا ثَوْرٌ مَعْرُضٍ ...

قَالَ الْآخَرُ : إِذَا كَانَ ثَوْرٌ مِخْرَاطٍ فَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فَلَا يَكُونُ ثَوْرًا عَظِيمًا كَمَا قُلْتُ وَلَيْسَتْ لَهُ

إِلَّا قِيَمَةُ مِثْلِهِ .

قَالَ الْبَاشَا : أَرَانِي أَخْطَأْتُ ، وَلَعَنَ اللَّهُ الْعَجَلَةَ ، فَهَلْزِهِ أَوْزَاقُ سَرِقَةٍ حِمَارٍ !

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُمَا بِأَوْزَاقِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ يَدَ الْبَاشَا مَمْلُوءَةً لِصَاحِبِنَا بِتَحِيَّاتٍ كُلِّهَا صَفْعَاتٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا يَسِيرٌ حَتَّى خَرَجَ مُبْتَهَجًا يَمِينُ السُّرُورِ بِعُطْفِيهِ . ثُمَّ دَعَانِي الْبَاشَا وَدَفَعَ إِلَيَّ بِطَاقَةً بِالْحَاجَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا الرَّجُلُ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا لَيْتَ لَنَا فِي أَلْقَابِ الدَّوْلَةِ لَقَبٌ (رَحِمَهُ اللَّهُ) ... يُنْعَمُ بِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا . أَتَذَرُنِي يَا بُنَيَّ أَنْ هَذِهِ الرُّتَبُ وَهَذِهِ الْأَلْقَابُ لَمْ تَكُنْ فِي الْقَدِيمِ إِلَّا كَوْضْعِ عِلَامَةِ السَّرِّ عَلَى أَهْلِ السَّرِّ لِيَهَابَهُمُ النَّاسُ ، حَتَّى كَانَمَا يُكْتَبُ عَلَى أَحَدِهِمْ مِنْ لَقَبٍ بِكَ أَوْ بَاشَا : مُلْحَقٌ بِالْدَّوْلَةِ ...

وَكَانَ الشَّعْبُ أُمِّيًّا جَاهِلًا لَا يَسْتَطِيعُ الْإِدْرَاكَ وَلَا يُخَسِّنُ التَّمْيِيزَ ، فَكَانَتْ الْأَلْقَابُ كَالْقَوَائِنِ الشَّخْصِيَّةِ الْمَوْضُوعَةِ فِي صِغَةِ مُوجَزَةٍ مَفْهُومَةٍ مُتَعَيِّنَةٍ الدَّلَالَةِ ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ يَحْمِلُ لَقَبًا مِنَ الْحُكُومَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : لَقَدْ وَضَعْتُ الْحُكُومَةَ كَلِمَةَ الْأَمْرِ فِي شَفَتِي ...

وَكَانَ اللَّقَبُ إِعْلَانٌ مِنَ الْحُكُومَةِ الْمُسْتَبِدَّةِ لِشَعْبِهَا الْجَاهِلِ : إِنَّ هَذَا إِلِيكَ وَالْبَاشَا مِمَّنْ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُحْتَرَمَ<sup>(١)</sup> .

مِنْ الْهَزْلِ أَنْ يُشْتَرَى اسْمُ النَّصْرِ الْخَزْيِيُّ أَوْ يُوهَبَ أَوْ يُعَارَ ؛ وَأُفْبِحُ مِنْهُ فِي بَابِ الْهَزْلِ أَنْ يُنْعَمَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْأُمِّيِّ بِلَقَبٍ بَاشَا . وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ بَدَلَ فِي سَبِيلِهِ مَا بَدَلَ ، وَأَصَاعَ مَا أَصَاعَ ، فَكَأَنَّ الَّذِينَ مَنَحُوهُ إِثَاءَهُ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا وَضَعُ تَوْقِيعِهِمْ عَلَى أَخِيذِ الثَّمَنِ ...

وَلَقَدْ أَصْبَحَ الرَّجُلُ تَحْتَ تَأْنِيهِرِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ مَخْبُورًا بِسِحْرِهَا الْوَهْمِيِّ ، فَحَسِبَ ذَلِكَ إِذْخَالَ لَهُ فِي وَظَنَةِ كُلِّ حَاكِمٍ ، وَإِشْرَاكَ لَهُ فِي الْحُكْمِ مَتَى أَقْتَضَتْهُ مَجَارِي أُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ ، أَوْ حَاجَاتُ أَسْبَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ ؛ وَهِيَ هُوَ ذَا قَدْ جَاءَ يَطْلُبُ حَقَّهُ ، فَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يَفْهَمُ مِنْ لَقَبٍ (بَاشَا) إِلَّا أَنَّ الْحُكُومَةَ قَدْ سَوَّغَتْ سُلْطَنَهُ الظُّهُورَ وَالْعَمَلَ ، فَمَدَّتْ بَاعَهُ وَقَوَّتْ أَمْرَهُ وَتَوَهَّتْ بِاسْمِهِ لِمَصَالِحِهَا وَعَمَالِهَا ؛ فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ قَدْ التَّحَمَّ مِنْذُ الْيَوْمِ بِالنَّسَبِ الْحُكُومِيِّ ، وَفِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، هُوَ قَدْ وُلِدَ مِنْ بَطْنِ الْحُكُومَةِ ...

أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّعْبَ لَوْ اسْتَرَدَّ سُلْطَنَهُ الْكَامِلَةَ ، وَأَنَّ النَّاسَ لَوْ أَتَقَنُوا أَنَّ الْأَلْقَابَ الْفَاطَظَ فَارِعَةً مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَسِيلَةِ وَالشَّفَاعَةِ ، لَمَا بَقِيَ مِنْ يَغْبُ بِهَا ، وَلَكَانَ حَامِلُهَا هُوَ أَوَّلَ مَنْ يَسْخَرُ مِنْهَا ؟

فَهِيَ إِذَا شَعْبَةً<sup>(١)</sup> مِنَ الْحُكُومَةِ وَتَضَلُّيلٌ فِي مِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ الْأُمِّيِّ ، وَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ التَّهْوِيلِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي سِوَاهُ مِنَ الْكِبَرِيَاءِ<sup>(٢)</sup> وَالْعُظَمَاءِ ، كَأَنَّ الْوَزِيرَ الَّذِي يُلَقَّبُ بِالْبَاشَا ، يَجْعَلُ فِيهِ لَقَبُهُ وَزِيرِينَ ، وَكَأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْأُمِّيِّ الْمُغْفَلِ ، يَجْعَلُ فِيهِ لَقَبُهُ شَخْصًا آخَرَ غَيْرَ الْأُمِّيِّ الْمُغْفَلِ ...

أَنَا قَلَمًا رَأَيْتُ رَجُلًا يَخْتَاجُ إِلَى أَلْقَابٍ يَتَعَطَّمُ بِهَا إِلَّا وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّهَا ؛ وَقَلَمًا رَأَيْتُ رَجُلًا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا وَهُوَ لَا يَخْتَاجُ إِلَيْهَا ؛ فَأَيْنَ يَكُونُ مَوْضِعُ هَذِهِ الرُّتَبِ وَالْأَلْقَابِ ؟

مصطفى صادق الرافعي

سيدي بشر بإسكندرية

(١) { الشَّعْبَةُ وَالشَّعْوَذَةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْكِبَرَاءُ » بَدَلًا مِنْ : « الْكِبَرِيَاءِ » .

(١) [ بَطْنًا شَيْئًا مِنْ فَلْسَفَةِ الرُّتَبِ وَالْأَلْقَابِ فِي مَقَالَةٍ : « بَنَتْ الْبَاشَا » مِنْ مَقَالَتَيْنَا فِي « الرِّسَالَةِ » . ]

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٣

سَاكِنُو الثِّيَابِ (\*) ...

قَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : وَجَاءَنِي يَوْمًا اثْنَانِ مِنَ شُيُوخِ الدِّينِ مِنْ دَوِيٍّ هَيَّائِهِمْ وَأَصْحَابِ الْمَنْزِلَةِ فِيهِمْ ، كِلَاهُمَا هَامَةٌ وَقَامَةٌ ، وَجُبَّةٌ وَعِمَامَةٌ ، وَدَرَجَةٌ مِنَ الْإِمَامَةِ ؛ وَلَهُمَا نَسِيمٌ يَنْفُحُ عِطْرًا حَسْبُهُ مِنْ تَرْوِيحِ أَجْنَحَةِ الْمَلَانِكَةِ ؛ وَعَلَيْهِمَا مِنَ الْوَقَارِ كِظْلُ الشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ فِي لَهَبِ الشَّمْسِ نَفْيًا بِهِ يَمْنَةُ وَيَسْرَةُ . فَتَوَجَّهْتُ إِلَيْهِمَا بِنَظَرِي ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِمَا بِنَفْسِي ، وَوَضَعْتُ حَوَاسِي كُلَّهَا فِي خِدْمَتِهِمَا ؛ وَقُلْتُ : هَلْؤَلَاءِ هُمْ رِجَالُ الْقَانُونِ الَّذِي مَادَّهُ الْأُولَى الْقَلْبُ .

مَا أَسْخَفَ الْحَيَاةَ لَوْلَا أَنَّهَا تَذُلُّ عَلَى شَرَفِهَا وَقَدَّرَهَا بِبَغْضِ الْأَخْيَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ فِي عَالَمِ التُّرَابِ كَأَنَّ مَادَّتَهُمْ مِنَ الشُّعْبِ ، فِيهَا لَغَيْرُهُمُ الظُّلُّ وَالْمَاءُ وَالنَّسِيمُ ، وَفِيهَا لِأَنْفُسِهِمُ الطَّهَارَةُ وَالْعُلُوُّ وَالْجَمَالُ ؛ يُثْبِتُونَ لِلضَّعْفَاءِ أَنَّ غَيْرَ الْمُمَكِّنِ مُمَكِّنٌ بِالْفِعْلِ ، إِذْ لَا يَرَى النَّاسُ فِي تَرْكِيبِ طِبَاعِهِمْ إِلَّا الْإِخْلَاصَ وَإِنْ كَانَ حِزْمَانًا ، وَإِلَّا الْمُرُوءَةَ وَإِنْ كَانَتْ مَشَقَّةٌ ، وَإِلَّا مَحَبَّةَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ أَلَمًا ، وَإِلَّا الْجِدَّ وَإِنْ كَانَ عَنَاءٌ ، وَإِلَّا الْقَنَاعَةَ وَإِنْ كَانَتْ فَقْرًا .

هَلْؤَلَاءِ قَوْمٌ يُؤَلَّفُونَ بِيَدِ الْقُدْرَةِ ، فَهُمْ كَالْكَتُبِ قَدْ انْطَوَتْ عَلَى حَقَائِقِهَا وَخُتِمَتْ كَمَا وَضِعَتْ ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْرِجَ لِلنَّاسِ مِنْ حَقِيقَةٍ نِصْفَ حَقِيقَةٍ وَلَا شِبْهَ حَقِيقَةٍ وَلَا تَرْوِيحًا عَلَى حَقِيقَةٍ .

وَمَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى التَّوَامِيصِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ ! فَالْكَسَمَاءُ نَفْسُهَا تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى سَمَاسِرَةٍ لِعَرَضِ الْجَنَّةِ عَلَى النَّاسِ بِالْثَمَنِ الَّذِي يَمْلِكُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ وَهُوَ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٦٢ ، ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٤ .

## الْعَمَلُ الطَّيِّبُ .

قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخَيْنِ عَلَى اغْتِيَارِ أَنْهُمَا مِنْ بَقِيَّةِ الْبُيُوتِ الْعَامِلَةِ فِيهَا شَرِيعَةُ نَفْسِهَا ، تِلْكَ الشَّرِيعَةُ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَبْدَلُ كَيْلَا يَتَغَيَّرَ النَّاسُ وَلَا يَتَبَدَّلُوا . ثُمَّ سَأَلْتُهُمَا عَنْ حَاجَتِهِمَا ، فَإِذَا أَحَدُهُمَا قَدْ عَمِلَ آيَاتًا مِنَ الشُّعْرِ جَاءَ يَمْدَحُ بِهَا الْبَاشَا لِيَرُدَّلَفَ إِلَيْهِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « مَا أَشْبَهَ حَجَلَ الْجِبَالِ <sup>(١)</sup> بِالْوَانِ صَخْرَهَا ! » هَذَا عَالِمٌ دُنْيَا يُحَدِّثُهَا مِنَ الشَّرْقِ الرَّغِيفُ ، وَمِنَ الْغَرْبِ الدُّيْنَارُ ، وَمِنَ الشَّمَالِ الْجَاهُ ، وَمِنَ الْجَنُوبِ الشَّيْطَانُ ...

ثُمَّ نَسَرَ وَرَقَةً فِي يَدِهِ وَأَخَذَ يَسْرُدُ عَلَى الْقَصِيدَةِ ، وَهِيَ عَلَى رَوِيِّ الْهَاءِ ، تَنْتَهِي آيَاتُهَا : هَا . هَا . هَا . فَكَانَ يَقْرُؤُهَا شِعْرًا - أَوْ كَمَا يُسَمِّيهِ هُوَ شِعْرًا - وَكُنْتُ أَسْمَعُهَا أَنَا فَهَفَفَةً مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي رَكِبَ أَكْتَافَ هَذَا الْعَالَمِ الدُّنْيِيِّ : هَا . هَا . هَا . هَا . هَا ...

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : وَأَدْخَلْتُهُمَا عَلَى الْبَاشَا ، فَوَقَفَ الْمَدَاحُ يَمْدَحُ بِقَصِيدَتِهِ ، وَأَخَذَتْ لِحْيَتُهُ الْوَافِرَةُ تَهْتَرُ فِي إِنْشَادِهِ كَأَنَّهَا مِنْفُضَةٌ يَنْفُضُ بِهَا الْمَلَلُ عَنْ عَوَاطِفِ الْبَاشَا ... وَكَانَ لِلْآخِرِ صَمْتٌ عَامِلٌ فِي نَفْسِهِ كَصَمْتِ الطَّبِيعَةِ حِينَ تَنْفَطِرُ الْبُذْرَةُ فِي دَاخِلِهَا ، إِذْ كَانَتْ الْحَاجَةُ حَاجَتَهُ هُوَ ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِصَاحِبِهِ رَافِدًا وَظَهِيرًا يَخْمِلُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَاللَّيْلُ وَالْغَيْثُ ، لِتَقْلَبَ الْأَشْيَاءَ حَوْلَ الْمَمْدُوحِ فَيَأْخُذَهُ السَّخَرُ ، فَيَكُونُ جَوَابُ الشَّمْسِ عَلَى هَذِهِ اللَّعْنَةِ أَنْ تُضِيءَ يَوْمَ الشَّيْخِ ، وَجَوَابُ الْقَمَرِ أَنْ يَمْلَأَ ظِلَامَهُ ، وَجَوَابُ اللَّيْلِ أَنْ يَفْتَرِسَ عَدُوَّهُ ، وَجَوَابُ الْغَيْثِ أَنْ يَهْطُلَ عَلَى أَرْضِهِ .

وَالْبَاشَا لَا يَدْعُ ظَرْفَهُ وَدُعَابَتَهُ ، وَكَانَ قَدْ لَمَحَ فِي أَشْدَاقِ الْعَالَمِ الْمُتَشَاعِرِ أَسَنَاتَا صِنَاعِيَّةً ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ نَظْمِهِ الرُّكْنِيَّ قَالَ لَهُ : يَا أَسْنَادُ ! أَحْسِبْنِي لَا أَكُونُ إِلَّا كَادِبًا إِذَا قُلْتُ لَكَ : لَا فَضَّ فُوكَ ...

ثُمَّ ذَكَرَ الْآخِرَ حَاجَتَهُ : وَهِيَ رَجَاؤُهُ أَنْ يَكُونَ عُمْدَةُ الْقَرْيَةِ مِنْ دَوِيٍّ قَرَابَتِهِ لَا مِنْ دَوِيٍّ

(١) هَذَا مَثَلٌ عَرَبِيٌّ ، وَالْحَجَلُ : الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ ، يَكُونُ فِي الْجَبَلِ مِنْ لَوْنِ صَخْرِهِ لِلْمِلَّةِ الْمُقَرَّرَةِ فِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ .

عَدَاوَتِهِ . فَقَالَ لَهُ الْبَاشَا : وَلَقَرَيْتُكُمْ أَيْضًا أَبُو جَهْلٍ ... ؟

\* \* \*

وَلَمَّا أَنْصَرَفَا قَالَ لِي الْبَاشَا : لِأَمْرِ مَا جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لِأَنْفُسِهِمْ زَيًّا خَاصًّا يَتَمَيَّزُونَ بِهِ فِي النَّاسِ ، كَأَنَّ الدِّينَ بَابٌ مِنَ التَّحَرُّفِ وَالتَّصَرُّفِ ، بَغْضُ إِلَيْهِ فِي ثِيَابِهِ ؛ فَهَؤُلَاءِ يَسْكُنُونَ الْجُبِّبَ وَالْقَفَاطِينَ وَكَأَنَّهُمَا دَوَائِنُهُمْ لَا ثِيَابَهُمْ ...

قَدْ أَفْهَمَ لِهَذَا مَعْنَى صَحِيحًا إِذَا كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَخْصُورًا فِي وَاجِبَاتِ عَمَلِهِ كَالْجُنْدِيِّ فِي مَعَانِي سِلَاحِهِ ، فَيَكُونُ التَّعْظِيمُ وَالتَّقْوِيرُ لِثَوْبِ الْعَالِمِ الدِّينِيِّ كَأَدَاءِ التَّحِيَّةِ لِلثَّوْبِ الْعَسْكَرِيِّ : مَعْنَاهُ أَنَّ فِي هَذَا الثَّوْبِ عَمَلًا سَامِيًا أَوَّلُهُ بَيْعُ الرُّوحِ وَبَذْلُ النَّفْسِ وَتَرْكُ الدُّنْيَا فِي سَبِيلِ الْمُجْتَمَعِ ؛ هَذَا ثَوْبُ الْمَوْتِ يُفْرَضُ عَلَى الْحَيَاةِ أَنْ تُعْظَمَ وَتُجِلَّ ، وَثَوْبُ الدِّفَاعِ تَجِبُ لَهُ الطَّاعَةُ وَالْإِنْقِيَادُ ، وَثَوْبُ الْقُوَّةِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا الْمَهَابَةُ وَالْإِعْزَازُ فِي الْوَطَنِ . وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُ الْجُبَّةُ الْيَوْمَ ؟ { إِنَّهَا } تَطْعِمُ صَاحِبَهَا ...

أَتَرُ الْجَيْشِ مَعْرُوفٌ فِي دِفَاعِ الْأُمَمِ الْعُدُوَّةَ عَنِ الْبِلَادِ ، فَأَيْنَ أَتَرُ جَيْشِ الْعُلَمَاءِ فِي دِفَاعِ الْمَعَانِي الْعُدُوَّةَ عَنِ أَهْلِ الْبِلَادِ ، وَقَدْ اخْتَلَّتْ هَذِهِ الْمَعَانِي وَضُرِبَتْ وَتَمَلَّكَتْ وَتَرَكَّتْ هَذَا الْعَالَمِ الدِّينِيِّ فِي ثَوْبِهِ كَالْجُنْدِيِّ الْمُنْهَرَمِ : يَحْمِلُ مِنْ هَزِيمَتِهِ فَضِيحَةً وَمِنْ ثَوْبِهِ فَضِيحَةً أُخْرَى ؟

أَنْتَ يَا بُنَيَّ قَدْ رَأَيْتَ (السَّيِّخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ) وَعَرَفْتَهُ ؛ فَارْحَمِ اللَّهَ هَذَا الرَّجُلَ ، مَا كَانَ أَعْجَبَ شَأْنُهُ ! لَكَأَنَّهُ وَاللَّهِ سَحَابَةٌ مَطْوِيَّةٌ عَلَى صَاعِقَةٍ . وَلَوْ قُلْتُ : إِنَّهُ قَدْ كَانَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَرَأْسِهِ طَرِيقٌ لِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ ؛ لَأَشْبَهَ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَوْلًا .

كَانَ يَزُورُنِي أَحْيَانًا فَأَرَانِي مُرْغَمًا عَلَى أَنْ أَقْدِمَ لَهُ مَجْلِسَيْنِ أَحَدُهُمَا قَلْبِي . وَكَانَ لَهُ وَجْهٌ يَأْمُرُ أَمْرًا ، إِذْ لَا تَرَاهُ إِلَّا شَعَرْتَ بِهِ يَرْفَعُكَ إِلَى حَقِيقَةِ سَامِيَةٍ <sup>(١)</sup> .

رَجُلٌ نَبَتْ عَلَى أَغْزَاقِ فِيهَا إِبْدَاعُ الْمُبْدِعِ الْعَظِيمِ الَّذِي هَيَّأَ لِرِسَالَتِهِ ، فَعَوَاطِفُهُ كَالْعِطْرِ فِي شَجَرَةِ الْعِطْرِ الشَّدِيدَةِ ، وَشَمَائِلُهُ كَجَمَالِ السَّمَاءِ فِي زُرْقَةِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ ، وَعَظَمَتُهُ

(١) وَصَفْنَا السَّيِّخَ (رَحِمَهُ اللَّهُ) فِي كِتَابِنَا « السَّحَابُ الْأَحْمَرُ » وَأَسْتَلْهَمْنَا رُوحَهُ فَضَلًا طَوِيلًا تَجِدُهُ هُنَاكَ .

كَرُوعَةِ الْبَحْرِ فِي مَنَظَرِ الْبَحْرِ الصَّاحِبِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا أُسْتَاذُهُ (السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْأَفْغَانِي) فَيَسْأَلُهُ مُنْذِهِنَا : يَا إِلَهَ قُلْ لِي : أَبْنُ أَيِّ مَلِكٍ أَنْتَ ؟

لَمْ يَكُنْ أَبْنُ مَلِكٍ وَلَا أَبْنُ أَمِيرٍ ، وَلَكِنَّهُ أَبْنُ الْقَوَاتِ الرُّوحِيَّةِ الْعَامِلَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ ؛ فَهِيَ أَعْدَتُهُ ، وَهِيَ أَلْهَمَتُهُ ، وَهِيَ أَنْطَقَتْهُ ، وَهِيَ أَخْرَجَتْهُ فِي قَوْمِهِ إِعْلَانًا غَيْرَ كِتْمَانٍ ، وَمُصَارَحَةً غَيْرَ مُحَادَعَةٍ ، وَهِيَ جَعَلَتْ فِيهِ أَسَدِيَّةَ الْأَسَدِ ، وَهِيَ أَلْقَتْ فِي كَلَامِهِ تِلْكَ الشَّهْوَةَ الرُّوحِيَّةَ الَّتِي تُدَاقُ وَتُحَبُّ ، كَالْحَلَاوَةِ فِي الْحَلْوَى .

هَذَا هُوَ الْعَالَمُ الدِّينِيُّ ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَبْنُ الْقَوَاتِ الرُّوحِيَّةِ ، لَا أَبْنُ الْكُتُبِ وَخَدَمَهَا ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ بِعَمَلِهِ إِلَى الدُّنْيَا ، لَا أَنْ يُذْخَلَ الدُّنْيَا تَحْتَ سَفَفِ الْجَامِعِ ...

وَأَنَا فَمَا يَنْقُضِي عَجْبِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ هُمْ بَقَايَا تَضَاعَلِ بِجَانِبِ الْأَصْلِ ؛ يَبْحَثُونَ فِي سُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ : كَيْفَ كَانَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَلْبَسُ وَيَمْشِي وَيَتَحَدَّثُ ؛ كَأَنَّهُمْ مِنْ الدُّنْيَا فِي قَانُونِ الْمَابِدَةِ ، وَأَدَابِ الْوَلَايِمِ ، وَرُسُومِ الْمُجْتَمَعَاتِ ؛ أَمَا تِلْكَ الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى ، وَهِيَ كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَاتِلُ وَيُحَارِبُ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ ، وَكَيْفَ كَانَ يَسْمُو عَلَى الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ؟ وَكَيْفَ كَانَ بِطَبَاعِهِ الْقُوَّةَ الصَّرِيحَةَ تَعْدِيلًا فَقَالًا فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلنَّوَامِيسِ الْجَائِزَةِ ؟ وَكَيْفَ كَانَ يَحْمِلُ الْفَقْرَ لِيَكْسِرَ بِهِ شِرَّةَ النَّوَامِيسِ الْأَفْتِصَادِيَّةِ الَّتِي تَقْضِي بِجَعْلِ الْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ أَثَارِ السَّعَةِ وَالضُّعْفِ ، فَتُخْرَجُ مِنَ الْغَنِيِّ مُتَعَفِّقًا وَمِنَ الْفَقْرِ لِيَصَ ؟ وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ ﷺ بِفَقْرِهِ السَّامِي أَنْ يُحَوِّلَ مَعْنَى الْغِنَى فِي نَفُوسِ أَصْحَابِهِ ، فَيَجْعَلَهُ مَا اسْتَعْنَى عَنْهُ الْإِنْسَانُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا { وَتَرَكَ } ، لَا مَا نَالَ مِنْهَا { وَجَمَعَ } ؟ أَمَا هَذَا وَنَحْوُهُ مِنْ حَقَائِقِ النُّبُوَّةِ الْعَامِلَةِ فِي تَنْظِيمِ الْحَيَاةِ ، فَقَدْ أَهْمَلُوهُ ، إِذْ هُوَ لَا يُوجَدُ فِي الْكُتُبِ وَشُرُوحِهَا وَحَوَاشِيهَا ، وَلَكِنْ فِي الْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا وَأَكْدَارِهَا ؛ وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ شُيُوخُنَا مِنَ الْأُمَّةِ فِي مَوَاضِعَ لَمْ يَضَعُوهُمْ فِيهَا الدِّينُ وَلَكِنْ وَضَعَهُمْ فِيهَا الْوُطَنِيَّةُ ...

أَلَا لِيَهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْأَزْهَرِ هَذِهِ الْحِكْمَةَ : سُئِلَ بَعْضُ الْعَرَبِ : بِمِ سَادَ فُلَانٌ فَيَكُنُّ ؟ قَالُوا : اخْتَجْنَا إِلَى عِلْمِهِ وَاسْتَعْنَى عَنْ دُنْيَانَا ...

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٤

## الْأَخْلَاقُ الْمُحَارِبَةُ (\*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ : كُنَّا فِي ثَوْرَةِ سَنَةِ ١٩١٩ سَنَةِ  
الْهَازِيزِ وَالْفَتَنِ ، وَقَدْ تَفَاقَمَتِ الثَّوْرَةُ ، وَأَخَذَ الشَّبَابُ يَعْْمَلُ ، وَيُفَكِّرُ فِيمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ  
يَعْمَلَ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْمَلَ ؛ وَكَانَ السَّخْطُ الْعَامُّ هُوَ مِيرَاثُ الْوَقْتِ ، فَكَانَتْ قُلُوبُ  
الشَّعْبِ تَلْهَمُ وَاجِبَاتِهَا إِلَهَامًا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْقُلُوبِ كُلِّهَا إِلَّا لَذْعَةُ الدَّمِ تَعَيَّنُ اتِّجَاةَ  
أَعْمَالِهَا وَتُحَدِّدُهُ .

كَانَتْ الثَّوْرَةُ زَلْزَلَةً وَقَعَتْ فِي التَّارِيخِ ، فَجَاءَتْ تَحْتَ زَمَنِ رَاكِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِأَنْ  
يُنْسَفَ ، وَلَا يَنْسِفُهُ إِلَّا مَادَّةُ إِلَهِيَّةٍ كَالْحَرَكَةِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي تُخْرِجُ الْيَوْمَ الْجَدِيدَ مِنَ الْيَوْمِ  
الْقَدِيمِ ؛ فَكَانَ الْقَدَرُ يَعْْمَلُ بِأَيْدِي الْإِنْكِلِيزِ عَمَلًا مُضْرِبًا ، وَيَعْمَلُ بِأَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ عَمَلًا  
آخَرَ .

وَتَعَلَّمَ الشَّعْبُ مِنْ دَفْنِ شُهَدَائِهِ كَيْفَ يَسْتَنْبِطُ الدَّمَّ فَيَنْبِثُ بِهِ الْحُرِّيَّةَ ، وَكَيْفَ يَزْرَعُ  
الدَّمْعَ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْعَزَمَ ، وَكَيْفَ يَسْتَنْمِرُ الْحُزْنَ فَيُتِمِّرُ لَهُ الْمَجْدَ .

وَكَانَ رِصَاصُ الْإِنْكِلِيزِ يُصِيبُ هَدَفَيْنِ مَعًا : فَيَضْرَعُ شُهَدَاءَنَا ، وَيَقْتُلُ الْمَوْتَ السِّيَاسِيَّ  
الَّذِي آخَلَ مَعَهُمْ هَذِهِ الْبِلَادَ . وَقَدْ أَنْعَمُوا عَلَى الشَّعْبِ بِالصَّدَمَةِ الْأُولَى ، فَشَبَّتِ  
الْمَعْرَكَةُ الَّتِي تُقَاتَلُ فِيهَا الْأَخْلَاقُ الْقَوْمِيَّةُ لِيَنْتَصِرَ ؛ وَشَعَرَتْ مِصْرُ فِي جِهَادِهَا بِأَنَّهَا مِصْرُ ،  
فَالْتَمَسَ رُوحُهَا التَّارِيخِي رَمَزَهُ الْعَظِيمَ فِي الْأُمَّةِ لِيُظْهِرَ فِيهِ عَاتِيَا جَبَّارًا ؛ فَكَانَ هَذَا الزَّمْرُ  
الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ هُوَ سَعْدُ زَعْلُولٍ .

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ١٦٣ ، ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ١٧ أغسطس / آب ١٩٣٦ م ،  
السنة الرابعة ، الصفحات : ١٣٢١ - ١٣٢٣ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَكَانَ الطَّلَبَةُ قَدْ غَدَوْا مِنْ أَوَّلِ الْهَارِ يَنْظَاهِرُونَ ، وَقَدْ جَعَلَتْهُمْ  
الثَّوْرَةُ كَالْأَزْوَاجِ تَخَلَّصَتْ مِنَ الْمَوْتِ بِالْمَوْتِ فَلَا تَخْشَاهُ وَلَا تُبَالِيهِ<sup>(١)</sup> ، وَاسْتَقَلَّتْ عَنِ  
الْعَقْلِ بِتَحْوِيلِهَا إِلَى شُعُورٍ مَخْضٍ ، وَخَرَجَتْ عَنِ الْقَوَانِينِ كُلِّهَا إِلَّا الْقَانُونَ الْحَفِيَّ الَّذِي  
لَا يُعْلَمُ مَا هُوَ .

كَانُوا فِي مَعَانِي قُلُوبِهِمْ لَا فِي غَيْرِهَا ، فَلَسْتَ تَرَاهُمْ إِلَّا عَظَمَاءَ فِي عَظَمَةِ الْمَبْدَأِ الَّذِي  
يَنْصِرُونَ لَهُ ، أَقْوِيَاءَ فِي قُوَّةِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَنْعَمُونَ بِهِ ، أَجَلَاءَ فِي جَلَالِ الْوَطَنِ الَّذِي  
يُخَيُّونَ وَيَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ .

وَكَانُوا فِي الشَّعْبِ هُمْ خِيَالِ الْأُمَّةِ الْعَامِلِ الْمُذْرِكِ ، وَشُعُورُهَا الْحَيِّ الْمُتَوَتَّبِ ،  
وَقُوَاهَا الْبَارِزَةِ مِنْ أَعْمَاقِهَا ، وَأَمَلُهَا الرَّاحِفِ لِيَقْهَرَ الضَّعُوبَةَ .

يُقَادُونَ بِأَنْفُسِهِمْ الْعَالِيَةَ وَيُؤَيِّرُونَ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ ذَاتُهُ وَلَا أَغْرَاضُ  
شَخْصِهِ . فَمَا أَجَلٌ وَمَا أَعْظَمُ ! وَمَا أَرْوَعَ وَمَا أَسْمَى ! أَيُّهَا الْحَيَاةُ ! هَلْ فِيكَ أَشْرَفُ مِنْ  
هَذِهِ الْحَقِيقَةِ إِلَّا حَقِيقَةُ النُّبُوَّةِ ؟

\* \* \*

قَالَ : وَكَانَ أَخِي هُوَ زَعِيمُ هَذِهِ الطَّلَبَةِ فِي مَدِينَتِنَا ؛ قَوِيٌّ عَلَى الزَّعَامَةِ وَفِي بِهَا ؛  
يَحْمِلُ قَلْبًا كَالْجَمْرَةِ الْمُتَلَهَّبَةِ ، وَلَهُ صَوْتُ بَعِيدٌ تَحْسَبُ الرُّعْدَ يَقَعُّعُ بِهِ . إِذَا مَشَى فِي  
جِهَادِهِ كَانَ كُلُّ مَا عَلَى الْأَرْضِ تُرَابًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، فَلَا يَمِشِي إِلَّا مُخْتَفِرًا هَلِيزِ الدُّنْيَا وَمَا  
فِيهَا ، غَيْرَ مُقَدَّسٍ مِنْهَا إِلَّا دِينُهُ وَوَطَنُهُ ؛ وَسِلَاحُهُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ هُوَ سِلَاحٌ عَلَى الظُّلْمِ  
وَصِدِّ الظُّلْمِ .

وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقُودُ « الْمُظَاهَرَةَ » ، وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ خَالِصَتِهِ وَصَفْوَةِ إِخْوَانِهِ ،  
يَمْشُونَ فِي الطَّلِيعَةِ تَحْتَ جَوْ مُقَدِّدٍ كَانَ فِيهِ غَضَبُ الشَّبَابِ ، عَنِيْقٌ كَأَنَّمَا أَمْتَرَجَ بِهِ السَّخْطُ  
الَّذِي يَفُورُونَ بِهِ ، رَهِيْبٌ كَأَنَّهُ مُتَهَيِّئٌ لِيَنْفَجِرَ ؛ فَلَمَّا بَلَغُوا مَوْضِعًا مِنَ الطَّرِيقِ يَنْعَطِفُونَ عِنْدَهُ  
أَنْصَبَ عَلَيْهِمُ الْمِدْفَعُ الرَّشَاشُ ...

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَا تُبَالِي بِهِ » بِدَلَالَةِ : « وَلَا تُبَالِيهِ » .



قَالَ : فَإِنِّي لَجَالِسٌ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الدُّيُوتَانِ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ أَخِي هَذَا يَنْفِضُ غَضَبًا كَانَ الْمَعَانِي تَنْبُثُ مِنْ جَسَدِهِ لِقَاتِلٍ ، وَرَأَيْتُ لَهُ عَيْنَيْنِ يَنْظُرُ اللَّطِيطُ فِيهِمَا إِلَى النَّارِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ ؛ فَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ الْقَوْمُ أَطْلَقُوا عَلَيْهِمُ الْجُنُونَ وَالرَّصَاصَ مَعًا .

وَاسْتَنْبَأْتُهُ خَبَرَ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَهُ وَقَعُوا يَتَشَحَّطُونَ فِي دِمَائِهِمْ ، فَوَقَّفَ هُوَ شَاخِصًا إِلَيْهِمْ كَأَنَّهُ مَيِّتٌ مَعَهُمْ ، وَقَدْ أَحَسَّ كَأَنَّمَا خَلَعَ عَنْ جِسْمِهِ نَوَامِيسَ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا يَعْرِفُ مَا هِيَ الْحَيَاةُ وَلَا مَا هُوَ الْمَوْتُ ؛ وَكَانَ الرَّصَاصُ يَتَطَايَرُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ تَتَلَقَّاهُ وَتُبْعِرُهُ لَا يَنَالُهُ<sup>(١)</sup> بِسُوءٍ . قَالَ : وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ مَا رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعِثْتِي رَأْسِي الدَّمَ الْمِصْرِيَّ يُسَلِّمُ عَلَى الدَّمَ الْمِصْرِيَّ ، وَيَسْعَى إِلَيْهِ فَيُعَانِقُهُ عِنَاقَ الْأَخْبَابِ .

ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ هَذَا الْبَاشَا ؟ وَمَا بِأَلِهِ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فِي الْإِخْتِطَاطِ لِهَذِهِ الْقَوْرَةِ ؟ يَكَادُ الْخِزْيُ وَاللَّهُ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْوُطَائِفِ عَلَى مِقْدَارِ الْمَرْتَبِ<sup>(٢)</sup> . . .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَلَمْ يُتِمَّ كَلِمَتُهُ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْنَا الْبَاشَا مُكْسِرَ الْوَجْهِ مِنَ الْحُزَنِ قَدْ تَعَزَّزَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَخِي إِلَى غُرْفَتِهِ وَتَبِعْتُهُمَا ، ثُمَّ قَالَ : هَوْنًا مَا يَا بُنَيَّ ، إِنَّ الْعِلَّةَ فِيكُمْ أَنْتُمْ يَا شَبَابَ الْأُمَّةِ ، فَكُلُّ مَا أَتَيْنَا أَوْ تُبْتَلَى بِهِ هُوَ مِمَّا يَسْتَدْعِيهِ خُمُولُكُمْ وَتَسْتَوْجِبُهُ أَخْلَافُكُمْ الْمَتَخَاذِلَةُ ؛ إِنَّا مِنْ غَيْرِكُمْ كَالْمَدَافِعِ الْفَارِغَةِ مِنْ دُخَيْرِهَا : لَا تَصْلُحُ إِلَّا سُكْلًا ، وَبِهَذِهِ الْعِلَّةِ كَانَ عِنْدَنَا سُكْلُ الْحُكُومَةِ لَا الْحُكُومَةُ .

أَتَذَرُنِي يَا فَتَى مَا الْحُكُومَةُ الصَّحِيحَةُ فِي مِثْلِ حَالِنَا ؟ هِيَ أَنْ تَحْكُمُوا أَنْتُمْ فِي الشَّعْبِ حُكُومَةً أَخْلَاقِيَّةً نَافِذَةً الْقَانُونِ ، فَتَضْبِطُوا أَخْلَاقَ النَّسَاءِ وَالرِّجَالِ ، وَتَرْدُّوَهَا كُلَّهَا أَخْلَاقًا مُحَارِبَةً لَا تَعْرِفُ إِلَّا الْجِدَّ وَالْكَرَامَةَ وَصِرَامَةَ الْحَقِّ ؛ وَإِلَّا فَكَمَا تَكُونُونَ يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ . . .

هَذَا وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْأَجَانِبَ إِلَى رُشْدِهِمْ وَإِلَى الْحَقِيقَةِ ، فَمَا أَرَاهُمْ يُعَامِلُونَنَا

إِلَّا كَأَنَّكَ نِيَابٌ مُعَلَّقَةٌ لَيْسَ فِيهَا لَابِسُوهَا . . .

كَيْفَ يَتَصَلَّكَ الْمِصْرِيُّ لِلْأَجَنِبِيِّ لَوْ أَنَّ فِي الْمِصْرِيِّ حَقِيقَةَ الْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ ؟ أَتَرَى بَارِجَةً حَرْبِيَّةً تَتَصَلَّكَ لِزُورَقٍ صَيِّدٍ جَاءَ يَزْتَرِقُ ؟

إِنَّ فِي بِلَادِنَا الْمُسْكِنِيَّةِ الْأَجَانِبِ ، وَأُمُورَالِ الْأَجَانِبِ ، وَغَطْرَسَةَ الْأَجَانِبِ ؛ لَا لِأَنَّ فِيهَا الْإِخْتِلَالَ ، كَلَّا ، بَلْ لِأَنَّ فِيهَا ضَعْفَ أَهْلِهَا ، وَغَفْلَةَ أَهْلِهَا ، وَكَرَمَ أَهْلِهَا . . . بَغْضُ هَذَا يَا بُنَيَّ شَيْءٌ يَبْغِضُ ، وَإِلَّا فَمَا هُوَ كَرَمُ الشَّاةِ الضَّعِيفَةِ إِلَّا لَدَّةُ لَحْمِهَا . . . ؟

نُرِيدُ لِهَذَا الشَّعْبِ طَبِيعَةً جِدِّيَّةً صَارِمَةً ، يَنْظُرُ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى الْحَيَاةِ فَيَسْتَشْعِرُ ذَاتَهُ التَّارِيخِيَّةَ الْمَجِيدَةَ فَيَعْمَلُ فِي الْحَيَاةِ بِقَوَائِنِهَا ؛ وَهَذَا شُعُورٌ لَا تُحْدِثُهُ إِلَّا طَبِيعَةُ الْأَخْلَاقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَسَاهُلُ مِنْ ضَعْفٍ ، وَلَا تَسْمَحُ مِنْ كَذِبٍ ، وَلَا تَتَرَخَّصُ مِنْ غَفْلَةٍ . وَالْحَقِيقَةُ فِي الْحَيَاةِ كَالْحَقِيقَةِ فِي الْمَنْطِقِ : إِذَا لَمْ يَصْدُقِ الْبُرْهَانُ عَلَى كُلِّ حَالَاتِهَا ، لَمْ يَصْدُقْ عَلَى حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهَا ؛ فَإِذَا كُنَّا ضَعْفَاءَ كُرَمَاءَ ، أَعِزَّاءَ ، سَادَةً عَلَى التَّارِيخِ الْقَدِيمِ ، فَتَحْنُ ضَعْفَاءَ فَقَطْ . . .

إِنَّ الْكُبْرَاءَ فِي الشَّرْقِ كُلِّهِ لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا لِلرَّأْيِ ، فَلَا تَسُومُهُمْ غَيْرُ هَذَا ، فَهُمْ قَدْ تَلَقَّوْا الدَّرْسَ مِنْ أَغْلَاطِهِمُ الْكَثِيرَةِ ، وَبِهَذَا لَنْ تُفْلِحَ حُكُومَةُ سِيَاسِيَّةٍ فِي الشَّرْقِ النَّاهِضِ مَا لَمْ يَكُنْ شَبَابُهَا حُكُومَةً أَخْلَاقِيَّةً يُمِدُّهَا مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ الشَّعْبِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ بِأَخْلَاقِ الْمُحَارِبَةِ .

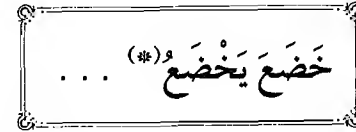
يَا بُنَيَّ ، إِنَّ الْقَوِيَّ لَوْ اتَّفَقَ مَعَ الضَّعِيفِ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ ، لَكَانَ مَعْنَاهَا لِلْأَقْوَى أَكْثَرُ مِمَّا هُوَ لِلْأَضْعَفِ ؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوِيَّ الَّذِي يَعْمَلُ مَعَ الضَّعِيفِ يَكُونُ فِيهِ دَائِمًا شَخْصٌ آخَرٌ مُخْتَفٍ ، هُوَ الْقَوِيَّ الَّذِي يَعْمَلُ مَعَ نَفْسِهِ .

هَكَذَا هِيَ السِّيَاسَةُ ؛ أَمَّا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ فَلَا ، إِذْ يَكُونُ الْحَقُّ دَائِمًا بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ أَقْوَى مِنَ الْاِثْنَيْنِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « كَيْلَا يَنَالُهُ » بِدَلَالَةٍ مِنْ : « لَا يَنَالُهُ » .

(٢) [ لَا يَنْسُ الْقَارِئُ أَنَّ هَذَا كَانَ فِي سَنَةِ ١٩١٩ م ] .

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : هـ



وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا فِيمَا حَدَّثَنِي بِهِ : جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فُتْصِلُ (الدَّوْلَةُ الْفُلَائِيَّةَ) مِنْ هَذِهِ الدَّوْلِ الصَّغِيرَةِ ؛ الَّتِي لَوْ عَلِمَ الذُّبَابُ فِي بِلَادِهَا أَنَّ فِي مِصْرَ أَمْتِيَّاتٍ أَجَنِيَّةَ ، لَطَمِعَتْ كُلُّ ذُبَابَةٍ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِي بِلَادِنَا اسْمُ الطَّيَّارَةِ الْحَرِيَّةِ ...

وَرَأَيْتُهُ قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ شَامِخًا بَادِخًا مُتَجَبِّرًا ، كَأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ إِلَى هَذَا الدُّيُونِ لِمُقَابَلَةِ الْحَاكِمِ الْمِصْرِيِّ - قَدْ تَكَلَّمَ فِي (التَّلْفُونِ) مَعَ إِسْرَافِيلَ بِأَمْرِهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلتَّفَخِ فِي الصُّورِ ...

جَتَى صُغْلُوكَ مِنْ رَعَايَا دَوْلَتِهِ عَلَى مِصْرِيٍّ ، فَأَخَذَ كَمَا يُؤْخَذُ أَمْثَالُهُ ، وَقَضَى سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ بَيْنَ أَيْدِي الْمُحَقِّقِينَ يَسْأَلُونَهُ الْأَسْئَلَةَ الْهَيْئَةَ الْكَلِمَةَ الَّتِي تُحِيطُ بِتَعْرِيفِهِ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَلَا يُشْبِهُهَا فِي سَخَافَةِ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوهُ عَنْ نِيَابِهِ مِنْ أَيِّ مَصْنَعٍ هِيَ فِي أَوْزُبَةِ ... فَرَعَمَ الْفُتْصِلُ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا يَشْهَدُ التَّحْقِيقَ ، لِأَنَّ جَنَابَةَ أَجَنِيٍّ عَلَى مِصْرِيٍّ تَقَعُ أَجَنِيَّةٌ ... فَلَهَا شَأْنٌ وَرِعَايَةٌ وَأَمْتِيَّارٌ ؛ وَأَدْعَى أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ صَاقُوا الْمُجْرِمَ وَعَاسَرُوهُ وَتَجَهَّمُوهُ بِالْكَلَامِ ، وَلِهَذَا جَاءَ يَخْتَجُّ .

وَرَأَيْتُهُ جَلَسَ مُتَوَقِّرًا كَأَنَّمَا يَشْعُرُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ أَثْقَلُ مِنْ مِذْفَعِ ضَخْمٍ ، لِأَنَّ فِي نَفْسِهِ وَهَمَ الْقُوَّةَ ؛ وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَرَى مَوْضِعَهُ بَيْنَ السَّفْفِ وَالْأَرْضِ ؛ إِذْ يَحْمِلُ فِي رَأْسِهِ فِكْرَةَ أَنَّهُ الْأَعْلَى ، وَكَانَتْ لَهُ هَيْئَةٌ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْأَجَنِيَّ الْمُقِيمَ هُنَا لَيْسَ هُوَ كُلُّ الْأَجَنِيَّ ، بَلْ لَا تَرَالُ مِنْهُ بَقِيَّةٌ تَتِمُّهَا دَوْلَتُهُ ، وَفِي الْجُمْلَةِ كَانَ الرَّجُلُ كَلِمَةً وَاضِحَةً مُفَسَّرَةً تَنْطِقُ بِأَنَّ

(\*) « الرسالة » ، العدد : ١٦٤ ، ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٤ أغسطس / آب ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٣٦١ - ١٣٦٣ .

لِلْقَانُونِ الْمِصْرِيِّ قَانُونًا يَحْكُمُهُ فِي بِلَادِهِ !

وَأَنَا قَدْ دَرَسْتُ الْقَانُونَ الدَّوْلِيَّ ، وَعَرَفْتُ مَا هِيَ الْأَمْتِيَّاتَاتُ وَمَا أَصْلُهَا ، وَهِيَ لَا تَعْدُو كَرَمَ الْأَرْزَبِ الَّتِي رَعَمُوا أَنَّهَا كَانَتْ تَمْلِكُ حِمَارًا تَرْكَبُهُ وَتَرْتَقِي بِهِ ، فَسَأَلْتُهَا أَرْزَبُ أُخْرَى أَنْ تُرَدِّفَهَا خَلْفَهَا ، فَلَمَّا أُنْذِفَ بِهِمَا الْحِمَارُ اسْتَوْطَأَتْهُ ، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهِ : يَا أُخْتِي ، مَا أَفْرَةَ حِمَارِكَ ! ثُمَّ سَكَتَتْ مُدَّةً وَأَعْجَبَهَا الْحِمَارُ فَقَالَتْ : يَا أُخْتِي ، مَا أَفْرَةَ حِمَارَنَا ...

وَكُنَّا نَحْنُ الشَّرَفِيِّينَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعَفْلَةِ ؛ بِحَيْثُ لَمْ نَبْلُغْ مَبْلَغَ الْأَرْزَبِ فِي حِكْمَتِهَا وَتَذَنُّبِهَا وَحَذَرِهَا ، فَإِنَّهَا أَسْرَعَتْ وَدَفَعَتْ صَاحِبَتَهَا وَقَالَتْ لَهَا : أَنْزِلِي - وَيَلَكْ - قَبْلَ أَنْ تَقُولِي : مَا أَفْرَةَ حِمَارِي .

قَالَ : غَيْرَ أَنِّي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ نَسِيتُ الْقَانُونَ الدَّوْلِيَّ وَكُنْتُ فِي إِلْهَامِ مِصْرِيَّتِي وَحَدِّهَا ، فَظَهَرَ لِي ظُهُورًا بَيِّنًا أَنَّ لَاشَيْءَ اسْمُهُ الْقَانُونُ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ وَلَكِنَّ هُنَاكَ اتِّفَاقًا بَيْنَ كُلِّ خُضُوعٍ وَكُلِّ تَسَلُّطٍ ، هُوَ قَانُونُ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ بِخُصُوصِهِمَا .

وَأَسْرَعْتُ إِلَى الْبَاشَا فَأَتَيْتُهُ ، وَأَسْرَعَ الْبَاشَا فَعَيَّرَ وَجْهَهُ ، وَتَبَسَّطَ ، وَتَهَلَّلَ ، وَتَهَيَّأَ بِهِذَا لِاسْتِقْبَالِ الْقَادِمِ الْعَرِيزِ ، كَأَنَّهُ أَحْصَى مُحِبَّتَهُ يَتَطَلَّعُ إِلَى مُؤَانَسَتِهِ ، وَقَدْ جَاءَ يَزُورُهُ فِي دَارِهِ . ثُمَّ دَخَلَ الْفُتْصِلُ ، وَلَمْ أَسْمَعْ مِمَّا دَارَ بَيْنَهُمَا إِلَّا الْكَلِمَةَ الْأُولَى ، وَهِيَ قَوْلُ الْبَاشَا : لِنَبْدَأْ يَا سَيِّدِي مِنَ الْآخِرِ ...

\* \* \*

وَكَانَتْ فِي الْبَاشَا مَوْهَبَةٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِلَابِ الْأَجَانِبِ خَاصَّةً ، يُدِيرُهُمْ بِلَبَاقَةٍ كَالْخَاتَمِ فِي إِصْبَعِهِ ؛ حَتَّى قَالَ لِي أَحَدُهُمْ : إِنَّ لِهَذَا الْبَاشَا حَاسَةً زَائِدَةً ، لَوْ سُمِّيَتْ حَاسَةُ الْإِرْضَاءِ لَكَانَ هَذَا اسْمَهَا الطَّبِيعِيَّ ، وَإِنَّهُ يَعْمَلُ بِهَا كَمَا يَعْمَلُ الْمُفَكِّرُ بِتَفَكُّيرِهِ ؛ فَهُوَ يَنْكُرُ الْأَسَالِيبَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي يَصْعَدُ وَيَهْبِطُ بِهَا مِيزَانُ الْحَرَارَةِ النَّفْسِيَّةِ ، وَإِنْ جَلَسَتْهُ يَكَادُ يَشْعُرُ مِنْ مَهَارَتِهِ فِي التَّنْثِيلِ أَنَّ فِي جَوْ الْمَكَانِ سِتَارًا يُرْفَعُ وَسِتَارًا يُسَدَّلُ بَيْنَ الْفُصُولِ .

فَمَا لَبِثَ الْفُتْصِلُ أَنْ خَرَجَ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ عَبَسَ فِي وَجْهِهِ أَنَا وَتَكَرَّرَ لِي كَأَنَّهُ أَصْغَرَ شَأْنِي ، فَازْدَرَنْتِي عَيْنُهُ ، فَوَثَّبْتُ إِلَى رَأْسِهِ فِكْرَةَ الْأَمْتِيَّاتَاتِ .

وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الظَّالِمَةُ (الامتيازات) ؛ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ قُوَّةً قَاهِرَةً نَافِذَةً ، وَأَعْيَنَ بِهَا طِفْلِي لَيَقْتَحِمَ دُورَ النَّاسِ آمِنًا مُطْمَئِنًّا - لَأَسْتَحْيَ هَذَا الطِّفْلِي أَنْ يَأْكُلَ بِهَا ؛ إِذْ تَجْمَعُ عَلَيْهِ التَّطَفُّلُ وَالْمَقْتَمَةُ مَعًا ، وَلَوْ قِيلَ لِحُسَامٍ بَنَارٍ : إِنَّ لَكَ أَمْتِيَارًا عَلَى بَعْضِ الشُّيُوفِ أَلَّا تَقَارِعَكَ ، وَإِنَّكَ مَخِيٌّ أَنْ تَنَالِكَ سَطَوْنَهَا إِذَا قَارَعَتْهَا - لَأَيْفَ أَنْ يُسَمَّى سَيْفًا بِهِذَا أَوْ بِمِثْلِ هَذَا ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ الظَّالِمَةَ الَّتِي يُعِيرُونَهُ إِيَّاهَا ، لَيْسَتْ إِلَّا مَهَانَةٌ لِشَرَفِ الْقُوَّةِ الْعَادِلَةِ الَّتِي هِيَ فِيهِ .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَوَصَفْتُ لِلنَّاسِ هَيْئَةَ الْفُضْلِ الَّتِي أَنْصَرَفَ بِهَا ، وَتَقَطَّيْتُ فِي وَجْهِي ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الذَّبَابَةَ وَقَعَتْ فِي صَخْفَتِي أَنَا مِنْ هَذِهِ الْوَلِيمَةِ ... فَضَحِكَ بِمِلْءِ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ :

سَتَبْطُلُ هَذِهِ الْأَمْتِيَارَاتُ ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نَهَايَتِهَا إِلَّا أَنْ يَنْتَهِيَ الشَّعْبُ إِلَى حَقِيقَتِهِ الْقَوْمِيَّةِ ، فَمَا تَرَكَهَا فِي مَكَانَتِهَا إِلَّا تَزُولُ الشَّعْبُ عَنْ مَكَانَتِهِ ، وَتَالَهُ لَكَآنَ هَؤُلَاءِ الْأَجَانِبِ يَسْأَلُونَنَا بِهَذِهِ الْأَمْتِيَارَاتِ : أَيْنَ مَكَانُكُمْ فِي بِلَادِكُمْ ... ؟

أَتَذَرِي مَا قَالَهُ هَذَا الْفُضْلُ حِينَ تَجَادَبْنَا الْحَدِيثَ فِيهَا ، بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْهُ فِي مَوْضِعِ الْمُحَامِي الَّذِي يَخْذُلُهُ الدَّلِيلُ ، فَيَحَاوِلُ أَنْ يَسْتَنْزِلَ كَرَمَ الْقَضَاةِ بِعَرَضِ بُؤْسِ الْمُتَّهَمِ عَلَى شَفَقَتِهِمْ ، لِيَسْتَعِظَ الْقَانُونُ الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ بِالْقَانُونِ الَّذِي فِي أَنْفُسِهِمْ ؟

إِنَّهُ قَالَ : لَا يَلُومَنَّ الشَّرِيفُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمْ عَلِمُوا الْأَجَانِبَ أَنَّ تَفَّ رِيَشِ الطَّيْرِ أَوَّلُ أَكْلِهِ ... وَهَذِهِ الْأَمْتِيَارَاتُ إِنْ هِيَ إِلَّا مُعَامَلَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ طَبِيعَةِ الْخُضُوعِ فِي الشَّعْبِ . نَعَمْ إِنَّهَا مُضَرَّةٌ وَمَعَرَّةٌ ، وَظُلْمٌ وَقَسْوَةٌ ؛ وَلَكِنَّهَا عَلَى ذَلِكَ طَبِيعَةٌ فِي الطَّبِيعَةِ ؛ فَمَا دَامَ هَذَا الشَّعْبُ لَيْنَ الْمَأْخِذِ ، فَإِنَّ هَذَا يُوجِدُ لَهُ مَنْ يَأْخُذُهُ ؛ وَمَا دَامَتِ الْكَلِمَةُ الْأُولَى فِي مُعْجَمِ لُغَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ هِيَ مَادَّةُ (خَضَعَ يَخْضَعُ) ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَحْمِلُ فِي مَعْنَاهَا الْوَاحِدِ أَلْفَ مَعْنَى ، مِنْهَا : ظَلَمَ يَظْلِمُ ، وَرَكِبَ يَرْكَبُ ، وَمَلَكَ يَمْلِكُ ، وَاسْتَبَدَّ يَسْتَبِدُّ ، وَدَجَلَ يَدَجُلُ ، وَخَدَعَ يَخْدَعُ ؛ فَهَلْ يَكْثُرُ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا لِلْأَجَانِبِ : أَمْتَارَ يَمْتَارُ ؟

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : ثُمَّ رَمَّ النَّبَاشَا فَمَهُ وَسَكَتَ ؛ فَفَهِمْتُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنْطَبَقَ فَمَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا ، ثُمَّ غَلَبَهُ الضَّحِكُ فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا بَنِي لَوْ أَنَّ بُرْغُونًا طَمَرَ مِنْ ثَوْبِ صُغْلُوكِ أَجَنِّي ، فَوَقَعَ فِي ثَوْبِ صُغْلُوكِ وَطَنِي ، فَتَقَاتَلَا ، فَفَبِضَ عَلَيْهِمَا ، فَأَخَذَا - لَمَّا رَضِيَ بُرْغُوثُ الْأَجَنِّي أَنْ يُحَاكَمَ إِلَّا فِي الْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلَطَةِ ...

ثُمَّ سَكَتَ النَّبَاشَا مَرَّةً أُخْرَى كَأَنَّهُ يَقُولُ كَلَامًا آخَرَ لَا يَجُوزُ نُشْرُهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا بَنِي ! إِنَّ الْأَجَانِبَ لَا يَضْعُونُ الْحِمْلَ إِلَّا عَلَى مَنْ يَحْمِلُ ؛ فَإِذَا نَحْنُ تَوَخَّيْنَا مُرَادَهُمْ أَرَادُوا لِأَنْفُسِهِمْ لَا لَنَا ؛ وَإِذَا وَافَقْنَا لَهُمْ غَرَضًا جَعَلُوهُ كَالدِّينَارِ فِيهِ مِثَّةُ قَرَشٍ ، وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ نُصَارِفَهُمْ عَلَيْهِ بِمِثَّةٍ . وَهُمْ - وَنَحْكُ - يَمْتَارُونَ فِي مُعَامَلَتِنَا لَا فِي سَطُورِ الْقَوَانِينِ وَالْمُعَاهَدَاتِ ، فَلَنَبْطُلُ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ يَبْطُلُ هَذَا الْأَمْتِيَارُ .

إِنَّ الْحَقَّ يَا بَنِي اسْتِحْقَاقُ لَا دَعْوَى ؛ وَهَذَا التَّنَارُ عَلَى الْحَيَاةِ يَجْعَلُ وَسَائِلَهُ الطَّبِيعِيَّةَ الْأَنْتِزَاعَ وَالْمُطَالَبَةَ وَالتَّجَرُّدَ لَهُ وَالذَّبَابَ فِيهِ وَالْإِضْرَارَ عَلَيْهِ . وَكُلُّ الْأَقْوِيَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَوْضِعَ الْأَعْتِدَالِ بَيْنَ غَضَبِ الْحَقِّ وَبَيْنَ اسْتِزْدَادِهِ مَوْضِعٌ لَا مَكَانَ لَهُ فِي الطَّبِيعَةِ ؛ وَالْأَجَنِّي يَعْتَمِدُ عَلَيْنَا نَحْنُ فِي جَعْلِهِ أَكْبَرَ مِنَّا وَأَوْفَرُ حُرْمَةً ؛ فَإِذَا اسْقَطَ<sup>(١)</sup> الشَّعْبُ هَذِهِ الْأَمْتِيَارَاتِ مِنْ فِكْرِهِ وَرُوحِهِ وَأَعْصَابِهِ ، وَتَارَتْ فِيهِ كِبَرِيَاءُ الْوَطَنِيَّةِ فَاسْتَنْكَفَ مِنَ الْأَسْتِخْدَاءِ ، وَتَفَرَّ مِنْ الْأَخْتِصَاعِ ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلَنَ كَرَامَتُهُ ، وَصَرَفَ أَهْتِمَامَهُ إِلَى حُقُوقِ هَذِهِ الْكِرَامَةِ ، وَأَصَرَ الْأَ يُعَامِلُ أَجَنِّيًا يَرَى لِنَفْسِهِ أَمْتِيَارًا عَلَى وَطَنِي ، وَفَرَّرَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَمَكَّنَهُ فِي رُوحِهِ ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ إِجْمَاعُهُ عَلَى الدِّينِ - إِذَا جَاءَتْ (إِذَا) هَذِهِ بِشَرْطِهَا مِنَ الشَّعْبِ ، جَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ مِنَ الْأَجَانِبِ بِثَرْوِهِمْ عَنِ الْأَمْتِيَارَاتِ وَأَنْحَلَّتِ الْمُشْكِلَةُ . إِنَّا يَا بَنِي لَا نَمْلِكُ ضَغْطَ السِّيَاسَةِ ، وَلَكِنَّا نَمْلِكُ مَا هُوَ أَقْوَى ؛ نَمْلِكُ ضَغْطَ الْحَيَاةِ .

لَهُمْ الْأَمْتِيَارُ بِأَنَّهُمْ أَجَانِبٌ عَنَّا ، فَلْيَكُنْ لَنَا الْأَمْتِيَارُ الْآخَرُ بِأَنَّنَا أَجَانِبٌ عَنْهُمْ فِي الْمُعَامَلَةِ ، مِثْلًا بِمِثْلِ ، وَمَا يَقُلُ الْحَدِيدُ إِلَّا الْحَدِيدُ .

يَقُولُونَ : النَّظَامُ الْأَقْصَادِي وَالْمَالُ الْأَجَنِّي . وَلَكِنْ أَرَأَيْتَ الْمَالَ فِي يَدِ الْأَجَنِّي إِلَّا

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَلَى » بَدَلًا مِنْ : « اسْقَطَ » .

مَالًا وَتَذْيِيرًا وَسُلْطَةً وَسَيَادَةً ، مِنْ أَنَّهُ فِي يَدِ الْوَطْنِيِّ دَيْنٌ وَإِسْرَافٌ وَرِقٌّ وَذُلٌّ ؟

لَمْ يَظْهَرْ لِي إِلَّا السَّاعَةُ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ تَحْرِيمِ الرَّبَا فِي شَرِيعَتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَقَايَةَ الْأُمَةِ كُلِّهَا فِي تَزْوِجِهَا وَضِيَاعِهَا وَمُسْتَعْلَاةِهَا ، وَحِمَايَةَ الشَّعْبِ وَمُلُوكِهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْتَحَرُّقِ وَالْكَرَمِ الْكَاذِبِ ، وَرَدَّ الْأَسْتِعْمَارِ الْاِفْتِصَادِيِّ ، وَشَلَّ التُّقُودَ الْأَجْنَبِيَّ .

أَمَا لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا مِنَ الْأَوَّلِ عَلَى أَبْوَابِ « الْبُنْكَ الْعِقَارِيِّ » وَأَبْوَابِ دُرِّيَّةِ : « يَمَحُقُ اللَّهُ الرَّبَا » . فَهَلْ كَانَتْ تَقْرَأُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ عَلَى أَبْوَابِ تِلْكَ الْبُنُوكِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَّا هَكَذَا : « مَحَالٌ خَالِيَةٌ لِلْإِبْجَارِ » ... ؟

سيدي بشر . إسكندرية

مصطفى صادق الرافعي

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٦

فَلْتَتَعَصَّبْ (\*) ... !

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : جَاءَنِي يَوْمًا صَحْفِيّ إِنْكِلِيرِيٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ الْمُتَعَصِّبِينَ الَّذِينَ تُطْلِقُهُمْ إِنْكِلِيرَةً كَمَا تُطْلِقُ مَدَافِعَهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ لِلْبَارُودِ وَالرَّصَاصِ وَالْقَنَابِلِ ، وَأَوَّلُكَ لِلْكَذِبِ وَالثَّهَمِ وَالْمُعَالَطَاتِ .

وَهُوَ أُذُنٌ وَعَيْنٌ وَلِسَانٌ وَقَلَمٌ لَجَرِيدَةِ إِنْكِلِيرِيَّةٍ كَبِيرَةٍ ، مَعْرُوفَةٌ بِثِقَلِ وَطَائِفِهَا عَلَى الشَّرْقِ وَالْإِسْلَامِ ؛ تُضْلِحُ بِإِفْسَادٍ ، وَتُدَاوِي الْحُمَى بِالطَّاعُونِ ، وَتَعْمَلُ فِي نَهْضَةِ الشَّرْقِيِّينَ وَاسْتِقْلَالِهِمْ مَا يُشْبِهُ قَطْعَ نَدْيِ الْأُمِّ وَهُوَ فِي شَفَتِي رَضِيْعِيهَا الْمُسْكِينِ .

وَدَخَلَ عَلَيَّ هَذَا الْكَاتِبُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا مِنْ غُرْفَتِي صَاحِبُ جَرِيدَةِ أُسْبُوعِيَّةٍ فِي مَدِينَتِنَا ؛ كَانَ قَدْ نَفَخَ الصُّفْدَ لِيَجْعَلَهَا نُورًا ، فَحَوَّلَ صَحِيفَتَهُ إِلَيَّ جَرِيدَةً يَوْمِيَّةً ، وَهُوَ

(\*) « الرسالة » ، العدد : ١٦٥ ، ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ = ٣١ أغسطس / آب ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٤٠١ - ١٤٠٣ .

مصطفى صادق الرافعي

لَا يَجِدُ مَادَّتَهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَسْبَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ كَذَّابُ النَّاسِ عِنْدَنَا كَانَ يَحْسَبُ الْكَذِبَ فِي الْعَمَلِ سَهْلًا مَهْلًا<sup>(١)</sup> كَالْكَذِبِ فِي الْقَوْلِ ، فَلَمْ يَتَعَاطَمَهُ الْأَمْرُ<sup>(٢)</sup> الْعَظِيمُ ، وَاقْتَرَضَ لِعَمَلِهِ كُلَّ أَلْفَاظِ التَّجَاحِ مِنَ اللَّغَةِ ...

وَطَرَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيُخَوِّفُ بِجَرِيدَتِهِ الْكِبَرَاءَ وَالْأَعْيَانَ وَالْمَيَاسِيرَ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى جَمِيعِهِمْ ، وَيُشْرِكَ أَصَابِعَهُ مَعَ أَصَابِعِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ جُيُوبِهِمْ ؛ فَلَمْ تَعِشْ جَرِيدَتُهُ إِلَّا أَيَّامًا وَأَتْلَفَ مَا جَمَعَ ، وَرَهَنَ فِيهَا دَارَهُ الَّتِي لَا يَمْلِكُ غَيْرَهَا ؛ وَعَلِمَ آخِرًا أَنَّ الَّذِي يَكْذِبُ فَيَسْمِي الْحُرُوفَ جَمَلًا ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى الْكَذِبِ نَفْسِهِ ، فَيَزْعُمَ أَنَّ الْتَّافَةَ هِيَ الَّتِي نَتَجَتْ هَذَا الْحُرُوفَ ...

وَلَمَّا انْقَلَبَتْ هَذِهِ الْجَرِيدَةُ يَوْمِيَّةً كَانَ الْبَاشَا هُوَ مَلَجَأُ الرَّجُلِ وَوَزَرُهُ ، وَكَانَ لِكُلِّ يَوْمٍ فِي الْجَرِيدَةِ أَخْبَارٌ عَنِ الْبَاشَا لَا تَقَعُ فِي الدُّنْيَا وَلَا تُجْمَعُ مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَلَكِنْ تَقَعُ فِي ذَهْنِ الْكَاتِبِ ، وَتُجْمَعُ مِنْ صَنَادِقِ الْحُرُوفِ ؛ حَتَّى قَالَ لِي الْبَاشَا مَرَّةً : إِنْ أَسْمِي قَدْ أَصْبَحَ مُوَظَّفًا فِي هَذِهِ الْجَرِيدَةِ لِيَجْمَعَ لِشَرَاكَ ...

وَتَحَرَّيْ هَذَا الصَّحْفِيَّ أَنْ يَسْتَأْذِنَ يَوْمًا عَلَى الْبَاشَا وَفِي مَجْلِسِهِ حَشْدٌ عَظِيمٌ مِنَ السَّرَاةِ وَالْأَعْيَانِ وَالْعُمَدِ ، وَكَانَ جَمْعُهُمْ لِأَمْرِ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ دَخَلَ الصَّحْفِيَّ حَتَّى ابْتَدَرَهُ الْبَاشَا بِهَذَا السُّؤَالِ : يَا أَسْنَاذُ ! مَا هِيَ تَلِغْرَافَاتُ [بَرْقِيَّاتُ] أَوْرَتِهِ عَنِ الْحَوَادِثِ الَّتِي سَتَقَعُ غَدًا ... ؟

فَضَحَّ الْمَجْلِسُ بِالصَّحْحِ ، وَقَفَدَ الْمُسْكِينُ بِهِذِهِ الْكُتْبَةِ أَرْبَعِينَ دِينَارًا كَانَ يُؤَثِّلُ أَنْ يَخْرُجَ بِهَا ، وَأَعْلَنَ الْبَاشَا فِي أَطْرَفِ إِعْلَانٍ وَأَبْلَغِهِ كَذِبَ الرَّجُلِ وَنِفَاقَهُ وَإِسْفَافَهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الصَّحَافَةِ الْمُدَوَّرَةِ تَذْوِيرِ الرَّغِيفِ ...

\* \* \*

(١) هَذَا الْأَسْتِعْمَالُ مِمَّا وَضَعْنَاهُ نَحْنُ وَلَيْسَ فِي اللَّغَةِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْإِتْبَاعِ قَوْلُهُمْ : حَسَنَ بَسَنَ ، وَشَبِطَانَ لِبَطَانٍ ... إلخ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فَلَمْ يَتَعَاطَمِ لِلْأَمْرِ » بَدَلًا مِنْ : « فَلَمْ يَتَعَاطَمَهُ الْأَمْرُ » .

قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَى الصَّحْفِيِّ الْإِنْكَلِيرِيِّ نَظْرَةً أَكْشَفَتْهُ بِهَا ، فَإِذَا أَوَّلُ الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْتَالِهِ عِنْدَنَا - شُعُورُهُ أَنَّ بِلَادَهُ قَدْ رُبِنَتْهُ (لِلخَارِجِ) ، فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ إِنْكَلِيرِيٌّ مَرَّتَيْنِ ؛ وَيَأْتِي مِنْ ذَلِكَ إِحْسَاسُهُ بِعِزَّةِ الْمَالِكِ وَقُوَّةِ الْمُسْتَعْمِرِ ، فَلَا يَكُونُ حَيْثُ يَكُونُ إِلَّا فِي صَرَاحَةِ الْأَمْرِ الْتَأْفِدِ ، أَوْ غُمُوضِ الْحِيلَةِ الْمُبْهَمَةِ ؛ وَيَسْتَحْكِمُ بِهِذَا وَذَلِكَ طَبْعُهُ الْعَمَلِيُّ ، فَهُوَ بِغَيْرِ زَيْتِهِ مُقَاتِلٌ مِنْ مُقَاتِلَةِ الْفِكْرِ ، يَلْتَمِسُ مِيدَانَهُ بَيْنَ الْقُوَى الْمُتَضَارِبَةِ لَا يَبَالِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَوْتُ مَا دَامَ فِيهِ الْعَمَلُ ؛ وَبِهَذَا كُلِّهِ تَرَاهُ نَافِذَ الْبَصِيرَةِ قَائِمًا عَلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ ، لِأَنَّ الْإِنْكَلِيرِيَّ الْبَاطِنَ فِيهِ يُوجِّهُ الْإِنْكَلِيرِيَّ الظَّاهِرَ مِنْهُ وَيُسَانِدُهُ ؛ وَفِي أَعْمَاقِ الْأَنْتَيْنِ تَجِدُ إِنْكَلِرَةً ، وَلَيْسَ غَيْرَ إِنْكَلِرَةٍ .

ثُمَّ تَفَرَّسْتُ فِي الرَّجُلِ أُرِيدُ كُنْهَهُ وَحَقِيقَتَهُ ، فَإِذَا لَهُ نَفْسٌ مُفْتَوِّحَةٌ مُفَفَّلَةٌ مَعًا ، كَعُزْبِ الدَّارِ الْوَاحِدَةِ : يَفْتَحُ بَعْضُهَا لِمَا فِيهِ كَيْمَا يَرَى ، وَيُقْفِلُ بَعْضُهَا عَلَى مَا فِيهِ كَيْلًا يَرَى .

وَلَهُ وَجْهٌ عَمَلِيٌّ يَكَادُ يُحَاسِبُكَ عَلَى نَظَرَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ تَدُورُ فِي هَذَا الْوَجْهِ عَيْنَانِ قَدْ اغْتَادَتَا وَزْنَ الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَانِي ؛ يَتَلَأَلُ فِي هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ شُعَاعُ النَّفْسِ الْقَوِيَّةِ الْمُمَرَّرَةِ ، قَدْ نَقَبَتْ الثَّقَّةَ بِهَا نِصْفَ هُمُومِ الْحَيَاةِ عَنْ صَاحِبِهَا ، ثُمَّ هَذِهِ النَّفْسُ طَبِيعَةٌ مُؤَمِّنَةٌ بِأَنَّ أَكْبَرَ سُورِهَا فِي أَعْمَالِهَا ، فَوَاجِبُهَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَعْمَلَ كُلَّ مَا يَخْسُنُ بِهَا وَكُلَّ مَا يَخْسُنُ مِنْهَا .

لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى نَفْسِي هَذَا الْإِنْكَلِيرِيَّ أَنَّ كَلِمَةَ الْخَبِيَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْإِنْكَلِيرِ غَيْرُ كَلِمَةِ الْخَبِيَةِ عِنْدَنَا نَحْنُ الشَّرِيفِينَ ، فَإِنَّ خَبِيَةَ النَّفْسِ لَا تَتِمُّ مَعَانِيهَا أَبَدًا فِي النَّفْسِ الْعَامِلَةِ الدَّائِمَةِ ، الَّتِي يُشْعِرُهَا الْوَاجِبُ أَنَّهُ شَيْءٌ إِلَهِيٌّ لَا يَخِيبُ ، وَأَنَّ مَا يُرْفَضُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مِنَ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ لَا يُرْفَضُ فِي السَّمَاءِ .

وَكَانَ الرَّجُلُ قَدْ أَذْرَكَ غَرَضِي بِمَلَكَتِهِ الصَّحَافِيَّةِ الدَّقِيقَةِ ، فَأَجَابَنِي عَنِ السُّؤَالِ الَّذِي لَمْ أَسْأَلْهُ ، وَقَالَ لِي مُبْتَدَأًا : إِنَّ أَسَاسَنَا الشَّخْصِيَّةَ وَحَاسَتَهُ الْوَاجِبَ ؛ وَإِنْ فِينَكُمْ أَنْتُمْ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا هَذَيْنِ ؛ فَأَخْلَافُنَا تَظْهَرُ دَائِمًا فِي الْعَمَلِ ، وَأَخْلَافُكُمْ تَظْهَرُ دَائِمًا فِي الْكَلَامِ الْفَارِغِ ؛ وَنَحْنُ نَطْلُبُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونَ الْأَلْفَاظَ ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ خَسِرَ الْمِصْرِيُّ أَلْفَ دِينَارٍ ، ثُمَّ أَعْلَنَ أَنَّهَا مِثَّةٌ فَقَطْ ، وَصَدَّقَ النَّاسُ أَنَّهَا مِثَّةٌ ؛ لَكَانَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ رَبِحَ تِسْعَ مِثَّةٍ ...

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَى الْبَاشَا فَسَهَّلَ وَرَحَّبَ ؛ ثُمَّ هَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ عَنْهُمَا ، وَلَكِنَّ الْإِنْكَلِيرِيَّ قَالَ : يَا بَاشَا ! إِنَّهُ قَدْ تَمَكَّنَ فِي رُوعِي أَنَّ صَاحِبَ سِرِّكَ هَذَا مُتَعَصِّبٌ دِينِي ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ ابْنُ فَلَانِ الْقَاضِي الشَّرْعِيِّ ، فَطَرَبُوشُهُ ابْنُ الْعِمَامَةِ ؛ وَلَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، وَكَأَنَّهُ يَتَأَمَّلُ مِنْ أَيْنَ يَذْبَحُنِي ...

فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ لِي : يَا فَلَانُ ! إِنَّ هَذَا الْكَاتِبَ مِنْ تَلَامِيذِ بَرْنَارْدَشُو ، فَهُوَ كَأُسَاتِذِهِ يَجْعَلُ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ ذَنْبًا كَذِبِلِ الْهَرِّ ، ثُمَّ يُنْسِكُهَا مِنْهُ فَإِذَا هِيَ تَعَصُّ وَتَتَلَوَّى ...

وَالْتَفَتَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِنْكَلِيرِيَّ ثُمَّ قَالَ لَهُ : جَاءَنِي كِتَابُكَ فَإِذَا كُنْتُ تُرِيدُ رَأْيِي فِيهَا تَسْمِيَةَ التَّعَصُّبِ الدِّينِيِّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَجِبْتُ أَنْ تَضَعُوا أَنْتُمْ الْغَلْطَةَ ثُمَّ تَسْأَلُونَا نَحْنُ فِيهَا ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التَّعَصُّبَ الْكَذِبَ الَّذِي أَكْثَرْتُمُ الْكَلَامَ فِيهِ ، إِنَّمَا هُوَ لَفْظٌ مِنَ الْفَاطِ السِّيَاسَةِ الْأَوْرُوبِيَّةِ ، أَرْسَلْتُمُوهُ إِلَيْنَا لِيُقَاتِلَ لَفْظَ التَّعَصُّبِ الْحَقِيقِيِّ ؛ وَمِنْ قَبْلِ هَذَا أَخْتَرَعْتُمْ لَفْظَةَ (الْأَقْلِيَّاتِ) ، وَأَجْرَزْتُمُوهَا فِي لُغَتِكُمْ السِّيَاسِيَّةِ ، لِتَجْعَلُوا بِهَا لَتَعَصُّبَنَا الْوُطَنِيَّ شَكْلًا آخَرَ غَيْرَ شَكْلِهِ فَتُفْسِدُوهُ عَلَيْنَا بِهِذِهِ الْمَادَّةِ الْمُفْسِدَةِ ؛ وَبِذَلِكَ تَضْرِبُونَ أَلِيَدَ الْيُمْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْمُسُوهَا ، إِذْ تَضْرِبُونَهَا بِشِلِّ أَلِيَدِ الْيُسْرَى .

إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي نَفْسِهِ عَدُوٌّ شَدِيدٌ عَلَى التَّعَصُّبِ الَّذِي تَفْهَمُونَهُ ، فَهُوَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَقْصَى شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [٤] سورة النساء/ الآية : ١٣٥ .

فَإِذَا كَانَ الْعَدَلُ فِي هَذَا الدِّينِ عَدْلًا صَارِمًا ، وَحَقًّا مَخْصًا لَا يُمَيِّزُ بَشِيءَ الْبَنَةِ ، لَا ذَاتَ النَّفْسِ الَّتِي فِيهَا أَشْتَهَاءُ الدَّمِ ، وَلَا أَضْلَاهَا مِنَ الْأَبْوِينَ اللَّذِينَ جَاءَتْ مِنْهُمَا وَرَاثَةُ الدَّمِ ، وَلَا أَطْرَافَهَا مِنَ الْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ نَسَبِ الدَّمِ - إِذَا كَانَ هَذَا ، فَأَيْنَ فِي هَذَا الْعَدْلِ مَحَلُّ الطُّغْمِ ؟

لَعَلَّكَ تُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الرُّعُونَةِ الَّتِي تَعْرِفُهَا فِي الْأَغْمَارِ وَالْأَغْفَالِ مِنَ الْعَامَّةِ ، فَهَذِهِ لَيْسَتْ مِنْ أَثَرِ الدِّينِ ، بَلْ هِيَ أَثَرُ الْجَهْلِ بِالدِّينِ ؛ إِنَّ هَذَا لَيْسَ تَعَصُّبًا ، بَلْ هُوَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْحِمِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ الْخَرْقَاءِ لَمْ تَجِدُوا أَنْتُمْ لَهُ لَفْظًا ، وَكَانَ أَقْرَبَ الْأَلْفَاظِ إِلَيْهِ عِنْدَكُمْ هُوَ

التَّعَصُّبُ ، فَأُطْلِقْتُمُوهُ عَلَيْهِ لِلْمَعْنَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ وَالْمَعْنَى الَّذِي فِي أَنْفُسِكُمْ . أَلَا فَاعْلَمُ أَنَّ إِسْلَامَ الْعَامَّةِ الْيَوْمَ هُوَ كَالدَّعْوَى الْمَقْبُولَةِ شَكْلًا وَالْمَرْفُوضَةِ بَعْدَ ذَلِكَ .

قَالَ الْإِنْكِيلِيرِي : وَلَكِنْ لِهَؤُلَاءِ الْعَامَّةِ عُلَمَاءَ دِينِيَّينَ يُدَبِّرُونَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَهُمْ عِنْدَكُمْ وَرَثَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنِي : مَنُوعُ الْفِكْرَةِ وَقُوَّتِهَا .

قَالَ الْبَاشَا : غَيْرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَصْبَحُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَنْدَسُّ فِيهِمْ عِرْقٌ مِنْ تِلْكَ الْوَرِاثَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ بِنَا مَا تَرَى ؛ فَالْقَوْمُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ كَالْأَسْلَافِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ الْمُعْطَلَةِ : لَا فِيهَا سَلْبٌ وَلَا إِنْجَابٌ ؛ وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ كَانَتْ فِيهِمْ كَهْرَبَاءُ الثَّبُورَةِ ، لَكَهْرَبُؤُا الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَقْطَارِهَا الْمُخْتَلِفَةِ . إِذَا لَقَامَ فِي وَجْهِهِ الْأَسْتِغْمَارَ الْأَوْزُبِّيَّ أَرْبَعُ مِثَّةٍ مِلْيُونٍ مُسْلِمٍ جَلَدٍ صَارِمٍ شَدِيدٍ ، مُتَظَاهِرِينَ مُتَعَاوِينَ ، قَدْ أَعْدَوْا كُلَّ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةِ الْعِلْمِ ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ ، وَهُمْ لَوْ قَذَفَ كُلُّ مِنْهُمْ بِحَجَرَيْنِ لَرَدَمُوا الْبَحْرَ ...

أَتَرِيدُ مَعْنَى التَّعَصُّبِ فِي الْإِسْلَامِ ؟ إِنَّهُ بِعَيْنِهِ كَتَعَصُّبِ كُلِّ إِنْكِيلِيرِيٍّ لِلْأُسْطُولِ ؛ فَهُوَ تَشَابُكُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً ، وَأَخْذُهُمْ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ إِلَى آخِرِ الْأَسْتِطَاعَةِ ، لِدَفْعِ ظُلْمِ الْقُوَّةِ بِآخِرِ مَا فِي الْأَسْتِطَاعَةِ .

وَهُوَ بِذَلِكَ يَعْمَلُ عَمَلَيْنِ : اسْتِكْمَالُ الْوُجُودِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَالِدَّفَاعُ عَنْ كِمَالِهِ .

وَإِذَا أَنْتَ تَرَجَمْتَ هَذَا إِلَى مَعْنَاهُ السِّيَاسِيِّ ، كَانَ مَعْنَاهُ إِضْرَارَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى نَوْعِ الْحَيَاةِ وَكَرَامَتِهَا ، لَا عَلَى اسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ وَوُجُودِهَا فَقَطْ . وَذَلِكَ هُوَ مَبْدُوكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُهَا الْإِنْكِيلِيرِي : لَا تَقْبَلُونَ إِلَّا حَيَاةَ السِّيَادَةِ وَالْحُكْمِ وَالْحُرِّيَّةِ ، فَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْمَبْدَأِ لَوْ عَدَلْتُمْ .

أَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاءِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَا يَذَرُسُ بَعْضُهُمْ بِلَاذِ بَعْضٍ إِلَّا عَلَى الْخَرِيطَةِ ... مَعَ أَنَّ الْحَجَّ لَمْ يُشْرَعْ فِي دِينِهِمْ إِلَّا لِتَعْوِيدِهِمْ دِرَاسَةَ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ نَفْسِهَا لَا فِي الْوُرُقِ ، ثُمَّ لِيَكُونَ مِنْ مَبَادِيهِمُ الْعَمَلِيَّةِ أَنَّ الْعَالَمَ مَفْتُوحٌ لَا مَقْفَلٌ ؟

إِنَّ التَّعَصُّبَ فِي حَقِيقَتِهِ هُوَ إِعْلَانُ الْأُمَّةِ أَنَّهَا فِي طَاعَةِ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ ، وَأَنَّ لَهَا الرُّوْحَ الْحَادَّةَ لَا الْبَلِيدَةَ ، وَأَنَّ أَسَاسَهَا فِي السِّيَاسَةِ الْأَخْتِرَامُ الدَّائِي لَا تَقْبَلُ غَيْرَهُ ، وَأَنَّ أَفْكَارَهَا

الاجْتِمَاعِيَّةَ حَقَائِقٌ ثَابِتَةٌ لَا أَشْكَالَ نَظَرِيَّةٍ ، وَأَنَّ مَبْدَأَهَا هُوَ الْحَقُّ وَلَا شَيْءَ غَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنَّ قَاعِدَتَهَا ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ [٥ سورة المائدة/ الآية : ١٠٥] . فَالْهِدَايَةُ أَوْ لَا وَالْهِدَايَةُ آخِرًا : الْهِدَايَةُ فِي الْقُوَّةِ ، وَالْهِدَايَةُ فِي السِّيَاسَةِ ، وَالْهِدَايَةُ فِي الْاجْتِمَاعِ . فَقُلْ لِي بِحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ إِنْكَلَرَةَ : أَيْعَابُ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي يَعْنِيهِ اللَّصُّ بِهَا أَهْلُ الدَّارِ لِأَنَّهُمْ يُحْكُمُونَ فِي وَجْهِهِ إِفْقَالَ الْبَابِ ... ؟

قَالَ : فَوَجَمَ الْإِنْكِيلِيرِي حَتَّى ذَهَلَ عَنْ نَفْسِهِ وَصَاحَ :

إِذَا كَانَ هَذَا فَلْتَتَعَصَّبْ ، فَلْتَتَعَصَّبْ !! .

مصطفى صادق الرافعي

سيدي بشر . إسكندرية

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٧

### وَزْنُ الْمَاضِي (\*)

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : إِنِّي لَجَالِسٌ ذَاتَ يَوْمٍ وَفِي يَدَيَّ كِتَابَ لِبَعْضِ الْمُتَفَلِّسِفَةِ مِنْ مَلَاحِدَةِ أَوْرَبَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْهَمُوا مَا لَا يَفْهَمُ ؛ وَكَانَ الْبَاشَا قَدْ رَأَى مَرَّةً أَنْظَرَ فِيهِ وَأَتَدَبَّرُ مَسَائِلَهُ الْغَامِضَةَ ، فَقَالَ لِي : يَا بَنِي ! إِنَّ أَحَدَ الْكِلَابِ كَانَ شَاعِرًا فَيَلْسُوفًا ، فَتَنَظَّرَ لَيْلَةً فِي النَّجْمِ فَرَاعَتَهُ وَحَبِيرَتَهُ ؛ فَالَى أَنْ يَفْهَمَهَا بِعَقْلِهِ وَتَفَرَّغَ لِدَرْسِهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ وَضَعَ فِيهَا كِتَابًا نَفِيسًا ضَخْمًا ، كَانَ أَعْظَمَ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ وَأَشَدَّهَا غُمُوضًا عِنْدَ الْكِلَابِ ، وَكَانَ اسْمُهُ : الْعِظَامُ الْمُبَعَثَةُ فَوْقَنَا ... (١)

قَالَ : فَأَنَا جَالِسٌ أَقْرَأُ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي لَا صَحِيحَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ ... إِذْ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٦٦ ، ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ = ٧ سبتمبر/أيلول ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ١٤٤١ - ١٤٤٣ .

(١) لَا رَيْبَ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ ... قَدْ بَحَثَ فِي كِتَابِ (الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ) لِلدَّفَاعِ بِهَيْلَةِ الْعِظَامِ الْمُبَعَثَةِ ...

دَخَلَ عَلَيَّ كَاتِبٌ مُتَفَلِّسٌ مُلْحِدٌ مِنْ هُلُولِ الْمَذْخُولِينَ فِي عُقُولِهِمْ ، الْمَفْتُونِينَ بِأُورْبَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَعُلُوبَاتِهَا وَسُفْلِيَّاتِهَا ... وَهُوَ يَكْتُبُ فِي الصُّحُفِ ، وَيُؤَلِّفُ الرِّسَالِ ، وَقَدْ جَاءَ يَسْتَصْرِخُ الْبَاشَا عَلَى فَلَاحٍ شَارِكِهِ فِي زِرَاعَةِ أَرْضِهِ ، فَزَرَعَهُ الْفَلَاحُ فِيهَا وَحَصَدَهُ ، وَدَهَاةَ بِكَيْدِهِ ، وَابْتَلَاهُ بِغُلَظْنِهِ ، وَتَهَدَّدَهُ بِالنَّقْمَةِ .

وَكَانَ هَذَا الْفَلَاحُ السَّادِجُ الْغَرِيرُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيَّ وَعَرَفَهُ لِي تَعْرِيفًا قَامُوسِيًّا مُحِيطًا مِنْ مَادَّةِ كَفَرٍ يَكْفُرُ ... ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : إِنَّهُ (بِتَأْخُذِ كَلَامٍ) يَصْدُقُ وَيَكْذِبُ حَسَبَ الطَّلَبِ ... وَالذَّمَّةُ نَفْسُهَا لَيْسَتْ عِنْدَهُ إِلَّا (عَمَلِيَّةٌ حِسَابِيَّةٌ) ؛ وَهُوَ فِي أَقْوَى جِهَاتِهِ لَا يَنْفَعُ الدُّنْيَا بِمَا تَنْفَعُهَا بِهِ الْبَهِيمَةُ مِنْ أَضْعَافِ جِهَاتِهَا .

أَمَّا الْكَاتِبُ فَيَقُولُ عَنْ هَذَا الْفَلَاحِ : إِنَّهُ لَا يَذَرِي أَهْوَى يَتِمُّ بِهَائِمِهِ أَمْ بِهَائِمِهِ هِيَ الَّتِي تُتِمُّهُ ، وَإِنَّ الَّذِي يَرْفَعُ الْقَضِيَّةَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْمَخْلُوقِ إِلَى الْمَحْكَمَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا كَالَّذِي يُقْفَعُ بِالْعَصَا عَلَى جُحْرِ فِيهِ الْحَيَّةُ السَّامَّةُ .

وَرَأَى الْمُتَفَلِّسُ الْكِتَابَ عَلَى يَدَيْ ، فَتَهَلَّلَ وَاسْتَبَشَرَ وَقَالَ لِي : هَذَا نَسَبٌ بَيْنَنَا ... فَأَذْرَكْتُ مِنْ كَلِمَتِهِ هَذِهِ جُمْلَتَهُ وَتَفْصِيلَهُ ، وَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَرَى فِيهِ نَفْسَهُ الشَّرْقِيَّةَ كَالْمَرَأَةِ الْمَطْلُوقَةِ ... فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا أَشْتَرَيْتُ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ أُورْبَةِ ، وَلِكَيْتِي لَمْ أَشْتَرِ مِنْهَا دِمَاجِي ...

وَكَلِمَتُهُ اسْتَخْرَجَ مَا عِنْدَهُ ؛ فَإِذَا هُوَ فِي قَوْمِهِ وَتَارِيخِ قَوْمِهِ كَالسَّائِحِ فِي بِلَادٍ أجنبيَّةٍ : يَفْتَحُ لَهَا عَيْنَهُ وَلَا يَفْتَحُ لَهَا قَلْبَهُ .

\* \* \*

وَكَانَ جَرِينًا فِي كَلَامِهِ مَعَ الْبَاشَا ؛ يَطْرُدُ الْقَوْلَ حَيْثُ شَاءَ حَقًّا وَبَاطِلًا ، ثُمَّ لَا سِنَادَ لِرَأْيِهِ وَلَا تَثْبِيتَ لِحُجَّتِهِ إِلَّا قَوْلَ فُلَانٍ وَرَأْيَ فُلَانٍ ، كَانَ فِي رَأْسِهِ عَقْلًا شَخَاذًا ... ثُمَّ ذَكَرَ آخِرَ الْأَمْرِ مَا جَاءَ لَهُ ، فَحَجَلَهُ الْبَاشَا وَقَالَ : هَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَكُلِّ مَسْأَلَةٍ : تَحْتَاجُ إِلَى رَأْيِ فَيْلَسُوفٍ أَوْ رَبِّي ... وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَدْخُلْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ .

وَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ الْبَاشَا : يَحْسَبُ هَذَا نَفْسَهُ عَالِمًا ، وَهُوَ صُغْلُوكُ عِلْمِي ... وَإِنَّمَا

يَكُونُ دِمَاجُهُ وَأَذِمَّةُ أَمْثَالِهِ عِنْدَ الْفَلَّاسِفَةِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَهُمْ كَمَا تَكُونُ سَلَّةُ الْمُهْمَلَاتِ عِنْدَ الصَّحَافِيِّينَ .

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَتِمُّ صُغْفَ عَقْلِهِ فِي الرَّأْيِ بِقُوَّةِ عِنَادِهِ فِيهِ ، لِيَجْعَلَ لَهُ ثَبَاتَ الْحَقِيقَةِ فَيُظَلِّحُ حَقِيقَةً ، كَانَ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ بِالْيَدِ فِي وَعَاءٍ صَغِيرٍ يَنْقُلُ إِلَى هَذَا الْوِعَاءِ طَبِيعَةَ الْمَوْجِ ؛ وَعِنْدَ أَمْثَالِ هَذَا الْمَفْتُونِ مِنَ الصَّعَالِيكِ الْعِلْمِيِّينَ ، أُنْكَ إِذَا تَنَاوَلْتَ مَسْأَلَةً فَأَخْطَأْتَ فِيهَا خَطَأً جَرِينًا ، فَقَدْ جَعَلْتَهَا بِخَطْبِكَ الْجَرِيِّ مَسْأَلَةً مِنَ الْعِلْمِ ... وَإِنَّكَ إِذَا عَانَدْتَ فَتَبَّتِ الْخَطَأُ فِي وَجْهِ الثَّاقِدِينَ سَنَةً ، كَانَ حَقِيقَةً مُدَّةَ سَنَةٍ ...

هُمْ مَفْتُونُونَ رَائِعُونَ ، وَمِنْ فِتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْبُعْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْفَضَائِلِ الشَّرْقِيَّةِ ، كَالْبُعْدِ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْبَاهِلِ ؛ وَلَوْ حَقَّقُوا لَرَأَوْهُ بُعْدًا فِي الْفَرَائِضِ لَا فِي الْعُقُلِ ، أَيْ كَالْبُعْدِ بَيْنَ الْفُجُورِ وَمَا أَشَبَهُ الْفُجُورَ ، وَبَيْنَ التَّقْوَى وَمَا أَشَبَهُ التَّقْوَى .

زَعَمَ الْأَحْمَقُ أَنَّ خُصْمَهُ الْفَلَاحَ رَجُلٌ رَاسِخٌ فِي الْمَاضِي ، كَأَنَّهُ بَاقٍ فِي أَمْسٍ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ ؛ مَعَ أَنَّ أَمْسَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْأُمَّةَ يَجِبُ أَنْ تَنْبَذَ مَاضِيَهَا ، ثُمَّ ادَّعَى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَتَعَصَّبُ لِلْمَاضِي . هَذِهِ ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ تَخْرُجُ مِنْهَا الرَّابِعَةُ الَّتِي سَكَتَ عَنْهَا ... (١)

وَأَنَا لَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْخَرَ مِنْ مِثْلِ هَذَا الصُّغْلُوكِ الْعِلْمِيِّ ، لَمَّا وَجَدْتُ فِي أَسَالِيبِ الشُّخْرِيَةِ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْهِ بِقَارُورَةٍ فَارِغَةٍ وَأَقُولَ لَهُ : أَمْلَأْهَا لِي مِنْ آرَاءِ الْفَلَّاسِفَةِ ...

يَغْفُلُ هَذَا وَأَمْثَالُهُ عَنْ أَنَّ الَّذِينَ الْإِسْلَامِيَّ لَا يَعْرِفُ الْمَاضِيَّ بِمَعْنَى مَا مَضَى عَلَى إِطْلَاقِهِ ؛ بَلْ هُوَ يَشْتَرِطُ فِيهِ أَلَّا يَخَالِفَ الْعَقْلَ وَلَا الْعِلْمَ ، وَأَلَّا يَنْقَاصَ الْهِدَايَةَ ؛ ﴿ قَالُوا بَلْ نَنْبِيعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ سَبَقًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ ﴿ ٢١ سورة البقرة / الآية : ١٧٠ ﴾ وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سَبَقًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ ﴿ ٢٢ سورة المائدة / الآية : ١٠٤ ﴾ وَفِي الثَّالِثَةِ : ﴿ قَالُوا بَلْ نَنْبِيعُ مَا وَجَدْنَا

(١) الرَّابِعَةُ الَّتِي يَسْتَلْزِمُهَا هَذَا السِّيَاقُ الْمُنْطَلِقِي : هِيَ تَجَرُّدُ الْأُمَّةِ مِنَ الدِّينِ ، وَذَلِكَ مَا يَعْمَلُ لَهُ بَعْضُ الصَّعَالِيكِ الْعِلْمِيِّينَ .

عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولُو سَكَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ؟ ﴿٣١﴾ سورة لقمان/ الآية : ٢١ ] وفي الرَّابِعَةِ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَانْدِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ قُلْ أُولُو جُنُودٍ مَّأْتَدَى وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ؟ ﴿٣٣﴾ سورة الزخرف/ الآيات : ٢٣ و ٢٤ .

فَانْظُرْ كَيْفَ صَوَّرَ مَا نُسَمِّيهِ الْيَوْمَ بِالْجُمُودِ فِي قَوْلِهِ : (حَسْبُنَا) ، وَكَيْفَ صَوَّرَ مَا نُسَمِّيهِ بِالرَّجِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : (نَتَّبِعُ) ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ رَفَضَ الْجُمُودَ وَالرَّجِيَّةَ مَعًا فِي الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْهِدَايَةِ ، أَيْ : فِي آثَارِهَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ وَالْفَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَيْفَ أَبْطَلَ فِي تِلْكَ الثَّلَاثِ الْأَخْتِجَاجَ بِالْمَاضِي بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الدَّقِيقِ الْعَالِي ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي كُلِّ آيَةٍ : أُولُو ، أُولُو . لَمْ يُعَيِّرْهَا ؛ بَلْ كَرَّرَهَا بِلَفْظِهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ .

فَالْمُعْجِزُ هُنَا مَجِيءُ آيَاتِ بَهْدِهِ الصُّورَةِ الْمُنَظَّفَةِ لِإِسْقَاطِ حُجَّتِهِمْ ، وَتَنْفِي مَعْنَى التَّفْدِيسِ عَنِ الْمَاضِي فِيهِمْ ؛ إِذْ كَانَ الْعِلْمُ دَائِمَ التَّغْيِيرِ ، وَكَانَ الْعَقْلُ دَائِمَ التَّجَدُّدِ وَالْإِبْدَاعِ ، وَكَانَتِ الْهِدَايَةُ شَدِيدَةً عَلَى الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَاضِي النَّفْسِ ؛ فَكَانَتْهَا جَدِيدَةً عَلَى النَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ شَهْوَةٍ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ بِمَاضِيهِ وَحَاضِرِهِ كَأَنَّهُ مَقْسُومٌ قِسْمَيْنِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا : أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ . وَيَقُولُ الْآخَرُ : أَنَا قَدْ كُنْتُ . فَالْإِسْلَامُ بِهَذِهِ آيَاتِهِ قَدْ أَوْجَبَ وَزَنَ الْكَلِمَتَيْنِ فِي كُلِّ زَمَنٍ بِمَا هُوَ الْأَصَحُّ ، وَبِمَا هُوَ الْأَنْفَعُ ، وَبِمَا هُوَ الْأَهْدَى ؛ وَبِاسْتِزَاطِهِ الْهِدَايَةَ فِي جَمِيعِهَا أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْكَمَالَ النَّفْسِيَّ لِلْفَرْدِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُرْتَبِطًا بِالْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ لِلْجِنْسِ .

وَهَذَا مَعْنَى عَجِيبٍ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ مَا تَرَى مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَصْلَحَ فِكْرَةَ الْمَاضِي ؛ فَفَقَلَّهَا مِنْ مَعْنَى الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ لِلنَّاسِ ، إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ كَالْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاسِ . وَالْأَخَذُ (بِالْأَهْدَى) فِي أَجْتِمَاعِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، إِنَّمَا هُوَ بِعَيْنِهِ نَامُوسُ التَّرَقِّيِّ وَالْتَّطَوُّرِ .

وَمِنْ أَدَقِّ الْأَسْرَارِ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ ﴿٤٣﴾ سورة الزخرف/ الآية : ٢٢ و ٢٣ . فَكَلِمَةُ (أُمَّةٍ) هَذِهِ لَمْ يَعْرِفْهَا أَحَدٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَلَمْ تُفَسِّرْهَا إِلَّا عُلُومُ هَذَا الزَّمَنِ ، فِيهِ الْمَشَاعِرُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا مِرَاجُ الشَّعْبِ ، وَفِيهَا يَسْتَقِرُّ الْمَاضِي ؛ كَانَ

الْآيَةُ قَدْ عَبَّرَتْ بِأَخْرِ مَا أَتَتْهُ إِلَى عُلَمَاءِ النَّفْسِ : مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ أَبَوَيْهِ وَأَبْنُ شَعْبِهِ أَيْضًا .

فَالْتَّعَصُّبُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ لِلْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَلِلْمَجْدِ الصَّحِيحِ ، وَلِلْهِدَايَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْكَمَالِ ؛ وَتَعَصُّبُ الْجَبِلِ لِمِثْلِ هَذَا فِي مَاضِيهِ ، هُوَ فِي اسْمِهِ تَعَصُّبٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ الْعَمَلُ لِتَسْلِيمِ مَجْدِ الْأُمَّةِ إِلَى الْجَبِلِ الْتَّالِي .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٨

### الْمُعْجَمُ السِّيَاسِيُّ (\*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا قَالَ : كُنَّا فِي سَنَةِ ١٩٢٠ ، وَهِيَ بِنْتُ سَنَةِ ١٩١٩ (١) ، وَقَدْ اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى مُقَاطَعَةِ لَجَنَةِ مِلْنَرِ (٢) Milner لَا تُكَلِّمُهَا ، فَجَعَلَتِ السُّكُوتَ ثَوْرَةً ، وَأَعْلَنَ الشَّعْبُ أَنَّ كَلِمَتَهُ فِي لِسَانِ الْوَفْدِ يَنْطِقُ الْوَفْدُ بِهَا نَطْقَ النَّبِيِّ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ، فَمَا يَكُونُ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ أَنْ يَقُولَهَا ، وَلَا أَنْ يَقُولَ أُوحِيَ إِلَيَّ . وَأَبَى الْوَفْدُ مِلْنَرِ Milner أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ لِلْمُضَرِّيِّينَ إِجْمَاعًا يُعْتَدُّ بِهِ ، وَأَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي السِّيَاسَةِ دُخُولًا ثَابِتًا فَرَسَخُوا فِيهَا ، وَأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا مَعَ الْإِنْكِلِيلِ كَالْإِنْكِلِيلِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَثَلِهِمُ السَّائِرِ : يَنْبَغِي أَنْ نَكُونَ أَحْرَارًا مِثْلَ أَعْمَالِنَا .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٦٩ ، ١٢ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٨ سبتمبر/أيلول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٥٦١ - ١٥٦٣ .

(١) سَنَةُ الثَّوْرَةِ الْمُضَرِّيَّةِ ، وَقَدْ مَرَّ وَصْفُهَا فِي مَقَالَةٍ « الْأَخْلَاقُ الْمُحَارِبَةُ » .

(٢) هو ألفريد ملنر Alfred Milner (١٨٥٤ - ١٩٢٥ م) سياسي بريطاني ، رَأَسَ لَجَنَةَ بِاسْمِهِ .



وَرَعَمَ اللُّورْدُ لِنَفْسِهِ ، أَنَّ هَذِهِ الْأَحْزَابَ الْمِصْرِيَّةَ لَا يَتَّفِقُ مِنْهَا أَثْنَانِ أَبَدًا إِلَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ثَالِثٌ يَخْتَلِفَانِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الطَّمَعُ فِي مَنَاصِبِ الْحُكْمِ ؛ وَاسْتُخْرِجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرِيَّ وَالْمِصْرِيَّ كَيْفَئِي الْمِغْرَاضِ : لَا يَتَحَرَّكَانِ فِي عَمَلٍ إِلَّا عَلَى تَمَرِّيقِ شَيْءٍ بَيْنَهُمَا ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا (الشَّيْءُ) لَمْ يَكُنْ مِنْهُمَا شَيْءٌ .

وَدَهَبَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ وَيَخْدِسُ عَلَى مَا يُخَيِّلُ لَهُ الظُّرُّ ، وَقَدْ حَسِبَ أَنَّ إِنْكَلَبَةَ يَحِقُّ لَهَا أَنْ تَقُولَ فِي الْمِصْرِيِّينَ مَا يَقُولُ اللَّهُ فِي خَلْقِهِ كَمَا وَرَدَ فِي الْأَثَرِ : « إِنَّمَا يَتَقَلَّبُونَ فِي قَبَضَتِي » . وَكَمَا تَقُولُ الْيَوْمَ لِأَهْلِ فِلِسْطِينَ مِنَ الْعَرَبِ : « إِنْ يَسَأُ بِذِهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » [١٤ سورة إبراهيم/ الآية : ١٩ و ٣٥ سورة فاطر/ الآية : ١٦] . . . . . وَكَانَ اللُّورْدُ هَذَا رَجُلًا مُمَارِسًا لِمَسَاكِلِ السِّيَاسَةِ ، دَخَلَا فِيهَا ، دَاهِيَةً مِنْ دُهَاهِ الْقَوْمِ ، لَهُ فِي قَلْبِهِ عَيْنَانِ وَأُذُنَانِ غَيْرُ مَا فِي وَجْهِهِ كَخُذَاقِ السِّيَاسِيِّينَ ؛ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ سِيَاسَةَ قَوْمِهِ لَا تَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا دُخُولَ الْإِثْرَةِ بِخَيْطِهَا فِي الثُّوبِ ، إِنْ خَرَجَتْ هِيَ تَرَكَّتِ الْخَيْطُ وَقَدْ جَمَعَ وَشَدَّ . . . . . فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَحِجَ مَذْهَبَ الْمِصْرِيِّينَ فِي إِجْمَاعِهِمْ عَلَى الْأَسْتِقْلَالِ ، وَقَدَّرَ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَلَاحِينَ عَوْنًا لَهُ وَمَادَّةً لِمَكْرِهِ السِّيَاسِيِّ ، وَحَسِبَ الْوَفْدَ صُورَةَ جَدِيدَةٍ مِنْ طَبَقَةِ (الْبَاشَوَاتِ) الْقَدِيمَةِ ، يَنْزِلُونَ مِنَ الشَّعْبِ مَنْزِلَةَ الْبَيْدِ الَّتِي تُنْسِكُ الْقَيْدَ ، مِنَ الرَّجُلِ الَّتِي فِيهَا الْقَيْدُ ، وَيَضَعُونَ مَعْنَى كَلِمَةِ الْحَاجَةِ فِي كَلِمَةِ السِّيَاسَةِ ، وَيَقُولُونَ : الْوَطَنُ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ الْجَاهَ ، وَيُقِيمُونَ الشَّعْبَ كَالسُّلَمِ يَنْتَصِبُ قَائِمًا بِأَيْدِيهِمْ لِيَحْمِلَ أَرْجُلُهُمُ الصَّاعِدَةَ عَلَيْهِ .

فَجَاءَ اللُّورْدُ إِلَى مِصْرَ ، فَوَجَدَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا قَدْ حَدِرَتْ مِنْهُ وَتَقَيَّقَتْ لَهُ ، حَتَّى نَصَحَهُ رُشْدِي بَاشَا بِأَنَّهُ لَنْ يَجِدَ فِي مِصْرَ هَرَّةَ تَفَاوُضَ ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ مُسْتَعِيفًا أَنَّ أَذُنَ السِّيَاسَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ (كَالرَّادِيُو) لِصَوْتَيْنِ : صَوْتِ الدَّيَانِيرِ وَصَوْتِ الْجَمَاهِيرِ ، فَمَرَّ فِي الْبِلَادِ بِرِسْمٍ عَلَى الْهَوَاءِ عِلَامَاتٍ اسْتَفْهَامَ ، وَأَنْصَفَقَ عَنْهُ النَّاسُ وَأَهْمَلُوهُ ، وَكَانَ يَسِيرُ فِي دَائِرَةِ الصَّمْتِ الَّتِي مَرَّكَهَا أَبُو الْهَوَلِ ، فَبَدَأَ وَظَلَّ يَبْدَأُ حَتَّى أَتَتْهُ وَمَا زَالَ يَبْدَأُ . . . . . وَسَاحَ فِي الْبِلَادِ سِبَاحَةً طَوِيلَةً ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسَافِرْ إِلَّا مِنْ شَفَةِ أَبِي الْهَوَلِ السُّفْلَى إِلَى شَفَةِ الْعُلْيَا . . . . .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَجَاءَ اللُّورْدُ لِمُقَابَلَةِ الْبَاشَا ، فَمَرَّ عَلَى مُرُورِ كِتَابٍ مُقْفَلٍ : لَا أَعْرِفُ مِنْهُ إِلَّا الْعُنْوَانَ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ رَجُلٌ بِمِقْدَارِ الرَّجُلِ الَّذِي يُخَالِفُ أُمَّةَ كَامِلَةً تَكَادُ تَحْسِبُهُ مَطْوِيًّا عَلَى زَوْبَعَةٍ ، وَتَرَى لَهُ قُوَّتَيْنِ تُحِسُّ مِنْ أَثَرِهِمَا الرَّهْبَةَ وَالْإِعْجَابَ ، وَإِذَا تَأَمَّلْتُهُ قُلْتُ : إِنَّ اللَّطْفَ وَالظَّرْفَ أَضْعَفُ شَمَائِلِهِ ، وَإِنَّ الدَّهَاءَ وَالْحِيلَةَ أَقْوَى مَوَاهِبِهِ .

فَلَمَّا لَقِيتُ الْبَاشَا مِنَ الْغَدِ ، سَأَلْتَنِي : كَيْفَ رَأَيْتَ اللُّورْدَ مِلْتَرُ Milner ؟ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ يَا بَاشَا إِنَّهُ كَالضَّرُورَةِ ، مَا يَتَمَتَّأُهَا أَحَدٌ وَلَكِنَّهَا تَجِيءُ . . . . .

فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : يَا لَيْتَ لَنَا نَحْنُ الشَّرِيفِينَ { كُلَّ يَوْمٍ } ضَرُورَةٌ تَصْنَعُ مَا صَنَعَ اللُّورْدُ ؛ إِنَّهُ كَشَفَ لَنَا فِي ذَاتِ أَنْفُسِنَا عَنْ حَقِيقَةِ مَنْ أَسْمَى الْحَقَائِقِ السِّيَاسِيَّةِ : وَهِيَ أَنَّ الشَّعْبَ الَّذِي يُصِرُّ وَلَا يَزَالُ يُصِرُّ ، يَجْعَلُ الْأَغْوَاءَ لَا يُغْرِئِي وَالْخَوْفَ لَا يُخَيِّفُ .

وَيَا لَيْتَ الْأُمَمَ الشَّرِيفَةَ تَتَعَلَّمُ هَذَا الصَّمْتِ السِّيَاسِيِّ عَنْ مُجَابَوَةِ الْكَلِمَةِ الْأَسْتِعْمَارِيَّةِ أَخِيَانًا ؛ فَإِنَّ صَمْتَ الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ عَنْ جَوَابِ (مِلْتَرُ Milner) ، كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ قُدْرَةَ الْأُمَّةِ هِيَ الْمُتَكَلِّمَةُ كَلَامَهَا بِهِذَا الصَّمْتِ ، تَعْلُنُ لِلْعَالَمِ أَنَّ الْوَاجِبَ الشَّعْبِيَّ قَدْ وَضَعَ قَفْلَهُ عَلَى كُلِّ قَمٍ .

وَقَدْ فَسَّرَ اللُّورْدُ هَذَا الشُّكُوتَ بِتَفْسِيرِهِ السِّيَاسِيِّ ، فَأَذْرَكَ مِنْهُ أَنَّ فِي الشَّعْبِ أَنْفَةً وَحِمِيَّةً وَقُوَّةً ، وَأَنَّ حِسَابَ الضَّمِيرِ الْوَطَنِيِّ أَصْبَحَ لِهَذِهِ الْأَفْنَةِ كَالْحِسَابِ الْإِلَهِيِّ لِلنُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ : كِلَاهُمَا مُسْتَعْلِنٌ يُخَافُ وَيَتَّقَى ، وَكِلاهُمَا لَهُ كَلِمَةٌ مُحَرَّمَةٌ .

أَيَّةُ مُعْجِزَةٍ هَذِهِ الَّتِي جَعَلَتْ كَلِمَةَ الْأَجْنَبِيِّ تَتَّخِذُ فِي أَذْهَانِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ شَكْلَ قَائِلِهَا ، فَاجْتَمَعَتْ لَهَا الْبِلَادُ<sup>(١)</sup> عَلَى مَعْنَى الرَّفْضِ ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرْدٍ يَعْرِفُ مَحَلَّهُ مِنَ الْكُلِّ ، وَخَضَعَتِ الطَّبَائِعُ بِجُمْلَتِهَا لِقَانُونِ الْعِزَّةِ الْقَوْمِيَّةِ ، الَّذِي يُلْزِمُهَا أَلَّا تَخْضَعَ لِلْأَجْنَبِيِّ ؟

إِنَّ الْأُمَمَ بَعْضُ مَسَائِلِ نَفْسِيَّةِ كَهَلِهِ الْمَسْأَلَةِ ؛ فَلَوْ أَنَّ لَنَا خَمْسَةَ دُرُوسٍ سِيَاسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْجُلُودُ » بِذَلَا مِنْ : « الْبِلَادُ » .

كَدَرَسِ (مِلنر Milner) ، لَكَانَتْ لَنَا فِي الْإِيمَانِ الْوَطَنِيِّ كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ .

وَالآنَ تَعَلَّمَتِ الْأُمَّةُ أَنَّ الشَّعْبَ الْعَزِيزَ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي فَضِّ مَشَاكِلِهِ إِلَى الْحَلِّ وَإِلَى طَرِيقَةِ الْحَلِّ أَيْضًا ، وَقَدْ كَانَ (مِلنر Milner) هُوَ أَوَّلُ أَسَانِدَتِنَا فِي تَعْلِيمِنَا الطَّرِيقَةَ .

وَهَذَا الدَّرْسُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَرَسًا لِلشَّرْقِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ السِّيَاسَةَ الْأَسْتِعْمَارِيَّةَ قَائِمَةٌ فِيهِ عَلَى خِدَاعِ الطَّرِيقَةِ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ ، فَيُحْلُونَهَا وَيَعْقِدُونَهَا فِي نَصِّ وَاحِدٍ ؛ وَيُثَبِّتُ الْكَلَامُ الَّذِي يَفْقَهُونَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ زَوَالُ الْخِلَافِ ، وَيُثَبِّتُ الْعَمَلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ كَانَ زَوَالُ الْمُقَاوِمَةِ .

وَفِي السِّيَاسَةِ الْأُورُوبِيَّةِ مُوَافَقَاتٌ دَمِيمَةٌ كَالنِّسَاءِ الْمَشُوهَاتِ ، فَإِذَا عَرَضُوا وَاحِدَةً مِنْهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَزَوِّجُوهُ ... فَأَبَاهَا وَفَتَحَ لَهَا عَيْنَيْهِ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ الْإِنْبَارِ ، أَعْفَوْهُ مِنْهَا وَقَالُوا لَهُ : سَنَأْتِيكَ بِالْجَمِيلَةِ ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ بِهَا إِلَى مَعْهَدِ التَّجْمِيلِ اللَّغَوِيِّ ، فَيَضَعُونَهَا وَيَضْعِفُونَهَا ، وَيَضْعِفُونَ لَهَا أَحْمَرَ السِّيَاسَةِ وَأَبْيَضَهَا ، ثُمَّ يَغْرِضُونَهَا جَدِيدَةً عَلَى صَاحِبِيهِمْ ذَلِكَ ، وَمَا صَنَعُوا مَا بِهِ صَارَتِ الدَّمِيمَةُ غَيْرَ دَمِيمَةٍ ، وَلَكِنْ مَا بِهِ رَجَعَ غَيْرُ الْأَعْمَى كَالْأَعْمَى .

وَلَهُمْ عُقُولٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِرَاعِ الْأَلْفَافِ ، حَتَّى لَتَكُونَ شِدَّةُ الْوُضُوحِ فِي عِبَارَةٍ ، هِيَ بِعَيْنِهَا الطَّرِيقَةُ لِإِخْفَاءِ الْغُمُوضِ فِي عِبَارَةٍ أُخْرَى . وَكثيرًا مَا يَأْتُونَ بِالْأَلْفَافِ مُتَفَحِّحَةً تُحَسِّبُ جَزَلَةً بَادِنَةً قَدْ مَلَأَهَا مَعْنَاهَا ، وَهِيَ فِي السِّيَاسَةِ أَلْفَافٌ خُبَالَى ، تَسْتَكْمِلُ حَمَلَهَا مُدَّةً ثُمَّ تَلِدُ ...

وَلَهُمْ مِنْ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، كَمَا لَهُمْ مِنْ بَعْضِ الرِّجَالِ السِّيَاسِيِّينَ ؛ فَيَكُونُ الرَّجُلُ مِنْ دُهَاتِهِمْ رَجُلًا كَالنَّاسِ ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ مِسْمَارٌ دَقُّهُ فِي أَرْضٍ كَذَا أَوْ مَمْلَكَةٍ كَذَا ، وَيَكُونُ اللَّفْظُ لَفْظًا كَاللَّغَةِ ، وَهُوَ مِسْمَارٌ دَقُّهُ فِي وَثِيقَةٍ أَوْ مَعَاهَدَةٍ .

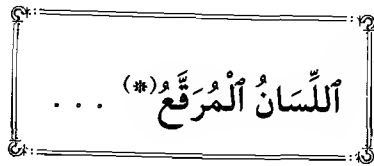
ثُمَّ ضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : إِنْ أَرْضَنَا تُخْرِجُ الْفُطْنَ ، وَسِيَاسَتُنَا تُخْرِجُ الْفَافَا كَالْفُطْنِ :

لَا تُؤْضَعُ فِي الْمِغْزَلِ إِلَّا مَدَّتْ وَتَحَوَّلَتْ<sup>(١)</sup> . وَإِذَا ذَهَبْنَا نُخَالِفُهُمْ فِي التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ ، لَمْ نَجِدْ عِنْدَنَا الْمُعْجَمَ السِّيَاسِيَّ الَّذِي يُمْلِي النَّصَّ . أَتَذَرِي يَا بَنِي مَا هُوَ الْمُعْجَمُ السِّيَاسِيُّ ؟  
أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ كِتَابًا يَتَأَلَّفُ مِنْ مِلْيُونِ كَلِمَةٍ ، لَذَهَبَتْ كُلُّهَا عَبَثًا وَبَاطِلًا وَهَرَاءً ، وَلَكِنَّهُ ذَلِكَ الْمُعْجَمُ الْحَيُّ ، ذَلِكَ الْمُعْجَمُ الَّذِي يَتَأَلَّفُ مِنْ مِلْيُونِ جُنْدِيٍّ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٩



وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : جَاءَ « حَضْرَةُ صَاحِبِ السَّعَادَةِ » فَلَانَ لِرِيزَارَةِ الْبَاشَا ؛ وَهُوَ رَجُلٌ مِصْرِيٌّ وُلِدَ فِي بَغْضِ الْقُرَى ، مَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) مَيَّزَهُ بِجَوْهَرٍ غَيْرِ الْجَوْهَرِ ، وَلَا طَبْعٍ غَيْرِ الطَّبْعِ ، وَلَا تَرْكِيبٍ غَيْرِ التَّرْكِيبِ ، وَلَا زَادَ فِي دَمِهِ نُقْطَةً زَهْوٍ ، وَلَا وَضَعَهُ مَوْضِعَ الْوَسْطِ بَيْنَ فَتْنَيْنِ مِنَ الْخَلْقَةِ . غَيْرَ أَنَّهُ زَارَ قَرْسَةَ ، وَطَافَ بِإِنْكَلَرَةِ ، وَسَاحَ فِي إِيْطَالِيَةِ ، وَعَاجَ عَلَى أَلْمَانِيَةِ ، وَلَوَّنَ نَفْسَهُ الْوَانَا ، فَهُوَ مِصْرِيٌّ مُلَوَّنٌ . وَمِنْ ثَمَّ كَانَ لَا يَرَى فِي بِلَادِهِ وَقَوْمِهِ إِلَّا الْفُرُوقَ بَيْنَ مَا هُنَا وَبَيْنَ مَا هُنَاكَ ، فَمَا يَظْهَرُ لَهُ دِينَ قَوْمِهِ إِلَّا مُقَابِلًا لِشَهَوَاتِ أَحْبَبَهَا وَغَامَرَ فِيهَا ، وَلَا لُغَةَ قَوْمِهِ إِلَّا مَقْرُونَةً بِلُغَةٍ أُخْرَى وَدَّ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَا تَارِيخَ قَوْمِهِ إِلَّا مُغْمَى عَلَيْهِ ... كَالْمَيِّتِ بَيْنَ تَوَارِيخِ الْأُمَمِ .

(١) [ لا يَنْسُ الْفَارِثِيُّ أَنَّ هَذَا كَانَ فِي سَنَةِ ١٩٢٠ م ] .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨١ ، ٧ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ٢١ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٢٠٦١ - ٢٠٦٣ .

هُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَرْفِينَ الْمُتَنَعِّمِينَ : مِصْرِي الْمَالِ فَقَطْ ، إِذْ كَانَتْ أَسْبَابُهُمْ وَمُسْتَعْلَاثُهُمْ فِي مِصْرَ ؛ عَرَبِي الْأِسْمِ لَا غَيْرَ ، إِذْ كَانَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مِنْ جِنَايَةِ أَهْلِيهِمْ بِالطَّبِيعَةِ ؛ مُسْلِمٌ مَا مَضَى دُونَ مَا هُوَ حَاضِرٌ ، إِذْ كَانَ لَا حِيلَةَ فِي أُنْسَابِهِمُ الَّتِي أَنْحَدَرُوا مِنْهَا .

هُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَرْفِينَ الْمُتَنَعِّمِينَ الْمُفْتُونِينَ بِالْمَدِينَةِ : لِكُلِّ مِنْهُمْ جِنْسُهُ الْمِصْرِيُّ وَلِفِكْرِهْ جِنْسٌ آخَرٌ .

قَالَ : وَكَانَ حَضْرَةُ صَاحِبِ السَّعَادَةِ يُكَلِّمُ الْبَاشَا بِالْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَلْعُهَا الْعَرَبِيَّةُ ، مُزْتَفَعًا بِهَا عَنْ لُغَةِ الْفَصِيحِ ارْتِفَاعًا مُنْحَطًا ... نَازِلًا بِهَا عَنْ لُغَةِ السُّوْفَةِ نَزُولًا عَالِيًا ... فَكَانَ يَرْتَضِيهِ لَكِنَّهُ أَعْجَبِيَّةٌ ، بَيْنَا هِيَ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ جَرَسٌ عَالٍ يَطْنُ ، إِذَا هِيَ فِي لَفْظٍ آخَرَ صَوْتُ مَرِيضٍ يَزِنُ ، إِذَا هِيَ فِي كَلِمَةٍ ثَالِثَةٍ نَعَمٌ مُوسِقِيٌّ يَرِنُ . وَرَأَيْتُهُ يَتَكَلَّفُ نِسْيَانَ بَعْضِ الْجَمَلِ الْعَرَبِيِّ لِيَلْوِي لِسَانَهُ بِغَيْرِهَا مِنَ الْفَرَنَسِيَّةِ ، لَا تَطْرُقًا وَلَا تَمَلِّحًا وَلَا إِظْهَارًا لِقُدْرَةِ أَوْ عِلْمِ ، وَلَكِنْ اسْتِجَابَةً لِلشُّعُورِ الْأَجْنِبِيِّ الْخَفِيِّ الْمُمْتَكِنِ فِي نَفْسِهِ . فَكَانَتْ وَطَنِيَّةٌ عَقْلِهِ تَأْتِي إِلَّا أَنْ تُكَذِّبَ وَطَنِيَّةُ لِسَانِهِ ، وَهُوَ بِإِخْدَاهِمَا زَانِفٌ عَلَى قَوْمِهِ ، وَبِالْآخَرَى زَانِفٌ عَلَى غَيْرِ قَوْمِهِ .

\* \* \*

فَلَمَّا أَنْصَرَفَ الرَّجُلُ قَالَ الْبَاشَا : أَفْ لِهَذَا وَأَمْثَالِ هَذَا ! أَفْ لَهُمْ وَلِمَا يَصْنَعُونَ ! إِنَّ هَذَا الْكَبِيرَ يُلْقِبُونَهُ « حَضْرَةُ صَاحِبِ السَّعَادَةِ » ، وَلَاشْرَفُ مِنْهُ وَاللَّهُ رَجُلٌ قَرَوِيٌّ سَادَجٌ يَكُونُ لِقَبِّهِ « حَضْرَةُ صَاحِبِ الْجَامُوسَةِ » ... نَعَمْ إِنَّ الْفَلَاحَ عِنْدَنَا جَاهِلٌ عِلْمٌ ، وَلَكِنْ هَذَا أَقْبَحُ مِنْهُ جَهْلًا ، فَإِنَّهُ جَاهِلٌ وَطَنِيَّةٌ .

ثُمَّ إِنَّ الْجَامُوسَةَ وَصَاحِبَهَا عَامِلَانِ دَائِبَانِ مُخْلِصَانِ لِلْوَطَنِ ؛ فَمَا هُوَ عَمَلُ حَضْرَةِ (صَاحِبِ اللَّسَانِ الْمُرْفَعِ) هَذَا ؟ إِنَّ عَمَلَهُ أَنْ يُعْلِنَ بَرَطَانِيَّةَ الْأَجْنَبِيَّةِ أَنَّ لُغَةً وَطَنِيَّةً ذَلِيلَةٌ مَهِينَةٌ ، وَأَنَّهُ مُتَجَرِّدٌ مِنَ الرُّوحِ السِّيَاسِيِّ لِلُّغَةِ قَوْمِهِ ؛ إِذْ لَا يَظْهَرُ الرُّوحُ السِّيَاسِيُّ لِلُّغَةِ مَا ، إِلَّا فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا وَتَقْدِيرِهَا عَلَى سِوَاهَا .

كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى مِثْلِ هَذَا أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي بِلَادِهِ إِلَّا بِلُغَتِهِ ، وَكَانَ الَّذِي هُوَ أَوْجِبُ أَنْ يَتَعَصَّبَ لَهَا عَلَى كُلِّ لُغَةٍ تَرَاخَمَهَا فِي أَرْضِهَا ، فَتَرَكَ هَذَا وَهَذَا وَكَانَ هُوَ الْمُرَاحِمُ بِنَفْسِهِ ؛ فَهُوَ عَلَى أَنَّهُ « حَضْرَةُ صَاحِبِ سَعَادَةٍ » ، لَا يُثِرِلُ نَفْسَهُ مِنَ اللُّغَةِ الْقَوْمِيَّةِ إِلَّا مَثَرَةَ خَادِمٍ أَجْنَبِيٍّ فِي حَانَةٍ .

أَتَذَرِنِي مَا هُوَ سِرُّ هَؤُلَاءِ الْكُبَرَاءِ وَهَؤُلَاءِ السَّرَاةِ الَّذِينَ يُطْمِطِئُونَ إِذَا تَكَلَّمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ؟ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا طَبَقَاتٌ :

أَمَّا وَاحِدَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَصْنَعُونَ هَذَا الصَّنِيعَ مُنْجِدِينَ إِلَى أَصْلِ رَاسِخٍ فِي طَبَاعِهِمْ ، مِمَّا تَرَكَهُ الظُّلْمُ وَالْاِسْتِبدَادُ وَالْخُمُوفُ فِي زَمَنِ الْحُكْمِ التُّرْكِيِّ ؛ فَهُمْ يُبْذُونَ جَوْهَرَ نَفْسِهِمْ لِأَعْيُنِهِمْ وَأَعْيُنِ النَّاسِ ، كَأَنَّ اللُّغَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَامَةٌ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ وَاحْتِقَارِ الشَّعْبِ وَاسْتِمْرَارِ ذَلِكَ الْخُمُوفِ فِي الدِّمِّ ... وَهُمْ بِهَا يَتَبَلَّوْنَ .

وَأَمَّا طَبَقَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّفُونَ هَذَا مِمَّا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ طَبَاقِ أَخَذَتِهَا التَّفَاقُ وَالْخُضُوعُ وَالذُّلُّ السِّيَاسِيُّ فِي عَهْدِ الْاِخْتِلَالِ الْإِنْكِلَابِيِّ ؛ فَاللُّغَةُ الْأَجْنَبِيَّةُ بَيْنَهُمْ تَشْرِيفٌ وَاعْتِبَارٌ ، كَأَنَّهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِ الشَّعْبِ الْمَحْكُومِ الَّذِي فَقَدَ السُّلْطَةَ ، وَهُمْ بِهَا يَتَمَجَّدُونَ .

وَأَمَّا جَمَاعَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَتَعَمَّدُونَ هَذَا يُرِيدُونَ بِهِ عَيْبَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَهْجِينَهَا ، إِذْ اتَّخَذُوا مِنْ عِدَاوَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ طَرِيقَةً اتَّخَلَّوْهَا وَمَذْهَبًا اتَّسَبَّوْا إِلَيْهِ ؛ وَفِيهِمُ الْعَالِمُ بِعُلُومِ أَوْرَبِيَّةٍ ، وَالْأَدِيبُ بِأَدَبِ أَوْرَبِيَّةٍ ؛ وَذَلِكَ مِنْ عِدَاوَتِهِمْ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ ، إِذْ جَعَلَ هَذِهِ اللُّغَةُ حُكُومَةً بَاقِيَةً فِي بِلَادِهِمْ مَعَ كُلِّ حُكُومَةٍ وَفَوْقَ كُلِّ حُكُومَةٍ ؛ وَهُمْ يُزْدَرُونَ هَذَا الَّذِينَ يُسْقِطُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كُلَّ وَاجِبَاتِهِ . وَهَؤُلَاءِ قَدْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، إِذْ يَغْلُونَ فِي مِصْرِيَّتِهِمْ غُلُوءًا قَبِيحًا يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى سَفَهِ الْأَرَاءِ ، وَخِيفَةِ الْأَحْلَامِ ، وَطَيْشِ الْفُرْعَاتِ ، فَيَمَّا يَتَّصِلُ بِاللَّذِينَ الْإِسْلَامِيِّ وَأَدَابِهِ وَلُغَتِهِ . وَمَا أَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِلَّا قَدْ عَطَى وَصْفَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَقِيعٌ ، عَلَى وَصْفِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَالِمٌ أَوْ أَدِيبٌ أَوْ مَا شَاءَ . إِنَّ هَذَا لَمَقْتٌ ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة غافر/ الآية : ٣٥] .

طَرِيقَةُ نَفْسِيَّةٍ فِي النَّفْسِ ؛ فَهُمْ يُفْحِمُونَ فِي كِتَابِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ الْكَلِمَاتِ الْأَجْنَبِيَّةَ ، وَيَحْسِبُونَ عَمَلَهُمْ هَذَا تَطَرُّفًا وَمُعَابَاةً وَمُجَوَّنًا ، عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ لِعَيْنِ الْبَصِيرِ مَوَاضِعَ الْقَطْعِ التَّارِيخِيِّ فِي نَفْسِهِمْ ، وَأَمَّا كَيْنَ الْفَسَادِ الْقَوْمِيِّ فِي طَبِيعَتِهِمْ ، وَجِهَاتِ التَّحَلُّلِ الدِّينِيِّ فِي أَغْتِقَادِهِمْ . هَذَا يَكْتُبُ أَحَدُهُمْ : (الْتَرَفَرَّةُ Nerve) وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يَقُولَ الْغَضَبُ ، (وَالْفَلِيرُ Flir) وَهُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَجْعَلَ فِي مَكَانِهَا الْمُغَارَلَةَ ، (وَسَكَالْتِس) وَهُوَ يَعْرِفُ لَفْظَةَ أَنْوَاعِ وَأَلْوَانِ ، وَهَكَذَا وَهَكَذَا ؛ وَلَا وَاللَّهِ أَنْ تَكُونَ الْمَسَافَةُ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ إِلَّا الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمَا بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَرُشْدِ قُلُوبِهِمْ .

وَمَا بَرَحَ التَّقْلِيدُ السَّخِيفُ لَا يَعْرِفُ لَهُ بَابًا يُلْجُ مِنْهُ إِلَى السَّخَفَاءِ إِلَّا بَابَ التَّهَاقُوتِ وَالْتِسَامِحِ ؛ وَتَحْنُ قَوْمٌ أَبْتَلَيْنَا بِتَزْوِيرِ الْعُيُوبِ عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَدَّاهَا فِي الْمَحَاسِنِ وَالْفَضَائِلِ ، مِنْ قِلَّةٍ مَا فِينَا مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ . وَبِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْمَعْكُوسَةِ نُحَاوِلُ أَنْ نَقْتَسِمَ مِنْ مَرَايَا الْأَوْرَبِيِّينَ ، فَلَا نَأْخُذُ أَكْثَرَ مَا نَأْخُذُ إِلَّا عُيُوبَهُمْ ، إِذْ كَانَتْ هِيَ الْأَسْهَلُ عَلَيْنَا ، وَهِيَ الْأَشْكَالُ بِطَبِيعَتِهَا الضَّعِيفِ الْمُتَسَامِحِ الْمُتَهَاقُوتِ .

وَمِنْ هَذَا تَجِدُ مَشَاكِلَنَا الْأَجْتِمَاعِيَّةَ - عَلَى أَنَّهَا أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ مِنْ مَشَاكِلِ الْأَوْرَبِيِّينَ ، وَعَلَى أَنَّ فِي دِينِنَا وَأَدَابِنَا لِكُلِّ مُشْكِلَةٍ حَلًّا - تَجِدُهَا هِيَ عَلَيْنَا أَصْعَبَ وَأَشَدَّ ، لِأَنَّنا ضَعَفَاءُ وَمُتَخَذِلُونَ وَمُقْلِدُونَ وَمَقْتُونُونَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ : وَهُوَ أَنَّ أَكْثَرَ كِبَرِائِنَا هُمْ أَكْبَرُ بَلَائِنَا .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : ثُمَّ صَحِحَ الْبَاشَا صُحُكَتَهُ السَّاحِرَةَ وَقَالَ : كَيْفَ تَصْنَعُ أُمَّهُ يَكُونُ أَكْثَرَ الْعَامِلِينَ هُمْ أَكْبَرُ الْعَامِلِينَ ، إِذْ يَعْمَلُونَ وَلَكِنْ بِرُوحٍ غَيْرِ عَامِلَةٍ ...

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ١٠

### سِرُّ الْقُبْعَةِ (\*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا ، قَالَ : نَجَمْتُ فِي مِصْرَ حَرَكَةً بِعَقَبِ أَيَّامِ الْبِدْعَةِ التُّرْكِيَّةِ ، حِينَ لَمْ تَبْقَ لِشَيْءٍ هُنَاكَ قَاعِدَةٌ إِلَّا الْقَاعِدَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُقَرَّرُهَا الْمَسَانِقُ ... فَمَنْ أَبَى أَنْ يَخْلَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ خَلَعُوا رَأْسَهُ ؛ وَمَنْ قَالَ : (لَا) انْقَلَبَتْ (ك) هَذِهِ مَشْتَقَّةٌ فَعُلِقَ فِيهَا .

وَكَانَتْ فِكْرَةُ اتِّخَاذِ الْقُبْعَةِ فِي تَرْكِيبَةِ غِطَاءِ لِلرَّأْسِ ، قَدْ جَاءَتْ بَعْدَ نَزْعَاتٍ مِنْ مِثْلِهَا ، كَمَا يَجِيءُ الْحِذَاءُ فِي آخِرِ مَا يَلْبَسُ الْإِنْسَانُ ، فَلَمْ يَشُكْ أَحَدٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُبْعَةً عَلَى الرَّأْسِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ طَرِيقَةُ لِتَرْبِيَةِ الرَّأْسِ الْمُسْلِمِ تَرْبِيَةً جَدِيدَةً ، لَيْسَ فِيهَا رُكْعَةٌ وَلَا سَجْدَةٌ ؛ وَإِلَّا فَتَحْنُ نَرَى هَذِهِ الْقُبْعَةَ عَلَى رَأْسِ الزُّنَجِيِّ وَالْهَمَجِيِّ ، وَعَلَى رَأْسِ الْأَبْلَهَةِ وَالْمَجْنُونِ ، فَمَا رَأَيْنَاهَا جَعَلَتْ الْأَسْوَدَ أَبْيَضَ ، وَلَا عَرَفْنَاهَا نَقَلَتْ هَمَجِيًّا عَنْ طَبِيعِهِ ، وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّهَا أَكَمَلَتْ الْعَقْلَ النَّاقِصَ أَوْ رَدَّتْ الْعَقْلَ الذَّاهِبَ ، أَوْ انْقَلَبَتْ آلَةٌ لِحُلِّ مُشْكِلَاتِ الرَّأْسِ الْبَلِيدِ ، أَوْ غَصَبَتْ الطَّبِيعَةَ شَيْنًا وَقَالَتْ : هَذَا لِحَامِلِي دُونَ حَامِلِ الطَّرْبُوشِ وَالْعِمَامَةِ .

وَقَدْ اخْتَنَجُوا يَوْمَئِذٍ لِصَاحِبِ تِلْكَ الْبِدْعَةِ أَنَّهُ لَا يَرَى الْوُجْهَ إِلَّا الْمَدِينِيَّةَ ، وَلَا يَعْرِفُ الْمَدِينِيَّةَ إِلَّا مَدِينَةَ أَوْرَبَّةَ ، فَهُوَ يَمْتَنِلُهَا كَمَا هِيَ فِي حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا ، وَمَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ ، وَمَا يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَمَا يَكُونُ فِي غِنَى عَنْهُ ؛ حَتَّى لَوْ أَنَّ الْأَوْرَبِيِّينَ كَانُوا غُورًا بِالطَّبِيعَةِ ، لَجَعَلَ هُوَ قَوْمَهُ غُورًا بِالصَّنَاعَةِ لِشِبْهِهِمُ الْأَوْرَبِيِّينَ ... نَعَمْ إِنَّهَا حُجَّةٌ تَامَةٌ لَوْ لَا نَقْصُ قَلِيلٍ فِي الْبِرْهَانِ ، يُمكنُ تَلَافِيهِ بِإِخْرَاجِ طَبِيعَةِ جَدِيدَةٍ مِنْ كُتُبِ الْفُتُوحِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، يُظْهِرُ فِيهَا الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ وَالْأَبْطَالُ الْمَغَاوِرُ الَّذِينَ قَهَرُوا الْأَوْرَبِيِّينَ لَا بِسِنِّ قُبْعَاتٍ ، لِشِبْهِهِمُ الْأَوْرَبِيِّينَ ...

\* \* \*

(\*) «الرسالة» العدد : ١٧١ ، ٢٦ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ،

السنه الرابعة ، الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٤ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَتَهَوَّرَ فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِنَا ، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ إِلَى الْقَتْلِ فِي مِصْرَ أَخْتِدَاءَ لِتَرْكِتِهِ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعْدِ بَاشَا (رَحِمَهُ اللَّهُ) يَطْلُبُ رَأْيَهُ ، فَكَانَ رَأْيُهُ : (لَا) بِمَدِّ الْأَلْفِ . . . وَعَهْدَ إِلَى بَعْضِهِمْ أَنْ أَسْأَلَ الْبَاشَا ، فَقَالَ :

وَبِحَقِّهِمْ ! أَلَا يَخْجَلُونَ أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمِصْرِيِّينَ مُقْلِدِينَ لِلتَّقْلِيدِ نَفْسِهِ ؟ إِنْ هَلِهِ بِدَعَا تَنْحَطُّ عِنْدَنَا دَرَجَةٌ عَنِ الْأَصْلِ ، فَكَأَنَّهُمَا بِدَعَاتِهِ<sup>(١)</sup> . ثُمَّ صَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : كَانَ فِي الْقَدِيمِ رَجُلٌ سَمِعَ أَنَّ الْبَصَلَ بِالْحَلِّ نَافِعٌ لِلصُّفْرَاءِ ، فَذَهَبَ إِلَى بُسْتَانٍ يَمْلِكُهُ وَقَالَ لَوَكِيلِهِ : أَرْزَعْ لِي بَصَلًا بِحَلٍّ . . . هَكَذَا يُرِيدُونَ مِنَ الْقُبُعَاتِ : أَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ تَرْكًا بِأَوْرَبِيِّينَ .

لَيْسَتْ هَذِهِ الْقُبُعَةُ فِي تَرْكِتِهِ هِيَ الْقُبُعَةُ ، بَلْ هِيَ كَلِمَةُ سَبِّ لِلْعَرَبِ وَرَدُّ عَلَى الْإِسْلَامِ ، ضَافَتْ بِهَا كُلُّ الْأَسَالِيبِ أَنْ تُظْهِرَهَا وَاضِحَةً بَيِّنَةً ، فَلَمْ يَفِ بِهَا إِلَّا هَذَا الْأَسْلُوبُ وَحْدَهُ ، وَهِيَ إِعْلَانٌ سِيَاسِيٌّ بِالْمُتَاوَاةِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْإِنْجِرَافِ عَنَّا وَأَطْرَاحِنَا ، فَإِنَّ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْ أَمْتِهِ لَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَهُوَ فِي نِيَابِهَا وَشِعَارِهَا ؛ فَبِهَذَا أُنْفَتِحَ لَهُمْ بَابُ الْخُرُوجِ فِي الْقُبُعَةِ دُونَ غَيْرِهَا مِمَّا يَجْرِي فِيهِ التَّقْلِيدُ أَوْ يُبَدَعُ الْإِنْتِكَارُ ؛ وَإِلَّا فَاقِي سِرِّي فِي هَذِهِ الْقُبُعَاتِ ، وَمَتَى كَانَتْ الْأُمَمُ تَقَاسُ بِمَقَائِيسِ الْخَيَاطِينِ . . . ؟

هَلُمَّا سَيِّفٌ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مَقْصُصًا ، فَعَمِلَ { أَوَّلًا } مَا يَعْمَلُ الْحُسَامُ الْبِتَارُ ، فَاجَادَ وَأَبْدَعَ وَأَكْبَرَهُ النَّاسُ وَأَعْظَمُوهُ ؛ ثُمَّ صَنَعَ مَا يَصْنَعُ الْمَقْصَصُ ، فَمَادَا عَسَاهُ يَأْنِي بِهِ إِلَّا مَا يُنْكِرُهُ الْأَبْطَالُ وَالْخَيَاطُونَ جَمِيعًا ؟

أَكْتَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ دَهْرَنَا نَبْحُثَ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَأَلَّا يَخِيَا الشَّرْقِيُّ إِلَّا مُسْتَعْبَدًا يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ يَقُولُ لَهُ : أَسْرِعْ لِي . . . ؟ إِنْ بَحْثْنَا فَلَنَبْحَثَ فِي زِيٍّ جَدِيدٍ نَتَمَيَّزُ بِهِ ، فَتَكُونُ الْقُوَى الْكَامِنَةُ فِيْنَا وَفِي طَبِيعَةِ أَرْضِنَا وَجَوْنَا هِيَ الَّتِي أَخْتَرَعَتْ لظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرَهَا ، كَمَا يُخْرِجُ زُورُ الْأَسَدِ لِبَدَةِ الْأَسَدِ ، غَايَةً فِي الْمَنْفَعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْمَلَاءَمَةِ .

أَنَا أَلَسُّ مَا شِئْتُ ، وَلَكِنِّي عِنْدَ الْقُبُعَةِ أَجِدُ حَدًّا تَقِفُ إِلَيْهِ ذَاتِي فِي الْفَرْدِيَّةِ ، فَلَا أَرَى

(١) { الْأَصْلُ تَقْلِيدُ تَرْكِتِهِ لِأَوْرَبِيَّةِ ، وَهَلِهِ بِدَعَا ؛ فَتَقْلِيدُنَا لِتَرْكِتِهِ بِدَعَا أَسْخَفُ مِنَ الْأَوَّلَى } .

ثَمَّةَ مَوْضِعٍ أَنْفِرَادٍ وَلَكِنِ مَوْضِعٌ مُشَاكَلَةٍ ، وَلَا أَعْرِفُ صِفَةً مُنْفَعَةً لِي بَلْ صِفَةً حَقِيقَةً مِثْلِي ، وَبَعَثْتُ فِيَّ مِنْ هُنَاكَ الْمَعْنَى الَّتِي يَصْبِرُ بِهِ النَّوْعُ إِلَى الْجَنَسِ ، وَالْوَاحِدُ إِلَى الْجَمَاعَةِ . وَمَا دُمْتُ مُسْلِمًا أَصْلِي وَأَرْكَعُ وَأَسْجُدُ ، قَالِقْبَعَةُ نَفْسُهَا تَقُولُ لِي : دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ .

وَهَلْؤَلَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَبِسُوهَا فِي مِصْرَ ، إِنَّمَا اسْتَقْبَوْهَا مِنَ الْمَصْدَرِ نَفْسِ الْمَصْدَرِ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْهُ التَّهْتُكُ فِي الشَّيْءِ ، وَكِلَاهُمَا مَنْرَعٌ مِنَ الْمُخَالَفَةِ ، وَكِلَاهُمَا ضِدٌّ مِنْ صِفَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَقُومُ بِهَا فَضِيلَةُ شَرْقِيَّةٍ عَامَّةٍ . وَلَيْسَ يَعْدُمُ قَائِلٌ وَجْهًا مِنَ الْقَوْلِ فِي تَرْبِيبِ الْقُبُعَةِ ، وَلَا مَذْهَبًا مِنَ الرَّأْيِ فِي الْأَحْتِجَاجِ لَهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْمَذَاهِبَ الْفَلَسَفِيَّةَ لَا يُعْجِزُهَا أَنْ تُقِيمَ لَكَ الْبَرَهَانَ جَدَلًا مَخْضًا عَلَى أَنَّ حَيَاةَ الْمَرْأَةِ وَعَقَّتَهَا إِنْ هُمَا إِلَّا رَذِيلَتَانِ فِي الْفَرْ . . . وَإِنْ هُمَا إِلَّا مَرَضٌ وَضَعْفٌ ، وَإِنْ هُمَا إِلَّا كَيْتٌ وَكَيْتٌ ، ثُمَّ تَنْتَهِي الْفَلَسَفَةُ إِلَى عَدَمِهَا مِنَ الْبَلَاهَةِ وَالْعَقْلَةِ ، وَمَا الْعَقْلَةُ وَالْبَلَاهَةُ إِلَّا أَنْ تُرِيدَ فِلَسَفَةٌ مِنْ فِلَسَفَاتِ الدُّنْيَا أَنْ تُفْجِمَ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ مَثَلًا فَضْلًا فِي . . . فِي . . . فِي الدَّعَاةِ .

لَا يَهُولُكَ مَا أَقَرُّ لَكَ : مِنْ أَنَّ الْقُبُعَةَ الْأَوْرَبِيَّةَ عَلَى رَأْسِ الْمُسْلِمِ الْمِصْرِيِّ ، تَهْتُكُ أَخْلَاقِي أَوْ سِيَاسِي أَوْ دِينِي أَوْ مِنْ هَلِهِ كُلِّهَا مَعًا ، فَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ لَبِسُوهَا لَمْ يَلْبِسُوهَا إِلَّا مِنْذُ قَرِيبٍ ، بَعْدَ أَنْ تَهْتُكَتِ الْأَخْلَاقُ الشَّرْقِيَّةُ الْكَرِيمَةُ وَتَحُلَلُ أَكْثَرُ عُقْدِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ قَارَبَتِ الْحُرِّيَّةُ الْعَصْرِيَّةُ بَيْنَ التَّقَابُصِ حَتَّى كَادَتْ تَخْلُطُ الْحُدُودَ اللَّغَوِيَّةَ ؛ فَحُرِّيَّةُ الْمَنْفَعَةِ مَثَلًا تَجْعَلُ الصَّادِقَ وَالْكَاذِبَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَلَا يَقَالُ : إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْفَعَتَهُ فَصَدَقَ ، وَوَجَدَ مَنْفَعَتَهُ فَكَذَبَ ؛ وَعِنْدَ الْحُرِّيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ أَنَّهُ مَا فَرَّقَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ وَجَعَلَ لِكُلِّ مِنْهُمَا حُدُودًا إِلَّا جَهْلُ الْقَدَمَاءِ ، وَفَضِيلَةُ الْقَدَمَاءِ ، وَدَيْنُ الْقَدَمَاءِ . وَهَلِهِ الثَّلَاثَةُ : الْجَهْلُ وَالْفَضِيلَةُ وَالذِّنُّ ، هِيَ أَيْضًا فِي الْمُعْجَمِ اللَّغَوِيِّ الْفَلَسَفِيُّ الْجَدِيدِ مُتَرَادِفَاتٌ لِمَعْنَى وَاحِدٍ ، هُوَ الْأَسْتِعْبَادُ أَوْ الْوَهْمُ أَوْ الْخُرَافَةُ .

وَمَتَى أُرِنَلَبَ الْحُدُودُ بَيْنَ الْمَعَانِي ، كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَلْتَبَسَ شَيْءٌ بِشَيْءٍ ، وَأَنْ يَحُلَّ مَعْنَى فِي مَوْضِعٍ مَعْنَى غَيْرِهِ ، وَأَصْبَحَ الْبَاطِلُ بَاطِلًا بِسَبَبٍ وَحَقًّا بِسَبَبٍ آخَرَ ، فَلَا يَحْكُمُ النَّاسُ إِلَّا مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمُتَنَافِرَةِ ، تَجْعَلُ كُلَّ حَقِيقَةٍ فِي الْأَرْضِ شُبْهَةً مُزَوَّرَةً عِنْدَ مَنْ لَا تَكُونُ مِنْ أَهْوَائِهِ وَتَرْعَاتِهِ ، فَيَحْتَاجُ النَّاسُ بِالضَّرُورَةِ إِلَى قُوَّةٍ تَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فَضْلًا

مُسْلَحًا ، فَيَكْسِبُونَ الْقَانُونَ بِمَدَنِيَّتِهِمْ قُوَّةَ هَمَجِيَّةٍ تَضْطَرُّهُ أَنْ يُعِدَّ لِلْوَحْشِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَدْفَعُ هَلِكِهِ الْوَحْشِيَّةَ أَنْ تُعِدَّ لَهُ .

وَمِنْ اخْتِلَاطِ الْحُدُودِ تَجِيءُ الْقُبْعَةُ عَلَى رَأْسِ الْمُسْلِمِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا حَدٌّ يَطْمِسُ حَدًّا ، وَفِكْرَةٌ تَهْزُمُ فِكْرَةً ، وَرَدْزِيلَةٌ تَقُولُ لِفَضِيلَةٍ : هَذَا أَنَا ذِي قَدْ جِئْتُ فَأَذْمِي .

مَا هُوَ الْأَكْبَرُ مِنْ شَيْئَيْنِ لَا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَغْيِينِ الصَّغِيرِ ؟ وَمَا هُوَ الْأَصْغَرُ مِنْ شَيْئَيْنِ لَا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَغْيِينِ الْكَبِيرِ ؟ إِنَّهَا الْقَوَضِي كَمَا تَرَى مَا دَامَ الْحَدُّ لَا مَوْضِعَ لَهُ فِي التَّمْيِيزِ وَلَا مَقَرَّ لَهُ فِي الْعَرْفِ وَلَا فَضْلَ بِهِ فِي الْعَادَةِ ؛ وَمِنْ هُنَا كَانَ الَّذِينَ عِنْدَ أَقْوَامٍ أَكْبَرَ كَلِمَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي عَامَّةِ لُغَاتِهَا وَأَمْلَأَهَا بِالْمَعْنَى ، وَكَانَ عِنْدَ آخَرِينَ أَصْغَرَهَا وَأَفْرَعَهَا مِنَ الْمَعْنَى ؛ وَمَا كَبُرَ عِنْدَ أَوْلَئِكَ إِلَّا مِنْ أَنَّهُ يَسَعُ الْاجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِي وَهُوَ مَحْدُودٌ بِغَايَاتِهِ الْعُلْيَا ، وَمَا صَغُرَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ إِلَّا بِأَنَّ الْاجْتِمَاعَ لَا يَسَعُهُ فَلَا حَدَّ لَهُ ؛ وَكَأَنَّهُ مَعْنَى مُتَوَهَّمٌ لَا وَجُودَ لَهُ إِلَّا فِي أَحْرَفِ كَلِمَتِهِ .

فَجَمَاعَةُ الْقُبْعَةِ لَا يَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ حَدًّا يَحْدُودُنَهَا مِنْ أَخْلَاقِنَا أَوْ دِينِنَا أَوْ شَرْفِيَّتِنَا ، وَقَدْ مَرَقُوا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَأَصْبَحُوا لَا يَرُونَ فِي زِينَةِ الْوَطَنِيِّ مَا فِيهِ مِنْ قُوَّةِ السَّرِّ الْخَفِيِّ الَّذِي يُلْهِمُنَا مَا أَوْدَعَهُ التَّارِيخُ مِنْ قَوْمِيَّتِنَا وَمَعَانِي أَسْلَافِنَا .

وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ مِثْلًا قَوْمًا يَرَى أَحَدُهُمْ فِي ظَنِّ نَفْسِهِ أَنَّهُ قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ التَّطَوُّرِ ؛ فَهُوَ فِيْمَا يُلَابِسُهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ وَاحِدٌ مِنَ التَّوَامِينِ . . . وَمِنْ هُنَا الثَّقَلُ وَالِدَعْوَى الْفَارِغَةُ ، وَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الثَّقَلِ وَفَرَاغِ الدَّعْوَى . وَإِنَّهُ لَحَقٌّ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْبِيَاءَ ، وَلَكِنْ أَقْبَحُ مَا فِي الْبَاطِلِ أَنْ يَظُنَّ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ نَبِيًّا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّا يُزَيَّنُ لِلشَّرْقِيِّ مِنْ رَدَائِلِ الْمَدَنِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا مَنَظُونٌ شَهَوَاتٍ فِي جُمْلَتِهِ ، وَلَقَدْ تَسْمَعُ الْجَائِعُ يَتَكَلَّمُ عَنِ الطَّعَامِ ، فَتَرَى كَلَامًا تَحْتَهُ مَعَانٍ وَمَعَانٍ لَا يَعُدُّهَا غَيْرَ الْجَائِعِ إِلَّا حِمَاقَةً سَاعَتِهَا . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ١١

### سَعْدُ زَغُولٍ (\*)

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : أَلْقَى إِلَيَّ الْبَاشَا ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ (سَعْدًا) مُصَبِّحُنَا زَائِرًا<sup>(١)</sup> ، وَكَانَتْ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ خَاصَّةٌ وَأَسْنَابٌ وَطَيِّدَةٌ . وَلِلْبَاشَا مَوْضِعٌ أَعْرِفُهُ مِنْ نَفْسِ سَعْدٍ كَمَا أَعْرِفُ الشُّعْلَةَ فِي بُرْكَانِهَا ؛ أَنَا سَعْدٌ فَكَانَ قَدْ أَتَتْهُ إِلَى التَّهَاجِيَةِ الَّتِي جَعَلَتْهُ رَجُلًا فِي إِحْدَى يَدَيْهِ السَّخَرُ وَفِي الْأُخْرَى الْمُعْجِزَةُ ، فَهُوَ مِنْ عُظَمَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ كَقَامُوسِ اللَّغَةِ مِنْ كَلِمَاتِ اللَّغَةِ : يَرُدُّ كُلَّ مُفْرَدٍ إِلَيْهِ فِي تَعْرِيفِهِ ، وَلَا تَصِحُّ الْكَلِمَةُ عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهِ الشَّهَادَةُ عَلَى صِحَّتِهَا .

وَجَاءَنَا سَعْدٌ غُدْوَةً ، فَاسْرَعْتُ إِلَى تَقْبِيلِ يَدِهِ قُبْلَةً لَا تُشَبِّهُهَا الْقُبُلَاتُ ، إِذْ مَثَلَتْ لِي مِنْ فَرَحِهَا كَأَنَّهَا كَانَتْ مَنَفِيَّةً وَرَجَعَتْ إِلَيَّ وَطَنِيهَا الْعَزِيزِ حِينَ وَضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الْيَدِ .

إِنَّ الرَّجُلَ<sup>(٢)</sup> الْعَظِيمَ إِذَا كَانَ بَارًّا بِأَبِيهِ عَارِفًا قَدْرَهُ مُدْرِكًا عَظَمَتَهُ ، يَشْعُرُ حِينَ يُقْبَلُ يَدَ أَبِيهِ كَأَنَّهُ يَسْجُدُ بِرُوحِهِ سَاجِدَةً لِلَّهِ عَلَى تِلْكَ الْيَدِ الَّتِي يُقْبَلُهَا ، وَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ اتِّصَالًا كَهْرَبَائِيًّا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ سِرِّ وَجُودِهِ ، وَيَخُصُّهُ الْعَالَمُ بِلَمْسَةٍ كَأَنَّ قُبْلَتَهُ نَبَضَتْ فِي الْكُونِ ؛ وَكُلُّ هَذَا قَدْ أَحْسَسْتُهُ أَنَا فِي تَقْبِيلِي يَدَ سَعْدٍ ، وَزِدْتُ عَلَيْهِ شُعُورِي بِمِثْلِ الْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ فِي نَفْسِ الْبَاطِلِ حِينَ يُقْبَلُ سَيْفَهُ الْمُتَنَصِّرَ .

وَصَحِّحْ لِي سَعْدُ بَاشَا صِحْحَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ ، الَّتِي يَبْدُوهَا فَمُهُ ، وَتَتَمُّمُهَا عَيْنَاهُ ، وَيَشْرَحُهَا وَجْهُهُ كُلُّهُ ، فَتَجِدُ جَوَابَهَا فِي رُوحِكَ كَأَنَّهُ فِي رُوحِكَ أَلْقَاهَا .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٠ ، ١٩ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٠١ - ١٦٠٣ .

(١) يُقَالُ : صَبَّحَهُ (بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ) ، أَي : جَاءَهُ صَبِيحًا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « ابْنُ الرَّجُلِ » بَدَلًا مِنْ : « الرَّجُلُ » .

وَالرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَى سَعْدٍ وَهُوَ يَتَبَسَّمُ ، رَأَى لَهُ ابْتِسَامَةً كَأَنَّهَا كَمَا لَا يَتَوَاضَعُ ، فَيُحْسِنُ كَأَنَّ شَيْئًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ يَتَّصِلُ مِنْهُ بِشَيْءٍ طَبِيعِيٍّ ، فَيَتَنَبَّهُ وَيَتَبَيَّنُ فِي وَجْهِهِ الرُّوحِيَّةُ وَثَبَتَتْ عَالِيَةً تَكُونُ قَرَحًا أَوْ طَرَبًا أَوْ إِعْجَابًا أَوْ خُشُوعًا أَوْ كُلِّهَا مَعًا . غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْحُكَمَاءِ إِذَا تَأَمَّلَ وَجْهَ سَعْدٍ وَهُوَ يَضْحَكُ ضِخْكَهُ الْمُطْمَئِنَّةَ الْمُتَمَكِّنَةَ مِنْ مَعْنَاهَا الْمُفَرِّقَ أَوِ الْمُتَنَكِّرِ أَوِ السَّاجِرِ أَوْ أَيِّ الْمَعَانِي - حَسِبَ نَفْسَهُ يَرَى شَكْلًا مِنَ الْقَوْلِ لَا مِنَ الضَّحِكِ ، وَظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ الْابْتِسَامَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ مُتَكَلِّمَةً ، كَأَنَّهَا مَرَّةً تَقُولُ : هَذَا حَقِيقِي . وَمَرَّةً تَقُولُ : هَذَا غَيْرُ حَقِيقِي .

إِنَّ سَعْدًا الْعَظِيمَ كَانَ رَجُلًا مَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَطَنِيٍّ إِلَّا بِعَيْنٍ فِيهَا دَلَالٌ أَحْلَامُهَا ، كَأَنَّهَا هُوَ شَخْصٌ فِكْرُهُ لَا شَخْصٌ إِنْسَانٍ ؛ فَإِذَا أَنْتَ رَأَيْتَهُ كَانَ فِي فِكْرِكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي نَظَرِكَ ؛ فَأَنْتَ تَشْهَدُ بِنَظَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا هَذَا الَّذِي تُبْصِرُ بِهِ ، وَالْآخَرُ ذَلِكَ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ .

عَقِبَرِيٌّ كَالْجَمْرَةِ الْمُتَلَهِّبَةِ لَا تَحْسَبُهُ يَعْيشُ بَلْ يَخْتَرِقُ وَيُحْرِقُ ؛ ثَابِتٌ كَالزَّلْزَلَةِ فَهُوَ أَبَدًا يَزْتَجُّ وَهُوَ أَبَدًا يَرْجُّ مَا حَوْلَهُ ؛ صَرِيحٌ كَصَرَاحَةِ الرُّسُلِ ، تِلْكَ الَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ تَقُولُ كَلِمَتَهَا .

رَجُلُ الشَّعْبِ الَّذِي يُحْسِنُ كُلَّ مَضْرِيٍّ أَنَّهُ يَمْلِكُ فِيهِ مُلْكًا مِنَ الْمَجْدِ . وَقَدْ بَلَغَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ مَبْلَغَ الشَّرِيعَةِ ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : ضَعُوا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ ، وَأَنْزِعُوا هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَيَاةِ .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَانْقَضَتْ الزِّيَارَةُ وَخَرَجَ سَعْدٌ وَالْبَاشَا إِلَى يَسَارِهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وَدَاعِهِ قَالَ لِي : وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَكَأَنَّ مَا زَادَ هَذَا الرَّجُلُ فِي أَلْقَابِ الدَّوْلَةِ لَقَبًا جَدِيدًا ، ثُمَّ ضَحِكَ وَقَالَ : أَتَذَرِي مَا هَذَا اللَّقَبُ ؟ قُلْتُ : فَمَا هُوَ يَا بَاشَا ؟

قَالَ : وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ مَا مِنْ (بَاشَا) فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ إِلَى جَانِبِ سَعْدٍ ، إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ رُبِّيَّتَهُ (نِصْفُ بَاشَا) . . .

هَذَا رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعَظَمَةِ مَبْلَغًا تَصَاغَرُ مَعَهُ الْكِبِيرُ ، وَتَضَاعَلُ الْعَظِيمُ ، وَتَقَاصَرَ

الشَّامُخُ ؛ نَعَمْ وَحَتَّى تَرَكَ أَقْوَامًا مِنْ خُصُومَةِ الْعُظَمَاءِ ، كَفَلَانَ وَفَلَانَ ، وَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَلُوحُ لِلشَّعْبِ مِنْ قَرَاغِهِ وَضَعْفِهِ وَتَطَرُّحِهِ ، كَأَنَّهُ ظُلُّ رَجُلٍ لَا رَجُلٍ .

وَقَدْ أَصْبَحَ قُوَّةَ عَامِلَةٍ لَا بَدَّ مِنْ فِعْلِهَا فِي كُلِّ حَيٍّ تَحْتَ هَذَا الْأُفْقِ ، حَتَّى كَانَ مَعَانِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ تَنْتَشِرُ فِي الْهَوَاءِ عَلَى النَّاسِ ، فَهُوَ قُوَّةٌ مُرْسَلَةٌ لَا تُمَسِّكُ ، مَاضِيَةٌ لَا تَرُدُّ ، مَقْدُورَةٌ لَا يُخْتَالُ لَهَا بِحِيلَةٍ .

هَذَا وَضَعُ إِلَهِيٍّ خَاصٍّ لَا يُشْبِهُهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ، كَمَيِّدَانِ الْحَزْبِ لَا تُشْبِهُهُ الْأَمَكِنَةُ الْآخَرَى ؛ فَقَدْ غَامَرَ سَعْدٌ فِي الثُّورَةِ الْعُرَابِيَّةِ وَخَرَجَ مِنْهَا ، وَلَكِنَّهَا هِيَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ ؛ بَلْ بَقِيَتْ فِيهِ ؛ بَقِيَتْ فِيهِ تَتَعَلَّمُ الْقَانُونَ وَالسِّيَاسَةَ ، وَتُضْلِعُ أَغْلَاطَهَا ، ثُمَّ ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا الْقَانُونِيَّةُ الدَّقِيقَةُ . وَبِهَذَا تَرَاهُ يَغْمُرُ الرُّجَالَ مَهْمَا كَانُوا أَذْكِيَاءَ ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِمْ ، وَتَرَاهُمْ يَظْهَرُونَ إِلَى جَانِبِهِ أَشْيَاءَ ثَابِتَةً فِي مَعَانِيهَا ، أَمَا هُوَ فَتَرَاهُ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ يَتَلَاطَمُ كَالْأَمْوَاجِ الْعَابِيَةِ .

وَتِلْكَ الثُّورَةُ هِيَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ فِي فَمِهِ أحيانًا فَتَجْعَلُ لِبَعْضِ كَلِمَاتِهِ قُوَّةَ كَقُوَّةِ النَّصْرِ ، وَشُهْرَةً كَشُهْرَةِ مَوْفِعَةِ حَرْبِيَّةٍ مَذْكُورَةٍ .

وَلَمَّا كَانَ هُوَ الْمُخْتَارَ لِيَكُونَ أَبَا لِلثُّورَةِ - حَرَمَتْهُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ النَّسْلَ ، وَصَرَفَتْ نَزْعَةَ الْأَبُوءِ فِيهِ إِلَى أَعْمَالِهِ الثَّارِيخِيَّةِ ، فَفِيهَا عَنَانِيَّتُهُ وَقَلْبُهُ وَهُمُومُهُ ، وَهِيَ نَسْلٌ حَيٌّ مِنْ رُوحِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَيَكَادُ مَعَهَا يَكُونُ أَسَدًا يَزَارُ حَوْلَ أَشْبَالِهِ .

وَلَنْ يُذَكَّرَ السِّيَاسِيُّونَ الْمِضْرِيُّونَ مَعَ سَعْدٍ ، وَلَنْ يُذَكَّرَ سَعْدٌ نَفْسُهُ إِذَا انْقَلَبَ سِيَاسِيًّا ، فَإِنَّ الْمَكَانَ الْخَالِيَّ فِي الطَّبِيعَةِ الْآنَ هُوَ مَكَانُ رَجُلٍ الْمُقَاوِمَةِ لَا رَجُلٍ السِّيَاسَةِ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ سَعْدًا يُشْعِرُ الْأُمَّةَ بِوُجُودِهِ لَذَّةَ كَلِّدَةِ الْفُوزِ وَالْإِنْتِصَارِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْزُ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَنْتَصِرْ عَلَى شَيْءٍ ؛ فَاطْمِئِنَّا الشَّعْبُ إِلَى زَعِيمِ الْمُقَاوِمَةِ ، هُوَ بِطَبِيعَتِهِ كَاطْمِئِنَّا حَامِلِ السِّلَاحِ إِلَى سِلَاحِهِ .

وَسَعْدٌ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَفْلَحَ فِي أَنْ يَكُونَ أَسَدًا الْمُقَاوِمَةِ لِهَيْلِهِ الْأُمَّةِ ؛ فَتَسَخَّ قَوَائِنَ ، وَأَوْجَدَ قَوَائِنَ ، وَحَمَلَ الشَّعْبَ عَلَى الْإِعْجَابِ بِأَعْمَالِهِ الْعَظِيمَةِ ، فَتَبَّعَتْهُ قُوَّةُ الْإِحْسَاسِ

بِالْعَظَمَةِ فَجَعَلَهُ عَظِيمًا ، وَصَرَفَهُ بِالْمَعَانِي الْكَبِيرَةِ عَنِ الصَّغَائِرِ ، فَدَفَعَهُ إِلَى طَرِيقِ مُسْتَقْبَلِهِ يُبْلِغُ إِبْدَاعَهُ فِيهِ .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ لَا يَخِيَا بِالسِّيَاسَةِ ، وَلَكِنْ بِالْمَقَاوِمَةِ مَا دَامَ ذَلِكَ الْغَرْبُ بِإِرَائِهِ ، وَالْفَرِيسَةُ لَا تَخْلَصُ مِنَ الْحَلْقِ الْوَحْشِيِّ إِلَّا بِاعْتِرَاضِ عِظَامِهَا الصُّلْبَةِ الْقَوِيَّةِ { فِي هَذَا الْحَلْقِ } .

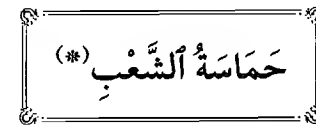
وَكَمْ فِي الشَّرْقِ مِنْ سِيَاسِيٍّ كَبِيرٍ يَجْعَلُونَهُ وَزِيرًا ، فَتَكُونُ الْوُظَيْفَةُ هِيَ الْوَزِيرُ لَا نَفْسُ الْوَزِيرِ ، حَتَّى لَوْ خَلَعُوا ثِيَابَهُ عَلَى خَشَبَةٍ وَنَضَبُوهَا فِي كُرْسِيِّهِ ، لَكَانَتْ أَكْثَرُ نَفْعًا مِنْهُ لِلْأُمَّةِ ، بِأَنَّهَا أَقَلُّ شَرًّا مِنْهُ ...

يَا بُنَيَّ ، كُلُّ النَّاسِ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالسِّيَادَةِ وَالْخُكْمِ ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ مَسْأَلَةُ الشَّرْقِ ، وَلَكِنْ الْمَسْأَلَةُ : مَنْ هُوَ اللَّيْثُ السِّيَاسِيُّ الَّذِي يَرْضَى أَنْ يَضْلَبَ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## أَحَادِيثُ أَلْبَاشَا : ١٢



وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا قَالَ : لَمَّا رَجَعَ سَعْدُ بَاشَا مِنْ أَوْرُبَةِ فِي سَنَةِ ١٩٢١ ، كَانَتْ الْأُمَّةُ فِي أَسْتِقْبَالِهِ كَأَنَّهَا طَائِرٌ مَدَّ جَنَاحَيْهِ ، لَا خِلَافَ لَشَيْءٍ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، بَلْ كُلُّهُ هُوَ كُلُّهُ ؛ وَكَانَتْ الْمَعَارِضَةُ فِي الْأَسْتِحَالَةِ يَوْمِيذٍ كَأَسْتِحَالَةِ وَجُودِ رُفْعَةٍ فِي رِيشِ الطَّائِرِ .

عَلَى أَنَّ ثَوْبَ السِّيَاسَةِ الْمِصْرِيَّةِ كَثِيرُ الرُّفْعِ دَائِمًا بِالْجَدِيدِ وَالْحَلْقِ ، فَرُفْعَةٌ مِنْ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٤ ، ١٧ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢ نوفمبر / تشرين الآخر ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٧٨١ - ١٧٨٣ .

الْمُعَارِضِينَ ، وَأُخْرَى مِنَ الْمُتَعَشِّينَ ، وَثَالِثَةٌ مِنَ الْمُتَخَافِلِينَ ، وَرَابِعَةٌ مِنَ الْمُعَادِينَ ، وَخَامِسَةٌ وَسَادِسَةٌ وَسَابِعَةٌ مِنَ الْحَاسِدِينَ وَالْمُنَافِسِينَ وَالْمُخْتَلِفِينَ لَشَهْوَةِ الْخِلَافِ ؛ وَرَقَاعٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ هَذَا الْجَوَّ الَّذِي لَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا بِطِينَا ، يَتَقَلَّبُ أَهْلُهُ بِسُرْعَةٍ ؛ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ الَّتِي لَا تَكَادُ تَخْتَلِفُ ، لَا يَكَادُ أَهْلُهَا يَتَفَقُّونَ .

وَلَكِنْ سَعْدًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) رَجَعَ مِنْ أَوْرُبَةِ رَجْعَةً الْكَرَامَةِ لِأُمَّةٍ كَامِلَةٍ ، فَفَارَ بِأَنَّهُ لَمْ يَخْسَرْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ ، وَأَتَصَرَّ بِأَنَّهُ لَمْ يَهْزَمْ ، وَدَلَّ عَلَى ثَبَاتِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَعَّزَعْ ، وَذَهَبَ صَوْلَةٌ وَرَجَعَ صَوْلَةٌ وَعَزِيمَةٌ ؛ فَكَانَ إِيمَانُ الشَّعْبِ هُوَ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ ، وَكَانَتْ الثَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي تَخْتَفِلُ بِهِ ، وَبَطَلَتْ الْعِلَلُ كُلُّهَا فَلَمْ يَجِدْ أَلَا غَيْرَاضَ شَيْئًا يَغْتَرِضُ<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ ، وَأَتَفَقَّتِ الْأَسْبَابُ فَاجْتَمَعَتِ الْكَلِمَةُ ، وَظَهَرَ سَعْدٌ كَأَنَّهُ رُوحُ الْأُمَّةِ مُتَمَثِّلًا فِي قُدْرَةٍ ، حَاسِمًا بِقُوَّةٍ ، مُتَسَلِّطًا بِتَقِينٍ .

نَعَمْ لَمْ يَتَنَصَّرِ الْبَطْلُ ، وَلَكِنْ الْأُمَّةُ أَحْتَفَتْ بِهِ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ فِيهَا كَمَالًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ هُوَ سِرُّ الْإِنْتِصَارِ ؛ فَكَانَتْ حَمَاسَةُ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَمَاسَةُ الْمَبْدِ الْمُتَمَكِّنِ : يُظْهِرُ شَجَاعَةَ الْحَيَاةِ ، وَفُورَةَ الْعَزَائِمِ ، وَفَضِيلَةَ الْإِخْلَاصِ ، وَشِدَّةَ الصَّوْلَةِ ، وَعِنَادَ التَّضَمُّيمِ ؛ وَيُثَبِّتُ بِقُوَّةٍ ظَاهِرِهِ قُوَّةَ بَاطِنِهِ ، وَكَانَ فَرْحُ الْأُمَّةِ عِنَادًا سِيَاسِيًّا يَفْرَحُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ قَوِيًّا لَمْ يَضْعُفْ ، وَكَانَ ابْتِهَاجُهَا مَجْدًا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَإِذَا لَمْ يُنْقَضْ ، وَكَانَ الْإِجْمَاعُ رَدًّا عَلَى الْيَأْسِ ، وَكَانَتْ الْحَمَاسَةُ رَدًّا عَلَى الضَّعْفِ .

أَتَبَعْتُ صَوْلَةَ الْحَيَاةِ فِي الشَّعْبِ كُلِّهِ ، وَابْتَدَأْتُ الْمُسْتَقْبَلَ مِنْ يَوْمِيذٍ ، فَلَوْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِي سَحَابَةٍ مُجَلِّجَةٍ يُسْمَعُ تَسْبِيحُهُمْ لِيُؤَيِّدُوا سَعْدًا - لَمَّا رَأَوْهُ شَيْئًا ؛ فَقَدْ كَانَ مَحَلُّهُ مِنَ الْقُلُوبِ كَأَنَّهُ الْعَقِيدَةُ ، وَكَانَ التَّصْدِيقُ مَبْدُولًا لَهُ كَأَنَّهُ الْكَلِمَةُ الْآخِرَةُ ، وَكَانَتْ الطَّاعَةُ مَوْفُوقَةً عَلَيْهِ كَأَنَّهُ الْبَاعِثُ الطَّبِيعِيُّ ، وَكَانَ الْبَطْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُشَبِّهُ نَبِيًّا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُلَّ مِنْهُمَا صُورَةٌ كَامِلَةٌ لِلِسُّمُومِ فِي أَفْكَارِ أُمَّةٍ .

\* \* \*

(١) فِي الْأَصْلِ : « مَا يَغْتَرِضُ » بَدَلًا مِنْ : « شَيْئًا يَغْتَرِضُ » .



قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : وَرَجَعَ الْبَاشَا مِنَ الْقَاهِرَةِ وَقَدْ رَأَى مَا رَأَى مِنْ مُسَامَحَةِ الْقُتُوسِ ، وَصِحَّةِ الْعَهْدِ ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ ، وَإِعْدَادِ الشَّعْبِ لِلْمِرَاسِ وَالْمُعَانَاةِ ، فَقَالَ :

تَاللهِ لَقَدْ أَثْبَتَ (سَعْدٌ) لِلدُّنْيَا كُلِّهَا أَنَّ مِصْرَ الْجَبَّارَةِ مَتَى شَاءَتْ بَنَتْ الرِّجَالَ عَلَى طَرِيقَةِ الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ فِي الْعَظَمَةِ وَالشُّهُرَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْقُوَّةِ . وَلَقَدْ صَنَعَ هَذَا الرَّجُلُ الْعَظِيمُ مَا تَصْنَعُ حَرْبٌ كَبِيرَةٌ ، فَجَمَعَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَتَنَاقَضُ ، وَدَفَعَهَا بِرُوحٍ قَوْمِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَخْتَلِفُ ، وَجَعَلَ عِرْقَ السِّيَاسَةِ يَقْوَرُ كَمَا يَقْوَرُ الْعِرْقُ الْمَجْرُوحُ بِالْدمِ .

إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ لَا ثَالِثَ بَيْنَهُمَا : إمَّا الْحَزْمُ إِلَى الْآخِرِ وَإِمَّا الْإِضَاعَةُ . وَلَا حَزْمَ إِلَّا أَنْ يَبْقَى الشَّعْبُ كَمَا ظَهَرَ الْيَوْمَ : طُوفَانًا حَيًّا ، مُسْتَوِيَّ الطَّبِيعَةِ ، مُنْذِفَ الْحَرَكَةِ ، غَامِرًا كُلَّ مَا يَغْتَرِضُهُ ، إِلَى أَنْ يُقْضَى الْأَمْرُ وَيَقُولَ أَعْدَاؤُنَا : ﴿ وَكَسَمْنَا أَقْلِي ﴾ (١١) سورة هود/ الآية : ٤٤ .

هَكَذَا يَعْمَلُ الْوَطَنُ مَعَ أَهْلِهِ كَأَنَّهُ شَخْصٌ حَيٌّ يَبْتَنُّهُمْ ، حِينَ يَسْتَوِي الْجَمِيعُ فِي الثَّقَةِ ، وَيَتَكَزَّرُ الْجَمِيعُ فِي الْأَمَلِ ، وَيَشْتَرِكُ الْجَمِيعُ فِي الْعَطْفِ الرُّوحِيِّ ، وَلَا يَبْقَى لِمَجَامَعَةٍ مِنْهُمْ حَظٌّ فِي رَغْبَةٍ غَيْرِ الرَّغْبَةِ الْوَاحِدَةِ لِلْجَمِيعِ ؛ وَهَكَذَا يَعْمَلُ الْوَطَنُ بِأَهْلِهِ حِينَ يَعْمَلُ مَعَ أَهْلِهِ .

كَانَ أَعْدَاؤُنَا يَحْسِبُونَنَا دُبَابًا سِيَاسِيًّا لَا شَأْنَ لَهُ إِلَّا بِفَضْلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَلَا عَمَلٌ لَهُ فِي أَزْهَارِهَا وَأَنْمَارِهَا وَعِطْرِهَا وَحُلُوهَا ؛ فَاسْمَعَهُمُ الشَّعْبُ الْيَوْمَ طِينِ النَّخْلِ ، وَأَرَاهُمْ إِبْرَ النَّخْلِ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأَزْهَارَ وَالْأَنْمَارَ وَالْعِطْرَ وَالْحُلُوهَ هِيَ لَهُ بِالطَّبِيعَةِ .

وَكُنَّا نَتَخَرَّصُونَ أَنَّ مَذَهَبَنَا فِي الْحَيَاةِ لِمَصْلَحَةِ الْمَعَاشِ فَقَطْ ، وَأَنَّ الْمِصْرِيَّ حَاسِمًا أَوْ مَحْكُومًا لَا يَمُدُّ أَمَالَهُ الْوُطَنِيَّةَ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ مُدَّةِ عُمرِهِ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَطْلَقُوا أَيْدِيَنَا فِي حَاضِرِ الْأُمَّةِ أَطْلَقْنَا أَيْدِيَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهَا . وَمِنْ ثَمَّ طِمَعُوا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الْتَاقِصُ فِي نَفْسِهِ حَقًّا تَامًا فِي أَنْفُسِنَا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ ؛ وَحَسِبُوا أَنَّ السِّيَاسِيَّ الْمِصْرِيَّ لَا يَتَجَرَّأُ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُهُ السِّيَاسِيُّ الْأُورُوبِيُّ : مِنْ أَنَّهُ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَكِنَّهُ يَخْشَى الْعَارَ . فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ مَاتَ وَخَدَهُ ، وَإِذَا جَلَبَ الْعَارَ جَلَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أُمِّيهِ وَعَلَى تَارِيخِ أُمِّيهِ ، بَيِّدَ أَنْ سَعْدًا

قَالَهَا ؛ وَفِي مِثْلِ هَذَا قَدْ يَكُونُ قَوْلُ (لَا) مَعْرَكَةً .

وَهَا هِيَ ذِي مَعْرَكَةِ الْيَوْمِ التَّارِيخِيَّةِ ، فَإِنَّ الذَّرَاتِ الْحَيَّةَ الَّتِي تُخْلَقُ مِنْ دِمَائِنَا نَحْنُ الْمِصْرِيِّينَ قَدْ ثَارَتْ فِي هَذِهِ الدَّمَاءِ ، فِي هَذَا الْكُتَّارِ ، تُعْلِنُ أَنَّهَا لَا تَرْضَى أَنْ تُؤَلَّدَ مُقَيَّدَةً بِقِيُودِ (١) .

أَتَذَرِي مَاذَا عَرَضُوا عَلَى سَعْدٍ ؟ إِنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يُشْبِهُ فِي السُّخْرِيَّةِ طَاخُونَةَ تَامَّةِ الْأَدَوَاتِ وَالْآلَاتِ مِنْ آخِرِ طِرَازٍ ، ثُمَّ لَا تُقَدِّمُ لَهَا إِلَّا حَبَّةَ قَمْحٍ وَاحِدَةً لِنَطْحَنَهَا . . . نَتِيجَةُ تَسَخُّرٍ مِنْ أَسْبَابِهَا ، وَأَسْبَابٍ تَهْزَأُ بِالنَّتِيجَةِ .

إِنَّ أَوْزَنَ لَا تَحْتَرِمُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُهَا عَلَى اخْتِرَامِهِ ، فَمَا أَرَى لِلْسِّيَاسِيِّينَ فِي هَذَا الشَّرْقِ عَمَلًا أَفْضَلَ وَلَا أَقْوَى وَلَا أَرَدَّ بِالْفَائِدَةِ مِنْ إِخْيَاءِ الْحِمَاسَةِ فِي كُلِّ شَعْبٍ شَرْقِيٍّ ، ثُمَّ حِبَاطَتِهَا وَحُسْنِ تَوَجُّهِهَا ؛ فَهَذِهِ الْحِمَاسَةُ الشَّعْبِيَّةُ الدَّائِمَةُ الْقُوَّةُ الْبَصِيرَةُ ، هِيَ قُوَّةُ الرَّفْضِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُرْفَضَ ، وَقُوَّةُ التَّائِيدِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُقْبَلَ ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةُ جَمْعِ الْأَمْرِ ، وَإِحْكَامِ الشَّأْنِ ، وَإِقْرَارِ الْعَرِيضَةِ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَتَرْبِيَةِ الثَّقَةِ بِالنَّفْسِ ، وَبِهَا يَكُونُ إِذْكَاءُ الْحِسِّ وَتَعْوِيذُهُ إِذْكَاءُ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ ، وَالتَّحَمُّسُ لَهَا ، وَالتَّبَذُّلُ فِيهَا .

وَمَا عَلَّةُ الْعِلَلِ فِينَا إِلَّا ضَعْفُ الْحِمَاسَةِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الشَّرْقِ ، وَسُوءُ تَدْبِيرِهَا ، وَقُبْحُ سِيَاسَتِهَا ؛ وَإِنَّا لَنَأْخُذُ عَنِ الْأَوْزَنِينَ مِنْ نِظَامِهِمْ وَأَسَالِينِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَفَنُونِهِمْ ؛ فَتَأْخُذُ كُلُّ ذَلِكَ بِرُوحِنَا الْفَائِزَةِ فِي خُمُولٍ وَإِهْمَالٍ وَتَوَاقُلٍ وَتَقَرُّدٍ بِالْمَصْلَحَةِ وَاسْتِنْدَادٍ بِالرَّأْيِ ، فَإِذَا دِينَارُهُمْ فِي أَيْدِينَا دِرْهَمٌ ، وَإِذَا نَحْنُ وَإِيَّاهُمْ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ كَالنَّخْلَةِ وَالذُّبَابَةِ عَلَى زَهْرَةٍ . . .

لَيْسَتْ لَنَا حِمَاسَةُ الْحَيَاةِ ، وَبِهَذَا تَخْتَلِفُ أَعْمَالُنَا وَأَعْمَالُهُمْ ، وَذَلِكَ هُوَ السِّرُّ أَيْضًا فِي أَنَّ أَكْثَرَ حِمَاسَتِنَا كَلَامِيَّةٌ مَخْصَةٌ ؛ إِذْ يَكُونُ الصُّرَاخُ وَالصِّيَاخُ وَالتَّشْدُّدُ وَنَحْوُهَا مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْفَارِعَةِ - تَنْفِيحًا لِلطَّبِيعَةِ السَّاكِتَةِ فِينَا ، وَتَنْوِينًا مِنْهَا بِغَيْرِ أَنْ نَجْهَدَ فِي التَّنْفِيحِ وَالتَّنْوِينِ . وَمِنْ هَذَا كَانَتْ لَنَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْكَلَامِ يَنْطَلِقُ الْلسَانُ فِيهَا لِلخُرُوجِ مِنَ الصَّمْتِ

(١) [ لَا يَنْسَى الْقَارِي أَنَّ هَذَا كَانَ فِي سَنَةِ ١٩٢١م ] .

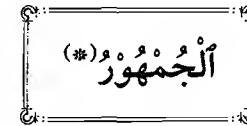
لَا غَيْرَ ... وَمِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْهَرَاءِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي يَدُورُ فِي الْمَجَالِسِ وَالْأَحْزَابِ وَالصُّحُفِ .

إِنَّ حَمَاسَةَ الشَّعْبِ لَا تَكُونُ عَلَى أَعْدَائِهِ فَقَطْ ؛ بَلْ عَلَى مَعَايِبِهِ أَيْضًا ، وَعَلَى ضَعْفِهِ بِخَاصَّةٍ ، وَالشَّعْبُ الْفَائِزُ فِي حِمَاسَتِهِ لَوْ نَالَ حَقَّيْنِ مَغْضُوبَيْنِ لَعَادَ فَخَسِرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ؛ أَمَّا الشَّعْبُ الْمُتَحَمِّسُ الْقَوِيُّ فِي حِمَاسَتِهِ ، فَلَوْ غُصِبَ حَقَّيْنِ وَنَالَ أَحَدُهُمَا لَعَادَ فَاقْتَبَرَ الْآخَرُ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ١٣



وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : كَانَ مِنْ بَعْضِ عَمَلِي فِي الْحُكُومَةِ سَنَةَ ١٩٢٢ أَنْ أَرَأَيْتُ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، وَابْتُتِ الْعُيُونُ وَالْأَرْصَادُ ، وَأَعْرِفَ الْمُضْطَرَبَّ وَالْمُنْقَلَبَ فِي أَيَّامِ الْفَتَنِ وَتَوَازِلِ الْمِحْنَةِ ، مُحَافَظَةً عَلَى الْأَمْنِ ، وَمُبَادَرَةً لِمَا يَتَوَقَّعُ ؛ فَكُنْتُ كَالْمَرْصِدِ الْمُهِمِّ بِالْأَلَةِ لِتَدْوِينِ حَرَكَاتِ الزَّلَازِلِ .

وَأَنْتَهَى إِلَيْنَا يَوْمًا أَنَّ رَاجِفَةً مِنْ هَذِهِ الزَّلَازِلِ سَتَرَجُفُ بِفُلَانٍ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ الْخُرِّ ؛ الَّذِي يَسْتَقِلُّ وَلَا يَتَابِعُ ، وَيَتَّقِدُّ وَلَا يُحَاطِي ، وَيُصْرِّحُ وَلَا يُجْمِجِمُ ، وَأَنَّ قَوْمًا تَوَرَّوْا عَلَيْهِ الْعُبَارَ الْأَدَمِيَّ مِنَ الْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ الْعَامَةِ ، وَأَنَّهُمْ يَتَحَيَّنُونَ الْوَقْتَ لِتَوَجُّعِهِ الْمَكِيدَةِ لَهُ فِي شَكْلِهَا الْمُفْتَرَسِ مِنْ هَذَا الْجُمْهُورِ النَّاقِمِ .

أَمَّا فُلَانٌ هَذَا فَارْجُلٌ سِيَاسِيٌّ عَيْنِدُ أَضَاعَ الْحَقَّ كُلَّهُ لِأَنَّهُ لَا يَرْضَى بِنِصْفِ الْحَقِّ ...

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٢ ، ٣ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٨٣ - ١٦٨٤ .

وَكَلِمَتُهُ فِي السِّيَاسَةِ كَأَنَّمَا تُنْقَى عَلَى لِسَانِهِ مِنَ الْغَيْبِ ؛ فَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهَا وَلَا يَمْلِكُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِمَا يَتَكَلَّمَ ؛ وَقَدْ ذَهَبَ بِصَوْتِهِ أَنَّهُ فِي قَوْمٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ كَالْحَقِّ الْمَغْلُوبِ : لَا يَمُوتُ لِأَنَّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ ، ثُمَّ لَا يَحْيَا لِأَنَّهُ لَا يَتَصَبَّرُ . وَقَدْ كَانَ رَجُلًا كَالْمِصْبَاحِ الْوَهَّاجِ فَالْقَوْمَا عَلَيْهِ الْغَطَاءُ ، فَإِذَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ وَيَبْدُو لِلنَّاسِ بِغَيْرِ طَبِيعَتِهِ ، وَتَرَكَهَ رَأْيُهُ الْحُرُّ الصَّرِيحُ كَالنَّبِيِّ الْمُكَدِّبِ يُرَدُّ عَلَيْهِ صِدْقُهُ ؛ لَا لِأَنَّهُ غَيْرُ صَدِيقٍ ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ ، أَوْ غَيْرُ مُلَائِمٍ .

وَمِنْ أَقَاتِنَا نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ أَنَّنَا نَسْتَمِرُّ الْعِدَاوَةَ ، وَنَتَقَادُ لِأَسْبَابِهَا ، وَنَتَطَاوَعُ لَهَا تَطَاوَعُ الصَّغَارِ بِأَنْفُسِهِمْ لِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ كَأَنَّ الْمُسْتَبِدِّينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي تَارِيخِنَا قَدِ انْتَقَلُوا إِلَى طَبَائِعِنَا ؛ فَرَدُّ الْفِكْرِ عَلَى الْفِكْرِ فِي مُنَاقَشَةٍ تَجْرِي بَيْنَنَا - لَا يَكُونُ مِنْ دَفْعِ الْحَقِيقَةِ لِلْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنْ مِنْ رَدِّ الْأَسْتِنَادِ عَلَى الْأَسْتِنَادِ ، وَمِنْ تَوَثُّبِ الطُّغْيَانِ عَلَى الطُّغْيَانِ ؛ فَهُوَ الثَّلْبُ وَالطَّعْنُ وَالتَّجْرِيعُ ، وَهُوَ الْجَفْوَةُ وَالْخُصُومَةُ وَاللَّدْدُ ، وَهُوَ الْمُنَارَعَةُ وَالْعُتْفُ وَالتَّحَامُلُ ؛ وَهُوَ بِهَيْدِهِ وَتِلْكَ شَرٌّ وَفَسَادٌ وَسُقُوطٌ . وَالْجِدَالُ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ يَبْعَثُ الْفِكْرَ فَيَنْتَهِي إِلَى الْحَقِّ ، وَلَكِنَّهُ فِينَا نَحْنُ يَهْنِجُ الْخُلُقَ فَيَنْتَهِي إِلَى الشَّرِّ ، وَالرَّدُّ عَلَى عَظِيمٍ مِنَّا كَأَنَّهُ يُرَدُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي النَّاسِ لَا عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي الرَّأْيِ ، وَكَشَفُ الْخَطَا عِنْدَنَا تَغْيِيرٌ بِالْخَطَا لَا تَبْصِيرٌ بِالصَّوَابِ ، وَاسْتِلَابُ الْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا وَإِفْسَادُهَا عَلَيْهِ كَاسْتِلَابِ الْمُلْكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرْدِهِ مِنْهُ ...

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الدَّفَاعُ بِالْمُكَابَرَةِ أَضَلًّا مِنْ أَصُولِ الطَّبِيعَةِ فِينَا ، وَكَانَ الْأَضْطِهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ الْعَاجِزَةِ ، وَكَانَ الْإِعْنَاتُ دَلِيلًا لِلدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ ، وَمَتَى أَعْتَبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ أَمِيرًا طُورًا عَلَى الْحَقِّ ... فَلَا جَرَمَ لَا تَرُدُّ كَلِمَةً عَلَى كَلِمَةٍ إِلَّا بِحَرْبٍ .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَكَبَّرَ الْأَمْرُ عَلَى الْبَاشَا ، فَجَمَعَ رُؤُوسَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ الْخُرِّ ، وَأَخَذَ يُقَلِّبُهُمْ تَقْلِيلَهُ بَيْنَ التَّوَدُّدِ وَالْمُلَاطَفَةِ ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ : إِنَّ فَضِيلَةَ الْجُمْهُورِ هِيَ الَّتِي تَضْمَنُ تَرْبِيَةَ الْفَضِيلَةِ وَحِفْظَهَا وَغَلَبَتِهَا عَلَى الرَّدَائِلِ ، وَإِنْ كُلُّ صَاحِبٍ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْجُمْهُورُ صَاحِبَهَا ، وَإِنْ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الْحَقِيقَةَ فِي

يَوْمَ ثُمَّ يُرْفَضُونَهَا هِيَ ذَاتَهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُجَادِلُهُمْ وَتَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبِلُوهَا - قَالُوا : هَذَا كَانَ أَمْسٍ ... فَكأنَّما الْفَاصِلُ بَيْنَ رَمَتَيْنِ يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ صِدَّيْنِ .

ثُمَّ سَأَلَهُمْ : مَا هُوَ ذَنْبُ الرَّجُلِ ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي الرَّأْيِ . فَقَالَ الْبَاشَا : إِنَّ الْمَعْنَى فِي أَنْ يُخَالَفَكَ هُوَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَهُ ؛ فَقَدْ تَكَافَأَتِ اللَّاحِظَانِ ، وَخِلَافٌ بِخِلَافٍ ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ حَقَّ رَدِّهِ عَنِ الرَّأْيِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ فِي رَدِّكُمْ أَنْتُمْ ؟

قَالُوا : إِنَّا الْكَثْرَةُ . قَالَ الْبَاشَا : يَا أَصْدِقَائِي ! إِنَّ خَوْفَ الْكَثْرَةِ مِنْ رَأْيٍ فَرْدٍ أَوْ أَفْرَادٍ هُوَ أَسْوَأُ الْمَعْنَيْنِ فِي تَفْسِيرِ رَأْيِهَا هِيَ ؛ وَعَشْرَةُ جُنَّهَاتٍ لَا تَعْبَأُ بِالْجُنَّةِ الْوَاحِدِ ، فَإِنَّهَا تَسْتَعْرِفُهُ ؛ يَبْدَأُ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ حَالُ عَشْرَةِ قُرُوشٍ يَا أَصْدِقَائِي !

نَعَمْ إِنَّ قَطْعَ الْخِلَافِ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْوَطَنِيَّةِ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ كَالْخِلَافِ فِي أَيِّهِمَا أَطْوَلُ : الْعَصَا أَوْ الْمِئْدَنَةُ ... ؟ فَذَلِكَ جِدَالٌ مَحْسُومٌ مِنْ نَفْسِهِ بِلَا جِدَالٍ .

إِنَّ أَسَاسَ اتِّخَاذِنَا نَحْنُ الشَّرَقِيِّينَ فِي قُلُوبِنَا ، إِذْ لَا نَعْتَبِرُ الْمَعَانِي الْعَامَّةَ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُمَا قَائِمَةٌ بِالرَّجَالِ ، ثُمَّ لَا نَعْتَبِرُ حَالَ الرِّجَالِ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةٍ مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ لَا نَعْتَبِرُ أَنْفُسَنَا إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يُرْضِينَا أَوْ يُغْضِبُنَا ، وَقَدْ لَا يُغْضِبُنَا إِلَّا الْحَقُّ وَالْجِدُّ ، وَقَدْ لَا يُرْضِينَا إِلَّا الْبَاطِلُ وَالْتِهَافُ ، وَلَكِنَّا لَا نُبَالِي إِلَّا مَا نَرْضَى وَمَا نَغْضِبُ .

لَسْتُمْ أَحْرَارًا فِي أَنْ تَجْعَلُوا غَيْرَكُمْ غَيْرَ حُرٍّ ، فَإِنْ يَكُنِ الرَّأْيُ الَّذِي يُعَارِضُكُمْ رَأْيًا حَقًّا وَتَرَكْتُمْ مُتَابِعَتَهُ فَقَدْ نَصَرْتُمْ الْحَقَّ ؛ وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا فَيُظَاهَرُهُ بَاطِلًا هُوَ بُرْهَانُ الْحَقِّ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ؛ وَلَنْ تُجَرِّدُوا أَحَدًا مِنْ اخْتِيَارِ الرَّأْيِ إِلَّا إِذَا تَجَرَّدْتُمْ أَنْتُمْ مِنْ اخْتِيَارِ الْعَدْلِ ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَهَلْذِهِ كِبْرِيَاءُ ظَالِمَةٍ ، تَدَّعِي أَنَّهَا الْحَقُّ ، ثُمَّ تَدَّعِي لِنَفْسِهَا حُكْمَهُ ، فَقَدْ كَذَبَتْ مَرَّتَيْنِ .

اسْمَعُوا أَيُّهَا السَّادَةُ ! قَامَتِ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الرَّأْيِ مُنَاطَرَةٌ فِي صَحِيْفَةٍ مِنْ الصُّحُفِ ، وَتَسَاجَلَا فِي مَقَالَاتٍ عِدَّةٍ ، فَلَمَّا عَجَزَ أَضْعَفُهُمَا حُجَّةً وَكَعَمَهُ الْجِدَالُ ، كَتَبَ

مَقَالَتَهُ الْأَخِيرَةَ فَجَاءَتْ سَقِيمَةً ، فَلَمْ تَرْضِهِ فَبَيَّهَهَا وَنَامَ عَنْهَا عَلَى أَنْ يُرْسِلَهَا مِنَ الْغَدَاةِ بَعْدَ أَنْ يُرَدِّدَ نَظَرَهُ فِيهَا وَيُصَحِّحَ آرَاءَهُ بِالْحُجَجِ الَّتِي يُفْتَحُ بِهَا عَلَيْهِ . قَالُوا : فَلَمَّا نَامَ تَمَثَّلَتْ لَهُ الْمَقَالَةُ فِي أَحْلَامِهِ جِسْمًا حَيًّا مُوهُونًا مُتَرَضِّضًا ، مَخْلُوعًا مِنْ هُنَا مَكْسُورًا مِنْ هُنَاكَ ، مَجْرُوحًا فِيمَا بَيْنَهُمَا ؛ ثُمَّ كَلَّمَتْهُ فَقَالَتْ لَهُ : وَيْحَكَ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ! إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَغْلِبَ صَاحِبَكَ وَتُسْكِنَهُ عِنْدَكَ ، فَاحْمِلْ مَقَالَتَكَ إِلَى رَأْسِهِ فِي الْعَصَا لَا فِي الْجَرِيدَةِ ...

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَصَحِكَ الْقَوْمُ جَمِيعًا ، وَأَذَعَنُوا وَانْصَرَفُوا مُفْتَعِنِينَ ، قَدْ خَلَصَتْ دِخْلَتُهُمْ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْحُرِّ ، وَتَنَصَّلُوا مِنْ جَرِيمَةٍ كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا جَاءَ الْبَاشَا بِمُعْجَزٍ مِنَ الْقَوْلِ ، وَلَكِنَّ تَصْوِيرَهُ لِلْمَسْأَلَةِ كَانَ حَلًّا لَهَا فِي نَفْسِهِمْ . فَلَمَّا أَذْبَرُوا تَنَفَّسَ الْبَاشَا كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ وَكَانَ يَتَعَاطَى إِنْقَازَ غَرِيبٍ وَيَعَانِي فِيهِ حَتَّى نَجَا ؛ ثُمَّ قَالَ لِي : إِنَّ هَذَا كَانَ جَوَابًا عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ سُؤَالٌ عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِنَا : مَا الَّذِي يَجْعَلُ النَّاسَ عِنْدَنَا يَخْشَوْنَ الْمُعَارَضَةَ فِي الرَّأْيِ الْوَطَنِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَجَارُونَ عَلَيْهَا بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْمُتَكَرِّرَةِ ؟ وَمَا بِالْهَمِّ لَا يُعْطُونَ الرَّأْيَ حُكْمَهُ وَحَقِيقَتَهُ ، بَلْ يُعْطُونَهُ مِنْ حُكْمِ أَنْفُسِهِمْ وَحَقَائِقِهَا وَشَهَوَاتِهَا الْمُتَقَلِّبَةِ ، حَتَّى لَتَرْجِعُ الْقُرُوفُ الضَّعِيفَةُ الْمُتَجَانِسَةَ فِي أَتْنَاءِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ وَكَأَنَّهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالْمُبَايَنَةِ قُرُوفٌ جَنَسِيَّةٌ كَالَّتِي تَكُونُ بَيْنَ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ ، وَإِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى تُعَادِيهَا [ به ] ؟

قُلْتُ : إِنَّ رَأْيَ الْكَثْرَةِ قَانُونٌ يَا بَاشَا ! .

قَالَ : هَذَا صَحِيحٌ ، وَلَكِنْ بِشَرْطَيْنِ لَا بِشَرْطٍ وَاحِدٍ : الْأَوَّلُ أَلَّا يَخْرُجَ الرَّأْيُ عَلَى الْقَانُونِ ، وَالثَّانِي أَلَّا تَكُونَ الْحَقِيقَةُ فِي الرَّأْيِ الَّذِي يُنَاقِضُهُ ؛ وَمُحَاوَلَةُ إِخْرَاجِ الْمُعَارَضَةِ نَقْضٌ لِلشَّرْطَيْنِ مَعًا<sup>(١)</sup> ؛ ثُمَّ إِنَّ أَسَاسَ الْوَطَنِيَّةِ سَلَامَةُ الْقُلُوبِ وَصَفَاءُ الْكَلِمَاتِ ، وَاسْتِوَاءُ الْمَوَافِقِ وَالْمُخَالَفِ فِي هَذَا الْحُكْمِ ، وَمَتَى وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَكَانَتِ الْبَيَّةُ صَادِقَةً مُخْلِصَةً ، لَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمَا إِلَّا مِنْ تَنَوُّعِ الرَّأْيِ ، وَانْتِهَيَا إِلَى الْإِتِّفَاقِ بِغَلَبَةِ أَقْوَى الرَّأْيَيْنِ ،

(١) لا يَنْسَى الْقَارِئُ أَنَّ هَذَا كَانَ سَنَةَ ١٩٢٢ م .

مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ .

الْحَقِيقَةُ يَا بَنِيَّ أَنَّ الْجَمَاهِيرَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي تَرْبِيَّتِهَا مِنَ الْجَمَاهِيرِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يُعْتَدُ بِهَا ، إِذْ لَا تَرَالُ فِي أَوَّلِ عُمْرِهَا السِّيَاسِي ، وَبِهَذَا السَّبَبِ وَحْدَهُ كَانَ اخْتِلَافُ الْكُبَرَاءِ فِي السِّيَاسَةِ لَا يُشَبِّهُهُ إِلَّا نِزَاعُ الْخَصْمَيْنِ بَغَيْرِ شُهُودٍ وَلَا قَاضٍ نَافِذِ الْحُكْمِ ، فَهُوَ نِزَاعٌ قُوَّةً تَفُوزُ بِوَسَائِلِهَا ، لَا نِزَاعٌ حَقٌّ يَسْتَعْلِي بِأَدْلَتِهِ .

وَهَذِهِ الْمَجَالِسُ النِّيَابِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ كُلُّهَا صُورٌ مُثَمِّلَةٌ جَافَةٌ ، مُنْقَطَعَةُ اللَّمَاءِ مِنْ أَسْبَابِهَا ، كَالْفَرْعِ الْمَقْطُوعِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَضِرُ الْفَرْعُ وَيُثْمِرُ أثمارَهُ إِذَا قَامَ بِشَجَرَتِهِ لَا بِنَفْسِهِ ، وَمَا شَجَرَةُ الْفَرْعِ السِّيَاسِيِّ إِلَّا الْجُمْهُورُ السِّيَاسِيُّ .

فَسَبِيلُ الإِصْلَاحِ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ شَرْقِيَّةٍ أَنْ يَنْهَضَ أَهْلُ الرِّأْيِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ فِيهَا بَيْنَ عَالِمٍ وَأَدِيبٍ وَمُحَامٍ وَسَرِيٍّ ، وَمَنْ كَانَ سَبِيلُ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَيَجْعَلُوا لِمَدِينَتِهِمْ دَارَ نَدْوَةٍ لِلاجْتِمَاعِ وَالْبَحْثِ وَالْمُسَوْرَةِ ، وَقَوْلِ (نَعَمْ) بِالْحُجَّةِ وَقَوْلِ (لَا) بِالْحُجَّةِ . ثُمَّ يَغْلِيئُونَ ذَلِكَ فِي جُمْهُورِهِمْ وَيَنْزِلُونَ مِنْهُ مَنَزِلَةَ الْأُسْتَاذِ وَالْأَبِ وَالصَّدِيقِ فِي تَعْلِيمِهِ وَهَدَايَتِهِ وَإِرشَادِهِ ؛ وَتَتَّصِلُ هَذِهِ الدُّوَرُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَتَنْتَهِي بِالْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ . وَبِغَيْرِ ذَلِكَ لَا يُنْمَلُ الْفَرَاغُ الَّذِي تَرَاهُ خَاوِيًا بَيْنَ الشَّعْبِ وَالْحُكُومَةِ ، وَبَيْنَ الْكُبَرَاءِ وَالْجَمَاهِيرِ ، وَإِنَّمَا أَكْثَرُ مَصَائِبِنَا مِنْ هَذَا الْفَرَاغِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَضِيغُ فِيهِ مَا يَضِيغُ فِيهِ ، وَيَخْتَفِي مَا يَخْتَفِي .

مِمَّا قَوْمٌ مُوظَّفُونَ فِي الْحُكُومَةِ ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ تَكُونُ الْحُكُومَةُ نَفْسُهَا مُوَطَّئَةً عِنْدَهُمْ ؟

\* \* \*

(أَعْتَذَرُ) : بِهَذَا الْمَقَالِ انْتَهَتْ أَحَادِيثُ الْبَاشَا ؛ فَقَدْ أَنْبَأَنَا صَاحِبُ السَّرِّ أَنَّهُ سَيَكْتُمُ السَّرَّ . . . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



جَاءَ يَمْشِي هَادِئًا يَتَخَيَّلُ فِي مَشْيِهِ ، يَرْجُفُ بَيْنَ الْخُطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ كَأَنَّهُ مِنْ كِبَرِهِ يُشْعِرُكَ أَنَّ الْأَرْضَ مُذَرَّكَةٌ أَنَّهُ يَمْشِي فَوْقَهَا . . . وَلَا يَنْقُلُ قَدَمَهُ إِذَا خَطَا حَتَّى يَنْهَضَ بِرَأْسِهِ يَحْرُكُهُ إِلَى أَعْلَى ، فَمَا تَذَرِي أَهْوَى يُرِيدُ أَنْ يَطْمِئِنَّ إِلَى رَأْسِهِ مَعَهُ . . . أَمْ يُحَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا الرَّأْسَ الْعَظِيمَ قَدْ وُضِعَ عَلَى جِسْمِهِ فِي مَوْضِعِ رَأْيَةِ الدُّوَلَةِ ، فَهُوَ يَهْزُهُ هَزَّ الرَّايَةِ . . .

وَأَخَذَتْهُ عَيْنِي وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا طُولُ غُرْفَةٍ وَعَرْضُهَا - فَإِذَا هُوَ زَائِعُ الْبَصَرِ كَأَنَّمَا وَقَعَ فِي صَحْرَاءٍ يَغْلُبُ عَيْنَهُ فِي جِهَاتِهَا مُحْتَرِّدًا ، ثُمَّ كَأَنَّمَا رُفِعَ لَهُ فِي أَفْصَاهَا جَبَلٌ فَأَخَذَ إِلَى نَاجِيَتِهِ . . .

وَرَحَّبْتُ بِهِ ، وَأَجْلَسْتُهُ إِلَى جَانِبِي ، فَأَخَذَ يَسْتَعْرِفُ إِلَيَّ بِذِكْرِ اسْمِهِ وَجَمَاعَتِهِ وَبَلَدِهِ ، لَا يَرِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ، كَأَنَّهُ عَشْرَةُ بَنِي عَبَسَ : لِأَرْضِهِ مِنْ طَبِيعَتِهَا جُغْرَافِيًا ، وَمِنْ اسْمِهِ جُغْرَافِيًا عَلَى حِدَةٍ . . . فَلَمَّا رَأَيْتُ لَا أَثْبِتُهُ مَعْرِفَةً قَالَ : إِنَّ بَكَ نِسْبَانَا .

قُلْتُ : وَكَثِيرًا مَا أُنْسَى ، غَيْرَ أَنَّ اسْمَكَ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تُذَكِّرُ بِتَارِيخِ . قَالَ : هَذِهِ غَلْطَةُ الْجَرَائِدِ . . . وَمَهْمَا تَنَسَّ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَنَسَّ أَنَّكَ أُسْتَاذُ « نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » (١) . . .

فَسَرَّخْتُ فِيهِ نَظْرِي ، فَإِذَا أَنَا بِمَجْنُونٍ ظَرِيفٍ أَمْرَدٍ أَهْيَفَ ، يَكَادُ بِرِخَاوَتِهِ وَتَفَكُّكِهِ لَا يَكُونُ رَجُلًا ، وَيَكَادُ يَبْدُو أَمْرَأَةً بِجَمَالِ عَيْنَيْهِ وَفُتُورِهِمَا .

وَتَوَسَّمتُ فَإِذَا وَجْهٌ سَاكِنٌ مُنْسَبِطٌ الْأَسَارِيرُ مَمْسُوحُ الْمَعَانِي ، يُنْبِئُ بِانْقِطَاعِ صَاحِبِهِ مِمَّا حَوْلَهُ ، كَأَنَّ دُنْيَاهُ لَيْسَتْ دُنْيَا الْكَاسِ ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا رَأْسِهِ . . .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٥ ، ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٥ نوفمبر / تشرين الآخر ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ١٨٨٣ - ١٨٨٦ .

(١) هَذَا الشَّابُّ الْمَجْنُونُ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ ، وَكَانَ قَدْ انْتَهَى إِلَى مَدْرَسَةِ الْمُتَعَلِّمِينَ الْأَوَّلِيَّةِ ، ثُمَّ خُوِّلَ فِي عَقْلِهِ فَتَرَكَهَا ؛ وَكُلُّ مَا يَمُرُّ فِي هَذَا الْمَقَالِ بَيْنَ قَوْسَيْنِ فَهُوَ بِتَصَدُّقٍ مِنْ كَلَامِهِ .

وَتَأَمَّلْتُ فَإِذَا طُفُولَةٌ مُبَلَّدَةٌ قَدْ ثَبَّتْ فِي هَذَا الْوَجْهِ لِتُخْرِجَ مِنْ بَيْنِ الرَّجُلِ وَالطُّفْلِ مَجْنُونًا لَا هُوَ طِفْلٌ وَلَا رَجُلٌ .

وَفَرَسْتُ فَإِذَا آثَارُ مَعْرَكَةٍ بَادِيَةٍ فِي هَذِهِ الصَّفْحَةِ ، فَتَلَاها أَفْكَارُ الْمُسْكِينِ وَعَوَاطِفُهُ .

وَتَبَيَّنْتُ فَإِذَا رَجُلٌ مُسْتَرْخٍ ، مُتَفَتِّرُ الْبَدَنِ ، خَائِرُ النَّفْسِ ، كَأَنَّهُ قَائِمٌ لِنَوَى مِنَ النَّوْمِ فَلَا تَرَالُ فِي عَيْنِهِ سِتَّةٌ ، وَكَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مِنْ بَقَايَا حُلُمٍ كَانَ يَرَاهُ . . .

وَحُيِّلَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا الْخُمُولِ فِي هَذَا الشَّابِّ ، أَنَّ عَلَيْهِ جَوْاءَ مِنْ تَأْوِيهِ ، وَأَنَّ الْمَكَانَ كُلَّهُ يَتَنَاءَبُ ، فَتَنَاءَبْتُ . . .

\* \* \*

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنِّي ضَحِكَ وَقَالَ : إِنَّ « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » رَجُلٌ مِغْنَاتِيْسِي عَظِيمٌ ؛ فَهَا هُوَ ذَا قَدْ أَلْقَى عَلَيْكَ النَّوْمَ . . . وَحَسْبُكَ فَخْرًا أَنْ تَكُونَ أَسْتَاذَهُ وَأَخَاهُ وَرِثَقَتَهُ ، « فَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِهَا الْيَوْمَ أَدِيبٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ . . . »

قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّا لِلَّهِ ، مَا يَغْتَفِدُ الرَّجُلُ أَنَّ عَلَى ظَهْرِهَا مَجْنُونًا غَيْرُهُ وَغَيْرِي ، وَكَأَنَّمَا أَلَمَ بِذَلِكَ فَقَالَ : لَسْتُ مَجْنُونًا ؛ وَلَكِنِّي كُنْتُ فِي الْبِيمَارِسْتَانِ . . .

قُلْتُ : أَهُوَ الْبِيمَارِسْتَانُ الَّذِي يُسَمَّى مُسْتَشْفَى الْمَجَازِيبِ ؟

قَالَ : لَا ؛ إِنَّ هَذَا الَّذِي تُسَمِّيه أَنْتَ ، { هُوَ } هُوَ مُسْتَشْفَى الْمَجَازِيبِ ؛ أَمَّا الَّذِي سَمَّيْتُهُ أَنَا فَهُوَ مُسْتَشْفَى فَقَطْ . . .

وَذَكَرْتُ عِنْدِي أَنَّنِي مِنَ الْمَجَانِينِ قَوْمًا طُرَفَاءَ يَدْخُلُهُمُ الْفَسَادُ فِي عُقُولِهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ فِكْرَةٍ مُلَازِمَةٍ لَا تَبْرُحُ ، فَلَا يَكُونُ جُنُونُهُمْ جُنُونًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَسَائِرُ أَحْوَالِهِمْ كَأَحْوَالِ الْمَقْلَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ طَائِفُونَ مُتَقَلِّبُونَ ، إِذَا أَرَادَهُمْ أَحَدُهُمْ لَمْ يُطْفِئْهُ النَّاسُ مِنْ رَهْوِهِ وَكِبَرِيَائِهِ وَتَوَطُّعِهِ ، كَأَنَّهُ وَاحِدُ الدُّنْيَا فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَكَأَنَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَسْرَارًا ؛ وَيَظُنُّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ أَعْقَلَ النَّاسِ فِي أَرْقَى طَبَقَاتِ عَقْلِهِ ، وَمَا جُنُونُهُ إِلَّا فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَحْدَهَا .

وَمِثْلُ هَذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ يَسْتَجِيبَ لِهَذَيْنَا كَيْمَا يُحَرِّكَ فِيهِ خِفَتَهُ وَطِينَتَهُ وَرَهْوَهُ ، وَلِيَكُونَ عِنْدَهُ الشَّاهِدُ عَلَى هَذَا الْوُجُودِ الْخَيَالِيِّ الْمُبْدَعِ الَّذِي لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي عَقْلِهِ

الْمُخْتَلِّ . فَإِذَا هُوَ ظَفِيرٌ يَمُنُّ بِحَاسِنَتِهِ ، أَوْ يُصَانِعُهُ ، أَوْ يُجَارِيهِ ، حَسِبَهُ مُذْعِنًا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا ، فَلَا يَدْعُهُ مِنْ بَعْدِهَا وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَشَدَّ التَّعَلُّقِ ، وَيَرَاهُ كَأَنَّهُ فِي مُلْكِهِ . . . فَيَجْجِدُهُ صَفِيًّا وَهُوَ يَغْتَفِدُ أَنَّهُ رَقِيقٌ ؛ وَقَدْ يَزْعُمُهُ أَسْتَاذُهُ لِيُنْهِمَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحِسَابِ عَقْلِهِ . . . أَنَّهُ تَلْمِيزُهُ .

وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) لَمْ يُسَمِّنِي أَسْتَاذَهُ إِلَّا بِحِسَابِ مِنْ هَذَا الْحِسَابِ ، فَهُوَ سَيُعْطِي الْأَسْتَاذِيَّةَ حَقَّهَا ، وَلَكِنْ كَمَا هُوَ حَقُّهَا فِي لُغَةِ جُنُونِهِ . . . فَأَصْبَحُ فِي رَأْيِهِ تَلْمِيزُهُ وَصَنِيعَتُهُ ، وَمُحَدِّثُ هَذَيْنَا ، وَرِثَقَتُهُ وَمَلَجَأُهُ ، وَالْمُحَامِي مِنْ وَرَائِهِ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا أَنَا تَرَكْتُهُ جَالِسًا كَانَ هَذَا الْمَجْلِسُ مَتَابَعَةً مِنْ بَعْدِ ، فَلَا يَغْرِفُ لَهُ مَحَلًّا غَيْرَهُ ، وَيُضَيِّحُ كَمَا يُقَالُ فِي تَغْيِيرِ الْقَانُونِ « مَحَلُّهُ الْمُخْتَار » ، فَيَسْطَرُؤُا إِلَيَّ لِسَبَبٍ وَلِغَيْرِ سَبَبٍ ، وَيَقَعُ فِي أَوْقَاتِي وَفُورِ السَّهْرِ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ ، وَيَضِيغُ فِيهِ مَا يَضِيغُ . فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَصْرِفَهُ رَاضِيًا بِالنَّيَاسِ ؛ وَقَدْ أَنْتَهَتْ نَفْسُهُ مِنْ مَعْرِفَتِي ، وَأَنْتَهَى عَقْلُهُ إِلَى الرَّأْيِ أَنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ أَسْتَاذًا ، لَا بِحِسَابِهِ هُوَ وَلَا بِحِسَابِ النَّاسِ .

قُلْتُ لَهُ : ظَنَنْتُ بِكَ أَنَّكَ أَسْتَاذُ نَفْسِكَ ، وَلَا يَخْسُرُ بِنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَسْتَاذٌ ؛ وَأَرَاكَ قَدْ فَرَّغْتَ لِلْأَدَبِ ، أَمَّا أَنَا فَمَشْغُولٌ بِأَعْمَالٍ وَظِيفَتِي ، وَقَدْ جَاءَ مِنَ الْعَمَلِ مَا تَرَاهُ ، وَتَكَادُ لَا تَقْبِي بِهِ السَّاعَاتُ الْبَاقِيَةَ مِنَ الْوَقْتِ وَ . . .

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ : إِنَّ الْوَقْتَ لَيْسَ فِي السَّاعَةِ ؛ وَالذَّلِيلُ أَنِّي أُعْطِلُهَا فَيَتَعَطَّلُ الْوَقْتُ ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا يَوْمٌ وَلَا سَاعَةٌ وَلَا ثَانِيَةٌ وَلَا دَقِيقَةٌ .

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ إِذَا عَطَلْتَهَا لَمْ تَتَعَطَّلِ الشَّمْسُ الَّتِي تُعَيِّنُ مَنَازِلَ النَّهَارِ ، فَسَيَمُرُّ الظُّهُرُ وَيَجِيئُ الْعَصْرُ وَ . . .

قَالَ : وَيَأْتِي عَدَدٌ ، وَإِنَّمَا أَنَا مَعَكَ الْيَوْمَ فَقَطْ . . . وَيَجِبُ أَنْ تَغْتَبِطَ بِأَنَّكَ أَسْتَاذُ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَقَدْ قَرَأْتُ الْكَثِيرَ فِي الْأَدَبِ وَقَرَأْتُكَ ، فَمَا كَانَ لِي رَأْيٌ إِلَّا رَأْيُهُ لَكَ . . . وَلَا صَحَّحْتُ عِنْدِي نَظْرِيَّةً إِلَّا رَأَيْتُكَ قَدْ أَبْدَيْتَهَا ، وَأَنَا لَا أَغْفِدُ أَدَبًا فِي مِصْرٍ إِلَّا مَا تَوَافَيْتَا عَلَيْهِ مَعًا « وَلَا أَسْلَمُ جَدًّا ، وَلَا جَدًّا أَسْلَمَ أَنْ فِي مِصْرٍ أَدَبَاءٌ يَنَالُونَ مِنِّي شَيْئًا ،

فَهُوَ أَنَا وَأَنَا هُوَ<sup>(١)</sup> ، وَلَكِنْ لَمْ يُذْعِنُوا (لِنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ « وَقَعُوا مِنِّي مَوْقِعَ نَمْلَةٍ عَلَى صَخْرَةٍ ... هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُرِيدُ « سَكَاتٍ » وَلَيْسَ مَعِيَ نَمْلَتُهَا » ...

فَهَلَّلْتُ وَأَسْتَبَشَرْتُ ، وَقُلْتُ لَهُ : هَذَا قَرْشٌ فَهَلُمَّ فَاشْتَرِ بِهِ دَخَائِلَكَ ، وَفِي رِعَايَةِ اللَّهِ . ثُمَّ اسْتَوَيْتُ لِلْقِيَامِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُمْ ؛ بَلْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ ...

\* \* \*

وَكَرِهْتُ أَنْ أَتَغَيَّرَ لَهُ وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي هَذَا صَحِيحُ التَّمْيِيزِ ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا قَالَ : إِنَّ « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » قَتَلَتْ قَوِيَّ الْإِرَادَةِ ؛ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَضْبِرْ عَنِ التَّدْخِينِ سَاعَاتٍ فَمَا هُوَ بِصَبُورٍ ... وَإِذَا لَمْ يَنْبُثْ لَكَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مُعَايِنَةٍ ... فَمَا أَغْطَيْتَهُ حَقَّهُ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَقَدْ عَرَسْتُ الرَّجُلَ مِنْ حَيْثُ أَرَدْتُ افْتِلَاعَهُ ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ مِنْ عُقَلَاءِ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةُ أحيانًا فتلهمهم آيات من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوايغ المنطقي ؛ وَذَكَرْتُ (بُهْلُولَ) الْمَجْنُونِ الَّذِي حَكَّوْا عَنْهُ أَنَّ أَبْرَاهِيمَ الشَّيْبَانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَبِيصًا<sup>(٢)</sup> فَقَالَ لَهُ : أَطْعِمْنِي . قَالَ : لَيْسَ هُوَ لِي ، إِنَّمَا هُوَ لِعَاتِكَةَ بِنْتِ الْخَلِيفَةِ بَعَثَتْهُ إِلَيَّ لِأَكْلِهِ لَهَا ...

وَقَالُوا : إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْبَرَّازِينَ فَرَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَى بَابٍ وَكَانَ قَدْ نُقِبَ ، فَتَنَظَّرَ فِيهِ وَقَالَ : اتَّعْلَمُونَ مَنْ عَمِلَ هَذَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَأَنَا أَعْلَمُ .

فَقَالُوا : هَذَا مَجْنُونٌ يَرَاهُمْ بِاللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَوْنَهُ ، فَالْطَّفُوا بِهِ لَعَلَّهُ يُخْبِرُكُمْ . ثُمَّ قَالُوا : أَخْبِرْنَا . قَالَ : أَنَا جَائِعٌ . فَجَاوَزَهُ بِطَعَامٍ سَنِيٍّ وَحَلَوَاءٍ ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ فَتَنَظَّرَ فِي الثُّقْبِ وَقَالَ : هَذَا عَمَلُ الْأَلْصُوصِ ...

وَكَانَتْ مَجْلَّةُ (الرِّسَالَةِ) فِي يَدِ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَوَصَلَ الْكَلَامَ بِهَا وَقَالَ : إِنَّهُ

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ هُوَ كَلَامُهُ بِتَصْوِيرِ كَمَا نَبَّهْنَا إِلَى ذَلِكَ ، وَالْبَاقِي تَرْجُمَتُهُ نَحْنُ عَنْ مَعَانِيهِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي فِي هَذِهِ سَبِيلُهُ .

(٢) طَعَامٌ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُ مِنَ التَّنَمْرِ وَالسَّمَنِ .

يَقْرَأُ كُلُّ مَقَالَتَيْنِ ، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ ، وَإِنَّهَا وَإِنَّهَا . قُلْتُ : فَمَا اسْتَحْسَنْتَ مِنْهَا ؟ قَالَ : (مَقَالَةُ السَّيِّمَا) ...

فَقُلْتُ : مَتَى كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَا السَّيِّمَا ؟ قَالَ : أَمْسٍ .

قُلْتُ : فَأَنَا لَمْ أَكْتُبْ مَقَالًا عَنِ السَّيِّمَا ، وَلَكِنَّكَ أَعْجَبْتَ بِمَا رَأَيْتَ أَمْسٍ فَتَحَوَّلَ مَا رَأَيْتَهُ حُلُمًا فِي مَقَالَةٍ .

فَاعْجَبُهُ هَذَا التَّأْوِيلُ وَقَالَ : بِمِثْلِ هَذَا أَنَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَأَقْرَأْ مَقَالَتَكَ فِي الْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتُبَهَا ...

قُلْتُ : إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ عَنْ نَفْسِكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَهَذَا يَخْصُرُ نُبُوغَكَ فِي قَرْنٍ بَعِيْنِهِ ؛ فَلَوْ قَطَعْتَ الْكَلِمَةَ وَقُلْتَ : (نَابِغَةُ الْقَرْنِ) ، لَصَحَّ أَنْ تَكُونَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالثَّامِنِ عَشَرَ ، وَمَا قَبْلَهُمَا وَمَا بَعْدَهُمَا .

فَرَأَيْتُ بِهِ شِدْهَةً كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي جُنُونِهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَقَالَ : لَا . لَا ؛ وَإِنَّهَا هُنَا مَوْضِعُ نَظَرٍ ، فَلَوْ رَضِيتُ بِنَابِغَةِ الْقَرْنِ فَقَطْ ، لَجَاءَ مَنْ يَقُولُ : إِنِّي نَابِغَةُ قَرْنٍ خُرُوفٍ ...

\* \* \*

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : حَمَاءَةٌ مُدَّتْ بِمَاءٍ<sup>(١)</sup> ، وَإِنَّ هَذِهِ الْوَسَاسِ لَا تَنْفَكُ تَعْرِوْ هَذَا الْمَسْكِينَ مَا وَجَدَ مِنْ يُكَلِّمُهُ ؛ وَالْأَفْكَارُ فِي ذَهْنِهِ مُجْتَمِعَةٌ مُخْتَلِطَةٌ مُسْتَرْسِلَةٌ كَأَنَّهَا نُورَةٌ مِنْ الْكَلَامِ لَا نِظَامَ لَهَا ، فَلَأَسْكُتُ عَنْهُ وَلَا تَشَاغَلَ بِمَا بَيْنَ يَدَيَّ .

وَسَكْتُ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ ؛ فَجَعَلَ طَائِفُهُ يَغْتَرِيهِ ، وَكَانَ السُّكُوتُ قَدْ سَاطَ أَفْكَارُهُ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهَا أَخَذَتْ تَصْنِيعَ بِهِ فِي رَأْسِهِ كَمَا يَصْنَعُ غُلَمَانُ الطَّرِيقِ بِالْمَجْنُونِ ، لَا يَزَالُونَ بِهِ حَتَّى يُخْرِدُوهُ وَيَفْقِدُوهُ الْبَقِيَّةَ مِنْ صَبْرِهِ وَعَقْلِهِ مَعًا . فَغَضِبَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) وَنَقَلَهُ الْغَضَبُ إِلَى حَالَةٍ زَمَهَرَتْ فِيهَا عَيْنَاهُ<sup>(٢)</sup> ، وَكَلَعَ وَجْهَهُ حَتَّى خِفَتْ أَنْ يُتَوَرَّ بِهَا الْجُنُونُ ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَتَعَلَّلْتُ بِسُؤَالِهِ : أَلَمْ يَنْبَغْ فِيهِمْ نَابِغَةٌ ... ؟

(١) هَذَا مَثَلٌ فِي مَعْنَى : زَادَ الطَّيْنُ بَلَّةً ، وَالْحَمَاءَةُ إِذَا مَدَّهَا بِالمَاءِ زَادَتْ وَأُتْسَعَتْ .

(٢) أَيْ : لَمَمَتْ غَضَبًا .

قَالَ : إِنَّ لَهُ أَخَا يُعَذِّبُهُ ، وَيُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا ، وَيَغْلُلُهُ بِالسَّلَاسِلِ ، وَيَشُدُّهُ « بِأَمْرَاسٍ كَثَانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ »<sup>(١)</sup> ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَوْ أَنْزَلَهُ بِحَجَرٍ لَتَأَلَّمَ .

قُلْتُ : فَأَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَاحَةٍ ، وَيَخْسُنُ بِكَ أَنْ تَأْوِي إِلَى مَكَانٍ تَتَمَدَّدُ فِيهِ .

قَالَ : إِنِّي مُنْصَرِفٌ وَسَاجِلِسٌ فِي نَدْيٍ كَذَا<sup>(٢)</sup> « هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْقَهْوَةِ » .

قُلْتُ : فَهَذَا قَرْشٌ تَذَعُّهُ ثَمَنًا لَهَا ، فَأَذْهَبَ فَاسْتَمْتَعَ بِهَا وَبِالتَّذَخِينِ وَبِالرَّاحَةِ فِي ذَلِكَ اللَّيْلِ ، فَالْمَكَانُ هَا هُنَا كَثِيرُ الصُّجُجِ وَالْحَرَكَ . وَاسْتَوْفَزْتُ لِلْقِيَامِ ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَلَّلْ مِنْ مَجْلِسِهِ .

\* \* \*

ثُمَّ قَالَ : أَرَأَيْكَ أَلَانَ مُسْتَبْصِرًا أَنِّي (نَابِغَةُ الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ) بِعَيْنِهِ .

قُلْتُ : بَلْ بِعَيْنَيْهِ الْيُمْنَى وَالْيُسْرَى مَعًا ...

قَالَ : لَا . لَا ؛ إِنَّكَ نَسِيتَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ فِي التَّوَكُّيدِ : عَيْنُهُ وَنَفْسُهُ وَذَاتُهُ . « أَيُّ أَنَا نَابِغَةُ الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ بِعَيْنِهِ وَنَفْسِهِ وَذَاتِهِ ، فَلَيْسَ غَيْرِي نَابِغَةُ الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ » .

وَكَادَتْ نَفْسِي تَخْرُجُ غَيْظًا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الْحِلْمَ عَلَى مِثْلِ هَذَا يَجْرِي مَجْرَى الصَّدَقَةِ ؛ وَقُلْتُ : إِنَّ أَدْبَاءَ الْمَجَانِينِ كَثِيرًا مَا يَتَّفِقُ لَهُمُ الْإِبْدَاعُ الطَّرِيفُ إِذَا عُلِّلُوا شَيْئًا ، كَذَلِكَ الْفَاصِلُ الَّذِي كَانَ يَقْصُرُ عَلَى الْعَامَّةِ سِيرَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ : إِنَّ الدُّنْبَ الَّذِي أَكَلَ يُوسُفَ كَانَ أَسْمُهُ كَذَا ؛ فَرَدُّوا عَلَيْهِ : إِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَأْكُلْ الدُّنْبَ . قَالَ : فَهَذَا هُوَ أَسْمُ الدُّنْبِ الَّذِي لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفَ .

فَقُلْتُ لِلْمَجْنُونِ : فَمَا الْعِلَّةُ عِنْدَكَ فِي أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَقُولُوا فِي التَّوَكُّيدِ : عَيْنُهُ وَأَذُنُهُ وَأَنْفُهُ وَفَمُّهُ وَيَدُهُ وَرِجْلُهُ ؟

(١) هَذَا عَجَزُ بَيْتٍ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ . بِسَامِ .

(٢) نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ « اللَّيْلِ » لِمَكَانِ الْقَهْوَةِ .

فَتَنَظَّرَ نَظْرَةً فِي الْفَضَاءِ ثُمَّ قَالَ : لَيْسُوا مَجَانِينَ فَيَخْلِطُوا هَذَا الْخَلْطَ ، وَإِلَّا وَجِبَ أَنْ يَقُولُوا مَعَ ذَلِكَ : وَعِمَامَتُهُ وَنُوبُهُ وَتَغْلُهُ وَبَعِيرُهُ وَشَاتُهُ وَدَرَاهِمُهُ . « هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ أَجْرَةُ السَّيَّارَةِ إِلَى بَلَدِي وَهِيَ قَرْشَانِ » .

قُلْتُ : هَلْ هِيَ أَجْرَةُ السَّيَّارَةِ وَصَحْبَتِكَ السَّلَامَةُ ؛ وَنَهَضْتُ وَاقِفًا ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ .

\* \* \*

ثُمَّ قَالَ : إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفْ بَعْدُ « أَنِّي أَقُولُ الشُّعْرَ فِي الْعَزْلِ وَالنَّسَبِ وَالْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ وَالْفَخْرِ ؛ وَأَنِّي فِي الْخَطَابَةِ قِسٌّ بَنُ سَاعِدَةٍ أَوْ أَكْتَمُ بَنُ صَفِيٍّ ، وَأَنِّي صَخْرٌ لَا يَنْفَجِرُ ... يَابِسٌ لَا يَنْعَصِرُ ، لَسْتُ كَالْحَجَّاجِ بَلْ كَعُمَرَ » .

قُلْتُ : هَذَا شَيْءٌ يَطُولُ بَيْنَنَا وَلَا حَاجَةَ لَكَ بِهِلِهِ الْبَرَاهِينِ كُلِّهَا ، فَقَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ نَابِغَةُ الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ فِي الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ وَالْخَطَابَةِ وَالتَّرْشُلِ .

قَالَ : وَالْفَلَسَفَةِ ؟

قُلْتُ : وَالْفَلَسَفَةِ وَكُلِّ مَعْقُولٍ وَمَنْقُولٍ ؛ وَقَدْ أَنْتَهَيْتَنَا عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ : وَلَكِنَّكَ تَحْسِبُنِي مَجْنُونًا أَوْ مَمْرُورًا « كَمَا حَسِبْتَنِي الْجَرَائِدُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ اخْتِفَانِي فِي الْبِنَارِ سَتَانِ كَانَ لِجُنُونِي الْفِكْرِيِّ أَوْ لِدَكَائِي الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الْأَصَحُّ ... فَبَيَّنْ لِهَلِ هَذَا الْجَرَائِدُ أَنِّي خَرَجْتُ ، وَأَنِّي سَاطِعُ الْأَدَبِ بِطَائِعِ جَدِيدٍ » .

قُلْتُ : وَلَكِنِّي لَسْتُ مُرَاسِلَ جَرَائِدٍ . قَالَ : « فَأَجْعَلْنِي رِسَالَةً وَرَاسِلَهَا عَنِّي أَوْ أَكْتُبْ لَكَ أَنَا مَا تُرْسِلُهُ ، وَمَا جِئْتُكَ إِلَّا لِهَذَا ؛ وَجِبَ أَنْ تُلَحِّقَنِي بِجَرِيدَةٍ كَثِيرَةٍ ، وَهَلِ هَذَا الْجَرَائِدُ تَعْرِفُنِي كُلِّهَا ، وَقَدْ تَنَاقَلْتَنِي مِنْ جَمِيعِ التَّوَاحِي الْأَدَبِيَّةِ ؛ فَضَلَّ عَنْ أَنِّي كَاتِبٌ قَدْ ، وَخَطِيبٌ قَدْ ، وَشَاعِرٌ قَدْ ؛ وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ، فَهَلْ أَعُولُ عَلَيْكَ فِي صَلَاتِي بِالْجَرَائِدِ أَوْ لَا ؟ » .

قُلْتُ : إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَكَ ، وَقَدْ بَلَّوْهُمْ وَبَلَّوْا مِنْكَ ؛ فَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ .

قَالَ : « إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ بَأْسِي ، وَقَدْ حَسِبُونِي مَجْنُونًا اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ؛ وَمَا عَلِمُوا أَنَّ شَيْطَانَ الشُّعْرِ هُوَ الَّذِي اسْتَهْوَانِي ، كَمَا أَنَّ شَيْطَانَ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي اسْتَهْوَاكَ ... هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْغَدَاءِ ، وَلَا أَكُلُكَ شَيْئًا ... »

قُلْتُ : فَهَذَا قِرْشٌ لِلْغَدَاءِ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ . وَهُمْ أَلَا يَتَعَدَّوْنَ وَيُوشِكُ إِذَا أَبْطَأَتْ أَنْ تُوَافِقَهُمْ وَقَدْ اسْتَقْفَدُوا الطَّعَامَ ، وَأَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ الْقِرْشَ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ هُوَ قِرْشَانِ فِي الْقِيَمَةِ .

قَالَ : صَدَقْتَ ؛ يُوشِكُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ وَقَدْ فَرَعُوا مِنْ طَعَامِهِمْ وَغَسَلُوا الْأَيْتَةَ . فَلَأُبْقِ هَذَا لِلْعَشَاءِ وَسَأَطْوِي إِلَى اللَّيْلِ ...

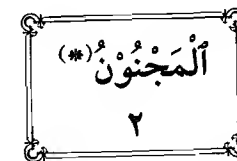
قُلْتُ : فَمَعَكَ أَلَا تَمْنُ الدُّخَانِ ، وَالْقَهْوَةِ ، وَالْغَدَاءِ ، وَأَجْرَةُ السَّيَّارَةِ إِلَى بَلَدِكَ . وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الثَّالِثِ لِلْهَجْرَةِ وَأَسْمُهُ (طَائِقُ الْبَصَلِ) <sup>(١)</sup> يُعْنِي بِقِيَرَاتٍ وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا بِدَائِقٍ . هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ فَخُذْ هَذَا الْقِرْشَ ثَمَنًا لِسُكُونِكَ وَأَنْصَرِفْ .

\* \* \*

فَشِقْ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُغَضَّبًا ، وَتَنَفَّسَتْ بَعْدَهُ الصُّعْدَاءُ الطَّوِيلَةَ ... وَفَتَحَتْ الْكَافِدَةَ وَاسْتَقْبَلَتْ أَلْهَوَاءَ النَّفْيِ وَأَخَذَتْ فِي رِيَاضَةِ التَّنَفُّسِ الْعَمِيْقِ ، ثُمَّ رَاغَتْ عَيْنِي إِلَى الْبَابِ ؛ فَإِذَا (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) مُقْبِلَةٌ مَعَ نَابِغَةِ قُرْنٍ آخَرَ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



وَرَأَيْتُ الْمَجْنُونَيْنِ يَدْخُلَانِ مَعًا ، فَكَأَنَّمَا سَدَا الْبَابَ وَسَوَّيَاهُ بِالْبِنَاءِ ، وَتَرَكَمَا الْغُرْفَةَ حَائِطًا مُضْمَنًا لَا بَابَ فِيهِ ، مِمَّا اعْتَرَانِي مِنَ الضُّبِيِّ وَالْحَرَجِ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّهُ لَا مَذْهَبَ لِلْعَقْلِ بَيْنَ هَذَيْنِ إِلَّا أَنْ يُعَيَّنَ كِلَاهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ ، فَأَرَى أَنْ أَدْعُهُمَا وَأَكُونُ أَنَا

(١) هَذَا مَجْنُونٌ مِنْ مَجَانِينِ الْكُوفَةِ فِي الْقُرْنِ الثَّالِثِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٦ ، ٦ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٩٢٥ - ١٩٢٨ .

أَصْرُهُمَا ؛ وَيَا رَبِّمَا جَاءَ مِنَ التَّوَادِرِ فِي اجْتِمَاعِ مَجْنُونَيْنِ مَا لَا يَأْتِي مِثْلُهُ مِنْ عَقْلَيْنِ يَجْتَمِعَانِ عَلَى ابْتِكَارِهِ ؛ غَيْرَ أَنِّي خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا الْمَجْنُونُ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ لَا أَمْنُ أَنْ يَبْتَ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ إِذَا خَطَرَتْ بِهِ الْخَطَرَةُ مِنْ شَيْطَانِهِ ، فَرَأَيْتُ أَنْ يَكُونَ لِي ظَهِيرٌ عَلَيْهِمَا ، إِنْ لَمْ يَحِقَّ بِهِ الْعَوْنُ فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ يَطُولَ بِهِ الصَّبْرُ ... وَكَانَ إِلَى قَرِيبٍ مِنِّي الصَّدِيقُ (١) ش) فَأَرْسَلْتُ فِي طَلْبِهِ .

أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الثَّانِي الَّذِي جَاءَ بِهِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) فَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ كَالْكِتَابِ الَّذِي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَتَدَاخَلَتْ وَفَسَدَ تَرْتِيبُهَا ، وَأَنْقَلَبَ بِذَلِكَ الْعِلْمُ الَّذِي كَانَ فِيهَا جَهْلًا وَتَخْلِيطًا ، يَبْتَ الْكَلَامَ بَعْدَ كُلِّ صَفْحَةٍ إِلَى صَفْحَةٍ غَرِيبَةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَلَا مَا بَعْدَهَا .

وَهُوَ طَالِبٌ أَزْهَرِي كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ أَنْ يَصِيرَ حَافِظًا كَالْحُفَاطِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الزُّوَاهِ وَالْفُقَهَاءِ ، فَجَعَلَ يَسْتَظْهِرُ كِتَابًا بَعْدَ كِتَابٍ وَمَتْنًا بَعْدَ مَتْنٍ ؛ وَكَانَتْ لَهُ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ، فَكُلُّ مَا أُفْرِغَ فِيهَا مِنْ دَرَسٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ خَبَرٍ ، نَزَلَ مِنْهَا كَالْتَقَرِّ عَلَى آلَةٍ كَاتِبَةٍ ، فَيَنْطَبِعُ فِي ذَهَبِهِ أَنْطَبَاعُ الْكِتَابَةِ : لَا تُنْحَى وَلَا تُنْسَى .

ثُمَّ أَلَنَّا هَذِهِ اللَّوْنَةَ وَهُوَ يَحْفَظُ مَتْنًا فِي فَهْمِ الشَّافِعِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، فَغَبَرَ سِنِينَ يَتَحَفَّظُهُ ، كُلَّمَا أَنْتَهَى إِلَى آخِرِهِ نَسِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ ؛ فَيَعُودُ فِي حِفْظِهِ وَرَبَّمَا أَتَيْتُ مِنْهُ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا بَلَغَ الْآخِرَ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ الْأَوَّلَ ؛ فَلَا يَرَالُ هَذَا دَأْبُهُ لَا يَمَلُّ وَلَا يَجِدُ لِهَذَا الْعَنَاءِ مَعْنًى ، وَلَا يَرَالُ مُقْبِلًا عَلَى الْكِتَابِ يَجْمَعُهُ ، ثُمَّ لَا يَرَالُ الْكِتَابَ يَتَبَدَّدُ فِي ذَاكِرَتِهِ .

وَتَرَكَ الْمَعْهَدَ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَتَخَلَّى فِي دَارِهِ لِلْحِفْظِ ، وَأَجْمَعَ أَلَا يَدَعُ هَذَا الْمَتْنَ أَوْ يَحْفَظُهُ ، كَأَن فِيهِ الْمَوْضِعَ الَّذِي فَارَقَهُ عَقْلُهُ عِنْدَهُ ، وَبِذَلِكَ رَجَعَ الْمَسْكِينُ آلَةَ حِفْظِ لَيْسَ لَهَا مِسَاكٌ ؛ وَأَصْبَحَ كَالَّذِي يَرْفَعُ الْمَاءَ مِنَ الْبَحْرِ ، ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي الْبَحْرِ ، لِيَنْزَحَ الْبَحْرُ ...

\* \* \*

(١) يغلب على الظن أن المقصود هو : أمين حافظ شرف ، زميل الرافعي في محكمة طنطا . بسام .



وَجَاءَ (ا. ش)، فَقُلْتُ لَهُ، وَأَوَمَّاتُ إِلَى الْمَجْنُونِ الْأَوَّلِ : هَذَا نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ .

قَالَ : وَهَلِ انْتَهَى الْقَرْنُ الْعِشْرُونَ فَيَعْرِفُ مَنْ نَابِغَتُهُ ؟

فَقُلْتُ لِلْمَجْنُونِ : أَجِبْنِي أَنْتَ .

فَسَأَلَهُ : وَهَلِ بَدَأَ الْقَرْنُ الْوَاحِدَ وَالْعِشْرُونَ ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ : فَإِنَّ هَذَا الَّذِي إِلَى جَانِبِي نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَالْعِشْرِينَ ... فَكَمَا جَارَ أَنْ يَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ قَرْنٍ لَمْ يَبْدَأْ ، جَارَ أَنْ أَكُونَ أَنَا نَابِغَةُ قَرْنٍ لَمْ يَنْتَه .

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ زِدْتَ الْمُسْكَلَةَ تَعْقِيدًا مِنْ حَيْثُ تَوَهَّمْتَ حَلَّهَا ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ مَعَكَ فِي أَنْ يَبِينَكَ وَيَبِينَهُ خَمْسٌ وَسِتُّونَ سَنَةً ؟

فَنَظَرُ نَظْرَةً فِي الْفَضَاءِ ، وَهُوَ كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئًا عَسِيرًا نَظَرَ إِلَى اللَّأَشْيَاءِ ... ثُمَّ قَالَ : هَلْ هَذِهِ الْأُمُورُ لَا تَنْشِبُ إِلَّا عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ ... وَكَيْفَ لَا يَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَمْسٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَأَنَا أَتَقَدَّمُهُ فِي الثَّبُوحِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً ... ؟

قُلْتُ لِلْآخَرِ : أَكْذَلِكَ ؟

قَالَ : مِمَّا حَفِظْتَاهُ عَنِ الْحَسَنِ : أَذْرَكُنَا قَوْمًا لَوْ رَأَيْنَاهُمُ لَقُلْتُمْ : مَجَانِينُ . وَلَوْ أَذْرَكُوكُمْ لَقَالُوا : شَيْاطِينُ ...

فَفَضَحَكَ الْأَوَّلُ وَقَالَ : إِنَّهُ يَلْمِيزُنِي .

قَالَ الثَّانِي : لَقَدْ صَدَقَ فَهُوَ أَسْتَاذِي ، وَلَكِنَّهُ حِينَ يَنْسَى لَا يَذْكُرُهُ غَيْرِي ...

قُلْتُ : لَا غَرَوْ ؛ « فَمِمَّا حَفِظْتَاهُ » عَنِ الزُّهْرِيِّ : إِذَا أَنْكَرْتَ عَقْلَكَ فَاقْدَحْهُ بِعَاقِلٍ ...

فَفَضَّبَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ وَقَالَ : وَيْحَ لِهَذَا الْجَاهِلِ ، الْأَخْمَتِي ، الْجَاحِدِ لِلْفَضْلِ ، مَعَ جُنُونِهِ وَخَبَلِهِ . أَيَذْكُرْنِي وَهُوَ مُنْذُ كَذَا وَكَذَاسَتَهُ يَحْفَظُ مِنَّنَا وَاحِدًا لَا يُنْسِكُهُ

عَقْلُهُ إِلَّا كَمَا يُنْسِكُ الْمَاءَ الْعَرَابِيلُ ؟ صَدَقَ وَاللَّهِ مَنْ قَالَ : عَدُوُّ عَاقِلٍ خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ . فَقَالَ الثَّانِي : خَيْرٌ مِنْ صَدِيقِي جَاهِلٍ ، هَآنَذَا قَدْ ذَكَرْتُكَ مِنْ نِسْيَانٍ ، وَهَآنَاذَا رَأَيْتَ .

فَضَحِكَ الثَّانِيَةُ وَقَالَ : وَلَكِنَّنِي لَمْ أَرِدْ أَنْ أَقُولَ هَذَا ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ أُؤَلِّفَ كَلَامًا آخَرَ ... عَدُوُّ عَاقِلٍ خَيْرٌ ، خَيْرٌ ، خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ مِنْ مَجْنُونٍ جَاهِلٍ ...

\* \* \*

وَرَأَيْتُ أَنَّ فِي الْقِتَاءِ مَجْنُونَيْنِ شَيْئًا طَرِيفًا غَيْرَ جُنُونِهِمَا ، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ الْمَجْنُونِ الْوَاحِدَ هُوَ الْمَجْنُونُ ؛ أَمَّا الْاِثْنَانِ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَجْتِمَاعِهِمَا وَتَحَاوُرِهِمَا فَنُ ظَرِيفٌ مِنَ التَّمَثِيلِ ، إِذَا وَجَدَا مَنْ يُصَرِّفُهُمَا فِي الْحَدِيثِ ، وَيَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمَا ، وَيَسْتَكْشِفُ مِنْهُمَا قِصَّتَهُمَا الْعَقْلِيَّةَ ...

وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) مِنَ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ لَهُمْ أُذُنٌ فِي غَيْرِ الْأُذُنِ ، وَعَيْنٌ فِي غَيْرِ الْعَيْنِ ، وَأَنْفٌ بِغَيْرِ الْأَنْفِ ؛ إِذْ تَتَلَقَّى أَدْمِغَتُهُمْ أَصْوَاتًا وَأَشْبَاحًا وَرَوَائِحَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا لَا مِنَ الْوُجُودِ ، وَتَذَرِكُهَا بِالتَّوَهُُّمِ لَا بِالْحَاسَةِ ، فَتَخْلُقُ هَوَاجِسَهُمْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ ، وَتَخْطُرُ الْكَلِمَةُ مِنَ الْكَلَامِ فِي ذَهْنِ أَحَدِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ فِي دِمَاغِهِ أَوْ يَمْسِي أَوْ يُلَاطِفُهُ أَوْ يُؤْذِنُهُ أَوْ يَفْعَلُ أَفْعَالًا أُخْرَى .

وَبَيْنَمَا أَنَا أُدِيرُ الرَّأْيَ فِي إِخْرَاجِ فَضْلِ تَمَثِيلِي مِنَ الْحَوَارِ بَيْنَ هَلْذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ <sup>(١)</sup> ، إِذْ قَالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) : صَهْ ! إِنَّ جَرَسَ « التَّلْفُونِ » يَدُقُّ .

قَالَ (ا. ش) : لَا أَسْمَعُ صَوْتًا ، وَلَيْسَ هَهُنَا « تَلْفُونٌ » .

فَأَغْتَاطَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَقَالَ : إِنَّكَ تَتَقَهَّمُ عَلَى التَّوَابِعِ وَلَسْتَ مِنْ قَدَرِهِمْ ، وَمَا عَمَلُكَ إِلَّا أَنْ تُنْكِرَ ؛ وَالْإِنْكَارُ ، وَيَلُوكَ ، أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَى الْمَجَانِينِ وَأَشْبَاهِ الْمَجَانِينِ ، وَالْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ الْعَامَّةِ ؛ وَقَدْ أَنْكَرْتَ بُبُوْعَهُ أَنْفًا ، وَأَرَاكَ الْآنَ تُنْكِرُ « تَلْفُونَهُ » ...

(١) سَيَانِي هَذَا الْفَضْلُ التَّمَثِيلِي فِي مَقَالِ آخَرِ .

قَالَ (١. ش) : وَأَيْنَ « التِّلْفُونُ Telephone » <sup>(١)</sup> وَهَلِيهِ هِيَ الْعُرْفَةُ بِأَعْيُنِنَا ؟

فَضَحِكَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) وَقَالَ : صَهْ وَيْحَكَ ! لَقَدْ خَلَطْتَ عَلَيَّ ؛ إِنَّ الْجَرَسَ يَدُقُّ مَرَّةً أُخْرَى ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَكَلِّمَهَا حَتَّى يَطُولَ انْتِظَارُهَا ، وَحَتَّى تَدُقَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَأَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ دَقَّتِ الثَّلَاثَةَ وَدَهَبَ رَيْنُهَا فِي صَوْتِكَ وَلَفْطِكَ ...

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : هِيَ صَاحِبَتُهُ الَّتِي يَهْوَاهَا وَتَهْوَاهُ ؛ وَقَدْ اسْتَهَامَهَا وَتَكَمَّهَا وَحَيَّرَهَا وَخَبَلَهَا ، حَتَّى لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ ، فَوَضَعَتْ لَهُ تَلْفُونًا فِي رَأْسِهِ ...

قَالَ « النَّابِغَةُ » : وَهَذَا التِّلْفُونُ لَا يُسْمِعُنِي صَوْتَهَا فَقَطْ ، بَلْ هُوَ يُنْشِقُنِي عِطْرَهَا أَيْضًا . وَقَدْ تَكَلَّمُنِي فِيهِ الْمَلَائِكَةُ أَحْيَانًا ، وَأَنَا سَاحِطٌ عَلَى هَذِهِ الْحَبِيبَةِ فَإِنَّهَا غَيْرُ نُخْشَى سَطَوَاتِهَا عَلَى الْإِلَهِ تَغَارُ مِنْهُمْ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَلَّمْتَنِي فِي هَذَا التِّلْفُونِ إِحْدَى الْحُورِ الْعِينِ ...

قُلْنَا : أَوْ تَغَارُ مِنْهَا الْحُورُ الْعِينُ ؟

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي : بَلِ الْأَمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْحُورَ الْعَيْنَ يَشْتُمْنَهَا وَيَلْعَنُهَا ؛ « فَمِمَّا حَفِظْنَاهُ » هَذَا الْحَدِيثُ : « لَا تُؤْذِي أَمْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ : لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلِكَ اللَّهُ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا » [الترمذي ، رقم : ١١٧٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠١٤ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٥٩٦] .

قَالَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) : وَيْلِي عَلَى الْمَجْنُونِ ! إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُوَ لَهُ مَوْضِعِي فَهُوَ يَتَمَتَّى هَلَاكِي وَأَنْتِقَالِي وَشَيْكَا مِنْ هَلِيهِ الدُّنْيَا . وَهُوَ يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِأَنَّهُ أَحْمَقُ لَيْسَ لَهُ عُقْدَةٌ مِنَ الْعَقْلِ ، فَيَزْعُمُ أَنَّهَا تُؤْذِينِي ، وَلَوْ هِيَ أَذْنَتِي لَغَضِبْتَ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَلَوْ غَضِبْتَ لَرَفَعْتَ التِّلْفُونُ . صَهْ ! إِنَّ الْجَرَسَ يَدُقُّ .

\* \* \*

(١) تلفون Telephone : اختير له عدة أسماء ، منها : الهاتف والمُسيِّرة وغيرهما : وكلمة الهاتف هي الراجعة ، في بلاد الشام . بسلام .

قَالَ (١. ش) : إِنَّ لِلتَّوَالِغِ لَشَأْنًا عَجَبًا ، فَفِي مُدِيرِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ رَجُلٌ نَابِغَةٌ مَاتَتْ زَوْجَتَهُ وَتَرَكَتْ لَهُ غُلَامًا ، فَتَزَوَّجَ أُخْرَى وَهُوَ يَعِيشُ فِي دَارِ أَبِيهِ . فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْأَضْحَى سَأَلَ أَبَاهُ مَا لَا يَنْتَابِعُ بِهِ الْأُضْحِيَّةَ فَلَمْ يَعْطِهِ . وَهُوَ رَجُلٌ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ ، فَذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَزَوَّيَاهُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبُحُ ابْنَهُ ، فَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا بَابٌ إِلَى النُّبُوَّةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ الْغُلَامَ فِي صَبِيحَةِ الْعِيدِ وَهُمْ يَذْبُحُوهُ ، وَلَوْ لَا أَنَّ صَرَخَ الْغُلَامِ فَأَذْرَكَهُ النَّاسُ فَاسْتَفْقَدُوهُ ...

قَالَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) : هَذَا مَجْنُونٌ وَلَيْسَ بِنَابِغَةٍ ؛ بَلْ هَذَا مِنْ جُهَلَاءِ الْمَجَانِينِ ؛ بَلْ هُوَ مَجْنُونٌ عَلَى حَدِّهِ . وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي السِّمَارِشَنَاءِ فِي حِينٍ كُنْتُ أَنَا فِي الْمُسْتَشْفَى ... فَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ انْتَمَرَ فِي ذَنْبِ غُلَامِهِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ . وَلَوْ كَانَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ لَتَقَدَّتْ بِالذَّبْحِ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ وَحْيًا لَنَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ كَبِشٌ يَذْبُحُهُ ... وَهَكَذَا أَنَا فِي الْمَنْطِقَةِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) .

ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَجْنُونِ الثَّانِي وَقَالَ : وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَذَا فِي الشُّبُوحِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً كَامِلَةً .

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ قَبْلِ فَلِمَ عُدْتَ فِيهِ الْآنَ ؟

قَالَ : إِنَّ السَّبَبَ قَدْ تَغَيَّرَ فَتَغَيَّرَ مَعْنَى الْكَلَامِ ، وَقَدْ بَدَأَ لِي أَنَّهُ يَتَمَتَّى هَلَاكِي لِيَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ . فَمَعْنَى الْكَلَامِ الْآنَ : أَنَّهُ لَوْ عَاشَ خَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً « يَحْفَظُ الْمَنْتَنَ » لَمَا بَلَغَ مَبْلَغِي مِنَ الْعِلْمِ . هَذَا رَجُلٌ نَصَفَهُ مَيِّتٌ جُنُونًا مَوْتًا حَقِيقِيًّا ، وَنَصَفَهُ الْآخَرُ مَيِّتٌ جَهْلًا بِالمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ .

قَالَ (١. ش) : حَسْبُهُ أَنْ يَفْلِدَكَ تَقْلِيدُ الْعَامِيِّ لِإِمَامِهِ فِي الصَّلَاةِ ؛ وَعَسَى أَلَّا تَسْتَكْثِرَ عَلَيْهِ هَذَا ، فَإِنَّهُ تَلْمِيزُكَ .

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : لَوْ صَوَّرَ الْعَقْلُ لَأَصَاءَ مَعَهُ اللَّيْلُ ، وَلَوْ صَوَّرَ الْجَهْلُ لَأَظْلَمَ مَعَهُ النَّهَارُ ... وَنَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ هَذَا لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي ، فَقَدْ

فِي الْأَصْلِ : « عَجَبًا » بَدَلًا مِنْ : « عَجَبًا » .

وَقَفَ مُنْذُ أَيَّامٍ يُصَلِّي بِالشَّعْرِ ... وَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَاسِيًا فَذَكَرْتُهُ وَنَبِّهْتُهُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجُوزُ بِالشَّعْرِ ، أَلْتَفَتَ إِلَيَّ وَهُوَ رَاجِعٌ فَسَبَّيْتُ وَشَتَمْتَنِي وَصَرَخَ فِيَّ وَقَالَ : مَا شَأْنُكَ بِي ؟ هَلْ أَنَا أَصْلِي لَكَ أَنْتَ ... ؟

فَقَضِبَ « الثَّابِغَةُ » وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنْ تَحْسَبُونَنِي إِلَّا مَجْنُونًا فَتَرِيدُونَ أَنْ يَقْلُدَنِي هَذَا الْأَحْمَقُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ يُنْسِكُهُ . وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَّا اعْتَقَدْتُمْ أَنَّ تَقْلِيدِي مِنَ السَّهْلِ الْمُمَكِّنِ ، وَلَعَرَفْتُمْ أَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْلِيدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ .

قُلْنَا : هَذَا عَجِيبٌ ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : لَا أَعِدُّكُمْ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا إِذَا عَقَلْتُمْ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ .

قَالَ ١ . ش : هَذَا لَمْ يُعْرَفْ مِثْلُهُ فَكَيْفَ نَعْرِفُهُ ؟ وَلَمْ يَتَوَهَّمْهُ أَحَدٌ ، فَكَيْفَ تَتَوَهَّمُهُ ؟ وَقُلْتُ أَنَا : لَعَلَّكَ رَأَيْتَ نَفْسَكَ فِي الرُّؤْيَا ؟

قَالَ : لَوْ لَمْ تَكُنْ أَسْتَاذَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ لَمَّا عَرَفْتَهَا ؛ وَهَذَا نِصْفُ الصَّوَابِ ؛ وَمَا دُمْتُ أَسْتَادِي ، فَلَوْ أَنَا اخْتَلَفْنَا فِي رَأْيٍ لَكَانَ خِلَافُكَ لِي صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنْكَ ، وَكَانَ خِلَافِي لَكَ صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنِّي ؛ فَأَنْتَ (غَيْرُ مُخْطِئٍ) وَأَنَا مُصِيبٌ ، وَإِذَا أَسْقَطْنَا كَلِمَةً (غَيْرَ) أَظَلَّ أَنَا مُصِيبًا وَتَكُونُ أَنْتَ مُخْطِئًا ...

أَنَا لَمْ أَرِ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) فِي الرُّؤْيَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي الْمِرَاةِ عِنْدَ الْحَلَّاقِ ... وَرَأَيْتُهُ يَقْلُدُنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى فِي الْإِشَارَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ ، وَلَكِنِّي صَرَخْتُ فِيهِ وَسَبَّيْتُهُ فَفَتَحَ فَمَهُ ، ثُمَّ خَافَنِي وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ...

وَأَوْمَأَ إِلَيَّ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَقَالَ : وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَذَا فِي الشُّبُوحِ بِأَكْثَرٍ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً .

قَالَ « ١ . ش » : لَقَدْ قُلْتُمَا مَرَّتَيْنِ كِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَمَا مَعْنَاكَ فِي هَذِهِ الثَّالِثَةِ ؟

قَالَ : هَذَا الْعَرُؤُ يُرَعِّمُ أَنِّي لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَصْلِي ، وَيَسْتَدِلُّ لِذَلِكَ بِأَنِّي صَالِتٌ بِالشَّعْرِ وَأَنِّي شَتَمْتُهُ وَأَنَا رَاجِعٌ ؛ وَلَوْ كَانَ عَاقِلًا لَعَلِمَ أَنَّ شَتَمِي إِثْمًا وَأَنَا رَاجِعٌ ثَوَابٌ لَهُ ... وَلَوْ كَانَ نَابِغَةَ لَعَلِمَ أَنَّ الشَّعْرَ كَانَ فِي مَذْحِ دَوْلَةِ النَّحَّاسِ بِأَشَأْ وَأُولِي الْكُلْهِ .

قُلْنَا : وَلَكِنَّ الشَّعْرَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا تَجُوزُ بِهِ الصَّلَاةُ وَلَوْ فِي مَذْحِ دَوْلَةِ النَّحَّاسِ بِأَشَأْ . قَالَ : لَمْ أَصَلِّ بِهِ ، وَلَكِنْ خَطَرُ لِي وَأَنَا أَصْلِي أَنِّي نَسِيتُ الْقَصِيدَةَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَحَقَّقَ أَنِّي لَمْ أَنْسَهَا ... فَإِذَا أَنَا نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ فِي الْحِفْظِ ، وَهِيَ سِتَّةُ آيَاتٍ . لَا كَهَذَا الْمَعْتَوِهِ الَّذِي صَبَرَ عَلَى الْمَتْنِ صَبَرَ الْغَرِيبِ عَلَى الْغُرْبَةِ الطَّوِيلَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْفَظْهُ .

قَالَ « ١ . ش » : فَأَمَلِ عَلَيْنَا هَذَا الشَّعْرَ .

فَأَمَلْنِي عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> [من مجزوء الكامل] .

يَا حَلِيفَ الشَّهِيدِ قُلْ لِي أَيْنَ مَنْ فِي الدَّهْرِ خَالَ  
إِنْ تَكُنْ تَهْوِي غَرَالًا أَحْمَلُ الْعَيْنَيْنِ مَانَ  
أَنَا أَهْوَاهَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ  
مُنْذُ وَلِثْتُ قُلْتُ مَهْلًا مُنْذُ غَابَتْ فِي خِيَالِ  
أَنَا مَجْنُونٌ بِلَيْلِي لَيْلِ يَا لَيْلَى ! تَعَالِ  
قُلْنَا : وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا مَذْحًا !

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَعْرِفُوا أَنِّي أَقُولُ فِي الْغَزَلِ ، أَمَا الْمَدِيحُ فَهُوَ لِمَنْ الْكَامِلُ :

شَغِفَ الْوَرَى بِمَنَاصِبِ وَأَمَانِي وَشَغِفَتْ يَا نَحَّاسُ بِالْأَوْطَانِ  
حَسِبُوا الْحَيَاةَ تَفَاحُورًا وَتَنَعُّمًا وَحَسِبْتَهُ اللَّهُ وَالْأَوْطَانِ  
ثُمَّ أَرْتَجَ عَلَيْهِ فَسَكَتَ . قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : إِنَّهَا سِتَّةُ آيَاتٍ ، وَقَدْ نَسِيتُ أَرْبَعَةً ، وَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أَذْكُرَكَ .

فَقَالَ (الثَّابِغَةُ) : أَطْنُهُ قَدْ حَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَأُرِيدُ أَنْ أَصَلِّيَ ... وَنَظَرَ إِلَيَّ الْأَشْيَاءُ فِي الْفَضَاءِ ، ثُمَّ قَالَ . وَالْيَتِ الْآخِرُ :

لَا أَبْتَغِي فِي الْمَذْحِ غَيْرَ أُولِي الْكُلْهِ أَوْ صَادِقٍ <sup>(٢)</sup> أَوْ شَوْقِي أَوْ مُطَرَّانٍ  
ثُمَّ أَمَرَ ١ . ش . أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ الشَّعْرَ فَقَرَأَهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنْتَ ، أَنْظِرْ إِلَيَّ فَوْقِ .

(١) هَذَا شِعْرُهُ بِخُزُوفِهِ كَمَا أَمْلَأَهُ .

(٢) فَسَّرَ (صَادِقٍ) بِأَنَّهُ أَسْتَاذُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ .

فَنَظَرَ ، ثُمَّ قَالَ : أَنْظُرْ إِلَى تَحْتِ . فَنَظَرَ ثُمَّ سَكَتَ .

قَالَ ١ . ش : وَبَعْدُ ؟

قَالَ : وَبَعْدُ فَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِمَّا إِلَى فَوْقٍ وَإِمَّا إِلَى تَحْتِ ...

\* \* \*

وَكَانَ الصَّحْرُ قَدْ نَالَ مِثِّي ، فَرَجَوْتُ ١ . ش . أَنْ يَلْبَثَ مَعَهُمَا وَأَذِنْتُ لِنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَنْ يَلْقَانِي فِي الدِّيِّ وَأَنْصَرَفْتُ .

قَالَ ١ . ش وَهُوَ يَبْنِي : فَمَا غَبَتْ عَنَّا حَتَّى أَخَذَ الْمَجْنُونُ يَشْكُو وَيَتَوَجَّعُ وَيَقُولُ : لَقَدْ حَاقَ بِي الظُّلْمُ ، وَإِنَّ (الرَّافِعِي) رَجُلٌ عَسُوفٌ ظَالِمٌ ، لِأَنِّي أَكْتُبُ لَهُ كُلَّ مَقَالَتِهِ الَّتِي يَنْشُرُهَا فِي (الرِّسَالَةِ) ... وَأَجْمَعُ نَفْسِي لَهَا ، وَأَجْهَدُ فِي بَيَانِهَا ، وَأُذِيبُ عَقْلِي فِيهَا ، وَهُوَ مُسْتَرِنٌّ وَادِعٌ ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَنْتَحِلَهَا وَيَضَعُ تَوْفِيقَهُ عَلَيْهَا ، وَيَبْعَثَ بِهَا إِلَى الْمَجْلَةِ ، ثُمَّ هُوَ يَقْبِضُ فِيهَا الذَّهَبَ وَيَبَالُ الشُّهُرَةَ ، وَلَا يَدْفَعُ لِي عَنْ كُلِّ مَقَالَةٍ إِلَّا قِرْشَيْنِ (١) ...

قَالَ « ١ . ش » : فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُرْسِلَ أُنْتَ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ إِلَى الْمَجْلَةِ فَتَقْبِضَ فِيهَا الذَّهَبَ ؟

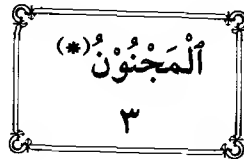
قَالَ : إِنَّ هُنَاكَ أَسْرَارًا أَنَا مُخَصِّصُهَا وَكَاتِبُهَا ، وَلَا يَبْنِي أَنْ يَعْلَمَهَا أَحَدٌ فَإِنَّهَا أَسْرَارٌ ... قَالَ لَهُ : فَدَعِ (الرَّافِعِي) وَأَكْتُبْ لِي أَنَا هَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، وَأَنَا أُعْطِيكَ فِي كُلِّ مَقَالَةٍ ذَهَبَيْنِ لَا قِرْشَيْنِ .

قَالَ : هَذِهِ أَسْرَارٌ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَّا لِلرَّافِعِي ، لِأَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) لَا يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِي كَلَامَهُ إِلَّا أَسْتَاذُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَلَوْ ادَّعَاهُ غَيْرُهُ لَكَانَ هَذَا حَطًّا مِنْ قَدْرِ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَهَذَا بَعْضُ الْأَسْرَارِ لَا كُلُّ الْأَسْرَارِ ...

قُلْتُ : ثُمَّ جَاءَ الْمَجْنُونَانِ فِي الْعَشِيِّ إِلَى الدِّيِّ .

مصطفى صادق الرافعي

(١) لَا يَزَالُ هَذَا الْمُسْكِنُ مِنْذُ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ لَنَا هَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، غَيْرَ أَنَّهُ رَفَعَ الْقِيَمَةَ أَخِيرًا ، فَجَعَلَهَا عِشْرِينَ قِرْشًا ...



وَكُنَّا فِي الدِّيِّ ثَلَاثَةً : أَنَا ، وَ« ١ . ش » (١) ، وَ« س . ع » (٢) ؛ وَقَدْ هَيَّأْتُ تَذَيُّرًا تَوَافَقْنَا عَلَيْهِ لِتَحْرِيرِكَ هَذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ ، وَتَذَوِينِ مَا يَجِيءُ مِنْهُمَا . فَلَمَّا أَقْبَلَا تَحَفَّنَا بِهِمَا وَالْطَّفَنَاهُمَا ، وَقُنَّا ثَلَاثَتَنَا بِسَطْطِهِمَا وَإِكْرَامِهِمَا ، حَتَّى حَسَبْنَا أَنَّ فِي كَلِمَةِ « مَجْنُونٍ » مَعْنَى كَلِمَةِ أَمِيرٍ أَوْ أَمِيرَةٍ ... وَرَأَيْتُ فِي عَيْنِي « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » - وَهُوَ أَعْيُنُ أَنْجَلِ (٣) - مَا لَوْ تَرَجَّمْتُهُ لَمَا كَانَتْ الْعِبَارَةُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ نَفْسًا أَنْتَى أَغَشَقَهَا أَنَا ... فَكَانَ مُسَدِّدًا فِكَةَ اللِّسَانِ ، تُسَلِّمُحُ لَهُ التَّادِرَةُ ، وَتُسْتَظَرُّ مِنْهُ الْحَرَكَةُ .

وَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ الْغُرُورُ ، وَاجْتَنَاعُ الْجُنُونِ كَمَا يَخْتَنَعُ الْجَمَالُ إِلَى كِبَرِيَّاتِهِ إِذَا حَاطَتْهُ الْأَعْيُنُ - أَدَارَ بَصَرَهُ فِي الْمَكَانِ ، ثُمَّ قَالَ : أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَصْبِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّيِّ فِي ضَوْضَائِهِ وَرِعَاعِهِ وَغَوَّائِهِ . إِنَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَخْلَاطٌ وَأَوْشَابٌ وَحُثَالَةٌ . هَذَا الْجَالِسُ هُنَاكَ . هَذَا الْوَاقِفُ هُنَاكَ . هَذَا الْمُسْتَوْفِرُ . هَذَا الْمُتَقَابِلَانِ . هَؤُلَاءِ الْمُتَجَمُّعُونَ . هَذَا كُلُّ خَيَالٍ حَقِيقَةٍ فِي رَأْسِي . مَا هِيَ ؟ مَا هِيَ ؟

هَذَا النَّصَائِجُ الْمُتَكَرِّرُ . هَذَا الضَّرْبُ بِحِجَارَةِ التَّرْدِ . هَذِهِ الرَّحْمَةُ الَّتِي أَنْغَمَسْنَا فِيهَا . هَذَا الْمَكَانُ الْهَائِجُ مِنْ حَوْلِنَا . هَذَا كُلُّ خَيَالٍ حَقِيقَةٍ فِي رَأْسِي . هِيَ ، هِيَ ، هِيَ .

فَانْزَعَجَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ ، وَوَقَعَ فِي تَهَاوِيلِ خَيَالِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْنَا تَدَوُّرُ عَيْنَاهُ ، وَتَوَجَّسَ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٧ ، ١٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٩٦٣ - ١٩٦٦ .

(١) هو أمين حافظ شرف . بسام .

(٢) هو سعيد القرني . بسام .

(٣) أي : واسع العين أنجلها ، وقد مرَّ وصفه في المقالة الأولى .

شَرًّا، ثُمَّ زَاغَ بَصَرُهُ إِلَى الْبَابِ، وَاسْتَوْفَرَ وَجَمَعَ نَفْسَهُ لِلْقِيَامِ؛ فَلَمَّا رَأَى صَاحِبَهُ مَا نَزَلَ بِهِ، فَهَقَّةً وَأَمَنَّ فِي الضَّحِكِ وَقَالَ: إِنَّمَا خَوْفَتُهُ الصَّبِيَّانَ وَالضَّرْبَ لِيُنَبِّتَ لَكُمْ أَنَّهُ مَجْنُونٌ... فَحَرَدَ الْآخَرُ وَأَعْتَاطَ وَجَعَلَ يُنَمِّمُ بَيْنَهُ وَيُبَيِّنُ نَفْسَهُ.

قَالَ «الْتَّابِعَةُ»: مَا كَلَامُ تَطَلُّ بِهِ طَيْنِ الدُّبَابَةِ أَهْيَا الْخَبِيثُ؟

قَالَ: «مِمَّا حَفِظْنَاهُ»: أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ الْأَحْمَقِ أَنَّهُ إِذَا اسْتَنْطَقَ تَجَلَّفَ، وَإِذَا بَكَى خَارَ، وَإِذَا ضَحِكَ نَهَقَ... كَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ السَّاعَةَ، تَقُولُ: هَاءُ، هُوَ، هِيءُ... فَتَغَيَّرَ وَجْهُ «الْتَّابِعَةِ»، وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُنْكَرَةً، وَهَمَّ أَنْ يَفْتَحِمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَهْيَا الْمَجْنُونُ! لِمَاذَا تَضْطَرُّنِي إِلَى أَنْ أُجِيبَكَ جَوَابَ مَجْنُونٍ... لَا نَجُوتُ إِنْ نَجُوتُ مِثِّي! فَاسْرِعْ «ا. ش»، وَأَمْسَكَ بِهِ؛ وَأَعْتَرَضَ مِنْ دُونِهِ «س. ع»، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ بَدَأْتَهُ وَالْبَادِيءُ أَظْلَمُ.

قَالَ: وَلَكِنْ - وَيَحْ - كَيْفَ قَالَ هَذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَقُلْ إِلَّا هَذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَجِدْ إِلَّا هَذَا يَقُولُهُ؟ أَنَابَعَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَحْمَقُ، وَقَدْ أَوْحَدَهُ اللَّهُ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ؟ لَهُمَنْتُ وَاللَّهِ أَنْ أَكْسِرَ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ؛ فَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنِّي أَحْمَقُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ...

\* \* \*

قُلْتُ: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ مِنْهُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَفِيهِ حَقَقَةٌ، فِيهَا يَعِيشُ». وَالْحَيَاةُ نَفْسُهَا حِمَاةٌ مُنَظَّمَةٌ تُنَظِّمُهَا عَاقِلًا؛ وَمَا يُقْبَلُ الْإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ لَذَائِهَا إِلَّا وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ حِمَاةِهَا؛ وَأَمْنَعُ اللَّذَّةِ مَا طَاشَ فِيهِ الْعَقْلُ وَخَرَجَ مِنْ قَانُونِهِ؛ وَلَوْلَا هَذَا الْحُمُومُ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ لَمَا اخْتَمَلَ طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ؛ أَلَيْسَ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَكْثَرَكَ غَائِبٌ عَنِ الدُّنْيَا وَأَقْلَكَ حَاضِرٌ فِيهَا، وَأَنْ يَقْطَعَكَ الْحَقِيقَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحُلْمِ وَمَا يُشْبِهُ الْحُلْمَ، كَأَنَّكَ خُلِفْتَ فِي كَوْكَبٍ وَهَبَطْتَ { مِنْهُ } إِلَى كَوْكَبِنَا هَذَا، فَمَا فِيكَ لِلْأَرْضِ<sup>(١)</sup> وَلَا فِيهَا لَكَ إِلَّا الْقَلِيلُ يَلْتَمِمْ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ،

(١) فِي الْأَصْلِ: «لَهُ» بَدَلًا مِنْ: «لِلْأَرْضِ».

وَأَكْثَرُكُمْ مُتَنَافِرٌ أَوْ مُتَنَاقِضٌ أَوْ مُتَرَاجِعٌ؟

قَالَ: بَلَى.

قُلْتُ: فَهَذَا الْقَلِيلُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي بِهَا تَعِيشُ، وَهُوَ أَرْضِيَّةُ الْأَرْضِ فِيكَ؛ أَمَّا سَمَاوِيَّةُ السَّمَاءِ فَبَعِيدَةٌ لَا تَحْتَمِلُهَا طَبِيعَةُ الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا يَعِيشُ أَهْلُ الْحَقِيقَةِ عَيْشَ الْمَجَانِينِ فِي رَأْيِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الْفَانِيَّةُ، أَوِ الْمَخْدُوعِينَ الَّذِينَ خَدَعَتْهُمْ الظُّوَاهِرُ الْكَاذِبَةُ؛ فَكُلَّمَا أَتَوْا عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّامِيَةِ انْتَهَى إِلَى الْحَقِيقِ مَعْكَوسًا أَوْ مُخَوَّلًا أَوْ مَعْدُولًا بِهِ؛ وَلَعَلَّ هَذَا أَصَحُّ تَفْسِيرٍ لِلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه» [قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: أخرجه البزار. «مجمع الزوائد»، رقم: ١٣٠٥٠ و ١٧٩١٤ و ١٨٦٧٤].

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ: «مِمَّا حَفِظْنَاهُ»: أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه.

فَقَالَ (الْتَّابِعَةُ): الْمُصِيبَةُ فِيكَ أَنَّكَ أَنْتَ هُوَ أَنْتَ؛ أَلَا فَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ مِنْ بُلَهَاءِ الْبَيْمَارِسْتَانِ لَا مِنْ بُلَهَةِ الْجَنَّةِ...

قُلْتُ: ثُمَّ إِنْ الْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا، فَيَسْلُبُهُمْ كُلَّ مَا نَالُوهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَيُلْحِقُ مَنْ نَالَ بِمَنْ لَمْ يَنْلَ؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يُسَرُّ بِأَنْ يَنَالَ مَا لَا يَبْقَى لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُورُهُ مِنْ حِمَاةِهِ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَخْزَنُ عَلَى أَنْ يَفُوتَهُ مَا لَا يَبْقَى لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُرْنُهُ حِمَاةَ أُخْرَى؟ وَأَيُّ شَيْءٍ فِي الْحُبِّ بَعْدَ أَنْ يَنْقُضِيَ الْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ حِمَاةَ ضَرَبَتْ فِي الْحَوَاسِّ كُلَّهَا حَتَّى مَلَأَتْ النَّفْسَ؛ ثُمَّ مَلَأَتْ النَّفْسَ حَتَّى فَاضَتْ عَلَى الزَّمَنِ؛ ثُمَّ فَاضَتْ عَلَى الزَّمَنِ حَتَّى خَبَلَتْ الْعَاشِقُ تَخْبِيلًا لَدَيْنًا تَصْغُرُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ وَتَكْبُرُ، وَيَجْعَلُ الْوَاقِعَ فِي النَّفْسِ غَيْرَ الْوَاقِعِ فِي دُنْيَاهَا؟ يُسَبِّهُ كُلَّ عَاشِقٍ حَبِيبَتَهُ بِالْقَمَرِ: فَهَبِ الْقَمَرَ سَمِعَ هَذَا وَفَهِمَهُ وَعَتَاهُ أَنْ يَجِيبَ عَنْهُ، فَمَاذَا عَسَا يَقُولُ إِلَّا أَنْ يُعْجَبَ مِنْ هَذَا الْحُمُومِ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ؟

\* \* \*

فَهَذَا (الْتَّابِعَةُ) وَسَكَنَ غَضْبُهُ وَقَالَ: صَدَقْتَ، وَلِهَذَا أَنَا لَا أَشْبِهُ حَبِيبَتِي بِالْقَمَرِ.

قُلْتُ: فِيمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟

قَالَ : لَا أَقُولُ لَكَ حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنْتَ حَبِيبَكَ .

قُلْتُ : وَأَنَا كَذَلِكَ لَا أَشَبِّهُهَا بِالْقَمَرِ .

قَالَ : فَبِمَاذَا تُشَبِّهُهَا ؟

قُلْتُ : حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنْتَ ...

قَالَ : هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَأَنْتَ أَسْتَأْذِنُ (نَابِغَةَ الْقُرَيْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيرَاتُ عَدَدَ كُتُبِكَ ، وَقَدْ أَغْجَبْتَنِي مِنْهُنَّ تِلْكَ الَّتِي فِي « أَوْرَاقِ الْوَرْدِ » ، وَأَطْلُوكَ أَحَبِّبْنَاهَا فِي شَهْرِ مَآيُو/ أَيَّارٍ مِنْ سَنَةٍ ... مِنْ سَنَةٍ ...

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ : مِنْ سَنَةِ ١٩٣٥ ؛ هَذَا أَنَا قَدْ نَبَّهْتُكَ .

قَالَ : يَا وَيْلَكَ ! إِنَّ « أَوْرَاقَ الْوَرْدِ » ظَهَرَتْ مِنْ بَضْعِ سِنِينِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ بُلَهَاءِ الْبَيْمَارِشْتَانِ لَا مِنْ بُلَهَاءِ أَوْرَاقِ الْوَرْدِ ... مَاذَا كُنْتَ أَقُولُ ؟

قَالَ « ١ . ش » : كُنْتَ تَقُولُ : هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيرَاتُ .

قَالَ : نَعَمْ ، لِأَنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ بِالْقَمَرِ ، انْتَهَى الْقَمَرُ وَفَرَّغَ الشَّيْبَةُ فَيَظَلُّ الْأَخْرِيَّاتُ بِلا قَمَرٍ ... ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ الْقَمَرِ لَا تُعْجِبُنِي ، فَلَوْنَهَا أَذْكَرُ مُغْبِرٌ<sup>(١)</sup> يَضْرِبُ أَحْيَانًا إِلَى السَّوَادِ ... فَإِذَا عَشِيفَتْ رَنْجِيَّةٌ فَهَلْهَذَا مَحَلُّ الشَّيْبَةِ بِالْقَمَرِ ... أَمَّا الْبَيْضُ الرَّعَائِبُ فَتَشْبِيهُهُنَّ بِالْقَمَرِ مِنْ فَسَادِ الدُّوقِ .

قَالَ « س . ع » : وَلِلْأَلْفَاظِ الْوَانُ عِنْدَكَ ؟

قَالَ : لَوْ كُنْتُ نَابِغَةً لَأَبْصَرْتُ فِي دَاخِلِكَ أَخِيْلَةً مِنَ الْجَنَّةِ ؛ أَلَمْ يَقُلْ أَسْتَأْذِنُ إِنَّمَا عَنْ (نَابِغَةَ الْقُرَيْنِ الْعِشْرِينَ) : إِنَّهُ هَبَطَ مِنْ كَوْكَبٍ إِلَى كَوْكَبٍ ؟ فَبَيْنَ كَوْكَبَيْنَا الْأَوَّلِ يَكُونُ لَنَا سَمْعٌ مَلُوءٌ ، وَحِسٌّ مَلُوءٌ ؛ نَسْمَعُ قُرْعَ الطَّبْلِ أَزْرَقَ ، وَنَفْخَ الْبُوقِ أَحْمَرَ ، وَرَيْنَ اللَّغَمِ الْحُلُوَّ أَخْضَرَ<sup>(٢)</sup> ، وَالْوُجُودَ كُلَّهُ صُورٌ مَلُوءَةٌ ، سِوَاءٍ مِنْهُ مَا يُرَى وَمَا يُحَسُّ ، وَمَا هُوَ مُسْتَخْفٍ وَمَا

(١) أَلْذَكَّةُ : لَوْنٌ بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالسَّوَادِ .

(٢) هَذَا وَاقِعٌ وَلَيْسَ مِنَ الْخَيَالِ ؛ فَيَبْغُضُ النَّاسُ يَسْمَعُونَ الْأَصْوَاتَ وَيَحْسُونَ الْأَشْيَاءَ مَلُوءَةً ؛ وَعُلَمَاءُ =

هُوَ ظَاهِرٌ .

ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخِرِ وَقَالَ : وَأَسْمُ هَذَا الْأَبْلَهِ كَلْفِظِ الْحَبْرِ ، لَا أَسْمَعُهُ إِلَّا أَسْوَدَ ...

\* \* \*

وَسَكَتَ « النَّابِغَةُ » وَسَكَتْنَا ؛ فَقَالَ لَهُ س . ع : مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ ؟

قَالَ : لِأَنِّي أُرِيدُ السُّكُوتَ .

قَالَ : فَلِمَ أَذًا تُرِيدُ السُّكُوتَ ؟

قَالَ : لِأَنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ ...

وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ الْغَيْظُ مِنَ الْمَجْنُونِ الْآخِرِ ، فَرَمَى بِعَيْنَيْهِ الْفَضَاءَ يَنْظُرُ اللَّاسِيَّ وَقَالَ : إِذَا أَصْبَحَ كُلُّ النِّسَاءِ ذَوَاتٍ لِيحَى أَصْبَحَ هَذَا عَاقِلًا ... فَدَقَّ الْآخِرُ بِرِجْلِهِ دَقَّاتٍ مَعْدُودَةً ؛ فَتَارَ (النَّابِغَةُ) وَقَالَ : مَنْ هَذَا يَسْتُمْنِي ؟

قَالَ « س . ع » : لَمْ يَسْتُمْنِكَ أَحَدٌ ، هَذَا خَفَقَ رِجْلَ رَجُلٍ عَلَى الْأَرْضِ .

قَالَ : بَلْ سَتَمْنِي هَذَا الْخَبِيثُ ، وَسَمْعِي لَا يَكْذِبُنِي أَبَدًا ، وَأَنَا رَجُلٌ ظَنُّونُ ، أُسِيءُ الظَّنَّ بِكُلِّ أَحَدٍ ، وَعَلَامَةُ الْحَازِمِ « الْعَاقِلِ » سُوءُ ظَنِّهِ بِالنَّاسِ . فَهَبْهُ كَمَا قُلْتَ قَدْ خَفَقَ بِنَعْلِهِ ، أَوْ خَبَطَ بِرِجْلِهِ ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَعْنِي مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَا أَسْمَعُ مَا يَعْنِيهِ . لَقَدْ طَفَحَ الشَّعْرُ عَلَى قَلْبِي فَلَا بُدَّ لِي مِنْ هِجَائِهِ ، وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَذْبَحَهُ وَلَوْ بِالْكَلامِ ، فَإِنِّي إِذَا هَجَوْتُهُ رَأَيْتُ دَمَهُ فِي كَلِمَاتِي ، وَأُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَهُ كَالْعَنْزِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَنَا وَذَبَّحْنَاهَا .

ثُمَّ انْتَرَعَ قَلَمُ « س . ع » ، وَقَالَ : هَذِهِ هِيَ السُّكُونُ . وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ يَا أَسْتَاذِي أَنْ تَذْبَحَهُ أَنْتَ بِكَلِمَتَيْنِ وَنَصِفَ لَهُ جُودَهُ ، فَقَدْ عَزَبَ عَنِّي الشَّعْرُ . إِنَّ خَفَقَةَ رَجُلٍ عَلَى الْأَرْضِ تَسْتَطِيرُ الْأَرَابِ فَرْعًا ؛ فَيَنْفِزْنَ إِلَى أَجْحَارِهِنَّ وَيَتَهَارَبْنَ ، وَمَا كَانَتْ أَبْيَاتُ الشَّعْرِ

= الْأَمْرَاضِ الْعَصِيَّةِ يَعْرِفُونَ هَذَا وَيَعْلَلُونَهُ بِأَنَّهُ صُورٌ ذَهَبِيَّةٌ قَدْ لَبِسَهَا مُؤَثَّرٌ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ فَهُوَ يَصِفُهَا بِلَوْنِهِ .

فِي ذَهْنِي إِلَّا أَرَانِبَ ...

أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ أَنَّ مَنْ كَانَ حَصِينًا ثَبِيثًا مِثْلِي ، كَانَ دَفِينًا لِحِسِّ ؛ وَمَنْ كَانَ قَدَمًا غَيْبًا مِثْلَ هَذَا ، كَانَ بَلِيدًا لِحِسِّ غَلِيظًا كَيْفًا ؛ فَإِذَا أَنَا اسْتَشْعَرْتُ الْبَرْدَ رَأَيْتَنِي قَدْ سَافَرْتُ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ؛ أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ فَهُوَ إِذَا اسْتَشْعَرَ بَرْدًا سَافَرَ إِلَى عِبَاءَتِهِ أَوْ لِحَافِهِ ... إِذْ هُوَ لَا يَعْرِفُ جُغْرَافِيَّةً ، وَلَا يَذَرِي مَا طَحَاها .

قُلْتُ : هَذَا مِنْكَ أَظَرْتُ مِنْ نَادِرَةِ أَبِي الْحَارِثِ .

قَالَ : وَمَا نَادِرَةُ أَبِي الْحَارِثِ ؟ وَهَلْ هُوَ نَابِغَةٌ ؟

قُلْتُ : جَلَسَ يَتَغَدَّى مَعَ الرَّشِيدِ وَعَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ ، فَأَتَيْ بِخَوَانٍ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَرْغِفَةٍ ، فَأَكَلَ أَبُو الْحَارِثِ رَغِيْفَهُ قَبْلَهُمَا ، وَالرَّشِيدُ مَلِكٌ عَظِيمٌ : لَا يَأْكُلُ أَكْلَ الْجَائِعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الشَّعِيْثُ مِنْ هُنَا وَهُنَا ؛ فَكَانَ رَغِيْفُهُ لَا يَزَالُ بَاقِيًا ؛ فَصَاحَ أَبُو الْحَارِثِ فَجَاءَهُ : يَا غُلَامُ ! فَزَيَّرَ . فَزَيَّرَ الرَّشِيدُ وَقَالَ : وَيَلَكَ مَا لَكَ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَرْكَبَ إِلَى هَذَا الرَّغِيْفِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ...

قَالَ (الثَّابِتُ) : وَلَكِنْ قَرَفَا بَيْنَ أَبِي الْحَارِثِ وَبَيْنَ (نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ) ، فَإِنَّ مِنْ الْعَجَائِبِ أَنِّي رُبَّمَا نَظَرْتُ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ يَأْكُلُ فَأَجِدُ الشَّبَعَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَأْكُلُ بِنَظْنِي لَا بِنَظَرِهِ ، وَلَكِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ هَذَا لَا يَتَّفِقُ لِي أَبَدًا حِينَ أَكُونُ جَائِعًا ...

أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الَّذِي أَمَامَنَا ، فَرُبَّمَا أَبْصَرَ الْحِمَارَ عَلَى ظَهْرِ الْجَمَلِ ، فَيَسْعُرُ كَأَنَّ الْجَمَلَ عَلَى ظَهْرِ هُوَ لَا عَلَى ظَهْرِ الْحِمَارِ ...

قَالَ الْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : أَنَّهُ سَرِقَ لِأَعْرَابِيٍّ حِمَارًا ، فَقِيلَ لَهُ : أَسَرَقَ حِمَارَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَأَحْمَدُ اللَّهِ . فَقِيلَ لَهُ : عَلَى مَاذَا تَحْمَدُهُ ؟ قَالَ : عَلَى أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِ حِينَ سَرِقَ ... فَأَنَا إِذَا رَأَيْتُ حِمَارًا مُثْقَلًا الظَّهْرِ ، حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنَّ الْجَمَلَ لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ ، لَا كَمَا يَقُولُ هَذَا . ثُمَّ دَقَّ بِرِجْلِهِ دَقَاتٍ ...

فَاسْتَسَاطَ (الثَّابِتُ) وَقَالَ : أَسَمِعْتُمْ كَيْفَ يَقُولُ إِنِّي مَجْنُونٌ ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِهَذَا بَلْ يَقُولُ إِنِّي حِمَارٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَمَلِ ؟

قُلْتُ : يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَافَأَ ، وَهَذَا لَا يَحْتِثُكَ مِنْهُ وَلَا يَحْبِيْهُ مِنْكَ ، فَإِنَّ مِنْ تَوَاضَعِ « الْتَوَائِعِ » أَنْ تَشْعُرُوا بِبُؤْسِ الْحَيَوَانِ ، فَإِذَا شَعُرُوا بِبُؤْسِهِ دَخَلَتْهُمْ الرَّقَّةُ لَهُ ، فَإِذَا دَخَلَتْهُمْ الرَّقَّةُ صَارَ خَيَالُ الْجَمَلِ حِمْلًا عَلَى قُلُوبِهِمُ الرَّقِيْقَةُ ؛ وَقَدْ يَصْنَعُونَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ : حَكَى الْجَاحِظُ عَنْ ثُمَامَةَ قَالَ : كَانَ (نَابِغَةً) يَأْتِي سَاقِيَةً لَنَا سَحَرًا ؛ فَلَا يَزَالُ يَمْشِي مَعَ دَابَّتِهَا ذَاهِبًا وَرَاجِعًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ أَيَّامَ الْحَرِّ ، وَفِي الْبَرْدِ أَيَّامَ الْبَرْدِ ، فَإِذَا أَمْسَى تَوَضَّأَ وَقَالَ : اَللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا مِنْ هَذَا أَلْهَمَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا . فَكَانَ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ !

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : ثَمَرَةُ الدُّنْيَا السُّرُورُ ، وَلَا سُرُورَ لِلْعُقَلَاءِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا أَعْقَلَ الْعُقَلَاءِ لَمَا مُحِقَ سُرُورُهُ فِي الدُّنْيَا هَذَا الْمَحْقُ إِلَى أَنْ مَاتَ غَمًّا ، رَحِمَهُ اللَّهُ !

\* \* \*

قَالَ « س . ع » : فَأَعْفُ الْآنَ عَنْ صَاحِبِكَ وَلَا تَذْبَحْهُ بِالْهَجَاءِ .

قَالَ : لَقَدْ ذَكَرْتَنِي مِنْ نِسْيَانٍ ، وَهَذَا الْمَجْنُونُ يَرَى نِسْيَانِي مِنْ مَرَضٍ عَقْلِيٍّ ، وَكَانَ الْوَجْهَ - لَوْ تَهَدَّيْتُ إِلَى الْحَقِيْقَةِ - أَنْ يَرَاهُ شُدُوْدًا فِي الْعَقْلِ ، أَيْ : ثُبُوْعًا عَظِيمًا كَثْبُوْعَ ذَلِكَ الْفَيْلَسُوفِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَنْبِتَ<sup>(١)</sup> فِي كَمْ مِنَ الزَّمَنِ تُسَلَقُ الْبَيْضَةُ ؛ فَأَخَذَ بِيَدِهِ السَّاعَةَ وَبِيَدِهِ الْآخَرَى بَيْضَةً ، ثُمَّ نَسِيَ نِسْيَانَ الثُّبُوْعِ ، فَأَلْقَى السَّاعَةَ فِي الْمَاءِ عَلَى النَّارِ ، وَثَبَّتَتْ عَيْنُهُ عَلَى الْبَيْضَةِ يَنْظُرُ فِيْهَا عَلَى أَنَّهَا هِيَ السَّاعَةُ . وَلَوْ قَدْ رَأَاهُ هَذَا الْأَبْلَهُ لَزَعَمَهُ مَجْنُونًا كَمَا يَزْعُمُنِي ، فَإِنَّ الْمَجَانِينَ يَرَوْنَ الْعُقَلَاءَ مَرْضَى بِمَوَاهِبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا .

وَأَنَا فَلَيْسَ يَهْجُنِي شَيْءٌ مَا تَهْجُنِي كَلِمَاتُ ثَلَاثَ : أَنْ يُقَالَ لِي مَجْنُونٌ ، أَوْ أَبْلَهُ ، أَوْ أَحْمَقُ . فَمَنْ رَغِبَ فِي صُحْبَتِي فَلْيَتَجَنَّبْ هَذِهِ الثَّلَاثَ كَمَا يَتَجَنَّبُ الْكُفْرَ وَالْكَفْرَ ...

قَالَ أ. ش. : فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَثَلًا . مَثَلًا . أَيْ عَلَى التَّمَثِيلِ : مُعَقَّلٌ ...

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَغْرِفُ » بَدَلًا مِنْ : « يَنْبِتُ » .

فَحَكَ رَأْسَهُ قَلِيلًا وَقَالَ : لَا ! هَلِدِهِ لَيْسَتْ مِنْ قَدْرِي <sup>(١)</sup> ...  
قُلْتُ : فَبَعْضُ الْكَلِمَاتِ إِذَا قُطِعَتْ عِنْدَكَ غَيَّرْتَ الْحَقَائِقَ ، كَذَلِكَ الْقَرْنُ الَّذِي قُطِعَ  
قَرْدُ الْبَقَرَةِ فَرَسًا ؟

قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قُلْتُ : زَعَمُوا أَنَّ أَغْرَابِيَّا خَرَجَ إِخْوَتُهُ يَشْتَرُونَ خَيْلًا ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ فَجَاءَ بِعَجَلٍ يَقُودُهُ ؛  
فَقِيلَ لَهُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : فَرَسٌ أَشْتَرَيْتُهُ . قَالُوا : يَا مَاتِي ! هَلِدِهِ بَقَرَةٌ ، أَمَا تَرَى قَرْنَيْهَا ؟  
فَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَطَعَ قَرْنَيْهَا ، ثُمَّ قَادَهَا إِلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ : قَدْ أَعَدْتُهَا فَرَسًا كَمَا تَرِيدُونَ ...  
قَالَ (الْبَاغِيَّةُ) : هَذَا غَيْرُ بَعِيدٍ ، فَقَدْ رَأَيْنَا حِينَ ذَبَحْنَا الْعَنْزَ وَكَسَرْنَا قَرْنَيْهَا أَعَدْنَاهَا  
كَلْبَةً سَوْدَاءَ ، فَقَطَعْنَا قَرْنَيْهَا وَعَفَتْ لَحْمَهَا وَلَمْ أَطْعَمْ مِنْهَا .

ثُمَّ أَوَّمَا إِلَى الْآخِرِ وَقَالَ : هَذَا لَا يَذِرُنِي مَا طَحَاها ، وَهُوَ مِثْلُ الْعَنْزِ : تَحْسَبُ قَرْنَيْهَا  
لِلْفِتَالِ وَالطُّحَاكِ وَمِنْهُمَا تُنْسَكُ لِلذَّبْحِ ؛ فَقُلْ فِي هَذَا يَا أَسْتَاذَ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) .  
قُلْتُ لِلْآخِرِ : أَيُضْرِيكَ أَنْ أَقُولَ فِي الْمَعْنَى لَا فَيْكَ أَنْتَ ... ؟  
قَالَ : نَعَمْ .

فَكَتَبْتُ هَلِدِهِ الْآيَاتِ عَلَى مَا يُرِيدُ الْبَاغِيَّةُ [من مجزوء الكامل] :

قُلْ لِعَنْزٍ نَاطِحَاهَا      لِقَتَالٍ سَلَحَاهَا  
مَا لَهَا قَدْ طَرَحَاهَا      فِي يَدَيْنِ ذَبَحَاهَا ؟

\* \* \*

شَيْمَةً مِّنِّي نَحَاهَا      عَقْلٌ غَرَّ فَلَحَاهَا  
لَيْسَ يَذِرُنِي مَا طَحَاهَا      بَلْ يَرَى شَمْسَ ضَحَاهَا  
حَجَرًا مِثْلَ رَحَاهَا      وَيَرَى اللَّيْلَ مَحَاهَا  
ظَلَمًا طَالَتْ لِحَاهَا ...

\* \* \*

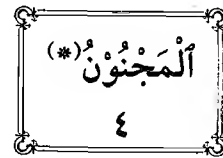
(١) نَصُّ عِبَارَتِهِ : « دِنِي مُنْ أَدِّي » ...

وَسُرَّ (الْبَاغِيَّةُ) وَأَزْدَمَتْ ، وَجَعَلَ يَقُولُ : طَالَتْ لِحَاهَا ، طَالَتْ لِحَاهَا . وَمَا كَانَ هَذَا  
إِلَّا السُّرُورُ الْأَضْعَفُ ؛ أَمَّا سُورُورُهُ الْأَكْبَرُ فَمَجِيءُ سَاعِي (الْبَرِيدِ الْمُسْتَعَجِلِ) إِلَى الدِّيِّ ،  
وَفِي يَدِهِ رِسَالَةٌ عَنْوَانُهَا : نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ فَلَانْ ، بِنْدِي كَذَا .

وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَهْتِفُ بِالْعَنْوَانِ يَسْأَلُ عَنْ صَاحِبِهِ ؛ فَتَطَاوَلَتْ أَغْتَاقُ النَّاسِ ، وَرَفَعُوا  
أَبْصَارَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ يَتَنَاوَلُ الرِّسَالَةَ وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ مِنْ  
الْقَدَمَاءِ أَسْقَطَ لَهُ كِتَابٌ بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ وَيَضُمُّ دَوْلَةً إِلَى دَوْلَتِهِ .

ثُمَّ تَرَكَ الرِّسَالَةَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ يُقَلِّبُهَا وَلَا يَفْضُهَا وَنَحْنُ فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ؛ فَتَنَظَّرَ فِيهَا  
الْمَجْنُونُ الْآخِرُ وَقَالَ لَهُ : هَذَا عَجِيبٌ يَا أَخِي ، كَيْفَ هَذَا ؟ إِنَّ هَذَا لَا يُصَدَّقُ ؛ إِنَّكَ لَمْ  
تَلْقَها فِي صُنْدُوقِ الْبَرِيدِ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ ... (١)

مصطفى صادق الرافعي



وَصَاقَ « نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » بِحُمْنِ الْمَجْنُونِ الْآخِرِ ؛ وَرَأَاهُ ذَاهِيَةً دَوَاهٍ ، كَلَّمَا  
تَعَاقَلَ أَوْ تَحَادَقَ لَمْ يَأْتِ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَكْشِفَ عَنْ جُنُونِهِ هُوَ ؛ فَلَا يَبْرَحُ يَجْرَعُهُ الْغَيْظُ مَرَّةً  
بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ يَسُبُّهُ فِي عَقْلِهِ ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَخْتَالَ لِيَصْرِفَهُ عَنِ الْمَجْلِسِ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ

(١) جاء بعد هذه المقالة في الأصل :

الْمُبَشِّرُونَ : كَتَبَ إِلَيْنَا فَاذِلُّ يَذْكُرُ بَعْضَ سَخَافَاتِ الْمُبَشِّرِينَ نَقَلَهَا مِنْ أَحَدِ كُتُبِهِمْ ، وَسَأَلْنَا الرَّدَّ  
عَلَيْهِمْ ، فَأَبْلَغَ الرَّدُّ عَلَيْنَا هَؤُلَاءِ تَجَبُّهُمُ وَإِهْمَالُ كُلِّ مَا يَكْتُبُونَ ، إِذْ هُمْ مُصَافِحُونَ بِجُنُونِ الْفَكْرَةِ  
الدِّيَّةِ ، وَسَتَلَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُونَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ مِثْلَ رَجُلٍ أَمْرِيكِي (نَابِغَةٍ) ... يُرِيدُ أَنْ يَقِيمَ لَكَ  
الْبَرِّهَانَ عَلَى أَنَّ الْجَمَلَ الْعَرَبِيَّ إِنَّمَا هُوَ مَصْنُوعٌ فِي مَصَانِعِ فُورْد ...

الْرافعي

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٧ ، ٢٠ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٥ م ،  
السنة الثالثة ، الصفحات : ٢٠٠٣ - ٢٠٠٦ .



الرَّسَالَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا (الْبَرِيدُ الْمُسْتَعَجِلُ) وَقَالَ لَهُ : خُذْ هَذِهِ فَأَذْهَبْ فَأَلْقِهَا فِي دَارِ الْبَرِيدِ ، فَسَيَجِيءُ بِهَا السَّاعِي مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ تَذْهَبُ الثَّانِيَةَ فَنَلْقِيهَا ، وَيَعْمُودُ هُوَ فَيَجِيءُ بِهَا ، وَتَكُونُ أَنْتَ تَذْهَبُ وَتَكُونُ هُوَ يَجِيءُ ، فَتَضْحَكُ مِنْهُ وَيَضْحَكُونَ . . . . .

قَالَ « س . ع » : وَلَكِنْ كَمْ يَذْهَبُ هَذَا وَكَمْ يَجِيءُ ذَلِكَ ؟

فَعَمَرَهُ (الثَّابِتُ) بِعَيْنِهِ أَنْ أَسْكُتَ ؛ فَتَغَافَلَ « س . ع » ، وَقَالَ : كَمْ تُرِيدُ أَنْ يَجِيءَ السَّاعِي لِيَهْتِفَ بِتَابِعَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ؟

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ ، فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّى أُعْرِفَ كَمْ مَرَّةً أَذْهَبُ ؛ فَإِنَّ السَّاعِي لَا يَجِيءُ إِلَّا رَاكِبًا ، وَأَنَا لَا أَذْهَبُ إِلَّا رَاجِلًا ، وَإِنْ لِي رَجُلِي إِنْسَانٍ لَا رَجُلِي دَابَّةً . . .

قَالَ (الثَّابِتُ) : سُبْحَانَ اللَّهِ ! بِقَلِيلٍ مِنَ الْجُنُونِ يَخْرُجُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْنُونٌ كَامِلٌ مُسْتَلَبٌ الْعَقْلُ . بَيِّنْ أَنَّهُ لَا يَأْتِي الثَّابِتُ إِلَّا مِنْ كَثِيرٍ وَكَثِيرٍ ، وَمِنْ التَّبَوُّغِ كُلِّهِ بِجَمِيعِ وَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ عَلَى تَعَدُّدِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَصُعُوبَةِ اجْتِمَاعِهَا لِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ (كِتَابَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَهُوَ الَّذِي تَوَافَتْ إِلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَتَوَازَنَتْ فِيهِ كُلُّ تِلْكَ الْخِلَالَ . إِنَّهُ لَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْعِلْمِ وَلَا فِي التَّعْلِيمِ ؛ وَلَكِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْمَوْهَبَةِ الَّتِي تُبْدِعُ الْإِبْتِكَارَ ، كَمَوْهَبَةِ (تَابِعَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ؛ فِيهَا <sup>(١)</sup> تَجِيءُ أَعْمَالُهُ مُنْسَجِمَةٌ دَالَّةٌ بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا ؛ وَمُتَمَيِّزَةٌ مَعَ كَوْنِهَا مُنْسَجِمَةٌ دَالَّةٌ بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا ؛ وَمُتَلَائِمَةٌ مَعَ كَوْنِهَا مُتَمَيِّزَةٌ دَالَّةٌ بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا . . .

هَذَا « س . ع » ، كَانَ الْأَوَّلُ بَيْنَ خَرِيجِي مَدْرَسَةِ دَارِ الْعُلُومِ ، مَدْرَسَةِ الْأَدَبِ وَالْعَرَبِيَّةِ ، وَالْمَنْطِقِ وَالْحَذَلْتِي ، وَبِلَاغَةِ اللِّسَانِ وَصِحَّةِ النَّظَرِ ؛ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْكِتَابَ يُلْقَى فِي الْبَرِيدِ وَعَلَيْهِ طَابِعٌ وَاحِدٌ ، فَيَصِلُ إِلَى غَايَتِهِ بِهِذَا الطَّابِعِ ، ثُمَّ يَرَى بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ أَرْبَعَةَ طَوَائِعَ عَلَى هَذِهِ الرَّسَالَةِ الْمُعْنَوَةِ بِاسْمِ (تَابِعَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَلَا يَذْكُرُ بِعَقْلِهِ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ مِنْ حَقِّ هَذِهِ الرَّسَالَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيَّ أَنَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . . . . .

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِيهَا » بَدَلًا مِنْ : « فِيهَا » .

فَطَرَبَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ ، وَاهْتَزَّ فِي مَجْلِسِهِ ، وَصَفَّقَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » هَذَا الْحَدِيثُ : « يُحَاسِبُ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » . فَلَا تُؤَاخِذُ « س . ع » ، فَإِنَّ مَدْرَسَةَ دَارِ الْعُلُومِ تُعَلِّمُهُمْ : « فِيهَا قَوْلَانِ » ، وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ ، وَفِيهَا أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ ، وَلَكِنَّهَا لَا تُعَلِّمُهُمْ فِيهَا أَرْبَعَةَ طَوَائِعَ . . . . .

ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى « س . ع » ، وَقَالَ لَهُ : لَا عَلَيْكَ ، فَأَنَا صَاحِبُهُ وَخَلِيطُهُ ، وَحَامِلُ عِلْمِهِ ، وَرَاوِيَةُ آدِبِهِ ، وَأَكْبَرُ دُعَاتِهِ وَنِقَاتِهِ ، وَمَا عَلِمْتُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ مِنْهُ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ .

قَالَ « ا . ش » : فَإِذَا كَانَ هَذَا ، فَإِنَّ لِقَائِي أَنْ يَقُولَ : لِمَاذَا لَمْ يَضَعْ عَلَى كِتَابِهِ عَشْرَةَ مِنَ الطَّوَائِعِ ، فَيَجِيءُ بِهِ السَّاعِي عَشْرَ مَرَّاتٍ .

قَالَ (الثَّابِتُ) : وَهَذَا أَيْضًا . . . ؟ [من الوافر]

« وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أَمْ عَمِيرٍ بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْحِيحَتَنَا <sup>(١)</sup> »  
إِنَّ السَّمْعَةَ فِي يَدِ الْعَاقِلِ تَكُونُ لِلضُّوءِ فَقَطْ ، وَلَكِنَّهَا فِي يَدِ الْمَجْنُونِ لِلضُّوءِ وَالْإِحْرَاقِ أَصَابِعُهُ . . . كَمْ السَّاعَةُ الْآنَ ؟

قُلْنَا : هِيَ التَّاسِعَةُ .

قَالَ : وَمَتَى يَنْصَرِفُ أَهْلُ هَذَا اللَّيْلِ ؟

قُلْنَا : لِتَمَامِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ .

قَالَ : فَإِذَا كَانَ السَّاعِي يَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَرَّةً ، فَهِيَ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ إِلَى أَنْ يَنْقُصَ الْمَجْتَمِعُونَ هُنَا ، وَبَيِّنْ ذَلِكَ مَا يَكُونُ قَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ عَرَفُوا (تَابِعَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَجَاءَ قَوْمٌ غَيْرُهُمْ فَيَعْرِفُونَهُ . وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا يَجِدُ السَّاعِي هُنَا أَحَدًا ، فَلَا تَكُونُ فَائِدَةٌ مِنْ مَجِيئِهِ . . .  
فَصَفَّقَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَقَالَ : هَذَا وَأَيْنَكَ هُوَ التَّهْدِي إِلَى وَجْهِ الرَّأْيِ وَسَدَادِهِ ،

(١) هُوَ لَعَمْرَوْ بِنِ كَلُومٍ ، مِنْ مُعَلَّقَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَتُرْوَى لِعَمْرُو بْنِ عَدِيٍّ اللَّخْمِيِّ ابْنِ أُخْتِ جُدَيْمَةِ الْأَبْرَشِ . بِسَام .

وَهَذَا هُوَ الْكَلَامُ الرَّصِينُ الَّذِي يَقُومُ عَلَى أُصُولِ الْحِسَابِ وَالْجُغَرَفِيَّةِ ... «وَمِمَّا حَفِظْنَاهُ» هَذَا الْحَدِيثُ : «لَا مَالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ» . [«مجمع الروائد» ، رقم : ١٨٠٣٨ ؛ «كنز العمال» ، رقم : ٤٤١٣٦ ، ٤٤٢٣٧ ، ٤٤٣٨٩] فَأَرْبَعَةُ طَوَائِعَ ، لِأَرْبَعِ مَرَّاتٍ ، فِي أَرْبَعِ سَاعَاتٍ ؛ وَمَا عَدَا هَذَا فِإِسْرَافٌ وَتَبَذِيرٌ ؛ وَ«لَا مَالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ» ...

\* \* \*

وَرَضِي (الثَّابِتُ) عَنْ صَاحِبِهِ وَقَالَ لَهُ : لَيْنَ كَانَتْ فِيكَ ضَعْفَةٌ إِنْ فِيكَ لَبِقِيَّةٌ تَعْقِلُ بِهَا ...

ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الرِّسَالَةَ وَدَسَّهَا فِي نَوْبِهِ .

قُلْنَا : وَلَكِنْ أَلَا تَقْضُهَا لِتَعْرِفَ مَا فِيهَا ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَتَيْنَ جَارِيَتُكُمْ فِي بَابِ الْمُطَايَبَةِ وَالنَّادِرَةِ ، وَجَارَيْتُ هَذَا الْأَبْلَهَ فِي بَابِ جُنُونِهِ وَحُمَقِهِ - تَحْسِبُونَ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّ الرِّسَالَةَ فَارِغَةٌ إِلَّا مِنْ عُنُونِهَا ، وَأَنَّ نَابِعَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ هُوَ أَرْسَلَهَا إِلَى نَابِعَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ، كَمَا قَالَ سَعْدُ بَاشَا : (جُورِجُ الْخَامِسُ يُفَاوِضُ جُورِجَ الْخَامِسِ) ... ؟ لَحَقْتُ وَآلَهُ أَنَّ الْعَقْلَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَأْبَى الصَّغَائِرَ ، هُوَ الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ الصَّغَائِرُ أحيانًا لِتُثَبِّتَ أَنَّهُ عَقْلٌ كَبِيرٌ ، وَهَكَذَا تَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْعُقُولِ (كُنَابِعَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ...

فَغَضِبَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ ؛ فَقَالَ لَهُ (الثَّابِتُ) : أَنْتَ كَاذِبٌ فِيمَا سَتَقُولُهُ ...

قُلْنَا : وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا بَعْدُ ، فَكَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا .

قَالَ : وَسَيُخْطِئُ فِي رَأْيِهِ الَّذِي يُبْدِيهِ ...

قُلْنَا : وَلَكِنْ يُبْدِ شَيْئًا مِنْ رَأْيِهِ .

قَالَ : وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قُلْنَا : وَيَحْكُ ! أَدَخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ ؟

قَالَ : لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ قِيَاسٌ مِنْطِقِيٌّ يَتَوَهَّمُ أَطْرَادُهُ . إِنَّهُ سَيَقُولُ : إِنِّي مَجْنُونٌ ...

فَأَخْرَجَ الْآخَرَ لِلسَّائِلِ ... قَالَ (الثَّابِتُ) : تَبَا لَكَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ الْكَلِمَةَ فِي لِسَانِكَ كَأَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِخُرُوفِ الْمُطْبَعَةِ . وَيَحْكُ يَا مَرْفَعَانِ<sup>(١)</sup> ! أَلَا تَعْرِفُ أَنَّ لَكَ دِمَاعًا مَخْرُوقًا تَسْقُطُ مِنْهُ أَفْكَارُكَ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهَا ، وَلَوْلَا أَنَّهُ مَخْرُوقٌ لَحَفِظْتَ الْمَتْنَ ! إِنْ كُلُّ تَخْطِئَةٍ لِي مِنْكَ هِيَ اغْتِرَافٌ لِي مِنْكَ بِصَوَابٍ .

فَنَظَرَ الْآخَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً كَانَ تَفْسِيرُهَا فِي حَوَاجِبِهِ ، إِذْ مَطَّ حَوَاجِبُهُ<sup>(٢)</sup> وَرَقَصَهَا . فَقَالَ (الثَّابِتُ) : وَنَظَرَاتُهُ خَبِيثَةٌ مِلْحَةٌ الطَّعْمِ ، مَرْعُوقَةٌ كَمَاءِ الْبَحْرِ الْمُرِّ أَحَدٌ مِنَ الْبَحْرِ وَاضِيَتْ إِلَى مِلْحِهِ الطَّيْنِيِّ مِلْحٌ ، أَكَادُ أَنْهَزُ مِنْ هَذِهِ النَّظَرَةِ فَأَقْبَى .

الآنَ فَهَيْتُ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : «مِلْحَةٌ فِي عَيْنِ الْحَسُودِ» . فَإِنَّ الْمِلْحَ لَا يَغْلِبُهُ إِلَّا الْمِلْحُ ، كَالْحَدِيدِ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ . هَانُوا كَأَسَا مِنْ مُعْتَقَةِ الْخَمْرِ ، ثُمَّ لِيَنْظُرَ فِيهَا الْخَبِيثُ هَذِهِ النَّظْرَةَ ، فَإِنَّ الْخَمْرَ لَا بُدَّ مُسْتَحِيلَةٍ «شَرِبْتُ مِلْحَ إِنْكَلِيرِي» ... هَذَا الْأَبْلَهَ فَقِيلَ الدِّمَ كَانَ دَمُهُ مَأْخُودٌ مِنْ مُسْتَنْفَعٍ ... أَهَذَا الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لَشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا : هُوَ لِي ، إِلَّا الْفَقْرَ وَالْجُنُونَ وَالْخَوَافَةَ - يُكَذِّبُ مَا فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْبَرِيدُ الْمُسْتَعْجِلُ ، وَلَا يُصَدِّقُ أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ إِلَى نَابِعَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ مِنْ صَاحِبِ السُّمُومِ الْأَمِيرِ ؟

هَذَا الذَّاهِبُ الْعَقْلُ هُوَ كَالْجَبَانِ الْمُنْقَطِعِ فِي وَخْشَةِ الْفَقْرِ ، فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ : إِذَا تَوَجَّسَ حَرَكَةً ضَعِيفَةً انْقَلَبَتْ فِي وَهْمِهِ قِصَّةَ جَرِيْمَةٍ مَلُؤَهَا الرُّغْبُ وَفِيهَا الْقَتْلُ وَالذَّبْحُ ؛ وَلِهَذَا يَخْشَى مَا فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ صَدِيقِي صَاحِبِ السُّمُومِ . هَاؤُمُ اقْرَؤُوا الرِّسَالَةَ .

وَفَضَضْنَا الْغِلَافَ ، فَإِذَا وَرَقَتَانِ مَمْهُورَتَانِ بِتَوْقِيعِ أَمِيرٍ مَعْرُوفٍ ، إِحْدَاهُمَا صَدِّقٌ بِالْفِ جُنَيْهِ تُدْفَعُ (لِنَابِعَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَالْثَانِيَةُ أَمْرٌ بِالْقَبْضِ عَلَى الْمَجْنُونِ الْآخَرِ ...

(١) الْمَرْفَعَانُ وَالْمَرْفَعُ : الْأَحْمَقُ الَّذِي يَمَرُّ عَلَيْهِ رَأْيُهُ فَلَا يَجْتَمِعُ لَهُ .

(٢) هُمَا حَاجِبَانِ ، وَلَكِنْ هَذَا الْأَسْلُوبُ هُوَ الْأَفْصَحُ هُنَا ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ .

وَلِإِسْأَلِهِ إِلَى الْمَارِسَتَانِ ...

\* \* \*

وَدَهَبْتُ أَصْلِحَ بَيْنَهُمَا { صُلْحًا } فَقُلْتُ : إِنَّ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : هَذَا مَجْنُونٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَذَا مُصَابٌ ؛ إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمُقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ » [ كنز العمال ، رقم : ١٠٤٣٧ ، ١٠٤٥٣ ] .

فَقَالَ صَاحِبُ الْأَمْنِ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : « إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمُقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ » .

قُلْتُ : وَلَيْسَ فَبَيْنَكُمَا مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ...

قَالَ الْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : وَلَيْسَ فَبَيْنَكُمَا مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ...

قُلْتُ : هَذَا لَيْسَ مِنَ الْحَدِيثِ وَلَكِنَّهُ مِنْ كَلَامِي .

قَالَ (الْتَابِعَةُ) : أَتَبَانُكُمْ أَنَّ هَذَا الْأَبْلَهَ يَضِلُّ فِي دَارِهِ كَمَا يَضِلُّ الْأَعْرَابِيُّ فِي الصَّخْرَاءِ ؛ وَأَنَّ الْأَسْطُولَ الْإِنْكِلِيزِيَّ لَوْ اسْتَقَرَّ فِي سَاقِيَةِ يَدُورٍ فِيهَا نُورٌ ، لَكَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى التَّصْدِيقِ مِنْ اسْتِقْرَارِ الْعَقْلِ فِي رَأْسِ هَذَا الْأَبْلَهَ ؟ ...

فَاخْتَدَمَ الْآخَرُ وَهَمَّ أَنْ يَقُولَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » ، وَلَكِنِّي أَسْكَنْتُهُ وَقُلْتُ (لِلْتَابِعَةِ) : إِنَّكَ دَائِمًا فِي ذِرْوَةِ الْعَالَمِ ، فَلَا غَرَوْ أَنْ تَرَى الْمُحِيطَ الْأَعْظَمَ سَاقِيَةً . « وَالنَّوَابِغُ » هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَوَابِغٌ ، وَلَكِنُّهُمْ فِي رَأْيِ النَّاسِ مَرَضَى بِمَرَضِ الصُّعُودِ الْخَيَالِيِّ إِلَى ذِرْوَةِ الْعَالَمِ . وَمِنْ هَذَا يَكُونُ الْمَجَانِينُ هُمْ الْمَرَضَى بِمَرَضِ التَّرْوِيلِ الْحَقِيقِيِّ إِلَى حَضِيضِ الْآدَمِيَّةِ ؛ فَهَتَاكَ يَنْمَلُونَ فَتَكُونُ أَفْكَارُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، ثُمَّ تَكُونُ عُقُولُهُمْ مِنْ أَفْكَارِهِمْ ، فَيَكُونُ هَذَا هُوَ الْجُنُونُ فِي عُقُولِهِمْ ؛ وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ : « إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمُقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ » .

قَالَ (الْتَابِعَةُ) : لَعَمْرِي إِنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ ؛ فَيُبْذَرُ الْعَقْلُ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ السُّمُومِ فِيهِ ؛ فَالشَّاعِرُ الْعَظِيمُ مَجْنُونٌ بِالْكَوْنِ الَّذِي يَتَخَيَّلُهُ فِي فِكْرِهِ ، وَالْعَاشِقُ مَجْنُونٌ بِكَوْنِ آخَرٍ لَهُ عَيْنَانِ مَكْحُولَتَانِ ؛ وَالْفَيْلَسُوفُ مَجْنُونٌ بِالْكَوْنِ الَّذِي يَذَّأبُ فِي مَعْرِفَتِهِ ؛ وَتَابِعَةُ الْقَرْنِ

الْعِشْرِينَ مَجْنُونٌ ... لَا . لَا . قَدْ نَسِينَا . ش ، فَهُوَ مَجْنُونٌ ، وَ « س . ع » فَهُوَ مَجْنُونٌ [من الوافر] :

وَكُلُّ النَّاسِ مَجْنُونٌ بِلَيْلِي وَلَيْلِي لَا تُقَرُّ لَهُمْ بِذَاكَ وَمِنْ حَقِّ لَيْلِي أَلَّا تُقَرَّ لَهُمْ ، إِذْ هِيَ لَا تُقَرُّ إِلَّا لِتَابِعَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ وَخَدَهُ ؛ وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ الْمَرْأَةِ فِي الْكَوْنِ النَّفْسَانِيِّ لِلرِّجَالِ ؛ أَمَا فِي الْكَوْنِ الْحَقِيقِيِّ فَهِيَ أَنْثَى كَانَتْ الْبَهَائِمُ لَيْسَ غَيْرُ . وَأَعْقَلُ الرِّجَالِ مَنْ كَانَ كَالْحِمَارِ أَوْ الثَّوْرِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ ذُكُورِ الْبَهَائِمِ . فَالْحِمَارُ لَا يَعْرِفُ الْحِمَارَةَ إِلَّا أَنَّهَا حِمَارَةٌ ، وَالثَّوْرُ لَا يَعْرِفُ الْبَقَرَةَ إِلَّا أَنَّهَا بَقَرَةٌ ؛ وَلَا يَنْظُمُونَ شِعْرًا ، وَلَا يَكْتُبُونَ « أَوْزَاقَ الْوَزْدِ » ... وَإِنَّا الْبَهَائِمُ أَمَاتٌ <sup>(١)</sup> لَا غَيْرُ ، وَلَكِنَّ الْعَجِيبَ أَنَّ ذُكُورَهَا لَيْسَتْ أَبَاءَ ؛ فَهَذِهِ الذُّكُورَةُ طُفْلِيَّةٌ فِي الدُّنْيَا ، وَالطُّفْلِيُّ لَا يَأْكُلُ إِلَّا بِحِيلَةٍ يَخْتَالُ بِهَا ، فَيَكُونُ صَاحِبَ نَوَادِرٍ وَأَصَاحِيكَ وَأَكَادِيبَ . وَلِهَذَا كَانَ عِشْقُ الرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ ضَرْوبًا مِنَ الْخِدَاعِ وَالْأَكَادِيبِ وَالْأَصَاحِيكَ وَالْحِيلِ وَالْغَفْلَةِ وَالْبَلَاهَةِ ؛ وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ فَهُوَ عِشْقٌ ، أَمَا آخِرُهُ فَهُوَ آخِرُ الْحِيلَةِ وَالْأَكْذُوبَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الطُّفْلِيِّ : قَدْ شَبِعْتُ وَقَدْ رَوَيْتُ ... وَيَحْكُمُ ! أَيْنَ أَوَّلُ الْكَلَامِ ؟

قُلْنَا : أَوَّلُهُ مَا أَعْجَبَ سِحْرَ الْمَرْأَةِ فِي الْكَوْنِ النَّفْسَانِيِّ لِلرِّجَالِ .

قَالَ : نَعَمْ هَذَا هُوَ . إِنَّهُ سِحْرٌ لَا أَعْجَبَ مِنْهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ النَّفْسَانِيِّ إِلَّا سِحْرُ الذَّهَبِ ؛ فَلَوْ مُسَخَّتِ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ لَكَانَتْ سَبِيكَةً ذَهَبِيَّةً تَلْمَعُ ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ الذَّهَبُ اللَّصُوصَ فِي الدُّنْيَا ، وَتُوجَدُ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ لُصُوصًا آخَرِينَ ، فَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ الذَّهَبُ وَأَنْ تُصَانَ الْمَرْأَةُ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ أَلَيْسَ مِنَ الْمَالِ فَضَّةٌ ، وَهِيَ تُوجَدُ اللَّصُوصَ كَالذَّهَبِ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، وَفِي النِّسَاءِ كَذَلِكَ فَضَّةٌ ، وَفِيهِنَّ اللَّحَاسُ ؛ وَلَوْ أَنْتَ أَلْفَيْتَ رِيَالًا فِي الطَّرِيقِ لَأَحْدَثْتَ مَعْرَكَةً يَخْتَصِمُ فِيهَا رَجُلَانِ ، ثُمَّ لَا يَذْهَبُ بِالرِّيَالِ إِلَّا الْأَفْوَى ، وَلَوْ تَرَكْتَ قَرِشًا لَتَضَارَبَ عَلَيْهِ طِفْلَانِ ، ثُمَّ لَا يَقُورُ بِهِ إِلَّا مَنْ عَصَا الْآخَرَ ...

(١) يُقَالُ فِي غَيْرِ الْعَاقِلِ : أَمَاتٌ ، وَفِي الْعَاقِلِ : أَمَهَاتٌ .

وَلَكِنَّ (فورد<sup>(١)</sup> Ford) الْغَنِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجْمَعُ يَدَهُ عَلَى أَرْبَعِ مِثَّةٍ مِلْيُونِ جُنَيْهِ ، لَا يَتَكَلَّمُ عَنِ الْقِرْشِ ؛ (وَنَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) الَّذِي يَمْلِكُ (لَيْلَى) ، لَا يَتَكَلَّمُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ قُرُوشِ النِّسَاءِ ...

قُلْتُ : فَإِنِّي أَحْسَبُكَ أَعْلَمْتَنِي أَنَّ اسْمَهَا فَاطِمَةُ لَا لَيْلَى .

قَالَ : هَلْ يَسْتَقِيمُ الشَّعْرُ إِذَا قُلْتُ : وَكُلُّ النَّاسِ مَجْنُونٌ بِفَاطِمَةَ ، وَفَاطِمٌ لَا تَقْرَأُ لَهُمْ ؟ قُلْتُ : لَا .

قَالَ : إِذَا فِيهِ (لَيْلَى) لِيَسْتَقِيمَ الشَّعْرُ ... أَمَّا حِينَ أَقُولُ [لِأَمْرِي الْقَيْسِ ، مِنْ الطَّوِيلِ] :

فَاطِمُ مَهْلًا بَعْدَ هَذَا التَّدْلِيلِ

فَهِىَ فَاطِمَةُ لِيَصِحَّ الْوِزْنُ ...

قُلْتُ : يُشْبِهُ وَاللَّهِ أَلَّا يَكُونَ اسْمُهَا لَيْلَى وَلَا فَاطِمَةُ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ تُسَمَّى حَسَبَ الْوِزْرِ وَالْبَحْرِ ، فَاسْمُهَا فَعُولُنْ أَوْ مَفَاعَلَتُنْ ...

\* \* \*

ثُمَّ قُلْنَا لَهُ : فَمَا رَأَيْكَ فِي الْحُبِّ ، فَإِنَّهُ لَيَقَالَ : إِنَّكَ أَغَشَقْتَ النَّاسَ وَأَغْرَلْتَ النَّاسَ ؟ قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ لَيَقَالَ (وَهُوَ الْأَصَحُّ) .

ثُمَّ أَطْرَقَ يُفَكِّرُ . وَبَدَأَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَذْهُوشٌ ذَاهِبُ الْعَقْلِ ، كَأَنَّهُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى مَسَافَةٍ أَبْعَدَ مِنَ الْمَسَافَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَقْلِهِ . وَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّ النِّسَاءَ قَدْ حُشِرْنَ جَمِيعًا فِي رَأْسِهِ ، وَمَرَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَعْرِضُ مَفَاتِنَهَا وَغَزَلَهَا ، وَتَلَانِمُ هَذَيَانَهُ بِهَذَيَانٍ مِنْ جَمَالِهَا ، فَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْرِضُ وَيَسْخِرُ . ثُمَّ اضْطَرَبَ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُنْسِكَ بِشَيْءٍ أَفْلَتَ مِنْهُ ؛ فَلَمْ يُبَيِّنْهُ إِلَّا قَوْلَ الْمَجْنُونِ الْآخَرِ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » أَنَّ أَعْرَابِيَّةً سِيلَتْ عَنِ الْعِشْقِ فَقَالَتْ : إِنَّهُ دَاءٌ وَجُنُونٌ ...

قَالَ : أَسْكُتْ يَا وَتِلَكَ ! لَقَدْ أَطْفَأْتَ الْأَنْوَارَ بِكَلِمَتِكَ الْمَجْنُونَةِ . كَانَ فِي رَأْسِي مَرْقَصٌ عَظِيمٌ تَسْطَعُ الْأَنْوَارُ فِيهِ بَيْنَ الْأَخْمَرِ وَالْأَخْضَرِ وَالْأَبْيَضِ ؛ وَتَرْقُصُ فِيهِ الْجَمِيلَاتُ مِنَ الطَّرِيزَةِ وَالْقَصِيرَةِ وَالْمَمْشُوقَةِ وَالْبَادِنَةِ ، فَجِئْتُ بِالْدَّاءِ وَالْمَجْنُونِ فَجَبَحَكَ اللَّهُ فَأَخْرَجْتَنِي عَنْهُنَّ إِلَيْكَ . أَحْسَبُ أَنَّكَ لَوْ اتَّخَذْتَ لَصَلَحَ الْعَالَمُ أَوْ صَلَحْتُ أَنَا عَلَى الْأَقْلِّ ... فَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ تَشْتَقَّ نَفْسَكَ فَأَنَا آتِيكَ بِالْحَبْلِ الَّذِي كُنْتُ مُقَيِّدًا فِيهِ ، أَيُّ : الْحَبْلِ الَّذِي عِنْدِي فِي الدَّارِ ... عَلَى أَنَّ رَأْسَكَ الْفَارِغَ مَشْتَوْقٌ فَيْكَ وَأَنْتَ لَا تَذَرُنِي .

قَالَ الْآخَرُ : مَا أَنْتَ مُنْذُ الْيَوْمِ إِلَّا فِي شَنْفِي وَتَغْذِيبِي أَوْ فِي شَنْفِي عَقْلِي (عَلَى الْأَصَحِّ) . « وَمِمَّا حَفِظْتَاهُ » قَوْلُ الْأَخْتَبِ بْنِ قَيْسٍ : إِنِّي لِأَجَالِسُ الْأَحْمَقَ سَاعَةً فَأَتَّبِعُنِي ذَلِكَ فِي « عَقْلِي » ...

فَلَمْ يَرْعَنَا إِلَّا قِيَامَ الْمَجْنُونِ مُسَلِّحًا بِحِذَائِهِ فِي يَدِهِ ... وَهُوَ حِدَاءٌ عَيْنِي غَلِيظٌ يَقْتُلُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَحُلْنَا بَيْنَهُمَا وَأَنْبَتَاهُ فِي مَكَانِهِ . وَقُلْنَا : هَذَا رَجُلٌ قَدْ غَلِبَ عَلَى عَقْلِهِ فَلَا يَذَرُنِي مَا يَقُولُ ؛ فَإِذَا هُوَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، أَفَلَا تَدُلُّ أَنْتَ عَلَى أَنَّكَ عَاقِلٌ ؟ مَا سَأَلْنَاكَ فِي اتِّحَارِهِ وَجُنُونِهِ ، بَلْ سَأَلْنَاكَ رَأْيَكَ فِي الْحُبِّ ؛ وَمَا نَشُكُّ أَنَّكَ قَدْ أَطَلْتَ التَّفَكِيرَ لِيَكُونَ الْجَوَابُ دَقِيقًا ، فَإِنَّكَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَانْظُرْ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ كَذَلِكَ .

قَالَ : نَعَمْ إِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ السُّؤَالُ أَطَالَ الْفِكْرَ فِي الْجَوَابِ . فَاتَّكَبْتُ يَا فُلَانُ (س . ع) :

جَلَسَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ مَجْلِسَ الْإِمْلَاءِ مُرْتَجِلًا فَقَالَ<sup>(١)</sup> : قِصَّةُ الْحُبِّ هِيَ قِصَّةُ آدَمَ ، خَلَقَ اللَّهُ الْمَرْأَةَ مِنْ ضِلْعِهِ . فَأَوَّلُ عَلَامَاتِ الْحُبِّ أَنْ يَشْعُرَ الرَّجُلُ بِالْأَلَمِ كَأَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَحَبَّهَا كَسَرَتْ لَهُ صَلْعًا ... وَكُلُّ قَدِيمٍ فِي الْحُبِّ هُوَ قَدِيمٌ بِمَعْنَى غَيْرِ مَعْقُولٍ ، وَكُلُّ جَدِيدٍ فِيهِ هُوَ جَدِيدٌ بِمَعْنَى غَيْرِ مَفْهُومٍ ؛ فَغَيْرُ الْمَعْقُولِ وَغَيْرُ الْمَفْهُومِ هُوَ الْحُبُّ .

وَالْجَمْرَةُ الْحُمْرَاءُ إِذَا قِيلَ : إِنَّهَا أَنْطَفَأَتْ وَبَقِيَتْ جَمْرَةً فَذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّدَقِ مِنْ بَقَاءِ الْحُبِّ حَيًّا بِمَعْنَاهُ الْأَوَّلُ إِذَا أَنْطَفَأَ أَوْ بَرَدَ .

(١) هَذَا نَصُّ عِبَارَتِهِ حِينَ يُرِيدُ التَّخْلِيضَ .

(١) هو هنري فورد Henry Ford (١٨٦٣-١٩٤٧ م) صناعي أميركي عُرف بمصانعه المنتجة للسيارات .

وَالْعَاشِقُ مَجْنُونٌ . وَجُنُونُهُ مَجْنُونٌ أَيْضًا ، فَهُوَ كَالَّذِي يَرَى الْجَمْرَةَ مُنْطَفِئَةً ، وَيَرَى مَعَ ذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ حَمْرَاءَ ، ثُمَّ يُنْعِنُ فِي خَيَالِهِ فَيَرَاهَا وَرْدَةً مِنَ الْوَرْدِ . . . وَإِذَا سَأَلْتَهُ أَنْ يَصِفَ الْجَمَالَ الَّذِي يَهْوَاهُ كَانَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا مَجْنُونُ الْجُنُونِ ، كَالَّذِي يَرَى قَمَرَ السَّمَاءِ أَنَّهُ قَدْ تَفَتَّتْ وَتَنَازَرَتْ وَوَقَعَ فِي الرُّوْضَةِ ، فَكَانَ نَثَارُهُ هُوَ أَلْيَاسِمِينَ الْأَبْيَضَ الْجَمِيلَ الَّذِي . . .

وَالْمَجْنُونُ يَرَى الدُّنْيَا بِجُنُونِهِ وَالْعَاقِلُ يَرَاهَا بِعَقْلِهِ ؛ وَلَكِنَّ الْعَاشِقَ الْمَحْبُوبَ لَا يَنْظُرُ مَنْ يَهْوَاهُ إِلَّا بِبَقِيَّةٍ مِنْ هَذَا وَبَقِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا يَخْلُصُ مَعَ حَبِيبِهِ إِلَى جُنُونٍ وَلَا عَقْلِ .

(وَالْمَجْنُونُ) إِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ فِي دِمَاحِ بَشَرِيٍّ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَحَدُ رَأْسَيْنِ : رَأْسِ الْمَجْنُونِ وَرَأْسِ الْعَاشِقِ . . .

وَلَا صُعُوبَةٌ فِي الْحُكْمِ عَلَى شَيْءٍ بِأَنَّهُ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ إِلَّا حِينَ يَكُونُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ أَمْرًا مَعْشُوقَةً . أَمَّا أَوْصَافُ الشُّعْرَاءِ وَالْكِتَابِ لِلْجَمَالِ وَالْحُبِّ فَهِيَ كُلُّهَا تَقْلِيدٌ قَدْ تَوَسَّعُوا فِيهِ ؛ وَالْأَصْلُ أَنْ تَوَرَّا أَحَبَّ بَقَرَةٍ فَكَانَ يَقُولُ لَهَا : يَا نَجْمَةَ الْقُطْبِ الَّتِي تَزَلَّتْ مِنَ السَّمَاءِ لِتَدُورَ فِي السَّاقِيَةِ كَمَا دَارَتْ فِي الْفَلَكَ . . .

قَالَ (الثَّابِتُ) : هَذَا رَأْيِي فِي حُبِّ الْعَاشِقَيْنِ ؛ أَمَّا حُبِّي أَنَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) فَيَجْمَعُهُ قَوْلُكَ : قُلْ ، وَرَدُّ ، زَهْرٌ . . .

قُلْنَا : مَا هَذِهِ الْأَلْغَازُ ؟ وَهَلْ لِلْحُبِّ مَتْنٌ كَقَوْلِهِمْ : حُرُوفُ الْقَلْقَلَةِ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (قُطْبُ جَدِّ) ، وَحُرُوفُ الزِّيَادَةِ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (سَأَلْتُمُونِيهَا) ؟

فَتَضَاحَكَ (الثَّابِتُ) وَقَالَ [من الوافر] :

تَكَاثَرَتِ الطُّبَاءُ عَلَى خَرَاشِ

فَلِكَيْلًا نَنْسَى . . . إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ هُوَ بَدْءُ اسْمٍ ، الْفَاءُ فَاطِمَةٌ ، وَاللَّامُ لَيْلَى ، وَالْوَاوُ وَرْدَةٌ ، وَالرَّاءُ رَبَابٌ ، وَالذَّالُ دَلَالٌ ، وَالزَّايُ زَكِيَّةٌ ، وَالْهَاءُ هِنْدٌ ، وَالرَّاءُ رَبَابٌ . . .

قُلْنَا : رَبَابٌ قَدْ مَضَتْ فِي (وَرْدٍ) .

قَالَ : كُنَّا تَهَاجِرُنَا مُدَّةً ثُمَّ أَصْطَلَحْنَا بَعْدَ هِنْدٍ . . .

\* \* \*

قُلْتُ : هَكَذَا « التَّوَابِعُ » فَإِنَّ رَجُلًا أَدِينَا كَانَتْ كُنْيَتُهُ (أَبَا الْعَبَّاسِ) فَلَمَّا « نَبَغَ » صَبَّرَهَا (أَبَا الْعَبْرِ) <sup>(١)</sup> وَفَتَى لَهُ نُبُوغُهُ أَنْ يَجْعَلَهَا تَارِيخًا يَعْرِفُ مِنْهَا عُمُرَهُ . قَالُوا : فَكَانَ يَرِيدُ فِيهَا كُلَّ سِتَةٍ حَرْفًا حَتَّى مَاتَ وَهِيَ هَكَذَا :

أَبُو الْعَبْرِ طَرَدَ طِيلَ طَلِيرِي بَكَ بَكَ بَكَ . . .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



ثُمَّ إِنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) اسْتَحَفَّهُ الطَّرْبُ لِلذِّكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ مِنْ فَاطِمَةٍ إِلَى رَبَابٍ ؛ وَمِنْ طَبَعِ الْمَجْنُونِ أَنَّهُ إِذَا كَذَبَ صَدَّقَ نَفْسُهُ ، فَإِنَّ قُوَّةَ الضَّبْطِ فِي عَقْلِهِ إِمَّا مَعْدُومَةٌ وَإِمَّا مُخْتَلَةٌ ؛ وَكُلُّ وَجْهِ تَحَيَّلَ مِنْهُ خَيَالًا فَهُوَ وَجْهِ مِنْ وَجُوهِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ ، إِذْ كَانَ عَالَمُهُ أَكْثَرُهُ فِي دَاخِلِهِ لَا فِي أَلْعَالِمِ ، فَإِذَا تَوَهَّمَ أَوْ أَحَسَّ أَوْ شَعَرَ ، فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِطَرِيقَتِهِ هُوَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ الْعُقَلَاءِ ؛ فَلَيْسَ يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً تَمْضِي مُنْفَرِدَةً بِنَفْسِهَا مُسْتَقِلَّةً بِمَعْنَاهَا كَأَنَّهَا قَدَرٌ غَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ أَفْكَارِهِ الْأُخْرَى ، فَلَا شَأْنَ لَهَا بِالْوَاقِعِ ، وَلَا شَأْنَ لِلْوَاقِعِ بِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ تَحَقِّقُ مَعْنَاهَا كَمَا تَخْطُرُ لَهُ ، لَا كَمَا تَتَمَثَّلُ فِيْمَا حَوْلَهُ .

فَيَبِينُ كُلَّ مَجْنُونٍ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ دِمَاحُهُ الْمُنْدَجِجِي بِالْغَيْوُمِ الْعَقْلِيَّةِ ، لَا تَزَالُ تَعْرِضُ لَهُ الْغَيْمَةُ بَعْدَ الْغَيْمَةِ مِنْ اخْتِلَالِ بَعْضِ الْمَرَائِزِ الْعَصَبِيَّةِ فِيهِ ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهِذَا الْاِخْتِلَالِ ، وَقِيَامِ الطَّبِيعَةِ فِيهَا عَلَى هَذَا الْفَسَادِ .

(١) { الْعَبْرِ : الْحِمَارُ ، وَتَكَثَّرَ بَعْضُ الْخَمَقِ (أَبُو الْبَقَرِ) قِيَاسًا عَلَى (أَبُو الْعَبْرِ) } .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢٩ ، ٢٧ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٢٠٤٣ - ٢٠٤٧ .

وَمِنْ ذَلِكَ تَنَقُّبُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْكَلَامِ ، وَإِنَّهَا لِحَادِثَةٌ تَامَّةٌ فِي عَقْلِ الْمَجْنُونِ كَالْقِصَّةِ الْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ ، وَبَدْءٌ وَنِهَائَةٌ ، لَا يُخَامِرُهُ فِيهَا الشُّكُّ ، وَلَا يَغْتَرِبُهَا التَّكْذِيبُ ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذَهْنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ قِيَامَ الْحَقِيقَةِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ ؟ وَلِحَوَاسِّ الْمَجْنُونِ جِهَتَانِ فِي الْعَمَلِ ، لِأَنَّهَا بَيْنَ كَوْنَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا الْكُونُ الْحَرْبِ الَّذِي فِي دِمَاغِهِ ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ (نَابِغَةُ الْقَزَنِ الْعِشْرِينَ) : إِنْ فِي دَاخِلِ عَيْنَيْهِ مِظَارًا يَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا ، أَيْ فِي حَقَائِقِهَا ...

وَحَدَّثَنَا الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ الرَّافِعِيُّ قَالَ : إِنْ فِي دَارِ الْمَجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُون Lyon بِفِرَنْسَةِ نَابِغَةُ كِتَابِغَةِ الْقَزَنِ الْعِشْرِينَ ، ذُكِرَتْ أَمَامَهُ قِيسَرَةُ رُوسِيَّةٍ وَخَبِرَ مَقْتَلِهَا ، فَاحْفَظَهَا هَذَا وَأَرْمَضَهُ وَقَالَ : يَا وَيْحَهُمْ ! كَذَبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيَّ ... فَسَأَلَهُ الدُّكْتُورُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : كَانَ مِنْ خَبَرِ الْقِيسَرَةِ أَنَّهَا رَأَتْني فَأَحْبَبْتَنِي ، وَعَلِمَتْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ يُمكنُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْهُ قَلْبُهَا أَنِّي أَنَا رَجُلُهَا لَا الْقِيسَرُ ؛ فَمَا زَالَتْ بَعْدَهَا تُتَاكِدُ الْقِيسَرَةَ وَتَلْتَوِي عَلَيْهِ وَلَا تَصْلُحُ لَهُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَسِسَ مِنْهَا فَطْلَقَهَا ، فَحَمَلَتْ كُنُوزَهَا وَحِلَاَهَا وَلَجَّتْ إِلَى حَبِيبِهَا ، ثُمَّ تَبِعَتْهَا نَفْسُ الْقِيسَرِ وَلَمْ يُطِيقِ الْعَيْشَ بَعْدَهَا فَانْتَحَرَ ... ثُمَّ طَلَبَهَا الشُّيُوعِيُّونَ لِمَا مَعَهَا مِنْ كُنُوزٍ ، فَأَخْفَاهَا هُوَ فِي مَكَانٍ حَرِيصٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ ؛ ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ لَا يَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَخْرَجَهَا فِيهِ إِلَّا إِذَا نَامَ ... كَيْلًا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ الشُّيُوعِيِّينَ فَيَتَعَقَّبُهُ فَيَعْلَمُ مَقَرَّهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسَى الْمَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ ... فَقَدْ يَرَى مَرَّةً فَيُخْبِرُ بِهِ أَوْ يَغْلِبُهُ الشُّوقُ مَرَّةً عَلَى « عَقْلِهِ » ... فَيَذْهَبُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى أَنْ يَرَاهُ مِنْ بَيْنِهِ بِذَلِكَ ، فَتَفْتَضِحُ الْحَبِيبَةُ وَتُؤْخَذُ مِنْهُ .

قَالَ : وَإِنَّ الْقِيسَرَةَ هِيَ تَخْطِئُ أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ فَتُرَاسِلُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِالْإِسْلَاحِيِّ رِسَائِلَ تَقَعُ مِنَ الْجَوِّ فِي دِمَاغِهِ فَيَقْرُؤُهَا وَحْدَهُ ، وَإِنَّ أَخَوَفَ مَا يُخَافُهُ أَنْ يَغْلِبَهَا جُنُونُ الْحُبِّ يَوْمًا ، فَطَطِيشُ طَبِيشِ الْمَرْأَةِ ، فَتُرَوِّدُهُ فِي هَذَا الْمَارِسْتَانِ ... فَقَدْ تَقَتَّلَ إِذَا رَأَاهَا الشُّيُوعِيُّونَ .

قَالَ الدُّكْتُورُ : وَهَآكَ<sup>(١)</sup> (نَابِغَةُ) آخَرُ ثَبَتَ فِي ذَهْنِهِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ قَدْ

(١) فِي الْأَصْلِ : « هُنَاكَ » بَدَلًا مِنْ : « هَاكَ » .

اسْتَهَامَتْ بِهِ وَأَنَّهَا مُبْتَلَاةٌ فِي حُبِّهَا إِثَاءَ جُنُونِ الْغَيْرَةِ ، وَقَدْ تَنَاهَتْ فِيهِ حَتَّى إِنَّهَا لَتَقْتُلُ نَفْسَهَا إِذَا عَلِمَتْ أَنَّ لِصَاحِبِهَا هَوًى فِي امْرَأَةٍ أُخْرَى . وَخَبَلَتْهُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ حَبِيبَتَهُ مِنْ جُنُونِ غَيْرَتِهَا وَاقِعَةٌ بَيْنَ السَّلَامَةِ وَالْتَلَفِ ؛ ثُمَّ تَوَهَّمْ ذَلِكَ يَوْمَ أَنَّ وَاسِيًا قَدْ أَعْلَمَهَا أَنَّ النِّسَاءَ افْتَتَحْنَ بِهِ ، فَطَارَ صَوَابُهَا ، فَهِيَ آتِيَةٌ إِلَيْهِ فِي الْمَارِسْتَانِ لِتُوَحِّحَهُ وَتُسْفِي غَيْظَهَا مِنْهُ ، ثُمَّ تَنْتَجِرُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ ... وَأَدَارَ (النَّابِغَةُ) الْفِكْرَ فِي إِقْنَاعِهَا لِتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا بِالْغَيْبِ ... فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى مَقْتَحٍ تَسْتَيْقِنُ بِهِ الْمَرْأَةُ أَنَّ لَا أَرْبَ لِلنِّسَاءِ فِيهِ إِلَّا أَنْ ... فَفَعَلَ وَجَبَ خُصِيَّتِيهِ بِيَدِهِ لِيَقْدَمَهُمَا بَرْهَانًا أَنَّهُ لَهَا وَحْدَهَا ...

\* \* \*

قُلْنَا : وَطَرِبَ (نَابِغَةُ الْقَزَنِ الْعِشْرِينَ) لِذِكْرِ صَوَابِهِ وَجَمِيلَاتِهِ ، فَجَعَلَ يَتَرَتَّمُ بِهِذَا الشُّعْرِ [مِنَ الْبَسِيطِ] :

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ  
فَقَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » : مَا لَذَّةُ « الْخُبْرِ » إِلَّا لِلْمَجَانِينِ ...  
فَضَحِكَ (النَّابِغَةُ) : وَقَالَ : مَا أَسْحَفَكَ مَنْ أَحْمَقَ . إِذْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى فَقُلْ :  
مَا لَذَّةُ (الْكَلْبِ) . أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ هَذَا الْأَبْلَهَ لَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً خُبِرَ لَقَالَ : إِنَّهَا « ل . ح . م » .  
وَلَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً لَحِمَ لَقَالَ : « ف . و . ل » ...

إِنَّهُ طِفْلٌ عُمُرُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً وَفِيهِ دَائِمًا غَضَبُ الطِّفْلِ وَتَرْفُهُ وَحِمَاقَتُهُ ، وَفِيهِ كَذَلِكَ سُرُورُ الطِّفْلِ وَطَبِيشُهُ وَأَخْلَامُهُ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَقْلُ الطِّفْلِ ... وَهُوَ مِنَ الضَّعِيفِ ، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْعِلَاقَةِ فِي حَيَاتِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَالْبَرِّ بِهِ كَطِفْلِ صَغِيرٍ - بِحَيْثُ يُحِيلُ إِلَيَّ أَحْيَانًا أَنَّنِي أُمُّهُ ...

قُلْنَا : وَتَسْتَسِي بِهِذِهِ الْحَالَةَ أَنْكَ رَجُلٌ ؟

قَالَ : وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ تَتَهَمُونَنِي بِالنِّسْيَانِ ، وَهُوَ شَرٌّ جَهْدًا مُلْزِمَةً لِلْحُكْمِ بِالْجُنُونِ . فَمَا النِّسْيَانُ إِلَّا الْكَلِمَةُ الْأُخْرَى لِمَعْنَى ضَعْفِ الْعَقْلِ ؛ وَضَعْفُ الْعَقْلِ هُوَ اللَّفْظُ الْآخَرُ لِمَعْنَى جُنُونٍ ؛ وَقَدْ أَعْلَمْتُمْكُمْ مَا أَخْرَجَهُ مِنَ الْكَلَامِ .

قُلْتُ : لَا ! [ إِنْ ] النِّسْيَانُ لَا يَكُونُ مِنْكَ نِسْيَانًا بِمَعْنَاهُ فِي الْمَجَانِينِ ، بَلْ بِمَعْنَاهُ فِيكَ أَنْتَ مِنْ تَوَاتُبِ الْأَفْكَارِ التَّائِبَةِ وَتَرَاهُمَا فِي تَوَارِدِهَا عَلَى الْعَقْلِ . فَإِذَا تَوَاتَبَتْ وَتَرَاهُمَا كَانَ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ يُنْسِيَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَا يَنْطَلِقُ مِنْهَا إِلَّا الْقَوِيُّ التَّائِبُ حَقَّ بُتُوغِهِ ، فَيَجِيءُ كَأَلَمْ يَقْطَعْ مِمَّا قَبْلَهُ ؛ فَيُخَسِّبُ ذَلِكَ نِسْيَانًا وَمَا هُوَ بِهِ . وَقَدْ تَصْطَلِحُ الْأَفْكَارُ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الذَّهْنِيَّةِ إِذَا كَانَ التَّائِبَةُ مَسْرُورًا مَخْبُورًا يَرْفُصُ طَرَبًا ... فَيَكُونُ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ تَجِيءَ كُلُّهَا مِمَّا عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَنَاقُضِهَا ؛ فَيُخَسِّبُ ذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ الذُّهُولِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ الْعِلَّةَ « الْبُتُوغِيَّةَ » ؛ وَعُدْرُهُ جَهْلُ هَذِهِ الْعِلَّةِ ، وَهِيَ فِي دِلَالَةِ الْعَقْلِ لَيْسَتْ نِسْيَانًا وَلَا ذُهُولًا .

قَالَ : فَأَعْلِمْنِي كَيْفَ نِسْيَانُ الْمَجَانِينِ ، فَقَدْ خَفِيَ عَلَيَّ أَنْ أَذْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ الْعَجِيبَ فِيهِمْ ، وَلَسْتُ أَذْرِي كَيْفَ يَفُوتُهُمْ مَا اسْتَدْنَى لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُ قَدْ اسْتَقَرَّ وَحَصَلَ فِي عُقُولِهِمْ ؟

قُلْتُ : لَا يَكُونُ النِّسْيَانُ تَهْمَةً بِالْجُنُونِ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ ثَلَاثٍ ، جَاءَتْ بِكُلِّهَا الرُّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ الْمَحْفُوظَةُ :

فَأَمَّا الْأُولَى : فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ سَرَبًا غَنِيًّا وَعُمَرُ حَتَّى أَذْرَكَهُ الْخَرَفُ ؛ فَجَاءَهُ كَاتِبُهُ يَوْمًا يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَجْهِيزِ أُمِّهِ وَقَدْ مَاتَتْ ، فَدَفَعَ إِلَى غُلَامٍ لَهُ دَنَانِيرَ يَشْتَرِي بِهَا كَفَنًا ، وَدَنَانِيرَ أُخْرَى يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْقَبْرِ ، ثُمَّ قَالَ لِغُلَامٍ آخَرَ : امْضِ إِلَيَّ صَاحِبِنَا وَغَاسِلِ مَوْتَانَا فَلَا تَفَادَعُهُ يُغْسِلُهَا .

قَالَ الْكَاتِبُ : فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي أَبْعَثْ خَلْفَ فَلَانَةٍ وَهِيَ جَارَةٌ لَنَا تَغْسِلُهَا . قَالَ : يَا فَلَانُ ! مَا تَدْعُ عَقْلَكَ فِي حُزْنٍ وَلَا فَرَحٍ . كَيْفَ نُدْخِلُ عَلَيْهَا مَنْ لَا نَعْرِفُهُ ؟

قَالَ الْكَاتِبُ : نَعَمْ تَأْذُنُ بِذَلِكَ .

قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا يَغْسِلُهَا إِلَّا فَلَانُ .

فَصَاقَ الْكَاتِبُ بِهِذَا الْخُفَى وَقَالَ : يَا سَيِّدِي ! كَيْفَ يَغْسِلُ رَجُلٌ أَمْرًا ؟

قَالَ : وَإِنَّمَا أَمْرُهَا ... ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ أُنْسِيتُ ...

وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ : فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ نَائِمًا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَخَرَجَتْ يَدُهُ مِنَ الْفِرَاشِ فَبَرَدَتْ ، فَأَذَانَهَا إِلَى جَسَدِهِ وَهُوَ نَائِمٌ فَأَحَسَّ بَرْدَهَا فَأَيَّقَظَتْهُ ، فَأَنْتَبَهَ فَرَعَا فَقَبَضَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ الْأُخْرَى وَصَاحَ : اللَّصُوصُ . اللَّصُوصُ ... هَذَا اللَّصُّ قَدْ قَبِضْتُ عَلَيْهِ ، أَذْرِكُونِي لِنَلَا تَكُونُ فِي يَدِهِ حَدِيدَةٌ يَضْرِبُنِي بِهَا ، فَجَاؤُوا بِالسَّرَاجِ ، فَوَجَدُوهُ قَابِضًا بِيَدِهِ عَلَى يَدِهِ وَقَدْ نَسِيَ أَنَّهَا يَدُهُ ...

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ : فَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ رَجُلٍ قَدْ وَرِثَ نِصْفَ دَارٍ ، فَفَكَرَ طَوِيلًا كَيْفَ تَخْلُصَ الدَّارُ كُلُّهَا لَهُ ثُمَّ أَهْتَدَى إِلَى الْوَسِيلَةِ ؛ فَذَهَبَ إِلَى رَجُلٍ وَقَالَ لَهُ : أُرِيدُ أَنْ أُبَيْعَكَ حِصَّتِي مِنَ الدَّارِ وَأَشْتَرِيَ بِمَنْعِهَا النِّصْفَ الْبَاقِي لِيَصِيرَ الدَّارُ كُلُّهَا لِي ...

\* \* \*

قَالَ (الثَّانِيَةُ) : لَعَمْرِي إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْجُنُونُ ، وَمَا يُذَكِّرُ مَعَ هَؤُلَاءِ مَجْنُونُ الْمَنَى وَلَا غَيْرُهُ ...

فَقَالَ الْآخَرُ : تَاللهِ لَوْلَا أَنَّ (نَابِغَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) يَرْفَعُ نَفْسَهُ عَنِ الْجُنُونِ لَجَاءَ فِي الْجُنُونِ بِمَا يُذْهِلُ « الْعُقُولُ » ...  
ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا النَّابِغَةُ يَتَحَفَّرُ لَهُ ... ؛ فَاسْرَعَ يَقُولُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » كُنْ حَذِرًا كَأَنَّكَ غُرٌّ ، وَكُنْ ذَاكِرًا كَأَنَّكَ نَاسٍ . فَهَذَا هُوَ نِسْيَانُ نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ، نِسْيَانُ حُكَمَاءَ لَا نِسْيَانُ مَجَانِينِ .

قَالَ (الثَّانِيَةُ) : وَلَكِنْ قَدْ فَسَدَ قَوْلُ الشَّاعِرِ [مَنِ الْبَسِطِ] :

مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ

فَمَا بَقِيَتْ مَعَ الْجُنُونِ لَذَّةٌ .

قُلْتُ : إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يُرِيدُ الْمَجَانِينَ الَّذِينَ هُمْ مَجَانِينُ بِالْمَرَضِ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْعُشَاقَ الْمَجَانِينَ بِالْجَمَالِ ؛ وَجُنُونُ الْعَاشِقِ فِي هَذَا الْبَابِ كَعُيُوبِ الْعُظَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْنِ ، وَهِيَ عُيُوبٌ تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا بِحَسَنَاتِ الْعُظَمَاءِ ، فَلَيْسَتْ كَغَيْرِهَا مِنَ الْعُيُوبِ .

قَالَ : فَيَجِبُ أَنْ أَصْنَعَ بَيْنَا آخَرَ يُقَسِّرُ ذَلِكَ الشَّعْرَ لِيَسْتَقِيمَ لِي التَّمَثُّلُ بِهِ ؛ ثُمَّ فَكَّرَ وَهَمَّهُمْ ، ثُمَّ كَتَبَ فِي وَرَقَةٍ ثُمَّ طَوَاهَا وَقَالَ : أَصْنَعُ أَنْتَ أَوَّلَ ، وَسَأَتَّبِعُ « س . ع » . عَلَى شِعْرِي . وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْوَرَقَةَ .

فَنَظَرْتُ وَقُلْتُ : يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّعْرُ هَكَذَا [مِنَ الْبَسِطِ] :

قَالُوا جُنِيتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ الْعَقْلُ إِنْ حَكَمَ الْعُشَاقُ أَتَقُلُّ مِنْ فَقْرٍ تَحَكَّمُ فِي رِزْقِ الْمَسَاكِينِ وَتَسَرُّ « س . ع » . الْوَرَقَةَ فَإِذَا فِيهَا :

قَالُوا جُنِيتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ إِنْ الْعُيُوبُ عَنِ الْمَجْذُونِ دَافِعَةٌ بِأَنَّهُ « نَابِعُ فِي الْقَرْنِ عَشْرِينَ » ... وَصَحِّحْنَا جَمِيعًا ؛ فَقَالَ النَّابِغَةُ : أَبْعَدَكَ اللَّهُ يَا « س . ع » . إِنْ مَنِ اتَّخَذَ الْمَجْذُونِ عَلَى سِرٍّ وَقَالَ لَهُ : أَكْتُمْنِي ؛ فَكَاثَمَا قَالَ لَهُ : أَنْشُرُهُ ...

\* \* \*

ثُمَّ قَالَ : وَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ « س . ع » هَذَا « نَابِغَةً » ، وَلَكِنِّي سَأَجْعَلُهُ نَابِغَةً ، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَيَّ حَقُّ الصَّدِيقِ وَهُوَ حَقٌّ لَا أَضِيعُهُ وَلَا أُخِلُّ بِهِ . فَإِذَا أَخْتَجَتْ يَا « س . ع » إِلَى خِطَابِ رَتَّانٍ تُلْقِيهِ فِي حَفْلِ عَظِيمٍ ، أَوْ قَصِيدَةٍ تَمْدَحُ بِهَا وَزِيرَ الْمَعَارِفِ ، فَالْجَأُ إِلَيَّ فَإِنِّي مَلْجَأٌ لَكَ . وَمَتَى اتَّحَلْتُ شِعْرِي كُنْتُ عِنْدَ النَّاسِ الْمُنْتَبِيَّ أَوْ الْبُخْتَرِيَّ أَوْ ابْنَ الرُّومِيِّ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقُدَامَى لَمْ يَنْفَعْنَهُمْ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ ، وَلَمَّا لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ أَعْجَبُوا النَّاسَ إِذْ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ ...

قُلْنَا : فَمَا حُكْمُكَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَدَبِ ؟

قَالَ : إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ ، فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ الْأَلَّا يُعْجِبُنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ . إِنَّ « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » لَا يَقُولُ لِمَعْنَى هَذَا أَحْسَنُ ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ الْأَحْسَنِ ، وَلَا يَقُولُ عَنْ نَابِغَةٍ هَذَا أَشْهَرُ ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ الْأَشْهَرِ .

قُلْتُ : كَانَ الدُّنْيَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَنْتَ فِيهَا الرَّاهِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُولُ فِي حُسْنِ هَذَا

أَحْسَنُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الشَّهْوَةِ ، وَلَا فِي نَعِيمٍ هَذَا أَطْيَبُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الطَّمَعِ ، وَلَا فِي مَالٍ هَذَا أَكْثَرُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الْحِرْصِ . وَأَحْسَبُكَ لَوْ كُنْتُ تَرَعَى غَنَمًا لَكُنْتُ الْحَقِيقَ فِي عَصْرِنَا يَقُولُ تِلْكَ الرَّاعِيَةِ الرَّاهِدَةِ : أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالْغَنَمِ .

قَالَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قُلْتُ : حُكِّي عَنْ بَغْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ فَكَّرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : يَا رَبِّ ! مَنْ زَوْجَتِي فِي الْجَنَّةِ ؟ فَأَرَى فِي مَنَامِي ثَلَاثَ لَيَالٍ أَنَّهَا جَارِيَةٌ سُودَاءُ فِي أَرْضٍ كَذَا . فَجَاءَ تِلْكَ الْأَرْضَ فَسَأَلَ عَنِ الْجَارِيَةِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : مَا هَذَا ؟ تَسْأَلُ عَنْ جَارِيَةٍ سُودَاءَ مَجْذُونَةٍ كَانَتْ لِي فَأَعْتَقْتُهَا ؟ قَالَ : وَمَاذَا رَأَيْتُمْ مِنْ جُنُونِهَا ؟ قَالَ : كَانَتْ تَصُومُ الْكُفَّارَ إِذَا أَعْطَيْنَاهَا فَطُورَهَا تَصَدَّقَتْ بِهِ ، وَكَانَتْ لَا تَهْدَأُ اللَّيْلَ وَلَا تَنَامُ ، فَصَجَرْنَا مِنْهَا . قَالَ : فَأَيْنَ هِيَ ؟ قَالَ : تَرَعَى غَنَمًا لِلْقَوْمِ فِي الصَّخْرَاءِ .

فَذَهَبَ إِلَى الصَّخْرَاءِ فَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ فِي صَلَاتِهَا ، وَنَظَرَ إِلَى الْغَنَمِ فَإِذَا ذُنُبٌ يَدُلُّهَا عَلَى الْمَرْعَى وَذُنُبٌ يَسُوِّفُهَا . فَلَمَّا قَرَعَتْ مِنْ صَلَاتِهَا سَلَّمَ عَلَيْهَا ، فَأَبْنَأَتْهُ أَنَّهُ زَوْجُهَا فِي الْجَنَّةِ وَأَبْنَأَهَا أَنَّهُ يُسَرُّ بِهَا ؛ ثُمَّ سَأَلَهَا : مَا هَذِهِ الذَّنَابُ مَعَ الْأَغْنَامِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالْغَنَمِ .

قَالَ (النَّابِغَةُ) : هَذَا كَذِبٌ لِأَنَّهُ عَجِيبٌ ، وَهُوَ عَجِيبٌ لِأَنَّهُ كَذِبٌ .

قُلْتُ : وَأَيُّ عَجِيبٍ فِي هَذَا ؟ إِنَّ الذَّنْبَ وَالشَّاءَ ، وَالْأَسَدَ وَالْغَزَالَ ، وَالشُّعْبَانَ وَالْعُصْفُورَ ، وَكُلَّ أَكَلٍ وَمَأْكُولٍ مِنَ الْأَخْيَاءِ ، لَوْ هِيَ دَخَلَتْ فِي دَائِرَةِ الصَّلَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَأَتَنَظَّمَتْ كُلُّهَا صَفًا وَاحِدًا يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ . فَهَذِهِ الْجَارِيَةُ نَشَرَتْ رُوحَ الصَّلَاةِ وَالتَّقْوَى عَلَى كُلِّ مَا حَوْلَهَا مِنْ قُلُوبِهَا الطَّاهِرِ الْمُطْمَئِنِّ بِالْإِيمَانِ ، فَوَقَعَ الذَّنْبُ مِنْهَا فِي دَائِرَةِ مِغْنَاطِيْسِيَّةٍ ، فَسَلَبَ وَحْشِيَّتَهُ وَرَجَعَ مُسَخَّرًا لِفِكْرَةِ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ إِذْ تَجَانَسَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ بِمَا حَوْلَهَا ، وَأَنْسَجَمَ التَّوَعُّدُ وَالتَّوَعُّدُ فِي حَرَكَةِ مُتَجَاوِيَةِ أَنْسِجَامِ الرَّجُلِ الْمِغْنَاطِيْسِيِّ هُوَ وَمَنْ يُتَوَمُّهُ فِي إِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ وَفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ .

قَالَ (النَّابِغَةُ) : فَإِذَا دَخَلَ الذَّنْبُ مَسْجِدًا يَزْنِجُ بِالْمُصَلِّينَ ، أَتَرَاهُ يَصِفُ أَرْبَعَتَهُ وَيَقِفُ



يَبْتَهِمُ لِلصَّلَاةِ ، أَمْ يَصَلِّي صَلَاتَهُ الدُّنْيِيَّةَ فِي لَحُومِهِمْ ؟

قُلْتُ : وَأَيُّنَ هُمُ الَّذِينَ يَصَلُّونَ بِحَقِيقَةِ الصَّلَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ بِهَا مِنَ النَّفْسِ إِلَى الْكَوْنِ ، وَمِنَ الزَّمَنِ إِلَى الْأَبَدِ ، وَمِنَ الْأَسْبَابِ إِلَى مُسَبِّهَا ، وَمِمَّا فِي الْقَلْبِ إِلَى مَا فَوْقَ الْقَلْبِ ؟ إِنَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا يَصَلُّونَ بِجَوَارِحِهِمْ وَيَبْتَهُمُ وَيَبْنِ أَرْوَاحِهِمْ طَوْلَ الدُّنْيَا وَعَرْضُهَا ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يَتَّصِلُ فِكْرُهُ بِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ ، كَمَا يَتَّصِلُ فِكْرُ اللَّصِّ بِيَدِهِ ، وَفِكْرُ الْعَاشِقِ بِعَيْنِهِ ، وَفِكْرُ الطُّفْلِيِّ بِمَعِدَتِهِ ... فَاسْمُهَا عَنْدهُمْ الصَّلَاةُ ، وَحَقِيقَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ كَمَا تَرَى .

قَالَ (التَّابِغَةُ) : وَلَكِنَّهُ ذَنْبٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنْ يَأْكُلَ الشَّاةَ لَا أَنْ يَزَعَاهَا ، فَلَا أَفْهَمُ شَيْئًا .  
وَقَالَ الْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » رَتَعَ الذَّنْبُ فِي الْغَنَمِ ، وَلَمْ يَقُولُوا صَلَّى الذَّنْبُ فِي الْغَنَمِ ، فَلَا أَفْهَمُ شَيْئًا .

قُلْتُ : سَأَرِيدُكُمْ أَعَدَمَ فَهَمٌ ... إِنَّ قَلْبَ تِلْكَ الْمَرَأَةِ الْعَظِيمَةِ الطَّاهِرَةِ مُتَّصِلٌ بِاللَّهِ ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ طَبَاعِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَا ظِلٌّ مِنْ ظِلَالِ الدُّنْيَا ؛ وَقَدْ تَجَلَّى فِيهِ سِرُّ الْحَيَاةِ ، وَهُوَ السِّرُّ الَّذِي لَا يَطْعَمُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَلْبَسُ وَلَا يَسْتَهَيُّ وَلَا يَطْمَعُ فِي شَيْءٍ وَلَا يُخْرِرُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا طَبِيعَتُهُ أَشْوَافُ الْكَوْنِيَّةِ ، وَاتِّصَالُهُ بِتَفَحَّاتِ الْقُوَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْمُسَخَّرَةِ لِلْوُجُودِ كُلِّهِ . فَانْتَشَرَتْ هَذِهِ الْمَوْجَةُ الْكَهْرَبَائِيَّةُ الْإِثْرِيَّةُ حَوْلَ الْجَارِيَةِ مِنْ قَلْبِهَا ، وَجَاءَ الذَّنْبُ فَالتَجَّ فِيهَا وَعَمَرَتْهُ الرُّوحَانِيَّةُ الْغَالِبَةُ ، فَإِذَا هُوَ يَفْتَحُ عَيْنَهُ عَلَى كَوْنٍ غَرِيبٍ قَدْ تَجَلَّى السَّلَامُ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا قُوَّةُ أَمْرَةٍ أَمَرَهَا بِاتِّلَافِ كُلِّ شَيْءٍ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَاجْتِمَاعِ الْمُتَنَافِرِينَ فِي حَالَةٍ مَعْرُوفَةٍ لَا فِي حَالَةٍ انْكَارٍ . فَصَارَ الذَّنْبُ مُسْتَقِظًا ، وَلَكِنَّهُ فِي رُوحِ النَّوْمِ ، وَشَلَّتْ فِيهِ الدُّنْيِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ ، فَإِذَا هُوَ يَحْمِلُ الْأَنْتَابَ وَالْأَطَافِرَ وَقَدْ أَنْسَى اسْتِعْمَالَهَا ؛ وَبَقِيَتْ حَرَكَتُهُ الْحَيَوَانِيَّةُ ، وَلَكِنْ تَعَطَّلَتْ بَوَاعِثُهَا فَبَطَلَتْ مَعْنَاهَا .

وَمِنْ كُلِّ ذَلِكَ أَخْتَفَى الذَّنْبُ الَّذِي هُوَ فِي الذَّنْبِ ، وَبَقِيَ الْحَيَوَانُ حَيًّا كَكُلِّ الْأَحْيَاءِ ، فَتَأَسَّبَ الشَّاةَ وَفَرَعَ إِلَيْهَا إِذْ لَمْ تَكُنْ <sup>(١)</sup> الْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا عِلَاقَةُ جِسْمٍ الْكَامِلِ بِجِسْمٍ الْكَامِلَةِ ، بَلْ

(١) الْأَصْلُ : « تَعَذَّ بِذَلَا مِنْ : تَكُنْ » .

عِلَاقَةُ الرُّوحِ الْحَيِّ بِرُوحِ حَيٍّ مِثْلِهِ <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

قَالَ (التَّابِغَةُ) : أَمَّا أَنَا ، فَقَدْ فَهَمْتُ ، وَلَكِنْ هَذَا الْمَجْنُونُ لَمْ يَفْهَمْ . أَكْتُبُ يَا « س . ع » : جَلَسَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ مَجْلِسَهُ لِلْفَلَسَفَةِ عَلَى غَيْرِ إِعْدَادٍ وَلَا تَمَكُّنٍ ، وَيَدُونُ كُتُبَ الْبَنَةِ ... وَكَانَ هَذَا أَجْمَعَ لِرَأْيِهِ وَأَذَهَنَ لَهُ وَأَدْعَى لِأَنْ يَتَوَقَّرَ عَلَى الْإِمْلَاءِ بِكُلِّ « مَوَاهِبِ الْعَقْلِيَّةِ » ؛ وَلَمَّا أَنْ فَكَّرَ التَّابِغَةُ وَأَعْطَى النَّظَرَ حَقَّهُ وَجَمَعَ فِي عَقْلِهِ الْفَذَّ جَزَالَةَ الرَّأْيِ إِلَى قُوَّةِ التَّفَكُّنِ وَالْإِنْكَارِ ، قَالَ مُزَجَّلًا : إِنَّ فِلْسَفَةَ الذَّنْبِ وَالشَّاةِ حِينَ لَمْ يَأْكُلْهَا وَلَمْ تَنْطَحْهُ ، هِيَ بِالْأَنْصِ وَالْأَحْرَفِ كَمَا قَالَ أُسْتَاذُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ...

(حَاسِيَّةٌ) : وَإِنَّ مَجْنُونُ الْمَتَنِ لَمْ يَفْهَمْ هَذِهِ الْفِلْسَفَةَ .

فَأَمْتَعَضَ الْآخَرُ وَقَالَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » [مِنْ الْبَسِطِ] :

وَبَاتَ يَفْدَحُ طُؤُلَ اللَّيْلِ فِكْرَتَهُ وَفَسَّرَ الْمَاءَ بَعْدَ الْجُهْدِ بِالْمَاءِ فَقَالَ (التَّابِغَةُ) : وَيَلَيْكَ يَا أَبَلَّةُ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ نَفْطُونِيهِ أَوْ سَبِينُونِيهِ لَمَا كُنْتُ عِنْدِي إِلَّا جَحْشُونِيهِ أَوْ بَغْلُونِيهِ ...

(١) رَوَتْ الصُّحُفُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ قِصَّةَ حَاكِمٍ إِنْكِلَبِيٍّ كَانَ قَدْ أَقْنَصَ ذُبَابًا هُنَّارِيًّا وَشَدَّهُ فِي سِلْسِلَةٍ وَجَعَلَهُ فِي حِدِيقَةِ دَارِهِ إِلَى أَنْ يَرَى فِيهِ رَأْيًا ؛ وَكَانَ لِلْحَاكِمِ طِفْلٌ صَغِيرٌ أَغْجَبَهُ الذَّنْبُ وَمَنْظَرُهُ الْوُخْشِيُّ ، فَتَرَبَّصَ إِلَى اللَّيْلِ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ أَهْلُهُ نَوَّمَا أَنْسَلَ مِنْ حُجْرَتِهِ وَهَبَطَ الْحَدِيقَةَ وَجَاءَ إِلَى الذَّنْبِ فَوَبَّ هَذَا يَتَحَفَّرُ لِافْتِرَاسِهِ ؛ وَلَكِنْ الطِّفْلُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْوُخْشِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّ الذَّنْبَ كَالْكَلْبِ فَلَمْ يَضْطَرِبْ وَلَمْ يَخَفْ وَلَمْ يَدْخُلْهُ الشُّكُّ ، وَنَضَى إِلَى الْوُخْشِ مَسْرُورًا مُطْمَئِنًّا فَتَنَاقَلَ مِنْ شَعْرِهِ وَجَعَلَ يَمْسُخُهُ بِيَدَيْهِ الصَّخِيرَتَيْنِ وَيَغْبِثُ بِهِ ، وَالذَّنْبُ مَذْهُوشٌ ذَاهِلٌ ، ثُمَّ سَكَنَ وَاسْتَأْنَسَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ مَعَ جُزْءٍ مِنْ أَجْرَائِهِ لَا مَعَ طِفْلٍ آقَمِيٍّ ؛ وَجَذَبَهُ الطِّفْلُ مِنْ رَقَبَتِهِ حَتَّى أَضْجَعَهُ ثُمَّ اتَّخَذَهُ وَسَادَةً وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى ظَهْرِهِ وَنَامَ ... وَاقْتَعَدَتِ الطِّفْلُ مُرَبِّئَهُ فَلَمْ تَجِدْهُ فِي فِرَاشِهِ ، فَتَبَهَّتْ أَهْلُهُ ، وَذَهَبُوا يَتَحَنُّونَ عَنْهُ فِي غُرَفِ الدَّارِ ، ثُمَّ تَرَلُّوا إِلَى الْحَدِيقَةِ فَبَصُرُوا بِهِ نَائِمًا وَرَأْسَهُ عَلَى الذَّنْبِ ، وَخَافُوا إِذْعَاجَ الْوُخْشِ قَرْمُوهُ بِالرَّصَاصِ فَقَتَلُوهُ وَقَامَ الطِّفْلُ يَبْكِي عَلَى صَدِيقِهِ الْوُفِيِّ ...

هَذَا هُوَ أَثَرُ الرُّوحِ الْمُطْمَئِنَّةِ الْمَاصِيَةِ عَلَى يَقِينِهَا ، وَلَكِنْ أَيْنَ مِثْلُ هَذَا الْيَقِينِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ ؟ وَكُلُّ مُرَوِّضِي الْوُخْشِ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَوَّلَ وَآخِرَ مَا يُخَيِّفُونَهَا بِهِ هُوَ نَزْعُ الْخَوْفِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ وَحْدَهُ سِلَاحُ النَّفْسِ فِي النَّفْسِ .

لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الْكَلَامَ فِي بَلَدِكَ الْفَلَسَفَةِ طَرِيقًا نَزَاهًا جَمِيلًا حَفَّتْهُ الْأَشْجَارُ وَالْأَزْهَارُ عَنْ جَانِبَيْهِ، وَأَنْدَفَعَتْ فِي سَوَائِهِ (تُمْبِيلَاتٌ) [أَي: سَيَّارَاتُ] الْأَفْكَارِ خَاطِفَةً كَالْبَرْقِ. فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ أَنْتَ أَنْتَهَيْتَا مِنْ سَخَافَتِكَ إِلَى طَرِيقِ حَجَرِي تَقَعُّعُ فِيهِ عَرَبَاتُ النُّقْلِ تَجْرُهَا الْبَغَالُ الْبَطِيئَةُ.

فَقَالَ الْآخَرُ وَهُوَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ: مَا أَرَدْتُ وَاللَّهِ مَسَاءَتَكَ، وَلَوْ أَرَدْتُهَا لَقُلْتُ: وَفَسَّرَ الْمَاءَ بَعْدَ الْجُهْدِ بِالسَّبَرِ [أَي: الْكُحُولِ]... فَهَذَا هُوَ الْخَطَأُ، أَمَّا تَفْسِيرُ الْمَاءِ بَعْدَ الْجُهْدِ بِالْمَاءِ فَهُوَ صَحِيحٌ.

قَالَ (الْتَّابِعُ): وَلَكِنَّهُ تَفْسِيرٌ مُفْرَطُ السُّقُوطِ كَتَفْسِيرِ الْمَجَانِينِ، فَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي مَجْنُونٌ. قُلْتُ: كَلَّا، إِنَّ تَفْسِيرَ الْمَجَانِينِ يَكُونُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ، كَالَّذِي حَكَاهُ الْجَاحِظُ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِآخَرَ: ضَرَبْنَا السَّاعَةَ زَنْدِيقًا. قَالَ الْآخَرُ: وَأَيُّ شَيْءٍ الزَّنْدِيقُ؟ قَالَ: الَّذِي يَقَطُّعُ الْمَرْيَقَا. قَالَ: وَكَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَقَطُّعُ الْمَرْيَقَا؟ قَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ النَّخْلَ بِالْحُلِّ....

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



وَطَالَ الْمَجْلِسُ بِنَا وَالْمَجْنُونَيْنِ، وَالْكَلَامُ عَلَى أَنْحَائِهِ يَنْدَفِعُ مِنْ وَجْهِ إِلَى وَجْهِ، وَيَمُرُّ فِي مَعْنَى إِلَى مَعْنَى؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَبْلُغَ بِهِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي جَمَعْتُ مِنْ أَجْلِهَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ، بَعْدَ مَا انْطَلَقْنَا فِي الْقَوْلِ وَانْفَتَحَ الْعَقْلُ الْمَوْضُوعُ عَلَى عَقْلِ كُلِّ مِنْهُمَا.

وَكَانَ قَدْ مَرَّ فِي اللَّيْلِ بِأَيِّ رَوَايَاتٍ مُتَرَجِّمَةٍ «بُولِيسِيَّةٍ وَغَرَامِيَّةٍ وَلُصُوصِيَّةٍ!» يَحْمِلُ الرَّجُلُ مِنْهَا مَرْبَلَةً أَخْلَاقِي أَوْ رِيَّةً كَامِلَةً لِيَنْفِضَهَا فِي نَفْسِ الْأَخْدَاطِ مِنْ فِتْيَانِنَا وَفَتَيَاتِنَا،

(\*) «الرسالة» العدد: ١٣٠، ٤ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ٣٠ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٥ م، السنة

فَقُلْتُ (لِتَابِعِ الْقَرْنَ الْعِشْرِينَ): أَتَقْرَأُ الرِّوَايَاتِ؟

قَالَ: لَا، إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ لَمْ أُعَاوِدْ، إِذْ جَعَلْتَنِي الرِّوَايَةَ رِوَايَةً مِثْلَهَا.

قُلْنَا: هَذَا أَغْجَبَ مَا مَرَّ بِنَا مُنْذُ الْيَوْمِ، فَكَيْفَ صَبَرْتَ رِوَايَةَ؟

قَالَ: أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ طَبِيعَةَ التَّوَابِغِ، إِذْ لَيْسَ لَكُمْ حِسُّهُمْ الْمُرْهَفُ، وَلَا طَبْعُهُمُ الْمُسْتَحْكِمُ، وَلَا خَصَائِصُهُمُ الْغَنِيَّةُ، وَلَا خَوَاطِرُهُمُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِمَا فَوْقَ الطَّبِيعَةِ.

قُلْتُ: نَعَمْ أَغْرَفُ ذَلِكَ؛ وَمَا مِنْ (تَابِعِ) إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ عَلَى طَرَفٍ مِمَّا هُنَا وَطَرَفٍ مِمَّا هُنَاكَ، فَهُوَ خَرَّاجٌ وَلَا جُ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ؛ وَلَهُ نَفْسٌ مُرَكَّبَةٌ تَرْكِبُهَا عَلَى نَوَامِيسَ مَعْرُوفَةٍ وَأُخْرَى مَجْهُولَةٍ؛ فَهِيَ تَأْخُذُ مِنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مَعًا، وَيَخْصُرُهَا الْمَكَانُ مَرَّةً وَيُفْلِتُهَا مَرَّةً، وَتَكُونُ أَحْيَانًا فِي زَمَانِ الْأَرْضِ، وَأَحْيَانًا فِي زَمَنِ الْكَوَاكِبِ مِنَ الْقَمَرِ فَصَاعِدًا... وَلَكِنْ...

فَقَطَّعَ عَلَيَّ وَقَالَ: أَضِيفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْعُقُولَ الَّتِي تَخْصُرُ مِنْ يُسْمُونَهُمُ الْعُقَلَاءَ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، لَا تُوجَدُ أَهْلُهَا إِلَّا الْهُمُومُ وَالْأَخْزَانُ، وَالْمَطَامِعُ السَّافِلَةُ، وَالْأَفْعَالُ الدَّيْنِيَّةُ، فَإِنَّهُمْ يَعِيشُونَ فَوْقَ التُّرَابِ.

قُلْتُ: نَعَمْ، وَإِذَا عَاشُوا فَوْقَ التُّرَابِ فَبِأَضْطِرَارٍ أَنْ تَكُونَ مَعَانِي التُّرَابِ فَوْقَهُمْ وَتَخْتَنُهمُ وَمِنْ حَوْلِهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَلَيْسُوا يَقْطَعُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَّا عُمرًا تَرَابِيًّا فِي كُلِّ مَعَانِيهِ وَلَكِنْ...

قَالَ: وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُقَيَّدُونَ تَقْيِيدَ الْمَجَانِينِ، غَيْرَ أَنَّ حَبَالَهُمْ وَسَلَسِلَهُمْ عَقْلِيَّةٌ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ؛ وَتَعْلِيلُهُمْ تَعْلِيلُ الْمَجَانِينِ يُسْمُونَ أَنْفُسَهُمْ عُقَلَاءَ، وَأَعْقَلُهُمْ أَثْقَلُهُمْ فَيُزْدَا، وَهَذَا مِنَ الْغَرَابَةِ كَمَا تَرَى.

قُلْتُ: نَعَمْ، أَمَّا الْعُقَلَاءُ بِحَقِيقَةِ الْعَقْلِ، فَهُمْ الَّذِينَ يَضْحَكُونَ عَلَى هَذُلَاءِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، إِذْ كَانُوا فِي حَالِ كَحَالِ الْمُنْطَلِقِ مِنَ الْمُقَيَّدِ، وَفِي مَوْضِعِ كَمَوْضِعِ الْمُعَاْفَى مِنَ الْمُبْتَلَى. وَلَكِنْ...

قَالَ: وَفَوْقَ هَذَا وَذَلِكَ، إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ السَّعَادَةَ، إِذْ لَيْسَ لَهُمُ الْعَقْلُ الْأَصَاحُكُ

السَّاحِرُ الْعَابِثُ الَّذِي خَصَّ بِهِ النَّوَابِغُ وَكَانَ الْأَوْحَدُ فِيهِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ).

قُلْتُ : نَعَمْ ، وَإِذَا مَلَكَوا السَّعَادَةَ لَمْ يَشْعُرُوا بِهَا ؛ أَمَا (النَّوَابِغُ) فَقَدْ لَا يَمْلِكُونَهَا ، وَلَكِنْ لَا يَقُونَهُمُ الشُّعُورُ بِهَا أَبَدًا فَيَجِئُهُمُ الْفَرْحُ مِنْ أَسْبَابِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَسْبَابِهِ مَا دَامَ لَهُمُ الْعَقْلُ الصَّاحِكُ السَّاحِرُ الْعَابِثُ الَّذِي دَابُّهُ أَبَدًا أَنْ يَنْسَى لِيَضْحَكَ ، وَلَا قَانُونُ لَهُ إِلَّا إِرَادَةُ صَاحِبِهِ ، عَلَى مَشِينَةٍ صَاحِبِهِ ، لِمَنْفَعَةٍ صَاحِبِهِ . وَلَكِنْ ...

قَالَ : وَالَّذِي هُوَ أَهَمُّ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ ؛ أَنَّ أَعْظَمَ خَصَائِصِ هَذَا الْعَقْلِ الصَّاحِكِ السَّاحِرِ الْعَابِثِ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ صَاحِبِهِ مَا لَا يُحِبُّ وَيَجْتَبِهُ أَنْ يَخْسِرَ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ لِذَلِكَ يَجْعَلُ حِسَابَهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ حِسَابًا يَهُودِيًّا لَا بَدَّ فِيهِ مِنْ رِبْحٍ خَمْسِينَ فِي الْمِئَةِ ...

قُلْتُ : نَعَمْ ، وَهُوَ دَائِمًا كَالطِّفْلِ ؛ وَمَا أَظْرَفَ بِلَاهَةِ الطِّفْلِ وَمَا أَجْدَاهَا عَلَيْهِ ، إِذْ يَضَعُ بِلَاهَتَهُ دَائِمًا فِي أَرْوَاحِ الْأَشْيَاءِ وَأَسْرَارِهَا ، فَتَخْرُجُ بِلَاهَةً مِثْلَهُ ، وَتَقْلِبُ لَهُ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا أُمُّ تَضَاحِكِ أَبْنَاهَا وَتَلَايِبُهُ . وَلَكِنْ ...

قَالَ : وَلَكِنْ هَذَا مَبْلَغٌ لَا تَبْلُغُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَّا شُدُودًا فِي أَفْرَادِهَا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ (كَنَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ).

قُلْتُ : نَعَمْ (وَلَكِنْ) كَيْفَ صَارَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) رِوَايَةً<sup>(١)</sup> حِينَ قَرَأَ الرِّوَايَةَ !

قَالَ : هَلِذِهِ نُكْتَةُ الثُّبُوغِ ؛ فَلَوْ أَنَّ مُؤَلِّفَهَا كَانَ نَابِغَةً مِثْلَنَا يَتَلَقَّى فِي نَفْسِهِ وَحْيَ الْأَنْبِيَاءِ وَإِشَارَاتِ الرُّوحِ الْأَعْظَمِ ؛ لَعَلِمَ مِنَ الْعُجُوبِ أَنَّ (نَابِغَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) سَيَقْرَأُ رِوَايَتَهُ ، فَكَانَ يَتَحَرَّى مَعَانِي غَيْرَ مَعَانِيهِ ، وَيَتَوَخَّى بِهَلِذِهِ الْقِصَّةِ وَضْعًا<sup>(٢)</sup> آخَرَ لَا تَكُونُ فِيهِ حَبِيبَةُ خَائِنَةٍ ، وَلَا لِصِّ عَارِمٍ ، وَلَا قَاتِلِ سَفَاحٍ ، وَلَا سِجْنٍ مُظْلِمٍ ، وَلَا مَحْكَمَةٍ تَقُولُ حَيْثُ وَحَيْثُ ...

قُلْتُ : وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حَبِيبَةِ خَائِنَةٍ فِي الْوَرَقِ ، وَلِصِّ بَيْنَ الْحُرُوفِ الْمُطْبَعِيَّةِ ، وَقَاتِلِ لَا يَقْتُلُ إِلَّا كَلَامًا ، وَسِجْنٍ وَمَحْكَمَةٍ عَلَى الصَّحِيفَةِ لَا عَلَى الْأَرْضِ ؟

قَالَ : هَلِذِهِ نُكْتَةُ الثُّبُوغِ ، فَمَا اسْتَوْعَبْتَ الْقِصَّةَ حَتَّى عَمَرْتَنِي أَشْخَاصَهَا ، وَأَفْجَمْتَنِي

(١) فِي الْأَصْلِ : «رِوَايَةٌ» بَدَلًا مِنْ : «رِوَايَةٌ» .

(٢) فِي الْأَصْلِ : «وَضْعًا» بَدَلًا مِنْ : «وَضْعًا» .

مِنْهَا عَلَى هَوْلِ هَائِلٍ ، فَخَافَتَنِي الْخَائِنَةُ لَعَنَهَا اللَّهُ ... وَلَوْ لَا خَوْفُ السَّجْنِ وَالْمَحْكَمَةِ لَقَتَلْتُهَا أَشْنَعَ قَتْلَةٍ وَمَثَلْتُ بِهَا أَقْبَحَ تَمَثِيلٍ . وَنَحِ الْخَائِنَةُ كَيْفَ اسْتَمَالَهَا ذَلِكَ الدِّمِيْمُ الطَّوِيلُ الْعِمْلَاقُ الْمَشْبُوحُ الْعِظَامُ الْمُفْتَوِّلُ الْعَصَلِ ؟ وَلَكِنِّي لَسْتُ عِمْلَاقًا وَلَا مَبْنِيًّا بِنَاءَ الْخَائِطِ ، ثُمَّ كَانَ مَجْنُونًا بِشَهَوَاتِهِ جُنُونُ الْفِيلِ الْهَائِجِ ، وَكُنْتُ فِي شَهَوَاتِي عَاقِلًا عَقْلَ الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ كَانَ غَنِيًّا غِنَى الْجُهَالِ ، وَكُنْتُ فَقِيرًا فَقَرَّ الْعُلَمَاءِ . وَالنِّسَاءُ ؛ فَتَحَ اللَّهُ النِّسَاءَ . إِنَّهُنَّ زِينَةُ تَطْلُبُ زِينَةً مِثْلَهَا . وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَمْنَحُ وَجْهَهَا لِلْفَرْدِ يَقْبَلُهُ إِذَا كَانَ الذَّهَبُ يَسْقَاطُ مِنْ قُبْلَاتِهِ . أَمَا مَنْ كَانَ مِثْلِي ، أَمْوَالُهُ السَّيَّابُ وَالْجَمَالُ وَالْعَقْلُ وَالثُّبُوغُ ، فَهُوَ مُفْلِسٌ عِنْدَهُنَّ إِفْلَاسَ الْفَرْدِ فِي الْغَايَةِ ، فَهُوَ عِنْدَهُنَّ فَرْدٌ لِهَلِذِهِ الْمُشَابَهَةِ .

قُلْتُ : هَذَا لَيْسَ عَجِيبًا فَإِنَّ اللَّغَوِيَّ يُجْرُونَ عَلَى الشَّيْءِ اسْمًا مَا يُقَارِبُهُ فِي الْمَعْنَى .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : «مِمَّا حَفِظْتَاهُ» أَنَّ اللَّغَوِيَّ يُجْرُونَ عَلَى الشَّيْءِ مَا يُقَارِبُهُ فِي الْمَعْنَى ...

فَتَرَدَّدَ وَجْهَ (النَّابِغَةِ) غَضَبًا وَقَالَ : أَبِي يَلْعَبُ هَذَا الْمَجْنُونُ ؟ إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّغَوِيَّ يُسْمُونَنِي فَرْدًا ، فَهَاتُوا الْقَوَامِيْسَ [ أَيْ : الْمَعَاجِمَ ] كُلَّهَا وَارْجِعُوا إِلَى مَادَّةِ (فَرْد) وَمَادَّةِ (نَابِغَةُ) ... سَوَاءَ عَلَيْكَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْمُعَمَّرُ ... أَلَا فَدَعُونِي أَوْدُهُ أَدَبَ الصَّبِيَّانِ ، فَإِنَّ اللَّطِمَةَ الْقَوِيَّةَ عَلَى وَجْهِ الطِّفْلِ الْمُكَابِرِ فِي حَقِيقَةِ ، تُلْمِسُهُ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُكَابِرُ فِيهَا إِذْ تُدْخِلُهَا إِلَى عَقْلِهِ مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ ...

قَالَ « أ . ش » : أَنْتَ قُلْتَ ، لَاهُو . عَلَى أَنَّكَ لَسْتَ فَرْدًا أَبَدًا إِلَّا عِنْدَ أَمْرَةٍ جَمِيلَةٍ فَاتِنَةٍ مُتَخَيِّلَةٍ مُتَمَاجِنَةٍ ، فَدْ تَضَعُ الْبِرْدَةَ عَلَى ظَهْرِ الْأَمِيرِ وَتَجْعَلُهُ حِمَارَهَا ، فَيُجْعَبُ الْأَمِيرُ أَنْ يَكُونَ حِمَارَهَا . وَلَسْتَ فَرْدًا مَعَ قَرَادٍ إِلَى جَانِبِ عَنَرٍ وَكَلْبٍ ...

قَالَ : الْآنَ عَلِمْتُ السَّبَبَ ، فَإِنَّ الْخَائِنَةَ كَانَتْ مُتَخَيِّلَةً مُؤَلِّفَةً كُتُبَ وَرَوَايَاتٍ ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تُوَلِّفُ الْكُتُبَ ، غَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ تُوَلِّفَ الرَّجُلَ أَيْضًا ، وَتَجْعَلَهُ قِصَّةَ ( هُوَ ) فِيهَا فَرْدٌ ... وَهَذَا إِذَا كَانَتْ جَمِيلَةً كَأَمْرَةٍ الرِّوَايَةِ . أَمَا إِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ ، أَوْ عَجُوزًا مَجْمُوعَةً مِنَ السَّنِينَ ؛ فَهَلِذِهِ وَهَلِذِهِ كُلُّ أَيَّامِهَا كَيَوْمِ الْأَحَدِ عِنْدَ النَّصَارَى ... يَوْمٌ لِلْعُطْلَةِ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا شِرَاءٌ وَلَا مُسَاوَمَةٌ . هَلِذِهِ وَهَلِذِهِ كِلَاهُمَا تَجْعَلُ الرَّجُلَ كَالْمَاءِ فِي سَبِيلِ التَّجَمُّدِ ... لَا يَشْتَعِلُ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْتَعِرَّ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَخْتَرِقَ .

وَمَوْلَعَةُ الْكُتُبِ لَا يَكُونُ وَجْهَهَا إِلَّا إِحْدَى وَثِيقَتَيْنِ : فَإِمَّا جَمِيلَةٌ ، فَوَجْهَهَا وَثِيقَةٌ بِأَنَّ لَهَا دُبُونًا عَلَى الرِّجَالِ ؛ وَإِمَّا غَيْرُ جَمِيلَةٍ ، فَوَجْهَهَا (مُخَالَصَةٌ) مِنْ كُلِّ الدُّبُونِ ...

قُلْنَا : هَذَا فِي الْخَائِنَةِ ، فَكَيْفَ سَرَقَكَ اللَّصُّ وَلَسْتَ غَيِّيًا ؟

قَالَ : هَذِهِ هِيَ نَكْتَةُ الثُّبُوغِ ؛ وَفِي الثُّبُوغِ أَشْيَاءٌ لَا يَنْكَشِفُ تَفْسِيرُهَا ، وَلَيْسَ فِي جَهْلِهَا مَضَرَّةٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَجَهْلٌ لَا يَضُرُّ هُوَ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ ، لَكِنَّهُ عِلْمٌ . وَالْبَحْثُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِ (الْثَّابِتَةِ) هُوَ كَالْبَحْثِ عَنْ سِرِّ الْحَيَاةِ فِيهِ ، إِذْ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ تِلْكَ سِرِّ الْحَيَاةِ لَا سِرِّ الْعَقْلِ ، أَيْ : بِالْعَقْلِ الْخَاصِّ بِهِ وَحْدَهُ لَا بِالْعَقْلِ الطَّبِيعِيِّ الْمُسْتَرَكِ بَيْنَ النَّاسِ .

\* \* \*

قُلْتُ : وَمِنْ عَجَائِبِكَ أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ الرِّوَايَاتِ ، وَلَكِنَّكَ مَعَ ذَلِكَ تَوْلِّفُهَا ...

قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ لَيَكُونُ ، وَإِنْ لَمْ أَوْلِّفُهَا أَنَا تَأَلَّفَتْ هِيَ لِي . فَإِذَا تَقَدَّمَ اللَّيْلُ وَنَامَ النَّاسُ جَمِيعًا أَتَيْتُهُ أَنَا وَخِدي لِرَوَايَةِ الْعَالَمِ فَأَرَى مَا شِئْتُ أَنْ أَرَى . وَفِي ضَوْءِ النَّهَارِ أَجِدُ النَّاسَ عُقْلَاءَ وَلَكِنِّي فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ أَبْصِرُهُمْ مَجَانِينَ ، فَهَذَا اللَّيْلُ بُرْهَانُ الطَّبِيعَةِ عَلَى جُنُونِ النَّاسِ وَضَعْفِ عَقُولِهِمْ إِذْ هُوَ يُثَبِّتُ حَاجَةً هَذِهِ الْعُقُولِ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ الشَّيْءِ الْأَبْلَهِ النَّامِ لَوْلَاهُ مَا عَقِلْتُ فِي نَهَارِهَا وَلَا اسْتَقَامَ لَهَا أَمْرٌ .

يُصْرَعُ النَّاسُ فِي اللَّيْلِ صَرَعةَ الْمَجَانِينَ فَيَغْمِضُونَ أَعْيُنَهُمْ وَلَا يَرَوْنَ شَيْئًا . أَنَا أَنَا فَأَرَى الْعَالَمَ فِي اللَّيْلِ مَسْرُوحًا هَزَلِيًا يَضْحِكُ بِالضَّحِكِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْأَحْمَقِ الَّذِي يَقْطَعُ سِرَاةَ نَهَارِهِ ، وَهُوَ مُعْتَقِدٌ أَنَّهُ قَابِضٌ عَلَى الْوُجُودِ بِالْأَعْيُنِ وَالْأَذَانِ وَالْأَنَافِ ... أَيْنَ رَأَيْتَ الْأَسَدَ يَعْنِيكَ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ وَسَمِعْتَ فِي أذُنِكَ زَبِيرَهُ ، أَدْعَيْتَ الدَّعْوَى الْعَرِيضَةَ ، وَرَعَمْتَ أَنَّكَ مَلَكَتَهُ وَقَبَضْتَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَذَرِي فِي هَذَا أَنَّكَ كَالْمَعْتَوَةِ إِذَا قَبِضَ عَلَى الطَّلِّ بِبِيَدِهِ ، وَصَاحَ : هَاتُوا الْحَبْلَ لِأَقْيَدُهُ ، لَا يُفْلِتُ ... ؟

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَ الْعَالَمُ كُلُّهُ رِوَايَتَكَ فَأَخْرِجْ لَنَا فَضْلًا مِنَ الرِّوَايَةِ .

قَالَ : أَيُّمَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ ، أَنْ أَكْتُبَ أَوْ أُمَثِّلَ ؟

قُلْنَا : بَلَى التَّمَثِيلُ أَحَبُّ إِلَيْنَا .

فَنَظَرَ إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخَرِ وَقَالَ : إِنَّ الْمَجْنُونِ فِي طَبِيعَتِهِ يُنْبِغُ مِنَ الْأَشْخَاصِ يَفِيضُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، كَيُنْبِغُ الْمَاءُ يَسْخُ الدَّفْعَةَ بَعْدَ الدَّفْعَةِ ، فَهَذَا الْمَسْرُوحُ ، وَالرِّوَايَةُ الْآنَ رِوَايَةُ الطَّبِيبِ وَالْمَجْنُونِ ...

\* \* \*

أَنْتَ يَا « س . ع » . عَمَّ هَذَا الْمَجْنُونِ . فَإِذَا قَالَ لَكَ : يَا عَمَّ ! قُلْ لَهُ : أَنَا لَسْتُ ... وَلَكِنِّي أَخُو أَيْبِكَ ... لِنَظَرِ أَيْبَتِهِ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّيْنَتَيْنِ أَمْ لَا ؛ فَإِنَّهُ فَرْقٌ عَقْلِيٌّ دَقِيقٌ تُثْمَنُ بِهِ الْعُقُولُ ...

تَعَالَى أَيُّهَا الْمَرِيضُ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ شِفَاؤُكَ عَلَى يَدَيَّ ، وَفِي يَدَيَّ هَذِهِ لَمَسَةٌ مِنْ لَمَسَاتِ الْمَسِيحِ ، لِأَنَّ (تَابِعَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) هُوَ الْآنَ طَبِيبُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ...

اتَّقُوا أَنْ تُغْضِبُوهُ أَوْ تُخَيِّفُوهُ ، وَأَقْنِمُوا لَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَتَحَرَّوْا مَسَرَّتَهُ دَائِمًا ، فَإِنَّ إِدْخَالَ بَعْضِ الشُّرُورِ إِلَى نَفْسِ الْمَجْنُونِ هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ الْعَقْلِ إِلَى رَأْسِهِ .

مَتَى أَنْكَرْتَ يَا « س . ع » عَقْلَ أَيْنِ أَخِيكَ وَمَا كَانَ السَّبَبُ ؟ وَكَيْفَ غُلِبَ عَلَى عَقْلِهِ ؟ وَهَلْ « ا . ش » . هُوَ خَالُهُ أَوْ أَخُو أُمِّهِ ... ؟

لَطَفَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ . قُلْ لِي : أَتَذْكُرُ أُمِّسِ ؟ أَتَذْكُرُ عَدَا ؟ ... إِنَّ الْأَمْسَ وَالْعَدَا سَاقِطَانِ جَمِيعًا مِنْ حِسَابِ الْمَجَانِينَ ؛ وَمِنْ الرَّحْمَةِ بِهِمْ أَنَّ الدُّنْيَا تَبْدَأُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَدْ اسْتَرَاخُوا مِنْ ثُلْثِي هُمُومِ الزَّمَنِ فِي الْعُقْلَاءِ . وَهُمْ لَا يَصْلُحُونَ أَنْ يَنْفَعُوا النَّاسَ كَالْعُقْلَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ صَالِحُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْعُقْلَاءِ لِلِانْتِفَاعِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي الصَّحِكِ وَالْمَرَحِ وَالطَّرَبِ ، وَهَذَا حَسْبُهُمْ مِنَ النُّعْمَةِ عَلَيْهِمْ .

قُلْ لِي أَيُّهَا الْمَجْنُونُ ! أَتُحْسِنُ أَنَّ الدُّنْيَا تَصْنَعُ لَكَ نَفْسَكَ ، أَمْ نَفْسُكَ هِيَ تَصْنَعُ لَكَ الدُّنْيَا ؟ إِنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ يَحُلُّهَا كُلُّ مَجْنُونٍ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ ، فَمَا هِيَ طَرِيقَتُكَ فِي حَلِّهَا ؟

مَا لَكَ لَا تُجِيبُ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ؟ (هَذَا مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ) أَعْطُوهُ قِرْشًا لِيَنْطَلِقَ لِسَانُهُ ، وَأَتُوا الطَّبِيبَ أَجْرَهُ وَافِيًا وَهُوَ لَا يَقِلُّ عَنْ قِرْشَيْنِ ...

ثُمَّ مَالَ (الْثَّابِتَةُ) عَلَى مَجْنُونِ الْمَتْنِ وَسَارَهُ بِشَيْءٍ . فَقُلْنَا : مَا أَمْرُ هَذَا الْمَالِ بِسِرِّ ؛

هَذَا قِرْشٌ لِلْمَرِيضِ وَهَذَا قِرْشَانٌ لِلطَّيِّبِ .

فَقَالَ الْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً .

قَالَ الطَّيِّبُ : هَذَا مَرِيضٌ يَتَوَعَّى مِنَ الْجُنُونِ أَسْمُهُ « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » ، وَهُوَ جُنُونُ الشَّيْبَانِ الَّذِي يَضَعُ فِي مَكَانِ الْعَقْلِ كَلِمَةً ثَابِتَةً لَا يَتَذَكَّرُ الْمَجْنُونُ<sup>(١)</sup> إِلَّا بِهَا ؛ وَمِنْ أَعْرَاضِهِ جُنُونُ الشُّكِّ ، فَكُلُّ مَا حَوْلَ الْمَرِيضِ مَشْكُوكٌ فِيهِ ، وَقَدْ يَتَرَامَى إِلَى جُنُونِ اللَّمَسِ ، فَلَوْ لَمَسْتَهُ بِإِصْبَعِكَ تَوَهَّمَهَا عَقْرَبًا ، فَخَافَ مِنَ الْإِصْبَعِ تَلَمُّسُهُ خَوْفَهُ مِنَ الْعَقْرَبِ تَلَدُّعُهُ ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ أَشْيَاءٌ لَا بُدَّ مِنَ التَّدْقِيقِ فِي فَحْصِهَا ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَجَانِينِ الْعَبَقَرِيَّةِ الَّتِي أَنْحَرَفَتْ عَنْ طَرِيقِهَا أَوْ شَذَّتْ فِي قُرُونِهَا ؛ وَلَا هُوَ مِمَّنْ يَتَجَانُّ وَيَتَحَامَقُ التِّمَاسَا لِلرُّزْقِ وَالْعَيْشِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : حِمَاةٌ تَعُولُنِي خَيْرٌ مِنْ عَقْلِ أَعُولِهِ .

فَقَالَ الْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » حِمَاةٌ تَعُولُنِي ...

فَضَحِكَ (الْثَّابِغَةُ) وَقَالَ : هُوَ كَمَا بَيَّنْتُ لَكُمْ مُصَابَ جُنُونٍ (مِمَّا حَفِظْتَاهُ) وَهُوَ أَقَلُّ الْجُنُونِ وَأَهْوَنُهُ ، وَعِلَاجُهُ الْبَسْطُ وَالسُّرُورُ وَالْقُرْشُ ؛ وَالضَّرْبُ أحيانًا ... فَإِذَا تَابَرَ عَلَيْهِ الدَّاءُ تَحَوَّلَ إِلَى جُنُونٍ (مِمَّا ضَرَبْتَاهُ) ... فَيَعْتَدِي الْمُصَابَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يُوَقَّعُ بِهِ ضَرْبًا ، وَعِلَاجُهُ جِنْتِيذُ الْقَمِينِصِ الْمَرْقُومِ<sup>(٢)</sup> ؛ فَإِذَا فَدَحَتْ الْعِلَّةُ أَنْفَلَبَ الْمَرَضُ إِلَى جُنُونٍ (مِمَّا قَتَلْتَاهُ) . وَعِلَاجُهُ يَوْمِيذُ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ .

وَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ : إِنْ آخَرَ مَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلَسَفَةُ الطَّبِّ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَنَّ الْكَاسَ جَمِيعًا مَجَانِينُ ، وَلَكِنْ بَعْضُهُمْ أَوْفَرُ قِسْطًا مِنْ بَعْضٍ ، كَأَنَّ سَلْبَ الْعَقْلِ هُوَ أَيْضًا حُطُوطٌ كَحُطُوطِ مَوْهِيَةِ الْعَقْلِ . وَأَهْلُ الْمَرِيضِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُسْمَوْنَ الْأَرْضَ بِنِمَارِسْتَانَ الْفَلَكِ ...

وَلَكِنْ بَقِيَتْ أَشْيَاءٌ لَا بُدَّ مِنَ التَّدْقِيقِ فِي فَحْصِهَا ؛ وَعِنْدِي فِي الْكَدَارِ عَاطُوسٌ إِذَا أَشَمَمْتُهُ هَذَا الْمَجْنُونُ عَطَسَ بِهِ عَطَسَةً قَوِيَّةً فَخَرَجَ جُنُونُهُ مِنْ أَنْفِهِ ... قُلْ لِي أَيُّهَا الْمَسْكِينُ ! أَتَخَافُ إِذَا سِرْتَ وَحَدَكَ فِي مِيدَانٍ وَاسِعٍ كَأَنَّ الْمِيدَانِ سَيَلَتْكَ عَلَيْكَ ؟

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَا يَتَذَكَّرُهُ » بَدَلًا مِنْ : « لَا يَتَذَكَّرُ الْمَجْنُونُ » .

(٢) الْقَمِينِصُ الْمَرْقُومُ قَمِينِصُ السَّجَنِ يَلْبَسُهُ الْمَسْجُونُ وَيُرْقَمُ عَلَيْهِ الْعَدَدُ الَّذِي يُسَمَّى الْيَوْمَ (الْتَمَرَةُ) ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَعْرُوفًا فِي التَّمَذُّنِ الْإِسْلَامِيِّ .

أَتَضْطَرُّبُ إِذَا مَشَيْتَ فِي مَضِيقِي كَأَنَّ الْمَكَانَ سَيَنْطَبِقُ عَلَيْكَ ؟ وَإِذَا كُنْتُ فِي عَرَبَةِ الْقِطَارِ فَهَلْ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ الْبِنَامِرِسْتَانَ قَدْ جَرَّهُ الْقِطَارُ وَأَنْطَلَقَ بِهِ هَارِبًا ؟ وَهَلْ شَعُرْتَ يَوْمًا أَنَّهُ أُوجِي إِلَيْكَ أَنْ تَنْتَحِرَ ؟

أَرِنِي هَذَا الْقِرْشَ الَّذِي فِي يَدِكَ . فَمَدَّ إِلَيْهِ الْمَجْنُونُ يَدَهُ بِالْقِرْشِ .

قَالَ (الْثَّابِغَةُ) : أَنْظِرِ الْآنَ هَلْ تُحَدِّثُكَ نَفْسُكَ أَنْ تَغْصِبِي هَذَا الْقِرْشَ أَوْ تَسْرِقَهُ مِنِّي ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ (الْثَّابِغَةُ) : إِذَا يَجِبُ أَنْ أُخْرِجَهُ فِي جَنِبِي ... وَأَسْرَعَ فَأَخْفَاهُ فِي جَنِبِهِ .

\* \* \*

فَصَاحَ الْآخَرُ وَشَغَبَ ، وَقَالَ : سَلْبِي وَنَهْبِي .

قُلْنَا : لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّصِلَ بَيْنَكُمَا شَرْ فِي تَمَثُّلِ الرِّوَايَةِ فَهَذَا قِرْشٌ آخَرُ ، وَلَكِنْ أَفِي الْفَلَسَفَةِ عِنْدَ (الْثَّابِغَةِ) إِبَاحَةُ السَّرِقَةِ وَالْعَصَبِ ؟

قَالَ : فَالْرِّوَايَةُ الْآنَ هِيَ رِوَايَةُ الْفَيْنَسُوفِ الْعَظِيمِ أَفَلَاطُونِ وَتَلْمِيذِهِ أَرِسْطُو .

قُلْ لِي وَيَحْكُ يَا أَرِسْطُو ! أَعْلِمْتُ أَنَّ فِي الْمَجَانِينِ أَغْنِيَاءَ يَسْرِقُونَ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ وَلَيْسَتْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ . فَمَا عِلَّةُ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَمَا وَجْهُهُ فِي مَقُولَةِ الْجُنُونِ ؟

أَعَجَزَتْ عَنِ الْجَوَابِ ؟ إِذَا فَاعْلَمْ يَا أَرِسْطُو أَنَّ الْمُصَابَ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْجُنُونِ إِذَا اشْتَرَى هَذَا الشَّيْءَ بِدَرَاهِمٍ كَانَتْ قِيَمَتُهُ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَحَدَهُ ، وَهُوَ غَنِيٌّ لَا قِيَمَةَ لِلدَّرَاهِمِ فِي مَالِهِ فَلَا يَخْفَلُ بِالشَّرَاءِ ، بَيْنَ أَنَّهُ إِذَا سَرَقَهُ كَانَتْ قِيَمَتُهُ عِنْدَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَحِيلَتِهِ ، فَيَجِئُهُ بِلَذَّةٍ لَا تَشْتَرِيهَا كُلُّ أَمْوَالِهِ وَلَا كُلُّ أَمْوَالِ الدُّنْيَا . فَهَذَا جُنُونٌ بِاللَّذَّةِ لَا بِالسَّرِقَةِ ، وَهُوَ بِذَلِكَ ضَرَبٌ مِنَ الْعَيْشِ يَجْعَلُ الشَّيْءَ إِذَا لَمْ يُسْرِقْ كَأَنَّهُ الْمَرْأَةُ الْمَعْشُوقَةُ الْمُتَمَنِّعَةُ عَلَى عَاشِقِهَا .

وَالْجَبَاعُ إِذَا سَرَقُوا لِأَكْلِهِمْ وَنَمَسُوا الرِّمَقَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا يُقَالُ فِي لُغَةِ الْفَلَسَفَةِ : إِنَّهُمْ سَرَقُوا بَلْ أَخَذُوا ... فَبِاضْطِرَارٍ جَاعُوا وَبِاضْطِرَارٍ مِثْلِهِ أَكَلُوا ، وَالسَّارِقُ هُنَا هُوَ الْغَنِيُّ<sup>(١)</sup> الَّذِي مَتَّعَهُمُ الْإِحْسَانُ وَالْمَعُونَةُ ...

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْفَتَى » بَدَلًا مِنْ : « الْغَنِيُّ » .

قَالَتْ نِيَا مَعَكُوسَةً مُنْقَلِبَةً أَوْضَاعُهَا يَا أَرِسْطُ ، وَلَوْ اسْتَقَامَتْ هَذِهِ الْأَوْضَاعُ لَوَجَدْتَ السَّعَادَةَ فِي الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعًا . وَكَيْفَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّاسِ مَخْلُوقُونَ بِغَيْرِهِمْ ؟ وَبِأَيِّهِمْ مَخْلُوقُونَ بِغَيْرِهِمْ فَقَطْ ، وَلَكِنَّ الطَّامَّةَ الْكَبِيرَى أَنَّ عِيُونَهُمْ تَعْمَلُ دَائِمًا عَلَى أَنْ تَرَى فِي الْآخِرِينَ عِيُونًا مِثْلَهَا .

كُلُّ حِمَارٍ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ جَوْفَهُ نَبْتًا وَقُولاً وَشَعِيرًا ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَرْ حِمَارًا قَطْ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ لِنَفْسِهِ الْإِسْطَبْلَ ؛ فَإِذَا وَجَدَ إِنْسَانًا هَلْدِهِ هِمَّتُهُ وَهَذَا عَمَلُهُ فَاسْمُهُ إِنْسَانٌ لَا حِمَارٌ . . .

يَا أَرِسْطُ ! إِنَّ مُغْضِلَةَ الْمُغْضَلَاتِ أَنْ يُحَاوِلَ إِنْسَانٌ حَلَّ مُشْكِلةٍ دَاخِلِيَّةٍ مَخْضَةٍ قَائِمَةٍ فِي نَفْسِ حِمَارٍ أَوْ ثَائِبَةٍ فِي ذَهْنِهِ الْحِمَارِيِّ . . . وَمِثْلُ هَذَا أَنْ يُحَاوِلَ حِمَارٌ حَلَّ مُشْكِلةٍ نَفْسِيَّةٍ فِي ذَهْنِ إِنْسَانٍ أَوْ فِي قَلْبِهِ ، فَلَا حَلَّ لِمَشَاكِلِ الْعَالَمِ أَبَدًا مَا دَامَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَ غَيْرِهِ كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ . . .

وَالْمُغْضَلَاتُ النَّفْسِيَّةُ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَجِيءَ الْمَلَائِكَةُ لِتُحَارِبَ الشَّيَاطِينَ بِالْبُرْقِ وَالزُّعْدِ دِفَاعًا عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَهَا ، وَأَرْسَلَ لِلْإِنْسَانِ مَلَائِكَةً أُخْرَى إِنْ شَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ عَمِلَتْ ، وَإِنْ شَاءَ عَجَزَتْ ؛ وَهِيَ فَصَائِلُ الْأَدْيَانِ الْمُتَنَزِّلَةِ . فَإِذَا مَنَحَهَا الْإِنْسَانُ إِرَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ ، فَعَمِلَتْ عَمَلَهَا كَانَ الْإِنْسَانُ هُوَ الْمَلِكُ بَلْ فَوْقَ الْمَلِكِ ، وَإِذَا أَضْعَفَهَا وَمَحَقَهَا كَانَ الْإِنْسَانُ هُوَ الشَّيْطَانُ وَأَسْفَلَ مِنَ الشَّيْطَانِ .

يَا أَرِسْطُ<sup>(١)</sup> ! « هَذَا الْعَالَمُ عِنْدِي كُنْتَلَةٌ مِنَ الْعَدَمِ اتَّفَقَتْ عَلَى الظُّهُورِ وَسَتَخَفَتِي . وَالْعَالَمُ عِنْدِي ضَعْفٌ رُكْبٌ وَقُوَّةٌ رُكْبَتْ . وَالْعَالَمُ عِنْدِي لَا شَيْءَ . وَالْعَالَمُ بَيْنَ بَيْنٍ . وَالْعَالَمُ قِسْمَانِ : مِنْهُمْ الْفَلَّاحُ الْزَّرَاعِيُّ وَذَلِكَ أَفْضَلُ فَلَسَفَةِ طَبِيعِيَّةٍ . . . وَالْعَالَمُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ . وَالْأَدَبُ هُوَ الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ بِلَا أَدَبٍ . وَالْأَدَبُ ضَرْبَانِ : أَدَبٌ نَفْسَانِيٌّ وَأَدَبٌ مُكْتَسَبٌ . وَقَدْ يَكُونُ طَبِيعِيًّا كَمَا هُوَ عِنْدَ نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ . وَمَنْ هُوَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ؟ هُوَ شَخْصٌ مَاتَ بِلَا مَوْتٍ ، وَيَحْيَا بِلَا حَيَاةٍ . »

(١) هَذِهِ الْأَسْطُرُ الَّتِي وَضَعْنَاهَا بَيْنَ الْقَوَسَيْنِ هِيَ مِنْ كَلَامِ الْمَجْنُونِ بِاللَّصِّ ، وَكُنَّا سَأَلْنَاهُ أَنْ يَكْتُبَ رَأْيَهُ فِي الْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ فَكَتَبَ عَلَى الْبِدْنَةِ مَقَالَةً كُلَّهَا تَخْلِيطٌ وَتَنَكُّرٌ ؛ فِيهَا كَلِمَاتٌ كَأَعْمَى مَا تَجِيءُ بِهِ مَذَاهِبُ الْفَلَسَفَةِ .

أَتُرِيدُ يَا أَرِسْطُ أَنْ تَعْرِفَ سِرَّ تَرْكِيبِ الْعَالَمِ ؟ الْأَمْرُ يَسِيرٌ غَيْرَ عَسِيرٍ ، فَإِنْ سَرَّ تَرْكِيبَهُ كَسَرَ تَرْكِيبَ الْقِرْشِ الَّذِي فِي يَدِكَ ، فَدَعْنِي أَظْهَرُكَ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَمَدَّ يَدَكَ بِالْقِرْشِ لِأَيِّنَ لَكَ سِرُّ التَّرْكِيبِ فِيهِ . . .

\* \* \*

وَلَكِنَّ الْمَجْنُونِ الْآخَرَ أَسْرَعَ فَغَيَّبَ الْقِرْشَ فِي جَيْبِهِ . فَقَالَ (الْنَابِغَةُ) : هَذَا سِيَاسِيٌّ دَاهِيَةٌ خَبِيثٌ . وَالرَّوَايَةُ الْآنَ رِوَايَةُ سِيَاسِيٍّ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ .

لَيْسَ فِي حَقِيقَةِ السِّيَاسَةِ إِلَّا الْكَرْذُلُ مِنْ أَفْعَالِ السِّيَاسِيِّينَ . وَالْأَلْفَاظُ السِّيَاسِيَّةُ الَّتِي تَحْمِلُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْنَى هِيَ الَّتِي لَا تَحْمِلُ مَعْنَى . فَلْيَحْذَرِ الشَّرْقِيُّ مِنْ كُلِّ لَفْظٍ سِيَاسِيٍّ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ ، أَوْ مَعْنَى وَصَفَ مَعْنَى ، أَوْ مَعْنَى وَشَبَّهَ مَعْنَى ؛ فَإِنْ قَالُوا لَنَا : (أَخْمَرُ) ؛ قُلْنَا : أَكْتُبُهُ بِهَذَا اللَّفْظِ ؛ فَإِذَا كَتَبْتُهُ قُلْنَا لَهُمْ : أَرْسُمُوا إِلَى جَانِبِ مَعْنَاهُ بِاللُّونِ الْأَخْمَرَ لِتَشْهَدَ الطَّبِيعَةُ نَفْسَهَا عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ أَخْمَرٌ لَا غَيْرُ . . . وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَجِبُ أَنْ تُكْتَبَ الْمُعَاهَدَاتُ السِّيَاسِيَّةُ بَيْنَ أَوْرَبَةٍ وَالشَّرْقِيِّ .

إِنَّهُمْ يَكْتَبُونَ لَنَا جَرِيدَةً بِأَسْمَاءِ الْأَطِيعَةِ ثُمَّ يَقُولُونَ : أَكَلْتُمْ وَشَبِعْتُمْ . . . وَلَقَدْ رَأَيْتُ (مُظَاهَرَاتٍ) كَثِيرَةً وَلَا كَالْمُظَاهَرَةِ الَّتِي أَتَمَّهَا ؛ فَمَا أَتَمَّمْتُ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ كُلُّ الْمَجَانِينِ فِي مُظَاهَرَةٍ . . . . .

وَهَذَا الْأَبْلَهُ الَّذِي أَمَامَنَا لَيْسَ وَطَنِيًّا وَلَا فِيهِ ذَرَّةٌ مِنَ الْوَطَنِيَّةِ ؛ فَإِنْ كَانَ وَطَنِيًّا أَوْ زَعَمَ أَنَّهُ وَطَنِيٌّ ، فَلْيُخْرِجِ الْقِرْشَ الَّذِي فِي جَيْبِهِ . . . لِيَكُونَ قَالًا حَسَنًا لِيُخْرِجَ جَيْشَ الْاِخْتِلَالِ مِنْ مِصْرَ . . .

\* \* \*

وَلَكِنَّ الْمَجْنُونِ لَمْ يُخْرِجِ الْقِرْشَ وَتَرَكَ جَيْشَ الْاِخْتِلَالِ فِي مَكَانِهِ .

فَقَالَ (الْنَابِغَةُ) : الرَّوَايَةُ الْآنَ رِوَايَةُ الشَّرْطِيِّ وَاللَّصِّ . وَيَحْتَقُّ مِنَ الْقَانُونِ يَكُونُ لِلشَّرْطِيِّ أَنْ يَفْتَشَ هَذَا اللَّصَّ لِيُخْرِجَ الْقِرْشَ مِنْ جَيْبِهِ . . .

\* \* \*

غَيْرَ أَنَّ الْمَجْنُونِ ائْتَنَعَ . فَقَالَ (التَّابِعَةُ) : كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِدِي مَعَ هَذَا الْخَبِيثِ ،  
فَالرَّوَايَةُ الْآنَ رَوَايَةُ هَارُونَ الرَّشِيدِ مَعَ الْبِرَامِكَةِ . وَيَجِبُ أَنْ يَنْكَبَ الرَّشِيدُ هُنَا لِأَنَّ الْبِرَامِكَةَ  
لَيْسَتْ صِفِي الْفِرَشِ ...

\* \* \*

بَيْنَ أَتْنَا مَعْنَاهُ أَنْ يَنْكَبَ « الْبِرَامِكَةُ » ، فَقَالَ : الرَّوَايَةُ الْآنَ رَوَايَةُ الْعَاشِقِ وَالْمَغْشُوقَةِ ،  
وَنَظَرَ طَوِيلًا فِي الْمَجْنُونِ وَصَعِدَ فِيهِ عَيْنُهُ وَصَوَّبَ قَلَمَ يَرِ إِلَّا مَا يُدَكِّرُ بِأَنَّهُ رَجُلٌ ، فَهَدَّاهُ إِلَى  
رَأْيٍ عَجِيبٍ . فَوَقَعَ عَلَى قَدَمَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ أَمْرًا فِي حَدَائِهَا ... وَجَعَلَ يُتَاجَى الْحِدَاءَ بِهِذِهِ  
الْمُتَاجَاةَ :

إِنْ سَخَافَاتِ الْحُبِّ هِيَ أَقْوَى الدَّلِيلِ عِنْدَ أَهْلِهِ عَلَى أَنَّ الْحُبَّ غَيْرُ سَخِيفٍ ؛ فَكُلُّ فِكْرَةٍ  
فِي الْحُبِّ مَهْمًا كَانَتْ سَخِيفَةً ، عَلَيْهَا جَلَالُ الْحُبِّ ؛ وَلِلْحِدَاءِ فِي قَدَمَيْكَ يَا حَبِيبِي جَمَالٌ  
الْمُتَدَوِّقِ الْمَمْلُوءِ دَهَبًا فِي نَظَرِ الْبَخِيلِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْكَ أَنْتَ فِيهِ سِرٌّ جَمَالِكَ أَنْتَ .  
وَالْحِدَاءُ فِي قَدَمَيْكَ لَيْسَ حِدَاءً ، وَلَكِنَّهُ بَعْضُ حُدُودِ جِسْمِكَ الْجَمِيلِ ، فَلَا أَكُونُ كُلَّ  
الْعَاشِقِ حَتَّى أُحِيطَ بِكُلِّ حُدُودِكَ إِلَى الْحِدَاءِ .

إِنْ جِسْمُكَ يَا حَبِيبِي كَالْمَاءِ الْجَارِي الْعَذْبِ ؛ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهُ رُوحُ الْمَاءِ كُلِّهِ ؛  
وَحَيْثُمَا وَقَعَتِ الْقُبْلَةُ مِنْ جِسْمِكَ كَانَ فِيهَا رُوحُ شَفَتَيْكَ الْوَرْدِيَّتَيْنِ . هَذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى قَدَمَيْكَ  
يَا حَبِيبِي ؛ وَهَذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى سَاقِكَ ؛ وَهَذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى ثَوْبِكَ ، وَهَذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى  
جَنِينِكَ .....

وَكَادَتْ يَدُ (التَّابِعَةِ) تَخْرُجُ بِالْفِرَشِ ؛ فَعَضَّهُ الْمَجْنُونُ فِي كَتِفِهِ عَضَّةً وَخَشِيَّةً ، فَجَاءَهُ  
الْخَوْفُ مِنْهَا فَطَارَ صَوَابُهُ ، فَصَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً دَوَّى لَهَا الْمَكَانُ وَتَرَدَّدَتْ كَصَرْصَرَةِ  
الْبَارِزِيِّ فِي الْجَوْ ، ثُمَّ اغْتَرَاهُ الطَّيْفُ ، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ فَاخْتَلَطَ وَتَخَبَّطَ ...  
(وَالرَّوَايَةُ الْآنَ) ... ؟ . رَوَايَةُ عَرَبِيَّةِ الْإِسْعَافِ ...

# وَحْيُ الْقَلَمِ

« بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ التَّنْزِيلِ » أَوْ قَبَسٌ مِنَ نُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

سَعْدُ بَانَا زَغَلُول

بِإِيجَازِ الْقُرْآنِ لِلرَّافِعِيِّ

كَتَبَهُ  
مُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِيِّ

بِعَنَايَةِ  
بِسَامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْجَبَّارِيِّ

الْجُرْءُ الثَّانِي

السُّمُوُّ الرُّوحِيُّ الْأَعْظَمُ  
وَالْجَمَالُ الْفَنِّي فِي الْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّةِ (١) (٢)

لَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ هَذَا الْفَصْلَ وَهَمَمْتُ بِهِ عَرَضَتْ لِي مَسْأَلَةٌ نَظَرْتُ فِيهَا أَطْلُبُ جَوَابَهَا ، ثُمَّ قَدَّرْتُ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ فَلَاسِفَةِ الْبَيَانِ فِي أَوْزِيَّةٍ لَعَهْدَنَا هَذَا رَجُلًا يُخَسِّنُ الْعَرَبِيَّةَ الْمُبِينَةَ ، وَقَدْ بَلَغَ فِيهَا مَبْلَغَ أَيْمَنِهَا عِلْمًا وَذَوْقًا ، وَدَرَسَ تَارِيخَ النَّبِيِّ ﷺ دَرَسَ الرُّوحِ لِأَعْمَالِ الرُّوحِ ، وَتَفَقَّهَ فِي شَرِيعَتِهِ فَفَهَّ الْحِكْمَةَ لِأَسْرَارِ الْحِكْمَةِ ، وَاسْتَوْعَبَ أَحَادِيثَهُ وَاعْتَبَرَهَا بِفَنِّ التَّقْدِيرِ الْبَيِّنَاتِيِّ الَّذِي يَبْحَثُ فِي خَصَائِصِ الْكَلَامِ عَنْ خَصَائِصِ النَّفْسِ ، وَتَمَثَّلْتُ أَنِّي لَقِيتُ هَذَا الرَّجُلَ فَسَأَلْتُهُ : مَا هُوَ الْجَمَالُ الْفَنِّيُّ عِنْدَكَ فِي بَلَاغَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ وَمَاذَا تَسْتَخْرِجُ لَكَ فَلَسَفَةَ الْبَيَانِ مِنْهُ ؟ وَمَا سِرُّهُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ ؟

وَلَمْ يَكْذِبْ خَطَرُ لِي ذَلِكَ حَتَّى انْكَشَفَ الْخَاطِرُ عَنْ وَجْهِ آخَرَ ، وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى هَذَا السُّؤَالِ بَعِيثُهُ قَدْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ لِأَبْلَغِ أَوْلِيكَ الْعَرَبِ الَّذِينَ رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ ، وَآمَنُوا بِهِ ، وَاتَّبَعُوا الثُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ، وَقَدْ صَحِبَهُ فَطَالَتْ صُحْبَتُهُ ، لَا يَقُوتُهُ مِنْ كَلَامِهِ فِي الْمَلَأِ شَيْءٌ ، وَخَالَطَهُ حَتَّى كَانَ لَهُ فِي الْإِحَاطَةِ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ كِبَاضُ التَّارِيخِ ، فَتَدَبَّرَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ سِرُّ الْجَمَالِ فِي بَلَاغَتِهِ ﷺ ، وَمَا مَرَجَعُهُ الَّذِي يُرَدُّ إِلَيْهِ ؟ لَوْ دَارَ السُّؤَالُ دَوْرَتَيْهِ فِي هَذِهِ السَّلِيلَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي رَجَعَتْ أَنْ تَكُونَ فَلَسَفَةٌ تَشْعُرُ وَتُحَسُّ ، وَفِي تِلْكَ الْفَلَسَفَةِ الْبَيِّنَاتِيَّةِ الْمُلْهَمَةِ الَّتِي بَلَغَتْ أَنْ تَكُونَ سَلِيلَةً تَدْرُسُ وَتُفَكِّرُ - لَمَّا خَلَصَ مَنْ كِلْتُمَاهُمَا إِلَّا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ تَلْتَقِي عَلَيْهِ حَقِيقَةُ الْبَيَانِ مِنْ طَرَفَيْهَا : وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ الْجَمَالُ الْفَنِّيُّ فِي بَلَاغَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ عَلَى الْكَلَامِ مِنْ رُوحِهِ النَّبَوِيَّةِ

(١) أَنشَأَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا التَّبْحُثُ جَوَابًا لِرَجَاءِ « الْهَدَايَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ » فِي بَعْدَازِ سَنَةِ ١٣٥٢ هـ ، وَأَنْظُرْ « فِتْرَةَ جَمَام » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْعُرْيَانِ .

(٢) بَسَطْنَا الْكَلَامَ فِي كِتَابِنَا « إِعْجَازُ الْقُرْآنِ » عَنْ بَلَاغَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ ، وَبَقِيَ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي تَرَاهُ ، فَهَلْزِهِ الْمَقَالَةُ كَالْتَكْمِيلَةِ عَلَى مَا هُنَاكَ .



الْجَدِيدَةِ عَلَى الدُّنْيَا وَتَارِيخِهَا .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّا فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ لَا أَصْنَعُ شَيْئًا غَيْرَ تَفْصِيلِ هَذَا الْجَوَابِ وَشَرْحِهِ بِاسْتِخْرَاجِ مَعَانِيهِ ، وَاسْتِنبَاطِ أَدْلَتِهِ ، وَالْكَشْفِ عَنْ أَسْرَارِهِ وَحَقَائِقِهِ ؛ وَلَقَدْ دَرَسْتُ كَلَامَهُ ﷺ ، وَقَضَيْتُ فِي ذَلِكَ أَيَّامًا أَتَّبَعْتُ السِّرَّ الَّذِي وَقَعَ فِي التَّارِيخِ الْقَفْرِ الْمُجْدِبِ فَأَخْصَبَ بِهِ وَأَنْبَتَ لِلدُّنْيَا أَزْهَارَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْجَمِيلَةَ ، فَكَانُوا نَاسًا إِنْ عَيْبَتْهُمْ بَشْيءٌ لَمْ تُعَيْبُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ دُونَ الْمَلَائِكَةِ ، وَكَانُوا نَاسًا دَارَتِ الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ فِي عَهْدِهِمْ ثَلَاثَ دَوَرَاتٍ : وَاحِدَةً حَوْلَ الشَّمْسِ ، وَثَانِيَةً حَوْلَ نَفْسِهَا ، وَثَالِثَةً حَوْلَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ .

ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَلَامَ النَّبَوِيَّ يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي وَيُلْهِمُنِي مَا أَفْصَحُ بِهِ عَنْهُ ، فَلَمَّكَأَنِّي بِهِ يَقُولُ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ : إِنِّي أَصْنَعُ أَمَّةً لَهَا تَارِيخُ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدُ ، فَإِنَّا أَقْبَلُ مِنْ هُنَا وَهُنَا ، وَأَذْهَبُ هُنَاكَ وَهُنَا ، مَعَ الْقُلُوبِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَقَائِقِ لَا مَعَ الْكَلَامِ وَالنَّاسِ وَالْوَقْتِ .

إِنَّ هَلْهَذَا دُنْيَا الصَّخْرَاءِ سَتَلِدُ الدُّنْيَا الْمُتَحَضَّرَةَ الَّتِي مِنْ دُرِّيَّتِهَا أُرَبَّةٌ وَأَمْرِيكَةُ ، فَالْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ يَعْمَلَانِ فِي حَيَاةِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِنُورِ مُنْمَمٍ لِمَا يَعْمَلُهُ نُورُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَغْزُونَ الدُّنْيَا بِأَسْلِحَةٍ هِيَ فِي ظَاهِرِهَا أَسْلِحَةُ الْمُفَاتِلِينَ ، وَلِكِنَّهَا فِي مَعَانِيهَا أَسْلِحَةُ الْأَطْيَاءِ ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ثُمَّ مَضَوْا إِلَى سَبِيلِهِمْ وَبَقِيَ الْكَلَامُ مِنْ بَعْدِهِمْ غَارِيًا مُحَارِبًا فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ حَرْبَ تَغْيِيرٍ وَتَحْوِيلٍ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْلَامُ إِلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ<sup>(١)</sup> .

هَذَا مَنْطِقُ الْحَدِيثِ فِي نَفْسِي ، وَقَدْ كُنْتُ أَقْرُوهُ وَأَنَا أَمَثَلُهُ مُرْسَلًا بِتِلْكَ الْفَصَاحَةِ الْعَالِيَةِ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ يَمُرُّ إِعْجَازُ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا يَخْرُجُ بِهِ الصَّوْتُ الْبَشَرِيُّ إِلَى الْعَالَمِ ، فَلَا أَرَى ثُمَّ إِلَّا أَنَّ شَيْئًا إِلَهِيًّا عَظِيمًا مُتَّصِلًا بِرُوحِ الْكَوْنِ كُلِّهِ اتَّصَلَ بِبَعْضِ السِّرِّ

(١) فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « لِيَدْخُلَنَّ هَذَا الدُّنْيَا عَلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ » . وَكَانَ الْعِبَارَةُ نَصٌّ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَمُرُّ حِينَ تَظْلِمُ الدُّنْيَا ظِلَامَهَا الشَّعْرِيَّ . . . إِذَا طُمِسَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ بِلَذَائِهَا ، وَأَظْلَمَتْ أَفَاقُهَا الرُّوحَانِيَّةُ ؛ فَيَجِيءُ الْإِسْلَامُ فِي قُوَّةِ أَخْلَاقِهِ كَسِتَابِ الْفَجْرِ ، يَبْعَثُ حَيَاةَ الثُّورِ الْإِنْسَانِيَّ بَعْدًا جَدِيدًا ، وَهَذَا هُوَ رَأْيُنَا فِي مُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ : لَا بُدَّ مِنَ انْجِلَالِ أُرُبَّةٍ وَأَمْرِيكَةٍ ، كَمَا يَصْفُرُ النَّهَارُ ، ثُمَّ يَخْتَلِطُ ، ثُمَّ يَظْلِمُ ، ثُمَّ تَطْلُبُ الطَّبِيعَةُ نُورَهَا الْحَيَّ مِنْ بَعْدُ .

بِبَعْضِ السِّرِّ ، يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ إِنْسَانِيٍّ هُوَ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي يَجِيءُ فِي كَلِمَاتٍ قَوِيَّةٍ رَاضِيَةٍ ، قَتْنَهَا فِي بَلَغَتِهَا كَالشَّبَابِ الدَّائِمِ .

كُنْتُ أَنَا مُلَهُ قِطْعًا مِنَ الْبَيَانِ فَأَرَاهُ يَنْقُلُنِي إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا مُلٌ فِيهَا رَوْضَةً تَتَفَقَّسُ عَلَى الْقَلْبِ ، أَوْ مَنْظَرًا يَهْوِي جَمَالُهُ النَّفْسَ ، أَوْ عَاطِفَةً تَزِيدُ بِهَا الْحَيَاةَ فِي الدَّمِ ، عَلَى هُدُوءٍ وَرُوحٍ وَإِحْسَاسٍ وَلَذَّةٍ ؛ ثُمَّ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُصْلِحُ مِنَ الْجِهَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي نَفْسِي ، ثُمَّ يَرْزُقُ اللَّهُ مِنْهُ رِزْقَ الثُّورِ ، فَإِذَا أَنَا فِي ذَوْقِ الْبَيَانِ كَأَنَّمَا أَرَى الْمُتَكَلِّمَ ﷺ وَرَأَى كَلَامِهِ .

وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنِّي كَثِيرًا مَا أَقِفُ عِنْدَ الْحَدِيثِ الدَّقِيقِ أَنْتَعَرْتُ أَسْرَارَهُ ، فَإِذَا هُوَ يَشْرَحُ لِي وَيَهْدِينِي بِهِدْيِهِ ، ثُمَّ أَحْسَهُ كَأَنَّمَا يَقُولُ لِي مَا يَقُولُ الْمُعَلِّمُ لِتَلْمِيزِهِ : أَفَهَمْتُ ؟

وَقَفْتُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﷺ : « إِنْ قَوْمًا رَكِبُوا فِي سَفِينَةٍ ، فَأَقْتَسَمُوا ، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ ، فَفَرَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِقَاسٍ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا تَصْنَعُ ؟ قَالَ : هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ ! فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَا وَنَجَوَا ، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا »<sup>(١)</sup> .

فَكَانَ لِهَذَا الْحَدِيثِ فِي نَفْسِي كَلَامٌ طَوِيلٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحُوضُونَ مَعَنَا الْبَحْرَ وَيُسْمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُجَدِّدِينَ ، وَيَتَنَحَّلُونَ ضُرُوبًا مِنَ الْأَوْصَافِ : كَحُرِّيَّةِ الْفِكْرِ ، وَالْعَفْرِ ، وَالْإِصْلَاحِ ؛ وَلَا يَزَالُ أَحَدُهُمْ يَنْقُرُ مِنْ سَفِينَةِ دِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَآدَابِنَا بِقَاسِهِ ، أَيْ :

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ لِرَقْمِ : [٢٤٩٣] هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، وَفِيهِ زِيَادَةٌ مِنَ الْجَمَالِ الْقَفِيِّ ؛ قَالَ : « مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَغْلَاها وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ؛ فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ! فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوَا وَنَجَوَا جَمِيعًا » . لَوَرَوَى هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضًا : الترمذي ، رقم : ٢١٧٣ ؛ الإمام أحمد في « مسنده » ، رقم : ١٧٨٩٧ ، ١٧٩٠٤ ، ١٧٩١٢ ، ١٧٩٤٤ .

فَهَذَا تَمَثُّلٌ لِحَالَةِ طَائِفَةٍ فِي (الْأَسْفَلِ) تَعْمَلُ لِرَحْمَةٍ مِنْ هُمْ فِي (الْأَعْلَى) : عَاطِفَةٌ شَرِيفَةٌ وَلِكِنَّهَا سَافِلَةٌ ، وَحَيَّةٌ مُلْتَهَبَةٌ وَلِكِنَّهَا بَارِدَةٌ ، وَرَحْمَةٌ خَالِصَةٌ وَلِكِنَّهَا مُهْلِكَةٌ ؛ وَلَكِنْ تَجِدُ كَهَذَا التَّمَثُّلِ فِي تَصَوُّرِ الْبَلَادَةِ الْأَجْمَاعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ لِأَنَّا هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَتْبَالَةُ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ وَالْحِكْمَةِ ؛ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ مِنَ أَلْفِ وَثَلَاثِ مِثْرَةٍ سَوَى : أَنْتُمْ الْمُضِلُّونَ إِصْلَاحًا مَخْرُوقًا . . . !

بِقَلَمِهِ ... زَاعِمًا أَنَّهُ مُؤَضِعُهُ مِنَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ يَضَعُ فِيهِ مَا يَشَاءُ وَيَتَوَلَّاهُ كَيْفَ أَرَادَ ، مُوجِّهًا لِحِمَاقَتِهِ وَجُوهًا مِنَ الْمَعَادِيرِ وَالْحُجَجِ ، مِنَ الْمَدَنِيَّةِ وَالْفَلَسَفَةِ ، جَاهِلًا أَنَّ الْقَانُونَ فِي السَّيْفِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ قَانُونُ الْعَاقِبَةِ دُونَ غَيْرِهَا ، فَالْحُكْمُ لَا يَكُونُ عَلَى الْعَمَلِ بَعْدَ وَقُوعِهِ كَمَا يُحْكَمُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى ، بَلْ قَبْلَ وَقُوعِهِ ؛ وَالْعَاقِبَةُ لَا يَكُونُ عَلَى الْجَزْمِ بِقِتْرَتِهِ الْمُجْرِمُ كَمَا يُعَاقَبُ اللَّصُّ وَالْقَاتِلُ وَغَيْرُهُمَا ، بَلْ عَلَى الشَّرُوعِ فِيهِ ، بَلْ عَلَى تَوَجُّهِ النَّبِيِّ إِلَيْهِ ؛ فَلَا حُرِّيَّةَ هُنَا فِي عَمَلٍ يُفْسِدُ خَشَبَ السَّيْفِيَّةِ أَوْ يَمَسُّهُ مِنْ قُرْبٍ أَوْ يُعِدُّ مَادَامَتَ مُلْجَجَةٍ فِي بَخْرِهَا ، سَائِرَةً إِلَى غَايَتِهَا ؛ إِذْ كَلِمَةُ (الْخَرْقِ) لَا تَحْمِلُ فِي السَّيْفِيَّةِ مَعْنَاهَا الْأَرْضِيَّ ، وَهَنَكَ لَفْظَةً (أَصْغَرَ خَرْقِ) لَيْسَ لَهَا إِلَّا مَعْنَى وَهُوَ (أَوْسَعُ قَبْرِ) ...

فَفَكَّرَ فِي أَعْظَمِ فَلَا سِفَةَ الدُّنْيَا مَهْمَا يَكُنْ مِنْ حُرِّيَّتِهِ وَأَنْطِلَاقِهِ ، فَهُوَ هَلْهُنَا مَحْدُودٌ عَلَى رَغْمِ أَنَّهُ يَحْدُودُ مِنَ الْخَشَبِ وَالْحَدِيدِ تَفْسِيرُهَا فِي لُغَةِ الْبَحْرِ حُدُودُ الْحَيَاةِ وَالْمَصْلَحَةِ ، وَكَمَا أَنَّ لَفْظَةَ (الْخَرْقِ) يَكُونُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي الْبَحْرِ الْقَبْرِ وَالْعَرَقُ وَالْهَلَاكُ ، فَكَلِمَةُ (الْفَلَسَفَةِ) يَكُونُ مِنْ بَعْضِ مَعَانِيهَا فِي الْاجْتِمَاعِ الْحَمَاقَةِ وَالْغَفْلَةِ وَالْبَلَاهَةِ ، وَكَلِمَةُ الْحُرِّيَّةِ يَكُونُ مِنْ مَعَانِيهَا الْجَبَانِيَّةِ وَالزُّنُوعِ وَالْفَسَادِ<sup>(١)</sup> وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ اللَّغَوِيِّ فَالْقَلَمُ فِي أَيْدِي

(١) الزَّائِفُونَ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ صِفَتَانِ لَيْسَ لَهُمَا ثَالِثٌ ، وَقَدْ وَصَفَهُمَا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ [رقم : ٣٦٠٧ ، ٧٠٨٤] بِسَنَدِهِ إِلَى حَدِيثَةِ بِنِ الْكَلْبَانِ قَالَ : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ؛ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يَذْكُرَنِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، وَفِيهِ دَخْنٌ ؟ قُلْتُ : وَمَا دَخْنُهُ ؟ قَالَ : « قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيٍ ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، دُعَاءُ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! صِفْهُمْ لِي . قَالَ : « هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِّتَانِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَمَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَذْكُرَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : « تَلَزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ » قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةً وَلَا إِمَامًا ؟ قَالَ : « فَاعْتَزِلْ بِلِكَ الْفِرَقِ كُلِّهَا ، وَلَوْ أَنَّ تَعَصَّى بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَذْرَكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ » (وهو أيضًا عند مسلم ، رقم : ١٨٤٧ ؛ أبو داود ، رقم : ٤٢٤٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٩٧٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٧١ ، ٢٢٨١٧ ، ٢٢٩١٦ ، ٢٢٩٢٢ ، ٢٢٩٣٩) أَنْتَهَى الْحَدِيثُ .

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ : « يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيٍ ... تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » ؛ فَهَذَا لَمْ يَكُنْ يَرِيدُونَ إِلَّا ضَلَاحَ =

بَعْضُ الْكُتَابِ مِنْ مَعَانِيهِ الْفَأْسُ ، وَالْكَاتِبُ مِنْ مَعَانِيهِ الْمُخَرَّبُ ، وَالْكِتَابَةُ مِنْ مَعَانِيهَا الْخِيَانَةُ ؛ قَالَ لِي الْحَدِيثُ : أَفَهَمْتُ ؟ .

هَكَذَا يَجِبُ تَأَمُّلُ الْجَمَالِ الْقَنِيِّ فِي كَلَامِهِ ﷺ ، فَهُوَ كَلَامٌ كُلَّمَا زِدْتُهُ فِكْرًا زَادَكَ مَعْنَى ، وَتَفْسِيرُهُ قَرِيبٌ قَرِيبٌ كَالزُّوْجِ فِي جِسْمِهَا الْبَشَرِيِّ ، وَلَكِنَّهُ يَعِينُ يَعِينُ كَالزُّوْجِ فِي سِرِّهَا الْإِلَهِيِّ ، فَهُوَ مَعَكَ عَلَى قَدَرٍ مَا أَنْتَ مَعَهُ ، إِنْ وَقَفْتَ عَلَى حَدٍّ وَقَفْتَ ، وَإِنْ مَدَدْتَ مَدًّا ، وَمَا أَذِنْتَ بِهِ تَأَذَّى ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا تَرَاهُ لِكُلِّ بُلْغَاءِ الدُّنْيَا مِنْ صِنَاعَةِ عَبَثٍ الْقَوْلِ ، وَطَرِيقَةِ تَأْلِيْفِ الْكَلَامِ ، وَاسْتِخْرَاجِ وَضْعٍ مِنْ وَضْعٍ ، وَالْقِيَامِ عَلَى الْكَلِمَةِ حَتَّى تَبْيَضَ كَلِمَةُ أُخْرَى ... ، وَالرَّغْبَةُ فِي تَكْثِيرِ سَوَادِ الْمَعَانِي ، وَتَرْكُ اللَّسَانِ يَطْبِشُ طَبِشَهُ اللَّغَوِيِّ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ ، وَيَخْذُو الْكَلَامَ عَلَى مَعَانِيهِ الْفَاطِلِ ، وَيَجْتَلِبُ لَهُ مِنْهَا وَيَسْتَكْرِهَهَا عَلَى أَغْرَاضِهِ ؛ وَيَطْلُبُ لِصِنَاعَتِهِ مِنْ حَيْثُ أَذْرَكَ وَعَجَزَ ، وَمِنْ حَيْثُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ قَبْلَ لَتَصْيِرٍ بِهِ الْمَعَانِي إِلَى حَقَائِقِهَا ، فَهُوَ مِنْ لِسَانٍ وَرَاءَهُ قَلْبٌ ، وَرَاءَهُ نُورٌ ، وَرَاءَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ؛ وَهُوَ كَلَامٌ فِي مَجْمُوعِهِ كَأَنَّهُ دُنْيَا أَصْدَرَهَا ﷺ عَنْ نَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ ، لَا تَبْرَحُ مَاضِيَةً فِي طَرِيقِهَا السَّوِيِّ عَلَى ذَيْنِ الْفِطْرَةِ ، فَلَا تَتَّسِعُ لِخِلَافٍ ، وَلَا يَتَّعُ بِهَا التَّنَافُرُ ، وَالْخِلَافُ وَالتَّنَافُرُ إِنَّمَا يَكُونَانِ مِنَ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ بِطَبِيعَتِهَا ، لِقِيَامِهَا عَلَى قَانُونِ التَّنَازُعِ تَعْدُو بِهِ وَتَجْتَرِمُ وَتَأْتُمُ ، فَهِيَ نَازِلَةٌ إِلَى الشَّرِّ ، وَالشَّرُّ بَعْضُهُ أَسْفَلُ مِنْ بَعْضٍ ، أَمَّا رُوحَانِيَّةُ الْفِطْرَةِ فَمُتَّسِقَةٌ بِطَبِيعَتِهَا ، لَا تَقْبَلُ فِي ذَاتِهَا أَفْتِرَاقًا

لِلْمُسْلِمِينَ لَا مِنْ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ بَلْ مِنْ طَرِيقِ أُخْرَى فِيهَا مَعْرُوفُهَا وَمُنْكَرُهَا ، وَفِيهَا عِلْمُهَا وَجَهْلُهَا ، وَفِيهَا عَقْلُهَا وَحِمَاقَتُهَا . وَلَكُلِّ مِنْ هَذَا قَوْلُهُمْ : الْمَدَنِيَّةُ الْأَوْرَبِيَّةُ بِحَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا ... وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ : « إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ » فَلَيْسَتْ الدَّعْوَةُ إِلَى بَابٍ وَاحِدٍ بَلْ إِلَى أَبْوَابٍ مُخْتَلِفَةٍ لَعَلَّ آخِرَ مَا فَتَحُوا مِنْهَا بَابَ الْأَدَبِ الْمَكْشُوفِ ...

ثُمَّ تَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ : « وَلَوْ أَنَّ تَعَصَّى بِأَصْلِ شَجَرَةٍ » فَإِنَّ مَعْنَاهُ الْاسْتِمْسَاكُ بِمَا بَقِيَ عَلَى الطَّبِيعَةِ السَّالِمَةِ مِمَّا لَا يَسْتَطِيعُ أَوْلَئِكَ أَنْ يَغَيِّرُوهُ وَلَا أَنْ يُجَدِّدُوهُ ، أَيْ : بِالْاسْتِمْسَاكِ وَلَوْ بِأَصْلِ وَاحِدٍ مِنْ قَوَائِمِ الْفَضِيلَةِ وَالْإِيمَانِ ، وَعِبَارَةُ الْعَصْ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ تُمَثِّلُ أَبَدَ وَأَبْلَغَ وَضْعٍ لِمَنْ يَلْزَمُ أَصُولَ الْفَضَائِلِ فِي هَذَا الزَّمَنِ ، وَمَبْلَغُ مَا يَعَانِيهِ فِي التَّمَسُّكِ بِفَضِيلَتِهِ ، وَهِيَ وَحْدَهَا فَرٌّ كَأَجْمَلِ مَا يُبَدِّعُهُ مُصَوِّرٌ عَبَقَرِيٌّ .

وَلَا اخْتِلَافًا ، إِذْ كَانَ أَوَّلُهَا أَلْعُلُوُّ فَوْقَ الذَّاتِيَّةِ ، وَقَانُونُهَا التَّعَاوُنَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، فَهِيَ صَاعِدَةٌ إِلَى الْخَيْرِ ، وَالْخَيْرُ بَعْضُهُ أَعْلَى مِنْ بَعْضٍ .

فَكَلَامُهُ ﷺ يَجْرِي مَجْرَى عَمَلِهِ : كُلُّهُ دِينٌ وَتَقْوَى وَتَعْلِيمٌ ، وَكُلُّهُ رُوحَانِيَّةٌ وَقُوَّةٌ وَحَيَاةٌ ، وَإِنَّهُ يَحْتَلُّ إِلَيَّ وَقَدْ أَخَذْتُ بِطَهْرِهِ وَجَمَالِهِ - أَنْ مِنَ الْفَرِّ الْعَجِيبِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ صَلَاةً وَصِيَامًا فِي الْأَلْفَاظِ .

أَمَّا أَسْلُوبُهُ ﷺ فَاجِدْ لَهُ فِي نَفْسِي رُوحَ الشَّرِيعَةِ وَنِظَامَهَا وَعَزِيمَتَهَا ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا قُوَّةٌ ، قُوَّةُ أَمْرِ نَافِذٍ لَا يَتَخَلَّفُ ، وَإِنْ لَهُ مَعَ ذَلِكَ نَسَقًا هَادِنًا هُدُوهُ الْيَقِينُ ، مُبِينًا بَيَانَ الْحِكْمَةِ ، خَالِصًا خُلُوصَ السَّرِّ ، وَاقِعًا مِنَ النَّفْسِ الْمُؤَمِّمَةِ مَوْقِعَ النِّعْمَةِ مِنْ شَاكِرِهَا ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ أَمْرُ الرُّوحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوجَّهَةِ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَوَحْيِهِ ، لِيَتَوَجَّهَ الْعَالَمُ بِهَا كَأَنَّهُ مِنْهُ مَكَانُ الْمَخُورِ ، وَدَوْرَتُهُ بِنَفْسِهِ هِيَ دَوْرَتُهُ بِنَفْسِهِ وَبِمَا حَوْلَهُ ، رُوحُ نَبِيِّ مُصْلِحٍ رَحِيمٍ ، هُوَ بِإِصْلَاحِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ بِالسُّبُورَةِ فَوْقَهَا ، وَهُوَ بِهَلْدِهِ وَتِلْكَ فِي شَمَائِلِهِ وَطِبَاعِهِ مَجْمُوعٌ إِنْسَانِيٌّ عَظِيمٌ لَوْ شَبَّهَ بِشَيْءٍ لَقِيلَ فِيهِ : إِنَّهُ كَمَجْمُوعِ الْقَارَاتِ الْخَمْسِ لِعُمَرَانَ الذَّنْبِ .

وَمَنْ دَرَسَ تَارِيخَهُ ﷺ وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ مِنَ النَّظَرِ وَالْفِكْرِ وَالتَّحْقِيقِ ، رَأَى نَسَقًا مِنَ التَّارِيخِ الْعَجِيبِ كِنِظَامِ فَلِكِ مِنَ الْأَفْلَاكِ مُوجَّهٍ بِالنُّورِ فِي النُّورِ مِنْ حَيْثُ يَبْدَأُ إِلَى حَيْثُ يَنْتَهِي ، فَلَيْسَ يَمْتَرِي عَاقِلٌ مُمَيِّزٌ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الشَّرِيفَةَ ، بِذَلِكَ النِّظَامِ الدَّقِيقِ ، فِي ذَلِكَ التَّوَجُّهِ الْمُحْكَمِ - لَا يُطَبِّقُهَا بَشَرٌ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ عَلَى نَامُوسِ الْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي لَحْمِهِ وَدَمِهِ مَعْنَى النُّورِ وَالْكَهْرْبَاءِ عَلَى نَامُوسِ أَقْوَى مِنَ الْحَيَاةِ .

وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ ﷺ فِي الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَاسْتِقْرَارِ النَّفْسِ وَأَطِمْنَانِهَا عَلَى زَلَا زِلِ الدُّنْيَا ، وَلَا فِي الرَّحْمَةِ وَرِقَّةِ الْقَلْبِ وَالشُّمُوءِ فَوْقَ مَعَانِي الْبَقَاءِ الْأَرْضِيِّ ، فَهُوَ قَدْ خُلِقَ كَذَلِكَ لِيُغْلِبَ الْحَوَادِثَ وَيَسْلُطَ عَلَى الْمَادَّةِ ، فَلَا يَكُونُ شَأْنُهُ شَأْنَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ : تَذْفِيقُهُمْ مَعَانِي التُّرَابِ وَهُمْ أَحْيَاءُ فَوْقَ التُّرَابِ ، أَوْ يُحْدِثُهُمُ الْجِسْمُ الْإِنْسَانِيُّ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ بِحُدُودِ طِبَاعِهِ وَنَزْعَاتِهِ ؛ وَبِذَلِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنَبَعُ تَارِيخٍ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا دَائِمًا ، وَلِرَأْسِ الدُّنْيَا نِظَامَ أَفْكَارِهِ الصَّحِيحَةِ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « انْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوُوا الْمَيِّتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ ، فَأَتَحَدَّثَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شِيخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكُنْتُ لَا أَغْنِي قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا<sup>(١)</sup> فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِخْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَغْنِي قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا ، فَلَبِثْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتَيْقَظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا . اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَفَرَّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ ، فَأَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ » .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَمْتَنَعَتْ مِنِّي ، حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سِتَّةَ مِنَ السَّنِينَ<sup>(٢)</sup> فَجَاءَنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخْلِي بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ! فَفَعَلْتُ ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ : لَا أَجِلُ لَكَ أَنْ تَفْضُ الْحَاتِمَ إِلَّا بِحَقٍّ ! فَتَخَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا ، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطَيْتُهَا . اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَأَفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ! فَأَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا » .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَقَالَ الثَّالِثُ : اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ ، فَتَمَرَّتْ أَجْرُهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ ، فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَذْ إِلَيَّ أَجْرِي . فَقُلْتُ لَهُ : كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ : مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْعَنَمِ وَالرَّقِيقِ ؛ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ! لَا تَسْتَهْزِئْ بِي ! فَقُلْتُ : إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ ! فَأَخَذَهُ كُلُّهُ فَسَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ لِي شَيْئًا ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَأَفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ؛ فَأَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ » انْتَهَى الْحَدِيثُ . (رواه البخاري ،

رقم : ٢٢٧٢ و ٣٤٦٥ ، مسلم ، رقم : ٢٧٤٣ ] .

(١) أي : لَا يَنْفَعِي الْعَبُودَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهِ أَوْ جَمَاعَتِهِ قَبْلَهُمَا .

(٢) سِتَّةٌ : جَذْبٌ وَقَفَرٌ .

وَأَنَا فَلَسْتُ أَدْرِي ، أَهَذَا هُوَ الَّذِي ﷺ يَتَكَلَّمُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَحُقُوقِهَا بِكَلَامٍ بَيْنَ صَرِيحٍ لَا فَلَسَقَةَ فِيهِ ، يَجْعَلُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ مِنَ الْبَيْنِ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ مِنَ الدِّينِ ؟ أَمْ هِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ بِهَذَا الْبَيَانِ الْعَالِيِّ ، فِي شِعْرِ مِنْ شِعْرِهَا ، ضَارِبَةً فِيهِ الْأَمْثَالَ ، مُبَيِّنَةً فِيهِ إِلَى الرُّمُوزِ ، وَاضِعَةً إِنْسَانَهَا بَيْنَ شِدَّةِ الطَّبِيعَةِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ ، مُحْكِمَةً عَنَاصِرَ رَوَايَتِهَا الشَّعْرِيَّةِ ، مُحَقِّقَةً فِي بَيَانِهَا الْمَكْشُوفِ أَغْمَضَ مَعَانِيهَا فِي فَلَسَقَةِ الْحَاسَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ حِينَ تَتَّصِلُ بِأَشْيَائِهَا فَتَظْهَرُ الضَّرُورَةُ الْبَشَرِيَّةُ وَتَخْتَفِي الْحِكْمَةُ ، وَفَلَسَقَةُ الرُّوحِ حِينَ تَتَّصِلُ بِهِلِهِ الْأَشْيَاءَ ذَاتِهَا فَتَظْهَرُ الْحِكْمَةُ وَتَخْتَفِي الضَّرُورَةُ - مُبَيِّنَةً أَثَرَهُ ذَلِكَ فِي طَبِيعَةِ الْكَوْنِ ، مُقَرَّرَةً أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْعَالِيَةَ لَنْ تَكُونَ فِيمَا يَتَأَلَّاهُ الْإِنْسَانُ مِنْ لَدَيْهِ ، وَلَا فِيمَا يَنْجَحُ مِنْ أَغْرَاضِهِ ، وَلَا فِيمَا يُفْنِعُهُ مِنْ مَنَاطِقِهِ ، وَلَا فِيمَا يُلُوحُ مِنْ خَيَالِهِ ، وَلَا فِيمَا يَنْتَظِمُ مِنْ قَوَائِنِهِ ؛ بَلْ هِيَ الشُّمُوعُ عَلَى هَلِهِ الْحَقَائِقِ الْكَادِبَةِ كُلِّهَا ، وَهِيَ الرِّخْمَةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الْأَكْثَرِ فَيَسْمِيهَا النَّاسُ بَرًّا ، وَالرِّخْمَةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الشَّهْوَةِ فَيَسْمِيهَا النَّاسُ عِقَّةً ، وَالرِّخْمَةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الطَّمَعِ فَيَسْمِيهَا النَّاسُ أَمَانَةً ؛ وَهِيَ فِي ضَبْطِ الرُّوحِ لثَلَاثٍ مِنَ الْحَوَاسِ : حَاسَةُ الدَّعَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا حَظُّ الْخُمُولِ ، وَحَاسَةُ اللَّذَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا حَظُّ الْهَوَى ، وَحَاسَةُ التَّمَلُّكِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا حَظُّ الْقُوَّةِ .

وَتَزِيدُ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ فِي نَسَقِ شِعْرِهَا أَنَّهُ تَنَبَّأَتْ أَنَّ الْبِرَّ مِنَ الْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ هُوَ عَلَى إِطْلَاقِهِ كَالْأَسَاسِ لِهَمَّا ؛ فَمَنْ نَشَأَ عَلَى بَرِّ أَبَوَيْهِ كَانَ خَلِيقًا أَنْ يَتَحَقَّقَ بِالْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ ، وَأَنَّ الْعِفَّةَ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالْبِرَّ هِيَ مَسَاكُمُهَا وَجَامِعَتُهُمَا فِي النَّفْسِ ، وَأَنَّ الْأَمَانَةَ مِنَ الْبِرِّ وَالْعِفَّةَ هِيَ كَمَا هَذِهِ الْفَضَائِلُ ، وَكُلُّهُنَّ دَرَجَاتٌ لِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهَا أَسَمَى مِنْ بَعْضٍ فِي الشَّانِ وَالْمَنْزِلَةِ ، وَبَعْضُهَا طَرِيقٌ لِبَعْضٍ يَجُزُّ سَبَبٌ مِنْهَا سَبَبًا مِنْهَا ، وَأَنَّ الرِّخْمَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَحْدَهَا الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا هِيَ هَذَا الْحُبُّ ، بَادِئًا مِنَ الْوَلَدِ لِأَبَوَيْهِ ، وَهُوَ الْحُبُّ الْخَاصُّ ، ثُمَّ مِنَ الْمُحِبِّ لِحَبِيبِهِ ، وَهُوَ الْحُبُّ الْأَخْصَصُ ، ثُمَّ مِنَ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ الْحُبُّ مُطْلَقًا بِعُمُومِهِ وَبِغَيْرِ أَسْبَابِهِ الْمُتَلَجِّجَةِ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْغَرِيزَةِ ؛ وَهِيَ دَرَجَاتٌ كَدَرَجَاتِ الْحَيَاةِ نَفْسَهَا مِنْ طُفُولَتِهَا إِلَى شَبَابِهَا إِلَى الشَّيْخُوخَةِ ، وَمِنْ الْعَاطِفَةِ إِلَى الرَّغْبَةِ إِلَى الْعَقْلِ .

ثُمَّ إِنَّهُ مَا دَامَ كَمَا الْفَضِيلَةُ هُوَ الْأَمَانَةُ ، فَمَا قَبْلَهَا أَنْوَاعٌ مِنْهَا ؛ فَبِرُّ الْوَلَدِ أَمَانَةُ الطَّبِيعِ

الْمَتَادَبِ ، وَعِفَّةُ الْمُحِبِّ أَمَانَةُ الْقَلْبِ الْكَرِيمِ ، وَالثَّلَاثَةُ أَمَانَةُ الْخُلُقِ الْعَالِيِّ ، وَهِيَ أَسْمَاهُ ، لِأَنَّهَا لَنْ تَكُونَ خُلُقًا نَابِتًا إِلَّا وَقَدْ خَضَعَ لِقَانُونِهَا الطَّبِيعُ وَالْقَلْبُ ، وَدَخَلَ فِي أَسْبَابِهَا الْأَدَبُ وَالْكَرَمُ ؛ فَالْأَمَانَةُ الْكَامِلَةُ فِي هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ هِيَ الْأَمَانَةُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ الْمُتَّصِلَةُ بِالْمَرْءِ مِنْ أَبْعَدِ جِهَاتِهِ ، دُونَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَبٍ ، أَوْ أُمٍّ ، أَوْ قَرِيبٍ ؛ وَدُونَ الَّتِي هِيَ أَخْصَصُ وَهِيَ إِنْسَانِيَّةُ الْحُبِّ .

وَتَرَى فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ أَنَّ كُلَّ رَجُلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَثَلُوا رَايَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْفَاضِلَةَ فِي قُصُولِهَا الثَّلَاثَةِ ، لَا يَقُولُ : إِنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ صَالِحِ أَعْمَالِهِ إِلَّا (أَتَبَغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) ، وَقَدْ تَطَلَّعُوا جَمِيعًا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَدَقِّ مَا فِي فَلَسَقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي شِعْرِهَا ذَلِكَ ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ الرَّجُلَ فِي صَالِحِ عَمَلِهِ إِنَّمَا كَانَ مُجَاهِدًا نَفْسَهُ ، يَمْنَعُهَا مَا تَحْرُسُ عَلَيْهِ مِنْ حَظِّهَا أَوْ لَذَّتِهَا أَوْ مَنَفَعَتِهَا ، أَيْ : مُنْخَلِعًا مِنْ طَبِيعَتِهِ الْأَرْضِيَّةِ الْمُتَارِعَةِ لِسَوَاهَا ، الْمُتَفَرِّدَةَ بِذَاتِهَا ، مُتَحَقِّقًا بِالطَّبِيعَةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي لَا يَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا إِلَّا بِهَا ، وَهِيَ رَحْمَةُ الْإِنْسَانِ غَيْرُهُ ، أَيْ : أَنْدِمَاجُهُ بِإِسْطِعَاعِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَإِعْطَاؤُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَمُعَاوَنَتُهُ كَفُّ آذَاهُ .

وَالْحَدِيثُ كَالْصَّغَرِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الرِّخْمَةَ فِي النَّفْسِ هِيَ الدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ ، لَا يَصْلُحُ دِينَ بِغَيْرِهَا ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَرَفًا وَلَا عَدْلًا مِنْ نَفْسٍ تَخْلُو مِنْهَا ؛ وَإِذَا كَانَتْ بِهِلِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَكَانَتْ أَسَاسَ مَا يُفَرِّضُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ ، فَهِيَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَسَاسُ مَا يَصْلُحُ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ ؛ وَبِهَذَا كُلُّهُ تَكُونُ الْعَايَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا كَلَامُهُ ﷺ ، أَنَّ تَنْشِئَةَ النَّاسِ عَلَى الْبِرِّ وَالْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ وَحْدَهَا الطَّرِيقَةُ الْعَمَلِيَّةُ الْمُمَكِّنَةُ لِحَلِّ مُغْضِلَةِ الشَّرِّ وَالْجَرِيمَةِ فِي الْأَجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ .

وَأَنْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ نَهَايَةَ الشُّمُوعِ فِي رَحْمَةِ الْمَالِ الَّذِي يَصِفُونَهُ بِأَنَّهُ شَقِيقُ الرُّوحِ ، فَكَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَخْرُجُ فِيهَا لِغَيْرِهِ مِنْ بَغْضٍ مَالِهِ ، بَلْ يَنْخَلَعُ مِنْ بَغْضِ رُوحِهِ ؛ وَهَذَا يُقَرِّرُ لَكَ فَلَسَقَةً أُخْرَى : أَنَّ السَّعَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الصَّحِيحَةَ فِي الْعَطَاءِ دُونَ الْأَخْذِ ، وَأَنَّ الزَّانِفَةَ هِيَ فِي الْأَخْذِ دُونَ الْعَطَاءِ ؛ وَذَلِكَ آخِرُ مَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلَسَقَةُ الْأَخْلَاقِ ؛ فَمَا الْمَرْءُ إِلَّا نَمْرَةٌ تَنْضُجُ بِمَوَادِّهَا ، حَتَّى إِذَا نَضَجَتْ وَأَخْلَوْلَتْ كَانَ مَظْهَرُ كَمَالِهَا وَمَنَفَعَتِهَا فِي الْوُجُودِ أَنْ تَهَبَ حَلَاوَتَهَا ؛ فَإِذَا هِيَ أَمْسَكَتِ الْحَلَاوَةَ عَلَى نَفْسِهَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا هَذِهِ الْحَلَاوَةُ بِعَيْنِهَا سَبَبٌ فِي

عَفَنَهَا وَفَسَادَهَا مِنْ بَعْدُ . أَفَهِمْتُ ؟

وَمَا دُمْنَا قَدْ وَصَفْنَا رَحْمَةَ الْمَالِ ، فَإِنَّا نُنِمْ الْكَلَامَ فِيهَا بِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَجِيبِ فِي فَرْ تَمَثُّلِهِ وَبَلَاغَةِ فَتِهِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، مِنْ تَدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ؛ فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبْعَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَغْفُو آثَرَهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لِرَقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ » . انْتَهَى . [ البخاري ، رقم : ١٤٤٤ ، ٢٩١٧ ، ٥٧٩٧ ؛ مسلم ، رقم : ١٠٢١ ؛ النسائي ، رقم : ٢٥٤٧ ، ٢٥٤٨ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٧٤٣٤ ، ٨٨١٤ ، ١٠٣٩١ ] .

فَأَنْتَ تَرَى ظَاهِرَ الْحَدِيثِ ، وَلَكِنَّ فَتَهُ الْعَجِيبِ فِي هَذَا الْحَدِيدِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ طَبِيعَةُ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ فِي الْإِنْسَانِ ، فَهِيَ مِنْ أَشَدِّ الطَّبَائِعِ جُمُودًا وَصَلَابَةً وَأَسْتِعْصَاءً مَتَى اعْتَرَضَتْهَا حُظُوظُ النَّفْسِ الْحَرِيصَةِ وَأَهْوَاؤُهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ السَّخَاءَ بِالْمَالِ يَبْسُطُ مِنْهَا وَيَنْتَهِي فِي الطَّبْعِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَهَا لَيْتَةً ، فَلَا تَزَالُ تَمْتَدُّ وَتَسْبُغُ حَتَّى يَكُونَ كَمَالُ طَبْعِ السَّخَاءِ وَهُوَ كَمَالُ طَبْعِ الْخَيْرِ فِي النَّفْسِ الْكَرِيمَةِ ، فَمَنْ أَلَزَمَ نَفْسَهُ الْجُودَ وَالْإِنْفَاقَ رَاضِيًا رِيَاضَةً عَمَلِيَّةً كَرِيماًةً الْمُضَلِّ بِأَثْقَالِ الْحَدِيدِ وَمُعَانَاةً الْقُوَّةَ فِي الصَّرَاعِ وَنَحْوِهِ : أَمَّا الشُّحُّ فَلَا يُنَاقِضُ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ وَلَكِنَّهُ يَدْعُهَا جَامِدَةً مُسْتَعْصِيَةً ، لَا تَلِينُ وَلَا تَسْتَجِيبُ وَلَا تَنْتَسِرُ .

وَقَدْ جَعَلَ الْجُبَّةَ مِنَ التَّدْيِ إِلَى التَّرَاقِي ، وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ مَا فِي الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فَهُوَ مُنْفِقٌ عَلَى ضَرُورَاتِهِ ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْكَرِيمُ وَالْبَخِيلُ ، فَهُمَا عَلَى قَدَرٍ سَوَاءٍ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ؛ وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ فِيمَا زَادَ وَسَبَغَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَدِّ ، فَهَلْهُنَا يَبْسُطُ الْكَرِيمُ بَسْطَهُ الْإِنْسَانِيَّ ، أَمَّا الْبَخِيلُ فَهُوَ « يُرِيدُ » لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ ، الْإِرَادَةُ عَمَلٌ عَقْلِيٌّ لَا أَكْثَرَ ، فَإِذَا هُوَ حَاوَلَ تَحْقِيقَ هَذِهِ الْإِرَادَةِ وَقَعَ مِنْ طَبِيعَةِ نَفْسِهِ الْكَرَّةُ فِيمَا يُعَانِيهِ مِنْ يَوْسَعِ جُبَّةِ الْحَدِيدِ لِرَقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مِنْ حَلَقَاتِهَا فِي مَكَانِهَا ، فَهِيَ مُسْتَعْصِيَةٌ مُتَمَاسِكَةٌ ، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ .

أَلَا تَرَى كَيْفَ تَتَوَجَّهُ الْحُجَّةُ ؛ وَكَيْفَ تَدِقُّ الْفَلَسَفَةُ وَهِيَ فِي أَظْهَرِ الْبَيَانِ وَأَوْضَحِهِ ؟ وَهَلْ تُحَسِّبُ طَبِيعَةَ الْبَخِيلِ فِي دَقَائِقِهَا النَّفْسِيَّةِ لَوْ هِيَ نَطَقَتْ - بِالْعَمَلِ مِنْ وَصْفِ نَفْسِهَا هَذَا

الْمَبْلَغَ مِنْ جَمَالِ الْفَنِّ وَإِدَاعِهِ ؟ وَهُوَ بَعْدُ وَصَفَ لَوْ نُقِلَ إِلَى كُلِّ لُغَاتِ الْأَرْضِ لَزَانَهَا جَمِيعًا ، وَلَكَانَ فِي جَمِيعِهَا كَالْإِنْسَانِ نَفْسِهِ : لَا يَخْتَلِفُ تَرْكِيبُهُ ، فَلَنْ يَكُونَ بِثَلَاثَةِ أَغْنِي ، لَا فِي بِلَادِ شِكْسْبِير Shakespeare وَلَا فِي بِلَادِ الزُّنُوجِ !

إِنَّ كَلَامَ نَبِيِّنا ﷺ يَجِبُ أَنْ يُتَرْجَمَ بِفَلْسَفَةِ عَصْرِنَا وَأَدَابِهِ ، فَسَتَرَاهُ جَنَيْتُ كَأَنَّمَا قَبِلَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ فَمِ الثُّبُورِ ، وَسَتَرَاهُ فِي شَرْحِهِ الْفَلَسَفِي كَالْأَزْهَارِ النَّاصِرَةِ : حَيَاتُهَا بِشَاسْتِهَا فِي الثُّورِ ، وَغَرَفُهُ إِنْسَانِيَّةٌ قَائِمَةٌ تَصْحَحُ بِهَا أَغْلَاطُ الزَّمَنِ فِي أَهْلِهِ ، وَأَغْلَاطُ النَّاسِ فِي زَمَنِهِمْ ؛ وَتَجِدُهُ يَرِفُ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ الْمُسْكِنَةِ بِحَنَانِ الْكَحَنَانِ الْأُمِّ عَلَى أَطْفَالِهَا ، وَالنَّاسِ الْآنَ كَالْأَطْفَالِ غَابَتْ أُمُّهُمْ ، فَهُمْ فِي تَنَافُرٍ صَبِيَانِيٍّ ... وَمَا الْأُمُّ بِطَبِيعَتِهَا إِلَّا الْمَمِيزَانُ لِاسْتِنْدَادِهِمْ ، وَالْحِكْمَةُ لِطَبِيعَتِهِمْ ، وَالْإِتِّلَافُ لِتَنَافُرِهِمْ ، وَالنُّظَامُ لِعَبِيدِهِمْ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَحَنَانٌ قَلْبُهَا الْكَبِيرُ هُوَ الْقَانُونُ لِكُلِّ قَضَايَا هَذِهِ الْقُلُوبِ الصَّغِيرَةِ .

وَقَدْ كَتَبْنَا فِي فِلْسَفَةِ الْأَدَبِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَمَعَانِيهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ الْأَدِيبَ أَلَدَامَةُ هُوَ الْإِنْسَانُ الْكَوْنِيُّ ، وَغَيْرُهُ هُوَ الْإِنْسَانُ فَقَطْ ، وَأَنَّ عِلْمَ الْأَدِيبِ هُوَ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى الطَّبِيعَةِ ، وَالطَّبِيعَةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى النَّفْسِ ؛ وَلِذَلِكَ فَمَوْضِعُهُ مِنَ الْحَيَاةِ مَوْضِعُ فِكْرَةٍ حُدُودُهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهَا الْأَسْرَارِ - وَأَنَّ الْأَدِيبَ مُكَلِّفٌ تَصْحِيحِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَنَفْيِ التَّزْوِيرِ عَنْهَا ، وَإِخْلَاصِهَا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهَا عَلَى تَتَابُعِ الصَّرُورَاتِ ، ثُمَّ تَصْحِيحِ الْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْوُجُودِ ، وَنَفْيِ الْوُثْنَةِ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَالسُّمُوءَ بِهَا إِلَى فَوْقِ ، ثُمَّ إِلَى فَوْقِ ، وَدَائِمًا إِلَى فَوْقِ <sup>(١)</sup> .

فَإِذَا تَدَبَّرْتَ هَذَا الْمَقَالَ ، وَاعْتَبَرْتَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَا بَيَّنَّا وَشَرَحْنَا ، وَأَخَذْتَهُ مِنْ عَصْرِهِ وَمِنَ الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ، وَنَظَرْتَ إِلَى الْفَاطَةِ وَمَعَانِيهِ ، وَاسْتَبْرَأْتَ مَا بَيْنَهَا مِنْ

(١) نُبِذَ هَذَا الْمَقَالَ فِي مُقَطَّعِ شَهْرِ يُولْيُو/ نَمُوز سَنَةِ ١٩٣٢ ، وَأَكْثَرَ مَا فِيهِ يُعَدُّ مُمْتَمًا لِفَلْسَفَةِ هَذَا الْفَضْلِ ؛ وَسَجَّعَ كُلُّ مَقَالَتِنَا فِي كِتَابِ يَصُدُرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي آخِرِ صَيْفِ هَذَا الْعَامِ .

قُلْتُ [وَالْقَائِلُ هُوَ سَعِيدُ الْمُزَيَّن]: وَأَحْسِبُهُ كَانَ يَعْني كِتَابَهُ « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ » ، وَقَدْ اسْتَعْنَى عَنْهُ بِهَذَا الْكِتَابِ « وَحْيُ الْقَلَمِ » ، وَقَدْ نَشَرْنَا هَذِهِ الْمَقَالَ فِي هَذَا الْجُزْءِ ، وَانْظُرْ « فَتْرَةُ جَمَامِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِي » .

خَوَاصُّ الْفَنِّ يَمِثِّلُ مَا بَهَنَكَ إِلَيْهِ مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي مَرَّ بِكَ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ حَقِيقَةٍ فَنِّيَّةٍ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا بِخَاصَّةٍ فِيهَا ، وَأَنَّ سِرَّ جَمَالِهَا فِي خَاصَّتِهَا - إِذَا جَمَعْتَ ذَلِكَ لَمْ تَرِ مَذْهَبًا عَنِ الْإِفْتِرَارِ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا هُوَ أَعْظَمُ نَبِيٍّ وَأَعْظَمُ مُصْلِحٍ ، فَهُوَ أَعْظَمُ أَدِيبٍ ؛ لِأَنَّ فَتَاهُ الْأَدِيبِيِّ أَعْظَمُ فَنٍّ يُحَقِّقُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ حَيَاةَ أَخْلَاقِهَا ، وَهُوَ بِكُلِّ ذَلِكَ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ .

\* \* \*

قَالَفْتُ فِي هَذِهِ الْبَلَاغَةِ هُوَ فِي دَقَائِقِهِ أَثَرُ تِلْكَ الرُّوحِ الْعُلْيَا بِكُلِّ خَصَائِصِهَا الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَخْتَاجُ إِلَيْهَا الوجودُ الرُّوحَانِيُّ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَلِذَا تَرَى كَلَامَهُ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ حُدُودِ الزَّمَانِ ، فَكُلُّ عَصْرِ وَاجِدٍ فِيهِ مَا يُقَالُ لَهُ ، وَهُوَ بِذَلِكَ ثَبُوءٌ لَا تَنْقُضِي ، وَهُوَ حَيٌّ بِالْحَيَاةِ دَائِمًا ، وَكَأَنَّمَا هُوَ لَوْنٌ عَلَى وَجْهِ مِنْهَا كَمَا تَرَى الْبَيَاضَ مَثَلًا هُوَ اللَّوْنُ عَلَى وَجْهِ طَائِفَةٍ مِنَ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ...

فَإِذَا نَظَرْتَ فِي هَذَا الْفَنِّ فَانْظُرْهُ فِي حَدِيثِهِ ، وَفِي عَمَلِهِ ، وَفِي الدُّنْيَا الَّتِي أَلْفَهَا مِنَ التَّارِيخِ تَأْلِيفَ الْقِطْعَةِ الْبَلِينَةِ الْتَادِرَةِ مِنَ الْكَلَامِ ، وَرَدَّ كُلَّ مَا تَدَبَّرْتَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى تِلْكَ الرُّوحِ الْجَدِيدَةِ عَلَى تَارِيخِ الْأَرْضِ ، فَلَتَعْلَمَنَّ حَيْثُ أَنْ كُلُّ بَلِيغٍ هُوَ شَمْعَةٌ مُضِيئَةٌ صُنِعَتْ لَهَا مَادَّةُ النُّورِ نُورًا وَجَمَالًا ، بِجَانِبِ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا مَادَّةُ النُّورِ نُورًا وَجَمَالًا وَحَيَاةً وَقُوَّةً ، هُنَاكَ نُورٌ لِدُنْيَا عَيْنَيْنِ وَهُنَا النُّورُ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ ؛ وَذَلِكَ يَتَخَايَلُ كَالْحُلُمِ ، وَهَذَا يُفْصَحُ كَالْحَقِيقَةِ ، وَذَلِكَ ضَوْءٌ مِنْ حَوْلِهِ الظُّلْمَةُ دَائِمَةٌ ، وَهَذَا قَدْ طَرَدَ الظُّلْمَةُ عَنْ نِصْفِ الدُّنْيَا إِلَى نِصْفِ الدُّنْيَا ؛ وَالْأَوَّلُ نُورٌ بِلا رُوحٍ ، وَالثَّانِي هُوَ رُوحُ النُّورِ .

تِلْكَ فِي رَأْيِنَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي كَانَ يَفْهَمُ بِهَا أَصْحَابُهُ ﷺ ، كَمَا يَفْهَمُ الشَّاعِرُ نُورَ الْقَمَرِ فِي لَيْلَةٍ صَيْفٍ بِمَعَانٍ مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَمِنَ النَّفْسِ وَالْحَالَةِ ، وَمِنَ الْهَيْئَةِ وَالشَّكْلِ ، وَمِنَ الْعَيْنِ وَالْفِكْرِ ، وَمِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَفِيهِ النُّورُ وَزِيَادَةُ ، أَيْ الْحَقِيقَةُ وَمَا تَرْتَفِعُ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ كَانُوا مَعَهُ كَأَعْظَمِ فَلَاسِفَةِ الْفَنِّ مَعَ الْفَنِّ إِعْجَابًا وَحُبًّا وَانْقِيَادًا وَطَاعَةً حَتَّى أَنْخَلَعُوا مِنْ عَصَرِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَخَرَجُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَطَبَائِعِهِمْ ، وَأَنْجَذَبُوا إِلَيْهِ أَشَدَّ أَنْجَذَابٍ عَرَفَهُ التَّارِيخُ ، وَأَصْبَحُوا مُصْرِفِينَ مَعَهُ تَصْرِيفَ الْحَوَادِثِ لَا تَصْرِيفَ الْأَشْخَاصِ ، وَعَادَتْ أَنْفُسُهُمْ وَكَانَ تَأْتِيرُ الْأَرْضِ يَلْتَقِي فِيهَا بِتَأْتِيرِ

السَّمَاءِ فَيَغْسِلُ فِي سُحُبٍ عَالِيَةٍ فَلَا يَكُونُ فِيهَا كَمَا يُرِيدُهُ النَّاسُ بَلْ كَمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ ، وَرَجَعَتْ قُلُوبُهُمْ لَا تَلْبَسُ عَنْ دِينِهَا رَأْيًا وَلَا هَوًى ، وَكَأَنَّمَا وَضِعَ لَهَا هَذَا الدِّينُ حَرَسًا عَلَى كُلِّ سَمْعٍ وَعَلَى كُلِّ بَصَرٍ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَأُولَئِكَ قَوْمٌ كَأَنَّمَا تَنَاولَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَفْرَغَهُمْ ثُمَّ مَلَأَهُمْ ، وَمَا أَنْتَقَلُوا إِلَى مِثْلَتِهِمْ الْعَالِيَةِ فِي التَّارِيخِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَقَلَهُمْ هُوَ إِلَى مِثْلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ .

وَنَاهِيكَ مِنْ رِجَالٍ يُمِثِّلُ لَهُمْ بِهَذَا الْمَثَلِ الَّذِي يَضْرِبُهُ لَهُمْ فِي الْإِيمَانِ لِيَبْلُغُوهُ أَوْ يُقَارِبُوهُ ، فَعَنَ خِتَابُ بَنِ الْأَرْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، قُلْنَا : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟ قَالَ : « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَسَّقُ بِأَثْنَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » . [ البخاري ، رقم : ٣٦١٢ ، ٣٨٥٢ ، ٦٩٤٣ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٦٤٩ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢٠٥٥٣ ، ٢٠٥٦٨ ، ٢٦٦٧٥ ] .

فَانْظُرْ يَا هَذَا ، فَإِنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ قُوَى الْكَوْنِ فَجَاءَتْ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا فَتَرَكْتَ فِي عِبَارَةٍ مِنَ الْكَلَامِ لِمَثَلِ نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ بِقُوَّتِهَا لَمَّا وَضِعَتْ إِلَّا هَذَا الْوَضْعَ مِنْ هَذَا التَّمَثِيلِ بِأَمْشَاطِ الْمَسَامِيرِ وَأَسْنَانِ الْمِنْشَارِ فِي عَظْمِ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ وَلَحْمِهِ ، وَظَاهِرِ التَّمَثِيلِ عَلَى مَا رَأَيْتَ مِنَ الْعَجَبِ ، وَلَكِنَّ لَهُ بَاطِنًا أَعْجَبَ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَهُوَ الْبَلَاغَةُ كُلُّ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانُ حَقُّ الْبَيَانِ ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ ﷺ أَنَّ الْحَدِيدَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَنْزَعُ مِنْ أُولَئِكَ الْأَقْوِيَاءِ بِإِيمَانِهِمْ عَظْمًا وَلَحْمًا وَعَصَبًا ، بَلْ هُوَ حَدِيدٌ يَأْكُلُ حَدِيدًا مِثْلَهُ أَوْ أَشَدَّ مِنْهُ ، فَإِنَّ لِلرُّوحِ الْمُؤْمِنَةِ الْمُسَلَّطَةَ عَلَى جِسْمِهَا قُوَّةَ تَصْنَعُ هَذِهِ الْمُعْجِزَةَ ، فَيَمُرُّ الْحَدِيدُ فِي الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ وَالْعَصَبِ يَسْلُبُهَا الْحَيَاةَ ، وَلَكِنَّهَا تَسْلُبُهُ شِدَّتُهُ وَجَلْدُهُ وَصَبْرُهُ !

\* \* \*

وَكُلُّ مَا جَاءَ مِنَ التَّمَثِيلِ فِي كَلَامِهِ ﷺ يَنْطَوِي فِيهِ مِنْ إِدْعَاءِ الْفَنِّ الْبَيَانِيِّ وَإِعْجَازِهِ مَا يَقُوتُ حُدُودَ الْبَلَاغَةِ ، حَتَّى لَا تَشُكَّ إِذَا أَنْتَ تَدَبَّرْتَهُ يَحْقُّهُ مِنَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ أَنَّ بَلَاغَتَهُ إِنَّمَا هِيَ شَيْءٌ كَبَلَاغَةِ الْحَيَاةِ فِي الْحَيِّ : هِيَ الْبَلَاغَةُ وَلَكِنَّهَا أَبَدُ مَا هِيَ ، لِأَنَّهَا الْحَيَاةُ أَيْضًا .

وَأَنْتَ خَيْرٌ أَنْ هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمَ ﷺ كَانَتْ تَأْخُذُهُ عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ أَحْوَالٌ وَصِفَتْ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ لَيَقْصُدُ عَرَقًا . [البخاري، رقم: ٢، ٣٢١٥؛ مسلم، رقم: ٢٣٣٣].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ [البخاري، رقم: ٢٦٦١، ٤١٤١] عَنْهَا قَالَتْ : فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْهَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْخَرُ عَنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ .

وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ [البخاري، رقم: ٣٨٣٢، ٤٥٩٢؛ مسلم، رقم: ١٨٩٨] : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَفَخَذَهُ عَلَى فَخِذِي ، فَتَقَلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذِي .

وَفِي حَدِيثِ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ [البخاري، رقم: ١٥٣٦؛ مسلم، رقم: ١١٨٠] حِينَ قَالَ لِعُمَرَ : أَرِنِي النَّبِيَّ ﷺ حِينَ يُوحَى إِلَيْهِ - : فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَيَّ ، فَجِئْتُ وَعَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَوْبٌ قَدْ أَظْلَمَ بِهِ ، فَأَدْخَلْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحْضَرُ الْوَجْهِ وَهُوَ يَعْطُ ، أَيْ : يُرَدِّدُ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ ثِقَلِ الْوَحْيِ .

فَهَلْزِهِ كُلُّهَا أَحْوَالٌ تَصِفُ عَمَلَ الدِّمَاغِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ جُهْدِ الْقُوَى الْعَصَبِيَّةِ ، لِيَرْتَفِعَ بِالْحَيَاةِ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَيَتَرَكُّهَا لِوَحْيِ الرُّوحِ وَخَذَهَا ، لَا يُشَارِكُهَا فِي هَذَا الْوَحْيِ فِكْرٌ وَلَا هَاجِسٌ ، وَلَا يَتَّصِلُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ حَيَاةِ الْحَيِّ ، فَيَتَحَقَّقُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَجُودٌ آخَرٌ غَيْرُ وَجُودِهِ الْمَحْدُودِ بِجَسَمِهِ وَطَبَاعِهِ وَدُنْيَاهُ ؛ وَيَخْرُجُ بِوَحْيِهِ مِنْ هَذِهِ الْجَادِبِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ إِلَى مَا وَرَاءَ حُدُودِ الطَّبِيعَةِ مِنْ قُوَى الْغَيْبِ ؛ وَبِذَلِكَ يَتَلَقَّى عَنْ رُوحِ الْكَوْنِ ثُمَّ يُقْصِمُ عَنْهُ وَقَدْ وَعَى مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ .

وَمَا وَصَفَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ أَنْ فَخَذَهُ كَادَتْ تُرَضُّ - بِزَهَانٍ قَاطِعٍ عَلَى أَنْ رُوحَهُ ﷺ تَنْسَرَحُ مِنْ جَسَمِهِ سَاعَةَ الْوَحْيِ فَيَقْبَلُ الْجِسْمُ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَخْفُفُ بِالرُّوحِ وَتَبْقَى وَطَائِفُ الْحَيَاةِ عَامِلَةً أَعْمَالُهَا بِمُسِيرٍ وَبُطْءٍ ، لِاتِّصَالِهَا بِشُعَاعٍ مِنَ الرُّوحِ دُونَ الرُّوحِ بِجُمْلَتِهَا ، وَلَسْنَا هُنَا بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَنِ الْوَحْيِ ، فَلَهُ مَوْضِعٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي كِتَابِنَا « أَسْرَارُ الْإِعْجَازِ »<sup>(١)</sup> ، وَإِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ التَّهْنِئَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِلذَّكَاءِ الْجِهَارِ الْعَصَبِيِّ لَهَا أَثَرُهَا الْعَظِيمُ فِي فَنِّ

(١) أَنْظَرُ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

بَلَاغَتِهِ ﷺ ، وَبِهَا أَمْتَارٌ عَنْ كُلِّ بُلْغَاءِ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الْمُلْهَمَ مِنْ أَفْذَاذِ الْعَبَقَرِيِّينَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِنَّمَا يَتَلَعَّ مَا يَتَلَعُّهُ بِتَغْضِ هَذَا الَّذِي رَأَيْتَ ، وَفِي بَغْضِ هَذَا أَبْدَعُ مَا وَرَثَتِ الدُّنْيَا مِنْ قُنُونِ الْبَيَانِ ، وَكَأَنَّ فِي الدِّمَاغِ مَادَّةً فِي مَوْضِعٍ مِنْهُ يَمَيِّزُ بَهَا مَنْ تَخْتَارُهُمُ السَّمَاءُ لِحِكْمَتِهَا وَلِهَافِهَا ، وَإِذَا كَانَ قُلُّ الْعَبَقَرِيِّينَ هُوَ أَسْمَى الْكَلَامِ الْإِنْسَانِيِّ ، لِمَا خُصُّوا بِهِ مِنْ هَذِهِ التَّهْنِئَةِ ، فَإِنَّ فَتْنَهُ ﷺ يَكُونُ وَلَا جَرَمَ مِنْ بَابِ الْأَكْبَرِ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ فِي إِهْلَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا .

وَلِهَذِهِ الْقُوَّةُ التَّادِرَةُ كَانَ بَيَانُهُ قُوًيًا عَلَى مَرْجِ مَعَانِيهِ بِالنَّفْسِ بِمَا فِيهِ مِنْ صَنْعَةِ الْحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا فَلَسَفَةُ الْبَيَانِ الْفَنِّيُّ أَنْ تَمْتَدَّ الْحَيَاةُ مِنَ النَّفْسِ إِلَى اللَّفْظِ ، فَتَصْنَعُ فِيهِ صُنْعَهَا ، فَتَفْصِلَ الْعِبَارَةَ الْفَنِّيَّةَ عَنْ كَاتِبِهَا أَوْ قَائِلِهَا وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ كَلَامِهِ ، لِيَسْتَحْجِلَ عِنْدَ قَارِئِهَا أَوْ سَامِعِهَا قِطْعَةً مِنَ الْحَيَاةِ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ الْإِذْرَاكِ ؛ فَالْبَيَانُ الْفَنِّيُّ هُوَ الْوَسِيلَةُ لِحَمْلِ الْوُجُودِ وَبِعُتْرَتِهِ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ مَوَاضِعِهِ ، وَخَلْقِهِ خَلْقًا آخَرَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ يُؤَوَّلُ قَوْلُهُ ﷺ : « إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِخْرًا » [البخاري، رقم: ٥١٤٦، ٥٧٦٧؛ الترمذي، رقم: ٢٠٢٨؛ ابوداود، رقم: ٥٠٠٧؛ مسند أحمد، رقم: ٤٦٣٧، ٥٢١٠، ٥٢٦٩، ٥٦٥٤؛ موطأ مالك، رقم: ١٨٥٠] ؛ جَعَلَ نَوْعًا مِنَ الْبَيَانِ هُوَ السِّخْرُ ، لَا الْبَيَانُ كُلُّهُ ، فَالْحَدِيثُ كَالنَّصِّ عَلَى مَا تُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ الْأَوْرَبِيَّةُ الْيَوْمَ بِـ « الْبَيَانِ الْفَنِّيِّ » ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ مِنْ الْبَيَانِ فَنًّا هُوَ سِخْرٌ مِنْ عَمَلِ النَّفْسِ فِي اللَّغَةِ تُغَيِّرُ بِهِ الْأَشْيَاءَ وَلَهُ عَجَبُ السِّخْرِ وَتَأْيِيذُهُ وَتَصَرُّفُهُ ؛ وَهَذَا مَعْنَى لَمْ يَتَّبِعْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَا يُذَكِّرُ مَعَهُ كُلُّ مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ ، وَبِذَلِكَ التَّأْوِيلُ يَكُونُ هَذَا الْحَدِيثُ قَدْ اخْتَوَى أَسْمَى حَقِيقَةِ فَلَسَفِيَّةِ لِلْفَنِّ .

وَمِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْقُوَّةِ أَيْضًا مَا تَرَاهُ مِنْ شِدَّةِ الْوُضُوحِ فِي كَلَامِهِ ﷺ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ الْبَلَاغَةَ النَّبَوِيَّةَ الْعَجَبِيَّةَ قَائِمَةً عَلَى أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ هُوَ لَفْظُ الْحَقِيقَةِ لَا لَفْظُ اللَّغَةِ ، فَالْعَيْنَاةُ فِيهَا بِالْحَقَائِقِ ، ثُمَّ الْحَقَائِقُ هِيَ تَخْتَارُ أَلْفَاظَهَا اللَّغَوِيَّةَ عَلَى مَنَازِلِهَا ؛ وَبِذَلِكَ يَأْتِي الْكَلَامُ كَأَنَّهُ نُطْقٌ لِلْحَقِيقَةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا ، وَالْكَلِمَةُ الصَّادِقَةُ تُنْطَقُ مَرَّةً وَاحِدَةً ؛ فَصُورَتُهَا اللَّغَوِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا صَرِيحَةً مُتَكَشِّفَةً عَنْ مَعْنَاهَا الْمُضْمِيَّةِ كَأَنَّمَا أُلْفِيَ فِيهَا النُّورُ .

وَهُوَ مَعْلُومٌ أَنَّهُ ﷺ لَا يَتَكَلَّفُ وَلَا يَتَعَمَّلُ ، وَلَمْ يَكُتُبْ وَلَمْ يُؤَلَّفْ ، وَمَعَ هَذَا لَا تَجِدُ فِي بَلَاغَتِهِ مَوْضِعًا يَقْبَلُ التَّنْقِيحَ ، أَوْ تَعْرِفُ لَهُ رِفَّةً مِنَ الشَّانِ كَأَنَّمَا بَيَّنَّ الْأَلْفَاظُ وَمَعَانِيهَا فِي

كُلُّ بَلَاغَةٍ مَقْيَاسٌ وَمِيزَانٌ ، أَوْ كَأَنَّ هَذِهِ الْبَلَاغَةَ تَنْبِيْهُنَّ بِالْكَلَامِ عَلَى طَبِيعَةٍ عَامِلَةٍ فِيهِ يَقُوَاهَا  
الذَّائِبَةُ الثَّانِيَةِ ، فَفَتْهُمَا الْجَمِيعُ هُوَ التَّرَكُّبُ الَّذِي تَجِيءُ فِيهِ كَمَا تَرَى الشَّجَرَ مَثَلًا كَاسِيًا مِنْ  
وَرَقِهِ وَزَهْرِهِ ؛ فَأَنْتَ مِنْهُ بِإِزَاءِ عَمَلٍ جَمِيلٍ لِأَنَّكَ بِإِزَاءِ حَقِيقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ قَدْ أَنْفَرَدْتَ فِي ذَاتِهَا ،  
وَمَعْنَى أَنْفَرَادِهَا فِي ذَاتِهَا أَنَّهَا كَذَلِكَ هِيَ ، فَلَيْسَ فِيهَا مَوْضِعٌ لِشَيْءٍ غَيْرِ مَا هُوَ فِيهَا ؛ ثُمَّ  
لَا تَنْسَ أَنَّ الثَّبُوتَ أَكْبَرُ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ الْوُضُوحِ الْبَيَانِيِّ الْعَجِيبِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَسْتَعْلِقُ فِي  
الْبَلَاغَةِ بِإِنْسَانٍ إِلَّا وَهِيَ غَنِيَّةٌ عَنْهُ ؛ وَلَعَلَّ غُمُوضَ بَعْضِ الْفَلَسَافَةِ وَبَعْضِ الشُّعْرَاءِ هُوَ مِنْ  
دَلِيلِ الطَّبِيعَةِ عَلَى أَنَّهُمْ زَانِدُونَ فِي الطَّبِيعَةِ ... أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ أَسَالِيْبِهِمُ الْفَلَسَفِيَّةَ وَالشُّعْرِيَّةَ  
مَا يَجْعَلُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ أَحْيَانًا هُوَ نَقْضُ مَعْنَاهَا<sup>(١)</sup> إِذْ يَتَصَنَّعُونَ لِلْفِكْرِ وَيَسْتَجْلِبُونَ لَهُ  
وَيُسَفِّقُونَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْأَلْفَاظِ ، فَهَلُمَّا الْبَدِيعُ اللَّفْظِيُّ وَهُنَاكَ  
«الْبَدِيعُ الْفِكْرِيُّ» ، وَلَا طَائِلَ وَرَاءَهُمَا إِلَّا صِنَاعَةٌ وَبَهْرَجَةٌ .

وَمَتَى كَانَ اللَّيْثِيُّ قِسْمًا مِنَ الْحَيَاةِ ، بَلْ مَادَّةٌ لِمَعَانِيهَا الْجَدِيدَةِ ، فَلَنْ يَكُونَ بَيَانُهُ إِلَّا عَلَى  
مَا وَصَفْنَا لَكَ جَمَالًا ، وَوُضُوحًا وَمَنْفَعَةً وَدَقَّةً وَسُمُوءًا بِقَدَرِ ذَلِكَ كُلِّهِ .

\* \* \*

وَهُنَا مَعْنَى نُرِيدُ أَنْ نُنَبِّهَ إِلَيْهِ وَنَتَكَلَّمَ فِي سِرِّهِ وَحَقِيقَتِهِ ، فَإِنَّكَ تَقْرَأُ مَا جُمِعَ مِنَ الْكَلَامِ  
الْتَّبَوِيَّ فَلَا تُصِيبُ فِيهِ مَا تُصِيبُهُ فِي بَلَاغَةِ أَدْبَاءِ الْعَالَمِ مِمَّا فَتُهُ الْكَلَامُ فِي الْمَرْأَةِ ، وَالْحُبِّ ،  
وَجَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، وَهُوَ فِي بَلَاغَةِ النَّاسِ كَالْقَلْبِ فِي الْجِسْمِ : لَا تَخْلُو مِنْهُ وَلَا تَقُومُ إِلَّا بِهِ ؛  
حَتَّى تَجِدَ الْكَلَامَ فِي الْمَرْأَةِ وَخَدَاهَا شَطْرَ الْأَدَبِ الْإِنْسَانِيِّ ، كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ شَطْرُ  
الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَا يُعْرِفُ لَهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْأَعْرَاضِ إِلَّا كَلِمَاتٌ بَيَانِيَّةٌ جَاءَتْ بِمَا يَقُوتُ الْوُضُفَ  
مِنْ الْجَمَالِ وَالِدَقَّةِ ، مُتَنَاهِيَةً فِي الْحُسْنِ ، ظَاهِرَةً فِي الدَّلَالَةِ ، يَظْهَرُ فِي وَجْهِ بَلَاغَتِهَا  
مَا يَظْهَرُ فِي وَجْهِ الْعُذْرَاءِ مِنْ طَبِيعَةِ الْحَيَاءِ وَالْحَفَرِ ؛ كَقَوْلِهِ فِي السَّاءِ : « رَفَقًا بِالْفَوَارِسِ »  
[البخاري ، رقم : ٦١٤٩ ؛ مسلم ، رقم : ٢٣٢٣] ، وَقَوْلُهُ لِأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَقَدْ كَسَاهُ قُبْطِيَّةً<sup>(٢)</sup>

(١) مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ « غِيَةِ Goethe » شَاعِرِ الْأَلَمَانِ : إِنَّ الْكُلَّ بَاطِلٌ ، مَعْنَاهُ أَنَّ الْكُلَّ لَيْسَ بِبَاطِلٍ  
وَلَعَلَّ هَذَا فِي « الْبَدِيعِ الْفِكْرِيِّ » مِنْ بَابِ كُلِّ الشَّيْءِ لِلْإِنْتَابِ ...

(٢) بِضَمِّ الْقَافِ : ثَوْبٌ مِنْ ثِيَابٍ مُضَرَّ رَقِيقَةً نَبِيضًا ، وَضُمُّوْا « قَافَهُ » فَرَقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُنْسَبُ إِلَى الْقُبْطِ  
مِنْ غَيْرِ الثِّيَابِ .

فَكَسَاهَا أَنْزَرَتْهُ : « أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا » [مسند أحمد ، رقم : ٢١٢٧٩ ،  
٢١٢٨١ ؛ مجمع الزوائد ، رقم : ٨٦١١] قَالَ الشَّرِيفُ الرُّضِيُّ فِي شَرْحِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ :  
وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ ؛ وَالْمُرَادُ أَنَّ الْقُبْطِيَّةَ بِرَقَّتِهَا تَلْصُقُ بِالْجِسْمِ ، فَيُبَيِّنُ حَجْمَ الثَّدْيَيْنِ ،  
وَالرَّادِفَتَيْنِ ، وَمَا يَشْتَدُّ مِنَ لَحْمِ الْعُضْدَيْنِ وَالْفَخِذَيْنِ ، فَيَعْرِفُ النَّاطِرُ إِلَيْهَا مَقَادِيرَ هَذِهِ  
الْأَعْضَاءِ ، حَتَّى تَكُونَ كَالظَّاهِرَةِ لِلْخَطِّ ، وَالْمُمْكِنَةِ لِلْمَسِّ ، فَجَعَلَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
لِهَذِهِ الْمَحَالِّ كَالْوَاصِفَةِ لِمَا خَلْفَهَا . وَالْمُخْبِرَةُ عَمَّا اسْتَرَّتْ بِهَا ؛ وَهَذِهِ مِنْ أَحْسَنِ الْعِبَارَاتِ  
عَنْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلِهَذَا الْغَرَضِ رَمَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي قَوْلِهِ : « إِنَّا كُمْ وَلَبَسَ  
الْقُبْطِيُّ ، فَإِنَّهَا إِلَّا تَشَفُّ تَصَفُّ » [كنز العمال ، رقم : ٤٢٠٣١] فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا  
عُذْرَةَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَمَنْ تَبِعَهُ فَإِنَّمَا سَلَكَ فَجَّهُ .

فَلَمَّا : وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ ، وَلَكِنَّ فِي عِبَارَةِ الْحَدِيثِ سِرًّا هُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْبَلَاغَةِ  
الْتَّبَوِيَّةِ لَمْ يَهْتِدِ إِلَيْهِ الشَّرِيفُ ، عَلَى أَنَّهُ هُوَ حَقِيقَةُ الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ بِخَاصَّتِهَا ، وَلَا نَظَرُ  
أَنْ بَلِيغًا مِنْ بُلَغَاءِ الْعَالَمِ يَتَأَتَّى لِمِثْلِهِ ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَقُلْ : أَخَافُ أَنْ تَصِفَ  
حَجْمَ أَعْضَائِهَا ، بَلْ قَالَ : حَجْمَ عِظَامِهَا ، مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ لَحْمَ الْأَعْضَاءِ فِي حَجْمِهِ  
وَتَكْوِينِهِ ، وَذَلِكَ مُتَّهَى السُّمُوءِ بِالْأَدَبِ ، إِذْ ذَكَرَ « أَعْضَاءَ » الْمَرْأَةَ فِي هَذَا السِّيَاقِ ،  
وَبِهَذَا الْمَعْرِضِ ، هُوَ فِي الْأَدَبِ الْكَامِلِ أَشْبَهُ بِالرَّفَقِ ، وَلَفْظُهُ « الْأَعْضَاءُ » تَحْتَ الثُّوبِ  
الرَّقِيقِ الْأَبْيَضِ تَنْبَهُ إِلَى صُورِ ذَهْنِيَّةٍ كَثِيرَةٍ هِيَ الَّتِي عَدَّاهَا الرُّضِيُّ فِي شَرْحِهِ ، وَهِيَ تُؤْمِي إِلَى  
صُورٍ أُخْرَى مِنْ وَرَائِهَا ، فَتَنْزَعُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ، وَضَرَبَ الْحِجَابَ اللَّغُويَّ عَلَى  
هَذِهِ الْمَعَانِي السَّافِرَةِ ... وَجَاءَ بِكَلِمَةِ « الْعِظَامِ » لِأَنَّهَا اللَّفْظَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الْمُبْرَأَةُ مِنْ كُلِّ  
نَزْعَةٍ ، لَا تَقْبَلُ أَنْ تَلْتَوِي ، وَلَا تُثَبِّرَ مَعْنَى ، وَلَا تَحْمِلُ غَرَضًا ، إِذْ تَكُونُ فِي الْحَيِّ  
وَالْمَيِّتِ ، بَلْ هِيَ بِهَذَا أَحْصَى ؛ وَفِي الْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ ، بَلْ هِيَ هُنَا أَلِيقٌ ؛ وَفِي الشَّبَابِ  
وَالْهَرَمِ ، بَلْ هِيَ فِي هَذَا أَوْضَحُ . وَالْأَعْضَاءُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْعِظَامِ ، فَالْمَجَازُ عَلَى  
مَا تَرَى ، وَالْحَقِيقَةُ هِيَ مَا عَلِمْتَ .

وَمِنْ كَلِمَاتِهِ فِي الْوُضُفِ الطَّبِيعِيِّ قَوْلُهُ ﷺ وَهُوَ يَذْكُرُ أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ : « الْعَصْرُ إِذَا كَانَ  
ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ ، وَكَذَلِكَ مَا دَامَتِ الشَّمْسُ حَيَّةً ؛ وَالْعِشَاءُ إِذَا غَابَ الشَّفَقُ إِلَى أَنْ



تَمْضِي كَوَاهِلُ اللَّيْلِ « وَكَوَاهِلُ اللَّيْلِ : أَوَائِلُهُ وَفُرُوعُهُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنْهُ . كَالَّذِي يَتَقَدَّمُ الْمَطَايَا مِنْ أَغْنَائِهَا الْمُتَمَتِّدَةِ بَعْضُ الْأَمْتِدَادِ .

وَقَوْلُهُ وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ : مَتَى يُصَلِّي الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِذَا مَلَأَ اللَّيْلُ بَطْنَ كُلِّ وَادٍ » . [مسند أحمد ، رقم : ٢٢٥٨٥] .

وَقَوْلُهُ : « إِذَا طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَأَخْرُجُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَرْتَفِعَ » . [البخاري ، رقم : ٥٨٣ ؛ مسلم ، رقم : ٨٢٨] .

وَقَوْلُهُ : « إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَسْتَ فِيْمَا شِئْتَ ؟ قَالَ : بَلَى ! وَلَكِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَرْزَعَ ؛ قَالَ : فَبَدَرَ فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتَوَاوُهُ وَاسْتَحْصَادُهُ فَكَانَ أَمَثَالَ الْجِبَالِ » . [البخاري ، رقم : ٣٣٤٨ ، ٧٥١٩ ؛ مسند أحمد ، رقم : ١٠٢٦٤] .

وَقَوْلُهُ : « بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاسْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَتَرَلَّ يَثْرًا ، فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ ، فَإِذَا بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي ! فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ فَسَقَى الْكَلْبَ ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ! فَغَفَرَ لَهُ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ قَالَ : « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » . [البخاري ، رقم : ٣٣٣٣ ؛ مسلم ، رقم : ٢٢٤٤ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٥٥٠ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٨٦٥٧ ، ١٠٣٢١ ، ١٠٣٧٣ ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ١٧٢٩] .

فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنَ الْفَنِّ الْبَدِيعِ الْكَادِرِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ ﷺ إِلَّا فِي مِثْلِ مَا رَأَيْتَ ، فَلَا يُرَادُ مِنْهُ اسْتِجْلَابُ الْعِبَارَةِ ، وَلَا صِنَاعَةُ الْخَيَالِ ، فَيُظَلُّ مَنْ لَا يُمَيِّزُ وَلَا يُحَقِّقُ أَنَّ خُلُوعَ الْبَلَاغَةِ الْكَبِيرَةِ مِنْ فَنِّ وَصْفِ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ ، دَلِيلٌ عَلَى مَا يُنْكِرُهُ أَوْ يُسْتَجْفِيهِ ، وَيَقُولُ : بَدَاوَةٌ وَسَدَاجَةٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا تُشَبِّهُهُ الْعَفْلَةُ عَلَى جَهْلَةِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ مَنْ ضَعِافُ أَدْبَائِنَا وَجَهْلَةُ<sup>(١)</sup> كِتَابِنَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَفَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِانْتِفَاءِ الشَّعْرِ عَنْهُ وَكَوْنِهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ - كَمَا بَسَطْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ<sup>(٢)</sup> - فَعَمَلُهُ أَنْ يَهْدِيَ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا أَنْ

(١) فِي مُعْظَمِ الطَّبَعَاتِ : « جُلَّةٌ » بَدَلًا مِنْ : « جَهْلَةٌ »

(٢) كِتَابِنَا « إِعْجَازُ الْقُرْآنِ » .

يُزَيِّنَ لَهَا ، وَأَنْ يَدُلَّهَا عَلَى مَا يَجِبُ فِي الْعَمَلِ ، لَا مَا يَخْسُنُ فِي صِنَاعَةِ الْكَلَامِ ؛ وَأَنْ يَهْدِيَهَا إِلَى مَا تَفْعَلُهُ لِتَسْمُو بِهِ ، لَا إِلَى مَا تَخَيَّلُهُ لِتَلْهُو بِهِ . وَالْخَيَالُ هُوَ الشَّيْءُ الْحَقِيقِيُّ عِنْدَ النَّفْسِ فِي سَاعَةِ الْأَنْفِعَالِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ فَقَطْ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ أَبَدًا حَقِيقَةً ثَابِتَةً ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَذِبًا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

ثُمَّ هُوَ ﷺ لَيْسَ كَعَبْرَةٍ مِنْ بُلْغَاءِ النَّاسِ : يَتَّصِلُ بِالطَّبِيعَةِ لِتَسْتَمْلِي مِنْهَا ؛ بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمُصْدَرِهَا الْأَزَلِيِّ لِئُمْلِي فِيهَا ؛ وَقَدْ كَانَتْ آخِرُ انْتِسَامَةٍ لَهُ فِي الدُّنْيَا انْتِسَامَتُهُ لِلصَّلَاةِ<sup>(١)</sup> يَهْلُلُ لَطَهَارَةَ النَّفْسِ الْمُؤَمَّنَةِ وَجَمَالَهَا قَائِمَةً بَيْنَ يَدَيْ خَالِفِهَا ، مُنْسَكِبًا فِي طَهَارَتِهَا رُوحَ الثُّورِ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَبْدُو الْكَوْنُ فِي عَيْنِهِ عَلَى مَا يَرَى مِمَّا يُشَبِّهُ مَا فِي نَفْسِهِ ، فَكُلُّ مَا رَأَى الْمُصَلِّي الْخَاشِعُ فِي صَلَاتِهِ<sup>(٢)</sup> يَبْدُو لَهُ كَأَنَّهُ يُصَلِّي فِي ضَرْبٍ مِنَ الْعِبَادَةِ عَلَى نَحْوِ مِنَ الدِّينِ ، وَكُلُّ مَا رَأَى السَّكَرَانُ فِي سُكْرِهِ يَكَادُ يَرَاهُ مُتَخَبِّطًا يُعْرِبِدُ مَا يَمَسَّاسُ !

ثُمَّ إِنَّ الْكَلَامَ فِي وَصْفِ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَسَالِيبِ الْبَيِّنَاتِ ، إِنَّمَا هُوَ بَابٌ مِنَ الْأَخْلَامِ ، إِذْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ عَيْنِي شَاعِرٍ ، أَوْ نَظْرَةِ شَاعِرٍ ، وَهَذَا نَبِيٌّ يُوحِي إِلَيْهِ ، فَلَا مَوْضِعَ لِلْخَيَالِ فِي أَمْرِهِ ، إِلَّا مَا كَانَ تَمَثُّلًا يُرَادُ بِهِ تَقْوِيَةُ الشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ بِحَقِيقَتِهِ مَا فِي بَعْضِ مَا يَعْزِضُ مِنْ بَابِ الْإِرْشَادِ وَالْمَوْعِظَةِ ، كَمَا مَرَّ بِكَ مِنْ أَمَثِلَتِهِ ، وَكَقَوْلِهِ ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ! » [البخاري ، رقم : ٦٣٠٨] وَهَذَا كَلَامٌ أَبْلَغُ مَا أَنْتَ وَاجِدٌ مِنْ تَفْسِيرِهِ تِلْكَ النَّفْسُ الْمُؤَمَّنَةُ بِإِحْسَاسِهَا الرِّفْقِ ، كَأَنَّهُ حَاسَةً مِنَ الثُّورِ كُبِتَ فِي شُعُورِهَا ، وَتِلْكَ النَّفْسُ الْفَاجِرَةُ بِإِحْسَاسِهَا الْغَلِيظِ كَأَنَّهُ ، حَاسَةً مِنَ التُّرَابِ ...

(١) عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي بِهِمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ نَظَرُوا إِلَيْهَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّهُ وَجْهُهُ وَرَقَةٌ مُصْحَفٍ ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ ، فَكَصَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَيْنَيْهِ لِيَصِلَ الْبَصَرُ ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ : أَنْ أَتَيْنَا صَلَاتَكُمْ ، وَأَرْخَى السُّتْرَ ، فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ . [البخاري ، رقم : ٦٨٠ ؛ مسلم ، رقم : ١١٦٧] .

(٢) مِنَ الْكَلِمَاتِ الْجَبِيلَةِ الدَّقِيقَةِ فِي نَحْوِ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « لَا تَرَالُونَ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظَرْتُمُ الصَّلَاةَ ! » . [البخاري ، رقم : ٦٠٠ ؛ مسلم ، رقم : ٦٤٠] .

وَيَكَادُ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَسْمَعُ هَذَا الْوَصْفَ يُذَكِّرُهُ ذُنُوبَهُ - أَنْ يُحْسِنَ بِحَرَكَهَ جَبَلٍ يَهُمُّ أَنْ يَنْفَلِحَ فَيَمِيلَ عَلَيْهِ ، أَمَّا الْفَاجِرُ فَيَسْمَعُهُ يُذَكِّرُهُ ذُنُوبَهُ فَإِذَا هِيَ فِي خَيَالِهِ نُقْطَ سُودٍ تَمُرُّ مَرُورَ الدُّبَابِ ، لَيْسَ مِنْهُ إِلَّا الْحِسُّ بِهِ ، كَمَا يُحْسِنُ مَنْ يُضْرَبُ عَلَى أَنْفِهِ بِرَجُلٍ ذُبَابِيَةٍ ... وَجَعَلَ الدُّبَابُ يَمُرُّ عَلَى أَنْفِهِ دُونَ عَيْنِهِ أَوْ فَمِهِ ، وَذَلِكَ مُنْتَهَى الْجَمَالِ فِي التَّصْوِيرِ ، لِأَنَّ الدُّبَابَ إِذَا وَقَعَ عَلَى الْفَمِ أَوْ الْعَيْنِ ثَبَتَ وَالْخ ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَى قَصَبَةِ الْأَنْفِ لَمْ يَكُذِّ يَفُتْ وَمَرَّ مَرُورَهُ .

الْكُونُ فِي نَظَرِ النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الْحِكْمَةِ لَا آيَةُ الْقُرْ ، وَمَنْظَرُ الْمُسْتَنِينَ لَا مَنْظَرُ الْمُتَخَيَّلِ ، وَمَادَّةُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ لَا مَادَّةُ التَّأَلُّهِ لِلْإِنْسَانِ ، وَبِذَلِكَ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ أَشْيَاءَ وَكَرِهَ أَشْيَاءَ لَا يَكُونُ الْقُرْ بِغَيْرِهَا قُتًا ، فِي ضُرُوبٍ مِنَ الشَّعْرِ وَالتَّصْوِيرِ وَالمُوسِيقِيِّ وَالْحُبِّ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْظُرُ لِلْإِنْسَانِ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، وَحَاضِرًا وَآتِيًا ، وَوَاجِبًا وَمَنْفَعَةً ، وَلَذَلِكَ وَالْمَا ؛ وَهَذِهِ كُلُّهَا لَا إِطْلَاقَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْقَيْدِ ، عَلَى حِينٍ أَنَّ الْقُرْ لَا قَيْدَ فِيهِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْإِطْلَاقِ ، وَأَسَاسُ الَّذِينَ حَظَّ الْجَمَاعَةِ وَفِيُودُهَا ، وَأَسَاسُ الْفَنِّ حَظُّ الْفَرْدِ وَحُرِّيَّتُهُ ، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ لَا تَبْدُو فِي حَالَةِ تَرْكِيبٍ وَانْتِظَامٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لِلْكُلِّ ، فَإِذَا كَانَتْ لِفَرْدٍ ظَهَرَتْ فِي هَيْئَةٍ أَنْجِلَالٍ وَانْتِقَاضٍ ، وَأَصْبَحَتْ فِي الْكُونِ كُلِّهِ كَأَنَّهَا عُمُرُ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ .

ثُمَّ إِنَّ لِلْقُرْ أَلْوَانًا لَا بُدَّ مِنْهَا لِتَصْوِيرِهِ الْجَمِيلِ الَّذِي تَجْعَبُ بِهِ النَّفْسُ ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ اللَّوْنُ الْأَخْمَرُ فِيهَا ... أَيُّ هُوَ أَشَدُّهَا زُهْوًا وَإِشْرَاقًا وَجَمَالًا فِي التَّصْوِيرِ الْفَنِّيِّ لِكُلِّ مَا فِي الْمَرْأَةِ وَالْحُبِّ وَالْجَمَالِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ ، وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّ الْحَيَاةَ الْقَوِيَّةَ حِينَ تُمَارِجُهَا هَذِهِ الْفُنُونُ تَكْسِبُ مَرَحًا وَنَشَاطًا وَيَكُونُ لَهَا رَوْنٌ ، وَفِيهَا مَتَاعٌ ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَكُونُ بِهَا كَذَلِكَ إِلَّا مِنْ أَتْلَهَا تَحْتَسِنِي خَمَرَهَا ... فَلَهَا بَعْدُ مِنْ عَاقِبَةِ هَلِيلِهِ الْفُنُونُ شَبِيهًا بِمَا يَكُونُ لِلْجِسْمِ الْقَوِيِّ مِنْ عَاقِبَةِ الْخَمْرِ إِذَا تَغَلَّغَلَبَ الْخَمْرُ فِي شِعَابِ كَبِدِهِ وَأَحَالَتْ رَطَبَتَهَا بِأَسْتَةٍ ، كَمَا وَقَعَ فِي أَطْوَارِ كَثِيرَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْأُمَمِ ؛ فَلَيْسَ الْإِغْتِيَارُ فِي هَذَا الشَّيْءِ بِمَا يَغْرِضُ مِنْ تَأْثِيرِ السَّاعَةِ الزَّائِلَةِ بِإِفْرَاحِهَا وَفَنِّ حَيَاتِهَا ، بَلِ الشَّأْنُ لِلْعَاقِبَةِ الْمَحْخُومَةِ مَتَى جَاءَتْ سَاعَتُهَا الْبَاقِيَةُ بِأَخْزَانِهَا وَفَنِّ هَلَاكِهَا ، فَالْإِسْلَامُ فِيمَا حَرَّمَ وَكَرِهَ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ أَرَادَ لِلْحَيَاةِ أَنْ تَحْيَا ، لِأَنَّهُ لَا يَقْرَ صُورَةً مِنْ صُورِ أَنْتِحَارِهَا .

وَمَنْ كَانَ أَكْبَرَ عَمَلِهِ إِشْيَاءَ الْحَقَائِقِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَقَرِيرَهَا شَرِيعَةً وَعَاطِفَةً وَأَعْمَالًا ، فَلَا جَزَمَ كَانَ فَتَهُ غَيْرَ الَّذِي أَكْبَرَ عَمَلِهِ تَمْوِينُهُ تِلْكَ الْحَقَائِقِ وَزَخْرَفَتُهَا لِيَقَعَ الْإِحْسَانُ بِهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا ، فَتَخَفَّتْ بِالْوَاقِعِ مِنْهَا عَلَى النَّفْسِ خِيفَةُ الْكَذِبِ عَلَى سَاعَةِ تَصْدِيقِهِ ؛ وَهَذَا هُوَ أَكْبَرَ عَمَلِ الشَّعْرِ .

وَهَلْهَذَا سِرٌّ دَقِيقٌ لَا يَتِمُّ كَلَامُنَا إِلَّا بِشَرْحِهِ ، لِنَقْطَعَ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، فَيُظْهِرُ حَقُّهُ مِنْ بَاطِنِهِ : قُلْنَا إِنَّمَا إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ بُلْغَاءِ النَّاسِ : يَتَّصِلُ بِالطَّبِيعَةِ يَسْتَمْلِكُ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمَصْدَرِهَا الْأَزَلِيِّ لِلْمَلِكِيِّ فِيهَا . وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَغْرِضُ لَهُ مِنْ زَيْغِ النَّفْسِ مَا يَغْرِضُ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ ، فَأَحْكَمَ حُكْمَاءُ الدُّنْيَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَبَيَّنَ جُزْءًا صَغِيرًا مِنَ الْكُونِ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، إِذْ كَانَتْ حَوَاسُّ الْجِسْمِ غَيْرَ مُهَيَّاةٍ لِذَلِكَ ؛ فَفَهْمُ جُزْءٍ مِنَ الْكُونِ فَهْمًا صَادِقًا ، جُزْأً لَا يَتِمُّ إِلَّا بِفَهْمِ الْكُونِ بِأَجْمَعِهِ ، فَهُوَ كُلُّهُ ذَرَّةٌ مُكْتَبِرَةٌ إِلَى مَا لَا يَنْتَهِي وَلَا يُحَدُّ ، وَلَيْسَتْ النُّبُوَّةُ شَيْئًا غَيْرَ الْإِتِّصَالِ بِالسَّرِّ .

وَالْحَاضِرُ الَّذِي يَكُونُ فِي إِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ ، هُوَ حَاضِرٌ لَيْسَ غَيْرُ ، لِأَنَّهُ يَتَحَوَّلُ وَيَفْنَى ، فَهُوَ مِنَ الزَّيْغِ الَّذِي يَغْتَرِي النَّفْسَ ، وَمِنْهُ كُلُّ أَغْرَاضِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ الْفَانِيَةِ ، وَلِهَذَا كَانَ طَائِعُ اللَّهِ عَلَى نَبِيَّتِهِ ﷺ هُوَ تَجَرُّدُهُ مِنَ زَيْغِ الْهَوَىِّ وَسَرَفِ الطَّبِيعَةِ ، فَهُوَ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَهُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ وَلَا يُطِيقُهُ أَحَدٌ ، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ سِيرَتَهُ وَشِمَانِلَهُ وَحَدِيثَهُ أَنْ يَتَحَتَّ دَائِمًا عَنْ طَائِعِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ سَيَرَى حِينَئِذٍ كَأَنَّهُ يَذُرُّهَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ لَا مَعَ النَّاسِ ، وَسَيُظْهِرُ لَهُ مِنْ تَفْسِيرِهَا أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَسْتَطِعْ تَحْقِيقَ غَايَتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةَ الْعُلْيَا إِلَّا فِيهَا ، وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ إِنْسَانًا ، وَكَانَ أَيْضًا حَرَكََةً فِي تَقَدُّمِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَأَنَّ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنَّهُ أَطَاقَ فِي تَارِيخِهِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ الْبَشَرِيَّةُ فِي تَارِيخِهَا وَأَنَّ كُلَّ أُمُورِهِ ﷺ مَوْضُوعَةٌ وَضَعًا إِلَهِيًّا كَأَنَّهَا صِفَاتُ كَوْنِهَا اللَّهُ وَعَلَقَتُهَا فِي التَّارِيخِ لِمَعَانِي الْحَيَاةِ ، تَعْلِيْقُ الشَّمْسِ فِي السَّمَاءِ لِمَوَادِّ الْحَيَاةِ .

إِنَّ الشَّهَوَاتِ وَالْمَصَالِحَ إِنَّمَا هِيَ حَصَرُ النَّفْسِ فِي جَانِبٍ مِنَ الشَّعُورِ مَحْدُودٍ بِلَذَاتٍ وَهُمُومٍ وَأَحَاسِنٍ تَجْعَلُ غَرَضَ الْإِنْسَانِ فِي الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ فَهُوَ كَمَا يَمْلَأُ مَعِدَتَهُ وَيَتَأَنَّقُ فِي الْإِخْتِيَارِ لَهَا ، يُرِيدُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ أَنْ يَمْلَأَ شَخْصَهُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِعَيْنِهَا ، طَرِيقَةِ إِشْبَاعِ

مَعْدَنِهِ ... وَبِهَذَا تَسَخَّرَ مِنْهُ حَقَائِقُ الْكَوْنِ ، لِأَنَّهَا لَا تُحَدُّ بِشَخْصٍ ، وَلَا تَنْحَصِرُ فِي أَحَدٍ ، وَكُلُّ مَنْ كَانَتْ حُدُودُهُ الْإِنْسَانِيَّةَ جِسْمَهُ وَلَذَاتِ جِسْمِهِ ، فَهُوَ فِي مِقْدَارِ هَذَا الْكَوْنِ كَالْمَتِّ الْمَخْدُودِ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا بِقَبْرِهِ وَتُرَابِ قَبْرِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَجِدُ جِسْمَهُ وَأَكَادِيبَ الطَّبِيعَةِ عَلَيْهِ ، وَلَيْكِنَّهُ لَنْ يَجِدَ الرُّوحَ وَحَقَائِقَهَا ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ هَذِهِ فَلَنْ يَعْرِفَ الْكَوْنَ وَأَسْرَارَهُ ؛ وَإِذَا فَقَدْ هَذَا فَهُوَ الْحَاضِرُ الصَّبِيُّ الْمُشَوَّهَ الْمَكْدُوبَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ شَهَوَهُ إِحْسَاسُهُ وَإِنْ كَانَ مَخْدُوعًا ، وَشَهَوَهُ نَظَرُهُ وَإِنْ كَانَ مُلَبَّسًا عَلَيْهِ ، وَشَهَوَهُ خَيَالُهُ ، وَإِنْ كَانَ التَّمَوُّنُ وَالزُّورُ ، وَالْحَاضِرُ الصَّبِيُّ الْمُشَوَّهَ الْمَكْدُوبَ الْخَادِعُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ « بِالْذُّنْيَا » ؛ فَإِذَا اتَّسَعَ الْإِنْسَانُ لِرُوحِهِ وَأَدْرَكَ حَقِيقَتَهَا ، وَوَعَى مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكَوْنِ ، وَأَخَذَ يُحَقِّقُ هَذِهِ الرُّوحَ السَّمَاوِيَّةَ فِي أَعْمَالِهِ ، وَتَخَطَّى حُدُودَ جِسْمِهِ إِلَى فِكْرَةِ الْخُلُودِ ؛ فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ بِـ « الْأَخِرَةِ » فَهُمَا كَلِمَتَانِ فِي مُنْتَهَى الْإِبْدَاعِ مِنَ الْفَنِّ وَالْفَلَسَفَةِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ يُؤَوَّلُ قَوْلُهُ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ : « مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْأَخِرَةَ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ ، وَجَعَلَ غَنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا فُورِقَ اللَّهُ أَمْرُهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ » . [ابن ماجه ، رقم : ٤١٠٥ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢١٠٨٠] .

وَأَنْتَ إِذَا فَسَّرْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ بِمَا وَصَفْنَا لَكَ وَوَجَّهْتَهَا عَلَى ذَلِكَ التَّأْوِيلِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مَعَانِيهَا لَا تَنْقُضِي . وَأَدْرَكْتَ سِرَّ قَوْلِهِ ﷺ : « إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عَلَمِيهِ » [مسند أحمد ، رقم : ٢٠٦١١] فَاتَّسَاعَ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةَ وَمُمَادَّتُهَا لِحَقَائِقِ الْكَوْنِ ، يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ كَالْكَوْنِ نَفْسِهِ ، مُجْتَمِعًا غَيْرَ مُفَرَّقٍ عَلَى هُمُومِ الْحَيَاةِ ؛ وَيَجْعَلُ الْغِنَى مَعْنَى لَا مَادَّةَ ؛ وَلَوْ أَمْتَلَكِ إِنْسَانٌ مِنَ النَّاسِ كُلِّ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَكَانَ لَهُ كَنْزٌ فِي الْمَشْرِقِ وَكَنْزٌ فِي الْمَغْرِبِ ؛ لَمَا بَلَغَ شَيْئًا قَلِيلًا مِنْ لَذَّةِ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَلْبِهِ ؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تُضْبِحُ الدُّنْيَا الْعَرِضَةُ الَّتِي يَهْلِكُ النَّاسُ فِي تَخَصُّلِهَا وَلَيْسَتْ إِلَّا ضَرُورَةً صَغِيرَةً ؛ قَدْ تَكُونُ فِي ثَوْبٍ وَلَقِيَمَاتٍ وَتَحْوِيهَا مِمَّا لَا خَطَرَ لَهُ ، وَهَذَا هُوَ إِزْغَامُهَا وَهِيَ مَالِكَةٌ الْمُلُوكِ ، فَإِذَا ضَاقَ الْإِنْسَانُ عَنْ رُوحِهِ أَضْبَحَتِ النَّفْسُ كَالْمُنْخُلِ يُوضَعُ الدَّقِيقُ النَّاعِمُ فِيهِ لِيُخْرَجَ مِنْهُ فَيَمْسِكُهُ كُلُّهُ وَلَا يُمْسِكُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَوَضَعَ بَيْنَ عَيْنَيْهَا مَعْنَى الْفَقْرِ ، فَهِيَ تَعْمَلُ

أَبَدًا لِمَتَلَيٍّ ، وَلَا تَمْتَلِي أَبَدًا ؛ وَإِذَا كَانَ الْمُنْخُلُ مَتَّخَذًا عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي صُنِعَ بِهَا ، فَقَفَرُهُ وَلَا جَرَمَ مُعَلَّقٍ عَلَيْهِ مِنْ ذَاتِ تَرْكِيبِهِ . « أَفْهَمْتَ ... ؟ » .

وَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ﷻ مُسَاوِقًا مَعَ الْحَقِيقَةِ ، مُتَّصِلًا بِهَا ، مَخْدُودًا بِرَبِّهِ لَا يَنْفُسِهِ ، كَانَ لِذَلِكَ خَارِجًا مِنْ حَاضِرِ مَا نَحْنُ فِيهِ ، مُمْتَدًّا بِمَعْنَاهُ الْإِنْسَانِي الْكَامِلِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي وَرَاءَ الْحَيَاةِ ، فَمَا نَحْصُرُهُ نَحْنُ بِطَبِيعَتِنَا فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ لَا يَلْتَفِتُ هُوَ إِلَيْهِ بِطَبِيعَتِهِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَوْصَافُ الْغِنَى وَالْحَلِيقَةِ وَاللَّعِينِ وَالْمَتَاعِ وَالْجَمَالِ وَالْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ ، وَمَا دَاخَلَ الطَّبِيعَةَ مِنْ مِثْلِ مَعَانِيهَا ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى ، فَهَذَا كُلُّهُ يَرَاهُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالْمَطْمَعِ فِيهِ ؛ إِذْ كَانَ ضَعْفُ إِذْرَاكِهِمْ وَضَيْقُ وَغِيهِمْ مِمَّا يُبْدِعُ لَهُمْ أَكَادِيبَ الْخَيَالِ ، فَتَجِيءُ مِنْ ذَلِكَ أَوْصَافُهُمْ وَتُقَوَّنُ أَوْصَافُهُمْ ، أَمَّا اللَّيْلُ ﷻ فَيَرَى ذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ الْغِنَى عَنْهُ وَالشُّمُوعُ عَلَيْهِ ! إِذْ كَانَ لَا يَنْظُرُ بِطَبِيعَةِ رُوحِهِ الْعَظِيمَةِ إِلَّا أَعْلَى النَّظَرَيْنِ وَأَطْهَرَهُمَا ، فَآخِرُ إِذْرَاكِتِنَا لِلْحَقِيقَةِ وَالطَّبِيعَةِ أَوَّلُ إِذْرَاكِهِ هُوَ لِلطَّبِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ ، وَمَا تَعَجَّرُ عَنْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَبْدَأُ مِنْهُ الْبُيُوتَةُ .

وَعَلَى هَذَا ، فَإِنَّ مِنْ أَقْوَى الْبَرَاهِينِ عَلَى كَمَالِهِ ﷻ وَتُبُوتِهِ وَاتِّسَاعِ رُوحِهِ وَنَفَادِ إِذْرَاكِهِ لِحَقَائِقِ الْكَوْنِ - أَنَّهُ لَمْ يَنْبَسِطْ فِي الْقُتُونِ كَمَا يَصْنَعُ الْبُلْغَاءُ ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَاخِذَهُمْ فِيهَا ؛ إِذْ كَانَتْ كُلُّهَا مِنْ أَكَادِيبِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ وَالْعَيْنِ .

وَفِي قَانُونِ الْحَقِيقَةِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ هِيَ كُلُّ الْأَشْيَاءِ وَهِيَ كَمَا هِيَ ، أَمَّا فِي قَانُونِ الْكَذِبِ فَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا هِيَ مَا تَخْتَارُهُ أَنْتَ مِنْهَا ، وَكَمَا تَخْتَارُهُ .

بِحَسَبِ الدُّنْيَا مِنْ جَمَالِ فَتَنِهِ ﷻ مَا يُضَيِّفُ إِلَى الْحَيَاةِ عَظَمَةَ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ ، وَيَذْفَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي طَرِيقِهَا الْوَاحِدِ الَّذِي هُوَ بَيْنَ الْأَبِ وَالْأُمِّ ، طَرِيقُ الْأَخِ إِلَى أَخِيهِ ، يَكُونُ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ كَمَا هُوَ فِي الدَّمِ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ رَحْمَةً وَمَوَدَّةً ، وَبِحَسَبِنَا مِنْ جَمَالِ هَذَا الْفَنِّ مَا يَهْدِي الْإِنْسَانَ إِلَى حَقِيقَةِ نَفْسِهِ ؛ فَيَقْرَهُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ وُجُودِهِ الْإِنْسَانِي ، وَيَجْعَلُ الْفَضَائِلَ كُلُّهَا تَرْبِيَةً لِلْقَلْبِ ؛ يَكْبُرُ بِهَا ثُمَّ يَكْبُرُ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَكْبُرُ حَتَّى يَتَّسِعَ لِحَقِيقَةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْكُبْرَى : « اللَّهُ أَكْبَرُ » .

### قُرْآنُ الْفَجْرِ (\*) (١)

كُنْتُ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ سِنِّي وَقَدْ جَمَعْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ حِفْظًا وَجَوْدَةً بِأَحْكَامِ الْقِرَاءَةِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ فِي مَدِينَةِ (دَمَنْهَوْر : عَاصِمَةِ الْبُخَيْرَةِ) وَكَانَ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَبِيرَ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ ، وَمِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَغْتَكِفُ كُلَّ سَنَةٍ فِي أَحَدِ الْمَسَاجِدِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ الْأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ؛ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَبْرَحُهُ إِلَّا لَيْلَةً عِنْدَ الْفَطْرِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الصَّوْمِ ؛ فَهَنَّاكَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَعَبَّدُ وَيَتَصَلَّى بِمَعْنَاهُ الْحَقِّ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الزَّائِلِ بِمَعْنَى الْخَالِدِ ، وَيُطِلُّ عَلَى الدُّنْيَا إِطْلَالَ الْوَاقِفِ عَلَى الْأَيَّامِ السَّائِرَةِ ! وَيُغَيِّرُ الْحَيَاةَ فِي عَمَلِهِ وَفِكْرِهِ ، وَيَهْجُرُ تَرَابَ الْأَرْضِ فَلَا يَمْسِسُ عَلَيْهِ ، وَتُرَابُ الْمَعَانِي الْأَرْضِيَّةِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ ، وَيَدْخُلُ فِي الزَّمَنِ الْمُتَجَرَّرِ مِنْ أَكْثَرِ قِيُودِ النَّفْسِ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي الْمَكَانِ الْمَمْلُوءِ لِلْجَمِيعِ بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ ؛ ثُمَّ لَا يَرَى مِنَ النَّاسِ إِلَّا هَذَا النَّوعَ الْمُرْتَبِّبَ الرُّوحَ بِالْوُضُوءِ ، الْمَدْعُوُّ إِلَى دُخُولِ الْمَسْجِدِ بِدَعْوَةِ الْقُوَّةِ السَّامِيَةِ ، الْمُتَحَنِّي فِي رُكُوعِهِ لِيَخْضَعَ لِعَيْنِ الْمَعَانِي الدَّلِيلَةِ ، السَّاجِدِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ لِيَذْرَكَ مَعْنَى الْجَلَالِ الْأَعْظَمِ .

وَمَا هِيَ حِكْمَةُ هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ الَّتِي تُقَامُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ ؟ إِنَّهَا أَمْكِنَةٌ قَائِمَةٌ فِي الْحَيَاةِ ، تُشْعِرُ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ فِي زِيَارَةِ الدُّنْيَا أَنَّهُ فِي إِنْسَانٍ لَا فِي بَهِيمَةٍ . . .

\* \* \*

وَدَهَبَتْ لَيْلَةٌ فَبِتُّ عِنْدَ أَبِي فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَلَمَّا كُنَّا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ أَيْقَظَنِي لِلسَّحُورِ ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَتَوَضَّأْتُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَى قِرَاءَتِهِ ؛ فَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ الْأَعْلَى هَفَفَ بِالْدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ : « اَللّٰهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ؛ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ؛ أَنْتَ بَهَاءُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ؛ أَنْتَ زَيْنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ؛ أَنْتَ قِيَامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ ؛ أَنْتَ الْحَقُّ وَمِنْكَ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨٧ ، ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ فبراير / شباط ١٩٣٧ م ، السنة

الخامسة ، الصفحات : ١٦١ - ١٦٣ .

(١) أَنشأَهَا قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، فَأَعْجَبَ لَهُ بِذِكْرِ أَوْلِيِّهِ وَهُوَ عَلَى أَبْوَابِ آخِرَتِهِ ! سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

الْحَقُّ . . . إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ .

وَأَقْبَلَ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ الْمَسْجِدَ ، فَأَنحَدَرْنَا مِنْ تِلْكَ الْعِلْيَةِ الَّتِي يُسْتَوْنَهَا (الدَّكَّةُ) وَجَلَسْنَا نَنْظُرُ الصَّلَاةَ . وَكَانَتِ الْمَسَاجِدُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ تَضَاءُ بِقَنَادِيلِ الزَّيْتِ ، فِي كُلِّ قَنَادِيلٍ ذُبَابَةٌ يَزْتَعِشُ النُّورُ فِيهَا خَافِتًا ضَبِيلًا يَبِصُ كَأَنَّهُ بَنْصُ مَعَانِي الضَّوِّ لَا الضَّوُّ نَفْسُهُ ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ الْقَنَادِيلُ وَالْظَّلَامُ يَزْتَعِجُ حَوْلَهَا ، تَلُوحُ كَأَنَّهَا شُفُوقٌ مُضِيئَةٌ فِي الْجَوِّ ، فَلَا تَكْشِفُ اللَّيْلَ وَلَكِنْ تَكْشِفُ أَسْرَارَهُ الْجَمِيلَةَ . وَتَبْدُو فِي الظُّلُمَةِ كَأَنَّهَا تَفْسِيرٌ ضَعِيفٌ لِمَعْنَى غَامِضٍ يُؤْمَى إِلَيْهِ وَلَا يُبَيِّنُهُ ، فَمَا تَشْعُرُ النَّفْسُ إِلَّا أَنَّ الْعَيْنَ تَمْتَدُّ فِي ضَوْئِهَا مِنَ الْمَنْظُورِ إِلَى غَيْرِ الْمَنْظُورِ ، كَأَنَّهَا سِرٌّ يَكْشِفُ عَنْ سِرٍّ .

وَكَانَ لَهَا مَنْظَرٌ كَمَنْظَرِ الثُّجُومِ يُمُّ جَمَالَ اللَّيْلِ بِالْقَائِمَةِ الشُّعَلِ فِي أَطْرَافِهِ الْعُلْيَا وَالْبَاسِ الظَّلَامِ زِينَتُهُ الثُّورَانِيَّةُ ؛ فَكَانَ الْجَالِسُ فِي الْمَسْجِدِ وَقْتُ السَّحَرِ يَشْعُرُ بِالْحَيَاةِ كَأَنَّهَا مَخْبُوءَةٌ ، وَيُحِسُّ فِي الْمَكَانِ بَقَايَا أَخْلَامِ ، وَيَسْرِي حَوْلَهُ ذَلِكَ الْمَجْهُولُ الَّذِي سَيَخْرُجُ مِنْهُ الْعَدُوُّ ، وَفِي هَذَا الظَّلَامِ الثُّورَانِيَّ تَكْشِفُ لَهُ أَعْمَاقَهُ مُنْسَكِبًا فِيهَا رُوحَ الْمَسْجِدِ ، فَتَعْتَرِيهِ حَالَةٌ رُوحَانِيَّةٌ يَسْتَكِينُ فِيهَا لِلْقَدَرِ هَادِنًا وَادِعًا رَاجِعًا إِلَى نَفْسِهِ ، مُجْتَمِعًا فِي حَوَاسِهِ ، مَتَفَرِّدًا بِصِفَاتِهِ ، مُنْعَكِسًا عَلَيْهِ نُورُ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ سُلْطَانٍ مَا يُضِيءُ عَلَيْهِ النَّهَارُ ، أَوْ كَأَنَّ تِلْكَ الظُّلُمَةَ قَدْ طَمَسَتْ فِيهِ عَلَى أَلْوَانِ الْأَرْضِ .

ثُمَّ يَشْعُرُ بِالْفَجْرِ فِي ذَلِكَ الْغَبَسِ عِنْدَ اخْتِلَاطِ آخِرِ الظَّلَامِ بِأَوَّلِ الضَّوِّ ، شُعُورًا نَدِيًّا كَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ هَبَطَتْ تَحْمِلُ سَحَابَةً رَقِيقَةً تَمْسُحُ بِهَا عَلَى قَلْبِهِ لِيَتَنَصَّرَ مِنْ يُبْسٍ ، وَيَرِقُّ مِنْ غُلْظَةٍ . وَكَأَنَّمَا جَاوَوْهُ مَعَ الْفَجْرِ لِيَتَاوَلَ النَّهَارُ مِنْ أَيْدِيهِمْ مَبْدُوءًا بِالرَّحْمَةِ ، مُفْتَتَحًا بِالْجَمَالِ ، فَإِذَا كَانَ شَاعِرُ النَّفْسِ التَّقَى فِيهِ النُّورَ السَّمَاوِيَّ بِالنُّورِ الْإِنْسَانِيَّ ، فَإِذَا هُوَ يَتَأَلَّاهُ فِي رُوحِهِ تَحْتَ الْفَجْرِ .

\* \* \*

لَا أَنْسَى أَبَدًا تِلْكَ السَّاعَةَ وَنَحْنُ فِي جَوْ الْمَسْجِدِ ، وَالْقَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ كَالثُّجُومِ فِي مَنَاطِحِهَا مِنَ الْفَلَكَ ، وَتِلْكَ الشُّرُجُ تَزْتَعِشُ فِيهَا أَرْتَعَاشَ خَوَاطِرِ الْحُبِّ ، وَالنَّاسُ جَالِسُونَ ، عَلَيْهِمْ وَقَارُ أَرْوَاحِهِمْ ، وَمِنْ حَوْلِ كُلِّ إِنْسَانٍ هُدُوءٌ قَلْبِهِ ؛ وَقَدْ اسْتَبْهَمَتِ الْأَشْيَاءُ فِي نَظَرِ

الْعَيْنِ لِيَلْبَسَهَا الْإِخْسَاسُ الرُّوحَانِي فِي النَّفْسِ ، فَيَكُونُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ الَّذِي هُوَ مِنْهُ وَمَعْنَاهُ الَّذِي لَيْسَ مِنْهُ ، فَيُخْلَقُ فِيهِ الْجَمَالُ الشَّعْرِيُّ كَمَا يُخْلَقُ لِلنَّظَرِ الْمُتَخَيَّلِ .

لَا أَنْسَى أَبَدًا تِلْكَ السَّاعَةَ وَقَدْ أَنْبَعَثَ فِي جَوْ الْمَسْجِدِ صَوْتُ غِرْدٍ رَحِيمٍ ، يَسُوقُ سُذُقَةَ اللَّيْلِ فِي مِثْلِ رَيْنِ الْجَرَسِ تَحْتَ الْأَفْقِ الْعَالِي وَهُوَ يُرْتَّلُ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ النَّحْلِ :

﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَبِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ ﴾ [١٦] وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿ ١٧ ﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَتَعَسَّرُونَ ﴿ ١٨ ﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿ ١٩ ﴾ [١٦] سورة النحل/ الآيات :

[ ١٢٥ - ١٢٨ ] .

\* \* \*

وَكَانَ هَذَا الْقَارِئُ بِمِلْكِ صَوْتِهِ أَنْتُمْ مَا يَمْلِكُ ذُو الصَّوْتِ الْمُطْرِبِ ، فَكَانَ يَتَصَرَّفُ بِهِ أَحْلَى مِمَّا يَتَصَرَّفُ الْقُمْرِيُّ وَهُوَ يُنَوِّحُ فِي أَنْعَامِهِ ، وَبَلَغَ فِي التَّطَرُّبِ كُلَّ مَبْلَغٍ يَقْدُرُ عَلَيْهِ الْقَادِرُ ، حَتَّى لَا تَفْسُرَ اللَّذَّةُ الْمَوْسِيقِيَّةُ بِأَدْعٍ مِمَّا فَسَّرَهَا هَذَا الصَّوْتُ ، وَمَا كَانَ إِلَّا كَالْبَلْبَلِ هَزْنُهُ الطَّبِيعَةُ بِأَسْلُوبِهَا فِي جَمَالِ الْقَمَرِ ، فَأَهْتَرَّ يُجَاوِبُهَا بِأَسْلُوبِهِ فِي جَمَالِ التَّغْرِيدِ .

كَانَ صَوْتُهُ عَلَى تَرْتِيبٍ عَجِيبٍ فِي نَعْمَاتِهِ ، يَجْمَعُ قُوَّةَ الرِّقَّةِ وَبَيْنَ رِقَّةِ الْقُوَّةِ ، وَيَضْطَرِبُ اضْطِرَابًا رُوحَانِيًّا كَالْحَزْنِ اغْتَرَاهُ الْفَرَحُ عَلَى فَجْأَةٍ ، يَصْبِيحُ الصَّبِيحَةَ تَرَجَّجٌ فِي الْجَوِّ وَفِي النَّفْسِ ، وَتَتَرَدَّدُ فِي الْمَكَانِ وَفِي الْقَلْبِ ، وَيَتَحَوَّلُ بِهَا الْكَلَامُ الْإِلَهِيُّ إِلَى شَيْءٍ حَقِيقِيٍّ ، يَلْبَسُ الرُّوحَ فَيَرْفُضُ عَلَيْهَا بِمِثْلِ التَّدْيِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَفُّ رَفِيقًا ، وَإِذَا هِيَ كَالزُّهْرَةِ الَّتِي مَسَحَهَا الطَّلُّ .

وَسَمِعْنَا الْقُرْآنَ غَضًّا طَرِيًّا كَأَوَّلِ مَا نَزَلَ بِهِ الْوَحْيُ ، فَكَانَ هَذَا الصَّوْتُ الْجَمِيلُ يَدُورُ فِي النَّفْسِ كَأَنَّهُ بَعْضُ السَّرِّ الَّذِي يَدُورُ فِي نِظَامِ الْعَالَمِ ؛ وَكَانَ الْقَلْبُ وَهُوَ يَتَلَقَّى الْآيَاتِ كَقَلْبِ الشَّجَرَةِ يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ وَيَكْسُوها مِنْهُ .

وَأَهْتَرَّ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا تَجَلَّى الْمُتَكَلِّمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كَلَامِهِ ، وَبَدَأَ الْفَجْرُ

كَأَنَّهُ وَقَفَتْ يَسْتَأْذِنُ اللَّهُ أَنْ يُضِيءَ مِنْ هَذَا الثُّورِ !

وَكُنَّا نَسْمَعُ قُرْآنَ الْفَجْرِ وَكَأَنَّمَا مُحِيطٌ الدُّنْيَا الَّتِي فِي الْخَارِجِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَبَطْلٌ بَاطِلُهَا ، فَلَمْ يَبْقَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا الْإِنْسَانِيَّةُ الطَّاهِرَةُ وَمَكَانُ الْعِبَادَةِ ، وَهَذِهِ هِيَ مُعْجِزَةُ الرُّوحِ مَتَى كَانَ الْإِنْسَانُ فِي لَدَةِ رُوحِهِ مُرْتَفِعًا عَلَى طَبِيعَتِهِ الْأَرْضِيَّةِ .

أَمَّا الطِّفْلُ الَّذِي كَانَ فِي يَوْمَيْنِ فَكَأَنَّمَا دُعِيَ بِكُلِّ ذَلِكَ لِيُخْمِلَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ وَيُؤَدِّيَهَا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي يَجِئُ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ؛ فَأَنَا فِي كُلِّ حَالَةٍ أَخْضَعُ لِهَذَا الصَّوْتِ : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [١٦] سورة النحل/ الآية : [١٢٥] ؛ وَأَنَا فِي كُلِّ ضَائِقَةٍ أَخْشَعُ لِهَذَا الصَّوْتِ : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [١٦] سورة النحل/ الآية : [١٢٧] !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## اللُّغَةُ وَالِدِّينُ وَالْعَادَاتُ

بِاعْتِبَارِهَا مِنْ مَقَوِّمَاتِ الْأَسْتِقْلَالِ (\*) (١)

لَيْسَتْ حَقِيقَةُ الْأُمَّةِ فِي هَذَا الظَّاهِرِ الَّذِي يَبْدُو مِنْ شَعْبٍ مُجْتَمِعٍ مَحْكُومٍ بِقَوَائِنِهِ وَأَوْصَاعِهِ ؛ وَلَكِنْ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ هِيَ الْكَائِنُ الرُّوحِيُّ الْمَكْنُونُ فِي الشَّعْبِ ، الْخَالِصُ لَهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ ، الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ فِي تَرْكِيبِهِ ؛ كَعَصْرِ الشَّجَرَةِ : لَا يَرَى عَمَلَهُ وَالشَّجَرَةُ كُلُّهَا هِيَ عَمَلُهُ .

وَهَذَا الْكَائِنُ الرُّوحِيُّ هُوَ الصُّورَةُ الْكُبْرَى لِلنَّسَبِ فِي ذَوِي الْوُشَيْجَةِ مِنَ الْأَفْرَادِ ، يَبْدُو أَنَّهُ يُحَقِّقُ فِي الشَّعْبِ قَرَابَةَ الصِّفَاتِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ : فَيَجْعَلُ لِلْأُمَّةِ شَأْنَ الْأُسْرَةِ ، وَيَخْلُقُ فِي الْوَطَنِ مَعْنَى الدَّارِ ، وَيُوجِدُ فِي الْأَخْتِلَافِ نَزْعَةَ التَّشَابُهِ ، وَيُرْثِدُ الْمُتَعَدِّدَ إِلَى طَبِيعَةِ الْوَحْدَةِ ، وَيُبْدِعُ لِلْأُمَّةِ شَخْصِيَّتَهَا الْمُمَيَّزَةَ ، وَيُوجِبُ لِهَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ بِإِزَاءِ غَيْرِهَا قَانُونَ التَّنَاصُرِ وَالْحِمَايَةِ ، إِذْ يَجْعَلُ الْخَوَاطِرَ مُشْتَرَكَةً ، وَالذِّلَّوَاعِي مُسْتَوِيَةً ، وَالذِّلَّوَاعِ مُتَازَرَةً ، فَتَجْتَمِعُ الْأُمَّةُ كُلُّهَا عَلَى الرَّأْيِ : تَسَانَدُ لَهُ بِقَوَاهَا ، وَيَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا فِيهِ ؛ وَبِهَذَا كُلُّهُ يَكُونُ رُوحُ الْأُمَّةِ قَدْ وَضَعَ فِي كَلِمَةِ الْأُمَّةِ مَعْنَاهَا .

وَالْخُلُقُ الْقَوِي الَّذِي يُنْشِئُهُ لِلْأُمَّةِ كَائِنُهَا الرُّوحِيُّ ، هُوَ الْمَبَادِيءُ الْمُتَنَزَّعَةُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَاللُّغَةِ وَالْعَادَاتِ ، وَهُوَ قَانُونٌ نَافِذٌ يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، إِذْ يَعْمَلُ فِي الْحَيَرِ الْبَاطِنِ مِنْ وَرَاءِ الشُّعُورِ ، مُتَسَلِّطًا عَلَى الْفِكْرِ ، مُصَرِّفًا لِبَوَاعِثِ النَّفْسِ ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَمْلَأُ الْحَيَّ بِنُوعِ حَيَاتِهِ ، وَهُوَ طَائِعُ الزَّمَنِ عَلَى الْأُسْمِ ، وَكَأَنَّهُ عَلَى التَّحْقِيقِ وَضَعَ الْأَجْدَادِ عَلَامَتَهُمُ الْخَاصَّةَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ .

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ١٤٥ ، ٢١ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ١٣ أبريل/نيسان ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٥٦١ - ٥٦٤ .

(١) أَنشَأَهَا لِلْمُسَابَقَةِ الْأَدَبِيَّةِ الْعَامَّةِ فِي عَهْدِ عَلِيِّ مَاهُز بَاشَا سَنَةِ ١٩٣٦ ، وَأَنْظَرُ « فِي الْقَدِّ » مِنْ كِتَابَاتِ « حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ » . سَيِّدُ الْعُرْيَانِ .

أَمَّا اللَّغَةُ ، فَهِيَ صُورَةُ وُجُودِ الْأُمَّةِ بِأَفْكَارِهَا وَمَعَانِيهَا وَحَقَائِقِ نَفْسِهَا ، وَجُودًا مُتَمَيِّزًا قَائِمًا بِخَصَائِصِهِ ، فَهِيَ قَوْمِيَّةُ الْفِكْرِ ، تَتَجَدُّ بِهَا الْأُمَّةُ فِي صُورِ التَّفَكُّيرِ وَأَسَالِيبِ اخْتِذِ الْمَعْنَى مِنَ الْمَادَّةِ . وَالذِّقَّةُ فِي تَرْكِيبِ اللَّغَةِ دَلِيلٌ عَلَى دِقَّةِ أَمْلَكَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَغُمْقُهَا هُوَ غُمْقُ الرُّوحِ وَدَلِيلُ الْحِسِّ عَلَى مِيلِ الْأُمَّةِ إِلَى التَّفَكُّيرِ وَالْبَحْثِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ ، وَكَثْرَةُ مُشْتَقَّاتِهَا بُرْهَانٌ عَلَى نَزْعَةِ الْخُرُوجِ وَطَمَاحِهَا ، فَإِنَّ رُوحَ الْأَسْتِقْبَادِ ضَيِّقٌ لَا يَتَّسِعُ وَدَأْبُهُ ۖ فِي الْمُسْتَعْبِدِينَ ۖ لِرُومِ الْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَاتِ الْقَلِيلَةِ .

وَإِذَا كَانَتِ اللَّغَةُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَكَانَتْ أُمَّتُهَا حَرِيصَةً عَلَيْهَا ، نَاهِضَةً بِهَا ، مُتَّسِعَةً فِيهَا ، مُكْبِرَةً شَأْنَهَا ؛ فَمَا يَأْنِي ذَلِكَ إِلَّا مِنْ رُوحِ التَّسَلُّطِ فِي شَعْبِهَا وَالْمُطَابَقَةِ بَيْنَ طَبِيعَتِهِ وَعَمَلِ طَبِيعَتِهِ ، وَكَوْنِهِ سَيِّدَ أَمْرِهِ ، وَمُحَقِّقُ وُجُودِهِ ، وَمُسْتَعْمِلُ قُوَّتِهِ ، وَالْأَخِذُ بِحَقِّهِ ؛ فَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْهُ التَّرَاضِي وَالْإِهْمَالُ ، وَتَرَكَ اللَّغَةَ الطَّبِيعِيَّةَ الشُّوفِيَّةَ ، وَاصْغَارُ أَمْرِهَا ، وَتَهْوِينُ خَطَرِهَا ، وَإِثْنَارُ غَيْرِهَا بِالْحُبِّ وَالْإِكْبَارِ ؛ فَهَذَا شَعْبٌ خَادِمٌ لَا مَخْدُومٌ ، تَابِعٌ لَا مُتَبَوِّعٌ ، ضَعِيفٌ عَنِ تَكَالُفِ السِّيَادَةِ ، لَا يَطِيقُ أَنْ يَحْمِلَ عَظَمَةَ مِيرَاثِهِ ، مُجْتَرِئٌ يَبْغِضُ حَقَّهُ ، مُكْتَفٍ بِضَرُورَاتِ الْعَيْشِ ، يُوضِعُ لِحُكْمِهِ الْقَانُونَ الَّذِي أَكْثَرُهُ لِلْحِزْمَانِ وَأَقَلُّهُ لِلْفَائِدَةِ الَّتِي هِيَ كَالْحِزْمَانِ .

لَا جَرَمَ كَانَتْ لُغَةُ الْأُمَّةِ هِيَ الْهَدَفُ الْأَوَّلُ لِلْمُسْتَعْمِرِينَ ؛ فَلَنْ يَتَحَوَّلَ الشَّعْبُ أَوَّلَ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا مِنْ لُغَتِهِ ، إِذْ يَكُونُ مَنشَأُ التَّحَوُّلِ مِنْ أَفْكَارِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَأَمَالِهِ ، وَهُوَ إِذَا انْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ لُغَتِهِ انْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ مَاضِيهِ ، وَرَجَعَتْ قَوْمِيَّتُهُ صُورَةً مَحْفُوظَةً فِي التَّارِيخِ ، لَا صُورَةً مُحَقَّقَةً فِي وَجُودِهِ . فَلَيْسَ كَاللُّغَةِ نَسَبٌ لِلْعَاطِفَةِ وَالْفِكْرِ ؛ حَتَّى إِنْ أَبْنَاءُ الْأَبِ الْوَاحِدِ لَوْ اخْتَلَفَتْ أَلْسِنَتُهُمْ فَتَشَأَ مِنْهُمْ نَاشِئٌ عَلَى لُغَةٍ ، وَتَشَأَ الثَّانِي عَلَى أُخْرَى ، وَالثَّلَاثُ عَلَى لُغَةٍ ثَالِثَةٍ ، لَكَانُوا فِي الْعَاطِفَةِ كَأَبْنَاءِ ثَلَاثَةِ آبَاءٍ .

وَمَا ذَلِكَ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذَلِكَ ، وَلَا انْحَطَّتْ إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِدْبَارٍ ؛ وَمِنْ هَذَا يَفْرِضُ الْأَجَنِّيُّ الْمُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ فَرَضًا عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْتَعْمَرَةِ وَيُرْكِبُهُمْ بِهَا ، وَيُشْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيهَا ، وَيَسْتَلْحِفُهُمْ مِنْ نَاحِيَّتِهَا ؛ فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامًا ثَلَاثَةً فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ : أَمَّا الْأَوَّلُ فَحَبْسُ لُغَتِهِمْ فِي لُغَتِهِ سِجْنًا مُؤَبَّدًا ، وَأَمَّا الثَّانِي فَالْحُكْمُ عَلَى مَاضِيهِمْ بِالْقَتْلِ مَخَوًا

وَنَسِيَانًا ؛ وَأَمَّا الثَّالِثُ فَتَقْيِيدُ مُسْتَقْبَلِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ الَّتِي يَصْنَعُهَا ؛ فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لِأَمْرِهِ تَبَعٌ .

وَالَّذِينَ يَتَعَلَّقُونَ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةَ يَنْزِعُونَ إِلَى أَهْلِهَا بِطَبِيعَةِ هَذَا التَّعَلُّقِ ، إِنْ لَمْ تَكُنْ عَصَبِيَّتُهُمْ لِلْغَتِهِمْ قُوَّةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ مِنْ قَبْلِ الدِّينِ أَوْ الْقَوْمِيَّةِ ؛ فَتَرَاهُمْ إِذَا وَهَتَتْ فِيهِمْ هَلِدُهُ الْعَصَبِيَّةُ يَخْجَلُونَ مِنْ قَوْمِيَّتِهِمْ ، وَيَبْرُؤُونَ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَيَنْسَلِخُونَ مِنْ تَارِيخِهِمْ ، وَتَقُومُ بِنَفْسِهِمْ الْكَرَاهَةُ لِلْغَتِهِمْ وَأَدَابِ لُغَتِهِمْ ، وَلِقَوْمِهِمْ وَأَشْيَاءِ قَوْمِهِمْ ؛ فَلَا يَسْتَطِيعُ وَطَنُهُمْ أَنْ يُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَ رُوحِهِ ؛ إِذْ لَا يُوَافِقُ مِنْهُمْ اسْتِجَابَةُ فِي الطَّبِيعَةِ ؛ وَيَتَفَادُونَ بِالْحَبِّ لِعِغْرِهِ ؛ فَيَتَجَاوَزُونَهُ وَهُمْ فِيهِ ، وَيَرْتُونَ دِمَاءَهُمْ مِنْ أَهْلِهِمْ ثُمَّ تَكُونُ الْعَوَاطِفُ فِي هَلِدِهِ الدَّمَاءِ لِلْأَجْنِبِيِّ وَمِنْ ثُمَّ تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ قِيَمَةُ الْأَشْيَاءِ بِمَصْدَرِهَا لَا بِنَفْسِهَا ، وَبِالْخَيَالِ الْمُتَوَهَّمِ فِيهَا لَا بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا ؛ فَيَكُونُ شَيْءُ الْأَجْنِبِيِّ فِي مَذْهَبِهِمْ أَجْمَلَ وَأَتَمَّنْ ، لِأَنَّ إِلَيْهِ الْمَنِيلَ وَفِيهِ الْإِكْبَارُ وَالْإِعْظَامُ ؛ وَقَدْ يَكُونُ الْوَطَنِيُّ مِثْلَهُ أَوْ أَجْمَلَ مِنْهُ بَيِّنٌ أَنَّهُ فَقَدْ أَلْمِلَ ، فَضَعُفَتْ صِلَتُهُ بِالنَّفْسِ ، فَعَادَتْ كُلُّ مُمَرِّاتِهِ { فَضَعُفَتْ } لَا تُمَيِّرُهُ .

وَأَعْجَبَ مَنْ هَذَا فِي أَمْرِهِمْ ، أَنَّ أَشْيَاءَ الْأَجْنِبِيِّ لَا تَحْمِلُ مَعَانِيَهَا السَّاحِرَةَ فِي نَفْسِهِمْ إِلَّا إِذَا بَقِيَتْ حَامِلَةً أَسْمَاءَهَا الْأَجْنِبِيَّةَ ، فَإِنْ سُمِّيَ الْأَجْنِبِيُّ بِلُغَتِهِمْ الْقَوْمِيَّةَ نَقَصَ مَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ وَتَصَاغَرَ وَظَهَرَتْ فِيهِ ذِلَّةٌ ... وَمَا ذَاكَ إِلَّا صِغَرُ نَفْسِهِمْ وَذِلَّتُهَا ، إِذْ لَا يَنْتَحُونَ لِقَوْمِيَّتِهِمْ فَلَا يُلْهِمُهُمُ الْحَرْفُ مِنْ لُغَتِهِمْ مَا يُلْهِمُهُمُ الْحَرْفُ الْأَجْنِبِيُّ .

وَالشَّرْقُ مُبْتَلَى بِهِذِهِ الْعِلَّةِ ، وَمِنْهَا جَاءَتْ مَشَاكِلُهُ أَوْ أَكْثَرُهَا ؛ وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ أُمَّةٌ عَزِيزَةٌ الْجَانِبِ تُقَدِّمُ لُغَةً غَيْرَهَا عَلَى لُغَةِ نَفْسِهَا ، وَبِهَذَا لَا يَعْرِفُونَ لِلْأَشْيَاءِ الْأَجْنِبِيَّةِ مَوْضِعًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُودِ الْأَشْيَاءِ الْوَطَنِيَّةِ ؛ وَلَوْ أَخَذْنَا نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ بِهِذَا ، لَكَانَ هَذَا وَحْدَهُ عِلَاجًا حَاسِمًا لَأَكْثَرِ مَشَاكِلِنَا .

فَاللُّغَاتُ تَتَنَازَعُ الْقَوْمِيَّةَ ، وَلِهِيَ وَاللَّهُ اخْتِلَالٌ عَقْلِيٌّ فِي الشُّعُوبِ الَّتِي ضَعُفَتْ عَصَبِيَّتُهَا ؛ وَإِذَا هَانَتْ اللُّغَةُ الْقَوْمِيَّةُ عَلَى أَهْلِهَا ، أَثَرَتْ اللُّغَةُ الْأَجْنِبِيَّةُ فِي الْخُلُقِ الْقَوْمِيِّ مَا يُؤَثِّرُ الْجَوُّ الْأَجْنِبِيُّ فِي الْجِسْمِ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَيْهِ وَأَقَامَ فِيهِ .

أَمَّا إِذَا قَوِيَّتِ الْعَصَبِيَّةُ ، وَعَزَّتِ اللُّغَةُ ، وَثَارَتْ لَهَا الْحَمِيَّةُ ؛ فَلَنْ تَكُونَ اللُّغَاتُ

الْأَجْنِبِيَّةُ إِلَّا خَادِمَةٌ يُزَنَّقُ بِهَا ، وَيَرْجِعُ شَبْرُ الْأَجْنِبِيِّ شَبْرًا لَا مِثْرًا ... وَتَكُونُ تِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ لِلُّغَةِ الْقَوْمِيَّةِ مَادَّةً وَعَوْنًا لِكُلِّ مَا هُوَ قَوْمِيٌّ فَيُصْبِحُ كُلُّ شَيْءٍ أَجْنِبِيٍّ قَدْ خَضَعَ لِقُوَّةِ قَاهِرَةٍ غَالِبَةٍ ، هِيَ قُوَّةُ الْإِيمَانِ بِالْمَجْدِ الْوَطَنِيِّ وَاسْتِغْلَالِ الْوَطَنِ ؛ وَمَتَى تَعَيَّنَ الْأَوَّلُ أَنَّهُ الْأَوَّلُ ، فَكُلُّ قُوَى الْوُجُودِ لَا تَجْعَلُ الَّذِي بَعْدَهُ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ الثَّانِي .

\* \* \*

وَالَّذِينَ هُوَ حَقِيقَةُ الْخُلُقِ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي الْأُمَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْقُلُوبَ كُلَّهَا طَبَقَةً وَاحِدَةً عَلَى اخْتِلَافِ الْمَظَاهِرِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ عَالِيَةٍ وَنَازِلَةٍ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ بِذَلِكَ الضَّمِيرِ الْقَانُونِيُّ لِلشَّعْبِ ، وَبِهِ لَا يَغْيِرُهُ ثَبَاتُ الْأُمَّةِ عَلَى فُضَائِلِهَا النَّفْسِيَّةِ ، وَفِيهِ لَا فِي سِوَاهُ مَعْنَى إِنْسَانِيَّةِ الْقَلْبِ .

وَلِهَذَا كَانَ الدِّينُ مِنْ أَقْوَى الْوَسَائِلِ الَّتِي يُعَوِّلُ عَلَيْهَا فِي إِيقَاطِ ضَمِيرِ الْأُمَّةِ وَتَنْبِيهِ رُوحِهَا ، وَاهْتِاجِ خَيَالِهَا ؛ إِذْ فِيهِ أَعْظَمُ السُّلْطَةِ الَّتِي لَهَا وَخَدَهَا قُوَّةُ الْعَالِيَةِ عَلَى الْمَادِّيَّاتِ ؛ فَسُلْطَانُ الدِّينِ هُوَ سُلْطَانُ كُلِّ فَرْدٍ عَلَى ذَاتِهِ وَطَبِيعَتِهِ ؛ وَمَتَى قُوَى هَذَا السُّلْطَانِ فِي شَعْبٍ ، كَانَ حِمَاً أَبْيَا ، لَا تُرْغِمُهُ قُوَّةٌ ، وَلَا يَغْنُو لِلْقَهْرِ .

وَلَوْلَا التَّدْيُنُ بِالشَّرِيعَةِ ، لَمَا اسْتَقَامَتِ الطَّاعَةُ لِلْقَانُونِ فِي النَّفْسِ ، وَلَوْلَا الطَّاعَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْقَوَانِينِ ؛ لَمَا انْتَضَمَتْ أُمَّةٌ ؛ فَلَيْسَ عَمَلُ الدِّينِ إِلَّا تَحْدِيدُ مَكَانِ الْحَيِّ فِي فُضَائِلِ الْحَيَاةِ ؛ وَتَعْيِينَ تَبَعَتِهِ فِي حُقُوقِهَا وَوَجِبَاتِهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ نِظَامًا مُسْتَقَرًّا فِيهِ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَدَفَعَ الْإِنْسَانَ بِهِذَا النِّظَامِ نَحْوَ الْأَكْمَلِ ، وَدَائِمًا نَحْوَ الْأَكْمَلِ .

وَكُلُّ أُمَّةٍ ضَعُفَ الدِّينُ فِيهَا اخْتَلَّتْ هِنْدُسَتُهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةُ ، وَمَاجَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، فَإِنَّ مِنْ دَقِيقِ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا الدِّينِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الْغَايَةَ الْأَخِيرَةَ مِنَ الْحَيَاةِ { غَايَةً } فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَذَلِكَ لِتَنْظِيمِ الْغَايَاتِ الْأَرْضِيَّةِ فِي النَّاسِ ، فَلَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؛ فَيَغْنِي الْغَنِيُّ وَهُوَ آمِنٌ ، وَيَفْتَقِرُ الْفَقِيرُ وَهُوَ قَانِعٌ ، وَيَكُونُ ثَوَابُ الْأَعْلَى فِي أَنْ يَتَوَدَّ عَلَى الْأَسْفَلِ بِالْمَبْرَةِ ، وَثَوَابُ الْأَسْفَلِ فِي أَنْ يَصْبِرَ عَلَى تَرْكِ الْأَعْلَى فِي مَنْزِلَتِهِ ؛ ثُمَّ يَنْصَرِفُ الْجَمِيعُ بِفَضَائِلِهِمْ إِلَى تَحْقِيقِ الْغَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي لَا يَكْبُرُ عَلَيْهَا الْكِبِيرُ ، وَلَا يَصْغُرُ عَنْهَا الصَّغِيرُ ؛ وَهِيَ الْحَقُّ ، وَالصَّلَاحُ ، وَالْخَيْرُ ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى .

وَمَا دَامَ عَمَلُ الدِّينِ هُوَ تَكْوِينُ الْخَلْقِ الثَّابِتِ الدَّائِبِ فِي عَمَلِهِ ، الْمُعْتَزِّ بِقُوَّتِهِ ، الْمُطْمَئِنِّ إِلَى صَبْرِهِ ، الْكَافِرِ بِالْإِسْتِعْبَادِ ، الْمُؤْمِنِ بِالْمَوْتِ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ حَوَازَتِهِ ، الْمَجْزِيَّ بِتَسَامِينِهِ وَبَذَلِهِ وَعَظْفِهِ وَإِنَارِهِ وَمُفَادَاتِهِ ، وَالْعَامِلِ فِي مَصْلَحَةِ الْجَمَاعَةِ ، الْمُقَيَّدِ فِي مَنَافِعِهِ بِوَاجِبَاتِهِ نَحْوِ النَّاسِ - مَا دَامَ عَمَلُ الدِّينِ هُوَ تَكْوِينُ هَذَا الْخَلْقِ - فَيَكُونُ الدِّينُ فِي حَقِيقَتِهِ هُوَ جَعْلُ الْحِسِّ بِالشَّرِيعَةِ أَقْوَى مِنَ الْحِسِّ بِالْمَادَّةِ ؛ وَلَعَمْرِي مَا يَجِدُ الْإِسْتِقْلَالَ قُوَّةً هِيَ أَقْوَى لَهُ وَأَرْدُّ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى إِذَا تَقَرَّرَ فِي نَفْسِ الْأُمَّةِ وَأَنْطَبَعَتْ عَلَيْهِ .

وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ وَاجِبُهَا أَنْ تَشْرُفَ وَتَسُوْدَ وَتَعْتَزَّ ، يَكُونُ وَاجِبُ هَذَا الْوَاجِبِ فِيهَا أَلَّا تَسْفُطَ وَلَا تَخْضَعَ وَلَا تَذَلَّ .

وَبَيْنَكَ الْأَصُولُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يُنْشِئُهَا الدِّينُ الصَّحِيحُ الْقَوِيُّ فِي النَّفْسِ ، بَيْنَهَا النَّجَاحُ السِّيَاسِيُّ لِلشَّعْبِ الْمُحَافِظِ عَلَيْهِ الْمُتَنَصِّرِ لَهُ ؛ إِذْ يَكُونُ مِنَ الْإِخْلَالِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي زُعَمَائِهِ وَرَجَالِهِ الثَّبَاتُ عَلَى الثَّرْعَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَالصَّلَابَةُ فِي الْحَقِّ ، وَالْإِيمَانُ بِمَجْدِ الْعَمَلِ ، وَتَغْلِيْبُ ذَلِكَ عَلَى الْأَحْوَالِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي تَعْتَرِضُ ذَا الرِّأْيِ لِتَفْتِيْتَهُ عَنْ رَأْيِهِ وَمَذْهَبِهِ : مِنْ مَالٍ ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مَنْصِبٍ ، أَوْ مُوَافَقَةِ الْهَوَى ، أَوْ خَشْيَةِ الثَّقَمَةِ ، أَوْ خَوْفِ الْوَعِيدِ ، إِلَى غَيْرِهَا مِنْ كُلِّ مَا يَسْتَمِيلُ بِهِ الْبَاطِلُ أَوْ يَزْهَبُ بِهِ الظُّلْمُ .

وَلَا يَذْهَبَنَّ عَنْكَ أَنَّ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ ، الْقَوِيَّ الْإِيمَانِ ، الْمُتَمَلِّئِي ثِقَةً وَبَقِيَّةً وَوَفَاءً وَصِدْقًا وَعَزْمًا وَإِصْرَارًا عَلَى فُضِيلَتِهِ وَثَبَاتًا عَلَى مَا يَلْقَى فِي سَبِيلِهَا - لَا يَكُونُ رَجُلًا كَالنَّاسِ ؛ بَلْ هُوَ رَجُلٌ الْإِسْتِقْلَالِ الَّذِي وَاجِبُهُ جُزْءٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ وَعَاقِبَتُهُ السَّامِيَّةُ لَا تَنْفَصِلُ عَنْهُ ، هُوَ رَجُلٌ صِدْقِ الْمَبْدَأِ ، وَصِدْقِ الْكَلِمَةِ ، وَصِدْقِ الْأَمَلِ ، وَصِدْقِ الثَّرْعَةِ ؛ وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَنْفَجِرُ فِي التَّارِيخِ كُلَّمَا أَحْتَاجَتِ الْحَيَاةُ الْوُطَنِيَّةُ إِلَى إِطْلَاقِ قِتَالِهَا لِلنَّصْرِ .

\* \* \*

وَالْعَادَاتُ هِيَ الْمَاضِي الَّذِي يَعِيشُ فِي الْحَاضِرِ ، وَهِيَ وَحْدَةُ تَارِيخِيَّةٍ فِي الشَّعْبِ ، تَجْمَعُهُ كَمَا يَجْمَعُهُ الْأَصْلُ الْوَاحِدُ ، ثُمَّ هِيَ كَالَّذِينَ فِي قِيَامِهَا عَلَى أَسَاسِ آدِبِيٍّ فِي النَّفْسِ ، وَفِي اسْتِمَالِهَا عَلَى التَّخْرِيمِ وَالتَّخْلِيلِ ، وَتَكَادُ عَادَاتُ الشَّعْبِ تَكُونُ دِينًا ضَمِيمًا خَاصًّا بِهِ ،

يَخْصُرُهُ فِي قَبِيلِهِ وَوَطَنِهِ ، وَيُحَقِّقُ فِي أَفْرَادِهِ الْأَلْفَةَ وَالتَّشَابُكَ ، وَيَأْخُذُهُمْ جَمِيعًا بِمَذْهَبٍ وَاحِدٍ : هُوَ إِجْلَالُ الْمَاضِي .

وَإِجْلَالُ الْمَاضِي فِي شَعْبٍ تَارِيخِيٍّ هُوَ الْوَسِيلَةُ الزُّوجِيَّةُ الَّتِي يَسْتَوْحِي بِهَا الشَّعْبُ أَبْطَالَهُ ، وَفَلَاسِفَتَهُ ، وَعُلَمَاءَهُ ، وَأَدَبَاءَهُ ، وَأَهْلَ الْقَنِّ مِنْهُ ، فَيُؤْخَذُونَ إِلَيْهِ وَخِي عُظَمَائِهِمُ الَّتِي لَمْ يَغْلِبْهَا الْمَوْتُ ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ صُورُهُمُ الْعَظِيمَةُ حَيَّةً فِي تَارِيخِهِ ، وَحَيَّةً فِي أَمَالِهِ وَأَعْصَابِهِ .

وَالْعَادَاتُ هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تَجْعَلُ الْوَطْنَ شَيْئًا نَفْسِيًّا حَقِيقِيًّا ، حَتَّى لَيْسَ لِنَفْسِ الْإِنْسَانِ أَنْ لَارْضَهُ أُمُومَةُ الْأُمِّ الَّتِي وَلَدَتْهُ ، وَلِقَوْمِهِ أُبُوءَةُ الْأَبِ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ يَعْرِفُ هَذَا إِلَّا مَنْ اغْتَرَبَ عَنْ وَطَنِهِ ، وَخَالَطَ غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنْ غَيْرِ عَادَاتِهِ ؛ فَهُنَاكَ ، هُنَاكَ يَثْبُتُ الْوَطْنَ نَفْسَهُ بِعَظْمَةٍ وَجَبْرُوتٍ وَكَأَنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الدُّنْيَا .

وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ النَّاشِئَةُ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمْرِ الْعَادَاتِ هِيَ الَّتِي تُنْبِئُهُ فِي الْوُطَنِيِّ رُوحَ التَّمَيُّزِ عَنِ الْأَجْنَبِيِّ ، وَتُؤْخِشُ نَفْسَهُ مِنْهُ كَأَنَّهُا حَاسَةُ الْأَرْضِ تُنْبِئُهُ أَهْلُهَا وَتُنْذِرُهُمُ الْخَطَرَ .

وَمَتَى صَدَقَتِ الْوُطَنِيَّةُ فِي النَّفْسِ أَقْرَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَجْنَبِيٍّ فِي حَقِيقَتِهِ الْأَجْنَبِيَّةِ ؛ فَكَانَ هَذَا هُوَ أَوَّلُ مَظَاهِيرِ الْإِسْتِقْلَالِ ، وَكَانَ أَقْوَى الدَّرَائِعِ إِلَى الْمَجْدِ الْوُطَنِيِّ .

\* \* \*

وَبِاللَّغَةِ وَالذِّنِّ وَالْعَادَاتِ ، يَنْحَصِرُ الشَّعْبُ فِي ذَاتِهِ السَّامِيَّةِ بِخَصَائِصِهَا وَمُقَوِّمَاتِهَا ، فَلَا يَسْهُلُ انْتِزَاعُهُ مِنْهَا وَلَا انْتِسَافُهُ مِنْ تَارِيخِهِ ، وَإِذَا أُلْجِئَ إِلَى حَالٍ مِنَ الْفَقْرِ لَمْ يَنْخَذِلْ وَلَمْ يَخْضَعْ ، وَاسْتَمَرَّ يَعْمَلُ مَا تَعْمَلُهُ الشُّوْكَةُ الْحَادَّةُ : إِنْ لَمْ تَتْرُكْ لِنَفْسِهَا ، لَمْ تُعْطِ مِنْ نَفْسِهَا إِلَّا الْوَخْرَ .

\* \* \*

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



## تَجْدِيدُ الْإِسْلَامِ (\*) (١)

### رِسَالَةُ الْأَزْهَرِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ (٢)

(الْأَزْهَرُ) هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ لَا يُقَابِلُهَا فِي خَيَالِ الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَّا كَلِمَةُ (الْهَرَمِ) ، وَفِي كِلْتَا اللَّفْظَيْنِ يَكْمُنُ سِرٌّ خَفِيٌّ مِنْ أَسْرَارِ التَّارِيخِ تَجَعَّلْ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ مِيزَانًا عَقْلِيًّا لِلْأُمَّةِ ، يُنْسِي مَادَّةَ اللَّغَةِ فِيهَا ، وَلَا يَبْقِي مِنْهَا إِلَّا مَادَّةُ النَّفْسِ ؛ إِذْ تَكُونُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَغْيِيرًا عَنْ شَيْءٍ ثَابِتٍ ثَبَتَ الْفِكْرَةَ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ ، مُسْتَقَرٌّ فِي الرُّوحِ الْقَوْمِيَّةِ اسْتِقْرَارُهُ فِي الزَّمَنِ ، مُتَجَسِّمٌ مِنْ مَعْنَاهُ كَأَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ أَفْرَدَتْهُ بِمَادَّتِهِ دُونَ مَا يُشَارِكُهُ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ ، فَالْحَجَرُ فِي الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ يَكَادُ يَكُونُ فِي الْعَقْلِ زَمَانًا لَا حَجَرًا ، وَفَنَّا لَا جِسْمًا ؛ وَالْمَكَانُ فِي الْأَزْهَرِ يَنْبَغِي فِيهِ مَعْنَى الْمَكَانِ ، وَيَقْلِبُ إِلَى قُوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ سَاحِرَةٍ تُوْجَدُ فِي الْمَنْظُورِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ .

وَعِنْدِي أَنَّ الْأَزْهَرِ فِي زَمَانِنَا هَذَا يَكَادُ يَكُونُ تَفْسِيرًا جَدِيدًا لِلْحَدِيثِ : « مِصْرُ كَنَانَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » [راجع « المقاصد الحسنة » ، رقم : ١٠٢٩ ؛ و« كشف الخفاء » ، رقم : ٢٣٠٩] فَعَلِمَاؤُهُ الْيَوْمَ أَسْهَمُوا نَافِذَةً مِنْ أَسْهَمِ اللَّهِ يَزِمِي بِهَا مَنْ أَرَادَ دِينَهُ بِالْشَوْءِ ، فَيُمَسِّكُهَا لِلْهَيْبَةِ وَيَزِمِي بِهَا لِلنُّصْرِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَعْنَى أَوَّلَ مَعَانِيهِمْ فِي هَذَا الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الَّذِي أَبْتَلَى بِمِلءِ عَشْرِينَ قَرْنًا مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى الْأَذْيَانِ وَإِهْمَالِهَا وَالْإِلْحَادِ فِيهَا .

أَوَّلُ شَيْءٍ فِي رِسَالَةِ الْأَزْهَرِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ : أَنْ يَكُونَ أَهْلُهُ قُوَّةَ إِلَهِيَّةٍ مُعَدَّةٍ لِلنُّصْرِ ، مُهَيَّأَةً لِلنُّضَالِ ، مُسَدَّدَةً لِلْإِصَابَةِ ، مُقَدَّرَةً فِي طَبِيعَتِهَا أَحْسَنَ تَقْدِيرٍ ؛ تُشْعِرُ النَّاسَ بِالْأَمْنِ إِلَى عَمَلِهَا ، وَتُوْجِحِي إِلَى كُلِّ مَنْ يَرَاهَا الْإِيمَانُ الثَّابِتَ بِمَعْنَاهَا ؛ وَلَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ هَذَا إِلَّا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى طَبِيعَتِهِمُ الصَّحِيحَةِ ، فَلَا يَكُونُ الْعِلْمُ تَحَرُّفًا وَلَا مِهْنَةً وَلَا

(\*) « الرسالة » العدد : ١٤٤ ، ١٤ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٦ أبريل / نيسان ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٥٢٣ - ٥٢٥ .

(١) { أُنْشَأَهَا لِلْمُسَابَقَةِ الْأَدَبِيَّةِ الْعَامَّةِ } .

(٢) لَمْ تَتَكَلَّمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ عَنِ اللَّغَةِ وَالْأَدَبِ وَتَفْصِيلِ عُلُومِ الْأَزْهَرِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَادَّةُ الْأَزْهَرِ لَا رِسَالَتَهُ الْجَدِيدَةَ فِي رَأْيِنَا .

مَكْسَبَةً (١) ، وَلَا يَكُونُ فِي أَوْزَاقِ الْكُتُبِ خَيَالُ (أَوْزَاقِ الْبَنَكَ) . . . بَلْ تَظْهَرُ فِيهِمْ الْعَظَمَةُ الرُّوحَانِيَّةُ أَمْرَةً نَاهِيَةً فِي الْمَادَّةِ ، لَا مَأْمُورَةً مِنْهِيَ بِهَا ؛ وَيَزْنَعُ كُلُّ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ ، فَيَكُونُ مُقَرَّرَ خُلُقِي فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمٌ عِلْمِ الْحَيَاةِ ، لِيَنْبَغَتْ مِنْهُمْ مِغْنَاتِيسُ الثَّبُوتِ يَجْذِبُ الثُّقُوسَ بِهِمْ أَقْوَى مِمَّا تَجْذِبُهَا ضَلَالَاتُ الْعَصْرِ ؛ فَمَا يَخْتَاجُ النَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَنِ إِلَى الْعَالَمِ وَإِنَّ الْكُتُبَ وَالْعُلُومَ لَتَمَلَأَ الدُّنْيَا - وَإِنَّمَا يَخْتَاجُونَ إِلَى ضَمِيرِ الْعَالَمِ .

وَقَدْ عَجَزَتِ الْمَدِينَةُ أَنْ تُوْجَدَ هَذَا الضَّمِيرُ ، مَعَ أَنَّ الْإِسْلَامَ فِي حَقِيقَتِهِ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا قَانُونُ هَذَا الضَّمِيرِ ، إِذْ هُوَ دِينٌ قَائِمٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى صُورَتِهِ وَلَكِنْ إِلَى عَمَلِهِ ؛ فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ الْأَزْهَرُ مِنْ رِسَالَتِهِ ، ضَمَائِرُ أَهْلِهِ .

وَالنَّاسُ خَاضِعُونَ لِلْمَادَّةِ بِقَانُونِ حَيَاتِهِمْ ، وَبِقَانُونِ آخَرٍ هُوَ قَانُونُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ . . . فَهُمْ مِنْ نَمِّ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا بَيْنَهُمُ الْمُسَلِّطَ عَلَى الْمَادَّةِ بِقَانُونِ حَيَاتِهِ ؛ لِيَرَوْا بِأَعْيُنِهِمُ الْقُوَّةَ الدِّينِيَّةَ مَغْلُوبَةً ؛ ثُمَّ لِيَجِدُوا فِي هَذَا الْإِنْسَانِ أَسَاسَ الْقُدُورَةِ وَالْإِحْدَاءِ فَيَصِلُوا مِنْهُ بِقُوَّتَيْنِ : قُوَّةَ التَّعْلِيمِ ، وَقُوَّةَ التَّخْوِيلِ .

{ وَ } هَذَا هُوَ سِرُّ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِ الَّذِي نَفَذَ بِهِ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ وَلَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ بِصُدُّهِ ، إِذْ كَانَ يَنْفُذُ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَفْسَهَا .

\* \* \*

وَمِنْ أَحْصَى وَاجِبَاتِ الْأَزْهَرِ فِي هَذَا الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، أَنْ يَعْمَلَ أَوَّلُ شَيْءٍ لِإِفْرَارِ مَعْنَى الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ فِي الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمُ الْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحُوا مُسْلِمِينَ بِالنَّسَبِ لَا غَيْرِ . . . وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ (٢) .

وَالْحُكُومَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَاجِزَةٌ فِي هَذَا ، بَلْ هِيَ مِنْ أَشْنَابِ هَذَا الشَّرِّ ؛ لِأَنَّ لَهَا وَجُودًا سِيَاسِيًّا وَوُجُودًا مَدَنِيًّا ؛ أَمَّا الْأَزْهَرُ فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَصْلُحُ لِإِتْمَامِ نَقْصِ الْحُكُومَةِ فِي هَذَا أَلْبَابٍ ؛ وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسَعُهُ مَا تَعَجَّرُ عَنْهُ ، وَأَسْبَابُ نَجَاحِهِ مُهَيَّأَةٌ ثَابِتَةٌ إِذْ كَانَ لَهُ

(١) { أَنِّي : اخْتَرَفْتُ الْعِلْمَ لِلتَّكْسِبِ بِهِ كَمَا تَرَاهُ الْيَوْمَ } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْإِسْلَامُ » بَدَلًا مِنْ : « إِسْلَامِهِ » .

بِقُوَّةِ التَّارِيخِ حُكْمَ الرِّعَايَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَكَانَتْ فِيهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بَقِيَّةُ الْوَحْيِ عَلَى الْأَرْضِ ؛ ثُمَّ كَانَ هُوَ صُورَةَ الْمِزَاجِ النَّفْسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الْمَخْصُصِ ؛ بَيَّنَّ أَنَّهُ فَرَطٌ فِي وَاجِبِ هَذِهِ الرِّعَايَةِ ؛ وَقَفَّدَ الْقُوَّةَ الَّتِي كَانَ يَحْكُمُ بِهَا ، وَهِيَ قُوَّةُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّتِي كَانَتْ تَجْعَلُ الرَّجُلَ مِنْ عُلَمَائِهِ كَمَا قُلْنَا مَرَّةً : إِنْسَانًا تَتَخَيَّرُهُ الْمَعَانِي السِّيَاسِيَّةُ تَظْهَرُ فِيهِ بِأَسْلُوبٍ عَمَلِيٍّ ، فَيَكُونُ فِي قَوْمِهِ ضَرْبًا مِنَ التَّزْيِينِ وَالتَّعْلِيمِ بِقَاعِدَةٍ مُنْتَزَعَةٍ مِنْ مِثَالِهَا ، مَشْرُوحَةٍ بِهَذَا الْمِثَالِ نَفْسِهِ .

وَالْعَقِيدَةُ فِي سَوَادِ النَّاسِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَثَلِ الْأَعْلَى هِيَ أَوَّلُ مَغْلُوبٍ فِي قُوَى الْحَيَاةِ .

لَقَدْ اِعْتَادَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَدِيمٍ أَنْ يَجْعَلُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَى عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ ، فَهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ<sup>(١)</sup> ، وَيَتَأَسَّوْنَ بِهِمْ ، وَيَتَمَحَوَّنَهُمْ الطَّاعَةِ ، وَيَتَزَلَّوْنَ عَلَى حُكْمِهِمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ فِي سِيرَتِهِمْ التَّفْسِيرَ لِمَشْكَلَاتِ النَّفْسِ . وَيَعْرِفُونَ بِهِمْ مَعْنَى صِغَرِ الدُّنْيَا وَمَعْنَى كِبَرِ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ ؛ وَكَانَ غِنَى الْعَالَمِ الدِّينِيِّ شَيْئًا غَيْرَ الْمَالِ ، بَلْ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الْمَالِ ؛ إِذْ كَانَ يَجِدُ حَقِيقَةَ الْغِنَى فِي إِجْلَالِ النَّاسِ لِفَقْرِهِ كَأَنَّهُ مُلْكٌ لَا فَقْرٌ ؛ وَكَانَ زُهْدُهُ قُوَّةَ حَاكِمَةٍ فِيهَا الصَّلَاحُ وَالشَّدَّةُ وَالْهَيِّئَةُ وَالسُّمُوُّ وَفِيهَا كُلُّ سُلْطَانٍ الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ ، لِأَنَّ فِيهَا كُلَّ التَّرَعَاتِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ ؛ وَيَكَادُ الزُّهْدُ الصَّحِيحُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْقُوَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ حَقَائِقَ مُؤَثِّرَةً عَامِلَةً فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَغْنِيَانِهِمْ وَفُقَرَانِهِمْ ، لَا حَقَائِقَ مَتْرُوكَةً لِنَفْسِهَا يُوحِشُ النَّاسَ مِنْهَا أَنَّهُمَا مَتْرُوكَةٌ لِنَفْسِهَا .

\* \* \*

وَعُلَمَاءُ الْأَزْهَرِ فِي الْحَقِيقَةِ قَوَائِنُ نَفْسِيَّةٍ نَافِذَةٌ عَلَى الشَّعْبِ ، وَعَمَلُهُمْ أَرْدُّ عَلَى النَّاسِ مِنْ قَوَائِنِ الْحُكُومَةِ ، بَلْ هُمْ النَّصْحِيُّ لِهَذِهِ الْقَوَائِنِ إِذَا جَرَتْ الْأُمُورُ عَلَى عِلَلِهَا وَأَسْبَابِهَا ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَقِّقُوا وَجُودَهُمْ ، وَأَنْ يَتَنَاولُوا الْأُمَّةَ مِنْ نَاحِيَةِ قُلُوبِهَا وَأَرْوَاحِهَا ، وَأَنْ يُعِدُّوا تَلَامِيذَهُمْ فِي الْأَزْهَرِ كَمَا يُعِدُّونَ الْقَوَائِنَ الدَّقِيقَةَ ، لَا طُلَّابًا يَزْتَرِفُونَ بِالْعِلْمِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَيَتَّبِعُونَهُمْ » بَدَلًا مِنْ : « فَهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ »

أَيْنَ صَوْتُ الْأَزْهَرِ وَعَمَلُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَآخِجَةِ بِمَا فِي السَّطْحِ وَمَا فِي الْقَاعِ ... وَأَيْنَ وَخِي هَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي مِثَالُهَا أَنْ تَجْعَلَ النُّبُوَّةَ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَقَعَ فِي الْحَيَاةِ الْعَصْرِيَّةِ لَا خَيْرَ تَارِيخِيَّ فِيهَا ؟

لَقَدْ أَصْبَحَ إِيمَانُ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ عَادَةُ الْإِيمَانِ لَا الْإِيمَانُ نَفْسُهُ ، وَرَجَعَ الْإِسْلَامُ فِي كُتُبِهِ الْفِقْهِيَّةِ وَكَأَنَّهُ أَذْيَانٌ مُخْتَلِفَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ لَا دِينَ وَاحِدَ ، فَرَسَالَةُ الْأَزْهَرِ أَنْ يُجَدِّدَ عَمَلَ النُّبُوَّةِ فِي الشَّعْبِ ، وَأَنْ يُنْقِصَ عَمَلَ التَّارِيخِ فِي الْكُتُبِ ، وَأَنْ يُبْطِلَ عَمَلَ الْوُثْنِيَّةِ فِي الْعَادَاتِ ، وَأَنْ يُعْطِيَ الْأُمَّةَ دِينَهَا الْوَاضِحَ السَّمَحَ الْمُبَسَّرَ ، وَفَاتُونَهَا الْعَمَلِيَّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهَا وَقُوَّتُهَا .

وَلَا وَسِيلَةَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَزْهَرُ جَرِينًا فِي قِيَادَةِ الْحَرَكَةِ الرُّوحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، جَرِينًا فِي عَمَلِهِ لِهَذِهِ الْقِيَادَةِ ، آخِذًا بِأَسْبَابِ هَذَا الْعَمَلِ ، مُلِحًا فِي طَلَبِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، مُصِرًّا عَلَى هَذَا الطَّلَبِ ، وَكُلُّ هَذَا يَكُونُ عَبْرًا إِنْ لَمْ يَكُنْ رِجَالُ الْأَزْهَرِ وَطَلَبُهُ أَمَثَلَةً مِنَ الْأَمَثَلَةِ الْقَوِيَّةِ فِي الدِّينِ وَالْخُلُقِ وَالصَّلَاحِ لِتَبْدَأَ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ فِيهِمْ ، فَإِنَّهَا إِنْ بَدَأَتْ لَا تَقِفُ ؛ وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى حَاجِمٌ بِطَبِيعَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، مُطَاعٌ بِحُكْمِهِ فِيهَا ، مَخْبُوتٌ بِطَاعَتِهَا لَهُ .

وَالْمَادَّةُ الْمُطَهَّرَةُ لِلدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ لَا تَجِدُهَا الْأُمَّةُ إِلَّا فِي الْأَزْهَرِ ، فَعَلَى الْأَزْهَرِ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ فِيهِ تِلْكَ الْمَادَّةَ بِإِظْهَارِ عَمَلِهَا<sup>(١)</sup> لَا بِإِلْصَاقِ الْوَرَقَةِ الْمَكْتُوبِ فِيهَا الْأَسْمُ عَلَى الرُّجَاجَةِ ...

وَمَنْ ثُمَّ يَكُونُ وَاجِبُ الْأَزْهَرِ أَنْ يَطْلُبَ الْإِشْرَافَ عَلَى التَّعْلِيمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْمَدَارِسِ ، وَأَنْ يَدْفَعَ الْحَرَكَةَ الدِّينِيَّةَ دَفْعًا بِوَسَائِلَ مُخْتَلِفَةٍ ، أَوَّلُهَا أَنْ يَحْمِلَ وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ عَلَى إِقَامَةِ فُرْصِ الصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ مَدَارِسِهَا ، مِنْ مَدْرَسَةِ حُرِّيَّةِ الْفِكْرِ ... فَتَازِلَا ؛ وَالْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كُلُّهَا تَشُدُّ رَأْيَ الْأَزْهَرِ فِي هَذَا .

وَإِذَا نَحْنُ اسْتَخَرْنَا التَّفْسِيرَ الْعَمَلِيَّ لِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [١٦ سورة النحل/ الآية : ١٢٥] : دَلَّلْنَا الْآيَةَ بِنَفْسِهَا عَلَى كُلِّ تِلْكَ الْوَسَائِلِ ، فَمَا الْحُكْمَةُ هُنَا إِلَّا السِّيَاسَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ فِي الْعَمَلِ ، وَلَيْسَتْ الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَفِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ الْمُتَأَخَّرَةِ : « بِإِظْهَارِهَا لَهُمْ » .

إِلَّا الطَّرِيقَةَ النَّفْسِيَّةَ فِي الدَّعْوَةِ .

الْعُلَمَاءُ وَرَبَّةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَيْسَ النَّبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا تَارِيخُ شِدَائِدٍ وَمَحَنٍ ، وَمُجَاهِدَةٍ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ ، وَمُرَاعَمَةٍ لِلْوُجُودِ الْفَاسِدِ ، وَمُكَابَدَةٍ لِلضَّحِيحِ لِلْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلْأُمَّةِ ؛ فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ الَّذِي يُورَثُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ لَا الْعِلْمُ وَتَعْلِيمُهُ فَقَطْ .

\* \* \*

وَإِذَا قَامَتْ رِسَالَةُ الْأَزْهَرِ عَلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَأَصْبَحَ وُجُودُهُ هُوَ الْمَعْنَى الْمُنْتَمِةَ لِلْحُكُومَةِ ، الْمُعَاوَنَ لَهَا فِي ضَبْطِ الْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ لِلشَّعْبِ وَحِطَائِطِهَا وَأَمْنِهَا وَرَفَاهَتِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا - اتَّجَهَتْ طَبِيعَتُهُ إِلَى آدَاءِ رِسَالَتِهِ الْكُبْرَى لِلْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَقَّقَ الدَّرَائِعَ إِلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، مِنْ فَتْحِ بَابِ الْأَجْتِهَادِ ، وَتَنْقِيَةِ التَّارِيخِ الْفَقِيهِ ، وَتَهْلِيلِ الرُّوحِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَالشُّمُوءِ بِعَنِ الْمَعَانِي الْكَلَامِيَّةِ الْجَدَلِيَّةِ السَّخِيفَةِ ؛ ثُمَّ اسْتَخْرَاجَ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُكْتَنَةِ فِيهِ ، لِهَذِهِ الْعُصُورِ الْعِلْمِيَّةِ الْأَخِيرَةِ ، وَبَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْقُوَّةُ الَّتِي تُنْسِكُ الْإِسْلَامَ عَلَى سُنَّتِهِ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ ، لَا يُنْكِرُهُ هَذَا وَلَا يُعَيِّرُهُ ذَلِكَ ، وَبَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْأَزْهَرُ قَدْ اسْتَفَاضَ عَلَى الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ بِكُتُبِهِ وَدُعَائِهِ وَمَبْعُوثِيهِ مِنْ حَامِلِي عِلْمِهِ وَرُسُلِ إلهَامِهِ .

أَمَّا تِلْكَ الرِّسَالَةُ الْكُبْرَى ، فَهِيَ بَثُّ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَوْرَبَةِ وَأَمْرِيكَةِ وَالْيَابَانِ ، بِلُغَاتِ الْأُورُوبِيِّينَ وَالْأَمْرِيكِيِّينَ وَالْيَابَانِيِّينَ ، فِي أَلْسِنَةِ أَزْهَرِيَّةٍ مُزَهَّفَةٍ مَضْقُولَةٍ لَهَا بَيَانُ الْأَدَبِ ، وَدَقَّةُ الْعِلْمِ ، وَإِحَاطَةُ الْفَلَسَفَةِ ، وَإِلْهَامُ الشَّعْرِ ، وَبَصِيرَةُ الْحِكْمَةِ ، وَقُدْرَةُ السِّيَاسَةِ ؛ أَلْسِنَةُ أَزْهَرِيَّةٍ لَا يُوْجَدُ أَلَانٍ مِنْهَا لِسَانٌ وَاحِدٌ فِي الْأَزْهَرِ ، وَلَكِنَّهَا لَنْ تُوجَدَ إِلَّا فِي الْأَزْهَرِ ؛ وَلَا قِيَمَةَ لِرِسَالَتِهِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ إِذَا هُوَ لَمْ يُوْجَدْهَا فَتَكُونُ الْمُتَكَلِّمَةُ عَنْهُ ، وَالْحَامِلَةُ لِرِسَالَتِهِ . وَمَا هَذِهِ الْبِعْثَاتُ الَّتِي قَرَّرَ الْأَزْهَرُ ابْتِعَاطَهَا إِلَى أَوْرَبَةِ إِلَّا أَوَّلُ تَارِيخِ تِلْكَ الْأَلْسِنَةِ .

إِنَّ الْوَسِيلَةَ الَّتِي نَشَرَتْ الْإِسْلَامَ مِنْ قَبْلُ لَمْ تَكُنْ أَجْنَحَةَ الْمَلَائِكَةِ ، وَلَا كَانَتْ قُوَّةً مِنْ جَهَنَّمَ ، وَلَا تَزَالُ هِيَ الَّتِي تَنْشُرُهُ ؛ فَلَيْسَ مُسْتَحِيلًا وَلَا مُتَعَدِّرًا أَنْ يَغْزَوْا هَذَا الدِّينَ أَوْرَبَةَ وَأَمْرِيكَةَ وَالْيَابَانَ كَمَا غَزَا الْعَالَمَ الْقَدِيمَ . وَلَمْ يَكُنِ السِّلَاحُ مِنْ قَبْلُ إِلَّا طَرِيقَةُ لِإِبْجَادِ

إِسْلَامٍ<sup>(١)</sup> فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا وُجِدَ تَوَلَّى هُوَ الدَّعْوَةَ لِنَفْسِهِ بِقُوَّةِ الْكَاثُوسِ الطَّبِيعِيِّ الْقَائِمِ عَلَى أَنْ الْأَصْلَحَ هُوَ الْأَبْقَى ، وَأَنْحَارَتْ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ قَانُونُ طَبِيعَتِهَا السَّلِيمَةِ ، وَدِينُ فِطْرَتِهَا الْقَوِيَّةِ ؛ وَقَدْ ظَلَّ الْإِسْلَامُ يَنْشُرُ وَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُهُ إِلَّا التَّاجِرُ ، كَمَا كَانَ يَنْشُرُ وَحَامِلُهُ الْجَنِينُ ؛ فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا تَغْيِيرُ السِّلَاحِ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَجَعْلُهُ سِلَاحًا مِنْ فِلَسَفَةِ الدِّينِ وَأَسْرَارِ حِكْمَتِهِ ؛ فَهَذَا الَّذِي كَمَا قُلْنَا فِي بَعْضِ كَلَامِنَا<sup>(٢)</sup> : أَعْمَالٌ مُفَصَّلَةٌ عَلَى النَّفْسِ أَدَقُّ تَفْصِيلٍ وَأَوْفَاهُ بِمَصْلَحَتِهَا ، فَهُوَ يُعْطِي الْحَيَاةَ فِي كُلِّ عَصْرِ عَقْلَهَا الْعَمَلِيَّ الثَّابِتَ الْمُسْتَقَرَّ تُنْظِمُ بِهِ أَحْوَالَ النَّفْسِ عَلَى مِيزَةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَيَدْعُ لِلْحَيَاةِ عَقْلَهَا الْعَمَلِيَّ الْمُنْجِدَ الْمُتَغَيِّرَ تُنْظِمُ بِهِ أَحْوَالَ الطَّبِيعَةِ عَلَى قَصْدٍ وَهَدًى ؛ وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ فِي أَحْصَ مَعَانِيهِ ، لَا يُغْنِي عَنْهُ فِي ذَلِكَ دِينٌ آخَرُ ، وَلَا يُؤَدِّي تَأْدِيتَهُ فِي هَذِهِ الْحَاجَةِ أَدَبٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا فِلَسَفَةٌ ، كَأَنَّمَا هُوَ تَبَعٌ فِي الْأَرْضِ لِمَعَانِي الثُّورِ ، بِإِزَاءِ الشَّمْسِ نَبْعِ الثُّورِ فِي السَّمَاءِ .

لَيْسَ عَلَى الْأَزْهَرِ إِلَّا أَنْ يُوْجَدَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي تِلْكَ الْأَمَمِ مَا يَسْتَمِرُّ ، ثُمَّ أَلَا سَتَمَرُّ هُوَ يُوْجَدُ مَا يَبْنَى ، وَالْبَيِّنَاتُ يُوْجَدُ مَا يَدُومُ ؛ وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ : « نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنِّي شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ ، قَرُبَ مُبْلَغٍ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ » .

[الترمذي ، رقم : ٢٦٥٧ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٣٣٢] .

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْمُبْلَغَ الَّذِي هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنَ السَّامِعِ لَنْ يَكُونَ فِي التَّارِيخِ بِأَدَقِّ الْمَعْنَى إِلَّا أَوْرَبَةُ وَأَمْرِيكَةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعِلْمِيِّ إِذَا نَحْنُ عَرَفْنَا كَيْفَ تُبْلَغُ .

أَنَا مُسْتَقِرٌّ أَنْ فَيَلْسُوفَ الْإِسْلَامَ الَّذِي سَيَنْشُرُ الدِّينَ عَلَى يَدِهِ فِي أَوْرَبَةِ وَأَمْرِيكَةِ لَنْ يَخْرُجَ إِلَّا مِنَ الْأَزْهَرِ ، وَمَا كَانَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَّا أَوَّلَ التَّلَطُّورِ الْمُتَمَتِّهِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَسَيَكُونُ عَمَلُ فِلَاسَفَةِ الْأَزْهَرِ اسْتِخْرَاجَ قَانُونِ السَّعَادَةِ لِتِلْكَ الْأَمَمِ مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ وَأَعْمَالِهِ ؛ ثُمَّ مُحَاطَةُ الْأَمَمِ بِأَفْكَارِهَا وَعَوَاطِفِهَا ، وَالْإِفْضَاءُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى ضَمِيرِهَا الْأَجْتِمَاعِيِّ ، فَإِنَّ أَوَّلَ الدِّينِ هُنَاكَ أُسْلُوبُهُ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ .

\* \* \*

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْإِسْلَامُ » بَدَلًا مِنْ : « إِسْلَامٌ » .

(٢) { انْظُرْ مَقَالَ « الْإِشْرَاقِ الْإِلَهِيِّ » « وَخِي الْقَلَمِ » } .

هَذِهِ هِيَ رِسَالَةُ الْأَزْهَرِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَتَجِبُ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِوَسَائِلِهَا مِنَ الْآنَ ، وَمِنْ وَسَائِلِهَا أَنْ يُعَالِنَ بِهَا لَتَكُونَ مُوثِقًا عَلَيْهِ ، وَيَحْسُنَ بِالْأَزْهَرِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ كُلُّ مُفَكِّرٍ إِسْلَامِي ذِي إِلهَامٍ أَوْ بَحْثٍ دَقِيقٍ أَوْ إِحَاطَةٍ شَامِلَةٍ ؛ فَتَكُونَ لَهُ أَلْقَابٌ عِلْمِيَّةٌ يَمْنَحُهُمْ إِيَّاهَا وَإِنْ لَمْ يَتَخَرَّجُوا فِيهِ ، ثُمَّ يَسْتَعِينُ بِعَمَلِهِمْ وَإِلْهَامِهِمْ وَأَرَائِهِمْ .

وَبِهَذِهِ الْأَلْقَابِ يَمْتَدُّ الْأَزْهَرُ إِلَى حُدُودِ فِكْرِيَّةٍ بَعِيدَةٍ ، وَيُضَيِّحُ أَوْسَعَ فِي أَثَرِهِ عَلَى الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَيُحَقِّقُ لِنَفْسِهِ الْمَعْنَى الْجَامِعِيَّةَ .

وَفِي تِلْكَ السَّبِيلِ يَجِبُ عَلَى الْأَزْهَرِ أَنْ يَخْتَارَ أَيَّامًا فِي كُلِّ سَنَةٍ يُجْمَعُ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (قِرْشُ الْإِسْلَامِ) ؛ لِتَجِدَ مَادَّةَ التَّفَقُّعِ الْوَاسِعَةِ فِي نَشْرِ دِينِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ وَلَا مُسْلِمَةٌ لَا يَبْسُطُ يَدَهُ ، فَمَا يَخْتَاجُ هَذَا التَّدْبِيرَ لَأَكْثَرِ مِنْ إِقْرَارِهِ وَتَنْظِيمِهِ وَإِعْلَانِهِ فِي الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَوَاسِمِهَا الْكُبْرَى ، وَخَاصَّةً مُوسِمَ الْحَجِّ .

وَهَذَا الْعَمَلُ هُوَ نَفْسُهُ وَسَيْلُهُ مِنْ أَقْوَى الْوَسَائِلِ فِي تَنْبِيهِ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيِّ وَتَحْقِيقِ الْمُعَاوَنَةِ فِي نَشْرِ الدِّينِ وَحَيَاتِهِ ، وَعَسَى أَنْ تَكُونَ لَهُ نَتَائِجُ أَجْتِمَاعِيَّةٌ لَا مَوْضِعَ لِتَفْصِيلِهَا { هُنَا } ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ (قِرْشُ الْإِسْلَامِ) مَادَّةً لِأَعْمَالٍ إِسْلَامِيَّةٍ ذَاتِ بَالٍ ، وَهُوَ عَلَى أَيْ الْأَخْوَالِ صَلَاحٌ رُوحِيَّةٌ تَجْعَلُ الْأَزْهَرَ كَأَنَّهُ مُعْطِيهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَا أَخِيذَهُ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ أَوَّلَ رِسَالَةِ الْأَزْهَرِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ : اهْتِدَاءُ الْأَزْهَرِ إِلَى حَقِيقَةِ مَوْضِعِهِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [ ١١ ] سُورَةُ هُودٍ / آيَةُ : ١٢٠ ] .

### الْأَسَدُ (\*)

جَلَسَ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّوْدْبَارِيُّ الْبَغْدَادِيُّ<sup>(١)</sup> فِي مَجْلِسٍ وَعَظَهُ بِمِصْرٍ بَعْدَ وَفَاةِ شَيْخِهِ أَبِي الْحَسَنِ بُنَانِ الْحَمَالِ الرَّاهِدِ الْوَاسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ<sup>(٢)</sup> ، وَكَانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِعِبَادَتِهِ وَزُهْدِهِ ؛ وَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرَ فِي جَنَازَتِهِ ، فَكَانَ يَوْمُهُ يَوْمًا كَالْبُرْهَانِ مِنَ الْعَالَمِ الْآخِرِ لِأَهْلِ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ مَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا أَفْتَنَعَ أَنَّهُ فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَأَبَاطِيلِهَا كَالْأَعْمَى فِي سُوءٍ تَمَيِّيزِهِ بَيْنَ لَوْنِ التُّرَابِ وَلَوْنِ الدَّفِينِ . إِذْ يَنْظُرُ كُلُّ أَمْرِيٍّ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ مِثْلَ هَذِهِ النَّظَرَةِ ، بِالنَّمْسِ لَا بِالْبَصَرِ ، وَبِالتَّوَهُّمِ لَا بِالتَّحْقِيقِ ، وَعَلَى دَلِيلِ نَفْسِهِ فِي الشَّيْءِ لَا عَلَى دَلِيلِ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ ؛ وَبِالْإِدْرَاكِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ الْإِدْرَاكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، ثُمَّ يَأْتِي الْمَوْتُ فَيَكُونُ كَالْمَاءِ صَبَّ عَلَى الدَّفِينِ وَالتُّرَابِ جَمِيعًا ، فَلَا يَرْتَابُ مُبْصِرٌ وَلَا أَعْمَى ، وَيَنْتَظِلُ مَا هُوَ بَاطِلٌ وَيَحْجُو الَّذِي هُوَ حَقٌّ .

وَتَكَلَّمَ أَبُو عَلِيٍّ فَقَالَ : كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شَيْخِنَا الْجُنَيْدِ<sup>(٣)</sup> فِي بَغْدَادَ ، فَجَاءَهُ كِتَابٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ الْحَسَنِ - شَيْخِ الرَّزِيِّ وَالْجَبَالِ فِي وَفَاتِهِ<sup>(٤)</sup> - يَقُولُ فِيهِ : لَا أَذَاقَكَ اللَّهُ طَعْمَ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَهَا لَمْ تَذُقْ بَعْدَهَا خَيْرًا أَبَدًا ! قَالَ : فَجَعَلْتُ أَفَكَّرُ فِي طَعْمِ النَّفْسِ مَا هُوَ ، وَجَاءَنِي مَا لَمْ أَرِضْهُ مِنَ الرَّأْيِ حَتَّى سَمِعْتُ بِخَبَرِ بُنَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ أَمِيرِ مِصْرَ ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ سَبَبَ قُدُومِي إِلَى هُنَا لِأَرَى الشَّيْخَ وَأَصْحَبَهُ وَأَنْتَفِعَ بِهِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٩٩ ، ١٥ صفر سنة ١٣٥٦ هـ = ٢٦ أبريل / نيسان ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٦٨٥ - ٦٨٨ .

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٢٢ هـ . [وَالْبَعْضُ يَضْبِطُهُ : الرَّوْدْبَارِيُّ ؛ وَنَسَبَتْهُ إِلَى مَوْضِعٍ عِنْدَ طُوسَ ، وَقِيلَ : إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى بَغْدَادَ] .

(٢) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢١٦ هـ .

(٣) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٩٨ هـ .

(٤) كَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٣٠٤ هـ .

وَالْبَلَدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ الصَّحِيحِ وَالنَّفْسِ الْكَامِلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ ،  
هُوَ فِي الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ كِتَابٌ مِنَ الْكُتُبِ الْبَيِّنَةِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ أَهْلِهِ عُلَمَاءَ ؛ وَإِنْ كَانَ  
فِي كُلِّ مَحَلَّةٍ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ ، وَفِي كُلِّ دَارٍ مِنْ دُورِهِ خِزَانَةٌ كُتُبٍ ؛ فَلَا تُغْنِي هَذِهِ الْكُتُبُ عَنْ  
الرَّجَالِ ، فَإِنَّمَا هِيَ صَوَابٌ أَوْ خَطَأٌ يَنْتَهِي إِلَى الْعَقْلِ ، وَلَكِنْ الرَّجُلُ الْكَامِلُ صَوَابٌ يَنْتَهِي إِلَى  
الرُّوحِ ، وَهُوَ فِي تَأْيِيدِهِ عَلَى النَّاسِ أَقْوَى مِنَ الْعِلْمِ ، إِذَا هُوَ تَفْسِيرُ الْحَقَائِقِ فِي الْعَمَلِ الْوَاقِعِ  
وَحَيَاتِهَا عَامِلَةٌ مُرْتَبَةٌ دَاعِيَةٌ إِلَى نَفْسِهَا ، وَلَوْ أَقَامَ النَّاسُ عَشْرَ سِنِينَ يَتَنَظَّرُونَ فِي مَعَانِي  
الْفَضَائِلِ وَوَسَائِلِهَا ، وَوَضَعُوا فِي ذَلِكَ مِثَّةَ كِتَابٍ ، ثُمَّ رَأَوْا رَجُلًا فَاضِلًا بِاصْدَقِ مَعَانِي  
الْفَضِيلَةِ ، وَخَالَطُوهُ وَصَحَّبُوهُ - لَكَانَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ أَكْبَرَ فَائِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمُنَاطَرَةِ وَأَجْدَى عَلَى  
النَّاسِ مِنْهَا وَأَدَلَّ عَلَى الْفَضِيلَةِ مِنْ مِثَّةِ كِتَابٍ وَمِنْ أَلْفِ كِتَابٍ ؛ وَلِهَذَا يُرْسِلُ اللَّهُ النَّبِيَّ مَعَ كُلِّ  
كِتَابٍ مُثَرِّلٌ لِيُعْطِيَ الْكَلِمَةَ قُوَّةً وَجُودَهَا ، وَيُخْرِجَ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ مِنَ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ ،  
وَيُنْشِئَ الْفَضَائِلَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى طَرِيقَةِ النَّسْلِ مِنْ إِنْسَانِيهَا الْكَبِيرِ .

وَمَا مِثْلُ الْكِتَابِ يَتَعَلَّمُ الْمَرْءُ مِنْهُ حَقَائِقَ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ ، إِلَّا كَوَضْعِ الْإِنْسَانِ يَدَهُ  
تَحْتَ إِطْبَاقِ لِيَزْفَعَ جِسْمَهُ عَنِ الْأَرْضِ ؛ فَقَدْ أَنْشَأَ يَعْْمَلُ وَلِكَيْتَ لَنْ يَرْتَفِعَ ، وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ شَرُّ  
النَّاسِ هُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْمُعَلِّمِينَ إِذَا لَمْ تَكُنْ أَخْلَاقُهُمْ دُرُوسًا أُخْرَى تَعْمَلُ عَمَلًا آخَرَ غَيْرَ  
الْكَلَامِ ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَجْلِسُ مَجْلِسُ الْمُعَلِّمِ ثُمَّ تَكُونُ حَوْلَهُ وَذَائِلُهُ تَعْلَمُ تَعْلِيمًا آخَرَ مِنْ  
حَيْثُ يَذَرِي وَلَا يَذَرِي ، وَيَكُونُ كِتَابُ اللَّهِ مَعَ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرِ مِنْهُ ، وَكِتَابُ الشَّيْطَانِ مَعَ  
الْإِنْسَانِ الْخَفِيِّ فِيهِ .

\* \* \*

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَقَدِمْتُ إِلَى مِصْرَ لَأَرَى أَبَا الْحَسَنِ وَآخِذَ عَنْهُ وَأَحَقِّقَ مَا سَمِعْتُ مِنْ  
خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طُولُونَ ، فَلَمَّا لَقِيتُهُ لَقِيتُ رَجُلًا مِنْ تَلَامِيذِ شَيْخِنَا الْجَنِيْدِ ، يَلَأُلَا فِيهِ نُورُهُ  
وَيَعْمَلُ فِيهِ سِرُّهُ ، وَهُمَا كَالشَّمْعَةِ ، وَالشَّمْعَةُ فِي الضُّوْءِ وَإِنْ صَغُرَتْ وَاحِدَةً وَإِنْ كَبُرَتْ  
وَاحِدَةً ، وَعَلَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَعْمَلَ وَجُودُهُ فَيَمُنَّ حَوْلَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ ،  
كَأَنَّ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَبَيْنَهُ نَسَبًا شَابِكًا ، فَلَهُ مَعْنَى أُبُوَّةِ الْأَبِ فِي أَبْنَائِهِ : لَا يَرَاهُ مَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ  
إِلَّا أَحْسَنَ أَنَّهُ شَخْصُهُ الْأَكْبَرُ . فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ التَّكْمِلَةُ الْإِنْسَانِيَّةَ لِلنَّاسِ ، وَكَأَنَّهُ

مَخْلُوقٌ خَاصَّةٌ لِابْنَاتِ أَنْ غَيْرَ الْمُسْتَطَاعِ مُسْتَطَاعٌ .

وَمِنْ عَجِيبِ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنَّ الْأَمْرَاضَ الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ بِالْعَدْوَى فَيَمُنَّ قَارِبُهَا أَوْ لَامَسَهَا ،  
وَأَنَّ الْقُوَى الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ كَذَلِكَ بِالْعَدْوَى فَيَمُنَّ أَنْصَلُ بِهَا أَوْ صَاحِبُهَا ، وَلِهَذَا يَخْلُقُ اللَّهُ  
الصَّالِحِينَ وَيَجْعَلُ التَّقْوَى فِيهِمْ إِصَابَةً كِلَاصِيَّةَ الْمَرَضِ تَصْرِفُ عَنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا كَمَا  
يَصْرِفُ الْمَرَضُ عَنْهَا ، وَتُكْسِرُ النَّفْسَ كَمَا يَكْسِرُهَا ذَاكُ ، وَتُقْفِدُ الشَّيْءَ مَا هُوَ بِهِ شَيْءٌ ،  
فَتَتَحَوَّلُ قِيَمَتُهُ ، فَلَا يَكُونُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَهْمِ بَلْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ .

وَإِذَا عَدِمَ النَّاسُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي يُعْجِبُهُمْ بِقُوَّتِهِ الْعَجِيبَةِ ، فَقَلَّمَا يَصْلُحُونَ لِلْقُوَّةِ ؛  
فَكِبَارُ الصَّالِحِينَ وَكِبَارُ الزُّعَمَاءِ وَكِبَارُ الْفُقَرَاءِ وَكِبَارُ الشُّجْعَانِ وَكِبَارُ الْعُلَمَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ - كُلُّ  
هَؤُلَاءِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَكُلُّهُمْ فِي الْحِكْمَةِ كَكِبَارِ الْمَرْضَى .

\* \* \*

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَهَمَمْتُ مَرَّةً أَنْ أَسْأَلَ الشَّيْخَ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طُولُونَ ، فَقَطَعْتَنِي  
هَبِيبُهُ ، فَقُلْتُ : أَخْتَالُ بِسُؤَالِهِ عَنْ كَلِمَةِ شَيْخِ الرَّيِّ : « لَا أَذَاقَكَ اللَّهُ طَعْمَ نَفْسِكَ » ؛ وَبَيْنَمَا  
أُهَمِّي فِي نَفْسِي كَلَامًا أَجْرِي فِيهِ هَذِهِ الْعِبَارَةُ ، جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لِلشَّيْخِ : لِي عَلَى فُلَانٍ مَنَّةٌ  
دِينَارٍ ، وَقَدْ ذَهَبَتِ الْوَيْقَةُ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا الدِّينُ ، وَأَخْشَى أَنْ يُنْكَرَ إِذَا هُوَ عَلِمَ بِضِيَاعِهَا ؛  
فَادْعُ اللَّهَ لِي وَلَهُ أَنْ يُظْفِرَنِي بِدِينِي وَأَنْ يُبَيِّنَهُ عَلَيَّ الْحَقَّ . فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنِّي رَجُلٌ قَدْ كَبُرَتْ  
وَأَنَا أَحِبُّ الْحَلُوى ، فَأَذْهَبُ فَاشْتَرِ رَطْلًا مِنْهَا وَأَتَيْنِي بِهِ حَتَّى أَذْغُو لَكَ !

فَذَهَبَ الرَّجُلُ فَاشْتَرَى الْحَلُوى وَوَضَعَهَا لَهُ الْبَاغِ فِي وَرَقَةٍ فَإِذَا هِيَ الْوَيْقَةُ الضَّائِعَةُ ،  
وَجَاءَ إِلَى الشَّيْخِ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ : خُذِ الْحَلُوى فَأَطْعِمْهَا صَبِيانَكَ لَا أَذَاقَا اللَّهَ طَعْمَ أَنْفُسِنَا  
فِيمَا نَشْتَهِي ! ثُمَّ إِنَّهُ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : لَوْ أَنَّ شَجَرَةَ اشْتَهَتْ غَيْرَ مَا بِهِ صِحَّةٌ وَجُودَهَا وَكَمَالُ  
مَنْفَعَتِهَا فَأَذِيقَتْ طَعْمَ نَفْسِهَا لَأَكَلَتْ نَفْسَهَا وَذَوَتْ .

\* \* \*

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَالْمُعْجَزَاتُ الَّتِي تَخْدُثُ لِلْأَنْبِيَاءِ ، وَالْكَرَامَاتُ الَّتِي تَكُونُ لِلْأَتْقِيَاءِ ،  
وَمَا يَخْرِقُ الْعَادَةَ يَخْرُجُ عَنِ النَّسَقِ - كُلُّ ذَلِكَ كَقَوْلِ الْقُدْرَةِ عَنِ الرَّجُلِ الشَّادِّ : هُوَ هَذَا .

فَلَمْ تَبْقَ بِنِي حَاجَةً إِلَى سُؤَالِ الشَّيْخِ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طُولُونَ ، وَكُنْتُ كَأَنِّي أَرَى بَعِيْنِي رَأْسِي كُلَّ مَا سَمِعْتُ ، بَيِّنَ أَنِّي لَمْ أَنْصَرَفْ حَتَّى لَقَيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الْقَاضِي أَمَّهَدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ ابْنِ قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِي<sup>(١)</sup> ذَلِكَ الَّذِي يُحَدِّثُ بِكُتُبِ أَبِيهِ كُلِّهَا مِنْ حِفْظِهِ وَهِيَ وَاحِدَةٌ وَعَشْرُونَ مُصَنَّفًا فِيهَا الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ ، فَقَالَ لِي : لَعَلَّكَ اسْتَفْتَيْتَ مِنْ خَبَرِ بَنَانٍ مَعَ ابْنِ طُولُونَ . فَمِنْ أَجْلِهِ رَعَمْتُ جَنَّتَ إِلَى مِصْرَ .

قُلْتُ : إِنَّهُ تَوَاضَعَ فَلَمْ يُخْبِرْنِي ، وَهَيْتُهُ فَلَمْ أَسْأَلْهُ .  
قَالَ : تَعَالَ أَحَدُكَ الْحَدِيثَ .

كَانَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ<sup>(٢)</sup> مِنْ جَارِيَةِ تُرْكِيَّةٍ ، وَكَانَ طُولُونَ أَبُوهُ مَمْلُوكًا حَمَلَهُ نُوحُ بْنُ أَسَدٍ عَامِلٌ بِخَارِئٍ إِلَى الْمَأْمُونِ فِيمَا كَانَ مُوظَّفًا عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالرَّقِيقِ وَالْبَرَادِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَوُلِدَ أَحْمَدُ فِي مَنْصِبٍ ذَلِكَ تَسْتَظْهُرُ بِالطُّغْيَانِ ، وَكَانَتْ هَاتَانِ طَبِيعَتُهُ إِلَى آخِرِ عُمْرِهِ ، فَذَهَبَ بِهَيْئَتِهِ مَذْهَبًا بَعِيدًا ، وَنَشَأَ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ عَلَى أَنْ يَتِمَّ هَذَا التَّقْصُصُ وَيَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ أَصْلِهِ ، فَطَلَبَ الْفُرُوسِيَّةَ وَالْعِلْمَ وَالْحَدِيثَ ، وَصَحِبَ الزُّهَادَ وَأَهْلَ الْوَرَعِ ، وَتَمَيَّزَ عَلَى الْأَتْرَاكِ ، وَطَمَحَ إِلَى الْمَعَالِي . وَظَلَّ يَزِمِي بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَكْبُرُ وَلَا يَزَالُ يَكْبُرُ ، كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَطَعَ مِنْ أَصْلِهِ وَيَلْتَحِقَ بِالْأَمْرَاءِ ، فَلَمَّا التَّحَقَّقَ بِهِمْ ظَلَّ يَكْبُرُ لِيَلْحَقَ بِالْمُلُوكِ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نِيَّتُهُ عَلَى مَا يَعْلَمُ اللَّهُ .

قَالَ : كَانَ عَقْلُهُ مِنْ أَثَرِ طَبِيعَتِهِ كَالْعَقْلَيْنِ لِرَجُلَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ ، فَلَهُ يَدٌ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَيَدُهُ الْأُخْرَى مَعَ الشَّيَاطِينِ ، فَهُوَ الَّذِي بَنَى الْمَارِسْتَانَ وَأَتَّفَقَ عَلَيْهِ وَأَقَامَ فِيهِ الْأَطِبَّاءَ . وَشَرَطَ إِذَا جِيءَ بِالْعَلِيلِ أَنْ تُتْرَعَ نِيَابَتُهُ وَتُحْفَظَ عِنْدَ أَمِينِ الْمَارِسْتَانَ ثُمَّ يُبَسَّ نِيَابًا وَيُفَرَّشَ لَهُ وَيُعْدَى عَلَيْهِ وَيُرَاحَ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَعْدِيَةِ وَالْأَطِبَّاءِ حَتَّى يَبْرَأَ . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا قَبْلَ إِعَارَتِهِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَظَرَ فِي الْمَظَالِمِ مِنْ أَمْرَاءِ مِصْرَ ، وَهُوَ صَاحِبُ يَوْمِ الصَّدَقَةِ ، يُخَيَّرُ مِنْ صَدَقَاتِهِ كُلَّمَا كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَمَرَاتِبُهُ لِذَلِكَ فِي كُلِّ أَسْبُوعٍ ثَلَاثَةُ آلَافٍ دِينَارٍ سِوَى مَطَابِحِهِ الَّتِي

(١) تُوفِّيَ سَنَةَ ٣٢٢ هـ .

(٢) كَانَتْ إِعَارَةُ ابْنِ طُولُونَ نَحْوَ ٢٦ سَنَةً ، وَتُوفِّيَ ٢٧٠ هـ .

أَقْبَمْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي دَارِهِ وَغَيْرِهَا ، يُذَبِّحُ فِيهَا الْبَقَرُ وَالْكَبَاشُ وَيُغْرِفُ لِلنَّاسِ ، وَلِكُلِّ مِسْكِينٍ أَرْبَعَةَ أَرْغَمَةٍ يَكُونُ فِي اثْنَتَيْنِ مِنْهَا فَالْوَدَجُ<sup>(١)</sup> وَفِي الْآخَرَيْنِ مِنَ الْقُدُورِ ، وَيَتَأَدَّى : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَخْضُرَ دَارَ الْأَمِيرِ فَلْيَخْضُرْ ! وَتَفْتَحُ الْأَبْوَابُ ، وَيَدْخُلُ النَّاسُ وَهُوَ فِي الْمَجْلِسِ يَنْظُرُ إِلَى الْمَسَاكِينِ وَيَتَأَمَّلُ فَرَحَهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ وَيَخْمَلُونَ ، فَيَسُرُّهُ ذَلِكَ وَيَخْمَدُ اللَّهُ عَلَى نِعْمَتِهِ ؛ وَكَانَ رَاتِبٌ مَطْبُخِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ ؛ وَأَقْتَدَى بِهِ ابْنُهُ خُمَارُويَه ، فَأَنْشَأَ بَعْدَهُ مَطْبَخَ الْعَامَةِ<sup>(٢)</sup> يُنْفِقُ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ شَهْرٍ .

وَقَدْ بَلَغَ مَا أَرْسَلَهُ ابْنُ طُولُونَ إِلَى فُقَرَاءِ بَغْدَادَ وَعُلَمَائِهَا فِي مُدَّةٍ وَلَا يَبْقَى أَلْفِي أَلْفٍ وَمِئَتِي أَلْفَ دِينَارٍ<sup>(٣)</sup> . وَكَانَ كَثِيرَ الثَّلَاوَةِ لِلْفُرَّانِ ، وَقَدْ اتَّخَذَ حُجْرَةً يَقْرُبُهُ فِي الْفَصْرِ وَضَعَ فِيهَا رِجَالًا سَمَاهُمْ بِالْمُكْرَرِينَ ، يَتَعَابَثُونَ اللَّيْلَ نَوْمًا يُكَبِّرُونَ ، وَيُسَبِّحُونَ ، وَيَخْمَدُونَ ، وَيَهْلِلُونَ ، وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ تَطْرِيبًا وَيُنْشِدُونَ قَصَائِدَ الزُّهْدِ ، وَيُؤَدِّثُونَ أَوْقَاتَ الْأَذَانِ ؛ وَهُوَ الَّذِي فَتَحَ أَنْطَاكِيَّةَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِئَتَيْنِ ، ثُمَّ مَضَى إِلَى طَرَسُوسَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ فَتْحَهَا ، فَلَمَّا نَابَهُ أَهْلُهَا وَقَاتَلَهُمْ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَنْهَرَمُوا عَنْهَا ، لِيَبْلُغَ ذَلِكَ طَاعِيَةَ الزُّرُمِ ، فَيَعْلَمَ أَنَّ جُيُوشَ ابْنِ طُولُونَ عَلَى كَثَرَتِهَا وَشِدَّتِهَا لَمْ تَقُمْ لِأَهْلِ طَرَسُوسَ ، فَيَكُونُ بِهِذَا كَأَنَّهُ قَاتَلَهُ وَصَدَّهُ عَنْ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَيَجْعَلَ هَذَا الْخَبَرَ كَالْجَنَاشِ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ !

وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا طَائِشُ السَّيْفِ ، يَجُورُ وَيَغْشَى ، وَقَدْ أُخْصِيَ مِنْ قَتْلِهِمْ صَبْرًا أَوْ مَاتُوا فِي سِجْنِهِ فَكَانُوا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ؛ وَأَمَرَ بِسَجْنِ قَاضِيهِ بَغَّارٍ بِنِ قُتَيْبَةَ فِي حَادِيَةِ مَعْرُوفَةٍ ، وَقَالَ لَهُ : غَرَّكَ قَوْلُ النَّاسِ مَا فِي الدُّنْيَا مِثْلُ بَغَّارٍ ؟ أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ خَرَفْتَ ! ثُمَّ حَبَسَهُ وَقَيَّدَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ جَمِيعَ عَطَايَاهُ مُدَّةً وَلَا يَبْقَى الْقَضَاءُ ، فَكَانَتْ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ . قِيلَ : إِنَّهَا وَجَدَتْ فِي بَيْتِ بَغَّارٍ بِخَنَمِهَا لَمْ يَمْسَسْهَا زُهْدًا وَتَوَرَّعًا .

وَلَمَّا ذَهَبَ شَيْخُكَ أَبُو الْحَسَنِ يُعْتَقُهُ وَيَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ طَاشَ عَقْلُهُ

(١) نَوْعٌ مِنَ الْحَلَوِيِّ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ (الْبَالُوطَةَ) .

(٢) هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي مَطْعَمِ الشُّعْبِ .

(٣) الدِّينَارُ : نِصْفُ جُنْتِهِ مِصْرِيٍّ فَعِدَّةُ ذَلِكَ مِائَتُونَ وَمِئَةُ أَلْفٍ جُنْتِي ، صَدَقَاتُهُ عَلَى بَغْدَادَ وَخَدَهَا رَحِمَهُ اللَّهُ . [وَالدِّينَارُ يُقَادِلُ أَرْبَعَةَ غَرَامَاتٍ مِنَ الذَّهَبِ] .

وَأَمَرَ بِالْقَائِمَةِ إِلَى الْأَسَدِ ، وَهُوَ الْخَبَرُ الَّذِي طَارَ فِي الدُّنْيَا وَبَلَغَكَ فِي بَعْدَادَ . . .

\* \* \*

قَالَ وَكُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَجِيءَ بِالْأَسَدِ مِنْ قَصْرِ ابْنِهِ خُمَارَوَيْهِ ؛ وَكَانَ خُمَارَوَيْهِ هَذَا مَشْغُوفًا بِالصَّيْدِ ، لَا يَكَادُ يَسْمَعُ يَسْبَحَ فِي غِيْضَةٍ أَوْ بَطْنٍ وَإِلَّا قَصَدَهُ وَمَعَهُ رِجَالٌ عَلَيْهِمْ لُبُودٌ ، فَيَدْخُلُونَ إِلَى الْأَسَدِ وَيَتَنَاوَلُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ غَايَةِ عَنَوَةٍ وَهُوَ سَلِيمٌ ، فَيَضَعُونَهُ فِي أَقْفَاصٍ مِنْ خَشَبٍ مُحْكَمَةِ الصَّنْعِ ، يَسَعُ الْوَاحِدُ مِنْهَا السَّبْعَ وَهُوَ قَائِمٌ .

وَكَانَ الْأَسَدُ الَّذِي اخْتَارُوهُ لِلشَّيْخِ أَغْلَظَ مَا عِنْدَهُمْ ، جَسِينًا ، ضَارِبًا ، عَارِمَ الْوَحْشِيَّةِ ، مُتَزَيِّلَ الْعَضَلِ ، شَدِيدَ عَصَبِ الْخَلْقِ ، هَرَّاسًا ، فَرَّاسًا ، أَهَرَّتِ الشَّدْقُ يَلُوحُ شِدْقُهُ مِنْ سَعَتِهِ وَرَوْعَتِهِ كَفَتَحَةِ الْقَبْرِ يُبْنِي أَنَّ جَوْفَهُ مَقْبَرَةٌ ، وَيُظْهَرُ وَجْهُهُ خَارِجًا مِنْ لَبْدَتِهِ ، بِهِمْ أَنْ يَنْقَذَ عَلَى مَنْ يَرَاهُ فَيَأْكُلَهُ ! .

وَأَجْلَسُوا الشَّيْخَ فِي قَاعَةٍ وَأَشْرَفُوا عَلَيْهِ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ فَتَحُوا بَابَ الْفَقَصِ مِنْ أَعْلَاهُ فَجَذَبُوهُ فَأَرْتَفَعَ ؛ وَهَجَّهَجُوا بِالْأَسَدِ يَزْجُرُونَهُ ، فَأَتَلَقَّ يَزْجُرُونَهُ ، وَيَزَارُ رَزِيرًا تَنْشِقُ لَهُ الْأَمْرَازِ ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ الرَّعْدُ وَرَأَاهُ الصَّاعِقَةُ ! .

ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَحْشُ فِي نَفْسِهِ وَأَفْشَعَرَ ، ثُمَّ تَمَطَّى كَالْمَنْجَنِتِ يَفْذِفُ الصَّخْرَةَ ، فَمَا بَقِيَ مِنْ أَجْلِ الشَّيْخِ إِلَّا طَرْفَةٌ عَيْنٍ ؛ وَرَأَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ سَاكِئًا مُطْرِقًا لَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَسَدِ وَلَا يَخْفِلُ بِهِ ، وَمَا مِمَّا إِلَّا مَنْ كَادَ يَنْهَتِكَ حِجَابُ قَلْبِهِ مِنَ الْفَرَعِ وَالرُّغْبِ وَالْإِسْفَاقِ عَلَى الرَّجُلِ .

وَلَمْ يَزْعَنَا إِلَّا ذُهُولُ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِهِ ، فَأَقْعَى عَلَى ذَنْبِهِ ، ثُمَّ لَصَقَ بِالْأَرْضِ هُنَيْهَةً يَفْتَرِشُ ذِرَاعَيْهِ ، ثُمَّ نَهَضَ نَهْضَةً أُخْرَى كَأَنَّهُ غَيْرُ الْأَسَدِ ، فَمَشَى مُتَرْفِقًا ثَقِيلَ الْخَطْوِ تَسْمَعُ لِمَقَاصِلِهِ قَفْقَعَةً مِنْ شِدَّتِهِ وَجَسَامَتِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ وَطَفِقَ يَخْتَكُ بِهِ وَيَلْحَظُهُ وَيَشْمُهُ كَمَا يَصْنَعُ الْكَلْبُ مَعَ صَاحِبِهِ الَّذِي يَأْتِسُ بِهِ ، وَكَأَنَّهُ يُعْلِنُ أَنَّ هَلِهِ لَيْسَتْ مُصَاوَلَةً بَيْنَ الرَّجُلِ النَّقِيِّ وَالْأَسَدِ ، وَلَكِنَّهَا مُبَارَزَةٌ بَيْنَ إِرَادَةِ ابْنِ طُولُونَ وَإِرَادَةِ اللَّهِ ! .

وَضَرَبَتْهُ رُوحُ الشَّيْخِ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَدَمِيِّ عَمَلٌ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِإِزَاءِ لَحْمٍ وَدَمٍ ، فَلَوْ أَكَلَ الضُّوَاءَ وَالْهَوَاءَ وَالْحَجَرَ وَالْحَدِيدَ ، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ وَأَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ هَذَا الرَّجُلَ

الْمُتَمَثِّلَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ لَا يُحْسُ لِبُصُورَةِ الْأَسَدِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا الْفَانِيَّةِ ، وَلَا يَرَى فِيهِ إِلَّا حَيَاةَ خَاصَّةٍ مُسَخَّرَةً لِلْقُوَّةِ الْعَظْمَى الَّتِي هُوَ مُؤْمِنٌ بِهَا وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْهَا ، كَحَيَاةِ الدُّودَةِ وَالْكَلْبَةِ وَمَا دُونَهَا مِنَ الْهَوَامِّ وَالذَّرِّ ! .

وَوَرَدَ الثُّورُ عَلَى هَذَا الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ وَلَكِنَّهُ هُوَ وَالْأَسَدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَكَانَ مُنْذِمًا فِي يَقِينِ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ . [ سورة الطور / الآية : ٤٨ ] .

وَرَأَى الْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللَّهِ ، فَخَافَ مِنْهُ ، وَكَمَا خَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ ذَاتِهِ وَمَعَانِيهَا اللَّائِقَصَةِ ، خَرَجَ الْوَحْشُ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ مَعَانِيهَا الْوَحْشِيَّةِ ؛ فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ خَوْفٌ وَلَا هَمٌّ وَلَا جَزَعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ لَيْسَ فِي الْأَسَدِ فَتْكٌ وَلَا ضَرَاوَةٌ وَلَا جُوعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ .

وَنَسِيَ الشَّيْخُ نَفْسَهُ فَكَأَنَّمَا رَأَاهُ الْأَسَدُ مَيِّتًا وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ (أَنَا) الَّتِي يَأْكُلُهَا ، وَلَوْ أَنَّ خَطَرَةَ مِنْ هَمِّ الدُّنْيَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ اخْتَلَجَتْ فِي نَفْسِهِ خَالِجَةٌ مِنَ الشُّكِّ ، لَفَاحَتْ رَائِحَةُ لَحْمِهِ فِي خِيَاثِهِمِ الْأَسَدِ ، فَتَمَزَّقَ فِي أَنْتَابِهِ وَمَحَالِهِ .

\* \* \*

قَالَ : وَأَنْصَرَفْنَا عَنِ النَّظَرِ فِي السَّبْعِ إِلَى النَّظَرِ فِي وَجْهِ الشَّيْخِ ، فَإِذَا هُوَ سَاهِمٌ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَفَعُوهُ ، وَجَعَلَ كُلُّ مَنَّا يَطُنُّ ظَنًّا فِي تَفَكُّيرِهِ ، فَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّ الْخَوْفَ أَذْهَلُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ وَقَائِلٍ : إِنَّهُ الْأَنْصِرَافُ يَعْقِلُهُ إِلَى الْمَوْتِ ؛ وَتَالِيٌ يَقُولُ : إِنَّهُ سُكُونُ الْفِكْرَةِ لِمَنْعِ الْحَرَكَةِ عَنِ الْجِسْمِ فَلَا يَضْطَرُّ ؛ وَزَعَمَ جَمَاعَةٌ أَنَّ هَلِهِ حَالَةٌ مِنَ الْأَسْتِغْرَاقِ يَسْحَرُ بِهَا الْأَسَدُ ؛ وَأَكْثَرُنَا فِي ذَلِكَ وَتَجَارَيْنَا فِيهِ ، حَتَّى سَأَلَهُ ابْنُ طُولُونَ : مَا الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ وَفِيمَ كُنْتَ تَفَكَّرُ ؟

فَقَالَ الشَّيْخُ : لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي لُعَابِ الْأَسَدِ ، أَهُوَ طَاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ ؟ . . .

## أَمْرَاءُ لِلْبَيْعِ (\*)

قَالَ الشَّيْخُ تاجُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ - الْمُلقَّبُ طَوْبَرُ اللَّيْلِ - أَحَدُ أئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ بِالمَدْرَسَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ<sup>(١)</sup> :

كَانَ شَيْخَنَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو مُجِدِّ الدِّينِ ، أَبُو دَقِيقِ الْعَيْدِ<sup>(٢)</sup> لَا يُخَاطَبُ السُّلْطَانُ إِلَّا بِقَوْلِهِ : ( يَا إِنْسَانُ ) فَمَا يَخْشَاهُ ، وَلَا يَتَعَبَّدُ لَهُ ، وَلَا يَنْحَلُّهُ الْقَابِ الْجَبْرُوتِ وَالْعَظَمَةِ ، وَلَا يُزَيِّنُهُ بِالتَّفَاقِ ، وَلَا يُدَاجِيهِ كَمَا يَصْنَعُ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ ؛ وَكَانَ هَذَا عَجَبًا ؛ غَيْرَ أَنَّ تَمَامَ الْعَجَبِ أَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ يُخَاطَبُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا بِهَذَا اللفظِ عَيْنِهِ ( يَا إِنْسَانُ ) ؛ فَمَا يَغْلُو بِالسُّلْطَانِ وَالْأَمْرَاءِ وَلَا يَنْزِلُ بِالضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَلَا يَرَى أَحْسَنَ مَا فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِلَّا الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ !

ثُمَّ كَانَ لَا يُعْظَمُ فِي الْخِطَابِ إِلَّا أئِمَّةُ الْفُقَهَاءِ ، فَإِذَا خَاطَبَ مِنْهُمْ أَحَدًا قَالَ لَهُ : ( يَا فَقِيهَ ) عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُسَمَّحُ بِهِذَا إِلَّا لِمِثْلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الرُّفْعَةِ<sup>(٣)</sup> ، ثُمَّ يَخْصُصُ عِلَاءَ الدِّينِ أَبِي الْبَلَّاجِيِّ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ : ( يَا إِمَامَ ) ؛ إِذْ كَانَ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي صِنَاعَةِ الْحُجَّةِ ، لَا يَكَادُ يَقْطَعُهُ أَحَدٌ فِي الْمُنَاطَرَةِ وَالْمُبَاحَثَةِ ؛ فَهُوَ كَالْبُرْهَانِ إِجْلَالُهُ إِجْلَالُ الْحَقِّ ، لِأَنَّ فِيهِ الْمَعْنَى وَتَثْبِيتَ الْمَعْنَى .

وَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : يَا سَيِّدِي ! أَرَأَيْكَ تُخَاطَبُ السُّلْطَانُ بِخِطَابِ الْعَامَّةِ ، فَإِنْ عَلَوْتَ قُلْتَ : ( يَا إِنْسَانُ ) ، وَإِنْ نَزَلْتَ قُلْتَ : ( يَا إِنْسَانُ ) ، أَفَلَا يُسْخِطُهُ هَذَا مِنْكَ وَقَدْ تَدْرُقُ حِلَاوَةَ أَلْفَافِ الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ ، وَخَصَّهُ التَّفَاقُ بِكَلِمَاتِ هِيَ ظِلُّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا

(\*) « الرسالة » العدد : ٢٠٠ ، ٢٢ صفر سنة ١٣٥٦ هـ = ٣ مايو / أيار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٧٢٨ - ٧٣١ .

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٧١٧ هـ .

(٢) كَانَتْ وَقَاتُهُ سَنَةَ ٧٠٢ هـ .

(٣) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٧١٠ هـ .

ثُمَّ جَعَلَهُ الْمُلْكُ إِنْسَانًا بِذَاتِهِ فِي وَجُودِ ذَاتِهِ ، حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ غَيْرِهِ كَالْجَبَلِ وَالْخَصَاةِ . يَسْتَوِيَانِ فِي الْعُنْصُرِ وَيَتَبَايَنَانِ فِي الْقَدْرِ ، وَأَقْلَهُ مَهْمَا قَلَّ هُوَ أَكْثَرُهَا مَهْمَا عَظُمَتْ ، وَوُجُودُهُ شَيْءٌ وَوُجُودُهَا شَيْءٌ آخَرُ ؟

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ ، وَقَالَ : يَا وَلَدِي ! أَيْنُ هَذَا ؟ إِنَّا نَفُوسٌ لَا أَلْفَافُ ، وَالْكَلِمَةُ مِنْ قَائِلِهَا هِيَ بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهِ لَا بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهَا ، فَمَا يَخْسَرُ بِحَامِلِ الشَّرِيعَةِ أَنْ يَنْطَلِقَ بِكَلَامٍ يَرُدُّهُ الشَّرْعُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ نَافَقَ الدِّينُ لِبَطْلٍ أَنْ يَكُونَ دِينًا ، وَلَوْ نَافَقَ الْعَالَمُ الدِّينِي لَكَانَ كُلُّ مَنَافِقٍ أَشْرَفَ مِنْهُ ، فَلَطَخَهُ فِي الثُّوبِ الْأَبْيَضِ لَيْسَتْ كَلَطَخَهُ فِي الثُّوبِ الْأَسْوَدِ ، وَالْمَنَافِقُ رَجُلٌ مُعْطَى فِي حَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ عَالِمَ الدِّينِ رَجُلٌ مَكْشُوفٌ فِي حَيَاتِهِ لَا مُعْطَى ، فَهُوَ لِلْهِدَايَةِ لَا لِلتَّلْبِيسِ ، وَفِيهِ مَعَانِي الثُّورِ لَا مَعَانِي الطَّلَمَةِ ، وَذَلِكَ يَتَّصِلُ بِالدِّينِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَمَلِ ، فَإِذَا نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ ، وَالْعَالَمُ يَتَّصِلُ بِالدِّينِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَمَلِ وَنَاحِيَةِ النَّبِيِّينَ ، فَإِذَا نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ وَعَشَّ وَخَانَ .

وَمَا مَعْنَى الْعُلَمَاءِ بِالشَّرْعِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَمْتِدَادُ لِعَمَلِ الثُّبُوتِ فِي النَّاسِ دَهْرًا بَعْدَ دَهْرٍ ، يَنْطَفُونَ بِكَلِمَتِهَا ، وَيَقُومُونَ بِحُجَّتِهَا ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلَاقِهَا كَمَا تَأْخُذُ الْمِرَاةُ الثُّورَ ، تَحْوِرُهُ فِي نَفْسِهَا وَتُلْقِيهِ عَلَى غَيْرِهَا ، فَهِيَ أَدَاةٌ لِظَهَارِهِ وَإِظْهَارِ جَمَالِهِ مَعًا .

أَتَذَرِي يَا وَلَدِي مَا الْفَرْقُ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْحَقِّ وَعُلَمَاءِ الشُّوْءِ وَكُلُّهُمْ آخِذٌ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ ؟ إِنَّ أَوَّلَئِكَ فِي أَخْلَاقِهِمْ كَاللُّوْحِ مِنَ الْبَلُورِ : يُظْهِرُ الثُّورَ نَفْسَهُ فِيهِ وَيُظْهِرُ حَقِيقَتَهُ الْبَلُورِيَّةَ ، وَهَؤُلَاءِ بِأَخْلَاقِهِمْ كَاللُّوْحِ مِنَ الْخَشَبِ يُظْهِرُ الثُّورَ حَقِيقَتَهُ الْخَشَبِيَّةَ لَا غَيْرَ !

وَعَالِمُ الشُّوْءِ يُفَكِّرُ فِي كُتُبِ الشَّرِيعَةِ وَحَدَاها ؛ فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَوَّلَ وَيَخْتَالَ وَيُغَيِّرَ وَيُبَدِّلَ وَيُظْهِرَ وَيُخْفِي ، وَلَكِنَّ عَالِمَ الْحَقِّ يُفَكِّرُ مَعَ كُتُبِ الشَّرِيعَةِ فِي صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ ، فَهُوَ مَعَهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ يَسْأَلُهُ : مَاذَا تَفْعَلُ وَمَاذَا تَقُولُ ؟

وَالرَّجُلُ الدِّينِي لَا تَتَحَوَّلُ أَخْلَاقُهُ وَلَا تَتَفَاوَتْ وَلَا يَجِيءُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ حَوَادِثِ الْيَوْمِ ، فَهُوَ بِأَخْلَاقِهِ كُلِّهَا ، لَا يَكُونُ مَرَّةً يَبْغُضُهَا وَمَرَّةً يَبْغُضُهَا ، وَلَنْ تَرَاهُ مَعَ ذَوِي السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الْحُكْمِ وَالنُّعْمَةِ كَعَالِمِ الشُّوْءِ هَذَا الَّذِي لَوْ نَطَقَتْ أَفْعَالُهُ لَقَالَتْ لِلْإِنْسَانِ : هُمْ يُعْطُونَنِي الدَّرَاهِمَ وَالْذَّنَابِيرَ ، فَأَيْنَ دَرَاهِمُكَ أَنْتَ وَذَنَابِيرُكَ ؟



إِنَّ الدُّبْنَارَ يَا وَلَدِي إِذَا كَانَ صَحِيحًا فِي أَحَدٍ وَجْهَيْهِ دُونَ الْآخَرِ ، أَوْ فِي بَعْضِهِ دُونَ بَعْضِهِ ، فَهُوَ رَأَيْتَ كُلَّهُ ، وَأَهْلُ الْحُكْمِ وَالْجَاهِ حِينَ يَتَعَامَلُونَ مَعَ هَؤُلَاءِ يَتَعَامَلُونَ مَعَ قُوَّةِ الْهَضْمِ فِيهِمْ . فَيُتْرَلُونَهُمْ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ الْبَهَائِمِ : تُقَدَّمُ أَعْمَالُهَا لِتَأْخُذَ لِطُورِهَا ، وَالْبَطْنُ الْأَكْبَلُ فِي الْعَالِمِ الشُّؤْءُ يَأْكُلُ دِينَ الْعَالِمِ فِيمَا يَأْكُلُهُ ...

فَإِذَا رَأَيْتَ لِعُلَمَاءِ الشُّؤْءِ وَقَارًا فَهُوَ الْبَلَادَةُ ، أَوْ رِقَّةً فَسَمَّيْتُهَا الضَّعْفَ ، أَوْ مُحَاسَنَةً فَقُلْتُ إِنَّهَا التَّفَاقُ ، أَوْ سُكُونًا عَنِ الظُّلْمِ فَبَلَغْتُكَ رَشُوءًا يَأْكُلُونَ بِهَا !

\* \* \*

قَالَ الْإِمَامُ : وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ شَيْخِي سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ عِزِّ الدِّينِ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ <sup>(١)</sup> فَلَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ شَيْئًا تَصْنَعُهُ طَبِيعَتُهُ كَمَا يَصْنَعُ جِسْمُهُ الْحَيَاةَ ، فَلَا يُبَالِي هَلْكَ فِيهِ أَوْ عَاشَ ، إِذْ هُوَ فِي الدَّمِ كَالْقَلْبِ ، لَا تَنَالُهُ يَدُ صَاحِبِهِ وَلَا يَدُ غَيْرِهِ ؛ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِمَالٍ وَلَا جَاهٍ وَلَا تَرْفٍ وَلَا نَعِيمٍ ، فَكَانَ تَجَرُّدُهُ مِنْ أَوْهَامِ الْقُوَّةِ قُوَّةً لَا تُغْلَبُ ؛ وَانْتَرَعَ خَوْفَ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِهِ فَعَمَرَتْهُ الرُّوحُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي تُخَفِّفُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تَخَافُ ؛ وَكَانَ يَهْدِيهِ الرُّوحُ كَأَنَّهُ تَحْوِيلٌ وَتَبْدِيلٌ فِي طَبَاعِ النَّاسِ ، حَتَّى قَالَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْرَسُ وَقَدْ رَأَى كَثْرَةَ الْخَلْقِ فِي جَنَازَتِهِ حِينَ مَرَّتْ تَحْتَ الْقَلْعَةِ : أَلَا أَنْ سَتَقَرَّ أَمْرِي فِي الْمُلْكِ ، فَلَوْ أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ دَعَا النَّاسَ لِلْخُرُوجِ عَلَيَّ لَانْتَرَعَ مِنِّي الْمَمْلُوكَةُ !

وَكَانَ سُلْطَانُهُ فِي دِمَشْقَ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ ، فَاسْتَنْجَدَ بِالْإِفْرَنْجِ عَلَى الْمَلِكِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ سُلْطَانِ مِصْرَ ؛ فَغَضِبَ الشَّيْخُ وَأَسْقَطَ اسْمَ الصَّالِحِ مِنَ الْخُطْبَةِ وَخَرَجَ مُهَاجِرًا ، فَاتَّبَعَهُ الصَّالِحُ بَعْضَ خَوَاصِهِ يَتَلَطَّفُ بِهِ وَيَقُولُ لَهُ : مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَعُودَ إِلَى مَنَاصِبِكَ وَمَا كُنْتُ عَلَيْهِ وَأَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ إِلَّا تَتَخَشَّعَ لِلْسُلْطَانِ وَتُقَبِّلَ يَدَهُ .

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : يَا مِسْكِينُ ! أَنَا لَا أَرْضَى أَنْ يُقَبِّلَ السُّلْطَانُ يَدِي ! أَنْتُمْ فِي وَادٍ وَأَنَا فِي وَادٍ .

(١) هُوَ الْإِمَامُ الْعَظِيمُ ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ ، بَرَكَةُ الدُّنْيَا فِي عَصَرِهِ ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٦٦٠ هـ .

ثُمَّ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ فِي سَنَةِ ٦٣٩ هـ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ ، وَتَحَقَّقَ بِهِ ، وَوَلَّاهُ خِطَابَةَ مِصْرَ وَقَضَاءَهَا ، وَكَانَ أَيُّوبَ مَلِكًا شَدِيدَ الْبَأْسِ ، لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يُخَاطِبَهُ إِلَّا مُجِيبًا ، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بِحَضْرَتِهِ أَبَدًا ؛ وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الْمَمَالِيكِ التُّرُكِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهُ لغيرِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، حَتَّى كَانَ أَكْثَرُ أَمْرَاءِ عَسْكَرِهِ مِنْهُمْ ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالْخُشُوعَةِ وَالْبَأْسِ وَالْفَطَاظَةِ وَالْاسْتِهْنَاءَةِ بِكُلِّ أَمْرٍ ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْعِيدِ صَعِدَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ وَهُوَ يَغْرُضُ الْجُنْدَ وَيُظْهِرُ مُلْكَهُ وَسَطْوَتَهُ وَالْأَمْرَاءُ يُقْبِلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَتَدَاةَ الشَّيْخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ لِيَسْمَعَ هَذَا الْمَلَأُ الْعَظِيمُ : يَا أَيُّوبَ ! ثُمَّ أَمَرَهُ بِإِبْطَالِ مُنْكَرِ أَنْتَهَى إِلَى عِلْمِهِ فِي حَانَةِ تَبَاعٍ فِيهَا الْخَمْرُ ؛ فَرَسَمَ السُّلْطَانُ بِإِبْطَالِ الْحَانَةِ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ .

فَحَدَّثَنِي الْبَاجِي قَالَ : سَأَلْتُ الشَّيْخَ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ الْقَلْعَةِ وَقَدْ شَاعَ الْخَبَرُ ، فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي ! كَيْفَ كَانَتْ الْحَالُ ؟

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ الْعَظَمَةِ فَخْشِيئَةً عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَدْخُلَهَا الْعُرُورُ فَيُطْبِرُهُ ، فَكَانَ مَا بَادَيْتُهُ بِهِ .  
قُلْتُ : أَمَا خِفْتَهُ ؟

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! اسْتَخَضَرْتُ هَبِيبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَ السُّلْطَانُ أَمَامِي كَالْقِطِّ <sup>(١)</sup> . وَلَوْ أَنَّ حَاجَةً مِنَ الدُّنْيَا فِي نَفْسِي لَرَأَيْتُهُ الدُّنْيَا كُلَّهَا ؛ بَيْنَ أَنِّي نَظَرْتُ بِالْأَحِرَةِ فَأَمْتَدَّتْ عَيْنِي فِيهِ إِلَى غَيْرِ الْمَنْظُورِ لِلنَّاسِ ، فَلَا عَظَمَةَ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا بَقَاءَ وَلَا دُنْيَا ، بَلْ هُوَ لَا شَيْءَ فِي صُورَةٍ شَيْءٍ .

نَحْنُ يَا وَلَدِي مَعَ هَؤُلَاءِ كَالْمَعْنَى الَّذِي يُصَحِّحُ مَعْنَى آخَرَ ، فَإِذَا أَمَرْنَاهُمْ فَالَّذِي يَأْمُرُهُمْ فِتْنًا هُوَ الشَّرْعُ لَا الْإِنْسَانُ ؛ وَهُمْ قَوْمٌ يَرُونَ لَأَنْفُسِهِمُ الْحَقَّ فِي اسْتِكَاتِ الْكَلِمَةِ الصَّحِيحَةِ أَوْ طَمَسِهَا أَوْ تَحْرِيفِهَا ؛ فَمَا بُدَّ أَنْ يُقَابِلُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ بِمَنْ يَرُونَ لَأَنْفُسِهِمُ الْحَقَّ فِي إِنْطَاقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَبَيَانِهَا وَتَوْضِيحِهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهَلُّهَا الْمَعْنَى بِإِزَاءِ الْمَعْنَى ؛ فَلَا خَوْفَ وَلَا مُبَالَاةَ وَلَا شَأْنَ لِلْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

(١) هَذِهِ كَلِمَاتُ الشَّيْخِ بِخُرُوفِهَا .

وَأِنَّمَا الشَّرُّ كُلُّ الشَّرِّ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْعَالِمُ لِحُطُوطِ نَفْسِهِ وَمَنَافِعِهَا ، فَيَكُونُ بَاطِلًا مُرَوَّرًا فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَهَلُمَّا تَكُونُ الذَّاتُ مَعَ الذَّاتِ ، فَيَخْشَعُ الضَّعْفُ أَمَامَ الْقُوَّةِ ، وَيَذِلُّ الْفَقْرُ بَيْنَ يَدَيِ الْغِنَى ، وَتَرْجُو الْحَيَاةُ لِنَفْسِهَا وَتَخْشَى عَلَى نَفْسِهَا ، فَإِذَا الْعَالِمُ مِنَ السُّلْطَانِ كَالْخَشْيَةِ الْبَالِيَةِ الْخَيْرَةَ حَاوَلَتْ أَنْ تَقَارَعَ السَّيْفَ !

كَلَّا يَا وَلَدِي ! إِنَّ السُّلْطَانَ وَالْحُكَّامَ أَدَوَاتٌ يَجِبُ تَعْيِينُ عَمَلِهَا قَبْلَ إِقَامَتِهَا ، فَإِذَا تَفَكَّكَتْ وَاخْتَجَاجَتْ إِلَى مَسَامِيرٍ دُفَّتْ فِيهَا الْمَسَامِيرُ ، وَإِذَا انْتَفَقَ الثُّوبُ فَمِنْ أَيْنَ لِلإِبْرَةِ أَنْ تَسْلُكَ بِالْخَيْطِ الَّذِي فِيهَا إِذَا هِيَ لَمْ تَخِزْهُ ؟

إِنَّ الْعَالِمَ الْحَقَّ كَالْمِسْمَارِ ، إِذَا أُوجِدَ الْمِسْمَارُ لِذَاتِهِ دُونَ عَمَلِهِ كَفَرَتْ بِهِ كُلُّ حَشِيَّةٍ ...

\* \* \*

قَالَ الْإِمَامُ تَقِيُّ الدِّينِ : وَطَعَى الْأَمْرَاءُ مِنَ الْمَمَالِيكِ وَثَقُلَتْ وَطَائِفُهُمْ عَلَى النَّاسِ ، وَحَيَّمَتْ وَجَدَتْ الْقُوَّةُ الْمُسْلِمَةُ الْمُسْتَبِيدَةَ جَعَلَتْ طُغْيَانَهَا وَاسْتِنْدَادَهَا أَدَبًا وَشَرِيعَةً ، إِلَّا أَنْ تَقُومَ بِإِزَائِهَا قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ أَقْوَى مِنْهَا ، فَفَكَّرَ شَيْخُنَا فِي هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ : إِنَّ خِدَاعَ الْقُوَّةِ الْكَاذِبَةِ لَشُعُورِ النَّاسِ بِأَبْثَمِ الْفَسَادِ ، إِذْ يَخْشَوْنَ كُلَّ حَسَنِ مِنْهَا هُوَ الْحَسَنَ ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا فِي ذَاتِهِ وَلَا أَقْبَحَ مِنْهُ . وَيَرَوْنَ كُلَّ قَبِيحٍ عِنْدَهَا هُوَ الْقَبِيحُ ، وَإِنْ كَانَ حَسَنًا وَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ .

وَقَالَ : مَا مَعْنَى الْإِمَارَةِ وَالْأَمْرَاءِ ؟ وَإِنَّمَا قُوَّةُ الْكُلِّ الْكَبِيرِ هِيَ عِمَادُ الْفَرْدِ الْكَبِيرِ ، فَلِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْكُلِّ حَقُّهُ وَعَمَلُهُ ، وَكَانَ يَتَّبِعِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْإِمَارَةُ أَعْمَالًا نَافِعَةً قَدْ كَثُرَتْ وَعَظُمَتْ ، فَاسْتَحَقَّتْ هَذَا اللَّقَبَ بِطَبِيعَةٍ فِيهَا كَطَبِيعَةِ أَنَّ الْعَشْرَةَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاحِدِ ، لَا أَهْوَاءَ وَشَهَوَاتٍ وَرَذَائِلَ وَمَفَاسِدَ تَتَّخِذُ لِقَبِهَا فِي الضُّعْفَاءِ بِطَبِيعَةِ كَطَبِيعَةِ أَنَّ الْوُخْشَ مُفْتَرِسٌ .

وَفَكَّرَ الشَّيْخُ فَهَذَا تَفْكِيرُهُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءَ مَمَالِيكُ ، فَحُكْمُ الرُّقِّ مُسْتَضَحٌّ عَلَيْهِمْ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَجِبُ شَرَعًا بَيْعُهُمْ كَمَا يُبَاعُ الرَّقِيقُ .

وَبَلَّغَهُمْ ذَلِكَ فَجَزَعُوا لَهُ وَعَظَّمُ فِيهِ الْخَطْبُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ اخْتَدَمَ الْأَمْرَاءُ وَأَيَقَنُوا أَنَّهُمْ بِإِزَاءِ الشَّرِّ لَا بِإِزَاءِ الْقَاضِي أَبِي عَبْدِ السَّلَامِ .

وَأَقْنَى الشَّيْخُ أَنَّهُ لَا يَبْصَحُ لَهُمْ بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ وَلَا زَوَاجٌ وَلَا طَلَاقٌ وَلَا مُعَامَلَةٌ ، وَأَنَّهُ لَا يُصَحِّحُ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ هَذَا حَتَّى يُبَاعُوا وَيَخْصُلَ عَنْقُهُمْ بِطَرِينِ شَرِيعِي !

ثُمَّ جَعَلُوا يَسْتَبِيعُونَ إِلَى رِضَا ، وَيَتَحَمَّلُونَ عَلَيْهِ بِالشَّفَاعَاتِ ، وَهُوَ مُصِرٌّ لَا يَغْبُ بِجَلَالِهِ أَخْطَارَهُمْ ، وَلَا يَخْشَى اتِّسَامَهُ بِعَادُوهُمْ ، فَرَفَعُوا الْأَمْرَ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأْيِهِ وَحُكْمِهِ .

وَأَسْتَفْتَعَ السُّلْطَانُ فِعْلَهُ وَحَقَّقَ عَلَيْهِ وَأَنْكَرَ مِنْهُ دُخُولَهُ فِيَمَا لَا يَغْنِيهِ ، وَفَتَحَ عَمَلَهُ وَسِيَاسَتَهُ وَمَا تَطَاوَلَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا نَفْسُهُ وَمَا تَكَادُ تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَى مَا يَقِينُهُ ، وَهُمْ وَافِرُونَ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْقُوَّةُ وَلَهُمُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ .

وَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ فَغَضِبَ وَلَمْ يُبَالِ بِالسُّلْطَانِ وَلَا كَبَّرَ عَلَيْهِ إِغْرَاضَهُ ، وَأَزْمَعَ الْهَجْرَةَ مِنْ مِصْرَ ، فَأَكْثَرَى حِمِيمًا أَرْكَبَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ عَلَيْهَا وَمَشَى هُوَ خَلْفَهُمْ يُرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى الشَّامِ ، فَلَمْ يَنْعُدْ إِلَّا قَلِيلًا نَحْوَ نِصْفِ بَرِيدٍ حَتَّى طَارَ الْخَبَرُ فِي الْقَاهِرَةِ ، فَفَزِعَ النَّاسُ ، وَتَبِعُوهُ لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَلَا أَمْرَاءٌ وَلَا صَبِيٍّ ، وَسَارَ فِيهِمُ الْعُلَمَاءُ وَالصُّلَحَاءُ وَالنُّجَّارُ وَالْمُخْتَرِفُونَ ، كَانَ خُرُوجُهُ خُرُوجُ نَبِيٍّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَأَسْتَعْلَنَتْ قُوَّةُ الشَّرِّ فِي مَظْهَرِهَا الْحَاكِمِ الْأَمِيرِ مِنْ هَذِهِ الْجَمَاهِيرِ ، فَقِيلَ لِلْسُّلْطَانِ : إِنَّ ذَهَبَ هَذَا الرَّجُلُ ذَهَبَ مُلْكِكَ .

فَارْتَاعَ السُّلْطَانُ ، فَكَرَبَ بِنَفْسِهِ وَلِحَقَّ بِالشَّيْخِ يَتَرَضَّاهُ وَيَسْتَدْفِعُ بِهِ غَضَبَ الْأَمَّةِ ، وَأَطْلَقَ لَهُ يَأْمُرُ بِمَا شَاءَ ، وَقَدْ أَيَقَنَ أَنَّهُ لَيْسَ رَجُلٌ الدِّيْنَارِ وَالذَّرْهَمِ وَالْعَنَسِ وَالْجَاهِ وَلَيْسَ طَبِلَسَانَ الْعُلَمَاءِ كَمَا يَلْصِقُ الرُّبُشَ عَلَى حَجَرٍ فِي صُورَةِ طَائِرٍ .

وَرَجَعَ الشَّيْخُ ، وَأَمَرَ أَنْ يُعْقَدَ الْمَجْلِسُ وَيُجْمَعَ الْأَمْرَاءُ وَيُنَادَى عَلَيْهِمْ لِلْمُسَاوَمَةِ فِي بَيْعِهِمْ ، وَضَرَبَ لِذَلِكَ أَجَلًا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ قَدْ تَعَالَمَهُ كُلُّ الْقَاهِرَةِ ، لِيَهَيِّئًا مَنْ يَتَّهَى لِلشِّرَاءِ وَالسُّوْمِ فِي هَذَا الرَّقِيقِ الْغَالِي .

\* \* \*

وَكَانَ مِنَ الْأُمَرَاءِ الْمَمَالِكِ نَائِبُ السُّلْطَنَةِ ، فَبَعَثَ إِلَى الشَّيْخِ يَلَاطِفُهُ وَيَسْتَرْضِيهِ ، فَلَمَّ يَغْبِ الشَّيْخُ بِهِ ، فَهَاجَ هَائِجُهُ وَقَالَ : كَيْفَ يَبِينُنَا هَذَا الشَّيْخُ وَيُنَادِي عَلَيْنَا وَيُنْزِلُنَا مَنَزِلَةَ الْعَبِيدِ وَيَفْسِدُ مَحَلَّتَنَا مِنَ النَّاسِ وَيَبْتَدِلُ أَقْدَارَنَا وَنَحْنُ مُلُوكُ الْأَرْضِ ؟ وَمَا الَّذِي يَفْقُدُ هَذَا الشَّيْخُ مِنَ الدُّنْيَا فَيَذَرُكَ مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ إِنَّهُ يَفْقُدُ مَا لَا يَمْلِكُ وَيَفْقُدُ غَيْرَ الْمَوْجُودِ ، فَلَا جَرَمَ لَا يُتَالِي وَلَا يَرْجِعُ عَنْ رَأْيِهِ مَا دَامَ هَذَا الرَّأْيُ لَا يَمُوتُ فِي مَنَافِعِهِ ، وَلَا شَهَوَاتِهِ وَلَا فِي أَطْمَاعِهِ ، كَالَّذِينَ تَرَاهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا ، أَمَا وَاللَّهِ لَأُضْرِبَنَّهُ بِسِنِّيهِ هَذَا ، فَمَا يَمُوتُ رَأْيُهُ وَهُوَ حَيٌّ .

ثُمَّ رَكِبَ النَّائِبُ فِي عَسْكَرِهِ ، وَجَاءَ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ ، وَاسْتَلَّ سِنْفَهُ ، وَطَرَقَ الْبَابَ . فَخَرَجَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّطِيفِ وَرَأَى مَا رَأَى ، فَانْقَلَبَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : أَنْجِ بِنَفْسِكَ إِنَّهُ الْمَوْتُ ، وَإِنَّهُ السَّيْفُ وَإِنَّهُ ... وَإِنَّهُ ...

فَمَا أَكْثَرَتْ الشَّيْخُ لِدَلِكِ وَلَا جَرَعَ وَلَا تَغَيَّرَ ، بَلْ قَالَ لَهُ : يَا وَلَدِي ! أَبُوكَ أَقْلٌ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ !

وَخَرَجَ لَا يَغْرِفُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ ، فَلَيْسَ فِيهِ الْإِنْسَانِيُّ بَلِ الْإِلَهِيُّ ، وَنَظَرَ إِلَى نَائِبِ السُّلْطَنَةِ وَفِي يَدِهِ السَّيْفُ ، فَانْطَلَقَتْ أَشِعَّةُ عَيْنَيْهِ فِي أَعْصَابِ هَذِهِ الْيَدِ فَيَسْتَوْقِعُ السَّيْفُ مِنْهَا .

وَتَنَاوَلَهُ بِرُوحِهِ الْقَوِيَّةِ ، فَاضْطَرَبَ الرَّجُلُ وَتَرَزَّلَ ، وَكَأَنَّمَا تَكَسَّرَ مِنْ أَغْصَابِهِ فَهُوَ يَزْعُدُ وَلَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَهْدَأُ .

وَأَخَذَ النَّائِبُ يَبْكِي وَيَسْأَلُ الشَّيْخَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا سَيِّدِي ! مَا تَصْنَعُ بِنَا ؟

قَالَ الشَّيْخُ : أَنَادِي عَلَيْكُمْ وَأَيُّعُكُمْ !

- وَفِيمَ تَصْرِفُ ثَمَنَنَا ؟

- فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ .

- وَمَنْ يَقْبِضُهُ ؟

- أَنَا .

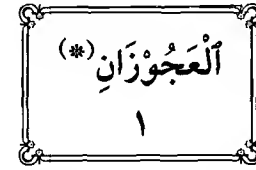
وَكَانَ الشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ (أَنَا) ، فَتَمَّ لِلشَّيْخِ مَا أَرَادَ ، وَنَادَى عَلَى الْأُمَرَاءِ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَأَسْتَطَفَ فِي ثَمَنِهِمْ ، لَا يَبِينُ الْوَاحِدَ حَتَّى يَبْلُغَ الثَّمَنُ آخِرَ مَا يَبْلُغُ ، وَكَانَ كُلُّ أَمِيرٍ قَدْ أَعَدَّ مِنْ شِبَعَتِهِ جَمَاعَةً يَسْتَأْمُرُونَهُ لِيُسْتَرَوْهُ ...

وَدُمِعَ الظُّلُمُ وَالْثَقَافُ وَالطُّغْيَانُ وَالتَّكَبُّرُ وَالْإِسْتِطَالَةُ عَلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي أَغْلَنَهَا الشَّرْعُ :

أُمَرَاءُ لِلْبَيْعِ ... ! أُمَرَاءُ لِلْبَيْعِ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ مُحَدِّثِي : أَلْتَقَى هَذَانِ الشَّيْخَانِ بَعْدَ فَرَاقٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَكَانَتْ مَثَابَتُهُمَا <sup>(١)</sup> ذَلِكَ الْمَكَانَ الْقَائِمَ عَلَى شاطئِ الْبَحْرِ فِي إِسْكَنْدَرِيَّةٍ فِي جِهَةِ كَذَا ، وَهُمَا صَدِيقَانِ كَانَا فِي صَدْرِ أَيَّامِهِمَا - حِينَ كَانَتْ لَهُمَا أَيَّامٌ ... رَجُلَيْنِ حُكُومَةٍ يَغْمَلَانِ فِي دِينَوَانِ وَاحِدٍ ، وَكَانَا فِي عَيْنَيْهِمَا أَخَوَيْنِ جِدٍّ وَهَزَلٍ ، وَفَضَائِلَ وَرَذَائِلَ ، يَجْتَمِعَانِ دَائِمًا اجْتِمَاعَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ ، فَلَا تَنْقَطِعُ وَسِيلَةُ أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخَرِ ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا فِي الْحَيَاةِ قَرَابَةُ الْإِنْسَامَةِ مِنَ الْإِنْسَامَةِ ، وَالذَّمْعَةِ مِنَ الذَّمْعَةِ .

وَلَبِثَا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ تَبَدَّدا ، وَأَخَذَتْهُمَا الْأَفَاقُ كَذَابُ « الْمُوظَّفِينَ » : يَنْتَظِمُونَ وَيَنْتَبِهُونَ ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُهُمْ تَرْفَعُهُ أَرْضٌ وَتُخْفِضُهُ أُخْرَى ، وَكَانَ « الْمُوظَّفُ » مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ . [ ٣١ سورة لقمان / الآية : ٣٤ ] .

وَأَفْتَرَقَ الصَّدِيقَانِ عَلَى مَضَضٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ أَمْرُ الْحُكُومَةِ بِتَقْلٍ بَعْضِ « مُوظَّفِيهَا » هُوَ أَمْرُهَا بِتَمَرِيقٍ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ؛ ثُمَّ تَصَرَّفَتْ بِهِمَا الدُّنْيَا فَذَهَبَا عَلَى طَرَفَيْنِ طَرِيقَ لَا يَلْتَقِيَانِ ، وَأَصْبَحَ كِلَاهُمَا مِنَ الْآخِرِ كَيَوْمِهِ الَّذِي مَضَى : يُحْفَظُ وَلَا يُرَى .

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَكُنْتُ مَعَ الْأُسْتَاذِ (م) ، وَهُوَ رَجُلٌ فِي السَّبْعِينَ مِنْ عُمرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ شَابَّ لَمْ يَتَلُغْ مِنَ الْعُمَرِ إِلَّا سَبْعِينَ سَنَةً ...

وَيَزْعُمُ أَنَّ فِي جِسْمِهِ الثَّامُوسَ الْأَخْضَرَ الَّذِي يُخَيِّ الشَّجَرَةَ حَيَاةً وَاحِدَةً إِلَى الْآخِرِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥٠ ، ٢٧ صفر سنة ١٣٥٥ هـ = ١٨ مايو / أيار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٨٠٥ - ٨٠٧ .

(١) أي : الْمَكَانَ الَّذِي اجْتَمَعَا فِيهِ بَعْدَ التَّفَرُّقِ .

رَجُلٌ قَارَةٌ ، مُتَأَنِّقٌ ، فَاحِشُ الْبِرَّةِ ، جَمِيلُ السَّنَةِ ، فَارِغُ الشُّطَاطِ <sup>(١)</sup> ، كَالْمَضْبُوبِ فِي قَالِبٍ لَا عَوَجَ فِيهِ وَلَا انْحِنَاءَ ، مُجْتَمِعٌ كُلُّهُ لَمْ يَذْهَبْ مِنْهُ شَيْءٌ ، قَدْ حَفِظَتْهُ أَسَالِينُ الْقُوَّةِ الَّتِي يُعَانِيهَا فِي رِيَاضَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَهُوَ مُنْذُ كَانَ فِي أَيْفَتِهِ وَشَبَابِهِ لَا يَمْسِي إِلَّا مُسْتَأْخِرَ الصَّدْرِ <sup>(٢)</sup> ، مُشْدُودَ الظَّهْرِ ، مُزْتَفِعَ الْعُنُقِ ، مُسْنِدًا قَفَاهُ إِلَى طَوْقِهِ ، وَبِذَلِكَ شَبَّ وَشَابَ عَلَى أَسْتَوَاءٍ وَاحِدٍ ، وَكُلَّمَا سُئِلَ عَنْ سِرِّ قَامَتِهِ وَعُودِهِ لَمْ يَزِدْ عَلَى قَوْلِهِ : إِنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ إِسْنَادِ الْقَفَا <sup>(٣)</sup> .

وَهُوَ دَائِمًا عَطِرٌ عَبِقٌ ، ثُمَّ لَا يَمَسُّ إِلَّا عِطْرًا وَاحِدًا لَا يُغَيِّرُهُ ، يَرَى أَنَّ هَذَا الطَّبِيبَ يَحْفَظُ حَيَالَ الصَّبَا ، وَأَنَّهُ يُبْقِي لِلْأَيَّامِ رَائِحَتَهَا .

وَلَهُ فِلَسَفَةٌ مِنْ حِسِّهِ لَا مِنْ عَقْلِهِ ، وَلِفِلَسَفَتِهِ قَوَاعِدُ وَأُصُولٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، وَمِنْ بَعْضِ قَوَاعِدِهَا الزَّهْرُ ، وَمِنْ بَعْضِهَا الْمُوسِيقَى ، وَمِنْ بَعْضِهَا الصَّلَاةُ أَيْضًا ؛ وَكُلُّ تِلْكَ هِيَ عِنْدَهُ قَوَاعِدٌ لِحِفْظِ الشَّبَابِ . وَمِنْ فِلَسَفَتِهِ أَنَّ مَبَادِيَّ الشَّبَابِ وَعَادَاتِهِ إِذَا هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرْ اتَّصَلَ الشَّبَابُ فِيهَا وَأُطْرِدَ فِي الرُّوحِ ، فَتَكُونُ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةٌ تَخْرُسُ قُوَّةَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ ، وَتُمْسِكُ عَلَى الْجِسْمِ حَالَتَهُ النَّفْسِيَّةَ الْأَوْلى .

وَهُوَ يَزِيدُ فِي حِكْمَةِ الصَّلَاةِ فَكْرَةَ رِيَاضِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ لَمْ يَنْشَبْ إِلَيْهَا أَحَدٌ : هِيَ رِيَاضَةُ الْبُطْنِ وَالْأَمْعَاءِ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ ؛ وَيَقُولُ : إِنَّ ثَرَوَةَ الصَّلَاةِ تَكْتَزُ فِي صُنْدُوقَيْنِ ، أَحَدُهُمَا الرُّوحُ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْآخَرُ الْبُطْنُ لِمَا قَبْلَ الْمَوْتِ ؛ وَيَرَى أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَفْرِضْ صَلَاةَ الصُّبْحِ قَبْلَ الشَّمْسِ إِلَّا لِجَعْلِ الْفَجْرِ يَنْصَبُ فِي الرُّوحِ كُلِّ يَوْمٍ .

\* \* \*

(١) مُشْتَدُّ الطُّولِ .

(٢) يُقَالُ : مُسْتَقْدِمُ الصَّدْرِ : لِلْهَرَمِ الْمُتَخَيِّ الظَّهْرِ ؛ فَأَخَذْنَا مِنْهَا مُسْتَأْخِرَ الصَّدْرِ ، وَذَلِكَ بُرُودُهُ حِينَ يَكُونُ مُشْدُودًا ، فَيَكُونُ أَغْلَاهُ إِلَى الْوَرَاءِ .

(٣) هَذِهِ حَقِيقَةُ رِيَاضِيَّةٍ ، وَلَهَا أَقْوَى الْأَثَرِ فِي شَدِّ الْجِسْمِ وَأَنْصَابِ الْقَامَةِ إِذَا اعْتَادَهَا الْإِنْسَانُ ... وَالْمَرَادُ بِالطَّوْقِ : الْبَيْقَةُ (الْيَاقَةُ) .

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَبَيْنَمَا نَحْنُ جَالِسَانِ مَرَّ بِنَا شَيْخٌ أَعْجَفُ مَهْزُولٌ مَوْهُونٌ فِي جِسْمِهِ ، يَذُلُّ مُتَقَاصِرُ الْخَطْوِ كَانَ حِمْلُ السِّنِينَ عَلَى ظَهْرِهِ ، مُرْعِشٌ مِنَ الْكِبَرِ ، مُسْتَقْدِمُ الصَّدْرِ ، مُنْحَنٍ ، يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا ، وَيَذُلُّ أَنْجَاؤُهُ عَلَى أَنَّ عُمُرَهُ قَدْ أَعْوَجَ أَيْضًا . وَهُوَ يَبْذُو فِي ضَعْفِهِ وَهْزَالِهِ كَانَ ثِيَابُهُ مُلِثَتْ عِظَامًا لَا إِنْسَانًا ، وَكَأَنَّهَا مَا خِيطَتْ إِلَّا لِتُمْسِكَ عِظْمًا عَلَى عِظْمٍ ...

قَالَ : فَحَمَلْنَا إِلَيْهِ (م) ثُمَّ صَاحَ : رَيْنَا ! رَيْنَا . فَالْتَفَتَ الْعَجُوزُ ، وَمَا كَادَ يَأْخُذُنَا بَصَرُهُ حَتَّى انْفَلَتَ إِلَيْنَا وَأَقْبَلَ صَاحِكًا يَقُولُ : أَوَّه ! رَيْتُ ، رَيْتُ !

وَنَهَضَ (م) ، فَاحْتَضَنَهُ ، وَتَلَا زَمًا طَوِيلًا ، وَجَعَلَ رَأْسَاهُمَا يَدُورَانِ وَيَتَطَوَّحَانِ ، وَكِلَاهُمَا يُقْبَلُ صَاحِبُهُ قُبْلًا ظَامِئَةً لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهَا فِي صَدِيقَيْنِ ، حَتَّى لَحِثِلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَا يَتَعَانَقَانِ وَلَا يَتَلَاَمَانِ ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا فِكْرَةٌ يَغْتَفِقَانِهَا وَيُقْبَلَانِهَا مَعًا ...

وَقُلْتُ : مَا هَذَا إِلَيْهَا الْعَجُوزَانِ ؟

فَصَحَّحَكَ (م) وَقَالَ : هَذَا صَدِيقِي الْقَدِيمُ (ن) ، تَرَكْتُهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ الشَّبَابِ ، فَهَا هُوَ ذَا مُعْجِزَةٍ أُخْرَى مِنْ مُعْجِزَاتِ الْهَرَمِ ، وَلَمْ يَبْنِ كَانَمًا مِنْهُ إِلَّا أَسْمُهُ ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا رَيْنَا ؟

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : لَقَدْ أَصْبَحْتُ كَمَا تَرَى : زَادَ الْعُمُرُ فِي رِجْلَيَّ رِجْلًا مِنْ هَذِهِ الْعَصَا ، وَزَجَعَ مَصْدَرُ الْحَيَاةِ فِي مَصْدَرِ اللَّالَامِ وَالْأَوْجَاعِ ، وَدَخَلْتُ فِي طَبِيعَتِي عَادَةً رَابِعَةً مِنْ تَعَاطِي الدَّوَاءِ .

فَصَحَّحَكَ (م) وَقَالَ : فَتَبَّحَ اللَّهُ هَذِهِ الْعَادَةَ الدَّخِيلَةَ ، فَمَا هِيَ الْعَادَاتُ الثَّلَاثُ الْأَصْلِيَّةُ ؟

قَالَ الْعَجُوزُ : هِيَ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالْكُتُومُ ... ثُمَّ أَنْتَ يَا رَيْنَا كَيْفَ تَقْرَأُ الصُّحُفَ الْآنَ ؟

قَالَ (م) : أَقْرَأُهَا كَمَا يَقْرَؤُهَا النَّاسُ ، فَمَا سَوَّاءُكَ عَنْ هَذَا ؟ وَهَلْ تُقْرَأُ الصُّحُفُ يَوْمًا غَيْرَ مَا تُقْرَأُ فِي يَوْمٍ ؟

قَالَ : آه ! إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ أَقْرَأُ فِي الصُّحُفِ أَخْبَارُ الْوَفَيَاتِ ، لِأَرَى بَقَايَا الدُّنْيَا ، ثُمَّ (إِعْلَانَاتُ الْأَدْوِيَةِ) ... وَلَكِنْ كَيْفَ أَنْتَ يَا رَيْنَا ؟ إِنِّي لِأَرَاكَ مَا تَزَالُ مِنْ وَرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي ذَلِكَ الْعَيْشِ الرَّخِي ، وَأَرَاكَ تَحْمِلُ شَيْخُوخَتَكَ بِقُوَّةٍ ، كَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ يَخْرُمْكَ (١) مِنْ هُنَا وَلَا مِنْ هُنَا ، وَكَأَنَّهُ يَلْمُسُكَ بِأَصَابِعِهِ لَا بِمَسَامِيرِهِ ، فَهَلْ أَصَبْتَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : نَاشِدُكَ اللَّهُ ، أَفِي مُعْجِزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ مُعْجِزَةٌ لِعَظَمِي ؟

قَالَ (م) : وَنَحَكَ يَا رَيْنَا ! إِنَّكَ عَلَى الْعَهْدِ لَمْ تَبْرَحْ كَمَا كُنْتَ مَرْبَلَةً أَفْكَارٍ ... مَاذَا يَصْنَعُ فِيكَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَأَنْتَ كَمَا أَرَى بِمَثَرَةٍ بَيْنَ الْعَظَمِ وَالْخَسْبِ ... ؟

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ، ثُمَّ قُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (م) : وَلَكِنْ مَا (رَيْنَا وَرَيْتُ) ؟ وَمَا هَذِهِ اللَّغَةُ ؟ وَفِي أَيِّ مُعْجَمٍ تَفْسِيرُهَا ؟

قَالَ : فَتَعَامَرَ الشَّيْخَانِ ، ثُمَّ قَالَ (م) : يَا بُنَيَّ ! هَذِهِ لُغَةٌ مَاتَتْ مَعَانِيهَا وَبَقِيَتْ أَلْفَاظُهَا ، فَهِيَ كَتَلِكِ الْأَلْفَاظِ الْآثَرِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى .

قُلْتُ : وَلَكِنَّ الْجَاهِلِيَّةَ الْأُولَى لَمْ تَنْقُصْ إِلَّا فِيكُمْ ... وَلَا يَزَالُ كُلُّ شَابٍّ فِي هَذِهِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَمَا أَحْسَبُ (رَيْنَا وَرَيْتُ) فِي لُغَتِكُمَا الْقَدِيمَةِ إِلَّا بِمَعْنَى (سُوسُو) ، وَزُوزُو) فِي اللَّغَةِ الْحَدِيثَةِ ؟

فَقَالَ (م) : أَسْمَعُ يَا بُنَيَّ ! إِنَّ رَجُلَ سَنَةِ ١٩٣٥ (٢) مَتَى سَأَلَ فِي رَجُلٍ سَنَةِ ١٨٩٥ : مَا مَعْنَى رَيْنَا وَرَيْتُ ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِ : إِنَّ (رَيْنَا) مَعْنَاهَا (كَاتَرِينَا Cathrina) ، وَكَانَ (ن) بِهَا صَبًا مُغْرَمًا ، وَكَانَ مُتَمَتِّلًا قَلْبُهُ حُبَّهَا . أَمَّا (رَيْتُ) ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا .

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَخْرُمْكَ » بَدَلًا مِنْ : « يَخْرُمْكَ » .

(٢) كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي صَيْفِ سَنَةِ ١٩٣٥ فِي إِسْكَنْدَرِيَّةِ .

فَأَمْتَعَصَ الْعُجُوزُ (ن) وَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَسْمَعُ يَا بُنَيَّ ! إِنَّ رَجُلَ سَنَةِ ١٨٩٥ فِي يَقُولُ لَكَ : إِنَّ (رَبَّتْ) مَعْنَاهَا (مَرْغَرَيْتَ Margarite) ، وَكَانَتْ الْجَوَى الْبَاطِنَ ، وَكَانَتْ اللَّوْعَةُ وَالْحَرِيقُ الَّذِي لَا يَنْطَفِئُ فِي قَلْبِ الْأُسْتَاذِ (م) .

قُلْتُ : فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْعُجُوزَانِ مِنْ عَشَاقِ سَنَةِ ١٨٩٥ ، فَكَيْفَ تَرَيَانِ الْحُبَّ الْآنَ ؟

قَالَ الْعُجُوزُ (ن) : يَا بُنَيَّ ! إِنَّ أَوَاخِرَ الْعُمُرِ كَالْمَنْفَى ... وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي نَتَكَلَّمُ بِهَا أَنْتَ وَأَنْتُمْ وَأَنْتُمْ ... غَيْرَ أَنَّ الْمَعَانِي تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا بَعِيدًا . قُلْتُ : وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا .

قَالَ : وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا كَلِمَةً (الْأَكْلِ) ، فَلَهَا عِنْدَنَا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : الْأَكْلُ ، وَسَوْءُ الْهَضْمِ ، وَوَجَعُ الْمَعِدَةِ . وَكَلِمَةً (الْمَشْيِ) فَلَهَا أَيْضًا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : الْمَشْيُ ، وَالْتَعَبُ ، وَغَمَزَاتُ الْعَظْمِ ... وَكَلِمَةً (النَّسِيمِ) : النَّسِيمُ الْعَلِيلُ يَا بُنَيَّ : زَيْدٌ لَنَا فِي مَعْنَاهَا : تَحَرُّكُ (الزُّومَاتِيزِم) ...

فَصَحِّحْ (م) وَقَالَ : يَا « شَيْخُ » ...

قَالَ الْعُجُوزُ : وَتِلْكَ الزِّيَادَةُ يَا بُنَيَّ لَا تَجِيءُ إِلَّا مِنْ نَقْصٍ ، فَهِيَ بَقِيَّةٌ مِنْ يَدَيْنِ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ رِجْلَيْنِ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ بَطْنٍ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ وَرَمٍ وَمِنْ ، وَمَجْمُوعُ كُلِّ ذَلِكَ بَقِيَّةٌ مِنْ إِنْسَانٍ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : الْبَقِيَّةُ فِي حَيَاتِكَ ...

قَالَ (ن) : وَبِالْجُمْلَةِ يَا بُنَيَّ ، فَإِنَّ حَرَكََةَ الْحَيَاةِ فِي الرَّجُلِ الْهَرِمِ تَكُونُ حَوْلَ ذَاتِهَا لَا حَوْلَ الْأَشْيَاءِ ، وَمَا أَعْجَبَ أَنْ تَكُونَ أَقْصَرُ حَرَكَتِي الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِي كَذَلِكَ ، وَإِذَا قَالَ الشَّابُّ فِي مُعَامَرَتِهِ : لِيَمُضِ الزَّمَنُ وَلِتَنْصَرِمِ الْأَيَّامُ ! فَإِنَّ الْأَيَّامَ هِيَ الَّتِي تَنْصَرِمُ وَالزَّمَنُ هُوَ الَّذِي يَمُزُّ ، أَمَّا الشُّيُوخُ فَلَنْ يَمُتُوهُ أَبَدًا ، فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ : لِيَمُضِ الزَّمَنُ ، فَكَأَنَّمَا قَالَ : فَلَا مُضِي أَنَا ...

فَصَاحَ (م) : يَا شَيْخُ ! ... يَا شَيْخُ ! ...

ثُمَّ قَالَ الْعُجُوزُ : وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْعِلْمَ نَفْسَهُ يَهْرُمُ مَعَ الرَّجُلِ الْهَرِمِ ، فَيُضَيِّحُ مِثْلَهُ ضَعِيفًا لَا غَنَاءَ عِنْدَهُ وَلَا حِيلَةَ لَهُ ، وَكُلُّ مَصَانِعٍ لِنَكْثِيرٍ وَمَصَانِعٍ بِنَاكِ مِضْرٍ وَالْيَابَانِ

وَالْأَمْرِ بِكَيْفَيْنِ ، وَمَا بَقِيَ مِنْ مَصَانِعِ الدُّنْيَا ، لَا فَائِدَةَ مِنْ جَمِيعِهَا ، فَهِيَ عَاجِزَةٌ أَنْ تَكْسُو عِظَامِي ...

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : فَفَهَقَهُ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : كَذْتُ وَاللَّهِ أَنْخَشَبُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، وَكَادَتْ مَعَانِي الْعَظَمِ تَخْرُجُ مِنْ عِظَامِي ، لَقَدْ كَانَ الْمُتَوَحِّشُونَ حُكَمَاءَ فِي أَمْرِ شُيُوخِهِمْ ، فَإِذَا عَلَتْ السِّنُّ بِجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ أَحْيَاءَ إِلَّا بِأَمْتِحَانٍ ، فَهُمْ يَجْمَعُونَهُمْ وَيُلْجِئُونَهُمْ إِلَى شَجَرَةٍ غَضَّةٍ لَيْتَهُ الْمِهْرَةُ ، فَيُكْرِهُونَهُمْ أَنْ يَصْعَدُوا فِيهَا ثُمَّ يَنْدَلُّوا مِنْهَا وَقَدْ عَلِقَتْ أَيْدِيهِمْ بِأَغْصَانِهَا ، فَإِذَا صَارُوا عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ اجْتَمَعَ الْأَشْدَاءُ مِنْ فِتْيَانِ الْقَبِيلَةِ فَيَأْخُذُونَ بِجَذَعِ الشَّجَرَةِ يَرْجُونَهَا وَيَنْفُضُونَهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَمَنْ ضَعُفَتْ يَدَاهُ مِنْ أُولَئِكَ الشُّيُوخِ أَوْ كَلَّتْ حَوَامِلُ ذِرَاعِيهِ فَأَقْلَتِ الْغَضَنُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ فَوْقَ : أَخَذُوهُ فَأَكْلُوهُ ؛ وَمَنْ اسْتَمْسَكَ أَنْزَلُوهُ فَأَمْهَلُوهُ إِلَى حِينٍ !

فَأَفْسَعَرَ الْعُجُوزُ (ن) وَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ ! هَذِهِ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ ، وَلَعَنَهَا اللَّهُ مِنْ حِكْمَةٍ ، فَإِنَّهُمْ يَطْبُخُونَهُمْ فِي الشَّجَرَةِ قَبْلَ الْأَكْلِ ، أَوْ هُمْ يَجْعَلُونَهُمْ كَذَلِكَ لِيَتَوَهَّمُوهُمْ طُيُورًا فَيَكُونُ لَحْمُهُمْ أَطْيَبَ وَالْدُّ ، وَيَسَاقُطُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّجَرَةِ حَمَائِمَ وَعَصَافِيرَ .

قَالَ (م) : إِنْ كَانَ فِي الْوَحْشِيَّةِ مَنْطِقٌ فَلَيْسَ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ « بَابٌ لِمِ » ، وَلَا « بَابٌ كَيْفَ » وَلَوْ كَانَ بِهِمْ أَنْ يَأْكُلُوهُمْ لَأَكَلُوهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْبِيَةُ الطَّبِيعَةِ لِأَهْلِ الطَّبِيعَةِ ، فَإِنَّ رُؤْيَا الرَّجُلِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَهَزَّهَا وَعَاقَبَهَا يُبْعِدُ عَنْهُ الضَّعْفَ وَالْخَلْخُلَ ، وَيَذْفُقُهُ إِلَى مُعَانَاةِ الْقُوَّةِ ، وَيَزِيدُ نَفْسَهُ انْتِشَارًا عَلَى الْحَيَاةِ وَطَمَعًا فِيهَا وَتَنْشِطًا لِأَسْبَابِهَا ، فَيَكُونُ سَاعِدُهُ آخِرَ شَيْءٍ يَهْرُمُ ، وَلَا يَزَالُ فِي الْحِلَّةِ وَالنَّاسِطِ وَالْوُثْبَانِ ، فَلَا يَعْجُزُ قَبْلَ يَوْمِهِ الطَّبِيعِيِّ ، وَيَكُونُ الْمُتَوَحِّشُونَ بِهَذَا قَدْ اخْتَالُوا عَلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَاضْطَرُّوْهَا إِلَى مَجْهُودِهَا ، وَأَكْرَهُوْهَا عَلَى أَنْ تَبْذُلَ مِنَ الْقُوَّةِ آخِرَ مَا يَسَعُ الْجِسْمُ .

قَالَ (ن) : فَتَعَمَّ إِذَا ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَعَانِي الضَّعْفِ : كَذْتُ وَاللَّهِ أَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا شَابًّا ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَوَحِّشًا تَخَافُ أَنْ تُؤْكَلَ ، فَتَظَلُّ شَيْخًا رَجُلًا لَا شَيْخًا طِفْلًا ، وَتَرَى

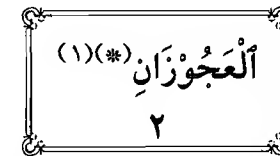
الْعُمْرَ كَمَا يَرَى الْبَحِيلُ ذَهَبُهُ : مَهْمَا يَبْلُغْ فَكَثُرَتْهُ غَيْرَ كَثِيرَةٍ .

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَأَضْجَرَنِي حِوَارُهُمَا ، إِذْ لَمْ يَغْزِ فِيهِ إِلَّا أَنَّ جِسْمَ هَذَا يَرُدُّ عَلَى جِسْمِ هَذَا ، وَإِنَّمَا الشَّيْخُ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ زَمَانٌ يَتَكَلَّمُ وَيَقْصُ وَيَعْطُ وَيَنْتَفِدُ ، وَلَكِنْ يَكُونُ الشَّيْخُ مَعَكَ فِي حَقِيقَةٍ إِنْ لَمْ تَزَلْ أَنْتَ فِيهِ إِلَى دُنْيَا قَدِيمَةٍ . فَقُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ ! أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ مُحَدِّثِي : وَلَمَّا قُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ ! أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ؛ نَظَرَ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥١ ، ٤ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٥ مايو / أيار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٨٤٣ - ٨٤٥ .

(١) الْجُمْهُورُ مِنَ أَهْلِ اللَّغَةِ عَلَى أَنَّ (الْعَجُوزَ) وَصَفَ خَاصَّ بِالْمَرْأَةِ إِذَا شَاخَتْ وَهَرِمَتْ ، وَلَكِنْ جَاءَ فِي « اللِّسَانِ » : « وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ عَجُوزٌ » وَنَقَلَهُ صَاحِبُ « النَّاجِ » عَنِ الصَّاعَانِي ، وَنَحْنُ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ، وَلَوْ لَمْ يَأْتِ فِيهِ نَصٌّ عَنِ الْعَرَبِ لَانْتَدَعْنَا وَزَدْنَاهُ فِي اللَّغَةِ ؛ وَوَجْهُ عِنْدَنَا أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَا الْهَرَمَ فَقَدْ خَصَّصَ الذُّكُورَةَ وَالْأُنثَوِيَّةَ ؛ فَلَمْ يَكُنْ رَجُلًا وَامْرَأَةً ، فَاسْتَوَيَا فِي الْعَجْزِ ، فَكَانَ الرَّجُلُ قَبِيحًا أَنْ يُشَارِكَ الْمَرْأَةَ فِي وَضْعِهَا ، فَيَقَعُ اللَّفْظُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا .

وَإِنَّمَا امْتَنَعَ الْعَرَبُ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ (عَجُوزٌ) وَخَصَّصُوا ذَلِكَ بِالْمَرْأَةِ ، تَعَشُّفًا وَظُلْمًا وَطُغْيَانًا ، كَدَابْهِمُ مَعَ النِّسَاءِ ، فَإِذَا شَاخَتِ الْمَرْأَةُ فَقَدْ بَطَلَتْ أَثَرُهَا عَنْهُمْ وَعَجَزَتْ عَنْ حَاجَةِ الرَّجُلِ وَعَجَزَتْ فِي كَثِيرٍ ، وَتَفَنَّتْ الطَّبِيعَةُ وَبَرَأَتْ مِنْهَا ؛ أَمَّا الرَّجُلُ فَبِالْخِلَافِ ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ ، وَإِذَا شَاخَ وَبَطَلَ وَعَجَزَ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكَابِرَ فِي الْمَعْنَى - كَابِرٍ فِي اللَّفْظِ ... وَأَبَى أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ (عَجُوزٌ) ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِالْمَرْأَةِ .

أَلَا إِنَّ هَذَا تَرْوِيضٌ فِي اللَّغَةِ ، وَإِنْ كَانَ لِلرِّجَالِ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ فَذَلِكَ فِي أَوْصَافِ الْقُدْرَةِ لَا فِي أَوْصَافِ الْعَجْزِ !

إِلَيَّ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ (ن) وَقَالَ : يَا بَنِي ! أَحْسَبْ رُؤْيَاكَ إِنِّي قَدْ دَنْتُ بِكَ مِنَ الْآخِرَةِ ... فَتَرِيدُ أَنْ نَلُودَ بِأَخْبَارِ شَبَابِنَا لِنَنْظُرَ إِلَيْنَا وَفِينَا رُوحَ الدُّنْيَا .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَكَيْفَ لَا تُرِيدُ الْآخِرَةَ وَأَكْثَرَ آلَانِ فِي « الْمَجْهُولِ » ؟

قَالَ : وَيَحَكَ يَا (م) ! لَا تَزَالُ عَلَى وَجْهِكَ مِسْحَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ هُنَا وَهُنَا ، كَأَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُصْلِحُ فِي دَاخِلِكَ مَا اخْتَلَّ مِنْ قَوَائِنِ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا تَسْتَبِينَ فِيكَ السَّرُّ وَقَدْ نَهَيْتَ عَلَى السَّبْعِينَ ، وَمَا أَحْسَبَ الشَّيْطَانَ فِي تَنْظِيفِكَ إِلَّا كَالَّذِي يَكْشُ بَيْتَهُ ...

قَالَ (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ الصَّالِحُ بَيْتٌ قَدْ تَرَكَهُ الشَّيْطَانُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ كَلِمَةً : (لِلإِيْجَارِ) ...

فَضَحِكَ (ن) وَقَالَ : تَاللهِ إِنَّ الْهَرَمَ لَهُوَ إِعَادَةُ دَرَسِ الدُّنْيَا . وَفَهْمُهَا مَرَّةً أُخْرَى فَهْمًا لَا خَطَأَ فِيهِ ، إِذْ يَنْظُرُ الشَّيْخُ بِالْعَيْنِ الطَّاهِرَةِ ، وَيَسْمَعُ بِالْأُذُنِ الطَّاهِرَةِ ، وَيَلْمَسُ بِالْيَدِ الطَّاهِرَةِ ... وَتَاللهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا أَنَّهُ وَقَاحَةُ الْأَعْصَابِ .

قَالَ (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ الصَّالِحُ إِنَّمَا أَصْبَحْتَ بِلَا شَيْطَانٍ ، لِأَنَّ الْهَرَمَ قَدْ أَدَبَ أَغْصَابَكَ ...

قَالَ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ : وَعِنْدَ مَنْ غَيْرِنَا نَحْنُ الشُّيُوخُ نُطَاعِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الْأَدَبِيَّةِ حَقٌّ طَاعَتِهَا ؟ عِنْدَ مَنْ غَيْرِ الشُّيُوخِ تَقْدُسُ مِثْلُ هَذِهِ الْحِكْمِ الْعَالِيَةِ : لَا تَعْتَدِ عَلَى أَحَدٍ ... لَا تُفْسِدِ امْرَأَةً عَلَى رَوْحِهَا ...

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ، وَكَانَ الْعَجُوزُ (ن) مِنْ آيَاتِ فِي الظَّرْفِ وَالْكُتْبَةِ ، فَقَالَ : تَنْظُرِي يَا بَنِي فِي السَّبْعِينَ ؟ فَوَاللهِ مَا أَنَا بِجُمْلَتِي فِي السَّبْعِينَ ؛ وَاللهِ وَاللهِ .

قَالَ (م) : لَقَدْ أَهْتَرَ الشَّيْخُ<sup>(١)</sup> يَا بَنِي ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ خَرَفِهِ فَلَا تُصَدِّقْهُ .

(١) أَيُّ : أَخْطَأُ فِي الرَّأْيِ مِنْ تَأْيِيرِ الْكَبِيرِ .

قَالَ (ن) : وَاللَّهِ مَا خَرِفْتُ وَمَا قُلْتُ إِلَّا حَقًّا ، فَهَلْهَذَا مَا عُمْرُهُ خَمْسُ سَنَوَاتٍ فَقَطْ ، وَهُوَ أَسْتَأْنِي ...

قُلْتُ : « وَرَيْنَا وَرَيْتَ » وَسَنَةَ ١٨٩٥ ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : أَنْتَ يَا بُنَيَّ مِنَ الْمُجَدِّدِينَ ، فَمَا هَؤَالِكَ فِي الْقَدِيمِ وَمَا شَأْنُكَ بِهِ ؟ .  
وَمَا كَادَ الْعَجُوزُ (ن) يَسْمَعُ هَذَا حَتَّى طَرَفَ بِعَيْنَيْهِ<sup>(١)</sup> وَحَدَّدَ بَصَرَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : أَيْتَكَ لَأَنْتَ هُوَ ؟ لَعَمْرِي إِنْ فِي عَيْنَيْكَ لَضَجِيجًا وَكَذِبًا وَجِدَالًا وَآخِيَالًا وَزَعْمًا وَدَعْوَى وَكُفْرًا وَإِلْحَادًا ، وَلَعَمْرِي ...

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : ﴿ لَمَّا تَرَكُوا لِي سَكَرَتِهِمْ بِمَهْنٍ ﴾ [١٥ سورة الحجر/ الآية : ٧٢] ،  
لَقَدْ وَقَعَ التَّجْدِيدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي الشُّيُوخِ أَجْسَامًا وَالشُّيُوخِ عُقُولًا ؛ فَهَلْؤَلَاءِ عِنْدَ النَّهَايَةِ ،  
وَعَبْرُ مُسْتَنَكِرٍ مِنْ ضَعْفِهِمْ أَنْ يَدِينُوا بِالْمَاضِي ، فَإِنْ حَيَاتُهُمْ لَا تَلْمَسُ الْحَاضِرَ إِلَّا بِضَعْفٍ !

قَالَ الْعَجُوزُ : رَحِمَ اللَّهُ الشَّيْخَ (ع) ، وَكَانَ هَذَا يَا بُنَيَّ رَجُلًا يَنْسَخُ لِلْعُلَمَاءِ فِي زَمَانِنَا  
الْقَدِيمِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ عَشْرَةَ قُرُوشٍ أَجْرًا عَلَى الْكُورَاسَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَهُوَ رَدِيءُ الْحَطِّ ، فَإِذَا  
وَرَقَ لِأَدِيبٍ وَلَمْ يَعْجِبْهُ خَطُّهُ فَكَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ تَعَلَّقَ الشَّيْخُ بِهِ وَطَالَبَهُ بِعِشْرِينَ قُرْشًا عَنِ  
الْكُورَاسَةِ ، مِنْهَا عَشْرَةٌ لِلْكِتَابَةِ ، وَعَشْرَةٌ غَرَامَةٌ لِإِهَانَةِ الْكِتَابَةِ ...

نَعَمْ يَا بُنَيَّ ! إِنْ لِلْمَاضِي فِي قُلُوبِنَا مَوَاقِعَ يَثْرُلُ فِيهَا فَيَسْمَكُنْ ، وَلَكِنَّ قَاعِدَةَ (أَثْنَانِ  
وَأَثْنَانِ : أَرْبَعَةٌ) لَا تُعَدُّ فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْحَاضِرِ وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالْحَقِيقَةُ بِنَفْسِهَا  
لَا بِاسْمِهَا ، وَلَيْسَتْ تَحْتَاجُ الْتَّارَ إِلَى ثُوبِ الْمَرْأَةِ إِلَّا فِي رَأْيِ الْمُعْغَلِّ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْعَجُوزُ : زَعَمُوا أَنَّ مُعْغَلًا كَانَ يَرَى امْرَأَتَهُ تُضْرِمُ الْحَطَبَ فَتَنْفُخُ فِيهِ حَتَّى يَسْتَعِيلَ ،  
فَاتَّحَاجُ يَوْمًا فِي بَعْضِ شَأْنِهِ إِلَى التَّارِ ، وَلَمْ تَكُنْ امْرَأَتُهُ فِي دَارِهَا ، فَجَاءَ بِالْحَطَبِ وَأَضْرَمَ  
فِيهِ وَجَعَلَ يَنْفُخُ ، وَكَانَ الْحَطَبُ رَطْبًا ، فَدَخَنَ وَلَمْ يَسْتَعِيلَ ، فَفَكَرَ الْمُعْغَلُ قَلِيلًا ، ثُمَّ

(١) أَنَّى : حَرَكَ أَجْفَانَهُمَا .

ذَهَبَ فَلَيْسَ ثُوبَ امْرَأَتِهِ وَعَادَ إِلَى التَّارِ وَكَانَ الْحَطَبُ قَدْ جَفَّ ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْفُخُ حَتَّى اجْتَمَعَ  
وَتَضَرَّمَ ، فَأَيَّقَنَ الْمُعْغَلُ أَنَّ التَّارَ تَخَافُ امْرَأَتَهُ ... وَأَنَّهَا لَا تَضَرَّمُ إِلَّا إِذَا رَأَتْ ثُوبَهَا !

\* \* \*

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ الْكَلَامَ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ أَصْبَحَ عِنْدَنَا كُفُونُ الْحَرْبِ : تُبْدِعُ  
مَا تُبْدِعُ لِتَغْيِيرِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَعَلَى مَا بَلَغَتْ وَسَائِلُ الْمَوْتِ فِي الْقَدِيمِ  
وَالْجَدِيدِ ، فَإِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُمَيِّتَ أَحَدًا مَرَّتَيْنِ .

لَقَدْ قَرَأْتُ يَا بُنَيَّ كَثِيرًا فَلَمْ أَرِ إِلَى الْآنَ مِنْ آثارِ الْمُجَدِّدِينَ عِنْدَنَا شَيْئًا ذَا فَيْمَةٍ ، مَا كَانَ  
مِنْ هُرَاءٍ وَتَقْلِيدِ زَائِفٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ ، وَمَا كَانَ جَيِّدًا فَهُوَ كَالْقَائِسِ فِي مُلْكِ اللَّصِّ : لَهَا  
أَعْيَارَانِ ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ مُقْتَنِيهَا ... فَالْآخَرُ عِنْدَ الْقَاضِي<sup>(١)</sup> .

كَلَّا أَيُّهَا اللَّصُّ ، لَنْ تُسَمَّى مَالِكًا بِهَذَا الْأَسْلُوبِ ، إِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ  
وَمِنَ الْحَقِّ وَمِنْ نَفْسِكَ .

يَقُولُونَ : الْعِلْمُ وَالْفَنُّ وَالْغَرِيزَةُ وَالشَّهْوَةُ وَالْعَاطِفَةُ وَالْمَرْأَةُ وَحُرِّيَّةُ الْفِكْرِ وَاسْتِقْلَالُ  
الرَّأْيِ وَتَبَذُّ التَّقَالِيدِ وَكُسْرُ الْقِيُودِ ، إِلَى آخِرِهِ وَإِلَى آخِرِهَا ... فَهَذَا كُلُّهُ حَسَنٌ مَقْبُولٌ سَائِعٌ  
فِي الْوَرَقِ إِنْ كَانَ فِي مَقَالَةٍ أَوْ قِصَّةٍ ، وَهُوَ سَائِعٌ كَذَلِكَ حِينَ يَنْحَصِرُ فِي حُدُودِهِ الَّتِي تَصْلُحُ  
لَهُ مِنْ رِيَابِ الْمُمَثِّلِينَ أَوْ مِنْ بَعْضِ الثُّغُوسِ الَّتِي يُمَثِّلُ بِهَا الْقَدْرُ فُضُولُهُ السَّاخِرَةَ أَوْ فُضُولُهُ  
الْمُبْكِيَّةَ ، وَلَكِنَّهُمْ حِينَ يُخْرِجُونَ هَذَا كُلَّهُ لِلْحَيَاةِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ قُوَّتِهَا الْمُوجِبَةِ ، تَرُدُّهُ الْحَيَاةُ  
عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ السَّالِبَةِ ، إِذْ لَا تَرَايَ تَخْلُقُ خَلْقَهَا وَتَعْمَلُ أَعْمَالَهَا بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ ، وَإِذَا كَانَ فِي  
الْإِنْسَانِيَّةِ هَذَا الْقَانُونُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الْمَرِيضَ حِينَ يَهْدُمُ مِنْ صَاحِبِهِ - يَهْدُمُ فِي الْكَوْنِ  
بِصَاحِبِهِ ، فَيَنْهَى أَيْضًا الْقَانُونُ الْآخَرُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الصَّحِيحَ السَّامِيَّ حِينَ يُبْنَى مِنْ  
أَهْلِهِ - يُبْنَى فِي الْكَوْنِ بِأَهْلِهِ .

\* \* \*

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : زَعَمُوا أَنَّ أَحَدَ سِلَكِي الْكَهْرَبَاءِ كَانَ فَيَلْسُونًا مُجَدِّدًا ، فَقَالَ

(١) فِي كِتَابِنَا « تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ » كَلَامٌ كَثِيرٌ عَنِ التَّجْدِيدِ وَالْمُجَدِّدِينَ . وَمَا نَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ حَقًّا وَمَا نَرَاهُ  
بَاطِلًا .



لِلْآخِرِ : مَا أَرَاكَ إِلَّا رَجَعِيًا ، إِذْ كُنْتُ لَا تَتَّبِعُنِي أَبَدًا وَلَا تَتَّصِلُ بِي ، وَلَا تَجْرِي فِي طَرِيقَتِي ، وَلَنْ تَفْلَحَ أَبَدًا إِلَّا أَنْ تَأْخُذَ مَا خَذِي وَتَتْرُكَ مَذْهَبَكَ إِلَى مَذْهَبِي . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ الْعَظِيمُ ! لَوْ أَتَيْتُ أَتْبَعُكَ لِبَطْلَانَا مَعًا ، فَمَا أَذْهَبَ فِينَا وَمَا تَذْهَبُ فِي ، وَمَا عَلِمْتُكَ تَشْتَمُّنِي فِي رَأْيِكَ إِلَّا بِمَا تَمْدَحُنِي بِهِ فِي رَأْيِي .

قَالَ الْعَجُوزُ : وَهَذَا هُوَ جَوَابُنَا إِذَا كُنَّا رَجَعِيَيْنَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَجْلِ الدِّينِ أَوْ الْفَضِيلَةِ أَوْ الْحَيَاةِ أَوْ الْعِلْمِ إِلَى آخِرِهَا وَإِلَى آخِرِهِ ، وَنَحْنُ لَا نَرَى هَلْوََاءَ الْمُجَدِّدِينَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ إِلَّا ضَرُورَاتٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْحَيَاةِ وَشَهَوَاتِهَا وَحَمَاقَاتِهَا تَلَبَّسَتْ بِغَضِّ الْعُقُولِ كَمَا يَتَلَبَّسُ أَمْنَالُهَا بِغَضِّ الطَّبَاعِ فَتَزِنُ بِهَا ، وَلِلْحَيَاةِ فِي لُغَتِهَا الْعَمَلِيَّةِ مُتَرَادِفَاتٍ كَالْمُتَرَادِفَاتِ اللَّفْظِيَّةِ : تَكُونُ الْكَلِمَتَانِ وَالْكَلِمَاتُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَالْمُخَرَّبُ وَالْمُخَرَّفُ وَالْمُجَدَّدُ بِمَعْنَى ! .

كُلُّ مُجَدِّدٍ يُرِيدُ أَنْ يَضَعُ فِي كُلِّ شَيْءٍ قَاعِدَةً نَفْسِهِ هُوَ ، فَلَوْ أَطَعْنَاهُمْ لَمْ تَبْقَ لِشَيْءٍ قَاعِدَةٌ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْوَاحِدَةَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى سُتْبِهَا وَمَا تَصْلُحُ بِهِ مِنَ الضَّبْطِ وَالْإِحْكَامِ ، وَالْجَلْبِ لَهَا وَالِدْفَعِ عَنْهَا وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا بِوَسَائِلِهَا الدَّقِيقَةِ الْمُؤَزَّوْنَةِ الْمُقَدَّرَةِ ، وَالسَّهْلَةِ فِي عَمَلِهَا الصَّعْبَةِ فِي تَذْيِيرِهَا ، فَعَلَى نَحْوِ مِمَّا كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي بَطْنِ الْأُمِّ يَجِبُ أَنْ نَعِيشَ فِي بَطْنِ الْكُونِ بِحُدُودِ مَرَسُومَةٍ وَقَوَاعِدِ مُهَيَّأَةٍ وَحَيَرٍ مَعْرُوفٍ ؛ وَإِلَّا بَقِيَتْ حَرَكَاتُ هَذَا الْإِنْسَانِ فِي مَعْنَاهَا كَحَرَكَاتِ الْجَنِينِ ، يَزِيدُ كَيْفَ لِيُخْرَجَ عَنْ قَانُونِهِ ، فَإِنْ اسْتَمَرَّ عَمَلُهُ أَلْقَى بِهِ مَسْحًا مُشَوَّهًا مِنْ جَسَدٍ كَانَ يَعْمَلُ فِي تَنْظِيمِهِ ، أَوْ قَذَفَ بِهِ مَيِّمًا مِنْ جِسْمٍ كَانَ كُلُّ مَا فِيهِ يَعْمَلُ لِحَيَاتِهِ وَصِيَانَتِهِ .

هَذَا الْجِسْمُ كُلُّهُ يَشْرَعُ لِلْجَنِينِ مَا دَامَ فِيهِ ، وَهَذَا الْأَجْتِمَاعُ كُلُّهُ يَشْرَعُ لِلْفَرْدِ مَا دَامَ فِيهِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ إِذَا كَانَ الْجَنِينُ مُجَدَّدًا لَا يُعْجِبُهُ مَثَلًا وَضَعُ الْقَلْبِ وَلَا يُرْضِيهِ عَمَلُ الدَّمِ <sup>(١)</sup> وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُقَيَّدًا لِأَنَّهُ حُرٌّ ؟ .

انْظُرْ إِلَى هَذَا الشَّرْطِيِّ فِي هَذَا الشَّارِعِ يَضْرِبُ مُقْبِلًا لِيُذْبِرَ ، وَمُذْبِرًا لِيُقْبِلَ ؛ وَقَدْ أَلْبَسَتْهُ الْحُكُومَةُ ثِيَابًا يَمَيِّزُ بِهَا ، وَهِيَ تَتَكَلَّمُ لُغَةً غَيْرَ لُغَةِ الثِّيَابِ ، وَكَأَنَّهُا تَقُولُ : أَيُّهَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْأُمُّ » بَدَلًا مِنْ : « الدَّمِ » .

النَّاسُ ! إِنَّ هَلْهَنَا الْإِنْسَانَ الَّذِي هُوَ قَانُونٌ دَائِمًا ؛ وَالَّذِي هُوَ قُوَّةٌ أَبَدًا ، وَالَّذِي هُوَ سِجْنٌ حِينًا ، وَالَّذِي هُوَ الْمَوْتُ إِذَا أَقْضَى الْحَالُ .

أَتَحْسَبُ يَا بَنِي هَذَا الشَّرْطِيِّ قَائِمًا فِي هَذَا الشَّارِعِ كَجُذُرَانِ هَذِهِ الْمَنَازِلِ ؟ كَلَّا يَا بَنِي ! إِنَّهُ وَقِفْتُ أَيْضًا فِي الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَفِي الْحِسِّ الْبَشَرِيِّ وَفِي الْعَاطِفَةِ الْحَيَّةِ ؛ فَكَيْفَ لَا يَمْنَحُوهُ الْمُجَدِّدُونَ مَعَ أَنَّهُ فِي ذَاتِهِ إِزْغَامٌ بِمَعْنَى ، وَإِكْرَاهٌ بِمَعْنَى غَيْرِهِ ، وَقَيْدٌ فِي حَالَةٍ ، وَبَلَاءٌ فِي حَالَةٍ أُخْرَى .

لَكِنَّهُ إِزْغَامٌ لِيَقَعَ بِهِ التَّيَسُّيرُ ، وَإِكْرَاهٌ لِنُتْطَلِقَ بِهِ الرَّغْبَةُ ، وَقَيْدٌ لِنَتَجَمَّدَ بِهِ الْحُرِّيَّةُ ؛ وَكَانَ هُوَ نَفْسُهُ بَلَاءً مِنْ نَاحِيَةٍ لِيَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ عِصْمَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِي تُقَابِلُهَا .

يَا بَنِي ! كُلُّ دِينٍ صَالِحٍ ، وَكُلُّ فَضِيلَةٍ كَرِيمَةٍ ، وَكُلُّ خُلُقٍ طَيِّبٍ - كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى طَرِيقِ الْمَصَالِحِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَهَذَا الشَّرْطِيِّ بَعِيْنِهِ : فِيمَا تَخْرِبُ الْعَالَمَ أَثِيهَا الْمُجَدِّدُونَ ، وَفِيمَا تَخْرِبُ مَذْهَبَكُمْ ...

\* \* \*

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : أَتَبَحُّثُ عَمَّا تَسْلُطُ بِهِ أَمْ تَبَحُّثُ عَمَّا يَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا ؟ وَهَلْ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ غَرَائِزُنَا أَقْوَى مِنَّا وَأَشَدَّ ، أَوْ تَكُونَ نَحْنُ أَشَدَّ مِنْهَا وَأَقْوَى ؟ هَذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ لَا مَسْأَلَةُ الْجَدِيدِ وَالْقَدِيمِ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي يَغْطُمُ بِنَا وَنَعْظُمُ بِهِ ، فَسَدَ الْحِسُّ وَفَسَدَتِ الْحَيَاةُ ، وَكُلُّ الْأَذْيَانِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ إِنْ هِيَ إِلَّا وَسَائِلُ هَذَا الْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْسُّمُومِ بِالْحَيَاةِ فِي آمَالِهَا وَغَايَاتِهَا عَنِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا فِي وَقَائِعِهَا وَمَعَانِيهَا .

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَرَأَيْتَنِي بَيْنَ الْعَجُوزَيْنِ كَأَنِّي بَيْنَ نَابِيَيْنِ ، وَلَمْ أَكُنْ مُجَدَّدًا عَلَى مَذْهَبِ إِبْنِيسَ الَّذِي رَدَّ عَلَى اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَظَنَّ لِحُجْمِهِ أَنْ قُوَّةَ الْمَنْطِقِ تُغَيِّرُ مَا لَا يَتَغَيَّرُ ؛ فَسَكَتُ ، حَتَّى إِذَا قَرَعَا مِنْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ قُلْتُ : وَالرَّحْلَةَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ؟ .

### الْعَجُوزَانِ (\*)

٣

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَبَيَّنَ فِي الْعَجُوزِ (ن) أَثَرُ التَّعَبِ ، فَتَوَجَّعَ وَأَخَذَ يَبْكُ كَأَنَّهُ بَعْضُهُ قَدْ مَاتَ لَوْفَتِهِ ... أَوْ وَقَعَ فِيهِ اخْتِلَالٌ جَدِيدٌ ، أَوْ نَالَتْهُ ضَرْبَةُ الْيَوْمِ ، وَالشَّيْخُ مَتَى دَخَلَ فِي الْهَرَمِ دَخَلَ فِي الْمَعْرَكَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبْيَامِهِ .

ثُمَّ تَأَفَّافَ وَتَمَلَّمَلَ وَقَالَ : إِنَّ أَوَّلَ مَا يَظْهَرُ عَلَى مَنْ شَاخَ وَهَرِمَ ، هُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ غَيَّرَتِ الْقَانُونَ الَّذِي كَانَتْ تَحْكُمُهُ بِهِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ صَاحِبَنَا كَانَ قَاضِيًا يَحْكُمُ فِي الْمَحَاكِمِ ، وَأَرَى الْمَحَاكِمَ قَدْ حَكَمَتْ عَلَيْهِ بِهِئِهِ الشَّيْخُوخَةَ (مُطَبَّقَةً فِيهَا) بَعْضَ الْمَوَادِّ مِنْ قَانُونِ الْعُقُوبَاتِ ، فَمَا خَرَجَ مِنَ الْمَحْكَمَةِ إِلَّا إِلَى الْخَبْسِ الثَّالِثِ .

فَضَحِكَ (ن) وَقَالَ : قَدْ عَرَفْنَا « الْخَبْسَ الْبَسِيطَ » وَ« الْخَبْسَ مَعَ الشُّغْلِ » فَمَا هُوَ هَذَا « الْخَبْسُ الثَّالِثُ ؟ » .

قَالَ : هُوَ « الْخَبْسُ مَعَ الْمَرَضِ » ...

قَالَ (ن) : صَدَقْتَ لَعَمْرِي ، فَإِنَّ آخِرَ أَجْسَامِنَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِحِسَابِ مَنْ صَنَعَةِ أَعْمَالِنَا ، وَكَأَنَّ كُرْسِيَّ الْوُظَيْفَةِ الْحُكُومِيَّةِ قَدْ عَرَفَ أَنَّهُ كُرْسِيَّ الْحُكُومَةِ ، فَهُوَ يَضْرِبُ الصَّرَائِبَ عَلَى عِظَامِ الْمُوْظَفِينَ ... أَتَدْرِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْأَى إِلَى آثَرِ الْعُمْرِ » [١٦ سورة النحل/ الآية : ٧٠ ؛ ٢٢ سورة الحج/ الآية : ٥] وَلَمْ سَمَاهُ الْأَزْدَلُ ؟ .

قُلْنَا : فَلِمَ سَمَاهُ كَذَلِكَ ؟

قَالَ : لِأَنَّهُ خَلَطَ الْإِنْسَانَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَمَسَحَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، فَلَا هُوَ رَجُلٌ وَلَا

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥٢ ، ١١ ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ١ يونيو/ حزيران ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٨٨٣ - ٨٤٥ .

شَابٌ وَلَا طِفْلٌ ، فَهُوَ أَرْدَا وَأَرْدَلُ مَا فِي الْبِضَاعَةِ ...

فَاسْتَضَحَكَ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : أَنَا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ شَيْخًا حِينَ كُنْتُ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِي ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَنِي قَتَّى حِينَ بَلَغْتُ السَّبْعِينَ .

قَالَ (ن) : كَانَ الْحَيَاةُ تُصَحِّحُ نَفْسَهَا فِيكَ .

قَالَ : بَلْ أَنَا أَكْرَهْتُهَا أَنْ تُصَحِّحَ نَفْسَهَا ، فَقَدْ عَرَفْتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ سَعَةَ الْإِنْفَاقِ فِي الشَّبَابِ هِيَ ضَائِقَةُ الْإِفْلَاسِ فِي الْهَرَمِ ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّ لِلطَّبِيعَةِ « عَدَادًا » لَا يُخْطِئُ الْحِسَابَ ، فَإِذَا أَنَا أَقْصَدْتُ عَدَّتْ لِي ، وَإِذَا أَسْرَفْتُ عَدَّتْ عَلَيَّ ، وَلَنْ تُعْطِيَنِي الدُّنْيَا بَعْدَ الشَّبَابِ إِلَّا مِمَّا فِي جِسْمِي ، إِذْ لَا يُعْطِي الْكَوْنُ حَيًّا أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْهُ ، فَكُنْتُ أَجْعَلُ نَفْسِي كَالشَّيْخِ الَّذِي يَقُولُ لَهُ الْمَلَكُوتُ الْكَثِيرَةُ : لَسْتُ لَكَ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ لَدَاتِي كُلُّهَا فِي قُبُورِ الشَّرِيعَتَيْنِ : شَرِيعَةِ الدِّينِ وَشَرِيعَةِ الْحَيَاةِ .

قَالَ : وَعَرَفْتُ أَنَّ مَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ وَهْنَ الشَّيْخُوخَةِ لَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ وَلَكِنْ مِنَ الشَّبَابِ ، فَمَا هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْإِنْسَانِ فِي تَسْمِيَةِ جِسْمِهِ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْإِغْفَالِ وَالْإِرْهَاقِ وَالشُّرُورِ وَالْخُزْنِ وَاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ ، فَكُنْتُ مَعَ الْجِسْمِ فِي شَبَابِهِ لِيَكُونَ مَعِي بَعْدَ شَبَابِهِ ، وَلَمْ أَبْرَحْ أُنْعَاهِدُهُ كَمَا يُنْعَاهِدُ الرَّجُلُ دَارَهُ : يَرِيدُ مَحَاسِنَهَا وَيَتَّقِي عُيُوبَهَا وَيَحْفَظُ قُوَّتَهَا وَيَتَّقِي ضَعْفَهَا ، وَيَجْعَلُهَا دَائِمًا بِأَلْهٍ وَهَمٍّ ، وَيَنْظُرُ فِي يَوْمِهَا الْقَرِيبِ لَعْدَهَا الْبَعِيدِ ، فَلَا يَنْقُطُ حِسَابُ آخِرِهَا وَإِنْ بَعْدَ هَذَا الْآخِرِ ، وَلَا يَزَالُ أَبَدًا يَخْتَاطُ لِمَا يَخْشَى وَفُوعَهُ وَإِنْ لَمْ يَقَعِ .

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : صَدَقْتَ وَاللهُ ، فَمَا أَفْلَحَ إِلَّا مَنْ أَغْنَمَ الْإِمْكَانَ ، وَمَا نَوَّعَ الشَّيْخُوخَةَ إِلَّا مِنْ نَوْعِ الشَّبَابِ ، وَهَذَا الْجِسْمُ الْإِنْسَانِيُّ كَالْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ فِيهَا (مَجْلِسُهَا الْبَلَدِيُّ) الْقَائِمُ عَلَى صِبَاتِهَا وَنِظَامِهَا وَتَقْوِيَّتِهَا ، وَرَبِّسَ هَذَا الْمَجْلِسُ الْإِرَادَةَ ، وَقَانُونُهُ كُلُّهُ وَاجِبَاتٌ ثَقِيلَةٌ ، وَهُوَ كَثِيرٌ مِنَ الْقَوَانِينِ : إِذَا لَمْ يُتَمَذَّ مِنَ الْأَوَّلِ لَمْ يُغْنِ فِي الْآخِرِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَكُلُّ جِهَازٍ فِي الْجِسْمِ هُوَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَاءِ ذَلِكَ (الْمَجْلِسِ الْبَلَدِيِّ) ؛ فَجِهَازُ التَّنَفُّسِ وَجِهَازُ الْهَضْمِ وَجِهَازُ الْعِضَلِيِّ وَالْجِهَازُ الْعَصَبِيِّ وَالذَّوْرَةُ

الدَّمَوِيَّةُ ، هَذِهِ كُلُّهَا يَجِبُ أَنْ تُتْرَكَ عَلَى حُرِّيَّتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ وَأَنْ تُعَانَ عَلَى سِتِّهَا ، فَلَا يُحَالُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِهَا بِرُشُوءٍ مِنْ لَذَّةٍ ، أَوْ مَفْسَدَةٍ مِنْ زِينَةٍ ، أَوْ مَطْعَمَةٍ فِي رَفَاهِيَّةٍ ، أَوْ دَعْوَةٍ إِلَى مَدَنِيَّةٍ ، أَوْ شَيْءٍ مِمَّا يُفْسِدُ حُكْمَهَا أَوْ يُعْطِلُ عَمَلَهَا أَوْ يُضْعِفُ طَبِيعَتَهَا .

وَالْقَاعِدَةُ فِي الْعُمُرِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّبَابُ هُوَ الطُّفُولَةُ الثَّانِيَّةُ فِي بَرَاءَتِهِ وَطَهَارَتِهِ كَانَتْ الشَّيْخُوخَةُ هِيَ الشَّبَابُ الثَّانِي فِي قُوَّتِهَا وَنَشَاطِطِهَا ؛ وَمَا رَأَيْتُ كَالَّذِينَ وَسِيلَةً تَجْعَلُ الطُّفُولَةُ مُنْتَدَةً بِحَقَائِقِهَا إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ ، فَسِرُّ الطُّفُولَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي قُوَّتِهَا عَلَى حَذْفِ الْفُضُولِ وَالزُّوَادِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَلَا يُطْعِمُهَا الْغِنَى ، وَلَا يَكْسِرُهَا الْفَقْرُ ، وَلَا تُذِلُّهَا الشَّهْوَةُ ، وَلَا يُفْرِغُهَا الطَّمَعُ ، وَلَا يَهْوِلُهَا الْإِخْفَاقُ ، وَلَا يَتَعَاطَمُهَا الضَّرُّ ، وَلَا يُخَيِّفُهَا الْمَوْتُ ؛ ثُمَّ لَا تَمَلُّ وَهِيَ الصَّابِرَةُ ، وَلَا تُبَالِغُ وَهِيَ الرَّاغِبَةُ ، وَلَا تُشْكُ وَهِيَ الْمُؤَقَّتَةُ ، وَلَا تُسْرِفُ وَهِيَ الْقَانِعَةُ ، وَلَا تَتَلَبَّدُ وَهِيَ الْعَامِلَةُ ، وَلَا تَجْمُدُ وَهِيَ الْمُتَجَوِّلَةُ ؛ ثُمَّ هِيَ لَا تُكَلِّفُ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَّا الْعَطْفَ وَالْحُبَّ وَالْبَشَاشَةَ وَطِبَاعِ الْخَيْرِ الَّتِي يَمْلِكُهَا كُلُّ قَلْبٍ ؛ وَلَا تُوجِبُ شَرِيْعَتُهَا فِي الْمُعَامَلَةِ إِلَّا قَاعِدَةَ الرَّحْمَةِ ، وَلَا تُقَرِّرُ فِلْسَفَتُهَا لِلْحَيَاةِ ، إِلَّا طَهَارَةَ النَّظَرِ ؛ ثُمَّ تَهَيِّجُكُمْ بِالدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا تَهْتَمُّ لَهَا ، وَتَسْتَعِينِي فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَاجُ ، وَتَسْتَخْرِجُ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهَا دَائِمًا مِمَّا أَمْكَنَ ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ .

وَبِكُلِّ هَذَا تَعْمَلُ الطُّفُولَةُ فِي حِرَاسَةِ الْحَيَاةِ الْغَضَبَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا وَتُمُودِهَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا زَهَا طِفْلٌ وَلَا شَبَّ غُلَامٌ وَلَا رَأَتْ الْعُيُونُ بَيْنَ هُمُومِ الدُّنْيَا ذَلِكَ الرُّوَاءَ وَذَلِكَ الْمَنْظَرَ عَلَى وَجْهِهِ الْأَطْفَالِ يُنَبِّئَانِ أَنَّ الْبَرَاءَةَ فِي النَّفْسِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ هُوَ أَيْضًا مِنْ خَصَائِصِ الدِّينِ وَبِهِ يَعْمَلُ الدِّينُ فِي تَهْدِيبِ الْحَيَاةِ وَأَطْرَادِهَا عَلَى أَصُولِهَا الْقَوِيَّةِ السَّلِيمَةِ . وَمَتَى قَوِيَ هَذَا الدِّينُ فِي إِنْسَانٍ لَمْ تَكُنْ مَفَاسِدُ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُودِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ فِي أَرْضٍ وَهِيَ فِي أَرْضٍ أُخْرَى ؛ وَأَصْبَحَتْ الْبَرَاءَةُ فِي نَفْسِهِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ .

ثُمَّ قَالَ : وَالْعَجِيبُ أَنَّ اعْتِقَادَ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ لَا يَتَحَقَّقُ أَبَدًا بِأَحْسَنِ مَعَانِيهِ وَأَكْمَلِهَا إِلَّا فِي قَلْبَيْنِ : قَلْبِ الطِّفْلِ لِأَنَّهُ طِفْلٌ ، وَقَلْبِ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ .

فَقَالَ الْعُجُوزُ (ن) : إِنَّهُ لَكَمَا قُلْتُ ، وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْأَدَمِيَّةِ الْبَاطِلَةِ ،

فَإِنَّ الشَّهْوَةَ الْوَاحِدَةَ فِي أَلْفِ نَفْسٍ لَتَجْعَلُ الْحَقِيقَةَ الْوَاحِدَةَ كَأَنَّهَا أَلْفُ حَقِيقَةٍ مُتَعَادِيَةٍ مُتَنَازِعَةٍ ، وَالطَّامِعَانِ فِي أَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ قَدْ تَكُونُ شَهْوَةٌ أَحَدِهِمَا هِيَ الشَّهْوَةُ ، وَهِيَ الْقَتْلُ ؛ وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُتَلَحِّدِينَ وَالْحَادِثِينَ ، يُزْرُونَ عَلَى الْأَذْيَانِ بِأَنَّهَا تَكَالِيفٌ وَقِيُودٌ وَصِنَاعَةٌ لِلْحَيَاةِ ، ثُمَّ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لِصِنَاعَةِ آلَاءِ النَّفْسِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَرِّكَ الْمُخْتَلِفِينَ حَرَكَةً وَاحِدَةً ، فَمَا أُبْتَلِيتِ الْإِنْسَانِيَّةُ بِشَيْءٍ كَمَا أُبْتَلِيتَ بِهَذَا الْخِلَافِ الَّذِي يَفْتَحُ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَبْوَابَ التَّجَنِّي ، وَيَجْعَلُ الْكُفْرَةَ وَسْوَءَ الظَّنِّ أَقْرَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْقَفَّةِ .

لَقَدْ جَاءَ الْعِلْمُ بِالْمُعْجَزَاتِ ، وَلَكِنْ فِيمَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَمَتَافِعِهِ ، فَهَلْ غَيْرَ الَّذِينَ يَجِيءُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْعَمَلِيَّةِ فِيمَا بَيْنَ النَّفْسِ وَالنَّفْسِ ، وَبَيْنَ النَّفْسِ وَهُمُومِهَا ، وَبَيْنَ مَا هُوَ حَقٌّ وَمَا هُوَ وَاجِبٌ ؟ .

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ الْعُجُوزُ (ن) وَقَالَ : صَلِّ عَمَّاكَ يَا بُنَيَّ بِالْحَدِيثِ الَّذِي مَضَى ، فَأَيْنَ بَلَّغْنَا إِنْفًا مِنْ أَمْرِ التَّجَدُّدِ وَالْمُجَدِّدِينَ ؟ وَمَاذَا قُلْنَا وَمَاذَا قُلْتَ ؟ أَمَا إِنَّ الْحَمَاقَةَ الْجَدِيدَةَ وَالرَّذِيلَةَ الْجَدِيدَةَ وَالْخَطَأَ الْجَدِيدَ ، كُلُّ ذَلِكَ إِنْ كَانَ جَدِيدًا مِنْ صَاحِبِهِ فَهُوَ قَدِيمٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا أَبَدًا مِنْ جَدِيدٍ إِلَّا إِطْلَاقَ الْحُرِّيَّةِ فِي اسْتِعْمَالِ كُلِّ أَدَبٍ حَقَّهُ فِي الْوَقَاحَةِ وَالْجَهْلِ وَالْخَطَأِ وَالْعُرُورِ وَالْمُكَابَرَةِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَلَيْسَ الظَّاهِرُ بِمَا يَظْهَرُ لَكَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ بِالْبَاطِنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، فَمُسْتَشْفَى الْمَجَادِبِ قَصْرٌ مِنَ الْقُصُورِ فِي ظَاهِرِهِ ، وَلَكِنْ الْمَجَادِبِ هُمْ حَقِيقَتُهُ لَا الْبِنَاءُ ، وَكُلُّ مُجَدِّدٍ عِنْدَنَا يَزْعُمُ لَكَ أَنَّهُ قَصْرٌ عَظِيمٌ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسْتَشْفَى مَجَانِنٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَجَانِنَ فِيهِ طِبَاعٌ وَشَهَوَاتٌ وَتَزَوَّاتٌ : وَعَلَى هَذَا مَا الَّذِي يَمْنَعُ الْمُجُوزَ الْمُتَوَقِّعَ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ الْأَدَبَ الْمَكْشُوفَ ؟ .

قَالَ (ن) : وَإِذَا أَنْتَ ذَهَبْتَ تَعْتَرِضُ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ زَعَمُوا لَكَ أَنَّ لِلْفَنِّ وَقَاحَةً مُقَدَّسَةً ... وَأَنَّ (لَا أَدَبِيَّةً) رَجُلٌ الْفَنِّ هِيَ (أَلَّا أَخْلَاقِيَّةً الْعَالِيَةَ) ...

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : فَوَاقِحُ الشَّهْوَةِ إِذَا اسْتَعْلَنَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْحَيَاءِ وَأَهْلِ الْفَضِيلَةِ وَدَعَتْ إِلَى مَذْهَبِهَا ، كَانَتْ تَجْدِيدًا مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ هُوَ أَقْدَمُ مَا فِي الْأَرْضِ ، إِذْ هُوَ بَعِينُهُ مَذْهَبُ كُلِّ زَوْجَيْنِ اجْتَمَعَا مِنَ الْبَهَائِمِ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْبَهَائِمَ ...

قَالَ (ن) : وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مُتَسَخِّطٍ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى النَّاسِ يُخْرِجُ مِنْ كُفْرِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ أَتَبًا جَدِيدًا ، وَفِي مَعْرُورٍ يَتَغَفَّلُ النَّاسُ ، وَفِي لَصِّ آرَاءِ ، وَفِي مُقْلَدٍ تَقْلِيدًا أَعْوَرَ - كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَشْبَاهِهِمْ مُتَبَلِّغٌ بَعْلَةٍ ، فَمَذْهَبُهُ رِسَالَةٌ عَلَيْهِ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَكُونُ ثَبَاتُهُ عَلَى الرَّأْيِ الْفَاسِدِ إِلَّا مِنْ ثَبَاتِ الْعِلَّةِ فِيهِ .

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَكُنْتُ مِنَ الْمُجَدِّدِينَ ، فَأَرْمَضَنِي ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لِلْعَجُوزَيْنِ : إِنَّ هَذَا نِصْفُ الصَّحِيحِ ، أَمَّا النِّصْفُ الْآخَرُ فَهُوَ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْتَحِلُونَ الدِّفَاعَ عَنِ الَّذِينَ وَالْفَضِيلَةَ ، نَعَمْ ، إِنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ حَقَّهُمْ فِي الْوَقَاحِ ، وَلَكِنَّ الْقُرُوشَ تَسْتَعْمِلُ حَقَّهَا ...

فَضَحِكَ الْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ! فَإِنَّ الْجَدِيدَ فِي كُلِّ حِمَارٍ هُوَ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ نَهْيَهُ مُوسِيقَى ، فَالْحِمَارُ وَالْتَهَيُّ وَالْمُوسِيقَى كُلُّ ذَلِكَ لَا جَدِيدَ فِيهِ ، وَلَكِنَّ التَّسْمِيَةَ وَخَدَهَا هِيَ الْجَدِيدَةُ ، غَيْرَ أَنَّ التَّصْدِيقَ وَالتَّكْذِيبَ هُنَا فِي آذَانِ الْمُوسِيقِيِّينَ لَا فِي حَلْقِ حِمَارِنَا الْمُخْتَرَمِ ...

قَالَ (م) : وَزَعَمُوا أَنَّ رَجُلًا نَصَبَ فَخًّا لَصِيدِ الْعَصَافِيرِ ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَتَنَظَّرَ مِنْ هَذَا الْفَخِّ إِلَى شَيْءٍ جَدِيدٍ ، فَقَالَ : يَا هَذَا ! مَا لَكَ مَطْمُورًا فِي التَّرَابِ ؟ قَالَ الْفَخُّ : ذَلِكَ مِنَ التَّوَاضُعِ لِخَلْقِ اللَّهِ ! قَالَ : فَمِمَّ كَانَ أَنْحَاؤُكَ ؟ قَالَ الْفَخُّ : ذَلِكَ مِنْ طُولِ عِبَادَتِي لِلَّهِ ؛ قَالَ : فَمَا هَذِهِ الْحَبَّةُ عِنْدَكَ ؟ قَالَ الْفَخُّ : أَعَدَدْتُهَا لِطُيُورِ اللَّهِ الصَّائِمِينَ يُفْطِرُونَ عَلَيْهَا . قَالَ الْعُصْفُورُ : فَتَبِّخُهَا لِي ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَقَدَّمَ الْمُسْكِينُ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا التَّفَطَّهَا وَقَعَ الْفَخُّ فِي عُنُقِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ يَخْتَبِقُ : إِنْ كَانَ الْعِبَادُ يَخْنُقُونَ مِثْلَ هَذَا الْخَنَقِ فَقَدْ خُلِقَ إِبْلِيسُ جَدِيدًا ...

قَالَ (ن) : فَالْحَقِيقَةُ أَنَّ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي تَجَدَّدَ لِيَصْلَحَ لِزَمَنِ الْأَلَاتِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ وَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَعَصْرِ السَّرْعَةِ وَالتَّحَوُّلِ ، وَمَا دَامَ الرُّقْيُ مَطْرِدًا وَهَذَا الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ فِي تَسْخِيرِ الطَّبِيعَةِ ، فَسَيَسْتَهِي الْأَمْرُ بِتَسْخِيرِ إِبْلِيسَ نَفْسَهُ مَعَ الطَّبِيعَةِ ... لاسْتِخْرَاجِ كُلِّ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ .

قَالَ (م) : وَلَكِنَّ الْعَجَبَ أَنَّ إِبْلِيسَ هَذَا ؛ أَتَرَاهُ انْقَلَبَ أَوْزِيًّا لِلأَوْزِيِّينَ ؟ وَإِلَّا فَمَا بَالُهُ يُخْرِجُ فِيهِمْ مُجَدِّدِينَ مِنْ جَبَابِرَةِ الْعَقْلِ وَالْخَيَالِ ، ثُمَّ لَا يُؤْتِنَانَا نَحْنُ إِلَّا مُجَدِّدِينَ مِنْ جَبَابِرَةِ التَّقْلِيدِ وَالْحَمَاقَةِ ؟ .

قَالَ الْمُحَدِّثُ : فَقُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ الْقَدِيمَانِ ! سَأَنْشُرُ قَوْلَكُمَا هَذَا لِيَقْرَأَهُ الْمُجَدِّدُونَ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَأَنْشُرُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرَّبِيعَ صَاحِبَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ، مَرَّ يَوْمًا فِي أَرْقَةِ مِصْرَ فَتَبَيَّرَتْ عَلَى رَأْسِهِ إِجَانَةٌ<sup>(١)</sup> مَمْلُوءَةٌ رَمَادًا ، فَتَزَلَّ عَنْ ذَاتِهِ وَأَخَذَ يَنْفُضُ ثِيَابَهُ وَرَأْسَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَا تَرْجُرُهُمْ ؟ قَالَ : مَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ وَصُولِحَ بِالرَّمَادِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْضَبَ ... !

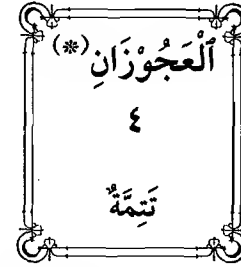
\* \* \*

ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَاسْتَوَلَى عَلَى الْعَجُوزَانِ ، وَرَأَيْتُ قَوْلَهُمَا يَغْلُزُ قَوْلِي ، وَكُنْتُ فِي السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ ، وَهِيَ سِرُّ الْحِدَّةِ الْعَقْلِيَّةِ ، فَمَا حَسِبْتَنِي مَعَهُمَا إِلَّا ثَلَاثَ عَجُوزٍ ... مِمَّا أَتَرَا عَلَيَّ ، وَأَنْقَلَبْتُ لَا أَرَى فِي الْمُجَدِّدِينَ إِلَّا كُلَّ سَقِيمٍ فَاسِدٍ ، وَاعْتَبَرْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعَلَّتِهِ ، فَإِذَا الْقَوْلُ مَا قَالَ الشَّيْخَانِ ، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ رَأْيٍ مَرِيضٍ مَرَضٌ ، وَوَرَاءَ كُلِّ اتِّجَاهٍ إِثْرَةٌ مِغْنَاطِيْسِيَّةٌ طَرَفُهَا إِلَى الشَّيْطَانِ ...

وَفَرَّغْنَا مِنْ هَذَا ، فَقُلْتُ لِلشَّيْخَيْنِ : لَقَدْ حَانَ وَقْتُ تَزُولُكُمَا مِنْ بَيْنِ الْعُلُومِ أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفَانِ ، أَمَا كُنْتُمَا فِي سَنَةِ ١٨٩٥ مِنْ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ... ؟ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَكُنْتُ قَدْ ضِغْتُ بِهِذِهِ اللَّجَاجَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ ، وَرَأَيْتُنِي مُضْطَغِنًا عَلَى الشَّيْخَيْنِ مَعًا ؛ فَقُلْتُ لِلْعَجُوزِ (ن) : حَدِّثْنِي - رَحِمَكَ اللَّهُ - بِشَيْءٍ مِنْ قَدِيمِكُمَا ، فَأَنْتُمَا اخْتَصَارٌ لِكُلِّ مَا مَرَّ مِنَ الْحَيَاةِ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَصْلِهِ الْمُطَوَّلِ إِلَّا فِي الْحُبِّ . . . وَمَا زِلْتُمَا فِي جِدِّ الْحَدِيثِ تَعَبًا بَيْنِي مُنْذُ الْيَوْمِ ، فَقَدْ عَدَلْتُمَا بَيْنِي إِلَى شَأْنِكُمَا وَرَأَيْتُمَا فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ ، وَبَقِيَ أَنْ أَمِيلَ بِكُمَا مِثْلَةً إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ، وَقَدْ وَاللَّهِ كَادَ يَنْتَحِرُ قَلْبِي بِأَسَا مِنْ خَيْرِ (كَاتَرِينَا Cathrina وَمَرْغَرَيْتِ Margarite) ؛ وَلَكَّاكَ تَخَشَى إِذْ أَعْلَمْتَنِي خَيْرَ صَاحِبَيْكَ هَذِهِ وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً - مَا تَخَافُهُ مِنْ رَجُلٍ سَيَفْجُوكَ مَعَهَا فِي الْخَلْوَةِ عَلَى حَالٍ مِنَ الرِّيْبَةِ فَيَأْخُذَكَ « مُتَلَبِّسًا بِالْجَرِيْمَةِ » كَمَا تَقُولُونَ فِي لُغَةِ الْمَحَاكِمِ . . .

قَالَ : فَضَحِكَ الْعَجُوزَانِ ، وَقَالَ (ن) : لَا وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ ! وَلَكِنِّي أَقُولُ مَا قَالَ ذَلِكَ الْحَكِيمُ الْعَرَبِيُّ لِقَوْمِهِ وَقَدْ بَلَغَ مِثْنِي سَنَةً : « قَلْبِي مُضْغَةٌ مِنْ جَسَدِي ، وَلَا أَطْنُهُ إِلَّا قَدْ نَحَلَ كَمَا نَحَلَ سَائِرَ جَسَدِي »<sup>(١)</sup> ، وَأَعْلَمَ يَا بُنَيَّ ! أَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ الْحُبُّ عَنِ الشَّيْخِ وَبَقِيَ مِنْهُ الْحَنَانُ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ ؛ فَيَحِبُّ الْعَجُوزَ مَكَانًا أَوْ شَيْئًا أَوْ مَعْنَى أَيْ ذَلِكَ كَانَ ، لِيُعِينَهُ ذَلِكَ إِلَى الدُّنْيَا أَوْ يُبْقِيَهُ فِيهَا (بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ) .

فَضَحِكَ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : وَلَعَلَّ ثُرْتَرَةَ الْعَجُوزِ (ن) هِيَ الْآنَ مَغْشُوقَةُ الْعَجُوزِ (ن) .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٥٣ ، ١٨ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ٨ يونيو/حزيران ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٩٤١ - ٩٤٤ .

(١) هُوَ أَكْثَمُ بَنِي صَنِيْعِي حَكِيمِ الْعَرَبِ ، قَالَهَا لِقَوْمِهِ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى الْكُتْمَانِ بْنِ الْكُنْدَرِ كَيْلًا يَتَكَلَّمُوا عَلَيْهِ فِي حِيلَةٍ وَلَا مَظْلَمَةٍ ؛ وَيُقَالُ : إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَفِي مَعْنَى السَّنَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ .

ثُمَّ قَالَ : وَكُلُّ شَيْءٍ يَرِيقُ فِي قَلْبِ الرَّجُلِ الْهَرَمِ وَيُحَوِّلُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ لَا يُطِيقُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَّا مَعْنَاهُ الْعَلِيْظُ ، وَلَا يَدَّ أَنْ يَخْرُجَ الْعَجُوزُ مِنْ مَعَانِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا لَا يَهْنَأُ الشَّيْخُ إِلَّا إِذَا عَاشَ بِأَفْكَارِ جِسْمِهِ الْحَاضِرِ ، وَقَدَّرَ الْأُمُورَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ لَا عَلَى مَا كَانَ فِيهِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ جِسْمِهِ الْحَاضِرِ وَجِسْمِهِ الْمَاضِي أَنَّ هَذَا الْمَاضِي كَانَتْ تَحْمِلُهُ أَعْضَاؤُهُ ، فَهُوَ مُجْتَمِعٌ مِنْ أَعْمَالِهَا وَشَهَوَاتِهَا ، مَاضٍ فِي تَحْقِيقِ جُودِهَا وَمَعَانِيهَا ؛ أَمَّا الْحَاضِرُ ، أَمَّا الْجِسْمُ الْهَرَمُ ، فَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّهُ يَحْمِلُ أَعْضَاءَهُ كُلَّهَا وَكَأَنَّهَا مَلْفُوقَةٌ فِي ثِيَابِهِ كَمَتَاعِ الْمُسَافِرِ قَبْلَ السَّفَرِ . . . وَكَأَنَّ بَعْضَهَا يُسَلِّمُ عَلَى بَعْضِ سَلَامِ الْوَدَاعِ يَقُولُ : تَفَارِقْنِي وَأَفَارِقْكَ<sup>(١)</sup> .

فَتَمَلَّلَ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : أَتُفْ لَكَ وَلِمَا تَقُولُ ! لَا جَرَمَ أَنَّ هَذِهِ لُغَةُ عِظَامِكَ الَّتِي لَا صَلَابَةَ فِيهَا ، فَمِنْ ذَلِكَ لَا تَجِيءُ مَعَانِيكَ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا وَاهِنَةً نَاحِلَةً فَقَدَتْ أَكْثَرَهَا وَبَقِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ النَّهَائَةِ ، أَلَيْسَ فِي الْهَرَمِ إِلَّا أَنْ يَبْقَى الْجِسْمُ لِيَكُونَ ظَاهِرًا فَقَطْ كَعُمْشُوشِ الْعُقُودِ<sup>(٢)</sup> بَعْدَ ذَهَابِ الْحَبِّ مِنْهُ ، يَقُولُ : كَانَ هُنَا وَكَانَ هُنَا .

أَلَا فَاعْلَمْ يَا (ن) أَنَّ هَذِهِ الشَّيْخُوخَةُ إِنَّمَا هِيَ غَلَبَةُ رُوحَانِيَّةِ الْجِسْمِ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ ، فَهَذَا طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِ الْحَيَاةِ لَا تَدْعُهُ الْحَيَاةُ إِلَّا وَفِيهِ لَذَّتُهُ وَسُرُورُهُ كَمَا تَصْنَعُ بِسَائِرِ أَطْوَارِهَا ، غَيْرَ أَنَّ لَذَاتِهِ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَمَالِ ، وَمَسَرَاتِهِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَكُلُّ مَا نَقَصَ مِنَ الْعُمْرِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةً فِي إِذْرَاكِ الرُّوحِ وَقُوَّتِهَا وَشِدَّتِهَا وَنُورِهَا ، وَقِيلَ لِبَعْضِ أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ وَكَانَ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ : كَيْفَ تَجِدُ الْعِلَّةَ ؟ فَقَالَ : سَلُّوا الْعِلَّةَ عَنِّي كَيْفَ تَجِدُونِي ؟

وَأِنَّمَا تَقْفُلُ الشَّيْخُوخَةُ عَلَى صَاحِبِهَا إِذَا هِيَ أَنْتَكَسَتْ فِيهِ وَكَانَتْ مُرَاعِمَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ

(١) فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « إِنَّ الْمَبْدَ لَيَمَالِجُ كَرَبَ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيَسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، تَقُولُ : عَلَيْكَ السَّلَامُ ، وَتَفَارِقْنِي وَأَفَارِقْكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » [قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » : رويناه في « الأربعين » لأبي هذبة إبراهيم بن هذبة ، عن أنس بن مالك . انتهى . وراجع « كنز العمال » ، رقم : ٤٢١٨٣] .

(٢) هُوَ مَا يَبْقَى مِنَ الْعُقُودِ بَعْدَ أَكْلِ مَا فِيهِ مِنَ الْحَبِّ .

الْحَيَاةِ ، فَيُطَمَعُ الشَّيْخُ فِيمَا مَضَى وَلَا يَزَالُ يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيَتَسَخَّطُ عَلَى ذَهَابِهِ وَيَتَصَبَّحُ لَهُ وَيَتَكَلَّفُ أَسْبَابَهُ ، وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ الْحَيَاةَ رَذْنَةُ طِفْلاً كَالطِّفْلِ ، أَكْبَرُ سَعَادَتِهِ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْأَشْيَاءِ الصَّغِيرَةِ الْبَرِيَّةِ ، وَأَفْوَى لَذَنِهِ أَنْ يَتَّفِقَ الْجَمَالَ الَّذِي فِي خَيَالِهِ وَالْجَمَالَ الَّذِي فِي الْكَوْنِ ، وَإِنَّهُ لَكَمَا قُلْتَ أَنْتَ : لَا يَهْنَأُ الشَّيْخُ إِلَّا إِذَا عَاشَ بِأَفْكَارِ جِسْمِهِ الْحَاضِرِ .

وَمَا أَصْدَقَ وَأَحْكَمَ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِعَذْلِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ فِي الرُّضَى وَالْيَقِينَ ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسَّخَطِ» [«مجمع الزوائد» ، رقم : ١٦٢٩١] . فَهَلْذِهِ هِيَ قَاعِدَةُ الْحَيَاةِ : لَا تُعَامِلِكَ الْحَيَاةُ بِمَا تَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ بِمَا تَمْلِكُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ السَّعَادَةُ حَقِيقَةً مُمَكِّنَةً مُوجُودَةً ، بَلْ تَكُونُ فِي كُلِّ مَا أَمْتَكَنَ وَكُلِّ مَا وَجِدَ ، وَإِذَا كَانَ الرُّضَى هُوَ الْأَتْفَاقُ بَيْنَ النَّفْسِ وَصَاحِبِهَا ، وَكَانَ الْيَقِينَ هُوَ الْأَتْفَاقُ بَيْنَ النَّفْسِ وَخَالِقِهَا ، فَقَدْ أَصْبَحَ قَانُونُ السَّعَادَةِ شَيْئًا مَعْنَوِيًّا مِنْ فَضِيلَةِ النَّفْسِ وَإِيمَانِهَا وَعَقْلِهَا ، وَمِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي فِيهَا ، لَا شَيْئًا مَادِّيًّا مِنْ أَعْضَائِهَا وَمَتَاعِهَا وَدُنْيَاهَا وَالْأَخِيلَةِ الْمُتَقَلِّبَةِ عَلَيْهَا .

\* \* \*

فَأَطْرَقَ الْعُجُوزُ (ن) قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [١٩ سورة مريم/ الآية : ٤] أَلَا مَا أَحْكَمَ هَذِهِ الْآيَةَ ! فَوَاللَّهِ إِنْ قَرَأْتُ وَلَا قَرَأَ النَّاسُ فِي تَصَوُّرِ الْهَرَمِ الْفَائِي أَبْدَعَ مِنْهَا وَلَا أَذَقُ وَلَا أَوْفَى ، أَلَا تُحْسِنُ أَنْ قَاتِلَهَا بِكَادُ يَنْفُطُ مِنْ عَجْفٍ وَهَزَالٍ وَإِعْيَاءٍ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ قَائِمًا فِي الْحَيَاةِ قِيَامَهُ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَأَنْ تَنَافَضَ هَذِهِ الْحَيَاةُ قَدْ وَقَعَ فِي جِسْمِهِ فَأَخْلَ بِهِ ، وَأَنْ مَعَارِي التُّرَابِ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِهَذَا الْجِسْمِ تَعَمَّلَ فِيهِ عَمَلُهَا ، فَأَخَذَ يَتَفَتَّشُ كَأَنَّمَا لَمَسَ الْقَبْرَ عِظَامَهُ وَهُوَ حَيٌّ ، وَأَنَّهُ بِهَذَا كُلِّهِ أَوْشَكَ أَنْ يَنْكَسِرَ انْكَسَارَ الْعَظْمِ بَلَّغَ الْمَبْرَدُ فِيهِ آخِرَ طَبَقَاتِهِ ؟

قَالَ مُحَدِّثُنَا : فَقُلْتُ لَهُ لَوْ أَنَّ نَابِعَةً مِنْ نَوَائِجِ التَّصَوُّيرِ فِي زَمَانِنَا هَذَا ، تَنَازَلَ بِفَتْهِ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْعَجِيبَ فَكَتَبَتْهُ صُورَةً وَأَلْوَانًا ، لَا أَحْرَفًا وَكَلِمَاتٍ ، فَكَيْفَ تَرَاهُ يَصْنَعُ ؟

قَالَ : كَانَ يَصْنَعُ هَكَذَا : يَرْسُمُ مَنْظَرَ الشِّتَاءِ فِي سَمَاءٍ تَعَلَّقَ سَحَابُهَا كَيْفَمَا مُمَرَّاجًا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ يُخَيَّلُ أَنَّ السَّمَاءَ تَدْنُو مِنَ الْأَرْضِ ، وَقَدْ سَدَّتِ السُّحُبُ الْأَفَاقَ وَأَظْلَمَ بِهَا

الْجَوْ ظِلَامَهُ تَحْتَ الْفَهَارِ الْمُغَطَّى ، وَاسْتَطَارَتْ بَيْنَهَا وَشَائِعٍ مِنَ الْبَرَقِ ، ثُمَّ يَتْرُكُ مِنَ الشَّمْسِ جَانِبَ الْأَفْقِ لَمَعَةً كَضَوْءِ الشَّمْعَةِ فِي فُتُوهِ السَّحَابِ ، ثُمَّ يَرْسِلُ فِي الصُّورَةِ رِيحًا بَارِدَةً هَوَّجَاءَ ، يَذُلُّ عَلَيْهَا أَنْحَاءَ الشَّجَرِ وَتَقْلُبُ الْكِبَابَ ؛ ثُمَّ يَرْسِمُ رِجَالًا وَنِسَاءً يَغْلِي السَّابَاتُ فِيهِمْ غَلِيَانُهُ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَحُبِّ وَصَبَابَةٍ ، وَتَغْلِي فِيهِمْ أَفْكَارُ أُخْرَى ... وَهُمْ جَمِيعًا فِي هَيْئَةِ الْمُسْرِعِينَ إِلَى مَرْقَصٍ ؛ وَهُمْ جَمِيعًا مِنَ الْمُجْدِّدِينَ ...

ثُمَّ يَرْسُمُ يَا بُنَيَّ فِي آخِرِهِمْ (عَلَى بُعْدِ مِنْهُمْ) عَمَكَ الْعُجُوزَ (ن) ، يَرْسُمُهُ كَمَا تَرَاهُ ، مُنْخَلَّ الْقُوَّةَ ، مُنْخَبِي الصُّلْبِ ، مُزْعَسًا مُتَزَلِّزًا مُتَضَعِّضًا ، قَدْ زَغَرَعَتْهُ الرِّيحُ ، وَضَرَبَتْهُ الْبَرْدُ ، وَخَفَّتْهُ السُّحُبُ ؛ وَلَهُ وَجْهٌ عَلَيْهِ ذُبُولُ الدُّنْيَا ، يُشِيرُ أَنَّ دَمَهُ قَدْ وَضِعَ مِنْ جِسْمِهِ فِي بَرَادَةٍ ، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ أَسْبَابُ رُؤْمَاتِهِم RHEUMATISM (١) ...

ثُمَّ يُصَوِّرُهُ وَقَدْ وَقَفَ هُنَاكَ سَاهِمًا كَثِيئًا ، رَافِعًا رَأْسَهُ يُنْظَرُ إِلَى السَّمَاءِ .

\* \* \*

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ، ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : لَعَمْرِي إِنْ هَذِهِ الْحَيَاةُ الْأَدَمِيَّةُ كَالآلَةِ صَاحِبِهَا مُهَنْدِسُهَا ؛ فَإِنْ صَلَحَتْ وَاسْتَقَامَتْ فَمِنْ عِلْمِهِ بِهَا وَحَيَاتِيَّهَا ، وَإِنْ فَسَدَتْ وَاخْتَلَّتْ فَمِنْ عَيْبِهَا فِيهَا وَإِهْمَالِهَا ، وَلَيْسَ عَلَى الطَّبِيعَةِ فِي ذَلِكَ سَبِيلٌ لَا ئِمَّةٌ ؛ وَالشَّيْخُ الضَّعِيفُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا الصُّورَةُ الْهَزْلِيَّةُ لِمَفَاسِدِ شَبَابِهِ وَضَعْفِهِ وَلَيْبِهِ وَدَعَتِهِ ، تُظْهِرُهَا الدُّنْيَا لِيَسْخَرَ مِنْ يَسْخَرُ وَيَتَعَطَّى مَنْ يَتَعَطَّى .

قَالَ (ن) : أَكْذَلِكَ هُوَ يَا أُسْتَاذُ ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ : بَلْ هِيَ الصُّورَةُ الْجَدِيدَةُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي دَأَبُهَا أَلَّا تُصَرِّحَ عَنْ حَقِيقَتِهَا إِلَّا فِي الْآخِرِ ، فَتُظْهِرُهَا الدُّنْيَا لِجَلِّ الْحَقِيقَةِ مِنْ يُجَلُّهَا ، وَلَيْسَ إِلَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُعْرِفُ مِنْ خَرَابِ الصُّورَةِ خَرَابَ الْمَعْنَى .

قَالَ الْعُجُوزُ (ن) : آه مِنْ إِجْلَالِ الشَّيْخُوخَةِ وَآخِرَامِ النَّاسِ إِثَابًا ! إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ آخِرًا مَا لِلشَّيْخِ وَالشَّيْخُ لَا يَرَاهُ إِلَّا تَعَزِيَةً . وَمَا الْأَشْيَاخُ الْهَرَمَى إِلَّا جَنَازَاتٌ قَبْلَ وَفْتِهَا ، لَا تُؤْجِنِ

(١) تَرْجَمَ الْيَوْمَ بِهِ الرِّثْيَةُ ، أَوْ ذَاءَ الْبَهَابِ الْمَفَاصِلِ الرَّثَوِيَّ . بِسَام .

إِلَى النَّاسِ شَيْئًا غَيْرَ وَحْيِ الْجَنَازَةِ مِنْ مَهَابَةِ وَخُشُوعِ .

قَالَ الْأَسْنَدُ : إِنَّمَا أَنْتَ دَائِمًا فِي حَدِيثِ نَفْسِكَ مَعَ نَفْسِكَ ، وَلَوْ كُنْتَ نَهْرًا يَا مُسْتَنْقَعُ لَمَا كَانَ فِي لَعْنِكَ هَذِهِ الْأَحْرَفُ مِنَ الْبُعُوضِ .

قَالَ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ : إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي نَتَنَازَعُهَا بَيْنَنَا ، تَرُدُّ عَلَيَّ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ الْقَانُونِ الَّذِي لَكَ وَحْدَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ أَهْلُهَا الْقَاضِي .

قَالَ (م) : صَرَّحَ وَبَيَّنَ فَمَا فَهَمْنَا شَيْئًا .

قَالَ الْعَجُوزُ : هَذَا كَلَامٌ قُلْتُهُ قَدِيمًا فِي حَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ ؛ فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ قَضِيَّةٌ شَيْخِ هَرِمٍ كَانَ قَدْ سَرَقَ دَجَاجَةً ؛ وَتَوَسَّمْتُهُ فَإِذَا هُوَ مِنْ أَذْكَى النَّاسِ ، وَإِذَا هُوَ يَجُلُّ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ الْتُّهْمَةِ ، وَلَكِنْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ سَرَقَ ، وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَيْهِ وَوَجَبَ الْحُكْمُ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! أَمَا تَسْتَحْيِي وَأَنْتَ شَائِبٌ أَنْ تَكُونَ لَصًا ؟

قَالَ : يَا سَيِّدِي الْقَاضِي ! كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي : أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَجُوعَ ؟

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِنْ جَوَابِهِ مَا حَبَّرَنِي ، فَقُلْتُ لَهُ : وَإِذَا جُعْتَ أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَسْرِقَ ؟

قَالَ : يَا سَيِّدِي الْقَاضِي ! كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي : وَإِذَا جُعْتَ أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَأْكُلَ ؟

فَكَانَتْ هَذِهِ أَشَدَّ عَلَيَّ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَإِذَا أَكَلْتَ أَمَا تَأْكُلُ إِلَّا حَرَامًا ؟

فَقَالَ : يَا سَيِّدِي الْقَاضِي ! إِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيَّ مُخْتَاجًا لَا أَجِدُ شَيْئًا ، لَمْ تَرْنِي سَارِقًا حِينَ وَجَدْتُ شَيْئًا .

فَأَفْحَمَنِي الرَّجُلُ عَلَى جَهْلِهِ وَسَدَاجَتِهِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَوْ سَرَقَ أَفْلَاطُونُ Platon لَكَانَ مِثْلَ هَذَا ؟ فَتَرَكْتُ الْكَلَامَ بِالْفَلَسَفَةِ وَتَكَلَّمْتُ بِالْقَانُونِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ الرَّجُلُ مَعَهُ قَوْلًا يُرَاجِعُنِي بِهِ ، فَقُلْتُ : وَلَكِنَّكَ جِئْتَ إِلَى هَذِهِ الْمَحْكَمَةِ بِالسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبُ مِنْ هَذِهِ الْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِالسَّجْنِ سِتْنَيْنِ .

\* \* \*

قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَأَرَضَيْنِي هَذَا الْعَجُوزُ الثَّرَوِيُّ وَمَلَأَ صَدْرِي ، إِذْ مَا بَرَحَ يُدِيرُنِي وَأُدِيرُهُ عَنْ كَاثَرِينَا Cathrine وَمَرْغَرِيَّتِ Margarite ، وَرَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ هَرِمَ فِيهِ إِلَّا لِسَانَهُ ،

فَحَمَلَنِي الضَّجْرُ وَالطَّيْنُ عَلَى أَنْ قُلْتُ لَهُ : وَهَبِ الْقَضِيَّةَ كَانَتْ هِيَ قَضِيَّةَ كَاثَرِينَا Cathrine وَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْكَ مُتَّهَمَةً ، أَكُنْتُ قَائِلًا لَهَا : جِئْتَ إِلَى الْمَحْكَمَةِ بِالسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبِينَ مِنَ الْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِالْحَبْسِ سِتْنَيْنِ ؟

وَجَرَّتِ الْكَلِمَةُ عَلَى لِسَانِي وَمَا أَلْفَيْتُ لَهَا بَالًا وَلَا عَرَفْتُ لَهَا خَطَرًا ؛ فَأَكْفَهَرَّ الْقَاضِي الْعَجُوزُ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ غَضَبًا ، وَقَالَ : يَا بَغِيضُ ! أَحْسِبْتَنِي كُنْتُ قَائِلًا لَهَا : جِئْتَ إِلَى الْمَحْكَمَةِ بِالسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبِينَ مِنَ الْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِالْقَاضِي ...

وَعَضِبَ الْأَسْنَدُ (م) وَقَالَ : وَنَحَكَ ! أَهَذَا مِنْ أَدَبِكُمْ الْجَدِيدِ الَّذِي تَأْدَبْتُمْ بِهِ عَلَى أَسَانِدَةٍ مِنْهُمْ الْفَجْرَةُ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِدِينِ الْغَرِيزَةِ وَيُسَوِّغُونَكُمْ مَذَاهِبَ الْحَمِيرِ وَالْغِيَالِ فِي حُرِّيَةِ الدَّمِ ... ؟ أَمَا إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ نَشَأْتُمْ عَلَى حُرِّيَةِ الرَّأْيِ ، وَلَكِنَّ الْكَلِمَةَ بَيْنَ اثْنَيْنِ لَا تَكُونُ حُرَّةً كُلَّ الْحُرِّيَةِ إِلَّا وَهِيَ أَحْيَانًا سَفِينَةٌ كُلَّ السَّفَاهَةِ كَهَلْدِهِ الْقَوْلَةُ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا .

لَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِي زَمَانِ الْمَاضِي أَنَاسًا عَلَى حِدَةٍ ، وَكَانَتْ آدَابُ حَالَاتٍ عَقْلِيَّةً ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَكَانَ الْأَسْنَدُ الْكَافِرُ يَبْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ لَا يَكُونُ مَعَ تَلَامِيذِهِ إِلَّا كَالْمُوسَى : تَجْهَدُ أَنْ تُرَبِّي بَنَتَهَا عَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهَا !

قَالَ الْمُحَدِّثُ : فَلَجَلَجْتُ وَذَهَبْتُ أَعْتَدِرُ ، وَلَكِنَّ الْعَجُوزَ (ن) قَطَعَ عَلَيَّ وَأَنْشَأَ يَقُولُ وَقَدْ أَنْفَجَرَ غَيْظُهُ : لَقَدْ تَمَّتْ فِي هَؤُلَاءِ صِنْعَةُ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ ، كَمَا تَمَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي ذَلِكَ الْوَاعِظِ الْمُعَلِّمِ الْقَدِيمِ الَّذِي حَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْصُرُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ كُلِّ أَرْبَعَاءٍ (١) فَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيُعِظُهُمْ وَيُحَدِّثُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ اللَّهَ وَجَنَّتَهُ وَنَارَهُ ؛ قَالُوا : فَاحْتَسَسَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَطَالَ أَنْتِظَارُهُمْ لَهُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُ فَقَالَ : يَقُولُ لَكُمْ أَبُو كَعْبٍ : أَنْصَرِفُوا فَإِنِّي أَصْبَحْتُ مَخْمُورًا ...

هَذَا الْقَاصُ الْمَخْمُورُ هُوَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ السُّخَفَاءِ إِمَامٌ فِي مَذْهَبِ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ ، وَفَضِيلَتُهُ

(١) هُوَ أَبُو كَعْبٍ الْقَاصُ ، ذَكَرَهُ الْجَاهِظُ فِي «الْحَيَوَانِ» وَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يَقْصُرُ كُلَّ أَرْبَعَاءٍ فِي مَسْجِدِ عَتَابٍ بِالْبَصْرَةِ .

عِنْدَهُمْ أَنَّهُ صَرِيحٌ غَيْرُ مُتَافِيٍّ ... وَكَانَ يَكُونُ<sup>(١)</sup> هَذَا قَوْلًا فِي إِمَامِ الْمَسْجِدِ لَوْلَا أَنَّهُ إِمَامُ الْمَسْجِدِ ؛ غَيْرَ أَنَّ حُرِّيَّةَ الْفِكْرِ تُبْنَى دَائِمًا فِي كُلِّ مَا تُبْنَى عَلَى غَيْرِ الْأَصْلِ ، وَعِنْدَهَا أَنَّ الْمَنْطِقَ الَّذِي مَوْضُوعُهُ مَا يَجِبُ ، لَيْسَ بِالْمَنْطِقِ الصَّحِيحِ ؛ إِذَا لَا يَجِبُ شَيْءٌ مَا دَامَ مَذْهَبُهَا الْإِطْلَاقُ وَالْحُرِّيَّةُ .

كُلُّ مُفْتُونٍ مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْعَالِمَ لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ مِنْ تَفْكِيرِهِ كَمَا مَرَّ مِنْ إِرَادَةِ الْخَالِقِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ سَخِيفَةٍ تَجْعَلُهُ يَحْكُمُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ : (كُنْ) وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا جَهْلُهُ ؛ وَمَذْهَبُهُ الْأَخْلَاقِيُّ : أَطْلُبْ أَنْتَ الْقُوَّةَ لِلْمَجْمُوعِ ، أَمَّا أَنَا فَالْتِمَسْ لِنَفْسِي الْمُنْتَفَعَةَ وَاللَّذَّةَ ! وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ الْمُجْتَمَعَ ؛ فَإِنَّهُمْ لَيَحْمِلُونَهُ وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَةِ الْبَرَاغِيثِ فِي جَنَاحِ النَّسْرِ .

قَالَ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْبَرَاغِيثِ اتَّصَلَتْ بِجَنَاحِ نَسْرِ عَظِيمٍ وَاسْتَمَرَّتْ وَرَعَتْ فِيهِ ، فَصَابِرَهَا النَّسْرُ زَمَنًا ، ثُمَّ تَأَذَّى بِهَا ، وَأَرَادَ أَنْ يَزِمِيهَا عَنْهُ ، فَطَفِقَ يَخْفِقُ بِجَنَاحَيْهِ يُرِيدُ نَفْضَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ الْبَرَاغِيثُ : أَيُّهَا النَّسْرُ الْأَحْمَقُ ! أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ فِي جَنَاحَيْكَ لِنَحْمِلَكَ فِي الْجَوِّ ...

أَمَّا أَسَاتِذَةُ هَذِهِ الْحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ ، فَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ : إِنَّ بَعْرَةَ مِنَ الْبَعْرِ كَانَتْ مُعَلِّمَةً فِي مَدْرَسَةٍ !

قَالَ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ بَعْرَةَ كَبِشٍ كَانَتْ مُعَلِّمَةً فِي مَدْرَسَةِ الْحَصَى ، فَالْقَلْتُ لِتَلَامِيذِهَا كِتَابًا أَحْكَمْتَهُ وَأَطَالْتُ لَهُ الْفِكْرَةَ ، وَبَلَغْتُ فِيهِ جَهْدَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ لِنُظْهِرَ عَقَرِيَّتَهَا الْجَبَّارَةَ ، فَكَانَ الْبَابُ الْأَكْبَرُ فِيهِ أَنَّ الْجَبَلَ خُرَافَةٌ مِنَ الْخُرَافَاتِ ، لَا يَسُوعُ فِي الْعَقْلِ الْخُرُ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَصِحُّ غَيْرُ هَذَا فِي الْمَنْطِقِ . قَالَتْ : وَالْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْجَبَلَ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَكُونُ فِي قَدْرِ الْكَبِشِ الْكَبِيرِ أَلْفَ أَلْفٍ مَرَّةً ؛ فَإِذَا كَانَ الْجَبَلَ فِي قَدْرِ الْكَبِشِ أَلْفَ أَلْفٍ مَرَّةً ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَبْعُرَهُ الْكَبِشُ ... ؟

(١) هَلِ الصَّوَابُ : « وَكَادَ يَكُونُ » ؟ بَشَام .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : هَذَا مَنْطِقُ جَدِيدٍ سَدِيدٌ لَوْلَا أَنَّهُ مَنْطِقُ بَعْرَةٍ !

قَالَ (ن) : وَكُلُّ قَدِيمٍ لَهُ عِنْدَهُمْ جَدِيدٌ . فَكَلِمَةُ (رَجُلٍ) قَدْ تَخَشَّتْ ، وَكَلِمَةُ (شَابٍ) قَدْ تَأَثَّتْ ، وَكَلِمَةُ (عَقِيقَةٍ) قَدْ تَدَنَسَتْ ، وَكَلِمَةُ (حَيَاءٍ) قَدْ تَنَجَّسَتْ ؛ وَالزَّمَنُ الْجَدِيدُ أَلَّا يَعْرِفَ الطَّالِبُ فِي هَذَا الْعَامِ مَاذَا تَكُونُ أَخْلَاقُهُ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ ... وَالْحَيَاةُ الْجَدِيدَةُ أَنْ تُنْقَرِ الْعُشَّ أَكْثَرَ تَنْقَرُ الْعَمَلُ ... وَالذَّمَّةُ الْجَدِيدَةُ أَنْ مَالَ غَيْرِكَ لَا يُسَمَّى مَالًا إِلَّا حِينَ يَصِيرُ فِي يَدِكَ ... وَالصَّدَقُ الْجَدِيدُ أَنْ تَكْذِبَ مِثْلَ مَرَّةٍ ، فَعَسَى أَنْ يُصَدِّقَ النَّاسُ مِنْهَا مَرَّةً ... ثُمَّ الْإِنْسَانُ الْجَدِيدُ ، وَالْحُبُّ الْجَدِيدُ ، وَالْمَرْأَةُ الْجَدِيدَةُ ، وَالْأَدَبُ الْجَدِيدُ ، وَالْأَبْنُ الْجَدِيدُ ، وَمَا أَذْرِي وَمَا لَا أَذْرِي !

قَالُوا : أَلْسُوْبَرْمَانُ Superman ! وَتَنَطَّعُوا فِي إِخْرَاجِ الْمَخْلُوقِ الْكَامِلِ بِغَيْرِ دِينِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، فَسَخِرَتْ مِنْهُمْ الطَّبِيعَةُ فَلَمْ تُخْرِجْ إِلَّا الْتَافِصَ أَفْحَشَ التَّقْصِ ، وَتَرَكْتَهُمْ يَغْمَلُونَ فِي النَّظَرِيَّةِ وَعَمِلَتْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ .

\* \* \*

قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَنَهَضَ الْعَجُوزُ (ن) وَهُوَ يَقُولُ : تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَا خَالِقَ هَذَا الْخَلْقِ ! لَوْ فَهِمُوا عَنْكَ لَفَهِمُوا الْحِكْمَةَ فِي أَنَّكَ قَدْ فَتَحْتَ عَلَى الْعِلْمِ الْجَدِيدِ بِالْغَارَاتِ أَلْسَامَهُ ...

قَالَ : وَلَمَّا انْصَرَفَ الْعَجُوزُ (ن) ، قُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (م) : وَلَكِنْ مَا خَبَرَ كَاتَرِينَا Cathrine وَمَرْغَرِيْتِ Margarite وَسَنَةِ ١٨٩٥ ؟

قَالَ : أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ! أَمَا أَذْرَكْتَ بَعْدُ أَنَّ الْعَجُوزَيْنِ قَدْ سَخِرَا مِنْكَ بِأَسْلُوبِ جَدِيدٍ .....



## السَّطَرُ الْأَخِيرُ مِنَ الْقِصَّةِ (\*) (١)

رَجَعْتُ إِلَى أَوْرَاقٍ قَدِيمَةٍ يَبْلُغُ عُمُرُهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ لَوَادِمًا ، تَزِيدُ قَلِيلًا أَوْ تَنْقُصُ قَلِيلًا ؛ وَجَعَلْتُ أَفْلِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا أَنَا عَلَى أَطْلَالِ الْأَيَّامِ فِي مَدِينَةِ قَائِمَةٍ مِنْ تَارِيخِي الْقَدِيمِ ، نَائِمَةٍ تَحْتَ ظِلِّمَاتِهَا الَّتِي كَانَتْ أَنْوَارَ عَهْدِ مَضَى ، وَإِذَا أَنَا مِنْهَا كَالَّذِي أَغْتَرَبَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَنْ وَطَنِ ثُمَّ أَبَ إِلَيْهِ ، فَمَا يَرَى مِنْ شَيْءٍ كَانَ لَهُ بِهِ عَهْدٌ فِي أَيَّامِ حَدَثَانِهِ وَنَشَاطِهِ إِلَّا انْقَصَلَ بَيْنَهُمَا سِرٌّ ، وَمِنْ طَبِيعَةِ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ فِي حَيْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِ كَأَنَّهُ ذُو قَلْبٍ مِثْلِهِ لَهُ حَيْنٌ وَتَجَوَّى !

وَذَلِكَ التَّلَاشِي الْمَخْفُوظُ فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ ، يَحْفَظُ لِي فِيهَا فِيمَا تَخَوَّنِيهِ نَفْسِي وَطَبِيعَتِي كَأَنَّهُ نَفْسُ شَاعِرٍ وَطَبِيعَةُ رَوْضَةٍ ، فِي عَهْدٍ مِنَ الصَّبَا كُنْتُ فِيهِ أَتَقَدَّمُ فِي الشَّبَابِ وَفِي الْكُنُونِ مَعًا ، كَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُخْلَقُ فِيَّ خَلْقًا آخَرَ ؛ فَإِذَا قَرَضْتُ شِعْرًا وَاسْتَوَى لِي عَلَى مَا أَحْبَبْتُ ، أَحْسَسْتُ إِحْسَاسَ الْمَلِكِ الَّذِي يَضُمُّ إِلَى مَمْلَكَتِهِ مَدِينَةً جَدِيدَةً ، وَإِذَا تَنَاوَلْتُ طَاقَةً مِنَ الزَّهْرِ وَتَأَمَّلْتُهَا عَلَى مَا أَحْبَبْتُ ، شَعَرْتُ بِهَا كَأَجْمَلِ غَايَةِ مِنَ النِّسَاءِ تُوحِي إِلَيَّ وَخِي الْجَمَالِ كُلِّهِ ، وَإِذَا وَقَفْتُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، تَرَجَّحَ الْبَحْرُ بِأَمْوَاجِهِ فِي نَفْسِي ، فَكُنْتُ مَعَهُ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ وَأَوْسَعَ مِنَ السَّمَاءِ . أَمَّا الْحُبُّ ؟ ... أَمَّا الْحُبُّ فَكَانَتْ لَهُ مَعَانِيهِ الصَّغِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَضْرُوبَاتِ الطُّفْلِ لِلطُّفْلِ ؛ لَيْسَ فِيهَا كَبِيرُ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّ فِيهَا أَكْبَرُ السَّعَادَةِ ، وَفِيهَا نَضْرَةُ الْقَلْبِ .

عَهْدٌ مِنَ الصَّبَا كَانَتْ فِيهِ طَرِيقَةُ الْعَقْلِ مِنْ طَرِيقَةِ الْحُلُمِ ؛ وَكَانَتْ الْعَاطِفَةُ هِيَ عَاطِفَةُ فِي النَّفْسِ ، وَهِيَ فِي وَقْتٍ مَعًا خُدْعَةٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ ؛ وَكَانَ مَا يَأْتِي يُنْسِي دَائِمًا مَا مَضَى وَلَا يُذَكِّرُ بِهِ ، وَكَانَتْ الْأَيَّامُ كَالْأَطْفَالِ السُّعْدَاءِ : لَا يَتَأَمُّ أَحَدُهُمْ إِلَّا عَلَى فِكْرَةٍ لَعِبَ وَلَهُوَ ،

(\*) « الرسالة » العدد : ٧٨ ، ٢٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ = ٣١ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ٢١٢٣ - ٢١٢٦ .

(١) أَنْظَرُ « قِصَصُ الرَّافِعِيِّ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْمُزَيَّانِ .

وَلَا يَسْتَقِظُ إِلَّا عَلَى فِكْرَةٍ لَهُوَ وَلَعِبٌ ؛ وَكَانَتْ اللَّعَةُ نَفْسُهَا كَأَنَّ فِيهَا أَلْفَاظًا مِنَ الْحُلُوفِ ، وَكَانَتْ الْأَلَامُ - عَلَى قَلْبِهَا - كَالْمَرِيضِ الَّذِي مَعَهُ دَوَاؤُهُ الْمُجَرَّبُ ، وَكَانَتْ فَلَسَفَةُ الْجَمَالِ تَضْحَكُ مِنْ فَيْلَسُوفِهَا الصَّغِيرِ ، الْوَاضِحُ كُلُّ الْوَاضِحِ الْمُقْتَصِرُ بِكُلِّ لَفْظٍ عَلَى مَا يُعْرِفُ مِنْ مَعْنَاهُ ، الْمُتَفَلِّسُ فِي تَخْفِيفِ الرَّغْبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَفَلَّسُ فِي تَخِيلِ الْفِكْرَةِ !

هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي مِنْ أَحْصَى خَصَائِصِهِ أَنْ تَعْمَلَ ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ فِي نَفْسِهِ عَمَلًا ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِكَ لَذَّةً .

\* \* \*

فِي أَوْرَاقِي تِلْكَ بَحْثٌ عَنْ قِصَّةِ عُثْوَانِهَا « الدَّرْسُ الْأَوَّلُ فِي عُثْوَانِ كِبَرِيَّتِ » كَتَبْتُهَا فِي سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَأَنَا لَا أَذْرِي يَوْمَئِذٍ أَنَّهَا قِصَّةٌ يَسْنَحُ فِي جَوْهَا قَدَرُ رَوَائِي عَجِيبٌ ، سَيَأْتِي بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً فَيَكْتُبُ فِيهَا السَّطَرُ الْأَخِيرُ الَّذِي تَتِمُّ مَعَهُ فَلَسَفَةُ مَعْنَاهَا .

وَهَلَّاذَا أَنْشَرَهَا كَمَا كَتَبْتُهَا ، وَكَانَ هَذَا الْقَلَمُ إِذْ ذَلِكَ غَضًّا لَمْ يَصْلُبْ ، وَكَانَ كَالْغُضَنِ تَمِيلُ بِهِ السَّيْمَةُ ، عَلَى أَنَّ أَسَاسَ بَلَغَتِهِ قَدْ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ ، بَلَغَةُ فَرَحِهِ أَوْ بَلَغَةُ حُزْنِهِ ، وَهَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ :

« عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الرَّحِيمِ » غُلَامٌ فَلَّاحٌ ، قَدْ شَهِدَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا نِسْعَةَ أَعْوَامٍ ، مَرَّتْ بِهِ كَمَا يَمُرُّ الزَّمَنُ عَلَى مَيِّتٍ : لَا تَزِيدُهُ حَيَاةُ الْأَحْيَاءِ إِلَّا إِهْمَالًا ، فَتَشَأْ مَشَأَ أَمْتَالِهِ مِمَّنْ فَقَدُوا أَلْوَالِدَيْنِ ، وَأَنْتَزَعُوا مِنْ شَمْلِهِمْ فَتَرَكُوا لِلطَّبِيعَةِ تَفْصِيلُهُمْ وَتَصْلُهُمْ بِالْحَيَاةِ ، وَتَضَيُّقُ لَهُمْ فِيهَا وَتَوْسُّعٌ .

وَهَيَاتِ الطَّبِيعَةُ مِنْهُ إِنْسَانًا حَيَوَانِيًّا ، لَا يَبْلُغُ أَشَدَّهُ حَتَّى يُغَالِبَ عَلَى الرِّزْقِ بِالْجَبَلَةِ أَوْ الْجَرْنِمَةِ ، وَيَسْتَخْلِصَ قُوَّتَهُ كَمَا يَزْتَرِقُ الْوُحْشُ بِالْمِخْلَبِ وَالْكَابِ ؛ وَلَكِنْ يَكُونُ بَعْدَ إِلَّا مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْفَاتِكَةِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ مَتَى أَبْدَأَتْ عَمَلَهَا فِي تَحْوِيلِ الْإِنْسَانِ عَنْ إِنْسَانِيَّتِهِ ، تَزَلَّتْ بِهِ إِلَى الْعَالَمِ الْحَيَوَانِيِّ ، وَوَصَلَتْهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَالذَّلَاةِ ، ثُمَّ لَا تَتْرُكُ عَمَلَهَا حَتَّى يَتَحَوَّلَ هُوَ إِلَيْهَا .

وَأَلَفَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » فِي بَلَدِهِ حَانُوتَ رَجُلٍ فَقِيرٍ ، يَسْتَغْنِي بِالْبَيْعِ عَنِ التَّكْفُفِ وَعَنِ

الْمَسْأَلَةِ ؛ فَكَانَ الْغُلَامُ يُخَيِّرُ الْوُقُوفَ عِنْدَهُ ، وَكَانَ يَطْعَمُ مِنْ صَاحِبِهِ أحيانًا كَرَزَقِ الطَّيْرِ ، فَنَاتًا وَبَقَايًا ؛ إِذْ كَانَ الْغُلَامُ شَخَاذًا ، وَكَانَ صَاحِبُ الْحَانُوتِ لَا يَرْتَفِعُ عَنِ الشَّحَاذَةِ إِلَّا بِمَنْزِلَةٍ تَجْعَلُ النَّاسَ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ بِالشَّرَاءِ مِنْ هَنَاتِهِ الَّتِي يُسَمِّيهَا بِضَاعَةً : كَالْخَيْطِ ، وَالْإِبْرَةِ ، وَالْكَبْرِيتِ ، وَالْمِلْحِ ، وَغَزَالِ الْوَلَدِ ، وَكُخْلِ اللَّصْبَايَا ، وَتَشْوِقٍ لِلْعَجَائِزِ نُسَخَةٍ الشَّيْخِ الشَّعْرَانِي ، وَمَا لَفَّ لَفْهَا مِمَّا يَضَعُدُ ثَمَنُهُ مِنْ كُسُورِ الْمِلْمِ ، إِلَى الْمِلْمِ وَكُسُورِهِ ...

وَتَغَفَّلَ الْغُلَامُ مَرَّةً وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى ذَخَائِرِ الْحَانُوتِ ، فَالْتَقَطَتْ « عُلبَةُ كِبْرِيَتِ » كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يَسْرِقَهَا وَأَنْ يَشْتَرِيَهَا - نِصْفَ مِلْمٍ ؛ وَلَكِنْ مَنْ لَهُ « بِالْعِشْرِينَ الْخُرْدَةُ » ؟ وَهِيَ عِنْدَ مِثْلِهِ دِينَارٌ مِنَ الدَّهَبِ يَرْنُ رَيْنًا وَيَرْقُصُ عَلَى الظَّفْرِ رَقْصَةً إِنْكَلَبَتْ ؟ .

وَمَاذَا يَضَعُ بِالْعُلبَةِ ؟ هَمَّتْ نَفْسُهُ أَنْ تُجَادِلَهُ وَلَمَّا تَسَكَّنَ رَغْشَهُ يَدِهِ مِنْ هَوْلِ الْإِنِّمِ ، وَلَكِنْ الْغُلَامُ كَانَ طَبِيعِيًّا وَلَمْ يَكُنْ فِيلْسُوفًا ، وَلِذَلِكَ رَأَى أَنْ يَخْرُجَ الْحَقِيقَةَ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا . وَقَدْ أَصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ مَادَّةَ السَّرِقَةِ هِيَ « مَذْ أَلِيد » أَخْطَأَتْ أَمْ أَصَابَتْ ، وَجَاءَتْ بِالْغَالِي أَوْ جَاءَتْ بِالرَّخِيسِ ؛ فَضَمَّ يَدَهُ عَلَى الْعُلبَةِ وَاتَّزَعَهَا ، وَتَرَكَ فِي مَكَانِهَا فَضِيلَةً الْأَمَانَةِ الَّتِي لَمْ يَعْرِفْ لَهُ النَّاسُ قِيمَتَهَا ، فَهَانَتْ كَذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَانْطَلَقَ وَهِيَ تُنَادِيهِ :

أَيُّهَا الْغُلَامُ ! أَنْتَدِّعُ ثَمَنَ عُلبَةِ الْكَبْرِيتِ سَتَيْنِ مِنْ عُمْرِكَ ؟ وَهَلْ خَلَا النَّاسُ مِمَّنْ يَعْرِفُونَ لِعُمْرِكَ قِيمَةً ؟ .

وَارْتَدَّ رَجْعُ الصَّوْتِ الْخَفِيِّ إِلَى قَلْبِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، فَضَرَبَ قَلْبُهُ ضَرْبَاتٍ مِنَ الْخَوْفِ ، وَنَزَا نَزْوَةً مُضْطَرِبَةً ؛ فَالْتَفَتَ الْغُلَامُ مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ أَمْعَنَ فِي الْفِرَارِ وَتَرَكَ الْأَمَانَةَ تُنَادِيهِ :

أَيُّهَا الْغُلَامُ ! إِنَّ لَكَ فِي الْآخِرَةِ نَارًا لَا تُوقَدُ بِهَذَا الْكَبْرِيتِ ، وَلَكِ فِي الدُّنْيَا سِجْنٌ كَهَذَا الْعُلبَةِ ، فَالْعَبْ الْعَبْ مَا دَامَ النَّاسُ قَدْ أَهْمَلُوكَ ! الْعَبْ بِالْثَّقَابِ الَّذِي فِي يَدِكَ فَسَيَمْنَدُ فِيكَ مَعْنَى اللَّهِ حَتَّى يَجْعَلَ حَيَاتَكَ فِي أَغْمَارِ النَّاسِ دُخَانًا وَنَارًا ؛ وَسَتَكُونُ أَيَّامُكَ أَعْوَادًا كَهَذَا الْكَبْرِيتِ : تَشْتَعِلُ فِي الدُّنْيَا وَتُخْرَقُ .

وَكَانَ أَذْنَابُ السَّيَاطِ كَانَتْ تُلْهِبُ ظَهَرَ الْغُلَامِ الْمُسْكِنِ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يَلْتَفِتُ هَذِهِ الْمَرَّةَ حَتَّى كَانَ فِي قَبْضَةِ صَاحِبِ الْحَانُوتِ ، وَإِذَا هُوَ بِكَلِمَةٍ مِنْ لَعْنَةِ كَفِّهِ الْغَلِيظَةِ ، خِيلَتْ لَهُ فِي شِعْرِهَا أَنَّ جِدَارًا انْقَضَى عَلَيْهِ ، وَتَلَتْهَا جُمْلَةً مِنْ قَوَائِي الصَّفْعِ جَلَجَلَتْ فِي أُذُنَيْهِ كَالرَّغْدِ ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ مِثْلُ الْمَوْجِ مِنْ جَمَاعَاتِ الْأَطْفَالِ أَحَاطَ بِهِ ، فَتَرَكَ هَذَا الزُّورَقِ الْإِنْسَانِي الصَّغِيرَ يَتَكَفَّمُ عَلَى صَدَمَاتِ الْأَيْدِي ، فَمَا أَحَسَّ الْغُلَامُ التَّعَسُّ إِلَّا أَنَّ الْكَبْرِيتَ الَّذِي فِي يَدِهِ قَدْ انْقَدَحَ فِي رَأْسِهِ ، وَكَانَتْ أُنَامِلُ صَاحِبِ الْحَانُوتِ كَأَنَّمَا تَحْكُ أَغْوَادَهُ فِي جِلْدِ وَجْهِهِ الْخَشِنِ .

\* \* \*

وَدَهَبُوا بِهِ إِلَى (دَوَارِ) الْعُمْدَةِ يَقْضِي فِيهِ اللَّيْلَ ، ثُمَّ يُصْبِحُ عَلَى رِخْلَةٍ إِلَى الْمَرْكَزِ وَالنَّيَابَةِ ، وَانْطَرَحَ الْمُسْكِنُ مُنْتَظِرًا حُكْمَ الصَّبَاحِ ، مُؤَمِّلًا فِي عَقْلِهِ الصَّغِيرِ أَلَّا يُفْصَحَ النَّهَارُ حَتَّى يَكُونُ « سَيِّدَنَا عِزْرَائِيلَ » قَدْ طَمَسَ الْجَرِيمَةَ وَشَهِدَهَا ثُمَّ أَغْفَى مُطْمَئِنًّا إِلَى مَلِكِ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ قَدْ أَحْذَى فِي عَمَلِهِ بِجِدٍّ ، وَأَيَّقَنَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنْ سَيَسْجُدُ فِي الْحَمِيسِ مِمَّا يَوْرَعُ فِي الْمَقْبَرَةِ صَدَقَةَ عَلَى أَرْوَاحِ الْعُمْدَةِ ، وَصَاحِبِ الْحَانُوتِ ، وَالْخَفِيرِ الَّذِي عَاهَدُوا إِلَيْهِ جَزَهُ إِلَى الْمَرْكَزِ ... ! وَكَيْفَ يَشْكُ فِي أَنَّ هَذَا وَقَعَ بِهِمْ وَهُوَ قَدْ تَوَسَّلَ بِالْوَلِيِّ فَلَانٍ وَنَذَرَ لَهُ شَمْعَةً يَسْرِقُهَا مِنْ حَانُوتِ آخَرَ ... !

هَكَذَا عَرَفَ الشَّرَّ قَلْبَ هَذَا الصَّبِيِّ ، وَانْتَهَى بِهِ عَذْلُ النَّاسِ إِلَى أَفْطَحَ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ ، وَكَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ الْقَانُونِ الَّذِي يُضْلِحُونَهُ بِهِ عَلَى رَغْمِهِمْ ، قَدْ نَاولُوهُ سُبْحَةً لِيُظْهَرَ بِهَا مَظْهَرَ الصَّالِحِينَ ، وَلَمْ يَفْهَمُوهُ شَيْئًا فَفَهِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ : هَذِهِ الْجَرِيمَةُ وَاحِدَةٌ ، فَعَدَّ جَرَائِمَكَ عَلَى هَذِهِ السُّبْحَةِ لِتَعْرِفَ كَمْ تَبْلُغُ ! .

كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ لُغْبَةً لَا سَرِقَةَ ، وَكَانَتْ يَدُ الْغُلَامِ فِيمَا فَعَلَتْ مُسْتَجِيبَةً لِقَانُونِ الْمَرْحِ وَالسَّيَاطِ وَالْحَرَكََةِ ، كَمَا تَكُونُ أَعْضَاءُ الطِّفْلِ لَا كَمَا تَكُونُ يَدُ الْبُلْبُلِ ؛ وَكَانَ أَشْبَهَ بِالرَّضِيعِ يَمُدُّ يَدَهُ لِكُلِّ مَا يَرَاهُ ، لَا يُمَيِّزُ ضَارَّةً وَلَا نَافِعَةً ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَشْعُرَ وَيَحْقُقَ طَبِيعَتَهُ ، وَكَانَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ وَقُصَارَى مَا بَلَغَ - أَنَّ خَيَالَ هَذَا الْغُلَامِ أَلْفَ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْكِبَارَ أَخْطَؤُوا فِي فَهْمِهَا وَتَوَجَّهَهَا ... ! لَيْسَتْ سَرِقَةُ الطِّفْلِ سَرِقَةً ، وَلَكِنَّهَا حَقٌّ مِنْ

حُقُوقِ ذَكَائِهِ يُرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ .

\* \* \*

وَأَنْتَهَى « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » إِلَى الْمَحْكَمَةِ ، فَقَضَتْ بِسَجْنِهِ فِي (إِصْلَاحِيَّةِ الْأَخْدَانِ) مُدَّةَ سَتَيْنِ ، وَأَسْتَأْنَفَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَيْرِ فِي بَلَدِهِ ، صَدَقَةً وَاحْتِسَابًا ... إِذْ لَمْ يَكْلَفِ الْأَسْتِئْنَفُ إِلَّا كِتَابَةَ وَرَقَةٍ ؛ فَلَمَّا مَثَلَ الصَّغِيرُ أَمَامَ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ لِفَقْرِهِ مُحَامٌ يَدْفَعُ عَنْهُ ، وَلَكِنْ انْطَلَقَ مِنْ دَاخِلِهِ مُحَامٌ شَيْطَانِيٌّ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ ، هُوَ سُخْرِيَّةُ الْجَرِيمَةِ مِنَ الْمَحْكَمَةِ ، وَسُخْرِيَّةُ عَمَلِ الشَّيْطَانِ مِنْ عَمَلِ الْقَاضِي ... !

سَأَلَهُ الرَّئِيسُ : « مَا أَسْمُكَ ؟ » .

- « أَسْمِي عَبْدُهُ ، وَلَكِنْ الْعُمْدَةَ يُسَمِّيَنِي : يَا أَبْنَ الْكَلْبِ ! » .

- « مَا سَأَلْتُ ؟ » .

- « أَبُويَا هُوَ الَّذِي كَانَ سَنَانٌ » .

- « عُمَرُكَ إِيَّاهُ ؟ » .

- « عُمَرِي ؟ عُمَرِي مَا عَمِلْتُ شَقَاوَةً ! » .

الْنَّبَاةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « ذَكَاءٌ مُخِيفٌ يَا حَضْرَاتِ الْقُضَاةِ ! عُمَرُهُ تِسْعُ سَنَوَاتٍ ! » .

الرَّئِيسُ : « صَنَعْتُكَ إِيَّاهُ ؟ » .

- « صَنَعْتَنِي الْعَبُّ مَعَ مُحَمَّدٍ وَمَرْيَمَ ، وَأَضْرَبَ اللَّيْ يَضْرِبَنِي ! » .

- « تَعِيشُ فِينِ ؟ » .

- « فِي الْبَلَدِ ! » .

- « تَأْكُلُ مِينِ ؟ » .

- « أَكُلُ مِنَ الْأَكْلِ ! » .

كَانَ أَبُو الْغُلَامِ سَنَانًا ، وَمِثْلُ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْعَائِيَةِ فِي الْقِصَّةِ هُوَ مِلْحُ الْقِصَّةِ .

الْنَّبَاةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « يَا حَضْرَاتِ الْقُضَاةِ ! مِثْلُ هَذَا لَا يَسْرِقُ عِلْبَةً كِبَرِيَّتٍ إِلَّا لِيُحْرِقَ بِهَا الْبَلَدَ ... » .

الرَّئِيسُ : « أَلَيْكَ أُمُّ ؟ » .

- « أُمِّي غَضِبَتْ عَلَيَّ أَبُويَا ، وَرَاحَتْ قَعَدَتْ فِي التُّرْبَةِ ؛ مَا رَضِيَتْشِ نَزَجُ ! » .

- « وَأَبُوكَ ؟ » .

- « أَبُويَا لِأَخَرِ غَضِبَ وَرَاحَ لَهَا » .

الرَّئِيسُ ضَاحِكًا : « وَأَنْتَ ؟ » .

- « وَاللَّهِ يَا أَفَنْدِي عَاوِزُ أَغْضَبَ ، مِثْ عَارِفٍ أَغْضَبَ إِزَاي ! » .

- « إِنْتَ سَرَقْتَ عِلْبَةَ الْكِبَرِيَّتِ ؟ » .

- « دِي هِي طَارَتْ مِنَ الدُّكَانِ ، حَسِبْتُهَا عُصْفُورَةً وَمَسَكْتُهَا ... » .

الْنَّبَاةُ : « وَلِيَّةٌ مَا طَارَتْشِ الْعُلْبُ اللَّيِّ مَعَاهَا فِي الدُّكَانِ ؟ » .

- « أَنَا عَارِفٌ ؟ يَمَكُنْ خَافَتْ مِثِّي ! » .

الْنَّبَاةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « جَرَاءَةٌ مُخِيفَةٌ يَا حَضْرَاتِ الْقُضَاةِ ! أَلْمُتَّهَمُ وَهُوَ فِي هَذِهِ السَّنِ ، يَشْعُرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَخَافُهُ ! » .

فَصَاحَ الْغُلَامُ مَسْرُورًا مِنْ هَذَا الثَّنَاءِ . « وَاللَّهِ يَا أَفَنْدِي إِنْتَ رَاجِلٌ طَيِّبٌ ! أَدْرِيكَ عِرْفَتِي ، رَبَّنَا يَخْفِيكَ شَرُّ الْعُمْدَةِ وَالْغَفِيرِ ! » .

\* \* \*

وَأَمَضَى الْحُكْمُ فِي الْأَسْتِئْنَافِ ، وَخَرَجَ الصَّغِيرُ مَعَ رِجَالٍ مِنَ الْمُجْرِمِينَ يَسُوقُهُمُ الْجُنْدُ ، ثُمَّ احْتَبَسُوا الْجَمِيعَ فِتْرَةً مِنَ الْوَقْتِ عِنْدَ كَاتِبِ الْمَحْكَمَةِ ، لِيَسْتَوْفِيَ أَعْمَالَهُ الْكِتَابِيَّةَ ، ثُمَّ يُسَاقُونَ مِنْ بَعْدُ إِلَى السَّجْنِ .

وَجَلَسَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » ، عَلَى الْأَرْضِ ، وَقَدْ أَكْتَفَتْهُ عَنْ جَانِبَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُجْرِمِينَ يَتَحَادَثُونَ وَيَتَعَامَزُونَ ! وَكُلُّهُمْ رِجَالٌ وَلَكِنَّهُ وَخَدَهُ الصَّغِيرَ بَيْنَهُمْ . فَاطْمَأَنَّ شَيْئًا قَلِيلًا ، إِذْ

قَدَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ أُرِيدَ بِهِمْ شَرٌّ لَمَا سَكَنُوا هَذَا السُّكُونَ ، وَإِنَّ الَّذِي يُرَادُ بِهِمْ لَا يَنَالُهُ هُوَ إِلَّا أَصْغَرُ مِنْهُ ، كَصَفْعَةٍ أَوْ صَفْعَتَيْنِ مَثَلًا . . . وَهُوَ يَسْمَعُ أَنَّ الرِّجَالَ يَقْتُلُونَ وَيُحَرِّقُونَ وَيَسْمُونَ وَيَعْتَدُونَ وَيَنْهَبُونَ ، وَمَا تَكُونُ (عُلْبَةُ الْكِبْرِيَّتِ) فِي جَنْبِ ذَلِكَ ؟ وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ اسْتَرَدَّهَا صَاحِبُهَا ، وَقَدْ نَالَ هُوَ مَا كَفَاهُ قَبْلَ الْحُكْمِ ؟

وَمَا لَيْتَ بَعْدَ هَذَا الْخَاطِرِ الْجَمِيلِ أَنْ رَدَّ الْأَطْمِثَانِ فِي عَيْنَيْهِ دُمُوعًا كَادَ يُرِيْقُهَا الْجَرْعُ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَلْقَ اعْتَادَهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَى كِتَابِ الْمَحْكَمَةِ مَرَّةً وَإِلَى الْجُنْدِ مَرَّةً ، ثُمَّ لَوَّى وَجْهَهُ وَلَمْ يَسْتَخِجْ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَجَرَّأَ عَلَى الْفِكْرِ فِيهِمْ ، لِأَنَّهُ قَابِلٌ مَهَابَتِهِمْ بِالْهَلَاةِ بِلَدِيهِ : الْعُمْدَةُ وَالْمَشَايِخُ وَالْخَفَرَاءُ ، فَادْرَكَ أَنَّ الْجُنُودَ هُمُ الْحُكُومَةُ الْقَادِرَةُ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَزْرَارِهِمُ اللَّامِعَةِ ، وَخَنَاجِرِهِمُ الصَّقِيلَةِ وَتَمَشَّتْ فِي قَلْبِهِ رَهْبَةٌ هَذِهِ الْخَنَاجِرُ ، فَاضْطَرَبَ خَشْيَةً أَنْ يَكُونُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ إِلَى مَنْ يَذْبَحُهُ ، فَتَنَظَرَ إِلَى الَّذِي يَلِيهِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَسَأَلَهُ : « رَاحَ يَأْخُذُونِي فِينِ ؟ » فَاجَابَتْهُ لَكُمُ خَفِيَّةٌ انْطَلَقَ لَهَا دَمْعُهُ ، حَتَّى أَسْكَنَتْهُ الَّذِي يَلِيهِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ ، وَكَانَ فِي رَأْيِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ !

ثُمَّ اتَّصَلَ الْجَرْعُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَعَيْنَيْهِ ، فَهَمَّا تَضَطَّرِبَانِ إِلَى الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ ، وَكَأَنَّمَا يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَشِفَّ مِنْ أَيُّهَا سَيَاتِيهِ الْمَوْتُ ذَبْحًا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَعْنَى (الِإِصْلَاحِيَّةِ) ، وَحَكَمَ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ رَجُلٌ يَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَرْحَمُوا هَذِهِ الطُّفُولَةَ بِكَلِمَةٍ مُفَسِّرَةٍ . وَعَدَلَ التَّرْبِيَّةَ غَيْرَ عَدْلِ الْقَانُونِ ، فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْقَاضِي الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الطُّفْلِ ، أَنْ يَجْعَلَ حُكْمَهُ أَشْبَهَ بِصِنْعَةِ الْقِصَّةِ مِنْهُ بِصِنْعَةِ الْحُكْمِ ، وَأَنْ يَدَعَ الْجَرِيمَةَ تَنْطَلِقُ وَتَذْهَبُ فَلَا يَقُولُ لَهَا أُنْكُحِي . . .

وَبَقِيَ لِلْخَنَاجِرِ رَهْبَتُهَا فِي نَفْسِ هَذَا الْمُسْكِينِ ، فَلَوْ أَنَّهُمْ قَادُوهُ إِلَى حَبْلِ الشَّقَاقَةِ لِأَفْهَمَهُ (الْحَبْلُ) مَعْنَى الْعُقُوبَةِ ، أَمَّا وَهُوَ بَيْنَ هَذِهِ الْخَنَاجِرِ الْمُغْمَدَةِ - وَفِي الْخَنَاجِرِ مَعْنَى الدَّبْنِ - فَإِنَّمَا هُوَ الدَّبْنُ لَا غَيْرُهُ .

وَطَرَقَتْ أُذُنُهُ فَهَقَهُهُ الْمُجْرِمُ عَنْ يَمِينِهِ فَاسْتَشْفَذَتْهُ مِنْ هَذَا الْخَاطِرِ ، فَثَبَّتَ عَيْنَهُ فِي الرَّجُلِ ، فَإِذَا هُوَ يَرَى وَجْهًا مَثَلًا لَنَا ، وَجِسْمًا رَابِطَ الْجَأَشِ ، وَهُزُؤًا وَسُخْرِيَّةً يَهْزُلُهَا الْجُنُودُ وَخَنَاجِرُهُمْ .

وَاسْتَرَاحَ الْعُلَامُ إِلَى صَاحِبِهِ هَذَا ، وَالْحَ بَظَرِهِ عَلَيْهِ ، وَابْتَدَأَ يَتَعَلَّمُ فِي وَجْهِهِ

الْفَلَسَفَةِ ، وَلَيْسَتْ الْفَلَسَفَةُ مَفْصُورَةٌ عَلَى الْكُتُبِ ، بَلْ إِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَالَةً تَشْغَلُهُ ، فَتَنَظَرُهُ فِي اغْتِيَارِ دَقَائِقِهَا وَكَشْفِ مَسْتَوْرَهَا هُوَ الْفَلَسَفَةُ بِعَيْنِهَا .

وَقَالَ الْعُلَامُ لِنَفْسِهِ :

هَذَا الرَّجُلُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ ، فَهُوَ مَخْكُومٌ عَلَيْهِ وَلَا يُبَالِي ، بَلْ يَهْفُهُ ضَحِكًا ، فَهَذَا الْحُكْمُ إِذَنْ لَا يُخِفُّ ؛ لَا ، بَلْ هُوَ تَعَوَّدُ الْأَحْكَامِ ، إِذَنْ فَمَنْ تَعَوَّدَ الْأَحْكَامَ لَمْ يَخَفِ الْأَحْكَامَ ؛ إِذَنْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ سَتَتَعَوَّدُ ، فَإِنَّ الْخَوْفَ هَذِهِ الْمَرَّةَ قَدْ غَطَّكَ مِنَ « عُلْبَةِ الْكِبْرِيَّتِ » فِي حَرْنِي مُتَسَعِّرٍ ، وَمَا قَلَرُ « عُلْبَةِ الْكِبْرِيَّتِ » ؟ فَلَوْ كَانَتْ السَّرِيقَةُ جَامُوسَةً مَا لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، يَا لَيْتَنِي إِذَا . . . وَلَكِنِّي لَا أَزَالُ صَغِيرًا ، فَمَتَى كَبُرْتُ . . . آه مَتَى كَبُرْتُ . . .

وَبَدَأَ الْقَانُونُ عَمَلَهُ فِي الْعُلَامِ ، فَطَرَدَ مِنْهُ الطُّفْلَ وَأَقْرَبَهُ الْمُجْرِمَ .

\* \* \*

وَأَطْرَقَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » هَادِئًا سَاكِتًا ، وَقَامَتْ فِي نَفْسِهِ مَحْكَمَةٌ مِنَ الْأَبَالِسَةِ ، بَقَضَاتِهَا وَنَبَاتَاتِهَا ، يُجَادِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيُدَاوِلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَ هَذَا الْعُلَامِ عَلَى وَجْهِ آخَرَ . وَقَالَ شَيْطَانٌ مِنْهُمْ : « وَلَكِنَّا نَخْشَى أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ (الِإِصْلَاحِيَّةَ) سَتُخْرِجُهُ بَعْدَ سَتَتَيْنِ شَرِيفًا يَخْتَرِفُ ؛ وَالثَّانِي أَنَّ النَّاسَ رُبَّمَا تَوَلَّوْهُ بِالتَّرْبِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْمَدَارِسِ رَحْمَةً وَشَفَقَةً ، فَيُخْرِجُ شَرِيفًا يَخْتَرِفُ » .

وَمَا أَسْرَعَ مَا نَفَى الْخَوْفَ عَنْهُمْ قَوْلُ الْعُلَامِ نَفْسِهِ بِلَهْجَةٍ فِيهَا الْحِفْدُ وَالْغَيْظُ ، وَقَدْ صَفَعَهُ الْجُنْدِيُّ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى السَّجْنِ - : « وَذَا كُلُّهُ عَلَى شَأْنِ عُلْبَةِ كِبْرِيَّتِ . . . ؟ » .

فِي سَنَةِ ١٩٣٤ قَضَتْ مَحْكَمَةُ الْجِنَايَاتِ بِالْمَوْتِ شَقًّا عَلَى قَاتِلِ مُجْرِمٍ خَبِيثٍ ، عِيَارٍ مُشْطَرٍ ، اسْمُهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الرَّحِيمِ » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## عَاصِفَةُ الْقَدَرِ (١)

عَلَى شَاطِئِ الْبَيْتِ فِي إِفْلِيمِ (الْعَرَبِيَّةِ) مِنْ هَذَا الْبَرِّ ، قَرِيَّةٌ لَيْسَ فِيهَا جَبَلٌ وَلَكِنَّ رُوحَ الْجَبَلِ فِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَإِذَا [ أَنْتَ ] اَعْتَبَرْتَهُ بِالرَّجَالِ قُوَّةً وَضَعْفًا رَأَيْتَهُ يَنْهَضُ فِيهِمْ بِمَنْكِبَيْهِ نَهْضَةَ الْجَبَلِ فِيمَا حَوْلَهُ ، وَهُوَ يَظُلُّ الْقَرِيَّةَ وَلَوْ أَنَّ كُلَّ مَعْرَكَةٍ تَنْشُبُ فِيهَا بَيْنَ فِتْيَانِهَا [ وَبَيْنَ ] الْفَرَى الْمُتَنَاهِةِ حَوْلَهَا ، وَلَا تَرَاهُ هَذِهِ الْمَعَارِكُ بَيْنَ شَبَابِ الْفَرَى كَأَنَّهَا مِنْ حَرَكَةِ الدَّمِ الْحَرِّ الْفَاتِحِ الْمُتَوَارِثِ فِيهِمْ مِنْ أَجْيَالٍ بَعِيدَةٍ ، يَتَحَدَّرُ مِنْ جَبَلٍ إِلَى جَبَلٍ وَفِيهِ تِلْكَ الْقَطَرَاتُ الثَّابِتَةُ الَّتِي كَانَتْ تَغْلِي وَتَقُورُ<sup>(٢)</sup> ، وَهِيَ كَعَهْدِهَا لَا تَرَاهُ تَغْلِي وَتَقُورُ ، وَيَلْقَبُونَ هَذَا الرَّجُلَ الشَّدِيدَ (بِالْجَمَلِ) لِمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ جَسَامَةِ خَلْقِهِ وَصَبْرِهِ عَلَى الشَّدَائِدِ ، وَاحْتِمَالِهِ فِيهَا ، وَكَوْنِهِ مَعَ ذَلِكَ سَلِسَ الْفِيَادَةِ<sup>(٣)</sup> سَلِيمَ الْفِطْرَةِ رَفِيقَ الطَّيْنِ ؛ عَلَى أَنَّهُ أَبْطَشُ ذِي يَدَيْنِ إِنْ تَارَ ثَائِرُهُ ، وَلَهُ إِيمَانٌ قَوِيٌّ يَسْتَمْسِكُ بِهِ كَمَا يَتَمَسَّكُ الْجَبَلُ بِمَنْصَرِهِ الصَّخْرِيِّ ، إِلَّا أَنَّهُ يَخْلُطُهُ بَعْضُ الْخُرَافَاتِ ، إِذْ لَا يَدَّ لَهُ مِنْ بَعْضِ الْجَرَائِمِ السَّرِيفَةِ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا فَرْطُ الْقُوَّةِ وَالْمُرُوءَةِ فِي مِثْلِهِ مَعَ مِثْلِهِ .

وَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْقَرِيَّةِ مِنْ بَحْرِ ، غَيْرَ أَنَّ فِيهَا شَابًا اَعْتَقَ طَيْشًا وَعُتُوا مِنْ الْمَوْجَةِ عَلَى بَحْرِهَا فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاتِيَةٍ ، حُلُوُ الْمُنْظَرِ لِنِكَتِهِ مَرُّ الطَّعْمِ ، صَافِي الْوَجْهِ لِكِنَّةٍ لَهُ غُورًا بَعِيدًا مِنْ الدَّهَاءِ وَالْخُبْنِ ، وَهُوَ ابْنُ عُمْدَةِ الْبَلَدَةِ وَوَاحِدُ أَبَوَيْهِ وَالْوَارِثُ مِنْ دُنْيَاهُمَا الْعَرِضَةِ ، يَسْطُرُ يَدَيْهِ عَلَى خَمْسِ مِثَّةٍ فَذَانِ ، وَقَدْ أَفْسَدَتْهُ النُّعْمَةُ وَأَهَانَتْهُ عِزُّهُ عَلَى أَهْلِهِ ؛ وَلَوْ أَجْتَمَعَتْ حَسَنَاتُ لَيْخُرْجٍ مِنْهُمَا سَيِّئَةٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ بِأَسْلُوبٍ مِنَ الْأَسَالِيبِ ، لَمَا وَسِعَهَا إِلَّا أَسْلُوبُ نَشَاتِهِ مِنْ أَبَوَيْهِ الطَّيِّبِينَ . تَعَلَّمَ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى الْعِلْمِ ، فَجَعَلَتْ

(١) أَنْشَأَهَا لِلْمُقْتَضِ سَنَةَ ١٩٢٥ ، [وُنُشِرَتْ فِي مَجَلَّةِ «الْإِسْلَامِ» الْعِدَّة : ٣٥٨ ، ٦ شَهْرٍ رَبِيعِ الْآخِرِ ١٣٥٩ هـ = ١٣ مايو/أيار ١٩٤٠ م ، السَّنَةُ الثَّامِنَةُ ، الصَّفَحَاتِ : ٨٣٥ - ٨٣٩] .

(٢) فِي «الْإِسْلَامِ» : «تَقُورُ وَتَغْلِي» بَدَلًا مِنْ : «تَغْلِي وَتَقُورُ» .

(٣) فِي «الْإِسْلَامِ» : «الْفِيَادَةُ» بَدَلًا مِنْ : «الْفِيَادَةُ» .

تَلَفُظُهُ الْمَدَارِسُ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ كَأَنَّهُ نَوَاهُ ثَمَرَةً إِنْسَانِيَّةً ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ قَالَ : إِنَّ خَمْسَ مِثَّةٍ فَذَانِ لَا تَسْعَاهَا مَدْرَسَةٌ ... وَذَهَبَ إِلَى فِرْنَسَةِ يَطْلُبُ الْعِلْمَ الَّذِي اسْتَعَصَى عَلَيْهِ فِي مِصْرَ ، فَأَرَهَفَ ذَلِكَ الْعِلْمَ ... خَيَالَهُ وَصَفَلَ حِسَّهُ ، وَرَجَعَ مِنْ بَارِيسِ Paris رَفِيقَ الْحَاشِيَةِ ، خَبِيرًا مُنْظَرَفًا ، لَا يَصْلُحُ شَرْفِيًّا وَلَا غَرِيبًا !

وَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْقَرِيَّةِ غَابَةٌ ، لَكِنَّ فِيهَا عَذْرَاءٌ تَلْتَفُ مِنْ جِسْمِهَا فِي رَدَاءِ الْجَمَالِ الطَّبِيعِيِّ الرَّائِعِ ، وَلَهَا نَفْسٌ أَشَدُّ وَعُزَّةٌ مِمَّا تَنْطَوِي الْغَابَةُ عَلَيْهِ ؛ فَبَيْنَ ظَاهِرِهَا الْوُتُقُ الَّذِي يَفْتِنُ فَيَجْذِبُ إِلَيْهَا ، وَفِي بَاطِنِهَا الْقُوَّةُ الَّتِي تَلْتَوِي فَتَدْفَعُ عَنْهَا ؛ وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّ (الْجَمَلِ) وَأَسْمُهَا (خَضْرَاءُ) ، وَكَانَ فِيهَا زَهْوُ خُضْرَةِ الرَّبِيعِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَعَشِقُ إِلَّا الْقُوَّةَ ، فَمَا يَزِينُ لَهَا مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا ابْنُ عَمَّتِهَا ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْإِعْجَابِ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا إِعْجَابُ الْمَرْأَةِ بِرَجُلٍ مِنَ الرِّجَالِ مِفْتَاحٌ مِنْ مَفَاتِيحِ قَلْبِهَا .

وَكَانَتْ (خَضْرَاءُ) جَاهِلَةً كِنَسَاءِ الْفَرَى ، بَيِّدَةً أَنَّهَا تَلْمِيزَةٌ بَارِعَةٌ لِلطَّبِيعَةِ الَّتِي نَشَأَتْ فِيهَا وَزَاوَلَتْ أَعْمَالَهَا ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ أَقْوَى نَفْسًا وَأَشَدَّ مَرَامًا مِنَ الْفَتَيَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ ؛ إِذْ اتَّخَذَتْ شَكْلًا ثَابِتًا مِنْ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ ، وَالْحَيَاةُ هِيَ صَنَعَتُهَا هَذِهِ الصَّنَعَةُ أَوْ أَقَامَتُهَا عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، عَلَى حِينِ أَنَّ الْمُتَعَلِّمَاتِ يُنْضِجْنَ أَيَّامَ النِّشَاءِ وَسِرَّ الْغَرِيزَةِ فِي التَّلَقِّيِّ عَنِ الْأَلْفَافِ وَالْكَتَبِ ، وَفِي تَوْهُمِ الصُّورِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلِاجْتِمَاعِ دُونَ مُبَاشَرَتِهَا ، وَفِي تَوْفِيٍّ أَعْمَالِ الْحَيَاةِ بَدَلًا مِنْ مُخَالَطَتِهَا ؛ فَيُؤَوَّلُ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَى قُوَّةٍ فِي التَّخَيُّلِ قَلَّمَا تُرْضِي الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُؤَلِّمَةَ حِينَ تُصَادِمُهَا يَوْمًا { مَا } ؛ وَتَتِمُّ الْوَاحِدَةُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا تَمَّتْ تَلْمِيزَةٌ لِلْمَدْرَسَةِ لَا أَمْرًا لِلْحَيَاةِ بِمَا فِيهَا مِمَّا يُعْجِبُ وَمَا لَا يُعْجِبُ .

وَكَانَتْ خَضْرَاءُ أَشْبَهَ بِدَوْرَةِ النَّهَارِ ؛ تَفْتَحُ أَجْفَانَهَا عَلَى أَسْعَةِ الْفَجْرِ كُلِّ يَوْمٍ ، وَلَا تَرَاهُ نَهَارَهَا فِي دَابٍّ وَعَمَلٍ ، فَتَقَى ذَلِكَ عَنْ أَخْلَاقِهَا مَا يَجْلِبُهُ السُّكُونُ مِنَ الْحُمُولِ وَالْمَلِيلِ إِلَى الْعَبَثِ وَالِدَّاعِيَةِ ، وَحَصَلَتْ لَهَا مِنَ الْحَيَاةِ حَقِيقَةٌ عَرَفَتْ مِنْهَا أَنَّ الْمَرْأَةَ عَامِلٌ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوَامِلِ فِي النِّظَامِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْكَدِّ وَالتَّعَبِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ بِطَبِيعَتِهِ الْحَقِيقَةِ لَا بِطَبِيعَتِهِ الْمُرُورَةِ الْمَصْنُوعَةِ ، وَرَأَتْ الرَّجُلَ يَسْتَأْذِنُ بِجَلَالِ الْأَعْمَالِ وَلَا يَتْرُكُ لِلْمَرْأَةِ إِلَّا كَمَا يَتْرُكُ عَقْرَبُ السَّاعَاتِ لِعَقْرَبِ الثَّوَانِي فِي الرُّفْعَةِ الَّتِي تَجْمَعُهَا ؛ فَهَذَا الْكَصِيرُ لَا يَتْرَحُ يَضْرِبُ فِي «دَائِرَتِهِ الصَّبِيحَةِ» يَهْتَزُّ مِنْ جُزْءٍ إِلَى جُزْءٍ ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّ الدَّقِيقَةَ

فِي سِتِّينَ مَرَّةً كَامِلَةً ذَهَبَ الْأَوَّلُ بِفَضْلِهَا كُلِّهَا وَخَطَا بِهَا خُطْوَةً وَاحِدَةً ؛ ثُمَّ يَعُودُ الْمُسْتَضْعَفُ<sup>(١)</sup> الْمُسْكِنُ إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ ، وَلَا يَزَالُ هَذَا دَائِبُهُمَا ، وَإِنْ أَكْثَرَهُمَا عَمَلًا وَتَعَبًا هُوَ أَقْلُهُمَا قِيَمَةً وَظُهُورًا ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الضَّعِيفَ الْمَغْبُورَ لَمْ يَنْتَلِهِ مَا نَالَهُ إِلَّا مِنْ كَوْنِهِ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي بُيَ فِي هَذَا النِّظَامِ عَلَى فَضِيلَةِ الصَّبْرِ وَالذِّقَّةِ ، لِيَكُونَ آسَاسًا لِلْآخِرِ ، فَعَرَفَتْ (خَضِرَاءُ) كَيْفَ تَقْبِذُ طَبِيعَتَهَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا ، وَتَقْرُهَا عَلَى الصَّبْرِ وَالرِّضَا وَالسُّكُونِ إِلَى حَظِّهَا الطَّبِيعِيِّ وَالْإِغْتِيَاظِ بِهِ ؛ إِذْ كَانَ فَضْلُ الرَّجُلِ عَلَى الْمَرْأَةِ لَيْسَ فِي كَوْنِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فَضْلًا أَوْ سَبَابَ فَضْلٍ ، بَلْ فِي كَوْنِهَا هِيَ أَكْثَرُ مِنْهُ حُبًّا وَتَسَامُحًا وَصَبْرًا وَإِنْثَارًا ، فَفَضَائِلُهَا الْحَقِيقِيَّةُ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ الْأَفْضَلَ ، كَمَا تَجُوعُ الْأُمُّ لِتَطْعِمَ ابْنَهَا !

\* \* \*

وَرَأَاهَا (ابْنُ الْعُمْدَةِ) وَلَمَّا تَمَضَى أَيَّامٌ عَلَى رُجُوعِهِ مِنْ أَوْرَثَةٍ ، وَقَدْ لَبِثَ هُنَاكَ بِضْعَ سِنِينَ ، وَكَانَ عَهْدُهُ بِالْفَتَاةِ صَغِيرَةٍ ، فَوَثَّبتَ إِلَى نَفْسِهِ وَثْبَةً وَاحِدَةً ، وَرَأَى شَبَابًا وَجَمَالًا وَرُوعَةً زَيَّنَتْهَا فِي قَلْبِهِ وَسَوَّلَتْ لَهُ مَطْمَعًا مِنَ الْمَطَامِعِ وَجَعَلَتْهُ يَرَى مَا يَرَى بِمَعْنَى وَيَفْهَمُ مِنْهُ مَا يَفْهَمُ بِمَعْنَى غَيْرِهِ .

وَكَانَتْ جِئَنَ رَأَاهَا وَاقِفَةً عَلَى التِّلْثِلِ تَمَلُّأُ جَرَّتَهَا مَعَ نِسَاءٍ مِنْ قَوْمِهَا وَهُنَّ يَتَعَابَنَ وَيَتَصَاحَكْنَ ، كَأَنَّ لِيَخْضِبَ الْأَرْضَ فِي أَرْوَاحِهِنَّ أَثَرًا بَادِيًا ، فَإِذَا مَا أَقْبَلْنَ عَلَى الْكَهْرِ لِسَانٍ مِنْ شُؤْنِهِنَّ تَنَدَّتْ رُوحُ الْمَاءِ عَلَى ذَلِكَ الْأَثَرِ فَاهْتَزَّتْ وَاهْتَزَّتِ الْمَرْأَةُ بِهِ ، فَإِنْ كَانَتْ ذَاتُ مِسْحَةٍ مِنْ جَمَالٍ رَأَيْتَ لَهَا رَفِيفًا كَرَفِيفِ الزَّهْرَةِ جِئَنَ يَمْسُحُهَا اللَّدْدَى ، وَذَهَبَتْ تَتَمَوَّجُ<sup>(٢)</sup> فِي جِسْمِهَا وَقَدْ حَسَرَتْ عَنْ ذِرَاعَيْهَا ، وَلَمَسَ الْمَاءُ دَمَهَا الْجَذَابَ ، فَأَرْسَلَ فِيهِ تَيَّارًا مِنَ الْعَافِيَةِ وَالنَّشَاطِ يَتَّصِلُ مِنْهَا بِقَلْبٍ مَنْ يَرَاهَا إِنْ هُوَ كَانَ شَاعِرًا يُحْسِنُ ، فَإِنْ كَانَتْ رُوحُ الرَّجُلِ ظَمْأَى وَرَأَى الْمَرْأَةَ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، فَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا<sup>(٣)</sup> يَشْرَبُ مِنْهَا بِعَيْنَيْهِ شُرْبًا يَجِدُ لَهُ فِي قَلْبِهِ نَشْوَةَ كَنْشَوَةِ الْخَمْرِ ؛ وَكَذَلِكَ وَقَعَتْ الْفَتَاةُ مِنْ نَفْسِ هَذَا الْفَتَى ، فَزَيَّنَتْ لَهُ الْخُبْتُ الَّذِي فِيهِ أَضَاعَفَ مَا زَيَّنَتْهُ لَهُ الْجَمَالُ الَّذِي فِيهَا ، وَقَدَّزَهَا الْقَدَرُ إِلَى قَلْبِهِ لِيُخْرِجَ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ تَارِيخَ جَرْنِمَةٍ ؛ فَوَقَفَ يَتَأَمَّلُهَا بَعَيْنٍ أَحَدًا مِنْ آلَةِ التَّصَوُّرِ لَا تَقْوُتُهَا حَرَكَةً ، وَسَلَّطَ

(١) فِي «الرَّسَالَةِ» : «الْمُسْتَضْعَفُ» بَدَلًا مِنْ : «الْمُسْتَضْعَفُ» .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «لَتَمَوَّجُ» بَدَلًا مِنْ : «تَتَمَوَّجُ» .

(٣) فِي «الرَّسَالَةِ» : «أَحَبَهُ أَنْ» بَدَلًا مِنْ : «أَحْسَبُهُ إِلَّا» .

عَلَيْهَا فِكْرُهُ وَذَوْقُهُ ، وَأَيْقَظَ لَهَا فِي نَفْسِهِ الْمَعَانِي الرَّافِدَةَ ، فَتَصَبَّتْ فِي قَلْبِهِ عِدَّةٌ مِنْ تَمَائِيلِ الْجَمَالِ تَجَسَّدَتْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى شَكْلِ كَأَنَّمَا أَفْرِغْتَ فِيهِ إِفْرَاقًا .

\* \* \*

وَكَانَتْ نَفْسُ ابْنِ الْعُمْدَةِ مِنَ الثَّمُوسِ الْخَيَالِيَّةِ الْمُتَوَثِّبَةِ ؛ إِذْ قَامَتْ مِنْ نَشَاتِهَا عَلَى أَنْ تَطْلُبَ فَتَجَابَ ، وَتَأْمُرَ فَتَطَاعَ ، وَتَشْتَهِيَ فَتَجِدَ ، وَكَأَنَّهُ مَا خُلِقَ إِلَّا لِيَسْتَعْبِدَ قَلْبِي وَالذِّبِي ، وَكَأَنَّا سَادَجِينَ لَا يَعْرِفَانِ مِنْ عِلْمِ التَّرْبِيَةِ إِلَّا أَنَّ لِلْحُكُومَةِ مَدَارِسَ لِلتَّرْبِيَةِ ، وَمُؤَسَّسِينَ لَا يَفْهَمَانِ مِنْ مَعْنَى الْحَاجَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْمَالِ ، وَمُنْقَطِعِينَ مِنَ النَّسْلِ إِلَّا مِنْهُ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُؤَلَّدْ لَهُمَا بَلْ قَدْ وُلِدَا لَهُ . . . فَلَهُ الْأَمْرُ عَلَيْهِمَا مِنْ كَوْنِهِ لَا أَمْرَ لَهُمَا عَلَيْهِ ؛ وَبِذَلِكَ أَسْرَفَا لَهُ مِنْ فَضَائِلِ الرَّقَّةِ وَالْحَنَانِ وَالْإِسْفَاقِ وَمَا إِلَيْهَا ، وَهِيَ فِي نَفْسِهَا فَضَائِلُ ، وَلَكِنَّ مَتَى أَسْرَفَ بِهَا الْآبَاءُ عَلَى أَوْلَادِهِمْ لَمْ تُنْشِ فِي أَوْلَادِهِمْ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ أَضْدَادِهَا ، كَالشَّجَرِ تَقْرُطُ عَلَيْهِ الرِّيُّ فَلَا يُخْذِلُ فِيهِ إِلَّا الْبَيْسَ ، وَالذِّبِي ، وَإِنَّمَا أَنْتَ تَسْفِيهِ الْمَوْتَ مَا دُمْتَ تَرَوِيهِ بِمِقْدَارٍ مِنْ هَوَاكَ لَا بِمِقْدَارِ حَاجَتِهِ .

وَنَشَأَ الْفَتَى فِي أَحْوَالٍ أَجْتِمَاعِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ جَعَلَتْ مِنْ أَحْصَى طَبَاعِهِ تَمَوُّنُهُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ ، وَالتَّبَاهِي بِالْعَنَى ، وَالتَّئَبُّلُ بِالْأَصْدِقَاءِ وَالْحَاشِيَةِ مِنْ وَزَرَائِهِ وَعُمَّالِهِ ، وَالتَّهَيُّوُّ بِالْأَثَرِ وَالْأَرْيَاءِ ؛ فَانْتَصَرَ بِطَبِيعَتِهِ إِلَى تَجَمُّلِ ظَاهِرِهِ ، وَرَدَّدَ ظَاهِرُهُ عَلَى بَاطِنِهِ بِالشَّهَوَاتِ وَالذَّنَائَا ، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ جَمِيلٌ فَاتَيْنَ كَأَنَّمَا خُلِفَتْ صُورَتُهُ «لِلصَّفْحَةِ الْحَسَّاسَةِ» مِنْ قُلُوبِ النِّسَاءِ ؛ وَذَلِكَ مُلْكٌ عَظِيمٌ لَمْ يَكُنْ أَبَوُهُ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ مِنْهُ إِلَّا كَمَا يَكُونُ وَزِيرُ مَالِيَةِ الدَّوْلَةِ . . .

وَلَمَّا أُرْسِلَ إِلَى بَارِيسَ Paris وَقَعَ مِنْهَا فِي بَلَدٍ عَجِيبٍ كَأَنَّهُ خَيَالٌ مُتَخَيَّلٌ ، لَا يُؤْمَهُ الرَّجُلُ<sup>(١)</sup> فِي الدُّنْيَا مِنْ كَامِلٍ أَوْ نَاقِصٍ ، وَعَالِمٍ أَوْ جَاهِلٍ ، وَشَرِيفٍ أَوْ سَاقِطٍ ؛ إِلَّا رَأَى فِيهِ مَا يَمَلَأُ كُلَّ مَدَاحِلِ نَفْسِهِ وَمَخَارِجِهَا ، فَلَوْ قَامَتْ مَدِينَتُهُ مِنْ أَخْلَامِ الثَّمُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَطَهَرِهَا وَفُجُورِهَا ، وَاخْتَلَلِهَا وَنَظَامِهَا ، لَكَانَتْ هِيَ بَارِيسَ Paris ؛ وَأَنْقَطَعَ الشَّبَابُ هُنَاكَ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى صُورِ نَفْسِهِ مِنْ أَصْدِقَاءِ الشُّؤْءِ ، فَلَا أَهْلَ قِيلَازٍ مُوَهُ الْفَضِيلَةِ ، وَلَا إِخْوَانَ فِرْدَوْسِهِ إِلَى الرَّأْيِ ، وَلَا خُلُقَ مَتِينٍ فَيَغْتَصِمُ بِهِ ، وَلَا نَفْسَ مَرَّةٍ فَيَفِيءُ إِلَيْهَا ، وَلَا فَقْرَ . . . فَجِدَّ لَهُ حُدُودًا فِي الشَّهَوَاتِ يَقِفُ عِنْدَهَا ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا خَيَالٌ مُتَوَقِّدٌ

(١) فِي «الرَّسَالَةِ» : «رَجُلٌ» بَدَلًا مِنْ : «الرَّجُلُ» .

وَمِرَاجُ مَشْبُوبٍ وَتَرْبِيَةٌ مُدَلَّلَةٌ وَطَبْعُ جَرِيءٍ وَمَالٌ يَمُرُّ فِي إِنْفَاقِهِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ أَبٌ غَيِّبٌ مَخْدُوعٌ كَأَنَّهُ فِي يَدِ ابْنِهِ كُرَّةُ الْخَيْطِ : كُلَّمَا جَذَبَ مِنْهَا مَدَّتْ لَهُ مَدًّا ، ثُمَّ مَا هُنَالِكَ مِنْ قُنُونِ الْجَمَالِ وَمُنْعِ اللَّذَاتِ وَأَسْبَابِ اللَّهِ ، مِمَّا يَتَنَاهَى إِلَيْهِ فَسَادُ الْفَاسِدِ ، وَمَا هُوَ فِي ذَاتِهِ كَأَنَّهُ عُقُوبَةٌ مُسْتَأْصِلَةٌ لِلْإِخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ ؛ فَكَانَ الشَّيْطَانُ الْبَارِئِي مِنْ هَذَا الْمُسْكِنِ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَرَجْلِهِ وَيَدِهِ ، يُوجِّهُهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَيَالْجُمْلَةَ فَقَدْ ذَهَبَ لِيُذَرَسَ ، فَدَرَسَ مَا شَاءَ وَرَجَعَ أَسْتَاذًا فِي كُلِّ عُلُومِ النَّفْسِ الْمُخْتَلَةِ الطَّائِشَةِ وَقُنُونِهَا ، وَأَضَافَ إِلَى هَذِهِ وَتِلْكَ كَلِمَاتٍ يَلُوبِي بِهَا لِسَانُهُ مِنْ عُلُومِ وَأَقَاوِيلَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ الْحَادِقَ عَلَى أَنَّ هَذَا الشَّابَّ لَمْ يَفْلَحْ قَطُّ فِي مَدْرَسَةٍ .

فَلَمَّا وَقَعَتْ (خَضْرَاءُ) مِنْهُ ذَلِكَ الْمَوْقِعَ وَأَخَذَتْ مَأْخِذَهَا فِي نَفْسِهِ ، أَعْتَدَهَا نَزْوَةً مِنْ نَزَوَاتِهِ ، فَمَا يَمِيلُهُ أَنْ يُحِبَّ مِثْلَهَا ، وَلَا هِيَ كِفَايَتُهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُوَ سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِهِ ، أَوْ حَادِثَةً تَجْرِي فِيهَا حَالٌ مِنْ أَسْوَاحِ الْعَرَامِيَةِ ، وَحَسِبَهَا أَمْرَةً لَيْسَ لِقَلْبِهَا أَبْوَابٌ تَمْتَنِعُ عَلَى مِثْلِهِ ، فَقَدَّرَ أَنَّ غِنَاهُ وَفَقْرَهَا يَتَقَلَّبَانِ بَابًا ، وَعِلْمُهُ وَجَهْلُهَا يُحْطَمَانِ بَابًا آخَرَ ، وَجَمَالُهُ وَخُدُهُ يَضَعُ مَا بَقِيَ مِنَ الْأَقْفَالِ عَمَّا بَقِيَ مِنَ الْأَبْوَابِ ! وَكَانَ يَحْسَبُ أَنَّ جَمَالَ الْمَرْأَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ كَالْحِلْيَةِ مِنْ بَائِعِهَا ، فَكُلُّ مَنْ مَلَكَ تَمَتُّعًا فَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا هَذَا اللَّعْنُ ، وَلَكِنْ الْأَيَّامُ جَعَلَتْ تَأْتِي وَتَمُرُّ وَهُوَ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَغْرَضَ لَهَا وَهِيَ تَرْمِيهِ مِنْ صُدُودِهَا كُلِّ يَوْمٍ بِدَاعِيَةٍ مِنْ دَوَاعِيِ الْهَوَى ، وَكَانَ لَا يَجِدُ بِنَفْسِهِ قُوَّةً أَنْ يَزِيدَهَا عَلَى النَّظَرِ شَيْئًا ، وَتَرَكَ لَوَجْهِهِ وَثِيَابَهُ وَنَظَرَاتِهِ وَغِنَاهُ أَنْ تَصِلَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَقَلْبِهَا بِسَبَبٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ طَائِلًا ، وَتَمَادَى فِي حُبِّهِ ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ فِكْرَةُ غَمَرَتِهِ بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ ، أَمَّا هِيَ فَاشْعَرَتْهَا غَرَبُوتُهَا بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْهَا ، وَكَانَتْ مُسَمَّاةً لَابِنِ عَمِّهَا<sup>(١)</sup> فَكَانَتْ تَتَحَاشَى هَذَا الشَّابَّ وَتَحْذَرُهُ حَذَرًا شَدِيدًا ، وَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ يُحْصُونَ عَلَيْهَا النَّظْرَةَ وَالْإِنْفَاتَةَ وَيُحْصُونَ عَلَيْهِ مِنْ مِثْلِهِمَا ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِهَا أَنَّ لِهَذَا الرَّجُلِ شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهَا حِيلَةً وَهُوَ يَسْتَطِيعُهَا بِغِنَاهُ وَمَنْزِلَتِهِ .

وَكَانَ لِلرَّجُلِ خَادِمٌ دَاهِيَةٌ قَدْ تَخَرَّجَ فِي مَجَالِسِ الْقَضَاءِ ... مِنْ كَثَرَةِ مَا حُكِمَ عَلَيْهِ مِنْ تَزْوِيرٍ<sup>(٢)</sup> وَآخِيَالٍ وَغِشٍّ وَأَدْعَاءٍ وَإِنْكَارٍ وَتَحْوَاهَا ، وَقَدْ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ وَأَخَذَهُ مُوَانِسًا

وَرَفِيقًا ، وَجَعَلَهُ دَسِيسًا<sup>(١)</sup> إِلَى شَهَوَاتِهِ السَّافِلَةِ ، وَكَانَ يُسَمِّيهِ فِيمَا بَيْنَهُمَا (إِبْلِيسَ) ؛ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَزِمْنِيَا بِهِ قَالَ : يَا سَيِّدِي ! هَذِهِ قَضِيَّةٌ آخِيَالٍ عَلَيْهَا ، فَإِذَا دَخَلَ ابْنُ عَمِّهَا خَصْمًا فِي الدَّعْوَى كَانَتْ قَضِيَّةً آخِيَالٍ عَلَى عُمَرِي أَنَا !

قَالَ : وَيَحَكَ أَيْهَا الْأَبْلَةُ ! فَأَيْنَ دَهَاؤُكَ وَمَكْرُوكُ ؟ وَإِنَّمَا أُرْسِلُكَ إِلَى أَمْرَةٍ فَقِيرَةٍ عَيْشُهَا كَفَافُهَا ، وَأَنْتَ تَعِدُّهَا وَتُتَمِّتُهَا وَتَبْذُلُ عَنِّي مَا شِئْتَ ، وَمَتَى أَطْمَعْتَهَا فِي الْمَالِ ، فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ سَيُوجِدُ مَا يُوجِدُهُ<sup>(٢)</sup> فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُسْرِئِي مَا لَا يُسْرِئِي ، وَيَبْئِغُ مَا لَا يَبْئِغُ !

قَالَ (إِبْلِيسُ) : نَعَمْ يَا سَيِّدِي ، وَكَذَلِكَ هُوَ ، وَلَكِنْ خَوْفُ الْعَارِ يَطْرُدُ حُبَّ الْمَالِ !

قَالَ : فَأَنْتَ إِذَا لَا تَقْبَلُ ؟

قَالَ : وَلَا أَرْفُضُ ...

قَالَ الشَّابُّ : فَأَتَكَ اللَّهُ ! لَقَدْ فَهِمْتُ ! سَأَشْتَرِيهَا مِنْكَ بِمَمْنَنٍ ، أَحَدُهُمَا لَكَ وَالْآخَرُ لَهَا ؛ وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَصْنَعُ مَعَهَا وَمِنْ أَيْنَ تَبْلُغُ إِلَيْهَا ؟

قَالَ (إِبْلِيسُ) : لَمَّا كُنْتُ فِي السَّجَنِ عَرَفْتُ لِصًّا فَاتَكَ أَعْيَا قَوْمَهُ خُبْنًا وَشَرًّا ؛ وَهَذَا السَّجْنُ يَحْسَبُهُ النَّاسُ عِقَابًا وَرَدْعًا وَمَنْهَاجًا عَنِ الْإِنِّمِ ، عَلَى أَنَّهُ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي تُنْشِئُهَا الْحُكُومَةُ بِنَفْسِهَا لِتَلْقَى عُلُومَ الْجَرِيمَةِ عَنْ كِبَارِ أَسَاتِذَتِهَا ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمَعَ كِبَارُهُمْ فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا فِيهِ ، فَالسَّجْنُ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ حَلِّ الْمُسْكِلَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ يُحَدِّثُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ مُسْكِلَةً لَا تُحَلُّ !

قَالَ الْفَتَى : وَيَحَكَ ! أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ ؟ إِنَّمَا أُرْسِلُكَ إِلَى الْمَرْأَةِ لَا إِلَى السَّجَنِ !

قَالَ : [ نَعَمْ ] ، تُرْسِلُنِي أَنْتَ إِلَيْهَا وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ أَيْنَ يُرْسِلُنِي ابْنُ عَمِّهَا : إِلَى السَّجَنِ ، أَمْ إِلَى الْمُسْتَشْفَى ... ! فَاسْمَعْ يَا سَيِّدِي : كَانَ مِنْ نَصَائِحِ أَسْتَاذِي فِي ذَلِكَ السَّجَنِ ، أَنَّ الْحِيلَةَ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَغِي لِإِحْكَامِهَا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ أَسْبَابِهَا أَمْرَةً ، وَالْكَيْدُ لِأَمْرَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ وَسَائِلِهِ رَجُلٌ ... صَه ! انْظُرْ انْظُرْ !

(١) جَاشُوسًا وَصَاحِبَ سِرٍّ .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «لَا يُوجَدُ» بَدَلًا مِنْ : «يُوجَدُ» .

(١) مُدَّةٌ لِخَطْبَتِهِ ، أَوْ كَمَا يَقُولُونَ : فُرِثَتْ مَعَ أَهْلِهَا الْفَاتِحَةُ .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «فِي تَزْوِيرٍ» بَدَلًا مِنْ : «مِنْ تَزْوِيرٍ» .

فَالْتَفَتَ الشَّابُّ ، فَإِذَا (الْجَمَلُ) مُقْبِلٌ يَتَكَفَّمُ فِي مِشْيِهِ ، وَكَانَ غَلِيظًا ، فَإِذَا خَطَا شَدَّ عَلَى الْأَرْضِ بِقَدَمَيْهِ وَتَكَدَّسَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ؛ وَكَانَ مُنْطَلِقًا وَقَتِيذٌ إِلَى بَعْضِ مَذَاهِبِهِ ، فَلَمَّا حَاذَاهُمَا قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ! فَرَدَّا جَمِينًا ، وَرَمَى ابْنُ الْعُمْدَةِ بِنَظَرَةٍ ثُمَّ مَضَى لَوَجْهِهِ ، فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى بَلَغَهُ صَوْتُ الشَّابِّ يُنَادِيهِ : يَا فَلَانُ ! فَانْكَفَأَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ : لَقَدْ بَعُدَ عَهْدُكَ بِالْقُوَّةِ عَلَى مَا أَرَى .

[[ قَالَ : فَمَا ذَاكَ ؟ ]]

قَالَ : أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ فَلَانًا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي تُجَاوِرُنَا سَيَقْتَرُونَ بِزَوْجَتِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ الْمَوْقِعَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَلَدِنَا وَتِلْكَ الْبَلَدَةِ يَوْمَ عُرْسِ فَلَانٍ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ ، وَكَيْفَ انْتَفَعُوا عَلَى أَهْلِ بَلَدِنَا وَحَطَّمُوا فِيهِمْ تِلْكَ الْحِطْمَةَ الشَّدِيدَةَ ، وَلَوْلَا أَنْتَ أَذْرَكْتَهُمْ وَرَمَيْتَهُمْ بِنَفْسِكَ حَتَّى دَفَعْتَهُمْ عَنِ النَّاسِ وَسُقْتَهُمْ أَمَامَكَ سَوَاقِ النَّعَاجِ ، لَكَانَتْ بَلَدُنَا الْيَوْمَ أَذَلَّ الْبِلَادِ ، وَلَا سَطَّالُوا عَلَيْنَا بِأَنَّهُمْ غَلَبُونَا ؛ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي صَاحِبِي هَذَا كَيْفَ تَلَقَّيْتَ بِهَرَاوَتِكَ يَوْمَئِذٍ خَمْسًا وَعِشْرِينَ هَرَاوَةً ، فَأَطْرَقَهَا كُلُّهَا فِي جَوْلَتِكَ ، وَهَزَمْتَ أَصْحَابَهَا بَعْدَ أَنْ أَحَاطُوا بِكَ وَتَكَلَّمُوا<sup>(١)</sup> عَلَيْكَ ، فَأَنْتَ فَخَرُ بَلَدِنَا وَصَاحِبُ زَعَامَتِهَا ، وَمَا أَرَى لَكَ إِلَّا أَنْ تَنْتَهَرَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ وَتُسْرِعَ الْوُثْبَةَ إِلَيْهِمْ بِرِجَالِكَ ، فَتُجْزِيَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَنِيعًا بِصَنِيعِ مِثْلِهِ !

فَهَزَّ الْجَمَلُ كَيْفِيَّةَ الْعَرِضَتَيْنِ وَقَالَ : بَلْ سَأَنْتَظِرُهُمْ فِي يَوْمِ عُرْسِي بِابْنَةِ عَمِّي . . .

قَالَ الشَّابُّ : أَبْلَغْتَ مَا أَرَى ؟ فَإِنَّكَ لَتَخَافُهُمْ !

قَالَ : لَا أَخَافُهُمْ ، وَلَكِنْ أَخَافُ الْحُكُومَةَ أَنْ تُؤَخَّرَ يَوْمَ زَوَاجِي . . . سَنَةً أَوْ سَتَيْنِ ! قَالَ الْفَتَى : فَإِنَّ عَمَلَكَ هَذَا لَا يَشُدُّ مِنْ نَفُوسِ رِجَالِنَا ، وَلَا بُدَّ أَنْ أُولَئِكَ سَيَنْتَظِرُونَكُمْ وَيَعِدُّونَ لَكُمْ ، فَإِذَا لَمْ تَتَاجَزُواهُمْ فِي بَلَدِهِمْ عَذُّوْهَا عَلَيْكُمْ هَزِيمَةً مِنَ الْهَزَائِمِ ، وَكَأَنَّهُمْ ضَرَبُوكُمْ بِلَا ضَرْبٍ !

قَالَ الْجَمَلُ : هُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى الضَّرْبِ بِلَا ضَرْبٍ ، لِأَنَّهُمْ رِجَالٌ ، وَالَّذِي يَضْرِبُ بِلَا ضَرْبٍ لَا يَكُونُ رَجُلًا . . . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ !

(١) فِي «الرَّسَالَةِ» : «وَتَكَلَّمُوا» بَدَلًا مِنْ : «وَتَكَلَّمُوا» .

ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَمَّا أَبْعَدَ قَالَ الشَّابُّ : لَقَدْ بَدَأْتُ الْحَرْبَ وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَحْطِمَ هَذَا الْفَلَّاحَ اللَّعِينَ ، وَلَقَدْ عَرَفْتُ آلَانَ مِنْ وَجْهِهِ أَنَّ عَيْنَهُ عَلَيَّ ، وَلَسْتُ أَشُكُّ فِي أَنَّ ابْنَةَ<sup>(١)</sup> عَمِّهِ لَا تَمْتَنِعُ بِقُوَّتِهَا بَلْ بِقُوَّتِهِ ، وَلَوْلَا مَعْرِفَتِي أَنَّهُ مِنْ أَنْحِطَاطِ الْغَرِيزَةِ كَالْوَحْشِ فِي الدَّفَاعِ عَنْ أَثْنَاءِ . . . قَالَ (إِبْلِيسُ) : لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الْقِصَّةَ فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى الْفَتَاةِ وَهِيَ بَعْدَ فِتْنَةٍ ، فَإِذَا هُوَ وَصَلَ إِلَى أَمْرَاتِهِ قَطَعْتَ أَنْتَ بِهِدِيهِ الْخُطُوبَةَ نِصْفَ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا . . . وَسَتَبْلُوْهُ مِنْ غِلْظَتِهِ وَخَشُونَةِ طَبْعِهِ مَا يُسَهِّلُ لَكَ أَنْ تُعَلِّمَهَا قِيَمَةَ ظَرْفِكَ وَرَقَّتِكَ ، وَسَتَجِدُ مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِ وَقَبْحِ تَسَلُّطِهِ مَا يَفْتَحُ قَلْبَهَا لِمَنْ يَأْتِيهَا مِنْ قِبَلِ الرَّفْقِ وَاللِّينِ ، وَسَتُصِيبُ عِنْدَهُ مِنْ ضِيْقِ الْمَعِيشَةِ وَقِلَّتِهَا وَيُسْهِسَهَا مَا يُفْهِمُهَا مَعْنَى ذَلِكَ الْعَيْشِ الْخُلُوِّ الْخَضِرِ الَّذِي تَعْرِضُهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا بُدَّ مُبْتَلِيْنَهَا بِغَيْرِيَةِ الْعُمَيَّاءِ بَعْدَ مَا عَرَفَ مِنْ حُبِّكَ لِإِثْمِهَا ، وَالْغَرِيزَةُ مِنْكَ هِيَ تُوجِدُكَ بَيْنَهُمَا دَائِمًا وَتُبْنِيهِ الْمَرْأَةَ إِلَيْكَ كُلَّمَا كَرِهْتَ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا لَا تَرْضَاهُ .

وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مَدَّةً يَسِيرَةً حَتَّى أَهْدَيْتِ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا ، وَإِنَّمَا تَعَجَّلَ الزَّوْفَ لِيَتَأَتَى<sup>(٢)</sup> لَهُ أَنْ يَنْصُبَ يَدَهُ الْقُوَّةَ حِجَابًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَذَا الْمَفْتُونِ ، وَلِيَكْتَسِبَ مِنَ الْقَانُونِ حَقًّا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ قَبْلُ إِذَا هُوَ مَدَّ هَلِهِ الْيَدَ وَعَصَرَ فِي قَبْضَتِهَا تِلْكَ الرَّقِيبَةَ الَّتِي تَتَلَعَّلُ إِلَى أَمْرَاتِهِ ؛ وَرَأَى الشَّابُّ أَنَّ هَذِهِ الْحَالِ لَا تَعْتَدِلُ بِهِ وَبِخُصْمِهِ مَعًا ، وَكَانَتِ الْغَرِيزَةُ تَأْكُلُ مِنْ قَلْبِهِ أَكْلًا ، وَكَانَ يَغْرِضُ لِلْمَرْأَةِ كُلَّمَا خَرَجَتْ بِمَكْتَلِبِهَا<sup>(٣)</sup> إِلَى السُّوقِ أَوْ يَجَرَّتِهَا إِلَى الْمَاءِ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ . . . فَكَانَتْ إِذَا رَأَتْهُ لَمْ تُرْزَ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهَا إِذَا هِيَ أَبْصَرَتْ حِمَارًا يَمُدُّ عَيْنَهُ إِلَيْهَا ! فَعَمِدَ إِلَى أَمْرَأَةٍ مُقْبِيَةٍ<sup>(٤)</sup> تَزُفُ الْعَرَائِسَ ، وَهِيَ الَّتِي رَفَّتْ (خَضِرَاءَ) ، فَأَكْرَمَهَا وَأَتَحَفَهَا وَسَأَلَهَا أَنْ تُسَعِّفَهُ بِبَعْضِ مَا تَخْتَالُ بِهِ ، وَأَنْ تَكُونَ سَبِيلَهُ إِلَى الْمَرْأَةِ ؛ وَتَحَمَّلَ عَلَيْهَا (بَابِلَيْسِهِ) حَتَّى اسْتَوْثَقَ مِنْهَا ، فَكَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَمَامَ (خَضِرَاءَ) ؛ تَسْتَجِرُ بِذَلِكَ أَنْ تَلْفِتَهَا إِلَى نِعْمَتِهِ وَجَمَالِهِ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ أَغْلَطَتْ لَهَا وَسَبَّحَهَا وَحَذَرْنَهَا أَنْ

(١) فِي «الرَّسَالَةِ» : «بِنْتُ» بَدَلًا مِنْ : «ابْنَةُ» .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «لِيَأْتِي» بَدَلًا مِنْ : «لِيَتَأَتَى» .

(٣) هُوَ مَا يُسَمَّى الْفَلَقُ .

(٤) فِي «الرَّسَالَةِ» : «مُقْبِيَةٍ» بَدَلًا مِنْ : «مُقْبِيَةٍ» .



تَعُودُ إِلَى مِثْلِ كَلَامِهَا ، وَقَالَتْ لَهَا آخِرَ مَا قَالَتْ : وَأَعْلَمِي أَنِّي لَوْ دُفِعْتُ إِلَى طَرِيقَيْنِ وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا ، ثُمَّ كَانَ أَحَدُهُمَا حَصَاةَ الدَّانِيَةِ وَهُوَ طَرِيقُ الْعَارِ ، وَالْآخَرُ حَصْبَاوَةُ الْجَمْرِ وَيُفْضِي إِلَى الشَّرِّ ، إِذَنْ لَتَنَزَّهْتُ أَنْ أَدُسَّ نَعْلِي بِالذَّهَبِ وَلَتَنَزَّهْتُ لَحْمَ قَدَمَيَّ عَلَى الْجَمْرِ نَثْرًا .

وَالْحُبُّ لَا يَبْقَى <sup>(١)</sup> حُبًّا أَبَدًا ، فَإِذَا فَازَ فَبَرَدَ وَرَجَعَ سُلُوءًا ، وَإِذَا خَابَ فَاضْطَرَمَّ وَتَحَوَّلَ إِلَى حَقِيقَةٍ وَنَفَمَةٍ ؛ وَكَذَلِكَ أَنْفَجَرَ الشَّابُّ غِيظًا ، وَوَجَدَ عَلَى الْخَبِيثَةِ مَوْجِدَةً شَدِيدَةً ، وَأَخَذَ يُدِيرُ رَأْيَهُ ، فَفَقَّحَتْ لَهُ الْحِيلَةَ أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلَ الشَّهْمَ بِشَهَامَتِهِ ؛ وَالْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ بِعَفَّتِهَا ؛ فَوَاطَأَ إِنْلِيسَهُ عَلَى أَنْ يَدْفَعَ إِلَى تِلْكَ الْمُقْبِيَةِ <sup>(٢)</sup> مِنْدِيلًا مِنَ الْحَرِيرِ عَقْدَ طَرَفُهُ عَلَى دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ ، تُلْقِيهِ فِي صُنْدُوقِ (خَضِرَاءَ) وَتَدُسُّهُ فِي طَيِّ مِنْ أَطْوَاءِ ثِيَابِهَا ، فَذَهَبَتِ الْمَرْأَةُ ، وَمَا زَالَتْ بِخَضِرَاءَ تَسْتَصْلِحُهَا وَتَعْتَدِرُ إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَلَتْ ضَعِيفَتَهَا قَلْبًا ، ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَنْ تَأْتِيَهَا (بِالْعِنَشِ وَالْمَلِجِ) لِتُصِيبَ كِلَاهُمَا مِنْهُ وَتَحَرِّمَ بِحُرْمَتِهِ ؛ فَلَمَّا نَهَضَتْ تَأْتِيَهَا أَسْرَعَتِ الْخَبِيثَةُ إِلَى الصُّنْدُوقِ فَدَسَّتِ الْمِنْدِيلَ فِي أَبْعَدِ مَوَاضِعِهِ وَأَخْفَاهَا ، وَكَانَ مُنْدَى بِالْعِطْرِ لِيَتِمَّ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا لَمْ يَتِمَّ أَحَدٌ عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ رَجَعَتْ بِمَا فَعَلَتْ إِلَى الشَّابِّ ، فَاطْلُقَ خَادِمَهُ يَهْمِسُ لِبَعْضِ أَصْدِقَاءِ الْجَمَلِ أَنَّهُ رَأَى الْيَوْمَ فِي يَدِ (خَضِرَاءَ) دِينَارًا ذَهَبًا عَلَى نَذَرِهِ الذَّهَبِ وَجَزَرَتِهِ ؛ فَجَعَلَ هَذَا الدَّيْنَارُ يَطِيرُ مِنْ نَفْسٍ إِلَى نَفْسٍ بِقُوَّةِ الذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ ، وَالْحُبُّ الَّذِي أَعْطَاهُ ، وَالْجَمَالَ الَّذِي أَخَذَهُ ؛ ثُمَّ انْتَهَى إِلَى الْجَمَلِ ، فَكَانَتْ حَمَلَةً وَطَارَ بِهِ إِلَى دَارِهِ كَالْمَجْنُونِ وَقَدْ حَمِيَ دَمُهُ الْحَرُّ ، وَجَاشَ جَاشُهُ الْعَنِيفُ وَلَمْ تَكُنْ أَمْرَاتُهُ فِي الدَّارِ ، فَتَنَبَّرَ مَا فِي الصُّنْدُوقِ ، وَمَا كَادَتْ تَفْعُمُهُ رَائِحَةُ الْعِطْرِ حَتَّى نَفَخَ الشَّيْطَانُ بِهَا نَفْخَةَ الْغَضَبِ الْكَافِرِ ، ثُمَّ عَثَرَ عَلَى الْمِنْدِيلِ ، وَرَأَى بِصِيصِ الدَّيْنَارِ ، فَدَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَأَيْقَنَ أَنَّ الْعَارَ قَدْ طَرَقَ بَابَهُ ، وَأَنَّ الْبَابَ قَدْ فَتِحَ لَهُ ؛ ثُمَّ رَدَّ نَفْسَهُ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَرَدَّ مَعَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَى مَوْضِعِهِ ، وَتَلَفَّفَ رَأْيُهُ عَلَى جَرِيمَتَيْنِ ، وَخَرَجَ وَرُوحُهُ تَضْرُخُ مِنْ ضَرَبَةِ بَمِنْدِيلِ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَتْ تَتَهَوَّى عَلَيْهِ الصَّرَبَاتُ الْقَاتِلَةُ نَفْسَهُ مِنْهُ وَلَا تَبَاوَهُ !

وَذَكَرَ أَنَّ (حَمَاتَهُ) أَتَتْهُ مِنْ عَهْدِ قَرِيبٍ عَلَى ابْنِ الْعُمْدَةِ وَوَصَفَتْهُ بِالرَّقَّةِ وَالْغَنَى ، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا أَنْ تَأْتِيَ فَتَبَيِّنَ عِنْدَ أَمْرَاتِهِ لَأَنَّهُ عَلَى سَفَرٍ ، وَكَانَ كَالْأَعْمَى فِي ضَلَالَتِهِ : لَا يَرَى الْأَشْيَاءَ إِلَّا كَمَا يَتَخَيَّلُهَا فِي نَفْسِهِ دُونَ مَا هِيَ فِي نَفْسِهَا ، فَسَأَلَتْهُ زَوْجَتَهُ : أَيْنَ أَرْمَعْتَ وَمَا

(١) فِي «الْمُسَالَةِ» : «وَأَمَّا الْحُبُّ فَلَا يَبْقَى» بَدَلًا مِنْ : «وَالْحُبُّ لَا يَبْقَى» .

(٢) فِي «الْمُسَالَةِ» : «الْمُقْبِيَةُ» بَدَلًا مِنْ : «الْمُقْبِيَةُ» .

تَبْغِي مِنْ سَفَرِكَ وَكَمْ تَلَبْتُ عَنَّا ؟ فَكَانَتْ سَمِعَهَا تَقُولُ : أَرْحَلُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَغِيبَ عَنَّا زَمَنًا طَوِيلًا ، فَبِنَا إِلَى غِيَابِكَ حَاجَةً شَدِيدَةً ! وَكَادَ يَنْطَشُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ كَانَتْ صَدْرُهُ اللَّوْعَةَ وَذَكَرَ اسْمَ جِهَةِ بَعِيدَةٍ وَمَضَى وَالْإِنْكَسَارُ يُعْرِفُ فِيهِ !

\* \* \*

فَرَعَ النَّاسُ بَعْدَ أَيَّامٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذَا بَيْتُ الْجَمَلِ يَخْتَرِقُ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ، وَافْتَحَمُوهُ فَإِذَا الْمَرْأَةُ وَأُمُّهَا فَحَمَتَانِ ؛ وَأَنْطَلَقَتْ أَشْرَارُ <sup>(١)</sup> الْأَلْسِنَةِ ، وَقُبِضَ عَلَى الرَّجُلِ فِي بَلَدٍ أُخْرَى ، وَتَوَلَّى ابْنُ الْعُمْدَةِ نَوْجِيَةَ الْبَيْتَةِ عَلَيْهِ ، وَشَهِدَ الشُّهُودُ عَلَى الدَّيْنَارِ ، وَشَهِدَ الدَّيْنَارُ عَلَى النَّارِ ، وَأَنْكَرَ «الْجَمَلُ» وَلَمْ يَقْضِرْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ ، وَدَافَعَ عَنِ أَمْرَاتِهِ وَبَالَغَ فِي أَمَانَتِهَا وَعِفَّتِهَا ، وَشَهِدَ أَنَّهُ لَا يَخْلَعُ عَلَيْهَا مِنْ سُوءٍ ، وَأَنَّهَا أَطْهَرُ النِّسَاءِ وَأَبْرَأُهُنَّ ، ثُمَّ كَانَ الْحُكْمُ أَنْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ شَتَقًا !

\* \* \*

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ إِنْفَادِ الْحُكْمِ سِئِلَ الرَّجُلُ : هَلْ مِنْ شَيْءٍ تُرِيدُهُ ؟ فَطَلَبَ دَخِينَتَهُ <sup>(٢)</sup> فَقَدَمَهَا لَهُ قِيمَ السَّجْنِ ، فَأَشْعَلَهَا وَنَفَخَ مِنْ دُخَانِهَا نَفْخَةً ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَكَلَّمُ وَعُمُرُهُ يَفْنَى مَعَ الدَّخِينَةِ نَفْسًا فِي نَفْسٍ ، وَعَادَ هَذَا الدُّخَانُ الْمُتَطَايِرُ كَأَنَّهُ سَحَابٌ يَسْبُحُ فِيهِ الْوَحْيُ بَيْنَ حُدُودِ الدُّنْيَا وَحُدُودِ الْآخِرَةِ ؛ قَالَ الْمُسْكِينُ : لَمْ أَتَعَلَّمْ ، وَلَوْ تَعَلَّمْتُ مَا وَقَفْتُ هُنَا ؛ وَلَكِنْ رُبَّمَا كُنْتُ خَرَجْتُ نَذْلًا كِبَغْضِ الْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ أَشْرَافًا وَفِيهِمْ أَزْوَاجُ الْقَتْلَةِ وَاللُّصُوصِ !

لَمْ أَقِرْ لِأَحَدٍ بِجَرِيمَتِي خَشِيَةً أَنْ تُذَكَرَ كَلِمَةُ الْعَارِ مَعَ اسْمِي ، وَأَتَزَتُّ أَنْ أَمُوتَ بِالشُّنْثِ عَلَى أَنْ أَحْيَا وَيَمُوتَ اسْمِي بِالْعَارِ !

وَلَكِنِّي سَأَعْتَرِفُ آلَانَ أَمَامَكُمْ وَأَنْتُمْ السَّاعَةَ عَلَى قَبْرِي ، فَكُونُوا كَالْمَلَائِكَةِ لَا يَشْهَدُونَ بِمَا عَرَفُوا إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ .

أَعْتَرَفَ ابْنُ قَتْلَتِ زَوْجَتِي وَأُمُّهَا ؛ وَقَدْ تَقُولُونَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ الرَّجُلِ أَنْ يَقْتُلَ أَمْرَأَةً فَضْلًا عَنْ اثْنَيْنِ ؛ إِنِّي رَجُلٌ سَأَسْتَقِي ، أَمَّا النِّسَاءُ فَلَا يُسْتَفَنُ وَإِنَّمَا يُرْسَلَنَّ الرَّجَالُ إِلَى الْمُسْتَفَنَةِ . لَمْ أَرَأِ ابْنِي ؛ إِذْ تَرَكَتْنِي طِفْلًا ، وَلَكِنْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا ، فَأَنَا رَجُلٌ وَابْنُ رَجُلٍ ،

(١) فِي «الْمُسَالَةِ» : «أَشْرَارُ» بَدَلًا مِنْ : «أَشْرَارُ» .

(٢) وَضَعَهَا لِلتَّبَيُّحَةِ ، وَهِيَ الْبَيْتُ الْأَلْفَاظُ بِهَا .

وَلَمْ يُذِلَّنِي رَجُلٌ قَطُّ ، وَلَكِنْ لَوْ خَلَقَ اللَّهُ قُوَّةً مِثْلَ جَبَّارٍ فِي جِسْمِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَأَذَلَّتْهُ أَمْرًا !  
إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْمَةِ الرَّجُلِ أَنْ يَقْتُلَ النِّسَاءَ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ تُذِلُّ الرَّجُلَ ذُلًّا يَهُونُ عَلَيْهِ  
قَتْلُ نَفْسِهِ ، فَكَيْفَ لَا يَهُونُ عَلَيْهِ قَتْلُهَا ؟

عَلَّمُوا الْمُتَعَلِّمِينَ لِيَصْبِرُوا فِي الشَّرَفِ وَالْأَمَانَةِ وَالْعِفَّةِ كَرَجُلٍ جَاهِلٍ يَمْلِكُ : لَا يَرَى  
لِلْحَيَاةِ كُلِّهَا قِيمَةً إِذَا كَانَ فِيهَا مَعْنَى الْعَارِ ، وَيُقَدِّمُ عُقْبَةَ لِلْمِشْنَقَةِ حَتَّى لَا يُنْكَسَ رَأْسُهُ لِلذُّلِّ !  
أَصْلَحُوا الْقَانُونَ الَّذِي يَخْكُمُ بِالْمَوْتِ شَقًّا وَيُزْهِقُ الْأَرْوَاحَ الْكَبِيرَةَ ، فِي حِينٍ تَغْلِيهِ  
الْأَرْوَاحُ الصَّغِيرَةُ بِحِيلِهَا الْكَذِيبَةِ !

وَمَعَ ذَلِكَ سَأَلَنِي اللَّهُ وَهُوَ يَعْلَمُ سِرِّيَّيْنِ إِنْ كُنْتُ بَرِيئًا أَوْ مُجْرِمًا !  
قِيمِ السَّجْنِ : سَلَفًا طَاهِرًا .

السَّجْنِ : أَرَأَيْتُمْ مَنِي خُلِقَ سُوءٌ ؟ أَتَعْتَقِدُ عَلَيَّ ذَنْبًا مَدَّةَ سَجْنِي ؟  
الْقِيمِ : كُلُّنَا رَاضُونَ عَنْكَ .

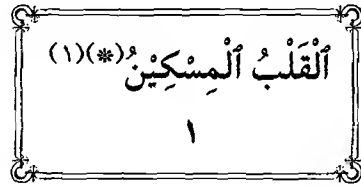
السَّجْنِ : هَذَا مِثْلٌ مِنْ أَخْلَاقِي ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ آخِرَ كَلِمَةٍ أَسْمَعُهَا مِنْ إِنْسَانٍ  
عَلَى الْأَرْضِ - كَلِمَةُ الرِّضَا .

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ !

\* \* \*

نَظَرْتُ رِيْشَةً مِنْ رَعَبِ الْعُصْفُورِ إِلَى الثُّجُومِ فَحَسِبْتُهَا رِيْشًا مُتَنَاوِرًا ، فَاْمْتَنَطَتِ الْعَاصِفَةُ  
وَقَالَتْ : إِلَى السَّمَاءِ ! وَدَارَتْ بِهَا الْعَاصِفَةُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَدُورَ ، ثُمَّ رَمَتْ بِهَا حَيْثُ وَقَعَتْ  
لَمْ تَبَالِ فِي مَوْضِعٍ نَفَعَ أَمْ ضُرٌّ ؛ فَأَقْبَلَتِ الرِّيْشَةُ تَسْخُطُ وَتَزْعُمُ أَنَّهَا قَوْضَى ثَائِرَةٌ لَا حِكْمَةَ  
فِي خَلْقِهَا ، وَأَنَّ الرِّيَّاحَ بَعَثَرَةٌ فِي نِظَامِ الْعَالَمِ ... وَكَانَ إِلَى جَانِبِهَا شَجَرَةٌ تَهْتَزُّ وَلَا  
تَطِيرُ ... فَلَمَّا وَعَتْ مَقَالَتَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا فَقَالَتْ : أَتَيْتُهَا الرِّيْشَةُ ! إِنَّ الرِّيَّاحَ لَا تَكُونُ بَعَثَرَةً  
فِي نِظَامِ الْعَالَمِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَالَمُ رِيْشًا كُلُّهُ !

مصطفى صادق الرافعي



أَقْبَلَ عَلَيَّ صَاحِبِي الْأَدِيبُ وَقَالَ : أَنْظُرْ ! هَلِدِهِ هِيَ ! وَقَدْ حَلَّتْ بِهِذَا الْبَلَدِ وَمَالِي عَهْدُ  
بِهَا مُنْذُ سَنَةٍ . وَمَدَّ إِلَيَّ يَدَهُ ، فَنَظَرْتُ إِلَى صُورَةِ أَمْرَأَةٍ كَأَحْسَنِ النِّسَاءِ وَجْهًا وَجِسْمًا ، تَتَأَوَّدُ  
فِي غِلَالَةٍ مِنَ اللَّادِ (١) .

وَكَانَ شُعَاعُ الضُّحَى فِي وَجْهِهَا ، وَكَأَنَّهَا الْقَمَرُ طَالِعًا مِنْ غَيْمَةٍ ، وَيَكَادُ صَدْرُهَا يَنْهَدُ  
وَهِيَ صُورَةٌ ، وَتَبْدُو هَيْئَةً فَمِهَا كَأَنَّهَا وَغْدٌ بِقُبْلَةٍ ، وَفِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةٌ كَأَلَشْكُوتِ بَعْدَ الْكَلِمَةِ  
الَّتِي قِيلَتْ هَمْسًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُحِبِّهَا ...

فَقُلْتُ : هَذِهِ صُورَةٌ مَا أَرَاهَا قَدْ رَسَمَهَا إِلَّا أَثْنَانِ : الْمَصُورُ وَإِبْلِيسُ ، فَمَنْ هِيَ ؟  
قَالَ : سَلَهَا ، أَمَا تَرَاهَا تَكَادُ تَثْبُثُ مِنَ الْوَرَقَةِ ؟ إِنَّهَا إِلَّا تُخْبِرَكَ بِشَيْءٍ أَخْبَرَكَ عَنْهَا  
وَجْهَهَا أَنَّهَا أَجْمَلُ النِّسَاءِ وَأَظْرَفُهُنَّ ، وَأَحْسَنُ مَنْ شَاهَدْتَ وَجْهًا وَأَعْيُنًا ، وَتَغْرَا وَجِيدًا ،  
وَالَّذِي بَعْدَ ذَلِكَ ...

قُلْتُ : وَيَحَكْ ! لَقَدْ شَعَرْتُ بِعَدِي ، إِنَّ هَذَا شِعْرٌ مُوزُونٌ [من الطويل] :  
وَأَحْسَنُ مَنْ شَاهَدْتَ وَجْهًا وَأَعْيُنًا وَتَغْرَا وَجِيدًا وَالَّذِي بَعْدَ ذَلِكَ ...  
قَالَ : إِنَّ شَيْطَانَ هَذِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا شَاعِرًا : أَلَسْتَ تَرَاهُ نَاطِمًا مِنْ قُتُوبِهَا ، عَلَى الرَّسْمِ  
شِعْرًا مُعْجَزًا كُلَّ شَاعِرٍ ؟

قُلْتُ : وَهَذَا أَيْضًا شِعْرٌ مُوزُونٌ [من الطويل] :

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٣ ، ١٠ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ١٧٢٣ - ١٧٢٥ .

(١) أَنْظُرْ قِصَّةَ صَاحِبَةِ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ فِي « عَوْدِ عَلَيَّ بِدءٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » ، وَهِيَ  
صَاحِبَةُ « الْجَمَالِ الْبَائِسِ » . سَعِيدُ الْعُزَيَّانِ .

(٢) اللَّادُ : الْحَرِيرُ الصَّنِيعِيُّ الرَّقِيقُ ، وَالْغِلَالَةُ : مِثْلُ الْقَمِيصِ الَّذِي تَحْتَ الثِّيَابِ .

أَلَسْتُ تَرَاهُ نَاطِلًا مِنْ قُؤُونِهَا عَلَى الرَّسَمِ شِعْرًا مُعْجَزًا كُلَّ شَاعِرٍ  
قَالَ : بَلَى وَاللَّهِ إِنَّهُ الشَّيْطَانُ ، إِنَّهُ شَيْطَانُهَا يُرِيكَ لِهَذَا الْجِسْمِ رُوحًا رَشِيقَةً ، تَلِينُ  
كَلِينَ الْجِسْمِ بَلْ هِيَ أَرْشَقُ .

قُلْتُ : وَهَذَا أَيْضًا ، وَالْقَافِيَةُ الَّتِي بَعْدَ هَذَا أَلَيْبَتِ : وَبِهَا شَقُوا ...

فَصَحَحَكَ صَاحِبُنَا وَقَالَ : حَرِّكَ الصُّورَةَ فِي يَدِكَ ، فَإِنَّكَ سَتَرَاهَا وَمَا تَشْكُ أَنَّهَا تَرْقُصُ .

قُلْتُ : أَلَا أَنْقَطَعَ شَيْطَانُكَ ، فَهَذَا لَيْسَ شِعْرًا وَلَا يَجِيءُ مِنْهُ وَزْنٌ .

وَتَضَاحَكَا وَضَحِكَ الشَّيْطَانُ ، وَظَهَرَ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ فِي الرَّسَمِ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : أَنْظُرْ إِلَى هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ، إِنَّهُمَا مِنَ الْعُيُونِ الَّتِي تَفْتِنُ  
الرَّجُلَ وَتَسْحَرُهُ مَتَى نَظَرْتَ إِلَيْهِ ، وَتُعَذِّبُهُ وَتُضْنِيهِ مَتَى غَابَتْ عَنْهُ ؛ إِنْ فِي شِعَاعِهِمَا قُدْرَةٌ  
عَلَى وَضْعِ الْكُؤُورِ فِي الْقَلْبِ السَّعِيدِ ، كَمَا أَنَّ فِي سَوَادِهِمَا الْقُدْرَةَ عَلَى وَضْعِ الظُّلْمَةِ فِي  
الْقَلْبِ الْمَهْجُورِ .

وَأَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْقَلَمِ ، إِلَى هَذَا الْقَلَمِ الَّذِي تَعْجِزُ كُلُّ حَدَائِقِ الْأَرْضِ أَنْ تُخْرِجَ وَرْدَةً  
حَمْرَاءَ تُشْبِهُهُ .

وَأَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْجِيدِ تَحْتَهُ ذَلِكَ الصَّدْرُ الْعَارِي ، فَوْقَهُ ذَلِكَ الْوَجْهُ الْمُسْرِقُ تِلْكَ ثَلَاثَةٌ  
أَنْوَاعٍ مِنَ الصُّوَرِ ، أَمَّا الْوَجْهُ فَفِيهِ رُوحُ الشَّمْسِ ، وَأَمَّا الْجِيدُ فَفِيهِ رُوحُ النَّجْمِ ، وَأَمَّا  
الصَّدْرُ فَفِيهِ رُوحُ الْقَمَرِ الصَّاحِي .

أَنْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْمَسَافَةِ أَلْبِيضَاءَ مِنْ أَعْلَى جَبِينِهَا إِلَى أَسْفَلِ نَهْدَيْهَا ، تِلْكَ مِثْقَلَةُ  
الْقُبُلَاتِ فِي جُغَرَفِيَةِ هَذَا الْجَمَالِ ...

أَنْظُرْ إِلَى الصَّدْرِ يَحْمِلُ ذَنَبِكَ الْتَّاهِدِينَ ؛ إِنَّهُ الْمَعْرِضُ الَّذِي اخْتَارَتْهُ الطَّبِيعَةُ  
مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ لِلإِغْلَانِ عَنْ ثِمَارِ الْبُشْتَانِ ...

أَنْظُرْ إِلَى التَّهْدِينِ ، لِمَ بَرَزَا فِي صَدْرِ الْمَرْأَةِ إِلَّا إِذَا كَانَا يَتَحَدَّثَانِ الصَّدْرَ الْآخَرَ ... ؟

وَأَنْظُرْ لِهَذَا الْخَضِرِ الدَّقِيقِ وَمَا فَوْقَهُ وَمَا تَحْتَهُ ، أَلَا تَرَاهُ فِتْنَةً مُتَوَاضِعَةً بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ  
مُتَكَبِّرَتَيْنِ ... ؟

أَنْظُرْ إِلَيْهَا كُلَّهَا ، أَنْظُرْ إِلَى كُلِّ هَذَا الْجَمَالِ ، وَهَذَا السَّخَرِ ، وَهَذَا الْإِغْرَاءِ ؛ أَلَا  
تَرَى الْكَثْرَ الَّذِي يُحَوِّلُ الْقَلْبَ إِلَى لَصٍّ ... ؟

هَذِهِ مَخْلُوقَةٌ مَرَّتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ اللَّهِ فِي الْعَالَمِ ، وَالْأُخْرَى مِنْ حُبِّي أَنَا فِي نَفْسِي  
أَنَا : فَكَلِمَةُ « جَمِيلَةٌ » الَّتِي تَصِفُ الْمَرْأَةَ النَّامَةَ ، لَا تَصِفُهَا هِيَ إِلَّا بَعْضُ الْوَضْفِ ،  
وَرَسْمُهَا هَذَا الَّذِي تَرَاهُ إِنَّمَا هُوَ حُدُودٌ لِتِلْكَ الرُّوحِ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ التَّسْلُطِ ، وَهِيَاتُ يَظْهَرُ  
مِنْ تِلْكَ الرُّوحِ إِلَّا مَا يَظْهَرُ مِنَ الْجَمْرَةِ الْمُشْتَعِلَةِ رَسْمِ هَذِهِ الْجَمْرَةِ فِي وَرَقَةٍ .

أَشْهَدُ مَا نَظَرْتُ مَرَّةً إِلَى هَذَا الرَّسَمِ ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهَا إِلَّا وَجَدْتُ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي نَفْسِهَا  
وَبَيْنَهُمَا فِي الصُّورَةِ ، كَأَنَّهُ اعْتِدَارٌ نَاطِقٌ مِنَ آلَةِ التَّصْوِيرِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَدَاةً .

\* \* \*

قُلْتُ : اَللَّهُمَّ غَفِّرَا ، ثُمَّ مَاذَا يَا صَدِيقِي الْمَحْجُونُ ؟

فَاطَرُكَ الْأَدِيبُ مَهْمُومًا ، وَكَانَتْ أَفْكَارُهُ تَنْفَجِرُ فِي دِمَاعِهِ أَنْفِجَارًا هُنَا وَأَنْفِجَارًا هُنَاكَ ؛  
ثُمَّ رَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ وَقَالَ :

هَذِهِ الْغَانِيَةُ قَدْ حَسَبَتْ أَفْكَارِي كُلَّهَا فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا هِيَ ؛ وَأَغْلَقَتْ أَبْوَابَ نَفْسِي  
وَمَتَافَذَهَا إِلَى الدُّنْيَا ، وَالْهَيْبَتِ فِي دَمِي جَمْرَةٌ مِنْ جَهَنَّمَ فِيهَا عَذَابُ الْإِخْرَاقِ وَلَيْسَ فِيهَا  
الْإِخْرَاقُ نَفْسُهُ كَيْلًا يَنْتَهِي مِنْهَا الْعَذَابُ !

وَبَيْنَمَا حُبٌّ بِغَيْرِ طَرِيقَةٍ الْحُبِّ ، فَإِنَّ طَبِيعَتِي الرُّوحَانِيَّةَ الْكَامِلَةَ تَهَوَّى فِيهَا طَبِيعَتَهَا  
الْبَشَرِيَّةَ الْكَافِصَةَ ، فَأَنَا أَمَارِجُهَا بِرُوحِي فَأَتَأَلَّمُ لَهَا ، وَأَتَجَنَّبُهَا بِجِسْمِي فَأَتَأَلَّمُ بِهَا .

حُبٌّ عَقِيمٌ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ لَا يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْوَاقِعِ ...

حُبٌّ عَجِيبٌ لَا تَنْتَفِي مِنْهُ الْأُمَّةُ وَلَا تَكُونُ فِيهِ لَذَاتُهُ .

حُبٌّ مُعَقَّدٌ لَا يَزَالُ يَلْقَى الْمَسْأَلَةَ بَعْدَ الْمَسْأَلَةِ ، ثُمَّ يَرْفُضُ الْحُلَّ الَّذِي لَا تُحْلِلُ الْمَسْأَلَةَ

إِلَّا بِهِ .

حُبِّ أَحْمَقُ يَعْنِي الْمَرْأَةَ الْمَبْدُولَةَ لِلنَّاسِ ، وَلَا يَرَاهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا قَدِيسَةً لَا مَطْمَعَ فِيهَا .  
حُبِّ أَبْلَه لَا يَزَالُ فِي حَقَائِقِ الدُّنْيَا كَالْمُنْتَظَرِ أَنْ تَقَعَ عَلَى شَفْتَيْهِ قُبْلَةٌ مِنَ الْقَلَمِ الَّذِي فِي  
الْصُّورَةِ .

حُبِّ مَجْنُونٍ كَالَّذِي يَرَى الْحَسَنَاءَ أَمَامَ مِرَاتِيهَا يَقُولُ لَهَا : أَذْهَبِي أَنْتِ وَسَتَبْقَى لِي هَذِهِ  
الَّتِي فِي الْيَمِينَةِ ...

\* \* \*

قُلْتُ : اللَّهُمَّ رَحْمَةً ؛ ثُمَّ مَاذَا يَا صَاحِبِي الْمُسْكِينِ ؟

قَالَ : ثُمَّ هَذِهِ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا هِيَ الَّتِي لَا أُرِيدُ الِاسْتِمْتَاعَ بِهَا وَلَا أُطِيقُهُ وَلَا أَجِدُ فِي  
طَبِيعَتِي جُرْأَةً عَلَيْهِ ، فَكَأَنَّهَا الذَّهَبُ وَكَأَنَّيَ الْفَقِيرُ الَّذِي لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَصًا ؛ يَقُولُ لَهُ  
شَيْطَانُ الْمَالِ : تَسْتَطِيعُ أَنْ تَطْمَعَ ، وَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ الْحَاجَةِ : وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ ، وَيَقُولُ  
هُوَ لِنَفْسِهِ : لَا أَسْتَطِيعُ إِلَّا الْفَضِيلَةَ !

إِنَّ عَذَابَ هَذَا بِشَيْطَانَيْنِ لَا بِشَيْطَانٍ وَاحِدٍ ، غَيْرَ أَنَّ لَذَّتُهُ فِي انْتِصَارِهِ كُلِّدَةً مَنْ يَفْهَرُ  
بَطْلَيْنِ كِلَاهُمَا أَقْوَى مِنْهُ وَأَشَدُّ .

\* \* \*

قُلْتُ : اللَّهُمَّ عَفْوًا ، ثُمَّ مَاذَا يَا قَاهِرَ الشَّيْطَانَيْنِ ؟

فَأُطْرَقَ مَلِكًا كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي أَمْرِ قَدْ حَيَّرَهُ لَا يَتَوَجَّهُ لَهُ فِي أَمْرِهِ وَجْهٌ ، ثُمَّ تَهَدَّى وَقَالَ :  
يَا طُولَ عِلَّةٍ قَلْبِي ! مِنْ أَيْنَ أَجِيءُ لِأَخْلَامِي بِغَيْرِ مَا تَجِيءُ الْأَخْلَامُ بِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَحْتَ  
الْكُومِ وَوَرَاءَ الْعَقْلِ وَفَوْقَ الْإِرَادَةِ ؟ لَقَدْ بَلَغَ بَيْنِي هَوَاهَا أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِ الْحُبِّ فِي كِتَابٍ  
أَوْ رِوَايَةٍ أَوْ شِعْرِ أَوْ حَدِيثٍ - أَرَاهَا مُوجَّهَةً إِلَيَّ أَنَا .

ثُمَّ قَالَ : أَنْطَلِقُ بِمَا فَتَرَاهَا حَتَّى تَعْلَمَ مِنْهَا عَلَمًا ، فَهِيَ فِي ذَلِكَ الْمَسْرَحِ ، هِيَ فِي ذَلِكَ  
الشَّرِّ ، هِيَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ، هِيَ كَاللُّؤْلُؤَةِ لَا تَتَرَبَّى لُؤْلُؤَةً إِلَّا فِي أَعْمَاقِ بَحْرِ .

\* \* \*

وَدَهَبْنَا إِلَى مَسْرَحٍ يَقُومُ فِي حَدِيقَةٍ غَنَاءَ مُتْرَامِيَةِ الْجِهَاتِ بَعِيدَةِ الْأَطْرَافِ تَظْهَرُ تَحْتَ  
الْلَّيْلِ مِنْ ظُلُمَاتِهَا وَأَنْوَارِهَا كَأَنَّهَا مُثْقَلَةٌ بِمَعَانِي الْهَجْرِ وَالْعِشْقِ .

وَتَقَدَّمْنَا نَسِيرًا فِي الْغَيْشِ ، فَقَالَ صَاحِبُنَا الْمُحِبُّ : إِنِّي لَأَسْمَعُ أَنَّ الظَّلَامَ هُنَا حَيٌّ كَأَنَّ  
فِيهِ غَوَامِضَ قَلْبٍ كَبِيرٍ ، فَمَا أَرَى فَرْقًا بَيْنَ أَنْ أَجْلِسَ فِيهِ وَبَيْنَ الْجُلُوسِ إِلَى فَيْلَسُوفٍ عَظِيمٍ  
مَهْمُومٍ بِهِمْ إِلَّا نِهَايَةً ، فَتَعَالَى نَبْرُؤُ إِلَى ذَلِكَ الثُّورِ حَوْلَ الْمَسْرَحِ لِنَرَاهَا وَهِيَ مُثْقَلَةٌ ، فَإِنَّ  
رُؤْيَهَا سَيَدَّةَ غَيْرِ رُؤْيَيْهَا رَاقِصَةً ، وَلِهَذَا جَمَالَ قَدْ وَلِيتِكَ قَدْ جَمَالَ .

وَلَمْ نَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى وَافَتْ ، وَرَأَيْتُهَا تَمْشِي مِشْيَةَ الْخَفِرَاتِ كَأَنَّهَا تَخْتَرِمُ أَفْكَارَ  
النَّاسِ ، يَزْهُوْهَا عَلَى ذَلِكَ إِحْسَاسٌ نَبِيلٌ كَلِإِحْسَاسِ الْمَلِكَةِ الشَّاعِرَةِ بِمَحَبَّةِ شُعْبَاهَا ؛  
وَأَتَنَفَّضُ مَجْنُونًا وَأَغْمَضُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهَا تَمُرُّ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ لَا فِي طَرَفَيْهَا . وَكَأَنَّ لَذَّةَ قُرْبِهَا مِنْهُ  
هِيَ الْمُتَمَكِّنُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ غَيْرُهُ .

وَكَانَ عَجَبًا مِنَ الْعَجَبِ أَنْ تَحَرَّكَ الْهَوَاءُ فِي الْحَدِيقَةِ وَأَضْطَرَبَتْ أَشْجَارُهَا ، فَقَالَ :  
أَنْتِ تَرَى ؛ فَهَذَا أَحْتِجَاجٌ مِنْ رَافِصَاتِ الطَّبِيعَةِ عَلَى دُخُولِ هَذِهِ الرَّاقِصَةِ . قُلْتُ : أَوْ  
يَا صَدِيقِي ! إِنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَكُونُ أَمْرًا بِمَعَانِيهَا إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ فِي جَوْ قَلْبٍ يَعْنِفُهَا .

وَنَفَذْنَا إِلَى الْمَسْرَحِ ، وَتَحَرَّيْتُ صَاحِبَنَا مُوضِعًا يَكُونُ فِيهِ مَنْظَرُ الْعَيْنِ مِنْ صَاحِبِيهِ  
وَيَكُونُ مُسْتَحْفِيًا مِنْهَا ، ثُمَّ رُفِعَ السَّنَارُ عَنْهَا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ يَكْتَنِفَانِهَا ، وَقَدْ لَبَسْنَ ثَلَاثَتَهُنَّ أَثَوَابَ  
الرِّيفِيَّاتِ ، وَظَهَرْنَ كَهَيَاتُنِهِنَّ حِينَ يَجْنِبْنَ الْقُطْنَ .

وَبَرَزَتْ (تِلْكَ) فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَسْوَدِ ، وَهِيَ بَيَضَاءُ بَيَاضِ الْقَمَرِ حِينَ يَتِيمٌ ، وَقَدْ  
شَدَّتْ وَسَطَهَا بِمِشْدَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ ، فَتَحَبَّكَتْ بِهَا وَظَهَرَتْ شَيْئَتَيْنِ : أَعْلَى وَأَسْفَلَ ؛  
ثُمَّ أَلْقَتْ عَلَى شَعْرِهَا الذَّهَبِيَّ فَلَنَسُوهُ حَمْرَاءَ مِنْ ذَلِكَ الْحَرِيرِ أَمَالُهَا جَانِبًا فَحَبَسَتْ شَيْئًا مِنْهُ  
وَأَظْهَرَتْ سَائِرَهُ ، وَأَخَذَتْ بِيَدَيْهَا صَفَاقَتَيْنِ <sup>(١)</sup> ، وَأَقْبَلَ الثَّلَاثَ يَرْفُضُنَ وَيُعْتِنُنَ نَسِيدَ  
الْفَلَاحَةِ .

(١) الصَّفَاقَاتُ ، هِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا : السَّجَاجُ ، تَكُونُ فِي أَصَابِعِ الرَّاقِصَةِ ، وَالْكَلِمَةُ وَارِدَةٌ فِي كِتَابِ  
« الْأَغَانِي » .

لَمْ أَنْظُرْ إِلَى غَيْرِهَا ، فَقَدْ كَانَتْ صَاحِبَتَاهُ دِلِيلَيْنِ عَلَى جَمَالِهَا لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ ، وَمَا أَحْسَبُ الْحَرِيرَ الْأَخْمَرَ ، كَانَ مَعَهَا أَخْمَرٌ وَلَا الْأَسْوَدَ كَانَ عَلَيْهَا أَسْوَدٌ ، وَلَا لَوْنُ الذَّهَبِ فِي مِعْصِمِهَا كَانَ لَوْنُ الذَّهَبِ ؛ كَلَّا كَلَّا ، هَذِهِ أَلْوَانُ فَوْقَ الطَّبِيعَةِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْوَجْهَ يُشْرِقُ عَلَيْهَا بِالْجَمَالِ وَالْحَيَاةِ ، وَذَلِكَ الْجِسْمُ يَفِيضُ لَهَا بِالْخِفَّةِ وَالطَّرِبِ ، وَتِلْكَ الرُّوحُ تَبْعُثُ فِيهَا الْمَرَحَ وَالشَّوْهَ ؛ هَذَا مَزِيَجٌ مِنْ خَمْرِ الْأَلْوَانِ لَا مِنْ الْأَلْوَانِ نَفْسِهَا .

وَقَالَ مَجْنُونُنَا : إِنَّ أَجْمَلَ الْجَمَالِ فِي الْمَرْأَةِ الْفَاتِيَةِ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَجْعَلُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَوْعَ شُعُورِهِ بِهَا ، وَأَنَا أَشْعُرُ السَّاعَةَ أَنَّ قَلْبِي نِصْفُ قَلْبٍ فَقَطْ ، وَأَنْ نِصْفَهُ الْآخَرُ فِي هَذِهِ وَحْدَهَا ؛ فَمَا شُعُورُكَ أَنْتَ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي ! إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ أَخْفَى الْقَلْبَ وَأَخْفَى بَوَاعِثَهُ لِيُظَلَّ كُلُّ إِنْسَانٍ مَخْبُوءًا عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ ؛ فَدَعْنِي مَخْبُوءًا عَنكَ !  
قَالَ : لَا بُدَّ !

قُلْتُ : إِنَّ الْمِضْبَاحَ فِي الْمَوْضِعِ النَّجِسِ لَا يَبْعَثُ الثُّورَ نَجَسًا ، وَمَا أَشْعُرُ إِلَّا أَنَّ الثُّورَ الَّذِي فِي قَلْبِي قَدْ أَمْتَزَجَ بِالثُّورِ الَّذِي فِي عَيْنَيْهَا .

ثُمَّ كَانَتْ أَحْسَنُ بِأَنَّ إِنْسَانًا قَدْ أَمْتَلَأَ بِهَا ، فَأَدَارَتْ وَجْهَهَا وَهِيَ تَرْقُصُ فَتَلَمَّحَتْ صَاحِبَتَا ، وَجَعَلَتْ تُقَطِّعُ الطَّرْفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ كَأَنَّهَا تَعْرِفُهُ وَتَجْهَلُهُ ، ثُمَّ تَبَيَّنَتْ إِلْحَاحُ نَظَرِهِ فَضَحِكَ لِأَنَّهَا تَعْرِفُهُ وَلَا تَجْهَلُهُ !

أَمَّا هُوَ ؛ أَمَّا الْمَجْنُونُ ؛ أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ... !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

## الْقَلْبُ الْمِسْكِينُ (\*)

٢

... أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ، فَرَأَى الضَّحْكَ الَّتِي أَلْقَتْ بِهَا صَاحِبَتُهُ وَهِيَ تَرْقُصُ حِينَ عَرَفَتْهُ - غَيْرَ مَا رَأَيْتُهَا أَنَا وَغَيْرَ مَا رَأَى النَّاسُ : كَانَتْ لَنَا نَحْنُ أَتْبَسًا مَا عَدَبًا مِنْ فَمِ جَمِيلٍ يَتِمُّ جَمَالُهُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَكَانَتْ لَهُ هُوْلَةٌ مِنْ هَذَا الْقَمِ الْجَمِيلِ يُتِمُّ بِهَا حَدِيثَنَا قَدِيمًا كَانَ بَيْنَهُمَا ؛ وَأَعْتَرَانَا مِنْهَا الطَّرِبُ وَأَعْتَرَاهُ مِنْهَا الْفِكْرُ ، وَوَصَفَتْ لَنَا نَوْعًا مِنَ الْحُسْنِ وَوَصَفَتْ لَهُ نَوْعًا مِنَ الشُّوقِ ، وَمَرَّتْ عَلَيْنَا شُعَاعًا فِي الضُّوءِ وَوَقَعَتْ فِي يَدِهِ هُوَ كِبَاقِفُهُ الزَّيَارَةِ عَلَيْهَا أَسْمٌ مَكْتُوبٌ ...

وَقَوِي إِحْسَاسُ الرَّاقِصَةِ الْجَمِيلَةِ بَعْدَ ذَلِكَ فَاتَّبَعْتُ يَدُلَّ عَلَى نَفْسِهِ ضُرُوبًا مِنَ الدَّلَالَةِ الْخَفِيَّةِ ، وَرَجَعْتُ بِهِذَا الْإِحْسَاسِ كَالْحَقِيقَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْغَامِضَةِ الْمَمْلُوءَةِ بِفُتُونِ الزَّمْرِ وَالْإِيمَاءِ ، وَكَأَنَّهَا زَادَتْ بِهِذَا الْعُمُوصِ زِيَادَةً ظَاهِرَةً ؛ وَلِلْمَرْأَةِ لَحَظَاتٌ تَكُونُ فِيهَا يَفْكُرِينَ حِينَمَا يَكُونُ أَحَدُ الْفِكْرَيْنِ مَائِلًا أَمَامَهَا فِي رَجُلٍ تَهَوَّاهُ ؛ فَبِئْسَ هَذِهِ السَّاعَةِ تَتَحَدَّثُ الْمَرْأَةُ بِكَلَامٍ فِيهِ صَنْتٌ يَشْرَحُ وَيُفَسِّرُ ، وَتَضْطَرِبُ بِحَرَكَةٍ فِيهَا اسْتِزْخَاءٌ يَمِيلُ وَيَعْتَنِقُ ، وَتَنْظُرُ بِالْحَاظِ فِيهَا أَنْكِسَارٌ بِأَمْرٍ وَيَتَوَسَّلُ ، وَكَانَتْ هِيَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ .. فَعَلَبَتْ وَاللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا الْمِسْكِينِ وَتَرَكَتْ نَفْسَهُ كَأَنَّهَا تَنْقَطِعُ فِيهِ مِنْ أَسْفٍ وَحَسْرَةٍ ؛ ثُمَّ كَانَتْ لَهُ كَالزُّهْرَةِ الْعَلِيقَةِ : بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا جَمَالُهَا وَعِطْرُهَا وَهَوَاؤُهَا وَالْحَاسَةُ الَّتِي فِيهِ .

وَجَعَلَ يَسْتَشْفِيهَا مِنْ خِلَالِ أَعْضَائِهَا وَهِيَ تَرْقُصُ ، ثُمَّ قَالَ لِي : أَنْظُرْ وَنَحَكَ ! لَكَأَنَّ ثِيَابَهَا تَفْشِيهَا وَتَلْصِقُ بِهَا صَمَّ ذِي الْهَوَى لِمَنْ يَهْوَى .

قُلْتُ : مَا هِيَ إِلَّا كَهَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَرْقُصَانِ مَعَهَا : أَمْرَةٌ بَيْنَ أَمْرَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ أَحْسَنَ الثَّلَاثِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٥ ، ٢٤ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ٩ نوفمبر / تشرين الآخر ١٩٣٦ م ، السنة

قَالَ : كَلَّا ! هَلْ هِيَ وَحْدَهَا قَصِيدَةٌ مِنْ أَرْوَاحِ الشَّعْرِ تَتَحَرَّكُ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَقْرَأَ ، وَتُرَى بَدَلًا مِنْ أَنْ تُسَمِعَ ؛ قَصِيدَةٌ بِلاَ أَلْفَاظٍ ، وَلَكِنَّ مَنْ شَاءَ وَضَعَ لَهَا أَلْفَاظًا مِنْ دَمِهِ إِذَا هُوَ فَهَمَهَا بِحَوَاسِهِ وَفِكَرِهِ وَشُعُورِهِ .

قُلْتُ : وَالْآخِرَيَانِ ؟

قَالَ : كَلَّا كَلَّا ، هَذَا فَرٌّ آخَرٌ ، فَالْوَاحِدَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْكِنَاتِ إِنَّمَا تَرْقُصُ بِمَعْدِنِهَا ... تَرْقُصُ لِلْخَيْرِ لَا غَيْرٍ ؛ أَمَّا (تِلْكَ) فَرَقُصُهَا الطَّرَبُ مَضْنُوعًا عَلَى جِسْمِهَا وَمَضْنُوعًا مِنْ جِسْمِهَا ، إِنَّهَا كَالطَّائِفِ فِي أَصْبَاحِهِ ، فِي رَيْشِهِ ، فِي خِيَلَتِهِ ، بَخْتَرَةٍ يُضَاعِفُهَا الْحُسْنُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَلَوْ خَلَقَ اللَّهُ جِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا مِنَ الْجَوَاهِرِ أَحْمَرَهَا وَأَخْضَرَهَا وَأَصْفَرَهَا وَأَزْرَقَهَا ، وَالْآخَرُ مِنَ الْأَزْهَارِ فِي أَلْوَانِهَا وَوَشِيِّهَا ، ثُمَّ اخْتَالَ الطَّائِفُ بَيْنَهُمَا نَاشِرًا ذَيْلَهُ فِي كِبْرِيَاءِ رُوحِهِ الْمَلُونَةِ - لَظَهَرَ فِيهِ وَحْدَهُ اللَّوْنُ الْمَلِكُ بَيْنَ الْأَوَانِ هِيَ رَعِيَّتُهُ الْخَاصَّةُ .

\* \* \*

وَأَنْتَهَى رَقْصُ الْحَسَنَاءِ الْفَاتِنَةِ وَغَابَتْ وَرَاءَ السَّتَارَةِ بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَتْ قُبْلَةً فِي الْهَوَاءِ ... فَقَالَ صَاحِبُنَا : آه ! لَوْ أَنَّ هَذِهِ الْحَسَنَاءَ تَصَدَّقَتْ بِدِرْهَمٍ عَلَى فَقِيرٍ ، لَجَعَلْتَهُ لِمَسَّةٍ يَدِهَا دِرْهَمًا وَقُبْلَةً ...

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! قُبْلَةُ مُحَرَّوَّةٍ مُسَدَّدَةٌ وَقَدْ رَأَيْتُهَا وَقَعَتْ هُنَا ... وَلَكِنَّكَ دَائِمًا فِي خِصَامٍ بَيْنَ نَفْسِكَ وَبَيْنَ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ ؛ تَعَشُّقُ الْقُبْلَةِ وَتُخَاصِمُ الْقَلَمَ الَّذِي يُلْقِيهَا ، وَتَبْنِي الْعُشَّ وَتَتَرَكُهُ فَارِغًا مِنْ طَبِيرِهِ ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تُحِبُّكَ لَا بُدَّ مُنْتَهِيَةٍ<sup>(١)</sup> إِلَى الْجُنُونِ مَا دَامَتْ مَعَكَ فِي غَيْرِ الْمَفْهُومِ وَغَيْرِ الْمَعْقُولِ وَغَيْرِ الْمُمْكِنِ .

ثُمَّ بَدَأَ فَضَّلَ آخَرَ عَلَى الْمَسْرُوحِ وَظَهَرَ رِجَالُ وَنِسَاءٌ وَقِصَّةٌ ؛ وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ شَيْخٌ يُمَثِّلُ قَبِيحًا ، وَآخَرُ يُمَثِّلُ شَرِيطًا ؛ فَقَالَ صَاحِبُنَا الْفَيْلَسُوفُ : لَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الثِّيَابُ فَارِغَةً وَكَانَتْهَا الْآنَ تَنْطَلِقُ أَنَّ صِحَّةَ أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ صِحَّةُ الظَّاهِرِ فَقَطْ ، مَا دَامَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنْ تَنْتَهِيَ » بَدَلًا مِنْ : « مُنْتَهِيَةٌ » .

الظَّاهِرُ يُخْلَعُ وَيُلْبَسُ بِهِذِهِ الشُّهُولَةُ ، فَكَمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ شُرَفَاءَ لَوْ حَقَّقْتَ أَمْرَهُمْ وَبَلَوْتَ الْبَاطِنَ مِنْهُمْ لَرَأَيْتَهُمْ إِنَّمَا يُشْرَفُونَ الرِّذَائِلَ لِأَنَّهُمْ يَزْكِيُونَهَا بِشَرَفِ ظَاهِرٍ ... وَكَمْ مِنْ أَغْنِيَاءَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّصُوصِ إِلَّا أَنَّهُمْ يَسْرِفُونَ بِقَانُونٍ ... وَكَمْ مِنْ فَقَهَاءَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَجَرَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ يَفْجَرُونَ بِمَنْطِقِي وَحْجَةٍ ... لَيْسَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ بِهِذِهِ الشُّهُولَةُ الَّتِي يَطْلُهَا مَنْ يَطْلُ ، وَإِلَّا فَيَمِيزُ كَانَ تَعَبُ الْأَنْبِيَاءِ وَشَقَاءُ الْحُكَمَاءِ وَجِهَادُ أَهْلِ الْقُرُوسِ ؟

الْعُقْدَةُ السَّمَاوِيَّةُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ إِلَّا حَيَوَانًا مُطْلَفًا تَلَطُّفًا إِنْسَانِيًا ، ثُمَّ أَرَاهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَقَالَ لَهُ : أَجْعَلْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ إِنْسَانًا وَجَنِينًا . قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! فَمَا تَقُولُ فِي حُبِّكَ هَذِهِ الرَّاقِصَةَ وَأَنْتَ حَيَوَانٌ مُطْلَفٌ تَلَطُّفًا إِنْسَانِيًا ؟

قَالَ : وَنَحْكَ ! وَهَلِ الْعُقْدَةُ إِلَّا هُنَا ؟ فَهَلْ هِيَ مَبْدُولَةٌ مُنْكَتَةٌ ، ثُمَّ هِيَ لِي كَالضَّرُورَةِ الْقَاهِرَةِ ، فَلَا يَكُونُ حُبُّهَا إِلَّا إِغْرَاءً بِنَيْلِهَا ، وَلَا تَكُونُ شُهُولَةٌ نَيْلِهَا إِلَّا إِغْرَاءً لَذَلِكِ الْإِغْرَاءِ ؛ فَأَنَا مِنْهَا لَسْتُ فِي أَمْرَةٍ وَحُبٌّ ، وَلَكِنِّي فِي أَمْتِحَانٍ شَدِيدٍ عَسِرٍ ؛ أَغَالِبُ نَامُوسًا مِنْ نَوَامِيسِ الْكَوْنِ ، وَأُدَافِعُ قَانُونًا مِنْ قَوَانِينِ الْغَرِيزَةِ ، وَأُظْهِرُ قُوَّتِي عَلَى قُوَّةِ الضَّرُورَةِ الْمُمِيسَةِ بِأَسْبَابِهَا ، وَهِيَ أَشَدُّ الضَّرُورَاتِ عُنْفًا وَالْحَاحَ وَقَهْرًا لِلنَّفْسِ مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ ، وَأَنَّهَا مَهْيَاةٌ سَهْلَةٌ ؛ فَلَوْ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْمَخْبُوءَةَ كَانَتْ مُنْتَمِنَةً بَعِيدَةً الْمَتَالِ ، لَمَا كَانَتْ لِي فَضِيلَةً فِي هَذَا الْحُبِّ الْعَنِيفِ ، وَلَكِنَّهَا دَائِمَةٌ مُيسَّرَةٌ عَلَى الشَّعْفِ وَالْهَوَى ؛ فَهَذَا هُوَ الْأَمْتِحَانُ لِأَصْنَعَ أَنَا بِنَفْسِي فَضِيلَةَ نَفْسِي !

\* \* \*

وَمَرَّ الْفَضْلُ الَّذِي مَثَلُوهُ وَمَا تَشْعُرُ مِنْهُ بِتَمَثُّلٍ ، فَقَدْ كَانَ كَالضُّورَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُغَرَّضَةِ لِلْعَمَلِ وَهُوَ يُعَكِّرُ فِي غَيْرِهَا ، وَكَانَتْ (الْحَقِيقَةُ) فِي شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ هَذَا ، وَمَتَى لَمْ يَتَعَلَّقِ الشُّعُورُ بِالْقَلْبِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَرٌّ ؛ وَهَذَا هُوَ سِرُّ كُلِّ أَمْرَةٍ مَخْبُوءَةٍ ، فَهِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تُثِيرُ شُعُورَ الْمُحِبِّ فِي نَفْسِهِ فَيَشْعُرُ مِنْ حُسْنِهَا بِحَقِيقَةِ الْحُسْنِ الْمُطْلَقِ ، وَيجِدُ فِي مَعَانِيهَا جَوَابَ مَعَانِيهِ ، وَتَأْتِيهِ كَأَنَّهَا صُنِعَتْ لَهُ وَحْدَهُ ، وَتَجْعَلُ لَهُ فِي الزَّمَانِ زَمَنًا قَلْبِيًّا يَخْصُرُ وَجُودَهُ فِي وَجُودِهَا .

وَلَيْسَ فَنَ الْحُبِّ شَيْئًا إِلَّا اسْتَطَاعَةَ الْحَبِيبِ أَنْ يَجْعَلَ شَهَوَاتِ الْمُحِبِّ شَاعِرَةً بِهِ مُمْتَلِئَةً مِنْهُ مُتَعَلِّقَةً عَلَيْهِ ، كَأَنَّ بِهِ وَحْدَهُ ظُهُورَ جَسَدِيَّةٍ هَذَا الْجَسَدِ وَرُوحَانِيَّةٍ هَذَا الرُّوحِ ؛ وَكُلُّ مَا يَتَرَكِّزُ بِهِ الْمَخْبُوبُ لِلْمُحِبِّ فَإِنَّمَا هُوَ وَسَائِلُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ لِإِظْهَارِ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي فِيهِ ، كَيْمَا تَكْبُرُ فَيَذَرُكُمَا الْمُحِبُّ بِدَقَّةٍ ، وَتَتَوَرُّ فَيَحْشُهَا الْعَاشِقُ بِعُتْفٍ ، وَتَسْتَبِدُّ فَيَخْضَعُ لَهَا الْمُسِيكِينُ بِقُوَّةٍ .

وَالشَّهَوَاتُ كَالطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي أَغْصَابِ الْإِنْسَانِ ، وَهِيَ تَتَّبِعُ فِكْرَهُ وَخَيَالَهُ وَلَا تَفَاوَتْ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، أَوِ التَّنَبُّهِ وَالْخُمُودِ ، أَوِ الْحِدَّةِ وَالسُّكُونِ ، غَيْرَ أَنَّهَا فِي الْحُبِّ تَجِدُ لَهَا فِكْرًا وَخَيَالًا مِنَ الْمَخْبُوبِ ، فَتَكُونُ كَأَنَّهَا قَدْ غَيَّرَتْ طَبِيعَتَهَا بِسِرٍّ مَخْهُولٍ مِنْ أَسْرَارِ الْأُلُوهِيَّةِ . وَمِنْ هُنَا يَتَأَلَّهُ الْحَبِيبُ وَهُوَ لَمْ يَزِدْ وَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ وَلَمْ يَتَبَدَّلْ ، وَتَرَاهُ فِي وَهْمٍ مُجِبِّهِ يَفْرِضُ فَرْضًا وَيُسْرِعُ سُرِيعَةً مِنْ حَيْثُ لَا قِيَمَةَ لِفَرُوضِهِ وَشُرَيْعَتِهِ إِلَّا فِي الشَّهْوَةِ الْمُؤَمَّنَةِ بِهِ وَخَدَهَا .

وَمِنْ ثَمَّ لَا عِصْمَةَ عَلَى الْمُحِبِّ إِلَّا إِذَا وَجِدَ بَيْنَ إِيْمَانَيْنِ ، أَقْوَاهُمَا الْإِيْمَانُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ؛ وَبَيْنَ خَوْفَيْنِ ، أَشَدَّهُمَا الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ ؛ وَبَيْنَ رَغْبَتَيْنِ ، أَعْظَمَهُمَا الرَّغْبَةُ فِي السُّمُوِّ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَاشِقُ ذَا دِينٍ وَفَضِيلَةٍ فَلَا عِصْمَةَ عَلَى الْحُبِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَقْوَى الْإِيْمَانَيْنِ الْحَرِصَ عَلَى مَكَانَةِ الْمَخْبُوبِ فِي النَّاسِ ، وَأَشَدُّ الْخَوْفَيْنِ الْخَوْفَ مِنَ الْقَانُونِ ... وَأَعْظَمُ الرَّغْبَتَيْنِ الرَّغْبَةَ فِي نَتِيجَةِ مَشْرُوعَةٍ كَالزَّوْاجِ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَوْ ذَلِكَ فَقَلَّمَا تَجِدُ الْحُبَّ إِلَّا وَهُوَ فِي جَرَاءَةِ كُفْرَيْنِ وَحِمَاقَةٍ جُنُونَيْنِ ، وَانْحِطَاطِ سَفَالَتَيْنِ ، وَبِهَذَا لَا يَكُونُ فِي الْإِنْسَانَيْنِ إِلَّا دُونَ مَا هُوَ فِي بِهِمَتَيْنِ ! .

\* \* \*

ثُمَّ جَاءَ الْفَضْلُ الثَّالِثُ وَظَهَرَتْ فِي عَلَى الْمَسْرَحِ ، ظَهَرَتْ هَذِهِ الْمَرْءَةُ فِي ثَوْبٍ مَرَكِيزَةٍ أَوْزُبِيَّةٍ تُخَاصِرُ عَشِيقًا لَهَا ، فَيَرُفَصَانِ فِي أَدَبٍ أَوْزُبِيٍّ مُتَمَدِّنٍ ... مُتَمَدِّنٍ بِنِصْفٍ وَقَاحَةٍ ؛

مُتَأَدِّبٍ ... مُتَأَدِّبٍ بِنِصْفٍ تَسْقُلُ ؛ مَشْرُوعٍ ... مَشْرُوعٍ بِنِصْفٍ كُفْرٍ ؛ هُوَ عَلَى التَّصْفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى لِيَجْعَلَ الْعَذْرَاءَ نِصْفَ عَذْرَاءٍ ؛ وَالزَّوْجَةَ نِصْفَ زَوْجَةٍ ... ! .

وَكَانَ الَّذِي يُمَثِّلُ دَوْرَ الْعَشِيقِ فَتَاةً أُخْرَى غُلَامِيَّةً مُجَمِّمَةً الشَّعْرِ<sup>(١)</sup> مَمْسُوخَةٌ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ : فَلَمَّا رَأَاهَا صَاحِبِنَا قَالَ : هَذَا أَفْضَلُ ..

وَهَشَّتِ الْحَسَنَاءُ وَتَسَمَّتْ وَأَخَذَتْ فِي رَفْصِهَا الْبَدَنِيعَ ، فَأَنْفَصَلَ عَنِّي الصَّدِيقُ وَأَهْمَلَنِي وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا بِالنَّظَرَةِ بَعْدَ النَّظَرَةِ بَعْدَ النَّظَرَةِ ، كَأَنَّهُ يُكْرِّرُ غَيْرَ الْمَفْهُومِ لِيَفْهَمَهُ ، وَرَجَعَ وَإِيَّاهَا كَأَنَّهُ فِي عَالَمٍ مِنْ غَيْرِ زَمَنَاتٍ تَقْدُمُهُ عَنْ عَالَمِنَا سَاعَةً أَوْ تُوَخَّرُهُ سَاعَةً ؛ وَكَانَتْ جُمْلَةُ حَالِهِ كَأَنَّهَا تَقُولُ لِي : إِنَّ الدُّنْيَا آلَانِ امْرَأَةٌ ! وَكَانَ مِنَ السُّرُورِ كَأَنَّمَا نَقَلَهُ الْحُبُّ إِلَى رُتْبَةِ آدَمَ ، وَنَقَلَ صَاحِبَتَهُ إِلَى رُتْبَةِ حَوَاءَ ، وَنَقَلَ الْمَسْرَحَ إِلَى رُتْبَةِ الْجَنَّةِ !

وَالْعَجَبُ أَنَّ الْقَمَرَ طَلَعَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَأَفَاضَ نُورًا جَدِيدًا عَلَى الْمَسْرَحِ الْمَكْشُوفِ فِي الْحَدِيقَةِ ، فَكَأَنَّهُ فَعَلَ هَذَا لِيُيَمِّمَ الْحُسْنَ وَالْحُبَّ ، وَأَخَذَ شِعَاعَ الْقَمَرِ السَّمَائِيِّ يَرْقُصُ حَوْلَ هَذَا الْقَمَرِ الْأَرْضِيِّ ، فَكَانَتْ الصَّلَاةُ تَأْتِيهِ وَتَيْقَعُهُ بَيْنَ نَفْسٍ صَاحِبِنَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْقَمَرَيْنِ .

مَا هَذَا الْوَجْهَ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ ؟ إِنَّهُ بَيْنَ اللَّحْظَةِ وَاللَّحْظَةِ يُعَبِّرُ تَغْيِيرًا جَدِيدًا بِقَسَمَاتِهِ وَمَلَامِحِهِ الْفَتَاتَةِ : كُلُّ الْبَيَاضِ الْخَاطِطِ فِي نُجُومِ السَّمَاءِ يَجُولُ فِي أَدِيمِهِ الْمُسْرِقِ ، وَكُلُّ السَّوَادِ الَّذِي فِي عُيُونِ الْمَهَا يَجْتَمِعُ فِي عَيْنَيْهِ ، وَكُلُّ الْحُمْرَةِ الَّتِي فِي الْوَرْدِ هِيَ فِي حُمْرَةِ هَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ .

مَا هَذَا الْجِسْمُ الْمُتَرَنَّيْنُ الْمُتَمَوِّجُ الْمُفْرَغُ كَأَنَّهُ يَنْدَفِقُ هُنَا وَهُنَا ؟ إِنَّهُ جِسْمٌ كَامِلٌ الْأَنْوَتَةُ ، إِنَّهُ صَارِخٌ صَارِخٌ ، إِنَّهُ عَالَمٌ جَمَالٍ كَمَا تَقُولُ الْفَلَسَفَةُ حِينَ تَصِفُ الْعَالَمَ : فِيهِ « جِهَةٌ فَوْقَ » وَ« جِهَةٌ تَحْتَ » ؛ لَوْ أُمْتَدَّتْ لَهُ يَدٌ عَاشِقَةً لَجَعَلَ فِي خَمْسٍ أَصَابِعِهَا خَمْسَ حَوَاسٍ ...

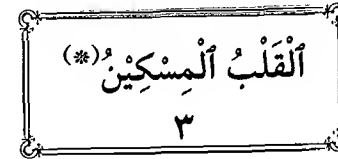
(١) الْمُجَمِّمَاتُ : هُنَّ اللَّوَاتِي يَتَّخِذْنَ شُعُورَهُنَّ جُمَّةً (بِضَمِّ الْجِيمِ) ، أَيْ : يَقْضُصْنَهَا ؛ كَمَا يَفْعَلُ نِسَاءُ هَذِهِ الْأَيَّامِ تَشْبِيهَا بِالرَّجَالِ ؛ وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَصْنَعُهُ نِسَاءُ الْعَرَبِ وَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْهُ كَرَاهَةً لِهَذَا الشَّعْرِ ؛ فَقَصَّ الشَّعْرُ (عَلَى الْمُؤَدَّةِ) هُوَ التَّجْمِيمُ .

مَا هَذَا؟ مَا هَذَا؟ لَقَدْ خُتِمَ الرَّقْصُ بِقُبْلَةِ أَلْفَاها الْخَلِيلِ عَلَى شَفَتِي الْخَلِيلَةِ ، وَكَانَتْ تَرَكْتُ خَصْرَهَا فِي يَدَيْهِ وَأَنْفَلْتُ تَمِيلُ بِأَعْلَاهَا رَاجِعَةً بِرَأْسِهَا إِلَى خَلْفِي ، نَارِلَةً بِهِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَى الْأَرْضِ ، هَارِبَةً بِشَفَتَيْهَا مِنَ الْقَمِ الْمُطِلِّ عَلَيْهَا ؛ وَكَانَ هَذَا الْقَمِ يَنْزِلُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا لِيَذْرَكَ الْهَارِبَ ...

وَقَبْلَ أَنْ تَقَعَ الْقُبْلَةُ أَلْتَفَتَتْ لَفَتَةً إِلَى ... ثُمَّ تَلَقَّتِ الْقُبْلَةُ ، أَمَا هُوَ ، أَمَا مَجْنُونُنَا أَمَا صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



أَمَا صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ، فَرَمَقَهَا وَهِيَ تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ الْتَفَاتِ الطَّبِيبَةِ بِسَوَادِ عَيْنَيْهَا ، يَجْعَلُ سَوَادَهُمَا الْجَمِيلُ فِي الْظُّرَةِ الْوَاحِدَةِ نَظْرَتَيْنِ لِعَاشِقِ الْجَمَالِ ، تَقُولُ إِحْدَاهُمَا : أَيْتَ ، وَتَقُولُ الْأُخْرَى : أَنَا ؛ ثُمَّ رَأَاهَا<sup>(١)</sup> وَقَدْ كَسَرَتْ أَجْفَانَهَا وَتَفَتَّرَتْ فِي يَدَيِ الْمُتَمَثِّلِ الْعَشِيقِ وَأَفْصَحَ مَنْظَرُهَا بِبِلَاغَةٍ ... بِبِلَاغَةِ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ بَيْنَ ذِرَاعَيْ مَنْ تُحِبُّهُ ، ثُمَّ اخْتَلَجَتْ وَصَوَّبَتْ وَجْهَهَا ، وَأَهْدَفَتْ شَفَتَيْهَا ، وَتَلَقَّتِ الْقُبْلَةَ .

وَكَانَ بِهِ مِنْهَا مَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، فَأَنْبَعَثَ مِنْ صَدْرِهِ آهَةٌ مُعَوَّلَةٌ تَرِنُ أَيْنِئَا ، غَيْرَ أَنَّهَا كَلَّمَتْهُ بِعَيْنَيْهَا أَنَّهَا تَقْبَلُهُ هُوَ ؛ فَلَا رَيْبَ قَدْ حَمَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى الْكَسَمَاتِ شَيْئًا جَمِيلًا عَنْ ذَلِكَ الْقَمِ ، لَمَسَتْ بِهِ النَّفْسُ النَّفْسَ ، وَالْقُبْلَةُ هِيَ هِيَ ، وَلَكِنْ وَقَعَ خَطَأٌ فِي طَرِيقَةِ إِزْسَالِهَا ...

{ وَ } لَيْسَ تَحْتَ الْخَيَالِ شَيْءٌ مُوجُودٌ ، وَلَكِنَّ الْخَيَالَ الْمُسْرَحَ بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ تَكُونُ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٦ ، ٢ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٦ نوفمبر / تشرين الآخر ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٨٦٣ - ١٨٦٥ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَرَاهَا » بَدَلًا مِنْ : « رَأَاهَا » .

فِيهِ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ وَاجِبَةُ الوجود ؛ إِذْ هُوَ بِطَبِيعَتِهِ مَجْرَى أَحْلَامٍ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ ، وَمُسْرَحٌ شُعُورٍ يَصْدُرُ وَيَرُدُّ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ فِي حَيَاةٍ كَامِلَةٍ الْإِحْسَاسِ مُتَجَاوِيةِ الْمَعَانِي ؛ وَبِهَذَا الْخَيَالِ يَكُونُ مَعَ الْقَلْبَيْنِ الْمُتَحَابِّينِ رُوحٌ طَبِيعِيٌّ كَأَنَّهُ قَلْبٌ ثَالِثٌ يَنْقُلُ لِلوَاحِدِ عَنِ الْآخَرِ ، وَيَصِلُ السِّرَّ بِالسِّرِّ ، وَيَزِيدُ فِي الْأَشْيَاءِ وَيُنْقِصُ مِنْهَا ، وَيَدْخُلُ فِي غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ فَيَجْعَلُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْحَقِيقِيِّ ؛ وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ فَرَحٌ وَلَا حُزْنٌ ، وَلَا أَمَلٌ وَلَا يَأْسٌ ، وَلَا سَعَادَةٌ وَلَا شَقَاءٌ ، إِلَّا وَكُلُّ ذَلِكَ مُضَاعَفٌ لِلْمُحِبِّ الصَّادِقِ بِقَدْرِ قَلْبَيْنِ ؛ وَالَّذِينَ يَعْرِفُونَ قُبْلَةَ الشَّغَفِ وَالْهَوَى ، يَعْرِفُونَ أَنَّ الْعَاشِقَ يَقْبَلُ بِلَذَّةٍ أَرْبَعَ شَفَاهُ .

\* \* \*

وَأَسْدَلْتُ بَعْدَ هَذِهِ الْقُبْلَةِ سِتَارَةَ الْمُسْرَحِ ، وَغَابَتْ الْجَمِيلَةُ الْمَغْمُورَةُ غَيْبَةً التَّمَثُّلِ ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ : إِنَّ رُوحَيْكُمَا مَتَرَوْجَتَانِ ...

قَالَ : آه ! وَمَدَّهَا مِنْ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ دَنِفٌ سَقِيمٌ .

قُلْتُ : وَمَاذَا بَعْدَ آهٍ ؟

قَالَ : وَمَاذَا كَانَ قَبْلَهَا ؟ إِنَّهُ الْحُبُّ : فِيهِ مِثْلُ مَا فِي (عَمَلِيَّةِ جِرَاحِيَّةٍ) مِنْ تَهْدِاتِ الْأَلَمِ وَلَدَعَائِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا مُفَرَّقَةٌ عَلَى الْأَوْقَاتِ وَالْأَسْبَابِ ، مُبَعَّرَةٌ غَيْرُ مَجْمُوعَةٍ ! « آه » : هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا تَفْرُغُ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَهِيَ تُقَالُ بِلَهْفَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْمُصِيبَةِ الدَّاهِمَةِ ، وَالْأَلَمِ الْبَالِغِ ، وَالْمَرَضِ الْمُذْنِفِ ، وَالْحُبِّ الشَّدِيدِ ؛ فَحِينَئِذَا تَوَشَّكَ النَّفْسُ أَنْ تَخْتَنِقَ تَتَنَفَّسُ بِـ « آه » !

قُلْتُ : أَمَا رَأَيْتَهَا مَرَّةً وَقَدْ أَوْشَكَتْ نَفْسُهَا أَنْ تَخْتَنِقَ ... ؟

قَالَ : لَقَدْ هَجَتْ لِي دَاءً قَدِيمًا ؛ إِنَّ لِهَذِهِ الْحَبِيبَةِ سَاعَاتٍ مَغْرُوسَةً فِي رَمَتِي غَرْسِ الشَّجَرِ ، فَبَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ تَتِمُّرُ هَذِهِ السَّاعَاتُ مَرَّهَا وَحُلُوهَا فِي نَفْسِي كَمَا يَتِمُّرُ الشَّجَرُ الْمُخْتَلِفُ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهَا ذَاتَ مَرَّةٍ فِي سَاعَةٍ هَمُّهَا ! ثُمَّ ضَحِكَ وَسَكَتَ .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِي ! مَاذَا رَأَيْتَ مِنْهَا ؟ وَكَيْفَ أَرَاكَ الْوَجْدَ مَا رَأَيْتَ مِنْهَا ؟

قَالَ : أَتَصَدَّقُنِي ؟



قُلْتُ : نَعَمْ .

قَالَ : رَأَيْتَ اللَّهُمَّ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الْجَمِيلَةِ كَأَنَّهُ هُمْ مُؤَلَّتٌ يَشْفُقُهُ هُمْ مُذَكَّرٌ ... فَلَهُ جَمَالٌ وَدَلَالٌ وَفَنَّةٌ وَجَادِيَّةٌ ، وَكَأَنَّ وَجْهَهَا يَصْنَعُ مِنْ حُزْنِهَا حُزْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى اللَّهُمَّ لِقَلْبِهَا ! وَالْآخَرُ بِمَعْنَى الثَّوَرَةِ لِقَلْبِي !

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! هَذَا كَلَامٌ آخَرُ ؛ فَهَذِهِ أَمْرَاءُ نَاعِمَةٍ بَضَّةٍ مَطْوِيٍّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضِهَا ، لَفَاءً مِنْ جِهَةٍ هَيَفَاءً مِنْ جِهَةٍ ، ثَقِيلَةٌ شَيْءٌ وَخَفِيفَةٌ شَيْءٌ ، جَمَعَتِ الْحُسْنَ وَالْجِسْمَ وَفَنًا بَارِعًا فِي هَذَا وَفَنًا مُفْرَدًا فِي ذَاكَ ، وَهِيَ جَمِيلَةٌ كُلُّ مَا تَنَاقَلُ مِنْهَا ، سَاحِرَةٌ كُلُّ مَا تَتَحَيَّلُ فِيهَا ، وَهِيَ مَرَّاحَةٌ دَحْدَاحَةٌ<sup>(١)</sup> ، وَهِيَ تَطَالِعُكَ وَتُطْمِعُكَ ، وَأَنْتَ أَمْرٌ عَاشِقٌ وَرَجُلٌ قَوِيٌّ الرُّجُولَةِ ، فَالْجَمِيلَةُ وَالْمَرْأَةُ هُمَا لَكَ فِي هَذَا الْجِسْمِ الْوَاحِدِ ، إِنْ ذَهَبَتْ تَفْصِيلُهُمَا فِي خَيَالِكَ أَمْتَرَجْنَا فِي دِمِكَ ، وَلَوْ أَمْسَكَتْ أَلَّهُ التَّصَوُّيرَ نَظْرَاتِكَ إِلَيْهَا لَبَاتَتْ فِيهَا أَطْرَافُ اللَّهَبِ الْأَحْمَرِ مِمَّا فِي نَفْسِكَ مِنْهَا ، وَلَعَمْرِي لَوْ مَرَّتْ عَرَبَةٌ تَذْرُجُ فِي الطَّرِيقِ وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا نَظْرَتَكَ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ بِهِذِهِ الْغَرِيزَةِ الْمُخْتَسِبَةِ الْمَكْمُوفَةِ<sup>(٢)</sup> لَطَنَّتْكَ سَرَى الْعَجَلَةِ الْخَلْفِيَّةِ عَاشِقًا مُهْتَاجًا يُطَارِدُ الْعَجَلَةَ الْأَمَامِيَّةَ وَهِيَ تَفِرُّ مِنْهُ فِرَارَ الْعَذَرَاءِ ... !

\* \* \*

فَضَحِكَ وَقَالَ : لَا ، لَا ؛ إِنْ نَوْعَ التَّصَوُّيرِ لِإِنْسَانٍ هُوَ نَوْعُ الْمَعْرِفَةِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ ، وَمِنْ كُلِّ حَبِيبٍ وَحَبِيبَةٍ تَجْتَمِعُ مُقَدِّمَةٌ وَنَتِيجَةٌ بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ فِي الْمَعْنَى ، وَالْمُقَدِّمَةُ عِنْدِي أَنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّةٍ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ النَّتِيجَةُ وَضَعُهُ فِي إِبْلِيسِيَّةٍ ، وَمَا أَتَصَوَّرُ فِي هَذِهِ الْجَمِيلَةِ إِلَّا الْفَنَ الَّذِي أَسْبَغَهُ الْجَمَالُ عَلَيْهَا ، فَهِيَ فِي مَعْرِفَتِي وَخَيَالِي كَالْمُنْتَالِ الْمُتَبَدِّعِ إِبْدَاعًا<sup>(٣)</sup> : لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا إِلَّا إِظْهَارَ شَكْلِهِ الْجَمِيلِ التَّامِّ حَافِلًا بِمَعَانِيهِ .

(١) هَذِهِ كَلِمَةٌ اسْتَعْمَلَهَا بَعْضُ الْمُؤَلِّدِينَ فِي مَعْنَى الطَّرِيفَةِ (الْمُدْرَحَةِ) . وَلَيْسَ كَذَلِكَ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ ، وَلَكِنَّهُ اسْتِعْمَالٌ صَحِيحٌ عِنْدَنَا ، وَاللُّغَةُ لَا تَأْبَاهُ .

(٢) يَسْتَعْمِلُ الْكُتَّابُ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَفْظَ (الْمَكْمُوفَةِ) ؛ وَهُوَ تَغْيِيرُ صُغَيْفٍ ، وَالْأَفْصَحُ مَا ذَكَرْنَا هُنَا .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « بَدَاعَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « إِبْدَاعَةٌ » .

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ الْأُولَى وَلَا الثَّانِيَةُ وَلَا الثَّلَاثَةُ فَيَمْنَنُ أَحَبُّبُ<sup>(١)</sup> ؛ إِنَّهَا يَتَكَرَّرُ وَإِنْصَاحٌ وَتَكْمِلَةٌ لِشَيْءٍ لَا يَكْمُلُ أَبَدًا ، وَهُوَ هَذِهِ الْمَعَانِي السُّوَيَّةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي يَرِيدُ الشَّيْطَانُ فِيهَا مِنْ عَشْقِي كُلِّ عَاشِقٍ ؛ إِنْ بَطَنَ الْمَرْأَةُ يَلِدُ ، وَوَجْهَ الْمَرْأَةُ يَلِدُ ! .

قُلْتُ : هَذَا إِنْ كَانَ وَجْهَهَا كَوَجْهِ صَاحِبَتِكَ ، وَلَكِنْ مَا بَالُ الدَّمِيمَةِ ؟

قَالَ : لَا ، هَذَا وَجْهٌ عَاقِرٌ ...

\* \* \*

قُلْتُ : وَلَكِنَّ الْخَطَأَ فِي فَلَسَفَتِكَ هَذِهِ أَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى الْمَرْأَةِ نَظْرَةَ عَمَلِيَّةٍ تُرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ ثُمَّ تَمْتَنِعُهَا أَنْ تَعْمَلَ ؛ فَتَأْتِي فَلَسَفَتُكَ بَعِيدَةً مِنَ الْفَلَسَفَةِ ، وَكَأَنَّكَ تَغْدُو الْمَعِدَةَ الْجَائِعَةَ بِرَائِحَةِ الْخُبْزِ فَقَطْ .

قَالَ : نَعَمْ هَذَا خَطَأٌ ، وَلَكِنَّهُ الْخَطَأُ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَقَائِقَ الْخَالِيَةَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ ؛ فَإِذَا سَخِرْتَ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْمَادِّيَةِ بِأَسْلُوبٍ فِيْهَذَا الْأَسْلُوبِ عَيْنِهِ تَثْبُتُ الْحَقِيقَةُ نَفْسَهَا فِي شَكْلِ آخَرَ قَدْ يَكُونُ أَجْمَلَ مِنْ شَكْلِهَا الْأَوَّلِ .

أَتَعْلَمُ كَيْفَ كَانَتْ نَظْرَتِي إِلَى نُورِ الْقَمَرِ عَلَى هَذِهِ وَإِلَى حُسْنِ هَذِهِ عَلَى الْقَمَرِ ؟ إِنْ الْقَمَرُ كَانَ يُنْسِنِي بِشَرِيَّتِهَا فَأَرَاهَا مُتَمِّمَةً لَهُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي مِرَاةٍ ، فَهِيَ خَيَالٌ وَجْهٍ ؛ وَكَانَتْ هِيَ تُنْسِنِي مَادِّيَّةَ الْقَمَرِ فَأَرَاهُ مُتَمِّمًا لَهَا كَأَنَّهُ خَيَالٌ وَجْهٍ .

أَتَذَرِي مَا نَظَرُهُ الْحُبِّ ؟ إِنْ فِي هَذَا الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي شَرَاةَ كَهْرَبَائِيَّةٍ مَتَى أَنْقَدَحَتْ زَادَتْ فِي الْعَيْنِ الْخَاطِطَا كَشَافَةً ، وَزَادَتْ فِي الْحَوَاسِّ أَضْوَاءَ مُذْرَكَةٍ ؛ فَيَتَفَدَّى الْعَاشِقُ بِنَظَرِهِ وَحَوَاسِّهِ جَمِيعًا فِي حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ ، فَتَكُونُ لَهُ عَلَى النَّاسِ زِيَادَةٌ فِي الرُّؤْيَةِ وَزِيَادَةٌ فِي الْإِدْرَاكِ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلًا فَيَمَّا يَرَاهُ وَمَا يُذَرِّكُهُ ؛ وَبِهَذِهِ الزِّيَادَةِ الْجَدِيدَةِ عَلَى النَّفْسِ تَكُونُ لِلدُّنْيَا حَالَةٌ جَدِيدَةٌ فِي هَذِهِ النَّفْسِ ، وَيَأْتِي السُّرُورُ جَدِيدًا وَيَأْتِي الْحُزْنُ جَدِيدًا أَيْضًا ؛

(١) { أَنْظُرْ فَضْلُ « الرَّافِعِيُّ الْعَاشِقُ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . }

قَالَ قُبْلَةُ يَتَنَاوَلُهَا أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ أَلْفِ حَبِيبٍ ؛ هِيَ أَلْفُ نَوْعٍ مِنَ اللَّذَّةِ وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَلَوْ بَكَى أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ هَجَرِ أَلْفِ مَعْشُورٍ لَكَانَ فِي كُلِّ دَمْعٍ نَوْعٌ مِنَ الْحُزَنِ لَيْسَ فِي الْآخِرِ !

\* \* \*

قُلْتُ : فَتَنُوعُ تَصَوُّرِكَ لِهَذِهِ الرَّاقِصَةِ الَّتِي تُحِبُّهَا ، أَنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّةٍ ... !  
قَالَ : هَكَذَا هِيَ عِنْدِي ، وَبِهَذَا أَسْخَرُ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْإِبْلِيسِيَّةِ .

قُلْتُ : أَوْ تَسْخَرُ الْحَقِيقَةَ الْإِبْلِيسِيَّةَ مِنْكَ ، وَهُوَ الْأَصَحُّ وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى ...

فَصَحِّحْ طَرِيقًا وَقَالَ : سَأُحَدِّثُكَ بِغَرِيبَةٍ : أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْعَادَةَ لَا تَظْهَرُ أَبَدًا إِلَّا فِي الْحَرِيرِ الْأَسْوَدِ ؛ وَهِيَ رَقِيقَةُ الْبَشَرَةِ نَاصِعَةُ اللَّوْنِ ، فَيَكُونُ لَهَا مِنْ سَوَادِ الْحَرِيرِ بَيَاضُ اللَّبْيَاضِ وَجَمَالُ الْجَمَالِ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أُمْسِي بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي طَرِيقِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ لِأَرَاهَا وَكَانَ اللَّيْلُ مُظْلِمًا يَتَدَجَّى ، وَقَدْ لَيْسَ وَتَلَبَّسَ وَغَلَبَ عَلَى مَصَابِيحِ الطَّرِيقِ فَحَصَرَ أَنْوَارَهَا حَتَّى جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مُصْبَاحَيْنِ ظُلْمَةٌ قَائِمَةٌ كَالرَّقِيبِ بَيْنَ حَبِيبَيْنِ يَمْنَعُهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا ؛ فَبَيْنَا أَقْلُبُ عَيْنَيَّ فِي الثُّورِ وَالْغَسَقِ وَأَنَا فِي مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْأَفْكَارُ الْمُخْزَنَةُ أَشَدَّ حُزْنًا - إِذْ رَفَعَ لِي مِنْ بَعِيدٍ شَبَحٌ أَسْوَدَ يَمْشِي مَشْيَهُ مُتَفَتِّرًا فَصِيرَ الْخَطْوِ يَهْتَزُّ وَيَتَبَخَّرُ ؛ فَتَبَصَّرْتُهُ فِي هَيْئَةٍ فَمَا شَكَّكْتُ أَنَّهَا هِيَ . وَفُتِحَتِ الْجَنَّةُ الَّتِي فِي خَيَالِي وَبَرَزَتِ الْحَقَائِقُ الْكَثِيرَةُ تَلْتَمِسُ مَعَانِيهَا فِي لَذَّةِ الْحُبِّ ، وَكَانَ الطَّرِيقُ خَالِيًا ، فَأَحْسَسْتُ بِهِ لَنَا وَحْدَنَا كَالْمَسَافَةِ الْمَخْصُورَةِ بَيْنَ تَعَرُّينِ مُتَعَاشِقَيْنِ يَذْنُو أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخِرِ ، وَأَسْرَعْتُ إِسْرَاعَ الْقَلْبِ إِلَى الْفُرْصَةِ حِينَ تُمْكِنُ ؛ فَلَمَّا صِرْتُ بِحَيْثُ أَتَبَيَّنُ ذَلِكَ الشَّبَحَ إِذَا هُوَ ... إِذَا هُوَ قَسِينُ ...

\* \* \*

قُلْتُ : يَا عَجَبًا ! مَا أَظَرَفَ مَا دَاعَبَكَ إِبْلِيسُ هَذِهِ الْمَرَّةَ ! وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ : إِنَّهُ يَا صَاحِبَ الْفَضِيلَةِ ..

وَكَانَ الْمُتَمَثِّلُونَ يَتَنَاوَبُونَ الْمَسْرَحَ وَنَحْنُ عَنْهُمْ فِي شُغْلٍ ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ نَوْبُهَا قَدْ جَاءَتْ

بَعْدُ ، وَالْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِي فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَبْعَثَ إِلَيْهَا فَلَنَا يَسْتَفْتِحَ كَلَامَهَا ثُمَّ يَدْعُوَهَا ، فَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا { إِلَّا } كَلِمَةٌ « تَعَالَى » أَوْ « تَفَضَّلِي » .

قَالَ : كَلَّا ، يَجِبُ أَنْ تَتَفَصَّلَ عَنِّي لِأَرَاهَا فِي نَفْسِي أَشْكَالًا وَأَشْكَالًا ؛ وَيَجِبُ أَنْ تَتَبَعَدَ لِأَلَمَّسَهَا لِمَسَاتِ رُوحِيَّةٍ ؛ وَيَجِبُ أَنْ أَجْهَلَ مِنْهَا أَشْيَاءَ لِأَحَقِّقَ فِيهَا عِلْمَ قَلْبِي ؛ وَيَجِبُ أَنْ تَدْعَ جِسْمَهَا وَأَدْعَ جِسْمِي وَهُنَاكَ نَلْتَقِي رَجُلًا وَأَمْرًا وَلَكِنْ عَلَى فَهْمٍ جَدِيدٍ وَطَبِيعَةٍ جَدِيدَةٍ . بِهَذَا الْفَهْمِ أَنَا أَكْتُبُ ، وَبِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ أَنَا أَحِبُّ !

مَا هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يَفْتَنُنِي مِنْهَا ؟ هُوَ هَذَا الْكُلُّ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ .

وَمَا هُوَ هَذَا الْكُلُّ ؟ هُوَ الَّذِي يَغْسُرُ نَفْسَهُ فِي قَلْبِي بِهَذَا الْحُبِّ .

وَمَا هُوَ هَذَا الْحُبُّ ؟ هُوَ أَنَا وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الْيَأْسِ .

نَعَمْ أَنَا يَأْسٌ ، وَلَكِنْ شُعُورُ الْيَأْسِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْغِنَى فِي الْفَقْرِ : لَا يَكُونُ هَذَا الْغِنَى إِلَّا مِنْ هَذَا الشُّعُورِ الْمُؤْلِمِ ، وَالْحَبِيبُ الَّذِي لَا تَنَالُهُ ، هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ قُدْرَةَ الْجَمَالِ وَالسَّخَرِ ، يَجْعَلُكَ لَا تَذَرِي أَيْنَ يَخْتَبِئُ مِنْهُ جَمَالُهُ فَيَدْعُكَ تَبَحُّثُهُ عَنْهُ بِلَذَّةٍ ، وَلَا تَذَرِي أَيْنَ يُسْفِرُ جَمَالَهُ مِنْهُ<sup>(١)</sup> فَيَدْعُكَ تَرَاهُ بِلَذَّةٍ أُخْرَى ، أَنَا أَنْصُحُ هَذِهِ الْخُلُوعَى عَلَى نَارِ مَشْبُوبَةٍ ، عَلَى نَارِ مَشْبُوبَةٍ فِي قَلْبِي !

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي الْمُسْكِينِ ! هَذِهِ مُشْكِلَةٌ عَرَضَتْ بِهَا الْمُضَادَّةُ وَسَخَطُهَا الْمُضَادَّةُ أَيْضًا . وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِي إِذْ لَمْ أَفْرُغْ مِنَ الْكَلِمَةِ حَتَّى رَأَيْتَا (الْمُشْكِلَةَ) مُقْبِلَةً عَلَيْنَا ...

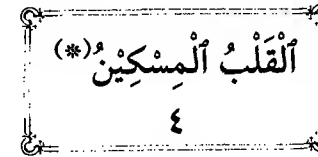
أَمَّا هُوَ ، أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

\* \* \*

(١) فِي الْأَصْلِ : « مِنْهُ جَمَالُهُ » بَدَلًا مِنْ : « جَمَالُهُ مِنْهُ » .



أَنَا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ ، فَمَا كَادَ يَرَى الْحَبِيبَةَ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ تَبِيْمَمُنَا حَتَّى بَغَتْهُ ذَلِكَ ، فَسَاوَرَهُ الْقَلْقُ ، وَاعْتَرَاهُ مَا يَغْتَرِي الْمُحِبَّ الْمَهْجُورَ إِذَا فَاجَأَهُ فِي الطَّرِيقِ هَاجِرُهُ ؛ أَرَأَيْتَ مَرَّةً عَاشِقًا جَفَاءَ الْحَبِيبِ وَامْتَنَعَ عَلَيْهِ دَهْرًا لَا يَزَاهُ ، وَصَارَ مَدَّةً لَا يَكْلُمُهُ ، فَتَرَعَ نَوْمُهُ مِنْ لَيْلِهِ ، وَرَاحَتُهُ مِنْ نَهَارِهِ ، وَدُنْيَاهُ مِنْ يَدِهِ ؛ وَبَلَغَ بِهِ مَا بَلَغَ مِنَ الشُّغْمِ وَالضَّنَى ، ثُمَّ بَيْنَا هُوَ يَمْشِي إِذْ بَاغَتْهُ ذَلِكَ الْحَبِيبُ مُنْحَدِرًا فِي الطَّرِيقِ ؟

إِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ حِينَئِذٍ قَلْبَ هَذَا الْمُسْكِينِ لَرَأَيْتَهُ عَلَى زَلْزَلَةٍ مِنْ شِدَّةِ الْحَقْفَانِ ، وَكَأَنَّهُ فِي ضَرْبَاتِهِ مُتَلَعِمٌ يَكْرُرُ كَلِمَةً وَاحِدَةً : هِيَ هِيَ هِيَ .

وَلَوْ نَفَذْتَ إِلَى حِسِّ هَذَا الْبَاسِ لَرَأَيْتَهُ يَشْعُرُ مِثْلَ شُعُورِ الْمُخْتَضِرِ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ نَفَتْهُ مِنْهَا !

وَلَوْ أَطْلَعْتَ عَلَى دَمِهِ فِي غُرُوقِهِ لَأَبْصَرْتَهُ مَخْذُولًا يَتَرَجَّعُ كَأَنَّ الدَّمَ الْآخِرَ يَطْرُدُهُ .

إِنَّهَا لَحَظَةٌ يَرَى فِيهَا الْمَهْجُورُ بَعِيْنَهُ أَنَّ كُلَّ شَهَوَاتِهِ فِي خَبِيْثَةٍ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ الْحُبُّ مَعَ كُلِّ شَهْوَةٍ نَوْعًا مِنَ الدَّلِّ ، فَيَكُونُ بِإِزَاءِ الْحَبِيبِ كَالْمُنْهَرَمِ مِثَّةً مَرَّةً أَمَامَ الَّذِي هَزَمَهُ مِثَّةً مَرَّةً .

لَحَظَةٌ لَا يَشْعُرُ الْمُسْكِينُ فِيهَا مِنَ الْبَغْيَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَالْاضْطِرَابِ وَالْخَوْفِ إِلَّا أَنَّ رُوحَهُ وَتَبَّتْ إِلَى رَأْسِهِ ثُمَّ هَوَتْ فَجَاءَتْهُ إِلَى قَدَمَيْهِ !

\* \* \*

غَيْرَ أَنَّ صَاحِبَنَا نَحْنُ لَمْ يَكُنْ مَهْجُورًا مِنْ صَاحِبِيهِ ؛ وَلَكِنْ مِنْ عَجَائِبِ الْحُبِّ أَنَّهُ يَعْمَلُ أَحْيَانًا عَمَلًا وَاحِدًا بِالْعَاطِفَتَيْنِ الْمُخْتَلِفَتَيْنِ ، إِذْ كَانَ دَائِمًا عَلَى حُدُودِ الْإِسْرَافِ مَا دَامَ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٧ ، ٩ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٣ نوفمبر / تشرين الآخر ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٩٠٣ - ١٩٠٥ .

حُبًّا ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ قَرِيبٌ مِنْ ضِدِّهِ ، وَالصَّدْقُ فِيهِ مِنْ نَاحِيَةٍ مُهَيَّأٌ دَائِمًا لِأَنْ يُقَابَلَ بِتُهْمَةٍ الْكَذِبِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ، وَالْيَقِينُ مُعَدٌّ لَهُ الشُّكُّ بِالطَّبِيعَةِ ؛ وَالْحُبُّ نَفْسُهُ قَضَاءٌ عَلَى الْعَدْلِ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْضَعُ لِقَانُونٍ مِنَ الْقَوَانِينِ ، وَالْحَبِيبُ - مَعَ أَنَّهُ حَبِيبٌ - يَخَافُهُ عَاشِقُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ حَبِيبٌ !

وَقَدْ يَصْفُرُ الْعَاشِقُ لِمُبَاغَةِ اللَّقَاءِ كَمَا يَصْفُرُ لِمُبَاغَةِ الْهَجْرِ ، وَهَذِهِ كَانَتْ حَالُ صَاحِبِنَا عِنْدَمَا رَأَاهَا مُقْبِلَةً عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَخْشَى إِلْمَامَتَهَا بِهِ ، تَوَقُّيًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ ظُنُونِ النَّاسِ ، وَأَكْثَرَ مَا يُخْسِنُهُ النَّاسُ هُوَ أَنْ يُسَيِّنُوا الظُّلَّ ، وَهُوَ رَجُلٌ ذُو شَأْنٍ ضَخْمٍ ، وَمَقَالَةٌ الشُّؤْءِ إِلَى مِثْلِهِ سَرِيعَةٌ إِذَا رُئِيَ مَعَ مِثْلِهَا وَكَأَنَّهَا هِيَ الْكَثْتُ بِكُلِّ هَذَا أَوْ طَالَعَهَا بِهِ وَجْهَهُ الْمُتَوَقِّرُ الْمُتَرَمِّثُ ، فَعَدَلَتْ عَنْ طَرِيقِهَا إِلَيْنَا وَوَقَفَتْ عَلَى رَئِيسِ فِرْقَةِ الْمُوسِيقَى ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا إِلَّا خُطُوتٌ ، وَرَأَيْتُهَا قَدْ هَيَّاتَ فِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةً غَاضِبَتَنَا بِهَا ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ صَالَحَتْنَا بِأُخْرَى !

وَكَأَنَّهَا أَلَقَتْ لِرَئِيسِ الْمُوسِيقَى أَمْرًا لِيَتَأَهَّبَ أَهْبَتَهُ لِدَوْرِهَا ، ثُمَّ هَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ فَجَعَلَتْ تُكَلِّمُهُ وَعَيْنَاهَا إِلَيْنَا ، فَقَالَ صَاحِبُنَا وَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهَا : إِنَّهَا نَبِيلَةٌ حَتَّى فِي سَقُوطِهَا !

وَلَا أَدْرِي مَاذَا كَانَتْ تَقُولُ لِرَئِيسِ الْمُوسِيقَى ، وَلَكِنْ هَذَا الرَّجُلُ لَمْ يَظْهَرْ لِي وَقَتئِذٍ إِلَّا كَأَنَّهُ تَلَيَّنُفُونُ مُعْلَقٌ !

\* \* \*

كَانَتْ عَيْنَاهَا إِلَى صَاحِبِهَا لَا تَتَزَلَّانِ عَنْهُ وَلَا تَتَحَوَّلَانِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُسَارِقُهُ النَّظَرُ بَلْ تُغَالِبُهُ عَلَيْهِ مُعَالَبَةً ؛ وَرَأَيْتُهُ كَذَلِكَ قَدْ تَبَيَّنَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهَا ، فَخَبِلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ قَدْ انْهَضَرَ جَمَالُهُ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَعْيُنٍ عَاشِقَةٍ ؛ وَكَانَتْ تُطَارِحُهُ وَيُطَارِحُهَا كَلَامًا مَخْبُوءًا تَخْتِ هَذِهِ النَّظَرَاتِ ، قَدْ نَسِيََا مَا حَوْلَهُمَا ، وَشَعَرَا بِمَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ حَبِيبٍ إِذَا التَقِيَا فِي بَعْضِ لَحَظَاتِ الْوُجُوحِ السَّامِيَةِ : أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ الْعَظِيمَ لَا يَعْمَلُ إِلَّا لِأَتَيْنِ فَقَطْ : هُوَ وَهِيَ .

وَكَانَ فُتْهَا الْجَمِيلُ لَا يَزَالُ يُسَاقِطُ أَلْفَاظَهُ لِرَئِيسِ الْمُوسِيقَى ، وَكَأَنَّهَا تُشْرُدُ لَهُ حِكَايَةً

مَرْوِيَّةٌ ، أَوْ تُعَارِضُ بِحَافِظَتِهِ كَلَامًا تَحْفَظُهُ مِنْ كَلَامِ التَّمَثِيلِ أَوْ الْغِنَاءِ ؛ فَهِيَ تَتَحَدَّثُ وَعَيْنَاهَا مُفَكَّرَتَانِ شَاخِصَتَانِ ، فَلَمْ يُنْكِرِ الرَّجُلُ هَيْبَتَهَا هَلْدِهِ ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَتْ عَيْنَاهَا ؟ .

لَقَدْ أَرَادَتْ فِي الْبَدْءِ أَنْ تَجْعَلَ قُوَّةَ نَظَرَاتِهَا كَلَامًا ، حَتَّى لَحَسِبْتُ أَنَّ هَذِهِ النُّظَرَاتِ الْأُولَى تَهْنِئُ مِنْ بَعِيدٍ : أَنْتَ يَا أَنْتَ !

ثُمَّ بَدَأَ فِي عَيْنَيْهَا فَتَوَرَّضَ الظُّلَمَ ، ظِلًّا الْحُبِّ الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَمَرِّدِ ، لِأَنَّهُ حُبُّ الْمَرْأَةِ الْمَعْشُوقَةِ ، وَلَئِنْ لَهُ لَدَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا فِي أَنْ يَبْقَى ظِلًّا إِلَى حِينٍ ...

ثُمَّ أَرْسَلَتْ الْأَلْحَاطُ الَّتِي تَتَوَهَّجُ أَحْيَانًا فَوْقَ كَلَامِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا النَّفْسِيَّةِ ؛ فَتَضَرَّمُ فِي كَلَامِهَا شَرَارَةً مِنَ الرُّوحِ تُظْهِرُ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ يُخْرِقُ وَيَخْرِقُ ...

ثُمَّ تَوَجَّعَتِ النُّظَرَاتُ لِأَنَّهَا تَصِلُهَا بِالرَّجُلِ الَّذِي لَا يُشْبِهُ الرَّجَالَ ، فَلَا يَسْتَوْهِبُ خُضُوعَهَا وَلَا يَشْتَرِيهِ ؛ وَالرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ عِنْدَ مِثْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ هُوَ الَّذِي لَا يُشْبِهُ الْبَاقِينَ مِمَّنْ تَعْرِفُهُمْ ، فَإِذَا أَحَبَّهَا فَكَأَنَّمَا أَحَبَّهَا عَذْرَاءٌ خَفِيزَةٌ لَمْ تُحَسَّ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ ذَلِكَ يَصِلُهَا بِمَاضِيهَا وَطَهَارَتِهَا وَحَيَاتِهَا وَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَمَثَّلَهُ إِلَّا فِي مِثْلِ حُبِّهِ .

ثُمَّ ذَلَّتْ عَيْنَاهَا الْجَمِيلَتَانِ ، وَمَا هُوَ ذُبُولُ عَيْنِي أَمْرًا تَنْظُرُ إِلَى مُحِبِّهَا ؛ إِنَّهُ هُوَ أَسْتِسْلَامُ فِكْرِهَا لِفِكْرِهِ ، أَوْ عِنَادُ مَعْنَى فِيهَا لِمَعْنَى فِيهِ ، أَوْ تَوَكُّيدُ خَاطِرَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوَكُّيدِ ، وَمَرَّةٌ هُوَ كَقَوْلِهَا : لِمَذَا ؟ وَتَارَةً هُوَ كَقَوْلِهَا : أَفَهِمْتُ ؟ وَأَحْيَانًا ، وَأَحْيَانًا هُوَ أَنْتِهَاءُ مُقَامَرَةٍ .

\* \* \*

وَتَمَّتِ الْحِكَايَةُ الْمَرْوِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُلْفِيهَا لِلتَّلِينُونَ ... فَكَرَّثَ رَاجِعَةً إِلَى الْمَسْرَحِ بَعْدَ أَنْ صَاحَتْ نَظَرَاتُهَا مَرَّةً أُخْرَى كَمَا بَدَأَتْ : أَنْتَ يَا أَنْتَ ...

فَقُلْتُ لِصَاحِبَاتِي : وَيَحَكَ يَا عَدُوَّ نَفْسِي ! لَوْ اخْتَارَ الشَّيْطَانُ عَيْنَيْنِ سَاحِرَتَيْنِ يَنْظُرُ بِهِمَا إِلَيْكَ نَظَرَ الْفِتْنَةِ لَمَا اخْتَارَ إِلَّا عَيْنَيْهَا ، فِي وَجْهِهَا ، فِي هَيْبَتِهَا ، فِي مَوْفِقِهَا ، وَأَرَاكَ مَعَ هَذَا كَمُتَنَظِّرٍ مَا لَا يُوجَدُ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ ، وَأَرَاهَا مَعَكَ فِي حُبِّهَا كَالْحَيَوَانِ الْأَلِيقِ إِذَا طَمَعَ فِي الْمُسْتَحِيلِ .

قَالَ : وَمَا هُوَ الْمُسْتَحِيلُ الَّذِي يَطْمَعُ فِيهِ الْحَيَوَانُ الْأَلِيقُ ؟  
قُلْتُ : ذَلِكَ حِينَ يَطْمَعُ فِي أَنْ تَكُونَ لَهُ حَقُوقٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَوْقَ الْأَلْفَةِ وَالْمَنْفَعَةِ .

قَالَ : لَقَدْ أَغْمَضْتُ فِي الْعِبَارَةِ ، فَبَيَّنْ لِي شَيْئًا مِنَ الْبَيَانِ .

قُلْتُ : هَبْ كَلْبَةً تَأْكُلُ صَاحِبَهَا وَتُجِبُّهُ فَهِيَ لَهُ ذَلِيلَةٌ مِطْوَاغٌ ، ثُمَّ يَبْلُغُ بِهَا الْحُبَّ أَنْ تَطْمَعُ فِي أَنْ يَكُونَ لَهَا تَمَامُ الشَّرَفِ ، فَلَا يَقُولُ صَاحِبُهَا عَنْهَا : هَلْدِهِ كَلْبَتِي ، بَلْ يَقُولُ : هَلْدِهِ زَوْجَتِي ...

قَالَ : وَيَّ مِنْكَ ! وَيَّ مِنْكَ !<sup>(١)</sup> لَقَدْ ضَرَبْتَ عَلَى رَأْسِ الْمِسْمَارِ كَمَا يَقُولُونَ : هَذَا هُوَ الْمُسْتَحِيلُ الَّذِي يَبْنِي وَيَبْنِيهَا ، هَذَا هُوَ الْمَثَلُ . يَا لَفْظِ الْخَلْوَى ! يَا لَفْظِ الْخَلْوَى ! لَوْ كَرَّرْتُكَ بِلِسَانِي أَلْفَ مَرَّةٍ فَهَلْ تَضَعُ فِي لِسَانِي طَعْمَهَا ...

قُلْتُ : خَفِضَ عَلَيْكَ يَا صَاحِبَ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِينَ ، فَلَسْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَاشِقٍ .

قَالَ : بَلْ أَنَا مَعَ هَلْدِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَاشِقٍ ؛ لِأَنَّ فِي الْعَاشِقِ رَاغِبًا وَفِيَّ أَنَا رَاهِبٌ ، وَفِيهِ الْجَرِيءُ وَفِيَّ الْمُتَكَمِّشُ ؛ وَيَتَغَرَّفُ الْغَرْفَةَ مِنَ الشَّلَالِ الْمُتَحَدِّرِ فَيَحْسُوهَا فَيَزْتَوِي ، وَأَغْتَرِفُ أَنَا الْغَرْفَةَ بِيَدِي ، وَأُبْقِيهَا فِي يَدِي ، وَأَطْمَعُ أَنْ تَهْدِرَ فِي يَدِي كَالشَّلَالِ ... أَنَا أَكْثَرُ مِنْ عَاشِقٍ ؛ فَإِنَّهُ يَعْشَقُ لِيَشْبِيهِ مِنَ أَلَمِ الْجَمَالِ ، وَأَعَشَقْتُ أَنَا لِأَسْتَمِرَّ فِي هَذَا الْأَلَمِ !

هَلْدِهِ هَلْدِهِ ، الْعَجِيبُ يَا صَدِيقِي ! أَنَّ خَيَالَ الْإِنْسَانِ يَلْتَقِطُ صُورًا كَثِيرَةً مِنْ صُورِ الْجَمَالِ تَجِيءُ كَمَا يَتَفَقَّ ، وَلَكِنَّهُ يَلْتَقِطُ صُورَةً وَاحِدَةً بِإِثْقَانٍ عَجِيبٍ ، هِيَ صُورَةُ الْحُبِّ ؛ فَهَلْدِهِ هَلْدِهِ .

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ حَقِيقَتِهِ الْإِبْلِيسِيَّةِ وَلَمْ تَفْهَمْ عَنِّي<sup>(٢)</sup> ؟ فَافْهَمْ الْآنَ أَنَّنَا إِنْ كُنَّا لَا نَرَى الْمَلَائِكَةَ فَإِنَّهُ لَيُحْيِلُ إِلَيْنَا أَنَّنَا نَرَاهَا فَيَمُنُّ نُحِبُّهُمْ ؛ وَمَا دَامَ سِرُّ الْحُبِّ يَبْدُلُ الزَّمَنَ وَالنَّفْسَ وَيَأْتِي بِأَشْيَاءَ مِنْ خَارِجِ الْحَيَاةِ ، فَكُلُّ حَقَائِقِ هَذَا الْحُبِّ فِي غَيْرِ حَقِيقَتِهَا .

هَلْدِهِ هَلْدِهِ ؛ لَا أَطْلُبُ فِي غَيْرِهَا أَمْرًا أَجْمَلَ مِنْهَا ، فَهَذَا كَالْمُسْتَحِيلِ ، وَلَكِنِّي

(١) أَيُّ : عَجَبٌ ، يَتَعَجَّبُ مِنْ فُطْنَتِهِ .

(٢) مَرَّةً هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ .

الْتَمِسُ فِيهَا هِيَ أَمْرًا أَطَهَرَ مِنْهَا ، وَهَذَا كَالْمُسْتَحِيلِ أَيْضًا ؛ إِنَّهَا أَجْمَلُ جِسْمٍ ، وَلَكِنْ  
وَإِسْقَاهُ ، إِنَّهَا أَجْمَلُ جِسْمٍ لِلْمَعَانِي الَّتِي يَجِبُ أَنْ أُتْبَعَ عَنْهَا !

\* \* \*

وَسَكَتَ صَاحِبُنَا ؛ إِذْ رُفِعَتْ سِتَارَةُ الْمَسْرَحِ وَظَهَرَتْ هِيَ مَرَّةً أُخْرَى ، ظَهَرَتْ فِي زِينَةٍ  
لَا غَايَةَ بَعْدَهَا ، تُمَثِّلُ الْعُرُوسَ لَيْلَةَ جَلُوسِهَا ؛ أَلَا مَا أَمْرُهَا سُخْرِيَةٌ مِنْكَ أَيَّتُهَا الْمُسْكِينَةُ !  
عُرُوسٌ وَلَكِنْ لِمَنْ ؟

كَانَتْ تَبْرُقُ عَلَى الْمَسْرَحِ كَأَنَّهَا كَوَكَبٌ دُرِّيٌّ نُورُهُ نُورٌ وَجَمَالٌ وَعَوَاطِفٌ شِعْرٌ .

وَأَقْبَلَتْ تَتَمَائِلُ بِجِسْمٍ رَخِصٍ لَيْسَ مُسْتَرْسِلٍ الْأَعْطَافِ يَتَدَفَّقُ الْجَمَالَ وَالشَّبَابَ فِيهِ مِنْ  
أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ .

وَأَظْهَرَ وَجْهَهَا حُسْنًا وَأَبْدَى جِسْمَهَا حُسْنًا آخَرَ ، فَتَمَّ الْحُسْنُ بِالْحُسْنِ .

وَإِقْفَةً كَالثَّانِيَةِ ، فَالْجَوْجُ جَوْ الْأَحْلَامِ ، وَكَانَ الْحُبُّ يَخْلُمُ ، وَكَانَ الشُّرُورُ يَخْلُمُ !

مُهْتَزَّةٌ كَالْمَوْجِ فِي الْمَوْجِ . هَلْ خُلِقَتْ رُوحُ الْبَحْرِ فِي جِسْمِهَا الْمُتَرْجِرِ فَشِيءٌ يَغْلُو  
وَشِيءٌ يَهْطُ وَشِيءٌ يَتَوَرَّدُ وَيَضْطَرِبُ ؟

ثُمَّ دَقَّتِ الْمَوْسِيقَى بِأَلْحَانِهَا الْمُتَكَلِّمَةِ ، وَدَقَّتْ أَعْضَاءُ هَذَا الْجِسْمِ بِأَلْحَانِهَا  
الْمُتَحَرِّكِ ، وَأَحْسَسْنَا أَنَّ رُوحَ الْحَدِيقَةِ جَالِسَةً بَيْنَنَا تَنْظُرُ إِلَيْنَا وَتَتَعَجَّبُ . تَتَعَجَّبُ مِنْ  
قَوَائِمِهَا لِلْغُضَنِ الْحَيِّ ، وَمِنْ بَدَنِهَا لِلزَّهْرِ الْحَيِّ ، وَمِنْ عَطْرِهَا لِلنَّسِيمِ الْحَيِّ .

أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ (\*) (١)

٥

أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ فَتَزَعَزَعَتْ كَبْدُهُ مِمَّا رَأَى ؛ وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْفَتَانَةِ  
تُمَثِّلُ زِفَافَ الْعُرُوسِ وَقَدْ أَشْرَقَ فِيهَا رُؤُوسُهَا وَسَطَعَتْ وَلَمَعَتْ ، فَبَدَتْ لَهُ مُفَسَّرَةً فِي هَذِهِ  
الْعَلَّالِ ، غَلَّالِ الْعُرْسِ ، وَمَا غَلَّالُ الْعُرْسِ ؟

إِنَّهَا تِلْكَ اللَّيَالِي الَّتِي تَكْسُو لَابِسَتَهَا إِلَى سَاعَةِ فَقَطْ ... ثِيَابٌ أَجْمَلُ مَا فِيهَا أَنَّهَا تَقْدُمُ  
الْجَمَالَ إِلَى الْحُبِّ ، فَازْهَى أَلْوَانُهَا أَلْوَنُ الْمُشْرِقِ مِنْ رُوحِ لَابِسَتِهَا ، وَأَسْطَعُ الْأَنْوَارِ عَلَيْهَا  
النُّورُ الْمُتَنَبِّعُ مِنْ قَرَحِ قَلْبَيْنِ .

تِلْكَ اللَّيَالِي الَّتِي تَكُونُ سَكْبًا مِنْ خَالِصِ الْخَرِيرِ وَرَفِيعِ الْخَزِّ ، وَحِينَ تَلْبُسُهَا مِثْلَ هَذِهِ  
الْفَتَانَةِ تَكَادُ تَنْطِقُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْخَرِيرِ ، إِذْ تَعْلَمُ أَنَّ الْخَرِيرَ مَا تَحْتَهَا ...

ثُمَّ تَتَهَدَّى الْمُسْكِينُ وَقَالَ : أَفَهِمْتُ ؟

قُلْتُ : فَهِمْتُ مَاذَا ؟

قَالَ : هَذَا هُوَ أَنْتِقَامُهَا .

قُلْتُ : يَا عَجَبًا ! أَتُرِيدُهَا فِي ثِيَابِ رَاهِيَةٍ ، مُكَبِّكِيَةٍ فِيهَا كَمَا أَلْقَيْتَ الْبِضَاعَةَ فِي  
غِرَارَةٍ ، بَيْنَ سَوَادِ هُوَ شِعَارُ الْحِدَادِ عَلَى الْأَنْوَةِ الْهَالِكَةِ ، وَبَيَاضِ هُوَ شِعَارُ الْكَفَنِ لِهَذِهِ  
الْأَنْوَةِ ؟

(\*) « الرسالة » العدد : ١٧٩ ، ٢٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٩٨٣ - ١٩٨٥ .

(١) نُرْجِعُ أَنْ يَكُونَ الْقَرَأُ قَدْ أَدْرَكُوا الْغَرَضَ مِنْ كِتَابَةِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ عَلَى هَذَا الشَّرْدِ الَّذِي وَصَفْتُهُ لَنَا  
إِخْدَائِي الْأَدْبِيَّاتِ بِأَنَّ « فِيهِ أَشْيَاءَ مَادِّيَّةَ » ؛ فَتَحْنُ نُرْمِي إِلَى تَصْوِيرِ الْغَرِيزَةِ ثَائِرَةٍ مُهْتَاجَةٍ بِكُلِّ أَسْبَابِ  
النُّورَةِ وَالْإِهْتِاجِ ، وَلَكِنَّهَا مَكْهُوْحَةٌ بِأَسْبَابٍ أُخْرَى مِنَ الدِّينِ وَالشَّرَفِ وَالْمُرُوءَةِ وَفَلَسَفَةِ  
الْعَقْلِ ...

قَالَ : أَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا ؛ إِنَّ الرُّوَايَةَ الَّتِي تُمَثِّلُ فِيهَا بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ ، هِيَ الَّتِي اخْتَبَجَتْ إِلَى هَذَا الْفَضْلِ بِقُوَى بِهِ الْمَعْنَى ؛ وَكُلُّ عَاشِقَةٍ فَعِشْقُهَا هُوَ الرُّوَايَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ فِيهَا ، يُؤَلِّفُهَا هَذَا الْمَوْقِفُ الَّذِي أَسْمُهُ الْحُبُّ ، وَلَا تَذَرِينِي هِيَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَاذَا يُؤَلِّفُ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَفْتَأُ يُؤَلِّفُ وَيَصْنَعُ وَيُنْفَعُ كَمَا تَنْتَرِلُ بِهِ الْحَالُ بَعْدَ الْحَالِ ، وَكَمَا تَعْرِضُ بِهِ الْمُصَادَفَةَ بَعْدَ الْمُصَادَفَةِ ؛ وَعَلَيْهَا هِيَ أَنْ تُمَثِّلَ ...

قُلْتُ : فَهَذَا ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ يَكُونُ هَذَا انْتِقَامًا ؟

قَالَ : إِنَّ الْأَفْكَارَ أَشْيَاءَ حَقِيقَتِيَّةً ، وَلَوْ كُشِفَ لَكَ الْجَبُّ هَذِهِ السَّاعَةَ لَرَأَيْتَهُ مُسْطَوْرًا بِعِبَارَاتٍ عِبَارَاتٍ كَأَنَّهُ مَقَالَةٌ جَرِيدَةٍ .

هَذَا الْفَضْلُ حِوَارٌ طَوِيلٌ فِي الِهْمُومِ وَالْآلَامِ وَرِقَّةِ السُّوقِ وَتَهَالِكِ الصَّبَوَةِ ؛ لَوْ كُتِبَ لَهُ عُنْوَانٌ لَكَانَ عُنْوَانُهُ هَكَذَا : مَا أَشْهَاهَا وَمَا أَخْطَاهَا ! إِنَّ الْهَوَاءَ بَيْنَ كُلِّ عَاشِقَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ يَأْخُذُ وَيُعْطِي .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِي ! مَا أَعْجَبَ مَا تَدْفُقُ ! لَقَدْ أَدْرَكْتُ الْآنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَسْلُحُ بِمَا شَاءَتْ ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَدَافِعَ ، وَلَكِنْ لِتَزِيدَ أَسْلِحَتَهَا فِي سِلَاحٍ مِنْ تَحِبُّهُ فَيَزِيدَهُ قُوَّةً عَلَى قَهْرِهَا وَإِخْصَاعِهَا ...

\* \* \*

أَمَّا هَذِهِ (الْعُرُوسُ) ، فَكَانَتْ أَفْكَارَهَا لَا تَجِدُ الْفَاطَا تَحُدُّهَا فَهِيَ تَظْهَرُ كَيْفَمَا اتَّفَقَ : مُرْسَلَةٌ إِزْسَالًا فِي اللَّفْتَةِ وَالْحَرَكََةِ وَالْهَيْئَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْفَعْدَةِ ، وَهِيَ مِنْ عَلِمَتْ : أَمْرًا تَعِينُ لِلْحَقَائِقِ ، وَبَيْنَ الْحَقَائِقِ ، كَكُلِّ ذِي صَنْعَةٍ فِي صَنْعَتِهِ ، فَكَانَتْ فِي تَمَادِينِهَا خَطَرًا أَيْ خَطَرٍ عَلَى صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ ، تُمَثِّلُ شَيْئًا لَا أَذْرِي أَهْوَ ظَاهِرٌ بِخَفَائِهِ أَمْ هُوَ خَافٍ بِظُهُورِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ صَاحِبُنَا مِنْهَا فِيمَا لَمْ يَدْخُلْ فِي حِسَابِهِ ، فَكَانَتْ الْخَبِيئَةُ الْمَاجِنَةُ تُسْكِرُهُ بِمُسْكِرِ حَقِيقَتِي ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِسْمِهَا لَا مِنْ رُجَاجَةِ خَمِيرٍ .

وَكَانَتْ لِذَهْنِهَا الْمُتَخَيَّلِ كَالسَّحَابَةِ الْمُتَمَتِّلَةِ بِالْبَرْقِ ، تُؤْمِضُ كُلَّ لَحْظَةٍ بِأَنْوَارِ بَعْدِ أَنْوَارٍ ، وَبَيْنَ الْفَتْرِ وَالْفَتْرِ تَرْمِي الصَّاعِقَةَ .

وَظَهَرَتْ كَأَنَّهَا أَمْرًا مَخْلُوقَةٌ مِنْ دَمٍ وَلَهَبٍ ، فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ الْحُبَّ إِنْ هُوَ إِلَّا الْعَرِيزَةُ الْبَهِيمِيَّةُ بِعَيْنِهَا مُحَاوَلَةٌ أَنْ تَكُونَ شَيْئًا لَهُ وَجُودٌ فَتَنِي إِلَى وَجُودِهِ الطَّبِيعِيِّ ، فَهُوَ مُصِيبَتَانِ فِي وَاحِدَةٍ ، وَكُلُّ عَمَلِهِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّذَّةَ الْكَدَّ ، وَالْأَلَمَ أَشَدَّ ، وَالْقِلَّةَ كَثْرَةً ، وَالْكَثْرَةَ أَكْثَرَ ، وَمَا هُوَ نِهَآيَةً كَأَنَّهُ لَا نِهَآيَةً ...

هَذِهِ (الْعُرُوسُ) كَانَتْ قَبْلَ الْآنَ وَاقِفَةً عَلَى حُدُودِ صَاحِبِهَا ، أَمَّا الْآنَ فَإِنَّهَا تَقْتَحِمُ الْحُدُودَ وَتَغْرُو غُرُوحَهَا وَتَمْتَلِكُ ...

يَا لِسِحْرِ الْحُبِّ مِنْ سِحْرِ ! كُلُّ مَا فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ جَمَالٍ تَظْهَرُهُ الطَّبِيعَةُ لِعَاشِقِهَا فِي إِحْدَى صُورِ أَلْفِهِمْ ؛ أَمَّا الْحَبِيبُ الْجَبِينُ فَهُوَ وَخْدَةُ الَّذِي يَظْهَرُ لِعَاشِقِهِ فِي كُلِّ صُورِ أَلْفِهِمْ ، وَبِهَذَا يَكُونُ الْوَقْتُ مَعَهُ أَوْقَاتًا مُخْتَلِفَةً مُتَنَاقِصَةً ، فَبَيْنَ سَاعَةٍ يَكُونُ الْعَقْلُ ، وَفِي سَاعَةٍ يَكُونُ الْجُنُونُ .

يَا لِسِحْرِ الْحُبِّ ! لَقَدْ أَرَادَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أَنْ تَذْهَبَ بِعَقْلِ صَاحِبِهَا ، وَأَنْ تَنْقُلَهُ إِلَى وَخْشِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ الْكَامِنِ فِيهِ ، وَأَنْ تَقْدِفَ بِهِ إِلَى بَعِيدٍ بَعِيدٍ وَرَاءَ فَضَائِلِهِ وَعِصْمَتِهِ ، فَسَنَحَتْ لَهُ كَمَا يَسْنَحُ الصَّبْدُ لِلصَّائِدِ يَحْمِلُ فِي جِسْمِهِ لَحْمَهُ الشَّهْيِ ... وَتَرَكَتْ شُعُورَهُ جَائِعًا إِلَى مَحَاسِنِهَا بِمِثْلِ جُوعِ الْمَعْدَةِ ... وَبَرَزَتْ لَهُ صَرِيحَةً كَمَا هِيَ ، وَلِمَا هِيَ ، وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ هِيَ هِيَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ حِينَ أَلْبَسَتْ جِسْمَهَا ثِيَابَ الْحَقِيقَةِ الْمُؤَنَّثَةِ .

أَوْ مِنْ (هِيَ) إِذَا أَمْتَلَأَتْ أَلْهَاءَ وَأَلْيَاءَ مِنْ قَلْبِ رَجُلٍ يُحِبُّ ! وَأَوْ مِنْ (هِيَ) إِذَا خَرَجَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ لُغَةِ النَّاسِ إِلَى لُغَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ !

إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ ... أَمْرًا يُقَالُ لَهَا : (هِيَ) <sup>(١)</sup> بِاعْتِبَارِ الضَّمِيرِ لِلتَّائِيثِ فَقَطْ ، كَمَا يُعْتَبَرُ فِي الدَّائِيَّةِ وَالْحَشْرَةِ وَالْأَدَاةِ وَنَحْوِهَا مِنْ هَذِهِ الْمُؤَنَّثَاتِ الَّتِي يَرْجِعُ عَلَيْهَا هَذَا الضَّمِيرُ ، وَلَكِنْ (هِيَ) الْمُفْرَدَةُ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ لَا تُوجَدُ فِي النِّسَاءِ إِلَّا حِينَ يُوجَدُ لَهَا (هُوَ) ...

\* \* \*

(١) قُلْتُ : هُنَا رِسَالَةٌ إِلَى « فُلَانَةٍ » مِنْ بَلَدِ الرِّسَائِلِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمَا بَعْدَ الْفُطَيْمَةِ ... وَأَنْظُرْ « رِسَائِلُ الْأَخْرَانِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

أَنَا ... أَنَا الَّذِي يَقْصُ لِلْقُرَاءِ هَذِهِ الْقِصَّةَ ، قَدْ كَابَدْتُ مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ وَإِفْرَاطِ الْوَجْدِ مَا يَفْعِمُ<sup>(١)</sup> قَلْبَيْنِ مُسْكِنَيْنِ لَا قَلْبًا وَاحِدًا ، وَكَانَتْ لِي (هِيَ) مِنَ الْهِيَاتِ عَانِيَتْ فِيهَا الْحُبُّ وَالْأَلَمُ دَهْرًا طَوِيلًا ، وَقَدْ ذَهَبَتْ بِي فِي هَوَاهَا كُلِّ مَذْهَبٍ إِلَّا مَذْهَبًا يُحِلُّ حَرَامًا ، أَوْ مَذْهَبًا يُحِلُّ بِمُرُوءَةٍ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الشَّيْءَ السَّامِيَّ فِي الْحُبِّ هُوَ أَلَّا يَخْرُجَ مِنَ الْعَاشِقِ مُجَرِّمٌ .

فَالشَّانُ كُلُّ الشَّانِ أَنْ يَسْتَطِيعَ الرَّجُلُ الْفَضْلَ بَيْنَ الْحُبِّ مِنْ أَجْلِ جَمَالِ الْأُنْثَى يَظْهَرُ عَلَيْهَا ، وَبَيْنَ الْحُبِّ مِنْ أَجْلِ الْأُنْثَى تَظْهَرُ فِي جَمَالِهَا ، فَهُوَ فِي الْأَوَّلَى يَسْهَدُ لِلْإِلَهِيَّةِ فِي إِبْدَاعِهَا السَّامِيَّ الْجَمِيلِ ، وَفِي الْآخِرَى لَا يَرَى غَيْرَ الْبَشَرِيَّةِ فِي حَيَوَانِيَّتِهَا الْمُتَجَمِّلَةِ ...

وَقَدْ أَدْرَكْتُ مِنْ فَلَسَفَةِ الْحُبِّ أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْكُبْرَى لِهَذَا الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ الَّذِي يَمْلَأُ الْعَالَمَ - قَدْ جَعَلَتْ حَيْنَ الْإِشْقِ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ هُوَ أَوَّلُ أَثْنِائِهَا الْعَمَلِيَّةِ فِي تَعْلِيمِهِ الْحَيْنِ إِلَيْهَا إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، فَكَمَا يُحِبُّ إِنْسَانٌ بِرُوحِ الشَّهْوَةِ يُحِبُّ إِنْسَانٌ آخَرَ بِرُوحِ الْعِبَادَةِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ : (تَلَطُّيفُ السَّرِّ) أَيْ : جَعْلُهُ مُسْتَعِدًّا لِلتَّوَجُّهِ إِلَى التَّوَرِّقِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَقَدْ عَدُّوا فِيمَا يُعِينُ عَلَيْهِ الْفِكْرَ الدَّقِيقَ وَالْعِشْقَ الْعَنِيفَ .

وَكَذَلِكَ تَبَيَّنْتُ ، مِمَّا عَلَّمَنِي الْحُبُّ أَنَّ طَرْدَ آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ، كَانَ مَعْنَاهُ نَقْلَ مَعَانِي الْفِرْدَوْسِ وَعَرْضِهَا لِكُلِّ آدَمَ وَحَوَاءَ يُمَثِّلَانِ الرِّوَايَةَ ... فَإِذَا « قَطَعَا الثَّمَرَةَ » طَرِدَا مِنْ مَعَانِي الْجَنَّةِ<sup>(٢)</sup> ، وَهَبَطَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أُخْيَلَةِ السَّمَاءِ إِلَى حَقَائِقِ الْأَرْضِ .

نَعَمْ هُوَ الْحُبُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي كُلِّ عَاشِقٍ لِكُلِّ جَمِيلٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ أَهْلِهِ يَكُونُ فِي جَمَالِ الْعَمَلِ أَوْ قُبْحِ الْعَمَلِ ، وَهَذِهِ الْقُلُوبُ مَصَانِعُ مُخْتَلِفَةٍ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ الْوَاحِدَةِ ، فَالْحُبُّ فِي بَعْضِهَا يَكُونُ قُوَّةً وَفِي بَعْضِهَا يَكُونُ ضَعْفًا ، وَفِي نَفْسٍ يَكُونُ الْهَوَى حَيَوَانِيًّا يُرَاكِمُ الظُّلْمَةَ عَلَى الظُّلْمَةِ فِي الْحَيَاةِ ، وَفِي أُخْرَى يَكُونُ رُوحَانِيًّا يَكْشِفُ الظُّلَامَ عَنِ الْحَيَاةِ .

وَالْمُعْجَزَةُ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ أَنَّ لَهُ مَعَ طَبِيعَةِ كُلِّ شَيْءٍ طَبِيعَةَ الْإِحْسَاسِ بِهِ ، فَهُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ نَفْسِهِ فِي الْأَلَمِ ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ هَبَةً مِنْ مَعَانِي الْحَزْمَانِ ؛

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَمْلَأُ » بَدَلًا مِنْ : « يَفْعِمُ » .

(٢) أَيْ : طَرْدًا كَالطَّرْدِ مِنَ الْجَنَّةِ .

وَبِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ يَسْمُو مَنْ يَسْمُو ، وَهِيَ عَلَى أَنْمَاقِهَا وَأَفْوَاهِهَا فِي عُظْمَاءِ الْقُلُوبِ ، حَتَّى لَكَانَ الْأَشْيَاءُ تَأْتِي هَلْوََاءِ الْعُظْمَاءِ سَائِلَةً : مَاذَا يُرِيدُونَ مِنْهَا ؟

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمُو بِالْحُبِّ فَلْيَضْغُهُ فِي نَفْسِهِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ : الْخُلُقِ الرَّفِيعِ وَالْحِكْمَةِ النَّاصِحَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَا أَقَلَّ مِنْ شَيْئَيْنِ : الْحَلَالِ ، وَالْحَرَامِ<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

أَنَا ... أَنَا الَّذِي يَقْصُ لِلْقُرَاءِ هَذِهِ الْقِصَّةَ ، أَعْرِفُ هَذَا كُلَّهُ ، وَبِهَذَا كُلِّهِ فَهَمْتُ قَوْلَ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ : إِنْ ظَهَرَ صَاحِبِي فِي فَضْلِ الْعُرُوسِ هُوَ انْتِقَامُهَا ، حَاصَرَتْ عَيْنَاهَا عَيْنِي ، وَزَحَفَتْ مَعَانِيهَا عَلَى مَعَانِيهِ ؛ وَقَاتَلَتْ قَتَالَ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ فِي مَعْرَكَةِ حُبِّهَا ، وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : كَأَنَّمَا لَبَسَتْ هَذِهِ الثِّيَابَ لِيُظْهَرَ لَهُ بِلا ثِيَابٍ ...

وَأَرَدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا بِمَا صَنَعَتْ نَفْسُهَا لَهُ ، وَأَنْ أُعِيبَهُ هُوَ بِدُخُولِهِ فِيمَا لَا يُشِبُّهُ ، وَقُلْتُ فِي غَيْرِ طَائِلٍ وَلَا جَدْوَى ، فَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالَّذِي يَعِيبُ الْوَرْدَ بِقَوْلِهِ : يَا عِطْرَ الشَّدَى ، وَيَا أَحْمَرَ الْخَدَيْنِ !

وَقَدْ أَمْسَكَ عَنْ جَوَابِي ، وَكَانَتْ مَحَاسِنُهَا تَجْعَلُ كَلِمَاتِي شَوْهَاءَ ، وَكَانَ وُضُوحُهَا يَجْعَلُ مَعَانِي غَامِضَةً ، وَكَانَتْ حَلَاوَتُهَا تَجْعَلُ أَقْوَالِي مُرَّةً ، وَكَانَتْ ثِيَابُ الْعُزْسِ وَهِيَ تَرْفُ تُرِيهِ الْفَاطِنِ فِي ثِيَابِ الْعَجُوزِ الْمُطْلَقَةِ ، وَكُلَّمَا غَاضَبْتُهُ مَعَ نَفْسِهِ أَوْفَعَتْ هِيَ الصُّلْحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

وَالْعَجِيبُ الْعَجِيبُ فِي هَذَا الْحُبِّ أَنَّ فَتْحَ الْعَيْنَيْنِ عَلَى الْجَمِيلِ الْمَحْبُوبِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ تَغْيِيزِهَا لِلتَّوَمِ وَرُؤْيَا الْأَخْلَامِ ؛ لَيْسَ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَكُونُ أَبَدًا إِلَّا هَذَا ؛ فَهَمَّا أُعْطِيَتْ مِنْ جَدَلٍ فَإِقْنَاعُكَ الْمُحِبِّ الْمُسْتَهَامَ كَإِقْنَاعِكَ النَّائِمِ الْمُسْتَقْلَ<sup>(٢)</sup> ؛ وَكَيْفَ وَلَهُ الْفَاطِ مِنْ عَقْلِهِ لَا مِنْ عَقْلِكَ ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ نِسْيَانُهُ إِيَّاكَ ، وَقَدْ تَرَكَكَ عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا وَغَاصَ هُوَ فِي دُنْيَا بَاطِنِهِ لَا يَمْلِكُ فِيهَا أَخْذًا وَلَا رَدًّا إِلَّا مَا تُعْطِي وَمَا تَمْنَعُ .

\* \* \*

(١) بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ عَلَى وَجْهِ آخَرٍ .

(٢) [بِفَتْحِ الْفَاقِ ، أَيْ : الَّذِي أَفْقَلَهُ التَّوَمُ] .

ثُمَّ ... ثُمَّ غَابَتْ (الْعُرُوسُ) بَعْدَ أَنْ نَظَرَتْ لَهُ وَصَحَحَتْ .

صَحَحَتْ بِحُزْنٍ ، حُزْنٌ <sup>(١)</sup> الَّذِي يَسْحَرُ مِنْ حَقِيقَةٍ لِأَنَّهُ يَتَأَلَّمُ مِنْ حَقِيقَةِ غَيْرِهَا ؛ وَكَانَ مَنْظَرُهَا الْجَمِيلُ الْمُتَكَسِّرُ فَلَسَفَةً نَائِمَةً مُصَوَّرَةً لِلْخَيْرِ الَّذِي أَغْتَدَى عَلَيْهِ الشَّرُّ فَاحَالَهُ ، وَالْإِرَادَةُ الَّتِي أَكْرَهَهَا الْقَدَرُ فَأَخْضَعَهَا ، وَالْعَقَّةُ الْمُسْكِينَةَ الَّتِي أَذَلَّتْهَا ضَرُورَةُ الْحَيَاةِ ، وَالْفَضِيلَةُ الْمَغْلُوبَةُ الَّتِي حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ فَضِيلَةً !

وَيَا مَا كَانَ أَجْمَلَهَا نَاطِرَةً بِمَعَانِي الْبُكَاءِ صَاحِكَةً بِغَيْرِ مَعَانِي الضَّحِكِ ؛ تَتَنَهَّدُ مَلَامِحُ وَجْهِهَا وَقَمَاطُهَا يَتَنَسِّمُ !

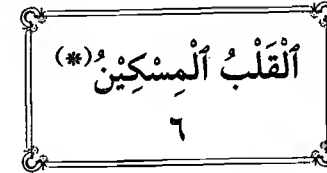
كَانَ مَنْظَرُهَا نَاطِقًا بِأَنَّ قَلْبَهَا الْحَزِينَ يَسْأَلُ سُؤَالَ أَبْدَاهُ عَلَى وَجْهِهَا بِلُطْفٍ وَرِقَّةٍ ؛ كَانَ يَسْأَلُ إِنْسَانًا : أَلَا تُحَلِّ هَذِهِ الْعُقْدَةُ ؟ ... ؟

وَأَتَقَضَى التَّمَنُّيْلُ وَتَنَاهَضَ النَّاسُ .

أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ فَقَامَ لِيَخْرُجَ وَقَدْ تَفَارَطَتْهُمُ الْهُمُومُ وَسَابَقَتْ إِلَيْهِ فَاثْكَسَرَ وَتَفَتَّرَ ؛ وَكَأَنَّمَا هُوَ قَدْ فَارَقَ صَاحِبَتَهُ بَاكِيًا وَبَاكِيًا مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى بُكَاءَهُ غَيْرَهَا وَلَا يَرَى بُكَاءَهَا غَيْرَهُ !

وَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَى مَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا تَغَشَّى الدُّنْيَا لَوْنُ نَفْسِهِ الْحَزِينَةِ ؛ إِذْ كَانَتْ نَفْسُهُ أَلْقَتْ

(١) حُزْنٌ الثَّانِيَةُ فِي هَذَا التَّرَكِيبِ مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَنَّهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨٠ ، ٣٠ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٤ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٢٠٢٣ - ٢٠٢٥ .

ظَلَمَهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَرَاهُ ؛ وَجَعَلَ يَذْلُفُ وَلَا يَمْسِي كَأَنَّهُ مُثْقَلٌ بِحِمْلِ يَحْمِلُهُ عَلَى قَلْبِهِ .

إِنَّهُ لَيْسَ أَخَفَّ وَزْنًا مِنَ الدَّمْعِ ، وَلَكِنَّ الثُّقُوسَ الْمُتَالِمَةَ لَا تَحْمِلُ أَثْقَلَ مِنْهُ ، حَتَّى لَيْتَشِيرُ عَلَى النَّفْسِ أَحْيَانًا وَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّمَا بِنَاءٌ قَائِمٌ يَتَهَدَّمُ عَلَى جِسْمٍ ؛ وَبَعْضُ التَّنَهَّدَاتِ عَلَى رِقَّتِهَا وَخِفَّتِهَا ، قَدْ تَشَعَّرَ بِهَا النَّفْسُ فِي بَعْضِ هَمِّهَا كَأَنَّهَا جَبَلٌ مِنَ الْأَحْزَانِ أَخَذَتْهُ الرِّجْفَةُ فَمَادَتْ بِهِ ، فَتَقَلَّقَلْ ، فَهُوَ يَتَفَلَّقُ وَيَتَهَاوِي عَلَيْهَا .

أَوْ ... حِينَ يَتَغَيَّرُ الْقَلْبُ فَيَتَغَيَّرُ كُلُّ شَيْءٍ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ! لَقَدْ كَانَ صَاحِبِنَا مُنْذُ قَلِيلٍ وَكَأَنَّ كُلَّ شُرُورٍ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ لَهُ : أَنَا لَكَ ! فَعَادَ آلَانْ وَمَا يَقُولُ لَهُ : « أَنَا لَكَ » إِلَّا أَلَهُمْ ، وَالتَّقَى هُوَ وَالظَّلَامُ وَالْعَالَمُ الصَّامِتُ !

جَعَلَ يَذْلُفُ وَلَا يَمْسِي كَأَنَّهُ مُثْقَلٌ بِحِمْلِ يَحْمِلُهُ عَلَى قَلْبِهِ ؛ وَمَتَى وَقَعَ الطَّائِرُ مِنَ الْجَوِّ مَكْسُورَ الْجَنَاحِ ، انْقَلَبَتْ التَّوَامِينُ كُلُّهَا مُعْطَلَةً فِيهِ ، وَظَهَرَ الْجَوُّ نَفْسَهُ مَكْسُورًا فِي عَيْنِ الطَّائِرِ الْمُسْكِينِ ؛ وَتَنَفَّصَ رُوحُهُ عَنِ السَّمَاءِ وَأَنوَارِهَا ، حَتَّى لَوْ غَمَرَهُ الثُّورُ وَهُوَ مُلْقَى فِي الثَّرَابِ لَأَحْسَهُ عَلَى الثَّرَابِ وَحَدَهُ لَا عَلَى جِسْمِهِ ...

ثُمَّ خَرَجْنَا ، فَأَتَيْنَا صَاحِبِنَا مِمَّا كَانَ فِيهِ ؛ وَبِهَذِهِ الْأَنْبِيَاهِ الْمُؤَلِّمَةِ أَدْرَكَ مَا كَانَ فِيهِ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، فَتَعَذَّبَ بِهِ عَذَابَيْنِ : أَمَّا وَاحِدٌ فَلَأَنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَذْمُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَأَنَّهُ زَالَ وَلَمْ يَعُدْ ؛ وَالشُّرُورُ فِي الْحُبِّ شَيْءٌ غَيْرُ الشُّرُورِ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ ؛ إِذْ هُوَ فِي الْأَوَّلِ رُوحٌ تَتَضَاعَفُ بِهِ الرُّوحُ ؛ فَكُلُّ مَا سَرَكَ وَأَنْتَهَى شَعَرَتْ أَنَّهُ أَنْتَهَى ، وَلَكِنْ مَا يَنْتَهِي مِنْ سُورٍ الْعَاشِقِ الْمُسْتَهَامِ يُشْعِرُهُ أَنَّهُ مَاتَ ، فَلَهُ فِي نَفْسِهِ حُزْنُ الْمَوْتِ وَهَمُّ التَّكْلِ ، وَلَهُ فِي نَفْسِهِ هَمُّ التَّكْلِ وَحُزْنُ الْمَوْتِ !

\* \* \*

وَيَنْظُرُ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ فَإِذَا الْأَنْوَارُ قَدْ انْطَفَأَتْ فِي الْحَدِيقَةِ ، وَإِذَا أَلَمَ مَرُّ أَيْضًا كَأَنَّمَا كَانَ فِيهِ مَسْرَحٌ وَأَخَذُوا يَطْفِئُونَ أَنْوَارَهُ .

كَانَ وَجْهُ الْقَمَرِ فِي مِثْلِ حُزْنٍ وَجْهِ الْعَاشِقِ الْمُتَبَعِدِ عَنِ حَبِيبَتِهِ إِلَى أَطْرَافِ الدُّنْيَا ، فَكَانَ أَبْيَضَ أَصْفَرَ مُكَدَّمًا ، تَتَحَايَلُ فِيهِ مَعَانِي الدُّمُوعِ الَّتِي يُمَسِّكُهَا التَّجَلُّدُ أَنْ تَسَاقَطَ .



كَانَ فِي وَجْهِ الْقَمَرِ وَفِي وَجْهِ صَاحِبِنَا مَعًا مَظْهَرُ تَأْيِيزِ الْقَدَرِ الْمُفَاجِئِ بِالنَّكْبَةِ .

وَبَدَتْ لَنَا الْحَيَاةُ تَحْتَ الظُّلْمَةِ مُفْغِرَةً خَاوِيَةً عَلَى أَطْلَالِهَا ، فَارَعَةً كَفَرَاغٍ نَصْفِ اللَّيْلِ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ مُشْرِقًا فِي نَصْفِ النَّهَارِ ؛ يَا لَكَ مِنْ سَاحِرِ أَهْلِهَا الْحُبِّ ؛ إِذْ تَجْعَلُ فِي لَيْلِ الْعَاشِقِ وَنَهَارِهِ ظِلَامًا وَضَوْءًا لَيْسَا فِي الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي ! .

أَمَّا الْحَدِيثَةُ فَلَيْسَهَا مَعْنَى الْفِرَاقِ ، وَمَا أَسْرَعَ مَا ظَهَرَتْ كَأَنَّمَا بَيَسَتْ كُلُّهَا لِنَوَّهَا وَسَاعَتِهَا ، وَأَنكَرَهَا التَّسْنِيمُ فَهَرَبَ مِنْهَا فِي سَاكِنَتِهِ ، وَتَحَوَّلَتْ رُوحُهَا خَشْيَةً جَافَةً ، فَلَا نُضْرَةَ فِيهَا مِنَ النَّفْسِ ؛ وَبَدَتْ أَشْجَارُهَا فِي الظُّلَامِ قَائِمَةً فِي سَوَادِهَا كَالثَّائِبَاتِ يَلْطُمْنَ وَيُولُولْنَ ، وَتَنَكَّرَ مَشْهُدُ الطَّبِيعَةِ كَمَا يَقَعُ دَائِمًا حِينَ تَنَبُّثِ الصَّلَاةِ بَيْنَ الْمَكَانِ وَنَفْسِ الْكَائِنِ [ فِيهِ ] .

مَاذَا حَدَثَ ؟ .

لَا شَيْءَ إِلَّا مَا حَدَثَ فِي النَّفْسِ ، فَقَدْ تَغَيَّرَتْ طَرِيقَةُ الْفَهْمِ ، وَكَانَ لِلْحَدِيثَةِ مَعْنَى مِنْ نَفْسِهِ فَسَلِبَ الْمَعْنَى ، وَكَانَ لَهَا فَيْضٌ مِنْ قَلْبِهِ فَانْحَبَسَ عَنْهَا الْفَيْضُ ؛ وَبِهَذَا وَهَذَا بَدَتْ فِي السَّلْبِ وَالْعَدَمِ وَالتَّنَكُّرِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِندَاعٌ فِي شَيْءٍ مُبَدَعٍ وَلَا جَمَالٌ فِي مَنْظَرٍ جَمِيلٍ .

أَكْذَا يَفْعَلُ الْحُبُّ حِينَ يَضَعُ فِي النَّفْسِ الْعَاشِقَةِ مَعْنَى ضَيْئًا مِنْ مَعَانِي الْفَنَاءِ كَهَذَا الْفِرَاقِ ؟ .

أَكْذَا يَتْرُكُ الرُّوحَ إِذَا فَقَدَتْ شَيْئًا مَحْبُوبًا ، تَوَهَّمُ كَأَنَّهَا مَاتَتْ بِمِقْدَارِ هَذَا الشَّيْءِ ؟

مُسْكِنٌ أَنْتَ أَهْلُ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ ! مُسْكِنٌ أَنْتَ !

\* \* \*

وَمَضَيْنَا فَمَلْنَا إِلَى نَدْيٍ نَجْلِسُ فِيهِ ، وَأَرَدْتُ مُعَابَكَةَ صَاحِبِنَا الْمُتَأَلَّمِ بِالْحُبِّ وَالْمُتَأَلَّمِ بِأَنَّهُ مُتَأَلَّمٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَرَاكَ إِلَّا كَأَنَّكَ تَزَوَّجْتَهَا وَطَلَقْتَهَا فَتَبِعْتَهَا نَفْسَكَ ! .

قَالَ : أَوِ ! مَنْ أَنَا آلَانْ ؟ وَمَا بَالُ ذَلِكَ الْخَيَالِ الَّذِي نَسَقَ لِي الدُّنْيَا فِي أَجْمَلِ أَشْكَالِهَا قَدْ عَادَ فَبَعَثَهَا ؟ أَتَدْرِي أَنَّ الْعَالَمَ كَانَ فِي نَفْسِي أَخَذَ مِنِّي فَأَنَا آلَانْ فَضَاءٌ فَضَاءٌ ؟ .

قُلْتُ : أَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ حَبِيبٍ هُوَ الْعَالَمُ الشَّخْصِيُّ لِمُحِبِّهِ .

قَالَ : وَلِذَلِكَ يَعْيشُ الْمُحِبُّ الْمَهْجُورُ ، أَوْ الْمَفَارِقُ ، أَوْ الْمُتَنَظِّرُ ، وَكَأَنَّهُ فِي أَيَّامِ خَلَّتْ ، وَتَرَاهُ كَأَنَّمَا يَجِيءُ إِلَى الدُّنْيَا كُلِّ يَوْمٍ وَيَرْجِعُ .

قُلْتُ : إِنَّ مِنْ بَعْضِ مَا يَكُونُ بِهِ الْجَمَالُ جَمَالًا أَنَّهُ ظَالِمٌ قَاهِرٌ عَنِيفٌ ، كَأَلَمِّكَ يَسْتَبِيدُ لِيَتَحَقَّقَ مِنْ نَفَازِ أَمْرِهِ ؛ وَكَأَنَّ الْجَمِيلَ لَا يَتِمُّ جَمَالُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْيَانًا غَيْرَ جَمِيلٍ فِي الْمُعَامَلَةِ ! .

قَالَ : وَلَكِنَّ الْأَمْرَ مَعَ هَذِهِ الْحَبِيبَةِ بِالْخِلَافِ ؛ فَهِيَ تَطْلُبُنِي وَأَتَنَكَّبُهَا ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ لِكَيْتَهَا مُقْبِلَةٌ عَلَى آمْنِياعِي ؛ وَكَأَنَّهَا طَالِبٌ يَعْذُو وَرَاءَ مَطْلُوبٍ يَفِرُّ ، فَلَا هَذَا يَقِفُ وَلَا ذَاكَ يُذْرِكُ .

قُلْتُ : فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ الْمُسْكَكَةُ ، وَمَتَى كَانَتْ الْحَبِيبَةُ مِثْلَهَا ، وَكَانَ الْمُحِبُّ مِثْلَكَ ، فَقَدْ جَاءَتْ الْعُقْدَةُ بَيْنَهُمَا مَعْقُودَةً مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا فَلَا حَلَ لَهَا .

قَالَ : كَذَلِكَ هُوَ ، فَهَلْ تَعْرِفُ قِيَّ الْبُؤْسِ وَالْهَمِّ كِبُؤْسِ الْعَاشِقِ الَّذِي لَا يَتَدَبَّرُ كَيْفَ يَأْخُذُ حَبِيبَتَهُ ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَتْرُكُهَا ؟ مَا هِيَ الْمَسَافَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ؟ خَطْوَةٌ خَطْوَتَانِ ؟ كَلَّا ، كَلَّا ؛ بَلْ فَضَائِلُ وَفَضَائِلُ تَمَلُّ الدُّنْيَا كُلُّهَا ، إِنَّ مَسَافَةَ مَا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُتَرَاخِيَةٌ مُمَنَّدَةٌ ذَاهِبَةٌ إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ ؛ وَإِذَا كَانَ الْحُبُّ الْفَاسِدُ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْحَبِيبِ إِلَّا (نَعَمْ) بِلا شَرْطٍ وَلَا قَيْدٍ لِأَنَّهُ فَاسِدٌ ، فَالْحُبُّ الطَّاهِرُ يَقْبَلُ (لَا) لِأَنَّهُ طَاهِرٌ ؛ ثُمَّ هُوَ لَا يَرْضَى (نَعَمْ) إِلَّا بِشَرْطِهَا وَقَيْدِهَا مِنَ الْأَدَبِ وَالشَّرِيعَةِ وَكَرَامَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ .

وَإِذَا لَمْ يَنْتَهِ الْحُبُّ بِالْإِنْتِمَاءِ وَالرَّذِيلَةِ . فَقَدْ أَتَبَتْ أَنَّهُ حُبٌّ ؛ وَشَرَفُهُ حِينَئِذٍ هُوَ سِرُّ قُوَّتِهِ وَعُضْرُ دَوَامِهِ .

أَتَعْرِفُ أَنَّ بَعْضَ عُشَّاقِ الْعَرَبِ تَمَتَّى لَوْ كَانَ جَمَلًا وَكَانَتْ حَبِيبَتُهُ نَاقَةً . . . ؟ إِنَّهُ بِهِدَا يَبُودُ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمَا الْعَقْلُ وَالْقَانُونُ وَهَذَا الْحُزْمَانُ الَّذِي يُسَمَّى الشَّرَفَ ، وَأَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمَا إِلَّا قَيْدُ غَرِيزَتِهَا الَّذِي يَنْحَلُّ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ فِي لَحْظَةٍ مَا ، وَأَنْ يَتْرِكَ لِقُوَّتِهِ وَتَنَزَّكِهِ هِيَ لِيُضْعِفَهَا ، وَالْقُوَّةَ وَالضَّعْفَ فِي قَانُونِ الطَّبِيعَةِ هُمَا مِلْكٌ وَتَمْلِكُكَ وَاغْتِصَابٌ وَتَسْلِيمٌ .

قُلْتُ : وَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ كُلُّ عَاشِقٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الرَّافِصَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا الْخَيَوَانُ ، فَإِنَّ بَيْنَهُمَا قُوَّةً وَضَعْفًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فَمَعَهُ الثَّمَنُ وَبِهَا الْحَاجَةُ ، وَهُمَا فِي قَانُونِ الضَّرُورَةِ مِلْكٌ وَتَمْلِكُكَ .

قَالَ : وَهَذَا مِمَّا يَقْطَعُ فِي قَلْبِي ، فَلَوْ أَنَّ لِلْأُمَةِ دِينًا وَشَرَفًا لَمَا بَقِيَ مَوْضِعُ الرَّوْجَةِ فَارِعًا مِنْ رَجُلٍ ، وَإِنَّ هَذِهِ وَأَمْثَالَهَا إِنَّمَا يَنْزِلُ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الْخَالِيَةِ أَوَّلَ مَا يَنْزِلُ ، فَكُلُّ بِنِي هِيَ فِي الْمَعْنَى دِينَ مَثْرُوكٌ وَشَرَفٌ مُبْتَدَلٌ فِي الْأُمَةِ .

\* \* \*

قُلْتُ : فَحَدِّثْنِي عَنْكَ ، مَا هَذَا الْوَجْدُ بِهَا ؟ وَمَا هَذَا الْاخْتِرَاقُ فِيهَا ؟ وَأَنْتَ قَدْ كُنْتَ بَيْنَ يَدَيْهَا خَيَالِيًا مَخْضًا كَأَنَّمَا جَمَعْتَهَا فِي حَوَاسِكَ فَأَخَذْتَهَا وَتَرَكْتَهَا فِي وَفِّ مَعَا ، وَحَوَاسِكَ هَذِهِ لَا تَرَاهُ كَمَا هِيَ ، بَلْ هِيَ قَدْ زَادَتْ حِدَةً ، فَكَمَا صَنَعْتَ لَكَ مِنْ قُرْبِ تَصْنَعُ لَكَ مِنْ بُعْدٍ .

قَالَ : أَنَا فِي مَخْضَرِهَا أَجِبْتُهَا كَمَا رَأَيْتَ بِالْقَدْرِ الَّذِي تَقُولُ هِيَ فِيهِ إِنَّكَ لَا تُحِبُّنِي . إِذْ كَانَ بَيْنَنَا آخَرُ أَسْمُهُ الْخُلُقُ ، وَلَكِنِّي فِي غِيَابِهَا أَفْقَدُ هَذَا الِيمِزَانَ الَّذِي يَرُونُ الْمِقْدَارَ وَيُحَدِّدُهُ ، وَإِذَا كُنْتُ لَمْ تَعْلَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ الْعَاشِقُ فِي غِيَبَةِ الْمَعْشُوقِ ، فَأَعْلَمُ أَنَّ كِبْرِيَاءَهُ حِينئِذٍ لَا تَرَى بِإِزَائِهَا مَا تَقَاوَمُهُ ، فَتَتَخَلَّى عَنْهُ وَتَحْذَلُهُ ، وَفَضِيلَتُهُ لَا تَجِدُ مَا تَسْتَعْلِنُ فِيهِ ، فَتَتَوَارَى وَتَدْعُهُ ، وَشَخْصِيَّتُهُ لَا تَجِدُ مَا تَبْزُرُ لَهُ ؛ فَتَخْتَفِي وَتَهْمِلُهُ ، فَمَا يَكُونُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ الْمُسْكِينُ وَحْدَهُ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنَ الْوَهْنِ وَالنَّقْصِ وَحِدَّةِ الشُّوقِ ، وَهَذَا يَنْتَقِمُ الْحُبُّ مِمَّا زَوَّرَتْ عَلَيْهِ الْكِبْرِيَاءُ وَالْفَضِيلَةُ وَالشَّخْصِيَّةُ ، فَيَضْرِبُ بِحَقَائِقِهِ ضَرْبَاتٍ مُؤَلِّمَةً لَا تَقُومُ لَهَا الْقُوَّةُ ، وَيَجْعَلُ غِيَابَ الْحَبِيبِ كَأَنَّهُ حُضُورُهُ مُسْتَحْفِيًا لِرُؤْيَةِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي كُتِمَتْ عَنْهُ ، وَكَمْ مِنْ عَاشِقَةٍ مُتَكَبِّرَةٍ عَلَى مَنْ تَهَوَّاهُ تَصُدُّهُ وَتُبَاعِدُهُ ، وَهِيَ فِي خَلْوَتِهَا سَاجِدَةٌ عَلَى أَقْدَامِ خَيَالِهِ تُسَرِّغُ وَجْهَهَا هُنَا وَهُنَا عَلَى هَذِهِ الْقَدَمِ وَعَلَى هَذِهِ الْقَدَمِ !

أَلَا إِنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْحُبِّ مِنْ تَمَثُّلِ رِوَايَةِ الْأَمْتِنَاعِ أَوِ الصَّدِّ أَوِ التَّهَوُّنِ أَوْ آيِ الرِّوَايَاتِ مِنْ مِثْلِهَا ، وَلَكِنَّ ثِيَابَ الْمُسْرَحِ هِيَ دَائِمًا ثِيَابُ اسْتِعَارَةٍ مَا دَامَ لَا يَسُهَا فِي دَوْرِهِ مِنَ الْقِصَّةِ .

\* \* \*

ثُمَّ وَضَعَ الْمُسْكِينُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ : أَو ! إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ يُغَاضِبُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا مَتَى أَرَادَ أَنْ يَشْعُرَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ غَضَبَانٌ .

مَنْ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ أَخْزَانَهُ ؟ وَلَكِنْ مَنْ مِنْهُمْ الَّذِي يَعْرِفُ أَسْرَارَ أَخْزَانِهِ وَحِكْمَتَهَا ؟ أَمَا إِنَّهُ لَوْ كُشِفَ السُّرُّ لَرَأَيْنَا الْأَفْرَاحَ وَالْأَخْزَانَ عَمَلًا فِي النَّفْسِ مِنْ أَعْمَالٍ تَنَازَعِ الْبَقَاءِ ، فَهَذَا الثَّامُوسُ يَعْمَلُ فِي إِيجَادِ الْأَصْلَحِ وَالْأَفْوَى ، ثُمَّ يَعْمَلُ كَذَلِكَ لِإِيجَادِ الْأَفْضَلِ وَالْأَرْقَى ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَتْ أَلَامُ الْحُبِّ قُوَّةً قَوِيَّةً حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ تَهَيُّ أَحَدَ الْقَلْبَيْنِ لِيَسْحَقَ الْقَلْبُ الْآخَرَ .

أَو مِنْ هَذِهِ اللَّوَاعِجِ ! إِنَّهَا مَا تَكَادُ تَضْطَرُّ حَتَّى تَرْجِعَ النَّفْسُ وَكَأَنَّهَا مَوْقِدٌ يَشْتَعِلُ بِالْجَمْرِ ، وَبِذَلِكَ يُصْهَرُ الْمَعْدِنُ الْإِنْسَانِيُّ وَيُصْنَعُ صَنْعَةً جَدِيدَةً ، وَإِلَى أَنْ يَنْصَهَرَ وَيَتَصَفَّى وَيُصْنَعُ ، مَاذَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَبِيبِهِ ؟ يَكُونُ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحُهُ النَّارِيُّ .

\* \* \*

قُلْتُ : بَخِ بَخِ (١) ! هَكَذَا فَلْيَكُنِ الْحُبُّ ؛ إِنَّهَا حِينَ تَهَيِّجُ فِي نَفْسِكَ الْحَيْنِينَ إِلَيْهَا تُعْطِيكَ مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْ جَمَالِهَا وَمَا هُوَ أَبْدَعُ مِنْ جِسْمِهَا ، إِذْ تُعْطِيكَ أَفْوَى الشُّعْرِ وَأَحْسَنَ الْحِكْمَةِ .

قَالَ : وَأَفْوَى الْأَلَمِ وَأَشَدُّ اللَّوَعَةِ ، يَا عَجَبًا ! كَأَنَّ الْحَيَاةَ لَا تُقَدِّمُ فِي عَشْقِ الْمَحْبُوبِ إِلَّا عَشْقَهَا هِيَ ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْجَفْوَةُ ، أَوْ حُمَّ الْبَيْنُ ، أَوْ اغْتَرَى الْيَأْسُ - قَدَّمَ الْمَوْتَ نَفْسَهُ فَكُلَّ ذَلِكَ شِبْهُ الْمَوْتِ .

إِنَّ الْخُزْنَ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ قَبْلِ الْعُدُوِّ يَجِيءُ مَعَهُ بِقُوَّةٍ تَحْمِلُهُ وَتَتَجَلَّدُ لَهُ وَتُكَابِرُ فِيهِ ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ ذَلِكَ فِي حُزْنِ مَبْعُوثِ الْحَبِيبِ ؟ وَمِنْ أَيْنَ الْقُوَّةُ إِذَا ضَعُفَ الْقَلْبُ ؟

\* \* \*

(١) كَلِمَةُ الْإِعْجَابِ تَقَالُ عِنْدَ الرُّضَى وَالْمَدْحِ ، وَمِثْلُهَا (زَيْ) وَهَذِهِ فَارِسِيَّةٌ .

قُلْتُ : لَا يَصْنَعُ اللَّهُ بِكَ إِلَّا خَيْرًا ؛ فَإِذَا كَانَ عَدُوٌّ وَأَنْسَلَخَ الْبَهَارُ مِنَ اللَّيْلِ ، جِئْنَا إِلَيْهَا فَرَأَيْنَاهَا فِي الْمَسْرَحِ ، وَلَعَلَّ الْأَمْرَ يَصْدُرُ مَصْدَرًا آخَرَ ، قَالَ : أَرْجُو ...

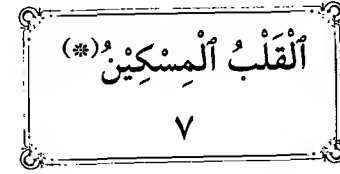
وَلَمْ يَكُنْ يَنْطَلِقُ بِهَذِهِ الرَّجِيَّةِ حَتَّى مَرَّ بِنَا سَبْعَةُ رِجَالٍ يَهْفَهُونَ ، ثُمَّ تَلَقَيْنَا وَجِئْنَا ؛ وَبَا وَبَلَّتْنَا عَلَى الْمَسْكِينِ حِينَ عَلِمَ أَنَّهَا رَحَلَتْ ؛ لَقَدْ أَذْرَكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ يَضْحَكُ بِسَبْعَةِ أَفْوَاهٍ ... مِنْ قَوْلِهِ : أَرْجُو .

وَلِمَاذَا رَحَلَتْ ؟ لِمَاذَا ؟

وَأَمَّا هُوَ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



وَأَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ ، فَمَا عَلِمَ أَنَّهَا قَدْ رَحَلَتْ عَنْ لَيْلَتِهِ حَتَّى أَظْلَمَ الظَّلَامُ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةً أَضَاءَ شَيْءٌ لَا يُرَى ، فَإِذَا غَابَتْ انْظَفَأَ هَذَا الضُّوءُ ؛ وَرَأَيْتُهُ وَاجِمًا كَاسِفَ الْبَالِ يَتَنَازَعُهُ فِي نَفْسِهِ مَا لَا أَذْرِي ، كَانَ غِيَابَهَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ إِثْرٌ خَرِبَ .

لِمَاذَا كَانَ الشُّعْرَاءُ يَنْوَحُونَ عَلَى الْأَطْلَالِ وَيَلْتَاغُونَ بِهَا وَيَرْتَمِضُونَ مِنْهَا وَهِيَ أَحْجَارٌ وَأَثَارٌ وَبَقَايَا ؟ وَمَا الَّذِي يَتَلَقَّاهُمْ بِهِ الْمَكَانُ بَعْدَ رَحِيلِ الْأَحْيَةِ ؟ يَتَلَقَّاهُمْ بِالْفَرَاغِ الْقَلْبِيِّ الَّذِي لَا يَمْلَأُهُ مِنَ الْوُجُودِ كُلُّهُ إِلَّا وَجُودُ شَخْصٍ وَاحِدٍ ؛ وَعِنْدَ هَذَا الْفَرَاغِ تَقِفُ الدُّنْيَا مَلِيًّا كَأَنَّهَا انْتَهَتْ إِلَى نِهَآيَةٍ فِي النَّفْسِ الْعَاشِقَةِ ، فَتَبْطُلُ جِئْنِيذُ الْمُبَادَلَةِ بَيْنَ مَعَانِي الْحَيَاةِ وَبَيْنَ شُعُورِ الْحَيِّ ؛ وَيَكُونُ الْعَاشِقُ مُوجُودًا فِي مَوْضِعِهِ وَلَا تَجِدُهُ الْمَعَانِي الَّتِي تَمُرُّ بِهِ ، فَتَرْجِعُ مِنْهُ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨٢ ، ١٤ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٨ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ٢١٠٤ - ٢١٠٦ .

كَالْحَقَائِقِ تُلِمُّ بِالْفَرَاغِ الْعَقْلِيِّ مِنْ وَغِي سَكْرَانِ .

يَا أَتَرُ الْحَبِيبَ حِينَ يُفَارِقُ الْحَبِيبَ ! مَا الَّذِي يَجْعَلُ فِيكَ تِلْكَ الْقُدْرَةَ السَّاحِرَةَ ؟ أَهَوُ فَضْلُكَ بَيْنَ زَمَنٍ وَزَمَنٍ ، أَمْ جَمْعُكَ الْمَاضِي فِي لَحْظَةٍ ؛ أَمْ تَحْوِيلُكَ الْحَيَاةَ إِلَى فِكْرَةٍ ، أَمْ تَكْبِيرُكَ الْحَقِيقَةَ إِلَى أَضْعَافِ حَقِيقَتِهَا ، أَمْ تَصْوِيرُكَ رُوحِيَّةَ الدُّنْيَا فِي الْمِثَالِ الَّذِي تُحْسِنُهُ الرُّوحُ ، أَمْ إِشْعَارُكَ النَّفْسَ كَالْمَوْتِ أَنَّ الْحَيَاةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْإِنْقِلَابِ ، أَمْ قُدْرَتُكَ عَلَى زِيَادَةِ حَالَةِ جَدِيدَةٍ لِلْهَمِّ وَالْحُزَنِ ، أَمْ رُجُوعُكَ بِاللَّذَّةِ تَرَى وَلَا تُحْسِنُ ، أَمْ أَنْتَ كُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَفْرُغُ سَاعَةً مِنَ الدُّنْيَا وَيَمْتَلِئُ بِكَ وَخَدَكَ ؟

يَا أَتَرُ الْحَبِيبَ حِينَ يُفَارِقُ الْحَبِيبَ ! مَا هَذِهِ الْقُوَّةُ السَّخَرِيَّةُ فِيكَ تَجْتَذِبُ بِهَا الصَّدْرَ لِيَضْمَكَ ، وَتَسْتَهْوِي بِهَا أَلَمَ لِقَائِكَ ، وَتَسْتَدْعِي الدَّمْعَ لِيَتَفَرَّكَ لَكَ ، وَتَهْتَاكِ الْخَيْنَ لِيَتَبَيَّحَ فِيكَ ؟ أَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّكَ أَتَرُ الْحَبِيبَ ، أَمْ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَفْرُغُ سَاعَةً مِنَ الدُّنْيَا وَلَا يَجِدُ مَا يَخْفِقُ عَلَيْهِ سِوَاكَ ؟

\* \* \*

وَوَقَفَ صَاحِبُنَا الْمَسْكِينُ مَحْزُونًا كَأَنَّ شَيْئًا يَصِلُهُ بِكُلِّ هُمُومٍ الْعَالَمِ ؛ وَتِلْكَ هِيَ طَبِيعَةُ الْأَكْمِ الَّذِي يُفَاجِئُ الْإِنْسَانَ مِنْ مَكْمَنٍ لَذْتِهِ وَمَوْضِعٍ سُرُورِهِ ، فَيَلْبِسُهُ نَوْعًا مِنَ الْحَيَاةِ بِطَرِيقَةٍ سَلَبِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا ، وَيَأْخُذُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْئًا مَاتَ قِيْدُهُ فِي قَبْرِ الْمَاضِي ، يَكُونُ أَلَمًا لِأَنَّ فِيهِ الْمَضْضَ ، وَكَابَةً لِأَنَّ فِيهِ الْخَبِيَّةَ ، وَدُهُولًا لِأَنَّ فِيهِ الْحَسْرَةَ ؛ وَتَبِمُ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْهُمُومِ بِالضُّمْنِ الشَّدِيدِ فِي النَّفْسِ ، لِاجْتِمَاعِ ثَلَاثَتِهَا عَلَى النَّفْسِ ؛ فَإِذَا الْمَسْكِينُ مَبْغُوثٌ مَبْغُوثٌ ، كَانَ الْأَلَامُ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ ، فَقَلْبُهُ مِنْهَا صُدُوعٌ صُدُوعٌ ...

وَجَعَلْتُ أَعْدِلُ صَاحِبَنَا فَلَا يَغْدِلُ ، وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أَثْبِتَ لَهُ وَجُودَ الصَّبْرِ كُنْتُ كَأَنَّمَا أَثْبِتُ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُوجُودٍ ؛ ثُمَّ تَنَفَّسَ وَهُوَ يَكَادُ يَنْشَقُّ غَيْظًا وَقَالَ : لِمَاذَا رَحَلَتْ ؟ لِمَاذَا ؟

قُلْتُ : أَنْتَ أَذَلَّلْتَ جَمَالَهَا بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي تَرَى أَنَّكَ تُعَزُّ جَمَالَهَا بِهِ ، وَقَدْ أَشْتَدَّدْتَ عَلَيْهَا وَعَلَى نَفْسِكَ ، وَتَعَمَّتْ عَلَى قَلْبِكَ وَقَلْبِهَا ؛ كَانَتْ طَرِيقَةَ الْمَذْهَبِ فِي عَشِقِهَا وَكُنْتُ خَشِينًا فِي حُبِّكَ ، وَسَوَّعْتُكَ حَقًّا فَرَدَّدْتُهُ عَلَيْهَا ، وَتَهَاكَكْتَ وَأَنْفَبَضْتَ أَنْتَ ، وَرَفَعْتَ قُدْرَكَ

عَنْ نَفْسِهَا تَحِبُّبًا وَتَوَدُّدًا فَخَفَضَتْ قَدَرَهَا عَنْ نَفْسِكَ مِنْ أَطْرَاحٍ وَجَفَاءٍ ، وَاسْتَفْرَعَتْ وَسْطَهَا فِي رِضَاكَ فَتَغَاضَبْتَ ، وَنَفَضْتَ عَنْ مَحَاسِنِهَا شَيْئًا شَيْئًا نَسَأَلُ بِكُلِّ شَيْءٍ سُؤَالَ فَلَمْ تَكُنْ أَنْتَ مِنْ جَوَابِهَا فِي شَيْءٍ ...

وَمِنْ طَبِيعِ الْمَرْأَةِ أَنَّهَا إِذَا أَحَبَّتْ أَمْتَنَتْ أَنْ تَكُونَ الْبَادِئَةُ ، فَالْتَوَتْ عَلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ عَاشِقَةٌ ، وَجَاحَدَتْ وَهِيَ مُقَرَّةٌ ؛ إِذْ تُرِيدُ فِي الْأَوَّلَةِ أَنْ تَتَحَقَّقَ أَنَّهَا مَحْبُوبَةٌ ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَنْ يُقَدَّمَ لَهَا الْبُزْهَانُ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ الْمُهَاجِمَةَ ، وَفِي الثَّالِثَةِ هِيَ تُرِيدُ أَلَّا تَأْخُذَهَا إِلَّا قُوَّةُ قُوَّةٍ فَتَمْتَحِنُ هَذِهِ الْقُوَّةَ ، وَمَعَ هَذِهِ الثَّلَاثِ تَأْتِي طَبِيعَةُ الشُّرُورِ فِيهَا وَالْإِسْتِمَاعُ بِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الشُّرُورِ وَهَذَا الْإِمْتِنَاعِ شَأْنٌ وَفِيمَتُهُ ، فَتَذِنُ صَاحِبِهَا الْمُرَّ قَبْلَ الْحُلُوِّ لِيَكْبُرَ هَذَا بِهِذَا .

غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا غَلِبَهَا الْوَجْدُ وَآكَرَهَا الْحُبُّ عَلَى أَنْ تَبْدِيَ صَاحِبَهَا ، ثُمَّ ابْتَدَأَتْ وَلَمْ تَجِدِ الْجَوَابَ مِنْهُ ، أَوْ لَمْ يَأْتِ الْأَمْرُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ عَلَى مَا تُحِبُّ ، فَإِنَّ الْإِبْدَاءَ حِينَئِذٍ يَكُونُ هُوَ الْنَّهَائِيَّةَ ، وَيَنْفَلِبُ الْحُبُّ عَدُوَّ الْحُبِّ ؛ وَأَنَا أَغْرِفُ أَمْرًا وَضَعْتُهَا كِبَرِيَاؤُهَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ وَقَالَتْ لِصَاحِبِهَا : سَأَتَاكُمُ وَلَكِنْ لَنْ أُغْلِبَ ، فَكَانَ الَّذِي وَقَعَ وَآسَفَاهُ - أَنَّهَا تَاكَلَتْ حَتَّى جُثَّتْ ، وَلَكِنْ لَمْ تُغْلِبْ <sup>(١)</sup> ...

قَالَ : فَمَا بَالُ هَذِهِ ؟ أَمَا تَرَاهَا تَبْدِي كُلَّ يَوْمٍ رَجُلًا ؟

قُلْتُ : إِنَّهَا تَبْدِي مُتَكَسِّبَةً لَا عَاشِقَةً ، فَإِذَا أَحَبَّتِ الْحُبُّ الصَّحِيحُ أَرَادَتْ فِيمَتَهَا ، **[ فِيمَتَهَا ]** فِيمَا هُوَ قِيمَتُهَا ؛ وَأَنَا أَحْسِبُهَا تُحِبُّ فَبِكَ هَذَا الْعُنْفُ وَهَذِهِ الْقَسْوَةُ وَهَذِهِ الْكُرُوحِيَّةُ الْجَبَّارَةُ ؛ فَإِنَّهَا لَدَاتُ جَدِيدَةٍ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا تَجِدُ مَنْ يُخَضِّعُهَا ، وَفِي طَبِيعَةِ كُلِّ أَمْرَةٍ شَيْءٌ لَا يَجِدُ تَمَامَهُ إِلَّا فِي عُنْفِ الرَّجُلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ الْعُنْفُ الَّذِي أَوَّلُهُ رِقَّةٌ وَآخِرُهُ رِقَّةٌ !

\* \* \*

أَمَا وَاللَّهِ إِنَّ عَجَائِبَ الْحُبِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ عَجِيبَةً ، وَالشَّيْءُ الْغَرِيبُ يُسَمَّى غَرِيبًا فَيَكْفِي ذَلِكَ بَيَانًا فِي تَعْرِيفِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي الْحُبِّ سُمِّيَ غَرِيبًا فَلَا تَكْفِيهِ التَّسْمِيَةُ ،

(١) { أَنْظُرْ قِصَّةَ هَذِهِ الْحَبِيبَةِ الَّتِي تَاكَلَتْ حَتَّى جُثَّتْ فِي « الرَّافِعِيِّ الْعَاشِقُ » مِنْ « حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ » . }

فَيُوصَفُ مَعَ التَّسْمِيَةِ بِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَلَا يَبْلُغُ فِيهِ الْوُضْفُ ، فَيَقَعُ التَّعَجُّبُ مَعَ الْوُضْفِ وَالتَّسْمِيَةِ مِنْ أَنَّهُ شَيْءٌ غَرِيبٌ ، ثُمَّ تَبْقَى وَرَاءَ ذَلِكَ مِثْرَلَةٌ لِلْإِغْرَاقِ فِي التَّعَجُّبِ بَيْنَ الْعَاشِقِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَهَكَذَا يَشْعُرُونَ .

فَكُلُّ أَسْرَارِ الْحُبِّ مِنْ أَسْرَارِ الرُّوحِ وَمِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَكَانَ الْبُيُوتَانِ : كَبِيرَةٌ وَصَغِيرَةٌ ، وَعَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . فَاخْذَاهُمَا بِالنَّفْسِ الْعَظِيمَةِ فِي الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْآخَرَى بِالْقَلْبِ الرَّقِيقِ فِي الْعُشَّاقِ ، وَفِي هَذِهِ مِنْ هَذِهِ شَبَّةٌ ، لَوْجُودِ الْعَظْمَةِ الرُّوحِيَّةِ فِي كِلْتَاهُمَا غَالِبَةً عَلَى الْمَادَّةِ ، مُجَرَّدَةٌ مِنْ إِنْسَانِ الطِّينِ إِنْسَانًا مِنَ الثُّورِ ، مُحَرَّكَةٌ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ الْأَدَمِيَّةُ حَرَكَةَ جَدِيدَةٍ فِي الشُّمُوِّ ، ذَاهِبَةٌ بِالْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى مَا هُوَ الْأَحْسَنُ وَالْأَجْمَلُ ، وَاصِعةٌ مَبْدَأَ التَّجْدِيدِ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَمُرُّ بِالنَّفْسِ ، مُنْتَبِئَةً بِالْأَفْرَاحِ مِنْ مُضْذَرِّهَا الْعُلُوبِيِّ السَّمَائِيِّ .

يَبْدَأُ أَنْ فِي الْعِشْقِ أَنْبِيَاءُ كَذِبَةٌ ، فَإِذَا تَسَلَّلَ الْحُبُّ فِي جَلَالِ ، وَاسْتَعْلَنَتْ الْبَهِيمِيَّةُ فِي عَظْمَةٍ ، وَتَجَرَّدَ مِنْ إِنْسَانِ الطِّينِ إِنْسَانُ الْحَجَرِ ، وَتَحَرَّكَتِ الطَّبِيعَةُ الْأَدَمِيَّةُ حَرَكَةَ جَدِيدَةٍ فِي الشُّفُوطِ ، وَذَهَبَتْ الْمَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى مَا هُوَ الْأَقْبَحُ وَالْأَسْوَأُ ، وَتَجَدَّدَ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ مَعْنًى فَاسِدٌ ، وَانْبَعَثَتِ الْأَفْرَاحُ مِنْ مُضْذَرِّهَا الشُّفْلِيِّ - إِذَا وَقَعَ كُلُّ هَذَا مِنَ الْحُبِّ فَمَا عَسَاهُ يَكُونُ ؟

لَا يَكُونُ إِلَّا أَنَّ الشَّيْطَانَ يُقْلِدُ الْبُيُوتَةَ الصَّغِيرَةَ فِي بَعْضِ الْعُشَّاقِ ، كَمَا يُقْلِدُ الْبُيُوتَةَ الْكَبِيرَةَ فِي بَعْضِ الدَّجَالِينَ .

\* \* \*

هَكَذَا قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ وَقَدْ تَكَلَّمَ عَنِ الْحُبِّ وَنَحْنُ جَالِسَانِ فِي الْحَدِيقَةِ ، وَكُنَّا دَخَلْنَاهَا لِيُجَدِّدَ عَهْدًا بِمَجْلِسِهِ فَلَعَلَّهُ يَسْكُنُ بَعْضُ مَا بِهِ ، وَاسْتَفَاضَ كَلَامَنَا فِي وَضْفِ تِلْكَ الْعَبْهَةِ <sup>(١)</sup> الْفَتَانَةِ الَّتِي أَحَلَّتْهُ هَذَا الْمَحَلَّ وَبَلَّغَتْ بِهِ مَا بَلَّغَتْ ، وَكَانَ فِي رِقَّةٍ لَا رِقَّةَ بَعْدَهَا ، وَفِي حُبٍّ لَا نِهَائَةَ وَرَاءَهُ لِمُحِبٍّ ؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَرَى الْحَدِيثَ عَنْهَا كَأَنَّهُ

(١) هِيَ الَّتِي جَمَعَتِ الْحُسْنَ وَالْجِسْمَ وَالْإِمْتِنَاءَ وَجَمَالَ الْخِلْقَةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، كَهَذِهِ الَّتِي نَحْنُ فِي وَضْفِهَا مِثْلُ شَهْرَيْنِ ...

إِحْضَارُهَا بِصُورَةٍ مَا !

وَأَنْفَعُ مَا فِي حَدِيثِ الْعَاشِقِ عَنْ حُبِّهِ وَالْكَلَامِ يُخْرِجُهُ مِنْ حَالَةِ الْفِكْرِ ، وَيُؤْنِسُ قَلْبَهُ بِالْأَلْفَاظِ<sup>(١)</sup> ، وَيُخَفِّفُ مِنْ حَرَكَةِ نَفْسِهِ بِحَرَكَةِ لِسَانِهِ ، وَيُوجِّهُ حَوَاسَّهُ إِلَى الظَّاهِرِ الْمَتَحَرِّكِ ؛ فَتَسْلُبُهُ الْفَاطِلَةُ أَكْثَرَ مَعَانِيهِ الْوَهْمِيَّةِ ، وَتَأْتِيهِ بِالْحَقَائِقِ عَلَى قَدَرِهَا فِي اللَّغَةِ لَا فِي النَّفْسِ ؛ وَفِي كُلِّ ذَلِكَ حِيلَةٌ عَلَى التَّنْسِيَانِ وَتَعَلُّلٍ إِلَى سَاعَةٍ ؛ وَهُوَ تَذْيِيرٌ مِنَ الرَّحْمَةِ بِالْعَاشِقِينَ فِي هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يُسَمَّى الْفِرَاقِ أَوْ الْهَجَرِ .

وَكَانَ مِنْ أَعْجَبَ مَا عَجِبْتُ لَهُ أَنَّ صَدِيقًا مَرَّ بِنَا فَدَعَا صَاحِبَنَا وَقَالَ وَهُوَ يُؤْمِي إِلَيَّ : أَنَا وَفُلَانٌ هَذَا مُخْتَلِفَانِ مُنْذُ الْيَوْمِ : لَا هُوَ يُقِيمُ عُذْرًا وَلَا أَنَا أُقِيمُ حُجَّةً ، وَأَحْسَبُ أَنَّ عِنْدَكَ رَأْيًا ؛ فَأَقْضِ بَيْنَنَا .

وَيَسْأَلُهُ الصَّدِيقُ : مَا الْقَضِيَّةُ ؟

فَيَقُولُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَيَّ : إِنَّ هَذَا قَدْ تَخَرَّقَ قَلْبُهُ مِنَ الْحُبِّ فَلَا يَذِرُنِي مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ لِقَابِهِ بِرُفْعَةٍ ... وَأَنَّهُ يَعْشَقُ فُلَانَةَ الرَّاقِصَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي هَذَا الْمَسْرَحِ ، وَيَزْعُمُ لِي ... أَنَّهَا أَجْمَلُ وَأَقْنَى وَأَحْلَى مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ وَجْهِهَا وَبَيْنَ الْقَمَرِ وَجْهٌ أَمْرَأَةٌ أُخْرَى فِي كُلِّ مَا يُضِيءُ الْقَمَرُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ عَيْنَيْهَا مِمَّا لَا يُنْسَى أَبَدًا أَبَدًا ... لِأَنَّ الْحَاطِطَ تَذُوبٌ فِي الدَّمِ وَتَجَرِي فِيهِ ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ لَوْ أَرَادَ مُنَاجَزَةَ الْعَقَّةِ وَالزُّهْدِ فِي حَرْبٍ حَاسِمَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَزْهَدِ الْعُبَادِ لَتَرَكَ كُلَّ حِيلِهِ وَأَسَالِيْبِهِ وَقَدَّمَ جِسْمَهَا وَفَتَّهَا ...

فَيَقُولُ لَهُ الْمَسْئُولُ : وَمَا رَأْيُكَ أَنْتَ ؟

فَيَجِيبُهُ : لَوْ كَانَ عَنْهَا صَاحِبًا لَقَدْ صَحَا ، إِنَّ الْمُسْكِكَةَ فِي الْحُبِّ أَنَّ كُلَّ عَاشِقٍ لَهُ قَلْبُهُ الَّذِي هُوَ قَلْبُهُ ، وَحَسْبُهَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا هُوَ يَصِفُهَا ، وَمَا يُذَرِّبُنَا مِنْ تَصَارِيفِ الْقَدَرِ بِهِذِهِ الْمُسْكِكَةِ مَا عَلَيْهَا مِمَّا لَهَا ، فَلَعَلَّهَا الْجَمَالَ حُكْمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذَّبَ بِقُبْحِ النَّاسِ ، وَلَعَلَّهَا الشُّرُورَ قُضِيَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَجَّنَ فِي أَخْرَانِ !

\* \* \*

وَقُلْتُ لَهُ : يَا صَدِيقِي الْمُسْكِينِ ! أَوْ كُلُّ هَذَا لَهَا فِي قَلْبِكَ ؟ فَمَا هَذَا الْقَلْبُ الَّذِي تَحْمِلُهُ وَتَتَعَذَّبُ بِهِ ؟

قَالَ : إِنَّهُ وَاللَّهِ قَلْبُ طِفْلِ ، وَمَا حُبُّهُ إِلَّا التَّيَمُّسُ الْهَتَانِ الثَّانِي مِنَ الْحَبِيبَةِ بَعْدَ ذَلِكَ الْهَتَانِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأُمِّ ؛ وَكُلُّ كَلَامِي فِي الْحُبِّ إِنَّمَا هُوَ إِمْلَاءُ هَذَا الْقَلْبِ عَلَى فِكْرِهِ كَأَنَّهُ يَخْلُقُ بِهِ خَلْقَ تَفَكُّيرِهِ .

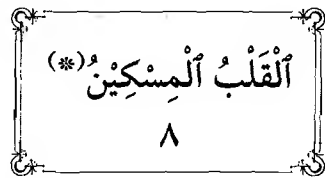
أَوْ يَا صَدِيقِي ! إِنَّ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِهِذِهِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَسْتَمِرُّ طِفْلًا بَعْدَ زَمَنِ الطُّفُولَةِ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ : مَنْ كَانَ فَيْلَسُوفًا عَظِيمًا ، وَمَنْ كَانَ مُعَفَّلًا عَظِيمًا !

\* \* \*

وَأَفْتَرَقْنَا ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ خَبْرَهُ فَلَقِيْتُهُ مِنَ الْعَدِ ، وَكَانَ لِي فِي أَخْلَامِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ شَأْنٌ عَجِيبٌ ، وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ أَعْجَبُ ، أَمَّا أَنَا فَلَا يَعْنِي الْقُرَاءَ شَأْنِي وَرَقَصْتَنِي .  
وَأَمَّا هُوَ ... ؟ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



وَأَمَّا هُوَ ، فَحَدَّثَنِي بِهِذَا الْحَدِيثِ الْعَجِيبِ مِنْ لَطَائِفِ الْهَامِ وَفَتَّهَ ، قَالَ : انْصَرَفْتُ إِلَى دَارِي وَقَدْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْهَا وَأَنْ يَكُونَ هَذَا مِنِّي ، وَهِيَ إِنْ غَابَتْ أَوْ حَضَرَتْ فَإِنَّهَا لِي كَالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا : لَا تُظْلِمُ الدُّنْيَا فِي نَاحِيَةٍ إِلَّا مِنْ أَنَّهَا تُضِيءُ فِي نَاحِيَةٍ ، فَظَلَمْتُهَا مِنْ عَمَلِ نُورِهَا ، وَكَانَتْ لِيَلْتَنِي فَارِغَةٌ مِنَ النَّوْمِ فَبِتُّ أَمْلَمَلُ ، وَجَعَلَ الْقَلْبُ يَدُقُّ فِي جَنْبِي كَأَنَّهُ آلَةٌ فِي سَاعَةٍ لَا قَلْبَ إِنْسَانٍ ، وَكَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَوْلِي صَمْتُ كَصَمْتِ الَّذِي سَكَتَ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨٤ ، ٢٨ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ١١ يناير/كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٤٥ - ٤٨ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِالْأَلْفَاظِ » بَدَلًا مِنْ : « بِالْأَلْفَاظِ » .

بَعْدَ خُطْبَةِ طَوِيلَةٍ ، وَفِيَّ أَنَا صَمْتُ آخَرُ كَصَمْتِ الَّذِي سَكَتَ بَعْدَ سُؤَالٍ لَا جَوَابَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ الْهَوَاءُ رَاكِدًا كَالسُّكْرَانِ الَّذِي أَنْطَرَحَ مِنْ ثِقَلِهِ الشُّكْرَ بَعْدَ أَنْ هَلَدَى طَوِيلًا وَعَزِيدَ ، وَالْوُجُودُ كُلُّهُ يَبْدُو كَالْمُخْتَبِئِ ، لِأَنَّ مَعْنَى الْاِخْتِنَاقِ فِي قَلْبِي وَأَفْكَارِي ، وَنَظَرْتُ نَظْرَةً فِي الْجُحُومِ فَإِذَا هِيَ تَتَغَوَّرُ نَحْمًا بَعْدَ نَحْمٍ ، كَأَنَّ مَعْنَى الرَّجِيلِ انْتَشَرَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ إِذْ رَحَلَتِ الْحَيَيَّةُ ؛ وَكَأَنَّ كُلَّ وَجْهِ مُضِيءٍ يَقُولُ لِي كَلِمَةً : لَا تَنْتَظِرْ !

فَلَمَّا عَسَسَ اللَّيْلُ رَمَيْتُ بِنَفْسِي فَنِمْتُ وَالْعَقْلُ يَقْظَانُ ، وَصَنَعْتُ الْأَخْلَامَ مَا تَصْنَعُ ، فَرَأَيْتُهَا هِيَ فِي تِلْكَ الشُّفُوفِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا عَرُوسًا ، وَمَا أَغْجَبَ كِبْرِيَاءَ الْمَرْأَةِ الْمَخْبُوءَةِ ! إِنَّهَا لَتَبْدُو لِعَيْنِي مُحِبًّا كَالْعَارِيَةِ وَرَاءَ سِتْرِ رَقِيبٍ يَبْفُ عَنْهَا كَالضَّوءِ ، ثُمَّ تَدُلُّ بِنَفْسِهَا أَنْ تَرْفَعُ هَذَا السُّتْرَ ، فَإِنْ لَمْ يَتَجَرَّأْ هُوَ لَمْ يَتَجَرَّأْ هِيَ ، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ لَهُ : قَدْ رَفَعْتُهُ بِطَرِيقِي فَأَرْفَعُهُ أَنْتَ بِطَرِيقِكَ . .

وَكَانَتْ مُصَوَّرَةً فِي الْحُلُمِ تَصَوِيرًا آخَرَ ، فَلَا يَنْسَكِبُ مِنْ جِسْمِهَا مَعْنَى الْحُسْنِ الَّذِي أَتَأَمَّلُهُ وَأَعْقِلُهُ ، وَلَكِنْ مَعْنَى الشُّكْرِ الَّذِي يَتْرُكُ الْمَرْءَ بِلَا عَقْلِ ، وَلَمْ تَكُنْ غَلَاظِلُهَا عَلَيْهَا كَالثِّيَابِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّهَا ظَهَرَتْ لِي كَاللُّونِ عَلَى الْوُرْدَةِ الزَّاهِيَةِ : تَظْهَرُ فِتْنَةً وَتُخْفِئُ فِتْنَةً .

أَيُّهَا الْأَخْلَامُ ! مَاذَا تُبْدِعِينَ إِلَّا مَخْلُوقَاتِ الدَّمِ الْإِنْسَانِيِّ ، مَاذَا تُبْدِعِينَ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي ! دَعِ الْآنَ هَذِهِ الْفَلَسَفَةَ وَخُذْ فِي قِصِّ مَا رَأَيْتَ ، ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ الْوُرْدَةِ وَلَوْنِ الْوُرْدَةِ ؟

قَالَ : إِنَّهُ الْقَلْبُ الْمُسْكِنُ دَائِمًا ، إِنَّهُ الْقَلْبُ الْمُسْكِنُ ، لَقَدْ ضَحِكْتُ لِي وَقَالَتْ : هَانَذَا قَدْ جِئْتُ ! وَأَقْبَلَتْ تُرَائِي بِوَجْهِهَا ، وَتَتَغَوَّرُ بِعَيْنَيْهَا ، وَتَنْتَهَدُ بِصَدْرِهَا ، وَأَلْقَتْ يَدَهَا فِي يَدِي ، فَأَحْسَسْتُ الْيَدَيْنِ تَتَعَانَقَانِ وَلَا تَتَصَافَحَانِ ؛ ثُمَّ تَرَكْنَاهُمَا نَائِمَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، وَسَكَنَتَا هُنَيْهَةً وَقَدْ خِيلَ إِلَيْنَا أَنَّنَا إِذَا تَكَلَّمْنَا اسْتَيْقَظَتْ يَدَانَا !

أَمَا صَافَحْتَكِ أَمْرَأَةٌ تُحِبُّهَا وَتُحِبُّكَ ؟ أَمَا أَحْسَسْتَ يَدَهَا قَدْ نَامَتْ فِي يَدِكَ وَلَوْ لَخَطَلَتْ ؟ أَمَا رَأَيْتَ بِعَيْنَيْكَ نُعَاسَ يَدَهَا وَهُوَ يَنْقَلِبُ إِلَى عَيْنَيْهَا ، فَإِذَا هُمَا فَاتِرَتَانِ ذَابِلَتَانِ ، وَتَحَتَّ

أَجْفَانِيهِمَا حُلُمٌ قَصِيرٌ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي دَعِ الْفَلَسَفَةَ ؛ ثُمَّ كَانَ مَاذَا بَعْدَ أَنْ نَامَتْ يَدُ عَلَى يَدٍ ؟

قَالَ : ثُمَّ كَانَتْ سُخْرِيَّةً مِنَ الشَّيْطَانِ أَفْتَحَ سُخْرِيَّةً قَطْ .

قُلْتُ : حَسْبِيَ لَكَائِكَ شَرَحْتَ لِي مَا بَقِيَ . . .

فَضَحِكَ طَوِيلًا وَقَالَ : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْخَرُ الْآنَ مِنْكَ أَيْضًا ، وَكَأَنِّي بِهِ يَقُولُ لَكَ [من

البيط] :

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ<sup>(١)</sup> . . .

أَفْتَدِرِي مَا الَّذِي كَانَ وَمَا بَقِيَ الْخَبِيرِ ؟

لَقَدْ كُنْتُ مُوَلِّعًا بِامْتِحَانِ قُوَّتِي فِي الضَّغْطِ بِيَدِي عَلَى أَعْوَادِ مَنْصُوبَةٍ مِنَ الْحَدِيدِ ، أَوْ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ الْأَقْوِيَاءِ إِذَا سَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ<sup>(٢)</sup> ؛ فَلَمَّا صَافَحْتَنِي لَبِثْتُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى يَدِهَا قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَتَنَبَّهَتْ فِي هَذِهِ الْعَادَةِ ، فَمَسَخَتْ الْحُلُمَ وَأَنْصَرَفَ وَهْمِي إِلَى أَفْتَحِ صُورَةٍ وَأَشْتَبِعَهَا وَأَبْعِدَهَا مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْحُبِّ وَلَذَاتِ الْحُبِّ ؛ فَإِذَا بِإِزَائِي وَجْهٌ ، وَجْهٌ مِنْ ؟ وَجْهٌ مُصَارِعِ الْمَنَانِيِّ كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَضْغَطُ عَلَى يَدِهِ . . .

\* \* \*

قُلْتُ : إِنَّمَا هَذِهِ كِبْرِيَاؤُكَ أَوْ عَفْتُكَ تَنَبَّهَتْ فِي تِلْكَ الشَّدَةِ مِنْ يَدِكَ ، وَلَا يَزَالُ أَمْرُكَ

عَجِيبًا ؛ فَهَلْ مَعَكَ أَنْتَ مَلَائِكَةٌ وَمَعَ النَّاسِ شَيَاطِينُ ؟

قَالَ : وَالَّذِي هُوَ أَغْجَبُ أَنِّي رَأَيْتُ فِي أَضْعَافِ أَخْلَامِي كَأَنَّ قَلْبِي الْمُسْكِنُ يُخَاصِمُنِي وَأُخَاصِمُهُ ؛ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَخْنَاءِ الضُّلُوعِ كَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنَ الظَّلِّ يُرَى وَلَا يُرَى إِذْ لَا شَكَلَ لَهُ ؛ وَسَبَّحِي وَسَبَّحْتُهُ ، وَقُلْتُ لَهُ وَقَالَ لِي ، وَتَعَالَطْنَا كَأَنَّنَا عَدَوَانِ ؛ فَهُوَ يَرَى أَنِّي أَنَا أَمْنَعُهُ

(١) [هَذَا صَدْرُ بَيْتٍ لِأَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ ، وَعَجَزُهُ :

فَطَرُّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ] .

(٢) { أَنْظُرْ مِنْ شُؤْنِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ « مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

لَذَّتُهُ ، وَارَى أَنَّهُ هُوَ يَنْتَعِنِي ، وَأَنَّهُ أَشْفَى بِي عَلَى مَا أَشْفَى ، وَقُلْتُ لَهُ فِيمَا قُلْتُ : لَا قَرَارَ عَلَى جَنَائِكَ فَأَذْهَبَ عَنِّي وَلَا تَسَمَّ بِاسْمِي فَإِنَّهُ لَا فُلَانُ لَكَ<sup>(١)</sup> بَعْدَ الْيَوْمِ ؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ لَعَلِمْتُ أَنَّ لَمَسَةَ يَدِ الرَّجُلِ لِيَدِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ نَوْعٌ مُحَقَّفٌ مِنَ التَّقْبِيلِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَكْتَهُ يَرْتَفِعُ فِي الدَّمِ أَنْتَهَى يَوْمًا إِلَى تَقْبِيلِ فِيمَا لَقِمَهَا ؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ ، لَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الصَّمَّ بَيْنَ الْتَّيْنِ نَوْعٌ مُحَقَّفٌ مِنَ الْعِنَاقِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَكْتَهُ يَسْتَدُ فِي الدَّمِ أَنْتَهَى يَوْمًا إِلَى صَمِّ الصَّدْرِ لِلصَّدْرِ ؛ وَلَكِنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنَّكَ مَخْذُولٌ ! وَقَالَ لِي فِيمَا قَالَ : وَأَنْتِ أَيُّهَا الْخَائِبُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَنَامِلَهَا الرُّخَصَةَ هِيَ أَنَامِلُهَا ، لَا أَعْوَادُكَ مِنَ الْحَدِيدِ ؟ فَكَيْفَ شَدَدْتَ عَلَيْهَا وَنَحَكَ تِلْكَ الشَّدَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْ لَكَ وَجْهَ الْمُصَارِعِ ؟ وَلَكِنَّكَ خَائِبٌ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنَّكَ خَائِبٌ !

قُلْتُ : فَهَلْزِهِ قَضِيَّةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْعَدُوُّ ؛ لَقَدْ تَرَكْتَنِي مِنَ الْهُمُومِ كَالشَّجَرَةِ الْمُنْخَرِجَةِ قَدْ بَلَيْتْ وَصَارَتْ فِيهَا التَّخَارِبُ ؛ فَلَا حَيَاتُهَا بِالْحَيَاةِ وَلَا مَوْتُهَا بِالْمَوْتِ ، وَكَمْ عَلَّقْتَنِي بِفَاتِنَةٍ بَعْدَ فَاتِنَةٍ لَا عَنْهَا إِفْصَارٌ يَنْتَهِي وَلَا فِيهَا مَطْمَعٌ يَبْتَدِئُ ؛ مَا أَنْتِ فِيَّ إِلَّا وَخْشٌ أَكْبَرُ لَذَّتِهِ لَطْعُ الدَّمِ !

\* \* \*

وَأَسْتَدَارَ الْحُلُمُ فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَأَيْتَنِي فِي مَخْكَمَةِ الْجَنَائِيَاتِ ، وَكَأَنِّي شَكَوْتُ قَلْبِي إِلَيْهَا فَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَفْصِ الْحَدِيدِيِّ بَيْنَ الْمُجْرِمِينَ يَنْتَظِرُ مَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْفَضْلِ فِي أَمْرِهِمْ ، وَقَدْ أَرْتَفَعَ الْمُسْتَشَارُونَ الثَّلَاثَةُ إِلَى مَنَصَبِ الْحُكْمِ ، وَجَلَسَ الْكَاتِبُ الْعَامُّ فِي مَجْلِسِهِ يَتَوَلَّى إِقَامَةَ الدَّعْوَى وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَوْرَاقُهُ يَنْتَظِرُ فِيهَا ، وَرَأَيْتُ مِنْهَا غِلَافًا كَتَبَ عَلَى ظَاهِرِهِ : قَضِيَّةُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ .

وَتَكَلَّمَ رَئِيسُ الْمَخْكَمَةِ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فَقَالَ : لَيْسَ فِي قَضِيَّةِ الْقَلْبِ مُحَامٍ ، فَابْعُوهُ مَنْ يُدَافِعُ عَنْهُ ؛ ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَنْ عَسَى تَخْتَارُ لِلدَّفَاعِ عَنْكَ ؟

قَالَ الْقَلْبُ : أَوْ هُنَا مَوْضِعٌ لِلَاخْتِيَارِ يَا حَضْرَةَ الرَّئِيسِ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ تَحْتَ هَذِهِ - وَأَوْمَأَ

(١) ذَكَرَ اسْمَهُ ، كَمَا تَقُولُ مَثَلًا : لَا مُحَدِّدَ لَكَ .

إِلَى السَّمَاءِ - وَلَا فَوْقَ هَذِهِ وَأَوْمَأَ إِلَى الْأَرْضِ - إِلَّا ...

فَبَدَرَ الْكَاتِبُ الْعَامُّ وَقَالَ : إِلَّا الْحَبِيبَةُ ؟ أَكْذَلِكَ ؟ غَيْرَ أَنَّهَا أَسْتَاذَةٌ فِي الرِّفْصِ لَا فِي الْقَانُونِ !

الْقَلْبُ : وَلَكِنَّنِي لَا أَخْتَارُ غَيْرَهَا مَخْكُومًا لِي أَوْ مَخْكُومًا عَلَيَّ ؛ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِيهَا وَأَنْظُرُوا أَنْتُمْ فِي الْقَضِيَّةِ ...

الرَّئِيسُ : فَلْيَكُنْ ؛ فَهَلْزِهِ جَرِيْمَةٌ عَوَاطِفٍ ، إِذَنْ لَهَا أَيُّهَا الْآدِنْ .

فَنَادَى الْمُخَضِرُ<sup>(١)</sup> : الْأُسْتَاذَةُ ! الْأُسْتَاذَةُ !

وَجَاءَتْ مُبَادِرَةٌ ، وَدَخَلَتْ تَمْشِي مَشْيَهَا وَقَدْ أَفْتَرَتْ نَعْرَهَا عَنِ الثُّورِ الَّذِي يَسْطَعُ فِي النَّفْسِ ؛ وَأَوَمَّضَتْ بِوَجْهِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَصَرَفَ النَّاسُ جَمِيعًا أَبْصَارَهُمْ إِلَيْهَا وَقَدْ نَظَرُوا إِلَى فِتْنَةٍ مِنَ الْفِتَنِ ؛ وَتَارَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ نَزْعَةٌ ، وَغَلَبَتْ الْحَقِيقَةُ الْبَشَرِيَّةُ فَانْتَفَضَتْ طِبَاعُ الْمُوجُودِينَ فِي قَاعَةِ الْجَلْسَةِ ، وَأَبْطَلَ قَانُونُ جَمَالِهَا قَانُونِ الْمَخْكَمَةِ ، فَوَقَعَتِ الضَّجَّةُ وَغَلَبَتِ الْأَصْوَاتُ وَاخْتَلَطَتْ ؛ وَتَرَدَّدَتْ بَيْنَ جُذُرَانِ الْمَكَانِ صَدَى فِي صَدَى كَأَنَّ الْجُذُرَانِ تَتَكَلَّمُ مَعَ الْمُتَكَلِّمِينَ .

أَصْوَاتُ أَصْوَاتٍ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! تَبَارَكَ اللَّهُ ! تَبَارَكَ اللَّهُ ! آه آه ! آه آه ! وَسَمِعَ صَوْتَ يَقُولُ : أَنَّهُمُومِي أَنَا أَيْضًا ... فَفَرَّتِ الْكَلِمَاتُ : وَأَنَا ، وَأَنَا ، وَأَنَا ! وَاخْتَفَتِ الْمَخْكَمَةُ وَأَتْبَعَتْ الْمَسْرُوحُ بِدُخُولِ فَاتِنَتِهِ الرَّاقِصَةِ ؛ وَكَانَ الْمُسْتَشَارُونَ وَالْكَاتِبُ الْعَامُّ فِي أَغْيُنِ النَّاسِ كَأَنَّهُمْ صُورٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَى الْحَائِطِ : لَا يَخْشَاهَا أَحَدٌ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَا يَصْنَعُ !

فَصَاحَ الرَّئِيسُ : هُنَا الْمَخْكَمَةُ ! هُنَا الْمَخْكَمَةُ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ... الْمَخْكَمَةُ الْمَخْكَمَةُ !

الْكَاتِبُ الْعَامُّ : هَذَا بَدْءٌ لَا تَرْضَاهُ الْكِبَابَةُ وَلَا تَقْبَلُ أَنْ تَسْحَبَ عَلَيْهِ ، نَعَمْ إِنَّ هَذَا الْوَجْهَ الْجَمِيلَ أَبْرَعُ مُحَامٍ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَنَعَمْ إِنَّ جِسْمَهَا ... آه مَاذَا ؟ إِنَّكُمْ تَأْتُونَ

(١) هُوَ الْمُوَلَّفُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْجَلْسَةِ لِلدَّاءِ عَلَى الْخُصُومِ .

بِالشَّهْوَةِ الْعَالِيَةِ الْفَاهِرَةِ لِنُدَافِعَ عَنِ الْمُشْتَهِي ... عَنِ الْمُتَمَتِّهِمْ ، هَذَا وَضَعُ كَوَضْعِ الْعُذْرِ إِلَى جَانِبِ الذَّنْبِ ، وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ...

فَبَدَرَتِ الْمُحَامِيَةُ تَقُولُ فِي نَعْمَةٍ دَلَالٍ وَفُتُورٍ : وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ قَدْ نَسِيتُمْ أَنَّ النَّائِبَ الْعَامَّ لَهُ قَلْبٌ أَيْضًا ...

وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى النَّائِبِ ، وَتَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ؛ فَقَالَ :

يَا حَضْرَةَ الرَّئِيسِ ...

الرَّئِيسُ مُبْتَسِمًا : وَاحِدَةً بِوَاحِدَةٍ ، وَأَرْجُو أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَانِيَةً ، وَمَعْنَى هَذَا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَالِثَةً ...

(صَحِيحُكَ) .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : وَكُنْتُ بِلَا قَلْبٍ ... فَلَمْ أَلْتَفِتْ لِلْجَمَالِ ، بَلْ رَاعَيْتُ ذِكَاةَ الْمُحَامِيَةِ وَتَفَادَاهَا وَحُسْنَ اهْتِدَائِهَا إِلَى الْحُجَّةِ فِي أَوَّلِ ضَرْبَاتِهَا ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ التَّعَجُّبِ ، وَافْتِنْتُ أَنَّ النَّائِبَ الْعَامَّ سَيَقَعُ فِي لِسَانِهَا لَا كَمَا يَقَعُ مِثْلُهُ فِي لِسَانِ الْمُحَامِيِ الْقَدِيرِ ، وَلَكِنْ كَمَا يَقَعُ رَوْحٌ فِي لِسَانِ رَوْحَةٍ مَعْشُوقَةٍ مُتَدَلِّلَةٍ تُجَاوِلُهُ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ بَعْضُهَا الْكَلَامُ .. وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : يَا رَحِمَةَ اللَّهِ ! لَا تَجْعَلِي مِنَ النِّسَاءِ الْجَمِيلَاتِ الْفَاتِنَاتِ مُحَامِيَاتٍ فِي هَذِهِ الْمَحَاكِمِ ، فَلَوْ الْبُسُوهُنَّ لَحَى مُسْتَعَارَةً لَكَانَ الصَّوْتُ الرَّخِيمُ وَحْدَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَفْوَاهِ الْجَمِيلَةِ الْعَذِيَّةِ ، نِدَاءً قَانُونِيًّا لِلْقُبُلَاتِ ...

وَنَهَضَتِ الْمُحَامِيَةُ الْعَجِيَّةُ فَسَلَطَتْ عَيْنَيْهَا السَّاجِرَتَيْنِ عَلَى النَّائِبِ ، ثُمَّ قَالَتْ تُخَاطِبُ الْمَحْكَمَةَ : قَبْلَ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَضِيَّةُ الْحُبِّ وَالْجَمَالِ ، قَضِيَّةُ قَلْبَيْنِ الْمُسْكِينِ ... أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الرَّأْيَ الْقَانُونِيَّ فِي اخْتِيَارِ الْجَرِيمَةِ . أَهِيَ شَخْصِيَّةٌ ، فَتَقْصُرُ عَلَى صَاحِبِهَا ؛ أَوْ خَاصَّةٌ ، فَتَضُرُّ غَيْرَ جَانِبِهَا ؛ أَوْ عَامَّةٌ ، فَيَتَنَاوَلُهَا الْعُمُومُ الْمَخْدُودُ لِمَنْ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةُ الْحُبِّ ؛ أَوْ هِيَ أَعَمُّ ، فَيَتَنَاوَلُهَا الْعُمُومُ الْمُطْلَقُ لِلْهَيْئَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ؛ مَا هِيَ جَرِيمَةُ قَلْبَيْنِ ... ؟

الرَّئِيسُ : مَا رَأَيْتِ الْثَانِيَةَ ؟

النَّائِبُ ضَاحِكًا : (غَرَّالَتَهَا زَائِقَةً) كَمَا يَقُولُ الرَّاقِصَاتُ وَالْمُمَثِّلَاتُ .. أَرَأَيْتِ أَنَّهَا جَرِيمَةُ آيَةٍ مِنْ ضَرْبِ الْخَاصِّ فِي الْعَامِّ ... (صَحِيحُكَ) .

الْمُحَامِيَةُ : جَوَابُ كَجَوَابِ الْقَائِلِ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ . كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يُحِبُّ زَوْجَتَهُ الْجَمِيلَةَ وَيَخَافُهَا ، وَكَانَتْ تَقْسُو عَلَيْهِ قَسْوَةً عَظِيمَةً وَتَغْلِظُ لَهُ الْكَلَامَ ، وَهُوَ يَفْرُقُ مِنْهَا وَلَا يُخَالِفُهَا ، فَرَأَاهَا يَوْمًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهَا ، فَأَرَادَ أَنْ يَشْتَهَرَ الْفُرْصَةَ وَيَشْكُو قَسْوَتَهَا ؛ فَقَالَ : يَا فُلَانَةُ ! قَدْ وَاللَّهِ أَحْرَقَ قَلْبِي ... وَلَمْ تَدْعُهُ يَتِيمُ الْكَلِمَةِ ، فَحَدَدْتُ نَظَرَهَا إِلَيْهِ وَقَطَبْتُ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : أَحْرَقَ قَلْبَكَ مَاذَا ؟ فَخَافَ وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ لَهَا : سُوءُ أَخْلَاقِكَ . فَقَالَ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (صَحِيحُكَ) . وَرَأَيْتُ ضِحْكَةَ الْمُحَامِيَةِ فَاضْطَرَبَتْ لَهَا الْقُلُوبُ ، وَوَقَعَتْ فِي كُلِّ دَمٍ ، وَفِي دَمِ النَّائِبِ أَيْضًا ، فَأَنْخَزَلَ وَلَمْ يَرِدْ عَلَى أَنْ يَقُولَ : أَخْتِجُ مِنْ كُلِّ قَلْبَيْنِ ..

الرَّئِيسُ : لِنُدْخُلِ فِي الْمَوْضُوعِ وَلِنَكُنْ الْمُرَافَعَةَ مُطْلَقَةً ، فَإِنَّ الْحُدُودَ فِي جَرَائِمِ الْقَلْبِ تُسَدَّلُ وَتُرْفَعُ كَهَلِكَةِ السَّائِرِ فِي مَسْرَحِ التَّمْثِيلِ ، وَعِشْرُونَ سِتَارَةً قَدْ تَكُونُ كُلُّهَا لِرِوَايَةِ وَاحِدَةٍ .

\* \* \*

النَّائِبُ الْعَامُّ : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! ، لَا يَطُولُ أَتْهَامِي ، فَإِنَّ هَذَا الْقَلْبَ هُوَ نَفْسُهُ تُهَمُّهُ مُتَكَلِّمَةٌ .

الْمُحَامِيَةُ ، وَلِكَيْتَهُ قَلْبٌ .

النَّائِبُ : وَأَنَا يَا سَيِّدَتِي لَمْ أَحْرِفِ الْكَلِمَةَ وَلَمْ أَقُلْ إِنَّهُ كَذِبٌ . (صَحِيحُكَ) وَتَضَرَّجَ وَجْهُ الْمُحَامِيَةِ وَخَجِلَتْ<sup>(١)</sup> .

(١) إِذَا كَانَ كَلْبًا فَهُوَ يُنْبَغُ كَلْبَةً ... وَهَذِهِ هِيَ غَمْرَةُ النَّائِبِ لِلْمُحَامِيَةِ ، وَلَا يَنْسَ الْقُرَّاءُ أَنَّ الْمَحْكَمَةَ فِي الرُّوْيَا ؛ وَفِي الرُّوْيَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا النَّائِبَ كَأَكْثَرِ شُبَّانِ الْعَصْرِ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْفَاسِدَةِ ، لَا يَتَزَوَّجُونَ ، لِأَنَّ الْمَدِينَةَ جَعَلَتْهُمْ بَيْنَ الْفَتَيَانِ « أَنْصَافَ مُتَزَوِّجِينَ » عَلَى وَزْنِ أَنْصَافِ عَدَارَى بَيْنَ =



الرئيس : الْمَوْضُوعُ الْمَوْضُوعُ .

الثائب : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! إِنَّ أَلَمَ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي شَخْصٍ الْجَانِي أَوْ مَالِهِ . أَوْ صِفَتِهِ كَأَنْ يَكُونَ زَوْجًا مَثَلًا ، أَوْ صِيَتِهِ الْأَدَبِي ، فَأَمَّا الشَّخْصُ فَهَذَا ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا أَلَمُ النَّفْسِ ، إِنَّ الْقَلْبَ الْمُسْكِنَ قَرَّرَ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ أَلَّا يَبْتَاعَ أَبَدًا تَذَكُّرَةً دُخُولٍ إِلَى جَهَنَّمَ ... (ضَحِكٌ) .

المُحَامِيَّةُ : أَسْتَمِيعُ الثَّائِبَ عُدْرًا إِذَا أَنَا .. إِذَا أَنَا فَهَمْتُ مِنْ هَذَا التَّغْيِيرِ أَنَّ حَضْرَتَهُ يَعْرِفُ عَلَى الْأَقْلَ أَيْنَ تَبَاعُ هَذِهِ « التَّذَاكُرُ » .. (ضَحِكٌ) وَتَفَرَّجَ وَجْهُ الثَّائِبِ الْعَامِ وَخَجَلَ .

الرئيس : كُنْتُ رَجَوْتُ أَلَّا تَكُونَ لِلأَوَّلَى ثَانِيَةً ، وَقُلْتُ : إِنَّ مَعْنَى هَذَا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ أَلَّا يَكُونَ لَهَا ثَالِثَةٌ ، فَهَلْ أَنَا مُخْتِاجٌ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمَعْنَى الْمُنْطِقِيَّةَ أَلَّا يَكُونَ لِلثَّانِيَةِ رَابِعَةٌ ..

الثائب : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! وَأَمَّا الصِّفَةُ ، فَهَذَا الْقَلْبُ الْمُسْكِنُ قَلْبَ رَجُلٍ مُتَزَوِّجٍ ، وَلَا تَعْرِفُكُمْ صُورَتُهُ هَذَا الْقَلْبِ ، وَلَا يَخْدَعُكُمْ تَأْلُهُ وَزَعْمُهُ السُّمُو ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَغْشَى رَاقِصَةً ، وَهَذَا اعْتِدَاءٌ فِي ضَمْنِهِ اعْتِدَاءٌ عَلَى الزَّوْجِ وَعَلَى الشَّرَفِ ، وَهُوَ مُتَصَوِّفًا مَتَالِهَا وَلَمْ يَتَّصِلْ بِالرَّاقِصَةِ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَدْ أَخَذَهَا وَاتَّخَذَهَا وَلَكِنْ بِأَسْلُوبِهِ الْخَاصِّ .. وَبِهَذَا اقْتَرَفَ الْجَرِيْمَةَ ؛ أَيْه ! إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ نَاقِصَةٌ ، وَذَلِكَ نَقْصٌ فِيهَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ نَقْصًا فِي الْحُكْمِ أَيْضًا ، فَأَتَمُّوهُ أَنْتُمْ . يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! إِنَّ النِّقْصَ فِيهَا أَنَّهُ لَا شُهُودَ فِيهَا ، وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ إِلَهِي لَا يَظْهَرُ إِلَّا ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٢٤] .

المُحَامِيَّةُ : هَذَا تَغْيِيرٌ أَكْبَرُ مِنْ قُدْرَةِ قَائِلِهِ وَمِنْ مَنَزِلَتِهِ وَوُظُفَتِهِ ، هَذَا تَغْيِيرٌ جَسُورٌ ! يَا حَضْرَةَ الثَّائِبِ ! مَنْ الَّذِي لَا يَحْمِلُ شُهُودًا فِي لِسَانِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، بَلْ أَلْفَ شَاهِدٍ عَلَى

الْفَتَايَا ... وَفِي الزَّوْجَاتِ عَلَيْنَا أَنَّهُ يُخَادِنُ رَاقِصَةً ، وَيُقَالُ : مُثَلَّةٌ - بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ مُنَافَسَةٌ ...

لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ .. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا يَبِينُ يَا حَضْرَةَ الثَّائِبِ أَنَّ الثُّونَ وَالْبَاءَ فِي لَفْظَةٍ (ثَائِبٍ) غَيْرِ الثُّونِ وَالْبَاءِ فِي لَفْظَةٍ (نَيْمٍ) .

الثائب : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! لَا أَرَى مِمَّا يَخْرُجُنِي فِي الْإِتِّهَامِ أَنْ أَصْرَحَ لَكُمْ أَنَّ مِمَّا حَيَّرَنِي فِي هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ أَنْ لَيْسَ فِيهَا مِنْ أَوْصَافِ الْجَرَائِمِ إِلَّا نَلَمُ الْكِرَامَةَ ، فَلَا قَذْفَ وَلَا سَبَّ وَلَا هَتَكَ عَرَضٍ وَلَا فُجُورَ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا كَأَسَ خَمَرٍ لِلرَّاقِصَةِ ..

المُحَامِيَّةُ : لَا أَرَى أَمَامَ حَضْرَةِ الثَّائِبِ كَأَسَ مَاءٍ ، وَسَبِّحْتُ حَلْفَهُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، فَلَعَلَّ الْمَحْكَمَةَ تَأْمُرُنِي بِكَأَسٍ .. (ضَحِكٌ) .

الثائب : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! يَغْشَى رَاقِصَةً ، أَسْمُ فَاعِلٍ مِنْ رَقَصَ يَرْقُصُ ، أَمْرَأَةٌ لَا تَلْبَسُ ثِيَابًا ، بَلْ عُرْيَا فِي شَكْلِ ثِيَابٍ .. أَمْرَأَةٌ لَا كَالنِّسَاءِ ، كَذِبُهَا هُوَ صِدْقٌ مِنْ شَفْتَيْهَا ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُمَا حَمْرَاوَانِ رَقِيقَتَانِ عَذْبَتَانِ مَخْبُوتَتَانِ مَطْلُوبَتَانِ ..

المُحَامِيَّةُ تَضْحَكُ ..

الثائب بَعْدَ أَنْ تَتَمَعَّ : أَمْرَأَةٌ لَا كَالنِّسَاءِ ، جَعَلَتْهَا الْحِرْفَةُ أَمْرَأَةً فِي الْعَمَلِ وَرَجُلًا فِي الْكَسْبِ ..

المُحَامِيَّةُ : وَلَكِنَّكَ لَا تَذَرُنِي تَحْتَ أَيِّ حِمْلِ سَقَطَ <sup>(١)</sup> الْمُسْكِنَةُ ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّدَائِلِ رَدَائِلُ كَبُغْضِ أَصْحَابِ الْأَلْقَابِ : ذَاتُ عَظَمَةٍ ..

الثائب : يُحِبُّ رَاقِصَةً ، أَيُّ يَضَعُهَا فِي عَقْلِهِ الْبَاطِنِ وَيَشْتَهِيهَا ، نَعَمْ يَشْتَهِيهَا ؛ فَمِنْ عَقْلِهِ الْبَاطِنِ ، وَيَتَغَيَّرُ اللَّغَةُ . مِنْ وَاعِيَتِهِ - تَخْرُجُ الْجَرِيْمَةُ أَوْ عَلَى الْأَقْلَ ، فِكْرَةُ الْجَرِيْمَةِ .

وَالصَّبِيَّةُ الْأَدَبِيَّةُ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ؟ هَلْ مِنْ كِرَامَةٍ لِمَنْ يَغْشَى رَاقِصَةً ؟ لَا بَلْ هَلْ مِنْ كِرَامَةٍ فِي الْحُبِّ ؟ أَلَمْ يَقُولُوا : إِنَّ كِرَامَةَ الرَّجُلِ [ الْعَاشِقِ ] تَكُونُ تَحْتَ قَدَمِي الْمَرْأَةِ الْمَغْشُوقَةِ كَالْمَنْسَحَةِ الْخَشِينَةِ تَمْسَحُ بِهَا نَعْلَيْهَا !

الْحُبُّ ؟ مَا هُوَ الْحُبُّ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ فِكْرَةً ، بَلْ هُوَ شَيْطَانٌ يَتَلَبَّسُ لِجِسْمِ الْعَاشِقِ لِيَعْمَلَ

(١) هَذِهِ الْكَلِمَةُ لِيَكْتَوَزَ هِنَعُ .

أَعْمَالُهُ بِأَذَاهُ حَيَّةٌ ، وَهَذَا التَّرَكِيبُ الْحَيَوَانِيُّ لِلْإِنْسَانِ هُوَ الَّذِي يُهَيِّئُ مِنَ الْحُبِّ مَدَاحِلَ وَمَخَارِجَ لِلشَّيَاطِينِ فِي جِسْمِهِ ، وَهَلْ رَضِيَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ بِجَنَائِهِ قَلْبُهُ عَلَيْهِ ، وَعَظِيمٌ مَا أَنْتَهَكَ مِنْ أَخْلَاقِهِ السَّامِيَةِ ؟ هَلْ رَضِيَ بِعَشْقِهِ رَاقِصَةً ؟ إِنَّهُ لَمْ يَرْضَ الرِّضَى الصَّحِيحَ أَوْ رَضِيَ بِقَدْرِ مَا ؛ فَعَلَىٰ كُلِّهِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مَانِعٌ ؛ وَالْمَانِعُ مِنَ الرِّضَىٰ هُوَ الْمَوْجِبُ لِلْعُقُوبَةِ .

الْمُحَامِيَةُ : وَلَكِنَّ قَدْرًا مِنَ الرِّضَىٰ يَنْزِلُ بِالْجَنَائَةِ فَيَرُدُّهَا إِلَىٰ جُنْحَةٍ كَمَا فِي الْقَانُونِ الْإِنْكِلِيزِيِّ ، وَقَدْ قَرَّرَ الشُّرَاحُ أَنَّهُ مَا دَامَ الرِّضَىٰ غَيْرَ مُسْتَلَبٍ بِكُلِّهِ ، فَالْجَرِيمَةُ غَيْرُ وَاقِعَةٍ بِكُلِّهَا .

الثَّابِتُ : جُنْحَةُ كُلِّ قَلْبٍ هِيَ جَنَائَتُهُ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ بِخُصُوصِهِ ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ « حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُفْرَيْنِ »<sup>(١)</sup> ؛ وَالْعِبْرَةُ هُنَا بِالْوَاقِعِ لَا بِالصِّفَةِ الْقَانُونِيَّةِ ، وَقَدْ قَرَّرَ الشُّرَاحُ أَنَّ الْوَاقِعَ قَدْ يَكُونُ أحيانًا سَبَبًا فِي تَشْدِيدِ الْعُقُوبَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْدِيدِ الْعُقُوبَةِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ . لَا أُطْلُبُ الْحُكْمَ بِالْمَادَّةِ ٢٣٠ عُقُوبَاتٍ بَلْ بِالْمَوَادِّ مِنْ ٢٣٠ إِلَى ٢٤١ ضَرْبَةً وَاحِدَةً .

الْمُحَامِيَةُ : قَدْ نَسِيتُ أَنَّ هَذَا قَلْبٌ وَعُقُوبَتُهُ عُقُوبَةٌ لِصَاحِبِهِ الْبَرِيِّ .

الثَّابِتُ : إِذَنْ أُطْلُبُ عِقَابَهُ بِحُزْمَانِهِ الْجَمَالِ ، وَهَذَا أَشَقُّ عَلَيْهِ مِنَ الْعِقَابِ بِأَثْنَيْ عَشْرَةَ مَادَّةً وَبِعِشْرِينَ وَثَلَاثِينَ .

الرَّئِيسُ : وَمَا هِيَ الطَّرِيقَةُ لِتَنْفِيزِ الْحُكْمِ بِهَذَا الْحُزْمَانِ ؟

الثَّابِتُ : تَأْمُرُ الْمَحْكَمَةُ بِالْمَرَاقِصِ كُلِّهَا فَتُغْلَقُ ، وَبِالْمَسَارِحِ كُلِّهَا فَتُغْلَقُ ، وَبِالسِّيَمَا فَتُبْطَلُ إِلَّا مَا لَا جَمَالَ فِيهِ مِنْهَا وَلَا غَزَلَ وَلَا حُبَّ ، وَيُحْرَمُ الشُّفُورُ عَلَى السَّاءِ إِلَّا الْعَجَائِزُ وَالْدَمِيمَاتُ ، وَيُمنَعُ نُشْرُ صُورِ الْجَمَالِ فِي الصُّحُفِ وَالْكِتَابِ ، وَ...

الْمُحَامِيَةُ : قُلْ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : يَجِبُ إِصْلَاحُ الْعَالَمِ كُلِّهِ لِإِصْلَاحِ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ !

\* \* \*

وَجَلَسَ الثَّابِتُ ، فَالْتَفَتَ الرَّئِيسُ إِلَى الْمُحَامِيَةِ وَقَالَ لَهَا : وَأَمَّا هُوَ ... ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) [ينسب هذا القول للجنيد ، ولأبي سعيد الخراز ، ولذي النون رحمهم الله تعالى] .

## الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ (\*) تِمَّةٌ

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : وَوَقَّتِ الْمُحَامِيَةُ وَكَانَتْهَا بَيْنَ الْحُرَاسِ تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ لِلْمَوْجُودِينَ ظُهُورُ الْجَمَالِ لِلْحُبِّ ، وَنَقَلَتْهُمْ فِي الزَّمَنِ إِلَى مِثْلِ السَّاعَةِ الْمُصَوَّرَةِ الَّتِي يَنْتَظِرُ فِيهَا الْأَطْفَالُ سَمَاعَ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ ، سَاعَةً فِيهَا كُلُّ صُورِ اللَّذَّةِ لِلْقَلْبِ .

وَكَانَتْ تُدَافِعُ بِكَلَامِهَا ، وَوَجْهَهَا يُدَافِعُ عَنْ كَلَامِهَا ، فَلَوْ نَطَقَتْ غَيًّا أَوْ رُشْدًا فَلِهَذَا صَوَابٌ وَلِهَذَا صَوَابٌ ، لِأَنَّ أَحَدَ الصَّوَابَيْنِ مَنْظُورٌ بِالْأَعْيُنِ .

كَانَ صَوْتُ الثَّابِتِ الْعَامَّ كَلَامًا يُسْمَعُ وَيُفْهَمُ ، أَمَّا صَوْتُ الْمُحَامِيَةِ الْجَمِيلَةِ فَكَانَ يُسْمَعُ وَيُفْهَمُ وَيُحَسُّ وَيُدَاقُ ؛ تُلْقِيهِ هِيَ مِنْ نَاحِيَةٍ مَا يُدْرِكُ ، وَتَلْقَاهُ النَّفْسُ مِنْ نَاحِيَةٍ مَا يُعْشَقُ ، فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِحَقِيقَتَيْنِ مِنْ مَعْنَاهُ وَمَعْنَاهَا ، وَهُوَ كُلُّهُ حَلَاوَةٌ مِنْ فَمِهَا الْحُلُوفِ .

\* \* \*

وَبَدَأَتْ فَتَنَّاوَلَتْ مِنْ أَشْيَائِهَا مِرَاةً صَغِيرَةً فَتَنَظَّرَتْ فِيهَا .

الثَّابِتُ الْعَامَّ : مَا هَذَا يَا أَسْتَاذَهُ ؟

الْمُحَامِيَةُ : إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ تَأْلِفُ عَيْنِي ، فَأَنَا أَسْأَلُ عَيْنِي قَبْلَ أَنْ أَتَكَلَّمَ !

الثَّابِتُ : نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي ؛ وَلَكِنِّي أَرْجُو أَلَّا تُدْخِلَنِي الْقَضِيَّةَ فِي سِرِّ الْمِرَاةِ وَأَخَوَاتِهَا ... إِنَّ الْبَيَّابَةَ تَخْشَى عَلَى أَتْهَامِهَا إِذَا تَكَلَّحَتْ لُغَةً أَلْدَفَاعِ !

فَضَحِكَتِ الْمُحَامِيَةُ ضِحْكَةً كَانَتْ أَوَّلَ الْبَلَاغَةِ الْمُؤَثِّرَةِ ...

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨٥ ، ٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ١٨ يناير / كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة

الْثَّائِبُ : مِنَ الْوَقَارِ الْقَانُونِي أَنْ تَكُونَ الْمُحَامِيَةُ الْفَتَانَةُ غَيْرَ فَتَانَةٍ وَلَا جَدَّابَةٍ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ .  
الْمُحَامِيَةُ : تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَهَا عَجُوزًا بِأَمْرِ الْثَّائِبَةِ ... ؟ (صَحِيحٌ) .

الْثَّائِبُ : جَمَالٌ حَسَنَاءٌ ، فِي ظَرْفٍ غَائِبَةٍ ، فِي سَمَائِلٍ رَاقِصَةٍ ، فِي حِمَاسَةٍ عَاشِقَةٍ ،  
فِي ذِكَاةٍ مُحَامِيَةٍ ، فِي قُدْرَةٍ حُبٍّ - هَذَا كَثِيرٌ !

الْمُحَامِيَةُ : يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! لَمْ تَكُنِ الْمِرْأَةُ هَفْوَةً مِنْ طَبِيعَةِ الْمِرْأَةِ ، وَلَكِنَّهَا  
الْكَلِمَةُ الْأُولَى فِي الدِّفَاعِ . كَلِمَةٌ كَانِ الْجَوَابُ عَنْهَا مِنَ الثَّائِبِ الْعَامِّ أَنَّهُ أَقَرَّ بِتَأْيِيرِ الْجَمَالِ  
وَوَاطَرِهِ ، حَتَّى لَقَدْ خَشِيَ عَلَى أَتَهَامِهِ إِذَا تَكَلَّلَتْ لَهُ لُغَيْي .  
الْقَضَاءُ يَبْسُمُونَ .

الْثَّائِبُ : لَمْ أَرِدْ عَلَى أَنْ طَلَبْتُ الْوَقَارَ الْقَانُونِي ؛ الْوَقَارَ ، نَعَمْ الْوَقَارَ ؛ فَإِنَّ الْمُحَامِيَةَ  
أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ ، هِيَ مُتَكَلِّمٌ لَا مُتَكَلِّمَةٌ .

الْمُحَامِيَةُ : مُتَكَلِّمٌ بِلُحْيَةٍ مُقَدَّرَةٍ مَنَعَ مِنْ ظُهُورِهَا التَّعَذُّرُ . (صَحِيحٌ) .

كَلَّا يَا حَضْرَةَ الثَّائِبِ ؛ إِنَّ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةَ قَانُونًا آخَرَ تَتَنَزَّعُ مِنْهُ شَوَاهِدٌ وَأَدَلَّةٌ ؛ قَانُونُ  
سِحْرِ الْمِرْأَةِ لِلرَّجُلِ ، فَلَوْ اقْتَضَانِي الدِّفَاعُ أَنْ أَرْفُصَ لَرَفَضْتُ ، أَوْ أُغَيِّي لَغَيَّيْتُ ، أَوْ أُثَبِّتَ  
سِحْرَ الْجَمَالِ لِأَثْبَتَهُ أَوَّلَ شَيْءٍ فِي الثَّائِبِ الْعَامِّ ...

الرَّئِيسُ : يَا أَسْنَادَهُ !

الْمُحَامِيَةُ : لَمْ أَجَاوِزِ الْقَانُونَ ، فَالْثَّائِبُ فِي جَرِيمَتِنَا هُوَ خَصْمُ الْقَضِيَّةِ ، وَهُوَ أَيْضًا  
خَصْمُ الطَّبِيعَةِ النَّسَوِيَّةِ .

الْثَّائِبُ : لَوْ حَدَثَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ لَكَانَ إِنْجَاءً لِعَوَاطِفِ الْمَحْكَمَةِ ... فَأَنَا أَسْتَجِبُ !

الْمُحَامِيَةُ : أَخْتِجُ مَا شِئْتُ ، فَفِي قَضَايَا الْحُبِّ يَكُونُ الْعَدْلُ عَدْلَيْنِ ؛ إِذْ كَانَ  
الْأَضْطِرَارُ قَدْ حَكَمَ بِقَانُونِهِ قَبْلَ أَنْ تَحْكُمَ أَنْتَ بِقَانُونِكَ .

الْثَّائِبُ : هَذِهِ الْعُقْدَةُ لَيْسَتْ عُقْدَةً فِي مَنَدِيلٍ يَا سَيِّدَتِي ، بَلْ هِيَ عُقْدَةٌ فِي الْقَانُونِ .

الْمُحَامِيَةُ : وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّةً إِخْلَاءٍ دَارٍ يَا سَيِّدِي ، بَلْ هِيَ قَضِيَّةُ إِخْلَاءِ

قَلْبٍ !

الرَّئِيسُ : الْمَوْضُوعُ ، الْمَوْضُوعُ !

الْمُحَامِيَةُ : يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! إِذَا انْتَفَى الْقَصْدُ الْجِنَائِي وَجَبَتْ الْبَرَاءَةُ ، هَذَا  
مَبْدَأٌ لَا خِلَافَ عَلَيْهِ ؛ فَمَا هُوَ الْفِعْلُ الْوُجُودِيُّ فِي جَرِيمَةِ قَلْبِي الْمُسْكِينِ ؟

الْثَّائِبُ : أَوَّلُهُ حُبٌّ رَاقِصَةٌ .

الْمُحَامِيَةُ : آه ! دَائِمًا هَذَا الْوَصْفُ ؟ هَبُّهَا فِي مَعْنَاهَا غَيْرَ جَدِيدَةٍ بِأَنْ يَعْرِفَهَا لِأَنَّهُ  
رَجُلٌ تَقِيٌّ ، أَفَلَيْسَتْ فِي حُسْنِهَا جَدِيدَةٌ بِأَنْ يُحِبُّهَا لِأَنَّهُ رَجُلٌ شَاعِرٌ ؟ أَحْكُمُوا يَا حَضْرَاتِ  
الْقَضَاءِ ! هَذِهِ رَاقِصَةٌ تَزْتَرِّقُ وَتَزْتَفِقُ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا رَهْنٌ بِأَسْنَابِهَا ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهَا  
خَاصِمَةٌ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي تَدْفَعُ . فَلِمَ أَدَا لَمْ يَنْلَهَا وَهِيَ مُعْرَضَةٌ لَهُ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ عَلَى  
الْثَّهَابَةِ ، وَفِي آخِرِ أَوْصَافِ الشُّوقِ ؟ أَلَيْسَ هَذَا حَقِيقًا بِإِعْجَابِكُمْ الْقَانُونِي كَمَا هُوَ جَدِيدٌ  
بِإِعْجَابِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْحُبُّ شَهْوَةً فَكِرٌ ، فَمَا الَّذِي يَحُولُ دُونَهَا وَمَا  
يَمْنَعُهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ... ؟

الْقَضَاءُ يَبْسُمُونَ .

الْثَّائِبُ : نَسِيتِ الْمُحَامِيَةَ أَنَّهَا مُحَامِيَةٌ ، وَانْتَقَلْتُ إِلَى شَخْصِيَّتِهَا الْوَاقِفَةِ عَلَى الثَّهَابَةِ  
وَفِي آخِرِ أَوْصَافِ الشُّوقِ ... فَأَرْجُو أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْمَوْضُوعِ ، مَوْضُوعِ الرَّاقِصَةِ .

الْمُحَامِيَةُ : آه ! دَائِمًا الرَّاقِصَةُ ، مَنْ هِيَ هَذِهِ الْمُسْكِينَةُ الْأَسِيرَةُ فِي أَيْدِي الْجُنُوعِ  
وَالْحَاجَةِ وَالْأَضْطِرَارِ ؟ أَلَيْسَتْ مَجْمُوعَةٌ فَضَائِلَ مَفْهُورَةٍ ، أَلَيْسَتْ هِيَ الْجَائِعَةُ الَّتِي لَا تَجِدُ  
مِنَ الْفَاجِرِينَ إِلَّا لَحْمَ الْمَيِّتَةِ ؟ نَعَمْ إِنَّهَا زَلَّتْ ، إِنَّهَا سَقَطَتْ ، وَلَكِنْ بِمَاذَا ؟ بِالْفَقْرِ  
لَا غَيْرِ ، فَقَرِ الضُّمِيرَ وَالذُّمَّةَ فِي رَجُلٍ فَاسِدٍ خَدَعَهَا وَتَرَكَهَا ! وَقَفَرِ الْعَدْلَ وَالرَّحْمَةَ فِي  
اجْتِمَاعٍ فَاسِدٍ خَدَلَهَا وَأَهْمَلَهَا ! يَا لِلرَّحْمَةِ لِلْيَتِيمَةِ مِنَ الْأَهْلِ ، وَأَهْلُهَا مَوْجُودُونَ !  
وَالْمُنْقَطِعَةِ مِنَ النَّاسِ ، وَالنَّاسُ حَوْلَهَا !

تَقُولُونَ : يَجِبُ وَلَا يَجِبُ ، ثُمَّ تَدْعُونَ الْحَيَاةَ الظَّالِمَةَ تَعَكِّسُ مَا شَاءَتْ فَتَجْعَلُ  
مَا لَا يَنْبَغِي هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي ، وَتَقْلِبُ مَا يَجِبُ إِلَى مَا لَا يَجِبُ ، فَإِذَا صَاعَ مَنْ يَضِيعُ فِي  
هَذَا الْأَخْتِلَاطِ ، قُلْتُمْ لَهُ : شَأْنُكَ بِنَفْسِكَ ؛ وَنَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْهُ فَاصْعَتُمُوهُ مَرَّةً أُخْرَى ،

وَيَحْكُمُ يَا قَوْمُ ! غَيْرُوا اتِّجَاهَ الْأَسْبَابِ فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الْفَاسِدِ ، تُخْرِجُ لَكُمْ مُسَبِّبَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ فَاسِدَةٍ .

ثَانِي الْمَرْأَةُ مِنْ أَعْمَالِ الرَّجُلِ لَا مِنْ أَعْمَالِ نَفْسِهَا ، فَهِيَ تَابِعَةٌ وَتَظْهَرُ كَأَنَّهَا مُتَبَوِّعَةٌ ، وَذَلِكَ هُوَ ظَلَمُ الطَّبِيعَةِ لِلْمُسْكِينَةِ ؛ وَمِنْ كَوْنِهَا تَظْهَرُ كَأَنَّهَا مُتَبَوِّعَةٌ ، يَظْلِمُهَا الْأَجْتِمَاعُ ظُلْمًا آخَرَ فَيَأْخُذُهَا وَخَذَهَا بِالْجَرِيمَةِ ، وَيُقَالُ : سَافِلَةٌ وَسَاقِطَةٌ ، وَمَا جَاءَتْ إِلَّا مِنْ سَافِلٍ وَسَاقِطٍ !

لِمَاذَا أَوْجَبَتِ الشَّرِيعَةُ الرَّجْمَ بِالْحِجَارَةِ عَلَى الْفَاسِقِ الْمُخْصَنِ ؟ أَهِيَ تُرِيدُ الْقَتْلَ وَالتَّعْذِيبَ وَالْمَثَلَةَ ؟ كَلَّا ، فَإِنَّ الْقَتْلَ مُمَكِّنٌ بِغَيْرِ هَذَا بِأَشَدِّ مِنْ هَذَا ، وَلَكِنَّهَا الْحِكْمَةُ السَّامِيَةُ الْعَجِيبَةُ : إِنَّ هَذَا الْفَاسِقَ هَدَمَ بَيْنًا فَهُوَ يُرْجَمُ بِحِجَارَتِهِ !

مَا أَجَلُّكَ وَأَسْمَاكَ يَا شَرِيعَةَ الطَّبِيعَةِ ، كُلُّ الْأَحْبَارِ يَجِبُ أَنْ تَنْتَقِمَ لِحَجَرِ دَارِ الْأُسْرَةِ إِذَا أَنْهَدَمَ .

تَسْتَنْقِطُونَ الْمُسْكِينَةَ ، وَلَوْ ذَكَرْتُمْ آلامَهَا لَوَجَدْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ كَلِمَاتٍ الْإِضْلَاحِ وَالرَّخْمَةِ لَا كَلِمَاتِ الدِّمِّ وَالْعَارِ ؛ إِنَّهَا تَسْعَى بِرِذْلَتِهَا إِلَى الرُّزْقِ ؛ فَهَلْ مَعْنَى هَذَا إِلَّا أَنَّهَا تَسْعَى إِلَى الرُّزْقِ بِأَفْوَى قُوَّتِهَا ؟ نَعَمْ ، إِنَّ ذَلِكَ مَعْنَى الْفُجُورِ ، وَلَكِنَّ الْبَيْسَ هُوَ نَفْسُهُ مَعْنَى الْقُوَّةِ أَهْلِهَا النَّاسُ ؟

الرَّيْسُ - وَهُوَ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ - : الْمَوْضُوعُ الْمَوْضُوعُ !

الْمُحَامِيَةُ : مَا هُوَ الْفِعْلُ الْوُجُودِيُّ فِي جَرِيمَةِ قَلْبِي الْمُسْكِينِ ؟ مَا هُوَ الْوَاقِعُ مِنْ جَرِيمَةِ يَضْرِبُ صَاحِبُهَا الْمَثَلَ بِنَفْسِهِ لِلشَّبَابِ فِي تَسَامِي غَرِيزَتِهِ عَنْ مَعْنَاهَا إِلَى أَظْهَرِ وَأَجْمَلِ مِنْ مَعْنَاهَا ؟ لَيْسَ الْقَانُونُ إِنْ كَانَ الْقَانُونُ يُعَاقِبُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ صَارَ إِلَى عَمَلٍ دِينِيٍّ مِنْ أَعْمَالِ الْفَضِيلَةِ !

الثَّانِي : أَلَا يَخْجَلُ مِنْ شُعُورِهِ بِأَنَّهُ يُجِبُّ رَاقِصَةً ؟

الْمُحَامِيَةُ : وَمِمَّ يَخْجَلُ ؟ أَمِنْ جَمَالِ شُعُورِهِ أَمْ مِنْ قُوَّةِ شُعُورِهِ ؟ أَيْخَجَلُ مِنْ عَظَمَةِ فِي سُمُورٍ فِي كَمَالٍ ؟ أَيْخَجَلُ الْبَطْلُ مِنْ أَعْمَالِ الْحَرْبِ وَهِيَ نَفْسُهَا أَعْمَالُ الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ ؟

أَتَأَذُنُونَ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ أَنْ أَصِفَ لَكُمْ جَمَالَ صَاحِبِيهِ وَأَنْ أَظْهَرَ شَيْئًا مِنْ سِرِّ فَتْنِهَا الَّذِي هُوَ سِرُّ الْبَيَانِ فِي فَتْنِهِ ؟

الثَّانِي : إِنَّهَا تَتَمَاجَنُ عَلَيْنَا يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ، فَالَّذِي يُحَاكِمُ عَلَى الشُّكْرِ لَا يَدْخُلُ الْمَحْكَمَةَ وَمَعَهُ الرُّجَاةُ ..

الرَّيْسُ : لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنْ تَرْجَمَةِ الْكَلَامِ إِلَى أَعْمَالٍ يَا حَضَرَةُ الْأُسْتَاذَةِ .

الْمُحَامِيَةُ : كَثِيرًا مَا نَكُونُ الْأَلْفَاظُ مُتَرْجِمَةً خَطَأً بِنِثَاتِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِهَا أَوْ الْمُصْغَرِينَ إِلَيْهَا ؛ فَكَلِمَةُ الْحُبِّ مَثَلًا قَدْ تَنْتَهِي إِلَى فِكْرٍ مِنَ الْأَفْكَارِ حَامِلَةً مَعْنَى الْفُجُورِ ، وَهِيَ بِعَيْنِهَا تَبْلُغُ إِلَى فِكْرٍ آخَرَ حَامِلَةً إِلَى سُمُورِهِ مِنْ سُمُورِهَا ؛ وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا يَخْتَلِفُ مَعْنَى كَلِمَةِ الْحِجَابِ عِنْدَ الشَّرْقِيِّينَ وَالْأَوْرُوبِيِّينَ ؛ فَلَاضِلُّ فِي مَدْيَنَةِ هُنُوْلَاءِ إِيَّاحَةَ الْمَعَانِي الْخَفِيَّةِ مِنَ الْعَقَّةِ ... وَإِكْرَامُ الْمَرْأَةِ إِكْرَامُ مُغَارَلَةٍ ... يَقُولُونَ : إِنَّ رَقَمَ الْوَاحِدِ غَيْرُ رَقَمِ الْعَشْرَةِ ، فَيَضَعُونَهُ فِي حَيَاةِ الْمَرْأَةِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا يَجِيءُ « الصُّفْرُ » فَإِذَا هُوَ الْعَشْرَةُ بِعَيْنِهَا !

أَمَّا الشَّرْقِيُّونَ فَلَاضِلُّ فِي مَدْيَنَتِهِمُ الْإِيزَامُ الْعَقَّةُ وَإِقْرَارُ الْمَرْأَةِ فِي حَقِيقَتِهَا ، لَا جَرَمَ كَانَ الْحِجَابُ هُنَا وَهَنًا بِالْمَغْنِيِّينَ الْمُتَنَاقِضِينَ : الْأَسْتِذَاذُ وَالْعَدْلُ ، وَالْقَسْوَةُ وَالرَّخْمَةُ ، وَ...

الثَّانِي : وَأَمْرَةُ الْبَيْتِ وَأَمْرَةُ الشَّارِعِ ..

الْمُحَامِيَةُ : وَبَصَرَ الْقَانُونِ وَعَمَى الْقَانُونِ ..

الرَّيْسُ : وَحُسْنُ الْأَدَبِ وَشَوْءُ الْأَدَبِ ... الْمَوْضُوعُ الْمَوْضُوعُ .

الْمُحَامِيَةُ : لَا وَالَّذِي شَرَفَكُمْ بِشَرَفِ الْحُكْمِ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ، مَا يَرَى الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ فِي حَبِيبَتِهِ إِلَّا تَغْيِيرَ الْجَمَالِ ، فَهُوَ يَفْهَمُهَا فَهَمُ التَّغْيِيرِ كَكُلِّ مَوْضُوعَاتِ الْفَنِّ ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّ حَقِيقَةَ الْجَمَالِ تَعَرَّفَتْ إِلَيْهِ فِيهَا ، أَيْنَ أَحْسَنَ الشَّاعِرِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ ، فِي مَنْظَرٍ مِنْ مَنَازِلِهَا ، قُلْتُمْ : أَجْرَمَ وَأَيْمَ ؟

هَذَا قَلْبُ ذُو أَفْكَارٍ ، وَسَبِيلُهُ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ ، قَدْ تَقُولُونَ : إِنَّ فِي الطَّبِيعَةِ جَمَالًا غَيْرَ جَمَالِ الْمَرْأَةِ فَلْيَأْخُذْ مِنَ الطَّبِيعَةِ وَلْيُعْطِ مِنْهَا ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي

يُخَيِّنِي الطَّبِيعَةُ إِلَّا أَخَذَهَا مِنَ الْقَلْبِ ؟ وَمَا هِيَ طَرِيقَةُ أَخَذِهَا مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا بِالْحُبِّ ؟ وَقَدْ تَقُولُونَ : إِنَّهُ يَتَأَلَّمُ وَيَتَعَذَّبُ ، وَلَكِنْ سَلُوهُ : أَهْوَى يَتَأَلَّمُ بِإِذْرَاكِهِ الْأَلَمَ فِي الْحُبِّ ، أَوْ بِإِذْرَاكِهِ قَسْوَةَ الْحَقِيقَةِ وَأَسْرَارَ التَّعْقِيدِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ؟ ..

إِنَّ شُعْرَاءَ الْقُلُوبِ لَا يَكُونُونَ دَائِمًا إِلَّا فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ : هُمْ أَكْبَرُ مِنَ أَلَمِهِمْ ، وَفَرَحُ أَكْثَرُ مِنَ الْفَرَحِ ، فَإِذَا عَشِفُوا تَجَاوَزُوا مَوْضِعَ الْوَسْطِ الَّذِي لَا يَكُونُ الْحُبُّ الْمُعْتَدِلُ إِلَّا فِيهِ ، وَمِنْ هَذَا فَلَيْسَ لَهُمْ أَلَمٌ مُعْتَدِلٌ وَلَا أَفْرَاحٌ مُعْتَدِلٌ .

هَذَا قَلْبٌ مُخْتَارٌ مِنَ الْقُدْرَةِ الْمُوَحِّيةِ إِلَيْهِ ، فَالَّتِي يُحِبُّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا مُخْتَارَةً مِنْ هَذِهِ الْقُدْرَةِ اخْتِيَارَ مَلِكِ الْوَحْيِ ، وَهَمَّا بِهِذَا قُوَّتَانِ فِي يَدِ الْجَمَالِ لِإِبْدَاعِ أَثَرٍ عَظِيمٍ مِلءَ قُدْرَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا عَظِيمَةٌ ..

فَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّ حُبَّ هَذَا الْقَلْبِ جَرِيْمَةٌ عَلَى نَفْسِهِ ، قَالَتِ الْحَقِيقَةُ الْقَلْبِيَّةُ : بَلِ امْتِنَاعُ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ جَرِيْمَةٌ .

إِنَّ خَمْسِينَ وَخَمْسِينَ تَأْتِي مِنْهُمَا مِثَّةٌ ، فَهَذَا بِدِينِي ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ أَبْيَنَ وَلَا أَظْهَرَ وَلَا أَوْضَحَ مِنْ قَوْلِنَا : إِنَّ هَذَا الْعَاشِقَ وَهَذِهِ الْمَعْشُوقَةَ يَأْتِي مِنْهُمَا قُلٌّ .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : وَأَنْصَرَفَ الْقَضَاءُ إِلَى غُرْفَتِهِمْ لِيَتَدَاوَلُوا الرَّأْيَ فِيمَا يَحْكُمُونَ بِهِ ، وَأَوْمَأَتْ لِي الْمُحَامِيَةُ الْجَمِيلَةُ تَدْعُونِي إِلَيْهَا ، فَتَهَضَّتْ أَقْرَمُ ، فَإِذَا أَنَا جَالِسٌ وَقَدْ أَنْتَبَهْتُ مِنَ النَّوْمِ .

\* \* \*

(جَائِزَةٌ) <sup>(١)</sup> لِمَنْ يُحْسِنُ كِتَابَةَ الْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ خَمْسُ نُسَخٍ مِنْ كِتَابِ « وَخِي

الْقَلَمِ » وَتُرْسَلُ الْمَقَالَاتُ (بِاسْمِنَا إِلَى طَنْطَا) وَالْمَوْعِدُ (إِلَى آخِرِ شَهْرِ يَنَايِزْ/ كَانُونِ الْآخِرِ هَذَا) وَالشَّرْطُ رِضَى الْمُحْكَمِينَ ، وَمِنْهُمْ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ وَصَاحِبَتُهُ .. <sup>(١)</sup>

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) [جاء في « الرسالة » العدد : ١٩١ ، ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحة : ٣٢٨ : الْحُكْمُ فِي قَضِيَّةِ « الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ » تَلَقُّنَا أَرْبَعِينَ حُكْمًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَسَتَجْتَمِعُ اللَّجْنَةُ لِاخْتِيَارِ مَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ شَرْطُنَا ، وَهُوَ (إِحْسَانُ الْكِتَابَةِ) ، ثُمَّ تَعْلُنُ حُكْمَهَا . الرَّافِعِيُّ ] .

(١) { قُلْتُ : وَرَدَّتْ إِلَى الْمُؤَلِّفِ مِثَاتُ الرِّسَالِ بِحُكْمِ أَصْحَابِهَا فِي قَضِيَّةِ (الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ) ، وَلَكِنْ مُسَابِقَةُ الْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ لَمْ يُفْصَلْ فِيهَا ، لِأَنَّ قَاضِيَهَا الْأَوَّلَ وَمُنْتَهَمَهَا الْأَوَّلَ قَدْ غَالَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَرَى رَأْيَهُ وَيَحْكُمَ حُكْمَهُ } .

### اَنْتِصَارُ الْحُبِّ (\*) (١)

كُلُّ مَا يُكْتَبُ عَنْ حَبِيبَيْنِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْضُ مَا يُفْهَمُ مِنْ رُؤْيَا وَجْهِ أَحَدِهِمَا يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ الْآخَرِ .

وَمَا تَعْرِفُهُ الْعَيْنُ مِنَ الْعَيْنِ لَا تَعْرِفُهُ بِالْفَاظِ ، وَلَكِنْ بِاسْتِرَارٍ ..

وَالْغَلِيلُ الْمُسْتَعْرِ فِي دَمِ الْعَاشِقِ ، كَجُنُونِ الْمَجْنُونِ : يَخْتَصُّ بِرَأْسِهِ وَخَدَهُ .

وَضَمَّةُ الْمُحِبِّ لِحَبِيبِهِ إِحْسَاسٌ لَا يُسْتَعَارُ مِنْ صَدْرِ آخَرَ ، كَمَا لَا يُسْتَعَارُ الْمَوْلُودُ لِطَنٍ لَمْ يَحْمِلْهُ .

وَكَلِمَةُ الْقُبْلَةِ الَّتِي مَعَهَا وَضَعُ الْقَلَمِ ، لَنْ يَنْتَقِلَ إِلَيْهَا مَا تَذُوقُهُ الشَّفَتَانِ !

\* \* \*

وَيَوْمُ الْحُبِّ يَوْمٌ مَمْدُودٌ ، لَا يَنْتَهِي فِي الزَّمَنِ إِلَّا إِذَا بَدَأَ يَوْمُ الشُّلُوفِ فِي الزَّمَنِ ...

فَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْخَلْقُ أَنْ يَصْنَعُوا حَدًّا يَفْصِلُ بَيْنَ وَقْتَيْنِ لِيَنْتَهِيَ أَحَدُهُمَا ... ؟

وَهُنْهُمْ صَنَعُوا الشُّلُوفَانَ مِنْ مَادَّةِ النَّصِيحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ ، وَمِنْ أَلْفِ بَرْهَانٍ وَبَرْهَانٍ ، فَكَيْفَ

لَهُمْ بِالْمُسْتَحِيلِ ، وَكَيْفَ لَهُمْ بِوَضْعِ الشُّلُوفَانِ فِي الْقَلْبِ الْعَاشِقِ ؟

وَإِذَا سَالَتِ النَّفْسُ مِنْ رِقَّةِ الْحُبِّ ، فَبِأَيِّ مَادَّةٍ تُصْنَعُ فِيهَا صَلَابَةُ الْحَجَرِ ؟ ...

\* \* \*

(\*) « الرسالة » العدد : ١٨٦ ، ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٥ يناير / كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ١٢٦ - ١٢٧ .

(١) شَتَلْنَا مَقَالَاتِ « الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ » عَنِ الْكِتَابَةِ فِي حَدِيثِهِ (الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ الْأَعْظَمِ) ، قَلْبِ الْمَلِكِ إدوارد Edward عندما وَقَعَتِ الْحَادِثَةُ .

{ قُلْتُ : وَحَادِثَةُ تَخَلَّى الْمَلِكِ إدوارد Edward عَنْ عَرْشِ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٩٣٧ مِنْ أَجْلِ امْرَأَةٍ - ذَائِعَةٍ مَشْهُورَةٍ . }

وَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا إِظْهَارُ الْجِسْمِ الْجَمِيلِ حَامِلًا لِلْجِسْمِ الْآخَرِ كُلِّ أَسْرَارِهِ ، يُفْهَمُهَا وَخَدَهُ فِيهِ وَخَدَهُ ؟

وَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا تَعَلُّقُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ الَّتِي لَا يَمْلَأُهَا إِلَّا إِحْسَاسٌ ؟

وَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا إِشْرَاقُ الثُّورِ الَّذِي فِيهِ قُوَّةُ الْحَيَاةِ ، كُنُورِ الشَّمْسِ مِنَ الشَّمْسِ وَخَدَهَا ؟

وَهَلْ فِي ذَهَبِ الدُّنْيَا وَمِثْلِكَ الدُّنْيَا مَا يَشْتَرِي الْأَسْرَارَ ، وَالْإِحْسَاسَ ، وَذَلِكَ الثُّورَ الْحَيَّ ؟ ...

فَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ الْحُبُّ ؟

\* \* \*

مَا هُوَ هَذَا السَّرُّ فِي الْجَمَالِ الْمَغْشُوقِ ، إِلَّا أَنَّ عَاشِقَهُ يُذَكِّرُهُ كَأَنَّهُ عَقْلٌ لِلْعَقْلِ ؟

وَمَا هُوَ هَذَا الْإِذْرَاكُ إِلَّا أَنْجِصَارُ الشُّعُورِ فِي جَمَالٍ مُسَلِّطٍ كَأَنَّهُ قَلْبٌ لِلْقَلْبِ ؟

وَمَا هُوَ الْجَمَالُ الْمُسَلِّطُ بِإِنْسَانٍ عَلَى إِنْسَانٍ ، إِلَّا ظُهُورُ الْمَخْبُوبِ كَأَنَّهُ رُوحٌ لِلرُّوحِ ؟

وَلَكِنْ مَا هُوَ السَّرُّ فِي حُبِّ الْمَخْبُوبِ دُونَ سِوَاهُ ؟ ... هُنَا تَقِفُ الْمَسْأَلَةُ وَيَنْقَطِعُ الْجَوَابُ .

هُنَا سِرٌّ خَفِيٌّ كَسِرِّ الْوَحْدَانِيَّةِ ، لِأَنَّهَا وَحْدَانِيَّةٌ (أَنَا وَأَنْتِ) .

\* \* \*

نَاقِشُوا الْحُبَّ ، فَقَالُوا : أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا دُنْيَا الْمَادَّةِ ، وَالرُّوحَانِيَّةُ الْيَوْمَ كَالْعِظَامِ الْهَرِمَةِ لَا تَكْتَسِي اللَّحْمَ الْعَاشِقَ .

وَقَالَ الْحُبُّ : لَا ، بَلِ الْمَادَّةُ لَا قِيَمَةَ لَهَا فِي الرُّوحِ ، وَهَذَا الْقَلْبُ لَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى يَدٍ وَلَا رِجْلٍ .

نَاقِشُوا الْحُبَّ ، فَقَالُوا : إِنَّ الْعَصَرَ عَصْرُ الْأَلَاتِ ، وَالْعَمَلُ الرُّوحِي لَا وَجُودَ لَهُ فِي الْأَلَةِ وَلَا مَعَ الْأَلَةِ .

قَالَ الْحُبُّ : لَا ، يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ مَا شَاءَ ، وَيَبْقَى الْقَلْبُ دَائِمًا كَمَا صَنَعَهُ الْخَالِقُ ...

وَقَالُوا: الصَّعِيفَانِ: الْحُبُّ وَالذُّيُنُ، وَالْقَوِيَانِ: الْمَالُ وَالْجَاهُ؛ فِيمَاذَا رَدَّ الْحُبُّ؟ ...

\* \* \*

جَاءَ بِلُؤْلُؤُهُ رُوحَانِيَّةً فِي مِسِرْ سَمْبُسُون Misses Sampson؛ وَوَضَعَ إِلَيْهَا فِي مِيزَانِ الْمَالِ وَالْجَاهِ أَغْطَمَ تَاجَ فِي الْعَالَمِ: تَاجُ إِدْوَارْدِ الثَّامِنِ Edward VIII « مَلِكِ بَرِيطَانِيَةِ الْعُظْمَى وَإِرْلَنْدَةَ وَالْمُمْتَلَكَاتِ الْبَرِيطَانِيَّةِ فِيمَا وَرَاءَ الْبَحَارِ وَمَلِكِ - أَمْبِرَاطُورِ الْهِنْدِ » .  
وَتَنَافَسَتِ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْمَادِّيَّةُ، فَجَرَعَ التَّاجُ وَمَا فِيهِ إِلَّا أضعفَ الْمَعْنِيَيْنِ مِنَ الْقَلْبِ .  
وَأَعْلَنَ الْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحَدِ أَخْتِرَاعِ فِي الْإِعْلَانِ، فَهَرَّ الْعَالَمُ كُلَّهُ هَرَّةً صَحَافِيَّةً:  
الْحُبُّ .. الْحُبُّ .. الْحُبُّ .

\* \* \*

مِسِرْ سَمْبُسُون Misses Sampson، تِلْكَ الْجَمِيلَةُ بِنُصْفِ جَمَالِ، الْمُطَلَّقةُ مَرَّتَيْنِ .  
هَذَا هُوَ اخْتِيَارُ الْحُبِّ !

وَلَكِنَّهَا الْمَغْشُوقَةُ؛ وَكُلُّ مَغْشُوقَةٍ هِيَ عَذْرَاءٌ لِحَبِيبِهَا وَلَوْ تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ؛ هَذَا هُوَ سِخْرُ الْحُبِّ !

وَلَكِنَّهَا الْفَاتِنَةُ كُلُّ الْفِتْنَةِ، وَالطَّرِيفَةُ كُلُّ الطَّرْفِ، وَالْمَرَاةُ كُلُّ الْمَرَاةِ، هَذَا هُوَ فِعْلُ الْحُبِّ !

وَلَكِنَّهَا الْعَقْلُ لِلْأَعْصَابِ الْمَجْنُونَةِ، وَالْأَنْسُ لِلْقَلْبِ الْمُسْتَوْحِشِ، وَالْثُورُ فِي ظُلْمَةِ الْكَأَبَةِ؛ هَذَا هُوَ حُكْمُ الْحُبِّ !

وَمِنْ أَجْلِهَا يَقُولُ مَلِكُ إِنْكَلْتَرَةَ لِلْعَالَمِ: « لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْيِشَ بِدُونِ الْمَرَاةِ الَّتِي أَحِبُّهَا » فَهَذَا هُوَ إِعْلَانُ الْحُبِّ ...

\* \* \*

إِذَا أَخَذُوهَا عَنْهُ أَخَذُوهَا مِنْ دَمِهِ، فَذَلِكَ مَعْنَى مِنَ الذَّبْحِ .

وَإِذَا أَنْتَرَعُوهَا أَنْتَرَعُوهَا مِنْ نَفْسِهِ، فَذَلِكَ مَعْنَى مِنَ الْقَتْلِ .

وَهَلْ فِي غَيْرِهَا هِيَ رُوحُ اللَّهْفَةِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ، فَيَكُونُ الْمَذْهَبُ إِلَى غَيْرِهَا ؟

لَكَانَتْهُمْ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَمُوتَ مَوْتًا فِيهِ حَيَاةٌ .

وَكَانَتْهُمْ يَرِيدُونَ مِنْهُ أَنْ يُجَنِّ جُنُونًا بِعَقْلِ ... هَذَا هُوَ جَبَرُوتُ الْحُبِّ !

\* \* \*

وَلِلْسِيَاسَةِ حُجَجٌ، وَعِنْدَ مِسِرْ سَمْبُسُون Misses Sampson حُجَجٌ، وَعِنْدَ الْهَوَى ...

التَّاجُ، الْمَلِكِيَّةُ، أَمْرَاةُ مُطَلَّقةٌ، أَمْرَاةٌ مِنَ الشَّعْبِ؛ فَهَذَا مَا تَقُولُهُ السِّيَاسَةُ .

وَلَكِنَّهَا أَمْرَاةٌ قَلْبِي، تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ لِيَكُونَ لَهُ فِيهَا إِمْتِنَاعٌ ثَلَاثَ زَوَاجَاتٍ؛ وَهَذَا مَا يَقُولُهُ الْحُبُّ !

وَاللَّخْطَةُ الثَّانِيَّةُ، وَالْإِشَارَةُ الثَّانِيَّةُ، وَالْإِشَارَةُ الْحَالِمَةُ وَكَلِمَةُ (سَيِّدِي) <sup>(١)</sup>؛ هَذَا مَا يَقُولُهُ الْجَمَالُ .

وَأَنْتَصَرَ الْحُبُّ عَلَى السِّيَاسَةِ، وَأَبَى الْمَلِكُ أَنْ يَكُونَ كَالْأَمِ الْأَزْمَلَةِ فِي مَلِكِ أَوْلَادِهَا الْكِبَارِ ...

\* \* \*

الْعَرْشُ يَقْبَلُ رَجُلًا خَلْفًا مِنْ رَجُلٍ، فَيَكُونُ الثَّانِي كَالْأَوَّلِ .

وَالْحُبُّ لَا يَقْبَلُ أَمْرَاةً خَلْفًا مِنْ أَمْرَاةٍ، فَلَنْ تَكُونَ الثَّانِيَّةُ كَالْأُولَى .

وَطَارَتْ فِي الْعَالَمِ هَذِهِ الرُّسَالَةُ: « أَنَا إِدْوَارْدُ الثَّامِنِ Edward VIII ... أَنْتَخَلَّى عَنِ الْعَرْشِ وَدُرَيْتِي مِنْ بَعْدِي » !

« وَأَعْلَنَ الْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحَدِ أَخْتِرَاعِ فِي الْإِعْلَانِ؛ فَهَرَّ الْعَالَمُ كُلَّهُ هَرَّةً صَحَافِيَّةً » .

الْحُبُّ ... الْحُبُّ ... الْحُبُّ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) لَا تُخَاطَبُ مِسِرْ سَمْبُسُون Misses Sampson إِدْوَارْدَ Edward إِلَّا بِكَلِمَةِ: (سَيِّدِي)، وَلَا تَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَلَا تُسَمِّيه إِلَّا قَالَتْ: (سَيِّدِي). وَلَنْ يَأْمُرَ الْحُبُّ أَمْرًا بِأَبْلَغَ وَلَا أَرْقَى مِنْ كَلِمَةِ الْمُبْرَدَةِ اللَّطِيفَةِ هَذِهِ حِينَ نَنْطِقُ بِهَا الْمَرَاةُ فِي صَوْتِ قَلْبِهَا وَغَيْرِ نَزِيهَا؛ وَقَدْ كَانَ هَذَا آدَبُ نِسَاءِ الشَّرْقِ مَعَ أَزْوَاجِهِنَّ، أَمَا الْيَوْمَ ...

قُبْنَلَةُ بِالْبَارُودِ (\*)

لَا بِالْمَاءِ الْمُقَطَّرِ (١) ...

حَيَّاكُمْ اللهُ يَا شَبَابَ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ لَقَدْ كَتَبْتُكُمْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَصْرُخُ مِنْهَا الشَّيَاطِينُ ...

كَلِمَاتٌ لَوْ أَنْتَسَبْنَ لَأَنْتَسَبَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَى آيَةٍ مِمَّا نَزَلَ بِهِ الْوَحْيُ فِي كِتَابِ اللهِ .  
فَطَلَبْتُ تَعْلِيمَ الَّذِينَ لِشَبَابِ الْجَامِعَةِ يَنْتَسِبُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب / الآية : ٣٣] .

وَطَلَبْتُ الْفَضْلَ بَيْنَ الشُّبَّانِ وَالْفَتَيَاتِ يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب / الآية : ٥٣] .

وَطَلَبْتُ إِنْجَادَ الْمَثَلِ الْأَخْلَاقِيِّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ شَبَابِهَا الْمُتَعَلِّمِ هُوَ مَعْنَى الْآيَةِ : ﴿ هَذَا يَصْكُرُ النَّاسَ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [٤٥ سورة الجاثية / الآية : ٢٠] .

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابَ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ، إِنَّ الْخَطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا ...

\* \* \*

حَيَّاكُمْ اللهُ يَا شَبَابَ الْجَامِعَةِ ؛ لَقَدْ كَتَبْتُكُمْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُصَفِّقُ لَهَا الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٩٤ ، ٩ محرم سنة ١٣٥٦ هـ = ٢٢ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(١) رَفَعَ طَلَبَةُ الْكَلِمَاتِ فِي الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى مُدِيرِهَا وَعُمْدَتِهَا وَأَسَاتِذَتِهَا - طَلَبًا يَلْتَمِسُونَ فِيهِ إِدْخَالَ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ فِي الْجَامِعَةِ وَالْفَضْلَ بَيْنَ الشُّبَّانِ وَالْفَتَيَاتِ ، إِذْ « لَا إِصْلَاحَ إِلَّا بَعْدَ إِصْلَاحِ رُوحِ الشَّبَابِ النَّاهِضِ ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ رُوحِهِ وَسُمْرِ أَخْلَاقِهِ سِلَاحٌ يُحَارِبُ بِهِ الرَّذِيلَةَ وَيَنْصُرُ بِهِ الْفَضِيلَةَ » . قَالُوا : « وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُمَّةَ بِأَسْرَهَا قَدْ أَحْسَتْ بِنَقْصِ الثَّاجِيَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْمُنْجَمِ الْمِصْرِيِّ ، وَنَقْصِ أَخْلَاقِ الْفَرْدِ وَوَطَنِيَّتِهِ بِنَاعًا » .

{ قُلْتُ : وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَارِسْ / آذار سنة ١٩٣٧ } . سَعِيدُ الْعُرْيَانِ .

كَلِمَاتٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ جَدِيدٌ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنَّ كُلَّ جَدِيدٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِيهَا .

كَلِمَاتٌ الْقُوَّةَ الرُّوحِيَّةَ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَقُودَ التَّارِيخَ مَرَّةً أُخْرَى بِقُوَّةِ النَّصْرِ لَا بِعَوَامِلِ الْهَزِينَةِ .

كَلِمَاتُ الشَّبَابِ الطَّاهِرِ الَّذِي هُوَ حَرَكَةُ الرُّقِيِّ فِي الْأُمَّةِ كُلِّهَا ، فَسَيَكُونُ مِنْهَا الْمُحَرِّكُ لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا .

كَلِمَاتٌ لَيْسَتْ قَوَانِينِ ، وَلَكِنَّهَا سَتَكُونُ هِيَ السَّبَبُ فِي إِصْلَاحِ الْقَوَانِينِ .

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابَ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ، إِنَّ الْخَطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا ...

\* \* \*

يُرِيدُ الشَّبَابُ مَعَ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ حَقِيقَةَ الدِّينِ ، فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يُعَلِّمُ الصَّبْرَ وَلَا الصَّدْقَ وَلَا الذِّمَّةَ .

يُرِيدُونَ قُوَّةَ النَّفْسِ مَعَ قُوَّةِ الْعَقْلِ ، فَإِنَّ الْقَانُونَ الْأَدَبِيَّ فِي الشَّعْبِ لَا يَضَعُهُ الْعَقْلُ وَحْدَهُ وَلَا يُنْقِذُهُ وَحْدَهُ .

يُرِيدُونَ قُوَّةَ الْعَقِيدَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَنْفَعَهُمْ فِي بَعْضِ شِدَائِدِ الْحَيَاةِ مَا تَعَلَّمُوهُ نَفَعَهُمْ مَا أَعْتَقَدُوهُ .

يُرِيدُونَ السُّمُوَ الدِّينِيَّ ، لِأَنَّ فِكْرَةَ إِدْرَاكِ الشَّهَوَاتِ بِمَعْنَاهَا هِيَ فِكْرَةُ إِدْرَاكِ الْوَاجِبَاتِ بِغَيْرِ مَعْنَاهَا .

يُرِيدُونَ الشَّبَابَ السَّامِيَّ الطَّاهِرَ مِنَ الْجَنَسَيْنِ ، كَيْ تُولَدَ الْأُمَّةُ الْجَدِيدَةُ سَامِيَّةً طَاهِرَةً .

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابَ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ؛ إِنَّ الْخَطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا ...

\* \* \*

أَحْسَ الشَّبَابُ أَنَّهُمْ يَفْقِدُونَ مِنْ قُوَّةِ الْمَنَاعَةِ الرُّوحِيَّةِ بِقَدْرِ مَا أَهْمَلُوا مِنَ الدِّينِ .

وَمَا هِيَ الْفَضَائِلُ إِلَّا قُوَّةُ الْمَنَاعَةِ عَنْ أَضْدَادِهَا ؟ فَالْصَّدْقُ مَنَاعَةٌ مِنَ الْكُذْبِ ، وَالشَّرَفُ



مَنَاعَةً مِنَ الْخِسَّةِ .

وَالشَّبَابُ الْمُثْقَلُ بِفُرُوضِ الْقُوَّةِ هُوَ الْقُوَّةُ نَفْسُهَا ، وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا فُرُوضُ الْقُوَّةِ عَلَى النَّفْسِ ؟ .

وَشَبَابُ الشَّهَوَاتِ شَبَابٌ مُفْلِسٌ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ الْأَجْتِمَاعِيِّ ، يُنْفِقُ دَائِمًا وَلَا يَكْسِبُ أَبَدًا ! .

وَالْمَدَارِسُ تُخْرِجُ شُبَّانَهَا إِلَى الْحَيَاةِ . فَتَسْأَلُهُمُ الْحَيَاةُ : مَاذَا تَعَوَّدْتُمْ لَا مَاذَا تَعَلَّمْتُمْ ! .

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ؛ إِنَّ الْخَطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا ...

\* \* \*

وَأَحْسَنُ الشَّبَابِ مَعْنَى كَثْرَةِ الْفَتَيَاتِ فِي الْجَامِعَةِ ، وَأَدْرَكُوا مَعْنَى هَذِهِ الرَّقَّةِ الَّتِي خَلَقَتْهَا الْحِكْمَةُ الْخَالِقَةُ .

وَالْمَرْأَةُ أَدَاةُ اسْتِمَالَةٍ بِالطَّبِيعَةِ ، تَعْمَلُ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ مَا تَعْمَلُهُ بِالْإِرَادَةِ ، لِأَنَّ رُؤْيَهَا أَوَّلَ عَمَلِهَا .

نَعَمْ إِنَّ الْمِغْنَاتِيسَ لَا يَتَحَرَّكُ حِينَ يَجْذِبُ ، وَلَكِنَّ الْحَدِيدَ يَتَحَرَّكُ لَهُ حِينَ يَنْجَذِبُ .

وَمَتَى فَهِمَ أَحَدُ الْجِنْسَيْنِ الْجِنْسَ الْآخَرَ ، فَهَمَّهُ يَأْذِرَاكَيْنِ لَا يَأْذِرَاكِ وَاحِدٍ !

وَجَمَالَ الْمَرْأَةِ إِذَا أَتَتْهُ إِلَى قَلْبِ الرَّجُلِ ، وَجَمَالَ الرَّجُلِ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِ الْمَرْأَةِ ...

... هُمَا جَنِيْدٌ مَعْنِيَانِ . وَلَكِنَّهُمَا عَلَى رَغْمِ أَنْفِ الْعِلْمِ مَعْنِيَانِ مَتَزَوَّجَانِ ...

\* \* \*

لَا ، لَا ؛ يَا رِجَالَ الْجَامِعَةِ ! إِنْ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَسْمُهُ حُرِّيَّةُ الْفِكْرِ فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَسْمُهُ حُرِّيَّةُ الْأَخْلَاقِ .

وَتَقُولُونَ : أُورُوبَةُ وَتَقْلِيدُ أُورُوبَةَ ! وَنَحْنُ نُرِيدُ الشَّبَابَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِاسْتِقْلَالِنَا

لَا لِحُضُورِنَا لِأُورُوبَةَ .

وَتَقُولُونَ : إِنَّ الْجَامِعَاتِ لَيْسَتْ مَحَلَّ الدِّينِ ، وَمَنْ الدِّينِ يَجْهَلُ أَنَّهَا بِهِذَا صَارَتْ مَحَلًّا لِفُرُوضِ الْأَخْلَاقِ .

وَتَزْعُمُونَ أَنَّ الشَّبَابَ تَعَلَّمُوا مَا يَكْفِي مِنَ الدِّينِ فِي الْمَدَارِسِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ فِي الْجَامِعَةِ .

أَفَرَوْنَ الْإِسْلَامَ دُرُوسًا إِبْتِدَائِيَّةً وَثَانَوِيَّةً فَقَطْ ؛ أَمْ تُرِيدُونَهُ شَجَرَةً تُغْرَسُ هُنَاكَ لِتَقْلَعَ عِنْدَكُمْ ...

لَا ، لَا ؛ يَا رِجَالَ الْجَامِعَةِ ! إِنَّ قُبُلَةَ الشَّبَابِ الْمُجَاهِدِ تُنَلَأُ بِالْبَارُودِ لَا بِالْمَاءِ الْمُقَطَّرِ .

\* \* \*

إِنَّ الشَّبَابَ مَخْلُوقُونَ لِغَيْرِ زَمَانِكُمْ ، فَلَا تُفْسِدُوا عَلَيْهِمُ الْحَاسَةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي يُحْسِنُونَ بِهَا زَمَنَهُمْ .

لَا تَجْعَلُوهُمْ عَيْنَ آرائِكُمْ وَهُمْ شَبَابُ الْاسْتِقْلَالِ ؛ إِنَّهُمْ تَلَامِيذُكُمْ وَلَكِنَّهُمْ أَيْضًا أَسَاتِذَةُ الْأُمَّةِ .

لَقَدْ تَكَلَّمَ بِلِسَانِكُمْ هَذَا الْبِنَاءُ الصَّغِيرُ الَّذِي يُسَمَّى : الْجَامِعَةُ ، وَتَكَلَّمَ بِالسِّتِيهِمْ هَذَا الْبِنَاءُ الْكَبِيرُ الَّذِي يُسَمَّى : الْوَطَنُ .

أَمَّا بِنَاؤُكُمْ فَمَحْدُودٌ بِالْآرَاءِ وَالْأَخْلَامِ وَالْأَفْكَارِ ، وَأَمَّا الْوَطَنُ فَمَحْدُودٌ بِالْمَطَامِعِ وَالْحَوَادِثِ وَالْحَقَائِقِ .

لَا ، لَا ؛ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَدَوْا الْعَالَمَ ، قَدْ هَدَوْهُ بِالرُّوحِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهَا لَا بِالْأَخْلَامِ الْفَلَاسِفَةِ .

لَا ، لَا ؛ إِنَّ الْفَضِيلَةَ فِطْرَةٌ لَا عِلْمُ ، وَطَبِيعَةٌ لَا قَانُونُ ، وَعَقِيدَةٌ لَا فِكْرَةٌ ؛ وَأَسَاسُهَا أَخْلَاقُ الدِّينِ لَا آرَاءُ الْكُتُبِ .

\* \* \*

مَنْ هَذَا الْمُتَكَلِّمُ يَقُولُ لِلْأُمَّةِ : الْجَامِعِيُّونَ لَنْ يَقْبَلُوا أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ فِي شُؤْنِهِمْ مَهْمَا يَكُنْ أَمْرُهُ ؟

أَهَذَا صَوْتُ جَرَسِ الْمَدْرَسَةِ لِأَطْفَالِ الْمَدْرَسَةِ تِرِنْ ... تِرِنْ ... فَيَجْتَمِعُونَ وَيَنْصَاعُونَ ؟

كَلَّا يَا رَجُلُ ! لَيْسَ فِي الْجَامِعَةِ قَالِبٌ يُصَبُّ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قِيَاسِكَ الَّذِي تُرِيدُ .

إِنَّ التَّعْلِيمَ فِي الْجَامِعَةِ بِغَيْرِ دِينٍ يَعْصِمُ الشَّخْصِيَّةَ ، هُوَ تَعْلِيمُ الرَّذِيلَةِ تَعْلِيمَهَا الْعَالِي ...

﴿ وَيَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقٍ إِنَّهُمْ لَكَاظِمُونَ وَمَا أَتَى بِمُتَجَبِّزِينَ ﴾ [١٠ سورة يونس / الآية :

[٥٣] .

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابَ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ... إِنَّ الْخُطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

### شَيْطَانٌ وَشَيْطَانَةٌ ... (١)

شَغَلَنِي مَا شَغَلَ النَّاسَ مِنْ حَدِيثِ الْجَامِعَةِ الْمَضَرَّةِ وَمَا أَرَادَهُ طَلِبَتُهَا مِنْ وَرَعٍ يَخْجِزُهُمْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَدِينٍ يَخْلُصُ بِهِ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، فَلَا يَكُونُ لَفْظُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ كَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى وَرَقَةٍ ؛ ثُمَّ مَا أَبْتَعُوهُ مِنَ الْفَضْلِ بَيْنَ الشُّبَّانِ وَالْفَتَيَاتِ ، تَطْهِيرًا لِلطَّبَاعِ وَنَوَازِعِ النَّفْسِ ، وَأَتَقَاءَ لِسُوءِ الْمُخَالَطَةِ ، وَبُعْدًا عَنْ مَطَيَّةِ الْإِنِّمِ ، وَتَوْفِيرًا لِأَسْبَابِ الرُّجُولَةِ عَلَى الرَّجُلِ وَلِصِفَاتِ الْأُنُوثَةِ عَلَى الْأُنْثَى .

وَقَرَأْتُ كُلَّ مَا نَشَرْتَهُ الصُّحُفُ ، وَاسْتَقْصَيْتُ وَبَالَغْتُ ، وَنَظَرْتُ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا وَمَعَانِي مَعَانِيهَا ؛ وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَتَّبِعُ بَابَ « فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ » فِي الْمَجَلَّاتِ الْأُسْبُوعِيَّةِ الَّتِي تَكْتُبُ عَنْ حَوَادِثِ الْأَخْتِلَافِ فِي الْجَامِعَةِ وَتُسَمِّي الْأَسْمَاءَ وَتَصِفُ الْأَوْصَافَ وَتَذَكِّرُ النَّوَادِرَ ؛ فَمَلَأْتُ كُلَّ ذَلِكَ صَدْرِي وَاجْتَمَعَ الْكَلَامُ يَرْجِمُ نَفْسَهُ إِلَيَّ فِي رُؤْيَا رَأَيْتُهَا وَهَانَدًا أَقْصَاهَا :

رَأَيْتُنِي عِنْدَ بَابِ الْجَامِعَةِ وَكَأَنِّي ذَاهِبٌ لِأَقْطَعَ بِالْيَقِينِ عَنِ الطَّرِّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الظَّنَّ تَقُومُ فِي حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ مَقَامَ الْحَقِيقَةِ ، لِخَفَائِهَا وَكَثْرَةِ وَجُودِهَا ، فَإِنْ كَانَ فِي اخْتِلَافِ الْجِنْسَيْنِ مَا يُخْشَى أَنْ يَقَعَ فَهُوَ كَالْوَاقِعِ ...

... ثُمَّ رَأَيْتُ شَيْطَانَةً قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْجَامِعَةِ وَمَضَتْ تَتَّبِعُ أَنْفَهَا تَتَشَمَّمُ الْهَوَاءَ وَتَسْتَرْوِحُهُ كَأَنَّ فِيهِ شَيْئًا ، حَتَّى مَالَتْ إِلَى خَمَرٍ <sup>(١)</sup> هُنَاكَ مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ عَنْ يَمِينِ

(١) لَمَّا كَتَبَ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَقَالَهُ السَّابِقَ فِي تَحِيَّةِ شَبَابِ الْجَامِعَةِ ، رَاحَ يَتَّبِعُ مَا تَنْشُرُ الصُّحُفُ مِنْ حَدِيثِ (فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ) فِي مَنَاقِبِ دَعْوَةِ الطُّلَّابِ ؛ فَوَقَعَ لَهُ مِنْ حَدِيثَيْهِمَا أَوْحَى إِلَيْهِ مَوْضُوعٌ هَذَا الْمَقَالِ ، فَكَتَبَهُ يُعَرِّضُ بِفُلَانٍ وَفُلَانَةٍ وَيَزِيدُ مِنْ خَبَرِهِمَا وَيُرَدِّدُهُ عَلَيْهِمَا ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى الرِّسَالَةِ ، وَلَكِنَّ صَاحِبَ الرِّسَالَةِ أَمَى عَلَيْهِ نَشْرَهُ ، حِفَاطًا عَلَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فُلَانٍ [ أَيْ : طَهَ حُسَيْنَ ] مِنْ صِلَاتِ الْوُدِّ ؛ وَبَقِيَ الْمَقَالُ فِي مَكْتَبِ الْمُؤَلِّفِ حَتَّى غَالَتْهُ مَبِيتُهُ ! سَعِيدُ الْعُرْيَانِ .

(٢) الْخَمَرُ (يَفْتَحُ الْمِيمَ) : مَا وَارَاكَ مِنْ شَجَرٍ وَغَيْرِهِ .

الطَّرِيقِ ، فَوَقَّتْ عِنْدَهُ تَتَنَفَّسُ وَتَسْتَهْدُ ؛ ثُمَّ تَبَصَّرَتْ فَإِذَا شَيْطَانٌ مُقْبِلٌ إِلَى الْجَامِعَةِ إِقْبَالَ الْمَغِيرِ فِي غَارَتِهِ ، فَأَوْمَأَتْ لَهُ ، فَعَدَلَ إِلَيْهَا وَحَيَّاهَا بِتَحِيَّةِ الشَّيَاطِينِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : مَا وَفُوقُكَ أَيُّهَا الْخَبِيثَةُ ؟ وَكَيْفَ تَرَكْتَ صَاحِبَتِكَ الَّتِي أَنْتِ مُوَكَّلَةٌ بِهَا ؟ وَمَا عَسَى أَنْ يَفْعَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ إِذَا لَمْ تُؤَازِرْهُ الشَّيْطَانَةُ .

قَالَتْ : إِنَّمَا أَجْتَذِبْنِي إِلَى هُنَا رَائِحَةُ عَاشِقَيْنِ كَانَا فِي هَذَا الظَّلِّ يُوَارِيهِمَا عَنِ الْأَعْيُنِ ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُرَكَّوْمًا ، أَفَكُنْتَ فِي الْأَزْهَرِ ... ؟ .

فَفَعَلَ الشَّيْطَانُ بِتَضَاحِكٍ وَقَالَ : أَنَا مُرْسَلٌ مِنْ مُسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ مَدَدًا لِشَيَاطِينِ الْجَامِعَةِ ؛ فَقَدْ أَحْتَاجُوا إِلَى التَّجْدَةِ .. وَلَكِنْ أَنْتِ كَيْفَ تَرَكْتَ صَاحِبَتِكَ مِنْ أَجْلِ رَائِحَةِ قُبْلَةٍ عَلَى خَمْسِ مِثْرٍ ؟ مَا أَحْسَبُهَا إِلَّا جَالِسَةً تَكْتُبُ فِي مَنَعِ اخْتِلَاطِ الْجَنَسَيْنِ وَوُجُوبِ إِدْخَالِ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ فِي الْجَامِعَةِ !

قَالَتْ الشَّيْطَانَةُ : إِنَّ صَاحِبَتِي لِأَبْرُعُ مِثِّي فِي الْبَرَاعَةِ ، وَأَدْقُ فِي الْحِيلَةِ ، وَأَهْدَى لِلْمَعَاذِيرِ ، وَأَنَفَدُ إِلَى الْعَرَضِ ، وَمِثْلَهَا قَلِيلٌ هُنَا ، وَلَكِنْ قَلِيلٌ الشَّرُّ لَيْسَ قَلِيلًا ، فَإِنَّهُ وَضْلَةٌ وَطَرِيقٌ كَمَا تَعْلَمُ ؛ وَمَا تَجِدُ الْفَتَاةَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ يَنْفِي عَنْهَا الرِّيْبَةَ وَهُوَ يُدْنِيهَا مِنْهَا بِهَذَا الْاِخْتِلَاطِ مَعَ الْفَتَيَانِ ، وَيَهَيِّئُ لِعَقْلِهَا أَسْبَابًا تَكُونُ فِيهَا أَسْبَابٌ قَلْبِهَا ؛ وَقَدْ كُنْتُ أَنْتِ فِي أَوْرَبَةِ أَفَمَا رَأَيْتِ هُنَاكَ شَابًا وَشَابَةً حَوْلَ كِتَابِ عِلْمٍ وَكَانَهُمَا عَلَى رُجَاجَةٍ خَمِرٍ ؟ .

إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ شَيْءٌ وَمُخَالَطَةُ الشُّبَّانِ شَيْءٌ آخَرُ ؛ فَذَلِكَ يُطْلِقُ فِكْرَهَا بِتَجَاوُزِ الْخُدُودِ ، وَالْاِخْتِلَاطِ يَجْعَلُ فِكْرَهَا يَخْصُرُهَا فِي خُدُودِ إِحْسَاسِهَا ؛ وَأَحَدُهُمَا يُزْهِفُ ذَهْنَهَا لِإِذْرَاكِ الْأَشْيَاءِ ، وَالْآخَرُ يُزْهِفُ عَوَاطِفَهَا لِإِذْرَاكِ الرُّجُلِ ، وَقَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ الْأَنْثَى فَمَا تَخْلُقُ هُنَا مَرَّةً أُخْرَى عَلَى غَيْرِ الطَّبِيعَةِ الْمَفْطُورَةِ عَلَى الْحُبِّ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ الْمُمْكِنَةِ ، وَالصُّورَةُ هِيَ الشَّابُّ هُنَا مَا دَامَ الشَّابُّ هُنَا ؛ وَأَنَا الشَّيْطَانَةُ قَدْ تَعَلَّمْتُ فِي الْجَامِعَةِ أَنَّ قَاعِدَةَ : « لَا حَيَاةَ فِي الْعِلْمِ » هِيَ الَّتِي تَقْرُرُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَاعِدَةَ : « لَا حَيَاةَ فِي الْحُبِّ » .

قَالَ الشَّيْطَانُ : أَنْتِ أَدْرِي بِسُلْطَانِ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنْ الَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَا أَنَّ مَفَاسِدَ أَوْرَبَةَ تَدْخُلُ إِلَى الشَّرْقِ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا الْخَمْرُ وَالنِّسَاءُ وَالْعَادَاتُ وَالْقَوَائِنُ

وَالْكُتُبُ وَنِظَامُ الْمَدَارِسِ !

قَالَتْ الشَّيْطَانَةُ : وَإِنَّ سُلْطَانَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ يَبْحَثُ دَائِمًا عَنْ رَعِيَّتِهِ مَا لَمْ يُكْبَحْ وَيُرَدَّ عَنْ النُّحْبِ : إِذْ هُوَ لَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ سُلْطَانٌ إِلَّا بِتَقَاذِ حُكْمِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ ؛ وَمِنْ رَعِيَّتِهِ نَظَرَاتُ الْإِعْجَابِ ، وَكَلِمَاتُ الثَّنَاءِ ، وَعِبَارَاتُ الْإِعْزَاءِ ، وَعَوَاطِفُ الْمَيْلِ ، وَمَعَانِي الْخُضُوعِ ؛ وَرُبَّ كَلِمَةٍ مِنَ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ وَيَكُونُ الرَّجُلُ كُلُّهُ فِيهَا دَاهِيَا إِلَى قَلْبِهَا مُتَدَسِّسًا إِلَى خَيَالِهَا ، وَكَمْ مِنْ أُمٍّ تَرَى ابْنَتَهَا رَاجِعَةً إِلَى الدَّارِ ، وَتُحْسِنُ بِالْغَرِيزَةِ السُّوْرَةَ أَنْ مَعَ ابْنَتِهَا خِيَالًا مِنَ الْجِنْسِ الْآخَرِ .

وَمِمَّ يَنْبَغُ الْحُبُّ إِلَّا مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْمُخَالَطَةِ وَالْمُجَادَبَةِ وَالْمُنَازَعَةِ الَّتِي يُسْمُونَهَا هُنَا مُنَافَسَةً بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ وَيَعُدُّونَهَا حَسَنَةً مِنْ حَسَنَاتِ الْاِخْتِلَاطِ ؟ نَعَمْ ، إِنَّهَا مُشْحَذَةٌ لِلْأَذْهَانِ وَدَاعِيَةٌ إِلَى بُلُوغِ الْعَايَةِ مِنَ الْاِجْتِهَادِ ، وَبِهَا يَرِقُّ اللِّسَانُ وَتَنْحَلُّ عُقْدَتُهُ ، وَيُضِيحُ الشَّابُّ كَمَا يَقُولُونَ : « أَبْنَى نُكْتَةٍ وَيَفْهَمُ الطَّائِرَةَ ... » وَتَعُودُ الْفَتَاةُ وَهِيَ تَجْتَهِدُ أَنْ تَكُونَ حَلَاوَةً تَذُوقُهَا الرُّوحُ ، وَلَكِنْ الْأَعْمَالُ بِاللَّيَالِ وَالْأُمُورُ بِخَوَانِيْمِهَا ، وَالطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا تُوَازِنُ الْعَقْلَ الْعِلْمِيَّ بِالْجَهْلِ الْخُلُقِيِّ ؛ وَلَعَلَّ أَكْثَرَ النَّاسِ قُنُونًا فِي فَسْفِهِ وَفُجُورِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَالِمًا مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ أَوْ زَيْنِدَقًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَلَا يَصْحَحُ هَذِهِ الْمُوَازَنَةَ إِلَّا الدِّينُ ، فَهُوَ الَّذِي يَقَرُّرُ الْقَوَاعِدَ الثَّابِتَةَ فِي كِلْتَا النَّاحِيَتَيْنِ ، وَهَذَا مَا يَطْلُبُهُ الْمَجَانِينُ مِنْ شُبَّانِ هَذِهِ الْجَامِعَةِ وَيُؤْشِكُ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ ، لَوْ لَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُتَبَلِّلَةٌ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ مِنْ دِينِهَا بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ حَتَّى يَضِيغَ الرَّأْيُ .

أَسْمَعُ وَيَحْكُ هَذَا الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ ... فَالْقَى الشَّيْطَانُ سَمْعَهُ فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ عَلَى جَمَاعَةٍ كَلَامًا فِي صَحِيفَةٍ لِإِخْدَى خَرِيَجَاتِ الْجَامِعَةِ يَقُولُ فِيهِ : « وَلِهَذَا أَصْرَحُ أَنَّ تَجَرِبَةَ أَشْرَاكِ الْجَنَسَيْنِ فِي الْجَامِعَةِ نَجَحَتْ إِلَى أَبْعَدِ غَايَةٍ ، وَلَمْ يَخْذُلْ خِلَالَهَا قَطُّ مَا يَدْعُو إِلَى قَلْقِ الْقَلْقَيْنِ وَالْمُنَادَاةِ بِالْفَضْلِ ؛ بَلْ بِالْعَكْسِ حَدَثَ مَا يَدْعُو إِلَى تَشْجِيعِ الْاِخْتِلَاطِ بِالتَّجَرِبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » .

فَفَهَّمَهُ الشَّيْطَانُ وَقَالَ : « قَلْقِ الْقَلْقَيْنِ » .. مَا رَأَيْتُ كَلَامًا أَغْلَطَ وَلَا أَجْفَى مِنْ هَذَا ، إِنَّهَا لَوْ دَافَعَتْ عَنِ الشَّيْطَانِ بِهَذِهِ الْقَوَائِمِ لَخَسِرَ الْقَضِيَّةَ ..

ثُمَّ لَهَزَ الشَّيْطَانَةُ لَهْزَةً وَقَالَ لَهَا : كَذَبْتَ عَلَيَّ أَيُّهَا الْخَيِّثَةُ ! فَمَا لَكَ عَمَلٌ فِي الْجَامِعَةِ وَأَنْتِ تَخْرُجِينَ لِزَاحِحَةٍ قُبْلَةٍ بَيْنَ عَاشِقَيْنِ عَلَى مَسَافَةٍ خَمْسِ مِائَةِ مِثْرٍ ؛ إِنَّ هَذِهِ الْقَفَافَاتِ لِهِيَ الدَّلِيلُ أَقْوَى الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْفَتَاةَ هُنَا تَنْظُرُ فِتَاةً حِينَ تُرَى ، وَلَكِنَّهَا تَسْمَعُ رَجُلًا حِينَ تَتَكَلَّمُ !

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : وَلَكِنْ أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهَا : « تَشْجِعُ [الْأَخَذِ بِ] التَّجَرِبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » .. ؟ أَلَا يُرْضِيكَ هَذَا الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَدْعُو « إِلَى قَلْبِي الْقَلْبَيْنِ » ؟ ثُمَّ إِنِّي أَنَا فُلَانَةُ الشَّيْطَانَةُ قَدْ كُنْتُ السَّبَبَ فِي حَادِثَةٍ وَقَعَتْ وَطُرِدَ فِيهَا طَالِبٌ مِنَ الْجَامِعَةِ ، أَفَلَا يُرْضِيكَ الْإِغْرَاءُ وَالْكَذِبُ فِي بَضْعِ كَلِمَاتٍ ؟

قَالَ الشَّيْطَانُ : كُلُّ الرِّضَا ، فَهَذَا مِنْ آخِرٍ ؛ وَالْمَعْلَمُ الَّذِي يُنْكَرُ حَادِثَةً وَقَعَتْ مِنْ تَلْمِيذِهِ وَلَا يُقَرُّ بِأَنَّهَا وَقَعَتْ ، لَا يَكُونُ إِنْكَارُهُ إِلَّا إِجَارَةً لَوْفُوحِ مِثْلِهَا !

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : وَهَبِ الْحَادِثَةَ لَمْ تَقَعْ ، فَكَيْفَ تَعْرِفُ الْجَامِعَةُ مَا يَخْدُثُ فِي الْقُلُوبِ ؟ وَمَنْ هَذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ قِصَّةَ تَوَلُّفِهَا أَرْبَعُ أَغْنِيٍّ فِي وَجْهَيْنِ ؟ وَكَيْفَ تُكْشِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي أَوَّلَ وَجُودِهَا كِتْمَانُ الْكَلَامِ عَنْهَا ، وَأَوَّلُ الْكَلَامِ عَنْهَا الْهَمْسُ بَيْنَ اثْنَيْنِ دُونَ غَيْرِهِمَا ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي طَاقَتِهِ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَى قَلْبَيْنِ أَصْبَحَا فِي تَلْقَئِ الرِّسَالِ كَصُنْدُوقِي الْبَرِيدِ .. ؟

أَسْمَعَ أَسْمَعَ هَذَا الْآخَرُ .. فَاسْتَرْقَ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ فِي صَحِيفَةٍ أُخْرَى عَلَى جَمَاعَتِهِ :

« وَالَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِتِّصَالَ بَيْنَ الطَّالِبَاتِ وَالطَّالِبَةِ خَطَرٌ ، إِنَّمَا يُسَيِّئُونَ إِلَى أَخْلَاقِكُمْ .. وَالْحَقُّ أَنَّهَا الْأَصْدِقَاءُ ! أَنَّ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى أَنْ أَغْضَبَ وَأَتَوَرَّ إِنَّمَا هُوَ الدَّفَاعُ عَنِ الْكَرَامَةِ الْجَامِعِيَّةِ » .

قَالَ الشَّيْطَانُ : كُلُّ الرِّضَا كُلُّ الرِّضَا .. هَذَا كَلَامٌ دَاهِيَةٌ أَرِيبُ ، فَلَقَدْ أَحْسَنَ قَاتِلُهُ اللَّهُ ! إِنَّهَا عِبَارَاتٌ جَامِعِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ السَّبْكِ تَقْرَأُ عَلَى أَصُولِهَا مِنْ قَرْنِ السِّيَاسَةِ الْحَطَائِيَّةِ ، وَكُلُّ مَنْ أَظَنَّهُ بِتَهْمَةٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَخَّرَقَ عَلَى النَّاسِ بِأَحْسَنِ مِنْ هَذَا وَلَا بِمِثْلِ هَذَا .

وَلَيْسَ لَنَا أَقْوَى مِنْ هَذَا الطَّنِيعِ الْقَوِي الَّذِي يَشْعُرُ بِالنَّقْصِ ، فَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا إِبْتِاثُ ذَاتِهِ فِي كُلِّ مَا يُجَادِلُ فِيهِ دُونَ إِبْتِاثِ الصَّوَابِ وَلَوْ كَانَ النَّاسُ جَمِيعًا فِي هَذَا الْجَانِبِ وَكَانَ هُوَ وَحْدَهُ فِي جَانِبِ الْخَطَا .

وَلَكِنْ أَفْ ! مَاذَا صَنَعَ هَذَا الْقَائِلُ ؟ وَأَيْنَ التَّهْمَةُ الَّتِي لَا تُبَدَّلُ اسْمُهَا فِي اللَّغَةِ ؟ وَأَيْنَ الذَّنْبُ الَّذِي يَرْضَى أَنْ تُوضَعَ الْيَدُ عَلَيْهِ ؟ وَهَلْ إِنْكَارُ الْمُذْنِبِ إِلَّا اخْتِجَاجٌ مِنْ كَرَامَتِهِ الرَّافِعَةِ وَإِظْهَارِ الْعُصْبِ فِي بَغْضِ الْأَلْفَاظِ ؟ ..

إِنَّ هَذَا كَغَيْرِهِ مِنَ الضُّعَفَاءِ حِينَ يُمَارُونَ ، أَلَا مَا أَكْذَبَ الْكَذِبُ هُنَا ! فَإِنَّ الْفَسَادَ لَيَقَعُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْجَنَسَيْنِ فِي الْجَامِعَاتِ الْأَوْرَبِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُدُّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِسَاءَةً إِلَى الْأَخْلَاقِ ، وَلَا غَضًا مِنَ الْكَرَامَةِ الْجَامِعِيَّةِ ، وَفِي قَرْنَةِ يَجْتَمِعُ الشُّبَّانُ وَالْفَتَيَاتُ مِنْ طَلَبَةِ الْجَامِعَةِ وَيَحْتَسُونَ الْخَمَرَ وَيَتَرَقَّصُونَ وَيَتَوَاعَدُونَ ثُمَّ لَا يَقُولُ لَهُمُ الْأَخْلَاقُ : أَيْنَ أَنْتُمْ ... ؟ وَهُنَاكَ فِي الْأَنْدِيَةِ الْخَاصَةِ بِالطَّالِبَةِ يَنْتَجِبُونَ مَلَكَةَ الْجَمَالِ مِنْ بَيْنِ الطَّالِبَاتِ كُلِّ سَنَةٍ ، ثُمَّ يَنْزِعُونَ بِأَيْدِيهِمْ نِيبَاتِهَا الَّتِي تُسَمَّى نِيبَاتَا ، وَيَطُوفُونَ بِهَا عُرْفَ النَّادِي كَعُرُوسٍ وَاحِدَةٍ مَجْلُوءَةٍ عَلَى مِثْلِ زَوْجٍ فِي الْمَعْنَى ، « وَبُونُسُوَارْ Bon Soir » أَيُّهَا الْكَرَامَةُ الْجَامِعِيَّةُ ..

وَالْإِخْتِلَاطُ هُنَاكَ يَقْرُبُ أَنْ يَكُونَ ضَرْبًا مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأَشْتِرَاقِيَّةِ ، وَكُلُّ مَا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ لُغَةِ الْحَيَاءِ هُوَ أَنْ يَتَلَطَّفُوا فَيَقُولُوا : إِنَّ هَذِهِ الطَّالِبَةَ صَدِيقَةُ فَلَانِ الطَّالِبِ ، يُعَيِّرُونَ بِلَفْظِ الصَّدَاقَةِ عَنْ أَوَّلِ الْمَعْنَى وَيَدْعُونَ سَائِرَ أَخْوَالِهِ ، إِذْ لَا يُبَالِي أَمْرُهُمَا أَحَدٌ لَا مِنَ الطَّالِبَةِ وَلَا مِنَ الْأُسْتَاذِينَ ... وَهُنَاكَ يُعْتَدُّ لِلشُّبَّانِ فِي مِثْلِ هَذَا بِأَنَّهُ شَابٌّ ، فَتَقُومُ كَلِمَةُ الشُّبَّانِ فِي الْعُرْفِ بِمَعْنَى كَلِمَةِ الصَّرُورَةِ فِي الشَّرْعِ !

وَهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ الْجَامِعَةَ لِحُرِّيَةِ الْفِكْرِ ، وَمِنْ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ حُرِّيَةُ التَّرْعَةِ ، وَمِنْ هَذِهِ حُرِّيَةِ الْمَيْلِ الشَّخْصِيِّ ، وَمِنْ حُرِّيَةِ الْمَيْلِ حُرِّيَةُ الْحُبِّ ، وَهَلْ يَعْرِفُ الْحُبُّ فِي الْجَامِعَةِ أَنَّهُ فِي الْجَامِعَةِ فَيَسْتَحْيِي وَيَكُونُ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ مَا هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؟ أَوْ لَيْسَ فِي لُغَةِ الرُّوَاجِ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ « نِسْيَانِ مَاضِي الْفَتَاةِ » ..

وَلَكِنْ أَسْمَعِي أَسْمَعِي ..

فَأَصَاحَتِ الشَّيْطَانَةُ ؛ فَإِذَا طَالِبٌ مِنَ الْأَزْهَرِ يَفْرَأُ لَطَالِبٍ مِنْ كُلِّئِهِ الْحَقُوقِ فِي صَحِيفَةٍ مِنْ دِفَاعٍ أَحَدِ خَزَائِنِ الْجَامِعَةِ :

« وَمَا بَالُ إِخْوَانِنَا الْأَزْهَرِيِّينَ يَسْخَطُونَ عَلَى الْجَامِعَةِ وَاخْتِلَاطِ الْجِنْسَيْنِ فِيهَا ، وَفِي مِصْرَ نَوَاحٍ أُخْرَى هِيَ أَحَقُّ بِحَرْبِهِمْ وَأَوْلَى بِاهْتِمَامِهِمْ ؟ لَعَلَّهُمْ قَدْ نَسُوا حَالَنَا فِي الصَّبْفِ عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ ، وَالنَّاسُ يَمْكُثُونَ هُنَاكَ شُهُورًا عَرَابًا أَوْ كَالْعَرَابَا . »

فَقَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : مَا لَهُ وَلِهَذَا ؟ لَقَدْ أَخْزَى نَفْسَهُ وَأَخْزَى الْجَامِعَةَ ، وَهَلْ صَنَعَ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ لِلْأَزْهَرِيِّينَ : إِنَّ أَهْوَنَ الْفَسَادِ مِنْ هَذَا الْاخْتِلَاطِ فِي الْجَامِعَةِ ، وَكَثْرَتُهُ فِي شَوَاطِئِ الْبَحْرِ ؛ فَمَا بِالْكُمِّ تَدْعُونَ أَشَدَّهُ وَتَأْخُذُونَ عَلَى أَهْوَنِهِ ؟

قَالَ الشَّيْطَانُ : وَيَحَهُ ! وَهَلْ يَأْخُذُونَ عَلَى أَهْوَنِهِ فِي الْجَامِعَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ فِي الْجَامِعَةِ لَا فِي مَكَانٍ آخَرَ ؟ وَلَكِنْ أَسْمِعِي ، مَا هَذَا ؟ ...

فَارْعَيْنَا الصَّوْتِ سَمْعَهُمَا ، فَإِذَا طَالِبٌ يَفْرَأُ فِي مَجَلَّةٍ : « ظَهَرَتْ الْإِنْسَةُ فَلَانَةُ وَهِيَ تَلْبَسُ فُسْتَانًا أَحْمَرَ شَفَتَيْهِ بَنِيَّ كَرْنِيٍّ مُشَجَّرٍ بَنِيٍّ وَفِيُونَكَةَ أَحْمَرَ عَلَى أَيْبَضٍ » ...

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : هَذَا ! هَذَا ! فَهَلْ هِيَ إِلَّا الْوَانُ أَفْكَارَ تَحْتَ الْوَانِ ثِيَابٍ ؟ وَهَلْ يَظْهَرُ سُلْطَانُ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ بَاحِثًا عَنْ رَعِيَّتِهِ إِلَّا فِي الْوَانِ جَمِيلَةٍ هِيَ أَشْبَلُ لِلْعُيُونِ ؟ لَقَدْ مَثَلُ سِرْبٍ مِنَ الطَّالِبَاتِ فِي هَذِهِ الْجَامِعَةِ فَضْلًا فِي بَعْضِ الْحَفَلَاتِ سَمَوَهُ « عَرْضُ الْأَزْيَاءِ » وَالْفَتَاةُ تَعْرِضُ الثُّوبَ ، وَالثُّوبُ يَعْزِضُ الْجِسْمَ ، وَالْجِسْمُ وَالثُّوبُ مَعًا يَعْزِضَانِ الْفَتَاةَ ! وَعَرْضُ الْأَزْيَاءِ فِي الْجَامِعَةِ هُوَ أَمْرٌ مِنَ الْجَامِعَةِ بِإِهْمَالِ هَذِهِ الْآيَةِ : « وَلَا يَبْدِيكَ رِيثَتَهُنَّ » [٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] !

قَالَ الشَّيْطَانُ : خَبَّرْنِي عَنْ صَاحِبِكَ الَّتِي أَنْتَ مُوَكَّلَةٌ بِهَا . أَتَرْتَهَا كَانَتْ تَأْتِي إِلَى هَذِهِ الْجَامِعَةِ لَوْ أَلْبَسُوهُمْ مِثْلَ ثَوْبِ الرَّاهِبَةِ وَخَمَّرُوهُمْ بِالْخِمَارِ وَأَصَاغُوا مَسَاحَةَ الْجِسْمِ فِي مَسَاحَةِ الثُّوبِ وَأَجْلَسُوهُمْ فِي آخِرِ الصُّفُوفِ كَأَنَّهُمْ فِي الْمَسْجِدِ ؟ لَقَدْ فَعَلُوا مِثْلَ هَذَا فِي بَعْضِ جَامِعَاتِ أُرُوتِي ، فَحَرَّمُوا صَنْعَ الشَّقَاةِ عَلَى الْفَتَاتِ ، وَمَنَعُوهُمْ إِذَاءَ الزَّيْنَةِ ؛ فَاُمْتَنَعَتِ الزَّيْنَةُ وَالْمُتَزَيَّنَةُ مَعًا ، وَهَجَرَتِ الْجَامِعَةَ ، وَقُلْنَ فِيمَا قُلْنَ : إِنَّ الْمِرَاةَ وَالْأَحْمَرَ

وَالْأَيْبَضَ وَتَوَحَّاهَا هِيَ الْحَقَائِقُ فِي عِلْمِ الْمَرْأَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَسَالِيبِ بَحْثِ كُلِّ فِتْنَةٍ عَنْ رَجُلِهَا الْمُخْبُوءِ بَيْنَ الرِّجَالِ فِي الْجَامِعَةِ أَوْ غَيْرِ الْجَامِعَةِ ، وَالْعِلْمُ وَسِيلَةُ عَيْشٍ ، وَالرَّجُلُ وَسِيلَةُ مِثْلِهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ أَجْدَى الْوَسِيلَتَيْنِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَحَقُّهُمَا بِالْعِنَايَةِ ، إِذْ هِيَ لَا تَتَزَوَّجُ الْكَيْفِيَّةَ وَلَا الطَّبِيعَةَ وَلَا الْقَانُونَ ، وَمَعْنَى هَذَا بِغَيْرِ اللُّغَةِ الَّتِي هُنَا فِي الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ أَنَّ وَجُودَ الْفِتْنَةِ مَعَ الشُّبَّانِ لِلتَّعْلِيمِ ، هُوَ كَذَلِكَ وَجُودُهَا بَيْنَهُمْ لِلْإِسْتِمَالَةِ وَالْمَكْرِ السَّيْرِيِّ الْجَذَابِ .

أَسْمِعِي أَسْمِعِي ! مَا هَذَا الصَّوْتُ الْمُتَكَرِّرُ الْجَافِي الْخَسَنُ ؟

فَتَسَمَّعَتْ ، فَإِذَا الطَّالِبُ الْأَزْهَرِيُّ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : قَالُوا : وَيَحْرُمُ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَرَى شَيْئًا مِنَ الرِّجُلِ وَلَوْ بِلا مِثْلٍ وَلَا خَوْفَ الْفِتْنَةِ ، وَإِذَا هِيَ أَضْطَرَّتْ إِلَى مُدَاوَاةٍ أَوْ آدَاءِ شَهَادَةٍ أَوْ تَعْلِيمٍ أَوْ بَيْعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ - جَارَ نَظَرُهَا بِقَدْرِ الصَّرُورَةِ .

فَقَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : هَذَا كَلَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ ... لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سَائِعًا لَوْ أَنَّ الشُّبَّانَ يَتَعَلَّمُونَ فِي الْجَامِعَةِ لِيَحْمِلُوا مَعَهُمُ الْحَقَّ كَمَا يَحْمِلُونَ مَعَهُمُ الْعِلْمَ ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ بِهَذَا وَمَعَانِي الدِّينِ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ كَأَسْمَاءِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ فِي كُتُبِ الْجُغْرَافِيَّةِ ، لَا هُمْ رَأَوْهَا وَلَا هُمْ حَقَّقُوهَا ؟ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَعْلِيمَ الدِّينِ هُنَا ، فَيَقُولُ لَهُمْ رُؤُوسَاؤُهُمْ : أَلَمْ تَعْرِفُوا الصَّلَاةَ وَأَنَّهَا الصَّلَاةُ ، وَالصَّيَامَ وَأَنَّهُ الصَّيَامُ ، وَالزَّكَاةَ وَأَنَّهَا الزَّكَاةُ ، وَالْحَجَّ وَأَنَّهُ الْحَجُّ ؟ وَهَذَا كَلَامٌ يُشَبِّهُ دَرَسَ مَوَاقِعِ الْبِلَادِ عَلَى الْخَرِيطَةِ ، فَبَارِيسُ Paris كَلِمَةٌ ، وَلَنْدُنُ London كَلِمَةٌ ، لَا غَيْرَ ؛ أَمَّا الْحَقِيقَةُ الْعَظِيمَةُ الْهَائِلَةُ فَشَيْءٌ غَيْرُ هَذَا الْكَلَامِ الْجُغْرَافِيِّ التَّعْلِيمِيِّ ؛ إِذْ مَا هِيَ كُلُّ فُرُوضِ الدِّينِ إِلَّا أَعْمَالٌ دَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ يَجِبُ فَرَضُهَا عَلَى الْجَمِيعِ لِتَحْقِيقِ التَّقْسِيَةِ الْوَاحِدَةِ فِي الْجَمْعِ ، وَهِيَ سِرُّ الْقُوَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالنَّجَاحِ ، فَتَعْلِيمُ الدِّينِ فِي الْجَامِعَةِ هُوَ إِفْتِنَاعُ النَّفْسِ بِجَعْلِ فُرُوضِهِ مِنْ قَوَانِينِهَا الثَّابِتَةِ ، لَا بِأَدَاءِ هَذِهِ الْفُرُوضِ فَقَطْ ؛ وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِدَرْسِهِ كَمَا تُدْرَسُ فِلَسَفَةُ الْقَوَانِينِ وَالْإِقْتِصَادِ وَالزَّرِّيَّةِ ، أَيْ : بِإِغْتِيَارِهِ عِلْمَ فِلَسَفَةِ الرُّوحِ الْعَمَلِيَّةِ لِلْأُمَّةِ ، ثُمَّ بِجَعْلِ الْمُدَرِّسِينَ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بِهِ ، لِيَتَحَقَّقَ مَعْنَى الْإِفْتِنَاعِ ، فَلَا يَنْقَلِبُ الدَّرْسُ هُزَاءً وَسُخْرِيَّةً ؛ وَبِذَلِكَ يَخْرُجُ الشَّابُّ مِنَ الْجَامِعَةِ وَفِي رُوحِهِ قُوَّةٌ ثَابِتَةٌ تَعْمَلُ بِهِ الْعَمَلُ الصَّالِحَ ، وَتُوَجِّهُهُ إِلَى الْخَيْرِ ، وَتَحْفَظُهُ بَيْنَ أَهْوَاءِ الْحَيَاةِ

نَهْضَةُ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ (\*)

غَيْرَ أَنِّي مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا أَسْعَى هَذِهِ الْفَهْصَةَ نَهْصَةً إِلَّا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ وَالتَّوَشُّعِ فِي الْعِبَارَةِ ، وَالِدَّلَالَةِ بِمَا كَانَ عَلَى مَا يَكُونُ : فَإِنَّ أَسْبَابَ الْفَهْصَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَطْرُقُ أَطْرَادَ الزَّمَنِ ، وَتَتِمُّوْهُمُ الشَّبَابِ وَتَتَدَفَّعُ انْدِفَاعَ الْعُمْرِ إِلَى أَجَلٍ بَعِيْنِهِ - لَا يَزَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِثْلُ هَذَا الْمَوْتِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلَمَتِنَا وَأَوَّلِيَّتِنَا ، وَإِلَّا فَآيَنَ الْأَخْلَاقُ الشَّرِيفَةُ ، وَأَيْنَ

جـ- هل ينبغي لأهل الأفطار العربية أنقياس عناصر المدينة العربية ؟ وبأي قدر ؟ وعند أي حد يجب أن يقف هذا الانقياس ، في النظمات الشبائسة الحديثة ، وفي الأدب والشعر ، وفي العادات الاجتماعية ، وفي التربية والتعليم ؟ سيد المزيان .

قَالَ : أَسْكَنْي وَيَحِك ! فَمَا أُرْسِلْتُ مِنْ مُسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ إِلَّا لِهَذَا ؛ فَلَنْ يَقَعَ الْفَضْلُ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ ، وَلَنْ يَدْخُلَ التَّلْعِيمُ الدِّنْيِي فِي الْجَامِعَةِ ، وَسَيَكْدِفُ عَوْنُ بَأْنْ هَذَا كُلَّهُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ ...

❖ ❖ ❖

الْمِرَاجُ الْعَقْلِيُّ الصَّحِيحُ لِأُمَمِ الشَّرْقِ ، وَمَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ مِنْ رُوحٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ؟ ثُمَّ أَيْنَ الْمُضِلُّونَ الَّذِينَ لَا يُسَاسِمُونَ بِمُلْكٍ وَلَا إِمَارَةٍ ، وَلَا يَطْلُبُونَ بِالْإِصْلَاحِ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا أَوْ بَاطِلًا مِنْ زُخْرِهَا ؟ ثُمَّ أَيْنَ أَوْلِيَاكَ الَّذِينَ تَجْعَلُهُمْ مَبَادِيَهُمُ الْعَالِيَةِ الْقُوَّةِ أَوَّلَ صَحَائِهَا ، وَتَرْوِي مِنْهُمْ عِرْقَ الثَّرَى الَّذِي يَغْتَدِي مِنْ بَقَايَا الْأَجْدَادِ لِيَنْبُتَ مِنْهُ الْأَخْفَادُ ؟

إِنَّ الْجَوَابَ عَلَى نَهْضَةِ أُمَّةٍ نَهْضَةٌ ثَابِتَةٌ لَا يَكُونُ مِنَ الْكَلَامِ وَفُتُونِهِ ، بَلْ مِنْ مَبْدَأٍ ثَابِتٍ مُسْتَمِرٍّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي نَفْسِ أَهْلِهَا ، وَلَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَبْدَأُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ قَائِمًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ : إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ ، وَخُلُقٌ عَزِيزٌ ، وَاسْتِهَانَةٌ بِالْحَيَاةِ ، وَصِبْغَةٌ خَاصَّةٌ بِالْأُمَّةِ .

فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْقَوِيَّةُ فَلَا تَنْقُصُ الشَّرْقِيِّينَ ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِيهَا لِسَاسَةِ الْغَرْبِ الَّذِينَ بَصَرُونَا بِأَنْفُسِنَا ، إِذْ وَضَعُونَا مَعَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى أَمَامَ مِرَاةٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ إِنَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ ، وَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي فِي الْمِرَاةِ غَيْرُ هَذَا الْفَرْدِ الَّذِي فِيهَا . . . وَلَكِنْ أَيْنَ الْخُلُقُ وَأَيْنَ الْعِزَّةُ الْقَوْمِيَّةُ وَأَيْنَ الْعَصَبِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ ، وَهَلْ بِهِ مَقَاسِدُ أَوْرَثَةٍ كُلُّهَا تَنْصَبُّ فِي أَخْلَاقِ الشَّرْقِيِّينَ كَمَا تَنْصَبُّ أَفْئَادُ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ فِي نَهَرٍ صَغِيرٍ عَذْبٍ ، فَلَا الَّذِينَ بَقِيَ فِيْنَا أَخْلَاقًا ، وَلَا الْأَخْلَاقُ بَقِيَتْ فِيْنَا دِينًا ، وَأَضْبَحَتِ الْمِيزَةُ الشَّرْقِيَّةُ فَاسِدَةً مِنْ كُلِّ وَجْهِهَا فِي الرُّوحِ وَالذُّوقِ ، وَلَمْ يَعُدْ لَنَا شَيْءٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى الْمَدِينَةُ الشَّرْقِيَّةُ ، وَأَخَذَ الْحَقْمَقِيُّ وَالضُّعْفَاءُ مَنَّا يُحَاوِلُونَ فِي إِصْلَاحِهِمْ أَنْ يُؤَلَّفُوا الْأُمَّةَ عَلَى خُلُقِي جَدِيدٍ يَنْتَرِعُونَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخُلُقَ الطَّارِئَ لَا يَرَسُخُ بِمِقْدَارِ مَا يُفْسِدُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّاسِخَةِ . وَهُمْ يَغْتَبِطُونَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَثَلًا : إِنَّ مِصْرَ قِطْعَةٌ مِنْ أَوْرَثَةٍ ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ تَغْطِيلِ الْمَدِينَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَالذَّهَابِ بِهَا ، وَإِفْسَادِهَا ، وَتَعْرِيزِهَا لِلدَّمَ ، وَتَسْلِيْطِ الْبَلَاءِ عَلَيْهَا ، مِمَّا لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى التَّنَبُّطِ فِي شَرْحِهِ .

لَسْتُ أَقُولُ : إِنَّ نَهْضَةَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا أَسَاسَ لَهَا ؛ فَإِنَّ لَهَا أَسَاسًا مِنْ حِمِيَّةِ الشَّبَابِ ، وَعِلْمِ الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَمِنْ جَهْلِ أَوْرَثَةٍ الَّذِي كَشَفَتْهُ الْحَرْبُ ، وَلَكِنْ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قُوَّتِهِ وَكِفَايَتِهِ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ لِإِقَامَةِ الْأَحْدَاثِ الْكُبْرَى وَاهْتِجَاجِ الْعَوَاطِفِ السِّيَاسِيَّةِ - لَا يَحْمِلُ ثِقَلَ الزَّمَنِ الْمُؤَمَّنِّ ، وَلَا يَكْفِي لَأَنْ يَكُونَ أَسَاسًا وَطَنِيًّا يَقُومُ عَلَيْهِ بِنَاءُ عِدَّةِ قُرُونٍ مِنْ

الْحَضَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْعَالِيَةِ ، بَلْ مَا أَسْرَعَهُ إِلَى الْهَدْمِ وَالنَّقْصِ ، لَوْ صَدَمَتْهُ الْأَسَالِيبُ اللَّيْثِيَّةُ مِنَ الدَّهَاءِ الْأَوْرَثِيِّ عَلَى اخْتِلَافِهَا . . .

إِذْ قَدَّرَ لِأَوْرَثَةٍ أَنْ تَفُوزَ بِأَسْلُوبِهَا الْجَدِيدِ ، أَسْلُوبِ اسْتِعْبَادِ الشَّرْقِ بِالصَّدَاقَةِ . . . عَلَى طَرِيقَةِ ادِّعَاءِ الثَّغْلِبِ لِلدَّجَاجِ أَنَّهُ قَدْ حَجَّ وَتَابَ وَجَاءَ لِيُصَلِّيَ بِهَا . . .

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ نَهْضَةَ هَذَا الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا تُعْتَبَرُ قَائِمَةً عَلَى أَسَاسٍ وَطَنِيٍّ إِلَّا إِذَا نَهَضَ بِهَا الرُّكْنَانِ الْخَالِدَانِ : الَّذِينَ الْإِسْلَامِيَّ ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ؛ وَمَا عَدَاهُمَا فَعَسَى أَنْ لَا تَكُونَ لَهُ قِيَمَةٌ فِي حُكْمِ الزَّمَنِ الَّذِي لَا يَقْطَعُ بِحُكْمِهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ مِنَ الْمَبْدَأِ وَالنَّهَائَةِ .

وَوَظَاهِرُ أَنَّ أَغْلِيَّةَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ وَمَادِيَةِ الْعُظْمَى هِيَ الَّتِي تَدِينُ بِالْإِسْلَامِ ، وَمَا الْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا مَجْمُوعَةُ أَخْلَاقٍ قَوِيَّةٍ تَزِمُنِي إِلَى شَدِّ الْمَجْمُوعِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَعَمْرِي إِنِّي لِأَحْسَبُ عُظَمَاءَ أُمَّرِيكَهَ كَأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ التَّارِيخِ الْحَدِيثِ فِي مُعْظَمِ أَخْلَاقِهِمْ ، لَوْ لَا شَيْءٌ مِنَ الْفَرْقِ هُوَ الَّذِي لَا يَمْتَنِعُهُمْ أَنْ يَنْحَطُّوا إِذَا هُمْ بَلَغُوا الْقِمَّةَ ، فَإِنَّ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا أَنَّ قِمَّةَ الْحَضَارَةِ الرَّفِيعَةِ هِيَ بِعَيْنِهَا مَبْدَأُ سُقُوطِ الْأُمَمِ ، وَهَذَا عِنْدَنَا هُوَ السَّرُّ فِي أَنَّ الَّذِينَ الْإِسْلَامِيَّ يَكْرَهُ لِأَهْلِهِ أَنْوَاعَ التَّرَفِ وَالزُّبْنَةِ وَالْإِسْتِزْخَاءِ ، وَلَا يَرَى التَّخْتِ وَالنَّصُورَ وَالْمُوسِيْقَى وَالْمُعَالَاةَ فِيهَا وَفِي الشَّعْرِ إِلَّا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِيهَا مَا يَحْرُمُ إِنْ وَجَدَ سَبَبٌ لِتَحْرِيمِهِ ، إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْفُتُونُ فِي الْغَالِبِ وَفِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الَّتِي تُؤَدِّي فِي نَهَايَتِهَا إِلَى سُقُوطِ أَخْلَاقِ الْأُمَّةِ ، بِمَا يَسْتَتِيعُهُ مِنْ أَسَالِيبِ الرِّفَاقَةِ وَالضَّعْفِ الْمُتَفَتِّسِ ، وَمَا تُحْدِثُهُ لِلنَّفْسِ مِنْ فُتُونِ اللَّذَاتِ وَالْإِغْرَاقِ فِيهَا وَالْإِسْتِهْنَاءِ بِهَا ؛ وَمَا سَقَطَتِ الدَّوْلَةُ الرُّومَانِيَّةُ وَلَا الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَّا بِكَأْسٍ وَأَمْرَأَةٍ وَوَتَرٍ ، وَخِيَالٍ شِعْرِي يَفْتَنُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَيُرِيئُهَا .

وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لِلْأُمَّةِ فِي نَهْضَتِهَا مِنْ أَنْ تَتَغَيَّرَ ، فَإِنَّ رُجُوعَنَا إِلَى الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْكَرِيمَةِ أَعْظَمُ مَا يَصْلُحُ لَنَا مِنَ التَّغْيِيرِ وَمَا نَصْلُحُ بِهِ مِنْهُ ، فَلَقَدْ بَعُدَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَعْضِهَا ، وَانْقَطَعَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَعْضِ الْآخَرِ ، وَإِذَا نَحْنُ نَبْذُنَا الْخَمَرَ ، وَالْفُجُورَ ، وَالْقِمَارَ ، وَالْكَذِبَ ، وَالزُّبَانَ ؛ وَإِذَا أَنْفَتْنَا مِنَ التَّحَدُّثِ ، وَالتَّبَرُّجِ ، وَالْإِسْتِهْنَاءِ بِالْمُنْكَرَاتِ ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْمُجُونِ وَالسُّخْفِ وَالرَّقَاعَةِ ، وَإِذَا أَخَذْنَا فِي أَسْبَابِ الْقُوَّةِ ، وَأَصْطَلَعْنَا

الْأَخْلَاقَ الْمَتِينَةَ : مِنْ الْإِرَادَةِ ، وَالْإِفْدَامِ ، وَالْحَمِيَّةِ ، وَإِذَا جَعَلْنَا لَنَا صِبْغَةً خَاصَّةً نُمَيِّرُنَا مِنْ سَوَانَا ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ رُوحٍ وَخُلُقٍ - إِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فَلَعَمْرِي أَتَى ضَيْرٌ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ ؟ وَهَلْ تِلْكَ إِلَّا الْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الصَّحِيحَةُ ، وَهَلْ فِي الْأَرْضِ نَهْضَةٌ ثَابِتَةٌ تَقُومُ عَلَى غَيْرِهَا ؟

إِنَّ مِنْ خَصَائِصِ هَذَا الدِّينِ الْأَخْلَاقِي أَنَّهُ صُلِبَ فِيهَا لَا بُدَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْهُ إِذَا أَرَادَتْ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِيَّ ، وَلَكِنَّهُ مَرْنٌ فِيهَا لَا بُدَّ مِنْهُ لِأَحْوَالِ الْأَرْمِيَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِمَّا لَا يَأْتِي عَلَى أَصُولِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ الدِّينُ شَيْءٌ فِي نَهْضَةِ الْأَمَمِ الشَّرْقِيَّةِ خَاصَّةً ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْأَصْلُ الرَّاسِخُ فِي الدِّمَاءِ وَالْأَعْصَابِ ، وَمَتَى نَهَضَ الْمُسْلِمُونَ ، وَهُمْ مَادَّةُ الشَّرْقِ ، نَهَضَ إِخْوَانُهُمْ فِي الْوَطَنِ وَالْمَنْفَعَةِ وَالْعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الْأُخْرَى ، وَأَضْطُرُّوا أَنْ يُجَانِسُوهُمْ فِي أَغْلِبِ أَخْلَاقِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا حَجَرَ عَلَى حُرِّيَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَبْغُضِ الْحَجَرِ عَلَى حُرِّيَّةِ الْمَرِيضِ إِذَا أَوْجَرَتْهُ الدَّوَاءُ الْمُرُّ .

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةً بِنَصِّ دِينِهِمْ ، وَكَانَتْ مَبَادِئُهُمْ وَاحِدَةً ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدًا ، فَلَا جَزَمَ كَانَ مِنَ السَّهْلِ - لَوْ رَجَعُوا إِلَى أَخْلَاقِ دِينِهِمْ وَانْتَبَهُوا مَا يَصُدُّهُمْ عَنْهَا - أَنْ يُؤَلَّفُوا مِنَ الشَّرْقِ كُلِّهِ دَوْلًا مُتَّحِدَةً يَخْسُبُ لَهَا الْغَرْبُ حِسَابًا ذَا أَرْقَامٍ لَا تَنْتَهِي . . .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَبَادِي وَالْأَخْلَاقِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَامِتَةٌ فِيهِ ، وَمُسْتَقْبَلُهُ كَامِنٌ فِيهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ فِي الْكُتُبِ وَلَا فِي الْفُنُونِ ، بَلْ فِي الرِّجَالِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا ، فَالْقُلُوبُ وَالْأَذِمَّةُ هِيَ أَساسُ النُّهْضَةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ ، وَإِذَا نَحْنُ تَأَمَّلْنَا هَذِهِ النُّهْضَةَ الرَّاهِنَةَ وَجَدْنَا أَساسَهَا خَرِبًا مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَوَجَدْنَا الْمَكَانَ الَّذِي لَا يَمْلَأُهُ إِلَّا الْقَلْبُ الْكَبِيرُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا خِيَالُ كَاتِبٍ مِنَ الْكُتَّابِ ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي لَا يَسُدُّهُ إِلَّا الرَّأْسُ الْعَظِيمُ قَدْ سَدَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ صَحِيفَةٍ . . .

وَلَقَدْ تَنَبَّأَ نَبِيُّ هَذَا الدِّينِ ﷺ بِهَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الشَّرْقُ الْعَرَبِيُّ بِإِزَاءِ الْغَرْبِ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا : « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ بَنُو الْأَصْفَرِ <sup>(١)</sup> اجْتِمَاعَ الْأَكَلَةِ

عَلَى الْأَفْصَاحِ ؟ » فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمِنْ قَلِيلٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ كَثْرَةٍ ؟ قَالَ : « بَلْ مِنْ كَثْرَةٍ ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ غَنَاءً <sup>(١)</sup> كَغَنَاءِ السَّيْلِ قَدْ أَوْهَنْ قُلُوبُكُمْ حُبَّ الدُّنْيَا » [ابو داود ، رقم : ٤٢٩٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٨٩١ ] .

فَوَهْنُ الْقُلُوبِ بِحُبِّ الدُّنْيَا - عَلَى مَا يَنْطَوِي فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ - هُوَ عِلَّةُ الشَّرْقِ ، وَلَا دَوَاءَ لَهُنَّهِ الْعِلَّةُ غَيْرُ الْأَخْلَاقِ ، وَلَا أَخْلَاقَ بَغَيْرِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ عِمَادُهَا . أَلَا وَإِنَّ أَساسَ النُّهْضَةِ قَدْ وُضِعَ ، وَلَكِنْ بَقِيَ الصَّخْرَةُ الْكُبْرَى وَسَتُوضَعُ يَوْمًا ، وَهَذَا مَا أَعْتَقِدُهُ ، لِأَنَّ الْغَرْبَ يَدْفَعُ مَعَنَا هَذِهِ الصَّخْرَةَ لِيُقَرِّمَهَا فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْأَسَاسِ ، وَهُوَ يَخْسُبُ أَنَّهُ يَدْفَعُنَا نَحْنُ إِلَى الْخُفْرَةِ لِيَذِفُنَا فِيهَا . . . وَهَذَا عَمَى فِي السِّيَاسَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِخِذْلَانٍ مِنَ اللَّهِ لِأَمْرِ قَدَرَهُ وَقَضَاهُ .

\* \* \*

وَإِنِّي لَأَرَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْأَفْطَارِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يَقْتَسِمُوا مِنْ عَنَاصِرِ الْمَدِينَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَقْتِسَاسَ التَّقْلِيدِ ، بَلْ أَقْتِسَاسَ التَّحْقِيقِ ، بَعْدَ أَنْ يُعْطُوا كُلُّ شَيْءٍ حَقَّهُ مِنَ التَّمَحْنِصِ ، وَيَقْبَلُوهُ عَلَى حَالَتَيْهِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ ، فَإِنَّ التَّقْلِيدَ لَا يَكُونُ طَبِيعَةً إِلَّا فِي الطَّبَقَاتِ الْمُنْحَطَّةِ ، وَصِنَاعَةُ التَّقْلِيدِ وَصِنَاعَةُ الْمَسْنَخِ فَرَعَانِ مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ ، وَمَا قَلَّدَ الْمُقْلِدُ بِلاَ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ إِلَّا أَتَى عَلَى شَيْءٍ فِي نَفْسِهِ مِنْ مَلَكَهَ الْإِنْتِكَارَ وَذَهَبَ بِبَغْضِ خَاصِيَّتِهِ الْعَقْلِيَّةِ ، عَلَى أَنَّ لَا تُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا تَأْخُذَ مِنَ الْقَوْمِ شَيْئًا ؛ فَإِنَّ الْفَرْقَ بَعِيدٌ بَيْنَ الْأَخْذِ فِي الْمُخْتَرَعَاتِ وَالْعُلُومِ ، وَبَيْنَ الْأَخْذِ مِنْ رُخُوفِ الْمَدِينَةِ وَأَهْوَاءِ النَّفْسِ وَفُتُونِ الْخِيَالِ وَرَوْنِقِ الْخَبِيثِ وَالطَّلَبِ ، إِذِ الْفِكْرُ الْإِنْسَانِيُّ إِنَّمَا يُنْتِجُ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا ، فَلَيْسَ هُوَ مُلْكًا لِأُمَّةٍ دُونَ أُخْرَى ؛ وَمَا الْعَقْلُ الْقَوِيُّ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ قُوَّةِ الطَّبِيعَةِ .

فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا مِنَ النُّظَامَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، فَلْنَأْخُذْ مَا يَتَّفِقُ مَعَ الْأَصْلِ الرَّاسِخِ فِي آدَابِنَا مِنَ الشُّورَى وَالْحُرِّيَّةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَى أَخْلَاقِ الْأُمَّةِ وَلَا يَفْسِدُ مَزَاجُهَا وَلَا يَضْعِفُ قُوَّتُهَا .

(١) الْغَنَاءُ : مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنَ الْهَنِيمِ وَنَحْوِهِ مِمَّا تَحْطَمُ وَتَعَفَنُ وَلَا فَيْمَةَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ فِيهِ .

(١) بَنُو الْأَصْفَرِ : هُمُ الزُّوْمُ ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْرَبِيِّينَ .



وَإِذَا نَقَلْنَا مِنَ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ ، فَلْتَدْعُ خُرَافَاتِ الْقَوْمِ وَسَخَافَاتِهِمُ الرُّوَائِيَّةَ إِلَى لُبِّ  
الْفِكْرِ وَرَائِعِ الْخَيَالِ وَصَمِيمِ الْحِكْمَةِ ، وَلْتَسْتَعِ طَرِيقَتَهُمْ فِي الْاسْتِقْصَاءِ وَالتَّخْفِيفِ ،  
وَأَسْلُوبَهُمْ فِي التَّقْدِيرِ وَالْجَدَلِ ، وَتَأْتِيَهُمْ إِلَى النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِتِلْكَ الْأَسَالِيبِ الْبَيِّنَاتِ الْجَمِيلَةِ  
الَّتِي هِيَ الْحِكْمَةُ بِعَيْنِهَا .

وَأَمَّا فِي الْعَادَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، فَلْتَذَكِّرْ أَنَّ الشَّرْقَ شَرْقٌ وَالْغَرْبَ غَرْبٌ ، وَمَا أَرَى هَذِهِ  
الْكَلِمَةَ تَصَدِّقُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَعْنَى وَحْدَهُ - وَالْقَوْمُ فِي نَضْبِ الْأَرْضِ وَنَحْنُ فِي نَضْفِهَا  
الْآخِرِ ، وَلَهُمْ زِمَاجٌ وَإِقْلِيمٌ وَطَبِيعَةٌ وَمِيرَاثٌ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَلَكِنَّا مَا يَتَّفِقُ وَمَا يَخْتَلِفُ ، وَإِنَّ  
أَوَّلَ الْأَدِلَّةِ عَلَى اسْتِفْلَالِنَا أَنْ نَتَسَلَّخَ مِنْ عَادَاتِ الْقَوْمِ ، فَإِنَّ هَذَا يُؤَدِّي بِلَا رَيْبٍ إِلَى إِبْطَالِ  
صِفَةِ التَّقْلِيدِ فِينَا ، وَيَحْمِلُنَا عَلَى أَنْ نَتَّخِذَ لِنَفْسِنَا مَا يَلَانِمُ طَبَائِعَنَا وَيُنَمِّي أذْوَاقَنَا الْخَاصَّةَ  
بِنَا ، وَيُطْلِقَ لَنَا الْحُرِّيَّةَ فِي الْاسْتِفْلَالِ الشَّخْصِيِّ ، وَلَقَدْ كُنَّا سَادَةَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ  
الْعَادَاتُ الْغَرَبِيَّةُ الَّتِي رَأَيْنَا مِنْهَا وَمِنْ أَثَرِهَا فِينَا مَا أَفْسَدَ رُجُولَةَ رِجَالِنَا وَأَثْوَنَةَ نِسَائِنَا عَلَى  
السَّوَاءِ ، وَمَا هَلْوَاءِ الشُّبَّانِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ الْعَادَاتِ وَيَعْمَلُونَ  
عَلَى بُهْثِهَا فِي طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ إِلَّا كَالَّذِي يَحْسِبُ أَنَّ أَوْرَثَهُ يُمَكِّنُ أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ طَرْبُوشِهِ ...  
وَلَقَدْ غَفَلْنَا عَنْ أَنَّكَ نَدْعُوا الْأَوْرَبِيِّينَ إِلَى أَنْفُسِنَا وَإِلَى التَّسَلُّطِ عَلَى بِلَادِنَا بِإِنْتِحَالِنَا عَادَاتِهِمْ  
الْاجْتِمَاعِيَّةَ لِأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَشَاكِلَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَوَجْهٌ مِنَ التَّقَرُّبِ بَيْنَ جَنَسَيْنِ يُعِينُ عَلَى  
أَنْدِمَاجِ أَضْعَافِهِمَا فِي أَقْوَاهُمَا ، وَيُضَيِّقُ دَائِرَةَ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ هُوَ مِنْ أَيْنَ أَعْتَبَرْتَهُ  
وَجَدْتَهُ فِي فَائِدَتِهِ لِلْأَوْرَبِيِّينَ أَشْبَهَ بِتَلْبِينِ اللَّفْمَةِ الصُّلْبَةِ تَحْتَ الْأَسْنَانِ الْقَاطِعَةِ ، وَهَلْ نَسِيَ  
الشَّرْقِيُّونَ أَنَّ لَا حُجَّةَ لِلْغَرْبِ فِي اسْتِعْبَادِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ تَمْدِيدَهُمْ ؟!

وَحَيْثُمَا قُلْنَا : « الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ » فَإِنَّمَا نُرِيدُ الْأَخْلَاقَ الَّتِي قَامَ بِهَا ، وَالْقَانُونُ الَّذِي  
يُسَيِّطُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ عَلَى النَّفْسِ الشَّرْقِيَّةِ ؛ وَهَذَا فِي رَأْيِنَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْأَوَّلُ  
وَالْآخِرُ<sup>(١)</sup> .

(١) حَدَّثَنَا مِنْ هَذَا الْمَقَالِ بَعْضُ عِبَارَاتٍ حَدَّثَهَا الْمُؤَلِّفُ بِقَلَمِهِ فِي الْأَصْلِ الَّذِي تَحْتَ أَيْدِينَا . سَعِيدُ  
الْمُرْتَبَانِ .

## لَا تَجْنِي الصَّحَافَةَ عَلَى الْأَدَبِ (\*) وَلَكِنْ عَلَى فَنِّيَّتِهِ<sup>(١)</sup>

قَالُوا : إِنَّ الْأَصْمَعِيَّ كَانَ يُنْكَرُ أَنْ يُقَالَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ : (مَالِحٌ) ، وَيَقُولُ : إِنَّمَا هُوَ  
مِلْحٌ ، وَإِنَّ (مَالِحٌ) هَذِهِ عَامِيَّةٌ ؛ فَلَمَّا أُنْشِدُوهُ فِي ذَلِكَ شِعْرًا لَذِي الرُّمَّةِ يَخْتَجُونَ بِهِ عَلَيْهِ ،  
قَالَ : إِنَّ ذَا الرُّمَّةِ قَدْ بَاتَ فِي حَوَانِيتِ الْبَقَالَيْنِ بِالْبَصْرَةِ زَمَانًا ...

يُرِيدُ شَيْخَنَا هَذَا : أَنَّ (الْمَالِحَ) فِي الْأَكْثَرِ الْأَعْمَ يَكُونُ مِمَّا يَبْنِعُهُ الْبَقَالُونَ ، وَلَعَنَتُهُمْ  
عَامِيَّةٌ مُزَالَةٌ عَنْ سَنَنِهَا الْقَصِيحِ ، مَضْرُوفَةٌ إِلَى وَجْهِهَا التَّجَارِي ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ بَاتَ ذُو الرُّمَّةِ  
فِي حَوَانِيتِ الْبَقَالَيْنِ زَمَانًا حَتَّى عَلِقَتْ الْكَلِمَةُ بِمَنْطِقِهِ وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا الطَّنْبُ الْعَامِي ، وَلَمْ  
يُخَالِطْ عَرَبِيَّتَهُ غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَحْدَهَا ؟ لَمْ يَقُلِ الْأَصْمَعِيُّ شَيْئًا ، وَلَكِنْ رِوَايَتُهُ تُخْبِرُ أَنَّ ذَا  
الرُّمَّةِ اتَّخَذَ مِنَ الْبَادِيَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ يَلْتَمِسُ مَا يَلْتَمِسُهُ الشُّعْرَاءُ ، فَلَمَّا كَانَ بِهَا اسْتِخْصَاقَ بِهَا  
فَلَمْ يُصِبْ لِحَافَهُ غَيْرَ الْخُبَرِ ، وَلَمْ يَجِدْ لِلْخُبَرِ غَيْرَ (الْمَالِحِ) يُسَيِّغُهُ بِهِ لِيَجِدَ الْمَسْلُوكَ فِي  
حَلْفِهِ ، قَالُوا : فَيَأْتِي الْبَقَالَيْنِ فَيَتَّبَعُ مِنْهُمْ السَّمَكَةَ (الْمَالِحَةَ) وَالْبَقْلَةَ (الْمَالِحَةَ) ، وَيَعْرِفُونَهُ  
مُضِيغًا إِلَى فَرْجٍ ، فَيَنْسُونُ لَهُ فِي الثَّمَنِ إِلَى أَجَلٍ ، حَتَّى يَمْتَدِّحَ وَيَنَالَ الْجَائِزَةَ . قَالُوا : ثُمَّ  
يَمْطِرُهُ الْمَمْدُوحُ وَيُلَوِّي بِهِ وَلَا يَرَى فِي تَلْفِيْقِ الْعَيْنِ رُخْصًا إِلَّا فِي (الْمَالِحِ) ، فَيَسْتَبَاعُ فِي  
الشَّرَاءِ وَيَمْضُونَ فِي إِسْلَافِهِ إِنْقَاءً عَلَيْهِ وَحُسْنَ نَظَرٍ مِنْهُمْ لِمَنْزِلَتِهِ وَشِعْرِهِ ، وَيَرَى هُوَ أَنْ  
لَا ضَمَانَ لِلوفَاءِ بِمَا عَلَيْهِ إِلَّا نَفْسُهُ . فَمَا بُدَّ أَنْ يَتَرَاءَى لَهُمْ بَيْنَ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ ، فَيُخَالِطُهُمْ  
فَيَحْدِثُهُمْ فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ عَلَى طَبْعِهِمْ وَهُوَ عَلَى سَجِيَّتِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَقْتَضُونَهُ ثَمَنًا ، وَلَا  
يَزَالُونَ يَمْدُونُ لَهُ ، فَلَا يَزَالُ (الْمَالِحُ) أَيْسَرَ مَنَالًا عَلَيْهِ ، كَمَا هُوَ إِلَى نَفْسِهِ أَشْهَى ، وَفِي

(\*) « الرسالة » العدد : ٥٠ ، ٦ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ يونيو / حزيران ١٩٣٤ م ، السنة

الثانية ، الصفحات : ١٠٠٥ - ١٠٠٨ .

(١) { بِهَذَا الْمَقَالِ بَدَأَ الْمُؤَلِّفُ عَمَلَهُ فِي الرُّسَالَةِ ؛ وَأَنْظَرَ « عَمَلَهُ فِي الرُّسَالَةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ  
الرَّافِعِيِّ » } .

جَوْفِهِ أَمْرًا ، لِمَكَانِ أَغْرَابِيَّتِهِ وَخُشُونَةِ عَيْشِهِ ؛ فَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَرْعَةً مِنْ هَذَا (الْمَالِحِ) .  
قَالُوا : ثُمَّ يَرَى الْبَقَالُونَ أَنْ لَا ضَمَانَ لِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ مَعَهُمْ ، فَيُزَامُونَهُ  
الْحَوَائِثَ بَيَاضَ يَوْمِهِ ، وَيُغْلِقُونَهَا عَلَيْهِ سَوَادَ لَيْلَتِهِ ، فَهُمْ يُمَسِّكُونَهُ بِالْهَارِ ، وَتُمْسِكُهُ  
الْحَيْطَانُ وَالْأَبْوَابُ بِاللَّيْلِ !

فَلَمَّا عَظُمَ الدُّنْيُ ، وَبَلَغَ الْجُمْلَةَ الَّتِي فَاتَتْ حِسَابَ الْأَيَّامِ إِلَى حِسَابِ الْأَهْلَةِ ، أَخْضِرَ  
الشَّاعِرُ كَرْبَةً وَهَمَّهُ ، وَلَمْ يَعُدِ (الْمَالِحُ) يَنْجِعُ فِيهِ ، وَلَا يَجِدُ بِهِ غَذَاءَ بَلِّ حَرِيْقًا فِي الدَّمِ ،  
وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ ائْتَجَحَ بِهَذَا (الْمَالِحِ) الْحَيْثُ ، وَأَشْرَطَ نَفْسَهُ فِيهِ ، وَأَزْهَنَهَا بِهِ ؛ فَلَا يَزَالُ  
مِنْ (الْمَالِحِ) هَمٌّ فِي نَفْسِهِ ، وَمَغْصَصٌ فِي جَوْفِهِ ، وَلَفْظٌ عَلَى لِسَانِهِ ، وَدَيْنٌ عَلَى ذِمَّتِهِ ؛ وَلَا  
يَزَالُ مَهْمُومًا بِهِ ؛ إِذْ كَانَ عَلَى طَرِيقِ مَنْ طَرِيقَيْنِ : إِمَّا الْوَفَاءَ وَلَا قُدْرَةَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْلِسٍ ،  
وَإِمَّا الْخَبْسَ وَلَا طَاقَةَ بِهِ لِشَاعِرٍ ؛ وَخَبْسُ ذِي الرُّمَةِ فِي ثَمَنِ (الْمَالِحِ) هُوَ خَبْسٌ عِنْدَ  
الشُّرْطَةِ ، وَلَكِنَّهُ قَتْلٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْقَتْلِ عِنْدَ صَاحِبَتِهِ (مَيَّة) إِذَا تَرَامَى إِلَيْهَا الْحَبْرُ ؛ وَالْأَغْرَابِيُّ  
الْجِلْفُ الَّذِي يُخْبَسُ فِي ثَمَنِ (الْمَالِحِ) عِنْدَ الْوَالِي بَعْدَ أَنْ بَاتَ زَمَنًا رَهَنًا بِهِ فِي حَوَائِثِ  
الْبَقَالِينَ لَا يَصْلُحُ عَاشِقًا لِمَيِّ ، وَهِيَ مِنْ هِيَ !

[من الطويل] :

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخِيمٌ الْحَوَاشِي ..... .

فَلَا (الْمَالِحُ) مِنْ غَذَائِهَا ، وَلَا لَفْظُ (الْمَالِحِ) مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يَكُونُ فِي فَمِهَا الْعَدَبُ ،  
وَأَبْعَدَ اللَّهُ جَارِيَتَهَا الرُّنْجِيَّةَ إِنْ لَمْ تَأْتَفْ لِنَفْسِهَا وَمَكَانِهَا مِنْ عَيْشِي هَذَا الْأَغْرَابِيُّ الْغَلِيظُ  
الْحَشِينُ الَّذِي أَحَقَّهُ (الْمَالِحُ) بِاللُّصُوصِ وَالْغَارِمِينَ ، وَأَخْرَاها اللَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَشْقُ هَذَا  
الْأَغْرَابِيِّ لَهَا سَوَادًا عَلَى سَوَادِهَا فِي النَّاسِ ، فَكَيْفَ يَمَيَّ وَهِيَ أَصْفَى مِنَ الْمِرَاةِ الْقَتِيَّةِ ،  
وَأَبْيَضُ مِنَ الزُّهْرَةِ الْبَيْضَاءِ ؟

قَالُوا : وَيَصْنَعُ اللَّهُ لِعَبْلَانَ الْمُسْكِينِ ، فَيَمْدَحُ وَيَنَاقِ وَيَخْتَالُ ، وَيَعِدُّهُ الْمَمْدُوحُ  
بِالْجَائِزَةِ إِذَا غَدَا عَلَيْهِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ وَالشَّمْسُ نَازِلَةً إِلَى خِذْرِهَا ، فَيَتَكَفَّى الشَّاعِرُ إِلَى  
حَوَائِثِ غُرْمَانِهِ مِنَ الْبَقَالِينَ بَيْتٌ فِيهَا أُخْرَى لِيَالِيهِ ، وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهِ وَقَدْ سَمِعُوهُ أَكَلًا  
وَمَا طِلَا ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ فَلَا يَعْتَدُونَهُ إِلَّا فَأَرًا مِنْ فِرَارِ حَوَائِثِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ يَأْكُلُ فَيَسْتَوْفِي ، وَلَمْ

يَعُدُّ اسْمَهُ عِنْدَهُمْ ذَا الرُّمَةِ بَلْ ذَا الْغُمَةِ ... فَلَمْ يُعْطَوْهُ لِعِشَائِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ إِلَّا مَا فَسَدَ وَخَبَتْ  
مِنْ عَيْنِي (الْمَالِحِ) ، فَهَوَّ نَتْنٌ يُسَمَّى طَعَامًا ، وَدَاءٌ يُبَاعُ بِشَمْنٍ ، وَهَلَاكٌ يَحْمِلُ عَلَيْهِ  
الْاضْطِرَّارُ كَمَا يَحْمِلُ عَلَى أَكْلِ الْجِنْفَةِ ؛ وَكَانُوا قَدْ وَضَعُوهُ فِي آيَةٍ قُدْرَةٍ مُتَلَجَّنَةٍ طَالَ عَهْدُهَا  
بِالْعَسَلِ وَالنَّظَافَةِ ، وَفِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ عَفَنِ قَدِيمٍ ، فَلَصِقَ بِهَا مَا لَصِقَ ، وَتَرَكَبَ عَلَيْهَا  
مَا تَرَكَبَ ، وَوَقَعَ فِيهَا مَا وَقَعَ .

ثُمَّ يَتَهَيَّأُ الشَّاعِرُ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ يَرْجُو أَنْ تَنَالَهُ بَرَكَتُهَا ، فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهُ وَيُفْرَجُ عَنْهُ ،  
وَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ قَدَحٌ مِنَ الْمَاءِ لِيُوضُوهُ ، وَلَكِنَّ (الْمَالِحِ) الَّذِي تَعَدَّى بِهِ كَانَ قَدْ أَحْرَقَ جَوْفَهُ  
وَأَضْرَمَ عَلَى أَحْشَائِهِ وَهُوَ فِي صَيْفٍ قَانِظٍ ، فَمَا زَالَ يُطْفِئُهُ بِالشَّرْبَةِ بَعْدَ الشَّرْبَةِ ، وَالْمَصَّةِ  
بَعْدَ الْمَصَّةِ ، حَتَّى اشْتَفَّ الْقَدَحَ وَأَتَى عَلَيْهِ ، فَيَكْسِلُ عَنِ الصَّلَاةِ وَيَلْعَنُ (الْمَالِحِ) وَمَا جَرَّ  
عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ يَعْصُهُ الْجُوعُ فَيَكْسِرُ خُبْزَتَهُ وَيُسَمِّي وَيَغْمِسُ اللَّقْمَةَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا فَيَجِدُ لَهَا رَائِحَةً  
مُتَكَرَةً ، فَيَنْظُرُ فِي الْآيَةِ وَقَدْ نَفَذَ إِلَيْهِ الضُّوءُ مِنْ قُنْدِيلِ الْحَارِسِ ، فَإِذَا فِي (الْمَالِحِ) خُتْنَسَاءُ  
قَدْ ائْتَجَرَتْ شِبَعًا ، وَيُدْفِقُ النُّظْرَةَ فَإِذَا دُوبِيَّةٌ أُخْرَى قَدْ تَفَسَّخَتْ وَهَرَاها (الْمَالِحِ) وَفَعَلَ بِهَا  
وَفَعَلَ ! قَالُوا : وَتَبَّتْ نَفْسُهُ إِلَى حَلْفِهِ ، وَلَا يَرَى الطَّاعُونَ وَالْبَلَاءُ الْأَضْفَرُ وَالْأَحْمَرُ إِلَّا  
هَذَا (الْمَالِحِ) ، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى كُوَّةِ الْحَانُوتِ يَتَسَمَّ الْهَوَاءَ مِنْهَا وَيَتَطَعَّمُ الرُّوحَ وَهِيَ مُضَيِّبَةٌ  
بِالْحَدِيدِ ، وَلَا يَزَالُ يِرَاعِي مِنْهَا اللَّيْلَ وَيَعُدُّهُ مَنَزِلَةً مَنَزِلَةً بِحِسَابِ الْبَادِيَةِ ، وَهُوَ بَيْنَ ذَلِكَ  
يَلْعَنُ (الْمَالِحِ) عَدَدَ مَا يُسَبِّحُ الْعَابِدُ الْقَائِمُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَيَطُولُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا  
كَادَ يَشْشُقُ لَمَعَ الْفَجْرِ لَعِينِهِ ، فَلَا يَرَاهُ الشَّاعِرُ إِلَّا كَالْعَدِيدِ يَتَفَجَّرُ بِالْمَاءِ الصَّافِي ، وَيَوْدُو لَوْ  
أَنْصَبَ هَذَا الضُّوءُ فِي جَوْفِهِ لِيَغْسِلَهُ مِنْ (الْمَالِحِ) وَأَوْضَارِ (الْمَالِحِ) . ثُمَّ يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ  
وَبِصَاحِبِ الْحَانُوتِ فَيَفْتَحُ لَهُ ، وَيَعْدُو دُو الرُّمَةِ عَلَى الْمَمْدُوحِ فَيَقْبِضُ الْجَائِزَةَ وَتَنْقَلِبُ إِلَى  
حَوَائِثِ الْبَقَالِينَ فَيُوقِي أَصْحَابَهَا مَا عَلَيْهِ ؛ وَلَا يَبْقَى مَعَهُ إِلَّا دَرَاهِمُ مَعْدُودَةٌ ، فَيَخْرُجُ مِنْ  
الْبَصْرَةِ عَلَى حِمَارٍ أَكْثَرَاهُ وَقَدْ فُتِحَتْ لَهُ آفَاقُ الدُّنْيَا ، وَكَأَنَّمَا قَرَّ مِنْ مَوْتٍ غَيْرِ الْمَوْتِ ، لَيْسَ  
اسْمُهُ الْبُورَ وَلَا الْهَلَاكُ وَلَا الْقَتْلُ ، وَلَكِنَّ اسْمَهُ (الْمَالِحِ) !

قَالُوا : وَيَحْرُكُهُ الْحِمَارُ لِلشَّعْرِ كَمَا كَانَتْ تُحْرِكُهُ النَّاقَةُ ، فَيَقُولُ : أَخْرَاكَ اللَّهُ مِنْ حِمَارٍ  
بَصْرِي ، إِنْ أَنتَ فِي الْمَرَاكِبِ إِلَّا (كَالْمَالِحِ) فِي الْأَطْعِمَةِ ، ثُمَّ يَغْلِيهِ الطَّنْبُ وَيَتَرَوُّ بِهِ

الطَّرَبُ ، وَتَهَرُّهُ الْحَيَاةُ ، فَيَهْتَاجُ لِلشَّعْرِ وَيَذْكُرُ شَوْقَهُ وَحُبَّهُ وَدَارَ مَيِّ ، وَفِي (عَقْلِهِ الْبَاطِنِ) حَوَانِيثٌ وَحَوَانِيثٌ مِنَ (الْمَالِحِ) ، فَيَأْتِي هَذَا (الْمَالِحُ) فِي شِعْرِهِ وَيَدْخُلُ فِي لُغَتِهِ ، فَيَقُولُ الشَّعْرُ الَّذِي أَهْمَلُ الْأَصْمَعِيُّ رِوَايَتَهُ لِأَنَّ فِيهِ (الْمَالِحَ) ؛ وَمَا أَدْرِي أَنَا مَا هُوَ ، وَلَكِنْ لَعَلَّهُ مِثْلُ قَوْلِ الْآخَرِ [وَهُوَ مَجْنُونٌ لَيْلَى قَيْسُ بْنُ الْمُلُوحِ ، مِنْ الطُّوَيْلِ] :

وَلَوْ تَقَلَّتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرِ (مَالِحٌ) لَأَصْبَحَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْ رِيْقِهَا عَذْبًا أَوْ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ [وَهُوَ عَذَائِرُ الْكِنْدِيِّ ، مِنْ الرَّجَزِ] :

بَضْرِيَّةٌ تَزَوَّجَتْ بَضْرِيًّا يُطْعِمُهَا (الْمَالِحُ) وَالطَّرِيًّا

\* \* \*

هَذِهِ هِيَ الرِّوَايَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ الَّتِي تُفَسِّرُ كَلَامَ الْأَصْمَعِيِّ ، وَلَا مَذْهَبَ عَنْهَا فِي التَّغْلِيلِ إِذْ<sup>(١)</sup> صَارَ (الْمَالِحُ) كَلِمَةً نَفْسِيَّةً فِي لُغَةِ ذِي الرُّومَةِ ، عَلَى رَغْمِ أَنَّ الْأَخْمَرَ وَالْأَسْوَدَ وَالْأَصْمَعِيَّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ ، فَالزُّجْلُ مِنَ الْحَجَجِ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا فِي كَلِمَةِ (الْمَالِحِ) ، فَإِنَّهُ هُنَا عَامِّي بِقَالَ حَوَانِيثِي نَزَلَ بِطَبْعِهِ عَلَى حُكْمِ الْعَيْشِ ، وَغَلَبَهُ مَا لَا بُدَّ أَنْ يَغْلِبَ مِنْ تَسَلُّطِ (وَاعِيَةِ الْبَاطِنَةِ)<sup>(٢)</sup> .

وَالْحِكْمَةُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّ أَبْلَغَ النَّاسِ يَنْحَرِفُ بِعَمَلِهِ كَيْفَ شَاءَتْ الْحِزْفَةُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ الْمُشَابَهَةُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَعَمَلِهِ ، فَرُبَّمَا أَرَادَ بِكَلَامِهِ وَجْهًا وَجَاءَ بِهِ الْهَاجِسُ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، وَإِذَا كَانَ فِي النَّفْسِ مَوْضِعٌ مِنْ مَوَاضِعِهَا أَفْسَدَهُ الْعَمَلُ - ظَهَرَ فَسَادُهُ فِي الدُّوقِ وَالْإِذْرَاكِ فَطَمَسَ عَلَى مَوَاضِعَ أُخْرَى ، فَلَا تَنْتَظِرُ مِنْ صَحَافِي قَدِ ارْتَهَنَ نَفْسُهُ بِحِزْفَةِ الْكَلَامِ أَلَّا يَكُونَ لَهُ فِي الْأَدَبِ وَالْبَلَاغَةِ (مَالِحٌ) كَمَا لَحِ ذِي الرُّومَةِ ، وَإِنْ كَانَ أَبْلَغَ النَّاسِ لَا أَبْلَغَ كِتَابِ الصُّحُفِ وَخَدَهُمْ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « إِذَا » بَدَلًا مِنْ : « إِذ » .

(٢) وَضَعْنَا هَلِهِ الْكَلِمَةَ لِمَا يُسَمَّى : (الْعَقْلُ الْبَاطِنُ) ، وَهِيَ أَدْوَى فِي التَّعْبِيرِ تَسْتَوْفِي كُلَّ مَعَانِي الْكَلِمَةِ ، وَلَا مَعْنَى لِأَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ عَقْلٌ ، ثُمَّ يَكُونُ بَاطِنًا غَافِلًا ، فَإِنَّ هَذَا [بَعِيدٌ] لَا يُسَوِّغُهُ الْأَشْيَاقُ .

وَالْمَالِحُ) الَّذِي رَأَيْنَاهُ لِكَاتِبٍ بَلِيغٍ مِنْ أَصْحَابِنَا<sup>(١)</sup> أَنَّهُ كَتَبَ فِي إِخْدَى الصُّحُفِ عَنْ دِيَوَانٍ هُوَ فِي شِعْرِ هَذِهِ الْأَيَّامِ كَالْبَغْتِ بَعْدَ مَوْتِ شَوْقِي وَحَافِظِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ ، فَيَأْتِي بِالْمَجَازِ بَعْدَ الْأَسْتِعَارَةِ بَعْدَ الْكِتَابَةِ مِثْلًا قَالَهُ الشَّاعِرُ ثُمَّ يَقُولُ : هَذَا عَجِيبٌ تَصَوُّرُهُ . لَا أَعْرِفُ مَاذَا يُرِيدُ . أَلَيْلَى لِلشَّعَاعِ غَيْرُ مَقْبُولٍ ، وَلَا يَزَالُ يَنْسَجِبُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنَ التَّقْدِيرِ ثُمَّ يُعَقِّبُ عَلَى ذَلِكَ يَقُولُهُ : « وَالْأَصْلُ فِي الْكِتَابَةِ أَنَّهَا لِلْإِفْهَامِ ، أَيْ تَقْلُ الْخَاطِرِ أَوْ الْإِحْسَاسِ مِنْ ذِهْنٍ إِلَى ذِهْنٍ وَمِنْ نَفْسٍ إِلَى نَفْسٍ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ الْجَبَّارَةُ يَتَعَاوَرُهَا الضَّعْفُ وَالْإِنْهَامُ وَالزُّكَاكَةُ وَقِلَّةُ الْعِنَايَةِ بِدَقَّةِ الْأَدَاءِ ، وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَعْمِلُ اللَّفْظَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُرِيدَ بِهِ ، فَكَيْفَ تَتَوَقَّعُ مِنِّي أَنْ أَفْهَمَ مِنْكَ ؟ » .

لَا ، لَا ، هَذَا (مَالِحٌ) مِنْ مَالِحِ الْأَدَبِ ، فَإِذَا كَانَ الضَّعْفُ وَالْإِنْهَامُ وَالزُّكَاكَةُ وَسُوءُ الْإِفْهَامِ وَضَعْفُ الْأَدَاءِ - آتِيَةً فِي رَأْيِ الْكَاتِبِ مِنْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُرِيدَ لَهُ - فَإِنَّ مَحَاسِنَ اللَّبِّيَّانِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْأَسْتِعَارَةِ وَالْمَجَازِ وَالْكِتَابَةِ لَيْسَ لَهَا مَاتِي كَذَلِكَ إِلَّا اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُرِيدَ لَهُ .

وَعَلَى طَرِيقَةِ الْكَاتِبِ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْلاً مَنْثُوراً ﴾ [سورة الفرقان/ الآية : ٢٣] ؟ .

أَتَرَاهُ يَقُولُ : كَيْفَ قَدِمَ اللَّهُ ، وَهَلْ كَانَ غَائِبًا أَوْ مُسَافِرًا ، وَكَيْفَ قَدِمَ إِلَى عَمَلٍ ، وَهَلِ الْعَمَلُ بَيْتٌ أَوْ مَدِينَةٌ ؟

ثُمَّ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَلْبَعَى مَاءُكَ ﴾ [سورة هود/ الآية : ٤٤] أَيْسَأَلُ : وَهَلِ لِلْأَرْضِ حَلْقٌ تُحَرِّكُهُ عَضَلَاتُهُ لِلتَّلْبَعِ ، وَإِذَا كَانَ لَهَا حَلْقٌ أَفَلَا يَجُوزُ أَنْ تُرْمَى فِيهِ فَتَحْتَاجُ إِلَى غَرْغَرَةٍ وَعِلَاجٍ وَطَبِّ ؟ .

وَمَاذَا يَقُولُ فِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ لِرَقْم : ٢٥١٠ ، مُسْلِم ، رَقْم : ١٨٠١ ؛ أَبُو دَاوُد ، رَقْم : ٢٧٦٨ ؛ وَالتَّصُّ فِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » : « إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ الدَّمِّ » ، أَوْ « صَوْتًا يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُّ » - كَمَا فِي الْأَغَانِي - أَيُوجِّهُ الْأَعْيَاضَ عَلَى الصَّوْتِ وَجَزْجِرِهِ وَدَمِهِ ، وَيَسْأَلُ :

(١) { يَغْنِي : الْمَازِينِي ، وَكَانَ لَهُ تَقْدِيرٌ لِدِيَوَانِ « الْمَالِحِ النَّاسِ » } .

بِمَادَا جُرِحَ ، وَمَا لَوْنُ هَذَا الدَّمِ ، وَهَلْ لِلصُّوْتِ عُزُوقٌ فَيَجْرِي الدَّمُ فِيهَا ؟ .

إِنَّ الْإِفْهَامَ وَتَقْلُ الْخَاطِرِ وَالْإِحْسَاسَ لَيْسَتْ هِيَ الْبَلَاغَةُ وَإِنْ كَانَتْ مِنْهَا ، وَإِلَّا فَكَيْفَاةُ الصُّحُفِ كُلُّهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي الْأَدَبِ ، إِذْ هِيَ مِنْ هَذِهِ اللَّاحِظَةِ لَا يُفْدَحُ فِيهَا وَلَا يُغْضُ مِنْهَا ، وَمَا قَصَرْتُ قَطُّ فِي تَقْلِ خَاطِرٍ وَلَا اسْتِغْلَقْتُ دُونَ إِفْهَامِ .

هَلَهُنَا خِيَانٌ فِي مَطْعَمٍ كَمَطْعَمِ (الْحَاثِي) مَثَلًا ، عَلَيْهِ الشَّوَاءُ وَالْمِلْحُ وَالْفَلْفَلُ وَالْكَوَامِيخُ أَصْنَافًا مُصَنَّفَةٌ ، وَآخَرُ فِي وَلِيْمَةِ عُرْسٍ فِي قَصْرِ وَعَلَيْهِ الْوَانَةُ وَأَزْهَارُهُ وَمِنْ فَوْقِهِ الْأَسْبَعَةُ وَمِنْ حَوْلِهِ الْأَسْبَعَةُ الْآخَرَى مِنْ كُلِّ مُضَيِّعَةٍ فِي الْقَلْبِ يَنْوُرُ وَجْهَهَا الْجَمِيلُ ؛ أَفْتَرَى السُّهُولَةَ كُلَّ السُّهُولَةِ إِلَّا فِي الْأَوَّلِ ؟ وَهَلِ التَّعْقِيدُ كُلُّ التَّعْقِيدِ إِلَّا فِي الثَّانِي ؟ وَلَكِنْ أَيْ تَعْقِيدٌ هُوَ ؟ إِنَّهُ تَعْقِيدٌ فَتَيِّ لَيْسَ إِلَّا ؛ وَبِهِ يَنْصَافُ الْجَمَالُ إِلَى الْمَنْفَعَةِ ، فَتَجْتَمِعُ الْفَائِدَةُ وَالِاسْتِمَاعُ وَتَزِينُ الْمَائِدَةُ وَالنَّفْسُ مَعًا ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ تَعْقِيدٌ فَتَيِّ لَأَمْ بَيْنَ إِبْدَاعِ الطَّبِيعَةِ وَإِبْدَاعِ الْفِكْرِ ، وَجَاءَ بِرُوحِ الْمَوْسِقَى الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْكَوْنُ الْجَمِيلُ فَتَبَّهَا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الْمَائِدَةُ الْجَمِيلَةُ ، وَاسْتَنْزَلَ سِرَّ الْجَادِيَّةِ فَجَعَلَ لِلْمَائِدَةِ بِمَا عَلَيْهَا شُعُورًا مُتَّصِلًا بِالْقُلُوبِ مِنْ حَيْثُ جَعَلَ لِلْقُلُوبِ شُعُورًا مُتَّصِلًا بِالْمَائِدَةِ .

وَهَذَا التَّعْقِيدُ الَّذِي صَوَّرَ فِي الْجَمَادِ دَقَّةً فَنَ الْعَاطِفَةِ ، هُوَ بَعِيْنُهُ فَنِيَّةُ السُّهُولَةِ وَرُوحِيَّتُهَا ؛ وَتِلْكَ السَّنَاجَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ الْآخَرَى هِيَ السُّهُولَةُ الْمَادِيَّةُ بِغَيْرِ فَنٍ وَلَا رُوحٍ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا أَنْ إِحْدَاهُمَا تَحْمِلُ قَصِيْدَةً رَائِعَةً مِنَ الطَّعَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ ، وَالْآخَرَى تَحْمِلُ مِنَ الطَّعَامِ مَقَالَةً كَمَقَالَاتِ الصُّحُفِ !

وَالْوَجْهُ فِي الشَّوْهَاءِ وَفِي الْجَمِيلَةِ وَاحِدٌ : لَا يَخْتَلِفُ بِأَعْضَائِهِ وَلَا مَنَافِعِهِ ، وَلَا فِي تَأْدِيَتِهِ مَعَانِي الْحَيَاةِ عَلَى أَمْتِهَا وَأَكْمَلِهَا ؛ بَيِّنُ أَنَّ أَنْسَجَامَ الْجَمِيلِ يَأْتِي مِنْ إِعْجَازِ تَرْكِيبِهِ وَتَقْدِيرِ قَسَمَاتِهِ وَتَدْفِيقِ تَنَاسُيبِهِ ، وَجَعَلَهُ بِكُلِّ ذَلِكَ يُظْهِرُ فَتَهُ النَّفْسِيِّ بِسُهُولَةٍ مُنْسَجِمَةٍ هِيَ فَنِيَّتُهُ وَرُوحِيَّتُهُ ، أَمَّا الْآخَرُ فَلَا يَقْبَلُ هَذَا الْفَنَ وَلَا يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئًا ؛ إِذَا كَانَ قَدْ فَتَدَ التَّدْفِيقُ الْهَنْدَسِيَّ الَّذِي هُوَ تَعْقِيدٌ فَنَ التَّنَاسُيبِ ؛ وَجَاءَ عَلَى الْمَقَائِيْسِ السُّهْلَةِ مِنْ طَوْنِ إِلَى قَصِيرٍ ، إِلَى مَا يَسْتَدِيرُ وَمَا يَغْرُضُ ، إِلَى مَا يَنْتَأُ مِنْ هُنَا وَيَنْخَسِفُ مِنْ هُنَاكَ ، كَالْوَجْهَةِ الْبَارِرَةِ ، وَالشَّدَقِ الْغَائِرِ ؛ فَهَذِهِ السُّهُولَةُ الْمُطْلَقَةُ فِي الْوَضْعِ كَمَا يَتَّقُونَ ، هِيَ بَعِيْنُهَا التَّعْقِيدُ الْمُطْلَقُ

عِنْدَ الْفَنِّ الَّذِي لَا مَحَلَّ فِيهِ لِلْفُظَّةِ : (كَمَا يَتَّقُونَ) .

وَالطَّرِيقَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْجَمَالُ جَمِيلًا هِيَ بَعِيْنُهَا الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْبَيَانُ بَلِيْنًا ، فَالْمَرْجِعُ فِي أَثْنَيْهِمَا إِلَى تَأْتِيْرِهِمَا فِي النَّفْسِ ، وَأَنْتَ فَقُلْ : إِنَّ هَذَا مَفْهُومٌ وَهَذَا غَيْرُ مَفْهُومٍ ، وَذَلِكَ سَهْلٌ وَالْآخَرُ مُعَقَّدٌ ، وَوَاضِحٌ وَمُغْلَقٌ ، وَمُسْتَقِيمٌ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَمُحَوَّلٌ عَنْ طَرِيقَتِهِ ؛ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ تَعْيِيْنُهُ أَوْ تَمْدَحُهُ فِي الْجَمَالِ أَوْ الْبَلَاغَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تَدُلُّ عَلَى مَا يَمْدَحُ أَوْ يُعَابُ فِي نَفْسِكَ وَذَوْقِهَا وَإِذْرَاقِهَا .

وَمَعَانِي الْإِخْتِلَافِ لَا تَكُونُ فِي الشَّيْءِ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ ، بَلْ فِي الْأَنْفُسِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ مُحَالًا أَنْ تَكُونَ الْجَمِيلَةُ مَمْدُوحَةً مَذْمُومَةً لِحِمَالِهَا فِي وَفْتٍ مَعًا ، وَإِلَّا كَانَتْ قِيَمَتُهَا بِمَا هِيَ بِهِ حَسَنَاءُ ، وَهَذَا أَشَدُّ بُعْدًا فِي الْإِسْتِحَالَةِ ، وَحُكْمُكَ عَلَى شَيْءٍ هُوَ عَقْلُكَ أَنْتَ فِي هَذَا الشَّيْءِ .

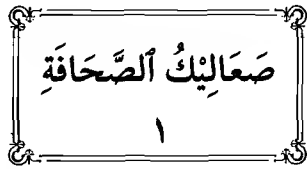
وَمَتَى اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى مَعْنَى يَسْتَحْسِنُونَهُ وَجَدَتْ دَوَاعِي الْإِسْتِحْسَانِ فِي أَنْفُسِهِمْ مُخْتَلِفَةً ، وَكَذَلِكَ هُمْ فِي دَوَاعِي الدَّمِ إِذَا عَابُوا ؛ وَلَكِنْ مَتَى تَعَيَّنَتِ الْوُجُوهُ الَّتِي بِهَا يَكُونُ الْحُكْمُ ، وَرَجَعَ إِلَيْهَا الْمُخْتَلِفُونَ ، وَالتَّزَمُوا الْأُصُولَ الَّتِي رَسَمَتْهَا ، وَتَفَرَّثَتْ بِهَا الطَّرِيقَةُ عِنْدَهُمْ فِي الذَّوْقِ وَالْفَهْمِ ، فَذَلِكَ يَنْفِي أَسْبَابَ الْإِخْتِلَافِ لِمَا يَكُونُ مِنْ مَعَانِي الشَّكَاوِ وَخَاصَّةً الْمُنَاسَبَةِ ، وَلِهَذَا كَانَ الشَّرْطُ فِي نَقْدِ الْبَيَانِ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَاتِبٍ مُبْدِعٍ فِي بَيَانِهِ لَمْ تُفْسِدْهُ نَزْعَةٌ أُخْرَى ، وَفِي نَقْدِ الشَّعْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْ شَاعِرٍ عَلَتْ مَرَبِّتُهُ وَطَالَتْ مُمَارَسَتُهُ لِهَذَا الْفَنِّ فَلَيْسَ لَهُ نَزْعَةٌ أُخْرَى تُفْسِدُهُ .

وَمَا الْمَجَازَاتُ وَالِاسْتِعَارَاتُ وَالْكِتَابَاتُ وَنَحْوَهَا مِنْ أَسَالِيْبِ الْبَلَاغَةِ إِلَّا أَسْلُوبُ طَبِيعِيٍّ لَا مَذْهَبَ عَنْهُ لِلنَّفْسِ الْفَنِّيَّةِ ، إِذْ هِيَ بِطَبِيعَتِهَا تُرِيدُ دَائِمًا مَا هُوَ أَعْظَمُ ، وَمَا هُوَ أَجْمَلُ ، وَمَا هُوَ أَقْدُ ؛ وَرُبَّمَا ظَهَرَ ذَلِكَ لِغَيْرِ هَذِهِ النَّفْسِ تَكَلُّفًا وَتَعَسُّفًا وَوَضْعًا لِلْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ؛ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ عَمَلُ فَارِغٍ وَإِسَاءَةٌ فِي التَّأْدِيَةِ ، وَتَمَحُّلٌ لَا عِبْرَةَ بِهِ ، وَلَكِنْ فَنِيَّةُ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ تَأْتِيْ إِلَّا زِيَادَةً مَعَانِيَهَا ، فَتَصْنَعُ الْفَاطَهَا صِنَاعَةً تُؤَلِّقُهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَنْقُدُّ إِلَى النَّفْسِ وَيُضَاعِفُ إِحْسَاسَهَا ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُونُ الزِّيَادَةُ فِي صُورِ الْكَلَامِ وَتَقْلِيْبِ الْفَاطَةِ وَإِرَادَةِ مَعَانِيهِ إِلَّا تَهْنِئَةً لِهَذِهِ الزِّيَادَةِ فِي شُعُورِ النَّفْسِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ يَأْتِي الشَّعْرُ دَائِمًا

زَائِدًا بِالصَّنَاعَةِ الْبَيِّنَاتِ ، لِتُخْرِجَهُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَنْ يَكُونَ طَبِيعِيًّا فِي الطَّبِيعَةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ رُوحَانِيًّا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالشُّعُورُ الْمُفْتَرِجُ غَيْرُ السَّاكِنِ الْمُتَلَبِّدِ ، وَالْبَيِّنَانُ فِي صِنَاعَةِ اللُّغَةِ يُقَابِلُ هَذَا الْخَوْ ، فَتَجِدُ مِنَ التَّغْيِيرِ مَا هُوَ حَيٌّ مُتَحَرِّكٌ ، وَمَا هُوَ جَامِدٌ مُسْتَلَيٌّ كَالثَّائِمِ أَوْ كَالْمَيِّتِ ؛ وَبِهَذَا لَا تَكُونُ حَقِيقَةُ الْمُحَسَّنَاتِ الْبَيِّنَاتِ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا صِنَاعَةٌ فَتَبَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا لِإِحْدَاثِ الْاِهْتِاجِ فِي أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْحَسَّاسَةِ كَيْ تُعْطِيَ الْكَلِمَاتِ مَا لَيْسَ فِي طَاقَةِ الْكَلِمَاتِ أَنْ تُعْطِيَهُ .

لَقَدْ تَكَلَّمُوا أَخِيرًا فِي جَنَائَةِ الصَّحَافَةِ عَلَى الْأَدَبِ ، وَالصَّحَافَةُ عِنْدِي لَا تَجِبُنِي عَلَى الْأَدَبِ ، وَلَكِنْ عَلَى فَنِّيهِ ؛ فَلَهَا مِنَ الْأَثَرِ عَلَى سَلِيقَةِ الْبَلِغِ وَطَبِيعِهِ قَرِيبٌ مِمَّا كَانَ لِخَوَانِيَةِ الْبَقَالَيْنِ فِي الْبَصَرَةِ عَلَى طَبْعِ ذِي الرُّمَةِ وَسَلِيقَتِهِ ، وَكُلَّمَا قُرِبَ الصَّحَافِيُّ مِنَ الصَّنْعَةِ وَحَقَّقَهَا عَلَى الْجُمْهُورِ ، بَعُدَ عَنِ الْفَنِّ وَجَمَالِهِ وَحَقَّقَ عَلَى النَّفْسِ ، وَهَذَا وَاضِحٌ بِلَا كِبِيرٍ تَأْمُلُ ، بَلْ هُوَ وَاضِحٌ بِغَيْرِ تَأْمُلٍ . . .

مصطفى صادق الرافعي



لَمَّا ظَهَرَ كِتَابِي «وَحْيُ الْقَلَمِ» حَمَلْتُ مِنْهُ إِلَى فُضْلَاءِ كُتُبِنَا فِي دُورِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَهْدِيهِ إِلَيْهِمْ لِيَقْرَؤُهُ وَيَكْتُبُوا عَنْهُ ، وَأَنَا رَجُلٌ لَيْسَ فِيَّ أَكْثَرُ مِمَّا فِي ، كَالنَّجْمِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُسْتَنَفَعٌ ؛ فَمَا أَعْلَمُ فِي طَبِيعَتِي مَوْضِعًا لِلتَّفَاقِي تَتَحَوَّلُ فِيهِ الْبَصَلَةُ إِلَى تَفَاحَةٍ ، وَلَا مَكَانًا مِنَ الْخَوْفِ تَتَقَلَّبُ فِيهِ التَّفَاحَةُ إِلَى بَصَلَةٍ ، وَلَسْتُ أَهْدِي مِنْ كُتُبِي إِلَّا إِحْدَى هَدِيَّتَيْنِ : فَإِمَّا التَّحِيَّةَ لِمَنْ أَتَى بِأَدَبِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَسَلَامَةَ قُلُوبِهِمْ ، وَإِمَّا إِندَارُ حَرْبٍ لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ ! .  
وَالْقُرْآنُ نَفْسُهُ قَدْ أَثَبَتْ أَنَّ فِيهِ أَقْوَالَ مَنْ عَابُوهُ ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْحَقِيقَةَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مَنْ يَنْكُرُهَا وَيُرُدُّهَا ، كَحَاجَتِهَا إِلَى مَنْ يَقْرَأُ بِهَا وَيَقْبَلُهَا ؛ فَهِيَ بِأَحَدِهِمَا تُثَبِّتُ وَجُودَهَا ، وَبِالْآخَرِ تُثَبِّتُ قُدْرَتَهَا عَلَى الوجودِ وَالاستمرارِ .

وَالشُّعُورُ بِالْحَقِّ لَا يَخْرُسُ أَبَدًا ، فَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ قُوَّةً صَرِيحَةً مَرَّ مِنْ بَاطِنِهَا إِلَى ظَاهِرِهَا فِي الْكَلِمَةِ الْخَالِصَةِ ، فَإِنْ قَالَ لَا أَوْ نَعَمْ صَدَقَ فِيهِمَا ؛ وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مُلْتَوِيَةً اعْتَرَضَتْهُ الْأَغْرَاضُ وَالِدَخَائِلُ ، فَمَرَّ مِنْ بَاطِنٍ إِلَى بَاطِنٍ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى الظَّاهِرِ فِي الْكَلِمَةِ الْمَقْلُوبَةِ ؛ إِذْ يَكُونُ شُعُورًا بِالْحَقِّ يُعْطِيهِ غَرَضٌ آخَرُ كَالْحَسَدِ وَنَحْوِهِ ، فَإِنْ قَالَ لَا أَوْ نَعَمْ كَذَبَ فِيهِمَا جَمِيعًا .

\* \* \*

وَكُنْتُ فِي طَوَافِي عَلَى دُورِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَحْسُ فِي كُلِّ مِنْهَا سُؤَالَ يَسْأَلُنِي بِهِ الْمَكَانُ : لِمَاذَا لَمْ تَجِبْ ؟ فَإِنِّي فِي أَبْتِدَاءِ أَمْرِي كُنْتُ نَزَعْتُ إِلَى الْعَمَلِ فِي الصَّحَافَةِ ، وَأَنَا بِوَمَثَلِ مُتَعَلِّمٍ رَفِيعٍ وَمُتَأَدِّبٍ نَاشِئٍ ، وَلَكِنَّ أَيْ رَحِمَهُ اللَّهُ رَدَّنِي عَنْ ذَلِكَ وَوَجَّهَنِي فِي

(\*) «الرسالة» العدد : ١٨٩ ، ٤ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ١٥ فبراير/شباط ١٩٣٧ م ، السنة

الخامسة ، الصفحات : ٢٤٣ - ٢٤٥ .

(١) يَعْنِي الْجُزْأَيْنِ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي فِي طَبْعَتِهِمَا الْأُولَى . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

سَيَلِينِي هَذِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، فَلَوْ أَنَّنِي نَشَأْتُ صَحَافِيًا لَكُنْتُ أَلَا نَ كَبَضِ الْخُرُوفِ الْمَكْسُورَةِ فِي الطَّبْعِ .

وَلِلصَّحَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَأْنٌ عَجِيبٌ ، فَهِيَ كُلَّمَا تَمَتَّتْ نَقَصَتْ ، وَكُلَّمَا نَقَصَتْ تَمَتَّتْ ؛ إِذْ كَانَ مَدَارُ الْأَمْرِ فِيهَا عَلَى اعْتِبَارِ أَكْثَرِ مَنْ يَفْرُؤُونَهَا أَنْصَافَ قُرْءٍ أَوْ أَنْصَافِ أُمِّيِّينَ ؛ وَهِيَ بِهِذَا كَالطَّرِيقَةِ لِتَعْلِيمِ الْقُرَاءَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ أَوْ السِّيَاسِيَّةِ أَوْ الْأَدَبِيَّةِ ، فَتَمَامُهَا بِمُرَاعَاةِ قَوَاعِدِ النَّقْصِ فِي الْقَارِئِ ... وَمَا بُدِّ أَنْ تَتَقَيَّدَ بِأَوْهَامِ الْجُمْهُورِ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَقَيَّدُ بِحَقِيقَةِ نَفْسِهَا ؛ فَهِيَ مَعَهُ كَالزُّوجَةِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ بَعْدُ ، لَهَا مِنْ رَجُلِهَا مَنْ يَأْمُرُهَا وَيَجْعَلُهَا فِي حُكْمِهِ وَهَوَاهُ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ أَبْنَائِهَا مَنْ تَأْمُرُهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ فِي طَاعَتِهَا وَرَأْيِهَا وَأَدَبِهَا ؛ ثُمَّ هِيَ عَمَلُ السَّاعَةِ وَالْيَوْمِ ؛ فَمَا أَبْعَدَهَا مِنْ حَقِيقَةِ الْأَدَبِ الصَّحِيحِ ، إِذْ يَنْظُرُ فِيهِ إِلَى الْوَقْتِ الدَّائِمِ لَا إِلَى الْوَقْتِ الْغَائِبِ ، وَيُرَادُّ بِهِ مَعْنَى الْخُلُودِ لَا مَعْنَى الشُّيَانِ .

وَلَا يَفْتُلُ الثُّبُوعُ شَيْءً كَالْعَمَلِ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ بِطَرِيقَتِهَا ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ الثُّبُوعِ (مَا يَجِبُ كَمَا يَجِبُ) ، وَأَدَبُهُ الْعُمُومُ وَالتَّغْلُغُ فِي أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ وَإِخْرَاجِ الثَّمَرَةِ الصَّغِيرَةِ مِنْ مِثْلِ الشَّجَرَةِ الْكَبِيرَةِ بِعَمَلٍ طَوِيلٍ دَقِيقٍ ؛ أَمَّا هِيَ فَأَسَاسُهَا (مَا يُمَكِّنُ كَمَا يُمَكِّنُ) ، وَدَأْبُهَا الشَّرْعَةُ وَالتَّصَفُّحُ وَالْإِلْتِمَامُ وَصِنَاعَةُ كَصِنَاعَةِ الْعُنُوانِ لَا غَيْرَ .

فَلَيْسَ يَخْسُنُ بِالْأَدِيبِ أَنْ يَعْمَلَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ الْيَوْمِيَّةِ إِلَّا إِذَا نَضَجَ وَتَمَّ وَأَصْبَحَ كَالدَّوْلَةِ عَلَى « الْخَرِيطَةِ » لَا كَالْمَدِينَةِ فِي الدَّوْلَةِ فِي الْخَرِيطَةِ ، فَهُوَ جِنْتِيذٌ لَا يَسْهَلُ مَحْوُهُ وَلَا تَبْدِيلُهُ ... ثُمَّ هُوَ يَمُدُّهَا بِالْقُوَّةِ وَلَا يَسْتَمِدُّ الْقُوَّةَ مِنْهَا ، وَيَكُونُ تَاجًا مِنْ تِيْجَانِهَا لَا خَزَنَةً مِنْ خَزَائِنِهَا ، وَيَقُومُ فِيهَا كَالْمَتَارَةِ الْعَظِيمَةِ تُلْقِي أَسْعَتَهَا مِنْ أَعْلَى الْجَوِّ إِلَى مَدَى بَعِيدٍ مِنَ الْأَفَاقِ ، لَا كِمَصْبَاحٍ مِنْ مَصَابِيحِ الشَّارِعِ !

وَحَالَةُ الْجُمْهُورِ عِنْدَنَا تَجْعَلُ الصَّحَافَةَ مَكَانًا طَبِيعِيًّا لِرَجُلِ السِّيَاسَةِ قَبْلَ غَيْرِهِ ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ السِّيَاسِيُّ هُوَ صَوْتُ الْحَوَادِثِ سَائِلًا وَمُجِيبًا ، ثُمَّ يَلِيهِ الرَّجُلُ شِبْهُ الْعَالِمِ ، ثُمَّ الرَّجُلُ شِبْهُ الْمُمَثِّلِ الْهَزْلِيِّ ... وَالْأَدِيبُ الْعَظِيمُ فَوْقَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا . غَيْرَ أَنَّهُ عِنْدَنَا فِي الصَّحَافَةِ وَرَاءَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا !

\* \* \*

وَلَمَّا قَرَعْتُ مِنْ طَوَائِفِي عَلَى دُورِ الصُّحُفِ جَاءَتْ هِيَ تَطْلُوفُ بِي فِي نَوْمِي ؛ فَرَأَيْتُنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ أَدْخُلُ إِحْدَاهَا لِأَهْدِي « وَخِي الْقَلَمِ » إِلَى الْأَدِيبِ الْمُتَخَصِّصِ فِيهَا لِلْكِتَابَةِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَدَلُونِي عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مَرْبُوعٌ ، مُسَوِّهُ الْخَلْقِ ، صَغِيرُ الرَّأْسِ ، دَقِيقُ الْعُنُقِ ، جَاحِظُ الْعَيْنَيْنِ ، تَدُورَانِ فِي مِخْجَرَيْهِمَا دَوْرَةٌ وَخَشِيَّةٌ كَأَنَّمَا رَعْبَتُهُ الْحَيَاةُ مُذْ كَانَ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، لِأَنَّهُ خُلِقَ لِلْإِحْسَاسِ وَالْوُصْفِ ، أَوْ كَأَنَّمَا رُكِبَ فِيهِ هَذَا النُّظَرُ السَّاحِرُ لِيَرَى أَكْثَرَ مِمَّا يَرَى غَيْرُهُ مِنْ أَسْرَارِ الشَّخَرِيَّةِ فَيَنْبُغُ فِي قُتُونِهَا ، أَوْ هُوَ قَدْ خُلِقَ بِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ الْجَاحِظَتَيْنِ دَلَالَةً عَلَيْهِ مِنَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِأَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ أُرْسِلَ لِتَدْقِيقِ النَّظَرِ .

وَقَالَ الَّذِي عَرَفَنِي بِهِ : حَضَرْتُهُ عَمَرُو أَفندي الْجَاحِظُ ... وَهُوَ أَدِيبُ الْجَرِيدَةِ .

قُلْتُ : شَيْخُنَا أَبُو عُمَانَ عَمَرُونِ بَخْرٍ ؟

فَضَحِكَ الْجَاحِظُ وَقَالَ : وَأَدِيبُ الْجَرِيدَةِ ، أَيُّ شَحَاذِ الْجَرِيدَةِ ، يَكْتُوبُ لَهَا كَمَا يَفْرَأُ الْقَارِئُ عَلَى صُرْنَجٍ ، بِالرَّغِيفِ وَالْجُبْنِ وَالْبَيْضِ وَالْقُرْشِ ..

قُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ ! كَيْفَ انْتَهَيْتَ يَا أَبَا عُمَانَ إِلَى هَذِهِ النَّهَائِيَّةِ وَكُنْتَ مِنْ أَعَاجِبِ الدُّنْيَا ؟ وَكَيْفَ خَبِتَ فِي الصَّحَافَةِ وَكُنْتَ رَأْسًا فِي الْكَلَامِ ؟

قَالَ : نَجَحْتُ أَخْلَافِي فَخَابَتْ آمَالِي ، وَلَوْ جَاءَ الْوَضْعُ بِالْعَكْسِ لَكَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ ؛ وَالْمُصِيبَةُ فِي هَذِهِ الصُّحُفِ أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا هُوَ قَانُونُ كُلِّ رَجُلٍ هُنَا .

قُلْتُ : وَذَاكَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مَا قَانُونُهُ ؟

قَالَ : لَهُ ثَلَاثَةُ قَوَائِنَ : الْجِهَاتُ الْعَالِيَةُ وَمَا يَسْتَوْحِيهِ مِنْهَا ، وَالْجِهَاتُ النَّازِلَةُ وَمَا يُوَحِيهِ إِلَيْهَا ، وَقَانُونُ الصَّلَاةِ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ وَهُوَ ..

قُلْتُ : وَهُوَ مَاذَا ؟

فَحَمَلَقَ فِيَّ وَقَالَ : مَا هَذِهِ الْبِلَادَةُ ؟ وَهُوَ الَّذِي « هُوَ » ... أَمَا تَرَى الصَّحِيفَةَ كَكُلِّ شَيْءٍ يُبَاعُ ؟ وَأَنْتَ فَخَبْرَتِي - وَلَكَ الدَّوْلَةُ وَالصُّوْلَةُ عِنْدَ الْقُرَاءِ - أَلَمْ تَرَ بَعَيْنَيْكَ أَنَّكَ لَوْ جِئْتَ تَدْفَعُ ثَمَانًا مِثَّةَ قُرْشٍ ، لَكُنْتَ فِي نَفْسِهِمْ أَعْظَمَ مِمَّا أَنْتَ وَقَدْ جِئْتَ تُهْدِي ثَمَانًا مِثَّةَ صَفْحَةٍ مِنَ الْبَيَّانِ وَالْأَدَبِ ؟

قُلْتُ : يَا أَبَا عُمَانَ ! فَمَاذَا تَكْتُبُ هُنَا ؟

قَالَ : إِنَّ الْكِتَابَةَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ صُورَةٌ مِنَ الرُّوَايَةِ ، فَمَاذَا تَرَى أَنْتَ فِي ... وَفِي ... وَفِي ... ؟ لَقَدْ كُنَّا نَرْوِي فِي الْحَدِيثِ : « يَكُونُ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالسِّتِيهِمْ كَمَا تَلْحَسُ الْأَرْضُ الْبَقْرَةَ بِلِسَانِهَا » [راجع «مسند أحمد» ، رقم : ١٥٢٠] ، فَلَعَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَلْسِنَةِ الطَّوِيلَةِ لِسَانُ صَاحِبِ الْجَرِيدَةِ ..

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ يَا شَيْخَنَا قَدْ نَسِيتَ الْقُرْآنَ وَحُكْمَهُمْ عَلَى الصَّحِيفَةِ .

قَالَ : الْقُرْآنُ مَا الْقُرْآنُ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقُرْآنُ ! وَهَلْ أَسَاسُ أَكْثَرِهِمْ إِلَّا بِلَادَةُ الْمَدَارِسِ ، وَسَخَافَةُ الْحَيَاةِ ، وَضَعْفُ الْأَخْلَاقِ ، وَكَذِبُ السِّيَاسَةِ ؟ إِنَّ الْإِبْدَاعَ كُلَّ الْإِبْدَاعِ فِي أَكْثَرِ مَا تَكْتُبُ هَذِهِ الصُّحُفُ ، أَنْ تَجْعَلَ الْكَذِبَ يَكْذِبُ بِطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ .. وَمَا دَامَ الْمُبْدَأُ هُوَ الْكَذِبُ فَالْمَطْهَرُ هُوَ الْهَزْلُ ، وَالنَّاسُ فِي حَيَاةٍ قَدْ مَاتَتْ فِيهَا الْمَعَانِي الشَّدِيدَةُ الْقُوَّةُ السَّامِيَّةُ ، فَهُمْ يُرِيدُونَ الصَّحَافَةَ الرَّخِيصَةَ ، وَاللُّغَةَ الرَّخِيصَةَ ، وَالْقُرَاءَةَ الرَّخِيصَةَ ؛ وَبِهَذَا أَصْبَحَ الْجَاحِظُ وَأَمَثَالُهُ هُمْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةُ) .

\* \* \*

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ، فَتَهَضَّ إِلَيْهِ ثُمَّ رَجَعَ بِعَيْنَيْنِ لَا يُقَالُ فِيهِمَا جَاحِظَتَانِ ، بَلْ خَارِجَتَانِ ... وَقَالَ : أَف ! « وَحِطْ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » [١١ سورة هود/ الآية : ١٦] .

« كَلَّا وَالَّذِي حَرَّمَ التَّرَيُّدَ عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَقَبِحَ التَّكَلُّفَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ ، وَبَهَرَجَ الْكَذَّابِينَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ، لَا يَطْلُ هَذَا إِلَّا مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ » (١) .

قُلْتُ : مَاذَا دَعَاكَ يَا أَبَا عُمَانَ ؟

قَالَ : وَبِحَقِّهَا صَحَافَةٌ ! قُلْ فِي عَمَلِكَ مَا قَالَ الْمَثَلُ : جَحَظَ إِلَيْهِ عَمَلُهُ (٢) .

(١) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .

(٢) يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي عَمَلِهِ رَأَى سُوءَ مَا صَنَعَ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ مَا الْقِصَّةُ ؟

قَالَ : وَبِحَقِّهَا صَحَافَةٌ ! وَقَالَ الْأَخْتَفُ : « أَرْبَعُ مَنْ كُرِّ فِيهِ كَانَ كَامِلًا ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِخَصْلَةٍ مِنْهُمْ كَانَ مِنْ صَالِحِي الْقَوْمِ : دِينَ يُرْشِدُهُ ، أَوْ عَقْلٌ يُسَدِّدُهُ ، أَوْ حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أَوْ حَيَاءٌ يَنْقَاهُ » . وَقَالَ : « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ أَرْبَعٍ : مُؤْمِنٌ يُحْسِنُهُ ، وَمُتَأَفِّقٌ يُبْغِضُهُ ، وَكَافِرٌ يُجَاهِدُهُ ، وَشَيْطَانٌ يُفْتِنُهُ . وَأَرْبَعٌ لَيْسَ أَقَلُّ مِنْهُمْ : الْيَقِينُ ، وَالْعَدْلُ ، وَدِرْهَمٌ حَلَالٌ ، وَأَخٌ فِي اللَّهِ » . وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ (١) ...

قُلْتُ : يَا شَيْخَنَا ، دَعْنَا الْآنَ مِنَ الرُّوَايَةِ وَالْحِفْظِ وَالْحَسَنِ وَالْأَخْتَفِ ؛ فَمَاذَا دَعَاكَ عِنْدَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ؟

قَالَ : لَمْ أَحْسِنِ الْمُهَارَاةَ فِي الْمَقَالِ الَّذِي كَتَبْتُهُ الْيَوْمَ .. وَيَقُولُ رَئِيسُ التَّخْرِيرِ : إِنَّ نِصْفَ التَّمْوِيهِ رَذِيلَةٌ ؟ فَإِنَّ نِصْفَهُ الْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَمْوِيَةٌ . وَيَقُولُ : إِنَّ سُمُو الْكِتَابَةِ أَنْحِطَاطٌ فَصِيحٌ ، لِأَنَّ الْقُرَاءَ فِي هَذَا الْعَهْدِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَدِرَاسَةِ كُتُبِ الْعُلَمَاءِ وَالْفُصَحَاءِ ، بَلْ مِنْ الرُّوَايَاتِ وَالْمَجَلَّاتِ الْهَزْلِيَّةِ . وَحِفْظُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامُ الْعُلَمَاءِ يَضَعُ فِي النَّفْسِ قَانُونُ النَّفْسِ ؛ وَيَجْعَلُ مَعَانِيهَا مُهَيَّأَةً بِالطَّبِيعَةِ لِلِاسْتِجَابَةِ لِبَلَدِ الْمَعَانِي الْكَبِيرَةِ فِي الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْجِدِّ وَالْقُوَّةِ ؛ وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُ الرُّوَايَاتُ وَالْمَجَلَّاتُ وَصُورُ الْمُثَلَّثَاتِ وَالْمُعْتَبَاتِ وَخَبَرُ الطَّالِبِ فَلَانٍ وَالطَّالِبَةِ فَلَانَةٍ وَالْمَسَارِحِ وَالْمَلَاهِي ؟

وَيَقُولُ رَئِيسُ التَّخْرِيرِ : إِنَّ الْكَاتِبَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ نَفْسَهُ : مَا يَقُولُ عَنِّي فِي النَّارِخِ ؟ هُوَ كَاتِبُ الصَّحَافَةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، لِأَنَّ الْقُرُوشَ هِيَ الْقُرُوشُ ، وَالنَّارِخُ هُوَ النَّارِخُ ؛ وَمَطْبَعَةُ الصَّحِيفَةِ النَّاجِحَةُ هِيَ بِنْتُ خَالَةِ مَطْبَعَةِ الْبَنكِ الْأَهْلِيِّ ؛ وَلَا يَتَحَقَّقُ نَسَبٌ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي إِخْرَاجِ الْوَرَقِ الَّذِي يُصْرَفُ كُلُّهُ وَلَا يُرَدُّ مِنْهُ شَيْءٌ !

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِظْهَارَ الْمَخَازِيِ مَكْتُوبَةٍ ، كَحَوَادِثِ الْفُجُورِ وَالسَّرِقَةِ وَالْقَتْلِ وَالْعِشْقِ

(١) هَذِهِ طَرِيقَةُ الْجَاحِظِ بِخَلْطِ الْكَلَامِ دَائِمًا بِالْقَلْبِ .

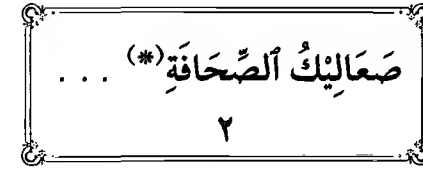
وَعَبْرَهَا ؛ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَخْبَارٌ تُرَوَّى وَتُقَصُّ لِلْحِكَايَةِ أَوْ الْعِبَرَةِ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا أَخْبَارُهُمْ إِلَى أَغْصَابِ الْقُرَاءِ ...

\* \* \*

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ..

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



وَعَابَ شَيْخُنَا أَبُو عُثْمَانَ عِنْدَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ بَعْضَ سَاعَةٍ ، ثُمَّ رَجَعَ تَدَوُّرُ عَيْنَاهُ فِي جِحَاطَيْهِمَا وَقَدْ أَكْفَهَرَ وَجْهُهُ وَعَبَسَ كَأَنَّمَا يَجْرِي فِيهِ الدَّمُ الْأَسْوَدُ لَا الْأَحْمَرُ ، وَهُوَ يَكَادُ يَنْشُقُّ مِنَ الْغَيْظِ ، وَبَعْضُهُ يَغْلِي فِي بَعْضِهِ كَالْمَاءِ عَلَى النَّارِ ؛ فَمَا جَلَسَ حَتَّى جَاءَتْ دُبَابَتَانِ فَوَقَعَتَا عَلَى كَتَفَيْ أَنْفِهِ تَتِمَّانِ كَابَةً وَجْهَهُ الْمُسَوَّهَ ، فَكَانَ مَنْظَرُهُمَا مِنْ عَيْنَيْهِ السُّودَاوَيْنِ الْجَاحِظَتَيْنِ مَنْظَرَ دُبَابَتَيْنِ وَلَدَتَا مِنْ دُبَابَتَيْنِ ...

وَتَرَكَهُمَا الرَّجُلُ لِمَا بِهِمَا وَسَكَتَ عَنْهُمَا ؛ فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! هَاتَانِ دُبَابَتَانِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ الدُّبَابَ يَحْمِلُ الْعَدَوَى .

فَضَحِكَ ضِحْكَةً الْمَغِيْظِ ، وَقَالَ : إِنَّ الدُّبَابَ هُنَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَطْبَعَةِ لَا مِنَ الطَّبِيعَةِ . فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْجَرَائِدِ حَشَرَاتٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ : مِنْهَا مَا يُسْتَفْذَرُ ، وَمَا تَنْقَلِبُ لَهُ النَّفْسُ ، وَمَا فِيهِ الْعَدَوَى ، وَمَا فِيهِ الضَّرَرُ ؛ وَمَا بُدِّ أَنْ يَغْتَادَ الْكَاتِبُ الصَّحَافِيُّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى بَعْضِ الْقَوْلِ مِثْلَ مَا يَغْتَادُ الْفَقِيرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى بَعْضِ الْحَشَرَاتِ فِي نِيَابِهِ ؛ وَقَدْ يُرِيدُهُ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٩٠ ، ١١ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٢ فبراير / شباط ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٢٩٣ - ٢٩٥ .

صَاحِبُ الْحَرِيدَةِ أَوْ رَئِيسُ التَّخْرِيرِ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ كَلَامًا لَوْ أَعْفَاهُ مِنْهُ وَأَرَادَهُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ الْقَمَلَ وَالْبَرَاعِيْنَ مِنْ أَهْدَامِ الْفُقَرَاءِ وَالصَّعَالِيكِ بِقَدَرٍ مَا يَمْلَأُ مَقَالَةً .. كَانَ أَخَفَّتْ عَلَيْهِ وَأَهْوَنَ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَصْرَحَ فِي مَعْنَى الطَّلَبِ وَالتَّكْلِيفِ <sup>(١)</sup> .

وَكَيْفَمَا دَارَ الْأَمْرُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ الصُّخْفِ لَوْ مَسَحَهُ اللَّهُ شَيْئًا غَيْرَ الْحُرُوفِ الْمَطْبُوعَةِ ، لَطَارَ كُلُّهُ دُبَابًا عَلَى وَجْهِ الْقُرَاءِ !

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ ذَهَبْتَ مُتَطَلِّقًا إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ وَرَجَعْتَ مُتَعَقِّدًا ، فَمَا الَّذِي أَتَكَرَّرَ مِنْهُ ؟

قَالَ : « لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَسْتَهْنِيهِ الْغَرِيرُ وَالْجَاهِلُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، لَبَطَلَ النَّظَرُ وَمَا يَسْخَدُ عَلَيْهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَلَتَعَطَّلَ الْأَرْوَاحُ مِنْ مَعَانِيهَا وَالْعُقُولُ مِنْ نِمَارِهَا ، وَلَعَدِمَتِ الْأَشْيَاءُ حُطُوطُهَا وَحُقُوفُهَا » <sup>(٢)</sup> . هُنَاكَ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَغْنِيِّينَ بِالسِّيَاسَةِ كَمَا هِيَ السِّيَاسَةُ فِي هَذَا الْبَلَدِ ... يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْحَوَادِثِ غَيْرَ مَعَانِيهَا ، وَيَرْبِطُ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ بِأَسْبَابٍ غَيْرِ أَسْبَابِهَا ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا نَتَائِجَ غَيْرِ نَتَائِجِهَا ، وَيُلْفِقُ لَهَا مِنَ الْمَنْطِقِ رُفْعًا كَهَذَا الرُّفْعِ فِي الثُّوبِ الْمَفْتُوقِ ؛ ثُمَّ لَا يَرْضَى إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِذَلِكَ رَدًّا عَلَى جَمَاعَةٍ خُصُومِهِ وَهِيَ رَدُّ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمَاعَتِهِ ، وَلَا يَرْضَى مَعَ الرَّدِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَالْأَعَاصِيرِ تَذْفَعُ مِثْلَ تِيَارِ الْبَحْرِ فِي الْمُسْتَنْقَعِ الرَّائِدِ .

ثُمَّ لَمْ يَجِدْ لَهَا رَئِيسَ التَّخْرِيرِ غَيْرَ عَمِّكَ أَبِي عُثْمَانَ فِي لَطَافَةِ حِسِّهِ وَقُوَّةِ طَبِيعِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ وَأَقْتِدَارِهِ عَلَى الْمَعْنَى وَضِدِّهِ ، كَانَ أَبَا عُثْمَانَ لَيْسَ عِنْدَهُ مِمَّنْ يُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَلَا مِنَ الْمُمَرِّينَ فِي الرَّأْيِ ، وَلَا مِنَ الْمُسْتَدِلِّينَ بِالذَّلِيلِ ، وَلَا مِنَ النَّاطِرِينَ بِالْحُجَّةِ ؛ وَكَانَ أَبَا عُثْمَانَ هَذَا رَجُلٌ حُرُوفِيٌّ ... كَحُرُوفِ الْمَطْبَعَةِ : تَرْفَعُ مِنْ طَبَقَةٍ وَتُوضَعُ فِي طَبَقَةٍ وَتَكُونُ عَلَى مَا شِئْتَ ، وَأَدْنَى حَالِهَا أَنْ تُمَدَّ إِلَيْهَا الْيَدُ فَإِذَا هِيَ فِي يَدِكَ .

وَأَنَا أَمْرٌ سَيِّئٌ فِي نَفْسِي ، وَأَنَا رَجُلٌ صِدْقِي ، وَلَسْتُ كَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَتَأَنَّمُونَ وَلَا

(١) هَذِهِ طَرِيقَةُ الْجَاحِظِ فِي الْإِغْرَاقِ حِينَ يَهْتَكُمُ .

(٢) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .



يَتَذَمُّونَ ؛ فَإِنْ خُضْتُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْتَقَضَ طَبِيعِي وَضَعُفَتْ اسْتَطَاعَتِي وَتَبَيَّنَ النِّقْصُ فِيمَا أَكْتُبُ ، وَنَزَلْتُ فِي الْجِهَتَيْنِ ؛ فَلَا يَطْرُدُ إِلَيَّ الْقَوْلُ عَلَى مَا يَرْجُو ، وَلَا يَسْتَوِي عَلَى مَا أَحِبُّ ؛ فَذَهَبَتْ أُنَاقِضُهُ وَأَرُدُّ عَلَيْهِ ؛ فَبُهِتَ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِي وَجْهِي ، كَانَ الْكَاتِبُ عِنْدَهُ خَادِمٌ رَأَيْهِ كَخَادِمٍ مَطْبَخِهِ وَطَعَامِهِ ، هَذَا مِنْ هَذَا !

ثُمَّ قَالَ لِي : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أُعْتَقَكَ ؛ وَبِهَذَا الْقَوْلِ لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يَعْتَفَ أَبَا عُثْمَانَ ... وَلَهَمْتُ وَاللهُ أَنْ أُشِدهُ قَوْلَ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ [من الكامل] :

أَكْلَيْتُ ... مَا لَكَ كُلَّ يَوْمٍ ظَالِمًا وَالظُّلُمُ أَنْكَدُ وَجْهَهُ مَلْعُونُ ...  
لَوْلَا أَنْ ذَكَرْتُ قَوْلَ الْآخِرِ [من الطويل] :

وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يَغْطِ سَمْعًا وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرُ حَزِّ الْغَلَاصِمِ  
وَحَزُّ الْغَلَاصِمِ « وَقَطْعُ الدَّرَاهِمِ » مِنْ قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ ...

وَقَالَ سَعِيدُ ابْنِ أَبِي عَرُوبَةَ : « لَأَنْ يَكُونَ لِي نِصْفُ وَجْهِ وَنِصْفُ لِسَانٍ عَلَى مَا فِيهِمَا مِنْ قُبْحِ الْمَنْظَرِ وَعَجْزِ الْمَخْبِرِ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ ذَا وَجْهَيْنِ وَذَا لِسَانَيْنِ وَذَا قَوْلَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ » .

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتَيَانِيُّ ...

وَهُمْ شَيْخُنَا أَنْ يَمُرَّ فِي الْحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ عَلَى طَرِيقَتِهِ ، فَقُلْتُ : وَقَالَ رَئِيسُ التَّخْرِيرِ ... ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَمَّا رَئِيسُ التَّخْرِيرِ فَيَقُولُ : إِنَّ الْخَلَابَةَ وَالْمُؤَارَبَةَ وَتَقْلِيْبَ الْمَنْطِقِ هِيَ كُلُّ الْبَلَاغَةِ فِي الصَّحَافَةِ الْحَدِيثَةِ ، وَلَهَايَ كَقَلْبِ الْأَعْيَانِ فِي مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَكَمَا انْقَلَبَتِ الْعَصَا حَيَّةً تَسْعَى ، وَهِيَ عَصَا وَهِيَ مِنَ الْخَشَبِ ، فَكَذَلِكَ تَنْقَلِبُ الْحَادِثَةُ فِي مُعْجَزَاتِ الصَّحَافَةِ إِذَا تَعَاطَاهَا الْكَاتِبُ الْبَلِيغُ بِالْفُطَيْتِ الْعَجِيبَةِ وَالْمَنْطِقِ الْمُلَوَّنِ وَالْمَعْرِفَةِ بِأَسَالِيْبِ السِّيَاسَةِ ؛ فَتَكُونُ لِلتَّهْوِيلِ وَهِيَ فِي ذَاتِهَا أَطْمِثَتَانُ ، وَلِلتَّهْمَةِ وَهِيَ فِي نَفْسِهَا بَرَاءَةٌ ؛ وَلِلْجَنَائَةِ وَهِيَ فِي مَعْنَاهَا سَلَامَةٌ ؛ وَلَوْ نَفَخَ الصَّحَافِيُّ الْحَادِثُ فِي قَضِيَّةٍ مِنَ الثَّرَابِ لَاسْتَطَارَتْ مِنْهَا الْكَثَارُ وَأَرْتَفَعَ لَهَا الْأَخْمَرُ فِي دُخَانِهَا الْأَسْوَدِ . قَالَ : وَإِنَّ هَذَا الْمَنْطِقَ الْمُلَوَّنَ فِي السِّيَاسَةِ إِنَّمَا هُوَ إِتْقَانُ الْجِيْلَةِ عَلَى أَنْ يُصَدِّقَكَ النَّاسُ ؛ فَإِنَّ الْعَامَّةَ

وَأَشْبَاهُ الْعَامَّةِ لَا يُصَدِّقُونَ الصَّدْقَ لِنَفْسِهِ ، وَلَكِنْ لِلْغَرَضِ الَّذِي يُسَاقُ لَهُ ، إِذْ كَانَ مَدَارُ الْأَمْرِ فِيهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَأَذْفُهُمْ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ بِالْكَذِبِ فَلَنْ يَغْرِفُوهُ إِلَّا صِدْقًا وَفَوْقَ الصَّدْقِ ، وَهُمْ مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ يَقِيمُونَ الْبَرَاهِينَ الْعَجِيبَةَ وَيُسَاعِدُونَ بِهَا مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِمْ مَتَى أَحْكَمَ الْكَذِبَ ، لِيُحَقِّقُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ بَحْنُوا وَنَظَرُوا وَدَقَّقُوا ...

ثُمَّ قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَمَعْنَى هَذَا كُلِّهِ أَنَّ بَعْضَ دُورِ الصَّحَافَةِ لَوْ كَتَبَتْ عِبَارَةً صَرِيحَةً لِلإِعْلَانِ لَكَانَتْ الْعِبَارَةُ هَكَذَا : سِيَاسَةُ لِلْبَيْعِ ...

\* \* \*

قُلْتُ : يَا شَيْخَنَا ! فَإِنَّكَ هُنَا عِنْدَهُمْ لَتَكْتُبَ كَمَا يَكْتُمُونَ ، وَمَقَالَاتُ السِّيَاسَةِ الْكَادِيَةِ كَرَسَائِلِ الْحُبِّ الْكَاذِبِ : تُقْرَأُ فِيهَا مَعَانٍ لَا تُكْتُبُ ، وَيَكُونُ فِي عِبَارَتِهَا حَيَاءٌ وَفِي ضَمْنِهَا طَلَبٌ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ .. وَالْحَوَادِثُ عِنْدَهُمْ عَلَى حَسَبِ الْأَوَاقَاتِ ، فَلَا يُبَيِّضُ أَسْوَدُ فِي اللَّيْلِ ، وَالْأَسْوَدُ أَيْضُ بِالنَّهَارِ ؛ أَلَمْ تَرَ إِلَى فَلَانٍ كَيْفَ يَصْنَعُ وَكَيْفَ لَا يُعْجِزُهُ بُرْهَانٌ وَكَيْفَ يُخْرِجُ الْمَعَانِي ؟

قَالَ : بَلَى ! نَعَمْ الشَّاهِدُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ ! إِنَّهُمْ مُصَدِّقُونَ حَتَّى فِي تَارِيخِ حَفْرِ زَمْزَمَ .

قُلْتُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ بَعْضِ الْقَضَاةِ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ ، فَأَرَادَ هَذَا أَنْ يُجَرِّحَ شَهَادَتَهُ ، فَقَالَ لِلْقَاضِي : أَتَقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ رَجُلٌ يَمْلِكُ عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يُحْجِ إِلَى بَيْتِ اللهِ ؟ فَقَالَ الشَّاهِدُ : بَلَى قَدْ حَجَجْتُ . قَالَ الْخَصْمُ : فَاسْأَلْهُ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ زَمْزَمَ كَيْفَ هِيَ ؟ قَالَ الشَّاهِدُ : لَقَدْ حَجَجْتُ قَبْلَ أَنْ تُخَفَّرَ زَمْزَمُ فَلَمْ أَرَهَا ...

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : فَهَلْ هِيَ طَرِيقَةٌ بَعْضُهُمْ فِيمَا يُرْكِي بِهِ نَفْسَهُ ؛ يَنْزِلُونَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ ارْتَفَعُوا عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّغْيِيرِ ، إِذْ كَانَتْ الْحَيَاةُ السِّيَاسِيَّةُ جَدَلًا فِي الصُّحُفِ لِنَفْيِ الْمُنْفِيِّ وَإِتْبَاتِ الْمُثْبِتِ ، لَا عَمَلًا يَعْمَلُونَهُ بِالْثَقَلِ وَالْإِنْبَاتِ . وَمَتَى اسْتَقَلَّتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَجَبَ تَغْيِيرُ هَذِهِ الصَّحَافَةِ وَإِعْزَازُهَا عَلَى الصَّدْقِ ، فَلَا يَكُونُ الشَّأْنُ حِينَئِذٍ فِي إِطْلَاقِ الْكَلِمَةِ الصَّحَافِيَّةِ إِلَّا مِنْ مَعْنَاهَا الْوَاقِعِ .

وَالْحَيَاةُ الْمُسْتَقْبَلَةُ ذَاتُ قَوَاعِدَ وَقَوَائِنَ دَقِيقَةٍ لَا يُتْرَكُ خَصُّ فِيهَا مَا دَامَ أَساسُهَا إِنْجَادَ الْقُوَّةِ وَحِياطَةُ الْقُوَّةِ وَإِعْمَالُ الْقُوَّةِ ، وَمَا دَامَتْ طَبِيعَتُهَا قَائِمَةً عَلَى جَعْلِ أَخْلَاقِ الشَّعْبِ حَاكِمَةً لَا مَحْكُومَةً ؛ وَقَدْ كَانَ الْعَمَلُ السِّيَاسِيُّ إِلَى الْآنَ هُوَ إِنْجَادُ الضَّعْفِ وَحِياطَةُ الضَّعْفِ وَبَقَاءُ الضَّعْفِ ؛ فَكَانَتْ قَوَاعِدُنَا فِي الْحَيَاةِ مَغْلُوبَةً ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْخَلْقُ الْقَوِيُّ الصَّحِيحُ هُوَ الشَّادُّ النَّادِرُ يَظْهَرُ فِي الرَّجُلِ بَعْدَ الرَّجُلِ وَالْفَتْرَةُ بَعْدَ الْفَتْرَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ عِنْدَنَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُتَنَافِي أَكْثَرَ مِنَ الْحُرِّ ، وَمِنَ الْكَاذِبِ أَكْثَرَ مِنَ الصَّادِقِ ، وَمِنَ الْمُتَمَارِي أَكْثَرَ مِنَ الصَّرِيحِ ؛ فَلَا جَرَمَ أَنْ تَقَعَتِ الْأَلْقَابُ فَوْقَ حَقَائِقِهَا ، وَصَارَتْ تُعَوِّثُ الْمُتَنَاصِبِ وَكَلِمَاتُ « بَاشَا وَبِكْ » مِنَ الْكَلَامِ الْمُقَدَّسِ صَحَافِيًا ..

يَا لِعِبَادِ اللَّهِ ! يَا تُبَنِّهِمْ. اسْمُ الْأَدِيبِ الْعَظِيمِ فَلَا يَجِدُونَ لَهُ مَوْضِعًا فِي « مَحَلِّيَّاتِ الْجَرِيدَةِ » ؛ وَيَأْتِيهِمْ اسْمُ الْبَاشَا أَوْ الْبِكْ أَمْ صَاحِبِ الْمَنْصِبِ الْكَبِيرِ ، فِيمَاذَا تَشْرِفُ « الْمَحَلِّيَّاتِ » إِلَّا بِهِ ؟ وَهَذَا طَبِيعِيٌّ ، وَلَكِنْ فِي طَبِيعَةِ التَّفَاقُ ؛ وَهَذَا وَاجِبٌ ، وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ الْخُضُوعُ هُوَ الْوَاجِبُ ؛ وَلَوْ أَنَّ لِلْأَدِيبِ وَزْنَ فِي مِيزَانِ الْأُمَّةِ لَكَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي مِيزَانِ الصَّحَافَةِ ، فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الصَّحَافَةَ هُنَا هِيَ صُورَةٌ مِنَ عَامِيَّةِ الشَّعْبِ لَيْسَ غَيْرُ .. وَمَنْ ذَا الَّذِي يُصَحِّحُ مَعْنَى الشَّرَفِ الْعَامِلِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَارِيخِهَا ، وَأَكْثَرُ الْأَلْقَابِ عِنْدَنَا هِيَ أَغْلَاطٌ فِي مَعْنَى الشَّرَفِ .. ؟

ثُمَّ ضَحِكَ أَبُو عُثْمَانَ وَقَالَ : زَعَمُوا أَنَّ ذُبَابَةَ وَقَعَتْ فِي بَارِجَةِ (أَمِيرَانَ) إِنْكِلَبِي فِي أَيَّامِ الْحَرْبِ الْعُظْمَى ، فَرَأَتْ الْقَائِدَ الْعَظِيمَ وَقَدْ نَشَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ دَرَجًا مِنَ الْوَرَقِ وَهُوَ يَخْطُطُ فِيهِ رِسْمًا مِنْ رُسُومِ الْحَرْبِ ، وَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ يُلْقِي النُّقْطَةَ بَعْدَ النُّقْطَةِ مِنَ الْيَدَادِ وَيَقُولُ : هَذِهِ مَدِينَتُهُ كَذَا ، وَهَذَا حِصْنُ كَذَا ، وَهَذَا مِيدَانُ كَذَا . قَالُوا : فَسَجَرَتْ مِنْهُ الذُّبَابَةُ وَقَالَتْ : مَا أَيْسَرَ هَذَا الْعَمَلُ وَمَا أَخَفَّ وَمَا أَهْوَنَ ! ثُمَّ وَقَعَتْ عَلَى صَفْحَةٍ بَيْضَاءَ وَجَعَلَتْ تُلْقِي وَرَنِمَهَا<sup>(١)</sup> هُنَا وَهَنَا ، وَتَقُولُ : هَذِهِ مَدِينَتُهُ ، وَهَذَا حِصْنُ ..

\* \* \*

وَالْتَفَتَ الْجَاحِظُ كَأَنَّمَا تَوَهَّم الْجَرَسَ يَدُقُّ .. فَلَمَّا لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا ، قَالَ : لَوْ أَنَّي أَصْدَرْتُ صَحِيفَةً يَوْمِيَّةً لَسَمَّيْتُهَا (الْكَاذِبُ) فَهَهُمَا أَكْذَبَ عَلَى النَّاسِ فَقَدْ صَدَقْتُ فِي الْأَسْمِ ، وَمَهُمَا أَخْطِئُ فَلَنْ أُخْطِئَ فِي وَضْعِ التَّفَاقُ تَحْتَ عُثْوَانِهِ .

قَالَ : ثُمَّ أَخْطُ تَحْتَ اسْمِ الْجَرِيدَةِ ثَلَاثَةَ أَشْطُرٍ بِالْخَطِّ الثُّلُثِ هَذَا نَصُّهَا :

مَا هِيَ عِزَّةُ الْأَذْلَاءِ ؟ هِيَ الْكَذِبُ الْهَازِلُ .

مَا هِيَ قُوَّةُ الضَّعْفَاءِ ؟ هِيَ الْكَذِبُ الْمُكَابِرُ .

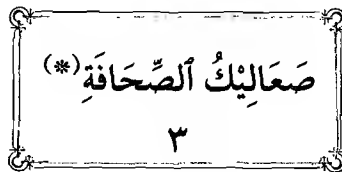
مَا هِيَ فَضِيلَةُ الْكَذَّابِينَ ؟ هِيَ اسْتِمْرَارُ الْكَذِبِ .

قَالَ : ثُمَّ لَا يُحَرَّرُ فِي جَرِيدَتِي إِلَّا « صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ » مِنْ أُنْثَالِ الْجَاحِظِ ، ثُمَّ أَكْذَبَ عَلَى أَهْلِ الْمَالِ فَأَمَجَّدَ الْفُقَرَاءَ الْعَامِلِينَ ، وَعَلَى رِجَالِ الشَّرَفِ فَأَعْظَمَ الْعُمَمَالَ الْمَسَاكِينَ ، وَعَلَى الْأَلْقَابِ فَأَقْدَمَ الْأَدْبَاءَ وَالْمُؤَلِّفِينَ ، وَ ...

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ أَبُو عُثْمَانَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ فِي عَمَلٍ وَأَدَائِهِ ، بَلْ كَانَ عِنْدَ رَئِيسِ الشَّرْطَةِ فِي جَنَائِيهِ وَعِقَابِهَا ، فَظَهَرَ مُنْقَلِبُ السَّحْنَةِ انْقِلَابًا دَمِيمًا شَوْهَ تَشْوِينِهِ وَزَادَ فِيهِ زِيَادَاتٌ .. وَرَأَيْتُهُ مَغْطُوطَ الْوُجْهِ مَطًّا شَنِيعًا بَدَتْ فِيهِ عَيْنَاهُ الْجَاحِظَتَانِ كَأَنَّهُمَا غَيْرُ مُسْتَقَرَّتَيْنِ فِي وَجْهِهِ ، بَلْ مُعَلَّقَتَانِ عَلَى جَبْهَتِهِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٩١ ، ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٣٢٦ - ٣٢٨ .

(١) وَرَنِمُ الذُّبَابِ : هُوَ ... أَيْ : هَذِهِ النُّقْطَةُ الشَّوْدُ الَّتِي يُخْدِنُهَا .

وَجَعَلَ يَضْرِبُ إِحْدَى يَدَيْهِ بِالْأُخْرَى وَيَقُولُ : هَذَا بَابٌ عَلَى حِدَةٍ فِي الْأَمْتِحَانِ وَالْبَلَوَى ، وَمَا فِيهِ إِلَّا الْمَوَؤُةُ الْعَظِيمَةُ وَالْمَسْفَةُ الشَّدِيدَةُ ، وَالْعَمَلُ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ إِنَّمَا هُوَ امْتِحَانُكَ بِالصَّبْرِ عَلَى اثْنَيْنِ : عَلَى ضَمِيرِكَ ، وَعَلَى رَيْنِسِ التَّخْرِيرِ ! « وَسَأَلَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا أَبَا لُقْمَانَ الْمَمْرُورَ عَنِ الْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَرَّأُ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : الْجُزْءُ الَّذِي لَا يَتَجَرَّأُ عَلَيَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَيْنَاءِ مُحَمَّدٌ : أَفَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ جُزْءٌ لَا يَتَجَرَّأُ غَيْرُهُ ؟ قَالَ : بَلَى حَمْرَةُ جُزْءٌ لَا يَتَجَرَّأُ ... قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ ؟ قَالَ : أَبُو بَكْرٍ يَتَجَرَّأُ ... قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ ؟ قَالَ : يَتَجَرَّأُ مَرَّتَيْنِ . وَالزُّبَيْرُ يَتَجَرَّأُ مَرَّتَيْنِ ... قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ فِي مُعَاوِيَةَ ؟ قَالَ : لَا يَتَجَرَّأُ .

فَقَدْ فَكَّرْنَا فِي تَأْوِيلِ أَبِي لُقْمَانَ حِينَ جَعَلَ الْأَنَامَ أَجْزَاءً تَتَجَرَّأُ إِلَى أَبِي شَيْءٍ ذَهَبَ ؟ فَلَمْ نَقَعْ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَبُو لُقْمَانَ كَانَ إِذَا سَمِعَ الْمُتَكَلِّمِينَ يَذْكُرُونَ الْجُزْءَ الَّذِي لَا يَتَجَرَّأُ ، هَالَهُ ذَلِكَ وَكَبُرَ فِي صَدْرِهِ وَتَوَهَّمَ أَنَّهُ الْبَابُ الْأَكْبَرُ مِنْ عِلْمِ الْفَلَسَفَةِ ، وَأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا عَظُمَ خَطَرُهُ سَمَّوْهُ بِالْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَرَّأُ <sup>(١)</sup> .

قُلْتُ : وَرَجَعَ بِنَا الْقَوْلَ إِلَى رَيْنِسِ التَّخْرِيرِ ...

فَضَحِكَ حَتَّى اسْفَرَ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رَيْنِسَ التَّخْرِيرِ قَدْ تَلَقَّى السَّاعَةَ أَمْرًا بِأَنَّ الْجُزْءَ الَّذِي لَا يَتَجَرَّأُ الْيَوْمَ هُوَ فَلَانٌ ؛ وَأَنَّ فَلَانًا الْآخَرَ يَتَجَرَّأُ مَرَّتَيْنِ ... وَأَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي يُنَى عَلَيْهِ رَأْيِي الصَّحِيفَةُ فِي هَذَا الْفَهَارِ هُوَ شَأْنٌ كَذَا فِي عَمَلٍ كَذَا ؛ وَأَنَّ هَذَا الْخَبَرَ يَجِبُ أَنْ يُصَوَّرَ فِي صِبْغَةٍ ثَلَاثِمِ جُوعِ الشَّعْبِ فَتَجْعَلُهُ كَالْخَبْرِ الَّذِي يَطْعُمُهُ كُلُّ النَّاسِ ، وَتُثِيرُ لَهُ شَهْوَةَ فِي الثُّمُوسِ كَشَهْوَةِ الْأَكْلِ ، وَطَبِيعَةَ كَطَبِيعَةِ الْهَضْمِ ... وَقَدْ رَمَى إِلَيَّ رَيْنِسُ التَّخْرِيرِ بِجُمْلَةِ الْخَبَرِ ، وَعَلَيَّ أَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ أَضْرِمَ النَّارَ وَأَنْ أَجْعَلَ الثَّرَابَ دَقِيقًا أَيْضًا يُعْجِنُ وَيُخَبِّرُ وَيُؤْكَلُ وَيَسْوَعُ فِي الْحَلِيِّ وَتَسْتَمِرُّهُ الْمَعِدَةُ وَيَسْرِي فِي الْعُرُوقِ .

وَإِذَا أَنَا كَتَبْتُ فِي هَذَا أَحْتَجُّ مِنَ التَّرْفِيعِ وَالتَّمْوِينِ ، وَمِنَ التَّدْلِيلِ وَالتَّغْلِيظِ ، وَمِنَ الْخَبِّ وَالْمَكْرِ ، وَمِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ - إِلَى مِثْلِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الرَّزْدِيُّ وَالْذَهْرِيُّ وَالْمَعْطَلُ

(١) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .

فِي إِقَامَةِ الْبُرْهَانَاتِ عَلَى صِحَّةِ مَذْهَبِ عَرَفَ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّهُ فَاسِدٌ بِالضَّرُورَةِ إِذْ كَانَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، أَنَّهُ فَاسِدٌ ؛ وَأَيْنَ تَرَى إِلَّا فِي تِلْكَ التَّحِلِّ وَفِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ أَنْ يُنْكَرَ الْمُتَكَلِّمُ وَهُوَ عَارِفٌ أَنَّهُ مُنْكَرٌ ، وَأَنْ يَجْتَرِيَ وَهُوَ مُوقِنٌ أَنَّهُ مُجْتَرِيٌّ ، وَيُكَابِرُ وَهُوَ وَاقِعٌ أَنَّهُ يُكَابِرُ ؟ فَقَدْ ظَهَرَ تَقْدِيرٌ مِنْ تَقْدِيرِ ، وَعَمَلٌ مِنْ عَمَلٍ ، وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذْهَبٍ ؛ وَالْآفَةُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْإِفْتِنَاعِ وَالْجَدَلِ وَالْمُعَاظَلَةِ إِلَّا الْحَقَائِقَ الْمُؤَكَّدَةَ ؛ يَأْخُذُونَهَا إِذَا وَجَدَتْ وَيَضَعُونَهَا إِنْ لَمْ تَوْجَدْ ، إِذْ كَانَ التَّائِيذُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجَعْلِ الْقَارِي كَالْحَالِمِ : يَمْلِكُهُ الْفِكْرُ وَلَا يَمْلِكُ هُوَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَيُلْقَى إِلَيْهِ وَلَا يَمْنَعُ ، وَيُعْطَى وَلَا يَرُدُّ عَلَى مَنْ أَعْطَاهُ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ مَا هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَرَادُوكَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مِنْ تُرَابِهِ دَقِيقًا أَيْضًا ؟

قَالَ : هُوَ بِعَيْنِهِ ذَلِكَ الشَّأْنُ الَّذِي كَتَبْتُ فِيهِ لِهَذِهِ الصَّحِيفَةِ نَفْسَهَا ، أَنْقَضَهُ وَأَسْفَهَهُ وَأَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ جُزْءًا يَتَجَرَّأُ ... فَإِنْ صَنَعْتُ الْيَوْمَ بِلَاغَتِي فِي تَأْيِيدِهِ وَتَرْيِينِهِ وَالْإِشَادَةِ بِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا كَاسِرًا لِي ، وَلَا حَائِلًا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَاتِ نَفْسِي - فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْجَاحِظُ تَكْذِيبًا لِلْجَاحِظِ ، أَوْ لَوْ وُضِعَ الرَّادِّيُّ فِي غُرْفِ رُؤَسَاءِ التَّخْرِيرِ لِيَسْمَعَ النَّاسُ ...

قُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! هَذَا كَقَوْلِكَ : لَوْ وُضِعَ الرَّادِّيُّ فِي غُرْفِ قُوَادِ الْجَبُوشِ أَوْ رُؤَسَاءِ الْحُكُومَاتِ .

قَالَ : لَيْسَ هَذَا مِنْ هَذَا ، فَإِنَّ لِلْجَبِشِ مَعْنَى غَيْرَ الْحَذَقِ فِي تَذْيِيرِ الْمَعَاشِ وَالتَّكْشِبِ وَجَمْعِ الْمَالِ ؛ وَفِي أَسْرَارِهِ أَسْرَارُ قُوَّةِ الْأُمَّةِ وَعَمَلُ قُوَّتِهَا ؛ وَلِلْحُكُومَةِ دَخَائِلُ سِيَاسِيَّةٌ لَا يُحَرِّكُهَا أَنْ فَلَانًا أَرْفَعَ وَأَنَّ فَلَانًا أَنْخَفَصَ ، وَلَا تُصَرِّفُهَا الْعَشْرَةُ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْسَةِ ؛ وَفِي أَسْرَارِهَا أَسْرَارُ وَجُودِ الْأُمَّةِ وَنِظَامِ وَجُودِهَا .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَإِنَّمَا نَزَلَ بِصَحَافَتِنَا دُونَ مَنْزِلِهَا أَنَّهُ لَا تَجِدُ الشَّعْبَ الْقَارِيَّ الْمُمَيَّرَ ؛ الصَّحِيفُ الْقِرَاءَةِ الصَّحِيفُ التَّمْيِيزِ ، ثُمَّ هِيَ لَا تُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ أَمْوَالُهَا فِي إِيجَادِهِ وَتَنْشِئَتِهِ ؛ وَعَمَلُ الصَّحَافَةِ مِنَ الشَّعْبِ عَمَلُ التِّيَّارِ مِنَ السُّفُنِ فِي تَحْرِيكِهَا وَتَيْسِيرِ مَجْرَاهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْمُضْحِكَ أَنْ تَيَّارَنَا يَذْهَبُ مَعَ سَفِينَتِهِ وَيَرْجِعُ مَعَ سَفِينَتِهِ ... وَلَوْ أَنَّ الصَّحَافَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَجَدَتْ الشَّعْبَ قَارِيًا مُدْرِكًا مُمَيَّرًا مُعْتَبَرًا مُسْتَبْصِرًا لَمَا رَمَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى الْحُكُومَاتِ

وَالْأَخْبَابِ عَجْزًا وَضَعْفًا وَفُسُؤَلَةً ، وَلَا خَرَجَتْ عَنِ النَّسَبِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي وَضَعَتْ لَهُ ، فَإِنَّ الشَّعْبَ تَحْكُمُهُ الْحُكُومَةُ ، وَإِنَّ الْحُكُومَةَ تَحْكُمُهَا الصَّحَافَةُ ، فَهِيَ مِنْ نَمِّ لِسَانِ الشَّعْبِ ، وَإِنَّمَا يَقْرَؤُهَا الْقَارِئُ لِيَرَى كَلِمَتَهُ مَكْتُوبَةً ، وَشُعُورُ الْفَرْدِ أَنَّ لَهُ حَقًّا فِي رَقَابَةِ الْحُكُومَةِ وَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ حَرَكَةِ السِّيَاسَةِ وَالْاجْتِمَاعِ ، هُوَ الَّذِي يُوجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَنَاقَلَ كُلَّ يَوْمٍ صَحِيفَةً أَلْيَوْمِ .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : فَالْصَّحَافَةُ لَا تَقْوَى إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ كُلُّ إِنْسَانٍ قَارِئًا ، وَحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ قَارِئٍ لِلصَّحِيفَةِ كَأَنَّهُ مُحَرَّرٌ فِيهَا ، فَهُوَ مُشَارِكٌ فِي الرَّأْيِ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ مِمَّنْ يَدُورُ عَلَيْهِمْ الرَّأْيُ ، مُتَّبِعٌ لِلْحَوَادِثِ لِأَنَّهُ هُوَ مِنْ مَادَّتِهَا أَوْ هِيَ مِنْ مَادَّتِهِ ، وَهُوَ لِذَلِكَ يُرِيدُ مِنَ الصَّحِيفَةِ حِكَايَةَ الْوَقْتِ وَتَفْسِيرَ الْوَقْتِ ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ كَمَا يَكُونُ التَّفَكِيرُ الصَّحِيفُ لِلْفِكْرِ ؛ فَيَلْزِمُهَا الصَّدَقُ وَيَطْلُبُ مِنْهَا الْقُوَّةَ وَيَلْتَمِسُ فِيهَا الْهِدَايَةَ : وَتَأْتِي إِلَيْهِ فِي مَطْلَعِ كُلِّ يَوْمٍ أَوْ مَغْرِبِهِ كَمَا يَدْخُلُ إِلَى دَارِهِ أَحَدُ أَهْلِهِ السَّاكِنِينَ فِي دَارِهِ .

وَفِي قَلِيلَةِ الْقِرَاءَةِ عِنْدَنَا أَفْتَانٌ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَهِيَ الْقِلَّةُ الَّتِي لَا تُغْنِي شَيْئًا ، وَأَمَّا الْأُخْرَى فَهُمْ عَلَى قَلْبِهِمْ لَا تَرَى أَكْبَرَ شَأْنِهِمْ إِلَّا عِبَادَةَ قَوْمٍ لِقَوْمٍ ، وَزَرَايَةَ أَنَاسٍ بِآخَرِينَ ، وَتَعَلُّقَ نِفَاقٍ بِنِفَاقٍ ، وَتَضَدِّيقَ كَذِبٍ لِكَذِبٍ ؛ وَاقَّةٌ ثَالِثَةٌ تَخْرُجُ مِنَ اجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِ : وَهِيَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَكُونُونَ فِي قِرَاءَتِهِمْ الصَّحِيفَةَ إِلَّا كَالنَّظَارَةِ اجْتَمَعُوا لِيَشْهَدُوا مَا يَتْلَهُونَ بِهِ ، أَوْ كَالْفَرَاغِ يَلْتَمِسُونَ مَا يَقْطَعُونَ بِهِ الْوَقْتَ ، فَهُمْ يَأْخُذُونَ السِّيَاسَةَ مَأْخَذَ مَنْ لَا يُشَارِكُ فِيهَا ، وَيَتَعَاطَوْنَ الْجِدَّ تَعَاطِي مَنْ يَلْهُو بِهِ ، وَيَتَلَقَّوْنَ الْأَعْمَالَ بِرُوحِ الْبَطَالَةِ ، وَالْعَزَائِمَ بِأَسْلُوبِ عَدَمِ الْمُبَالَاهِ ، وَالْمُبَاحَثَةَ بِفِكْرَةِ الْإِهْمَالِ ، وَالْمُعَارَضَةَ بِطَبِيعَةِ الْهُزْءِ وَالتَّخْفِيرِ ، وَهُمْ كَالْمُصَلِّينَ فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَمَثَلُ لِنَفْسِكَ نَوْعًا مِنَ الْمُصَلِّينَ إِذَا أَصْطَفَوْا وَرَاءَ الْإِمَامِ تَرْكُوهُ يُصَلِّي عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْهُمْ وَأَنْصَرَفُوا ...

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : بِهِذَا وَنَحْوِهِ جَاءَتِ الصُّحُفُ عِنْدَنَا وَأَكْثَرُهَا لَا ثَبَاتَ لَهُ إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ بَيْنَ مَنَافِعِهِ وَوَسَائِلِ مَنَافِعِهِ ، وَمِنْ هَذَا وَنَحْوِهِ كَانَ أَقْوَى الْمَادَّةُ عِنْدَنَا أَنَّ تَطَهَّرَ الصَّحِيفَةُ مَمْلُوءَةٌ حُكُومَةً وَسُلْطَةً وَبَاشَوَاتٍ وَبَيَكُواتٍ ... وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ مَحَلَّ الْبَاشَا وَالْبَلِكِ وَالْحَوَادِثِ الْحُكُومِيَّةِ النَّفْهَةَ لَا يَكُونُ مِنَ الْجَرِيدَةِ إِلَّا فِي مَوْضِعِ قَلْبِ الْحَيِّ مِنَ الْحَيِّ .

ثُمَّ اسْتَضْحَكَ شَيْخُنَا وَقَالَ : لَقَدْ كَتَبْتُ ذَاتَ يَوْمٍ مَقَالَةً اقْتَرَحُ فِيهَا عَلَى الْحُكُومَةِ تَصْجِيحَ هَذِهِ الْأَلْقَابِ ، وَذَلِكَ بِوَضْعِ لَقَبٍ جَدِيدٍ يَكُونُ هُوَ الْمُفَسِّرُ لِجَمِيعِهَا وَيَكُونُ هُوَ الْقَلْبُ الْأَكْبَرُ فِيهَا ، فَإِذَا أَنْعِمَ بِهِ عَلَى إِنْسَانٍ كَتَبَتِ الصُّحُفُ هَكَذَا : أَنْعَمَتِ الْحُكُومَةُ عَلَى فُلَانٍ بِلَقَبِ (ذُو مَالٍ) .

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ...

\* \* \*

فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا ثُمَّ عَادَ مُتَهَلِّلًا ضَاحِكًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهُ ، فَلَيْسَ لَهُ جُحُوظُ الْعَيْنَيْنِ إِلَّا بِالْقَدْرِ الطَّبِيعِيِّ ، وَجَلَسَ إِلَيَّ وَهُوَ يَقُولُ :

يَبْدُو أَنَّ رَئِيسَ التَّخْرِيرِ لَمْ يَنْشُرْ ذَلِكَ الْمَقَالَ ، وَلَمْ يَرِ فِيهِ اسْتِظْرَافًا وَلَا ابْتِكَارًا وَلَا نُكْتَةً وَلَا حُجَّةً صَادِقَةً ، بَلْ قَالَ : كَأَنَّكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ تُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ عَدَدُ الْيَوْمِ عَدَدَ الْغَدِ ، فَإِذَا نَحْنُ زَهْدَنَا فِي الْأَلْقَابِ وَأَصْغَرْنَا أَمْرَهَا وَتَهَكَّمْنَا بِهَا ، وَقُلْنَا : إِنَّهَا أَفْسَدَتْ مَعْنَى التَّفْقِيرِ الْإِنْسَانِي ، وَتَرَكَتْ مَنْ لَمْ يَتَلَهَا مِنْ ذَوِي الْجَاهِ وَالْغِنَى يَرَى نَفْسَهُ إِلَى جَانِبِ مَنْ نَالَهَا كَالْمَرْأَةِ الْمُطْلَقَةِ بِجَانِبِ الْمَتْرُوجَةِ ... وَقُلْنَا : إِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ تَكَادُ تَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الدَّفْعِ إِلَى التَّمَلُّي وَالْخُضُوعِ وَالتَّفَاقُلِ لِمَنْ بِيَدِهِمُ الْأَمْرُ ، أَوْ وَسِيلَةً إِلَى مَا هُوَ أَحْطُّ مِنْ ذَلِكَ كَمَا كَانَ شَأْنُهَا فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْبَائِدَةِ حِينَ كَانَ الْوَسَامُ كَالرُّفْعَةِ مِنْ جِلْدِ الدَّوْلَةِ ، يُرْقَعُ بِهَا الصَّدْرُ الَّذِي شَقُوهُ وَانْتَرَعُوا ضَمِيرَهُ - إِذَا نَحْنُ قُلْنَا هَذَا وَفَعَلْنَا هَذَا ، لَمْ نَجِدِ الشَّعْبَ الَّذِي يَخْخُمُ لَنَا ، وَوَجَدْنَا ذَوِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ الَّذِينَ يَخْخُمُونَ عَلَيْنَا ، فَكُنَّا كَمَنْ يَتَقَدَّمُ فِي التَّهْمَةِ بِغَيْرِ مُحَامٍ إِلَى قَاضٍ ضَعِيفٍ .

يَا أَبَا عُثْمَانَ ! إِنَّمَا هِيَ حَيَاةٌ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ : الصَّحِيفَةُ ثُمَّ الصَّحِيفَةُ ، ثُمَّ الْحَقِيقَةُ ... فَالْفِكْرَةُ الْأُولَى لِلصَّحِيفَةِ ، وَالْفِكْرَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ لِلصَّحِيفَةِ أَيْضًا ؛ وَتَمَّتْ جَاءَ الشَّعْبُ الَّذِي يَقُولُ : لَا ... بَلْ هِيَ الْحَقِيقَةُ ، ثُمَّ الْحَقِيقَةُ ، ثُمَّ الصَّحِيفَةُ - فَيَوْمَئِذٍ لَا يُقَالُ فِي الصَّحَافَةِ مَا قِيلَ لِلْيَهُودِ فِي كِتَابِ مُوسَى : « تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبَدُّوهُهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا » ﴿ ٦١ سورة الأنعام / الآية : ٩١ ﴾ .

قُلْتُ : أَرَأَيْكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ لَمْ تُنْكِرْ شَيْئًا مِنْ رَأْيِ رَأْسِ التَّخْرِيرِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ، فَسَقَّ عَلَيْكَ  
أَلَّا تَتْلُبَهُ ، فَعَمَزْتَهُ بِالْكَلَامِ عَنْ مَرَّةٍ سَالِفَةٍ .

قَالَ : أَمَّا هَذِهِ الْمَرَّةُ فَأَنَا الرَّئِيسُ لَا هُوَ ، وَفِي مِثْلِ هَذَا لَا يَكُونُ عَمَلُكَ أَبُو عُثْمَانَ مِنْ  
(صَحَابَتِكَ الصَّحَافَةِ) ، إِنَّ الرَّجُلَ أَشْتَبَهَ فِي كَلِمَةٍ : مَا وَجْهَهَا : أَمْرُ فَوْعَةٍ هِيَ أَمْ مَنْصُوبَةٌ ؟  
وَفِي لَفْظَةٍ : مَا هِيَ : أَعَرَبِيَّةٌ أَمْ مُوَلَّدَةٌ ؟ وَفِي تَغْيِيرِ أَعْجَمِيٍّ : مَا الَّذِي يُؤَدِّيهِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ  
الصَّحِيحَةِ ؟ وَفِي جُمْلَةٍ : أَمِي فِي نَسَقِهَا أَفْصَحُ أَمْ يُبَدِّلُهَا ؟  
إِنَّ الْمُعْجَمَ هُنَا لَا يُفِيدُهُمْ إِلَّا إِذَا نَطَقَ ..

وَلَقَدْ أَتَيْتُ هَذِهِ الْأَمَّةَ فِي عَهْدِهَا الْأَخِيرِ بِحُبِّ السُّهُولَةِ مِمَّا أَثَرَتْ فِيهَا الْأَخْيَالُ  
وَسِيَاسَتُهُ وَتَحَلُّلُهُ الْأَعْبَاءَ عَنْهَا وَاسْتِهْدَافُهُ دُونَهَا لِلْخَطَرِ ، فَشَبَّهَ الْعَامِيَّةَ فِي لُغَةِ الصُّحُفِ وَفِي  
أَخْبَارِهَا وَفِي طَرَفِهَا إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مِنْ سُهُولَةٍ تِلْكَ الْحَيَاةِ : وَكَأَنَّهُ تَثْبِثٌ لِلضَّعْفِ  
وَالْخَوَرِ ، وَأَنْتَ خَيْرٌ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ يَتَحَوَّلُ بِمَا تَخْدِثُ لَهُ طَبِيعَتُهُ عَالِيًا أَوْ نَارِيًا ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ  
السُّهُولَةُ مِنْ شِبْهِ الْعَامِيَّةِ إِلَى نِصْفِ الْعَامِيَّةِ فِي كِتَابَةِ أَكْثَرِ الْمَجَلَّاتِ وَفِي رَسَائِلِ طَلَبَةِ  
الْمَدَارِسِ ، لِتَبْدُوَ الْمَقَالَةُ فِي الْفَاطِطِهَا وَمَعَانِيهَا كَأَنَّهَا الْفُتُوْدُ أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَ مَأْكَلَةَ صِغَارِهِ ،  
فَقَرَضَ عُقُودًا مِنَ الْعَنْبِ ، فَأَلْقَاهُ فِي الْأَرْضِ وَأَتْرَبَهُ وَتَمَرَّغَ فِيهِ ، ثُمَّ مَسَى يَحْمِلُ كُلَّ حَبَّةٍ  
مَرْضُوضَةً فِي عِشْرِينَ إِبْرَةً مِنْ شَوْكِهِ .

\* \* \*

ثُمَّ مَدَّ أَبُو عُثْمَانَ يَدَهُ فَتَنَاطَلَ مَجَلَّةٌ مِمَّا أَمَامَهُ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا اتِّفَاقًا ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيَّ  
وَقَالَ : أَقْرَأْ وَلَا تَجَاوِزْ عُنْوَانَ كُلِّ مَقَالَةٍ ؛ فَقَرَأْتُ هَذِهِ الْعَنَاقِينَ :

« مَسْئُولِيَّةُ طَبِيبٍ عَنْ فِتْنَةِ عَذْرَاءَ » ، « مَوَدَّةُ الرَّاغِبَاتِ الصَّبِيغَاتِ » ، « تَخَرُّ مَغْشِيًا  
عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ اكْتَشَفُوا صُورَةَ حَبِيبِهَا » ، « هَلْ تُعْتَبَرُ قَبُولُ الْهَدِيَّةِ دَلِيلًا عَلَى الْحُبِّ » ، وَإِذَا  
كَانَتْ مَلَائِسَ دَاخِلِيَّةً ... فَهَلْ تُعْتَبَرُ وَعْدًا بِالزَّوْاجِ ؟ » ، « هَلْ يَحِقُّ لِلْأَبِ أَنْ يُطَالَبَ

صَدِيقِ آبَتِهِ ... بِتَعَوُّضٍ إِذَا كَانَتْ أَبْنَتُهُ غَيْرَ شَرَعِيَّةٍ » ، « بَيْنَ خَطِيبَتَيْنِ لِشَابٍّ وَاحِدٍ » ،  
« بَعْدَ أَنْ قَصَّ عَلَى زَوْجَتِهِ أَخْبَارَ السَّهْوَةِ .. لِمَاذَا أَطْلَقْتَ عَلَيْهِ الرِّصَاصَ ؟ » ، « عَرُوسٌ  
تَأْخُذُ (شَبَكَةً) مِنْ شَابِّينَ ثُمَّ تَطْرُدُهُمَا » ، « زَوْجَةُ الْمُوْظَفِ أَيْنَ ذَهَبَتْ » ، « لِمَاذَا خُطِفَتْ  
الْعَرُوسُ فِي الْبَيْتِ الْمُحَدَّدِ لِلزَّفَافِ ؟ » ، « فِي الطَّرِيقِ : حُبٌّ بِالْإِكْرَاهِ » ، « فَلَانُزَنَ  
وَفَلَانَاتُ ، زَوَاجٌ وَطَلَاقٌ ، وَأَخْبَارُ الْمَرَاقِصِ ، وَحَوَادِثُ أَمَاكِينِ الدَّعَارَةِ ... ، إلخ ،  
إلخ » .

فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ : هَذِهِ هِيَ حُرِّيَّةُ النُّشْرِ ؛ وَلَكِنْ كَانَ هَذَا طَبِيعِيًّا فِي قَانُونِ الصَّحَافَةِ إِنَّهُ  
لَا يُمْ كَيْبَرٌ فِي قَانُونِ التَّرْبِيَةِ ، فَإِنَّ الْأَحْدَاثَ وَالضَّعْفَاءَ يَجِدُونَهُ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَالْتَّخْيِيرِ بَيْنَ  
الْأَخْذِ بِالْوَجِيبِ وَبَيْنَ تَرْكِهِ ، وَلَا يَفْهَمُونَ مِنْ جَوَازِ نَشْرِهِ إِلَّا هَذَا . « وَبَابٌ آخَرُ مِنْ هَذَا  
الشَّكْلِ فَبِكُمْ أَعْظَمُ حَاجَةٌ إِلَى أَنْ تَعْرِفُوهُ وَتَقْفُوهُ عِنْدَهُ . وَهُوَ مَا يَصْنَعُ الْخَبِيرُ وَلَا سِيَّمَا إِذَا  
صَادَفَ مِنَ السَّمَاعِ قَلَّةَ تَجَرِبَةٍ ، فَإِنْ قَرَنَ بَيْنَ قَلَّةِ التَّجَرِبَةِ وَقَلَّةِ التَّحَفُّظِ - دَخَلَ ذَلِكَ الْخَبِيرُ  
إِلَى مُسْتَقَرِّهِ مِنَ الْقَلْبِ دُخُولًا سَهْلًا ، وَصَادَفَ مَوْضِعًا وَطِينًا وَطَبِيعَةً قَابِلَةً وَنَفْسًا سَاكِتَةً ،  
وَمَتَى صَادَفَ الْقَلْبَ كَذَلِكَ رَسَخَ رُسُوخًا لَا حِيلَةَ فِي إِزَالَتِهِ .

وَمَتَى أُلْقِيَ إِلَى الْفِتْنَانِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الْفِتْنَانِ فِي وَقْتِ الْغَرَارَةِ وَعِنْدَ غَلَبَةِ الطَّبِيعَةِ  
وَشَبَابِ السُّهُولَةِ وَقَلَّةِ التَّشَاغُلِ وَ... »<sup>(١)</sup> .

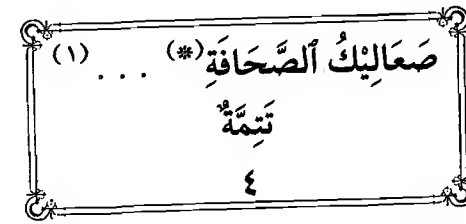
وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَأْسِ التَّخْرِيرِ ..

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

\* \* \*

(١) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِ .



جَاءَ أَبُو عُثْمَانَ وَفِي بُرُوزِ عَيْنَيْهِ مَا يَجْعَلُهُمَا فِي وَجْهِهِ شَيْئًا كَعَلَامَتِي تَعَجَّبَ الْقَتْنُهُمَا  
الطَّبِيعَةُ فِي هَذَا الْوَجْهِ ، وَقَدْ كَانُوا يَلْقَبُونَهُ (الْحَدَقِي) فَوْقَ تَلْقِيهِ بِالْحَاجِظِ ، كَانَ لَقَبًا  
وَاحِدًا لَا يَبِينُ عَنْ قُبْحِ هَذَا الشُّؤْءِ فِي عَيْنَيْهِ إِلَّا بِمُرَادِفٍ وَمُسَاعِدٍ مِنَ اللَّغَةِ ... وَمَا تَذَكَّرْتُ  
الْقَبِيحَيْنِ إِلَّا حِينَ رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ .

وَأَنْحَطَ فِي مَجْلِسِهِ كَأَن بَعْضَهُ يَزِمِي بَعْضَهُ مِنْ سَخَطٍ وَغَيْظٍ ، أَوْ كَانَ مِنْ جِسْمِهِ  
مَا لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ الْمُشَوَّهِ ؛ ثُمَّ نَصَبَ وَجْهَهُ يَتَأَمَّلُ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهُ فِي  
خُرُوجِهِمَا كَأَنَّمَا تَهْمَانِ بِالْفِرَارِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي تَحِيَا الْكَاتِبَ فِيهِ كَمَا يَخِيَا اللَّهُمَّ فِي  
الْقَلْبِ ، ثُمَّ سَكَتَ عَنِ الْكَلَامِ لِأَنَّ أَفْكَارَهُ كَانَتْ تُكَلِّمُهُ .

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ الصَّمْتَ وَقُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! رَجَعْتَ مِنْ عِنْدِ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ زَائِدًا شَيْئًا  
أَوْ نَاقِصًا شَيْئًا ، فَمَا هُوَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ؟

(\*) « الرسالة » العدد : ١٩٢ ، ٢٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ٨ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة  
الخامسة ، الصفحات : ٣٦٦ - ٣٦٨ .

(١) كَتَبَ الدُّكْتُورُ زَكِي مُبَارَكٌ مَقَالًا فِي جَرِيدَةِ « الْمِصْرِي » الْعَرَاءِ زَعَمَ فِيهِ أَنَّنَا قُلْنَا : « إِنَّ الصَّحَافَةَ  
لَا تَنْجَحُ إِلَّا فِي أَيْدِي الصَّعَالِيكِ » وَلَا تَذَرُنِي كَيْفَ أَحْسَنَ هَذَا الْمَعْنَى ، ثُمَّ تَهَدَّدْنَا !! فَقَالَ :  
« مَا رَأَيْتُكَ إِذَا وَقَفَ لَكَ أَحَدُ الصَّحَافِيِّينَ (وَلَعَلَّهُ يُعْنِي نَفْسَهُ) فِي مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ !! وَرَمَاكَ بِحُبِّ  
التَّكَلُّفِ وَالْإِفْعَالِ فِي عَالَمِ الْإِنْشَاءِ وَالتَّأْلِيفِ ؟ » « مَا رَأَيْتُكَ إِذَا حَمَلَكَ رَجُلٌ مِنْهُمْ (وَلَعَلَّهُ يُعْنِي  
نَفْسَهُ) عَلَى عَاتِقِهِ وَأَلْقَى بِكَ فِي هَاوِيَةِ النَّارِ لِيَتَعَيَّنَ مَعَ صَغَصَمَةِ بَنِي صُوحَانَ ؟ أَبْلَغَ خُطْبَاءِ الْعَرَبِ  
وَأَنْطَقِيهِمْ » .

وَجَوَابُنَا لِصَاحِبِنَا هَذَا : إِنَّ وَدَارَةَ الدَّخِيلَةِ أَطْلَعَتْ عَلَى مَقَالِهِ فَأَمَرَتْ جَمِيعَ الْمَحَالِّ الَّتِي يَبِيعُ لُعَبَ  
الْأَطْفَالِ ، أَلَّا يَبِيعُوا « مَعْرَكَةً فَاصِلَةً » وَلَا « هَاوِيَةَ تَارِيخٍ » .

قَالَ : رَجَعْتُ زَائِدًا أَنِّي نَاقِصٌ . وَهَلُنَا شَيْءٌ لَا أَقُولُهُ ، وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً  
يَنْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَوْقَفُوا عَلَى عَمِّكَ وَأَمْنَالِ عَمِّكَ مِنْ كِتَابِ الصُّحُفِ يَتَعَجَّبُونَ لِهَذَا النَّوعِ  
الْجَدِيدِ مِنَ الشُّهْدَاءِ !

وَقَالَ ابْنُ يَحْيَى التَّنِيدِيُّ : دَعَانِي الْمُتَوَكِّلُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَخْمُورٌ ، فَقَالَ : أَنَشِدْنِي قَوْلَ  
عُمَارَةَ فِي أَهْلِ بَغْدَادِ ، فَأَنشَدْتُهُ لِلدُّغَيْلِ الْخُرَاعِي ، مِنَ الطَّوِيلِ :

وَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مِلْوَكَ مُخَرَّمٍ أَبْعَ « حَسَنًا » وَأَبْنِي هِشَامٍ بِدِرْهَمٍ  
وَأُعْطِي « رَجَاءً » بَعْدَ ذَلِكَ زِيَادَةً وَأَمْنَحُ « دِينَارًا » بِغَيْرِ تَنْدُمٍ  
قَالَ أَبُو عُثْمَانَ [ مِنَ الطَّوِيلِ ] :

فَإِنْ طَلَبُوا مِنِّي الزِّيَادَةَ زِدْتُهُمْ أَبَا دُلْفٍ وَالْمُسْتَنْطِيلَ بَنَ أَكْثَمِ  
وَيَلْنِي عَلَى هَذَا الشَّاعِرِ ! أَتُنَانِ بِدِرْهَمٍ ، وَأَتُنَانِ زِيَادَةً فَوْقَهُمَا لِعِظَمِ الدَّرْهَمِ ، وَأَتُنَانِ  
زِيَادَةً عَلَى الزِّيَادَةِ لِعِظَالَةِ الدَّرْهَمِ ، كَأَنَّهُ رَئِيسُ تَحْرِيرِ جَرِيدَةٍ يَرَى الدُّنْيَا قَدْ مِلَتْ كُتَابًا ،  
وَلَكِنْ هَلُنَا شَيْئًا لَا أَقُولُهُ .

وَزَعَمُوا أَنَّ كِسْرَى أَبْرُويزَ كَانَ فِي مَنْزِلِ أَمْرَأَتِهِ شِيرِينَ ، فَأَنَاهُ صَبَّادٌ بِسَمَكَةٍ عَظِيمَةٍ ،  
فَأَعْجَبَ بِهَا وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ ، فَقَالَتْ لَهُ شِيرِينَ : أَمَرْتَ لِلصَّبَّادِ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ  
دِرْهَمٍ ! فَإِنْ أَمَرْتَ بِهَا لِرَجُلٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، قَالَ : إِنَّمَا أَمَرَ لِي بِمِثْلِ مَا أَمَرَ لِلصَّبَّادِ ! فَقَالَ  
كِسْرَى : كَيْفَ أَصْنَعُ وَقَدْ أَمَرْتُ لَهُ ؟

قَالَتْ : إِذَا أَتَاكَ فَقُلْ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذْكَرُ هِيَ أَمْ أُنْثَى ؟ فَإِنْ قَالَ أُنْثَى ،  
فَقُلْ لَهُ : لَا تَقْعُ عَيْنِي عَلَيْكَ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِقَرِينَتِهَا ، وَإِنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقُلْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .  
فَلَمَّا غَدَا الصَّبَّادُ عَلَى الْمَلِكِ ، قَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذْكَرُ هِيَ أَمْ أُنْثَى ؟  
قَالَ : بَلْ أُنْثَى ؛ قَالَ الْمَلِكُ : فَأَتِيَنِي بِقَرِينَتِهَا . فَقَالَ الصَّبَّادُ : عَمَرَ اللَّهُ الْمَلِكُ ! إِنَّهَا كَانَتْ  
بِكْرًا لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ ...

قُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! فَهَلْ وَفَعْتَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُعْضَلَةِ مَعَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ؟  
قَالَ : لَمْ يَنْفَعْ عَمِّكَ أَنَّ سَمَكَتَهُ كَانَتْ بِكْرًا ، فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ إِخْرَاجَهُ مِنَ الْجَرِيدَةِ ؛ وَمَا

بَلَاغَةُ أَبِي عُثْمَانَ الْجَاحِظِ بِجَانِبِ بَلَاغَةِ التَّلْغِافِ وَبَلَاغَةِ الْخَبَرِ وَبَلَاغَةِ الْأَرْقَامِ وَبَلَاغَةِ الْأَصْفَرِ وَبَلَاغَةِ الْأَبْيَضِ . . . وَلَكِنَّ هَلُمَّا شَيْئًا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ .

وَسَمَكَنِي هَذِهِ كَانَتْ مَقَالَةً جَوْدَتْهَا وَأَحْكَمَتْهَا وَبَلَّغَتْ بِالْفَاطِمَةِ وَمَعَانِيهَا أَعْلَى مَنَازِلِ الشَّرَفِ وَأَسْنَى رُتَبِ الْبَيَانِ ، وَجَعَلَتْهَا فِي الْبَلَاغَةِ طَبَقَةً وَخَدَهَا ، وَقِيلَ أَنْ يَقُولَ الْأَوْزُبِيُّونَ (صَاحِبَةُ الْجَلَالَةِ الصَّحَافَةِ) قَالَ الْمَأْمُونُ : « الْكُتَّابُ مُلُوكٌ عَلَى النَّاسِ » فَأَرَادَ عَمَّكَ أَبُو عُثْمَانَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مَلِكًا بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ فَإِذَا هُوَ بِهَا مِنْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ) .

لَقَدْ كَانَتْ كَالْعُرُوسِ فِي زِينَتِهَا لَيْلَةُ الْجَلْوَةِ عَلَى مُجِبِّهَا ، مَا هِيَ إِلَّا الشَّمْسُ الصَّاحِيَّةُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَشْوَاقٌ وَلَذَاتٌ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَكْثِشَافٌ أَسْرَارِ الْحُبِّ ، وَمَا هِيَ إِلَّا هِيَ ؛ فَإِذَا الْعُرُوسُ عِنْدَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ هِيَ الْمَطْلُوقَةُ ، وَإِذَا الْمُعْجِبُ هُوَ الْمُضْجِكُ ، وَيَقُولُ الرَّجُلُ : أَمَا نَظَرْتُهَا فَتَعَمَّ ، وَأَمَا عَمَلُهَا فَلَا ؛ وَهَذَا عَصْرٌ خَفِيفٌ يُرِيدُ الْخَفِيفَ ، وَزَمَنٌ عَامِيٌّ يُرِيدُ الْعَامِيَّ ، وَجُمْهُورٌ سَهْلٌ يُرِيدُ السَّهْلَ ؛ وَالْفَصَاحَةُ هِيَ إِغْرَابُ الْكَلَامِ لَا سِيَاسَتُهُ بِقَوَى الْبَيَانِ وَالْفِكْرِ وَاللُّغَةِ ، فَهِيَ الْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فُنُونِهَا وَاسْتَقَرَّتْ فِي عِلْمِ النَّحْوِ .

وَحَسْبُكَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَارِئِ الْعَامِيِّ : أَنَّكَ أَنْتَ لَا تَلْحَنُ وَهُوَ يَلْحَنُ .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَهَذِهِ أَكْرَمَكَ اللَّهُ مَنَزَلَةً يَقُلُ فِيهَا الْخَاصِيُّ وَيَكْثُرُ الْعَامِيُّ ، فَيُوشِكُ أَلَّا يَكُونَ بَعْدَهَا إِلَّا غَلَبَةُ الْعَامِيَّةِ ، وَيَرْجِعُ الْكَلَامُ الصَّحَافِيُّ كُلُّهُ سُوقِيًا بَلَدِيًا (حَنْشِصِيًا) <sup>(١)</sup> ، وَيَتَقَلَّبُ النَّحْوُ نَفْسَهُ وَمَا هُوَ إِلَّا التَّكَلُّفُ وَالتَّوَعُّرُ وَالتَّقَعُّرُ كَمَا يَرَوْنَ الْآنَ فِي الْفَصَاحَةِ ، وَالْقَلِيلُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ يَنْتَهِي إِلَى الْأَقْلِ ؛ وَالْأَقْلُ يَنْتَهِي إِلَى الْعَدَمِ ، وَالْأَنْحِدَادُ سَرِيعٌ يَبْدَأُ بِالْخَطْوَةِ الْوَاحِدَةِ ثُمَّ لَا تَمْلِكُ بَعْدَهَا الْخَطَا الْكَثِيرَةُ .

لَا جَرَمَ فَسَدَ الذُّوقُ وَفَسَدَ الْأَدَبُ وَفَسَدَتْ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ كَانَتْ كُلُّهَا صَالِحَةً ، وَجَاءَتْ فُنُونٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مَا هِيَ إِلَّا طَبَائِعُ كِتَابِهَا تَعْمَلُ فَيَمْنُ يَفْرُوها عَمَلُ الطَّبَاعِ الْحَيَّةِ فَيَمْنُ يُخَالِطُهَا ، وَلَوْ كَانَ فِي قَانُونِ الدُّوَلَةِ تَهْمَةٌ إِفْسَادِ الْأَدَبِ أَوْ إِفْسَادِ اللُّغَةِ ، لَقُبِضَ عَلَى كَثِيرِينَ

(١) [حَنْشِصِيًا ، أَيْ : خَارِجًا عَنْ مَأْلُوفِ الْعَادَةِ كَلَامًا وَأَفْعَالًا] .

لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا صِنَاعَةً لَهُمْ وَمَسَلَّةً فَرَاغَ وَفَسَادًا وَإِفْسَادًا ؛ وَالْمُصْنِئَةُ فِي هَؤُلَاءِ مَا يَزْعُمُونَ لَكَ مِنْ أَنَّهُمْ يَسْتَشِيطُونَ الْقُرَاءَ وَيُلْهَوْنَهُمْ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي هَذِهِ التَّهْضَةِ لِمُعَالَجَةِ اللَّهِو الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وَجُودِنَا السِّيَاسِيَّ عَدَمًا ؛ ثُمَّ لِمَلءِ الْفَرَاغِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاتِنَا الْاجْتِمَاعِيَّةَ بَطَالَةً ؛ وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا جَعَلَ عَمَّكَ أَبَا عُثْمَانَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ مِنْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ) وَتَرَكَهُ فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ الْكُتَّابِ كَأَنَّهُ فِي أَمْسٍ وَكَأَنَّهُمْ فِي غَيْدٍ .

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ . . .

\* \* \*

فَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهُمْ سَيَظْرُدُونَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزِفْهُ لِسَانًا مَطْبَعِيًّا نَزَارًا يَكُونُ كَالْمُتَّصِلِ مِنْ دِمَاغِهِ بِصُنْدُوقِ خُرُوفٍ . . . وَلَمْ يَجْعَلْهُ كَهَؤُلَاءِ السِّيَاسِيِّينَ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ التَّفَاقُ وَيَتَلَوُّنَ ، وَلَا كَهَؤُلَاءِ الْأَدَبَاءِ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ التَّضْلِيلُ وَيَتَشَكَّلُ .

وَرَجَعَ شَيْخُنَا كَالْمَخْنُوقِ أَرْخِي عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ : وَيَلِي عَلَى الرَّجُلِ ! وَيَلِي مِنَ الْكَلَامِ الظَّرْفِ الَّذِي يُقَالُ فِي الْوَجْهِ لِيُدْفَعَ فِي الْقَفَا . . . كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا يَمْلِكُ هَذِهِ الصَّحَافَةُ الْيَوْمِيَّةُ إِلَّا مَجَالِسُ الْأُمَّةِ ؛ فَذَلِكَ هُوَ إِضْلَاحُ الْأُمَّةِ وَالصَّحَافَةِ وَالْكَتَابِ جَمِيعًا ؛ أَمَا فِي هَذِهِ الصُّحُفِ ، فَالْكَاتِبُ يُخْبِرُ عَيْشَهُ عَلَى نَارِ تَأْكُلُ مِنْهُ قَدَرٌ مَا يَأْكُلُ مِنْ عَيْشِهِ ، وَلَوْ أَنَّ عَمَّكَ فِي خَفَضٍ وَرَفَاهِيَةٍ وَسَعَةٍ ، لَكَانَ فِي اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُمْ حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ ؛ وَلَكِنَّ السَّيْفَ الَّذِي لَا يَجِدُ عَمَلًا لِلْبَاطِلِ ، تَفْضُلُهُ الْإِبْرَةُ الْبَنِي تَعْمَلُ لِلْخِيَاطِ ، وَمَاذَا يَمْلِكُ عَمَّكَ أَبُو عُثْمَانَ ؟ يَمْلِكُ مَا لَا يَنْزِلُ عَنْهُ بُدُولُ الْمُلُوكِ ، وَلَا بِالْدُّنْيَا كُلُّهَا ، وَلَا بِالسَّمْسِ وَالْقَمَرِ ؛ إِذْ يَمْلِكُ عَقْلَهُ وَبَيَانَهُ ، عَلَى أَنَّهُ مُسْتَأْجَرٌ هُنَا بِعَقْلِهِ وَبَيَانِهِ ؛ يَعْقِلُ مَا شَاوُوا وَيَكْتُبُ مَا شَاوُوا .

لَكَ اللَّهُ أَنْ أَصْدَقَكَ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْحِرَافَةِ الْيَوْمِيَّةِ : إِنَّ الْكَاتِبَ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ صَحِيفَةٍ إِلَى صَحِيفَةٍ ، تَخْرُجُ كِتَابَتُهُ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ . . .

وَرَأَيْتُ شَيْخَنَا كَأَنَّمَا وَضَعَ لَهُ رَئِيسُ التَّخْرِيرِ مِثْلَ الْبَارُودِ فِي دِمَاغِهِ ثُمَّ أَشْعَلَهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُمَارَحَهُ وَأُسَرِّي عَنْهُ ، فَقُلْتُ : أَسْمَعْ يَا أَبَا عُثْمَانَ ! جَاءَتْنِي بِالْأَمْسِ قَضِيَّةٌ يَرْفَعُهَا صَاحِبُهَا إِلَى الْمَحْكَمَةِ ، وَقَدْ كَتَبَ فِي عَرْضِ دَعْوَاهُ : إِنَّ جَارَ بَيْتِي غَضِبَهُ قِطْعَةً مِنْ أَرْضِ

فَتَائِهِ الَّذِي تَرَكَهُ حَوْلَ النَّبِيِّ ، وَبَنَى فِي هَذِهِ الرَّفْعَةِ دَارًا ، وَفَتَحَ لِهَذِهِ الدَّارِ نَافِذَاتٍ ، فَهُوَ يُرِيدُ مِنَ الْقَاضِي أَنْ يَحْكُمَ بِرَدِّ الْأَرْضِ الْمَغْصُوبَةِ ، وَهَذِهِ هَذِهِ الدَّارِ الْمُنَبِّئَةِ فَوْقَهَا ،  
و... وَ... وَسَدَّ نَافِذَاتِهَا الْمَفْتُوحَةَ ... !

فَضَحِكَ الْجَاحِظُ حَتَّى أَمْسَكَ بَطْنَهُ يَدَيْهِ وَقَالَ : هَذَا أَدِيبٌ عَظِيمٌ كَبِغْضِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ  
الْأَدَبَ فِي الصَّحَافَةِ ؛ كَثُرَتْ أَلْفَاظُهُ وَتَقَصَّ عَقْلُهُ ، « وَسَبُلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : مَتَى يَكُونُ  
الْأَدَبُ شَرًّا مِنْ عَدَمِهِ ؟ قَالَ : إِذَا كَثُرَ الْأَدَبُ وَتَقَصَّتِ الْقَرِينَةُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ :  
مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَغْلَبَ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ ؛ كَانَ حَتْفُهُ فِي أَغْلَبِ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ ،  
وَهَذَا كُلُّهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضِهِ مِنَ بَعْضٍ » (١) .

وَالْأَدَبُ وَخَدَهُ هُوَ الْمَتْرُوكُ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ لِمَنْ يَتَوَلَّاهُ كَيْفَ يَتَوَلَّاهُ ، إِذْ كَانَ  
أَرْخَصَ مَا فِيهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ لِأَنَّ الْأُتَمَّ الْحَيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَدَبٌ ، ثُمَّ هُوَ مِنْ بَعْدِ  
هَذَا الْأَسْمِ الْعَظِيمِ مِلءُ فَرَاغٍ لَا بُدَّ أَنْ يُمَلَأَ ، وَصَفْحَةُ الْأَدَبِ وَخَدَهَا هِيَ الَّتِي تَظْهَرُ فِي  
الْجَرِيدَةِ الْيَوْمِيَّةِ كَتِفَعَةٍ الصَّدَا عَلَى الْحَدِيدِ : تَأْكُلُ مِنْهُ وَلَا تُعْطِيهِ شَيْئًا .

ثُمَّ يَأْتِي مَنْ تَتْرَكَ لَهُ هَذِهِ الصَّفْحَةَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ (رَبِّسَ تَحْرِيرِ) عَلَى الْأَدْبَاءِ ، فَمَا  
يَدْعُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْتُبُوغِ وَلَا نَعْتًا مِنْ نَعُوتِ الْعَبَقَرِيَّةِ إِلَّا نَحَلَهُ نَفْسَهُ وَوَضَعَهُ تَحْتَ نِيَابِهِ ،  
وَمَا أَيْسَرَ الْعَظْمَةَ وَمَا أَسْهَلَ مَنَالَهَا إِذَا كَانَتْ لَا تُكَلِّفُكَ إِلَّا الْجَرَءَاءَ وَالِدَعْوَى وَالزَّرْعَمَ ،  
وَتَلْفِيقَ الْكَلَامِ مِنْ أَغْرَاضِ الْكُتُبِ وَحَوَاشِي الْأَخْبَارِ .

وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ فِي كِتَابَتِهِ كَالْعَامَّةِ ، فَإِذَا عَيَّنَهُ بِالرَّكَائِكَةِ وَالشَّخْفِ وَالْإِتِّدَالِ وَفَرَاغِ  
مَا يَكْتُبُ ، قَالَ : هَذَا مَا يَلَانِمُ الْقُرَاءَ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ أَكْذَابِ النَّاسِ فِيمَا يَدَّعِي لِنَفْسِهِ وَمَا  
يُهْوِلُ بِهِ لِقَوِيَّةِ شَأْنِهِ وَإِضْغَارِ مَنْ عَدَاهُ ، فَإِذَا كَذَّبَهُ مَنْ يَنْعِرُهُ قَالَ : هَذَا مَا يَلَانِمُنِي ، وَهُوَ  
وَإِنِّي أَنَّهُ فِي نَوْعٍ مِنَ الْقُرَاءِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَمْلَأَهُمْ بِهَيْدِهِ الدَّعَاوَى كَمَا تُمَلَأُ السَّاعَةُ ، فَإِذَا  
هُمْ جَمِيعًا يَقُولُونَ : تَكِ تَكِ ... تَكِ تَكِ ...

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ أَنْ يَكُونَ السَّمِيعُ يَفْهَمُ مَعْنَى الْفَائِلِ ، جَعَلَ الْفَصَاحَةَ وَاللُّكْنَةَ

(١) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .

وَالْخَطَأَ وَالصَّوَابَ وَالْإِغْلَاقَ وَالْإِبَانَةَ وَالْمَلْحُونَ وَالْمُعَرَّبَ ، كُلُّهُ سَوَاءٌ وَكُلُّهُ بَيِّنَاتٌ (١) وَكَانَ  
الْمَكْنَى طَيِّبَ الْحُجَجِ ، طَرِيفَ الْحَبْلِ ، عَجِيبَ الْعِلَالِ ، وَكَانَ يَدَّعِي كُلَّ شَيْءٍ عَلَى غَايَةِ  
الْإِحْكَامِ وَلَمْ يُحْكَمْ شَيْئًا قَطُّ مِنَ الْجَبَلِ وَلَا مِنَ الدَّقِيقِ ؛ وَإِذْ قَدْ جَرَى ذِكْرُهُ فَسَأَحْدُثُكَ  
بِبَعْضِ أَحَادِيثِهِ ، قُلْتُ لَهُ مَرَّةً : أَعْلِمْتَ أَنَّ الشَّارِي حَدَّثَنِي أَنَّ الْمَخْلُوعَ - أَيْ الْأَمِينِ - بَعَثَ  
إِلَى الْمَأْمُونِ بِجِرَابٍ فِيهِ سُمْسُمٌ ، كَأَنَّهُ مُخْبِرُهُ أَنَّ عِنْدَهُ مِنَ الْجُنْدِ بِعَدَدِ ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْمَأْمُونِ  
بَعَثَ لَهُ بِدِيكَ أَعُورَ ، يُرِيدُ أَنَّ طَاهِرَ بْنِ الْحُسَيْنِ يَقْتُلُ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ كَمَا يَلْقُطُ الدَّيْكَ  
الْحَبَّ ؟

قَالَ : فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ أَنَا وَلَذَنُ ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ كَيْفَ سَارَ فِي الْأَفَاقِ (٢) .

ثُمَّ قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : وَقَدْ زَعَمَ أَحَدُ أَدْبَائِكُمْ أَنَّهُ أَكْتَشَفَ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ أَكْثِشَافًا أَهْمَلَهُ  
الْمُتَقَدِّمُونَ وَغَفَلَ عَنْهُ الْمُتَأَخَّرُونَ ! فَانْظُرْ عَمَّكَ فِي هَذَا الَّذِي أَدْعَاهُ ، فَإِذَا الرَّجُلُ عَلَى  
التَّحْقِيقِ كَالَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْتَشَفَ أَمْرِيكَ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الْجُغَرَفِيَّةِ ... (٣) .

وَمَا يَزَالُ الْبُلَهَاءُ يُصَدِّقُونَ الْكَلَامَ الْمَنْشُورَ فِي الصُّحُفِ ، لَا بِأَنَّهُ صِدْقٌ وَلَكِنْ بِأَنَّهُ  
« مَكْتُوبٌ فِي الْجَرِيدَةِ » .. فَلَا عَجَبَ أَنْ يَظُنَّ كَاتِبُ صَفْحَةِ الْأَدَبِ - مَتَى كَانَ مَغْرُورًا - أَنَّهُ  
إِذَا تَهَدَّدَ إِنْسَانًا فَمَا هَذِهِ بِصَفْحَتِهِ ، بَلْ بِحُكُومَتِهِ ...

نَعَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ! إِنَّهَا حُكُومَةٌ وَدَوْلَةٌ ؛ وَلَكِنْ وَنَحْكَ ! إِنْ ثَلَاثَ ذُبَابَاتٍ لَيْسَتْ ثَلَاثَ  
قِطْعٍ مِنْ أُسْطُولٍ إِنْكَلَرَةَ ... !

\* \* \*

وَضَحِكَ أَبُو عُثْمَانَ وَضَحِكْتُ ! فَاسْتَيْقَظْتُ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) هَذَا مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .

(٢) { يَعْني زَكِي مَبَارَكِي فِي دَعْوَى مَعْرِفَتِهِ أَوَّلَ مَنْ اخْتَرَعَ قَسْمَ الْمَقَامَاتِ } .



### أَبُو حَنِيفَةَ وَلَكِنْ بَغَيْرِ فَقِهِ (\*) (١) !

قَدْ أَنْتَهَيْنَا فِي الْأَدَبِ إِلَى نَهَائِيَّةِ صَحَافِيَّةٍ عَجَبِيَّةٍ ، فَأَصْبَحَ كُلُّ مَنْ يَكْتُبُ يُنْشَرُّ لَهُ ، وَكُلُّ مَنْ يُنْشَرُّ لَهُ يُعَدُّ نَفْسَهُ أَدِيبًا ، وَكُلُّ مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ أَدِيبًا جَارَ لَهُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ مَذْهَبٍ وَأَنْ يَقُولَ فِي مَذْهَبِهِ وَيُرَدَّ عَلَى مَذْهَبٍ غَيْرِهِ .

فَعِنْدَنَا الْيَوْمَ كَلِمَاتٌ صُخْمَةٌ تَدُورُ فِي الصُّحُفِ بَيْنَ الْأَدِبَاءِ كَمَا تَدُورُ أَسْمَاءُ الْمُسْتَعْمَرَاتِ بَيْنَ السِّيَاسِيِّينَ الْمُتَنَازِعِينَ عَلَيْهَا ، يَتَعَلَّقُ بِهَا الطَّمَعُ ، وَتَنْبَعِثُ لَهَا الْفِتْنَةُ ، وَتَكُونُ فِيهَا الْخُصُومَةُ وَالْعَدَاوَةُ ؛ مِنْهَا قَوْلُهُمْ : أَدَبُ الشُّيُوخِ وَأَدَبُ الشُّبَّابِ ؛ وَدِكْتَاتُورِيَّةُ الْأَدَبِ وَدِيمُقْرَاطِيَّةُ الْأَدَبِ ، وَأَدَبُ الْأَلْفَاظِ وَأَدَبُ الْحَيَاةِ ، وَالْجُمُودُ وَالتَّحَوُّلُ ، وَالْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ ، ثُمَّ مَاذَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ ؟

وَرَاءَ ذَلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ أَبَا حَنِيفَةَ وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ فَقِهِ ، وَالشَّافِعِيَّ وَلَكِنْ بَغَيْرِ اجْتِهَادٍ ، وَمَالِكٌ وَلَكِنْ بَغَيْرِ رَوَايَةٍ ، وَأَبْنُ حَنْبَلٍ وَلَكِنْ بَغَيْرِ حَدِيثٍ ؛ أَسْمَاءُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَمَلِ أَنَّهَا كَذِبٌ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ رَدُّ عَلَيْهَا .

وَلَيْسَ يَكُونُ الْأَدَبُ أَدَبًا إِلَّا إِذَا ذَهَبَ يَسْتَحْدِثُ وَيَخْتَرِعُ عَلَى مَا يَصْرِفُهُ التَّوَابِعُ مِنْ أَهْلِهِ حَتَّى يُورِّخَ بِهِمْ ، فَيَقَالُ : أَدَبُ فُلَانٍ ، وَطَرِيقَةُ فُلَانٍ ، وَمَذْهَبُ فُلَانٍ ؛ إِذْ لَا يَجْرِي الْأَمْرُ فِيمَا عَلَا وَتَوَسَّطَ وَنَزَلَ إِلَّا عَلَى إِبْدَاعٍ غَيْرِ تَقْلِيدٍ ، وَتَقْلِيدٍ غَيْرِ اتِّبَاعٍ ، وَاتِّبَاعٍ غَيْرِ تَسْلِيمٍ ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الرَّأْيِ وَتُبُوغِ الرَّأْيِ وَاسْتِقْلَالِ الرَّأْيِ حَتَّى يَكُونَ فِي الْكِتَابَةِ إِنْسَانٌ جَالِسٌ هُوَ كَاتِبُهَا ، كَمَا أَنَّ الْحَيَّ الْجَالِسَ فِي كُلِّ حَيٍّ هُوَ مَجْمُوعُهُ الْعَصَبِيُّ ، فَيَخْرُجُ ضَرْبٌ مِنَ الْأَدَابِ كَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ التَّحَوُّلِ فِي الوجودِ الْإِنْسَانِيِّ يَرْجِعُ بِالْحَيَاةِ إِلَى ذَرَاتٍ مَعَانِيهَا ، ثُمَّ يَرْسُمُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي مِثْلَ مَا أَبْدَعَتْ ذَرَاتُ الْحَلِيقَةِ فِي تَرْكِيبٍ مِنْ تَرْكِيبٍ ، فَلَا يَكُونُ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٩٣ ، ٢ محرم سنة ١٣٥٦ هـ = ١٥ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ،

الصفحات : ٤٠٢ - ٤٠٥ .

(١) { وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ الْمُعْرَكَةِ الْأَخِيرَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَكِيٍّ مُبَارَكٍ } .

لِلأَدِيبِ تَعْرِيفٌ إِلَّا أَنَّهُ الْمُقَلَّدُ الْإِلَهِيُّ (١) .

وَإِذَا اعْتَبَرْنَا هَذَا الْأَصْلَ ، فَهَلْ يَبْدَأُ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ فِي عَصْرِنَا أَوْ يَنْتَهِي ؛ وَهَلْ تُرَاهُ يَغْلُو أَوْ يَنْزِلُ ، وَهَلْ يَسْتَجْمِعُ أَوْ يَنْفُضُ ، وَهَلْ هُوَ مِنْ قَدِيمِهِ الصَّرِيحِ بَعِيدٍ مِنْ بَعِيدٍ ، أَوْ قَرِيبٍ مِنْ قَرِيبٍ ، أَوْ هُوَ فِي مَكَانٍ بَيْنَهُمَا ؟

هَذِهِ مَعَانٍ لَوْ ذَهَبَتْ أَقْصَلُهَا لَأَقْتَحَمَتْ تَارِيخًا طَوِيلًا أَمُرُ فِيهِ بِعِظَامٍ مُبَعَثَةٍ فِي ثِيَابِهَا لَا فِي قُبُورِهَا . . . وَلَكِنِّي مُوجِزٌ مُقْتَصِرٌ عَلَى مَعْنَى هُوَ جُمْهُورُ هَذِهِ الْأَطْرَافِ كُلِّهَا ، وَإِلَيْهِ وَخَدَهُ يَرْجِعُ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ التَّعَادِي بَيْنَ الْأَذْوَاقِ وَالْإِسْفَافِ بِمَنَازِعِ الرَّأْيِ وَالْخَلْطِ وَالْأَضْطِرَابِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، حَتَّى أَصْبَحَ أَمْرُ الْأَدَبِ عَلَى أَقْبَحِهِ وَهُمْ يَرَوْنَهُ عَلَى أَحْسَنِهِ ، وَحَتَّى قِيلَ فِي الْأَسْلُوبِ : أَسْلُوبٌ تَلْغَرَاوِيٌّ ، وَفِي الْفَصَاحَةِ : فَصَاحَةٌ عَامِّيَّةٌ ، وَفِي اللَّغَةِ : لُغَةٌ الْجَرَائِدِ ، وَفِي الشُّعْرِ : شِعْرُ الْمَقَالَةِ ؛ وَنَجَمَتِ النَّاجِمَةُ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ ، وَيَزِينُ لَهُمْ أَنَّهَا الْقُوَّةُ قَدْ اسْتَخَصَصَتْ وَاسْتَدَتْ ، وَنَازَعَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ إِلَى سُخْرِيَةِ التَّقْلِيدِ وَإِلَى أَنْ يَكُونَ لَصِيفًا دَعِيًّا فِي آدَابِ الْأُمَمِ ، وَاسْتَهْلَكَهُ التَّضْيِيعُ وَسُوءُ النَّظَرِ لَهُ عَلَى حِينٍ يُؤْتَى لَهُمْ أَنْ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ حِفْظِهِ وَصِيَابَتِهِ وَحُسْنِ الصَّنِيعِ فِيهِ وَمِنْ تَوْفِيرِ الْمَادَّةِ عَلَيْهِ .

أَيْنَ تُصِيبُ الْعِلَّةُ إِذَا التَّمَسَّتْهَا ؟ أَفِي الْأَدَبِ مِنْ لُغَتِهِ وَأَسَالِيْبِ لُغَتِهِ ، وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِ مَعَانِيهِ ؟ أَمْ فِي الْقَائِمِينَ عَلَيْهِ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَمَنَاجِحِهِمْ وَمَا يَتَّفِقُ مِنْ أَسْبَابِهِمْ وَجَوَادِيهِمْ ؟

إِنْ تَقُلْ : إِنَّهَا فِي اللَّغَةِ وَالْأَسَالِيْبِ وَالْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضِ ، فَهَلْذِهِ كُلُّهَا تَصِيرُ إِلَى حَيْثُ يُرَادُ بِهَا ، وَتَتَقَلَّدُ الْبَلِيَّةَ مِنْ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ فِيهَا ، وَقَدْ اسْتَوْعَبَتْ وَأَتَّسَعَتْ وَمَادَتْ الْعُصُورَ الْكَثِيرَةَ إِلَى عَهْدِنَا ، فَلَمْ تَوْتَ مِنْ ضِيَبٍ وَلَا جُمُودٍ وَلَا ضَعْفٍ ، ثُمَّ هِيَ مَادَّةٌ ، وَلَا عَلَيْهَا مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَضَعُ يَدَهُ مِنْهَا حَيْثُ يَمْلَأُ كَفَّهُ أَوْ حَيْثُ تَقَعُ يَدُهُ عَلَى حَاجَتِهِ .

وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّ الْعِلَّةَ فِي الْأَدِبَاءِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَمَنَاجِحِهِمْ وَدَوَاعِيهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ ؛ سَأَلْتُكَ : وَلِمَ قَصَرُوا عَنِ الْعَايَةِ ، وَلِمَ وَقَعُوا بِالْخِلَافِ ، وَكَيْفَ ذَهَبُوا عَنِ الْمَصْلَحَةِ ، وَكَيْفَ اعْتَقَمَتِ الْخَوَاطِرُ وَفَسَدَتِ الْأَذْوَاقُ مَعَ قِيَامِ الْأَدَبِ الصَّحِيحِ فِي كُتُبِهِ مَقَامَ أُمَّةٍ مِنْ أَهْلِهِ

(١) اسْتَوْفَيْنَا هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَقَالَةِ « الْأَدَبِ وَالْأَدِيبِ » .

أَعْرَابًا وَفُصَحَاءَ وَكُتَّابًا وَسُعْرَاءَ ، وَمَعَ انْفِسَاحِ الْأَقْنَى الْعَقْلِيِّ فِي هَذَا الدَّهْرِ وَاجْتِمَاعِهِ مِنْ أَطْرَافِهِ لِمَنْ شَاءَ ، حَتَّى لَتَجِدَ عُقُولَ نَوَابِغِ الْقَارَاتِ الْخَمْسِ تُحَقِّقُ فِي حَقِيقَةِ مِنَ الْكُتُبِ ، أَوْ تُصَنِّدُ<sup>(١)</sup> فِي صُنْدُوقِ مِنَ الْأَسْفَارِ .

كَيْفَ ذَهَبَ الْأَدَبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ نَشْرًا مُتَبَدِّدِينَ تَغْلُو بِهِمُ الدَّائِرَةُ وَتَهْبِطُ ، فَكُلُّ أَعْلَى وَكُلُّ أَسْفَلٍ ؟ هَذَا فَلَانٌ شَاعِرٌ قَدْ أَحَاطَ بِالشَّعْرِ عَرَبِيٍّ وَعَرَبِيٍّ وَهُوَ يَنْظُمُهُ وَيَقْتَنُ فِي أَغْرَاضِهِ وَيُؤَلِّدُ وَيُسْرِقُ وَيَنْسَخُ وَيَنْسَخُ ، وَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ الشَّاعِرُ الَّذِي فَقَدَتْهُ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تَارِيخِهَا ، وَوَقَعَ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَدَّهَا أَبْيَلَاءَ وَمِخَنَةً ، وَهُوَ كَكُلِّ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي لُغَاتٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ لَظَهَرُوا نُجُومًا ، وَلَكِنَّ الْعَرَبِيَّةَ جَعَلَتْ كُلًّا مِنْهُمْ حَصَاةً بَيْنَ الْحَصَى ، وَتَقْرَأُ شِعْرَهُ فَإِذَا هُوَ شِعْرٌ تَتَوَهَّمُ مِنْ قِرَاءَتِهِ تَقْطِيعَ ثِيَابِكَ ، إِذْ تُجَادِبُ نَفْسَكَ لِتَفِرَّ مِنْهُ فِرَارًا .

وَهَذَا فَلَانُ الْكَاتِبِ الَّذِي وَالَّذِي يَرْتَفِعُ إِلَى أَقْصَى السَّمَوَاتِ عَلَى جَنَاحَيْ دُبَابَةٍ .

وَهَذَا فِرْعَوْنُ الْأَدَبِ الَّذِي يَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ! وَهَذَا فَلَانٌ وَهَذَا فَلَانٌ ...

أَيْنَ يَكُونُ الزَّمَانُ عَلَى هَؤُلَاءِ وَأَمثالِهِمْ لِيَعْرِفُوا مَا هُمْ فِيهِ كَمَا هُمْ فِيهِ ، وَلِيَضْبِطُوا آرَاءَهُمْ وَهَوَاجِسَهُمْ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ حِسَابَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ لَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا وَاحِدَةً مِنْهُمْ وَاحِدَةً وَإِنْ تَوَهَّمُوا مِثَّةً وَتَوَهَّمَهَا بَعْضُهُمْ أَلْفًا أَوْ أَلْفَيْنِ ، وَمَتَى قَالَ النَّاسُ : غَلِطُوا ، فَقَدْ غَلِطُوا ، وَمَتَى قَالُوا : سَخَفَاءُ ، فَهُمْ سَخَفَاءُ .

وَأَيْنَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ انْطَلَقُوا كَأَنَّهُمْ مُسَخَّرُونَ بِالْجَبْرِ عَلَى قَانُونٍ مِنَ التَّدْمِيرِ وَالتَّخَرُّبِ ، فَلَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا طَبِيعَةُ مُكَابَرَةٍ لَا إِفْرَارَ مِنْهَا ، بَاغِيَةً لَا إِنْصَافَ مَعَهَا ، نَافِرَةً لَا مَسَاحَإَ إِلَيْهَا ، مُتَهَمَةً لَا ثِقَّةَ بِهَا ، طَبِيعَةً يَتَحَوَّلُ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا إِلَى آثَرٍ مِنْهَا كَمَا يَتَحَوَّلُ مَاءُ الشَّجَرِ فِي الْعُودِ الرَّطْبِ الْمُسْتَعِيلِ إِلَى دُخَانٍ أَسْوَدَ !

\* \* \*

(١) كَلِمَةً وَضَعَهَا عَلَى قِيَاسٍ تُحَقِّقُ .

يَرْجِعُ هَذَا الْخَلْطُ فِي رَأْيِي إِلَى سَبَبٍ وَاحِدٍ : هُوَ خُلُوُّ الْعَصْرِ مِنْ إِمَامٍ بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ يَلْتَقِي عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ وَيَكُونُ مِلَّةَ الدَّهْرِ فِي حِكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَلِسَانِهِ وَمَنَاقِبِهِ وَسَمَائِلِهِ ؛ فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِمَامِ يُحْصَى دَائِمًا بِالْإِرَادَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا إِلَّا النَّصْرُ وَالْغَلْبَةُ ، وَالَّتِي تُعْطِي الْقُوَّةَ عَلَى قَتْلِ الصَّغَائِرِ وَالسَّفَاسِفِ ؛ وَهُوَ إِذَا أَلْقَى فِي الْمِيزَانِ عِنْدَ اخْتِلَافِ الرَّاْيِ ، وَضَعَ فِيهِ بِالْجُمْهُورِ الْكَثِيرِ مِنْ أَنْصَارِهِ وَالْمُعْجِبِينَ بِآدَابِهِ ، وَبِالسَّوَادِ الْغَالِبِ مِنْ كُلِّ أَلْفَاعِلِيَّاتِ الْمُحِيطَةِ بِهِ وَالْمُتَجَذِّبَةِ إِلَيْهِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَنْهَيَا قُوَّةَ التَّرْجِيحِ وَيَتَعَيَّنُ الْيَقِينُ وَالشَّكُّ ؛ وَالْمِيزَانُ الْيَوْمَ فَارِغٌ مِنْ هَذِهِ الْقُوَّةِ فَلَا يُرْجَحُ وَلَا يَعْينُ .

وَمَكَانُهُ هَذَا الْإِمَامُ تَحْدُ الْأَمْكِنَةَ ، وَمَقْدَارُهُ يَزِنُ الْمَقَادِيرَ ، فَيَكُونُ هُوَ الْمَنْطِقَ الْإِنْسَانِيَّ فِي أَكْثَرِ الْخِلَافِ الْإِنْسَانِيِّ : تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ ، فَتَلْزَمُ وَإِنْ أَنْكَرَهَا الْمُتَكَبِّرُ ، وَتَمْنِضِي وَإِنْ عَانَدَ فِيهَا الْمُعَانِدُ ، وَيُؤْخَذُ بِهَا وَإِنْ أَصَرَ الْمُصِرُّ عَلَى غَيْرِهَا ؛ لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ عَلَى الْقِيَاسِ بَيْنَ النَّظَرِ فِي الزِّيَادَةِ أَوْ النَقْصِ ، وَالْإِجْمَاعُ إِذَا ضَرَبَ ضَرْبَ الْمَعْصِيَةِ بِالطَّاعَةِ ، وَالزِّيغُ بِالْإِسْتِقَامَةِ ، وَالْعِنَادُ بِالتَّسْلِيمِ ؛ فَيَخْرُجُ مَنْ يَخْرُجُ وَعَلَيْهِ وَسْمُهُ ، وَيَزِيغُ مَنْ يَزِيغُ وَفِيهِ صِفَتُهُ ، وَيَصِرُّ الْمُكَابِرُ وَأَسْمُهُ الْمُكَابِرُ لَيْسَ غَيْرَ ، وَإِنْ هُوَ تَكْذَبُ وَتَأَوَّلَ ، وَإِنْ زَعَمَ مَا هُوَ زَاعِمٌ .

وَلِكُلِّ الْقَوَاعِدِ شَوَادُ ، وَلَكِنَّ الْقَاعِدَةَ هِيَ إِمَامُ بَابِهَا ؛ فَمَا مِنْ شَأْنٍ يَحْسَبُ نَفْسُهُ مُنْطَلِقًا مُخْلًى ، إِلَّا هُوَ مَخْدُودٌ بِهَا مَزْدُودٌ إِلَيْهَا ، مُتَّصِلٌ مِنْ أَوْسَعِ جِهَاتِهِ بِأَضْيَقِ جِهَاتِهِ ؛ حَتَّى مَا يَعْرِفُ أَنَّهُ شَادٌ إِلَّا بِمَا تُعْرِفُ بِهِ أَنَّهَا قَاعِدَةٌ ، فَيَكُونُ شَأْنُهُ فِي نَفْسِهِ بِمَا تُعَيِّنُ هِيَ لَهُ عَلَى مَكْرَهَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ .

وَالْإِمَامُ يَنْبُثُ فِي آدَابِ عَصْرِهِ فِكْرًا وَرَأْيًا ، وَيَزِيدُ فِيهَا قُوَّةً وَإِبْدَاعًا ، وَيُزِيلُ مَا ضِيغَ بِأَنَّهُ فِي نَهَائِيهِ ، وَمُسْتَقْبَلُهَا بِأَنَّهُ فِي بَدَائِيهِ ، فَيَكُونُ كَالْتَّعْدِيلِ بَيْنَ الْأَرْثَمَةِ مِنْ جِهَةٍ ، وَالْإِنْتِقَالِ فِيهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ؛ لِأَنَّ هَذَا الْإِمَامَ إِنَّمَا يُخْتَارُ لِإِظْهَارِ قُوَّةِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ بَعْضِ وَجُوهِهَا وَإِثْبَاتِ شُمُولِهَا وَإِحَاطَتِهَا كَأَنَّهُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْجِنْسِ يَأْنَسُ الْجِنْسُ فِيهَا إِلَى كَمَالِهِ الْبَعِيدِ ، وَيَتَلَقَّى مِنْهُ حُكْمَ التَّمَامِ عَلَى النَقْصِ ، وَحُكْمَ الْقُوَّةِ عَلَى الضَّعْفِ ، وَحُكْمَ الْمَأْمُولِ عَلَى الْوَاقِعِ ، وَيَجِدُ فِيهِ قَوْمُهُ كَمَا يَجِدُونَ فِي الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا يُكَابِرُ عِنْدَهَا

مُتَنَطِّعٌ بِتَأْوِيلِ ، وَفِي الْقُوَّةِ الَّتِي لَا يُخَالِفُ عِنْدَهَا مُبْطِلٌ بِعِتَادٍ ؛ وَفِي الشَّرِيعَةِ الَّتِي لَا يَزُوعُ مِنْهَا مُتَعَسِّفٌ بِحِيلَةٍ ، وَلَنْ يَضِلَّ النَّاسُ فِي حَقِّ عَرَفُوا حَدَّهُ ، فَإِنَّ مَا وَرَاءَ الْجَدِّ هُوَ التَّعَدِّي ؛ وَلَنْ يُخْطِئُوا فِي حُكْمِ أَصَابُوا وَجْهَهُ ، فَإِنَّ مَا عَدَا الْوَجْهَ هُوَ الْخِلَافُ وَالْمِرَاءُ .

وَقَدْ طُبِعَ النَّاسُ فِي بَابِ الْقُدْوَةِ عَلَى غَرِيزَةٍ لَا تَتَحَوَّلُ ؛ فَمَنْ انْفَرَدَ بِالْكَمَالِ كَانَ هُوَ الْقُدْوَةُ ، وَمَنْ غَلَبَ كَانَ هُوَ السَّمْتُ ؛ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِمَّنْ يَفْتَنَاشُونَ بِهِ وَيَتَوَارِثُونَ فِيهِ حَتَّى يَسْتَقِيمُوا عَلَى مَرَاشِدِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ، فَالْإِمَامُ كَأَنَّهُ مِيزَانٌ مِنْ عَقْلِ . فَهُوَ يَسْلُطُ فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاقِصِ وَالْوَافِي مِنْ كُلِّ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ ، ثُمَّ لَا خِلَافَ عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَتْ فِيهِ أَوْزَانُ الْقُوَى وَزَنًا بَعْدَ وَزْنٍ ، وَكَانَتْ فِيهِ مَنَازِلُ أَحْوَالِهَا مَنَزِلَةً بَعْدَ مَنَزِلَةٍ .

هُوَ إِنْسَانٌ ، تَخَيَّرَ بَعْضُ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ لِتُظْهَرَ فِيهِ بِأَسْلُوبٍ عَمَلِيٍّ ، فَيَكُونُ فِي قَوْمِهِ ضَرْبًا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّلْعِيمِ بِقَاعِدَةٍ مُنْتَزَعَةٍ مِنْ مِثَالِهَا ، مَشْرُوحَةٍ بِهَذَا الْمِثَالِ نَفْسِهِ ، فَإِلَيْهِ يُرَدُّ الْأَمْرُ<sup>(١)</sup> فِي ذَلِكَ ، وَيَتْلُوهُ يُتْلَى ، وَعَلَى سَبِيلِهِ يُنْهَجُ ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِالْفَرْقِ الَّذِي هُوَ إِمَامٌ فِيهِ ، إِلَّا كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ مُتَّصِلٌ بِقُوَى الْقُفُوسِ كَأَنَّهُ هِدَايَةٌ فِيهَا ، لِأَنَّهُ بِفَتْهِ حَكَمَ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ قُوَّةً وَتَنْبِيْهَا ، وَتَسْهِيْلًا وَإِنْصَاحًا ، وَإِبْلَاغًا وَهِدَايَةً ؛ وَيَكُونُ رَجُلًا وَإِنَّهُ لِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَفِي الْأَنْفُسِ كُلِّهَا ، وَيُعْطَى مِنْ إِجْلَالِ النَّاسِ مَا يَكُونُ بِهِ اسْمُهُ ، كَأَنَّهُ خَلَقَ مِنَ الْحُبِّ طَرِيقَهُ عَلَى الْعَقْلِ لَا عَلَى الْقَلْبِ .

وَلَعَلَّ ذَلِكَ مِنْ حِكْمَةِ إِقَامَةِ الْخَلِيفَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَوُجُوبِ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَا بُدَّ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ ضَوْءٍ فِي لَحْمٍ وَدَمٍ ، وَبَعْضُ مَعَانِي الْخَلِيفَةِ فِي تَنْصِيْبِهِ كَبَعْضِ مَعَانِي « الشَّهِيدِ الْمَجْهُولِ » فِي الْأَمْرِ الْمُحَارِبَةِ الْمُنتَصِرَةِ الْمُتَمَدِّدَةِ : رَمَزُ التَّقْدِيسِ ، وَمَعْنَى الْمُقَادَاةِ ، وَصَمْتُ تَبَكُّلِهِ ، وَمَكَانٌ يُوجِي ، وَقُوَّةٌ تُسْتَمَدُّ ، وَأَنْفِرَادٌ يَجْمَعُ ؛ وَحُكْمُ الْوُطَنِيَّةِ عَلَى أَهْلِهَا بِأَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ فِي شَرَفِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ؛ بَلِ الْحَرْبُ مَحْبُوءَةٌ فِي حُفْرَةٍ ، وَالنَّصْرُ مُعْطَى بِقَبْرِ ؛ بَلِ الْمَجْهُولُ الَّذِي فِيهِ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ .

\* \* \*

فَعَصْرُنَا هَذَا مُضْطَرِبٌ مُخْتَلٌ ، إِذْ لَا إِمَامَ فِيهِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَإِذْ كُلُّ مَنْ يَزْعُمُ نَفْسَهُ إِمَامًا هُوَ مِنْ بَعْضِ جِهَاتِهِ كَأَنَّهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَلَكِنْ بَغْيٌ فَقِهِ !

وَلَعَمْرِي مَا نَشَأَ قَوْلُهُمْ « الْجَدِيدُ وَالْقَدِيمُ » إِلَّا لِأَنَّ هَلْهَنَا مَوْضِعًا خَالِيًا يُظْهَرُ خِلَافُهُ مَكَانَ الْفَضْلِ بَيْنَ النَّاحِيَتَيْنِ وَيَجْعَلُ جِهَةً تَنَمَّازُ<sup>(١)</sup> مِنْ جِهَةٍ ، فَمُنْذُ مَاتَ الْإِمَامُ الْكَبِيرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - جَرَتْ أَحْدَاثٌ ، وَنَثَّتْ رُؤُوسٌ ، وَزَاغَتْ طَبَائِعٌ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ رَجُلٌ بَلْ رُفِعَ قِرَآنٌ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ : « تَنَحَّازُ » بِدَلَالَةِ : « تَنَمَّازُ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْأُمُورُ » بِدَلَالَةِ : « الْأَمْرُ » .

## الأدب والأديب (\*) (١)

إِذَا اغْتَبَرَتِ الْخَيَالُ فِي الذِّكَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَوَّلِيَّتِهِ دَقَّةَ النَّظَرِ وَحُسْنَ التَّمْيِيزِ ، لَمْ تَجِدْهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا تَقْلِيدًا مِنَ النَّفْسِ لِلْأَوْهِيَّةِ بِوَسَائِلٍ عَاجِزَةٍ مُنْقَطِعَةٍ ، قَادِرَةٍ عَلَى التَّصَوُّرِ وَالْوَهْمِ بِمِقْدَارِ عَجْزِهَا عَنِ الْإِبْجَادِ وَالتَّحْقِيقِ .

وَهَذِهِ النَّفْسُ الْبَسْرِيَّةُ الْآتِيَّةُ مِنَ الْمَجْهُولِ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهَا ، وَالرَّاجِعَةُ إِلَيْهِ آخِرَ حَيَاتِهَا ، وَالْمُسَدَّدَةُ فِي طَرِيقِهِ مَدَّةَ حَيَاتِهَا ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَرَّرَ فِي خَيَالِهَا أَنَّ الشَّيْءَ الْمَوْجُودَ قَدْ انْتَهَى بِوُجُودِهِ ، وَلَا تَرْضَى طَبِيعَتُهَا بِمَا يَنْتَهِي ؛ فَهِيَ لَا تَتَعَاطَى الْمَوْجُودَ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَيَالِهَا عَلَى أَنَّهُ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ فَمَا يُبْدَأُ ، وَتَمَّ فَمَا يُزَادُ ، وَخَلَدَ فَلَا يَتَحَوَّلُ ؛ بَلْ لَا تَزَالُ تَضْرِبُ ظَلَمًا وَتُصَرِّفُ وَهْمَهَا فِي كُلِّ مَا تَرَاهُ أَوْ يَتَلَجَّلُ فِي خَاطِرِهَا ، فَلَا تَبْرَحُ تَتَلَمَّحُ فِي كُلِّ وُجُودٍ غَيْبًا ، وَتَكْشِفُ مِنَ الْغَامِضِ ، وَتَزِيدُ فِي غُمُوضِهِ ، وَتَجْرِي دَابًّا عَلَى مَجَارِيهِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي تَوُفِّقُ صِلَتَهَا بِالْمَجْهُولِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا بُدَّ فِي أَمْرِهَا مَعَ الْمَوْجُودِ مِمَّا لَا وُجُودَ لَهُ ، تَتَعَلَّقُ بِهِ وَتَسْكُنُ إِلَيْهِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ لَا بُدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ - مَعَ الْمَعْنَى الَّتِي لَهُ فِي الْحَقِّ - مِنَ الْمَعْنَى الَّتِي لَهُ فِي الْخَيَالِ ؛ وَهَذَا مَوْضِعُ الْأَدَبِ وَالْبَيَانِ فِي طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَكِلَاهُمَا طَبِيعَتَانِ فِيهَا كَمَا تَرَى .

وَإِذَا قِيلَ الْأَدَبُ ، فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ الْبَيَانِ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَخْلُقُ فِتْصُورًا فَتُحْسِنُ الصُّوْرَةَ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ تَمَامُ التَّرَكِيبِ فِي مَعْرِضِهِ وَجَمَالِ صُورَتِهِ وَدَقَّةَ لَمَحَاتِهِ ؛ بَلْ يَنْزِلُ الْبَيَانُ مِنَ الْمَعْنَى الَّتِي يَلْبَسُهُ مَثَرَةً التُّضْجِ مِنَ الثَّمَرَةِ وَحَدَهَا قَبْلَ التُّضْجِ شَيْئًا مُسَمًّى أَوْ مُتَمَيِّزًا بِنَفْسِهِ ، فَلَنْ تَكُونَ بِغَيْرِ التُّضْجِ شَيْئًا تَامًا وَلَا صَحِيحًا ، وَمَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَسْتَوْفِيَ كَمَالَ عُمْرِهَا الْأَخْضَرَ الَّذِي هُوَ بَيَانُهَا وَبَلَاغَتُهَا .

(\*) « الرسالة » العدد : ١١٠ ، ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ = ١٢ أغسطس / آب ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٢٨٣ - ١٢٨٧ .

(١) أَنْظُرْ « عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَيْفَمَا تَنَاقَلَتْهَا فَهِيَ هِيَ حَتَّى تُنْضِيَهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي رَأَيْتَ فِي الثَّمَرَةِ وَنُضْجِهَا ؛ فَإِنَّ الْبَيَانَ صِنَاعَةَ الْجَمَالِ فِي شَيْءٍ جَمَالُهُ هُوَ مِنْ قَائِدَتِهِ ، وَقَائِدَتُهُ مِنْ جَمَالِهِ ؛ فَإِذَا خَلَا مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ التَّحَقَّقَ بغيرِهِ ، وَعَاهُ بَابًا مِنَ الْأَسْتِعْمَالِ بَعْدَ أَنْ كَانَ بَابًا مِنَ التَّائِيْدِ ، وَصَارَ الْفَرْقُ بَيْنَ حَالَيْهِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْفَاكِهَةِ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنَ الثَّبَاتِ ، وَبَيْنَ الْفَاكِهَةِ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنَ الْخَمْرِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْأَصْلُ فِي الْأَدَبِ الْبَيَانُ وَالْأَسْلُوبُ فِي جَمِيعِ لُغَاتِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ ، لِأَنَّهُ كَذَلِكَ فِي طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

فَالْعَرَضُ الْأَوَّلُ لِلأَدَبِ الْمُبِينِ أَنْ يَخْلُقَ لِلنَّفْسِ دُنْيَا الْمَعَانِي الْمُلَامِيَّةِ لِتِلْكَ التَّرْعَةِ الثَّابِتَةِ فِيهَا إِلَى الْمَجْهُولِ وَإِلَى مَجَارِ الْحَقِيقَةِ ، وَأَنْ يُلْقِيَ الْأَسْرَارَ فِي الْأُمُورِ الْمَكْشُوفَةِ بِمَا يَتَحَيَّلُ فِيهَا ، وَيُرَدُّ الْقَلِيلُ مِنَ الْحَيَاةِ كَثِيرًا وَافِيًا بِمَا يُضَاعَفُ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَيَتْرُكُ الْمَاضِيَ مِنْهَا ثَابِتًا قَارًا بِمَا يُخْلَدُ مِنْ وَصْفِهِ ، وَيَجْعَلُ الْمُؤَلَّمُ مِنْهَا لَذًا خَفِيفًا بِمَا يَبُثُّ فِيهِ مِنَ الْعَاطِفَةِ ، وَالْمَمْلُوءُ مُتَمَعًا حُلُومًا بِمَا يَكْشِفُ فِيهِ مِنَ الْجَمَالِ وَالْحِكْمَةِ ؛ وَمَدَارُ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى إِيْتَاءِ النَّفْسِ لَذَّةَ الْمَجْهُولِ ، الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا لَذَّةُ مَجْهُولَةٍ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ طُلْعَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ ، لَا تَبْنَعِي مَجْهُولًا صِرْفًا وَلَا مَعْلُومًا صِرْفًا ، كَأَنَّهَا مُدْرِكَةٌ بِفِطْرَتِهَا أَنْ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ صَرِيحٌ مُطْلَقٌ وَلَا خَفِيٌّ مُطْلَقٌ ؛ وَإِنَّمَا تُبْنَعِي حَالَةً مُلَامِيَّةً بَيْنَ هَذَيْنِ ، يَتَوَرَّعُ فِيهَا قَلْبٌ أَوْ يَسْكُنُ مِنْهَا قَلْبٌ .

وَأَشْوَاقُ النَّفْسِ هِيَ مَادَّةُ الْأَدَبِ ؛ فَلَيْسَ يَكُونُ أَدَبًا إِلَّا إِذَا وَضَعَ الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَعْنَى ، أَوْ كَانَ مُتَّصِلًا بِسِرِّ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَيَكْشِفُ عَنْهُ أَوْ يُؤْمِي إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ، أَوْ غَيْرَ لِلنَّفْسِ هَذِهِ الْحَيَاةَ تَغْيِيرًا يَجِيءُ طَبَاقًا لِعَرَضِهَا وَأَشْوَاقِهَا ؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَرْحَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ جَوْ إِلَى جَوْ غَيْرِهِ ، يَنْقُلُهُ الْأَدَبُ مِنْ حَيَاتِهِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى ، فِيهَا شُعُورُهَا وَلَذَّتُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَكَانٌ وَلَا زَمَانٌ ؛ حَيَاةٌ كُمَلَّتْ فِيهَا أَشْوَاقُ النَّفْسِ ، لِأَنَّ فِيهَا اللَّذَاتِ وَالْآلَامَ بِغَيْرِ ضَرُورَاتٍ وَلَا تَكَالُفٍ ؛ وَلَعَمْرِي مَا جَاءَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي الْأَدْيَانِ عَيْنًا ؛ فَإِنَّ خَالِقَ النَّفْسِ بِمَا رَكَّبَهُ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ ، لَا يَخْخُمُ الْعَقْلُ أَنَّهُ قَدْ أَتَمَّ خَلْقَهَا إِلَّا بِخَلْقِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَعًا ؛ إِذْ هُمَا الصُّورَتَانِ اللَّائِمَتَانِ الْمُتَكَافِئَتَانِ لِأَشْوَاقِهَا الْخَالِدَةِ إِنْ هِيَ اسْتَقَامَتْ مُسَدَّدَةً أَوْ انْعَكَسَتْ حَائِلَةً .

وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ النَّفْسَ لَا تَتَحَقَّقُ مِنْ حُرِّيَّتِهَا وَلَا تَنْطَلِقُ أَنْطِلَاقَهَا الْخَالِدَةَ فَتُحِسُّ وَحْدَةَ الشُّعُورِ وَوَحْدَةَ الْكَمَالِ الْأَسْمَى - إِلَّا فِي سَاعَاتٍ وَقُرَاطٍ تَسَلُّ فِيهَا مِنْ زَمَنِهَا وَعَيْشِهَا وَنَفَاضِهَا وَأَضْطِرَابِهَا إِلَى (مِنْطَقَةِ حَيَادٍ) خَارِجَةٍ وَرَاءَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ؛ فَإِذَا هَبَطَتْهَا النَّفْسُ ، فَكَأَنَّمَا اتَّقَلَّتْ إِلَى الْحَيَّةِ وَأَسْتَرْوَحَتِ الْخُلْدُ ؛ وَهَذِهِ الْمِنْطَقَةُ السَّخَرِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي أَرْبَعَةٍ : حَبِيبٍ فَاتِنٍ مَغْشُوقٍ أُعْطِيَ قُوَّةَ سِحْرِ النَّفْسِ ؛ فَهِيَ تَنْسَى بِهِ ؛ وَصَدِيقٍ مَحْبُوبٍ وَفِي أَوْتِي قُوَّةَ جَذْبِ النَّفْسِ ، فَهِيَ تَنْسَى عِنْدَهُ ؛ وَفِطْرَةٍ أَدَبِيَّةٍ آخِذَةٍ ، فَهِيَ سَاحِرَةٌ كَالْحَبِيبِ أَوْ جَادِيَّةٌ كَالصَّدِيقِ ؛ وَمَنْظَرٍ فَنِّي رَائِعٍ ، فَفِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْءٌ .

وهذه كلها تُنْسِي الْمَرْءَ زَمَنَهُ مُدَّةً تَطُولُ وَتَقْصُرُ ، وَذَلِكَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ تُصِيبُ مِنْهَا أَسَالِيبُ رُوحِيَّةٍ لَا تُصَالِيهَا هُنَيْهَةً بِالرُّوحِ الْأَرْثِيِّ فِي لَحَظَاتٍ مِنَ الشُّعُورِ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَكَأَنَّهَا مِنَ الْأَرْثِيَّةِ ، وَمِنْ ثَمَّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقَرَّرَ أَنَّ أَسَاسَ الْفَنِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ ثَوْرَةُ الْخَالِدِ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى الْفَنَانِيِّ فِيهِ ، وَأَنَّ تَصَوُّرَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ فِي أَوْهَامِهَا وَحَقَائِقِهَا بِمَثَلِ اخْتِلَاجَاتِهَا فِي الشُّعُورِ وَالتَّأَثُّرِ - وَهُوَ مَعْنَى الْأَدَبِ وَأُسْلُوبِهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْإِتِّسَاقَ وَالْخَيْرَ وَالْحَقَّ وَالْجَمَالَ - وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَسْرَارَهَا - أُمُورٌ غَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ فِي عَالَمٍ يَقُومُ عَلَى الْأَضْطِرَابِ وَالْآثَرَةِ وَالْتَّرَاجِ وَالشَّهَوَاتِ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ يَأْتِي الشَّاعِرُ وَالْأَدِيبُ وَذُو الْفَنِّ عِلَاجًا مِنْ حِكْمَةِ الْحَيَاةِ لِلْحَيَاةِ ، فَيُبْدِعُونَ لِنَلِكِ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَمِيلَةِ عَالَمَهَا الَّذِي تَكُونُ طَبِيعِيَّةً فِيهِ ، وَهُوَ عَالَمٌ أَرْكَانُهُ الْإِتِّسَاقُ فِي الْمَعَانِي الَّتِي يَجْرِي فِيهَا ؛ وَالْجَمَالَ فِي التَّغْيِيرِ الَّذِي يَتَأَدَّى بِهِ ؛ وَالْحَقَّ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ ؛ وَالْخَيْرَ فِي الْغَرَضِ الَّذِي يُسَاقُ لَهُ ؛ وَيَكُونُ فِي الْأَدَبِ مِنَ الْقَصَصِ وَالْكَمَالِ بِحَسَبِ مَا يَجْتَمِعُ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ ، وَلَا مَعْيَارَ أَدَقُّ مِنْهَا إِنْ ذَهَبَتْ تَعْبِيرُهُ بِالظَّنِّ وَالرَّأْيِ ، فَيُنْفِي عَمَلِ الْأَدِيبِ تَخْرُجُ الْحَقِيقَةُ مُضَافًا إِلَيْهَا الْفَنُّ ، وَيَجِيءُ التَّغْيِيرُ مَرِيدًا فِيهِ الْجَمَالَ ، وَتَمَثَّلُ الطَّبِيعَةُ الْجَامِدَةُ خَارِجَةً مِنْ نَفْسِ حَيَّةٍ ، وَيُظْهِرُ الْكَلَامُ وَفِيهِ رَقَّةَ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَحَرَارَتِهَا وَشُعُورَهَا وَانْتِظَامَهَا وَدَفْعُهَا الْمُؤَسِّقِي ، وَتَلْبَسُ الشَّهَوَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ شَكْلَهَا الْمُهْدَبَ لِتَكُونَ بِسَبَبِ مِنْ تَقْرِيرِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى ، الَّذِي هُوَ السَّرُّ فِي ثَوْرَةِ الْخَالِدِ مِنَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْفَنَانِيِّ ، وَالَّذِي هُوَ الْعَايَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَنِّ مَعًا ، وَبِهَذَا يَهَبُ لَكَ الْأَدَبُ تِلْكَ الْقُوَّةَ

الْغَامِضَةَ الَّتِي تَسْعُ بِكَ حَتَّى تَشْعُرَ بِالدُّنْيَا وَأَحْدَانِهَا مَارَّةً مِنْ خِلَالِ نَفْسِكَ ، وَتُحِسُّ الْأَشْيَاءَ كَأَنَّهَا اتَّقَلَّتْ إِلَى ذَاتِكَ مِنْ ذَرَائِهَا ، وَذَلِكَ سِرُّ الْأَدِيبِ الْعَبْقَرِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَرَى الرَّأْيَ بِالْإِعْتِقَابِ<sup>(١)</sup> وَالْإِجْتِهَادِ كَمَا يَرَاهُ النَّاسُ ، وَإِنَّمَا يُحِسُّ بِهِ ، فَلَا يَقَعُّ لَهُ رَأْيُهُ بِالْفِكْرِ ، بَلْ يُلْهَمُهُ إِلَهَامًا ، وَلَيْسَ يُؤَاتِيهِ الْإِلَهَامُ إِلَّا مِنْ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ تَمَرُّ فِيهِ بِمَعَانِيهَا وَتَعَبُّرُهُ كَمَا تَعَبَّرُ السُّفُنُ الْكَثَرُ ، فَيَحْسُ أَثَرَهَا فِيهِ فَيُلْهَمُ مَا يُلْهَمُ ، وَيَحْسُبُهُ النَّاسُ نَافِذًا بِفِكْرِهِ مِنْ خِلَالِ الْكَوْنِ ، عَلَى حِينِ أَنَّ حَقَائِقَ الْكَوْنِ هِيَ الثَّالِفَةُ مِنْ خِلَالِهِ .

وَلَوْ أَرَدْتَ أَنْ تُعْرِفَ الْأَدِيبَ مَنْ هُوَ ، لَمَا وَجَدْتَ أَجْمَعَ وَلَا أَدَقَّ فِي مَعْنَاهُ مِنْ أَنْ تُسَمِّيَهُ الْإِنْسَانَ الْكُونِيَّ ، وَغَيْرُهُ هُوَ الْإِنْسَانُ فَقَطْ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَبْلُغُ مِنْ عُمُقِ تَأَثُّرِهِ بِجَمَالَ الْأَشْيَاءِ وَمَعَانِيهَا ، ثُمَّ مَا يَقَعُّ مِنْ اتِّصَالِ الْمَوْجُودَاتِ بِهِ بِأَلَمِهَا وَأَفْرَاحِهَا ؛ إِذْ كَانَتْ فِيهِ مَعَ خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ خَاصِيَّةُ الْكَوْنِ الشَّامِلِ . فَالطَّبِيعَةُ تُثَبِّتُ بِجَمَالَ فَتَهُ الْبَدِيعِ أَنَّهُ مِنْهَا ، وَتَدُلُّ السَّمَاءُ بِمَا فِي صِنَاعَتِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالْأَسْرَارِ أَنَّهُ كَذَلِكَ مِنْهَا ، وَتُبْرِهُنُ الْحَيَاةُ بِفَلَسَفَتِهِ وَأَرَائِهِ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا مِنْهَا ، وَهَذَا وَذَلِكَ هُوَ الشُّمُولُ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ ، وَالْإِتِّسَاعُ الَّذِي كُلُّ آخِرٍ فِيهِ لَشَيْءٍ أَوَّلٌ فِيهِ لَشَيْءٍ .

وَهُوَ إِنْسَانٌ يَدُلُّهُ الْجَمَالَ عَلَى نَفْسِهِ لِيَدُلَّ غَيْرُهُ عَلَيْهِ ، وَبِذَلِكَ زَيْدٌ عَلَى مَعْنَاهُ مَعْنَى ، وَأَضِيفَ إِلَيْهِ فِي إِحْسَاسِهِ قُوَّةُ إِشْنَاءِ الْإِحْسَاسِ فِي غَيْرِهِ ، فَاسَاسُ عَمَلِهِ دَائِمًا أَنْ يَزِيدَ عَلَى كُلِّ فِكْرَةٍ صُورَةً لَهَا ، وَيَزِيدَ عَلَى كُلِّ صُورَةٍ فِكْرَةً فِيهَا ، فَهُوَ يُبْدِعُ الْمَعَانِي لِلْأَشْكَالِ الْجَامِدَةِ فَيُوجِدُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَيُبْدِعُ الْأَشْكَالَ لِلْمَعَانِي الْمُجَرَّدَةِ فَيُوجِدُهَا هِيَ فِي الْحَيَاةِ ، فَكَأَنَّهُ خُلِقَ لِيَتَلَقَّى الْحَقِيقَةَ وَيُعْطِيهَا لِلنَّاسِ وَيَزِيدُهُمْ فِيهَا الشُّعُورَ بِجَمَالِهَا الْفَنِّيِّ ، وَبِالْأَدْبَاءِ وَالْعُلَمَاءِ تَنْمُو مَعَانِي الْحَيَاةِ ، كَأَنَّمَا أَوْجَدَتْهُمْ الْحِكْمَةُ لِتَنْقُلَ بِهِمُ الدُّنْيَا مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ ، وَكَأَنَّ هَذَا الْكَوْنُ الْعَظِيمَ يَمُرُّ فِي أَدْمِغَتِهِمْ لِيَحَقَّقَ نَفْسَهُ .

وَمُشَارَكَةُ الْعُلَمَاءِ لِلْأَدْبَاءِ تَوْجِبُ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْأَدِيبُ بِالْأُسْلُوبِ الْبَيَانِيِّ ، إِذْ هُوَ كَالطَّابَعِ عَلَى الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ ، وَكَالشَّهَادَةِ مِنَ الْحَيَاةِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمَوْهُوبِ الَّذِي جَاءَتْ

(١) الْإِعْتِقَابُ : إِطَالَةُ النَّظَرِ وَكَذَلِكَ الْفِكْرِ .

مِنْ طَرِيقِهِ ، ثُمَّ لِأَنَّ الْأَسْلُوبَ هُوَ تَخْصِصٌ لِنَوْعٍ مِنَ الذَّوْقِ وَطَرِيقَةٍ مِنَ الْإِدْرَاكِ كَأَنَّ الْجَمَالَ يَقُولُ بِالْأَسْلُوبِ : إِنَّ هَذَا هُوَ عَمَلُ فُلَانٍ .

وَفَضَّلُ مَا بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْأَدِيبِ ، أَنَّ الْعَالِمَ فِكْرَةٌ ، وَلَكِنَّ الْأَدِيبَ فِكْرَةٌ وَأَسْلُوبُهَا ، فَالْعُلَمَاءُ هُمْ أَعْمَالٌ مُتَّصِلَةٌ مُشَابِهَةٌ يُشَارُ إِلَيْهِمْ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، عَلَى حِينٍ يُقَالُ فِي كُلِّ أَدِيبٍ عِبْرَتِي : هَذَا هُوَ ، هَذَا وَحْدَهُ . وَعِلْمُ الْأَدِيبِ هُوَ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى الطَّبِيعَةِ ، وَالطَّبِيعَةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى النَّفْسِ ، وَلِذَلِكَ فَمَوْضِعُ الْأَدِيبِ مِنَ الْحَيَاةِ مَوْضِعُ فِكْرَةٍ حُدُودُهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهَا الْأَسْرَارُ .

وَإِذَا رَأَى النَّاسُ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ تَرْكِيبًا تَامًا قَائِمًا بِحَقَائِقِهِ وَأَوْصَافِهِ ، فَلَا أَدِيبَ الْعَبْرَتِي لَا يَرَاهَا إِلَّا أَجْزَاءً ، كَأَنَّمَا هُوَ يَشْهَدُ خَلْقَهَا وَتَرْكِيبَهَا ، وَكَأَنَّمَا أَمْرًا فِي (مَعْمَلِهِ) ، أَوْ كَأَنَّهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - دَعَا لِيَرَى فِيهَا رَأْيَهُ ... وَبِذَلِكَ يَجِيءُ النَّاسُ مِنْ أَدَبِ الْعَبْرَةِ وَبَعْضُهُ كَأَلْفِ مَقَرَّاتٍ لِيَتَجَمَّلَ الدُّنْيَا وَتَهْدِيبُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَبَعْضُهُ كَأَلْفِ مَوَاقِفَةٍ وَإِقْرَارِ الْحِكْمَةِ ؛ وَأَسَاسُهُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ التَّقْدُّ ثُمَّ التَّقْدُّ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ التَّقْدُّ ؛ كَأَنَّ الْقُوَّةَ الْأَرْثِيَّةَ تَقُولُ لِهَذَا أَلْفُ لَهْمٍ : أَنْتَ كَلِمَتِي فَقُلْ كَلِمَتَكَ ...

\* \* \*

وَتَرَى الْجَمَالَ حِينَ أَصَبْتَهُ شَيْئًا وَاحِدًا لَا يَكْبُرُ وَلَا يَصْغُرُ ، وَلَكِنَّ الْجِسَّ بِهِ يَكْبُرُ فِي أَنْاسٍ وَيَصْغُرُ فِي أَنْاسٍ ، وَهَذَا هُنَا يَتَأَلَّهُ الْأَدَبُ ؛ فَهُوَ خَالِقُ الْجَمَالِ فِي الدُّهْنِ ، وَالْمُمْكِنُ لِلْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى إِدْرَاكِهِ وَتَبْيِينِ صِفَاتِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَقْدِّرُ لِهَذَا الْعَالَمِ قِيَمَتَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ بِإِضَافَةِ الصُّورِ الْفِكْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ إِلَيْهِ ، وَمُحَاوَلَتِهِ إِظْهَارَ النُّظَامِ الْمَجْهُولِ فِي مُتَنَاقِضَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْأَرْتِفَاعِ بِهِدِهِ النَّفْسِ عَنِ الْوَاقِعِ الْمُنْحَطِّ الْمُجْتَمِعِ مِنْ غِشَاوَةِ الْفِطْرَةِ وَصَوْلَةِ الْغَرِيزَةِ ، وَغَرَارَةِ الطَّبْعِ الْحَيَوَانِيِّ .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْأَدَبِ عَلَى ذَلِكَ ، فَبَاضْطِرَارٍ أَنْ تَهْدَبَ فِيهِ الْحَيَاةُ وَتَتَادَبَ ، وَأَنْ يَكُونَ تَسَلُّطُهُ عَلَى بَوَاعِثِ النَّفْسِ دُرْبَةً لِإِضْلَاحِهَا وَإِقَامَتِهَا ، لَا لِإِفْسَادِهَا وَالْإِنْجِرَافِ بِهَا إِلَى الزَّنْفِ وَالضَّلَالَةِ ، وَبَاضْطِرَارٍ أَنْ يَكُونَ الْأَدِيبُ مُكَلِّفًا تَصْحِيحِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَنَفْيِ التَّزْوِيرِ عَنْهَا ، وَإِخْلَاصِهَا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهَا عَلَى تَتَابُعِ الضَّرُورَاتِ ؛ ثُمَّ تَصْحِيحِ الْفِكْرَةِ

الْإِنْسَانِيَّةَ فِي الْوُجُودِ ، وَنَفْيِ الْوُثْبَةِ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَالشُّمُوبُ بِهَا إِلَى فَوْقِ ، ثُمَّ إِلَى فَوْقِ ، وَدَائِمًا إِلَى فَوْقِ !

وَإِنَّمَا يُكَلِّفُ الْأَدِيبُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ ، مِنْ خَصَائِصِهِ التَّمْيِيزُ وَتَقْدُّمُ النَّظَرِ وَتَسْقُطُ الْإِلْهَامِ ، وَلِأَنَّ الْأَصْلَ فِي عَمَلِهِ الْفَنِّيَّ أَلَّا يَنْحَثَ فِي الشَّيْءِ نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ فِي الْبَدِيعِ مِنْهُ ؛ وَلَا يَنْظُرُ إِلَى وُجُودِهِ ، بَلْ إِلَى سِرِّهِ ، وَلَا يَغْنَى بِتَرْكِيبِهِ ، بَلْ بِالْجَمَالِ فِي تَرْكِيبِهِ ، وَلِأَنَّ مَادَّةَ عَمَلِهِ أَحْوَالُ النَّاسِ ، وَأَخْلَاقُهُمْ ، وَأَلْوَانُ مَعَايِشِهِمْ ، وَأَخْلَامُهُمْ ، وَمَذَاهِبُ أَخْلَاقِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ فِي مَعْنَى الْفَنِّ ، وَتَفَاوُثُ إِحْسَاسِهِمْ بِهِ ، وَأَسْبَابُ مَعَاوِنِهِمْ وَمَرَاشِدِهِمْ ، يُسَدِّدُ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ رَأْيَهُ ، وَيَجْمَلُ فِيهِ نَظَرُهُ ؛ وَيَخْلُطُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَيُنْفِذُهُ مِنْ حَوَاسِهِ ، كَأَنَّمَا لَهُ فِي السَّرَائِرِ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ ، وَكَأَنَّهُ وَلِيُّ الْحُكْمِ عَلَى الْجُزْءِ الْخَفِيِّ فِي الْإِنْسَانِ ، يَقُومُ عَلَى سِيَاسَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى التَّمَثُّلِ الْأَعْلَى . وَهَلْ يَخْلُقُ الْعَبْرَتِي إِلَّا كَالْبُرْهَانِ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى أَنْ فِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ وَالَّذِي هُوَ أَبَدُ ، حَتَّى لَا يَنَاسَ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيَّ وَلَا يَنْخَدِلَ ، فَيَسْتَمِرُّ دَائِمًا فِي طَلَبِ الْكَمَالِ وَالْإِبْدَاعِ اللَّذَيْنِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا ؟

فَالْأَدِيبُ يُسْرِفُ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ بَصِيرَتِهِ ، فَإِذَا وَقَّعَ الْحَيَاةَ فِي حَذْوٍ وَاحِدٍ مِنَ الشَّرَّاعِ وَالْتِفَافِصِ ، وَإِذَا هِيَ دَائِبَةٌ فِي مَحَقِ الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، تَارِكَةً كُلَّ حَيٍّ مِنَ النَّاسِ كَأَنَّهُ شَخْصٌ قَائِمٌ مِنْ عَمَلِهِ وَحَوَادِثِهِ وَأَسْبَابِ عَيْشِهِ ؛ فَإِذَا تَلَجَّلَجَ ذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَدِيبِ اتَّجَهَتْ هَذِهِ النَّفْسُ الْعَالِيَّةُ إِلَى أَنْ تَحْفَظَ لِلدُّنْيَا حَقَائِقَ الضَّمِيرِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَقَامَتْ حَارِسَةً عَلَى مَا صَبَّحَ النَّاسُ ، وَسُخِّرَتْ فِي ذَلِكَ تَسْخِيرًا لَا تَمْلِكُ مَعَهُ أَنْ تَأْتِي مِنْهُ ، وَلَا يَسْتَوِي لَهَا أَنْ تُغْمِصَ فِيهِ ؛ وَنَقَلَتْ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا وَوَضَعَتْ عَلَى مَجَارِ طَرِيقِهَا أَيْنَ تَوَجَّهَتْ فَتَأْكُدُ الْأَمْرَ فِيهَا ، وَوَصَلَ بِهَا ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا مِنْ خَالِصَةِ اللَّهِ ، وَأَنَّ رِسَالَتَهَا لِلْعَالَمِ هِيَ تَقْرِيرُ الْحُبِّ لِلْمُتَعَادِينَ ، وَبَسْطُ الرَّحْمَةِ لِلْمُتَنَازِعِينَ ، وَأَنْ تَجْمَعَ الْكُلَّ عَلَى الْجَمَالِ وَهُوَ لَا يُخْتَلَفُ فِي لَذَّتِهِ ، وَتَصِلَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ وَهِيَ لَا تَتَفَرَّقُ فِي مَوْعِظَتِهَا ، وَتُشْعِرُهُمُ الْحِكْمَةَ وَهِيَ لَا تَتَنَازَعُ فِي مَنَاحِيهَا ؛ فَلَا أَدَبَ مِنْ هَذِهِ اللَّاحِظَةِ يُشْبِهُ الدُّنْيَا : كِلَاهُمَا يُعِينُ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى الْأَسْتِمْرَارِ فِي عَمَلِهَا ، وَكِلاهُمَا قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ؛ غَيْرَ أَنَّ الدُّنْيَا يَغْرِضُ لِلْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِأَمْرٍ وَنَهْيٍ ، وَالْأَدَبُ يَغْرِضُ لَهَا لِيَجْمَعَ وَيُقَابِلَ ؛

وَالَّذِينَ يُوجِّهُ الْإِنْسَانَ إِلَى رَبِّهِ وَالْأَدَبُ يُوجِّهُهُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ وَخِي اللَّهِ إِلَى الْمَلِكِ إِلَى نَبِيِّ مُخْتَارٍ ، وَهَذَا وَخِي اللَّهِ إِلَى الْبَصِيرَةِ إِلَى إِنْسَانٍ مُخْتَارٍ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْأَدَبِ مِثْلُ أَعْلَى يَجْهَدُ فِي تَحْقِيقِهِ وَيَعْمَلُ فِي سَبِيلِهِ ، فَهُوَ أَدِيبٌ حَالَةٌ مِنَ الْحَالَاتِ ، لَا أَدِيبٌ عَصْرٍ وَلَا أَدِيبٌ جِيلٍ ؛ وَبِذَلِكَ وَحْدَهُ كَانَ أَهْلُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى فِي كُلِّ عَصْرِ هُمْ الْأَرْقَامُ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُلْقِيهَا الْعَصْرُ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ لِيَحْسُبَ رِبْعَهُ وَخَسَارَتَهُ . . .

لَا يَتَخَذَنَّكَ عَنْ هَذَا أَنْ تَرَى بَعْضَ الْعَبَقَرِيِّينَ لَا يُؤْتِي فِي أَدَبِهِ أَوْ أَكْثَرَهُ إِلَّا إِلَى الرِّذَائِلِ ، يَتَغَلَّغَلُ فِيهَا ، وَيَتَمَلَّأُ بِهَا ، وَيَكُونُ مِنْهَا عَلَى مَا لَيْسَ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا السَّفَلَةُ وَالْحَشَوَةُ مِنَ طَعَامِ النَّاسِ وَرُعَاعِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَذَا وَأَصْرَابَهُ مُسَخَّرُونَ لِيُخْدَمَةَ الْفَضِيلَةِ وَتَحْقِيقِهَا مِنْ جِهَةٍ مَا فِيهَا مِنَ النَّهْيِ ؛ لِيَكُونُوا مِثْلًا وَسَلَفًا وَعِبْرَةً ؛ وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْمُوَعِظَةُ بِرِذَائِلِهِمْ أَقْوَى وَأَشَدَّ تَأْتِيرًا مِمَّا هِيَ فِي الْفَضَائِلِ ؛ بَلْ هُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ الْأَحْوَالِ النَّفْسِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي يَأْمُرُ فِيهَا النَّهْيُ أَقْوَى مِمَّا يَأْمُرُ الْأَمْرُ ، عَلَى نَحْوِ مَا يَكُونُ مِنْ قِرَاءَتِكَ مُوَعِظَةِ الْفَضِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي تَأْمُرُكَ أَنْ تَكُونَ عَافِيًا طَاهِرًا ، ثُمَّ مَا يَكُونُ مِنْ رُؤْيَاكَ الْفَاجِرِ الْمُتَبَلِّغِ الْمُسَوِّءِ الْمُتَحَطِّمِ الَّذِي يَنْهَاكَ بِصُورَتِهِ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ ؛ وَلِهَذَا الْحَقِيقَةُ الْقَوِيَّةُ فِي أَتْرَافِهَا - حَقِيقَةُ الْأَمْرِ بِالنَّهْيِ - يَعْمَدُ النَّوَاعِبُ فِي بَعْضِ أَدَبِهِمْ إِلَى صَرْفِ الطَّبِيعَةِ النَّفْسِيَّةِ عَنْ وَجْهِهَا ، بِعَكْسِ نَتِيجَةِ الْمَوْقِفِ الَّذِي يُصَوِّرُونَهُ ، أَوْ الْإِحَالَةَ فِي الْحَادِثَةِ الَّتِي يَصِفُونَهَا ؛ فَيَنْتَهِي الرَّاهِبُ الْقَتِّيُّ فِي الْقِصَّةِ مُلْحِدًا فَاجِرًا ، وَتَرْتَدُّ الْمَرْأَةُ الْبَغِيُّ قَدِيسَةً ، وَيَرْجِعُ الْإِبْنُ الْبَرُّ قَاتِلًا مَجْنُونًا جُنُونُ الدَّمِ ؛ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا يَجْرِي فِي هَذَا النَّسَقِ ، كَمَا تَرَاهُ لِأَنَّا طَوَّلَ فَرَانْسَ Anotole France وَشِكْسْبِيرَ William shakespeare وَغَيْرِهِمَا ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ غَفْلَةٍ مِنْهُمْ وَلَا شَرٍّ ، وَلَكِنَّهُ أَسْلُوبُ مِنَ الْفَنِّ ، يُقَابِلُهُ أَسْلُوبُ مِنَ الْخَلْقِ ، لِيَبْدَعَ أَسْلُوبًا مِنَ التَّأْتِيرِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ شَادٌّ مَعْدُودٌ يَنْبَغِي أَنْ يَنْحَصَرَ وَلَا يَتَعَدَّى ، لِأَنَّهُ وَصَفَ لِأَحْوَالِ دَقِيقَةٍ طَارِئَةٍ عَلَى النَّفْسِ ، لَا تَغْيِيرَ عَنْ حَقَائِقَ ثَابِتَةٍ مُسْتَقَرَّةٍ فِيهَا .

وَالشَّرُّ فِي الْعَبَقَرِيِّ الَّذِي تِلْكَ صِفَتُهُ وَذَلِكَ أَدَبُهُ ، أَنْ يَغْلُو بِالرِّذِيلَةِ . . . فِي أَسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ ، أَخِذًا بِغَايَةِ الصَّنْعَةِ ، مُتَنَاهِيًا فِي حُسْنِ الْعِبَارَةِ ؛ حَتَّى يُضَيِّعَ وَكَانَ الرِّذَائِلُ هِيَ اخْتَارَتْ مِنْهُ مُفَسَّرَهَا الْعَبَقَرِيُّ الشَّادُّ الَّذِي يَكُونُ فِي سُمُوِّ فَتَاهِ الْبَيَانِيِّ هُوَ وَحْدَهُ الطَّرْفُ

الْمُقَابِلُ لِسُمُوِّ الْعِبَارَةِ عَنِ الْفَضِيلَةِ ، فَيَصْنَعُ الْإِلَهَامُ فِي هَذَا وَفِي هَذَا صُنْعَهُ الْفَنِّيَّ بِطَرِيقَةِ بَدِيعَةِ التَّأْتِيرِ ، أَصْلَهَا فِي أَدَبِ الْفَضِيلَةِ مَا يُرِيدُهُ وَيُجَاهِدُ فِيهِ ، وَفِي أَدَبِ الرِّذِيلَةِ مَا يَقُودُهُ وَيَنْدَفِعُ إِلَيْهِ ؛ كَأَنَّ مِنْهُمَا إِنْسَانًا صَارَ مَلَكًا يَكْتُبُ ، وَإِنْسَانًا عَادَ حَيَوَانًا يَكْتُبُ . . .

وَإِذَا أَنْتَ مَيَّلْتَ بَيْنَ رِذِيلَةِ الْأَدَبِ الْعَبَقَرِيِّ فِي فَنِّهِ ، وَرِذِيلَةِ الْأَدَبِ الْفَنْسِلِ الَّذِي يَنْشَبُهُ بِهِ - فِي التَّأْلِيفِ وَالرَّأْيِ وَالْمُتَابَعَةِ وَالْمَذْهَبِ - رَأَيْتَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْأُخْرَى كِبَاءَ الرَّجُلِ الشَّاعِرِ مِنْ كِبَاءِ الرَّجُلِ الْعَلِيظِ الْجَلْفِ : هَذَا دُمُوعُهُ أَلْمُهُ ؛ وَذَلِكَ دُمُوعُهُ أَلْمُهُ وَسِعْرُهُ ؛ وَفِي كِتَابَةِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مِنَ الْعَبَقَرِيِّينَ خَاصَّةً يَتَحَقَّقُ لَكَ أَنَّ الْأَسْلُوبَ هُوَ أَسَاسُ الْفَنِّ الْأَدَبِيِّ ؛ وَأَنَّ اللَّذَّةَ بِهِ هِيَ عَلَامَةُ الْحَيَاةِ فِيهِ ؛ إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ فِطْعَةٍ أَدَبِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ ، شَاهِدَهَا مِنْ نَفْسِهَا عَلَى أَنَّهَا بِأَسْلُوبِهَا لَيْسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا نُكْتَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَا هَتِجَاجَ الْبَوَاعِثِ فِي نَفْسِ قُرَائِهَا ؛ وَأَنَّهَا عَلَى ذَلِكَ هِيَ أَيْضًا مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَطْرُوحَةٌ لِلنَّظَرِ وَالْحَلِّ ؛ بِمَا فِيهَا مِنْ جَمَالِ الْفَنِّ وَدَقَائِقِ التَّحْلِيلِ .

\* \* \*

وَاللَّذَّةُ بِالْأَدَبِ غَيْرُ التَّلَهِّيِّ بِهِ وَاتِّخَاذِهِ لِلْعَبَثِ وَالْبَطَالَةِ فَيَجِيءُ مُوضُوعًا عَلَى ذَلِكَ فَيَخْرُجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ مَلْهَاءً وَسُخْفًا وَمَضِيعَةً . فَإِنَّ اللَّذَّةَ بِهِ آتِيَةٌ مِنْ جَمَالِ أَسْلُوبِهِ وَبِلَاغَةِ مَعَانِيهِ وَتَنَاقُلِهِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ بِالْأَسَالِيبِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي فِي النَّفْسِ ، وَهِيَ الْأَصْلُ فِي جَمَالِ الْأَسْلُوبِ ، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ هَذِهِ اللَّذَّةِ مُنْفَعَةٌ كُلُّهَا كَسَائِرِ مَا رُكِبَ فِي طَبِيعَةِ الْحَيِّ ؛ إِذْ يُحَسُّ الدَّوْقُ لَذَّةَ الطَّعَامِ مِثْلًا عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ فِعْلِهَا الطَّبِيعِيِّ اسْتِمْرَاءُ التَّغْدِيَةِ لِإِنَاءِ الْجِسْمِ وَحِفْظِ الْقُوَّةِ وَزِيَادَتِهَا ؛ أَمَّا التَّلَهِّيُّ فَيَجِيءُ مِنْ سُخْفِ الْأَدَبِ ، وَفَرَاغِ مَعَانِيهِ ؛ وَمُؤَاتَاةِ الشَّهَوَاتِ الْخَسِيسَةِ ؛ وَالتَّمَاَسَةِ الْجَوَانِبِ الضَّيْقَةِ مِنَ الْحَيَاةِ ؛ وَذَلِكَ حِينَ لَا يَكُونُ أَدَبُ الشَّعْبِ وَلَا الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ بَلْ أَدَبٌ فَنِّيٌّ يَعْنِيهَا وَأَحْوَالُهَا ؛ فَإِنَّ أَدِيبَ صِنَاعَتِهِ أَوْ أَدِيبَ جَمَاعَتِهِ ، غَيْرُ أَدِيبِ قَوْمِهِ وَأَدِيبِ عَصْرِهِ : أَحَدُهُمَا إِلَى حَدِّ مَخْدُودٍ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَالْآخَرُ عَمَلٌ جَامِعٌ مُسْتَمِرٌّ مُتَفَقِّسٌ ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُ الْأَدَبِيَّ هُوَ وَجُودُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي قَوْمِهِ لَا يَبْرَحُ يَقُولُ لَهُ : اكْتُبْ . . .

وَمِنْ الْأَصُولِ الْأَجْمَاعِيَّةِ الَّتِي لَا تَخْلَفُ ، أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الدَّلُولَةُ لِلشَّعْبِ ، كَانَ الْأَدَبُ أَدَبُ الشَّعْبِ فِي حَيَاتِهِ وَأَفْكَارِهِ وَمَطَامِحِهِ وَأَلْوَانِ عَيْشِهِ ، وَزَخَرَ الْأَدَبُ بِذَلِكَ وَتَنَوَّعَ وَأَقْنَرُ

وَبُنِيَ عَلَى الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ الدَّوْلَةُ لِغَيْرِ الشَّعْبِ ، كَانَ الْأَدَبُ أَدَبَ الْحَاكِمِينَ وَبُنِيَ عَلَى التَّفَاقِي وَالْمُدَاهَنَةِ وَالْمُبَالَغَةِ الصَّنَاعِيَّةِ وَالْكَذِبِ وَالتَّذْلِيلِ ؛ وَنَفَسَ الْأَدَبُ مِنْ ذَلِكَ وَقَلَّ وَتَكَرَّرَ مِنْ صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَفِي الْأَوَّلَى يَتَسَّعُ الْأَدِيبُ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالْحَيَاةِ وَتُقَوِّمُهَا وَأَسْرَارَهَا فِي كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ إِلَى الْإِحْسَاسِ بِالْكَوْنِ وَمَجَالِيهِ وَأَسْرَارِهِ فِي كُلِّ مَا حَوْلَهُ . أَمَّا الثَّانِيَةُ فَلَا يُحْسِنُ فِيهَا إِلَّا أَحْوَالُ نَفْسِهِ وَخَلِيطُهُ ، فَيُصْبِحُ أَدَبُهُ أَشْبَهَ بِمَسَافَةٍ مَخْدُودَةٍ مِنَ الْكَوْنِ الْوَاسِعِ ، لَا يَزَالُ يَذْهَبُ فِيهَا وَيَجِيءُ حَتَّى يَمَلَّ ذَهَابَهُ وَمَجِيئُهُ .

وَالْعَجَبُ الَّذِي لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ أَحَدٌ إِلَى الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ مَنْ دَرَسُوا الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، أَنَّكَ لَا تَجِدُ تَفْهِيمَ الْمَعْنَى الْفَلَسَفِيَّ الْاجْتِمَاعِيَّ لِلْأَدَبِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهِ إِلَّا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحْدَهَا ، وَلَمْ يَغْفُلْ عَنْهُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ هَذِهِ اللُّغَةِ وَخَدَهُمْ !

فَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُعَرِّرُ الْأَسْلُوبَ شَرْطًا فِيهِ ، وَيَأْتِي بِقُوَّةِ اللُّغَةِ صُورَةَ لِقُوَّةِ الطَّبَاعِ ، وَيَعْظُمَةُ الْأَدَاءُ صُورَةَ لِعَظَمَةِ الْأَخْلَاقِ ؛ وَبِرَقَّةِ الْبَيَانِ صُورَةَ لِرَقَّةِ النَّفْسِ ، وَبِدَقَّةِ الْمُنْتَاهِيَةِ فِي الْعُمُقِ صُورَةَ لِدَقَّةِ النَّظَرِ إِلَى الْحَيَاةِ ؛ وَبِرِيزِكْ أَنَّ الْكَلَامَ أُمَّةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ عَامِلَةٌ فِي حَيَاةِ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ ، ضَابِطَةٌ لَهَا الْمَقَائِيسَ التَّارِيخِيَّةَ ، مُحْكِمَةٌ لَهَا الْأَوْضَاعَ الْإِنْسَانِيَّةَ ، مُشْتَرِطَةٌ فِيهَا الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، حَامِلَةٌ لَهَا الثُّورَ الْإِلَهِيَّ عَلَى الْأَرْضِ ...

... وَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُنْشِئُ الْأُمَّةَ إِنْشَاءً سَامِيًا ؛ وَيُدْفَعُهَا إِلَى الْمَعَالِي دَفْعًا ، وَيُرُدُّهَا عَنْ سَفَاسِفِ الْحَيَاةِ ، وَيُوجِّهُهَا بِدَقَّةِ الْإِبْرَةِ الْمِغْنَاتِيْسِيَّةِ إِلَى آفَاقِ الْوَاسِعَةِ ، وَيُسَدِّدُهَا فِي أَغْرَاضِهَا التَّارِيخِيَّةِ الْعَالِيَةِ تَسْدِيدَ الْقُنْبُلَةِ خَرَجَتْ مِنْ مَدْفَعِهَا الضَّخْمِ الْمُحَرَّرِ الْمُحْكَمِ ، وَيَمْلَأُ سَرَائِرَهَا يَقِينًا وَنَفُوسَهَا حَزْمًا وَأَبْصَارَهَا نَظْرًا وَعُقُولَهَا حِكْمَةً ، وَيَنْفُذُ بِهَا مِنْ مَظَاهِرِ الْكَوْنِ إِلَى أَسْرَارِ الْأُلُوهِيَّةِ ...

... إِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْوُجُوهِ مِنَ الْإِعْتِبَارِ - وَجَدْتَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ قَدْ وَضَعَ الْأَصْلَ الْحَقِّيَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَعْجَبَ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا الْأَصْلَ مُقَدَّسًا ، وَفَرَضَ هَذَا التَّقْدِيسَ عَقِيدَةً ، وَاعْتَبَرَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ ثَابِتَةً لَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ الْأُدَبَاءُ وَلَمْ يَخْذُوا بِالْأَدَبِ حَذْوَهُ ، وَحَسِبُوهُ دِينًا فَقَطْ ، وَذَهَبُوا بِأَدَبِهِمْ إِلَى الْعَبَثِ وَالْمُجُونِ

وَالْتَّفَاقِ ، كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا بَقَايَا تَارِيخٍ مُخْتَصَرٍ بِالْعِلَلِ الْقَاتِلَةِ ، ذَاهِبٍ إِلَى الْفَنَاءِ الْحَثَمِ !

وَالْقُرْآنُ بِأَسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ لَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا :  
إِنَّ الْأَدَبَ هُوَ الشَّمُوعُ بِضَمِيمِ الْأُمَّةِ .

وَلَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا : إِنَّ الْأَدِيبَ هُوَ مَنْ كَانَ لِأُمَّتِهِ وَلِلْعَنِيَّتِهَا فِي مَوَاهِبِ قَلَمِهِ لَقَبٌ مِنَ الْقَابِ التَّارِيخِ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

\* \* \*



## سِرُّ النَّبُوغِ فِي الْأَدَبِ (\*)

لَوْ تَرَجَّمْنَا الْحَاظِرَةَ الَّتِي تَمُرُّ فِي ذَهْنِ الْحَيَوَانِ الذِّكِيِّ حِينَ يَنْقَادُ فِي يَدِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ أَبْلَهَ يُصْرِفُهُ وَيُدِيرُهُ عَلَى أَغْرَاضِهِ ، فَتَقَلَّبَتْهَا مِنْ فِكْرِ الْحَيَوَانِ إِلَى لُغَتِنَا ، وَأَدْبَانَهَا بِمَعْنَى مِمَّا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ - لَكَانَتْ فِي الْعِبَارَةِ هَكَذَا : مَا أَنْتَ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْمُدْبَّرَةِ لِلْكَوْنِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَسَلَّم . . . ذَلِكَ أَنَّ التَّرَكِيبَ الَّذِي يَبِينُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَيَوَانِ قَدْ جَعَلَ دِمَاغَ هَذَا الْحَيَوَانِ خَاتَمًا مِنَ اللَّهِ دَمَعٌ بِهِ عَلَى خَصَائِصِهِ فَأَفْرَعَهُ اللَّهُ فِي جِلْدِهِ ، وَوَضَعَ فِي رَأْسِهِ ذَلِكَ الْقِفْلَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي حَبَسَهُ فِي بَابِ الْأَضْطِرَارِ مِنْ غَرَائِزِهِ الْبَهِيمِيَّةِ ، وَأَقْفَلَ بِهِ عَلَى الدُّنْيَا الْعَقْلِيَّةِ الْمَتَسَعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ ، فَالْكَوْنُ عِنْدَهُ لَعَوٌ كُلُّهُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا حَقَائِقُ يَسِيرَةٌ ، ثُمَّ لَا تَفْسِيرَ لِهَذِهِ الْحَقَائِقِ إِلَّا مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ ، فَجِلْدُهُ أَدْقُ تَفْسِيرٍ فَلِكُمِّي . . . لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْهَوَاءِ وَمَا يَجِيءُ مِنْهَا ، وَجَوْفُهُ أَصَحُّ تَعْيِيرٍ جُغْرَافِيٍّ . . . لِلْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَمَا تَحْمِلُ ، وَجَوْعُهُ وَشَبَعُهُ هُمَا كُلُّ فَلَسَفَةِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِي الْعَالَمِ !

فَأَسَاسُ الذِّكَاءِ عَالِيًا وَنَارِلًا هُوَ التَّرَكِيبُ الطَّبِيعِيُّ لَا غَيْرُهُ ، لَوْ زَادَتْ فِي الدِّمَاغِ ذَرَّةٌ أَوْ نَقِصَتْ لَزَادَتْ لِلدُّنْيَا صُورَةٌ أَوْ نَقِصَتْ ، فَبِالضَّرُورَةِ تَكُونُ هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ فِيمَا نَرَى مِنْ تَبَايُنِ حِدَّةِ الذِّكَاءِ فِي أَفْرَادِ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَمَا نَشْهَدُ مِنْ ذَلِكَ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ ، مِنْ الْفُطْنَةِ إِلَى الذِّكَاءِ<sup>(١)</sup> إِلَى الْأَلَمَعِيَّةِ إِلَى الْجَهْدَةِ إِلَى النَّبُوغِ إِلَى الْعَبَقَرِيَّةِ ؛ وَهِيَ طَبَقَاتٌ مِنْ أَلْفَافِ اللَّغَةِ لِأَحْوَالِ قَائِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي تَرَجُّعٌ إِلَى دَرَجَاتٍ نَائِبَةٍ فِي تَرْكِيبِ الدِّمَاغِ .

وَمِمَّا يَسْجُدُ لَهُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ سَجْدَةً طَوِيلَةً إِذَا هُوَ تَأَمَّلَ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ وَمَرَّ بِتَصَفِّحِ مِنْ أَسْرَارِ مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى النَّبُوغِ - أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ الَّذِي يَحْمِلُ أَسْرَارَ الْأُلُوْهِيَّةِ

(\*) « الْمُفْقَطُفُ » يَتَابَرُ/ كَانُونِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٣٣ م ، الصَّفَحَاتِ : ٢٥ - ٣٣ .

(١) عِنْدَنَا أَنَّ الْفُطْنَةَ فِي اللَّغَةِ ، دُونَ الذِّكَاءِ ؛ تَقَابِلُ مَا عِنْدَ الْحَيَوَانِ مِنَ النَّبِيهِ ؛ وَالذِّكَاءُ : التَّوَفُّدُ وَاللَّهْيَانُ .

هُوَ كُرَّةٌ مُتَقَادِفَةٌ فِي الْفَضَاءِ الْأَبَدِيِّ ، وَأَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُ أَسْرَارَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، هِيَ كُرَّةٌ طَائِرَةٌ فِيمَا مَدَّ لَهَا مِنَ الْوُجُودِ ، وَأَنَّ كُلَّ حَيٍّ فِيهَا يَحْمِلُ أَسْرَارَ حَيَاتِهِ فِي كُرَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِ هِيَ رَأْسُهُ ، وَأَنَّ الْوُجُودَ مِنْ كُلِّ حَيٍّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ لَيْسَ شَيْئًا ، فِي النَّظَرِ وَلَا فِي الْحِسِّ وَلَا فِي الْفَهْمِ إِلَّا كَمَا يَرَى وَيُحَسُّ وَيَفْهَمُ فِي هَذَا الرَّأْسِ بَعَيْنُهُ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ ، فَيَضَعُ الدِّبْرِيحَ إِلَى الْكَبِيرِ إِلَى الْأَكْبَرِ ، وَيَنْزِلُ إِلَى الصَّغِيرِ إِلَى الْأَصْغَرِ ، ثُمَّ لَا مَعْنَى لِمَا صَعِدَ إِلَّا مِمَّا نَزَلَ ، وَبِهَذَا سَتَكُونُ آخِرَةُ جَمِيعِ الْعُلُومِ مَتَى نَفَذَ الْعُلَمَاءُ إِلَى السِّرِّ الْحَقِيقِيِّ ، أَنَّ الْعَقْلَ الْإِنْسَانِيَّ فَهَمُ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا . .

وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ بِتَرْكِيبِ أَدْمَعَتِهِمْ عَلَى شَيْبِهِ مِنْ هَذَا الدِّبْرِيحِ ؛ فَأَمَّا وَاحِدٌ فَيَكُونُ دِمَاغُهُ بِاعْتِبَارِهِ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فِي الذِّكَاءِ وَالْعَقْلِ كَالْوُجُودِ الْمُحْجَبِ ، وَأَمَّا آخَرُ فَكَالشَّمْسِ ، ثُمَّ غَيْرُهُمَا كَالْأَرْضِ ، ثُمَّ الرَّابِعُ كَالْإِنْسَانِ ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْهُمْ كَالْحَيَوَانِ وَمِنْهُمْ كَالْحَشَرَةِ ؛ وَلَا عِلَّةَ لِكُلِّ هَذَا إِلَّا مَا هِيَآتِ الْأَقْدَارُ « بِأَسْبَابِهَا الْكَثِيرَةِ » لِكُلِّ إِنْسَانٍ فِي تَرْكِيبِ دِمَاغِهِ فِي نَوْعِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ مِنَ الْمُنْعِ ، وَأَحْوَالِ التَّرَكِيبِ فِي الْمَلَايِينِ مِنَ الْخَلَايَا الْعَصَبِيَّةِ ، وَمَا لَا يُعَدُّ مِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْخَلَايَا وَشُعَبِهَا ؛ ثُمَّ مَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ هَذِهِ الْفُرُوعِ الَّتِي هِيَ لِكُلِّ رَأْسٍ كَرْمَلُ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ ، ثُمَّ اخْتِلَافِ مَقَادِيرِ الْمَوَادِّ الْكِيمَاوِيَّةِ الَّتِي تَتَخَلَّقُ فِي غُدَدِ الْجِسْمِ وَتَنْفُثُهَا الْغُدُدُ فِي الدَّمِ .

فَقَدْ يَكُونُ الْعَمَلُ النَّابِغُ الْمُتَمَرِّدُ عَلَى الْعُقُولِ آتِيًا مِنْ قَطْرَةٍ فِي هَذِهِ الْغُدُدِ ، كَمَا يَنْبَغِثُ الْعِمْلَاقُ الْمَارِدُ بِعِظَامِهِ الْمُتَمَتِّدَةِ وَالْوَاحِ الْمَشْبُوحَةِ مِنْ غُدَّتِهِ الثُّخَامِيَّةِ لَا غَيْرَهَا .

فَالذِّكِيُّ مِنْ ذِكِّيٍّ مِثْلِهِ إِنَّمَا هُوَ كَالْجِنِّسِ مِنْ جِنِّسٍ بِإِرَائِهِ : يَقَعُ الْأَخْتِلَافُ بَيْنَهُمَا فِيمَا أَشْتَمَلَا عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الْجُنْدِ ، وَصِفَاتِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَأَحْوَالِهِمْ مِنَ النِّظَامِ وَالْإِخْتِلَالِ ، وَقُوَّةِ آيَاتِهِمْ وَفِقْدَانِهَا وَنَوْعِ الْإِخْتِرَاعِ فِيهَا ، ثُمَّ طَبِيعَةِ مَوْضِعِهِمْ وَحُسْنِ تَوْجِيهِهِمْ وَقِيَادَتِهِمْ ، وَمَا أَكْتَفَتْهُمْ مِنْ صَعْبٍ أَوْ سَهْلٍ ، وَمَا تَطَاهَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَقْدَارِ ، ثُمَّ التَّوَفُّقُ الَّذِي لَا حِيلَةَ فِيهِ إِنْ وَقَعَ فِي حِصَّةِ أَحَدِهِمَا وَاسْتَقَرَّ ، أَوْ وَقَعَ هَوْنًا وَطَارَ لِلاَّخَرِ ؛ وَيَنْخَوِ مِنْ هَذَا كُلُّهُ تَكُونُ الْمَفَاصِلَةُ إِذَا وَارَنْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ التَّوَابِغِ فِي حَقِيقَةِ نُبُوغِهِمَا .

فَالثَّابِغَةُ خَلْقٌ مِنْ خَالِقِهِ ، يُصْنَعُ كَمَا تَرَى بِأَقْدَارِ اللَّهِ ؛ إِذْ هُوَ قَدَرٌ عَلَى قَوْمِهِ وَعَلَى عَصْرِ ، وَهُوَ مِنَ النَّاسِ كَالْوَرَقَةِ الرَّابِحَةِ مِنْ وَرَقِ السَّحْبِ (الْيَانِصِيبِ) ، سَلَهُ يَدُ جَعَلَتْهَا مَالًا وَتَرَكْتَ الْبَاقِيَاتِ وَرَقًا وَأَخْدَتُ بَيْنَهُمَا الْفَرْقَ الدَّهْبِيَّ ؛ وَبِهَذَا لَا يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَزِيدَ الدُّنْيَا نَابِغَةً إِلَّا إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْكَوَاكِبِ نَجْمًا فَيَصْنَعُهُ . وَهَبَهُ صَنْعَهُ مِنَ الْكَهْرِبَاءِ ، فَيَبْقَى أَنْ يَحْمِلَهُ ، وَإِذَا حَمَلَهُ بَقِيَ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَوَاتِ ؛ وَهَبَهُ قَدْ رَفَعَهُ فَيَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ ... يَبْقَى عَلَيْهِ أَنْ يَفْحِمَهُ فِي الثُّجُومِ وَيُرْسِلَهُ فِيهَا يَدُورُ وَيَتَمَلَّكُ .

وَكَمَا يُخْلَقُ الثَّابِغَةُ بِتَرْكِيبِهِ ، تُخْلَقُ لَهُ الْأَحْوَالُ الْمَلَابِغَةُ لِعَمَلِهِ الَّذِي خُصَّ بِهِ فِي أَسْرَارِ التَّقْدِيرِ عَامِلًا نَافِعًا ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَلَابِغُهُ هُوَ مُنْتَفِعًا ؛ فَإِنَّهُ هُوَ غَيْرُ مَقْصُودٍ إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وَسِيلَةٌ أَوْ آلَةٌ تُكَابِدُ مَا تَحْتَمِلُ فِي أَعْمَالِهَا ، وَيُؤْتَى لَهَا لِتَأْخُذَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَتُعْطِيَ عَلَى طَرِيقَةٍ ؛ وَبِذَلِكَ يَرْجِعُ التَّقْدِيرُ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ الثَّابِغَةُ دَلِيلًا لِلنَّاسِ مِنَ النَّاسِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْخَالِقِ الَّذِي هُوَ وَخْدَهُ أَمْرُهُ الْأَمْرُ .

وَإِذَا كَانَ الْجَمَالَ يَسْتَعْلِقُ فِي كَلَامِ هُنُوءِ الْوَانِغِ ، وَالْخَيَالَ يَظْهَرُ فِي تَعْبِيرِهِمْ ، وَالْحِكْمَةُ تَهْتَطُّ إِلَى الدُّنْيَا فِي تَفْكِيرِهِمْ ، وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى هُمْ الدَّاعُونَ إِلَيْهِ ، وَالْأَشْوَاقُ النَّفْسِيَّةُ هُمْ مُوقِفُهَا ، وَالْعَوَاطِفُ هُمْ الْمُصَوِّرُونَ لَهَا ، وَسُرُورُ الْحَيَاةِ هُمْ الَّذِينَ حَوْلُوهُ إِلَى الْفَنِّ - إِذَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ فَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ تَوْكِيدٌ لِاتِّصَالِهِمْ بِالْقُوَّةِ الْأَرَلِيَّةِ الْمُدْبِرَةِ ، وَأَنْهُمْ أَدَوَاتُهَا فِي هَذِهِ الْمَعَانِي ؛ فَمَا هِيَ أَعْمَالُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ أَعْمَالُهَا ، وَقَدْ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّ الثَّابِغَةَ يَلْتَمِسُ الْقُوَى الْمُحَنِطَةَ بِهِ لِيُبْدِعَ مِنْهَا ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا هِيَ تَلْتَمِسُهُ لِيُبْدِعَ بِهِ .

وَيَعُدُّ ، فَالثَّابِغَةُ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَلَكَ ، فَهُوَ يَخْزُنُ الْأَشْغَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَيُرِيْقُهَا ، وَفِي يَدِهِ الْأَنْوَارُ وَالظُّلَالُ وَالْأَلْوَانُ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلُ الْفَجْرِ كُلَّمَا أَظْلَمَتْ عَلَى النَّاسِ مَعَانِي الْحَيَاةِ ؛ وَلَا تَزَالُ الْحِكْمَةُ تُلْقِي إِلَيْهِ الْفِكْرَةَ الْجَمِيلَةَ لِيُعْطِيَهَا هُوَ صُورَةً فَكَّرَتْهَا ، وَتُوجِي إِلَيْهِ مَعْنَى الْحَقِّ لِئُؤْتِيَهَا هُوَ مَعْنَى جَمَالِ الْحَقِّ ؛ وَالطَّبِيعَةُ خَلَقَهَا اللَّهُ وَخْدَهُ ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ مَعْقُولَةٌ إِلَّا بِالْعِلْمِ ، وَلَيْسَتْ جَمِيلَةً إِلَّا بِالشَّعْرِ ، وَلَيْسَتْ مَحْبُوبَةً إِلَّا بِالْفَنِّ ؛ فَالْوَانِغُ فِي هَذَا كُلِّهِ هُمْ شُرُوحُ وَتَفَاسِيرُ حَوْلِ كَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَكُلُّهُمْ يَشْعُرُ بِالْوُجُودِ فَنَّا كَامِلًا وَيَشْعُرُ بِنَفْسِهِ شَرْحًا لِأَشْيَاءٍ مِنْ هَذَا الْفَنِّ ، وَيَرَى مَعَانِي الطَّبِيعَةِ كَأَنَّمَا تَأْتِيهِ تَلْتَمِسُ فِي كِتَابَتِهِ وَشِعْرِهِ حَيَاةَ أَكْبَرِ

وَأَوْسَعَ مِمَّا هِيَ فِيهِ مِنْ حَقَائِقِهَا الْمَخْدُودَةِ ، وَتَتَعَرَّضُ لَهُ أَخْزَانُ الْإِنْسَانِيَّةِ تَسْأَلُهُ أَنْ يُصَحِّحَ الرَّأْيَ فِيهَا بِاسْتِخْرَاجِ مَعْنَاهَا الْخَيَالِي الْجَمِيلِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ أَلَامًا وَأَخْزَانًا إِلَّا أَنَّ مَعْنَاهَا الْخَيَالِي هُوَ سُرُورٌ تَحْمِلُهُ لِلنَّاسِ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تَسْكُنَ إِلَى وَصْفِ أَلَامِهَا وَفَلَسَفَةِ حَكْمَتِهَا حِينَ تَبْدُو بِصَائِرِهَا حَامِلَةً أَثَرَهَا الْإِلَهِيِّ ، كَأَنَّ الْمُؤَلِّمَ لَيْسَ هُوَ الْأَكَمُّ ، وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلُ سِرِّهِ .

وَبِالْجُمْلَةِ ، فَالْكَوْنُ يَخْتَارُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُفَسِّرَهُ الْعَبْقَرِيَّ لِيَكْشِفَ مِنْ غُمُوضِهِ وَيَزِيدَ فِيهِ أَيْضًا ... ثُمَّ لِيُؤْتِيَ النَّاسَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى مِنَ الْمَعْنَى عَلَى يَدِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى مِنَ الْفِكْرِ ؛ وَلِهَذَا تُصِيبُ الْكَلَامَ الَّذِي يَكْتُبُهُ الثَّابِغَةُ الْمُثْلُهُمْ فِي أَوْقَاتِ التَّجَلِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ صَوَّرَ نَفْسَهُ وَصَاغَهَا ، أَوْ كَأَنَّهُ قِطْعَةً مِنَ الْحِجْسِ قَدْ جَمَدَتْ فِي أَسْطَرٍ ؛ وَلَا بُدَّ أَنْ تُشْعِرَكَ الْجُمْلَةُ أَنَّهَا قُدِّمَتْ وَخِيًا ، إِذْ لَا تَجِدُهَا إِلَّا وَكَأَنَّ فِي كَلِمَاتِهَا رُوحًا يَرْتَعِشُ ؛ وَلَقَدْ يَخْطُرُ لِي وَأَنَا أَقْرَأُ بَعْضَ الْمَعَانِي الْجَمِيلَةِ لِذَهْنِ مِنَ الْأَذْهَانِ الْمُثْلِهِمَةِ كَشِكْسِبِيرِ Shakespeare وَالْمُنْتَبِي وَغَيْرِهِمَا - حِينَ أَتَأَمَّلُ اخْتِرَاعَ الْمَعْنَى وَإِبْدَاعَ سِيَاقِهِ وَضَحَى الْبَيَانِ عَلَيْهِ وَإِشْرَاقَهُ فِيهِ وَمَا أُبْنِجُ لَهُ مِنْ جَلَالِ ظَاهِرٍ فِي شَكْلِ حَيٍّ يَلْمَحُ بِسِرِّهِ فِي النَّفْسِ - يُحَيِّلُ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سِرَّ الطَّبِيعَةِ الْقَادِرِ يَعْمَلُ عَمَلَهُ أَحْيَانًا بِذَهْنِ إِنْسَانِيٍّ لِيَخْلُقَ تَعْبِيرًا عَنْ جَلَالِهِ فِي مِثْلِ جَلَالِهِ .

وَأَنْتَ فَلَوْ أَخَذْتَ مَعْنَى مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْآتِيَةِ مِنَ الْإِلَهَامِ ، وَأَجَرْتَهُ فِي كِتَابَةِ كَاتِبٍ أَوْ شِعْرِ شَاعِرٍ مِنَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا أَذْهَانُهُمْ يَكْدُونُهَا ، وَكُتُبُهُمْ يَجْعَلُونَهَا أَذْهَانَهُمْ أَحْيَانًا ... لَرَأَيْتَ الْفَرْقَ بَيْنَ شَيْءٍ وَشَيْءٍ فِي أَحْسَنِ مَا أَنْتَ وَاجِدُهُ لَهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا تَرَى بَيْنَ زَهْرَةٍ حَرِيرِيَّةٍ جَاءَتْ مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ بِالْإِثْرَةِ وَالْخَيْطِ ، وَزَهْرَةٍ أُخْرَى قَدْ أَنْبَقَتْ عَطِرَةً نَاصِرَةً فِي غُصْنِهَا الْأَخْضَرِ مِنْ عَمَلِ الْحَيَاةِ بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

وَالْعَبْقَرِيُّ هُوَ أَبَدًا وَرَاءَ مَا لَا يَنْتَهِي مِنْ جَمَالٍ أَوَّلُهُ فِي نَفْسِهِ وَآخِرُهُ فِي الْجَمَالِ الْأَقْدَسِ الَّذِي مَسَحَ عَلَى هَذِهِ النَّفْسِ الْجَمِيلَةِ السَّامِيَةِ ؛ فَمَا دَامَ فِيهِ سِرُّ الْعَبْقَرِيَّةِ فَهُوَ دَائِبٌ يَعْمَلُ مُمَرِّقًا حَيَاتِهِ فِي سُبُحَاتِ النُّورِ تَمَزِيقًا يَجْتَمِعُ مِنْهُ أَدَبُهُ ، وَمَا أَدَبُهُ إِلَّا صُورَةُ حَيَاتِهِ ؛ وَهُوَ كُلَّمَا أَبْدَعَ شَيْئًا طَلَبَ الَّذِي هُوَ أَبْدَعُ مِنْهُ ، فَلَا يَزَالُ مُتَأَلِّمًا إِنْ عَمِلَ لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ لَا تَقْفُ عِنْدَ غَايَةٍ مِنْ عَمَلِهِ ، وَمُتَأَلِّمًا إِنْ لَمْ يَعْمَلْ لِأَنَّ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ بَعَيْنُهَا لَا تَهْدَأُ إِلَّا فِي عَمَلٍ ، وَهِيَ

طَبِيعَةً مُتَمَرِّدَةً بِذَلِكَ الْجَمَالِ الْفَدَسِ تَمَرَّدَ الْعَشَقُ فِي حَامِلِهِ ؛ إِذْ هُمَا صُورَتَانِ لِأَمْرِ وَاحِدٍ كَمَا سَنُشِيرُ إِلَيْهِ ؛ فَكُلُّ مَا تَجِدُهُ فِي نَفْسِ الْعَاشِقِ الْمُتَمَدِّلِ مِمَّا يَتَرَامَى بِهِ إِلَى جُؤُنُوهِ وَهَلَاكِهِ ، تَجِدُ شَبَهَا مِنْهُ فِي نَفْسِ الْعَبْقَرِيِّ ؛ فِكِلَاهُمَا قَانُونُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ وَحَدِّهَا ؛ إِذْ قَدْ اتَّخَذَتْ حَيَاتُهُ شَكْلَهَا الْفَنِّيَّ مِنْ ذَوْقِهِ هُوَ وَحَدَّهُ ؛ فَلَيْسَ يَنْبَغُ طَرِيقَةً أَحَدٍ ، بَلْ هُوَ طَرِيقَةُ نَفْسِهِ<sup>(١)</sup> ، وَكِلَاهُمَا مُسْتَرْسِلٌ أَبَدًا إِلَى جَمَالٍ مُسْتَفِيزٍ عَلَى رُوحِهِ يَتَقَلَّبُ فِيهَا بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَسْتَعِمِدُ مِنْهُ . وَكِلَاهُمَا لَا يَجِدُ الْمَعْنَى الْجَمِيلَ فِي الطَّبِيعَةِ مَعْنَى بَلْ رَسُولًا مِنَ الْجَمَالِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ وَحَدَّهُ ، وَلَا يَزَالُ يَشْعُرُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنَّ لَهُ رَسَائِلَ وَرُسُلًا هُوَ بَعْدُ فِي أَنْظَارِهَا ؛ وَكِلَاهُمَا مَتَى ظَوَّرَ بِشَيْءٍ مِنْ مَصْدَرِ الْجَمَالِ انْتَهَى مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ إِلَى الظَّنِّ أَنَّهُ رِبْحٌ مِنَ الْكَوْنِ رِبْحًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ قَبْلُ . وَكِلَاهُمَا مُتَهَالِكٌ بَيْنَ قُبُودِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي الْحَيَاةِ وَالْوَقْعِ ، وَبَيْنَ حُرِّيَّتِهَا الَّتِي فِي خَيَالِهِ وَأَمَلِهِ ، كَأَنَّ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الْحُرِّيَّةِ أَنْ يَقْطَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا قَبْدًا مِنْ قُبُودِ الْأَجْتِمَاعِ أَوْ الْعَيْشِ ؛ وَكِلَاهُمَا مُتَّصِلٌ بِقُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ وَرَاءَ مَا يَرَى وَمَا يُحَسُّ تَجَعَلَ نَظَرَتُهُ فِي الْأَشْيَاءِ خَاضِعَةً لِقَانُونِ النَّظَرَةِ الْعَاشِقَةِ فِي الْعَيْنَيْنِ السَّاجِرَتَيْنِ الْمَعْشُوقَتَيْنِ ، فَإِذَا مَدَّ عَيْنَيْهِ فِي شَيْءٍ جَمِيلٍ ، فَهَنَّاكَ سُؤَالَ وَجَوَابُهُ ، وَوَحْيٌ وَتَرْجَمَتُهُ ،

(١) لَا وَجْهَ عِنْدَنَا لِمَا اسْتَعْمَلَهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ فِي الْأَدَبِ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَدْرَسَةُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ وَمَدْرَسَةُ الْتَابِغَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ ، تَرْجَمَةُ حَرْفِيَّةٌ لِقَوْلِ الْأَوْرَبِيِّينَ : مَدْرَسَةُ فُلَانٍ وَمَدْرَسَةُ فُلَانٍ ؛ فَإِنَّ الْأَدَبَ إِنْ كَانَ تَقْلِيدًا فَهُوَ آدَبٌ مُنْحَطٌ لَا يُجْعَلُ مَدْرَسَةً يُخْتَدَى عَلَيْهَا وَيَخْرُجُ بِهَا ، وَإِنْ كَانَ إِنْدَاعًا فَلَيْسَ الْإِنْدَاعُ مَدْرَسَةً تَكُونُ بِالْتَعْلِيمِ وَالتَّلْقِينِ وَيَخْرُجُ بِهَا الْوَاحِدُ وَالْمِثَّةُ وَالْأَلْفُ عَلَى طَرِازٍ لَا يَخْتَلِفُ ؛ إِنَّمَا تَنْطَبِئُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْفُنُونِ التَّعْلِيمِيَّةِ ، وَفِي هَذَا لَا تَطْلُقُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ إِلَّا عَلَى فِئَتَيْنِ فَقَطْ ، هُمَا الْبَصْرِيُّونَ وَالْكُوفِيُّونَ ، عَلَى أَنَّ كَلِمَةَ مَذْهَبٍ هِيَ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِي هَذَا ، وَهِيَ أَسَدُ مِنْهَا ؛ إِذْ يَدُلُّ الْمَذْهَبُ عَلَى مَنَخِ اخْتَارَهُ الرَّأْيُ وَذَهَبَ إِلَيْهِ ، فَكَأَنَّهُ عَنْ تَخَفُّتٍ فِي صَاحِبِهِ وَتَأْبِيعِهِ ؛ أَمَّا تَسْمِيَةُ مَجْمُوعَةِ الْإِلَهَامَاتِ الَّتِي مَرَّتْ فِي ذَهْنِ نَابِغَةٍ مِنَ التَّوَالِغِ بِالْمَدْرَسَةِ ، فَتَسْمِيَةٌ مُضْجِكَةٌ بَارِدَةٌ ؛ إِذِ الْإِلَهَامُ بَصِيرَةٌ مَخْصُصَةٌ ، وَمَا هُوَ بِمَا يَقْلُدُ ، وَقَلَمًا تَشَابَهَ هَذَاكَ عَلَى الْأَرْضِ فِي عَنَاصِرِ التَّكْوِينِ الَّتِي يَأْتِي مِنْهَا الْكُلُّ ؛ وَقَدْ قَالَ عَلَمَاؤُنَا : طَرِيقَةُ فُلَانٍ وَطَرِيقَةُ فُلَانٍ ، فَالطَّرِيقَةُ هِيَ الْكَلِمَةُ الصَّحِيحَةُ ، لِأَنَّ عَلَيْهَا ظَاهِرَ الْعَمَلِ وَأَسْلُوبَهُ ، يَتَوَجَّهُ بِهَا مَنْ يَتَوَجَّهُ ، وَيَقْلُدُ فِيهَا مَنْ يَقْلُدُ ، أَمَّا سِرُّ الْعَمَلِ فَهُوَ سِرُّ الْعَامِلِ أَيْضًا ، وَهُوَ شَيْءٌ فِي الرُّوحِ وَالْبَصِيرَةِ ، وَهُوَ فِي الْعَبْقَرِيِّ أَمْرٌ لَا يَسْتَطِيعُهُ إِنْسَانٌ وَشَدٌّ فِي إِنْسَانٍ بِخُصُوصِهِ .

وَمُرُورٌ مِنْ بَقْظَةٍ إِلَى حُلْمٍ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ حَقِيقَةٍ إِلَى خَيَالٍ ! .

غَيْرَ أَنَّ طَبِيعَةَ الْعَبْقَرِيِّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ أَلَمًا تَنْفَرِدُ بِهِ لَا تَسْتَقِرُّ مَعَهُ عَلَى رِضَا وَلَا يَبْرَحُ يَسْلُطُ الْإِغْنَاتَ عَلَيْهَا وَيَسْتَغْرِقُهَا بِالْهَمُومِ السَّامِيَةِ ؛ وَذَلِكَ أَلَمُ الْكَمَالِ الْفَنِّيِّ الَّذِي لَا يُدْرِكُ الْعَبْقَرِيُّ غَايَتَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ النَّاسِ قَدْ أَذْرَكَ غَايَاتٍ وَغَايَاتٍ ؛ فَطَبِيعَةُ كُلِّ عَبْقَرِيٍّ تَجْهَدُ جُهْدَهَا فِي الْعَمَلِ لِتُخْرِجَ بِهِ مِمَّا يَسْتَطِيعُهُ النَّاسُ ، فَإِذَا تَأَتَّى صَاحِبُهَا لِذَلِكَ وَكَابَدَ فِيهِ وَأَذْرَكَ مِنْهُ وَبَلَغَ وَأَعْجَزَ أَنْدَفَعَتْ طَبِيعَتُهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِمَّا يَسْتَطِيعُ هُوَ ... كَأَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الطَّبِيعَةِ وَدَاخِلٌ فِي الطَّبِيعَةِ فِي وَقْتٍ مَعًا ، وَكَأَنَّهُ نَفْسُهُ وَفَوْقَ نَفْسِهِ فِي حَالٍ ، وَهَذَا سِرُّ حُرِّيَّتِهِ وَسُموهُ ، كَمَا أَنَّهُ سِرُّ أَلَمِهِ وَحَيْرَتِهِ ...

وَمِنْ أَثَرِ ذَلِكَ مَا تُحِسُّهُ أَنْتَ إِذَا قَرَأْتَ لِلْأَدِيبِ النَّامِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالْأَسْلُوبِ وَالذَّهْنِ الْمُلْهِمِ ؛ فَإِنَّكَ تَفْقُ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ يَمْلَأُ نَفْسَكَ وَيَتَمَدَّدُ فِيهَا وَيَهْتَزُّ بِهَا طَرَبًا وَإِعْجَابًا ، فَتَقُولُ : لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ! ثُمَّ تَوَمَّلْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ تَجِدَ مِنْهُ هُوَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ... كَأَنَّهُ وَإِنْ تَنَاهَى إِلَى الْغَايَةِ لَا يَزَالُ عِنْدَكَ فَوْقَ الْغَايَةِ ؛ وَهَذَا غَرِيبٌ ، وَلَكِنْ لَا دَلِيلَ عَلَى الْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا الْغَرَابَةُ دَائِمًا ؛ فَهِيَ نِظَامٌ لَا نِظَامَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهَا طَرِيقَةُ لَا طَرِيقَةَ لَهَا ؛ وَيَهْدِيهِ الْغَرَابَةُ جَاءَتْ الْعَبْقَرِيَّةُ كُلُّهَا أُمُثْلَةً وَلَيْسَ فِيهَا قَوَاعِدٌ يُخْتَدَى عَلَيْهَا وَلَا هِدَايَةٌ فِيهَا إِلَّا مِنَ الرُّوحِ ؛ وَإِذَا كَانَ الْفَنُّ قُدْرَةً مُتَصَرِّفَةً فِي الْجَمَالِ ، فَالْعَبْقَرِيَّةُ قُدْرَةٌ مُتَصَرِّفَةٌ فِي الْفَنِّ ، وَالتَّابِغَةُ كَالْمُنْتَكِسِ<sup>(١)</sup> الَّذِي مَعَهُ قُوَى الْعَقْلِ وَيُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ عَلَى قُدْرِهِ مِنْهَا ، وَلَكِنْ الْعَبْقَرِيُّ كَالْإِلَهِيِّ الَّذِي مَعَهُ قُوَى الرُّوحِ وَيُرِيدُ أَنْ يَزِيدَ النَّاسَ عَلَى قُدْرِهِمْ بِهَا ؛ وَذَلِكَ مَرَجِعُهُ الْفِكْرَ الدَّقِيقَ الْبَاحِثَ ، وَهَذَا مَنَاطُهُ الْبَصِيرَةِ الشَّافِقَةُ النَّافِذَةُ ، وَهِيَ أَغْرَبُ الْغَرَائِبِ فِي الْإِنْسَانِ ، إِذْ هِيَ الْجِهَةُ الْمُطْلَقَةُ فِي هَذَا الْمَخْلُوقِ الْمُقَيَّدِ ، وَبِهَا تَسْعُ النَّفْسُ لِإِدْرَاكِ الْمُطْلَقِ الظَّاهِرِ مِنْ خِلَالِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَفِيهَا تَتَحَوَّلُ الْأَشْيَاءُ مِنْ نِظَامِ الْحَاسَةِ إِلَى نِظَامِ الرُّوحِ ، فَيَسْمَعُ الْمَرْئِي وَيُبْصِرُ الْمَسْمُوعُ ، وَتَخْلَعُ الْأَجْسَامُ أَنْعَامًا ، وَتَلْبَسُ الْأَصْوَاتُ أَشْكَالًا ، وَيَبْدُو عِنْدَهَا كُلُّ مَخْلُوقٍ وَكَأَنَّ فِيهِ بَقِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى خَلْقِهِ تُرَكِّثُ لِعَمَلٍ فِيهَا الْكَاتِبُ

(١) مِنَ الْكَيْسِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ ، فَيَكُونُ عَاقِلًا وَيُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ عَلَى مِقْدَارِهِ .

أَوِ الشَّاعِرِ الْمُحَدِّثِ<sup>(١)</sup> عَمَلٌ فَتَهُ الزَّائِدُ عَلَى الطَّبِيعَةِ بِالْحَاسَةِ الزَّائِدَةِ عَلَى ذَهْنِهِ ، وَهِيَ الَّتِي نُسَمِّيهَا الْإِلَهَامَ .

هَذِهِ الْحَاسَةُ هِيَ كَذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْغَرَائِبِ ، تَكُونُ فِي صَاحِبِهَا الْمُؤَهَّبِ كَمَا تَكُونُ حَاسَةً أَلْتَجَاهُ فِي الطَّيُورِ الَّتِي تَقْطَعُ فِي جَوْ السَّمَاءِ إِلَى غَايَاتِهَا الْبَعِيدَةِ مِنْ قُطْبِ الْأَرْضِ إِلَى قُطْبِهَا الْآخَرِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ تَحْمِلُهُ ، وَلَا رَسْمٍ تَنْظُرُ فِيهِ ، وَلَا عِلْمٍ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ؛ وَكَمَا تَكُونُ حَاسَةً التَّمْيِيزِ فِي النَّحْلِ الَّذِي يَنْبِي عَسَلَتَهُ عَلَى هَنْدَسَةٍ لَيْسَتْ مِنْ كِتَابٍ وَلَا مَدْرَسَةٍ ، وَحَاسَةً التَّذْيِيرِ فِي النَّمْلِ الَّذِي يُدَبِّرُ مَمْلَكَتَهُ بِغَيْرِ عُلُومِ الْمَمَالِكِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَكَيْفَرًا مَا يَجِيءُ الْأَدِيبُ الْمُتْلِمُ مِنْ حَفَاقِ الْفِكْرِ وَبَيَانِهِ وَأَسْرَارِ الطَّبَائِعِ وَأَوْصَافِهَا بِمَا يُغْطِي عَلَى فَلَسَفَةِ الْفَلَسَفَةِ وَعِلْمِ الْعُلَمَاءِ ، وَمِثْلُ هَذَا الْعَبْقَرِيُّ هُوَ عِنْدِي فَوْقَ الْعِلْمِ ، لَا أَقُولُ بِدَرَجَةٍ وَلَكِنْ بِحَاسَةٍ .

وَبِالْإِلَهَامِ يَكُونُ لِكُلِّ عَبْقَرِيٍّ ذَهْنُهُ الَّذِي مَعَهُ وَذَهْنُهُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ ، إِذَا كَانَتْ لَهُ مِنْ وَرَاءِ خَيَالِهِ قُوَّةٌ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ لَيْسَتْ فِيهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَعْمَلُ كَمَا تَعْمَلُ الْأَعْضَاءُ فِي جِسْمِهِ ، هَيْئَةً مُتَفَادَةً كَأَنَّهَا تَتَصَرَّفُ عَلَى أَطْرَادِ الْعَادَةِ بِلَا فِكْرٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا عُسْرِ مَا دَامَتْ تَنْجَلِي عَلَيْهِ .

وَلَيْسَتْ تَتَّصِلُ هَذِهِ الْقُوَّةُ إِلَّا بِتَرْكِيبِ عَصَبِيٍّ تَكُونُ فِيهِ الْخَصَائِصُ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تَتَلَقَّى عَنْهَا ، وَهِيَ فِي الْعَبْقَرِيِّينَ خَصَائِصُ مَرَضِيَّةٌ فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبِ ، بَلْ لَعَلَّهَا كَذَلِكَ دَائِمًا ، لَيْتَسَّرَ بِهَا الْعَبْقَرِيُّ لِحَالَةِ خَفِيفَةٍ مِنَ الْمَوْتِ . . . يَحْمِلُ بِهَا كَذَلِكَ وَتَعَبَهُ وَمَا يُعَانِيهِ مِنْ مَضْضِ الْفِكْرِ وَثِقَلَتِهِ ، ثُمَّ لِيَكُونَ هَذِهِ الْحَالَةُ كَالْتَقَرُّبِ بَيْنَ عَالَمِ الشَّهَادَةِ فِيهِ وَبَيْنَ عَالَمِ الْغَيْبِ

(١) هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي تُقَابِلُ مَا نُسَمِّيهِ الْعَبْقَرِيَّ بِلُغَةِ عَصْرِنَا ، كَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُحَدِّثُهُ بِأَسْرَارِهَا ، أَوْ تُحَدِّثُهُ بِهَا قُوَّةٌ أَعْلَى مِنَ الْقُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَ مُحَدِّثًا فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْطَلِقُ عَنْ سَمْعٍ مِنَ الْغَيْبِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَا زَعَمَ الْعَرَبُ مِنْ أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يَنْفُثُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَهُوَ وَصَفٌ دَقِيقٌ لِلْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ بِاللُّغَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَدْ صَحَّحَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِشَاعِرِهِ حَسَّانَ : « قُلْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ » [مسند أحمد ، رقم : ١٨١٦٨] وَكَلِمَةُ « رُوحُ الْقُدُسِ » تَنْطَوِي عَلَى فَلَسَفَةِ الْعَبْقَرِيَّ كُلِّهَا .

مِنْهُ ، فَالْتَّرَكِيبُ الْعَصَبِيُّ فِي دِمَاحِ الْعَبْقَرِيِّ إِنْسَانٌ عَلَى حَيَالِهِ مَعَ إِنْسَانٍ آخَرَ ، أَحَدُهُمَا لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ وَالْآخَرُ لِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ ، وَمِنْ ثُمَّ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ هَذِهِ الْفِتَةِ كَالْمُصْبَاحِ : يَتَقَدُّ وَيَنْطَفِئُ لِأَنَّهُ أَلَّةٌ نُورٍ تَعْرِضُ لَهَا الْوَلَلُ فَتَذْهَبُ بِقُدْرَتِهَا عَلَيْهِ ، وَتَنْصُبُ مَادَّةَ النُّورِ مِنْهَا ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَتَكُونُ مُضِيئَةً فَتَنْطَفِئُ لِسَبَبٍ لَيْسَ مِنْهَا وَلَا مِنْ نُورِهَا ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ لَا تَمْلِكُ مِنْهَا حَالَةً ، فَبَيْنَمَا الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الدُّنْيَا مِنْ آثَارِهِ التَّالِبَةُ ، تَرَاهُ فِي حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهِ يَذْأَبُ لَا يَأْتَلِي فَيَجِدُ فِي الْعَمَلِ وَيَبْذُلُ الْوُسْعَ فِيهِ وَيَضْبِرُ عَلَى مُطَاوَلَةِ التَّعَبِ فِي إِخْكَامِهِ وَيَفِيضُ بِهِ فَيُضَا وَكَأَنَّ فِي طَبِيعَتِهِ الرِّيحَ الْمُتَفَتِّحَ طُولَ أَيَّامِهِ بِالْجَمَالِ - إِذَا هُوَ فِي حَالَةٍ أُخْرَى يَتَلَكَّأُ وَيَتَرَبَّصُ لَا يَعْمَلُ شَيْئًا كَأَنَّمَا دَخَلَ فِي قَرْنَحَتِهِ الشَّتَاءُ ، وَفِي ثَالِثَةٍ يَتَبَاطَأُ وَيَتَلَبَّثُ فَلَا يَعْرِى لَهُ جَدِيدٌ كَأَنَّمَا حُسِبَ عَنْهُ فِكْرُهُ أَوْ بَنَى طَبْعُهُ أَوْ هُوَ فِي قَيْظِ طَبِيعَتِهِ وَخُمُولِهَا وَضَجَرِهَا ، ثُمَّ لَا تَمْضِي عَلَى ذَلِكَ إِلَّا قُوَّةٌ وَسَاعَةٌ ، فَإِذَا عَلَى صَيْفِهِ هَوَاءٌ نُوفَمِيزٍ / تَشْرِينِ الثَّانِي وَدَيْسَمِيزٍ / كَانُونِ الْأَوَّلِ . . . وَإِذَا هُوَ مُنْبِعِثٌ مِلءَ الْقُوَّةِ وَالنَّشَاطِ ، وَرَبَّمَا يَأْخُذُ فِي غَرَضٍ مِنَ الْكِتَابَةِ قَدْ رَسَمَ لَهُ الْمَعْنَى وَهَيَّأَ لَهُ الْمَادَّةَ ، فَلَا يَكَادُ يَفْضِي لِنَحْوِ مِنْهُ حَتَّى تَتَنَاسَخَ فِي ذَهْنِهِ الْمَعَانِي ، فَإِذَا هُوَ يَكْتُبُ مَا لَا يُشَبِّهُ مَا كَانَ ابْتَدَأَ بِهِ ، وَيَأْتِيهِ غَيْرُ مَا كَانَ قَدْ أَرَادَهُ ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فَهُوَ يَسْتَمْلِي ؛ وَقَدْ يَتَبَدَّى مَعْنَى ثُمَّ يُقْطَعُ عَنْهُ بِطَارِيٍّ مِنْ عَمَلٍ أَوْ حَدِيثٍ ، ثُمَّ يُعَاوِذُهُ فَإِذَا مَعْنَى آخَرَ وَإِذَا جِهَةٌ مِنَ الْفِكْرِ هِيَ جِهَةُ الْإِبْدَاعِ وَالْإِخْتِرَاعِ فِي مَوْضُوعِهِ ، وَإِذَا هُوَ إِنَّمَا كَانَ يُجَرِّ بِذَلِكَ الصَّارِفِ عَنْ مَعْنَاهُ الْأَوَّلِ جَرًّا لِيَدْعُهُ إِلَى الْأَكْمَلِ وَالْأَصَحِّ ، وَأَيُّقِنُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ اسْتَوْفَى عَلَى مَا بَدَأَ لَأَسَفَ وَضَعَفَ وَجَاءَ بِمَا غَيْرُهُ أَفْذَرُ عَلَيْهِ ؛ كَأَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ الْخَفِيَّةَ الَّتِي تُلْهِمُهُ تُنْفِخُ لَهُ أَيْضًا بِأَسَالِيِبِهَا الْغَرِيبَةِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ أَخِيذًا فِي عَمَلِهِ مَاضِيًا عَلَى طَبْعِهِ مُسْتَرَسِلًا إِلَى مَا يَنْكَشِفُ لَهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي نَفَقًا مِنْ هُنَا لِقَفًا<sup>(١)</sup> مِنْ هُنَاكَ ثُمَّ يَنْظُرُ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَسَحَ لَوْحَ خَيَالِهِ ، وَيَطْلُبُ الْمَعْنَى فَلَا يَتَّحُ لَهُ ، وَيَتِمَادَى فَلَا يَزِيدُ إِلَّا كَذَا وَعُسْرًا ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ إِلَهُامُهُ فِي غَمُوضٍ الْأَبَدِيِّ<sup>(٢)</sup> ؛

(١) يُقَالُ : هُوَ يَفُتُّ لِقَفًا ، أَي : سَرِعَ الْفَهْمُ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّا اسْتَعْمَلْنَاهُ كَمَا تَرَى فَبَاءَ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنْ أَصْلِهِ .

(٢) قَالُوا : كَانَ الْفَرَزْدَقُ وَهُوَ فَعْلٌ مُضَرٌّ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ السَّاعَةُ وَقُلْعُ ضِرْسٍ مِنْ =

وَكُلٌّ مِنْ أَرْتَاضِ بَصَانَةِ الْفِكْرِ وَاسْتَحْكَمَتْ لَهُ عَادَتُهَا وَمَرَّ فِي دَرَجَاتِهَا حَتَّى بَلَغَ الْمَكَانَةَ الَّتِي يَسْتَشْرِفُ مِنْهَا لِلْإِلْهَامِ وَيَتَعَرَّضُ فِيهَا بِرُوحِهِ وَبَصِيرَتِهِ لِبَصَاطِ الْوَحْيِ وَأَنْكِشَافَاتِ الْعَنِيبِ ، يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَعْنَى يَدِينُ يَأْتِي بِهِ فِي صِنَاعَتِهِ إِمَّا يَقَعُ لَهُ إِلْهَامًا مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْحَيِّ الْمُتَمَدِّدِ فِي الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا ؛ ظَاهِرًا فِي شَيْءٍ مِنْهَا بِالضُّوءِ ، وَفِي أَشْيَاءَ بِالْأَلْوَانِ ، وَفِي بَعْضِهَا بِالْحَرَكَةِ ، وَفِي بَعْضِهَا بِالْأَنْسِجَامِ ، وَفِي بَعْضِهَا بِالرُّوْعَةِ وَالْفَخَامَةِ ، وَفِي غَيْرِهَا بِنِصْبَةِ الْهَيْئَةِ ؛ وَظَاهِرًا فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَنَّهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ ؛ وَيَعْرِفُ كَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الشَّامِلَ الَّذِي لَا يُحَدُّ هُوَ الَّذِي يَنْقُلُ الْوُجُودَ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِ التَّوَابِغِ <sup>(١)</sup> مَتَى نَبَضَ فِي هَذِهِ النُّفُوسِ الرَّقِيقَةِ وَأَشْعَرَهَا سِرُّهُ ، وَإِذَا هَمَّ التَّابِغَةُ أَنْ يَتَوَضَّحَ لَا يَرَى شَيْئًا ، وَإِذَا أَرَادَ حُجَّةً عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعِ الْجَلَاءَ عَنْ بَيَانِهِ بِكَلِمَةٍ ، وَإِذَا التَّمَسَّ التَّعْرِيفَ بِهِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا مَا يَشْهَدُ لَهُ إِحْسَاسُهُ وَقَلْبُهُ ؛ وَهَذَا الَّذِي يَنْقُدُ فِي أَذْهَانِ التَّوَابِغِ أَفْكَارًا حِينَ يَفِيضُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِسَبَبٍ مِنْ قِرَاءَةٍ أَوْ مُشَاهَدَةٍ أَوْ حَالَةٍ أَوْ مَرَاسٍ ، هُوَ هُوَ بَعِينُهُ الَّذِي يَنْقُدُ عَشَقًا فِي قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ حِينَ يَتَرَاوَى لِكُلِّ مِنْهُمْ فِي مَعْنَى عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ التَّابِغَةُ فِي الْأَدَبِ لَا يَتِمُّ تَمَامُهُ إِلَّا إِذَا أَحَبَّ وَعَشَقَ ، وَكَانَ الْأَدَبُ نَفْسُهُ فِي تَحْصِيلِ حَقِيقَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ لَيْسَ شَيْئًا سِوَى صِنَاعَةِ جَمَالِ الْفِكْرِ . . .

وَهَذَا الْعَمَلُ فِي الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ الْخَاصِّ بِهِ فِي بَعْضِ الْأَدْمِغَةِ هُوَ الَّذِي كَانَ يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِالتَّوَلِيدِ ، وَقَدْ عَرَفُوا أَثَرَهُ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَى حَقِيقَتِهِ وَلَا أَدْرَكُوا

= أَضْرَاسِيْ أَمَوْنَ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ نَيْبٍ مِنَ الشَّعْرِ ! وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ مِنْ عَمَلِهِ إِذَا اسْتَضَعَبَ الشَّعْرُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْكَبَ نَاقَتَهُ وَيَطُوفُ وَحْدَهُ خَالِيًا مُتَفَرِّدًا فِي شِعَابِ الْجِبَالِ وَيَطُوفُ الْأَوْدِيَةَ قِتْفَادَ لَهُ الْكَلَامُ ؛ وَأَخْبَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى الشَّعْرِ وَيُجْتَلَبُ بِهَا نَافَرُهُ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا عِلَلٌ مِنَ النَّفْسِ تَعَارِضُ حَالَةَ الْإِلْهَامِ إِلَى أَنْ تَزُولَ وَتَصْفُو النَّفْسُ مِنْهَا ، أَوْ أَسْبَابُ تَتَبُّقٍ وَلَا تَلْهِمُ شَيْئًا إِلَى أَنْ تَتَغَيَّرَ بِأَسْبَابٍ مُلْهِمَةٍ .

(١) هُنَاكَ فَرْقٌ عِلْمِيٌّ بَيْنَ مَا يُسَمَّى ثُبُوعًا وَمَا يُسَمَّى عِبَرِيَّةً ، وَلَكِنَّا فِي هَذَا الْفَضْلِ أَطْلَقْنَا الْكَلَامَ وَقَبَّلْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ بِخُصُوصِهَا ، وَكَأَدَ الْفَرْقُ بَيْنَ التَّابِغَةِ وَالْمَبْقَرِيِّ فِي جَمَاعِ أَمْرِهِ أَنْ يَكُونَ كَالْفَرْقِ بَيْنَ التَّلْغُوفِ الَّذِي طَرِيقُهُ مَادَّةُ السَّلَكِ وَبَيْنَ الْآخَرِ الَّذِي طَرِيقُهُ رُوحُ الْجَوْ ؛ فَكِلَاهُمَا هُوَ الْآخَرُ ، وَلَكِنْ أَحَدُهُمَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَرِيقٍ سَلُوكٍ وَالْآخَرُ طَرِيقُهُ كُلُّ الطَّرِيقِ ، أَيْ : فَوْقَ أَنْ يُقَيَّدَ بِطَرِيقَةٍ .

مِنْ سِرِّهِ شَيْئًا ؛ وَأَحْسَنُ مَا قَرَأْنَاهُ فِيهِ قَوْلُ ابْنِ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ « الْعُمْدَةِ » : « إِمَّا سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الشَّاعِرِ تَوَلِيدٌ مَعْنَى وَلَا اخْتِرَاعُهُ ، أَوْ اسْتَطْرَافٌ لَفْظٍ وَابْتِدَاعُهُ ، أَوْ زِيَادَةٌ فِيمَا أَحْجَفَ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَعَانِي ، أَوْ نَقْصٌ مِمَّا أَطَالَهُ سِوَاهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، أَوْ صَرَفٌ مَعْنَى إِلَى وَجْهِ عَنْ وَجْهِ آخَرَ - كَانَ اسْمُهُ الشَّاعِرِ عَلَيْهِ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا فَضْلُ الْوِزْنِ » . هَذَا كَلَامُ ابْنِ رَشِيْقٍ ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَخْلِيْطٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَوْضُوعِنَا إِلَّا لَفْظُ التَّوَلِيدِ .

وَمِمَّا لَا نَقْضِي مِنْهُ عَجَبًا فِي تَتَبُّعِ فَلَسَفَةِ هَذِهِ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَجَبِيَّةِ ، أَنَّنَا نَرَى أَكْثَرَ الْأَلْفَاظِ كَاللَّامَةِ لَا يَنْقُصُهَا شَيْءٌ مِنْ دَقَائِقِ الْمَعْنَى فِي أَصْلِ وَضْعِهَا ، عَلَى حِينٍ لَا يَفْهَمُ عُلَمَاؤُهَا مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ إِلَّا بَعْضَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهَا مُتَرَكِّةٌ تَنْزِيلًا مِمَّنْ يَعْلَمُ السَّرَّ ؛ وَقَدْ نَبَّهْنَا إِلَى هَذَا فِي كِتَابِنَا « تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ » وَأَفْضَلَتْ فِيهِ وَاسْتَوْفَيْنَا هُنَاكَ مِنْ فَلَسَفَتِهِ ، وَجَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ هَذَا بِالْعَجَائِبِ الَّتِي تَفُوتُ الْعَقْلَ ، حَتَّى إِنَّ أَكْثَرَ الْأَلْفَاظِ لَتَكَادُ تَكُونُ مَخْتُومَةً نَزَلَتْ كَذَلِكَ لِنَقْضِ الْعُلُومَ وَالْفَلَسَفَةَ خَوَانِمَهَا فِي عُصُورِ آيَةٍ لَا رَيْبَ فِيهَا <sup>(١)</sup> ؛ وَكَلِمَةُ التَّوَلِيدِ الَّتِي لَمْ يَفْهَمُ مِنْهَا الْعُلَمَاءُ إِلَّا أَخَذَ مَعْنَى مِنْ مَعْنَى غَيْرِهِ بِطَرِيقَةٍ مِنْ طَرِيقِ الْأَخِذِ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا فِي كُتُبِ الْأَدَبِ - هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ أَسْرَارِ الثُّبُوعِ وَلَا تَجِدُ مَا يُسُدُّ فِي ذَلِكَ مَسَدَهَا أَوْ يُحِيطُ إِحَاطَتَهَا ، وَلَا نَظْلٌ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ مَا يُشَبِّهُهَا فِي هَذِهِ الدَّلَالَةِ وَاسْتِنْعَابِهَا كُلِّ أَسْرَارِ الْمَعْنَى ؛ إِذْ هِيَ بِلَفْظِهَا نَصْرٌ عَلَى حَيَاةِ الْكَوْنِ فِي الذَّهْنِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَأَنَّهُ يَتَّخِذُهُ وَسِيلَةً لِإِبْدَاعِ مَعَانِيهِ ، كَمَا يَتَّخِذُ سِرُّ الْحَيَاةِ بَطْنَ الْأُمِّ وَسِيلَةً لِإِبْدَاعِ مَوْجُودَاتِهِ ؛ وَأَنَّ الْمَعَانِي تَتَلَاقُ فَيَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي أَسْلُوبٍ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ هَذِهِ وَحْدَهَا الطَّرِيقَةُ لَتَطْوِّرُ الْفِكْرَ وَإِخْرَاجَ سُلَالَتٍ مِنَ الْمَعَانِي بَعْضُهَا أَجْمَلُ مِنْ بَعْضٍ ، كَمَا يَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْكُنْسِلِ بِوَسَائِلِ التَّلْفِيحِ مِنَ الدَّمَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَأَنَّ الثُّبُوعَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا التَّرَكِيبُ الْعَصَبِيُّ الْخَاصُّ فِي الذَّهْنِ ، ثُمَّ نُمُو هَذَا التَّرَكِيبِ مَعَ الْحَيَاةِ

(١) عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَكَثُفِ أَسْرَارِهِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ سَيَبْنِي كِتَابُنَا الْجَدِيدُ « أَسْرَارُ الْإِعْجَازِ » .  
{ قُلْتُ : وَانْظُرْ خَانِمَةَ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

فِي طَرِيقَةِ سَوَاءٍ هِيَ وَطَرِيقَةُ الْوَلَادَةِ الْمُخَيَّيَةِ الَّتِي مَرَّجِعُهَا كَذَلِكَ إِلَى تَرْكِيبِ خَاصٍّ فِي أَحْشَاءِ الْأُنْتَى : يَنْمُو ثُمَّ يَذُرُّ ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ الْمُعْجَزُ ؛ وَإِذَا كَانَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ زَوْجَانِ ، فَالْكَلِمَةُ نَصْرٌ عَلَى أَنَّ أَذْهَانَ التَّوَابِعِ أَذْهَانٌ مُؤَنَّةٌ فِي طَبَاعِهَا الَّتِي بَنِيَتْ عَلَيْهَا ؛ وَهَذَا صَحِيحٌ ، إِذْ هِيَ أَقْوَى الْأَذْهَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي الْحِسِّ بِالْآلَامِ وَالْمَسَرَّاتِ ، وَمَعَانِي الدُّمُوعِ وَالْإِبْتِسَامِ أَسْرَعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا ، بَلْ هِيَ طَبِيعَةٌ فِيهَا ؛ وَهِيَ وَخِذَهَا الْمُبْدِعَةُ لِلْجَمَالِ وَالْمُنَشَّئَةُ لِلذُّوقِ ، وَعَمَلُهَا فِي ذَلِكَ هُوَ قَانُونٌ وَجُودُهَا ؛ ثُمَّ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِحْتِمَالِ وَالْإِعْطَاءِ وَالرَّضَا بِالْحُزْمَانِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ وَإِذْمَانِ الصَّبْرِ عَلَى التَّعَبِ وَالذِّقَّةِ وَالْاهْتِمَامِ بِالتَّفَاصِيلِ وَأَسَاسُهَا الْحُبُّ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ طَبَاعِ الْأُنْتَى وَهِيَ التَّابِغَةُ فِيهِ ، بَلْ هِيَ التَّابِغَةُ بِهِ .

فَسِرُّ التَّبُوُّغِ فِي الْأَدَبِ وَفِي غَيْرِهِ هُوَ التَّوَلِيدُ ، وَسِرُّ التَّوَلِيدِ فِي نَضِجِ الذَّهْنِ الْمُهِتَأِ بِأَدْوَاتِهِ الْعَصَبِيَّةِ ، الْمُتَّجِهَةِ إِلَى الْمَجْهُولِ وَمَعَانِيهِ كَمَا تَنْجُو كُلُّ آلَاتِ الْمَرَصِدِ الْفَلَكَيِّ إِلَى السَّمَاءِ وَأَجْرَامِهَا ؛ وَبِذَلِكَ الْعُنْصُرِ الذَّهْنِيِّ يَزِيدُ التَّابِغَةُ عَلَى غَيْرِهِ ، كَمَا يَزِيدُ الْمَاسُ عَلَى الزُّجَاجِ ، وَالْجَوْهَرُ عَلَى الْحَجَرِ ، وَالْفُؤَادُ عَلَى الْحَدِيدِ ، وَالذَّهَبُ عَلَى التُّحَاسِ ؛ فَهَلْزِهِ كُلُّهَا تَبَغَتْ نُبُوغَهَا بِالتَّوَلِيدِ فِي سِرِّ تَرْكِيبِهَا ، وَتَبَاوُثِ التَّوَابِعِ أَنْفُسُهُمْ فِي قُوَّةِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ ، فَبَعْضُهُمْ فِيهَا أَكْمَلَ مِنْ بَعْضٍ ، وَتَمُدُّ لَهُمْ فِي الْخِلَافِ أَحْوَالُ أَرْمَانِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ وَحَوَادِثِهِمْ وَنَحْوُهَا ، وَبِهَلْزِهِ الْمُبَانِيَّةِ تَجْتَمِعُ لِكُلِّ مِنْهُمْ شَخْصِيَّةٌ وَتَسْقُ لَهَا طَرِيقَةٌ ؛ وَبِذَلِكَ تَتَنَوَّعُ الْأَسَالِيبُ ، وَيُعَادُ الْكَلَامُ غَيْرَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ ، وَتَتَجَدَّدُ الدُّنْيَا بِمَعَانِيهَا فِي ذَهْنِ كُلِّ أَدِيبٍ يَفْهَمُ الدُّنْيَا وَتَتَّخِذُ الْأَشْيَاءَ الْجَارِيَةَ فِي الْعَادَةِ غَرَابَةً لَيْسَتْ فِي الْعَادَةِ وَيَرْجِعُ الْحَقِيقِيُّ أَكْثَرَ مِنْ حَقِيقَتِهِ .

وَقَدْ سِئِلَ مُصَوِّرٌ مُبْدِعٌ بِمَاذَا يَمْرُجُ أَلْوَانُهُ فَتَأْنِي وَلَهَا إِشْرَافُهَا وَجَمَالُهَا وَنُبُوغُ مَبَانِيهَا وَرُؤُوسُ الْحَيَاةِ بِهَا فِي الصُّورَةِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا أَمْرُجُهَا بِمُخَيِّ . وَهَذَا هَذَا ، فَإِنَّ الْأَلْوَانَ عِنْدَ النَّاسِ جَمِيعًا وَلَكِنْ مَعَهُ عِنْدَهُ وَحْدَهُ وَلَهُ تَرْكِيبُهُ الْخَاصُّ بِهِ وَحْدَهُ وَسِرُّ الصَّنَاعَةِ فِي تَوَلِيدِ هَذَا الدِّمَاغِ ، فَكَأَنَّ أَلْوَانَهُ فِي صِنَاعَتِهِ جَاءَتْ مِنْهُ بِخُصُوصِهِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْعَبْقَرِيُّ ، فَإِنَّكَ لَتَجِدُ الشَّعْرَ فِي وَزْنٍ خَاصٍّ بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيَتَمَّمُ الْغَرَضَ مِنْهُ وَيُضَيِّفُ إِلَى

مَعَانِيهِ أَنْفًا مِنَ الْجَمَالِ وَحُسْنِهِ وَإِلَى صَوْنِهِ نَعْمًا مِنَ الْمُؤَسِيقَى وَطَرَبِهَا . فَمَا أَشْبَهَ الْجِهَازَ الْعَصَبِيَّ فِي دِمَاحِ كُلِّ نَابِغَةٍ أَنْ يَكُونُ وَزْنًا شِعْرِيًّا لِهَذَا التَّابِغَةِ بِخَاصَّتِهِ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ الْأَدِيبَ الْحَقَّ إِلَّا وَجَدْتَ كُلَّ مَا يَكْتُمُهُ يَجِيءُ فِي وَزْنٍ خَاصٍّ بِهِ حَتَّى لَا يَخْرُجَ عَنْهُ مَرَّةً ، أَوْ تَزِيدُ أَنْتَ فِيهِ وَتُقْصِرُ إِلَّا ظَهَرَ لَكَ أَنَّهُ مَكْسُورٌ . . . ؟

وَالذَّهْنُ الْعَبْقَرِيُّ لَا يَتَّخِذُ الْمَعَانِي مَوْضُوعَ بَحْثٍ وَنَظَرٍ وَتَعَقُّبٍ يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا أَوْ يَتَعَلَّقُ عَلَيْهَا ، فَهَذَا عَمَلُ الذَّهْنِ الدَّكِّيِّ وَحْدَهُ ، وَهُوَ غَايَةُ الْغَايَاتِ فِيهِ ، يَبْحَثُ وَيَنْظُرُ وَيَتَصَحَّحُ وَيَجْمَعُ مِنْ هُنَا ، وَيَأْخُذُ مِنْ ثَمَ ، وَيَعْتَرِضُ وَيُصَحِّحُ ، وَيَأْتِيكَ بِالْمَقَالَةِ يَحْسَبُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ وَمَا فِيهَا إِلَّا أَشْيَاؤُهُ هُوَ وَأَمثَالُهُ . أَمَّا الذَّهْنُ الْعَبْقَرِيُّ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَعَانِي إِلَّا مَادَّةُ عَمَلٍ ، فَلَا تَكَادُ ثَلَاثُهُ حَتَّى تَتَحَوَّلَ فِيهِ وَتَنَمُو وَتَتَنَوَّعَ وَتَتَسَاقَطَ لَهُ أَشْكَالًا وَصُورًا فِي مِثْلِ خَطَرَاتِ الْبَرَقِ ، وَرُبَّمَا غَمَرَ الْمَعْنَى الْوَاحِدَ فِي جَمَالِهِ وَسُمُوهِ وَقُوَّةِ تَأْنِيهِ مَقَالَاتٍ عِدَّةً لِأُولَئِكَ الْأَدِكِيَاءِ ، فَتَسَخَّهَا نَسَخًا ، وَجَعَلَهَا مِنْهُ كَالشُّمُوعِ الْمُوقَدَةِ بِإِزَاءِ الشَّمْسِ . فَإِذَا ذَهَبَتْ تَوَازُنُ بَيْنِ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى وَمِثْلِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ فِي الرُّوْعَةِ وَالْجَلَالِ ، وَرَأَيْتَ عَزِيدَةَ الْمَقَالَةِ وَغُرُورَهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ تَقُولَ لَهَا : يَا حِصَاةَ الْوِيزَانِ فِي إِحْدَى كِفَّتَيْهِ ! أَلَا يَكْفِيكَ الْجَبَلُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى . . . ؟

وَقَدْ عَرَفَ الْأُدَبَاءُ جَمِيعًا أَنَّ كَاتِبَ قَرْنِ سَةِ الْعَظِيمِ أَنَاتُولُ فَرَانْسِ Anatole France كَانَ يَكْتُبُ الْجُمْلَةَ ثُمَّ يَنْقُحُهَا ثُمَّ يَهْدِيهَا ثُمَّ يُعِيدُهَا ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا ، وَهَكَذَا خَمْسَ مَرَّاتٍ إِلَى ثَمَانٍ ، وَيَقْدُمُ وَيُؤَخِّرُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، وَيَخْتَسِبُونَ هَذَا تَخَكُّبًا وَتَهْذِيبًا وَمَا هُوَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، وَلَا أَحْسَبُ الْأَوْرَبِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ تَنَبَّهُوا إِلَى سِرِّ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، وَإِنَّمَا سِرُّهَا مِنْ جِهَازِ التَّوَلِيدِ فِي رَأْسِ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الْعَظِيمِ ، فَإِذَا قَرَأَ كِتَابَهُ حَوْلَهَا فِكْرَةً ، وَأَبْدَعَ لَهُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْمَلَ فِي ذَلِكَ أَوْ يَتَكَلَّفَ لَهُ إِلَّا مَا يَتَكَلَّفُ مِنْ يَهْزُ إِلَيْهِ بِجَذَعِ الشَّجَرَةِ لِنَسَاقِطِ عَلَيْهِ ثَمَرًا نَاصِجًا حُلُومًا جَنِيًّا . فَكُلَّمَا قَرَأَ وَلَدَ ذَهْنُهُ ، فَيَبْثُ مَا يَأْتِيهِ ، فَلَا تَرَالُ صُورَةٌ مِنْ صُورَةٍ حَتَّى يَجِيءَ الْمَعْنَى فِي النَّهَائِيَةِ ، وَإِنَّهُ لَا غَرْبَ الْغَرَائِبِ لَا يَكَادُ الْعَقْلُ يَهْدِي إِلَى طَرِيقَتِهِ وَسِيَاقِ الْفِكْرِ فِيهِ ، إِذْ كَانَ لَمْ يَأْتِ إِلَّا مُحَوَّلًا عَنْ وَجْهِهِ مَرَّاتٍ لَا مَرَّةً وَاحِدَةً .

فَجِهَازُ التَّوَلِيدِ مَتَى اسْتَمَرَّ وَاسْتَحْكَمَ فِي إِنْسَانٍ أَصْبَحَ لَهُ بِمَقَامِ مَلِكِ الْوَحْيِ مِنَ النَّبِيِّ ،

وَهُوَ عِنْدَنَا دَلِيلٌ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى صِحَّةِ الشُّبُوهِ وَحُدُوثِ الْوُخِيِّ وَإِمْكَانِهِ ، إِذْ لَا تَتَصَرَّفُ بِهِ إِلَّا قُوَّةٌ غَيْبِيَّةٌ لَا عَمَلَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا ، بَلْ هِيَ تُبْدِعُ إِبْدَاعَهَا وَتُلْقِي عَلَيْهِ الْفَاءَ . وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تَعَرَّضَ لَهَا أَذْرَكَ مِنْهَا ، وَلَا كُلُّ مَنْ أَذْرَكَ مِنْهَا بَلَغَ بِهَا ، بَلْ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ الْمُحْكَمِ كَجِهَازِ الْأَسْلَاحِ الدَّقِيقِ الْمَصْنُوعِ لِتَلْقَى أَبْعَدَ الْأَمْوَاجِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ وَأَفْوَاهَا . وَهَذِهِ الْقُوَّةُ إِنْ أَرَادَتْ مَعَانِي الْجَمَالِ أَخْرَجَتْ الشَّاعِرَ ، وَإِنْ أَرَادَتْ كَشْفَ السِّرِّ عَنِ الْأَشْيَاءِ أَخْرَجَتْ الْأَدِيبَ ، وَإِنْ أَرَادَتْ حَقَائِقَ الوجودِ أَخْرَجَتْ الْحَكِيمَ . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَكَانَ أَمْرٌ تَغْيِيرِ الْحَيَاةِ وَصَبَّ أَرْزَامَانِ جَدِيدَةٍ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالْوُثُوبِ بِهِذِهِ الدُّنْيَا دَرَجَةً أَوْ دَرَجَاتٍ فِي الرُّقِيِّ - فَهَذَا تَكُونُ الْوَسِيلَةُ أَكْبَرَ مِنَ الْبَصِيرَةِ ، فَلَيْسَ لَهَا مِنْ قُوَّةِ الْغَيْبِ إِلَّا الْوُخِيُّ ، وَيَكُونُ الْغَرَضُ أَكْبَرَ مِنَ الشَّاعِرِ وَالْأَدِيبِ وَالْحَكِيمِ ، فَلَا يُخْتَارُ إِلَّا النَّبِيُّ . ثُمَّ لَا يُوَحَّى إِلَيْهِ إِلَّا وَهُوَ فِي حَسٍّ لِسَاعَةِ الْوُخِيِّ وَخَدَهَا ، وَهِيَ سَاعَةٌ لَيْسَتْ مِنَ الزَّمَنِ ، بَلْ مِنَ الرُّوحِ الْمُنْصَرِفِ عَنِ الزَّمَنِ وَمَا فِيهِ لِيَتَلَقَّى عَنْ رُوحِ الْخُلْدِ ، وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ خَلُوهُ النَّابِغَةِ بِنَفْسِهِ فِي سَاعَةِ التَّوَلِيدِ .

فَسِرُّ الشُّبُوحِ مِنْ سِرِّ الْوُخِيِّ ، لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ ، وَمَا أَسْهَلَ سِرَّ الْوُخِيِّ وَأَيْسَرَ أَمْرَهُ ، وَلَكِنْ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَخَدَهُمْ ، وَهَذَا كُلُّ الصُّعُوبَةِ . . « أَنْ نَكُونَ أَوْ لَا نَكُونَ ، هَذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ » .

### نَقْدُ الشُّعْرِ وَفَلَسَفَتُهُ (\*)

الشَّاعِرُ فِي رَأْيِنَا هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَرَى الطَّبِيعَةَ كُلَّهَا بِعَيْنَيْنِ لَهُمَا عَشْقٌ خَاصٌّ وَفِيهِمَا غَزَلٌ عَلَى حِدَةٍ ، وَقَدْ خُلِقَتَا مُهَيَّأَتَيْنِ بِمَجْمُوعَةِ النَّفْسِ الْعَصَبِيَّةِ لِرُؤْيَا السُّحْرِ الَّذِي لَا يُرَى إِلَّا بِهِمَا ، بَلِ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ لَوْلَا عَيْنَا الشَّاعِرِ ، كَمَا لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْجَمَالِ الْخَيِّ لَوْلَا عَيْنَا الْعَاشِقِ .

فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ أَعْمَى كَهوميروس Homerus وملتون Milton وَبِشَارَ وَالْمَعْرِي وَأَضْرَابِهِمْ ، انْبَعَثَ الْبَصَرُ الشُّعْرِيُّ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ حَاسَةٍ فِيهِ ، وَأَبْصَرَ مِنْ خَوَاطِرِهِ الْمُنْبَتَّةِ فِي كُلِّ مَعْنَى ، فَادَّيَّ بِالنَّفْسِ فِي الوجودِ الْمُظْلِمِ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُودِّئُهُ بِهِذِهِ النَّفْسِ فِي الوجودِ الْمُضِيِّ ، وَفَصَّرَ عَنِ الْمُبْصِرِينَ فِي مَعَانٍ وَأَرْبَى عَلَيْهِمْ فِي مَعَانٍ أُخْرَى ، فَيَجْتَمِعُ لِلشُّعْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ مَدَّ النَّفْسِ الْمُلْهَمَةِ مِمَّا بَيْنَ أَطْرَافِ الثُّورِ إِلَى أَغْوَارِ الظُّلْمَةِ .

وَالشُّعْرُ فِي أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ لَا فِي الْأَشْيَاءِ ذَاتِهَا ، وَلِهَذَا تَمْتَارُ قَرِينَةُ الشَّاعِرِ بِقُدْرَتِهَا عَلَى خَلْقِ الْأَلْوَانِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَصْبُغُ كُلَّ شَيْءٍ وَتُلَوِّنُهُ لِإِظْهَارِ حَقَائِقِهِ وَدَقَائِقِهِ حَتَّى يَجْرِيَ مَجْرَاهُ فِي النَّفْسِ وَيَجُوزَ مَجَارَهُ فِيهَا ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَعَاوَرَهُ النَّاسُ مِنْ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا فَهُوَ إِنَّمَا يُعْطِيهِمْ مَادَّةً فِي هَيْئَتِهِ الصَّامِتَةِ ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى إِلَى الشَّاعِرِ أَعْطَاهُ هَذِهِ الْمَادَّةَ فِي صُورَتِهَا الْمُتَكَلِّمَةِ ، فَأَبَانَ عَنْ نَفْسِهَا فِي شِعْرِهِ الْجَمِيلِ بِخَصَائِصٍ وَدَقَائِقٍ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا النَّاسُ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ فِيهَا .

فَبِالشُّعْرِ تَتَكَلَّمُ الطَّبِيعَةُ فِي النَّفْسِ وَتَتَكَلَّمُ النَّفْسُ لِلْحَقِيقَةِ وَتَأْتِي الْحَقِيقَةُ فِي أَطْرَفِ أَشْكَالِهَا وَأَجْمَلِ مَعَارِضِهَا ، أَيْ : فِي الْبَيَانِ الَّذِي تَصْنَعُهُ هَذِهِ النَّفْسُ الْمُلْهَمَةُ حِينَ تَتَلَقَّى الثُّورَ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا وَتَعَكِّسُهُ فِي صِنَاعَةِ نُورَانِيَّةٍ مُتَمَوِّجَةٍ بِالْأَلْوَانِ فِي الْمَعَانِي وَالْكَلِمَاتِ وَالْأَنْعَامِ .

وَالْإِنْسَانُ مِنَ النَّاسِ يَعِيشُ فِي عُمُرٍ وَاحِدٍ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يَبْدُو كَأَنَّهُ فِي أَعْمَارٍ كَثِيرَةٍ مِنْ عَوَاطِفِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَنْطَوِي عَلَى نَفْسٍ مُخْتَلِفَةٍ تَجْمَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَبِذَلِكَ خُلِقَ لِغِيَضِ مَنْ هَذِهِ الْحَيَاةُ عَلَى الدُّنْيَا ، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ إِنْسَانِيٌّ لِلْإِحْسَاسِ يَغْتَرِفُ النَّاسُ مِنْهُ لِيَزِيدَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَانِي وَجُودِهِ الْمَخْدُودِ مَا دَامَ هَذَا الْوُجُودُ لَا يَزِيدُ فِي مُدَّتِهِ ، ثُمَّ لِيَرْهَفَ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ أَغْصَابَهُ فَتَذَرِكَ شَيْئًا مِمَّا فَوْقَ الْمَحْسُوسِ ، وَتُكْنِثُهُ طَرَفًا مِنْ أَطْرَافِ الْحَقِيقَةِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تَسْعُ بِالنَّفْسِ وَتُخْرِجُهَا مِنْ حُدُودِ الصَّرُورَاتِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا لِتَصِلَهَا بِلَذَاتِ الْمَعَانِي الْخُرَّةِ الْجَمِيلَةِ الْكَامِلَةِ ، وَكَأَنَّ الشَّعْرَ لَمْ يَجِئْ فِي أَوَازٍ إِلَّا لِيَحْمِلَ فِيهَا نَفْسَ قَارِيهِ إِلَى تِلْكَ اللَّذَاتِ عَلَى اهْتِرَازَاتِ النِّعَمِ ، وَمَا يُطْرِبُ الشَّعْرَ إِلَّا إِذَا أَحْسَسْتَهُ كَأَنَّمَا أَخَذَ النَّفْسَ لَحْظَةً وَرَدَّهَا .

وَالشَّاعِرُ الْحَقِيقِيُّ بِهِذَا الْأَسْمِ - أَيِ : الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الشَّعْرِ وَيَمْتَسِّحُ مَعَانِيهِ وَيَهْدِيهِ إِلَى أَسْرَارِهِ وَيَأْخُذُ بِغَايَةِ الصَّنْعَةِ فِيهِ - تَرَاهُ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي مَكَانٍ مَا يُعَانِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَمَا يَتَعَاطَى وَضْفَهُ مِنْهَا ، ثُمَّ يَفَكِّرُ بِعَقْلِهِ عَلَى أَنَّهُ عَقْلُ هَذَا الشَّيْءِ مُضَافًا إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَالِيَةُ ، وَبِهَذَا تَنْطَوِي نَفْسُهُ عَلَى الْوُجُودِ فَتَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ فِي خِلْفَةٍ جَمِيلَةٍ مِنْ مَعَانِيهَا ، وَتُصْبِحُ هَذِهِ النَّفْسُ خَلِيقَةً أُخْرَى لِكُلِّ مَعْنَى دَاخِلَهَا أَوْ اتَّصَلَ بِهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَلَا رَيْبَ أَنَّ نَفْسَ الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ نَكَادُ تَكُونُ حَاسَةً مِنْ حَوَاسِّ الْكَوْنِ .

وَلَوْ سُلِّتَ أَرْزَامَانُ الدُّنْيَا كَيْفَ فَهَمَ أَهْلُهَا مَعَانِي الْحَيَاةِ السَّامِيَةِ وَكَيْفَ رَأَوْهَا فِي آثَارِهَا الْأَلُوْهِيَّةِ عَلَيْهَا ، لَقَدَّمَ كُلُّ جِيلٍ فِي الْجَوَابِ عَلَى ذَلِكَ مَعَانِي الدِّينِ وَمَعَانِي الشَّعْرِ .

وَلَيْسَتْ الْفِكْرَةُ شِعْرًا إِذَا جَاءَتْ كَمَا هِيَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، فَهِيَ فِي ذَلِكَ عِلْمٌ وَفَلَسَفَةٌ ، وَإِنَّمَا الشَّعْرُ فِي تَصَوُّيرِ خَصَائِصِ الْجَمَالِ الْكَامَةِ فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ عَلَى دِقَّةٍ وَلَطَافَةٍ كَمَا تَتَحَوَّلُ فِي ذَهَنِ الشَّاعِرِ الَّذِي يُلَوِّثُهَا بِعَمَلِ نَفْسِهِ فِيهَا وَيَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةِ أَسْرَارِهَا .

فَالْأَفْكَارُ مِمَّا تُعَانِيهِ الْأَذْهَانُ كُلُّهَا وَتَتَوَاطَأُ فِيهِ قَلْبُ كُلِّ إِنْسَانٍ وَلِسَانُهُ ، بَيِّنٌ أَنَّ قَلْبَ الشَّاعِرِ هُوَ قَلْبٌ خَصَّائِصُهَا الْجَمِيلَةُ الْمُؤَثَّرَةُ ، وَكَأَنَّ الْخَيَالَ الشَّعْرِيَّ نِخْلَةً مِنَ النَّحْلِ تَلِمُ بِالْأَشْيَاءِ لِتُبْدِعَ فِيهَا الْمَادَّةَ الْخُلُوةَ لِلذَّوْقِ وَالشُّعُورِ ، وَالْأَشْيَاءُ بَاقِيَةٌ بَعْدَ كَمَا هِيَ لَمْ يُعَيِّرْهَا

الْخَيَالَ ، وَجَاءَ مِنْهَا بِمَا لَا تَحْسِبُهُ مِنْهَا ؛ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ وَخَدَهَا هِيَ الشَّاعِرِيَّةُ .

فَالشَّاعِرُ الْعَظِيمُ لَا يُرْسِلُ الْفِكْرَةَ لِإِيجَادِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِ قَارِيَتِهَا حَسْبَ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَصْنَعُهَا وَيَخْذُلُ الْكَلَامَ فِيهَا بَغْضَهُ عَلَى بَغْضٍ ، وَيَتَصَرَّفُ بِهَا ذَلِكَ التَّصَرَّفُ لِيُوجِدَ بِهَا الْعِلْمَ وَالذَّوْقَ مَعًا ؛ وَعَبَقَرِيَّةُ الْأَدَبِ لَا تَكُونُ فِي تَقْرِيرِ الْأَفْكَارِ تَقْرِيرًا عِلْمِيًّا بَحْثًا ، وَلَكِنَّ فِي إِزْسَالِهَا عَلَى وَجْهِ مِنَ التَّسْنِيدِ لَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَقَرَّهَا فِي مَكَانِهَا مِنَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ حَائِلٌ . وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْأَفْكَارُ الْأَدَبِيَّةُ الْعَالِيَةُ الَّتِي يُلْهَمُهَا أَفْذَاذُ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ هِيَ أَفْكَارُ عَقْلِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَلَا تَفْصِلُ عَنْهُمْ الْفِكْرَةَ فِي أُسْلُوبِهَا الْبَيِّنِيِّ الْجَمِيلِ حَتَّى تَتَّخِذَ وَضْعَهَا التَّارِيخِيَّ فِي الدُّنْيَا ، وَتَقُومَ عَلَى أُسَاسِهَا فِي أَعْمَالِ النَّاسِ ، فَتَتَحَقَّقَ فِي الْوُجُودِ وَيُعْمَلَ بِهَا ؛ وَهَذَا طَرَفٌ مِمَّا بَيَّنَّ الْأَدَبُ الْعَالِيَّ وَبَيَّنَّ الْأَدَبِيَّ مِنَ الْمُشَابَهَةِ .

وَمَتَى نَزَلَتْ الْحَقَائِقُ فِي الشَّعْرِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ مَوْزُونَةً فِي شِكْلِهَا كَوَزْنِهِ ، فَلَا تَأْتِي عَلَى سَرْدِهَا وَلَا تُؤْخَذُ هَوْنًا كَالْكَلَامِ بِلا عَمَلٍ وَلَا صِنَاعَةٍ ، فَإِنَّهَا إِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا الشَّاعِرُ جَمَالًا وَنَسَقًا مِنَ الْبَيَانِ يَكُونُ لَهَا شَبِيهَا بِالْوِزْنِ ، وَيَضَعُ فِيهَا رُوحًا مُوسِيقِيَّةً بِحَيْثُ يَجِيءُ الشَّعْرُ بِهَا وَلَهُ وَزْنَانِ فِي شِكْلِهِ وَرُوحِهِ - فَبِذَلِكَ حَقَائِقُ مَكْسُورَةٌ تَلُوحُ فِي الذَّوْقِ كَالنَّظْمِ الَّذِي دَخَلَتْهُ الْعِلَلُ فَجَاءَ مُخْتَلًا فَذِ رَاغٍ أَوْ فَسَدَ .

وَالْخَيَالَ هُوَ الْوِزْنُ الشَّعْرِيُّ لِلْحَقِيقَةِ الْمُرْسَلَةِ ، وَتَخَيُّلُ الشَّاعِرِ إِنَّمَا هُوَ إِفْقَاءُ الثُّورِ فِي طَبِيعَةِ الْمَعْنَى لِشَيْءٍ بِهِ ، فَهُوَ بِهِذَا يَرْفَعُ الطَّبِيعَةَ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً ، وَيَرْفَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ دَرَجَةً سَمَاوِيَّةً ؛ وَكُلُّ بَدَائِعِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُخْتَرِعِينَ هِيَ مِنْهُ بِهِذَا الْمَعْنَى ، فَهُوَ فِي أَصْلِهِ ذَكَاءُ الْعِلْمِ ، ثُمَّ يَسْمُوَ فَيَكُونُ هُوَ بَصِيرَةُ الْفَلَسَفَةِ ، ثُمَّ يَزِيدُ سُمُوءَهُ فَيَكُونُ رُوحَ الشَّعْرِ ؛ وَإِذَا قَبِلَتْ هَذَا السَّقْوُ فَانْحَدَرَتْ بِهِ نَازِلًا كَمَا صَعِدَتْ بِهِ ، حَصَلَ مَعَكَ أَنَّ الْخَيَالَ رُوحَ الشَّعْرِ ، ثُمَّ يَنْحَطُّ شَيْئًا فَيَكُونُ بَصِيرَةُ الْفَلَسَفَةِ ، ثُمَّ يَزِيدُ انْحِطَاطًا فَيَكُونُ ذَكَاءُ الْعِلْمِ ؛ فَالشَّاعِرُ كَمَا تَرَى هُوَ الْأَوَّلُ إِنْ أَرْتَقَتْ الدُّنْيَا ، وَهُوَ الْأَوَّلُ إِنْ انْحَطَّتِ الدُّنْيَا ، وَكَأَنَّمَا إِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسَانِ تَبْدَأُ مِنْهُ .

\* \* \*

إِذَا قَرَرْنَا لِلشَّعْرِ هَذَا الْمَعْنَى وَعَرَفْنَا أَنَّهُ قَلْبُ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ الْحَسَّاسَةِ الْمُلْهَمَةِ حِينَ



تَتَنَاوَلُ الوجودَ مِنْ فَوْقِ وجودِهِ فِي لُطْفِ رُوحَانِيٍّ ظَاهِرٍ فِي الْمَعْنَى وَاللُّغَةِ وَالْأَدَاءِ - وَجَبَ أَنْ نَعْتَبِرَ نَقْدَ الشَّعْرِ بِاعْتِبَارِ مِمَّا قَرَرْنَاهُ ، وَأَنْ نَقِيْمَهُ عَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ ، فَإِنَّ النَّقْدَ الْأَدَبِيَّ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ - وَخَاصَّةً نَقْدَ الشَّعْرِ - أَصْبَحَ أَكْثَرُهُ مِمَّا لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَسَاءَ التَّصَرُّفُ بِهِ ، وَوَقَعَ الْخَلْطُ فِيهِ ، وَتَنَاوَلَهُ أَكْثَرُ أَهْلِهِ بِعِلْمٍ نَاقِصٍ ، وَطَبِيعٍ ضَعِيفٍ ، وَذَوْقٍ فَاسِدٍ ، وَطَمَعٍ فِيهِ مَنْ لَا يُحْصِلُ مَذْهَبًا صَحِيحًا . وَلَا يَتَجَنَّبُ لِرَأْيِ جَيِّدٍ ، حَتَّى جَاءَ كَلَامُهُمْ وَإِنْ فِي اللَّغْوِ وَالتَّخْلِيْطِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَخَفٌ مَحْمَلًا ، فَإِنَّكَ مِنْ هَٰذَيْنِ فِي حَقِيقَةٍ مَكْشُوفَةٍ تَعْرِفُهَا تَخْلِيْطًا وَلَغْوًا ، وَلِكَيْتَكَ مِنْ نَقْدِ أَوْلَيْكَ فِي أَدَبٍ مُرَوَّرٍ وَدَعْوَى فَارِعَةٍ وَرَوَائِدٍ مِنَ الْفُضُولِ وَالتَّعَسُّفِ يَتَزَيَّدُونَ بِهَا لِلتَّفَنُّخِ وَالصُّوْلَةِ وَإِنْهَامِ النَّاسِ أَنْ الْكَاتِبَ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا هُوَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ . . عَلَى أَنْ جُهْدَ عَمَلِهِ إِذَا فَتَشْتَهُ وَأَعْتَبَرْتَ عَلَيْهِ مَا يَخَالِطُ فِيهِ ، أَنَّهُ يَكْتُبُ حَيْثُ يُرِيدُ النَّقْدُ أَنْ يَحَقِّقَ ، وَيَمْلَأَ فَرَاغًا مِنَ الْوَرَقِ حَيْثُ يَقْتَضِيهِ الْبَحْثُ أَنْ يَمْلَأَ فَرَاغًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ .

وَقَدْ قُلْنَا فِي كِتَابِنَا « تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ » : إِنْ أَسْتَاذَ آدَابٍ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِتَارِيخِهَا وَتَقْصِيٍّ مَوَادِّهَا - ذَوْقًا فَنِّيًّا مُهَذَّبًا مَضْفُوعًا ، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ لَهُ هَٰذَا الذَّوْقُ إِلَّا مِنْ إِبْدَاعٍ فِي صِنَاعَتِي الشَّعْرِ وَالتَّنْثِيرِ ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَى هَٰذَيْنِ (أَيُّ : الْإِحَاطَةِ وَالذَّوْقِ) بِلُغَةِ الْمَوْهَبَةِ الْغَرِيْبَةِ الَّتِي تَلَفَتْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ وَالْمُخَيَّلَةِ فَتُبْدِعُ مِنَ الْمُؤَرِّخِ الْفَيْلَسُوفِ الشَّاعِرِ الْعَالِمِ شَخْصًا مِنْ هَٰؤُلَاءِ جَمِيعًا هُوَ الَّذِي نُسَمِّيهِ : النَّاقِدَ الْأَدَبِيَّ .

هَٰذِهِ هِيَ صِفَاتُ النَّاقِدِ فِي رَأْيِنَا ، فَانْظُرْ أَيْنَ تَجِدُهُ بَيْنَ هَٰؤُلَاءِ الْأَسَاتِيذَةِ الْمُتَخَصِّرِينَ . . . فِي أَدَبِهِمْ ، الْمُطَوَّلِينَ . . . فِي الْقَابِيهِمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَتَعَاطَوْنَ النَّقْدَ وَلَيْسَ لَهُمْ وَسَائِلُهُ إِلَّا مَا كَانَ ضَعْفًا وَقَلَّةً وَإِدْبَارًا ، وَقَدْ فَاتَهُمْ مَا لَا تَحْمِلُهُ أَقْدَارُهُمْ وَلَا تَبْلُغُهُ قُوَاهُمْ ، وَجَهَلُوا أَنَّ النَّاقِدَ الْأَدَبِيَّ إِنَّمَا يُلْقِي دَرْسًا عَالِيًا لَا يَدُلُّ فِيهِ عَلَى الْعُيُوبِ الْفَنِّيَّةِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الْمَحَاسِنِ الَّتِي تَقَابِلُهَا فِي أَسْمَى مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ الْفَنُّ مِنْ آثَارِ تَارِيخِهِ ؛ فَيَكُونُ النَّقْدُ تَهْذِيْبًا وَتَخْلِيْصًا لِفُنُونِ الْأَدَبِ كُلِّهَا ؛ وَهُوَ بِهِدِهِ الطَّرِيقَةَ يَجْلُوها عَلَى النَّاسِ وَيُبْدِعُ فِيهَا وَيَزِيدُ فِي مَادَّتِهَا وَيُسَهِّلُهَا عَلَى الْقُرَاءِ وَيُحْصِلُهَا لَهُمْ تَخْصِيْلًا لَا يَبْلُغُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَيُعْطِيهِمْ مِنْ كُلِّ ضَعِيفٍ مَا هُوَ قَوِيٌّ ، وَمِنْ كُلِّ قَوِيٍّ مَا هُوَ أَقْوَى .

وَرَأَيْنَاهُمْ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى أَنْ يُعْلَقُوا عَلَى كَلَامِ الشَّاعِرِ ، فَيَجِيءُ عَمَلُهُمْ

فِي الْجُمْلَةِ كَأَنَّهُ تَصْنِيفٌ مِنْ هَٰذَا الشَّعْرِ وَشَرْحٌ لَهُ وَتَصْفِيحٌ عَلَى بَعْضِ مَعَانِيهِ ، وَبِهَٰذَا يَرْجِعُ الشَّاعِرُ وَإِنَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي نَاقِدِهِ يُدِيرُهُ كَيْفَ شَاءَ ، وَيَجِيءُ هَٰذَا النَّاقِدُ زَائِدًا مُتَطَفِّلًا ، فَتَأْتِي كِتَابَتُهُ وَإِنَّهَا لَضَرْبٌ مِنْ سُخْرِيَةِ الْمُنْفُودِ بِنَاقِدِهِ ، وَيُضْحِكُ وَضَعُ الْكَلَامِ عَلَى الْعَكْسِ ، فَالشَّاعِرُ الْمُنْفُودُ لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَكِنَّهُ أَبَانَ قُصُورَ النَّاقِدِ وَجَهْلَهُ ، فَهُوَ النَّاقِدُ وَإِنْ سَكَتَ ، وَذَٰكَ هُوَ الْمُنْفُودُ وَإِنْ تَكَلَّمَ !

وَهَٰذَا الْمُتَعَلِّقُ عَلَى أَخْبَارِ الشَّاعِرِ وَشِعْرِهِ كَتَعَلَّقَى « التَّلْخِيصِ » عَلَى أَصْلِهِ « الْمُطْوَلِ » وَالشَّرْحَ عَلَى مَتْنِهِ الْمُؤَجَزِ ، إِنَّمَا هُوَ كَاتِبٌ يَجِدُ مِنْ ذَلِكَ مَادَّةً إِنشَائِيَّةً ، فَيَتَصَرَّفُ بِهَا لِيَكْتُبَ ، وَلَا يَرَادُ مِنَ النَّقْدِ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ وَشِعْرُهُ مَادَّةً إِنشَاءً ، بَلْ مَادَّةً حِسَابٍ مُقَدَّرٍ بِحَقَائِقِ مُعَيَّنَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا ؛ فَتَقْدُ الشَّعْرِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عِلْمٌ حِسَابِ الشَّعْرِ ، وَقَوَاعِدُهُ الْأَرْبَعُ الَّتِي تُقَابِلُ الْجَمْعَ وَالطَّرْحَ وَالضَّرْبَ وَالْقِسْمَةَ هِيَ الْإِطْلَاعُ وَالذَّوْقُ وَالْخَيَالُ وَالْفَرِيحَةُ الْمُلهِمَةُ .

وَنَمَّ صَرَبٌ آخَرٌ مِنْ تَعَلُّقِ الضُّعَفَاءِ ، يَتَنَاوَلُ الشَّاعِرَ بِاعْتِبَارِهِ رَجُلًا لَهُ مَوْضِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَمَنْزِلُهُ مِنَ الْحَيَاةِ ، ثُمَّ لَا يَغْدُو ذَلِكَ <sup>(١)</sup> ؛ وَهُوَ تَزْوِيرٌ لِلْمُؤَرِّخِ بِجَعْلِهِ نَاقِدًا ، وَتَزْوِيرٌ لِلنَّاقِدِ بِرُؤْيَاهُ مُؤَرِّخًا ، عَلَى أَنَّ هَٰذَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي النَّقْدِ الصَّحِيحِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ وَلَا تَقْدُّ بِهِ بِصِيرَتُهُ النَّقْدَ ، إِذِ الشَّاعِرُ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا بِأَنَّهُ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ وَحَيٌّ فِي الْأَحْيَاءِ وَعُمُرٌ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُؤَرَّخَةِ ، وَلَكِنْ بِمَوْضُوعِهِ مِنْ أَسْرَارِ الْحَيَاةِ وَصِلَةِ نَفْسِهِ بِهَا وَقُدْرَةِ هَذِهِ النَّفْسِ عَلَى أَنْ تَقْدُ إِلَى حَقَائِقِ الطَّبِيعَةِ فِي كَائِنَاتِهَا عَامَّةً ، وَفِي إِنْسَانِهَا خَاصَّةً ، ثُمَّ بِقُدْرَةِ مِثْلِ هَٰذِهِ فِي النَّقَادِ إِلَى أَسْرَارِ اللُّغَةِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي هِيَ الوجودُ الْمَعْنَوِيُّ لِكُلِّ ذَلِكَ ، وَالتَّصَرُّفُ بِهَا عَلَى طَبَقَاتٍ مَعَانِيَةٍ حَتَّى لَا تَقْصُرَ عَنِ الْعَايَةِ وَلَا تَقَعُ دُونَ الْقَصْدِ ، فَإِنَّ الشَّعْرَ إِنْ هُوَ إِلَّا ظُهُورُ عَظَمَةِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ بِمَظْهَرِهَا اللَّغَوِيِّ ، وَلَكِنْ كَانَ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ تَارِيخٌ لَا يَتِمُّ النَّقْدُ إِلَّا بِهِ ، فَهُوَ تَارِيخُ الشَّعْرِ فِي نَفْسِ قَائِلِهِ ، ثُمَّ تَارِيخُ هَذِهِ النَّفْسِ فِي مَعَانِيِ الشَّعْرِ مِنْ عَصْرِهَا ، ثُمَّ أَدَبُ هَٰذَا الشَّاعِرِ مِنَ الوجودِ الْأَدَبِيِّ لِلُّغَةِ الَّتِي نَظَّمَ بِهَا ؛ وَذَٰكَ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ

(١) لَمْ نَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَسْمَاءً وَلَمْ نَعِينَ أَسْمَاءً حَتَّى لَا يَمْتَدَّ الْكَلَامُ فَتَخْرُجَ الْمَقَالَةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ كِتَابًا ، وَلَكَيْتَكَ إِذَا قَرَأْتَ الشَّعْرَ وَمَا يَكْتُبُ فِي قَلْبِهِ ، وَالْمُحَاضَرَاتِ الَّتِي تُلْقَى عَنِ الشُّعْرَاءِ فَقَدْ وَجَدْتَ الْأَمْتِلَةَ وَالْأَسْمَاءَ . . .

فِيهِ تَارِيخُ الشَّاعِرِ نَفْسُهُ مُحْصَلًا مِنْ نَوَاحِيهِ فِي جِهَاتِ الْحَيَاةِ ، مُتَعَمِّقًا فِيهِ بِالْإِسْتِفْصَاءِ ، مُتَغَلِّغًا إِلَيْهِ بِالنَّقْدِ . . .

\* \* \*

وَأَنَّ لَنَا رَأْيًا بَسْطَنَاهُ مِرَارًا ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْرَضَ لِنَقْدِ الشَّاعِرِ وَالْكَلَامِ عَنْهُ إِلَّا شَاعِرٌ كَبِيرٌ يَكُونُ ذَا طَبِيعَةٍ فِي النَّقْدِ ، أَوْ كَاتِبٌ عَظِيمٌ يَكُونُ ذَا طَبِيعَةٍ فِي الشُّعْرِ ، أَيْ لَا بُدَّ مِنَ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ مَعًا لِنَقْدِ الشُّعْرِ وَخَدَهُ ، فَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالذَّوْقِ وَالْإِحْسَاسِ وَالْإِلَهَامِ جَمِيعًا ، فَيَبِينُ النَّاقِدُ وَجْهَ النَّقْصِ الْفَنِيِّ ، وَيَعْرِفُ بِمَنْ نَقَصَتْ وَمَاذَا كَانَ يَنْبَغِي لَهَا وَمَا وَجْهَ تَمَامِهَا ، ثُمَّ يَعْرِفُ مِنَ الْكَمَالِ الْفَنِيِّ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَيُحْسِنُ عَلَى الْحَالَتَيْنِ بِالْمَعَانِي الَّتِي أَحْسَنَهَا الشَّاعِرُ حِينَ انْتَرَعَ شِعْرُهُ مِنْهَا ، وَمَا كَانَ يَتَخَالَجُهُ وَقَتِيذٍ مِنَ الْفِكْرِ وَيَمْتَلِئُ لَهُ مِنَ الصُّوَرِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي أَلْهَمَتْهُ إِلَهَامُهَا ؛ فَإِنَّ الْمَعَانِي الْمَكْتُوبَةَ هِيَ شِعْرُ الشَّاعِرِ ، وَلَكِنَّ تِلْكَ الْمَعَانِي الْمَحْسُوسَةَ هِيَ شِعْرُ الشُّعْرِ ، وَإِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالتَّوَهُُّمِ وَالْإِنْشِيزَالِ إِلَى مَا وَرَاءَ الشُّعْرِ مِنْ بَوَاعِيهِ ، وَمَا تَمَوَّجَتْ بِهِ رُوحُ الشَّاعِرِ عِنْدَ عَمَلِهِ ، وَمَا عَرَضَتْ لَهَا بِهِ طَبَائِعُ الْمَعَانِي ، وَهَذَا كُلُّهُ لَا يُحْسِنُ النَّاقِدُ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا فِي قُوَّةٍ مَنْ يَنْقُذُهُ أَوْ أَقْوَى مِنْهُ طَبِيعَةً شِعْرًا .

وَالنَّقْدُ إِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ لِسَانًا يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَلَامَ مَنْتَهَمٍ فِي مَحْكَمَةٍ لِيَقِيمَ حُجَّةً أَوْ يُزَيِّحَ شُبْهَةً أَوْ يُفَرِّقَ حَقِيقَةً أَوْ يَبْسُطَ مَعْنًى أَوْ يُوجِّهَ عِلَّةً أَوْ يَكْشِفَ خَافِيًا أَوْ يَنْبِتَ نَفِيسَةً أَوْ يُظْهِرَ إِحْسَانًا ، وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ نَفْضُ السَّيِّئَةِ وَالْحَسَنَةِ ، وَوُقُوعُ أَدْلَةٍ الْعِلْمِ وَالْفَنِّ وَالذَّوْقِ مَوَاقِعِهَا ، وَتَكَلُّمُ الْكَلَامِ بِذَاتِ نَفْسِهِ مَا تُنْكِرُ مِنْهُ وَمَا تُسَجِّدُ ، وَالشَّاعِرُ وَالنَّاقِدُ يَلْتَقِيَانِ جَمِيعًا فِي الْقَارِي فَوَجَبَ مِنْ ثُمَّ أَنْ يَكُونَ النَّاقِدُ قُوَّةً تَكْشِفُ قُوَّةَ مِثْلِهَا أَوْ دُونَهَا لِيُصَحِّحَ فَرْقًا مِثْلَهُ أَوْ يُقَرِّره أَوْ يَزِيدَ عَلَيْهِ فَضْلَ بَيَانٍ وَمَرْيَّةَ فِكْرٍ ، وَبِهَذَا يُصْبِحُ الْقَارِي كَالسَّائِحِ الَّذِي مَعَهُ الدَّلِيلُ وَأَمَامَهُ الْمُنْظَرُ ، أَيْ : مَعَهُ التَّارِيخُ وَإِبْرَائِيهِ التَّارِيخُ الصَّامِتُ . وَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ وَشِعْرُهُ إِنَّمَا هُمَا النَّفْسُ الْمُتَمَتِّزَةُ وَحَوَادِثُهَا وَإِلَهَامُهَا وَمَعَانِي الْحَيَاةِ فِيهَا ، فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّاقِدُ تَامًا إِلَّا بِنَفْسٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي دَقَّةِ الْحِسِّ وَلُطْفِ النَّظَرِ وَالْإِسْتِفْصَافِ وَقُوَّةِ التَّأَثُّرِ بِمَعَانِي الْحَيَاةِ وَسُمُوِّ الْإِلَهَامِ وَالْعَبْقَرِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ يَجِيءُ النَّقْدُ الصَّحِيحُ بَيَانًا خَالِصًا

مَنْخُولًا كَأَنَّهُ شَرَحَ نَفْسَ لِنَفْسٍ مِثْلِهَا .

وَلَيْسَ الْأَنْفُ هُوَ الَّذِي يَنْقُذُ الْوَرْدَةَ الْعَطْرَةَ الْفَيَّاحَةَ ، وَإِنَّمَا تَنْقُذُهَا الْحَاسَةُ الَّتِي فِي الْأَنْفِ ، وَنَاقِدُ الشُّعْرِ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا فَهُوَ أَنْفُ صَحِيحِ التَّرْكِيبِ ، وَلَكِنَّ بِالْجِلْدِ وَالْعَظْمِ دُونَ تِلْكَ الْحَاسَةِ الَّتِي هِيَ رُوحُ الْعَصَبِ الْمُتَبَثِّ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ وَالْمُتَّصِلِ بِمَا وَرَاءَهُ مِنْ أَغْصَابِ الدَّمَاعِ ، فَهَذَا الْأَنْفُ . . . يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْوَرْدَةَ وَلَكِنْ يَحْسِنُ غَلِظَ مُحَقِّقَتِهِ الْآفَةُ كَمَا يَتَنَاوَلُ حَجَرًا أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَشَبًا أَيُّهَا كَانَ ؛ فَالْوَرْدَةُ عَنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ يَمْتَنَزُ بِاللُّبِّ وَيَخْتَصُّ بِالنُّومَةِ وَيَسْطَعُ بِالرَّوْنَقِ وَيَزْهُو بِاللُّوْنِ ، وَيَذْهَبُ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي الْوَرْدَةِ ، وَلِكِنَّهُ لَيْسَ الْوَرْدَةُ .

وَمَتَى كَانَ الْبَحْثُ هُوَ الْبَحْثُ فِي السَّمَاءِ وَأَفْلَاحِهَا وَأَجْرَامِهَا فَلَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا الْتَاطُرُ الْمُرَكَّبِ ، أَيْ : الَّذِي مَعَهُ عَيْنُهُ وَتَلَسُّكُوهُ وَعِلْمُهُ جَمِيعًا ، إِنْ نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقْدِرُ نَقْصَانُهُ يَكُونُ ضَعْفُهُ ، وَإِنْ تَمَّ فَيَقْدِرُ تَمَامُهُ يَكُونُ وَقَاؤُهُ ، وَلَوْ أَمَكَّنَ أَنْ يَنْفَصِلَ الشَّاعِرُ مِنْ شِعْرِهِ فَيَقْطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ نَسَبِ نَفْسِهِ ، وَيَتَبَعَدَ عَنِ الشُّعْرِ لِيَرَاهُ جَدِيدًا عَلَيْهِ ، وَيُغَيِّرَهُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ - لَكَانَ هُوَ النَّاقِدُ ، فَكَانَ الشُّعْرُ هُوَ الشَّاعِرُ نَفْسُهُ ، وَلَكِنْ فِي وَضْعِ أَنْتُمْ وَأَوْفَى ، وَحَالَهُ أَبْيَنُ وَأَبْصَرُ ، أَيْ : كَأَنَّهُ الشَّاعِرُ نَفْسُهُ مُتَمِّحًا تَامًا بِغَيْرِ ضَعْفٍ وَلَا نَقْصٍ .

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَرَى مِنْ آيَةِ النَّقْدِ الْبَدِيعِ الْمُخَكَّمِ إِذَا قَرَأْتَهُ مَا يُحْيِلُ إِلَيْكَ أَنَّ الشُّعْرَ يَغْرَضُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ عَرْضًا وَيَحْصِلُ لَكَ أَمْرُهُ وَيُبَيِّنُ حَالَتَهُ فِي ذَهْنِ شَاعِرِهِ ، وَكَيْفَ تَوَافَى وَاتَّكَلَفَ ، وَكَيْفَ انْتَرَعَ الشَّاعِرُ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ قَدْرِ الْإِلَهَامِ ، وَمَا أَصَابَهُ مِنْ تَأَثُّرِ الْإِنْسَانِ وَمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ حَظِّ الطَّبِيعَةِ وَالْأَشْيَاءِ ، وَبِالْجُمْلَةِ يُورِدُ النَّقْدُ عَلَيْكَ مَا تَرَى مَعَهُ كَأَنَّ حَرَكَةَ الدَّمِ وَالْأَغْصَابِ قَدْ عَادَتْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الشُّعْرِ .

\* \* \*

أَلَا وَإِنَّ شِعْرَنَا الْعَرَبِيَّ الْجَمِيلَ قَدْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى مَنْ يَعْلَمُ الْقَارِي كَيْفَ يَدُوقُهُ وَيَبَيِّنُهُ وَيَخْلُصُ إِلَى سِرِّ التَّأَثُّرِ فِيهِ ، وَيُخْرِجُهُ مَخْرَجًا سَرِيًّا فِي أَنْغَامِهِ

وَالْحَانِهَ ، وَيَأْتِي بِهِ مِنْ نَفْسِ شَاعِرِهِ وَمِنْ نَفْسِهِ جَمِيعًا ، فَقُوَّةُ التَّمْيِيزِ فِي هَذَا كُلِّهِ عَلَى تَسْدِيدِ وَصَوَابِ هِيَ الَّتِي يُعْطِيهَا التَّاقِدُ لِقَرَائِهِ ، وَالشَّعْرُ فِكْرٌ وَقِرَاءَتُهُ فِكْرٌ آخَرُ ، فَإِنْ قَصَرَ هَذَا عَنْ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ لِيَصِلَ بِهِ وَيَتَغَلَّغَلَ فِيهِ ، فَلَا بُدَّ لِلْفِكْرَيْنِ مِنْ صِلَةٍ فِكْرِيَّةٍ هِيَ كِتَابَةُ التَّاقِدِ الَّذِي هُوَ مِنْ نَاحِيَةٍ كَمَا لِلطَّبِيعَةِ التَّاقِصَةِ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى شَرْحُ لِلطَّبِيعَةِ الْكَامِلَةِ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ هُوَ بِذَوْفِهِ وَفَتْهُ قَانُونُ الْإِنْتِظَامِ الدَّقِيقِ الَّذِي يُبَيِّنُ بِهِ مَا اسْتَقَامَ فِي الْكَلَامِ وَمَا أَعْوَجَ .

وَطَرِيقَتَانَا نَحْنُ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ نَقُومُ عَلَى رُكْنَيْنِ : الْبَحْثُ فِي مَوْهَبَةِ الشَّاعِرِ ، وَهَذَا يَتَنَاوَلُ نَفْسَهُ وَإِلْهَامَهُ وَحَوَادِثَهُ ؛ وَالْبَحْثُ فِي فَنِّهِ اللَّبْيَانِيِّ ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ أَلْفَاظَهُ وَسَبْكُهُ وَطَرِيقَتَهُ ؛ وَسَنَقُولُ فِيهِمَا مَعًا .

فَأَمَّا الْكَلَامُ فِي فَنِّ الشَّعْرِ ، فَالْمُرَادُ بِالشَّعْرِ - أَيِ : نَظْمِ الْكَلَامِ - هُوَ فِي رَأْيِنَا التَّأَثُّيرُ فِي النَّفْسِ لَا غَيْرَ ، وَالْفَنُّ كُلُّهُ إِذَا هُوَ هَذَا التَّأَثُّيرُ ، وَالْإِخْتِيَالُ عَلَى رَجْعَةِ النَّفْسِ لَهُ ، وَاهْتِرَازِهَا بِالْأَفَاطِ الشَّعْرِ وَوَزْنِهِ ، وَإِدَارَةِ مَعَانِيهِ ، وَطَرِيقَةِ تَأْدِيتِهَا إِلَى النَّفْسِ ، وَتَأْلِيفِ مَادَّةِ الشُّعُورِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ تَأْلِيفًا مُتَلَاثِمًا مُسْتَوِيًا فِي نَسْجِهِ لَا يَقَعُ فِيهِ تَفَاوُثٌ وَلَا اخْتِلَالٌ ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ تَعَسُّفٌ وَلَا اسْتِكْرَاهٌ ؛ فَيَأْتِي الشَّعْرُ مِنْ دَقِّهِ وَتَرْكِيْبِهِ الْحَيِّ وَنَسْقِهِ الطَّبِيعِيِّ كَأَنَّمَا يُفْرَعُ بِهِ عَلَى الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ لِيَفْتَحَ لِمَعَانِيهِ إِلَى الرُّوحِ ؛ وَالشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ إِذَا تَمَّتْ لَهُ فِي صِنَاعَتِهِ وَسَائِلُ التَّأَثُّيرِ وَأَحْكَمَ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ ، كَانَ أَسْمَى شَعْرِ إِنْسَانِيٍّ ، فَتَرَاهُ يَطْرُدُ بِالْأَفَاطِهِ الْجَمِيلَةِ السَّائِغَةِ وَكَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ فِيهَا مَعَانِيَّ ، بَلْ يَحْمِلُ حَرَكَاتٍ عَصَبِيَّةً لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَنْسَابَ فِي الدَّمِ حَائِلٌ ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ يَغْمَرَكَ بِالطَّرَبِ وَيَهْزِكَ مِنْ أَعْمَاقِ النَّفْسِ وَيُورِدَ عَلَيْكَ مِنْ نَفْحَةِ الرُّوحِ مَا إِنْ تَدَبَّرْتَهُ فِي نَفْسِكَ وَأَفْصَحْتَ عَنْهُ شُعُورَكَ رَأَيْتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ وَجْهًا مِنْ نِسْيَانِ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْإِنْقِيَالِ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى مِنَ الشُّرُورِ وَالْإِهْتِيَاكِ وَالْأَلَمِ وَالشُّجُوِّ يَحْيَاهَا الدَّمُ التَّائِرُ وَخَدَهُ غَيْرَ مُشَارِكٍ فِيهَا إِلَّا مِنَ الْقَلْبِ .

وَالَّذِينَ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ فِي أَمْرِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ فِي مَزَاجِهِ الْخَاصِّ - فَلَا يَغْتَبِرُونَهُ حَيَاةً طَبَاعَ وَخَصَائِصَ لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا وَالتَّرْوِيلِ عَلَى حُكْمِهَا وَتَلْقَافِهَا بِمَا يُؤَافِقُهَا ، كَمَا لَا بُدَّ مِنْ أَشْبَاهِ ذَلِكَ لِأَمْرَةِ الْجَمِيلَةِ - تَرَاهُمْ يُخْلَوْنَ بِقَوَائِنِ صِنَاعَتِهِ اللَّبْيَانِيَّةِ ، وَيَتَرَلَّوْنَ أَلْفَاظَهُ دُونَ

مَنَازِلَهَا ، وَيُزِيلُونَ مَعَانِيَهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهَا الشَّعْرِيَّةِ ، وَيَتَلَوْنَهُ بِفُضُولِ كَثِيرَةٍ هِيَ كَالْأَفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ ، فَيَأْتُونَ بِنَظْمِ تَقَرُّوهُ إِذَا قَرَأْتَهُ وَأَنْتَ تَتَلَوَّى كَأَنَّمَا يُفْرَعُ عَلَى قَلْبِكَ بِقُبْضَةٍ يَدٍ أَوْ يَدُقُّ عَلَيْهِ بِحَجَرٍ ... وَقَدْ فَشَا هَذَا النَّوعُ مِنَ الشَّعْرِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَأَصْبَحَ مَظْهَرًا لِمَا فَسَدَ مِنْ ذَوْقِ الْأَدِيبِ وَمَا التَّانَثُ مِنْ أَمْرِ اللَّغَةِ وَمَا أَعْوَجَ مِنْ طُرُقِ الْفَلَسَفَةِ وَمَا عَمَّتْ بِهِ الْبَلَوَى مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَوْرَبِيِّ ، وَكَثِيرًا مَا رَأَيْتُ الْقَصِيدَةَ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ كَأَمْرَةٍ سُلِخَ وَجْهَهَا وَوُضِعَتْ لَهَا جِلْدَةٌ وَجْهٍ مَيِّتٍ ... وَالتَّائِطُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُصَرِّفُ الشَّعْرَ عَلَى حُدُودِهِ النَّفْسِيَّةِ وَلَا يُحْكِمُهُ فِيهَا ، بَلْ تُصَرِّفُهُ الْأَلْفَاظُ كَيْفَ اتَّفَقَتْ لَهُ عَلَى وَجْهِهَا الْمُتَلَوِّيَّةِ ، وَتَسْوِسُهُ الْمَعَانِي سِيَاسَةً عَمِيَاءَ فَقَدَتْ بَاصِرَتَيْهَا مِمَّا ، وَيَخْسِبُونَ كَلَامَهُمْ مِنَ الثُّورِ الْعَقْلِيِّ وَلَكِنَّهُ الثُّورُ فِي قَطْعِهِ ثَمَانِينَ أَلْفَ مِثْلِ فِي الثَّانِيَةِ ، فَلَا يَكَادُ يُقَالُ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ وَيَنْسَى وَيَلْحَقَ بِاللَّا نِهَآيَةِ ...

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الصَّنَاعَةِ الْفَاسِدَةِ هُوَ بِعَيْنِهِ ذَلِكَ النَّوعُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي أَفْسَدَ الشَّعْرَ مُنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَدِيمَ كَانَ فَسَادًا فِي الْأَلْفَاظِ يَجْعَلُهَا كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ الصَّنِيعَةِ ، وَالْحَدِيثُ جَاءَ فَسَادًا فِي الْمَعَانِي يَجْعَلُهَا كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ اللَّبْيَانِ .

وَيَزْعُمُ أَصْحَابُ هَذَا الشَّعْرِ أَنَّهُمْ فَلَاسِفَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ كَذَلِكَ فِي سَرَقَةِ الْفَلَاسِفَةِ لَا غَيْرَ ... وَلَوْ عَلِمُوا لَعَلِمُوا أَنَّ أَلْفَاظَ الشَّعْرِ هِيَ أَلْفَاظُ مِنَ الْكَلَامِ يَضَعُ الشَّعْرُ فِيهَا الْكَلَامَ وَالْمُوسِيقَى مَعًا فَتَخْرُجُ بِذَلِكَ مِنْ طَبِيعَةِ اللَّغَةِ الْعَامَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى بِالذَّلَالَةِ وَخَدَهَا إِلَى طَبِيعَةِ لُغَةٍ خَاصَّةٍ أَرْقَى مِنْهَا تُؤَدِّي الْمَعْنَى بِالذَّلَالَةِ وَالنَّعْمِ وَالذُّوقِ ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ فِي الشَّعْرِ تُجَنَّبُ لِمَعْنَاهَا مِنْ تَرْكِيْبِهِ ، ثُمَّ لِمَوْضِعِهَا مِنْ نَسْقِهِ ، ثُمَّ لِحَرْسِهَا فِي الْحَانِهِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ لِلْكَلِمَةِ لَوْنَهَا الْمَعْنَوِيَّ فِي جُمْلَةِ التَّصْوِيرِ بِالشَّعْرِ ؛ وَمَا يَمُرُّ الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ بِلَفْظَةٍ مِنَ اللَّغَةِ إِلَّا وَهِيَ كَأَنَّمَا تُكَلِّمُهُ تَقُولُ : دَعْنِي أَوْ خُذْنِي .

وَكَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلأَرْهَارِ مِنْ جَوِّ الْأَشْجَةِ ، كَذَلِكَ لَا بُدَّ لِلْمَعَانِي الشَّعْرِيَّةِ مِنْ جَوِّ اللَّغَةِ اللَّبْيَانِيَّةِ ، فَالْبَيَانُ إِذَا هُوَ أَشْعَةُ مَعَانِي الْقَصِيدَةِ ، وَقَدْ يَخْسِبُونَ أَنَّ الصَّنَاعَةَ اللَّبْيَانِيَّةَ صِنَاعَةٌ مُتَكَلِّفَةٌ لَا شَأْنَ لَهَا فِي جَمَالِ الشَّعْرِ وَدَقِّهِ التَّغْيِيرِ ، وَمَا نُنْكِرُ أَنَّ مِنَ اللَّبْيَانِ الْجَمِيلِ أَشْيَاءَ مُتَكَلِّفَةٌ ، وَلَكِنَّهَا تَنْزِلُ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ مِثْلَ كَمَثَرَةِ الظَّرْفِ وَالذَّلِّ وَالْخَلَاعَةِ فِي

الْحَبِيبَةِ الْجَمِيلَةِ .

إِنَّ هَذِهِ الثَّمُونُ لَيْسَتْ مِنْ جَمَالِ الْخَلْقَةِ وَالتَّرَكِيبِ فِي الْمَرَاةِ ، وَلَكِنَّهَا مَتَى ظَهَرَتْ فِي الْجَمَالِ الْفَاتِنِ أَصْبَحَ بِذُنُوبِهَا - وَهُوَ جَمِيلٌ دَائِمًا - كَأَنَّهُ غَيْرُ جَمِيلٍ أَحْيَانًا .

هَذَا صِنَاعَةٌ هِيَ رُوحُ الْحُسْنِ فِي الْحَيَاةِ ، وَصِنَاعَةٌ مِنْهَا هِيَ رُوحُ الْحُسْنِ أَحْيَانًا فِي الْبَلَاغَةِ<sup>(١)</sup> ، وَمَا التَّرَكِيبُ الْبَيِّنَاتِيَّةُ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الشَّعْرِ الْحَيِّ إِلَّا كَالْمَلَامِحِ وَالتَّقَاسِيمِ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الْجَمَالِ الْحَيِّ ، وَكَثِيرًا مَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ حِينَ أَتَمَلُّ بِلَاغَةَ اللَّفْظِ الرَّشِيقِ إِلَى جَانِبِ لَفْظٍ جَمِيلٍ فِي شِعْرِ مُحْكَمِ السَّبْكِ ، أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ كَحُبِّ رَجُلٍ مُتَأَنِّي يَتَقَرَّبُ مِنْ حُبِّ أَمْرَةٍ جَمِيلَةٍ ، وَعَظْفٍ أُمُومَةٍ عَلَى طُفُولَةٍ ؛ وَحَيْنِ عَاطِفَةٍ لِعَاطِفَةٍ ، إِلَى أَشْبَاهِ وَنَظَائِرٍ مِنْ هَذَا الشَّيْءِ الرَّقِيقِ الْحَسَّاسِ ؛ فَإِذَا قَرَأْتُ فِي شِعْرِ أَصْحَابِنَا أَوْلَيْكَ رَأَيْتُ مِنْ لَفْظٍ كَالشَّرْطِيِّ أَخَذَ بِتَلَايِبِ لَفْظٍ كَالْمُجْرِمِ ... إِلَى كَلِمَتَيْنِ هُمَا مَعًا كَالضَّارِبِ وَالْمَضْرُوبِ ... إِلَى هَمَجٍ وَرُعَاعٍ وَهَرْجٍ وَهَيْجٍ وَفَنَنَةٍ ؛ أَمَّا الْقَافِيَةُ فَكَثِيرًا مَا تَكُونُ فِي شِعْرِهِمْ لَفْظًا مُلَاحِظًا ... لَيْسَ أَمَامَهُ إِلَّا رَأْسُ الْقَارِي .

وَكَمَا يُهْمِلُونَ اخْتِيَارَ اللَّفْظِ وَالْقَافِيَةِ يَسْهَلُونَ فِي اخْتِيَارِ الْوُزْنِ الْمُتَلَامِ لِمُوسِيقِيَّةِ الْمَوْضُوعِ ، فَإِنَّ مِنَ الْأَوْزَانِ مَا يَسْتَمِرُّ فِي غَرَضٍ مِنَ الْمَعْنَى وَلَا يَسْتَمِرُّ فِي غَيْرِهِ ؛ كَمَا أَنَّ مِنَ الْقَوَافِي مَا يَطْرُدُ فِي مَوْضُوعٍ وَلَا يَطْرُدُ فِي سِوَاهُ ، وَإِنَّمَا الْوُزْنُ مِنَ الْكَلَامِ كَزِيَادَةِ اللَّحْنِ عَلَى الصَّوْتِ : يُرَادُ مِنْهُ إِضَافَةُ صِنَاعَةٍ مِنَ طَرَبِ النَّفْسِ إِلَى صِنَاعَةٍ مِنَ طَرَبِ الْفِكْرِ ، فَالَّذِينَ يُهْمِلُونَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يَذَرُكُونَ شَيْئًا مِنْ فَلَاسِفَةِ الشَّعْرِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُفْسِدُونَ أَقْوَى الطَّبِيعَتَيْنِ فِي صِنَاعَتِهِ ؛ إِذِ الْمَعْنَى قَدْ يَأْتِي نَثْرًا فَلَا يَنْقُصُهُ ذَلِكَ عَنِ الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْنَى ، بَلْ رُبَّمَا زَادَهُ الْكَثْرُ إِحْكَامًا وَتَفْصِيلًا وَقُوَّةً بِمَا يَنْهَيَا فِيهِ مِنَ التَّبَسُّطِ وَالشَّرْحِ وَالتَّسْلُسِ ، وَلَكِنَّهُ فِي الشَّعْرِ يَأْتِي غِنَاءٌ ، وَهَذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُهُ الْكَثْرُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ .

فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الشَّاعِرُ أَنْ يَأْتِيَ فِي نَظْمِهِ بِالرَّوِيِّ الْمُتَوَقِّعِ وَالتَّسْجِ الْمُتَلَامِ وَالْحَبْكِ

(١) لَنَا كَلَامٌ طَوِيلٌ فِي فَلَاسِفَةِ الْأَشْلُوبِ الْبَيِّنَاتِيَّةِ سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي كِتَابِنَا الْجَدِيدِ «أَسْرَارُ الْإِعْجَابِ» .  
( قُلْتُ : وَاقْرَأْ حَدِيثَنَا عَنْ «أَسْرَارِ الْإِعْجَابِ» فِي كِتَابِ «حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ» ) .

الْمُسْتَوِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ الْجَيِّدَةِ الَّتِي تَخْلُصُ إِلَى النَّفْسِ خُلُوصَ طَبِيعَةٍ إِلَى طَبِيعَةٍ تُمَارِجُهَا وَرَأَيْتُهُ يَأْتِي بِالشَّعْرِ الْجَانِبِيِّ الْغَلِيظِ وَالْأَلْفَافِ الْمُسْتَوْحَمَةِ الرَّدِيئَةِ وَالْقَافِيَةِ الْقَلِيلَةِ النَّافِرَةِ وَالْمَجَازَاتِ الْمُتَفَاوَةِ الْمُضْطَرِبَةِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ الْبَعِيدَةِ الْمَشْهُوخَةِ - فَأَعْلَمُ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّعْرِ وَأَبْتَلَاهُ مَعَ ذَلِكَ بِزِنَعِ الطَّبِيعَةِ وَسَرَفِ التَّقْلِيدِ ، فَمَا يَجِيءُ الشَّعْرُ عَلَى لِسَانِهِ فِي يَبْتِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَجِيءَ اللَّغْوُ عَلَى لِسَانِهِ فِي مَتْنٍ يَبْتِ أَكْثَرَ أَوْ أَقْلَ .

ذَلِكَ قَوْلُنَا فِي فَنِّ الشَّاعِرِ ؛ أَمَّا الْكَلَامُ فِي مَوْهَبِهِ الَّتِي بِهَا صَارَ شَاعِرًا وَعَلَى مِقْدَارِهَا يَكُونُ مِقْدَارُهُ وَأَنْصَالُ أَسْبَابِهِ أَوْ انْقِطَاعُهَا مِنَ الشَّعْرِ ، فَذَلِكَ بَابٌ لَا يُمَكِّنُ تَبَسُّطَ الْمَعْنَى فِيهِ وَلَا تَحْصِيلَ دَقَائِقِهِ إِلَّا إِذَا صُورَتْ رُوحُ الشَّاعِرِ فِي تَرْكِيبِهَا الدَّقِيقِ الْمُعْجِزِ وَوُزِنَتْ فِي مِيزَانِهَا الْإِلَهِيِّ وَعُرِفَ نَقْصُهَا إِنْ نَقَصَتْ وَتَمَامُهَا إِنْ تَمَّتْ ، وَامْتَكَنَ تَتَبُّعُ مَوَاقِعِهَا مِنْ أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ وَمَسَاقِطِهَا مِنْ مَنَازِلِ الْإِلَهَامِ ؛ وَهَذَا مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ النَّفْسِيِّ ، فَإِنَّ الْأَرْوَاحَ الْقَوِيَّةَ يَلْمَحُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَقَدْ تَكُونُ لَمَحَةُ الرُّوحِ الشَّاعِرَةِ لِرُوحٍ مِثْلِهَا هِيَ تَدَبَّرُهَا وَوُزَنَهَا وَإِذْرَاكَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ كَمَا تَرَى مِنْ وَضْعِ الثُّورِ بِإِزَاءِ الثُّورِ ، فَإِنَّ هَذَا الْوَضْعَ هُوَ نَفْسُهُ وَزَنَ لِكِلَيْهِمَا فِي مِيزَانِ الْبَصَرِ دُونَ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مُوَازَنَةٍ إِلَّا فِي التَّالِيِ وَالشَّعَاعِ ، فَهُمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ نُورَانِ يُضِيئَانِ ، وَلَكِنَّهُمَا أَيْضًا كَلِمَتَانِ يَبِينَانِ عَمَّا فِيهِمَا مِنَ الْأَكْثَرِ وَالْأَقْلَ .

لِهَذَا قُلْنَا : إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يَسْغُ لِتَقْدِيرِهِ وَلَا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ لَهُ رُوحٌ شِعْرِيَّةٌ تُكَافِئُهُ فِي وَزْنِهَا أَوْ تُرَبِّي عَلَى مِقْدَارِهِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ قُوَى رُوحِيَّةً لِإِذْرَاكِ الْجَمَالِ وَخَلْقِهِ فِي الْأَشْيَاءِ خَلْقًا هُوَ رُوحُ الشَّعْرِ وَرُوحُ فَنِّهِ ، وَقُوَى أُخْرَى لِصِلَةِ الْعَوَاطِفِ بِالْفِكْرِ صِلَةً هِيَ سِرُّ الشَّعْرِ وَسِرُّ فَنِّهِ ، وَقُوَى غَيْرِ هَذِهِ وَتِلْكَ لِتَحْوِيلِ مَا يُخَالِجُ النَّفْسَ الشَّاعِرَةَ تَحْوِيلَ الْمُبَالَغَةِ الَّتِي هِيَ قُوَّةُ الشَّعْرِ وَقُوَّةُ فَنِّهِ ، وَبِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْقُوَى كُلِّهَا تَمْتَارُ رُوحُ الشَّاعِرِ مِنْ غَيْرِ الشَّاعِرِ ؛ أَمَّا مَا تَمْتَارُ بِهِ هَذِهِ الرُّوحُ مِنْ رُوحِ شَاعِرَةٍ مِثْلِهَا فَهُوَ مَا يَكُونُ مِنْ تَقَاوُتِ الْمَقَادِيرِ الَّتِي يَهْبِهَا اللَّهُ وَحْدَهُ ، فَيَحْصُ شَاعِرًا بِالزِّيَادَةِ وَآخَرَ بِالنَّقْصِ ، وَيَهْبُ أَسْبَابُهَا الَّتِي تَكُونُ عَنْهَا فَيُوسِعُ لِوَاحِدٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى الْآخَرِ ؛ وَإِذَا تَمَّتْ تِلْكَ الْقُوَى وَاسْتَخْكَمَتْ نَهْيًا مِنْهَا لِلشَّاعِرِ

جَهَّازٌ عَصِيٌّ خَالِصٌ هُوَ جِهَّازُ التَّوَلِيدِ لَا يَمُرُّ بِهِ مَعْنَى إِلَّا تَجَسَّدَ فِيهِ بِصُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ .  
وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَقَالَتَا « سِرُّ التَّبَوُّعِ فِي الْأَدَبِ » وَهُوَ لَا غَيْرُهُ سِرُّ  
الْعَبَثِيَّةِ .

فَأَمَّا الطُّرُقُ فِي نَقْدِ مَوْهَبَةِ الشَّاعِرِ إِذْ رَأَيْنَاهَا بِالرُّوْحِ الشَّعْرِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ  
إِحْسَاسِهَا ، وَالتَّفَادُّ إِلَى بَصِيرَتِهَا ، وَاتِّبَانَهُ مَقَادِيرِ الْإِلْهَامِ فِيهَا ، وَتَأَمُّلُ أَثَارِهَا فِي الْجَمَالِ ،  
وَتَدَبُّرُ طَبِيعَتِهَا الْمُؤَسِّفِيَّةِ فِي الْحِسِّ وَالْفَهْمِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَتَبَيُّنُ قُدْرَتِهَا عَلَى الْفَرَحِ وَالْجُزْنِ  
بِأَشْجَى وَأَرْقَ مَا نَهْتَجُ فِي النَّفْسِ الْحَسَّاسَةِ ، وَمَعْرِفَةُ قُوَّةِ التَّخْوِيلِ فِي عَوَاطِفِهَا لِلْمَعَانِي  
الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ تَخْوِيلًا يَجْعَلُ الْقُوَّةَ أَقْوَى مِمَّا تَبْلُغُ ، وَالْحَقِيقَةَ أَكْبَرَ مِمَّا تَظْهَرُ ، وَتَأْتِي  
بِكُلِّ شَيْءٍ وَمَعَهُ شَيْءٌ ؛ وَلَيْسَ يَنْتَهِي التَّفَادُّ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْبَحْثِ فِي الْأَعْرَاضِ ، أَيْ :  
« الْمَوَاضِعِ » الَّتِي نَقَمَ فِيهَا الشَّاعِرُ وَمَا يَصِلُهُ بِهَا مِنْ أُمُورٍ عَيْشِهِ وَأَحْوَالِ زَمَانِهِ وَكَيْفَ  
تَنَالَهَا مِنْ نَاحِيَةٍ وَمِنْ نَاحِيَةٍ وَمَاذَا أَبْدَعَ ، ثُمَّ فِي أَيِّ الْمَنَازِلِ يَقَعُ شِعْرُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ فِي  
تَارِيخِ لُغَتِهِ وَآدَابِهَا ، ثُمَّ نَظَرُهُ الْفَلَسَفِيَّةَ إِلَى الْحَيَاةِ وَمَسَائِلِهَا ، وَاتِّسَاعُهُ لِأَفْرَاحِهَا وَآلَمِهَا ،  
وَقُوَّةُ أَمْوَاجِ الرُّوحِيَّةِ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْإِنْسَانِيِّ الرَّجَافِ الْمُتَضَرِّبِ الَّذِي يَتَبَلَّغُ فِي نَفُوسِ  
بَعْضِ الشُّعْرَاءِ أَنْ يَكُونَ كَالْأَفْيَانُوسِ وَفِي بَعْضِهَا أَنْ يَكُونَ كَالْمُسْتَنْفَعِ . . . ثُمَّ دَقَّةُ فَهْمِهِ عَنْ  
وَخِي الطَّبِيعَةِ ، وَالْإِشْرَافُ عَلَى جَلِيلَةِ مَعْنَاهَا بِالْهَمْسَةِ وَاللَّمْسَةِ ، وَتَسْقُطُ إِلْهَامُ الْغَيْبِ مِنْهَا  
بِالْإِيمَاءِ وَاللَّخْطَةِ ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَسْتَوْسِقُ لِلتَّفَادُّ الْعَظِيمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَ رُوحِ الشَّعْرِيَّةِ  
الَّتِي أَخْتَصَّ بِهَا ، مُحِيطًا بِأَثَارِ الشُّعْرَاءِ فِي لُغَتِهِ ، بِصَبْرٍ بِمَا خِذَهَا ، مُحْكِمًا لِأَسْبَابِ  
الْمُوَازَنَةِ بَيْنَهَا ، مُتَصَرِّفًا مَعَ ذَلِكَ بِأَدَاةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ اللَّغَةِ وَالْبَيَانِ وَتَوُونَ الْأَدَبِ .

وَإِذَا كَانَ مِنْ نَقْدِ الشَّعْرِ عِلْمٌ ، فَهُوَ عِلْمٌ تَشْرِيعِ الْأَفْكَارِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُ قَلْبٌ فَهُوَ قَلْبٌ  
دَرَسِ الْعَاطِفَةِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةُ إِظْهَارِ الْجَمَالِ الْبَيَانِيِّ فِي اللَّغَةِ . . .

\* \* \*

### فَيْلَسُوفٌ وَفَلَاسِفَةٌ . . . (\*)

أَتَأْمَلُ الْآنَ هَذَا الْقَلَمَ فِي يَدَيَّ - وَأَنَا أَفَكِّرُ فِيمَا سَأَكْتُبُهُ لِلزُّهْرَاءِ - فَأَرَى نَصَابَ الْقَلَمِ  
أَضْلَاعًا حُمْرًا فِي لَوْنِ الْمَرْجَانِ ، تَنْسِرُحُ قَلِيلًا ، ثُمَّ تَسْتَدِيرُ ، ثُمَّ تَسْتَدِيقُ ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا  
قَادِمَةٌ سَوْدَاءُ كَأَنَّهَا قَصَبَةٌ رِيَشَةٌ مِنْ جَنَاحِ ، وَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ الْأَحْمَرَ الْمَرْهُوَّ  
يَقُولُ لِلْأَسْوَدِ : إِنَّمَا أَنْتَ غَلَطَةُ الَّذِي صَنَعَنِي ، فَكَيْفَ أَلْهَمَ فِيَّ هَذَا الْإِلْهَامَ ؟ فَوَسَمَنِي  
بِهَذَا الْمَيْسَمِ مِنْ حُسْنِ وَلَوْنٍ وَتَرْكِيبٍ ، ثُمَّ اغْتَرَضْتُهُ الْغَفْلَةُ فَبَكَتُ فَخَطَأًا ، وَأَذْرَكَ الْعَجْزُ  
فَلَمْ يُمَيِّرْ ، وَدَخَلَ عَلَى رَأْيِهِ الْوَهْنُ فَإِذَا هُوَ يَصِلُكَ بِنِ كَالسَّيِّئَةِ بَعْدَ الْحَسَنَةِ ، وَيُزِيلُكَ مِثْلَ  
مَنْزِلَةِ الْقُنْبِجِ مِنَ الْجَمَالِ ! فَأَيْنَ كَانَتْ صِحَّةُ رَأْيِهِ الَّتِي بَلَغَ بِهَا فِي أَحْسَنِ مَا وَفَّقَ إِلَيْهِ جِئْنَ بَلَغَ  
فِيكَ أَسْوَأَ مَا يُنْكِرُ أَنْ يَصْنَعَ ؟ فَيَقُولُ الْأَسْوَدُ : إِنَّمَا فِيكَ أَنْتَ غَلَطَةُ الصَّانِعِ وَبَكَتُ أَخْطَأَ  
جِهَةً الْفَنِّ ، فَلَمْ يَزِنْ مِنْكَ مَا كَانَ وَزَنَ مِثْلِي ، وَلَا قَدَّرَ لَكَ مِثْلَ مَا قَدَّرَ لِي ، وَجِئْتَ غَلِيظًا  
غَيْرَ مَقْدُودٍ ، وَكُنْتَ إِلَى الْعَرَضِ وَلَمْ تَكُنْ إِلَى الطُّوْلِ ، وَكُنْتَ أَحْمَرَ وَلَمْ تَكُنْ أَسْوَدَ ، وَمَا  
أَرَاكَ إِلَّا فَاسِدَ الْحِسِّ ، مُتَغَيِّرَ الذُّوقِ ، وَمَا أَرَاكَ صَنَعَكَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَّا فِي سَاعَةٍ هُمْ  
قَارَبَتْ بَيْنَ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ ، فَمَارَجَتْ بَيْنَ رَأْيِهِ وَعَمَلِهِ ، فَجَمَعَتْ بَيْنَ عَمَلِهِ وَغَلَطِهِ .

ذَلِكَ مَنْطِقُ اللَّوْنَيْنِ فِيمَا أَدْرَكَتْ مِنْهُمَا ، وَكِلَاهُمَا مُخْطِئٌ فِي جِهَةٍ مَا هُوَ مُسْتَدِيرٌ بِهِ أَوْ  
مُنْتَظَرٌ فِيهِ ، وَالْحَقِيقَةُ مِنْ وَرَائِهِمَا ، إِذِ الْحِكْمَةُ لَيْسَتْ فِي أَحَدِهِمَا لِحُمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ ، بَلْ  
هِيَ فِي أُنْتَبِهَاتِهِمَا جَمِيعًا لِاتِّتِلَافِهِمَا جَمِيعًا ، فَلَا تَنْقَسِمُ عَلَيْهِمَا قِسْمَةٌ مَا ، لِأَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْهُمَا  
بِالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ أُنْتَبِهَاتِهِمَا ، وَمَا لَا يَخْرُجُ أَبَدًا إِلَّا مِنْ أُنْتَبِهَاتِهِمَا فَهُوَ أَبَدًا وَاحِدٌ لَا نِصْفَ لَهُ ؛ كَالطُّفْلِ  
مِنْ أَبَوَيْهِ : لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أُمِّهِ لِأَنَّكَ لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أَبِيهِ .

أَفِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْسِمَ طِفْلًا وَاحِدًا فَيَجْعَلَهُ طِفْلَيْنِ تَعْتَدِلُ بِهِمَا الْحَيَاةُ  
وَتَمُدُّهُمَا بِرُوحَيْنِ مِنْ رُوحٍ وَاحِدَةٍ ؟ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ هَذَا الْخَالِقَ الْأَرْضِيَّ . . . إِلَّا فِي  
طَائِفَتَيْنِ : الْأُولَى قَوْمٌ مِنْ ذَاهِبِي الْعُقُولِ يَخْلُقُونَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ، وَالثَّانِيَّةُ

قَوْمٌ مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ ... عِنْدَنَا تَعْرِفُ لَهُمْ مِنَ الْخَلْقِ وَخُفِ الرَّأْيِ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يَغْلَوْا بِهِ عَلَى النَّاسِ ، إِذْ كَانَ النَّاسُ لَا يُجَاوِزُونَ الْحَقَائِقَ ، فَظَنُّ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ إِنْ جَاوَزُوهَا وَعَدَوْا عَلَيْهَا خَرَجُوا إِلَى طَبَقَةٍ فَوْقَ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ . وَلِلْجُنُونِ طَرَفَانِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَلَّا يَفْعَلَ الْمَجْنُونُ عَنِ النَّاسِ ، وَالْآخَرُ : أَلَّا يَفْعَلَ النَّاسُ عَنِ الْعَاقِلِ ، فَذَلِكَ ذَلِكَ وَهَذَا هَذَا ، وَكَأَنَّ فِي رَأْسِ كُلِّ مِنْهُمَا مُضْمَرَةٌ مِنْ قُوَّةِ الْخَلْقِ تَنْطَوِي عَلَى مَخْجُوذَةِ إِلَهِيَّةٍ ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا فَوْقَ الطَّبِيعَةِ لِأَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْأَسْرَارِ الْمَجْهُولَةِ الَّتِي لَا تَسْتَبِينُ عِنْدَنَا مِنْ خَفَائِهَا ، ثُمَّ لَا تَخْفَى عَنْهُمْ مِنْ أَسْتَبَانَتِهَا .

يُضْحِكُنِي مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الدِّينَ مَرَّةً عَادَةً ، وَتَارَةً أُخْرَاعًا ، وَحِينَئِذٍ خَرَفَةٌ ، وَطَوْرًا اسْتِعْبَادًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَهُمْ رَأْيٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ بِالْحُجَّةِ وَيَشُدُّونَهُ بِالذَّلِيلِ ، فَلَمَّا جَاءَ طَاغُورُ الشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ الْمُتَصَوِّفِ إِلَى مِصْرَ ، وَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَسَمِعُوهُ ، خَرَجُوا يَتَكَلَّمُونَ كَأَنَّمَا كَانُوا فِي مَعْبَدٍ ، وَكَأَنَّمَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ حَقِيقَتُهُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَكَأَنَّمَا اتَّصَعَّتْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي جَلَسَ فِيهِ الرَّجُلُ ، فَلَا يَعْرِفُونَهُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، بَلْ كَانُوا فِي غَشِيَةٍ قَدْ فَرُّوا لَهَا وَسَكَنُوا إِلَيْهَا ، وَمَا أَرَاهُمْ صُرُفُوا عَنْ عُقُولِهِمْ وَلَا صُرِفَتْ عُقُولُهُمْ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّ طَاغُورَ شَاعِرٍ فَيَلْسُوفٍ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ لُصُوصِ كُتُبِهِ وَأَرَائِهِ ، وَيَقَعُونَ مِنْهُ مَوْقِعَ السَّفْسَظَةِ الْفَارِغَةِ مِنَ الْبُرْهَانِ الْقَائِمِ ، وَإِذَا قِينَسُوا إِلَيْهِ كَانُوا كَالذَّبَابِ تَزْعُمُ أَنْفُسَهَا نُسُورَ الْمَرَابِلِ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَكَابِرُ فِي أَنَّ مِنَ الْهُرُوفِ بِهَا قِيَاسُهَا بِنُسُورِ الْجَوْ .

لَقَدْ ضَرَبَهُمْ طَاغُورٌ ، لَا بِأَنَّهُ لَمَسَهُمْ ، بَلْ بِأَنَّهُ لَمَسُوهُ ... وَفَضَحَهُمْ فَضِيحَةَ اللُّؤْلُؤَةِ لِلزُّجَاجِ الْمُدْعِيِّ أَنَّهُ لَوْلُو ، وَأَظْهَرَ لَنَا تَجَمُّلَهُمُ الْعَقْلِيَّ كَهَلْدِهِ الْأَصْبَاحِ فِي وَجْهِ الشَّوْهَاءِ : تَذَهَّبَ تَتَصَعَّعَ وَلَا تَذَرِي أَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أَذْهَانِهَا وَأَصْبَاحِهَا رُوحُ الْقَنَاسِ ، فَيَنِي وَجْهَهَا هِيَ مَعْنَى الْحَاطِطِ .

لَقَدْ قَرَأْتُ كُلَّ مَا كَتَبُوا عَنْ طَاغُورِ التَّمِيسُ فِيهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ لِأَرَى كَيْفَ يَكُونُ جَبَابِرَةُ الْعُقُولِ حِينَ تَنْكَشِفُ عَنْهُمْ الْمَعَادِيرُ وَتَنْزَاحُ الْعِلَلُ وَتُتْهِكُ الْأَسْتَارُ ، فَإِذَا هُمْ فِي كُلِّ

مَا كَتَبُوهُ لَا يُحْسُونَ إِلَّا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ، وَلَا يَصِفُونَ إِلَّا هَذَا الْحِسَّ ، فَلَمْ يُخْرِجْهُمْ عِنْدَنَا إِلَّا هَذَا الْوَضْفُ ، لَا جَرَمَ فَكُلُّ مَا أَتَيْنَا بِهِ عَلَى الشَّاعِرِ الْفَيَلْسُوفِ قَرَأْنَاهُ ذَمًّا لَهُمْ ، وَعَرَفْنَاهُ قَدْحًا فِيهِمْ ، وَأَخَذْنَاهُ تَهْمَةً عَلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مَا أَعْظَمُوا مِنْ أَمْرِهِ صَغَرَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَلَقَدْ جَعَلُوهُ إِنْسَانًا كَأَنَّمَا تَنْتَهِي قِمَّةُ هَذِهِ الدُّنْيَا عِنْدَ قَدَمِهِ ، وَتَبْدَأُ قَدَمُهُ مِنْ قِمَّةِ الدُّنْيَا ، فَمَا عَرَفْنَا مِنْ ذَلِكَ قِيَاسًا لِسُوءِ طَاغُورٍ وَارْتِفَاعِ نَفْسِهِ ، بَلْ قِيَاسًا لَانْحِطَاطِ أَنْفُسِهِمْ وَهَوَانِ أَمْرِهِمْ وَقِلَّةِ خَطَرِهِمْ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُقَلَّدَ الْمَخْدُوعَ لَا يَرَالُ يَطُولُ فِي تَقْلِيدِهِ وَلَا يَرَالُ يَتَوَعَّرُ فِي الرَّأْيِ الَّذِي يَرَاهُ وَيَعْتَسِفُ طُرُقَ الْعِلْمِ اعْتِسَافًا ، حَتَّى يَزِمِيهِ اللَّهُ بِأَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصُولِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُقَلِّدُهَا ، فَإِذَا هُوَ مُفْخَمٌ يَتَقَاصَّرُ مِنْ طُولٍ ، وَيَسْتَهْلُ مِنْ وَغَرٍ ، وَيَهْتَدِي مِنْ تَعَسُّفٍ ، وَيَنْحَطُّ إِلَى الْوَهْدَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَى الْجَبَلِ ، وَيُسَلِّمُ فِي نَفْسِهِ ، وَيُذْعِنُ بِرَأْيِهِ ، وَيَنْفَادُ مِنْ حَيْثُ يَأْتِي وَمِنْ حَيْثُ لَا يَأْتِي ، وَيُضْبِحُ وَقَدْ عَمَرَتْهُ يَلْكُ النَّفْسِ أَشْبَهُ بِالظَّلِّ مِمَّا يَزِمِيهِ وَيَفِيءُ بِهِ ، فَهُوَ مَسْخٌ فِي تَمَثُّلِهِ الصُّورَةِ ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَيْهَا بِمَا يَطُولُ وَيَقْصُرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِ إِنْهَامٌ سَخِيفٌ مُظْلِمٌ لِحَقِيقَةِ شَرِيفَةِ نَبَرَةٍ .

وَأَنْتَ أَفَلَا تَرَى هَذَا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ كَتَلِكَ الشَّيْمَةِ فِي أَخْلَاقِ الْعَامَّةِ ، إِذْ لَا يَصْلُحُونَ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا ، وَلَا عِلْمَ لَهُمْ إِلَّا مَا يَرْبُطُ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ ، ثُمَّ يَعْمَلُونَ بِلاَ تَحْقِيقٍ . وَيَخْمِلُونَ بِلاَ تَمَيُّزٍ ، ثُمَّ لَا تَكُونُ تَهْمَةُ أَنْفُسِهِمْ مَعَ الرَّجُلِ الْعَالِمِ - إِذَا اجْتَمَعُوا بِهِ - إِلَّا فِي التَّسْلِيمِ لَهُ ، وَاتِّقَاءِ حَقَائِقِهِ ، وَالتَّزَوُّلِ عَنْ آرَائِهِمْ إِلَى رَأْيِهِ ، وَالْخُرُوجِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ إِلَى نَفْسِهِ !

لَقَدْ قُلْنَا مِنْ قَبْلُ : إِنَّ جَبَابِرَةَ الْعُقُولِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْبُونَ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءًا وَسَادَتَنَا لِيُصَرِّفُوا عُقُولَنَا وَيُعَيِّرُوا عَقَائِدَنَا وَيُصْلِحُوا آدَابَنَا وَيُدْخِلُونَا فِي مَسَاحِطِ اللَّهِ وَيَهْجُمُوا بِنَا عَلَى مَحَارِمِهِ وَيُرْكَبُونَ مَعَاصِيهِ - إِنْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ إِلَّا عَامَّةٌ وَجْهَلَةٌ وَحَمَقَى إِذَا وَزِنُوا بِعُلَمَاءِ الْأُمَمِ وَقِينَسُوا إِلَى حُكَمَاءِ الدُّنْيَا ، وَمَا يَكْتُمُونَ لِلْأُمَّةِ فِي نَصِيحَتِهَا وَتَعْلِيمِهَا إِلَّا مَا يَتَحَوَّلُ مِنْ كَلِمَاتٍ وَجَمَلٍ فِي الصُّحُفِ وَالْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَصِيرُوا فِي الْوَقَاعِ فُسَاقًا وَفَجَرَةً وَمُلْجِدِينَ وَسَاخِرِينَ وَمُفْسِدِينَ ؛ فَالْمُصْنِئَةُ فِيهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ الْعِلْمِ النَّاقِصِ فِي وَزْنِ الْمُصْنِئَةِ بِهِمْ مِنْ

نَاحِيَةِ الْخُلُقِ الْفَاسِدِ ، وَهَاتَانِ مَعًا فِي وَزْنِ الْمَصِيبَةِ الْكُبْرَى الَّتِي يَجْنُونَ بِهَا عَلَى الْأَمَةِ لِتَهْدِيئِهَا فِيمَا يَعْمَلُونَ ، وَتَجْدِيدِهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ ...

لَمْ أَنْخِذْ قَطُّ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ فَلَاسِفَةٍ أَوْ دَكَاتِرَةٍ أَوْ جَبَابِرَةٍ ، وَلَسْتُ أَضْعُ أَمْرَهُمْ إِلَّا عَلَى حَقِّهِ ، فَإِنِّي لَأَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ مِنْ قَبِيلَةِ الْأَسَدِ ، وَلَكِنَّ أَسَدِيَّتَهُ عَلَى الْفَارِسَةِ وَخَدَهَا ... وَلَعَلَّمْ عَاقِبَتَهُ الْجَهْلُ خَيْرٌ لِلْأَمَةِ مِنْ عَوَاقِبِ عِلْمِهِمْ وَتَخَبُّطِهِمْ وَحِمَاقَاتِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ مُقْلِدُونَ ، وَلَهُمْ طِبَاعٌ مُتَعَلَّةٌ زَائِغَةٌ ، وَعُقُولٌ لَا مِسَاكَ لَهَا مِنْ دِينٍ أَوْ ضَمِيرٍ ؛ فَمَا يَجْنَحُونَ إِلَّا إِلَى بَذْعَةِ سَيِّئَةٍ ، أَوْ آفَةٍ مَخْذُورَةٍ ، أَوْ فِكْرَةٍ مُتَّهَمَةٍ ؛ وَلَا يَعْمَلُونَ إِلَّا مَا يُشْبِهُ الظَّنَّ بِهِمْ ، وَالزَّأْيَ فِيهِمْ ؛ مِنْ تَمْدِيدِ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ وَالْحَاقِفَا بِالْعِلْمِ أَوْ الْفَلَسَفَةِ ، مَعَ بَقَاءِ الْعَقْلِ نَاضِجًا صَحِيحًا يَحْكُمُ عَلَى هَذَا الْخَبِيثِ كَمَا كَانَ يَحْكُمُ عَلَى ذَلِكَ الطَّيِّبِ ؛ وَلَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى هَذَا إِلَّا مِنْ جِهَةٍ تَحْوِيلِ الْأَخْلَاقِ ، فَإِنْ هِيَ اسْتَمْسَكَتْ وَلَمْ تَتَحَوَّلْ فَهِيَ هُنَا مَوْضِعُ التَّرَاعِ وَمَحَلُّ الْخِلَافِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ حَرْبٍ مِثْلَ حَرْبِ الْأَسْتِقْلَالِ ، ثُمَّ حَرْبٍ مِنْهُمْ كَحَرْبِ الْأَسْتِعْمَارِ ...

فَالَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لَيْسَ الْقَدِيمَ وَالْجَدِيدَ ، وَلَا التَّأَخَّرَ وَالْتِقَادَ ، وَلَا الْجُمُودَ وَالتَّحَوُّلَ ؛ وَلَكِنَّ أَخْلَاقَنَا وَتَجَرُّدَهُمْ مِنْهَا ، وَدِينَنَا وَالْحَادِثُ فِيهِ ، وَكَمَالَنَا وَنَقْصَهُمْ ، وَتَوَثُّقَنَا وَانْحِلَالَهُمْ ، وَاعْتِصَامَنَا بِمَا يُمْكِنُنَا وَتَرَاخِيَهُمْ تَرَاخِي الْحَبْلِ لَا يَجِدُ مَا يَشُدُّهُ .

وَالآنَ أَنْظُرُ إِلَى قَلَمِي فَأَرَى شَطْرَهُ الْأَسْوَدَ مَا جُعِلَ كَذَلِكَ إِلَّا لِيَرِيدَ فِي جَمَالِ حُمْرَتِهِ وَبَرَقِيقِهَا ، وَيُكْسِبَهَا لَمَعَةً لَا تَأْتِيهَا إِلَّا مِنَ السَّوَادِ خَاصَّةً ؛ وَالشَّرُّ خَيْرٌ إِذَا بَقِيَ مَخْضُورًا فِي مَوْضِعِهِ وَلَمْ يَتَجَاوِزْهُ ؛ فَإِذَا تَنَبَّهَتِ الْأَمَةُ لِجَبَابِرَةِ الْعُقُولِ هَؤُلَاءِ ، قُلْنَا : لَا بَأْسَ بِالسَّوَادِ الْمُظْلِمِ إِذَا كَانَتْ حِكْمَتُهُ حُمْرَاءَ ...

\* \* \*

### شَيْطَانِي وَشَيْطَانُ طَاغُورَ . . . (\*)

طَاغُورُ هَذَا شَاعِرُ الْهِنْدِ ، مَرَّ بِمَضَرٍ مُرُورٍ شَمْسِ الشَّتَاءِ بِالْيَوْمِ الْمَطِيرِ : لَا يَبْقَعُ نُورُهَا إِلَّا فِي الْقُلُوبِ مِمَّا تَسْتَحِفُّ وَتَسْتَهْوِي ، وَمِمَّا تَمْتَنِعُ وَتَتَأَنَّى ، وَمِمَّا تَرْتُقُ وَتَلْطَفُ ؛ وَتَقْدَحُ بَيْنَ الشُّعْبِ الْهَامِيَةِ فَإِذَا لَهَا مِنَ الْجَمَالِ وَالسَّخَرِ وَالْعَجَبِ مَا يَكُونُ لِحُمْرَةِ تَخْرِجِهَا السَّمَاءُ مُعْجَزَةً لِلنَّاسِ فَيَرُونَهَا تُرْسِلُ الشُّعَاعَ مَرَّةً وَتُنْطِرُ الْمَاءَ مَرَّةً .

لَمْ أَلْقَ طَاغُورَ وَلَكِنِّي أَنْفَذْتُ إِلَيْهِ شَيْطَانِي ، وَقُلْتُ أَوْصِيهِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ لَوَجْهِهِ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هِنْدِيٌّ ، وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ ؛ فَمَا أَرْضُ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَرْضٍ ؛ وَأَنَّهُ شَاعِرٌ ، وَلَكِنَّهُ مَخْلُوقٌ ، فَمَا طَبِيعَةٌ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيعَةٍ ؛ وَأَنَّهُ حَكِيمٌ ، وَلَكِنَّهُ تَرْكِبٌ مَا جُبِلَتْ لَهُ طَبِيعَةُ غَيْرِ الطَّبِيعَةِ ؛ وَأَنَّهُ سَمَآوِيٌّ ، غَيْرَ أَنَّهُ سَمَآوِيٌّ كَعُلَمَاءِ الْفَلَكَ . سَمَآؤُهُ فِي مَنْظَارِ وَكِتَابٍ وَقَلَمٍ وَجَبَرٍ . . . فَادْهَبْ إِلَيْهِ فَدَاخِلْ شَيْطَانُهُ ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا لِكُلِّ الشُّعْرَاءِ ، وَرَبِّمَا عَرَفْتَ شَيْطَانَهُ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِكَ أَوْ خَالِصَةِ أَهْلِكَ ، ثُمَّ أَتْنِي بِكَلَامِهِ عَلَى جِهَةٍ مَا هُوَ مُفَكِّرٌ فِيهِ ، لَا عَلَى جِهَةٍ مَا هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِهِ ؛ وَخُذْ مَا يَنْهَجِسُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَدَعْ مَا يَجْرِي فِي لِسَانِهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا سَيِّئَانِي بِهِ إِخْوَانُكَ مِنْ « مَنُذُوبِي الصُّحُفِ » . . . وَأَعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَكِيمٍ مُهَيَّئٌ لِمَسَائِلَ مَنْ حَوْلَهُ كَلَامًا ، غَيْرَ أَنَّ مَعَايِي مَنْ حَوْلَهُ مُهَيَّئَةٌ لَهُ لِمَسَائِلَ أُخْرَى يُفَكِّرُ فِي كُلِّ جَوَابٍ عَلَيْهَا وَلَا يَنْطِقُ بِجَوَابٍ عَلَيْهَا .

\* \* \*

فَحَدَّثَنِي شَيْطَانِي بِمَدِّ رُجُوعِهِ قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : لَمَّا هَبَطَ طَاغُورُ هَذَا الْوَادِي نَظَرَ نَظْرَةً فِي الشَّمْسِ ثُمَّ قَالَ : أَنْتَ هُنَا وَأَنْتَ هُنَاكَ ، تَقْرُبِينَ بَأَثَرٍ وَتَبْعِدِينَ بَأَثَرٍ ، وَتُظْلَعِينَ بِجَوٍّ وَتَغْرِبِينَ بِجَوٍّ ، فَلَا تَخْتَلِفِينَ وَتَخْتَلِفُ بِكَ الْأَقَالِيمُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأَقَالِيمِ الْأُمَمُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأُمَمِ الْأَفْكَارُ وَالْمَنَازِعُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأَفْكَارِ وَالْمَنَازِعِ أَغْرَاضُهَا

وَمَصَالِحُهَا ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِمَصَالِحِهَا وَأَعْرَاضِهَا الْحَقَائِقُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَإِنَّمَا الْبَاطِلُ وَالْحَقُّ فِيمَا تَسْتَقْبِلُ هَذِهِ الْحَقَائِقُ أَوْ تَسْتَدْبِرُ ؛ وَقَدْ غَلَبَتِ السِّيَاسَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الْإِنْسَانِيَّةُ جُغْرَافِيَّةً ، لَهَا شُعُوبٌ وَلَهَا مُسْتَعْمَرَاتٌ ، فَأِلَاحَاءٌ فِي الْعَرْبِ سِيَادَةٌ فِي الشَّرْقِ ، وَالْمُسَاوَاةُ هُنَاكَ أَمْتِيَارٌ هُنَا ، وَالْحُرِّيَّةُ فِي مَمْلَكَةٍ اسْتِعْبَادٌ لِمَمْلَكَةٍ ، وَالنَّجِيَّةُ فِي مَوْضِعٍ صَفْعَةٌ فِي مَوْضِعٍ ، وَالضَّيَافَةُ فِي مَكَانٍ اسْتِثْكَالٌ فِي مَكَانٍ ، ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ﴾ [١١] سوره هود/ الآيات : ١١٨ ، ١١٩ : فَلَنْ يَتَّصِلَ النَّاسُ بِالرُّوحِ الْأَعْلَى إِلَّا مِنْ الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي لَمْ تَتَغَيَّرْ وَلَنْ تَتَغَيَّرَ فِيهِمْ ، جِهَةُ الدُّمُوعِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي أَسْوَدَ وَلَا أَحْمَرَ ، وَالَّتِي لَا تَنْبَعُ إِلَّا مِنَ الرَّقَّةِ وَالْوَجْدِ وَالْأَخْزَانِ وَالْآلَامِ ، وَهِيَ بِذَلِكَ نَسَبٌ كُلُّ قَلْبٍ إِلَى كُلِّ قَلْبٍ ، فَلَوْ غَمَرَ الْعَالَمُ كُلَّهُ بِلَاءٌ وَاحِدٌ لَا تَخْرُجُ مِنْهُ أَرْضٌ أَهْلُهَا وَلَا تَتَحَاجَزُ الْأُمَمُ فِيهِ ، لَا سَتَلَبَ مَطَامِعِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَأَرْجَعَ الْإِنْسَانِيَّةَ الرَّائِغَةَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ، فَتَجَرَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَاتَّصَلُوا بِاللَّانِهَايَةِ وَهُمْ فِي الْآلِهَائِيَّةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِلَاءٌ عَامٌّ فَفَكَرْ عَامٌّ فِي بِلَاءٍ يُبْمِثُ الشَّهَوَاتِ الْمُتَطَلِّعَةَ ، وَيَكُونُ كَالِدَاءِ تَلَبَّسَ بِالْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ كَالَّذِي تَصِفُهُ الْأَدْيَانُ مِنْ جَهَنَّمَ وَالْمَصِيرِ إِلَيْهَا وَالْحِسَابِ عِنْدَهَا وَالْجَزَاءِ عَلَى الشَّرِّ بِهَا ، حَتَّى لَا يَبْقَى نَفْسٌ إِلَّا وَهِيَ فِي وَثَاقٍ مِنْ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا ، وَلَا يَبْقَى شَرٌّ يُتَخَيَّلُ أَوْ يُسْتَهَيَّ إِلَّا وَهُوَ كَالْمَتَاعِ الْقَفِيسِ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُذُرَانِ تَسَاقَطَ وَتَخَرَّقَ لَا يَجِدُ فِي كُلِّ اللَّصُوصِ لِصًّا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ فَالْحُبُّ الْعَامُّ حَتَّى لَا يَبْقَى جِنْسٌ وَلَا سِلَاحٌ وَلَا سِيَاسَةٌ وَلَا دَوْلٌ ، وَلَا تَكُونُ الْمَمَالِكُ إِلَّا بَيُوتًا إِنْسَانِيَّةً بَيْنَ الْوَاحِدَةِ وَالْكُلِّ مِنَ الشَّابِكَةِ وَاللُّخْمَةِ مَا بَيْنَ الْكُلِّ وَالْوَاحِدَةِ ، وَحَتَّى تَقُولَ مِصْرُ لِإِنْكِلَاةٍ : يَا بِنْتَ عَمِّي ! .. فَإِنْ اسْتَحَالَ كُلُّ هَذَا فَالْحُرِّيَّةُ الْعَامَّةُ عَلَى أَنْ تَكُونَ مَخْدُودَةً مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا بِالشَّعْرِ ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ الشَّعْرُ مَخْدُودًا بِالطَّبِيعَةِ ، وَالطَّبِيعَةُ مَخْدُودَةٌ بِاللَّهِ ، فَيَنْتَرِعُ النَّوْمُ مِنَ الْأَرْضِ لِتَتَّصِلَ أَلْفَظَةُ بِالْحُلُمِ ... مِنْ طَرَفَيْ غَيْرِ النَّوْمِ .

قَالَ شَيْطَانُ طَاغُورَ : ... ثُمَّ ابْتَأَسَ طَاغُورُ وَقَالَ : كُلُّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ أَوْ كَالْمُسْتَحِيلِ ، وَلَكِنَّهُ فِي الْأَمَلِ مُمَكِّنٌ أَوْ كَالْمُمَكِّنِ ؛ وَلِلْفِظِ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا مَا يَكُونُ ، وَالثَّانِي مَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ، ذَلِكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ جَانِبُ النِّظَامِ الْإِلَهِيِّ ، وَهَذَا لَا بُدَّ

لَنَا مِنْهُ لِأَنَّهُ جَانِبُ الْخَيَالِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ وَذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَعْمَلُ وَلَا تَتَكَلَّمُ ، وَهَذَا مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ وَلَا يَعْمَلُ . أَوْ آه ! إِنَّمَا السَّلَامُ الْعَامُّ أَنْ يَكُونَ الْوُجُودُ شَرِكَةً لِلْهَيْئَةِ إِنْسَانِيَّةً بِرِضَا وَاتِّفَاقٍ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ... وَلَعَمْرِي إِنَّ كُلَّ الْمُسْتَحِيلَاتِ مُمَكِّنَةٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى هَذَا الْمُسْتَحِيلِ .

ثُمَّ تَبَسَّمَ طَاغُورُ إِذْ خَطَرَ لَهُ أَنَّهُ شَاعِرٌ عَلَيْهِ أَنْ يَصِفَ الْوَرْدَةَ وَيَقُولَ فِيهَا مَا يَجْعَلُهَا بَيْتَ شِعْرِ فِي كِتَابِ الطَّبِيعَةِ لَهُ وَزْنَ وَنَعَمَ ، وَلَكِنْ عَلَى الطَّبِيعَةِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ تُنْبِتَهَا نَاصِرَةً عَطِرَةً جَمِيلَةً تَمَيِّزُ مِنْ غَيْرِهَا بِرَائِحَةٍ وَلَوْنٍ وَشَكْلِ .

قَالَ شَيْطَانُهُ : وَلَمَّا أَنْتَهَى مِنْ تَأَمُّلِهِ إِلَى هَذِهِ الْخَاطِرَةِ قَدَّمَتْ لَهُ سَيِّدَةُ هِنْدِيَّةٌ عَقُودَ الزَّهْرِ ، وَبَيْنَا هِيَ تُقَلِّدُهُ إِثَّامًا قَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ هَذِهِ الْأَزْهَارَ مِنْ مَعَانِي الْمَاءِ الْعَذْبِ ؛ فَإِذَا انْطَلَقْنَا فِي أَوْهَامِنَا وَرَاءَ الْحُبِّ الْعَامِّ وَالسَّلَامِ الْعَامِّ فَلِمَنْ تَكُونُ مَعَانِي الْمَاءِ الْمِلْحِ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ وَمِنْ أَزْهَارِهِ الْأَسْطُولُ الْإِنْكِلَاوِي ...

\* \* \*

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : وَلَمَّا اسْتَقَرَّ طَاغُورُ فِي قَصْرِ شَوْقِي بِكَ وَرَأَاهُ فِي مِثْلِ حُسْنِ الدِّينَارِ وَنَفْسِهِ وَنَفَاسِهِ ، قَالَ : لَا جَرَمَ هَذِهِ أُمَّةٌ أَغْنَتْ شَاعِرَهَا ، فَمَا أُخْطِئُ التَّقْدِيرُ ، وَإِنْ أُخْطِئَتْ فَلَا أَبْعُدُ عَنِ الْمُقَارَنَةِ إِذَا حَسِبْتَ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ يَطْبَعُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ نِصْفَ مِلْيُونِ نَسْخَةٍ مِنْ كُلِّ دِيْوَانِ شِعْرِ أَوْ دَقْرِ حِكْمَةٍ أَوْ كِتَابِ قِصَّةٍ ، وَلَيِّنِي أَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ لِأَعْرِفَ كَيْفَ يُبْدِعُ هَذَا الشَّعْبُ فَلَسَفَتُهُ فِي أَغَانِيهِ الْمُتَّصِلَةِ بِغُيُومِ السَّمَاءِ الْمُمَكِّلِ بِأَحْسَنِ وَأَظْهَرَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَرْجَمَةً لِلْحَقِيقَةِ الْخَالِدَةِ الَّتِي يَتَوَارَثُهَا شَعْبٌ خَالِدٌ .

الشَّعْرُ فِكْرَةُ الْوُجُودِ فِي الْإِنْسَانِ ، وَفِكْرَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْوُجُودِ ، وَلَا يَكْفِي أَنْ يُخْلَقَ هَذَا الْإِنْسَانُ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُخْلَقَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ مَعَانٍ وَالْأَفَافِ ، وَإِلَّا خَرَجَ حَيَوَانًا أَعْجَمَ ، فَالشَّاعِرُ يُبْدِعُ أُمَّةً كَامِلَةً ، إِنْ لَمْ يَخْلُقْهَا فَإِنَّهُ يَخْلُقُ أَفْكَارَهَا الْجَمِيلَةَ وَحِكْمَتَهَا الْخَالِدَةَ وَأَدَابَهَا الْعَالِيَةَ وَسِيَاسَتَهَا الْمُؤَقَّفَةَ ، وَمَا أَحْسَبُ الْنَهْضَةَ الْمِصْرِيَّةَ إِلَّا بِالْأَغَانِي وَالْأَنَاشِيدِ ، فَتَأْتِي مِنْ إِنْكِلَاةٍ جُنُودٌ وَتَخْرُجُ لَهَا مِنْ دُورِ الْعِنَاءِ وَالْمُثْمَلِ جُنُودٌ



أُخْرَى ؛ لَقَدْ كُنْتُ مُلْهِمًا حِينَ قُلْتُ مَرَّةً : « إِنَّ اللَّهَ يُخَاطِبُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْمُوسِيقَى »<sup>(١)</sup> .

نَعَمْ عَنْ طَرِيقِ الْمُوسِيقَى ، فَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ مُوسِيقَى فِي نَفْسِهِ ، حَتَّى حِينَ يَتَطَاوَرُ النَّاسُ وَيَذْبَحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَإِنَّ صَلَاسَةَ الْأَسْلِحَةِ وَدَوِيَّ الْقَنَابِلِ وَأَزِيرَ الرِّصَاصِ وَتَصَايِحَ الْجُنُودِ - كُلُّ ذَلِكَ لَحْنٌ أَعَدَّهُ اللَّهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ « وَمُوسِيقَا » ... لِجَنَازَاتِ الْأُمَمِ .

\* \* \*

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : وَلَمَّا رَأَى طَاغُورُ الْأُسْتَاذَ الْفَاضِلَ مُدِيرَ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ - وَهِيَ الَّتِي دَعَنَهُ إِلَى الْقَاءِ مُحَاضَرَتِهِ - قَالَ : نَعَمْ وَحُبًّا وَكَرَامَةً ، إِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ فِي الْعَقْلِ أَنْ تَدْعُو هَذِهِ الْجَامِعَةُ شَاعِرًا رُوحَانِيًّا مِثْلِي إِلَّا وَهِيَ فَلَكُ نَيْرٌ يَعُدُّهُ اللَّهُ مِنْ نُجُومِهِ ، وَمَا أَحْسَبُ أُسْتَاذَ آدَابِهَا الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا تِلْكَ الذَّرَّةَ اللَّوْلُوبَةَ الَّتِي كَانَتْ تُجَاوِزُنِي فِي طِينَةِ الْخَلْقِ الْأَرْضِيِّ . فَلَوْ أَنَّ الذَّرَّاتِ الثَّمَانِ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَنَا خُلِقَتْ فِي عَصْرِنَا هَذَا وَتَوَزَّعَتْ عَلَى الْأُمَمِ الْفَلَسَفِيَّةِ لَكُنَّا وَإِذَاهَا كَوْصَايَا اللَّهِ الْعَشْرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِّي ... وَلَمَّا لَأْنَا طَيَّاتِهَا إِيمَانًا بِاللَّهِ . وَلَصَارَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ عَشْرُ آلَاتٍ سَمَاوِيَّةٍ لَا سَلَكِيَّةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ ، ثُبَاهِي الْجَامِعَةُ الْمِصْرِيَّةُ بِأَنَّ فِيهَا إِحْدَاهَا ... لَقَدْ نَغَصَّ عَلَيَّ هَذِهِ الشَّيْخُوخَةُ أَنِّي لَمْ أَتَعَلَّمِ الْعَرَبِيَّةَ ، وَكَيْفَ لِي بِأَنْ أُرْتَكِلَ أَنْشِيدَ أُسْتَاذِ الْآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَأَسْتَمْتَعَ بِالْحَانَةِ السَّمَاوِيَّةِ فِي شِعْرِهِ وَأَغَانِيهِ ، وَأَسْمَعَ الْمَلَانِكَةَ مِنْ هَذِهِ الْمُنْدَنَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْجَامِعَةِ تَهْتِفُ بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ الرَّهْبَانِيَّةِ صَارِخَةً بِحَقِيقَةِ الْوُجُودِ فِي الْوُجُودِ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ...

قَالَ شَيْطَانِي : وَكَانَ شَيْطَانُ الدُّكْتُورِ طَلْعَ حُسَيْنِ أُسْتَاذَ الْجَامِعَةِ حَاضِرًا مَعَنَا ، فَلَمَّا أَلَمَ بِمَا فِي نَفْسِ طَاغُورَ قَالَ لِي : حَقًّا إِنَّ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ لَا يَعْرِفَ هَذَا الْهِنْدِيُّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ ، لِأَنَّهُ لَوْ عَرَفَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَمَّا أَرْضَتْهُ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَلَا آدَابُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا أُسْتَاذُ آدَابِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ! فَقُلْتُ : أَسْكُتْ وَيَحْكُ ! دَعِ الرَّجُلَ فِي أَخْلَامِهِ ، وَلَا تَكُنْ غَيْمَةً

(١) هَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ كَلَامِ طَاغُورَ فِي مُحَاضَرَتِهِ وَمِمَّا تَرَجَمْتُهُ جَرِيدَةُ السِّيَاسَةِ .

سَمَائِهِ الْمُشْرِقَةِ ، أَمَا تَرَاهُ يَحْلُمُ ، أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ : « وَالْحَقِيقَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ جَمَالٌ لَيْسَ يَغْدِلُهُ جَمَالٌ ؛ أَلَسْتُ تَرَى إِلَى صُورَةِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ أَبَدَعَهَا فَكَّانَ مَاهِرٌ ، إِنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى الصُّورَةِ فَتَقْرَأُ بِجَمَالِهَا ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ الَّتِي فِيهَا لَيْسَتْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْجَمَالِ ، لَكِنَّهَا جَمَالُ الصُّورَةِ أَنَّهَا تُمَثِّلُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ عَلَى حَقِيقَتِهَا »<sup>(١)</sup> فَهَذِهِ كَلِمَاتٌ فِي سُبُحاتِ الْكُؤُرِ ، وَهِيَ مِنْ لُغَةِ السَّمَاءِ ذَاتِ الْكَوَاكِبِ لَا مِنْ لُغَةِ النَّفْسِ ذَاتِ الْعَوَاطِفِ ، وَإِلَّا فَهَلْ يَصِحُّ فِي الْعَقْلِ أَنْ تُصَوِّرَ الْعَجُوزَ الَّتِي أَضْطَرَبَ مِيزَانُ الْخَلْقِ فِيهَا حَتَّى لَا يَرَى مِنْهَا إِلَّا بَقَايَا الْخَلْقَةِ وَأَنْقَاصَ الْعُمْرِ وَخَرَائِبَ الْمَرْأَةِ ... يَكُونُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ شَوْهَتِهَا وَتَهْدِيمِهَا وَتَشْنِ جَلِيدِهَا وَمَوْتِ ظَاهِرِهَا - جَمَالًا فِي الصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَبِيحٌ فِي الْأَصْلِ ؟ أَفَلَيْسَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا لَمُتْلَتِ الْمَتَاحِفُ وَالْقُصُورُ بِالْوُجُوهِ الْعَجَائِزِ ، وَلَمَّا بَقِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ عَجُوزٌ إِلَّا ذَهَبَتْ لِأَحَدِ الْمُصَوِّرِينَ تَقُولُ لَهُ : أَخْلُقْنِي !

\* \* \*

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : وَكَانَ طَاغُورُ رَطَبَ اللِّسَانِ فِي مُحَاضَرَتِهِ ، كَأَنَّ غَابَةَ مِنْ غَابَاتِ الْهِنْدِ أَمَدَتْهُ بِكُلِّ مَا اغْتَصَرَتْهُ الشَّمْسُ فِيهَا مَاءٌ وَحَيَاةٌ وَنُضْرَةٌ ، فَهُوَ فِي كَلَامِهِ وَمَعَانِيهِ وَرَقٌّ وَزَهْرٌ وَنَسِيمٌ وَظِلٌّ وَحَقِيفٌ وَتَغْرِيدٌ يَسْحَرُ النَّاطِرَ إِلَيْهِ إِذْ لَا يَرَى النَّاطِرُ شَكْلَهُ الْإِنْسَانِي فِيهِ بَلْ يَرَاهُ شَيْئًا مِنْ خَيَالِهِ كَأَنَّمَا انفَصَلَ مِنْهُ فَتَمَثَّلَ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَلَوْ أَنَّكَ أَطْلَعْتَ يَوْمًا فِي الْمِرَاةِ فَإِذَا خَيَالُكَ فِيهَا يَكْلُمُكَ وَيَسْتَأْنِسُكَ وَيَلْطَفُ لَكَ ، لَمَّا أَذْهَشَكَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَطْرَبَكَ وَلَا اسْتَخْرَجَ مِنْ عَجَبِكَ وَذُهِولِكَ إِلَّا كَالَّذِي يَغْتَرِّي نَفْسَكَ حِينَ يَكْلُمُكَ طَاغُورُ . وَتَرَاهُ يَسْتَخْلِصُ آرَاءَهُ الْمُتَصَرِّفَةَ بِكَلَامِهِ مِنْ رُوحِ الْتَوَاقُيسِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُدْبِرَةِ لِلْكُونِ ؛ فَتُحْسِنُهُ يُضْفِي إِلَيْكَ زِيَادَةً لَيْسَتْ فِيكَ ، فَمَهْمَا كَثُرَتْ بِهِ تَصَغُرُ نَفْسُكَ عِنْدَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ هُوَ يَتَصَلَّ بِرُوحِكَ مَرَّةً فِي جَلَالِ حُبِّ الْأَبِ لِطِفْلِهِ ، وَمَرَّةً فِي رَقَّةِ فَرَحِ الطِّفْلِ بِأَبِيهِ ؛ فَإِذَا أَنْتَ مِنْهُ بِمَوْفَقٍ عَجِيبٍ مِنْ مُعْجَزَةِ إِنْسَانِيَّةِ تَرَوْعُكَ بِطِفْلِ شَيْخٍ قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ

(١) هَذِهِ الْعِبَارَةُ مِمَّا تَرَجَمْتُهُ جَرِيدَةُ السِّيَاسَةِ مِنْ مُحَاضَرَةِ طَاغُورَ ، وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ الصَّنَاعَةَ فِي تَقْلِ الصُّورَةِ مُحْكَمَةٌ فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الصُّورَةَ جَمِيلَةٌ ، وَالْمَعْنَى الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ الشَّاعِرُ مَعْرُوفٌ ، وَقَدْ كَتَبْتُهُ فِي « السَّحَابِ الْأَخْمَرِ » ، وَلَكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْهُ أَوْ أَخْطَأَ التَّرْجَمَةُ .

طَرَفًا أَلْعُمِرِ وَجَاءَ كَأَنَّهُ مَظْهَرُ رُوحِهِ الَّتِي لَا عُمَرَ لَهَا .

إِنْسَانٌ كَهَرَبَائِيٍّ يُحَاوِلُ أَنْ يَزِيدَ فِي تَرْكِيبِ النَّاسِ عَظْمَةً مِنْ حَدِيدٍ أَوْ عَصَبًا مِنْ سِلْكٍ ،  
لِتَصِلَ بِهِمْ جَمِيعًا تِلْكَ الشُّعْلَةُ الطَّائِفَةُ ، فَإِذَا هُمْ خَلَقُوا آخَرَ كَأَهْلِ الْجَنَّةِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ  
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ؛ وَلَكِنَّهُ بَصُرَ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْرَحِ بِإِعْلَانِ السِّيَمَا الَّتِي تُجَاوِرُهُ وَمَا  
عَلَيْهِ مِنَ التَّصَاوِيرِ وَالتَّهَاوِيلِ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : بَعْدَ قَلِيلٍ تَجِيءُ إِلَى هُنَا لَنْدُنْ London  
وَبَارِيسَ Paris وَنِيُورْكَ New York وَغَيْرَهَا مِنْ أَرْضِ اللَّهِ بِنَاسِهَا وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا ، يَرَاهَا  
الْجَالِسُونَ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَيَتَصَلُّونَ بِهَا اتِّصَالًا بَعِيدًا لَا يَجْعَلُهُمْ فِيهَا ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخْلِيهِمْ  
مِنْهَا ؛ وَيَجِبُ لِعُمُرَانِ هَذِهِ الْأَرْضِ أَنْ يَبْقَى أَهْلُ مِصْرَ فِي مِصْرَ فَلَا يَدْعُوهَا جَمِيعًا لِيَصِلُوا  
جَمِيعًا بِمَا تَشْتَاقُهُ أَنْفُسُهُمْ مِنْ بَارِيسَ Paris أَوْ غَيْرِ بَارِيسَ Paris مِنْ حَقَائِقِ الْعَالَمِ الْكُبْرَى ،  
وَلَا يَخْسُنُ هَذَا الْإِتِّصَالُ إِلَّا إِذَا خَصَّ وَلَمْ يَعْمْ ، فَيَقُومُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْأَثْنَانِ وَالْجَمَاعَةُ وَيَبْقَى  
الْأُمَّةُ بِمَا هِيَ وَكَمَا هِيَ ، لِأَنَّهَا بِذَلِكَ وَخَدَهُ أُمَّةٌ ، كَمَا أَنَّ النَّاسَ بِطَبَائِعِهِمْ نَاسٌ ، وَالْكَوْنُ  
بِاخْتِلَافِهِ كَوْنٌ ، فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْحُبِّ الْعَامِّ وَالسَّلَامِ الْعَامِّ وَالْإِتِّصَالِ الْعَامِّ ، بِالْحَقِيقَةِ  
الرُّوحِيَّةِ الْعُلْيَا ؛ ثُمَّ تَبَسَّمَ وَقَالَ : مَا أَشْبَهَنِي بِهِذِهِ السِّيَمَا ، غَيْرَ أَنَّ شَرِيطَتِي لَا يَرَى فِيهِ  
النَّاسُ رِوَايَةً مِنْ لَنْدُنْ London وَبَارِيسَ Paris ، بَلْ رِوَايَةً وَقَعَتْ حَوَادِثُهَا فِي جَنَّةِ  
الْخُلْدِ ...

\* \* \*

## فَلَسَفَةُ الْقِصَّةِ

وَلِمَاذَا لَا أَكْتُبُ فِيهَا (\*) ... ؟ (١)

لَمْ أَكْتُبْ فِي الْقِصَّةِ إِلَّا قَلِيلًا ، إِذَا أَنْتَ أَرَدْتَ الطَّرِيقَةَ الْكِتَابِيَّةَ الْمُصْطَلَحَ عَلَى تَسْمِيئِهَا  
بِهَذَا الْأَسْمِ ، وَلَكِنَّنِي مَعَ ذَلِكَ لَا أَرَانِي وَضَعْتُ كُلَّ كُتْبِي وَمَقَالَاتِي إِلَّا فِي قِصَّةٍ بِعَيْنِهَا ،  
هِيَ قِصَّةُ هَذَا الْعَقْلِ الَّذِي فِي رَأْسِي ، وَهَذَا الْقَلْبِ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيَّ ...

[[ شَاعَ أَدَبُ الْقِصَّةِ فِي أَوْرَبَةِ ، وَطَعَى عِنْدَهُمْ عَلَى الْمَقَالَةِ وَالْكِتَابِ وَدِيَوَانِ الشُّعْرِ  
جَمِيعًا ، فَقَامَ عِنْدَنَا الْمُتَابِعُونَ فِي الرَّأْيِ ، وَالْمُقَلِّدُونَ فِي الْهَوَى ، وَالضُّعَفَاءُ بِطَبِيعَةِ  
التَّقْلِيدِ وَالْمُتَابَعَةِ - قَامُوا يَدْعُونَ إِلَى هَذَا الْفَنِّ مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَلَا يَرَوْنَ مَنْ لَا يَكْتُبُ فِيهِ إِلَّا  
مُذِيرًا عَنْ عَصْرِهِ وَأَدَبِ عَصْرِهِ . وَلَا جَرَمَ إِذَا كَانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ مُذِيرِينَ عَنْ الْحَقِيقَةِ وَمَعْنَى  
الْحَقِيقَةِ ، وَأَنْتَ مَتَى كَانَ وَجْهَكَ إِلَى الْبَاطِلِ وَظَهْرُكَ إِلَى الْحَقِّ ، فَمَهْمَا تَقَدَّمَ فِي رَأْيِ  
نَفْسِكَ فَإِنَّمَا تَتَأَخَّرَ فِي رَأْيِ الْحَقِّ ، وَكُلَّمَا قَطَعْتَ إِلَى غَايَتِكَ رَأَيْتَ الَّذِي وَرَاءَكَ مُتَخَلِّفًا

(\*) « الرسالة » العدد : ٤٠ ، ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٢ هـ = ٩ أبريل / نيسان سنة ١٩٣٤ م ، السنة

الثانية ، الصفحات : ٥٦٩ - ٥٧٠ .

هَذِهِ الْمَقَالَةُ هِيَ مَا اسْتَخْلَصَهُ السَّيِّدُ أَسْعَدُ حَتًّا مِنْ مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ وَنَشَرَهُ فِي « الرِّسَالَةِ » قَبْلَ  
أَنْ يَعْمَلَ الرَّافِعِيُّ مَعَ « الرِّسَالَةِ » ، وَقَدَّمَ السَّيِّدُ أَسْعَدُ حَتًّا لَهَا بِقَوْلِهِ : سَأَلْتُ الْأُسْتَاذَ مُصْطَفَى  
الرَّافِعِيَّ ، لِمَاذَا لَا يَكْتُبُ فِي الْقِصَّةِ ، وَلِمَاذَا يَخْلُو أَدَبُهُ مِنْهَا ؟ فَأَجَابَ :

وَحَتَمَهَا بِقَوْلِهِ : هَذَا هُوَ رَأْيِي الْأُسْتَاذَ الرَّافِعِيَّ نَشَرُهُ عَلَى أَصْلِهِ ، لِيُنْظَرَ فِيهِ الْكَثِيرُ مِنْ شَبَابِنَا  
الْكَاشِحِينَ ، الَّذِينَ أَقْبَلُوا عَلَى كِتَابَةِ الْقِصَّةِ ، لَعَلَّ فِيهِ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيُغْنِيهِمْ ، وَيُمَهِّدُ لَهُمْ سَبِيلَ الْكَمَالِ  
فِي إِنْتَاجِهِمْ . بَسَّام .

(١) { وَجَّهَ إِلَيْنَا سُؤَالَ : لِمَاذَا لَا نَكْتُبُ فِي الْقِصَّةِ ؟ وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ نَكْتُبَ مَقَالَاتِنَا فِي مَجَلَّةِ  
الرِّسَالَةِ ، فَرَدَدْنَا بِهِذَا الرَّدِّ } .

{ قُلْتُ : وَانْظُرْ « عَمَلَةٌ فِي الرِّسَالَةِ » مِنْ كِتَابَتِي « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

مُتَرَجِّعًا بِمِقْدَارِ مَا أَبْعَدَتْ كَأَنَّهُ فِي أَمْسٍ ، وَكَأَنَّكَ فِي غَدٍ ، وَلَا يَوْمَ بَيْنُكُمَا يَجْمَعُ مِنْكُمَا مَا تَفَرَّقَ ۥ ۥ .

أَنَا لَا أَغْبَأُ بِالْمَظَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا يَوْمٌ وَيَنْسَحُهَا يَوْمٌ آخَرُ ، وَالْقِبْلَةُ الَّتِي أَتَجَّهُ إِلَيْهَا فِي الْأَدَبِ إِنَّمَا هِيَ النَّفْسُ الشَّرِيفَةُ فِي دِينِهَا وَفَضَائِلِهَا ، فَلَا أَكْتُبُ إِلَّا مَا يَنْعُنُّهَا حَيَّةٌ وَيَزِيدُ فِي حَيَاتِهَا وَسُمُو غَايَتِهَا ، وَيُمْكِنُ لِفَضَائِلِهَا وَخَصَائِصِهَا فِي الْحَيَاةِ ، وَلِذَا لَا أَمْسُ مِنَ الْأَدَابِ كُلِّهَا إِلَّا نَوَاحِيهَا الْعُلْيَا ؛ ثُمَّ إِنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ دَائِمًا أَنِّي رَسُولٌ لِعَوِيِّ يُعْنُثُ لِلدَّفَاعِ عَنِ الْقُرْآنِ وَلُغَتِهِ وَبَيَانِهِ ، فَأَنَا أَبَدًا فِي مَوْقِفِ الْجَبِيشِ : (تَحْتَ السَّلَاحِ) ، لَهُ مَا يُعَانِيهِ وَمَا يَتَكَلَّفُهُ وَمَا يُحَاوِلُهُ وَيَفِي بِهِ ، وَمَا يَتَحَمَّاهُ وَمَا يَتَحَفَّظُ فِيهِ ، وَتَارِيخُ نَصْرِهِ وَهَزِيمَتِهِ فِي أَعْمَالِهِ دُونَ سِوَاهَا ؛ وَكَيْفَ اعْتَرَضْتُ الْجَبِيشَ رَأَيْتُهُ فَرَّقَ نَفْسَهُ ، لَا فَتَكَ أَنْتَ وَلَا فَرَّ سِوَاكَ ؛ إِذْ هُوَ لَطِيفُ قِتْمِهِ وَغَايَتِهِ وَمَا يَتَأَدَّى بِهِ لِلْحَيَاةِ وَالتَّارِيخِ .

ۥ ۥ وَقَدْ عَابَنِي مَرَّةً أَحَدُ الْكُتَّابِ بِأَنِّي (لَا أَكْتُبُ فِي الدَّرَامَا [ أَلْفَنَ الْمَسْرَحِيِّ وَالتَّمْثِيلِيِّ ] ) ؛ فَلَوْ أَنَّ هَذَا الْكَاتِبَ وَقَفَ عَلَى شَاطِئِ الْمُحِيطِ وَجَعَلَ يَتَهَكَّمُ بِالْأَسْطُولِ الْإِنْكَلِيزِيِّ فَيُزِرِّي عَلَيْهِ أَنَّهُ لَيْسَ شُيُوعِيًّا وَلَا بُلْشَفِيًّا ، فَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الْأَسْطُولُ إِذَا هُوَ أَحْبَابُهُ ؟ إِلَّا أَنْ يَقُولَ شَيْئًا كَهَذَا : تَبَارَكَ مَنْ صَنَعَ الْإِنْسَانَ مِدْفَعٌ لَحْمٍ لِإِطْلَاقِ الْكَلَامِ الْفَارِغِ .

أَنَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا أَزَالُ إِلَى الْآنِ مَعَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي فَنِّهِ وَبَيَانِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنَا مَعَ الْحِكَايَةِ وَلُغَتِهَا وَعَوَاطِفِهَا ، فَأَكْثَرُ عَمَلِي إِضَافَةُ الصُّورِ الْفِكْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ إِلَى أَدَبِنَا وَبَيَانِنَا مُتَحَاشِيًا جَهْدَ الطَّاقَةِ أَنْ أَنْقُلَ إِلَى كِتَابَتِي دَوَابَّ الْأَرْضِ أَوْ دَوَابَّ النَّاسِ أَوْ دَوَابَّ الْحَوَادِثِ ، فَإِنَّ الْكُتُبَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ طَبَائِعِ كُتَابِهَا تَعْمَلُ فِيْمَنْ يَقْرُوهَا عَمَلُ الطَّبَائِعِ الْحَيَّةِ فِيْمَنْ يُخَالِطُهَا . وَالرُّوَايَةُ إِذَا وَضَعَهَا كَاتِبٌ فَاجِرٌ ، فَهِيَ عِنْدِي لَيْسَتْ رِوَايَةً ، بَلْ هِيَ عَمَلٌ يَجِبُ أَنْ يُسَمَّى فِي قَانُونِ الْعُقُوبَاتِ (فُجُورًا بِالْكِتَابَةِ) .

إِنَّ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ مِنَ الْقِصَصِ ، وَبِخَاصَّةِ هَذِهِ الَّتِي غَمَرَتْ الْكِتَابَةَ عِنْدَنَا - إِنَّمَا هِيَ صِبَاغَةُ لَهْوٍ ، وَمَسَلَاةُ قَرَاغٍ ، وَهَذَا قَدْ يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ فِي عِلَاجِ الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَفِي تَخْفِيفِ حُطْمَةِ الْأَجْتِمَاعِ فِي أُرُوبَةِ وَأَمْرِيكَةِ ، وَلَكِنْ مَا مَوْضِعُهُ عِنْدَنَا فِي الشَّرْقِ ،

وَالشَّرْقُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي نَهْضَتِهِ لِمُعَالَجَةِ اللَّهِوِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وَجُودِهِ السِّيَاسِيَّ عَدَمًا ، وَلِمَلَأِ الْفَرَاغَ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْتًا ؟ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ الْقِصَّةِ هُوَ لِرِجَالِنَا وَنِسَائِنَا إِذَا قَرَّوْهُ وَتَلَّهَوْا بِهِ أَشْبَهُ بِإِذْخَالِ أُولَئِكَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ - إِذْخَالِهِمْ وَإِذْخَالِهِنَّ عَلَى الْكِبَرِ - فِي مَدَارِسِ رِيَاضِ الْأَطْفَالِ .

الْأَطْفَالُ يَسْتَلِدُّونَ الْحِكَايَةَ بِالْفِطْرَةِ لِأَنَّهَا تَجِيئُهُمْ بِالدُّنْيَا الَّتِي يَغْسُرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَيْهَا أَوْ يُغَامِرُوا فِيهَا ، وَنَهْيُ لَّهُمْ أَنْ يُشْعِرُوا خَيَالَهُمْ قُوَّةَ الْخَلْقِ ، فَتَكُونُ لَدُّنْهُمْ عَلَى مِقْدَارٍ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَعَلَى مِقْدَارٍ مِثْلِهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْعَجْزِ فِي خَيَالِهِمْ ، وَهَذَا الضَّعْفُ فِي التَّاجِيزِ هُوَ بِعَيْنِهِ الَّذِي يَجْعَلُ لِأَكْثَرِ الْقِصَصِ شَأْنًا عِنْدَ سُخْفَاءِ النَّاسِ وَقُرَاحِهِمْ ، وَأَهْلِ الْحُمُقِ فِيهِمْ ، يُسَعِّرُهُمْ شَهَوَاتِ وَخَيَالَاتٍ وَأَوْهَامًا مِنَ الْبَاطِلِ . فَذَلِكَ إِذَا لَيْسَ أَدَبًا يَكْتُبُ وَيُقْرَأُ - بَلْ هُوَ بِلَاءٌ أَجْتِمَاعِيٌّ يُطْعَمُ وَيُورَعُ فِي النَّاسِ ... ۥ ۥ .

أَلَا تَرَى أَنَّ تِلْكَ الرُّوَايَاتِ تَوْضَعُ قِصَصًا ، ثُمَّ تَقْرَأُ فَتَقْبَلُ قِصَصًا ؟ وَإِنْ هِيَ صَنَعَتْ شَيْئًا فِي قُرَائِهَا لَمْ تَزِدْ عَلَى مَا تَفْعَلُ الْمُخَدَّرَاتُ : تَكُونُ مُسَكَّنَاتٍ عَصِيَّةٍ إِلَى حِينٍ ، ثُمَّ تَنْقَلِبُ هِيَ بِنَفْسِهَا بَعْدَ قَلِيلٍ إِلَى مُهَيِّجَاتٍ عَصِيَّةٍ ؟

وَأَنَا لَا أَنْكُرُ أَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَدَبًا عَالِيًا ، وَلَكِنْ هَذَا الْأَدَبُ الْعَالِي فِي رَأْيِي لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَخِذِ الْحَوَادِثِ وَتَرْبِيَّتِهَا فِي الرُّوَايَةِ كَمَا يُرَبِّي الْأَطْفَالُ عَلَى أَسْلُوبِ سِوَاءِ فِي الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ؛ فَالْقِصَّةُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ مَدْرَسَةٌ لَهَا قَانُونُ مَسْنُونٍ ، وَطَرِيقَةٌ مُمَخَّصَةٌ ، وَغَايَةٌ مُعَيَّنَةٌ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَاوَلَهَا غَيْرُ الْأَفْذَادِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْفِكْرِ الَّذِينَ تَنْصِبُهُمْ مَوَاهِبُهُمْ لِإِلْقَاءِ الْكَلِمَةِ الْحَاسِمَةِ فِي الْمُسْكِلَةِ الَّتِي تُثِيرُ الْحَيَاةَ أَوْ تُثِيرُهَا الْحَيَاةَ ، وَالْأَعْلَامُ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْبَيَانِ الَّذِينَ زُرُقُوا مِنْ أَدَبِهِمْ قُوَّةَ التَّرْجِمَةِ عَمَّا بَيْنَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ ، وَمَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَمَوَادِّهَا النَّفْسِيَّةِ فِي هَلْوَاءٍ وَهَلْوَاءٍ ، تَتَخَيَّلُ الْحَيَاةَ فَتُبْدِعُ أَجْمَلَ شِعْرِهَا ، وَتَتَأَمَّلُ فَتُخْرِجُ أَسْمَى حِكْمَتِهَا ، وَتُسَرِّعُ فَتَضَعُ أَصَحَّ قَوَائِمِهَا .

وَأَمَّا مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ يَخْتَرِفُونَ كِتَابَةَ الْقِصَصِ ؛ فَهُمْ فِي الْأَدَبِ رِعَاجٌ وَهَمَجٌ ، كَانَ مِنْ أَثَرِ قِصَصِهِمْ مَا يَتَخَبَّطُ فِيهِ الْعَالَمُ الْيَوْمَ مِنْ فَوْضَى الْغَرَائِزِ ، هَذِهِ الْفَوْضَى الْمَمْقُوتَةُ الَّتِي لَوْ

حَقَّقَتْهَا فِي الثُّمُوسِ لَمَّا رَأَيْتَهَا إِلَّا عَامِيَّةَ رُوحَانِيَّةَ مُنْحَطَّةَ تَسَكَّعُ فِيهَا النَّفْسُ مُشَرَّدَةً فِي طُرُقِ رَذَائِلِهَا .

إِذَا قَرَأْتَ الرُّوَايَةَ الزَّائِفَةَ أَحَسَسْتَ فِي نَفْسِكَ بِأَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَسْفُلُ ، وَإِذَا قَرَأْتَ الرُّوَايَةَ الصَّحِيحَةَ أَذْرَكْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَعْلُو ؛ تَنْتَهِي الْأُولَى فِيكَ بِأَثَرِهَا السَّيِّئِ ، وَتَبْدَأُ الثَّانِيَةُ مِنْكَ بِأَثَرِهَا الطَّيِّبِ ؛ وَهَذَا عِنْدِي هُوَ فَرْقٌ مَا بَيْنَ فَنِّ الْقِصَّةِ ، وَفَنِّ التَّلْفِيقِ الْقِصَصِيِّ !!

\* \* \*

### شِعْرُ صَبْرِي (\*)

فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ مَارِسْ / أَذَارِ مِنْ سَنَتِنَا<sup>(١)</sup> هَذِهِ نَزَعَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ عَنْ رَأْسِهِ عِمَامَةَ الْمَشِيخَةِ وَنَشَرَهَا لِلْمَوْتِ ، فَكَانَتْ الْكَفَنَ الَّذِي طَوِي فِيهِ بَقِيَّةُ شُيُوخِ الْأَدَبِ : الْمَرْحُومِ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي .

كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ نَشَوْا فِي تَارِيخِ لَا يُنْشِئُ رَجُلًا ؛ وَجَاوَزُوا فِي غَيْرِ زَمَنِهِمْ لِيَجِيءَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ بَعْدُ ، وَهَؤُلَاءِ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ قُوَّةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْقُوَّةِ ، فَهَمُ أَفْدَارُ وَأَحْدَاثُ تُولَدُ وَتَنُشَأُ وَتَنُمُو فِي أُسْلُوبِ إِنْسَانِيٍّ لِيَتِمَّ بِهَا شَيْءٌ كَانَ نَقْصًا ، وَيَحْسُنُ شَيْئًا كَانَ هُجْنَةً ، وَيُوجِدُ أَمْرًا كَانَ عَدَمًا ، ثُمَّ لِيَكُونَ لِلزَّمَنِ مِنْهَا حُدُودٌ يَبْدَأُ عِنْدَ الْوَاحِدِ مِنْهَا فَيَتَغَيَّرُ فِيهِ وَيَتَحَوَّلُ بِهِ وَيَخْرُجُ مَعَهُ فِي بَعْضِ مَعَانِيهِ زَمَنًا جَدِيدًا فِي رَجُلٍ جَدِيدٍ .

كَذَلِكَ كَانَ صَبْرِي فِي مَنْحَى مِنْ مَنَاحِي الشَّعْرِ ، وَكَانَ الْبَارُودِيُّ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - فِي مَنْحَى آخَرَ ؛ فَهُمَا طَرَفَا الْمَخُورِ الَّذِي اسْتَدَارَ عَلَيْهِ هَذَا الْفَلَكَ لِيَبْدَأَ بَعْدَ تَارِيخِهِ أَلَمِيَّتِ تَارِيخًا حَيًّا ، وَلِيَخْرُجَ مِنَ الْجَوِّ الْقَاتِمِ فِي أَغْرَاضِ الْأَرْضِ إِلَى الْقَضَاءِ الْمُشْرِقِ بِمَعَانِي السَّمَاءِ ، ثُمَّ لِيَتَنَفَّضَ عَنْهُ فِي مَهَبِ الرِّيَّاحِ الْعُلُويَّةِ مَا لَصِقَ بِهِ مِنْ طَبَاعِ أَهْلِهِ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَيُغْلِقَ بِهَا مَا فَتَحَ الزَّمَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ هَذِهِ الْحَرْفَةِ ، فَكَانَ الشَّعْرُ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَجُلٍ كَالْمَلِكِ ، فَاصَابَ رَجُلَيْنِ ، وَعَلِمَ اللَّهُ مَا رَأَيْتُ فِي كُلِّ مَنْ رَأَيْتُهُمْ مِنَ الشُّعْرَاءِ نَفْسًا تُعَدُّ مَعَهُمَا ، وَلَا خُلُقًا يَجْعَلِي فِي أَخْلَاقِهِمَا ، وَلَا ظَرْفًا وَلَا رِفَّةً وَلَا أَدَبًا وَلَا شَيْئًا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ شَرْحًا مِنْهُمَا ، أَوْ تَوْكِيدًا لَشَيْءٍ فِيهِمَا ، أَوْ تَقْوِيَةً لِمَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِمَا ، كَأَنَّمَا وَجِدَا لِيَكُونَ أَحَدُهُمَا مَبْدَأً وَالْآخَرُ نِهَائَةً ، وَلِيَتَفَرَّدَا أَنْفَرَادًا الطَّرْفَيْنِ مِنَ الْمَسَافَةِ بِالْعَةِ مَا بَلَغَتْ .

كَانَ الشَّعْرُ لِعَهْدِهِمَا بَقِيَّةَ رَثَّةٍ فِي مَغْرَضٍ خَلَقِي مِمَّا كَانَ يُسَمِّيهِ أُدْبَاءُ الْأَنْدَلُسِ بِالْأَغْرَاضِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَطَرِيقَةِ الْمَشَارِقَةِ ، وَهُمْ يَعْنُونَ بِذَلِكَ الصَّنَاعَةَ وَالتَّكَلُّفَ لِلتَّبْدِيعِ وَالْإِنْصِرَافَ إِلَى

(\*) « الْمَقْتَطَفُ » : مَائُو / آيَار سَنَةِ ١٩٢٣ .

(١) هُوَ إِسْمَاعِيلُ بَاشَا صَبْرِي ، تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَهْرِ مَارِسْ / أَذَارِ سَنَةِ ١٩٢٣ م .

الْلَفْظِ وَأَسْتَكْرَاهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادُوا ، إِلَى مَا يَتَشَعَّبُ مِنْ ذَلِكَ وَيَخْرُجُ أَوْ يَدْخُلُ فِي بَابِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ هَذَا وَمِثْلُهُ مِمَّا يُسَاعُ وَيُخْتَمَلُ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ وَأَكْثَرِ النَّاسِ لِلْهَجْرَةِ ، ثُمَّ فِي أَيَّامٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، غَيَّرَ أَنَّهُ بَلَّيَ وَتَهْتَكَ فِي مَضَرِّ خَاصَّةٍ وَلَكِنْ يَبْقَى مِنْهُ إِلَى مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ إِلَّا رُفْعَ وَخُيُوطٍ فِي قَصَائِدِ وَمَقَاطِيعَ .

ثُمَّ كَانَ أَكْثَرُ الشُّعْرَاءِ يَوْمئِذٍ إِنَّمَا يَخْتَرِفُونَ فَنَ الْأَدَبِ صِنَاعَةَ كَسَائِرِ الْمِهَنِ وَالصَّنَاعَاتِ الَّتِي بِهَا قِوَامُ الْعَيْشِ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَأْكِلِينَ وَالْمُتَكَسِّبِينَ مِنَ الشُّوْقَةِ وَالْمُرْتَرَقَةِ .

\* \* \*

ظَهَرَ الْبَارُودِيُّ وَبَنَعَ فِي شِعْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ صَبْرِي الشُّعْرَ بِسَنَوَاتٍ ، وَلَكِنْ الْأَدَبُ الْفَارِسِيُّ وَالْجَزَالَةُ الْعَرَبِيَّةُ هُمَا اللَّذَانِ تَحَوَّلَا فِيهِ ، ثُمَّ تَبَعَ صَبْرِي بَعْدَ ذَلِكَ بِزَمَنِ ، فَتَحَوَّلَ فِيهِ الْأَدَبُ الْإِفْرَنْجِيُّ وَالرُّفْقَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَهَذَا مَوْضِعُ التَّفَاوُتِ فِي شِعْرِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ اقْتَصَصَا الْخَيَالَ الشُّعْرِيَّ مِنْ طَرَفِي الْأَرْضِ ، وَكِلَاهُمَا يَذْهَبُ مَذْهَبًا وَيَرْجِعُ إِلَى طَبْعٍ وَيَرِوِّضُ شِعْرَهُ عَلَى وَجْهِ ؛ فَالْبَارُودِيُّ يَسْتَعْجِلُ وَيَجْمَعُ إِلَى سَبْكِهِ الْجَيِّدِ قُوَّةَ الْفَخَامَةِ وَشِدَّةَ الْجَزَالَةِ ؛ ثُمَّ يَغْتَرِضُ الْخَيَالَ مِنْ حَيْثُ يَهْبِطُ عَلَى النَّفْسِ فِي مَمَرِ الْوَحْيِ ؛ وَصَبْرِي يَسْتَرْقُ وَيُضَيِّفُ إِلَى صَفَاءِ لَفْظِهِ جَمَالَ التَّخْيِيرِ وَحَلَاوَةِ الرُّفْقَةِ ، وَيُعَارِضُ الْفِكْرَ مِنْ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِالْقَلْبِ ، وَالْبَارُودِيُّ لَا يَرَى إِلَّا مِيزَانَ اللَّسَانِ يُقِيمُ عَلَيْهِ حُرُوفَهُ وَكَلِمَاتِهِ ، وَصَبْرِي لَا يَرَى إِلَّا مِيزَانَ الذُّوقِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ اللَّسَانِ ؛ وَقَدْ يُسَرِّتُ لِكُلِّهِمَا أَسْبَابَ نَاحِيَّتِهِ فِي أَحْسَنِ مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ ؛ فَجَاءَ الْبَارُودِيُّ حَافِظًا كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ دَوَائِينَ الْعَرَبِ وَالْمُؤَلِّدِينَ ، وَجَاءَ صَبْرِي مُفَكِّرًا كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ أَذْوَاقٍ وَأَفْكَارٍ ، وَهُمَا يَشْتَرِكَانِ مَعًا فِي التَّلَوُّمِ عَلَى صِنْعَةِ الشُّعْرِ وَالتَّائِي فِي عَمَلِهِ وَتَقْلِيدِهِ عَلَى وَجْهِ مِنَ الصَّصْحِ ، وَتَمَجُّصِهِ بِالْقَدِّ وَالْإِتْلَاءِ لَفْظًا وَجُمْلَةً جُمْلَةً ، ثُمَّ مَطَاوَلَةَ مَعَانِيهِ وَمُصَابَرَتَهَا كَأَنَّمَا يَنْتَزِعَانِ مَحَاسِنَهَا مِنْ أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ ؛ وَأَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ فِيهِمَا ، وَقَالَ لِي صَبْرِي بَاشَا مَرَّةً وَقَدْ جَارَيْتُهُ فِي بَعْضِ هَذَا الْمَعْنَى : إِنَّهُ يَعْلَمُ هَذَا مِنَ الْبَارُودِيِّ وَمِنْ نَفْسِهِ . قُلْتُ : أَفَيَتَلَعَّبُ بِهِ ذَلِكَ أَنْ يَمْحُو بَيَاضَ الْيَوْمِ فِي سَوَادِ يَنْتِ وَاحِدٍ ؟ قَالَ : وَفِي سَوَادِ شَطْرَةِ أَحْيَانًا ! وَلَيْسَ يُنْقِصُهُمَا هَذَا الْأَمْرُ شَيْئًا ، فَإِنَّ خَبَرَ زُهَيْرٍ فِي حَوَالِيَّاتِهِ مَعْرُوفٌ وَقَدْ عَمِلَ سَبْعَ قَصَائِدَ فِي سَبْعِ سِنِينَ : يَحْوِي الْقَصِيدَةَ مِنْهَا فِي سَنَةٍ .

وَقَلُّوا عَنْ مَرْوَانَ ابْنِ أَبِي حَفْصَةَ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ أَعْمَلُ الْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَأُحْكِمُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَأَعْرِضُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ أَخْرُجُ بِهَا إِلَى النَّاسِ ؛ فَقِيلَ : هَذَا هُوَ الْحَوْلِيُّ الْمُنْفَعُ .

كَانَ مَرْجِعُ الْبَارُودِيِّ إِلَى الْحِفْظِ ، فَتَبَعَ فِي وَثَبَاتٍ قَلِيلَةٍ ؛ أَمَّا صَبْرِي فَاحْتِاجَ إِلَى زَمَنِ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ نَاحِيَّتُهُ وَآتَتْهُ أَسْبَابُهُ عَلَى الْإِجَادَةِ ، لِأَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَى الذُّوقِ ، وَهَذَا يُكْتَسَبُ بِالْمِرَاقِ وَيَنْضَجُ عِنْدَ نُضُوجِ الْفِكْرِ ، وَلَا يَأْتِي بِالْمَاءِ وَالرُّوْتِي حَتَّى تَأْتِيَ لَهُ أَسْبَابُ كَثِيرَةٌ ؛ وَأَنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ فِي الرَّجُلَيْنِ مِنْ أَوَائِلِ شِعْرِهِمَا ؛ فَقَدْ رَأَى الْبَارُودِيُّ أَبَاهُ فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ بِأَبْيَاتِهِ الدَّلَالِيَّةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا [مَنِ الْبَسِطُ] :

لَا فَارِسَ الْيَوْمِ يَخِمِي السَّرْحَ بِالْوَادِي طَاحَ الرَّدَى بِشَهَابِ الْحَيِّ وَالْثَّادِي  
وَهِيَ ثَمَانِيَّةٌ عَشْرَ بَيْنَا ، وَجَيِّدُهَا جَيِّدٌ . وَكَأَنَّمَا خَرَجْتَ مِنْ لِسَانِ أَغْرَابِي ، وَإِنَّمَا جَاءَتْهُ  
مِنْ صِنْعَةِ الْحِفْظِ ، كَالَّذِي اتَّفَقَ لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ فِي أَبْيَاتِهِ الْخَاطِيَةِ الَّتِي كَتَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ  
وَعُمُرُهُ أَرْبَعُ عَشْرَةِ سَنَةٍ ، وَكَانَ أَبُوهُ مُعْتَقَلًا بِقَلْعَةِ شِيرَازَ وَمَطَّلَعُهَا [مَنِ الْخَفِيفُ] :

أَبْلَغَا عَنِّي الْحُسَيْنَ الْوَكَا إِنَّ ذَا الطُّودَ بَعْدَ بُعْدِكَ سَاخَا  
وَالشَّهَابَ الَّذِي أَصْطَلَيْتَ لَطَاهُ عَكَسَتْ ضَوْؤُهُ الْخَطُوبُ قَبَاخَا

هَذَا ، عَلَى أَنَّ الْبِدَايَةَ كَمَا يَقَالُ مَرَلَةً ، وَقَدْ وَقَفْنَا إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى أَوَّلِ مَا نُشِرَ مِنْ شِعْرِ صَبْرِي بَاشَا ، وَذَلِكَ قَصِيدَتَانِ نُشِرَتَا فِي مَجَلَّةِ « رَوْضَةِ الْمَدَارِسِ » فِي مَذْهَبِ إِسْمَاعِيلِ بَاشَا ، فَنُشِرَتِ الْأُولَى فِي الْعَدَدِ الصَّادِرِ فِي غَايَةِ شَوَّالِ سَنَةِ ١٢٨٧ لِلْهَجْرَةِ = ١٨٧٠ لِلْمِيلَادِ ؛ وَنُشِرَتِ الثَّانِيَّةُ فِي عَدَدِ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنْ سَنَةِ ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١ م ، وَبَيْنَهُمَا خَمْسَةُ أَشْهُرٍ ، كَانَتْ وَبَيْنَهُ فِيهَا ضَعِيفَةٌ مُتَقَاصِرَةٌ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُطْءِ نُضْجِهِ بِطَبِيعَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَسَبَّبَ بِهَا إِلَى الشُّعْرِ ؛ وَكَانَتْ « الرُّوضَةُ » يَوْمئِذٍ تَنْشُرُ لِطَائِفَةٍ مِنْ فُحُولِ دَهْرِهِمْ ، كَالسَّيِّدِ صَالِحِ مَجْدِي ، وَرَفَاعَةَ بَكِ رَافِعِ ، وَمُحَمَّدَ أَفندي قُدْرِي « وَتَابِعَةَ الزَّمَانِ مُحَمَّدَ أَفندي رِضْوَانِ » وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَتْ تَسْتَقْبِلُ قَصَائِدَهُمْ بِسَجَعَاتٍ دَاوِيَّةٍ مُفْرَقَةٍ ، هِيَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِطَلَقَاتِ مَدَافِعِ النَّحِيَّةِ لِلْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ، فَلَمَّا نُشِرَتْ لِصَبْرِي قَالَتْ فِي

الْقَصِيدَةُ الْأُولَى : « تَهَنَّتْ بِالْعِيدِ الْأَكْبَرِ لِلْخُدَيْوِي الْأَعْظَمِ بِقَلَمِ إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي أَفَنِدِي .  
وَقَالَتْ فِي الثَّانِيَةِ : « قَصِيدَةُ رَائِيَةِ فِي مَذْحِ الْحَضَرَةِ الْخُدَيْوِيَةِ مِنْ نَظْمِ الشَّابِّ التَّجَنُّبِ  
إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي أَفَنِدِي مِنْ تَلَامِيذِ مَدْرَسَةِ الْإِدَارَةِ » وَمَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ الْأُولَى [من الكامل] :  
سَفَرْتُ فَلَاحَ لَنَا هِلَالُ سَعُودٍ وَنَمَّا الْغَرَامُ بِقَلْبِي الْمَعْمُودِ  
وَلَا شَيْءَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ حُرُوفِ الْمَطْبَعَةِ . . . وَمَطْلَعُ الثَّانِيَةِ [من الطويل] :

أَعَرْتُكَ الْغَرَاءُ أَمْ طَلَعَةُ الْبَذْرِ وَقَامْتُكَ الْهَيْفَاءُ أَمْ عَادِلُ الشُّمْرِ  
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ بَيِّنَتْ وَقَفْتُ عِنْدَهُ أَرَى صَبْرِي بِأَشَا فِي صَبْرِي أَفَنِدِي كَأَنَّهُ خَيَالُ  
مَوْلُودٍ يَسْتَهْلُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ [من الطويل] :

فَطَوَّلَ مِنَ الْهَجْرَانِ عَلَّ وَفُوقَنَا يَطُولُ مَعَا - يَا قَاتِلِي - سَاعَةَ الْخَشْرِ  
وَيَكَادُ هَذَا النَّيْتُ يَكُونُ أَوَّلَ انْقِلَابٍ لِلْفِكْرَةِ فِيهِ : وَهُوَ غَرِيبٌ ، وَالتَّأَمُّلُ فِيهِ أَغْرَبُ ،  
وَلَكِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى خَيَالٍ سَيِّبُ يَوْمًا عَلَى أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ .

وَفِي ذَلِكَ الزَّمَنِ عَيْنُهُ كَانَ الْبَارُودِي شَهَابًا يَلْتَهَبُ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مَبْلَغُهُ وَاسْتَجْمَعَ  
أَسْبَابَ نِهَاتِيهِ ، بَلْ هُوَ نَظْمٌ قَبْلَ ذَلِكَ بِسِتِّ سَنَوَاتٍ قَصِيدَتُهُ الشَّهِيرَةُ [من الكامل] :

أَخَذَ الْكَرَى بِمَعَاقِدِ الْأَجْفَانِ وَهَفَا الشَّرَى بِأَعْنَةِ الْفَرْسَانِ  
فَلَمْ يَكُنْ لِيَذْهَبَ وَجْهُ الشَّعْرِ عَنْ صَبْرِي ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُغْضِي عَنِ اخْتِيَاءِ هَذِهِ الصَّنْعَةِ  
الْبَارِعَةِ وَيَأْخُذَ فِي غَيْرِهَا لَوْلَا أَنَّ فِيهِ طَبْعًا مُسْتَقِلًّا يَذْهَبُ إِلَى كَمَالِهِ فِي أُسْلُوبٍ آخَرَ  
كَأُسْلُوبِ كُلِّ زَهْرَةٍ فِي غُصْنِهَا ، وَأَخْصُ أَحْوَالِ صَبْرِي أَنَّهُ لَمْ يَرَدْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا فَجَاءَ أَكْبَرُ  
مِنْ شَاعِرٍ ، وَكَانَ السَّبَبُ الَّذِي صَرَفَهُ مِنْ نَاحِيَةٍ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

\* \* \*

يَتَّبِعُ الشَّاعِرُ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ لَا بُدَّ مِنْهَا : طَرِيقَةُ الدَّرْسِ الَّتِي عَالَجَ بِهَا الشَّعْرَ ، وَكُتُبُ هَذِهِ  
الطَّرِيقَةِ ، وَالرِّجَالُ الَّذِينَ هُمْ أَمْثَلُهُ فِي نَفْسِهِ . ثُمَّ . . . وَيَا لِلَّهِ مِنْ ثَمِّ هَذِهِ ، فَهِيَ اللَّمَحَةُ  
السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَى فُؤَادِ الشَّاعِرِ مِنْ وَجْهِ جَمِيلٍ ، وَالثَّلَاثُ الْأُولَى تُنْشِئُ بُيُوعًا

مَعْرُوفًا فِي نَوْعِهِ وَمِقْدَارِهِ ، وَلَكِنَّ الْأَخِيرَةَ هِيَ طَرِيقُ الْقَدَرِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ آخِرُهَا : وَإِذَا  
تَجَدَّدَتْ فِي حَيَاةِ الشَّاعِرِ أَوْ اتَّصَلَتْ تَجَدَّدَ بِهَا بُيُوعُهُ أَوْ اتَّصَلَ ، فَعَلَى قَدَرِ مَا يُجِبُّ تَحْوِيلُهُ  
السَّمَاءَ مِنْ أَسْرَارِ الْجَمَالِ ، وَهِيَ نَفْسُهَا أَجْمَلُ أَسْبَابِ الشَّعْرِ وَأَجْمَلُ مَعَانِيهِ وَأَجْمَلُ  
غَايَاتِهِ ، فَهِيَ هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي تَوَلَّفَ بَيْنَ نَفْسِ الشَّاعِرِ وَبَيْنَ مَعْنَى الْجَمَالِ الشَّعْرِيِّ فِي هَذَا  
الْكُونِ كُلِّهِ ، وَإِذَا أَنْتَ نَزَعْتَ النُّظْرَةَ وَالْإِنْسَامَةَ - وَهُمَا غُنْصُرَا تِلْكَ الْمَادَّةِ - مِنْ حَيَاةِ  
الشَّاعِرِ ، نَزَعْتَ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا مِنْ شِعْرِهِ ، فَمَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مَقْبَرَةٌ لِلْأَفْظَادِ وَالْمَعَانِي ،  
وَتَسْمَعُ شِعْرَهُ فَلَا تَجْزِيهِ بِهِ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِكَ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ . . . وَصَبْرِي لَمْ يَدْرُسِ الشَّعْرَ  
فِي الْكُتُبِ أَكْثَرَ مِمَّا دَرَسَهُ فِي الْوُجُوهِ وَالْعُيُونِ ، وَقَدْ عَالَجَ هَذَا الشَّعْرَ فِي بَدَايَتِهِ لِيَتَأَنَّى إِلَيْهِ  
مِنْ طَرَفِهِ الْبَعِيدَةِ ؛ أَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا أَمْثَلَهُ فَكَانُوا رِجَالِ الظَّرْفِ وَالرَّقَّةِ وَالثُّكْنَةِ  
الْمِصْرِيَّةِ الشَّهِيرَةِ ، الَّتِي أَنْفَرَدَ بِهَا الطَّنْبُجُ الْمِصْرِيُّ وَنَصَّ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ ، كَالسَّكَاكِينِ  
وَعَبِيدِهِ ؛ بَلْ كَانَ عَصْرُهُ كُلُّهُ عَصْرَ هَذِهِ الثُّكْنَةِ ، فَتَحَوَّلَتْ فِي طَبْعِهِ الرَّقِيقِ الْمُبْتَكِرِ تَحْوِيلًا  
رَقِيقًا مُبْتَكِرًا أَرْجَعَهَا إِلَى الظَّرْفِ الْمَخْصُصِ الَّذِي أَجْتَمَعَتْ فِيهِ كُلُّ طَبَاعِهِ كَمَا يَجْتَمِعُ السَّحَابُ  
مِنَ الْمَاءِ .

وَلَقَدْ كَانَ فِي شِعْرِهِ أَحَقُّ النَّاسِ بِقَوْلِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَغْرِبِيِّ [من الطويل] :

أَشْكَانَ مِصْرٍ جَاوَرَ التَّيْلُ أَرْضَكُمْ فَأَكْسَبَكُمْ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ فِي الشَّعْرِ  
وَكَانَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ سِحْرٌ فَمَا بَقِيَ سِوَى أَثَرٍ يَبْدُو عَلَى النَّظْمِ وَالنُّثْرِ  
وَأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ دَائِمَ الْحُبِّ : يَمْرُجُ ذِكْرِي مَاضِيهِ بِحَاضِرِهِ فَيَخْرُجُ مِنْهُمَا حُبًّا  
جَدِيدًا ؛ وَكَانَ الرِّجُلُ كَأَنَّهُ مَجْرُوحُ الْقَلْبِ ، فَلَا يَزَالُ يَتَنُّ حَتَّى فِي بَغْضِ أَنْفَاسِهِ ، إِذْ يُزِيلُ  
النَّفْسَ الطَّوِيلَ بَيْنَ هَتَّيَةٍ وَأُخْرَى كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَطْمَئِنَّ أَنْ نَفْسَهُ فِيهِ ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا بَاقِيًا فِي  
نَفْسِهِ ؛ وَتِلْكَ هَمَمَةٌ لَا تَكُونُ فِي شَاعِرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ بِغَيْرِ مَعْنَى .

كَانَتِ النُّظْرَةُ وَالْإِنْسَامَةُ تَتَمَثَّلُ لَهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَتَعْتَرِضُهُ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَرَاهَا ، فَيَجِدُ فِي  
كُلِّ شَيْءٍ رُوحًا مِنَ الشَّعْرِ ، وَيَفْرَأُ لِمَحَاتِهَا مَتَى اتَّعَمَّتْ ، وَكَانَ يَعِينُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ  
مَعْنَى فِي قَصِيدَةٍ هُوَ أَمِيرُ أَيْتَانِهَا .

فَشَاعَرُنَا هَذَا أَخْرَجَهُ اثْنَانِ : الظَّرْفُ وَالْجَمَالُ ؛ وَهَذَا سِرُّ إِبَائِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنَ الشُّعْرَاءِ ،

لأنه أرفع من أن يدخل بينهم في هذه الميخنة والبلوى التي ابتلوا بها . . .

ولقد هم صبري في أواخر عمره بمحو شعره لو أنه كان في مآل يده ؛ على أنه محاً منه بإهماله أكثر مما أثبت ؛ وعلمت منه أنه لم يدون شيئاً ، وأنه ينسى ما يقوله ، فكأنه يوجد بسبب واحد ويمحق بسببين ؛ وقد نما كان كبار العلماء متى انتهوا إلى التحقيق رأوا عمرهم كله يداية ، ورأوا ما فعلوا باطلاً ، فغسلوا كتبهم أو أحرقوها ، ولكننا لم نعرف هذه الطبيعة في شاعر بعد عصر الكناية والتدوين ، وإن كان بعضهم يأنف لنفسه أن يعد من الشعراء وهو مع ذلك يجمع يده على شعره ، كالشريف الرضي الذي يقول لمن الرجز :

مالك ترضى أن تعد شاعراً بعداً لها من عدد الفصائل  
ويقول في مدح أبيه [من الكامل] :

إنني لأرضى أن أراك ممدحاً وعلاك لا ترضى بأنني شاعر  
ومثله أبو طالب المأموني وآخرون يدعون ذلك دعوى وفي السنتهم ما ليس في قلوبهم .

ولإفراط صبري في الظرف والجمال وقيام شعره على هذين الزكنتين ، جاء مقلداً ، من أصحاب الفصاح ، وزاد إقلاله في قيمة شعره ، فخرجت مقاطيعه مخرج الشيء الطريف الذي يتعجب منه في وجوده أكثر مما يتعجب منه لقلته وجوده ؛ وبذلك ربح تعب المكثرين والمطيلين ، إذ كان لا يقول إلا فيما نواتيه السجية وينزع له الطبع ، فيدنو مأخذه ، ويكثر بقليله ، ويرمي منه بمثل الحجة والبرهان ، فيطمس بهما على كلام طويل وجدل عريض .

ولا يعيب المقل أنه مقل إذا كثرت حسناته ، بل ذلك أعون له على القلوب والنفوس إذا أصابت في شعره ما يغريها بطلب المزيد منه ؛ وقد عدوا بين المقلين في الجاهلية : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل ، وعديا بن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصينا بن الحمام ، والمسلم ، والحارث بن حلزة ، وأبن كلثوم ، وغيرهم أتينا على

أسمائهم في الجزء الثالث من « تاريخ آداب العرب » ؛ ومن أولئك من يُعرف بالقصيدة الواحدة : كطرفة ؛ ومنهم من يُعرف بثلاث قصائد : علقمة ؛ أو بأربع : كعدي بن زيد ؛ ومنهم من يُعرف بالآبيات المتفرقة ؛ ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصححين وأهل التحقيق ، فإن الحمل على شعراء الجاهلية كثير ؛ وقد يعرفون الشاعر بالبيت الفردي ، لأن العرب إنما يعتبرون الشعر بمقدار ما يحرك من ميزانه الطبيعي الذي هو القلب ، لا بالطول ولا بالقصر ، وقد قالوا في بيت النابغة [من الطويل] :

ولست بمستبني أخا لا تلثه على شعث ، أي الرجال المهذب ؟  
إنه لا نظير له في كلام العرب ؛ وما ذلك إلا على الاعتبار الذي أشرنا إليه . وكانوا يُسمون البيت الواحد : بيتاً ؛ فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نثفة ، وإلى العشرة تسمى قطعة ، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيدة .

وكان من الشعراء من يتعمد أن لا يجيء في شعره الجيد بغير البيتين والثلاثة إلى القطع الصغيرة ، كشاعرنا صبري باشا ؛ ومنهم عقيل بن علفه ؛ كان يقصر هجاءه ويقول : يكفينك من الفلاة ما أحاط بالعنق . ومنهم أبو المهور ، وكان يخج لذلك بأنه لم يجد المثل الكادر إلا بيتاً واحداً ، ولم يجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً ؛ ومنهم الجمار ؛ قال له بعضهم وقد أنشدته بيتين : ما تريد على البيتين والبيتين ؟ فقال : أردت أن أنشدك مذارعة ؟؟ وأبن لكك المصري ، وأبن فارس ، ومنصور الفقيه الذي كان يقال فيه : إذا رمح بزوجيه قتل ؛ ولا نستقصي في هذا قلندعه ، فإن له موضعاً .

غير أن صبري كان له مع جودة المقاطيع جودة القصيدة إذا قصد ، كقوم عرفوا بذلك في التاريخ ، منهم العباس بن الأختب وسواه ؛ وكان من أسباب إقلاله ما أعلمني به من أن طريفته في أكثر ما ينظم معارضة معنى يقف عليه ، أو تضمين حكمة ، أو ضرب مثل على طريقة النظر والملاحظة ، أو تدوين خطرة عرضت له ، أو لمحة أوجت إليه ؛ وهو ينزل في ذلك على التصفية والمعدلة فلا يتشجل شيئاً ليس له ، بل يدلك بنفسه على الأصل الذي منه أخذ أو المثل الذي عليه أخذ .

قال لي مرة : إن البستاني عقد حكمة فارسية في قوله [من الطويل] :

قَضَيْتَ إِلَهِي بِالْعَذَابِ قِيَا تُرَى بِأَيِّ مَكَانٍ بِالْعَذَابِ تَدِينُ  
وَلَيْسَ عَذَابٌ حَيْثُمَا أَنْتَ كَائِنٌ وَأَيُّ مَكَانٍ لَسْتَ فِيهِ تَكُونُ ؟  
ثُمَّ قَالَ : فَأَخَذْتُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَقُلْتُ [من الكامل] :

يَا رَبِّ أَيْنَ تُرَى تُقَامُ جَهَنَّمُ لِلظَّالِمِينَ غَدَاً وَلِلْأَشْرَارِ  
لَمْ يُبْقِ عَفْوُكَ فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْأَرْضِ شِبْرًا خَالِيًا لِلْكَارِ  
يَا رَبِّ أَهْلُنِي لِفَضْلِكَ وَأَكْفِنِي شَطَطَ الْعُقُولِ وَفِتْنَةَ الْأَفْكَارِ  
وَمُرِّ الْوُجُودِ يَسِفُ عَنْكَ لِكْنِي أَرَى غَضَبَ اللَّطِيفِ وَرَحْمَةَ الْجَبَّارِ  
يَا عَالِمَ الْأَسْرَارِ حَسْبِي مَخْنَةُ عِلْمِي بِأَنَّكَ عَالِمُ الْأَسْرَارِ  
وَالْفَرْقُ بَيْنَ الشَّعْرَيْنِ أَنَّ الْبُسْتَانِيَّ جَاءَ بِكَلَامِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا  
طَرِيقَةَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، كَابِنِ الْعَرَبِيِّ وَالشُّشْتَرِيِّ ؛ وَأَمَّا صَبْرِي فَأَنْظُرْ كَيْفَ اسْتَوْفَى وَكَيْفَ  
لَاءَمْ وَكَيْفَ امْتَلَأَتْ أَغْطَافُ شِعْرِهِ .

وَقَدْ يَأْخُذُ الْمَأْخَذَ الدَّقِيقَ الَّذِي لَا يَنْتَبَهُ لَهُ إِلَّا الْمُطَّلِعُ الْحَادِثُ بِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ ، كَقَوْلِهِ  
[من الطويل] :

إِذَا مَا صَدِيقٌ عَقَّنِي بِعَدَاوَةٍ وَقَوَّضْتُ يَوْمًا فِي مَقَاتِلِهِ سَهْمِي  
تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكَسَّرَ سَهْمِي فَأَنْتَنَيْتُ وَلَمْ أَرَمِ  
فَهَذَا يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ وَغَلَةَ [من الكامل] :

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أَمِيمَ أَخِي فَلِذَا رَمَيْتُ بِصَيْبِي سَهْمِي  
وَلِكَيْتَهُ لَيْسَ بِذَاكَ ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ الْمَعْنَى قَوْلُهُ : « تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ » وَهُوَ  
مِنْ قَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْتَفِ [من الخفيف] :

وَإِذَا مَا مَدَدْتُ طَرْفِي إِلَى غَيْدٍ رَكَ مَثَلَتْ دُونَهُ فَأَرَاكَ  
فَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَبْدَعَ فِي انْتِزَاعِ الْمَعْنَى وَكَيْفَ جَعَلَ لَهُ مَعْرُضًا جَدِيدًا ، وَكَيْفَ آدَاهُ أَحْسَنَ  
تَأْدِيَةٍ فِي الْطَفِّ وَجِهَ كَأَنَّهُ شَيْءٌ مُخْتَرَعٌ .

وَمِنْ شِعْرِهِ السَّائِرِ قَوْلُهُ فِي الْعِنَاقِ وَتَلَاوُحِ الْحَبِيبِينَ [من الطويل] :

وَلَمَّا التَّقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جُوهَهُ شَجِيئِينَ فَاضًا لَوْعَةً وَعَتَابًا  
كَأَنَّ صَدِيقًا فِي خِلَالِ صَدِيقِهِ تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ الْعِنَاقِ وَعَابًا  
وَهَذَا الْمَعْنَى عَلَى إِدْخَالِهِ فِيهِ مُتَدَاوِلٌ ، وَأَصْلُهُ لِبَشَارٍ - أَظُنُّ - فِي قَوْلِهِ (١) [من  
الطويل] :

وَبَيْنَا جَمِينًا لَوْ تُرَاقَى رُجَا جَعَةً مِنْ الْخَمْرِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسَرَّبِ  
فَأَبْدَعَ صَبْرِي فِي أَخْذِهِ وَجَعَلَ مِنْ هَذِهِ الرُّجَا جَعَةً الْمُتَصَدِّعَةِ جَوْهَرَةً تَتَأَثَّرُ ؛ عَلَى أَنِّي  
لَا أَسْتَخْسِنُ قَوْلَهُ « كَأَنَّ صَدِيقًا ... » فَمَا هَذَا بِعِنَاقِ الْأَصْدِقَاءِ وَلَوْ كَانَ الصَّدِيقُ رَاجِعًا  
مِنْ سَفَرٍ آخِرَةٍ ! وَإِذَا غَابَ وَاحِدٌ فِي الْآخِرِ فَلَا خَيْرَ حَامِلٍ بِهِ . وَقَدْ أَخَذْتُ أَنَا هَذَا الْمَعْنَى  
مِنْهُ ، وَلَوْلَا مَا أَهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ [من الطويل] :

وَلَمَّا التَّقَيْنَا ضَمَمَّا الْحُبَّ ضَمَّةً بِهَا كُلُّ مَا فِي مُهْجَتَيْنَا مِنْ الْحُبِّ  
وَشَدَّ الْهَوَى صَدْرًا لِصَدْرِ كَائِنًا يُرِيدُ الْهَوَى إِنْغَادَ قَلْبٍ إِلَى قَلْبٍ

\* \* \*

وَأَحْسَنُ مَا تَجَدَّدَ شِعْرَ صَبْرِي فِي الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ وَالْوَصْفِ وَالْحِكْمَةِ ، فَهِيَ عَنَاصِرُ  
قَلْبِهِ وَذَوْقِهِ ، وَلَا يَتَصَرَّفُ مَعَهُ أَقْوَى مَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ ، وَلَعَلَّهُ إِنْ جَاوَزَهَا  
قَصَرَ مَعَهُ شَيْئًا مَا وَضَعْتَ أَدَاتَهُ ضَعْفًا مَا ، لِأَنَّهُ يَكُونُ شَاعِرَ الصَّنْعَةِ وَهُوَ يَأْبَاهَا وَيَكْرَهُ أَنْ  
يَكُونَ شَاعِرًا مِنْ أَجْلِهَا ؛ وَقَلَمًا يُجَارِيهِ أَحَدٌ فِي تِلْكَ الْأَغْرَاضِ ، وَهُوَ الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَهَا ،

(١) أَلَيْتُ لِعَلِّي بِنِ الْجَهْمِ ، وَقَبْلَهُ [من الطويل] :

أَلَا رَبِّ لَيْلٍ ضَمَمًا بَعْدَ هَجَعَةٍ وَأَذْنَى فُؤَادًا مِنْ فُؤَادِ مُعَذِّبٍ  
أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ بَشَارٍ [من الطويل] :

وَمُزْنَجَةِ الْأَغْطَافِ مَهْضُومَةِ الْخَشَا تَمْوُزُ بِسُخْرِ عَيْنَيْهَا وَتَمْوُزُ  
إِذَا تَطَلَّرَتْ صَبَتْ عَلَيْكَ صَبَابَةً وَكَادَتْ قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ تَطِيرُ  
خَلُوتُ بِهَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُورُ



وَحَسْبُكَ أَنَّهُ الْمِثَالُ الَّذِي أَخَذْتُ عَلَيْهِ شَوْقِي بِكَ ؛ وَقَدْ يَنْقَسِمُ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ فِي رَجُلَيْنِ حِينَ يَقْدِرُ ، فَإِذَا لَمْ يُوجَدْ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدْ الْآخَرُ ، وَأَنَا أَرَى وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْلَا صَبْرِي لَمَا نَبَغَ شَوْقِي ، وَكَانَ هَذَا يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ يَغْرِضُ عَلَيْهِ شِعْرُهُ وَيَرْجِعُ بِأَثَارِ ذَوْقِهِ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ خَلِيفَةُ الْبَارُوْدِيِّ حَافِظُ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ ، وَاسْتَرْفَدَ شَوْقِي مِنْ صَبْرِي بِأَشَا هَذَا الْبَيْتِ أَلْسَانُ [من البسيط] :

صُوْنِي جَمَالِكَ عَنَّا إِنَّمَا بَسْرٌ مِنْ الثَّرَابِ وَهَذَا الْخُسْنُ رُوحَانِي فَهُوَ لَصَبْرِي بِأَشَا ، وَالْمُرَافَدَةُ سُنَّةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ قَدِيمٍ ، وَهِيَ غَيْرُ الْإِنْجَالِ وَغَيْرِ السَّرِقَةِ وَمَا يُسَمَّى إِغَارَةً وَغَضَبًا ؛ وَقَدْ اسْتَرْفَدَ النَّابِغَةُ زُهَيْرًا فَأَمَرَ ابْنَهُ كَعْبًا فَرَفَدَهُ ، وَالْحِكَايَةُ فِي ذَلِكَ مَشْهُورَةٌ عَنْهُ وَعَنْ سِوَاهُ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي مِصْرَ مِمَّنْ يُحْسِنُ ذَوْقَ الْبَيَانِ وَتَمَيِّزَ أَقْدَارِ الْأَلْفَاظِ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ وَالْوَلَانِ دَلَالَتِهَا كَالْبَارُوْدِيِّ وَصَبْرِي وَإِبْرَاهِيمَ الْمُؤَلِّجِي وَالشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ؛ وَالْبَارُوْدِيُّ يَذُوقُ بِالسَّلَافَةِ ، وَصَبْرِي بِالْعَاطِفَةِ ، وَالْمُؤَلِّجِيُّ بِالظَّرْفِ ، وَالشَّيْخُ بِالْبَصِيرَةِ الْقَادَةِ ؛ وَذَلِكَ شَيْءٌ رَكَّبَهُ اللَّهُ فِي طَبِيعَةِ صَبْرِي لَمْ يُحْصِلْهُ بِالذَّرْسِ أَكْثَرَ مِمَّا حَصَلَهُ بِالْحِسِّ ، وَمِنْ أَجْلِهِ كَانَ يُفَضِّلُ الْبُخْتَرِيَّ عَلَى غَيْرِهِ ، وَهُوَ بِلَا نِزَاعٍ بُخْتَرِيٌّ مِصْرِي ، كَمَا لَقَّبُوا أَبْنَ زَيْدُونَ بُخْتَرِيَّ الْمَغْرِبِ ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ بَعْضَ الْأَلْفَاظِ فِي شِعْرِ الرَّجُلِ كَأَنَّهَا شِعْرٌ مَعَ الشَّعْرِ ، فَتَقِفُ عَلَى الْعِبَارَةِ مِنْهَا وَقَلْبُكَ يَنْتَفِسُ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا إِنَّمَا وَضِعَتْ لِقَلْبِكَ خَاصَّةً ، فَهِيَ تَغْمِزُ عَلَيْهِ غَمْرًا وَكَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَاءَتْكَ فِي نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْجَنَّةِ .

وَيَمْتَنَزُ نَسِيبُهُ بِأَنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ فِي طَهَارَتِهِ وَعِفَّتِهِ ضَوْءًا مِنْ جَمَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَهُوَ عِنْدِي أَنْسَبُ مِنَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَخْتَبِ الَّذِي صَرَفَ كُلَّ شِعْرِهِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَوْ أَنَّ عَصْرَهُ كَانَ عَصْرَ آدَبٍ صَحِيحٍ لَأَخْمَلَ كُلَّ شِعْرَاءِ هَذَا الْبَابِ ، مِنْ أَبْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ إِلَى طَبَقَةِ عَشَاقِ الْعَرَبِ إِلَى أَيْمَةِ الطَّرِيفَةِ الْغَرَامِيَّةِ لِآخِرِ الْقَرْنِ السَّابِعِ .

وَمِنْ غَزَلِهِ الْبَدِيعِ قَوْلُهُ [من البسيط] :

يَا مَنْ أَقَامَ فُؤَادِي إِذْ تَمَلَّكَهُ مَا بَيْنَ نَارَيْنِ مِنْ شَوْقِي وَمِنْ شَجَنِ تَفْدِيكَ أَغْنِي قَوْمَ حَوْلِكَ أَرْدَحَمَتْ عَطَشِي إِلَى نَهْلَةٍ مِنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ جَرَّدَتْ كُلَّ مَلِيحٍ مِنْ مَلَاحِيهِ لَمْ تَتَّقِ اللَّهَ فِي ظَنِّي وَلَا غُصْنِ وَقَوْلُهُ [من البسيط] :

أَفْصِرُ فُؤَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِشَافِعَةٍ وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا سَلَا الْفُؤَادُ الَّذِي شَاطَرْتَهُ زَمْنَا خَفَقَ الصَّبَابَةُ فَأَخْفِقَ وَحْدَكَ الْآنَا وَبَا رَحْمَةِ اللَّهِ لِلْقَلْبِ الَّذِي يَفْهَمُ هَذَا الْبَيْتَ ، فَإِنَّهُ لَيَجْنُ بِهٍ مَنْ يَكُونُ فِيهِ اسْتِعْدَادٌ لِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْجُنُونِ .

وَمِنْ فَلَانِيهِ الْغَرَامِيَّةُ قَوْلُهُ [من البسيط] :

يَا آسِيَّ الْحَيِّ هَلْ فَشِنْتَ فِي كِبْدِي وَهَلْ تَيَسَّنْتَ دَاءَ فِي زَوَايَاهَا أَوَاهُ مِنْ حُرْقِي أَوَدْتَ بِمُعْظَمِهَا وَلَمْ تَزَلْ تَتَمَشَّى فِي بَقَايَاهَا يَا شَوْقُ رَفَقًا بِأَضْلَاعِ عَصَفَتْ بِهَا فَالْقَلْبُ يَخْفِقُ دُغْرًا فِي خَنَائَاهَا وَلَهُ قَصِيدَةٌ (بِمِثَالِ جَمَالٍ) وَقَدْ نَظَّمَهَا لِنُتْقَلِ إِلَى الْفِرَنْسَوِيَّةِ ، وَمِنْ عُيُونِهَا قَوْلُهُ [من]

الرمل] :

وَأَبْسِمِي ، مَنْ كَانَ هَذَا ثَمَرُهُ يَمْلَأُ الدُّنْيَا أَبْتِسَامًا وَأَزْدِهَاءَ لَا تَخَافِي شَطَطًا مِنْ أَنْفُسِ تَغْشُرُ الصَّبَوَةَ فِيهَا بِالْحَيَاءِ رَاضَتْ التَّخَوُّةُ مِنْ أَخْلَاقِنَا وَارْتَضَى آدَابُنَا حُسْنُ الْوَلَاءِ فَلَوْ أَمْتَدَّتْ أَمَانِينَا إِلَى مُلْكٍ مَا كَلَّدَتْ ذَاكَ الْصَفَاءَ

وَالشُّعْرَاءُ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِ الْأَدَبِ إِلَى الْيَوْمِ يَقُولُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : « لَا تَخَافِي شَطَطًا » الْآيَاتُ . وَمَا مِنْهُمْ مَنْ وَفَّقَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْآخِرِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ بَلَغَ الْغَايَةَ ، كَأَبْنِ ثُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ وَالرَّقَّاءِ وَغَيْرِهِمَا .

وَمِنْ أَبْدَعَ مَا اتَّفَقَ لَهُ فِي الْوَصْفِ آيَاتُ فِي الدَّوَاةِ تَخَلَّصَ فِي آخِرِهَا إِلَى مَذْحِ الْبَيْتِ ، وَهُوَ تَخَلَّصَ لَيْسَ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ كُلُّهُ مِثْلُهُ فِي الْإِنْدَاعِ وَحُسْنِ الْاِخْتِرَاعِ ،

يَقُولُ فِيهَا [من الخفيف] :

أَكْرَمَنِي الْعِلْمَ وَأَمْتَحَنِي خَادِمِيهِ  
وَأَبْذَلَنِي الصَّافِي الْمَطَهَّرَ مِنْهُ  
وَإِذَا الظُّلُمُ وَالظُّلَامُ اسْتَعَانَا  
وَأَسْتَمَدًا مِنَ الشُّرُورِ مَدَادًا  
وَأَفْذِنِي النُّقْطَةَ الَّتِي بَاتَ فِيهَا  
لِسِرَاعِ أَمْرِي إِذَا خَطَّ سَطْرًا  
وَإِذَا كَانَ فِيكَ نُقْطَةُ سُوءٍ  
فَأَجْعَلِيهَا قِسْطَ الَّذِينَ اسْتَبَاحُوا  
وَإِذَا خِفْتَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّخْرِ  
فَأَبْخَلِي بِالْمِدَادِ بُخْلًا وَإِنْ أُعْطِيَ  
فَإِذَا أَعْوَزَ الْمِدَادُ طَبِيبًا  
فَأَمْتَحِنِيهِ الْمُرَادَ مَثًا وَعُزْفًا  
وَإِذَا مُهَجَّةُ الْحَمَائِمِ أَسْدَتْ  
فَأَجْعَلِيهَا عَلَى الْمَوَدَّاتِ وَفَقَا  
فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِقَلْبِكَ إِلَّا  
فَأَجْعَلِيهِ حَظِّي لِأَكْتُبَ مِنْهُ  
هَذَا وَاللَّهُ هُوَ الشَّعْرُ ، وَمَا وَفَّقَ إِلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ كَانَتْ مِنْ كَانَ فِي هَذَا الْعَصْرِ .

\* \* \*

وَلَا تُطِيلُ بِالنَّقْلِ مِنْ شِعْرِهِ وَتَتَّبِعْ أَغْرَاضِهِ ، فَهُوَ كَالْأَلْمَاسِ فِي الشَّمْسِ : يُشِعُّ مِنْ كُلِّ  
جَهَةٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ ضَوْؤُهُ إِلَّا فِي بَعْضِ اللَّوْنِ مِمَّا يَكُونُ الْأَجْمَلُ فِيْمَا كُلُّهُ جَمَالٌ ، وَيَمُجُّ مِنْ  
الشَّمْعِ مَا لَا تَجِدُ حُسْنَهُ فِي الشَّمْعِ نَفْسِهِ ، وَأَخْيَانًا يَرُقُّ كَبَعْضِ الْبُلُورِ فَيَمْنَعُ حَرَارَةَ الشَّمْسِ  
وَيَسْتَوْقِدُ بِهَا فِي ذَاتِهِ لِيُضْرَمَ مَا وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَمَا وَرَاءَهُ إِلَّا قُلُوبُنَا الْحَزِينَةُ عَلَيْهِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ !

\* \* \*

### حَافِظُ أَبْرَاهِيمَ (\*)

فَرَعْتُ آلَانَ مِنْ قِرَاءَةِ شِعْرِ حَافِظٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَعُدْ حَافِظٌ بَيْنَنَا إِلَّا شِعْرُهُ وَتَثْرُهُ ، فَبِاللَّهِ  
أَخْلَفُ مَا نَظَرْتُ فِي صَفْحَةٍ مِمَّا بَيْنَ يَدَيَّ إِلَّا وَأَحْسَسْتُ أَنَّ ذَلِكَ الشَّاعِرَ الْعَظِيمَ يَقُولُ فِي  
بَيَانِهِ الرَّائِعِ وَصِنَاعَتِهِ الْبَدِيعَةِ : أَنَا هُنَا !

وَلَعَنَةُ هَذَا الشَّعْرِ الْمُنْدَفِقَةُ بِالْحَيَاةِ كَأَنَّ كَلِمَاتِهَا الْقَوِيَّةَ عُرُوقُ فِي جِسْمٍ حَيٍّ مُتَوَتِّبٍ . لَمْ  
تَخْرُجْ عَنْ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْعَرَبِيَّةُ الْمُبِينَةُ فِي جَزَالَتِهَا وَنَصَاعَتِهَا وَدِقَّةِ تَرْكِيبِهَا الْبَيِّنَاتِي ، وَمَعَ  
ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي هَذَا الْعَصْرِ كُلِّهِ مَنْ يُكَابِرُ أَوْ يُمَارِي فِي أَنَّهَا هِيَ لُغَةُ حَافِظٍ وَحْدَهُ ، كَأَنَّهُ  
أَرْغَمَ التَّارِيخَ أَنْ يَحْفَظَ بِهِ فِي أَجْمَلِ آثَارِهِ .

وَأَنَا أَعْرِفُ فِي شِعْرِهِ مَوَاضِعَ مِنَ الاضطرابِ وَالضَّعْفِ وَالنَّقْصِ سَاشِيَةً إِلَى بَعْضِهَا ،  
وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَعْرِفُهُ أَجِدُ هَذَا الشَّعْرَ كَالْتِيَارِ يَعْثُ عُبَابَهُ لَا يُبَالِي مَا تَنَازَرَتْ مِنْهُ وَمَا رَكَدَ وَمَا  
وَقَعَ فِي غَيْرِ مَوْقِعِهِ ، إِذْ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي اجْتِمَاعِ مَادَّتِهِ لَا فِي أَجْزَاءِ مِنْهَا ، وَفِي السَّرِّ الَّذِي  
يَذْفَعُهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لَا فِي الْمَظْهَرِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ ، فَهُوَ أَبَدًا يَقُولُ  
لِمَنْ يَتَصَفَّحُ عَلَيْهِ أَوْ يَتَفَقَّهُ : أَنْظُرْ لِمَا بَقِيَ .

\* \* \*

تَرَجِعُ صِدَاقَتِي لِحَافِظِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى سَنَةِ ١٩٠٠ ، أَوَّلِ عَهْدِي بِالْأَدَبِ وَطَلَبِهِ ، وَقَدْ  
شَهِدْتُ مِنْ يَوْمِئِذٍ بِنَاءَهُ الْأَدَبِيَّ عَالِيًا فَعَالِيًا إِلَى الذَّرْوَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا ؛ وَأَخْلَصَ لِي ثِقَتَهُ  
وَأَصْفَانِي مَوَدَّتَهُ ، وَكَانَ هُمُكَ مِنْ أَخٍ كَرِيمٍ ، وَلَهُ فِي نَفْسِي مَكَانٌ لَمْ يُنْكَرْهُ مَذْعَرَفَتُهُ ، وَلَمْ  
يَضِقْ بِمَحَبَّتِهِ مُنْذُ اتَّسَعَ لَهَا ، وَكُنْتُ وَإِيَّاهُ يَرَى أَحَدُنَا الْآخَرَ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ كَالْجَانِبَيْنِ لِصُورَةٍ  
وَاحِدَةٍ : لَا يَتَهَيَّأُ فِي الطَّبِيعَةِ أَنْ يَخْتَلِفَا وَالصُّورَةُ بَعْدَ قَائِمَةٍ ، وَلَا أَنْ يَضْطَرِبَ مَا بَيْنَهُمَا  
وَالصُّورَةُ مِنْهُمَا عَلَى وَزْنٍ وَتَقْدِيرٍ .

وَلَكِنِّ هَذَا لَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَقَرَّرَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدِي أَكْبَرَ مِنْ شِعْرِهِ - وَلَعَلَّهُ كَذَلِكَ عِنْدَ كُلِّ مَنْ

(\*) « الْمُتَقَطَّفُ » ، المجلد ٨١ ، أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٢ ، الصفحة ٢٦٦ وما بعدها .

خَلَطُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ - فَإِنَّهُ يَتَعَاطَمُكَ بِنَفْسِهِ الْقَوِيَّةِ وَيَالْمَعْنَى الَّذِي تُحْسِنُهُ فِي الْعَبَرِيِّ وَلَا تَدْرِي مَا هُوَ ، وَذَلِكَ مِنْ سِحْرِ الْعَبَرِيِّينَ وَأَثَرِهِمْ فِي نَفْسٍ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِمْ ، فَيَسْقُ لَهْمُ أَمْرَانِ مِنْ أَمْرٍ وَاحِدٍ ، وَحَظَّانٍ بِحَظٍّ ؛ وَنَصِيبَانِ بِنَصِيبٍ ؛ لِأَنَّ مَعَ الْإِعْجَابِ بِأَثَرِهِمْ إِعْجَابًا آخَرَ بِالْقُوَّةِ الَّتِي أَبْدَعَتْ هَذِهِ الْأَنَارَ ؛ فَبَيْنَ ذَوَاتِهِمْ الْمَخْبُوءَةِ يَسْتَمِرُّ الْإِعْجَابُ كَالسَّائِرِ عَلَى طَرِيقٍ لَا مَوْقِفَ عَلَيْهِ ، وَفِي أَثَرِهِمْ يَكُونُ الْإِعْجَابُ فِي مَوْقِفٍ قَدْ انْتَهَتْ الطَّرِيقُ بِهِ فَوْقَ عَلَى حَدِّ إِنْ بَعُدَ وَإِنْ قَرُبَ .

لَا جَرَمَ كَانَ شَاعِرُنَا عَبْرِيًّا ، عَجِيبَ الصَّنْعَةِ ، قَوِيَّ الْإِلْهَامِ ، بَلِغَ الْأَثَرِ فِي عَصْرِهِ ، يُشَبِّهُ تَحَوُّلًا وَقَعَ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ التَّارِيخِ ، وَلَكِنَّهُ كَذَلِكَ فِي مَذَاهِبٍ مِنَ الشُّعْرِ دُونَ غَيْرِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ التَّمَامِ فِي قُنُونِ الشُّعْرِ مَا يَكُونُ بِهِ الشَّاعِرُ التَّامُّ أَوْ الْأَدِيبُ الْكَامِلُ الْأَدَاةُ ؛ وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ كَلَّمْتُهُ فِي ذَلِكَ وَنَهَيْتُهُ إِلَى أَنَّهُ كَالْمَطِّ الْوَاحِدِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَرَسَّلَ شِعْرُهُ بَيْنَ الثُّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَغْرَاضِهَا الْكَثِيرَةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَإِذَا كَانَتِ السِّيَاسَةُ مِنَ الْحَيَاةِ فَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ هِيَ السِّيَاسَةُ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شِعْرُهُ كُلُّهُ كَشْمَسِ الصَّنِيفِ ، فَإِنْ لِلرَّبِيعِ شَمْسًا أَجْمَلَ مِنْهَا وَأَحَبَّ ، كَأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أَزْهَارِهِ وَعِطْرِهِ وَنَسِيمِهِ .

وَلَقَدْ كَانَ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ (الشَّاعِرُ الْاجْتِمَاعِيُّ) ، وَهَذَا لَقَبٌ مَيَّزَهُ بِهِ صَدِيقُنَا الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ كُرْدُ عَلِيٍّ أَبَاكَ كَانَ فِي مَضَرٍّ قَدِيمًا ، فَتَعَلَّقَ بِهِ حَافِظٌ وَرَأَاهُ تَغْيِيرًا صَحِيحًا لِمَا فِي نَفْسِهِ وَلِلْمَمْلَكَةِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا ، قَالَ لِي يَوْمًا فِي سَنَةِ ١٩٠٣ : أَنَا لَا أَعُدُّ شَاعِرًا إِلَّا مَنْ كَانَ يَنْظُمُ فِي الْاجْتِمَاعِيَّاتِ . فَقُلْتُ لَهُ : وَمَا لَكَ لَا تَقُولُ بِالْعِبَارَةِ الْمَكْشُوفَةِ : إِنَّكَ لَا تَعُدُّ الشَّاعِرَ إِلَّا مَنْ يَنْظُمُ مَقَالَاتِ الْجَرَائِدِ ...

وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَبْسُطَ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا الْفَصْلِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُحِيلُ إِلَيَّ دَائِمًا أَنَّ شَاعِرَنَا (حَافِظَ) خُلِقَ لِلتَّارِيخِ فِي أَصْلِ طَبِيعَتِهِ ، ثُمَّ زِيدَتْ فِيهِ مَوْهَبَةُ الشُّعْرِ لِيَكُونَ مُؤَرِّخًا حَيٍّ الْوَصْفِ بَلِغَ التَّأْوِيلِ قَوِيَّ التَّصَرُّفِ ، وَمِنْ نَمَّ جَاءَ أَكْثَرُ مَا نَفَّظَهُ وَأَسَاسُهُ التَّارِيخُ وَالسِّيَاسَةُ ، وَصَحَّ لَهُ بِهَذَا الْاِغْتِيَارُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّهُ الشَّاعِرُ الْاجْتِمَاعِيُّ ، وَلَكِنْ مَادَّةُ الشُّعْرِ غَيْرُ رُوحِ الشُّعْرِ ، فَإِذَا كَانَ فِي الْمَادَّةِ اجْتِمَاعِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ فَلَيْسَ فِي الرُّوحِ إِلَّا الشَّاعِرُ عَلَى إِطْلَاقِهِ ؛ وَالْاجْتِمَاعِيَّاتُ لَيْسَتْ كُلُّ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَانٍ خَاصَّةٌ مَخْصُورَةٌ فِي رَمَتِهَا

وَمَكَانِهَا ، عَلَى أَنَّ الْحَقَائِقَ لَيْسَتْ هِيَ الشُّعْرُ ، وَإِنَّمَا الشُّعْرُ تَصَوُّيْرُهَا وَالْإِحْسَاسُ بِهَا فِي شَكْلِ حَيٍّ تَلَبَّسَهُ الْحَقِيقَةُ مِنَ النَّفْسِ ، فَالشَّاعِرُ الْاجْتِمَاعِيُّ شَاعِرٌ فِي حَيِّزٍ مَخْدُودٍ مِنْ وَجْهِ الشُّعْرِ وَمَذَاهِبِهِ ، وَإِذَا كَانَ الْاجْتِمَاعُ كُلُّ شِعْرِهِ فَلَا يُسَمَّى شِعْرُهُ قَتَا ، إِذْ كَانَ الْقَتَا إِنْسَانِيًّا وَكَانَ شَامِلًا عَامًّا ؛ وَالْمَقَاسِيسُ الَّتِي يَطْرُدُ عَلَيْهَا الْقَتَا الْأَدِيبِي لَا تَكُونُ فِي الزَّمَنِ وَلَا فِي الْمَوْضِعِ ، بَلْ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِوَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الشُّعْرُ إِنْسَانِيًّا عَامًّا يُؤَلِّدُ كُلَّ جِيلٍ مِنَ النَّاسِ فَيَجِدُهُ كَأَنَّمَا وَضِعَ لَهُ وَأَرْتَهَنَ بِأَغْرَاضِهِ وَحَقَائِقِهِ ، فَهُوَ شِعْرٌ (كَالْأَخْبَارِ الْمَحَلِّيَّةِ) ؛ وَهَذَا وَجْهُ الشُّبْهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَشْرَفَتْ إِلَيْهِ إِنْفَا مِنْ نَظْمِ مَقَالَاتِ الْجَرَائِدِ .

فَمَقَالَاتُ الْجَرَائِدِ هَذِهِ لَا تَأْتِينَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي نَحْنُ مِنْهَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ وَحَقَائِقِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، بَلْ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا يَوْمُنَا الْمَرْقُومُ بِأَنَّهُ يَوْمٌ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا مِنْ سَنَةٍ كَذَا ... فَإِذَا مَاتَ الْيَوْمُ مَاتَتِ الْجَرِيدَةُ ، ثُمَّ تُوَلِّدَتْ ثُمَّ تَمُوتُ ؛ وَقَدْ أَدْرَكَ الْمُتَنَبِّي سِرَّ الشُّعْرِ وَأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى تَحْوِيلِ الشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ إِلَى مَعْرِفَةِ إِنْسَانِيَّةٍ ، فَخَلَدَ شِعْرُهُ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْحَى مِنَ الْعَرَبِيَّةِ مَا بَقِيََتْ . وَهَذَا عَلَى مَا يُفْخَرُ مِنْ وَجْهِ الْأَغْرَاضِ وَالنَّقْصِ ، وَعَلَى أَنَّ الْمُتَنَبِّيَّ كَانَ ضَعِيفًا فِي نَاحِيَةِ الْجَمَالِ وَالْحُبِّ ضَعْفًا ظَاهِرًا كَضَعْفِ شَاعِرِنَا حَافِظٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَكِنْ حِكْمَتُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَدَقَّةُ أَوْصَافِهِ وَإِقَامَتُهُ الْفَضَائِلِ وَالرَّذَائِلِ فِي كَمَالِهَا الْفَنِيِّ مَقَامَ تَمَائِيلَ بَارِعَةٍ مِنَ الْجَمَالِ ، كُلُّ ذَلِكَ تَرَكَ شِعْرُهُ مُسْتَمِرًّا بِاسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ وَبِاسْتِمْرَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبِاسْتِمْرَارِ الدُّوَى .

إِنَّ هَذَا الْكَوْنَ مَبْنِيٌّ فِي نَفْسِهِ مِمَّا يَعْلَمُ الْعِلْمُ تَرْكِيبُهُ وَلَا يَعْلَمُ سِرَّ تَرْكِيبِهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَلَكِنَّهُ مَبْنِيٌّ فِي أَنْفُسِنَا مِنْ عَمَلِ الْحَوَاسِّ ، ثُمَّ مِنَ التَّلْغِيلِ وَالتَّفْسِيرِ ؛ أَمَّا الْحَوَاسُّ فَفِي كُلِّ حَيٍّ ، لَا تُخْلَقُ بِصِنَاعَةٍ وَلَا عَمَلٍ ؛ وَأَمَّا التَّلْغِيلُ وَالتَّفْسِيرُ فَهُمَا مِنْ صِنَاعَةِ الشَّاعِرِ وَالْأَدِيبِ ، فَكِلَاهُمَا يُخْلَقُ لِإِتْمَامِ الْخَلْقِ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ مَثَرَةٌ لَا أَدْرِي كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تُنْسَخَ حَتَّى تَقْتَصِرَ عَلَى مَعْنَى الشَّاعِرِ الْاجْتِمَاعِيِّ أَوْ السِّيَاسِيِّ ، فَتَرْجِعُ بِهِ نَمَطًا وَاحِدًا مَعَ أَنَّ الْأَنَارَ الْأَدِيبِيَّةَ وَفِي جُمْلَتِهَا الشُّعْرُ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا قُوَى الْفِكْرِ وَالْإِلْهَامِ النَّفْسِ وَبَصِيرَةُ الرُّوحِ مُسَجَّلَةٌ كُلُّهَا فِي بَوَائِعِهَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ نَفْسٍ عَالِيَةٍ مُنْتَازَةٍ ؛ وَهَذِهِ الْقُوَى كَثِيرَةٌ التَّحْوِيلِ ،

فَجِبَتْ ضَرُورَةٌ أَنْ تَكُونَ آثارُهَا كَثِيرَةً التَّنَوُّعِ ، وَتَتَوَعَّدُ الصُّورَ الْفِكْرِيَّةَ فِي آثَارِ الشَّاعِرِ أَوْ الْأَدِيبِ وَمَجِبُهَا مُتَوَافِرَةٌ مُتَابِعَةٌ هُوَ مِغْيَارُ أَذْيِهِ وَفِئَاسُ نُبُوغِهِ عَالِيًا أَوْ نَازِلًا ، وَمُتَبِعًا أَوْ مُتَبَكِّرًا ، وَفِيمَا يُضْيِيهِ مِنْ نَوَاحِيهِ وَمَا يَنْطَفِيئُ .

عَلَى أَنَّ شَاعِرَنَا الْأَجْتِمَاعِي (كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوصَفَ رَحِمَهُ اللَّهُ) وَإِنْ كَانَ قَدْ نَفَخَ فِي رُوحِ الشَّعْبِ أَنْفَاسًا إِلَهِيَّةً ، وَأَحْسَنَ فِي وَصْفِ حَوَادِثِهِ وَالْأَمَةِ وَعُيُوبِهِ ، وَأَبْلَغَ الْبَيَانِ فِي كُلِّ ذَلِكَ - فَإِنَّهُ نَزَلَ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ عَنْ وَضْعِهِ الصَّحِيحِ ، فَكَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ بِمَكَانِ الشَّرْطِيِّ فِي الطَّرِيقِ ؛ يَتَفَقَّدُ لِلْجَوَائِمِ وَالْحَوَادِثِ ، عَلَى جِهَتِهِ أَنَّ مَقَامَهُ الْأَجْتِمَاعِي مِنَ الشَّعْبِ مَقَامُ الْمُعَلِّمِ فِي مَدْرَسَتِهِ : يَجْلِسُ لِلطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ . لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ يُوجَدَ فِي شِعْرِ الشَّاعِرِ حَوَادِثُ عَصْرِهِ أَكْثَرُهَا أَوْ أَقَلُّهَا ، فَإِنَّ فَوْقَ هَذِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْهَا ، وَهِيَ أَنْ تُوجَدَ حَوَادِثُ التَّهَضُّبَةِ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي شِعْرِهِ الْعُنْصُرُ النَّارِي مِنْ اللُّغَةِ الشَّعْبِيَّةِ .

عَلَى أَنَّ « حَافِظَ » رَحِمَهُ اللَّهُ أَذْرَكَ كُلَّ هَذَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ ، فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ دِيَوَانَهُ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ جُزْءًا صَغِيرًا يَخْتَارُ فِيهِ أَلْفَ بَيْتٍ وَيُسْقِطُ مَا عَدَاهَا وَإِنْ . . . وَإِنْ كَانَ فِيهِ شِعْرٌ أَجْتِمَاعِي . . . وَمَعَ هَذَا التَّقْصُصِ الَّذِي يُعْثَرُ عَلَيْهِ طَبِيعَةُ الزَّمَنِ وَطَبِيعَةُ الشَّاعِرِ مَعًا ، فَإِنَّ تَمَامَ « حَافِظِ » فِي مَذْهَبِهِ الْأَجْتِمَاعِي الَّذِي نَبَغَ فِيهِ جَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْقُوَّةِ وَفَوْقَ الطَّاقَةِ ، لَا يُجَارِيهِ فِيهِ شَاعِرٌ آخَرُ ، بِحَيْثُ دَلَّ عَلَى أَنَّ التَّابِعَةَ قَدَّرَ إِلَهِيٌّ لَا يُنْقِصُ مِنْ عَظَمَتِهِ أَنْ يَكُونَ حَادِثَةً وَاحِدَةً تَدْوِي دَوِيَّهَا فِي الدُّنْيَا ؛ فَهُوَ مُبَسَّرٌ مُنْذُ نَشَأَتِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَحْكَمَتُهُ الْمَدْرَسَةُ الْحَرْبِيَّةُ ثُمَّ فَيْدَةُ الْجَيْشِ ، ثُمَّ تَقَادُفُهُ السُّودَانُ ، ثُمَّ قَذَفَ بِهِ الظُّلْمُ ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ إِمَامُ عَصْرِهِ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي غَايَاتِهِ الْوَعْرَةِ وَمَقَاصِدِهِ الْعُمَرَانِيَّةِ وَمَعَانِيهِ لِلإِصْلَاحِ - مَدْرَسَةُ حَرْبِيَّةٍ وَجَيْشٍ وَقَلَاةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ حَافِظٌ إِلَّا الصَّوْتِ الْإِنْسَانِي الَّذِي أُعِدَّ بِخَصَائِصِهِ لِلتَّبْعِيَةِ عَنْ حَوَادِثِ أُمَّتِهِ وَخَصَائِصِهَا ، وَكَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ السُّودَانِ إِلَى مِصْرَ قَدْ أُنْقَلَ مِنْ جَيْشٍ يُحَارِبُ الْأَقْوَامَ الْأَعْدَاءَ لِأُمَّتِهِ ، إِلَى جَيْشٍ آخَرَ يُحَارِبُ الْمَعَانِي الْأَعْدَاءَ لِأُمَّتِهِ .

\* \* \*

وُلِدَ حَافِظُ أَبْرَاهِيمَ سَنَةَ ١٨٧١ ، وَكَانَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي هَدَاهُ إِلَى سِرِّ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

وَأَرْهَفَ ذَوْقَهُ وَأَحْكَمَ طَبِيعَتَهُ ، هُوَ كِتَابُ « الْوَسِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ » لِلشَّيْخِ حُسَيْنِ الْمَرْصُفِيِّ ، الْمَطْبُوعُ فِي مِصْرَ لِخَمْسٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً ؛ فَقَبِي هَذَا الْكِتَابُ قَرَأَ حَافِظٌ خُلَاصَةً مُخْتَارَةً مُحَقَّقَةً مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي عَصُورِهِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَدَرَسَ ذَوْقَ الْبَلَاغَةِ فِي أَسْمَى مَا يَتَلُغُ بِهَا الذَّوْقُ ، وَوَقَّفَ عَلَى أَسْرَارِ تَرْكِيبِهَا ، وَعَرَفَ مِنْهُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي نَبَغَ بِهَا الْبَارُودِيُّ ، وَهِيَ قِرَاءَتُهُ دَوَائِينَ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَحِفْظُهُ الْكَثِيرَ مِنْهَا ، فَبَنَى شَاعِرُنَا مِنْ يَوْمِئِذٍ قَرِيبَتَهُ عَلَى الْحِفْظِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَحْفَظُ إِلَى آخِرِ عُمْرِهِ ، إِذْ كَانَتْ قَرِيبَتُهُ كَالْكَالَةِ لِلتَّصَوُّيرِ : لَا تَنْبَغُ لَشَيْءٍ إِلَّا عِلْقَتُهُ ، وَهَذَا سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ضَعْفِ خَيَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ فِي اللُّغَةِ مَا تَنَاهَى فِيهِ إِلَى الْغَايَةِ .

وَأَتَّفَقَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَنْ طُبِعَتْ « لُزُومِيَّاتُ الْمَعَرِّي » فِي مِصْرَ ، فَتَنَاقَلَهَا حَافِظٌ وَاسْتَظْهَرَ أَكْثَرَهَا ، فَكَانَتْ بَاعِثَ مَيْلِهِ وَتَرْغَبِهِ إِلَى الشُّعْرِ الْأَجْتِمَاعِيِّ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ حَافِظٍ وَبَيْنَ الْمَعَرِّي فِي الْمَوْهَبَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ هُوَ الَّذِي نَفَذَ بِالْمَعَرِّي إِلَى أَسْرَارِ كَثِيرَةٍ وَوَقَّفَ بِحَافِظٍ عِنْدَ الظَّاهِرِ وَمَا حَوْلَهُ ، يَطِيرُ هُنَاكَ وَيَقَعُ .

وَقَدْ كَانَ صَاحِبُنَا ضَعِيفًا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، فَاسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ أَسْرَارُ وَاسْتَغْلَقَتْ أُخْرَى مِنْ أَسْرَارِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْحَيَاةِ ، وَالْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي الْخَلِيقَةِ ، وَالْجَلَالِ وَالْإِبْدَاعِ فِي الْكَوْنِ ، وَالْإِفْرَارِ وَالشَّكِّ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَقَدْ بَلَغَ الْمَعَرِّي مِنْ هَذَا مَبْلَغًا لَا بَأْسَ بِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِفْ كَمَا تَصِفُ الْأَشْيَاءُ فِي عَيْنِ مُبْصِرَةٍ ، فَخَبَطَ وَخَلَطَ ، وَوَضَعَ مِنْ أَغْرَاضِ نَفْسِهِ الْمَرِيضَةِ عَلَى الصَّحِيحِ وَالْمَرِيضِ جَمِيعًا . وَتَابَعَهُ حَافِظٌ فِي طَرِيقَةِ أُخْرَى سَنَسِيرُ إِلَيْهَا بَعْدُ .

وَقَبِلَ شَاعِرُنَا بِمَا قَرَأَ فِي « الْوَسِيلَةِ » مِنْ شِعْرِ الْبَارُودِيِّ ، فَأَصْبَحَ مِنْ يَوْمِئِذٍ تَلْمِيزَهُ ، وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ وَجَزَالَةِ السَّبْكِ وَتَمَنَّةِ الصَّنْعَةِ وَجُودَةِ التَّأْلِيفِ عَلَى نَعَمِ الْأَلْفَاظِ وَأَجْرَاسِ الْخُرُوفِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُذْرِكْ شَأْوَ الْبَارُودِيِّ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّ هَذَا جَمَعَ مِنْ دَوَائِينَ الشُّعْرَاءِ وَكُتِبَ الْأَدَبُ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِغَيْرِهِ فِي عَصْرِهِ ، وَأَدْخَلَ فِي شِعْرِهِ أَحْسَنَ مَا صَنَعَتِ الدُّنْيَا فِي أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ وَلِذَا أُنْقَلَتْ عَنْهُ حَافِظٌ إِلَى طَرِيقَةِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي الصَّنْعِ وَلَزِمَهَا إِلَى آخِرِ مَدَّتِهِ .

وَأَبْتَدَأَ يُعَالِجُ الشُّعْرَ فِي الشُّوْدَانِ يُنْظِمُ فِي جِنْسٍ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنْ وَصْفٍ أَلْهَمَ الْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، إِذْ كَانَ يَتِيمًا فَقِيرًا مُشْرَدًا ، وَيَرَى نَفْسَهُ شَاعِرًا تُصَدِّهُ الْحَيَاةُ عَنْ مَنْزِلَةِ الشَّاعِرِ وَعَنْ أَمْنِكَةِ الشُّعْرِ ، كَالَّذِي غُصِبَ مِيرَاثُهُ مِنْ عَرْشٍ وَمُلْكٍ ، وَنُفِيَ إِلَى غَيْرِ أَرْضِهِ ، وَوُضِعَتْ رُوحُهُ بِإِزَاءِ رُوحِ الْفَقْرِ ، وَقِيلَ لَهَا : عُدُّوْا مَا مِنْ صَدَاقِهِ بُدْ .

ثُمَّ جَاءَ مَضَرَ وَاتَّصَلَ بِالْإِمَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ ، وَاسْتَقَالَ مِنَ الْجَنِينِ وَفَرَّغَ لِلْأَدَبِ ، فَبَدَأَ مِنْ ثَمَّ تَكْوِينُهُ الْأَدَبِيَّ الْمُتَدَبِّعَ الْمُحْكَمَ ، أَمَا قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى سَنَةِ ١٩٠١ الَّتِي طُبِعَ فِيهَا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ دِيْوَانِهِ ، فَكَانَ شِعْرُهُ قَلِيلًا ظَاهِرَ التَّكَلُّفِ ، وَأَكْثَرُهُ يَدُلُّ عَلَى طَرِيقَةِ مُضْطَرَبَةٍ لَمْ تَسْتَحْكَمْ ، وَفَكَرَ لَمْ يَنْضَجْ ، وَمَوْهَبَةٍ فِي التَّوَلِيدِ الشُّعْرِيِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْاسْتِفْلَالِ أَمْدٌ قَرِيبٌ .

وَدَرَسَ فِي مَدْرَسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ مِنْ سَنَةِ ١٨٩٩ إِلَى سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَهَذَا الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهِ رَجُلًا فَذًا ، وَكَأَنَّهُ نَبِيٌّ تَأَخَّرَ عَنْ زَمَنِهِ ، فَأَعْطَى الشَّرِيعَةَ وَلَكِنْ فِي عَزِيمَتِهِ ، وَوَهَبَ الْوَحْيَ وَلَكِنْ فِي عَقْلِهِ ، وَاتَّصَلَ بِالسَّرِّ الْقُدْسِيِّ وَلَكِنْ مِنْ قَلْبِهِ ، وَلَوْلَا هُوَ وَلَوْلَا أَنَّهُ يَهْدِيهِ الْخَصَائِصُ لَكَانَ حَافِظُ شَاعِرًا مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ ، فَإِنَّهُ مِنَ الشَّيْخِ وَخَدَهُ كَانَتْ لَهُ هَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي جَعَلَتْهُ يُصْنِفُ الْإِلَهَامَ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ يَعْرِفُهُ ، وَكَانَ لَهُ مِنْ أَثَرِهَا هَذَا الشُّعْرُ الْمَتِينُ فِي وَصْفِ الْعُظَمَاءِ وَالْعَظَائِمِ وَهُوَ أَحْسَنُ شِعْرِهِ .

وَلَمْ يَجِدْ حَافِظٌ مِنْ قَوْمِهِ مَا يَجْعَلُهُ لِسَانَهُمْ حَتَّى تُنْقِطَهُ بِالْوَحْيِ نَفْسُهُمُ التَّارِيخِيَّةُ الْكُبْرَى ، وَلَا تَوَلَّاهُ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرٌ يَزْعُبُ فِي أَدَبِهِ رَغْبَةً أَدِيبٍ مَلِكٍ ، أَوْ أَدِيبٍ أَمِيرٍ ، لِيُظْهِرَ مِنْهُ عَبَقَرِيَّةَ جَدِيدَةٍ فِي التَّارِيخِ ، وَلَا عَرَفَ الْحُبَّ الَّذِي يَجْعَلُ لِلشَّاعِرِ مِنْ سِحْرِ الْحَبِيبِ مَا يَجْمَعُ النَّفْسِيَّةَ التَّارِيخِيَّةَ وَالْمَلَكِيَّةَ مَعًا وَيَزِيدُ عَلَيْهِمَا ؛ وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الَّتِي لَمْ تَتَفَقَّ لِحَافِظٍ ، هِيَ الَّتِي لَا يَنْبَغُ الشَّاعِرُ نُبُوغًا يُفْرِدُهُ وَيُمَيِّزُهُ إِلَّا بِوَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ بِاثْنَيْنِ أَوْ بِهَا كُلِّهَا ، غَيْرَ أَنَّ « حَافِظَ » وَجَدَ فِي الْإِمَامِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ كُلِّ هَؤُلَاءِ فِي النَّفْسِ وَالْجَادِيَّةِ ، وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ ذَوْقِ الْأَدَبِ وَالْبَلَاغَةِ مَا لَمْ يَعْرِفْ شَاعِرٌ فِي مَلِكٍ وَلَا أَمِيرٍ ؛ وَقَدْ حَضَرَ دُرُوسَهُ فِي الْمُنْطَقِ وَ« أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ » وَ« دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ » ، وَخَرَجَ مِنْهَا بِذَوْقِهِ الدَّقِيقِ وَأُسْلُوبِهِ الْمُتَمَكِّنِ ، وَحَضَرَ مَجَالِسَهُ وَخَرَجَ مِنْهَا بِمَوَاضِيْعِهِ الْأَجْمَاعِيَّةِ وَأَعْرَاضِهِ الْوَلَوَّابَةِ ،

وَحَضَرَ نَفَرَاتٍ عَيْنِيَّةٍ وَخَرَجَ مِنْهَا بِرُوحَانِيَّةٍ قَوِيَّةٍ هِيَ الَّتِي تَصَرَّمُ فِي شِعْرِهِ إِلَى الْأَبَدِ ؛ فَحَافِظٌ إِخْدَى حَسَنَاتِ الشَّيْخِ عَلَى الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، وَهُوَ خُطَّةٌ مِنْ خُطَطِهِ فِي عَمَلِهِ لِلْإِصْلَاحِ الشَّرْقِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَالنُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْوُطْنِيَّةِ وَإِحْيَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَابِهَا ؛ وَإِذَا ذُكِرَتْ حَسَنَاتُ الشَّيْخِ أَوْ عُدَّتْ لِلتَّارِيخِ ، وَجِبَ أَنْ يُقَالَ : أَصْلَحَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ وَأَنْشَأَ « حَافِظُ إِبْرَاهِيمِ » ...

وَمَضَى شَاعِرُنَا مُوجَّهًا بِفِكْرَةِ الْإِمَامِ وَرُوحِهِ ، وَاسْتَمَرَّ فِي ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ الشَّيْخِ كَمَا يَسْتَمِرُّ الْكُتُبُ إِذَا اخْتَفَرَ مَعْجَرَاهُ : لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْرِجَ عَنْهُ مَا دَامَ يَجْرِي إِلَى مَقَارِهِ .

\* \* \*

وَكَانَ حَافِظٌ فِي بَدَنِهِ وَصِنَاعَتِهِ عَلَى مَذْهَبِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ كَمَا قُلْنَا ، وَهُوَ مِنْهُ إِنْطَاءٌ فِي عَمَلِ الشُّعْرِ وَتَلَوُّهُمَا عَلَى حَوْكِهِ ، وَأَنْفِرَادًا بِكُلِّ لَفْظَةٍ مِنْهُ ، وَتَقْلِيًا لِلنَّظَرِ فِيمَا بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَةِ ، وَاعْتِبَارًا كُلِّ بَيْتٍ كَالْعُرْوَسِ : لَهَا مَعْرُضٌ وَحَلِيَّةٌ وَزِينَةٌ ، فَإِذَا عَمِلَ شِعْرًا أَنْبَثَ خَوَاطِرَهُ فِي كُلِّ وَجْهِ ، وَذَهَبَ وَرَاءَ الْأَلْفَافِ وَالْمَعَانِي ، وَتَرَكَ هَاجِسَهُ (العقل الباطني)<sup>(١)</sup> يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِيمَا التَّوَلَّى عَلَيْهِ أَوْ اسْتَعَصَبَ ، وَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّهُ سَيَقَادُ وَيَسْهَلُ بِقُوَّةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ إِلَّا الْآنَ فَسَتَكُونُ فِيهِ ؛ ثُمَّ يُنْظِمُ مَا يَسْمَحُ أَنْ جَاءَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْقَصِيدَةِ أَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، فَلَا يَتَّبِعُ فِيهَا نَسَقًا بَعِيْنَهُ . وَإِنَّمَا الْقَصِيدَةُ عِنْدَهُ كُلُّ مَا سَيَجْتَمِعُ مِنْ بَعْدُ ، وَتَنْتَهِيَا أَجْزَاؤُهُ مُنْسَقَةً وَمُبَعَثَةً كَمَا يَجِيءُ بِهَا الْإِلَهَامُ وَأَسْبَابُ الْإِتْفَاقِ ، فَالْقَصِيدَةُ أَوَّلًا فِي أَيْتَاتِهَا ، ثُمَّ تَكُونُ أَيْتَاتُهَا فِيهَا ، أَيْ : ثُمَّ تَرْتَّبُ الْأَيْتَاتُ وَتَنْزِلُ فِي مَنَازِلِهَا ، وَلَا يُنْظِمُ إِلَّا مُتَعَتِّيًا ، يَرُوضُ الشُّعْرَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَفَتَّحُ لِلْمُوسِيقَى فَتَسْمَعُ وَتَنْقَادُ ، وَهُوَ يَتَّبِعُ فِي ذَلِكَ طَرِيقَةً مَعْرُوفَةً ذَكَرَهَا ابْنُ حِجَّةَ الْحَمَوِيُّ فِي كِتَابِهِ « خِرَازِنَةُ الْأَدَبِ » ، وَهِيَ مِنْ وَصِيَّةِ أَبِي تَمَّامٍ لِلْبُخَيْرِيِّ ، وَكَانَ الْمُتَنَبِّيُّ يَعْمَلُ عَلَيْهَا ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ حَافِظَ يَزْنَهُنَّ بِفِكْرِهِ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي يُنْظِمُهَا وَيَتَوَقَّرُ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا ، لَا كَمَا يَفْرُغُ الشَّاعِرُ لِلشُّعْرِ ، وَلَكِنْ كَمَا يَتَوَقَّرُ الْمُؤَلِّفُ الْعَظِيمُ عَلَى كِتَابٍ يُؤَلِّفُهُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُنْطِئُ فِي تَثَرِّهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُنْطِئُ فِي الشُّعْرِ ،

(١) { هَكَذَا سَمَّاهُ الْمُؤَلِّفُ هُنَا ، وَقَدْ سَمَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ : « الْوَاغِيَةُ الْبَاطِنَةُ » } .

دَلَّنِي بِنَفْسِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى صَفْحَةٍ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ تَرْجَمَةِ « الْبُؤْسَاءِ » وَقَالَ : إِنَّهُ تَرْجَمَهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا<sup>(١)</sup> .

وَحَضَرَتْهُ مَرَّةً يَتَرَجَّمُ أَسْطَرًا مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ (فِي قَهْوَةِ الشَّيْخَةِ) يَخُطُّهَا فِي دَفْتَرٍ صَغِيرٍ دُونَ حَجْمِ الْكَفِّ ، فَاجْتَمَعَتْ لَهُ ثَلَاثَةُ أَسْطَرٍ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ ، وَهَذَا لَا يَعْينُهُ مَا دَامَ يُرِيدُ قِسْطَ الْفَنِّ ، وَمَا دَامَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلِمَاتِ مِنْ عَالَمِهَا إِلَى عَالَمِهِ هُوَ الْمُنْتَمِجُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ يُثْمِلُ الْكَوَاكِبِ فِي الْأَسْتِوَاءِ وَالْجَادِيَّةِ وَالشُّعَاعِ وَالزُّوْنِ وَالْجَمَالِ .

وَيَرَى مَعَ الصَّنَاعَةِ أَنْ يَكُونَ سَبْكُ شِعْرِهِ سَبْكُ الْبَدَوِيِّ الْمَطْبُوعِ : جَزْلاً سَهْلاً مُشْرِقاً مُثْمَلًا مُتَعَادِلَ الْأَجْزَاءِ وَالْتِقَاسِيمِ ، يَرُنُّ رَيْنًا كَأَنَّمَا قَدَفَتْ بِهِ سَلِيقَةُ أَعْرَابِيٍّ فَصِيحٍ ، تَحْتَ ضَوْءِ كَوَاكِبِ الْبَادِيَةِ ، عَلَى بَرْدِ الزَّمَلِ ، فِي نَسَمَاتِ اللَّيْلِ ، حِينَ تَمْتَلِيُ تِلْكَ النَّفْسُ الْبَدَوِيَّةُ بِحَيْنِ الْحُبِّ ، أَوْ شَوْقِ الْجَمَالِ ، أَوْ عَظَمَةِ الْقُوَّةِ ؛ وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي أَتْبَعُهُ ، وَقَفَّنِي عَلَيْهِ هُوَ بِنَفْسِهِ فِي سَنَةِ ١٩٠٢ ، وَفَرَّطَنِي بِهِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيَوَانِي فَقَالَ [من الخفيف] :

أَنْتَ وَاللَّهِ كَاتِبٌ حَضَرِيٌّ    إِنْ عَدَدْنَاكَ شَاعِرًا بَدَوِيًّا  
وَلَوْ أَنَّكَ أَجْرَيْتَ شِعْرَ حَافِظٍ فِي أَبْلَغِ مَا قَالَهُ الْمَطْبُوعُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ وَشُعْرَاءِ الْقَرْنِ  
الْأَوَّلِ ، لَأَتَمَّ بِهِ وَرَادَ عَلَيْهِ فِي الصَّنَاعَةِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى ؛ وَقُلَّ أَنْ تَجِدَ فِي شِعْرِهِ كَلِمَةً يَنْبُو بِهَا مَكَانُهَا ، إِلَّا أَلْفَاظًا قَلِيلَةً كَانَ يَسْتَكْرِهُهَا ، يَحْسَبُ أَنَّهَا يَسْتَطَرِفُ مِنْهَا وَيَرَى فِي غَرَابِئِهَا شَيْئًا جَدِيدًا ؛ وَهَذَا مِنْ خَطِّ رَأْيِهِ فِي الْأُسْلُوبِ ، لِأَنَّهُ مَعَ بَلَغِهِ كَانَ يَنْقُصُهُ أَنْ يَكُونَ فَيْلَسُوفًا فِي الْبَلَاغَةِ ؛ وَأَنَا أَرَى أَنَّهُ لَوْ تَمَّتْ لَهُ الْمَوْهَبَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ لَمَا جَارَاهُ شَاعِرٌ آخَرُ ، وَلَكِنَّ الْكَمَالَ عَرِيزٌ فِي الْبَشَرِيَّةِ ؛ وَقَدْ عَرَفْتُ رَأْيَهُ فِي الْأُسْلُوبِ فِي سَنَةِ ١٩٠٦ ، إِذْ نَشَرْتُ لَهُ مَجَلَّةَ « الْأَقْلَامِ » الَّتِي كَانَ يُضِدِّرُهَا صَاحِبِنَا الْأَدِيبُ جُورْجِ طَنُوسِ كَلِمَاتٍ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُضَمِّنَهَا كِتَابَهُ « لِيَالِي سَطِينِج » ، أَظْهَرَ فِيهَا رَأْيَهُ فِي الشُّعْرَاءِ ، فَقَالَ فِي إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي :

(١) لَمَّا أَهْدَيْتُ إِلَيْهِ هَذَا الْجُزْءَ كَتَبَ قَبْلَ الظُّهْرِ ، فَلَمْ يَدْعِنِي حَتَّى قَرَأْتُهُ كُلَّهُ مَعَهُ إِلَى الْعَصْرِ ، وَكَتَبْتُ عَنْهُ فِي « الْمَقَطِّمِ » بَعْدَ ذَلِكَ .

يَقُولُ الشُّعْرُ لِنَفْسِهِ لَا لِلنَّاسِ . وَفِي شَوْقِي : أَرَقُّ الشُّعْرَاءِ طَبْعًا وَأَسْمَاهُمْ خَبَالًا . وَفِي مُطْرَانٍ : أَسْرَعُهُمْ بَدِيَّةً وَأَقْدَرُهُمْ ابْتِكَارًا . وَقَالَ فِي - وَلَمْ يَكُنْ مَضَى عَلَيَّ إِلَّا سِتُّ سِنِينَ فِي طَلَبِ الْأَدَبِ - : مِثْكَارٌ رَاقِي الْحَيَالِ بَعِيدُ الشَّوْطِ فِي مَيَادِينِ الْأَدَبِ ، غَيْرُ نَاصِحِ الْأُسْلُوبِ . فَلَمَّا اجْتَمَعْتُ بِهِ فَاتَخْتُهُ فِي ذَلِكَ وَسَأَلْتُهُ رَأْيَهُ فِي الْأُسْلُوبِ النَّاصِحِ ، فَلَمْ أَرْ عِنْدَهُ طَائِلًا . وَكُلُّ مَا قَالَهُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ قَرَّرَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ فِي اللَّفْظِ وَلَا فِي الْمَعْنَى ، وَلَكِنَّهَا فِي الْأُسْلُوبِ . وَعَبْدُ الْقَاهِرِ لَمْ يَقُلْ هَذَا وَلَا قَالَهُ غَيْرُهُ ، فَإِنَّ الْأُسْلُوبَ عِنْدَهُ « طَرِيقَةٌ مَخْصُوصَةٌ فِي نَسْقِ الْأَلْفَاظِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ لِتَرْتِيبِ الْمَعَانِي فِي النَّفْسِ وَتَنْزِيلِهَا » ، وَأَنَّ الْمَثَلَةَ مِنْ حَيْرِ الْمَعَانِي دُونَ الْأَلْفَاظِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ حَيْثُ تَسْمَعُ بِأَذْنِكَ ، بَلْ حَيْثُ تَنْظُرُ بِقَلْبِكَ وَتَسْتَعِينُ بِفِكَرِكَ .

وَقَدْ قَرَّرْتُ لَهُ أَنَّ لِلْأَلْفَاظِ مَا يُشْبِهُ الْأَلْوَانَ ، فَلَيْسَتْ كُلُّهَا زُرْقَاءَ وَلَا صَفْرَاءَ وَلَا حُمْرَاءَ ، وَرُبَّ لَفْظَةٍ رَقِيقَةٍ تَقَعُ ضَعِيفَةً فِي مَوْضِعٍ فَيَكُونُ ضَعْفُهَا فِي مَوْضِعِهَا ذَاكَ هُوَ كُلُّ بَلَاعَتِهَا وَقُوَّتِهَا ، كَقَفَرَةِ السُّكُوتِ بَيْنَ أَنْعَامِ الْمَوْسِيقَى : هِيَ فِي نَفْسِهَا صَمْتُ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَلَكِنَّهَا فِي مَوْضِعِهَا بَيْنَ الْأَنْعَامِ نَغَمٌ آخَرُ ذُو تَأْثِيرٍ بِسُكُونِهِ لَا بِرِنِّيهِ ؛ وَهَذَا مِنْ رُوحِ الْفَنِّ فِي الْأُسْلُوبِ .

وَأَذْرَكَ شَاعِرُنَا مِنْ يَوْمِيذٍ مَا سَمَّيْتُهُ « قُوَّةَ الضَّعْفِ » ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ طَبْعَهُ رَجَعَ يُعْدِلُ بِهِ إِلَى التَّسْهِيلِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَتَقَعُ فِي شِعْرِهِ آيَاتٌ مُتَهَافَتَةٌ فَيَأْتِي بِهَا وَلَا يُتَكْرَهُهَا ؛ وَلَقِيْنِي مَرَّةً فَأَنْشَدَنِي قَوْلَ الشَّاعِرِ [من المديد] :

أَلَا لَمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَا    إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا زُرَقَا  
وَجَعَلَ يُعْجِبُنِي مِنْ بَلَاغَةِ قَوْلِهِ (لَمْ أُرْزَقْ) وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ ضَعِيفَةٌ مُبْتَدَلَةٌ تَجْرِي فِي مَنْطِقِ كُلِّ عَامِّي ، قُلْتُ : وَلَكِنَّ (مَحَبَّتَهَا) جَعَلَهَا كَمَحَبَّتِهَا . . . . .

\* \* \*

وَضَعُفُ الْمَوْهَبَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ فِي حَافِظِ عَوَاضُهُ نَاحِيَةً أُخْرَى مِنْ أَقْوَى الْقُوَّةِ فِي الشُّعْرِ ، وَهِيَ اهْتِدَاؤُهُ إِلَى حَقِيقَةِ الْغَرَضِ الَّذِي يَنْظُمُ فِيهِ وَتَرْكُهُ الْحَوَاشِي وَالزِّيَادَاتِ ، وَأَنْصِرَافُ

قُوَاهُ إِلَى دِقَّةِ الْوَصْفِ حِينَ يَصِفُ ، وَتَعْوِيلُهُ عَلَى إِحْسَاسِهِ أَكْثَرَ مِنْ تَعْوِيلِهِ عَلَى فِكْرِهِ ؛ فَزَادَ ذَلِكَ فِي رَوْقِ شِعْرِهِ وَمَائِهِ ، وَنَحَا بِهِ مِنْحَى الْمَطْبُوعِينَ ، فَخَرَجَ يَتَدَقَّقُ سَلَاسَةً وَحَلَاوَةً مُمْتَلِئًا مِنْ صَوَابِ الْمَعْنَى وَبَلَغَةِ الْأَدَاءِ وَقُوَّةِ التَّأْنِيثِ ؛ وَبِهَذَا نَبَعَ فِي الرِّثَاءِ وَوَصْفِ الْجَنَائِعِ نُبُوغًا انْفَرَدَ بِهِ ، حَتَّى لَأَحْسَبُ أَنَّ هُنَاكَ رُوحًا يَمُدُّهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاقِفِ ، وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ تَنْبَرِّجُ لَهُ فِي هَذِهِ الْعِظَائِمِ خَاصَّةً لِيَرَى مِنْهَا مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ ؛ وَهُوَ يَتَّحِدُ بِالْعَظِيمِ الَّذِي يَرِيئُهُ فَيُجِنِّدُ فِيمَنْ يَعْرِفُهُ إِجَادَةً مُنْقَطِعَةً اللَّطِيفِ ، تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِيمَنْ لَا يَعْرِفُهُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ ؛ وَأَحْسَبُهُ يَسْأَلُ رُوحَ الْعَظِيمِ الَّذِي يَصِفُهُ أَوْ يَرِيئُهُ : أَيْنَ الْمَعْنَى الَّذِي فِيهِ حَقِيقَتُكَ ؟ وَأَيْنَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي فِيهَا مَعْنَاكَ ؟ .

وَالْفَلَسَفَةُ الشَّعْرِيَّةُ كُلُّهَا أَنْ يَحُلَّ فِي الشَّاعِرِ الْمُلْهَمِ ذَلِكَ السَّرُّ الْجَمِيلُ الْجَاذِبُ وَالْمُنْجَذِبُ مَعًا ، الْمُسْتَقَرُّ وَالْمُتَحَوِّلُ جَمِيعًا ، الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ فِي وَقْتٍ ؛ فَيَكْتَنِبُهُ الشَّاعِرُ مَا لَا يُذَكِّرُهُ غَيْرُهُ ، فَيَقِفُ عَلَى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ وَالرَّفَقَةِ ، وَيُلْهَمُ الْحِكْمَةَ وَالْبَصِيرَةَ ، وَيَسْأَلُ الْأَغْرَاضَ بِالْإِخْلَافِ وَالْتَرْكِيبِ ، وَيُؤْتِي التَّغْيِيرَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ فِي طَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ فِي أُسْلُوبِهِ ، وَهَذَا لَمْ يَتَّفِقْ عَلَى أَتَمِّهِ وَأَحْسَنِهِ فِي حَافِظٍ ، فَقَصَّرَ بِهِ فِي تَوْلِيدِ الْمَعَانِي الْمُبْتَكِرَةِ ، وَنَزَلَ بِهِ فِي الْغَزْلِ وَوَصْفِ الْجَمَالِ ؛ بَيَّنَّ أَنَّهُ اتَّفَقَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْجَلَالِ بَعِيْنِهِ فِي (الْجَانِبِ الْمُتَالَمِ مِنْ شِعْرِهِ) ، أَيْ : الرِّثَاءِ وَالشُّكْوَى وَوَصْفِ الْفَجِيعَةِ ، وَلَوْ ذَهَبَتْ تَسْتَعْرِضُ الْمَرَاتِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَمَثَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رِثَاءِ حَافِظٍ لِلْعَظَمَاءِ الَّذِينَ خَالَطَهُمْ ، كَالْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ ، وَالْبَارُودِيِّ ، وَمُصْطَفَى كَامِلٍ وَتَزَوَّتْ ، لَرَاعَكَ أَنَّكَ وَاجِدٌ لِلشُّعْرَاءِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ مَعَانِيهِ وَأَقْوَى مِنْ خَيَالِهِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَجِدُ الْبَيَّةَ مَا هُوَ أَفْخَرُ وَأَدْقُ مِمَّا جَاءَ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ كَأَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ بِهَذِهِ الْخَاصَّةِ .

وَهَذَا الْمَعْرِي يَقُولُ [من الوافر] :

وَلَوْ لَا قَوْلُكَ الْخَلْقُ رَبِّي      لَكَانَ لَنَا بِطُلْعَتِكَ أَفْتِيَانُ  
وَيَقُولُ فِي شِعْرِ آخَرٍ [من المنسرح] :

أَسْهَبَ فِي وَصْفِهِ عَلَاكَ لَنَا      حَتَّى خَشِينَا الْفُؤُوسَ تَعْبُدُهَا

وَهَذَانِ اللَّيْتَانِ تَرَاهُمَا صُغْلُوكَيْنِ إِذَا قَسَمْتُهُمَا يَقُولُ حَافِظٌ فِي رِثَاءِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدُهُ [من الطويل] :

فَلَا تَنْصُبُوا لِلنَّاسِ تِمْنَالًا « عَبْدِي »      وَإِنْ كَانَ ذِكْرِي حِكْمَةً وَتَبَاتٍ  
فَلِئَنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَضِلُّوا فَيُؤْمِنُوا      إِلَى نُورِ هَذَا الْوَجْهِ بِالسَّجْدَاتِ  
مَعَ أَنَّ مَعْنَى حَافِظٍ مَأْخُودٌ مِنْهُمَا ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ كَيْفَ جَاءَ بِهِ ؟  
وَيَقُولُ الْمَعْرِي فِي رِثَاءِ أَبِيهِ [من الطويل] :

وَلَوْ حَفَرُوا فِي دُرَّةٍ مَا رَضِيَتْهَا      لِجَسْمِكَ إِنْقَاءً عَلَيْكَ مِنَ الدَّفْنِ  
وَيَقُولُ فِي رِثَاءِ غَيْرِهِ [من الخفيف] :

وَإِخْبَاهُ الْأَكْفَانِ مِنْ وَرَقِ الْمُضْ      حَفِ كِبَرًا عَنْ أَنْفُسِ الْأَبْرَارِ  
وَهَذَانِ أَيْضًا كَالصَّعَالِيكِ عِنْدَ قَوْلِ حَافِظٍ فِي الْبَارُودِيِّ [من البسيط] :

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْدَعُوهُ جَوْفَ لَوْلُوَّةٍ      مِنْ كَنْزِ حِكْمَتِهِ لَا جَوْفَ أُخْدُودِ  
وَكَفُّوهُ بِدَرْجٍ مِنْ صَحِيفَتِهِ      أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قَمِينِصِ الصُّبْحِ مَقْدُودِ  
مَعَ أَنَّ « حَافِظَ » أَلَمْ يَقُولِ الْمَعْرِي . وَمِنْ بَدِيعِ مَا اتَّفَقَ لَهُ فِي قَصِيدَةِ (الْأُمْتَانِ تَتَصَافَحَانِ) قَوْلُهُ يَصِفُ السُّورِيَّيْنِ [من البسيط] :

رَادُوا الْمَنَاهِلَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا      إِلَى الْمِجْرَةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا  
أَوْ قِيلَ فِي الشَّمْسِ لِلرَّاجِينَ مُتَجَعِّ      مَدُّوا لَهَا سَبَبًا فِي الْجَوِّ وَأَنْتَدَبُوا  
فَاقْرَأْ هَذَيْنِ وَاقْرَأْ بَعْدَهُمَا قَوْلَ الْمُتَنَبِّيِّ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ [من الطويل] :

وَصُورٌ إِلَى الْمُسْتَضْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ      فَلَوْ كَانَ قَرْنُ الشَّمْسِ مَاءً لَأُورِدَا  
فَإِنَّكَ تَجِدُ بَيْنَ الْمُتَنَبِّيِّ صُغْلُوكًا عَلَى يَتْنِي حَافِظٍ ، مَعَ أَنَّهُ الْمُبْتَدِعُ السَّابِقُ .

وَأَعْجَبَ مَا عَجِبْتُ لَهُ هَذَا الْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ صَاحِبِنَا فِي مَقْطُوعَةٍ يُخَاطَبُ بِهَا الْأَمْرِيكَانَ ، نَشَرَهَا فِي « الْمَقْطُومِ » مِنْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ أَوْ نَحْوِهَا ، قَالَ [من الخفيف] :

وَتَخَذْتُمْ مَوْجَ الْإِنِيرِ بَرِيدًا      حِينَ خَلْتُمْ أَنَّ الْبُرُوقَ كُسَالَى

وَأَتَقَّقَ يَوْمَيْدَ أَنْ كُنْتُ جَالِسًا فِي زِيَارَةِ الصَّدِيقِ الْأَسْتَاذِ فُوَادِ صَرْوَفٍ « مُحَرَّرٍ الْمُقْتَضِبِ » ، فَجَاءَ حَافِظٌ ، فَلَمْ يَكُنْ يُصَافِيخُنِي حَتَّى قَالَ : كَيْفَ تَرَى هَذَا الْبَيْتَ : وَتَحْدِثُكُمْ مَوْجَ الْأَنْبِيرِ بَرِيدًا ... إلخ ؟ فَأَنْتَبِثُ عَلَيْهِ الَّذِي يَهْوَى ، وَهَنَاتُهُ بِهِذَا الْمَعْنَى ، وَأَظْهَرْتُ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْإِعْجَابِ ، وَلَكِنِّي أَضْمَرْتُ عَجَبِي مِنْ حُسْنِ مَا أَتَقَّقَ لَهُ ؛ فَإِنَّ الْجَمَالَ الشَّعْرِيَّ فِي الْبَيْتِ إِنَّمَا هُوَ فِي اسْتِعَارَةِ الْكَسَلِ لِلْبُرُوقِ ، وَهَذَا بِعَيْنِهِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ نُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ [من البسيط] :

وَمَا تَمَهَّلُ يَوْمًا فِي نَدَى وَرَدَى إِلَّا قَضَيْتُ لِلْمَحِ الْبَرْقِ بِالْكَسَلِ  
غَيْرَ أَنْ « حَافِظٌ » نَقَلَ الْمَعْنَى إِلَى حَقِّهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ أَحْسَنَ تَمْكِينٍ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ ، وَأَتَمَّ جَمَالَهُ فِي قَوْلِهِ : (حِينَ خَلْتُمْ) فَأَقْتَطَعَ الْمَعْنَى وَأَنْفَرَدَ بِهِ ، وَعَادَ مَعْنَى السَّعْدِيِّ كَالصُّغْلُوكِ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُقَابَلَةُ فِي « الْمُقْتَضِبِ » آخِرَ عَهْدِي بِحَافِظٍ . فَلَمْ أَرَهُ مِنْ بَعْدِهَا ، رَحِمَهُ اللَّهُ !

وَمَا مَرَّ بِكَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ صِنَاعَةِ الشَّاعِرِ فِي غَيْرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيَوَانِهِ بَعْدَ أَنْ اسْتَفْحَلَ وَتَخَرَّجَ فِي مَدْرَسَةِ الْإِمَامِ ، أَمَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ فَلَهُ هُوَ صَعَالِيكَ ...  
كَقَوْلِهِ فِي الْخَمْرِ [من الخفيف] :

خَمْرَةٌ قَبِلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمِلَاحِ فِي يَوْمِ عُرْسٍ  
فَهَذَا الْبَيْتُ صُغْلُوكٌ عِنْدَ قَوْلِ ابْنِ الْجَهْمِ [من الطويل] :

مُسْغَسَعَةٌ مِنْ كَفِّ طَبِي كَأَنَّمَا تَنَاولَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَدَارَهَا  
وَقَوْلُ حَافِظٍ (عَصَرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمِلَاحِ) كَلَامٌ مِنْ لَمْ يَنْضَجْ فِي الْبَيَانِ وَلَا الدُّوْقِ ، لَا يَكَادُ يَتَوَهَّمُ مَعَهُ إِلَّا أَنَّ فِي خُدُودِ الْمِلَاحِ (خَوَاجَاتٍ) عَصِرَتْ ... وَعَلَى ضِدِّ هَذَا قَوْلُ ابْنِ الْجَهْمِ (تَنَاولَهَا مِنْ خَدِّهِ) فَهِيَ كَلِمَةٌ أَكْثَرُ نَعُومَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْخَدِّ وَأَجْمَلُ نَضْرَةٍ .

وَقَوْلُ حَافِظٍ فِي مَذْحِ الْخِذْيُو [من البسيط] :

يَا مَنْ تَنَافَسَ فِي أَوْصَافِهِ كَلِمِي تَنَافَسَ الْعَرَبِ الْأَمْجَادِ فِي السَّبِّ

فَهُوَ صُغْلُوكٌ عَلَى بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ [من البسيط] :  
تَغَايَرَ الشَّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهَرْتُ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَقَتِيْلَ  
وَلَا نَطِيلَ الْاسْتِفْصَاءِ ، فَإِنَّمَا نُرِيدُ التَّمَثِيلَ حَسْبُ .

وَكَانَ الشَّاعِرُ أَوَّلَ نَشَاتِهِ يَأْخُذُ فِي طَرِيقَةِ الْمَعَرِّيِّ الَّذِي عَمِيَ عَنِ الطَّبِيعَةِ فَجَعَلَ يَخْلُقُهَا مِنْ فِكْرِهِ وَمَخْفُوظِهِ بِمُبَالَغَاتٍ كَادِيَةِ يُغْرِقُ فِيهَا يَخْسِبُ أَنَّ بِذَلِكَ يُعْظَمُ الْحَقَائِقُ فَتُخْرِجُ لَهُ الْأَخْيَلَةَ الْكَبِيرَةَ ، وَمَا يَذَرِي أَنَّ بِهِذَا الْغُلُوُّ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالْأَبَاطِيلِ الْكَبِيرَةِ ... وَلَكِنْ « حَافِظٌ » فِي مَزَاجِهِ وَتَرْكِيبِهِ وَنَشَاتِهِ كَانَ رَجُلًا مَبِينًا عَلَى الْوُضُوحِ وَالْقَصْدِ ؛ فَلَمْ يَفْلُخْ فِي طَرِيقَةِ الْمَعَرِّيِّ ، وَوَضُوحُهُ كَذَلِكَ بَاعَدَهُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ وَإِنِّهَا مِهَا ، وَمِنَ الطَّبِيعَةِ وَالْعَارِهَا ، وَمِنَ الْغَزَلِ وَوَسَاوِسِهِ ، وَهُوَ الَّذِي آدَاهُ إِلَى الشَّغَفِ بِالْحَقِيقَةِ وَأَسْتِخْلَاصِهَا فِي كُلِّ أَغْرَاضِهِ الَّتِي أَجَادَ فِيهَا ، وَمِنْ ثَمَّ خَلَا شِعْرُهُ أَوْ كَأَنَّهُ خَلَا ... مِنْ أَوْصَافِ الطَّبِيعَةِ فِي جَمَالِهَا بُلْغَةَ الْفِكْرِ الْمُنَامِلِ ، وَمِنْ أَوْصَافِ الْجَمَالِ فِي سِخْرِهِ بُلْغَةَ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ .

\* \* \*

وَأَنْتَ فَلَا تَحْسَبَنَّ الشَّاعِرَ يُجِنُّدُ فِي الْغَزَلِ وَالنَّسَبِ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ يُحْسِنُ الصَّنْعَةَ وَيُجِنِّدُ الْأَسْلُوبَ ، فَيَكُونُ غَرَضٌ مِنَ الشَّعْرِ سَبِيلًا إِلَى غَرَضٍ ، وَقَدْ عَوْنَا عَلَى فَنٍّ ، وَتَكُونُ رِقَّةُ الْأَلْفَاظِ وَهَلْهَلَةُ النَّسَجِ ، وَقَلْبِي ، وَكَيْدِي ، وَيَا لَيْلَةً وَيَا قَمَرًا وَيَا غَزَالًا ... وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ - غَزَلًا وَنَسَبًا ، كَلَامٌ ثُمَّ كَلَامٌ ، وَالثَّالِثَةُ كَلَامٌ أَيْضًا ...

إِنَّ الْغَزَلَ وَأَوْصَافَ الْجَمَالِ مُوهَبَةٌ فِي الشَّاعِرِ أَوْ الْكَاتِبِ تُسَخَّرُ لَهَا قُوَى هِيَ أَشْبَهُ فِي مُعْجَزَاتِهَا بِمَا سَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ مِنْ قُوَى الْجِنِّ وَالرَّيْحِ ، غَيْرَ أَنَّهَا قُوَى آلَامٍ وَلَدَاتٍ وَوَسَاوِسَ ، تِلْكَ عَظَمَةٌ فِي بَعْضِ النُّفُوسِ الشَّاعِرَةِ كَعَظَمَةِ الْمُلُوكِ وَالْأَبْطَالِ ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَكْمُلُ إِلَّا خَائِبَةً أَوْ مَغْلُوبَةً ، فَإِذَا انْتَصَرَتْ سَقَطَتْ ، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَارِيخٍ وَحَوَادِثٍ وَمِزَاجٍ عَصَبِيٍّ يَهَيِّئُ لَهَا بَرُوحَانِيَّةَ شَدِيدَةِ الْحَسِّ شَدِيدَةِ الْفُورَةِ نَائِرَةً أَبَدًا لَا تَهْدَأُ إِلَّا عَلَى تَوَلِيدِ مَعْنَى بَدِيعٍ فِي جَمَالٍ مِنْ تَحْبُّهُ أَوْ كَجَمَالِهِ ، ثُمَّ إِذَا هَدَأَتْ بِذَلِكَ أَثَارَهَا أَنَّهَا هَدَأَتْ ، فَتَعُودُ إِلَى التَّوَلِيدِ ، فَلَا تَزَالُ تَبْتَدِعُ وَتَصِفُ كَأَنَّهَا آلَةٌ تَعْبِيرٍ تَدُورُ بِقَلْبٍ وَعَصَبٍ . هُنَاكَ قُوَّتَانِ :



إِحْدَاهُمَا تُؤْتِي الْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ غَرَامًا وَعَشَقًا ، وَالْأُخْرَى فَوْقَ هَذِهِ تُؤْتِي الْحُبَّ كَمَا يَصْلُحُ فِكْرًا وَتَغْيِيرًا ؛ وَالْأُولَى تَجْعَلُ صَاحِبَهَا عَاشِقًا يُحِبُّ وَيَذُرُّ لَيْسَ غَيْرُ ، وَالثَّانِيَّةُ تَجْعَلُهُ مُحِبًّا عَمَلُهُ أَنْ يَنْقُلَ مِنْ لُغَةٍ مَا فِي نَفْسِهِ إِلَى مَا حَوْلَهُ ، وَمِنْ لُغَةٍ مَا حَوْلَهُ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ ؛ فَهُوَ مُتَرْجِمُ النَّفْسِ إِلَى الطَّبِيعَةِ ، وَمُتَرْجِمُ الطَّبِيعَةِ إِلَى النَّفْسِ ؛ وَالَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَّ « حَافِظَ » لَمْ يُزَقْ لَاهِدِهِ وَلَا تِلْكَ ، فَلَا طَبِيعَةً فِيهِ لِلْغَزَلِ وَفَلَسَفَةِ الْجَمَالِ ؛ ثُمَّ إِنَّ التَّارِيخَ حَصَرَهُ فِي (الشَّاعِرِ الْأَجْتِمَاعِيِّ) الَّذِي اخْتَارَ أَنْ يَمْتَازَ بِهِ ، فَهُوَ فِي أَكْثَرِ شِعْرِهِ كَانَ لَيْسَ فِيهِ شَخْصٌ ، بَلْ فِيهِ شَعْبٌ مَأْشُورٌ غَفَلَ عَنِ الْجَمَالِ وَعَنِ الطَّبِيعَةِ وَعَنِ الشُّوْءِ بِهِمَا ؛ إِذْ يَعْيشُ فِي مَعَانَاةِ الْحُرِّيَّةِ لَا فِي التَّامُّلِ الْجَمِيلِ ، وَفِي أَسْبَابِ الْقُوَّةِ لَا فِي أَسْبَابِ الرِّفْقَةِ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِيُوجِدَ حَقِيقَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَ لِيُبْدِعَ خَيَالَهُ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ فِي دِيْوَانِ حَافِظٍ غَزَلٌ قَلِيلٌ كَانَ كُلُّهُ مُتَابَعَةً وَتَقْلِيدًا فِي فَنٍّ لَا يَحْسُنُ التَّقْلِيدُ إِلَّا فِيهِ خَاصَّةً ؛ عَمِلَ صَدْرًا لِقَصِيدَةِ مَدَحٍ بِهَا الْخُدَيَوِي مَطْلَعُهَا [من الكامل] :

كَمْ تَحْتَ أَذْيَالِ الظُّلَامِ مَيِّمٌ دَامِي الْفُؤَادِ وَلَيْلُهُ لَا يُعْلَمُ ...  
وَقَلَّدَ ابْنُ أَبِي رَيْبَعَةَ فِي حِكَايَةِ حُبِّ لَفْقَهَا تَلْفِيْقًا ظَاهِرًا ، ثُمَّ زَعَمَ أَنَّ الْحَبِيبَةَ قَالَتْ لَهُ فِي آخِرِهَا [من الكامل] :

فَإِذْ هَبَ بِسُخْرِكَ قَدْ عَرَفْتُكَ وَأَقْتَصِدْ فِيمَا تُزَيِّنُ لِلْحِسَانِ وَتُؤْهِمُ  
وَكَلِمَةً صَاحِبَةِ ابْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ [من مجزوء الوافر] :

أَهْلًا سِخْرُكَ الشُّنُوءَا نَ قَدْ عَرَفْتَنِي الْخَبَرَا  
أَهْلًا سِخْرُكَ الشُّنُوءَا ... هَذِهِ كَلِمَةٌ لَا تَخْرُجُ إِلَّا مِنْ فَمِ حَبِيبَتِهِ آيَةٌ فِي الظَّرْفِ ، وَفِيهَا تَجَاهُلُهَا وَعِزْفَانُهَا وَابْتِسَامُهَا وَإِشْرَاقُ وَجْهِهَا ، وَكَأَدُ وَاللَّهِ أَرَى فِيهَا تِلْكَ الْجَمِيلَةَ وَهِيَ تَدُقُّ بِيَدِهَا عَلَى صَدْرِهَا دَقَّةَ الْأَسْتِفْهَامِ الْمُتَدَلِّلِ الْمُتَظَاهِرِ بِالْدَّهْشَةِ لِيَتَهَدَّ فِيهِ الْكَلَامُ وَالْمُتَكَلِّمُ مَعًا ، أَمَّا قَوْلُ حَبِيبَتِهِ حَافِظِ الْحَشِيبَةِ ، أَوْ الْحَجَرِيَّةِ « إِذْ هَبَ ... قَدْ عَرَفْتُكَ وَأَقْتَصِدْ ... » فَهَذَا خَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَمِ قَاضٍ وَهُوَ يَنْصَحُ الْمُتَهَمَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِفْرَاجِ عَنْهُ ... أَوْ مَأْمُورٍ قَسَمَ عِنْدَ ضَبْطِ الْحَادِثَةِ !

أَكْثَرَ ظَنِّي أَنَّ رُوحَ حَافِظٍ نَفْسِهِ هِيَ الَّتِي أَوْحَتْ إِلَيَّ الْآنَ هَذِهِ (الثُّلُثَةُ) ، فَإِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ آيَةً فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلَهُ مِنَ الْتَوَادِدِ مَحْفُوظَةٌ وَمُخْتَرَعَةٌ مَا لَا يُلْحَقُ فِيهِ ، وَلَوْ كَانَ كَاتِبًا عَلَى قَدَرٍ مَا كَانَ شَاعِرًا ، وَزَاوَلَ التَّقْدَ ، وَاسْتَظْهَرَ لِلْكِتَابَةِ فِيهِ بَيْتَكَ الْمَلَكَةِ الْمُبْدِعَةِ فِي التَّنْذِرِ وَالتَّهْكُمِ ، مَعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْقُوَّةِ فِي اللَّغَةِ وَالْبَيَانِ - لَكَانَتْ النُّعْمَةُ قَدْ تَمَّتْ بِهِ عَلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَقَدْ لَنَا فِي شِعْرِهِ وَكِتَابَتِهِ وَأَدَبِهِ مَا قَالَ هُوَ فِي الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ [من الطويل] :

فَاطْلَعْتَ نُورًا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ

وَمَا دُمْنَا قَدْ ذَكَرْنَا التَّقْدَ ، فَمِنْ الْوَفَاءِ لِلتَّارِيخِ الْأَدَبِيِّ أَنْ نَذْكُرَ مَذْهَبَ شَاعِرِنَا فِيهِ : فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهُ إِلَّا ذَوْقُ الْكَلَامِ وَإِدْرَاكُ الثَّقَرَةِ وَالتَّبَوُّةِ فِي الْحَرْفِ ، وَالْغِلْظُ وَالْجُسَافَةُ فِي اللَّفْظِ ، وَالضَّعْفُ وَالتَّهَانُتُ فِي التَّرَكِيبِ ، ثُمَّ مَا يَجِيشُ فِي الْخَاطِرِ ، أَوْ يَتَلَخَّجُ فِي الْفِكْرِ مِنْ ذَوْقِ الْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ كُنْهِهِ وَالتَّقَاذِ إِلَى آثَارِ النَّفْسِ الْحَيَّةِ فِيهِ ؛ فَكَأَنَّ التَّقْدَ هُوَ الْحِسُّ بِالْكَلَامِ كَمَا تَلْمَسُ الْحَارَّ وَالْبَارِدَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَوَصَفَ لِي مَرَّةً إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي بِأَشَأْ وَأَرَادَ أَنْ يَبَالِغَ فِي دَقَّةِ تَمْيِيزِهِ وَحُسْنِ بَصَرِهِ بِالشَّعْرِ وَإِدْرَاكِهِ دَقَائِقَ الْمَعَانِي ، فَقَالَ : « ذَوَاقُ يَا مُصْطَفَى » وَلَمْ يَزِدْ .

وَمَذْهَبُ الْحِسِّ بِالْكَلَامِ هَذَا وَإِنْ صَلَحَ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَعْضِ مَعَانِي التَّقْدِ ، فَلَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ يَكُونَ هُوَ التَّقْدَ بِمَعْنَاهُ الْفَلَسَفِيُّ أَوْ الْأَدَبِيُّ ، وَهُوَ فِي جُمْلَةٍ أَمْرُهُ كَقَوْلِكَ : حَسَنٌ حَسَنٌ ، وَرَدِيٌّ رَدِيٌّ ؛ أَمَّا كَيْفَ كَانَ حَسَنًا أَوْ رَدِيًّا ، وَبِمَاذَا وَلِمَاذَا ؛ فَذَلِكَ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ مِنْ مَذْهَبِ (ذَوَاقٍ) .. وَلَا وَسِيلَةَ لَهُ إِلَّا الْعِلْمُ الْمُسْتَفِيضُ ، وَالْإِطْلَافُ الْوَاسِعُ ، وَالْحِسُّ الْمُرْهَفُ ، وَالْقُدْرَةُ الْمُتَمَكِّنَةُ ، مُضَافَةً كُلُّهَا إِلَى الْأَدَبِ الْبَارِعِ وَفَلَسَفَتِهِ الدَّقِيقَةِ ؛ وَلَا نَعْرِفُ لِحَافِظٍ كِتَابَةً فِي التَّقْدِ الْبَيِّنَةِ ، وَقَدْ كَانَ حَاوَلَ شَيْئًا مِنْ هَذَا فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ : « لِيَالِي سَطْنِج » ، فَتَنَاقَلَ بَعْضُ خُصُومِهِ بِكَلِمَاتٍ رَأَى هُوَ أَنَّ يَمْحُوهَا بَعْدَ أَنْ طُبِعَتِ الْكِرَاسَةُ الْأُولَى ، فَاسْقَطَهَا وَأَعَادَ كِتَابَةَ الْمُقَدِّمَةِ وَطَبَعَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَكَانَتْ عِنْدِي الشُّسْخَةُ الَّتِي مَحَاها ، وَهَذَا مَا لَا أَطُلُّ أَحَدًا يَعْرِفُهُ الْآنَ ، رَحِمَ اللَّهُ شَاعِرًا كَانَ أَصْفَى مِنَ الْعَمَامِ ، وَكَانَ شِعْرُهُ كَأَنَّهُ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ ...

## كَلِمَاتٌ عَنْ حَافِظٍ (\*) (١) (٢)

ذَهَبْتُ بِقَلْبِي إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ، فَوَجَدْتُ أَمْنَكِنَةَ الْأَشْيَاءِ وَلَمْ أَجِدْ مَكَانَ قَلْبِي ؛ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمَسْكِينُ ، أَيْنَ أَذْهَبُ بِكَ ؟

هَذَا مَا أَجَبْتُ بِهِ (حَافِظٌ) حِينَ سَأَلَنِي مَرَّةً : مَا لَكَ لَا تَرْضَى وَلَا تَهْدَأُ وَلَا تَسْتَقِرُّ ؟ وَكَانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ هُوَ رَاضٍ مُسْتَقِرٌّ هَادِئٌ ، كَأَنَّمَا قَضَى مِنَ الْحَيَاةِ نَهْمَتَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهِ مَا يَقُولُ نَفْسُهُ لَيْتَ ذَلِكَ لِي ! وَكُنْتُ أَعْجَبُ لِهَذَا الْخُلُقِ فِيهِ وَلَا أَذْرِي مَا تَعْلِيلُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلِقَ مُطَبَّوعًا بِطَايِعِ الْإِنْسَانِ فَلَمْ يَعْرِفْ مِنْذُ أَذْرَكَ إِلَّا أَنَّهُ ابْنُ الْقَدَرِ : تَأْتِيهِ الْأَفْرَاحُ وَالْأَحْزَانُ مِنْ يَدِ وَاحِدَةٍ مُقْبِلَةً كَمَا تَنَالُ الصَّبِيَّ الْطَافُ أَيْبُهُ وَلَطَمَاتُ أَيْبِهِ . . . . .

وَقَدْ قُلْتُ لَهُ مَرَّةً : كَأَنَّكَ يَا حَافِظُ تَنَامُ بِلاَ أَحْلَامٍ ! فَصَحَّحَكَ وَقَالَ : أَوْ كَأَنَّنِي أَحْلُمُ بِغَيْرِ نَوْمٍ . . .

وَلَقَدْ عَرَفْتُهُ مِنْذُ سَنَةِ ١٩٠٠ إِلَى أَنْ لَحِقَ بِرَبِّهِ فِي سَنَةِ ١٩٣٢ ، فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِ إِلَّا كَالْيَتِيمِ : مَحْكُومًا بِرُوحِ الْقَبْرِ ، وَفِي الْقَبْرِ أَوَّلُهُ ؛ وَلَمَّا أَرْمَعَ السَّفَرَ إِلَى الْيُونَانِ قُلْتُ لَهُ : أَلَا تَخْشَى أَنْ تَمُوتَ هُنَاكَ فَتَمُوتَ يُونَانِيًا . . . فَقَالَ : أَوْ تَرَانِي لَمْ أَمُتْ بَعْدُ فِي مِصْرَ . . . ؟ إِنَّ الَّذِي بَقِيَ هَيِّنٌ !

\* \* \*

وَمِنْ عَجَائِبِ هَذَا الْيَتِيمِ الْحَزِينِ أَنَّهُ كَانَ قَوِيَّ الْمَلَكَةِ فِي فَنِّ الصَّحْحِ ، كَانَ الْقَدَرُ عَوَضَهُ بِهِ لِيُوجِدَهُ فِي النَّاسِ عَطْفَ الْأَبَاءِ وَمَحَبَّةَ الْإِخْوَةِ . وَلَمْ يَخُلْ مَعَ فَقْرِهِ مِنْ ذَرِيعةٍ قَوِيَّةٍ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٠٩ ، ٦ جمادى سنة ١٣٥٤ هـ = ٥ أغسطس / آب ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٢٤٣ - ١٢٤٧ .

(١) كَتَبَهَا فِي الذِّكْرِى الثَّلَاثَةِ لَوَقَاتِهِ . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

(٢) لَمَّا تَوَقَّيَ حَافِظٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كَتَبْنَا فَضْلًا طَوِيلًا مِنْ آدِبِهِ لِلْمُقْتَطَبِ ، فَلَمْ نَعْرِضْ فِي كَلِمَاتِنَا هَذِهِ لِسَيِّئِ مِنْ آدِبِ الرَّجُلِ وَإِنَّمَا هِيَ ذِكْرِي وَبَقَايَا مِنَ الْأَيَّامِ .

إِلَى الْجَاهِ ، وَوَسِيلَةَ مُؤَكَّدَةٍ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى ؛ فَكَانَتْ أَسْبَابُهُ إِلَى الْأَسْتَاذِ الْإِمَامِ الشَّيخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ ، ثُمَّ حَشَمَتْ بَاشَا ، ثُمَّ سَعَدَ بَاشَا زَعْلُولٌ ، وَهَذَا نِظَامٌ عَجِيبٌ فِي زَمَنِ (حَافِظٍ) يُقَابِلُ الْإِخْتِلَالَ الْعَجِيبَ فِي نَفْسِ حَافِظٍ ؛ فَالْجُلُّ كَالسَّفِينَةِ الْمُتَكَفِّفَةِ : تَمِيلُ بِهَا مَوْجَةٌ وَتَعْدِلُهَا مَوْجَةٌ ، وَهِيَ بِهِلْدِهِ وَبِهِلْدِهِ تَمُرُّ وَتَسِيرُ .

وَأُولَئِكَ الرُّؤْسَاءُ الْعُظْمَاءُ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ الْقَدَرُ نِظَامًا فِي زَمَنِ حَافِظٍ ، كَانُوا مِنْ أَفْقَرِ النَّاسِ إِلَى الْفُكَاةِ وَالنَّادِرَةِ ، فَكَانَ لَهُمْ كَالثَّرْوَةِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَوَقَعَ إِصْلَاحًا فِي عَيْشِهِمْ وَكَانُوا إِصْلَاحًا فِي عَيْشِهِ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْأَقْدَارَ تُشَبَّهُ بِالْمَدَارِسِ الْمُخْتَلِفَةِ ، لَقُلْنَا : إِنَّ (حَافِظَ) تَخَرَّجَ مِنْهَا فِي مَدْرَسَةِ التَّجَارَةِ الْعُلْيَا . . . فَهُوَ كَانَ أَبْرَعَ مَنْ يَتَجَرَّبُ بِالنَّادِرَةِ .

\* \* \*

وَهَذِهِ التَّوَادِرُ كَانَتْهَا هِيَ أَيْضًا صَنَعَتْ (حَافِظَ) فِي سُكُلِي نَادِرَةٍ ؛ فَكَانَ فَقِيرًا ، وَمَعَ هَذَا كَانَ لِلْمَالِ عِنْدَهُ مُنَمَّمٌ ، هُوَ إِنْفَاقُهُ وَإِخْرَاجُهُ مِنْ يَدِهِ ؛ وَكَانَ يَتِيمًا ، وَلَكِنَّهُ دَائِمًا مُتَوَدِّدٌ ؛ وَكَانَ حَزِينًا ، وَلَكِنَّهُ أُنِيسُ الطَّلَعَةِ ؛ وَكَانَ بَاشَا ، وَلَكِنَّهُ سَلِيمُ الصَّدْرِ ؛ وَكَانَ فِي ضَيْقٍ ، وَلَكِنَّهُ وَاسِعُ الْخُلُقِ ؛ وَتَمَامُ النَّادِرَةِ فِيهِ أَنَّهُ كَانَ طَوَالَ عُمُرِهِ مُتَبَسِّطًا مُهْتَرًا كَانَ لَهُ زَمَنًا وَحْدَهُ غَيْرَ زَمَنِ النَّاسِ ، فَتَرَكَمُ عَلَيْهِ الْهَمُومُ وَهُوَ مُسْتَسْنِمٌ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَيَعْتَرِيهِ مِنَ الْجُوعِ مِثْلُ مَكْسَلَةِ الشَّيْخِ ، وَيَسْتَرْسِلُ إِلَى الْبَطَالَةِ وَكَأَنَّهُ مُسَمَّرٌ لِلْجِدِّ ، وَيَسْتَمْكِنُ الْحَزْنَ مِنْهُ فِي سَاعَةٍ فَيَتَهَدَّدُ حُزْنُهُ بِالسَّاعَةِ التَّالِيَةِ . . .

رَأَيْتُهُ فِي أَحَدِ أَيَّامِ بُؤْسِهِ الْأُولَى قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ عَيْشُهُ ، وَكَانَ يَعُدُّ قُرُوشًا فِي يَدِهِ ، فَقُلْتُ : مَا أَمْرُ هَذِهِ الْقُرُوشِ ؟

قَالَ : كُنْتُ أَقَامِرُ السَّاعَةَ فَأَضَعْتُ ثَلَاثِينَ قُرْشًا وَلَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ هَذِهِ الْقُرُوشِ الْمَلْعُونَةِ ، فَهَلُمَّ تَتَعَشَّ . وَدَخَلَ إِلَى مَطْعَمٍ كَانَ وَرَاءَ حِدَيْفَةِ الْأَزْبُكِيَّةِ ، فَزَعَمْتُ لَهُ أَنِّي تَعَشَّيْتُ . . . فَأَكَلَ هُوَ وَدَفَعَ ثَمَنَ طَعَامِهِ ثَلَاثَةَ قُرُوشٍ ؛ وَكُنْتُ أَطَالِعُ فِي وَجْهِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ ، فَمَا أَتَذَكَّرُهُ إِلَّا كَمَا طَالَعْتُهُ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً مِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ حِينَ دَعَانِي (حَافِظُ) إِلَى مَطْعَمِ بَارِ اللَّوَاءِ وَقَدْ فَاضَتْ أَنْامِلُهُ ذَهَابًا وَفِضَةً ؛ وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ أَصْدَرَ الْجُزْءَ الثَّانِي مِنْ « الْبُؤْسَاءِ » ، وَرَأَيْتُ فِي الْقَاهِرَةِ ، فَأَمْسَكَ بِي حَتَّى قَرَأْتُ مَعَهُ الْكِتَابَ كُلَّهُ فِيمَا بَيْنَ الظُّهْرِ

وَالْمَغْرِبِ ؛ وَرَكِبْنَا فِي الْأَصِيلِ عَرَبَةً وَخَرَجْنَا نَتَنَرُّهُ ، أَي : خَرَجْنَا نَقْرَأُ ...

\* \* \*

وَكَانَ عَلَى وَجْهِ (حَافِظٍ) لَوْ أَنَّ الرُّضَى لَا يَتَغَيَّرُ فِي بُؤْسٍ وَلَا نَعِيمٍ ، كَبَيَاضِ الْأَبْيَضِ وَسَوَادِ الْأَسْوَدِ ، وَهَذَا مِنْ عَجَائِبِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ قِتْلًا مِنَ الْفَوْضَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ حُلُمٌ شِعْرِيٌّ بَدَأَ مِنْ أَبَوَيْهِ ثُمَّ انْقَطَعَ وَتَرَكَ لِتَتِمَّةِ الطَّبِيعَةِ !

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى حَافِظٍ عَلَى اعْتِبَارٍ أَنَّهُ قَدْ الْفَوْضَى الْإِنْسَانِيَّةَ رَأَى جَمِيلًا جَمَالَ الْأَشْيَاءِ الطَّبِيعِيَّةِ لَا جَمَالَ النَّاسِ ، فَبَيْنَهُ مِنَ الصَّخَرَاءِ وَالْجِبَالِ وَالصُّخُورِ وَالْغِيَاضِ وَالرِّيَاضِ وَالْبُرُقِ وَالرَّغْدِ وَأَشْبَاهِهَا ؛ وَكُنْتُ أَنَا أَرَاهُ يَهْدِيهِ الْعَيْنُ فَاسْتَجْمِلُهُ ، وَيَبْدُو لِي جَزَلًا مُطَهَّمًا ، وَأَرَى فِي شَكْلِهِ هُنْدَسَةَ كَهْنَدَسَةِ الْكُونِ : تَتَمُّ مَحَاسِنُهَا بِمَقَابِحِهَا . وَكَمْ قُلْتُ لَهُ : إِنَّكَ يَا حَافِظُ أَجْمَلُ مِنَ الْفَقْرِ ...

أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَرَى نَفْسَهُ دَمِيمًا شَنِيعَ الْمِرَاةِ مُتَفَاوِتَ الْخَلْقِ ، كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مَغْلُوطٌ فِي تَرْكِيبِهِ ... وَقَدْ سَأَلْتُهُ مَرَّةً : هَلْ أَحَبَّ ؟

فَقَالَ : الْنِسَاءُ اثْنَتَانِ : فَإِمَّا جَمِيلَةٌ تَنْفَرُ مِنْ قُبْحِي ، وَإِمَّا دَمِيمَةٌ أَنْفَرُ مِنْ قُبْحِهَا ! وَلِهَذَا لَمْ يُفْلَحْ فِي الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ ، وَلَمْ يُحْسِنْ مِنْ هَذَا أَلْبَابِ شَيْئًا يُسَمَّى شَيْئًا ؛ وَبَقِيَ شَاعِرًا غَيْرَ تَامٍ ، فَإِنَّ الْمِرَاةَ لِلشَّاعِرِ كَحَوَاءَ لَادَمَ : هِيَ وَخَدَهَا الَّتِي تُعْطِيهِ بِحُبِّهَا عَالَمًا جَدِيدًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ ، وَكُلُّ شَرِّهَا أَنَّهَا تَتَخَطَّى بِهِ السَّمَوَاتِ نَازِلًا ...

\* \* \*

وَتَهَدَّمَ حَافِظٌ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ مِنْ أَثَرِ الْمَرَضِ وَالشَّيْخُوخَةِ ، وَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهِ أَنْ جَاءَ إِلَى إِدَارَةِ « الْمُقْتَطَفِ » وَأَنَا هُنَاكَ ، فَلَمْ يَرِنِي حَتَّى بَادَرَنِي بِقَوْلِهِ : مَاذَا تَرَى فِي هَذَا الْبَيْتِ مِنْ وَصْفِ الْأَمْرِ يَكُنْ [من الخفيف] :

وَتَخَذْتُمْ مَوْجَ الْأَيْثَرِ بَرِيدًا جِينِ خِلْتُمْ أَنَّ الْبُرُوقَ كُسَالَى<sup>(١)</sup>

(١) هَذَا الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ نَظَمَهَا حَافِظٌ يُخَاطَبُ فِيهَا الْأَمْرِيكِيِّينَ ، وَقَدْ أَمَرْنَا فِي مَقَالَتَا فِي =

فَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْمَعْرُوقِ الْمُتَغَضِّينِ وَقُلْتُ لَهُ : لَوْ كَانَ فِيكَ مَوْضِعٌ قُبْلَةً لَقَبْلَتُكَ لِهَذَا الْبَيْتِ ! فَضَحِكَ وَأَذَارَ لِي خَدَّهُ ؛ وَلَكِنْ بَقِيَ خَدُّهُ بِلَا تَقْبِيلٍ ...

\* \* \*

وَشُهْرَةُ هَذَا الْأَدِيبِ الْعَظِيمِ بِتَوَادِرِهِ وَمَحْفُوظَاتِهِ مِنْ هَذَا أَلْفَنُ أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَتَقَصَّصُ التَّوَادِرَ وَالْفُكَاهَاتِ وَمُطَارَحَاتِ السَّمَرِ مِنْ مَطَائِفِهَا فِي الْكُتُبِ وَرِجَالِ الْأَدَبِ وَأَهْلِ الْمُجُونَ ، فَإِذَا قَصَّهَا عَلَى مَنْ يُجَالِسُهُ زَادَ فِي أُسْلُوبِهَا أُسْلُوبُهُ هُوَ ، وَجَعَلَ يُقْلِبُهَا وَيَتَصَرَّفُ فِيهَا وَيَبِينُ عَنْهَا أَحْسَنَ الْإِبَانَةِ بِمَنْطِقِهِ وَوَجْهِهِ وَتَبَرَّاتِ فِي يَدِهِ .

وَهُوَ أَصَمُّعِي هَذَا أَلْبَابِ خَاصَّةً ، وَيَزُورُنِي مِنْهُ رِوَايَةٌ عَرِيضَةٌ ، فَإِذَا اسْتَهْلَّ سَحَّ بِالتَّوَادِرِ سَحًّا كَأَنَّهَا قَوَافِي قَصِيدَةٍ تَدْعُو الْوَاحِدَةَ مِنْهَا أَخْتَهَا الَّتِي بَعْدَهَا .

وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي (الْقَوَافِي) مَجْلِسًا حَضَرْتُهُ قَدِيمًا فِي سَنَةِ ١٩٠١ أَوْ ١٩٠٠ ، وَكَانَ « مِصْبَاحُ الشَّرْقِ » قَدْ نَشَرَ قَصِيدَةَ رَائِيَّةِ لَابِنِ الرُّومِيِّ ، فَتَعَجَّبَ الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْمَهْدِيُّ مِنْ بَسْطَةِ أَبْنِ الرُّومِيِّ فِي قَوَافِيهِ ، فَقَالَ لَهُ (حَافِظُ) : هَلَمْ تَسْجُلْ فِي هَذَا أَلْوَزِنَ حَتَّى يَنْقَطَعَ أَحَدُنَا ، وَكَانَتْ أَلْفَايَةُ مِنْ وَزْنٍ : قَدَرَهَا ، أَحْمَرَهَا ، أَخْضَرَهَا ... إلخ ؛ وَجَعَلْتُ أَنَا أَحْصِي عَلَيْهِمَا ، فَلَمَّا ضَاقَ الْكَلَامُ كَانَ الشَّيْخُ الْمَهْدِيُّ يُفَكِّرُ طَوِيلًا ثُمَّ يَنْطِقُ بِاللَّفْظِ ، وَلَا يَكَادُ يَفْعَلُ حَتَّى يَزِمِيهِ حَافِظٌ عَلَى الْبِدْيَةِ ، فَيَعُودُ الرَّجُلُ إِلَى الْإِطْرَاقِ وَالتَّفَكُّيرِ ، ثُمَّ انْقَطَعَ أَخِيرًا وَبَقِيَ حَافِظٌ يَسْرُدُ لَهُ مِنْ حِفْظِهِ الْغَرِيبَ .

أَمَّا فِي التَّوَادِرِ ، فَالْعَجِيبَةُ الَّتِي انْفَقَتْ لَهُ فِي هَذَا أَلْبَابِ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى طَنْطَا فِي سَنَةِ ١٩١٢ وَمُدِيرُهَا يَوْمَئِذٍ الْمَرْحُومُ « مُحَمَّدٌ مُحَبَّبٌ بَاشَا » وَكَانَ دَاهِيَةً ذَكِيًّا وَظَرِيفًا لَبِقًا ، وَكُنْتُ أَخَالِطُهُ وَأَصِلُ بِهِ ، فَدَعَا (حَافِظُ) إِلَى الْعِشَاءِ فِي دَارِهِ ؛ فَلَمَّا مَدَّتْ الْأَيْدِي قَالِ الْبَاشَا : لِي عَلَيْكَ شَرْطٌ يَا حَافِظُ . قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : كُلُّ لُقْمَةٍ بِتَادِرَةٍ !

فَقَهَّلَ حَافِظٌ وَقَالَ : نَعَمْ ، لَكَ عَلَيَّ ذَلِكَ . ثُمَّ أَخَذَ يَتَقَصُّ وَيَأْكُلُ ، وَالْعِشَاءُ حَافِلٌ ،

= « الْمُقْتَطَفِ » إِلَى أَنَّ مَعْنَاهُ مَسْرُوقٌ .

وَحَافِظٌ كَانَ نَهْمًا ، فَمَا أَنْقَطَعَ وَلَا أَحَلَّ حَتَّى وَفَى بِالشَّرْطِ . وَهَذَا لَا يَمْنَعُ أَنَّ الْبَاشَا كَانَ يَتَغَاوَلُ وَيَتَغَاوَلُ وَيَتَغَاوَلُ بِالصَّحْبِ ، فَيَسْرِعُ حَافِظٌ وَيُعَالِطُ بِقِيَمِهِ ...

\* \* \*

وَلَكِنْ هَذِهِ الْمُضْحَكَاتِ أَضْحَكَتْ مِنْ (حَافِظٍ) مَرَّةً كَمَا أَضْحَكَتْ بِهِ ، فَلَمَّا كَانَ يُتْرَجَمُ (مَكْبَث Macbeth) لِشِكْسْبِير Shakespeare - وَهِيَ كَأَعْمَالِهِ الْتَافِصَةِ دَائِمًا - دَعَا لِقَاءَ (مُحَاضِرَةٍ) فِي نَادِي الْمَدَارِسِ الْعُلْيَا ، وَالنَّادِي يُؤَمِّدُ يَجْمَعُ خَيْرَ الشَّبَابِ حِمِيَّةً وَعِلْمًا ، وَكَانَ صَاحِبَ السَّرِّ فِيهِ (السُّكْرِتِيرُ) زَيْنَةُ شَبَابِ الْوِطَنِيَّةِ الْمَرْحُومِ أَمِينُ بَكِ الرَّافِعِي ، فَقَامَ حَافِظٌ فَأَنْشَدَهُمْ بَعْضَ مَا تَرْجَمَهُ نَظْمًا عَنْ شِكْسْبِير Shakespeare ، مِثْلَهُ تَمَثِيلًا أَفْرَغَ فِيهِ جُهْدَهُ ، فَأَطْرَبَ وَأَعْجَبَ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ (الْمُحَاضِرَةُ) ، فَأَخَذَ يُلْقِي عَلَيْهِمْ مِنْ نَوَادِرِهِ ، وَبَدَأَ كَلَامَهُ بِهَذِهِ النَّادِرَةِ : عُرِضَتْ عَلَى الْمُعْتَصِمِ جَارِيَةٌ يَشْتَرِيهَا ، فَسَأَلَهَا : أَنْتِ بِكَرٍّ أَمْ تَيْبٌ ؟ فَقَالَتْ : كَثُرَتْ الْفُتُوحُ عَلَى عَهْدِ الْمُعْتَصِمِ ...

وَنَظَرَ حَافِظٌ إِلَى وَجْهِهِ الْفُؤَامِ فَأَنْكَرَهَا ... وَبَقِيَتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ إِلَى آخِرِ الْمُحَاضِرَةِ كَأَنَّهُمَا تَقُولُ لَهُ : إِنَّكَ لَمْ تَفْلَحْ !

وَلَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي تَنَبُّهِ (حَافِظٍ) إِلَى مَا يَجِبُ لِلشَّبَابِ عَلَيْهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْقَصَائِدِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي كَسَبَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدٍ ، وَنَادِرَةُ الْمُعْتَصِمِ كَالْعَوْرَةِ الْمَكْشُوفَةِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي أَكَانَ حَافِظٌ يَعْرِفُ النَّادِرَةَ الْبَدِيعَةَ الْآخَرَى أَمْ لَا ؟ فَقَدْ عُرِضَتْ جَارِيَةٌ أَدِيبَةٌ ظَرِيفَةٌ عَلَى الرَّشِيدِ فَسَأَلَهَا : أَنْتِ بِكَرٍّ أَمْ أَيْشٌ ؟

فَقَالَتْ : أَنَا (أَمْ أَيْشٌ) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

\* \* \*

وَفِي (الشُّعْرِ الْأَجْتِمَاعِيِّ) الَّذِي عُرِفَ بِهِ حَافِظٌ ، لَمْ يَكُنْ فَتًى مِنْ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ هُوَ قَدْ تَنَبَّهَ لَهُ أَوْ تَحَوَّرَ فِي طَرِيقَتِهِ ، فَلَمَّا جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ الْأَمِيرِاطُورَةِ (أُوجِينِي Eugenie) (١) نَظَّمَ

(١) أوجيني Eugenie Maria de montijo (١٨٢٦ - ١٩٢٠ م) : اسمها كاملاً Eugenie Maria de montijo de Guzman : أميرة فرنسا (١٨٥٣ - ١٨٧١ م) زوجة نابليون الثالث Napoleon III أميرة طور =

قَصِيدَتَهُ الثُّونِيَّةَ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا [من الخفيف] :

فَاعْذُرْنَا عَلَى الْقُصُورِ ، كِلَانَا غَيْرُنَا طَوَارِيءُ الْحَدَثَانِ  
وَلَقِينَهُ بَعْدَهَا ، فَسَأَلَنِي رَأْيِي فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَكَانَ بِهَا مُدِلًّا مُعْجَبًا ، شَأْنُهُ فِي كُلِّ  
شِعْرِهِ ؛ فَانْقَدْتُ مِنْهَا أَشْيَاءَ فِي الْفَاطِطِ وَمَعَانِيهَا ، وَأَشْرْتُ إِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي كَانَ يَخْشَنُ أَنْ  
تُخَاطَبَ بِهَا الْأَمِيرِاطُورَةُ ؛ فَكَأَنِّي أَغْضَبْتُهُ ؛ فَقَالَ : إِنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ ، وَسَعَدَ  
زَعْلُولُ ، وَقَاسَمَ أَمِينُ - أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ هَذَا اللَّمَطَ هُوَ خَيْرُ الشُّعْرِ ، وَقَالُوا لِي : إِذَا  
نَظَّمْتَ فَانْظُمِ مِثْلَ هَذَا « الشُّعْرِ الْأَجْتِمَاعِيِّ » ؛ ثُمَّ كَأَنَّهُ تَنَبَّهَ إِلَى أَنَّهَا طَرِيقَةٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَفَرَّدَ  
بِهَا ، فَقَالَ : إِنَّ كُلَّ قَصَائِدِ شَوْقِي الْآنَ غَزَلٌ وَمَدْحٌ ، وَلَا أَثَرُ فِيهَا لِهَذَا الشُّعْرِ ، عَلَى أَنَّهُ  
هُوَ الشُّعْرُ .

وَتَتَابَعَتْ قَصَائِدُهُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ ، فَلَقِينِي بَعْدَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَقَالَ لِي : إِنَّ الشَّاعِرَ الَّذِي  
لَا يَنْظُمُ فِي الْأَجْتِمَاعِيَّاتِ لَيْسَ عِنْدِي بِشَاعِرٍ . وَأَرَدْتُ أَنْ أَغِيظَهُ فَقُلْتُ لَهُ : وَمَا هِيَ  
الْأَجْتِمَاعِيَّاتُ إِلَّا جَعْلُ مَقَالَاتِ الصُّحُفِ قَصَائِدٌ ؟

فَالْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ وَسَعَدَ زَعْلُولُ وَقَاسَمَ أَمِينُ : أَحَدُ هَؤُلَاءِ أَوْ جَمِيعُهُمْ أَضَلُّ هَذَا  
الْمَذْهَبِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ حَافِظٌ ، وَهُوَ كَثِيرًا مَا كَانَ يَقْتَسِمُ مِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي  
مَجْلِسِ الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ ، مِنْ حَدِيثِهِ أَوْ حَدِيثِ غَيْرِهِ ، فَيَبْنِي عَلَيْهَا أَوْ يُذْخِلُهَا فِي  
شِعْرِهِ ، وَهُوَ أَخْيَانًا رَدِيءُ الْأَخْذِ جَدًّا حِينَ يَكُونُ الْمَعْنَى فَلَسْفِيًّا ؛ إِذْ كَانَتْ مَلَكَهُ الْفَلَسَفَةُ  
فِيهِ كَالْمُعْطَلَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الشَّاعِرِ مِنْ مَلَكََةِ الْحُبِّ ، وَإِنَّمَا أَوَّلُهَا وَأَصْلُهَا دُخُولُ الْمَرْأَةِ  
فِي عَالَمِ الْكَلَامِ بِإِنْبَاهِهَا وَتَوَثُّرِهَا ...

\* \* \*

وَكُنْتُ أَوَّلَ عَهْدِي بِالشُّعْرِ نَظَّمْتُ قَصِيدَةً مَدَحْتُ فِيهَا الْأَسْتَاذَ الْإِمَامَ وَأَنْقَذْتُهَا إِلَيْهِ ، ثُمَّ  
قَابَلْتُ حَافِظَ بَعْدَهَا فَقَالَ لِي : إِنَّهُ هُوَ تَلَاهَا عَلَى الْإِمَامِ ، وَإِنَّهُ اسْتَحْسَنَهَا ؛ قُلْتُ : فَمَاذَا

= فرنسا بعد سقوط الامبراطورية الثانية عام ١٨٧١ م ، أقامت مع زوجها في إنكلترا ، وبقيت هناك  
بعد وفاته سنة ١٨٧٣ م .

كَانَتْ كَلِمَتُهُ فِيهَا ؟ قَالَ : إِنَّهُ قَالَ لَا بَأْسَ بِهَا ...

فَاضْطَرَبَ شَيْطَانِي مِنَ الْغَضَبِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الشَّيْخَ لَيْسَ بِشَاعِرٍ ، فَلَيْسَ لِرَأْيِهِ فِي الشَّعْرِ كِبِيرٌ مَعْنَى ! قَالَ : وَنَحَكَ ! إِنَّ هَذَا مَبْلَغُ الِاسْتِحْسَانِ عِنْدَهُ .

قُلْتُ : وَمَاذَا يَقُولُ لَكَ أَنْتَ حِينَ تُنْشِدُهُ ؟ قَالَ : أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ قَلِيلًا ... فَأَرْضَانِي وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ حَافِظٍ (قَلِيلٌ) ، وَطَمِعْتُ مِنْ يَوْمَيْهِ .

وَأَنَا أَرَى أَنَّ « حَافِظَ إِبْرَاهِيمَ » إِنْ هُوَ إِلَّا دِيْوَانُ « الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدُهُ » ، لَوْلَا أَنَّ هَذَا هَذَا ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ ذَلِكَ .

وَمِنْ أَثَرِ الشَّيْخِ فِي حَافِظٍ أَنَّهُ كَانَ دَائِمًا فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَسْمَعُهُ ، فَكَانَ إِذَا عَمِلَ آيَاتًا رَكِبَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي فِي الْقَصْرِ الْعَيْنِيِّ ، وَطَافَ عَلَى الْقَهْوَاتِ وَالْأَنْدِيَةِ يُسْمِعُ النَّاسَ بِالْقُوَّةِ ... إِذْ كَانَتْ أَذُنُ الْإِمَامِ هِيَ الَّتِي رَبَّتِ الْمَلَكَةَ فِيهِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي مَقَالَتَا فِي « الْمُقْتَضَفِ » .

وَكَانَ تَمَامُ الشَّعْرِ الْحَافِظِي أَنْ يُنْشِدَهُ حَافِظُ نَفْسِهِ ؛ وَمَا سَمِعْتُ فِي الْإِنْشَادِ أَعْرَبَ عَرَبِيَّةً مِنَ الْبَارُودِيِّ ، وَلَا أَغْدَبَ عُذُوبَةً مِنَ الْكَاطِمِيِّ ، وَلَا أَفْخَمَ فَخَامَةً مِنْ حَافِظٍ ؛ رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا .

وَكَانَ أَدِينَنَا يُجِلُّ الْبَارُودِيَّ إِجْلَالًا عَظِيمًا ، وَلَمَّا قَالَ فِي مَذْهِبِهِ [من الطويل] :

فَمَزَّ كُلَّ مَعْنَى فَارِسِيٍّ بِطَاعَتِي وَكُلَّ نَفْوَ مِنْهُ أَنْ يَتَوَدَّدَا

قُلْتُ لَهُ : مَا مَعْنَى هَذَا ؟ وَكَيْفَ يَأْمُرُ الْبَارُودِيَّ كُلَّ مَعْنَى فَارِسِيٍّ وَمَا هُوَ بِفَارِسِيٍّ ؟

قَالَ : إِنَّهُ يَعْرِفُ الْفَارِسِيَّةَ ، وَقَدْ نَظَّمَ فِيهَا ، وَعِنْدَهُ مَجْمُوعَةٌ جَمَعَ فِيهَا كُلَّ الْمَعَانِي الْفَارِسِيَّةِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي وَقَفَ عَلَيْهَا ؛ قُلْتُ : فَكَانَ الْوَجْهُ أَنْ تَقُولَ لَهُ : أَعَزَّنِي الْمَجْمُوعَةُ الَّتِي عِنْدَكَ ...

أَمَّا الْكَاطِمِيُّ ، فَكَانَ حَافِظٌ يُجَافِيهِ وَيَبَاعِدُهُ ، حَتَّى قَالَ لِي مَرَّةً وَقَدْ ذَكَرْتُهُ بِهِ : « عَقَقْتَاهُ يَا مُصْطَفَى ! »

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ فَرَحَ حَافِظٍ حِينَ أَعْلَمْتُهُ أَنَّ الْكَاطِمِيَّ يَحْفَظُ قَصِيدَةً مِنْ قَصَائِدِهِ ،

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي سَنَةِ ١٩٠١ - عَلَى مَا أَذْكُرُ - أَغْلَتُوا عَنْ جَوَائِزَ يَمْنَحُونَهَا مَنْ يُجِدُّ فِي مَذْهِبِ الْخَذْيِ ، وَجَعَلُوا الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْبَارُودِيِّ وَصَبْرِي وَالْكَاطِمِيِّ ، ثُمَّ تَخَلَّى الْبَارُودِيُّ وَصَبْرِي ، وَحَكَّمَ الْكَاطِمِيَّ وَخَذَهُ ، فَتَالَ حَافِظُ الْمِيدَالِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ ، وَتَالَ مِثْلُهَا الشَّيْخُ تَوْفِيقُ الْبُكْرِيِّ .

وَلَمَّا زُرْتُ الْكَاطِمِيَّ ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ مُتَبَدِّلًا فِي الشَّعْرِ ، وَلَا أَزَالُ فِي الْعَزْرَمَةِ <sup>(١)</sup> ، قَالَ : لِمَاذَا لَمْ تَدْخُلْ فِي هَذِهِ الْمُبَارَاةِ ؟ قُلْتُ : وَأَيْنَ أَنَا فِي شَوْفِي وَحَافِظٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ ؟ فَقَالَ : « لِيهِ تَخَلَّى هِمَّتَكَ ضَعِيفَةً ؟ » ثُمَّ أَسْمَعَنِي قَصِيدَةَ حَافِظٍ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا ، فَتَقَلْتُ ذَلِكَ إِلَى حَافِظٍ ، فَكَادَ يَطِيرُ عَنْ كُرْسِيِّهِ فِي الْقَهْوَةِ .

\* \* \*

وَكَانَ تَعَثُّ حَافِظٍ عَلَى الْكَاطِمِيِّ لِأَنَّهُ غَيْرُ مِصْرِيٍّ ، فَفِي سَنَةِ ١٩٠٣ كَانَتْ تَصُدُّرُ فِي الْقَاهِرَةِ مَجَلَّةٌ أَسْمُهَا « الثُّرَيَّا » ، فَظَهَرَ فِي أَحَدِ أَعْدَادِهَا <sup>(٢)</sup> مَقَالٌ عَنِ الشُّعْرَاءِ بِهَذَا التَّوْقِيعِ (\*) ، وَانْتَجَرَ هَذَا الْمَقَالُ أَنْفَجَارَ الْبُرْكَانِ ، وَقَامَ بِهِ الشُّعْرَاءُ وَقَعَدُوا ، وَكَانَ لَهُ فِي الْغَارَةِ عَلَيْهِمْ كَرْفِيفُ الْجَيْشِ وَقَعَقَعَةُ السَّلَاحِ ، وَتَنَاوَلَتْهُ الصُّحُفُ الْيَوْمِيَّةُ ، وَاسْتَمَرَّتْ رَجْفَتُهُ الْأَدَبِيَّةُ نَحْوَ الشَّهْرِ ، وَانْتَهَى إِلَى الْخَذْيِ ؛ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَاجْتَمَعَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ أَسَاتِذَةِ الْعَصْرِ الشُّورِيِّينَ ، كَالْعَلَامَةِ سُلَيْمَانَ الْبُسْتَانِيِّ ، وَأَدِيبِ عَصْرِهِ الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ الْيَازِجِيِّ ، وَالْمُؤَرِّخِ الْكَبِيرِ جُورْجِي زَيْدَانَ - إِذْ كَانَ صَاحِبَ الْمَجَلَّةِ سُورِيَا - وَجَعَلُوا يُنْفِذُونَ إِلَى صَاحِبِ الْمَجَلَّةِ دَسِيسًا بَعْدَ دَسِيسٍ لِيَعْلَمُوا مَنْ هُوَ كَاتِبُ الْمَقَالِ .

وَشَاعَ يَوْمَئِذٍ أَنِّي أَنَا الْكَاتِبُ لَهُ ؛ وَكَانَ الْكَاطِمِيُّ عَلَى رَأْسِ الشُّعْرَاءِ فِيهِ ؛ فَغَضِبَ حَافِظٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَمَا كَادَ يَرَانِي فِي الْقَاهِرَةِ حَتَّى ابْتَدَرَنِي يَقُولُهُ : « وَرَبَّ الْكُعْبَةِ أَنْتَ كَاتِبُ الْمَقَالِ ، وَدِمَةُ الْإِسْلَامِ أَنْتَ صَاحِبُهُ ! » .

(١) الْعَزْرَمَةُ : أَوَّلُ قَوْلِ الشَّعْرِ ، حِينَ يَكْتُرُ الرَّدِيءُ فِيهِ . يُقَالُ : فُلَانٌ يُعَزِّرُمُ .

(٢) { عَدَدُ يَنْبَازٍ / كَانُونُ الْأَوَّلِ سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَأَنْظَرُ « شُعْرَاءَ عَصْرِهِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

ثُمَّ دَخَلْنَا إِلَى « قَهْوَةِ الشَّيْئَةِ » ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ : « إِنَّ الَّذِي يُغَيِّظُنِي أَنْ يَأْتِيَ كَاتِبَ الْمَقَالِ بِشَاعِرٍ مِنْ غَيْرِ مَضَرٍ فَيَضَعُهُ عَلَى رُؤُوسِنَا نَحْنُ الْمَضْرُوبِينَ ! » .  
فَقُلْتُ : « وَلَعَلَّ هَذَا قَدْ غَاطَكَ بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ أَلَّا يَكُونَ الَّذِي عَلَى رَأْسِكَ هُوَ شَوْقِي ... » .

وَعَضِبَ السَّيِّدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِيُّ غَضَبًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فَاسْتَعَانَ بِالْمَرْحُومِ السَّيِّدِ مُصْطَفَى الْمَنْفَلُوطِيِّ اسْتِعَانَةً ذَهَبَتْ ... وَشَمَّرَ الْمَنْفَلُوطِيُّ فَكَتَبَ مَقَالًا فِي « مَجَلَّةِ سَرْكِيْس » يُعَارِضُ بِهِ مَقَالَ « الثُّرَيَّا » ، وَجَعَلَ فِيهِ الْبَكْرِيُّ عَلَى رَأْسِ الشُّعْرَاءِ .. وَمَدَحَهُ مَدْحًا يَرِيحُ رَيْنًا .

أَمَّا أَنَا فَتَنَّاوَلْنِي بِمَا اسْتَطَاعَ مِنَ الدِّمِّ ، وَجَرَّدَنِي مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي جَمِيعًا ؛ وَعَدَّنِي فِي الشُّعْرَاءِ لِيَقُولَ أَنِّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ ... فَكَانَ هَذَا رَدًّا نَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ (١) .

وَتَعَلَّقَ مَقَالَ الْمَنْفَلُوطِيِّ عَلَى الْمَقَالِ الْأَوَّلِ فَاسْتَهْرَ بِهِ لَا بِالْمَنْفَلُوطِيِّ ؛ وَغَضِبَ حَافِظٌ مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ تَعَسَّفَ هَذَا الْكَاتِبِ وَتَحَامُلَهُ ، وَيَقُولُ : قَدْ وَكَلْتُ إِلَيْكَ أَمْرَ تَأْدِيبِهِ (٢) .

فَكَتَبْتُ مَقَالًا فِي جَرِيدَةِ « الْمُنِير » ، وَكَانَ يُصْدِرُهَا الْأُسْتَاذَانِ مُحَمَّدٌ مَسْعُودٌ وَحَافِظٌ عَوَظٌ ، وَوَضَعْتُ كَلِمَةَ الْمَنْفَلُوطِيِّ الَّتِي ذَمَّنِي بِهَا فِي صَدْرِ مِقَالِي أَفَاجِرُ بِهَا ... وَقُلْتُ : إِنِّي كَذَلِكَ أَلْفَلَسُوفُ الَّذِي أَرَادُوهُ أَنْ يَشْفَعَ إِلَيَّ مَلِكِهِ ، فَأَكَبَّ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ حَتَّى شَفَعَهُ ؛ فَلَمَّا عَابُوهُ بِأَنَّهُ أَذَالَ حُرْمَةَ الْفَلَسَفَةِ بِأَنِحَاتِهِ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ وَسَجُودِهِ لَهُ ، قَالَ : وَيَحْكُمُ ! فَكَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا كَانَ الْمَلِكُ قَدْ جَعَلَ أَذُنِيهِ فِي رِجْلَيْهِ ...

\* \* \*

(١) [ نَسَرَ الْمَرْحُومُ الْمَنْفَلُوطِيُّ مَقَالَهُ هَذَا فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى مِنْ كِتَابِهِ « النَّظَرَات » بَعْدَ أَنْ هَدَّبَهُ ؛ ثُمَّ حَذَفَهُ مِنَ الطَّبْعَاتِ الْأُخْرَى ، لِأَنَّهُ هُوَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَاتِبَةَ الْمُسْتَأْجِرَةَ لَا يُسَمَّى بِكَأُفْهَا بُكَاءً ... ] { انْظُرْ « فِي الْقَدِّ » مِنْ كِتَابِ « حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ » } .

(٢) { « الْمُقْتَطَفُ » نُوفَمْبَرُ/نَوَفَمْبَرُ شَرِينِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٣٢ ، وَانْظُرْ « فِي الْقَدِّ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ » } .

وَلَمْ يَكُنْ مَضَى لِي فِي مُعَالَجَةِ الشُّعْرِ غَيْرَ سَتَيْنِ حِينَ ظَهَرَ مَقَالَ « الثُّرَيَّا » ، وَمَعَ ذَلِكَ أَصْبَحَ كُلُّ شَاعِرٍ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيِي فِيهِ ؛ فَمَرَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ (بِحَافِظٍ) وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ لَا أَعْرِفُهُمْ ، فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ بِنِي الْمَجْلِسِ قَالَ حَافِظٌ : مَا رَأَيْكَ فِي شِعْرِ الْيَارِجِيِّ ؟ فَاجَبْتُهُ ، قَالَ : قَالِيسَتَائِي ؟ فَجَنَّبِ الْحَدَّادِ ؟ فَفُلَانٍ ؟ فَفُلَانٍ ؟ فَدَاوُدَ عَمُّونَ ؟ قُلْتُ : هَذَا لَمْ أَقْرَأْ لَهُ إِلَّا قَلِيلًا لَا يَسُوعُ مَعَهُ الْحُكْمُ عَلَى شِعْرِهِ . قَالَ : فَمَاذَا قَرَأْتَ لَهُ ؟ قُلْتُ : رَدَّهُ عَلَى قَصِيدَتِكَ إِلَيْهِ [مِنِ الْمُتَقَارِبِ] :

شَجَنَّا مَطَالِغُ أَفْمَارِهَا

قَالَ : فَمَا رَأَيْكَ فِي قَصِيدَتِهِ هَلِهِ ؟ قُلْتُ : هِيَ مِنَ الشُّعْرِ الْوَسَطِ الَّذِي لَا يَعْلُو وَلَا يَنْزِلُ .

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ : أَنْصَفْتَ وَاللَّهِ ! فَقَالَ حَافِظٌ : أَقَدَّمُ لَكَ دَاوُدَ بَنِي عَمُّونَ ! ...

رَحِمَ اللَّهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ !

\* \* \*

## شوقي (\*)

هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّ مِصْرَ اخْتَارَتْهُ دُونَ أَهْلِهَا جَمِيعًا لِتَضَعَ فِيهِ رُوحَهَا الْمُتَكَلِّمَ ، فَأَوْجَبَتْ لَهُ مَا لَمْ تُؤْجِبْ لِغَيْرِهِ ، وَأَعَانَتْهُ بِمَا لَمْ يَتَّفِقْ لِسِوَاهُ ، وَهَبَتْهُ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْتِمَكِينِ وَأَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ وَخَصَائِصِهَا عَلَى قَدْرِ أَمِّهِ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَةً ، لَا عَلَى قَدْرِ رَجُلٍ فِي نَفْسِهِ ؛ وَبِهِ وَخَدَهُ اسْتَطَاعَتْ مِصْرُ أَنْ تَقُولَ لِلتَّارِيخِ : شِعْرِي وَأَدْبِي !

شوقي : هَذَا هُوَ الْأَسْمُ الَّذِي كَانَ فِي الْأَدَبِ كَالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ؛ مَتَى طَلَعَتْ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ طَلَعَتْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، وَمَتَى ذُكِرَ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ اتَّسَعَ مَعْنَى أَسْمِهِ فَدَلَّ عَلَى مِصْرٍ كُلِّهَا كَأَنَّمَا قِيلَ : الْبَيْتُ أَوْ الْهَرَمُ أَوْ الْقَاهِرَةُ ؛ مُتَرَادِفَاتٍ لَا فِي وَضْعِ اللَّغَةِ وَلَكِنْ فِي جَلَالِ اللَّغَةِ .

رَجُلٌ عَاشَ حَتَّى تَمَّ ، وَذَلِكَ بُرْهَانُ التَّارِيخِ عَلَى أَصْطِفَائِهِ لِمِصْرَ ، وَدَلِيلُ الْعَبَقَرِيَّةِ عَلَى أَنَّ فِيهِ السَّرَّ الْمُتَحَرِّكَ الَّذِي لَا يَقِفُ وَلَا يَكِلُ وَلَا يَقْطَعُ نِظَامَ عَمَلِهِ كَأَنَّ فِيهِ حَاسَةً نَخَلَةً فِي حَدِيثَةٍ . وَيَكْبُرُ شِعْرُهُ كُلَّمَا كَبُرَ الزَّمَنُ ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ دَهْرِهِ وَلَمْ يَقَعْ دُونَ أَبْعَدِ غَايَاتِهِ ، وَكَانَتْهُ مَعَ اللَّهِ عَلَى سِيَاقٍ وَاحِدٍ ، وَكَانَ شِعْرُهُ تَارِيخٌ مِنَ الْكَلَامِ يُطَوِّرُ أَطْوَارَهُ فِي الْهُمُومِ فَلَمْ يَجْمُدْ وَلَمْ يَزْتَكِسْ ، وَيَبْقَى خَيَالُ صَاحِبِهِ إِلَى آخِرِ عُمْرِهِ فِي تَذْيِيرِ السَّمَاءِ كَعَرَاضِ الْعِغَامَةِ ، سَحَابُهُ كَثِيرٌ الْبَرَقُ مُنْمَلِيٌّ مُمَطَّرٌ يَنْصَبُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَيَمْتَلِي مِنْ نَاحِيَةٍ .

وَالنَّاسُ يُكْتَبُ عَلَيْهِمُ الشُّبَابُ وَالْكُهُولَةُ وَالْهَرَمُ ، وَلَكِنَّ الْأَدِيبَ الْحَقَّ يَكْتَبُ عَلَيْهِ شَبَابٌ وَكُهُولَةٌ وَشَبَابٌ ؛ إِذْ كَانَتْ فِي قَلْبِهِ الْغَايَاتُ الْحَيَّةُ الشَّاعِرَةِ مَا تَنَفَّكُ بِلَدِّ بَعْضِهَا بَعْضًا إِلَى مَا لَا أَنْفِطَاعَ لَهُ ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حَيَاةِ الشَّاعِرِ الَّتِي خُلِقَتْ فِي قَلْبِهِ ، وَلَكِنَّهَا مِنْ حَيَاةِ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْقَلْبِ .

\* \* \*

(\*) « أَلْمُقْتَطَف » ، المجلد : ٨١ ، نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٢ م ، الصفحات : ٣٨٥ - ٣٩٧ .  
{ وَأَنْظُرْ « فِي النِّقْدِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . }

أَقْرُرُ هَذَا فِي شَوْفِي رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَنَا مِنْ أَغْرَفِ النَّاسِ بِعُمُومِهِ وَأَمَاكِنِ الْعَمِيرَةِ فِي أَدْبِهِ وَشِعْرِهِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَنْفَلَتْ مِنْ تَارِيخِ الْأَدَبِ لِمِصْرَ وَخَدَهَا كَأَنْفَلَاتِ الْمَطَرَةِ مِنْ سَحَابِهَا الْمُسَايِرِ فِي الْجَوِّ ، فَأَصْبَحَتْ مِصْرُ بِهِ سَيِّدَةَ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ فِي الشَّعْرِ ، وَهِيَ لَمْ تُذَكَّرْ قَدِيمًا فِي الْأَدَبِ إِلَّا بِالثَّكْنَةِ وَالرَّفَقَةِ وَصِنَاعَاتِ بَدِيعَةِ مُلَفَّفَةٍ ، وَلَمْ يَسْتَفِضْ لَهَا ذِكْرٌ بِتَابِعَةٍ وَلَا عَبَقَرِيٍّ ، وَكَانَتْ كَالْمُسْتَجِدَّةِ مِنْ تَارِيخِ الْحَوَاضِرِ فِي الْعَالَمِ ، حَتَّى إِنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ الْمُتَلَقَّبَ بِوَلِيِّ الدَّوْلَةِ صَاحِبَ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ فِي مِصْرَ لِلظَّاهِرِ بْنِ الْمُسْتَنْصِرِ (وَقَدْ تُوُفِّيَ سَنَةَ ٤٣١هـ) ، وَكَانَ رِزْقُهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ دِينَارٍ فِي السَّنَةِ غَيْرَ رُسُومٍ يَسْتَوْفِيهَا عَلَى كُلِّ مَا يَكْتُبُهُ .

سَلَّمَ لِرَسُولِ التَّنَجَّارِ إِلَى مِصْرَ مِنْ بَغْدَادَ جُرَازَيْنِ مِنْ شِعْرِهِ وَرَسَائِلِهِ يَحْمِلُهُمَا إِلَى بَغْدَادَ لِيَعْرِضَهُمَا عَلَى الشَّرِيفِ الْمُتْرَضِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَدْبَائِهَا ، فَيَسْتَشِيرُهُمْ فِي تَخْلِيدِ هَذَا الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ بِدَارِ الْعِلْمِ إِنْ اسْتَجَادُوهُ وَأَرْتَضَوْهُ ، كَأَنَّ حِفْظَ دِيَوَانٍ مِنْ شِعْرِ مِصْرَ وَتَنْرِهَا فِي مَكْتَبَةِ بَغْدَادَ قَدِيمًا يُشْبِهُ فِي حَوَادِثِ دَهْرِنَا اسْتِفْلَالَ مِصْرَ وَقَبُولَهَا فِي عُصْبَةِ الْأُمَمِ . . .

وَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَسْوَانِيُّ ، إِمَامٌ مِنْ أَيْمَةِ الْأَدَبِ فِي مِصْرَ (تُوُفِّيَ سَنَةَ ٥٦٢هـ) وَكَانَ كَاتِبًا شَاعِرًا يَجْمَعُ إِلَى عُلُومِ الْأَدَبِ الْفِقْهَ وَالْمَنْطِقَ وَالْهَنْدَسَةَ وَالطَّبَّ وَالْمُوسِيقَى وَالْفَلَكَ - أَرَادَ أَنْ يُدَوِّنَ شِعْرَ الْمِصْرِيِّينَ ، فَجَمَعَ مِنْ شِعْرِهِمْ (وَشِعْرَ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِمْ) أَرْبَعَ مُجَلَّدَاتٍ ، كَانَ الشَّعْرُ الْمِصْرِيُّ وَخَدَهُ إِلَى آخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ لِلْهِجْرَةِ ، فِي الْعَهْدِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ ضَاعَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْكُتُبِ وَالْدَّوَاوِينِ لَا يَمْلَأُ أَرْبَعَ مُجَلَّدَاتٍ . . . عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي مِقْدَارِ الْمُجَلَّدَةِ ، فَقَدْ تَكُونُ جُزْءًا لَطِيفَ الْحَجْمِ ، وَالْأَسْوَانِيُّ نَفْسُهُ يَبْلُغُ دِيَوَانَهُ نَحْوَ مِئَةِ وَرَقَةٍ .

وَأَخُوهُ الْحَسَنُ الْمَعْرُوفُ بِالْمُهَذَّبِ الْأَسْوَانِيِّ (الْمُتَوُفَّى سَنَةَ ٦٥١) ، قَالَ الْعِمَادُ الْكَاتِبُ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمِصْرَ فِي زَمَنِهِ أَشْعَرُ مِنْهُ ، وَسَارَتْ لَهُ فِي النَّاسِ قَصِيدَةٌ سَمَّوَهَا « التَّوَّاحَةُ » وَصَفَ فِيهَا حَبِيبَتَهُ إِلَى أَخِيهِ وَقَدْ رَحَلَ إِلَى مَكَّةَ وَطَالَتْ غَيْبَتُهُ بِهَا وَخِيفَ عَلَيْهِ ، فَالْزَّجُلُ أَشْعَرُ أَهْلِ مِصْرَ فِي زَمَانِهِ ، وَحَادِثَةُ التَّوَّاحَةِ تَجَعَّلُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَشْعَرُ مِنْ نَفْسِهِ ، عَلَى أَنَّهُ مَعَ هَذَا لَمْ يَقُلْ إِلَّا مِنْ هَذَا [مِنَ الْكَامِلِ] :

يَا رَبِّعُ أَيْنَ نَرَى الْأَحْيَةَ يَمَّمُوا هَلْ أَنْجَدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَمْ أَنْتَهُمُوا

رَحَلُوا وَفِي الْقَلْبِ الْمُعْنَى بَعْدَهُمْ وَجَدَ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مُخَيِّمٌ  
وَعَوَّضَتْ بِالْأَنْسِ نَفْسِي وَخَشَّةٌ لَا أَوْحَشَ اللَّهُ الْمَنَازِلَ مِنْهُمْ ..  
وَلَوْلَا ابْنُ الْفَارِصِ وَالْبَهَاءُ زُهَيْرٌ وَابْنُ فَلَاحِ الْإِسْكَندَرِيِّ وَأَمْنَاهُمْ ، وَكُلُّهُمْ أَصْحَابُ  
دَوَاوِينٍ صَغِيرَةٍ ، وَلَيْسَ فِي شِعْرِهِمْ إِلَّا طَابِعُ الثِّلِّ ، أَنَّى : الرِّقَّةُ وَالْحَلَاوَةُ - لَوْلَا هَؤُلَاءِ  
فِي الْمُتَقَدِّمِينَ لِأَجْدَبِ تَارِيخِ الشَّعْرِ فِي مِصْرَ ، وَلَوْلَا الْبَارُودِيُّ وَصَبْرِي وَحَافِظُ فِي  
الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَكُلُّهُمْ كَذَلِكَ أَصْحَابُ دَوَاوِينٍ صَغِيرَةٍ ، لَمَّا ذُكِرَتْ مِصْرُ بِشِعْرِهَا فِي الْعَالَمِ  
الْعَرَبِيِّ ، عَلَى أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ وَكُلُّ أَوْلَئِكَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَضَعُوا تَاجَ الشَّعْرِ عَلَى مَفْرَقِ  
مِصْرَ وَوَضَعَهُ شَوْقِي وَخَدَهُ !

وَالْعَجَبُ أَنَّ دَوَاوِينَ الْمُجِيدِينَ مِنْ شُعْرَاءِ الْمِصْرِيِّينَ لَا تَكُونُ إِلَّا صَغِيرَةً ، كَأَنَّ طَبِيعَةَ  
الثِّلِّ تَأْخُذُ فِي الْمَعَانِي كَأَخْذِهَا فِي الْمَادَّةِ ، فَلَا فَيْضَ وَلَا خِصْبَ إِلَّا فِي وَقْتِ بَعْدِ أَوْقَاتِ ،  
وَفِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ كُلِّ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، وَمِنْ جَمَالِ الْفَرَّاشَةِ أَنْ تَكُونَ صَغِيرَةً ، وَحَسْبُهَا  
عِنْدَ نَفْسِهَا أَنْ أَجْنَحَتْهَا مُنْقَطَعَةً بِالذَّهَبِ ، وَأَنَّهَا هِيَ نُكْتَةٌ مِنْ بَدِيعِ الطَّبِيعَةِ !

عَلَى أَنَّكَ وَاجِدٌ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ عَجِيبَةً مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا لَا تُذَكِّرُ مَعَهَا  
الْإِنْيَادَةَ وَلَا الْإِنْيَادَةَ وَلَا الشَّاهَنَامَةَ وَلَا غَيْرَهَا ، وَلَكِنَّهَا عَجِيبَةٌ مَلَأَتْهَا رُوحُ الصَّخَرَاءِ إِنْ  
كَانَتْ تِلْكَ الدَّوَاوِينُ الصَّغِيرَةُ مِنْ رُوحِ الثِّلِّ ؛ وَهِيَ قَصِيدَةٌ نَظَمَهَا أَبُو رَجَاءٍ الْأَسْوَانِيُّ  
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٣٥ هـ ، وَكَانَ شَاعِرًا فَعِيهَا أُدِينَا عَالِمًا كَمَا قَالُوا ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ أَقْتَصَّ فِي  
نَظْمِهِ أَخْبَارَ الْعَالَمِ وَقَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، قَالُوا : وَسَيَلُ قَبْلَ مَوْتِهِ كَمْ بَلَغَتْ  
قَصِيدَتُكَ ؟ فَقَالَ : ثَلَاثِينَ وَمِئَةً أَلْفَ بَيْتٍ ... وَمَا أَشْكُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَقَعَ لَهُ تَارِيخُ  
الطَّبَرِيِّ وَكُتِبَ السَّرِيرُ وَقَصَصَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَنَظَمَهَا مِثْلًا مِثْلًا ... وَأَفْنَى عُمُرُهُ فِي ١٣٠  
أَلْفِ بَيْتٍ حَوْلَهَا التَّارِيخُ إِلَى خَيْرِ مُهْمَلٍ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ <sup>(١)</sup> !

\* \* \*

كُلُّ شَاعِرٍ مِصْرِيٍّ هُوَ عِنْدِي جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ ؛ وَلَكِنَّ شَوْقِي جُزْءٌ مِنْ كُلِّ ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَ

الْجُزْءَيْنِ أَنَّ الْأَخِيرَ فِي قُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَاتِّسَاعِ شِعْرِهِ جُزْءٌ عَظِيمٌ كَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ الْكُلُّ ؛  
وَلَمْ يَتْرُكْ شَاعِرٌ فِي مِصْرَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مَا تَرَكَ شَوْقِي ، وَقَدْ اجْتَمَعَ لَهُ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِسِوَاهُ ؛  
وَذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَارُ لِبِلَادِهِ ، فَسَاوَى الْمُتَنَازِلِينَ مِنْ شُعْرَاءِ دَهْرِهِ ، وَارْتَفَعَ  
عَلَيْهِمْ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ هِيَ رِزْقُ تَارِيخِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمُدْبِرَةِ الَّتِي لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا  
مَا لَا تُعْطِي ، أَوْ يَزِيدَ مَا تُقْصُصُ ، أَوْ يَنْقُصَ مَا تَزِيدُ ، وَقَدْ حَاوَلُوا إِسْقَاطَ شَوْقِي مِرَارًا  
فَأَرَاهُمْ غُبَارَهُ وَمَضَى مُتَقَدِّمًا ، وَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ لِيُغْسِلَ عَيْنَيْهِ ... وَيَرَى بِهِمَا أَنَّ  
« شَوْقِي » مِنَ النَّفْسِ الْمِصْرِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْمَجْدِ الْمَكْتُوبِ لَهَا فِي التَّارِيخِ بِحَرْبٍ وَنَصْرِ ، وَمَا  
هُوَ بِمَنْزِلَةِ شَاعِرٍ وَشِعْرِهِ .

وُلِدَ شَاعِرُنَا سَنَةَ ١٨٦٨ فِي نِعْمَةِ الْخَذِيوِ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا ، وَتَرَكَهُ الْخَذِيوِ الذَّهَبَ وَهُوَ  
رَضِيْعٌ فِي قِصَّةِ ذِكْرِهَا شَوْقِي فِي مُقَدِّمَةِ دِيَوَانِهِ الْقَدِيمِ . ثُمَّ كَفَلَهُ الْخَذِيوِ تَوْفِيْقُ بَاشَا وَعَلَّمَهُ  
وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ مِنْ سَعَةٍ ، وَأَنْزَلَ نَفْسَهُ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَبَ غَيْيٍ كَمَا يَقُولُ شَوْقِي فِي مُقَدِّمَتِهِ ، ثُمَّ  
تَوَلَّاهُ الْخَذِيوِ عَبَّاسُ بَاشَا وَجَعَلَهُ شَاعِرَهُ وَتَرَكَهُ يَقُولُ [من المقتضب] :

شَاعِرُ الْعَزِيزِ وَمَا بِالْقَلْبِ ذَا اللَّقْبِ  
وَإِذَا أَنْتَ فَسَّرْتَ لَقَبَ شَاعِرِ الْأَمِيرِ هَذَا بِالْأَمِيرِ نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، خَرَجَ لَكَ مِنَ  
التَّفْسِيرِ : شَاعِرٌ مُرَهَفٌ مُعَانٍ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ ، لِيَكُونَ أَدَاءُ سِيَاسِيَّةٍ فِي الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ ،  
تَعْمَلُ لِإِحْيَاءِ التَّارِيخِ فِي النَّفْسِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَتَبْصِيرِهَا بِعَظَمَتِهَا ، وَإِقَامِهَا فِي مَعَارِكِ  
زَمَانِهَا ، وَتَهْيِئَتِهَا لِلْمُدَافَعَةِ ، وَتَصِلُ الشَّعْرُ بِالسِّيَاسَةِ الدِّيْنِيَّةِ الَّتِي تَوَجَّهَتْ لَهَا الْخِلَافَةُ يَوْمَئِذٍ  
لِتَضْرِبَ فِكْرَةَ أُورُوقَةٍ فِي تَقْسِيمِ الدَّوْلَةِ بِفِكْرَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَلَا يَخْرُجُ لَكَ شَوْقِي مِنْ  
هَذَا التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ فِي قَدَرٍ نَفْسِهِ ، بَلْ فِي قَدَرٍ أَمِيرِهِ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ مُثْمَلًا شَبَابًا يَغْلِي  
عَلَيَانَا ، وَمُعِدًّا يَوْمَئِذٍ لِمَطَامِحِ بَعِيدَةٍ مُلَقَّفَةٍ حَشَوْهَا الدِّيْنَامِيْتُ السِّيَاسِي .

كُنْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَكَلِمُ صَدِيقِي الْكَاتِبَ الْعَمِيْقَ فَرَحَ أَنْطُونِ صَاحِبَ « الْجَامِعَةِ » وَكَانَ  
مُعْجَبًا بِشَوْقِي إِعْجَابًا شَدِيدًا ، فَقَالَ لِي : إِنَّ شَوْقِي الْآنَ فِي أَفْقِ الْمُلُوكِ لَا فِي أَفْقِ  
الشُّعْرَاءِ ! قُلْتُ : كَأَنَّكَ نَفَيْتَهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَالشُّعْرَاءِ مَعًا ؛ إِذْ لَوْ خَرَجَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ  
شَيْئًا ، وَلَوْ نَفَذَ إِلَى أَوْلَئِكَ لَمْ يَعُدْ شَيْئًا ؛ إِنَّمَا الرَّجُلُ فِي السِّيَاسَةِ الْمُتَوَلِّيَةِ الَّتِي نَصَلُهُ

(١) { أَنْظُرْ خَيْرَ (مِصْرَ الشَّاعِرَةِ) « فِي التَّقْدِيمِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . }



بِالْأَمِيرِ ، وَهُوَ مَرَّةٌ كَوَزِيرِ الْحَزْبِيَّةِ وَمَرَّةٌ كَوَزِيرِ الْمَعَارِفِ .

وهذه السياسة التي ارتاض بها شوقي ولاسها من أول عهده ، واتجه شعره في مذهبها ، من الوطنية المضرية ، إلى التزعة الفرعونية إلى الجامعة الإسلامية ، فكانت بهذا سبب ثبوته ومادة مجده الشعري - هي بعينها مادة نقائصه ؛ فلقد أثبتته بحب نفسه وحب الثناء عليها ، وتسخير الناس في ذلك بما وسعته قوته ، إلى غيرة أشد من غيرة الحسناء تشعير كل شجرة منها إذ جاءها الحسن بانيه ، وهي غيرة وإن كانت مذمومة في صلبه بالأدباء الذين لدغوه بالجمر ... وتحن منهم ، غير أنها ممدوحة في موضوعها من طبيعته هو ؛ إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم يتأفك حتى ظله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ، وتأفك المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، وتأفك ذاته أيضا ليجعل شوقي أشعر من شوقي ؛ وعندي أن كل ما في هذا الرجل من المتناقضات فمزجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التي ردت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة ، فجعلت تضطرب في وجوه من الحيل والأسباب مذبذبة مقلبة ، متهدية في كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها في الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائما إلى رائحة الدجاج ...

ومؤرخ الأدب الذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئا إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديوي توفيق والخديوي عباس لمصر ، كالدلتا بين فرعي النيل ؛ وما أصابه المُنْتَبِي من سيف الدولة مما أبعث فريحتة ورأس أجنحته السماوية وأصفى ريشها وانتزى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الأدب - أصاب شوقي في سمو الخديوي عباس أكثر منه ، فكان حقيقا أن يساوي المُنْتَبِي أو يتقدمه ، ولكنه لم يبلغ منزلته ، لأن الخديوي لم يكن كسيف الدولة في معرفته بالأدب العربي ورغبته فيه . وسر المُنْتَبِي كان ثلاثة أشياء : في جهازه العصبي العجيب الذي لا يقل في رأيي عما في دماغ شكسبير Shakespeare ، وفي ممدوحه الأديب الملك الذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائي من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوظها بعناية ، ثم في أفق عصره المتألق بنجوم الأدب التي لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو في قدرها ؛ ولا

يتميز فيها إلا ما هو أكبر منها ، ولا يتركها كالمنطفئة إلا شمس كشمس المُنْتَبِي تنفجر على الدنيا بمعجزاتها الثورانية .

ولقد والله كان هذا المُنْتَبِي كأنه يورع الشرف على الملوك والروساء ؛ وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الصائبي شيخ الكتاب في عصره يرأسه أن يمدحه بقصيدتين ويغطيه خمسة آلاف درهم ، فيرسل إليه المُنْتَبِي : ما رأيت بالعراق من يستحق المذح غيرك ، ولكنني إن مدحتك تنكر لك الوزير (يعني المهلبي) لأنني لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالي هذا الحال فأنا أجيبك ولا أريد منك مالا ولا من شعري عوضا ! فأين في دهرنا من شعره عزة الأدب مثل هذا الشعور ليأتي بالشعر من نفس مستقيمة أن الدنيا في انتظار كلمتها ؟

على أن «شوقي» لم يكن ينفضه باختيار زمني إلا (الجمهور الشعري) ، وكل بلاء الشعر العربي أنه لا يجد هذا الجمهور ، فالشاعر بذلك منصرف إلى معان فردية من ممدوح عظيم أو حبيب عظيم أو شوط عظيم ... حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع متبورة من الكون داخله في الحدود لا يسه الثياب ؛ ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره ، وإلا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة ؛ فلا جرم يقع بعيدا عن المعنى الشامل المتصل بالجمهور ، ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود ، فلا نجد في طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدفق ، ولا توازنه طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها ، فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه ، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بخته ولا يتقدم فيها نظره ، وإذا نفسه تمر على الكون مرارينا ، وإذا شعره مقطوع قطعاً ، وإذا الآمه وأفراده أوصاف لا شعور ، وكلمات لا حقائق ، وظل طامس ملقى على الأرض إذا قابلته بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض .

وأجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري أعراقه عنصر عربي ، وآخر تركي ، وثالث يوناني ، ورابع شركسي ؛ وهذه كثرة إنسانية لا يأتي منها شاعر إلا كان خليقا أن يكون دولة من دول الشعر ، وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبي في عيونه ، كان هذا دليل طبيعته على أن وراءهما عينين للمعاني تراحماني عيني البصر ؛ وما لم يكن التركيب

الْعَصْبِيُّ فِي الشَّاعِرِ مُهَيَّا لِلتَّبُوخِ ؛ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْ تَقَاسِيمِ الدُّنْيَا فِي غَيْرِ الشُّعْرِ ، وَلَيْسَ فِي الطَّبِيعَةِ وَلَا فِي الصَّنَاعَةِ قُوَّةٌ تَجْعَلُ حَنْجَرَةَ الْبَلْبَلِ فِي غَيْرِ الْبَلْبَلِ ؛ وَمَعَ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ فَقَدْ أُعِينَ شَوْفِي عَلَى الشُّعْرِ بِفَرَاغِهِ لَهُ أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، غَيْرَ مُشْتَرِكِ الْعَمَلِ ، وَلَا مُنْقَسِمِ الْخَاطِرِ ، عَلَى سَعَةِ فِي الرُّزْقِ وَبَسْطَةِ فِي الْجَاهِ وَعُلُوِّ فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ دَوَائِنُ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَالْأَوْرُوبِيِّ وَالتُّرْكِيِّ وَالْفَارِسِيِّ ؛ وَإِنْ تَنَسَّ فَلَا تَنَسَّ أَنَّ شَاعِرَنَا هَذَا خُصَّ بِنَشَاطِ الْحَيَاةِ ، وَهُوَ رُوحُ الشُّعْرِ لَا رُوحَ لِلشُّعْرِ بِدُونِهِ ، فَسَافِرٌ وَرَحَلٌ وَتَقَلَّبَ فِي الْأَرْضِ وَخَالَطَ الشُّعُوبَ وَاسْتَعْرَضَ الطَّبِيعَةَ يَتَخَلَّلُهَا بِبَصَرِهِ مَا بَيْنَ الْأَنْدَلُسِ وَالْأَسْتَانَةِ ، وَظَهِيرُهُ عَلَى ذَلِكَ مَالُهُ وَقَرَاغُهُ ؛ وَإِنَّمَا قُوَّةُ الشُّعْرِ فِي مَسَاقِطِ الْجَوِّ ، فِي كُلِّ جَوٍّ جَدِيدٍ رُوحٌ لِلشَّاعِرِ جَدِيدَةٌ ؛ وَالطَّبِيعَةُ كَالنَّاسِ : هِيَ فِي مَكَانٍ بَيَاضٍ وَفِي مَكَانٍ سَوْدَاءٍ ، وَهِيَ فِي مَوْضِعٍ نَائِمَةٌ تَحْلُمُ وَفِي مَوْضِعٍ قَائِمَةٌ تَعْمَلُ ، وَفِي بَلَدٍ هِيَ كَالْأُنْثَى الْجَمِيلَةِ ، وَفِي بَلَدٍ هِيَ كَالرَّجُلِ الْمُصَارِعِ ، وَلَنْ يَجْتَمَعَ لَكَ رُوحُ الْجِهَارِ الْعَصْبِيِّ عَلَى أَفْوَاهِهِ وَأَشْدُّهُ إِلَّا إِذَا أَطْعَمْتَهُ مَعَ صُنُوفِ الْأَطْعِمَةِ اللَّذِيذَةِ الْمُفِيدَةِ ، أَلْوَانِ الْهَوَاءِ اللَّذِيذِ الْمُفِيدِ .

وَعِنْدِي أَنَّهُ لَا أَمَلُ أَنْ يَنْشَأَ لِمِصْرَ شَاعِرٌ عَظِيمٌ فِي طَبَقَةِ الْفُحُولِ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْعَالَمِ ، إِلَّا إِذَا أُعِيدَ تَارِيخُ شَوْفِي مُهَذَّبًا مُتَّفَحًا فِي رَجُلٍ وَهَبَهُ اللَّهُ مُوََاهِبَهُ ثُمَّ تَهَبَهُ الْحُكُومَةُ الْمِصْرِيَّةُ مُوََاهِبَهَا .

\* \* \*

وَالْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي رَاضَ خِيَالُ شَوْفِي وَصَفَلَ طَبَعُهُ وَصَحَّحَ نَشَأَتَهُ الْأَدَبِيَّةَ ، هُوَ بَعِيْنُهُ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ بَصِيرَتُهُ حَافِظٌ وَذَكَرْنَاهُ فِي مَقَالِنَا عَنْهُ ، أَيْ : كِتَابُ « الْوَسِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ » لِلْمَرْصُفِيِّ ؛ وَلَيْسَ السَّرُّ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا فِيهِ مِنْ فُتُونِ الْبَلَاغَةِ وَمُخْتَارَاتِ الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ ؛ فَهَذَا كُلُّهُ كَانَ فِي مِصْرَ قَدِيمًا وَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا وَلَمْ يُخْرِجْ لَهَا شَاعِرًا كَشَوْفِي ؛ وَلَكِنَّ السَّرَّ مَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شِعْرِ الْبَارُودِيِّ لِأَنَّهُ مُعَاصِرٌ ؛ وَالْمُعَاصِرَةُ أَفِيدَاءُ وَمَتَابَعَةٌ عَلَى صَوَابٍ إِنْ كَانَ الصَّوَابُ ، وَعَلَى خَطَأٍ إِنْ كَانَ الْخَطَأُ ؛ وَقَدْ تَصَرَّ مَتِ الْقُرُونِ الْكَثِيرَةِ وَالشُّعْرَاءُ يَتَنَاقَلُونَ دِيُونََ الْمُسَبِّحِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَجِئُونَ إِلَّا بِشِعْرِ الصَّنَاعَةِ وَالتَّكْلِيفِ ؛ وَلَا يُخْلِدُ الْجِيلُ مِنْهُمْ إِلَّا لِمَا رَأَى فِي عَصْرِهِ ؛ وَلَا يَسْتَفْتِحُ غَيْرَ الْبَابِ الَّذِي فَتِحَ لَهُ ، إِلَى أَنْ

كَانَ الْبَارُودِيُّ وَكَانَ جَاهِلًا بِفُتُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَعُلُومِ الْبَلَاغَةِ ، لَا يُخَسِّنُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَجَهْلُهُ هَذَا هُوَ كُلُّ الْعِلْمِ الَّذِي حَوَّلَ الشُّعْرَ مِنْ بَعْدُ ، فَيَا لَهَا عَجَبَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ ! وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ النَّاسِ لَيْسَتْ إِلَّا خُضُوعًا لِقَوَائِنِ نَافِذَةٍ عَلَى النَّاسِ . وَأَكْبَرُ الْبَارُودِيِّ عَلَى مَا أَطَاقَهُ ؛ وَهُوَ الْحِفْظُ مِنْ شِعْرِ الْفُحُولِ ، إِذْ لَا يَخْتَاجُ الْحِفْظُ إِلَى غَيْرِ الْقِرَاءَةِ ، ثُمَّ الْمُعَانَاةُ وَالْمُزَاوَلَةُ ، وَكَانَتْ فِيهِ سَلِيلَةٌ ؛ فَخَرَجَتْ مَخْرَجَ مِثْلِهَا فِي شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ ، وَجَاءَتْ بِذَلِكَ الشُّعْرَ الْجَزَلَ الَّذِي نَقَلَهُ الْمَرْصُفِيُّ بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِيُخْرِجَ بِهِ لِلْعَرَبِيَّةِ حَافِظَ وَشَوْفِي وَغَيْرُهُمَا ، فَكُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ أَنَّهُ يَنْقُلُ رُوحَ الْمُعَاصِرَةِ إِلَى رُوحِ الْأَدِيبِ النَّاشِئِ ؛ فَتَبَعْتُهُ هَذِهِ الرُّوحُ عَلَى التَّمْيِيزِ وَصِحَّةِ الْإِفْتِدَاءِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى مِيزَةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَإِذَا هُوَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي تَنْتَهِي بِهِيَ إِلَى مَا فِي قُوَّةِ نَفْسِهِ مَا دَامَ فِيهِ ذِكَاؤٌ وَطَبِيعٌ . وَبِهَذَا أَتَبَدَأُ شَوْفِي وَحَافِظٌ مِنْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، وَانْتَهَى كِلَاهُمَا إِلَى طَرِيقَةٍ غَيْرِ طَرِيقَةِ الْآخِرِ ، وَالطَّرِيقَتَانِ مَعًا غَيْرِ طَرِيقَةِ الْبَارُودِيِّ .

تَحَوَّلَ شَوْفِي بِهَذَا الشُّعْرِ لَا إِلَى طَرِيقَةِ الْبَارُودِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يُطَبِّقُهَا وَلَا تَنْتَهِي فِي أَسْبَابِهِ ، وَخَاصَّةً فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَكَانَ لُغَةً الْبَارُودِيِّ فِيهَا مِنْ لِقَبِهِ ، أَيْ : فِيهَا الْبَارُودُ . . . وَلَكِنَّ تَحَوَّلَ نَابِعَتِنَا كَانَ عَنْ طَرِيقَةِ مُعَاصِرِيهِ مِنْ أَثْنَالِ اللَّيْنِيِّ وَأَبْنِي النَّصْرِ وَغَيْرِهِمَا ، فَتَرَكَ الْأَخْيَاءَ وَأَنْطَلَقَ وَرَاءَ الْمَوْتَى فِي دَوَائِنِهِمُ الَّتِي كَانَ مِنْ سَعَادَتِهِ أَنْ طَبِعَ الْكَثِيرُ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ : كَالْمُسَبِّحِيِّ وَأَبْنِي تَمَامٍ وَالْبُخْرِيِّ وَالْمَعَرِيِّ ، ثُمَّ أَهْلُ الرَّقَّةِ أَصْحَابُ الطَّرِيقَةِ الْغَرَامِيَّةِ : كَابْنِ الْأَحْنَبِ وَالْبَهَاءِ زُهَيْرٍ وَالشَّابِّ الطَّرِيفِ وَالتَّلْغَفَرِيِّ وَالْحَاجِرِيِّ ، ثُمَّ مَشَاهِيرُ الْمُتَأَخِّرِينَ : كَابْنِ النَّحَّاسِ وَالْأَمِيرِ مَنُجَّكٍ وَالشُّرْقَاوِيِّ ، وَقَدْ حَاوَلَ شَوْفِي فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ ، فَظَهَرَ فِي شِعْرِهِ تَقْلِيدُهُ وَعَمَلُهُ فِي مُحَاوَلَةِ الْإِبْتِكَارِ وَالْإِبْدَاعِ وَإِحْكَامِ التَّوَلُّدِ مَعَ الشُّهُولَةِ وَالرَّقَّةِ وَتَكْلِيفِ الْغَزَلِ بِالطَّبِيعِ الْمُتَدَفِّقِ لَا بِالْحُبِّ الصَّحِيحِ .

وَأَنَا حِينَ أَكْتُبُ عَنْ شَاعِرٍ لَا يَكُونُ أَكْبَرُ هَمِّي إِلَّا الْبَحْثُ فِي طَرِيقَةِ إِبْدَاعِهِ لِمَعَانِيهِ ، وَكَيْفَ أَلَمَّ وَكَيْفَ لَحَظَ وَكَيْفَ كَانَ الْمَعْنَى مَنِهَةً لَهُ ، وَهَلْ أَبْدَعَ أَمْ قَلَّدَ ، وَهَلْ هُوَ شَعَرَ بِالْمَعْنَى شُعُورًا فَخَالَطَ نَفْسَهُ وَجَاءَ مِنْهَا ، أَمْ نَقَلَهُ نَقْلًا فَجَاءَ مِنَ الْكُتُبِ ، وَهَلْ يَتَسَعُّ فِي

أَلْفِكْرَةُ الْفَلَسَفِيَّةِ لِمَعَانِيهِ ، وَيُدْفَقُ النَّظَرَةُ فِي أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ وَيُخَسِّنُ أَنْ يَسْتَشِفَّ هَذِهِ الْعُمُومَ  
الَّتِي يَنْبَحُ فِيهَا الْمَجْهُولُ الشَّعْرِيُّ وَيَتَّصِلُ بِهَا وَيَسْتَضِجِبُ النَّاسَ مِنْ وَحْيِهَا ، أَمْ فِكْرُهُ  
أَسْتَرْسَالٌ وَتَرْجِيمٌ فِي الْخَيَالِ وَأَخْذٌ لِلْمَوْجُودِ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْوَاقِعِ ؟ وَبِالْجُمْلَةِ هَلْ هُوَ  
ذَاتِيَّةٌ تَمُرُّ فِيهَا مَخْلُوقَاتٌ مَعَانِيَهُ لِتُخْلَقَ فَتَكُونَ لَهَا مَعَ الْحَيَاةِ فِي نَفْسِهَا حَيَاةٌ مِنْ نَفْسِهِ ، أَمْ  
هُوَ تَبَعِيَّةٌ كَالسَّمْسَارِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ : يَكُونُ بَيْنَهُمَا وَلَيْسَ مِنْهُمَا وَلَا مِنْ أَحَدِهِمَا ؟ فِي هَذِهِ  
الطَّرِيقَةِ مِنَ الْبَحْثِ تَارِيخُ مَوْهَبَةِ الشَّاعِرِ ، وَلَا يُؤَدِّيكِ إِلَى هَذَا التَّارِيخِ إِلَّا ذَلِكَ الْمَذْهَبُ  
إِلَيْهِ إِنْ أَطَقْتَهُ ، أَمَّا تَارِيخُ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ فَمَا أَسْهَلُهُ ، إِذْ هُوَ صُورَةٌ أَبَامِهِ وَصِلَتُهُ بِعَصْرِهِ وَلَيْسَ  
فِي تَارِيخِهِ مَا كَانَ إِلَّا نَقْلُهُ كَمَا كَانَ .

إِذَا عَرَضْنَا شَوْقِي بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ رَأَيْنَاهُ نَابِغَةً مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ ، فَفِيهِ تِلْكَ الْمَوْهَبَةُ الَّتِي  
أَسْمَيْنَاهَا حَاسَةً الْجَوْ ، إِذْ يَتَلَمَّحُ بِهَا التَّوَابِغُ مَعَانِي مَا وَرَاءَ الْمَنْظُورِ ، وَيَسْتَنْزِلُونَ بِهَا مِنْ كُلِّ  
مَعْنَى مَعْنَى غَيْرِهِ .

انْظُرْ أَيْتَانَهُ الَّتِي نَظَمَهَا فِي أَوَّلِ شَبَابِهِ وَسِئُهُ يَوْمَئِذٍ ٢٣ سَنَةً عَلَى مَا أَطْلُ ، وَهِيَ مِنْ  
شِعْرِهِ السَّائِرِ [من الخفيف] :

خَدَعُوْهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنَاءُ      وَالْغَوَايِي يَغُرُّهُنَّ النَّشَاءُ  
مَا تُرَاهَا تَنَاسَتْ أَسْمِي لَمَّا      كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الْأَسْمَاءُ  
إِنْ رَأَيْتَنِي تَمِيلُ عَنِّي كَأَنْ لَمْ      تَكْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ  
نَظَرَةٌ فَأَبْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ      فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

دَعِ غَلَطَتُهُ فِي قَوْلِهِ (تَمِيلُ عَنِّي) <sup>(١)</sup> فَإِنَّ صَوَابَهَا تَمَلُّ ؛ إِذْ هِيَ جَوَابٌ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ ؛  
وَلَكِنْ كَيْفَ اسْتُخْرِجَ مَعَانِيهِ ؛ وَأَنَا كُنْتُ دَائِمًا وَمَا أَزَالُ مُعْجَبًا بِالْبَيِّنَيْنِ الثَّانِي وَالرَّابِعِ ،  
لَا إِجْبَارًا لِمَعْنَاهُمَا ، فَهُمَا لَا شَيْءَ عِنْدِي ، وَلَكِنْ إِعْجَابًا بِمَوْهَبَةِ شَوْقِي فِي التَّوَلِيدِ ، فَإِنَّهُ  
أَخَذَ الْبَيْتَ الثَّانِي مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ [من الوافر] :

أَتَيْتُ فُوَادَهَا أَشْكُو إِلَيْهِ      فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ الزَّحَامِ

(١) { انْظُرِ الْمُسَاجَلَاتِ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَالْعَقَّادِ فِي هَذِهِ الْقَوْلَةِ بِالْمَقْطَعِ } .

فَمَرَّ الْمَعْنَى فِي ذَهْنِ شَوْقِي كَمَا يَمُرُّ الْهَوَاءُ فِي رَوْضَةٍ ، وَجَاءَ نَسِيمًا يَتَرَفَّرُ بَعْدَ مَا كَانَ  
كَالَرَّيْحِ السَّافِيَةِ يَتْرَاهَا ، لِأَنَّ الزَّحَامَ فِي بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ حَقِيقٌ يَسُوقُ قَائِمَةً لِلْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ ،  
لَا يَقْلِبُ أَمْرًا يَحِبُّهَا ، بَلْ هُوَ يَجْعَلُ قَلْبَ الْمَرْأَةِ شَيْئًا غَرِيبًا كَأَنَّهُ لَيْسَ غَضَا فِي جَسْمِهَا ،  
بَلْ غُرْفَةٌ فِي بَيْتِهَا . . . وَقَدْ سَبَقَ شَاعِرُنَا أَبَا تَمَامٍ بِمَرَا حِلِّ فِي إِدْنَاعِهِ وَذَوْقِهِ وَرَفْقَتِهِ .

وَالْبَيْتُ الرَّابِعُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ الطَّرِيفِ [من البسيط] :

قِفْ وَاسْتَمِعْ سِيرَةَ الصَّبِّ الَّذِي قَتَلُوا      فَمَاتَ فِي حُبِّهِمْ لَمْ يَبْلُغِ الْغَرَضَا  
رَأَى فَحَبَّ فَسَامَ الْوُضَلِ فَاْمْتَنَعُوا      فَرَامَ صَبْرًا فَأَغْيَا نَيْلُهُ فَقَضَى

وهذه « فاءات » تَجُرُّ إِلَى الْقَبْرِ وَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا . . . وَمِمَّا كُنْتُ أَعْيْنُهُ عَلَى شَوْقِي  
ضَعْفُهُ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ ، فَإِنَّ الْمُؤَلِّحِي الْكَاتِبَ الشَّهِيرَ انْتَقَدَ فِي جَرِيدَةِ مِصْبَاحِ الشَّرْقِ  
أَيَّاتٍ (خَدَعُوهَا) عِنْدَ ظُهُورِ « الشُّوْقِيَّاتِ » فِي سَنَةِ ١٨٩٩ ، فَأَرْتَاعَ شَوْقِي ، وَتَحَمَّلَ عَلَيْهِ  
لِيُؤَسِّدَ عَنِ الْقَتْدِ ، مَعَ أَنَّ كَلَامَ الْمُؤَلِّحِي لَا يُسْقِطُ دُبَابَةً مِنْ أَرْتِفَاعِ نِصْفِ مِثْرٍ . . . وَمِنْ  
مُصَيِّبَةِ الْأَدَبِ عِنْدَنَا ، بَلْ مِنْ أَكْبَرِ أَسْرَارِ ضَعْفِهِ أَنَّ شُعْرَاءَنَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالْقَتْدِ ، وَأَنَّهُمْ  
يَفْرُودُونَ مِنْهُ فِرَارًا وَيَعْمَلُونَ عَلَى تَفَادِيهِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُخَسِّنُونَ غَيْرَ الشَّعْرِ ؛ فَلَا الْبَارُودِيَّ وَلَا  
صَبْرِيَّ وَلَا حَافِظَ وَلَا شَوْقِيَّ كَانَ يُخَسِّنُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَذْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ يَكْتَسِبَ فَضْلًا فِي  
الْقَتْدِ الْأَدَبِيِّ ، أَوْ يُحَقِّقَ مَسْأَلَةً فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ .

وَمِنْ مَعَانِي شَوْقِي السَّائِرَةِ [من الخفيف] :

لَكَ نُصْحِي وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي      آفَةُ الْتُضْحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا  
وَكُرَّرُهُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى فَقَالَ [من الخفيف] :

آفَةُ الْتُضْحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا      وَأَذَى الْتُضْحِ أَنْ يَكُونَ جَهَارًا  
وَالْبَيِّنَانِ مِنْ شِعْرِ صَبَاهُ أَيْضًا ، وَهُمَا مِنْ قَوْلِ أَبِي الرُّومِيِّ [من الطويل] :

وَفِي التُّضْحِ خَيْرٌ مِنْ نَصِيحِ مُوَادِعٍ      وَلَا خَيْرَ فِيهِ مِنْ نَصِيحِ مُوَائِبِ  
فَصَحَّحَ شَوْقِي الْمَعْنَى وَأَبْدَلَ الْمُوَائِبَةَ بِالْجَدَلِ ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي عَجَزَ عَنْهُ أَبُو  
الرُّومِيِّ ؛ وَمِنْ بَرَاعَتِهِ فِي قَصِيدَتِهِ « صَدَى الْحَرْبِ » يَصِفُ هَرِيمَةَ الْيُونَانِ [من الطويل] :

يَكَاذُونَ مِنْ دُغْرِ تَفَرُّ دِيَارِهِمْ وَتَنْجُو الرِّوَاسِي لَوْ حَوَاهُنَّ مَشْعَبَ  
يَكَاذُ الثَّرَى مِنْ تَخْتِهِمْ يَلْجُ الثَّرَى وَيَقْضِمُ بَعْضُ الْأَرْضِ بَعْضًا وَيَقْضِبُ  
وَهَذَا خِيَالٌ يَدِيعُ فِي الْغَايَةِ ، جَعَلَ هَزِيمَتُهُمْ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّرَى ، بَلْ مِنْ  
هَؤُلَاءِ الْقِيَامَةِ ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَلَّدٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ كَرَمٍ مَمْدُوحِهِ أَبِي ذَلْفٍ [من  
الطويل] :

تَكَادَ مَعَانِيهِ تَهْشُ عِرَاضُهَا فَتَرْكَبُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ  
فَقَّاسَ شَاعِرُنَا عَلَى ذَلِكَ ؛ وَإِذَا كَادَتْ الدَّارُ تَرْكَبُ إِلَى الرَّاكِبِ إِلَيْهَا مِنْ فَرَحِهَا ، فَهِيَ  
تَكَادُ تَفَرُّ مَعَ الْمُتَهَرِّمِ مِنْ دُغْرِهَا ، وَلَكِنَّ شَوْقِي بَنَى فَأَحْكَمَ وَسَمَّا عَلَى أَبِي تَمَّامٍ بِالزِّيَادَةِ  
الَّتِي جَاءَ بِهَا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي .

وَمِنْ أَحْسَنِ شِعْرِهِ فِي الْغَزَلِ [من الكامل] :

حَوَتْ الْجَمَالَ فَلَوْ ذَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي الْوَهْمِ حُسْنًا مَا اسْتَطَعْتَ مَزِيدًا  
وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ [من الخفيف] :

ذَاكَ حُسْنٍ لَوْ اسْتَرَادَتْ مِنَ الْحُسْنِ — مِنْ إِلَيْهَا لَمَّا أَصَابَتْ مَزِيدًا  
غَيْرَ أَنَّ شَوْقِي قَالَ : لَوْ ذَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي الْوَهْمِ ... وَالشَّاعِرُ قَالَ : لَوْ اسْتَرَادَتْ  
هِيَ ؛ فَلَوْ خَلَا بَيْنَ شَوْقِي مِنْ كَلِمَةِ (فِي الْوَهْمِ) لَمَّا كَانَ شَيْئًا ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ حَقَّقَتْ  
فِيهِ الْمَعْنَى الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهِ كُلُّ فَلَسَفَةِ الْجَمَالِ ؛ فَإِنَّ جَمَالَ الْحَبِيبِ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا الْمَعَانِي  
الَّتِي هِيَ فِي وَهْمٍ مُجِبِّهِ ؛ فَالزِّيَادَةُ تَكُونُ مِنَ الْوَهْمِ ، وَهُوَ بِطَبِيعَتِهِ لَا يَتَّهِي ، فَإِذَا لَمْ يَتَّهِي  
فِيهِ زِيَادَةٌ فِي الْحُسْنِ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ حُسْنٌ : وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي صُورٍ كَثِيرَةٍ فِي كُتُبِنَا  
« رَسَائِلُ الْأَحْزَانِ » وَ« السَّحَابُ الْأَحْمَرُ » ، وَ« أَوْزَاقُ الْوَزْدِ » فَانْظُرْ فِيهَا .

وَمِمَّا يَمُتُّ ذَلِكَ الْبَيْتَ قَوْلُ شَوْقِي فِي قَصِيدَةِ النَّفْسِ [من الكامل] :

يَا دُمِيَّةَ لَا يُسْتَرَادُ جَمَالُهَا زَيْدِيهِ حُسْنِ الْمُحْسِنِ الْمُتَبَرِّعِ  
وَهَذَا الْمَعْنَى يَقَعُ مِنْ نَفْسِي مَوْفَعًا وَلَهُ مِنْ إِعْجَابِي مَحَلٌّ ؛ فَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي فِيهِ

كَزِّيَادَةِ الْعُمُرِ لَوْ أَمَكَنْتَ ، وَهِيَ فِي مَوْضِعِهَا كَمَا يَنْقَطِعُ الْخَطُّ ثُمَّ يَتَّصِلُ ، وَكَمَا يَسْتَحِيلُ  
الْأَمَلُ ثُمَّ يَتَّفِقُ وَيَسْهُلُ ؛ وَقَدْ عَلِمْتَ مَاخَذَ الشُّطْرِ الْأَوَّلِ ، أَمَّا الثَّانِي فَهُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي  
الرُّؤُومِيِّ [من السريع] :

يَا حَسَنَ الْوَجْهِ لَقَدْ شِئْتُهُ فَأَضْمُمُ إِلَى حُسْنِكَ إِحْسَانًا  
وَفِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي رَتَى بِهَا تَرَوْتُ بَاشَا ، وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ شِعْرِهِ ، تَجِدُ مِنْ أَبْيَانِهَا هَذَا  
الْبَيْتَ الثَّانِي [من البسيط] :

وَقَدْ يَمُوتُ كَثِيرٌ لَا تَحْسُهُمْوُ كَأَنَّهُمْ مِنْ هَوَانِ الْخَطْبِ مَا وَجِدُوا  
وَشَوْقِي يُعَارِضُ بِهِدِهِ الْقَصِيدَةَ أَبَا خَالِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ فِي دَالِيَتِهِ الَّتِي رَتَى بِهَا  
الْمُتَوَكِّلَ ، وَكَانَ الْمُهَلَّبِيُّ حَاضِرًا قَتْلَهُ هُوَ وَالْبُخْتَرِيُّ ، فَرَأَاهُ كُلُّ مِنْهُمَا بِقَصِيدَةٍ ، قَالُوا :  
إِنَّهَا مِنْ أَجْوَدِ مَا قِيلَ فِي مَعْنَاهَا ؛ وَيَبْتَ شَوْقِي مَاخُذًا مِنْ قَوْلِ الْمُهَلَّبِيِّ [من البسيط] :

إِنَّا فَقَدْنَاكَ حَتَّى لَا أَصْطَبَارَ لَنَا وَمَاتَ قَبْلَكَ أَقْوَامٌ فَمَا فُقِدُوا  
أَيُّ : لَمْ يَحْسُ مَوْتُهُمْ أَحَدٌ ؛ وَلَكِنَّ الْبَيْتَ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ ، لِأَنَّ الَّذِي لَا يَمُوتُ فَلَا يُفْقَدُ  
هُوَ الْخَالِدُ الَّذِي كَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ ؛ فَاسْتَخْرَجَ شَوْقِي الْمَعْنَى الصَّحِيحَ وَجَعَلَ الْعَدَمَ الَّذِي هُوَ  
آخِرُ الْوُجُودِ فِي النَّاسِ ، أَوَّلَ الْوُجُودِ وَوَسَطَهُ وَآخِرَهُ فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَانُوا عَلَى الْحَيَاةِ ،  
فَوُجِدُوا وَمَاتُوا وَمَا وَجِدُوا .

\* \* \*

وَالِإِلَى مَا عَلِمْتَ مِنْ قُوَّةِ هَذِهِ الشَّاعِرِيَّةِ ، وَدَقَّتِهَا فِيمَا تَنَاقَلُ لَهُ ، وَمَجَّجَتْهَا بِالْمَعَانِي  
الَّتَادِرَةِ مُسْتَخْرَجَةً اسْتَخْرَاجَ الدَّهَبِ ؛ مَضْفُوزَةً صَفَلُ الْجَوْهَرِ ، مُعَدَّلَةً بِالْفَكْرِ ، مَوْزُونَةً  
بِالْمُنْطِقِ - تَجِدُ لَهَا تَهَافُتًا كَتَهَافَتِ الضُّعَفَاءِ ، وَغَرَّةَ كَغَرَّةِ الْأَحْدَاثِ ؛ حَتَّى لَتَحْسَبُ أَنَّ  
طُفُولَةَ شَوْقِي كَثِيرًا مَا تَتَّبِعُ فِي شِعْرِهِ لَاعِبَةً هَارِلَةً ، أَوْ كَأَنَّ لِلرَّجُلِ شَخْصِيَّتَيْنِ كَمَا يَقُولُ  
الْأَطْبَاءُ ، فَهُمَا تَتَعَارَوْنَ شِعْرَهُ كَمَا لَا وَنَقْصًا ، وَعُلُوًّا وَتُرُؤُلًا ، أَوْ قُلْ هِيَ الْعَرَبِيَّةُ وَالْيُونَانِيَّةُ  
فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَالثَّرَكِيَّةُ وَالشَّرَكْسِيَّةُ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى ؛ لِتِلْكَ الْإِتِّكَارِ وَالْبَلَاغَةِ  
وَالْمُنْطِقِ ، وَلِهَئِذِهِ التَّهَوُّيلُ وَالْمُبَالَغَةُ وَالْخَلْطُ ؛ وَشَوْقِي هُوَ بِهِمَا جَمِيعًا ؛ تَفَتَّنَهُ الْقُوَّةُ

مِنْهُمَا فَيُعْجَبُ بِهَا إِعْجَابَ الْقُوَّةِ ، وَتَخْذَعُهُ الضَّعِيفَةُ فَيُعْجَبُ بِهَا إِعْجَابَ الرِّقَّةِ ؛ كَمَا أُعْجِبَ بِنَبِيِّهِ الَّذِي قَالَهُ فِي الْحَنِينِ إِلَى الْوَطَنِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الشَّهِيرَةِ [من الخفيف] :  
وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَارَ عَنِّي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي  
وَهَذَا الْبَيِّنُ مِمَّا يَتِمُّ بِهَ الشُّبَّانُ وَكُتَابُ الصَّحَافَةِ ، وَلَمْ يَفْطَنْ أَحَدٌ إِلَى فَسَادِهِ  
وَسَخَافَةِ مَعْنَاهُ ؛ فَإِنَّ الْخُلْدَ لَا يَكُونُ خُلْدًا إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ الْفَانِي مِنَ الْإِنْسَانِ وَطَبَائِعِهِ  
الْأَرْضِيَّةِ ، وَبَعْدَ أَنْ لَا تَكُونَ أَرْضٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا حَيْنٌ وَلَا عَصَبِيَّةٌ ؛ فَكَأَنَّ شَوْقِي يَقُولُ :  
لَوْ شِغِلْتُ عَنِ الْوَطَنِ حِينَ لَا أَرْضٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا دَوْلٌ وَلَا أُمَمٌ وَلَا حَيْنٌ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ  
- فَإِنِّي عَلَى ذَلِكَ أَجِزُّ إِلَى الْوَطَنِ الَّذِي لَا وَجُودَ لَهُ فِي نَفْسِي وَلَا فِي نَفْسِهِ ... وَهَذَا كُلُّهُ  
لَعَوٌ ... وَالْمَعْنَى بَعْدُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ [من الطويل] :

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارَبُ قَضَاهَا السَّبَابُ هُنَالِكَ  
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتُهُمْ عُهُودُ الصَّبَى فِيهَا فَحَنُوا لِذَلِكَ  
وَمُنَازَعَةُ النَّفْسِ هِيَ الْحَنِينُ ، وَمَعْنَى ابْنِ الرُّومِيِّ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ  
لِفَلَسَفَةِ الْوُطَنِيَّةِ فِي زَمَانِنَا .

وَإِنْ فِي شَوْقِي عَيْنَيْنِ يَذْهَبَانِ بِكَثِيرٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ : أَحَدُهُمَا الْمُبَالَغَاتُ التُّرْكِيَّةُ وَالْفَارْسِيَّةُ  
مِمَّا تَنْزَعُهُ إِلَيْهِ تَرْكِيبُهُ وَلَا مَبَالَغَةَ فِي الدُّنْيَا تَقَارِبُهَا ، كَقَوْلِ بَعْضِ شُعَرَائِهِمْ أَنَّ الثَّمْلَةَ بِرُفْرِهَا  
جَفَفَتْ الْأَبْحَرَ السَّبْعَةَ ... وَهُوَ إِغْرَاقٌ سَخِيفٌ لَا يَأْتِي بِخَيَالٍ عَجِيبٍ كَمَا يَتَوَهَّمُونَ ، بَلْ  
يَأْتِي بِهِدْيَانٍ عَجِيبٍ ؛ وَإِذَا كَانَ الصَّدْقُ يَأْتُفُ مِنَ الْكَذِبِ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ نَفْسُهُ يَأْتُفُ مِنْ هَذَا  
الْإِغْرَاقِ ؛ وَمِنْ هَذِهِ التُّرْكِيَّةِ فِي شَوْقِي إِضَافَةٌ وَهَمِيَّةٌ ، هِيَ مِنْ تِلْكَ الْمُبَالَغَاتِ كَذَبِلَ  
الْحِمَارِ مِنَ الْحِمَارِ : قِطْعَةً فِيهِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ وَآخِرٌ لِأَوَّلِهِ وَلَا مَحَلَّ لَهَا فِي ذَوْقِ الْبَلَاغَةِ  
الْعَرَبِيَّةِ ؛ كَقَوْلِهِ [من مجزؤه الكامل] :

(عَيْسَى الشُّعُورِ) إِذَا مَشَى رَدَّ الشُّعُوبَ إِلَى الْخِيَاةِ  
وَقَوْلُهُ فِي سَعْدٍ بَاشَا فِي حَادِثَةِ الْأَعْتِدَاءِ عَلَيْهِ [من المتقارب] :

وَلَوْ زِلْتُ غَيْبَ (عَمَرُو الْأُمُورِ) وَأَخْلَى الْمَنَابِرَ سَخَبَانَهَا

وَيَدْخُلُ فِي جَنَائِيزِ هَذِهِ التُّرْكِيَّةِ عَلَى شِعْرِهِ تَكَرُّرُ الْأَسْمَاءِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْأَعْلَامِ  
التَّارِيخِيَّةِ : كَيُوشَعَ وَعَيْسَى وَمُوسَى وَخَالِدٌ وَبَدْرٌ وَسَيْنَاءُ وَحَاتِمٌ وَكَعْبٌ وَغَيْرَهَا مِمَّا هُوَ  
شَائِعٌ فِي نَظْمِهِ وَلَا تَجِدُهُ أَكْثَرَ مَا تَجِدُهُ إِلَّا تَقْيِيلًا مَمْلُوءًا ؛ وَلِهَذَا الْأَلْفَاظُ عِنْدَنَا فِلَسَفَةٌ  
لَا مَحَلَّ لَهَا الْآنَ ، فَهِيَ أحيانًا تَكُونُ السَّخَرُ كُلُّهُ وَالْبَلَاغَةُ كُلُّهَا ، عَلَى شَرْطِ أَنْ يَكُونَ  
الْقَلْبُ هُوَ الَّذِي وَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا ، وَأَنْ لَا يَضَعَهَا إِلَّا عَلَى هَيْئَةٍ قَلْبِيَّةٍ ، فَيَكُونُ كَأَنَّهُ  
وَضَعَ نَفْسَهُ فِي الشَّعْرِ لِيَخْفِقَ خَفَقَانَهُ الْحَيَّ فِي بَضْعَةِ الْأَفَاطِ ، وَهَذَا مَا لَمْ يُحْسِنَهُ شَوْقِي -  
وَالْعَيْبُ الثَّانِي أَنَّ الْأَفَاطِ شَاعِرِنَا لَا يَبْثُثُ أَكْثَرَهَا عَلَى التَّقْدِ ؛ لِضَعْفِهِ فِي الصَّنَاعَةِ الْبَيِّنِيَّةِ ،  
ثُمَّ لِضَعْفِ الْمُوهِبَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ فِيهِ وَاعْتِبَارِهِ التَّهْوِيلَ شِعْرًا وَالْمُبَالَغَةَ بِلَاغَةً وَإِنْ فَسَدَتْ بِهِمَا  
الْبَلَاغَةُ وَالشَّعْرُ ؛ أَنْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الشَّهِيرَةِ ٢٨ فَبَرَايزُ / شِبَاطُ [من البسيط] :

قَالُوا الْحِمَايَةَ زَالَتْ قُلْتُ لَا عَجَبَ قَدْ كَانَ بَاطِلُهَا فَيَكْمُ هُوَ الْعَجَبُ  
رَأْسُ الْحِمَايَةِ مَقْطُوعٌ فَلَا عُدِمَتْ كِنَانَةُ اللَّهِ حَزْمًا يَقْطَعُ الدُّنْبَا  
قُلْنَا : فَإِذَا قُطِعَ (رَأْسُ الْحِمَايَةِ) وَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مَا ؛ ذَنْبٌ أَوْ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ ، فَإِنَّ هَذِهِ  
الْبَقِيَّةَ فِي لُغَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي تَنْقُدُ الْأَلْفَاظَ وَحُرُوفَهَا وَتَقْطَعُ حُرُوفَهَا . . . لَنْ تَكُونَ ذَنْبًا وَلَا يَدًا  
وَلَا رِجْلًا ، بَلْ هِيَ (رَأْسُ الْحِمَايَةِ) بِعَيْنِهِ . . . عَلَى أَنَّ شَوْقِي إِنَّمَا عَكَسَ قَوْلَ الشَّاعِرِ [من  
البسيط] :

لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتُرْسِلْهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الدُّنْبَا  
وَهَذَا كَلَامٌ عَلَى سِيَاقِهِ مِنَ الْعَقْلِ ، فَمَا غَنَاءُ قُطْعِ ذَنْبِ الْأَفْعَى إِذَا بَقِيَ رَأْسُهَا ، وَإِنَّمَا  
الْأَفْعَى كُلُّهَا هِيَ هَذَا الرَّأْسُ .

وَلَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ دَرَسِ شَوْقِي فِي دِيَوَانِهِ أَمْرٌ عَجِيبٌ لَهُ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ مِنْ أَبِي تَمَامِ  
وَالْبُخْرِيِّ وَالْمَعْرِيِّ وَابْنِ الرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا سَاوَاهُمْ وَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ  
إِلَى الْمُتَنَبِّيِّ وَقَعَ فِي الْبَحْرِ وَأَذْرَكَ الْعَرْقُ ، لِأَنَّهُ نَشَأَ عَلَى رَهْبَةٍ مِنْهُ كَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ عِبَارَتُهُ فِي  
مُقَدِّمَةِ دِيَوَانِهِ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ وَصَفَ خَيْلَ التُّرْكِ فِي قَصِيدَةٍ أَفْقَرَهُ بِقَوْلِهِ [من البسيط] :

وَالصَّبْرُ فِيهَا وَفِي فُرْسَانِهَا خُلُقٌ تَوَارَتْهُ أَبَا فِي الزُّوْعِ بَعْدَ أَبِ

كَمَا وَلَدْتُمْ عَلَىٰ أَعْرَافِهَا وَلِدَتْ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ لَا فِي بَاحَةِ الرَّحَبِ  
وَشِعْرُهُ هَذَا كَأَنَّهُ يَرْتَعِدُ أَمَامَ قَوْلِ الْمُتَنَبِّي [من الكامل] :

أَقْبَلْتَهَا غُرَّرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِي بَنِي عُمَرَانِ فِي جَبْهَاتِهَا  
الْثَابِتِينَ فُرُوسَةً كَجُلُودِهَا فِي ظَهْرِهَا ، وَالطُّعْنُ فِي لَبَاتِهَا  
فَكَأَنَّهَا نَتِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ وَلِدُوا عَلَىٰ صَهَوَاتِهَا  
فَانْظُرْ أَيْنَ صِنَاعَةٌ مِنْ صِنَاعَةٍ وَأَيْنَ شِعْرٌ مِنْ شِعْرِ ؟

وَقَالَ فِي (صَدَى الْحَرْبِ) يَصِفُ مَدَافِعَ الدَّرْدَنِيلِ [من الطويل] :

قَدَائِفُ تَخْشَىٰ مُهْجَةَ الشَّمْسِ كُلَّمَا عَلَتْ مُضْعِدَاتِ أَهْلِهَا لَا تُصَوِّبُ  
إِذَا هَبَّ حَامِيهَا عَلَى الشُّفَنِ انْتَثَتْ وَغَانِمُهَا النَّاجِي فَكَيْفَ الْمُخَيَّبُ  
وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ (فَكَيْفَ الْمُخَيَّبُ) اسْتِفْهَامٌ مُضْحِكٌ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ النَّاجِي غَانِمًا  
فَالْمُخَيَّبُ خَاسِرٌ بِلَا سَوَالٍ وَلَا فَلَسْفَةٍ ؛ وَالْكَلِمَةُ الشَّعْرِيَّةُ فِي هَذَا كُلُّهُ هِيَ قَوْلُهُ (وَعَانِمُهَا  
النَّاجِي) ، وَهِيَ كَالْهَارِيَّةِ تَتَوَارَى خَوْفًا مِنْ بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ [من المنسرح] :

أَغْرُ أَغْدَاؤُهُ إِذَا سَلِمُوا بِالْهَرَبِ اسْتَكْبَرُوا الَّذِي فَعَلُوا  
فَهَذَا هُوَ الشَّعْرُ لَا ذَاكَ ؛ عَلَى أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ فِي قَصِيدَةِ (صَدَى الْحَرْبِ) أَبْيَاتًا هِيَ مِنْ  
أَسْمَى الشَّعْرِ ، وَكَأَنَّ شَوْقِي رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ يَنْظُمُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ إِيمَانِهِ وَمِنْ دِمِهِ وَمِنْ كُلِّ  
مَطَامِعِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ، يَتَنَبَّئُ بِهَا الشُّهْرَةَ الْخَالِدَةَ فِي النَّاسِ ، وَالْمَنْزِلَةَ السَّامِيَةَ عِنْدَ  
الْخِدْيَوِيِّ ، وَتَبَاهَةَ الشَّأْنِ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ ، وَالثَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَلَوْ هُوَ فِي أَثْنَاءِ عَمَلِهَا  
أَسْقَطَ نِصْفَهَا أَوْ أَكْثَرَ لَجَاءَتْ فَرِيدَةً فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، غَيْرَ أَنَّ الْحَرِصَ كَانَ يَغْتَرُّهُ ، وَكَانَ  
طُولُ عُمُرِهِ مَقْتُونًا بِشِعْرِهِ ، فَجَاءَ فِي هَذَا الشَّعْرِ بِالطَّمِّ وَالزَّمِّ كَمَا يَقُولُونَ ؛ وَلَهُ كَثِيرٌ مِنْ  
الْكَلَامِ الرَّذَلِ السَّاقِطِ بِضَعْفِهِ وَتَهَافُتِهِ ؛ وَلَوْلَا تِلْكَ التُّرْكِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ وَضَعْفُهُ الْبَيِّنَانِيُّ ، لَمَا  
رَضِيَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ ؛ وَلَيْتَ شِعْرِي ؛ كَيْفَ غَابَ عَنِ مِثْلِهِ أَنَّ التَّهْوِيلَ وَالْإِغْرَاقَ  
وَالْإِحَالََةَ مِمَّا يَهْجُنُ الشَّعْرُ وَيَذْهَبُ بِآثَرِهِ فِي النَّفْسِ وَيُجْنِلُهُ إِلَى صِنَاعَةٍ هِيَ شَرٌّ مِنَ الصَّنَاعَةِ  
الْبَدِيعِيَّةِ ، لِأَنَّ هَذِهِ تَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ ، وَالْأَلْفَاظُ تَحْتَمِلُ الْعَبَثَ الْبَدِيعِيَّ ، وَيَخْرُجُ بِهَا

الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونَ ضَرْبًا مِنَ الرِّيَاضَةِ كَمُعَانَةِ بَعْضِ الْمَسَائِلِ فِي الْجَبْرِ وَالْهَنْدَسَةِ تَرْكِيبًا  
وَحَلًّا ، وَلَكِنَّ الْمَعَانِي لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ ، إِذْ هِيَ تَفَكِيرٌ لَا يَلْتَوِي إِلَّا فَسَدٌ ، وَالْمَعَانِي الَّتِي  
يَأْتِي بِهَا الشَّاعِرُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مَرِيَّةٌ بِخَاصَّتِهَا مِنَ الْجَمَالِ وَالْبَيِّنَانِ ، وَأَنْ تَكُونَ أَخِيلَهَا  
هِيَ الْحَقَائِقُ الَّتِي أَوَّلُ مَوَاضِعِهَا فَوْقَ حَقَائِقِ الْبَشَرِ .

{ وَهَذَا ضَرْبٌ آخَرٌ مِنَ الْمُبَالَغَةِ يَجِيءُ مِنْ سُقُوطِ الْخَيَالِ ، لِأَنَّ فِي الْأَسْفَلِ مُبَالَغَةً  
كَمَا فِي الْأَعْلَى ، وَإِنْ كَانَتْ مُبَالَغَةُ الْأَسْفَلِ زِيَادَةً فِي الشَّخَرِيَّةِ مِنْهُ وَالْهَزْءُ بِهِ ، وَهَذِهِ  
الْمُبَالَغَةُ تَأْتِي مِنْ جَمْعِ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ وَإِذَا جِئَافَ كُلُّهَا فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، كَهَذَا الَّذِي حَاوَلَ  
أَنْ يَذْمُجَ الطَّبِيعَةَ كُلُّهَا فِي حَبِيبَةٍ ، فَرَعَمَ أَنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَسَيَّيَ أَنَّ كُلَّ قَبِيحٍ وَكُلَّ  
بَغِيضٍ هُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ... (١) } .

إِنَّ الْخَيَالَ الشَّعْرِيَّ يُرْبِعُ بِالْحَقِيقَةِ فِي مَنْطِقِ الشَّاعِرِ لَا لِتَقْلِيلِهَا عَنْ وَضْعِهَا وَيَجِيءُ بِهَا  
مَمْسُوحَةٌ مُشَوَّهَةٌ ، وَلَكِنَّ لِيَعْتَدِلَ بِهَا فِي أَفْهَامِ النَّاسِ وَيَجْعَلَهَا تَامَةً فِي تَأْثِيرِهَا ، وَتِلْكَ مِنْ  
مُعْجَزَاتِهِ ، إِذْ كَانَتْ فِيهِ قُوَّةٌ فَوْقَ الْقُوَّةِ عَمَلُهَا أَنْ تَزِيدَ الْمَوْجُودَ وَجُودًا بِوُضُوحِهِ مَرَّةً  
وَبِعُمُومِهِ أُخْرَى .

وَلِلْعَلَمَاءِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ كَلِمَةٌ مَا أَرَاهُمْ فَهَمُّوْهَا عَلَى حَقِّهَا وَلَا نَفَذُوا إِلَى سِرِّهَا ،  
قَالُوا : أَغْدَبَ الشَّعْرُ أَكْذَبُهُ ! يَغْنُونُ : أَنَّ قِيَامَ الشَّعْرِ الْمُبَالَغَةُ وَالْخَيَالُ وَلَا يَنْفَدُونَ إِلَى  
مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، وَمَا وَرَاءَهُ إِلَّا الْحَقِيقَةُ رَائِعَةٌ بِصِدْقِهَا وَجَلَالِهَا . وَفَلَسَفَةٌ ذَلِكَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ  
كُلُّهَا كَذَبٌ عَلَى الْحَوَاسِّ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ أَبْصَارَنَا وَأَسْمَاعَنَا وَحَوَاسِّنَا هِيَ عَمَلُ شِعْرِي فِي  
الْحَقِيقَةِ ، إِذْ تَنْقُلُ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ فِي نَفْسِهِ لِيَكُونَ شَيْئًا فِي نَفْسِنَا ، فَيُؤَثِّرُ فِيهَا أَثَرُهُ  
جَمَالًا وَقُبْحًا وَمَا يَبْنِيهِمَا . وَمَا هِيَ خَمْرَةُ الشَّعْرِ مِثْلًا ؟ هِيَ رُضَابُ الْحَبِيبَةِ ، وَلَكِنَّ الْعَاشِقَ  
لَوْ رَأَى هَذَا الرُّضَابَ تَحْتَ الْمُجْهِرِ لَرَأَى ... لَرَأَى مُسْتَنْقَعًا صَغِيرًا ... وَلَوْ كَانَ هَذَا  
الْمُجْهِرُ أَضْعَافَ الْأَضْعَافِ مِمَّا يَجْهَرُ بِهِ لَرَأَيْتَ ذَلِكَ الرُّضَابَ يَغُجُّ عَجِيجًا بِالْهَوَامِّ

(١) { يَعْْنِي قَوْلُ الْعَقَّادِ فِي « وَخِي الْأَرْبَعِينَ » [من الرمل] :

فِيكَ مِثْنِي وَمِنْ النَّاسِ وَمِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ وَمَوْجُودٍ نُؤَامِ {

وَالْحَشَرَاتِ الَّتِي لَا تَخْفَى بِنَفْسِهَا ، وَلَكِنْ أَخْفَاهَا التَّدْبِيرُ الإِلَهِيُّ بِأَنْ جَعَلَ رُتْبَتَهَا فِي الْوُجُودِ وَرَاءَ النَّظَرِ الْإِنْسَانِيِّ ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِالنَّاسِ ، فَأَعْدَبَ الشَّعْرَ مَا عَمِلَ فِي تَجْمِيلِ الطَّبِيعَةِ كَمَا تَعْمَلُ الْحَوَاسُّ الْحَيَّةُ بِسِرِّ الْحَيَاةِ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَ الشُّعْرَاءُ التَّوَابِعُ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ هُمْ كَالْحَوَاسِّ لِهَذَا الْمُجْتَمَعِ .

وَمِنْ سَخِيفِ الْإِغْرَاقِ فِي شِعْرِ شَوْقِي قَوْلُهُ فِي رِثَاءِ مُصْطَفَى بِأَشَا كَامِلٍ ، وَهِيَ أُنْبِيَاتُ يَظُنُّ هُوَ أَنَّهُ أَوْقَعَ كَلَامَهُ فِيهَا مَوْقِعًا يَدِينَا مِنَ الْإِغْرَابِ [من الكامل] :

قَلَوْ أَنْ أَوْطَانَا نَصُورُ هَيْكَلًا دَقْنُوكَ يَتَنَ جَوَانِحِ الْأَوْطَانِ  
أَوْ كَانَ يُحْمَلُ فِي الْجَوَارِحِ مِثْ حَمْلُوكَ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَجْفَانِ  
أَوْ كَانَ لِلذِّكْرِ الْحَكِيمِ بَقِيَّةٌ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ - رُثِيتُ فِي الْقُرْآنِ  
فَهَلْذِهِ فُرُوضُ فَوْقِ الْمُسْتَجِيلِ بِأَرْبَعِ دَرَجَاتٍ .. وَتَصَوَّرْ أَنْتَ مِثْنًا يُحْمَلُ فِي الْجَوَارِحِ  
فَيَرْتَمُ فِيهَا وَيَبْلَى .. وَمَا زَالَ الشَّاعِرُ فِي أُنْبِيَاتِهِ يُخْرِجُ مِنْ طَامَةِ إِلَى طَامَةٍ ، حَتَّى قَالَ :  
رُثِيتُ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَوْ سِئِلْتُ أَنَا إِغْرَابَ (لَوْ) فِي هَذِهِ الْأُنْبِيَاتِ لَقُلْتُ : إِنَّهَا حَرْفُ نَقْصٍ  
وَتَلْفِيفٍ وَعَجْزٍ ... وَكَيْفَ يُسَوِّغُ فِي الْفَرَضِ أَنْ تَكُونَ لِلْقُرْآنِ بَقِيَّةٌ لَمْ تَنْزِلْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى  
يَقُولُ فِيهِ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [٥ سورة المائدة/ الآية : ٣] وَالْأَمْرُ أَمْرٌ دِينِي قَدْ تَمَّ ،  
وَكِتَابٌ مُقَدَّسٌ خَتَمَ ، وَبُيُوتُهُ انْقَضَتْ ؛ وَالشَّاعِرُ مَاضٍ فِي غَفْلَتِهِ لَمْ يَتَنَبَّهُ لَشَيْءٍ وَلَمْ يَدْرُ أَنَّهُ  
يَفْرَضُ فَرَضًا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ كُلَّهُ ، بَلْ حَسِبَ أَنَّهُ جَاءَ بِخَيَالٍ وَبَلَاغَةٍ فَارِسِيَّةٍ ، وَشَوْقِي فِي  
الْحَقِيقَةِ كَامِلٌ كَنَاقِصٍ ، وَإِنْ مِنْ مُعْجَزَاتِ هَذَا الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ نَاقِصًا هَذَا النِّقْصَ كُلَّهُ  
وَيَكْمُلَ .

وَفِي « الشُّوْقِيَّاتِ » صَفَحَاتٌ تَكَادُ تُعْرَدُ تُعْرَدُ تَغْرِيدًا ، وَفِيهَا صَفَحَاتٌ أُخْرَى تَبْقَى نَقِيقَ  
الضَّفَادِعِ ؛ وَفِي هَذَا الدِّيْوَانِ عُيُوبٌ لَا نُرِيدُ أَنْ نَقْصِبَهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَخْتِاجُ إِلَى كِتَابٍ بِرَأْسِهِ  
إِذَا ذَهَبْنَا نَاتِي بِهَا وَنَشْرَحُ الْعِلَّةَ فِيهَا وَنُخْرِجُ الشُّوَاهِدَ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ مِنْ عُيُوبِهِ فِي التَّكَرَّارِ  
أَنْ لَهُ بَيْتًا يَدُورُ فِي قَصَائِدِهِ دَوْرَانِ الْجَمَارِ فِي السَّاقِيَةِ ، وَهُوَ هَذَا الْبَيْتُ [من البسيط] :

وَأَنَا الْأَمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُوزٌ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

بَلْ هَذَا الْبَيْتُ [من البسيط] :

وَأَنَا الْأَمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ مَضَوْا عَلَى آثَارِهَا قُدُمًا

بَلْ هُوَ هَذَا [من الطويل] :

كَذَا النَّاسُ بِالْأَخْلَاقِ يَبْقَى صَلَاحُهُمْ وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ حِينَ تَذْهَبُ

بَلْ هُوَ هَذَا الْبَيْتُ [من البسيط] :

وَلَا الْمَصَائِبُ إِذْ يُرْمَى الرِّجَالُ بِهَا بِقَاتِلَاتٍ إِذَا الْأَخْلَاقُ لَمْ تُصَبِّ

وَقَدْ تَكَرَّرَ (فِيمَا قَرَأْتُهُ مِنْ دِيْوَانِهِ) ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً فَعَادَ الْمَعْنَى كَطِيلَسَانَ ابْنَ حَرْبِ  
الَّذِي جَعَلَ الشَّاعِرُ يَرْفَعُهُ ثُمَّ يَرْفَعُهُ حَتَّى ذَهَبَ الطَّلِيلُ وَبَقِيَ الرُّفْعُ . وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مِنَ  
الْعَيْنِ النَّادِرِ ، وَلَكِنْ أَفْسَدَهُ فِي الْبَاقِي سُوءُ مَلَكَةِ الْحِرْصِ فِي شَوْقِي ، أَوْ ضَعْفُ الْحِسِّ  
الْبَيِّنِيِّ ، أَوْ ابْتِدَالُهُ الشَّعْرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ وَهْنُ فِكْرَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ مِنْ جَوَابِ كَثِيرَةٍ ؛  
وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ الْأَبْوَابُ الَّتِي يَفْتَحُ مِنْهَا التَّقْدُّ عَلَى شِعْرِ صَاحِبِنَا ، وَلَوْ هُوَ كَانَ قَدْ  
حَصَّنَهَا بِأَضْدَادِهَا لَكَانَ شَاعِرَ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ ، وَلَكَانَ عَسَى أَنْ يَنْقَلِ الشَّعْرُ  
إِلَى طَوْرِ جَدِيدٍ فِي النَّارِخِ ؛ وَلَكِنْ الْفَوْضَى وَقَعَتْ فِي شَوْقِي مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ ؛ فَأُرْسِلَ إِلَى  
أُورُبَّةٍ لِدَرْسِ الْحُقُوقِ ، وَكَانَ الْوَجْهَ أَنْ يُرْسَلَ لِدَرْسِ الْأَدَابِ وَالْفَلَسَفَةِ ؛ وَغَامَرَ فِي سِيَاسَةِ  
الْأَرْضِ ، وَكَانَ الْحَقُّ أَنْ يَشْتَغَلَ بِسِيَاسَةِ السَّمَاءِ وَتَهَالِكَ فِي مَادَّةِ الدُّنْيَا ، وَكَانَ الصَّوَابُ أَنْ  
يَتَهَالَكَ فِي مَعَانِيهَا .

إِنَّ الْفَوْضَى ذَاهِبَةٌ بِنَا مَذَاهِبَهَا فِي الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ ، فَكُلُّ شَاعِرٍ عِنْدَنَا كَمُؤَلَّفٍ يَضَعُ  
رَوَايَةً ثُمَّ يُمَثِّلُهَا وَحْدَهُ وَعَلَيْهِ أَنْ يُمَثِّلَهَا وَحْدَهُ ، فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى النَّظَارَةِ فِي ثِيَابِ الْمَلِكِ ،  
فِيْلَقِي كَلَامًا مَلِكِيًّا . ثُمَّ يَنْقَلِبُ فَيَجِيءُ فِي ثَوْبِ الْفَائِدِ فَيُلْقِي كَلَامًا حَرْبِيًّا ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ فَيَعُودُ  
فِي هَيْئَةِ النَّاجِرِ فَيُلْقِي كَلَامًا سُوقِيًّا ، ثُمَّ يَرْوَعُ فَيَرْجِعُ فِي مَبَاذِلِ الْخَادِمِ ثُمَّ ... ثُمَّ ... ثُمَّ  
يَتَوَارَى فَيُظْهِرُ فِي جِلْدَةِ بَرَبْرِي ... وَهَذِهِ الْفَوْضَى الَّتِي أَهْمَلْتُهَا الْحُكُومَةُ وَأَهْمَلَهَا الْأُمَرَاءُ  
وَالْكِبَرَاءُ هِيَ حَقِيقَةُ مُؤَلِّمَةٍ ، وَلَكِنْ هِيَ حَقِيقَةُ !

وَشَوْقِي عَلَى كُلِّ هَذَا هُوَ شَوْقِي : أَوَّلُ مَنْ اخْتَفَى بِتَارِيخٍ مُضَرٍّ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَوَسَّعَ فِي نَظْمِ الرُّوَايَةِ الشُّعْرِيَّةِ فَوَضَعَ مِنْهَا سِتَّ رَوَايَاتٍ ، وَهُوَ صَاحِبُ آيَاتِ الْبِدْيَةِ فِي الْوَصْفِ ، وَهَذِهِ النَّاحِيَةُ هِيَ أَقْوَى نَوَاحِيهِ ، وَلَقَدْ أَلْهَمْتَنِي قِرَاءَةُ الْبَارِعِ مِنْ شِعْرِهِ فِي أَغْرَاضِهِ وَفُنُونِهِ الْمُخْتَلِفَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْعِمُ عَلَى الْآدَابِ الْعَجِيزَةِ بِأَفْرَادٍ مُنْتَازِينَ فِي جَمَالِ أَزْوَاجِهِمْ وَقُوَّتِهَا ، تَجِدُ الْآدَابَ لَذَّتِهَا فِيهِمْ وَسُمُوها بِهِمْ ، كَأَنَّ الْأَمْرَ قِيَاسٌ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْ عِشْقِ النَّاسِ لِبَعْضِ الْمَعَانِي ، فَيَكُونُ فِي الْمَعَانِي مَا يَعِشِقُ بَعْضُ النَّاسِ ، وَمَتَى بَلَغَ عِشْقُ الْمَعْنَى لِإِنْسَانٍ مَبْلَغَ الْإِخْتِصَاصِ وَالْوَجْدِ ظَهَرَ الْفُؤَادُ أَبَدًا مَا يَرَى ، كَأَنَّ الْمَعْنَى الْأَدَبِيَّ يَتَجَمَّلُ وَيَتَجَبَّبُ لِيَسْتَمِيلَ هَذَا الْإِنْسَانُ الْحَاكِمَ عَلَيْهِ حُكْمُ الْحُبِّ .

فَيَا مُضَرُّ ! لَقَدْ مَاتَ شَاعِرُكَ الَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَخْرُجَ بِالْجِيلِ الْحَاضِرِ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي لَمْ يَأْتْ بَعْدُ ، فَإِذَا جَاءَ هَذَا الزَّمَنُ الزَّائِرُ يَفْتُونُهُ وَآدَابُهُ الْعَالِيَّةُ ، وَذَكَرْتَ مَجْدَ شِعْرِكَ الْمَاضِي ، فَلْيَقُلْ أَسَاتِدُكَ يَوْمَئِذٍ : كَانَ هَذَا الْمَاضِي شَاعِرًا أَسْمُهُ شَوْقِي !

### بَعْدَ شَوْقِي (\*) (١)

كَانَ يَتَوَجَّهُ الظُّرُّ عَلَى شَوْقِي رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَيَرَعُمُ الزَّاعِمُ أَنَّ شَوْقِي هُوَ يُخَيِّ شِعْرَهُ ، وَهُوَ يَزَعُ مِنْهُ ، وَهُوَ يُسَبِّحُ حَوْلَهُ قُوَّةَ الْجَذِبِ مِنْ مَغْنَطِيسِ الثَّرْوَةِ وَالْمَكَانَةِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَا أَقْوَى عَلَى الشُّعْرَاءِ جَمِيعًا لِأَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ ، بَلْ لِأَنَّهُ أَغْنَاهُمْ ؛ وَلَا مِنْ أَنَّهُ أَقْوَاهُمْ قُوَّةً ، بَلْ لِأَنَّهُ أَقْوَاهُمْ جِيلَةً ؛ وَأَنَّ الشَّاعِرَ لَوْ جَاءَ يَوْمُهُ لَبَطَلَ السَّحَرُ وَالسَّاحِرُ ، فَتَرْجِعُ الْعَصَا وَهِيَ عَصَا بَعْدَ أَنْ أَنْفَلَبَتْ حَيَّةً ، وَيُؤْوِلُ هَذَا الشُّعْرُ إِلَى حَقِيقَتِهِ ، وَتَسْتَسِمُ الْحَقِيقَةُ بِسَمَتِهَا ؛ كَأَنَّ

(\*) « الرسالة » العدد : ١٢١ ، ٣٠ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٨ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٧٢٣ - ١٧٢٥ .

(١) لَمَّا تَوَقَّيْتُ شَوْقِي كَتَبْنَا لِشَيْخِ مَجَلَّتِنَا « الْمُقْتَطَفِ » فَضلاً طويلاً عَنْهُ وَعَنْ شِعْرِهِ وَمَنْزِلَةِ شِعْرِهِ ، فَلَمْ نَعْرِضْ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ هُنَا .

شَوْقِي كَانَ يَعْمَلُ لِشِعْرِهِ بِقُوَّةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا بِقُوَّةِ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ .

فَقَدْ ذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى رَبِّهِ ، وَخَلَا مَكَانَهُ ، وَبَطَلَتْ كُلُّ وَسَائِلِهِ وَنَامَ عَنْ شِعْرِهِ نَوْمَةً الْأَبَدِيَّةِ ، وَتَرَكَهَ لِمَا فِيهِ يَحْفَظُهُ أَوْ يُضَيِّعُهُ إِنْ كَانَ فِيهِ حَقٌّ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ بَاطِلٌ ، وَأَصْبَحَ الشَّاعِرُ هُوَ وَمَالُهُ وَجَاهُهُ وَشِعْرُهُ فِي حُكْمِ الْكَلِمَةِ الَّتِي يَقُولُهَا الزَّمَنُ ، وَلَمْ تَعُدْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي حُكْمِهِ ؛ فَهَلْ أَثْبَتَهُ الزَّمَنُ أَوْ نَفَاهُ ، وَهَلْ سَلِمَ لَهُ أَوْ كَابَرَهُ ؛ وَهَلْ رَدَّهُ فِي أَغْمَارِ الشُّعْرَاءِ أَوْ جَعَلَ الشُّعْرَاءَ بَعْدَهُ أَدَلَّةً مِنْ أَدِلَّتِهِ ؟

\* \* \*

أَوَّلُ مَا ظَهَرَ لِي أَنَّ الزَّمَنَ بَعْدَ شَوْقِي أَصْبَحَ أَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ وَأَصْدَقَ فِي الشَّهَادَةِ لَهُ ، كَمَا تَكُونُ الظُّلُمَةُ بَعْدَ غِيَابِ الْقَمَرِ شَرْحًا طَوِيلًا لِمَعْنَى ذَلِكَ الضِّيَاءِ ، وَإِنْ سَطَعَتْ فِيهَا الْكَوَاكِبُ وَتَوَقَّدَ مِنْهَا شَيْءٌ وَتَلَأَلَا شَيْءٌ ، فَقَدْ دَلَّ الزَّمَنُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الشَّانَ لَمْ يَكُنْ لِشَاعِرٍ كَالشُّعْرَاءِ ، يُقَالُ فِي وَصْفِهِ : إِنَّهُ مُفْتَنٌ مُجِيدٌ مُبْدِعٌ ، وَلَكِنَّهُ لِلَّذِي يُقَالُ فِيهِ : إِنَّهُ صَوْتُ بِلَادِهِ وَصَبِيحَةُ قَوْمِهِ .

كَانَتْ تَخْلُتُ الْحَادِثَةُ ، أَوْ يَتَخَالَجُ النَّاسُ مَعْنَى مِنَ الْهَمِّ الَّذِي يَعْمُهُمْ ، أَوْ يَسْتَطِيزُهُمْ فَرَحٌ مِنْ أَفْرَاحِ الْوَطَنِ ، أَوْ يَزُولُ عَظِيمٌ مِنَ الْعُظْمَاءِ فَيَرِنْدُ صَفْحَةً فِي التَّارِيخِ ، أَوْ يَنْشَأُ كَوْنٌ صَغِيرٌ مِنْ أَكْوَانِ الْحَضَارَةِ فِي الشَّرْقِ كِبْنُكَ مُضَرٌّ ، أَوْ تَرْتَجُّ زَلْزَلَةٌ فِي الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْنَمَا أَرْتَجَّتْ ، فَإِذَا كُلُّ ذَلِكَ قَدْ وَقَعَ فِي الدُّنْيَا بِهَيئَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا فِي ذَهْنِ شَوْقِي ، فَيُرْسِلُ قَصِيدَتَهُ الشُّرُودَ السَّائِرَةَ دَاوِيَةً مُجَلِّجَةً ، فَلَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي مُضَرٍّ حَتَّى تَلْتَقِيَ حَوْلَهَا الْأَفْكَارُ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ ، فَتَكُونُ شِعْرًا مِنْ أَسْرَى الشُّعْرِ وَأَحْسَنِهِ ، ثُمَّ تُجَاوِزُهَا ، فَإِذَا هِيَ صِلَةٌ مِنْ أَقْوَى الصَّلَاتِ الذَّهْنِيَّةِ بَيْنَ أَدْبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَوْثَقِهَا ، ثُمَّ تُجَاوِزُهَا ، فَإِذَا هِيَ عَاطِفَةٌ تَجْمَعُ الْقُلُوبَ عَلَى مَعْنَاهَا ، ثُمَّ تَسْمُو فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِذَا هِيَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ رَعَامَةٌ مُضَرٌّ عَلَى الشَّعْبِ الْعَرَبِيِّ .

وَالْيَوْمَ يَقَعُ مِثْلُ ذَلِكَ فَتَطَايِرُ بَعْضُ الْفَقَائِعِ الشُّعْرِيَّةِ مِنْ هُنَا ، وَثُمَّ مَلُوءَةٌ مُنْتَفِخَةٌ مَاضِيَةً عَلَى قَانُونِ الْفَقَائِعِ فِي الطَّبِيعَةِ : مِنْ أَنَّ لِحْظَةً وَجُودَهَا هِيَ لِحْظَةُ فَنَائِهَا ، وَأَنَّ ظُهُورَهَا يَكُونُ لِنَظَرٍ فَقَطْ لَا لِنَفْعٍ .



وَلَسْتُ أُمَارِي فِي أَنَّ بَيْنَنَا شُعْرَاءَ قَلِيلَيْنِ يُعِيدُونَ الشَّعْرَ ، وَلَهُمْ فِكْرٌ وَبَيَانٌ وَمَذْهَبٌ وَطَرِيقَةٌ ، وَلَكِنْ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ الْحَوَادِثَ لَمْ تَخْتَرْهُ كَمَا اخْتَارَتْ شَوْفِي ، وَأَنَّهُ فِي الْحَيَاةِ كَالْوَاقِفِ عَلَى بَابِ دِيْوَانٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَخْرُجَ لَهُ التَّقْلِيدُ ، فَهُوَ يَنْتَظِرُ وَيَسْتَنْظِرُ .

وَهَذَا عَجِيبٌ حَتَّى كَأَنَّهُ سِحْرٌ مِنْ سِحْرِ الزَّمَنِ حِينَ تَفْصِلُ الدُّنْيَا بَيْنَ الْعَبْقَرِيِّ الْقَدْ وَبَيْنَ مَنْ يُشَبِّهُنَّهُ أَوْ يُتَافِسُونَهُ بِضُرُوبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الصَّرْفَةِ وَالْعَوَاتِقِ ، لَا هِيَ كُلُّهَا مِنْ قُوَّةِ الْعَبْقَرِيِّ ، وَلَا هِيَ كُلُّهَا مِنْ عَجْزِ الْآخَرِينَ .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنَّ (شَوْفِي) كَانَ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ كَأَنَّهُ عَمَلٌ تَارِيخِي مُتَمَيِّزٌ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُسَمًّى بِاسْمِ رَجُلٍ ؛ وَكَانَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ - كَانَ فِيهِ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الرُّوحِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُتَغَلَّبَةِ الَّتِي تَخْلُدُ بِأَسْمَاءِ الْأَنْثَارِ الْفَنِّيَّةِ وَتُكْسِبُهَا الْعَظَمَةَ فِي الْوُجُودَيْنِ : مِنْ مَحَلِّهَا وَمِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَرِ شِعْرًا عَرَبِيًّا يَخْسُنُ فِي وَصْفِ الْأَنْثَارِ الْمِصْرِيَّةِ مَا يَخْسُنُ فِي وَصْفِهَا شَوْفِي ، حَتَّى لَأَسْأَلَ نَفْسِي : هَلْ تَخْتَارُ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ وَصْفَهَا وَمُفَسِّرَ عَظَمَتِهَا ، كَمَا تَخْتَارُ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةَ عَاشِقَهَا وَمُسْتَجَلِي حُسْنِهَا ؟

\* \* \*

وَمَا بَانَ شَوْفِي عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا بِأَنَّهُ رَجُلٌ أَفْرَغَ فِي رَأْسِهِ الدَّهْنَ الشَّعْرِيَّ الْكَبِيرَ ، فَكَانَ فِي رَأْسِهِ مَصْنَعُ عَمَالِهِ الْأَعْصَابِ ، وَمَادَّةُ الْمَعَانِي ، وَمُهَنْدِسُهُ الْإِلَهَامُ ؛ وَالْدُّنْيَا تُرْسِلُ إِلَيْهِ وَتَأْخُذُ مِنْهُ ؛ وَعَلَامَةُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ شَاعِرٍ عَظِيمٍ أَنْ تَضَعُ دُنْيَاهُ عَلَى اسْمِهِ شَهَادَتَهَا لَهُ ، وَلِهَذَا مَا يَكُونُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ كَأَنَّ اسْمَهُ فِي وَزْنِ اسْمِ مَمْلُوكَةٍ ، فَإِذَا قُلْتُ : شَيْكْسِيئِرْ Shakespeare وَإِنْ كَثُرَتْ ؛ فَهَمَّا فِي الْعَظَمَةِ النَّفْسِيَّةِ مِنْ وَزْنِ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ الْمُتَشَبِّهِ وَالْعَالَمُ الْعَرَبِيُّ ، وَكَذَلِكَ شَوْفِي وَمِصْرُ .

قَالُوا : كَانَ الْفَرَزْدَقُ يُنْقِصُ الشَّعْرَ ، وَكَانَ جَرِيرٌ يَخْشُبُ (أَي : يُرْسِلُ شِعْرَهُ كَمَا يَجِيءُ ، فَلَا يَتَوَقَّعُ فِيهِ وَلَا يُنْقِصُهُ) ؛ وَكَانَ خَشْبٌ جَرِيرٌ خَيْرًا مِنْ تَنْفِيحِ الْفَرَزْدَقِ ، وَلَمْ يَنْتَبَهْ

أَحَدٌ إِلَى السَّرِّ فِي ذَلِكَ ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا السَّرُّ الَّذِي كَانَ فِي شَوْفِي بِعَيْنِهِ ، سِرُّ الْأَمْتِلَاءِ الرُّوحِيِّ قَدْ أَمَدَ بِالطَّبْعِ ، وَأُعِينَ بِالذُّوقِ ، وَأُزْنِي الْقُوَّةُ أَنْ يَتَحَوَّلَ بِأَثَارِهِ فِي الْكَلَامِ ؛ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ فَهُوَ مِنْهُ : يَجِيءُ دَائِمًا قَرِيبًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ ، وَلَا يَكَادُ يَنْفُذُ إِلَى شُعُورٍ إِلَّا اتَّحَدَ بِهِ .

وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ الْوَاعِظُ الْبَلِيغُ<sup>(١)</sup> إِذَا تَكَلَّمَ فِي مَجْلِسِهِ نَشَرَ حَوْلَهُ جَوًّا مِنْ رُوحِهِ ، فَيَجْعَلُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ يَتَمَوَّجُ بِأَمْوَاجِ نَفْسِيَّةٍ ؛ فَكَانَ كَلَامُهُ يَعْصِفُ بِالنَّاسِ عَصْفَ الْهَوَاءِ بِالْبَحْرِ ، يَقُومُ بِهِ وَيَقْعُدُ ، وَكَانَ مِنَ الْوَاعِظِ مَنْ يُقْلِدُهُ وَيَحْكِيهِ وَلَا يَذَرِي أَنَّهُ بِذَلِكَ يَغْرِضُ الْغُلَطَةَ عَلَى رَدِّهَا وَصَوَابِهَا ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ جَالَسَهُ وَجَالَسَهُمْ : مَا سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ ذَرٍّ يَتَكَلَّمُ إِلَّا ذَكَرْتُ الْفُتُوحَ فِي الصُّورِ ؛ وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَحْكِيهِ إِلَّا تَمَيَّنْتُ أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ ...

فَالْفَرْقُ رُوحَانِيٌّ طَبِيعِيٌّ كَمَا تَرَى ، لَا عَمَلٌ فِيهِ لِأَحَدٍ وَلَا لِصَاحِبِهِ ، وَهُوَ يُشَبِّهُ الْفَرْقَ بَيْنَ عَاصِفَةٍ مِنَ الْهَوَاءِ وَبَيْنَ نَسِيمٍ مِنَ الرِّيحِ يُرْسِلَانِ عَلَى جِهَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ . فَنَحِيَّةٌ يَلْتَجِئُ الْمَاءُ وَيَثِبُ وَيَتَضَرَّبُ وَيَقْصِفُ قُصْفَ الرَّعْدِ ، وَفِي الْأُخْرَى يَتَزَجَرَجُ وَيَتَزَخَفُ وَيَقْشَعِرُ وَيَهْمِسُ كَوَسْوَاسِ الْجَلِيِّ .

وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ لِلْكَمِّيَّةِ الْوُجْدَانِيَّةِ فِي النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ أَوْ الْمُتَنَازَةِ ؛ فَهِيَ الَّتِي تُعَيِّنُ لِهَذِهِ النَّفْسِ عَمَلَهَا عَلَى وَجْهِ مَا ، وَتُهَيِّئُهَا لِمَا يُرَادُ مِنْهَا بِقَدَرٍ مَا ، وَتُقَيِّمُهَا عَلَى ذَاتِهَا إِلَى زَمَنِ مَا ، وَتَخْصُصُهَا بِخَصَائِصِهَا لِغَرَضٍ مَا ، وَإِذَا أَنْتَ حَقَّقْتَ لَمْ تَجِدِ الْفُرُوقَ بَيْنَ التَّوَابِيعِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، إِلَّا فُرُوقًا فِي هَذِهِ الْكَمِّيَّةِ ذَاتِهَا مَقْدَارًا مِنْ مَقْدَارٍ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ أَصْغَرُ الْعُلَمَاءِ أَعْظَمُ مِنْ أَكْبَرِ الشُّعْرَاءِ ، فَقَدْ يَكُونُ الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ كَأَنَّهُ تَلْمِيزٌ فِي الْعِلْمِ ، ثُمَّ يَكُونُ الْعِلْمُ كَأَنَّهُ تَلْمِيزٌ لِقَلْبٍ هَذَا الشَّاعِرِ وَعَوَاطِفِهِ ؛ وَلَكِنْ عَجَزَ النَّقْدُ الْعِلْمِيُّ أَنْ يَقَالَ مِنَ الشَّاعِرِ الْعَبْقَرِيِّ ، لَقَدْ يَمَّا عَجَزَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .

وَقَدْ كَانَ فَيَمَنْ حَاوَلُوا إِسْقَاطَ شَوْفِي مَنْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْهُ أَطْلَاعًا عَلَى آدَابِ الْأَثَمِ ، وَأَبْصَرُ بِأَغْرَاضِ الشَّعْرِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ حَاسِدًا شَانِنًا قَدْ ثَقَبَ فِي قَلْبِهِ الْحَقْدُ ،

(١) هُوَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ الْهَمْدَانِيُّ الْكُوفِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٥٦ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ مِنْ أَبْلَغِ الْمُتَكَلِّمِينَ .

وَالْحَاسِدُ الْمُبْغِضُ هُوَ فِي اتِّسَاعِ الْكَلَامِ وَطُعْيَانِ الْعِبَارَةِ أَخُو الْمُحِبِّ الْعَاشِقِ ، فَكِلَاهُمَا يَدُورُ الدَّمُ فِي كَبِدِهِ مَعَانِي وَوَسَاوِسَ ، وَكِلَاهُمَا يَجْرِي كَلَامُهُ عَلَى أَصْلِ مِمَّا فِي سِرِّزَتِهِ ، فَلَا تَجِدُ أَحَدَهُمَا إِلَّا عَالِيًا عَالِيًا بِمَنْ يُحِبُّ ، وَلَا تَجِدُ الْآخَرَ إِلَّا نَارًا نَارًا لَا بِمَنْ يُبْغِضُ ، وَكَانَ هَذَا الثَّقَافُ شَاعِرًا ، فَأَنْضَفَ شِعْرُهُ إِلَى حَسَدِهِ إِلَى بُغْضِهِ ، إِلَى ذِكَائِهِ ، إِلَى أَطْلَاعِهِ ، إِلَى جُهْلِهِ ، إِلَى طُولِ الْوَقْتِ وَتَرَاحِي الزَّمَنِ ، وَهَلْذِهِ كُلُّهَا مُفْرَعَاتُ نَفْسِيَّةٍ .  
بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ كَالْبَارُودِ ، إِلَى الدِّينَامِيَّتِ ، إِلَى الْإِمْبِلِيْنِيَّتِ ، وَلَكِنْ شَوْقِي كَانَ فِي مُزْنَقِي لَمْ يَبْلُغْهُ الثَّقَافُ ، فَانْقَلَبَ جُهْدُهُ هَذَا عَجْزًا ، وَأَصْبَحَ الْبَارُودُ وَالتُّرَابُ فِي يَدِهِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . . . (١)

\* \* \*

وَمِنْ أَعْجَبَ مَا عَجِبْتُ لَهُ مِنْ أَمْرِ هَذَا الثَّقَافِ ، أَنِّي رَأَيْتُهُ يَقَرَّرُ لِلنَّاسِ صَوَابَ الْحَقِيقَةِ بِزَعْمِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَقَرَّرُ غَلْطَهُ وَجَهْلَهُ وَتَعَسُّفَهُ ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُ عَنْ شَوْقِي يَكُونُ كَالَّذِي يَرَى الْمَاءَ الْعَذْبَ وَعَمَلُهُ فِي إِبْنَاتِ الرُّوضِ وَتَوَشُّيهِ وَتَلَوْنِيهِ ، فَيَذْهَبُ يَعْيبُهُ لِلنَّاسِ بِأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الْبَزِينُ . . . الَّذِي يُحَرِّكُ السِّيَّارَاتِ وَالطَّيَّارَاتِ !

تَتَاوَلَ شَوْقِي بَعْدَ مَوْتِهِ فَجَرَدَهُ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ ، أَيَّ مِنْ حَاسَةِ الشُّعْرِ ، وَمِنْ إِذْرَاكِ السَّرِّ الَّذِي لَا يَخْلُقُ الشَّاعِرُ الْحَقُّ إِلَّا لِإِذْرَاكِهِ وَالْكَشْفِ عَنْ حَقَائِقِهِ ، وَكَانَ فِيمَا اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ شَوْقِي لَا يُحْسِنُ وَصْفَ الرَّبِّعِ بِمِثْلِ مَا وَصَفَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي قَوْلِهِ [من الكامل] :

تَجِدُ الْوُحُوشَ بِهِ كِفَايَتَهَا وَالطَّيْرُ فِيهِ عَيْنِدَةُ الطُّغَمِ  
فَقِطْبَاؤُهُ تَضْحَكُ بِمُشْطَحٍ وَحَمَائِمُهُ يَضْحَكُ بِمُخْتَصَمِ

وَزَعَمَ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ قَدْ وُلِدَ بِحَاسَةٍ لَمْ يُؤَلِّدْ بِهَا شَوْقِي ، وَلِهَازِهِ الْحَاسَةُ أُنْدَمَجَ فِي الطَّيْنَةِ فَأَدْرَكَ سِرَّ الرَّبِّعِ ، وَأَنَّهُ غَلِيَانُ الْحَيَاةِ فِي الْأَحْيَاءِ ، فَالطَّبَّاءُ تَنْطُحُ مِنَ الْأَشْرِ . . .  
إِلَخْ إلَخْ ، وَبَنَى عَلَى ذَلِكَ نَاطِحَةَ سَحَابٍ . . . لَا نَاطِحَةَ ظَبَاءٍ (٢) .

(١) { أَحْسَبُهُ يَنْبَغِي الْعَفَادَ } .

(٢) لَا يَخْضُرُنِي كَلَامُ الْكَاتِبِ بِنَصْوِهِ ، وَلَكِنْ ، هَذَا بَغْضُ مَعْنَاهِ ؛ وَكُلُّهُ تَهْوِيلٌ .

أَمَّا شَوْقِي الشَّاعِرُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ الَّذِي لَمْ يُؤَلِّدْ بِمِثْلِ تِلْكَ الْحَاسَةِ ، فَلَوْ أَنَّهُ شَهِدَ أَلْفَ رَبِّعٍ لَمَا أَحْسَنَ هَذَا الْإِحْسَانَ ، وَلَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَجِيءَ بِمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ الْمُعْجِزِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الثَّقَافِ جَهْلٌ فِي جَهْلٍ فِي جَهْلٍ وَأَعَالِيلُ بِأَسَالِيلَ بِأَبَاطِيلَ ، فَأَبْنُ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَصٌّ لَا أَكْثَرُ وَلَا أَقَلُّ ، فَلَمْ يُحَسِّنْ شَيْئًا وَلَا ابْتَدَعَ وَلَا اخْتَرَعَ .

قَالَ الْجَاحِظُ : يُقَالُ فِي الْخُضْبِ (أَيَّ : الرَّبِّعِ) : نَفَسَتْ الْعَنْزُ لِأُخْتِهَا ، وَخَلَفَتْ أَرْضًا تَطَالَمَ مِغْزَاهَا (أَيَّ : تَطَالَمَ) ، قَالَ : لِأَنَّهَا تَنْفُسُ شَعْرَهَا وَتَنْصَبُ رُوقَهَا فِي أَحَدِ شَقِيئِهَا فَتَنْطَحُ أُخْتَهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْأَشْرِ ، (أَيَّ : حِينَ سَمِنتُ وَأَخْصَبْتُ وَأَعْجَبْتُهَا نَفْسَهَا) .

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ سَرَقَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ جَمِيعًا ، ثُمَّ جَاءَ لِلْقَافِيَةِ بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ السَّخِيفَةِ الَّتِي قَاسَ فِيهَا الْحَمَامَ عَلَى الطَّبَّاءِ وَالْمِغْزَى . . . فَاسْتَكْرَهَ الْحَمَامَ عَلَى أَنْ يَخْتَصِمَ فِي زَمَنِ بَعِيْنِهِ وَهُوَ يَخْتَصِمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَإِنَّمَا شَرْطُ الزِّيَادَةِ فِي السَّرِقَةِ الشُّعْرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَى الْمَعْنَى فَتَجْعَلَهُ كَالْمُتَفَرِّدِ بِنَفْسِهِ أَوْ كَالْمُخْتَرِعِ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كَانَ لِلطَّيْنَةِ مِثْلُ صُورَةٍ فِي الْخَيَالِ الشُّعْرِيِّ ، ثُمَّ قَدَّمَ شَوْقِي لِلنَّاسِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ مِنْهَا ، لَقَالَ ذَلِكَ الثَّقَافُ الْمُتَعَتُّ : لَا ، إِلَّا الصُّورَةُ الَّتِي لَمْ يَقْدَمْهَا . . .

\* \* \*

وَكَانَ شِعْرُ شَوْقِي فِي جَزَائِلِهِ وَسَلَاسَتِهِ كَأَنَّمَا يَحْمِلُ الْعَصَا لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ ، يَزُدُّهُمْ بِهَا عَنِ السَّفْسَفَةِ وَالتَّخْلِيلِ وَالْاضْطِرَابِ فِي اللَّفْظِ وَالتَّرَكِيبِ ، فَكَثُرَ الْأَخْتِلَالُ فِي الثَّانِيْنِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَجَاوَزُوا بِالْكَلَامِ الْمُخَلَّطِ الَّذِي تَبَعَتْ عَلَيْهِ رَخَاوَةُ الطَّنْبِ وَضَعْفُ السَّلْبِيَّةِ ، فَتَرَاهُ مَكْشُوفًا سَهْلًا ، وَلَكِنْ شُهُولَتُهُ أَفْضَحَ فِي الذَّوْقِ مِنْ جَفْوَةِ الْأَغْرَابِ عَلَى كَلَامِهِمُ الْوُخْشِيِّ الْمَتْرُوكِ .

وَالْآفَةُ أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْمَذْهَبِ يَفْرِضُونَ مَذْهَبَهُمْ قَرْضًا عَلَى الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلنَّاسِ : دَعُوا اللُّغَةَ وَخُذُونَا نَحْنُ ! وَلَيْسَ فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا مَا اخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَقْلِيدِ الْأَدَبِ الْأَوْرُبِيِّ ، فَكُلُّ مِنْهُمْ عَابِدُ الْحَيَاةِ ، مُتَدَمِّجٌ فِي وَحْدَةِ الْكَوْنِ ، يَأْخُذُ الطَّيْنَةَ مِنْ يَدِ اللَّهِ ، وَيُجَارِي الْأَنْهَاءَ ، وَيَفْنَى فِي اللَّذَّةِ ، وَيَعَانِقُ الْقَضَاءَ ، وَيَعْنِي عَلَى قِتَارَتِهِ لِلْجُحُومِ ؛ وَبِالْإِخْصَارِ : فَكُلُّ مِنْهُمْ مَجْنُونٌ لُغَوِيٌّ . . .

وَأَنَا فَلَسْتُ أَرَى أَكْثَرَ هَذَا الشَّعْرِ إِلَّا كَالْجَبِيفِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْجَبِيفَةَ لَا تُعَدُّ كَذَلِكَ فِي الْوُجُودِ الْأَعْظَمِ ، بَلْ هِيَ فِيهِ عَمَلٌ تَخْلِيلِيٌّ عِلْمِيٌّ دَقِيقٌ ؛ لَقَدْ صَدَقُوا ؛ وَلَكِنْ هَلْ يَكْذِبُ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْجَبِيفَةَ هِيَ فَسَادٌ وَتَنَنٌ وَقَدْزٌ فِي أَعْتِبَارِ وُجُودِنَا الشَّخْصِيِّ : وُجُودِ النَّظَرِ وَالشَّمِّ ، وَالْأَنْبَاضِ وَالْأَنْبَاطِ ، وَسَلَامَةِ الذَّوْقِ وَفَسَادِ الذَّوْقِ !

\* \* \*

وَكَانَ حَاسِدُو شَوْفِي يَحْسِبُونَ أَنَّهُ إِذَا أَرْنَحَ مِنْ طَرَفِهِمْ ظَهَرَ تَقْدُمُهُمْ ؛ فَلَمَّا أَرْنَحَ مِنَ الطَّرَفِ ظَهَرَ تَأَخُّرُهُمْ . . . وَهَلِ هَذِهِ وَحْدَهَا مِنْ عَجَائِبِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ !

وَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ هَبَّةَ ثَلَاثَةِ مُلُوكٍ لِلشَّعْبِ ، فَهَيْهَاتَ يَنْبَغُ مِثْلُهُ إِلَّا إِذَا عَمِلَ الشَّعْبُ فِي خِدْمَةِ الشَّعْرِ وَالْأَدَبِ عَمَلَ ثَلَاثَةِ مُلُوكٍ . . . وَهَيْهَاتَ !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

\* \* \*

### الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ فِي خَمْسِينَ سَنَةً (\*)

وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ قَبْلَ خَمْسِينَ سَنَةً خَلَّتْ (أَيُّ : قَبْلَ إِنْشَاءِ « الْمُقْتَطَفِ ») وَتَأَمَّلْتَ حَلِيَّتَهُ وَمَعْرِضَهُ ، وَنَظَرْتَ فِي مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقَتِهِ ، وَتَصَفَّحْتَ مَعَانِيَهُ وَأَغْرَاضَهُ - لَمْ تَرِ مِنْهُ إِلَّا شَبِيهَا بِمَا تَرَاهُ مِنْ بَقَايَا الْوَرَقِ الْأَخْضَرِ فِي شَجَرَةٍ نَقَلُ عَلَيْهَا الظِّلُّ فَهُوَ جَامِدٌ مُسْتَوْخِمٌ ، وَحُمْ فِي ظِلِّهَا شِعَاعُ الشَّمْسِ فَهُوَ بَارِدٌ يَزِيدُ ، فَالْحَيَاةُ فِيهَا ضَعِيفَةٌ مُتَهَالِكَةٌ ، لَا هِيَ تَمُوتُ كَالْمَوْتِ وَلَا هِيَ تَحْيَا كَالْحَيَاةِ ، وَمَا نَمَّ إِلَّا مَاءٌ نَاشِفٌ وَرَوْنَقٌ عَلِيلٌ وَمَنْظَرٌ مِنَ الشَّجَرَةِ الْوَاهِتَةِ كَأَنَّهُ جِسْمُ الرَّبِيعِ الْمَغْتَلِّ بَدَتْ غُرُوقُهُ وَعِظَامُهُ .

كَانَ ذَلِكَ الشَّعْرُ فَاسِدَ السَّبْكِ ، مُتَخَلِّفَ الْمَنْزِلَةِ ، قَلِيلَ الطَّلَاوَةِ ، بَيْنَ مَدِيحٍ قَدْ أُعِيدَ كُلُّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ فِي تَارِيخِ هَذِهِ أَلَلَّةٍ بِمَا لَا يُخَصِّصُهُ إِلَّا الْمَلَأَتِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِإِخْصَاءِ الْكَذِبِ ، وَبَيْنَ هِجَاءٍ سَاقِطٍ هُوَ بَعْضُ الْمَوَادِّ الَّتِي تَشْعِلُ بِهَا نَارُ اللَّهِ يَوْمَ تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ ، وَبَيْنَ غَزَلٍ مَسْرُوقٍ مِنَ الْقُلُوبِ الَّتِي كَانَتْ تُحِبُّ وَتَعَشَقُ ، وَبَيْنَ وَصْفٍ لَا عَيْبَ لِمَوْصُوفِهِ سِوَاهُ ، وَشَكْوَى مِنَ الدَّهْرِ يَشْكُو الدَّهْرَ مِنْهَا ، وَتَحَزُّنٌ وَيَأْسٌ وَنَذْبٌ تَجْعَلُ دِيْوَانَ الشَّاعِرِ كَمَا سَمَى أَحَدُ طُرَفَاءِ الْقُرْنِ الثَّانِي عَشَرَ لِلْهَجَرَةِ دِيْوَانَ أَحَدِ أَصْحَابِهِ « بِالْمُلْطَمَةِ . . . » وَرَنَاءُ كَفَرَاءَةِ الْقُرَاءِ فِي جَنَازَاتِ الْمَوْتَى ، لَا فِيهَا عِظَةُ السُّكُوتِ وَلَا فَائِدَةُ الْطُطْقِ ، وَتَعَمُّرُ كُلِّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ مِنَ الصَّنَاعَةِ بَيْنَهُ التَّعَسُّفُ ، ضَعِيفَةُ التَّقْلِيدِ ، لَا تَرَى الْمُتَأَخَّرَ فِيهَا مَعَ الْمُتَقَدِّمِ إِلَّا قَرْنِيًا مِمَّا يَكُونُ عَمَلُ اللَّصِّ فِي أَخْذِ الْأَمَالِ ، مِنْ عَمَلٍ صَاحِبِ الْأَمَالِ فِي جَمْعِهِ ؛ وَالْعَجِيبُ أَنَّكَ إِذَا اعْتَرَضْتَ الشَّعْرَ مِنَ الْقُرْنِ الْعَاشِرِ لِلْهَجَرَةِ إِلَى الْقُرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ (السَّادِسَ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ إِلَى التَّاسِعِ عَشَرَ) رَأَيْتُهُ نَارًا لَا مِنْ عَصْرِ إِلَى عَصْرِ بِتَدْرِيجٍ مِنَ الضَّعِيفِ إِلَى الْأَضْعَفِ ، حَتَّى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ بِقُوَّةِ طَبِيعِيَّةِ كَفْوَةِ الْجَذْبِ ، كُلَّمَا هَبَطَتْ شَيْئًا أَسْرَعَتْ شَيْئًا إِلَى أَنْ تَلْصَقَ بِالْأَرْضِ ، وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّي هَذِهِ الْعُصُورَ بِالْعُصُورِ

الْمُظْلَمَةِ ، وَلَمْ يَنْتَبِهْ أَحَدٌ إِلَى أَنَّ فِي الْأَدَبِ نَامُوسًا كَنَامُوسِ رَدِّ الْفِعْلِ ، يُخْرِجُ أَضْعَفَ الضَّعْفِ مِنْ أَقْوَى الْقُوَّةِ ، وَأَنَّ انْحِطَاطَ الشَّعْرِ فِي تِلْكَ الْعُصُورِ - عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِنَاعَةً بَدِيعِيَّةً - إِنَّمَا سَبَبُهُ الْقُوَّةُ الصَّنَاعِيَّةُ الْعَجَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِلشَّعْرِ مُنْذُ الْقَرْنِ السَّادِسِ إِلَى الْعَاشِرِ ، بَعْدَ أَنْ نَشَأَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٩٦هـ (١١٩٩م) ، وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ حُدُودًا لِلْحَوَادِثِ تَبْدَأُ مِنْهَا أَزْمِنَةٌ وَتَنْتَهِي عِنْدَهَا أَزْمِنَةٌ ، فَتَتَنَسَّجُ النَّاسُ بِأَدْبِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، وَصَرَفَ الشَّعْرَ وَالْكِتَابَةَ إِلَى أَسَالِيبِ الثُّكْنَةِ الْبَدِيعَةِ ، وَظَهَرَتْ مِنْ بَعْدِهِ عِصَابَتُهُ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْعِصَابَةَ الْفَاضِلِيَّةَ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا إِمَامٌ فِي الْأَدَبِ وَعُلُومِهِ ، فَكَانَ فِي مِصْرَ الْقَاضِي ابْنُ سَنَاءِ الْمُلْكِ ، وَسِرَاجُ الدِّينِ الْوَرَّاقُ ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ الْجَزَّارُ ، وَأَضْرَابُهُمْ ؛ وَكَانَ فِي الشَّامِ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْأَنْصَارِيُّ ، وَالْأَمِيرُ مُجِيرُ الدِّينِ بْنُ تَمِيمٍ ، وَبَدُرُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ لُؤْلُؤِ الدَّهْمِيِّ ، وَأَمْثَالُهُمْ ؛ فَهَلْذِهِ الْعِصَابَةُ هِيَ الَّتِي تُقَابِلُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عِصَابَةَ الْبَدِيعِ الْأَوَّلَى : كُمُوسٍ ، وَأَبِي تَمَامٍ ، وَأَبِي الْمُعْتَزِّ ، وَغَيْرِهِمْ ، وَكَلَّمَا الْفَتَنِينِ اسْتَبَدَّتْ بِالشَّعْرِ وَصَرَفَتْهُ زَمَنًا ، وَأَخْدَعَتْ فِيهِ أَنْقِلَابًا تَارِيخِيًّا مُتَمَيِّزًا ، يَبْدَأُ أَنَّ الْعِصَابَةَ الْفَاضِلِيَّةَ بَلَغَتْ مِنَ الصَّنْعَةِ مَبْلَغًا لَا مَطْمَعَ فِي مِثْلِهِ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهَا ، حَتَّى كَانَتْهُمْ لَمْ يَدْعُوا كَلِمَةً فِي اللُّغَةِ يَجْرِي فِيهَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ إِلَّا جَاؤُوا بِهَا وَصَنَعُوا فِيهَا صَنَعَةً ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْخُذُ مِنْ بَعْضٍ وَيَزِيدُ عَلَيْهِ ، إِلَى آخِرِ أَلِمَّةِ الْقَائِمَةِ ، فَلَمْ يَتْرُكُوا بَابًا لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ إِلَّا بَابَ السَّرِقَةِ بِأَسَالِيبِهَا الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ .

ولهذا لَا تَكَادُ تَجِدُ شِعْرًا عَرَبِيًّا بَعْدَ الْقَرْنِ النَّاسِعِ إِلَى أَوَّلِ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ إِلَّا رَأَيْتَهُ صُورًا مَمْسُوخَةً مِمَّا قَبْلَهُ ، وَكُلُّ شِعْرَاءِ هَذِهِ الْقُرُونِ لَيْسُوا بِمَنْ وَرَاءَهُمْ إِلَّا كَالظِّلِّ مِنَ الْإِنْسَانِ : لَا وَجُودَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ مَمْسُوخٌ أَبَدًا إِلَّا فِي الثُّدْرَةِ حِينَ يَسْطَعُ فِي مِرَاةٍ صَافِيَةٍ ، وَمَتَى كَانَ الشُّعْرَاءُ لَا يَنْشَوُونَ إِلَّا عَلَى فُتُونِ الْبِلَاغَةِ وَصِنَاعَاتِهَا ، وَكَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا قَدْ فَرَعَ مِنْهَا الْمُتَقَدِّمُونَ ، فَمَا نَمَّ جَدِيدٌ فِي الْأَدَبِ وَالْفَنِّ إِلَّا وَلَادَةُ الشُّعْرَاءِ وَمَوْتُهُمْ ، وَإِلَّا تَغَيَّرَ تَوَارِيخُ السِّنِينَ . . . وَهَذَا إِذَا لَمْ نَعُدَّ مِنَ الْأَدَبِ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ الْمُسْتَحْدَثَةِ الَّتِي ابْتَدَعَهَا الْمُتَأَخَّرُونَ مِمَّا سُسِّيرَ إِلَى بَعْضِهِ ، كَالتَّارِيخِ الشَّعْرِيِّ وَغَيْرِهِ .

\* \* \*

إِنَّ الْفِكْرَ الْإِنْسَانِي لَا يُسَيِّرُ التَّارِيخَ ، وَلَا يَقْدُرُ قَدْرًا فِيهِ ، وَلَا يَنْقُلُهُ مِنْ رَسْمٍ إِلَى رَسْمٍ ، لِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ كَمَا خُلِقَ مُضْلِحًا خُلِقَ مُفْسِدًا وَكَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوجَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفْنَى ، وَكَمَا تَطَّرَدُ بِهِ سَبِيلٌ تَلْتَوِي بِهِ سَبِيلٌ أُخْرَى ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا الْفِكْرَ فِي رَوْعِهِ بِقَطَارِ الْحَدِيدِ : يَطِيرُ كَالْعَاصِفَةِ وَيَحْمِلُ كَالْجَبَلِ وَيُذْهِشُ كَالْمُعْجِزَةِ وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ لَا شَيْءَ لَوْلَا الْقَضِيَّتَانِ الْمُتَمَتَّدَانِ فِي سَبِيلِهِ ، يَخْرِفَانِهِ كَيْفَ أَنْحَرَفَا ، وَيَسِيرَانِ بِهِ أَيْنَ أَرْتَمَيَا ، وَيَقِفَانِ بِهِ حَيْثُ أَنْتَهَيَا ، ثُمَّ هُوَ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَلِبُ لِأَوْهَى اخْتِلَالٍ يَقَعُ فِيهِمَا .

لَا جَرَمَ كَانَتْ الْعُصُورُ مَرْسُومَةٌ مُعَيَّنَةٌ اللَّمَطِ ذَاهِبَةٌ إِلَى الْكَمَالِ أَوْ مُنْحَدِرَةٌ إِلَى التَّقْصِ ، حَسَبَ الْغَايَاتِ الْمَخْتُومَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا الْفِكْرُ فِي طَرِيقِ الْقَدَرِ الَّتِي يَقُودُهُ .

فَهَلْذِهِ عُلُومُ الْبِلَاغَةِ الَّتِي أَخْدَعَتْ فَنَّا طَرِيفًا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنْشَأَتْ الذُّوقَ الْأَدَبِيَّ نَشْأَتَهُ الرَّابِعَةَ فِي تَارِيخِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، بَعْدَ الذُّوقِ الْجَاهِلِيِّ وَالْمُحَدَّثِ وَالْمَوْلُودِ - هِيَ بَعَيْنُهَا الَّتِي أَضْعَفَتْ الْأَدَبَ وَأَفْسَدَتِ الذُّوقَ وَأَصَارَتْهُ إِلَى رَأْيَانَا فِي شِعْرِ الْمُتَأَخَّرِينَ ، كَأَنَّمَا أَنْقَلَبَتْ عَلَيْهِمْ عُلُومًا مِنَ الْجَهْلِ ، حَتَّى صَارَ اللَّمَطُ الْعَالِي مِنَ الشَّعْرِ كَأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، إِذْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ ، وَلَا حَفَلَ بِهِ ؛ لِمُبَايَنَّتِهِ لِمَا أَلْفُوا وَخَلُوهُ مِنَ الثُّكْنَةِ وَالصَّنَاعَةِ ، وَحَتَّى كَانَ فِي أَهْلِ الْأَدَبِ وَمُدْرِسِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ دِيْوَانَ الْمُتَنَبِّي .

وَلَا يَصِفُ لَكَ مَعْنَى الشَّعْرِ فِي رَأْيِ أَدْبَاءِ ذَلِكَ الْعَهْدِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ نَاصِيفِ الْيَازْجِي الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٨٧١ :

مَلَلْتُ مِنَ الْقَرْنِضِ وَقُلْتُ يَكْفِينِي      لِأَمْرِ شَابٍ قُوتُهُ بِضَعْفِ  
أَحَاوِلُ نُكْتَةٍ فِي كُلِّ بَيْتٍ      وَذَلِكَ قَدْ تَقَصَّرَ عَنْهُ كَفِّي  
أَجَلُ الشَّعْرِ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْهُ      غَرَابَةُ نُكْتَةٍ أَوْ نَوْعُ لُطْفِ

يُرِيدُ الثُّكْنَةُ الْبِلَاغِيَّةَ وَأَنْوَاعَ الْبَدِيعِ ، وَذَلِكَ مَا قَصَّرَتْ عَنْهُ كَفُّهُ وَكَفَّ غَيْرُهُ ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ ، حَتَّى لَا يَأْتِيَ الْمُتَأَخَّرُ بِمِثَالٍ فِيهِ إِلَّا وَجَدَتْهُ بِعَيْنِهِ لِمَنْ تَقَدَّمُوهُ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَمَا يَأْتِي اخْتِلَافُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْحَذَقِ فِي إِخْفَاءِ السَّرِقَةِ بِالزِّيَادَةِ وَالتَّقْصِ ، وَالْإِلْبَامِ وَالْمُلَاحَظَةِ وَالتَّعْرِيزِ وَالتَّضَرُّعِ ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يَعْرِفُهُ أَلِمَّةُ الصَّنَاعَةِ ،

وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ بِأَقْوَى أَسْبَابِهِ إِلَّا مَنْ رَزَقَ الْقُوَّةَ عَلَى التَّوَلُّدِ وَالْإِخْتِرَاعِ .

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ السَّرَّ فِي سَقُوطِ الشَّعْرِ وَأَضْطِرَابِهِ وَسَفْسَفَتِهِ ، لَمْ تَرِ غَرِيبًا مَا هُوَ غَرِيبٌ فِي نَفْسِهِ ، مِنْ أَنَّ بَدْءَ انْتِهَاضِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثَةِ لَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ الَّذِي يَصْحَحُ الرَّأْيَ ، وَلَا الْأَطْلَاعُ الَّذِي يُؤْنِسُ الْفِكْرَ ، وَلَا الْحَضَارَةُ الَّتِي تُهْدِثُ الشُّعُورَ ، وَلَا نِظَامُ الْحُكْمِ الَّذِي يُخْدِثُ الْأَخْلَاقَ ، وَإِنَّمَا كَانَ ضَرْبًا مِنَ الْجَهْلِ وَقَفَ حَدًّا مَنِيعًا بَيْنَ زَمَنِ قُنُونِ الْبَلَاغَةِ وَبَيْنَ زَمَانِنَا ، وَكَانَ كَالسَّاحِلِ لِذَلِكَ الْمَوْجِ الْمُتَدَفِّعِ الَّذِي يَتَضَرَّبُ عَلَى مَدِّ ثَمَانِ مِثَّةٍ سَنَةٍ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ إِلَى الرَّابِعِ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ ، وَلِلَّهِ أَسْرَارُ عَجِيبَةٍ فِي تَقْلِيلِ الْأُمُورِ وَخَلْقِ الْأَحْدَاثِ وَدَفْعِ الْحَيَاةِ الْفِكْرِيَّةِ مِنْ نَمَطٍ إِلَى نَمَطٍ ، وَإِخْرَاجِ الْعَقْلِ الْمُتَبَدِّعِ مِنْ هَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ ، وَجَعَلِ بَعْضَ النُّفُوسِ كَالْيَتَابِيعِ لِلتَّيَّارِ الْإِنْسَانِيِّ فِي عَصْرِ وَاحِدٍ أَوْ عُصُورٍ مُتَعَاكِثَةٍ ، وَإِقَامَةِ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ حُدُودًا عَلَى الْأَزْمِنَةِ وَالتَّوَارِيخِ ، فَكَانَ الَّذِي أَخْدَتِ الْإِنْقِلَابَ الرَّابِعَ فِي تَارِيخِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنْشَأَ الذَّوْقَ نَشْأَتَهُ الْخَامِسَةَ هُوَ الشَّاعِرُ الْفَخْلُ مَحْمُودُ بَاشَا الْبَارُودِي ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا لَبَنَةً مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ قُنُونِ الْبَلَاغَةِ ؛ وَإِنَّمَا سَمَّيْتُ بِهِ الْهِمَّةَ لِأَنَّهُ حَادِثَةٌ مُرْسَلَةٌ لِلْقَلْبِ وَالتَّعْيِيرِ ، فَأَتْبَعَهُ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الْعُلُومِ ، وَأَخْرَجَهُ لَنَا مِنْ دَوَاوِينِ الْعَرَبِ ، كَمَا نَشَأُ مِثْلَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَالْجَاحِظِ مِنْ فَصَحَاءِ الْأَعْرَابِ ؛ وَيَسَّرَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ مِمَّا لَا مَحَلَّ لِبَسْطِهِ هُنَا ، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ شِعْرَ أَدِيبٍ مُتَأَخِّرٍ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ أَنْ يُذَكَّرَ فِي شِعْرِ كُلِّ عَصْرِ مِنْ لَدُنْ زَمَانِنَا إِلَى صَدْرِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ لَا تَنْحَطُّ مَرْبُتُهُ - غَيْرَ كَلَامِ الْبَارُودِيِّ هَذَا ؛ وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُقَابِلُ الْقَاضِي الْفَاضِلَ فِي أَدْوَارِ التَّارِيخِ الْأَدَبِيِّ ، عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَهُمَا ؛ لِأَنَّ شِعْرَهُ هُوَ الَّذِي نَسَخَ آيَةَ الصَّنَاعَةِ ، وَدَارَ فِي أَلْسِنَةِ الزُّوَاهِ ، وَكَانَ الْمَثَلُ الْمُخْتَدِي فِي الْقُوَّةِ وَالْجَزَالَةِ وَدِقَّةِ التَّصَوُّيرِ وَتَضَحُّجِ اللَّغَةِ ؛ وَلَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَسْبِقَهُ إِلَى ذَلِكَ أَحَدٌ ؛ لِأَنَّ انْتِهَاضَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي هَذَا الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ كَانَتْ فِي عِلْمِ اللَّهِ مَرْهُونَةً بِأَوْقَانِهَا وَأَسْبَابِهَا ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَسَبَقَهُ شَاعِرُ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ الْأَمِيرُ مُنْجَلِكُ الْمُتَوَفَّى سَنَةِ ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) ؛ فَقَدْ اتَّفَقَتْ لِهَذَا الْأَمِيرِ نَشْأَةُ كَنْشَاءِ الْبَارُودِيِّ ، فَكَانَ كَثِيرَ الْحِفْظِ مِنْ دَوَاوِينِ الْعُصُورِ الْأُولَى ، وَكَانَ يُقَلِّدُ أَبَا فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيَّ وَيَحْتَذِي عَلَى مِثَالِهِ ، وَلَكِنْ عَصَرَهُ كَانَ فِي الْعُصُورِ الْهَالِكَةِ ، فَخَرَجَ الشَّاعِرُ ضَعِيفًا كَمَا يَخْرُجُ كُلُّ

شَيْءٍ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ وَلِغَيْرِ تَمَامِهِ وَبِغَيْرِ وَسَائِلِهِ الطَّبِيعِيَّةِ .

وَنَشَأَتِ الْعِصَابَةُ الْبَارُودِيَّةُ وَفِيهَا إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي وَشَوْقِي وَحَافِظُ وَمُطْرَانُ وَغَيْرُهُمْ ، وَأَذْرَكُوا مَا لَمْ يَذْرِكُهُ الْبَارُودِي وَجَاؤُوا بِمَا لَمْ يَجِئْ بِهِ ، وَأَتَّصَلَ الشَّعْرُ بِعُضْوِهِ بَعْضُ ، وَسَارَتْ بِهِ الصُّحُفُ ، وَتَنَاقَلَتِ الْأَقْوَامُ ، وَأُنْسِيَ ذِكْرُ الْبَلَاغَةِ وَقُنُونُهَا بِالنَّشْأَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْ تَرْكِ الْبَلَاغَةِ بَلَاغَةً ، لِأَنَّهَا صَادَقَتْ أَوَائِلَ الْإِنْقِلَابِ لَيْسَ غَيْرُ ، وَبِذَلِكَ بَطَلَ فِي مِصْرَ عَصْرِ أَبِي النَّصْرِ وَاللَّبَنِيِّ وَالسَّاعَاتِيِّ وَاللَّدِينِ وَطَبَقَتِهِمْ ، وَفِي الشَّامِ عَصْرُ الْيَازِجِيِّ وَالْكَسْنِيِّ وَالْأَنْسِيِّ وَالْأَخْذَبِ وَأَصْرَابِهِمْ ، وَفِي الْعِرَاقِ عَهْدُ الْفَارُوقِيِّ وَالْمَوْصِلِيِّ وَالْبَرَّازِ وَالْتَمِينِيِّ وَسِوَاهُمْ ، وَاسْتَقَلَّ الشَّعْرُ عَرَبِيًّا عَصْرِيًّا وَخَرَجَ كَمَا يَخْرُجُ الْفِكْرُ الْمُخْتَرَعُ مَاصِيًا فِي سَبِيلِ غَيْرِ مَحْدُودٍ .

\* \* \*

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الطُّرُقَ الَّتِي تَتَّبَعُ فِي تَرْبِيَةِ الْأُمَّةِ وَتَكْوِينِ رُوحِهَا الْعَالَمِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَثَرٌ بَيِّنٌ فِي شِعْرِ شُعْرَائِهَا ، فَإِنَّمَا الشَّعْرُ فِكْرٌ يَنْبُضُ وَعَاطِفَةٌ تَخْتَلِجُ ، وَمَا أَرَى الشَّاعِرَ الْحَقَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا كَالزُّهْرَةِ الصَّغِيرَةِ فِي شَجَرَتِهَا : إِنْ لَمْ تَكُنْ خُلَاصَةً مَا فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ ، فَهِيَ خُلَاصَةٌ مَا فِي الشَّجَرَةِ مِنْ مَعْنَى الْجَمَالِ وَلَوْنِهِ وَمَلَمَسِهِ ، وَلَا تَعْدُمُ مَعَ هَذِهِ الصِّفَةِ أَنْ تَكُونَ وَحْدَهَا الْكَوْكَبُ السَّاطِعُ فِي هَذَا الْأَقْفِ الْأَخْضَرِ كُلِّهِ . وَلَقَدْ أَطْرَدَتْ انْتِهَاضُهُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً أَوْ حَوْلَهَا ، فِي الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ ، وَفِي الْفِكْرِ وَالْفَنِّ وَالصَّنَاعَةِ ، وَاسْتَوَى لَنَا مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي عَصْرِ مِنْ عُصُورِهَا ، حَتَّى بَلَّغْنَا مِنْ ذَلِكَ أَنْ صِرْنَا كَأَنَّمَا فَتَحْنَا أَرْضًا مِنْ أَوْرَتِهِ وَتَغَلَّبْنَا عَلَيْهَا ، أَوْ أَنْشَأْنَا أَوْرَتَهُ عَرَبِيَّةً وَمَا تَرَاوَعْنَا نَعْمُهَا وَنَقْلُهَا إِلَيْهَا الْعُلُومَ وَالْفُنُونِ وَالْآدَابِ ، وَنَسْتَخْرِجُ لَهَا الْأَمْثِلَةَ وَالْأَسَالِيبَ ؛ غَيْرَ أَنَّ الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يُوَفِّ قِسْمَهُ وَلَمْ يَتَّبِعْ مَبْلَغُهُ فِي مُجَارَاةِ هَذِهِ انْتِهَاضَةِ قُوَّةِ ابْتِكَارِ وَسَلَامَةِ اخْتِرَاعِ وَحُسْنِ تَنْوِيعِ ، لِسَبَبَيْنِ : الْأَوَّلُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ كَمَا كَانَ مُنْذُ فَسَدَتْ أَلُغَةُ الْعَرَبِيَّةِ : شِعْرُ فِتْنَةٍ لَا شِعْرُ أُمَّةٍ ، فَهُوَ يُوضَعُ لِلْخَاصَّةِ لَا لِلشَّعْبِ ، وَيَدُورُ مَعَ الْأَعْرَاضِ وَالْحَاجَاتِ لَا مَعَ الطَّبَائِعِ وَالْأَذْوَاقِ ، وَذَلِكَ لَوْ تَأَمَّلْتَ هُوَ مِنْ بَعْضِ الْأَسْرَارِ فِي سُمُومِ هَذَا الشَّعْرِ وَقُوَّةِ إِحْكَامِهِ وَإِنْدَاعِ تَنْسِيقِهِ وَجَمَالِ تَوْشِيحِهِ ، مُنْذُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ إِلَى الْقَرْنِ الْخَامِسِ ، ثُمَّ

أَنْحِطَاطِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَدَلِّيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى بَلَغَ الذَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ الْعُصُورِ الْمَتَأَخَّرَةِ ، إِذْ كَانَتْ الْفَنَةُ الَّتِي يُوضَعُ لَهَا وَيَصِفُ أَهْوَاءَهَا وَأَعْرَاضُهَا وَتَقَبَّلُهُ وَتَتَّيِبُ عَلَيْهِ وَتُحَسِّنُ وَزَنَهُ وَنَقَدَهُ ، هِيَ فِي التَّاجِحِينَ كَمَا تَرَى مِنْ طَرَفِي الْمِنْتَظَرِ الَّذِي يُقَرِّبُ الْبَعِيدَ ، فَهِيَ بِالْظَّهْرِ فِي أَوَّلِهِ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ مُتَرَامِيَةٌ إِلَى الْجِهَاتِ ، وَبِالْظَّهْرِ فِي آخِرِهِ ضَبِيلَةٌ مَمْسُوخَةٌ لَا تَكَادُ تُعْرَفُ . وَمَا أَقْصَى الْعَجَبِ مِنْ غَفْلَةٍ بَعْضِ الْكُتَّابِ فِي هَذَا الزَّمَنِ إِذْ يَنَاهِضُونَ الْعَرَبِيَّةَ وَيَزِرُونَ عَلَى الْفَصَاحَةِ وَيَعْمَلُونَ عَلَى أَنْكَمَاشِ سَوَادِهَا وَتَقْلِيلِ أَهْلِهَا ، وَمَا يَذَرُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُسْقِطُونَ الشَّعْرَ قَبْلَ الْكِتَابَةِ عَلَى خَطَرٍ أَوْ عَمْدٍ وَقَلَمًا تَجِدُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ يُحَسِّنُ مُعَالَجَةَ الشَّعْرِ ، فَإِنْ أَصَبَتْ لَهُ شِعْرًا وَجَدَتْهُ لَا غَنَاءَ فِيهِ أَوْ فِي أَكْثَرِهِ ، وَأَيْنَ وَضَعْتَ يَدَكَ مِنْهُ لَمْ تَخْطِ أَنْ تَقَعَ عَلَى مِثْلِ مِمَّا يُمَثِّلُ بِهِ لَعِبٍ مِنْ عُيُوبِ الْبَلَاغَةِ .

وَهَذِهِ التَّهْضَةُ الَّتِي نَحْنُ فِي صَدَدِ الْكَلَامِ عَنْهَا أَوْسَعُ مَدَى وَأَوْفَرُ أَسْبَابًا مِنْ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ فِي الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، بِمَا دَخَلَهَا مِنْ أَدَبٍ كُلِّ أُمَّةٍ ، وَمَا اتَّصَلَ بِهَا مِنْ أَسَالِيبِ الْفِكْرِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ رِجَالُ الْفَصَاحَةِ الْمُتَمَكِّنُونَ مِنْهَا ، الْمُتَعَصِّبُونَ لَهَا ، الْعَامِلُونَ عَلَى بَثِّهَا فِي الْأَلْسِنَةِ ، مَعَ أَنَّ عَصَرَهُمْ أَوْسَعُ مِنْ عَصْرِ الرُّوَاةِ ، بِكَثْرَةِ مَا أَخْرَجَتْ الْمَطَابِعُ مِنْ أَهْمَاتِ الْكُتُبِ وَالْدَّوَاوِينِ ، حَتَّى أَغْنَتْ كُلَّ مَطْبَعَةٍ أَدَبِيَّةٍ عَنْ رَاوِيَةٍ مِنْ أَيْمَةِ الرُّوَاةِ .

وَالسَّبَبُ الثَّانِي الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ لَا يَزَالُ الشَّعْرُ مُتَخَلِّفًا عَنْ مَنَازِلِهِ الْوَاجِبَةِ لَهُ - سُقُوطُ فَنِّ التَّقْدِيرِ الْأَدَبِيِّ فِي هَذِهِ التَّهْضَةِ ، فَإِنْ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الَّتِي سَمَتَ بِالشَّعْرِ فِيهَا بَعْدَ الْقَرْنِ الثَّانِي وَجَعَلَتْ أَهْلَهُ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهِ وَتَهْذِينِهِ ، كَثْرَةُ التَّقَادِ وَالْحُفَاطِ ، وَتَتَبُّعُهُمْ عَلَى الشُّعْرَاءِ ، وَاعْتِبَارُ أَقْوَالِهِمْ ، وَتَذَوُّنُ الْكُتُبِ فِي تَقْدِيمِهِمْ ، كَالَّذِي كَانَ فِي دُرُوسِ الْعُلَمَاءِ وَحَلَقَاتِ الرُّوَاةِ وَمَجَالِسِ الْأَدَبِ ، وَكَالَّذِي صَنَّفَهُ مَهْلُهُلُ بْنُ يَمُوتَ فِي نَقْدِ أَبِي نُوَاسٍ وَأَحْمَدُ بْنُ طَاهِرٍ ، وَابْنُ عَمَّارٍ فِي أَبِي تَمَّامٍ ، وَبِشْرِ بْنُ تَمِيمٍ فِي الْبُخْتَرِيِّ ، وَالْأَمِيدِيُّ فِي « الْمُوَارَنَةِ » ، وَالْحَاتِمِيُّ فِي رِسَالَتِهِ ، وَالْمُزْجَانِيُّ فِي « الْوَسَاطَةِ » ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْكُتُبِ وَالرِّسَالِ ؛ وَأَنْتَ مِنَ التَّقْدِيرِ فِي هَذِهِ التَّهْضَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ : صَدِيقٌ هُوَ الصَّدِيقُ ، أَوْ عَدُوٌّ هُوَ الْعَدُوُّ . . . فَإِنْ أَبْغَيْتَ لَهُمَا نَائِلًا فَكَاتِبٌ لَا تَتَعَادَلُ وَسَائِلُ التَّقْدِيرِ فِيهِ فَلَا خَيْرَ فِي كَلَامِهِ ؛ أَمَّا التَّقَادُّ الَّذِي اسْتَعْرَضَ عِلْمَ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَابَهَا ، وَكَانَ شَاعِرًا كَاتِبًا ، قَوِيٌّ

الْعَارِضَةِ ، دَقِيقُ الْحِسِّ ، نَاقِبُ الذَّهْنِ ، مُسْتَوِي الرَّأْيِ ، بَصِيرٌ بِمَذَاهِبِ الْأَدَبِ ، مُتَمَكِّنٌ مِنْ فَلَاسِفَةِ التَّقْدِيرِ ، مُبَرِّزٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ - فَهَذَا الْخَيَالُ يُذَكِّرُنِي كَلِمَةً قُلْتُهَا يَوْمًا لِلْبَارُودِيِّ ، إِذْ قُلْتُ لَهُ : إِنْ الشَّاعِرُ لَا يَكُونُ لِسَانُ زَمَنِهِ حَتَّى يُوجَدَ مَعَهُ التَّقَادُّ الَّذِي هُوَ عَقْلُ زَمَنِهِ ؛ فَقَالَ : وَمَنْ نَاقِدُ الشَّعْرِ فِي رَأْيِكَ ؟ قُلْتُ : الْكَاتِبُ وَهُوَ شَاعِرٌ ، وَالْأَدِيبُ وَهُوَ فَيْلَسُوفٌ ، وَالْمُصْلِحُ وَهُوَ مُوَفَّقٌ ، فَكَأَنَّمَا هَوَّلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : « فَيَنْ دَا كُلُّهُ ؟ » قُلْتُ : فَلَعَلَّهُ لَا يُنْشِئُ لَنَا هَذَا الْعَقْلَ الْمُتَنَبِّهَ إِلَّا الْعَصْرُ الَّذِي يُوجِدُ لَنَا أُسْطُورًا كَأُسْطُورِ إِنْكِلْبَةِ .

\* \* \*

وَعَلَى مَا نَزَلَ بِالشَّعْرِ الْعَصْرِيِّ مِنْ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ فَقَدْ اسْتَقَلَّتْ طَرِيقَتُهُ وَظَهَرَ فِيهَا أَثَرُ التَّحَوُّلِ الْعِلْمِيِّ وَالانْتِقَالِ الْفِكْرِيِّ ، وَعَدَلَ بِهِ أَهْلُهُ إِلَى صُورِ الْخَيَالَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي أَكْثَرِهِ صُورًا مِنَ اللَّغَةِ ، وَأَضَافُوا بِهِ مَادَّةَ حَسَنَةٍ إِلَى مَجْمُوعَةِ الْأَفْكَارِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَنَوَعُوا مِنْهُ أَنْوَاعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، وَاتَّسَعَتْ فِيهِ دَائِرَةُ الْخَيَالِ بِمَا نَقَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُنْتَزَعَةِ مِنْ لُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ التَّاجِحَةِ أَوْسَعُ مِنْ شِعْرِ كُلِّ عَصَرٍ فِي تَارِيخِ هَذِهِ اللَّغَةِ ؛ إِذْ كَانَ الْأَوَّلُونَ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنَ الْيُونَانِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ ، ثُمَّ أَخَذَ الْمُتَأَخِّرُونَ قَلِيلًا مِنَ التُّرْكِيَّةِ ؛ أَمَّا فِي الْعَهْدِ الْأَخِيرِ فَيَكَادُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي كُلُّهُ يَكُونُ مَادَّةَ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ ، لَوْلَا ضَعْفُ أَكْثَرِ الْمُحَدِّثِينَ مِنَ الشَّيْءِ الْجَدِيدِ فِي الْبَيَانِ وَأَسَالِينِهِ وَبُعْدُهُمْ مِنْ ذَوْقِ اللَّغَةِ وَاعْتِيَاصِ مَرَامِهَا عَلَيْهِمْ ، حَتَّى حَسِبُوا أَنَّ الشَّعْرَ مَعْنَى وَفِكْرٌ ، وَأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ أَدَّى الْمَعْنَى فَهُوَ كَلَامٌ ، وَلَا عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّغَةِ وَصِنَاعَتِهَا ، وَالْبَيَانِ وَحَقِيقَتِهِ ؛ وَحَتَّى صَرَنَا وَاللَّهِ مِنْ بَعْضِ الْعَثَائَةِ وَالرَّكَامَةِ وَالْإِخْلَالِ فِي شَرِّ مَنْ تَوَعَّرَ نَظْمَ الْجَاهِلِيَّةِ وَجَفَاءَ أَلْفَاظِهِ وَكَرَارَةَ مَعَانِيهِ ؛ وَهَلْ نَمَّ فَرَقٌ بَيْنَ أَنْ تَنْفَرِ النَّفْسُ مِنَ الشَّعْرِ لِأَنَّهُ وَغَرُّ الْأَلْفَاظِ عَسِيرُ الْإِسْتِخْرَاجِ شَدِيدُ التَّعَسُّفِ ، وَبَيْنَ أَنْ تَجْمَعَ لِأَنَّهُ سَاقِطُ الْلفظِ مُسَوَّلُ الْمَعْنَى مُضْطَرِبُ السِّيَاقِ ؟ ثُمَّ تَرَاهُمْ يُجْزَوْنَ الشَّعْرَ كُلَّهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَغْرَاضِهِ نَمَطًا وَاحِدًا مِنْ تَسْهِيلِ الْلفظِ وَتَرْوُلِهِ ، حَتَّى كَانَ هَذِهِ اللَّغَةُ لَا تَتَوَعَّرُ فِي أَلْفَاظِهَا وَأَجْرَاسِ أَلْفَاظِهَا ، مَعَ أَنَّ هَذَا التَّنَوُّعَ مِنْ أَحْسَنِ مَحَاسِنِهَا وَأَخْصَصَ خَصَاصِصَهَا دُونَ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ تَنَوُّعٍ هُوَ مِنْ أَبْدَعِ أَسْبَابِ الْجَمَالِ

وَالْقُوَّةَ فِي كُلِّ فَنٍّ ؛ وَلَا يَذَرِي أَصْحَابُنَا أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ عَبَثٌ فِي عَبَثٍ إِذَا هُمْ لَمْ يُغْطُوا الشَّعْرَ حَقَّهُ مِنْ صِنَاعَةِ اللُّغَةِ ؛ وَهَذَا شَاعِرُ الْفُرْسِ الشَّهِيرُ « مُصْلِحُ الدِّينِ السَّعْدِيُّ الشَّيْرَازِيُّ » إِمَامٌ مِنْ أَيْقَةِ الْبَلَاغَةِ فِي قَوْمِهِ ، لَا يَذْفَعُ مَكَانَهُ وَشِعْرَهُ مِثْلَ مَنْ أَسْمَى الْأَمْثِلَةَ فِي جَمَالِ الْمَنْطِقِ الرُّوحِيِّ ، وَلَيْسَ فِي النَّاسِ إِلَّا مَنْ يُسَلِّمُ لَهُ هَذَا الْمَحَلَّ مِنَ التُّبُوغِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حِينَ نَظَّمَ الشَّعْرَ لَمْ تَنْفَعَهُ نَافِعَةٌ مِنْ حِكْمَةٍ أَوْ خَيَالٍ أَوْ فِكْرٍ ، وَذَهَبَ فِي التَّعَسُّفِ كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَحَمَلَ عَلَى كَلَامِهِ مِنَ الْعُيُوبِ مَا لَمْ يَسَلِّمْ مَعَهُ إِلَّا صِحَّةَ الْوُزْنِ ، كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ نَكْبَةٍ بَعْدَادَ وَتَخْرِيبِهَا [ من الطويل ] :

فَقَدْ نَكَلْتُ أُمَّ الْقُرَى وَلَكَعْبَةٍ      مَدَامُ فِي الْمِيزَابِ تَسْكُبُ فِي الْحَجْرِ  
عَلَى جُدْرِ الْمُسْتَنْصِرَةِ نُدْبَةً      عَلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ ذَوِي الْحَجْرِ  
نَوَائِبُ دَهْرِ لَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَهَا      وَلَمْ أَرْ عُذْوَانَ السَّفِينَةِ عَلَى الْحَجْرِ  
مَحَابِرُ تَبْكِي بَعْدَهُمْ بِسَوَادِهَا      وَبَعْضُ قُلُوبِ النَّاسِ تَأْلَفُ بِالْعَذْرِ  
لَحَى اللَّهُ مَنْ تُسَيِّدِي إِلَيْهِ بِنِعْمَةٍ      وَعِنْدَ هُجُومِ الْيَأْسِ أَحْلَكَ مِنْ حَبْرِ  
فَانْظُرْ أَيَّ شِعْرِ هَذَا فِي الرِّكَائِكَ وَالْهَذْيَانِ وَالشُّخْفِ ، وَفِي خُمُودِ الْفِكْرِ وَضَعْفِ  
الرُّوحِ وَذَهَابِ الرُّوْتِ ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ هَوَى بِهِ السَّعْدِيُّ مِنْ مَكَانَتِهِ الَّتِي بَوَّاهُ إِيَّاهَا أَدَبُهُ  
الْعَالِي ، وَكَيْفَ سَقَطَ إِلَى حَيْثُ تَرَى ، مَعَ أَنَّهُ فِي مِخْرَابِ الْفِكْرِ إِمَامٌ وَرَاءَهُ صُفُوفٌ مِنْ  
عُصُورِ الْبَلَاغَةِ .

وَمِنْ هَلُمَّا نَشَأَ فِي أَيَّامِنَا مَا يُسَمُّونَهُ « الشَّعْرُ الْمَثْنُورُ » ، وَهِيَ تَسْمِيَةٌ تَذُلُّ عَلَى جَهْلِ  
وَاضِعِهَا وَمَنْ يَرْضَاهَا لِنَفْسِهِ ، فَلَيْسَ يَضِيقُ الشَّرُّ بِالْمَعَانِي الشَّعْرِيَّةِ ، وَلَا هُوَ قَدْ خَلَا مِنْهَا  
فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ ، وَلَكِنَّ سِرَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَنَّ الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ صِنَاعَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ دَقِيقَةٌ يَظْهَرُ  
فِيهَا الْأَخْيَالُ لِأَوْهَى عِلَّةٍ وَلَا يَسِرُ سَبَبٌ ، وَلَا يُوقَفُ إِلَى سَبَبِ الْمَعَانِي فِيهَا إِلَّا مَنْ أَمَدَّهُ اللَّهُ  
بِأَصَحِّ طَبِيعٍ وَأَسْلَمَ ذَوْقٍ وَأَفْصَحَ بَيَانٍ ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ شَيْئًا مِنْ سُخْفِ اللَّفْظِ أَوْ  
فَسَادِ الْعِبَارَةِ أَوْ ضَعْفِ التَّأْلِيفِ ، وَلَا تَسْتَوِي فِيهِ أَسْمَى الْمَعَانِي مَعَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْجِلَالِ  
وَأَشْبَاهِهَا ، وَتَرَاهُ يُلْفِي بِمِثْلِ (السَّعْدِيِّ) مِنَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى إِلَى الْحَضِيضِ ، لَا يُعِينُهُ لَهُ وَزْنًا  
وَلَا يَزَعِي لَهُ مَحَلًّا وَلَا يَقْبَلُ فِيهِ عُذْرًا وَلَا رُخْصَةً ، غَيْرَ أَنَّ الشَّرَّ يَحْتَمِلُ كُلَّ أَسْلُوبٍ ، وَمَا

مِنْ صُورَةٍ فِيهِ إِلَّا وَدُونَهَا صُورَةٌ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَامِّي السَّاقِطِ وَالشُّوقِي الْبَارِدِ ، وَمَنْ  
شَأْنُهُ أَنْ يَنْسِطَ وَيَنْقَبِضَ عَلَى مَا شِئَتْ مِنْهُ ، وَمَا يَتَّفِقُ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ الشَّعْرِيِّ فَإِنَّمَا هُوَ  
الَّذِي كَانَ يَتَّفِقُ فِي صَوْتِ الْمُطْرِبِ حِينَ يَتَكَلَّمُ لَا حِينَ يُعَنِّي ، فَمَنْ قَالَ : « الشَّعْرُ  
الْمَثْنُورُ » فَأَعْلَمَ أَنَّ مَعْنَاهُ عَجَزَ الْكَاتِبِ عَنِ الشَّعْرِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَأَدْعَاؤُهُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

\* \* \*

وَالَّذِي أَرَاهُ جَدِيدًا فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِمَّا أَبْدَعْتُهُ هَذِهِ الْهَضَةُ أَشْيَاءُ :

أَوَّلًا : هَذَا النُّوعُ الْقَصَصِيُّ الَّذِي تُوضَعُ فِيهِ الْقَصَائِدُ الطُّوَالُ ، فَإِنَّ الْأَدَابَ الْعَرَبِيَّةَ  
خَالِيَةً مِنْهُ ، وَكَانَ الْعَرَبُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِذَا ذَكَرُوا الْقِصَّةَ أَلْمُوا بِهَا أَفْضَابًا وَجَاوُزًا بِهَا فِي  
جُمْلَةِ السِّيَاقِ عَلَى أَنَّهَا مِثْلُ مَضْرُوبٍ أَوْ حِكْمَةٍ مُرْسَلَةٍ أَوْ بُرْهَانٍ قَائِمٍ أَوْ اخْتِجَاجٍ أَوْ تَعْلِيلٍ  
وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِمَّا لَا تَرُدُّ فِيهِ الْقِصَّةُ لِدَاتِهَا وَلَا لِتَفْصِيلِ حَوَادِثِهَا ؛ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي  
شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالْحَيْدُ مِنْهُ قَلِيلٌ حَتَّى فِي شِعْرِ الْفُحُولِ ، فَإِنَّ طَبِيعَةَ الشَّعْرِ  
الْعَرَبِيِّ تَأْبَاهُ ، وَالَّذِينَ جَاوَزُوا بِهِ مِنَ الْعَبْرِيِّينَ لَا يُجِدُّونَ مِنْهُ إِلَّا قَطْعًا تُعْرَضُ فِي الْقِصَصِ  
وَأَيَّانًا تَتَّفِقُ فِي بَعْضِ مَعَانِيهَا وَأَعْرَاضِهَا مِمَّا يَجْرِي عَلَى أَصْلِهِ فِي سَائِرِ الشَّعْرِ طَالَ أَوْ  
قَصُرَ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقِصَّةَ إِنَّمَا يَتِمُّ تَمَامُهَا بِالنَّسْطِ فِي سَرْدِهَا وَسِيَاقَةِ حَوَادِثِهَا  
وَتَسْمِيَةِ أَشْخَاصِهَا وَذِكْرِ أَوْصَافِهِمْ وَحِكَايَةِ أَفْعَالِهِمْ وَمَا يَدْخُلُ ذَلِكَ أَوْ يَتَّصِلُ بِهِ ، وَإِنَّمَا بُيِيَ  
الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ فِي أَوْزَانِهِ وَقَوَائِمِهِ عَلَى التَّأْيِيدِ لَا عَلَى السَّرْدِ ، وَعَلَى الشُّعُورِ لَا عَلَى  
الْحِكَايَةِ ، وَلَا يُرِيدُونَ مِنْهُ حَدِيثَ اللِّسَانِ وَلَكِنْ حَدِيثَ النَّفْسِ ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَهُمْ  
صِنَاعَةٌ رُوحِيَّةٌ يَصْنَعُونَ بِهَا مَقَادِيرَ مِنَ الطَّرَبِ وَالْأَهْتِزَازِ وَالْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالنَّصَبِ وَالْحَمِيَّةِ  
وَالْفَخْرِ وَالْإِسْطِيَالَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْأَنْفِعَالِ وَالْتَّرَعَةِ ، فَلَا  
جَرَمَ كَانَ سَبِيلُهُمْ إِلَى ذَلِكَ هُوَ التَّخْدِيدُ لَا الْإِطْلَاقُ ، وَضَبَطَ الْمَقَادِيرَ لَا الْإِسْرَافَ ، إِذْ كَانَ  
مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي طَبِيعَةِ النَّفْسِ أَنَّ مَا زَادَ مِنْهَا عَنْ مِقْدَارِهِ تَحَوَّلَ وَانْقَلَبَ فِي  
تَأْيِيدِهَا ، وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ أَيْضًا فِي أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ مَا لَمْ يَكُنْ قَائِمًا عَلَى اخْتِيَارِ اللَّفْظِ  
وَصِنَاعَةِ الْعِبَارَةِ وَتَضْفِيفِهَا وَتَهْذِيبِهَا وَاخْتِيَارِ الْوُزْنِ لِلْمَعْنَى وَإِرَادَةِ الْفِكْرِ عَلَى مَا يَلْفِظُ النَّفْسُ  
مِنْ ضُرُوبِ الْمَجَازِ وَالْإِسْتِعَارَةِ وَنَحْوِهَا - سَقَطَ وَرَكَ بِمِقْدَارِ مَا يَنْقُصُهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ

الشَّانُ فِي إِطَالَةِ الْقَصِيدِ ، فَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ نَظَّمَ رَوْيًا وَاحِدًا فِي أَرْبَعَةِ آلافِ بَيْتٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَظَّمَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ كُلِّهِ ، وَلَكِنَّ عَيْبَ مِثْلِ هَذَا فِي الشُّعْرِ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ شِعْرٌ . . . وَمَا أَخْمَلَ ابْنَ الرُّومِيِّ عَلَى جَلَالَةِ مَحَلِّهِ إِلَّا طُولُ قَصَائِدِهِ وَسِبَاقَةُ الْكَلَامِ فِيهَا مَعَ ذَلِكَ عَلَى مَا يُشْبِهُ أُسْلُوبَ الْحِكَايَةِ وَخُرُوجُهَا مَخْرَجَ الْمَقَالَةِ يَتَحَدَّثُ بِهَا ، فَلَمْ تَخِ لَهُ إِلَّا مُقْطَعَاتٍ وَأَبْيَاتٍ وَمَاتَ سَائِرُ شِعْرِهِ وَهُوَ حَيٌّ وَمَيَّتَ عَلَى السَّوَاءِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ صَاحِبُ « الْوَسَاطَةِ » : « وَنَحْنُ نَسْتَفْرِئُ الْقَصِيدَةَ مِنْ شِعْرِهِ وَهِيَ تُنَاهِزُ الْمِثْلَةَ أَوْ تُرِيي أَوْ تَضَعُفُ ، فَلَا نَعْتَرُ فِيهَا إِلَّا بِالْبَيْتِ الَّذِي يَرُوقُ أَوْ الْبَيْتَيْنِ ، ثُمَّ قَدْ تَسْلَخُ قَصَائِدُ مِنْهُ وَهِيَ وَاقِفَةٌ تَحْتَ ظِلِّهَا ، جَارِيَةٌ تَحْتَ رِسْلِهَا ، لَا يَخْصُلُ مِنْهَا السَّمْعُ إِلَّا عَلَى عَدَدِ الْقَوَافِي . . . »

وَالْعَجِيبُ أَنَّ بَعْضَ الْكُتَّابِ فِي عَصْرِنَا مِمَّنْ لَا تَحْفِيقَ لَهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، يَعْتَدُونَ أَحْسَنَ مَحَاسِنِ ابْنِ الرُّومِيِّ مَا هُوَ أَفْبَحُ عُيُوبِهِ ، وَقَاتَلَ اللَّهُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ ، فَكَمَا أَنَّهَا لِمَلَأِ الْفَرَاغَ هِيَ كَذَلِكَ لِإِفْرَاقِ الْمَلَأَنِ . . . (١)

ثَانِيًا : صِبَاغَةُ الشُّعْرِ عَلَى أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ التَّفْكِيرِ فِي الْإِنْكِلِيزِيَّةِ أَوْ الْفَرَنْسِيَّةِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ ، فَيَخْرُجُ الشُّعْرُ عَرَبِيًّا ، وَأُسْلُوبُهُ فِي تَادِيَةِ الْمَعْنَى أَجَنِبِيٌّ ، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي هَذَا النَّوعُ مِنْ أَمْرِيكَةِ ، وَأَنَا أُعْجَبُ بِكَثِيرٍ مِنْهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْغَرَابَةِ وَالْحُسْنِ .

وَمَا زَالَتْ أَجَنَاسُ الْأُمَمِ يَضِيقُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ وَيَتَسَّعُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ ، فَلَسْنَا مُقَدِّمِينَ بِالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ وَلَا بِطَرِيقَتِهِ ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُصَيِّفَ إِلَى مَحَاسِنِ لُغَتِنَا مَحَاسِنِ اللُّغَاتِ الْأُخْرَى ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَفْسِدَهَا أَوْ نَحِيفَ عَلَيْهَا أَوْ نَبِيعَهَا بِنِعِ الْوُكُوسِ ؛ وَمَتَى كَانَ هَذَا النَّوعُ مِنَ الشُّعْرِ رَصِينًا مُحْكَمًا جَيِّدَ السَّبَكِ رَشِيقَ الْمَعْرِضِ ؛ كَانَ فِي النِّهَائِيَّةِ مِنَ الرِّقَّةِ وَالْإِبْدَاعِ ، وَلَمْ يَأْتِ التَّجْدِيدُ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، كَالَّذِي تَرَاهُ فِينَا أَخَذَ عَبْدُ الْحَمِيدِ وَابْنُ الْمُفَضَّلِ مِنْ نَمَطِ الْأَدَاءِ فِي اللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ .

ثَالِثًا : الْأَنْصِرَافُ عَنْ إِفْسَادِ الشُّعْرِ بِصِنَاعَةِ الْمَدِينِ وَالرُّثَاءِ ، وَذَلِكَ بِتَأْتِيرِ الْحَرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَالْمَذْحُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَابًا مِنَ التَّارِيخِ الصَّحِيحِ لَمْ يَدُلَّ عَلَى سُمُو

نَفْسِ الْمَمْدُوحِ ، بَلْ عَلَى سُقُوطِ نَفْسِ الْمَادِحِ ؛ وَتَرَاهُ مَذْحًا حِينَ يُنْثَلَى عَلَى سَامِعِهِ ، وَلَكِنَّهُ ذَمٌّ حِينَ يُغْزَى إِلَى قَائِلِهِ ! وَمَا أَتُبْلِيَتْ لُغَةٌ مِنْ لُغَاتِ الدُّنْيَا بِالْمَدِينِ وَالرُّثَاءِ وَالْهَجَاءِ مَا أَتُبْلِيَتْ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةُ ؛ وَلِذَلِكَ أَسْبَابٌ لَا مَحَلَّ لِتَفْصِيلِهَا .

رَابِعًا : الْإِكْتَارُ مِنَ الْوُصْفِ وَالْإِبْدَاعِ فِي بَعْضِ مَنَاحِيهِ وَالتَّقَنُّ فِي بَعْضِ أَغْرَاضِهِ الْحَدِيثَةِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَسْمَى ضُرُوبِ الشُّعْرِ ، لَا تَتَفَقُّ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَالْإِكْتَارُ مِنْهُ إِلَّا إِذَا كَانَ الشُّعْرُ حَيًّا ، وَكَانَتْ نَزْعَةُ الْعَصْرِ إِلَيْهِ قُوَّةً ، وَكَانَ النَّظَرُ فِيهِ صَحِيحًا ؛ وَلَمَّا وَصَفَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْكُرْدِيُّ (مِنْ شُعْرَاءِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ) السَّيْفِيَّةَ وَأَسْتَهْلَّ بِهَذَا الْوُصْفِ مَذْحَ الْوَزِيرِ رَاغِبٍ بَاشَا ، عُدُّوا ذَلِكَ حَادِثَةً مِنْ حَوَادِثِ الْأَدَبِ فِي عَصْرِهِ ، فَتَأَمَّلْ !

خَامِسًا : إِهْمَالُ الصَّنَاعَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا الشُّعْرُ ، فَيُنْظَمُ الْبَيْتُ لِيَكُونَ جِنَاسًا أَوْ طِبَاقًا أَوْ اسْتِخْدَامًا أَوْ تَوْرِيَّةً . . . إلخ ، أَوْ ضَرْبًا آخَرَ مِنْ صِنَاعَةِ الْعَدَدِ وَالْحِسَابِ ، كَالتَّارِيخِ الشُّعْرِيِّ بِأَنْوَاعِهِ ؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْحَرْفِ كَالْمَقْلُوبِ وَالْمُهْمَلِ وَغَيْرِهِمَا ؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْفِكْرِ ، كَاللُّغْزِ وَالْمَعْمَى ؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْوَضْعِ ، كَالتَّشْجِيرِ وَالنَّظَرِيزِ ؛ إِلَى مَا يَلْتَحِقُ بِهَذَا الْبَابِ الَّذِي ذَهَبَ أَهْلُهُ فَلَا يَبْسُرُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْ يُجَارِيَهُمْ فِيهِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ عَجَائِبُ اسْتَفْصَانَهَا بِالنَّدْوِينَ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ « تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ » (١) ، بَيِّدَ أَنْ إِهْمَالَ صِنَاعَةِ الْبَدِيعِ شَيْءٌ وَإِهْمَالُ فَنِّ الْبَدِيعِ نَفْسُهُ شَيْءٌ آخَرُ ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ مَا تَرَاهُ فِي بَعْضِ الشُّعْرِ الْحَدِيثِ وَ« الشُّعْرِ الْمَشْتُورِ » مِنَ الْإِغْرَاقِ السَّخِيفِ الَّذِي لَا يَقُومُ عَلَى أَصْلٍ مِنَ التَّعَدِّيِّ فِي ضُرُوبِ الْاسْتِعَارَةِ ، وَالْبُعْدِ فِي الْمَجَازِ ، وَالْإِحَالَةِ فِي الْوَضْعِ ، وَنَحْوِهَا مِمَّا يَزْجَعُ إِلَى الْجَهْلِ بِطَبِيعَةِ الْبَلَاغَةِ ، وَمِمَّا لَا نَعُدُّهُ إِلَّا ضَرْبًا مِنَ الْفَسَادِ يَلْتَحِقُ بِمَا كَانَ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ وَإِنْ كَانَ عَلَى الضَّدِّ مِنْهُ .

سَادِسًا : النَّظْمُ فِي الشُّؤُونِ الْوُطَنِيَّةِ وَالْحَوَادِثِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، مِمَّا يَجْعَلُ الشُّعْرَ مُحِيطًا بِرُوحِ الْعَصْرِ وَفِكْرِهِ وَخَيَالِهِ ، وَهُوَ بَابٌ لَا يَنْهَضُ بِهِ إِلَّا أَفْرَادٌ قَلِيلٌ ، وَلَا يَزَالُ ضَعِيفًا لَمْ يَسْتَخْكِمِ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنَّ لِلْقَاضِي الْفَاضِلِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ فِي مَذْحِ الْوُطَنِ وَالْحَيْنِ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ لَا أَحْسَبُ أَنَّ فِيهَا مِثْلَهُ مِنْ نَحْوِ مَا يُنْظَمُ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، مِمَّا أَذَى بِالشُّعْرِ إِلَى

(١) انْظُرِ الْجُزْءَ الثَّالِثَ مِنْ (تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ لِلرَّافِعِيِّ) .

(١) { انْظُرِ دِرَاسَةَ الْعَقَادِ لِابْنِ الرُّومِيِّ } .



أَنْ يَدْخُلَ فِي بَابِ السِّيَاسَةِ وَيُعَدَّ مِنْ وَسَائِلِهَا ، وَفِي طُرُقِ التَّرْبِيَةِ وَيُعَدَّ مِنْ أَسْبَابِهَا .

سَابِعًا : اسْتِخْرَاجُ بَعْضِ أَوْزَانِ جَدِيدَةٍ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ ، وَهُوَ قَلِيلٌ ، جَاءَ بِهِ شَوْقِي فِي قَصِيدَتَيْنِ وَلَمْ يُتَابِعْهُ أَحَدٌ ، لِإِفْرَاطِ ذَلِكَ الْوِزْنِ فِي الْخِفَةِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى الثَّقَلِ ... ثُمَّ نَظَمَ بَعْضَ الشُّعْرِ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِفَةٍ قَرِيبَةٍ التَّنَاسُقِ عَلَى قَاعِدَةِ الْمُوشَحِ ، وَلَكِنَّهُ شِعْرٌ لَا تَوْشِيحَ ، كَمَا يَنْظُمُ بَعْضُ شُعْرَاءِ أَمْرِيكَةِ وَسُورِيَةِ ، وَلَمْ يَخُذْ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّ الْقَصِيدَةَ كَانَتْ تُنْظَمُ مِنْ بَحْرِ وَاحِدٍ ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهُ وَزْنٌ آخَرُ ، وَلَا نَعْرِفُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ قَصِيدَةً تَتَأَلَّفُ مِنْ وَزْنَيْنِ إِلَّا الَّذِي قَالُوا : إِنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَبْدِ الصَّمَدِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) قَدْ اخْتَرَعَهُ وَنَظَمَ فِيهِ أَيْتَاتَهُ الَّتِي مَطَّلَعُهَا [مِنْ الْخَفِيفِ] :

فَاحِ عُرْفُ الصَّبَا وَصَاحِ الدُّيُوكِ وَأَنْشَى الْبَانُ يَشْتَكِي التَّخْرِيكَ  
فَلَمْ يَنَّا نَخْتَلِي مُشْغَعَةً تَاهَ مِنْ وَصْفِهِ بِهَا الشُّشُوكِ  
وَعَارَضَهَا وَلَدُهُ الْإِمَامُ الشَّهِيرُ بِهَاءِ الدِّينِ الْعَامِلِي صَاحِبِ « الْكَشْكُولِ » بِأَيَّاتٍ قَالُوا :  
إِنَّهَا سَارَتْ فِي عَصْرِهِ مَسِيرَ الْمَثَلِ ، وَنَسَجَ عَلَيْهَا شُعْرَاءُ ذَلِكَ الْعَصْرِ كَالْثَّابِلِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَمَطَّلَعُهَا [مِنْ الْخَفِيفِ] :

يَا نَدِيمِي بِمُهْجَتِي أَفْدِيكَ فَمِ وَهَاتِ الْكُؤُوسَ مِنْ هَاتِيكَ  
خَفَرَةٌ إِنْ ضَلَلْتَ سَاحَتَهَا فَسَنَانُورٌ كَأْسَهَا يَهْدِيكَ  
عَلَى أَنَّ هَذَا الْوِزْنَ بِشَطْرِهِ مُسْتَخْرَجٌ مِنَ الْخَفِيفِ ، فَلَيْسَ بِاخْتِرَاعٍ كَمَا زَعَمُوا ، وَإِنَّمَا هُوَ ابْتِدَاعٌ فِي التَّأْلِيفِ الشُّعْرِيِّ ، وَقَدْ اجْتَرَأْنَا بِمَا مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كُلُّ مَا تَغَيَّرَ بِهِ الرِّسْمُ فِي هَلِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَتَرَكْنَا الْأَمْثِلَةَ تَقَادِيًا مِنَ الْإِطَالَةِ .

\* \* \*

وَبَعْدُ ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ فِي حَاجَةٍ أَبَدًا مَعَ دِينِهَا الرُّوحِيِّ إِلَى دِينِ إِنْسَانِيٍّ يَقُومُ فِيهَا عَلَى الشُّعُورِ وَالرَّغْبَةِ وَالتَّائِبِ ، فَيُفَسِّرُ لَهَا حَقَاقِقَ الْحَيَاةِ ، وَيَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ تَغْيِيرِهَا ، لِيَجْعَلَهَا أَلْفَافَ مِمَّا هِيَ فِي اللَّطْفِ ، وَأَرْقَى مِمَّا تَكُونُ فِي الرِّقَّةِ ، وَأَبْدَعَ مِمَّا تَتَّقِي فِي الْإِنْدَاعِ ؛ ذَلِكَ الَّذِي يَصِلُ بِظُهُورِهِ وَإِنْهَامِهِ بَيْنَ الْوَاضِحِ وَالْغَامِضِ ، وَالْخَالِدِ وَالْفَانِي ، ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجْمَلُ الْجَمَالَ إِلَّا بِهِ ، وَلَا تَسْكُنُ النَّفْسُ إِلَّا إِلَيْهِ ، ذَلِكَ هُوَ الشُّعْرُ !

### صُرُوفُ اللَّغَوِيِّ (\*)

كَانَ شَيْخُنَا هَذَا رَجُلًا حَصِينًا ، جَيِّدَ الْمُنَازَعَةِ ، حَسَنَ الرَّأْيِ ، مُمَكِّنًا لَهُ فِيمَا كَانَ يَعْتَرِضُهُ مِنْ مَسَائِلِ اللَّغَةِ ، قَوِيًّا عَلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي تَجْرِي لَهُ مِنْ أَوْضَاعِهَا فِيمَا يُعَانِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَيُزَاوِلُهُ مِنَ التَّرْجَمَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَنَاحِيهَا وَكَثْرَةِ فُنُونِهَا ؛ وَعَلَى أَنَّهَا لَا تَزَالُ كُلَّ يَوْمٍ تَنْبُعُ مِنْ عِلْمٍ وَتَخْفِلُ مِنْ رَأْيٍ وَتَمُدُّ مَدَّ السَّبِيلِ كَأَنَّهَا دُنْيَا عَقْلِيَّةٌ لَا يَبْرَحُ عَقْلُ الْإِنْسَانِ دَائِبًا يُحَلِّقُ فِيهَا وَيَبِينُهَا مِنْ مَعَانِي الْكَوْنِ وَأَسْرَارِهِ ، فَلَا الْكَوْنُ يَنْفَدُ لَيْسَمَ ، وَلَا هِيَ تَتِمُّ قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ الْكَوْنُ .

وَتَبَّتْ شَيْخُنَا عَلَى ذَلِكَ عُمُرَ دَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ فِي خَمْسِينَ سَنَةً وَنَيْفَ ، يَضْرِبُ قَلَمُهُ فِي السَّهْلِ وَالصَّعْبِ ، وَفِي الْمُمْكِنِ وَالْمُمْتَنِعِ ؛ وَإِنَّهُ لَيَمُرُّ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَرًّا لَا يَنْتَنِي ، وَيَخْذُو حَذْوًا لَا يَخْتَلِفُ ، كَأَنَّ الصَّعْبَ عِنْدَهُ نَسَقُ السَّهْلِ ، وَالْمُمْتَنِعُ صَوْنُ الْمُمْكِنِ ؛ فَلَوْ قُلْتُ : إِنَّهُ بُيِّ فِي أَصْلِ خَلْقِهِ وَتَرْكِيبِهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ قُوَّةً مِنْ قُوَى التَّخْوِيلِ لِتَحْقِيقِ الْمُسَابَهَةِ الْعَقْلِيَّةِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ لَمَا أَبْعَدْتُ ، وَلَوْ زَعَمْتُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَلَمَ الْحَيَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِرْقًا فِي جَسَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَكَانَ عَسَى ...

وَأَنْتَهَى شَيْخُنَا فِي الْعَهْدِ الْأَخِيرِ إِلَى أَنْ صَارَ يُعَدُّ وَحْدَهُ حُجَّةَ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي دَهْرِ مِنْ دُهُورِهَا الْعَاتِيَةِ ، لَا فِي الْأَصُولِ وَالْأَفْسَةِ وَالشَّوَادِ وَمَا يَكُونُ مِنْ جِهَةِ الْحَفِظِ وَالضَّبْطِ وَالْإِنْقَانِ ، بَلْ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَرْدُّ بِالْمَنْفَعَةِ عَلَى اللَّغَةِ وَتَارِيخِهَا وَقَوْمِهَا ، بَلْ فِيمَا لَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مَطْمَعُهُ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَائِهَا وَكُتَّابِهَا وَأَدْبَائِهَا ؛ إِذْ وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّهُ انْفَرَدَ فِي إِقَامَةِ الدَّلِيلِ الْعَمَلِيِّ عَلَى سَعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَصَرُّفِهَا وَحُسْنِ انْفِيَادِهِ وَكِفَايَتِهَا ، وَأَنَّهَا تَوَاتِي كُلَّ ذِي فَنٍّ عَلَى فَنِّهِ ، وَتَمَادُ كُلَّ عَصْرِ بِمَادَّتِهِ ؛ وَأَنَّهَا مِنْ دِقَّةِ التَّرْكِيبِ وَمُطَاوَعَتِهِ مَعَ تَمَامِ الْأَلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ بِحَيْثُ يَنْزِلُ مِنْهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ بِجُهِدِهِ وَعَمَلِهِ مَنَزِلَةَ الْجَمَاعَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي

(\*) { هُوَ الْمَلَامَةُ الدُّكْتُورُ يَغْفُوثُ صُرُوفُ صَاحِبِ « الْمُقْتَضَبِ » ، وَقَدْ نُشِرَ هَذَا الْمَقَالُ فِي « الْمُقْتَضَبِ » شَهْرِ يَنَايِرَ / كَانُونِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٢٨ م ، الصَّفَحَاتِ : ٢٣ - ٣٠ } .

اللُّغَاتِ الْأُخْرَى ، كَأَنَّهَا آخِرُ مَا أَتَتْهُ إِلَيْهِ الْحَضَارَةُ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الْحَضَارَةُ .

وَلَا يَذْهَبَنَّ عَنْكَ الْفَرْقُ بَيْنَ رَجُلٍ حَافِظٍ وَالْكِتَابِ أَحْفَظَ مِنْهُ ، وَهُوَ مِنَ الْكِتَابِ خَرَجَ وَإِلَى الْكِتَابِ يَرْجِعُ ؛ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَكُونُ تَرْجُمَانًا مِنْ تَرْجِمَةِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ الْمَعْنِيِّ بِتَأْوِيلِ الْكَوْنِ وَنَفْسِيهِ ، وَالطَّائِرِ بِالْأَلْفَاظِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أَجْنَحَةِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ وَالْمَعَانِي ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَنْفُلُ عَنِ الْوَاضِعِ ثُمَّ لَا يَتَعَدَّى هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَلَا يَتَجَاوَزُ مَثْوَى الْأَلْفَاظِ ، وَأَمَّا هَذَا فَلَا يَزَالُ يَضْطَرُّ مَعَ الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا يُجَادِبُهَا وَيُدَافِعُهَا ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَضَعُ يَدَهُ فِي الشَّيْخِ اللَّغَوِيِّ يُسَدِّي وَيُلْجِمُ ، فَهُوَ مَذْفُوعٌ إِلَى الْمَسَالِكِ الدَّقِيقَةِ مِنْ مَذَاهِبِ الْوَضْعِ وَطُرُقِهِ ، وَأَسَالِبِ الْأَخْذِ وَالْإِنْتِزَاعِ ؛ وَهُوَ مُقَيَّدٌ أَبَدًا بِخَاصِّ الْمَعْنَى وَخَاصِّ اللَّفْظِ عَلَى التَّعْيِينِ وَالْتَّخْدِيدِ ، لَا يَجِدُ فَسْحَةً مِنْ ضَيْقَيْنِ ؛ فَإِنَّ لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا فِي مَثَرِلَةِ الْوَاضِعِ فَهُوَ فِي الْمَثَرِلَةِ بَعْدَهُ وَلَا رَيْبَ .

إِنَّمَا اللَّغَوِيُّ الْأَكْبَرُ عِنْدِي هُوَ هَذَا الْكَوْنُ ، وَمَا الْعَالِمُ بِاللُّغَةِ وَقُوتُهَا إِلَّا وَسِيلَةٌ لِتَهْدِيَةِ الطَّرِيقَةِ تَهْدِيَّتًا عَقْلِيًّا ، فَيَجِبُ مِنْ ثُمَّ أَنْ يَكُونَ لِلَّغَوِيِّ رَأْيٌ وَعِلْمٌ وَدَكَاةٌ وَبَصَرٌ ، وَيَجِبُ أَنْ يُطَابِقَ التَّوَامِيصَ ، فَلَا يَتَعَادَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِنْطِاقِهَا لَيْسَ غَيْرُ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَرَى الدُّكْتُورَ صَرْوَفَ فِي الْغَايَةِ ، فَقَدْ كَانَ يَنْزِعُ فِي مَذْهَبِهِ اللَّغَوِيِّ مَنَازِعَ عِلْمِيَّةٍ دَقِيقَةٍ تُوزَنُ وَتُقَاسُ وَتُخَبَّرُ ، فِي حِينٍ لَا تَزِيغُ وَلَا تَهِنُ وَلَا تَخْتَلُ ، وَتَرَاهَا تَنْطَلِقُ وَهِيَ مُقَيَّدَةٌ ؛ وَتَقْيِدُ وَهِيَ مُطْلَقَةٌ ، إِذْ كَانَ لَا يَعْتَدُ اللَّغَةَ عَرَبِيَّةً لِلْعَرَبِ ، بَلْ عَرَبِيَّةً لِلْحَيَاةِ ؛ وَمَا تَهْدِيئُهُ وَتَنْبِيئُهُ وَتُخَدِّثُهُ وَتَنْسَخُهُ ، فَهِيَ عَلَى أَصُولِهَا فَيَمُنْ قَبْلَنَا ، وَلَكِنْ فُرُوعُهَا فَيَنَاحُنْ وَفَيَمُنْ بِلَيْنَا وَفَيَمُنْ بَعْدَ هَذَا ، فَلَنَا أَنْ نَتَوَلَّاهَا عَلَى تِلْكَ الْأَصُولِ وَعَلَى مَا يُشَبِّهُهَا فِي الطَّرِيقَةِ حِينَ تَنْتَقِلُ الْحَالُ وَيَتَغَيَّرُ الرُّسْمُ ، لِعِلَّةِ إِنْ وَجَبَتْ ، وَلِقِيَاسِ إِنْ جَارَ . وَالدُّكْتُورُ يَهْدِي الْأَعْيَارَ يَشْتَدُّ فِي التَّمَسُّكِ بِالْقَوَاعِدِ وَالضُّوَابِطِ وَلَا يَتَرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَأَقْوَامِ يَرُونَ الْفُرُوعَ مِنَ الْجُدُوعِ قَدْ خَرَجَتْ ، فَيَحْسَبُونَ الثَّمَرَاتِ سَبِيلَهَا مِنَ الْجُدُوعِ أَيْضًا . . . وَإِنْ لَمْ تَجِءْ مِنْهَا فَسَتَجِيءُ مِنْهَا .

عَرَضَ لِي يَوْمًا أَحَدُ هَؤُلَاءِ اللَّغَوِيِّينَ فَاتَّقَدَّ فِي «الْمُقَطَّمِ» قَصِيدَةً مِنَ الْقَصَائِدِ الَّتِي رَفَعَتْهَا إِلَى جَلَالَةِ الْمَلِكِ فُؤَادٍ ، وَتَمَحَّلَ فِي نَفْسِهِ وَدَلَّلَ بِبَعْضِ مَا نَقَلَهُ مِنْ كُتُبِ اللَّغَةِ ،

فَكَانَ فِيمَا تَكَلَّمَ فِيهِ لَفْظًا (الْأَزَاهِرُ وَالْوُرُودُ) ، فَقَالَ : إِنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ اللَّغَةِ وَلَمْ يَجْرِيَا فِي كُتُبِهَا ؛ وَكَانَ مِنْ رَدِّي عَلَيْهِ أَنْ قُلْتُ لَهُ : إِنْ الْعَرَبُ جَمَعُوا الْجَمْلَ سِتَّةَ جُمُوعٍ ، وَجَمَعُوا الثَّاقَةَ سِتَّةَ لَأَنِّهَا أَكْرَمَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ ، وَأَنْ لِكُلِّ حَيَاةٍ صُورَهَا الدَّائِرَةُ فِي الْأَفَافِ ، فَالزُّهْرُ وَالْوُرْدُ عِنْدَ الْمُؤَلِّدِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ أَكْرَمُ مِنَ الْجَمْلِ وَالثَّاقَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، أَوْ هَذَا كَهَذَا ، ثُمَّ هُمَا مِنْ خَاصِّ الْأَلْفَاظِ الْمُؤَلَّدَةِ ، فَلَنَا أَنْ نَجْمَعَهُمَا عَلَى كُلِّ صُورِ الْجَمْعِ الَّتِي يُسَوِّغُهَا الْقِيَاسُ ، لِأَنَّ هَهُنَا الْعِلَّةَ الْمُوجِبَةَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعَ الْعَرَبِ فِيهِمَا ؛ فَمِنْ الصَّحِيحِ أَنْ نَقُولَ : زُهُورٌ ، وَأَزْهَارٌ ، وَأَزَاهِرٌ وَأَزَاهِيرٌ . . . إلخ ؛ فَلَمَّا لَقِيتُ الدُّكْتُورَ بَعْدَ نَشْرِ هَذَا الرَّدِّ هَتَّأَنِي بِهِ ، ثُمَّ قَالَ فِيمَا قَالَ : يَحْسَبُونَ أَنَّ الْعَرَبَ هُمْ الْجَمْلُ وَالثَّاقَةُ وَلَيْسَ غَيْرُ مَا اسْتَجَمَلُ وَمَا اسْتَنَوَقَ . . . أَمَّا هَذَا الدُّهْرُ الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْئًا ، وَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْكِرُوا عَلَى الْمُؤَلِّدِينَ أَلْفَ كَلِمَةٍ ، وَلَكِنْ هَلْ فِي اسْتَطَاعَتِهِمْ أَنْ يَنْكِرُوا عَلَى التَّارِيخِ أَلْفَ سَنَةٍ ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ الْأَصْلَ الَّذِي قَرَرَهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ فِي الْعَرَبِيِّ الصَّحِيحِ نَفْسَهُ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا يَجُوزُ فِي الْقِيَاسِ يَجِبُ أَنْ يُخْرَجَ بِهِ سَمَاعٌ ، فَإِذَا أَخَذَ إِنْسَانٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ وَأَمَّ مَذْهَبَهُمْ فَلَا يُسْأَلُ مَا دَلِيلُهُ وَمَا سَمَاعُهُ وَمَا رِوَايَتُهُ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، حَتَّى قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : لَوْ شَاءَ شَاعِرٌ أَوْ مُتَسِّعٌ أَنْ يَنْبِيءَ بِالْحَاقِ الْإِلَامِ<sup>(١)</sup> أَسْمَاً وَفِعْلًا وَصِفَةً لَجَازَ لَهُ . وَلَكَانَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِكَ : خَرَجَ أَكْثَرُ مِنْ دَخَلَ ، وَضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا ، وَمَرَزَتْ بِرَجُلٍ ضَرْبٌ ، وَكَرَّمَتْ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . قَالَ تَلْمِيذُهُ ابْنُ جَنِّي : فَقُلْتُ لَهُ : أَتَزَجِلُ اللَّغَةَ أَرْتَجَالًا ؟ قَالَ : لَيْسَ بِأَرْتَجَالٍ ، لَكِنَّهُ مَقْبُوسٌ عَلَى كَلَامِهِمْ ، فَهُوَ إِذَا مِنْ كَلَامِهِمْ .

وَسَأَلَنِي مَرَّةً عَنْ وَجْهِ الْخِلَافِ بَيْنَ مَا يُسَمُّونَهُ الْقَدِيمَ وَالْجَدِيدَ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنْ الْخِلَافُ لَيْسَ عَلَى جَدِيدٍ وَلَا قَدِيمٍ ، وَلَكِنْ عَلَى ضَعْفٍ وَقُوَّةٍ ، فَإِنَّ قَوْمًا يَكْتُمُونَ وَيَنْظُمُونَ وَلَكِنْ لَمْ تُقَسِّمِ الْفَصَاحَةَ وَالْبَلَاغَةَ عَلَى مِقْدَارِ مَا يُطِيقُونَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَسْغُ الصَّحِيحُ لَارَائِهِمْ فِي اللَّغَةِ وَالْأَدَبِ ، وَقَدْ أَرَادُوا أَنْ يَسْغُوا كُلَّ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ صَافُوا ، وَيُطَاوِلُوهُ مِنْ حَيْثُ تَقَاصَرُوا ، وَيَتَالَوُهُ مِنْ حَيْثُ عَجَزُوا ، فَظَلُّوا بِالْأَمْرِ مَا يَظُنُّ إِنْسَانٌ يَنْشِيءُ عَلَى الْأَرْضِ

(١) زِيَادَةُ حَرْفٍ مِنْ جَنْبِ لَامِ الْكَلِمَةِ وَالْحَاقَةُ بِهَا .

وَيَعْرِفُ أَنَّهَا تَدَوَّرُ ، فَيُؤَوِّلُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ هُوَ يُدِيرُ الْأَرْضَ عَلَى مَحْوَرِهَا بِحَرَكَةٍ قَدَمِيَّةٍ ... نَحْنُ نَقُولُ : أَسْلُوبُ رَكِيكٌ ؛ فَيَقُولُونَ : لَا بَلْ جَدِيدٌ ؛ وَنَقُولُ : لُغَةٌ سَقِيمَةٌ ؛ فَيَقُولُونَ : بَلْ عَصْرِيَّةٌ ؛ وَنَقُولُ : وَجْهٌ مِنَ الْخَطَا ؛ فَيَقُولُونَ : بَلْ نَوْعٌ مِنَ الصَّوَابِ ؛ وَهَلَمْ جَرَا وَسَخَبَا ... ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : أَفَتَجِدُ أَنْتَ الرِّكَكَاةَ وَاللَّحْنَ وَالْخَطَا وَالْعَنَائَةَ وَإِنَّ وَأَخَوَاتِهَا بَابَا جَدِيدًا أَوْ أَمْرًا مُبْتَدَعًا أَوْ شَيْئًا يَحْتَاجُ إِلَى اسْمِهِ الْعَرَبِيِّ ؟ قَالَ : لَا ! وَأَنَا مَعَكَ فِي هَذَا ، وَطَرِيقَتِي فِي « الْمُقْتَضَفِ » أَنَّ اللُّغَةَ فِي قَوَاعِدِهَا عَرَبِيَّةٌ ، وَلَكِنْ مِنْ قَوَاعِدِهَا أَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا ، فَتُخَنُّ نَكْتَبُ كِتَابَةً صَحِيحَةً ، وَتُرِيدُ بِهَا أَنْ تَرْفَعَ الْعَامَّةَ وَلَا تَنْزِلَ بِالْخَاصَّةِ ، فَتُخَدِّمُ الْعَرَبِيَّةَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

ثُمَّ نَشَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عَدَدِ شَهْرِ مَآيُو/ أيار سَنَةِ ١٩٢٧ مَقَالًا جَعَلْتُ عُنْوَانَهُ : « أَسْلُوبُنَا فِي التَّرْجُمَةِ وَالْتَّعَرُّبِ » وَابْتَدَأْتُ بِهِذِهِ الْعِبَارَةَ : « اللُّغَةُ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٌ ، وَشَأْنٌ مِنْ يُحَاوِلُ مَنَعَهَا مِنَ الثُّمُوِّ شَأْنُ الصَّبِيِّينَ الَّذِينَ يَرْبُطُونَ أَقْدَامَ بَنَاتِهِمْ لِكَيْ لَا تَنْمُوَ وَتَبْلُغَ حَدَّهَا الطَّبِيعِيِّ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الثُّمُوُّ مُسَوِّمًا فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْيِيدِهِ وَتَهْذِيبِهِ » وَكُلُّ مَا نَقُولُهُ نَحْنُ هُوَ التَّقْيِيدُ وَالتَّهْذِيبُ وَأَقْفَاءُ الشُّوْهِ أَنْ نُلِمَّ بِاللُّغَةِ وَأَسَالِينِهَا ، فَتَتَرَادَفُ عَلَى مَحَاسِنِهَا بِمَعَارِبِهَا ، وَتُطْمِسُ مَفَازَاتِهَا بِمَقَابِحِهَا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَارِبَ وَالْمَقَابِحَ إِذَا هِيَ اسْتَجْمَعَتْ وَأَنْسَاغَتْ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ لِبَسْتِهَا بِأَشْكَالِهَا فَلَا تَرَالُ تُتَكَبَّرُ مِنْهَا حَتَّى لَا تُبْقِيَ لَهَا وَصْفًا يُعْرِفُ ، وَالْحُسْنُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُحَدُّ بِالْأَوْصَافِ وَالتَّعَارُفِ ، وَهُوَ الَّذِي يُدَقِّقُ فِيهِ وَيُبَالِغُ فِي قِيَاسِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، فَإِنْ وَقَعَ فِيهِ الْفُضُولُ ، وَاسْتَخْلَطَتِ الْخُدُودُ ، وَضَعُفَتِ الْمَلَأَمَةُ ، وَجَرَى الْوُصْفُ نَاقِصًا وَزَائِدًا ، فَقَدْ خَرَجَ إِلَى الْقُبْحِ ، وَإِنْ خَرَجَ إِلَى الْقُبْحِ لَمْ يَعُدِ النَّاسُ يُحَدِّثُونَ لَهُ حَدًّا أَوْ يَغْبِرُونَ لَهُ بِقَاعِدَةٍ ، وَوَجَدُوا فِيهِ كُلَّ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ مَقْلُوبَةً مُنْكَرَةً ، لِأَنَّهُ هُوَ جَمَالٌ مَقْلُوبٌ ؛ (فَتَقْيِيدُ التَّشْوِيهِ وَتَهْذِيبُهُ) كَلِمَتَانِ فِيهِمَا الْكَلَامُ كُلُّهُ ، أَوْ هُمَا الْمِضْرَاعَانِ لِهَذَا الْبَابِ ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُنَّا نَعُدُّ الدُّكْتُورَ مِنْ حُجَّتِنَا عَلَى أَصْحَابِ الْجَدِيدِ ، لِأَنَّهُ أَوْسَعُهُمْ إِحَاطَةً وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَأَمْدُهُمْ عَمَلًا ، ثُمَّ لَنْ يَدَانِيَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا إِذَا جَمَعَ لِنَفْسِهِ عُمَرَيْنِ ، وَهَلْ فِي الْجَدِيدِ رَجُلٌ ذُو عُمَرَيْنِ ... ؟

قُلْنَا : إِنَّ الشَّيْخَ كَانَ فِي الْمَثَرَةِ الَّتِي تَلِي مَثَرَةَ الْوَاضِعِ ، وَقَدْ دَفَعَتْهُ الْعُلُومُ إِلَى ذَلِكَ

دَفْعًا . لِأَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِخَاصِّ الْمَعْنَى فِي كُلِّ مَا يُتَرْجَمُ أَوْ يُعَرَّبُ ، ثُمَّ بِالْخَصَاصِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ فِي أَدَائِهَا مَا تَحْتَمِلُ الْمَعَانِي الْأَدَبِيَّةُ ؛ وَقَدْ تَصَدَّرَ لِلِكِتَابَةِ وَالتَّرْجُمَةِ مِنْذُ شَبَابِ هَذَا النَّصْرِ ، وَمُنْذُ بَدَأَ النَّاسُ يَقْرَءُونَ الْعُلُومَ الْحَادِثَةَ فِي الشَّرْقِ ؛ فَلَا جَرَمَ لَمْ يَكُنْ لُغَوِيًّا كَأَبْنِي عَمْرٍو وَأَبْنِي زَيْدٍ وَالْخَلِيلِ وَالْأَصْمَعِيِّ وَأَبْنِي حَاتِمٍ وَأَبْنِي عُبَيْدَةَ وَأَصْرَابِهِمْ مِمَّنْ يَحْمِلُونَ عَنِ الْعَرَبِ وَيُؤَدُّونَ مَا حَمَلُوهُ ، وَلَا كَانَ لُغَوِيًّا فِي طَرِيقَةِ سَبْيُونِهِ وَالْكِسَائِيِّ وَالزَّجَّاجِ وَالْأَخْفَشِ وَالزَّيْدِيِّ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ يَنْظُرُونَ فِي اللُّغَةِ وَعِلَلِهَا وَأَقْسِيَّتِهَا وَشَوَادِهَا ، وَلِكِنَّهُ لُغَوِيٌّ فِيمَا يَغْمُرُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ ، يَحْمِلُ بِلِسَانٍ وَيُؤَدِّي بِلِسَانٍ غَيْرِهِ ، وَيُؤَافِقُ بَيْنَ الْمَعَانِي الْجَدِيدَةِ وَالْأَلْفَاظِ الْقَدِيمَةِ ، وَيُسَابِكُ بَيْنَ خُيُوطِ التَّارِيخِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ ، وَيَأْخُذُ اللُّغَةَ لِلِاسْتِعْمَالِ لَا لِلِحِفْظِ ، وَلِلتَّعْلِيمِ لَا لِلتَّدْوِينِ ، وَلِلْمَنْفَعَةِ لَا لِلْمُبَاهَاةِ ، وَلِلْفَائِدَةِ لَا لِلتَّنَبُّلِ ؛ وَيُتَرْجِمُ وَإِنْ فِي خِيَالِهِ الْعَالَمُ الْوَاسِعَ الَّذِي يُنْقَلُ عَنْهُ بِعِلْمَائِهِ وَأَدْبَائِهِ وَكُتُبِهِ وَمَجَلَّاتِهِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ ، وَيَكْتُبُ وَإِنَّ لَهُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي كَوَّنَتْهَا الْعُلُومُ الرِّيَاضِيَّةُ وَالطَّبِيعِيَّةُ وَالْفَلَسَفِيَّةُ وَغَيْرُهَا ، فَلَمْ يَكُنْ بُدَّ مِنْ أَنْ يَبْتَدِعَ وَأَنْ تَكُونَ لَهُ طَرِيقَةٌ يُؤَافِقُ فِيهَا وَيُخَالِفُ ، وَقَدْ بَسَطَ هُوَ الْقَوَاعِدَ الَّتِي أَخَذَ بِهَا وَجَرَى عَلَيْهَا ، فَكَتَبَ فِيهَا مَقَالًا فِي مُقْتَضَفِ شَهْرِ يُولْيُو/ تموز لِسَنَةِ ١٩٠٦ ، وَأَعَادَ نَشْرَهُ فِي عَدَدِ شَهْرِ مَآيُو/ أيار لِسَنَةِ ١٩٢٧ ، وَهُوَ يُؤَافِقُ فِيهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ ، وَخَاصَّةً الْإِمَامَ الْحَاجِظَ ، مَعَ أَنَّ قَاعِدَةَ الْحَاجِظِ لَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعْرُوفَةً ، وَلَكِنْ كِلَا الشَّيْخَيْنِ حَصِيفُ الرَّأْيِ تَامُ الْأَدَاةُ فِي عَمَلِهِ ، قَوِيٌّ الْحُسْنِيَّةِ وَالتَّذْيِيرِ فِيمَا يَأْخُذُ وَمَا يَدَعُ ؛ وَخُلَاصَةُ رَأْيِ الدُّكْتُورِ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي الْكَلِمَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ ، فَإِنْ أَصَابَ لَهَا مُرَادِفًا فِي الْعَرَبِيَّةِ يُحَدِّثُهَا وَيَقِي بِهَا فَذَلِكَ ، وَإِلَّا أَمَرَهَا فِي كِتَابَتِهِ وَهُوَ مُقَيَّدٌ بِفَائِدَةِ الْقَارِئِ وَمَا هُوَ أَخْفَى عَلَى قَارِيهِ فِي الْمُؤَوَّنَةِ وَأَبْيَنُ لَهُ فِي الدَّلَالَةِ ، فَإِنْ كَانَتْ اللَّفْظَةُ الْأَعْجَمِيَّةُ أَوْفَى وَأَشْبَعُ فِي الْأَسْتِعْمَالِ عَدَلَ إِلَيْهَا ، قَالَ : وَغَيْبِي عَنِ النَّبِيَّانِ أَكُنَّا التَّرْتِمَنَا أَنْ نُجَارِيَ الْعُلَمَاءَ فِي الْمُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَقْفِدُ دِلَالَتَهَا بِتَغْرِيبِهَا : كَالْحَامِضِ الْكَبْرِيئُوسِ وَالْكَبْرِيئِيكِ ... إلخ ، فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْمُلْحَقَاتِ وَالرُّوَائِدِ الَّتِي فِيهَا مَعْنَى خَاصًّا يَدُلُّ عَلَى تَرْكِيبِ الْحَامِضِ الْمُرَادِ كَمَا يَعْلَمُ دَارِسُو الْكِيمِيَاءِ . قَالَ : فَمَنْ يُسَمِّي

الْحَامِضَ الْكَبْرِيَّيْنِ بِالْحَامِضِ الْكَبْرِيَّيْنِ كَمَنْ يُسَمِّي الْفَرَسَ حِمَارًا لِأَنَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا رَأْسًا وَذَنْبًا ...

وَالْحَاجِظُ يَقُولُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : إِنَّ رَأْيِي فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ أَنْ أَكُونَ مَا دُمْتُ فِي الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ عِبَارَتُهَا وَالْمَادَّةُ فِيهَا عَلَى أَنْ أَلْفِظَ بِالشَّيْءِ الْعَتِيدِ الْمَوْجُودِ (يَعْنِي : أَلْفِظَ الْعِلْمِي الْأَصْطِلَاحِي) وَأَدَعِ التَّكَلُّفَ لِمَا عَسَى أَلَّا يَسْلُسَ وَلَا يَسْهَلُ إِلَّا بَعْدَ الرِّيَاضَةِ الطَّوِيلَةِ ... وَلِكُلِّ صِنَاعَةِ الْفَاطِ قَدْ جُعِلَتْ لِأَهْلِهَا بَعْدَ امْتِحَانٍ سِوَاهَا ، فَلَمْ تَلْزُقْ بِصِنَاعَتِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَعَانِي تِلْكَ الصَّنَاعَةِ مُشَاكَلَاتٌ .

فَأَنْتَ تَرَى الْحَاجِظَ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْأَلْفَاطِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَالْعَامِيَّةِ كَمَا هِيَ مَا دَامَتِ الْمَعَانِي قَائِمَةً ، وَقَاعِدَتُهُ هِيَ الْأَخْفُ وَالْأَدَلُّ وَالْأَفْهَمُ وَالْأَشْبَحُ ، وَهَذَا بِعَيْنِهِ يَقُولُ الدُّكْتُورُ فِيهِ : « يُشْتَرَطُ فِي حَسَنِ التَّعْبِيرِ أَنْ يُؤَدِّي الْمَعْنَى الْمُرَادَ إِلَى ذَهَنِ السَّامِعِ بِأَقْلٍ مَا يَكُونُ مِنَ الْوَقْتِ وَالْكُلْفَةِ وَالِإِسْرَافِ فِي الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ » .

وَقَدْ كَلَّمَنِي بَعْضُهُمْ فِي خَطَأِ الدُّكْتُورِ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَلْفَاطِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَإِفْحَامِهَا فِي كِتَابَتِهِ ، وَأَنَّهُ يَجْنَحُ إِلَى ذَلِكَ بِأَوْهَى سَبَبٍ ، وَلَا أَرَاهُ خَطَأً ، بَلْ أَنَا أَرُدُّ ذَلِكَ إِلَى مَا يَبْنِيهِ أَنْفَا مِنْ أَمْرِ النَّاقِلِ وَالْوَاضِعِ وَلَا يُعْجِزُنَا أَنْ نَجِدَ لَصْنِيغِ الدُّكْتُورِ نَصًّا يَقُومُ بِهِ وَيَنْهَضُ بِحُجَّتِهِ ، فَقَدْ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ : إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا اشْتَقَّتْ مِنَ الْأَعْجَمِيَّةِ خَلَطَتْ فِيهِ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَشْتِقَاقِ وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ ، فَكَيْفَ بِالتَّغَرُّبِ ؟ عَلَى أَنَّهُ لَا خَلْطَ وَلَا أَضْطِرَابَ وَإِنَّمَا هُوَ سَبِيلُ الْوَضْعِ وَحِكْمَةُ الدَّلَالَةِ وَأَنَّ اللَّغَةَ هَكَذَا تَجِيءُ ؛ ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ الْخَوَاطِ يَقُولُ : لِمَاذَا وَلَا؟ ...

وَقَدْ أَعْجَبَنِي حُسْنُ تَفْسِيرِ الدُّكْتُورِ لِقَوَاعِدِهِ الَّتِي بَسَطَهَا فِي مَقَالِهِ الْمُسْتَفِيدِ ، حَتَّى إِنِّي لَأَرَاهُ بَابًا جَدِيدًا فِي التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ وَاللُّغَةِ لِابْتِدَالِ الْأَلْفَاطِ وَغَرَابَتِهَا ، إِذْ لَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا غَرِيبٌ وَمُبْتَدَلٌ وَلَا بَيْنَتَا عَرَبٍ وَمُخْدِتُونَ .

بَيِّنْ أَنْ مِنْ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ أَنَّ الْأَسْتَاذَ يَتَرَخَّصُ فِي الْأَلْفَاطِ الْعَامِيَّةِ وَهُوَ يَجِدُ فَصِيحَهَا ، وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ : « إِذَا اسْمَعْتُ الْفَلَّاحَ الْمِصْرِيَّ كَلِمَةً (بِدَارٍ) مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ أَوْ فِي الشَّهْرِ ، سَمِعَ كَلِمَةً (تَقَاوِي) مِثَّةً مَرَّةً وَأَلْفَ مَرَّةً ، فَزَيْنَا أَنْ مُحَاوَلَةَ تَغْيِيرِ لُغَةِ الْعَامَةِ فِي

هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَمْنَالِهَا ضَرْبٌ مِنَ الْعَبَثِ وَإِصَاعَةٌ لِلْوَقْتِ وَتَضْيِيعٌ لِلْفَائِدَةِ ، فَجَارَيْنَاهُمَا فِيمَا نَكْتُبُهُ لَهُمْ . وَهَذَا مَا كُنْتُ أَجَادِلُهُ فِيهِ وَلَا أَسْلَمُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ أَغْلَلُ أَصْلًا أَجْتِمَاعِيًّا عَظِيمًا ، فَإِنْ عَامَّتْنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى ، وَلَا يَرَالُ فِيهِمْ مِيرَاثُهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ ، وَهَذِهِ هِيَ وَسَائِلُ مَرْجِهِمْ بِالْفُصْحِ وَرَدَّهِمْ إِلَيْهِ ، وَلَا تَرَالُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُهُ النَّوَامِيسُ الْمَخْتُومَةُ ، وَلَوْلَاهَا لَمَا بَقِيَ لِلْفُصْحَى بَقِيَّةٌ بَعْدَ .

وَقَدْ كَانَ جَاءَ إِلَى مِصْرَ مِنْ بَضْعِ سِنِينَ رَجُلٌ مِنْ أَمْرِيكَهُ هُوَ مِنْ تَلَامِيذِ الدُّكْتُورِ الْقُدَمَاءِ ، فَتَرَحَّ إِلَى ذَلِكَ الْبَرِّ ، فَاتَّجَرَ فَأَتَرَى ، وَفَسَّتْ لَهُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيتُ فِي يَدِهِ صَحِيفَةً وَضَعَ فِيهَا مَسَائِلَ فِي اللَّغَةِ وَالنَّحْوِ ، وَكَانَ أَعَدَّهَا لِيَسْأَلَ عَنْهَا ، وَفِي أَوَّلِهَا هَذَا السُّؤَالُ : لِمَاذَا يُقَالُ : فَصَحَ الرَّجُلُ فَصَاحَةً فَهُوَ فَصِيحٌ . ثُمَّ يَقُولُ : شَعَرَ شِعْرًا فَهُوَ شَاعِرٌ ؟ أَلَمْ يَكُنِ الْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ : شَعَرَ شِعْرَةً فَهُوَ شَاعِرٌ . وَالْفَصَاحَةُ وَالشَّعْرُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ؟

وَهَذَا السُّؤَالُ وَإِنْ كَانَ فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ لَغْوًا وَعَبَثًا ، وَلَكِنَّهُ دَقِيقٌ فِي تَارِيخِ اللَّغَةِ وَأَقْبَسَتِهَا ، وَلَا مَحَلَّ لِيَسْطِ الْكَلَامَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، غَيْرَ أَنِّي أَنْهَيْتُ الْخَبِيرَ لِلدُّكْتُورِ صَرُوفٍ وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ صَاحِبَكَ هَذَا يَضَعُ قَوَاعِدَ اللَّغَةِ فِي الْمِيزَانِ الَّذِي فِي حَاضِرَتِهِ ... وَأَنْتَ كَذَلِكَ تَعَالِجُ بَعْضَ الْأَلْفَاطِ أحيانًا يَبْغِضُ الْغَارَاتِ وَالْحَوَامِضِ .

قُلْتُ هَذَا لِأَنِّي لَمْ أَسْلَمْ لَهُ قَطُّ فِيمَا كَانَ يَرَاهُ فِي مِثْلِ الْبِدَارِ وَالتَّقَاوِي ، عَلَى أَنَّهُ قَبْدُ الْكَلَامِ يَقُولُهُ : (فِيمَا نَكْتُبُهُ لَهُمْ) وَهَذَا اخْتِرَاسٌ يُدْفَعُ عَنْهُ بِقُوَّةٍ كَمَا تَرَى .

وَلَا يَمْتَرِي أَحَدٌ فِي أَنَّ هَذِهِ التَّهْنِصَةَ اللَّغَوِيَّةَ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا وَعَمِلْنَا فِيهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى نُمُوٍّ طَبِيعِيٍّ لِعَمَلِ رِجَالٍ أَفْذَادٍ نَظَرُوا الدُّكْتُورَ صَرُوفَ فِي طَلَبَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ كَانَ أَطْوَلَهُمْ جِهَادًا وَأَكْثَرَهُمْ عَمَلًا وَأَظْهَرَهُمْ أَثَرًا ، وَكَانَ « الْمُفْتَظَلُّ » يَجِيءُ لَهَا كُلَّ شَهْرٍ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ زَمِينَةٍ مُسَلَّطَةٌ بِتَامُوسٍ كَتَامُوسٍ الشُّشُوءِ ، حَتَّى لَأَكْمَ هَذَا الْمُفْتَظَلُّ أَنْ يَكُونَ عَصْرٌ مِنَ الْعُصُورِ قَدْ خَرَجَ فِي شَكْلِ الْكِتَابَةِ . وَلَقَدْ كَاشَفَنِي الدُّكْتُورُ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ أَنَّهُ كَانَ يَوَدُّ لَوْ خَتَمَ عَمَلُهُ بِوَضْعِ مُعْجَمٍ فِي اللَّغَةِ يَضْلُحُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ : إِنَّهُ مُعْجَمُ الشَّعْبِ ، وَفَصَّلَ لِي طَرِيقَتَهُ ، إِذْ

كُنْتُ أَكَلُمُهُ فِي كِتَابِ لُغَوِي أَفْتَحْتُ الْعَمَلَ فِيهِ مِنْ زَمَنِ وَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ خَيْرًا<sup>(١)</sup> فَقَالَ لِي : خُذْ بَيْنَ طَرِيقَتِي وَطَرِيقَتِكَ ، وَأَمْنُصِ أَنْتَ فِي هَذَا الْعَمَلِ ؛ فَإِنِّي لَوْ وَجَدْتُ قَوَاعًا لَمَّا عَدَلْتُ بِهِذَا الْأَثَرِ شَيْئًا ، وَمَا كُلُّ سَهْلٍ هُوَ سَهْلٌ .

عَلَى أَنْ شَيْخَنَا هَذَا لَوْ قَدْ كَانَ تَفَرَّغَ لِلْغَةِ وَتَوَقَّرَ عَلَيْهَا وَاجْتَمَعَ لَهَا بِذَلِكَ الْعُمُرِ وَتِلْكَ الْعُلُومِ وَالْأَدَوَاتِ ، لَكَانَ فِيهَا بِأَمَّةٍ مِنَ الْأَشْيَاخِ الْمَاضِينَ مِنْ لَدُنِ أَبِي عَمْرٍو ابْنِ الْعَلَاءِ إِلَى الدُّكْتُورِ يَغْفُوبِ صَرْوَفَ ، وَلَكِنْ لَعَلَّ الدَّهْرَ أَضْيَقُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ أَوْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَضْيُقَ . . . لِإِمَامٍ آخَرَ كَأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ يَفْرُغُ سَبْعِينَ سَنَةً لِفَرْعٍ وَاحِدٍ مِنْ عُلُومِ الْغَةِ هُوَ عِلْمُ الْقِيَاسِ وَالِاسْتِغْنَاءِ وَالْعِلَلِ الصَّرْفِيَّةِ ، وَيَجْعَلُهُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ عَلَى مَا قَالَ تَلْمِيزُهُ ابْنُ جَنِّي : « لَا يَتَعَاثَفُهُ عَنْهُ وَلَدٌ ، وَلَا يَعَارِضُهُ فِيهِ مَنْجَرٌ ، وَلَا يَسُومُ بِهِ مَطْلَبًا ، وَلَا يَخْدُمُ بِهِ رَيْبًا ، فَكَأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ مَخْلُوقًا لَهُ » .

وَكَانَتْ لِلدُّكْتُورِ طَرِيقَةٌ جَرِيئَةٌ فِي رَدِّ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى أَصُولِهَا وَالرُّجُوعِ بِهَا إِلَى أَسْبَابِ أَخْذِهَا وَأَشْتِقَاتِهَا وَتَصَارُيفِهَا مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ ، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ ثَقُوبُ فِكْرِهِ وَسَعَةُ عِلْمِهِ وَدَقَّةُ تَمْيِيزِهِ وَمِثْلُهُ الْعَالِبُ عَلَيْهِ فِي تَحْقِيقِ نَامُوسِ الشُّشُوءِ وَتَبْيِينِ آثارِهِ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْأَلْفَاظِ ، وَكَانَ مُعْجَبًا بِكُلِّ مَا جَاءَهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَلَوْ كَانَ مِنْ خَطِئٍ ؛ لِأَنَّهُ إِلَى الرَّأْيِ يَفْصِدُ ، وَلِلطَّرِيقَةِ يُمْكِنُ ، وَمَعَ الْخَاطِرِ يَجْرِي .

وَهَذَا بَابٌ يَخْتَانُ إِلَى التَّسْمُحِ وَالتَّسَاهُلِ ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ ، وَلَا تَتَّفِقُ الْحَبِطَةُ فِيهِ ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَتْلُوَحَ شَيْءٌ مِنْهُ وَيَسْنَحَ شَيْءٌ وَتَتَلَامَحَ عِلَّةٌ وَيَعْرَضَ سَبَبٌ ؛ ثُمَّ هُوَ فِي الدُّكْتُورِ مِنْ بَعْضِ الدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِخْكَامِ مَلَكَةِ الْوَضْعِ فِيهِ ، وَتَرْوِجِهِ إِلَى أَنْ يَفْتَنَاسَ بِقِيَاسِهِ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْ عِلَلِهِ ؛ وَقَدْ تَرَاهُ يَبْعُدُ فِي ذَلِكَ فَيَنْصُبُ لَكَ الدَّلِيلَ مِنْ وَرَاءِ بَضْعَةِ آفِ سَنَةٍ ، وَأَنَا السَّاعَةَ أَعَانُ ذَاكِرَتِي وَأَدِيرُهَا مِنْ هَلْهَنَا وَهَلْهَنَا لِأَجَدَ كَلِمَةً قَالَ لِي مَرَّةً فِي تَارِيخِهَا : إِنَّ الْعَرَبَ أَخَذُوهَا عَنْ الْيُونَانِ حِينَ كَانَتْ مَكَّةَ نَفْسَهَا جَارِيَةً فِي حُكْمِهِمْ ؛ وَلَكِنِّي أَنَسِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، إِذْ لَمْ أَرْتَبِطْهَا ، إِذْ كُنْتُ لَا أَرَى هَذَا الْمَذْهَبَ وَلَا أَحْسِنُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ

(١) { أَحْسَبُهُ يُعْنِي الْمُنْعَمَ الَّذِي كَانَ يُعَاوَنُ فِيهِ صَدِيقُهُ الْمَرْحُومَ أَحْمَدَ زَكِي بَاشَا ، وَانْظُرْ : « مَقَالَاتُ مَنْخُولَةٌ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . }

قَوْلًا ، وَأَعُدُّ كُلَّ مَا يُقَالُ فِيهِ مِنْ بَابِ تَلْفِيزِ الْأَدِلَّةِ ، كَأَنَّهُ ذُنُوبُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ فِي النَّاسِ مِنْهُ مِثْلَ غَرَائِزِ الْغَنَمِ . . . فَيَقُولُ « إِلَّا تَرَاهُ تَطْلُتُ » .

وَالدُّكْتُورُ صَرْوَفُ رَجُلٌ مَالِيٌّ فِي الْمَالِ وَفِي الْغَةِ جَمِيعًا ، فَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ فِي الدَّلَالَةِ وَالْقَصْدُ فِي الْوَقْتِ وَالْقَصْدُ فِي الْقُوَّةِ ؛ وَقَدْ صَرَفَتْهُ ثَلَاثَتُهَا عَنِ الشَّعْرِ وَعَمَّا كَانَ فِي حُكْمِهِ مِنْ تَخْبِيرِ النَّثْرِ وَتَوْشِيئِهِ ، عَلَى أَنَّهُ يُحْسِنُهَا لَوْ أَرَادَ وَلَوْ سَخَتْ نَفْسُهُ بِالْوَقْتِ يُنْفِقُهُ وَلَا يَتَعَرَّفُ قَدْرَ مَا مَضَى مِنْهُ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ ، بَلْ فِي سَاعَةِ الْكُونِ الْكُبْرَى الَّتِي يَتَعَاثَبُ فِيهَا عَقْرَبًا الْفُتَاهِ وَاللَّيْلِ ، كَمَا كَانَ يُنْفِقُ الْبَارُودِيَّ يَوْمًا فِي بَيْتٍ أَوْ بَيْتَيْنِ .

وَكَانَ شَيْخَنَا فِي آخِرِ مَجَالِسِي مَعَهُ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ أَوْ نَحْوِهِ ؛ أَطْلَعَنِي عَلَى كُلِّ مَا نَشَرَهُ فِي مُجَلَّدَاتِ « الْمُفْتَطَفِ » مِنْ شِعْرِهِ ، فَأَعْجَبْتُ بِأَشْيَاءَ مِنْهُ ، وَأَشْرْتُ عَلَى صَدِيقِنَا الْأُسْتَاذِ فُؤَادِ صَرْوَفَ أَنْ يُعَيِّدَ نَشْرَ قَصِيدَةِ الرَّقَاشِ الَّتِي تَرَجَمَهَا الدُّكْتُورُ عَنِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي نَسَقِ سَلِسٍ مُوشِحٍ الْقَوَافِي ، وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا بِصِفِّ مَخَارِجِ الْمَدِينَةِ [من المتقارب] :

مَخَارِجُ تَوَالَتْ فَصَالَتْ وَصَارَتْ عَلَى اللَّحْمِ دُودًا وَفِي الْعَظْمِ سُوسًا وَسَالَتِ الدُّكْتُورُ بَعْدَ أَنْ فَرَّغَتْ مِنْ شِعْرِهِ ، فِي أَيِّ طَبَقَةٍ تَعُدُّنِي مِنْ شِعْرَانِهِمْ ؟ فَفَكَّرْتُ قَلِيلًا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : فِي طَبَقَةِ الدُّكْتُورِ صَرْوَفَ ! فَضَحِكَ لَهَا كَثِيرًا .

وَكَانَتْ لَهُ آرَاءُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ غَيْرَ بَعْضِهَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ ، وَمِمَّا قَالَهُ لِي مَرَّةً : إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَخْلُدَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الشَّرْقِ فَلَا يُنْسَى ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْمَعَ فِي هَذَا إِلَّا إِذَا بَنَى هَرَمًا كَهَرَمِ الْجَنَّةِ ! وَهِيَ كَلِمَةٌ فَلَسْفِيَّةٌ كَبِيرَةٌ تَنْطَوِي عَلَى شَرْحِ طَوِيلٍ يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُهُ .

وَقَدْ كَادَتْ قَاعِدَةُ الْقَصْدِ الَّتِي أَوْمَأَتْ إِلَيْهَا تَنْتَهِي بِهِ فِي آخِرِ مَدَّتِهِ إِلَى الْقَوْلِ بِإِسْقَاطِ الْإِعْرَابِ بَنَةً ، وَأَطْلُ ذَلِكَ خَاطِرًا سَنَحَ لَهُ فَأَخَذَ بِأَوَّلِهِ وَتَرَكَ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَعْقَابِهِ ، فَوَرُثَهُ مَرَّةً فِي شَهْرِ يَنَايِرَ/ كَانُونِ الْآخِرِ لِسَنَةِ ١٩٢٧ ، وَكَانَ يُصَحِّحُ تَسْوِيدَةَ جَوَابِ كَتَبُهُ عَنْ سُؤَالِ وَرَدَ عَلَيْهِ فِي هَلْ يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَى الْغَةِ الْفُضْحَى فِي الْفِرَاءَةِ وَالتَّكَلُّمِ ، وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَلَمَّا أَمَرَ الْجَوَابَ عَلَى نَظَرِهِ دَفَعَهُ إِلَيَّ فَقَرَأْتُهُ ، فَإِذَا هُوَ يَرَى أَنَّ كُلَّ حَرَكََةٍ مِنْ حَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ وَالْبِنَاءِ يَتَهَوَّرُ فِيهَا وَفَتْ مَا ؛ قَالَ : فَإِذَا قَضَيْنَا عَلَى أَبْنَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَلَّا يَتَكَلَّمُوا إِلَّا

كَلَامًا مُعَرَّبًا نَكُونُ قَدْ أَضَعْنَا عَلَيْهِمْ ثُلُثَ الْوَقْتِ الَّذِي يَفْضُونَهُ فِي التَّكَلُّمِ مِنْ غَيْرِ فَايِدَةٍ تُجَنِّي .

وَلَقَدْ جَادَلْتُهُ فِي ذَلِكَ وَلَجَجْتُ فِي الْخِلَافِ مَعَهُ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ هَذِهِ قَاعِدَةٌ مَالِيَّةٌ ، ثُمَّ إِنَّكَ أَغْفَلْتَ أَمْرَ الْعَادَةِ وَمَا يُسْرُهُ ، وَفِي الْكَلَامِ إِنْجَازٌ يَقُومُ مَعَ الْإِعْرَابِ هَذَا الْمَقَامَ حِينَ لَا يَكُونُ مِنَ الْإِنْجَازِ بُدٌّ ، وَفِي اللَّهَجَاتِ الْعَامِّيَّةِ مِنَ الْحَشْوِ وَمَطَّ الصَّوْتِ وَفَسَادِ التَّرَكِيبِ مَا يَذْهَبُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثُلُثِ الْوَقْتِ ؛ فَأَحْسَبُهُ أَفْتَنَعَ وَإِنْ كُنْتُ رَأَيْتُهُ لَمْ يَفْتَنِعْ .

وَإِنَّهُ لَيَخْضُرُنِي بَعْدَ هَذَا كَلَامٍ كَثِيرٍ فِي فَضَائِلِ الذُّكُورِ وَأَدَابِهِ وَشَمَائِلِ نَفْسِهِ الزَّرَكِيَّةِ وَمَنْزَعِهِ فِي الْأَخْلَاقِ الطَّبِيعِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَلَوْ ذَهَبْتُ أَفْصَلَ لَخَرَجْتُ إِلَى الْإِفَاضَةِ فِي فُنُونٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَلَكِنِّي أَجْتَرِئُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ يَظْهَرُ لِي دَائِمًا كَأَنَّهُ فِي ظِلٍّ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ .

مصطفى صادق الرافعي

\* \* \*

### الشَّيْخُ الْخَضِرِيُّ (\*)

تَحَوَّلَ الْكَاتِبُ إِلَى كِتَابٍ ، وَرَجَعَ الْمُفَكِّرُ إِلَى فِكْرِهِ ، وَأَصْبَحَ مَنْ كَانَ يُدَارِسُ النَّاسَ فَإِذَا هُوَ دَرَسٌ يَذْكُرُ أَوْ يَنْسَى ، وَتَنَاقُلُ التَّارِيخُ عَالِمًا مِنْ عُلَمَائِهِ ، فَجَعَلَهُ نَبَأً مِنْ أَنْبَائِهِ ، وَكَانَ بَيْنَهُ فَوْضَعُهُ فِي بَنَائِهِ ، وَقِيلَ : مَاتَ الشَّيْخُ الْخَضِرِيُّ !

أَوْ لَوْ يَرْجِعُ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ مِنْ طَرِيقِ الْمَوْتِ الَّتِي أَوَّلَهَا هَذِهِ النُّقْطَةُ الصَّغِيرَةُ الْمُسَمَّاةُ بِالْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَآخِرُهَا حَيْثُ تَجْدُ كَلِمَةَ « الْآخِرَةِ » بِلَا مَعْنَى لَا مَحْدُودَ وَلَا مَطْنُونٍ ! وَآهٍ لَوْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ عَنِ الْمَيِّتِ كَأَنَّهُ حَيٌّ بَيْنَنَا ، وَنَحْنُ كَثِيرًا مَا نَتَكَلَّمَ عَنِ الْحَيِّ كَأَنَّهُ مَاتَ مِنْ زَمَنٍ ! إِنِّي لَأَكْتُبُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ ذَلِكَ السَّمْتَ الْعَجِيبَ ، وَذَلِكَ الْوَقَارَ الَّذِي يَغْمُرُ النَّفْسَ هَيْبَةً وَجَلَالًا ، وَأَسْتَرْوِحُ ذَلِكَ الْحُبَّ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الطَّرِيقِ الثَّلَاثِ الْمُتَنَهِيَةِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَمِنْ الْمَخْلُوقِ إِلَى الْخَالِقِ ، وَالْمُتَبَدِّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَمِنْ الْخَالِقِ إِلَى الْمَخْلُوقِ : طَرِيقُ الْأُمِّ ، وَطَرِيقُ الْأَبِ ، وَطَرِيقُ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ أَكْتُبُ وَكَأَنِّي يَدًا مِنْ وَرَاءِ الْمَادَّةِ تَمْسَحُ عَلَى قَلْبِي فَأَجِدُ ثَقْلَةً وَفَقْرَةً ، وَأَسْتَشْعِرُ حَيْنَتَنَا وَشَوْقًا ، وَأَحِسُّ هَذَا الْقَلْبَ يُنَازِعُنِي إِلَى قَوْمٍ ذَهَبُوا بِلَا رَجْعَةٍ ، وَفَارَقُوا بِلَا وَدَاعٍ ، وَغَابُوا عَنَّا بِلَا خَبِيرٍ ؛ دَخَلُوا إِلَى أَنْفُسِنَا وَلَا تَخَوْنِهِمْ ، وَخَرَجُوا مِنْهَا وَلَا تَخْلُؤًا مِنْهُمْ ، فَمَا دَخَلُوا وَلَا خَرَجُوا ، وَهَلِ هِيَ الْحَيَرَةُ الَّتِي يَتْرُكُهَا الْمَيِّتُ الْعَزِيزُ لِلْحَيِّ الْمُتَفَجِّعِ كَيْمَا يَعْرِفَ بِأَمْوَاتِهِ مَا هُوَ الْمَوْتُ !

\* \* \*

كُنَّا مِنْذُ بَضْعِ ثَلَاثَيْنِ سَنَةٍ فِي مَدِينَةِ الْمَنْصُورَةِ ، وَكَانَ أَبِي يَوْمِئِذٍ كَثِيرَ قَضَاءِ الشَّرْعِ فِي ذَلِكَ الْإِفْلِيمِ ، فَإِنِّي لَأَلْعَبُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي بَهْوِ دَارِنَا إِذْ طُوقَ الْبَابُ ، فَذَهَبْتُ أَفْتَحُ فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ لَمْ يَبْلُغْ سِنَ الْعِمَامَةِ<sup>(١)</sup> ، وَلَمْ أُمَيِّرْ مِنْ هَيَاتِهِ أَهْوُ طَالِبٌ عِلْمٍ أَوْ هُوَ عَالِمٌ ؟ فَكَانَ حَدَّثًا

(\*) « الْمُفْقَطُ » : مَائُو/ أَيْلَار سَنَةِ ١٩٢٧ م .

(١) كِنَايَةً عَنِ الْحَدَاثَةِ وَأَنَّهُ شَيْخٌ بِالْمَنْظَرِ لَا بِالسِّنِّ .

لَكِنَّهُ يَسْمُ بِسِمَةِ الْجِدِّ ؛ وَرَأَيْتُهُ لَا تَمُوجُ بِهِ الْجَبَّةُ كَالْعُلَمَاءِ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَمُجُّهُ كَالطَّلَبَةِ ؛ وَكَانَ فِي يَدِهِ مُجَلَّدٌ ضَخْمٌ لَوْ نَطَقَ لَقَالَ لَهُ : دَعْنِي لِمَنْ هُوَ أَسْنُ مِنْكَ ؛ فَمَا قَدَّرْتُهُ يَرُونِ عَشْرِينَ مُجَلَّدًا مِنْ مِثْلِهِ ، وَنَظَرُ إِلَيَّ نَظَرَةً كَأَنِّي لَا أَزَالُ أَرَاهَا فِي عَيْنِهِ إِلَى السَّاعَةِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : أَيْنَ الشَّيْخُ ؟ يَعْنِي الْوَالِدَ - قُلْتُ : خَرَجَ أَنَا ؛ قَالَ : فَأَذْفَعُ إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ ، وَقُلْ لَهُ جَاءَ بِهِ الْخُضْرِيُّ .

ثُمَّ أَغْلَقْتُ الْبَابَ ، وَأَتَخَيْتُ جَانِبًا ، وَفَتَحْتُ الْمُجَلَّدَ ، فَإِذَا هُوَ جُزْءٌ مِنْ « التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ » لِلْفَخْرِ الرَّازِيِّ ، كَانَ قَدْ اسْتَعَارَهُ مِنْ مَكْتَبَتِنَا ؛ وَعَرَفْتُ الشَّيْخَ مِنْ يَوْمَيْهِ ؛ وَكَانَ أَسْتَاذًا لِلْعَرَبِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ الصَّنَائِعِ ، يَضَعُ كِتَابَ النُّحُو وَالصَّرَفِ مَعَ الْمَطْرَقَةِ وَالْمُنْشَارِ وَالْقُدُومِ ، فَيَذْهَبُ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا ، وَقَلَمًا كُنَّا نَذْكُرُهُ فِي مَدْرَسَتِنَا ، إِذْ كَانَ لَنَا شَيْخٌ فَحَلَّ ثِقَةً مِنْ رِجَالِ الْأَزْهَرِ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْخُضْرِيَّ كَانَ لَهُ مَوْضِعٌ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ ؛ وَكَانَ يُدَاخِلُ قَوْمًا مِنَ الْخَاصَّةِ يُعْنَوْنَ بِالْمَسَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَفَلَسَفَتِهَا وَتَقَرُّبِهَا مِنَ الْعَامَّةِ وَالْكَهْمَاءِ ، وَيُشَارَةُ مِنْ بَعْضِ هَؤُلَاءِ وَضَعَ أَوَّلَ كُتُبِهِ : « نُورُ الْبَقِيَّةِ فِي سِرِّهِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ » ؛ وَيَكَادُ هَذَا الْأَسْمُ يَدُلُّ عَلَى وَزْنِ الْأُسْتَاذِ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَرَاءَ السَّجْعَةِ الْآتِيَةِ مِنَ الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ لَمْ يَمُضِ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ بِمَذْهَبٍ .

\* \* \*

إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ قَوْلًا صَحِيحًا فِي هَذَا الْفَقِيهِ الْعَالِمِ الْمُؤَرِّخِ الْأَدِيبِ الْمُرَبِّي ، يَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ بِنْيَارِهِ إِلَى مَنَبْعِهِ لِيَعْرِفَ مَبْلَغَ أَنْبِعَائِهِ وَقُوَّةَ جَرِيَّتِهِ وَمَدَّ عُبَابِهِ ، فَمَا كَانَ الْخُضْرِيُّ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَدَارِ ذَلِكَ النُّجْمِ الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَهْلَدَتْهُ السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ وَسُمِّيَ فِي أَسْمَائِهَا « مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ » لَقَدْ أَخْرَجَتْهُ دَارُ الْعُلُومِ كَمَا أَخْرَجَتْ الْكَثِيرِينَ ، وَلَكِنْ دَارُ عُلُومِهِ الْكُبْرَى كَانَتْ أَخْلَاقُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ وَشَمَائِلُهُ وَآرَاءُهُ وَبَلَغَتُهُ وَهَمَّةُ نَفْسِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ يَكُونُ هُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ الْعَدَدُ فِي كُلِّ عَصْرِ ، وَأَنْتَ فَكَيْفَ تَأَمَّلْتَ الْخُضْرِيَّ فَأَعْلَمْتَ أَنَّكَ بِإِزَاءِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ ، عَلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ التَّفْسِيرِ ، بَلْ أَنْتَ مِنَ الْخُضْرِيِّ كَأَنَّكَ تَرَى الشَّيْخَ سَارِيًا فِي مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الزَّمَنِ .

كَانَ يَخْضُرُ دُرُوسَ الشَّيْخِ ، وَيَخْتَلِفُ إِلَى نَادِيهِ ، وَيَتَأَقَلُّهُ بَعْضُ الرَّايِ ، وَيُعَارِضُ مَعَهُ

بَعْضَ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَ يَرْجِعُ إِلَى الشَّيْخِ فِي تَضَحُّجِهَا أَوْ الْإِشْرَافِ عَلَى طَبْعِهَا ، فَتَقَدَّ الشَّيْخُ إِلَى نَفْسِهِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى الْأَسْتِقْرَارِ فِيهَا ، فَهُوَ مِنْ بَعْدِ حَرِيصٍ عَلَى وَفَائِهِ ، مُجِدِّ فِي عَمَلِهِ ، دَائِبٌ عَلَى طَرِيقِهِ ، آخِذٌ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، مُصْلِحٌ مُرَبِّ غُيُورٍ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي سَمْتٍ وَهَيْبَةٍ ، وَجَزَالَةٍ رَأْيٍ ، وَشَرَفِ هِمَّةٍ ، وَإِخْلَاصٍ حَقِّ الْإِخْلَاصِ ؛ وَمَا أَرَى قَوْضَى عَصْرِنَا هَذَا وَانْحِطَاطَهُ وَإِسْفَافَهُ وَسَخَافَةَ قَوْلِهِمْ : جَدِيدٌ وَقَدِيمٌ ، وَجَرِيءٌ وَرَجْعِيٌّ ، وَحُرٌّ وَجَامِدٌ - إِلَّا مِنْ خِلَاءِ الْعَصْرِ وَفَرَاغِهِ مِنَ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ ، وَحَاجَتِهِ إِلَى إِمَامٍ عَظِيمٍ ، وَمَتَى أَصْبَحْنَا نَضْرِبُ فِي دَائِرَةٍ لَا مَرْكَزَ لَهَا ، فَهِيَ الْمُرْبَعُ وَهِيَ الْمُسْتَطِيلُ وَهِيَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ ، وَالَّذِينَ رَأَوْا طَاعُورَ الشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ الْمُتَصَوِّفِ حِينَ نَزَلَ بِمِصْرَ ، وَرَأَوْا سِخْرَهُ وَتَخَوُّلَهُ كُلَّ جَدِيدٍ مَدَّةَ أَيَّامٍ إِلَى قَدِيمٍ ، وَإِخْرَاسَهُ هَلِذِهِ الْأَلْسَنَةِ عَنْ تَقْدِيرِهِ وَمُعَارَضَتِهِ ، وَعَنْ مُعَانَدَةِ الْحَقِّ ، طَبِشًا وَتَرْقًا وَضَلَالًا وَتَجْدِيدًا . . . يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُذَرِّكُوا مَا أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ؛ وَيَتَبَيَّنُوا السَّرَّ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ، وَيَتَمَثَّلُوا مَا كَانَ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ فِي عَصْرِهِ بَلْ فِي خَلْقِ عَصْرِهِ .

\* \* \*

وَأَنْتَهَى الْخُضْرِيُّ إِلَى مَدْرَسَةِ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ ، فَالَّفَ كِتَابَهُ فِي الْأُصُولِ ، اخْتَصَرَ فِيهِ وَهَذَّبَ وَقَارَبَ ، فَهُوَ كِتَابٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ لَا كِتَابٌ هَذَا الْعِلْمِ ، وَأَسَانِيدُهُ الْأُصُولِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، وَلَوْ أَنْتَ مِنْهُمْ مِثْلُ الشَّيْخِ الرَّافِعِيِّ الْكَبِيرِ لَرَأَيْتَ الْبَحْرَ الَّذِي يَذْهَبُ فِي سَاحِلِهِ نِصْفُ طُولِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ بَعَثَ الْخُضْرِيُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً يَوْمِيَّةً كَانَ مِنْهَا صَدِيقُنَا الْمَرْحُومُ حَفْنِي نَاصِفٌ ، وَالشَّيْخُ الْمَهْدِيُّ ، وَغَيْرُهُمَا ؛ أَجْتَمَعُوا عَلَى إِبْدَاعِ نَهْضَةٍ فِي التَّأْلِيفِ ، فَذَهَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ بِحِصَّةِ الْأَدَبِ ، وَفَرَّغَ الْخُضْرِيُّ لِلأُصُولِ ، أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ حَفْنِي بِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ ثُمَّ لَمَّا اخْتَارَ الْقَائِمُونَ عَلَى الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ صَدِيقُنَا الْعَلَمَةَ الْمُؤَرِّخَ جُورْجِي زَيْدَانَ لِدَرَسِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ فِيهَا ، طَارَ الْخَبْرُ فِي الْأُمَّةِ بِأَنَّهُمْ اخْتَارُوا الْقُبْلَةَ . . . وَسَمِعَ النَّاسُ بِمَعْنَى الْهَدْمِ قَبْلَ أَنْ يَتَهَدَّمَ شَيْءٌ ، فَاضْطَرَّتِ الْجَامِعَةُ إِلَى أَنْ تُنْجِيَهُ ، وَعَهْدَتْ فِي الدَّرْسِ إِلَى الْأُسْتَاذِ الْخُضْرِيِّ ، فَالْفَى دُرُوسَهُ الَّتِي جَمَعَهَا فِي كِتَابِهِ « تَارِيخُ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ » وَقَالَ فِي مُقَدِّمَةِ هَذَا الْكِتَابِ : « أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ وَفَّقْتُ

لِتَذِلَّ صُعُوبَةُ كُتُبِي، وَهِيَ صُعُوبَةُ اسْتِفَادَةِ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ مِنْ كُتُبِهِ «نَقُولُ: وَعَلَى أَنَّ الشَّيْخَ أَحْسَنَ فِي كِتَابِهِ، وَجَاءَ بِمَادَّةٍ غَزِيرَةٍ مِنْ فِكْرِهِ وَرَأْيِهِ، وَبَسَطَ وَأَخْصَرَ، وَبَاعَدَ وَقَرَّبَ، فَإِنَّ كَلِمَتَهُ هَذِهِ إِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَكْبَرَ مِنَ التَّارِيخِ أَوْ أَكْبَرَ مِنْ كِتَابِهِ.

وَرَدَّ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ عَلَى كِتَابِ «الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ» لِلدُّكْتُورِ طَلْحَةَ حُسَيْنٍ، وَكَانَ رَدُّهُ خُطَابًا أَرَادَ أَنْ يُحَاضِرَ بِهِ طَلِبَةَ الْجَامِعَةِ، لِأَنَّهُ أَسْتَاذُ أَسْتَاذِهِمْ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ جَعْلَ أَسْتَاذِهِمْ هَذَا تَلْمِيزًا مَعَهُمْ، وَأَبَتْ عَلَيْهِ الْجَامِعَةُ مَا أَرَادَ، وَلَعَلَّهَا فُطِنَتْ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ؛ وَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي شَرَعْتُ فِي طَبْعِ رَدِّي عَلَى الدُّكْتُورِ طَلْحَةَ<sup>(١)</sup> كَلَّمَنِي فِي اسْتِئْذَانِ مَقَالِهِ وَجَعَلَهُ ذِيلاً فِي الْكِتَابِ. وَقَدَّرَنَاهُ يَوْمَئِذٍ فِي نَحْوِ خَمْسِينَ صَفْحَةً أَوْ دُونَهَا، وَقَدْ سَأَلْتُهُ أَنْ يَنْفِي مِنْهُ مَا كَانَ فِي مَقَادِيرِ الرَّصَاصِ وَيَقْتَصِرَ عَلَى مَا هُوَ فِي وَزْنِ الْقِتَابِ، فَقَالَ: «كُلُّهُ قِتَابٌ!» ثُمَّ اتَّسَعَ كِتَابِي وَجَاوَزَ مِقْدَارُهُ إِلَى الضَّغْبِ، فَوَسَّعَ هُوَ رَدُّهُ وَزَادَ فِيهِ وَطَبَعَهُ فِي قَرِيبِ مِنْ ضِعْفِهِ عَلَى حِدَةٍ.

دَخَلَ كِتَابُهُ الْمَشْهُورُ «مُهَذَّبُ الْأَغَانِي»، فَهَذَا لَا يُقَالُ: إِنَّ الشَّيْخَ الْفَهْمُ، بَلِ الْفَهْمُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ وَأَطْلُ كُلِّ ذَلِكَ لَا يُذَكَّرُ فِي جَنْبِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ فِيهِ أَخِيرًا، وَهُوَ كِتَابُ «الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ»، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ فِي جُزْأَيْنِ، وَدَعَانِي إِلَى دَارِهِ لِأَرَى «الْمَكْتَبَةَ الْخُضْرِيَّةَ»؛ وَلَا طُلِعَ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ؛ فَوَعَدْتُهُ وَلَمْ يَقْدِرْ لِي، وَقَدْ حَدَّثَنِي أَنَّهُ مَعْنِي أَشَدَّ الْعِنَايَةِ بِاسْتِجْمَاعِ الْفُرُوقِ الَّتِي يَمْتَنَزُ بِهَا الْأَدَبُ الْمِصْرِيُّ عَنِ الْأَدَبِ الْحِجَازِيِّ وَالشَّامِيِّ وَالْعِرَاقِيِّ وَالْأَنْدَلُسِيِّ، وَأَنَّهُ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ مُتَمَيِّزَةً مِنْذُ الدَّوْلَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ، يَحِقُّ لِمِصْرَ أَنْ تَقُولَ فِيهَا: هَذَا أَدَبِي؛ وَكَانَ يَكْتُمُ خَبَرَ هَذَا الْكِتَابِ، حَتَّى إِنَّ صَدِيقَنَا الْأُسْتَاذَ حَافِظَ بَنِي عَوُضَ صَاحِبَ جَرِيدَةِ «كُوكَبِ الشَّرْقِ»، اقْتَرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ فَضْلاً فِي الشُّعْرَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَدَبِهِمْ يَفْقَهُهُ لِكِتَابِ حَفَلَةِ تَكْرِيمِ شَوْقِي بِكَ، ثُمَّ لَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: إِنَّ الْبَحْثَ سَائِرَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِهِ!

\* \* \*

كَانَ الْخُضْرِيُّ يَفْرَحُ لِلِقَائِي وَيَهْشُ لِي، وَكُنْتُ أَتَبَيَّنُ فِي وَجْهِهِ أَشْعَةَ رُوحِهِ الصَّافِيَةِ،

وَلَعَلَّهُ كَانَ يَرَى بِي فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ الشَّيْخَ الَّذِي أَعْطَانِي الْمَجْلَدَ، كَمَا كُنْتُ أَرَى بِهِ فِي نَفْسِي ذَلِكَ التَّلْمِيزَ الَّذِي أَخَذَ الْمَجْلَدَ مِنْهُ! عَلَى أَنَّ مَرْجِعَ ذَلِكَ فِي الْحَقِّ إِلَى سَعَةِ صَدْرِهِ، وَتُسْحَةِ رَأْيِهِ، وَبَسْطَةِ ذِرَاعِهِ، وَسُمُوِّ أَدَبِهِ وَإِنْصَافِهِ؛ فَلَا يَخْشَدُ وَلَا يَخْشَدُ، وَلَا يَتَجَاوَزُ قُدْرَهُ، وَلَا يَنْزِلُ بِأَحَدٍ عَنْ قُدْرِهِ، وَلَا يَدْعِي مَا لَا يُحْسِنُ؛ وَقَدْ عَرَفَ قُرَاءُ «الْمُقْتَطَفِ» مَثَلًا مِنْ أَخْلَاقِهِ هَذِهِ أَوْ أَكْثَرَهَا حِينَ انْتَقَدَهُ صَدِيقُنَا الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ مَخْمُودٍ، وَتَنَاوَلَ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ كِتَابِهِ «مُهَذَّبُ الْأَغَانِي»، وَرَاحَ يَتَقَلَّلُ لَهُ كَجُلُودٍ صَخْرَةٍ... فَوَسَّعَهُ الشَّيْخُ وَعُنِيَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ فِي «الْمُقْتَطَفِ»، وَنَعَتَهُ بِالْأُسْتَاذِ الْجَهْدِ وَأَنْتَصَفَ مِنْهُ وَأَنْصَفَهُ مَعًا. وَلَقَدْ اقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ مَرَّةً أَنْ يَضَعَ كِتَابًا فِي حِكْمَةِ الشَّرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ وَفَلَسَفَتِهِ فَقَالَ لِي: «مُسْ قَدْهُ» يَعْنِي أَنَّ الْعَمَلَ أَكْبَرَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ هَذَا نَبْهٌ إِلَى وَضْعِ كِتَابِهِ فِي «تَارِيخِ الشَّرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ».

وَلَمَّا أَصْدَرْتُ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ «تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ» فِي سَنَةِ ١٩١١، لَمْ أَهْدِهِ إِلَى الشَّيْخِ، فَاشْتَرَاهُ وَقَرَأَهُ، ثُمَّ لَقِيْتُهُ وَسَأَلْتُهُ رَأْيَهُ فِيهِ، فَقَالَ: (جِدًّا كُوَيْس) فَكَانَ تَقْدِيرُهُ (جِدًّا) تَقْرِيفًا، وَ(كُوَيْس) تَقْرِيفًا آخَرَ؛ وَهُوَ يَقُولُ هَذَا عَلَى حِينِ كَانَ بَغْضُ إِخْوَانِهِ الشُّيُوخِ يَكَادُ يَمُوتُ عَمًا بِهِذَا الْكِتَابِ وَمَا كُتِبَ عَنْهُ، وَعَلَى حِينِ كَلَّمَنِي بَعْضُهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي تَرْكِ هَذَا الْعَمَلِ وَنَفْضِ يَدَيَّ مِنْهُ، لِأَنَّهُ - زَعَمَ - عَمَلٌ شاقٌّ بِلَا فَايِدَةٍ...

وَقَدْ زُرْتُ الْأُسْتَاذَ الْخُضْرِيَّ فِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ؛ فَبَعْدَ أَنْ جَلَسْتُ إِلَى جَانِبِهِ نَهَضَ مَرَّةً ثَانِيَةً وَجَعَلَ يُبَيِّنُني بِقُوَّةٍ فِي الْكُرْسِيِّ، كَأَنَّهُ لَمْ يَطْمَئِنَّ بَعْدُ إِلَى أَنِّي جَلَسْتُ، ثُمَّ فَاضَ بِكَلَامٍ كَثِيرٍ؛ فَكَانَ فِيْمَا قَالَ: «أَنَا الْآنَ أَعِيشُ فِي غَيْرِ زَمَانِي!» وَكَأَنَّمَا كَانَ يَنْعِي إِلَيَّ نَفْسَهُ بِهِذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يَذِرُنِي وَلَا أَذِرُنِي؛ وَقَالَ لِي: إِنَّهُ يَجْلِسُ إِلَى مَكْتَبِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتَّ سَاعَاتٍ يَقْرَأُ أَوْ يُؤَلِّفُ أَوْ يَنْسَخُ؛ لِأَنَّ كُلَّ كُتُبِهِ الْمَخْطُوطَةِ هُوَ نَاقِلُهَا وَنَاسِخُهَا وَمُصَحَّحُهَا، وَأَنَّهُ يَتْلُو كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ: وَلَا يَغْتَرِيهِ الْبَرْدُ وَلَا مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِهِ، لِمَا اعْتَادَ مِنْ رِيَاضَةِ صَدْرِهِ بِهِذِهِ التَّلَاوَةِ؛ وَقَالَ: إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَرَكََةِ الْقُرْآنِ.

\* \* \*



وَلْتُمْسِكْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، فَإِنَّ لِلذِّكْرِى غَمْرًا عَلَى الْقَلْبِ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَالِمًا كَالْكِتَابِ ، وَكَاتِبًا كَالْعُلَمَاءِ ؛ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَوَّلَتِكَ يَلْفُ الطَّبَقَتَيْنِ ، وَهُوَ وَحْدَهُ مَنَزَلَةٌ بَيْنَ الْمَنَزَلَتَيْنِ ؛ وَبِذَلِكَ تَمَيَّزَ وَظَهَرَ ، فَإِنَّهُ فِي إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ عَقْلٌ جَرِيءٌ تَمُدُّهُ رِوَايَةٌ وَاسِعَةٌ فِي غُلُومٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتَرَاهُ يَنْبُتُ مِنْ عَقْلِهِ الْحَيَاةَ إِلَى الْمَاضِي حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَمُضْ ، وَهُوَ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى عِلْمٌ مُسْتَفِيزٌ لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ الصَّحِيفَةِ أَوْ الْكِتَابِ ، بَلْ لَا يَزَالُ يَلْتَمِسُ لَهُ عَقْلًا يُخْرِجُهُ وَيَصْرِفُ بِهِ ، حَتَّى يَكْبُرَ عَنْ أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا بَحْتًا فَيَسْتَظِمُّ الْحَاضِرَ إِلَى مَاضِيهِ وَيُطْلِقُهَا إِنْطِلَاقًا وَاحِدًا . لَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ جَدِيدًا إِلَّا بِالْقَدِيمِ ، وَلَا قَدِيمًا إِلَّا بِالْجَدِيدِ ؛ فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ قَدِيمًا مَخْضًا وَلَا جَدِيدًا صِرْفًا ، وَلَا نَقِيمُ وَزْنَ أَحَدِهِمَا إِلَّا بِوَزْنٍ مِنَ الْآخَرِ إِذَا أَرَدْنَا بِهِمَا سَنَةَ الْحَيَاةِ ؛ وَأَنْتَ لَنْ تَجِدَ حَيًّا مُنْقَطِعًا مِمَّا وَرَاءَهُ ، بَلْ أَنْتَ تَرَى الطَّبِيعَةَ قَبْدَتْ كُلَّ حَيٍّ جَدِيدٍ إِلَى أَصْلَيْنِ مِنَ الْقَدِيمِ لَا أَصْلٍ وَاحِدٍ ، هُمَا أَبَوَاهُ ، فَمِنْهُمَا يَأْتِي وَمِنْهُمَا يَسْتَمِدُّ ، وَهُمَا أَبَدًا فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَى حِدَةٍ ؛ وَبَعْدُ : فَلَوْ جَارَيْتَ السَّخَافَةَ الْعَصْرِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ لَقُلْتَ : إِنَّ الْمَذْهَبَ الْقَدِيمَ . . . قَدْ أَهْدَى رُكْنَ مِنْ أَرْكَانِهِ ، وَنَقَصَ قِنْطَارَ كُتُبٍ مِنْ مِيزَانِهِ ؛ وَلَكِنَّ هَذِهِ السَّخَافَةَ فِي رَأْيِي كَمَا تَرَى مِنْ جَمَاعَةٍ ائْتَلَوْا أَنْ يُطْفِئُوا نَجْمًا فِي السَّمَاءِ لِأَنَّهُ قَدِيمٌ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ وَأَجْمَعُوهُ بَيْنَهُمْ وَفَرَّغُوا مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ كَيْفَ يَهَيَّوْنَ الْعَرَبَاتِ وَالْمِضْخَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ إِلَى السَّمَاءِ بِضْعَةَ أَبْخَرٍ لِيَصُبُّوَهَا عَلَى النَّجْمِ . . .

\* \* \*

## رَأْيِي جَدِيدٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ « الْعَرَبِيِّ » الْقَدِيمَةِ (\*)

« أَدَبُ الْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ مِنَ الدَّوَاوِينِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي قَالَ ابْنُ خَلْدُونٍ فِيهَا مِنْ كَلَامِهِ عَلَى حَدِّ عِلْمِ الْأَدَبِ : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينٍ : وَهِيَ « أَدَبُ الْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ ، وَكِتَابُ « الْكَامِلِ » لِلْمُبَرِّدِ ، وَكِتَابُ « الْبَيِّنَاتِ وَالْبَيِّنِينَ » لِلْجَاحِظِ ، وَكِتَابُ « التَّوَادِرِ » لِابْنِ عَلِيٍّ الْقَالِي الْبَغْدَادِيِّ ؛ وَمَا سِوَى هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَتَبِعَ لَهَا وَفُرُوعَ عَنْهَا .

وَقَدْ يَظُنُّ أَدْبَاءُ عَصْرِنَا أَنَّ كَلِمَةَ ابْنِ خَلْدُونٍ هَذِهِ كَانَتْ تَصْلُحُ لِرَمْنِهِ وَقَوْمِهِ ، وَأَنَّهَا تَتَوَجَّهُ عَلَى طَرِيقَةٍ مَن قَبْلَهُمْ فِي طَبَقَةٍ بَعْدَ طَبَقَةٍ إِلَى أَصُولِ هَذِهِ السُّلْسِلَةِ الَّتِي يَقُولُونَ فِيهَا : حَدَّثَنَا فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ إِلَى الْأَصْمَعِيِّ أَوْ أَبِي عُيَيْدَةَ أَوْ أَبِي عَمْرٍو ابْنِ الْعَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ شُيُوخِ الرِّوَايَةِ وَنَقْلَةِ اللُّغَةِ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَفِيدُ فِي آدَابِنَا وَلَا تُعَدُّ مِنْ آدَابِنَا وَلَا تَقَعُ مِنْ مَعَارِفِنَا ؛ بَلْ يَكَادُ يَذْهَبُ مَنْ يَتَعَزَّزُ مِنْهُمْ بِالْآرَاءِ الْأُورِيبَةِ الَّتِي يُسَمِّيَهَا عِلْمُهُ . . . وَمَنْ يَسْتَرْسِلُ إِلَى التَّقْلِيدِ ، الَّذِي يُسَمِّيهِ مَذْهَبُهُ . . . إِلَى أَنَّ تِلْكَ الْكُتُبُ وَمَا جَرَى فِي طَرِيقَتِهَا هِيَ أَمْوَاتٌ مِنَ الْكُتُبِ ، وَهِيَ قُبُورٌ مِنَ الْأَوْرَاقِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِنَ الْإِهْمَالِ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَنَا مِنَ الزَّمَنِ ، وَأَنْ بَعَثَ الْكِتَابُ مِنْهَا وَإِحْيَاؤُهُ يُؤْشِكُ أَنْ يَكُونَ كَبَعْتُ الْمَوْتِ : عَلَامَةٌ عَلَى خَرَابِ الدُّنْيَا . . .

فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَى خَرَابِ الدُّنْيَا ، فَهُوَ صَحِيحٌ إِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ مُحَرَّرٌ جَرِيدَةٌ . . . مِنْ أَتْنَالٍ أَصْحَابِنَا هَؤُلَاءِ ، وَأَمَّا تِلْكَ الْكُتُبُ فَأَنَا أَحْسِبُهَا لَمْ تُوضَعْ إِلَّا لِرَمْنِنَا هَذَا وَلِأَدْبَائِهِ وَكُتَّابِهِ خَاصَّةً ، وَكَأَنَّ الْقَدَرَ هُوَ أَثَبَّتَ ذَلِكَ الْقَوْلَ فِي مُقَدِّمَةِ ابْنِ خَلْدُونٍ لِيُنْهِيَ بِنَصِّهِ إِلَيْنَا ، فَسَتَخْرِجَ مِنْهُ مَا يَقِينُنَا عَلَى الطَّرِيقَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي وَقَعَ أَدْبَاؤُهُ

(\*) كُتِبَتْ مُقَدِّمَةُ لِسَرِّحِ الْجَوَالِقِيِّ عَلَى « أَدَبِ الْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ . [نُشِرَتْ فِي « الْمُقْتَطَفِ » عِدَّةَ يُولْيُو/تَمُوزِ ١٩٣١ ، الصَّفَحَاتِ : ١٢ - ١٦] .

فِي مُتَسَعِ طَوِيلٍ مِنْ قُنُونِ الْأَدَبِ ، وَمُضْطَرَبِ عَرِيضٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْكِتَابَةِ وَأُفْقٍ لَا تَسْتَقِرُّ حُدُودُهُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفَلَسَفَةِ ... فَإِنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ الْحَافِلَةَ مِنَ الْمَعَانِي تُخَيِّنُ آدَابَ الْأُمَمِ فِي أَوْرَثَةٍ وَأَمْرِيكَةٍ ، وَلِكَيْهِنَّ تَكَادُ تَطْمِسُ آدَابَنَا وَتَمْحَقُنَا مَحَقًا تَذْهَبُ فِيهِ خَصَائِصُنَا وَمَقُومَاتُنَا ، وَتُجِيلُنَا عَنْ أَوْضَاعِنَا الثَّارِيخِيَّةِ ، وَتُفْسِدُ عُقُولَنَا وَتَزَعِجُنَا ، وَتَزِمِي بِنَا مَرَامِيهَا بَيْنَ كُلِّ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ ، حَتَّى كَأَن لَيْسَتْ مِمَّا أُمَّةٌ فِي حَيَرِهَا الْإِنْسَانِي الْمَحْدُودِ مِنْ نَاحِيَةِ الثَّارِيخِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْبَلَدِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْعُلُومِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْآدَابِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَتَيْتِي أَكْثَرَ كُتُبِنَا بِالْإِنْجَرِافِ عَنِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ أَوْ الْعَصِيَّةِ عَلَيْهِ أَوْ الزَّرَايَةِ لَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَسَّبَهُ قَدْ رُمِيَ فِي عَقْلِهِ لِهَوَسِهِ وَحِمَاقَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ فِي حِفْهِهِ سُلُوحُ قَلْبِهِ ، وَمِنْهُمْ الْمُقْلُدُ لَا يَذَرِي أَعْلَى قَصْدٍ هُوَ أَمْ جَوْرٌ ؟ وَمِنْهُمْ الْحَايِزُ يَذْهَبُ فِي مَذْهَبٍ وَيَجِيءُ مِنْ مَذْهَبٍ وَلَا يَتَّجِعُ لِقَصْدٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ وَكَفَى ...

وَقَلَمًا نَتَبَّهَ أَحَدٌ إِلَى السَّبَبِ فِي هَذَا ؛ وَالسَّبَبُ فِي حَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ « كَالْمَكْرُوبِ »<sup>(١)</sup> : بِذَرَّةٍ طَامِسَةٍ لَا شَأْنَ لَهَا ، وَلَكِنْ مَتَى تَنَبَّهْتُ ، تَنَبَّهْتُ أَوْجَاعًا وَالْأَمَا وَمَوْتًا وَأَحْزَانًا وَمَصَائِبَ شَتَّى .

السَّبَبُ أَنَّ أَوْلَئِكَ الْأَدْبَاءَ كُلَّهُمْ ثُمَّ مَنْ يَتَشَبَّهُ لَهُمْ أَوْ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِمْ ، لَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ تَرَى فِي أُسَاسِهِ الْأَدَبِيِّ تِلْكَ الْأُصُولَ الْعَرَبِيَّةَ الْمَخْضَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى دِرَاسَةِ اللُّغَةِ وَجَمْعِهَا وَتَصْنِيفِهَا وَبَيَانِ عِلَلِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَمَطَارِحِ اللِّسَانِ فِيهَا ، وَالْمُتَأَدِّيَةُ بِذَلِكَ إِلَى تَمْكِينِ الْأَدِيبِ النَّاشِئِ مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَتَطْوِينِهَا لَهُ ، فَيَكُونُ قِيَمًا بِهَا وَتَكُونُ هِيَ مُسْتَجِيبَةً لِقَلَمِهِ جَارِيَةً فِي طَبِيعَتِهِ مُسَدَّدَةً فِي تَصَرُّفِهِ ، حَتَّى إِذَا نَشَأَ بِهَا وَاسْتَحْكَمَ فِيهَا أَحْسَنَ الْعَمَلِ لَهَا وَزَادَ فِي مَادَّتِهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ غَيْرِهَا وَكَانَ خَلِيقًا أَنْ يَمُدَّ فِيهَا وَيُحْسِنَ الْمَلَأَمَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَدَبِ الْأُخْرَى وَيَجْعَلَ ذَلِكَ نَسْجًا وَاحِدًا وَبَيَانًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ ، فَيَنْمُو الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ فِي صَنِيعِهِ كَمَا تَنْمُو الشَّجَرَةُ الْحَيَّةُ : تَأْخُذُ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا لِغُضْرِهَا وَطَبِيعَتِهَا وَلَيْسَ إِلَّا عُضْرُهَا وَطَبِيعَتُهَا حَسْبُ .

(١) [الْمَكْرُوبُ Microbe : الجُرثومة ، كَائِنٌ دَقِيقٌ حَيٌّ] .

إِنَّ « آدَبَ الْكَاتِبِ » وَشَرَحَهُ هَذَا لِلْإِمَامِ الْجَوَالِقِيِّ<sup>(١)</sup> وَمَا صُفِّتَ مِنْ بَابَيْهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَمْعِ مِنَ اللُّغَةِ وَالْخَبَرِ وَشِعْرِ الشَّوَاهِدِ وَالْإِسْتِفْصَاءِ فِي ذَلِكَ وَالتَّبَسُّطِ فِي الْوُجُوهِ وَالْعِلَالِ الْخَوِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ وَالْإِمْنَانِ فِي التَّحْقِيقِ ، كُلُّ ذَلِكَ عَمَلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرِفَ عَلَى حَقِّهِ فِي زَمَنِنَا هَذَا ، فَهُوَ لَيْسَ أَدَبًا كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الْمَعْنَى الْفَلَسَفِيَّةِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، بَلْ هُوَ أَبْعَدُ الْأَشْيَاءِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي كِتَابٍ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ إِلَّا التَّأَلِيفَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، أَمَّا الْمُؤَلَّفُ فَلَا تَجِدُهُ وَلَا تَعْرِفُهُ مِنْهَا إِلَّا كَالْكَلِمَةِ الْمَخْبُوسَةِ فِي قَاعِدَةٍ ... وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ رُوحٌ إِنْسَانٍ بَلْ رُوحُ مَادَّةٍ مُضْمَنَةٍ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْشَأْ لِيَعْمَلْ فِي عَصْرِهِ بَلْ لِيَعْمَلَ عَصْرُهُ فِيهِ ، وَكَأَن لَيْسَ فِي الْكِتَابِ جِهَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مُتَعَيِّنَةٌ ، فَتَمَّ تَأَلِيفٌ وَلَكِنْ أَيْنَ الْمُؤَلَّفُ ؟ وَهَذَا كِتَابُ أَبِي قَتَيْبَةَ وَلَكِنْ أَيْنَ أَبِي قَتَيْبَةَ فِيهِ ؟

وَمَا أَخْطَأَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي تَسْمِيَّتِهِمْ هَذِهِ الْكُتُبَ أَدَبًا ؛ فَذَلِكَ هُوَ رَسْمُ الْأَدَبِ فِي عَصْرِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الرَّسْمَ قَدْ انْتَقَلَ فِي عَصْرِنَا نَحْنُ ، فَإِنَّا نَحْنُ الْمُخْطُؤُونَ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، كَمَا لَوْ ذَهَبْنَا نُسَمِّي الْجَمَلَ فِي الْبَادِيَةِ : الْإِكْسَبْرِيس<sup>(٢)</sup> ، Expres ، وَالْهُودَجَ : عَرَبِيَّةً بُولْمَان<sup>(٣)</sup> Pullman .

مِنْ هَذَا الْخَطِإِ فِي التَّسْمِيَةِ ظَهَرَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ لِقِصَارِ النَّظَرِ كَأَنَّهُ تَكَرَّرَ عَصْرٌ وَاحِدٌ عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَنِ ، فَإِنْ زَادَ الْمُتَأَخَّرُ لَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مِنَ الْمُتَقَدِّمِ ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ كَأَنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ الْجِنْسِيَّةِ نَافِذٌ عَلَى الدَّهْرِ ، لَا يَنْبَغِي لِعَصْرِ يَأْتِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ .

هَذِهِ الْكُتُبُ فِي هَذِهِ الثَّانِيَةِ كَالْخَلِّ : يُسَمَّى لَكَ عَسَلًا ثُمَّ تَذُوقُهُ فَلَا يَجِيءُ عَلَيْهِ عِنْدَكَ

(١) الْجَوَالِقِيُّ : جَمَعَ شَادَّ الْجَوَالِقِ ، وَقَدْ نُسِبَ هَذَا الْإِمَامُ إِلَى عَمَلِ الْجَوَالِقِ وَبَنِيهَا ؛ وَهَذَا الْجَمْعُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدِهِ إِلَّا الْحَرَكَةُ ، فَالْمُفْرَدُ جَوَالِقُ (بِضْمٍ الْجِنِيمِ) وَالْجَمْعُ بِالْفَتْحِ ؛ وَمِثْلُهُ الْفَاطُ أَخْصَرُهَا : كَحَلَّجٍ ، وَعُدَّامِلٍ ، وَخُتَارِمٍ ، وَغَيْرِهَا .

(٢) الْإِكْسَبْرِيس Expres : السريع ، والمقصود عادة من هذا اللفظ : القطار السريع . بِشَام .

(٣) عَرَبِيَّةٌ بُولْمَانُ نَسَبًا إِلَى الصَّنَاعِيِّ الْأَمِيرِكِيِّ George Mortimer Pullman (١٨٣١ - ١٨٩٧) وَهُوَ الَّذِي صَمَّمَ أَوَّلَ عَرَبِيَّةٍ لِلْمَنَامَةِ فِي الْقَطَارَاتِ ، وَيُطْلَقُ اسْمُهُ عَلَى عَرَبَاتِ الرَّفَاهِيَةِ مِنْ مَنَامَةٍ وَاسْتِقْبَالِ طَعَامٍ . بِشَام .

إِلَّا أَلَسْمُ الَّذِي رُوِيَ لَهُ ، أَمَّا هُوَ فَكَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ وَفِي فَائِدَتِهِ وَفِي طَبِيعَتِهِ وَفِي الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، لَا يَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَتَغَيَّرُ .

الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُعِيْنُهَا الْوَضْعُ الصَّحِيحُ أَنَّ تِلْكَ الْمُؤَلَّفَاتِ إِنَّمَا وَضِعَتْ لِتَكُونَ أَدَبًا ، لَا مِنْ مَعْنَى أَدَبِ الْفِكْرِ وَفَقْهِ وَجَمَالِهِ وَفَلَسَفَتِهِ ، بَلْ مِنْ مَعْنَى أَدَبِ النَّفْسِ وَتَثْقِيفِهَا وَتَرْبِيَتِهَا وَإِقَامَتِهَا ، فَهِيَ كُتُبٌ تَرْبِيَةٌ لِعُوقِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَى أَصُولٍ مُحْكَمَةٍ فِي هَذَا الْبَابِ ، حَتَّى مَا يَقْرُوهَا أَعْجَبِي إِلَّا خَرَجَ مِنْهَا عَرَبِيًّا أَوْ فِي هَوَى الْعَرَبِيَّةِ وَالْمِلِّإِلِيَّهَا ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بُنِيَتْ عَلَى أَوْضَاعٍ تَجْعَلُ الْفَارِيَّ الْمُتَبَصِّرَ كَأَنَّمَا يُصَاحِبُ مِنَ الْكُتُبِ أَغْرَابِيًّا فَصِيحًا يَسْأَلُهُ ، فَيُجِيبُهُ وَيُسْتَهْدِيهِ فَيُرْشِدُهُ ، وَيُخْرِجُهُ الْكِتَابَ تَصَفِّحًا وَقِرَاءَةً كَمَا تُخْرِجُهُ الْبَادِيَةُ سَمَاعًا وَتَلْفِينًا ، وَالْفَارِيَّ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُسْتَذَرَجٌ إِلَى التَّعَرُّبِ فِي مَذْرَجَةٍ مُدْرَجَةٍ مِنْ هَوَى النَّفْسِ وَمَحَبَّتِهَا ، فَتَصْنَعُ بِهِ تِلْكَ الْفُصُولَ فِيمَا دُبِّرَتْ لَهُ مِثْلَمَا تَصْنَعُ كُتُبُ النَّزْبِيَّةِ فِي تَكْوِينِ الْخَلْقِ بِالْأَسَالِيِبِ الَّتِي أُدِيرَتْ عَلَيْهَا وَالشَّوَاهِدِ الَّتِي وَضِعَتْ لَهَا وَالْمَعَالِمِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي فَصَلَتْ فِيهَا .

وَمِنْ ثَمَّ جَاءَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا عَلَى نَسَبٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ فِي الْجُمْلَةِ ، فَهِيَ أَخْبَارٌ وَأَشْعَارٌ وَلُغَةٌ وَعَرَبِيَّةٌ وَجَمْعٌ وَتَحْقِيقٌ وَتَمَجِيزٌ ، وَإِنَّمَا تَتَفَاوَتْ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالْإِخْتِصَارِ وَالنَّبْطِ وَالْتَفْخِيفِ وَالْتَفْخِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي الْمَوْضُوعِ لَا فِي الْوَضْعِ ، حَتَّى لِيَحْتَلَّ إِلَيْكَ أَنَّ هَذِهِ كُتُبُ جُغَرَايَةِ لُغَةٍ وَالْفَاطِظِهَا وَأَخْبَارِهَا ، إِذْ كَانَتْ مِثْلَ كُتُبِ الْجُغَرَايَةِ : مُنْطَابِقَةً كُلُّهَا عَلَى وَصْفِ طَبِيعَةٍ ثَابِتَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ مَعَالِمُهَا وَلَا يَخْلُقُ غَيْرُهَا إِلَّا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَإِذَا تَذَكَّرْتَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ لَمْ تُعْجَبْ كَمَا يُعْجَبُ الْمُتَطَفِّلُونَ عَلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَالْمُتَحَبِّطُونَ فِيهِ مِنْ أَنْ يَرَوْا إِيمَانُ الْمُؤَلِّفِينَ مُتَّصِلًا بِكُتُبِهِمْ ظَاهِرَ الْأَثَرِ فِيهَا ، وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا يَقْرَءُونَ أَنَّمَا يُرِيدُونَ بِهَا الْمُنْزَلَةَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْعَمَلِ لِجَبَاطِ هَذَا اللَّسَانِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَتَأْدِيبِهِ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ إِلَى قَوْمِهِمْ كَمَا تُؤَدِّي الْأَمَانَةُ إِلَى أَهْلِهَا ، حَتَّى لَوْ لَا الْقُرْآنُ لَمَا وَضِعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ الْبَتَّةُ .

وَأَنَا أَتْلُمُحُ دَائِمًا الْعَامِلَ الْإِلَهِيَّ فِي كُلِّ أَطْوَارِ هَذِهِ اللَّغَةِ ، وَأَرَاهُ يُدِيرُهَا عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مُعْجَزَتُهَا الْكُبْرَى ، وَأَرَى مِنْ أَثَرِهِ مَجِيءَ تِلْكَ الْكُتُبِ عَلَى ذَلِكَ الْوَضْعِ ،

وَسَخِيرُ تِلْكَ الْعُقُولِ الْوَاسِعَةِ مِنَ الرُّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْحُفَاطِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فِي الْجَمْعِ وَالشَّرْحِ وَالتَّلْفِينِ بِغَيْرِ ابْتِكَارٍ وَلَا وَضْعٍ وَلَا فِلْسَفَةٍ وَلَا زَيْغٍ عَنْ تِلْكَ الْخُدُودِ الْمَرْسُومَةِ الَّتِي أَوْمَأْنَا إِلَى حِكْمَتِهَا ، فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مُجَدِّدُونَ مِنْ طِرَازِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ التَّخْلِيْطِ ، ثُمَّ تَرَكَ لَهُمْ هَذَا الشَّأْنَ يَتَوَلَّوْنَهُ كَمَا نَرَى بِالنَّظَرِ الْقَصِيرِ وَالرَّأْيِ الْمُعَايِدِ وَالْهَوَى الْمُنْحَرِفِ وَالْكَبْرِيَاءِ الْمُصَمِّمَةِ وَالْقَوْلِ عَلَى الْهَاجِسِ وَالْعِلْمِ عَلَى التَّوَهُّمِ وَمُجَادَلَةِ الْأَسْنَادِ خِصَصَ لِلْأَسْنَادِ بَيَّصَ . . . إِذَنْ لَضَرَبَ بَعْضُهُمْ وَجْهَ بَعْضٍ ، وَجَاءَتْ كُتُبُهُمْ مُتْدَابِرَةً ، وَمُسَخَّحَ التَّارِيخِ وَضَاعَتِ الْعَرَبِيَّةُ وَفَسَدَ ذَلِكَ الشَّأْنَ كُلُّهُ ، فَلَمْ يَتَسَقَّ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَمِمَّا تَرَدُّهُ عَلَى قَارِئِهَا تِلْكَ الْكُتُبُ فِي تَرْبِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَنَّهُهَا تُمْكِنُ فِيهِ لِلصَّبْرِ وَالْمُعَانَاةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوَرُّكِ فِي النَّبْحِ وَالتَّنْقِيقِ فِي التَّصْفِيحِ ، وَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي فَقَدَهَا أَدْبَاءُ هَذَا الزَّمَنِ ، فَاصْبِرُوا لَا يَسْتَبْشِرُونَ وَلَا يَتَحَقَّقُونَ ، وَطَالَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْظُرُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَثَقُلَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَظِلُّوا كُتُبَهَا ؛ وَلَوْ قَدْ تَرَبَّوْا فِي تِلْكَ الْأَسْفَارِ وَبِذَلِكَ الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ لَنَمَتِ الْمَلَأَمَةُ بَيْنَ اللَّغَةِ فِي قُوَّتِهَا وَجَزَالَتِهَا وَبَيْنَ مَا عَسَى أَنْ يُنْكِرَهُ مِنْهُمْ ذَوْفُهُمْ فِي ضَعْفِهِ وَعَامِيَّتِهِ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا .

وَذَلِكَ بِعَيْنِهِ هُوَ السَّرُّ فِي أَنَّ مَنْ لَا يَقْرَأُونَ تِلْكَ الْكُتُبَ أَوَّلَ نَشَاتِهِمْ ، لَا تَرَاهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَّا بِأَسْلُوبٍ مُنْحَطٍّ ، وَلَا يَجِئُونُ إِلَّا بِكَلَامٍ سَقِيمٍ غَثٍّ ، وَلَا يَرَوْنَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ إِلَّا آراءَ مُلْتَوِيَةٍ ؛ ثُمَّ هُمْ لَا يَسْتَظِلُّونَ أَنْ يُقِيمُوا عَلَى دَرَسِ كِتَابِ عَرَبِيٍّ ، فَيَسَاهِلُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَحْكُمُونَ عَلَى اللَّغَةِ وَالْأَدَبِ بِمَا يَشْعُرُونَ بِهِ فِي حَالَتِهِمْ تِلْكَ ، وَيَتَوَرَّطُونَ فِي أَقْوَالٍ مُضْحِكَةٍ ، وَيَسْنُونَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقَطْعُ عَلَى الشَّيْءِ مِنْ نَاحِيَةِ الشُّعُورِ مَا دَامَ الشُّعُورُ يَخْتَلِفُ فِي النَّاسِ بِاخْتِلَافِ أَسْبَابِهِ وَعَوَارِضِهِ ، وَلَا مِنْ نَاحِيَةِ الْجُورِ أَنْ يَكُونَ الْخَطَأُ فِيهَا ؛ وَهُمْ أَبَدًا فِي إِحْدَى اللَّاحِظَيْنِ أَوْ فِي كِلْتَاهُمَا .

\* \* \*

وهَذَا شَرْحُ الْجَوَالِيْقِيِّ مِنْ أَمْتِ الْكُتُبِ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا ، وَصَاحِبُهُ هُوَ الْإِمَامُ أَبُو مَنْصُورٍ مَوْهُوبُ الْجَوَالِيْقِيِّ الْمَوْلُودُ فِي سَنَةِ ٤٦٥ هـ لِلْهَجْرَةِ ، وَالْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٤٠ هـ ؛ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ الْإِمَامِ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا الْحَطِيبِ التَّبْرِيْزِيِّ ؛ أَوَّلُ مَنْ دَرَسَ الْأَدَبَ فِي الْمَدْرَسَةِ النَّظَامِيَّةِ

يَعْدَاد<sup>(١)</sup> ، وَقَرَأَ الْجَوَالِيْقِي عَلَى شَيْخِهِ هَذَا سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، اسْتَوْفَى فِيهَا عُلُومَ الْأَدَبِ مِنَ اللَّغَةِ وَالشَّعْرِ وَالْخَبَرِ وَالْعَرَبِيَّةِ بِفُتُوْنِهَا ، ثُمَّ خَلَفَ شَيْخَهُ عَلَى تَدْرِيسِ الْأَدَبِ فِي النُّظَامِيَّةِ بَعْدَ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْمَعْرُوفِ بِالْفَصِيحِيِّ<sup>(٢)</sup> .

وَمَا نَشْكُ أَنَّ هَذَا الشَّرْحَ هُوَ بَعْضُ دُرُوسِهِ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ ، فَانْتَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ كَأَنَّكَ بِإِزَاءِ كُرْسِيِّ التَّدْرِيسِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، تَسْمَعُ مِنْ رَجُلٍ انْتَهَتْ إِلَيْهِ إِمَامَةُ اللَّغَةِ فِي عَصْرِهِ ، فَهُوَ مُدَقِّقٌ مُحِيطٌ مُبَالِغٌ فِي الْأَسْتِفْصَاءِ ، لَا يَبْذُلُ عَنْهُ شَيْءٌ مِمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الشَّرْحِ ، مَعْنِي بِالْتَّصْرِيفِ وَوُجُوهِهِ مِمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ مِنْ أَثَرِ الْإِمَامِ ابْنِ جَنِّي فَيَلْسُوفُ هَذَا الْعِلْمَ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، فَإِنَّ بَيْنَ الْجَوَالِيْقِيِّ وَبَيْنَهُ شَيْخَيْنِ كَمَا تَعْرِفُ مِنْ إِسْنَادِهِ فِي هَذَا الشَّرْحِ .

وَقَدْ قَالُوا : إِنَّ أَبَا مَنْصُورٍ فِي اللَّغَةِ أَمْتَلُ مِنْهُ فِي النَّحْوِ ، عَلَى إِمَامَتِهِ فِيهِمَا مَعًا ؛ إِذْ كَانَ يَذْهَبُ فِي بَعْضِ عِلَلِ النَّحْوِ إِلَى آرَاءٍ شَادَّةٍ يَنْفَرِدُ بِهَا ، وَقَدْ سَاقَ مِنْهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَنْبَارِيُّ مَثَلَيْنِ فِي كِتَابِهِ « نُزْهُةُ الْأَلْبَاءِ » ، وَلَكِنَّ هَذَا الشَّدُوذُ نَفْسَهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِفْلالِ الْفَكْرِ وَسَعْيِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَكُونَ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَئِمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ<sup>(٣)</sup> . وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ رَجُلٌ ثِقَةٌ صَدُوقٌ كَثِيرُ الضَّبْطِ عَجِيبٌ فِي التَّحَرِّيِ وَالتَّدْقِيقِ ؛ حَتَّى كَانَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ فِي طِبَاعِهِ أَنْ اِعْتَادَ التَّفَكُّيرَ وَطُولَ الصَّمْتِ ، فَلَا يَقُولُ قَوْلًا إِلَّا بَعْدَ تَدَبُّرٍ وَفَكْرٍ طَوِيلٍ ، فَإِنْ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى شَيْءٍ قَالَ : لَا أَذْرِي ؛ وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُسْأَلُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا يُجِيبُ إِلَّا بَعْدَ أَيَّامٍ .

(١) أُنْشَأَ نِظَامُ الْمُلْكِ وَزَيَّرَ تِلْكَ شَاهُ السَّلْجُوقِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٥ هـ .

(٢) لُقِّبَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ إِعَادَتِهِ كِتَابَ « الْفَصِيحِ فِي اللَّغَةِ » .

(٣) قَالَ يَاقُوتُ فِي تَرْجَمَةِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ مِنْ « مُعْجَمِ الْأَدَبَاءِ » : قَرَأْتُ بِحِطِّ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْخَشَابِ : كَانَ شَيْخَنَا (بَعْنِي : الْجَوَالِيْقِي) فَلَمَّا يَتَنَبَّلُ عِنْدَهُ مُبَارِسٌ لِلصَّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ وَلَوْ طَالَ فِيهَا بَاغُهُ ، مَا لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ عِلْمِ الْوَرَايَةِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ ضُرُوبِهَا ، وَلَا سِيَّمَا رَوَايَةَ الْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِعَرَفَتِهَا مِنْ لُغَةٍ وَقَضِيَّةٍ ؛ وَلِهَذَا كَانَ مُقَدِّمًا لِأَبِي سَعِيدٍ الشُّبْرَانِيِّ عَلَى أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ وَيَقُولُ : أَبُو سَعِيدٍ أَرَوَى مِنْ أَبِي عَلِيٍّ ، وَأَكْثَرَ تَحَقُّقًا مِنْهُ بِالْوَرَايَةِ وَأَثَرِي مِنْهُ فِيهَا .

وَكَانَ وَرِعًا قَوِيَّ الْإِيمَانَ ، انْتَهَى بِهِ إِيمَانُهُ وَعِلْمُهُ وَتَقْوَاهُ إِلَى أَنْ صَارَ أَسْنَادَ الْخَلِيفَةِ الْمُفْتَتِي لِأَمْرِ اللَّهِ ، فَأَخْتَصَّ بِإِمَامَتِهِ فِي الصَّلَوَاتِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْمُفْتَتِي شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ ، وَانْتَفَعَ بِذَلِكَ وَبَانَ أَثَرُهُ فِي تَوْقِيعَاتِهِ كَمَا قَالُوا .

وَالَّذِي يَتَأَمَّلُ هَذَا الشَّرْحَ فَضَّلَ تَأَمُّلَ يَرَى صَاحِبَهُ كَأَنَّمَا خَلَقَهُ اللَّهُ رَجُلًا إِخْصَاءً فِي اللَّغَةِ ، لَا يَقُوْنُهُ شَيْءٌ مِمَّا عَرَفَ إِلَى زَمَنِهِ ؛ وَهُوَ وَلَا رَبِّبَ يَجْرِي فِي الطَّرِيقَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي نَهَجَهَا ابْنُ جَنِّي وَشَيْخُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ ؛ وَمِنْ أَثَرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَتَحَجَّرُ وَلَا يَمْنَعُ الْفِيَّاسَ فِي اللَّغَةِ ، وَيُلْحِقُ مَا وَضَعَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَيَرْوِي ذَلِكَ جَمِيعَهُ وَيَحْفَظُهُ وَيُلْفِيهِ عَلَى طَلَبِهِ ، وَمِنْ أَمْنَعِ مَا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ فِي شَرْحِهِ ، قَوْلُهُ فِي صَفْحَةِ ٢٣٥ ، وَهُوَ بَابٌ لَمْ يَسْتَوْفِهِ غَيْرُهُ وَلَا تَجِدُهُ إِلَّا فِي كِتَابِهِ ، وَهَلِيزَ عِبَارَتُهُ :

قَوْلُهُمْ : يَدِي مِنْ ذَلِكَ فَعِلَةٌ : الْمَسْمُوعُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْأَفَاطِ قَلِيلَةٌ ، وَقَدْ قَاسَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اللَّغَةِ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا : يَدِي مِنَ الْإِهَالَةِ سَنَخَةٌ ، وَمِنْ اللَّيْضِ زَهْمَةٌ ، وَمِنْ التُّرَابِ تَرَبَةٌ ، وَمِنْ التَّيْنِ وَالْعِنَبِ وَالْفَوَاكِهِ كَيْتَةٌ وَكَمِدَةٌ وَلَرْجَةٌ ، وَمِنْ الْعُشْبِ كَيْتَةٌ أَيْضًا ، وَمِنْ الْجُبْنِ نَسِمَةٌ ، وَمِنْ الْحِصِّ شِهْرَةٌ ، وَمِنْ الْحَدِيدِ وَالشَّيْبَةِ وَالصُّفْرِ وَالرَّصَاصِ سِهْكَةٌ وَصِدْنَةٌ أَيْضًا ، وَمِنْ الْحَمَاءَةِ رَدْعَةٌ وَرَزْعَةٌ ، وَمِنْ الْخِضَابِ رَدْعَةٌ ، وَمِنْ الْحِنْطَةِ وَالْعَجِينِ وَالْخُبْزِ نَسْعَةٌ ، وَمِنْ الْخَلِّ وَالثَّبِيدِ خَمِطَةٌ ، وَمِنْ الدَّبْسِ وَالْعَسَلِ دَبْقَةٌ وَلَرْقَةٌ أَيْضًا ، وَمِنْ الدِّمِّ شَحِطَةٌ وَشَرِيفَةٌ ، وَمِنْ الدَّهْنِ زَنْخَةٌ ، وَمِنْ الرِّيَاحِينِ ذَكِيَّةٌ ، وَمِنْ الزَّهْرِ زَهْرَةٌ ، وَمِنْ الزَّرْبِ قَنِمَةٌ ، وَمِنْ السَّمَكِ سِهْكَةٌ وَصِمْرَةٌ ، وَمِنْ السَّمْنِ دِسْمَةٌ وَنِسْمَةٌ وَنِمْسَةٌ ، وَمِنْ الشَّهْدِ وَالطَّيْنِ لَيْقَةٌ ، وَمِنْ الْعَطْرِ عَطْرَةٌ ، وَمِنْ الْغَالِيَةِ عَبْقَةٌ ، وَمِنْ الْغُسْلَةِ وَالْقِدْرِ وَحِرَةٌ ، وَمِنْ الْفِرْصَادِ قَيْتَةٌ ، وَمِنْ اللَّبَنِ وَصِرَةٌ ، وَمِنْ اللَّحْمِ وَالْمَرْقِ غِمْرَةٌ ، وَمِنْ الْمَاءِ بَلَلَةٌ وَسَبْرَةٌ ، وَمِنْ الْمِسْكِ ذِفْرَةٌ وَعَبْقَةٌ ، وَمِنْ اللَّتَنِ قَنِمَةٌ ، وَمِنْ التَّفْطْرِ جَعْدَةٌ . انْتَهَى .

فَالْمَسْمُوعُ مِنْ هَذِهِ الْأَفَاطِ عَنِ الْعَرَبِ لَا يَتَجَاوَزُ سَبْعًا فِيمَا تَرَى ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ أَجْرَاهُ عُلَمَاءُ اللَّغَةِ وَأَهْلُ الْأَدَبِ عَلَى الْفِيَّاسِ ، فَأَبْدَعَ الْفِيَّاسُ مِنْهَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ كَلِمَةً ؛ وَلَوْ تَدَبَّرْتَ كَيْفِيَّةَ اسْتِخْرَاجِهَا وَرَجَعْتَ إِلَى الْأَصُولِ الَّتِي أَخَذْتَ مِنْهَا لَا يُقْنِتُ أَنَّ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةَ

هِيَ أَوْسَعُ اللُّغَاتِ كَافَّةً ، وَأَنَّهَا مِنْ أَهْلِهَا كَالثَّبُوتِ الْخَالِدَةِ فِي دِينِهَا الْقَوِيِّ : تَنْتَظِرُ كُلَّ جَبَلٍ يَأْتِي كَمَا وَدَّعَتْ كُلَّ جَبَلٍ غَبَرَ لِأَنَّهَا الْإِنْسَانِيَّةُ ، لِهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ .

إِنَّ ظُهُورَ مِثْلِ هَذَا الشَّرْحِ كَالْتَوْبِيخِ لِأَكْثَرِ كُتَّابِ هَذَا الزَّمَنِ أَنْ أَقْرَؤُوا وَأَدْرُسُوا وَخُصُّوا لُغَتَكُمْ بِشَطْرِ مَنْ عِنَايَتِكُمْ ؛ وَتَرَبَّؤُوا لَهَا بِتَرْبِيَّتِهَا فِي مَدَارِسِكُمْ وَمَعَاهِدِكُمْ ، وَأَصْبِرُوا عَلَى مُعَانَاةِهَا صَبْرَ الْمُحِبِّ عَلَى حَبِيبِهِ ، فَإِنْ ضَعُفْتُمْ فَصَبِّرِ الْبَارَّ عَلَى مَنْ يُلْزِمُهُ حَقُّهُ ؛ فَإِنْ ضَعُفْتُمْ عَنْ هَذَا فَصَبِّرِ الْمُتَكَلِّفَ الْمُتَجَمِّلَ عَلَى الْأَقَلِّ ...

\* \* \*

### أَمِيرُ الشُّعْرِ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ (\*) (١)

الْوَجْهُ فِي إِفْرَادِ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ مِنَ الْمَاضِينَ بِالتَّأَلُّفِ ، أَنْ تَصْنَعَ كَأَنَّكَ تُعِيدُهُ إِلَى الدُّنْيَا فِي كِتَابٍ وَكَانَ إِنْسَانًا ، وَتَرْجِعُهُ دَرْسًا وَكَانَ عُمَرَا ، وَتَرْدُّهُ حِكَايَةً وَكَانَ عَمَلًا ، وَتَقْلُهُ بِزَمَانِهِ إِلَى زَمَانِكَ ، وَتَعْرِضُهُ بِقَوْمِهِ عَلَى قَوْمِكَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ خِلْقَةً إِنْبِجَادٍ يَخْلُقُهُ الْعَقْلُ خِلْقَةً تَفَكُّيرٍ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَقَصَّى الْمُؤَلِّفُ فِي الْجَمْعِ مِنْ آثَارِ الْمُتَرْجِمِ وَأَخْبَارِهِ ، وَأَنْ يَخْمَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَنَتِ مَا يَحْمِلُهُ لَوْ هُوَ كَانَ يَجْرِي وَرَاءَ مَلَكَيْنِ مَنْ يُتْرَجَمُهُ لِقِرَاءَةِ كِتَابِ أَعْمَالِهِ كِتَابَهُ فِي يَدَيْهِمَا ... وَلَا بُدَّ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّمْجِيسِ وَالْمُقَابَلَةِ ، وَيُدَقِّقَ فِي الْأَسْتِنْبَاطِ وَالْإِسْتِخْرَاجِ ، وَيُضَيِّفَ إِلَى عَامَّةِ مَا وَجَدَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخَبَرِ خَاصَّةً مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْفِكْرِ ، وَيَعْمَلَ عَلَى أَنْ يُنْقِصَ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ الْمَاضِي فِي آدَبِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا بَلَغَ إِلَيْهِ الْحَاضِرُ فِي فَنِّهِ وَفَلَسَفَتِهِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَمَلِ الْعَقْلِ الْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا وَالْمُتَرَادِفِ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ بِمَذَاهِبِهِ الْمُخْتَلِفَةِ ، يُشَبِّهُ عَمَلَ الدَّهْرِ الْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا وَالْمُتَرَادِفِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، كُلُّ نَهَارٍ أَوْ لَيْلٍ هُوَ آخِرٌ وَهُوَ أَوَّلٌ ، وَكَذَلِكَ الْعُقُولُ كُلُّهَا آخِرٌ مِنْ نَاحِيَةٍ وَأَوَّلٌ مِنْ نَاحِيَةٍ .

وَالْتَّجَدُّدُ فِي الْأَدَبِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ طَرِيقَتَيْنِ : فَأَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِبْدَاعُ الْأَدِيبِ الْحَيِّ فِي آثَارِ تَفَكُّيرِهِ بِمَا يَخْلُقُ مِنَ الصُّوَرِ الْجَدِيدَةِ فِي اللُّغَةِ وَالْبَيِّنَاتِ ، وَأَمَّا الْأُخْرَى فَإِبْدَاعُ الْحَيِّ فِي آثَارِ الْمَيِّتِ بِمَا يَتَنَاوَلُهَا بِهِ مِنْ مَذَاهِبِ الثَّقَدِ الْمُسْتَحْدَثَةِ ، وَأَسَالِيْبِ الْفَنِّ الْجَدِيدَةِ ؛ وَفِي الْإِبْدَاعِ

(\*) « الْمُفْتَقَطُ » نوفمبر/ تشرين الآخر ، ١٩٣٠ م ، الصفحات : ٤١٨ - ٤٢٠ .

(١) وَضَعَ الْأَدِيبُ مُحَمَّدُ صَالِحُ سَمَكُ رِسَالَةً قِيَمَةً فِي أَمْرِ الْقَيْسِ « أَمِيرُ الشُّعْرِ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ » تَقَعَ فِي نَحْوِ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ صَفْحَةً . سَلَكَ فِيهَا مَسْلَكًا طَرِيفًا ، وَحَلَّاهَا بِمُقَدِّمَةٍ بَلِيغَةٍ لِلْأَسْتِثْنَاءِ الْجَبِيلِ مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ ، فَخَصَّ الْمُؤَلِّفُ الْمُفْتَقَطَ بِنَشْرِ الْمُقَدِّمَةِ وَبَعْضِ أَبْحَاثِ الرِّسَالَةِ فِيهَا طَبَقًا لِرَغْبَتِنَا .

الْأَوَّلِ إِنْجَادَ مَا لَمْ يُوجَدْ ، وَفِي الثَّانِي إِنْتِمَاءَ مَا لَمْ يَتِمَّ ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَتْ فِيهِمَا مَعًا حَقِيقَةُ التَّجْدِيدِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا ، وَلَا تَجْدِيدَ إِلَّا مِنْ نَمَّةٍ ، فَلَا جَدِيدَ إِلَّا مَعَ الْقَدِيمِ .

وَإِذَا تَبَيَّنَتْ هَذَا وَحَقَّقْتَهُ أَذْرَكْتَ لِمَاذَا يَتَحَبَّطُ مُتَحَلِّوُ الْجَدِيدِ بَيْنَنَا وَأَكْثَرُهُمْ يَدْعِيهِ سِفَاهًا وَيَقْلُدُهُ زُورًا ، وَجُمْلَةُ عَمَلِهِمْ كَوَضْعِ الرُّنْجِيِّ الدُّرُورَ الْأَبْيَضَ (البُودْرَةَ) Poudre عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ يَذْهَبُ يَدْعِي أَنَّهُ خَرَجَ أَبْيَضَ مِنْ أُمِّهِ لَا مِنْ الْعُلْبَةِ . . . فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَصْنَعُ رِسَالَةً فِي شَاعِرٍ وَهُوَ لَا يَفْهَمُ الشَّعْرَ وَلَا يُحْسِنُ تَفْسِيرَهُ وَلَا يَجِدُهُ فِي طَبْعِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْرُؤُ الْكَاتِبَ الْبَلِيعَ وَقَدْ بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَأَسْرَارِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُّ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ وَلَكِنْ بِالتَّكْذُوبِ عَلَيْهِ وَالتَّقَحُّمِ فِيهِ وَاللَّهَابِ فِي مَذْهَبِ الْمُخَالَفَةِ ، يَضْرِبُ وَجْهَ الْمُقْبِلِ حَتَّى يَجِيءَ مُدْبِرًا ، وَوَجْهَ الْمُذْبِرِ حَتَّى يَعُودَ مُقْبِلًا ، فَإِذَا لِكُلِّ طَرِيقٍ جَدِيدٌ ، وَيَنْسَى أَنَّ جَدِيدَهُ بِالصَّنْعَةِ لَا بِالطَّبِيعَةِ ، وَبِالزُّورِ لَا بِالْحَقِّ .

إِلَّا إِنْ كُلٌّ مِنْ شَاءَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَطْبَعَ لِكُلِّ مَرِيضٍ ، لَا يُكَلِّفُهُ ذَلِكَ إِلَّا قَوْلًا يَقُولُهُ وَتَلْفِيقًا يُدَبِّرُهُ ؛ وَلَكِنْ أَكْذَلِكَ كُلُّ مَنْ وَصَفَ دَوَاءً اسْتَطَاعَ أَنْ يَشْفِي بِهِ ؟ .

وَبَعْدُ ؛ فَقَدْ قَرَأْتُ رِسَالَةَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ الَّتِي وَضَعَهَا الْأَدِيبُ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ صَالِحٌ سَمَكٌ ، فَرَأَيْتُ كَاتِبَهَا - مَعَ أَنَّهُ نَاشِئٌ بَعْدُ - قَدْ أَذْرَكَ حَقِيقَةَ الْفَنِّ فِي هَذَا الْوَضْعِ مِنْ تَجْدِيدِ الْأَدَبِ ، فَاسْتَقَامَ عَلَى طَرِيقَةٍ غَيْرِ مُلْتَوِيَةٍ ، وَمَضَى فِي الْمَنْهَجِ السَّيِّدِ ، وَلَمْ يَدَعْ التَّثَبُّتَ وَإِنْعَامَ النَّظَرِ وَتَقْلِيدَ الْفِكْرِ وَتَخْصِصَ الرَّأْيِ ، وَلَا قَصَرَ فِي التَّخْصِيلِ وَالْإِطْلَاعِ وَالْإِسْتِفْصَاءِ ، وَلَا أَرَاهُ قَدْ فَاتَهُ إِلَّا مَا لَا بُدَّ أَنْ يَفُوتَ غَيْرُهُ مِمَّا ذَهَبَ فِي إِهْمَالِ الرُّوَاةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَصْبَحَ الْكَلَامُ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَحُكْمًا بِالظَّنِّ .

فَإِنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ فِي رَأْيِي إِنَّمَا هُوَ عَقْلٌ بَيِّنٌ كَثِيرٌ مِنَ الْعُقُولِ الْمُفْرَدَةِ الَّتِي خَلَقَتْ خَلْفَهَا فِي هَذِهِ اللُّغَةِ ، فَوَضَعَ فِي بَيَانِهَا أَوْضَاعًا كَانَتْ هِيَ مُبْتَدِعَهَا وَالسَّابِقَ إِلَيْهَا ، وَنَهَجَ لِمَنْ بَعْدَهُ طَرِيقَتَهَا فِي الْإِحْدَاءِ عَلَيْهَا وَالزِّيَادَةِ فِيهَا وَالتَّوَلُّيدِ مِنْهَا ، وَتِلْكَ هِيَ مَتَقَبِّهَةُ الَّتِي أَنْفَرَدَ بِهَا وَالَّتِي هِيَ سِرُّ خُلُودِهِ فِي كُلِّ عَصْرِ إِلَى دَهْرِنَا هَذَا وَإِلَى مَا بَقِيَتِ اللُّغَةُ ، فَهُوَ أَضَلُّ مِنَ الْأُصُولِ فِي أَبْوَابِ مِنَ الْبَلَاغَةِ كَالْتَشْبِيهِ وَالْإِسْتِعَارَةِ وَغَيْرِهِمَا ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ مُصْنَعٌ مِنْ مَصَانِعِ اللُّغَةِ لَا رَجُلٌ مِنْ رِجَالِهَا ، وَكَمَا يُقَالُ فِي رَمَيْنَا فِي أُمِّ الصَّنَاعَةِ : سَيَّارَةُ فُورْدِ Ford ،

وَسَيَّارَةُ فَيَاتِ Fiat ؛ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : اسْتِعَارَةُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ ، وَتَشْبِيهِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ .

وَلَكِنْ تَحْقِيقُ هَذَا الْأَبَابِ وَإِخْصَاءُ مَا أَنْفَرَدَ بِهِ الشَّاعِرُ وَتَارِيخُ كَلِمَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ مِمَّا لَا يَسْتَطِيعُهُ بَاحِثٌ ، وَلَيْسَ لَنَا فِيهِ إِلَّا الْوُقُوفُ عِنْدَ مَا جَاءَ بِهِ النَّصُّ .

وَلَقَدْ نَبَّهْنَا فِي « إِعْجَازِ الْقُرْآنِ » إِلَى مِثْلِ هَذَا ، إِذْ نَعْتَقِدُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَانَ جَدِيدًا فِي اللُّغَةِ ، لَمْ يُوضَعْ مِنْ قَبْلِهِ ذَلِكَ الْوَضْعُ ، وَلَمْ يَجْرَ فِي اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ كَمَا أَجْرَاهُ ، فَهُوَ يَصُبُّ اللُّغَةَ صَبًّا فِي أَوْضَاعٍ لَأَهْلِهَا لَا فِي أَوْضَاعِ أَهْلِهَا ، وَبِذَلِكَ يُحَقِّقُ مِنْ نَحْوِ أَلْفِ وَأَرْبَعِ مِئَةِ سَنَةٍ مَا لَا نَظْلُ فِلْسَفَةِ الْفَنِّ قَدْ بَلَغَتْ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، إِذْ حَقِيقَةُ الْفَنِّ عَلَى مَا تَرَى أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ كَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهَا لَيْسَ فِي تَرْكِيبِهَا إِلَّا الْقُوَّةُ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا ، فَإِذَا تَنَاوَلَهَا الصَّنِيعُ الْحَادِثُ أَلْمَلَهُمْ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ تَعْبِيرِهِ مَا يُشْعِرُكَ أَنَّهُ خَلَقَ فِيهَا الْجَمَالَ الْعَقْلِيَّ ، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ فِي الْخِلْقَةِ نَاقِصَةً حَتَّى أَتَمَّهَا .

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي بَيَّنَّاهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَحُومُ عَلَيْهِ الرُّوَاةُ وَالْعُلَمَاءُ بِالشَّعْرِ قَدِيمًا ، يُحْسِنُونَهُ وَلَا يَجِدُونَ بَيَانَهُ وَتَأْوِيلَهُ ، فَتَرَى الْأَصْمَعِيَّ مَثَلًا يَقُولُ فِي شِعْرِ لَبِيدٍ : إِنَّهُ طِيلَسَانٌ طَبْرِي . أَيْ : مُحَكَّمٌ مَتِينٌ وَلَكِنْ لَا رَوْنَقَ لَهُ ؛ أَيْ : فِيهِ الْقُوَّةُ وَلَيْسَ فِيهِ الْجَمَالُ ؛ أَيْ : فِيهِ التَّرْكِيبُ وَلَيْسَ فِيهِ الْفَنُّ .

وَالْعَقْلُ الْبَيِّنِيُّ كَمَا قُلْنَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، هُوَ ثَرْوَةُ اللُّغَةِ ، وَبِهِ وَبِأَمْثَالِهِ تَعَامَلُ التَّارِيخُ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ فِيهَا فَنَّ الْفَاطِطِهَا وَصُورَهَا ، فَهُوَ بِذَلِكَ أَمْتِدَادُهَا الزَّمَنِيَّ وَاتِّقَالُهَا التَّارِيخِيَّ وَتَحَلُّلُهَا مَعَ أَهْلِهَا إِنْسَانِيَّةً بَعْدَ إِنْسَانِيَّةٍ فِي زَمَنٍ بَعْدَ زَمَنٍ ، وَلَا تَجْدِيدَ وَلَا تَطَوُّرَ إِلَّا فِي هَذَا التَّحَلُّقِ مَتَى جَاءَ مِنْ أَهْلِهِ وَالْجَدِيدِينَ بِهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ الْمَخْلُوقُ لِلتَّفْسِيرِ وَالتَّوَلُّيدِ وَتَلْقَى الْوُحْيَ وَأَدَائِهِ وَاعْتِصَارَ الْمَعْنَى مِنْ كُلِّ مَادَّةٍ وَإِدَارَةَ الْأَسْلُوبِ عَلَى كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْمَعَانِي وَالْآرَاءِ فَيَنْقُلُهَا مِنْ خِلْقَتِهَا وَصِيغَتِهَا الْعَالَمِيَّةِ إِلَى خَلْقِ إِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ ، هُوَ هَذَا الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي رَزَقَ الْبَيَانَ .

وَلِلْسَبِّ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَقِيَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ كَالْمِيزَانِ الْمَنْصُوبِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ يَبِينُ بِهِ الثَّقَافُ وَالْوَفَاءُ ، قَالَ الْبَلَّاقَانِيُّ فِي كِتَابِهِ « الْإِعْجَازُ » : وَقَدْ تَرَى الْأَدَبَاءَ أَوَّلًا يُوزَانُونَ

بِشْعَرِهِ (يُرِيدُ أَمْرًا أَلْفَيْسِي) فَلَنَا وَفَلَانَا ، وَيَضْمُونُ أَشْعَارَهُمْ إِلَى شِعْرِهِ ، حَتَّى رُبَّمَا وَازَنُوا بَيْنَ شِعْرِ مَنْ لَقِينَاهُ (تَوْفِي الْبَاقِلَانِي سَنَةَ ٤٠٣ لِلْهِجْرَةِ) وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِي أَشْيَاءَ لَطِيفَةٍ وَأُمُورٍ بَدِيعَةٍ ، وَرُبَّمَا فَضَّلُوهُمْ عَلَيْهِ أَوْ سَوَّاهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، أَوْ قَرَّبُوا مَوْضِعَ تَقْدِيمِهِ عَلَيْهِمْ وَبُرُوزَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . انْتَهَى .

وَمَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ أَمْرًا أَلْفَيْسِي أَصْلُ فِي الْبَلَاغَةِ ، قَدْ مَاتَ وَلَا يَزَالُ يُخْلَقُ ، وَتَطَوَّرَتِ الدُّنْيَا وَلَا يَزَالُ يَجِيءُ مَعَهَا ، وَبَلَغَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ غَايَتَهُ وَلَا تَزَالُ عَرَبِيَّتُهُ عِنْدَ الْعَايَةِ .

وَعَرَضَ الْبَاقِلَانِي فِي كِتَابِهِ طَوِيلَةً أَمْرِي أَلْفَيْسِي<sup>(١)</sup> ، فَانْتَقَدَ مِنْهَا أَتِيَانًا كَثِيرَةً ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَجُودَ شِعْرِ وَأَبْدَعَهُ وَأَفْصَحَهُ وَمَا أَجْمَعُوا عَلَى تَقْدِيمِهِ فِي الصَّنَاعَةِ وَالْبَيَانِ ، هُوَ قَبِيلٌ آخَرُ غَيْرِ نَظْمِ الْقُرَّانِ ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ آفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَقْصِصِهَا وَعَوَارِهَا ؛ فَكَبَتْ فِي ذَلِكَ رَأْسُهُ وَرِجْلَيْهِ مَعًا . . فَأَصَابَ وَأَخْطَأَ ، وَتَعَسَّفَ وَتَهَدَّى ، وَأَنْصَفَ وَتَحَامَلَ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِمَكَانَةِ أَمْرِي أَلْفَيْسِي فِي ابْتِكَارِهِ الْبَيَانِي الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُذْفَعَ عَنْهُ ؛ وَلَكَمَا انْتَقَدَ قَوْلُهُ [من الطويل] :

وَبَيَضَةُ خِذْرِ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعَتْ فِي لَهْوٍ بِهَا غَيْرُ مُعْجَلٍ  
قَالَ : « فَقَدْ قَالُوا : عَلَى بِذَلِكَ أَنَّهَا كَبَيْضَةُ خِذْرِ فِي صَفَائِهَا وَرِقَّتِهَا ، وَهَذِهِ كَلِمَةٌ حَسَنَةٌ وَلَكِنْ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا بَلْ هِيَ دَائِرَةٌ فِي أَفْوَاهِ الْعَرَبِ » أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ كَانَ الْبَاقِلَانِي يَسْمَعُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعَرَبِ فِي عَصْرِ أَمْرِي أَلْفَيْسِي قَبْلَ أَنْ يَقُولَ (وَبَيَضَةُ خِذْرِ) ؟

عَلَى أَنَّ الْكِنَايَةَ عَنِ الْحَبِيبَةِ (بَيَضَةُ الْخِذْرِ) مِنْ أَبْدَعِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنِ مَا يُؤْتَى الْعَقْلُ الشَّعْرِيُّ ، وَلَوْ قَالَهَا الْيَوْمَ شَاعِرٌ فِي لُنْدُنْ London أَوْ بَارِيسَ Paris بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ أَمْرُو أَلْفَيْسِي - لَا يَمَّا فَسَّرَهَا بِهِ الْبَاقِلَانِي - لَأَسْتَبَدَّتْ مِنْ قَائِلِهَا وَلَا صَبَحَتْ مَعَ الْقُبْلَةِ عَلَى كُلِّ قَوْمٍ جَمِيلٍ ؛ بَلْ هُمْ يَمُرُّونَ فِي بَعْضِ بَيَانِهِمْ مِنْ طَرِيقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ؛ فَيَكُونُونَ عَنِ الْبَيْتِ الَّذِي يَتَلَقَّى فِيهِ الْحَبِيبَانِ (بِالْعُشِّ) وَمَا يُتَّخَذُ الْعُشُّ إِلَّا لِلْبَيْضَةِ إِنَّمَا عَلَى الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ أَنَّ حَبِيبَتَهُ

(١) أي : مُعَلَّقَتُهُ ، وَهَذِهِ الْقَصَائِدُ الَّتِي تُسَمَّى الْمُعَلَّقَاتُ لَمْ تُكْتَبْ وَلَمْ تُعَلَّقْ كَمَا سَبَقَتْهُ فِي « تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ » . { فُلْتُ : انْظُرِ الْجُزْءَ الثَّالِثَ } .

فِي نُعُومَتِهَا وَتَرْفِهَا وَلَيْنِ مَا حَوْلَهَا ، ثُمَّ فِي مَسَّهَا وَخَرَارَةِ الشَّبَابِ فِيهَا ، ثُمَّ فِي رِقَّتِهَا وَصَفَاءِ لَوْنِهَا وَبَرِّيقِهَا ، ثُمَّ فِي قِيَامِ أَهْلِهَا وَدَوْنِهَا عَلَيْهَا وَلُزُومِهَا إِلَيْهَا ، ثُمَّ فِي حَذَرِهِمْ وَسَهَرِهِمْ ، ثُمَّ فِي انْصِرَافِهِمْ بِجُمْلَةِ الْحَيَاةِ إِلَى شَأْنِهَا وَبِجُمْلَةِ الْقُوَّةِ إِلَى حَيَاتِهَا وَالْمُحَامَاةِ عَنْهَا - هِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَمِنْ نَفْسِهَا كَبَيْضَةِ الْجَارِحِ فِي عُشِّهِ ، إِلَّا أَنَّهَا بَيَضَةُ خِذْرِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ هَذَا أَلْبَيْتِ [من الطويل] :

تَجَاوَزْتَ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَغْشَرًا عَلَى حِرَاصٍ لَوْ يُسْرُونَ مَقْتَلِي  
فَتِلْكَ بَعْضُ مَعَانِي الْكَلِمَةِ وَهِيَ كَمَا تَرَى ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفَسَّرَ الْبَيَانُ . .

\* \* \*

## الْبُؤْسَاءُ (\*)

تَرْجَمَ حَافِظُ هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْبُؤْسَاءِ فَطَوَّى بِهِ الْأَوَّلَ ، وَكَانُوا يَحْسِبُونَ الْأَوَّلَ قَدْ عَقِمَتْ بِمِثْلِهِ الْبَلَاغَةُ فَلَا ثَانِي لَهُ . وَبَيَّنَ الْجُزْأَيْنِ رَمَنْ لَوْ اتَّسَعَ بِهِ أُدِيبُ فِي قِرَاءَةِ كُتُبِ الْأَدَبِ لَا اسْتَوْعَبَهَا كُلُّهَا ، فَكَأَنَّ ارْتِفَاعَ السَّنِّ بِحَافِظٍ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ جَعَلَ مِنْهُ فِي قُوَّةِ الْأَدَبِ حَافِظَيْنِ يُتَرَجِّمَانِ مَعًا .

وَمَا الْبُؤْسَاءُ فِي تَرْجَمَتِهِ إِلَّا فِكْرٌ فِيلْسُوفٍ تَعَلَّقَ فِي قَلَمِ شَاعِرٍ فَأَنْعَطَفَتْ عَلَيْهِ حَوَاشِيهِ الْبَيَّانِ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهِ ، وَجَاءَ مَا تَذَرِي أَسْغَرًا مِنْ الْكَثْرِ أَمْ تَنْثَرًا مِنَ الشُّعْرِ ! ؟ وَخَرَجَتْ بِهِ الْكِتَابَةُ فِي لَوْنٍ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ كَأَنَّمَا تَنْحَلُّ عَلَيْهِ أَشِعَّةُ الصُّحَى .

تَرْجَمَ حَافِظُ قَوْصَعِ اللُّغَةِ بَيْنَ فِكْرِهِ وَلِسَانِهِ ، وَوَقَفَتْ تَحْتَ سَحَابَةٍ مِنَ السُّحُبِ الَّتِي خَفَقَتْ عَلَيْهَا جَنَاحُ جَبْرِئِيلَ ، فَمَا تَخَلُّوْا كِتَابَتَهُ مِنْ ظِلٍّ يَنْتَفِسُّ عَلَيْكَ بِرَاحَةِ الْإِعْجَازِ وَتَرَاهُ يَتَحَدَّرُ مَعَ الْكَلَامِ وَيَتَنَاوَلُ مِنْهُ وَيَدْعُ ، فَمَا تَزْعُ بِهِ الْكَلَامُ مِثْرَعًا إِلَّا وَجَدَهُ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ وَأَصَابَهُ حَيْثُ أَصَابَهُ كَالْتِّيَّارِ جُمْلَةً وَاحِدَةً تَلَفَ أَوَّلَ النَّهْرِ وَآخِرَهُ عَلَى مَدٍّ مَا يَجْرِي ؛ فَهُوَ حَيْثُ كَانَ فِي السَّهْلِ وَفِي الصَّعْبِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَنْسَسِرُ فِي مَوْضِعٍ وَيَسْتَعْلِنُ فِي مَوْضِعٍ ، وَيَجِيئُ وَيَهْدِرُ وَيَتَرَامَى فِي الْعُمُقِ فَيَذْوِي دَوِيًّا .

وَمِنْ هُنَا يَحْسِبُهُ بَعْضُهُمْ يَجْنَحُ إِلَى مَا يُسْتَجَفَى مِنَ الْكَلَامِ ، وَإِلَى اسْتِكْرَاهِ بَعْضِ الْأَلْفَافِ وَالْتِكَلُّفِ لِبَعْضِهَا ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ وَضْعٌ مِنْ أَوْضَاعِ اللُّغَةِ وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الْبَلَاغَةِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَشْتَدَّ الْقَوْلُ وَيَلِينُ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي أَجْزَاسِ الْحُرُوفِ مَا فِي نَعْمِ الْإِنْقَافِ ؛ وَمَا أَشْبَهَ هَذَانِ الْبَيَّانِ بِهَنْدَسَةِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَغَيِّرُ النَّهْرَ وَتَرْمِي بِالْبَحْرِ وَتَقْدِفُ بِالْجَبَلِ الْأَسْمَ ، وَمَا الْجَبَلُ لَوْ حَقَّقَتْ فِي وَجْهِهِ التَّنَاسُبَ الطَّبِيعِيَّ إِلَّا بَخْرٌ قَدْ تَحَجَّرَ فَانْتَشَرَتْ أَمْوَاجُهُ مِنْ صُخُورِهِ ، وَكَذَا أَتْنِيهِمَا عَلَى مَا بَيْنَ الصَّلَابَةِ وَاللَّيْنِ تَغْيِيرٌ فِي أَسَالِينِ

(\*) { كَتَبَهَا عَنِ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْبُؤْسَاءِ ؛ وَأَنْظَرُ مَقَالِي الْمُوَلِّفِ عَنْ حَافِظٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ . }

الْقُوَّةِ عَنِ الْقُوَّةِ ، وَتَوْضِيحٌ لَأَقْوَى مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَظْهَرَ ، بِأَقْوَى مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْفَى .

يُخْطِئُ الضَّعَافُ مِنَ الْكُتَّابِ وَبِخَاصَّةٍ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ . . . إِذَا حَسِبُوا الْفَصَاحَةَ الْعَرَبِيَّةَ قَبِيلًا وَاحِدًا مِنَ الْأَلْفِ الْمَانُوسِ ، وَلَقَدْ تَجِدُ بَعْضَ هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءِ وَإِنَّهُ لَيَرَى فِي الْكَلَامِ الْجَزَلَ الْمُتَفَضِّلَ مَا يَرَى فِي جَمْعَةِ الْأَعَاجِمِ إِذَا نَطَقُوا فَلَمْ يَبِينُوا ، وَإِنَّمَا هِيَ الْعَرَبِيَّةُ ، وَإِنَّمَا فَصَاحَتُهَا فِي مَجْمُوعٍ مَا يَطَّرِدُ بِهِ الْقَوْلُ وَالْفَصَاحَةُ فِي جُمْلَتِهَا وَتَفْصِيلِهَا وَإِحْكَامِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْأَلْفَافِ وَالْمَعَانِي وَالْعَرَضِ الَّذِي يَتَّجِهُ إِلَيْهِ كِلَاهُمَا ، فَمَتَى فَصَلَ الْكَلَامَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ وَأَحْكَمَ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، رَأَيْتَ جَمَالَهُ وَاضِحًا بَيِّنًا فِي كُلِّ لَفْظٍ تَقُومُ بِهِ الْعِبَارَةُ ، مِنَ السَّنَجِ الْمُهْلِلِ الرَّقِيقِ ، إِلَى الْحَبْكِ الْمُخْكَمِ الدَّقِيقِ ، إِلَى الْأَسْلُوبِ الْمُنْدَمِجِ الْمُوتِي الَّذِي يُسْرَدُ فِي قُوَّةِ الْحَدِيدِ ، إِذْ يَكُونُ كُلُّ حَرْفٍ لِمَوْضِعِهِ ، وَيَكُونُ كُلُّ مَوْضِعٍ لِحَرْفِهِ ، وَيَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ بِمِقْدَارٍ لَا يُسْرِفُ ، وَقِيَاسٍ لَا يُخْطِئُ ، وَوزنٍ لَا يَخْتَلِفُ ، وَهَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ الْفَصَاحَةِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ سَائِرِ اللُّغَاتِ ، وَبِهَا أَمَكُنُ الْإِعْجَازِ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ وَلَمْ يُمَكِّنْ فِي سِوَاهَا .

وَمُتَرَجِّمُ الْبُؤْسَاءِ أَحَدُ الْأَفْرَادِ الْمَعْدُودِينَ الَّذِينَ أَحْكَمُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ وَنَفَذُوا إِلَى أَسْرَارِهَا ، فَبَيَّنَ كُلَّ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابَتِهِ مَوْضِعَ رَوْعَةٍ ، حَتَّى مَا تَذَرِي أَيْكُتُبُ أَمْ يَصُوغُ أَوْ يُصَوِّرُ ؟ وَكَأَنَّهُ لَا يُنْقَلُ مِنْ لِسَانٍ إِلَى لِسَانٍ بَلْ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ ، فَتَرَى أَكْثَرَ جُمْلَةٍ كَأَنَّمَا تُضِيءُ فِيهَا الْمَصَابِيحُ .

وَمِنْ الْخَوَاصِّ الَّتِي أَنْفَرَدَ بِهَا حَافِظُ أَنَّهُ ظَاهِرٌ فِي صَنَعَةِ الْأَلْفَافِ طُهُورٌ هِنُغُو Hugo فِي صَنَعَةِ مَعَانِيهِ ، إِذْ لَا تَجِدُ غَيْرَهُ مِنَ الْمُتَرَجِّمِينَ يَسْعُ لِهَذَا الْأَسْلُوبِ أَوْ يُطِيقُهُ ، وَأَكْثَرُ الْكُتُبِ الْمُتَرَجِّمَةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا تَطْمِسُ عَلَى أَسْمِ الْمُتَرَجِّمِ قَبْلَ أَنْ تُكْشِفَ عَنِ أَسْمِ الْمُوَلِّفِ ، فَلَا يَخِيَا الْمِيتَ إِلَّا بِمَوْتِ الْحَيِّ ، وَهُمْ فِي أَكْثَرِ مَا يَصْنَعُونَ لَا يَعْدُونَ أَنْ يَصَحَّحُوا الْعَامِيَّةَ أَوْ يُفَصِّحُوا بِهَا قَلِيلًا ، فَيَسْتَوِي فِي صَنَعَةِ الْبَيَّانِ أَنْ يَكُونَ نَاقِلَ الْكِتَابِ هَذَا أَوْ ذَلِكَ أَوْ ذَلِكَ ، لَا أَنَّهُمْ سَوَاسِيَّةٌ ، وَلَا تُؤْنِتُكَ كُتُبُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤْنِتُكَ الْأَسْمُ الْمَمْلُوقُ عَلَى مُسَمَّاهُ .

غَيْرَ أَنَّكَ فِي الْبُؤْسَاءِ تَرَى مَعَ التَّرْجَمَةِ صَنَعَةً غَيْرَ التَّرْجَمَةِ ، وَكَأَنَّمَا أَلْفَ هِنُغُو هَذَا الْكِتَابَ مَرَّةً وَالْأَلْفَ حَافِظَ مَرَّتَيْنِ ، إِذْ يُنْقَلُ عَنِ الْفَرَنَسِيَّةِ ، ثُمَّ يَفْتَرُ فِي التَّغْيِيرِ عَمَّا يُنْقَلُ ، ثُمَّ



يُحْكِمُ الصَّنْعَةَ فِيمَا يَفْتَنُ ، ثُمَّ يُبَالِغُ فِيمَا يُحْكِمُ ، فَأَنْتَ مِنْ كِتَابِهِ فِي لُغَةِ التَّرْجَمَةِ ، ثُمَّ فِي بَيَانِ اللُّغَةِ ، ثُمَّ فِي قُوَّةِ الْبَيَانِ ؛ وَبِهَذَا خَرَجَ الْكِتَابُ وَإِنَّ مُتَرْجِمَهُ لَأَحَقُّ بِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ مُؤَلِّفِهِ ، وَجَاءَ وَمَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْسِيَ أَنَّهُ لِحَافِظٍ دُونَ سِوَاهُ .

وَتِلْكَ طَرِيقَةٌ فِي الْكِتَابَةِ لَا يَسْتَعَانُ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْأَدَبِ الْغَزِيرِ ، وَالذُّوقِ النَّاصِحِ ، وَالْبَيَانِ الْمَطْبُوعِ ؛ ثُمَّ بِالصَّبْرِ عَلَى مُطَاوَلَةِ التَّعَبِ وَمُعَانَاةِ الْكَدِّ فِي تَخْيِيرِ اللَّفْظِ وَتَجْوِيدِ الْأَسْلُوبِ وَتَصْنِيفِ الْعِبَارَةِ ، فَلَقَدْ يُنْفِقُ الْكَاتِبُ وَقْتًا فِي عُمُرِ اللَّيْلِ لِيُخْرِجَ مِنْ آخِرِهِ سَطْرًا فِي نُورِ الْفَجْرِ ، وَبِهَذَا الصَّنِيعِ جَاءَتْ صَفَحَاتُ الْبُؤْسَاءِ عَلَى قَلْبِهَا كَشِبَابِ الْهَوَى : لِكُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ فَجْرَةٌ وَسَمْسَةٌ ، وَلِكُلِّ لَيْلَةٍ قَمَرٌهَا وَنُجُومُهَا .

\* \* \*

وَالَّذِي نَعْتَمِرُهُ فِي هَذِهِ التَّرْجَمَةِ أَنَّ الضَّجَرَ يَسْتَبِدُّ أَحْيَانًا بِصَاحِبِنَا فَيَسْتَكْرِهُهُ عَلَى غَيْرِ طَبِيعِهِ ، وَيَرُدُّهُ إِلَى غَيْرِ مَا لَزِمَهُ ، وَمِنْ ثُمَّ يَضْطَرُّ دَوْفُهُ وَسَلِيقَتُهُ أَوْ يَذْهَبُ بِهِ عَنْهُمَا ، فَيَعْدِلُ بِالْمَعْنَى عَنْ لَفْظِهِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ الْأَدِبَاءُ فِيهِ كَاسْتَعْمَالِهِ : قَارِنْ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا ، وَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُونَ مِثْلَ بَيْنَهُمَا ، أَوْ يُجِلُّ بِوِزْنِ الْكَلِمَةِ فِي مِيزَانِ الذُّوقِ ، فَتَرَى الْعِبَارَةَ الْيَاسَّةَ فِي الْجُمْلَةِ الْخَضِرَاءِ الَّتِي تَرْتَفُ ، وَذَلِكَ مَا لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ أَثَرُ الضَّعْفِ الْإِنْسَانِيِّ فِيمَنْ أَرْتَهَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَلَابَسَةِ الْقُوَّةِ الْعُلْيَا فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَلَمْ يَنْتَزِعْ عَنْهُ كِتَابٌ إِلَّا ذَلِكَ الْكِتَابُ الْغَزِيرُ الَّذِي أَهْتَرَتْ لَهُ السَّمَلَوَاتُ السَّنْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .

\* \* \*

### الْمَلَّاحُ النَّائِيَّةُ (\*)

إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ عَنْ شِعْرِ قَرَأْتُهُ ، كَانَ مِنْ دَائِي أَنْ أَقْرَأَهُ مُبَيَّنًا أَنْصَحُ عَلَيْهِ فِي الْحَرْفِ وَالْكَلِمَةِ ، إِلَى الْبَيِّنِ وَالْقَصِيدَةِ ، إِلَى الطَّرِيقَةِ وَالنَّهْجِ ، إِلَى مَا وَرَاءَ الْكَلَامِ مِنْ بَوَاعِثِ الْنَفْسِ الشَّاعِرَةِ ، وَدَوَائِعِ الْحَيَاةِ فِيهَا ، وَعَنْ أَيِّ أَحْوَالِ هَذِهِ النَّفْسِ يَصْدُرُ هَذَا الشَّعْرُ ، وَبِأَيِّهَا يَتَسَبَّبُ إِلَى الْإِلْهَامِ ، وَفِي أَيِّهَا يَتَّصِلُ الْإِلْهَامُ بِهِ ، وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِمَعَانِيهِ ، وَكَيْفَ يَسْتَرْسِلُ إِلَى طَبِيعِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ الْمَأْتَى فِي رَدِّئِهِ وَسَقَطِهِ ، وَبِمَاذَا يَسْلُكُ إِلَى تَجْوِيدِهِ وَإِبْدَاعِهِ ؟

ثُمَّ كَيْفَ حِدَّةُ قَرِينَتِهِ وَذَكَاءُ فِكْرِهِ وَالْمَلَكَةُ النَّفْسِيَّةُ الْبَيِّنَاتِيَّةُ فِيهِ ، وَهَلْ هِيَ جَبَّارَةٌ مُتَعَسِّفَةٌ تَمْلِكُ الْبَيَانَ مِنْ حُدُودِ اللُّغَةِ فِي اللَّفْظِ إِلَى حُدُودِ الْإِلْهَامِ فِي الْمَعْنَى ، مَلَكَةٌ أَسْفِلَالٍ تَقْدُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ جَمِيعًا ، أَوْ هِيَ ضَعِيفَةٌ رَخْوَةٌ لَيْسَ مَعَهَا إِلَّا الْأَخْتِلَالُ وَالْاضْطِرَابُ ، وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا مَا يَحْمِلُ الضَّعِيفَ عَلَى طَبِيعِهِ الْمَكْدُودِ كُلَّمَا عَثَرَ بِهِ سَقَطَ بِهِ ؟

أَتَبَيَّنُ كُلَّ هَذَا فِيمَا أَقْرَأُ مِنَ الشَّعْرِ ، ثُمَّ أَرِيدُ عَلَيْهِ اتِّقَادَهُ بِمَا كُنْتُ أَصْنَعُهُ أَنَا لَوْ أَنِّي عَالِجْتُ هَذَا الْغَرَضَ أَوْ تَنَاولْتُ هَذَا الْمَعْنَى ، ثُمَّ أَضِيفُ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مَا أَتَّبَعْتُ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِهْتِزَازِ الَّتِي يُحْدِثُهَا الشَّعْرُ فِي نَفْسِي ؛ فَإِنِّي لَأَطْرِبُ لِلشَّعْرِ الْجَيِّدِ الْوَيْتِي أَنْوَاعًا مِنَ الطَّرَبِ لَا نَوْعًا وَاحِدًا ، وَهِيَ تُشَبِّهُ فِي التَّفَاوُتِ مَا بَيْنَ قَطْرَةِ اللَّدَى الصَّافِيَةِ فِي وَرَقِ الزَّرْبَقَةِ وَقَطْرَةِ الشَّعَاعَةِ الْمُتَالِفَةِ فِي جَوْهَرِ الْمَاسَةِ وَمَوْجَةِ الثُّورِ الْمُتَالِفَةِ فِي كَوْكَبِ الزُّهْرَةِ .

وَأَكْثَرَ الشَّعْرِ الَّذِي يُنْظَمُ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ لَا يَتَّصِلُ بِنَفْسِي ، وَلَا يَخْفُ عَلَى طَبِيعِي ، وَلَا أَرَاهُ يَقَعُ مِنَ الشَّعْرِ الصَّحِيحِ إِلَّا مِنْ بَعْدُ ، وَهُوَ مِنِّي أَنَا كَالرَّجُلِ يَمُرُّ بِي فِي الطَّرِيقِ لَا أَعْرِفُهُ : فَلَا يَنْظُرُ إِلَيَّ وَلَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَمَا أَبْصُرُ مِنْهُ رَجُلًا وَإِنْسَانِيَّةً وَحَيَاةً أَكْثَرَ مِمَّا أَرَاهُ نَوْبًا وَحِدَاءً وَطَرِبُوشًا ؛ وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ كُلَّمَا ضَعُفَ الشَّاعِرُ مِنْ هَذِهِ الْقُوَى عَلَى مِقْدَارِ ذَلِكَ فِي الْاِخْتِجَاجِ لِضَعْفِهِ ، وَالْهَمِّ مِنَ الشَّوَاهِدِ وَالْحُجَجِ مَا لَوْ أَلْهِمَ بِعَدِيدِهِ مِنَ الْمَعَانِي

(\*) { دِينَوَانُ الشَّاعِرِ الْمُتَهَنِّسِ عَلَيَّ مَحْمُودَ طَه . وَأَنْظُرُ فِي الْقَدِّ مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . }

وَالْخَوَاطِرِ لَكَانَ عَسَى ..

فَإِذَا نَافَرَتِ الْمَعَانِي أَلْفَاظَهَا وَاخْتَلَفَتِ الْأَلْفَاظُ عَلَى مَعَانِيهَا قَالَ : إِنَّ هَذَا فِي الْقُرْ .  
هُوَ الْأَسْتِوَاءُ وَالْأَطْرَادُ وَالْمَلَاءَمَةُ وَقُوَّةُ الْحَبْكِ ، وَإِذَا عَوَّصَ وَخَانَهُ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا  
وَأَسَاءَ لِيَكْلَفَ وَتَسَاقَطَ لِيَتَحَذَلْنَ وَجَاءَكَ بِشِعْرِهِ وَتَفْسِيرِ شِعْرِهِ وَالطَّرِيقَةَ لِفَهْمِ شِعْرِهِ قَالَ :  
إِنَّهُ أَعْلَى مِنْ إِدْرَاكِ مُعَاصِرِيهِ ، وَإِنَّ عَجْرَفَةَ مَعَانِيهِ هَذِهِ آتِيَةٌ مِنْ أَنَّ شِعْرَهُ مِنْ وَرَاءِ اللَّغَةِ ،  
مِنْ وَرَاءِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ ، مِنْ وَرَاءِ الْعَصْرِ ، مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ ؛ كَأَنَّ الْمَوْجُودَ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ  
النَّاسِ هُوَ ظِلُّ شَخْصِهِ لَا شَخْصُهُ ، وَالظِّلُّ بِطَبِيعَتِهِ مَطْمُوسٌ مِنْهُمْ لَا يُبَيِّنُ إِبَانَةَ الشَّخْصِ .  
وَإِذَا أَهْلَكَ الشَّاعِرُ الْأَسْتِعَارَةَ وَأَمْرَضَ التَّشْبِيهَ وَخَنَقَ الْمَجَازَ بِحَبْلِ - قَالَ لَكَ : إِنَّهُ عَلَى  
الطَّرِيقَةِ الْعَصْرِيَّةِ ، وَإِنَّمَا سَدَّدَ وَقَارَبَ وَأَصَابَ وَأَحْكَمَ . وَإِذَا سَمَى الْمَقَالَهَ قَصِيدَةً ...  
وَحَلَطَ فِيهَا خَلْطُهُ ، وَجَاءَ بِهَا فِي أَسْوَأِ مَعْرُضٍ وَأَفْبَحِهِ ، وَخَرَجَ إِلَى مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الرُّكَاكَةِ  
وَالْعَنَائَةِ - قَالَ لَكَ : هَذِهِ هِيَ وَحْدَةُ الْقَصِيدَةِ ، فَهِيَ كُلُّ وَاحِدٍ أُفْرِغَ إِفْرَاقَ الْجِسْمِ الْحَيِّ ،  
رَأْسُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ رَأْسِهِ ، وَرِجْلَاهُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ رِجْلَيْهِ ...

بَلْكَ طَبَقَاتٍ مِنَ الضَّعْفِ تَظَاهَرَتْ الْحُجَجُ مِنْ أَصْحَابِهَا عَلَى أَنَّهَا طَبَقَاتٌ مِنَ الْقُوَّةِ ،  
غَيْرَ أَنَّ مُصَدِّقَ الشَّهَادَةِ لِلْأَقْوِيَاءِ عِظَامُهُمُ الْمَشْبُوحَةُ ، وَعَضَلَاتُهُمُ الْمَفْتُوَلَةُ ، وَقُلُوبُهُمُ  
الْجَرِينَةُ ، أَمَّا الْأَلْسِنَةُ فَهِيَ شُهُودُ الزُّورِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ خَاصَّةً .

\* \* \*

هُنَاكَ مِيزَانٌ لِلشَّاعِرِ الصَّحِيحِ وَلِلْآخِرِ الْمُتَشَاعِرِ : فَالْأَوَّلُ تَأْخُذُ مِنْ طَرِيقَتِهِ وَمَجْمُوعِ  
شِعْرِهِ أَنَّهُ مَا نَظَمَ إِلَّا لِيُثَبَّتَ أَنَّهُ قَدْ وَضَعَ شِعْرًا ، وَالثَّانِي تَأْخُذُ مِنْ شِعْرِهِ وَطَرِيقَتِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا نَظَمَ  
لِيُثَبَّتَ أَنَّهُ قَرَأَ شِعْرًا ... وَهَذَا الثَّانِي يُشْعِرُكَ بِضَعْفِهِ وَتَلْفِيقِهِ أَنَّهُ يَخْدُمُ الشَّعْرَ لِيَكُونَ  
شَاعِرًا ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ يُرِيدُكَ بِقُوَّتِهِ وَعَبَقَرِيَّتِهِ أَنَّ الشَّعْرَ نَفْسَهُ يَخْدُمُهُ لِيَكُونَ هُوَ شَاعِرُهُ .

أَمَّا فَرِيقُ الْمُتَشَاعِرِينَ فَلْيُمَثِّلْ لَهُ الْقَارِئُ بِمَنْ شَاءَ وَهُوَ فِي سَعَةِ ... وَأَمَّا فَرِيقُ الشَّعْرَاءِ  
فَفِي أَوَائِلِ أَمَلِهِ عِنْدِي الشَّاعِرُ الْمُهَنْدِسُ عَلِيٍّ مَحْمُودِ طَلَّةَ . أَشْهَدُ أَنِّي أَكْتُبُ عَنْهُ الْآنَ بِتَوَعُّدٍ  
مِنْ الْإِعْجَابِ الَّذِي كَتَبْتُ بِهِ فِي « الْمُقْتَطَفِ » عَنْ أَصْدِقَائِي الْقَدَمَاءِ : مَحْمُودُ بَاشَا  
الْبَارُودِي ، وَإِسْمَاعِيلُ بَاشَا صَبْرِي ، وَحَافِظُ ، وَشَوْفِي ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَأَطَالَ بَقَاءُ

صَاحِبِنَا ؛ فَهَذَا الشَّابُّ الْمُهَنْدِسُ أُوتِيَ مِنْ هَنْدَسَةِ الْبِنَاءِ قُوَّةَ التَّمْيِيزِ وَدَقَّةَ الْمُحَاسَبَةِ ،  
وَوَهَبَ مَلَكَهَ الْفَضْلُ بَيْنَ الْحُسْنِ وَالْفُحْجِ فِي الْأَشْكَالِ مِمَّا عَلَّمَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَمَا عَلَّمَتْهُ مِنَ  
الذُّوقِ ، وَهَذَا إِلَى جَلَاءِ الْفِطْنَةِ وَصِفَالِ الطَّبْعِ وَتَمَوُّجِ الْخَيَالِ وَانْفِصَاحِ الذَّاكِرَةِ وَانْتِظَامِ  
الْأَشْيَاءِ فِيهَا ؛ وَبِهَذَا كُلِّهِ اسْتَعَانَ فِي شِعْرِهِ وَقَدْ خَلَقَ مُهَنْدِسًا شَاعِرًا ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ خَلَقَ  
شَاعِرًا مُهَنْدِسًا ؛ وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْدِرْ لِهَذَا الشَّاعِرِ الْكَرِيمِ تَعَلُّمَ الْهَنْدَسَةِ وَمُرَاوَلَتَهَا  
وَالْمَهَارَةَ فِيهَا إِلَّا لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَنْبَغُ ثُبُوعُهُ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي زَمَنِ الْقَوَضَى وَعَهْدِ  
الْتَقْلُفِ ، وَحِينَ فَسَادِ الطَّرِيقَةِ وَتَحَلُّفِ الْأَذْوَاقِ وَتَرَاجُعِ الطَّبْعِ وَوُقُوعِ الْعَلَطِ فِي هَذَا  
الْمَنْطِقِ لِانْعِكَاسِ الْقَضِيَّةِ ، فَيَكُونُ الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ هَذَا شَاعِرٌ وَذَلِكَ نَائِبَةٌ وَذَلِكَ عَبَقَرِيٌّ -  
هُوَ عَيْنُهُ الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ لَا شِعْرَ وَلَا ثُبُوعَ وَلَا عَبَقَرِيَّةَ ؛ وَهَذِهِ قَوَضَى تَحْتَاجُ فِي تَنْظِيمِهَا  
إِلَى (مُصْلَحَةِ تَنْظِيمِ) بِالْهَنْدَسَةِ وَالْآلِيَةِ وَالرِّيَاضَةِ وَأَصُولِهَا وَالْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ وَفُنُونِهَا ،  
فَجَاءَ شَاعِرُنَا هَذَا وَفِيهِ الطُّبُّ لِمَا وَصَفْنَا ؛ فَهُوَ يَنْظِمُ شِعْرَهُ بِفَرِيحَةٍ بَيِّنَاتٍ هَنْدَسِيَّةٍ ، أَسَاسُهَا  
الْأَتْرَانُ وَالضَّبْطُ ، وَصَوَابُ الْحُسْنِةِ فِيمَا يَقْدُرُ لِلْمَعْنَى ، وَإِنْدَاعُ الشَّكْلِ فِيمَا يُنْمِيهِ مِنَ  
الْلَفْظِ ، وَالْأَيُّ تُرِكَ الْبِنَاءُ الشَّعْرِيُّ قَائِمًا لِيَقَعَ إِذْ يَكُونُ وَاهِنًا فِي أَسَاسِهِ مِنَ الصَّنَاعَةِ ، بَلْ  
لِيُثَبَّتَ ، إِذْ يَكُونُ أَسَاسُهُ مِنَ الصَّنَاعَةِ فِي رُسُوحٍ وَعَلَى قَدَرٍ .

وَدِينُونُ « الْمَلَّاحِ الثَّانِي » الَّذِي أَخْرَجَهُ هَذَا الشَّاعِرُ لَا يَنْزِلُ بِصَاحِبِهِ مِنْ شِعْرِ الْعَصْرِ  
دُونَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَقْرَأَهُ وَتَعْتَبِرَ مَا فِيهِ بِشِعْرِ الْآخَرِينَ حَتَّى تَجِدَ  
الشَّاعِرَ الْمُهَنْدِسَ كَأَنَّهُ قَادِمٌ لِلْعَصْرِ مُحَمَّلًا بِذِهْنِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَالْآلِيَةِ وَمَقَابِلِهِ لِيُصْلِحَ  
مَا فَسَدَ ، وَيُقِيمَ مَا تَدَاعَى ، وَيُرْمِمَ مَا تَحَرَّبَ ، وَيَهْدِمَ وَيَبْنِي .

\* \* \*

دِينُونُ الشَّاعِرِ الْحَقِّ هُوَ إِبْنَاتُ شَخْصِيَّتِهِ بِبَرَاهِينٍ مِنْ رُوحِهِ ؛ وَهَذَا هُنَا فِي « الْمَلَّاحِ  
الثَّانِي » رُوحُ قُوَّةٍ فَلَسْفِيَّةٍ بَيِّنَاتٍ ، تُؤْتِيكَ الشَّعْرَ الْجَيِّدَ الَّذِي تَقْرُؤُهُ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ  
وَالذُّوقِ ، وَتَرَاهُ كِفَاءً أَغْرَاضِهِ الَّتِي يَنْظُمُ فِيهَا ؛ فَهُوَ مُكْتَرٍ حِينَ يَكُونُ الْإِكْتَارُ شِعْرًا ، مُقِلٌّ  
حِينَ يَكُونُ الشَّعْرُ هُوَ الْإِفْلَالُ ؛ ثُمَّ هُوَ عَلَى ذَلِكَ مَتِينٌ رَصِينٌ ، بَارِعٌ الْخَيَالِ ، وَاسِعُ  
الْإِحَاطَةِ ، تَرَاهُ كَالدَّلَائِرَةِ : يَصْعَدُ بِكَ مُحِيطَهَا وَيَهْطُ لَا مِنْ أَنَّهُ نَازِلٌ أَوْ عَالٍ ، وَلَكِنَّ مِنْ

أَنَّهُ مُلْتَفٌ مُنْدَمَجٌ ، مُوزُونٌ مُقَدَّرٌ ، وَضِعَ وَضَعَهُ ذَلِكَ لِيَطْوَحَ بِكَ .

هُوَ شِعْرٌ تَعْرِفُ فِيهِ فَنِيَّةَ الْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ مَنْ لَا يَنْقُلُ لَكَ عَنِ الْحَيَاةِ نَقْلًا فَنِيًّا شِعْرِيًّا ، فَتَرَى الشَّيْءَ فِي الطَّبِيعَةِ كَأَنَّهُ مُوجُودٌ بِظَاهِرِهِ فَقَطْ ، وَتَرَاهُ فِي الشَّعْرِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ مَعًا ، وَلَيْسَ بِشِعْرِ مَا إِذَا قَرَأْتَهُ ، وَاسْتَرْسَلْتَ إِلَيْهِ ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَجْهًا مِنْ وَجْهِهِ الْفَهْمِ وَالتَّصَوُّيرِ لِلْحَيَاةِ وَالطَّبِيعَةِ فِي نَفْسٍ مُنْتَازَةٍ مُدْرِكَةٍ مُصَوَّرَةٍ .

وَلِهَذَا فَلَيْسَ مِنَ الشَّرْطِ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ عَصْرُ الشَّاعِرِ وَبَيِّنَتُهُ فِي شِعْرِهِ ، وَإِنَّمَا الشَّرْطُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ نَفْسُ الشَّاعِرَةِ عَلَى طَرِيقَتِهَا فِي الْفَهْمِ وَالتَّصَوُّيرِ ، وَأَنْتَ تَنْبُتُ هَذِهِ النَّفْسَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنْ لَهَا أَنْ تَقُولَ كَلِمَتَهَا الْجَدِيدَةَ ، وَأَنَّهَا مُحْوَلَةٌ لَهَا الْحَقُّ فِي أَنْ تَقُولَهَا ، إِذْ هِيَ لِلْمَقُولِ وَالْأَرْوَاحِ أُخْتُ الْكَلِمَةِ الْقَدِيمَةِ : كَلِمَةِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْكِبُورَةُ مِنْ قَبْلُ .

وَلَيْسَ فِي شِعْرِ عَلِيٍّ طَلْعٌ مِنْ عَصْرِيَّاتِنَا غَيْرِ الْقَلِيلِ ، وَلَكِنَّ الْعَجِيبَ أَنَّهُ لَا يَنْظُمُ فِي هَذَا الْقَلِيلِ إِلَّا حِينَ يَخْرُجُ الْمَعْنَى مِنْ عَصْرِهِ وَيَلْتَحِقُ بِالتَّارِيخِ ، كَرِثَاءِ شَوْقِي وَحَافِظِ ، وَعَذْلِي بَاشَا ، وَفُوزِي الْمَغْلُوفِ ، وَالطَّيَّارَيْنِ : دُوسٍ وَحَجَّاجِ ، وَالْمَلِكِ الْعَظِيمِ فَيَصِلُ ؛ فَإِنْ يَكُنْ هَذَا التَّنْذِيرُ عَنْ قَصْدٍ وَإِرَادَةٍ فَهُوَ عَجِيبٌ ، وَإِنْ كَانَ اتِّفَاقًا وَمُصَادَقَةً فَهُوَ أَعْجَبُ ؛ عَلَى أَنَّهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَرْمِي إِلَى تَمْجِيدِ الْفَنِّ وَالْبُطُولَةِ فِي مَظَاهِرِهَا ، مُتَكَلِّمَةً ، وَسِيَاسِيَّةً ، وَمُعَامِرَةً ، وَمَالِكَةً .

أَمَّا سَائِرُ أَغْرَاضِهِ فَإِنْسَانِيَّةٌ عَامَّةٌ ، تَنَعَّى النَّفْسُ فِي بَعْضِهَا ؛ وَتَمَرَّحَ فِي بَعْضِهَا ، وَتَصَلَّى فِي بَعْضِهَا ، وَلَيْسَ فِيهَا طِينٌ وَلَا فُجُورٌ وَلَا زُنْدَقَةٌ إِلَّا . . . ظَلَالًا مِنَ الْحَيَرَةِ أَوْ الشُّكِّ ، كَتِلْكَ الَّتِي فِي قَصِيدَةِ « اللَّهِ وَالشَّاعِرِ » ، وَأَظْهَرُ يُتَابِعُ فِيهَا الْمَعْرِيَّ ، وَلَسْتُ أَذْرِي كَمْ يَنْخَلِجُ النَّاسُ بِالْمَعْرِيَّ هَذَا ، وَهُوَ فِي رَأْيِي شَاعِرٌ عَظِيمٌ غَيْرَ أَنَّ لَهُ بِضَاعَةً مِنَ التَّلْفِيفِ تَعْدِلُ مَا تُخْرِجُهُ « لَانْكَشِير Lancashire »<sup>(١)</sup> مِنْ بَضَائِعِهَا إِلَى أَسْوَاقِ الدُّنْيَا .

(١) لَانْكَشِير Lancashire : مقاطعة تقع في غرب إنكلترا على البحر الإيرلندي ، اشتهرت منذ القرن السابع عشر كمركز لصناعة النسيج . بَسَام .

وَمِمَّا يُعْجِبُنِي فِي شِعْرِ عَلِيٍّ طَلْعُ أَنَّهُ فِي مَتَاحِي فَلَسَفَتِهِ وَجِهَاتٍ تَفَكِّيرُهُ يُوَافِقُ رَأْيِي الَّذِي أَرَاهُ دَائِمًا ، وَهُوَ أَنَّ نُورَةَ الرُّوحِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَعْرَكَهَا الْكُبْرَى مَعَ الْوُجُودِ - لَيْسَتْ فِي ظَاهِرِ النُّورَةِ وَلَا فِي الْإِعْرَاقِ مَعَ اللَّهِ كَمَا صَنَعَ الْمَعْرِيَّ وَأَصْرَابُهُ فِي طَيْشِهِمْ وَحِمَاقَتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمَا فِي الْهُدُوءِ الشَّعْرِيِّ لِلرُّوحِ الْمُتَأَمِّلَةِ ، ذَلِكَ الْهُدُوءُ الَّذِي يَجْعَلُ الطَّبِيعَةَ نَفْسَهَا تَبَسُّمَ بِكَلَامِ الشَّاعِرِ كَمَا تَبَسُّمُ بَازْهَارِهَا وَنُجُومِهَا ، وَيَجْعَلُ الشَّاعِرَ أَدَاةَ طَبِيعَةٍ مُتَحَدَّةٍ لِكَشْفِ الْحِكْمَةِ وَتَعْطِيبِهَا مَعًا ، فَإِنَّ الْعَجِيبَ الَّذِي أَعْجَبَ مِنْهُ فِي التَّنْذِيرِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّفُوسِ الْحَسَّاسَةِ - أَنَّ زُخْرَفَةَ الشَّعْرِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ فِي الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبٌ مِنْ زُخْرَفِ الطَّبِيعَةِ حِينَ تَبْدَعُ الشَّكْلَ الْجَمِيلَ لِتُسَمَّ أَغْرَاضُهَا مِنْ وَرَائِهِ ؛ وَلَوْ تَارَتْ الْأَزْهَارُ - مَثَلًا - عَلَى الْوُجُودِ وَخَالِقِهِ نُورَةُ أَوْلَتِكَ الشُّعْرَاءَ لَمَا صَنَعَتْ شَيْئًا غَيْرَ إِفْسَادِ حِكْمَتِهَا هِيَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِذِهِ الْحِكْمَةُ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ ، وَلَنْ تَنْتَصِرَ إِلَّا بِقَائِلِهَا أَزْهَارًا ، فَذَلِكَ حَزْبُهَا وَسِلْمُهَا مَعًا .

\* \* \*

وَأَسْلُوبُ شَاعِرِنَا أَسْلُوبٌ جَزَلٌ ، أَوْ إِلَى الْجَزَالَةِ ، تَبْدُو أَلْفَةً فِيهِ وَعَلَيْهَا لَوْ أَنَّ خَاصَ مِنَ أَلْوَانِ النَّفْسِ الْجَمِيلَةِ يَزْهَوُ رُهوهُ فَيَكْثُرُ مِنْهُ فِي النَّفْسِ تَأْيِيذُهَا وَجَمَالُهَا ، وَهَذِهِ هِيَ لَعْنَةُ الشَّعْرِ بِخَاصَّتِهِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَنْبَهَ هُنَا إِلَى مَعْنَى غَرِيبٍ ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ بَعْضَ الْنَظَّامِينَ يُخْسِنُونَ مِنَ أَلْفَةِ وَقُتُونِ الْأَدَبِ . فَإِذَا نَظَّمُوا وَخَلَا نَظْمُهُمْ مِنْ رُوحِ الشَّعْرِ - ظَهَرَتْ أَلْفَاظُ فِي أَوْرَانِهِمْ وَكَأَنَّهَا فَقَدَتْ شَيْئًا مِنْ قِيَمَتِهَا : كَأَنَّ مَوْضِعَهَا فِي هَذَا النَّظْمِ غَيْرُ مَوْضِعِهَا فِي أَلْفَةِ ، وَمَا اخْتَلَفَ اللَّفْظُ وَلَا تَغَيَّرَ ، وَلَكِنَّ مَوْضِعَهُ ثُمَّ هُوَ الَّذِي أَعْلَنَ إِفْلَاسَهُ ، إِذْ أَقَامَهُ مَقَامَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَ ثُمَّ هُوَ إِذَا وَقَفَ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَتَعَذَّرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَا يُعْطِيهِ . . . فَهَذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ ، وَكَانَ فِي سِتْرِ وَعَافِيَةٍ ، فَلَمَّا وَقَفَ مَوْقِفَهُ انْقَلَبَ مُدْلَسًا كَاذِبًا مُدْعِيًا ، فَاخْتَلَفَتْ بِهِ الْحَالُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرَ .

وَمَا الْأَسْلُوبُ الْبَيِّنِيُّ إِلَّا وَسِيلَةٌ فَنِيَّةٌ لِمُضَاعَفَةِ التَّغْيِيرِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَا يُعْطِيهِ كَانَ وَسِيلَةً فَنِيَّةً أُخْرَى لِمُضَاعَفَةِ الْحَيَّةِ ، وَهَذَا مَا نُحِشُّهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِ الْنَظَّامِينَ أَوْ الْبَدِيعِيِّينَ فِي الْعُصُورِ الْمَيِّتَةِ ، وَنُحِشُّهُ فِي الشَّعْرِ الْمَيِّتِ الَّذِي لَا يَرَالُ يُنْشَرُ بَيْنَنَا .

وَعَلِيٍّ طَلْعُ إِذَا حَرَصَ عَلَى أَسْلُوبِهِ وَبَالَغَ فِي إِتْقَانِهِ وَاسْتَمَرَّ يُجْرِنُهُ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْجَيِّدَةِ

مُتَقَدِّمًا فِيهَا ، مُتَعَمِّقًا فِي أَسْرَارِ الْأَلْفَاظِ وَمَا وَرَاءَ الْأَلْفَاظِ ، وَهِيَ تِلْكَ الزَّوْعَةُ الْبَيِّنَاتِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ التَّعْبِيرِ وَلَيْسَ لَهَا اسْمٌ فِي التَّعْبِيرِ ، مُغْتَبِرًا أَلْفَعَةَ الشَّعْرِيَّةِ - كَمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ - تَأْلِيفًا مُوسِيقِيًّا لَا تَأْلِيفًا لُغَوِيًّا . . . فَإِنَّهُ ، وَلَا رَيْبَ ، سَيَجِدُ مِنْ إِنْشَافِ طَبْعِهِ الْقَوِيِّ ، وَعَوْنِ فِكْرِهِ الْمَشْبُوبِ ، وَالْهَامِ قَرْنَيْهِ الْمَوْلَدَةِ - مَا يَجْمَعُ لَهُ الْبُتُوغُ مِنْ أَطْرَافِهِ ، بِحَيْثُ يَعُدُّهُ الْوُجُودُ مِنْ كِبَارِ مُصَوِّرِيهِ ، وَتَتَّخِذُهُ الْحَيَاةُ مِنْ بُلْغَاءِ الْمُعْبَرِينَ عَنْهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ ؛ وَمِنْ نَمِّ تَنْظُمِهِ الْعَرَبِيَّةِ فِي سِنِطِ جَوَاهِرِهَا التَّارِيخِيَّةِ الثَّمِينَةِ ، وَيَصِلُهُ السَّلْكُ بِشَوْقِي وَحَافِظِ وَالْبَارُودِيِّ وَصَبْرِي ، إِلَى الْمُتَنَبِّيِّ وَالْبُخْتَرِيِّ وَابْنِ الزُّومِيِّ وَأَبِي تَمَّامٍ ، إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، إِلَى الْجَوْهَرَةِ الْكُبْرَى الْمُسَمَّاةِ جَبَلِ الثُّورِ الْبَيِّنَاتِي ، إِلَى أَمْرِي الْقَيْسِ .

وَلَيْسَ هَذَا بِبَعِيدٍ عَلَى مَنْ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْقَلْبِ [من الكامل] :

يَا قَلْبُ عِنْدَكَ أَثَى أَسْرَارِ      مَا زِلَنْ فِي نَشْرِ وَفِي طَيِّ  
يَا ثَوْرَةَ مَشْبُوبَةَ النَّارِ      أَفَلَقْتَ جِسْمَ الْكَائِنِ الْحَيِّ  
حَمَلْتَهُ الْعِبَاءَ الَّذِي فَرَّقْتَ      مِنْهُ الْجِبَالَ وَأَشْفَقْتَ رَهَبًا  
وَأَثَرْتَ مِنْهُ الرُّوحَ فَاَنْطَلَقْتَ      تَخْشُو الْحَمِيمَ وَتَأْكُلُ الْأَهْيَا  
وَعَجَبْتُ مِنْكَ وَمِنْ إِبَائِكَ فِي      أَسْرِ الْجَمَالِ وَرَبَقَةِ الْحُبِّ  
وَتَلَقَّيْتُ الْمُتَكَبِّرَ الصَّلِيفَ      عَنْ ذِلَّةِ الْمَفْهُورِ فِي الْحَرْبِ  
وَوَهَمْتَ نَارًا ذَاتَ إِنْمَاضٍ      فَبَسَطْتَ كَفَّكَ نَحْوَهَا فَرَعَا  
مَرَّتْ بِعَيْنِكَ لَمَحَّةُ الْمَاضِي      فَوَثَبْتَ تُنْسِيكَ بَارِقًا لَمَعَا  
وَالْأَرْضُ ضَاقَ فَضَاؤُهَا الرُّحْبُ      وَخَلَّتْ فَلَا أَهْلًا وَلَا سَكَنُ  
حَالِ الْهَوَى وَتَفَرَّقَ الصَّخْبُ      وَبَقِيَتْ وَخَدَكَ أَنْتَ وَالزَّمَنُ

وَلَوْ دَهَبْنَا نَخْتَارُ مِنْ هَذَا الدِّيَّوَانِ لَاخْتَرْنَا أَكْثَرَهُ ، فَفَصَائِدُهُ وَمَقَاطِيعُهُ تَتَعَاقَبُ وَلَكِنْ تَعَاقَبَ الشَّمْسِ عَلَى أَيَّامِهَا ؛ تَظْهَرُ جَدِيدَةُ الْجَمَالِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ ، لِأَنَّ وَرَاءَ الصَّبَاحِ مَادَّةَ الْفَجْرِ ، وَكَذَلِكَ تَأْتِي الْفَصَائِدُ مِنْ نَفْسِ شَاعِرِهَا .

### « الْمُقْتَطَفُ » وَالْمُتَنَبِّي (\*) (١)

« الْمُقْتَطَفُ » شَيْخُ مَجَلَاتِنَا ؛ كُلُّهُنَّ أَوْلَادُهُ وَأَخْفَادُهُ ؛ وَهُوَ كَالْجَدِّ الْأَكْبَرِ : زَمَنٌ يَجْتَمِعُ ، وَتَارِيخٌ يَتَرَاكُمُ ، وَأَنْفِرَادٌ لَا يُلْحَقُ ، وَعِلْمٌ يَزِيدُ عَلَى الْعِلْمِ بِأَنَّهُ فِي الذَّاتِ الَّتِي تَفْرُسُ إِجْلَالَهَا قَرْضًا ، وَتَجِبُ لَهَا الْحُزْمَةُ وَجُوبًا وَيَتَضَاعَفُ مِنْهَا الْإِنْشِخَاقُ فَيَتَضَاعَفُ لَهَا الْحَقُّ .

وَهَلِ الْجَدُّ إِلَّا أَبُوءَ فِيهَا أَبُوءَ أُخْرَى ، وَهَلِ هُوَ إِلَّا عَرْشٌ حَيٌّ دَرَجَاتُهُ الْجِبِلُّ تَحْتَ الْجِبِلِّ ، وَهَلِ هُوَ إِلَّا أَمْتِدَادٌ مَسَافَاتُهُ الْعَصْرُ فَوْقَ الْعَصْرِ ؟

وَ« الْمُقْتَطَفُ » يَكْبُرُ وَلَا يَهْرُمُ ، وَيَتَقَدَّمُ فِي الزَّمَنِ تَقَدَّمَ الْمُخْتَرَعَاتِ مَاضِيَةً بِالنَّوَامِيسِ إِلَى النَّوَامِيسِ ، مُقَيَّدَةً بِالْمَبْدَأِ إِلَى الْغَايَةِ ؛ { وَهُوَ كَالْعَقْلِ الْمُنْفَرِدِ بِعَقَبَرِيَّتِهِ : وَاجِبُهُ الْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا الْأَوَّلُ ؛ } فَلَقَدْ أُنْشِئَ هَذَا « الْمُقْتَطَفُ » وَمَا فِي الْمَجَلَاتِ الْعَرَبِيَّةِ مَا يُغْنِي عَنْهُ ، { ثُمَّ طَوَى فِي الدَّهْرِ سَبْعَةَ وَثَمَانِينَ مُجَلَّدًا أَقَامَهَا سَبْعَةَ وَثَمَانِينَ دَلِيلًا عَلَى أَنْ لَيْسَ مَا يُغْنِي عَنْهُ ؛ } ثُمَّ أَسْفَتِ الدُّنْيَا حَوْلَهُ بِأَخْلَاقِهَا وَطِبَاعِهَا ، وَتَحَوَّلَتْ مَجَلَّاتٌ كَثِيرَةٌ إِلَى مِثْلِ الرَّاغِقَاتِ وَالْمُعْتَبَاتِ وَالْمُمْتَلَاتِ . . . وَبَقِيَ هُوَ عَلَى وَفَائِهِ لِمَبْدَأِهِ الْعِلْمِيِّ وَالسُّمُوفِ فِيهِ وَالسُّمُوفِ بِهِ ، كَأَنَّمَا أُخِذَ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ مِيثَاقُ كَيْمِيَاكِ النَّبِيِّ فِي الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ ؛ فَبَيَّنَ يَدِيهِ الْوَاجِبَ لَا الْغَرَضُ ، وَهَمَّهُ الْإِنْدَاعُ بِقَوَى الْعَقْلِ لَا الْأَخْتِيَالُ بِهَا ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الثَّابِتَةُ فِي الدُّنْيَا لَا الْأَحْلَامَ الْمُتَقَلِّبَةَ بِهِدِهِ الدُّنْيَا ، وَطَرِيقُهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ طَرِيقُ الْفَيْلَسُوفِ ، مِنْ هُدُوءِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَحْوَالِ الدَّهْرِ ، فَهُوَ مَاضٍ عَلَى الْيَقِينِ ، نَافِذٌ إِلَى الثَّقَةِ ، مُتَقَلِّ فِي مَتَرَلَةٍ مَتَرَلَةٍ مِنْ يَقِينِهِ إِلَى ثِقَتِهِ ، وَمِنْ ثِقَتِهِ إِلَى يَقِينِهِ .

(\*) « الرسالة » العدد : ١٣٢ ، ١٨ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ يناير / كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحة : ٨٠ .

(١) كِتَابُ « الْمُتَنَبِّي » لِلصِّدِّيقِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّد شَاكِر .

وَقَدْ بَدَأَ « الْمُفْتَقَطُ » مُجَلَّدُهُ الثَّامِنَ وَالْثَمَانِينَ بِعَدَدٍ ضَخْمٍ أَفْرَدَهُ لِلْمُنْتَبِيِّ<sup>(١)</sup> . وَلَكِنَّ كَانَتْ الْأَنْدِيَّةُ وَالْمَجَلَّاتُ قَدْ اخْتَفَلَتْ بِهَذَا الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ ، فَمَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّ رُوحَ الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ قَدْ اخْتَفَلَتْ بِهَذَا الْعَدَدِ مِنَ « الْمُفْتَقَطِ » .

وَلَسْتُ أَغْلُو إِذَا قُلْتُ : إِنَّ هَذِهِ الرُّوحَ الْمُتَكَبِّرَةَ قَدْ أَظْهَرَتْ بِبِرِّيَاءِهَا مَرَّةً أُخْرَى ، فَاعْتَرَلَتْ الْمَشْهُورِينَ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْأَدْبَاءِ ، وَلَزِمَتْ صِدِّيقَنَا الْمُتَوَاضِعَ الْأَسْتَاذَ مَحْمُودَ شَاكِرٍ مُدَّةَ كِتَابَتِهِ هَذَا الْبَحْثَ الْتَفَنِّسَ الَّذِي أَخْرَجَهُ « الْمُفْتَقَطُ » فِي رُهَاءِ سِتِّينَ وَمِئَةِ صَفْحَةٍ ، تَدُلُّهُ فِي تَفَكُّيرِهِ ، وَتُوجِّحِي إِلَيْهِ فِي اسْتِنْبَاطِهِ ، وَتُبَيِّنُهُ فِي شُعُورِهِ ، وَتُبَصِّرُهُ أَشْيَاءَ كَانَتْ خَافِيَةً وَكَانَ الصَّدْقُ فِيهَا ، لِيُرَدَّ بِهَا عَلَى أَشْيَاءَ كَانَتْ مَعْرُوفَةً وَكَانَ فِيهَا الْكَذِبُ ؛ ثُمَّ تُعَيِّنُهُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ الْحَيَاةَ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ ذَاتِهَا ، لَا الْحَيَاةَ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ نُفُوسِ أَغْدَائِهَا وَحُسَادِهَا .

وَلَقَدْ كَانَ أَوَّلُ مَا خَطَرَ لِي بَعْدَ أَنْ أَمَضَيْتُ فِي قِرَاءَةِ هَذَا الْعَدَدِ - أَنَّ الْمُؤَلَّفَ جَاءَ بِمَا يَصِحُّ الْقَوْلُ فِيهِ : إِنَّهُ كَتَبَ تَارِيخَ الْمُنْتَبِيِّ وَلَمْ يَقُلْهُ ؛ ثُمَّ لَمْ أَكُذْ أَمْعُرُ فِي الْقِرَاءَةِ حَتَّى خَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدْ وَضَعَ لِشِعْرِ الْمُنْتَبِيِّ بَعْدَ تَفْسِيرِ الشُّرَاحِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ تَفْسِيرًا جَدِيدًا مِنَ الْمُنْتَبِيِّ نَفْسِهِ ؛ وَمَا الْكَلِمَةُ الْجَدِيدَةُ فِي تَارِيخِ هَذَا الشَّاعِرِ الْغَامِضِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الَّتِي نَشَرَهَا « الْمُفْتَقَطُ » الْيَوْمَ .

إِنَّ هَذَا الْمُنْتَبِيَّ لَا يَفْرُغُ وَلَا يَنْتَهِي ؛ فَإِنَّ الْإِعْجَابَ بِشِعْرِهِ لَا يَنْتَهِي وَلَا يَفْرُغُ ؛ وَقَدْ كَانَ نَفْسًا عَظِيمَةً خَلَقَهَا اللَّهُ كَمَا أَرَادَ ، وَخَلَقَ لَهَا مَادَّتَهَا الْعَظِيمَةَ عَلَى غَيْرِ مَا أَرَادَتْ ، فَكَأَنَّمَا جَعَلَهَا بِذَلِكَ زَمَنًا يَمْتَدُّ فِي الزَّمَنِ .

وَكَانَ الرَّجُلُ مَطْوًى عَلَى سِرِّ أَلْفَى الْغُمُوضِ فِيهِ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِهِ ، وَهُوَ سِرُّ نَفْسِهِ ، وَسِرُّ شِعْرِهِ ، وَسِرُّ قُوَّتِهِ ؛ وَبِهَذَا السِّرِّ كَانَ الْمُنْتَبِيُّ كَالْمَلِكِ الْمَغْضُوبِ الَّذِي يَرَى النَّجَاحَ وَالسَّيْفَ يَنْظُرَانِ رَأْسَهُ جَمِيعًا ، فَهُوَ يَتَّقِي السَّيْفَ بِالْحَذَرِ وَالتَّقَلُّفِ وَالْغُمُوضِ ، وَيَطْلُبُ النَّجَاحَ بِالْكِتْمَانِ وَالْحِيلَةِ وَالْأَمَلِ .

(١) { يَتَابِرُ / كَانُونِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٣٦ م } .

وَمِنْ هَذَا السِّرِّ بَدَأَ كَاتِبُ « الْمُفْتَقَطِ » ، فَجَاءَ بِخُتْمِهِ يَتَحَدَّرُ فِي نَسَبِ عَجِيبٍ ، مُتَسَلِّسًا بِالتَّارِيخِ كَأَنَّهُ وَلَادَةٌ وَنُمُوٌّ وَشَبَابٌ : وَعَرَضَ بَيْنَ ذَلِكَ شِعْرَ أَبِي الطَّيِّبِ عَرَضًا خَيْلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ قَدْ قَبِلَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ قَلَمِ شَاعِرِهِ عَلَى حَوَادِثِ نَفْسِهِ وَأَحْوَالِهَا ، وَبِذَلِكَ انْكَشَفَ السِّرُّ الَّذِي كَانَ مَادَّةَ التَّهْوِيلِ فِي ذَلِكَ الشَّعْرِ الْفَخْمِ ، إِذْ كَانَتْ فِي وَاعِيَةِ الرَّجُلِ دَوْلَةٌ أَضَحَمُ ، دَوْلَةٌ عَجَزَ عَنْ خَلْقِهَا وَإِبْجَادِهَا فَخَلَقَهَا شِعْرًا أَضَحَمَ شِعْرًا ، وَجَاءَتْ مُبَالَغَاتُهُ كَأَنَّهُمَا أَكَاذِبُ أَمَالِهِ الْبَعِيدَةِ مُتَحَقِّقَةٌ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ الْإِمْكَانِ اللَّغَوِيِّ .

وَمِنْ أَعْجَبَ مَا كَشَفَهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمُنْتَبِيِّ سِرُّ حُبِّهِ ، فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ خَوْلَةَ أُخْتِ الْأَمِيرِ سَيِّبِ الدَّوْلَةِ ، وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ صَفْحَةً كَثِيرَةً ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُرْضِهِ فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يُؤْمَلُ أَنْ يَكْتُبَ هَذَا الْفَصْلَ فِي خَمْسِينَ وَجْهًا مِنَ « الْمُفْتَقَطِ » ؛ وَهَذَا الْبَابُ مِنْ غَرَائِبِ هَذَا الْبَحْثِ ، فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ فِي الدُّنْيَا الْمَكْتُوبَةِ (أَيِ : التَّارِيخِ) يَعْلَمُ هَذَا السِّرَّ أَوْ يَطْلُهُ ، وَالْأَدِلَّةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمُؤَلَّفُ تَقِفُ الْبَاحِثَ الْمُدَقِّقَ بَيْنَ الْإِنْبَاتِ وَالْتَفَنِّي ؛ وَمَتَى لَمْ يَسْتَطِيعَ الْمَرْءُ تَقْيًا وَلَا إِنْبَاتًا فِي خَبَرٍ جَدِيدٍ يَكْشِفُهُ الْبَاحِثُ وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ غَيْرُهُ ، فَهَذَا حَسْبُكَ إِعْجَابًا يَذْكُرُ وَهَذَا حَسْبُهُ قُورًا يُعَدُّ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنْتُ أَنَا فِي مَكَانِ الْمُنْتَبِيِّ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لَقُلْتُ : إِنَّ الْمُؤَلَّفَ قَدْ صَدَقَ ... فَهَذَاكَ مَوْضِعٌ لَا بُدَّ أَنْ يُنَحْتَ فِيهِ الْقَلْبُ الشَّاعِرِ الَّذِي وَضَعَتْ فِيهِ الدُّنْيَا حِكْمَتَهَا ، وَطَوَتْ فِيهِ الْقُوَّةَ سِرًّا ، وَبَتَّ فِيهِ الْجَمَالَ وَخِيَهُ ، وَأَصْغَرَ هَذِهِ الثَّلَاثُ أَكْبَرَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَلَكِنَّ الْحَبِيبَةَ أَكْبَرَ مِنْهَا كُلِّهَا ...

مصطفى صادق الرافعي

\* \* \*

مُحَمَّدٌ (\*) (١)

عَمَلُ الْأُسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ فِي تَصْنِيفِ هَذَا الْكِتَابِ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِعَمَلِ « كَرِيسْتُوفْ كُولُومْبُسْ Christophe Columbus » فِي الْكَشْفِ عَنْ أَمْرِيكَةِ وَإِظْهَارِهَا مِنَ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا : لَمْ يَخْلُقْ وَجُودَهَا وَلَكِنَّهُ أَوْجَدَهَا فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ ، وَذَهَبَ إِلَيْهَا : فَقِيلَ : جَاءَ بِهَا إِلَى الْعَالَمِ ، وَكَانَتْ مُعْجَزَتُهُ أَنَّهُ رَأَاهَا بِالْعَيْنِ الَّتِي فِي عَقْلِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا الصَّبْرَ وَالْمُعَانَاةَ وَالْحِدْقَ وَالْعِلْمَ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَيْهَا حَقِيقَةً مَائِلَةً .

قَرَأَ الْأُسْتَاذُ كُتُبَ السَّيْرَةِ وَمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ وَالطَّبَقَاتِ وَالْحَدِيثِ وَالشَّمَائِلِ ، بِقَرِينَةٍ غَيْرِ قَرِينَةِ الْمُؤَرِّخِ ، وَفِكْرَةٍ غَيْرِ فِكْرَةِ الْفَقِيهِ ، وَطَرِيقَةٍ غَيْرِ طَرِيقَةِ الْمُحَدِّثِ ، وَخَيَالٍ غَيْرِ خَيَالِ الْقَاصِّ ، وَعَقْلٍ غَيْرِ عَقْلِ الزَّنْدَقَةِ ، وَطَبِيعَةٍ غَيْرِ طَبِيعَةِ الرَّأْيِ ، وَقَصْدٍ غَيْرِ قَصْدِ الْجَدَلِ ، فَخَلَصَ لَهُ الْفَنُّ الْجَمِيلُ الَّذِي فِيهَا ، إِذْ قَرَأَهَا بِقَرِينَتِهِ الْفَنِّيَّةِ الْمُسْتَوِيَّةِ ، وَأَمَرَهَا عَلَى إِحْسَاسِهِ الشَّاعِرِ الْمُتَوَثِّبِ ، وَأَسْتَلَّهَا مِنَ التَّارِيخِ بِهِدِّهِ الْقَرِينَةِ وَهَذَا الْإِحْسَاسُ كَمَا هِيَ فِي طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ مُتَّجِهَةٌ إِلَى غَرَضِهَا الْإِلَهِيِّ مُحَقِّقَةٌ عَجَائِبَهَا الْزُّوْحَانِيَّةَ الْمُعْجِزَةَ .

وَقَدْ أَمَدَّتْهُ السَّيْرَةُ بِكُلِّ مَا أَرَادَ ، وَتَطَاوَعَتْ لَهُ عَلَى مَا أَشْتَهَى ، وَلَآنَتْ فِي يَدِهِ كَمَا يَلِينُ الذَّهَبُ فِي يَدِ صَانِعِهِ ، فَجَاءَ بِهَا مِنْ جَوْهَرِهَا وَطَبِيعَتِهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا خَيَالٌ وَلَا رَأْيٌ وَلَا تَغْيِيرٌ ، وَجَاءَتْ مَعَ ذَلِكَ فِي تَصْنِيفِهِ حَافِلَةٌ بِأَنْدَاجِ الْخَيَالِ ، وَأَسْمَى الرَّأْيِ ، وَأَبْلَغَ الْعِبَارَةِ ، إِذْ أَدْرَكَ بِنَظَرِهِ الْفَنِّيَّةِ تِلْكَ الْأَحْوَالَ الْفَنِّيَّةِ الْبَلِيغَةَ . فَتَظَمَّهَا عَلَى قَانُونِهَا فِي الْخَيَاةِ ، وَجَمَعَ حَوَادِثَهَا الْمُدَوَّنَةَ فَصَوَّرَهَا فِي هَيْئَةٍ وَقُوعِهَا كَمَا وَقَعَتْ ، وَاسْتَخْرَجَ الْقِصَصَ الْمُرْسَلَةَ فَأَدَارَهَا حِوَارًا كَمَا جَاءَتْ فِي أَلْسِنَةِ أَهْلِهَا ، وَبِهِدِّهِ الطَّرِيقَةِ أَعَادَ التَّارِيخَ حَيًّا

(\*) « الرسالة » العدد : ١٣٦ ، ١٧ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٠ فبراير/شباط ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحة : ٢٣٩ .

(١) كِتَابُ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ .

يَتَكَلَّمُ ، وَفِيهِ الْفِكْرَةُ وَمَلَأَتْكُنْهَا وَشَيَّاطِنُهَا ، وَكَشَفَ ذَلِكَ الْجَمَالَ الْزُّوْحَانِيَّ فَكَانَ هُوَ الْفَنُّ ، وَجَلَا تِلْكَ الْقُفُوسَ الْعَالِيَةَ فَكَانَتْ هِيَ الْفَلَسَفَةُ ، وَأَبْقَى عَلَى تِلْكَ الْبَلَاغَةَ فَكَانَتْ هِيَ الْبَيَانُ . كَانَتْ السَّيْرَةُ كَاللُّؤْلُؤَةِ فِي الصَّدْفَةِ ، فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَعَلَهَا لِلُّؤْلُؤَةِ وَخَدَهَا .

\* \* \*

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ يَفْرُضُ نَفْسَهُ بِهِدِّهِ الطَّرِيقَةِ الْفَنِّيَّةِ الْبَدِيعَةِ ، فَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ لَا ضَرُورَةَ لَوُجُودِهِ ، إِذْ هُوَ الضَّرُورِيُّ مِنَ السَّيْرَةِ فِي زَمَانِنَا هَذَا ، وَلَا يُغْتَمَرُ فِيهِ أَنَّهُ تَخَرِيفٌ وَتَزْوِيرٌ وَتَلْفِيقٌ ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ حَرْفٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يُرَدُّ بِأَنَّهُ آراءٌ يُخْطِئُ الْمُخْطِئُ مِنْهَا وَيُصِيبُ الْمُصِيبُ ، إِذْ هُوَ عَلَى نَصِّ التَّارِيخِ كَمَا حَفِظَتْهُ الْأَسَانِيدُ ، وَلَا يُزْمَى بِالْغَثَاءَةِ وَالرَّكَائِكَةِ وَضَعْفِ السَّقَى ، إِذْ هُوَ فَصَاحَةُ الْعَرَبِ الْفُصْحَاءِ الْخُلَاصِ كَمَا رُوِيَ بِالْقَاطِطِهَا ، فَقَدْ حَصَّنَهُ الْمُؤَلَّفُ تَخَصُّبًا لَا يُقْتَحَمُ ، وَكَانَ فِي عَمَلِهِ مُخْلِصًا أَنْتُمْ الْإِخْلَاصِ ، أَمِينًا بِالْوَفَى الْأَمَانَةِ ، دَقِيقًا كُلَّ الدَّقَّةِ ، حَدَرًا بِغَايَةِ الْحَذَرِ .

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنَّهَا هَيَّأَتِ السَّيْرَةَ لِلتَّرْجَمَةِ إِلَى اللُّغَاتِ الْأُخْرَى فِي شَكْلِ مَنْ أَحْسَنَ أَشْكَالِهَا يُزْعِمُ هَذَا الزَّمَنَ عَلَى أَنْ يَقْرَأَ بِالْإِعْجَابِ تِلْكَ الْحِكَايَةَ الْمُتَفَرِّدَةَ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ ، كَمَا أَنَّهَا قَرَّبَتْ وَسَهَّلَتْ فَجَعَلَتِ السَّيْرَةَ فِي نَصِّهَا الْعَرَبِيِّ كِتَابًا مَدْرَسِيًّا بَلِيغًا بَلَاغَةَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، مُرْتَبًا لِلزُّوْحِ ، مُزْهِفًا لِلذُّوقِ . مُصَحِّحًا لِلْمَلَكَةِ الْبَيِّنَاتِ .

وَحَسْبُ الْمُؤَلَّفِ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ الْيُزْمِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ : إِنَّ ابْنَ هِشَامٍ كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَدَّبَ السَّيْرَةَ تَهْدِيبًا تَارِيخِيًّا عَلَى نَظْمِ التَّارِيخِ ، وَإِنْ تَوْفِيقُ الْحَكِيمِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَدَّبَهَا تَهْدِيبًا فَنِّيًّا عَلَى نَسْقِ الْفَنِّ . . .

مصطفى صادق الرافعي

\* \* \*

### ديوان الأعراس (\*) (١)

أَبُو الْوَفَا شَاعِرٌ مِنْهُ نَفْسُهُ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ ؛ مَذْهَبُهُ الْجَمَالُ فِي الْمَعْنَى ، يُبَدِّعُهُ كَأَنَّمَا يُزْهِرُ بِهِ ، وَالْجَمَالُ فِي الصُّورَةِ يُخْرِجُهَا مِنْ بَيَانِهِ كَمَا تَخْرُجُ الْغُصُونُ وَالْأَوْرَاقُ مِنْ شَجَرَتِهَا ، وَلَهُ طَنْعٌ وَفِيهِ رِقَّةٌ ، وَهُوَ يَجْرِي مِنَ الْبَيَانِ عَلَى عَرِيٍّ ، وَسَلِيقَتُهُ تَجْعَلُهُ أَلَزَمَ لِعَمُودِ الشَّعْرِ وَأَقْرَبَ إِلَى حَقِيقَتِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعَدُّ أَحَدَ الَّذِينَ يَنْعَضُمُ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ بِهِمْ ، وَهُمْ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا ، فَإِنَّ الشَّعْرَ مُنْحَدِرٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى الْعَامِيَّةِ فِي نَسْقِهِ وَمَعَانِيهِ ، كَمَا انْحَدَرَ الْكَمِيلُ ، وَكَمَا انْحَدَرَتْ أَسَالِيبُ الْكِتَابَةِ فِي بَعْضِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ .

وَالْعَامِيَّةُ وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ تَنْقَلِبُ فِيهَا الْحَيَاةُ ، وَمَرْجِعُهَا إِلَى رُوحِ الْإِبَاحَةِ الَّذِي فَشَا بَيْنَنَا ، وَنَشَأَ عَلَيْهِ النَّشْءُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي الشَّرْقِ غَيْرَ عَمَلِهَا فِي الْغَرْبِ ، فَبِهَا هُنَاكَ رُحَصٌ وَعَزَائِمٌ ، وَهِيَ هُنَا تَسْمُحُ وَتَرْخُصُ ، فِي ظِلِّ ضَعِيفٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ . وَإِهْمَالُ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ كَمَا هِيَ فِي قَوَائِنِهَا لَيْسَ إِلَّا مَظْهَرًا لِتِلْكَ الرُّوحِ تَقَابِلَهُ الْمَظَاهِرُ الْأُخْرَى ، مِنْ إِهْمَالِ الْخُلُقِ ، وَسُقُوطِ الْفَضِيلَةِ ، وَتَخَلُّطِ الرُّجُولَةِ ، وَزَيْغِ الْأَثْوَةِ ، وَفَسَادِ الْعَقِيدَةِ ، وَأَضْطِرَابِ السِّيَاسَةِ ، إِلَى مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى مِمَّا هُوَ فِي بَلَاغَةِ الْحَيَاةِ الْمُبِينَةِ كَالْمَرْذُولِ وَالْمُطْرَحِ وَالسُّفْسَافِ فِي بَلَاغَةِ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ ؛ كُلُّ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعِهِ تَحُلُّلٌ مِنَ الْقِيُودِ وَإِبَاحَةٌ وَتَسْمُحٌ وَتَرْخُصٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَامِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَكُلُّ ذَلِكَ

(\*) « الرسالة » العدد : ٤٦ ، ٨ صفر سنة ١٣٥٣ هـ = ٢١ مايو/أيار ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٨٧٨ - ٨٨٠ .

[وَجَاءَ فِي مَقْدَمَةِ هَذَا الْمَقَالِ عَلَى لِسَانِ الْأُسْتَاذِ سَعِيدِ الْمُزَنَانِ : فِي إِحْدَى زِيَارَاتِي لِلأُسْتَاذِ مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ ، رَأَيْتُ عَلَى مَكْتَبِهِ « دِيوان الأعراس » الَّذِي أَخْرَجَهُ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ أَبُو الْوَفَا ، فَأَكْبَرْتُ أَنْ أَجِدَ هَذَا الدِّيوانَ حَيْثُ وَجَدْتُهُ ، وَلَكِنَّ الْأُسْتَاذَ أَتَى عَلَيَّ ، وَعَلَى صَاحِبِهِ ، ثُمَّ قَالَ : هَلَمْ نَقْرَأْهُ مِمَّا ، وَبَعْدَ أَنْ أَشْتَوْقَيْنَاهُ ، فَقُلْتُ عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ لِلرَّسَالَةِ الْعَزَاءِ ، قَالَ : [

(١) { لِلشَّاعِرِ الْمُعْجِدِ مُحَمَّدِ أَبِي الْوَفَا ، وَهَذَا الْمَقَالُ كَانَ حَدِيثًا مَعَ بَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ عَنِ الدِّيوانِ ، وَنُشِرَ فِي الرَّسَالَةِ الْعَزَاءِ ؛ قُلْتُ : وَأَنْظُرْ « عَمَلُهُ فِي الرَّسَالَةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » .

لَحْنٌ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْخُلُقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالرُّجُولَةِ وَالْأَثْوَةِ وَالْعَقِيدَةِ وَالسِّيَاسَةِ .

وَالشَّعْرُ الْيَوْمَ أَكْثَرُهُ (شِعْرُ الشَّعْرِ) فِي الْجَرَائِدِ ، عَلَى طَبِيعَةِ الْجَرَائِدِ لَا عَلَى طَبِيعَةِ الشَّعْرِ ، وَهَلِيزِهِ إِبَاحَةٌ صَحَافِيَّةٌ غَمَرَتْ الصُّحُفَ ، وَأَخْضَعَتْ أَذْوَاقَ كُتَّابِهَا لِقَوَائِنِ التَّجَارَةِ ، فَإِنَّهُمْ لَيَنْشُرُونَ بَعْضَ الْفَصَائِدِ كَمَا تُنْشَرُ (الْإِغْلَانَاتُ) ، لَا يَكُونُ الْحُكْمُ فِي هَذِهِ وَلَا هَلِيزِهِ لِبَيَانٍ أَوْ تَمَيُّيزٍ أَوْ مُنْفَعَةٍ ، بَلْ عَلَى قَدْرِ الثَّمَنِ أَوْ مَا فِيهِ مَعْنَى الثَّمَنِ !

وَمِنْ مَادَّةِ هَذَا الْعَصْرِ وَطُغْيَانِ الْعَامِيَّةِ عَلَيْهِ ، أَنَّنَا نَرَى فِي صَدْرِ بَعْضِ الْجَرَائِدِ أَحْيَانًا شِعْرًا لَا يَكُونُ فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ وَلَا فِي طَبَقَاتِ النَّظْمِ أَضْعَفُ وَلَا أَبْرَدَ مِنْهُ وَلَا أَدَلَّ عَلَى فَسَادِ الذَّوْقِ الشَّعْرِيِّ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ الَّذِي أَوْفَانَا إِلَيْهِ يُعَدُّ كَلَامًا صَالِحًا لِلشَّعْرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَالِحًا لِلشَّعْرِ .

وَهَكَذَا أَصْبَحَتِ الْعَامِيَّةُ فِي تَمَكُّنِهَا تَجَعُلُ مِنَ الْغَفْلَةِ حَذَقًا تَجَارِيًا ، وَمِنْ السُّقُوطِ عُلُوءًا فَلَسْفِيًّا ، وَمِنْ الرِّكَائِكَةِ بَلَاغَةً صَحَفِيَّةً ، وَمَنْ تَغَيَّرَ مَعْنَى الْحَذَقِ ، وَدَاخَلَتْهُ الْإِبَاحَةُ ، وَوَقَعَ فِيهِ التَّأْوِيلُ ، وَأَحْبَطَ بِالتَّمُونَةِ وَالشَّبهِ - فَالزُّبْنَةُ حِينَدٌ أَخَذَتِ الثَّقَةَ ، وَالْعَجْزُ بَابٌ مِنَ الْاسْتِطَاعَةِ ، وَالضَّغْفُ مَعْنَى مِنَ التَّمَكُّنِ ، وَكُلُّ مَا لَا يَقُومُ فِيهِ عُدْرٌ صَحِيحٌ كَانَ هُوَ بِطَبِيعَةِ التَّلْفِيقِ عُدْرٌ نَفْسِهِ .

وَأَكْثَرُ مَا تُنْشَرُهُ الصُّحُفُ مِنَ الشَّعْرِ هُوَ فِي رَأْيِي صِنَاعَةُ اخْتِطَابِ مِنَ الْكَلَامِ . . . وَقَدْ بَطَلَ التَّعَبُ ، إِلَّا تَعَبَ التَّقَشُّشِ وَالْحَمَلِ ، فَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ صِنَاعَةُ نَفْسِيَّةٍ فِي وَشْيِ الْكَلَامِ ، وَلَا طَنْعٌ مُوسِيقِيٌّ فِي نَظْمِ اللَّغَةِ ، وَلَا طَرِيقَةٌ فِكْرِيَّةٌ فِي سَبْكِ الْمَعَانِي ؛ وَبِهَذِهِ الْعَامِيَّةِ الْثَقِيلَةِ أَخَذَ الشَّعْرُ يُزُولُ عَنْ نَهْجِهِ ، وَيَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَوَقَعَ فِيهِ التَّوَعُّرُ السَّهْلُ . . . وَالْأَسِيخْرَاهُ الْمَحْبُوبُ . . . وَصَرْنَا إِلَى ضَرْبِ حَدِيثٍ مِنَ الْوُخْشِيَّةِ ، هُوَ الطَّرْفُ الْمُقَابِلُ لِلشَّعْرِ الْوُخْشِيِّ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ فَمَا دَامَ الْكَلَامُ غَرِيبًا ، وَالنَّظْمُ قَلَقًا ، وَالْمَعْنَى بَعِيدًا ، وَالْمَعْنَى مُسْتَهْلَكًا ، وَالنَّسْجُ لَا يَسْتَوِي ، وَالطَّرِيقَةُ لَا تَسْتَأْبَهُ - فَذَلِكَ كُلُّهُ مَسْنُوعٌ وَنَشْوِيَّةٌ فِي الْجُمْلَةِ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْأَسْنَابُ فِي التَّفْصِيلِ . وَإِذَا كَانَ الْمَسْنُوعُ جَاهِلِيًّا بِالْغَرِيبِ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، وَالنَّاسِ مِنَ اللَّغَاتِ ، وَالْوُخْشِيُّ مِنَ الْمَعَانِي ؛ وَكَانَ عَصْرِيًّا بِالرِّكَائِكِ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، وَالنَّازِلِ مِنَ التَّعْبِيرِ ، وَالْهَجِينِ مِنَ الْأَسَالِيبِ ، وَالسَّخِيفِ مِنَ الْمَعَانِي ؛ ثُمَّ

بِالسُّفْطِ وَالْخَلْطِ وَالْاضْطِرَابِ وَالتَّعْقِيدِ - فَهَلْ بَعْضُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ بَعْضِهِ ؟ وَهَلْ هُوَ فِي الشَّعْرِ الْجَمِيلِ إِلَّا كَسَلَخِ الْإِنْسَانِ الَّذِي مَسَخَهُ اللَّهُ فَسَلَخَهُ مِنْ مَعَانٍ كَانَ بِهَا إِنْسَانًا ، لِيَضَعَهُ فِي مَعَانٍ يَصِيرُ بِهَا قِرْدًا أَوْ خَنْزِيرًا لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا ظَاهِرُ السَّبَبِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا بَقِيَّةُ الْأَصْلِ ؟

فَالْفَرْدِيَّةُ الشَّعْرِيَّةُ ، وَالْخَنْزِيرِيَّةُ الشَّعْرِيَّةُ ، مُتَحَقِّقَتَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي يُنْشَرُ بَيْنَنَا ؛ وَلَكِنْ أَصْحَابُ هَذَا الشَّعْرِ لَا يَرَوْنَهُمَا إِلَّا كَمَا لَا فِي تَطَوُّرِ الْفَنِّ وَالْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ ، وَأَنْتَ مَتَى ذَهَبْتَ تَحْتَاجُ لِيَزِنِ الشَّعْرُ مِنْ قَبْلِ الْفَلَسَفَةِ ، وَتَدْفَعُ عَنْ ضَعْفِهِ بِحُجَّةِ الْعِلْمِ ، وَتَعْتَلَّ لِتَصْحِيحِ فَسَادِهِ بِالْفَنِّ - فَذَلِكَ عَيْنُهُ هُوَ دَلِيلُنَا نَحْنُ عَلَى أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ قِرْدِيٌّ خَنْزِيرِيٌّ ، لَمْ يَسْتَوْفِ تَرْكِيبَهُ ، وَلَمْ يَأْتِ عَلَى طَبْعِهِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ فِي صُورَتِهِ ؛ وَمَا يَكُونُ الدَّلِيلُ عَلَى الشَّعْرِ مِنْ رَأْيٍ نَاطِقٍ وَأَفْتَانٍ بِهِ وَدِفَاعٍ عَنْهُ ، وَلَكِنْ مِنْ إِحْسَاسٍ قَارِيهِ وَأَهْتِيزِهِ لَهُ وَتَأَثُّرِهِ بِهِ .

\* \* \*

وَالشَّاعِرُ أَبُو الْوَلَفَا جَيِّدُ الطَّرِيقَةِ ، حَسَنُ السَّبَكِ ، يَقُولُ عَلَى فِكْرِ وَفَرِيحَةٍ ، وَيَزْجَعُ إِلَى طَبْعٍ وَسَلِيقَةٍ ، وَلَكِنْ نَفْسَهُ قَلِقَةٌ فِي مَوْضِعِهِ الشَّعْرِيِّ مِنَ الْحَيَاةِ ؛ وَفِي رَأْيِي أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَتِمُّ بِأَدَبِهِ وَمَوَاهِبِهِ حَتَّى يَكُونَ تَمَامُهُ بِمَوْضِعِ نَفْسِهِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي تَضَعُهُ الْحَيَاةُ فِيهِ ؛ وَالْكَلامُ يَطُولُ فِي صِفَةِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَلَكِنَّهُ فِي الْجُمْلَةِ كَمَنْبِتِ الزَّهْرَةِ : لَا تَزْكُو زَكَاءَهَا ، وَلَا تَبْلُغُ مَبْلَغَهَا إِلَّا فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَصِلُ عَنَاصِرُهَا بِعَنَاصِرِ الْحَيَاةِ وَافِيَةً تَامَةً ، فَلَا يَقْطَعُهَا عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَرُدُّ شَيْئًا عَنْهَا ؛ إِذْ هِيَ بِمَا فِي تَرْكِيبِهَا وَنَهْيَتِهَا إِنَّمَا تَتِمُّ بِمَوْضِعِهَا ذَاكَ لِتَهْيِئَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ ، فَإِنْ كَانَتْ الزَّهْرَةُ عَلَى مَا وَصَفْنَا ، وَإِلَّا فَمَا بُدَّ مِنْ مَرَضٍ أَلْوَنٍ ، وَهَرَمٍ أَعْيَرٍ ، وَهَزَالٍ أَلْضَرِّ ، وَسَقَمٍ أَلْجَمَالِ .

وَلَوْ لَا أَنَّ الْحِكْمَةَ وَقَّتِ الْأُسْتَاذَ أَبَا الْوَلَفَا قِسْطَهُ مِنَ الْأَلَمِ ، وَوَهَبَتْهُ نَفْسًا مُتَأَلِّمَةً حَصَرَتْهَا فِي أَسْبَابِ أَلَمِهَا حَضَرًا لَا مَفْرَ مِنْهُ - لَفَقَدَتْ زَهْرَتُهُ عُصْرَ تَلَوْنِهَا ، وَلَخَرَجَ شِعْرُهُ نَظْمًا حَائِلًا مُضْطَرِبًا مُتَقَطِّعًا الْأَسْبَابِ مِنَ الْوَحْيِ ؛ غَيْرَ أَنَّ جِهَةَ الْأَلَمِ فِيهِ هِيَ جِهَةُ السَّمَاءِ إِلَيْهِ ؛ وَلَوْ هُوَ تَكَافَأَتْ جِهَاتُهُ الْمَعْنَوِيَّةُ الْأُخْرَى ، وَأُعْطِيَتْ كُلُّ جِهَةٍ حَقَّهَا ، وَتَخَلَّصَتْ مِمَّا يُلَاسِبُهَا ؛ لَازْتَفَعَ مِنْ مَرْتَبَةِ الْأَلَمِ إِلَى مَرْتَبَةِ الشُّعُورِ بِالْعَامِضِ وَالْمُبْتَدِئِ ، وَلَكَانَ عَقْلًا مِنْ

الْعُقُولِ الْكَبِيرَةِ الْمُؤَلَّدَةِ الَّتِي يَخْبِأُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ حَيَاةً شِعْرِيَّةً ذَاتَ حِسٍّ .

وَلَكِنْ مَا دَامَتِ الْحَيَاةُ قَدْ وَرِثَتْ لَهُ بِمِقْدَارٍ ، وَطَفَّقَتْ مَعَ ذَلِكَ وَبَخَسَتْ ، فَقَدْ كَانَ يَخْسُنُ بِهِ أَنْ يَفْضُرَ شِعْرُهُ عَلَى أَبْوَابِ الزُّفْرَةِ وَالذَّمْعَةِ وَاللَّهْفَةِ ، لَا يَغْدُوَهَا ، وَلَا يُزَاوِلُ مِنْ الْمَعَانِي الْأُخْرَى مَا ضَعُفَتْ أَدَاتُهُ مَعَهُ أَنْ تَتَصَرَّفَ ، أَوْ انْقَطَعَتْ وَسِيلَتُهُ إِلَيْهِ أَنْ تَبْلُغَ ، وَيُظْهَرُ لِي أَنَّ أَبَا الْوَلَفَا يَخْذُو عَلَى حَدِّ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي ، وَهُوَ شَبِيهُهُ بِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ تَفْخُجْ لَهُ عَلَى الْكَوْنِ إِلَّا نَافِذَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ صَبْرِي أَقْبَلَ عَلَى نَافِذَتِهِ وَنَظَرَ مَا وَسِعَهُ النَّظَرُ ، أَمَّا أَبُو الْوَلَفَا فَيَحَاوِلُ أَنْ يَنْقُبَ فِي الْحَائِطِ لِيَجْعَلَهُمَا نَافِذَتَيْنِ ...

أَمَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشَّعْرِ أَنْ تَنْزِلَ الْحَيَاةُ الْفَلَسَفِيَّةُ عَنْ مَنْزِلَتِهَا بَيْنَ الْيَقِينِ وَالْعَقْلِ ، أَوْ الْمَشْهُودِ وَالْمَحْجَبِ ، أَوْ الْوَاقِعِ وَالسَّبَبِ ، أَوْ الرَّسْمِ وَالْمَعْنَى - فَتَنْقَلِبَ حَيَاةً مَعَاشِيَّةً تَسِمُ الْأَشْكَالَ وَالْمَعَانِي بِسِمَتِهَا الْمَادِّيَّةِ التَّرَائِبِيَّةِ ، وَتَقَعُ فِي الشَّعْرِ فَتَفْجُمُ بَيْنَ شِعْرِ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ ، وَشِعْرِ الْفِكْرِ الْمُتَأَمِّلِ - شِعْرُ الْمَعْدَةِ الْجَانِعَةِ ، وَتَضَعُ بَيْنَ أَشْوَاقِ الْكَوْنِ شَوْقَهَا هِيَ إِلَى الطَّعَامِ وَالنِّيَابِ وَالْمَالِ ...

عَلَى أَنَّهُ كَانَ الْأَنْثُلُ فِي التَّذْيِيرِ ، وَالْأَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ أَنْ يَصْرِفَ أَبُو الْوَلَفَا هَذَا الشُّعُورَ الْمَادِّيَّ الَّذِي يَتَلَدُّعُ بِهِ ، فَيَحْوِلُهُ فَيَجْعَلُهُ بَابًا مِنْ حِكْمَةِ الشَّعْرِ الشَّعْرِيِّ بِالدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَحَوَادِثِهَا ، كَمَا صَرَفَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ مِنْ قَبْلِ فَآخِطًا فِي تَحْوِيلِهِ ، فَجَعَلَهُ مَرَّةً بَابًا مِنَ الْمَدْحِ وَالنَّقَاقِ ، وَمَرَّةً بَابًا مِنَ الْهَجَاءِ وَالْإِفْدَاعِ .

وَلَوْ بَدَّلَ الشَّاعِرُ أَبُو الْوَلَفَا مَجْهُودَهُ فِي ذَلِكَ ، وَأَتَّهَمَ الدُّنْيَا ثُمَّ حَاكَمَهَا ، وَنَصَرَ لَهَا الْقَانُونَ ، وَأَجْلَسَ الْقَاضِي ، وَافْتَتَحَ الْمَجْلِسَ ، وَرَفَعَهَا قَضِيَّةً قَضِيَّةً ، ثُمَّ أَخَذَهَا حُكْمًا حُكْمًا ، نَارَةً فِي نَادِرَةٍ بَعْدَ نَادِرَةٍ ، وَمَرَّةً فِي حِكْمَةٍ إِلَى حِكْمَةٍ ، وَأَوْنَةً فِي سُخْرِيَّةٍ مَعَ سُخْرِيَّةٍ - إِذَنْ لَا هَتْدَى هَذَا الْمُتَأَمِّلُ الرَّقِيقُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنْ سِرِّ الْمَوْهَبَةِ الَّتِي فِي نَفْسِهِ ، فَأَخْرَجَ مَكْنُونَهُ هَلِيدَهُ النَّاحِيَةَ الْقَوِيَّةَ مِنْهَا ، فَكَانَ وَلَا رَيْبَ شَاعِرَ وَقْفِهِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَإِمَامَ عَصْرِهِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ .

عَلَى أَنَّ فِي صَفَحَاتِ دِيَوَانِهِ أَشْيَاءَ قَلِيلَةً تُؤْمِي إِلَى هَذِهِ الْمَلَكَةِ ، وَلَكِنَّهَا مَبْنُوتَةٌ فِي تَضَاعُيفِ شِعْرِهِ ، وَالْوَجْهَ أَنْ يَكُونَ وَجْهُهُ فِي تَضَاعُيفِهَا ، وَإِنَّهُ لَيَأْتِي بِأَسْمَى الْكَلَامِ



وَأَبْدَعِهِ ، حِينَ يَعْمَدُ إِلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ الَّذِي نَبَهْنَا إِلَيْهِ ، فَيَصْرِفُ لَهْفَةَ نَفْسِهِ إِلَى بَعْضِ  
وُجُوهِهَا الشَّعْرِيَّةِ ، كَقَوْلِهِ فِي « حُلُمِ الْعَذَارَى » وَهِيَ مِنْ بَدَائِعِهِ وَمَحَاسِنِ شِعْرِهِ لَمَنْ مَجْزُوءِ  
الرمل ] :

هَـمَا عَيْنَاكَ تُغْرِينِ      خِـنِي عَلَيَّ شَتَّى الطُّـوْنِ  
فِيهِمَا بَخْرٌ وَمَوْ      جٌ وَسُهُـوْلٌ وَخُـزُونُ  
وَوُضْـوُحٌ وَغُـمُـوْضٌ      وَأَضْطِرَابٌ وَسُكُونُ  
وَمَعَانٍ بَيِّنَاتٍ      وَمَعَانٍ لَا تَبَيِّنُ  
وَتَهْـاوِينُ لُفْـتُونِ      مِنْ رَشَادٍ وَجُـتُونِ  
وَأَشْعَاتٍ حَيَّارَى      مِنْ مُنَى أَوْ مِنْ حَيْنِ  
لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ سِرٍّ      خَلَفَ هَاتِيكَ الْجُفُونِ  
أَهْ إِنَّ السُّرَّرَ أَنْبَا      عَنْهُ ذَانِ الطَّائِرَانِ  
حِينَمَا مَالَا عَلَى غُضِّ      سِتْرِهِمَا يَعْتَنِقَانِ ...  
فَهَذِهِ آيَاتُ فِي شِعْرِ الْجَمَالِ كَالْمَخْرَابِ مِلْؤُهُ عَابِدُهُ ...

\* \* \*

### النَّجَاحُ وَكِتَابُ سِرِّ النَّجَاحِ (\*)

مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَا عَقْلٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَوْدَعَ فِي تَرْكِيبِهِ شَيْئَيْنِ كَالْمُقَدَّمَةِ وَالتَّيْنِجَةِ ، وَأَعْطَاهُ  
بِهِمَا الْقُدْرَةَ عَلَى الْوَسِيلَةِ وَالْغَايَةِ ؛ لِتَخَيُّ مَنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ [راجع ٨  
سورة الأنفال/ الآية : ٤٢] ؛ فَبَيْنَ تَرْكِيبِ الْإِنْسَانِ قُوَّةُ الرَّغْبَةِ فِي النَّجَاحِ وَأَنْ يَتَأَنَّى إِلَى سِرِّهِ أَوْ  
يَبْلُغَ مِنْهُ أَوْ يَقَارِبَهُ ، وَفِي هَذَا التَّرْكِيبِ عَيْنُهُ مَا يَهْتِكُ بِهِ هَذَا الْحِجَابَ وَيُفْضِي مِنْهُ إِلَى  
هَذَا السِّرِّ وَيَجْمَعُ بِكَ عَلَيْهِ ، وَمَا أَنْكَرَ أَنَّ النَّجَاحَ قَدَرٌ مِنَ الْأَقْدَارِ ، وَلَكِنَّهُ قَدَرٌ ذُو رَاحَةٍ  
قَوِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِ يَسْتَرْوِحُهَا مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي السَّمَاءِ وَبَيْنَهُ وَالْأَرْضِ أَمَدٌ  
وَدَهْرٌ وَأَسْبَابٌ وَأَقْدَارٌ كَثِيرَةٌ ؛ وَلَوْ لَا أَنَّ هَذِهِ الْخَاصَّةَ فِيهِ وَفِي الْإِنْسَانِ مِنْهُ لَمَا تَوَفَّرَتْ رَغْبَةُ  
فِي عَمَلٍ وَلَا صَحَّ نَشَاطٌ فِي الرَّغْبَةِ وَلَا تَوَجَّهَ عَزَمٌ إِلَى النَّشَاطِ وَلَا تَوَثَّقَتْ عُقْدَةٌ عَلَى الْعَزَمِ .  
غَيْرَ أَنَّ فِي الْإِنْسَانَ كَذَلِكَ مَا يُفْسِدُ هَذِهِ الْخَاصَّةَ أَوْ يُضْعِفُهَا أَوْ يُعْطِلُهَا تَغْطِيلًا ، فَإِذَا  
هِيَ تُضِلُّ وَلَا تَهْدِي وَكَانَتْ تَهْدِي وَلَا تُضِلُّ ، وَإِذَا هِيَ زَانِعَةٌ عَنِ الْحَقِّ مُلْتَوِيَةٌ عَنِ الْقَصْدِ ،  
وَكَانَتْ هِيَ السَّبِيلَ إِلَى الْحَقِّ وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى الْقَصْدِ ، وَمَا يَنَالُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ  
ثَلَاثَةٍ : الْعَجْزُ ، وَضَعْفُ الْهَمَّةِ ، وَأَضْطِرَابُ الرَّأْيِ .

فَأَمَّا الْعَجْزُ فَمَنْزِلَةٌ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ كَالنَّبَاتِ يَرْتَفِعُ عَنِ الْأَرْضِ بِعُودِهِ وَلَكِنَّهُ غَائِرٌ فِيهَا  
بِأُصُولِ حَيَاتِهِ ، وَأَمَّا ضَعْفُ الْهَمَّةِ فَمَنْزِلَةٌ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يُوْجَدَ كَيْفَمَا وَجَدَ  
وَحَيْثُمَا جَاءَ مَوْضِعُهُ مِنَ الْوُجُودِ ، إِذْ هُوَ يُؤَلِّدُ وَيَكْدَحُ وَيَكْدُ لِيَكُونَ لَحْمًا وَعَظْمًا وَصُوفًا  
وَوَبْرًا وَشَعْرًا وَأَثَانًا وَمَتَاعًا ، وَكَأَنَّهُ ضَرَبَ آخِرُ مِنَ النَّبَاتِ إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الْمُنْفَعَةِ .

وَأَمَّا أَضْطِرَابُ الرَّأْيِ فَمَنْزِلَةٌ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً ، وَتَقَعُ مِنْ  
كِلْتَاهُمَا مَوْقِعَهَا ، وَالْعَجْزُ وَضَعْفُ الْهَمَّةِ وَأَضْطِرَابُ الرَّأْيِ فِي لُغَةِ الْعَقْلِ مَعَانٍ ثَلَاثَةٌ لِكَلِمَةٍ  
وَاحِدَةٍ هِيَ الْخَبِيْثَةُ ، وَمَا أَسْرَارُ النَّجَاحِ إِلَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي تُقَابِلُهَا وَهِيَ الْقُوَّةُ وَالْعَزِيمَةُ وَالنَّبَاتُ .

وَلَكِنْ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ طُفُولَةٌ وَشَبَابٌ ، وَهُمَا حَالَتَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا ، وَهُمَا مِنَ الضَّعِيفِ وَالْثَرَقِ بِطَبِيعَتِهِمَا ، وَفِيهِمَا يَتَنَاقَلُ الْإِنْسَانُ إِلَى أَغْرَاضِهِ ، وَيَزِيدُ عَنْ صِعَابِهَا ، وَيَتَحَذَلُ دُونَ غَايَاتِهَا ؛ وَلَيْسَ يَأْتِي لِلطُّفْلِ أَنْ يُدْرِكَ الرَّجُلَ فِي مَعَانِيهِ وَلَا لِلشَّابِّ أَنْ يَبْلُغَ الْحَكِيمَ فِي كَمَالِهِ ؛ فَكَأَنَّ هَذَيْنِ لَيْسَ لَهُمَا أَمَلٌ فِي أَسْتَبَابِ النَّجَاحِ ، وَكَأَنَّ كُلَّيْهِمَا لَا يُحْسِنُ أَنْ يَطْوِيَ فَوَادَةً عَلَى شَيْءٍ وَلَا أَنْ يَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَمْرٍ ، غَيْرَ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ أَنَّهُ أَرَصَدَ مِنْ نَوَامِيسِهِ الْقَوِيَّةِ لَضَعْفِ الطُّفُولَةِ وَتَرَقَّى الشَّبَابِ مَا هُوَ سِنَادٌ يَمْنَعُ ، وَمَوْزِلٌ يَعْصِمُ ، وَقُوَّةٌ تُصْلِحُ ؛ وَهُوَ نَامُوسُ الْقُدْوَةِ الَّذِي يَتِمَثَّلُ فِي الْأَبِ وَالْأُمِّ وَالصَّاحِبِ وَالْعَشِيرِ وَالْمُعَلِّمِ وَالْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ يَبِثُ فِي الْخَلْقِ مَا يُوجِّهُهُمْ دَائِمًا إِلَى الْأَعْيَادِ وَيَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ وَيُصَرِّهُمُ بِهِ ، حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا إِنَّمَا هِيَ مُمَارَسَةٌ لِفَضِيلَةِ الْإِيمَانِ بِهِ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي الْإِنْسَانُ أَوْ لَا يَدْرِي .

وَكِتَابُ « سِرِّ النَّجَاحِ » الَّذِي تَرَجَمَهُ أَسْتَاذُنَا الْعَلَّامَةُ الدُّكْتُورُ يَعْقُوبُ صَرْوَفُ فِي سَنَةِ ١٨٨٠ ، وَظَهَرَتْ طَبْعَتُهُ الرَّابِعَةُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، هُوَ وَاللَّهُ فِي بَابِ الْقُدْوَةِ نَامُوسٌ عَلَى جِدَةٍ ، وَمَا رَأَيْتُ كِتَابًا تَلَامَ نَسْجُهُ وَاسْتَوَتْ أَجْزَاؤُهُ وَوُضِعَ آخِرُهُ عَلَى أَوَّلِهِ وَأَنْصَبَ كُلُّهُ إِلَى الْغَرَضِ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ وَجَاءَ مَقْطَعًا وَاحِدًا فِي مَعْنَاهُ وَقَائِدَتِهِ - كَهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يَعْلَمُ الضَّعِيفُ كَيْفَ يَقْوَى ، وَالْعَاجِزُ كَيْفَ يَغْتَمِدُ ، وَالْمُضْطَرُّ كَيْفَ يَنْبِثُ ، وَالْمَحْزُونُ كَيْفَ يَأْمُلُ ، وَالْيَائِسُ كَيْفَ يَتَّقِ ، وَالْمُنْهَزَمُ فِي الْحَيَاةِ كَيْفَ يَقْبِلُ ، وَالسَّاقِطُ كَيْفَ يَنْتَهِضُ ؛ وَيُعَلِّمُكَ مَعَ ذَلِكَ كَيْفَ تُرْبِحُ الْكَدَّ بِالْكَدِّ ، وَكَيْفَ تُسْقِطُ التَّعَبَ بِالتَّعَبِ ، وَكَيْفَ تَمْضِي عَزِيمَتَكَ وَتَعْتَقِدَهَا وَتَضْرِبُ كُرَّةَ الْأَرْضِ بِقَدَمِكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَلِكًا وَلَا قَائِدًا وَلَا فَاتِحًا ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ صَحْبِ الشُّوْقَةِ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ فَقْرِكَ وَرَاءَ عَتَبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لَا أَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ عِلْمٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَنْقُطُ بِهِ دُونَ مَنَزِلَتِهِ وَلَا يَنْدُو فِي وَصْفِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مَجْمُوعًا مِنَ الْوَرَقِ الصَّقِيلِ عَلَى طَبْعٍ جَيِّدٍ ، مَعَ أَنَّهُ مَجْمُوعٌ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعَزَائِمِ وَأَعْصَابِ الْقُلُوبِ ؛ وَلَكِنِّي أَقُولُ فِي وَصْفِهِ الْعِلْمِيِّ : إِنَّ الْمَدَارِسَ تُخْرِجُ مِنَ الْكُتُبِ تَلَامِيذَ ... وَهَذَا الْكِتَابُ يُخْرِجُ مِنَ التَّلَامِيذِ رِجَالًا أَقْوِيَاءَ أَشْدَاءَ مَعْصُومِينَ عَصِيبَ جُذُوعِ الشَّجَرِ الْعَاتِي ، مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَصَلَابَتِهَا وَصِحَّةِ الْعَزِيمَةِ وَمَضَائِهَا ، وَتَضَمُّنِ الرَّأْيِ وَنَفَادِهِ ؛

وَمِمَّا يُعْطِي مِنْ قُوَّةِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَمُطَاوَلَةِ التَّعَبِ إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الطَّاقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَمَا تَقْرُوهُ حَقَّ قِرَائَتِهِ وَتَسْتَوْفِيهِ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّنْذِيرِ وَالْإِمْعَانِ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْهُ وَقَدْ وَضَعَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا أَكْثَمَ مِنْ نَفْسِكَ كَأَنَّكَ مَنْ كُنْتَ وَكَيْفَ كُنْتَ ، فَإِنْ تَكُنْ طِفْلًا خَرَجْتَ رَجُلًا ، وَإِنْ كُنْتَ رَجُلًا خَرَجْتَ حَكِيمًا ، وَإِنْ كُنْتَ حَكِيمًا اسْتَحْدَثْتَ فِي نَفْسِكَ مَا يَجْعَلُكَ بِالْحِكْمَةِ فَوْقَ الدُّنْيَا وَكُنْتَ بِهَا فِي الدُّنْيَا .

قَالَ الْأَسْتَاذُ الْمُتَرْجِمُ فِي مُقَدِّمَتِهِ : « أَشْهَدُ لِأَبْنَاءِ وَطَنِي أَنَّنِي لَمْ أَتَنَفَّعْ بِكِتَابٍ قَدَرُ مَا أَتَنَفَّعْتُ بِهِذَا الْكِتَابِ » . وَهَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَقُولُ غَيْرُهَا مَنْ يَقْرَأُ « سِرَّ النَّجَاحِ » ، وَلَا يُمكنُ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا : إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ فِي وَضْعٍ مِنْ فَائِدَةِ النَّفْسِ وَمَا يُؤْهِفُ حَدَّهَا وَيَنْبِثُ مَلَكَاتِهَا وَيَسْتَنْهَضُ قُوَاهَا وَيَسْتَنْقِذُ وَسَائِلَهَا عَلَى مَا يُشِبُّهُ الْقَوَاعِدُ الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَّا إِلَى نَيْجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَيْنَ أَعْتَبَرْتَهَا ، كَ : اثْنَانِ وَاثْنَانِ أَرْبَعَةٌ ، وَثَلَاثَةٌ وَوَاحِدٌ أَرْبَعَةٌ ، وَأَرْبَعَةٌ وَحَدَاثِ أَرْبَعَةٌ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

تِلْكَ شَهَادَةُ الْمُتَرْجِمِ ، أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ لَقَدْ عَرَفْتُ مُنْذُ زَمَنِ طَالِبًا فِي الْأَزْهَرِ ، فَلَمَّا تَعَرَّفَ إِلَيَّ جَعَلَ يَشْكُو وَيَتَبَرَّمُ وَيَتَفَضَّلُ لِي نَفْسُهُ يَقُولُ : الْأَزْهَرُ وَعُلُومُهُ وَقُتُونُهُ وَمَسَائِلُهُ وَمَشَاكِلُهُ ، وَالْمُتُونُ وَمَا فِيهَا ، وَالشُّرُوحُ وَمَا إِلَيْهَا ، وَالْحَوَاشِي وَمَا يَرُدُّ وَيُعْتَرِضُ وَيُجَابُ بِهِ وَيُقَالُ فِيهِ ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ بِسَاعَةِ مِنَ الْعُمَرِ ، وَكُلُّ سَطْرِ يَوْمٍ ، وَكُلُّ جُزْءٍ بِسَنَةٍ ، وَتَرَكْتُ وَرَائِي كَذَا وَكَذَا فِدَانًا وَأَقْبَلْتُ عَلَى كَذَا وَكَذَا عِلْمًا ، فَلَا حَصْدَتُ مِنْ هَذِهِ وَلَا مِنْ تِلْكَ ! قُلْتُ : وَمَا يُنْسِكُكَ وَالْبَابُ مَفْتُوحٌ وَلَا يَسْأَلُكَ الْأَزْهَرُ إِلَى أَيْنَ وَلَا تَسْأَلُكَ الدُّنْيَا إِذَا خَرَجْتَ إِلَيْهَا مِنْ أَيْنَ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا رَبَطَنِي إِلَى هَذِهِ الْأَعْمَدَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً كَامِلَةً عَلَى يَأْسٍ وَمَضَضٍ إِلَّا كِتَابُ « سِرِّ النَّجَاحِ » ، وَمَا أَمْضَيْتُ نَيْبِي مَرَّةً عَلَى وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ الْعَيْشِ إِلَّا رَأَيْتُ هَذَا الْكِتَابَ قَدْ ضَرَبَ وَجْهَهُ هَذِهِ النَّيْبَةُ قَدْ دَخَلَتْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ وَأَلْقَاهَا فِي هَذَا الْمُسْتَقَرِّ ؛ وَمَا هَمَمْتُ بِتَرْكِ الْأَزْهَرِ إِلَّا أَنْصَبْتُ فِي وَجْهِهِ كُلَّ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ قَرَأْتُ أَخْبَارَهُمْ فِيهِ وَأَمْسَكُونِي ؛ لَا مِنْ يَدِي وَلَا مِنْ رِجْلِي وَلَكِنْ مِنْ اعْتِقَادِي وَإِيمَانِي وَأَمَلِي !

قُلْتُ : فَوَاللَّهِ لَا يَدْعُكَ حَتَّى تَنْجَحَ ؛ وَمَا رَبَطَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ بِهِذَا الْكِتَابِ وَتَبَّتْ فَوَادُكَ بِالْيَقِينِ الَّذِي فِيهِ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ لَكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ .

## أَبُو تَمَّامٍ الشَّاعِرُ

تَحْقِيقُ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ بِمِصْرَ (\*)

لَمْ يَبْقَ بُدٌّ مِنْ أَنْ نَبْلَغَ بِالْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَعْنَى إِلَى مَقْطَعِ الْحَقِّ فِيهِ ، وَأَنْ نَتَفَقَّدَ بِتَحْقِيقِهِ إِلَى خَاصَّتِهِ ، وَنَسْتَهَيَّ مِنْ خَاصَّتِهِ إِلَى بُرْهَانِهِ ، فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْأَدَبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا الْقَوْلَا خَبَرَ أَبِي تَمَّامٍ كَلَامًا مُزَسَّلًا يَجْرِي فِي الرِّوَايَةِ عَلَى طُرُقِهَا الْمُخْتَلَفَةِ ، لَا عَلَى التَّأْرِيخِ فِي وَجْهِهِ الْمُتَعَيَّنِ ، وَيُؤْخَذُ عَلَى أَنَّهُ خَبَرَ كَالْأَخْبَارِ إِنْ صَدَقَ فَقَدْ صَدَقَ وَإِنْ كَذَبَ فَهُوَ عَلَى مَا يَجِبُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَغْنِيهِمْ مِنَ الشَّاعِرِ إِلَّا شِعْرُهُ ، يَحْمِلُونَهُ عَنْهُ أَوْ يَأْخُذُونَهُ مِنْ رِوَايَةِ أَوْ يَجِدُونَهُ فِي دِيَوَانِهِ ؛ أَمَّا أَخْبَارُ الشَّاعِرِ فَهِيَ لَا تَتَّصِلُ بِالْكِتَابِ وَلَا بِالسِّيَةِ ، فَتَجْتَمِعُ لَهُمْ كَمَا تَجْتَمِعُ ، وَيَتَنَاوَلُونَهَا كَمَا اتَّفَقَتْ بِمَا دَخَلَهَا مِنَ الْكُذْبِ وَالتَّرْيِيدِ وَالتَّلْفِيفِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِمَّا يُظَاهِرُ بَعْضُهُ بَعْضًا أَوْ يَنْقُضُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَالْمُحَقِّقُ مِنْهُمْ مَنْ يَرْوِي الصَّدَقَ وَالْكَذِبَ مَعًا لِيُخْرِجَ مِنَ السَّيَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَبَعَةٍ فِي أَحَدِ اللَّيْضَيْنِ ، وَلِيَبْرَأَ بِصَدَقِ أَحَدِهِمَا مِنْ كُذْبِ أَحَدِهِمَا ، كَمَا صَنَعَ أَبُو خُلَيْكَانَ فِي سِيَاقِهِ خَبَرَ أَبِي تَمَّامٍ وَهَذَا نَصُّ عِبَارَتِهِ :

كَانَتْ وَلَادَةُ أَبِي تَمَّامٍ ... بِجَاسِمٍ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ بَيْنَ دِمَشْقَ وَطَبْرِقَةَ ، وَنَشَأَ بِمِصْرَ ، قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَسْقِي الْمَاءَ بِالْجَرَّةِ فِي جَامِعِ مِصْرَ ، وَقِيلَ : كَانَ يَخْدُمُ حَائِكًا يَعْمَلُ عِنْدَهُ بِدِمَشْقَ ، وَكَانَ أَبُوهُ خَمَّارًا بِهَا .

وَالَّذِينَ يَغْرِفُونَ طُرُقَ الرِّوَايَةِ وَمُضْطَلَحَاتِهَا يُذَكِّرُونَ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ ابْنَ خُلَيْكَانَ يَتَّبِعِي مِنْ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ تَبَعَةٌ أَحَدِ الْخَبَرَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا ، فَإِنَّ الرِّوَايَةَ مَتَى افْتَتَحَ الْخَبَرَ (يَقِيلُ

(\*) لَمَّا أُنْشَأَ الْمُؤَلَّفُ مَقَالَهُ عَنْ شَوْقِي (رَحِمَهُ اللَّهُ) غَضِبَ مِنْ غَضَبٍ مِنْ أَدْبَاءِ مِصْرَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ يُقْصَدُ اللَّغْضُ مِنْ مَكَانَةِ (مِصْرَ الشَّاعِرَةِ) ، وَرَمَاهُ مِنْ رَمَاهُ فِي وَطَنِيهِ ، وَحَاوَلَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي الشُّعْرِ الْمِصْرِيِّ بِتَعْدَادِ شُعْرَاءِ مِصْرَ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاسْتَشْبَحَ شَيْءٌ شَيْئًا ، فَجَاءَ ذِكْرُ أَبِي تَمَّامٍ وَمَا قَالُوا عَنْ إِقَامَتِهِ فِي مِصْرَ ؛ فَأُنْشَأَ الْمُؤَلَّفُ هَذَا الْمَقَالَ ، وَأَنْظَرَ «فِي الْقَدْرِ» مِنْ كِتَابِنَا «حَيَاةَ الرَّافِعِيِّ» .

أَوْ يُقَالُ) فَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ غَيْرُ مَقْطُوعٍ بِهِ ، إِذْ تُسَمَّى هَذِهِ الصَّنِيعَةُ عِنْدَهُمْ صَنِيعَةُ التَّنْمِيزِ ، فَهِيَ لَا تُعِيدُ الصَّحَّةَ وَلَا الْحُزْمَ بِهَا ، وَظَاهِرٌ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَشَأَ بِمِصْرَ وَبِدِمَشْقَ فِي وَفْتٍ مَعًا .

وَأَبُو خُلَيْكَانَ قَدْ وَقَفَ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي عَمِلَهُ الصُّولِيُّ فِي أَخْبَارِ أَبِي تَمَّامٍ وَنَقَلَ عَنْهُ ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ قَدْ خَلَا مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، بَلْ نَحْنُ نُرْجِّحُ أَنَّهُ قَدْ خَلَا مِنْهَا بَتَّةً ، فَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ نَشَأَ أَبِي تَمَّامٍ كَانَتْ بِمِصْرَ ، لِأَنَّ صَاحِبَ الْأَغَانِي أَغْفَلَهَا وَلَمْ يُبَيِّنْ إِلَيْهَا بِحَرْفٍ ، مَعَ أَنَّهُ يَنْقُلُ عَنِ الصُّولِيِّ نَفْسِهِ ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ : (أَخْبَرَنِي الصُّولِيُّ) ؛ وَكَذَلِكَ أَهْمَلَهَا صَاحِبُ «مُزْجِ الذَّهَبِ» ، وَهُوَ يَنْقُلُ أَيْضًا عَنِ الصُّولِيِّ ، وَهَذَا يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الْخَبَرَ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا يَوْمَئِذٍ ، وَإِلَّا فَمَا هُوَ التَّأْرِيخُ عِنْدَ أَبِي الْفَرَجِ وَالْمَسْعُودِيِّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ هَذَا ؟

وَلَكِنْ ذُكِرَتِ الرِّوَايَةُ فِي كِتَابِ الْأَنْبَارِيِّ «طَبَقَاتُ الْأَدْبَاءِ» ، وَأَقْتَصَرَ نَاقِلُهَا عَلَى أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ نَشَأَ بِمِصْرَ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَسْقِي الْمَاءَ بِهَا ، وَلَمْ يَذْكُرْ رِوَايَةَ عَمَلِهِ بِدِمَشْقَ ، وَالْأَنْبَارِيُّ مُتَأَخِّرٌ تُوُفِيَ سَنَةَ ٥٧٧ هـ ، فَهُوَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي تَمَّامٍ بِثَلَاثَةِ قُرُونٍ وَنِصْفٍ ، فَلَا قِيَمَةَ لِرِوَايَتِهِ ، وَشَأْنُهُ شَأْنُ غَيْرِهِ مِنَ الثَّاقِلِينَ ، وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ قَدْ صُنِعَتْ فِي مِصْرَ نَفْسَهَا لِلْغَضِّ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ وَالرِّوَايَةِ عَلَيْهِ ، وَبَقِيَتْ مَرْوِيَّةً فِيهَا ، ثُمَّ حُمِلَتْ كَمَا تُحْمَلُ كُلُّ رِوَايَةٍ لِذَاتِهَا لَا لِتَحْقِيقِهَا ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مُوجَّهَةً عَلَى الْحَقِّ أَمْ مَعْدُولًا بِهَا عَنْهُ ؛ وَلَا أَوْضَحَ فِي الْمِهْنَةِ مِنْ سِقَايَةِ الْمَاءِ فِي الْجَامِعِ بِالْجَرَّةِ ، وَلَعَمْرِي مَا ذُكِرَتْ (الْجَرَّةُ) هُنَا عَيْنًا ، وَالْغُلُوُّ فِي التَّخْفِيرِ هُوَ بَعِيْنُهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْكُذْبِ ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ كَأَثَرِ الْمُجْرِمِ فِي جَرِيْمَتِهِ ...

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّا نَقَرُّ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ الْعَظِيمَ لَمْ يَنْشَأَ بِمِصْرَ ، وَأَنَّهُ وَلِدَ وَتَأَدَّبَ فِي الشَّامِ ، ثُمَّ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ شَاعِرًا نَاشِئًا يَتَكَسَّبُ بِأَدْبِهِ كَمَا قَدِمَ عَلَيْهَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ إِلَى مِصْرَ إِلَّا فِي وَلَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ الْأَدِيبِ الشَّاعِرِ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ ، وَقَدْ جُعِلَتْ لَهُ وَلَايَةُ مِصْرَ وَالشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ فِي سَنَةِ ٢١٠ أَوْ ٢١١ عَلَى خِلَافِ بَيْنِ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَكَانَتْ سِنُّ أَبِي تَمَّامٍ يَوْمَئِذٍ ٢١ وَ٢٣ سَنَةً ؛ وَقَدْ كَانَ أَبُو طَاهِرٍ مِغْنَاتِيسًا لِلشُّعْرَاءِ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَتَرَلَّهُ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ وَقَدْ عَزَمَ عَلَى الْهَجْرَةِ إِلَى مِصْرَ

[من الطويل]

يَقُولُ رَجَالٌ إِنْ مِصْرَ بَعِيدَةٌ وَمَا بَعُدَتْ مِصْرُ وَفِيهَا أَبْنُ طَاهِرٍ  
وَأَبْعَدُ مِنْ مِصْرَ رَجَالٌ نَرَاهُمْ بِحَضْرَتِنَا مَعْرُوفُهُمْ غَيْرُ ظَاهِرٍ  
عَنِ الْخَيْرِ مَوْتَى مَا تُبَالِي أُرْدَتْهُمْ عَلَى طَمَعٍ أَمْ رَزَتْ أَهْلُ الْمَقَابِرِ  
وَقَدْ قَصَدَهُ أَبُو تَمَامٍ إِلَى مِصْرَ ، كَمَا قَصَدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى خُرَاسَانَ فِي سَنَةِ ٢٢٠ ، وَهِيَ  
السَّنَةُ الَّتِي وَضَعَ فِيهَا أَبُو تَمَامٍ أَوْ فِي الَّتِي تَلِيهَا كِتَابُ « الْحَمَاسَةِ » كَمَا حَقَّقْتَاهُ ، وَلَا مَحَلَّ  
لِدُكْرِ هُنَا .

وَنَحْنُ نَسُوقُ أَدِلَّتَنَا عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي نَفْيِ أَنْ يَكُونَ أَبُو تَمَامٍ قَدْ نَشَأَ بِمِصْرَ أَوْ  
جَاءَهَا طِفْلاً ، أَوْ يَكُونَ مِنْهَا طَبِيعَتُهُ فِي الشُّعْرِ ، أَوْ يَكُونَ لَهَا أَثَرٌ فِي عِبَرَتَيْهِ :

١ - الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ بِلاَ خِلَافٍ أَنَّ الشَّاعِرَ وُلِدَ فِي الشَّامِ ، وَمَا دَامَ كَذَا لَقَدْ قَالَتِ الطَّبِيعَةُ  
كَلِمَتَهَا فِي أَصْلِ بُيُوتِهِ وَعِبَرَتَيْهِ ، فَإِنَّ الْأَدِيبَ يُؤَلِّدُ وَلَا يُصْنَعُ كَمَا يَقُولُ الْإِنْكِلَابِيُّ ؛ وَكُلُّ  
الْعُلَمَاءِ يَغْرِفُونَهُ بِالطَّائِي ! وَلَا يَطْعُنُ فِي نَسَبِهِ إِلَّا مَنْ لَا يَحَقُّقُ ، وَهُوَ نَفْسُهُ يَبَاهِي بِطَائِيَّتِهِ ،  
وَذَلِكَ كَالشَّرْحِ عَلَى كَلِمَةِ الطَّبِيعَةِ فِي أَسْنَابِ بُيُوتِهِ الْوَرَائِيَّةِ ؛ وَقَدْ تَنَقَّلَ الرَّجُلُ بَيْنَ مِصْرَ  
وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَأَزْمِينَةَ وَغَيْرِهَا ، فَمَا بَلَدٌ أَوْلَى مِنْ بَلَدٍ بِأَنْ يَكُونَ مَثَارَ عِبَرَتَيْهِ .

٢ - إِنْ الشَّاعِرُ إِنَّمَا يَتَكَسَّبُ مِنْ شِعْرِهِ ، يَمْدَحُ مَنْ يَهْتَزُّ لَهُ أَوْ يُعْطِي عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَمْدَحْ  
أَبُو تَمَامٍ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ؛ فَإِنْ كَانَ مَدَحَ فِيهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ فَإِنَّمَا إِلَيْهِ قَصْدٌ وَإِلَيْهِ  
جَاءَ ؛ وَأَبْنُ طَاهِرٍ لَيْسَ مِصْرِيًّا ، وَقَدْ جَاءَ إِلَى مِصْرَ وَرَجَعَ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَحُولَ عَلَيْهِ  
الْحَوْلُ ، فَلَوْ أَنَّ نَشَأَ هَذَا الشَّاعِرُ كَانَتْ بِمِصْرَ وَتَأْكِيْدُهُ كَانَ فِيهَا لِأَصْبَنَا لَهُ مَدْحًا كَثِيرًا فِي  
أَعْيَانِهَا وَعُلَمَائِهَا ؛ إِذْ هُوَ مَتَى قَالَ الشُّعْرُ لَا يَتَكَسَّبُ إِلَّا مِنْهُ ؛ وَفِي دِيَوَانِ الشَّاعِرِ هِجَاءُ  
لِابْنِ الْجُلُودِيِّ نَظْمُهُ فِي مِصْرَ ، وَلَكِنَّ ابْنَ الْجُلُودِيِّ لَيْسَ مِصْرِيًّا ، بَلْ هُوَ قَائِدٌ مِنْ قَوَادِ  
الْمَأْمُونِ ، وَلَاحَ مُحَارَبَةُ الرُّطْبِ سَنَةَ ٢٠٥ ؛ ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مِصْرَ ، ثُمَّ وَلَّى عَلَيْهَا فِي  
سَنَةِ ٢١٤ ؛ فَكُلُّ الْمِصْرِيَّةِ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَامٍ هِيَ فِي هِجَائِهِ لِلشَّاعِرِ الْمِصْرِيِّ يُوسُفَ  
السَّرَاجِ ، وَلَعَلَّهَا فِي بَعْضِ مَقَاطِيعِ أُخْرَى مِنَ الْغَزَلِ أَوْ الْوَصْفِ .

٣ - وُلِدَ أَبُو تَمَامٍ فِي سَنَةِ ١٨٨ أَوْ ١٩٠ ، وَمِنْ الثَّابِتِ أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ فِي سَنَةِ ٢١٤ حِينَ  
نَظَّمَ قَصِيدَتَهُ الدَّلَالَةَ وَالْوَنِيَّةَ فِي رِثَاءِ عُثْمَانَ بْنِ الْوَلِيدِ - وَعُمَيْرُ هَذَا لَيْسَ مِصْرِيًّا ، بَلْ هُوَ مِنْ  
خُرَاسَانَ ، وَكَانَ بِمِصْرَ عَامِلًا لِأَبْنِ إِسْحَاقِ الْمُعْتَصِمِ ابْنِ الرَّشِيدِ - فَلَوْ كَانَ أَبُو تَمَامٍ قَدْ جَاءَ  
إِلَى مِصْرَ طِفْلاً كَمَا يُقَالُ لَكَانَتْ مُدَّةُ قَوْلِهِ الشُّعْرَ فِيهَا لَا تَقُلُّ عَنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ ، مَعَ أَنَّ كُلَّ  
مَا نَظَّمَهُ وَهُوَ فِيهَا لَا يَتَلَعَّ عَشْرَ قَصَائِدَ ؛ وَهَذَا دِيَوَانُهُ بَيْنَ أَيْدِينَا وَإِلَيْهِ وَخَدَهُ الْمَرْجِعُ فِي  
الدَّلَالَةِ عَلَى صَاحِبِهِ .

٤ - رَوَى التَّمَرُزْبَانِيُّ فِي « الْمُتَوْشِّحِ » عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ قَالَ : أَوَّلُ مَا نَبَغَ  
(أَيُّ : قَالَ الشُّعْرُ) أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي أَنَا بِنِي بِدَمَشَقَ يَمْدَحُ مُحَمَّدَ بْنَ الْجَهْمِ فَكَلَّمْتُهُ فِيهِ فَأَذِنَ  
لَهُ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَنشَدَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ لَهُ بِدِرَاهِمٍ يَسِيرَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ عَاشَ هَذَا  
لَيُخْرِجَنَّ شَاعِرًا .

فَهَذَا نَصٌّ عَلَى أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا فِي أَوَّلِ الشُّعْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ خَرَجَ  
شَاعِرًا بَعْدُ وَكَانَ شِعْرُهُ مِنَ الطَّبَقَةِ الَّتِي يُثَابُ عَلَيْهَا (بِدِرَاهِمٍ يَسِيرَةٍ) . وَأَبُو تَمَامٍ بَعْدَ ذَلِكَ هُوَ  
نَفْسُهُ الَّذِي نَزَرَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ أَلْفَ دِينَارٍ فَتَرَفَّعَ أَنْ يَمْسِكَهَا وَتَرَكَ الْخَدَمَ يَنْتَهَبُونَهَا ،  
وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَغْيِيرِ ابْنِ طَاهِرٍ عَلَيْهِ .

٥ - نَقَلَ ابْنُ خَلِّكَانَ فِي تَرْجَمَةِ دِيكَ الْجِنِّ الشَّاعِرِ الْحَمِصِيِّ الْمَشْهُورِ ، عَنْ  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَيْدِيِّ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ دِيكَ الْجِنِّ (يَعْنِي  
بِحَمِصَ) فَدَخَلَ عَلَيْهِ حَدَّثَ فَأَنشَدَهُ شِعْرًا عَمِلَهُ ، فَأَخْرَجَ دِيكَ الْجِنِّ مِنْ تَحْتِ مُصَلَاةٍ دَرْجًا  
كَبِيرًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ شِعْرِهِ ، فَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَا فَتَى ! تَكَسَّبَ بِهَذَا وَأَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى  
قَوْلِكَ . فَلَمَّا خَرَجَ سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : هَذَا فَتَى مِنْ أَهْلِ جَاسِمٍ ، يَذْكُرُ أَنَّهُ مِنْ طَنِي ،  
يُكْنَى أَبَا تَمَامٍ ، وَأَسْمُهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ ، وَفِيهِ أَدَبٌ وَذَكَاءٌ وَلَهُ قَرِيبَةٌ وَطَبْعٌ . فَهَذَا نَصٌّ  
آخَرُ عَلَى أَنَّ أَبَا تَمَامٍ كَانَ يَوْمَئِذٍ حَدَثًا - أَيُّ : غُلَامًا - وَكَانَ لَا يَرَاوُ يَطْلُبُ الْأَدَبَ ، وَقَدْ  
أَعَانَهُ أَسْتَاذُهُ بِسُخٍّ مِنْ قَصَائِدِهِ يَتَخَرَّجُ بِهَا وَيَخْذُو عَلَيْهَا ؛ فَهُوَ قَدْ نَشَأَ فِي الشَّامِ وَتَأَدَّبَ  
فِيهَا .

٦ - نَظَّمَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَتَهُ الْأَلَمِيَّةَ [من الطويل] :

أَصَبَ بِحُمَيَّا كَأَسَهَا مَقْتُلُ الْعَذْلِ

يَصِفُ تَقْيِيرَ الرُّزْقِ عَلَيْهِ بِمِضَرٍ وَخَيْبَةَ أَمَلِهِ الَّذِي أَمَلَهُ مِنَ الْمَالِ ، وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَجُحُّ إِلَى الشَّامِ وَيَسْتَسْقِي لَهَا وَيَذْكُرُ أَرْضَ الْبِقَاعَيْنِ وَقُرَى الْجَوْلَانِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا ، وَلَا يَجُحُّ الشَّاعِرُ لِأَرْضٍ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا حُبُّهُ أَوْ شَبَابُهُ وَأَدَبُهُ ، أَمَّا الطُّفُولَةُ فَمَنْسِيَّةٌ بِأَنَارِهَا ، إِذْ لَا آثَارَ لَهَا فِي النَّفْسِ مَتَى شَبَّ الْمَرْءُ إِلَّا بَعِيدًا بَعِيدًا ، وَإِنَّمَا الْخَنِينُ لِمَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيزَةُ الْمُمَيَّرَةُ .

٧ - فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ يُخَاطِبُ أَحِبَّابَهُ [من الطويل] :

عَدْتَنِي عَنْكُمْ مَكْرَهَا غُرْبَةُ النَّوَى لَهَا وَطَرُ فِي أَنْ تُمِرَّ وَلَا تُخْلِي  
وَالنَّوَى فِي لُغَةِ الشَّاعِرِ هِيَ رَحِيلُهُ لِلتَّكْسِبِ بِشِعْرِهِ ؛ وَلَمَّا رَجَعَ عَوْفُ بْنُ مُحَلِّمٍ  
الشَّيْبَانِيُّ إِلَى وَطَنِهِ بَعْدَ وَقَادَتِهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ فِي خُرَاسَانَ ؛ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ :  
رَجَعْتُ مِنْ عِنْدِ عَبْدِ اللَّهِ بِالْغِنَى (وَالزَّاحَةِ مِنَ النَّوَى) ؛ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ فِي قَصِيدَتِهِ  
تِلْكَ [من الطويل] :

نَأَيْتُ فَلَا مَالًا حَوَيْتُ وَلَمْ أَقِمِ فَأَمْنِعَ ، إِذْ فُجِعْتُ بِالْمَالِ وَالْأَهْلِ  
يَعْنِي : أَنَّهُ اغْتَرَبَ مَكْرَهَا يَطْلُبُ التَّكْسِبَ لَا غَيْرَ ، وَلَا كَسَبَ لِلشَّاعِرِ إِلَّا مِنْ شِعْرِهِ ؛  
فَهُوَ بَصٌّ كَلَامُهُ مِنْ نَفْسِهِ قَدِمَ إِلَى مِضَرَ شَاعِرًا يَتَكَسَّبُ وَيَتَعَرَّضُ لِلْغِنَى كَمَا يَصْنَعُ غَيْرُهُ .

٨ - فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ اللَّامِيَّةِ يُقَدِّمُ لَنَا أَبُو تَمَّامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ دَلِيلًا بِأَكُلِ الْأَدِلَّةِ ، كَأَنَّمَا  
أَلْهِمَ مِنْ وَحْيِ الْغَيْبِ أَتْنَا سَخَنَاجَ إِلَى هَذَا الدَّلِيلِ يَوْمًا لِنُدْفَعَ بِهِ عَنْهُ ؛ فَهُوَ يَجُحُّ إِلَى حَبِيبِ  
لَهُ فِي الشَّامِ وَيَقُولُ : إِنَّ غُرْبَةَ النَّوَى الَّتِي وَصَفَهَا [من الطويل] :

أَنْتَ بَعْدَ هَجْرٍ مِنْ حَبِيبٍ فَحَرَكْتَ صَبَابَةَ مَا أَبْقَى الصُّدُودُ مِنَ الْوَصْلِ  
أَخْمَسَةُ أَحْوَالٍ مَضَتْ لِمَغْيَبِهِ ؟ وَشَهْرَانِ بَلَّ يَوْمَانِ تُكَلِّلُ مِنَ التَّكَلُّلِ

يَعْنِي : إِنَّهُ قَالَ هَذَا الشَّعْرَ وَقَدْ مَضَى عَلَى إِقَامَتِهِ فِي مِضَرَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ ، وَكَانَ قَدْ  
جَاءَ مِنَ الشَّامِ عَاشِقًا ذَلِكَ الْعِشْقَ الَّذِي فِيهِ (الصُّدُودُ وَالْوَصْلُ) ، وَالطُّفْلُ لَا يُحِبُّ مِثْلَ  
هَذَا الْحُبِّ وَلَا يَجُحُّ ذَلِكَ الْخَنِينُ ؛ فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ قَدِمَ إِلَى مِضَرَ فِي سَنَةِ ٢١٠ كَمَا  
رَجَّحْنَاهُ ، وَسَبَّحَهُ بَيْنَ ٢١ وَ٢٣ سَنَةً ، فَيَكُونُ قَدْ نَظَّمَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي سَنَةِ ٢١٥ وَعُمُرُهُ

يَوْمَيْدَ بَيْنَ ٢٦ وَ٢٨ سَنَةً ؛ فَلَوْ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ جَاءَ مِنَ الشَّامِ طِفْلًا صَغِيرًا فَكَيْفَ لِلطُّفْلِ أَنْ يَقُولَ  
مِثْلَ هَذَا الشَّعْرِ بَعْدَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ ؟ وَمَا هَجْرُ الْحَبِيبِ وَ« صَبَابَةُ مَا أَبْقَى الصُّدُودُ مِنَ  
الْوَصْلِ » ؟ .

٩ - مَدَحَ شَاعِرُنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَسَّانَ الضَّبِّيُّ بِقَصِيدَةٍ نُؤَيِّدُ فِيهَا تَنَقُّلَهُ فِي الْبِلَادِ ،  
فَقَالَ مِنْهَا [من البسيط] :

بِالشَّامِ أَهْلِي ، وَبَعْدَادِ الْهَوَى ، وَأَنَا بِالرَّقَمَتَيْنِ ، وَبِالْفِسْطَاطِ إِخْوَانِي  
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تُشَافَهُ بِنِي أَفْصَى خُرَاسَانَ !  
فَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ جَعَلَ أَهْلَهُ بِالشَّامِ ، وَجَعَلَ أَصْدِقَاءَهُ بِمِضَرَ ، فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ قَدْ نَشَأَ بِهَا  
لَجَعَلَ بِهَا أَهْلَهُ ، إِذْ لَا يَنْشَأُ إِلَّا مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَالْبَيْتُ الثَّانِي دَلِيلٌ مِنْهُ هُوَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ  
بِمِضَرَ مُقِيمًا وَلَا مُوْطِنًا ، بَلْ مُتَنَقِّلًا كَمَا نَزَلَ بِغَيْرِهَا .

١٠ - يَقُولُ كُتُبُ الْأَدَبِ فِي مَدَارِسِ الْحُكُومَةِ : إِنَّ أَبَا تَمَّامٍ نُقِلَ إِلَى مِضَرَ صَغِيرًا فَنَشَأَ  
بِهَا (وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ) ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مَقَرِّ الْخِلَافَةِ فَمَدَحَ الْمُغْتَنَصِمَ وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ ،  
فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ خَرَجَ مِنْ مِضَرَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا الْمَأْمُونُ فِي سَنَةِ ٢١٦ حِينَ جَاءَهَا وَقَتْلَ بِهَا  
عَبْدُوسُ الْفَهْرِيُّ ، فَلَوْ كَانَ الشَّاعِرُ يَوْمَيْدَ لَمَدَحَ الْمَأْمُونِ وَذَكَرَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ ، وَالْمُغْتَنَصِمَ  
وَلَبَّى الْخِلَافَةَ سَنَةَ ٢١٨ وَدِينَوَانَ أَبِي تَمَّامٍ يُبَيِّنُ أَنَّهُ فِي سَنَةِ ٢١٧ كَانَ بِالْعِرَاقِ ، وَقَدْ مَدَحَ  
الْمَأْمُونِ بِقَصِيدَتِهِ الْمِيمِيَّةِ ، وَذَكَرَ فِي مَدْحِهِ وَفَعَةَ الرُّومِ ، وَهَذِهِ كَانَتْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ .

يَخْلُصُ مِنْ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ وُلِدَ فِي الشَّامِ وَتَأَدَّبَ فِيهَا ، وَقَدِمَ إِلَى مِضَرَ كَبِيرًا  
يَتَكَسَّبُ بِالشَّعْرِ ، فَأَقَامَ بِهَا بَيْنَ خَمْسِ سِنِينَ وَسِتْ ، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَيْشًا بِهَا بَعْدَ قَتْلِ عُمَيْرِ بْنِ  
الْوَلِيدِ الَّذِي قُتِلَ فِي سَنَةِ ٢١٤ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعِيشُ فِي كَتِفِهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ فِي قَصِيدَتِهِ الثَّوْنِيَّةِ  
الَّتِي رثَاهُ بِهَا أَنَّهُ يَأْمُلُ مِنْ بَعْدِهِ فِي ابْنِهِ مُحَمَّدٍ .

فَقَدُّوهُ الشَّاعِرَ إِلَى مِضَرَ كَانَ فِي سَنَةِ ٢١٠ أَوْ حَوَالَيْهَا ، وَخُرُوجُهُ مِنْهَا كَانَ فِي سَنَةِ  
٢١٥ أَوْ حَوَالَيْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

\* \* \*

### الْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ (\*)

أَقُولُ لِلْأُسْتَاذِ الْفَاضِلِ الدُّكْتُورِ طَهْ حُسَيْنٍ « فِي رِفْقِي وَلِينِ » وَفِي عَجَلَةٍ أَيْضًا ، إِنِّي فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ضَنِينٌ بِمَا أَمْلِكُ مِنْ وَفْقِي أَشَدَّ الضَّرِّ ، أَحْسَبُ السَّمَاءَ تَنْفَجِرُ مِنْ يَوْمِي فِي سَاعَةٍ كَالْفَجْرِ ، فَلَا يَصْرِفُنِي عَنْ تِلْكَ السَّاعَةِ شَيْءٌ وَلَا يَصْرِفُهَا عَنِّي شَيْءٌ ، إِذْ بَيْنَ يَدَيَّ كِتَابٌ فِي الرِّسَالِ أَعْمَلُ فِيهِ وَأُسْتَعِينُ اللَّهُ عَلَى الْفَرَاغِ مِنْهُ فِي وَفْتٍ مُعَيَّنٍ ، وَقَدْ أَظَلُّ أَوْ كَادَ ، فَلَا يَرِيئُ الْأُسْتَاذُ أَنِّي أَسْتَطِيعُ هَذِهِ الْمَرَّةَ كَالطَّيْرَةِ الْأُولَى ، فَإِنْ جَنَاحِي فِي فُضَاءٍ آخَرَ ، وَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي أَعَالِجُهُ لَا يُجَسِّمُنِي عَرَقًا مِنَ الْقَرْبَةِ كَمَا قَالُوا قَدِيمًا ، بَلْ لَعَلَّهُ فِي أَلِيمِهِ أَشْبَهُ « بِعَمَلِيَّةٍ » تُشْرِجُ فِي الْقَلْبِ ، وَتَسْذَهَبُ الدَّقَائِقُ الَّتِي أَكْتُبُ فِيهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ مَأْسُوفًا عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا دَاهِبَةٌ بِصَفَحَتَيْنِ مِنْ كِتَابِي .

وَأَمَّا بَعْدُ ؛ فَلَا أَرَى مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ يَنْعَمَ الدُّكْتُورُ إِلَى جُمْلٍ يَفْتَضِبُهُنَّ مِنْ مَقَالِي فِي مَجَلَّةِ الْهَلَالِ ثُمَّ يَهْدِيَهَا لِلرَّدِّ ، وَكَانَ عَسَى أَنْ يَذْفَعَ عَنْهَا شَيْءٌ مِمَّا قَبَلَهَا أَوْ مَا بَعْدَهَا أَوْ يَسُدُّ مِنْهَا بَعْضَ جِهَاتِهَا أَوْ يَأْيِي بِهَا فِي سِيَاقٍ يَبِينُ عَنْ مَعْنَاهَا .

وَزَعَمَ الْأُسْتَاذُ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِي هَذِهِ الْجُمْلَةَ « وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدُّوْقَ الْأَدَبِيَّ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ فَهْمُهُ ، وَأَنَّ الْحُكْمَ عَلَى شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ أَثَرُ الدُّوْقِ فِيهِ ، وَأَنَّ التَّقْدَّ إِنَّمَا هُوَ الدُّوْقُ وَالْفَهْمُ جَمِيعًا . . . » ثُمَّ دَارَ بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ دَوْرَةَ الْعَاصِفَةِ وَجَعَلَهَا مَسْأَلَةً كَمَسْأَلَةِ الدَّوْرِ وَالتَّسْلُسِ الْمَشْهُورَةِ ، بَلْ جَعَلَهَا مِنْ قَبِيلِ « قِصَّةٍ وَقِصَّةٍ » . . . فَتَرَاهُ يَقُولُ : دُوْقٌ هُوَ الْفَهْمُ ، وَفَهْمٌ هُوَ الدُّوْقُ ، وَفَهْمٌ لَيْسَ بِالدُّوْقِ ، وَدُوْقٌ لَيْسَ بِالْفَهْمِ ، وَهَلُمَّ صَاعِدًا وَنَازِلًا ؛ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا بِالمُوسِيقِيِّ فَقَالَ : « مَا نَظَرُ أَنْ الَّذِينَ يَذُوْقُونَ المُوسِيقِيَّ

(\*) { نَشَرَهَا جَبِينُ الْمَعْرُكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّكْتُورِ طَهْ حُسَيْنٍ (بِك) حَوْلَ كِتَابَيْهِ : « رِسَالَةُ الْأَخْرَانِ » ، وَ« السَّحَابُ الْأَحْمَرُ » ، وَلِلدُّكْتُورِ طَهْ فِيهِمَا وَفِي أَسْلُوبِهِمَا رَأْيِي . وَأَنْظُرُ كِتَابِي : « الْمَعْرُكَةُ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ » ، وَ« حَيَاةُ الرَّافِعِي » } . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

وَيَطْرُبُونَ لَهَا بِفَهْمُونَهَا جَمِيعًا » . وَأَنَا أَفْسَرُ كَلَامِي بِهَذَا الْمَثَلِ نَفْسِي ، أَقْتَصِرُ عَلَيْهِ وَلَا أَعْدُوهُ .

نَأْتِي الْآنَ بِأُسْتَاذٍ قَدْ بَرَعَ فِي المُوسِيقِيَّ وَخَالَطَتْ أَغْصَابَهُ وَلَحْمُهُ وَدَمُهُ ، وَنَذْفَعُ إِلَيْهِ قِطْعَةً مِثْلَئِهِ وَنَقُولُ لَهُ : أَسْمَعْ وَأَفْهَمْ وَأَحْكَمْ وَانْتَقِدْ ؛ يَسْمَعُهَا مَرَّةً بِعَقْلِهِ أَوْ لِعَقْلِهِ يَتَبَيَّنُ مَا يَكُونُ فِيهَا صَوَابًا وَمَا يَكُونُ خَطَأً ، ثُمَّ مَا يَغْلُو عَنِ الصَّوَابِ مِنَ الْإِجَادَةِ وَالْإِتْقَانِ ، وَمَا يَنْحَطُّ عَنِ الْخَطَأِ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالتَّخْلِيْطِ ؛ فَهَذَا هُوَ الْفَهْمُ .

وَيَسْمَعُهَا مَرَّةً ثَانِيَةً بِحِسِّهِ أَوْ لِحْسِهِ ، فَيَرَى أَثَرَ مَا فَهَمَ ، وَيُؤَيِّدُهَا فِي ذَوْقِهِ لِيَعْرِفَ كَيْفَ مَوْقِعُهَا مِنَ الْغَرَضِ الَّذِي وَضَعَتْ لَهُ ، فَإِنَّهَا لَمْ تَوْضَعْ لِتَكُونَ أَصَوَاتًا ، بَلْ لِتَخْلُقَ مِنَ الْأَصَوَاتِ شَيْئًا ، فَهَذَا هُوَ الذَّوْقُ ، وَهُوَ كَمَا تَرَاهُ بَعْدَ الْفَهْمِ وَنَاشِئُ عَنْهُ .

وَمِثْلُ الْأُسْتَاذِ طَهْ حُسَيْنٍ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الذَّوْقَ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ فَهْمُهُ ، أَوْ إِنَّمَا هُوَ عَنْ فَهْمِهِ ، أَوْ إِنَّمَا يَنْشَأُ عَنْ فَهْمِهِ ، فَالْعِبَارَةُ فِي بَابِ الْمَجَازِ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ .

ثُمَّ إِنَّ أُسْتَاذَ المُوسِيقِيَّ وَقَدْ سَمِعَ الْقِطْعَةَ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ مَرَّةً كَمَرَّتَيْنِ ، إِنْ بَلَغَ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي كُلِّ أَذُنٍ وَاحِدَةٌ أَذُنَانِ ، يَسْتَفْتِي ذَوْقَهُ الْفَنِّيَّ وَيَحْكُمُ لِلْقِطْعَةِ أَمَ عَلَيْهَا ، فَهَذَا هُوَ أَثَرُ الذَّوْقِ .

الآنَ قَدْ حَكَمَ الْأُسْتَاذُ وَانْتَقَدَ وَجَزَمَ بِرَأْيِهِ ، فَتَدَبَّ لَهُ فُلَانٌ يَقُولُ : أَخْطَأْتُ وَأَسَأْتُ وَجَهَلْتُ وَغَفَلْتُ ، أَوْ تَعَصَّبْتُ وَحَطَطْتُ فِي هَوَى صَاحِبِ اللَّحْنِ ؛ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا الْخِلَافُ وَكَيْفَ وَقَعَ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلْ كَيْفَ سَاعَ لِلثَّانِي أَنْ يُجَهِّلَ الْأَوَّلَ وَيَرَى غَيْرَ رَأْيِهِ وَيَحْكُمَ غَيْرَ حُكْمِهِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ قَدْ فَهَمَ غَيْرَ فَهْمِهِ فَأَنشَأَ لَهُ الْفَهْمُ ذَوْقًا وَأَخَذَتْ لَهُ الدُّوْقُ حُكْمًا وَجَاءَتْ مِنْ هَذِهِ الْمُقَدَّمَاتِ تِلْكَ النَّيْجَةُ الَّتِي نُسَمِّيُهَا التَّقْدَّ ، وَمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا الدُّوْقُ وَالْفَهْمُ جَمِيعًا ؛ فَالَّذِينَ يَذُوْقُونَ المُوسِيقِيَّ وَيَطْرُبُونَ لَهَا وَلَا يَفْهَمُونَهَا فَقَدْ فَهَمُوهَا عَلَى مِقْدَارٍ مَا اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِهِمْ مِنَ أَسَالِيبِ التَّطَرُّبِ وَمَا فِيهِمْ مِنَ الْمَطَاوَعَةِ لِهَذِهِ الْعَاطِفَةِ ؛ أَوْ لَا تَرَاهُمْ يَقُولُونَ فِي أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ : إِنَّ لَهُمْ أَذْنَا مُوسِيقِيَّةً ؟ فَهَلِيبُهُ الْأَذُنُ هِيَ

أَلْفَهُمْ بِعَيْنِهِ ، لِأَنَّهَا حَاسَّةٌ اجْتَمَعَتْ مِنْ مِرَانِ طَوِيلٍ ، وَقَدْ تَقَوُّمُ فِي بَعْضِ النَّاسِ عَلَى جَهْلِهِ  
بِالْمُوسِيقَى مَقَامٍ عِلْمٍ بِرَأْسِهِ .

وَيَقُولُ الْأُسْتَاذُ طَلَهُ إِنَّهُ قَدْ يَفْرَأُ كَلَامِي وَيَفْهَمُهُ وَلَا يَذُوقُهُ ، وَلَكِنْ عَدَمَ الذُّوقِ هُنَا هُوَ  
الذُّوقُ ؛ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا مَعْنَى قَوْلِ الْمُتَشَبِّهِ [مَنْ الْوَافِرُ] :

« وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٌّ ... »<sup>(١)</sup>

وَلَوْ كَانَ الْأُسْتَاذُ وَأَمَثَالُهُ هُمْ فِي هَذَا الْقِيَاسِ الْمُرُّ وَالْكَيْلُ مِزْرٌ ، لَوَجَبَ أَلَّا أَجِدَ مَنْ  
يَذُوقُ كَلَامِي وَيُعْجِبُ بِهِ وَيُعَالِي فِيهِ وَيَكُونُ ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِي عِنْدَ اللَّهِ بِإِسْرَافِهِ فِي الْمَغَالَاةِ ،  
وَأَنَا وَاجِدٌ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِثْلَ الْأُسْتَاذِ طَلَهَ عَشْرَةَ وَمِئَةٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَوْ خَرَجَ هُوَ إِلَى الْعَالَمِ لَرَأَى  
وَسَمِعَ ، وَفِيهِمْ مَنْ هُمْ أَغْلَى مِنْهُ كَغَبَا وَأَمْدٌ عُنْفًا وَأَضْحَمُ هَامَةً وَأَبْدَعُ بَدِيعًا وَأَبْلَغُ وَأَزْكَى  
وَأَعْلَمُ إِلَى عَدَدٍ مِنْ هَذِهِ الْوَرَاثِ .

وَعَجِبْتُ لِلذُّكْتُورِ يُرِيدُ أَنْ لَا يَفْهَمَ مِنْ عِبَارَتِي كَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنَّ « الذُّوقَ هُوَ نَفْسُ  
الْفَهْمِ ، فَالْفَلْظَانِ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَإِذَنْ وَإِذَنْ وَإِذَنْ ... » .

فَهَلْ يَرَى إِذَا قُلْتُ لَهُ : رَأَيْتَ الْقَمَرَ وَفَلَانَةَ لَيْلَةً كَذَا ، فَكَانَتْ إِنَّمَا هِيَ الْقَمَرُ - أَنِّي أَقْصِدُ  
بِهِمَا مَعْنَى وَاحِدًا ؛ فَيَقُولُ لَهَا : « وَإِذَنْ » فَلَيْسَا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ،  
وَإِذَنْ فَكَيْفَ صَارَ لَهَا وَجْهٌ فِي السَّمَاءِ وَوَجْهٌ فِي الْأَرْضِ وَبَقِيَتْ مَعَ ذَلِكَ أَمْرًا مِنَ الْإِنْسِ ؛  
وَإِذَنْ فَهَذَا كَلَامٌ لَا يَفْهَمُ ...

قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ « لَوْ » تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ، يُرِيدُ أَنَّهَا آدَاءُ التَّمَنِّي ، وَالْمَذْهَبُ  
الْجَدِيدُ سَيَضُمُّ « إِذَنْ » إِلَى « لَوْ » ، ثُمَّ مَا هِيَ الْكَلِمَةُ الثَّالِثَةُ يَا تَرَى ؟

أَنَا مَعَ إِعْجَابِي بِالذُّكْتُورِ الْفَاضِلِ أَرَى أَنَّهُ مُسْتَهْزِئٌ بِأَشْيَاءَ ، وَأَنَّ مِنْ خُلُقِهِ أَنْ  
مَا لَا يَرْضَى عَنْهُ وَمَا لَا يَفْهَمُهُ « لَيْسَا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ » . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْفَهْمِ يَدُّ قَالَ :  
إِنَّهُ لَا يَقْتَنِعُ ، فَإِذَا ضَايَقَتْهُ وَضَيَّقَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا يَقُولُ اللُّحَاةُ فِي « أَيُّ » الَّتِي حَرَّهْمُ

(١) كامل البيت هو :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٌّ مَرِيضٌ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الرَّزَالَا

إِعْرَابُهَا وَبِنَاؤُهَا ، أَيُّ : كَذَا خُلِقَتْ ...

وَأَنَا وَأَمَثَالِي إِنَّمَا نَحْرُصُ أَشَدَّ الْحَرْصِ عَلَى هَذِهِ اللَّغَةِ لِأَنَّهَا أَسَاسُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،  
فَلَا تَرْضَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَسَاسُ ثَابِتًا مَنِيتًا لَا يُزْعَرُهُ شَيْءٌ وَلَا يَبْلُغُهُ شَيْءٌ وَلَا يُضْعِفُهُ  
شَيْءٌ . وَالذُّكْتُورُ وَأَمَثَالُهُ لَا يَبَالُونَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ كَبِيضٌ أَمْزِجَةٌ أَمْزِجَةٌ ...

لَسْتُ أَنْكِرُ التَّجْدِيدَ ، بَلْ لَعَلَّ الذُّكْتُورَ يَذْكُرُ مُنَاقَشَتِي إِثَاءً فِي (الْجَرِيدَةِ) وَإِصْرَارَهُ يَوْمَئِذٍ  
أَنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ فِي اللَّغَةِ كَلِمَةً ، وَأَنْ قَوْلَ النَّاسِ تَنْزَعٌ وَمُنَزَعَةٌ وَنَزْهَةٌ ... إلخ كُلُّهَا  
مِنْ الْكَلَامِ الْعَامِّيِّ ، وَتَعَلَّقُهُ بِنَصِّ ابْنِ سِيدَةَ فِي ذَلِكَ ، وَاسْتِخْرَاجِي لَهُ نَصِّ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَكَلَامًا  
كَثِيرًا مِنْ اسْتِعْمَالِ الْعُلَمَاءِ ، ثُمَّ قَوْلُهُ : أَحْسَنْتَ ! وَلَكِنْ لَوْ جِئْتَنِي بِاللَّفْظَةِ فِي كَلَامِ الْمُبَرِّدِ  
وَالْجَاحِظِ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ مَا أَقْنَعْتَنِي .

إِنَّمَا أَنْكِرُ شَيْئًا وَاحِدًا وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : مَذْهَبُ قَدِيمٍ وَمَذْهَبُ جَدِيدٍ ؛ فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَى  
النَّاسِ فِيمَا عَلِمُوا وَفِيمَا جَهِلُوا ، وَلَكِنْ أَصْحَابُنَا يُرِيدُونَ أَلَّا نَكْتُبَ إِلَّا نَسَطًا بِعَيْنِهِ ، وَلَا  
نَذْهَبَ إِلَّا مَذْهَبًا بِعَيْنِهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ هُوَ الْجَدِيدُ ؛ فَأَيُّهُمَا خَيْرٌ لَنَا وَلَهُمْ وَلِلَّذِينَ سَيُخْرِجُونَا  
تَارِيخَهُمْ مِنْ قُبُورِنَا : أَنْ نَعْتَدَ اللَّغَةَ وَالْأَدَبَ كُلَّ مَا اجْتَمَعَ مِنْ قَدِيمٍ وَجَدِيدٍ وَنُحْكِمَ هَذِهِ  
اللُّغَةَ وَنَحْفَظَهَا وَنُدْفَعُ عَنْهَا وَنَجْعَلَ تَجْدِيدَهَا كَتَجْدِيدِ الْحَسَنَاءِ فِي أَثَوَابِهَا وَفِي أَلْوَانِهَا دُونَ  
تَشْوِيهِ وَلَا مَسْحٍ وَلَا مَسِّ الْجِسْمِ الْجَبِينِ ، أَمْ نَقُولُ : هَذِهِ الشُّفَةُ وَهَذَا الْأَنْفُ ، وَهَذَا  
الْمَوْضِعُ الْمُتَمَلِّئُ الْخَذَلُ ، وَهَذَا الْمَوْضِعُ الْهَاضِمُ النَّاحِلُ ، وَتَعَالَى يَا ذُكْتُورَ هَاتِ الْمُبْضَعَ  
وَالْمِشْرَطَ وَالْمِقْصَ وَالْمِنْشَارَ وَالْإِبْرَةَ وَالْخَيْطَ وَإِذَنْ ... ؟

لَقَدْ أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُ فِي بَعْضِ مَقَالَاتِ الْأُسْتَاذِ طَلَهَ حُسَيْنٍ أَوْ فِي بَعْضِ مَا يَقْرَءُ بِهِ  
الْكُتُبُ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ الْقَدِيمَ قَدْ اثْبَتَ دَائِمًا أَنَّهُ أَقْوَى وَأَمْتَنُ وَأَصَحُّ ؛ فَهَلْ رَحَلَ عَنْ هَذَا  
الرَّأْيِ أَمْ ظَهَرَ لَهُ فِي الْجَدِيدِ مَا هُوَ أَقْوَى وَأَمْتَنُ وَأَصَحُّ ؟ ثُمَّ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْزُونِي مَا هُوَ هَذَا  
الْجَدِيدُ ؟ أَلَا ذَلِكَ الْخَيَالُ الشَّارِدُ الْمَجْنُونُ ، أَمْ تِلْكَ الشَّهْرَاطُ الْمُتَوَشِّجَةُ الْمُتَهَلِّفَةُ ، أَمْ ذَلِكَ  
الْأَسْلُوبُ الْفَجَّ الْمُسْتَوْحِشُ ، أَمْ الْعَامِيَّةُ السَّقِيمَةُ الْمَلْحُونَةُ ؛ أَمْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بَيْنَ رَغْبَةٍ فِي  
الْبُيُوتِ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ الْأَدَاءُ وَتَسْتَحْكِمَ الطَّرِيقَةُ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ قَرْنِي مِنَ الْكُتَابِ ، فَيَحْتَصِرُونَ  
الطَّرِيقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْمَذْهَبُ الْجَدِيدُ - وَبَيْنَ رَغْبَةٍ فِي التَّعَصُّبِ لِلْأَدَابِ الْأَجَنِبِيَّةِ كَمَا

هُوَ شَأْنُ فَرْنِي آخَرٍ - وَبَيْنَ رَغْبَةٍ فِي الْحَطِّ مِنْ قِيَمَةِ بَعْضِ النَّاسِ وَرَمِيهِمْ بِالْجَهْلِ وَالشَّخْفِ وَأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لِمَا يَجِيئُونَ بِهِ ، كُلُّ ذَلِكَ فِي تَغْيِيرِ عِلْمِي يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ نَظَرِيَّةً عِلْمِيَّةً ... وَقَبْلَهُمْ قَالَهَا الْعَرَبُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَفَلَنَّا مِثْلَ هَذَا آتٍ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [ ٨ سورة الانفال / الآية : ٣١ ] ، فَقَدْ شَاوَرَا فَلَمْ يَقُولُوا ؛ وَلَوْ أَنَّ الْمَذْهَبَ الْجَدِيدَ فَسَّرَ الْقُرْآنَ يَوْمًا .. لَقَالَ فِي مَعْنَى أَسْطِيرِ الْأَوَّلِينَ : إِنَّهُمْ أَرَادُوا بِهَا الْمَذْهَبَ الْقَدِيمَ ...

وَيَقُولُ الدُّكْتُورُ طَه : إِنَّ هُنَاكَ قَوْمًا يَنْصُرُونَ الْمَذْهَبَ الْجَدِيدَ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ اللُّغَاتِ الْأَجَنِبِيَّةِ وَأَدَابِهَا حَظٌّ ، وَحَظُّهُمْ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَابِهَا مَوْفُورٌ ؛ ثُمَّ طَلَبَ رَأْيِي فِي هَذِهِ وَمَا أَصْلُ مَذْهَبِهِمُ الْجَدِيدِ ؟ فَأَقُولُ : إِنِّي أَعْرِفُ بَعْضَهُمْ ، وَأَعْرِفُ أَنَّ أَدْمِغَتَهُمْ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ إِلَّا جُلُودُ بَعْضِ الْكُتُبِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَتْنٌ وَشَرْحٌ وَحَاشِيَةٌ : جِلْدٌ مَلْفُوفٌ عَلَى وَرَقٍ ، وَوَرَقٌ يَنْطَوِي عَلَى قَوَاعِدَ مَحْفُوظَةٍ وَهُمْ أَفْقَرُ النَّاسِ إِلَى الرَّأْيِ ، وَهَذِهِ عِلَّةُ حُبِّهِمْ لِلْأَسَالِيبِ الْجَدِيدَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى التَّرْجِمَةِ وَنَقْلِ الْأَرْاءِ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ، وَبِالْمَعْنَى الصَّرِيحِ الْمَكْشُوفِ : مِنَ الْأَدْمِغَةِ الْمَمْلُوءَةِ إِلَى الْأَدْمِغَةِ الْفَارِغَةِ ، وَفِيهِمْ بَعْضُ أَذْكِيَاءَ وَلَكِنْ ذَكَرْتُهُمْ فِي حَوَاسِيهِمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا فَلْيَقُولُوا هُمْ لِمَاذَا ؟

وَلَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ الْعَنْكَبُوتَ : مَا هِيَ الظُّبَيْتَةُ الْحَوْرَاءُ الْعَيْنَاءُ الَّتِي تَطْمَعِينَ فِيهَا وَتَنْصُبِينَ لَهَا كُلَّ هَلِهِ الْأَشْرَاكِ وَالْحَبَائِلِ ؟ لَقَالَتْ لَكَ : مَهْلًا حَتَّى تَقَعَ فِتْرَاهَا ! فَإِذَا وَقَعَتْ رَأَيْتَهَا نَمَّةً وَرَأَيْتَهَا دُبَابَةً ...

وَلَكِنْ مَاذَا يَقُولُ الدُّكْتُورُ فِي الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ الْكَبِيرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ ؟ أَكَانَ يَدْعُو إِلَى مَذْهَبٍ جَدِيدٍ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَيَفْتِنُ بِالرُّوَائِيَّاتِ الْغَرَامِيَّةِ وَبِاسْتُلُوبِ « إِمِيل زُولا Emile Zola » فِي رِوَايَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ وَيَمْتَثِلُ رِوَايَةَ (الاجرسون) ؟

إِنْ كَانَ النَّاسُ عِنْدَ الدُّكْتُورِ مِنْ بَعْضِ الْحُجَجِ ، فَإِنَّ الشَّيْخَ وَخْدَهُ بِأَمَّةٍ كَامِلَةٍ مِمَّنْ يَغْنِيهِمْ .

وَأَخْتِمُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِالشُّكْرِ لِلْأُسْتَاذِ طَه حُسَيْنٍ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِنِّي مُسْتَرْسِلٌ فِي عَمَلِي ، وَهَذَا عَذْرِي إِلَيْهِ .

## الْمَرْأَةُ وَالْمِيرَاثُ

قَرَأْتُ فِي « الْمُقَطَّمِ » كَلِمَةَ الْكَاتِبِ الْمَعْرُوفِ سَلَامَةَ مُوسَى فِيمَا يَزْعُمُهُ إِجَابَاتٍ مُخْتَصِرَةً عَنِ اغْتِرَاضَاتٍ تَهَافَّتَ بِهَا رَأْيُهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى مُسَاوَاةِ الْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ فِي الْمِيرَاثِ ، وَهُوَ يَنْصَحُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنَاقِشَهُ أَنْ يَفْرَأَ نَصَّ مُحَاضَرَتِهِ فِي « السِّيَاسَةِ الْأُسْبُوعِيَّةِ » .

وَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى نَصِّ الْمَحَاضَرَةِ فَإِذَا الْكَاتِبُ هُوَ هُوَ فِي ضَعْفِ تَفْكِيرِهِ وَسُوءِ تَقْلِيدِهِ ، يَكَادُ لَا يَمَيِّزُ بَيْنَ الرَّأْيِ الصَّحِيحِ الثَّابِتِ فِي نَفْسِهِ لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى حِكْمَتِهِ الْبَاطِنَةِ عَلَيْهِ ، وَبَيْنَ الرَّأْيِ الْمُنْغَيَّرِ فِي كُلِّ نَفْسٍ بِحَسَبِهَا لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى مَنَرٍ أَوْ غَفْلَةٍ أَوْ مَرَضٍ فِي النَّفْسِ . تَرَى الْكَاتِبَ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى تَقْلِيدِ أُورُبَّةَ ، وَتَكَادُ عِبَارَاتُهُ فِي ذَلِكَ لَا تُخْصَى ، وَيَقُولُ : « إِنَّ الْمُصْلِحَ الْمُتَمَرِّعَ عِنْدَنَا هُوَ مُقَلِّدٌ لِأُورُبَّةَ لَا عِشَّ فِي تَقْلِيدِهِ » فَلَيْسَ إِلَّا أُورُبَّةَ وَتَقْلِيدَهَا ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي أُورُبَّةَ قُرْآنٌ وَلَا إِسْلَامٌ فَلَا مُصْلِحَ الْمُتَمَرِّعَ عِنْدَ الْكَاتِبِ إِلَّا يَنْقَبِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ...

« مُقَلِّدُ أُورُبَّةَ لَا عِشَّ فِي تَقْلِيدِهِ » وَمَا هُوَ الْعِشُّ فِي التَّقْلِيدِ ؟ هُوَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ رَأْيَكَ وَفِكَرَكَ فَتَدْعَ وَتَأْخُذَ عَلَى بَيْتَةٍ فِي الْحَالَيْنِ ، وَأَنْ تَأْتِيَ أَنْ تَحْمِلَ عَلَى طَبِيعَتِكَ الشَّرْقِيَّةِ مَا لَا تَصْلُحُ عَلَيْهِ وَلَا تَقُومُ بِهِ ، وَإِذَا انْقَلَبْتَ أُورُبَّةَ شُبُوحِيَّةً أَوْ إِبَاحِيَّةً وَجَبَ أَلَّا نَعُشَّ فِي التَّقْلِيدِ ... وَإِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ لَا تَطْلُعُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي بَعْضِ جِهَاتِ أُورُبَّةَ وَتَطْلُعُ فِي مِصْرَ كُلِّ يَوْمٍ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمِصْرِيُّ أَعْمَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ ...

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْكَاتِبَ يَقُولُ بِالتَّقْلِيدِ لِأَنَّهُ طَبِيعِي فِيهِ ... وَرَأْيُهُ فِي الْمِيرَاثِ إِنَّمَا هُوَ تَرْجِمَةٌ ... لِعَمَلِ مُصْطَفَى كَمَالٍ ؛ وَإِنْ كَانَ مُصْطَفَى كَمَالٌ قَدْ أَصْلَحَ التُّرْكُ فِي سَنَوَاتٍ كَمَا يَقُولُونَ فَبَرَهَانَ التَّارِيخِ لَا يَخْضَعُ لِلْمِشَقَّةِ وَلَا لِمَحَاكِمِ الْأَسْتِفْلَالِ وَلَا يَأْتِي إِلَّا فِي وَقْتِهِ الَّذِي سَيَأْتِي فِيهِ ، وَسَيَرَى النَّاسُ يَوْمَئِذٍ مَا يَكُونُ وَهَمًا مِمَّا يَكُونُ حَقِيقَةً .

وَيُرِيدُ الْكَاتِبُ عَلَى رَأْيِ الْأُسْتَاذِ الْأَخْلَاقِيِّ رَيْنِسَ تَخْرِيرَ « الْمُقَطَّمِ » فِي خَشْيَتِهِ أَنْ



يَقْتَصِرُ الإِصْلَاحُ عَلَى الْفُشُورِ دُونَ اللَّبَابِ ، فَيَقُولُ : إِنَّهُ «مُغْتَفَدٌ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تَشْرَعُ فِي اتِّخَاذِ الْمَدِينَةِ الْحَدِيثَةِ يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ بِالْفُشُورِ ... لِأَنَّهَا أَسْهَلُ عَلَيْهَا مِنَ اللَّبَابِ ، بَلْ هِيَ لَا تَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ . أَكْذَلِكَ بَدَأَتِ الْيَابَانَ ؟ وَهَلْ كُلُّ الطَّبَاعِ كَطَبِيعَةِ بَعْضِ النَّاسِ ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَغْتَلِفَ فُشُورَ الْمَدِينَةِ ... وَتَنْصَرِفَ إِلَى مَذَاقِهَا وَسَفَاسِفِهَا ؟

وَلَا رَيْبَ أَنَّ حَضَرَتَهُ لَا يَفْهَمُ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، فَهُوَ يَقْرَأُ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَقْرَأُ عَلَى أَنَّهُ مُتَطَلِّلٌ فِي اقْتِرَاحِهِ ؛ وَإِنَّ الَّذِي يَقْرَأُ فِي مُحَاضَرَتِهِ قَوْلَهُ : «إِنَّ الطَّبَقَةَ الْعَلِيَّةَ فِي الْأُمَّةِ هِيَ الَّتِي تَقَرُّ دِيَانَةَ الْأُمَّةِ ...» يَسْتَفْتِي أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ دِينًا مِنَ الْأَدْيَانِ ، وَأَنَّهُ قَصِيرُ النَّظَرِ فِي أُمُورِ الْاجْتِمَاعِ وَأَبْوَابِ السِّيَاسَةِ ؛ وَأَنْ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَأَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ إِنْ هِيَ إِلَّا جِهَاتُ الزَّمَانِ الَّذِي يَنْقَادُ فِيهِ : فَلَا شَخْصِيَّةَ لَهُ ، وَإِنَّمَا يُتَابَعُ وَيَنْقَادُ لِلْآرَاءِ الَّتِي يَتَرَجِّمُ مِنْهَا بِلاَ تَقْدِيرٍ وَلَا تَمَيُّزٍ .

إِنَّ مِيرَاثَ الْبَنَاتِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمْ يُقْصَدَ لِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مُرْتَبِّ عَلَى نِظَامِ الزَّوْجِ فِيهَا ، وَهُوَ كَعَمَلِيَّةِ الطَّرْحِ بَعْدَ عَمَلِيَّةِ الْجَمْعِ لِإِخْرَاجِ نَتِيجَةٍ صَحِيحَةٍ مِنَ الْعَمَلَيْنِ مَعًا . فَإِذَا وَجِبَ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ نَاحِيَةٍ وَجِبَ عَلَيْهَا أَنْ تَدَعَ مِنْ نَاحِيَةٍ تَقَابُلَهَا ، وَهَذَا الَّذِي يَقُومُ فِي أُسَاسِهِ عَلَى تَرْبِيَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ عَالِيَةٍ يُنْشِئُ بِهَا طَبَاعًا وَيُعَدِّلُ بِهَا طَبَاعًا أُخْرَى ، كَمَا يَبَيِّنُهُ فِي مَقَالَتَا الْمَنْشُورِ فِي «مُتَطَلِّفِ» هَذَا الشَّهْرِ ، فَهُوَ يَرَبِّيًا بِالرَّجُلِ أَنْ يَطْمَعَ فِي مَالِ الْمَرْأَةِ أَوْ يَكُونَ عَالَةً عَلَيْهَا ؛ فَمِنْ ثَمَّ أَوْجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يُمَهِّرَهَا وَأَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَوْلَادِهَا ، وَأَنْ يَدَعَ لَهَا رَأْيَهَا وَعَمَلَهَا فِي أُمُورِهَا ، لَا تُحَدِّدُ إِزَادَتُهَا بِعَمَلِهِ وَلَا بِأَطْمَاعِهِ وَلَا بِأَهْوَاؤِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُقْصَدُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَنْشَأَ الرَّجُلُ عَامِلًا كَاسِبًا مُغْتَمِدًا عَلَى نَفْسِهِ مُشَارِكًا فِي مُحِيطِهِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ قَوِيًّا فِي أَمَانَتِهِ ، مُتَرَهًا فِي مَطَامِعِهِ ، مُتَهَيِّئًا لِمَعَالِي الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ الْأَخْلَاقَ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ يَدْعُو بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَيُعِينُ شَيْءٌ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ يُضَائِلُهُ ، وَيَدْفَعُ قُوِّيَّهَا ضَعِيفَهَا ، وَيَأْتِفُ عَلَيْهَا مِنْ سَافِلِهَا ، وَقَدْ قُلْنَا مِرَارًا إِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِمُتَكَلِّمٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي حِكْمَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَّا إِذَا كَانَ قَوِيَّ الْخُلُقِ ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَكُونُ الشَّيْءُ فِي طَبْعِهِ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا فَهْمَ جَدَلٍ لَا فَهْمَ أَفْتِنَاجٍ .

لِلْمَرْأَةِ حَقٌّ وَاجِبٌ فِي مَالِ زَوْجِهَا ، وَلَيْسَ لِلرَّجُلِ مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ فِي مَالِ زَوْجِهِ ،

وَالْإِسْلَامُ يُحَثُّ عَلَى الزَّوْاجِ ، بَلْ يَفْرُضُهُ ، فَهُوَ بِهِذَا يُصْنَفُ إِلَى الْمَرْأَةِ رَجُلًا وَيُعْطِيهَا حَقًّا جَدِيدًا ، فَإِنْ هِيَ سَاوَتْ أَخَاهَا فِي الْمِيرَاثِ مَعَ هَذِهِ الْمِيرَةِ الَّتِي أَنْفَرَدَتْ بِهَا أَنْعَدَمَتْ الْمُسَاوَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ ، فَتَزِيدُ وَيَنْقُصُ ؛ إِذْ لَهَا حَقٌّ الْمِيرَاثِ وَحَقُّ التَّقْفَةِ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ إِذَا تَسَاوَيَا .

فَإِنْ قُلْتَ كَمَا يَقُولُ سَلَامَةُ مُوسَى : إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تُنْفِقَ الْمَرْأَةُ عَلَى الرَّجُلِ وَأَنْ تَدْفَعَ لَهُ الْمَهْرَ ثُمَّ تُسَاوِيَهُ فِي الْمِيرَاثِ ، قُلْنَا : إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا وَأَصْبَحَ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ بِطَلِّ زَوَاجٍ كُلِّ الْفَقِيرَاتِ ، وَهُنَّ سَوَادُ النُّسُورِ ، إِذْ لَا يَمْلِكُنَّ مَا يُمَهِّرُونَّ بِهِ وَلَا مَا يُنْفِقْنَ مِنْهُ ؛ وَهَذَا مَا يَتَحَامَاهُ الْإِسْلَامُ ، لِأَنَّ فِيهِ فَسَادَ الْاجْتِمَاعِ وَضَيَاعَ الْجَنَسَيْنِ جَمِيعًا ، وَهُوَ مُفْضٍ بِطَبِيعَتِهِ الْقَاهِرَةِ إِلَى جَعْلِ الزَّوْاجِ لِلْسَّاعَةِ وَالْيَوْمِ وَلِلْوَقْتِ الْمَخْدُودِ ... وَلِإِيجَادِ لُقَطَاءِ الشُّوَارِعِ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الزَّوْاجُ لِلْعُمُرِ وَلِلْوَجِبِ وَلِلتَرْبِيَةِ الرَّجُلِ عَلَى اخْتِمَالِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِإِيجَادِ الْأُسْرَةِ وَإِنْشَائِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهَا .

مِنْ هُنَا وَجِبَ أَنْ يَنْعَكِسَ الْقِيَاسُ إِذَا أُريدَ أَنْ تَسْتَقِيمَ النَّتِيجَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي هِيَ فِي الْعَالِيَةِ لَا مِنْ حَقِّ الرَّجُلِ وَلَا مِنْ حَقِّ الْمَرْأَةِ بَلْ مِنْ حَقِّ الْأُمَّةِ ؛ وَمَا نِسَاءُ الشُّوَارِعِ وَنِسَاءُ الْمَعَامِلِ فِي أَوْرَثَةٍ إِلَّا مِنْ نَتَائِجِ ذَلِكَ النِّظَامِ الَّذِي جَاءَ مَقْلُوبًا ، فَهُنَّ غَلَطَاتُ الْبُيُوتِ الْمُنْخَرِبَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْمُتَهَدِّمَةِ ، وَهُنَّ الْوَاجِبَاتُ الَّتِي أَلْفَاها الرِّجَالُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَوَقَعَتْ حَيْثُ وَقَعَتْ !

وَإِذَا انْزَاخَتْ مَسْئُولِيَّةُ الْمَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ انْزَاخَتْ عَنْهُ مَسْئُولِيَّةُ النَّسْلِ ، فَاصْبَحَ لِنَفْسِهِ لَا لِأُمَّتِهِ ؛ وَلَوْ عَمَّ هَذَا لِمُسَخِّ الْاجْتِمَاعِ وَأَسْرَعَ فِيهِ الْهَرَمُ وَآتَى عَلَيْهِ الضَّعْفُ ، وَأَصْبَحَتْ الْحُكُومَاتُ هِيَ الَّتِي تَسْتَوْلِي النَّاسَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَسْتَنْتِجُ بِهَا الْبَهَائِمَ وَقَدْ بَدَأَ بَعْضُ كُتَّابِ أَوْرَثَةٍ يَدْعُونَ حُكُومَاتِهِمْ إِلَى هَذَا الَّذِي ابْتُلُوا بِهِ وَلَا يَدْرُونَ سَبَبَهُ ، وَمَا سَبَبُهُ إِلَّا مَا بَيَّنَّا آيِنًا .

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ حِكْمَةً سَامِيَةً ، وَهِيَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَدْعُ نِصْفَ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ لِأَخِيهَا بِفَضْلِهَا بِهِ - بَعْدَ الْأَصْلِ الَّذِي نَبَّهَتْنا إِلَيْهِ - إِلَّا لِتُعِينَ بِهِذَا الْعَمَلُ فِي الْبِنَاءِ الْاجْتِمَاعِيِّ ؛ إِذْ تَتَرَكُّ مَا تَتَرَكُّهُ عَلَى أَنَّهُ لِامْرَأَةٍ أُخْرَى ، هِيَ زَوْجُ أَخِيهَا ؛ فَتَكُونُ قَدْ أَعَانَتْ أَخَاهَا عَلَى الْقِيَامِ

بِوَاجِبِهِ لِلْأُمَّةِ ، وَأَسَدَتْ لِلْأُمَّةِ عَمَلًا آخَرَ أَسَمَى مِنْهُ بِتَيْسِيرِ زَوَاجِ امْرَأَةٍ مِنَ النَّسَاءِ .

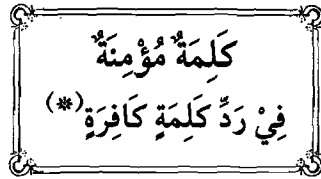
فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ مَسْأَلَةَ الْمِيرَاثِ هَلْهِ مُتَعَلِّغَةً فِي مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ لَا مُتَفَرِّدَةً بِنَفْسِهَا ، وَأَنَّهَا أَحْكَمُ الْحِكْمَةِ إِذَا أُريدَ بِالرَّجُلِ رَجُلٌ أُمَّتِهِ وَبِالْمَرْأَةِ امْرَأَةٌ أُمَّتِهَا ، فَأَمَّا إِذَا أُريدَ رَجُلٌ نَفْسِهِ وَامْرَأَةٌ نَفْسِهَا ، وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْجَمِيعَ فِي نَفْسِهِ حِمَاةٌ ، وَأَنَّ الْحُكْمَ خُرَافَةٌ ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ ضَلَالَةٌ ، فَحِينَئِذٍ لَا تَنْقَلِبُ آيَةُ الْمِيرَاثِ وَحْدَهَا بَلْ تَنْقَلِبُ الْحَقِيقَةُ .

وَمِمَّا نَعَجِبُ لَهُ أَنَّ سَلَامَةَ مُوسَى يَتَكَلَّمُ فِي مُحَاضَرَتِهِ كَأَنَّ كُلَّ الْوَالِدَيْنِ ذَرُوءُ مَالٍ وَعَقَارٍ ، فَيَنْصِفُ الْأُمَّةَ عَلَى هَذَا مَخْرُومٍ نِصْفَ حَقِّهِ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِنَ النَّاسِ لَا يَتْرُكُ مَا يُورَثُ ، لَا عَلَى الرُّبْعِ وَلَا عَلَى النِّصْفِ ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَمُوتُونَ عَنْ مِيرَاثٍ لَا يَخِيَا مِيرَاثَهُمْ إِلَّا آيَامًا مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ يَذْهَبُ فِي الدُّيُونِ ، إِذْ لَا تَرِكَهَ مَعَ دِينٍ ، وَكَثِيرُونَ لَا يُسَمِّنُ مِيرَاثَهُمْ وَلَا يُغْنِي ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِتْنَاتُ مَعِيَّةٍ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ لَا يَجُوزُ أَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ أَجْلِهَا تِلْكَ الْحِكْمَةُ الْجَمَاعِيَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ حِطِّ الْأُمَّةِ كُلِّهَا لِقِيَامِ بَعْضِ الْأَخْلَاقِ عَلَيْهَا كَمَا بَسَطْنَاهُ .

وَمِمَّا تَشَمَّرُ لَهُ الْقُلُوبُ الْكَرِيمَةُ قَوْلُ الْمُتَرْجِمِ فِي مُحَاضَرَتِهِ : فَلَوْ كَانَتْ الْفَتَيَاتُ يَرِثْنَ مِثْلَ إِخْوَتِهِنَّ الذُّكُورِ ، لَكَانَ (فِي ثُرُوتِهِنَّ) إِغْرَاءٌ لِلشَّبَابِ عَلَى الزَّوْجِ . . .

إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لَا يَعْرِفُ مِثْلَ هَذَا الْإِسْفَافِ فِي الْخُلُقِ وَلَا يَقْرَهُ ، بَلْ هُوَ يَهْدُمُهُ هَذَا وَيُوجِبُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ أَنْ يَخْمِلَ قِسْطَهُ مِنَ الْمَسْئُورِيَّةِ مَا دَامَ مُطِيقًا إِنْ كَرِهَ أَوْ رَضِيَ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَحْدَهَا مِنْ كَاتِبِهَا لَهِيَ أَدَلُّ مِنْ أَسْمِ الْمَحَلِّ عَلَى بِضَاعَةِ الْمَحَلِّ . . .

\* \* \*



تَلَقَّيْتُ كِتَابًا هَلْهِ نُسخُهُ :

أَكْتُبُ إِلَيْكَ مُتَعَجِّلًا بَعْدَ أَنْ قَرَأْتُ « كَلِمَةَ كَافِرَةٍ » فِي « كَوَكَبِ الشَّرْقِ » الصَّادِرِ مَسَاءَ الْجُمُعَةِ ٢٧ مِنْ أَكْتُوبَرٍ/تَشْرِينِ الْأَوَّلِ [١٩٢٣م] ، كَتَبَهَا مُتَصَدِّرٌ<sup>(١)</sup> مِنْ نَوْعِ قَوْلِهِمْ : حَبْدًا لِلْإِمَارَةِ وَلَوْ عَلَى الْحِجَارَةِ . . . وَسَمَّى نَفْسَهُ « السَّيِّدُ » فَإِنْ صَدَقَ فَيَمَّا كَتَبَ صَدَقَ فِي هَلْهِ التَّسْمِيَةِ .

طَعَنَ فِي الْقُرْآنِ وَكَفَرَ بِفَصَاحَتِهِ : وَفَضَّلَ عَلَى آيَةٍ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ جُمْلَةً مِنْ أَوْصَاعِ الْعَرَبِ ، فَعَقَدَ فَضْلُهُ بِعُنْوَانِ « الْعَثَرَاتِ » عَلَى ذَلِكَ التَّفْضِيلِ ، كَأَنَّ الْآيَةَ عَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ الْكِتَابِ يُصَحِّحُهَا وَيَقُولُ فِيهَا قَوْلُهُ فِي غَلَطِ الْجَرَائِدِ وَالنَّاشِئِينَ فِي الْكِتَابَةِ ، وَبَرِّقَ وَجْهَهُ وَجِبْنَ أَنْ يَسْتَعْلِنَ ، فَأَعْلَنَ بِرَدِّقَتِهِ أَنَّهُ حَدِيثٌ فِي الضَّلَالَةِ .

عَلَى الدَّمِ فِي رَأْسِي جِبْنَ رَأَيْتُ الْكَاتِبَ يُلِجُّ فِي تَفْضِيلِ قَوْلِ الْعَرَبِ : « أَلْقَتُلُ أَنْفِي لِلْقَتْلِ » عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْحَكِيمِ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ [٢] سورة البقرة/الآية : ١٧٩ ، فَذَكَرْتُ هَلْهِ الْآيَةَ الْقَائِلَةَ : ﴿ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرَبِّهِمْ إِنْ شَاءَ ﴾ [٣] سورة الأنعام/الآية : ١٢١ ، وَهَلْهِ الْآيَةُ : ﴿ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [٤] سورة الأنعام/الآية : ١١٢ ثُمَّ هَمَمْتُ بِالْكِتَابَةِ فَأَعْتَرَضَنِي ذِكْرُكَ ، فَالْقَيْتُ الْقَلَمَ لِاتِّسَالِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَكْتُبُ بِهِ إِلَيْكَ .

فَفِي عُنُقِكَ أَمَانَةُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا لِتَكْتُبَنَّ فِي الرَّدِّ عَلَى هَلْهِ الْكَلِمَةِ الْكَافِرَةِ لِإِظْهَارِ وَجْهِهِ الْإِعْجَازِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَأَيْنَ يَكُونُ مَوْقِعُ الْكَلِمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْهَا ، فَإِنَّ هَلْهِ رَدِّقَةُ

(\*) { « الْبَلَاغُ » نُوفَمْبَرٍ/تَشْرِينِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٢٣ ، وَأَنْظُرُ «فَتْرَةَ جِمَامٍ» مِنْ كِتَابِنَا «حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ» { .

(١) [هُوَ السَّيِّدُ حَسَنُ الْقَاتَانِي] .

إِنْ تُرِكَتْ تَأْخُذُ مَاخِذَهَا فِي النَّاسِ جَعَلَتْ أَلْبَرَّ فَاجِرًا ، وَزَادَتْ الْفَاجِرَ فُجُورًا ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [سورة الأنفال/ الآية : ٢٥] .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَكَ . أَقُولُهَا مُخْلِصًا ، يُمْلِيهَا عَلَيَّ الْحَقُّ الَّذِي أَعْلَمُ إِيْمَانَكَ بِهِ وَتَفَانِيَتِكَ فِي إِفْرَارِهِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُ وَالذُّودِ عَنْ آيَاتِهِ ، ثُمَّ أَعْلَمُ أَنَّكَ مَلَجًا يَغْتَصِمُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ تَتَاوَسُهُمْ ذُنُوبُ الرِّزْدَقَةِ الْأَدْبِيَّةِ الَّتِي جَعَلْتَ هَمًّا أَنْ تُلِغَ وَلَوْغَهَا فِي الْبَيِّنَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ .

وَلَسْتُ أَرِيدُكَ ، فَإِنَّ مَوْفِعِي هَذَا مَوْفِقُ الْمُطَالِبِ بِحَقِّهِ وَحَقُّ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَذْكُرُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سِئِلَ عِلْمًا عَلِمَهُ فَكَتَمَهُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ! » [الترمذي، رقم : ٢٦٤٩ ؛ أبو داود، رقم : ٣٦٥٨ ؛ ابن ماجه، رقم : ٢٦٦ ؛ مسند أحمد، رقم : ٧٥١٧، ٧٨٨٣، ٧٩٨٨، ٨٣٢٨، ٨٤٢٤، ١٠٠٤٨، ١٠١٠٩، ١٠٢١٩] أَوْ كَمَا قَالَ .

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ .

م . م . ش .

[محمود محمد شاكر]

\* \* \*

قَرَأْتُ هَذَا الْكِتَابَ فَأَفْشَعَرَّ جِسْمِي لِوَعِيدِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَجَعَلْتُ أُرَدُّ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ اسْتَكْبَرُ مِنْهُ وَأَمْلَأُ نَفْسِي بِمَعَانِيهِ ، وَإِنَّهُ لَيَكْثُرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، فَإِذَا هُوَ أَبْلَغُ تَهْكُمٍ بِالْعُلَمَاءِ الْمُتَجَاهِلِينَ ، وَالْجُهْلَاءِ الْمُتَعَالِمِينَ ؛ وَإِذَا هُوَ يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ أَنَّ الْعَالِمَ الَّذِي يَكْتُمُ عِلْمَهُ النَّافِعَ عَنِ النَّاسِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا ، وَيُؤْخَذُ مِنْ بَاطِنِهِ أَنَّ الْجَاهِلَ الَّذِي يَبُثُّ جَهْلَهُ الضَّارَّ فِي النَّاسِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا مُبْرَدًا . . . أَنِي : فَهَذَا وَهَذَا كِلَاهُمَا مِنْ حَمِيرٍ جَهَنَّمَ !

وَالْتَمَسْتُ عَدَدَ « الْكُوكَبِ » الَّذِي فِيهِ الْمَقَالُ وَقَرَأْتُهُ ، وَلَمْ أَكُنْ أَصَدِّقُ أَنَّ فِي الْعَالَمِ أَدْنِيًّا مُمَيِّزًا يَضَعُ نَفْسَهُ هَذَا الْمَوْضِعَ مِنَ التَّصْفِيحِ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ وَأَسَاءَ الْأَدَبِ فِي وَضْعِ آيَةٍ مِنْهُ بَيْنَ عَتَرَاتِ الْكِتَابِ ، فَضَلًا عَنْ أَنْ يَسْمُوَ لِتَفْضِيلِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى الْآيَةِ ، فَضَلًا عَنْ أَنْ يَلِجَ فِي هَذَا التَّفْضِيلِ ، فَضَلًا عَنْ أَنْ يَتَهَوَّسَ فِي هَذِهِ اللَّجَاجَةِ ؛ وَلَكِنْ هَذَا قَدْ كَانَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !

وَلَعَمْرِي وَعَمْرُ أَيْنِكَ أَهْيَا الْقَارِي ، لَوْ أَنَّ كَاتِبًا ذَهَبَ فَأَكَلَ فَخَلَطَ فَتَضَلَّ فَنَامَ فَاسْتَقْبَلَ فَحَلُمَ . . . أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْضِيلِ كَلِمَةِ الْعَرَبِ عَلَى تِلْكَ الْآيَةِ ، وَاجْتِهَادَ جُهْدِهِ وَهُوَ نَائِمٌ ذَاهِبٌ الْوُغْيَ فَلَمْ يَأَلْ تَخَرُّفًا وَاسْتِطَالَةً ، وَأَخَذَ عَقْلُهُ الْبَاطِنُ يَكْنِسُ دِمَاعَهُ وَيُخْرِجُ مِنْهُ (الرَّبَالَةَ الْعَقْلِيَّةَ) لِئَلْفِيهَا فِي طَرِيقِ الشُّبَّانِ أَوْ فِي طَرِيقِ الشَّيْطَانِ - لَمَّا جَاءَ فِي شَأْوِهِ بِأَسْخَفَ وَلَا أَبْرَدَ مِنْ مَقَالَةٍ « السَّيِّدِ » ، فَسَوَاءٌ أَوْقَعَ هَذَا التَّفْضِيلُ مِنْ جِهَةِ الْهَذْيَانِ وَالتَّخَرُّفِ كَمَا فَعَلَ كَاتِبُ الْقَوْمِ ، أَمْ وَقَعَ مِنْ جِهَةِ الْخَلَطِ وَالْخَبْطِ كَمَا فَعَلَ كَاتِبُ « الْكُوكَبِ » - فَهَذَا مِنْ هَذَا ، طِبَاقُ سَخَافَةٍ بِسَخَافَةٍ .

نَعَمْ ، إِنَّ مَقَالَةَ « الْكُوكَبِ » أَفْضَلُ مِنْ مَقَالَةِ الْكَاتِبِ الْحَالِمِ . . . وَلَكِنْ قَلِيلُ الرِّبِيتِ فِي الرُّجَاجَةِ الَّتِي أُهْدِيَتْ لِجَحَا لَا يُعَدُّ زَيْنًا مَا دَامَ هَذَا الْقَلِيلُ يَطْفُو عَلَى مِلءِ الرُّجَاجَةِ مِنْ . . . مِنَ الْبُزْلِ !

وَلَقَدْ تَنَبَّأَ الْقَاضِي الْبَاقِلَانِيُّ قَبْلَ مِثَالِ السَّنِينَ بِمَقَالَةِ « الْكُوكَبِ » هَذِهِ فَاسْفَلَهَا الرَّدُّ بِقَوْلِهِ :

« فَإِنْ أَشْنَبَ عَلَى مُتَأَدِّبٍ أَوْ مُتَشَاعِرٍ أَوْ نَاشِئٍ أَوْ مُزِيدٍ فَصَاحَةُ الْقُرْآنِ وَمَوْقِعُ بَلَغَتِهِ وَعَجِيبُ بَرَاعَتِهِ فَمَا عَلَيْكَ مِنْهُ ، إِنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَذُلُّ عَلَى عَجْزِهِ ، وَيَبِينُ عَنْ جَهْلِهِ ، وَيُصْرِّحُ بِسَخَافَةِ فَهْمِهِ وَرَكَاتَةِ عَقْلِهِ » مَا عَلَيْنَا . . . يَقُولُ كَاتِبُ « الْكُوكَبِ » بِالْأَنْصَر :

قَالَتِ الْعَرَبُ قَدِيمًا فِي مَعْنَى الْفِصَاصِ : (الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ) ، ثُمَّ أَفْبَلِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى آثَارِ الْعَرَبِ (هَكَذَا) فَقَالَ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَسَاطِينِ الْبَيِّنَاتِ أَنْ يَعْقِدُوا الْمُوَارَاةَ بَيْنَ مَقَالَةِ الْعَرَبِ هَذِهِ وَبَيْنَ الْآيَةِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي هُمَا أَشْبَهُ بِالْفَصَاحَةِ ؟ (هَكَذَا) ، ثُمَّ يَخْلُصُونَ مِنْهَا إِلَى تَقْدِيمِ الْآيَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ . . . ثُمَّ قَالَ : مَنْ رَأَى كَاتِبَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ تَقْدِيمُ الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْآيَةِ الْغَرَاءِ ، (اللَّهُمَّ غَفِرَا) عَلَى تُلْجِ الصَّدْرِ بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ (كَلِمَةً لِلْوَقَايَةِ مِنَ النَّبَايَةِ . وَإِلَّا فَمَاذَا بَقِيَ مِنَ الْإِعْجَازِ وَقَدْ عَجِزَتِ الْآيَةُ؟ زَهْ زَهْ يَا رَجُلُ . . . ) .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ فِيْمَا تَقْدُمُ بِهِ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْآيَةِ الْحَكِيمَةِ (اللَّهُمَّ غَفِرًا) مَرَاتَا ثَلَاثًا : أَوَّلَى هَلِدِهِ الْمَرَاتَا الثَّلَاثَ ، هَذَا الْإِيجَارُ السَّاحِرُ فِيهَا ؛ ذَلِكَ أَنَّ « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ لَا أَكْثَرَ ، أَمَّا الْآيَةُ فَإِنَّهَا سَبْعُ كَلِمَاتٍ (كَذَا) وَعَلَى تِلْكَ فَهِيَ أَفْذَمُ عَهْدًا وَأَسْبَغُ مِيلَادًا مِنْ آيَةِ التَّنْزِيلِ (تَأَمَّلْ) حَاشَا كَلَامَ اللَّهِ الْقَدِيمِ ، وَالْإِيجَارُ مِيزَةٌ آيَةٌ مِيزَةٌ . الْمِيزَةُ الثَّانِيَّةُ لِلْكَلِمَةِ : الْاسْتِفْلَالُ الْكِتَابِيُّ وَقَدْ التَّعَاوَدَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شَيْءٍ آخَرَ سَابِقٍ عَلَيْهَا ، حَتَّى إِنَّ الْمُتَمَثِّلَ بِهَا الْمُسْتَشْهَدَ يَتَبَدَّى بِهَا حَدِيثًا مُسْتَتَمًّا وَيَخْتِمْهُ فِي غَيْرِ مَرِيدٍ وَلَا فَضْلٍ ، فَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَعِينُ بِغَيْرِهَا ؛ أَمَّا الْآيَةُ فَإِنَّهَا مَنْسُوقَةٌ مَعَ مَا قَبْلَهَا بِالْوَاوِ ، فَهِيَ مُتَعَادِلَةٌ مُرَابِطَةٌ مَعَهُ ، لَا يَتِمُّ بِهَا الْمُتَمَثِّلُ حَتَّى يَسْتَعِينَ بِشَيْءٍ سِوَاهَا ، وَلَيْسَ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى غَيْرِهِ فَلَا يَسْتَقِلُّ كَالَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَسْتَقِلُّ . الْمِيزَةُ الثَّالِثَةُ : أَنَّ الْكَلِمَةَ لَيْسَتْ مُتَصِلَةً فِي آخِرَتِهَا بِفَضْلِ مِنَ الْقَوْلِ تُغْنِي عَنْهُ ، عَلَى حِينٍ تَتَّصِلُ الْآيَةُ بِمَا تُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْقَوْلِ . وَتَعْتَدُ كَالْفَضْلِ ، وَهُوَ كَلِمَتَا « يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ » وَ« لَمَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [٢] سورة البقرة/ الآية : ١٧٩ ، وَإِنْ كَانَ لَا زِيَادَةَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا قُضُولَ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مُدْرَسًا جَاءَهُ بِالْفَضْلِ الَّذِي عَقَدَهُ الْإِمَامُ السُّيُوطِيُّ فِي كِتَابِهِ « الْإِنْقَانِ » لِتَفْضِيلِ الْآيَةِ عَلَى الْكَلِمَةِ وَفِيهِ قَرَابَةٌ خَمْسَةٌ وَعِشْرِينَ حُجَّةً ، قَالَ : إِنَّهَا أَنْحَطَّتْ بَعْدَ أَنْ رَمَاهَا بِنَظَرِهِ الْعَالِي إِلَى أَرْبَعٍ « أَمَّا الْبَاقِيَاتُ فَمِنْ نَسَجِ الْإِنْجَالِ وَالتَّنْزِيدِ » قَالَ : وَأَوَّلَاهَا : إِنَّ الْآيَةَ أَوْجَزُ لَفْظًا ، وَالْكَاتِبُ يَرَى الْآيَةَ « سَبْعُ كَلِمَاتٍ فِي تَخْدِيدٍ وَدَقَّةٍ » قَالَ : « إِذَا لَقَدْ بَطَلَتْ حُجَّةُ الْإِيجَارِ فِي الْآيَةِ » (اللَّهُمَّ غَفِرًا) . قَالَ : وَالثَّانِيَةُ : « إِنَّ فِي الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَكَرَّرًا لِكَلِمَةِ الْقَتْلِ سَلِمَتْ الْآيَةُ مِنْهُ » وَرَدَّ الْكَاتِبُ أَنَّ هَذَا التَّكَرُّارُ « يَتَحَلَّلُ طَلَاوَةً وَيَقْطُرُ رَقَّةً (قَالَ) : وَهَذَا فِيهِ طَعْمُ الْعَسَلِ » (قُلْنَا : وَعَلَيْهِ الذُّبَابُ يَا سَيِّدَنَا ...) . وَالثَّالِثَةُ : أَنَّ فِي الْآيَةِ ذِكْرًا لِلْقِصَاصِ بِلَفْظِهِ عَلَى حِينٍ لَا تَذْكُرُ الْكَلِمَةُ إِلَّا الْقَتْلَ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ كُلُّ قَتْلِ قِصَاصًا ، وَدَفَعَ الْكَاتِبُ هَذَا بِأَنَّ الْكَلِمَةَ أَنْطَوَتْ عَلَى قَتْلَيْنِ أَحَدُهُمَا يَنْفِي صَاحِبَهُ فَذَاكَ هُوَ الْقِصَاصُ ، قَالَ : « إِذَنْ فَالْكَلِمَةُ وَالْآيَةُ فِي قَضْدِ الْقِصَاصِ يَلْتَقِيَانِ قَرَسِي رَهَانٌ » . وَالرَّابِعَةُ : إِنَّ الْقِصَاصَ فِي الْآيَةِ أَعَمُّ يَشْمَلُ الْقَتْلَ وَغَيْرَهُ ، وَأَقَرُّ الْكَاتِبُ أَنَّ لِلآيَةِ فَضْلًا عَلَى الْكَلِمَةِ مِنْ هَلِدِهِ النَّاحِيَةِ ، وَلَكِنَّ الْكَلِمَةَ حِكْمَةٌ لَا شَرِيعَةٌ ، وَهِيَ مِنْ قَضَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ ،

فَلَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تُبَيَّنَ مَا لَمْ يَعْرِفْهُ الْعَرَبُ وَلَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ ، قَالَ : « إِذَنْ فَلَيْسَتْ الْكَلِمَةُ مُقْصَرَّةً عَنْ بَيَانٍ ، مُتَبَلِّدَةً عَنْ إِحْسَانٍ » .

\* \* \*

هَذَا كُلُّ مَقَالِهِ بِخُرُوفِهِ بَعْدَ تَخْلِيصِهِ مِنَ الرِّكَائِكَ وَالْحَشْوِ وَمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ ، وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَقُولُ قَوْلَنَا ، وَلَكِنَّا نَقْدُمُ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ مَسْأَلَةً ، فَمِنْ أَيْنَ لِلْكَاتِبِ أَنْ كَلِمَةُ « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » مِمَّا صَحَّتْ نِسْبَتُهُ إِلَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَيْفَ لَهُ أَنْ يُثَبِّتَ إِسْنَادَهَا إِلَيْهِمْ وَأَنْ يُوثِّقَ هَذَا الْإِسْنَادَ حَتَّى يَسْتَعِينَهُمْ قَوْلُهُ إِنَّ الْقُرْآنَ أَقْبَلَ عَلَى آثَارِ الْعَرَبِ ... ؟

أَنَا أَقَرُّ أَنَّ هَلِدِهِ الْكَلِمَةُ مُؤَلَّدَةٌ وَضِعَتْ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأُخِذَتْ مِنَ الْآيَةِ ، وَالتَّنْزِيلُ بَيْنَ فِيهَا ، وَأَثَرُ الصَّنْعَةِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا ، فَعَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا بِمَا يُثَبِّتُ أَنَّهَا مِمَّا صَحَّ نَقْلُهُ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَقَدْ جَاءَ أَبُو تَمَّامٍ بِأَبْدَعٍ وَأَبْلَغَ مِنْ هَلِدِهِ الْكَلِمَةِ فِي قَوْلِهِ لِمَنِ الْكَامِلُ :

وَأَخَافُكُمْ كَيْ تَغْمِدُوا أَسْيَافَكُمْ      إِنَّ الدَّمَ الْمُغَبَّرَ يَخْرُسُهُ الدَّمُ  
(الدَّمُ يَخْرُسُهُ الدَّمُ) هَلِدِهِ الصَّنَاعَةُ وَهَلِدِهِ هِيَ الْبَلَاغَةُ لَا تِلْكَ ، وَمَعَ هَذَا فَكَلِمَةُ الشَّاعِرِ مُؤَلَّدَةٌ مِنَ الْآيَةِ ، يَذْكُرُ عَلَيْهَا الْبَيْتُ كُلَّهُ ، وَكَأَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَمْ يَكُنْ سَمِعَ قَوْلَهُمْ : « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » وَأَنَا مُسْتَعِينٌ أَنَّ الْكَلِمَةَ لَمْ تَكُنْ وَضِعَتْ إِلَى يَوْمِنَا<sup>(١)</sup> .

وَلَوْ أَنَّ مُتَمَثِّلًا أَرَادَ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فَانْتَرَعَ مِنْهُ هَذَا الْمَثَلُ : « الدَّمُ يَخْرُسُهُ الدَّمُ » أَيْ كَوْنُ حَتْمًا مِنَ الْحَتْمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ : كَلَّا يَا هَذَا ! فَإِنَّ الْبَيْتَ سَبْعُ كَلِمَاتٍ ، فَلَا يَصِحُّ انْتِرَاعُ الْمَثَلِ مِنْهُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ قِرَاءَةِ الْبَيْتِ بِمَضْرَاعِيهِ كَمَا يَقُولُ كَاتِبُ « الْكَوْكَبِ » فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِيَرَعُمَ أَنَّهَا لَا تُقَابِلُ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ فِي الْإِيجَارِ ؟

إِنَّ الَّذِي فِي مَعَانِي الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ مِمَّا يَنْظُرُ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِمْ : « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ »

(١) سَبَّحْتُ هَذَا بَعْدَ فِي تَعْلِيْقِي عَلَى هَلِدِهِ الْمَقَالَةِ .

كَلِمَتَانِ لَيْسَ غَيْرٌ ، وَهُمَا «الْفِصَاصُ ، حَيَاةٌ» ؛ وَالْمُقَابَلَةُ فِي الْمَعَانِي الْمُمْتَازِلَةِ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُؤَدِّي هَذِهِ الْمَعَانِي دُونَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ أَوْ تَعَلَّقَ بِهَا مِمَّا يَصِلُ الْمَعْنَى بِغَيْرِهِ أَوْ يَصِلُ غَيْرُهُ بِهِ ؛ إِذِ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَ مَعْنَيْنِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي صِنَاعَةٍ تَرْكِيبِيَّةٍ . وَيُحْتَكَلُ إِلَيَّ أَنَّ الْكَاتِبَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ بَاقِيَ آيَةِ الْكَرِيمَةِ لَغَوْ وَحَشَوْ ، فَهُوَ حَمِيلَةٌ عَلَى الْكَلِمَتَيْنِ : الْفِصَاصُ حَيَاةٌ ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهَا وَلَكِنَّهُ غُصَّ بِهَا ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا يُلِجُّ فِي أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي التَّمَثِيلِ ، أَيْ : لَا بُدَّ فِي الْمُقَابَلَةِ ، مِنْ رَدِّ آيَةِ بِالْفَاظِهَا جَمِيعًا ؟

فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْإِعْرَابُ فِي آيَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ مُشْتَرَعًا مِنْهَا عَلَى التَّلَاوَةِ ، قُلْنَا : فَإِنَّ مَا يُقَابِلُ الْكَلِمَةَ مِنْهَا حِينَئِذٍ هُوَ هَذَا : ﴿ فِي الْفِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَجُمْلَتُهَا أَتْنَا عَشَرَ حَرْفًا ، مَعَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَالْإِيجَازُ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ هُوَ فِي آيَةِ دُونَ الْكَلِمَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأُولَى الْأَلْبَابَ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] فَلَوْ كَانَ الْكَاتِبُ مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ لَفَهَمَهَا وَعَرَفَ مَوْقِعَهَا وَحِكْمَتَهَا ، وَأَنْ إِعْجَازَ آيَةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا ، إِذْ أُرِيدَ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَةً زَمَنِيَّةً كَمَا سَنُشِيرُ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ أَتَى لَهُ وَهُوَ مِنَ الْفَرِّ الْبَيِّنِيِّ عَلَى هَذَا الْبُعْدِ السَّحِيحِ ، لَا يَغْلُمُ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَالزَّمَنِ فِي نَسَقِهَا : مَا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ يُظْهِرُهُ إِلَّا وَمِنْ وَرَائِهِ سِرٌّ يُحَقِّقُهُ .

ثُمَّ إِنَّ الْإِيجَازَ فِي الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَيْسَ مِنَ «الْإِيجَازِ السَّاحِرِ» كَمَا يَصِفُهُ الْكَاتِبُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَنَا مِنَ الْإِيجَازِ السَّاطِعِ ؛ وَلَيْسَ مِنْ قَبِيلِ إِنْجَازِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُشَبِّهَهُ ، إِذْ لَا بُدَّ فِي فَهْمِ صِنْعَةِ التَّفْضِيلِ مِنْ تَقْدِيرِ الْمُفْضَّلِ عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : «الْقَتْلُ أَكْثَرُ نَفْسًا لِلْقَتْلِ مِنْ كَذَا» ، فَمَا هُوَ هَذَا «الْكَذَا» أَهِيَ الْكَاتِبُ الْمُتَعَتِّرُ ؟

الَّذِي تَصَوَّرَ مَعْنَى الْعِبَارَةِ وَإِحْضَارَهُ فِي الذَّهْنِ قَدْ أَسْقَطَهَا وَنَزَلَ بِهَا إِلَى الْكَلَامِ الشُّوْفِيِّ الْمُبْتَدَلِ وَأَوْقَعَ فِيهَا الْاِخْتِلَالَ ؟ وَهَلْ كَانَتْ إِلَّا صِنَاعَةً شِعْرِيَّةً خَيَالِيَّةً مُلَفَّفَةً كَمَا أَوْمَأْنَا إِلَى ذَلِكَ إِنَّمَا ، حَتَّى إِذَا أَجْرَيْنَاهَا عَلَى مَنَهِجِهَا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ رَأَيْنَاهَا فِي طَرِيقَةِ هَذَا الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْأَمْرِيكَانِيِّ كَقَوْلِ الْفَائِلِ : «الْفَرْحُ أَعْظَمُ مِنَ التَّرَحِّ» ، «الْحَيَاةُ هِيَ الَّتِي تُعْطِي لِلْحَيَاةِ» ... ؟

بِهَذَا الرَّدِّ الْمُوجِزِ بَطَلَتْ الْمِيزَاتُ الثَّلَاثُ الَّتِي زَعَمَهَا الْكَاتِبُ لِنِلك الْكَلِمَةِ ، وَإِنَّ الْكَلِمَةَ نَفْسَهَا تَتَبَرَّأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهَا عَلَى آيَةِ مِيزَةً وَاحِدَةً فَضْلًا عَنْ ثَلَاثٍ .

وَلْتَفَرِّضْ «فَرَضًا» أَنَّ الْكَلِمَةَ وَثِيقَةُ الْإِسْنَادِ إِلَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّهَا فِي بَيَانِهِمْ ، فَمَا الَّذِي فِيهَا ؟

١ - إِنَّهَا تُشَبِّهُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ لَكَ : إِنْ قَتَلْتَ خَصْمَكَ لَمْ يَقْتُلَكَ . وَهَلْ هَذَا إِلَّا هَذَا ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا بَلَاغَةً مِنَ الْهَدْيَانِ ؟

٢ - إِنَّهَا تُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ لَعَنَةً قَاطِعِ طَرِيقِي عَارِمٍ يَتَوَتَّبِعُ عَلَى الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، لَا يَخْرُجُ لِسَانِهِ إِلَّا مُقَرَّرًا فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا قَاتِلٌ أَوْ مَقْتُولٌ ، وَلِذَلِكَ تَكَرَّرَ فِيهَا الْقَتْلُ عَلَى طَرَفَيْهَا ، فَهُوَ مِنْ أَشْنَعِ التَّكَرُّارِ وَأَفْظَعِهِ .

٣ - إِنَّ فِيهَا الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ وَالْهَمَجِيَّةَ ، إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ أَلَّا تُسَلِّمَ الْقَبِيلَةُ الْعَرِيزَةَ قَاتِلًا مِنْهَا ، بَلْ تَحْمِيهِ وَتَمْنَعُهُ ، فَتَنْقَلِبُ الْقَبِيلَةُ كُلُّهَا قَاتِلَةً بِهَذِهِ الْعَصَبِيَّةِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا يَنْفِي عَارَ الْقَتْلِ عَنْ قَبِيلَةِ الْمَقْتُولِ إِلَّا الْحَرْبُ وَالْاِسْتِئْصَالُ قَتْلًا وَقَتْلًا وَأَكْلُ الْحَيَاةِ لِلْحَيَاةِ ، فَهَذَا مِنْ مَعَانِي الْكَلِمَةِ ، أَيْ : الْقَتْلُ أَنْفَى لِعَارِ الْقَتْلِ ، فَلَا فِصَاصَ وَلَا قَضَاءَ كَمَا يَزْعُمُ الْكَاتِبُ .

٤ - إِنَّ الْقَتْلَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخَصَّصَ بِمَعْنَى الْفِصَاصِ إِلَّا إِذَا خَصَّصْتَهُ آيَةُ فَيجيءُ مُفْتَرِنًا بِهَا ، فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَهِيَ تُلِيسُهُ الْإِنْسَانِيَّةَ كَمَا تَرَى ، وَلَنْ يَدْخُلَهُ الْعَقْلُ إِلَّا مِنْ مَعَانِيهَا ؛ وَهَذَا وَاحِدٌ إِعْجَازٌ فِي آيَةِ وَعَجَزٌ مِنَ الْكَلِمَةِ .

\* \* \*

وَقَبْلَ أَنْ تُبَيِّنَ وَجُوهَ الْإِعْجَازِ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ وَتُسَخِّرَ أَسْرَارَهَا ، نَقُولُ لِهَذَا الطُّفْلِيِّ : إِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَسْتَطَاعَ أَنْ يَطِيرَ فِي الْجَوِّ وَرَقَّةً فِي قَصْبَةٍ فِي خَيْطٍ - جَارَ لَهُ أَنْ يَقُولَ فِي تَفْضِيلِ وَرَقَّتِهِ عَلَى مِطْطَادِ زَيْلِنِ Ferdinand Von Zeppelin : وَأَنْ فِيمَا تَتَقَدَّمُ بِهِ عَلَى الْمِطْطَادِ الْكَرِيمِ مِيزَاتُ ثَلَاثًا : الدَّلِيلُ ، وَالْوَرَقُ الْمُلَوَّنُ ، وَالْخَيْطُ ... يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] .

١ - بَدَأَ آيَةَ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَكُمْ ﴾ وَهَذَا قَبْدٌ يَجْعَلُ هَذِهِ آيَةَ خَاصَّةً بِالْإِنْسَانِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ

الَّتِي تَطْلُبُ كَمَالَهَا فِي الْإِيمَانِ ، وَتَلْتَمِسُ فِي كَمَالِهَا نِظَامَ النَّفْسِ ، وَتَقَرَّرُ نِظَامَ النَّفْسِ بِنِظَامِ الْحَيَاةِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا مُتَحَقِّقًا فِي النَّاسِ فَلَا حَيَاةَ فِي الْقِصَاصِ ، بَلْ تَصْلُحُ حِينَئِذٍ كَلِمَةُ الْهَمْجِيَّةِ : الْقَتْلُ أَفْعَالُ الْقَتْلِ ، أَيْ : أَقْتُلُوا أَعْدَاءَكُمْ وَلَا تَدْعُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُبَيِّنُكُمْ أَحْيَاءَ وَيَنْقِي عَنْكُمْ الْقَتْلَ ؛ فَلَايَةُ الْكَرِيمَةِ بِدَلَالَةِ كَلِمَتِهَا الْأُولَى مُوجَّهَةٌ إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ ، لِتُوجَّهَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي بَعْضِ مَعَانِيهَا إِلَى حَقِيقَةِ مِنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ .

٢ - قَالَ ﴿ فِي الْقِصَاصِ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَلَمْ يَقُلْ : فِي الْقَتْلِ ؛ فَقَيَّدَهُ بِهِذِهِ الصَّبْغَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ جَزَاءٌ وَمُؤَاخَذَةٌ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ الْمُبَادَاةُ بِالْعُدْوَانِ ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مَا يُخْرِجُ عَنْ قَدْرِ الْمَجَازَةِ قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ .

٣ - تُفِيدُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿ الْقِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] بِصِبْغَتِهَا (صِبْغَةُ الْمُفَاعَلَةِ) مَا يُشْعِرُ بِوُجُوبِ التَّحْقِيقِ وَتَمَكُّنِ الْقَاتِلِ مِنَ الْمُنَازَعَةِ وَالِدِّفَاعِ ، وَأَلَّا يَكُونَ قِصَاصٌ إِلَّا بِاسْتِحْقَاقٍ وَعَدَلٍ ، وَلِذَا لَمْ يَأْتِ بِالْكَلِمَةِ مِنْ أَقْصَى مَعْنَاهَا أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا ، لِأَنَّ الْإِقْصَاصَ شَرِيعَةَ الْفَرْدِ ، وَالْقِصَاصَ شَرِيعَةَ الْمُجْتَمَعِ .

٤ - مِنْ إِعْجَازِ لَفْظَةِ ﴿ الْقِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] هَذِهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى بِهَا قَتْلَ الْقَاتِلِ ، فَلَمْ يُسَمِّهِ قَتْلًا كَمَا فَعَلَتْ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، لِأَنَّ أَحَدَ الْقَتْلَيْنِ هُوَ جَرِيمَةٌ وَآخَرُهُ ، فَتَرَهُ سُبْحَانَهُ الْعَدْلَ الشَّرْعِيَّ حَتَّى شَبَّهَهُ بِلَفْظِ الْجَرِيمَةِ ، وَهَذَا مُنْتَهَى السُّمُوِّ الْأَدَبِيِّ فِي التَّعْبِيرِ .

٥ - وَمِنْ إِعْجَازِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَنَّهَا بِاخْتِيَارِهَا دُونَ كَلِمَةِ الْقَتْلِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ سَيَأْتِي فِي عَصُورِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ الْمُتَحَضَّرَةِ عَصْرٌ لَا يُرَى فِيهِ قَتْلُ الْقَاتِلِ بِجَنَائَةٍ إِلَّا شَرًّا مِنْ قَتْلِ الْمَقْتُولِ ، لِأَنَّ الْمَقْتُولَ يَهْلِكُ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، عَلَى حِينٍ أَنْ أَخَذَ الْقَاتِلُ لِقَتْلِهِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا يَتَّةٌ قَتْلُهُ ، فَعَبَّرَتْ آيَةُ بِاللُّغَةِ الَّتِي تَلَاوَمَ هَذَا الْعَصْرُ الْقَانُونِيُّ الْفَلَسَفِيُّ ، وَجَاءَتْ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي لَنْ تَجِدَ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ مَا يُجْزِئُ عَنْهَا فِي الْأَسَاسِ لِكُلِّ مَا يُرَادُ بِهَا مِنْ فِلْسَفَةِ الْعُقُوبَةِ .

٦ - وَمِنْ إِعْجَازِ اللَّفْظَةِ أَنَّهَا كَذَلِكَ تَحْمِلُ كُلَّ ضُرُوبِ الْقِصَاصِ مِنَ الْقَتْلِ فَمَا دُونَهُ ، وَعَجِيبٌ أَنْ تَكُونَ بِهَذَا الْإِطْلَاقِ مَعَ تَفْيِيدِهَا بِالْقِيُودِ الَّتِي مَرَّتْ بِكَ ، فَهِيَ بِذَلِكَ لَعْنَةُ شَرِيعَةِ إِلَهِيَّةٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، فِي حِينٍ أَنَّ كَلِمَةَ الْقَتْلِ فِي الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ تَنْطَلِقُ فِي صَرَاحَةٍ أَنَّهَا لَعْنَةُ

الْغَرِيزَةِ الْبَشَرِيَّةِ بِأَفْجَحِ مَعَانِيهَا ، وَلِذَلِكَ كَانَ تَكَرُّرُهَا فِي الْمَثَلِ كَتَكَرُّارِ الْغُلْطَةِ ، فَلَايَةُ بِلَفْظَةِ (الْقِصَاصِ) تَضَعُكَ أَمَامَ الْأَلْزَمِيَّةِ بِعَدْلِهَا وَكَمَالِهَا ، وَالْمَثَلُ بِلَفْظَةِ (الْقَتْلِ) يَضَعُكَ أَمَامَ الْبَشَرِيَّةِ بِتَقْصِصِهَا وَظُلْمِهَا .

٧ - وَلَا تَنْسَ أَنَّ التَّغْيِيرَ بِالْقِصَاصِ تَغْيِيرٌ يَدْعُو الْإِنْسَانِيَّةَ مَحَلَّهَا إِذَا هِيَ تَخَلَّصَتْ مِنْ وَخْشِيَّتِهَا الْأُولَى وَجَاهِلِيَّتِهَا الْقَدِيمَةِ ، فَيَشْمَلُ الْقِصَاصُ أَخْذَ الدِّيَّةِ وَالْعَفْوَ وَغَيْرَهُمَا ، أَمَّا الْمَثَلُ فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا حَالَةٌ وَاحِدَةٌ بِعَيْنِهَا كَأَنَّهُ وَخْشٌ لَيْسَ مِنْ طَبْعِهِ إِلَّا أَنْ يَفْتَرِسَ .

٨ - جَاءَتْ لَفْظَةُ الْقِصَاصِ مُعَرَّفَةً بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ ، لِتَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِقِيُودِهِ الْكَثِيرَةِ ؛ إِذْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى التَّنْذِيرِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَلَا تَصْلُحُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِغَيْرِ تَقْيِيدِهَا .

٩ - جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ حَيَاةٍ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] مُنَوَّتَةً ، لِتَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَهُنَا لَيْسَتْ حَيَاةٌ بِعَيْنِهَا مُقَيَّدَةً بِإِصْلَاحٍ مُعَيَّنٍ ، فَقَدْ يَكُونُ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ أَجْتِمَاعِيَّةٌ ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ حَيَاةٌ سِيَاسِيَّةٌ ، وَقَدْ تَكُونُ الْحَيَاةُ أَدَبِيَّةٌ ، وَقَدْ تُعْظَمُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ عَنْ أَنْ تَكُونَ حَيَاةً .

١٠ - إِنَّ لَفْظَ ﴿ حَيَاةٍ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ أَعْمٌ مِنْ التَّغْيِيرِ (بِنَفْيِ الْقَتْلِ) لِأَنَّ نَفْيَ الْقَتْلِ إِنَّمَا هُوَ حَيَاةٌ وَاحِدَةٌ ، أَيْ : تَرَكَ الْوُجُوحَ فِي الْجِسْمِ ، فَلَا يَحْتَمِلُ شَيْئًا مِنَ الْمَعَانِي السَّامِيَّةِ ، وَلَيْسَ فِيهِ غَيْرُ هَذَا الْمَعْنَى الطَّبِيعِيِّ السَّادِجِ ، وَتَغْيِيرُ الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْحَيَاةِ (بِنَفْيِ الْقَتْلِ) تَغْيِيرٌ غَلِيظٌ عَامِّيٌّ يَدُلُّ عَلَى جَهْلِ مُطَبِّقِي لَا مَحَلَّ فِيهِ لِعِلْمٍ وَلَا تَفَكُّيرٍ ، كَالَّذِي يَقُولُ لَكَ : إِنَّ الْحَرَارَةَ هِيَ نَفْيُ الْبُرُودَةِ .

١١ - جَعَلَ نَتِيجَةَ الْقَتْلِ حَيَاةً تَغْيِيرٌ مِنْ أَعْجَبَ مَا فِي الشَّعْرِ يَسْمُو إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْخَيَالِ ، وَلَكِنَّ أَعْجَبَ مَا فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ خَيَالًا ، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَى تَغْيِيرٍ عِلْمِيِّ يَسْمُو إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الدَّقَّةِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ بِلِسَانِ الْعِلْمِ : فِي نَوْعٍ مِنْ سَلْبِ الْحَيَاةِ نَوْعٌ مِنْ إِجْبَابِ الْحَيَاةِ .

١٢ - فَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا تَقَدَّمَ وَانْعَمْتَ فِيهِ تَحَقَّقْتَ أَنَّ آيَةَ الْكَرِيمَةِ لَا يَتِمُّ إِعْجَازُهَا إِلَّا بِمَا تَمَّتْ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ يَتَأَوَّلُ آلِ الْبَيْتِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] فَهَذَا نِدَاءٌ عَجِيبٌ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ يَفْهَمُهُ ، إِذْ هُوَ مُوجَّهٌ لِلْعَرَبِ فِي ظَاهِرِهِ عَلَى قَدْرِ مَا بَلَّغُوا مِنْ مَعَانِي اللَّبِّ ، وَلَكِنَّهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُوجَّهٌ لِإِقَامَةِ الْبُرْهَانِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ فَلَاسِفَةِ الْقَانُونِ وَالْاجْتِمَاعِ ، هُمْ

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرُونَ إِجْرَامَ الْمُجْرِمِ شُدُودًا فِي التَّرَكُّبِ الْعَصَبِيِّ ، أَوْ وِرَاثَةً مَخْتُومَةً ، أَوْ حَالَةً نَفْسِيَّةَ قَاهِرَةٍ ، إِلَى مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ؛ فَمِنْ ثَمَّ يَرُونَ أَنَّ لَا عِقَابَ عَلَى جَرِيمَةٍ لِأَنَّ الْمُجْرِمَ عِنْدَهُمْ مَرِيضٌ لَهُ حُكْمُ الْمَرَضِيِّ ؛ وَهَذِهِ فَلَسَفَةُ تَحْتِمِلُهَا الْأَدِمَةُ وَالْكَتُبُ ، وَهِيَ تَحْوِلُ الْقَلْبَ إِلَى مَصْلَحَةِ الْفَرْدِ وَتَصْرِفُهُ عَنِ مَصْلَحَةِ الْمُجْتَمَعِ ، فَنَبِّهَهُمُ اللَّهُ إِلَى الْبَاطِلِ دُونَ عُقُوبِهِمْ ، كَأَنَّهُ يُقَرِّرُ لَهُمْ أَنَّ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ لَيْسَتْ بِالْعَقْلِ وَالرَّأْيِ ، بَلْ هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ بِاللُّبِّ وَالْبَصِيرَةِ ، وَفَلَسَفَةُ اللَّبِّ هَذِهِ هِيَ آخِرُ مَا أَنتَهَتْ إِلَيْهِ فَلَسَفَةُ الدُّنْيَا .

١٣ - وَأَنْتَهَتْ آيَةُ يَقُولُهُ تَعَالَى : ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مِنْ لُغَةِ كُلِّ زَمَنِ ، وَمَعْنَاهَا فِي زَمَانِنَا نَحْنُ ﴿ يَتَأَوَّلُ الْآيَةَ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] : إِنَّهُ بُرْهَانَ الْحَيَاةِ فِي حِكْمَةِ الْقِصَاصِ تَسْوِفُهُ لَكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ عَاقِبَةً خِلَافِهِ ، فَاجْعَلُوا وَجْهَكُمْ إِلَى وَقَايَةِ الْمُجْتَمَعِ لَا إِلَى وَقَايَةِ الْفَرْدِ .

\* \* \*

وَبَعْدُ ؛ فَإِذَا كَانَ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ - مَا رَأَيْتَ - ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ الْبَيَانِ الْمُعْجِزِ ، فَمَعْنَى ذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى أَنَّهَا اسْقَطَتْ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً .

الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ  
لَيْسَتْ مُتَرْجِمَةٌ

بَعْدَ أَنْ نُشِرَتْ مَقَالَةُ « الْكَلِمَةُ الْمُؤْمِنَةُ » فِي « الْبَلَاغِ » ، كَتَبَ أَدِيبُ فَلَسْطِينِ الْأُسْتَاذِ إِسْعَافُ الشَّاشِينِي : إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مُتَرْجِمَةٌ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ ، وَقَدْ نَقَلَهَا الشَّعَالِيُّ فِي كِتَابِهِ « الْإِنْبِجَارُ وَالْإِعْجَارُ » ، فَتَمَرَّنَا فِي « الْبَلَاغِ » هَذَا التَّعْلِيلُ :

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ مُحَمَّدُ إِسْعَافُ الشَّاشِينِي فِي كَلِمَتِهِ لِلْبَلَاغِ : إِنَّ عِبَارَةَ « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » لَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ وَلَا مُوَلَّدَةٍ ، بَلْ هِيَ مُتَرْجِمَةٌ ؛ أَيْ فَهِيَ مَطْمُوسَةٌ الْوُجْهِ مِنْ كَوْنِهَا أَعْجَمِيَّةٌ وَقَعَ الْخَطَأُ فِي نَقْلِهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَكَانَتْ غَلْطَةً مِنْ جِهَتَيْنِ .

وَأَنَّهُ لَيْسُ زَمَنِي أَنْ تَكُونَ فَوْقَ ذَلِكَ رَنَجِيَّةٌ نُقِلَتْ إِلَى الْمَالِطِيَّةِ ثُمَّ تُرْجِمَتْ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ،

فَتَكُونُ غَلْطَةً مِنْ أَرْبَعِ جِهَاتٍ ، لَا مِنْ جِهَتَيْنِ فَقَطْ . . وَلَيْكِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَمْ يُشْرَ إِلَى أَصْلِهَا غَيْرَ الشَّعَالِيِّ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقْطَعْ فِيهَا بِرَأْيِي ، بَلْ أَشَارَ إِلَى تَرْجُمَتِهَا فِي صَنِيعِهِ مِنْ صَنِيعِ التَّنْمِيزِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الرُّوَاةِ فَقَالَ : « يُحْكِي أَنَّ فِيمَا تُرْجِمَ عَنْ أَرْدَشِيرَ . . . » (يُحْكِي) هَذِهِ لَيْسَتْ نَصًّا فِي بَابِ الرُّوَايَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْإِمَامُ أَنْفَى اللَّهُ فَاثْبَعَدَ بِالْكَلِمَةِ وَطَوَّحَ بِهَا إِلَى مَا وَرَاءَ بِلَادِ الْعَرَبِ ، أَوْ تَكُونُ الْكَلِمَةُ أَلْفَبِتٌ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهَا مُشْتَبِهَةٌ فِي نِسْبَتِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ الْعِبَارَةُ مُتَرْجِمَةً لَتَنَاقَلَهَا الْأُئِمَّةُ مَعْرُوفَةً إِلَى قَائِلِهَا أَوْ لَغَتِهَا الْيَقِينُ قِيلَتْ فِيهَا .

وَلَقَدْ ذَكَرَهَا الْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ « الصَّنَاعَتَيْنِ » عَلَى أَنَّهَا (مِنْ قَوْلِهِمْ) أَيْ : الْعَرَبِ وَالْمُؤَلَّدِينَ ، وَنَقَلَهَا الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ : إِنَّ لِلْعَرَبِ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَلِمَاتٍ ، مِنْهَا « قَتْلُ الْبَغْضِ إِخْبَاءٌ لِلْجَمِيعِ » وَأَحْسَنُهَا : « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » وَكَذَلِكَ جَاءَ بِهَا ابْنُ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِ « الْمَثَلِ السَّائِرِ » وَلَمْ يَغْزُهَا ، وَقَالَ مُفَسِّرُ الْأَنْدَلُسِ أَبُو حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِهِ : إِنَّهَا تُرَوَى بِرِوَايَةٍ أُخْرَى وَهِيَ : « الْقَتْلُ أَوْفَى لِلْقَتْلِ » ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ خَيْرَ التَّرْجِمَةِ قَدْ أَتَفَرَّدَ بِهِ الشَّعَالِيُّ .

وَلَا يَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَى تَرْجُمَتِهَا إِلَّا بِظُهُورِ أَصْلِهَا الْفَارِسِيِّ ، فَإِنْ كَانَ عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ أَحَدٍ فَلْيَتَفَضَّلْ بِهِ مَشْكُورًا مَأْجُورًا .

تَنْبِيْهُ : نَشَرْنَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَمَضَتْ بَعْدَهَا سَنَوَاتٌ وَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عَلَى أَنَّ لِلْعِبَارَةِ أَصْلًا فَارِسِيًّا ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا رَيْبٌ أَنَّهَا مِنْ صَنِيعِ بَعْضِ الزُّنَادِقَةِ ، وَقَدْ وَلَدَهَا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِيُجْرِيَهَا فِي مَجْرَى الْمُعَارَضَةِ ، وَقَدْ كَتَبَ الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ عَبْدُ الْقَادِرِ حَمْرَةَ صَاحِبُ جَرِيدَةِ « الْبَلَاغِ » أَنَّ تِلْكَ الْعِبَارَةَ حِكْمَةٌ مِصْرِيَّةٌ قَدِيمَةٌ ، وَلَا نَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ هَذَا ، فَإِنَّ بَعْضَ الْحِكَمِ مِمَّا تَوَارَدَ عَلَيْهِ الْعُقُولُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْثَابِتَةُ ، إِذْ كَانَتْ الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ كَأَنَّهَا تُمْلِكُهُ ، غَيْرَ أَنَّ الْعِبَارَةَ لَيْسَتْ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا الْحَدِيثَةِ ، وَالْأَفَاطُ الْمِصْرِيَّةِ غَيْرُ الْأَفَاطِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا تَوَارُدُ الْحَوَاطِرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

### الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ لَيْسَتْ جَاهِلِيَّةٌ

وَبَعْدَ كَلِمَتَيْ تِلْكَ عَنِ التَّرْجَمَةِ نَشَرُ أَدِيبٌ فِي « الْبَلَاغِ » أَنَّ الْكَلِمَةَ جَاهِلِيَّةٌ ، فَتَعَقَّبْنَاهُ بِهَذَا التَّعْلِيلِ :

أَثْبَتَ الْأَشْنَادُ عَبْدَ الْعَزِيزِ الْأَزْهَرِيَّ فِيمَا نَشَرَهُ « الْبَلَاغِ » أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَرَبِيَّةٌ فِي دَعْوَاهُ ، وَأَخْتَجَّ لِذَلِكَ بِحُجَجٍ ، أَقْوَاهَا رُغْمُهُ : إِنَّهَا وَرَدَتْ بَيْنَ ثَنَائِيَا عَهْدِ الْقَضَاءِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ سَيِّدُنَا عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَلَا نَذَرِي أَيْنَ وَجَدَ الْكَاتِبُ كَلِمَةَ « الْقَتْلِ » فَضْلًا عَنْ « الْقَتْلِ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » - فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ الْمَشْهُورِ الْمَحْفُوظِ ، وَقَدْ رَوَاهُ الْجَا حِظُّ فِي « الْبَيَانِ وَالْتَبْيِينِ » ، وَجَاءَ بِهِ الْمُبْرِدُ فِي « الْكَامِلِ » ، وَنَقَلَهُ أَبُو قُتَيْبَةَ فِي « عُيُونِ الْأَخْبَارِ » ، وَأُورِدَهُ أَبُو عَبْدِ رَبِّهِ فِي « الْعَقْدِ الْفَرِيدِ » ، وَسَاقَهُ الْقَاضِي الْبَاقِلَانِيُّ فِي « الْإِعْجَازِ » ؛ وَفِي كُلِّ هَذِهِ الرُّوَايَاتِ الْمُوثِقَةِ لَمْ تَأْتِ الْكَلِمَةُ فِي قَوْلِ عُمَرَ ، بَلْ لَا مَحَلَّ لَهَا فِي سِيَاقِهِ ، وَإِنَّمَا جَاءَ قَوْلُهُ : « فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةٌ أَخَذْتُ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا وَجَّهْتُ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ » ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ .

أَمَّا سَائِرُ حُجَجِ الْكَاتِبِ فَلَا وَزْنَ لَهَا فِي بَابِ الرُّوَايَةِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ عَالِيهَا سَافِلَهَا كَمَا رَأَيْتُ .

وَالَّذِي أَنَا وَإِنِّي مِنْهُ أَنَّ الْكَلِمَةَ لَمْ تُعَرَفْ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَى أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَهَذَا الْإِمَامُ الْجَا حِظُّ يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ « الْبَيَانِ وَالْتَبْيِينِ » فِي شَرْحِ قَوْلِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : « بَقِيَّةُ السَّيْفِ أُنْمِي عَدَدًا وَأَكْثَرُ وَلَدًا » مَا نَصَّهُ : وَوَجَدَ النَّاسُ ذَلِكَ بِالْعِيَانِ لِلَّذِي صَارَ إِلَيْهِ وَلَدُهُ مِنْ نَهْكَ السَّيْفِ وَكَثْرَةِ الذَّرِّ وَكَرَمِ النَّجْلِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [٢] سورة البقرة/ الآية : ١٧٩ وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : قَتْلُ الْبَغْضِ إِحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ .

وَلَمْ يَزِدِ الْجَا حِظُّ عَلَى هَذَا ، وَلَوْ كَانَتْ الْكَلِمَةُ مَعْرُوفَةً يَوْمَئِذٍ لَمَا فَاتَتْهُ كَمَا هُوَ صَنِيعُهُ فِي كُتُبِهِ<sup>(١)</sup> ، خُصُوصًا وَهِيَ أَوْجَزُ وَأَعْدَبُ مِمَّا نَسَبَهُ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ الْأَجِيزَةُ

(١) أُوْرِدَ الْجَا حِظُّ آيَةَ الْكَرِيمَةِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ (الْحَيَوَان) صَفْحَةً ٣١ ، ثُمَّ قَالَ : إِلَى هَذَا =

(قَتْلُ الْبَغْضِ ...) هِيَ الَّتِي زَعَمَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهَا لِلْعَرَبِ ... فَلَا عِبْرَةَ فِي هَذَا الْبَابِ بِكَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ وَلَا الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ لِلتَّحْقِيقِ التَّارِيخِيِّ . وَنَصُّ الْجَا حِظُّ فِي كِتَابِ « حُجَجِ الثُّبُوتِ » عَلَى أَنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ أَبُو أَبِي الْعَوْجَاءِ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ طَالُوتَ ، وَالتُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْدِرِ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْأَرْجَاسِ الَّذِينَ اسْتَبَدُّوا بِالْعِزِّ ذُلًّا ، وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا ، وَبِالسَّعَادَةِ شِقْوَةً ، وَبِالْحُجَّةِ شُبْهَةً ، كَانُوا يَصْنَعُونَ الْأَثَارَ ، وَيُوَلِّدُونَ الْأَخْبَارَ ، وَيَبْنُونَهَا فِي الْأَمْصَارِ ، وَيَطْعَمُونَ بِهَا عَلَى الْقُرْآنِ ؛ فَهَذَا عِنْدَنَا مِنْ ذَلِكَ .

وَإِنْ لَمْ يَنْهَضِ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ مَرْجَمَةٌ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ بِظُهُورِ أَصْلِهَا فِي تِلْكَ اللَّغَةِ وَرُجُوعِهِ إِلَى مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَهِيَ وَلَا رَيْبُ مِمَّا وُضِعَ عَلَى طَرِيقَةِ أَبِي الرَّوَنْدِيِّ الرَّنْدِيِّ الْمُلْحِدِ الَّذِي كَانَ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ وَالْأَلْفِ فِي الطُّغْيَانِ عَلَى الْقُرْآنِ وَقَالَ فِي كِتَابِهِ « الزُّمُودَةُ » : إِنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ أَكْثَرِ بَنِي صَنِيئِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ « إِنَّا أَنْعَمْنَا بِكَ الْكُوفَرُ » [سورة الكوثر] فَكَانَ وَاضِعَ الْكَلِمَةَ يَقُولُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ : « إِنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ شَيْئًا أَبْلَغَ مِنْ « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ » [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] .

وَهَذَا لَئِذَا الْمُطَرِّفُونَ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِمَا يَصْنَعُونَهُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَنْ يُوجِدُوا لِلْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْأَغْرَارِ وَأَهْلِ الزَّرْنِغِ وَالضَّعْفَاءِ فِي الْعِلْمِ - سَبِيلًا إِلَى الْقَوْلِ فِي نَقْصِ الْإِعْجَازِ ، وَمَسَاغًا إِلَى التُّهْمَةِ ، فِي أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ ؛ وَالْخَطَأُ فِي مِثْلِ هَذَا يَتَجَاوَزُ مَعْنَى الْخَطَأِ فِي الْبَيَانِ إِلَى مَعْنَى الْكُفْرِ فِي الدِّينِ ، وَذَلِكَ مَا يَزُمُونَ إِلَيْهِ ؛ وَهَذِهِ بِعَيْنِهَا هِيَ طَرِيقَةُ الْمُبَشِّرِينَ الْيَوْمَ ؛ فَكَانَ إِبْنُ نَاسٍ مِنْ عَهْدِ أُولَئِكَ الرِّوَايَةِ إِلَى عَهْدِ الْمُبَشِّرِينَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَغَيَّرَ ؛ وَلَا أَنْ يَكُونَ ... أَنْ يَكُونَ مُجَدِّدًا ...

\* \* \*

نَمَّ الْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ : « وَخِي الْقَلَمِ »

وَبِهِ نَمَّ الْكِتَابُ

= الْمَعْنَى رَجَعَ قَوْلُ الْحَكِيمِ الْأَوَّلِ : قَتْلُ الْبَغْضِ إِحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ . وَهَذَا إِلَى مَا تَقَدَّمَ هُوَ نَصٌّ عَلَى أَنَّ الْجَا حِظُّ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَلَمْ يَعْرِفْهَا ، وَقَدْ تُوَفِّيَ الْجَا حِظُّ سَنَةَ ٢٥٥ لِلْهَجْرَةِ ، وَالْأَلْفُ كِتَابَةُ « الْحَيَوَانِ » فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَهُوَ مَفْلُوحٌ ، فَلَمْ تَكُنِ الْكَلِمَةُ مَعْرُوفَةً إِلَى ذَلِكَ الْعَهْدِ ، لَا فِي الرُّوَايَةِ وَلَا فِي التَّرْجَمَةِ ، مَعَ انْتِهَاءِ زَمَنِ الرُّوَايَةِ وَأَسْتِخَارِ التَّرْجَمَةِ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ .



## الفهارس

## الفهرس الألفبائي

الصفحة	الصفحة
إبليس يُعَلَّم (٣) .....	٥٤٩
أبو تمام الشاعر، تحقيق مدة إقامته بمصر .....	١١٣٢
أبو حنيفة ولكن بغير فقه .....	٩٥٢
اجتلاء العيد .....	٢٨
أجنحة المدافع المصرية .....	٦٣٠
الأجنبية .....	٢٥٧
أحاديث الباشا: (٤) الأخلاق المحاربة .....	٦٤٦
أحاديث الباشا: (٢) البك والباشا .....	٦٣٨
أحاديث الباشا: (١٣) الجمهور .....	٦٨٢
أحاديث الباشا: (١٢) حماسة الشعب .....	٦٧٨
أحاديث الباشا: (٥) خضع يخضع .....	٦٥٠
أحاديث الباشا: (٣) ساكنو الثياب .....	٦٤٢
أحاديث الباشا: (١٠) سر القبة .....	٦٧١
أحاديث الباشا: (١١) سعد زغلول .....	٦٧٥
أحاديث الباشا: (١) الطماطم السياسي .....	٦٣٤
أحاديث الباشا: (٦) فلتنعصب .....	٦٥٤
أحاديث الباشا: (٩) اللسان المرقع .....	٦٦٧
أحاديث الباشا: (٨) المعجم السياسي .....	٦٦٣
أحاديث الباشا: (٧) وزن الماضي .....	٦٥٩
احذري « قصيدة مترجمة عن الملك » .....	٢٧٣
أحلام في الشارع .....	٨٠
أحلام في القصر .....	٨٨
الأدب والأديب .....	٩٥٨
أرملة حكومة .....	٢٢٤
استنوق الجمل .....	٢١٧
الأسد .....	٧٨٣
الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام .....	٣٧٥
أمرأ للبيع .....	٧٩٠
أمير الشعر في العصر القديم .....	١١٠٥
الانتحار (١) .....	٤٥٩
الانتحار (٢) .....	٤٦٨
الانتحار (٣) .....	٤٧٧
الانتحار (٤) .....	٤٨٥
الانتحار (٥) .....	٤٩٣
الانتحار (٦) تنمة .....	٥٠٢
انتصار الحب .....	٨٩٨
الإنسانية العليا .....	٤٠٩
أيها البحر .....	٤٤
أيها المسلمون ! .....	٦١٢
بعد شوقي .....	١٠٦٢
بنت الباشا .....	٩٤
بنته الصغيرة (١) .....	٢٤٠
بنته الصغيرة (٢) .....	٢٤٧
البؤساء .....	١١١٠
البيان .....	١٣
بين خروفين .....	٦٠
تاريخ يتكلم .....	٥٨١
تجديد الإسلام، رسالة الأزهر في القرن العشرين .....	٧٧٦
تربية لؤلؤية .....	٢٠١

الصفحة	الموضوع	الصفحة
ثبات الأخلاق .....	٤٤٤	ثبات الأخلاق
الجمال البائس (١) .....	٢٨٠	الجمال البائس (١)
الجمال البائس (٢) .....	٢٨٦	الجمال البائس (٢)
الجمال البائس (٣) .....	٢٩٤	الجمال البائس (٣)
الجمال البائس (٤) .....	٣٠٢	الجمال البائس (٤)
الجمال البائس (٥) .....	٣٠٩	الجمال البائس (٥)
حافظ إبراهيم .....	١٠١٩	حافظ إبراهيم
حديث قطين .....	٥٣	حديث قطين
حقيقة المسلم .....	٣٨٢	حقيقة المسلم
درس من النبوة .....	٤٣٠	درس من النبوة
دعابة إبليس .....	٥٦٢	دعابة إبليس
دموع من رسائل الطائشة .....	١٨٥	دموع من رسائل الطائشة
الدينار والدرهم (٤) .....	٥٥٦	الدينار والدرهم (٤)
ديوان الأعشاب .....	١١٢٤	ديوان الأعشاب
ذيل القصة وفلسفة المال - ٢ .....	١٢٨	ذيل القصة وفلسفة المال - ٢
رأي جديد في كتب الأدب العربي القديمة .....	١٠٩٧	رأي جديد في كتب الأدب العربي القديمة
الربيع .....	٣٦	الربيع
روية في السماء .....	٢٣٢	روية في السماء
الزاهدان (٢) .....	٥٤٢	الزاهدان (٢)
زوجة إمام (١) .....	١٣٨	زوجة إمام (١)
زوجة إمام « بقية الخبر » (٢) .....	١٤٧	زوجة إمام « بقية الخبر » (٢)
س. ا. ع. .....	٢٠٩	س. ا. ع.
سر النبوغ في الأدب .....	٩٦٨	سر النبوغ في الأدب
السطر الأخير من القصة .....	٨٢٤	السطر الأخير من القصة
السحكة (١) .....	٥٣٣	السحكة (١)
سمو الحب .....	١٠٦	سمو الحب
السمو الروحي الأعظم، والجمال الفني في البلاغة النبوية .....	٧٤٣	السمو الروحي الأعظم، والجمال الفني في البلاغة النبوية
سمو الفقر في المصلح الاجتماعي .....	٤١٧	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي
الأعظم (١) .....	٤١٧	الأعظم (١)
سمو الفقر في المصلح الاجتماعي .....	٤٢٣	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي
الأعظم (٢) .....	٤٢٣	الأعظم (٢)
شعر صبري .....	١٠٠٧	شعر صبري
الشعر العربي في خمسين سنة .....	١٠٦٩	الشعر العربي في خمسين سنة
شهر للثورة، فلسفة الصيام .....	٤٣٧	شهر للثورة، فلسفة الصيام
شوقي .....	١٠٤٤	شوقي
الشيخ الخضري .....	١٠٩١	الشيخ الخضري
الشیطان .....	٥٧٠	الشیطان
شیطان وشیطانة .....	٩٠٧	شیطان وشیطانة
شیطاني وشیطان طاغور .....	٩٩٧	شیطاني وشیطان طاغور
صدر الكتاب : البيان .....	١٣	صدر الكتاب : البيان
صروف اللغوي .....	١٠٨١	صروف اللغوي
صعاليك الصحافة (١) .....	٩٢٩	صعاليك الصحافة (١)
صعاليك الصحافة (٢) .....	٩٣٤	صعاليك الصحافة (٢)
صعاليك الصحافة (٣) .....	٩٣٩	صعاليك الصحافة (٣)
صعاليك الصحافة (٤) تنمة .....	٩٤٦	صعاليك الصحافة (٤) تنمة
الطائشة (١) .....	١٦٦	الطائشة (١)
الطائشة (٢) .....	١٧٦	الطائشة (٢)
الطفولتان .....	٧١	الطفولتان
عاصفة القدر .....	٨٣٢	عاصفة القدر
العجوزان (١) .....	٧٩٨	العجوزان (١)
العجوزان (٢) .....	٨٠٤	العجوزان (٢)
العجوزان (٣) .....	٨١٠	العجوزان (٣)
العجوزان (٤) تنمة .....	٨١٦	العجوزان (٤) تنمة
عربة اللقطاء .....	٣١٩	عربة اللقطاء
عرش الورد .....	٤٠	عرش الورد
عروس تُرْف إلى قبرها .....	٥١٦	عروس تُرْف إلى قبرها
فاتح الجو المصري .....	٦٢٦	فاتح الجو المصري
فلسفة الطائشة .....	١٩١	فلسفة الطائشة
فلسفة القصة .....	١٠٠٣ و ٣٩٤	فلسفة القصة
فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها .....	١٠٠٣	فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها
فوق الآدمية، الإسراء والمعراج، .....	٤٠١	فوق الآدمية، الإسراء والمعراج،
في الربيع الأزرق، خواطر مرسله .....	٤٨	في الربيع الأزرق، خواطر مرسله
في اللهب ولا تحترق .....	٣٣٥	في اللهب ولا تحترق
في محنة فلسطين : أيها المسلمون .....	٦١٢	في محنة فلسطين : أيها المسلمون

## الصفحة

## الصفحة

فيلسوف وفلاسفة	٩٩٣
قبح جميل	١٥٦
القتل أنفى للقتل ليست جاهلية	١١٥٨
القتل أنفى للقتل ليست مترجمة	١١٥٦
القديم والجديد	١١٣٨
قرآن الفجر	٧٦٦
قصة أب	٥٢٦
قصة الأيدي المتوضئة	٦١٦
قصة زواج ، ذيل القصة وفلسفة المال - ٢ - ٢٨	١٢٨
قصة زواج وفلسفة المهر - ١ - ١١٧	١١٧
قصيدة مترجمة عن الشيطان : لحوم البحر	٢٦٧
قصيدة مترجمة عن الملك : احذري !	٢٧٣
القلب المسكين ( ١ )	٨٤٣
القلب المسكين ( ٢ )	٨٤٩
القلب المسكين ( ٣ )	٨٥٤
القلب المسكين ( ٤ )	٨٦٠
القلب المسكين ( ٥ )	٨٦٥
القلب المسكين ( ٦ )	٨٧٠
القلب المسكين ( ٧ )	٨٧٦
القلب المسكين ( ٨ )	٨٨١
القلب المسكين ( ٩ )	٨٩١
قلت لنفسي ... وقالت لي	٤٥١
قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر	٩٠٢
كفر ذبابة	٥٩٣
كلمات عن حافظ	١٠٣٤
كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة	١١٤٧
لا تعجني الصحافة على الأدب ، ولكن على	
فنيته	٩٢١
لحوم البحر « قصيدة مترجمة عن الشيطان »	٢٦٧
اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات	
الاستقلال	٧٧٠
الله أكبر	٣٢٨
لو	٦٠٦
المجنون ( ١ )	٦٨٧
المجنون ( ٢ )	٦٩٤
المجنون ( ٣ )	٧٠٣
المجنون ( ٤ )	٧١١
المجنون ( ٥ )	٧٢١
المجنون ( ٦ )	٧٣٠
محمد : لتوفيق الحكيم	١١٢٢
المرأة والميراث	١١٤٣
المشكلة ( ١ )	٣٤٢
المشكلة ( ٢ )	٣٥٠
المشكلة ( ٣ )	٣٥٧
المشكلة ( ٤ )	٣٦٥
المعنى السياسي في العيد	٣٣
المقنطف والمتنبى	١١١٩
الملاح التائه	١١١٣
موت أم	٥٢١
النجاح وكتاب سر النجاح	١١٢٩
نجوى التمثال	٦٢٣
نقد الشعر وفلسفته	٩٨١
نهضة الأقطار العربية	٩١٥
وحي القبور	٥١١
وحي الهجرة في نفسي	٣٨٨
ورقة ورد	١٠١
يا شباب العرب !	٦٠٢
الياماتان	١٦

## الفهرس الموضوعي

## فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
دموع من رسائل الطائشة	١٨٥
فلسفة الطائشة	١٩١
تربية لؤلؤية	٢٠١
س . أ . ع	٢٠٩
استنوق الجمل	٢١٧
أرملة حكومة	٢٢٤
رؤيا في السماء	٢٣٢
بنته الصغيرة - ١ -	٢٤٠
بنته الصغيرة - ٢ -	٢٤٧
الأجنبية	٢٥٧
لحوم البحر « قصيدة مترجمة عن الشيطان »	٢٦٧
احذري « قصيدة مترجمة عن الملك »	٢٧٣
الجمال البائس - ١ -	٢٨٠
الجمال البائس - ٢ -	٢٨٦
الجمال البائس - ٣ -	٢٩٤
الجمال البائس - ٤ -	٣٠٢
الجمال البائس - ٥ -	٣٠٩
عربة اللقطاء	٣١٩
الله أكبر	٣٢٨
في اللهب ولا تحترق	٣٣٥
المشكلة - ١ -	٣٤٢
المشكلة - ٢ -	٣٥٠
المشكلة - ٣ -	٣٥٧
المشكلة - ٤ -	٣٦٥
كلمة الناشر	٥
دعوة الأستاذ الإمام	١٠
صدر الكتاب : البيان	١٣
الياماتان	١٦
اجتلاء العيد	٢٨
المعنى السياسي في العيد	٣٣
الربيع	٣٦
عرش الورد	٤٠
أيها البحر	٤٤
في الربيع الأزرق ، خواطر مرسله	٤٨
حديث قطين	٥٣
بين خروفين	٦٠
الطفولتان	٧١
أحلام في الشارع	٨٠
أحلام في قصر	٨٨
بنت الباشا	٩٤
ورقة ورد	١٠١
سمو الحب	١٠٦
قصة زواج وفلسفة المهر - ١ -	١١٧
قصة زواج ، ذيل القصة وفلسفة المال - ٢ -	١٢٨
زوجة إمام - ١ -	١٣٨
زوجة إمام « بقية الخبر » - ٢ -	١٤٧
قبح جميل	١٥٦
الطائشة - ١ -	١٦٦
الطائشة - ٢ -	١٧٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام	٣٧٥	تاريخ يتكلم	٥٨١
حقيقة المسلم	٣٨٢	كُفر الذبابة	٥٩٣
وحي الهجرة في نفسي	٣٨٨	يا شباب العرب !	٦٠٢
فلسفة قصة	٣٩٤	لو ... !	٦٠٦
فوق الآدمية ، الإسراء والمعراج	٤٠١	في محنة فلسطين : أيها المسلمون !	٦١٢
الإنسانية العليا	٤٠٩	قصة الأيدي المتوضئة	٦١٦
سمو الفقر في المصلح الاجتماعي		نجوى التمثال	٦٢٣
الأعظم (١)	٤١٧	فاتح الجو المصري	٦٢٦
سمو الفقر في المصلح الاجتماعي		أجنحة المدافع المصرية	٦٣٠
الأعظم (٢)	٤٢٣	أحاديث الباشا : ١- الطماطم السياسي	٦٣٤
درس من النبوة	٤٣٠	أحاديث الباشا : ٢- البك والباشا	٦٣٨
شهر للثورة ... ، فلسفة الصيام	٤٣٧	أحاديث الباشا : ٣- ساكنو الثياب	٦٤٢
ثبات الأخلاق	٤٤٤	أحاديث الباشا : ٤- الأخلاق المحاربة	٦٤٦
قلت لنفسي ... وقالت لي	٤٥١	أحاديث الباشا : ٥- خضع يخضع	٦٥٠
الانتحار (١)	٤٥٩	أحاديث الباشا : ٦- فلنتعصب	٦٥٤
الانتحار (٢)	٤٦٨	أحاديث الباشا : ٧- وزن الماضي	٦٥٩
الانتحار (٣)	٤٧٧	أحاديث الباشا : ٨- المعجم السياسي	٦٦٣
الانتحار (٤)	٤٨٥	أحاديث الباشا : ٩- اللسان المرقع	٦٦٧
الانتحار (٥)	٤٩٣	أحاديث الباشا : ١٠- سر القبعة	٦٧١
الانتحار (٦) تنمة	٥٠٢	أحاديث الباشا : ١١- سعد زغلول	٦٧٥
وحي القبور	٥١١	أحاديث الباشا : ١٢- حماسة الشعب	٦٧٨
عروس تزفت إلى قبرها	٥١٦	أحاديث الباشا : ١٣- الجمهور	٦٨٢
موت أم	٥٢١	المجنون (١)	٦٨٧
قصة أب	٥٢٦	المجنون (٢)	٦٩٤
السمة (١)	٥٣٣	المجنون (٣)	٧٠٣
الزاهدان (٢)	٥٤٢	المجنون (٤)	٧١١
إبليس يعلم (٣)	٥٤٩	المجنون (٥)	٧٢١
الدينار والدرهم (٤)	٥٥٦	المجنون (٦) تنمة	٧٣٠
دعابة إبليس	٥٦٢		
الشیطان	٥٧٠		

\* \* \*

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
صعاليك الصحافة - ٢	٩٣٤	فهرس موضوعات الجزء الثالث	
صعاليك الصحافة - ٣	٩٣٩	الموضوع	الصفحة
صعاليك الصحافة - ٤ - تنمة	٩٤٦	السمو الرؤحي الأعظم والجمال الفني في	
أبو حنيفة ولكن بغير فقه	٩٥٢	البلاغة النبوية	٧٤٣
الأدب والأديب	٩٥٨	قرآن الفجر	٧٦٦
سرُّ التبوغ في الأدب	٩٦٨	اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات	
نقد الشعر وفلسفته	٩٨١	الاستقلال	٧٧٠
فيلسوف وفلاسفة	٩٩٣	تجديد الإسلام ، رسالة الأزهر في القرن	
شيطاني وشيطان طاغور	٩٩٧	العشرين	٧٧٦
فلسفة القصة ، ولماذا لا أكتب فيها	١٠٠٣	الأسد	٧٨٣
شعر صبري	١٠٠٧	أمراء للبيع	٧٩٠
حافظ إبراهيم	١٠١٩	العجوزان - ١	٧٩٨
كلمات عن حافظ	١٠٣٤	العجوزان - ٢	٨٠٤
شوقي	١٠٤٤	العجوزان - ٣	٨١٠
بعد شوقي	١٠٦٢	العجوزان - ٤ - تنمة	٨١٦
الشعر العربي في خمسين سنة	١٠٦٩	السطر الأخير من القصة	٨٢٤
صُرُوف اللغوي	١٠٨١	عاصفة القدر	٨٣٢
الشيخ الخضري	١٠٩١	القلب المسكين - ١	٨٤٣
رأي جديد في كتب الأدب العربي القديمة	١٠٩٧	القلب المسكين - ٢	٨٤٩
أمير الشعر في العصر القديم	١١٠٥	القلب المسكين - ٣	٨٥٤
البؤساء	١١١٠	القلب المسكين - ٤	٨٦٠
الملاح التائه	١١١٣	القلب المسكين - ٥	٨٦٥
المقتطف والمنتبى	١١١٩	القلب المسكين - ٦	٨٧٠
محمد : لتوفيق الحكيم	١١٢٢	القلب المسكين - ٧	٨٧٦
ديوان الأعشاب	١١٢٤	القلب المسكين - ٨	٨٨١
التجاج وكتاب « سرُّ التجاج »	١١٢٩	القلب المسكين - ٩ - تنمة	٨٩١
أبو تمام الشاعر ، تحقيق مدة إقامته بمصر	١١٣٢	انتصار الحب	٨٩٨
القديم والجديد	١١٣٨	قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر	٩٠٢
المرأة والميراث	١١٤٣	شيطان وشيطانة	٩٠٧
كلمة مؤمنة في ردِّ كلمة كافرة	١١٤٧	نهضة الأقطار العربية	٩١٥
القتل أنفى للقتل : ليست مترجمة	١١٥٦	لا تجني الصحافة على الأدب ، ولكن على فنيته	٩٢١
القتل أنفى للقتل : ليست جاهلية	١١٥٨	صعاليك الصحافة - ١	٩٢٩